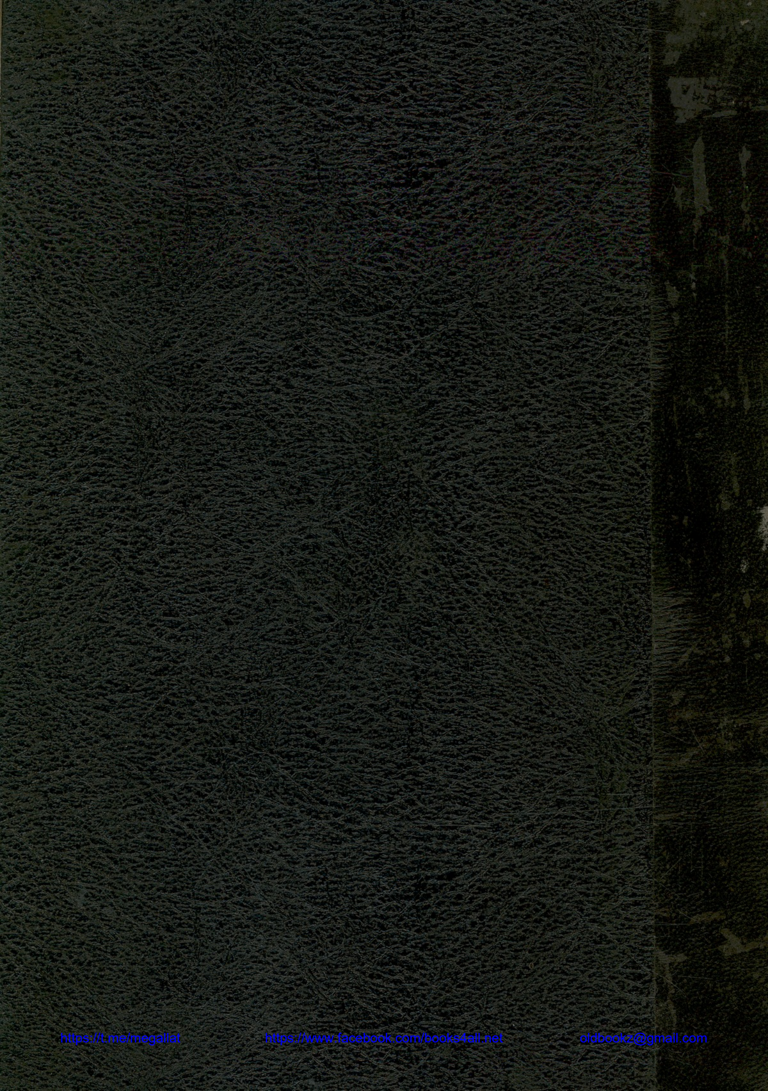


العدد السابع - السنة السابعة - يوليو ١٩٧١

الطليعة

طريق المناضلين إلى الفكر الثوري المعاصر

الديمقراطية والمؤسسات الشعبية

حوار مع الفيلسوف المجري «لوكاتش»

سيناء .. التاريخ والاستراتيجية

وثائق دستور ١٩٢٣



طريق المناضلين الى

الفكر الثورى المعاصر

مجلة شـــهرية

تصدر اول كل شهر

مستشارو التحرير :

د. ابراهيم ســعد الدين
ابو ســيف يوســف
د. اسماعيل صبرى عبدالله
د. جمـــال العطيفى
د . رشـــدى ســـعيد
د. عبـد الرازق حســن
د. لطيفـــة الزيات
د. محمـــد الخفيف
محمـد سيد احمـد

مدير التحرير :

ميشيل كامل

عنوان المراسلات :

مبنى مؤسسة الاهرام شـارع الجلاء القاهرة تليفون ٢٦٤٦٤ — ٥٩٠١٠ — ٥٩٥٦٠

الاشـــتراكات :

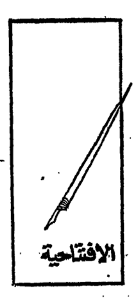
لسنة بالبريد العادى ج.ع.م. ودول اتحاد البريد العــربى ودول الدار البيضاء ١٢٠ قرشا .

الفهـــرس

العدد السابع — السنة السابعة — يوليو ١٩٧١

ان « الطليعة » ميدان مفتوح لكل راى حر ، وفى اعتقادنا ان تفاعل الاراء الحرة على اختلافها هو وحده الذى يستطيع ان يبلور ويستخلص وحده فكرية أصيلة .

من هذا المفهوم تفتح « الطليعة » صفحاتها لكل راى لديه كلمة يقولها — مؤمنة بشعار الحرية المجيد الذى اطلقه فولتير فى القرن الثامن عشر « قد اختلف معك فى الراى ولكني على استعداد لان ادفع حياتي ثمنا لحقك فى الدفاع عن رايك » ؟ .



نقاط سياسية لانتخابات الاتحاد الاشتراكى

يقبل شهر يوليو ١٩٧١ ليجد الكتاب أنفسهم امام اكثر من موضوع ، واكثر من قضية من هذه القضايا والموضوعات التى تتطلب ان تعالج او - على الاقل - أن يشار اليها ، لما لها من أهمية خاصة تضعها فى مركز اهتمام الرأى العام ..

- هناك مثلا انتخابات الاتحاد الاشتراكى التى بدأت منذ أيام فى الوحدات الاساسية ..

- وهناك الدستور الدائم الذى سيعرض مشروعه على المؤتمر القومى العام ..

- وهناك فى ٢٣ يوليو القادم تكون ثورة يوليو قد بلغت عامها التاسع عشر ، مع ما تطرحه أعياد الثورة من دلالات قومية واجتماعية .

- بجانب هذه الموضوعات لايزال شهر يوليو يحمل الاصداء القوية لتوقيع معاهدة الصداقة العربية السوفيتية .

وهذه الموضوعات كلها تتطلب ان تطرح على ارضية نضال متعاظم يخوضه شعبنا وتخوضه الامة العربية من اجل تحرير الارض من العدوان الصهيونى الامبريالى الذى يؤكد كل يوم - وبعناد وصلف - طابعه التوسعى الخطير فى الارض العربية ، ويدفع بالصراع القائم دفعا الى اشتباك مسلح محتوم تتحمل أمريكا واسرائيل وزره ، ويتقبل شعبنا تبعاته ولا يتأخر عنه ، دفاعا عن ترابه الوطنى المقدس ، وعن حق شعب فلسطين فى تقرير مصيره .

ومن الواضح ، ان الموضوعات ، التى أشرنا اليها تترابط وتتداخل . وسوف يصعب علينا فى هذا الحيز الضيق بطبعه [الافتتاحية] ان نعالجها منفصلة أو أن نعطى كل منها حقها من الدراسة .

هنا تسعفنا انتخابات الاتحاد الاشتراكى بالحل الذى يمكننا من أن ننظر الى هذه القضايا نظرة متكاملة . وفى هذا الصدد سوف نرى أن البيان الهام الذى القاه الرئيس انور السادات فى العاشر من يونيو ١٩٧١ قد طرح هذه المشاكل على الوجه

الذى يجعل من هذا البيان برنامجا للناخبين فى اعادة تشكيل الاتحاد الاشتراكى ، يمكنهم من أن يرفعوا به الانتخابات الى المستوى السياسى المطلوب ، كما يمكنهم من ان يختاروا المرشحين وفقا لاسس موضوعية .

وكما نعلم ، ينقسم بيان الرئيس السادات الى قسمين : فى القسم الاول تحديد وتوضيح للمواقف الاساسية التى تتبناها القيادة السياسية ، وفى القسم الثانى نقاط برنامجية لاعادة البناء السياسى والاقتصادى .

ثورة ٢٣ يوليو

ولعل خير تحية توجه الى ثورة يوليو فى عيدها التاسع عشر ان ترى بيان الرئيس فى ١٠ يونيو يبدأ بتقرير اننا لا « نبدأ من فراغ » ، وانما نبدا من تراث يوليو المجيد . وهذا التراث لن يكون سوى مواقف النضال الجسور ضد قوى الامبريالية العالمية ، ورفض الانحناء امام مختلف الضغوط الاستعمارية . ففى غمرة هذا النضال ، وعلى امتداد تسعة عشر عاما ، وضعت ثورة يوليو — كما اشار البيان — اسس العمل الوطنى التى اصبحت جزءا من تراث الانسانية « تتسلح به بعض الشعوب فى نضالها العادل ضد الاستعمار والاستغلال » . هنا لابد وان يذكر كل من يتقدم الى مركز من مراكز القيادة فى الاتحاد الاشتراكى انه ملتزم باهم منطلقات ثورة ٢٣ يوليو : —

- النضال ضد الامبريالية والصهيونية والاستعمار الجديد .
- الدفاع عن الاستقلال السياسى والاقتصادى .
- الدفاع عن الوحدة العربية كضرورة مستقبل ومصير .
- التضامن مع قوى السلم والاشتراكية والتحرر الوطنى فى العالم كله .
- النضال ضد قوى الرجعية الداخلية من اجل تأييد المكتسبات الاجتماعية والاقتصادية وتوسيعها .
- الدفاع عن سلطة تحالف الشعب العامل ودعم دور العمال والفلاحين فى داخلها .

تمسكا بهذه المنطلقات ، يستطيع المرشحون والناخبون ان يجعلوا من انتخابات الاتحاد الاشتراكى ليس احتفالا بعيد الثورة فحسب ، بل عملية سياسية ونضالية ضد قوى الرجعية والتخلف . هذه القوى التى تتحرك حركة مشبوهة فى محاولة لتركب موجة الشعارات الديموقراطية » بهدف ان ، ولتثبت — بدون جدوى — أن ١٥ مايو نقيض لـ ٢٣ يوليو . لكن من الواضح ان بيان الرئيس قد بدد أوهامها عندما ذكر فى بيانه انه لا مكان فى التنظيم لاعداء الاشتراكية ولاعداء التحول الاشتراكى .

معركة التحرير

وتمسكا بهذه المنطلقات ايضا يتعين على المرشحين أن يؤكدوا ان انتخابات الاتحاد الاشتراكى ليست ولا يمكن ان تكون بعيدة عن المعركة القادمة مع العدو ، بل هى المدخل اليها . ومن ثم فان من يسعى الى التصدى للقيادة ، على أى مستوى فى التنظيم ، لابد وأن يكون قد دلل بمواقفه ، وبتاريخه وبالقدوة التى يعطيها ، وبفهمه السياسى على تمسكه وايمانه .

اولا : بالهدف المباشر وهو استرداد كل الارض التى احتلت بعد ٤ يونيو وتاكيد حق شعب فلسطين فى تقرير مصيره .

وثانيا : بالوسيلة التى تكفل تحقيق الهدف ، وهى اعطاء الاولوية للمعركة ، مع كل ما يفرضه هذا من تقبل التضحيات المطلوبة .

وثالثا : بانه اذا كانت قواتنا المسلحة تقوم بواجبها الاسمى ، وتنمى مقدرتها القتالية ، فان الشرط الاساسى لاحراز النصر فى المعركة هو قيام جبهة داخلية موحدة ومتماسكة الى أقصى حد . ان اهمية الحفاظ على الجبهة الداخلية تتضح عندما نعلم أن الاعداء انما يضاربون — منذ مدة — ويضعون كل آمالهم ، ويبذلون كل جهد ، من أجل احداث انهيار فى الجبهة الداخلية ، يمكنهم من كسب الحرببدون قتال . وتزداد هذه الحقيقة وضوحا عندما ندرك أنالاعداء ليس لديهم امل فىأن تقعهزيمة عسكرية كالتى حدثت فى ٥ يونيو . ومن ثم يتجهون بكل ما فى ترسانة الحرب النفسية الى تخريب الوحدة الوطنية . وفى مقدمة وسائلهم طمس الفروق بين الصديق وبين العدو ، والترويج لعزل قضية مصر عن حركة التحرر العربى ، والدعوة الى تقديم تنازلات للاستعمار الجديد ، وبالذات للولايات المتحدة الامريكية . هنا يجد المرشحون أنفسهم مطالبين بتحديد موقف صريحمن الاستعمار الامريكى ، وهذا الموقف قد صاغه الرئيس السادات صياغة لا تقبل التأويل ، ولا تسمح باى نشاط لدعاة الهزيمة ، عندما أوضح فى بيانه أن الولايات المتحدة الامريكية باصرارها على دعم اسرائيل وهى تحتل الارض ، وعلى ان تكفل لها مركز النفوذ على كل الدول العربية تكون قد حددت موقفها كشريك لاسرائيل فى العدوان والعداء للامة العربية كلها .

الصداقة العربية السوفيتية

جنبا الى جنب مع تحديد معسكر الاعداء ، حدد الرئيس من هم الاصدقاء . وفى هذا ثمن تثمينا عاليا الصداقة العربية السوفيتية التى جاءت المعاهدة امتدادا طبيعيا ومنطقيا لها .

والواقع انه اذا كان تحديد معسكر الاعداء أمر له اهمية قصوى بالنسبة لتماسك الجبهة الداخلية وحمايتها من نشاط القوى المضادة ، ومعارك الحرب النفسية ، فان تحديد معسكر الاصدقاء والدفاع عنهم هو مطلب رئيسىمن متطلباتدعم هذه الجبهة . ولا شك أن المرشحين الى مراكز المسئولية فىالتنظيم السياسى سيضعون فى اعتبارهم كيف أن الرئيس قد قيم الصداقة العربية السوفيتية انطلاقا من موقف وطنى مستنير يقوم على الاسس الرئيسية التالية :

— انتماء كل من الاتحاد السوفيتى ومصر الى الجبهة العالمية المعادية للاستعمار ، وعملهما المشترك ومواقفهما المشتركة فى مساندة وتأييد حركات التحرر الوطنى والدفاع عن السلم العالمى ، والتعاون الدولى من اجل تقدم البشرية .

— ان الصداقة العربية السوفيتية امتحنت فى التجربة ، وصمدت فى السلم كما صمدت فى لهيب المعارك التى خاضتها ولا تزال تخوضها بلادنا ضد الامبريالية والصهيونية .

— ان الصداقة العربية السوفيتية قد أرسى دعائمها ورعاها الزعيم الخالد جمال عبد الناصر ، حين رأى بحسه الوطنى والثورى ان هذه الصداقة هى صداقة مرحلة تاريخية باكملها ، وانها تكسب الى صف بلادنا اقوى الاصدقاء فى معارك التحرير وفى معارك البناء الداخلى .

من هذا الموقف الوطني المستنير يستطيع المرشحون ان يوضحوا للناخبين ان معاهدة الصداقة العربية السوفيتية تكتسب اهميتها التاريخية :

اولا : من كونها ثمرة تعاون مشترك طويل بين اكبر الدول الاشتراكية وهو الاتحاد السوفيتي ، وبين اكثر الدول استقلالا وتقدما وتأثيرا فى الشرق الاوسط وفى العالم الثالث . وانه لهذا تكتسب مغزى خاصا وايجابيا بالنسبة للنضال المعادى للامبريالية والصهيونية فى العالم كله .

ثانيا :بسبب أن هذه المعاهدة تعتبر اضافة لها ثقلها الكبير فى المعركة الدائرة بين الشعوب العربية وبين الصهيونية والامبريالية ، من حيث ان الاتحاد السوفيتى يلتزم فيها بتقديم كل العون العسكرى الذى يمكن بلادنا من ان تخوض معركة تحرير الارض .

البناء السياسى والاجتماعى

فاذا انتهى بيان الرئيس السادات من تحديد المواقف الرئيسية فى سياستنا الداخلية والخارجية ينتقل فى القسم الثانى من بيانه الى طرح النقاط البرنامجية التى تستمد بالضرورة من مقدماتها العامة . وهذه النقاط توضح — فى المجالين السياسى والاقتصادى — اهم الخطوات التى تؤمن مسيرة البلاد وعلى طريق الديموقراطية من ناحية ، والتقدم الاجتماعى من ناحية اخرى .

على طريق دعم الديموقراطية السياسية يشير بيان الرئيس الى تحديد المسئوليات بحسم بين مختلف المؤسسات التنفيذية والشعبية . والى ضرورة سيادة القانون حماية للشرعية الاشتراكية . والى تأكيد رقابة المجالس الشعبية على السلطة التنفيذية ، والى الدور الطليعى للطبقة العاملة داخل تحالف قوى الشعب العاملة وتأكيد سلطة هذا التحالف ، والى أن يقوم العمل داخل الاتحاد الاشتراكى على اساس مبدأ القيادة الجماعية ، ومبدأ النقد والنقد الذاتى . والى حق الجماهير فى سحب ثقتها من ممثليها المنتخبين ، اذا ما انحرفوا عن مبادىء الثورة . غير ان البيان اكد أن هذه الحريات السياسية تظل ناقصة وشكلية بدون الحرية الاجتماعية ، اى من الشعب فى حياة لائقة وكريمة .

وعلى طريق التقدم الاجتماعى والاقتصادى يقدم البيان نقاطا عن تمكين الشباب والمرأة من القيام بدورهم كاملا فى المجتمع . ويؤكد على الدور القيادى للقطاع العام فى الاقتصاد القومى . ويدعو الى تطوير الملكية التعاونية الانتاجية لتلعب دورها فى عملية التنمية ، وفى خلق علاقات اجتماعية جديدة . وفى الجانب اكد البيان على اهمية استكمال دور الصناعة الثقيلة ، واستكمال التحول فى الزراعة واستصلاح الاراضى . وتطوير برامج التعليم .

ان هذه النقاط البرنامجية تكتسب فى اعادة بناء الاتحاد الاشتراكى اهمية خاصة ؟

[١] : لانها تضفى على انتخابات الاتحاد الاشتراكى كل ما يجب ان يتوفر لها من جدية ، بحيث لا تكون صراعا بين اشخاص ، اوبين عصبيات ، بل هى التزام من جانب المرشح بواجب وطنى لا يستطيع انسان مسئول ان يتخلى منه .

[٢] وفى الوقت نفسه فان هذه النقاط تشكل بالنسبة للناخبين دليل العمل الذى يهديهم الى اختيار مرشحيهم على اسس موضوعية .

[٣] واخيرا فان هذه النقاط التى وردت فى بيان الرئيس تلقى على المؤتمر القومى واللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى مهمة عاجلة لا تحتمل التأخير ، مهمة تسليح التنظيم السياسى ببرنامج وطنى ديموقراطى يحدد بالتفصيل ووفقا لجدول زمنى ، وبالاعتماد على مؤسسات ديموقراطية ومنظمات جماهيرية قوية خطوات البنـاء السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى ويضع الاسس اللازمة لمجتمع عصر ودولة حديثة ، برنامج يكون ملكا لجماهير الشعب تناقشه وتراقب وتشارك فى تنفيذه .

الدستور الدائم

وعند الحديث عن دعم الديموقراطية السياسية ، وتأمين مسـيرة الثورة على طريق التقدم الاجتماعى ، تحتل قضية الدستور مكانة خاصة ، لا ادل عليها من تلك المناقشات الواسعة التى تخصص لها . وكما نعلم فان طائفة ضخمة من الاراء والمقترحات تقدم من جانب المواطنين لكى تضمن فى الدستور الدائم . ولا شك ان هناك آراء بناءة كثيرة تعكس حماسا جارفا وشوقا حارا من جانب المواطنين الى حياة مستقرة تؤمنها سـيادة القانون . غير أن هذا الحماس ينبغى الا يوقعنـا فى محظورين :

المحظور الاول : ان يؤدى وضع الدستور الى تجميد الثورة . وليس هذا هو المطلوب بالطبع ، ولا الى هذا ترمى قيادة البلاد . ذلك أن هناك فرقا بين تجميد الثورة وبين تقنينها . هناك فرق بين ان يكون الدستور قميصا حديديا يعرقل تقدم الثورة وبين أن يكون اساسا لتوفير الاطر القانونية التى تستقر بفضلها المشروعية الاشتراكية .

من اجل هذا يجب ان نتفادى فى الدستور أن توضع تحديدات قد تؤدى الى عرقلة التطور الاجتماعى . وهنا يحضرنا مثل دستور ٥٦ ، وفيه رفض جمال عبد النـاصر أن ينص على رقم محدد عن الحد الاعلى لملكية الارض ، واكتفى بالاشارة الى احكام الميثـاق .

اما المحظور الثانى : فهو ان يغرق الدستور فى ذكر تفصيلات كثيرة ليس مكانها هذه الوثيقة الهامة .

اما المحظور الاول فيؤدى الى ان يتعرض الدستور لتعديلات مستمرة . أما المحظور الثانى فيؤدى فى التطبيق العملى الى مخالفة الاحكام التفصيلية . وكلا المحظورين لا يؤدى الى الاستقرار المنشود .

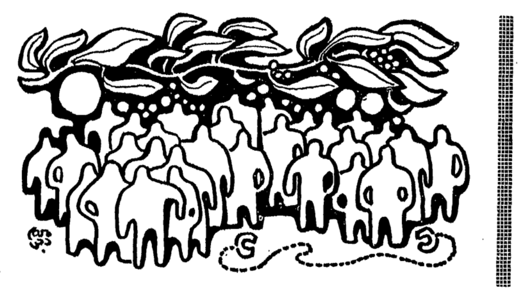
أما الاستقرار فلا يتنافى مع التقدم والتطور . وفى جميع الاحوال علينا ونحن نستقبل شهر يوليو ، أن نفكر فى مجموع هذه القضايا وتتحرك من أجل ان تعالج وتحل بالكيفية التى تخدم مصلحة الوطن ومصلحة انتصاره فى معركة التحرير .

وفى شهر يوليو سوف نذكر دائما ان الثورة المصرية قد نجحت ووطدت مكانتها فى العالم لانها رفضت ان تستكين لاطر متحجرة ، وانها حققت افضل انتصاراتها لانها التزمت فى حركتها بمبدأين رئيسيين :

- **النضال الذى لا يتوقف ضد الامبريالية والصـهيونية والاستعمار الجديد .**
- **دعم ارتباطها بالجماهير الشعبية فى معارك البناء الاقتصادى والاجتماعى وذلك تحت الشعار الذى رفعته الثورة : حماية مكاسب العمال والفلاحين، وخلق الظروف الملائمة بما يكفل توسيعها .**

« **الطليعـــة** »

الديمقراطية والمؤسسات الشعبية



فى كل مكان من بلادنا ، تجرى الان انتخابات لاعادة تشكيل الاتحاد الاشتراكى ـ والتنظيم السياسى ـ والنقابات العمالية والمهنية .. ونحن نكتب هذه السطور ، فى أوائل الاسبوع الاخير من يونيو ، ولم تتم الانتخابات الا فى عدد قليل من النقابات المهنية .. ولابد من ان ننتظر بعض الوقت حتى نستطيع أن نقيم حصيلة التجربة ، سواء فى الاتحاد الاشتراكى ، او فى النقابات العمالية والمهنية .

وتجرى انتخابات المؤسسات الشعبية ، السياسية منها والنقابية ، تحت شعار التجديد بوسيلة الديمقراطية . واذا حكمنا على حماس الجماهير فى النقابات العمالية والنقابات المهنية ، أمكن القول بأن شعبنا يريد حقا أن تكون له مؤسسات حرة وقوية ، تعبر عن ارادته ، وتدافع عن امانيه الوطنية ومصالحه الاقتصادية والاجتماعية .

واذا كان مجرد اجراء الانتخابات لنقابة من النقابات عمل تفرضه ضرورة التجديد ، والاستماع الى راى القواعد :

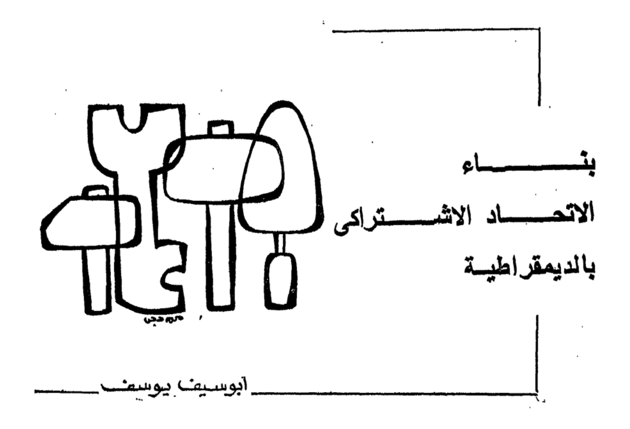
غير ان هذا جانب واحد من الضمانات المطلوبة لاعادة تكوين المنظمات الشعبية المختلفة بوسيلة الديمقراطية . اما الجانب الاخر فهو العمل السياسى ، الذى يجب ان يقترن بالانتخابات ، والذى يهدف الى ان تكون عملية الانتخاب جهدا واعيا للجماهير ، لا مجرد عملية شكلية . ان هذا العمل السياسى لا يتجه الى تقييم التجارب السابقة بكيفية بنساءة فحسب . وانما يضع الانتخابات الجارية فى موضعها من مشكلات الوطن الرئيسية ، بل من المشكلة الرئيسية الاولى : تصفية آثار العدوان وتحرير الارض المحتلة .. عندئذ ، توضع الانتخابات الجارية فى وضعها الصحيح ، باعتبارها وسيلة لدعم الوحدة الوطنية ، ولبناء تنظيمات تتجسد فيها هذه الوحدة فى كافة المجالات .. تنظيمات تكون ادوات تعبئة حقيقية لقوى الجماهير الشعبية .

من هذا المنطلق الوطنى ، وايضا من منطلق التمسك الحازم بتامين مسيره التقدم الاجتماعى ، تقدم الطليعة دراستها الرئيسية ، وفيها الموضوعات التالية :

- بناء الاتحاد الاشتراكى بالديمقراطية .
- بناء النقابات العمالية بالديمقراطية .
- تجربة بناء منظمة الشباب .
- التنظيم النسائى وتحرير المرأة .
- الثقافة والديمقراطية .

وتامل الطليعة أن يجد هذا الجهد المتواضع استجابة من القراء تفتح الباب لحوار مثمر وبناء .

الطليعة



بنـــاء الاتحـــاد الاشـــتراكى بالديمقراطيـة

أبوسيف يوسف

ليس غريبا فى الواقع أن تتابع القوى الثورية فى بلادنا قضايا بناء وتطوير التنظيم السياسى وذلك طالما أن عملية البناء قد بدأت تحت شعار اعادة تشكيل الاتحاد الاشتراكى بالديموقراطية، ولا شك أن الاهتمام بمصير هذه التجربة يتضاعف فى ظروف العدوان الذى فرضه على بلادنا الحلف الاسرائيلى الامريكى . ذلك ان القضية الرئيسية المطروحة لمواجهة هذا العدوان وصده كانت وستظل على الدوام ، قضية الوحدة الوطنية الصلبة ، قضية التعبئة الشعبية المطلوبة لمواجهة الموقف . والاتحاد الاشتراكى فى هذا الموقف مدعو لان يكون الصيغة أو الاطار المجسد لهذه الوحدة الوطنية بين الطبقات والقوى المعادية للامبريالية والصهيونية والاستعمار الجديد .

هكذا فان دواعى الوحدة الوطنية فى الظرف الراهن هى التى تفرض الاهتمام بعملية اعادة بناء الاتحاد الاشتراكى . لكن هناك ، ايضا سببا آخر لا يقل أهمية يتمثل فى حرص القوى الثورية على أن تتابع بلادنا بثبات وبسرعة متزايدة مسيرتها على خط التقدم الاجتماعى . هنا نجد ان قوى اليمين الرجعى قد حاولت ولا تزال أن تطل برأسها لتركب موجة المطالبة بالديموقراطية كما حاولت أن توهم الرأى العام بأن هناك تعارضا بين خط القيادة السياسية الذى عبر عنه الرئيس السادات وبين مسيرة ثورة ٢٣ يوليو مسيرة التحرر الوطنى والتقدم الاجتماعى :

ولقد نشط الكتاب التقدميون فى بلادنا الى طرح ومعالجة طائفة من القضايا الرئيسية التى تتعلق باعادة بناء الاتحاد الاشتراكى بما يكفل تمثيله الحقيقى للقوى الاجتماعية المختلفة . ولربما تنوعت وتعددت أساليب معالجة هذه القضية كما تنوعت وتعددت الحلول والاقتراحات .. لكن نقطة البدء بين جميع الكتاب والمفكرين التقدميين ثابتة،

وهى أن الاتحاد الاشتراكى ـ من الناحية النظرية ـ هو الصيغة الملائمة للوحدة الوطنية بين العمال والفلاحين والمثقفين والجنود والرأسمالية الوطنية وهذا المنطلق له أهميته الخاصة فى الواقع ، ولا يعيبه ان الاتحاد الاشتراكى يعاد تشكيله للمرة الثالثة فى غضون تسع سنوات ، او انه تعرض لهزات شديدة وعبر تجارب قاسية . ومع ذلك فان خبرات الشعوب فى بناء أحزابها وتنظيماتها السياسية الشعبية لا تزال تقدم لنا هذا الدرس . وهو أن العمليات التى لا تتوقف من التنظيم واعادة التنظيم انما تكشف عن نقط خلل مزمنة ، لابد من الالتفات اليها والعمل على استئصالها . وتوجب الظروف المحيطة بالوطن أن نواجه العيوب والنواقص التى لازمت نشأة الاتحاد الاشتراكى مواجهة صريحة وبنقد بناء هدفه صيانة وبناء الوحدة الوطنية المقدسة بين قوى الشعب العاملة .

ومع ذلك فان منهجنا فى مواجهة السلبيات التى ظهرت فى التنظيم السياسى سيظل على الدوام مناقضا لمنهج اعداء الثورة الذين يبدأون بذكر نواقص معينة صاحبت تجربة الاتحاد الاشتراكى ليصلوا فى خاتمة المطاف الى ادانة كاملة لكل مسيرة يوليو وما حققته من انجازات . من هنا يتعين علينا أن نؤكد أنه ايا كانت السلبيات فان تجربة الاتحاد الاشتراكى لم تكن تخلو من ايجابيات ولعلنا نذكر على سبيل المثال :

١ ـ ان الاتحاد الاشتراكى بمجرد وجوده وتحركه على الاقل فى بعض المدن الكبرى قد حال دون أن يستفحل فراغ سياسى تام، لم تكن تفيد من وجوده سوى قوى اليمين الرجعى .

٢ ـ ان الاتحاد الاشتراكى قد برزت فى داخله كوادر سياسية خاصة من الاجيال الشابة . وهذه الاجيال على قلة عددها قد إكتسبت خبرة عميقة بالعمل السياسى والجماهيرى ، وبرهنت على اخلاص حقيقى بقضية التقدم والاشتراكية .

٣ ـ أن الاتحاد الاشتراكى خلق بشكل او بآخر جنين القيادة السياسية التى تناقش القضايا العامة للمجتمع (مشاكل التموين ، الجامعات الخ .

٤ ـ ان الاتحاد الاشتراكى باحتضانه بعض المشروعات العامة (التسويق التعاونى ـ بعض تجارب التجميع الزراعى) قد قدم بعض المساعدات للفلاحين فى مناطق الاصلاح الزراعى .

فاذا انتقلنا بعد ذلك الى رصد النواقص والعيوب فاننا نستطيع أن نسرد قائمة بأكملها من سلبيات صغيرة وكبيرة تظهر فى القانون الاساسى للاتحاد الاشتراكى كما تظهر فى بناء هيكله التنظيمى ،وفى اسلوب العمل الذى يحكم العلاقة بين مختلف مستوياته . لكن عرض النواقص لن يكون كما أسلفنا هدفا فى ذاته ،ومن ثم نستطيع ونحن نقيم تجربتين سابقتين فى بناء الاتحاد الاشتراكى أن ننبه الى أبرز هذه النواقص :

١ ـ هناك على سبيل المثال فى القانون الاساسى للاتحاد الاشتراكى خلط واضح بين مفهوم الاتحاد الاشتراكى كحلف بين الطبقات وبين مفهوم التنظيم الطليعى . فمقدمة القانون الاساسى تعرف الاتحاد الاشتراكى بأنه « الطليعة التى تقود الجماهير وتعبر عن ارادتها » . وفى موضع آخر يوصف الاتحاد الاشتراكى بأنه « يشكل الاطار السياسى الشامل للعمل الوطنى ، وتتسع تنظيماته لجميع قوى الشعب من فلاحين وعمال وجنود ورأسمالية وطنية » .

٢ ـ وهذا الخلط بين مفهوم الحزب الطليعى وبين مفهوم الحلف الذى يضم طبقات مختلفة ينعكس فى القانون الاساسى ـ مرة أخرى ـ عند تحديد واجبات عضو الاتحاد الاشتراكى حيث تدخل بعض هذه الواجبات فى نطاق الواجبات المنوطة باعضاء التنظيم الطليعى وليس بالاعضاء المنظمين فى جبهات سياسية واسعة .

٣ ـ وبينما ينص القانون الاساسى (اللائحة) على مبدأ المركزية الديموقراطية فان المركزية هى التى تغلب دائما على حساب الديموقراطية . والمثل الصارخ هنا هو أنه بينما تنص المادة السابعة من قانون الاتحاد على ان مؤتمر الوحدة السياسية يعتبر أعلى سلطة للاتحاد الاشتراكى على مستوى الوحدة ،وأنه ينعقد دوريا مرة كل أربعة شهور ، او فى دورات غير عادية ، وبناء على طلب لجنة الاتحاد الاشتراكى للوحدة الاساسية ، نقول ان هذه المادة لم تطبق منذ عام ١٩٦٨ بل اهملت تماما وكانت القاعدة اهمال دعوة مؤتمرات الوحدات الاساسية ، وكان الاستثناء هو ان تدعى بعض الوحدات الاساسية الجماهيرية . ولكن حتى عند دعوة مؤتمر هذه الوحدات (قبل عقد المؤتمر القومى العام) كان الهدف هو اجراء مناقشة شكلية عن قرارات معدة وجاهزة سلفا . وفى هذه المناقشات كانت القيادات تتكلم أكثر مما تستمع الى رأى القاعدة . وهذا المثل يوضح مدى تعثر الديموقراطية داخل تنظيمات الاتحاد .

لكن هذا يفسر أيضا لماذا كانت اجتماعات لجان الاتحاد الاشتراكى على مستوى الوحدات الاساسية ولجان الاقسام تعانى من عدم انتظام الاعضاء فى حضور الاجتماعات .

٤ ـ واصدار مبادىء الحياة الديموقراطية داخل الاتحاد الاشتراكى ترجع الى أكثر من سبب مباشر ، فى مقدمتها عدم معرفة الاعضاء بالسلطة الحقيقية التى تصدر القرار (التنظيم الطليعى السرى)، وفقدانهم حق مراقبتها ومناقشتها · كما ان هذا راجع الى امتلاء المراكز القيادية للاتحاد بمتفرغين منتدبين من الجهاز التنفيذى · فقد أدى هذا كله الى سيادة الاسلوب الادارى ، اسلوب التسلط والاوامر العلوية، وكان رد الفعل المباشر لهذه الظاهرة تفشى الظاهرة المقابلة وهى التسيب وعدم الاهتمام بنشاط الاتحاد الاشتراكى فى صفوف الاعضاء مع ما يصاحب هذا كله من سيطرة الشلل والتكتلات فى بعض مستويات التنظيم ·

٥ ـ من هذه العيوب التى صاحبت قيام الاتحاد الاشتراكى عدم وضوح الاسس السياسية والتنظيمية التى تحكم العلاقات بين لجان الاتحاد وبين اللجان النقابية وأعضاء مجلس الادارة المنتخبين · ففى مرحلة من المراحل سادت فى الوحدات الجماهيرية صراعات غير صحية بين لجنة الوحدة الاساسية فى المؤسسات الجماهيرية وبين اللجنة النقابية · وفى مرحلة اخرى تحولت لجنة الاتحاد الاشتراكى لتقوم بوظائف اللجنة النقابية وتخلت عن مهمتها الاولى والاساسية وهى أنها تنظيم تقع عليه مهام القيادة والتوجيه السياسى · وقد أدى هذا كله الى اضعاف كلا من مؤسسات التنظيم السياسى والتنظيم النقابى معا · فضلا عن أن مثل هذا الوضع من شأنه ان يؤدى الى اهدار مبدأ حيوى هو مبدأ استقلالية التنظيم النقابى عن التنظيم السياسى · وكان اهدار هذا المبدأ اوضح ما يكون فى علاقة الاتحاد الاشتراكى بمنظمة الشباب الاشتراكى · فالصعوبات التى واجهتها قيادة الاتحاد الاشتراكى فى منظمة الشباب حلتها هذه القيادة باهدار فعلى للكيان المستقل لهذه المنظمة الجماهيرية الهامة ·

٦ ـ ولا يقل خطرا عن العيب السابق الاخطار التى تتسبب عن عدم وضوح العلاقة بين الاتحاد الاشتراكى وبين اجهزة السلطة ومؤسسات الحكم · فقانون الاتحاد الاشتراكى ينص على أن الاتحاد الاشتراكى « هو السلطة الشعبية ، يقوم بالعمل القيادى والتوجيهى ، وبالرقابة التى يمارسها باسم الشعب ، بينما يقوم مجلس الامة ـ وهو سلطة الدولة العليا ـ ومعه المجالس النقابية والشعبية بتنفيذ السياسة التى يرسمها الاتحاد الاشتراكى » · فهنا يثور تساؤل كيف يمكن أن يكون مجلس الامة (الشعب حاليا) سلطة الدولة العليا ثم هو مطالب أو ملتزم بتنفيذ سياسة الاتحاد الاشتراكى · وكيف تنفذ المجالس الشعبية سياسة الاتحاد الاشتراكى فى حين انه تنتقل اليها سلطات الدولة (١) ·

٧ ـ ومن الاخطاء التى لازمت بناء الاتحاد الاشتراكى بالانتخاب، ان عملية الانتخاب ذاتها كانت احيانا شكلية تماما كما حدث فى الانتخابات التى جرت عام ١٩٦٥ حيث دعى الناخبون الى انتخاب عشرين عضوا فى اللجان القاعدية (الوحدات الاساسية) عن طريق القوائم بينما لم يكن الناخبون يعرفون الا عددا محدودا من المرشحين العشرين · وفى احيان أخرى تعرضت الانتخابات لتدخلات أيضا ضد ارادة الناخبين من انتخاب لجنة القسم ، كما حدث فى انتخابات الاتحاد الاشتراكى لعام ١٩٦٨ · وقد ترتب على ذلك أن كثيرا من العناصر القيادية التى جاءت بها الانتخابات لم تكن على مستوى المسئولية ، الامر الذى صاحبته اعراض سلبية فى حياة التنظيم ، فمن محاولات لاستغلال النفوذ الى تضييق على العناصر المخلصة والمتحمسة ·· الخ (٢)·

وكما قلنا من قبل نستطيع أن نستطرد فى الحديث عن النواقص ، غير أن الاجدى فى اعتقادنا ان نحاول البحث عن اسبابها الكامنة والعميقة ، والا فانه ليس هناك ما يضمن ـ عندئذ ـ من أن تعود هذه العيوب او بعضها مرة أخرى ·

الحلقة الرئيسية

الحلقة الرئيسية ونقطة البدء فى هذا كله ،هو أن نعرف ما اذا كانت علاقات القوى بين الطبقات المتحالفة فى الاتحاد الاشتراكى تؤمن للفلاحين والعمال الشروط الضرورية ليشاركوا مشاركة متزايدة فى السلطة ، هذه المشاركة التى كانت هدف بيان ٣٠ مارس عندما تحدث عن اعادة بناء الاتحاد الاشتراكى ومؤسسات السلطة بوسيلة الديموقراطية ·

---

[١] راجع « القانون الاساسى للاتحاد الاشتراكى » مقال عادل غنيم ـ الطليعة ـ عدد ٥ مايو ١٩٦٨ ·

[٢] انظر مقالى محمد حلمى ياسين وعادل سيف النصر : « جمال عبدالناصر وقضايا التنظيم السياسى ـ الطليعة نوفمبر ١٩٧٠ » و « رفع مستوى العمل التنظيمى كاساس لتعبئة الجماهير ـ الطليعة ـ فبراير ١٩٧١] ·

ولكن عندما نتحدث عن حق الاغلبية (العمال والفلاحون) ـ وهذا هو جوهر الديموقراطية ـ فى المشاركة فى السلطة ، وعن الشروط التى تضمن لهم هذا الحق ، سنجد أنفسنا مطالبين بان نقدم تصورات واضحة ومحددة عن ثلاث قضايا رئيسية تتعلق ببناء الاتحاد الاشتراكى •

القضية الاولى : وهى ضرورة الاتفاق على تعريف علمى للعامل والفلاح •

القضية الثانية : عن الصيغ والاشكال التى تضمن للفلاحين والعمال أن يعبروا عن مصالحهم من داخل الاتحاد الاشتراكى ـ كطبقات أو قوى اجتماعية ، لا كافراد

القضية الثالثة : عن التنظيم المرشح بحكم طبيعته وفكريته وتكوينه وأهدافه لقيادة حلف الشعب العامل بالاتحاد الاشتراكى •

نحو تعريف علمى

فى النقطة الاولى : ربما كان من اعظم المكتسبات الفكرية التى حققتها القيادة السياسية لثورة يوليو • وأصبحت اساسا من أسس الفكر الثورى الاقرار بالدور الطليعى والقيادى للطبقة العاملة ، هذا من ناحية • ومن ناحية اخرى بالوضع المتميز والخاص للعمال والفلاحين داخل الحلف • ويضيق بنا المقام لو حاولنا أن نعدد كل ما قاله **جمال عبد الناصر** فى هذا المجال ، وما هى الحيثيات المقنعة التى أوردها للتدليل على صحة هذه المنطلقات الفكرية ، والى اى حد تمسك بها حتى لقد اعلن أمام المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية ـ وهو المؤتمر الذى اقر « الميثاق » ان النص الخاص بضمان نسبة الـ ٥٠ فى المائة فى كافة مستويات الاتحاد الاشتراكى والتنظيمات الشعبية الاخرى ، هو اهم ما تضمنه الميثاق •

وعندما تولى انور السادات القيادة السياسية للبلاد ، كان حاسما وقاطعا فى مواجهة كل قوى الرجعية التى أملت ان تنتكس بالثورة ، واهتم بكيفية خاصة (فى بيان ١٠ يونيو ١٩٧١ ، بان يوضح أن احد الشروط التى تضمن مواصلة السير فى طريق التحول الاشتراكى وبناء المجتمع هو :

« **تاكيد سلطة تحالف قوى الشعب العاملة ، والدور الطليعى للعمال فى هذا التحالف** » ،وكان الرئيس **أنور السادات** قد أشار الى هذا المعنى من قبل ـ فى الخطاب الذى القاه فى مجلس الشعب فى ٢٠ مايو الماضى •

وعلى الرغم من الاهمية الحاسمة لهذا المنطلق الفكرى الذى تتمسك به قيادة البلاد ، الا أن الصعوبة الحقيقية كانت تكمن دائما فى وضع هذا المبدأ موضع التطبيق ، اى بالكيفية التى تمكن العمال والفلاحين من أن يحتلوا فى داخل الاتحاد الاشتراكى مكان القيادة المؤهلين له بحكم أنهم يمثلون الغالبية الساحقة من ابناء البلاد •

ان هذه الصعوبة قد انعكست كما نعلم فى شكل حوار او جدل حول **تعريف العامل والفلاح** كانت ساحته الرئيسية المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية ، ثم فى انتخابات الاتحاد الاشتراكى لعام ١٩٦٨ • أما المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية فقد عرف العامل بانه كل من تتوفر فيه شروط الانضمام للنقابات العمالية • وعرف الفلاح بانه كل من لا تزيد حيازته على ٢٥ فدانا •

وترتب على هذا التعريف أن دخلت الى الاتحاد الاشتراكى فئات اجتماعية لا تمت بصلة الى العمال والفلاحين • ونحن نعلم ان عبد الناصر قد نقد بشدة هذا التعريف المليء بالثغرات عندما تحدث الى عمال كفر الدوار فى مايو ١٩٦٨ ، مشيرا الى أن هذا التعريف كان اجتهادا من لجنة المائة » •

وفى انتخابات ١٩٦٨ قدم عبد الناصر تعريفا جديدا للعامل والفلاح على أساس « ان الفلاحين هم من لا يحوزون اكثر من عشرة افدنة ، والذين عملهم الوحيد هو الزراعة ويقيمون فى الريف • وحدد العمال باولئك الذين يعملون يدويا أو ذهنيا ويعيشون من دخل عملهم ، ولا يحق لهم الانضمام الى نقابة عمالية » • ومع أن هذا التعريف كان افضل من سابقة اذ وسع ـ بعض الشيء ـ قاعدة التمثيل العمالى والفلاحى داخل الاتحاد الاشتراكى ، الا أن كثيرا من الرأسماليين الوطنيين والموظفين والاداريين فى القطاع العام تقدموا الى الاتحاد الاشتراكى وفازوا بالعضوية باعتبارهم عمالا وفلاحين او مرشحين للعمال والفلاحين (٣) •

واذا حاولنا بعد ذلك أن نبحث عن الاسباب التى حالت دون التوصل الى تعريف علمى للعامل والفلاح فان هذه الاسباب كامنة فى حركة الطبقة المتوسطة ، وهى الطبقة التى لها النفوذ الغالب داخل اجهزة الدولة ومؤسسات القطاع العام والاتحاد الاشتراكى ، ففى داخل هذه الطبقة تجد الرأسمالية الوطنية فى المدينة والريف ونجد فيها

[٣] محمد حلمى ياسين وعادل سيف النصر : المقال السابق

ايضا بعض قطاعات هامة من المهنيين ومن كبار موظفي القطاع العام

والحقيقة أنه قد آن الاوان لكي تسرع الهيئات القيادية العليا للاتحاد الاشتراكي عقب هذه الانتخابات في اعادة النظر في تعريف العامل والفلاح • وهذا العمل تمليه أقوال وبيانات عبد الناصر بنصها وروحها ، فقد أوضح بجلاء في خطابه في مجلس الامة (أكتوبر ١٩٦٤) :

١ ــ « ان الانتقال من الرأسمالية المستغلة والاقطاع الى الاشتراكية لا يمكن أن يتم الا عن طريق العمل السياسي للشعب العامل ، ونضال الفلاحين والعمال لاستخلاص السلطة من يد الرجعية ، ثم الاستفادة من السلطة بتغيير العلاقات الاجتماعية تغييرا كاملا » •

٢ ــ أما العمال والفلاحون عند عبد الناصر فهم يمثلون « الطبقات التي تكدح ويستغلها غيرها •• هم القوى البشرية في الانتاج ••• وهم المحرومون الى أقصى حدود الحرمان (٤) » ثم أوضح « انهم الطبقة التي غلبت على أمرها في الماضي واللي قاست في الماضي واللي عمرها ما دخلت المجالس النيابة ، واللي هي بتمثل ٩٥٪ من الشعب (٥) •
واذا كان العمال والفلاحون عند عبد الناصر هم الغالبية الساحقة من سكان البلاد فان البحث عن تعريف علمي للعامل والفلاح ينبغي الا يخضع لاجتهادات مجردة ، ومصالح طبقية ضيقة تتعارض مع الواقع الاجتماعي في بلادنا •

ذلك أن وضع تعريف علمي من زاوية رؤية اشتراكية يجب أن يدخل في اعتباره الحقائق الموضوعية التالية :

١ ــ وفقا للبيانات التي أصدرها الجهاز المركزي للتعبئة والاحصاء (الكتاب السنوي يونيو ٦٧) يبلغ عدد سكان الريف ١٧٫٥ مليون نسمة ، وعدد من يملكون منهم أرضا زراعية تزيد عن خمسة أفدنة ١٧٨ ألف نسمة فقط • واذا فرضنا أن عدد التجار وأصحاب المهن الحرة والموظفين المقيمين بالريف يمثل ضعف هذا العدد أو ضعفيه فاننا نجد أن بالريف اكثر من ١٧ مليونا لا يملكون شيئا او يملكون خمسة افدنة فأقل • أي ان الفلاحين الذين يعتمدون على العمل اليدوي يمثلون وحدهم ٦٠٪ من مجموع سكان الجمهورية (٦) •

ولهذا فان التعريف الوحيد علميا هو أن نقول أن الفلاح هو من يفلح الارض بيده ويدخل تحت هذا التعريف : ١ ــ الفلاح ، ٢ ــ الفلاح الذي يملك أو يستأجر ٥ أفدنة فأقل دون ان يستعين بعمل الغير بشكل منظم • ولا يدخل في هذا من يملك ٥ أفدنة فاقل ، ولكنه لا يفلحها بيده ، ولا يقيم بالقرية (٧) •

أما العامل الذي أشار اليه الميثاق وتحدث عن مواصفاته جمال عبد الناصر فهو ذلك المواطن الذي لا يملك سوى قوة عمله ، أنه باختصار **العامل اليدوي** • ولا سبيل لان يدخل في هذا التعريف العامل بذهنه • فنحن لم نصل بعد الى مجتمع الاشتراكية الذي تم فيه تذويب الفوارق بين الطبقات (٨) •

على أن تصحيح تعريف العامل والفلاح خطوة أولى جوهرية في تطبيق الفكرة القائلة بالدور الخاص للعمال والفلاحين داخل اطار التحالف الشعبي ، وبدون هذا يتعذر في الواقع أن ننتقل الى الخطوة الثانية ــ والجوهرية أيضا ــ والمتعلقة بتمكين العمال والفلاحين كطبقات وكقوى اجتماعية متميزة داخل الاتحاد الاشتراكي من أن تعبر عن نفسها •

ولقد كانت هذه القضية ، منذ مدة موضع اهتمام ودراسة عدد من الكتاب في مصر (٩) وقد ذهبت اتجاهات عدد من الباحثين الى أن :

١ ــ ان الضمان الوحيد لحرية التعبير والصراع السلمي بين قوى الشعب العاملة يتطلب أن تتاح لكل فئة اجتماعية أن تعبر عن نفسها ــ

---

(٤) و (٥) حديث عبد الناصر في جلسة المؤتمر الوطني للقوى الشعبية ٦٢/٥/٢٦.
(٦) انظر « حول تعريف العامل والفلاح » مقال للدكتور اسماعيل صبري عبد الله ــ الطليعة ــ مايو ٦٨.
(٧) المرجع السابق
(٨) المرجع السابق ص ٢٨.
(٩) انظر مقال ميشيل كامل « ملاحظات حول منهج العمل الوطني في دعم الجبهة الداخلية » ومقال محمد حلمي ياسين وعادل سيف النصر « رفع مستوى العمل التنظيمي كاساس لتعبئة الجماهير » ــ الطليعة عدد فبراير ١٩٧١، ومقال احمد عباس صالح « عن الديموقراطية والاشتراكية والاتحاد الاشتراكي » ــ مجلة الكاتب يونيو ١٩٧١.

فكريا وتنظيميا وبشكل شرعى ـ من خلال منابر داخل اطار الاتحاد الاشتراكى ، فى نطاق الالتزام بالميثاق وبيان ٣٠ مارس ٠

٢ ـ ان الشكل التنظيمى لهذه المنابر يمكن أن يتجسد فى الامانات النوعية التى تتكون داخل اللجنة المركزية (أمانة للعمال ـ أمانة للفلاحين ـ امانة للمثقفين ، أمانة للرأسمالية الوطنية) ٠ ان هذه الامانات يمكن أن تستقطب خيرة ممثلى كل طبقة وأقدرها على التعبير عن أيديولوجيتها ٠

ونعتقد ان مثل هذه الاراء تدخل فى باب الاجتهادات الايجابية لتطوير صيغة التحالف التى يمثلها الاتحاد الاشتراكى ، هذه الصيغة التى رفض **جمال عبد الناصر** أن يجمدها ، أو كانت باستمرار موضع دراسته وأساسا لحوار لم ينقطع مع الجماهير ومع القيادات السياسية فى الاتحاد الاشتراكى ٠

واذا كان من المطلوب اليوم أن يواصل الناس التقدميون دراستهم لهذا الموضوع فان نتائج هذه الدراسة يجب أن توضع فى أيدى القيادة الجديدة للاتحاد الاشتراكى لتدفع الى الامام عملية تطوير الاتحاد ٠

وفى اعتقادنا أن تعبير كل قوة اجتماعية من القوى الداخلة فى الاتحاد الاشتراكى سيتبلور ويتجسد تحت تأثير عدد من العوامل فى مقدمتها :

١ ـ تمكين كل قوة من القوى المتحالفة من أن تعبر عن نفسها فى صحافتها الحرة ٠

٢ ـ وجود برنامج سياسى للاتحاد الاشتراكى وهذا البرنامج اذ يؤسس على الميثاق وبيان ٣٠ مارس وبيان الرئيس السادات فى ١٠ يونيو ١٩٧٠ يجب أن يحدد الخط الاستراتيجى والتاكتيكى لانجاز مهام المرحلة التى اصطلح على تسميتها بمرحلة الانتقال ، وذلك فى جميع المجالات الدولية والعربية والداخلية ٠ ان هذا البرنامج سيحدد أيضا ، انطلاقا من دراسة علمية للواقع الوطنى مهام ونصيب كل طبقة فى تنفيذ الخطة القومية ، كما سيحدد حقوقها ومكاسبها ٠ وسيكون هذا البرنامج أساس الصراع السلمى بين قوى التحالف ، وعلى أساسه يتحدد فى الواقع العملى الدور والحجم الحقيقى لكل طبقة من الطبقات الداخلة فى الاتحاد الاشتراكى ، وعلى أساس النضال العنيد من أجل تنفيذه يتم استبعاد الشرائح والفئات الاجتماعية التى تنفصل ، فى مجرى العمل الثورى ـ مصالحها عن مصالح مجموع الشعب ٠

٣ ـ من هذه الزاوية الاخيرة يساعد البرنامج على أساس النضال اليومى للجماهير على أن تجرى عملية استقطاب سريعة وضرورية ـ تفرز فى جانب كل القوى صاحبة المصلحة فى الثورة وفى الجانب الاخر كل القوى المضادة ٠ والواقع أن الوقت قد أزف لتشرع قيادة الاتحاد الاشتراكى فى وضع تعريف دقيق للرأسمالية الوطنية التى تكون جزءا من تحالف قوى الشعب ، بحيث لا يدخل فى عداد هذه القوة الاجتماعية الوطنية كل فئات الرأسمالية الطفيلية التى كونت ثرواتها من المضاربات والسمسرة وتطويق القطاع العام ، وكل فئات البيروقراطية التى تولد الفساد فى المؤسسات السياسية والاقتصادية ، وتشكل خطرا اجتماعيا يهدد منجزات الثورة ٠

ونحن نعلم ، بعد هذا ، ان عبد الناصر كان دائم اليقظة ضد حركة البيروقراطية التى تريد أن ترث امتيازات الرأسمالية القديمة ، أو ضد حركة الطبقة الجديدة التى تريد أن ترث الثورة لمصلحتها ٠ وكان ينادى بما يسميه بمقاومة « **البروز الرأسمالى** » ، ومن هنا فان توضيح سمات الرأسمالية الوطنية التى تكون جزءا من خلف الشعب ، سيترتب عليه بالضرورة بدء حدوث تغييرات فى موازين القوى داخل الاتحاد الاشتراكى بين الطبقة المتوسطة وبين الفلاحين والعمال وذلك لمصلحة هؤلاء ٠

٤ ـ وأخيرا فان من العوامل التى تضمن التطور الديمقراطى للاتحاد الاشتراكى تحديد صلة واضحة بينه وبين المنظمات الجماهيرية الاخرى : النقابات ، منظمة الشباب ، الخ ٠

● فمن ناحية لابد من الغاء الشرط الذى يوجب على كل مواطن يتقدم الى عضوية نقابته أن يكون بالضرورة عضوا فى الاتحاد الاشتراكى ٠ فهذا يتعارض مع أبسط المبادىء الديمقراطية ٠ ان عضوية الاتحاد الاشتراكى يجب أن تكون اختيارية وكذلك عضوية النقابة ٠ وان حرمان مواطن من حق الترشيح فى انتخابات نقابته لانه ليس عضوا فى الاتحاد الاشتراكى أمر لا ينطوى على احداث تمييز صارخ بين المواطنين فى أبسط الحقوق الديمقراطية ، ولكنه ينتهى باهدار استغلال التنظيمات الجماهيرية ، واضعافها والحد من نشاطها ، وتحويلها الى مكاتب تابعة للاتحاد الاشتراكى ، وهو أمر ضار بالمنظمة الجماهيرية كما هو ضار بالاتحاد الاشتراكى ٠

● ولابد فى الواقع من أن نبحث عن صيغة

ملائمة لقيام علاقات صحيحة بين الاتحاد الاشتراكي وبين المنظمات الجماهيرية . واذا كانت القيادة السياسية للبلاد تتجه الى بناء تنظيم للشباب مستقل عن الاتحاد الاشتراكي وممثل ــ فى الوقت نفسه فى لجنته المركزية ــ (وهو ما نرحب به) فان هذا يدعونا الى أن ننظر فى الفكرة التى نادى بها بعض الكتاب على صفحات الطليعة ، فكرة العضوية الجماعية للتنظيم الجماهيرى فى الاتحاد الاشتراكى (١٠) . وبمقتضى هذه الفكرة يجوز للمنظمات الجماهيرية التى تقبل سياسة الاتحاد الاشتراكى وتتبنى أهدافه ، وذلك بناء على قرار تتخذه أعلى هيئة فيها أن تقرر الانضمام الى الاتحاد الاشتراكى ، وللعضو الجماعى الحق فى تقديم الاقتراحات ، وابداء الاراء فى نواحى النشاط المختلفة . وله أن يحظى بمساعدة الاتحاد الاشتراكى فى حل مشكلات المجال الذى ينشط فيه . الا انه لابد أن يؤخذ فى الاعتبار أن العضوية الجماعية هى عضوية للتنظيم الجماهيرى باعتباره شخصا معنويا . على أن هذه العضوية لاتعطى عضو التنظيم الجماهيرى الحق فى أن يكون عضوا فى الاتحاد الاشتراكى الا اذا انضم اليه شخصيا (١١) .

ونعتقد أن فكرة العضوية الجماعية تخدم قضية تدعيم وتطوير الاتحاد الاشتراكى كحلف عريض للشعب العامل ، ومن المتصور أن منظمات جماهيرية ، كاتحادات العمال والجمعيات التعاونية والاتحاد النسائى يمكن أن تصبح أعضاء فى الاتحاد الاشتراكى وفقا لهذا المفهوم بما يخدم استقلال هذه المنظمات الجماهيرية عن التنظيم السياسى ، وبما يحقق تمثيلا شعبيا وديمقراطيا أوسع لهذه المنظمات داخل الاتحاد الاشتراكى .

فاذا أردنا بعد هذا كله أن نلخص ما تقدم أمكن القول بأن تمكين قوى الحلف من التعبير عن نفسها فى صحافتها ، ووجود برنامج سياسى للاتحاد الاشتراكى ، وعزل التأثير الضار للطبقة الجديدة وللبيروقراطية وكافة فئات الرأسمالية الطفيلية ، واقامة علاقات ديمقراطية بين الاتحاد الاشتراكى وبين التنظيمات الجماهيرية كل هذا يساعد على خلق المناخ العام الديمقراطى فى البلاد ، هذا المناخ الذى ينعكس بدوره على هيكل الاتحاد الاشتراكى وأسلوب عمله وآفاق حركته بين جماهير الشعب .

التنظيم القائد للحلف

فى النقطة الثالثة : عن التنظيم المرشح لقيادة حلف الشعب العامل . وهذا التنظيم أو الجهاز الخاص الذى نص الميثاق على تكوينه فى الاتحاد الاشتراكى كان يسميه عبد الناصر « الحزب الاشتراكى » . ولم تكن هذه التسمية اعتباطية . فالواقع ان عبد الناصر رأى أن اقامة هذا التنظيم الخاص قضية موضوعية تفرضها ظروف المرحلة الجديدة التى بدأت باجراءات يوليو ٦١ ، مرحلة التحول الاجتماعى .

١ ــ كان الهدف قد تحدد نهائيا بالسعى نحو اقامة المجتمع الاشتراكى . وكان عبد الناصر يقول ان طريق الحل الاشتراكى هو طريق الصدام بقوى الامبريالية .

٢ ــ ان التناقض الذى واجه عبد الناصر عقب تحديد الهدف هو أن القيادة السياسية مطالبة « بتطبيق الاشتراكية بدون اشتراكيين ، أنا لا أستطيع أن أقول اننا نطبق الاشتراكية باشتراكيين » (١٢).

٣ ــ ان التناقض الثانى الذى واجهه عبد الناصر هو أن مرحلة التحول الاجتماعى هى مرحلة صراعات طبقية حادة ضد الحزب الرجعى فى الداخل « لقد وصلنا فى المرحلة التى نمر بها الان الى مرحلة التحدى بين القوى الاشتراكية والقوى المعادية للاشتراكية » . وأن أسلوبا من العمل بات يفرض « لا نريد أن نعمل بطريق الوزارات والادارات » .

٤ ــ وحتى الاتحاد الاشتراكى نفسه لم تكن قيادته فى رأى عبد الناصر مسألة هينة لانه رأى الاتحاد الاشتراكى ينطوى بحكم تكوينه من طبقات متمايزة بينها تناقضات وصراعات على نوع من المعادلة الصعبة ، اذ بينما تدعو متطلبات النضال ضد الامبريالية الى اقامة أوسع وحدة وطنية بين جميع الطبقات ، فان متطلبات التحول الاجتماعى تفرض اتخاذ اجراءات ضد بعض الطبقات الداخلة فى الحلف .

وفى محاولة من جانب عبد الناصر للاجابة على القضايا المطروحة ، حدد بعض الملامح العامة للجهاز السياسى المطلوب :

ــ هذا التنظيم السياسى « يبنى على تجميع الاشتراكيين الحقيقيين ، تنظيم يجمع صفوة

[١٠] عادل غنيم « القانون الاساسى للاتحاد الاشتراكى » الطليعة ــ مايو ١٩٦٨.
[١١] عادل غنيم ــ المقال السابق
[١٢] حديث عبد الناصر فى اللجنة التنفيذية العليا ــ الطليعة ــ

الاشتراكيين الذين يمكن أن يكونوا الدعاة الحقيقيين للاشتراكية ، والذين يعتبرون بمثابة العمود الفقرى للاشتراكية » (١٣) ٠

ـ وبينما نظر عبد الناصر الى الاتحاد الاشتراكى « كتنظيم عام يجمع كل الناس » أكد على أن الجهاز السياسى أو الحزب الاشتراكى يتكون من كوادر اشتراكية ، وأن فى مقدمة ما تتصف به هذه الكوادر ـ النقاء الثورى والبعد عن التطلعات الطبقية ٠

ـ وفى الحديث عن مهام هذا الحزب يحدد عبد الناصر أنه « بدون هذا الجهاز الذى أسميه الحزب الاشتراكى لا نستطيع أن نقود الجماهير أو نتصدى للقوى المضادة » ٠

ـ وعندما دار فى أحد اجتماعات الامانة العامة بحث طويل عن الكوادر المؤهلة للقيادة وما هى مقاييس اختيار هذه القيادات لفت عبد الناصر نظر أعضاء الامانة الى « **موضوع العمال فانى أعتبر أنه من أهم هذه الموضوعات ، لان العمال هم الركائز التى لدينا** »٠

والواقع انه وفقا لتصورات عبد الناصر عن نوعية أعضاء هذا الحزب ، ووفقا للمهام الملقاة على عاتق هذا التنظيم يفترض فيه أن يكون الحزب الطليعى والقيادة السياسية والعمود الفقرى للحلف ٠ فاذا أضفنا الى ذلك المواقف الفكرية التى حددها عبد الناصر بالنسبة للطبقة العاملة ودورها الطليعى ، والمركز القيادى المؤهلة له فى بناء المجتمع الاشتراكى ، نقول اذا أضفنا هذا كله فسنجد أنفسنا أمام مجموعة من العناصر التى يمكن أن يتكون على أساسها حزب اشتراكى مدعو الى قيادة عملية التحول الاجتماعى على الرغم من أن صيغته ليست هى صيغة الحزب البروليتارى التقليدى ٠

وكان من الممكن لحزب مؤسس حقا على المواصفات الاساسية التى توصل اليها عبد الناصر أن يكون قوة دافعة للثورة ، وحارسا على قيم الديموقراطية ، وذلك بفضل قيادته واعتماده على الطبقة العاملة والفلاحين ، على القوى الديموقراطية الحقيقية ٠٠

ولقد نشأ الجهاز السياسى بالفعل تحت اسم « **الطليعة الاشتراكية** » الا أنه لم يحقق الاهداف التى سعى وناضل من أجلها عبد الناصر ٠ ويرجع هذا الى عدة أسباب فى مقدمتها :

١ ـ مولد التنظيم فى نطاق السرية ، وهى سرية لم يكن هناك مبرر لاستمرارها ، لا سيما وأن قيادات هذا التنظيم فى السلطة ٠ ان استمرار السرية حرم التنظيم من أن يتكون وينمو تحت رقابة ديموقراطية من الجماهير ٠ وفى غيبة الجماهير يمكن أن يصاب التنظيم بأشد أمراض الاجهزة الادارية فتكا ٠

٢ ـ ان مولد التنظيم ملتحما من أعلى بكثير من قيادات الاجهزة التنفيذية حرم التنظيم من أن يجند اعضاءه وفقا للمبدا الديموقراطى مبدأالاختيار ٠ وتحت تاثير الاعتقاد بان الانضمام اليه يؤدى الى رضاء المسئولين والتقرب منهم امتلأ التنظيم بالعناصر الوصولية والنفعية التى غيرت جلودها ، ولبست ثياب الاشتراكية ٠

٣ ـ أن سيادة وتفشى الشلل ومراكز النفوذ فيه حرم التنظيم من أن تسوده حياة ديموقراطية حقا ٠ ذلك أن منطق الشلة والتكتل هو منطق التعصب لا منطق الحوار المفتوح ٠ وهو منطق الاجراءات الاستثنائية لا منطق الشرعية الحزبية ٠ فى ظل هذا تمتنع المناقشة الحرة ، وينظر الى الرأى المعارض بأخلاص نظرة الريبة والعداء ٠ وفى ظل هذا يتسلط كثير من العناصر الخاملة ، ويستبعد كثير من العناصر الايجابية والنشطة ٠

٤ ـ ولقد كان متوقعا من تنظيم يتصدى للقيادة الاشتراكية أن يوحد فى داخله كل القوى الاشتراكية أو يسهر على « تجميع الاشتراكيين الحقيقيين » على حد تعبير جمال عبد العناصر ٠ لكن الذى حدث أن قيادات التنظيم أبدت تحفظا متزايدا أزاء الاشتراكيين الماركسيين ، ثم ما لبثت أن استبعدت الغالبية الساحقة ممن قبلوا فى صفوف التنظيم ، ثم عاملتهم بعضنشرات التنظيم كأعداء ٠

[١٣] مجلة الطليعة ـ نوفمبر١٩٧٠ ص ٢٧.

ولقد ترتب على هذا الموقف بعض النتائج السلبية :

ـ فمن ناحية حرم التنظيم من خبرة اشتراكيين مجربين ٠

ـ ومن ناحية أخرى فاقم هذا من الاوضاع اللاديموقراطية فى داخل التنظيم ، لان استبعاد القوة الاشتراكية الاخرى يؤدى بالضرورة الى افتقاد الحوار البناء والديموقراطى ٠

هنا لابد وأن نؤكد أن هذا النقد الموضوعى « للطليعة الاشتراكية » لا يغير من هذه الحقيقة ،وهى أنه وجد فى داخلها كثير من المواطنين الشرفاء والمناضلين من أجل الاشتراكية ، وان هذا لا ينال من جهودهم ونضالهم ٠٠ وغاية هذا النقد أن نبين أن التنظيم السرى لم يقم كتنظيم ديموقراطى ، وأنه بوضعه لم يخدم قضية تطور الديموقراطية داخل الاتحاد الاشتراكى ، والمنظمات الجماهيرية ، وبالتالى لم يخدم قضية اشاعة المناخ الديموقراطى اللازم لتقدم وانتصار الثورة الاشتراكية ٠

على أن هذه الانتقادات لا تذكر لمجرد تسجيل موقف ، وانما تستهدف تحقيق شىء ايجابى طالما أن قضية الجهاز السياسى قد أعيد طرحها بمناسبة اجراء انتخابات الاتحاد الاشتراكى ٠

وفى اعتقادنا أنه يمكن أن يقوم فى بلادنا تنظيم ثورى أو حزب اشتراكى لا يأخذ بالضرورة صيغة الحزب البروليتارى ٠ الا أن هذا يتطلب طائفة من الشروط الضرورية فى مقدمتها :

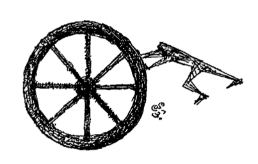
ـ أن يجمع فى داخله كل الطلائع الاشتراكية وبغض النظر عن اختلاف مدارسها الفكرية والفلسفية ، وأيا كانت أصولها الاجتماعية ٠

ـ أن يلتزم برنامجه السياسى بالاسس السياسية والاقتصادية للاشتراكية العلمية ٠

ـ أن يرتكز بالضرورة فى حركته ونشاطه وبناء تنظيماته على الطبقات صاحبة المصلحة الحقيقية فى الاشتراكية وفى مقدمتها الطبقة العاملة ٠

ـ أن يبنى بالديموقراطية أى تحت رقابة حقيقية من الرأى العام الديموقراطى فى البلاد على أساس مبدأ المركزية الديموقراطية الذى يقضى بخضوع الاقلية للاغلبية ويؤمن حق الاقلية فى أن تعبر بحرية تامة عن وجهة نظرها المخالفة ٠

فاذا أمكن أن يقوم التنظيم الاشتراكى على هذه الصورة ، فاننا نستطيع أن نقول أنه قد وجدت ضمانة حقيقية لكى يبنى ويتطور الاتحاد الاشتراكى وجميع المؤسسات السياسية والشعبية على أسس حقيقية من الديموقراطية الشعبية ، وأنه قد فتح ـ بحق ـ الطريق نحو مزيد من التحولات الاجتماعية ، ونحو توسيع وتعميق المكتسبات الشعبية ٠





بنــاء النقابــات بالديمقــراطيــة

عبدالمنعم الغــزالى

منذ منتصف عام ١٩٦٤ ، وصلت القيادات النقابية العمالية الحالية الى قيادة التنظيم النقابى فى مصر ـ وخلافا للقانون ٦٢لسنة ١٩٦٤ الذى نص على أن مدة الدورة النقابية عامان، ظلت هذه القيادات قائمة دون تغيير وبلا رجوع الى قواعدها تعرض عليها ما قدمت يداها ولتستمع الى حكمها ، اعمالا وتطبيقا للديمقراطية النقابية وتقاليدها التى توجب على هذه القيادات أن تكون موضع حساب ورقابة فى فترات دورية متقاربة ، بناء وتطويرا للصالح وابقاء عليه ، وهدما للفاسد والضار والانتهازى وتقديما له أو اجهازا عليه . ولكن القيادات النقابية الحالية وقفت موضوعيا ضد كل محاولة للتغيير والتجديد والتصحيح ، وضد كل دم جديد متدفق فى شرايين التنظيم النقابى المصرى .

والتنظيم النقابى بطبيعته تنظيم ديمقراطى عريض ، يقوم على تنظيم جماهير الطبقة العاملة بكل فئاتها ومستوياتها فى النضال من أجل حياة أفضل للعمال . والاساس فيه ، انه يستمد كيانه ووجوده قوة وضعفا من الاشتراك الواعى الاختيارى للعمال ايمانا منهم بأن نقاباتهم ، انما تتحرك دفاعا عن مصالحهم ، واستخلاصا لحقوقهم ، ومقدمة خدمات متنوعة لهم ، وقائدة لهم فى النضال العام للمجتمع ، سواء كان هذا النضال نضالا وطنيا ديمقراطيا ضد الاستعمار ورأس المال ، أو نضالا من أجل بناء مجتمع التحول الى الاشتراكية .

والتنظيم النقابى العمالى المصرى المعاصر ، هو أكثر المؤسسات الديمقراطية الجماهيرية احتياجا لان تمسه يد التغيير الديمقراطى ، وأكثرها احتياجا لقيادات اشتراكية . لا تعرف الوسط وانصاف الحلول ولا الزلفى لسلطان الحكم أو المال ولا التطلع لحياة الرفاهية والدعة والمظهرية ، خاصة وان واقع الحركة يؤكد أن فئة عازلة حذر منها ميثاق العمل الوطنى ، قد استولت على مراكز القيادة طوال سبع سنوات ، وحالت دون تدفق العمل وجمدت وصول نتائجه الى الجماهير التى تحتاج اليه . هذه الطبقة التى قال عنها الزعيم الراحل جمال عبد الناصر : « **ينبغى لنا مهما كان الثمن الا نسمح بظهور طبقة جديدة تظن أن الامتيازات ارثا لها بعد الطبقة القديمة ، وعلينا أن نقاوم مثل هذا الانحراف ونقومه ونثور عليه ، فان هذا السلاح سوف يتجه فى لحظة تواتيه الفرصة الى طعن تحالف قوى الشعب العاملة** » .

ولقد تمكنت هذه القيادات التى رفضت مجرد التفكير فى الرجوع الى القاعدة من أن تحبس الحركة الصحية للتنظيم النقابى ، هذه الحركة التى أقرها ميثاق العمل الوطنى حتى يتمكن

التنظيم النقابى من ممارسة دوره الطليعى فى معركة البناء والتحرير ـ حين يقول :

« ان ذلك الوضع الجديد لا ينهى دور التنظيمات العماليه، وانما هو يزيد اهميه دورها، انه يمد هذا الدور ويوسعه من مجرد كونها طرفا مقابلا لطرف الادارة فى عملية الانتاج الى الحد الذى يجعل منها قاعده طليعية فى عملية التطوير . ان النقابات العمالية تستطيع ممارسة مسئولياتها القيادية عن طريق الاسهام الجدى فى رفع الكفاية الفكريه والفنية ، ومن ثم رفع الكفاية الانتاجية للعمال ، كذلك فهى تستطيع ممارسة مسئولياتها عن طريق صيانة حقوق العمال ومصالحهم ورفع مستواهم المادى والثقافى » .

وبمراجعة لحياة التنظيم النقابى فى السنوات السبع الماضية ، نجد أن هذه القيادات قد قصرت حتى فى ممارسة مسئولياتها لصيانة حقوق العمال ومصالحهم ورفع مستواهم المادى والثقافى ، وتحولت الى قيادات بيروقراطية ، وأنفقت كثيرا من أموال النقابات على ديكورات لمكاتبها وعلى مظاهر « الفخفخة » . وتقارير التفتيش على النقابات (والتى تقوم بها وزارة العمل) مليئة بالمخالفات المالية التى بلغت أرقاما خيالية . ولم تطبق وزارة العمل ـ حتى هذه اللحظة ـ القانون دفاعا عن هذا المال العام ، كما لم تسلم ما تحت يدها من وقائع تدين هذه القيادات الى التنظيم النقابى . ووضعت هذه الوقائع فى أيدى عناصر متسلطة لتستخدمها فى ابتزاز التأييد والمساندة من القيادات الفاسدة ، وفى تكوين الشلل والتكتلات فى الحياة النقابية والسياسية .

وخلال هذه السنوات السبع قامت هذه القيادات « بكتم » أنفاس أى قيادات قديمة لها كفاحها وماضيها العمالى والنقابى . وأكثر من ذلك انها حاصرت القيادات الشابة التى تفتحت على قيم اجراءات يوليو ١٩٦١ والميثاق الوطنى ١٩٦٢ ، والتى انجذبت الى المثل الاعلى الاشتراكى . ان هذه القيادات الشابة حوربت من قبل القيادات المتربعة على قمم النقابات العامة والاتحاد العام والمستفيدة من مراكزها . واشتدت الحرب ضدها خاصة بعد بيان ٣٠ مارس الذى رفع شعار «اطلاق الطاقات الخلاقة فى النقابات» ، وقد تم هذا تحت ستار ان هذه العناصر الشابة تشكل خطرا على أمن النضال الوطنى . وهكذا أبعدت عن أماكن عملها الاصلى ومنعت من الترقى وحوربت فى رزقها ، وعزلت من مراكزها القيادية **(لقد فقدت عناصر كثيرة من أعضاء مجالس الادارة المنتخبين مراكزها وكذلك أعضاء اللجان النقابية وأعضاء وحدات الاتحاد الاشتراكى)** . وأصبحت هناك بدعة جديدة فى التنظيم النقابى المصرى وهى تشكيل مجالس مؤقتة بالتعيين ، تحل محل المجالس المنتخبة التى حلت أو فقدت وجودها القانونى بسبب الوفاة أو النقل من العمل . كما ان عددا من النقابات العامة مازال يعمل بعدد أقل من العدد القانونى ، ولم يستكمل وفق القانون ، لان استكماله انما يعنى دخول عناصر جديدة قد لا ترضى عن النشاط السلبى أو ترفض المشاركة فيه . لقد أصبحت **هذه القيادات تحكم التنظيم ولا تعوده** ، والفرق كبير بين القيادة وبين السيطرة . وبسيادة مبدأ التحكم والسيطرة فى التنظيم نمت الشلل ، وقويت العصبيات ، وكثر الدلاديل والطراطير . ولقد نبه الزعيم الخالد **جمال عبد الناصر** الى هذا الخطر فى مارس ١٩٦٧ فى حواره مع رؤساء المؤسسات والشركات عندما قال : **« احنا عاوزين الناس اللى عندها شخصية والناس اللى عندها وعى وطنى ووعى سياسى ومش عايزين المشاغبين والمناكفين والتجار اللى ما زالوا الافكار القديمة عالقة بيهم ـ وفى نفس الوقت مش عاوزين الدلاديل ولا عاوزين الطراطير ، على هذا الاساس نستطيع أن ننجح دى الحقيقة وتبقوا أنتو معاونين معاونه للاتحاد الاشتراكى العربى »**

هكذا ، مضت هذه القيادات تعمل بكل الوسائل على تعطيل الانتخابات فى نقابات العمال . وباسم الحفاظ على أمن النضال الوطنى والمصلحة العامة والظروف المحيطة .. الخ عطلت الانتخابات العمالية لمدة سبع سنوات . فى نفس الوقت الذى جرت فيه انتخابات وحدات الاتحاد الاشتراكى ومجلس الامة ، والنقابات المهنية . وبذلك داست هذه القيادات الحالية قيم الحرية التى دعا اليها الميثاق حين يقول :

« ان ممارسة الحرية بعد العملية الثورية الهائلة لاعادة توزيع الثروة الوطنية فى يوليو ١٩٦١ لا تشكل خطرا على أمن النضال الوطنى ، بل انها صمام الامان له فانها تخلق القوة الشعبية القادرة على الانقضاض على كل محاولة للتآمر والقيام بالتفاف لسلب الشعب ثمار نضاله »

ان استمرار هذه الاوضاع قد ترتب عليه :

أولا : لقد أثبتت القيادات الحالية للنقابات ، (والتى يحلو للعمال أن يسموها أفندية المكاتب) عجزها الكلى عن تعبئة جماهير الطبقة العاملة فى معارك البناء وفى معركتنا الكبرى ، معركة التحرير . وتحول العمل من أجل مشاركة هذه الجماهير فى هذه المعارك الى مجرد شعارات ولافتات ترفع فى المناسبات والمواسم ، والى مجرد قرارات علوية ، واعلانات صحفية وجمل ثورية تلوكها ألسنتهم دون ايمان حقيقى بالطبقة العاملة نفسها وبقضية تحويل البلاد الى الاشتراكية .

ثانيا : أن مجموع العاملين فى مصر يبلغ حوالى سبعة ملايين ونصف يعملون فى الصناعة والتجارة والخدمات والزراعة .. غير ان المنظمين منهم حوالى الـ ٨/٪ أى أكثر من مليون ونصف عامل ، وطيلة السنوات السبع الماضية ، ومنذ قيام التنظيم النقابى وفق القانون الجديد ٦٢ لسنة ١٩٦٤ لم تتمكن القيادة الحالية من كسب ثقة الجماهير العمالية العريضة ، الامر الذى يكشف عن افتقار هذه القيادات الى القدرة على الارتباط بالقواعد العريضة ، فهى لا تعيش مشاكل هذه القاعدة ، وهى عاجزة عن ايجاد الوسائل السليمة لحلها . وقد نبه الى ذلك القائد الراحل جمال عبد الناصر فى حديثه التنظيمى فى المؤتمر الاول لاعضاء المكاتب التنفيذية للمحافظات فى يناير ١٩٦٦ عندما قال :

« اذا تجاهلنا الجماهير وتجاهلنا ربط القيادات بالجماهير ، بيكون عملنا مفيهش فايدة .. اذا ما كناش على وضوح ازاى نربط القيادة بالجماهير يبقى برضه مفيش فايدة وعلشان نربط القيادة بالجماهير لازم ننظم الجماهير وبعد ما نعرف مشاكل الجماهير اذا ما حليناش هذه المشاكل نبقى مش مربوطين بالجماهير » .

ثالثا : لم يكن غريبا بعد هذا كله أن يتحول التنظيم النقابى فى بلادنا الى تنظيم لاشئ ، والى نقابات دفترية ، والى نظم حسابية معقدة . وفى ظل هذا الوضع لم تعد التنظيمات النقابية شيئا جوهريا فى حياة الطبقة العاملة . فانتفاء الحياة الديموقراطية فى داخل هذه التنظيمات قد حال بينها وبين أن تكون أدوات تثقيف وتربية وتوعية لجماهير العمال بحقوقهم وواجباتهم .

واجب ملح ومهمة مباشرة

ان اعادة البناء الديمقراطى للنقابات العمالية اصبح واجبا ملحا وعاجلا حتى تمارس دورها الطليعى الجديد بها، هذا الدور الذى أشار اليه الرئيس السادات فى خطابه فى ٢٠ مايو الماضى أمام مجلس الشعب بقوله : « أن يؤكد الدستور على اهمية الحركة النقابية العمالية فى دفع التطور ، باعتبار دور العمال الطليعى فى تحالف قوى الشعب العامل » . واعادة هذا البناء ديمقراطيا بعيدا عن القيادات التى عزلت نفسها عن قواعدها الجماهيرية ، وعن تطلعات هذه الجماهير وآمالها ، انما يتطلب مراعاة جملة من الامور :

١ ـ عزل نفوذ غالبية قيادات النقابات العامة الحالية حتى لا تمارس تأثيرها السابق فى عملية الانتخابات أو تستخدم ما حصلت عليه من مراكز وقوة مالية وشلل وعصبيات ومحسوبيات فى عملية الانتخابات . ان الانتخابات النقابية العمالية القادمة يجب أن تحقق تمثيلا عماليا صادقا للعمال وأن تنهى عهد قيادة « الافندية » ، ولا يعنى ذلك بالطبع انه ليست هناك عناصر صالحة فى هذه القيادات كان لها مواقف فى العمل النقابى السليم وفى معارضة الانتهازية ومواجهتها ..

٢ ـ ابعاد الاجهزة الادارية نفوذا وسيطرة عن العملية الانتخابية . هذه الاجهزة التى شاركت بدور كبير فى عملية انتخابات ١٩٦٤ فى فرض قيادة « الافندية » والشخصيات « الارستقراطية » على الحركة العمالية . ومراجعة التكوين الحالى للمراكز المؤثرة فى الحركة العمالية مثل مؤسسة الثقافة العمالية والتى جاء تكوينها من الشلل والمحاسيب لمركز قوى معين فى الحركة العمالية ، واطلاق الفرصة للطاقات الخلاقة المبدعة فى الحركة العمالية لتاخذ مكانها دون وصاية الا من ارادة جماهير العمال صاحبة التنظيم النقابى ، وصاحبة المصلحة الرئيسية . ويرتب ذلك ضرورة العمل على مواجهة تسرب العناصر غير العمالية واقعا وفكرا ونشاطا وسلوكا . ولناخذ مثالا على ذلك الوضع فى نقابة العمال الزراعيين حيث يوجد بين صفوف قيادتها مقاولى انفار ، وفى بعض النقابات العامة التى يرأسها مديرون الامر الذى يتعارض مع نصوص القانون ٦٢ لسنة ١٩٦٤ الخاص بالنقابات .

٣ ـ ويترتب على ذلك ضرورة أن تقدم القيادات العمالية كشف حساب كامل عن عملها خلال السنين السبع الماضية عن نشاطها فى مجال العمل الوطنى ، ومجال البناء الاجتماعى ، وزيادة الانتاج ، والتدريب الفنى والتكوين الفكرى ، وفى مجال الخدمات والدفاع عن حقوق ومكتسبات العاملين . وان ذلك الامر يستدعى ان تسلم وزارة العمل كل تقارير التفتيش على النقابات الى الجمعيات العمومية حتى تتمكن جماهير العمال من

اجراء محاسبة دقيقة لقياداتها ، لتمنحها الثقة، أو تحجزها عنها أو تدفع بها الى ساحة القضاء فى حالة ادانتها .

٤ ـ تأكيد دور القيادة السياسية ـ الاتحاد الاشتراكى العربى ـ فى هذه الانتخابات كموجه لتحالف قوى الشعب العامل ، وحتى لا تتسرب عناصر رجعية وغير مؤمنة بميثاق العمل الوطنى ـ ويحلو لها أن تنتهز الفرصة لتركب العملية الثورية لتصحيح الاوضاع الديمقراطية فى الحركة النقابية.

ان اعادة بناء الاجهزة القيادية لنقابات العمال ديمقراطيا أصبح واجبا ملحا ، وملبيا لرغبة جماهيرية تواقة لان يكون تنظيمها النقابى صرحا عاملا من أجل حياة افضل للعاملين وقوة فعالة ومشاركة فى بناء الوطن وتحريره .■

مشروع لائحة عمل للاتحاد العام للعمال

قضية ممارسة الديمقراطية داخل التنظيم النقابى ، هى قضية أسلوب عمل هذه التنظيمات وطريقة حركتها للمشاركة فى حل مشاكل المجتمع ، وفى حل مشاكل الجماهير اليومية المتشابكة والمعقدة أحيانا •

ويتشكل أسلوب العمل الديمقراطى داخل هـذه التنظيمات من مجموع المبادىء التى تتيح المجال لكل أعضاء المنظمة النقابية للمشاركة الفعالة فى حياة المنظمة ، وحتى يكون النقد الموجه الى غيـاب الديمقراطية النقابيـة نقدا ايجابيا وبناء ، فان الكاتب يقدم فى هذا المجال مشروعا هو تصور لاسلوب العمل الداخلى المقترح للاتحاد العام للعمال •

ان التنظيم الداخلى للاتحاد سيساعد الاتحاد ليقوم بـواجباته العـديدة ، ويساعده على الارتباط المباشر بكافة مستويات التنظيم النقابى (النقابات العامة ـ الاتحادات المحلية ـ اللجان النقابية) ، وبالتالى على الارتباط بجماهير العمال • ذلك انه فى ظروف تحول مجتمعنا من الراسمالية الى الاشتراكية يتعين على الاتحاد العام القيام بدوره بنشاط وفعالية لتعبئة كل العاملين وقيادة التنظيم النقابى للقيام بمهامه فى عملية التحول الثورية تلك ، ومحاربة أعداء الاشتراكية من الرجعيين والبيروقراطيين والانتهازيين والذين يعطلون الانتاج ويفسدون ادارة المؤسسات •

وقيام التنظيم النقابى بدوره فى خطة التنمية ، ولزيادة القدرة الانتاجية وتحسينها ورفع مستواها يرتبط ارتباطا وثيقا وعضويا بعمله ونضاله من أجل رفع مستوى معيشة العمال وزيادة أجورهم وتقديم الخدمات الاجتماعية والثقافية المختلفة لهم •

وحتى يتمكن الاتحاد العام للعمال من القيام بواجباته وحتى تكون له فعالية ، يتعين أن يقوم التنظيم الداخلى للاتحاد على أساس ارتباط المجلس التنفيذى للاتحاد مباشرة بكل الهيئات النقابية وبكافة مجالات العمل ، وعلى اساس الارتباط المباشر بالمشاكل التى تعترض الانتاج والعاملين فيه ، وأن تكون الديمقراطية والعمل المشترك والقيادة الجماعية والنقد والنقد الذاتى هى الاساس فى عمل المجلس التنفيذى ـ ويتحقق ذلك بتطبيق المبادىء التالية :

أولا : المجلس التنفيذى هو القيادة المركزية الوحيدة للحركة النقابية بين فترتى انعقاد مؤتمر الاتحاد العام ، ويجب الا تتلقى الهيئات والمستويات النقابية تعليماتها الا منه ، وهى ملزمة بتنفيذ قراراته •

ثانيا : انتهاج مبدأ القيادة الجماعية فى أسلوب عمل المجلس التنفيذى ويعنى ذلك الا ينفرد أى شخص مهما كانت مسئولياته ومركزه باتخاذ قرارات دون عرضها على المجلس التنفيذى • ولا ينفى ذلك وجود المسئولية الفردية ولكنها يجب أن تكون فى اطار المسئولية الجماعية •

ثالثا : هيئة مكتب الاتحاد العام تترم بتطبيق وتنفيذ قرارات المجلس التنفيذى بين فترتى اجتماعه ـ واذا اتخذت قرارات عاجلة لم تكن الظروف تسمح بتأجيلها يجب عرضها فورا على أول اجتماع • واعتراض المجلس على هذه القرارات يبطل مفعولها • ويتحمل اعضاء المكتب المسئولية المادية والادبية امام المجلس التنفيذى •

رابعا : ا ـ تحضر سكرتارية المكتب جدول أعمال اجتماع المجلس التنفيذى ويعرض على جميع الاعضاء قبل الاجتماع الدورى باسبوع •

ب ـ وفى حالة عقد جلسات غير عادية للمجلس التنفيذى تشمل الدعوة للاجتماع جدول أعمال الجلسة ولا يسمح بالمناقشة الا فى جدول الاعمال المقترح •

ج ـ كل المراسلات والاتصالات يجب أن تعرض اولا بأول على المجلس التنفيذى .

د ـ كل الاتصالات الشخصية سواء محليا او عالميا يجب أن تتم بعلم المجلس التنفيذى وتحت اشرافه ، ويكتب تقرير بنتيجة كل اتصال وسببه ويعرض على المجلس •

هـ ـ يتم تعيين موظفى الاتحاد العام ومستشاريه بموافقة المجلس التنفيذى بعد التأكد من صلاحيتهم للقيام بالوظائف المقترح تعيينهم فيها •

و ـ المجلس التنفيذى للاتحاد العام هو الذى يقوم بدعوة وزير العمل للاجتماع به فى مقر الاتحاد مرة كل شهرين او كلما استدعت الظروف ذلك •

خامسا : يعقد المجلس اجتماعات مشتركة مع أعضاء مجالس ادارات النقابات العامة والاتحادات المحلية على الاقل ثلاث مرات كل سنة ، وكلما استدعت الظروف ذلك •

سادسا : يقوم الاتحاد بتنظيم جمعيات عمومية تعقد من جميع اللجان النقابية والهيئات النقابية الموجودة فى المحافظات لانتخاب المجالس التنفيذية للاتحادات الاقليمية بالمحافظات — وتقوم هذه المجالس بوضع سياسة اقليمية للاتحاد الاقليمى بالمحافظة — وتعمل هذه المجالس تحت الاشراف الكامل للمجلس التنفيذى •

سابعا : يجب أن تساهم الشخصيات النقابية فى المستويات الدنيا فى أعمال المجلس التنفيذى ، باشراكهم فى اللجان والاعمال المختلفة للمجلس •

ثامنا : كل المؤسسات التى تقدم خدمات مختلفة توضع تحت اشراف الاتحاد العام (مثل مؤسسة الثقافة العمالية — المؤسسة الاجتماعية — الصحافة العمالية ٠٠ الخ)

تاسعا : يعطى الاتحاد العام والتنظيم النقابى الصلاحية لمتابعة تنفيذ قوانين التامين والمعاشات •

عاشرا : كل المستشارين والخبراء المعارين من الجهات المختلفة مسئولون عن أعمالهم أمام المجلس التنفيذى •

وحتى يقوم المجلس التنفيذى بنشاطه بشكل مرضى ، يجب أن يشكل الادارات التالية ويختار مقرريها من أعضاء المجلس التنفيذى — ويكونون مسئولين عن عملها ويساعدهم فى العمل أعضاء من النقابات العامة :

١ — **لجنة العضوية والتنظيم :** وتقوم بدراسة تطور العضوية النقابية فى جميع المستويات وتقوم باقتراح الحلول العملية لزيادة العضوية وتنميتها ، ومراقبة عمل النقابات العامة لتنظيم العمال غير المنظمين ، وحل المشاكل التنظيمية التى تواجه النقابات العامة ، ومراقبة تنفيذ قرارات الاتحاد العام والاشراف على تشكيل شبكة من المنظمين النقابيين •

٢ — **لجنة الدعاية والتوعية والثقافة :** وتقوم بالاشراف على برامج تعليم وتوعية العمال بالمفهوم الاشتراكى العلمى وبروح ميثاق العمل الوطنى — وبمهام النقابات وعلاقاتها بالدولة فى مرحلة البناء الاشتراكى ، والتوعية بالواجبات نحو الانتاج ، والاحداث السياسية المحلية والعالمية ، ورفع المستوى الثقافى والفنى ، وتنفيذ برنامج جماهيرى لمحو الامية ، وانشاء المكتبات الثقافية ونوادى العمال الثقافية •

٣ — **لجنة الانتاج والتخطيط القومى والاجور :** الاشتراك فى مناقشة الخطوط العامة للخطة القومية ، ودور العمال فى تطبيق الخطط وانجازها — ومتابعة مناقشة الخطط التفصيلية فى النقابات العامة واللجان النقابية — الاشراف على حركة المنافسة الاشتراكية فى الانتاج ، وحركة التحسين الفنى وتعلم واجادة أساليب فنية جديدة وتعميم الخبرات المتقدمة وتقوم بوضع لائحة خاصة بجوائز الاختراعات والتحسين الفنى والمقترحات الخاصة بترشيد العمل •

وتقوم هذه اللجنة بدراسة معدلات الاجور ومستوياتها ، وتحديد العلاقة باستمرار بين زيادة القدرة الانتاجية والزيادة فى الاجور • على أساس انه فى مرحلة التنمية والبناء والتطوير تكون زيادة معدل القدرة الانتاجية للعمل أعلى من معدل الزيادة فى الاجر • والعمل على الاخذ بنظام المكافاة الى جانب الاجر وتنشيط لجان الاجور ومراقبة ومتابعة نشاطها •

٥ — **لجنة الشئون القانونية :** تقوم ببحث ودراسة القوانين العمالية وتطورها • والمشاكل القانونية الناجمة عن تطبيق القوانين • واقتراح التعديلات التى تتفق والتطور الاقتصادى — وتقوم هذه اللجنة بمساعدة أعضاء مجلس الامة ممثلى العمال فى عملهم التشريعى •

٦ — **لجنة تامين العمل وحمايته :** الاشراف على تنفيذ ادارات المؤسسات العامة والشركات الخاصة للاوامر الخاصة بحماية العمل وبحث ودراسة ظروف الامن الصناعى فى كل صناعة ومهنة ونشر المعرفة الخاصة بالصحة الصناعية على نطاق جماهيرى • والاشراف على عمل النقابات فى هذا المجال ، واقتراح التشريعات الخاصة بذلك — وتدريب عمال متخصصين فى حماية العمل — وتكوين جهاز نقابى يقوم بمهمة التفتيش ويحقق كافة المشاكل الخاصة بحماية العمل ويتابع تنفيذ القوانين الخاصة بذلك •

اللجنة المالية : الاشراف على مالية الاتحاد وأوجه صرفها وتنمية المالية ومراقبة مالية النقابات والتفتيش عليها •

٨ — **لجنة الاسكان والاحوال المعيشية :** الاهتمام بسياسة انشاء الجمعيات السكنية للعمال — ووضع خطط للاسكان العمالى يستعان فى وضعها ودراستها بالفنيين والخبراء ودراسة الاحوال المعيشية للاسر العمالية والعمل على رفع مستواها ، وربط الاسر العمالية بنشاط النقابات لعلاقة ذلك بزيادة القدرة الانتاجية للعمل •

٩ — **لجنة علاقات العمل والصناعة :** دراسة مشاكل الصناعة والطريق لحلها وكافة المشاكل المترتبة على التطور الصناعى •

١٠ — **لجنة التامينات الاجتماعية :** تشرف هذه اللجنة على كل ما يتعلق بالتامين فى جميع انحاء البلاد وتقوم بالاشراف على لجان مماثلة تنشا فى النقابات واللجان النقابية والتى يجب وأن تقوم بكل أعمال التامين ومراقبة تطبيق القوانين •

١١ — **لجنة العلاقات العامة :** تنظيم العلاقة بين النقابات العامة وفروع الاتحاد والهيئات الثقافية والعلمية والفنية — وتنظيم العلاقات مع التشكيلات والتنظيمات الشعبية [الاتحاد الاشتراكى — المجالس الشعبية — المجالس البلدية والمحلية والقروية) •

١٢ — **لجنة العلاقات الخارجية :** تنظيم العلاقة والاتصال بالاتحادات الدولية وبالحركة العمالية فى مختلف البلدان • ورسم سياسة موضوعية وعلى أساس دراسة يكون محورها الموقف النضالى ضد الاستعمار والصهيونية والاتصال بالمنظمات والهيئات الدولية الرسمية والشعبية ، والمشاركة فى المؤتمرات الدولية •

١٣ — **لجنة العاملات والاحداث :** تقوم هذه اللجنة بدراسة مشاكل العاملات وظروف حياتهن وعملهن وظروف عمل الاحداث وحياتهم وتدريبهم وتعليمهم وتنظيمهم والاشراف على تكوين لجان خاصة بالعاملات والاحداث فى كل مستوى نقابى •

١٤ — **لجنة الرياضة والثقافة الفنية والنشاط الاجتماعى :** الاهتمام بوضع خطة لتنظيم النشاط الرياضى بين جماهير العمال ورفع مستوى الثقافة الفنية وتدريب الطاقات الفنية لدى العمال (المسرح — الفنون التشكيلية — الادب — الفن الشعبى) • ووضع خطة خاصة بحل مشاكل الفراغ وتنظيم الاستفادة من الاجازات •

١٥ — **لجنة مدارس التدريب :** الاشراف على مدارس التدريب المهنى — ورفع المستوى الفنى للعامل ، وتكوين العامل الماهر ، وتدريب القادة النقابيين المتخصصين فى العمل التنظيمى والثقافى والسياسى •

١٦ — **لجنة الصحافة :** توجيه وقيادة الصحافة العمالية والاشراف عليها وتكوين مجلس تحرير لكل صحيفة عمالية تحت قيادة الاتحاد العام •

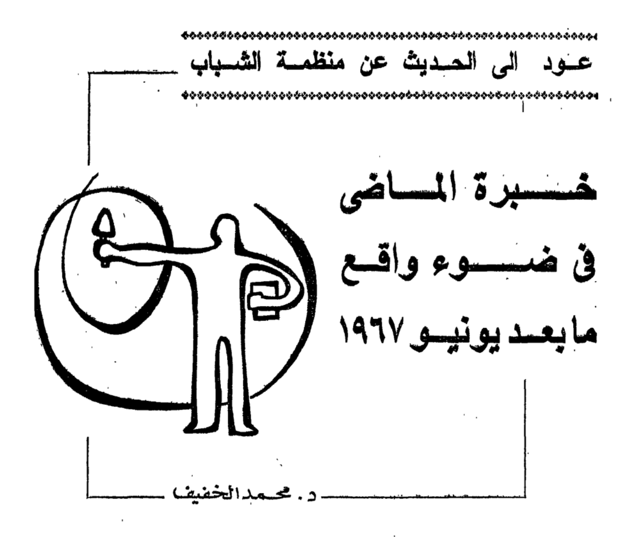
١٧ — **لجنة النشر :** نشر الكتب والمؤلفات والابحاث العلمية والانتاج الادبى والفنى للعمال •

١٨ — **لجنة العمال الزراعيين :** دراسة مشاكل العمال الزراعيين وأنواع العمل الزراعى ومعدلات ومستويات أجورهم — مشاكل تنظيمهم ونشر الوعى بينهم ومسألة توحيد العمال الزراعيين مع العمال الصناعيين فى كافة المستويات •

١٩ — **لجنة التامين الصحى :** تشرف على تطبيق قوانين التامين الصحى وتطويرها والعمل على توفير الرعاية الصحية للعاملين وأسرهم وخلق علاقات اجتماعية سليمة بين الجهاز الطبى والمجتمع •

« ع٠غ »

خبرة الماضي في ضوء واقع ما بعد يونيو ١٩٦٧



د. محمد الخفيف

ربما بدا أمرا غريبا ، أو لدى البعض ـ مسببا لليأس ، أن نكتب مرة أخرى عن تصورنا للكيفية التي نقيم بها منظمة للشباب ، وذلك بعد انقضاء حوالي السبع سنوات على أولى محاولاتنا في هذا الصدد التي بدأت في أوائل عام ١٩٦٤ ٠ والواقع انه لابد للانسان أن يتساءل عن مصير هذه السنوات السبع ، هل ذهبت كلها سدى ؟ والى أي مدى أثرت في الشباب ؟ وهل يكفي أن نعيد تشكيل مستويات المنظمة من القاعدة الى القمة بالانتخاب الحر المباشر كما فعلنا مع الاتحاد الاشتراكي ؟ وكيف نعيد ثقة الشباب في العمل السياسي ؟ وقائمة الاسئلة طويلة ٠٠

بادىء ذي بدء ، أود أن أذكر أن اهمية الموضوع ، بحكم أنه موضوع مصيري ، تحتم أن يظل دائما على رأس قائمة المهام السياسية المطروحة في كل وقت من الاوقات حتى ولو لم تتخللها احداث كبار ٠٠ وأقصد من قولي أنه موضوع مصيري أن تنظيم الشباب في منظمة سياسية هو ضمان لاستمرار الثورة ، أو هو

الحلقة الرئيسية فى سلسلة الضمانات ، ويحضرنى هنا قول الزعيم جمال :

« المهمة الاساسية التى يجب أن نضعها نصب عيوننا فى المرحلة القادمة ، هى أن نمهد الطريق لجيل جديد يقود الثورة فى جميع مجالاتها السياسية والاقتصادية والفكرية ، ولسنا نستطيع القول بأن هذا الجيل قد أدى واجبه ، الا اذا كنا نستطيع – قبل كل المنجزات وبعدها – أن نطمئن الى استمرار التقدم ، والا فان كل ما صنعناه مهدد بأن يتحول – مهما كانت روعته – الى فورة لمعت ثم انطفأت ، الى بداية تقدمت ثم توقفت . ان الامل الحقيقى هو استمرار النضال ويتأكد الاستمرار حتى يكون هناك – فى كل وقت – جيل جديد على أتم استعداد للقيادة ولحمل الامانة ، ولمواصلة التقدم بها . أكثر وعيا منجيل سبق .. أكثر صلابة من جيل سبق .. أكثر طموحا من جيل سبق » (١) .

وأهمية هذا القول ترجع الى أنه لا يزال وسيظل الاساسى النظرى السليم لضمان استمرار الثورة وأنه لكى يتحقق هذا الاساس لابد وأن يتحول من نص نظرى الى واقع عملى . ولا مفر من الاعتراف بأنه بالرغم من مضى أكثر من ست سنوات على هذا النص ، وبالرغم مما بذل من محاولات للانتقال به الى حيز التنفيذ الا أنه لا يزال بعيدا عن مجال التنفيذ الثورى الحقيقى .

أهم الاحـــداث

والنقطة الهامة الثانية هى أن واقعنا قد جدت عليه – أثناء فترة السبع سنوات – أحداث خطيرة ، وأول هذه الاحداث وأهمها هو ما تعرضت له البلاد فى يونيو ١٩٦٧ ولست أظننى بحاجة الى التحدث عن خطورة هذا الحدث بوجه عام غير أننى أحب فقط أن أشد الانتباه الى أثره وخطورته بوجه خاص على الشباب اذ كان أول تحد حقيقى يواجههم ويواجه منظمتهم الوليدة ويواجه نضال بلادهم وقيادته ولم يكونوا قد أعدوا اى اعداد مسبق له ، بل ولم يكونوا يتصورون وقوعه .

وكان الحدث الثانى هو الوفاة المفاجئة للقائد والمعلم وفى وقت أشد ما يكون دقة ، وهذا حدث له أيضا وقعه الخاص على الشباب الذين شبوا غالبيتهم ان لم يكونوا جميعا على تصور ارتباط استمرار الثورة بوجود القائد الذى فجرها لاول مرة .

وثالث الاحداث الهامة ، وهو لا يقل خطورة عن الحدثين السابقين ما كشفت عنه الايام الاخيرة من أمر مراكز القوى التى تربى الشباب فى رعايتها وكانوا ينظرون اليها كقيادات ثورية حقيقية ، فاذا الايام تثبت أو تظهر أنهم لم يكن لهم هدف سوى السلطة والاحتفاظ بها غصبا . ولا عجب على الاطلاق ان اهتزت ثقة الشباب فى عدد من القيم التى لقنوها : الالتزام .. الديمقراطية .. القيادة الجماعية .. ولا عجب أن تملكتهم الحيرة فيما يتصل بسيادة قوى الشعب ووسائل بناء الاشتراكية وغير ذلك من قضايا الثورة .

وقد صاحب هذا كله ما نعلم من اتجاهات جديدة مختلفة جذبت اليها فئات الشباب فى شتى دول العالم وما يمر بالعالم كله من أحداث الحرب والاستعمار والثورة العالمية ومن أفاق جديدة ، نوعا وكما للعلم والتكنولوجيا وأثر هذه الاحداث على حاضر ومستقبل العلاقات الدولية ودور الدول الاشتراكية فى هذه العلاقات .

من هنا يكون أمرا طبيعيا وواجبا أن تدرس من جديد أوضاع منظمة الشباب فى ضوء هذه الاحداث التى بدأت بعدوان ٥ يونيو من أجل وضع خطة سليمة لاعداد الشباب فى ظل منظمة ثورية ، خطة تحمل طابع الارض والظروف التى تنبع منها على أساس دراسة كاملة لخصائص هذه الظروف وتحدد المهام والواجبات وأساليب العمل للحاضر والمستقبل ، بادئه بالواقع لا بالاحلام ، واضعين نصب أعيننا دائما تلك القاعدة الذهبية التى يبدو أننا نسيناها أو تناسيناها ، لفترة ليست بالقصيرة والتى تقول باستحالة تغيير الواقع عن طريق تخطيه بأساليب مصطنعة ، وأن الطريق الوحيد لتغيير الواقع هو البدء به ودراسته ووضع خطة لتغييره ، خطة واضحة المعالم محددة الاهداف لها استراتيجيتها البعيدة واستراتيجياتها المرحلية ، خطة تحدد القوى المعادى منها وغير المعادى الاساسى والثانوى ، وترسم الاساليب . ان تخطى الواقع لا يغيره بل يزيده ثباتا ، ويصيب العمل الوطنى بالخيبة واليأس . ان تخطى الواقع مغامرة أطفال وتغيير الواقع ثورة أبطال . والفرق بين المغامرة والثورة هو الفرق بين الاطفال والابطال .

اذا عدنا الى النص النظرى الذى ذكرناه خرجنا بعدد من الافكار المحددة :

● قضية استمرار النضال ضمانا لاستمرار الثورة هى فى الوقت نفسه قضية استمرار واتصال القيادة الثورية ، فليس هناك عمل بدون قيادة ، ليست هناك ثورة بدون قيادة ثورية ومن هنا كان استمرار الثورة رهنا باستمرار – أو تجدد – قيادتها ، فالقيادة عمل أفراد منتظمين فى

(١) خطاب الرئيس عبد الناصر فى ٢٠ يناير ١٩٦٥ امام مجلس الامةبمناسبة الترشيح لرئاسة الجمهورية .

مجموعة متماسكة واذا كان الافراد غير خالدين الا أن القيادة يجب أن لا تفنى ، لانها عملية متصلة من خلال افراد يعيشون عبر مراحل متعددة ومتميزة ولكنها متصلة بمعنى أن كل مرحلة جديدة تنمو من داخل المرحلة السابقة عليها وهنا يكون علـى قيادتها ان كانت حقا ثورية واجب مقدس هو رعاية البذور الجديدة حتى تنبت وتخضر اعـوادها وتصلب بالقدر الكافى وفى الوقت المناسب ٠

● هذا الجيل الجديد ، دخل الحياة عشية ثورة يوليو ومع فجرها وضحاها وهذه نقطة هامة ٠ لقد نشأ جيلنا وتربى فى المرحلة السابقة على الثورة ، وشارك فى نضال هذه المرحلة وقيادتها ، وكانت المرحلة هى مرحلة الثورة الوطنية التى تعمـل على طرد الاستعمار من ناحية وتحقيق قدر أكبر من الديموقراطية من ناحية اخرى ، اما الجيل الحالى فكان اول تذوق له للحياة بعد أن تم طـــرد الاستعمار وسقطت الملكية وانقضى نظام الاحـزاب وهكـذا عاش ســنوات فى مرحلـة مغـايرة للمرحلة السابقة على ثورة يوليو ، مرحلة بناء قاعدة اقتصادية من أجل بناء مجتمع متقدم يكفل فرص العمل لجميع العاملين بكل ما تتضمنه هذه المرحلة من صراع بين الجديد والقديم وبين التقدم والتخلف وبكل ما يحيط بها من مـؤامرات استعمارية وصهيونية وتربص للقوى المخلوعـة بالداخل ، غير أن العامل الجديد فى الموقف هو أن الشباب بعد سنوات من الاستقرار النسبى فوجىء بأول احتلال لارض بلاده وان كان احتلالا جزئيا ، وهو الامر الذى لم يخبروه من قبل والذى وضع أمامهم على التو هدفا ملحا قبل باقى الاهداف جميعا وهو هدف تحرير الارض المحتلة ٠

وما من شك أن هذا العامل الجديد قد سبب ألما وقلقا شديدين بين جموع الشباب ، كما زاد المرحلة التى يعيشونها تعقيدا ٠

● فى ضوء هذه الظروف العالمية التى تتميز بأزمة النظام الراسمالى التى بلغت ذروتها سياسيا واقتصاديا واجتماعيا فى الولايات المتحدة قمة هذا النظام ، وبأزمة تحجر بعض القيادات فى النظام الاشتراكى وعجز الثورة العالمية عن أن تطور النظرية بما يتمشى مع المرحلة الثـورية الجـديدة التى تقوم على الثورة العلمية التكنـولوجية ، وبانهيار عدد من التجارب التقدمية فى دول العالم الثالث ٠٠ وفى ظل الظروف المحلية التى ذكرنا أهم خصائصها والتى جعلت من المرحلة الحالية أكثر تعقيدا ، لابد للجيل الجديد، للشـباب ، لكى يستطيع أن يلعب دوره بنجاح أن يكون أكثر وعيا من جيل سبق لان المرحلة الحالية تستوجب الى جانب الوعى الوطنى وعيا اشتراكيا وهو اعلى مراتب الوعى الانسانى ، وأكثر صلابة من جيل سبق لان المعركة الحالية معركة مصير وهى أشد من المعارك التى خضناها وأكثر تعقيدا ، فبينما كانت فى الاساس معركة اجتماعية اذ يبرز فجأة وبشكل قوى وملح العامل الوطنى من جديد ٠

والوعى والصلابة لا يأتيان جزافا ولا ينبتان شيطانيا بل لابد من اكتسابهما ولا سبيل الى ذلك سوى الاعداد ثم التجربة والمعاناة ، ولا سبيل الى هذا كله الا أن يتم داخل منظمة سياسية للشباب تجمع صفوفه وتربى قياداته وتقود نضاله ٠

بعض القضـــاء الاســـاسية

مـن خـــبرة المـــاضى

١ ـ ان السنوات السبع السابقة لم تذهب كلها سدى ، فما من شك فى أنه على الرغم من نواحى النقص المتعددة والخطيرة الا أن العمل بيـن الشباب قد جذب عددا غير قليل منهم الى الفكر الاشتراكى ٠ قد تكون عالقة به شوائب معينة ، وقد يكون غير واضح فى بعض النواحى ، وقد يكون على خطأ فى نواح أخرى ولكنه فى مجموعه يكون مناخا فكريا صالحا للعمل وللتطوير والتصحيح ٠ وما من شك أن هذه العناصر قد خبرت ، على الاقل بتجربتها المرة ، كيف تميز الخبيث من الطيب وكيف تفرق بين الانتهازية والثورية ٠ وانها لمهمة عاجلة أن يبحث عن هذه العناصر وأن تجمع من جديد ويجب أن لا يقتصر البحث عنها بين القيادات أو من يسمونهم بالموجهين فقد يكونوا أكثر تواجدا فى القواعد ٠

٢ ـ ان السنوات السبع السابقة تمتلىء بالعبرة لمن شاء أن يعتبر وهى كنز فريد ـ ان صح التعبير ـ من الاخطاء التنظيمية والسيـاسية والفكرية اذا عددناها أصبحنا فى مأمن الى حد كبير من أن نقع مرة أخرى فيها ٠

٣ ـ ان عملية بناء المنظمة عملية هامة ومصيرية لا ينفع معها مجرد اعادة تشكيل جميع مستوياتها بالانتخاب ، ولا يجوز الاستخفاف بها أو الاسراع فيها وكفانا استخفافا وعجلة ٠ انها بناء للمستقبل والمستقبل مصير والمصير لا يقامر به ٠

٤ ـ لا تزال قضية اعداد القادة هى الاساس ولا تزال ، فى رأيى ، هى الحلقة الرئيسية التى يجب أن يمسك بها جيدا قبل الانتقال الى بـاقى الحلقات ٠ نعم ، هى مرة أخرى قضيـة الكم والكيف ، قضية الشكل والمضمون ٠ هى قضية كيف وكم لانها قضية قادة وجماهير ٠ صحيح تماما أن منظمة الشباب تنظيم سياسى اجتماعى ديموقراطى لجماهير الشباب ولكن هذا يعنى أن

مهمتها الوحيدة هي قيادة حركة هذه الجماهير الشابة نحو تحقيق أهداف معينة . فكيف تكون القيادة بلا قادة ؟!

٥ ـ من السذاجة السياسية أن نفهم اعداد القادة على أنه مجرد تهيئة مكان تقضي فيه عشرات أو مئات الشبان بضعة أيام تستمع خلالها الى عدد من المحاضرات يلقيها عليهم محاضرون هم خليط من الاتجاهات ثم نقول عندنا كذا مائة قائد أو موجه .. كما أن من التعنت والتزمت أن ننفق من الجهد والوقت أكثر وأطول مما ينبغي في سبيل الاعداد النظرى لعشرات ، ونهمل أمر المئات والالاف .

٦ ـ ولعل أول درس في هذا الصدد أن تزايد عدد الاعضاء بدرجة كبيرة لا تتناسب مع اطراد عملية اعداد العناصر القيادية قد أدى الى اتساع القاعدة اتساعا عجزت القيادات المحدودة العدد عن ان تقود حركتها الامر الذى حد من فعالية المنظمة فاضطرت الى التسرع في اعداد القيادات والى أن تلجأ الى الاختيار دون أسس ودون اختبار ، فانحصر الاختيار أساسا في « المعارف » وتم على أسس شخصيته ، فقفز الى مناصب القيادة عناصر لا امتياز لها فعجزت عن أن تنال ثقة القاعدة وأوغرت صدور من لم يختاروا وخاصة اذا كانوا أكثر كفاءة ، فلجأت الى أسلوب الكبت والارهاب .

٧ ـ وكان طبيعيا في مثل هذه الحالة أن تسود المركزية المطلقة وأن يعتمد العمل على القرارات والتوجيهات والاجراءات المظهرية وأن يقاس ولاء العضو بمدى تقبله للقرارات وتنفيذ التعليمات بدون مناقشة ، الامر الذى حد من تنمية قدرات الاعضاء على التصرف وكبت النواحي الايجابية فيهم . وهذا أنسب جو تزدهر فيه مراكز القوة .

٨ ـ ونتيجة طبيعية للمغالاة في المركزية وانحسار الديموقراطية أن تضيق صدور القيادات بالنقد والمناقشة ، وفي هذا الصدد اسيء استخدام مبدأ الالتزام وأصبح الالتزام مرادفا للطاعة العمياء مع أنه لا التزام بدون حرية الرأى والتعبير .

٩ ـ وكان لابد أن ينعكس أسلوب العمل داخل المنظمة على أسلوب عملها بين جماهير الشباب خارجها بل وبين الجماهير بوجه عام ، اذ تميز بالتعالى وبالارهاب السافر أحيانا والمقنع احيانا فانفضت من حولها الجماهير ، بل وبدات تجاهرها بالعداء .

١٠ ـ ان الاهتمام بالشكل دون المضمون يؤدى الى نتائج وخيمة . ان شكلا بلا مضمون لابد وان ينتهي وبوجه خاص مع الشباب الى مضمون مضاد .. لابد وان يؤدى الى الولاء لفرد او شلة بدلا من الولاء للجماهير .. الى الانعزال عن الجماهير والتعالى عليها بدلا من التوحد معها وخدمة قضاياه .. ان تنظيما شبابيا بلا مضمون ثورى لابد وأن يصبح في النهاية تنظيما فاشيا ..

بعض الخطوط العامة

حول اعادة البنـــاء

أولا : لابد وأن تشترك جماهير الشباب في دراسة القضية واستخلاص الدروس والتفكير في مهام المنظمة وتصور خطها السياسي وطريقة تكوينها ، على أن يكون اشتراكا فعليا . واننا نقع في خطأ كبير وخطير لو تصورنا أن جيلنا ، مهما كان له من خبرة ودراية ، قادر وحده على أن يرسم ويخطط للشباب . ان دورنا لا يمكن أن يتعدى التوجيه واعطاء النصح ونقل الخبرة .

ثانيا : لابد بالبدء باعداد القادة لسبب بسيط هو أن قادة الشباب هم أقدر الناس على العمل مع الشباب فهم منهم يحسون آمالهم ومشاكلهم ويعرفون قدراتهم ونواحى الضعف والقوة فيهم . وبعد اعداد عدد معقول من القادة يبدأ العمل الحقيقى مع جماهير الشباب (وهذا لا يعنى ايقاف العمل معهم الان) بهدف الارتفاع بوعيهم وربطهم بقضايا المجتمع وايجاد مناخ فكرى اشتراكى بينهم يساعد على اظهار عناصر قيادية جديدة بينهم . وفي هذا الصدد تلعب مراكز الشباب والمعسكرات ، وخاصة في فصل الصيف ، دورا هاما من حيث انها اماكن نجاح من مختلف قوى الشعب العامل ويمكن عن طريق العمل السياسى البسيط والمنظم أثناء النشاطات العادية للشباب ، أن تتحول هذه المراكز والمعسكرات الى مراكز للفكر والعمل التطوعى ومحو الامية وغرس القيم الجديدة ، والى بوتقات تذوب فيها الفوارق بين شباب قوى الشعب العامل ، وأعمارهم تساعد على ذلك ، فينمو التوحد مع الجماهير وخاصة اذا ذكرنا أن هذه المراكز تجمع الشباب من مختلف قوى الشعب العاملة .

ثالثا : لابد ان يعتمد التثقيف على الواقع اعتمادا كاملا ولا يهرب من مشاكله حتى لا يقع الشباب فيما وقعوا فيه بالماضى من تناقض بين ما كان يدرس لهم وما كان يدور في الواقع الذى يعيشونه . اننا نعد قادة واعين على أساس من العلم بواقعهم من اجل تغييره وليس من اجل

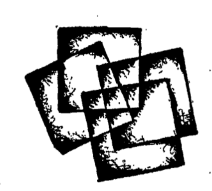
تبريره • وفرق كبير بين تعريف الشباب بمنهج علمى يسترشدون به فى التوصل الى حلول للمشاكل وبين تلقينهم بعض الشعارات والنصوص يلجأون اليها كلما عجزوا وكثيرا ما كانوا يعجزون • اننا يجب أن لا يغيب عن بالنا آن المنظمة هى أيضا المدرسة السياسية والاجتماعية التى تعد الكادر السياسى للجهاز الطليعى للاتحاد الاشتراكى •

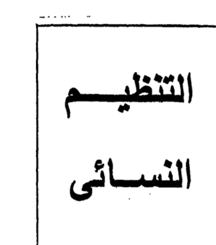
رابعا : يجب أن يكون البناء التنظيمى للمنظمة متفقا مع التركيب الاجتماعى لقوى الشعب ومعبرا عن طبيعة التحالف الشعبى ، وموقع الفئات والطبقات المختلفة فيه ، ومن هنا تبدو حيوية الاهتمام بشباب العمال والفلاحين بوصفهما محور هذا التحالف •

خامسا : يجب أن تكون المنظمة تنظيما مستقلا عن الاتحاد الاشتراكى وهى لكى تمارس دورها القيادى لابد أن يكون لها الاشراف الفعلى على كل نواحى النشاط وخاصة فيما يتصل بالاعداد الفكرى والتنظيمى والا تعددت القيادات وانقسم الشباب فرقا وشيعا تلتف كل منها حول فرد أو شلة • ان ارتباط المنظمة بالاتحاد الاشتراكى من الناحية التنظيمية يجب أن لا يتعدى تمثيل المنظمة فى عضوية اللجنة المركزية •

سادسا : فى كل الحالات يجب أن يكون تشكيل المستويات القيادية عن طريق الانتخاب الحر المباشر ، ولقد آن الاوان حقا لان يسود مبدأ الانتخاب مع ضمان الحرية الكاملة كافة نواحى النشاط السياسى والنقابى •

والامل كبير بعد أن فتح باب العضوية للاتحاد الاشتراكى أمام الشباب أن يسفر اشتراكهم فى الترشيح والانتخاب عن عناصر جديدة حائزة لثقة جماهيرها وتستطيع أن تقوم بدور رئيسى فى عملية بناء المنظمة فكريا وتنظيميا •





التنظيم النسائى وقضية تحرير المرأة

« المرأة نصف المجتمع ، والحركة النسائية تختزن من الطاقات قدرا كبيرا وثمينا ، لابد وأن يؤدى رسالته كاملة فى العمل الوطنى » .

« الرئيس أنور السادات »

إنجى رشدى

حدد بيان السيد رئيس الجمهورية الخط الذى تلتزم به القيادة السياسية من حيث أهمية وضرورة قيام تنظيم نسائى ، وحدد ايضا ، الخطوات التنفيذية التى ستسير عليها عملية وضع الخطوط الرئيسية لشكل ومضمون هذا التنظيم .

ولقد وضع هذا البيان ــ فى تقديرى ــ خاتمة لفترة طويلة من التردد ، حول حاجة المجتمع المصرى الى تنظيم يضم جماهير النساء ، ويربطها بمجتمعها الذى ظلت تعيش بمعزل عنه فى الغالب الا عم ، من خلال تطور المجتمع فى المرحلة الوطنية ، ثم المرحلة الاشتراكية .

ولقد مرت فكرة التنظيم النسائى بين فترات التردد فى الاعوام الماضية ، بمحاولات عديدة ، وتجارب لم يكتب لها النجاح ، لانه فى الكثير من الاحيان ، تم تجاهل التكوين الاجتماعى والتاريخى للمجتمع المصرى .

ولعله من المفيد أن نستعرض هذه المحاولات وأسباب فشلها لكى تكون أمامنا ملائمة على طريق التكوين الجديد لتنظيم نسائى جماهيرى ، ينجح فى ربط المرأة المصرية .. سواء كامرأة أو مواطنة بالمجتمع الذى تعيش فيه ويخرجها من عزلتها .

ولقد كانت أول هذه المحاولات لتكوين **تجمع نسائى** ، وقت قيام **الإتحاد القومى** ، الذى أعلن أنه تجمع جماهيرى اجتماعى وثقافى ، ليس من أدواره الربط السياسى والتوعية السياسية وذلك لانه كانت هناك فىذلك الوقت حساسية ضد قيام اى تجمع سياسى يمكن أن يفسر على انه نواة حزب . ولقد مرت مرحلة التجمع النسائى فى ظل الاتحاد القومى بمرحلتين :

الاولى .. كانت برئاسة الدكتورة سهير القلماوى ، ولم تخرج عن مرحلة تكوين مكتب يضم بعض العاملات فى مجال النشاط النسائى . ولكن كان لغياب أى فكر أو مضمون حتى فى حدود التحرك الاجتماعى ، أثره فى أن هذه المحاولة لم تخرج عن حدود جدران المكتب الاربعة .

وكانت المرحلة الثانية .. وأيضا فى ظل الاتحاد القومى ، برئاسة السيد فاطمة عنان ، وكانت وقتها ناظرة مدرسة العباسية الثانوية النموذجية .

ولقد نجحت السيدة فاطمة عنان فى أن تعطى « مكتب النشاط النسائى » شكلا تنظيميا نموذجيا ، يمتد من القرية الصغيرة فى أقاصى الجمهورية الى القاهرة ، حتى الهرم التنظيمى الذى رسم بدقة وعناية .

ولكن هذه المحاولة أيضا ، لم يكتب لها النجاح ، ولم تخرج عن اللوحة التى رسم عليها الشكل الهرمى الدقيق للتنظيم وذلك لاسباب عدة :

ـ أن هذا التنظيم استبعد من تكوينه القوة الاساسية للمرأة وهى بالذات المرأة العاملة .

ـ انه تحدد فى داخل فئة معينة من المجتمع هى فئة المدرسات بطبيعة الامور ، وعلى أساس أن القيادات كانت تختار على أساس العلاقات الشخصية ، وليست نتيجة ممارسة جماهيرية أو انتخابات ديمقراطية .

ـ ان هذا التنظيم لم يراع ظروف المجتمع المصرى فى ذلك الوقت ، ووضع المرأة المصرية داخله .

مثلا كانت محاولة فرض لجان نشاط نسائى على المرأة فى الريف من اعلى ـ اى ـ من المدينة وليس نتيجة تحرك المرأة الريفية نفسه سببا فى شلل هذه اللجان فى الريف .

وليس من الصعب أيضا أن نقدر أن المرأة فى الريف لم تكن قادرة على الحركة ، بسبب الامية المتفشية فى صفوفها ، وبسبب تبعيتها المطلقة للرجل ، على الرغم من مشاركتها الاقتصادية والانتاجية فى الريف .

واذا كان « مكتب النشاط النسائى » قد تجاهل واقع التركيب الاجتماعى المصرى فى ذلك الوقت . فانه أيضا تجاهل واقعا تاريخيا لدور المرأة منذ اوائل القرن العشرين ، والذى وجدت له متنفسا من خلال العمل الاجتماعى .

فقد كان المجتمع ينكر على المرأة حقها فى التعليم وفى العمل وباختصار فى المشاركة الحقيقية فى بناء المجتمع .

فلم يكن من مصلحة الطبقة الحاكمة فى ذلك الوقت وهى الضالعة مع الاستعمار والاحتلال البريطانى فى اوائل القرن العشرين اطلاق الطاقات الخلاقة للمواطنين المصريين .

جاء فى قرار رئيس الجمهورية باعادة تنظيمات الاتحاد الاشتراكى العربى

- **مادة ٨ : يقوم تنظيم نسائى ، يعمل فى تواز وارتباط مع الاتحاد الاشتراكى العربى ، ويصدر رئيس الجمهورية قرارا بتشكيل لجنة تاسيسية لهذا التنظيم .**
- **مادة ٩ : يكون للتنظيم الشبابى والتنظيم النسائى ممثلوه فى المؤتمر القومى العام والاشتراكى العربى ولجنته المركزية .**
- **مادة ١٠ : لا يحول قيام التنظيم الشبابى والتنظيم النسائى دون اشتراك الشباب والمرأة على أوسع نطاق فى انتخابات منظمات الاتحاد الاشتراكى العربى .**

وعلى استحياء خرجت المرأة المصرية فى ذلك الوقت لتتحرك فى اطار الخدمة الاجتماعية ، والجمعيات الخيرية ، وقامت جمعية المرأة الجديدة ومبرة محمد على .. ولكن الحصار الذى كان مفروضا على المرأة لم يمكنها من أن تذهب الى أبعد من هذه الحدود .

ارتباط الحركة النسائية بالحركة الشعبية

ويمكن القول ان المرأة المصرية بدأت تتحرك فعلا على الطريق الصحيح فى العشرينات ، وتم تكوين الاتحاد النسائى المصرى برئاسة هدى شعراوى ، والذى كان محصلة ونتاج ثورة ١٩١٩ ، والتى لعبت المرأة فى داخلها دورا أساسيا ، وشاركت مشاركة ايجابية وفعالة فى هذه الثورة الشعبية .

وكان من نتيجة هذه المشاركة .. أن نجحت المرأة فى التخلص من الحجاب ، وأصبح وجودها فى مجال العمل السياسى مقبول ، وذلك بعد أن تكونت لجنة الوفد المركزية للسيدات . ولاول مرة وجد تجمع للمرأة المصرية ، يحمل اسم الاتحاد النسائى المصرى له برنامج محدد ومطالب واضحة ، كان فى مقدمتها : المطالبة بتعليم الفتاة ، اعطاء المرأة حقوقها السياسية ، رفع سن الزواج للبنت والولد ، ثم ضرورة تعديل قانون الاحوال

الشخصية . ولقد فجرت هدى شعراوى بقيادتها لحركة المرأة المصرية طاقات ضخمة بين صفوفها ونجحت فى تحقيق بعض المطالب ولم تنجح فى تحقيق البعض الاخر ـ وذلك لان هذه الحركة لم تكتمل وتصل الى هدفها السياسى نتيجة لتجمد ثورة ١٩١٩ نفسها وتوقف حركتها ..

وانفصلت بعد ذلك حركة المرأة نفسها عن المجتمع ، واصبحت تدور وتلف حول نفسها ..

وانقسمت حركة المرأة على نفسها وتصور البعض أن تحرير المرأة انما يأتى من خلال الخدمة الاجتماعية .. وأخذت أعداد الجمعيات الخيرية فى التزايد ..

ولكن فى نفس الوقت كان مطلب هدى شعراوى سنة ١٩٢٣ بمساواة البنت فى التعليم، بالولد شرارة أتت ثمارها بعدفترة وجيزة عندما انشئت سنة ١٩٢٤ أول مدرسة ثانوية للبنات بشبرا .. وبدأت عجلة التطور تسير ولكن ببطء ، وبشكل تلقائى عفوى، بلا تنظيم يجمع صفوفها وينظم حركتها .

وكان مطلب هدى شعراوى بضرورة اعطاء المرأة حقوقها السياسية من الاهداف التى التفت حولها المرأة الواعية .

واذا كان من نتائج ثورة ١٩ ظهور بوادر حركة نسائية ، فذلك لان حركة المرأة ارتبطت دائما بالحركات الشعبية ، وكانت تعمل دائما من داخلها ، تسير معها وبلا انفصال عنها .

ولهذا فيوم انتكست ثورة ١٩ تجمدت معها حركة المرأة فى اطار اهداف هى فى النهاية أيضا تعبر عن مفهوم بورجوازى متحرر .

وكان أيضا من نتائج الانتفاضة الوطنية سنة ٤٦ والتى حمل لواءها العمال والطلبة ، ومشاركة المرأة فى قلب هذه الانتفاضة ، ومشاركتها أيضا فى لجنة العمال والطلبة ان تقدمت المرأة خطوة الى طريق الوعى السليم ..

وقد صاحب هذه الخطوات على طريق تحرر المرأة أو محاولاتها من أجل التحرر السياسى ، عملية تحرر اقتصادى قاصرة الى حد ما لانها لم تكن وليدة مضمون فكرى متكامل ، وانما كان فى أغلب الاحوال نتيجة لظروف اجتماعية ، دفعت بالمرأة الى ميدان العمل ، وبالذات خلال وبعد الحرب العالمية الثانية ، واصبحت قوة اقتصادية منتجة ، ولكنها مع ذلك كانت وهى تعمل من أجل التحرر تتحرك بشكل فردى ، ولعل الاحصاءات تدل على أن المرأة على الرغم من السنين التى مضت لم تستطع أن تصبح قوة فعالة فى بناء المجتمع .

فلم تزد نسبة المرأة العاملة للقوى العاملة عن ٨٪ ، وبعبارة أخرى لم تتعد نسبة قوى المرأة العاملة لمجموع السكان ٨ر٤٪ .

المرأة وثورة ٥٢

كانت هذه هى الصورة التى عليها المرأة المصرية يوم أن قامت ثورة ٢٣ يوليو بمبادئها الست ، وفى مقدمتها رفع مستوى معيشة الفرد ، ورفع مستوى الدخل القومى . ولم يكن من السهل تحقيق هذا المبدأ ونصف المجتمع فى حالة شلل وتبعية ، اللهم من بضعة آلاف لايمكن ان يشكلن ثقلا اقتصاديا أو اجتماعيا .

ولقد كانت نظرة القيادة السياسية فى ذلك الوقت لهذا الوضع وقيام المرأة داخل الانتفاضة الوطنية العارمة سنة ٥٦ بعد تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثى على مصر من الحيثيات الاساسية التى جعلت **عبد الناصر** يؤمن بأن المرأة لها دور فى عملية البناء الاجتماعى ويجب أن تطلق قيودها من أى أغلال تشل حركتها .

ولهذا جاء دستور ٥٦ وقانون الانتخاب يعطى للمرأة حقوقها السياسية ولكن على أساس اختيارى فالمرأة حرة فى أن تمارس هذا الحق أولا تمارسه ..

وكان تجاوب المرأة مع هذا الاعتراف بدورها ضعيف الى درجة أنه لم يتقدم للقيد فى جدول الانتخابات سنة ٥٦ سوى ٣١٨٩ ناخبة من بين ما يزيد على خمسة ملايين امرأة فى سن الانتخاب . وكانت نتيجة الانتخابات عضوية فقط من النساء فى مجلس الامة وفى تقديرى ان رد الفعل هذا كان أبلغ دليل على مدى حاجتنا الى تنظيم يجمع صفوف المرأة ويربطها بالمجتمع التى تعيش فيه عضوا عاملا منتجا .

وجاءت تجربة الاتحاد القومى سنة ١٩٥٨، كما سبق أن بينت جاءت معه تجربة « مكاتب النشاط النسائى» التى لم تستطع ان تدفع بالدماء الجديدة أو تثبت الحيوية فى جموع المرأة .

واذا كان هذا هو حدود دور المرأة خلال المرحلة الوطنية لثورة ٢٣ يوليو .. الا أن التحول الحقيقى والجذرى **فى مفهوم القيادة السياسية** لدور المرأة جاء مع **الاتجاه الى طريق التحول الاشتراكى الذى بدأ سنة** ١٩٦١ ، والذى تبلور فيما جاء فى الميثاق عن دور المرأة فى صنع الحياة ، وضرورة تحركها بالمجتمع كله ومعه الى غايات النضال الوطنى .

ولم يكن من السهل أن معظم التناقض القائم فى أوضاع المرأة فى وقت كانت القيادة السياسية تؤكد اهمية تعميق الحرية السياسية والحرية الاقتصادية لافراد الشعب ٠

ومع اتساع القاعدة الجماهيرية للمرأة من خلال تزايد اعدادها فى المدارس والجامعات والمصانع والوظائف الحكومية ، بدأ احساس بين جماهير المصريات بأن هناك ما لا يقل عن ٦ مليون ربة بيت تعيش اما فى حالة امية أو تبعية كاملة ٠ وكانت تجربة رائدة يوم أن القت بعض القيادات النسائية بثقلها من أجل تحقيق هدف محدد وهو دعوة أكبر عدد ممكن من النساء لتقييد أسمائهن فى جداول الانتخاب ، فقد استطعن أن يرتفعن بعدد الناخبات من ٣١٨٩ ناخبة الى حوالى ١/٤ مليون فى عام واحد ٠

وكانت هذه التجربة اول دليل على حتمية أن يكون هناك تنظيم يجمع بين النساء حول هدف واحد وهو العمل على ربط المرأة بالمجتمع واخراجها من عزلتها وسلبيتها التى عاشت فى دروبها مئات السنين ٠

ومع ذلك فان هذه التجربة الرائدة لم تنجح فى التدليل على أهمية قيام تنظيم نسائى وانتصر الرأى القائل بأن المرأة تستطيع أن تعمل من خلال الاتحاد الاشتراكى ومن خلال عضويتها فيه ، وذلك حتى تعزل نفسها داخل المجتمع ٠

وفى هذه المرة أيضا تجاهل أنصار هذا الرأى الواقع والتركيب الاجتماعى للمجتمع المصرى ٠

فالمرأة فيه أكثر تخلفا من الرجل

والمرأةفيه لا تزيد نسبةالمتعلماتفيه عن ٢٠٪

والمرأة أيضا مازالت هناك قيود تشل حركتها وفى مقدمتها قانون الاحوال الشخصية ٠

وحتى المرأة العاملة والتى مفروض فيها أنها تحررت اقتصاديا ، لها من المشاكل المرتبطة بطبيعتها كزوجة وأم ما يميزها عن الرجل وبالتالى ما يجعل طريقة تناول هذه المشاكل وحلولها تختلف ٠

وتجاهل أصحاب هذا الرأى أيضا أنه حتى فى الدول الاكثر تقدما وفى الدول الاشتراكية التى اعترفت بحتمية المساواة بين الرجل والمرأة ، تقوم تنظيمات نسائية تختلف مهامها ، باختلاف مدى تقدم المرأة الحقيقى فى داخل المجتمع ٠

وتجاهل أصحاب هذا الرأى أيضا أنه على الرغم من النص على مساواة المرأة بالرجل، واهمية هذهالمساواة ، فان المرأة المصرية-مازالت تنوء تحت حمل مئات السنين من التبعية والاستغلال ، ومازالت تعيش فى حالة من السلبية ظهرت نتائجها واضحة من خلال البرلمان الثالث فى الجمهورية ، والذى تناقص داخله عدد العضوات من ٨ الى عضوين اثنين فقط .

* * * * *

ولقد كان أصحاب الرأى المنادى بضرورة قيام تنظيم نسائى يجمع صفوف المرأة بحيث تصبح قوة ايجابية منتجة يدللون [رجالا ونساء] على حيوية هذه القضية وبالذات فى الفترة الاخيرة وضرورة تدعيم الجبهة الداخلية بكل ما هو ايجابى ٠٠

الى ان اعلن عبد الناصر فى آخر خطاب له فى ٢٣ يوليو على أهمية قيام تنظيم نسائى ٠

وجاء الرئيس **أنور السادات** ليعلن فى أكثر من بيان وفى أكثر من خطاب ايمانه التام بضرورة قيام تنظيم نسائى ، بل وذهب الى أبعد من هذا فقد ضمن قراره الجمهورى باعادة تشكيل تنظيمات الاتحاد الاشتراكى ٣ بنود عن تنظم للشباب وآخر للمرأة ، وهو بذلك يؤكد الترابط الكامل بين حركة الجماهير وحركة المرأة ٠

ولقد نص القرار الجمهورى الخاص باعادة تشكيل تنظيمات الاتحاد الاشتراكى على أن رئيس الجمهورية سوف يصدر قرارا بتشكيل لجنة تأسيسية للتنظيم النسائى ٠

ومن المهم فى هذا المجال تحديد ٣ قضايا :

أولا : ممن يتكون أعضاء اللجنة التأسيسية ؟

ثانيا : الهدف من التنظيم النسائى وبمعنى آخر وضع برنامج محدد ذى أهداف وأولويات ٠

ثالثا : كيفية تحقيق هذا الهدف وبمعنى آخر الخطوات التنفيذية لهذه الاهداف ٠

أما عن اللجنة التأسيسية للتنظيم النسائى ، فمن الافضل ان تتشكل من القيادات النسائية التى ستبرز من خلال انتخابات الاتحاد الاشتراكى نفسه ، والانتخابات النقابية ، بالاضافة الى عدد من ذوى الخبرة والتجربة ٠

● **ان هذه اللجنة عليها أن تنطلق من هدف أساسى هو :**

تعميق حركة المرأة وتأكيد جماهيريتها انطلاقا من واقعها اليوم ، وبالتالى فلابد أن يقوم التنظيم على أساس واقع المرأة فى الوقت الحاضر وحدوده ، وهى حدود ليست عريضة اذ أن حركة

المرأة ما زالت ضيقة لم تنطلق بعد الى آفاقها المطلوبة.

● ان هذا التنظيم يخاطب اليوم جماهير تختلف عن جماهير المرأة سنة ١٩ ، جماهير لها انتماء عربى تحررى ، وهى فى نفس الوقت جزء من حركة التحرر العربى والعالمى .

وأن جماهير المرأة اليوم مصلحتها هى من مصلحة الجماهير فى تحرير بلادها وانهاء استغلال الانسان للانسان .

● أن التنظيم يعمل مع المجتمع وفى داخله ، ومن اجل هذا يجب أن يراعى فيه تحالف قوى الشعب العامل بقيادة العمال والفلاحين ولهذا يجب أن تكون ٥٠٪ من القيادات النسائية فى اللجنة الاساسية بالذات من العاملات والفلاحات .

واذا كان هذا هو الهدف الاساسى للتنظيم النسائى ، فمن المهم بالتالى أن يكون هناك برنامج عمل محدد واضح المعالم والاهداف .

وفى مقدمتها :

● التأكيد العملى لروح قوانين المساواة وتكافؤ الفرص .

● العمل على محو الامية وبالذات فى الريف .

● العمل من أجل اطلاق حرية المرأة وتكسير القيود التى تكبلها وفى مقدمتها قانون الاحوال الشخصية وقوانين المعاشات .

● رفع مستوى الكفاءة للمرأة عن طريق التدريب الفنى واتاحة الفرصة المتساوية لها فى هذا الميدان .

وتحديد برنامج عمل يقتضى بالتالى تحديد مسار عمل التنظيم وحركته وهذا يقضى بأن ينص قانون تشكيل التنظيم على عدة نقاط تضمن جماهيريته وحركته وديمقراطيته .

● النص على ضرورة اجراء انتخابات دورية .

● تحديد مدة لعضوية القيادات والقواعد النسائية .

● ضمان ٥٠٪ من العاملات والفلاحات .

● اسقاط العضوية عن السلبيات وذلك حتى لا تتحول القيادة الى عملية احتكار .

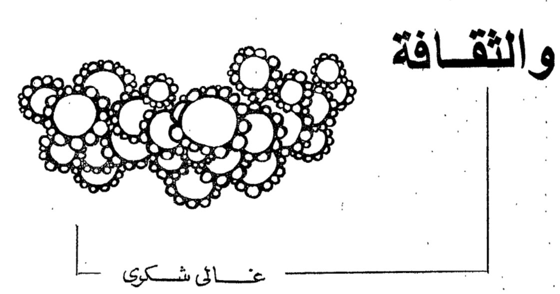
● أن يمارس داخل التنظيم الديمقراطية روحا وعملا ، عن طريق النقد والنقد الذاتى .

● أن يعقد مؤتمر عام كل سنة يناقش فيه ما تم انجازه والخطوات التى تم تنفيذها وما لم يتم تنفيذها .

ان وضع هذه الاسس والقواعد لضمان استمرار جماهيرية التنظيم النسائى وديموقراطيته ليست بالعملية الهينة ولهذا فعامل الوقت يجب الا يكون قيدا على تشكيل التنظيم بقدر ما يجب أن يكون عاملا مساعدا .



الديمقـراطيـــة والثقــافة



غـــالى شـــكرى

ربما بات من المسلمـــات أن « الحرية المطلقة » كانت وستظل حلما أبديا جميلا للانسان يراوده فى اليقظة والمنام من أجل تحقيق خطوة او خطوات على طريق الديموقراطية . ولكن الوهم لم يصل بالانسان على مدى تاريخه الطويل الى الدرجة التى يتصور معها أنه حقق حريته الـــكاملة .. وانما كانت هذه الحرية ــ وستظل ــ فى عقله ووجدانه كالحقيقة المطلقة ، هدفا بعيدا يناضل لبلوغه عصرا بعد عصر وجيلا بعد جيل ، يحفزه على النضال أنه بمقدار ما يحقق من حرية يحقق فى نفس الوقت انسانيته ووجوده . وعلى ذلك تصبح الحرية المطلقة اقرب ما تكون الى الشعار الجميل او الرؤية الاستراتيجية للكائن البشرى ، تدفعه بين الحين والاخر ــ من أجل التقدم نحو هذا الهدف النهائى البعيد ــ لان يخطو بالنضال هذه الخطوة أو تلك فى الطريق اليها .

أى أن الانسان ظل يرفع بوجدانه هذا الشعار الميتافيزيقى ، ليحقق بعقله وكيانه المادى خطوات واقعية محسوسة ارتهن تحقيقها بجملة الظروف التاريخية المحيطة به .. فالحرية ظاهرة داخل الزمان والمكان ، وهى أيضا ظاهـــرة مـــرتبطة بغيرها من الظواهر ، وهى أخيرا الوعى بالضرورة حتى يمكن تجاوزها .

ولقد مر الوعى الانسانى بالضرورة على مختلف مستوياتها الطبقيـــة والقـــومية ، البيئيـــة والوراثية ، السيكلوجية والمادية ، بكثير مـــن المراحل التى ناضلت خـــلالها البشرية هـــذه الضرورات التاريخية نضالا اليما وباسلا ، ومن ثم تمكنت من احراز العديد من النقط فى حلبة الصراع من أجل الحرية . وبالرغم من المفارقة المؤسية فى عالم اليوم حيث تقدمت أجهـــزة استلاب الحريات تقدما مذهلا ، الا أن النظرة

العميقة لتناقضات العصر الحديث تؤكد أنه فى موازاة التقدم التكنولوجى الحثيث يرتفع مستوى الوعى الانسانى بالضرورة التاريخية، كما ترتفع القدرة الانسانية على تجاوز هذه الضرورة بمختلف اشكالها ومضامينها. غير ان هذا لا ينفى على الاطلاق أن تطور مشكلة الحرية بكافة ما يحيطها من ملابسات — فى الشرق والغرب والعالم الثالث — قد تطورت من صورتها «البسيطة» التى كانت عليها فيما مضى الى درجة غالية من التعقيد الذى أصبحت عليه دنيانا المركبة غاية التركيب .

ففى العالم الراسمالى لم يعد « العقد الاجتماعى » ولا وثيقة « حقوق الانسان» ولا شعار «الحرية والاخاء والمساواة » لم تعد هذه كلها بكافية لان تخفى عن العيون الاغلال الجهنمية — غير المرئية للعين المجردة — التى تقيد بها الاحتكارات الكبرى حركة الفكر الانسانى فى أوروبا الغربية والولايات المتحدة الامريكية .. ذلك أن هذه الاحتكارات الحاكمة فى الغرب الراسمالى قد استطاعت بامكانياتها الواسعة ان تشطر الدورة الجدلية للفكر المعارض الى نصفين : تسمح بصدور المجلات والصحف والكتب والمظاهرات وتمنع الفعالية والتأثير والتحقق ، فيظل القطب السالب معزولا عن القطب الموجب ، ومن ثم يختل التوازن بين الفكر المنشور والعمل المحصور ، فلا يغتنى الفكر بخيرات العمل ولا ينتفع العمل بثمرات الفكر ، والنتيجة الباهرة للاحتكارات المتربعة على عرش الحكم أن هناك واجهة مضيئة بالنيون تسمى « العالم الحر » يجذب بريقها العيون القصيرة النظر ، بينما هناك خلف الواجهة الارهاب الفعلى لكل فكرة تنشد التكامل مع العمل ، تنشد التحقق . هذا ما يحدث للمعارضة الفكرية فى الغرب ، رغم الانتصارات التى تحرزها فى وجه الارهاب المقنع . اما فكر الطبقات الحاكمة فتتكامل دورته الجدلية مع العمل تكاملا متوازنا تكفله الامكانيات الهائلة والحماية التامة . ولا يخل بهذا التوازن سوى التناقضات الداخلية الكامنة فى جوهر الفكر البرجوازى من ناحية ، ثم التناقض بينه وبين الواقع الموضوعى الاشمل من ناحية أخرى ، ثم نضال الافكار التقدمية من ناحية ثالثة .

يختلف الوضع فى الشرق الاشتراكى ، رغم الحداثة النسبية للتجربة الاشتراكية فى التاريخ الانسانى . ان الطبقات الجديدة التى استولت على السلطة فى أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتى والصين وكوبا ، ظلت أمدا طويلا من عمرها تعانى الحرمان والذل والعبودية .. ولقد ترك فقرها المزمن وجهلها القهرى بصمات لاشك فيها على المضمون الديموقراطى للتجربة الاشتراكية . لذلك وقعت الاخطاء المريرة التى عانت منها الاشتراكية نفسها قبل الثقافة والفكر والفن . ولست اميل الى تنظير الاخطاء وتبريرها ، وانما أقول انها اخطاء حقيقية وجسيمة ، تلك التى مزقت أوصال الدورة الجدلية بين المركزية والديموقراطية ، فكانت النتيجة هذا الفقر الثقافى المدقع الذى شهدته التجربة الاشتراكية فى احدى مراحل تطورها ، وكانت النتيجة هى استغلال الغرب الراسمالى لهذا الفقر وتقديمه كنموذج للثقافة الاشتراكية وحرية الفكر فى المجتمع الاشتراكى .. وكان من الطبيعى أن يعمم الغرب خطايا احدى المراحل على كل المراحل ، فيصور الاشتراكية وغياب الديموقراطية على انهما وجهان لعملة واحدة .

بينما الامر على النقيض من ذلك تماما : ان غياب الديموقراطية هو فى نفس الوقت غياب للاشتراكية . ولقد اكدت المسيرة التاريخية للفكر والعمل الاشتراكيين هذا المعنى ، سواء فى ظل السلطة الاشتراكية او فى ظل الاحزاب الشيوعية بالعالم الغربى .. فمنذ اواسط الخمسينات اتخذ النقد الذاتى فى التجربة الاشتراكية مسارا ايجابيا ولم يتوقف عند الحدود السلبية وهى الحدود الشفوية والتحريرية ، أى الحدود الاعلانية التى تكرس الخطأ ولا تتجاوزه بالتصحيح . لقد نجحت التجربة الديموقراطية الاشتراكية الى الدرجة التى يتخلى معها الرجل الاول فى الاتحاد السوفيتى عن السلطة بموجب تصويت شرعى ، فى الوقت الذى تخلى فيه الرجل الاول بالولايات المتحدة عن السلطة رميا بالرصاص!! فاذا ابتعدنا عن هذه الصورة المباشرة ألفينا أنفسنا أمام ظواهر جديدة فى الادب والفن والثقافة عموما قد اقتحمت الوجدان الاشتراكى العالمى ، لم يكن ليخطر ببال أحد فيما مضى أنه يمكن لهذه الظواهر ان تبدو للعين المجردة بعيدا عن المطابع السرية أو دور النشر الاجنبية . ان الموجات الجديدة فى الفكر والفن ، بالاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية ، سواء وافقت عليها السلطة او لم توافق ، هى خير دليل على هذا المناخ الديموقراطى الحر الذى يكذب الزعم الشائع لدى أجهزة الدعاية الغربية بأن الاشتراكية تعنى غياب الحرية . وهذا لا يعنى أن مشكلة الحرية قد حلت فى ظل الاشتراكية ، فلا شك أن هناك من رواسب الاخطاء القديمة ومن الاخطاء الجديدة ما يجعل منها مشكلة حقيقية ضمن المشكلات الاخرى التى تواجه الاشتراكية .. ولكن الامر يختلف بين تجربة الحرية فى العالم الرأسمالى وقد آلت نهايتها الى

طريق مسدود ، لا سبيل الى حلها الا بتغيير نوعى فى بناء المجتمع الرأسمالى ، وبين تجربة الحرية فى العالم الاشتراكى حيث تم هذا التغير ، فالطريق أمامها مفتوح لايجاد الصيغة القادرة على تحرير العقل والوجدان جنبا الى جنب مع تحرير الامعاء .

أين نحن من العالم ؟

بالرغم من اننا فى مصر — والوطن العربى عامة — ننتمى نظريا الى الثلث الاخير من القرن العشرين ، الا اننا عمليا ننتمى الى ما يسمى بالعالم الثالث ، وهو العالم الذى يسميه أصحاب الامال العريضة والالفاظ المنمقة بالعالم النامى بدلا من وصفه بالتخلف الحضارى المرعب وانعدام التقاليد الديموقراطية فى أسلوب الحكم . بالطبع هناك استثناءات جزئية نادرة ، ولكنها لا تؤثر على اتجاه هذه الصفة العامة التى فرضتها ظروف ما بعد الحرب العالمية الثانية على مجموعة البلدان المحتلة آنذاك بمختلف اشكال الاحتلال الغربى ، العسكرية والسياسية والاقتصادية . وقد احتدمت معارك الاستقلال الوطنى غداة الحرب وفى موازة تدهور الامبراطوريات التى لا تغيب عنها الشمس وبزوغ نجم الوريث الجديد القوى القادم من القارة الجديدة ، جنبا الى جنب مع بزوغ نجم الاشتراكية كنظام عالمى .

كان التركيب الاجتماعى لمعظم اقطار العالم الثالث ، بكل ما يشتمل عليه من تراث الرجعية المتحالفة مع الاستعمار ، هذا التراث المعادى للاشتراكية والتقدم ، لم يكن ليسمح هذا التركيب بغلبة التيارات الثورية فى قيادة الحركة الديموقراطية بجناحيها الوطنى والاجتماعى . ولعل حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ هو النموذج الامثل لتجسيد « نقطة النهاية » للمد الديموقراطى الشعبى ، ونقطة البداية فى مسيرة معقدة غلب عليها الجزر الديموقراطى العنيف . ذلك أن الوريث الجديد للامبراطوريات القديمة — وهو الاستعمار الامريكى — كان فى مستوى العصر الذى يعيش فيه ، فسلم بأن انهيار الامبراطوريات القديمة ، قد انهارت معه اساليب الاستعمار القديم ، وفى مقدمتها الاحتلال العسكرى المباشر ، وفى مقدمتها كذلك التحالف مع طبقات شائخة وهرمة .

وكان « النموذج » الجديد الذى بلورت صياغته الظروف الداخلية والخارجية فى العالم الثالث [تفتت القوى الوطنية وضعف القوى الثورية] هو استيلاء العسكريين على السلطة السياسية وانفراد التنظيم الجامع المانع بالعمل السياسى العلنى ، وتمركز السلطة فى قبضة فرد واحد . وكان الاستعمار الامريكى على الشاطىء الاخر قد استعد للجولة بما يسمى فى لغة السياسيين « الاستعمار الجديد » .. وهو الشكل الذى لا يعنيه الاحتلال العسكرى المباشر فى الدرجة الاولى [هذا لا يمنع التهديد به والاقدام عليه اذا لزم الامر] وانما يعنيه أولا وأخيرا الارتباط الاقتصادى باغلال حريرية لا تكاد ترى عن طريق التعاون أو التحالف مع طبقات جديدة فى المجتمع وارثة لامتيازات الطبقات القديمة دون شكلها . وكثيرا ما التقى « النموذج الجديد » للسلطة السياسية فى بلدان العالم الثالث مع أهداف « الاستعمار الجديد » ، وكثيرا ما كان هذا النموذج انجازا لهذا الاستعمار ، وكثيرا أيضا ما تناقضت المصالح والاهداف ، التكتيك والاستراتيجية ، تناقضا حادا او خافتا ارغم النموذج على الابتعاد خطوة أو خطوات عن الاستعمار ، واقترب به خطوة أو خطوات من معسكر التقدم والاشتراكية .

كانت حركة ٢٣ يوليو تجسيدا حيا للنموذج الجديد على بلدان العالم الثالث . كان المد الديمقراطى قد بلغ ذروته فى الحركة الفدائية على ضفاف القنال وعلى طول الشارع المصرى المناضل من أسوان الى الاسكندرية .. وأصبح العرش والطبقات الشائخة والهرمة عند نهاية الطريق المسدود وجها لوجه أمام المصير المحتوم . غير أن حزب البورجوازية الديموقراطى كان هو الاخر قد شاخ وهرم ، وكانت التنظيمات الاخرى السرية والعلنية المعبرة درجة أو درجات عن غليان الشارع على قدر من التفتت والتمزق والتشتت لا يسمح لها بتسديد ضربة أخيرة للنظام الرجعى . كانت « الثورة فى الهواء » كما يقال ، ولكن تنظيمها القادر على القيادة كان غائبا . كانت صورة بلا اطار . وهكذا تيسر للتحالف الرجعى الاستعمارى أن يسدد ضربته الهائلة للمد الديموقراطى فى حريق القاهرة . وبقدر ما انتكست الضربة بالكفاح الديموقراطى للطبقات الشعبية ، فانها كانت كصيحة شمشون « على وعلى أعدائى » ذلك أن البناء الرجعى هو الاخر كان متهالكا متهافتا لا يتحمل ، فكان سقوطه بعد أقل من سبعة أشهر أمرا سهلا لا يثير الدهشة .

غير أنه فى ظل النظام الرجعى كانت الثقافة المصرية قد انجزت بعضا من مهام الفكر الديموقراطى .. فالتخلف البشع الذى كان يسيطر على المجتمع فتح ثغرات حقيقية فى البناء غير الديموقراطى للنظام ، وقد شارك فى اتساع هذه الثغرات الوجود العسكرى البريطانى حيث كان رد الفعل الطبيعى هو استقطاب جبهة وطنية ديموقراطية عريضة ضد النظام .

ان التخلف الحضارى والتقاليد غير

الديموقراطية فى اسلوب الحكم ، كانتا الصفتين الرئيسيتين للمجتمع والنظام، وبالرغم منهما فقد استطاعت الثقافة المصرية أن تستفيد من ثغرات الدستور والقانون وعلاقات القوى المتغيرة بين الفئات الحاكمة وبينها وبين العرش ، وبينها وبين الاستعمار . استطاعت الثقافة المصرية من خلال المسافة الحتمية بين الواجهة الديموقراطية المزينة والنظام الرجعي أن تفلت ببعض المنجزات الايجابية الهامة .. ذلك أن النظام السابق على حركة ٢٣ يوليو كان متسقا مع نفسه من احدى الزوايا ، كما كان مفككا من زاوية اخرى ... فالفئات الحاكمة التى تنتمى طبقيا الى البورجوازية الكبيرة تدبنت المنجزات الدستورية للبورجوازية العالمية كالبرلمان والدستور وتعدد الاحزاب ، وهذا هو اتساقها مع نفسها . ولكن هذا التبنى صاحبه بالضرورة تعدد المنابر الفكرية من احزاب وصحف ودور نشر .. فاذا اضفنا صفة التخلف التى كانت تسم الوضع الاجتماعى باكمله ، أيقنا بأن الوجه الاخر للاتساق والملازم له هو التفكك .. لذلك وبالرغم من التقاليد غير الديموقراطية فى أسلوب الحكم التى سادت زمنا طويلا فعطلت الدستور واغلقت الصحف وسجنت المناضلين ، تمكنت الثقافة الوطنية الديموقراطية من أن تفلت ببعض المنجزات الايجابية اهمها :

● ازدهار التيار العلمانى الذى وضع بذرته الاولى رفاعة رافع الطهطاوى .. وقد شق هذا التيار مجراه فى معظم العلوم الانسانية .. وكان لطفى السيد وقاسم أمين وطه حسين والعقاد وهيكل ثم سلامة موسى واسماعيل مظهر — الى ماقبيل الحرب الثانية — منرواده الاوائل الذين خاضوا معارك ضارية مع السلفيين . ولعل « فى الشعر الجاهلى » و «الديوان» و «ثورة الادب » من ابرز معالم تلك المرحلة الفنية .

● تطور الفكر الدينى المستنير ، هذا التطور الذى وضع بذرته الاولى الشيخ الامام محمد عبده، ثم تقدم خطوات على أيدى علماء اجلاء من أمثال على عبد الرازق وامين الخولى واحمد أمين ومحمد احمد خلف الله وخالد محمد خالد .

● ظهور الفكر الاشتراكى على استحياء فى مبدأ الامر ، ونموه وتعدد منابره وتطوره من الاشتراكية الفابية عند سلامة موسى الى نوع من الاشتراكية الديموقراطية عند محمد مندور ولويس عوض ، الى الفكر الماركسى عند قطاع عريض من مثقفى الاربعينات . وكانت « المجلة الجديدة » و « الفجر » و « التطور » وغيرها من المطبوعات الدورية وغير الدورية فى مختلف مجالات التفكير الماركسى — ترجمة وتاليفا — من الظواهر البارزة فى حياتنا الثقافية بعد الحرب .

● استيعاب الاشكال الفنية الوافدة من الغرب استيعابا لا يتجاهل الواقع المحلى ، وتطور هذا الاستيعاب من الرؤى الرومانسية المحلقة ، الى الواقعية الاجتماعية بجناحيها ، النقدى والاشتراكى .. فقد جاء تقدم الادب المصرى الحديث موازيا لتقدم الفكر الوطنى الديموقراطى التقدمى ، منذ « حديث عيسى بن هشام » للمويلحى الى « زينب » للدكتور هيكل الى اعمال توفيق الحكيم الرائدة فى الرواية والمسرح الى اعمال نجيب محفوظ الناقدة بعنف للبناء الاجتماعى . وكذلك الامر فى الشعر ، وخصوصا أعمال الرائد العظيم بيرم التونسى . ولم تعثر الموسيقى على امتداد أكثر تقدما من سيد درويش الذى كان صوتا مدويا للوطنية المصرية والطبقات الشعبية . ورغم عزلة الفنون التشكيلية فقد كان تطورها من رومانسية محمود سعيد الحالمة الى تمردات كامل التلمسانى ورمسيس يونان ومؤاد كامل من آيات تلك الخصوبة الفنية التى عرفتها الثقافة المصرية وافلتت بها من ثغرات ذلك النظام .

ان هذه المنجزات لا تشكل بالطبع الا احدى القسمات التى ميزت النظام السابق على ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، فلا شك أن التخلف الحضارى المرعب والتقاليد غير الديموقراطيه فى اسلوب الحكم لم تسمح الا بأقل من القليل مما كان يمكن للثقافة المصرية أن تحرزه من نجاحات فى ظل ديموقراطية أعرض وأعمق . ولا شك أن هذا المناخ المتخلف والمعادى للديموقراطية قد أتاح الفرصة كاملة أمام الثقافات الرجعية المتعددة الاصول .. ولكن الحصيلة النهائية هى أن المنافذ الديموقراطية الضيقة التى اطلت منها ثقافتنا كفلت للفكر الاكثر تقدما أن يظهر ويتطور ، أن ينمو ويقوى . اكدت هذه الحصيلة أن الديموقراطية فى مصلحة التيار المتقدم ، وغيابها فى مصلحة الرجعية والتخلف . وربما كان هذا هو الدرس الذى غاب عن وعى الكثيرين وهم يواكبون «النموذج» الجديد الذى وضعت اسسه حركة ٢٣ يوليو ، وهو أن اخطاء الديموقراطية يمكن علاجها — كما يقال — بالمزيد من الديموقراطية .

تناقضات النموذج الجديد

بالرغم من أن لكل عمل ثقافى — أيا كانت قيمته الفكرية الخالصة — جانبا سلعيا وجانبا آخر دعائيا ، الا أن أخطر مايهدد الثقافة فى ظل أزمة الديموقراطية بالغرب الراسمالى هو تحولها الكامل الى « سلعة » ، كما أن أخطر ما هدد الثقافة فى ظل أزمة الديموقراطية بالشرق

الاشتراكى هو تحولها الى « الدعاية ».. أما فى ظل الغياب التام للديموقراطية — عند النازيين والفاشيست — فان الثقافة فى ذاتها تصبح خطرا داهما ، عبر عنه جوبلز — وزير الدعاية الالمانى — بكلمته الشهيرة « عندما اسمع كلمة ثقافة اضع يدى على مسدسى » .

غير ان الشرق الاشتراكى والغرب البورجوازى على السواء ، يتمتعان بمستوى حضارى بالغ الرقى يقى الثقافة شر التدهور العنيف الى مهاوى العقم والبوار . ذلك ان وسائل التقدم هنا وهناك تدعم بصورة او بأخرى الصراع الديموقراطى للثقافة الحرة . أما فى بلدان العالم الثالث ، فان التخلف الحضارى البشع يلعب دورا سلبيا هو مؤازرة التقاليد غير الديموقراطية فى أسلوب الحكم . وهذا ما يفسر قلة المكاسب الوطنية والديموقراطية فى المستوى الثقافى للنظام السابق على ٢٣ يوليو .. قلتها لا من ناحية الكم ، بل من ناحية الكيف وسعة الانتشار وقوة النفوذ ، رغم الثغرات العديدة فى البناء الدستورى والقانونى لذلك النظام .

ولقد ظل جوهر التخلف الحضارى قائما بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وان توارت بعض مظاهره ، واختفت الى حد كبير الثغرات فى الابنية الدستورية والقانونية التى كانت تطل منها الثقافة بوجهها الديموقراطى فى النظام القديم . لقد حلت موضع التناقض بين الواجهة الديموقراطية المزيفة والواقع الرجعى تناقضات أكثر تعقيدا .. كان « النموذج الجديد » اختلافا نوعيا عن النموذج القديم ، فبالرغم من انجازاته المتوالية فى مختلف مجالات الحياة المادية وفى مقدمتها اسقاط التحالف الرجعى الاستعمارى ، فان تمثيله الطبقى لاحدى شرائح البورجوازية لم يتسق مع « الاجراءات غير الاستثنائية » اتساقا دستوريا جديدا يحتل مواقع الاتساق الدستورى القديم . وذلك هو التناقض الاكبر الذى حملته احشاء النموذج الجديد ، وتفرعت عنه بقية التناقضات .. فالتنظيم الواحد والفرد القوى ليسا تعبيرا طبيعيا عن مجتمع متعدد الطبقات والمصالح والاتجاهات ، ولا تعبيرا طبيعيا عن طبقة متوسطة محتواها السياسى هو الديموقراطية الليبرالية . ان سقوط النظام الرجعى — وقد كان آيلا للسقوط قبل ٢٣ يوليو — كان يؤدى بالضرورة الى سقوط منابره السياسية والفكرية . ولكن هذا السقوط لا يلغى — بجرة قلم — المبدأ فى ذاته ، مبدأ تعدد المنابر ، وانما هو يسقط مضمونها الرجعى ، ويحتفظ بالشكل الدستورى الذى يجسد نضالا مريرا موصولا لمختلف الطبقات الوطنية والثورية للشعب المصرى . ان الاجهاز الفوقى على المبدأ والشكل ، لم يصب فى واقع الامر الرجعية بسوء ، لان احزاب الاقلية وصحفها وتياراتها الفكرية كانت فى وضع الحصار الفعلى قبل ٢٣ يوليو ، وبالتالى فانها — موضوعيا — كانت تلفظ أنفاسها الاخيرة .. فالاجهاز عليها لم يحرمها من أمل فى قدرتها تحقيقه ، وانما كانت الخسارة الفادحة الثمن من نصيب الطبقات الوطنية والشعبية التى حرمت فى الماضى من التعبير الحر ولم يكن ذلك انفرادا من جانب الطبقة المتوسطة بالحكم فحسب ، وانما كان تجسيدا فوقيا لارادة واحدة من بين ارادات هذه الطبقة .. هى الارادة المعبر عنها فى منبر واحد « يحتوى » بقية الارادات ، سواء كان هذا المنبر تنظيميا « جبهة التحرير — الاتحاد القومى — الاتحاد الاشتراكى » ، أو سياسيا وثقافيا « دور الصحف والنشر » .

ولقد كانت التناقضات بين النموذج الجديد والاستعمار الجديد احيانا وبينه وبين الثورة العالمية احيانا أخرى ، هى السبب فى التفاف الجماهير حول المنجزات الايجابية وانفضاضها عن الاجراءات السلبية التفافا عفويا وانفضاضا تلقائيا .. لان المنجزات الايجابية كانت «تلتقى» مع آمال الجماهير وان لم تشارك فى صنع قراراتها ، كما ان الاجراءات السلبية كانت « تتناقض » مع هذه الامال، وان لم تستطع مواجهتها بصورة تنظيمية قادرة على التحدى . ومن ثم كان الفرح أو الحزن وليس الفكر هو السمة الغالبة على الوجدان الثقافى العام ، كان رد الفعل وليس الفعل ، السلب وليس الايجاب هو « النشاط » الثقافى الغالب . ولم يكن غريبا أن تخسر الثقافة المصرية امكانيات « السلعة » الراسمالية وأهداف «الدعاية» الاشتراكية جميعا . ان النموذج الجديد الذى تبنته حركة ٢٣ يوليو لم يكن نموذجا برجوازيا متكامل السمات فيسمح لدورة الفكر الجدلية بنصف دورة هى حرية النشر دون حرية التأثير ، ولم يكن نموذجا اشتراكيا متكامل السمات تنفرد فى ظله الطبقات الشعبية بحرية الفكر والتعبير . وانما هو الغى المكتسبات الليبرالية للبرجوازية ، ولم يحل مكانها مكتسبات الديموقراطية الشعبية . ومن ثم اصبحت أصداء الصوت الواحد، هى كل حصاد الفكر ، وتحول الكتاب المعتمدون الى شراح عظام يتبارون فى « الاجتهاد » دونهم والخلق والاكتشاف اسوار وأسوار . وبالرغم من اقتراب « شكل » النموذج الجديد من الفكرة الشمولية ، الا أن مضمونه كان تعبيرا عن دولة حديثة الاستقلال تقودها طبقة متوسطة وفكرا ضعيفا ومفككا ومتخلفا ، وأبعد ما يكون

من « انساق » الفلسفة النازية ، والفكر الفاشي . كان النظام — على الصعيد الفكري — شبه غائب حتى صدور « الميثاق » و « بيان ٣٠ مارس» بصورة براجماتية تعتمد أساسا على رد الفعل التجريبي وفي صياغة تجريدية تعتمد أساسا على التوازن الانتقائي.

وقد أتاحت الفترة السابقة على الميثاق ، وفي ظل ما يشبه الغياب للنظام على الصعيد الفكري ، أن تتسلل بعض الافكار الديموقراطية كما أتاحت الفترة التالية للميثاق ، وفي ظل ارتفاع اللافتات الاشتراكية أن تتسلل بعض الافكار التقدمية . ولكن هذا التسلل أو ذاك كان في أضيق الحدود العلنية وفي غمرة اختلاط الحابل بالنابل ، بحيث أن النفوذ الفعلي لهذه الافكار أو تلك كان أضأل من أن يترك أثرا ايجابيا على الثقافة المصرية ، حتى الخطوات الايجابية لحركة ٢٣ يوليو لم تخصب الفكر المصري المعاصر لها بدرجة كافية ، وذلك لانها لم تمر في دورتها الطبيعية من اسفل الى اعلى ، وبالعكس ، وانما ظلت في جوهرها قرارات علوية ، تلتقي حقا مع مصالح الشعب ، ولكن بطريق الاملاء لا عن طريق الحوار . وذلك هو السر الدفين لكافة الانحرافات التي توجتها هزيمة ٦٧ رغم كل ما يمكن أن يقال عن دور الاستعمار والصهيونية . وهي الانحرافات التي أعلنها النظام مرتين مشهودتين : الاولى في محاكمات ١٩٦٧ والثانية في مايو ١٩٧١ وهي ليست أكثر من « عينات » لانحرافاتلم تعلن في الماضي ، وانحرافات خافية في الحاضر وانحرافات محتملة في المستقبل . ان احداث ٦٧ و٧١ لم تكن وليدة يومها وانما كانت حصيلة عادلة لسنوات العذاب السابقة عليها . وهي السنوات التي بلورت مجموعتين من الظواهر السلبية والايجابية في حياتنا الثقافية على النحو التالي :

● كانت الظاهرة الايجابية الاولى هي الازدهار النسبي لانشطة التعبير غير المباشرة كالاداب والفنون .. وهو ازدهار نسبي للغاية اذا قسناه بما كان يمكن أن تؤول اليه أمورنا الثقافية في مناخ صحي ، واذا قسناه بالانتاج الفعلي والذي لم ير النور . وهو ازدهار نسبي أيضا اذا قسناه — عدلا وانصافا — بالمعيار التاريخي فقد كان هذا الازدهار ثمرة ذاتية التطور في الاربعينات ، أتاحت لها تناقضات النموذج الجديد أن يؤرخ لازدهارها بعد ١٩٥٢ . ان معركة النقد الجديد على سبيل المثال مع العقاد وطه حسين لم تكن في واقع الامر معركة الحياة للجديد والموت للقديم ، ذلك ان الفكر الرئيسي للعقاد وطه حسين كان قد توقف قبل نهاية الحرب الثانية ، وكان الفكر الجديد قد ولد طيلة الاربعينات . أما معركة مندور مع رشاد رشدي فقد أتت بعد المعركة الاولى بحوالي عشر سنوات ، وبعد تطورات اجتماعية هامة على الصعيد الوطني، شاعت خلالها الافكار المحورية للنظرية الواقعية في الادب . وكان نجيب محفوظ قد استنفد أبعاد الرواية الاجتماعية التاريخية قبل ١٩٥٢ ،والرغم من أن الشرقاوي ويوسف ادريس قد نشرا « الارض » و « أرخص ليالي » عام ١٩٥٤ الا أن هذه الاعمال كانت قد اكتملت قبل هذا التاريخ . ولكن ذلك كله لا ينفي واقع الحال، وهو أن النموذج الجديد لحركة ٢٣ يوليو على طول مسيرتها قد أتاحت ازدهارا نسبيا ومحدودا لانشطة التعبير غير المباشر وفي مقدمتها المسرح والشعر والفنون التشكيلية .

● كانت الظاهرة الايجابية الثانية هي قيام المؤسسات الثقافية المتطورة كالمجلس الاعلى للفنون والاداب والعلوم الاجتماعية ووزارة الثقافة والمعاهد الفنية المختلفة والقطاع العام في النشر والمسرح والسينما . ولقد تعرضت هذه المؤسسات لموجات عاتية من الجزر الديموقراطي العنيف ، حتى أن بعضها أصبح مجرد شكل بلا مضمون ، والبعض الاخر اعتلت موقع السلطة منه قيادات رجعية وبيروقراطية .. ولكن مجرد قيام هذه المؤسسات كان انجازا بالغ الاهمية من جانب النظام الجديد .

● وكانت الظاهرة الايجابية الثالثة هي أن الفكر الاشتراكي بتفسيراته المختلفة قد أصبح من المحاور الرئيسية للتفكير العام . وبالرغم من كافة أوجه التشويه العمدي والمقصود للفكرة الاشتراكية، وبالرغم من سنوات الكبت والحرمان التي عاناها الاشتراكيون ، وبالرغم من التراث الهائل والمعادي للاشتراكية ، فان مجرد القبول العام في المجتمع للفكر الاشتراكي وامكانية تعايشه مع بقية أشكال الفكر ، يعد واحدا من أهم المعالم الايجابية لمسيرة الثقافة الديموقراطية في ظل النموذج الجديد .

● وكانت الظاهرة السلبية الاولى هي **المونولوجية** في التفكير ، فحيث يسبق **الحدث** الفكر يتخذ الحدث صيغته في قرار علوي يصبح هو الفكر ، ويتحول الكتاب — ولا أقول المفكرين — الى شراح عظام. وعلى ذلك ينتفي الفكر كتجاوز عقلي للحدثوكبادرة واعية مستقلة عن القرار وكنشاط خلاق وظيفته أبعد ما تكون عن **اعادة صياغة** الحدث — القرار في أسلوب شائق جذاب يشرح ويبرر . بانتفاء الحوار ينتفي الفكر والمفكر ويولد المونولوج الجمعي بقيادة اوركسترا تجيد عزف النوتة المكتوبة سلفا ، وما عليها الا المران والتدريب ، فالبراعة والمهارة

المكتسبة . تلك كانت حال الكتابات المصرية في ميدان الفكر السياسي طيلة الفترة الماضية باستثناءات نادرة . ولذلك انعدم أو كاد ينعدم الابداع الفكري ، وامست عبقرية الكاتب هي مقدرته على اللف والدوران اذا كان يقول شيئا ذا قيمة ، وأن ينوع في الوان الماكياج واشكال الاقنعة اذا كان يردد ما تقوله السلطة . بانتفاء العقل أيضا تنتفى المخيلة والمقدرة على الحلم ، كما تنتفى المسافة بين الكاتب وما يحيط به ويتوحد بالاشياء فيما يشبه الحلول .. وهذا ما تصدت به من قبل أن الكاتب تحول الى صدى ضمن اصداء لصوت واحد ، لا صوتا بين أصوات من بينها صاحب الصوت الاعلى . وبانتفاء الحلم من حياة البشر ،والمفكر في طليعتهم ، تنعدم الفوارق بينه وبين بقية الكائنات غير المفكرة ، غير العاقلة غير الحالمة . ومن نتيجة ذلك الجدب المأساوي البشع أن استوطنت الشيزوفرينيا الغالبية الساحقة من الكتاب ، وتمزقت أوصال الثقة بينهم وبين قرائهم . لذلك خلت هذه الفترة خلوا شبه تام من أي انجاز فكري ذي وزن في مجال الدراسات الانسانية .

● وكانت الظاهرة السلبية الثانية هي **الديماجوجية** التي صاحبت تحول الثقافة الى دعاية لا تستند الى فلسفات متكاملة او افكار متسقة ، وانما هي دعاية ذيلية للاحداث والقرارات مهما تضاربت وتناقضت .. وهو الامر الذي حول قطاعا عريضا من المثقفين الى اجهزة ارسال آلية ، وهو أيضا الامر الذي حول جماهير الثقافة الى أجهزة استقبال سلبية ، شاعت في صفوف منها البلبلة ، وفي صفوف أخرى اللامبالاة . واذا كانت القصة قد بدات بأن القرار العلوي كان يحتاج الى تنظير ، فانها قد انتهت بأن الكاتب الملهم هو الذي يتسابق متطوعا الى التبرير ، وأصبح شعارا براقا يقول « كتاب كلست ساعات » شعارا يتجاهل الامكانيات المادية والفكرية الحقيقية للمجتمع وأصبح شعارا براقا يقول أن كل شيء «منبثق» من واقعنا ، شعارا ديماجوجيا يتجاهل مكتسبات الانسانية على مدى العصور والاجيال . واصبح شعارا براقا يقول أن تجربتنا « فريدة » من نوعها ، شعارا ديماجوجيا يتجاهل التحديات الموضوعية التي تحيط بكل تجربة غير مسبوقة وتحول الى صك سحري لغفران الخطايا ، وأصبحت الاكاذيب ترتدي ثوب الحقائق، والحقائق ترتدي ثوب الاكاذيب ، حتى ان صاحب برنامج « أكاذيب تكشفها الحقائق » هو الذي كان يقطع في الخامس من يونيو ١٩٦٧ أننا على مبعدة ساعات من تل أبيب ! وقد كانت « لعبة الاقنعة » هي لعبة الديماجوجية الاولى ، فارتدى المعادون للديموقراطيــة أقنعــة الديمقراطيــة ليضربوا الديموقراطية ، وارتدى المعادون للاشتراكية اقنعة الاشتراكية ليضربوا الاشتراكية . وأصبح فارس اللعبة هو الاقدر على صنع اكثر الاقنعة تضليلا ومدعاة للخداع . وكانت « لعبة التوازن » هي لعبة الديماجوجية الثانية ، فالاستعانة بالتاريخ الاحمر أو الاخضر ، او الاسود لهذا او ذاك من المثقفين ، هنا او هناك ، الان أو بعد غد ، هو «صمام الامن» في مواجهة الذين يمدون أبصارهم أبعد من أنوفهم .. وتحولت أسطح المؤسسات الفكرية كرنفالا يوهمنا يوما بأن ثقافتنا اشتراكية ، ويقنعنا أياما بأنها ثقافة رجعية ، وفقا للون من يأتي عليه الدور في لعبة الكراسي الموسيقية ، وكان مقعد رئيس مجلس الادارة في هذه المؤسسة أو تلك هو الذي يحدد اتجاه الثقافة في بلادنا . ان هذه التغييرات العلوية في مؤسسات الفكر والثقافة كانت تخضع من ناحية للعبة التوازن الديماجوجية ، ومن ناحية أخرى كانت تعتمد على أن البناء التنظيمي الشامل للمؤسسة — أيا كان من يجلس على عجلة القيادة — هو الذي يحدد الاتجاه الثقافي ، وليس العكس . وكانت النتيجة المباشرة لهذا التخطيط الديماجوجي هو ذلك الانفصال الحاد والمؤلم بين الثقافة والمجتمع ، والذى كانت صورته المصغرة هي تلك الاجابات المؤسفة في اختبارات معهد الاعلام ■ أما الصورة المكبرة فنرى فيها الوجوه التي تمثل الواجهة الرسمية للثقافة المصرية ؟ وما أبعد المسافة بينها وبين الوجدان الثقافي العام ■ .

● وكانت الظاهرة السلبية الثالثة هي ان غياب الديموقراطية ؟ وان صاحبته ضرب مباشرة لبعض أجنحة اليمين، وان صاحبته كذلك بعض الاجراءات الوطنية والتقدمية ، الا أن هذا الغياب للديموقراطية قد أثمر انتعاشا للفكر الرجعي في اكثر أشكاله تخلفا وتحريضا . وذلك لان تصدى النظام لليمين المتطرف كان تصديا « اداريا » ولم يحدث أن كان تصديا فكريا . ولم يكن ليسمح في الاغلب الاعم ، لاية تيارات أخرى، بهذا التصدي .. مما نتج عنه ان كرست افكار وثقافات بالغة التخلف والضرر المباشر ببنائنا الاجتماعي ، كتلك الافكار المنتشرة انتشارا مذهلا عن قضية المرأة وتحديد النسل وتحضير الارواح وقضية التعليم وغيرها من القضايا الجزئية التي تتخذ منها الرجعية الفكرية مدخلا باهرا الى تحطيم القيم الديموقراطية والاشتراكية .. ويجب الاعتراف بأن كتبا

مثل « معالم على الطريق » و « جاهلية القرن العشرين » كانت موجودة من قبل اكتشاف المؤامرة المسلحة عام ١٩٦٥ ، وانها مازالت موجودة رغم مصادرتها اداريا .. لانها افكار ، ولا سبيل الى تصفيتها الا بالحوار الديموقراطى الحر .

● وكانت الظاهرة السلبية الرابعة هى **شيوع التحلل فى القيم** بين المثقفين ، ففى ظل غياب التنظيمات الفكرية المستقلة ، تحل مكانها « الشلل » المصلحية الموقوتة .. وعندما يظهر الالزام يختفى الالتزام ، ومن ثم تمطر السماء رشاويها المقنعة مرتين : الاولى هى « الامان الشخصى » فما أن يهرب الفكر من النافذة حتى يعتذر الخوف ويخرج من الباب . والثانية هى المكافآت المرموقة من الاذاعة والتليفزيون والمسرح والسينما ، والمرتبات اللامعة من المراكز القيادية فى مؤسسات الثقافة والاعلام ، وتذاكر السفر المريح الى جميع أنحاء العالم ، وجوائز التفوق والتقدير والتشجيع ، وامتيازات الاستقبال والارسال وارهاق السهر الى بزوغ الخيط الاول من ضوء الفجر . وهكذا أصبح الحصول على منديل الامان وشيكات البنك الاهلى فرع الحكومة ، القيمتان الرئيسيتان الغالبتان على تكوين معظم مثقفينا .. بحيث بات من العبث ان نستخرج من انتاجهم قيمة فكرية ذات بال ، لان قيمة القيم فى حياتهم قد اغتيلت على مر السنين ، تلك القيمة التى كنا ندعوها فيما مضى بالشجاعة ، وكان آباؤنا يسمونها الضمير . لقد حلت مكانها الرخاوة والطراوة والميوعة التى تطبع معظم انتاجنا الثقافى بالسطحية والهرولة والفراغ . وانتاجنا الثقافى — ياسادة ياكرام — ليس هو رواية لنجيب محفوظ أو أقصوصة ليوسف ادريس أو مسرحية لالفريد فرج أو كتاب للويس عوض . ان أمثال هذه الاعمال فى حجمها الحقيقى ليست أكثر من قطرة فى محيط عظيم يبدأ مع المدرسة الابتدائية وينتهى بالجريدة اليومية والراديو الترانزستور وشاشة التليفزيون وصالات السينما .

نحو برنامج لثقافة ديمقراطية

اذا كان الدرس الرئيسى المستفاد من الماضى هو أنه كلما نشطت الحركة الجماهيرية الواسعة خفت حدة أجهزة القهر البوليسية ، وانه على العكس من ذلك كلما تجمدت القاعدة الجماهيرية العريضة نشطت المناورات الفوقية ، فان الدرس الاخر الذى لا يقل عنه أهمية هو أنه اذا صح ان قرارا فوقيا بالتحول الاشتراكى لا يصنع الاشتراكية ، فانه يصح بنفس المقدار أن قرارا بالتحول الديموقراطى لا يصنع الديموقراطية ، ولاشك انه من المفيد ان تنحاز السلطة درجة أو درجات الى جانب الاشتراكية والديموقراطية ، فان هذا الانحياز أيا كانت دوافعه الذاتية والطبقية والوطنية ، يحقق موضوعيا وبصورة تكاد تكون مستقلة عن الارادة الشخصية ونواياها بعض المكاسب التقدمية للشعب . ولكن انحياز السلطة وحده ، وبخاصة فى أوضاع هذا « النموذج الجديد » الذى رسخته حركة ٢٣ يوليو ، لاينجز المهام الخطيرة التى تتطلبها مرحلة التحول الاشتراكى الديموقراطى . لابد للحركة الجماهيرية النشيطة ، أن تكون هى الاساس المتين لتحقيق الديمقراطية ، ذلك أن الديموقراطية فى خاتمة المطاف هى الصياغة السياسية لعلاقات القوى الطبقية فى المجتمع . ولقد شهدت بنفسى صورة رائعة لهذا المعنى فى الانتخابات الاخيرة لنقابة الصحفيين . كانت السلطة قد أعلنت كفالتها للحريات النقابية ، ولكن جمهرة الصحفيين الواسعة هى التى استكملت العمل الديموقراطى استكمالا لم تعرفه انتخابات نقابة الصحفيين على مدى تاريخها . وعلى ذلك جاءت النتيجة — فى ظل الحرية التى لم يشهد لها احد مثيلا من قبل — صياغة حقيقية لعلاقات القوى الفكرية والاجتماعية بين الصحفيين المصريين . وقد أكدت هذه النتيجة بما لا يدع مجالا للشك أن الديموقراطية دائما تخلق وتدعم التيار الاكثر تقدما ، وانه لا حياة للرجعية فى حلبة الصراع الديمقراطى الحر ، لا خوف من الديمقراطية الا على أعداء التقدم .

وأيا كانت الظروف التى ادت مؤخرا الى هذه الموجة من التفكير الديمقراطى ، وأيا كان التقييم للمقدمات ، فالعبرة حقا بالنتائج . والنتائج لا تكتفى بالقرارات العلوية والوثائق المكتوبة ، وانما هى تتحقق او لا تتحقق بمشاركة أو عدم مشاركة الجماهير فى صنعها . لقد انجزت حركة ٢٣ يوليو رغم كل الاهوال نظاما وطنيا معاديا للاستعمار وأرست مجموعة من الاشكال التقدمية فى مجالات الحياة المادية . ولقد أصيب نضالنا — نتيجة الاهوال — بجراح تنزف من استقلالنا الوطنى وأبنيتنا الاجتماعية . ولذلك فاننا على الصعيد الثقافى مدعوون الى حماية المكتسبات الايجابية مهما اختلف رأينا بشأنها ، ومدعوون ايضا الى تعويض الخسائر السلبية التى ورثناها من التخلف الحضارى المرير الى التقاليد غير الديموقراطية فى أسلوب الحكم . وهذا يقتضى أن نشارك فى وضع برنامج

ديموقراطى لثقافتنا الوطنية التقدمية .. فيما يلى بعض المؤشرات الى هذا البرنامج الذى يحتاج الى مؤتمر عام للمثقفين ، يشاركون فى وضعه ، ويلتزمون بتنفيذه ، ويلزمون كافة الاطراف التى يتصل بها أن تنفذ ما يخصها من نصوصه . هذه المؤشرات تقول :

● ان مجتمعا تزيد نسبة الامية بين أبنائه على السبعين فى المائة لهو مجتمع يصعب طريق تحوله الى الاشتراكية أضعافا مضاعفة .. فهذه النسبة المروعة من الاميين هى دليل موقف طبقى من قضية الثقافة طيلة المرحلة الماضية ، فالاميون ليسوا أبناء الطبقة المتوسطة بشرائحها المختلفة ، وانما هم أبناء العمال والفلاحين والجنود . وليس موقفا ثوريا أن نتركهم فريسة سهلة لوسائل الاعلام الميسورة ، أو لقصور الثقافة المبتورة أو لبرامج محو الامية الترفيهية . ان هذه الاساليب كلها وفى أحسن حالاتها هى أساليب « اصلاحية » من شأنها دوما أن تجعل القضية معلقة . اننا حين «نقرر» نسبة لا تقل عن الخمسين فى المائة من العمال والفلاحين فى كافة المجالس التشريعية والتنظيمات الشعبية ، يجب أن « نوفر » لجماهير هذه النسبة وعيا حقيقيا وموضوعيا بمصالحها لا وعيا براجماتيا وتجريبيا ، وعيا استراتيجيا لا وعيا موقوتا .

ولن تتحقق هذه الرؤية العميقة للفلاحين والعمال الا بالثقافة الجادة والعميقة . ولن تتوفر هذه الثقافة الا بمحو ثورى للامية لا من خلال النزهة والارتجال . وحقيقى أن هناك برامج برجوازية لمحو الامية هى فى جوهرها — خصوصا فى البلدان المستعمرة والحديثة الاستقلال — برامج اصلاحية . وحقيقى ايضا أن هناك برامج اشتراكية لمحو الامية هى فى جوهرها — خصوصا فى البلدان المستقلة والتى اختارت الاشتراكية طريقا لشعوبها — برامج ثورية . ونحن محتاجون فى هذه القضية الخطيرة بالذات ، أن نستعين بالخبرات الثورية للبلدان المستقلة الاشتراكية ، التى قضت على أمية الملايين من عمالها وفلاحيها بعمل سياسى منظم وفق جدول زمنى محدد .. فليست هناك خطة خمسية فى الزراعة والاقتصاد والتصنيع فقط ، وانما هناك خطط أخرى لا تقل أهمية للقضاء على الامية ، وقد نجحت تجارب الدول الاشتراكية فى هذا الصدد جميعها وبغير استثناء. انهم هناك لا يعلمون الف باء وحدها ، وانما يعلمون الى جانبها الف باء العلم والاقتصاد والزراعة من واقع البيئة التى يعيشها العامل والفلاح . وهكذا يحصل بعد حين ، لا على معرفة اللغة كحروف وأصوات ومعان فحسب ، بل على معرفة الواقع والوعى به والقدرة على تغييره . وهكذا يرتبط القضاء على الامية بالقضاء على الامراض الاجتماعية الاخرى الملازمة للجهل ، وما أكثرها فى مجتمعنا التعس .

● ان أمية المتعلمين لا تقل خطرا عن أمية الجهلة ، فربما استطاع الجاهل أن يعوض بالخبرة الحية المباشرة ما ينقصه من أدوات التعليم . ولكن أمية المتعلم هى المأساة الفادحة الثمن ، لانها تصيب ذلك القطاع العريض من خريجى المدارس والجامعات الذين تربوا بعرق العامل والفلاح ودافع الضرائب . ولا ريب أن الاسباب البديهية التى تقال دوما فى هذه المشكلة هى أسباب صحيحة ، كمناهج التعليم التى تدهورت بالمستوى الثقافى للمدرسة والجامعة ، ووسائل الاعلام التى أشاعت البلبلة والغثاثة والسطحية والجهل المركب ، وتخلف البيت المصرى فى تنمية حواس الطفل الثقافية .. هذه كلها أسباب صحيحة ، بل بديهيات لا ينكر أهميتها أحد . ولكن سبب الاسباب الكامن خلف هذه الظاهرة المرعبة — أمية المتعلمين — هى عزوف الشباب عن الحياة العامة ، وعن روافد الثقافة الجادة على وجه الخصوص . لقد حلت آهات الطرب وكرة القدم محل الكتاب والاسطوانة والفيلم والمسرحية ، وانقسم الشباب شيعا ومذاهب حول هذا المطرب أو ذاك ، حول هذا الفريق أو ذاك .. تعبيرا صادقا — وان يكن سلبيا — عن حاجتهم الى الانتماء . وقد كانت مظاهرات الطلبة فى فبراير ونوفمبر سنة ١٩٦٨ تعبيرا آخر وان يكن فوضويا عن حاجتهم الى الانتماء . لذلك أدى التناقض بين الحاجة الى الانتماء والعجز الناجع عن تحقيقه الى هذا الضياع . ان هذا الجيل من الشباب يحتاج الى « **ثورة ثقافية** » تتبناها منابر فكرية وتنظيمية مستقلة تتبارى فيما بينها مباراة حرة ديموقراطية ، تغيروجدانهم الثقافى تغييرا جذريا من تخوم اليأس وهاوية اللامبالاة الى حرارة الانتماء ودفء الالتزام . ثورة ثقافية لا تتبناها مؤسسات مزقت أوصال الثقة بينها وبين الشباب ، وانما مؤسسات من صنع أيديهم وعقولهم وشبابهم ، ثورة يضعون لها البرامج ويحددون لها الاهداف ويجندون لها الوسائل والامكانيات . ثورة جيل يتحرق توقا الى الديمقراطية والاشتراكية ، لانه يذوب شوقا الى تحرير الوطن بتحرير الانسان .

● ان وزارتى الثقافة والاعلام مدعوتان — بعد وزارتى التربية والتعليم والتعليم العالى — الى اعادة النظر الجذرية فى صيغة عملهما الثقافى على الصعيد القومى . ان مناهج التعليم فى المدارس والجامعات قد وضعت بطريقة أو بأخرى بحيث حددت الافاق أمام طالب العلم

تحديدا بالغ الضيق ، فأصبح همه الاول أن « ينجح » فى الثانوية العامة نجاحا يقذف به الى رحاب الجامعة ، أيا كانت الكلية التى يختاره لها القدر ، حتى ينجح من جديد فى الحصول على « مؤهل عال » يضمن له « الوظيفة» المضمونة سلفا فى كشوف توزيع القوى العاملة . وهكذا يتحول خريج الجامعة — اعلى المستويات العلمية فى بلادنا وبلاد العالم — الى موظف محترم ، كما أراد له دنلوب فى ظل الاحتلال البريطانى منذ أمدبعيد .. وبالرغم من ان ديموقراطية التعليم واحدة من أهم المنجزات الايجابية لحركة ٢٣ يوليو الا انها ظلت ديموقراطية ناقصة ، حققت الشكل دون المضمون .. حتى ان كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » الذى كتبه طه حسين عام ١٩٣٩ مازال دستورا ديموقراطيا أكثر تقدما من تشريعاتنا التعليمية الراهنة . أما كتاب لويس عوض « الجامعة والمجتمع الجديد » ومقالاته الاخيرة فى « الاهرام » فانها ستظل حلما ثوريا يراود الخيال حتى تقتحم ثورة التعليم المرتجاه أسوار وزارتى التربية والتعليم العالى . ومن يدرى ، فلربما كانت الاتحادات الطلابية هى النواة الثورية للتغيير المنشود ، فالطلاب اولا واخيرا ، هم القاعدة الجماهيرية القادرة على الوعى بالماضى والحاضر والمستقبل .

غير أنه يتبقى لوزارتى الاعلام والثقافة أن يعيدا النظر فى صيغة العمل الثقافى بين جماهير الثقافة ، ولا أقول جماهير المثقفين ، لان جماهير الثقافة أشمل من هؤلاء ، ان جماهير الثقافة هى جميع مواطنى مصر . ان تخطيطا ديموقراطيا سليما للثقافة المصرية لابد وأن ينبع من الاحتياج الفعلى لهذه الجماهير ، احتياجاتها العقلية والوجدانية الى الوعى بتحديات التخلف والقهر والقدرة على تجاوزهما .. ولا يمكن أن يكون هذا التخطيط نتيجة الالهام الذى يهبط على رؤوس المؤسسات الثقافية والاعلامية ، ولا نتيجة التصور الشخصى للامور ، ولا نتيجة الامكانيات المتاحة والحسابات المفروضة على كافة المستويات : البشرية والفنية والادارية والامزجة وعلاقات القوى . ان التخطيط لديموقراطية الثقافة لا يمكن أن يتم فى غرفة معزولة من المجتمع . وبالرغم من احترامى لكل ما قيل من سياسة الكم والكيف ، وما قيل عن سرعة تغيير رؤساء المؤسسات الثقافية ، وما قيل عن بيروقراطية القطاع العام فى النشر ، وما قيل عن ضيق الميزانية وتزايد العمالة ، وما قيل عن تسلط وتعسف المسئولين ... وبالرغم من احترامى للحجج « الوجيهة » التى يبديها المسئولون فى مواجهة هذه الاقاويل ، فانى أعتقد أن علة العلل فى بنائنا الثقافى هى انه لا يخضع لتخطيط ديموقراطى يشارك المثقفون فى وضعه من ناحية ويستلهم — بصورة مادية محسوسة — الاحتياجات الفعلية لجماهير الثقافة فى بلادنا من ناحية أخرى . وذلك لن يتاتى الا بدراسات ميدانية واسعة النطاق على مستوى الجمهورية ، دراسات صبورة وعلمية، متأنية وموضوعية ، مهما كلفت من الجهد والمال والزمن .. فان نتيجتها هى الحصول على استراتيجية التخطيط . ولن يتأتى ذلك ايضا الا باشراك المثقف فى صنع القرار الثقافى ، بالتشريع والتنفيذ والرقابة الشعبية . ان هذا التخطيط الديموقراطى للثقافة سوف يضع أيدينا على خريطة دقيقة لاتجاهات الصناعة الثقيلة والصناعة الخفيفة فى ميدان الفكر ، وسيضع أيدينا على أساليب التصنيع ، انتاجا واستهلاكا، سيقودنا تلقائيا الى جدول الاولويات كما وكيفا ، سيعرفنا الربح الحقيقى والخسارة الحقيقيةلافى سوق العرض والطلب حيث تتحول الثقافة الى سلعة ولافى أسواق البروباجندا حيث تتحول الثقافة الىأبواق للدعاية ، وانما سنعرف الربح والخسارة فىميدان القيم درعنا الواقى من شر الهزائم . حينذاك سوف تختفى النزعات والاهواء العارضة ويختفى الارتجال والعشوائية والتخبط ، ويصبح العمل الثقافى ارهاقا وضنى لا مسرة زائفة . ويتجاور فى خاتمة المطاف الابداع الحر والالتزام الثورى . ان وزارتى الثقافة والاعلام تشكلان فيما بينهما القطاع العام فى الثقافة ، فهما انجاز بالغ القيمة فى حياتنا الفكرية والفنية .. ولكن عشرات البثور التى طفحت عليهما كان سببها الرئيسى انعدام الشكل الديموقراطى وغياب التخطيط الاشتراكى، بالرغم من أن هدف الاهداف للقطاع العام فى الثقافة وغيرها هو هذه الجماهير المسحوقة التى طال حرمانها من ثمرات الوعى الانسانى . ان حديثا خاصا بالمسرح أو النشر أو السينما أو الاذاعة أو الصحافة أو التليفزيون ، هو تفصيل وتفريع لا قيمة له الا اذا اقترن بهذا التصور الشامل لقضية الثقافة فى بلادنا . وهى ليست قضية معزولة فى جزيرة مهجورة أو برج فوق السحاب ، وانما هى قضية وثيقة الارتباط بالمجتمع ككل . ورغم أن هذه العبارة من البديهيات المجوجة ، الا أنها كثيرا ما توارت عن الانظار كلما تصدينا لتقييم هذا الحدث الثقافى أو ذاك ، كخروج مدير ودخول آخر ، كصدور كتاب واحتجاب آخر ، كظهور فيلم وغياب آخر ، كالسماح لمسرحية بالعرض ومنع الاخرى ،

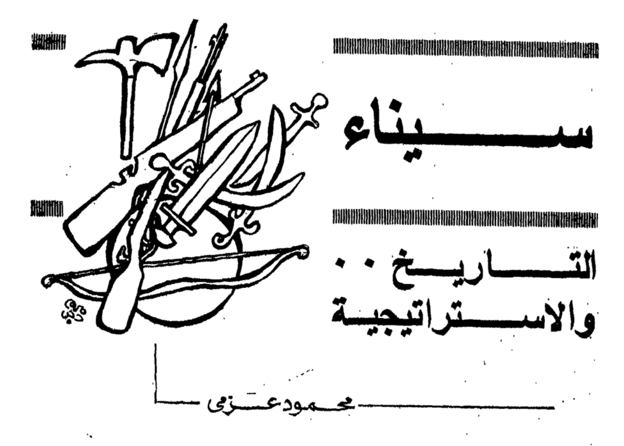
كتمثيلنا فى مؤتمرات العالم بهذه الوجوه دون الاخرى ، كهذه التشكيلات شبه السرية التى تضبط ايقاع حركتنا الثقافية حسب نوتة هيروغليفية لا يفهمها احد .. ان تقييم هذه الظواهر كلها دون الغوص الى الاعماق التى أنبتتها — وهى البعد عن الديموقراطية والتخطيط — لن يثمر سوى الصراعات الجزئية الموقوتة التى لا تترك أثرا على صفحات عقولنا ووجداناتنا .

● ان اتحادات عامة ومهنية للكتاب والفنانين لم يعد قيامها يحتمل التأجيل أو التسويف ، ذلك أن اتحاد الكتاب — على سبيل المثال — هو صمام الامن الديموقراطى لحرية الكاتب وابداعه الفكرى . انه الكيان التنظيمى الذى يستوعب نشاط الكتاب استيعابا موضوعيا أمينا ، هو همزة الوصل الدقيقة بين الكاتب والمجتمع . فيه تصب كافة القنوات ومنه تتفجر كل الينابيع ، انه التنظيم البديل للشللية المريضة وجمعيات الادباء ونواديهم الهزيلة . وهو لا يمنع الوجود الخاص لكل جماعة أو جمعية أو رابطة أو ندوة أدبية ، ولكنه شىء مختلف عن هذه الجمعيات والجماعات والروابط والاندية . يختلف عن كل منها منفردة ، ويختلف عنها مجتمعة . لذلك فنكرته لا تقترب من فكرة « اتحاد الجمعيات الادبية » فهذا الاخير هو حاصل جمع كمى ، انه اضافة شكلية ، وليس تغييرا كيفيا لحياة الكتاب المصريين .. فاتحاد الكتاب هو أقرب من فكرة « النقابة » وأبعد منها فى نفس الوقت . يقترب منها من حيث أنه صياغة « **مهنية** » تتبنى كافة الحقوق والواجبات التى شرعها القانون للنقابات المهنية . ويبتعد عنها من حيث أنه أكثر شمولا فى أهدافه ووسائله . انه المرفأ الحقيقى للكاتب على كافة المستويات ، ينظم له العلاقة بينه وبين نفسه ، وبينه وبين فنه ، وبينه وبين المجتمع . ذلك أن اتحاد الكتاب فى صياغاته الديموقراطية بالبلدان الاشتراكية هو الذى يتعهد البذرة الفنية بالنمو ويواكب حركتها الحية بدءا من الرعاية التفصيلية للادباء الناشئين بتوفير كافة الظروف الملائمة لانتاجهم من تحصيل للمعرفة الى مراجعة وتمحيص لما يكتبون الى الالتزام التفصيلى بحياة الكتاب الناضجين ، المادية والمعنوية ، من تيسير المنابر التى تستقبل انتاجهم الى تسويق هذا الانتاج ، الى اتاحة التفرغ الكامل له ، فى ظل حياة مطمئنة من كافة النواحى . واتحاد الكتاب على هذا النمط هو « البيت » الحقيقى للكاتب ، يخضع من مختلف الزوايا للتخطيط الديموقراطى العام ، سواء فى تشكيل أجهزته الداخلية التى تتم بالانتخاب الحر المباشر لجماهير الكتاب ، أو فى تكوين ضوابط الاتصال بينه وبين أجهزة المجتمع الاخرى الملتزمة بدورها بخطة عامة تشمله ضمن ما تشتمل عليه من التزامات نحو الشعب .

ومن المعروف أن لدينا ما يسمى بالمجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية ، وقد تم انشاؤه قبيل تأسيس وزارة الثقافة ، ولقد تحول بعد قيام هذه الوزارة الى مجلس للحكماء ؛ ذلك أن واجباته الاساسية تقوم بها وزارة الثقافة فلم يعد له سوى منح الجوائز السنوية واختيار الوفود الى المؤتمرات الخارجية واصدار بعض المطبوعات **السرية** . ومن المعروف أن لدينا نظام للتفرغ يتبع وزارة الثقافة يتيح الفرصة سنة أو سنوات للكاتب والفنان ان ينتج، ولكن ذاك المجلس وهذا النظام يدوران فى فلك اللوائح البيروقراطية التى من شأنها تجميد الانطلاق الثقافى . ولا ضير من أن يكون لدينا مجلس للحكماء ، ولا ضير من أن تعمل وزارة الثقافة بتسكين الالم عند الكتاب والفنانين تسكينا مؤقتا .. ولكن البديل الثورى لهذه الاشكال القاصرة عن الرؤية الاستراتيجية للثقافة هو تأسيس الاتحادات المهنية للكتاب والفنانين ؛ حتى يكتب الكاتب ويبدع الفنان وهو فى مأمن من عوادى الزمن ، فى مأمن من البيروقراطية والديماجوجية والمونولوجية ، وبقية الظواهر السلبية الناشئة من غياب الديموقراطية ، وهى الظواهر التى من شأنها أن تحول الثقافة الى سلعة أو الى دعاية لا الى قيمة ثقافية حقيقية ، تشارك مع بقية القيم فى بناء صرح مجتمع تقدمى ومتحضر .

نحو مؤتمر عام للمثقفين

ان هذه كلها ليست أكثر من مؤشرات الى برنامج ديموقراطى لثقافتنا الوطنية ، لا سبيل الى وضعه الا بتفاعل كافة الاراء والافكار والاتجاهات فى مؤتمر عام للمثقفين ، يعدون له بأنفسهم ويشرعون فى اقامته بسواعدهم وضمائرهم وعقولهم .. ولن ينجح أو يخفق الا بارادتهم ، ولعلها فرصتهم الاخيرة ، لا فى تعويض ما فات لان خسائر العقل والقلب والوجدان من المستحيل تعويضها ، وانما هى فرصتنا الاخيرة فى التكفير عن ذنب شاركنا فى صنعه ، فى حق الاجيال القادمة ، وفى حق شعبنا الباقى ، فوق كل النظم وبعد كل الازمات .



سيناء

التاريخ.. والاستراتيجية

محمود عزمى

النيل رغم سخائه فى الماء والطمى ، لم يكن فى وسعه أن يهب صحارى مصر كلها أوحتى معظمها الخصب والحياة ، ولذلك لم تزد نسبة مساحة مصر المعمورة عن ١/ ٣٠ تقريبا من جملة مساحة مصر ، ولذلك قيل أن مصر العمران ، أى مصر الأنتاج والحياة والسكان ، شبه واحة كبيرة يمتد صعيدها ، أى واديها الضيق الاخضر الذى حفره النهر من أسوان حتى القاهرة ، مئات الاميال كجذع نخلة باسقة مسترخية وسط الصحراء وتنبسط دلتاها ككأس زهرة لوتس متفتحة عند نهاية هذا الجذع وحتى البحر حيث المصب، ولان مصر العمران شبه واحة أوقل هى شرنقة تغلفها الصحراء التى قسمها النيل الى شرقية وغربية ، فقد كان طبيعيا أن لعبت هذه الصحراء دورا هاما ـ رغم سلبيته فى البداية ـ فى نشأتها وحمايتها ، بل وفى تأكيد وحدة شعبها القومية وتدعيم وجود سلطة دولتها المركزية .

فقد كفلت الصحراء لها بمئات الاميال من الرمال القاحلة التى أحاطتها بها غربا وشرقا ، قدرا نسبيا من الحماية الطبيعية فى مواجهة احتمالات اكتساح الشعوب والقبائل المجاورة لبراعم حضارتها فى المراحل الاولى من نشأتها ، مما أتاح لبراعم الحضارة أن تنمو وتزدهر فى مناخ آمن ومستقر نسبيا . كما اتاحت هذه الصحارى لمصر حماية أكثر ايجابية بعد ذلك ، حين أدرك قادتها ضرورة استثمار ميزة العمق الدفاعى الاستراتيجى الذى تكسبه الصحراء للوادى والدلتا شرقا أو غربا ، متى خرجت جيوش مصر لملاقاة أعدائها عند حدودها السياسية الاستراتيجية ، بل فيما وراء هذه الحدود أيضا فى كثير من الاحوال

حيث أصبحت ميزة العمق الصحراوى الاستراتيجى فى أفضل استغلال لها ، وبكامل الابعاد الممكنة لها · هذا وقد لعبت الصحراء دورا ثانويا آخر فى تأكيد وحدة مصر القومية وتدعيم قوة مركزية دولتها ، بحكم أنها رسمت خطا طبيعيا فاصلا بين الرقعة الخضراء المعمورة وبين المناطق القفراء شبه الخالية ،بل الخالية تماما من الحياة فى معظم الحالات فساعدت النهر العظيم فى مهمته الجوهرية المتمثلة فى تجميع الجماعة البشرية التى تشكلت تاريخيا حوله حيث قام بينها اقتصادها المشترك ولغتها المشتركة وتراثها الحضارى المشترك فكانت مصر الشعب والدولة ، الشعب الموحد قوميا ، والدولة المركزية تلك هى بعض أفضال مصر الصحراء مصر باتساعها السياسى والاستراتيجى الكامل ، على مصر العمران والزراعة والحضارة القديمة ·

ولان النيل جنح وهو يشق مجراه وسط صحراء مصر نحو الشرق بنسبة أكبر من الغرب ، فقد أصبح من الطبيعى أن يكون الحاجز الصحراوى الشرقى بين مصر وجاراتها الاسيوية أقل عرضا من الحاجز الغربى الذى يفصلها عن جاراتها الاخرى فى الشمال الافريقى · ونتيجة لذلك لم يكن من المصادفة أن علاقات وارتباطات مصر بالمشرق سواء كانت اقتصادية أو عسكرية أصبحت أكثر توثقا بدرجة كبيرة عن علاقاتها بالمغرب ،خاصة وأن هذا المشرق قد حبته الطبيعة وفرة فى موارد الحياة وكثافة فى السكان بدرجات أكبر بوضوح عما كان وما يزال عليه الحال فى المغرب ولذلك أيضا لم يكن من المصادفة أن كانت الغزوات الرئيسية التى تعرضت لها مصر عبر التاريخ قد جاءتها من الشرق ، فيما الغزوة الليبية فى العصر الفرعونى والفاطمية فى العصر الاسلامى[1] ،ولما كانت دلتا النيل مفتوحة مكشوفة على الصحراء شرقا وغربا فقد اتصلت تربتها برمال شبه جزيرة سيناء فى قطاعها الشمالى ، بل لقد تجاورت رمال سيناء الشمالية فى مراحل التاريخ القديمة ولفترات طويلة بفرع النيل الذى كان يعرف بالفرع « البليوسى » والذى كان يصب فى البحر المتوسط فى موضع قريب من « بورسعيد » الحالية تجاه الشرق ، وحيث كان يوجد حصن « سيلا » الفرعونى ومدينة « الفرما » القديمة · ولذلك لم يكن من المصادفة أن أصبحت « سيناء » خاصة فى قطاعها الشمالى هذا الذى تختزن كثبانه الرملية مياه الامطار وتتفجر فيه بالتالى الابار بسهولة ، هى المدخل البرى الرئيسى لمصر عبر التاريخ ، لم يكن من المصادفة أن أصبحت « سيناء » هى بوابة مصر الشرقية ، وهكذا ارتبطت « سيناء » بملحمة الصحراء المصرية ككل وشاركتها دورها فى حياة وتطور مصر ، وشيئا فشيئا مع حركة تاريخ مصر الدولة وزيادة وعيها بحدودها السياسية وكيانها الاستراتيجى ، ومتطلبات أمنها والدفاع عن حضارتها ، أصبحت « سيناء » تمثل الجزء الرئيسى من ملحمة الصحراء المصرية وحركة الفعل ورد الفعل المتبادلة بينها وبين وادى النيل · وهى تلعب اليوم أيضا دورا رئيسيا للغاية فى تراجيديا الصراع الوطنى المصرى والقومى العربى مع الامبريالية العالمية وركيزتها المحلية اسرائيل ، بحكم التاريخ وعبقرية الموقع الاستراتيجى الذى تمثله فى حركة الصراع ضد الاستعمار ومن أجل الوحدة بين الشعوب العربية ·

وعلى أسس هذا المنطلق الفكرى الذى يضع فى اعتباره القسمات الاساسية المميزة لنشأة وتطور مصر ببعديها ، العمرانى الزراعى والسياسى الجغرافى الاستراتيجى ، مصر بنيلها وأرضها الخضراء ومصر بصحاريها وحدودها الاستراتيجية ، سنمضى فى بحثنا الموجز هذا عن « سيناء » ودورها عبر التاريخ من الناحية العسكرية والاستراتيجية ، محاولين القاء أضواء على دور « سيناء » كموقع لعب دورا بارزا فى استراتيجية مصر ترابط وثيق مع الدور الذى لعبته صحارى مصر بصفة عامة فى مجرى وجودها وتطورها ، موقع شاءت له طبيعته الجغرافية أن يكون همزة الوصل البرية بين الركن الشمالى الشرقى لافريقيا وبين غرب آسيا ، وشاء له التاريخ فى معظم مراحله أن يحتل مركزا محوريا بين عديد من مراكز الثقل الحضارية والاقتصادية والعسكرية فى العالم القديم والحديث ·

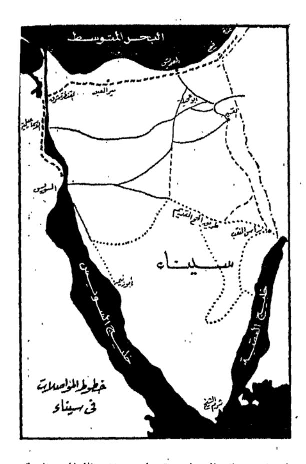
فى البدء كان «الفيروز» والنحاس !

بينما كانت الجماعات البشرية الاولى التى عاشت حول النيل فى مصر خلال العصر الحجرى الحديث ، فى الفترة ما بين ٨٠٠٠ — ٤٠٠٠ سنة

---

(١) يهمنا أن نشير فى صدد هـذه المعانى الى ما اورده الدكتور جمال حمدان فى كتابه القيم « شخصية مصر » المنشور فى القاهرة بـ سلسلة كتاب الهلال — يوليو ١٩٦٧ — صفحات ٣٩، ٤٠، ٤٤، ٧٠، ١٩٢، ١٩٤، من افكار ممتازة هامة . والى ما اورده الدكتور سليمان حزين فى بحثه عن مقومات الحضارة المصرية فى كتاب تاريخ الحضارة المصرية — المجلد الاول — الذى اصدرته وزارة الثقافة والفه مجموعة من المؤرخين والكتاب — القاهرة — مكتبة النهضة المصرية — صفحات ١٤ — ١٩ ·

قبل الميلاد ، تعمل تدريجيا على الانتقال من مرحلة الصيد والرعى الى مرحلة الزراعة ، كانت هناك جماعات بشرية آسيوية أخرى تعيش فى شبه جزيرة سيناء سواء فى شمالها أو جنوبها [٢] ونظرا لجدب الطبيعة هناك فقد كانت حياة هذه الجماعات حياة بداوة تعتمد على الصيد والرعى وأحيانا بعض الزراعة البسيطة حول ينابيع المياه المتناثرة وخاصة زراعة النخيل والتين والزيتون · ولذلك كان هؤلاء البدو يترددون على شرق الدلتا أو جنوب فلسطين لمبادلة منتجاتهم المحدودة من صوف الاغنام والعسل والصمغ والسمان بحاجاتهم من الحبوب والمنسوجات ، ثم اكتشف أهل الجنوب منهم — وكان يسمون « المونيتو » قديما — النحاس والفيروز فى الجبال القريبة من خليج السويس عند وادى المغارة الذى يمكن الوصول اليه من ميناء أبو رديس الحالى ، فأخذوا يحملونه معهم الى أسواق الدلتا ضمن ما يحملون من سلع [٣] وكان ذلك فى الالف الخامس قبل الميلاد تقريبا · ولكن ضعف قواهم المنتجة وتبعثرهم السكانى فى عشائر وقبائل قليلة العدد جمد تطورهم الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، بينما أخذ سكان وادى النيل يطورون قواهم المنتجة وعلاقاتهم الاجتماعية والسياسية ، فقد زادت مساحة الارض المزروعة نتيجة تقطيع الادغال النباتية وتجفيف المستنقعات وبدء تنظيم الرى واستخدام المحراث بدلا من الفأس فى حرث الحقول « وأصبحت هذه الزيادة الكبيرة فى مساحة الاراضى المزروعة سببا فى أهمية وجود الحكومة المركزية للبلاد أكثر مما كانت عليه من قبل لان زيادة مساحة الاراضى تطلبت زيادة كمية المياه لرى الحقول » ، كما يقول « برستد » ، وهكذا توحد سكان وادى النيل سياسيا لاول مرة فى حوالى عام ٤٣٠٠ قبل الميلاد [وهو الاتحاد الذى كونه ملك مجهول الاسم من الوجه البحرى] وشكلت زيادة الحبوب الناتجة عن استعمال المحراث أساسا الفائض الاقتصادى الذى مكن من وجود وقوة جهاز الدولة الاول هذا ، ولكن هذه الوحدة السياسية الاولى لسكان وادى النيل الذين أصبحوا يمثلون أساس الشعب المصرى القديم الذى قامت على أكتافه الحضارة الفرعونية بعد ذلك ، أصيبت بالتفكك مرة أخرى لاسباب مجهولة حتى الان ، ثم تكون الاتحاد الثانى على يد الملك « مينا » — أحد ملوك الوجه القبلى — فى حوالى عام ٣٢٠٠ ق.م ، وبدأ عصر الاسرات الحاكمة ، عصر التاريخ المكتوب · وفى هذا الوقت



كان استعمال النحاس قد انتشر فى البلاد نتيجة استخدامه فى صنع الازاميل التى يجرى تقطيع احجار المعابد والمقابر بها ، كما اتسع استخدام الفيروز فى الزينة وأكسيد النحاس فى الحصول على اللون الازرق وصنع الكحل ، ولذلك اتجه فراعنة الاسرة الاولى والدولة القديمة عموما منذ وقت مبكر من قيام دولتهم نحو « سيناء » للحصول على الفيروز والنحاس . ويقول «برستد» فى هذا الصدد « وكما امتاز عصر « الاتحاد الاول » بأنه قام بسبب التطور الذى حدث نتيجة لاستعمال المحراث فى الزراعة وما ترتب على ذلك من توفير الحبوب فان الاتحاد الثانى امتاز بأنه قام بسبب التوسع فى استغلال المناجم والحصول على كميات وفيرة من النحاس ، ولهذا يبدأ « عصر المعادن » بابتداء « الاتحاد الثانى » وكان الملوك الاوائل من ذلك العصر يفخرون بالبعثات التى ارسلوها الى شبه جزيرة سيناء ·· وهى اقدم مناجم للنحاس فى العالم» [٤] ، وتحدثنا الكتابات التى تركتها بعثات

(٢) الدكتور احمد فخرى — تاريخ شبه جزيرة سيناء — القاهرة ١٩٦٠ — موسوعة سيناء للمجلس الاعلى للعلوم — صفحة ٦٨ .

(٣) نعوم شقير — تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها — القاهرة ١٩١٦ — مطبعة المعارف — صفحة ٤٢٦ .

(٤) برستد ، جيمس هنرى — انتصار الحضارة — ترجمة احمد فخرى — القاهرة ١٩٦٢ — الانجلو المصرية — صفحة ٧٢ و٨٣ .

التعدين وحملات التأديب التى صاحبتها فى كثير من الاحيان فى صخور وادى مغارة وسرابيط الخادم عن تفاصيل عمليات التعدين هذه التى بدأت منذ عهد الاسرة الاولى حتى عهد الاسرة العشرين ، أى منذ الدولة القديمة حتى الدولة الحديثة ، وما صاحبها من حملات تاديب لبدو سيناء خاصة فى المراحل الاولى من استغلال هذه المناجم ، وأن أسرى الحروب والمحكوم عليهم بأحكام جنائية شديدة من أهل مصر كانوا يؤلفون قوة العمل الاساسية فضلا عن بعض سكان المنطقة والعمال الاجانب من سوريا ، وأن هذه البعثات التعدينية كانت تذهب من مصر كل سنة أو سنتين او عدة سنين خلال فصل الشتاء وتعود فى بداية الصيف لشدة الحر هناك وأنها كانت تستخدم النقل البحرى من رأس خليج السويس وحتى موانى أبوزنيمة او أبورديس لنقل رجال البعثات ودوابهم الى هناك والعودة بهم بعد ذلك ومعهم ما استخرجوه من معادن [٥] ، هذا كما بدا الفراعنة منذ عهد الدولة القديمة وطوال عهد الدولة الوسطى والحديثة أيضا فى استخدام شمال سيناء كطريق برى للتجارة بين مصر وفلسطين ولبنان وسوريا ، فضلا عن طريق البحر [٦] ، وهكذا اتجهت مصر الفرعونية ، مصر الدولة القديمة ، فى بداية الامر الى سيناء كامتداد اقتصادى وتجارى لحضارتها الزراعية المزدهرة النامية فى الوادى حول النيل . وصاحب ذلك كضرورة لتامين هذه العمليات حملات تأديب لبدو المنطقة فضلا عن بناء بعض الحصون عند اقصى حدود شرق الدلتا ، وحتى رأس خليج السويس لحماية البلاد من غارات البدو الخاطفة على المناطق الزراعية هناك .

ثم جاء الهكسوس

تعرضت مصر فى نهاية عصر الدولة الوسطى خلال حكم الاسرتين ١٣ ، ١٤ الى حالة من التفكك السياسى والاجتماعى نتيجة لزيادة قوة ونفوذ أمراء الاقطاع المحليين بالنسبة لقوة الملوك أو الحكومة المركزية وكان من نتيجة ذلك الضعف فى قوة الدولة المركزية وما صاحب ذلك من تخلف لقوة جيشها وأساليبه القتالية ، أن تعرضت البلاد لغزوة الهكسوس الذين هاجموها عبر صحراء سيناء وقهروا الجيوش المصرية فى الدلتا بفضل مهارتهم القتالية العالية واستخدامهم للعربات الحربية والخيل فى تشكيلاتهم العسكرية مما أكسبهم خفة حركة وقدرة على المناورة وسرعة الهجوم أصابت قوات المشاة المصرية ، التى كان يتشكل منها جيش الفراعنة حتى ذلك العهد ، بالشلل والاضطراب ، هذا فضلا عن استخدامهم للسيوف والخناجر المصنوعة من البرونز والاقواس الكبيرة البعيدة المرمى وهى جميعا أسلحة جديدة لاقبل للمصريين وقتئذ بها (٧) وذلك بسبب تجمد قوى الانتاج والتطور الحضارى المصرى فى أخريات الدولة الوسطى بسبب الحروب الاهلية وتفكك الدولة المركزية وضعفها وسيادة أسلوب الاقطاع على الانتاج والحياة الاجتماعية وما يصاحبه من ركود وقلة ابتكار فى وسائل الانتاج . وقد استقر الهكسوس فى الدلتا ومصر الوسطى وأقاموا عاصمتهم فى شرقها عند « صان الحجر » تاركين مصر العليا فى أيدى أمراء طيبة المحليين الذين أصبحوا خاضعين لسلطة ملوك الهكسوس المركزية . واستمر هذا الوضع قائما نحو ١٥٠ عاما طول عهد الاسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة وجانبا من السابعة عشرة ، الى أن ضعفت دولة الهكسوس واكتسب المصريون القدرة على استخدام الخيل والعربات الحربية فى القتال ، فاستطاع امراء طيبة « سكنزع » ، « كاموسا » ، « احمس » على التوالى أن يحرروا مصر مرة أخرى من الغزاة الاجانب . وقد قام « احمس » بعد استيلائه على عاصمة الهكسوس « أواريس » – صان الحجر – بمطاردتهم حتى جنوب فلسطين عبر شمال سيناء حيث حاصر بقايا قواتهم الموجودة فى مدينة « شاروهين » لمدة ثلاث سنوات حتى استسلمت وقضى على الخطر الهكسوسى تماما . ومنذ ذلك الوقت أصبح لمصر حاميات دائمة فى رفح وغزة واصبح وادى غزة يسمى نتيجة لذلك بوادى مصر ، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت « سيناء » جزءا من مصر الدولة ، مصر الموقع الاستراتيجى » بل لقد كانت حدود مصر تشمل جنوب فلسطين ، أو الاقليم الذى يطلق عليه العبريون اسم النجب أى الجنوب ، وكان بمثابة اقليم الحدود ، الذى يقابل فيه جنود فرعون البدو المهاجرين ، أو المتسللين الى مصر ، [٨] .

---

(٥) نعوم شقير – المرجع السابق صفحة ٤٣٠ .
(٦) الدكتور احمد فخرى – موسوعة سيناء – المرجع السابق – صفحة ٧٤ .
(٧) الدكتور محمد جمال الدين مختار – لمحة فى تاريخ مصر السياسى والحضارى – تاريخ الحضارة المصرية – المجلد الاول – القاهرة – مكتبة النهضة المصرية – صفحة ١٠٢ .
(٨) الدكتور محمد السيد غيلاب – الجغرافية البشرية والتاريخية لسيناء – موسوعة سيناء – المرجع السابق – صفحة ٢٨ .

طريق « حورس » الحربي الكبير

غادر الهكسوس مصر حوالى عام ١٥٨٠ق ٠ م وعاد أحمس من فلسطين الى طيبة ليؤسس الاسرة الثامنة عشرة ، بـداية الدولـة الحديثـة ، وبـدأ عهد الامبراطورية المصرية القديمـة الشهيرة التى شهدت أمجاد **تحتمس الثالث ورمسيس الثانى** الحـربية « فلقد أدركت أن حدودها الطبيعية انما تبدأ خارجها فى فلسطين وفى برقة ، بينما لا يقل نطاق الامان من حولها عن الشرق الاوسط تقريبا ٠ ومن هنا تـوسعت الامبراطورية الى حدودها القصوى كلما أمكنها ذلك ، لا كاستعمار بالمعنى المفهـوم ، وانمـا لنشر «السلام المصرى» بل اننا يمكن أن نزعم دون تردد أن الامبراطورية المصرية كانت فى جوهرها وفى معنى ما « امبراطورية دفاعية » أسـاسا ، حتمتها ظروف الصراع الاقليمى والاستراتيجية العريضة فى الشرق القديم » [٩] ، ووصلت الامبراطورية الى نهرالفرات وشمال سورياوجزر شرق البحر المتوسط ، ودام عصرها نحو أربعة قرون كاملة الى أن تحطمت من الداخل مرة أخرى وحدة البلاد فى أواخر عهد الاسرة العشرين ٠ وهذه الحقبة من التاريخ الفرعونى هى التـى سجلت وجودها بمعظم الاثار المصرية العظيمة فى طيبة أى الاقصر ، أى الكرنك والمسلات ومقابر البر الغربى الشهيرة وهى التى شهدت أيضا ، فى منتصفها تقريبا ، نشوء فكرة التوحيد الالهى فى صورتها الاولية على أيدى « **أخناتون** » كضرورة دينية لتوحيد الامبراطورية تحت ظل اله واحد .

وطوال هذه المرحلة الحيوية من تـاريخ مصر كانت « سيناء » تلعب دورها كموقع استراتيجى حيوى ، وكجزء لا يتجزأ من حدود مصر السياسية الجوهرية لامنها ، مهما كانت نتائج حركة المد والجزر بين مصر وجاراتها الاسيوية الاخرى وهى العراق وآسيا الصغرى « لقدكانت « سيناء » خلال هذه الحقبة الطويلة من الزمن ، تمثل رأس الحربة المصرية ، التى قد تندفع وتشمل جنوب فلسطين وفلسطين كلها ، وقد تنحسر حتى تقف عند حدود غزة » [٩] .

وقد اتخذت جميع الحملات الحربية المصرية والتعزيزات المرسلة الى حاميات غزة وفلسطين عموما طوال هذه الحقبة من التاريخ ، اتخذت طريقا بريا رئيسيا لمسيرتها عبر سيناء يبدأ عند حصن « سـيلا » ، على مقربة من بلدة القنطرة الحالية ، ثم يسير بعد ذلك محاذيا للشاطىء حتى يصل الى العريش ومنها الى رفح ثم غزة ، وذلك نظرا لان طبيعة الارض فى هذه المنطقة ـ الكثبان الرملية ـ تسمح باختزان المياه الناتجة عـن الامطار وبالتالى أمكن حفر عديد من الابار فيها ٠

« لقد كان هذا الطريق ومازال من أهم الطرق الحربية فى العالم ، استخدمه المصريون القدماء عند غزوهم لاسيا ، كما استخدمه كل من اتى لمهاجمتها على مر العصور ٠ وكان يعرف باسم طريق «حورس» لان حورس كان النعت الذى يلقب به كل فرعون ٠ وكثيرا ما سار عليه عشرات من الفراعنة وهم يقودون جيوشهم الى آسيا ٠ ومما من شك فى أن الحصون المصرية قد قامت فى كثير من أجزائه وبخاصة فى المناطق الاستراتيجية الهامة ، لتكون مراكز لبعض الجنود المكلفين بحـراسة الطريق ، ومخازن لما تحتاج اليه الجيوش ، وكانت تلك الحصون فى المناطق التى يتيسر فيها وجود الماء [١٠] وخلاصة القول بالنسبة لدور «سيناء» خلال مرحلة التاريخ المصرى القديم أن « سيناء » قد تحققت لها شخصيتها ومكانتها الفريدة فى جغرافية وتاريخ وسياسة مصر ، نتيجة لظـهور واكتمال نمو شخصية مصر كلها ٠ ان « سيناء » نمت شخصيتها وتكاملت مع نمو وتكامل دور الصحراء المصرية فى بناء وتدعيم مصر الدولة مصر الحضارة ، مصر القومية الموحدة القوية ٠ ونظرا لان الصحراء قد لعبت دورا ايجابيا فعالا ومكملا لدور وادى النيل فى خلق وتدعيم حضارة مصر ، بما وفرته لها من خامات المعادن ومن حماية العمق الاستراتيجى الدفاعى بأبعاده القـريبة والبعيدة ، فقد كان طبيعيا أن تلعب سيناء دورها الجوهرى هذا من كلتا الناحيتين ، بل وخاصة وأساسا من الناحية الاستراتيجية ، ذلك لان مناجم سيناء فقدت أهميتها ابتداء مـن عصر الاسرة العشرين نظرا لوجود مناجم أخرى فى الصحراء الشرقية بعد ذلك أكثر انتاجية وأقل نفقة ، ومن هنا أصبحت سيناء جزءا من التراب المصرى القومى باعتبار أنها الدرع الشرقى لمصر وقاعدة انطلاق وتطبيق استراتيجيتها الدفاعية الهجومية لتأمين حدودها ٠

« سـيناء » فى عصر استعمار « مصر قديما »

لئن كان النيل والتربة الفيضية والعمل البشرى المنظم من قبل السلطة المركزية قد أدت جميعا الى

(٩) الدكتور جمال حمدان ـ شخصية مصر ـ المرجع السابق ـ صفحة ٩٦و٩٧ .

(١٠) الدكتور احمد فخرى ـ تاريخ شبه جزيرة سيناء ـ موسوعة سيناء ـ المرجع السابق ـ صفحة ٧٥ .

خلق قاعدة انتاجية زراعية قوية دعمتها معادن الصحراء، وبالتالي أكسب مصر سبق الحضارة والمدنية بالنسبة للجماعات البشرية الاخرى المحيطة بها، وأعطى امبراطوريتها أساس قوتها الاقتصادية والبشرية، فانه هو وبيئة مصر السهلة بصفة عامة قد قدما مناخا اجتماعيا واقتصاديا ملائما لاستبداد حكامها وسيطرة كهنتها ــ وهم فئة طفيلية على الانتاج، على مقدرات شعبها، كما وفرا فائضا اقتصاديا منتظما رتيبا ــ بفضل جهد كادحي شعب مصر الخاضعين لسلطة الملوك والكهنة ــ اتاح الظروف الملائمة لظهور وسيادة اسلوب الاسترخاء الاقطاعي وما يصاحبه من جمود في تطور وسائل الانتاج ومصادره وتكنيكه او اسلوبه الفني الصناعي. وساعدت الثروات الاتية الى الفراعنة والكهنة من جميع أرجاء الامبراطورية الممتدة من سوريا شمالا حتى النوبة جنوبا على تدعيم كل سلبيات البيئة السهلة.

ونتيجة لذلك لم تستطع جيوش مصر، خاصة بعد أن اتسع استخدام الاجانب فيها مع اتساع حالة الاسترخاء الاقطاعي الكهنوتي في نهاية عصر الامبراطورية، أن تهزم جيوش الحيثيين الزاحفة على سوريا من آسيا الصغرى وتطردهم منها بشكل حاسم، بسبب مقدرتهم القتالية المرتفعة المستندة الى الاسلحة المصنوعة من الحديد، بينما كانت أسلحة الجيوش المصرية مصنوعة من البرونز. فقد اكتشف الحيثيون الحديد ومناجمه وطرق صناعته في شمال شرق آسيا[11] ولم تهتم مصر بذلك المعدن وآثار صناعته رغم انها كانت تعرفه منذ عهد بناء اهرامات الجيزة. ثم انهارت الامبراطورية المصرية بعد ذلك نتيجة هجوم الليبيين من الغرب عام ٩٤٥ ق.م. والاحباش من الجنوب عام ٧٢٢ ق.م. ثم الاشوريين من الشمال عام ٦٧٤ ق. م الذين استخدموا الحديد وقتئذ بكثرة في تسليح جيوشهم الى حد الباس جنودهم حللا حديدية مثل فرسان العصور الوسطى في اوربا بعد ذلك، والذين استخدموا الفرسان لاول مرة في التاريخ الحربي ــ كقوة فعالة الى جانب المركبات الحربية التقليدية واستخدموا ايضا آلات قوية للحصار وهدم الاسوار، فضلا عن قيامهم بتنظيم فرقهم المقاتلة تنظيما حديثا يتيح لها المرونة وسهولة الحركة والقيادة [12] وهكذا خضعت مصر للاحتلال الأجنبي الاشوري، ثم الاحتلال الفارسي بعد ذلك في عام ٥٢٥ ق. م بعد فترة قصيرة وأخيرة من الاستغلال بدأها الملك «بسماتيك» ثم للاحتلال الاغريقي البطلمي عام ٣٣٢ ق. م عندما طرد الاسكندر الفرس منها، ثم الاحتلال الروماني والبيزنطي الذي بدأ عام ٣٠ ق. م بعد هزيمة وانتحار كليوباترة. وطوال عصور مصر المستعمرة هذه لم تعد لسيناء أهميتها الاستراتيجية السابقة كاقليم حدود نظرا لان مصر كلها أصبحت جزءا من امبراطوريات استعمارية أوسع شملتها وشملت جيرانها كلها بالاحتلال.

«سيناء» بعد الفتح العربي

حين قدم جيش عمرو بن العاص البالغ عدده أربعة آلاف مقاتل فقط، أرض مصر لفتحها وضمها الى الامبراطورية الاسلامية العربية النامية، كانت مصر ولاية بيزنطية من حيث التبعية السياسية مسيحية من حيث الدين، منقسمة الى يعاقبة ومالكيين من حيث المذهب، ومنقسمة الى خمس امارات او دوقيات محلية من حيث السلطة الادارية والعسكرية، تعاني من الاضطهاد الديني وفوضى الحكم والازمات الاقتصادية والمالية نتيجة نزح ثرواتها الى الخارج [13] الى «القسطنطينية» عاصمة الامبراطورية البيزنطية التي كانت ترسل اليها الاموال والغلال. وقد كانت كل دوقية من دوقياتها مستقلة عن الاخرى بحكومتها وحاميتها وتجهل ما تقوم به الاخرى في سبيل الدفاع عن سلامة البلاد ككل حتى دخل العرب الاسكندرية وبدأوا مفاوضاتهم مع حكومتها [13]، ولذلك لم يصادف العرب مقاومة جدية فعالة حين زحفوا على مصر عام ٦٤٠ ميلادية، لتأمين فتوحاتهم لفلسطين وسوريا من الجنوب وللحصول على ثرواتها الزراعية التي كانت لا تزال وفيرة نسبيا رغم الخراب الاقتصادي والتفكك السياسي والقومي الذي كانت تعانيه بشدة. وسلك جيش عمرو ابن العاص طريق «حورس» التقليدي مستوليا على العريش دون مقاومة ثم وصل أبواب مدينة «الفرما» أو «بلوسيوم» كما كانت تعرف عند اليونان وكانت تقع الى الشرق من بورسعيد الحالية وعلى الضفة اليمنى لفرع النيل القديم

---

(11) برستد ــ انتصار الحضارة ــ المرجع السابق ــ صفحة ١٤٤.

(12) ديورانت، ول ــ قصة الحضارة ــ ترجمة محمد بدران ــ جزء من المجلد ١ ــ القاهرة ١٩٦١ ــ لجنة التاليف ــ صفحة ٢٧٣.

(13) صبحي وحيدة ــ في اصول المسألة المصرية ــ القاهرة ١٩٥٠ ــ الانجلو المصرية ــ صفحة ٣٥ و٣٦.

المنبتى باسمها « البلبوتى » حيث حاصرها لمدة شهر حتى اقتحمها وواصل زحفه بعد ذلك الى « بلبيس » واستولى عليها بعد شهر آخر من القتال • ثم انتشر الجيش العربي فى الدلتا والصعيد بعد ذلك قبل أن يحاصر حصن « بابليون » ويستولى عليه باتفاقية صلح مع « المقوقس » سبقتها اتفاقية اخرى مع القبط اليعاقبة فى الدلتا والصعيد وتلتها اتفاقية اخيرة مع بطريرك الاسكندرية المالكى • ولم تلعب سيناء لمصر البيزنطية أى دور فى الدفاع ضد الفتح العربي نظرا لتبعيتها العامة للامبراطورية البيزنطية ولافتقادها للوحدة الداخلية وأصبحت « سيناء » بعد الفتح العربي مجرد طريق مرور لهجرة القبائل العربية النازحة من الحجاز إلى مصر والمغرب بعد ذلك • كما استخدم طريقها الاوسط كمعبر لقوافل الحج من مصر الى الحجاز وهو الطريق الذى كان يبدأ من « القلزم» أى « السويس » قديما ويمر بمصر متلا ثم نخل ثم الثمد الى أن ينتهى عند العقبة عبر نقب منحدر مهده السلطان المملوكى « قلاوون » وقد بنيت على طول هذا الطريق بعض القلاع لحماية قوافل الحج أهمها قلعة « نخل » التى بناها السلطان المملوكى « قنصوه الغورى » ، ونتيجة لذلك كانت « النخل » لفترة طويلة هى عاصمة سيناء قبل « العريش » •

وقد استخدم طريق « سيناء » الشمالى خاصة كمعبر بري لجيوش الطولونيين والاخشيديين والفاطميين الزاحفة على بلاد الشام اثناء صراعات هذه الاسر التى استقلت بمصر ، مع الخلافة العباسية فى بغداد • كما استخدمتها جيوش الصليبيين التى غزت مصر فى نهاية الدولة الفاطمية بناء على استدعاء الوزير شاور لهم ليدعموا سلطانه فى مواجهة نور الدين وأسد الدين شيركوه وصلاح الدين الايوبى ، الذين كانوا يصلون الى مصر عبر الطريق الاوسط لسيناء فى نفس الوقت الذى كان الصليبيون يسيرون فيه نحو مصر عبر الطريق الساحلى الشمالى •

وطوال هذه المراحل لم تستخدم « سيناء » كعمق دفاعى استراتيجى لمصر ، ولذلك كان يسهل دائما انتصار هذه الجيوش الاجنبية المختلفة فى معظم الاحوال على قوى الحكام عند القاهرة أو الدلتا ، بسبب عدم استفادتهم من ميزة الحاجز الصحراوى وسماحهم لاعدائهم بعبوره دون اعتراض ؟ والوصول بالتالى الى الدلتا المكشوفة الخضراء ، حيث يصعب بل يستحيل تقريبا صد أو هزيمة العدو ، لانعدام الموانع الطبيعية، واتساع جبهة المواجهة باتساع موارد المياه والطعام التى يمكن أن يحصل عليها المهاجم من أى مكان بشرق الدلتا • والتاريخ يسجل لجيوش مصر النجاح فى الدفاع عنها متى خرجت الى حدودها الاستراتيجية واستفادت من استنادها الى عمقها الصحراوى ، الذى يبعد نار الحرب عن الوادى الاخضر المكشوف ، وخاصة فى ظل بعده الاسيوى الفلسطينى او السورى ، وذلك كما تشهد معارك «مجدو» تحتمس ، و « حطين » صلاح الدين و « عين جالوت » قطز ،وعلى العكس انتهت معظم المعارك الدفاعية التى دارت عند مشارف الدلتا والوادى المباشرة بالهزيمة فى الغالبية الساحقة من الحالات، كما تشهد بذلك مثلا « ريدانية » طومان باى ضد السلطان سليم و « أهرام الجيزة » ضد نابليون الخ • (١٤)

« سيناء » والحملة الفرنسية

كانت مصر فى عصر المماليك قد اكتسبت بحكم موقعها أهمية استراتيجية عالمية بسبب احتكارها شبه المطلق لطريق مرور حركة التجارة العالمية الاخذة فى النمو والازدهار بين اوروبا والشرق الاقصى ، بعد أن أدت موجات الغزو التتارى المتتالية على العراق الى قفل الطريق البرى الثانى ، الذى كان ينافس طريق مصر السيادة فى عصور قوة الدولة العباسية والذى كان ينتهى عند البصرة • الا انها فقدت أهمية موقعها هذا اثر تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح ابتداء من اكتشاف البرتغاليين له عام ١٤٩٨ ، وكان من نتائج هذا التحول لحركة التجارة ان فقدت الدولة المملوكية مصدرا أساسيا من مصادر تمويلها ، مما ساعد على هزيمة جيوشها أمام العثمانيين فى موقعة « مرج دابق » عام ١٥١٦ ، وكان أن دخلت مصر أثر ذلك فى عام ١٥١٧ عصر الاحتلال العثمانى المظلم الذى أغرقها فى ركود اقطاعى تام وعزلة رهيبة عن العالم استمرت نحو ثلاثة قرون كاملة . حدث هذا لمصر ولمنطقة الشرق الاوسط كلها فى عصر كانت البورجوازية الاوروبية قد بدأت فيه تبنى لبنات حضارتها التجارية ثم الصناعية بسرعة وتحطم أسوار العزلة الاقطاعية عن بلادها • «ولهذا فكما فاجأت مصر القديمة

(١٤) راجع فى ذلك المعنى الدكتور جمال حمدان فى شخصية مصر - المرجع السابق - صفحات ٩٧و١١٣ .

الشرق القديم بحضارة رائعة مكتملة فى حينها ، ستجد مصر الحديثة أمامها فجأة حضارة معقدة أرقى بكثير تطرق أو تقتحم أبوابها عليها بلا استئذان ، حيث كانت الحملة الفرنسية كزيارة الكومودور « بيرى » لليابان ، وكل وضع حدا « لفترة عزلة » شهيرة »[15] ولذلك كان من المنطقى لمراد بك الامير المملوكى أن يقول لمن حذره من احتمال غزو الفرنسيين لمصر « دعهم ينزلون الى البر ، فسوف نفنيهم تحت سنابك خيولنا » (١٦) ثم يأمر حاكم الاسكندرية بسد بوغاز رشيد بسلسلة غليظة · حتى لا تستطيع المراكب النصرانية اجتياز باب البوغاز · !

كان من المنطقى أن يفكر مراد بك على هذا النحو بعد قرون من العزلة وراء أسوار الحكم التركى المتخلف وصراعات السلطة الداخلية بين المماليك والباشا والانكشارية » أن مراد بك لم يكن يدرك أن الاقطاع المتجمد يواجه الرأسمالية الصاعدة » (١٦) وبوصول الحملة الفرنسية الى مصر فى يوليو ١٧٩٨ خرجت مصر من عزلتها الى مهب تيارات الصراع الاستعمارى العالمى الحديث فجأة ، وعاد اليها موقعها الاستراتيجى وبأبعاد عالمية أكثر عمقا بكثير عن أية مرحلة سابقة من التاريخ · وعاد الى « سيناء » بالتالى أيضا موقعها ودورها ، وهو يحمل فى طياته أبعادا عالمية بذرتها فيه حركة الصراع الاستعمارى الرأسمالى الحديث . عادت « سيناء » الى دور الدرع الشرقى التقليدى للقوة المسيطرة على مصر والعمق الاستراتيجى الدفاعى وقاعدة الانطلاق نحو الشرق · وكان ذلك عندما أدرك « نابليون » بحسه الاستراتيجى العسكرى السليم أن الدفاع عن الوجود الفرنسى فى مصر انما يبدأ من فلسطين وسوريا مستندا الى عمق سيناء الصحراوى ، ولذلك سار على راس حملة قوامها ١٣ ألف جندى تستهدف تامين حدود مصر الشرقية وحرمان الاسطول البريطانى من أقرب قواعد تموينه الا وهى موانى ساحل الشام وأهمها « عكا » · وقد سبق ارسال هذه الحملة عبر صحراء سيناء الى فلسطين ، ارسال قوة استطلاع استولت على بلدة « قطية » الواقعة على مبعدة ٢٦ ميلا من القنطرة وحولتها الى قاعدة امامية لقوات الحملة ، كما استطلعت الطريق الساحلى المؤدى الى « العريش » حيث كانت هناك قوات تركية تحتل قلعتها ومعسكر آخر بالقرب منها · وقد حاصرها « نابليون » فى الفترة من ٨ فبراير عام ١٧٩٩ حتى ٢٠ فبراير من نفس العام الى أن استسلمت الحامية التركية التى كان يبلغ عددها نحو ٣٠٠٠ جندى من الالبان والترك والمماليك والمغاربة والعرب بعد أن قتل منها نحو ١٢٠٠ رجل مقابل نحو ٤٠٠ جندى فرنسى فقدهم نابليون فى القتال العنيف الذى دار يومى ١٩ و ٢٠ عند أسوار القلعة العنيدة التى ترتفع أسوارها نحو ٣٠ قدما [17] .

ومن « العريش » زحف « نابليون » نحو فلسطين تاركا فيها حامية صغيرة ، واستولى فى طريقه بعد ذلك على غزة والرملة ويافا وحيفا ، ثم ردته أسوار « عكا » ـ ومدافع الاسطول الانجليزى والطاعون عن هدف حملته الرئيسى . فعاد أدراجه الى مصر مرة أخرى مارا بالعريش يوم ٥ يونيو عام ١٧٩٩ حيث ترك حامية قوامها نحو ٢٥٠ جنديا فى قلعتها ·

وقد استسلمت هذه الحامية بعد ذلك للاتراك فى يناير عام ١٨٠٠ أثناء مفاوضات صلح كانت تجرى بين الجنرال كليبر والبريطانيين حول الانسحاب من مصر ، وتعرض نحو ١٥٠ من رجالها للذبح من جانب الجنود الاتراك قبل أن يستطيع الضابط البريطانى المرافق لهم وقف هذه المذبحة · وقد شهدت « العريش » بعد ذلك فى يوم ٢٤ يناير عام ١٨٠٠ توقيع أول معاهدة للصلح بين فرنسا وتركيا وبريطانيا ، وقضت شروطها باخلاء الفرنسيين سيناء تماما بانسحابهم من « قطية » ، ثم من الصالحية وبلبيس بعد عشرة أيام من التصديق على المعاهدة ·

ولم تشهد « سيناء » بعد ذلك اية معارك أخرى حتى جلاء الفرنسيين تماما عن مصر فى سبتمبر عام ١٨٠١ وانما شهدت صحراء « عين شمس » قرب القاهرة معركة كبرى يوم ٢٠ مارس عام ١٨٠٠ بين « كليبر » و « الاتراك » الزاحفين عبر « سيناء » ، وذلك نتيجة لرجوع الانجليز عن قبولهم لشرط جلاء الفرنسيين بكامل سلاحهم، وقد انتصر « كليبر » فى معركة « عين شمس » هذه وطرد

---

(١٥) الدكتور جمال حمدان ـ شخصية مصر ـ المرجع السابق ـ صفحة ١٥١ .
(١٦) فوزى جرجس ـ دراسات فى تاريخ مصر السياسى منذ العصر المملوكى ـ القاهرة ١٩٥٨ ـ صفحة ٢٤ .
(١٧) كرستوفر هيرولد ـ بونابرت فى مصر ـ ترجمة فؤاد اندراوس ـ القاهرة ـ الكاتب العربى ـ صفحات ٣٦٤ ـ ٣٧٠ .

الإتراك بعيداً عن مصر العمران ، وتلك حالة نادرة في تاريخ مصر العسكرى يهزم فيها جيش مهاجم على أطراف الدلتا بعد نجاحه فى عبور الحاجز الصحراوى الشرقى ، ولعلها ترجع الى عنصر المفاجأة والسرعة والاختلاف الكيفى الواضح بين تسليح وتنظيم وقيادة الجيش البورجوازى الفرنسى وبين الجيش الاقطاعى التركى المتخلف ، أكثر مما ترجع الى ملاءمة الموقع الاستراتيجي للمعركة من عدمه .

« سيناء » فى عصر محمد على

أسفر صراع السلطة الداخلى فى مصر الذى خلفه خروج الحملة الفرنسية منها ، وهو الصراع الذى دار بين أطراف ثلاثة : المماليك والعثمانيين والشعب المصرى ، عن استيلاء مغامر عسكرى عثمانى على حكم مصر واستقلاله بها كدولة لها ثقلها الاقتصادى والاستراتيجي لحسابه الخاص ، وذلك لاسباب عدة لا محل لذكرها الان ، أهمها ضعف البورجوازية المصرية ـ أو نواتها الاولى فى الواقع ـ بجناحيها من تجار ومثقفين ، ممثلة فى قائدها السياسى « **عمر مكرم** » ، فى الانفراد بالسلطة . وتلك ظاهرة غريبة تكرر حدوثها على طول تاريخ مصر كمستعمرة ، ويشهد بها ويؤكدها عهد الدولة الطولونية والاخشيدية والفاطمية والايوبية والملوكية **وعلى بك** الكبير ثم أخيرا **محمد على** . **وقد** أستفاد محمد على من الضربة القاصمة التى وجهتها الحملة الفرنسية للطبقة الاقطاعية القديمة ـ أى المماليك ـ عسكريا واقتصاديا واجتماعيا ، فى استكمال تصفية هذه الطبقة سياسيا وجسديا . وتركيز السلطة تماما فى يديه مدعما اياها باحتكاره ملكية الارض ، أى بتأميم الاقطاع ، ثم بتأميم التجارة والصناعة أى تصفية البورجوازية المصرية الوليدة . وأدت اجراءات محمد على هذه فضلا عن ادخاله نظام الرى الدائم فى الدلتا ، الى زيادة المساحة المحصولية للزراعة ، وبالتالى زيادة الثروة الاقتصادية للبلاد ، مما شكل الاساس المادى الجديد لمصر الدولة الجديدة ، التى انطلقت تنشىء امبراطورية اقطاعية على حساب الامبراطورية التركية الاقطاعية الهرمة ، وسط معترك الصراع الدولى القائم بين الدول الرأسمالية الاستعمارية حول تركة « الرجل المريض » كلها لتصفيتها لحساب تطلعاتها المتزايدة حول أسواق الشرق وموارد المواد الخام والنقط الاستراتيجية الموجودة على طول طرق المواصلات البحرية معها .

وباستقلال مصر الدولة ـ بغض النظر عن الاصل الاجنبى للاسرة الحاكمة واستبعادها للشعب ـ عاد لاقليم « سيناء » ثقله الاستراتيجي مرة أخرى كحدود سياسية شرقية وقاعدة ومعبر الى الشرق . ولذلك قام **ابراهيم باشا** قبل زحفه الى سوريا عام ١٨٣١ عن طريق العريش باصلاح وترميم آبار المياه على طول « طريق حورس » التديم عند « **قطية** » و « **العبد** » و « **المزار** » و « **العريش** » و « **الشيخ زويد** » و « **خان يونس** » و « **غزة** » ، كما نظم خطا للبريد بوساطة الهجانة على طول هذا الطريق ، وأقام حرسا على الابار ومحطات البريد لمواجهة غارات البدو التى اضطر ان يجرد لها حملة تاديبية صغيرة بعد ذلك (١٨)

وكانت « سيناء » فى ذلك العهد تخطو أول خطواتها الحديثة نحو استعادة مركزها الاقتصادى التعدينى ، وذلك عندما أرسل محمد على مهندسا فرنسيا يدعى « **لينان** » الى جبل الطور ليدرس على الطبيعة امكانيات التعدين هناك ، ضمن محاولاته المتعددة لاكتشاف المواد الخام اللازمة للصناعة الحربية التى أنشأها لخدمة استراتيجيته العامة ، وكان ذلك فى عام ١٨٢٥ وقد قام « لينان » هذا برسم خريطة لسيناء اثناء مهمته هذه (التى لم نعرف نتائجها الفعلية) وهى أول خريطة لسيناء فى التاريخ الحديث (١٨) . وبعد أن فشلت استراتيجية محمد على العسكرية التوسعية فى مواجهة تدخل أوروبا الراسمالية ، وخاصة انجلترا ، ومساندتها لتركيا أو « الرجل المريض » ، وأسفرت عن مجرد احتفاظه لاسرته بحكم مصر ضمن تبعية شكلية لتركيا وبدء تبعية فعلية غير مباشرة للاستعمار الاوروبى ، تضمن الفرمان الذى أصدره السلطان محمود الثانى لمحمد على سنة ١٨٤١ اعتبار « سيناء » أرض مصرية تابعة لولاية مصر وتمتد حدودها من « رفح » شمالا حتى خليج العقبة بما فيها « العقبة » نفسها وقلاعها التى كانت مصر قد بنتها وتشرف عليها منذ العصور الوسطى بقصد تأمين طريق الحج البرى بينها وبين الحجاز (١٨) .

« سيناء » والاستعمار البريطانى

لقد كان « **نابليون** » يلح على حكومة الثورة الفرنسية بضرورة احتلال مصر لانه يعتبرها أهم موقع استراتيجى فى العالم كله ، ولذلك قيل من بعده « قل لى من يسيطر على مصر ، أقل لك من يسيطر على العالم » (١٩) . ولقد كان من أخطر

(١٨) نعوم شقير ـ تاريخ سيناء ـ المرجع السابق ـ صفحة ٥٤٤ و٥٤٥ .
(١٩) الدكتور جمال حمدان ـ المرجع السابق ـ صفحة ١١٥ و١١٧ .

نتائج الحملة الفرنسية على مصر أنها لفتت نظر «بريطانيا» وبشدة الى أن مصر كموقع تهدد الطريق الى الهند «جوهرة التاج البريطاني» ، ولذلك أسرعت بريطانيا فى تنفيذ سياستها الرامية الى الاستيلاء على المراكز الاستراتيجية المتحكمة فى طرق الملاحة البحرية بينها وبين الهند والشرق الاقصى عامة (٢٠) ، فكان ان احتلت « مالطة » ـ وقبل ذلك كانت قد احتلت «جبل طارق» ـ ثم عدن عام ١٨٣٠ وكذلك البحرين والكويت ومحميات الخليج الفارسى ، وبقى أمامها ان تستولى على قلب هذا الخيط الطويل من المواقع الاستراتيجية البحرية الا وهو « مصر » ، حتى اذا ما شقت « قناة السويس » بنفوذ فرنسى فى ستينات القرن التاسع عشر ، أصبحت ضرورة السيطرة على مصر أشد الحاحا من جانب « بريطانيا » لان القناة اصبحت فى نظرها « شريان الامبراطورية وخط الحياة فيها » ، بل لقد أدى شق القناة ، وبالتالى ارتفاع قيمة مصر الموقع الاستراتيجى الى ذرا لم يبلغها قط من قبل ، الى ظهور فلسفة استعمارية عالمية غريبة عبر عنها الفيلسوف الفرنسى « رينان » بقوله لديلسبس : « أن بلادا مثل مصر لهامثل هذه الاهمية لباقى العالم لا يمكن أن تكون مستقلة تماما من الوجهة السياسية » .

وقد استمر صدى هذه الافكار يتردد وكأنه مسلمات بديهية على الاقل بالنسبة للقناة نفسها حتى التأميم عام ١٩٥٦ وما تبعه من تكوين جمعية المنتفعين بالقناة فى « لندن » . ولما كانت « سيناء » هى العمق الشرقى الاستراتيجى للقناة بحكم انها ضفتها الشرقية مباشرة ، فقد تركز انتباه بريطانيا عليها وهى تحضر خططها للاستيلاء على مصر وقناتها ، ولذلك أرسلت من خلال الجمعيات الجغرافية وغيرها من المؤسسات العلمية ـ المدنية فى الظاهر المسكرية والاستراتيجية فى الواقع ـ بعثات الى « سيناء » فى الفترة من ١٨٦٨ ـ ١٨٧٠ لاستكشافها ودراستها واعداد خرائط مفصلة لها والاتصال بالقبائل التى تسكنها ، وكان من بين أفراد هذه البعثات وأكثرهم اهمية استاذ اللغة العربية فى جامعة « كمبردج » يدعى « هنرى بالمر » تسمى باسم « الشيخ عبد الله » ليخدع عرب قبائل سيناء بأنه مسلم كما فعل «لورنس» من بعده .

وقد عاد هذا الجاسوس البريطانى الى « سيناء » مرة أخرى أثناء الحملة البريطانية على مصر ابان الثورة العرابية ليقوم خفية بقطع خط التلغراف بين مصر وفلسطين وتهدئة عرب « سيناء » أثناء العمليات الحربية فى منطقة القناة ضد الجيش المصرى حتى لا يحاولون تخريب السفن الانجليزية العابرة فيها بالتعاون مع قوات عرابى . وخرج « بالمر » من « السويس » يوم ٨ أغسطس عام ١٨٨٢ قاصدا بلدة « نخل » عن طريق وادى « سدر » ومعه ضابط من البحرية وآخر من المهندسين ومترجم سورى وطباخ اسرائيلى وثيق الصلة بعرب سيناء وعشرة من الجمالة البدو ، متظاهرا بأنه يريد مجرد شراء جمال للحملة البريطانية من قبائل سيناء . ولكن رجال هذه القبائل المتعاطفين مع الثورة العرابية انقضوا على « بعثة بالمر » السرية وقتلوا أفرادها جميعا باستثناء البدو يوم ١١ اغسطس رميا بالرصاص فى وادى قرب عين « أبو رجوم » . وقد قامت سلطات الاحتلال البريطانى بعد ذلك بالبحث عن قتلة « بالمر » ورفاقه وقبضت عليهم وحاكمتهم وأعدمت بعضهم وسجنت البعض الاخر (٢١) .

وباحتلال مصر أصبحت « سيناء » موقعا استراتيجيا بالغ الاهمية فى تأمين القناة والدفاع عنها بالنسبة لبريطانيا ، بل ان مصر كلها أصبحت ضرورية للمحافظة على شريان حياة الامبراطورية ! ولذلك كانت بريطانيا حريصة ، ربما أكثر من الحكومة المصرية نفسها وقتئذ ، فى المحافظة على حدود « سيناء » وتوضيح معالمها التى تفصلها عن فلسطين الخاضعة للامبراطورية العثمانية .

تعيين حدود سيناء عام ١٩٠٦

قبل القرن العشرين لم تكن حدود مصر الشرقية ، أى حدود شبه جزيرة سيناء التى تفصلها سياسيا عن فلسطين أو عن سوريا كما كانت تسمى قديما ، لم تكن هذه الحدود معينة على نحو دقيق كامل . ولكن كان من الثابت والمعروف تاريخيا أن حدود مصر فى سيناء تبدأ شمالا عند « رفح » ، حيث دارت معركة كبرى بين أحد فراعنة الأسرة الخامسة والعشرين والاشوريين عام ٧٢٠ ق . م تقريبا وحيث دارت معركة كبرى اخرى بين بطليموس الرابع ملك مصر وانطونيوس ملك

(٢٠) فوزى جرجس ـ المرجع السابق صفحة ٢٩ .
(٢١) نعوم شقير ـ المرجع السابق ـ صفحة ٥٤٧ ـ ٥٥٣ .
ملحوظة : لم نذكر فى دراستنا هذه كافة المعارك التى شهدتها سيناء على مر التاريخ لان المجال لا يتسع لذلك وانما اكتفينا بالاستقراء الاستراتيجى العام لاهمية سيناء العسكرية ويمكن للقارىء ان يرجع فى معرفة تفاصيل معارك سيناء الى كتاب « سيناء ارض المعارك » تأليف عبد الرحمن زكى ـ القاهرة ١٩٥٧ .

سوريا هزم فيها الآشوريين عام ٣٢٧ ق٠م ، حيث أقيم منذ زمن قديم عمودان من الجرانيت المصرى لتوضيح بداية حدود مصر ، وقد ورد ذكر هذين العمودين فى أخبار فتح عمرو بن العاص لمصر وفي كتب عديد من المؤرخين العرب مثل اليعقوبى فى كتابه « البلدان » وغيره ٠ كما ورد ذكرهما فى الكتابات التسجيلية لحملة نابليون على سوريا اذ قيل فيها « واستأنف الجيش السير فى ٢٤ فبراير سنة ١٧٩٩ ، وفى الطريق حيا العمد المشيدة فى الصحراء لتعيين الحد بين افريقيا وآسيا حتى وصل خان يونس » وخان يونس هذه هى البلدة التى تلى رفح مباشرة داخل فلسطين كما هو معروف ٠

وكان الحد الجنوبى لهذه الحدود هو بلدة العقبة التى كانت تسمى قديما « أيله » (واسم ايلات الحالى هو تحريف لذلك الاسم القديم) وقد استولى الصليبيون عليها ذات مرة ليعزلوا مصر بريا عن الشام ولكن صلاح الدين الايوبى استردها منهم بسرعة عام ١٢٦٦ وترك بها حامية دائمة ٠

وظلت العقبة بعد ذلك جزءا من مصر ينتهى عندها طريق الحج المصرى الذى كان يبدأ من السويس ويمر بنخل ، وقد بنى فيها السلطان المملوكى « قنصوة الغورى » قلعة لتأمين الطريق المذكور ضمن بقية القلاع الاخرى التى كانت مبنية على امتداده ٠ ولقد كانت كل فرمانات تعيين محمد على وخلفائه تعتبر العقبة وسيناء كلها دائما جزءا من ولاية مصر ، الى أن تولى الخديو عباس حلمى الحكم عام ١٨٩٢ ، وهو أول خديو يعين بعد الاحتلال البريطانى لمصر ، فانتهز السلطان عبد الحميد الفرصة ليبعد سيناء عن سيطرة بريطانيا والعقبة بالذات ايضا تحقيقا لسياسته الخاصة بحركة الجامعة الاسلامية وتأمينا لخط السكة الحديد الذى كان ينوى مده الى الحجاز عن طريق العقبة بمعونة ألمانيا ، ولذلك أصدر الفرمان الخاص بعباس الثانى فى ١٧ يناير ١٨٩٢ وقد أخرجت منه سيناء والعقبة من ولاية مصر ٠ ولكن الحكومة المصرية رفضت ذلك بتأييد قوى من بريطانيا ، فأرسلت تركيا برقية أخرى فى ٨ ابريل ١٨٩٢ تعترف فيها بادارة مصر لسيناء ، ثم أرسل اللورد « كرومر » مذكرة الى السفارة البريطانية فى الاستانة لابلاغها الى الحكومة التركية يوضح فيها ضرورة موافقة بريطانيا على أية تعديلات تدخل على الفرمانات المنظمة لعلاقة تركيا بمصر وأن سيناء هى « الاراضى المحدودة شرقا بخط يمتد جنوبا بشرق من نقطة تبعد مسافة قصيرة عن شرق العريش الى خليج العقبة » وتستمر ادارتها بيد مصر ٠ وأما القلعة الواقعة شرقى الخط المذكور فتكون تابعة لولاية الحجاز » (٢٢)

وهكذا تنازلت بريطانيا عن العقبة المصرية لتركيا مقابل تخلى الاخيرة عن مطامعها فى « سيناء » ! ولم تنته مسألة الحدود عند هذا الحد ، ففى عام ١٩٠٥ شرعت الادارة الانجليزية فى سيناء فى بعض التنظيمات الادارية هناك وبناء سد لمياه السيول فى وادى العريش فاحتجت تركيا على ذلك لانها خشيت اقامة بريطانيا لقواعد عسكرية هناك تهدد سوريا وفلسطين ، وقامت من جانبها بانشاء نقط عسكرية فى القسيمة والكونتلا ، وهى أراض مصرية ، فردت بريطانيا بوضع نقطة حدود فى نقب العقبة ووادى « طابا » ٠ ولكن الحامية التركية فى العقبة تصدت للقوة المصرية التى أرسلت هناك فانسحبت تلك القوة الى جزيرة « فرعون » الواقعة عن مبعدة ميلين من « طابا » وثمانية أميال من العقبة ونحو ٢٥٠ مترا من ساحل سيناء وتعتبر جزءا منها ، وكان ذلك فى يناير ١٩٠٦ ٠ فأرسلت بريطانيا الطراد « ديانا » فى ١٧ فبراير ١٩٠٦ الى هذه الجزيرة وعلى ظهره مندوب عن الحكومة المصرية (وهو « نعوم شقير » الموظف المصرى السورى الاصل الذى كان يعمل بوزارة الحربية وفى المخابرات بالذات لفترة طويلة ، وهو مؤلف كتاب تاريخ سيناء السابق الاشارة اليه فى عديد من المواضع) للتفاوض على مشكلة الحدود هذه [٢٢] . ولكن المفاوضات وقتئذ لم تسفر عن نتيجة محددة ٠ ثم قامت تركيا بنزع عمودى الحدود عند رفح وأقاموا بدلهما علامات حدود جديدة فى ١٢ آبريل ١٩٠٦ داخل أرض مصر ، فأرسلت بريطانيا طرادا آخر الى رفح وعلى ظهره نفس المندوب المصرى السابق يوم ٢٨ ابريل الى الشاطىء المواجه لرفح وأعلنت لتركيا نيتها فى استخدام القوة ما لم يعد عمودا الحدود الى مكانهما السابق مع اخلاء وادى « طابا » عند العقبة من الجنود الاتراك ٠ وقد كانت كل هذه التحرشات تشكل بدايات احتدام التناقضات الامبريالية بين بريطانيا والمانيا وتركيا التى ادت الى نشوب الحرب العالمية الاولى فيما بعد ٠

وقد عضدت فرنسا وروسيا القيصرية موقف بريطانيا من مشكلة حدود سيناء ، ولان المانيا لم تكن على استعداد لخوض غمار الحرب وقتئذ ، فقد اضطرت تركيا الى التسليم بمطالب بريطانيا

(٢٢) نعوم شقير ـ المرجع السابق ـ صفحات ٥٨٨ ـ ٦٠٢ و٦١٤ ٠

وقامت فعلا بسحب قواتها من رفح وطابا فى ١٤ مايو ١٩٠٦ ٠ ودخلت بعد ذلك فى مفاوضات طويلة حول تحديد خط الحدود دارت معظمها فى « رفح »وبعضها فى « العقبة » مع وفدمصرى برئاسة اللواء **ابراهيم فتحى** وعضوية مدير المخابرات الانجليزى ونعوم شقير ، تحددت مهمته فى التفاوض من أجل رسم خط للحدود يبدأ من رفح وينتهى فى نقطة تبعد على الاقل ثلاثة أميال من العقبة ويكون خطا يقرب من المستقيم ، وفوض الوفد فى اجراء اية تغييرات طفيفة فى هذا الخط بقصد تسهيل ادارة الحدود على الطرفين ٠ وقد سبق هذه المفاوضات التفصيلية مفاوضات تمهيدية أخرى على مستوى عال فى لندن والاستانة حاولت فيها تركيا أن ترسم حدود مصر بخط يبدأ من العريش الى السويس ومنها الى نقب العقبة وبهذا يضم وسط سيناء ورفح الى فلسطين ٠ ولكن مصر وبريطانيا رفضتا هذا المشروع ٠ فقدمت تركيا مشروعا آخر بقسمة سيناء بخط مستقيم يبدأ من « **العريش** » شمالا الى « **رأس محمد** » جنوبا أى غرب « **شرم الشيخ** » ويصبح القسم الغربى تابعا لمصر والشرقى تابعا لفلسطين أو سوريا كما كانوا يقولون قديما ٠ ولكن مصر وبريطانيا تمسكتا بالحد التاريخى المعروف لسيناء ٠

وقد قامت لجنة المفاوضات المذكورة برسم خرائط للحدود بمعاونة مهندسين انجليزيين من مصلحة المساحة المصرية ، ثم وقعت اتفاقية الحدود فى « رفح » يوم أول أكتوبر عام ١٩٠٦ ، وتمت اثر ذلك اقامة ٩١ عمودا من الحجر قاعدة كل واحد متر مربع وارتفاعه متران ونصف ويشبه المسلة على طول هذه الحدود وبحيث يرى كل عمود من الذى يليه ، وأقيم أول عامود منها فى رفح على تل الخرائب وآخر عامود عند رأس طابا [٢٢] » ٠

« سيناء » والحرب العالمية الاولى

وصلت حدة الصراع الامبريالى العالمى الى عنفوانها بين الدول الاستعمارية القديمة والحديثة من أجل اعادة تقسيم العالم الذى سبق تقسيمه أثناء القرن التاسع عشر والثامن عشر وفق علاقات القوى القديمة ، فنشبت الحرب العالمية الاولى فى أغسطس عام ١٩١٤ ٠ وانضمت تركيا الى جانب ألمانيا لعلها تستطيع بذلك أن تدعم امبراطوريتها المنهارة وتستخلص من أيدى بريطانيا ما سبق أن فقدته من مستعمرات مثل « مصر » ٠ فسارعت بريطانيا بفصل مصر نهائيا عن تركيا وعزلت الخديوى عباس حلمى الثانى وولت السلطان **حسين كامل** بدلا منه معلنة فرض الحماية البريطانية على مصر ٠ وقد حاولت تركيا أن تستعيد مصر من أيدى بريطانيا بوساطة هجوم برى تشنه قواتها من فلسطين عبر سيناء لاحتلال منطقة القناة بينما تقوم قوات « **السنوسى** » من ليبيا بمعاونة بعض الضباط الاتراك والالمان بشن نوع من حرب العصابات على القوات البريطانية فى الصحراء الغربية لتشتيت جهودها وعدم تركيزها فى جبهة القناة وحدها ٠

وقد حشدت القيادة التركية ــ والتى كان يعمل معها بعض الضباط الالمان ــ فى جنوب فلسطين حيث اتخذت من « بير سبع » قاعدة رئيسية للعمليات ، جيشا بقيادة **جمال** باشا مكونا من ٣ فرق مشاة وآلاى فرسان وبعض المدفعية ومن بينها مدافع هاوتزر عيار ٦ بوصة فضلا عن عدد كبير من المتطوعين العرب ٠ وقد بلغ جملة عدد جنود الحملة التركية نحو ٣٠ آلف جندى خصص منهم نحو ١٥ ألف جندى لعبور سيناء فى المرحلة الاولى ، وقد رأس هيئة أركان حرب هذه القوات الكولونيل الالمانى «**كريس فونكرسنشتاين**» [٢٣]

كما صاحبت القوة التركية المهاجمة سريتان من المهندسين تحملان معهما كبارى عائمة وقوارب لعبور القناة ، وفى منتصف نوفمبر تقريبا عام ١٩١٤ بدأت القوات التركية زحفها عبر سيناء خلال طرقها الرئيسية الثلاثة ٠ فمن **رفح** تقدمت قوة تضم نحو ٣٠٠٠ جندى من بينهم وحدة فرسان وأخرى للمدفعية قاصدة العريش ثم بئر العبد فقاطية فالقنطرة ، ومن **العوجة** تقدمت قوة تضم نحو ٧٠٠٠ جندى معهم المدفعية الثقيلة ووحدات الكبارى العائمة قاصدة منطقة الاسماعيلية مارة بابو عجيلة فبئر الحمة فبئر روض سالم فالجفجافة ٠ ومن **بئر سبع** تقدمت قوة ثالثة تضم نحو ٣٠٠٠ جندى ومعهم بطارية مدفعية جبلية قاصدة السويس عبر طريق نخل ــ ممر متلا أى طريق الحج القديم

وكان الهجوم الرئيسى هو الذى ستقوم به شعبة الوسط ، أما القيادة البريطانية فقد واجهت هذا الزحف بالانسحاب من سيناء الى الضفة الغربية للقناة حيث تخندقت قواتها البالغ عددها نحو ٧٠ الف جندى فى استحكامات ميدانية جيدة الاعداد

(٢٣) المعلومات عن معارك سيناء خلال الحرب العالمية مستمدة اساسا من كتاب القائمقام « عبد الرحمن زكى » « سيناء ارض المعارك » ــ القاهرة ١٩٥٧ ــ صفحات ٢٠٤ ــ ٢١٤ ٠

تعززها المدفعية ، واحتياطى فى المؤخرة من الفرسان ، فضلا عن القطارات المدرعة المتحركة فى دوريات بين السويس وبورسعيد ، وبعض السفن الحربية المرابطة فى بحيرة التمساح وطائرات الاستطلاع . ولتقصير جبهة الدوريات فى القطاع الشمالى من القناة قامت القيادة البريطانية بفتح سدمن مياه البحر على الارض المنخفضة بين بورسعيد وشمال القنطرة . فلقد كانت استراتيجية القيادة البريطانية وقتئذ فى الدفاع عن مصر تقوم على استخدام القناة كمانع مائى يحميه حاجز صحراوى هائل صعب الاجتياز خاصة على جيش لايسانده أسطول من البحر المتوسط يسهل له نقل المؤن والعتاد الثقيل . ولكن الجيش التركى الصغير العدد نجح فى عبور صحراء سيناء رغم اعتماده على ٨٠٠٠ جمل لنقل المياه والمؤن فقط وعدم وجود ميكانيكية أو قطارات حديدية ، لديه ، وشن سلسلة من الهجمات المتفاوتة القوة على القنطرة والسويس فى ١٥ ،٢٧، ٢٨ يناير عام ١٩١٥ . ثم قام بهجومه الرئيسى على منطقة الاسماعيلية فيما بين نقطتى المعدية وسرابيوم فى الفترة ما بين ١ ـ ٤ فبراير ، محاولا عبور القناة بقوارب الكبارى العائمة ليلة ٣ فبراير فيما بين « طوسون » و «سرابيوم» تحت حماية نيران المدفعية والرشاشات ، وتمكنت ثلاثة قوارب من الوصول الى الضفة الغربية ولكن تم قتل أو اسر جميع من كانوا فيها وهكذا فشل الهجوم التركى على القناة وانسحب المهاجمون اثر ذلك الى داخل سيناء ، وقد عبر لواء فرسان انجليزى القناة يوم ٤ فبراير عند المعدية لاستطلاع الموقف ولكنه لم يطارد الاتراك المنسحبين ، وفى ٥ فبراير اكدت تقارير الاستطلاع الجوى انسحاب العدو على جميع الطرق واعيدت الملاحة فى القناة نهارا ثم ليلا أيضا بعد ذلك بأسبوع واحد . هذا وقد كانت القوات البريطانية المدافعة عن غرب القناة موزعة على ٤ قطاعات على النحو التالى من الجنوب الى الشمال : **القطاع الاول** ويضم الشط والكوبرى وجنيفة ، **القطاع الثانى** ويضم ديفرسوار وسرابيوم ، **القطاع الثالث** ويضم المعدية وفردان والبلاح ، **القطاع الرابع** ويضم القنطرة وملاحات بورسعيد .

وقد أدى هذا الهجوم التركى الضعيف الاثر من الناحية العسكرية الى تغيير استراتيجية الدفاع عن مصر غربى القناة واستقبال العدو المرهق من السير عبر صحراء سيناء القاحلة خلف الخندق المائى العظيم بنيران دفاعات ثابتة قوية، لانها ادت فى التطبيق ـ رغم قصر فترة القتال نسبيا ـ الى تعطيل الملاحة، وحولت الجيش البريطانى فى مصر من مهمته الاساسية وهى حماية القناة شريان حياة الامبراطورية الى الاحتماء بالقناة نفسها وبالتالى تحقق الهدف الاستراتيجى الاساسى للهجوم على مصر ولو لفترة قصيرة وكان يمكن أن يستمر متحققا لفترات اطول لو كان الجيش التركى اكثر عددا واحسن عتادا واضمن تموينا وامدادا باحتياجات قتالة .

ولذلك قررت القيادة البريطانية تطهير «سيناء» من القوات التركية وأن يكون الدفاع عن مصر والقناة عند حدودها بخط دفاعى يمتد من « العريش » الى « القسيمة » مسافة ٤٥ ميلا تحرسه قوات متحركة بدلا من تقييد نحو ١١ فرقة فى استحكامات الضفة الغربية لقناة السويس ، وذلك على اعتبار ان هذين الموقعين يشكلان مفتاحى صحراء سيناء فى الشمال والوسط خاصة وأن بهما آبار المياه الرئيسية هناك . ولذلك عبرت القوات البريطانية القناة الى الضفة الشرقية فى بداية عام ١٩١٦ فى القطاع الشمالى وزحفت نحو قاطية ورمانة بادئة بذلك سلسلة من العمليات الحربية التى تخللها هجوم تركى مضاد على هذا القطاع فى يوليو ـ اغسطس ١٩١٦ ، انتهت بمعركة كبرى عند رمانة انتصر فيها الانجليز ، ثم احتلال «العريش» بعد ذلك ومد خط للسكة الحديد من القنطرة اليها لتموين القوات البريطانية خلال معاركها الاخرى فى تطهير بقية « سيناء » ثم لتموينها بعد ذلك اثناء حملة « اللنبى » الشهيرة فى فلسطين عام ١٩١٧ بعد مد الخط الى «رفح» وبذلك بلغ طول هذا الخط الحديدى نحو ٢١٠ كيلو مترات وظل مستخدما حتى يونيو ١٩٦٧ . وعموما فان المعارك الهجومية التى شنتها القوات البريطانية على القوات التركية فى سيناء خلال عامى ١٩١٦ ، ١٩١٧ فى حاجة الى دراسة خاصة مفصلة باعتبار أنها تمثل خبرة هامة فى تكتيكات الهجوم على عدو مرابط شرق القناة فى التاريخ العسكرى الحديث .

« ســيناء » والاطمــاع الصـــهيونية القــديمة

. كانت الحركة الصهيونية بزعـــامة « **هرتزل** » تبذل كل جهد لها منذ أواخر القرن التاسع عشر وبداية العشرين من أجل اقناع سلطان تركيا «**عبد الحميد**» بالسماح بالهجرة الجماعية لليهود الى فلسطين واعطائهم نوعا من الحكم الذاتى مقابل أن يقوم اليهود بتنظيم مالية تركيا المرتبكة وتقديم القروض لها · وقد حاول « هرتزل » ان يدفع المانيا باعتبارها حليفة لتركيا الى الضغط عليها كى تقبل هذا المطلب الصهيونى · ولكن السلطان رفض عرض « هرتزل » هذا ولم تشأ المانيا من جانبها أن تمـارس مثـل هـــذا الضغط خشية اغضاب تركيا واثارة الدول الاوروبية الاخرى المتربصة بامبراطورية الرجل المريض وهى بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية (٢٤) · ولذلك اتجه «هرتزل» الى بريطانيا يطلب تبنيها للحركة الصــهيونية ومطامعها فى فلسطين وهو يعلم أنها متعاطفة تاريخيا مع هذه الفكرة بدليل أن رئيس وزرائها فى عصر محمد على وهو المستر « **بالمرستون** » كان قد عرض على سلطان تركيا فى عام ١٨٤٠ مشروع توطين اليهود فى فلسطين لانه على حد قوله فى مذكرته بهذا الخصوص لسفير بريطانيا فى تركيا المؤرخة ١١ اغسطس ١٨٤٠ « اذا عاد الشــعب اليهودى تحت حماية ومباركة السلطان فسيكون فى هذا حائلا بين محمد على ومن يخلفه وبين تحقيق خطته الشريرة فى المستقبل » (٢٥) ! وهكذا نشأت لدى بريطانيا ، أى الاستعمار الامبريالى الغربى عامة ــ فكرة الحاجز الاسرائيلى بين مصر «قلب العروبة النابض» وبقية الشعوب العربية منذ أكثر من مائة عام !

وقد اتجه « هرتزل » أولا وهو يناشد ويفاوض بريطانيا حول هذا الموضوع الى الحصول على ما تصور انه ممكن بالنسبة لها فى ذلك الوقت ، وهو اعطاؤها اليهود سيناء او جزءا منها ليستوطنوا فيه حاليا ويتخذوه قاعدة لزحفهم او استيلائهم مستقبلا على فلسطين · ولذلك نجــد « هرتزل » يكتب رسالة الى «**تشمبرلين**» فى ١٢ يوليو ١٩٠٢ متضمنة تفاصيل مشروعه بتـوطين اليهـود فى « سيناء » يقول فيها « الرجاء أن تجد طيــه ملخصا عاما لمخطط تسكين اليهود المشردين فى شبه جزيرة سيناء وفى فلسطين المصرية وفى قبرص ·· ان توطين اليهود شرق البحر الابيض المتـوسـط سيقـوى امكـان الحصـول علــى فلسطين » [٢٥] ، ثم نراه يكتب بعد ذلك مذكرة الى « لانسدون » فى ٢٤ اكتوبر ١٩٠٢ يقـول فيها « تمتلك انجلترا الان فى جنوبى شرقى البحر المتوسط مقاطعات خالية من السكان لا قيمة لها هى المنطقة الساحلية المؤلفة من العريش وشبه جزيرة سيناء · ان هذه المنطقة يمكن ان تصبح ملجأ ووطنا لليهود المضطهدين فى جميع أنحاء العالم اذا سمحت انجلترا لليهود باقامة مستعمرة هناك · ولقد قضيت وقتا ·· أتفاوض مع الحكومة التركية باسم الحركة الصهيونية للتنازل عن قسم من فلسطين ، على أن المفاوضات التركية تأخذ وقتا طويلا ، وأنا انوى السير فى هذه المفاوضات مع السلطان ·· لابعد أية شبهة فى أن استيطاننا فى العريش وغيره ، اذا أخذناه سيكون غير سلمى · أما من الناحية العملية فالاستيطان سيسير مبدئيا كما يلى : تعطينا الحكومة البريطانيـــة امتيازا للمقاطعات المطلوبة ·· وعلى أساس هذا الامتياز سنؤسس شركة استيطان « الشركة اليهــودية الشرقية » بمبلغ خمسة ملايين جنيه كرأس مال · وتقوم هذه الشركة بأعمال الاستيطان حســب التخطيط . فيذهب موظفون فنيون وخبراء زراعة حالا الى هناك لتهيئة الطرق والسكك الحــديد والموانىء ولدراسة المساحات وتقسيمها » (٢٥) !

وقد توقفت المفاوضات حول « سيناء » بعــد ذلك لان انجلترا وجدت معارضة مصرية لذلك المشروع ، كما أنها خشيت اثارة مخاوف تركيــا بالنسبة لاستعداداتها فى سيناء ، وهى خشية أكدتها أحداث الحدود عام ١٩٠٦ ·

---

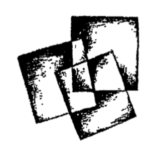
(٢٤) احمد بهاءالدين ــ اسرائيليات ــ القاهرة ١٩٦٧ ــ سلسلة كتاب الهلال العدد ٢٠٠ ــ صفحات ١٨ و ١٩ ·
(٢٥) وثائق القضية الفلسطينية ــ الجزء الاول ــ القاهرة ــ مركز دراسات الشرق الاوسط ــ وثيقة ١٢ ــ صفحة ٣١ ووثيقة ٥١ صفحة ١٢٩ ووثيقة رقم ٥٢ ــ صفحات ١٣١ و١٣٢ ·

« سيناء » الاسيرة

منذ يونيو ١٩٦٧ ترسف« سيناء » فى أغلال الاسر الاسرائيلى تجمع وترنو رمالها ، التى ارتوت بدماء آلاف الشهداء ، الى شعب مصر الذى يقف صامدا على الضفة الغربية للقناة ، حزينة لانها حرمته أمنها وعمقها ، حرمته حماية درعه الشرقى الحصين ترنو وهى صابرة على مضض ليوم خلاصها ، يوم تسير فوقهاأقدام جنود مصر وترسم دباباتهم علامات جنازيرها فوق حباتها . ان سيناء ليست مجرد صحراء جدباء ، وليست مجرد جبال صماء ، وليست أرض البترول والنحاس والفيروز فحسب ، انها تحتل موقع القلب من الصحراء المصرية العظيمة حامية مصر العمران والسكان والحياة . ان سيناء جزء لا يقدر بمال من التراب المصرى والوطن العربى ، ان سيناء تحتل فى الوجدان المصرى الوطنى ما تحتله القاهرة والدلتا والصعيد ، فلقد نهضت مصر الشعب مصر الدولة المستقلة وبدأت مسيرتها من أجل أن تملا بقوتها الاقتصادية والعسكرية والحضارية فراغ موقعها ، ولذلك لم يكن مصادفة ان يسعى الاستعمار الى سلبها « سيناء » ليطل من سقفها فوق الوادى الاخضر وهى تبنى استقلالها ويصوب اليها ضربات خطرة .

لم يكن من المصادفة أن تحتل اسرائيل سيناء وتتمسك بها سواء فى صورة احتلال كامل أو جزئى لها أو فى صورة نزع سلاحها لتؤكد بقاءها ولتؤكد عزل مصر بريا عن ارتباطها التاريخى بالمشرق العربى ، وتنفى احد الشروط الجوهرية للقومية العربية وهو شرط الارض المشتركة (٢٦) شرط الاتصال البرى بين المشرق والمغرب العربى .

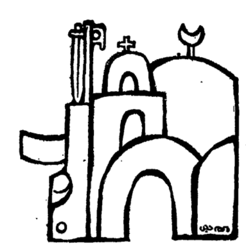
ان النضال من أجل تحرير سيناء والارض العربية المحتلة يعد من صميم المسألة الوطنية المصرية فى هذه المرحلة التاريخية الحاسمة من تاريخ نضال الشعب المصرى بقدر ما هو من صميم المسألة القومية العربية .*



* لم نتعرض فى مقالنا هذا للحملات الاسرائيلية العسكرية على سيناء فى عامى ١٩٥٦ و ١٩٦٧ والدروس المستفادة منهما لان ذلك موضوع دراسة مستقلة . نأمل ان نقدمها مستقبلا نتناول فيها الطبيعة الاستراتيجية لسيناء الان فى الحرب الحديثة على ضوء طبوغرافيتها واستنادا للاستقراء التاريخى لموقعها الاستراتيجى العام الذى قدمناه فى دراستنا هذه .

(٢٦) راجع فى هذا المعنى المقال القيم للاستاذ محمد عمارة (سيناء الشرط الثالث للقومية العربية) المنشور بمجلة الهلال المصرية عدد يونيو ١٩٧١ صفحات ١٢ — ٢١ .

القاهرة ..
وموقعها
من النضال العربى



د. محمد على الشهارى

لكل حركة تاريخية أصيلة « قادرة على التأثير الواسع والعميق على مجريات الاحداث العالمية مركز ثقل تاريخى، ماديا كان هذا المركز او سياسيا ، او حتى روحيا « ان لم يكن كل ذلك .

فكما عرفت لندن ــ على سبيل المثال فقط ــ بأنها القلعة العتيدة للاستعمار القديم ، وعرفت واشنطن بأنها القاعدة المتروبولية ، والزعيمة السياسية للاستعمار الجديد ، فان الاتحاد السوفيتى أصبح ليس فقط الدولة الاشتراكية الاولى ، بل والاساس التاريخى والمادى ، العلمى والتكنولوجى للاشتراكية العالمية .

وفى اطار حركة التحرر الوطنى الديمقراطى العالمية ذات المنحى الاشتراكى احتلت وما تزال تحتل كوبا ــ فى امريكا اللاتينية ــ مركزا قياديا فى الثورة غير منازع ، تماما كما هو الحال بالنسبة لفيتنام فى الشرق الاقصى التى تتمتع بنفس الموقع القيادى الثورى المشع والملهم .

فأين يقع ــ مرة أخرى ــ المركز القيادى لثورة التحرير الوطنى الديمقراطى العربية ذات التوجيه الاشتراكى ؟

ان هناك من الاسباب ما يكفى لتبرير اعادة طرح مثل هذا التساؤل الذى تبدو اجابته بديهية ومفهومة سلفا ،ــ دون حاجة الى عناء او بحث، بل ومتفقا عليها ، ومفروغا منها ، ويمكن تتبع أبرز هذه الاسباب بالابتداء بأحداثها ، وأكثرها قربا من الاذهان .

موجة رومانسية

فلقد سادت بعض أوساط المقاومة الفلسطينية ــ وفى غمرة الحماس الجارف المحيط بها ــ موجة ثورية رومانسية صاخبة ، وتقييمات ذات فعالية، اعتبرت بمقتضاها نفسها « طليعة الثورة العربية » ، وفرقتها الصدامية الاولى ، ورأس الرمح فيها ، وذلك انطلاقا من زاوية تصديها لدولة العدوان الصهيونية ــ منذ معركة الكرامة فى الاردن التى كانت دون شك من أشرف وأروع الوقفات الشجاعة التى ساهمت فى اعادة الاعتبار

والكرامة للامة العربية التى كانت ما تزال حتى ذلك الوقت ترعف وتنزف دما من آثار طعنة يونية النجلاء الغادرة ، ومن حيث احتضان حركة الثورة العربية لها ، واعترافها بمكانتها ، ومن ناحية طرحها الايديولوجى والسياسى المتصاعد الحدة لقضية النضال ضد الصهيونية ، والاستعمار ، والرجعية فى وقت واحد ، ورفعها لشعار القضاء على المصالح الامبريالية فى المنطقة العربية دون ابطاء ، ومن واقع اشتباكها فى سبتمبر ١٩٧٠ مع السلطة الاردنية فى معركة غير متكافئة ، خاضتها باسم الامة العربية كلها ، ودفاعا عن ثورتها فى مواجهة هجمة رجعية مدبرة ضارية ، اشتركت فى التخطيط والاعداد لها قوى الاستعمار والصهيونية معا ، بقصد كسر شوكة المقاومة ، وتحطيم نصلها المسدد الى نحر الحلف العدوانى الثلاثى ، وبغرض تصفية القضية الفلسطينية من أساسها ، واحباط قيام الجبهة الشرقية نهائيا ، وعزل الجبهة الغربية الصامدة فى استبسال ، واضعاف حركة النضال العربى برمتها .

وبلغت هذه الثورية الرومانسية لدى المقاومة الفلسطينية وهذه النظرة غير الموضوعية بصدد تقييمها لحركتها حد أن تتصور أو أن تطمح الى ان ترى فى نفسها المثل الثورى الفيتنامى ، وحد ان « يقال دائما ان ثورة فيتنام يساعدها وجود «هانوى» .. وثورة فلسطين تحتاج بالتالى الى « هانوى عربية » ، وحد أن تحلم « بأن تكون « عمان» بوضعها الخاص من فلسطين والفلسطينيين ، فى اطار الظروف العربية المعروفة « هانوى » من نوع ما » . (المصور ٩ - ٤ - ١٩٧١ ، اذا لم تكن عمان هانوى ، فهل يلزم أن تكون سايجون ، أحمد بهاء الدين) .

ان المؤامرة التصفوية التى اخذت تتعرض لها المقاومة الفلسطينية منذ سبتمبر ١٩٧٠ على يد حكام عمان المتواطئين مع الصهيونية والاستعمار ، والدور الشهير الذى لعبه الزعيم الخالد جمال عبد الناصر لايقاف هذه المؤامرة الدموية ، ولحماية الثورة الفلسطينية ، واعطائها فرصة تنمية قواها ، وتصليب عودها ، واستكمال بناء نفسها ، وسقط وهو يؤديه بالفعل ، وتصدى الجمهورية العربية المتحدة مجددا وعلنا للذود عن المقاومة ، وعلى مختلف المستويات ، وحشدها للرأى العام العربى ضد المتآمرين عليها ، قد برهن مرة أخرى أين هى الخلفية العربية الرصينة ، القادرة على التأثير ، والتى يمكن الاعتماد عليها فى دعم الثورة الفلسطينية ، وتمكينها من مواجهة المصاعب المحيطة بها ، ومساعدتها على الثبات والوقوف ضدها .

لعبة المحاور

وبعد نكسة يونية ١٩٦٧ مباشرة بدا أن بعض القوى العربية قد وجدت ان الوقت ربما أصبح الان اكثر مواتاة لها ، لتسلم الدور القيادى من يد القاهرة الى البعث فى العراق الذى - ورسالة تقوم على بعث الماضى العربى دون تمييز بين ايجابياته وسلبياته - كانت تملا رأسه صور وخيالات الصراع القديم بين عاصمة العباسيين فى بغداد ، وعاصمة الفاطميين فى القاهرة ، ويريد فى النصف الثانى من القرن العشرين - تحت تأثير هذه النظرة الاثرية الساذجة وكجزء من حركة الاحياء والبعث العربى - أن « يصحح مسار التاريخ ، فى المنطقة ، فيضع حد لحركة التمرد

ولعملية « الاغتصاب التاريخية » التى قامت بها قاهرة المعز بانتزاعها زمام الخلافة والقيادة من مكانه الاصلى والاصيل فى بغداد ، وينهى سياسة التطاول على هذا « الحق الالهى » التى طال مداها ، والذى كان قد سقط - بفعل طموحه غير المبرر لتحقيق رؤيته التاريخية الضيقة هذه ، ولتحقيق رسالته الخالدة المتميزة - فى شرك لعبة الصراع الخطرة والمدمرة بين بغداد والقاهرة التى غزل ونسج حبالها الاستعمار البريطانى منذ أيام نورى السعيد ، تكريسا لسياسة « فرق تسد » الاستعمارية .

ولذلك فان حزب البعث اليمينى فى العراق الذى كان قد غرق فى لجة دماء القوى التقدمية التى سفكها فى العراق « بعث » فجاة فى ليل مزيمة حزيران البهيم بانقلاب ١٧ يولية ١٩٦٨ بين زغردة وتهليل دوائر معينة فى شركة نفط العراق ، ليكرر

المحاولة مرة أخرى ، محاولة تطويع التاريخ العربى الحديث لمشيئته الوجدانية المتعالية ، والزام حركة التطور الموضوعى والحتمى بأن تسير حسبما تقتضيه رسالة البعث الخالدة التى تتجمع رسلها المبعوثة لتحقيقها ، وترابط قاعدتها السياسية ، وعاصمتها الروحية فى بغداد التى ينبغى أن تعود كما كانت المقر الثابت ، والمركز الرسمى لدولة العرب ، سواء تحت قيادة العباسيين ، أو خلفائهم » البعثيين .

ورغم دعاواه الديماجوجية التى اطلقها تبريراً للقيام بحركته الانقلابية عن تقصير حكومة عبد الرحمن عارف فى القاء ثقل العراق العسكرى فى ساحة المواجهة بالجبهة الشرقية فان ما فعله حزب البعث اليمينى لم يكن سوى العمل على اضعاف الجبهة الغربية عسكريا ، ومحاصرة قيادتها سياسيا ، والتعريض بها اعلاميا ، بغية الوصول الى هدفه البعيد فى اسقاط دور القاهرة التاريخى واستعادة زمام القيادة منها، وهو ما اتضح جليا - بصورة خاصة - فى مساعدته غير المباشرة على ضرب المقاومة الفلسطينية على يد الرجعية الاردنية ، بتراجعه عن تنفيذ وعوده ، والوفاء بعهوده التى قطعها على نفسه بأن يهب لحمايتها من بطش السلطة فى عمان ، فى حالة نشوب أية معركة معها ، ثم فى سحبه لكتائب الجيش العراقى الباسلة من مواقعها الحساسة والهامة على خط النار ، وتركه الجبهة الشرقية كلها عارية ، مفتوحة مباحة للعدو الصهيونى ، واراحته - على هذا النحو المؤسف - من أى قلق أو هم يأتى عن هذا الطريق ، فيتيح له تفريغ وقته ، وتركيز جهده ، وصب نيرانه على جبهة واحدة فقط ، هى الجبهة الغربية ، وليساعد بذلك على حبك المؤامرات والدسائس ضد القاهرة ، مستغلة واقع أن القاهرة غدت وحدها فى ميدان المواجهة الشاملة والضارية ، بدون حليف عربى ، وغدت مكشوفة الظهر ، ومعزولة ومحاصرة بموقف أمتها العربية السلبى الذى يشكل مسلك العراق العملى العنصر الاساسى فيه .

وهكذا، وبدلا من ضم جهود كافة الدول العربية المتحررة من أجل تحقيق وحدة فى العمل السياسى والعسكرى لتضييق الخناق على العدو ، حاولت بعض القيادات السياسية هنا وهناك أن تستفيد من هزيمة مصر العسكرية لتحقق أملا قديما لها فى أن تصبح هى التنظيم القائد فى المنطقة العربية . وهكذا شاهدت الساحة العربية العديد من المزايدات التى مكنت فى النهاية للقوى الرجعية فى الاردن ، والمتحالفة تماما مع الاستعمار والصهيونية ، والمستندة اليهما من أن توجه ضربات موجعة لنضال الشعب الفلسطينى . (الطليعة أبريل ١٩٧١ انتماء مصر العربى شرط تحقيق النصر ، ص ٢٧ - د. ابراهيم سعد الدين) .

محاولة بعث العراق

الحلول محل ناصر

وعندما سقط القائد العربى الخالد جمال عبد الناصر فى معترك النضال تنفست قيادة البعث اليمينى فى العراق الصعداء ، وخيل اليها أنه بذهابه ذهبت الريح العاتية التى كانت تعصف بتطلعاتها السياسية ، وتعترض طريق تحقيقها ، وخلت الساحة العربية ليس من الزعامة التاريخية القوية المنافسة لها فحسب ، بل ومن أى منافس جديد على الاطلاق ، وأن عليها الان أن تركز وتكثف جهودها - وبمختلف الوسائل - من أجل انتزاع زمام القيادة ، والامساك بعصا الريادة وتحقيق رسالتها الخالدة التى لا يشاركها فيها أحد - حتى حزب البعث فى سوريا - فى صدق الايمان بها ، ومعرفة أسرار كهنوتها ، وفى العمل الجاد من أجل تحقيقها .

وعندما اهتزت مصر ، واهتزت معها أمتها العربية كلها بأحداث ١٣ مايو ١٩٧١ ، خوفا واشفاقا على وحدة مصر الوطنية من أن تتعرض للضرر ، وتتعرض معها وحدة وحركة النضال العربى فى مجموعها لضرر مماثل لم يكن لاذاعة البعث اليمينى فى بغداد منهم سوى اطلاق لسانها بما يعن لها من القول ، وبدون تلبث أو حساب ، وصور لها أن قاهرة الناصر ستسقط هذه المرة تحت وطأة أزمتها الداخلية ، وستسقط معها الناصرية أيضا ، بعد سقوط ناصر نفسه ، وأنه لم يعد بين « مبعوث » العناية الالهية الجديد ، ورائد حركة البعث والتجديد ، المقدر له قيادة الامة العربية فى العصر الحديث ، وبين استلام زمام هذه القيادة سوى قاب قوسين أو أدنى !.

عدن ودور القاهرة القيادى

ان هذا الموقف النشاز لحزب البعث اليمينى فى العراق لم يشاركه فيه أحد أو حكومة من حكومات الدول العربية الوطنية التى دفعها القلق على مستقبل مصر ، ومستقبل الامة العربية معها الى حد ارسال وفودها الى القاهرة للاطمئنان على الاوضاع فيها ، بعد الهزة التى تعرضت لها ، والى حد أن رئيس مجلس الرئاسة فى جمهورية اليمن الشعبية الديمقراطية سالم ربيع على يقول فى رسالته الى الرئيس أنور السادات التى حملها وزير داخليته - فى معرض التأكيد على دور القاهرة القيادى ، والتاريخى ، وتأثير هذا الدور سلبا أو ايجابا على مسار الثورة العربية كلها ، وفى جميع أقطارها : « اننا نشعر ياسيادة الرئيس أن الجمهورية العربية المتحدة لم تعد أحداثها أو مكتسباتها وانتكاساتها ملكا لها ، بل هى معيار

الثورة العربية، والانسان العربي الجديد ضد أعدائه الامبرياليين والصهيونيين .. واننا فى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية تضع ايدينا على قلوبنا عند كل هزة لتماسك الجبهة الداخلية فى الجمهورية العربية المتحدة ، لانها تعد هزة لجبهتنا الداخلية أيضا » (الجمهورية فى ٢٤/٥/١٩٧١) مما دفع جريدة الاخبار القاهرية لان تعلق فى اليوم التالى مباشرة لتسليم الرسالة بقولها : « فى الرسالة التى بعث بها رئيس اليمن الشعبية الى رئيس جمهوريتنا عبارة تلفت النظر ، لا لانها جديدة غير معروفة ، ولكن لانها حقيقة تزيد من مسئوليتنا ، وتوجب علينا أن نكون عن حسن ظن الامة العربية بنا ، فقد قال رئيس جمهورية اليمن الشعبية : أنما يحدث فى مصر لا يعنى مصر وحدها ولكنه يعنى الامة العربية كلها ، ويؤثر فى مسيرتها ونهضتها ومستقبلها ، كما يؤثر فى صياغة الانسان العربى فى مواجهة تحديات العصر التى يواجهها ... ان هذه الحقيقة توجب علينا المزيد من الحرص على أن تكون مسيرتنا صادقة وأمينة ، وأن نعلى فى نفوسنا كل المعانى الكريمة ، ونقتل فيها كل النزعات التى تتنافى مع مصلحة الشعب ، فنحن اذ نخطىء لا يرتد خطؤنا علينا وحدنا ، ولكنه يرتد ايضا على امتنا العربية ، فلندرك ثقل مسئوليتنا ، ولنكف أنفسنا عن كل عبث ولغو ، ولتكن مسيرتنا خالصة من أجل الوطن ووحدته وحريته وكرامته» الاخبار فى ٢/٥/١٩٧١

تشديد القوى التقدمية على مركز القاهرة الاستراتيجي

وعلى عكس موقف حزب البعث اليمينى فى العراق فان القوى التقدمية والمنظمات الشعبية العربية فى الوقت الذى عبرت فيه عن قلقها المشروع وجزعها المبرر من ان تؤدى احداث ١٣ مايو الى مضاعفات وتعقيدات فى مسار الثورة لم تفقد فى زحام ودخان هذه الاحداث صفاء رؤيتها السياسية ، وسلامة فهمها ، وعمق وشمول نظراتها الى العمق التاريخى الذى يسبر غورة لحركة الثورة العربية ، وجوهرها الصقيل الذى لا يصدأ ، مستندة فى ذلك الى تحليل تاريخ هذه الثورة النضالى ، والى التحديات الكبيرة المستثيرة للكبرياء الوطنى والقومى التى تجابهها ، والى مستوى المرحلة التقدمية التى بلغتها فى تطورها ، والظروف الموضوعية الداخلية والخارجية المساعدة لها على الثبات والاستمرار فى خطها التحررى ، والى المدى البعيد والواسع الذى وصلت اليه فى علاقاتها مع حركة التحرر الوطنى العالمية ، ومع القوى التقدمية والاشتراكية فى العالم ، وبصورة خاصة مع الاتحاد السوفيتى الذى يشكل بالنسبة لها خلفية دولية يمكن الاستناد اليها فى أمان ، وحصنا منيعا يمكن ان تركن الى نصرته فى ثقة ، ومستخلصة من ذلك كله نتيجة حاسمة تقول بأن الثورة المصرية - والعربية معها - باقية فى موقعها الامامى فى جبهة النضال ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية ، وماضية فى مسيرتها التاريخية من أجل انجاز مهام التحرر الوطنى والقومى ، واقتحام آفاق الثورة الاشتراكية الديمقراطية .

وأليس ذلك هو ما يمكن استشفافه - على سبيل المثال - من تعليق جريدة الاخبار البيروتية لسان حال الحزب الشيوعى اللبنانى فى عدد ٢٣/٥/١٩٧١ عندما كتبت : « أثارت التغيرات التى جرت على صعيد السلطة فى مصر فى الايام الاخيرة حملة من التعليقات والمراهنات باتجاهات متعددة ، وهذا بتقديرنا أمر طبيعى ، فالاهتمام بالذى يجرى فى مصر يعود بالدرجة الاولى للدور الذى تمارسه الشقيقة الكبرى منذ سنوات عديدة فى كل البلدان العربية ، وللمكان الذى تحتله فى العالم الاسيوى الافريقى ، وفى الحياة الدولية ، ومنذ ٢٣ يولية ١٩٥٢ ، ولاسيما فى المرحلة الاخيرة من تطور الثورة المصرية بقيادة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، (حيث) صار للدور المصرى فى حياة الجماهير العربية بشكل خاص معنى يختلف عن كل المعانى السابقة لهذا التاريخ ، فقد ارتبط دور مصر بحياة الجماهير العربية فى المعارك الكبيرة ضد الاستعمار واسرائيل ، وفى التحولات الاقتصادية والاجتماعية التى تحققت فيها لهذه الجماهير بالذات منجزات عديدة هامة .. ومن هنا كان القلق الذى أبديناه ازاء ما جرى ، ومن هنا أيضا كانت الثقة التى أعربنا عنها بالنسبة للمستقبل » .

القاهرة عاصمة العرب السياسية والروحية

ولم يفطن بعث العراق اليمينى - وتلك ازمته الداخلية الخانقة ، وبالتالى عقدته المستحكمة والقاتلة - الى أن قانون التطور التاريخى الذى يسير وفقا لحركة مادية موضوعية جدلية ، وينتقل مركز الثقل فيه طبقا لهذه الحركة المقننة المتصاعدة من مكان الى مكان ، يستعصى اخضاعه لمشيئة الافراد الذاتية ، وأهواء الجماعات الكيفية ، وأمزجة الزعماء العصبية ، وأنه كما قضى فى بعض الحقب التاريخية بأن تكون المدينة ، ودمشق ، وبغداد عواصم متتالية لدولة العرب الاسلامية فان حركته الموضوعية الجدلية قد حتمت - لعوامل تاريخية واجتماعية ، اقتصادية وسياسية ، ثقافية وحضارية - أن تكون القاهرة

ـ منذ المعز لدين الله الفاطمى ـ والناصر صلاح الدين الى جمال عبد الناصر ، والى ما اقتضت ذلك الضرورة القومية والاجتماعية الخاصة بـأمة العرب ـ هى عاصمة الدولة العربية الحديثة الاخذة فى النمو والتبلور ، والتى لا تستقى مقوماتها من ماضى العرب المجيد فحسب ، وانما تنهض أسسها الاجتماعية ، وتتحدد ملامحها القومية فى العصرية والتقدمية ، فى الاصالة والجدة ، ويقوم نظامها على الاشتراكية والديمقراطية .

ولم يفطن حزب البعث اليمينى فى العراق أن الناصرية ليست ظاهرة فردية تموت بموت مجسدها ، وانما هى علامة ثورية من علامات هذه المسيرة التاريخية المهيبة ، التى لا يملك أحد أن يردها أو يصدها .

ولقد برهنت كل التجارب الاتحادية والوحدوية ـ حتى الفاشلة منها ـ ابتداء من وحدة مصر وسوريا عام ١٩٥٨ وانتهاء بالاتحاد الثلاثى بين مصر ، وسوريا ، وليبيا عام ١٩٧١ أن القاهرة كانت وستظل ـ سواء فى حياة جمال عبد الناصر أو بعد مماته ـ مركز الثقل ا وقطب الجذب ، وقاعدة التحرك العربى نحو تحقيق المهام التاريخية العظمى الملقاة على عاتق الامة العربية فى تحرير الارض المحتلة والمغتصبة ، واستكمال السيادة والوحدة القومية ، وانجاز التنمية الاقتصادية والاجتماعية واقامة الاساس العلمى والتكنولوجى لنهضتها الحضارية ، وتشييد صرح دولتها الحديثة ، المتقدمة والتقدمية ، وتأسيس مجتمع الاشتراكية والديمقراطية ، وأنها ـ حتمية تاريخية وسياسية ـ ستبقى عاصمة العرب القومية سواء فى فترات شتاتهم وتمزقهم أو بعد تحقيق اتحادهم ووحدتهم ، وأنها فوق ذلك كله وبعد ذلك كله عاصمتهم العلمية والروحية .

الناصرية والدعم السوفيتى

ان بعث العراق اليمينى الذى لم يعد له من شاغل على النطاق الداخلى سوى كبت الحريات الديمقراطية ، وارهاب المواطنين ، واضطهاد الوطنيين ، والزج بالقوى التقدمية المناوئة للاستعمار ، والتسلط فى غياهب السجون لميكن وحده الذى راودته الاحلام الطائشة بانه بأحداث ١٣ مايو ١٩٧١ فى القاهرة سيسقط الخط الناصرى التحررى ، التقدمى فى مصر والمنطقة العربية ، وانما شاركته فى ذلك دوائر الاستعمار القديم والجديد التى لم تستطع أن تدارى فرحها الاجوف ، وسعادتها الموهومة ، ولم تتراجع فى بلادة وحماقة ـ عن تعليل النفس بالمنى فى دنو أجل الثورة المصرية والعربية ، وانتكاس حركتها التقدمية ، وتبدد منجزاتها الوطنية ، رضياع مكتسباتها الاجتماعية وانتهاء كل انتصاراتها التاريخية ، وتقطع كل الجسور الدولية التى بنتها وخطت عليها نحو اقامة علاقات صحية نضالية مع المعسكر الاشتراكى ، وارتداد الامة العربية بجميع اقطارها ـ خاضعة خانعة مستسلمة ـ الى احضان الاستعمار ، وسقوطها تحت رحمة عميلته الرجعية ، ووقوعها فى نفس الوقت ضحية مفترسة فى براثن وبين اشداق حليفته واداته الهمجية الفاشية الممثلة فى الصهيونية الدولية الرابضة بالفعل على قلب الامة العربية ، والجاثمة على الصدر من أرضها ، والناشبة مخالبها فى جسدها ، تمهيدا وتحفزا للفتك بها وابتلاعها ، وتحويلها الى أمة ذليلة مستعبدة دائرة فى فلك الامبراطورية الصهيونية الاستعمارية .

ولذلك فان خيبة الاستعمار ، والصهيونية ، والرجعية ، وجميع خصوم الناصرية كانت قاتلة ومريرة عندما أعلن الرئيس أنور السادات فى الحفلة التى أقامها تكريما لرئيس هيئة رئاسة مجلس السوفييت الاعلى للاتحاد السوفيتى نيكولاى بودجورنى مساء ١٩٧١/٥/٢٦ ، مشيرا الى هؤلاء جميعا بأنهم « لا يفهمون حتى الان أن تصميمنا على مواصلة طريق عبد الناصر هو قدر تاريخى لامة بأسرها تتطلع الى التطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى » وعندما أشاد بالصداقة العربية السوفيتية ، وأهاب بالدور الايجابى والخلاق الذى يلعبه التضامن الثورى بين حركة التحرير الوطنى العربية ، وبين موطن الاشتراكية الاول ونوه بالاثار الهامة التى حققتها هذه الزمالة النضالية فى الماضى وستحققها فى الحاضر والمستقبل بقوله : « ولابد أن نشهد للاتحاد السوفيتى أنه كان الطليعة فى فهم موقفنا ، وتأييده ، وتدعيمه ، واكسابه الفاعلية العملية التى لا يمكن بغيرها أن تكون للحق قيمة فى أوضاع عالمنا المعاصر .. وذلك كان وسوف يظل موضع التقدير من شعبنا وامتنا العربية ، ثم أن ذلك أضاف اضافة حقيقية الى الصداقة العربية السوفيتية ، بما جعلها وسوف يجعلها عاملا ثابتا ودائما ومستقرا فى حياة وتطور هذه المنطقة » وعندما ركز بصورة خاصة على طبيعة المرحلة الدقيقة والحرجة التى تواجهها حركة الثورة العربية فى صراعها الباسل مع قوى البغى والعدوان ، وشدد على أهمية التحالف بين حركة التحرير الوطنى العربية وبين القوى التقدمية والاشتراكية فى العالم كسبيل وحيد للتغلب على جميع مصاعب الطريق ، وارتياد آفاق المستقبل على النحو التالى : « اننا نعيش مرحلة فاصلة من تاريخنا ، ويدرك شعبنا ادراكا كاملا أن لهذه المرحلة تبعاتها ومسئولياتها . ويدرك شعبنا فى نفس الوقت الاهمية العظمى لدور التعاون مع البلدان الاشتراكية ، ومع جميع القوى التقدمية فى هذا العالم فى سبيل اجتياز هذه المرحلة ، وفى

شعبنا ما بعد هذه المرحلة على طريق البناء والرخاء • ان شعبنا كله يعتز بالصداقة العربية السوفيتية ، بل ان أمتنا كلها تعتبر ان هذه الصداقة واحد من أهم الاسس فى سياستنا ، وفى خطنا ، وفى حركتنا القومية » (الاهرام ٢٧/٥/١٩٧١) •

أهمية معاهدة الصداقة والتعاون العربية السوفيتية

وبينما كانت الدول الاستعمارية تمنى نفسها بالامانى الباطلة وتراودها أحلام اليقظة الساذجة بأن تكون القاهرة قد اخذت « تعيد النظر » فى سياستها الداخلية والخارجية ـ تحت الوهم بأن هرم الشيخوخة قد دب فى مفاصل ثورة ٢٣ يولية ، وأثر على خطواتها العملية ،ونشاطها الاعتيادى، وبفعل الصراع بين رعيلها الاول والثانى ـ فان ذلك من شأنه أن يئول الى سقوط القلعة الثورية التى استعصت على الاعداء ١٩ عاما ، وفتح أبوابها لجيوش الغزو المحاصرة لها ، والعبث بسيادة الامة العربية وكرامتها ، واعادة حركة التاريخ العربى سنوات عديدة الى الوراء ، واذا بالقاهرة بلد الاعاجيب النضالية والمفاجات الثورية ، والضربات « الناصرية » بلد اعجوبة صفقة السلاح التشيكية ـ السوفيتية عام ١٩٥٥ التى لم يقدم على مثلها أحد من قبل من دول التحرر الوطنى حتى ذلك الحين ، بلد مفاجاة تأميم القناة عام ١٩٥٦ ، وبلد ضربة قوانين يونية الاجتماعية عام ١٩٦١ ـ تفاجىء العالم كله هذه المرة ـ على عكس ما كان الاستعمار يحلم ويتمنى ويتوقع ـ بخطوة جديدة جبارة عملاقة اجتمعت فيها كل عناصر الموقف الدرامى ، اجتمعت فيها الاعجوبة ، والمفاجأة ، والضربة الناصرية ، خطوة ابرام واعلان معاهدة الصداقة والتعاون العربية السوفيتية التى وقعها عن حصن حركة التحرر الوطنى العالمية ـ الجمهورية العربية المتحدة ـ الرئيس أنور السادات ، وعن درع الثورة العالمية ـ الاتحادالسوفيتى ـ الرئيس بودجورنى، وهى المعاهدة التى تعتبر الاولى من نوعها بين الاتحاد السوفيتى كدولة اشتراكية،وبين الجمهوريةالعربية المتحدة ،وهى المعاهدةالاولى منهذا الطرازبيناحدى دول المعسكر الاشتراكى ، واحدى دول منطقة التحرر الوطنى، والتى تعد لذلك سابقة ثورية ، ومبادرة تاريخية تقدم عليها رائدة الثورة العربية ، وطليعة النضال العربى ـ مصر ـ معززة ومؤكدة بذلك دورها الريادى الملهم والطليعى ليس بالنسبة لحركة الثورة العربية فحسب ، وانما أيضا بالنسبة لحركة التحرير الوطنى العالمية ، وضاربة المثل والقدوة على المدى الذى يمكن وينبغى أن تذهب اليه الدول الوطنية التحررية فى علاقاتها مع المعسكر الاشتراكى ، وشاقة الطريق الى معانقة المثل ، وممارسة التجربة ، ومعايشتها حتى أعماقها بنفسها ، ومبصرة ومرشدة لجميع الحركات الثورية والتقدمية فى العالم بأنه لتحقيق النجاح فى صد هجمات الامبريالية العالمية ، وتحطيم مخالبها الرجعية والصهيونية وللخروج من عنق الزجاجة الضيق بسلام ، وتخطى مصاعب ومتاعب المرحلة الانتقالية ، مرحلة الانتقال من وهدة التخلف المقيتة ، والطبقية المشينة الى افق الاشتراكية الرحب والوضاء لابد من التعاون الشامل ـ ودون تحفظ ـ والتلاحم الكامل ـ ودون تلكؤ ـ والتحالف التام ـ ودون ابطاء ـ مع المعسكر الاحوى والصديق ، معسكر التقدم والاشتراكية ، ولابد أن يبلغ هذا التعاون ، والتلاحم ، والتحالف حد التنسيق السياسى ، والعسكرى ، وحد التعاهد الرسمى والعلنى ، حد عقد معاهدة صريحة تكفل التضامن العملى ـ بمسئولية ثورية تاريخية موثقة ، من أجل حماية المنجزات التقدمية التى تم انجازها فى الماضى ، ودفع عجلة النمو الاقتصادى ، والتطور الاجتماعى والازدهار الثقافى والحضارى فى الحاضر والمستقبل فى كلا البلدين ، فى اوقات السلم ، كما تضمن فى نفس الوقت ـ وبنفس القدر من المسئولية التاريخية الموثقة ،والالتزامالدولى المعلن ـ وقوف الدولتين فى جبهة دفاع وهجوم واحدة فى مواجهة قوى العدوان والغدر فى أوقات الحرب •

وذلك هو بالضبط ما عنته المادة الثانية من المعاهدة حين نصت على أن « الجمهورية العربية المتحدة التى جعلت هدفها التحول الاشتراكى للمجتمع ، واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ، بوصفه دولة اشتراكية سوف يتعاونان تعاونا وثيقا فى توفير الظروف اللازمة لصيانة ومواصلة تطوير المكاسب الاجتماعية والاقتصادية لشعبيهما » . وما اكدته المادة السابعة بمنطوقها ، «وأذيهتم الطرفان المتعاقدان الساميان اهتماما عميقا بتأمين السلام ، وأمن الشعوب ، ويعيران أهمية كبيرة لتنسيق اعمالهما على الصعيد الدولى فى النضال من أجل السلام ، وتحقيقا لهذا الهدف ، سيتشاور الطرفان على مختلف المستويات بانتظام حول جميع المسائل الهامة التى تخص كلتا الدولتين • وفى حالة نشوء أوضاع تشكل حسب رأى كلا الطرفين تهديدا للسلام ، او خرقا للسلام فانهما سيتصلان ببعضهما على الفور ، بقصد تنسيق موقفيهما من أجل ازالة التهديد الناشىء ، او اعادة السلام » ، وذلك هو ما تضمنه البيان المشترك عن المحادثات بين الجانبين العربى والسوفيتى ، والذى أعرب فيه الوفد الصديق عن ابتهاج واعزاز الاتحاد السوفيتى ـ ذى التجربة الاشتراكية الاولى والطليعية ـ لاتجاه الجمهورية العربية المتحدة فى

سياستها وجهة تقدمية ، وعزمها المكين على الاستمرار فى العمل الوطنى على ضوء الوثائق الديمقراطية التى أقرت شعبيا فى حياة الرئيس جمال عبد الناصر وحسب تخطيطه واعداده ، وعلى البقاء والصمود فى مواقع النضال ضد الاستعمار والامبريالية ، والمضى فى دأب فى طريق الانتقال الى الاشتراكية حيث جاء فيه : « وقد عبر الجانب السوفيتى عن تقديره الكبير لتصميم قادة وشعب الجمهورية العربية المتحدة على مواصلة السير على الطريق التقدمى والمعادى للاستعمار الذى سار عليه الرئيس جمال عبد الناصر ورسمه فى ميثاق العمل الوطنى ، وبيان ٣٠ مارس ، ومواصلة انتهاج الخط الذى يهدف الى تأمين التقدم الاجتماعى ، والتحول الاشتراكى للمجتمع » . (الاهرام ١٩٧١/٥/٢٨) .

حزام أمان سياسى ودفاعى لا يخترق

لقد كانت معاهدة الصداقة والتعاون العربية السوفيتية المبرمة فى ١٩٧١/٥/٢٧ ، والتى كان قد سبق بحث موضوعها فى حياة الرئيس جمال عبد الناصر منذ عام ١٩٦٧ بالذات ـ كما أوضح سفير ج.ع.م. فى موسكو الدكتور مراد غالب ـ (الاخبار ١٩٧١/٥/٣١ ـ عادل حسين) والتى الى الزعيم الخالد يعود أمر التفكير فيها ، حتى ظلت تراوده باستمرار ـ كما أكد ذلك وزير الخارجية محمود رياض ـ (الاخبار ، الجمهورية ١٩٧١/٦/١٨) ، عملية تركيز وبلورة ، وتوثيق لعلاقات ثورية واخوية نشأت بين الثورة العربية التقدمية ، والثورة السوفيتية الاشتراكية خلال حوالى ١٩ عاما ، وثمرة وحصيلة نضال مشترك بينهما متعددالجوانب والساحات ابانهذه الفترة ، وتتويجاسياسيا ، وتغيرا كيفيا لعملية تراكم ثورية ، تاريخية طويلة ، ونقطة تحول سياسية جديدة وعميقة فى مجرى الكفاح ضد الامبريالية والصهيونية،وفى حركةالتلاحمالنضالى بين ثورة التحرير العربية والثورة السوفيتية الاشتراكية ، واعلانا عاليا بالارتباط المصيرى بين حركة التحرير الوطنى العربية ذات المنحى والتوجيه الاشتراكى ، وبين الثورة الاشتراكية العالمية ، وحائطا متينا يرتفع فى وجه الاعداء فى كل مكان لصد وامتصاص واحباط كل مشاريعهم العدوانية وتطاولاتهم ومؤامراتهم الاستعمارية والاسرائيلية ، وحزام امان سياسى ودفاعى لا يخترق ولا يفل لتمكين قضية الحق والعدل والتحرير من ان تنتصر وتتغلب ، وارادة العمل السلمى ، والبناء الحضارى ، والسير فى اتجاه التطور الديمقراطى والتحول الاشتراكى من أن تكون لها الكلمة العليا والسائدة .

وذلك هو تماما ما عناه الرئيس بودجورنى فى حفلة التكريم التى أقامها تكريما للرئيس السادات مساء ١٩٧١/٥/٢٧ ، بعد توقيع المعاهدة مباشرة عندما قال : « فمن الان ترتفع العلاقات بين الاتحاد السوفيتى والجمهورية العربية المتحدة الى درجة اعلى ، وتدخل مرحلة جديدة .. ان هذه المعاهدة تثبت وترسخ كل ما نضج وتكون اثناء السنوات الاخيرة فى بوتقة نضال شعبينا المشترك ضد الامبريالية والاستعمار الحديث من أجل التقدم الوطنى والاجتماعى ، على الاساس الخصب من افكار الاشتراكية العظيمة . وذلك ايضا ما أوما اليه الرئيس السادات فى كلمته الجوابية على الرئيس السوفيتى عندما أكد على « ان هذه المعاهدة التى تمثل أول ما تمثل حزما شديدا وحسما قاطعا برفض العدوان يمشى واثقا نحو تصفيته ـ تمثل ايضا آمالا كبيرة فى آفاق البناء بعد تصفية العدوان حتى تسود نهائيا المبادىء والقيم والحقوق التى ترفع اعلامها » (الاهرام ١٩٧١/٥/٢٨) .

وفى تلخيصه للمعنى العام ، والابعاد الوطنية والدولية لهذه المعاهدة كتب مراسل جريدة البرافدا فى القاهرة ـ كما نقلت عنها الجمهورية فى ١٩٧١/٥/٣٠) : « ان المعاهدة تتضمن تنسيق وتنفيذ الاعمال المشتركة على الصعيد الدولى ، وتنفيذ المشروعات الاقتصادية المشتركة والتعاون فى تدعيم القوة الدفاعية لمصر ، وتنمية الاتصالات السياسية بين البلدين وسيكون لهذا كله الاثر الاكبر فى توسيع العلاقات المصرية السوفيتية فى المستقبل ،ودعمها،وخاصةمصالحالكفاح المشترك ضد الامبريالية ودعم الصداقة السوفيتية المصرية التى ارتفعت الان الى مستوى جديد » .

وفى تقييمه للارضية التاريخية التى نمت عليها العلاقات الثورية بين القاهرة وموسكو وأثمرت عقد هذه المعاهدة وتأثير هذه العلاقات البعيد المدى على مجريات الاحداث وأهميتها الدائمة والحية فى الكفاح التحررى والتقدمى المشترك ضد الامبريالية ومن أجل توطيد دعائم التطور المستقل والمطرد والمزدهر ذكر بوناماروف سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى فى تقريره الذى قدمه الى الحزب بعد زيارة كان قد قام بها الى القاهرة فى ديسمبر عام ١٩٧٠ [ان اقامة علاقات الصداقة الوثيقة والتعاون بين الجمهورية العربية المتحدة والاتحاد السوفيتى هى من أهم الاحداث الدولية فى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وانما مكسب تاريخى لشعبينا ،فقد ارتفع حاجز متين فى طريق الدسائس الامبريالية ضد حرية واستقلال الشعوب العربية ، ولهذا السبب بالذات ، فان صداقتنا تبعث قلق الامبرياليين وخدمهم فى العالم العربى (روز اليوسف ١٩٧١/٥/٣١) .

ذهول الاستعمار

واهتزاز الصهيونية

وبعد عقد المعاهدة العربية السوفيتية استيقنت قوى الاستعمار والصهيونية والرجعية والانتهازية حركة اجتماعية قائمة فى أرض الواقع العربى ، ان المسيرة الناصرية كانت تعبيرا سياسيا عن وليست « سلوكا ناصريا » ينتهى بنهاية عبد الناصر الجسدية ، وان حركة الثورة العربية جزء أساسى من المسيرة التاريخية الظافرة ، مسيرة الثورة العالمية نحو التحرر الوطنى ، والخلاص القومى ، والاشتراكية الديمقراطية وان طلقات النيران التى توجهها — منذالان — الامبريالية الامريكية وحليفتها واداتها الصهيونية ضد رأس الثورة العربية ، وضد عاصمتها التقدمية القاهرة ،تصيب فى نفس الوقت اللحم الحى فى جسد الثورة العالمية ، وتصيب موسكو نفسها قلعة هذه الثورة الجبارة ، وان على هذه القوى ان تستعد من هذه اللحظة لتلقى الرد الحازم والعقاب الصارم الذى تستحقه .

واذا كانت عاصمة الاستعمار القديم — لندن — لم تعد تملك الا ان تعترف بعد اعلان المعاهدة مباشرة بأن موارد الاتحاد السوفيتى العسكرية والاقتصادية وطاقاته السياسية ووزنه الدولى أصبح الان تحت تصرف مصر ، فان عاصمة الاستعمار الجديد قد أغمى عليها من هول المفاجأة التى نزلت عليها نزول الصاعقة ، وأصيبت بالوجوم والذهول وانعقد لسانها ، ودارت بها الدنيا ، ولذلك فانها لم تستطع أن تتمالك نفسها وتعلق على المعاهدة فور سماعها بنصوصها رغم مطالبة ابا ايبان وزير خارجية اسرائيل لها بأن تسرع الى ابداء رأيها فى أوضاع الشرق الاوسط بعد هذه التطورات الخطيرة ، وان كان وزير دفاعها ملفين ليرد قد دعا — وهو فى حالة ذعر ظاهر — فى اجتماع ضم ممثلى ١٤ من الدول الاعضاء فى معاهدة حلف الاطلنطى — حلفاء أمريكا الى تقديم مزيد من العون للاسطول السادس فى أعقاب معاهدة الصداقة المصرية — السوفيتية ، ولان حصول مصر — على حد قوله — «على أسلحة سوفيتية متقدمة جدا ، يعرض توازن القوى فى المنطقة للخطر ،كما انه يخل بالتوازن القائم بين حلف الاطلنطى والدول الاشتراكية !!؟ وهو ما حذر منه الرئيس نيكسون فيما بعد — فى قلق عميق .

وحتى تفيق واشنطن من صدمتها ، وتستعيد نفسها ، وتقدر على الكلام « الموزون والمرتب » بعد دراسة المعاهدة دراسةدقيقة — كماأشارروجرز وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية — كان على ايجال الون نائبرئيس وزراء اسرائيل — ان يبادر الى رفع عقيرته بالتنبيه — وهو ملهوف مأخوذ بأن هذه المعاهدة تعتبر « انجازا من الدرجة الاولى » وان هذه المعاهدة ستشجع الجيش المصرى على تصعيد الموقف وستجعل رجال القوات المسلحة المصرية يشعرون بأنهم أكثر قوة عن ذى قبل ، وان « المعاهدة تعتبر ضربة موجهةللولايات المتحدة التى اعتقدت انها يمكنها التأثير على العلاقات الوثيقة بين مصر والاتحاد السوفيتى وهى نفس مشاعر الجزع التى أعربت عنها جولدا مائير بعد ذلك ، ونفس المخاطر التى نبه اليها اسرائيل جاليلى وزير الدولة الاسرائيلى عندما أكد على القول بأن المعاهدة « قد خلقت مرحلة جديدة وخطيرة للغاية فى الموقف فى الشرق الاوسط . (الاهرام ، الاخبار ، الجمهورية ١٩٧١/٥/٣٠ (الجمهورية ١٩٧١/٥/٣١ ، (الاهرام ١٩٧١/٦/٢) الاهرام ١٩٧١/٦/٣) .

اما القاهرة نفسها الطرف الثانى فى المعاهدة وساحة النضال الباسلة التى يرتبط بها اليوم مصير النضال العربى كله ، بل ويتوقف — الى حد كبير — على انتصارها فى معركتها هذه انتصار حركة التحرير الوطنى العالمية ، وانفتاح آفاق رحبة للتطور التقدمى فى المنطقة العربية ، منطلق من كل قيد ومؤثر ايجابى على مسار الاحداث فى « العالم الثالث » كله ، والتى تقدم نموذجا فذا فى علاقتها النضالية مع الاتحاد السوفيتى والمعسكر الاشتراكى والتقدمى لكل الدول الوطنية حديثة الاستقلال — فان تعليق مصادرها الموثوقة — كما أوردت روز اليوسف فى ١٩٧١/٥/٣١ بعد عقد المعاهدة كان على النحو التالى : « ان زيارة الرئيس نيكولاى بودجورنى والوفد المرافق له ، وما أسفرت عنه من نتائج ستترك آثارا بالغة الاهمية فى كل مجالات التعاون بين القاهرة وموسكو ، وبالدرجة الاولى بالنسبة لمشكلة الشرق الاوسط وجبهة قناة السويس » .

وفى شرحه لدوافع وأهداف عقد هذه المعاهدة قال الرئيس السادات فى خطابه أمام مجلس الشعب الذى انعقد فى هيئة لجنة مركزية يوم ١٩٧١/٦/٢ » بأنه من أجل مستقبلنا ومستقبل أجيالنا كان الحاحنا على الاتحاد السوفيتى لعقد هذه المعاهدة » التى جاءت « ردا حاسما على محاولة التشكيك فى مسيرتنا التى حاولها البعض هنا وانتقلت الى الصحافة وأجهزة الاعلام العربية ، ولتقول للذين « حاولوا مع الايماءات بحدوث تغيير فى سياستنا أن يصوروا لانفسهم ان صداقتنا مع الاتحاد السوفيتى هى مرحلة وهى مجرد تكتيك .. ان الصداقة مع الذين يساعدوننا — ولا يساعدنا غيرهم — على القتال وعلى النصر ليست صداقة مرحلة وليست تكتيكا ، ان الصداقة مع الذين يساعدوننا ولا يساعدنا غيرهم على بناء اقتصادنا وبناء دولتنا العصرية الحديثة ليست صداقة مرحلة

وليست تكتيكا ، الصداقة مع الذين يساعدوننا على النصر والبناء ليست صداقة مرحلة ، وانما هي صداقة كل المراحل وليست مجرد تكتيك ، وانما هي استراتيجية ثابتة » (الاهرام ٣/٦/١٩٧١) وهو مازاده وضوحا فيبيان ١٠ يونيه من « أن هذه المعاهدة تأتى تأكيدا للمبادىء النبيلة المشتركة، بالاستمرار فى العمل » فى جبهة الثورة العالمية ضد الاستعمار » ومساندة « حركات التحرير الوطنى ، وهوما أكده بقوةأيضا الرئيسبودجورنى ممثل الطرف الاخر فى المعاهدة بقوله : « أن علاقة الاتحاد السوفيتى مع الجمهورية العربية المتحدة قد دخلت مرحلة جديدة اثر توقيع معاهدة الصداقة والتعاون بين البلدين .. ان هذه المعاهدة تمثل الاساس القانونى الصلب للعلاقات الاخوية القائمة بين الجمهورية العربية المتحدة والاتحاد السوفيتى ، كما أن مغزاها يكمن فى حقيقة انها أول معاهدة من نوعها تعقد بين الاتحاد السوفيتى ودولة مستقلة نامية ، وفى انها تعكس التقارب المتزايد بين العالم الاشتراكى ، وحركة التحرر الوطنى » (الاهرام ١١/٦/١٩٧١) .

القاهرة صرح ثورى لا يطال

وعلى ضوء ذلك كله يعاد طرح السؤال من جديد ، ترى أين هى هانوى الشرق الاوسط ، عمان ، أم دمشق ، أم الجزائر ، أم بغداد ، أم القاهرة،وبالتحديد،هل هيعاصمة أحمدحسنالبكر أم هى عاصمة ناصر العرب الذى تتناسخ اليوم روحه الثورية فى وجدانات كل المناضلين العرب الذين تمتلىء بهم الساحة العربية حتى مدينة أبى جعفر المنصور ؟

ان الاجابة عن مثل هذا التساؤل غدت مجسدة فى صرح ثورى ترتفع قامته الشامخة ، وذروته الشاهقة الى مدى سحيق فى الافق البعيد ، ويمتد ظله الهائل متجاوزا العالم العربى لينبسط على عالم القارات الملتهبة بثورة التحرير الوطنى ، صرح ثورى وضعت أساسه ثورة ٢٣ يولية عام ١٩٥٢ ، وظل يرتفع طبقة فوق طبقة من خلال جهود شاقة خارقة ، وعبر ملاحم نضال بطولية تصدى لقيادتها المناضل الفذ عبد الناصر، ضد الامبريالية العالمية،والصهيونية الدولية ،والرجعية الداخلية والخارجية ، حتى رسخت أعمدته ، واستوت «هندا صينية»أخرى ، تكون القاهرة فى محلمتها على طريق المناضلين الثوريين فى كل مكان ، وغدت تقوم من حوله ، وفى حراسته قلاع ثورية تنتشر من الجزائر والسودان ، وليبيا فى المنطقة العربية الافريقية ، والى اليمن وسوريا فى المنطقة العربية الاسيوية ، بل وحتى عاصمة الرشيد التى كانت ثورتها أعظم وأخطر حدث سياسى وتاريخى تفجرت به الارض العربية ، وارتعشت تحت تأثيره عروش الرجعية ، وانخلعت من هول نتائجه فرائص الاستعمار، وتحرك لحمايته ـ بالانطلاق عائدا الى موسكو ـ قائد الثورة العربية عبد الناصر ، ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ التى شلت حركتها العملاقة ، وتجمدت طاقاتها الهائلة تحت وطأة تسلط حكم البعث اليمينى فى العراق ، والتى تتحفز وتستجمع اليوم قواها الكامنة من جديد ، لتنفجر مرة أخرى ، وتنطلق موجة هادرة على رأس تيار الثورة العربية التقدمى ، محتلة مكانها البارز والقيادى فيه ، فبغداد التى تمثل الجناح الشرقى الضارب لهذه الثورة ، وأهم ركن بين اركانها الاساسية ، والتى لاتستقيم ولاتتكامل، ولا ترتفع الى مستواها التاريخى فى مسيرتها التحررية الشاملة ، القومية والاجتماعية بدونها ، وبدون انخراطها فى معتركها ، وبدون اسهامها المباشر والفعال فى قيادة حركتها ، بغداد هذه لكيتتمكن منملء مكانها التاريخى الشاغر الخاص بها ، والمفصل على حجمها الكبير ، وقامتها المديدة ـ لابد لها ـ بعد توحيد قواها الوطنية والتقدمية ، وتصحيح مسار ثورة ١٤ تموز المجيدة ـ ولاداء دورها العظيم المنتظر ، من أن تمزق شرك سياسة « فرق تسد » التى أوقعها الاستعمار البريطانى فيها منذ أيام نورى السعيد ، وأن تضع حدا للعبة محور « بغداد ضد القاهرة » التى جهد ونجح فى خلقها ، والابقاء عليها حتى بعد قيام ثورتها العظيمة ضده ، ومن أن تعترف بمكانة القاهرة القيادية فى التاريخ العربى المعاصر ، وأن تسلم بها قاعدة للثورة العربية لا تنازع ، وطليعة لها معترفا بها من قبل كل الفصائل بها ، والمفصل على حجمها الكبير ، الحديثة ، القومية الموحدة ، التحررية التقدمية ، الاشتراكية الديمقراطية .

القاهرة هانوى الشرق الاوسط

والقاهرة بذلك لا تستطيع ـ كقدر تاريخى ، وحتمية ثورية ، وقانون موضوعى ـ الا أن تكون هانوى العرب ، هانوى الشرق الاوسط .

أوليست هى السباقة والمقدامة فى كل مجال ، فى شق مجرى النضال العربى ، وفى ارتياد آفاق الثورة السياسية والاجتماعية ، وتقديم أول وثيقة تاريخية ـ على النطاق الرسمى العربى ـ تتبنى بها الاشتراكية العلمية كطريق لحل قضايا التطور الاجتماعى ، واليست هى التى حددت ـ لاول مرة بين كل العواصم العربية ـ خمسين فى المائة على الاقل من نسبة التمثيل فى المؤسسات السياسية والدستورية خاصة بالعمال والفلاحين، أو ليست

هى التى أكد زعيمها الخالد جمال عبد الناصر فى خطابه بالجلسة الافتتاحية لمجلس الامة يوم ١٢ نوفمبر ١٩٦٤ الدور السياسى الخاص الذى تلعبه الطبقة العاملة فى مقدمة وقيادة قوى التحالف الوطنى والشعبى فى مرحلة بناء الاشتراكية بقوله : « وهذه الطبقة العاملة تمثل فى النظام الاشتراكى المركزى القيادى » (الطليعة مايو ١٩٦٥ ، أول مايو ص ١٦ ـ ميشيل كامل) ، كما أعلن من بعده الرئيس انور السادات فى خطابه أمام مجلس الشعب فى ١٩٧١/٥/٢٠ ضرورة « أن يؤكد الدستور على اهمية الحركة النقابية العمالية فى دفع التطور ، باعتبار دور العمال الطليعى فى تحالف قوى الشعب العاملة . (الاهرام ١٩٧١/٥/٢١) ، واهمية ـ كما فى بيان ١٠ يونية ١٩٧١ ـ « تأكيد سلطة تحالف قوى الشعب العاملة، والدور الطليعى للعمال فى هذا التحالف» . (الاهرام ١٩٧١/٦/١١)

أو ليست هى الدولة الاولى ـ بين الدول الحديثة الاستقلال ـ التى جرؤت على القيام بعملية اختراق ثورية للسور الامبريالى السميك الذى كانت الامبراطوريات الاستعمارية قد أقامته بين الاتحاد السوفيتى وبين المستعمرات، وأشباه المستعمرات والمناطق التابعة والدول المستقلة استقلالا شكليا والتى مدت يد التعاون المخلص والبناء مع المعسكر الاشتراكى من اجل زحزحة واقتلاع الوجود الاستعمارى من المنطقة العربية ، ولعبت دورا حاسما فى تفجير ودعم كل الثورات العربية ، وفى تعزيز ومساعدة حركات التحرر الوطنى فى كل مكان ، وفى انهاء الشكل القديم للاستعمار فى حرب السويس ، والاشتباك مع الاستعمار الجديد فى معركة متصلة حتى اليوم ، والنهوض بالعبء الرئيسى فى مواجهة اسرائيل والصهيونية العالمية ؟ .

ثم أليست هى السباقة الى عقد أول معاهدة من نوعها مع موسكو والتى لم يسبق أن أبرم مثلها مع دولة أخرى خارج دول حلف وارسو، وخارج المعسكر الاشتراكى بشكل عام ، وهى المعاهدة التى قال عنها سبارتاك بيجلوف المعلق السياسى لوكالة نوفستى : « ان هذه هى المرة الاولى التى يدخل فيها الاتحاد السوفيتى طرفا فى مثل هذه المعاهدة مع احدى الدول ذات النهج الاشتراكى » (الجمهورية ١٩٧١/٦/١) أولا تحدد القاهرة بذلك وأمام العالم كله الجبهة التى تنتمى اليها نضالا ومآلا ، وتخوض معها وبالتحالف الثورى كفاحها ضد جبهة الامبريالية والصهيونية ، وألا تتأهب بالفعل ـ بالاستناد الى هذه الخلفية الدولية القوية والرصينة ـ لتحويل الشرق الاوسط ـ مالم تخضع قوى العدوان وتضطر تحت ضغط ووطأة معاهدة التحالف العربية السوفيتية الى الانسحاب سلما ـ الى مسرح قتال ضار فى مختلف الميادين العسكرية ، والاقتصادية ، والسياسية ، وجعله « هندا صينية » أخرى، تكون القاهرة فى ملحمتها الشاملة هذه هى نفسها «هانوى الشرق الاوسط» التى تحدد مصير الامبريالية العالمية والصهيونية الدولية فى أخطر وأهم منطقة عالمية تتركز فيها المصالح الاستعمارية ، ويكمن بها المقتل الحقيقى لنظام الاحتكارات الامبريالية ؟ أولا تتقدم القاهرة بخطى حثيثة نحو النهوض بعبء تاريخى يقترب ـ ان لم يتساو ، وربما يتفوق فى آخر الامر وعلى مدى تاريخى معين ، من حيث نتائجه وآثاره البعيدة المدى على اعادة تشكيل الاوضاع الدولية ـ من ذلك العبء الجليل الذى تقوم به هانوى فى الهند الصينية التى ما تزال وستظل لفترة زمنية النموذج الثورى الساطع الذى يحتذى فى النضال ، والملحمة الاسطورية التى تضرب بها الامثال ، والمعزوفة الثورية المحببة على كل لسان، والغذاء اليومى لكل مكافح ؟ !

واذا لم تكن القاهرة كذلك ، واذا لم يكن ذلك هو وضعها اليوم ، ومسارها غدا ، ومآلها فى مستقبل الايام ، فكيف نفسر تكالب الاستعمار العالمى والصهيونية الدولية ، والرجعية الداخلية والخارجية ضدها ، وتصديها لهذا التكتل الدولى العدوانى الشرس طيلة حوالى عقدين من الزمن، وكيف نفهم اقتحامهم لآفاق وعقبات التقدم الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، وكيف نؤول التفاف المعسكر الاشتراكى من حولها، واهتمامه الفائق بصيانة مسيرتها صيانة المرء لحدقة العين ، وعقد الاتحاد السوفيتى أول معاهدة صداقة وتعاون شاملة معها لم يعقدها مع دولة أخرى غيرها من قبل خارج المعسكر الاشتراكى ، ثم كيف نقيم ما كتبه بوناماريف ـ وهو احد أعضاء وفد المباحثات السوفيتى فى عقد هذه المعاهدة ـ فى تقريره الانف الذكر (المصدر السابق) : « ان النهج الحازم المعادى للامبريالية الذى اختارته الجمهورية العربية المتحدة ، وكذلك الاتجاه نحو الاشتراكية ، جعلا منها مركز جذب للقوى التقدمية فى العالم العربى ، وساعد على النهوض العاصف للنضال التحررى للبلدان العربية الذى نشهده بأنفسنا ، وأمن للجمهورية العربية المتحدة سمعة دولية ممتازة، وجعلاها تشغل المواقع الطليعية فى الحركة التحررية الوطنية لشعوب العالم بأسره، ثم ان الجمهورية العربية المتحدة فى الوقت ذاته كسبت ـ ان صح القول ـ عداوة مشرفة من جانب الامبرياليين الذين لم يرق لهم نهجها التقدمى المستقل »

الفيلسوف الماركسى المجرى

جورج لوكاتش

فى آخر حوار فكرى معه

سمير كرم

مات جورج لوكاتش الفيلسوف الماركسى المجرى الذى يعد واحدا من أبرز مفكرى القرن العشرين على الاطلاق وأهم أعلام الفكر النظرى الماركسى المعاصر ، وأكثرهم اثارة للجدل - فى الوقت نفسه - سواء فى العالم الاشتراكى او العالم الراسمالى .

وقد ولد لوكاتش فى بودابست فى ١٣ ابريل عام ١٨٨٥ من أسرة مجرية ثرية وكان والده مديرا لاكبر البنوك التجارية فى المجر ، وكانت تطلعات الاب محصورة فى دفع ابنه الى السير فى نفس هذا المضمار .. المال والتجارة والسيطرة الاقتصادية . ولكنه اختار لنفسه طريقا اخر تماما . واتضح ذلك مبكرا فى عام ١٩٠٤ عندما كون جمعية للدراما باسم « الطليعة » .

تولى منصب وزير الثقافة فى حكومة امرى ناجى الانقلابية فى أكتوبر عام ١٩٥٦، وبعد القضاء عليها تم ترحيله الى رومانيا ولكن ذلك لم يدم اكثر من أربعة أشهر عاد بعدها الى بودابست ليستأنف نشاطه الثقافى . وقد تمتع طوال حياته باحترام عميق فى وطنه .

واذا كان المجال لا يسمح باستعراض تطور لوكاتش الفكرى فان الحوار الذى تنشره « الطليعة » وهو آخر حوار معه قبل فترة المرض التى استغرقت نحو عام قبل وفاته يوم ٤ يونيو الماضى ــ يعطى صورة واضحة عن الابعاد الفكرية لهذا الفيلسوف الذى أسهم بدور كبير فى تعميق الفكر النظرى الماركسى وفى نشر الثقافة الاشتراكية فى العالم الغربى ، والذى كان مدافعا قويا عن الاشتراكية ضد الانحراف نحو الفكر البورجوازى . وقد اجرى هذا الحوار مع لوكاتش صحفى يوغسلافى ، وظهر بالانجليزية فى « مجلة اليسار الجديد » عدد أبريل ١٩٧٠ .

اهم مؤلفاته :

- نظرية الرواية (١٩١٦) .
- الرواية التاريخية (١٩١٧) .
- التاريخ والوعى الطبقى (١٩٢٢) .
- لينين (١٩٢٤) .
- نظرية المادية التاريخية (١٩٢٥) .
- موسى هيس والجدل المثالى (١٩٢٦) .
- الادب والديمقراطية (١٩٤٧) .
- وجودية ام ماركسية ؟ (١٩٤٨)
- دراسات فى الواقعية الاوروبية (١٩٥٠) .
- علم الجمال (١٩٦٣) . (وهو اكبر مؤلفاته واهمها على الاطلاق اذ يعد لوكاتش صاحب أول نظرية ماركسية متكاملة فى علم الجمال) .

■ ■ ■

سؤال : كيف ترى حياتك والعصر من التاريخ الذى عشت فيه ؟ انك قد شاركت فى خمسة عقود من العمل الثورى والعلمى بكل مافيها مما يشرف وما يذل . كذلك فاننا نفهم ان حياتك كانت فى خطر بعد القبض على بيلاكون فى عام ١٩٣٧ . فاذا كنت تزمع كتابة ترجمة ذاتية او مذكرات شخصية ، ما هى الدروس النهائية التى تستخلصها منها ؟ ماذا كان معنى كونك مناضلا ماركسيا طوال خمسين عاما ؟

لوكاتش : اذا اردت ان اجيب عليك باختصار تعين على أن اقول انه كان من حسن الحظ أنى عشت حياة خصبة مليئة بالاحداث وانى لاعتبر من الميزات الخاصة التى حظيت بها انى عشت السنوات من ١٩١٧ الى ١٩١٩ ذلك اننى انحدر من اصل بورجوازى ، كان اننى انحدر من أصل بورجوازى ، كان ورغم أنى انتهجت نوعا من نزعة المعارضة الفردية فى مجلة «نيوجات» ، [الغرب] الا اننى مع ذلك كنت اشكل جزءا من المعارضة البورجوازية ولا اجرؤ على القول ــ ولا استطيع القول ــ بأن الاثر السلبى المحض للحرب العالمية الاولى كان يمكن ان يكفى ليجعل منى اشتراكيا ، بل ان الثورة الروسية والحركات الثورية المجرية التى تلتها هى بغير شك التى جعلت منى اشتراكيا ، ولقد ظللت مخلصا لهذه الحقيقة . وانى اعتبر هذا واحدا من اكثر الجوانب ايجابية فى حياتى . أما مسألة اذا كانت حياتى فى مجموعها قد صعدت او هبطت وفى اى اتجاه كان فهذه مسألة اخرى : الا انه يمكن القول بأنها اتسمت بوحدة معينة ، اننى اذ استرجع الماضى استطيع ان أرى ان الاتجاهين اللذين سادا حياتى كانا أولا : التعبير عن نفسى وثانيا : الحفاظ على الحركة الاشتراكية كما كنت افهمها فى اى وقت من الاوقات . ولم يتحول اى من هذين الاتجاهين ابدا ، ولم اقع ابدا فى صراع بينهما ، ولقد ظهر فيها بعد مرات عديدة ــ فيها اراه وفيما يرى الاخرون ــ أن ما كنت أفعله لم يكن صوابا وهذا ايضا استطيع ان اقرره وأنا رابط الجأش ، وفى تلك المرات اعتقد انى كنت محقا فى رفض آرائى القديمة التى آمنت فيها بعد أنى كنت مخطئا فيها . وفى التحليل النهائى يمكننى ان اقول بهدوء اننى حاولت فى كل وقت ان اقول ما ينبغى أن يقال على افضل ما استطعت اما عن قيمة العمل الذى اديته فى حياتى وشكله العام ، فهذا ما لا استطيع ان اعلنه ــ انه شىء لا يعنينى . اننى من جانبى استطيع ان اكون راضيا بالجهد الذى بذلت ، واستطيع ان اقول فى هذا الصدد اننى راض : وهذا لا يعنى ــ طبعا ــ اننى راض بنتيجة هذه الجهود . ولسوف أحاول خلال الوقت القصير الباقى لى فى الحياة ان ابذل اقصى ما بوسعى لكى أعبر عن افكار معينة على نحو اكثر دقة وضبطا وعلمية من اجل الماركسية .

سؤال : هل يمكن ان يقتنع الانسان بحالته ؟ وهل لمثل هذه الحالة وجود على الاطلاق ؟

لوكاتش : لكى نكون حريصين ؟ أن الكاتب يمكن ان يخبر هذه الحالة من وقت لاخر بينما هو يكتب . اذ يحدث أن اشعر أنى نجحت فى التعبير عما اردت التعبير عنه . أما كيف يبدو لى ما عبرت عنه بعد ثلاثة أيام مثلا فهذه مسألة مختلفة . كل ما اقوله هو أن هذه الحالة توجد فعلا .

سؤال : لم تكن فحسب شاهدا على تاريخ هذا القرن بل انك ايضا شريك نشط فيه . فاذا كان لك ان تقدم الان كشفحساب عن مثلك العليا واحلامك الشابة ـ تطور الاشتراكية من الجمهورية السوفيتية المجرية حتىزمننا هذا ـ فماذا يمكن ان يضم هذا الكشف ؟

لوكاتش : ينبغى أن يفرق المرء هنا بينالعناصر الذاتية والموضوعية؛فمن الناحية الذاتية يمكننى أن اقول انه كان قد اتضح فى العشرينات ـ ودعك من اليوم ـ أن تلك الامال الحارة التى كنا نتابع بها الثورة الروسية من عام ١٩١٧ فما بعده لمتكن تتحقق : فموجة الثورة العالمية التى وضعنا فيها ثقتنا لم تأت لتمضى ، وحقيقة أن الثورة التى ظلت محدودة بالاتحاد السوفيتى ليست نتاج نظريات انسان واحد ، وانما نتاج حقائق تاريخ العالم . بهذا المعنى فان آمال الانسان الذاتية تبقى غير محققة ومن ناحية أخرى فان الانسان الذى يصف نفسه بأنه ماركسى ـ والذى سيعتبر نفسه بالتالى طالب تاريخ ـ لا بد أن يعرف أنه لايجرى تحول اجتماعى عظيم بين يوم وليلة . فقد مرت آلاف السنين قبل أن تتحول المشاعية البدائية الى مجتمع طبقى . أو ـ اذا أعطيت مثالا من الازمنة التاريخية ـ نستطيع الان أن نتتبع تاريخ تحلل المجتمعات التى كانت قائمة على العبودية ،ويمكننا انستنتج أن هذه المجتمعات استغرقت ثمانمائة سنة أو ما يقرب من ألف سنة منالازمات لكى تتحول الى الاقطاع . وبالتالى فانه كلما كان الانسان ماركسيا كلما تعينعليه أن يعرف أن تغيرا حاسما مثل الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية لا يمكن أن يتم فى غضون أسابيع أو أشهر أو حتى سنوات . وأن الفترة ألتى نعيش فيها ليست سوى مجرد بداية الانتقال ، ومن يدرى كم منعشراتالسنين ـ وربما أطول ـ ستمر قبل أن يستطيع العالم دخول عصر الاشتراكية الحقة . ان أى شخص يريد أن يكون ماركسيا لا بد أن ينزع توقعاته الخاصة من تقييمالاحداث قد يكون من الطبيعى ان كل شخص يود ـ من الناحية الذاتية ـ أن يرى عصر الاشتراكية الحقة ولكن الانسان الماركسى سوف يعرف من خبرة حياته الخاصة أن مثل هذه التغييرات لا تتم بين يوم وآخر .

سؤال : ماهى مكانة الفلسفة الماركسية فى الثورة الفلسفية العظيمة لعصرنا ؟ وما هو الجزء الذى يمكن قبوله منها كجزء له قيمته او كحافز لمزيد من التطور ؟

لوكاتش : اعذرنى اذا لم اعطك اجابة مباشرة على هذا السؤال . فليست لدى فكرة كبيرة عن الفلسفة البورجوازية الحديثة . انه من الامور المفهومة انه حينما يخيب أمل الناس فى التحريفات الستالينية للفلسفة فانهم يتجهون نحو الفلسفة الغربية،تماما كما يسهل أن تجد امرأة خدعها زوجها بين ذراعى اىرجل آخر فى تلك الليلة. ولابد أن أعترفبأنه ليست لدىفكرة كبيرة من الفلسفة البورجوازية واننى اعتبر **هيجل** آخر مفكر بورجوازى عظيم فاذا كانت الصحافة الامريكية او الالمانية او الفرنسية تعلن أن زيدا او عمرا مفكر عظيم ، واذا كان الناس الذين خاب املهم فى ستالين يتخيلون ـ نتيجة لذلك ـ ان باستطاعتهم ان يعالجوا الماركسية بالفلسفة البنيائية Structuralism وارجو الا تمتعض من قولى هذا صراحة ـ فاننى اعتبر ذلك وهما . اننى لا اوافق على القول بأن الماركسية الرسمية خلال الفترة الستالينية كان ينبغى ان تعزل نفسها كلية من ثمار التطورات غير السوفيتية . فلقد كان ذلك خطأ وكان ايضا غير ماركسى ، فقد كان **ماركس وانجلز ولينين** يتابعون دائما الفلسفة المعاصرة والفكر العلمى المعاصر بأعلى درجة منالانتباه ولكن ـ دعنا نضيف ـ بأعلى درجة من الانتباه النقدى . ولو انك لاحظت حياة ماركس لرأيت تفكيره لم يتأثر فحسب بالشخصيات البارزةمثل **داروين ومورجان** فقد كان ـ علىسبيل المثال ـ مهتما الى حد الشغف بتجارب **ليبيج** فى الكيمياء الزراعية وبأبحاث **داروين** التاريخية وما الى ذلك . ولكن ينبغى ان أضيف أن رأى ماركس فى معاصريه العظام ـ وأنا هنا افكر فى **كونت وهوبرت سبنسر** كان مليئا بالرفض والاحتقار . ويمكننى ان أفهم من الناحية النفسية كيفيبحث ماركسيو اليوم دائما عن تأييد فى الغربلاصلاحاتهم ، ولكننى اعتبر هذا من الناحية الموضوعية خطأ وأما الامر الذى اعتبره ضروريا هو أن نفهم الماركسية فهما جيدا ، وأن نرجع الى منهجها الحقيقى وان نحاول أن نفهم ـ باستخدام هذا المنهج ـ تاريخ عصر ما بعد وفاة ماركس فمازلنا بحاجة للقيامبهذا العمل منوجهة نظر ماركسية نظرية . ان من اكبر خطايا الماركسية انه لم يظهر تحليل اقتصادى حقيقى للرأسمالية منذ كتاب لينين عن الامبريالية ـ الذى كتب عام ١٩١٦ . وبالمثل فليس هناك تحليل تاريخى واقتصادى حقيقى لتطور الاشتراكية ومن ثم فان المهمة التى ارى أن على الماركسيين القيام بها هى أن يدرسوا بطريقة نقدية ما نستطيع ان نتعلمه من الكتابات الغربية . مما لا شك فيه انهم قد حققوا فى مجالات عديدة من العلوم الطبيعية نتائج هائلة . يمكننا بالتأكيد أن نتعلم منها .

ثانيا : ان من رأيى ان الكتابات فى الفلسفة ـ بتعريفها الدقيق وفىالعلوم الاجتماعية ينبغىان تفحصفحصا نقديا. ان من الوهم أن نعتقد أننا لانزال نستطيع أن نتعلم أى شىء من **نيتشة** ومع ذلك فانى أعرفحالات ـ للاسف ـ يحاول فيها بعض الذين خاب املهم فى الماركسية الستالينية ان يتعلموا منه شيئا . ومع ذلك فان أكثر مايستطيع المرء أن يخرج به من نيتشة هو درس فى كيفية عدم التفلسف ودرس فيما هو خطير وسيىء فى الفلسفة ومن هنا يتعين على أن أوضح أن موقفى من مسألة ما يمكننا انتعلمه منالغربموقف نقدى بدرجة عالية، اننىاحب الماركسيين نقديين وان يحكموا على الاتجاهات الغربية ايضا باستخدام منهج ماركس الحقيقى .

سؤال : لقد استخدمت مفهوم الماركسية الرسمية ـ كمقابل للاتجاهاتالفلسفية البورجوازية ـ بينما قلت أيضا ان عملا كثيرا لابد ان يؤدى منذ نشر الكلاسيكيات فماذا تعنى بالماركسية الرسمية ؟

لوكاتش : ما اعنيه بالماركسية الرسمية هو تلك الماركسية التى ظهرت فى الاتحاد السوفيتى بعد ان حقق ستالين انتصارا ايديولوجيا وسياسيا وتنظيميا على **تروتسكى وبوخارين** ولكن هناك شيئا واحدا مؤكدا : ان المرء لايمكن ان يقول انه كانت هناك حتى يوم معين لينينية ، وان ستالين ادخل الستالينية فىاليومالتالى . وانما الاحرى ان ذلك تم خلالعملية استغرقت اكثر من عشر سنوات فأعيد تفسير الماركسية لتناسب احتياجاتنتائج الحكم الستالينى . ولقد كتبت عن المبادىء الاساسية لهذه العملية مرات عديدة . فاذا كان لى ان أكرر نفسى فان هذه العملية قامت على مايلى : لقد استخرج ماركس منظورا تاريخيا عظيما للعالم من منهج ديالكتيكى شامل ، وحاول أن يضع أسسه الاقتصادية والسياسية لشتى الطرق . وقد شكل هذا المنظور القوة الدافعة النهائية لاوجه نشاط ماركس وهذهالقوة الدافعة هى التى مكنته من تحليل المواقف الاستراتيجية فى كل عصر وان يحلل الاسباب التكتيكية فى كل موقف وفى اطار الموقف الاستراتيجى .

فجاء ستالين وقلب هذا كله على رأسه فعند ستالين كان الموقف التكتيكى فى أى وقت معين هو العامل السائد ومن أجل هذا الموقف التكتيكى خلق استراتيجية ونظرية عامة .

ولكن دعنا نقول — حتى ولو ان المؤتمر العشرين [للحزب الشيوعى السوفيتى] قد استنكر مذهب ستالين القائل بأن الصراع الطبقى يزداد حدة باستمرار فى الاشتراكية — فانه قد اخفق مع ذلك فى ان يعلن — وهذا لسوء الحظ — ان المشكلة ليست فى ان ستالين قد استنتج ذلك وبناء على هذه النتيجة اعد عمليات التطهير الكبرى ضد بوخارين والاخرين . انما المشكلة بالاحرى ان ستالين قد احس ان لديه حاجة تكتيكية لعمليات التطهير هذه وقد نفذها ، وبعد ذلك وضع منها نظرية تذهب الى ان الصراع الطبقى يزداد حدة فى ظل الاشتراكية . ويمكننى ان اصور هذا بمثال اكثر دلالة كان فيه ستالين فى جانب الصواب فعلا من الناحية التكتيكية فعندما وقع معاهدته مع هتلر فى عام ١٩٣٩ كان يتخذ خطوة صائبة تكتيكيا . وبعد ذلك جاءت مرحلة الحرب التى حاربت فيها بريطانيا والولايات المتحدة ضد هتلر فى تحالف مشترك مع الاتحاد السوفيتى نجح فى درء خطر النازية . وفى اعتقادى ان السؤال الكبير هو ما اذا كان ذلك يمكن ان يحدث دون خطوة ستالين التكتيكية المبدئية ، وفى مقابل ذلك عندما اعلن ستالين فى عام ١٩٣٩ ان الحرب العالميـة الثـانية لا تختلف فى جوهرها عن الحرب العالمية الاولى وان مهمة الاحزاب الشيوعية بالتالى هى مهمة لينينخيه ، اى هى مهمة محاربة العدو فى الداخل — ومن ثم — وبدءا من خطوة تكتيكية صائبة — اعطى باسم الكومنترن نصيحة خاطئة بدرجة مدمرة للحزبين الفرنسى والبريطانى . انى اعتقد ان النتائج الضخمة التى نشأت عن الوسائل الستالينية تظهر فى هذا المثال بوضوح تام . ولنضف الى هذا انه لايزال من الضرورى تصفية المفهوم الستالينى تصفية تامة وبالتالى فان كثيرا من مفاهيمنا فى السياسة العالمية مفاهيم تكتيكية بحتة يمكن ان يثبت عدم صحتها بين يوم وآخر وهى ايضا — ولكى اعبر عن نفسى بطريقة مباشرة بعض الشىء — مفاهيم لا تكاد تكون لها علاقة بالعمليات الحقيقية التى تجرى فى واقع المجتمع .

سؤال : ما رأيك فى الكيفية التى تستقبل بها مؤلفاتك فى يوغوسلافيا ؟

لوكاتش : لابد ان اعترف باننى لا أعتبر نفسى أهلا للتعقيب على مشكلات التطور الايديولوجى اليوغوسلافى . وكل ما استطيع ان اقوله — بايجاز — انه خلال الحرب العالمية الثانية ، اثارت يوغوسلافيا حماسنا جميعا . فقد كانت — بين البلاد الصغيرة — الامة الوحيدة التى شنت حرب مقاومة مستقلة واسعة النطاق ضد هتلر . ومن هذه الوجهة للنظر ، كان مسلك الشعب اليوغوسلافى مثالا للاخرين جميعا ، بما فى ذلك المجريين الذين كانت ارادة مقاومتهم لهتلر اقل وعيا او تصميما او نجاحا بكثير من اليوغوسلافيين . ثانيا اننا جميعا — وانا اعنى مجموعة المفكرين — كنا ننظر الى تطور الستالينية بقدر من الاستياء . واى شخص يقرأ مقالاتى فيما بين العشرينات والثلاثينات يرى اننى حتى فى ذلك الوقت كنت على خلاف مع خطة ستالين وزدانوف . وعلى سبيل المثال كان الكتاب الذى الفته عن هيجل يتعارض تعارضا قطعيا مع تحليل زدانوف له . ومع ذلك — ورغم ذلك — فان سياسة المجر كانت تحذو حذو الخط السوفيتى عن كثب ، وعندما تصدى تيتو للوسائل الستالينية بالنقد العملى كان ذلك حدثا عظيما بالنسبة لنا جميعا نحن الذين كنا قادرين على ان نفكر لانفسنا . ولن ينسى تاريخ الاشتراكية ابدا هذا العمل العظيم لتيتو . ونتيجة لهذا بدأت الكتابات الماركسية فى يوغوسلافيا تصبح أكثر حرية من الماركسية الرسمية . ولقد وجهت انتباهى لهذه الكتابات ولكن هذا يعنى ايضا اننى نقدتها بشكل حاد فى بعض الاحيان . ولابد ان اكرر ان هذه التطورات ليست مثل الخروج من القطار وركوب قطار آخر . اننا نحتاج الى معارك ايديولوجية كبرى قبل ان تتشكل ايديولوجية المرحلة الجديدة . وكون هذه العملية قد بدأت تعكس فضل الرفاق اليوجوسلاف . ولن يغفل احد هذا ابدا . ومع ذلك ، وهو امر ينطبق لا على يوغوسلافيا فحسب بل على الحركة كلها — فان نقد التفكير الستالينى والصراع الحالى من اجل تجديد الماركسية يتم بكل الوسائل العقلية المتاحة ، كأفضل ما تكون . وهكذا يتعين ان وجهات نظر تتسم بوضوح تام واتجاها واحدا سائدا لايزال من الضرورى ان يندمجا معا . واننى على ثقة من انك لن تسىء الظن اذا قلت اننى — ذاتيا — امل ان يبرز الاتجاه الذى امثله ليكون الاتجاه السائد وان كنت اعرف ان كل فرد يأمل ان يعطى التاريخ وجهة نظره الخاصة موافقته النهائية . وعلى اية حال فان قرارا تاريخيا كهذا ، بشأن اى الطرق هو الصحيح ، لايزال يتعين ان يصدر موضوعيا ولهذا فان هناك أناسا فى كل مكان فى العالم — فى البلاد الاشتراكية والرأسمالية — يكافحون من اجل تجديد الماركسية وكل واحد منهم يحاول بمناهجه الخاصة ، وكل بطريقته يتناقشون فيما بينهم على امل التوصل الى اتجاه ما يمكن ان يخرج بالماركسية من الموقف النفسى الذى ظلت فيه بفضل نفوذ ستالين .

سؤال : يعتقد البعض ان نظام التسيير الذاتى العمالى بدعة يوغوسلافية خاصة وليست تعبيرا عن التنمية الاشتراكية . فما هو رأيك فى هذا ؟

لوكاتش : من الصعب على ان اجيب عن سؤال بهذا الشكل . ويمكننى — بوجه عام — ان اقول ان الادارة الذاتية العمالية — واحدة من أهم مشكلات الاشتراكية . وفى اعتقادى انه من الخطأ ان يعارض كثيرون الستالينية بديمقراطية عامة . وبتعبير ادق بديمقراطية بورجوازية .

ولقد وصف ماركس البنيان الاساسى للديمقراطية البورجوازية فى اربعينات القرن التاسع عشر ، فهى تقوم على التناقض بين المواطن المثالى والبورجوازى المادى ، والنتيجة الحتمية لنمو الرأسمالية هى صعود البورجوازية الرأسمالية الى القمة وتحول المواطن المثالى الى خادم . وعلى النقيض من ذلك فان جوهر التنمية الاشتراكية — التى بدأت فى الثورتين الروستين تعرف باسم فى الثورتين الروسيتين تعرف باسم « **مجالس العمال** » . فاذا عبرنا عن ذلك فى المجال النظرى امكننا ان نقول انها ديمقراطية الحياة اليومية . ان الادارة الذاتية الديمقراطية تتكشف فى اكثر المستويات اولية فى الحياة اليومية ، وترتفع حتى تصبح سيطرة الشعب ككل على جميع المسائل العامة الهامة . واليوم نحن فى بداية هذه التنمية . ولكن لا يمكن ان يقوم شك فى ان تلك الابتداءات التى تحدث فى يوغوسلافيا وحقيقة كونها قد خضعت لمناقشة مسئولية ، سوف تسهم — فى الظروف الجديدة للحاضر — فى النجاح النهائى لمجالس العمال فى أن تصبح مرة اخرى المبدأ الاساسى لكل تنمية اشتراكية .

سؤال : لقد عبرت فى احدى المرات عن الفكرة القائلة بان الانسان الكامل هو انسان الحياة العامة . فهل تسمح بان تزيدنا فى هذا الشأن .

لوكاتش : اعتقد اننا معنيون هنا بموضوع أساسى من موضوعات الماركسية وهو موضوع عالجه ماركس فى ايامه الاولى عندما كتب « القضايا عن فيورباخ »

فعندما انتقد ماركس فيورباخ ، قال ان تناول فيورباخ للمادية وقف عند حدود الطبيعة . ففى عالم الطبيعة العضوية ، نخرج الى الوجود فعلا فصائل معينة ، ولكن هذه الفصائل — كما عرفها ماركس فى ادلته ضد فيورباخ — فصائل صامتة . فالاسد ، الاسد الفرد ينتمى لفصيلة الاسود ، ولكن الاسد الفرد لا يعرف شيئا من هذا فهو عندما يمارس الاصطياد أو عندما ينجب صغاره انما يشبع فحسب حاجته البيولوجية ، وهو فى الوقت نفسه يخدم فصيلته ويمثلها دون أن يكون على وعى بذلك . فماذا كان ماركس يعنى عندما قال ان المجتمع الانسانى ليس فصيلة صامتة ؟ ذلك أن الانسان هو بنفس القدر وحدة من الفصيلة الانسانية ومن النوع البشرى لايمكن فصلها عنه ، كما أن الاسد وحدة من النوع الحيوانى لا يمكن فصلها عنه . وكما ان نبتة العشب من النباتات . ومع ذلك — وعلى النقيض من هذا — فأن الانسان عضو واع فى قبيلته حتى على ادنى المستويات البدائية . هذه الحقيقة ذاتها ، حقيقة كونه عضوا فى اكثر القبائل بدائية ترفعه الى ما وراء الصمت الذى هو صفة بيولوجية بحتة . وهنا تنشأ بهذه الطريقة علاقة جدلية مفردة بين مطالب الفصيلة ومطالب الفرد ، بين امكانيات الفرد وامكانيات الفصيلة والاثر المتبادل لكل منهما على الفصيلة والفرد على السواء ، هذا مايحدد تطور الانسان الى انسان . فلو اننا تأملنا التاريخ جيدا لوجدنا ان هذا هو المضمون الحقيقى للتاريخ كله — وينبغى أن نضيف الى هذا ما قاله ماركس من وقت بعيد ، وهو أن التطور الذى مارسناه — ويمكنك أن تعرف مدى ضحالة هذا التطور اذا قارنت بين الفأس الحجرى والقنبلة الذرية — لا يزال يمثل ما قبل تاريخ الانسانية . ان الانسان سيبدأ تاريخه الحقيقى ، عندما يكون قد تخطى وراءه كل حواجز المجتمع الطبقى . وبعبارة أخرى فاننا عندما نقيم الانسان المعاصر وعلاقته بالفصيلة ، ينبغى أن نعى اننا لانزال فى مرحلة ما قبل التاريخ . أما كيف افسر هذا فانه من مرحلة ماقبل التاريخ يكون الانتماء للفصيلة مناقضا فى جوهره لمطالب الانسان الفردية البحتة ، وقد كانت الاستثناءات فى التاريخ اولئك الافراد الذين عندهم اتفق هذان الجانبان اتفاقا كاملا . ونذكر على سبيل المثال العبارة المنقوشة فى تمجيد ذكرى الاسبرطيين الثلاثمائة فى ترموبايلى (1) ومع ذلك فان العلاقة الجدلية تزداد حدة . وهذه العلاقة الجدلية هى التى ستدفع المزيد والمزيد من الناس فى مسيرة المجتمع الانسانى الى التفكير فى أن التحقق الشخصى لا يكون ممكنا الا اذا كانت الاوامر العليا للفصيلة مقبولة كواجب على الفرد . ان اكثر ما يفتننا فى شخصيات مثل سقراط أو لينين — دون أن يكون المرء بالضرورة واعيا بذلك — هو ان تطور فردياتهم وانجازهم لاوامر الفصيلة — الذى يتم اراديا — على هذه الدرجة من الانسجام وما أود أن أقوله الان هو ان الاهداف الماركسية فى ظل الشيوعية ينبغى أن تتيح للانسان — على وجه التحديد — أن يفلت من مصيدة الفصيلة الصامتة مما يتناسب مع مقدرته على أن يرى تحقق فرديته فى الواجبات الكامنة فى قبول مكانه كعضو فى الفصيلة .

سؤال : لقد ذكرت اسم لينين مرتين بتأثر خاص ، فماذا يمثل بالنسبة لك فى حياتك الخاصة ؟

لوكاتش : اذا كنت تعنى الى اى مدى كانت لى به علاقة شخصية فان الاجابة ان هذا المدى ضئيل الى اقصى حد . فان اتصالنا تمثل فى أن لينين قد كتب بصراحة تامة فى العشرينات أن مقالى عن البرلمانية كان مقالا رديئا وغير ماركسى . ولابد أن اعترف بأن هذا كان واحدا من الانتقادات التى تعلمت منها القدر الكثير ، وذلك ان لينين — ولم يكن قد ذكر ذلك فى هذا النقد وانما فى كتابه « مرض اليسارية الطفولى » الذى يتناول الموضوع نفسه — قد أكد على الاختلاف بين انهيار مؤسسة كالبرلمان فى تطور تاريخى عالمى واخمادها سياسيا من الناحية العمالية . فقد خلطت بين هذين فى مقالى . وتعلمت قدرا كبيرا من تأكيد لينين على هذا الاختلاف . وبعد ذلك اصبحت فى مركز يسمح لى بأن اقدر مثل هذه الموضوعات على نحو افضل . والحقيقة أنه عند هذا الحد انتهى اتصالى الشخصى بلينين . وحقا لقد التقيت بلينين فى مؤتمر الدولية الثالثة ، ولكن تنسى اننى لم اكن فى ذلك الوقت اكثر من عضو لجنة مركزية فى حزب صغير غير شرعى ، وعندما قدمنى احدهم الى لينين فى ردهات المؤتمر كانت لديه مشكلات اكثر الحاحا من الدخول فى مناقشة مع مجرى من الصف الثانى وبالمثل فان مسلكلينين فى مؤتمر الدولية الثالثة ترك فى اثرا هائلا ، وساعدت دراستى لمؤلفاته على تقدمية هذا الانطباع وبقدر أكبر من التحديد فاننا نرى فى لينين نمطا جديدا فى جوهره للثورى الاصيل . ولست اعنى بهذا ان انتصل من الثوريين القدامى . ولكنه يمكن القول انه بعد تفكك المدنية [الاغريقية] ظهرت بين الرواقيين تجربة تهدف الى تجديد الاخلاقيات المدنية وخلق ارستقراطية جديدة قادرة على التصرف على نحو اكثر عدلا ، على النقيض من الافعال الظالمة التى كان يرتكبها الشعب . ان بقايا هذا الموقف وبعثه من جديد فى القرنين السابع عشر والثامن عشر يعنى انه من الممكن اكتشاف نوع معين من الزهد واضحا جدا ، وقد اثر هذا على فكرت فى روبسبير مثلا لوجدت هذا الزهد واضحا جدا ، وقد اثر ذا على عصرنا بالمثل . ولو نظرنا الى عصرنا الثورى والى شخصيات بارزة مثل اوتوكورفين فى المجر (2)، أو ليفينيه فى ميونخ (3)، لادركت ما اعنيه . فقد كان ليفينيه يقول ان الشيوعيين كانوا دائما فى اجازة من الموت . وهذه فى الحقيقة اعلى درجة من الزهد . وعلى النقيض فان انجلز — وليفينيه من بعده بوجه خاص — يمثلان نمطا من الثورى غير الزاهد . ويتضح طابعهما الثورى فى أن خصائصهما الانسانية الفردية لم تكن تلعب دورا فى حياتهما وانه حتى حينما كانا يتخذان قرارات ضد ميولهما الفردية الخاصة ، لم يكن ذلك يتخذ صور قزاهدة . وعندما يقرأ المرء ما كتبه جوركى عن لينين — وخاصة تلك الفقرات الجميلة التى يتحدث فيها لينين عن مقطوعة بيتهوفن « العاطفية » . فانه يرى بجلاء أن لينين على النقيض من نمط روبسبيير وليفينيه — يمثل نمطا جديدا للثورى هو بنفس القدر انسان شئون عامة وبنفس القدر انسان يضحى بمصيره الشخصى مثل النمط القديم ، ولكن دون ان تنطوى هذه التضحية بالذات على اى زهد . وفى اعتقادى ان نموذج لينين سيلعب دورا هائلا فى التطورات المستقبلة .

سؤال : هل هناك علاقة

---

(1) تقول العبارة : ايها الغريب فلتحمل الكلمة الى الاسبرطيين اننا نرقد هنا حافظين عهدهم » .
(2) كان اوتوكورفين مثقفا اشتراكيا قام بدور طليعى فى الكوميونة المجرية عام 1919 . وكان يعتقد ان تقبل الموت هو اسمى واجبات الثورى ، وقد رفض عن عمد ان يهرب من بودابست بعد سقوط الكوميونة واعدم .
(3) كان يوجين ليفينيه زعيما روسى المولد فى الحزب الشيوعى الالمانى فى ميونخ اثناء فترة الجمهورية السوفيتية البافارية عام 1919 . وقد اعدمته الثورة المضادة بعد سقوط الجمهورية . وقد اعلن فى خطاب شهير له اثناء محاكمته « نحن الشيوعيين جميعا رجال موتى فى اجازة من الموت »

مباشرة بين الزهد ومرض «اليسارية الطفولي» ؟

لوكاتش : بالطبع ، فقد كان الثوريون المتطرفون في ذلك الوقت من النمط الزاهد في معظمهم . وكثيرون جدا منهم كانوا ثوريين مستقيمين ومكرسين بصورة غير عادية ، وهذا ما اعتقد أن لينين كان يعرفه حق المعرفة . ولم يكن يمكن أن يحدث أن يفكر لينين أن داتشمان بانيكوك رولان هولشت كانا ثوريين اصليين ، فان كل ماكان يستنكره فيهما هو نزعتهما الطائفية . وعلى حين أن هذه المشكلة كانت ماثلة امام لينين بغير شك كمشكلة سياسية الا ان المشكلة الاخلاقية موجودة في الخلفية . لقد كان لينين — بحكم كونه ليس منظرا بارزا فحسب بل رجلا عمليا عظيما ايضا — يعرف جيدا ان هذه المشكلة الاخلاقية فيه لا يمكن ان تنشأ في السياق العام في مرحلة اعلى من التطور » . وقد كانت وجهة نظره — في مناقشات العشرينات — حول المشكلات المحددة — مع الطائفية او ضدها — هي التي أدت الى القرارات العملية التي ناضل لينين من اجلها .

سؤال : ماذا تكون وجهة نظرك في الحركة العمالية الدولية اليوم في ضوء « مرض اليسارية الطفولي » ؟

لوكاتش : ان هذا سؤال معقد للغاية فما لا شك فيه أن التطرف اليساري يلعب دورا ما » ولكن علينا أن نكون حذرين جدا هنا في كيفية تطبيق الاحكام على المشكلات التاريخية كما عولجت في المؤلفات الكلاسيكية — في الوقت الحاضر » ان اى شخص يعتقد أن باستطاعته أن يطبق كتابا الفه لينين في عام ١٩٢٠ على الشباب الامريكي هذا العام او تطبيق لينين لرولان هولشت على دويتشكة يقع في خطأ مروع . ومن ناحية أخرى ، فان هناك مشكلة حقيقية وهى مشكلة نستطيع أن نتعلم فيها من لينين » واعنى اننا الان في بدايات ازمة في المجتمع الراسمالي . فاذا عدت بفكرى الى الوراء الى عام ١٩٤٥ والانتصار على هتلر كان كثيرون يعتقدون أن الراسمالية البارعة الجديدة — أى الحياة على الطريقة الامريكية — ستمثل عهدا جديدا في تطور الانسان فكانوا يقولون ان هذه لم تعد رأسمالية وانما نوع من المجتمع على درجة أعلى من النظام ، وهكذا . وقد مرت الان ٢٥ سنة منذ ذلك الحين ، واليوم يواجه هذا النظام في مجموعه المراحل الاولية لأزمة عميقة بدرجة غير عادية . وينبغى أن اركز على المراحل الاولية والأزمة . فالمراحل الاولية تعنى ثورة الطلبة والمثقفين . ولكن هذه الثورة لاتزال تحتاج الى خلق برنامج ذى أساس سليم » والبرامج التى قدمت حتى الان برامج ساذجة الى أقصى حد في مجموعها ولو أنك تذكرت — على سبيل المثال — ان الشباب يذهبون الى حد القول بأن طريقة التغلب على الاستغلال يكون تحويل العمل الى لعب اذن فان كل ما يفعلونه حقا هو أنهم يرددون ماقاله العجوز المسكين فوربين في بداية القرن التاسع عشر وهو ما سخر منه ماركس في اربعينات القرن الماضى ، اذن فنحن بصدد حركة غير ناضجة الى حد كبير من الناحية الايديولوجية يمكننا ان نقيمها تقييما ايجابيا لانها متعارضة مع تلك التناقضات التى تظهر حاليا في المجتمعات الراسمالية . وأعنى بهذا الحرب الفيتنامية والازمة العنصرية في الولايات المتحدة وعجز بريطانيا عن ايجاد دور لها فيما بعد عهد الاستعمار ، وأزمات فرنسا والمانيا وايطاليا ، وبعبارة أخرى فاننا اذا نظرنا الى انفسنا من خلال تطور تاريخى عالمى — على عتبة ازمة عالمية — وبطبيعة الحال فان العتبة يمكن ان تعنى خمسين عاما وينبغى أن نكون واضحين في هذا . واليوم فانى أرى العامل العملى الكبير الى تجديد الماركسية في حقيقته أنه لايمكن أن تكون ثورة بلا نظرية ثورية ، كما قال لينين عن حق في كتابه « ما العمل ؟ » . ولنعد الى ما قلته من قبل ينبغى ان يكون هناك تجديد للمنهج الماركسى في الغرب وفى بلادنا ، لابد من القيام بتحليل اقتصادى واجتماعى لما تحقق في ظل الراسمالية ، تحليل لم نقم به نحن الماركسيين ، وهو نقص يتمثل في عجزنا من أن نعزل المشكلات المحددة التى تتطلب حلولا . وقبل ان يتم ذلك لن نكون في مركز نستطيع منه أن نتحدث عن حركة ثورية قادرة على اتخاذ قرارات عظيمة » . وهذا هو السبب في أننى أعتبر تجديد الماركسية مسألة بهذه الدرجة من الاهمية » ان هناك مشكلات في البلاد الاشتراكية ايضا . لانه بدون التجديد الضرورى للنظرية لايمكن أن يكون هناك تجديد في التطبيق . ولكن الشخص الذى يعتقد ببساطة انه يمكن اسقاط الراسمالية بمجرد حوادث هو بالطبع شخص ساذج جدا .

سؤال : ما هى المشكلات المحددة التى يثيرها تجديد النظرية الماركسية بالنسبة للتطبيق في البلاد الاشتراكية ؟ وأى هذه المشكلات تخص بالذكر ؟ .

لوكاتش : هناك مشكلات كثيرة في هذا الصدد . فالثورة الروسية — كما عرف لينين جيدا — لم تندلع في أكثر البلاد الراسمالية نموا ، ولم تندلع في شكل ثورة عالمية وانها في بلد متخلف نسبيا ، وفى عزلة . وهذا يعنى ان الاتحاد السوفيتى كان يواجه مهمة فريدة — مهمة يحققها المخطط الذى قدمه ماركس الذى كان يتخيل ان الثورة الاشتراكية ستقع في اكثر البلاد تقدما وهى مشكلة رفع مستوى الانتاج السوفيتى الى مستوى يجعل الاشتراكية الحقيقية ممكنة اقتصاديا واليوم ، فانى أشك في أن ستالين قد هزم منافسيه لمجرد انه كان التكتيكى البارع الوحيد بينهم ، بل ايضا لانه فوق كل شىء كان يدافع بكل تصميم عن هذه الاشتراكية في بلد واحد وعن الحاجة للتغلب على التخلف الاقتصادى والان فان الاتحاد السوفيتى قد لحق بالركب حتى وان لم يكن بصورة كاملة ، في الفترة الستالينية ، وفى مقابل هذا فان الامر الذى لم يحدث بعد هو ان يصبح الانتاج انتاجا عاديا ، والاهم من كل هذا ان يكون نوع الانتاج هو الذى يجعل الانتقال الى الاشتراكية ممكنا .

وفى هذا السياق تنشأ مشكلة « ما العمل ؟ » في الاتحاد السوفيتى وفى كل بلد اشتراكى اليوم . ولا يمكن ان تحل هذه المشكلة بالمناهج الستالينية ولقد قلت — عندما اجرى معى حديث لصحيفة « لونيتا » (صحيفة الحزب الشيوعى الايطالى) في عام ١٩٦٦ — ان هذه المشكلة لا يمكن ان تحل الا بادخال الديمقراطية الاشتراكية . ان مشكلة التنمية الاقتصادية الجديدة والانتقال من نظام ستالينى غير ديمقراطى الى ديمقراطية اشتراكية هى مركب واحد من عدة مشكلات ، لا يمكن حل واحدة منها دون حل الاخرى . ولكن طالما ان هذا الامر ليس حتى معترفا به للان في معظم البلاد ، وحيث يعترف به بعض الافراد فاننا لانزال بعيدين عن الحل — فنحن ايضا وبمعنى ما في موقف ازمة ، لابد من التغلب عليها على نحو مافى النظرية والتطبيق على السواء . وهذا الامر له اهميته الحاسمة بالنسبة الينا ، لانه بدونه لا نستطيع ان نصل الى المستويات العالمية في انتاجنا . وبالاضافة الى هذا فان هذا التطور الديمقراطى يمكن ان يعالج نقصا كبيرا نشأ نتيجة للنظام الستالينى » وقد قلت اكثر من مرة انه كان من الخصائص المميزة بصورة غير عادية انه في زمن لينين — ورغم ان الاتحاد السوفيتى كان يواجه ازمة عسكرية وسياسية واقتصادية ، عندما كانت المجاعة تسيطر في الاتحاد السوفيتى اذكر انى اشتركت في فيينا في كثير من اجتماعات المهاجرين حيث كنا نجمع التبرعات لاولئك الذين يموتون جوعا في الاتحاد السوفيتى كانت أغلبية المثقفين ، بل واكثر من هذا اغلبية العمال ، تشعر بأن ما كان يجرى في الاتحاد السوفيتى كان أمرا مصيريا بالنسبة لحياتهم ايضا . لقد كان للنمو الستالينية نتيجة مروعة دوليا هى ان هذا الشعور قد كف عن أن يوجد في الحركة الاشتراكية الاوروبية وليس صحيحا ان الاشتراكى الفرنسى

او الايطالى يكون اشتراكيا لانه يريد ان يعيش كما يعيش العمال فى الاتحاد السوفيتى . انه لا يريد ان يعيش بهذه الطريقة . ان ما يوده — اذا كان اشتراكيا حقا — هو تحقيق حياة اشتراكية ولكنه لا يعتبر حياة العامل السوفيتى او فلاح الكولخوز حياة اشتراكية . هنا اذن نوع من العلاقة المتبادلة بين هاتين الازمتين . والى ان نستطيع احياء النظرية الاشتراكية المستمدة من الماركسية ، والى ان نستطيع ان نجعل منها واقعا حيا فى البلاد الاشتراكية ، لن يمكننا بعث القوة الجذابة غير العادية للاشتراكية تلك التى دامت من عام ١٩١٧ الى حوالى وقت عمليات التطهير الثورى ، والتعاطف الدولى مع هذه الاشتراكية فى هذا السياق فان مشكلتى الاصلاح الكبيرتين متداخلتان بصورة مباشرة . واساس هذا التداخل لا يمكن الا ان يكون اعادة الحياة للنظرية الماركسية.

سؤال : يتحدث الكثيرون عن الاصلاحات الاقتصادية فى البلاد الاشتراكية . فهل ترى ان من الممكن اصلاح الاقتصاد وحده .

لوكاتش : لا يمكن النظر الى الاقتصاد منعزلا . ان بعض الناس هنا وفى الغرب يقعون فى خطأ الاعتقاد بأن الموضوع الذى يخصص له كرسى فى الجامعة يمثل كيانا مستقلا فى الواقع اننى استطيع أن احاضر فى علم الاقتصاد فى الجامعة دون أن اذكر المجتمع أو الايديولوجية وهكذا، ولكن التنمية الاقتصادية الحقيقية كانت دائما الاساس وحجر الزاوية لتنمية المجتمع ككل . وبعبارة اخرى فان ما اود ان اقوله هو انه ليس علم الاقتصاد الماركسى وحده الذى ينبغى تجديده ، وانما الماركسية نفسها . ان ماركس نفسه لم يكن اقتصاديا خالصا ابدا بالمعنى البسيط الذى يحاضر به عنه الاكاديميون . ولو انك قرأت فى «رأس المال» لرأيت فى كل صفحة اشياء مثيرة تندرج تحت عنوان علم الاجتماع او التاريخ . ولكن ماركس كان مفكرا عظيما ، ولهذا لم يكن يعنى قيد انملة بالعناوين على هذا النحو وكان يبحث فى التطور الاجتماعى فى شموله الحقيقى ولهذا فاننى امثل فى المجر — كما قلت من قبل — الرأى القائل بأن النظام الاقتصادى الجديد لا يمكن ان يصبح نافذا دون بداية تحديد الديمقراطية الاشتراكية . واننى مقتنع بأن كثيرا من الاخطاء والثغرات التى غيرها فى الميكانيزمات الاقتصادية الجديدة تنشأ بالتحديد عن حقيقة اننا قد ادخلنا تنظيما اقتصاديا دون ان نكون قد وضعنا فى اعتبارنا اولا اسسه الاجتماعية ودون ان نكون قد اصلحنا هذه الاسس وهنا ايضا ترتبط المشكلة بتجديد اسس المنهج الماركسى . ويمكن ان يقال الكثير عن ماركس ، ولا يمكن ان يقال ابدا انه كان مجرد « اقتصادى محترف» كما يبدو ان بعض الاساتذة فى المجر ويوغوسلافيا يعتقدون . بل اننى اشك حتى فى ان الد اعداء ماركس يمكن ان يقولوا هذا عنه . وعند هذه النقطة — ودون ان نتخيل انفسنا بأية حال ماركس آخر — يتعين علينا ان نعود الى منهجه فى جهودنا ومفاهيمنا واهدافنا .

سؤال : انك لم تقل الكثير فى مشكلة السياسة القومية . فهل يعنى هذا انه ليس لديك شىء خاص تضيفه فى هذا الموضوع ؟

لوكاتش : رايى ان ما قاله ماركس ولينين صحيح بصورة مطلقة . وانا آسف لكونى ارثوذكسيا فى هذه النقطة الى هذا الحد . لقد قال ماركس ان شعبا يقهر شعبا آخر لا يمكن أن يكون حرا . وطالب لينين بالحكم الذاتى لكل امة حتى الى حد حق الانفصال . وهما فى هذا قد اعلنا العوامل المتداخلة التى لا يمكن بدونها تحقيق التطور الاشتراكى فى بلد متعدد القوميات . وقد صاغا هذا التدخل بدقة شديدة ومهمتنا نحن أن نطبقه بطريقة صحيحة كلما كان ذلك ممكنا وضروريا .

سؤال : لقد انتشر داخل مايسمى بالماركسية الرسمية رأى يذهب الى انه بتغير علاقات الملكية فان المسألة القومية فى البلاد الاشتراكية سوف « تحل نفسها بنفسها » بوجه عام

لوكاتش : لم يقل لينين ابدا عن اية مشكلة فى اى وقت انها يمكن ان تحل نفسها بنفسها وطوال حياتى لم اجد سواء فى المسائل الخاصة الصغيرة او الموضوعات العامة الكبيرة ، مسألة حلت نفسها بنفسها .

سؤال : لو اننا نظرنا الى الموقف الراهن للماركسية فى ضوء مؤلفات ابرز ممثليها فاننا لا نجدهم يختلفون اختلافا كبيرا فيما بينهم فحسب . بل انهم بالنسبة لمشكلات كثيرة يرفضون وجهات نظر كل منهم او ينتقدونها بشدة . فما رأيك فى هذا الطابع التعددى المتزايد للماركسية؟

لوكاتش : هناك شىء فى هذا السؤال ينطوى على القول بأن هذا التعدد فى الاصوات فى الفلسفة الماركسية قد يكون ظاهرة ايجابية . ولى تحفظاتى على هذا . اننى اعتبر من قبيل الايجابية ان هناك اناسا فى كل بلد يقولون انهم سيحللون هذه المسألة اذ سيتخذون وجهة نظر ازاء هذه المشكلة . ومما لاشك فيه ان هذه الايجابية ، ومن نتائجها ان الماركسية التى تبرز اليوم ماركسية متعددة الاصوات ومتعددة الاشكال — وقد يفضل البعض وصفها بأنها ذات طابع متعدد . واسمح لى ان اعلن هنا شكى فان الماركسية — شأنها شأن اى شىء آخر — تندرج تحت القاعدة القائلة بأن هناك حقيقة واحدة . فالتاريخ اما انه تاريخ صراع الطبقات او انه ليس كذلك صحيح أن المرء يستطيع أن يجادل فى اطار تاريخ صراع الطبقات فى الطريقة التى حدث بها هذا الصراع . وهذا شىء يختلف تماما . ولكن علينا ان نعرف انه بالنسبة لكل مسألة لا يمكن موضوعيا ان تكون هناك الا حقيقة واحدة . ولهذا فاننى لا استنكر تعدد الاصوات القائم ولكننى اعتقد اننا فى المراحل المبدئية نحسب بالنسبة للحل الايديولوجى للازمة الراهنة . ان الاتجاهات سوف تتعارض حتى نصل الى الحقيقة . ولكنى اود ان اؤكد مرة اخرى ان هناك حقيقة واحدة . ويظهر هذا التعدد فى الاصوات اننا على الطريق نحو الحقيقة . ولكن من غير المرغوب فيه اطلاقا ان نقبل فكرة بورجوازية خاطئة ؟ وان نرى مثلا اعلى معينا فى التعدد وان نعتبر ميزة للماركسية انها يمكن ان تكون مثالية او مادية ، سببية او غائية . ان باستطاعتنا ان نترك هذا للرأسمالية المناورة فهى تستطيع ان تبتدع نظرياتها الخاصة عن الماركسية .

ينبغى ان يكون واضحا تماما لنا انه فى كل مسألة لا توجد الا حقيقة واحدة واننا نحن الماركسيين نناضل من اجل ابرازها . والى ان تبرز الحقيقة فان هذه الاتجاهات ستستمر فى الصراع . وينبغى ان اضيف اننى اعارض اية محاولة لزيادة سرعة هذه العملية بالوسائل الادارية . فهناك مشكلات ايديولوجية لابد ان تحل ايديولوجيا . وفى الوقت نفسه ، فانى اعتقد أن من الضرورى ان نتجنب نزعة التعدد الغربية وان نتبنى المبدأ القائل بأنه فى كل مسألة لا توجد الا حقيقة واحدة . وقد اجد نفسى على خلاف مع اليوغوسلافيين فى هذه المسألة ... ولكننى قلت بالفعل ان مواطن المرء لا تعتمد على الاتفاق الكلى وانما على الشعور بأننا جميعا نخدم نفس القضية العظيمة ، واننا نعرف — حتى وان دخلنا فى اشد المجادلات حدة — ان هذه المجادلات تخدم الهدف نفسه (*) .

حركة التحرر

بين الدعوة الى « حوار أفريقى » مع جنوب أفريقيا .. والدعوة الى « حوار عربى » مع اسرائيل

حسين شعلان

تواجه حركة التحرر الوطنى الافريقية فى هذه الفترة، تحديا سافرا وعنيفا ، من قبل الاستعمار العالمى وادواته من قوى « الرجعيات المحلية » . ويبلغ عنف هذا التحدى ، مستوى يعيد الى الأذهان عنف تحديات « **أزمة الكونجو** » ، والاثار التى ترتبت على سلسلة « **الانقلابات العسكرية**» فى غرب ووسط القارة ثم شرقها ، « ومحاولات الانقسام » فى منظمة الوحدة الافريقية على يد دول منظمة « **الاوكام** » مرة وفى عام ١٩٦٦ مرة أخرى ، ومحاولات « غزو غينيا » و « جنوب السودان » .. الخ .

وتكشف النظرة الفاحصة والمتأنية لمجموعة النشاط التى تنسج عناصر هذا التحدى ، عن حقيقة أساسية جوهرها أن هذا التحدى ليس « تحديا افريقيا » فحسب ، ولكنه أيضا « تحديا له بعده العربى » ضد حركة التحرر الوطنى العربية بقيادة مصر .. بل وتكشف كذلك عن « طابعه العالمى » ضد حركة الثورة العالمية بجناحيها الوطنى والتقدمى .

واذا كنا ندرج هذه التقسيمات تحت عنوان « التجاوز من أجل تحديد تفاصيل الصورة ودرجات الظلال فيها »، فاننا نؤكد ــ بداية ــ وحدة هذه العناصر جميعها ووحدة عمليات الصراع على جانبيها .

وقد بلون هذا التحدى ثلاثة تحركات أساسية شهدتها الاسابيع القليلة الاخيرة، نرصدها فى :

أولا : « **الدعوة الى اقامة حوار مع جنوب افريقيا** » . وقد بدأ هذه الدعوة ــ تاريخيا ــ **هايستنجز باندا** أو « الانجليزى الاسود » رئيس جمهورية مالاوى فى أعقاب استقلال البلاد عام ١٩٦٤ .. وقد بدأت هذه الدعوة تطرح بشكل جدى عندما دعا فورستر رئيس وزراء النظام العنصرى فى جنوب افريقيا ، رؤساء دول القارة فى نوفمبر ١٩٧٠ ، الى اقامة حوار مع حكومته من أجل « التعاون فى مختلف المجالات ، وفى مقدمتها التعاون الاقتصادى حيث تتوفر لجنوب افريقيا امكانيات كبيرة فى هذا الشأن ». واقترن دعوته هذه اعلانا عن استعداده لاستقبال جميع القادة الافريقيين على قدم المساواة التامة .. وبرغم كل ما يمكن أن يقال من جانب القوى الوطنية الافريقية حول وضع وطبيعة النظام العنصرى فى جنوب افريقيا وحقوق الافريقيين أهل البلاد الاصليين .. الخ ، وبرغم ما أسفر

منه تعاون حكومة مالاوى مع حكومة جنوب افريقيا من تصدير مالاوى لـ ٢٨٠,٠٠٠ رجل من شباب البلاد للعمل — فى ظل أقسى الظروف والشروط — فى مناجم جنوب افريقيا مقابل بعض السلع الاستهلاكية من جانب جنوب افريقيا ، نقول انه برغم ذلك كله ، الا أن عددا من حكومات ورؤساء دول افريقية — على راسهم **هوفيه بوانيه** رئيس جمهورية ساحل العاج — تلقفوا هذه الدعوة وراحوا يروجون لها بشكل يصعب معه الاكتفاء عند تفسير نشاطهم فى هذا الاتجاه على مجرد مقولة « الشجاعة» أو « الجراة » . حيث أن التفسير الوحيد لذلك هو عمل هذه القوى جميعا بشكل منسق معا . ويشمل مؤيدو هذه الدعوة اليوم رؤساء كل من داهومى وجابون وتوجو وفولتا العليا والنيجر وليسوتو وحتى رجل كينيا العجوز جوموكينياتا .

ثانيا : رحلة أبا ايبان وزير خارجية اسرائيل الى سبع دول افريقية هى : كينيا والكونجو [كينشاسا] والكاميرون وغانا وساحل العاج وليبيريا وسيراليون . ويكمن فى هذه الرحلة وما يمكن أن يترتب عليها من نتائج « البعد العربى » فى هذا التحدى العام . فقد سبقت رحلة أبا ايبان أن اعلنت اسرائيل عن أن هدف الرحلة هو « شرح وجهة نظر حكومة تل أبيب بشأن قضايا السلام والامن ، بشكل عام ، والموقف فى الشرق الاوسط بشكل خاص » .. كما سبق الرحلة أن قام رجال البنوك فى اسرائيل **بتقديم مبلغ ١٠,٠٠٠ جنيه استرلينى** تبرعا الى لجنة التحرير التابعة لمنظمة الوحدة الافريقية — التى تضم ممثلين لحركات الكفاح المسلح الافريقى — وذلك من خلال هيئة الامم المتحدة .

ويهدف هذا المبلغ — سياسيا — لان يقول أن اسرائيل لا تقدم مساعداتها الاقتصادية والفنية والعسكرية الى دول افريقيا المستقلة فحسب ! بزعم ان اسرائيل احدى دول العالم الثالث المستقل ، ولكنها تقدم مساعداتها ايضا الى حركات الكفاح المسلح الافريقى لتحرير هذه المناطق . ويؤدى ذلك آخر الامر أن اسرائيل تنهج سياسة معادية للاستعمار .. [كذا] ومساندة لحركة التحرر الوطنى .. [كذا] .. وان خلافاتها مع مصر والدول العربية « خلافات محلية » لا صلة لها بقضايا التحرر والاستعمار.. [كذا] .. وانما تتصل بقضية مطلب اسرائيل فى الوجود والبقاء .

وطبيعى أن يقوم ايبان بهذه الرحلة غداة النشاط الواسع الدبلوماسى والسياسى العربى — المبادرة المصرية لفتح قناة السويس .. الخ .. والذى ادى بشكل ملحوظ الى عزل اسرائيل عن كثير من قطاعات الرأى العام العالمى على المستويين الرسمى والشعبى . او ادى على الاقل الى وقوف هذه القطاعات — المتزايدة — موقفا محايدا واكثر تفهما لوجهة النظر العربية .

وليس صدفة ان ترتبط رحلة ايبان بارتفاع نغمة « اقامة الحوار مع جنوب افريقيا » . فهى من جهة تخلق مناخا عاما لان تجد ادعاءات اسرائيل بامكانية — بل وضرورة — اقامة حوار بين الدول العربية واسرائيل من اجل ايجاد حل لمشكلة الشرق الاوسط ، أن تجد صدى بين دول افريقيا بشكل ضغوطا مباشرة أوغير مباشرة حين **يجتمع مجلس وزراء منظمة الوحدة الافريقية** — ثم يتبعه مؤتمر القمة الافريقى — فلا يتخذ قرارا بادانة اسرائيل أو مطالبتها بالانسحاب من الاراضى العربية المحتلة ، كتلك القرارات التى اتخذتها المنظمة فى اجتماعاتها السنوية السابقة ومنذ العدوان فى يونيو ١٩٦٧ . بل يذهب ابا ايبان فى رحلته الى حد مطالبة الدول الافريقية التى زارها بأن تلعب دورا ايجابيا من أجل اقامة « هذا الحوار » بين اسرائيل والدول العربية.

كذلك ليس مصادفة أن تأتى هذه الرحلة بأهدافها ، عشية الاستعداد **لاجتماعات الدورة الجديدة للجمعية العامة** للامم المتحدة وحيث تمثل الدول الافريقية فيها « **تكتل أصوات** » هام داخل المنظمة الدولية حيث احتمالات مناقشة أزمة الشرق الاوسط مرة أخرى .

تلك هى « الاهداف الخاصة » أو « المحددة» **لمحورى الهجوم السابقين : اقامة « حوار افريقى مع جنوب أفريقيا » ، وأقامة « حوار عربى »** مع اسرائيل . ويعنى التسليم بأقامة هذا الحوار ، التسليم ضمنا — بأن النظام فى جنوب افريقيا «كيان طبيعى» وانه يمثل احدالنظم المستقلة فى قارة افريقيا . وامتداد هذا «الحوار» المجرد اليوم» هو اقامة «حوار اقتصادى» و«حوار سياسى» و « حوار عسكرى» .. وبالجملة — آخر الامر — تخطى فشل ربط الدول الافريقية المستقلة بشكل مباشر بدول الاستعمار القديم والجديد من أبوابها! الى ربط تلك الدول — بشكل غير مباشر — من نافذة جنوب افريقيا التى تفضى الى نفس النتيجة. وتنطبق نفس هذه المعانى على دعوة اقامة « حوار عربى » مع اسرائيل .

على أن هذه الأهداف الخاصة تعتمد فى العمل من أجل تحقيقها على منطق « يأس » رؤساء

حكومات الدول الافريقية الداعية الى هـذا « الحوار». هو المنطق القائل « بالواقعية » فى مواجهة الامور وفى العمل والحركة السياسية . وهو — بلا شك — وبدون الدخول فى تفاصيل منطق مغالط ومرفوض من قبل القوى الوطنية والثورية . فالواقعية عند القوى الثورية هى واقعية تحقيق المبدأ .. اى **التحرك المبدئى** على أساس معطيات الواقع وظروفه .

وليس صدفة أن يجمع بين أصحاب هذا المنطق « الواقعى» اطار مهادنة الاستعمار والتقاعس عن تلبية متطلبات تطور بلادهم .

ثالثا : اجتمـاعات الدورة الاخـيرة لحلف **الاطلنطى** فى لشبونة [عاصمة البرتغال] ، التى أولت كما جاء فى برقيات وكالات الانباء ، اهتماما كبيرا لمناقشـة القضـايا الافريقيـة . وتكشف كتابات الصحف الغربية — والبريطانية بوجه خاص — عن اجراءات جديدة لتـدعيم التحالف بين العنصريين والاستعماريين . فقد ذكرت صحيفة الديلى تلجراف البريطانية أن حديثا قد جرى بين رئيس وزراء بريطانيا وبين وزير خارجية البرتغال حول [مسألة اقامة علاقات بين بريطانيا ومستعمراتها « المتمردة»] . وقد عبر رئيس وزراء بريطانيا عن اعتقاده « بأن البرتغال تستطيع أن تلعب دورا ايجابيا فـى تسهيل هذه المهمة السياسية » . وارتبط ذلك باعلان حكومة جنوب افريقيا — فى نفس الوقت — بأن وزير خارجية البرتغال « سوف يقوم خلال شهر بزيارة جنوب افريقيا » ، لانجاز هذا « الدور الايجابى » ! .

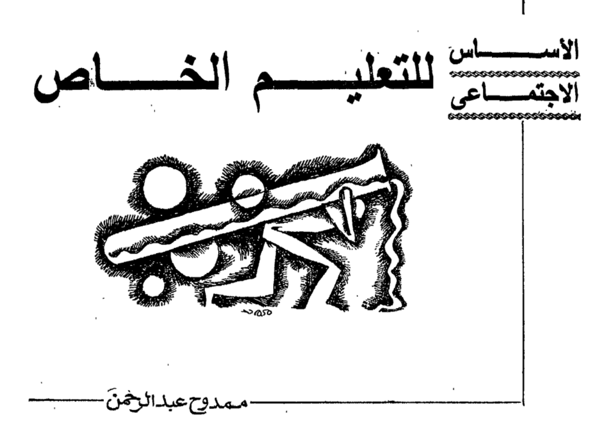
والواقع أن تحالف الاستعماريين — من خلال البرتغال — مع العنصريين يتوطد على المستويين العسكرى والسياسى بسرعة كبيرة تهدف الى اقامة قاعدة عسكرية فاشية فى القسم الجنوبى من افريقيا لينطلقوا منها ضد استقلال وسيادة الدول الافريقية ولاعادتها الى سيطرة النفـوذ الاستعمارى من جديد . وقد انتقل هذا الحلف — منذ زمن — الى دائرة النشاط الفعلى . فقد انشئت فى جنوب افريقيا — مثلا — فرقا للتدخل أعدت من وحدات مدربة تدريبا عسكريا عاليا ومجهزة بأحدث أنواع السلاح يمكن نقلها داخل وخارج حدود النظم العنصرية بسرعة . وهناك بالاضافة الى ذلك أكثر من ٢٠٠٠ جندى من جيش افريقيا الجنوبية يقاتلون ضد حركة الكفاح المسلح فى روديسيا ومع الوحدات البرتغالية فى انجولا وموزمبيق .

.. هكذا تتدعم جبهة « **الرجعيات المحلية**» مع « **العنصريين** » مع « **الاستعماريين** » القـدامى والجدد لتشكل جميعها عناصر الجبهة المعادية لشعوب افريقيا وحركة التحـرر الوطنى الافريقية . ولا تقف هذه الجبهة عند حدود تدعيم تحالفها ، وانما تتحرك بشكل هجومى من خلال التنسيق بين قواها المختلفة، وأسلوبها الاساسى فى الهجوم : هو شق صفوف الدول الافريقية المستقلة من جانب وقوى حركة التحرر الوطنى الافريقية من جانب آخر .

ان دعوة اقامة « حوار افريقى » مع جنوب افريقيا ، ودعوة اقامة « حوار عربى » مـع اسرائيل ، انما هى نغمات متنوعة للحن واحد اختاره أولئك الذين يدفعون لعازفى اللحن .. وهم أنفسهم الذين يدفعون لقتل الوطنيين المناضلين سواء فى فيتنام أو فى كمبوديا أو فى لاوس أو على أرض فلسطين والاردن أو فى **انجولا أو موزمبيق أو غينيا** « **بيساو** » أو **روديسيا** أو أرض جنوب افريقيا .. الخ .

ان الكفاح ضد الاستعمار بشكليه القـديم والجديد ، والكفاح ضد العنصرية الشوفينية ، يشكلان المحتوى الاساسى للحياة السياسية فى افريقيا اليوم . والخطر الحقيقى على هـذا الكفاح ، انما يتأتى من حقيقة وواقع تفتت وحدة القوى الوطنية والديمقراطية والثورية . ومن ثم فان مهمة توحيدها وايجاد الاشكال والاطـر التنظيمية لهذه الوحدة ، مهمة لا تحتمل ايـة تأجيل . كما أن مساندة الدول التقـدمية والاشتراكية لشعوب افريقيا ، لا تعزز فحسب نضال هذه الشعوب ووحدتها ، بل وتقيم الاساس الحيوى لخلق وحدة نضال متينة بين الحركة الثورية العالمية ككل .

الأساس الاجتماعى للتعليم الخاص



ممدوح عبد الرحمن

يقوم التعليم الخاص بدورهام فى مجال التعليم العام ، ويتزايد هذا الدور نتيجة للنمو السريع لهذا القطاع فى سنوات الثورة ، ولكن التعليم الخاص ظاهرة اجتماعية قبل أن تكون ظاهرة تربوية ، أى أن الدور الاجتماعى له أخطر وأكبر من الدور التعليمى ، وعلى الرغم من أهمية التعليم الخاص فان مؤتمر التعليم فى الدولة العصرية لم يتعرض بتوصية واحدة تهدف الى بحث هذه الظاهرة أو تحديد موقف منها .

وهناك أسباب تكمن وراء عدم التعرض لهذا التعليم فى هذا المؤتمر أو فى كتابات كثير من المهتمين بشئون التعليم فى بلادنا ، منها انا .

أولا : أن الغالبية العظمى من المثقفين المصريين على اختلاف اتجاهاتهم الفكرية يعتقدون أن المدارس الخاصة « الممتازة » يجب أن تظل موجودة لتوفر لابنائهم جوا ثقافيا واجتماعيا بعيدا عن أبناء الاوساط غير المثقفة الذين تمتلىء بهم المدارس الرسمية ، وهم يرون باحساس ذاتى أن ذلك لا يتعارض مع مبدأ تكافؤ الفرص .

ثانيا : أن الكثيرين من المسئولين عن توجيه سياسة التعليم تربطهم بالتعليم الخاص روابط وثيقة قائمة أو مستهدفة ، فكثير من وكلاء الوزارة الحاليين والسابقين أعضاء فى مجلس ادارة الجمعية التعاونية للمعاهد القومية ، والبعض الاخر يتطلع الى هذه العضوية ، كما أن كثيرا من

المديرين العاملين بالوزارة يقومون بانشاء مدارس خاصة أو بالعمل بها بعد الاحالة الى المعاش ، ولذلك فان هناك مصلحة ذاتية لوجود ذلك القطاع ولعدم اثارة اية مناقشات حوله .

ثالثا : ارتباط المدرسة التربوية المصرية تاريخيا منذ نشأتها بسياسة الدفاع عن وجود تعليم خاص بمصروفات مرتفعة لابناء الخاصة ، وهذه المدرسة كانت تقف موقف الالتزام الطبقي بتوفير جو ثقافي اجتماعي خاص بأبناء الفئات العليا في المجتمع ؛ فقد كان **القباني** يرى في عام ١٩٢٥ وجوب مدارس خاصة ذات مصروفات لابناء الخاصة ، وبعد ذلك أصبح احد أركان سياسته التعليمية ضرورة توفير ذلك التعليم لمن يريدون ويستطيعون دفع مصروفاته ، وعندما تقررت مجانية التعليم الابتدائي عام ١٩٤٤ طالب بضرورة تخصيص بعض المدارس الحكومية لابناء الخاصة على أن يدفعوا مصروفات تعليمهم ، متعللا بالخوف على أبنائنا من الاتجاه الى المدارس الاجنبية « التي يرون أن الوسط فيها ملائم لحالتهم الاجتماعية »، موضحا أن هناك « طبقات ترغب في حماية أبنائها في هذه السن المبكرة من تأثير الاختلاط بأبناء أوساط غير مثقفة » .

ولازال هذا الالتزام قائما حتى اليوم ، فلم تطالب هذه المدرسة التربوية في أي وقت باعادة النظر في وجود المدارس الخاصة ، ولكنها في احسن أحوالها تطالب بنوع من الاشراف يحقق مزيدا من الخدمة التعليمية لابناء الطبقات والفئات القادرة على دفع المصروفات .

على أنه من الضروري أن يكون موقفنا من انواع المدارس الخاصة محددا على أساس الدور الاجتماعي الذي تقوم به ، والذي قامت به هذه المدارس . فلقد شهدت بلادنا بشكل عام نوعين من المدارس الخاصة : المدارس الاجنبية والمدارس الاهلية .

المدارس الاجنبية : وهي المدارس التي أنشأها الاستعمار لتكون قواعد ثقافية استعمارية تروج لافكاره وقيمه عن طريق التعليم ، وقد خصص الاستعمار نوعين من المدارس الاجنبية : النوع الاول للفئات العليا من المجتمع لابناء الاقطاعيين والرأسماليين ، وذلك بفرض مصروفات مدرسية عالية لا يتمكن من دفعها الا المنتمون الى تلك الفئات ، وتهدف هذه المدارس بجانب بث الفكر الرجعي ، تهدف الى توفير جو خاص بأبناء هذه الفئات بعيدا عن أبناء الشعب ، وبذلك كانت تؤكد الفوارق الاجتماعية في المجتمع .

وهذه المدارس كانت تقدم لتلاميذها خدمة تعليمية ذات مستوى عال ، لانها كانت تعتمد على المساعدات المالية الاجنبية التي ترد اليها من الحكومات الاستعمارية والهيئات الدينية والشركات الاستعمارية الكبرى ، تلك المساعدات التي كانت تشكل في بعض الاحيان أكثر من ٨٠٪ من ايرادات هذه المدارس .

أما القسم الاخر فهو مدارس تقدم خدمة تعليمية منخفضة المستوى وكفاءة معلميها مشكوك فيها ، وهذه المدارس مخصصة لابناء الشعب من الذين يستطيعون دفع مصروفات أقل من الفئات العليا المشار اليها آنفا .

وقد مثل هذا التقسيم جانبا من جوانب توزيع النشاط بين الطبقات الاجتماعية المختلفة مع وحدة الهدف وهو نشر الفكر الرأسمالي .

المدارس الاهلية : وهي المدارس التي انشأتها هيئات أو جمعيات أو أفراد من أبناء البلاد ، على انه يجب التمييز بين نوعين من هذه المدارس مختلفين كل الاختلاف ، ولا يربطهما سوى أنهما يشملان مدارس غير حكومية انشأها المصريون ، النوع الاول هو مدارس الجمعيات والهيئات الوطنية ، والنوع الثاني هو المدارس التي أنشأها الافراد .

● **مدارس الجمعيات والهيئات** : ازاء سياسة الاستعمار التعليمية التي كانت تتمثل في تجميد التعليم الابتدائي والتعليم الثانوي من ناحية ، وعدم التوسع في تعليم الكتاتيب بقدر الامكان ، اتجهت الاحزاب الوطنية الى انشاء بعض المدارس الاهلية ، وقامت جمعيات وطنية مثل الجمعية الخيرية الاسلامية وجمعية المساعي المشكورة وجمعية العروة الوثقى ، بانشاء مدارس اهلية مصرية لتوفير نوع من التعليم الوطني في مواجهة المدارس الاجنبية ويستطيع أبناء الفقراء الانتظام فيه وذلك بخفض المصروفات الى أقصى حد ، والتوسع في منح المجانية ، في مواجهة سياسة الحكومة في ذلك الوقت التي كانت ترفع المصروفات المدرسية باستمرار لحرمان أبناء الشعب ، وكانت هذه المدارس تقدم الخدمات التعليمية بمستوى لائق مع أقل قدر من المصروفات ، وتشهد بذلك نتائج امتحانات الشهادات التي كانت تؤكد زيادة نسبة نجاح تلاميذها عن نسبة نجاح تلاميذ مدارس الحكومة والمدارس الاخرى .

والذي يميز هذه المدارس أنها لم تنشأ من أجل الربح أو الارتزاق ، وانما انشئت لاغراض وطنية واضحة في ذهن مؤسسي هذه الجمعيات ، وانها

كانت توفر قدراً جيداً من الخدمة التعليمية لابناء الشعب عامة ولا تخص بذلك طبقة معينة .

●المدارس الخاصة المملوكة للافراد : لقد استغل بعض الافراد رغبة الشعب المتزايدة فى التعليم والتى تقف سياسة الاحتلال التعليمية دون تحقيقها ، وقاموا بفتح مدارس حرة ذات مصروفات مخفضة ليتمكن أبناء الشعب من الالتحاق بها ، ولكن هذه المدارس كانت تهدف الى الربح حيث لم ينشئها أصحابها الا لغرض الربح والارتزاق ، وقد كان ذلك هو الاساس لكل المآسى التى صاحبت وجود هذا النوع من التعليم ، فهذه المدارس لجأت الى استغلال المعلمين أبشع استغلال ، وقدمت للتلاميذ أردأ أنواع الخدمة التعليمية ، وتشهد بذلك نتائج الامتحانات العامة التى كانت كثيرا ما تعبر عن مستوى الخدمة التعليمية بعبارة « لم ينجح أحد » ، وحاولت جمع أكبر قدر من المال من التلاميذ بمختلف الوسائل كما أن مبانيها — فى معظمها — لم تكن تتوفر فيها الشروط الصحية وتتميز بكثير من أوجه النقص التى امتلأت بها تقارير وزارة المعارف .

وقد وصف القبانى هذ التعليم بانه « تعليم يأبى كل والد فى مصر أن يرسل ابنه اليه . الا اذا كان مضطرا لذلك ، ويأبى كل مدرس فى مصر أن يعمل به ، اذا وجد عن ذلك محيدا ، هذه حقيقة نعرفها جميعا ، ولا يمكن أن نفر من نتائجها . .

وعبر د . **طه حسين** عن حالة هذا التعليم بانه « كان يمتاز بخصال أقل ما توصف به أنها مصدر فساد للتفكير ، ومصدر فساد للخلق ، ومصدر فساد للسيرة العامة والخاصة .

وفى كتاب (التعليم والمتعطلون) يحدد المؤلف طبيعة هذه المدرسة بقوله ان « معظم دوره غير صحية ، كما نجد التلاميذ يكدسون فى الفصول تكديسا يقضى على المصلحة ويخل بنظام العمل ، وذلك رجاء الحصول على أكبر قسط من الكسب المادى . . . على أن النوع التابع للجمعيات لا يشتط فى ذلك كما تفعل مدارس الافراد ، لان هذا النوع الاخير لم يخلق الا لغرض واحد وهو الكسب المالى ، فهو لهذا لا يمت الى خدمة التعليم بسبب مباشر » .

وقد حاول بعض اصحاب المدارس الخاصة اخفاء صفة الوطنية على دور هذه المدارس محاولين بذلك أن يضعوا انفسهم مع الجمعيات الوطنية فى كفة واحدة ، ولكن تاريخ هذه المدارس لا يعرف انه كان لتلك المدارس فى أى يوم من الايام هدف سوى الربح والربح فقط .

التعليم الخاص قبيل الثورة : لقد خطى التعليم الخاص بمختلف أنواع المساعدات المالية والادبية مما ادى الى زيادة عدد مدارسه واتساع دوره فى المجتمع ، على انه قد تمت فى عام ١٩٤٤ ، عندما تقررت مجانية التعليم الابتدائى ، ازالة الاساس الذى كانت تقف عليه نسبة كبيرة من المدارس الخاصة ، ولكن المدارس الخاصة ، التى كانت تقدم التعليم للفئات العليا من المجتمع ظلت كما هى ، لان الذين يلتحقون بهذه المدارس يرغبون فى توفير وسط اجتماعى معين ، ولجأت وزارة المعارف بعد ذلك الى محاولات أدت الى تخصيص بعض المدارس الحكومية لابناء الفئات القادرة على دفع المصروفات ، وكان ذلك خطوة الى الوراء من الناحية الاجتماعية حيث تقسم المدارس الحكومية الى نوعين من المدارس ، مدارس مجانية لابناء الشعب ومدارس بمصروفات لابناء القادرين ماليا ، ولكن ذلك كان منطقيا مع سياسة تعليمية تخدم الرجعية والاستعمار .

وفى عام ١٩٥٠ عندما تقررت مجانية جميع مراحل التعليم العام ورياض الاطفال ، لم يبق هناك مبرر لوجود كثير من المدارس التى كان يلجأ اليها أبناء الشعب مضطرين ، فقل عدد المدارس الخاصة الى درجة كبيرة ، وقامت الوزارة حينئذ بحركة تحرير لمعلمى المدارس «الحرة» وموظفيها من أبشع أنواع الاستغلال بأن جعلتهم جميعا « موظفى دولة » متساوين فى الحقوق مع زملائهم مدرسى المدارس الحكومية ، وكانت هذه الخطوة من أعظم الخطوات الثورية التى تمت فى حياتنا التعليمية .

وقد رفضت وزارة المعارف أن تظل كليات البنات التى انشئت لابناء الطبقات « الراقية » ورياض الاطفال التى أنشئت من أجل أبناء « الطبقات الراقية والمتوسطة » ، رفضت أن تبقى هذه المدارس بمصروفات رغم الضغوط الشديدة التى تعرضت لها الوزارة من جانب كثير من القوى الاجتماعية .

التعليم الخاص بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ : عندما قامت ثورة يوليو لم يكن فى البلاد سوى عدد قليل من المدارس الاهلية المصرية ، وعدد كبير نسبيا من المدارس الاجنبية التى كانت مخصصة أساسا لابناء الفئات العليا من المجتمع .

وبينما كانت سياسة الوزارة ازاء التعليم الخاص فى عام ١٩٥٠ تتمثل فى : . .

١ ــ دعوة الهيئات والجماعات لانشاء المدارس والتبرع بها للدولة من أجل تعليم الشعب ، مع عدم معارضة أن يقوم الافراد والهيئات بانشاء المدارس الخاصة ذات المصروفات .

٢ ــ رفض فكرة تخصيص مدارس لابناء الخاصة من بين المدارس الحكومية رفضا باتا .

٣ ــ الترحيب بتحويل المدارس الخاصة ذات المصروفات الى مدارس خاصة مجانية تتقاضى الاعانات من الدولة .

٤ ــ رفض عمليات الابتزاز التى كانت تقوم بها الطبقات الارستقراطية بالتهديد بالحاق أبنائهم بالمدارس الاجنبية اذا لم تخصص الوزارة لهم مدارس ذات مصروفات مرتفعة .

بينما كانت تلك هى قسمات سياسة التعليم عام ١٩٥٢ ، فان سياسة التعليم بعد ١٩٥٢ ، قد أفردت للتعليم الخاص مكانا هاما وقررت أن يزداد دوره باستمرار فى مجال التعليم ، وقد تحدد الموقف من التعليم الخاص بالاسس الاتية :

١ ــ « حرصت الوزارة على اعانة الافراد والمؤسسات على انشاء المدارس النموذجية والخاصة لمواجهة رغبة بعض الاباء فى تعليم أولادهم فى جو خاص كانوا يؤثرون من أجله المدارس الاجنبية على مدارس البلاد »(١)

٢ ــ « ستشجع الوزارة الى أقصى حد المدارس الخاصة » .

٣ ــ « عمل مدارس تجريبية يدفع فيها بعض الناس قدرا معينا من المصروفات ، لكى تضع حدا للاندفاع الزائد الحد نحو المدارس الاجنبية ، تجعل تربيتنا مقصورة على المدارس المصرية ، حتى تحافظ على القومية المصرية والروح الوطنية لدى أبنائنا ، وتمكين بعض القادرين أن يدفعوا مصروفات لابنائهم فى هذه المدارس التجريبية (٢) .

وقد كان لهذا التشجيع للتعليم الخاص من جهة ، وتبنى سياسة التجميد وعدم التوسع فى بعض مراحل التعليم من جهة أخرى ، أثر كبير فى النمو الرهيب لذلك القطاع ، حيث تضاعفت عدد تلاميذ المدارس الابتدائية الخاصة بين عام ١٩٥٦/١٩٥٧ ، وعام ١٩٦٧/١٩٦٨ بمقدار ١١٨٠٪ وتضاعف عدد تلاميذ المرحلة الاعدادية فى نفس الفترة بمقدار ٢٢٠٦٪ ، وعدد تلاميذ المدارس الثانوية بمقدار ٣٦٣٢٪ .

وقد حققت سياسة الوزارة ازاء التعليم الخاص بجانب هذا النجاح الكمى نجاحا كيفيا تمثل فى انشاء المؤسسة القومية للتربية والتعليم ، والتى تعرف الان باسم الجمعية التعاونية التعليمية للمعاهد القومية .

الدور الاجتماعى لمؤسسة المعاهد القومية

عندما قررت الدولة انشاء مدارس حكومية ذات مصروفات لابناء الراغبين فى ذلك من القادرين ، تعرضت هذه السياسة للنقد من جانب الشعب ، لان ذلك كان خطوة الى الوراء ، تعرضت للنقد من جانب بعض المربين بعيدى النظر الذين رأوا فى ذلك نقطة فى البناء التعليمى لا يسهل الدفاع عنها ، فوجدت فى فكرة انشاء مؤسسة مصرية تدير المدارس الاجنبية التى استولت عليها الدولة وعلى المدارس التجريبية ، وجدت فى ذلك ستارا يخفى مواطن الضعف فى ذلك النظام التعليمى .

وقد قامت هذه الشركة بادارة أنواع المدارس الاتية :

١ ــ المدارس الاجنبية التى وضعت الدولة يدها عليها عام ١٩٥٦ .
٢ ــ بعض المدارس التجريبية والنموذجية الحكومية ذات المصروفات .
٣ ــ بعض المدارس الجديدة التى بنتها الوزارة ولم تستعمل بعد .
٤ ــ بعض المدارس التى وضعت تحت الحراسة وكانت مملوكة للمصريين .

واجتمع لهذه المؤسسة من أسباب القوة مايدل عليه تشكيل مجلس ادارتها أو عقد تأسيسها الذى يوضح مكانة مؤسسيها ، فقد كان من بين مؤسسيها وزير التربية ووكيل الوزارة وسكرتير هيئة التحرير .

ويمكن تلخيص الدور الاجتماعى لهذه المؤسسة فى النقاط الاتية :

---

(١) خطاب وزير التربية فى مجلس الامة عام ١٩٥٧ .
(٢) منهاج الثورة فى التعليم .
(٣) منهاج الثورة فى التعليم .

١ — حافظت على الدور الذى كانت تقوم به المدارس الاجنبية ذات المصروفات المرتفعة من توفير بيئة اجتماعية وثقافية خاصة بعيدا عن أبناء الطبقات الشعبية ، ولم يقلل من هذا الدور تغيير اسم المدرسة من كلية فكتوريا الى مدرسة النصر ، لانه فى الحالتين لم يتمكن من الالتحاق بها سوى القادرين .

٢ — أنه وان كانت هذه المؤسسة تعكس الاوضاع الاجتماعية عند نشأتها ، الا انها لازالت تلعب دورا فى تعميق هذا التمايز بين الفئات الاجتماعية وتجسيده .

٣ — ان هذه المؤسسة قد استولت على مجموعة من المدارس الحكومية التى كان من المفروض أن تخصص لتعليم أبناءالشعب بالمجان، فحرمته منها وخصصتها لابناء القادرين ماليا .

٤ — ان هذه المؤسسة تشكل عبئا ماليا على الدولة ، حيث تتلقى هذه المؤسسة مئات الالاف من الجنيهات كاعانة لها على النهوض بمهمتها .

ملكية المعاهد القومية : تملك الحكومة ١٫٨٠٠٫٠٠٠ جنيه من رأس مال هذه المؤسسة التى يبلغ كل راسمالها ١٫٩٩٠٫٣٤٥ جنيها ، ونصيب الهيئة العامة للتأمينات والمعاشات ١٥٠٫٠٠٠ جنيه ، ونقابة المهن التعليمية ٤٠٫٠٠٠ جنيه ، أما الافرادالمساهمون فلايملكون سوى ٣٤٥ جنيها .

ومن ذلك يتضح أن هذه المؤسسة مؤسسة حكومية تدير بعض مدارس الدولة لتقديم التعليم مقابل مصروفات للفئات القادرة ماليا ، وتحرم أبناء الشعب من فرصة الحصول على خدمة تعليمية لانهم لا يستطيعون أن يدفعوا المصروفات المرتفعة لهذه المدارس ، وعلينا ان نتساءل هل هناك فارق بين مدرسة الاعيان .

ان لافتة الجمعية التعاونية للمعاهد القومية انما تخفىتحتها لافتة وزارةالتربيةوالتعليم،ونظرا لانه لايجوز أن تخصص الدولة التى رفعت شعار تذويب الفوارق بين الطبقات مدارس ممتازة لابناء بعض الفئات ، فانه يجب أن تزال اللافتة الزائفة عن واجهة هذه المؤسسة وتفتح لابناء الشعب جميعا بالمجان ، لانه يصبح من التناقض أن يستطيع العمال والفلاحون ان يدخلوا مجلس الامة بنسبة ٥٠٪ من أعضائه على الاقل ، ولا يستطيع أبناؤهم أنيدخلوا باب احدىالمدارس القومية لانهم لا يستطيعون دفع المصروفات .

فصول الخدمات التعليمية اضافةجديدة لقطاع التعليم الخاص : ظهرت فى السنوات الاخيرة ظاهرة فى قطاع التعليم الخاص ، هى فصول الخدمات التعليمية او فصول الاتحاد الاشتراكى، وهى فصول يديرها الاتحاد الاشتراكى تحت اسم جمعيات تعاونية تعليمية ، تعمل فى مبانى المدارس الحكومية فى الفترات المسائية ويقوم بالتدريس فيها عادة مدرسو المدارس الرسمية ، وفصول الخدمات قد أنشئت بهدف المعاونة فى مجال التعليم العام ، ولكن هل يكون دور الاتحاد الاشتراكى فى المعاونة هو ادارة مثل هذه الفصول التى يؤخذ عليها الاتى :

١ — أنها فصول مسائية ، ومن المعروف أن الدراسة فىالفترة المسائية أقلكفاءة منالدراسة فى الفترة الصباحية .

٢ — أنها تستعين بالمعلمين الذين يكونون قد أرهقوا فى مدارسهم وفى المدارس الخاصة وبذلك تكون فاعليتهم اقل .

٣ — لا تقوم بأى دور فى التربية لان قصر فترتها يجعلها فى أحسن احوالها للتعليم دون التربية .

٤ — أنها تقدم تعليما خاصا مقابل مصروفات لا تقل عن مصروفات كثير من المدارس الخاصة التى تعمل بالفترة المسائية ، وان كانت فصول الاتحاد الاشتراكى تتوسع بعض الشىء فى المجانية ، ولكنها فى جوهرها تعليم خاص ، وهذا التوسع فى منح المجانية لا يتناسبمع الامتيازات التى تحققها هذه الفصول من استغلال المبانى الحكومية ومعاملها وأدواتها .

٥ — أن هذه الفصول بعملها فى المدارس الحكومية انما تساعد على سرعة استهلاكمبانيها ومعداتها التى تعتبر المشكلة الكبرى التى لا تواجهتها الوزارة مواجهة حاسمة .

دور الاتحاد الاشتراكى فى توفير الخدمة التعليمية : ان دور التنظيم السياسى فى مجال التعليم انما يتحدد فى :

١ — رسم سياسة تعليمية ثورية تتفق مع اهداف المجتمع وقيمه ، وتساعد على تدعيم هذه القيم .

٢ — اثارة وعى وحماس الجماهير للمساهمة فى توفير التعليم عن طريق انشاء المدارس

بوساطة الجهود الذاتية ؟ وتسليم هذه المدارس للدولة ممثلة فى وزارة التربية والتعليم .

٣ ـ بحث المشكلات التى تواجه سياسة التعليم فى التطبيق وايجاد حلول لها .

ولكنه قد حدث فهم خاطىء لدور التنظيم السياسى فى هذا المجال . فبدلا من أن يوقف نمو التعليم الخاص كظاهرة معادية للاشتراكية والديمقراطية ، أخذ يضيف الى المدارس الخاصة ذلك القطاع الجديد ، وبدلا من أن يقدم خدمة تعليمية جيدة ، فان الخدمة التى يقدمها لا تزيد عن الخدمات التى تقدمها المدارس الخاصة المنخفضة المستوى ، وبدلا من أن يقوم ببناء المدارس اخذ يستهلك مبانى المدارس القائمة .

كما لم تقم المعاهدة القومية ببناء مدرسة واحدة ، فان فصول الخدمات أيضا لم تقم بذلك ، ويمثل كل منهما عبئا على الدولة ، الاولى عن طريق الاعانات المستمرة ، والثانية عن طريق استهلاك المبانى .

ولذلك فان الاتحاد الاشتراكى لم يقدم حلا لمشاكل التعليم فى بلادنا ولكنه حاول علاج بعض مظاهر أزمة التعليم بتقديم حل خاطىء .

الطريق الى العلاج : لقد ظهر من العرض السابق أن التعليم الخاص بعد أن كاد يختفى قبل الثورة ، فانه قد عاد لينمو نموا رهيبا ، وعادت معه مشاكل العاملين فيه التى لن تفلح القوانين فى علاجها لتحايل أصحاب المدارس عليها من ناحية ولتخلف بعض القرارات من ناحية أخرى (٣)، وان المدارس الخاصة لا يتفق وجودها مع قيم المجتمع الجديد ولا مع المبادىء الديمقراطية ، لان هذه المدارس تبيع الخدمة التعليمية ، وتجسد الفوارق بين الطبقات .

ولذلك فان العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص يقضيان بوضع سياسة جديدة تهدف الى أن تقوم الدولة وحدها بادارة جميع المدارس ومعاهد التعليم بالمجان حتى تنتهى ـ من الناحية النظرية على الاقل ـ الحواجز التى تحول بين الشعب وبين بعض المدارس .



---

[٣] تنص احدى القرارات على أن أجر العامل بالمدارس الخاصة ثلاثة جنيهات شهريا .

الفن التشكيلى واللاموضوعية



مختار العطار

فنون

المسرح والسينما والرقص ، فنون جماهيرية فى بلادنا . أما الفنون الجميلة والتطبيقية التى تسمى بالفنون التشكيلية ، فتتسم بطابع خاص من العزلة والتفرد . آية ذلك أن الحدائق والميادين والشوارع خالية من التماثيل ذات الموضوع — باستثناء تمثال نهضة مصر . كما أن المؤسسات العامة والمساكن عارية من اللوحات التصويرية ، سوى المستنسخات الرخيصة المبتذلة التى يعرضها بائعو البراويز والبللور نقلا عن الرسوم الاوروبية القديمة . وبالرغم من أن المعارض العامة والخاصة تغمر القاهرة والاسكندرية وعواصم بعض المحافظات بتشجيع محمود من وزارة الثقافة ، الا أن رواد هذه المعارض لا يخرجون عن نطاق دائرة المتخصصين والمعنيين بشئون الفنون التشكيلية . ومع ذلك فالعالم المتحضر يمنح عناية خاصة لهذا النوع من الفنون ، فتقام له المعارض الدولية على مستوى أهمية الدورة الاولمبية فى مجال الالعاب الرياضية (١) . فيقام البينالى كل عامين (٢) والترينالى كل ثلاثة (٣) والكوادرونالى كل أربعة بالاضافة الى الدوكومنتا الالمانى الشهير (٤) . تعقد هذه المعارض الدولية على هيئة مهرجانات فنية عظمى تقام فيها المسابقات وتصدر من حولها مئات الابحاث والدراسات المتخصصة ، وقد تصحبها مشاحنات ومظاهرات جماهيرية ذات طابع سياسى كما حدث فى بينالى فينيتسيا الايطالى وبينالى الشباب الفرنسى فى العامين الماضيين ، مما يؤكد أهمية هذه المحافل التشكيلية بالنسبة للدول التى تقيمها بانتظام وتنفق من أجلها الكثير . ونحن بدورنا نقيم بينالى الاسكندرية لدول حوض البحر الابيض ، الا أن العزلة التى تشمل معارضنا الخاصة والعامة تمتد أيضا الى هذا البينالى الفريد فى الشرق الاوسط وأفريقيا ، ولا يلقى نفس الشعبية التى تتمتع بها البيناليات الاخرى فى أوروبا . والجهود تبذل الان — ومنذ بضع سنوات — من أجل ترويج الفنون التشكيلية ونشرها بين جماهيرنا المتطلعة الى مستوى ثقافى أفضل . من أجل هذا (٥) يجوز لنا أن نراجع أسباب عزلة الفن التشكيلى

فى بلادنا ؟ فثمة قائلون بأن مرجع ذلك الى سيادة اتجاهات أسلوبية خاصة ، هى بمثابة « لغة » غير مشتركة بين الفنان والجمهور ، كالاساليب التجريدية ، وأنه لا ضرورة الى تلقين المواطنين تلك « اللغة » لان الاصل فى الوحدة الاجتماعية هو: تواجد لغة مشتركة بين جميع أفراد المجتمع ، نمت وازدهرت معهم عبر التاريخ الطويل ، وأنه من فضول القول أن نعمل على تلقين الجمهور لغة خاصة بفنان معين حتى يتمكن من الاستمتاع بابداعه الفنى . وثمة آخرون يعزون تلك العزلة الى انتشار « اللاموضوعية » ، بمعنى خلو الاعمال الفنية من الموضوعات الواضحة التى تمس المشاعر والاحاسيس والوجدان العام بغض البصر عن المعالجات الاسلوبية المختلفة .

أهمية الفن التشكيلى كأداة ثقافية

الا أن الفن التشكيلى فى أى مجتمع هو أحد مقومات ثقافته ، « فثقافة أى شعب هى تراثه الاجتماعى ، وحاصل كلى يتضمن : المعرفة والعقيدة والفن والقانون وأساليب اعداد الطعام واستخدامه وأشكال المواصلات » كما قال ساذرلاند . أو هى « كل حضارة الانسان المادية والروحية : كالادوات والاسلحة والملابس والمساكن والآلات .. واللغة والادب والفن والدين والمعنويات والقانون والحكومة »كما قال الوود». فالثقافة هى مظهر حضارى اجتماعى .. والفن التشكيلى أحد مقوماتها . فهو جزء لا يتجزأ من التحولات الاقتصادية والسياسية فى المجتمعات البشرية منذ العصر الحجرى حتى الآن . ويؤكد ذلك ، ظهور أنواع وأساليب معينة من الفن التشكيلى تتضمن فلسفة خاصة فى كل عصر من العصور التاريخية وكل شكل من الاشكال الاجتماعية . ففى القرن الخامس قبل الميلاد ارتبطت الفلسفة السفسطائية بانهيار الدوجماطيقية ، وتحول الفن الكلاسيكى الى فن دنيوى . وفى عصر النهضة انعكست اكتشافات كوبير نيكوس على أسلوب الباروك فى الفن التشكيلى وعلى مراجعة الانسان لموقفه الجامد خلال العصور الوسطى . فحين تتغير ثقافة المجتمع كنتيجة لجهوده وابتكاراته يعود فيتأثر بالشكل الثقافى الجديد ويتغير بناء على ايجابياته وسلبياته على السواء .. فيتطور ويكشف عن عناصر ثقافية جديدة تحل محل القديمة .. وهكذا . وتستمر العلاقة الجدلية بين المجتمع وثقافته . وبقدر ما يتمتع به المجتمع من حيوية وخصوبة ، بقدر ما تسرع عملية التطور والانتقال من مرحلة ثقافية معينة الى مرحلة ثقافية أخرى. وهنا فى بلادنا .. لكى يتأثر مجتمعنا بالفن التشكيلى من حيث هو أداة ثقافية ، يجب أن يتحقق اللقاء الجماهيرى بالاعمال الفنية . فحرمان الجماهير من هذا اللقاء يحرمها من فعالية تلك الاداة الثقافية الهامة . واذا أردنا الدقة ، فهى تضع تلك الاداة فى صف عوامل التخلف . .

استفتاء هيئة اليونسكو فى كندا

نشرت مجلة « **رسالة اليونسكو** » فى عدد ابريل من هذا العام استفتاء طريفا عن أسباب عدم اقبال جمهور مدينة **تورنتو** بكندا على بعض اللوحات التصويرية ، وثبت من أبحاث الاستفتاء « وجود صلة بين الاعمال الفنية التى يحبها الاشخاص وبين الاعمال التى شاهدوها من قبل . فالالفة تولد الصداقة والناس يميلون الى نمط معين مألوف لديهم ، مما يدعو الى الاعتقاد أنه اذا أراد فنان أن يخاطب الجمهور ، يحسن أن يقدم له النمط الفنى الذى يشعره بالالفة . ومن هنا .. تدخل قضية التراث والتقاليد الفنية المحلية كلغة تشكيلية مشتركة بين الفنان والجمهور . وتعرض الاستفتاء أيضا الى مايسمى بالـ « اصطاطيقا » أى القواعد والقيم الجمالية؛ وهل يوجد منها نوعان أحدهما خاص بالجمهور والاخر بفئة المتخصصين الذين عبرعنهم الاستفتاء بكلمة « الصفوة » . ويميل الباحث الى صحة وجود هذين النوعين من الاصطاطيقا : الشعبى والخاص . ونميل معه الى هذا الاعتقاد ونفسره بأنه توجد قيم جمالية مازالت فى مجال البحث التجريبى يستخدمها الفنانون التشكيليون فى حالة ابداع أعمال خاصة بالصفوة من النقاد والفنانين . كما توجد قيم أخرى يستخدمها الفنان فى حالة مخاطبته للجماهير العامة .. هى بمثابة اللغة المشتركة بينه وبينهم . خاصة وأن الباحث يؤكد وجود فاصل زمنى قدره خمسون عاما بين الابتكارات الفنية الجديدة وبين قدرة الجمهور على رؤيتها وتذوقها . والحقيقة أن تاريخ الفن يدعم هذه الملاحظة حيث ان كثيرا من الفنانين لم تحصل اعمالهم على التقدير المناسب الا بعد ما يقرب من نصف قرن تقريبا . ومن هنا .. يجدر بالفنان الذى يريد أن يكون ابداعه اداة ثقافية جماهيرية تسهم فى تغيير المجتمع ، أن يقدم اعمالا مألوفة والا فان المجتمع سيتغير بالفعل خلال تلك المدة . واذا كان هناك ثمة ابتكارات حقيقية ، يفضل الباحث ان تصحبها رسوم تخطيطية وملاحظات تفسيرية تشرحها ، بدلا من التفاصيل الخاصة بحياة الفنان و « الرطانة » الفنية المستخدمة فى مقدمات الكتالوجات . وأن

تكون هذه التعليقات واضحة محددة وفى متناول كافة المشاهدين ، لان خلو الاعمال الجديدة المبتكرة من الشرح والتعليق يشكل سببا اساسيا فى عزلة تلك الابتكارات عن الجماهير ويخلط بينها وبين الادعاءات . أما من ناحية تفضيل بعض لوحات الاستفتاء على البعض الاخر فيرجع الى تفضيل الجمهور للنزعة الواقعيــة والمنظور ، والخطوط المحددة والالوان الهادئة ، مع استبعاد كل ما يغالى فى السخرية او التجريد . ومن الطريف ان هذا الاستفتاء قد اسقط مجموعة من كبار الفنانين عن عروشهم التى احتلوها على صفحات القواميس ودوائر المعــارف ومنهــم : بولوك ودى كوننج وموندريان ، مما يوحى بأن هؤلاء الفنانين استخدموا فى لوحاتهم « اصطلاحيقا الصفوة » . الا انه من المعروف ان هؤلاء الفنانين قد شرحوا اعمالهم واوضحوا آراءهم وهى تدخل فى باب الابحاث الفنية الجديدة . ويقرر احد المشتركين فى ابحاث هذا الاستفتاء ان اللغة اللفظية قد عودت الجمهور قضايا تقريرية مصوغة بوضوح ، ومن ثم فهم ينتظرون من الفن التشكيلى شيئا من هذا القبيل . فاذا قدم لهم فنان عملا لا يستطيعون ادراكه او الاحساس به فانهــم يرفضونه على الفور . انهم لم يفضلوا موضوعات على اخرى بقدر ما فضلوا أن تكون اللــوحات ذات معنى ومغزى ومضمون . وكان الاتجــاه حاسما نحو رفض « اللاموضوعية » فى جميع اللوحات التى جرى عليها الاستفتاء .

أهم الاتجاهات اللاموضوعية

واشهر الاتجاهات اللاموضوعية الشائعة بين الفنانين العرب هى : **التجريدية .. التعبيرية التجريدية .. الانشاء الهندسى .. الفن الحركى الانفعالى ومدرسة نيويورك** .

قال **ميشيل سوفور** : « الفن التجريدى هو كل فن يبتعد تماما عن الواقع ، مهما كان هذا الواقع هو نقطة البداية لدى الفنــان » . وقد بدأ هذا الاتجاه سنة ١٩١٠ حين ابدع **كاندينسكى** أول صورة تجريدية ثم قال « ان الخطوط والاشكال والظلال والاضواء حين توضع على مساحة ما ، يجب ان تعبر عن حاجة داخلية عند الفنــان وليس من اشكال خارجية فى محيط البيئة » .. فالطبيعة عند كاندينسكى نوعان : جوانية وبرانية .. اذا استعرنا تعبيرات الصوفيين . ويقول **جروهمان** ، الناقد المعاصر لكاندينسكى انه حاول أن يجعل من لوحاته مقطوعات موسيقية . ولقد الف الفنان نفسه كتابا سنة ١٩١٢ حول فلسفة التجريد تحت عنوان « **روحانيات الفن** » اكد فيه مقابلة اللوحة بالمقطوعة الموسيقية . فكما أن الموسيقى تقرأ من النوتة .. فاللوحة ايضا يمكن قراءتها من الخطوط والاشــكال والالوان التى وضعها الفنان . وفى عــام ١٩١٣ قــدم لوحة « **الصورة الناصعة** » فى محاولة كاملة لتجسيه نظريته . وحاول تصوير محصــول السنة بنفس الاسلوب بدعوى ان « **انسجام الالــوان يؤثر على الروح** » . ونود ان نسوق فى هذا المجال ملاحظة عن حياة كاندينسكى . فقد هجر بلاده ـــ روسيا ـــ بعد نجاح الثورة الاشتراكية وعاش فى المانيا منذ عام ١٩٢٢ ثم فى فرنسا منذ عام ١٩٣٣ حتى توفى قبل نهاية الحرب العــالمية الثانية . ولم يكن الاحساس القومى لديه قويا الى درجة التأثر بالتراث المحلى فى أى مجتمع عاش فيه ، ولم يكن يشعر بالغربة فى أى مكان . ومن هنا .. كان فنه ذاتيا لا موضوعيا لا علاقة له بالمجتمع ومواضيع الحياة الواقعية . انفصل تماما عن كل ما يربطه بالواقع المرئى للعالم الموضوعى . وكان بمثابة دعوة صريحة للانعزال والتفرد . واعتبره المدافعون عنه فنا « **مطلقا** » أو « **نقيا** » ان صح التعبير من حيث أن استخدام اللون والخط والشكل انما يثير متعة جمالية عميقة عند هؤلاء الذين يســتجيبون لها . وليس للجو والعمق والحجم اى وجود فى الفن التجريدى . فهو مسطح او يكاد . ووصفه بعض النقاد بأنه فن الصدفة والزخرفة . لكننا نلاحظ ان بعض نماذجه ذات معنى ايحائى قد يفــوق فى تأثيره الاساليب المعتمدة على الايضــاحية والروائيــة التشخيصية ، وانه يثير خيالات عجيبة عن الواقع المحسوس .

« الانشاء الهندسى » أو « الكلاسيكية الحديثة » ايضا من الاتجاهات اللاموضوعية التى ظهرت مع الهولندى موندريان قبيل منتصف القرن . ويدور الاهتمام فيها حول «الاتزان» و «المقاييس» مع الاهمال المقصود لكل ما هو حدث .. وعرض .. وجو عام . فاللوحات عبارة عن مساحات هندسية داخل خطوط خارجية واضحة مؤكدة ومحددة ، المســاحات اللونية صريحة للغاية ، لا تحمل اى معنى ضمنى على الاطلاق . لا قيمة لاى جانب جمالى آخر غير احكام التكوين الهندسى للصورة . وقد حقق هذا الاتجاه نجاحا وتبنيــا دعمته جماعة « التشكيلية الجديدة » التى اعتقد افرادها ان الاحساس الانســانى فى ارفــع مستوياته ، انما تحكمه انعكاسات رياضية فطرية لدى الانسان . الا ان النجاح العريض لهذا الفن الذى استمر قائما حتى الآن ، كان فى ميادين فنون العمارة والطباعة فى انحاء العالم ..

وفى فجر النصف الثانى من القرن .. ظهر ما يسمى « **التعبيرية التجــريدية** » أو « **الفن**

الحركى الانفعالى » او « مدرسة نيويورك » .. وكان لهذا الاتجاه اثر واسع وشامل على اوروبا وامريكا والشرق الاوسط خاصـــة الجمهورية العربية ولبنان وتونس .. استهدف هذا الاتجاه منح التصوير قيمة اعظـم عن طريق الاندفاع الانفعالى لحركات الفنان اثناء عملية الابداع . وتبناه بعض النقاد حتى اكدوا هذا النجاح .. لكن .. بالرغم من النماذج المثيرة التى قدمها فنانون مثل : بولوك .. هوفمان .. دى كوننج .. كلاين ، لم يستمر النجاح طويلا وافسح الطريق الى اتجاهات اخرى .. اعتمد هذا النوع من التصوير على الابداع الذى يتم عفـو اللحظة الانفعالية من خلال حركات جسد الفنان اثنـاء تعامله مع الالوان .. والعامل المشترك الملحوظ بين نماذج هذا الاتجاه هو احساس المشاهد « بالطاقة » و « بروز الاماميات غير المجسمة » فى فراغ اللوحة .. وقيل عن هذا الاحساس انه ضمن ما يشغل ذهن الانسان فى القرن العشرين. كما لوحظ ان جميع نماذجه خيالية من التنميق والتجويد .. وانها ذات مساحات عملاقة ، كما لو كان الفنان لا يستطيع ان يحقق هذه الاحاسيس فى مساحات اكثر تواضعا . واختلطت آراء النقاد فى هذا المجال . فالبعض يرى انه ليس اتجاها على الاطلاق .. بمعنى « مدرسة » او «اسلوب» .. كالتاثيرية او التكعيبية .. وانه غير متجانس. والبعض الاخر يرى العكس .. ويرجع عدم تجانسه الى انه نوع من « النرجسية » والاغراق فى عشق الذات .. الا انه على اى حال .. فن « لا موضوعى » لا علاقة له بالناس .. سواء فى المجتمع الذى يوجد فيه او فى المجتمعات الاخرى.

الفن أداة حرب

تنوه فى هذه الفترة بيوميات جريدة الاخبار فى اول ابريل من هذا العام . كان عنوان اليوميات « الحرب .. بالفن » جاء فيها ان الولايات المتحدة انشأت خلال الحرب العالميـة الثانية « مجلس لكتاب الحرب » يتألف من قرابة عشرين كاتبا ، اوكلت اليهم مهمة تاليف الاعمال الفنية المتقنة لتروج بين الجماهير افكارا معينة . تعرض على هؤلاء الكتاب المشاكل والمواقف التى تتطلبهـا الحرب النفسية ، فيختار كل كاتب الموضوع الذى يناسبه والاسلوب الذى يفضله لتحقيق الهدف المطلوب .. فقد يؤلف منشورا او كتيبا او كتابا على شكل قصة قصيرة او رواية طويلة او قصة بوليسية او مقالا .. وقد تبدو هذه الفكرة غريبة بالنسبة لنا الا ان هذا هو الاسلوب الامريكى فى التفكير والاقناع .. وكانت الروايات والقصص تباع فى الصحف والمجلات دون ان يدرى اصحابها الغرض منها فى معظم الاحيان .. وكانت تلك الاعمال الفنية المتقنة بمثابة حبة الدواء المغلفة بغشاء رقيق من السكر . فالقارىء يحس بطعم السكر بينما العقار نفسه هو الذى يقرر نتيجة ابتلاع الحبة .

اذا كان هذا يصدق على الكتابات الادبية فلماذا لا ينطبق على الاعمال التشكيلية . فحرب الفنون فعالة للغاية خاصة فى اوقات الحرب الباردة . والفن التشكيلى ـــ شأنه شأن انواع الفنـــون الاخرى ـــ يمكن للفنان ان يودعه المضمون الذى يريد .. او يجرده من المضمون تماما فى حالة التشكيلات اللاموضوعية . ويكون ذلك دعوة الى اهمال موضوعات الحياة والانصراف الى الذات الفردية للفنان كما اوضحت تفسيرات الاتجاهات اللاموضوعية .

وقد اكد اشهر فنانى العالم فى العصر الحديث قيام الحرب بالفنون التشكيلية . قال بابلوبيكاسو فى مؤتمر للتشكيليين سنة ١٩٣٧ « اننى اعتقد .. وسأظل اعتقد ان الفنانين ـــ هؤلاء الذين يعملون بالقيم الروحية ـــ لا يستطيعون ان يظلوا محايدين بالنســبة للصراع الدائر الان . ذلك الصراع الذى يعرض ارفع القيم الحضـــارية والانسانية للفناء . ان التصوير لم يخلق لزخرفة المساكن ، بل هو اداة حرب ايجابية ضد الاعداء » . قال هذه الكلمات حين انهالت القنابل النازية على سوق قرية جيرنيكا فى اسبانيا فى ابريل من نفس العام . وكان الحادث يشبه فى وحشيته وبربريته ما وقع فى بلادنا من الطائرات الاسرائيلية حين ضربت مدرسة بحر البقر الابتدائية ومصنع أبوزعبل . ولاشك أن بيكاسو ولوحته الصرحية « جيرنيكا » غنيان عن التعريف . فقد اجمع نقاد العالم على ان اللوحة تعتبر من الوجهة الفنية اروع تحفة ظهرت فى القرن العشرين . والواقع انها مثـال نموذجى لامكانيـات الحـرب بالفن التشكيلى . وتوجد نماذج كثيرة عبر التاريخ تجمع بين القدرة الفنية والموضوع الاجتماعى السياسى .. مثل لوحة ٣ مايو للفنان الاسبانى ايضا : جويا. صور فيها فريقا من جنود الاحتلال الفرنسى سنة ١٨٠٨ وهم يطلقون الرصاص على الثوار الاسبان المناضلين من اجل حريتهم . كما ان دولاكروا رائد المدرسة الرومانسية فى فن التصوير ، ابدع سنة ١٨٣٠ رائعته الشهيرة : الحـرية تقود الشعب . ان هذه النماذج توضح بحق ان القيم الفنية الرفيعة .. او « اصطاطيقا الصفوة » على حد تعبير استفتاء اليونسكو ، يمكنها ان تتواجد فى الاعمال الفنية التى تؤدى دورا ثقافيا من شأنه التأثير على ايديولوجيـة الجمـاهير والاقتراب من احاسيسهم ومفاهيمهم على حد سواء . فالفن التشكيلى كأداة ثقافية يمكنه ان يكون فى جانب الهدم او فى جانب البنـاء ..

والمقياس هنا هو المضمون الذى يسفر عنه العمل الفنى ومدى تأثيره على نفوس المشاهدين ..

التجربة اليوغوسلافية

وفى يوغوسلافيا اثناء الحرب العالمية الثانية كان الشعب يقاوم ببطولة غزو القوات الهتلرية . واتخذ فن التصوير فى هذه الفترة مظهرا فريدا فى نوعه ، اختلط فيه الموضوع بالاسلوب بالسياسة بالمجتمع فى مزيج متفاعل أسفر فى نهاية الامر عن سجل حافل من الاعمال الفنية التى نادرا ما نجد لها مثيلا فى شعب من الشعوب . كان المتبع عادة ان يرسم الفنانون قبل المعركة او بعدها دون ان يشاركوا فى القتال الفعلى . الا ان التجربة اليوغوسلافية قام بها فنانون ساهموا فعلا فى معارك التحرير فاتسمت لوحاتهم بالانفعال العميق الغامر الذى يشمل المشاهد بأثره المباشر . ولقد وقع الكثيرون من هؤلاء الفنانين ضحايا احكام الاعدام النازية ، كما دكت القنابل الكثير من معارضهم ودفنتها بعد ان تفرج عليها الناس سرا فى ظلال الغابات وسفوح التلال . لم يكن الفنانون مراسلى صحف او مصورى سينما ، بل كانوا اعضاء عاملين فى فرق الانصار «الفدائيين» يقاتلون ويرسمون فى نفس الوقت .. ويعيشون حياة من نوع جديد تتسم بالبطولة والمأساة فى اقصى اشكالها . وكانت تلك المعانى تنعكس على لوحاتهم وتضيف اليها شيئا جديدا غير الالوان والظلال .. كانت تضيف رنة الصدق التى تخلو منها لوحات الفنانين البعيدين عن المعركة الفعلية .

ومن الفنانين الذين استشهدوا فى تلك المعارك : بورا باروه .. ايفو نوفاكوفيتش .. بوجدان سبوت .. وآخرون . أما الفنان الفدائى ايفان راجين فأعماله كلها مازالت مدفونة فى مكان ما فى اقليم كرواتيا وكانت تبلغ ٢٠٠٠ من الرسوم .

الحقيقة ان هؤلاء الفنانين لعبوا دورا رائعا فى صفوف جيش التحرير باستخدامهم الفن التشكيلى كسلاح للحرب وأداة للتغير الثقافى . أما الآن .. بعد استقرار المجتمع .. نجد بعض الفنانين اليوغوسلافيين يشاركون فى فنون الرفاهية والابحاث الجمالية اللاموضوعية الى جانب الاعمال الموضوعية التى تناسب المجتمع اليوغوسلافى المعاصر .

اللاموضوعية والسياسة العالمية

القضية هنا اصبحت منطقية للغاية لا تحتاج الى مزيد من الاسانيد والنماذج . فالاتجاهات الفنية تنقسم الى قسمين رئيسيين : الأول يتجه الى البحث فى الجماليات او مايسمى «اصطاطيقا» .

وتندرج تحت هذا القسم أبحاث الفرنسي سيزان حول الاشكال التى تتحكم فى التكوينات الطبيعية ، رغم أن تصويره كان يتخذ الطابع التشخيصى الواضح . انه لم يقصد من لوحاته الا اثبات ان اشكال الطبيعة تنحصر فى المخروط والكرة والمكعب .. وأن الالوان تكسو كل جزء فيها مهما كان دقيقا . كذلك أعمال موندريان والكلاسيكية الحديثة التى تناولناها آنفا . أما القسم الثانى فهو تعبير عن موضوع معين يشغل بال الفنان وعواطفه وانفعالاته ، عن طريق استخدام اساليب الابداع الفنى حتى يرقى الى أرفع مستوى تعبيرى انسانى . ومن امثلة ذلك كل ما قدمه لنا التاريخ عبر العصور من اعمال انسانية تركت بصماتها على حياة الشعوب ، كلوحات بيكاسو ودولاكروا وجويا التى تحدثنا عنها . ولنفترض ان بيكاسو لم يكترث بتدمير قرية جيرنيكا .. وأن جويا لم يهتم بطغيان الاستعمار الفرنسى فى بلاده .. لكان عدم الاكتراث هذا بمثابة تأييد للفاشية فى حالة بيكاسو .. والاستعمار فى حالة جويا . فالصمت فى الحالتين عمل ايجابى فعلى .. والانشغال بالابحاث الجمالية مع تواجد حالة صراع وحرب غير انسانية . والحرب ـ كما هو معروف ـ هى السياسة بوسائل اخرى . وما دام كل عمل فنى له مضمون .. بل كل سلوك انسانى بوجه عام ، فالفنون التشكيلية تدخل فى ميدان السياسة من باب المضمون . والمقصود بالمضمون هنا هو موضـوع العمل الفنى . والمدافعون عن «اللاموضوعية» يحددون المضمون بأنه «مضمون التشكيل الفنى» وترجمة هذه العبارة توازى معنى شعار «الفن للفن» .. أى الابداع الفنى بهدف تحقيق المتعة الجمالية الخالصة . والواقع اننا لو نظرنا الى كتابات الشارحين لهذه النظريات فى اعمال بولوك وكوننج وغيرهما من اصحاب مدرسة نيويورك ، لرأينا انها تتعلق بذاتية الفنان وفرديته ، اى بانصرافه عن المجتمع الذى يعيش فيه . والاصل فى الحرب ان ينتظم المجتمع فى تشكيلات تسمح له بمواجهة الخصم بالاسلوب الذى يحقق له النجاح . والفنانون من شتى الانواع ، سواء كانوا تشكيليين او شعراء او ممثلين ، لهم دور فى هذا التنظيم الاجتماعى . وابتعادهم عن مواقعهم انما هو تخلى عن مسئولياتهم . واذا اتجهوا الى البحث فى مجرد الجماليات ، فهم يبحثون فى فن الرفاهية فى الوقت الذى تهدد فيه البشرية بالفناء وتتعرض ارفع القيم الانسانية للتدمير على حد تعبير بيكاسو .. ويسمحون باحتمالات الخطر .

لا شك ان الابحاث الجمالية على درجة بالغة من الاهميـــة وجديرة بأن ينصرف اليها بعض الفنانين حتى يضيفوا ابعادا جديدة للاســـاليب التعبيرية ، كتلك الابحاث التى قام بها موندريان وكاندينسكى وسيزان. ولاشك أيضا ان التعبيرات الموضوعية التى حقق بيكاسو وجويا نموذجين رائعين لها من الامثلة الواضحة لتكامل الابحاث الجمالية والمواضيع الاجتماعية . الا انه فى كل من الجـــانبين تندس زمرة من الاعمـــال غير الاصيلة . ففى الجانب الموضوعى توجد اعمال ايضاحية روائية رخيصـــة بعيدة عن الابعـــاد الجمالية التى ترتفع بها الى مستوى الابداع الفنى. تماما كما تتجه بعض الاعمال اللاموضوعية الى مجرد العبث بالالوان والخطوط والاشكال مع ابتعادها ايضا عن الابعاد الجمالية ، فضلا عن ابتعادها عن الموضوعات الاجتماعية . الا ان الابحاث الحقيقية فى اى مجتمع لو انها زادت وطغت ولم تستخدم فى ابداع اعمال موضوعية تعمل على التغير الثقافى للمجتمع ، لانمحت قيمتها واصبحت كالجواهر المدفونة فى نجم بعيد . مثلها مثل ابحاث اينشتين ومنكوفسكى وبلانك فى ميدان الرياضيات ، اذا لم يكن قد تم تطبيقها وادخالها فى مجال الاستخدام الحضارى لامست ولا قيمة لها . وقد تتجه قوى سياسية معينة الى حصر الابداع الفنى فى حدود الابحـــاث الجمالية وتشجيع المدعين على الاندساس فى زمرة الباحثين ، فيكون ذلك بمثابة حرمان الشعوب من ادواتها الثقافية الفعـــالة فى عمليـــة التغير الاجتماعى والتطور والنمو والتقدم .

ونضرب مثلا هنـــا بالفن التشكيلى فى اكثر المجتمعات تقدما فى هذه الفترة التاريخية ونعنى بها المجتمع الامريكى والمجتمع السوفيتى . ففى امريكا يتم تشجيع وتدعيم الابحاث التشكيلية الجمالية بدون المساس بالموضوعات الاجتماعية سواء فى الداخل او فى الخارج .. حتى فى حالة توافر العناصر التشخيصية كما هو معروف فى اتجاه البوب آرت الذى يجتاح معظم فنانى اوروبا الان ، وهذا الموقف من شأنه ان يضع عصابة على عيون الجماهير حتى لايروا موضوعات حياتهم .. مع ان اسلوب البوب آرت بالذات من بين الاساليب المستحدثة الصـــالحة للغـــاية للمضامين الاجتماعية والانسانية ، ولقد قدمت كوبا نموذجا ممتازا لهذا الاسلوب فى بينالى الشباب الاخير بعنوان « جيفارا » .

أما فى الاتحاد السوفييتى فتتجه الاعمال الفنية الى الموضوعية حيث تظهر اعمال البناء والتشييد وتمجيد العمل الانسانى والاحداث التـــاريخية والتغنى بمشاهد الطبيعة والعواطف الانسانية . ويتم التعبير عن هذه الموضوعات بأساليب تختلف من فنان الى آخر ويصل بعضها إلى درجات عالية من التبسيط والتجريد ، مع الاحتفاظ بطابع الفهم المتبادل بين الفنان والذواقة . وهذا الطابع للفن السوفييتى يختلف عن الطابع الروائى الحماسى الذى يتبعه الفنانون الفيتناميون والصينيون فى الوقت الحاضر والذى يمكن مقابلته بالاناشيد الحماسية والمارشات العسكرية فى الموسيقى .. والخطب السياسية فى ميدان الادب .

ولكى نزيد من ايضاح مدى تاثير الاعمال الفنية على النفس الانسانية ، نرجع الى كلمات افلاطون منذ خمسة وعشرين قرنا . فقد نصـــح بتعلم الموسيقى لانها تنعكس على نفوس الناس فلا يصدر عنهم الا كل سلوك جميل .. ولا ضرورة للدخول فى تفسيرات لمعنى هذا الجمال ونكتفى بما قاله هربرت ريد حديثا من « ان الاكثر فائدة هو الاكثر جمالا » ..

من هنا .. نرى ان الفن التشكيلى ليس بدعة فى ذاته بين فنون الادب والمسرح والموسيقى وغيرها ، انما هو مثلها جميعا من حيث موضوعيته .. يتأثر بظروف المجتمع الذى يوجد فيه ويتحدد بابعاده التاريخية والاقتصادية والسياسية، وهذه الابعاد هى مصدر اصالة الفنان . فالفنان الاصيل هو الذى يستطيع ان يتبين موقعه من المجتمع ومن الزمن الذى يحيا فيه . فاذا تم له ذلك استطاع ببساطة ان يسجل اسمه مضيئا فى دوائر المعارف والقواميس الفنية كما فعل بيكاسو الاسبانى والثلاثى المكسيكى الرائع : ريفييرا .. اوروسكو .. سيكيروس ..

— ان تكنولوجيا السياسة الحديثة .. اى اسلوب التطبيق .. تمتد بدقة الى ميدان الفنون التشكيلية ..



الدستور

فى خطاب اول مايو ١٩٧١ اعلن الرئيس انور السادات انه قد بات من الضرورة بمكان وضع دستور دائم للبلاد .

وقد اخذت القيادة السياسية هذا القرار انطلاقا من انه فى غيبة الديموقراطية تتهدد مسيرة الثورة انزلاقات وانحرافات ، فتهدر سيادة القانون ، وتتشكل أهم القرارات التى تمس مصالح الشعب والبلاد بعيدا عن رقابة الرأى العام ، وتفقد المؤسسات الدستورية مبرر وجودها .

ولقد جرت فى اماكن كثيرة من بلادنا مناقشات حول الدستور شاركت فيها فئات وطوائف كما شارك فيها افراد عديدون بصفتهم الشخصية ، استمعت اليهم اللجنة التحضيرية للدستور واللجان المتفرعة عنها .

ولما كانت الطليعة فى مناسبات مختلفة قد درجت على ان تساهم فى القضايا القومية بالرأى والدراسة ، فقد اختارت ان تخصص هذا الملف لحوار بناء ومساهمات مخلصة يقدمها لقراء الطليعة عدد من الكتاب والمفكرين والمتخصصين فى هذا الموضوع ، ليدلوا بآرائهم واجتهاداتهم الشخصية فى بعض الفقرات الهامة التى ينبغى ان تضمن فى الدستور الدائم .

واستكمالا للفائدة تنشر الطليعة فى نهاية الملف ملخصا لاهم الاراء والمقترحات التى ترددت فى اللجنة التحضيرية للدستور التى تكونت عام ١٩٦٦ عندما كان الرئيس انور السادات رئيسا لمجلس الامة .



بعض أفكار أساسية للدستور الجديد

د. جمال العطيفي

عضو اللجنة التحضيرية للدستور
ومقرر لجنة نظام الحكم

أود في هذه العجالة ان اركز على بعض المفاهيم الاساسية التي يجب أن يتضمنها الدستور الجديد ، طارحا جانبا الاحكام التقليدية التي استقرت في معظم الدساتير بصرف النظر عن اختلاف مفاهيمها الفكرية . وبمعنى آخر ، اود ان اوضح الجوانب التي يجب ان يستحدثها الدستور ، والتي يمليها واقع التجربة وطبيعة المرحلة واهدافها .

الاتحاد الاشتراكي

ان العلاقة الدستورية القائمة وفقا لدستور مارس ١٩٦٤ بين الاتحاد الاشتراكي وبين سلطة الدولة ، تنحصر في ان العضوية العاملة للاتحاد الاشتراكي شرط للترشيح في مجلس الامة ، بل هي شرط للترشيح في مجالس المنظمات الجماهيرية مثل النقابات والتعاونيات . وبعد ان صدر اعلان دستورى في ٧ يناير ١٩٦٩ معدلا المادة ٩٤ من دستور ١٩٦٤ ، اصبح فقدان صفة العضو العامل سببا لانقضاء عضوية عضو مجلس الامة .

وهذه العلاقة الدستورية تجعل تنظيم العضوية العاملة على جانب كبير من الاهمية ، اذ ان منح العضوية العاملة او منعها او اسقاطها يترتب عليه حرمان فعلى من ممارسة حق اساسى من حقوق المواطن السياسية وهو الترشيح لمجلس الامة او لمجالس المنظمات الجماهيرية .

ولما كان الاتحاد الاشتراكي تنظيم سياسى يستقل بوضع قانونه ومنها شروط قبول الانضمام اليه ، فلامناص من ان ينص الدستور على ان الانضمام الى الاتحاد الاشتراكي حق دستورى للمواطن الذى ينتمى الى قوى الشعب العاملة

وان يحدد فى نصوصه الحالات التى يجوز فيها الحرمان من الحقوق السياسية وبالتالى من عضوية الاتحاد الاشتراكى . وهكذا تستقيم هذه العلاقة، فيظل الاتحاد الاشتراكى محتفظابطبيعته كتنظيم سياسى ، لاسلطة دولة وفى نفس الوقت تنشأ الرابطة بينه باعتباره تحالفا جماهيريا واسعا وبين سلطة الدولة عن طريق العضوية العاملة . اما اذا لم تصبح العضوية العاملة للاتحاد الاشتراكى شرطا للترشيح ، فلا تكون هناك حاجة الى هذا النص الدستورى .

ومع ان الاتحاد الاشتراكى يستقل — كتنظيم سياسى بوضع قانونه ، الا ان الدستور يجب ان ينص على وجوب ان يلتزم الاتحاد الاشتراكى فى تشكيلاته المبدأ الديموقراطى القائم على الانتخاب بالطريقة التى يحددها قانونه ، وان ينص على ضمان خمسين فى المائة على الاقل للعمال والفلاحين فى تنظيماته ، دون الاكتفاء بالنص على ذلك بالنسبة لتشكيل مجلس الشعب .

اما الجهاز السياسى الذى اشار اليه الميثاق وبيان ٣٠ مارس فلا يتصور ان يخلق بنص دستورى، ولكنه يجب ان يكون منبعثا من الواقع الاجتماعى يباشر دوره السياسى علانية بين الجماهير واعتمادا عليها، لاخفية من ورائهاوضد ارادتها . ومن ثم فانه يجب ان يرتبط بالتنظيم الجماهيرى الواسع وهو الاتحاد الاشتراكى ، فهو لايحل محله ولكنه يعد طليعة قيادية له ، لا لانه تنظيم ارفع او اعلى وانما لانه يضم من فئات قوى الشعب العاملة اكثرها وعيا واحسنها تنظيما ويجمعها تجانس طبقى وفكرى . وهذا الجهاز لايتود سياسيا اعتمادا على اعضائه وحدهم بل انهلايستطيع ان يتعرف على اتجاهات المواطنين ورغباتهم ومشكلاتهم الا اعتمادا على المنظمات الجماهيرية وفى مقدمتها الاتحاد الاشتراكى ، وليس له من علاقة دستوريةبسلطة الدولة الا منخلال الاتحاد الاشتراكى فى الحدود التى سبق الاشارة اليها .

ومع ذلك ودون اشارة الى الجهاز السياسى فى صلب الدستور ، الا اننا نرى ان يشير الدستور الى الدور القيادى للعمال والفلاحين والمثقفين الثوريين لقوى التحالف نحو تحقيقهدف تذويب الفوارق بين الطبقات .

تنظيم سلطة الدولة

هناك ثلاث محاور رئيسية فى تنظيم سلطة الدولة : **الشعب** نفسه وهو صاحب السيادة ، **ومجلس الشعب** المنتخب بالاقتراع العام المباشر، **ورئيس الجمهورية** الذى ينتخب عن طريق مجلس الشعب او عن طريق الشعب مباشرة او بالطريقتين معا .

وتنظيم سلطة الدولة يقتضى الا نغفل العلاقة بين هذه المحاور الثلاثة . واذا كان الشعب هو صاحب السيادة اصلا ، وهو يمارسها عادة عن طريق ممثليه ، فان التصور الديموقراطى السليم لنظام الحكم يقتضى التسليم بوجوب ان يكون مجلس الشعب هو اعلى جهاز فى سلطة الدولة . وان كان هذا الراى يقتضى ، ان تصبح اجهزة الدولة الاخرى منبثقة منه خاضعة له — الا انه يحسن تقدير الاعتبارات الواقعية فىدول العالم الثالث النامية التى تقتضى فى نفس الوقت تمكين الهيئة التنفيذية من ان يكون لها دور فعال ومن ناحية اخرى فان علينا ونحن ننظم سلطة الدولة ان يكون فى اعتبارنا ان قيام تنظيمسياسى واحد فىتجربتنا ومعظم تجارب بلاد العالمالثالث التى تتحول الى الاشتراكية ، لايستساغ معه الاخذ بالنظم النيابية التقليدية مثل النظامالبرلمانى او الرياسى ، التى تفترض قيام احزاب متعددة تمثل مصالح طبقية متباينة .

واذا كان من الجائز استعارة بعض ملامح النظام الرياسى او البرلمانى التى تتفق معظروفنا الا ان ذلك يجب الا يصل الى حد الخلط والمزج الذى يوقعنا فى التناقض الذى وقع فيه دستورا ١٩٥٦ ودستور ١٩٦٤ .

ومن ثم فان هناك جملة مبادىء يجب مراعاتها:

المبدأ الاول : توزيع الاختصاصات بين اجهزة الدولة وعدم تركيزها :

فبغير دخول فى جدل نظرى حول السلطات وتعددها وانفصالها او تعاونها ، فالمسلم به انه يجب توزيعاختصاصات الحكم بين هيئات مختلفة سواء سميت سلطات او سميت اجهزة للحكم . وهذا المبدأ هو العاصم ضد الانحراف وضد خلق مراكز للقوى بمنأى عن الرقابة .

ومؤدى هذا المبدأ تحديد فترة زمنية لتولى الوظائف السياسية الهامة ، ومنها منصب رئيس الجمهورية ، بحيث لايجوز تجديد انتخابه مرتين متتاليتين وان يقوم مجلس الشعب بترشيحه باجراءات اشبه بالانتخاب داخل مجلس الشعب ثم يعرض على الشعب بعدذلك فى استفتاء عام .

المبدأ الثانى : تقوية مجلس الشعب :

مجلس الشعب هو الهيئة المنتخبة انتخابا ديموقراطيا بالاقتراع العام المباشر ، وتتمثل فيه القيادة الجماعية ويضم طليعة من العمال والفلاحين يمثلون نصف اعضائه على الاقل .

وتقوية مجلس الشعب يقتضى ان تبدأ فى التنظيم منذ أول نقطة فى بداية تكوين المجلس، وهى الترشيح لعضوية مجلس الشعب . وهذه المسألة على جانب كبير من الاهمية فى بلد نام

لايعرف الا التنظيم السياسي الواحد ويحتاج الى وحدة كل قواه العاملة للسير نحو هدف تذويب الفوارق بين الطبقات .

ومن المعروف انه فى دول الديموقراطيات الغربية التى يقوم نظامها السياسى علىالاحزاب فان هذه الاحزاب هى التى ترشح عادة لعضوية البرلمان . كما انه فى النظم التى تنشأ بها حـزب واحد ، فان الحزب يرشح المنتمين اليه ، دون حرمان غير المنتمين اليه من حق الترشيح عن طريق المنظمات الجماهيرية . ولايتصور فى بلـد يتحول الى الاشتراكية ، ان يعتمد الترشيح على نفوذ المال ، او ان يقف المرشح بغير سند من تنظيم جماهيرى يزكيه .

وعلى هذا فان الطريق البديل لترشيح الحزب او الاعتماد على النفوذ او السيطرة الطبقية ، هو ان يتم الترشـــيح عن طريق المنظمـــات الجماهيرية وهىالنقابات والتعاونياتوالاتحادات والجمعيات او عن طريق تزكية عدد معين من الناخبين فى الدائرة التى يتم الترشيح فيها .

واذا كان من المعروف ان لمجلس الشـعب اختصاصات هامة فى وضع السياسة العـامة للدولة فى التشريع وفى الرقابة ــ فان هنـاك بعض النقاط التى يجب الا يغفل عنها الدستور الجديد :

فيجب ان ينص صراحة على عرض الخطـة الاقتصادية على مجلس الشعب وعلى ان تصدر بقانون . فلا يستساغ ان تصدر الميزانية التى تعد تنفيذا للخطة بقانون ، بينما تظل الخطـة الاقتصادية مجرد تعليمات ادارية .

ويجب ان ينص صراحة فى الدستور على وجوب عرض **الحساب الختامى لميزانية الدولة** على مجلس الشعب كما تعرض عليه تقـارير اجهزة الرقابة وعلى الاخص الجهـاز المركزى للمحاسبات .

وتقوية مجلس الشعب باعتباره اعلى جهاز لسلطة الدولة تقتضى الا يـكون من حق رئيس الجمهورية حله بغير الرجوع الى الشـعب فى استفتاء عام .

المبدأ الثالث : ارتباط السلطة بالمسئولية :

وتطبيق هذا المبدأ يقتضى انيكونمجلسالشعب وهو اعلى جهاز فى سلطة الدولة مسئولا امام الشعب . ولايكفى ان يتحقق ذلك عند تجـديد انتخاب المجلس بل يجب ان يكون للناخبين فى كل وقت حق سحب الثقة من عضـــو مجلس الشعب بأغلبية معينة ، كماان حل مجلسالشعب يرجع فيه الى الناخبين انفســـهم عن طريق الاستفتاء كما اسلفنا .

ورئيس الجمهورية بدوره مسئول امامالشعب فبقدر مايمنحه الدستور مناختصاصات سياسية يجب ان يكون مسئولا عنها بحيث يكون لمجلس الشعب بأغلبية معينة ان يطرح سحب الثقة منه على الاستفتاء العام .

المبدأ الرابع : التوســع فى الرجــوع الى الشعب :

فالشعب يجب الا يتخلى عن ممارسة سـلطة الحكم بمجرد انتخاب رئيس الجمهورية وانتخاب مجلس الشعب . بل انه يجب تنظيم الرجوعاليه فى الاستفتاء . وتنظيم ممارسته لحق اقـتراح القوانين والاعتراض عليها ، وحق سحب الثقـة من الاجهزة التى قامبانتخابها على نحوماسلفنا .

واعتقد ان العلاقات الاقتصـادية فى المجتمع المحاور الثلاثة فى ادارة الحكم : الشعب نفسه ومجلس الشعب ورئيس الجمهـورية ، ويبقى السلطة للشعبيمارسها بنفسهفى بعضالحالات وعن طريق ممثليه فى الحالات الاخرى .

تنظيم العلاقات فى المجتمع

وهذا هو التعبير الذى افضله بدلا من تعبير المقومات الاساسية للمجتمع . فان الدستورليس وثيقة لوصف صورة المجتمع ، ولكنه وثيقة لتنظيم العلاقات الاجتماعية . ان المقومات الاساسية للمجتمع تمثل المجتمع فىحالة « سكون » ، بينما العلاقات فى المجتمع تمثله فى حالة « حركة » . والدستور باعتباره القانون الاسمى هو تنظيم لحركة المجتمع .

ولاشـك ان هنـاك مبادىء منظمة للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية ، قد اشار اليها دستور مارس ١٩٦٤ ،وان هناك نصوصا تقليدية متعلقة بالحريات تعرفها معظم الدساتير .

ولكن الجديد الذى نقترحه ، هو ان يكون تنظيم الحريات فى الدســتور ، تعبيرا عن العـلاقات الاجتماعية والاقتصادية ذاتها . فالحريات لا تقف وحدها منعزلة عن طبيعة العلاقات الاجتمـاعية والاقتصادية ، بل انها يجب ان تسـتمد مفهومها الحقيقى من هـذه العلاقات ومراحل تطورها . فحينما ينص الدستور على حرية الصحافة مثلا ، فان تنظيم هـذه الحرية لابد وان يكون انعكاسا للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية . فحرية اصدار الصحف فى مجتمع العلاقات الراسمالية ، تعنى حرية المواطن الذى يملك الوسائل المادية لاصدار الصحيفة . ولكن هذه الحرية فى مجتمع العلاقات الاشتراكية ، تعنى حرية جموع المواطنين الممثلة فى نقاباتهم وسائر منظماتهم الجماهيرية .

واعتقد ان الاخذ بهذه المبادىء الاربعة يشترك يجب أن تتناول تسـجيل المكاسب الاشتراكية ، ومنها **ملكية القطـاع العـام** ، ودعمها ، واتاحة الطريق الى توســيع نطاقها ، ومنها اشـتراك العمال فى مجالس ادارة المشروعات الاقتصادية وأرباحهـا . ومنها تحديد معنى واضـح **للملكية التعاونية** ، يجعلها الصـورة الاقرب الى الملكية

العامة ؟ ويفتح السبيل أمام الملكيات الخاصة لكي تتجمع وتنصهر فيها . وان ينص على المبدأ الأساسي الذي يجب أن يحكم العلاقات الاقتصادية في مجتمع يتحول إلى الاشتراكية ، وهو ان يكون العمل هو أساس التمتع بثمرات المجتمع ، وان الدستور يهدف الى ان يصبح نطاق الملكية الخاصة محدودا بعدم استغلال جهد الاخرين .

اما العلاقات الاجتماعية ، فان هناك جديدا فيها يجب العناية بتسجيله ، وهو ان ينظم القانون الزواج والطلاق وآثارهما ، بما يكفل دعم الاسرة ورعاية الامومة والطفولة ، وبما يتفق مع أهداف المجتمع وقيمه . ان هذا يصلح أساسا تشريعيا بعد ذلك لتنظيم الاسرة ، وتنظيم تعدد الزوجات ، واباحة الطلاق .

وأن ينص ايضا على مساواة المرأة بالرجل في تقلد الوظائف العامة ، اذا توافرت فيها الشروط المطلوبة للوظيفة .

وأن يكفل القانون استقلال النقابات عن السلطة الادارية ، وعدم اخضاعها لوصايتها .

أما العلاقات السياسية ، فيجب أن تتناول أساسا النص على تحديد حالات الحرمان من الحقوق السياسية ، وان ينص الدستور على التزام القانون الذى يصدر منظما لذلك ، بأن يكون الحرمان في الحالات التي يجيزها الدستور لمدة معينة ، وأن ينص على كفالة التظلم منه .

اما انعكاس تنظيم العلاقات في المجتمع على موضوع الحريات ، فانه يجب ان نلاحظ فيه ما أسفرت عنه التجربة ، من محاولة لايجاد تناقض مصطنع بين الاشتراكية وبين الحرية . ومن ثم فان ضمان الشرعية الاشتراكية ، وهي أساس كل العلاقات في المجتمع والدولة» ، يقتضي النص على جملة أمور في الدستور :

١ — ان ينص الدستور نفسه على تحديد مدة الحبس الاحتياطي أو الاعتقال ، ولو كان القرار صادرا من النيابة العامة ، ذلك اننا نعرف ، بحكم تجربتنا ، ان قانون الاجراءات الجنائية يخول النيابة العامة في حالات كثيرة سلطة ما يسمى الحبس المطلق ، اى بغير تحديد مدة . كما يجب أن ينص على وجوب اخطار أسرة المقبوض عليه ، واتاحة التظلم من القرار دائما . وأن ينص على وجوب ان يتم التصرف في التهمة خلال مدة معقولة .

٢ — وان ينص الدستور على حق من يقبض عليه ، في ضمان سلامة بدنه ، بل وفي سلامة ذهنه . وأن يعاقب من ينتهك ذلك بعقوبة الجناية .

٣ — وان ينص الدستور على حماية الحياة الخاصة للمواطن ، بما يتضمنه ذلك من حظر فرض رقابة على المحادثات التليفونية ، سواء بوضع أجهزة للاستماع أو للتسجيل ؟ الا في الحالات التي تقتضيها حماية الامن القومي ، أو لدواعي التحقيق ، وبأمر من القضاء . مع اعتبار الاخلال بذلك جريمة يعاقب عليها بعقوبة الجناية .

٤ — ان ينص الدستور على تبعية السجون لوزارة العدل ، وان يكون للقضاء سلطة الرقابة على سائر الاماكن التي تنفذ فيها العقوبات أو الاجراءات المقيدة للحرية .

٥ — ان ينص الدستور ايضا على تنظيم سلطة القبض والاعتقال والتفتيش في حالة اعلان الطوارىء . بل ان تنظيم اعلان الطوارىء يجب أن يتضمنه الدستور ، ليحدد دائما مدة له لا تتجدد الا بموافقة مجلس الشعب ، وليحدد السلطات الاستثنائية التي يخولها قانون الطوارىء .

٦ — ثم ان حماية الشرعية تقتضي ان ينص الدستور على انه لا يجوز ان تقتصر الحماية القضائية لحقوق المواطنين على أنواع معينة من المنازعات ، كما انه لا يجوز حرمان أى مواطن من حق التقاضي ، أو حقه في ان يحاكم أمام قاضيه الطبيعي . وأنه لا يجوز وقف تنفيذ أى حكم قضائي الا في الحالات ، وبالاجراءات التي ينص عليها القانون .

كما انه لا يجوز انشاء محاكم استثنائية ؟ ولا يجوز في غير حالة الحرب ان يمتد اختصاص المحاكم العسكرية الى المدنيين .

٧ — وان تيسر الدولة للمواطنين غير القادرين الالتجاء الى القضاء ، عن طريق انشاء مكاتب للمساعدات القضائية من بين المحامين ، لتقدم مساعداتها الى المواطنين بالمجان ، أو مقابل رسم محدود . فهذا هو المضمون الاجتماعي للنص على كفالة حق الدفاع . والا أصبح هذا النص مجرد تسجيل شكلي لا يضمن الدستور ممارسته فعلا .

وبعد ، فانني اريد ان انبه الى ان الدعوة الى اعداد دستور دائم ، يجب الا تعني أنه دستور ابدى ، ولا يجب ان يكون الدستور قيدا على حركة الثورة المستمرة حتى يتم تحقيق التحول الى الاشتراكية .

اننا نقول اننا في بداية مرحلة التحول الى الاشتراكية ، والدستور يجب ان يمثل هذه المرحلة ويرسم الطريق الى عبورها الى مرحلة اخرى أكثر تقدما .. مرحلة تذوب فيها الفوارق بين الطبقات .

واذا كان هذا الدستور يوصف بانه دائم ، فانما ذلك بالمقابلة لدستور مارس سنة ١٩٦٤ ، الذى يوصف بانه مؤقت .

فلنقل اذن ان الدستور الجديد هو دستور دائم .. ولكن لمرحلة التحول الى الاشتراكية .



الاتحاد الاشتراكى

هل يقنن بالدستور ؟

طارق البشرى

يبدو أن من أهم النقط المتعلقة بالدستور الدائم الذى يجرى اعداده الان ، مناقشة هل ينص على الاتحاد الاشتراكى فى صلب الدستور أم لا • واذا نص عليه فهل يكتفى فى ذلك بالاشارة الى وجوده والاطار العام لوظيفته ، أم تفرد له أحكام تفصيلية تحدد وظيفته وطريقة تكوينه وعلاقاته بالمؤسسات والاجهزة الاخرى • ويستوجب هذا الامر مناقشة واسعة تتفق مع الاهمية الحيوية له •

وثمة نقطتان ينبغى الاشارة اليهما لرسم نطاق المناقشة فى هذه المسألة. **أولاهما** : أن المناقشة لا تتعلق ولا تمس مبدأ وجود الاتحاد الاشتراكى كصيغة للنشاط السياسى الشعبى ، فهو بهذه المثابة صيغة لا يبدو حتى الان أن اتجاها من الاتجاهات السياسية المؤثرة يطرحها للمراجعة الاساسية **وثانيتهما** أن الدستور الذى يجرى اعداده هو الدستور الدائم المقدر بأن يحدد مقومات المجتمع ويبنى مؤسسات الحكم فيه الى زمن لا يدرك البصر مداه • ويجب باعتبار هذا الدوام أن يكون الدستور أقرب الى المرونة وأبعد عن الجمود وأشمل لعناصر الاستقرار بحيث تستوعب مبادئه ومؤسساته حركة التطور والتغير الاجتماعى والسياسى فى المستقبل • وينتهى هذا المقال الى ترجيح القول بألا يتضمن الدستور أحكاما تتعلق بالاتحاد الاشتراكى لانه كتنظيم شعبى ينتمى الى نوع من المؤسسات لا يجب أن تختلط بمؤسسات الحكم التى تنظمها الدساتير • وذلك على خلاف ما ورد بالدستور المؤقت لسنة ١٩٦٤ وما أيدته اتجاهات سابقة كثيرة •

لقد بدأ تكوين الاتحاد الاشتراكى باعتباره التنظيم السياسى الشعبى الذى يمكن أن يضم قوى الشعب العاملة ويمثل تحالفها • وحدد الميثاق قوى الشعب العاملة بأنها الفلاحون . والعمال

والرأسمالية الوطنية والمثقفون والجنود كما وصف الميثاق الاتحاد الاشتراكى بأنه تحالف الشعب العامل كله، وأنه السلطة الممثلة للشعب. وذكر أنه ليس حزبا لان الحزب يمثل مصالح طبقية ضيقة وليس جبهة لان الجبهة تحالف احزاب. ثم جاء دستور ١٩٦٤ فى مادته الثالثة ينص « أن الوحدة الوطنية التى يصنعها تحالف قوى الشعب الممثلة للشعب العامل .. هى التى تقيم الاتحاد الاشتراكى العربى ليكون السلطة الممثلة للشعب»

والجدير بالذكر أنه فى بدايات ١٩٦٧ أعلن عن اعداد الدستور الدائم، وشكلت لذلك لجنة فى مجلس الامة بدأت عملها بالاستماع لاراء المواطنين وأهل الرأى من كافة الاتجاهات، واستوفت خلال الشهور الاولى من العام استطلاع الرأى حول المقومات السياسية والاقتصادية، ثم عاجلتها النكسة فوقف عملها فيما وقف بسبب الحرب. وحفظت محاضر هذه الجلسات خلاصة معبرة عن وجهات النظر المختلفة وقتها بالنسبة لطبيعة الاتحاد الاشتراكى ووظيفته.

اتجه التيار الغالب وقتها الى فكرة أن الاتحاد الاشتراكى سلطة، فقيل انه سلطة الشعب، أى السلطة الممثلة لسيادة الشعب، وقيل انه السلطة العليا فوق السلطات الاخرى، وقيل بل هو السلطة الوحيدة وليست السلطات الاخرى الا جزءا منه. وقيل فى تفسير ذلك انه الشعب ذاته ممثلا فى قواه العاملة، أو هو المعنى السياسى للشعب، وقيل انه الشعب مجسدا فى تنظيمات متصاعدة فى بناء هرمى، كما قيل ان تحالف قوى الشعب يساوى « الشعب سياسيا » وأن هذا التحالف لا يمكن أن يتصور الا فى اطار التنظيم العضوى الذى يحمل ارادته وهو الاتحاد الاشتراكى.

وأيا كان المنطلق النظرى لهذا الاتجاه فى تحديده الطبيعة الدستورية للاتحاد، وهل هو تجسيد للشعب او الشعب ممثلا، وهل هو سلطة وحيدة أم سلطة عليا، وهل هو سلطة شعبية أم سلطة سيادة أم سلطة حكم وهل هو فوق الدستور أو فى مستواه. فقد اتفق انصار هذا الاتجاه على أن يكون للاتحاد الاشتراكى التوجيه والرقابة والاشراف على السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية، وذلك على أساس سلطات محددة تتمثل - من خلال الامثلة الكثيرة التى ذكرت - فيما يلى :

- يكون للاتحاد وحده اختيار رئيس الدولة وقائدها.

- يكون له وحده اختيار الوزراء وأعضاء الحكومة ويشترط أن يكونوا اعضاء عاملين فيه.

ويكون له حق اسقاط الوزارة واسقاط الوزراء. ويكون للجنته المركزية مساءلة الوزارة وطرح الثقة بها - يكون له وحده الترشيح لعضوية مجلس الامة ويشترط أن يكون أعضاء المجلس أعضاء عاملين فيه. ويكون له حق اسقاط عضوية عضو مجلس الامة. ويعتبر مجلس الامة جزءا منه يمثل هيئة برلمانية له. ويكون له حق حل المجلس، ومساءلة المجلس وطرح الثقة به.

وقد عارض البعض وقتها هذا الاتجاه. وقيل فى ذلك ان التصور السابق لطبيعة الاتحاد وسلطاته يعنى تركيز السلطة مما يأباه مبدأ جماعية القيادة. وأن استئثار الاتحاد باختيار أعضاء مجلس الامة لا يخلو من تحكم لان الدور السياسى الطبيعى للاتحاد يقع خارج نطاق اجهزة الحكم. وأن اندماج السلطات أمر لا يؤمن أثره الضار على الحرية.

والحاصل أن كان الاتجاه السياسى الغالب وقتها، يصدر فى بعض دوافعه عن الاحساس القوى المتفائل فى مستقبل التطور من خلال نشاط الاتحاد الاشتراكى، ويثق فى نجاح صيغة العمل السياسى التى طرحت. وظن كثير من ذوى الرأى أن مستقبل الاشتراكية والتطور التقدمى والتنمية الاقتصادية وعدالة توزيع الدخول، هذا المستقبل مرتبط أشد الارتباط بما يتاح للقيادات الثورية من امكانيات طليقة وبما يعطى للاتحاد الاشتراكى من سلطات غير محدودة. ونظر الى الاتحاد على أنه مؤسسة جديدة تبنيها القيادة السياسية لتخوض بها معارك التقدم والتجديد. لذلك لم تستطع الاصوات التى حذرت من اندماج السلطات أن تعبر عن نفسها فى وضوح وثقة ولا أن تلفت الانتباه بشكل فعال الا فى نطاق محدود.

ثم جاءت أحداث النكسة وانكشف بعدها ما اصطلح على تسميته بمراكز القوى وحد ذلك من موجة التفاؤل التى كانت سائدة بشأن مدى صلاحية الابنية التنظيمية التى كانت قائمة لضمان التقدم للمجتمع او الحرية للفرد. ولعل احداث فبراير ١٩٦٨ وبيان ٣٠ مارس كانا المظهر الشعبى والرسمى لمدى الاستجابة لهذا الشعور. وكان المقدر أن تكون ضخامة الدرس المستفاد على قدر فداحة الثمن المهرق. والمهم فى نطاق التنظيم الدستورى أن تستفاد الدلالتان الاتيتان :

أولا : ان عدم الاعتراف بمبدأ توزيع السلطة، والاخذ بمبدأ تركيز السلطات وجمع أوجه النشاط العام وادماج التشريع فى التنفيذ فى الرقابة، قد ادى ذلك كله الى نمو الوجود الذاتى للجهاز الذى يتولى الحكم واستيعابه الوظائف المختلفة للدولة وانغلاق هذا الجهاز على نفسه لتستبد به ذاتيته.

ولا شك أن مهام الدولة من الثقل والجسامة بحيث لا يستطيع جهاز أو فرد أن يقوم باعبائها على نحو رشيد . وقد أدى ذلك الى تفتت العمل العام بين عدة اجهزة يملك كل منها امكانيات الممارسة الكاملة للعمل العام ، اصدارا للقرارات وتنفيذا لها وانعزالا عن مجالات الرقابة الفعالة ، أى انقسام الجهاز الحاكم الى عدة أجهزة تتكون على صورته من حيث امتلاك كل منها القدرة الكاملة على ممارسة العمل العام بكافة نواحيه وبغير تخصص ولا توزيع رشيد للسلطة فصارت أجهزة متنافسة يطلب كل منها المزيد من السيطرة وتصدر فى تنافسها عن الدوافع الذاتية لها وتملك من سلطات العمل قدرا غير محدد . وحلت العلاقات الشخصية والمواقف الفردية محل التكوينات الموضوعية فى أى جهاز واعتبر كل منها مركز قوة .

والحل الامثل لهذه المشكلة من الناحية التنظيمية هو توزيع السلطة بين مؤسسات الدولة والسلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية بحيث لا تملك مؤسسة أو جهاز وحده صلاحية ممارسة العمل تشريعا وتنفيذا . **ثانيا** : لابد لأى نظام سياسى من أن تكون لديه القدرة على تصحيح أوضاعه ، سواء فيما يرسمه من سياسات أو فيما ينفذه من هذه السياسات . ويكون النظام أكفأ فى عمله وأقدر على الاستقرار بقدر ما يستطيع أن يبنى قنواته التنظيمية بحيث يتمكن من تصحيح أوضاعه تباعا على وجه يكفله الانسياب العادى الهادىء للأمور بغير أن يعانى من تقلصات البتر والهدم . ويجب الاعتراف الى أن مبدأ وجود المعارضة يكاد يصل الى درجة الحتميات السياسية فى ادارة الشئون العامة . وليست المشكلة فى وجود المعارضة أو عدم وجودها ، ولكن مشكلة أى نظام هى فى نوع المعارضة التى تقوم ازاءه . ولا شك أن أى نظام يمنع بمايملك من وسائل السلطة كلها أية معارضة تقصد هدمه أو تتجه الى دعاماته الاساسية ولكن أساليب المنع تختلف بين الرشد والانضباط والالتزام بالقواعد القانونية الضامنة للحريات العامة والفردية وبين العشوائية وعدم الالتزام بهذه القواعد . على أن مما يقصد بالمعارضة فى هذا السياق هو المعارضة التى تتعلق بتصحيح الاوضاع السياسية المنفذة فى أطار النظام الاجتماعى القائم أو المستهدف . وهذه المعارضة تكون قادرة على التصحيح الهادىء الفعال بقدر ما ينجح النظام السياسى فى الاعتراف بوجودها ، ورسم القنوات التى تمكنها من الانسياب الهادىء والفعال فى نفس الوقت . اما اذا سدت فى وجهها السبل فلن يكون فى المجتمع الا نوع واحد من المعارضة يأتى من خارج اطار النظام القائم . ومن جهة ثانية تستطيع مراكز القوى فى تنافسها أن تصادرها لمصلحتها وكل ذلك ناتج عن دمج السلطات وتركيزها .

من خلال هذين الاعتبارين يتبغى النظر الى وضع الاتحاد الاشتراكى كمؤسسة من مؤسسات الدستور ، وفى هذا الصدد ينبغى مراعاة الاعتبارات الاتية :

أولا — المهمة الاساسية للدستور هى تنظيم سلطات الدولة ومؤسسات الحكم من حيث طريقة التكوين ونوع الوظائف ورسم العلاقات . وبجوار هذه المهمة الاساسية تأتى الاحكام المتعلقة بالمبادىء العامة والمقومات الاساسية للمجتمع وحقوق الافراد .

والاتحاد الاشتراكى فى الاساس تنظيم شعبى وظيفته الاساسية والوحيدة تستمد من كونه مؤسسة جماهيرية غير رسمية أى تنظيم شعبى مختلف تماما عن مؤسسات السلطة . واذا لم يكن الاتحاد حزبا لان الحزب يعبر عن مصالح طبقة واحدة ، واذا لم يكن جبهة لانها تعبر عن تحالف أحزاب ، فهو أيا كان وضعه وتعريفه ينتمى الى هذه الفصيلة من المؤسسات التى تنشط بين الجماهير لتنصر خطا سياسيا معينا وتفرز القيادات الصالحة وتقود الجماهير . ولا يكون له صلة بمؤسسات الحكم الا من خلال نشاطه الجماهيرى ونفوذه بينهم دون أن تكون له صلة مباشرة أو نفوذ ادارى مباشر على مؤسسات الحكم .

ثانيا — اذا قيل ان الاتحاد الاشتراكى سلطة أعلى من السلطات الاخرى فهذا يعود بنا الى تركز السلطة فى جهاز واحد يمارس نشاطه من خلال سيطرته المباشرة على مؤسسات الحكم لا من خلال الاحتكاك بالجماهير . واذا قيل انه سلطة من بين السلطات الاخرى ، ولكنه يجمع بين كونه سلطة وكونه مؤسسة شعبية ، فان ذلك يعنى بالحتم هيمنته المباشرة والفعلية على كافة المؤسسات الاخرى ، ويعنى استيعابه لوظائف المؤسسات الاخرى بدعوى تجسيده للارادة الشعبية ، وبوصفه سلطة يملك حق التقرين والتنفيذ من خلال الاجهزة الاخرى . وبهذا تختلط الوظيفتان ويصبح علاقته بالجماهير كعلاقة الحاكم بالمحكوم مادام يملك ازاءها من خلال مؤسسات الحكم ووسائل السلطة المادية . واذا قيل انه ليس من مؤسسات الحكم فالواجب أن يعترف به كتنظيم شعبى صرف يكون نشاطه وتنظيمه خارج نطاق التنظيم الدستورى لمؤسسات السلطة .

ثالثا — من اهم ما يكسب التنظيم الشعبى حيويته ان يكون ابنا للشعب او لبعض طبقاته يستمد منهم نفوذه لا أن يسبغ على بعض افرادهم

نفوذاً يستمده من سلطات الحكم ، أو من كونه يملك وسائل هذه السلطات. ومن أهم العوامل في ذلك أن يكون للفرد الحرية الكاملة في أن ينضم اليه أولا ، فتكون علاقته باعضائه علاقة ثقة وايمان فقط بغير ضغط أو قهر ، ولا يكفل هذا الوضع الا أن تكون العضوية فيه غير مرتبطة من الناحية القانونية بحق الفرد في شغل اية وظيفة أو الترشيح لعضوية أى مجلس ، ومن ناحية أخرى فلا شك ان لاى تنظيم الحرية في قبول أو رفض انضمام أى فرد اليه طبقا للتوصيف السياسى الذى يضعه كشروط لعضويته • وهذه الحرية بوجهيها السابقين تعنى تنحية كاملة من الناحية القانونية لفكرة أن يكون التنظيم « تجسيدا » للشعب أو ممثلا له بالضرورة والتعريف • وغاية ما يقال انه يعبر عن أعضائه ويزداد نفوذه بقدر الانضمام اليه وبقدر نشاطه بين الجماهير وقيادته الفعلية لهم تعبيرا عن مصالحهم • وهذا فارق هام يميز بينه وبين مؤسسات الحكم ، خاصة المؤسسات التى تشكل بطريق الانتخاب • لان مؤسسات الحكم ملك للشعب كله بالتعريف التقليدى لهذا المفهوم ، وليست — قانونا — وتفاعلا تنظيم معين • وليس من المفيد للجماهير ولا للتنظيم الشعبى ولا لمؤسسات الحكم أن تطمس الفوارق بينها لتستوعب كلها فى كيان واحد يكون هو الشعب والسلطة والتنظيم • فان ذلك يهدم التوزيع الواجب والتخصص اللازم فى مؤسسات الحكم ، ويجعل الجماهير محكومة بالتنظيم لا مقودة به ، ويفتح أبواب التنظيم للعناصر غير الصالحة التى تهرول اليه بغية تحقيق النفع الذاتى أو الاحتماء من سطوته •

وينبغى ألا يكون للتنظيم الشعبى نفوذ على سلطات الحكم الا من خلال الجماهير ، أى بوساطة نشاطه بينهم وتحريكه لهم وقدرته على الحصول على ثقتهم بالنزوع الحر لهم وبالاقتناع وحده ، فيدفعونه هم الى مصاف السلطة • أما أن يكون للتنظيم الشعبى الحق فى سحب عضوية عضو المجلس النيابى أو النقابة أو التعاونية أو شاغل الوظيفة ، فهذا لن يعنى الا الهيمنة الادارية على مؤسسات الحكم ، ولن يعنى الا مصادرة ارادة الجماهير بالقدرة على اسقاط عضوية من يظفر بثقتها ، وتصبح عضوية التنظيم هنا بمثابة حقوق الجنسية للمواطن ، ولكنها تفتقد الضمانات التى تقررها القوانين لحقوق الجنسية •

وما دام أن الاتحاد الاشتراكى تنظيم شعبى ، فلا ينبغى أن يكون أمامه فى اية حركة وأى نشاط الا أن يمر دائما وبغير توقف فى الطريق الطويل ، طريق الجماهير بالمعنى الملموس والمحسوس للجماهير وبالمفهوم التقليدى لها ، وبصرف النظر عن أى وصف صيورى له وعن أى مبدأ يماثل مبدأ التفويض الالهى القديم ، أو التجسيد الشعبى الحديث •

رابعا : ان اعتبار الاتحاد الاشتراكى من السلطات ، لا يعنى فقط سيطرته المنفردة على غيره من المؤسسات • ولكنه يعنى ايضا الاعتراف بهذه السيطرة لمؤسسة لم تقنن تقنينا كاملا بالدستور • وبيان ذلك انه توجد تقاليد وتجارب دستورية عديدة فى مصر وفى الخارج — تمكن من صياغة اى من السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية على الوجه الذى يمكن من ضبط عملها على أكمل وجه مستطاع ، وعلى أقل تقدير يوجد من هذه التجارب ما يمكن من رسم أبنية السلطات على الوجه المطلوب فى حدود الاهداف المرسومة • وبهذا يستطيع المقنن أن يأمن فى عمله من مفاجآت العوامل غير المحسوبة وبحيث يمكنه احكام الابنية على النحو المطلوب •

أما الاتحاد الاشتراكى فانه كمؤسسة حكم مما يصعب احكام بنائه التنظيمى فى الدستور على وجه يكفل انضباط نشاطه كسلطة على نحو محدد غير غامض ، كما يصعب رسم علاقته بالمؤسسات الدستورية الاخرى بما يؤمن لها التميز المرجو ، سيما السلطتين التشريعية والقضائية • ولا شك أن أصحاب الفكر السياسى والقانونى ليعترفون — ان روعيت الموضوعية — بأن هذا الامر لم تتوافر له التجارب الكافية لضبطه اذا اريد الا تنفرد مؤسسة واحدة بالامور دون غيرها • وغنى عن البيان انه اذا أشير فى الدستور الى الاتحاد الاشتراكى واعتبر من سلطات الحكم دون ضبط لهذه السلطة بدقة كاملة وصراحة كافية ، فان ذلك يعنى سيطرة مؤسسة غير محددة المعالم على غيرها فى شئون الحكم ، أو أن يترك تحديد ضوابط هذه السلطة لقانون أو لائحة تصدر مستقبلا مما يجعل الدستور فى الحقيقة خاضعا لقوانين هى دونه فى المستوى • وذلك كله مما يهدد البناء الدستورى ويؤدى الى سيطرة العامل غير المحسوب على مقدرات الدولة فى المستقبل •

ان الدستور المؤقت لسنة ١٩٦٤ قد حدد اطارا بالغ السعة والشمول للاتحاد الاشتراكى بحيث يتيح هيمنة مؤسسة لم تحدد معالمها تحديدا كافيا ، وبحيث تميعت الاختصاصات والعلاقات بين المؤسسات المختلفة • وقد وجد من المتحدثين أمام لجنة الدستور السابقة من يقول ان الاتحاد الاشتراكى فوق الدستور ذاته فلا يستمد منه اختصاصاته ولا وظيفته ولا طريقة تشكيله ، وأنه فى نشاطه لا يلتزم بالدستور ، فصار الاتحاد

الاشتراكى بهذا المفهوم « كرافع الكلفة » فى تعبير الصوفية دلالة على الامتياز وعدم الخضوع لشريعة الله بالنسبة لبعض العباد • وليس الامر مجرد رفع الاتحاد الاشتراكى من الالتزام بأحكام الدستور ، ولكنه هو ذاته يملك السيطرة على غيره من مؤسسات الحكم • وبهذا تفتح هذه السيطرة امكانية خروج العمل العام كليه عن نطاق الدستور •

ومن المعروف أن الاتحاد الاشتراكى ـ من حيث البناء التنظيمى ـ بقى فى مجال التجربة والخطأ منذ تشكيله الاول • وقد عرفت فى البداية تجربة بنائه بطريق الانتخاب ، ثم عرفت تجربة بنائه الثانى بطريق التعيين ، ثم أعيد بناؤه بطريق الانتخاب فى التجربة الثالثة سنة ١٩٦٨ • وعرف تكوينه على أساس أمانات نوعية ،ثم على أساس أمانات محلية ثم شكلت له لجنة مركزية ولجنة تنفيذية عليا • كما نص الميثاق على ضرورة وجود جهاز سياسى بداخل الاتحاد الاشتراكى يشكل العمود الفقرى له ، واشير الى ذلك فى الكثير من الوثائق الاخرى ، ولكن نشاة هذا الجهاز وتحديد علاقته بالاتحاد الاشتراكى لم تظهر قط كصيغة معلنة أو صيغة محددة واضحة • وكل ذلك يؤكد أن الاتحاد كان ولا يزال فى اطار التجربة والخطأ من ناحية بنائه التنظيمى • وأن مؤسسة سياسية لا تزال فى هذا الدور وبناط بها القيام بوظيفة السلطة الام وتمارس أثرها الحيوى على كافة أجهزة الدولة ومؤسساتها ، ان ذلك ليفضى الى سيطرة غير المحسوب من العناصر ويفقد مؤسسات الدستور فى عملها ما يجب من رشد وضبط • وليست المشكلة أن الاتحاد خضع لتجارب عدة ، ولكن المشكلة تتعلق بوضع مؤسسة لا تزال فى هذا الدور ، وضعها فى موقع السيطرة على غيرها ، مما يجعل السيادة على الدولة لغير قانونها الاساسى (الدستور) ولغير المنضبط من القواعد والاصول •

واذا قيل انه يمكن أن يرصد فى الدستور الدائم حشد من الاحكام التفصيلية تحكم هذه الامور كلها ، فالحاصل أن الاتحاد الاشتراكى لا يزال فى الواقع يحتاج الى مزيد من التجربة لاكتشاف الوجه الامثل لطريقة بنائه كتحالف لقوى الشعب ويحتاج الى مزيد من التقصى لاساليب التفاعل بداخله بين هذه القوى ، وهذا مما ينبغى أن يأخذ مجاله الطليق فى الاختيار • وان استباق الزمن برصد مجموعة من الاحكام تحدد ـ قبل تخمر التجربة ـ قوالب لتنظيم الاتحاد قد يؤدى الى تجميد تجربته فى قالب شديد الوطأة يعوق التطور الحى له فى المستقبل ، أو يوجد حاجة الى تعديل الدستور الدائم فى المستقبل مما يحسن تفاديه •

والحل الأمثل لذلك الا يتضمن الدستور أحكاما تتعلق به •

خامسا : اذا كانت صيغة الاتحاد الاشتراكى هى الصيغة الملائمة للتنظيم السياسى فى مصر ، من حيث أنه تحالف لقوى الشعب العاملة المحددة على أنها الفلاحون والعمال والراسمالية الوطنية والمثقفون والجنود • فانه لا يزال أمام الجانب التنظيمى للاتحاد سؤال عريض ، يتعلق بكيفية تنظيم هذه القوى فى اطاره وعلاقتها بعضها ببعض ، ومدى ما يمكن أن تتمتع به كل منها من تميز تنظيمى داخل اطاره العام ، والى أى مدى يكون التنوع فى اطاره • والمعروف أن لكل من الطبقات الداخلة فى الاتحاد مصالحها المتميزة ، وقد تتناقض هذه المصالح وتتصارع حول ما يطرح من مشاكل التطور والتطبيق • واذا كان من الموثوق به أنه صيغة ملائمة لمرحلة التطور السياسى والاجتماعى المعاصرة ، وأن وجود كل من هذه الطبقات ضرورى ومفيد ، فانه لا شك ان البلورة الاكثر جدية ووضوحا لمصالح كل منها لابد أن يفضى الى الوثوق فى ضرورة التعايش بين فئات التحالف والى أدراك خير الاساليب لحل الخلافات والتناقضات بينها • والديمقراطية تستدعى التعبير الحر عن المواقف بالنسبة للافراد والجماعات ،ولا شك أن ذلك يؤدى الى بلورة الاتجاهات الاجتماعية والسياسية بما يغنى التحالف ويثريه بالنظرة الواقعية والفهم الرشيد لصالح الطبقات المتحالفة والمجتمع كله ، ويفسح الى أقصى حد ممكن من القدرة على الحساب والتوقع ، ويضعف الى أقصى حد مخاطر العشوائية • وليست الديمقراطية مجرد حق يمنح لفرد أو جماعة فى التعبير عن رأيه أو موقفه اعتسافا ، ولكنها ـ وهذا هو الاهم ـ مناخ لازم لشيوع العقلانية والرشد والقدرة على امتلاك الزمام بالفهم الواقعى للظروف المحيطة • وليس أكفل لقيام التعايش من قدرة كل جماعة على بلورة فكرها ومواقفها بلورة واضحة ، ومن قدرتها على استطلاع الفكر والمواقف المبلورة لغيرها فى اطار من الضياء يرى فيه كل فرد نفسه كما يرى غيره • والثقة وفيرة فى أنه اذا أتيح لكل من فئات التحالف فرصة التروى والدراسة والبلورة للافكار والمصالح المتميزة ، واذا عرفت كل منها المواقف الرشيدة والمدروسة لغيرها ، فستكون النتيجة هى تأكيد صيغة التحالف فى المرحلة التاريخية القائمة ولمدى طويل من الزمان لا تدرك العين منتهاه ، وهى التقارب لمواجهة مشاكل التخلف فى حدود الامكانيات المتاحة ، وهى الوصول الى كلمة سواء بغير توتر ولا انزعاج ، وسيرى الجميع أن التناقضات مجرد اختلافات فى المصالح الملموسة يمكن ايجاد الحلول لها ، لا أشباح مخيفة غير محددة المعالم تورث القلق وتشيع الكراهية ولا

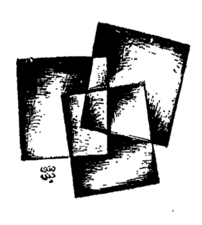
تخرج عن نطاق الشعور الوجدانى الى نطاق الفكر العملى المستنير بفهم الواقع الملموس ٠

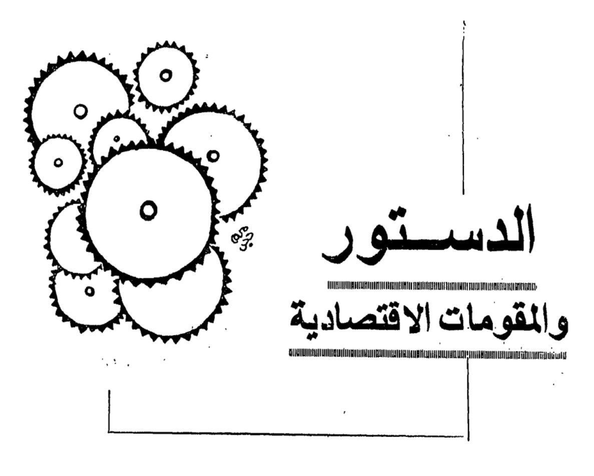
وكل ذلك يحتاج الى المزيد من التجارب والخبرات العملية لادراك أمثل الانماط لصياغته من الناحية التنظيمية ٠ ولا شك أن ايراد أحكام تفصيلية فى الدستور تتعلق ببناء الاتحاد قد يؤدى الى تجميد التطور الطليق لهذه التجارب ٠

سادسا : مما يمكن قوله انه ما دام الاتحاد الاشتراكى تنظيما شعبيا جماهيريا فليس ما يثير القلق حول انفراده بالسلطة من دون غيره ، وأن انفراد مؤسسة شعبية جماهيرية بالسلطة لن يكون مما يثير قلق من يؤمن بالديموقراطية وسيادة الشعب ٠ على أن الجدير بالملاحظة ـ تعليقا على هذا القول ـ ان الاتحاد مؤسسة ناشئة تتناوبها أساليب التنظيم ولم تستقر بعد كمؤسسة شعبية راسية البنيان ٠ وبهذا لن تكون هيمنتها على سائر المؤسسات الا هيمنة صورية ، فليس للاتحاد من قواه التنظيمية الذاتية ما يمكنه من أن يكون له وجود شعبى حقيقى يفرضه على غيره. انما النتيجة أن يخضع من الناحية الاجتماعية لنفوذ أكبر الطبقات نفوذا وفاعلية فى المجتمع ، وأن يخضع من الناحية التنظيمية لنفوذ أكثر مؤسسات الدولة وأجهزتها قوة واستتبابا ، وهى بالتحديد مؤسسات السلطة التنفيذية القابضة على الوسائل المادية للامن والانتاج والمتمتعة بميزة أجهزتها وكوادرها ٠ وبهذا تتحقق « سيطرة التنظيم الشعبى » عن سيطرة للسلطة الاقوى والطبقة الاقوى ، باسمه ومن خلاله ، على غيرها من السلطات فى الدولة ، ومن الطبقات فى المجتمع ٠

ولا يؤدى هذا الا الى الحكم بالضعف على التنظيم السياسى واستلاب فاعليته ٠ وتكون صفة الاتحاد الاشتراكى كسلطة قد ضيعت صفته كتنظيم شعبى ٠ ان التنظيم الشعبى يبنى بين الجماهير ويتخلق منها ٠ وينمو بقدر ما لا يجد وسيلة للنمو الا من خلال نشاطه بين الناس ٠ والسلطة هى بالدقة ما يعوق نموه ، وأساليب السلطة هى بالدقة ما يؤدى الى ترهله البيروقراطى وانعزاله عن الشعب ٠ ووقوعه تحت سيطرة المؤسسة الاقوى فى الدولة يهدر مضمونه الشعبى ٠ وكان هذا مصدر ما عانى منه من قبل ، فكان بوضعه القائم كالصيغ المستحيلة من الناحيتين القانونية والسياسية ٠ وليس المطلوب للمجتمع مؤسسة جديدة من مؤسسات السلطة ، يكفيه ما به ، ويكفيه علاجا فى هذا الشأن ، أحكام دور السلطتين التشريعية والقضائية ، وهذا ما يقع فى نطاق التقنين الدستورى ، أما التنظيم الشعبى فهو مؤسسة مختلفة نوعا ووظيفة عن مؤسسات الحكم التى يقننها الدستور ٠

حفظ الله مصر والهمها الرشاد (٭)





تقدم الطليعة فيما يلى تصورا عاما للمقومات الاقتصادية فى الدستور

١ ـ تعمل دولة قوى الشعب العاملة فى ثبات واصرار على بناء مجتمع اشتراكى يختفى منه استغلال الانسان للانسان وتذوب الفوارق بين الطبقات ويرتفع فيه باطراد مستوى معيشة المواطن المادى وتنمو وتزدهر طاقاته الثقافية والروحية .

وعليها فى سبيل ذلك أن تستكمل تصنيع البلاد ، وبصفة خاصة بناء الصناعة الثقيلة باعتبارها القاعدة الصلبة للصناعة الوطنية كلها ، وتطوير الزراعة بهدف تحضير الريف وتقليل الفوارق بين القرية والمدينة . وعليها فى الوقت ذاته أن تبدأ ثورة ثقافية تمحو سبة الامية من جبين الوطن وتوفر للتنمية الصناعية الزراعية ما يلزمها من عمالة فنية، وتخلق المناخ المواتى لتقدم البحث العلمى والتكنولوجى الاصيل،ويتيح للمواطن كنوز الفن والادب والفكر ، وتخلص المجتمع من القيم والافكار الرجعية المترسبة من عصور الاقطاع والسيطرة الاستعمارية .

٢ ـ تسير الدولة الاقتصاد القومى بأسلوب التخطيط المركزى الذى يمكن وحده المجتمع ممثلا فى الدولة من السيطرة على كل الموارد المتاحة وتقرير أوجه استخدامها المثلى ، التى تحقق أكبر عائد فى أقصر وقت وتضمن استمرار زيادة الدخل القومى .

ولزيادة فاعلية التخطيط المركزى تعمل الدولة باستمرار على دعم أجهزته وتطوير أساليبه وتنظيم ممارسته على كافة المستويات وحفز الجماهير على المشاركة فى أعماله بالاقتراح والمناقشة وابداء الرأى فى مواقع الانتاج وفى التنظيمات الشعبية وفى مجلس الشعب ولجانه .

٣ ـ يقرر القانون الحد الاعلى للملكية الزراعية بما يضمن حماية الفلاح والعامل الزراعى من الاستغلال ويؤكدعلى مستوىالقرية سلطةتحالف قوى الشعب العامل ٠

وتعتمد الدولة فى تطوير الزراعة على التعاونيات القائمة على الانضمام الحر والادارة الديموقراطية ، وتنظم عن طريقها توفير الائتمان ومستلزمات الانتاج ، وتسويق المحصولات الرئيسية ،وتشجيعها على الاخذ بأساليب الزراعة التعاونية والملكية التعاونية لوسائل الانتاج العصرية ٠ وتنظم الدولة الدورة الزراعية وتحدد أنواع البذور والاسمدة وأساليب الرى بما يضمن الارتفاع المستمر بالانتاج الزراعى ٠ ويجب أن يكون لممثلى الفلاحين الذين لا يملكون أكثر من خمسة أفدنة ٨٠ فى المائة من مقاعد مجالس ادارة التعاونيات الزراعية ٠

وتقيم الدولة فى الاراضى المستصلحة مزارع آلية كبيرة تحقق من العائد ما يكفل تغطية ما استثمر فى اصلاحها وتكون نموذجا رائدا للزراعة العصرية المرتبطة بالتصنيع والتصدير تهتدى به التعاونيات الزراعية ٠

٤ ـ تعتمد الدولة فى تطوير الاقتصاد القومى على القطاع العام ودوره القيادى ويجب أن يضم القطاع العام البنوك واعمال التامين وما يتصل بها ، والتجارة الخارجية ، وتجارة الجملة ، والصناعة الثقيلة والقسم الاساسى من اعمال التشييد والصناعات التحويلية الرئيسية ٠ كذلك يجب أن يكون له فى مجالات الصناعة الخفيفة والزراعة وتجارة التجزئة النسبة التى تمكنه من أداء دور فعال ٠

٥ ـ تشجع الدولة الصناعة الحرفية ، وتساعد المشتغلين بها على تكوين تعاونيات صناعية تمكنهم من تطوير انتاجهم حجما ونوعا عن طريق الملكية التعاونية لوسائل الانتاج العصرية ٠ ويجب أن يكون لممثلى صغار الحرفيين الذين لا يستخدمون أكثر من عشرة عمال ٨٠٪ من مقاعد مجلس ادارة التعاونيات الصناعية ٠

٦ ـ تحمى الدولة الملكية الخاصة لوسائل الانتاج فى الزراعة والصناعة الصغيرة وتجارة التجزئة والاسكان والخدمات ما دامت تعمل على زيادة الانتاج فى اطار الخطة القومية وتحترم حقوق العاملين ٠

٧ ـ تحقيقا لديموقراطية الانتاج ، وضمانا لمشاركة الجماهير فى معركة التنمية ببناء الاشتراكية تقوم ادارة وحدات القطاع العام على أساس اشتراك العاملين فى الادارة وحصولهم على نسبة من الارباح،يجب على وجه الخصوص أن يكون للممثلين المنتخبين عن العاملين نصف مقاعد مجلس الادارة ، كما يجب أن يكون لكل وحدة جمعية عمومية للعاملين تجتمع مرة على الاقل كل سنة لمناقشة الميزانية وتقرير مجلس الادارة ومشروع الخطة ٠

٨ ـ يحدد القانون الحدالادنى للاجور ،والحد الاعلى بما يكفل لكل عامل مستوى من المعيشة لا يجوز النزول دونه ويقلل فى نفس الوقت الفروق من أدنى الاجور واعلاها ، وينظم القانون الحوافز المادية التى تكفل تحقيق مبدأ من كل بحسب قدراته ولكل بحسب عمله ٠

٩ ـ تعمل الدولة على اعلاء شأن العمل باعتباره أسمى قيم المجتمع الاشتراكى ، تجعل منه المقياس الاساسى فى تقويم المواطن ، وتنظم الحوافز الادبية التى من شأنها تحقيق ذلك ٠

١٠ ـ يجب أن تتسع قاعدة نظام التأمينات الاجتماعية والصحية بحيث تغطى كل العاملين وتؤمنهم ضد المرض والبطالة والعجز عن العمل والشيخوخة ٠

١١ ـ تعيد الدولة النظر فى نظم الضرائب لتقيم نظاما ضريبيا حديثا يتناسب مع التحول الاشتراكى ويحدد عن طريق شمول الضريبة لكل مصادر الدخل وتصاعد سعرها ، وخضوع كل المواطنين لها ، التكافؤ فى التضحية والعدالة فى تحمل أعباء تمويل التنمية ٠

١٢ ـ تشجع الدولة على الادخار ، وتنظم أشكال تعبئته لخدمة التنمية ، وتقاوم مظاهر الاسراف فى الانفاق العام والخاص ٠

آراء ومقترحات

من مناقشات اللجنة التحضيرية عام ١٩٦٧

فى شهر مارس ١٩٦٧ عقدت عدة جلسات للجنة التحضيرية للدستور ، واتيحت الفرصة لعدد كبير من المواطنين ان يسهموا بآرائهم ويدلوا بمقترحاتهم فيما يتعلق بالدستور .
وفى الوقت الذى يناقش فيه حاليا مشروع الدستور الجديد ، رأت الطليعة أن تعرض لبعض الآراء التى عالجت نقاطا ثلاثا اساسية هى : نظام الدولة السياسى والمقومات الاساسية للمجتمع والاسس الاقتصادية للمجتمع .

١ – نظام الدولة السياسى

عادل محمود عبد الباقى [مستشار مساعد مجلس الدولة] :

ان الموضوع الرئيسى الذى اود أن أتحدث عنه ، هو مفهومنا للديمقراطية السليمة التى نسميها بالديمقراطية الاشتراكية. وأول ما أذكركم به ونحن فى مستهل وضع مشروع الدستور الدائم ، ما اكده الميثاق من أن النظام السياسى فى أى مجتمع ، انما هو الانعكاس المباشر للاوضاع الاقتصادية السائدة فيه ، والتعبير المباشر عن المصالح المتحكمة فى هذه الاوضاع الاقتصادية .

لهذا فان نظامنا الديمقراطى الاشتراكى الذى يرسى دستورنا دعائمه ، يجب أن يكون انعكاسا وتعبيرا عن مصالح قوى الشعب العاملة صاحبة المصلحة الحقيقية فى البلاد ، والتى حل تحالفها ، محل التحالف غير الشرعى بين الاقطاع وراس المال المستغل .

.. ومن ثم ، وجب أن يكون لمجتمع تحالف قوى الشعب العاملة مفهومه الخاص للديمقراطية النابع من واقعه ، الذى يحقق سيادته ... بحيث يكون الشعب — بجميع فئاته العاملة الكادحة — صاحب السيادة ومصدر السلطة . وهذا يقتضى استبعاد كل نظام يؤدى الى سيطرة الاقلية ، او الى سيطرة طبقة من الطبقات ايا كان وضعها الاجتماعى ، سواء فى ذلك طبقة الاغنياء والرأسماليين والاقطاعيين ، أو اية طبقة ممتازة أخرى ، من حيث الاصل او المركز الاجتماعى .

.. والحرية السياسية لا معنى لها ولا قيمة ، وتصبح مجرد كلمات جوفاء فى ظل نظام يسمح بقيام الفوارق بين الطبقات . فلا قيمة لحق الترشيح بالنسبة لرجل يسعى للحصول على قوته يوما بيوم . ويعوزه المال اللازم للتعليم ولادراك حقوقه . كما يحول الفقر بينه وبين تحمل نفقات الترشيح والدعاية .

اذن يمكن تعريف الديمقراطية بانها حكم الشعب بالشعب لصالح الشعب ، وتوفير الظروف والوسائل والنظم التى تكفل استمرار نضال الشعب ، وتضمن وصوله الى أهدافه وتمكنه من فرض ارادته على الحياة .

.... من هنا ، فان الدستور الجديد ، يجب أن يضمن للفلاحين والعمال نصف مقاعد التنظيمات الشعبية والسياسية على جميع مستوياتها .. باعتبارهم اغلبية الشعب التى طال حرمانها من حقها الاساسى فى صنع مستقبلها وتوجيهه ، كما انها صاحبة مصلحة عميقة فى الثورة والوعاء الذى يختزن بالطبيعة طاقات ثورية وعميقة بفعل معاناتها للحرمان .

وهناك ضمانات أخرى يجب الاخذ بها عند وضع مشروع

الدستور ؟ منها جماعية القيادة فهى ضمان هام ضد تركيز السلطات فى أيد قليلة ، وضد التنازع على السلطات الذى يؤدى الى شل القيادات العامة فى التطوير الوطنى ، وضد تكديس سلطات كبيرة فى ايد قليلة وهو ما يؤدى بانتقال السلطة الحقيقية الى غير المسئولين عنها بالفعل أمام الشعب .. ومن هنا فان وضع السلطة فى أيدى منظمات شعبية جماعية ، تكون امينة وحارسة على النظرية الثورية وعلى العمل الثورى ، والتطبيق الاشتراكى ، يخلق ضمانا للاستمرار الدائم المتجدد للثورة .

ومن الضمانات الاخرى ، سيادة القانون ، أن المشروعية الاشتراكية لا تتنافى مع وجوب احترام القانون ، ومن الخطأ الاعتقاد بأن الثورية تفترض عدم تقيد الارادة الثورية بأحكام القانون .

اسماعيل عبد الحميد الوكيل [فلاح] :

.... اننى اطالببأن يتضمنالدستور مادة صريحةايضا ، تنص على أن المكاسب الثورية التى حصلت عليها الجماهير الكادحة منذ يولية سنة ١٩٦١ ، لايمكن الرجوع فيها او انقاصها ، باعتبارها أساسا لشرعية الحياة لبنى البشر ، كما نصت بذلك جميع الاديان السماوية ، وحتمتها العلاقات الاجتماعية .

الدكتور جمال العطيفى [محام] :

اننى اؤيد كل التابيد ، أن ينص فى الدستور على أن مصر جزء من الوطن الافريقى . وانالدستور فىهذا الشان لا يكون الا تعبيرا عن حقيقة اجتماعية وتاريخية وسياسية وحضارية.

... ولذلك فاننى اقترحان ينص فى مشروعالدستور الدائم على ان الشعب المصرى جزء من الامة العربية ، وجزء من الوطن الافريقى .

الدكتور عبد المنعم فرج الصدة [الاستاذ بكلية الحقوق بجامعة القاهرة] :

.... ان الديمقراطية هى الحرية السياسية ، والحرية الاجتماعية او الاقتصادية .

أما الحرية السياسية فهىتعنى أن تكون السيادة للشعب، وتعنى أن يكون الشعب هو صاحب السلطة وصاحب الكلمة فى حكم نفسه ...

أما الحرية الاجتماعية او الاقتصادية فانها تعنى أن تتاح للفرد فرصة الحصول على نصيب عادل من الثروة الوطنية فى ظروف ينتفى فيها الاستغلال وتتكافأ فيها الفرص .

... أن يتناول الدستور الجديد ضمان تمثيل الفلاحين والعمال فى المجالس الشعبية السياسية على نحو يكفل لهم نصف المقاعد فى هذه المجالس .

وأن ينوه الدستور صراحة على أن سلطة المجالس الشعبية المنتخبة فوق سلطة أجهزة الدولة التنفيذية .

... ومقتضى هذا أن تكون الديمقراطية فى الدستور الجديد تعبيرا حقيقيا عن سيادة الشعب ، وعن سلطته وعن نضاله فى سبيل تحقيق أهدافه ، والحفاظ على مكاسبه .

السيدة زينب حسن فهمى :

أن اقتراحى يتضمن أن يكون النص الوارد بالمادة الخامسة من الدستور المؤقت وهو الخاص بأن الاسلام دين الدولة ، فى مكان الصدارة من الدستور الجديد ، أى تتضمنه المادة الاولى منه .

عبد الرؤوف جودة احمد [عامل] :

.. لقد أكد الميثاق ضرورة ضمان قدر ادنى لتمثيل العمال والفلاحين ، وحدد ذلك بنصفمقاعد المجالسالشعبية المنتخبة على الاقل ، بما فيها مجلس الامة وباقى التنظيمات الشعبية.

الا انه لوحظ أن بعض من يمثلون العمال والفلاحين ، وممن تنطبق عليهم نسبة الـ ٥٠٪ لا يمثلون بحق أصدق التمثيل هاتين الفئتين ، وبصفتى واحدا ممن يتشرفون بتمثيل فئة العمال . وبحكم كونى نابعا أصلا وأساسا من القرية ، فانه يشرفنى ويهمنى أن أتحدث عن الفلاحين والعمال بصفة أساسية .

فاذا تناولنا الفئة الاولى وهى فئة الفلاحين ... لوجدنا التعريف الحالى للفلاح هو من تكون حيازته ملكا أو ايجارا خمسة وعشرين فدانا ، ويقيم فى الريف ، فاذا نظرنا الى هذا الحد وهو خمسة وعشرون فدانا ، نجد أن هذه الارض — عمليا — لايمكن أنيزرعها شخصبنفسه ، فلابد أن يستأجر آخرين لعملية الزراعة ، ومن هنا يبدأ انفصاله عن الارض ، بل ان مستوى معيشة من يحوز هذا الحد من الارض الزراعية ينفصل انفصالا — يكاد يكون تاما — عن مستوى معيشة مواطنيه ساكنى الريف على وجه العموم . ومن ثم يجب أن نكون عمليين فى تحديد معنى الفلاح فى نطاق تحالف قوى الشعب العاملة .

واقترح أن يشترط فى الفلاح ، أى من يمثل الفلاحين فى أى مجلس شعبى منتخب او تنظيم شعبى ، أن يكون ساكنا فى الريف ، ومقيما اقامة دائمة فىالقرية ، وأن تكونالزراعة مصدر رزقه الوحيد ، وألا يزيد مجموع حيازته الزراعية ملكا أو ايجارا على خمسة افدنة فقط ..

... وتعريف العامل — فى رأيى — هو من يكون له حق الانتخاب والترشيح للجان النقابية العمالية ، والا يكون عضوا فى نقابة أخرى غير النقابة العمالية ،وكذلك الحرفيون الذين لا يستخدمون الغير ، بشرط أن يكون عملهم هو مصدر رزقهم الوحيد . ومن ثم لا يعتبر عمالا المديرون المعينون ، ورؤساء مجالس الادارة ، والمفوضون لادارة الشركات ومن فىحكمهم، وذلك لاحتمال تاثيرهم على العمال فى اختيار ممثليهم .

الدكتور سليمان الحماوى :

... لقد طالب البعض بأن ينص على الوحدة العربية فى الدستور ، وانا اخالفهم فى ذلك ، لان الوحدة العربية لها وظيفة أخرى يجب أن تكون واضحة فالوحدة العربية تستهدف اقامة دولة عربية ، وفى يقينى ، ونحن اليوم بصدد وضع دستور دائم ، انه لن يكون هناك دستور دائم فى الوطن العربى قبل أن تجىء الوحدة العربية ... ان جميع دساتير الدول العربية ، فى وضعها الحالى ، تكون دساتير مؤقتة الى ان نتخلص نهائيا من الاستعمار وظلامه .

الدكتور عبد الملك عودة :

... لى ملاحظة تتعلق بالمادة الخامسة ، ورغم ما يحيط بها من حساسية الا أننى اتساءل هل من الضرورى أن ينص فى الدستور على دين فى الدولة ؟

تنقسم الدساتير فى هذا الامر الى قسمين :

قسم ينص على الاديان ، وقسم آخر لم ينص عليها ، وهى اغلب الدساتير ، وبعض الدول ، مع أنها تغفل فى دساتيرها ذكر الدين ، الا أنها فى الوقت نفسه تعمل للدين وبالدين .

انها قضية على درجة عالية من الحساسية ، وكل ما أود قوله هو أن الاتجاه الغالب فى الدساتير يميل الى عدم النص على الدين فيها .

د. وليم سليمان (مجلس الدولة) :

.. لا يمكن وضع الدستور بمعزل عن الثورة ، بل يجب ان تكون الثورة محوره ، ونقطة البداية فيه . لهذا فاننا نستطيع أن نعرف الدستور بانه « تنظيم الثورة » بمعنى أنه يضع القواعد والضوابط التى على أساسها تظل سلطة الدولة فى خدمة المصالح ، والقوى الاجتماعية التى قامت الثورة لخدمتها .وبهذا يمكن وصف الدولة بأنها «دولة الثورة» وبالتالى يمكن أيضا القول بأن الثورة مستمرة ، وبأننا نقنن الثورة .

٢ – المقومــات الأســاسيــة للمجتمـــع

السيد عبد الحميد السراج [رئيس مجلس ادارة المؤسسة المصرية العامة للتأمين] :

☐ ضرورة النص فى الدستور بصراحة وحزم على فرض رقابة فعالة لمنع الاسراف والتبذير فى القطاع العام ، لان ذلك يوفر مبالغ كبيرة تستطيع الدولة استخدامها فى استثمارات جديدة .

☐ لابد من النص على ان قضية الادخار قضية قوميـة وواجب قومى ، وان ينظر اليها نظرة وطنية . فبعد انهيار الطبقة الغنية التى كانت مصدرا لتمويل المدخرات ، القى العبء على ممثلى قوى الشعب العاملة . ان أهم حل يستطيع المواطن أن يسهم به هو أن يقتطع جزءا من دخله الذى يحصل عليه ويودعه فى اي وعاء ادخارى .

☐ ضرورة الاشارة فى الدستور الى حماية المدخرات وضمان الدولة لهذه المدخرات ، لان هناك كثيرين يتخوفون أو يقولون ان الدولة قد تستولى على المدخرات .

الدكتور رفعت المحجوب [الاستاذ بكلية الحقوق بجامعــة القاهرة [حاليا عميد كلية الاقتصـــاد والعلوم السياسية] :

☐ ان الاسس التي يقوم عليها المجتمع الجديد هى : ضمان رفاهية الشعب وقوة الوطن بان يتجه الانتاج القومى الى تحقيق الحاجات العامة ، وسيطرة الجماعة على وسائل الانتاج ، ومنع استغلال الانسان للانسان ، وان يكون لكل بحسب خدمته ، وان يكون الهدف الاساسى للاشتراكية هو تذويب الفوارق بين الطبقات .

☐ ضرورة تصفية الطبقات التى تملك ولا تعمل وتعيش على دخل بلا عمل وهى طبقات الاقطاعيين والرأسماليين ، بأن تنزل بالملكيات الى الحد الذى يجبر اصحابها على العمل ، وبأن يصبح العمل أساسا للقيمة الاجتماعية للفرد ، وان نقر مبدأ تكافؤ الفرص عملا لا قولا . ويتطلب ذلك أن يتضمن الدستور الجديد حق التعليم وحق العلاج .

☐ ان تذويب الفوارق بين الطبقات لا يعنى توحيد أدوارها ، أو الغاء القطاع الخاص تماما ، اذ يمكن السماح بوجـود رأسمالية وطنية على ان تكون صغيرة الحجم ، وغير خاضعة للتكتلات الرأسمالية العالمية وان تبعد عن الاستغلال .

☐ لابد ان تتحمل الدولة المسئولية الاساسية فى خطة التنمية عن طريق وضع خطة شاملة ، واقامة قطاع عـام كبير وقادر على تحمل المسئولية الرئيسية فى خطة التنمية .

☐ على الدستور ان ينص على ان الدولة ملزمة بان ترعى القدرات الخلاقة وان تحافظ على الحوافز المادية والمعنوية .

☐ لابد ان ينص فى الدســتور الجـديد على حق العمل لجميع المواطنين ، وحق التعليم والرعاية الصحية والضمان الاجتماعى .

☐ لابد من ان يتوسع الدستور الجديد فى الحديث عن الحقوق الاقتصادية ، وان يضمن للقوى العاملة حرية الخبز وحرية الكلمة فى نفس الوقت ، والا يكون مجرد دسـتور سياسى .

السيد المستشار عبد العليم الجندى [رئيس ادارة قضايا الحكومة] :

☐ لابد من ذكر التضامن الاجتماعى فى باب المقومات الاقتصادية لانه يمتزج فيه السلوك الاشتراكى فى الحيـاة وهو ما نسميه المقومات الاجتماعية ، والطريقة الاشتراكية فى الاقتصاد وهو ما نسميه المقومات الاقتصادية . ويعتبر نصا قانونيا دستوريا الا يكون التضامن الاجتماعى أساسا اقتصاديا للاشتراكية العربية لان فلسفتها القانونية تقوم على أن القوى الاقتصادية كلها تعمل فى حدود الخير العام للشعب ، وأنها موجهة حسب الخطة العامة للشعب ، وأنها تستهدف مصلحة الجماعة ، وهى لا تكون كذلك الا بالتضامن الاجتماعى .

☐ المقومات الاساسية للمجتمع الاشتراكى العربى هى : العمل اساس الاقتصاد ، الملكية العامة تقود التقدم فى جميع المجالات ، الملكية الخاصة مفيدة بالا تكون مستغلة ، وأنها لا تسيطر على الاقتصاد ، ان التخطيط أساسى للاقتصاد بأكمله ، قيام السيطرة الشعبية على كل أدوات الانتاج .

☐ ان وضع المضامين التقدمية فى نصوص تقيدها وتحدد مجال تطبيقها [مثل طلب التفصيل فى النص على حقوق العمل والاجر او طلب التفصيل الدقيق للحقوق والتحـديد المنضبط للواجبات] يفقدها قدرتها على الحركة تحت عنوان الصياغة المنضبطة .

☐ لم تصدر التشريعات المدنية المنفذة للنص الدستورى الذى يقرر ان للملكية وظيفة اجتماعية ، ولم تصدر الاحكام القضائية على أساس منها . ولذلك لابد ان نضمن الدستور مسائل اساسية تعتبر جوهر هذه النظرية وبلغة اخرى مفاتيح لسائر المسائل ، توصلا لجعل الملكية غير مستغلة بالفعل لا بمجرد النص عليها وتخضعـــها لمبدأ الالتزام وللسـيطرة الشعبية مع اعلاء معنى الوظيفة الاجتماعية فى الحقوق عموما ، تمكينا لنصوص الدستور من أن تعمل بذاتها وان لم يتضمنها قانون .

☐ لابد من ان ينص على الضمانات التالية : اعتبـار كل من الاستغلال والانحراف عيبا يعيب التصرفات القانونية ويوضع لهما تعريف فى الدستور ، بطلان وفساد ما يخالف النظام العام والاداب العامة للمجتمع الاشـتراكى ، أن الحقوق القانونية عموما تستخدم فى خدمة صاحبها وفى خدمة المجتمع الاشتراكى معا .

☐ لابد من توضيح مضمون الملكية التعاونية ، وأن ينص على الفرصة المتكافئة للمرأة فى العمل ، مثل ولاية المرأة للقضاء .

☐ ان الشريعة الاسلامية يمكن الاعتماد عليها فى بيـان المقومات الاقتصادية للمجتمع حيث أنها تنص على :

١ – الملكية وظيفة اجتماعية مفيدة موجهة لخدمة الجماعة ولولى الامر تحديدها تبعا لحاجة المجتمع .
٢ – للفقراء حقوق محددة عند الدولة وعند المالك ياخذونها من رأس المال ذاته وتحل الدولة محلهم فى اخذها لحسابهم .
٣ – للدولة وللناس حقوق فى أموال الافراد .
٤ – الحقوق عموما مفيدة بحقوق الجماعة .
٥ – الثروات الطبيعية ملك للدولة فى مذهب ابن مالك .
٦ – الفقه الاسلامى يؤمن بالتخطيط والتوجيه وبالجماعية .
٧ – العمل اصل اسلامى اول .

الدكتور احمد على حسن [نقيب اطباء الاسنان سابقا] :

☐ اقترح ان ينص على أن « الملكية الفردية ووراثتها مكفولة ومصونة والملكية الفردية المكتسبة عن طريق العمل والادخار ووراثتها تتمتعان بحماية خاصة .

ولا يحق لاحد الملاك فيما يضر المصلحة الاجتماعية ولا يجوز

تحديد الملكية الفردية أو انتزاعها الا طبقا للقانون وللمنفعة الدولة ، أو المنفعة الاجتماعية . مقابل تعويض عادل .

وحق الارث مكفول وفقا للشريعة الاسلامية .

الدكتور عبد المنعم فرج الصدة [الاستاذ بكلية الحقوق بجامعة القاهرة] :

□ ان الاسس التى يقوم عليها مجتمعنا الاشتراكى هى : منع الاستغلال ، تنظيم الانتاج ، عدالة توزيع الدخل القومى. واقترح أن يرد فى الدستور نص خاص بالاستغلال اكثر بيانا عما هو عليه الان بان ينص على ان « الاستغلال محظور فى جميع صوره ومجالاته سواء كان ذلك فى استعمال الحق، او فى استثماره او فى التعامل بوجه عام » .

□ لابد ان تظفر الملكية التعاونية بالحماية والتشـجيع والتأييد من قبل الدولة . أما الملكية الخاصة فلابد ان يراعى فى تنظيمها التوفيق بين المصلحة الفردية من ناحية ومصلحة المجتمع من ناحية أخرى ، والوظيفة الاجتماعية للملكية لايجب ان تقتصر على التزامات سلبية يفرضها القانون على المالك ، بل لابد أن تتخذ طابعا ايجابيا يفرض على المالك أن يقوم بواجبات معينة . أما ملكية الدولة فيجب النص على انها تشمل الاموال العامة ، والاموال المملوكة للدولة ملكية خاصة ويتكون منها القطاع العام .

□ أرى أن ينص على أن «الملكية الخاصة مصونة ، وحق الارث الشرعى فيها مكفول ، ويجب أن تكون ممارستها على نحو يتفق مع وظيفتها الاجتماعية .

□ لا يجب ان ينص الدستور على الحد الاقصى للملكية لان هذه مسألة ترتبط بظروف المجتمع المتطورة .

الدكتور فؤاد مرسى [رئيس مجلس ادارة البنك الصناعى] :

□ لابد من تاكيد المفاهيم التالية : ان الاشـــتراكية هى القضاء على استغلال الانسان للانسان ، ان وسيلتها هى سيطرة الشعب العامل على كل وسائل الانتاج الرئيسية ، ان بناء الاشتراكية يتم بنقل السلطة السياسية الى تحالف قوى الشعب العاملة ، ان الطبقة العاملة فى المجتمع الاشتراكى تمثل المركز القيادى ، ان التخطيط الشامل للاقتصاد القومى هو الاطار الوحيد لتطوير اقتصادنا على أسس اشتراكية .

□ ان الانتقال الى الاشتراكية يقتضى مرحلة انتقال يتحول فيها المجتمع من بقايا الاقطاع والرأسمالية الى الاشتراكية . وطريقنا الى الاشتراكية هو طريقتلاحم الثورة الوطنية بالثورة الاجتماعية ، مواصلة الثورة الوطنية حتىنهايتها المظفرة ، ليس فقط بتحقيق الاستقلال السياسى وانما أيضا بتحقيق الاستقلال الاقتصادى .

ان الاشتراكية حتمية تاريخية فرضت نفسها ، لان طريق الرأسمالية كان طريقا مسدودا .

□ ان القطاع العام هو قاعدة التحول الاشتراكى ، وهو قاعدة النضال ضد الاستعمار الاقتصادى القديم والجديد ، وهو قاعدة النضال من اجل الاشتراكية . وبالاستناد الى سلطة الشعب العامل ، يتطور هذا القطاع فى اتجاه خلق وتطوير علاقات انتاج اجتماعية جديدة .

□ لابد من الاخذ بمبدأ تخطيط القطاع الخاص ، ووضعه تحت رقابة وسيطرة الشعب ، وفى اطار الخطة الشاملة .

الدكتور ثروت بدوى [أستاذ القانون العـــام بكلية الحقوق — جامعة القاهرة] :

□ يجب التفرقة بين الاسس العامة للاشتراكية من جانب وبين اجراءات التحول او التطبيق الاشتراكى من جانب آخر، ان الدستور يجب ان يمتنـع عن الدخـول فى اجـراءات التطبيق المختلفة ، التى يمكن أن تتغير منمرحلة الى مرحلة ، والتى تتطور مع تطور ظروف المجتمع ، ومقتضيات المرحلة التى يمر بها .

□ ان الاسس العامة التى تحدد المقومات الاقتصـادية للمجتمع هى : تنظيم ملكية وسائل الانتاج . تنظيم وادارة عملية الانتاج وتسيير أدواته ، توزيع عائد الانتاج .

□ لابد من النص على العدالة الاقتصادية ، وهى نتحقق بامور ثلاثة : الحد من قوة الاقوياء اقتصاديا ، تقوية مراكز الضعفاء اقتصاديا ، تحقيـق التعـاون والتضامن بين هؤلاء واولئك . لذلك أرى أن يتضمن الباب الثانى من النصوص ما يضمن تحقيق هذه المبادىء الثلاثة . فلا يكفى تحديد الملكية الزراعية ، بل يلزم تحديد الملكية فى كافة صورها .

□ أرى أن ينص صراحة فى الدستور على أن تعمل الدولة تدريجيا على تقريب الفوارق بين الدخول بحيث لا يجـاوز الفرق مستقبلا ، بين اقل دخل واعلى دخل نسبة معينة .

الدكتور اســماعيل صبرى عبد الله [رئيس تحريردارالمعارف]:

□ ان المقومات التى يتعين على الدستور أن يقننها ليست هى مقومات المجتمع الحالى [مرحلة الانتقال] بما فيه من تناقضات وانما هى مقومات المجتمع الاشتراكى .

□ واذا كان التميز بين اشتراكيتنا وغيرها من النظم الاشتراكية أمر محمـود ، فلابد من التحذير أيضـــا من الاشتراكيات الزائفة والتفرقة بين الاشتراكية وبين ما يسمى التضامن الاجتماعى .

□ ان معنى الكفاية هو أن يزيد الانتاج القومى وان يزيد دخلنا باستمرار حتى نستطيع انرفع مستوىمعيشة المواطنين كل المواطنين . ومعنى العدل أن تتوزع ثمار المجهـود الذى يبذله الشعب ، توزيعا عادلا ، أى أن يأخذ كل عامل بقدر ما قدم للمجتمع من عمل .

□ ان مشكلة أنواع الملكية او اشكالها ليست منالمشاكل التى تحل ابتداء من موقف مذهبى مجرد ، وانما يجب ان ترتبط بالواقع الاقتصادى .

□ لابد أن يتوافر فى رأس المال الخاص ثلاثة شروط : انه يجب أن تسهم هذه الملكية الخاصة لوسائل الانتاج فى زيادة الانتاج ، واحترام حقوق العاملين ، وعدم استغلالها فى فرض أسعار باهظة على المستهلكين .

السيدة عليه اسماعيل [مديرة ادارة بشركة السكر] :

□ لابد من اتاحة الفرص المتكافئة فى العمل للمراة مثل الرجل بحكم الدستور ، الذى يجب أن يمكنها من ممارسة هذه الفرص المتكافئة دون حجب المناصب القيادية عنها .

□ كذلك لابد أن يؤكد الدسـتور أن الطفـولة صـانعة المستقبل ، ومن ثم يجب رعاية أطفال العاملات ، وتعـديل ظروف الامهات العاملات .

□ اقترح أن ينص على « عدم تشغيل المرأة فى أى مجال من مجالات الانتاج والخدمات ، الا اذا مرت بمرحلة معينة من الدراسات الاشتراكية ، التى تجعلها عندما تعمل تقوم بواجبها على وجه أمثل ، وعندما تكون ربة بيت ، تكونقادرة على فهم مطالب المجتمع منها ، وما يجبعليها أن تؤديه له من واجبات . وعلى الدولة أن توفر لها هذه الدراسات » .

الدكتور جمال العطيفى [المحامى وعضو مجلس ادارة مؤسسة الاهرام] :

☐ اقترح انشاء قطاع عام فى الاستغلال الزراعى يتمثل فى ملكية الالات اللازمة للزراعة ، والوصول بالزراعة الى مرحلة جديدة تعتمد على التقدم الفنى والعلمى .

☐ اقترح انه بدلا من تحديد الملكية بانها ملكية شعب أو دولة ، وملكية تعاونية ، وملكية خاصة ، نحدد بانها ملكية اشتراكية [وتشمل ملكية الشعب والملكية التعاونية] ثم الملكية الخاصة .

☐ يجب النص فى الدستور على اشتراك العاملين فى ادارة الوحدات الانتاجية وفى الحصول على نصيب من ارباحها .

☐ لابد أن نقنن اجراءات الحراسة دستوريا ، وأن توضع لها القواعد والاجراءات والضمانات التى تمكنها من الوقوف فى وجه نمو العلاقات الرأسمالية ومحاربة الانحراف .

☐ لابد أن نبرز فى الدستور الجانب الديمقراطى فى اعداد الخطة ، وأن يصدر هذا بقانون .

السيد المهندس على السيد [رئيس مجلس ادارة المؤسسة المصرية للمقاولات] [حاليا وزير الاسكان والمرافق] :

☐ اقترح النص على المقومات الخمس التالية :

١ — ان النظام الاشتراكى هو الاساس الاقتصادى للدولة بما يحقق المساواة ويمنع استغلال الانسان للانسان والقضاء على تفاوت الدخول .

٢ — تكافؤ الفرص فى ثروات الوطن .

٣ — سيطرة الشعب على كل وسائل الانتاج ورقابته على القطاع العام والخاص .

٤ — التخطيط الاشتراكى الكفء .

٥ — تحقيق الكفاية الانتاجية .

☐ اقترح أن ينص على أن الهدف من اقامة المشروعات فى قطاع التشييد ليس تحقيق الربح ، بل تحقيق خدمات وتنفيذ مشروعات طبقا للخطة الموضوعة .

السيد شمس الدين خفاجى [المستشار بادارة قضايا الحكومة] :

☐ اقترح ان ينص على أن الاشتراكية هى الاصل وأن التعاون هو الصورة التكميلية التى تعمل فى اطار من الفكر الاشتراكى ، بحيث يحتفظ من مبادئه وخططه وقواعد العمل فيه ، بما لايتعارض مع مفهوم التطبيق والفكر الاشتراكى .

السيد مصطفى عدس [فلاح] :

☐ اقترح أن يضاف نص على مصادرة رأس المال الخاص واضافته للمال العام اذا تعارض فى طرق استخدامه مع الخير العام للشعب .

☐ اقترح النص على أن تشجع الدولة التعاون ، وتدعيمه بكل الامكانيات وتحميه ، وترعى المنشآت التعاونية بمختلف صورها ، وان يكون التعاون هو البديل للقطاع الخاص فى جميع الانشطة ، التى يرى تحالف قوى الشعب العاملة ، ممثلا فى الاتحاد الاشتراكى انها تشكل استغلالا للشعب وخروجا على السلوك الاشتراكى ، او أن التنظيم التعاونى هو الشكل الذى يحقق لهذه الانشطة اسهاما أقوى وافضل فى بناء المجتمع الاشتراكى .

الدكتور عادل سيد فهيم [النائب بمجلس الدولة] :

☐ لابد أن يورد الدستور تنظيما كاملا للقطاع العام يقنن جميع التغيرات التى يحدثها التأميم فى جميع مجالات القانون المادى للدولة ، رغم أن هذه التغيرات الاشتراكية اصبحت من البداهات القانونية .

☐ لابد أن يضع الدستور الجديد تنظيما شاملا للمخطط الاقتصادى بجعله من اختصاص أعلى سلطة فى الدولة مع امداد ذلك المخطط بقوة ذاتية تنبع من القانون الوضعى بالنسبة لانشاء ووجود وانقضاء العلاقات القانونية بين الوحدات المشتركة فى المبادلات القانونية .

٣ — الأسس الاقتصادية للمجتمع

الدكتور ابراهيم سعد الدين :

« ان تقنين الثورة ، كما أعلن السيد الرئيس : « ضمانة اكيدة للتطور الدستورى السليم ، ليظل القانون دائما اكبر من مراكز القوة واعلى من ارادات الافراد » على ان هذا التقنين يجب أن يعبر عن روح التطور ذاتها ، فان الشرعية ليست هى مجرد الامر الواقع ، والا كان معنى ان الشرعية قد اصبحت مادة جامدة لانبض فيها ، على احسن الاحوال ، أو استبدادا من طبقة أو سلطة تتصور خطأ انه بوسعها ان توقف الزمن نفسه » .

« بهذه الكلمات من خطاب السيد الرئيس فى المؤتمر التاسع للمحامين العرب استهل مناقشتى للاسس الاقتصادية لمجتمعنا » ..

« فى تقديرى أن مواد الدستور الخاصة بالاسس الاقتصادية لمجتمعنا ، يجب الا تقتصر فى التعبير عن الاساس الاقتصادى للمجتمع الذى نعيش فيه فى الفترة الحالية ، وانما يجب أن تعبر اساسا عن المجتمع الذى نحاول بناءه ونحاول اقامته ، وهو المجتمع الاشتراكى ، الذى يتميز بصفات وسمات رئيسية ، يمكن تلخيصها فيمايلى:

● سيطرة كاملة للشعب على أدوات الانتاج .

● الغاء لكل استغلال من الانسان للانسان ، وتذويب الفوارق بين الطبقات .

● قيادة الاقتصاد القومى بوساطة الدولة خلال خطة شاملة للتطوير .

● حصول كل فرد من قوى الشعب العاملة على

نصيب من الدخل القومي بوساطة الدولة خلال خطة شاملة للتطوير .

● بناء قاعدة اقتصادية حديثة وقوية وقادرة على الوفاء بحاجات الشعب ، ورفع مستواه المادي والثقافي والروحي .

هذه في اعتقادي هي الاسس الرئيسية التي يجب أن تتوفر في المواد الخاصة بالمقومات الاقتصادية للمجتمع ، والتي هي جزء من مواد الباب الثاني من الدستور ، والتي وردت في الدستور المؤقت في المواد من المادة « ٩ » الى المادة « ١٨ » .

وقد عبرت مواد الدستور المؤقت بشكل حاسم وواضح عن هذه الاهداف ، ولو أن هذا التعبير قد جاء في شكل تقريري باعتبار أن المجتمع فعلا . أو أن الاساس الفعلي لمجتمعنا في هذه الفترة الحالية ، هو المجتمع الاشتراكي .

وفي رأيي أننا مادمنا في مرحلة التطور ، مرحلة التغيير ، مرحلة الانتقال ، فان المواد الخاصة بالدستور في هذا الشأن يجب أن تعبر تعبيرا واضحا عن حقيقة هامة ، هي أننا نمر بمرحلة انتقال تسير بنا الى تحقيق هذه الاهداف الرئيسية ..

« ..... ان الوصول بالمجتمع الى اهدافه في النمو ، والى أهدافه في تحقيق مستوى أرفع من المعيشة ، اقتضت بالضرورة التحول أساسا ، بالنظام الاجتماعي ، من النظام الرأسمالي القائم على الملكية الفردية ، الى النظام الاشتراكي القائم على السيطرة الكاملة على ادوات الانتاج . والسيطرة على أدوات الانتاج ليست هدفا في ذاته ، بل هي ضرورة لاقامة نوع جديد من العلاقات الاقتصادية ، ونوع جديد من العلاقات الاجتماعية ، نوع جديد من العلاقات الاقتصادية يتميز بالذات بامكانية توجيه الفائض الاقتصادي الذي يمكن أن يتوفر في هذه الامة الى تطوير الاوضاع الاقتصادية في المجتمع ، الى تطوير الانتاج ، الى تحقيق اكبر معدل للنمو ، الى تحقيق رفع مستوى المعيشة لشعبنا . ان السيطرة على أدوات الانتاج لاتهدف فقط لمجرد تحقيق زيادة الانتاج او تحقيق الكفاية ، وانما تهدف ايضا وفي نفس الوقت،الى القضاء على الاستغلال ، استغلال الانسان للانسان ، الى القضاء على الفوارق الاجتماعية الكبيرة الموجودة في مجتمعنا ، التي بنيت أساسا على وجود طبقة محدودة من كبار المالكين ، وطبقة واسعة من المعدمين في هذا المجتمع » .

« أما عن المادة التاسعة فانى أقترح تعديلها بحيث تبرز أننا نقيم مجتمعا اشتراكيا يتميز بخصائص معينة ، هي سيطرة الشعب على كل أدوات الانتاج ، وحظر استغلال الانسان للانسان بأى شكل من الاشكال ، وتذويب الفوارق بين الطبقات ، وتحقيق مبدأ مشاركة العاملين في عائد الانتاج طبقا لجهد كل منهم ، وتنمية الاقتصاد القومي باعادة تكوينه وفق أسس اشتراكية متطورة ، في الزراعة والصناعة والتجارة ، بهدف رفع المستويات المادية والثقافية والروحية للشعب . وبذلك ترسى دعامتى النظام الاشتراكى الاساسيتين ، وهما الكفاية والعدل » .

« أما المادة العاشرة ، وهي التي تنص على أن « يكون توجيه الاقتصاد القومي بأكمله ، وفقا لخطة التنمية التي تضعها الدولة » ، فارى أن تتسع هذه المادة للمعاني الواردة في الميثاق عن الخطة » بحيث ينص على ان توجيه الدولة الاقتصاد القومي بأكمله وفقا للخطة التي تضعها ، وأن تصدر هذه الخطة بقانون ، يحدد المدة اللازمة لتنفيذها ، على أن يوضع في الاعتبار تحقيق أوسع مشاركة ممكنة لقوى الشعب العاملة ، وتكون الخطة طوال مدة سريانها، اساسا لجميع اوجه النشاط التخطيطى لاجهزة الدولة ، والوحدات الاقتصادية ، وتلتزم كل وحدة من وحدات الانتاج وكل جهاز من أجهزة الخدمات بتحقيق الاعمال والواجبات التي تلقيها الخطة على عاتقها . كما تعمل على خلق الظروف المادية والتنظيمية اللازمة لنشاطها على نحو يمكنها من تنفيذ مهامها المرسومة لها .

اما المادة الحادية عشرة . فارى ان تبقى كما هي دون تعديل . وفيما يتعلق بالمادة الثانية عشرة ، وهي الخاصة بسيطرة الشعب على كل ادوات الانتاج ، فارى أن يصاغ نصها بحيث يؤكد أن سيطرة الشعب على كل ادوات الانتاج انما تكون عن طريق تنمية القطاع العام ، ودعمه ، حتى يصبح قادرا على صيانة النشاط الاقتصادى في كافة مجالاته .

أما المادة السادسة عشرة ، وهي التي تنص على أن الملكية الخاصة مصونة ، وينظم القانون اداء وظيفتها الاجتماعية ، ولاتنزع الملكية الا للمنفعة العامة ، ومقابل تعويض عادل ، وفقا للقانون . فاقترح تعديلها بحيث تتسق مع المفاهيم والمعاني الواردة في الميثاق ، لانى أرى أن هذا النص لايربط بين الملكية الخاصة ، وبين الشروط التي استلزمها الميثاق لبقاء هذه الملكية ، وهي الخضوع لاشراف الشعب ، والسير في اطار الخطة الشاملة دون استغلال ،

لذلك فاننى أرى أن يتضمن النص الجديد هذه المعاني ، وأن يشير بوضوح الى أن الملكية الخاصة رهينة باتباع هذه الشروط ، وانها تفقد مبررات وجودها ان هي حادت عنهـا » .

ثم انتقل بعد ذلك الى المادة الثامنة عشرة ، وهي الخاصة بتشجيع الدولة للتعاون ورعايتها للمنشآت التعاونية ، بمختلف صورها . فارى تعديلها بحيث تتسع لتشمل مايؤيد اتجاه الدولة الى توسيع قاعدة التعاون، ووجوب امتداده الى آفاق جديدة في التمويل والتسويق والانتاج ، في كافة صوره ، الزراعى والصناعى والحرفى واليدوى على السواء،

دكتور محمد فتح الله الخطيب [استاذ بكلية الاقتصاد] :

« ان النظرة العامة الى المواد الواردة في الدستور المؤقت ، من المادة الثامنة الى المادة الثامنة عشرة ، توضح حقيقة هامة ، وهي أن المجتمع قد سار في طريق التحول الاشتراكي .

ان المادة التاسعة تشير الى أن طبيعة المجتمع هي المجتمع الاشتراكي ، وفي رأيي أنه من الضروري التأكيد على أننا في مرحلة التحول ، وأننا لم نبلغ بعد النظام الاشتراكى ، فهذه المادة تنص على أن الأساس الاقتصادى للدولة هو النظام الاشتراكى ، وهو الاساس الذي يجب أن نعيش وفقاله ، الا اننا في واقع الامر لا نجتاز الآن مرحلة التحول ، وهدفنا هو السعي لكي نصل الى تحقيق النظام الاشتراكي بمفهومه وبطابعه التي نراها ، ولذلك أرى أنه من الضرورى توضيح هذه الحقيقة حتى لانعيش في اطار قد يعتقده البعض أنه هو الاشتراكية بمفهومها ومعانيها التي نرغبها » .

ومن ناحية اخرى ، فان المادة الثالثة عشرة من الدستور المؤقت تشير الى اشكال الملكية ، وهي ملكية الدولة ، والملكية التعاونية ، والملكية الخاصة ، وأرى انه من الضرورى ان تعدل الفقرة «أ» من هذه المادة بحيث تشير الى ملكية الشعب ، بدلا من ملكية الدولة حتى تتأكد المعاني التي وردت في هذه الفقرة .

كذلك فان المادة السابعة عشرة نصت على ان « يعين القانون الحد الاقصى للملكية الزراعية » . وأرى من الضرورى أن يكون هذا التحديد عاما بالنسبة لجميع انواع الملكية لا أن يكون قاصرا على الملكية الزراعية فقط ، ومادمنا قد جعلنا الملكية الخاصة شكلا من اشكال الملكية الاجتماعية في المجتمع ، فيجب أيضا ان توضح انواع الملكية الخاصة باشكالها المختلفة سواء أكانت زراعية أم عقارية أم غير ذلك ،

ويجب أن تحدد هذه الملكية بقانون ، وبالتالى يجب أن يكون الدستور واضحا فى شأن هذا المعنى » •

« أما الملكية التعاونية فارى وجوبا ان يوضح الدستور المفاهيم العامة للتعاون ، حتى لايكون ذلك قاصرا على الملكية التعاونية التى تتيحها الدولة لادارة التعاونيات ، بل يجب ايضا - كما اشار الدكتور ابراهيم سعد الدين - أن تكون هناك ملكية تعاونية فى اطار الملكية الصغيرة ، حيث أن الاقتصاد المصرى يعتمد أساسا على الملكية الصغيرة ، سواء اكانت فى الزراعة أم فى غيرها •

عبد الرؤوف جودة احمد [عامل]

« ان الاساس الثانى من أسس النظام الاشتراكى ، هو ان توزيع ناتج العمليات الاقتصادية لأية سلعة ماهو الا نتيجة حتمية للجهد البشرى ، لذلك كان من الحق والعدل ، أن يكون توزيع ناتج القيمة الاقتصادية على المواطنين كل حسب عمله ••

« أما الاساس الثالث ، فهو ان يكون التخطيط فى هذا المجتمع تخطيطا قائما على العلم ، لتحقيق رغبات الجماهير لان ربح المشروع ليس المحك الاساسى لنجاحه بقدر مايحققه من اشباع رغبات الجماهير •

واذا انتقلنا الى المادة العاشرة من هذا الباب وجدناها تنص على أن « يكون توجيه الاقتصاد القومى باكمله ، وفقا لخطة التنمية التى تضعها الدولة ، وفى الحقيقة أن الدولة - باعتبارها سلطة الحكم - تعتبر اداة من إدوات الشعب ، لذلك فانه يجب أن تهدف الخطة أصلا وأساسا الى رفاهية الشعب ورفع مستواه ، ولن يتاتى هذا الا اذا شارك الشعب فى وضعها • وقد اشار الباب السادس من الميثاق الى مركزية التخطيط ولامركزية التنفيذ ، ومركزية التخطيط لاتكون الا عن طريق الاجهزة الشعبية ممثلة فى الاتحاد الاشتراكى •

ومن هنا فاننى اقترح ان تعدل هذه المادة على الوجه التالى : « يوجه ويراقب الاتحاد الاشتراكى خطة التنمية التى يضعها بمعرفته » •

وأرى ان تصبح المادة الحادية عشرة على الوجه التالى :

« الثروات الطبيعية فى كل اماكنها ومصادرها ملك للشعب ، وهو الذى يسيطر عليها » •

واذا انتقلنا للمادة « ١٣ » التى أوضحت اشكال الملكية ، وقسمتها الى ثلاثة اقسام ، نجد أن القسم الاول منها قد نص على ملكية الدولة أى ملكية الشعب ، وفى هذا تناقض لان ملكية الدولة ليس معناها ملكية الشعب ، لان ملكية الدولة تؤدى الى رأسمالية الدولة ، وكان من الواجب أن يطلق على هذا النوع من الملكية « الملكية العامة » أى ملكية القطاع العام ، التى هى ملكية الشعب • لذلك يجب أن تعدل عبارة « ملكية الدولة » الواردة فى هذه المادة الى الملكية العامة اى ملكية الشعب ، أما بقية الفقرة فتوضح كيفية ممارسة هذه الملكية •









■ الجمهورية العربية المتحدة ■

معاهدة الصداقة العربية السوفيتية
قاعدة طويلة الامد للتعاون الشامل

•

آراء ومقترحات
حول الدستور الدائم

■ تشيكوسلوفاكيا ■

المؤتمر الاول
بعد هزيمة الثورة المضادة

■ فن تشكيلي ■

معرض الانسان
وأسلحة الدمار

■ الجمهورية العربية المتحدة :

معاهدة الصداقة العربية السوفيتية قاعدة طويلة الامد للتعاون الشامل

« يعلن الطرفان المتعاقدان ، أن صداقة راسخة لا تنفصم عراها ستقوم على الدوام بين كلا البلدين وشعبيهما ، وأنهما سيعملان فى المستقبل أيضا لتطوير وتوثيق علاقات الصداقة والتعاون الشامل القائمة بينهما فى المجال السياسى والاقتصادى والعلمى والفنى والثقافى والمجالات الاخرى .. »

بهذه الكلمات بدأت المادة الاولى من المعاهدة ، لتعبر عن واقع تاريخى امتدت خلاله صداقة وثيقة وعلاقات أخوية بين شعبى مصر والاتحاد السوفيتى .

والمعاهدة التى تقنن وتجمع وتصوغ مبادىء ومعانى الصداقة الاخوية التى استمرت لفترة طويلة بين شعبينا .

والحقيقة أن مواد المعاهدة تتضمن نقاطا هامة وأساسية تجسد مدى عمق الروابط التى تخلقها بين الشعبين ــ فالمادة السابعةتنص علىأنه « اذ يهتم الطرفان المتعاقدان الساميان اهتماما عميقا بتأمين السلام وأمن الشعوب ويعيران أهمية كبيرة لتنسيق أعمالهما على الصعيد الدولى فى النضال من أجل السلام وتحقيقا لهذا الهدف سيتشاور الطرفان على مختلف المستويات بانتظام حول جميع المسائل الهامة التى تخص مصالح كلتا الدولتين .

وفى حالة نشوء أوضاع تشكل حسب رأى كلا الطرفين تهديدا للسلام أو خرقا للسلام فانهما سيتصلان ببعضهما على الفور بقصد تنسيق موقفيهما من أجل ازالة التهديد الناشىء او اعادة السلام » ..

ولما كان العدوان الاسرائيلى علـى الاراضى العربية هو أحد المخاطر الاساسية التى تهدد السلام والامن فى منطقة الشرق الاوسط وفى العالم أجمع فقد نص فى المادة الثامنة على تعهد الاتحاد السوفيتى بتقديم كافة المسـاعدات للجمهورية العربية المتحدة « من أجل تقـوية قـدرتها على مواجهة العدوان عموما » .

وقد كان اعلان « المعاهدة » بما تضمنته من نصوصواضحة وقاطعةالدلالة فىتعزيز العلاقات بين الاتحاد السوفيتى ومصر مثارا لتعليقات كثيرة فى مختلف الدوائر العالمية .

ولم تستطع الدوائر الامريكية أن تخفى خيبة أملها فقالت النيوزويك : « ان المسئولين بوزارة الخارجية الامريكية لم يستطيعوا اخفاء خيبة أملهم تجـاه هـذه المعـاهدة . وقـالت « **النيويورك** تايمز » ان المعاهدة المصرية السوفيتية تذهب الى بعيد نحو توثيق الروابط بين الدولتين » .

وفى الاوساط العربية صرح السيد **صائب سلام** بأن « المعاهدة تجسيد للواقع وتطوير صريـح للعلاقات القائمة بين مصر والاتحاد السوفيتى وتأكيد لما سارت عليه القاهرة فى سياستها » .. وقال **فاروق ابو عيسى** وزير خارجية السودان « ان المعاهدة تؤكد من جديد التزام مصر الثـابت بالنضال من أجل التحرر والتقدم والاشتراكية، كما تؤكد تمسكها بصداقة المعسكر الاشتراكى والاتحاد السوفيتى الذى يقف الى جانب الامة العربية فى نضالها الشريف » ..

وقال **عبد السلام كوكلو** القائم بالاعمال السورى فى الخرطوم فى تصريـح لـوكالة الانبـاء السودانية « ان هذه المعاهدة تعتبر خطوة حاسمة فى معركة التحرير ضد الصهيونية والامبريالية العالمية ــ وقال ــ ان الصداقة العربية السوفيتية تدخل بهذا الاتفاق مرحلة جديدة لصالح النضال العربى » .

أما صحيفة « **لابريس** » التونسية فقد أعلنت « أن شيئا أساسيا قد حدث فى الشرق الاوسط بتوقيع هذه المعاهدة التى تمثل حادثا هاما » .

ولقد كان رد فعل هذه المعاهدة لدى اسرائيل عنيفا أيضـا فكتبت جريدة« **دافار** » « ان هـذه المعاهدة سيكون لها تأثير كبير فى النـاحية العسكرية والسياسية وان النتائج المترتبة عليها ستظهر قيمتها فى المستقبل القريب » . أمـا صحيفة « **يديعوت حدشوت** » الاسرائيليـة فقـد وصفت المعاهدة بأنها « خطر كبير » ، كما صرحت « **جولدا مائير** » : « بأن مصر تحاول استخدام المعاهدة لارهاب اسرائيل ، وكوسيلة للضغط السياسى على الغرب » وقالت : « انه من المستحيل ان يغفل أحد ، المدلول السياسى الشامل لهذه المعاهدة ، كما ان خطورتها لا يمكن أن تغيب عن بال »

وفى مصر كان لعقد المعاهدة رد فعل كبير ، فقد أحست الجماهير أن الصديق الوفى الذى ساندها دوما فى وقت المحنة سوف يواصل مساندته لها .. وأدركتبفريزتها الواعية أنتوقيع المعاهدة ــ هو فى ذاته ــ تأكيد للسير فى الطريق الصحيح الذى

هذه مبادئه الزعيم الراحل جمال عبد الناصر وهو طريق معاداة الاستعمار والعدوان والحرب والصداقة الاخوية مع كل القوى المناهضة للامبريالية والقوى التى تسعى الى التقدم الاجتماعى .

وقال الرئيس انور السادات «ان معاهدة الصداقة والتعاون تاتى تأكيدا للمبادىء النبيلة التى تعمل لها معا ، ودعما للتعاون الوثيق الذى امتد بيننا ، وتمكينا لنا على زيادة قدراتنا على تحرير الارض ، وتعهدا من الدولة التى تملك كل مقومات العلم والتكنولوجيا على الاسهام معنا فى عملية بناء دولتنا العصرية » .

وفى موسكو صرح بودجورنى قائلا : « ان علاقة الاتحاد السوفيتى مع الجمهورية العربية المتحدة قد دخلت مرحلة جديدة ، اثر توقيع معاهدة الصداقة والتعاون بين البلدين » . واضاف بودجورنى : «ان هذه المعاهدة تمثل الاساس القانونى الصلب للعلاقات الاخوية القائمة بين الجمهورية العربية المتحدة والاتحاد السوفيتى ، كما أن مغزاها يكمن فى حقيقة أنها أول معاهدة من نوعها تعقد بين الاتحاد السوفيتى ودولة مستقلة نامية ، وفى أنها تعكس التقارب المتزايد بين العالم الاشتراكى وحركة التحرر الوطنى » .

وقد علقت وكالة « نوفوستى » السوفيتية للانباء على المعاهدة فقالت « لقد ساعد الخط النشط فى معاداة الامبريالية الذى تسير عليه الجمهورية العربية المتحدة وخطواتها الحازمة فى طريق بناء حياة جديدة ، وزيادة دور جماهير الشعب العريضة فى حل المشكلات الاجتماعية والاقتصادية الهامة ، ساعد كل ذلك على اقامة وتطوير علاقات شاملة بين الاتحاد السوفيتى ومصر .. ان العلاقات بين البلدين سترتفع الى مستوى أعلى وستدخل مرحلة كيفية جديدة » .

ومضت وكالة نوفوستى فى تعليقها قائلة « ولا تؤدى المعاهدة الى تدعيم نتائج التطور المثمر للعلاقات السوفيتية العربية فحسب بل هى تفتح امامها ايضا آفاقا جديدة انها تخلق قاعدة طويلة الامد للتعاون الشامل بين البلدين ، ويجعل من الممكن زيادة جهودهما المشتركة الموجهة ضد المؤامرات العدوانية للامبرياليين وشركائهم »

وقد مضت كلا الدولتين فى اجراءات التصديق على المعاهدة ووضعها موضع التطبيق الفعلى بسرعة فائقة ..

وفى القاهرة عرضت المعاهدة على « مجلس الشعب » للتصديق عليها .. وقد بحثت لجنة العلاقات الخارجية بالمجلس نصوص المعاهدة ، ثم تقدمت الى المجلس بتقرير جاء فيه : « ان قائد ثورتنا وبطل ٢٣ يوليو جمال عبد الناصر هو الذى رسم جسور الصداقة العربية السوفيتية وأرساها على اصلب الاسس وأقوى الدعائم ، لانها تقوم على أساس وحدة الهدف فى خوض النضال ضد الاستعمار والامبريالية ومن أجل الحرية والتقدم الاجتماعى » .

ومضى التقرير قائلا : « ان هذه المعاهدة تتوج فترة طويلة من تجربة الصداقة الشريفة المتساوية ، وهى صورة لاروع صور العلاقات المتكافئة بين شعبين جمعتهما خلال الفترة الماضية وقفة واحدة فى النضال ضد الاستعمار والامبريالية العالمية ومن أجل التحرر الوطنى فى كل انحاء العالم » .

وقد وافق « مجلس الشعب » بالاجماع على المعاهدة ..

وفى موسكو عرضت المعاهدة على اجتماع مشترك للجنتى الشئون الخارجية بمجلس السوفييت الاعلى ومجلس القوميات . وفى الاجتماع تحدث جروميكو وزير خارجية الاتحاد السوفيتى فقال « أن المعاهدة سوف تكون ذات تاثير ايجابى كبير على كفاح الشعوب العربية من اجل تصفية آثار العدوان الاسرائيلى وتحقيق التقدم الاجتماعى » .

وقال جروميكو : « ان المعاهدة لا تعزز فقط من الناحية القانونية مستوى العلاقات الذى بلغه البلدان ، ولكنها تفتح آفاقا جديدة لتنمية ودعم التعاون السوفيتى المصرى فى المجالات السياسية والاقتصادية والعلمية والفنية وغيرها »

هذا وقد وافق الاجتماع المشترك بالاجماع على رفع توصية الى مجلس السوفييت الاعلى بالتصديق على المعاهدة .

●

آراء ومقترحات حول الدستور الدائم

قامت اللجان الدستورية المتفرعة من اللجنة التحضيرية للدستور بتجميع آراء ومقترحات المواطنين بشأن الدستور الدائم ، وهذه اللجان هى لجنة مقومات المجتمع الاساسية ، ولجنة نظام

الحكم ، ولجنة الادارة المحلية والقوانين الاساسية • وقد استخدمت اللجان كافة الوسائل الممكنة لاتاحة الفرصة للمواطنين من الادلاء بآرائهم ومقترحاتهم فيما يجب أن يتضمنه الدستور الدائم للبلاد •

وحول المقومات الاساسية الخلقية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية برزت الاراء والمقترحات التالية :

أن يكون الميثاق وبيان ٣٠ مارس ومقترحات الرئيس السادات أساس كل تشريع ، وان الدولة المصرية « جمهورية ديمقراطية اشتراكية » دينها الاسلام ولغتها العربية • وان الشعب المصرى جزء من شعوب الامة العربية ، ويعمل للوحدة العربية الشاملة ، وأن يراعى التنسيق بين مشروع الدستور الدائم ودستور اتحاد الجمهوريات العربية ، وأن يكون الاساس الاقتصادى والاجتماعى للدولة هو النظام الاشتراكى ، وحماية المكاسب الاشتراكية وتدعيمها •

وظهر اتجاه يدعو الى أن تكون الشريعة الاسلامية أساسا لكل تشريعات الدولة ، وأن يكون القرآن والسنة هما مقومات الاطار الخلقى للمجتمع ، واستبدال القوانين المالية بقوانين مستمدة من الشريعة الاسلامية ، وأن يؤكد الدستور على الوحدة الوطنية بين عنصرى الامة مسلمين واقباطا ، والغاء خانة الديانة من البطاقات الشخصية والاكتفاء بالجنسية المصرية ، ان مصر دولة اسلامية ديمقراطية اشتراكية عربية ، وان المجتمع المصرى مجتمع اشتراكى قوامه مصالح الشعب العامل ، ومقوماته الدين والوطن والحرية والعلم •

وأكدت الغالبية على ضرورة أن تكون الديمقراطية قاعدة أساسية للحكم واقامة المنظمات الدستورية ذات الفاعلية وضمان الحرية قانونا وممارسة وضمان الحقوق الاقتصادية وأن تثير التنظيمات السياسية الجديدة للدستور حوارا حرا وان تقوم الدولة الجديدة على أساس مبدأ سيادة القانون واحترام الحريات ، ويرى البعض أن يتضمن الدستور تحديد الحالة التى يباح فيها تعطيله وفرض الاحكام العسكرية وأن يكون ذلك فقط فى حالة الحرب ، بالاضافة الى ضرورة تدعيم مجلس الامة وتأمينه ضد الحل •

وساد اتجاه جعل الملكية للشعب ممثلة فى القطاع العام ، وعدم جواز المساس بالودائع والمدخرات الخاصة بالافراد الا فى الاحوال التى ينظمها القانون مع تعميق الملكية التعاونية وتحديد الملكية الزراعية بـ ١٠٠ فدان للاسرة و ٥٠ فدانا للفرد • رفع النسبة المخصصة للعمال والفلاحين

تعليق

مناقشة حول التراث

« الفونسو هوبى » فنان شاب [٣٦ سنة] من المانيا الغربية ، زار بلادنا منذ بضعة أسابيع . وبهذه المناسبة ، اعدت جماعة اتيليه القاهرة لقاء بينه وبين لفيف من المعنيين بشئون الفن التشكيلى من النقاد والفنانين المصريين ، من بينهم : مصطفى الارناؤوطى ، وفؤاد كامل ، ورمزى مصطفى ، ومنير كنعان ، ونبيل درويش ، ويوسف شيده .

دارت المناقشة حول اهمية التراث الفنى وابعاده الايجابية او السلبية فى اطلاق حرية الفنان فى التعبير التشكيلى المعاصر . وتلخصت آراء « هوبى » فى ان الفنان يجب أن يبدا بداية جديدة ، بدون التقيد باية تقاليد تراثية فنية محلية ، ولو ادى ذلك الى ان يحرق اعماله بين الحين والحين — كما فعل هو — اذا لاحظ انها متأثرة بتقاليد ما . وان هذا هو الضمان الوحيد لمعاصرة الابداع الفنى ومسايرته لحركات القرن التى قلبت الموازين الجمالية وتطلبت ابتكارات غير مسبوقة . وضرب مثلا باحد الفنانين من مواطنيه ، هجر المجتمع وذهب بعيدا فى عزلة كاملة حتى يتخلص من كل أثر للتقاليد والتراث ، ويبدع فنا خالصا لذاته !

وقبل أن نتناول هذه الاراء الغريبة بالتعليق — خاصة وقد اتفق معها بعض فنانينا — من المناسب ان نتعرف على الاعمال الفنية التى عرضها هوبى فى قاعة معهد جوته .. انها مجموعة من لوحات الحفر والتصوير المتتابع ، ذات تشكيلات تجريدية ، تتضمن الوحدات الهندسية وغير الهندسية ، مضافا اليها ملامس موضوعة أو موجودة اصلا فى الاوراق المستخدمة . كما استخدم الالوان المشتقة مع الابيض والاسود ، واستعان فى تقسيم اوراقه بثنيها عدة مرات ثم بسطها ليقوم أثر الثنيات بدور فى التشكيل العام . ولجأ احيانا الى تمزيق اجزاء من اوراقه ثم تحديد الاماكن الممزقة بخطوط والوان .

من هذا المعرض .. ومن تلك الاراء ، تتضح زاوية الانطلاق لوجهة نظر الفنان الزائر ، وهى :

١ — التعبير الفنى يمكن ان يبدا من فراغ ، بصرف النظر عن اية خبرات اجتماعية سابقة .

٢ — الابداع التشكيلى يمكن ان ينحصر فى مجرد التشكيل دون العناية بوجود ذواقة ، سواء على المستوى المحلى أو العالمى .

٣ — الفن التشكيلى — فى مفهوم هوبى — هو اخراج اى شيء لم يسبق له مثيل ، وان توافر اى معنى يتضمن الاطاحة بالعملية الفنية كلها .

٤ — على اى فنان ان يقاوم تاريخه وتراثه وثقافته اذا اراد ان يبدع فنا اصيلا — وهذه كلمات السيد هوبى نفسه .

بعد هذا الاستعراض لعناصر المناقشة التى دارت فى اتيليه القاهرة ، وبالرغم من الاهمية البديهية للتراث كحصيلة ثقافية تنبنى عليها مكتسباتنا الثقافية الجديدة .. فقد اصبح لزاما علينا ان نعيد اثبات تلك الاهمية البديهية ، حتى لا يدب الشك

فى المجالس والتنظيمات الشعبية الى ٧٥ فى المائة ، حتى يكون تمثيلهم واقعيا بما يتناسب مع تعدادهم بين المواطنين والا يزيد الحد الاقصى للاجور فى الدولة على ١٠ أضعاف الحد الادنى

واتجه البعض الى الدعوة لان يتضمن الدستور تحديدا دقيقا لطبيعة الاتحاد الاشتراكى كأساس لتعبئة قوى الشعب العاملة من أجل أهداف شعبية وممارسة رقابة الجماهير ليس كسلطة بل كتنظيم شعبى ، وتحديد علاقته بالسلطات المختلفة ، وعدم تدخل الاتحاد فى الاجهزة التشريعية والتنفيذية ، الا يحرم أحد من عضوية الاتحاد الاشتراكى أو يعزل الا بقرار مسبب يصدر من هيئة منتخبة ، بعد كفالة حق الدفاع والتظلم •

ومن أبرز النقاط الاخرى التى ظهرت أثناء المناقشات :

تأكيد حرية الكلمة والصحافة حتى تستطيع مراقبة أعمال جميع السلطات وضمان تلافى الاخطاء ، وعدم تكرار مأساة مراكز القوى ، والا يعاقب أى فرد بسبب أفكاره الحرة ، تحديد واضح للحريات • أن يحدد الدستور حالات الحرمان من الحقوق السياسية ، ملكية الشعب لوسائل الاعلام واتاحة الفرصة لكافة الاتجاهات البناءة فى التعبير عن رأيها دون قيد أو حد • كفالة الحريات بمقوماتها الاربعة يجب أن تتوافر فى الدستور • مساواة المرأة بالرجل فى جميع الحقوق والواجبات اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وفقا لميثاق الامم المتحدة والاعلان العالمى لحقوق الانسان ، حتى تتمكن المرأة من المشاركة فى صنع الحياة الجديدة ـ الغاء تعدد الزوجات ، حق الابناء فى الجمع بين معاش الاب والام العاملين ـ ان تجمع المرأة العاملة بين مرتبها ومعاش زوجها كاملا ـ رعاية الطفولة وتنظيم الطلاق ـ أن تكفل الدولة رعاية أبناء العاملات بتعميم دور الحضانة فى المصنع والحى والشارع ورعايتهم طبيا وتغذيتهم ـ منح المرأة أجازة حسب رغبتها لتربية أطفالها والسماح لها بالعودة الى العمل مرة أخرى ـ مشاركة الفتاة فى الخدمة العامة أسوة بالفتى ـ حق الانتخاب الاجبارى للمرأة •

وفيما يتعلق بنظام الحكم قدمت المقترحات التالية :

أن يكون الترشيح لمنصب رئيس الجمهورية هو ونائبه معا ، وأن يكون هناك أكثر من مرشح حتى تكون هناك فرصة للاختيار ، ووضع نظام واضح لشغل منصب رئيس الجمهورية فى حالة خلوه • مبدأ الترشيح والانتخاب لعضوية مجلس الشعب

فى نفوس الفنانين الشبان الذين نعول عليهم فى مواصلة الحفاظ على التراث واستلهامه والاستفادة من ايجابياته ، سواء على الصعيد المحلى أو العالمى •

ان الصفة الجمالية هى مجموعة من المفاهيم ، تواضع عليها المجتمع خلال تاريخه الطويل • بعض هذه المفاهيم عالمية وعامة استخلصها البشر منذ أن كان أفراده جميعا يعيشون فى اطار علاقات اجتماعية متشابهة ، كما كان الحال لدى الانسان البدائى منذ ٣٠٫٠٠٠ سنة ق٠م •• أو مجتمع الانسان الصياد منذ ١٥٫٠٠٠ سنة ق٠م •• فطراز صور الكهوف فى « التاميرا » فى أسبانيا او « لاسكو » فى جنوب فرنسا ، أمكن اقتفاء اثره فى مناطق عديدة من العالم • هذه الاساليب الجمالية التصويرية القديمة ، امكن لبعضها ان يبقى حتى الان ، وان يصبح تراثا يستعين به الفنانون المعاصرون ، ويمكن للمشاهدين ان يتذوقوه ويدركوا معناه • مثال ذلك •• الاسلوب السيريالى الذى ظهر فى النصف الاول من القرن العشرين • انه فى الحقيقة موجود منذ عشرات الالاف من السنين ، فى اطار ما يسمى بالـ « شامانيزم » ، حين كان ساحر الجماعة البشرية تنتابه غيبوبة يفيق بعدها ليصور للجماعة كيف يصطادون قطيعا من الثيران الوحشية • ويمكن اثبات ان الكثير من القيم الجمالية التى نظن انها من ابتكارات اليوم ، انما ترجع الى أصول بعيدة ، نستطيع اقتفاء أثرها على صفحات كتاب « الانسان البدائى وما قبل التاريخ » •• لمؤلفه انرياس لوميل سنة ١٩٦٨ م

القيم الجمالية اذن مفاهيم اجتماعية تقليدية • وليس من المفيد فى شىء شطبها والعودة الى اكتشافها من جديد • ان مثل هذه الدعوة ، مثل الدعوة الى السعى لاكتشاف النار والاستغناء من المعطيات الانسانية التاريخية ـ اى التراث ـ التى تمكننا الان من السير على سطح القمر والتجول بين الكواكب •

والان •• بعد ان تبلورت المجتمعات عبر السنين ، تواضع كل منها على مفاهيم جمالية تختلف باختلاف الجماعات • واصبح لكل منها حاسته الجمالية ، ولغته الخاصة التى يتفاهم عن طريقها •• الا ان للحاسة الجمالية المحلية أسس عالمية بعيدة الجذور كما ذكرنا • والعمل الفنى من حيث هو متضمن للقيم الجمالية ، انما يتضمن أيضا الاسس العالمية والمحلية على السواء • فاذا افتقدنا فيه أحد الجانبين ، كان ذلك صدعا ينتقص من قيمته وقدره ودوره فى الحياة • من هنا ـ اى من حيث البعد الجمالى المحلى ـ يدخل التراث والتقاليد المحلية كعامل حاسم فى مدى امتياز الابداع التشكيلى • وطالما ان المجتمع البشرى متعدد اللغات ، ومختلف الثقافات ، سيظل الفن التشكيلى ذا طابع محلى ، سواء فى الشكل أو المضمون •• واى عمل آخر يتخلى عن التراث المحلى متجها الى مفاهيم وقيم اخرى •• انما يتجه بالضرورة الى تقاليد مجتمع آخر ، وينتمى الى ثقافة اخرى غير ثقافته المحلية • واذا كان السيد هوبى يدعو الى التخلى عن التراث •• فهو يدعو ضمنا الى الانتماء الى ثقافته هو •

مختار العطار

حق لكل المواطنين فى ضوء القانون ، والا تكون عضوية الاتحاد الاشتراكى شرطا لعضوية مجلس الشعب أو المنظمات الجماهيرية .. التأكيد على استقلال القضاء واعطاء المحاكم جميعها حق النظر فى دستورية القوانين ومحاكمة المسئولين والقيادات اذا أخلو بمسئولياتهم ، الاخذ بنظام المحلفين فى قضايا الاحوال الشخصية والعمالية - أن تكون الاجهزة الشعبية المنتخبة فوق الاجهزة التنفيذية - تحديد طبيعة الاتحاد الاشتراكى كتنظيم سياسى جماهيرى يقود الجماهير ويوجه العمل الوطنى ، ويباشر رقابة اجتماعية على سلطة الدولة ولكنه لا يحل محلها ، وأن تكون اختصاصات الاتحاد سياسية وليست دستورية ، ولا يتدخل مباشرة فى السلطة - انشاء أجهزة متخصصة لمتابعة توفير الحريات الاساسية للافراد وانشاء نيابة لحماية الافراد من التعسف ، وحق القضاء فى الغاء اى قانون ينطوى على تقييد الحريات - ايجاد نوع من الفصل النسبى بين السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية وكفالة الضمانات للسلطتين التشريعية والقضائية وتأكيد دور السلطة التشريعية فى الرقابة على اجهزة السلطة التنفيذية ، كفالة الحصانة للسلطة القضائية - اشتراك السلطات الثلاث فى اختيار اعضاء المحكمة العليا ، وحق المحكمة العليا فى الرقابة على دستورية القوانين بطريق الدعوى الاصلية ، وأن يكون الالتجاء اليها معفى من الرسوم .

وفيما يختص بالادارة المحلية والقوانين الاساسية ، أجمعت اغلبية الاراء ان يتضمن الدستور ما يلى :

تحديد مفهوم واضح للعامل والفلاح والفئات وتحديد مدة زمنية تنتهى فيها مرحلة التحول الاشتراكى أن يتضمن الدستور قوانين تساير التطورات الاشتراكية التى بدأت منذ عام ١٩٦٢ ، تأكيد الحرية النقابية ، أن يكون المعاش حق لكل مواطن ، شغل منصب المحافظ بالانتخاب ، أن تشكل المجالس الشعبية بالانتخاب الحر المباشر ، وتنظيم العلاقة بين مجلس الشعب والسلطة المركزية استقلال المجالس المحلية ووضع الاسس لهذا الاستقلال ، وتوفير الضمانات لاعضائها . تطبيق النظام اللامركزى ، وان تختص الوزارات بالتوجيه ورسم السياسة العامة ، وتتولى المحافظات جميع أعمال التنفيذ ، حق الجماهير فى سحب الثقة من عضو مجلس الامة اذا اخل بالتزامه ، أن يعمل الموظفون فى محافظاتهم ، اعتبار الرشوة واستغلال النفوذ والاختلاس خيانة وطنية .

وقد أثارت قضية حماية الثورة وضمان استمرارها وتطورها اهتماما كبيرا من جانب المواطنين خلال المناقشات التى جرت والتى تعكس حرص المواطنين على الا يصيب الثورة الجمود والنكسات التى تتعرض لها الثورات فى العالم الثالث .

كما شغلت قضية الحريات أيضا اهتمام المواطنين وتطلع المواطنين الى حرية ذات مضمون ثورى ، وأن يفصل الدستور بين قوى الثورة وقوى الثورة المضادة على أساس علمى واضح ومحدد لقطع الطريق على تسلل عناصر الثورة المضادة كما يحول دون الزج ببعض العناصر الثورية فى زمرة الاعداء لمجرد الاختلاف فى الرأى ، وان يجسد الدستور مفهوما جديدا لحماية أمن الثورة فى ظل الشرعية الاشتراكية بحيث لا يسمح باى انتهاك لهذه الشرعية ، بحجة حماية الثورة ، وأن الطريق الصحيح هو تعميق وتوسيع حريات الشعب العامل .

■ ■

■ تشيكوسلوفاكيا ■

المؤتمر الاول بعد هزيمة الثورة المضادة

يتفق أغلب المراقبين السياسيين فى الرأى ، حول الاهمية غير العادية التى اتسم بها المؤتمر الرابع عشر للحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى فى تاريخ هذا الحزب الذى بلغ نصف القرن هذا العام . اذ جاء انعقاد هذا المؤتمر بعد السنوات الاخيرة التى تعد أصعب وأعقد فترة واجهها الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى فى تاريخه ، والتى شهد فيها الحزب والمجتمع التشيكوسلوفاكيين أزمة عميقة شملت كل مناحى الحياة التشيكوسلوفاكية .

وقد عقد المؤتمر بقصر المؤتمرات فى براج ابتداء من ٢٥ مايو السابق وحضر المؤتمر ١١٩٥ مندوبا يمثلون مليونا و ٢٠٠ الف من أعضاء الحزب ، وقدم الرفيق « جوستاف هوساك » السكرتير الاول للجنة المركزية للحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى فى المؤتمر تقريرا عن نشاط الحزب وتطور المجتمع بعد المؤتمر الثالث عشر للحزب ومهامهما فى الفترة القادمة .

وقد أوضح الرفيق هوساك أن احد الاسباب الرئيسية فى وقوع كارثة التهديد المعادى للثورة

والاشتراكية هو التسلل التدريجي والمتزايد فى أجهزة الحزب الهامة لعدد من الناس الذين خانوا مبادىء الماركسية اللينينية والاممية البروليتارية، وانتهكوا قواعد حياة الحزب ومبادىء المركزية الديموقراطية ، وبدأوا فى السيطرة تدريجيا على القيادة العليا فى الحزب •

وأشار هوساك الى الدور الذى لعبه دوبشيك وتشيرنيك وسمركوفسكى وكريجل وغيرهم الذين ركزوا فى أيديهم حق حل مشاكل الحزب والدولة وشلوا الاجهزة الرئيسية لنظامنا السياسى الاشتراكى ونشاط رئاسة اللجنة المركزية والجمعية الوطنية ، والحكومة ، وأجهزة سلطة الدولة ، والجبهة الوطنية •

وأوضح هوساك « أن نفس الشيء حدث فى المجال الاقتصادى : اذ كفت قيادة الحزب عن توجيه الاقتصاد القومى وأتاحت لمغامرى اليمين من طراز أوتاسيك اتخاذ زمام المبادرة ، أولئك المغامرين الذين افسحوا المجال للتلقائية البورجوازية الصغيرة ، ولمعاداة الملكية العامة ، والادارة المخططة للاقتصاد القومى ، كما أشار سكرتير الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى الى أن أحد أسباب النتائج المؤسفة التى حدثت فى ١٩٦٨ هو عدم الاهتمام لسنوات طويلة فى الحزب والمجتمع بالتربية الماركسية اللينينية ، واهمال مراعاة القانون والشرعية الاشتراكية •

وقدم هوساك فى تقريره أمام المؤتمر تقييما لاخطاء سلفه الكسندر دوبشيك ، بيدأنه أكد فى نفس الوقت على تحميل « انطونين نوفوتنى » المسئولية • وأوضح أن « الكسندر دوبشيك وأنصاره ، ألحقوا الضرر بالحزب والشعب ، وروجوا للفكرة التحريفية حول « الاشتراكية الديموقراطية » المزعومة ، وتقاعسوا بصورة فظة عن القيام بواجباتهم تجاه الحزب والشعب ، كما كانوا يتراجعون باستمرار تحت ضغط الثورة المضادة ، وفتحوا الطريق أمام هذه الثورة المضادة فى واقع الامر • وانتهكوا بشكل فظ الواجبات المترتبة على تحالفاتنا وتخلوا عن خط مؤتمر حزبنا الثالث عشر ، وانتهوا فى ختام الامر الى سياسة تصفية تحولت الى منبر معاد • وقد تم انتهاج هذه السياسة فى مؤتمر منيسوكانى المناهض للحزب الذى حاولوا اثناءه اقامة قيادة للثورة المضادة تحمل اسم حزب شيوعى ، وتستهدف تدمير ارتباطاتنا وتحالفنا مع الاتحاد السوفيتى وحلفائنا الاشتراكيين وتصفية مكاسب الاشتراكية فى بلادنا تدريجيا » •

ووجه هوساك فى تقريره نقدا عنيفا الى « انطونين نوفوتنى » لانه قلل من تقدير دور الصراع الطبقى فى كافة المجالات السياسية والاقتصادية والايديولوجية ، ولعدم كفاحه ضد الانتهازية اليمينية فى الحزب ، وعدم استفادته من درس الثورة المضادة فى المجر ، وعدم تحصينه للحزب ضد المناهج التى تشيع الانقسام الايديولوجى الذى بدأ الامبرياليون استخدامه حينئذاك كسلاح رئيسى ضد الدول الاشتراكية • وقال هوساك « أن قيادة نوفوتنى أسكرتها النتائج التى تحققت ، وقدرت تقديرا خاطئا درجة تطور المجتمع ونظرت بطريقة مثالية خاطئة الى مستواه ووحدته السياسية والمعنوية » • وانحى هوساك باللوم على دورة يناير ١٩٦٨ للجنة المركزية التى لم تقدر تقديرا صحيحا تزايد خطر القوى الانتهازية اليمينية والقوى المعادية للاشتراكية • وأعلن اصراره على « أن يقف موقف المعارضة العنيفة لتسرب المؤثرات البورجوازية والبورجوازية الصغيرة فى مجالى الثقافة والفن وقال عن الصحافة التشيكوسلوفاكية « انه ينبغى رفع مستواها المهنى حتى تصبح جذابة وملفتة للنظر ومثقفة ومسلية » •

وأعلن فى المؤتمر عن تعديلات فى لائحة الحزب ، يعقد بمقتضاها مؤتمر الحزب مرة كل خمس سنوات من الان فصاعدا ، وليس كل أربع سنوات كما هو الحال الان ، على أن تعقد المؤتمرات الاقليمية ومؤتمرات المحافظات مرة واحدة كل عامين أو ثلاثة أعوام ، وليس كل عام كما هو الحال الان • وأكد هوساك أن عملية تغيير العضوية فى الحزب اضطرت أكثر من خمس الاعضاء الى الخروج من صفوفه ، وأشار الى ضرورة الاستمرار فى مكافحة الانتهازية اليمينية والمراجعة •

وفيما يتعلق بالمجال الاقتصادى ، تستهدف الخطة الخمسية الخامسة من ١٩٧١ الى ١٩٧٥ التى اقرها المؤتمر برفع مستوى المعيشة وزيادة حجم الانتاج وفاعليته ، وسوف تساعد هذه الخطة الخمسية عن طريق تعديل البناء الصناعى للبلاد، وعن طريق التخصص على تحقيق التكامل الاقتصادى بين تشيكوسلوفاكيا والدول الاخرى الاعضاء فى الكوميكون • وقد أعلن لوبومير شتروجال رئيس الحكومة الاتحادية التشيكوسلوفاكية « ان تحقيق الاهداف التى تحددها تشيكوسلوفاكيا لنفسها ان يكون ممكنا بدون تكامل حقيقى مع الاقتصاد السوفيتى » وبدون الموقف الاممى الذى أتخذته بالنسبة للمشكلات الاقتصادية الحيوية للدول الاشتراكية الاخرى . وأشار شتروجال الى الفترة المشئومة فى عامى

١٩٦٨ و ١٩٦٩ واوضح ان قيادة الحزب فى تلك الفترة **أعادت النظر فى مفهوم تصحيح الادارة المخططة** دون أن تخضع فى اعتبارها أنها قامت بالخطوة الاولى نحو « **مراجعة شاملة للمفهوم الماركسى اللينينى كله ، المتعلق ببناء الاشتراكية** » واعرب شتروجال عن ارتياحه نظرا لان توجيهات الخطة التى نشرت مؤخرا قد أمكن وضعها فى الوقت المناسب رغم المصاعب فى التنسيق مع الخطط الاقتصادية للاتحاد السوفيتى والدول الاخرى الاعضاء فى الكوميكون » ٠

وبصدد التطورات الاخيرة للوضع الداخلى فى تشيكوسلوفاكيا قال هوساك « ان النتائج التى حققناها فى جميع المجالات خلال العامين الماضيين ، تدعم ثقتنا فى أن مؤتمرنا يمكن أن يضع حدا لمرحلة الازمة فى تاريخنا ، وأن يوجه البلاد والمجتمع نحو ازدهار الاشتراكية والوطن ٠ وأنه يمكننى القول بصفة نهائية اليوم ان **هجوم القوى المضادة للثورة قد أحبط ، والدفاع عن النظام الاشتراكى قد تحقق** » ٠

على أنه اذا كان للمؤتمر الرابع عشر للحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى تلك الاهمية غير العادية فى تاريخ الحزب ، خاصة لانعقاده بعد التجربة المريرة التى خاضها الشعب والحزب التشيكوسلوفاكى ضد قوى الثورة المضادة فى ١٩٦٨ فان ما سبق هذا المؤتمر من اعداد سياسى وفكرى وأيديولوجى له قيمته الخاصة من ناحية اغناء تجارب الحركة الثورية والاشتراكية العالمية فى مواجهة قوى التآمر والثورة المضادة ٠ ومن هذه الناحية فان الوثيقة التى صدرت فى ١٣ يناير ١٩٧١ فى تشيكوسلوفاكيا بعنوان « **الدرس المستفاد من تطور الازمة فى الحزب والمجتمع بعد المؤتمر الثالث عشر للحزب الشيوعى فى تشيكوسلوفاكيا** » تعد اضافة جديدة فى سلسلة تجارب الحركة الثورية والاشتراكية العالمية فى مواجهة قوى الثورة المضادة وبخاصة **بعد تجربة الشعب والحزب المجرى ضد الثورة المضادة فى المجر سنة ١٩٥٦** ، وتقدم هذه الوثيقة التشيكوسلوفاكية تحليلا تفصيليا للتطورات السياسية التى تلت المؤتمر الثالث عشر فى يونيو ١٩٦٦،وتبين الاسباب التى أدت الى التغييرات السياسية فىتشيكوسلوفاكيا فىيناير ١٩٦٨،كما تعالج بشكل خاص تطورات الازمة فى المجتمع التشيكوسلوفاكى فى الفترة من عام ١٩٦٨ الى عام ١٩٦٩ ٠

والتقييم الاساسى للاحداث الذى تضمنته هذه الوثيقة هو أن **الهجوم الداخلى للقوى اليمينية فى تشيكوسلوفاكيا ، يرتبط ارتباطا وثيقا بالمراكز الايديولوجية المعادية للشيوعية فى العالم** ٠ منشاطاتها الطويلة المدى ووسائلها فى التخريب الايديولوجى وفى العمليات السيكولوجية

تعليق

حركة التحرر الوطنى العربية والتحديات الاستعمارية الجديدة

توافق هذه الايام ذكرى مرور أربع سنوات على نكسة الخامس من يونيو ، والتى كان من نتائجها ان فتحت أعين العرب جميعا على واقع التخلف المادى والحضارى الرهيب الذى يعيشونه ، وهو الامر الذى كان من الطبيعى ان تفجره هزة عنيفة فى مثل عنف وحجم نكسة ٥ يونيو ٠

وفى هذه المناسبة يبدو من المفيد لحركة التحرر الوطنى العربية مراجعة حساباتها بدقة : وما تبدو فيه الصورة بعد أربع سنوات ، وحتى تتبين مواقع اقدامها وهى تمضى الى الامام على طريق التحرير ٠

لا شك ان السنوات الاربع الماضية قد شهدت تغيرات وتطورات هامة وايجابية ، كانت ابرزها اعادة بناء القوات المسلحة المصرية من جديد سواء من حيث العدد أو التجهيز على احدث فنون الحرب والتكنولوجيا العصرية ، واحباط كل محاولات اسقاط النظام وارهاب الجماهير عن طريق غارات طائرات الفانتوم الامريكية فى العمق وهدم المصانع والمدارس فوق رؤوس العمال والاطفال ، بفضل شبكة الصواريخ الدفاعية (سام ٢ و ٣) على طول جبهات القتال وحول المدن الرئيسية والمنشآت الحيوية فى الداخل فضلا عن تحقيق الصمود والبناء الاقتصادى ٠

وعلى صعيد جبهات القتال الاخرى شهدت سوريا تغيرات ايجابية مماثلة ، كما شهدت هذه الفترة كذلك بروز حركة المقاومة الوطنية الفلسطينية فى ساحة القتال على الجبهة الاردنية وداخل الاراضى المحتلة ٠٠ وبشكل عام تمكنت حركة التحرر الوطنى العربية من كسب مواقع هامة على حساب القوى الامبريالية والرجعية فى اليمن الجنوبية والسودان وليبيا ، وتصاعد الكفاح المسلح ضد الوجود البريطانى فى الخليج العربى : واشتداد ساعد القوى الوطنية والتقدمية ونمو وعى الجماهير العربية فى أتون الصراع العنيف ضد قوى الاستعمار والرجعية ٠

ولقد تحققت كل هذه الخطوات الكبيرة بفضل جماهير ٩ و ١٠ يونيو فى مصر والبلدان العربية الاخرى وصمودها الرائع وتصميمها الحازم على مواصلة المسيرة التحررية الى نهايتها ، وكذلك بفضل المساعدات الشريفة من جانب الاتحاد السوفيتى طليعة المعسكر الاشتراكى ، وتقديمه التاييد والدعم العسكرى والاقتصادى والسياسى للنضال العادل للشعوب الصغيرة والمقهورة تحقيقا لمبدأ الاممية الاشتراكية الانسانى ، فى تقديم العون الى كل الشعوب التى تكافح الطغيان الاستعمارى ومن اجل تصفية كافة اشكال التخلف والاستغلال ٠ ومن هنا كانت معاهدة الصداقة والتعاون الاخيرة بين الشعب السوفيتى والجمهورية العربية المتحدة بمثابة دعم جديد لمعركة الشعب المصرى وانطلاق لتحرير الارض المحتلة ٠

ان كل هذه التطورات قد ادت الى قلب مخططات القوى الاستعمارية والصهيونية العالمية ، وفشلها فى تحطيم حركة التحرر الوطنى العربية والنكوص بها الى الخلف ٠ الامر الذى يكشف طبيعة سياسة الولايات المتحدة فى عرقلة ايجاد تسوية سلمية عادلة لمشكلة الشرق الاوسط ، واستمرارها فى مد اسرائيل

المختلفة ، كانت مركزة عن عمد على التفتيت التدريجي لكافة القيم الاساسية للاشتراكية في تشيكوسلوفاكيا وعلى دعم نفوذ اتجاه الارتداد في الجهاز الداخلي للحزب ــ وقد اسيء تقدير خطر تغلغل الانتهازية اليمينية والارتدادية . كمــا أن العمل الايديولوجي اتسم بتسامح وتردد لا يمكن قبولهما ــ ذلك أنه حتى معاهد الحزب النظرية مثل **المعهــــد التاريخي للحــــزب الشيوعي في تشيكوسلوفاكيا ، وكلية الحزب ، ومعهد العلوم السياسية** ، أصبحت قبل عام ١٩٦٨ بوقت طويل دعاة لمفاهيم ارتدادية عديدة ٠

ومع أنه كانت هناك خلافات في الاراء في قيادة الحزب ، فان المسلك السياسي كان يحدد أساسا بموقف **أ. نوفوتني** الذي كان يرفض دون تمييز الاصوات الناقدة ٠ ولم يكن يفرق بين النقد القائم على حسن النيـــة وبين الهجمـــات اليمينيـــة ، وأوضحت الوثيقة « أن اخطاء نوفوتني ترجع الى بعض صفاته الشخصية وخرقه للقيادة الجماعية وغروره ، ونظرته الذاتية للامور وجنونه بالعظمة وشكوكه في الناس » ٠

وأوضحت الوثيقة أنه في دورة ديسمبر ١٩٦٧، للجنة المركزية للحزب ، انتقد الجزء الاكبر من أعضاء اللجنة المركزية طرق ووسائل نوفوتني في العمل والادارة ٠ كما أوضحت أن عناد نوفوتني في الدفاع عن مركزه الشخصي ، أدى الى تركيز قوة اللجنة المركزية أساسا على حل مشكلة زعامة الحزب ، بحيث لم تكشف في الوقت المناسب خطة أولئك الاعضاء في اللجنة المركزية الذين انطلقوا أساسا خلال مناقشة وتقييم الاوضاع من مواقع مناهضـــة للحزب وارتدادية مثل **أوتاسيك وف. سلافيك وسمرنوفسكي** وغيرهم ٠ وعلى أية حال فلم يستطع **نوفوتني** الحصـــول على تأييد أغلبية اللجنة المركزية ، وأعفي من منصبه ٠ وانتخب **دوبشيك** سكرتيرا اول بـــالاجماع ٠ وتقـــول الوثيقة « **ان هذا الانتخاب كان حلا وسطاء فقد** كان الكثيرون يعرفون فعلا بعض أوجه القصور فيه ، ولكن اختياره تأثر بالعلاقات القائمة وقتئذ داخل القيادة ، وكذلك بسبب الجهد المبـــذول لاختيار مرشح يمـــكن عن طريقــــه تحقيـــق الوحدة » ٠

وأوضحت الوثيقة أنه **في دورة يناير ١٩٦٨، تشكلت مجموعةمنالمرتدين اليمينيين ، كانت تعمل تحت ستار تصحيح الاخطاء على معاودة النظر في الخط العام للحزب وهدم المبادىء الايديولوجيه والتنظيمية لتركيب الحزب وتدمير البناء السياسي**

بالسلاح والمال ومساندتها سياسيا وتشجيعها على البقاء في الاراضي العربية المحتلة ٠ وقد أعلنت الولايات المتحدة في الشهر الماضي انها قررت تخصيص ٣٠٠ مليون دولار قيمة مساعدات عسكرية لاسرائيل في السنة المالية الجديدة ، مقابل مبلغ ٥٠٠ مليون دولار قيمة مساعدات في السنة المالية السابقة ، هذا في نفس الوقت الذي تقوم فيه اسرائيل بتهويد الاراضي العربية المحتلة وبناء المستعمرات والمصانع والمساكن فيها وطرد العرب منها ٠

وتلجا الولايات المتحدة في الوقت الحالي تحت ضغط الرأي العام الدولي الذي يدعو لحل مشكلة الشرق الاوسط واعادة الملاحة في قناة السويس تلجا الى استخدام اسلوب جديد يتمثل في اطلاق الوعود والتصريحات الملتوية وغير الواضحة او المحددة حول تحقيق السلام وضرورة التمسك بالمفاوضةبدل المواجهة وذلك بهدف المناورة وتخدير الراى العام الدوليوكسب الوقت ٠ وهو ما كشفت عنه زيارة وليام روجرزوزير خارجية الولايات المتحدة ومساعده سيسكو لمنطقة الشرق الاوسط في شهر مايو الماضي فقد اقترحت امريكا فصل مسالةفتح قناة السويس عن قضية الجلاء الشامل عن كل الاراضي العربية المحتلة ٠

وتعمل الولايات المتحدة في الوقت الحالي على تمهيد الظروف لتحقيق أهدافها الاستراتيجية باسلوب جديد ، كما يتضح من الاتجاهات والمحاولات الامريكية التالية :

اولا ـ الاستفادة من الاحتلال الاسرائيلي لمواصلة الضغط على البلدان العربية التقدمية ٠

ثانيا ـ تنشيط القوى الرجعية الموالية للامبريالية في المنطقة بدرجة كبيرة على نحو ما يحدث في الاردن لتصفية المقاومة الفلسطينية وتتبع نفس السياسة في جنوب السودان واليمن الجنوبية وغيرها من البلدان العربية ٠

ثالثا ـ القضاء على اتجاه العمل الوحدوي لتحرير الاراضي العربية المتمثل في قيام وتطوير اتحاد الجمهوريات العربية ٠

رابعا ـ جذب العناصر البورجوازية اليمينية واغرائها بالمعونات والاستثمارات والتجارة ٠

خامسا ـ تشويه علاقات الصداقة والتعاون بين الدول العربية والاتحاد السوفيتي ، ووضع الاستعمار الامـريكي والصهيونية في مستوى واحد مع الاتحاد السوفيتي ٠

والان وبعد مرور أربع سنوات تبدو الصورة أكثر وضوحا وتفاؤلا بالرغم من تلك الظلال والغيوم التى تفرضها التحديات الاستعمارية والرجعية الجديدة ٠

ان هذه التحديات تضع حركة التحرر الوطني العربية امام امتحانخطير ، وهي تستطيع الاستفادة من تجارب الماضيوتلافي اسباب الضعف والقصور الذاتي ، بالعمل على تدعيم وتعميق الوحدة الوطنية ومشاركة كافة القوى الوطنية الديمقراطية والاشتراكية في معركة المصير وتعبئة كافة الطاقات والكفاءات الثورية في خدمة المعركة وعزل وفضح القوى الرجعية الموالية للامبريالية والوقوف الى جانب الثورة الفلسطينية وحمايتهامن هجمات القوى الاستعمارية والرجعية ٠

وديع أمين

للمجتمع الاشتراكي لمصلحة التلقائية البورجوازية الصغيرة • ومن أجل احداث تغيير في اتجاه السياسة الخارجية للجمهورية الاشتراكية التشيكوسلوفاكية ».

وقد أظهرت دورة ابريل ١٩٦٨ للجنة المركزية للحزب بجلاء **ضعف وتفرق زعامة ما بعد يناير ، وكذلك تحول السلطة لمصلحة الجناح اليميني** • بيد أن الوثيقة أشارت مع ذلك الى أن القوى الماركسية اللينينية في اللجنة المركزية للحزب اوضحت خلال المناقشات والتطور السلبي الذي يحدث، كما أن هذه القوى نجحت في فرض رجل وطني عظيم لمنصب رئاسة الجمهورية هو **لودفيك سفوبودا** بطل الكفاح ضد الفاشية، والمثل البارز للصداقة والتحالف مع الاتحاد السوفيتي • بيد أنه عند تشكيل هيئة رئاسة وسكرتارية اللجنة المركزية والحكومة وغيرها من أجهزة الدولة ، اقترح ليتولى رئاسة الحكومة ورئاسة الجبهة الوطنية ورئاسة الجمعية الوطنية أشخاص تبين أنهم يتحدثون بأسم اليمين، وقد واصل الجناح اليميني توسيع جبهة هجماته على أجهزة الحزب •وعلى العناصر الهامة في جهاز الحزب والدولة ، والمنظمات الاجتماعية والحياة الايديولوجية وفي داخل الحزب تكون ما أطلق عليه « **المركز الثاني** » للمعارضة وهو **اللجنة الحزبية لمدينة براج** ، وقام مركز المعارضة هذا بتنسيق وتوحيد نشاطات المجموعات المختلفة للمعارضة من حيث النواحي السياسية والايديولوجية والتنظيمية •

وعلى الرغم من ذلك أشارت الوثيقة التشيكوسلوفاكية الى انه تكونت في زعامة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سلوفاكيا وفي اللجان الاقليمية والمركزية للحزب الشيوعي في سلوفاكيا كذلك بين المثقفين ، قوى شنت كفاحا مستمرا ضد نشاطات الكتلة اليمينية والمعادية للاشتراكية ، ولم تستطع القوى اليمينية في سلوفاكيا حتى أغسطس ١٩٦٨ التمكن تماما من ضم صفوفها في شكل منظم شامل ، **ويرجع السبب في ذلك الى نواة زعامة الحزب السليمة برياسة الرفيق فاسيل بلاك الذي وقف بوصفه السكرتير الاول للجنة المركزية للحزب الشيوعي في سلوفاكيا موقفا قائما على أسس من الماركسية اللينينية والدولية البرونيتارية** التي لا تتزعزع ، وعارض معارضة صريحة أهداف القوى اليمينية والمعادية للاشتراكية ، ودافع عن مواقع الحزب ، وعن روابط التحالف مع الاتحاد السوفيتي ، وبالرغم من ذلك برز وضع خطير تدريجيا في سلوفاكيا ايضا ،اتسم هذا الوضع كما حدث في الاجزاء الاخرى من الجمهورية بنشاطات القوى اليمينية والمعادية للاشتراكية •

وأشارت الوثيقة الى حقيقة ذات دلالة واضحة وهي أن **عدد العمال** بين المندوبين الذين تقرر ايفادهم الى المؤتمر غير العادي الذي تقرر عقده في اجتماع مايو ١٩٦٨ ، **لم يزد عن ٤ر١٧ في المائة** من عدد المندوبين وهو امر لم يسبق له مثيل في تاريخ الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي • ذلك انه على هذا النحو خلق الجناح اليميني الظروف للقبض على زمام السلطة في المؤتمر ، وصبغ اهدافه ومراميه بالصبغة القانونية •

كذلك فقد **كان للقوى المنطلقة من مواقع الصهيونية** ، وهي احدى أدوات الامبريالية الدولية ومعاداة الشيوعية تأثير ملحوظ في الصراع ضد الاشتراكية في تشيكوسلوفاكيا ، وكان ابرز ممثلي هذه القوى **كريجل ، وبليكان ولوستيج ، وجولدشتوكر ولبهم ، ولوبل ، وفلتر** ، وكثيرين غيرهم •

كما لعب الحزب **الديموقراطي الاشتراكي** دورا هاما في العمل الديماجوجي المعادي للشيوعية والذي يعتمد على ما يطلق عليه اسم « الاشتراكية الديموقراطية » واستهدفت النشاطات المعادية **دحض الدور القيادي للحزب الشيوعي في تشيكوسلوفاكيا واعادة القاعدة البورجوازية الديموقراطية والكنسية القديمة** ،واشترك في هذه النشاطات **أحزاب ذات صلة بالجبهة الوطنية والحزب الاشتراكي التشيكوسلوفاكي ، وحزب الشعب التشيكوسلوفاكي ، وحزب البعث السلوفاكي ، وحزب الحرية** ، كذلك لعب **المثلون الرجعيون للكنيسة الكاثوليكية** الذين كان المهاجرون الكاثوليك في الخارج يؤيدونهم تأييدا تاما ـ دورا هاما أيضا •

واوضحت الوثيقة حقيقة بالغة الاهمية ، وهي أن **الحزب الشيوعي في تشيكوسلوفاكيا لم يعد ـ تدريجيا ـ في عام ١٩٦٨ المركز القيادي للنظام الاجتماعي** • فتحت ثقل الاتجاه الى الارتداد فقد

الحزب طابعه الماركسى اللينينى الامر الذى جعل من المستحيل أن يوطد دوره القيادى فى المجتمع ونتيجة للتخلى عن مبادىء المركزية الديموقراطية فأن الحزب جرد تدريجيا من القدرة على العمل، وابعدت اللجنة المركزية للحزب ككل عن اتخاذ القرارات فى الشئون الاساسية التى هى من اختصاصها وحدها وفقا للائحة الحزب .

كذلك أوضحت الوثيقة انه كان من بين **المراكز السياسية والايديولوجية للجناح اليمينى ، الاكاديمية السياسية العسكرية** التى انبثقت منها فى ١٩٦٨ مذكرة رسمية تطالب باعادة تقييم مبادىء الحزب والدولة فيما يتعلق بالسياسة العسكرية ، وتطالب بتعديل النظرية العسكرية التشيكوسلوفاكية على أساس اعادة النظر فى علاقة تشيكوسلوفاكيا بحلف وارسو .

وبالاضافة الى كل ذلك **فان الحلقات الحاسمة فى السلطة التنفيذية والتشريعية فى تشيكوسلوفاكيا ، كفت تدريجيا عن تأدية رسالتها الطبقية فى النظام السياسى** للدولة الاشتراكية ، وحصلت القوى اليمينية الانتهازية والمعادية للاشتراكية على مركز أساسى فيها ، واستخدمت هذه المراكز لاحباط كل محاولة يقصد بها وقف وتفادى التطور المدمر . وبالمثل فان أجهزة السلطة فى جهاز امن الدولة والقضاء والجيش شلت ولم تعد تديرها الاجهزة القيادية فى الحزب والدولة ، وركزت القوى اليمينية جهودها بعد يناير ١٩٦٨ **على تحويل الجبهة الوطنية الى تجمع سياسى يتنكر للدور القيادى للحزب الشيوعى فى تشيكوسلوفاكيا . وعمل الجناح اليمينى على تجريد النقابات من محتواها ورسالتها الطبقية ،** وتمزيق وحدة الحركة النقابية . والدعوة الى مبدأ « **نقابات بلا شيوعيين** » ، وانكار المبادىء اللينينية بشأن تنظيم النقابات ونشاطها التعليمى فى ظل الاشتراكية ، ونصيبها فى المسئولية عن تطوير الاقتصاد الاشتراكى .

والنتيجة التى توصلت اليها الوثيقة فى النهاية هى « **أن التقييم الموضوعى والعلاقات المتداخلة للازمة العميقة التى وجد الحزب الشيوعى فى تشيكوسلوفاكيا هو والمجتمع التشيكوسلوفاكى بأسره أنفسهما فيها فى عام ١٩٦٨ تقدم الدليل الذى لا يدحض على أن القوى الداخلية التى كانت قد شلت بسبب سياسة ممثلى اليمين فى زعامة الحزب ، كانت غير قادرة على تعبئة نفسها وايقاف الهجوم الذى شنته الثورة المضادة . وبالتالى فأن دخول القوات الحليفة الى تشيكوسلوفاكيا فى ٢١ أغسطس ١٩٦٨ كان هو الحل الوحيد المطلوب والسليم** » . على أن القوى المضادة للثورة لم توقف نشاطها بعد ٢١ أغسطس وانما صعدت جهودها عن طريق وسائل الاعلام الجماهيرية لتصبح عاصفة جامحة من الديماجوجيا التعصبية بهدف منع المواطنين التشيكوسلوفاك من تمييز الخط الفاصل الصحيح للكفاح الطبقى .

الا أن عناصر الثورة المضادة لم يتح لها وقت طويل للتمتع ببعض النجاح الذى حققته هذه العناصر بعد أغسطس ١٩٦٨ . أذ كانت تقديراتهم وآمالهم **بالموافقة على المعاهدة الخاصة بالاقامة المؤقتة للقوات السوفيتية فى الجمهورية الاشتراكية التشيكوسلوفاكية التى وافقت عليها الجمعية الوطنية فى ١٨ أكتوبر ١٩٦٨ . فقد كانت الموافقة** على هذه المعاهدة عاملا سياسيا وسيكولوجيا هاما أعاد للشيوعيين الحقيقيين والاتباع الشرفاء للاشتراكية الطمأنينة ودفعهم الى الصراع لتطهير ودعم كافة القيم الاشتراكية . كذلك كان الامر بالنسبة للمعونة الفعالة الاخرى التى قدمها الاتحاد السوفيتى وكان لها طابع شامل وبخاصة التوريدات الغير عادية من الحبوب والبترول والمعادن غير الحديدية الثمينة وغيرها من المواد الخام .

هذا وقد خلقت الجهود الهادفة للقوى الماركسية اللينينية داخل الحزب ، الشروط الضرورية للتغييرات الاساسية التى كان لابد من القيام بها فى الزعامة ، وفى سياسة الحزب خلال الدورة العامة للجنة المركزية للحزب فى ابريل ١٩٦٩ ، والتى استقبلت نتائجها بالرضا والموافقة من غالبية الشيوعيين التشيكوسلوفاك .

وأوضحت الوثيقة أن **عزل دوبشيك من أعلى منصب فى الحزب وانتخاب هوساك فى منصب السكرتير الاول للجنة المركزية للحزب الشيوعى فتح مرحلة جديدة حدثت فيها تغييرات ذات مستوى نوعى فى علاقات القوى داخل الحزب .**

والجدير بالذكر أن الرفيق **ليونيد بريجينيف** السكرتير العام للحزب الشيوعى السوفيتى ، أشاد فى خطابه فى المؤتمر بالحزب التشيكوسلوفاكى

ويقائديه « جوستاف هوساك ، ولودفيك سفوبودا اللذين أثبتا خلال احد المواقف المعقدة وطنيتهما الحقيقية وايمانهما بالاممية الاشتراكية » وقال بويجنيف : « ان الجميع يعلمون الان أن حزبكم قد انتصر على التجارب العصيبة التى خاضها فى السنوات الاخيرة ، وأنه خرج بشرف من نضاله ضد « الهيستيريا المعادية للاشتراكية » ومن تعصب القومية البورجوازية المسعورة اللذين تنشرهما القوى المعادية للثورة فى الداخل والخارج . كذلك أوضح اريك هونيكر الذى تولى زعامة الحزب الاشتراكى الالمانى الموحد بعد الزعيم السابق فالتر أولبريشت فى كلمته فى المؤتمر : « أن كل محاولة لابعاد دولة اشتراكية عن مجتمع الدول الاشتراكية مصيرها الفشل » .

أما الرفاق التشيكوسلوفاك فقد تحدثوا على لسان الرفيق سفوبودا « عن العون الاخوى الدولى الذى قدمه الاتحاد السوفيتى وغيره من دول حلف وارسو والذى انقذ تشيكوسلوفاكيا من الفوضى واراقة الدماء » ، واشاد سفوبودا « بالصداقة السوفيتية التشيكوسلوفاكية باعتبارها ضمانا لامن واستقلال تشيكوسلوفاكيا » واوضح « أن حزبنا لن يسمح بعد الان مطلقا بالاساءة الى هذه الروابط ، وأن الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى أصبح من جديد كتيبة أساسية فى الحركة الشيوعية الدولية ، وان المؤتمر الرابع عشر للحزب يعد مرحلة هامة فى حياته » .

●

■ فن تشكيلى ■

معرض الانسان وأسلحة الدمار

فى قاعة اخناتون .. عرض وجدى حبشى ٢٦ لوحة زيتية تجمع بين التشخيصية والتجريدية فى موضوعات تدور حول المرأة سوى لوحة واحدة تحت عنوان « شمس لا تغيب » بلور فيها مشاعره نحو رحيل الزعيم الخالد .. ومن بين الاسماء التى تخيرها للوحاته الاخرى : ليلة الزفاف . آدم وحواء .. العذراء .. حنان . وقد لوحظ أن الفنان تخلى فى معرضه الاخير فى تعبيريته الديناميكية التى سادت معارضه السابقة واتجه الى التبسيط الزخرفى ومعالجات خيط العنكبوت التى تتداخل فيها الخلفيات والاماميات . كما عنى الفنان بلصق الخيش وتلوينه بحثا عن ملامس جديدة . الا أن استخدامه للخيش والخشب والزجاج ، لم تكن له وظيفة تشكيلية تعاون على ابراز المضمون الذى عنى الفنان بالتعبير عنه .

وعرض حسن عبد الفتاح خمسة وعشرين لوحة زيتية من الاحجام المتوسطة على هيئة تشكيلات تجريدية مشتقة من الوحدات الاسلامية كزخارف الابواب والعقود ، بالاضافة الى مجموعة لوحات ورقية بألوان الجواش تصور المبانى الاثرية الاسلامية . واعتمد الفنان فى تشكيلاته الى التراكيب الهندسية من الخطوط غير المنتظمة والدوائر ومع أنه لم يضع أسماء للوحاته الا أنها أسفرت عن روح شرقية شعبية تنبع الوانها من المصنوعات الشعبية ويعتبر هذا المعرض من أنواع معارض البحث الجمالى التشكيلى البعيد عن التعبيرات الموضوعية .

أما احمد نوار فعرض تشكيلات من النحت والتصوير والحفر . واستهل كتالوجه بكلمة قال فيها : ان مضمون أعمالى يدور حول الحرب وصراع الانسان ضد أسلحة الدمار . ومن الجدير بالذكر أن الفنان عائد من الجبهة بعد أن حصل على وسام بطل الجيش فى الاشتباكات التى خاضها فعلا وتأثر بها حتى استطاع التعبير عنها فى معرضه الاخير مستعينا بمهارته المعروفة منذ تخرجه بدرجة الامتياز فى كلية الفنون الجميلة واشتغاله بالتدريس بها . اما تماثيله فكانت من نوع التركيب والتجميع من مخلفات الطلقات والقنابل والشظايا ، تعبيرا عن تحول الانسان ذاته الى أداة حرب وعن تعرضه للدمار المحقق واصراره على القتال فى سبيل الحق . وتدخل أعمال نوار جميعها فى اطار التعبيرية المجردة المفهومة التى تدعو الى السلام والتعايش السلمى واصرار الانسان على نصرة الحياة .

وفى قصر المسافر خانة بالازهر .. اقام محمد حسنين معرضه الاول بعد عودته من اوربا فى جولة استغرقت سبعة شهور اتضح اثرها على لوحاته الزيتية الخمسين ذات الاحجام الصغيرة . فقد ازدادت خطوطه حركة ودخلت عوامل تجريدية

على تشخيصاته الشعبية المعروفة • لم يسجل بدوره اسماء لموضوعاته لكنها جميعا كانت تدور حول الحياة فى الاحياء الشعبية القاهرية فى تراكيب واضحة المعنى تطرقها عناصر لونية جديدة مضافة الى ألوان الاصفر والبنى التى اعتاد الفنان أن يبدع بها لوحاته السابقة ذات الاحجام الكبيرة وقد أقام معرضه فى مرسمه الخاص فى قصر المسافرخانة الاثرى الذى منحتــه وزارة الثقــافة لنخبة من الفنانين حتى تتيح لهم فرصة الابداع الفنى فى ظروف ملائمة من حيث العلاقة بالحياة العامة والتراث المحلى •

أما صلاح طاهر فاقام معرضا لاخر ابداعه فى التصوير فى قاعة مركز الخدمة الاجتمـاعية بالجامعة الامريكية • استخدم فى لوحاته الـ ٦٦ مدخلا جديدا للتشكيل المؤسس على تكويــن المجموعات الانسانية فى ترابط مع العنــاصر الطبيعية ، مع فارق هام يكمن فى أن الطبيعة التى يراها الفنان بخياله تختلف عن تلك التى يراها الشخص العادى من حوله • لم يمنح صلاح طاهر أسماء للوحاته ولم يقدم كتالوجا ، لكن أعماله تميزت بالدرامية الواضحة حيث تحول التجريد عنده الى موضوع لا يستهدف ذاته كما كان الحال فى معارضه السابقة • كما أن بعض ابداعه قابل للتنفيذ كديكورات مسرحية للباليه او منحوتــات خشبية وتراكيب من الحديد •

بالاضافة الى المعارض المصرية ، اقيمت فى القاهرة معارض لفنانين أجانب ، بعضهم مقيم فى ج • ع • م ، والبعض الاخر وافد فى زيارة فنية عابرة :

كريستينا شتوزمن التى درست فن التصوير فى المانيا الغربية ومقيمة فى مصر منذ بضع سنوات ، اقامت معرضها الاخيــر بقاعة معهد جوتــه حيث قدمت ٥٠ لــوحة زيتيــة معظمهــا صــور شخصية « بورتريه » والقليل منها تكوينات مــن الطبيعة الصامتة والمناظر الطبيعية • ويعتبــر تصويرها من المدرسة التعبيرية الالمانية المتجه أحيانا الى التكعيبية • ففى تكوينات الطبيعــة الصامتة قامت الفنانة بالتحوير وتسجيل زوايا متعددة للمنظور ، والاعتماد على توافق الالوان الهادئة • أما فى صور الوجوه ، فـاستخدمت سكين المصور لتضع ألوانها على هيئة عجينة سميكة مما منح الوجوه ملامح درامية التعبير •

اما الفنانة اليوغوسلافية ديسانكا ستانيش فقد درست التصوير فى أكاديمية بيلوجراد ومقيمة فى مصر منذ عام واحد ، درست خلاله الفن الفرعونى ثم قدمت فى قاعة اتيلييه القاهرة ٢٧ لوحة عبرت فيها عن مشاعرها تجاه مصر • واختارت للوحاتها أسماء رمزية مثل : محور الوجود •• بــاب الخلود •• نظرة على الماضى •• الروح السابحة ، وجميعها بالالوان الزيتية وبأسلوب رمزى تعبيرى يمكن مقابلته بالقصائد الشعريــة ، ومن اليسير قراءته وتفسيره حيث تمتد رمزية الفنانة الى كل من العناصر التشخيصية والالوان ، فى تعبير عن احلام الانسان المعاصر وتطلعاته الى عالم أكثــر هدوءا وصفاء • وعبرت فى بعض اللوحات عن جزعها من المستقبل الذى يهدد البشرية كما يتضح فى لوحتى جبل الموتى واقتراب الخوف •

ومن تشيكوسلوفاكيا عرض الفنان الكبيــر فرانشك بيروديك ٢٤ لوحة زيتية فى قاعة المركز التشيكى بأسلوب تجريدى تعبيرى متكامل مع عدم التقيد بتوافق الخطوط والالوان ، مما يــذكرنا بالاسلوب الموسيقى المسمى « كونتربوينت » كمــا انها تعنى بالجو العام الذى يوحى أحيانا بالانفعال أو الحماسة أو الرغبة ، فى تعبير بليغ عن ذات الفنان وذات الموضوع الذى يدور غالبا حول المرأة ونفسيتها دون تحذلق فى وضــع اللمســات ، أو الخطوط التى تميل الى العفوية مع الاهتمــام بالتكوين أحيانا والتركيز على التلوين أحيــانا أخرى •

اما جمهورية المانيا الديمقراطيــة فقد احتفلت بمرور ٥٠٠ عام على مولد فنانها الكبير البرشت دورر بأن أقامت لاعماله معرضا ضخما فى قاعة الفنون الجميلة بالقاهرة •• ومن المعروف أن دورر من أعظم الفنانين الانسانيين فى العالم ، اذ أنه عبر عن كل الاتجاهات المتقدمة عن عصره وأدرك مسئوليته فى التقدم الاجتماعى ، حتى أن أعماله كانت وثيقة الصلة بالطبيعة الشعبية وساهمت فى تشكيل العصر الذى عاش فيه •



مدخل الى الاشتراكية

■ تاليف :

ليوهيوبرمان - بول سويزى

■ مع مقدمة :

لالبرت اينشتين

■ عرض :

كمال السيد

■ الناشر :

مودرن ريدر - نيويورك
ولندن - ١٩٦٨

الاشتراكية فى أمريكا « بعبع » يخيفون بـه الاطفال ، أو هى كلمة جعلتها أجهزة الاعلام هناك « كلمة كريهة » بالفعل منجمهرة الامريكيين ، ومن ثم تصبح محاولة اثنين من الامريكيين همـا : ليوهيوبرمان،وبول سويزى، لشرح معنىهذه الكلمة لجمهور معاد لها مسبقا ، محاولة تستحق التتبع والتحية •

وكما يقول غلاف الكتاب فربما كان هـذان المؤلفان هما خير من يصلح لهذا العمل فـى الولايات المتحدة ، اذ توليا طوال عقدين تحرير ونشر مجلة « منثلى ريفيو » الصحيفة الاشتراكية ، مما جعلهما قادرين تماما على أن يتناولا بلغـة مباشرة وواضحة العناصر الاسـاسية للتفكير الاشتراكى ، ويقدماها الى قارىء لا يدرى عن الموضوع شيئا •

وتكمن عبقرية هذين الكاتبين ، كما تقول اللجنة الايطالية لجائزة «تشيتا دى أوميتيا» عنـدما منحتهما جائزتها (وسبق منحها لسارتر ، وجونتر اندرس ، وفرانز فانون) فى « التزامهما بالانسانية الماركسية • وبالنضال العـالمى ضد رأس المال والامبريالية • فليس هناك رأى أو حدث لم يجد له

فى أعمال هيوبرمان ، وسويزى تفسيرا ثقافيا راقيا ، ولقد كان هيوبرمان يشغل منصب رئيس قسم العلوم الاجتماعية فى الكلية الجديدة فى جامعة كولومبيا ، ومحررا فى عدد من الصحف . أما سويزى فكان عضوا فى قسم الاقتصاد فى جامعة هارفارد ، كما عمل فى جامعات انجلترا وفرنسا وألمانيا ، وأستاذا زائرا فى عدة جامعات امريكية ، ومن ثم فهما من المتخصصين تماما فى الموضوع ، ولذلك جاء عملهما مقنعا .

مقدمة أينشتين

قليلون منا من يعرفون ان لالبرت اينشتين صاحب نظرية النسبية اهتمامات أخرى غير الرياضيات ، خاصة فى المجالات الاجتماعية والسياسية . ولكنه يوضح فى مقدمته أن ابداء الرأى فى مسألة الاشتراكية ليس حكرا على المتخصصين فى المسائل الاقتصادية والاجتماعية، بل ويدعو كل الناس الى ابداءرأيهم ،ويدين موقف السلبية واللامبالاة . ويروى كمثال لذلك نقاشا أجراه مع أحد المثقفين ، أبدى فيه اينشتين اشفاقه من نشوب حرب أخرى قد تقضى على الوجود الانسانى نفسه ، ففوجىء بمحدثه يرد عليه ببرود وهدوء متسائلا عن سر انزعاج اينشتين من القضاء على الجنس البشرى .

ويرجع الكاتب سبب هذا الموقف الغريب الى فشل الانسان الحديث فى تحقيق توازن داخلى ويأسه من ذلك . وأن هذا تعبير عن الوحدة المؤلمة والعزلة التى يعانيها الكثيرون فى هذه الايام بسبب عجز الفرد عن أن يوفق بين احتياجاته الفردية واحتياجاته ككائن اجتماعى . أن سر الازمة يكمن عند اينشتين فى علاقة الانسان بالمجتمع ، فقد أصبح الانسان ، أكثر ، منه فى أى وقت مضى ، واعيا باعتماده على المجتمع . ولكنه لا يحس أن هذا الاعتماد ، اعتماد ايجابى ورابطة عضوية وقوة حامية له ، بل على النقيض من ذلك يحس به تهديدا لحقوقه الطبيعية ، بل ولوجوده الاقتصادى » ومن ثم تتفاقم الدوافع الانسانية ، وتضعف الدوافع الاجتماعية عند الانسان الحديث « بسبب الفوضى الاقتصادية فى المجتمع الرأسمالى ، الناجمة عن الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، مصدر كل الشرور » . اذ أن ملاك الانتاج فى وضع يمكنهم من شراء قوة العمل ، بثمن لا يتحدد وفق قيمة السلع التى تنتجها،بل وفق الحد الادنى من الاحتياجات اللازمة للحفاظ عليها » . وفى حين يتم العمل جماعيا ، يتم تملك ثماره فرديا . ويتم الانتاج لا لتحقيق الحاجات الانسانية ، بل لتحقيق الربح ، ومن ثم يحدث ما يلى :

● نشوء أوليجاركية رأس المال الخاص التى لا تجدى فى مواجهتها ما يسمى بالديمقراطية السياسية ،فأعضاء البرلمان تختارهم أحزاب يمولها ويسيطر عليها رأس المال .

● ليس هناك امكانية فى أن يحصل كل الراغبين فى العمل والقادرين عليه على وظائف ، ويحيا العمال فى خوف دائم من البطالة .

● انخفاض اجور العمال لا يخلق سوقا مجزية لاستهلاك السلع المنتجة ومن ثم تنفجر الازمات بكل شرورها على النفس البشرية .

ويرى اينشتين أن الطريق الوحيد الى الخلاص هو « اقامة اقتصاد اشتراكى ، يصحبه نظام تعليمى يتوجه الى اهداف اجتماعية . وفى هذا الاقتصاد يتملك المجتمع وسائل الانتاج ويستخدمها بطريقة مخططة ، للمواءمة بين الانتاج وبين حاجات المجتمع » . وفى ختام المقدمة يقول الكاتب ان تحقيق الاشتراكية يتطلب حل بعض المشاكل الاجتماعية والسياسية الصعبة مثل كيف يمكن فى ظل المركزية المفرطة للسلطة السياسية والاقتصادية ، منع تسلط البيروقراطية ، وحماية حقوق الفرد .

ألف باء الاشتراكية

تعتبر طريقة هيوبرمان ، البسيطة والمتدرجة ، ملائمة تماما لطرح موضوع الاشتراكية على قراء يعتبرونها « اداة للشيطان » . وهو لا يطلب منهم أكثر من فهمها أولا ، قبل محاربتها أو الدفاع عنها ، حبها أو كرهها .

ويبدا الكاتب مسيرته بمناقشة مشكلة الصراع الطبقى الناجمة عن انقسام المجتمع « الى طبقة تعيش بالتملك ، وأخرى تعيش بالعمل » وأن الاولى تستخدم الثانية لتحقيق مصلحتها ، الامر الذى يخلق تعارضا لا شفاء له . فالملاك « تحتل الملكية عندهم المحل الاول وبعد ذلك تجىء الانسانية ، فى حين أن هذه الاخيرة تحتل عند العمال المحل الاول ، الذى تأتى بعده الملكية » . ومن ثم فالصدام حتمى وليس هناك مجال للحديث عن « التناسق والانسجام » بينهما .

ويروى هيوبرمان قصة الانفجار الذى حدث فى ٢٥ مارس ١٩٤٧ فى أحد مناجم شركة سنتراليا فى ولاية ايلنوى بامريكا ، والذى راح ضحيته ١١١ عاملا،والذين كانوا قدارسلوا فى٩مارس رسالة الى دوايت جرين حاكم الولاية يقولون فيها « السيد الحاكم ، هذه شكوانا نرفعها اليك ، نرجوك أن تنقذ حياتنا ، بأن تجعل مصلحة المناجم تنفذ القوانين على المنجم رقم ٥ فى شركة سنترالبا للفحم ، قبل أن يحدث انفجار فى هذا المنجم كما

حدث فى كنتكى وفى غرب فرجينيا » • ومع ذلك لم يحرك أحد ساكنا وحدث الانفجار وعندها فقط تم تشكيل لجنة تحقيق سألت أصحاب المنجم عن سبب عدم اتخاذ احتياطات الامن الصناعى ، فأجابوها أن ذلك كان للتوفير . ويعقب هيوبرمان على القصة بأن « الدولار فى مواجهة الحياة ، والدولار هو الذى ينتصر » •

ثم ينتقل هيوبرمان الى الحديث عن فائض القيمة فيقول إن قيمة قوة العمل تتحدد مثل اية سلعة أخرى بكمية العمل اللازم اجتماعيا لانتاجها ، وأن مصدر ثراء الرأسمالى ليس فى تبادل السلعة ، بل فى انتاجها الذى يكفل له الحصول على فائض القيمة وهو الفرق بين الاجر المدفوع للعامل وبين القيمة المضافة التى خلقها بعمله • وتتراكم هذه الثروات وتنشأ الاحتكارات ، وظهورها فى الولايات المتحدة قديم يرجع الى ١٨٧٥ ، وتبدأ فى فرض استبدادها ، فالرئيس الامريكى جروفر كليفلاند يحذر فى ١٨٨٨ من ان « رأس المال المتكامل يسحق تحت عجلته الحديدية المواطنين ، لقد أصبحت الاحتكارات سيدا للمواطنين بدلا من أن تكون خادما لهم » . ويضرب هيوبرمان الامثال على السيطرة الاحتكارية ، فيقول أن ثلاثة شركات هى جنرال موتورز وكرايزلر وفورد تنتج ٩٠٪ السيارات ، وأن أربع شركات دخان تنتج ٨٤٪ من الانتاج ، وأربع شركات مطاط تنتج ٩٣٪ ، وثلاث شركات صابون تنتج ٨٠٪ ، وشركتين للزجاج تنتجان ٩٥٪ (•)

ويوضح هيوبرمان انه فى الوقت الذى كثر فيه الحديث عن « الشر المتنامى » للاحتكارات ، فان القليل قد تم عمله ، واستمر قائما ذلك « النظام الذى يجعل الفقير أشد فقرا ، والغنى أكثر غنى » • فالعامل يتم افقاره حيث أن الرأسمالى لا يدفع له ما يساوى انتاجه ، والمستهلك يتم افقاره لان الاحتكار يرفع الاسعار باستمرار ، والفلاح يتم افقاره لتدهور الاسعار المدفوعة ثمنا لانتاجه • أما حملة الاسهم والسندات فيثرون بتلك الارباح الضخمة التى يحصلون عليها دون ما مبرر من جهد ، وعمل •

ويقدم الكاتب صورة ناطقة عن التفاوت المزرى فى توزيع الدخول فى « أمريكا القوية » صورة تبين « الحياة البائسة للاغلبية » • ويقتبس قول روزفلت عن أن ثلث الامة الامريكية لا يجد سكنا أو تعليما أو غذاء لائقا • كما يورد ما جاء فى رسالة جونسون الى الكونجرس فى ١٩٦٧ عن أن ٦٠٪ من أطفال الفقراء لم يروا طبيب الاسنان و ٦٠٪ من المرضى منهم لا يجدون العناية الطبية ، وأن معدل وفاتهم أعلى من معدل وفيات أطفال الاغنياء بنسبة ٥٠٪ ؟ وذلك خلال العام الاول من العمر •

ان السمة الاساسية للمجتمع الراسمالى هى التفاوت الهائل فى توزيع الدخول • وفى هذا الصدد يورد هيوبرمان تقريرا نشره مكتب الاحصاء فى ١٩٦٦ جاء فيه : أن ٢٠٪ من الاسر الواقعة فى أعلى سلم الدخول تحصل على ٤٠٪ من اجمالى الدخل ٪ فى حين أن ٦٠٪ من الاسر والواقعة عند أسفل السلم تحصل على ٣٥,٥٪ من الدخل ، أى أن خمس عدد الاسر يزيد ما يحصل عليه عن نصيب ثلاثة أخماس عدد الاسر . ثم يناقش الكاتب سخف الفكرة القائلة بأن الضرائب تتكفل بتقريب الفوارق بين الدخول ، بأن يدفع الاغنياء ضرائب أكبر ، ويستشهد فى ذلك بمقال للسناتور جور من تينسى نشره فى نيويورك تايمز فى أبريل ١٩٦٥ بعنوان « كيف تكون غنيا ولا تدفع الضرائب » . ففى ذلك المقال يقول الكاتب «ان دافع الضرائب النموذجى الذى يصل دخله الى مليون دولار أو يزيد ، يدفع من دخله نسبة تقل عما يدفعه العمال فى المصانع » •

ويرجع الكاتب السبب فى أزمات فيض الانتاج الى حقيقة أن دخل الجماهير قليل بدرجة لا تسمح باستهلاك انتاج الصناعة المتوسعة ، ولا تجد الثروات المتراكمة لدى القلة فرصتها فى الاستثمار والانتاج لان السوق تصبح ضيقة ومحددة بسبب فقر الغالبية • لقد تمكنت الراسمالية من حل مشكلة الانتاج الواسع ، ولكنها لم تحل مشكلة الاستهلاك الواسع • أن التناقض الذى تواجهه الرأسمالية يتمثل فى أنها لكى تحصل على أقصى الارباح لابد لها من تقليل الاجور ، ولكى تبيع انتاجها عليها أن تزيد الاجور •

ويناقش هيوبرمان فى بساطة رائعة كيف أن الرأسمالية رفيق دائم للحرب والسيطرة الاستعمارية ، بحثا عن أسواق لتصريف السلع المصنوعة ،واستيراد المواد الخام ، وتصدير رأس المال ،ويستشهد بقول الرئيس الامريكى تافت «على سياستنا الخارجية ، أن تقوم بتدخل فعال ونشيط لضمان فرص الاستثمار المربح للسلع والرأسماليين الامريكيين » ، ودور الدولة فى العدوان الخارجى وتمهيد الطريق لرأس المال معروف ، أما دورها فى الداخل فهو « تمكين المالكين من أن يحيوا بلا عمل ، ومن ان يحددوا ما اذا كان غير المالكين سيعملون وفى أية ظروف • ان الدولة تقيم علاقة تشبه علاقة السيد والخادم » • وكما يقول آدم سميث فى كتابه «ثروة الامم » طالما تم تشكيل الحكومة لخدمة الملكية ، فأنها ستدافع عن الاغنياء ضد الفقراء • بل أن

وَدْرُو ويلسون الرئيس الأمريكى السابق للولايات المتحدة يعلن فى ١٩١٣ « اذا ذهبت الى واشنطن للاتصال بالحكومة ، فستكتشف ان الذين يصفون اليك فى أدب ، هم كبار المصرفيين والصناعيين والتجار ، فسادة الحكومة فى الولايات المتحدة هم الرأسماليون والصناعيون المتحدون » .

العجز والسفه والجور

فى الفصل الثانى يناقش هيوبرمان بالوقائع والارقام عجز وسفه وجور الرأسمالية « فزيادة قدرة الانسان على الانتاج لم تؤد كما كان مفروضا الى القضاء على الفقر والحاجة فى الولايات المتحدة أكبر وأغنى قوة منتجة فى العالم » للاسباب التالية :

● انها لا تستغل كامل طاقتها الإنتاجية ، ففى سنوات الازدهار يظل خمس الطاقة عاطلا ، وترتفع النسبة الى النصف ابان الأزمة .

● الاستخدام غير الرشيد للعمالة ، اذ لا يقدم النظام الرأسمالى عملا لكل راغب فيه قادر عليه ، فضلا عن أنه يبدد طاقات كثير من العاملين فى أعمال طفيلية غير منتجة ، كالاعلان والسمسرة والترويج والوساطة والوكالة . كما انه يترك الافا من القادرين عقليا وجثمانيا يعيشون بدون عمل اعتمادا على ملكيتهم .

● ينتج النظام الرأسمالى كثيرا من السلع الكمالية ، فى حين أنه لا يوفى الضروريات حقها . بل انه فى سعيه للربح ورفع الاسعار لايتورع عن أتلاف السلع والمحاصيل حتى لا تهبط اسعارها ، فقد تم صب الكيروسين على البطاطس ، وحرق ثلث انتاج البن ، وتركت الفواكه على الاشجار لتتعفن ، وسكب اللبن فى الإنهار .

● الحروب الدورية التى تتكلف الكثير من الاموال والاعمار . فالحرب الاولى مثلا تكلفت ٤٠٠ بليون دولار ، وهذا مبلغ كان يكفى « لاعطاء ٣٠٠ دولار ، وقطعة ارض لكل أسرة فى أمريكا وانجلترا وفرنسا وألمانيا وايطاليا والمجر وبلجيكا والنمسا » أو يكفى لتشغيل « كل مستشفيات امريكا لمدة ٢٠٠ سنة ، ومدارسها لمدة ٨٠ عاما » . وحتى فى الحروب ليس هنا ما يسمى « بالدوافع الوطنية » للرأسمالية ، بل ان اعتبارات الربح هى الاساس .

● أما الصورة المثلى لعدم الرشد فهى عدم وجود خطة وشيوع فوضى الانتاج والأزمات الدورية .

● أما من الناحية الاخلاقية فالرأسمالية تقسم المجتمع الى طبقات متحاربة بدلا من جعله « أمة واحدة » كما أنها بجعلها الربح الحافز الاول « تهدر كل القيم الانسانية والاخلاقية .

● ويتبدى عدم العدالة فى أن « المحتاجين ليسوا أحرارا » كما يقول الرئيس روزفلت فى رسالة الى الكونجرس فى ١٩٤٤ ، وفى جعل طبقة طفيلية تعيش على حساب العاملين بحجة أنها « تخاطر برأسمالها فى الانتاج » فى حين أن الواقع يبين أن العمال يخاطرون بحياتهم فى الانتاج ، ففى كل نصف ساعة يموت عامل باصابة عمل ، وفى كل ١٧٫٥ ثانية يجرح آخر » .

وهكذا يمضى هيوبرمان من موضوع الى آخر ، عارضا المقولات الرئيسية فى الفكر الاشتراكى فى ضوء الواقع الامريكى ، فى بساطة وعمق جديرين فعلا باقناع كل من يقرأ هذا العمل بأن الرأسمالية الى زوال وأن المستقبل كله للاشتراكية .

برنامج اقتصادى لامريكا

ساهم بول سويزى فى هذا الكتاب بمقالين أولهما بعنوان « الاشتراكية الماركسية » عارض فيه بأستاذية سهلة المكونات الاساسية لفكر ماركس مبينا « أن الاشتراكية هى النظام الذى سيخلف الرأسمالية ، وأن الفرق الاساسى بينهما ، يتمثل فى الغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج . أما الملكية الخاصة لسلع الاستهلاك فلا تلغى ، بل على النقيض من ذلك تعمل الاشتراكية على زيادتها » . ويؤكد سويزى أنه ليس هناك جمود فى شكل الملكية ، وانما المسألة الاساسية هو أن تتملكها هيئة عامة : الحكومة المركزية ، أو الحكم المحلى أو بعض الهيئات العامة ، أو التعاونيات ، بل ويقول سويزى انه فى ظروف معينة يمكن السماح بالملكية الخاصة فى الاعمال الصغيرة . والفكرة الجوهرية التى يؤكدها الكاتب أن الملكية العامة وحدها لا تكفى ، وانما لابد وأن يصحبها تخطيط اقتصادى ، يكفل تنسيق نشاط وأعمال الهيئات العامة لاشباع الحاجات المتزايدة لكل الناس .

وفى المقال الثانى وهو بعنوان « برنامج اقتصادى لامريكا » يعرض سويزى المشاكل التالية التى تواجه أمريكا وهى : ١ ــ كيف يتم اصلاح الاقتصاد حتى لا يعتمد ازدهاره وتقدمه على الحرب والاعداد لها ؟ .. ٢ ــ كيف يمكن تحقيق توزيع اكثر عدلا وسلامة للدخل القومى ؟ .. ٣ ــ كيف يمكن ضمان رفاهية وحياة المسنين والعجائز والمرضى ممن لا يستطيعون أن يتولوا أمورهم بأنفسهم ؟ ٤ ــ كيف يمكن صيانة الثروات والموارد

الطبيعية ، والقضاء على التبديد في الانتاج والتوزيع ؟ .. ٥ ــ كيف يمكن القضاء على استغلال الاحتكارات للعامل والفلاح والمستهلك ؟
ويؤكد سويزى أن أيا من هذه المشاكل لا يمكن حله فى ظل الرأسمالية ، بل لابد لمواجهتها من تشريك وسائل الانتاج والاعتماد على التخطيط فى استغلالها ، لاشباع الحاجات « فالفرق الاساسى بين الرأسمالية والاشتراكية ، هو أن تخصيص الموارد يتم فى ظل الاولى خاصة تقسيمها بين انتاج وسائل الانتاج، وبين سلع الاستهلاك ــ نتيجة لملايين القرارات للرأسماليين الذين يعملون من اجل مصلحتهم الخاصة ، وكل واحد منهم مستقل عن الاخر ، فى حين أن تخطيط عملية تخصيص الموارد فى الاشتراكية يتم مقدما لاشباع الحاجات الاجتماعية »

والواقع أن الكتاب بأسلوب عرضه ، والنقاط التى اختارها لمناقشتها ، يؤكد تماما أن الشهرة التى حظى بها هيوبرمان وسويزى لها ما يبررها تماما ، وأن عملهما الدءوب فى مجال نشر الفكر الاشتراكى قد أكسبهما خبرة جعلتهما قادرين تماما على مخاطبة أشد الناس عداوة للفكر الاشتراكى ، بل واقناعه ما لم يكن من أصحاب الملايين .

نظـــــريات الشخصــــــية

■ تاليف :

ك . هول ــ ج . لندزى

■ ترجمة :

د . فرج احمد فرج

قدرى حفنى

لطفى فطيم

■ مراجعة

د . لويس كامل مليكه

■ عرض وتحليل :

شوقى جلال

أحسب اننا لا نتجاوز الحقيقة اذا قلنا أن الشخصية هى الملهم الاول لكل الدراسات النفسية على اختلاف الزمان والمكان ، ابتداء من ابو قراط حكيم الاغريق حتى يومنا هذا . ولا ريب فى أن الشخصية هى اكثر موضوعات علم النفس اثارة وخصوبة وتعقدا فى آن واحد . ولقد حظى موضوع الشخصية باهتمام بالغ ابان الحقبة الاخيرة من العصر الحديث التى تبدأ مع ختام القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين .. ولا تكاد العلوم الطبيعية والرياضية تحقق تقدما فى منهجها ، وضبطا ودقة فى نظرياتها حتى ينعكس ذلك فى مجال الدراسات النفسية دفعا لها وتطويرا واثراء سواء من حيث ما تطرحه من قضايا ومشكلات أو حقائق ورؤيا للانسان أو تحديدا لمنهج تناول الظاهرة . واصبح المنهج العلمى ، ومن ثم الدقة والقياس والتجريب ، ومن بعدهم التقنين ، مناط الامل وصولا الى نظرية علمية لموضوعات الدراسات النفسية .

وان المكتبات العالمية لتزخر بالعديد من الدراسات والبحوث ، النظرية منها والتجريبية ، التى تتناول موضوع الشخصية ، وكلها تحاول ، وان تباينت مناهجها ، الوصول الى تفسير نسقى للشخصية : مكوناتها وانماط السلوك ومحدداته الشعورية واللاشعورية ، دافعا كانت أم غرضا أم غريزة ام افعالا منعكسة شرطية وغير شرطية .. الخ . ولكن المكتبة العربية لا تصلها بهذا البحر الزاخر غير روافد ضنينة ، فقليل من هذه الاعمال وجد سبيله الى القارىء العربى مترجما ، ناهيك عن الاعمال الاصيلة التى قد لا تجد منها غير ما قدمه أستاذنا الراحل الدكتور يوسف مراد كدراسة عن الشخصية فى ضوء منهجه التكاملى ، ولا سبيل أمامنا ان شئنا اللحاق بمن سبقونا فى مضمار

التقدم والحضارة الا أن نجتاز الهوة الفاصلة بيننا وبينهم ، استيعابا لما قدموه ، ومشاركة ابداعية فى مجال الدراسة والبحث . واحسب أن هذا هو ما يشغل بال كل المثقفين الطامحين الى أن يدفعوا ببلدنا خطوات على الطريق وصولا الى هذا الهدف المرموق . وانطلاقا من هذا الفهم كان العمل الكبير والمجهد الذى صدر اخيرا عن الهيئة العامة للتأليف والنشر ، واعنى به كتاب « نظريات الشخصية » الذى قام بترجمته : الدكتور فرج احمد فرج والاستاذان قدرى محمود حفنى ولطفى محمد فطيم وراجعه الاستاذ الدكتور لويس كامل مليكة .

والكتاب مجلد ضخم يقع فى سبعمائة وعشرين صفحة ، الفه اثنان من كبار أساتذة علم النفس فى الولايات المتحدة الامريكية وهما : دكتور كالفين سيرنجر هول ودكتور جاردنر لندزى ، وكلاهما من المهتمين ببحوث الشخصية..والكتاب مرجع هام لبحوث الشخصية فى العالم الغربى عامة والولايات المتحدة بخاصة . ويضم المجلد اربعة عشر فصلا : الاول من نظرية الشخصية وتاريخ علم النفس وتحديد لمعنى الشخصية ومفهوم المؤلفين للنظرية . والفصل الاخير عرض لوجهة نظر المؤلفين عن الشخصية ومناقشة لمواضع الاتفاق والاختلاف فى نظريات الشخصية المعروضة فى الكتاب واثر ذلك على البحث النفسى لموضوع الشخصية . وبين هذا وذاك اثنا عشر فصلا يعرض فيها المؤلفان عديدا من أبرز نظريات الشخصية : « التحليل النفسى بمدارسه المختلفة ومناهجه المتباينة [فرويد — يونج — آدلر — فروم — هورنى — سوليفان] وعلم الشخصية عند موراى ونظرية المجال عند ليفين وسيكولوجية الفرد عند أولبورت ، والنظرية العضوية عند جولد شتين وأنجيال ومازلو وليكى ، والنظرية الجبلية عند شلدون ، ونظرية العامل عند أيزنك وكاتل ، ونظرية المثير — الاستجابة — ونظرية الذات عند روجرز ، والنظرية الاجتماعية الحيوية عند مورفى . ويسير العرض بصورة نسقية يجمع بين التسلسل التاريخى وتكامل الموضوع الذى يعرضان له فى كل فصل على حدة . واستن المؤلفان خطة واحدة فى كل فصل من فصول الكتاب اذ يقدمان للقارىء عرضا موجزا لحياة صاحب النظرية مع بيان العناصر الاساسية لنظريته والمؤثرات العلمية والفلسفية والاجتماعية التى لابست ظروف بحثه ، ثم يعقبان على ذلك فى ختام كل فصل يعرض لخلاصة الاتجاهات النقدية لهذه النظرية ، او تلك تحت عنوان «المكانة الراهنة والتقويم » . وقد يقتصر الفصل على تقديم نظرية واحدة لواحد من اعلام علم النفس ، وقد يضم عددا من النظريات التى تجمع بينها رابطة واحدة من حيث المنطلق أو النظرة العامة أو منهج البحث .

ومن هنا فان الكتاب أشبه بموسوعة تضم بين دفتيها عددا من اهم نظريات الشخصية ، وتكشف لنا عن الجهود المبذولة أملا فى الوصول الى دراسة علمية للسلوك ، وتقدم لنا أيضا لوحة مقارنة لطبيعة هذه الجهود ومنهجها ومدى ما أصابته ، وما ينتظر لها أن تصيبه من نجاح ، ومدى ارتباط الدراسة النفسية وتداخلها مع العلوم الاخرى .

بيد ان الكتاب على الرغم من كل ذلك اغفل نظريات وبحوثا أخرى لها مكانتها المرموقة ، ومناهجها المتميزة ،وأصالتها العلمية ،فكم كنا نود ان نقرأ عن هنرى فالون عالم النفس الفرنسى وبحوثه الجادة عن الاطفال ، وكم كنا نود أن يفسح الكتاب على ضخامته ، مكانا لمدرسة غير غربية ، أعنى بها مدرسة بافلوف . والغريب أن بافلوف لم يرد اسمه فى هذا الكتاب غير ثلاث مرات ، وجاء ذكره عرضا ، الاولى عند ذكر اسماء عدد من اعلام علم النفس التجريبى (ص١٦) ، والثانية فى مستهل عرض نظرية المثير — الاستجابة [ص ٥٤٣] ، والثالثة فى الفصل الختامى [ص ٦٩١] حيث يدرجانه ضمن أصحاب مفهوم الترابط ، وعندى أن بافلوف شىء وأصحاب مدرسة المثير — الاستجابة الامريكيين شىء آخر وان جمع بينهما منطوق الفعل المنعكس . ان مدرسة بافلوف لها نظريتها المتكاملة عن الشخصية ، ومنهجها العلمى فى تناول موضوع الشخصية وتحديدها القياسى الكمى لمصطلحاتها مما يجعل اليقين ، ومن ثم النظرية العلمية أملا قريبا ، اذ تتوفر لمنهج مدرسة بافلوف العناصر الاساسية المتكاملة لمنهج البحث العلمى لظواهر النشاط النفسى والتى نجد عناصر منها متناثرة هنا وهناك عند بعض أصحاب نظريات الشخصية التى تعرض لها الكتاب . وقد قدم بافلوف نظرية عن الانماط السلوكية كما قدم فى السنوات الاخيرة من حياته دراسات اكلينيكية عن الشخصية اعتبرها فروضا علمية وعكف تلامذته من بعده على تطويرها وتأصيلها .

ولكن لن نجد غرابة فى ذلك اذا ما قرأنا الفصل الاول من الكتاب . ولعل هذا الفصل اخطر ما فى الكتاب كله ، ذلك لانه يعكس لنا الخلفية الفلسفية التى حددت اسلوب الدراسة والنقد ، ثم قبل هذا انتقاء النظريات موضوع الكتاب . ان المؤلفين يكشفان فى هذا الفصل عن خلفية فلسفية اجرائية ، ونعنى بها ذلك الاتجاه الفلسفى الامريكى المعاصر الذى يجمع ما بين البرجماتية والوصفية المنطقية . الشىء نخلقه من ذواتنا ، والحقيقة اداة نافعة لبلوغ الهدف الذى

احددته لتفتى ؟ والتعريفات اصطلاح نتواضع عليه ولا صلة له بالواقع الموضوعى ، والواقع هو الخبرة الذاتية التى هى تيار دافق من الحالات الشعورية نختار منها ما نشاء حسب منفعتـه ونرفض ما لا يصل بنا الى الغرض المنشود ، ومن ثم فلا يقين ، والقانون العلمى ليس اكتشافا لعلاقات عليه واقعية بل صياغة تفرضها الذات على الموضوع حيث تقوم الذات باختيار ما تريد من عناصر الخبرة وتضعها فى نسق متكامل ، والنظرية تعبير عن هذه العلاقات التى تفرضها الذات على عناصر الخبرة المختارة .. الخ . انها فلسفة خبرة وليست فلسفة تجريب . ولهذا يذهب المؤلفان فى صراحة ووضـوح الى قولهما : « اننا نعتقد أنه لا يوجد تعريف بالماهية للشخصية يمكن تطبيقه بأية درجـة مـن العمومية . ونعنى بهذا أن الطريقة التى يعرف بها فرد معين الشخصية سوف تعتمد كلية على تفضيله النظـرى الخاص !! .. فنحن نقـر بأن « الشخصية تعرف بوساطة المفهـومات التجريبية الجزئية [أو الخبرية empirical وليست التجريبية] التى هى جزء من نظرية الشخصية التـى يسـتخدمها المـلاحظ .. ثـم يستطردان : « اذا بدا هذا التعريف غير مقبول من القارىء فليكن عزاؤه انه سيلتقى بعدد من التعريفات النوعية قد يصبح أى منهـا تعريفـه هو ، اذا اختار أن يتبنى هذه النظـرية المعينة [ص ٢٣] .

ويعترف المؤلفان صراحة بأثر الوضـعية المنطقية : « وليس ثمة اتفاق كامل بحـال ، بخصوص جميع الموضوعات المثارة الا ان وجهة النظر المعروضة .. متأثرة أشد التأثر بتعاليم الوضعية المنطقية » . [ص ٢٤] ويعـرفان النظرية بقولهما : « النظرية مجموعة مـن المواضعات خلقها صاحب النظرية !! ان النظرى عندما يختار اختيارا معينا ليمثل الوقائع التى يهتم بها ، يمارس اختيارا خلاقا حرا يختلف فقط عما يمارسه الفنان فى أنواع الادلة التى يركز عليها ، والاسـس التى سيحكم بهـا على قيمتـه وجدواه » [ص ٢٤] .. ولـكننا لا نستطيـع أن نحدد كيف يجب بناء النظرية . فليس ثمة صيغة لبناء النظرية المثمرة اكثر من ان يكون هناك صيغة للاسهام بعمل أدبى باق !! ..«ان حقيقة أن النظرية اختيار تقليدى متواضع عليه وليست شيئا لا مفر منه أو تمليه العـلاقات التجريبية المعروفة يؤكد أن نسبة خصائص كالصدق او الخطأ الى النظرية أمر غير موفق » (ص٢٥) .

اما النظرية نفسها فهى تفترض ويتحدد قبولها أو رفضها بمقدار نفعيتها وليس طبقا لصدقها أو خطئها . [ص ٢٧] ولكن هدفنا نقـط هـو ايضاح ان الصياغة النظرية هى « مشروع حر» اذا كان هناك شىء بهذا الاسم على الاطلاق . فلا يملك أى من المنظرين على الاطلاق الحق فى أن يحدد مهام زملائه من المنظرين ، فهو يملك تماما التعبير عن معتقداته الخاصة .. وربطها بأكبر قدر ممكن من الاثبات التجريبى لنفعها .. فليقدم صاحب النظرية نظريته بأكثر الطرق التى فى متناول يده قوة ، ولكن فليضع فى اعتباره حقيقةأنه ليس هناك ما يسمى اليقين النظرى . [ص ٧٠٥] .

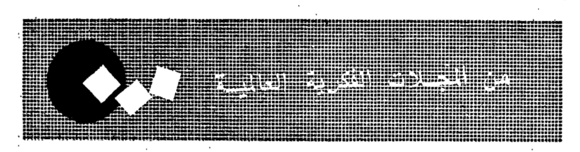
واذا كانت الوضعية المنطقية ، والبرجمـاتية وسليلتهما الاجرائيـة ، وما شابهها من فلسفات امريكية محدثة ، تقود المرء الى حيث يتردى فى وهدة الشك واللايقين وتصبح النظريات العلمية سرابا وامانى كذاب ، والبحوث العلمية نوعا من « المراهنة العشوائية» على حدتعبير وليم جيمس، فليس غريبا ان يقع اختيار المؤلفين على نظريات بذاتها دون غيرها . وليس غريبا أيضا أن يعترف المؤلفان بافتقار نظريات الشخصية الى الوضوح وفقدان الاتجاه : النتيجة التى لا مفر منها للافتقار الى الوضوح فيما يتعلق بطبيعة الافتراضات التى تقوم عليها النظرية هى وجود الخلط الخطير فى عملية اشتقاق التقريرات التجريبية من النظرية ، لذلك فانه من المحتمل أن يصل أفراد مختلفون يستخدمون نفس النظـرية الى مشـتقات متعارضة » [ص ٣١] ، وليس غريبا أن يشفق المؤلفان على القارىء من أن يستشعر أنه فى متاهة ويجدحصاده مثبطا للهمة : «ان الاحكام التى انتهينا اليها الان فيما يتعلق بالمكانة الشكلية لنظريات الشخصية قد تبدو مثبطة للهمم الى حد كبير مما قد يستوجب التخلى عن محاولات بناء مثل هذه النظريات فى الوقت الراهن » [ص ٣١] . ترى ما هى القيمة التعليمية لان نقدم للدارس وجهة نظر منظمة واحدة للشخصية بدلا من ذلك الركام المتلاطم من الافكار المتناقضة التى رأيناها فى هذا الكتاب ؟ [ص ٧٠٨] بيد أن المؤلفين يذكران عبارة أشبه بالاعتراف يقولان فيها : « ان النظرية اذا لم تفعل شيئا سوى تنظيم الحقائق المعروفة فاننا سوف نظل بذلك على المستوى الوصـفى مهمليـن عمليـة التنظير [ص ٧٠٢] ونحن نشاركهما الرأى فى ذلك ، وحقيقة الامر أن هذه العبارة تكشف لنا كما يكشف لنا الكتاب كله عن جوهر أزمة علم النفس، ونعنى بها ازمة المنهج .

ولكن الكتاب من حيث هو عرض واضح ومركز لعديد من نظريات الشخصية يعد شيئا هاما وأساسيا لكل من شاء من قارئى العربية ان يجد نافذة يطل منها على جهود علماء النفس المحدثين والمعاصرين فى الغـرب فى مجـال دراسـة الشخصية . وهو هام وأساسى لكل باحث جاد

سبيله الى البحث العلمى الاصيل الملم واسع بكل القضايا والنظريات المطروحة فى ميدان بذاته ليجد فيها زادا يعينه على البحث ، وآفاقا جديدة يتطلع اليها ، ومادة قد تغنيه عن الرجوع الى الاصول حيث أن المؤلفين ينحوان فى عرضهما للنظريات منحى وثائقيا ، اذ يقدمان للقارىء فى افاضة الكثير من النصوص لاصحاب النظريات موضوع الكتاب مما يعطى صورة وافية وموضوعية عن فكر كل منهم .

ان كل من يقرأ هذا المجلد الضخم لا يملك الا أن يستشعر التقدير كل التقدير لجهد واجتهاد مترجميه فى بحث واشتقاق وتطويع مصطلحات عربية توفر التعبير الصادق والدقيق ، وتتغلب على ما فى النظريات من تباين وتنوع وان استخدمت الفاظا واحدة . ولقد خرج الكتاب فى ترجمة لائقة لعل أفضلها فصل «نظريات العامل» وان كان الفصل الاول قد شذ فى بعض صفحاته عن جملة الكتاب ، ويبدو أن المطبعة أسهمت بنصيب فى ذلك .

ولقد كنت وانا اطالع سطور الكتاب أسائل نفسى لماذا لم يتقدم المترجمون اضافة فى شكل حاشية أو تعليق يكون هاديا يبصر القارىء بمواضع الخلاف بينهم وبين المؤلفين خاصة وان المترجمين من الملتزمين بالمنهج العلمى ولهم جهدهم وانتاجهم فى مجال البحث العلمى ، وعرفهم المثقفون والدارسون من خلال ما قدموه لنا من مقالات ودراسات فى المجلات النظرية نذكر منها مقالات الاستاذ قدرى حفنى عن نشأة علم النفس التى تتضمن نظرات جديدة وجادة تكشف عما يتحلى به من موضوعية فى البحث وعمق فى التفكير وجرأة فى معالجة القضايا وكلها صفات الباحث الجاد الاصيل التى تجعلنا بحق ننتظر منه العطاء الجواد ... ولكن ربما كان السبب اشفاقا منهم على القارىء لضخامة الكتاب ، وربما لان الكتاب يكاد يكون عرضا وثائقيا لاصحاب النظريات ، ومن ثم فأى تعليق يعنى خروجا على سنة المؤلفين ، وربما لان تعدد المترجمين يقتضى تعدد وجهات النظر حتى وان جمعهم نهج واحد ، وربما لهذه الاسباب كلها مجتمعة ...



● من المجلات العربية ●

مجلة «جيش الشعب» السورية

العصبة العسكرية الصناعية

فى الولايات المتحدة

تحت هذا العنوان نشرت مجلة جيش الشعب السورية بحثا هاما عن العصبة العسكرية الصناعية فى الولايات المتحدة ، وفى البلاد الراسمالية المتقدمة مثل بريطانيا وفرنسا ، وكذلك العلاقة بين المجموعات العسكرية الصناعية فى هذه البلدان المختلفة ، سواء من حيث التطوير المشترك لنظم الاسلحة ذات التكنيك الحديث ، أو اجراء صفقات بيع الاسلحة فيما بينها ، أو بيع الاسلحة الى بلدان العالم الثالث .

ويذكر البحث انه فى عام ١٩٣٦ حول جيش امريكا الشمالية طلباته الكبرى الاولى الى قطاع صنع الاسلحة ، علما بأن فرنسا وبريطانيا كانتا من أهم زبائن هذه الصناعة ، ولم تبدأ هذه الصناعة بالتطور تطورا ضخما الا عندما دخلت الولايات المتحدة فى الحرب ، فلقد ارتفعت الميزانية العسكرية الامريكية من ١٥٠٠٠٠ مليون دولار فى عام ١٩٤٠ الى ٧٥٠٠٠ مليون دولار فى عام ١٩٦٨ ، وكانت القوات الجوية للولايات المتحدة تملك ٤٤٠٠ طائرة فى عام ١٩٤٠ ، ثم ١٠٠٠٠٠ طائرة فى عام ١٩٤٣ ، ثم ٢٩٠٠٠ طائرة فى عام ١٩٤٤ .

ولكن للأسف أجمل التصبص لها نهاية لقد أوقف مفعول الاتفاقيات فى شهر أغسطس عام ١٩٤٥ .

وفى عام ١٩٤٦ أحالت شركة بوينج (التى تصنع قاذفات القنابل من طراز (ب — ١٧ ، ب — ٢٩ ، ب — ٥٠) الى البطالة ٢١,٠٠٠ من عمالها البالغ عددهم حينذاك ٢٩,٠٠٠ عامل . وخفضت شركة لوكهيد عدد الاشخاص العاملين فيها من ٨٠,٠٠٠ الى ٤٠,٠٠٠ عامل .

وأما شركة دوجلاس التى تأثرت أكثر من غيرها لانها مختصة بصناعة طائرات النقل الملائمة للاغراض المدنية ، فقد صرفت من العمل ٢٦,٠٠٠ عامل من مجموع ١٦٥,٠٠٠ عامل فيها .

وفى عام ١٩٤٨ انخفضت صناعة الطائرات الى أدنى مستوى ، وخلال العام ذاته ارتفع هذا المستوى بعد حصار برلين وبدء الحرب الباردة وبلغ ذروته فى عام ١٩٤٩ أبان الحرب الكورية . فقد ارتفعت الطلبات العسكرية من ١٨٠٠ مليون دولار فى عام ١٩٤٩ الى ١٠٨٣٢ مليون دولار فى عام ١٩٥٤ . وقد استمرت صناعة الطائرات تربح ١٠٨٣٢ مليون دولار بفضل دعاية تخويف من الحرب .

وقد ظهرت الى الوجود عصبة مؤلفة من عسكريين يفكرون باستلام وظائف قيادية بعد تقاعدهم ، ومن صناعيين و « منتخبين » من الولايات الامريكية حيث تقيم الشركات التى تعمل لصالح الجيش .

وبلغت الكليات العسكرية من الاهمية أن شركة مثل شركة لوكهيد (التى ارتفعت عملياتها التجارية فى عام ١٩٦٨ الى ٢٢٢٠ مليون دولار) تعمل منذ عشر سنوات لصالح العسكريين فقط ، بعد ما اخفقت اخفاقا كبيراً فى السوق التجارية المدنية .

واستطاعت شركة ماك دونيل (التى كانت تصنع أبان الحرب العالمية الثانية طائرات عسكرية منها الفانتوم — ٢ ،) أن تشترى شركة دوجلاس بفضل حرب فيتنام .. فاصبحت الشركة الجديدة ماك دونيل — دوجلاس فى المرتبة الاولى بين شركات الولايات المتحدة لصنع الطائرات ، وقد بلغ رقم مبيعاتها فى عام ١٩٦٨ ، ٣٦٠٩ ملايين من الدولارات ، ٥٣٪ منها للجيش . وقد ربحت الشركات الكبرى الأخرى ارباحا مماثلة .

فى الواقع تعمل كل الشركات لصالح الجيش ، لان الجيش هو الذى يطلب صنع الطائرات المدنية فيشجع بذلك صنع كميات كبيرة متتابعة منها ، علما بأن الجيش يدفع أكثر وبوقت أسرع من الشركات المدنية .

وبالاضافة الى ذلك تفسح العقود العسكرية المجال أمام الدولة لتمويل برامج بحث تؤدى الى تجديد الشركات الخاصة تقنيا وبتكاليف ضئيلة .

ومما لا شك فيه أن الحرب الفيتنامية أدت الى تقسيم صناعة الاسلحة الى فروع . وقد عادت هذه العملية بفوائد كبيرة على الشركات التى تصنع أسلحة كلاسيكية .

وتستوعب صناعة الاسلحة ٢٣٪ من القوة العاملة فى كاليفورنيا ، و ٣٠٪ فى كانساس ، و ٢١٪ فى اريزونا و ٢١٪ فى كونكتيكوت و ٢٤٪ فى نيومكسيكو و ٢٠٪ فى اتاوة الخ ..

ومهما بلغت السوق المحلية فان السياسة التجارية التى تبلغ ذروتها فى القدرة على التصدير تبقى الشىء الأهم . وفى شهر ابريل عام ١٩٦٦ شرح معاون وزير الدفاع فى الولايات المتحدة هنرى كولس هذا الأمر أمام لجنة العلاقات الخارجية فى مجلس الشيوخ . ذلك ان ماتصدره أمريكا الشمالية من أسلحة لا يمثل سوى ٥٪ من انتاجها العام ، ولكن هذه النسبة تساوى ٥٠ الى ٧٥٪ من الميزانيات العسكرية لكثير من الدول « الحليفة » . وان ما تربحه الولايات المتحدة من عمليات البيع هذه يمثل على الأقل ٥٠٪ من تكاليف انشاءاتها العسكرية فى الخارج ولنكتف الان بذكر آخر كلمة لمعاون وزير الدفاع : « **أن بيع الأسلحة فى مناطق مثل الشرق الأوسط وامريكا اللاتينية يبقى على مستوى معقول من الثبات فى هذه المناطق** » . ففى سبيل ارضاء الذات تصبح كل الوسائل جيدة .. ومنذ عام ١٩٦١ ظل بيع الاسلحة الى الخارج ثابتا حول ٣٠٠٠ مليون دولار .

العصبة العسكرية الصناعية
فى البلاد الرأسمالية المتقدمة

١ — فى بريطانيا :

كان لبائعى الاسلحة مكانة كبيرة منذ منتصف القرن التاسع عشر ، فكانت بريطانيا تصدر الطوادات من طراز ارمسترونج الى ايطاليا واليابان ، واليوم الى أمريكا اللاتينية ، كما كانت تصدر المدافع من طراز فايكرز الخ . .

ومن هذه الصناعة البريطانية للاسلحة تستمر فى ازدهارها ، بالرغم من منافسة الولايات المتحدة وفرنسا لها . وهذه الصناعة تابعة للقطاع الخاص ، ولكن وزارة الخارجية مرتبطة بها بروابط دقيقة .

٢ — فرنسا :

ان الدولة فى فرنسا تسيطر على العصبة العسكرية — الصناعية ، وان الدولة لا تقوم فقط بدور وسيط بين الاسلحة الثلاثة للجيش (القوات البرية والبحرية والجوية) وبين تجار الاسلحة

والزبائن ؟ ولكنها تقوم أيضا بدور تاجر الاسلحة .
وتستخدم الادارة الفنية لتسليح القوات البرية DT وحدها (٢٥٠٠٠) شخص . وقد بلغت عملياتها التجارية فى عام ١٩٦٧ (٢١٥٠) مليون فرنك .

وبالرغم من وجود منافسة لبيع الاسلحة بين بريطانيا وفرنسا فان البلدان ينسقان عملياتهما التجارية .

وعندما سئل ويلسون فى مجلس العموم عن امداد نيجيريا بالاسلحة ، اجاب مغتاظا : لم يكن حظر ارسال الاسلحة عن نيجيريا سوى وسيلة لمد الحرب ، لان بيافرا كانت تستورد أسلحة . وعندما سأل الصحفيون بعض المسئولين الفرنسيين عن سبب امداد بلاده لبيافرا بالاسلحة ، اجاب بغيظ : اليس من الانصاف مساعدة بيافرا للدفاع عن محاولة القضاء على كل سكانها ، فى الوقت الذى تستورد فيه نيجيريا الاسلحة ؟

المبادلات بين البلدان المتقدمة

ويوضح البحث بالارقام ان الولايات المتحدة هى الدولة الوحيدة التى تبيع أسلحة الى الدول المتقدمة الاخرى ، ففى عام ١٩٦٤ باعت الولايات المتحدة ثلاث مدمرات الى المانيا الغربية بثمن (٦٠٠٠) مليون مارك ، على أن ينجز صنع هذه المدمرات فى عام ١٩٦٨ . ثم باعت الى المانيا الغربية أيضا فى عام ١٩٦٨ طائرات هليكوبتر من طراز سيكورسكى DH بثمن (١٤٠٠) مليون مارك . و المانيا الغربية هى أكبر زبائن الولايات المتحدة ، تأتى بعدها مباشرة بريطانيا التى استطاعت اقناع الولايات المتحدة بأن تعوض لها ما تشتريه منها عن طريق اجراء الولايات المتحدة معها صفقات بيع مقابلة . ثم تلى ذلك فرنسا ، تتبعها بلدان حلف شمالى الاطلسى ، واخيرا سويسرا والسويد ؟ (بالنسبة لشراء الاجهزة الحديثة مثل الرادارات والصواريخ المضادة للطائرات الخ ...)

بيع الاسلحة الى بلدان العالم الثالث

ان حصول هذه البلدان على استقلالها قد ادى الى توسيع سوق بيع الاسلحة .

مثلا : ميزانية الدفاع فى ايران لعام ١٩٦٩ تمثل سوقا تجارية يبلغ راسمالها ٢٥٠ مليون دولار . فقد اشترت ايران فى مدة سنتين : ٥٠ طائرة فانتوم — ٢ وطائرات هليكوبتر بلغ ثمنها ٥٠ مليون دولار ، ووحدات بحرية من بريطانيا .

وقد عرضت فرنسا من جهتها على ايران بيع هليكوبتر بثمن ٢٨ مليون دولار من طراز سوبر — فرولون .

بالاضافة الى ذلك ، فان التناقضات داخل نطاق الامبريالية تؤدى الى زيادة بيع الاسلحة عن الحد « المقبول » . ومن المعروف أنه فى حال رغبة الولايات المتحدة أو بريطانيا أو فرنسا فى السيطرة على المنطقة التى يستغلها أحد هذه البلدان ، فان كل بلد من هذه البلدان يريد ابقاء المنطقة التى يسيطر عليها فى أدنى مستوى من التسليح من أجل تجنب خطر النزاع ، لان عدد واتساع النزاعات مرتبط مباشرة بدرجة التسليح .

وأخيرا من اجل كشف الستار عن رياء الامبريالية ، نكتفى بذكر ما قاله **كولس** عن أن بيع الاسلحة الى الشرق الاوسط يساهم فى اقامة حالة من الاستقرار فى هذه المنطقة . هذا ما قاله كولس فى عام ١٩٦٦ ويتخذ هذا القول كل قيمته اليوم ...

وان بيع الاسلحة الى بلدان العالم الثالث يمثل بدون شك حجرا أساسيا فى البنيان الامبريالى . وقد فهم ذلك صانع الاسلحة الفرنسى **جان انهارد** عندما قال : « **ان بيع الاسلحة الى بلد غريب يؤدى الى قيام علاقات وثيقة مع هذا البلد . فمن خلال التسليح تتسرب الى هذا البلد التقنية الفرنسية والعقلية الفرنسية والخبراء الفرنسيون** » .

الاستعمار الجديد وبيع الاسلحة

عندما يتحدث **بانهارد** عن العلاقات الوثيقة فهو لا يبالغ فى الكلام ، لا بل أن هذه العلاقات هى سلاسل متينة .

ان سلطة الامبريالية المحدثة تتضمن السيطرة على « العصبة المسلحة » التى تقوم مهمتها على تسليم السلطة لطبقة البورجوازية الصغيرة المتعلقة بمصالح الامبريالية . مثلا استطاعت بريطانيا وضع مصالحها البترولية فى الشرق الاوسط بين أيدى الفئة الاكثر رجعية بين القادة العرب . وأما بالنسبة لتمويل جهاز سلامة المستغلين (بكسر الغين) عن طريق المستغلين (بفتح الغين) فان الحيل كثيرة . مثلا باعت بريطانيا الى حكومة ادريس الاقطاعية فى ليبيا بمبلغ ١٥٠ مليون جنيه جهازا كاملا للدفاع الجوى بما فيه صواريخ ارض — جو لم يدرب الجيش الليبي على استعمالها . فاستغل الجيش البريطانى هذه الحالة : ١ — لنشر هذا الجهاز حول مكامن البترول وحول قواعده الخاصة ، ٢ — وليكون وحده القدير على استعمال هذا الجهاز . ولكن منذ الثورة الليبية أوقف مفعول هذه الاتفاقية .

وعندما يجرى البلد المعين طلبية يصبح مقيدا لأمد قصير . واذا أخذنا بعين الاعتبار دور الجيش فى البلدان فان إعداد وتجهيز القوات العسكرية فى بلد ما يمتد فعليا الى السيطرة على سياسة هذا البلد .

ان لهذه العملية أثرها المباشر بفضل اقامة مدارس تدريبية (فى فرنسا خصصت قاعدتان جويتان لتدريب الزبائن الأجانب لشركة داسو) وبفضل نوع التدريب وأخيرا بفضل الرشوة التى تفسح المجال للسيطرة على أسواق متممة ومربحة .

وان الحظر الذى فرضته فرنسا على شحن الاسلحة الى اسرائيل والحظر الذى فرضته بريطانيا والولايات المتحدة على شحن الاسلحة الى افريقيا الجنوبية ، كان لهما اسوأ الاثر على الجهاز العسكرى فى هذه البلدان . ولم تستطع هذه البلدان التعويض عن خسائرها الا عندما سمحت الولايات المتحدة باعادة شحن الأسلحة الى اسرائيل ، وعندما سمحت فرنسا باعادة شحن الأسلحة الى افريقيا الجنوبية ، وبالأخص لان هذه البلدان متخلفة صناعيا وعاجزة اذن عن اقامة صناعة وطنية لصنع الاسلحة . وانه لن السهل فى هذه الاحوال معرفة وضع البلدان التى لم تدخل فى طور التصنيع . تشكل هذه العمليات للمدى البعيد محاولة لزج هذه البلدان فى التعاسة والخنوع ، وهذا يتضح عندما نعلم ان ثمن هذه الاسلحة لا يترك امام هذه البلدان خيارا آخر غير اللجوء الى البلد المصدر للاسلحة وطلب المساعدة المالية منه .

مثلا لقد بلغت المساعدة العسكرية التى قدمتها الولايات المتحدة الى البرازيل ٥٠٠ مليون دولار . ويرافق هذا التبذير للاموال الموظفة فى قطاع غير منتج بطبيعته ، نزيف حقيقى من الفنيين . لان العناصر المؤهلة (التى كلف اعدادها المبالغ الضخمة) تنقل فورا من القطاع المدنى الى القطاع العسكرى ، لصيانة المحركات والاسلحة واجهزة الرادار الخ ... وهذا ما يعنى ان البلد المصدر للاسلحة يعمل فى الوقت ذاته على شل كل عناصر البلد المستورد للاسلحة والتى يمكنها انشاء نواة صناعة وطنية قادرة على المنافسة .

وعندما حاولت كل من البرازيل والارجنتين مرتين خلق صناعة وطنية للطائرات ، قدمت لهما الولايات المتحدة « بلطف » كميات من الطائرات المستعملة ، من اجل استخدام اكثر الفنيين ، ومن اجل الهائهم فى عمليات صيانة .

نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية

ميزانية اسرائيل العسكرية لا تتأثر بحالة السلم

فى العدد الثانى من نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية .. اشارت النشرة الى أن القطاع العسكرى فى اسرائيل حقق توسعا كبيرا منذ حرب حزيران ٦٧ ، واصبح يلعب دورا فعالا فى تحريك النشاط الاقتصادى، فقد ارتفعت «موازنة الدفاع » الاسرائيلية سنة ١٩٦٤ من نحو ٩٢٣ مليون ليرة ـ أى ٢٧ ٪ من الموازنة العادية للدولة ـ الى نحو ٥٠٠٠ مليون ليرة ـ أى ٤٥ ٪ ـ سنة ١٩٧٠ . واذا ما اضيفت تكاليف بناء الملاجىء وانشاء الطرق العسكرية ، والأموال التى تصرف لأهالى قرى الحدود ، فان نسبة النفقات الدفاعية ترتفع الى ٥٠ ٪ من الموازنة العامة . ويبلغ عدد الذين يعملون حاليا فى مجال الأمن ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، نحو ٢٥ ٪ من القوة العاملة ، مقابل ١٠ ٪ سنة ١٩٦٥ وبلغت قيمة الواردات العسكرية سنة ١٩٧٠ نحو ٨٠٠ مليون دولار امريكى مقابل ١٦٠ مليون دولار سنة ١٩٦٦ . وكانت هذه الواردات سببا لـ ٨٨ ٪ من العجز فى ميزان المدفوعات ، فضلا عن أن التوسع فى الانتاج العسكرى المحلى أدى الى تدنى انتاج السلع الاستهلاكية ، وبالتالى ، تخفيض حجم السلع المصدرة . (اسرائيل دايجست ، تشرين الثانى ـ نوفمبر ـ ١٩٧٠) .

وقبل نشر مشروع الموازنة العامة للسنة المالية ١٩٧١/٧٢ ، أعلن يشعياهو لافى ، المدير العام لوزارة الدفاع ، ردا على ما ذكر حول امكان تخفيض مخصصات الدفاع نتيجة وقف اطلاق النار ، فقال : ستطرأ فى المدى البعيد تغييرات فى موازنة الدفاع ، اذا ما تبين ان وقف اطلاق النار سوف ينفذ ويستقر . ولكن هذه التغييرات لن تحدث فى موازنة العام المالى الحالى ، التى ستزداد بمقدار ٣٢٠ مليون ليرة اسرائيلية فقط ، لتصبح ٥٢٠٠ مليون ليرة من مجموع الموازنة البالغ ١٣٫٣٨٦ مليون ليرة (جيروزالم بوست ١٤/٣/١٩٧١) .

هذا ، وكان بنحاس سابير ، وزير المال ، قد اعلن فى مقابلة مع مجلة الجيش الاسرائيلى بماحانية (١٩٧١/١/١٩) « ان مباحثاته مع المسئولين العسكريين اظهرت أن الموازنة الدفاعية لن تخفض ، حتى ولو استمر وقف اطلاق النار . اما اذا استؤنف القتال ، فيتوجب اضافة مبالغ جديدة للموازنة المقررة » .

واضاف : « لن تحدث تغييرات كبيرة فى موازنة الدفاع فى السنوات المقبلة ، لان استمرار الحرب سيفرض على اسرائيل زيادة مخصصات الدفاع ، وسيفرض تحقيق السلام علينا ان نكون اقوياء وأن نملك قوة كبيرة وحديثة » .

وتجدر الاشارة الى ان موازنة الدفاع الجديدة تنطوى على انخفاض مقداره ٥٨ مليون دولار فى مخصصات النقد الاجنبى لشراء معدات وسلاح من الخارج . فقد خفضت هذه المخصصات من ٧٣٨ مليون دولار الى ٦٨٠ مليون دولار . ومن المنتظر ان يؤدى ذلك الى زيادة الطلب على الانتاج المحلى للصناعات الحربية ، وهذا أمر حيوى بالنسبة لهذه الصناعات التى تعلق عليها اسرائيل أهمية قصوى فى سعيها نحو «الاستقلال العسكرى » (معاريف ١٩٧١/٣/٢٣) .

ومضت « النشرة » تتحدث عن الصناعات العسكرية فى اسرائيل فاشارت الى ما أعلنه اسحق عيرونى ، مدير الصناعة العسكرية ، فى محاضرة القاها فى تل ابيب من ان باستطاعة اسرائيل الوصول الى مرحلة استيراد الاسلحة الثقيلة ، نتيجة القوة التكنولوجية التى تضاعفت كل سنتين كمية الانتاج الصناعى العسكرى » .

وقال : « ان باستطاعة اسرائيل أن تنتج فى المستقبل كل ما تحتاج لامنها » .

واضاف : « ان مخطط الانتاج والتنمية فى الصناعة العسكرية للسنة المقبلة ، يشير الى ازدياد عام فى الانتاج بنسبة ٤٥٪ . فمنذ حرب الأيام الستة ازداد الانتاج اربعة أضعاف ، وازدادت الطاقة البشرية ضعفين فقط . وفى السنوات الثلاث الاخيرة ، انتجت الصناعة العسكرية الاسرائيلية اكثر مما انتجت منذ تأسيسها . وتنتج هذه الصناعة اليوم ٦٠٠ نوع من الأسلحة ، ومقابل ازدياد الانتاج ازداد التصدير وبلغ عشرات الملايين من الدولارات سنويا الى ٥٠ دولة بينها بعض دول أوربا الغربية » .

وقال مدير الصناعة العسكرية : « ان التصدير يتم بالاتفاق مع الحكومة التى تعارض أحيانا عقد بعض الصفقات ، لان المنتجات يجب أن تذهب الى الدول الصديقة فقط . أما من الناحية الاقتصادية ، فالصفقات فى هذا المجال تتم بشروط ممتازة » . (عال همشمار ١٩٧١/٣/٢٨)

ثم أوردت « النشرة » بعض المعلومات عن الارتباط بين المؤسسة العسكرية فى اسرائيل وبين العسكرية الامريكية فقالت :

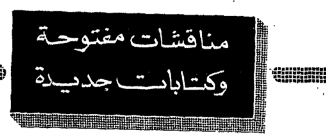
« طلبت الولايات المتحدة شراء الخبرة الاسرائيلية لصنع جهاز اتصال صغير اخترعه خبراء شركة تديران للمساعدة على انقاذ حياة الطيارين ، بعد أن تبين أن هذا الجهاز افضل بكثير من ذلك الذى تستعمله قوات الولايات المتحدة » .

واعلن اسحق توليد آنو ، سكرتير شركة « تديران » فى مؤتمر صحفى عقده فى مصانع الشركة فى حولون : « ان جهاز الاتصال ، صنع اسرائيل ، هو افضل الاجهزة المستعملة حاليا فى العالم » .

وقال توليد انو : «يعمل فى الشركة ٣٠٠٠ عامل (٢٠٠ مهندس ، بينهم ١٥ نزحوا الى الولايات المتحدة واعادتهم الشركة و ١٠٠٠ عامل تقنى . وسيبلغ حجم المبيعات ، للعام الحالى ٢٠٠ مليون ليرة ، وسيصل حجم الصادرات الى اكثر من ٥٠ مليون ليرة لـ ٢٥ دولة متطورة تستورد منتجات عسكرية من شركة تديران ، وخصوصا أجهزة اتصال عسكرية متكاملة لجميع وحدات أسلحة المشاة » . (عال همشمار ١٩٧١/٣/٢٦)

ومن جهة اخرى ذكرت هآرتس (٧١/٣/٣٠) « ان الانكماش فى الصناعة الجوية الامريكية هو لصالح اسرائيل التى تستفيد الان من مئات خبراء الطيران والعلوم الالكترونية الذين وصلوا اليها من الولايات المتحدة » .

واضافت هآرتس : « ان نسبة كبيرة من المهندسين الامريكيين هم من اليهود . وقد اصيب هؤلاء بخيبة امل نتيجة المشكلات الاجتماعية فى الولايات المتحدة ، وعبر عدد كبير منهم عن رغبته فى الهجرة الى اسرائيل » .



« هجرة العقول » : ماهو الحل ؟

يكتب هذا المقال الدكتور توفيق محمود بركات ـ عميد كلية التربية بقنا ـ الذى يعبر فيه عن وجهة نظره الخاصة حول قضية « هجرة العقول » واهمية ايجاد حل لهذه المشكلة الخطيرة التى لا تواجه بلادنا فحسب بل تهدد كل بلاد العالم الثالث مستنزفة احد العناصر الهامة لثروته القومية .

يقلق كل وطنى حقيقة موقف عدد من المبعوثين والمتخصصين وميلهم ـ من واقع الاحصائيات ـ الى الهجرة وترك الوطن .

وتمثل مشكلة المبعوثين ـ فى رايى ـ أهم مشكلة لانها مفتاح بقية المشاكل فى هذا الموضوع .

فالعائدون منهم يمثلون مركز الامامة والقيادة فى تخريج المتخصصين فى بلادنا . ويسيطر على المبعوثين بعد ايفادهم نزعتان : الاولى : الانبهار بكل ما شاهدوه من تقدم فى العلوم والصناعة . ولابد أن ناخذ فى الاعتبار هنا حقيقة أنهم يكونون فى سن لم تتبلور فيه بعد شخصيتهم لتمكنهم من الصمود أمام عوامل الاغراء المتعددة . والثانية : تهاون البعض منهم فى التحصيل واستمراء البقاء والعزوف عن العودة .

ومن خلال خبرتى ـ فى هذا المجال ـ الخص الحلول الممكنة للمشكلة فيما يلى :

● ألا يكتفى فى اختيار المبعوث على تفوقه فى درجة الليسانس أو البكالوريوس .. فحسب . بل ينبغى أن تتوفر له نضج الشخصية وتماسكها وايمانه بقضايا مجتمعه وشعبه وآمالهما فى التقدم .

● توفير الظروف المعيشية المطمئنة والمشجعة لهم بعد عودتهم .

● وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب حتى ينتج بأقصى طاقة ممكنة . فقد أدى الخطأ فى التخطيط الى عدم الاخذ بهذه القاعدة الحيوية . ومن هنا يسعى المتخصص بعد عودته الى الوطن الى البحث من جديد عن مكان له فى الخارج يحقق التواؤم بين عمله وتعليمه وتخصصه .

● البدء فورا فى اقامة مراكز للبحوث فى كل تجمع صناعى بطول البلاد وعرضها وعدم الاكتفاء بالمركز القومى للبحوث الموجودة فى مدينة القاهرة . فتعدد هذه المراكز سوف يعطى الفرصة لكل متخصص أن يعمل فى مجال تخصصه . وانه لغريب حقا أن نجد أن مدينة كالمحلة الكبرى التى تعتبر أما لصناعات الغزل والنسيج والصباغة .. تخلو من مركز للبحوث يهتم بهذه الصناعات وبتطويرها .

● توفير الخامات والاجهزة العلمية والدوريات والمجلات العلمية التى تساعد على استمرار البحوث وتطورها ، وإخراج ذلك كله من دائرة الروتين وتوفير العملة الصعبة اللازمة .

● انهاء حالة الازدواج فى التعليم العالى . فمثلا توجد معاهد عليا صناعية كما توجد كليات جامعية للهندسة . وينبغى أن تخصص المعاهد العليا الصناعية لتخريج نوع مختلف من المهندسين كأن يكونوا متخصصين فى نواحى تطبيقية معينة وهذا يحتاج الى تغيير برامج الدراسة وتدعيمها بالورش الكاملة . وينطبق نفس هذا الكلام على المعاهد الزراعية وكليات الزراعة .

هذه جوانب أعتقد بأهميتها فى مجال أيقاف عملية « هجرة العقول » ، أود لو أخذ بهـا أو طرحت للمناقشة .



تعليق حول نظرة مصرية على تاريخنا الحضارى

كتب الدكتور منير شكرى ، من الاسكندرية ، معلقا على مقال « نظرة مصرية على تاريخنا الحضارى » للدكتور اسماعيل صبرى عبد الله فى العدد الماضى من الطليعة ، يقول :

حفزنى على الكتابة اليكم اعلانكم بأنكم تطرحون بحثكم هذا للمناقشة ، وكان أول مابدأتم به فى بحثكم الطريف دعوتكم الى نبذ ذلك التقسيم الثلاثى السقيم الذى فرضه المؤرخون الاجانب ، وأردفتها أيضا بالدعوة الى نبذ هذا الكليشيه التقليدى (العصر اليونانى الرومانى) الذى يطلق على الفترة التى تمتد من دخول الاسكندر الاكبر عام ٣٣٢ ق . م الى وصول عمرو بن العاص الى مصر . فقد فرضوا بهذه التسمية انقراض شعب مصر وحضارته المادية والفكرية ، وولادة شعب آخر حضارته المادية والفكرية يونانية ، وجردوا شعب مصر من أى تفكير مستقل . وهنا لى ملاحظتان (الاولى) أن اللغة المصرية بشكلها الاخير الذى كتبت به باستعارة الحروف اليونانية واضافة سبعة حروف ديموطيقية ، لا شأن لها بالمسيحية . اذ وجدت برديات ترجع الى القرن الثانى قبل الميلاد كتبت بهذا الشكل المعروف الان باللغة القبطية ، أى بعد دخول الاسكندر بقرن واحد . ويعتبر بعض المؤرخين أن ذلك كان بمثابة انفتاح المصريين على العالم الخارجى فى ذلك الوقت . أما (الثانية) فقد ذكرتم فى آخر صفحة ٧٥ من مجلة الطليعة « فأفلاطون مؤسس الافلاطونية الحديثة وأكبر فلاسفة ذلك العصر مصرى من أبناء أسيوط » ، واسمحوا لى أن أصحح لبسا هنا ، فالذى تقصدونه ليس افلاطون Platon ولكن افلوطين Plotin وقد أصدر عنه أخيرا الدكتور نجيب بلدى استاذ الفلسفة سابقة بجامعة الاسكندرية والاستاذ حاليا بجامعة الرباط كتابا كتبت جريدة Le Monde الفرنسية عنه تقريظا فى نصف صفحة .

حقا أنه بين ما ينبغى أن يعد من أمجاد حضارة مصر القديمة مركز المرأة فى المجتمع ، حتى أنه عندما زار هيرودوت مصر وطاف فى مدنها كان مما لفت نظره أن للمرأة المصرية من المقام فى الاسرة ، والاحترام فى المجتمع ، والحقوق فى

المعاملات ، والحرية فى غشيان الاسواق وفى البيع والشراء ، ما لا مثيل له فى بلاده ، فكتب يقول أن الرجل فى مصر يباشر شئون البيت والمرأة تباشر الشئون خارج البيت • ولم يكن هيرودوت صادقا فى هذا ولكنه رأى شيئا لم يألفه فأخطأ فى فهمه وتفسيره •

كم كنت منصفا وواسع الافق وناظرا الى وضع الامور فى نصابها عندما وضعت « العصر القبطى » مكان « أسطورة العصر اليونانى الرومانى » ، ثم أردفته بعنوان « الكنيسة المصرية » ، هذا العصر الذى أصبح يوجد له كراسى فى بعض الجامعات الاوروبية والامريكية ، لا تريد أن تعترف به بلادنا مطلقا ، ويجتاز المصرى جميع مراحل التعليم دون أن يدرى أى وجود له • متى نبلغ من الوعى ومن الامانة العلمية حدا نعرف عنده أن تاريخ العصر القبطى وتاريخ الكنيسة المصرية ليس مسألة دينية أو طائفية ، بل هو فصل من أروع الفصول فى تاريخنا المصرى القومى العام؟ بدليل الاثار التى خلفها على مجريات تاريخنا المصرى الخاص من ناحية ، وتاريخ الحضارة العام من ناحية أخرى ، فلا يصح أن ننظر اليه كمن ينظر الى واد عميق ومظلم يفصل بين القمم المجيدة للتاريخ الفرعونى والربى الجميلة لمصر الاسلامية ، فنعبر هذا الوادى على جسر علوى دون وقفة لالقاء نظرة عليه من عل ! فاحياء القومية المصرية فى العصر القبطى يرجع الفضل فيه الى نشاط الكنيسة المصرية بالرغم من الضغط البيزنطى الذى شرحته ، فضلا عن التعاليم الرهبانية والديرية فى توجيه الحضارة العامة • فافاقة الشعور المصرى والوطنى فى القرن الخامس لم يكن قاصرا على الاسكندرية ، بل ان اعلان الجهاد فى سبيل تحقيق الفكرة الاستقلالية بين عامة الشعب كان أمرا طبيعيا • أما الاسباب فهى دينية وسياسية واقتصادية وثقافية ، ولكنها فى جملتها تنبع من سبب جامع هو السبب النفسانى ، أى افاقة الوعى القومى المصرى ، الذى تبلور بشكل واضح فى مركزين رئيسيين : الكنيسة المصرية فى العاصمة ، والثانى فى قلب الصعيد الاعلى حيث يتجمهر المصريون حول شخصية من أعجب شخصيات القرن الرابع والخامس فى منطقة سوهاج : الانبا شنودة ، الذى وصفه أحدث المؤرخين المحدثين عن القبط وهو الاستاذ وليم وورل W. Worrell بأنه أعجب شخصية أخرجها القبط فى أى عصر من عصورهم الطويلة • كان المصريون يعتزون بكرامتهم القومية وبكبريائهم الذى تعمد البيزنطيون أن يكسروه ، والبيزنطيون ماضون فى استبدادهم • وكانت الاختلافات المذهبية البوتقة التى اضطرب بين جدرانها لهب القومية المصرية ، فلم يعد النقاش منحصرا فى الامور اللاهوتية • وانما اختلط بيقظة الوعى القومى ، وأصبحت المسألة الدينية هى القضية المصرية ،والتف المواطنون حول بطريركهم ضد البطريرك الملكانى الذى كان يمثل الحكم الاجنبى البيزنطى بين ظهرانيهم ، كما أصبحت الكنيسة القبطية رمز الوطنية المصرية ، وفى حجرها ترعرعت أول حركة قومية استقلالية فى التاريخ المصرى منذ انهيار الامبراطورية المصرية القديمة • ومن بين مظاهر هذا الصراع أنه كلما اشتد الضغط الاجنبى على المصريين اشتد عنادهم وتمسكوا بأهداب كنيستهم وبطريركهم ونزعاتهم الاستقلالية • ولكن لم يصرفهم ذلك عن نشاطهم الدينى والثقافى الاجتماعى فى اتجاهين : ١ — التبشير بالمسيحية فيما وراء الحدود المصرية ، وفى ذاك الوقت انضمت اثيوبيا الى المسيحية ٢ — قيام الرهبانية المصرية التى تعتبر من أينع ثمار الفكر المصرى ومن أبقى آثاره فى تاريخ الحضارة •

هذه لمحة عن ذلك العصر الذى تفضلت فاعطيته وصفه الحقيقى ، الا ترى أنه لم يعط ما يحق له من التقدير والاعتبار؟ أليس تاريخ القبط صفحة من صفحات تاريخ هذا الوطن المعزز على النفوس؟ أليس تراث القبط جزءا من تراث مصر جمعاء ؟ وانى لا أرى واجبنا نحو هذه الدراسات الا جزءا لا يتجزأ من واجبنا القومى نحو الوطن ونحو العلم والتاريخ •

ليت صيختكم « بأنه يجب أن نتخلى عن فكرة (العصر اليونانى الرومانى) ونحل محلها (العصر القبطى) » • تجد أذنا واعية فى الاوساط العلمية فى بلادنا ، فننهض بتاريخنا عامة نهضة شاملة منذ الدراسة الابتدائية الى الدراسة الجامعية ، ونعطى لكل عصر حقه فى الدراسة •

لقد ذكرتم فى ختام بحثكم الممتع أن «أهل مصر أسهموا اسهاما ايجابيا رائعا فى بناء الحضارة العربية » ، الحضارة طبعا بكل مشتملاتها من أدب وفن وعمارة وعلوم ، كم أود أن تساعدكم الظروف يوما ما فى اخراج كتاب بهذا العنوان للحقيقة والتاريخ •

حقا ما أصدق هذه الجملة التى ختمتم بها تلك الدور « قدرة هذا الشعب الرائعة على الانفتاح على كل تطور حضارى هام دون أن يتخلى عن أرضه أو شخصيته » •

بيان من ممثلى القوى الوطنية والتقدمية فى العالم العربى

جاءنا البيان التالى من ممثلى القوى الوطنية والتقدمية فى العالم العربى ، بعثوا به الى الرئيس العراقى أحمد حسن البكر ، حول ملاحقة القوى الوطنية والتقدمية فى العراق :

السيد احمد حسن البكر رئيس الجمهورية العراقية :

يتقدم اليكم بهذه الرسالة عدد من ممثلى القوى الوطنية والثورية والتقدمية فى الوطن العربى الذين روعتهم تلك الانباء التى تتوالى من العراق عن أعمال القمع والارهاب المنافية لابسط حقوق الانسان والتقاليد العربية .

ان أشد مايروعنا — ياسيادة الرئيس — هو أن يتحول العراق الى وطن لا يأمن فيه الانسان على حريته ولا على حقه المشروع فى تحقيق قانونى اذا ما تعرض للاعتقال ولا على معاملة انسانية اذا ماوجدت السلطة الحاكمة سبيلا لادانته .

بل إن ما يتواتر الينا من انباء يوحى بأن تعذيبا جسديا ومعنويا بشعا يسلط على وطنيين مخلصين وثوريين وهبوا حياتهم لخدمة شعبهم لمجرد أنهم أصحاب عقائد ومواقف وطنية وثورية .

ان مشاعر انسانية دافعة تحفزنا الى أن نتوجه اليكم ياسيادة الرئيس لكى تستخدموا سلطاتكم الدستورية لانقاذ وجه العراق من صورة بشعة ترسمها له تصرفات رجال الامن العراقية والمسئولين عن قصر النهاية .. فى أذهان الرأى العام العالمى ..

لكن المشاعر الانسانية وضرورة الإحترام لانسانية المواطنين ولحقوقهم الاجتماعية والسياسية والفكرية ليست كل ما يحفزنا لان نتوجه اليكم برسالتنا هذه وانما هناك أيضا — وقبل كل شىء — قضية الوطن العربى ومجابهته المحتومة مع الصهيونية والاستعمار ، تلك القضية التى تفرض على كل وطنى شريف أن يبذل كل جهده لتوحيد الصف العربى فى وجه الخطر الصهيونى الامبريالى الداهم . ولسنا بحاجة الى أن نؤكد لكم ياسيادة الرئيس أن الخطوة الاولى فى هذه الوحدة هى وحدة القوى الوطنية والديمقراطية والثورية فى كل وطن عربى .

وهكذا فان أعمال القمع اللاانسانى التى يتعرض لها مواطنو العراق ليست مجرد تحد للقانون ولابسط المشاعر والحقوق الانسانية فحسب ، بل أيضا خطر داهم على قضايا العراق وقضايا الامة العربية جمعا .

وختاما — ياسيادة الرئيس — فاننا نبعث اليكم بتحياتنا واثقين من أن صيحتنا هذه لن تذهب سدى ، وأن خطوات حاسمة سوف تتخذ من قبلكم لانقاذ ضحايا الارهاب ، وأولا وقبل كل شىء لانقاذ وجه العراق من صورة بشعة ترتسم له فى أذهان العالم المتحضر .

خالد محيى الدين : سكرتير عام مجلس السلام المصرى وعضو مجلس الأمة .

الدكتور هاشم الحسينى : لبنان — نائب طرابلس : رئيس حركة السلم فى لبنان .

كريم مروة — لبنان : سكرتير الحزب الشيوعى اللبنانى ، وعضو المكتب السياسى .

فاروق معصرانى — لبنان : عضو رئاسة مجلس السلم العالمى .

معروف سعد — لبنان : نائب صيدا ورئيس بلديتها .

فوزى التوم — محام : هيئة السلام السودانية .

محمد صالح العولقى — اليمن : رئيس لجنة السلم فى اليمن الديمقراطية الشعبية

المهندس مراد قوتلى — سوريا : عضو هيئة رئاسة مجلس السلم العالمى

حسن محمد بابكر البدانى — قاض شرعى : هيئة السلام السودانية .

محمود بابكر جعفر — صحفى : هيئة السلام السودانية .

صبرى القاضى — مصر — محام : عضو مجلس السلم العالمى .

فريد جبران — لبنان : نائب بيروت .

البير فرحات — لبنان : أمين حركة السلم فى لبنان — عضو مجلس السلم العالمى .

المهندس الدكتور عمر وصفى — سوريا : استاذ فى كلية الهندسة — جامعة حلب .

عبد المنعم عبد العظيم — محام : عضو هيئة السلام السودانية .

انجى افلاطون : رسامة وعضو مجلس السلم العالمى .

على سعيد عبد العزيز : الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربى المحتل .

دكتور رفعت السعيد — صحفى : عضو مجلس السلم العالمى .

ملك عبد العزيز — مصر : اديبة .

على عدى — سوريا : عضو مجلس السلم السورى .

فؤاد زحيل — مدرس : بيروت .

عبد الهادى عبلة — سوريا : عضو مجلس الشعب .

محمد احمد الشيخ القادنى — معلم سودانى : هيئة السلام السودانية .

نقولا اللحام — لبنان : سكرتير الاتحاد الوطنى لنقابات العمال فى لبنان .

أمين أصفو — سوريا : عضو الاتحاد العام فى القطر العربى السورى .

فؤاد قدرى — سوريا : عضو مجلس السلم العالمى .

فوزى حجزت : محام بالاسكندرية وعضو مجلس السلم العالمى



اعداد وتعليق

طارق البشرى
د. رفعت السيد

تنشر « الطليعة » ، فى هـذا العدد ، وثائق عن دستور سنة ١٩٢٣ ، والمناقشات التى جرت فى لجنة الثلاثين ، وهى اللجنة التى قامت باعداد هذا الدستور .

أن دستور سنة ١٩٢٣ ، كان يمثل ــ عند اعداده ــ تصورات الطبقات المالكة المصرية لاسلوب حكمها ، عندما تستولى على السلطة فى مصر المستقلة .

واذا كانت المناقشات قد اتسمت بطابع ليبرالى واضح ، فان التجربة العملية لسنوات ــ السلطة المفترضة ــ لهذه الطبقات ، قد اثبتت عدم احترامها لكثير من المبادىء التى نادت بها فى مناقشات الدستور .

ومع هـذا ، فان هذه المناقشات ، تمثل وثيقة سياسية وتاريخية هامة ، لانها :

اولا : توضح المناخ الفكرى والسياسى الذى وضع فيه اول دستور مصرى .

ثانيا : لانها تكشف عن الاتجاهات السياسية والفكرية لكثير من السياسيين المصريين تجاه واحدة من أهم القضايا فى تاريخنا الحديث .

ثالثا : لانها تحدد لنا الاساليب والاتجاهات التى سارت فيها اجراءات اعداد الدستور .. وتكشف عن الصراعات المستمرة التى دارت حول عملية وضعه موضع التطبيق .

● ● ●

قامت ثورة ١٩١٩ فى مصر عقب انتهاء الحرب العالمية الاولى مباشرة . وامتدت موجتها حتى شملت مصر كلها وبلغت اعماق الريف . وظهر بها الشعب المصرى ثائرا موحدا مصمما على التحرر . وكان « الوفد المصرى » هو الحزب الذى نشأ فى غمار هـذه الثورة

والتفت حوله الجماهير الثائرة ، وهو الحزب الذى قاد حركة التحرر الديمقراطى فيما تلا ذلك من أعوام . وقد ضمت قيادة الوفد فى البداية جماعة من الممثلين السياسيين لكبار ملاك الأرض ، ثم ما لبث هؤلاء أن انسلخوا عن الوفد، فخلصت قيادته للبرجوازية الثائرة ضد الاستعمار ممثلا فى الاحتلال البريطانى ، وضد الاستبداد ممثلا فى السلطان فؤاد، وظفر بالتأييد الكاسح للجماهير الشعبية كلها فى هذين الهدفين التاريخيين العظيمين . وليس هنا مجال التاريخ لثورة ١٩١٩ ، انما القصد هو تحديد الاطار التاريخى العام للظروف السياسية والاجتماعية التى وضع فيها دستور ١٩٢٣ . باعتبار انه يتعين النظر لهذا الدستور فى اطار النظرة العامة للثورة ، واعتباره اهم حصيلة لها، وانه يكتسب مضمونه التاريخى من سياقها .

والحاصل أن خابت محاولات السياسة البريطانية لتحطيم الثورة ، بالعنف واجراءات القمع الشديد ، فلجأت الى الحيلة والمناورة . واكتشفت لجنة ملنر فى تقصيها لظروف الثورة، ان الوفد يضم تيارين يختلفان شدة واعتدالا فى مطالبهما، فعملت السياسة البريطانية على التأثير فى الاحداث بما يعمق الخلاف بينهما . وانكشف هذا الخلاف سافرا عقب عودة الوفد المصرى من أوروبا ، بين المتشددين الملتفين حول سعد زغلول . ومن عرفوا بالمعتدلين الملتفين حول عدلى يكن . وعمل هؤلاء الاخيرين على كبح جماح الحركة الثورية وتجميدها . وفى مارس ١٩٢١ الف عدلى يكن الوزارة ثم سافر الى لندن لمفاوضة كيرزن وزير الخارجية هناك . وكان الوفد والجماهير كلها معه تحت قيادة سعد زغلول ضد عدلى وضد المتهاونين ، وفشلت مفاوضات عدلى وكيرزن رغم عدم اختلافهما فى شأن الاتفاق ، فشلت بسبب مقاومة الوفد لها وادراك الانجليز الا أمل فى ضمان تنفيذ اية معاهدة مابقى الوفد قويا ومعارضا . وكان لابد من تصفية الوفد والحركة الشعبية . وتمثلت خطة التصفية فى الاجراءات التى تلت ذلك مباشرة .

قبض المندوب السامى البريطانى فى مصر على سعد زغلول وبعض قادة الوفد ونفاهم عن مصر فى أواخر ديسمبر ١٩٢١، وقدم عدلى يكن استقالته حتى لايتحمل امام الجماهير وزر هذا العمل المتفق عليه ، ثم صدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ من جانب بريطانيا يعلن انهاء الحماية البريطانية على مصر ويعترف بها دولة مستقلة ذات سيادة وان سلطان مصر قد صار ملكا عليها باسم الملك فؤاد الاول . ووضع التصريح اربعة تحفظات على هذا الاستقلال ، هى الدفاع عن مصر فى حالة الحرب وتامين المواصلات الامبراطورية وحماية مصالح الاجانب والاقليات والسودان . ثم كلف عبد الخالق ثروت الذى ساهم مع اللنبى فى وضع صيغة التصريح المذكور ، بتاليف الوزارة فى أول مارس ، وكان من أخص مهامها اعداد الدستور . وتكون حزب الاحرار الدستوريين من المنسلخين عن الوفد . وقصد بذلك جميعه أن تتم تصفية المسالة الوطنية والديمقراطية فى ذات الوقت الذى يضرب فيه الوفد ، وأن يتكون الدستور وتبنى مؤسساته فى غيبة الوفد والجماهير . واطردت موجات اعتقال قادة الوفد .

● ● ●

فى ٣ ابريل ١٩٢٢ شكلت لجنة الدستور بالتعيين من اثنين وثلاثين عضوا . اختيروا من الجمعية التشريعية التى نشأت فىعهد الاحتلال سنة ١٩١٣ ، وذلك « بوصفها الهيئة التى تمثل الامة تمثيلا رسميا » ومن عدد من الاعيان ممن « أرضى اختيارهم أصحاب المصالح الواسعة فى البلاد » كما يذكر الدكتور هيكل . فكانت اللجنة موزعة بين اتباع السراى والاحتلال وبين الاعيان.

وقاطع الوفد اللجنة وقاطعها الحزب الوطنى . واسماها سعد زغلول « بلجنة الاشقياء » ، كما أسمى تصريح ٢٨ فبراير نكبة وطنية كبرى . وتركز مطلب الوفد الاساسى فى أن تضع الدستور جمعية وطنية تتكون بالانتخاب العام الحر وان ترفع الاحكام العرفية التى كانت مفروضة على البلاد منذ بداية الحرب العالمية . واستمرت لجنة الدستور فى عملها منذ ١١ ابريل ١٩٢٢ حتى اتمته فى ٢٦ اكتوبر ١٩٢٢ .

كانت صناعة الدستور معركة سياسية بين الحركة الوطنية الديمقراطية وبين اعدائها . وحدث ان انسلاخ المعتدلين عن الوفد لم يضعفه بل شد من عصبه اذ جعله خالصا للعناصر الثائرة . كما ان اجراءات العنف التى اتخذت ضد العناصر الوطنية زادت التفاف الجماهير حولهم وحصنت الجماهير ضد تصريح ٢٨ فبراير وسياسة عبد الخالق ثروت . واستطاعت الحركة الوطنية رغم عدم اشتراكها فى لجنة الدستور ، أن تملى الكثير من مبادئها فيها على ماسترد الاشارة اليه .

وبالجملة فيمكن استعراض الخريطة السياسية للقوى المختلفة وقتها فيما يلى :

اولا ● الانجليز : ويتمثل وجودهم فى جيش الاحتلال، وفى المندوب السامى الذى كان يمارس نفوذه السياسى الحاسم على مؤسسات الحكم المصرية . وقد بنى الانجليز سياستهم بعد ١٩١٩، على أساس تصريح ٢٨ فبراير . وادركوا بخبرتهم فى حكم مصر أن مايضمن استدامة نفوذهم العمل على بقاء السلطة موزعة بين الملك والاحرار الدستوريين ، فلا تستبد بها قوة واحدة قد تنافسهم مستقبلا لمصلحتها الذاتية . وأن تكون

تحفظات تصريح ٢٨ فبراير هي الصيغة السياسية التي تمكنهم من التدخل المباشر ان استدعى الامر . وأن تكون قوات الاحتلال ركيزة مادية لهذا التدخل عند اللزوم .

● السراى : وهي مؤسسة سياسية يقوم على رأسها الملك ، ومن قبله الخديو والوالى . وقد استقطبت نصفها كل بقايا ورواسب القرون الوسطى وعهود الحكم المملوكى التركى . فكانت بمثابة قاعدة أجنبية على رأس السلطة . ومنذ ثورة عرابى فهمت السراى أن لاضمان لبقائها الا بمعونة أجنبى محتل . وكان الخديو توفيق هو من طلب دخول الانجليز سنة ١٨٨٢ لحمايته من العرابيين، وهي ذاتها واقعة احتلال مصر . وكان فؤاد هو من تولى عرش مصر سنة ١٩١٧ تحت ظل الحماية البريطانية وباختيارها ، ثم صار ملكا بتصريح ٢٨ فبراير .

● الاحرار الدستوريون: الممثلون السياسيون لكبار ملاك الارض . وهي الطبقة التي دخلت معترك الحياة السياسية منذ تكوين مجلس شورى النواب ١٨٦٦ . وشاركوا بقدر في بدايات ثورة عرابى ضد استبداد العناصر التركية والشركسية الاصل ، وساهموا في المجالس الاستشارية النيابية في عهد الاحتلال . واستقر في ضميرهم ــ خاصة منذ انشأوا حزب الامة في بدايات القرن العشرين ــ انهم زخر الكفاية المصرية الجديرة بالمشاركة في الحكم الى جانب « السلطة الشرعية » ممثلة في الخديو ، والسلطة الفعلية ممثلة في الاحتلال، كما عبر لطفي السيد وقتها . وكان الاتجاه الفكرى لمثقفيهم غربى المنزع متأثرا بالافكار الحضارية التي انتقلت الى مصر من أوروبا . وكانوا شديدى الحساسية ازاء محاولات السراى ابقاء سيطرتها على الحكم من دونهم . وعند اعداد دستور ١٩٢٣ ، اتخذ مفكروهم باللجنة موقف التأييد والتوسعة الى حد ما من سلطات الامة ، ظنا منهم انهم وارثوا الوفد القادرون على استرداد « الامة » منه بعد اجراءات القمع التي اتخذت ضده ، وتأكيد لسلطتهم باعتبارهم « الامة » في مواجهة سلطة الملك . وكان أنصار الملك يروجون الى فكرة أن الدستور منحة من الملك، وعارض عبدالعزيز فهمى وغيره من الاحرار هذه الفكرة قائلين ان الدستور عقد بين الملك وبين الامة ممثلة في وزارتها ، اى وزارة عبد الخالق ثروت . وان الانجليز لم يعترفوا باستقلال مصر لمصلحة الملك وحده ، ولكن لمصلحة الامة ايضا .

● الجهاز الادارى : وقد اعيدت صياغته خلال الاربعين سنة الماضية على يد الاحتلال والسراى، وكان الخديو ثم السلطان على رأسه ممثلا للسلطة الشرعية يؤكد نفوذه من خلال من يعينهم في مراكزه الكبيرة من أنصاره . وكان الانجليز يهيمنون عليه من خلال موظفيهم الكبار في الجيش والبوليس ووزارتى المالية والحقانية . وكان من كبار الملاك المصريين عدد في الجهاز الادارى من ابنائهم والمرتبطين بهم .

ثانيا : ثورة ١٩١٩ . القوة الوطنية الديمقراطية الجديدة، ممثلة في الوفد المصرى . وهنا ينبغى ملاحظة أمر هام . فانه اذا كانت لجنة الدستور لم تتسع هذه القوة ، وقد دارت جميع جلساتها في سرية، فان هذه اللجنة ذاتها وضعت الدستور في مناخ سياسى م ـض عليها ، هو المناخ الذى اوجدته الثورة . ولم تكن لجنة الثلاثين قادرة على تجاهل صوت المظاهرات يقتحم عليها النوافذ ، ولاخطب القادة وكتابات الصحف .

والحقيقة ان الوفد قاطع اللجنة وطالب بتكوين جمعية وطنية ، ولكنه لم يقف بعيدا عن الصراع الدائر حول اعداد الدستور . وكان يراقب أعمال اللجنة ، ويراقبها معه جمهور أصحاب الرأى في المجتمع ، في كل مسألة تتعرض لها ، وكانت البيانات تصدر والمقالات تكتب والاجتماعات تعقد لاتخاذ المواقف المطلوبة فيما تكون اللجنة بصدد تقريره من احكام الدستور . وكان لهذا تأثيره المعترف به على اللجنة ورجالها . وقد ذكر الدكتور هيكل ان المعارضة [الوفدية] خارج اللجنة كان لها نفعها في مساندة رأى بعض أعضاء اللجنة ، مشيرا الى مطالب هؤلاء في الحد من سلطات الملك ، كما ذكر اسماعيل صدقى ان دستور ١٩٢٣ علقت به « آثار الفتنة التي ولد في جوها » اى انه كان يحمل طابع ثورة ١٩١٩ .

وقد عرف عن لجنة الدستور ، انها رغم سرية جلساتها فقد كانت تلجا الى نوع من الحوار غير المباشر مع الرأى العام خارجها ، ويوعز حسين رشدى رئيسها الى بعض الصحف طرح موضوع ما يشغل اللجنة على الرأى العام لتستطيع تحسس موازين القوى بشأن ترجيح احد الحلول له . وبلغ الامر باللجنة احيانا أن أوصت بعض اعضائها بالكتابة في الصحف بصفتهم الفردية لاستطلاع وجهات النظر وقياس ردود الفعل ، فيما يدور باللجنة من مسائل . والمعروف ان الملك لما اراد تعديل بعض نصوص مشروع الدستور لزيادة سلطاته ، وقف ضده الوفد فوئدت محاولته .

وكانت اللجنة في استطلاعها وجهات نظر الرأى العام خارجها ، تصدر عن اعتبارين اساسين : أولا، ايجاد قوة ممثلة في الرأى العام تحسم ما يظهر داخلها من خلافات حول تعيين السلطات المختلفة وخاصة تحديد سلطة الملك وسلطة الأمة . وثانيا التأكد من أنها لاتقوم فيما نقرره من احكام بعمل منقطع الصلة بالاتجاهات العامة خارجها وانها لا تعمل في فراغ ، وكانت تدرك بوعى وبصيرة أن دستورا

لا يظفر بتأييد الرأى العام او بعض اتجاهاته الاساسية ، او بالاقل لا يتصل بهذه الاتجاهات بسبب دستور مقتلع الجذور لن يكون أكثر من قصاصة ورق . وكانت الكتلة الاساسية للرأى العام تلتف حول الوفد .

والنتيجة ان دستور ١٩٢٣ الذى اريد له ان يصنع فى غيبة الوفد . قد صنع فى وجوده ، من خلال المنابر العامة . ولكن بقى الوفد رافضا الاعتراف باللجنة والمشروع الذى اعدته ، طالما بقيت اجراءات القمع تمارس ضده وتعمل على تصفيته قبل تنفيذ الدستور.واستعمل كل وسائل الضغط الشعبى حتى عاد القادة المنفيين وافرج عن المعتقلين ، واعلن عن الانتخابات فى حضور القوة السياسية الكاملة للوفد وللنشاط الشعبى . فدخل الوفد الانتخابات حسب الدستور ، فكان ذلك منه بمثابة قبول للدستور واستفتاء له عليه . وكانت النتيجة فوزا ساحقا للوفد ، اذ نال ٩٠٪ من مقاعد مجلس النواب وشكلت اول وزارة برئاسة سعد زغلول فى يناير ١٩٢٤ .

واذا كان الاحرار الدستوريون قد ساهموا مساهمة كبيرة فى وضع الدستور ، فقد كانوا من أوائل من انتكس عليه فى ١٩٢٥ ، واسماه عبد العزيز فهمى ثوبا فضفاضا ، ثم وقعت وزارة الاحرار العمل به فى ١٩٢٨ ، وخاضوا المعارك ضده .

واذا كان سعد زغلول هو من اسمى لجنة الدستور لجنة الاشقياء ، فقد قالفى اول اجتماع لأول برلمان شكل طبقا له انه وضع على أحسن المبادىء العصرية ، وقال بعدها « هذا الدستور هو نعمة من الله علينا » ، وكان هذا الدستور بعد ذلك ركيزة الوفد وهدف كفاحه طوال مدة بقائه . أما عن احكام الدستور فهذا ما ستشمله الوثائق التالية –

■■■

أمر كريم :

رقم ١٣ مؤرخ اول مارس سنة١٩٢٢ موجه الى عبد الخالق ثروت باشا بتشكيل الوزارة ، وبأن يكون للبلاد نظام دستورى يحقق التعاون بين الامة والحكومة ..

عزيزى عبد الخالق ثروت باشا ...

ان القرار الذى ابلغنا اياه حضرة صاحب المقام الجليل المندوب السامى لدولة بريطانيا العظمى فيما يختصبانتهاء الحمايةالبريطانية علىمصر ، وبالاعتراف بها دولة مستقلة ذات سيادة ، يحقق اعز امنية لنا ولشعبنا العزيز . وهو ثمرة الجهاد القومى الذى تعهدناه على الدوام بالتشجيع والتاييد . ولا ريب عندنا فى أن استمساك الامة برباط الوئام والاتحاد والتزامها جانب الحكمة فى هذا الدور الجديدمن حياتهاالسياسية كفيل بتحقيق كامل امانيها .

ونظرا لما نعرفه عنكم من الجهود المشكور فى خدمة القضية المصرية ، ولما لنا من الثقة التامة بكم ، وما نعهده فيكم من الجدارة الكاملة للقيام بمهام الامور – قد اقتضت ارادتنا السلطانية توجيه مسند رياسة مجلس وزرائنا مع رتبة الرياسة الجليلة لعهدكم .

وقد اصدرنا امرنا هذا لدولتكم للاخذ فى تاليف وزارة جديدة يكون من بينها وزير للخارجية وعرض مشروعه لجانبنا لصدور مرسومنا العالى به .

ولما كان من اجل رغباتنا ان يكون للبلاد نظام دستورى يحقق التعاون بين الامة والحكومة لذلك يكون من اول ما تعنى به الوزارة اعداد مشروع ذلك النظام .

وانا نسال الله العلى القدير ان يجعل التوفيق رائدنا فيمايعودعلى بلادنا ورعايانا بالخير والسعادة وهوالمستعان

فؤاد

صدر بسراى عابدين فى ٢ رجب ١٣٤٠ [اول مارس ١٩٢٢].

* كانت احدى ملاحظات القوى الوطنية تجاه هذا الخطاب ان الملك فؤاد يصور الاستقلالعلى انه منحةمن الانجليز وليس تتويجا لنضال الامة .

وقد جاء فى رد عبد الخالق ثروت على الملك فؤاد فقرة خاصة بالدستور جاء فيها :

« على ان الوزارة ترى انه لكىتكون جهود البلاد فى سبيل تحقيق كامل امانيها بحيث تؤتى جميع ثمرها يجب ان يؤلف بين عمل الحكومة وبين عمل هيئة تنوب عن الامة ، وان تسعى الهيئتان متساندتان لاغراض متحدة .

ولذلك فان الوزارة ، عملا باوامر عظمتكم ، ستاخذ فى الحال فى اعداد دستور طبقا لمبادىء القانون العامالحديث وسيقرر هذا الدستور مبدأ المسئولية الوزارية ، ويكون بذلك للهيئة النيابية حق الاشراف على العمل السياسى المقبل »

(اول مارس ١٩٢٢)

قرار مجلس الوزراء الصادر فى ٣ ابريل ١٩٢٢ بتأليف لجنة تتولى وضع مشروع دستور وقانون انتخاب

رياسة مجلس الوزراء .

صدق مجلس الوزراء فى ٥ شعبان سنة ١٣٤٠ (٣ ابريل ١٩٢٢) على المذكرة الاتية :

اشار الامر الكريم الصادر الىتاليف هذه الوزارة الى رغبة حضرة صاحب الجلالة الملك فى تحقيق التعاون بين الامة والحكومة بواسطة نظام دستورى وعهد الى الوزارة باعداد مشروع ذلك النظام . وقد كان جواب الوزارة على هذا الامر الكريم انها ستاخذ فى الحال فى اعداد مشروع دستور طبقا لمبادىء القانون العامالحديث ، وان هذاالدستور سيقرر مبدأ المسئولية الوزارية ، ويكون بذلك للهيئة النيابية حق الاشراف على العمل السياسى المقبل .

وبما ان الوزارة ترى ان تستعين فى القيام بهذه المهمة الخطيرة باراء هيئة يكون اعضاؤها من ذوى الخبرة والصفة النيابية ، لذلك اتشرف بان ارفع هذه المذكرة الىمجلس الوزراء راجياالموافقة على تاليف لجنة تتولى وضع مشروع دستور وقانون انتخاب ويكوناعضاؤها حضرات اصحاب الدولة والمعالى والسعادة والعزة الاتية اسماؤهم :

١ – حسين رشدى باشا (رئيسا)

٢ – احمد حشمت باشا .

٣ ـ يوسف سابا باشا .
٤ ـ احمد طلعت باشا .
٥ ـ محمد توفيق رفعت باشا .
٦ ـ عبد الفتاح يحيى باشا .
٧ ـ سماحة السيد عبدالحميدالبكرى
٨ ـ فضيلة الشيخ محمد بخيت .
٩ ـ نيافة الانبا يؤنس .
١٠ ـ قلينى فهمى باشا .
١١ ـ اسماعيل اباظه باشا .
١٢ ـ محمد ابوحسين باشا .
١٣ ـ منصور يوسف باشا .
١٤ ـ يوسف اصلان قطاوى باشا .
١٥ ـ ابراهيم ابو رحاب باشا .
١٦ ـ على المنزلاوى بك .
١٧ ـ عبد اللطيف المكباتى بك .
١٨ ـ محمد على بك .
١٩ ـ زكريا نامق بك .
٢٠ ـ ابراهيم الهلباوى بك .
٢١ ـ عبد العزيز فهمى بك .
٢٢ ـ محمود ابو النصر بك .
٢٣ ـ الشيخ محمد خيرت راضى بك .
٢٤ ـ حسن عبد الرازق باشا .
٢٥ ـ عبد القادر الجمال باشا .
٢٦ ـ صالح لملوم باشا .
٢٧ ـ الياس عوض بك .
٢٨ ـ على ماهر بك .
٢٩ ـ توفيق دوس بك .
٣٠ ـ عبد الحميد مصطفى بك .
٣١ ـ حافظ حسن باشا .
٣٢ ـ عبد الحميد بدوى بك .

رئيس مجلس الوزراء
ثروت

● يلاحظ ان عدد اللجنة اثنان وثلاثون عضوا وليس كما هو متداول نظرا لتسميتها «لجنة الثلاثين» ويلاحظ ان اللجنة تضم (١٦ باشا) و [١٣ بك] وتضم ايضا ممثلين لرجال الدين المسلمين والمسيحيين كما تضم يهوديا واحدا .

مقتطفات من الكلمات التى القيت فى اولى جلسات لجنة الدستور

[عقدت الجلسة بقاعة الجمعية التشريعية فى ١١ ابريل ١٩٢٢]

سعادة منصور يوسف باشا : قالت الوزارة انها تستعين باللجنة فى اعداد مشروع قانون للدستور وآخر للانتخاب ، وقال دولة رئيس الوزراء اننا فى هذا نعمل لمصلحة البلاد فهل رأينا فى اعداد هذه القوانين استشارى او قطعى ؟ وانا اطلب استحضار قوانين الدساتير الحديثة وان تترجم الى العربية بمعرفة مترجم متشرع .

سعادة قلينى فهمى باشا : مهمتنا هى اعداد مشروع القانون فقط ، وبعد اعداده يعرض على الحكومة ، فهو ليس الزاميا لها ، بل هو بمثابة تنوير نسترشد به فى وضع الدستور .

فضيلة الشيخ محمد بخيت : هل بعد تصديق الحكومة على القانون يجب عرضه على البرلمان حتى يكون نهائيا ام لا ؟ فاننى ارى وجوب عرضه على البرلمان قبل التصديق النهائى عليه .

دولة رشدى باشا : هذه مسالة سابقة لاوانها ، ويجب ابداء الرأى فيها عند المداولة . امامنا الان تحضير قانونين احدهما للانتخاب والثانى للدستور ، فمن رأيى تشكيل لجنتين للتحضير لكل من القانونين قاعدة ، وعند عدم اتفاق اعضاء اى لجنة يعرض الامر على اللجنة العامة . وارى أن من واجبنا تحضير مشروع قانون للجنسية المصرية فان قانون الانتخاب متوقف عليه .

حضرة عبد العزيز فهمى بك : ارى تأجيل مسألة قانون الجنسية الان ، لان من المسائل المحتفظ بها ، ولانه معطل لعملنا الان ، فضلا عن ان اعداده الان قبل البت فى المسائل الاخرى قد يضر بنا ضررا عظيما ، وارى ان نسير الان على قانون الوطنية المصرية المعمول به الان فضلا عن اننا غير مختصين باعداد هذا القانون .

حضرة المكباتى بك : جاء فى خطاب دولة رئيس الوزراء ان الدستور الذى تقدم به الان هو منحة من جلالة الملك ، ولكننى اقرر ان ما نتمتع به الان من الدستور انما هو ثمرة من ثمار جهاد الامة ، وان للامة السيادة التى يجب ان تكون بارزة فى نصوص الدستور ، وعلى هذا الاساس نحن نشترك فى العمل . وهناك مبادىء يجب ان نقررها قبل انتخاب اللجان والبدء فى عملها ، منها ان سلطة الامة يجب ان تكون بارزة ، وان مسئولية الوزارة يجب ان تكون بارزة ، وان الدستور الذى نعده الان يجب ان يكون قابلا للتعديل امام مجلس النواب ومجلس الاعيان باغلبية ثلاثة ارباعها ، وانه يجب ان يكون الانتخاب بدرجة واحدة او درجتين ، وان تكون نيابة الامة فى مجلس واحد او مجلسين .

دولة رشدى باشا : كل هذه المبادىء مسلم بها دولة رئيس الوزراء ، على انها جميعا هى الدستور المطلوب منا اعداده . فما على كل منا سوى الادلاء برايه عند المداولة وتقرير المبادىء التى يرى وضعها فى القانون ومتى تم وضع المشروع وعرض على اللجنة العامة للمناقشة فيه كان لكل عضو من حضرات الاعضاء حق ابداء رايه والدفاع عنه ، اما الان فكل هذه امور سابقة لاوانها .

حضرة توفيق دوس بك : هذه المبادىء كلها ستقرر أمام اللجان المختصة وتكون موضع المناقشة والبحث فيها ، فان وافق قرارها رأى حضرة العضو كان بها ، والا فله ان يطرح الامر للمناقشة من جديد امام اللجنة . ومما لا نزاع فيه ان واجبنا ان نعرض مشروع دستور تتمثل فيه سلطة الامة بأوسع معانيها طبقا لاحدث المبادىء الدستورية واحدث مبادىء القانون العام .

حضرة الياس عوض بك : المسائل التى عرضها المكباتى بك امور مسلم بها فى كل دستور فى العالم ، فلا محل لتقريرها ، وهى تعرض على اللجان .

حضرة الهلباوى بك : المعهود لنا هو وضع قانون نظامى ، والقانون النظامى كله مبادىء ، فان اردنا تقرير المبادىء التى يريدها المكباتى بك فان هذا هو كل القانون ، والمناقشة الان معناها وضع القانون برمته .

دولة رشدى باشا : إنا افهم ان عبارة سيادة الامة مسالة نظرية محضة ، وان المهم هو اثرها فى نصوص الدستور وتطبيقها عمليا باوسع مايمكن ، كمسئولية الوزارة ، وحق الامة فى تعديل الدستور بواسطة مجالسها النيابية ، وكان بنص فى الدستور على ان يقسم جلالة الملك يمين المحافظة عليه .

❊ كانت بعض الاقليات الاجنبية تبدى مخاوفها من وضع الدستور على اساس انه سوف يؤدى الى الاضرار بحقوقها المكتسبة ، وخاصة حقوقها فى التوظف والاقامة وامتلاك الاراضى الزراعية وغيرها .

ومن بين المجموعات التى ابدت قلقها بشكل منظم تجمعات السوريين واللبنانيين المقيمين بمصر والذين كانوا يستمتعون بالامتيازات الاجنبية باعتبارهم رعية فرنسية .

* كان احد الشروط التى اشترك بعض الاعضاء السابقين فى الحزب الوطنى على اساسها فى لجنة الدستور هى النص على ان الدستور ثمرة لجهاد الامة وليس منحة من الملك وان الامة هى مصدر كل السلطات .

وكانت حجتهم ان من « يمنح » يملك « الاسترداد » ، وقد اكد المكباتى ان هذا شرط لوجوده فى اللجنة فقال « وعلى هذا الاساس نحن نشترك فى العمل » .

اعضاء اللجنة الفرعية :

تشكلت اللجنة العامة بجلستها التى انعقدت فى ١٣ ابريل سنة ١٩٢٢ وعهدت اليها بوضع تقرير عن المبادىء العامة التى يجب الاخذ بها فى مشروعى الدستور وقانون الانتخاب .

شكلت اللجنة من حضرة صاحب الدولة حسين رشدى باشا ، وحضرات اصحاب المعالى والسعادة والفضيلة والعزة : عبد العزيز فهمى بك ، توفيق دوس بك ، عبد الفتاح يحيى باشا ، محمد على بك ، احمد حشمت باشا ، على ماهر بك ، عبد الحميد مصطفى بك ، احمد طلعت باشا ، محمد وفيق رفعت باشا ، عبد الحميد بدوى بك ، عبداللطيف المكباتى بك ، على المنزلاوى بك ، الاستاذ الشيخ محمد بخيت ، ابراهيم الهلباوى بك ، يوسف اصلان قطاوى باشا ، زكريا نامق بك ، محمود ابو النصر بك .

مذكرة وزير الحقانية عن الدستور المصرى :

(نص المذكرة التفسيرية التى وضعتها وزارة الحقانية لشرح الحال الجديدة التى يخلقها الدستور ، ولذكر اسباب التعديل الذى ادخل على مشروع لجنة الثلاثين) :

اذا اريد فهم مرمى التغيير الذى سيطرأ فلا مندوحة عن أن نورد بالايجاز ما يختلف به نظام الحكم الجديد عن النظام السابق .

ومن وجهة النظر هذه يجب ان تكون المقارنة بحكم المنطق بالمدة التى تقدمت الحرب العظمى ، لان البلاد منذ سنة ١٩١٤ كانت خاضعة لنظام حكم استثنائى .

ففى اول يوليه سنة ١٩١٣ سن قانون نظامى جديد حل محل القانون النظامى الذى سن فى اول مايو ١٨٨٣ . ويؤخذ من ديباجة قانون ١٩١٣ ان الغرض الاكبر من التعديل الذى ادخل على القانون النظامى وقانون الانتخاب لسنة ١٨٨٣ هو ادغام مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية فى مجلس واحد هو الجمعية التشريعية . وقد كان من اكبر البواعث على تسويغ هذا الادغام أن تثنيه الهيئات النيابية فى سنة ١٨٨٣ لاتطابق نظام المجلسين الشائع فى معظم البلدان الاجنبية . فالجمعية العمومية لم تكن تجتمع الا نادرا بل كان اجتماعها مرة كل سنتين عادة . ولم يكن لها من السلطة التشريعية النافذة سوى حق الاقتراع على الاموال المقررة ، عقارية كانت او شخصية . خلافا لمجلس شورى القوانين ، فمع ان وظيفته كانت استشارية فقط فانه كان فى الحقيقة يشترك اشتراكا عظيم القدر فى سن القوانين .

وباحكام قانون ١٨٨٣ كان مجلس شورى القوانين يؤلف من ٣٠ عضوا ، منهم ١٤ دائمون (بينهم الرئيس ونائب الرئيس) يعينون بامر عال ، و ١٦ عضوا منتخبا ، منهم ١٤ ينتخبون فى الدرجة الثالثة بواسطة مجالس المديريات (بحساب عضو مندوب من كل مجلس مديرية) وعضوين ينتخبان بالدرجة الثانية بواسطة مندوبى المدن والمحافظات . اما الجمعية العمومية فكانت باحكام ذلك القانون عينه ، مؤلفة ، علاوة على الوزراء من اعضاء شورى القوانين ومن ٤٠ وجيها ينتخبهم ناخبون منتدبون بالدرجة الثانية .

اما الجمعية التشريعية التى انشئت سنة ١٩١٣ فمؤلفة من الوزراء ، وهم اعضاء فيها بحكم مناصبهم ، ومن ٦٦ عضوا ينتخبهم ناخبون مندوبون بالدرجة الثانية ، ومن ١٧ عضوا معينا .

فالقانون النظامى الذى سن سنة ١٩١٣ ، كان تقدما محسوسا بالنسبة الى القانون السابق له من جملة وجوه :

١ - زيادة نسبة الاعضاء المنتخبين الى الاعضاء المعينين ، ووجود ٦٠ عضوا منتخبا كفل للبلاد تمثيلا يجعل لكل ٢٠٠ الف نسمة ممثلا .

٢ - تحسن نظام الانتخاب تحسنا عظيما ، بمعنى ان الانتخاب صار فى جميع الاحوال بدرجتين ، وان عدد الناخبين المندوبين زاد زيادة عظيمة ، فقد صار لكل ٥٠ ناخبا ابتدائيا ناخب مندوب . اما قبل ذلك فانه لم يكن لكل مدينة او قرية او قسم سوى ناخب مندوب واحد مهما بلغ عدد السكان .

٣ - كفل تمثيل الاقليات والمصالح اذ يتعين على الحكومة ان تختار الاعضاء المعينين من بعض طبقات الاهالى اذا لم تكن الانتخابات قد منحت هذه الطبقات تمثيلا وافيا .

٤ - واخيرا حل الانتخاب بالاكثرية المطلقة فى الاصوات محل الانتخاب بالاكثرية النسبية .

اما من جهة اختصاص الجمعية التشريعية فقد زيد زيادة يسيرة بتخويلها الحق فى اقتراح بعض المواد التشريعية والتوسع فى مناقشة الحكومة فى مشروعات القوانين والاوامر العالية التى تعرض عليها ، ولكن اذا استثنينا مسألة الاموال الجديدة المقررة ، العقارية او الشخصية ، فان الحكومة ظلت حرة فى ان تعمل او لا تعمل برأى الجمعية . ومع ان الوزراء كانوا مسئولين من الوجهة السياسية عن اعمال ولى الامر ، بحكم امضائهم معه ، لم يكونوا خاضعين لمسئولية برلمانية امام الجمعية التشريعية التى ظلت مصطبغة بصبغة مجلس استشارى تشريعى .

ودارت رحى الحرب ، بعد عقد الفصل الاول من فصول جلسات الجمعية التشريعية ببضعة اشهر ، فلم تجتمع من ذلك الحين لان عقدها اجل الى هذا اليوم ، ولان الاعمال التى تمت لتجديد انتخاب اعضائها وقفت ، ومن الجهة الاخرى بسط الحكم العرفى البريطانى فى البلاد كلها من شهر نوفمبر ١٩١٤ ولم يلغ حتى الان ، فنشأ عن ذلك ان ادارة البلاد فى خلال هذه المدة الاستثنائية تمت اما بمراسيم اصدرها ولى الامر فى مجالس الوزراء ، او بقرارات مجلس الوزراء ، او باوامر ومنشورات من السلطة العسكرية - ولكن من غير معاونة الهيئات النيابية .

اما الدستور الجديد فينص بتمام الصراحة على انشاء حكم نيابى حقيقى فى البلاد .

والسلطة التشريعية ستكون فى يد الملك ومجلس الشيوخ ومجلس النواب معا : فلا يجوز نشر قرار تشريعى له صبغة القانون الا اذا سبق البرلمان فاجازه .

وكانت السلطة التنفيذية حتى الان - سواء كان بحكم القانون النظامى لسنة ١٨٨٣ او قانون ١٩١٣ - تستطيع دائما الا تعبأ برأى مجلس شورى القوانين ، او الجمعية التشريعية ، ولم تكن موافقة الجمعية العمومية او الجمعية التشريعية مشترطة الا فى اجازة الاموال المقررة العقارية او الشخصية .

ولكن هنالك ما هو اعظم من هذا ، وهو ان الملك لا يكون بعد الان على قدم المساواة مع المجلسين التشريعيين ، لانه لم يعترف له بحق نقض قراراتهما ولو على سبيل التوقيف البسيط ، بل يتعين عليه ان يوافق على القوانين التى يجيزها البرلمان . وكل السلطة المعترف بها للملك هى ان يطلب اقتراعا ثانيا فى البرلمان . فكل مشروع قانون يقترع عليه مرة ثانية فى فصل الجلسات الواحد باكثرية ثلثى اعضاء كل من المجلسين - ولو كان قد اقترع على جوازه باكثرية مطلقة فى فصل سابق - يجب ان يسن وينفذ .

وقد جعل حق البرلمان فى اقتراح مشروعات القوانين مطلقا ، الا فى مسألة فرض ضرائب جديدة ، او زيادة الضرائب الحالية . ولم يكن هذا الحق معترفا به لمجلس شورى القوانين بقانون ١٨٨٣ : وكل ما كان يستطيعه هو ان يطلب من الحكومة تقديم المشروعات ، ولكن الحكومة كانت حرة فى تلبية هذا الطلب او عدم تلبيته .

اما قانون سنة ١٩١٣ ، فقد اكسب الجمعية التشريعية شيئا من هذا الحق ، ولكنه ظل عرضة لسيطرة الحكومة ، فكانت تستطيع ان تعارض فى مناقشة كل

مشروع يضمن من اعضاء الجمعية التشريعية .

فازاء هذه السلطات المتسعة النطاق في المواد التشريعية اصبح من الصواب الرجوع الى نظام المجلسين ، فالمجلس الاعلى يكون عنصرا معدلا بطبيعة تاليفه ، ولكن اذا كان للمجلسين عين السلطة من جهة الاقتراع على القوانين – الا في مسالة الميزانية التي يجب ان يناقش فيها وتجاز باقتراع مجلس النواب – فان لمجلس النواب مع ذلك كفة راجحة بسبب المبادىء التي وضعها الدستور فيما يختص بمسئولية الوزراء .

اي ان الوزراء مسئولون سياسيا امام مجلس النواب وحده ، وليس امام مجلس الشيوخ . ومن الجهة الاخرى فان من اختصاص مجلس النواب القرار على اتهام الوزراء امام المحكمة الخاصة التي تنشأ لمحاكمة الوزراء على الذنوب التي يرتكبونها في اداء مهامهم . وزد على ذلك ان الوزير الذي تحكم عليه المحكمة الخصوصية لا يمكن ان يعفى عنه الا بموافقة مجلس النواب .

ويحسن بنا ان نتوسع في فحص مسالة مسئولية الوزارة لاهميتها . فانه بموجب نظام الحكم المعمول به الان يتولى الملك الحكم مع مجلس وزرائه وبواسطة هذا المجلس (انظر ديكريتو الخديو اسماعيل بتاريخ ٢٨ اغسطس سنة ١٨٧٨) . ولكن مع وجود هذا المجلس حفظ ولي الامر في يده جميع السلطات التي لم ينتدب لها سواء ندبا صريحا . ومن ذلك انه حفظ لنفسه ، بالامر الكريم الصادر في سنة ١٨٧٨ ، حق الموافقة على قرارات مجلس الوزراء . فالملك كان يتخذ نصيبا في استعمال السلطة التنفيذية رأسا لا بالواسطة فقط .

اما الدستور الجديد فينص على نظام يختلف كل الاختلاف عن ذلك ، فكل عمل يعمله الملك وتكون له علاقة بشئون الدولة يجب لتنفيذه ان يوقع عليه رئيس الوزراء والوزراء ذوو الاختصاص ، فالملك يستعمل سلطاته بواسطة وزرائه ، والوزراء مسئولون سياسيا عن جميع اعمال الملك . وبموجب التفسير الوارد في غير هذا المكان عن امور مشابهة تكون كل اعمال الملك – حتى الخطب السياسية التي يلقيها – داخلة في مسئولية الوزارة ، وانما يستثنى من هذا المبدأ العام ، وهو ان كل قرار من الملك يجب ان يمضيه احد الوزراء .

ان مسئولية الوزراء السياسية تكون امام مجلس النواب . فهذا المجلس هو الذي يعرض على الحكومة السياسة التي يجب اتباعها ، والوزارة التي لا تنال ثقة هذا المجلس يجب ان تستقيل .

ومن الطبيعي الا تكون المسئولية السياسية للوزارة عادة امام مجلس الشيوخ بهيئته ، لان جانبا من اعضائه يعينهم الملك . فمجلس النواب هو الذي يعتبر انه يمثل رأي البلاد أوفى تمثيل ، فمشيئته هي التي يجب ان تعلو من وجهة نظر السياسة العامة للحكومة .

ولكن لا يغيب عن البال انه من وجهة النظر التشريعية يكون لمجلس الشيوخ نفس السلطة التي لمجلس النواب ، بحيث انه من الوجهة النظرية تستطيع الاكثرية في مجلس الشيوخ نظريا ان توقف سير كل تدبير تشريعي ، حتى ولو اجازته اكثرية مجلس النواب . اما عمليا فان مجلس الشيوخ يقتصر على تعديل المشروعات التي تعرض عليه ، فاذا اشتد الخلاف على مسالة تشريعية استطاع الملك ان يستانف الامر الى رأي الامة بحل مجلس النواب . فاذا جاءت الانتخابات العامة على أثر حل المجلس مؤيدة للرأي العام الذي اعرب عنه المجلس السابق ، فالمفهوم ان مجلس الشيوخ يخضع للرأي الذي تراه البلاد كلها وتعرب عنه بصراحة .

والان ، بعد ما اجملنا القواعد الكبرى الجديدة التي انشأها الدستور ، يتيسر لنا ان نتولى فحص بعض اهم النقط :

فالمادة الاولى ، وهي الوحيدة في الباب الاولى ، تتضمن القاعدة الاساسية التي تنتج عن الغاء السيادة التركية والغاء الحماية البريطانية .

وهي ان مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، وتعين في الوقت عينه شكل حكومتها : وتقول انها حكومة ملكية متوارثة ذات انظمة تمثيلية .

والباب الثاني يحتوي طائفة من النصوص الوضعية التي توجد في معظم الدساتير الحديثة . اما الضمانات الشخصية المكفولة بهذه النصوص فمعظمها مكفول بالحق المقرر الحالي . فحسبنا ان ننوه بالمبادىء الجديدة التي تنشأ عن ادخال النصوص الدستورية .

فالمادة الثالثة بعدما نصت على قانون تساوي المصريين امام القانون ، قضت بالا يقع شيء من التمييز بينهم بسبب الجنس او اللغة او الدين ، سواء اكان ذلك في التمتع بالحقوق المدنية والدينية ، ام فيما يختص بالاعباء والواجبات العمومية . ويتفرع من هذا المبدأ الغاء جميع الامتيازات الخصوصية ، سواء اكانت في مسالة الضرائب ، ام الشئون السياسية ، ام فيما يتعلق بواجب الخدمة العسكرية .

وقضت المادة الثالثة ايضا بالا يقبل في المناصب العمومية سوى المصريين ، والا يقلد الاجانب في المستقبل مناصب الا في حالات استثنائية يعينها القانون . وهذا قانون جديد ، فقد كان تعيين الاجانب جائزا في جميع مناصب الحكومة ما عدا بعضا منها اختص بالمصريين ، او المصريين المسلمين : مراعاة لتقاليد او بسبب صفة تلك المناصب الدينية .. لم يكن استخدام الاجانب مقيدا الا بقانون خاص . فيجب ، والحالة هذه ان تبين بنصوص صريحة الوظائف التي يمكن ان يتقلدها الاجانب في المستقبل ، علاوة على الوظائف التي حفظت من الان للاجانب باتفاقات او بالقوانين المصرية .

وقد ضمنت حرية الصحافة بالمادة ١٥ من الدستور . وهذه الحرية لا تقيد فيما بعد مبدئيا الا بنصوص قانون العقوبات ، فلا يمكن اقامة الرقابة المنعية عليها ، ويمتنع انذار الصحف او تعطيلها او الغاؤها بواسطة الادارة – فكل نظام قانون المطبوعات الذي سن في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨١ يجب ان يجعل مطابقا للمبادىء الجديدة .

ولكن يبقى هناك استثناء واحد لانذار الصحف او تعطيلها او الغائها بالطرق الادارية ، فان بعضا من الحرية الدستورية لا يمكن تطبيقه على حملات تحمل على اساس الهيئة الاجتماعية ، كخطر الدعوة البلشفية الموجود الان . فانه يضطر جميع الحكومات الى اتخاذ تدابير قد تكون مناقضة للمبادىء المقررة بالدستور لاجل ضمان حرية اهل البلاد المسالمين والموالين للقانون . فلكي يمكن انشاء تشريع مكافحة امثال هذه الدعوة الضارة نص في المادة ١٥ على ان انذار الصحف وتعطيلها والغاءها بالطرق الادارية قد يجوز في حالة ما تقضي الضرورة بالالتجاء اليه لحماية النظام الاجتماعي . واضيف تحفظ مماثل لهذا الى المادة ٢٠ التي تكفل للمصريين حق الاجتماع بسكينة ، ومن دون سلاح ، والمادة ١٥١ التي تحظر النفي لجرائم سياسية .

اما ما يختص بالتعليم فقد وضع الدستور مبدأ التعليم الاولى الاجباري ، ومجانيه التعليم في المكاتب العمومية ، وترك لقانون خاص تنظيم التفاصيل في تطبيق هذا المبدأ وتعيين الاعتمادات اللازمة له .

والباب الثالث اطول الابواب واهمها ، وهو يبحث في تنظيم السلطات . وقد علقنا عليه تعليقات عمومية في صدر هذه المذكرة .

فالمادة ٢٣ ، وهي اولى مواد هذا الباب ، تعلن ان جميع السلطات تصدر من الامة . وذلك اعتراف بسيادة الامة ومبدأ من اهم المبادىء الجديدة في نظام الحكم الجديد . فقد كانت جميع السلطات حتى الان مجتمعة في يد ولي الامر الذي شاء ان يشرك شعبه معه في حكم البلاد بواسطة انظمة نيابية ، ولكنه مع ذلك حفظ لنفسه السيادة التامة .

فولي الامر هو الذي اصدر القوانين النظامية المتوالية المعمول بها في البلاد . وقد كانت له سلطة تعديلها او الغائها بحسب مشيئته ولكن متى صدر الدستور الجديد فان الحالة تتغير تغيرا تاما ، اذ ان اصدار هذا الدستور والاعتراف بمبدأ كون الامة هي مصدر جميع السلطات يجعلان سحب الدستور بعد منحه امرا غير مستطاع .

اما التعديلات التي تدخل على الدستور فيجب ان تقرر بموجب نظام تشترك فيه فروع السلطة التشريعية الثلاثة .

فنحن نشاهد الآن اذن من جانب ولى الامر تنازلا عن حقوق السيادة التى كانت له شخصيا ، وقد وضعت لاول مرة فى تاريخ البلاد الصبغة الديمقراطية لشكل الحكومة الجديدة وبهذا الاعتبار يصح أن يقال أن المبدأ القاضى بأن الامة هى مصدر جميع السلطات لا يناقض أصل الحكومات الملكية المطلقة الاسلامية ، لان هذه الملكيات كانت بالاجمال تعتمد فى مصدرها على قبول صريح أو ضمنى من الشعب الذى يمثله أعيانه ووجوهه ٠

أما نظام وراثة العرش فلا يقرر بالدستور نفسه ، ولكن الدستور بإشارته الى مرسوم ٣ ابريل ١٩٢٢ يكسب هذا النظام صبغة دستورية حقيقية ، وقد نص صراحة على أن النصوص الخاصة بنظام توارث العرش لايمكن ان تكون عرضة لاقتراح اعادة النظر فيها ٠ وغنى عن البيان أن من المصلحة العمومية أن يكفل هذه النصوص أعظم ثبات مستطاع ٠ فالملك الذى جرد نفسه مختارا من الجانب الاكبر من سلطاته يجب على الاقل أن يكون موقنا أن قوانين ارث العرش لا تكون من المواضيع التى يتناقش فيها البرلمان ، ويجب أن يظل العرش فوق المناقشات السياسية ٠

ان الملك الذى كان قبلا يملك فى يده السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية لم يحتفظ فى المواد التشريعية الا بسلطة نظامية ، وهى أن يصدر القوانين اللازمة لضمان تنفيذ القوانين ولكن من غير أن تكون له سلطة تعديلها أو تعطيلها أو الاستغناء عن تنفيذها ٠ وقد كانت هذه السلطة النظامية من اختصاص الوزراء المكلفين بتنفيذ القوانين ٠ ولكن هنالك حالة يجوز فيها للملك أن يصدر مراسيم من غير موافقة البرلمان السابقة عليها وتحت مسئولية الوزراء السياسية الذين يمضون المراسيم معه ، وذلك فى التدابير المعجلة التى لا يمكن معها انتظار عقد البرلمان ٠ ولكن هذه المراسيم يجب أن تعرض على البرلمان فى أولى جلساته ٠ ومتى عرضت كذلك فاذا رفضها احد المجلسين سقطت ٠ اما فائدة هذه المراسيم فعظيمة جدا ، لانه لا يستغنى عن اتخاذ تدابير اضافية معجلة ، اذ قد يقضى كل ابطاء الى أوخم العواقب ٠

ولا خطر من الاعتراف للملك بهذه السلطة التشريعية غير العادية ، لان سيطرة البرلمان عليها مضمونة فى جميع الاحوال ٠

وهنالك سلطة غير عادية احتفظ بها الملك تحت مسئولية الوزارة طبعا ٠ وهى اعلان الحكم العرفى الذى يجر فى ذيوله ايقاف بعض الضمانات الدستورية ، ولكن يجب أن يوافق البرلمان على اعلان الحكم العرفى ٠ ثم أن اعلان هذا الحكم يجب أن يكون بقانون يعين النصوص الدستورية التى قد توقف ٠ أن الحكم العرفى ضرورة فى حالات الخطر الاستثنائية لسلامة الدولة من الداخل أو الخارج ٠

ويفضل تنظيم الحكم العرفى بقانون ، على أن تضطر السلطة التنفيذية الى اعلانه مع عدم وجود نص تشريعى ما على كيفيته ٠

وزير الحقانية
أحمد ذو الفقار

● يحاول وزير الحقانية أن يرد على التحفظ الذى قدمه المكباتى وممثلو الحزب الوطنى ٠ مؤكدا انه بالرغم من كون الدستور « منحة » من الملك فان « سحب الدستور بعد منحه امر غير مستطاع » ٠

وعلى اية حال فان الدستور قد سحب فى عام ١٩٣٠ ليضع اسماعيل صدقى دستورا آخر ٠

مـــادة ٣ : « المصريون لدى القانون سواء ، وهم متساوون فى التمتع بالحقوق المـدنية والسياسـية وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة ، لا تمييز بينهم فى ذلك بسبب الاصل أو اللغـة أو الدين ، واليهم وحدهم يعهد بالوظائف العامة مدنية كانت أم عسكرية ، ولايولى الاجانب هذه الوظائف الافى احـوال استثنائية يعينها القانون » ٠

لجنة وضع المبادىء العامة

دولة الرئيس (حسين رشدى باشا)

ــ طلب الانجليز قيامهم بحماية الاقليات ونريد نحن ان حماية الاقليات محققـة بمقتضى دستورنا ، وذلك بأن نضــع فى هذا الدستور نفس النصوص التى وضعوها هم فى مشروع اللورد كيرزون لناخذ عليهم طريق هذا الطلب ٠

وأمر بتلاوة تلك النصوص وأخذ رأى الهيئة عليها ، وهى :

مادة ١ : لجميع سكان مصر الحماية التامة الكاملة لارواحهم وحريتهم من غير تمييز بسبب مولدهم أو تبعيتهم الدولية أو لغتهم أو جنسيتهم أو دينهم ٠

حضرة عبد العزيز فهمى بك ــ فيما يتعلق بالمادة الاولى أخشى انها توجب على الحكومة المصرية تعويض الاجانب فى كل وقت عن كل ما يحدث لهم من المساس بأرواحهم وحريتهم ، ويـكون هذا الضمان الزاميا وفى كل الاحوال ٠

دولة الرئيس : المقصود من هـذه الضمانة الا تزيد على الضمانة التى عليها للمصريين وفى حدود القانون ٠

(موافقة بالاجماع) ٠

دولة الرئيس : « مادة ٣ ــ لجميع الحائزين الرعوية المصرية يكونون متساوون امام القانون ، ويكون لكل منهم التمتع بما يتمتع به الاخرون من الحقوق المدنية والسياسية من غير تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين » ٠

(موافقة بالاجماع)

مادة ٤ : « اختلاف الاديان والعقائد والمذاهب لا يؤثر على أى شخص حائز للرعوية المصرية فى المسائل الخـاصة بالتمتع بالحقوق المدنية والسياسية ، مثل الدخول فى الخدمات ــ العموميـة والتوظف والحصول على الالقاب الشرف أو مزاولة المهن أو الصناعات (١) » ٠ (موافقة بالاجماع) ٠ (فى ٧ مايو سنة ١٩٢٢) ٠

دولة الرئيس (حسين رشدى باشا)

« مادة ٦ ــ الاشخاص الحائزون للرعوية المصرية التابعون للاقليات القومية أو الدينية أو اللغوية يكون لهم الحق فى القانون ، وفى الواقع فى نفس المعاملة والضمانات التى يتمتع بها غيرهم من الحائزين للرعـوية المصـرية ، وعلى الخصوص يكون لهم حق مساو لحـق الاخرين فى أن ينشئوا أو يديروا أو يراقبوا ، على نفقتهم ، معاهد خيرية أو دينية أو اجتماعية ومدارس أو غيرها من دور التربية ، ويكون لهم الحق فى أن يستعملوا فيها لغتهم الخاصة وأن يقوموا بشعائر دينهم بحرية فيها » (٢)

حضرة المكباتى بك ــ لا أوافق على أن يذكر فى دستورنا وجود اقليات ٠ وأود لو تثبت الحقوق الواردة فى هذه المـواد بصفة عـامة لجميع المصريين المتمتعين بالرعوية المصرية ، لئلا يحتج علينا فى المستقبل بهذه الاقليات ، ويتخذ ذلك ذريعة التدخل الاجنبى فى المستقبل ٠

دولة الرئيس ــ تؤخذ الآراء ٠

فتقررت المادة السادسة بأغلبية الآراء ٠

لا يراد بكلمة « فى الواقع » الواردة فى المادة السادسة المشار اليها أن ضمان الدولة للاقليات يقضى بتنفيذ ما هو مقرر للاقليات نظريا فى القانون ٠

لجنة وضع المبادىء العامة

حضرة عبد العزيز فهمى بك ــ ماذا

---

(١) نص هاتين المادتين اقتراح من دولة الرئيس ٠
(٢) نص هذه المادة اقتراح من دولة الرئيس ٠

يراد بعبارة « فى الواقع » الواردة فى هذه المادة بعد قوله « فى القانون » لانى أخشى ان تفسر هذه العبارة على وجه يفيد أن التابعين لهذه الاقليات يجب على الدولة المصرية أن تضمن لهم فى الواقع تنفيذ ما هو مقرر لهم ولغيرهم نظريا فى القانون بمعنى انه اذا لم يحصل احد من أفراد هذه الاقليات مثلا على ان ينتخب فعلا فى مجلس من المجلسين تكون الدولة مضطرة الى ان تامر بانتخاب بعضهم فيها لان الموجود فى المجلسين يدخل تحت لفظة الضمانات الواردة بالمادة ، فان كان هذا هو المراد فانى اطلب رفض المادة برمتها .

دولة الرئيس (حسين رشدى باشا) — المراد بعبارة « فى الواقع » هو أن القانون لا يكون حبرا على ورق ، أى لا يقال مثلا أن كل المصريين لهم أن ينتخبوا وينتخبوا فتمنع الحكومة ترشيح احد من الاقليات للانتخاب او تمنعه من التصويت فى الانتخابات استبدادا . اما ان يؤخذ من هذا انه عندما تسفر نتيجة الانتخابات من عدم انتخاب احد من الاقليات تكون الحكومة ملزمة باتخاذ اجراءات اخرى لتمثيل هذه الاقليات فى مجالسها ، فهذا ما تعنيه العبارة المذكورة ، حتى ان الحكومة الانجليزية فى اثناء المفاوضات الاخيرة لم تطلب من المتفاوضين المصريين شيئا من هذا القبيل .

حضرة توفيق دوس بك — اخشى ان يؤول هذا التفسير الى انه بمثابة فصل فى مسالة لم يطرح البحث فيها بعد ، وهى مسالة تمثيل الاقليات .

دولة الرئيس : الجواب على ذلك أن هذا لا يمنع ان مصر نفسها تقرر تمثيل الاقليات .

(فى ٧ مايو سنة ١٩٢٢) .

لم يحز اقتراح تمثيل الاقليات الدينية فى البرلمان أى قبول

دولة الرئيس (حسين رشدى باشا) — وهنا نقطة ثانية : هل ترون ان نضع نظاما للاقليات يضمن تمثيلها النيابى أم لا ؟

حضرة عبد العزيز فهمى بك — انا اعارض فى ذلك .

حضرة عبد الحميد بدوى بك — وانا لى هنا كلام .

حضرة توفيق دوس بك — اقترح ان يوضع للاقليات نظام يضمن تمثيلها فى مجلس النواب بنسبة تتفق مع عدد هذه الاقليات . ولذلك سببان : سبب سياسى، وسبب قانونى . أما الاول فهو الذى ذكره دولة الرئيس من اننا لا نريد ان نفتح بابا لاجنبى يدعى حق التداخل فى مصر باسم حماية الاقليات . نريد أن تتمتع الاقليات بجميع الحقوق التى لغيرهم بما فيها حق التمثيل . ولا يعترض على هذا بان الاقليات مفتوح امامهم باب التمثيل كغيرهم ، فهم ناخبون ويحق لهم أن ينتخبوا . كذلك لا يعترض بان فى وضع هذا النظام تفرقة بين المصريين بل انا أرى العكس ، وان اهمال هذا النظام يكون مثارا للتفرقة ، لانى أخشى اذا ظهرت نتيجة الانتخابات ولم يظهر فيها منتخبون من الاقليات فيظن جمهورها فى هذه الحالة — ان خطأ وان صوابا — ان حقها مهضوم . ولا يمكن مطلقا الحكم على اغلبيات الجمهور فقد تؤثر عليها المظاهر اكثر مما يؤثر الواقع . هنالك يشعرون بان لهم حقا قد ضاع، خصوصا وان القانون الحالى للجمعية التشريعية نص صراحة على حفظ مراكز معدودة للاقليات . وانى لاخشى كثيرا ان هذا الشعور الذى اتوقعه يفتح بابا يهمنا كثيرا ان يبقى مقفلا ، خصوصا وان الدخول من هذا الباب يتلمسون لانفسهم المعاذير : لا يعنيهم ان كانت صحيحة او كاذبة . واما السبب الثانى فلانه مع عدم تنافى مصالح بعض المصريين للبعض الاخر ، الا انه قد يوجد فى بعض الانظمة ما قد يمر على اعضاء المجلس عن سلامة نية ، ويعتبره بعض الاقليات مضرا بحقوقه ، مما لو نبه المجلس لتلافى ذلك الضرر الذى لم يكن ليقصده . واضرب لذلك مثلا : القانون الذى قدمته الحكومة الى مجلس شورى القوانين خاصا بدخول الطلبة فى الكتاتيب التابعة لمجالس المديريات ، حيث قيد قبولهم فيها باداء امتحان فى القرآن الشريف ، وقد كان يفهم من هذا الشرط ان المراد قصر هذه المكاتب على الطلبة المسلمين ومنعه كل من عداهم .

ولقد جاشت بعض الانفس بالاعتراض على هذا الخطر ، فى حين لم اعتقد قط ان ذلك كان ملحوظا للمجلس عند تقرير هذا الشرط .

وليس فى تمثيل الاقليات بدعة مطلقا فمن القوانين والدساتير ما عنى بوضع نصوص لتمثيل الاقليات ، كدستور بلجيكا واسبانيا — ولو ان اساس الاقليات هنالك غير اساسها هنا . وعلى فرض أن مثل هذا الضمان لم يحقق فى اى قانون آخر فنحن غير مقيدين بالتزام القوانين الاخرى بل نحن مقيدون بما نراه محققا لمصلحة بلدنا . وارى أن هذا جوهرى جدا لحفظ وحدة الامة المصرية والدفاع عنها .

والطريقة العملية التى تحقق لنا هذا الغرض تنحصر فى نظرى فى احد امرين:

اولا : يجرى الانتخاب العام بالطريقة التى قررناها . فاذا اسفرت النتيجة عن انتخابات عدد يتفق مع نسبة الاقليات انتهى الامر . اما اذا نقصت هذه النسبة او انعدمت فنلجأ الى احدى حالتين : (الاولى) ؟ عدد الاقليات فى كل مديرية ومحافظة محصور ، فلو فرضنا مثلا ان مديرية كاسيوط فيها من السكان مليونا بينهم مائتا الف من الاقباط كان لهم طوعا لحكم هذا الفرض خمس عدد النواب . فبعد آن يتم الانتخاب اذا لم ينفرد فى مجموع اقباط القطر العدد الكافى ، كما قلنا يحصل انتخاب عام فى مديرية اسيوط باعتبارها دائرة واحدة من المسلمين والاقباط لانتخاب العدد اللازم من الاقباط . ولهذا مزية وهى الا تنفرد الاقليات وحدها بانتخاب ممثليها ، بل يشترك فى انتخابهم كل سكان القطر على السواء .

ثانيا : أن ينتخب مجلس النواب من يكمل النسبة العددية للاقليات من بين مرشحيهم ، هذا فيما يتعلق بمجلس النواب . اما مجلس الشيوخ فهناك رايان ايضا : اما ان تكمل الحكومة ضمن الاعضاء الذين تعينهم النسبة العددية للاقليات ، او أن تتبع هذه الطريقة عينها بين الاعضاء المنتخبين بنسبة عددهم .

حضرة عبد الحميد بدوى بك — لست ابغى بهذا الكلام اعتراضا وانكارا ، ولا اريد أن اثير خلافا وانما الامر كله رغبة مخلصة للتفاهم .

ليس فينا من ينكر على اية طائفة من طوائف الامة ان تكون لها كلمة وان تؤدى حاجاتها ومصالحها على احسن منوال . ولكن الصورة التى اعطيت لاول مرة لتمثيل الاقليات تثير فى النفس اشياء ، لذلك اريد أن اتبين وجه الحقيقة فيها — يخالجنى بصددها كثير من الشكوك والمخاوف اريد أن اعرضها على حضراتكم :

اورد حضرة دوس بك تبريرا للصورة التى جلاها علينا سببين : سياسى ومحلى . أما السبب السياسى فهو أنه ليس من مصلحتنا ان نسمح لغريب بالدخول فى شئوننا باسم الاقليات وبدعوى حمايتهم وانه خير لنا لو تولينا ذلك بانفسنا . ويمكننى أن انبه توفيق بك الى أنه لم يجر عرف قديم او حديث مطلقا بأن التداخل لحماية الاقليات يقتضى المطالبة بتمثيلهم تمثيلا خاصا ، بل هو مقصور على طلب حفظ الحقوق العامة للاقليات وانكار استثنائهم منها .

وهذه الامثلة التى تعطينا اياها المعاهدات التى عقدت بعد الحرب العظمى مع الحكومات التى نشات على أثرها والتى كانت قائمة قبل اندلاع تلك الحرب والتى تمتاز بوجود اقليات جنسية مهمة فيها (بولونيا ، تشيكوسلوفاكيا ، يوجوسلافيا ، رومانيا ، الخ) ، فانها لم تزد على ان تقرر للاقليات الحقوق العامة التى تتمتع بها الاكثريات ولم تكن هذه الاقليات تتمتع بها دائما قبل ذلك . أما تمثيل الاقليات فى المجالس النيابية فلم يكن قط من حقوق الدول ولا من مطالبهم . والمثال الحسى الذى تمسه

ابدينا في هذا الموضوع نفسه أن اقتراحات انجلترا على ما نرى فيها من الافتيات على حقوقنا ليس فيها أقل اشارة الى هذا التمثيل • ويكفي في تبين ذلك مراجعة النص الذى وضع فى مشروع كرزون عن هذا الموضوع •

اما السبب المحلي فقد قال توفيق بك عنه ، انه قد تمر باعضاء البرلمان عن سلامة نية مسائل ربما تفوت فيها مصلحة الاقليات اذا خلا المجلس ممن يمثلهم •

وليس يذهب عنه ان الاكثرية نفسها قد تنقسم الى طوائف وفرق لكل منها مصلحته الخاصة ، كالتجار والملاك وأرباب المهن المختلفة ، ولا يمكن ان يقال أن عدم وجود ممثلين لكل من اولئك في المجلس يذهب بمصالحهم : لان المفروض ـ وهو الواقع أيضا ـ أن هنالك صلة شديدة بين المجلس وبين الرأى العام الى الحد الذى يكفل تبين وجوه المصالح للمجلس ونفوذ الاقتراحات اليه • ولا يظن بالمجلس تخطيها او الافتيات عليها تعمدا للعدوان ، فانه ان فعل ذلك قومه الرأى العام واصلحه خوف التهمة •

وقد ذكر لنا توفيق بك مثالا جرى في عهد مجلس شورى القوانين كاد المجلس يقر فيه حكما فيه حيف على الاقباط (اشتراط حفظ القران في الكتاتيب) ولكنه لم يفعل • وكان هذا ردا كافيا على توفيق بك ، فانه لم يكن فى مجلس الشورى تمثيل للاقباط ، ولكن الحيف مع ذلك لم يقع بهم ، ثم ان المثال الذى ذكره يمكن القول بانه يتضمن شيئا من المساس بالحرية • وعلاج ذلك مضمون بالدستور نفسه • ويكفى أن ينبه المجلس ، ولو من الخارج ، الى أن عمله اعتداء على حقوق الاقليات • فأمر كهذا يكون مضمونا بالدستور نفسه وبالاتصال الدائم بين المجلس والرأى العام لا يصح أن يكون أساسا لانقلاب خطير فى انظمتنا الاهلية •

هذا فيما يتعلق بالاسباب التي ذكرها توفيق بك • فلست مغاليا ان قلت انها غير مقنعة ، ومن جهة اخرى يمكنني أن اقول ان هذه المسالة اثارت شعورا قويا بانه يراد منا أن نخرج عن تقاليدنا وتقاليد العالم • ولقد عاشت الاقلية بيننا منذ وجد النظام النيابى ولم يفكر فى تمثيل الاقليات •

نعم انبعث مثل هذا الرأى فى عهد انشاء الجمعية التشريعية ، على أنه لم يدم طويلا • ولعله كان فكرة فردية لم تلحظ آثارها الاجتماعية البعيدة ولا يصح على أية حال أن نتقيد به فى عملنا الذى نعالجه اليوم •

قلت أنه مخالف أيضا لتقاليد العالم ، فانك لن تجد فى دساتير العالم شيئا من هذا مع أن البلاد الاوربية لا تخلو من الاقليات الدينية • ولقد استشهد حضرة دوس بك بنظام بلجيكا ، ويشير بذلك الى التمثيل النسبى ، وهو نظام انتخابى قد يوجد بيننا يوما ما ، وليس من ينكره • ذلك نظام قائم على معنى الاحزاب السياسية ووجوب تمثيلها تمثيلا يتكافأ

ويتناسب مع قوة انصارها • وفرق بين هذا وبين تمثيل اقليات دينية ، فان المجلس النيابى ليس مجلسا دينيا وانما هو مجلس سياسى ، فالجمع فيه بين المنازع السياسية بحسب قوانينها الصحيحة طبعي ومفهوم ، ولكن الاقلية الدينية من حيث هي مجموع مشترك فى دين الاكثرية لا يمكن القول بانها مذهب سياسى ، قائم بذاته بل هذا هو الذى يجب تجنبه •

فى البلاد الاوربية ينقسمون الى طوائف سياسية لكل منها وجهة نظر فى ادارة الاعمال العامة ، فلكيلا تسحق الاكثرية هذه الاقليات كان ذلك النظام الانتخابى الذى يضمن لكل وجهة من وجهات النظر فى السياسة صوتا من مجلس النواب يرفعه فى مصلحة القضية العامة لا فى مصلحة طائفية خاصة وللتمثيل النسبى غاية ترتبط بتكوين الاكثرية التى تؤيد الحكومة وجعلها ثابتة لارتكازها على الاحزاب اكثر مما ترتكز على الاشخاص • فمسألة التمثيل النسبى ليست حجة فى موضوعنا هذا •

ان الواقع من جهة أخرى أن النظرية التى يقوم عليها المعنى النيابى تنافى كل المنافاة تمثيل الاقليات على الوجه الذى يقترحه حضرة توفيق بك دوس لان النائب يمثل الامة كلها •

القاعدة ان يترك لجميع الناس اختيار مندوبى الامة بقدر ما تلهمهم الميول السياسية ما يلحظ فى النائب أنه لا يمثل جهة خاصة ولا طائفة معينة • وكذلك يتحدث النائب عن الامة كلها اذا استوى الى كرسيه فى البرلمان ، هذه القاعدة لا يحدها الا تقسيم البلاد الى مناطق او دوائر انتخاب اذ لا يمكن أن يطلب من الامة جميعها انتخاب ممثليها جميعهم •

اما انتخاب النائب بوصف خاص وعن طائفة بعينها فلا يمكن أن يتفق مع ذلك المعنى النيابى ولو اشترك فى انتخابه الناس من جميع النحل والاديان • المسالة التى تشغلنى كثيرا والتى اجمل توفيق بك الكلام فيها هى خوف الشقاق • وقد قال فيه أنه اذا لم يقرر نظام كالذى يقترحه يتضمن تمثيل الاقليات شعرت هذه الاقليات بان الاكثرية تتعمد اضاعة حقوقها الخاصة • • ولقد أعلم أن فى انظمتنا الخاصة التى ورثناها عن الماضى القديم آثارا كثيرة عن النظام الاميرى ، وهو الذى كان يعيش فيه الناس فى ظل سلطة الاب ، والذى كان اساسه العطف والتراحم • فلما جاء العهد الجديد بتحديد الحقوق قام التنازع عليها ودخل الشقاق فى العائلات ، كذلك عشنا الى الان فى انظمتنا العامة بعرف من التفاهم والتسامح بين الاكثرية والاقليات • نعم ظهر من وقت لاخر انواع من الخلاف ، ولكن كان مثارها حوادث استثنائية ، وكان التفاهم والتعاطف هو الاصل على كل حال • ولئن كانت الاقليات تذكر الماضى البعيد وما كان يقع عليها من المظالم والمغارم فقد كانت الاكثرية والاقلية تعيشان جميعا فى ظل حكومة استبدادية تظلم فيها الاكثرية كما تظلم الاقلية ولسنا

نريد او نفكر فى نظامنا الحديث أن نحيى آثار التاريخ القديم •

ان الفارق الدينى اخذ يضعف حتى عندنا • ولن يطول عليه الزمن حتى ينمحى فى علاقاتنا الاجتماعية وتعفى تماما جميع آثاره ، فمحاولة ابقاء هذا الفارق محاولة لاستدامة هذا الماضى وانكار للامتزاج الحاصل من نفسه بفعل الزمن ، والذى يجب أن نشجعه ونتعجل خطاه لا ان نستبقى شبح هذا الخلاف محسوسا ماثلا للعيان • فاذا وجد تمثيل خاص للاقليات وجدت بالطبع وجهة خاصة لها تحرص كل الحرص عليها ، واخذت الفوارق والفواصل بينها وبين الوجهات الاخرى تظهر وتنمو بحكم التنازع وبحكم انفساح المجال له • ومن العبث بعد ذلك أن نرجو زوال هذه الفوارق فان ذلك يكون مخالفا للطبيعة • اذ الطبيعة تابى أن يطلق لها العنان فى مجال خاص ثم يحاول أن يسد عليها الطريق • بعد ذلك قد يقوم للاقليات شعور بان لهم حقا فى المطالبة بالتمثيل ، ولكن أرجو أن تنظر الهيئة الى الحقيقة فى ذاتها • فاذا كانت تدعونا الى ازالة هذه الفوارق وجب ان تتخطى هذا الشعور المؤقت لاننا لا ينبغى لنا فقط ارضاء شعور وقتى سائد ، وانما نريد تحرى المصلحة الدائمة للامة • ينبغى ان نوازن بين هذا الشعور الوقتى وبين المصلحة الخالدة ، حتى اذا هدانا طول تحقيقنا وتحرينا الى أن هذا الشعور لا يقوم على أساس صحيح ، فحق علينا الا نتردد فى تضحيته فى سبيل مصلحة صادقة للامة • هذه المسالة اخشى منها كثيرا فى عصر قلت فيه مظاهر التفرقة الدينية ، واصبح العامل الذى يربط بين الناس فى حياتهم الاجتماعية هو عامل المصلحة المشتركة بغير نظر الى مذهب ولا دين • وانى لاتمنى ان ارى اليوم الذى يجمع كل أسباب مرافقنا حتى فى الزواج والطلاق وما الى ذلك من أحوالنا الشخصية تحت نظام واحد • بحيث نعيش جميعا فى ظل حياة مدنية محكمة منظمة •

لقد عبث التفرق الدينى بالحياة الاجتماعية فى أوربا دهرا ، وتجرعت البلاد أشد الغصص من توجيه الحياة العامة على مقتضى النزعات الدينية والميول المذهبية بين يهودية ومسيحية وبين كاثوليكية وبروتستانتية •

مضى هذا الدهر وعفت كل آثاره وقامت مصالح الناس على أسس أخرى أرجو ان تصبح أساسا لاجتماعنا نحن ايضا •

فاذا نحن وضعنا بايدينا الاساس الثابت لهذا الخلاف فلن نرجو ان يزول يوما مهما تطاول عليه الزمان •

ان تقسيم التمثيل على هذه الصورة التى تميز بين اقلية واكثرية يحيى فكرة التعصب التى نرجو كلنا أن تمحى نهائيا •

نريد سياسة قومية خالصة لا تلتفت فى طريقها النبيل الى الاديان والمذاهب ولكنها تتجه دائما الى مصلحة الوطن • فدعوا الناخب حرا يتفقد الناس وينقدهم حتى اذا أصاب الكفء قدمه للنيابة عنه غير

ناظر الى نية · ارجو أن نحتفظ بالوحدة القومية وأرجو الا نضع بايدينا نظاما يفرق بين عناصر الامة فيشطرها الى أقليات واكثريات ، اذ الحياة لاتكون بعد ذلك الا مشادة بينهما · أو ترجون بعد هذا أن نمنع الاجنبي من الدخول فى شئوننا بدعوى حماية الاقليات ؟

دولة الرئيس ـ لقد سمعنا مقالتين نفيستين تخالف كل منهما وجهة النظر التى ترمي اليها الاخرى · ونحن نكتفى اليوم بهذا القدر ، على أن يفكر سائر الاعضاء فى هذا الموضوع الخطير ويدلى كل برايه فى الجلسة المقبلة .

(فى ٧ مايو سنة ١٩٢٢)

لجنة وضع المبادىء العامة للدستور :

دولة الرئيس (حسين رشدى باشا) ـ ورد لى تلغراف من الاستاذ وديع صليب المحامى بالمنصورة أرى تلاوته :

تلى ·· وهذا نصه :

« الاقباط قبل المسلمين يعارضون فى تخصيص مراكز برلمانية للاقباط الذين لا يقبلون ضمانات خاصة لمصالحهم خلاف الضمانات البرلمانية العامة لكل الشعب المصرى · وكل تخصيص من هذا النوع هدم للقومية المصرية التى حافظت عليها الامة بهدر دمائها ، ولن يخرج قبطى على الامة بتقدمه للانتخابات لتمثيل الاقلية » ·

دولة الرئيس ـ لنبحث الان فى الموضوع المؤجل من الجلسة السابقة ، الا وهو تمثيل الاقليات ·

حضرة بدوى بك ـ ليسمح لى دولة الرئيس بان ادافع ـ ولو متاخرا ـ بعدم اختصاص اللجنة بتقرير تمثيل الاقليات ·

الفت اللجنة لوضع الدستور على احدث مبادىء القانون العام ، وجرى الكلام كثيرا فى هذه اللجنة باننا · نبتدع وانما ننقل هذا النظام الدستورى عن البلاد التى نشا فيها ونما وتطور على صورة تلائم حالة البلاد وحاجاتها · الواقع ان النظام النيابى ليس من الاوضاع الشرقية ، وهو نظام اثبتته الحوادث التاريخية فى أوربا وكيفته على وجه اصبح اصطلاحا أما فى ممالك اوربا فاذا نقلنا ذلك النظام وجب علينا ان نلتزم فى نقله المبادىء المسلم بها هناك ، والا نزج بين بنوده احكاما تشوه معناه وتحرف مقاصده · ومسالة تمثيل الاقليات الدينية او الجنسية لم يقل بها احد فهى بدعة فى النظام النيابى،بل هى حدث اجتماعى وانقلاب خطير لا يتعلق باللجنة أن تنشىء البحث فيه انشاء ، وان تتحكم برايها فيه ، وان تحمل الامة المصرية عليه فى دستور قضائى لها وانما يفهم التحدث فيه اذا وجد احساس عام بالحاجة اليه ، وهو ، هذا الاحساس ، الذى يملى على اللجنة ـ اذا وجد ـ المبادىء التى يجب وضعها فى الدستور ·

هذه المسالة تعرض للمناقشة العامة لاول مرة لان المثال الذى احتج به ـ وهو قانون الجمعية التشريعية ـ لم يسبقه بحث فى هذه المسالة من وجهة نتائجها الاجتماعية وقد كانت الحكومة اذ وضعت ذلك القانون تضع نصوصا على هواها او على هوى من كان يملك السلطة الفعلية اذ ذاك · ولا اظنها قدرت كل ما يترتب على عملها ، او لعلها قدرته ولم تبال بالنتائج · اما نحن فنضع دستورا يفرض فيه أنه يعبر عن رغبات الناس ، وينقل للحكومة صورة من الاحساس العام وليس امامنا رأى يجوز اعتباره ممثلا لذلك الاحساس العام ، بل أمامنا فكرة قال بها بعض أفراد وهى تشطر البلد الى شطرين : اقباط ومسلمون يعيشون ابد الابدين منقسمين · وهذا معنى اجل واخطر من أن تتعرض له اللجنة مهما كانت مهمتها عظيمة ·

فالمسالة اذن بدعة لم يقل بها احد فى اوربا مطلقا ، وفى مصر لم يقل بها احد قبل الان . واذا لاحظنا ان الظروف الحاضرة ظروف استثنائية فىحياةمصر وأنه يجب فيها الحذر ، والحرص على تجنب الخلاف حرصا شديدا ، لم نتردد فى ترك هذه المسالة حتى تصبح مصر فى ظروف عادية تسمح لها بتقليب الرأى فى مسائلها الاجتماعية والسياسية الداخلية وتكون ملائمة لتكوين تيار فكرى عام تشترك فيه الاكثرية والاقلية اما بالتمثيل أو برفضه ·

ويحضرنى الان صورة كلما فكرت فيها هالتنى نتائجها الاجتماعية ، يطلب منا الان تقرير مبدأ تمثيل الاقليات ، والملحوظ فى الطلب هم الاقباط · فاذا سلمنا بهذا المبدأ فستقدم الينا اقليات كثيرة حاضرة ومستقبلة · أما الحاضرة (السوريون واليهود والعرب مثلا) فشأنها لا يقل عن شان الاقباط ، وقبول تمثيل الاقباط سيقضى حتما بقبولها · وأما المستقبلة فانكر منها على سبيل المثال الاروام والارمن ، ذلك انه وان كان الاجانب يحتفظون الان بجنسيتهم وكانت عوائدهم ومعيشتهم مخالفة لعوائد المصريين ومعيشتهم ، وكانت مصالحهم الاقتصادية مستقلة عن مصالح المصريين ، الا انه قد يجىء وقت تسقط عنهم جنسياتهم او يجدون فائدة فى التنازل عنها ، اذ ذاك سيكون فى بلادنا أروام وأرمن حائزون للرعوية المصرية · وعندئذ يجوز لهاتين الطائفتين وغيرهما ان تطلب تمثيلها فى البرلمان فكيف يكون حالنا وحال مجلسنا اذن ؟ هل يختلف عن النظام الذى اقترحه اللورد كرومر وأراد ان تمثل الجاليات الاجنبية ؟ وهل يجوز لنا اذ ذاك أن نعترض على هذا التمثيل ؟ اذن تكون مصرنا خليطا ليس له طابع اهلى خاص ويصبح مسرحا للمنازعات الدينية والجنسية ·

ارجوكم الا تعتبروا المسالة مسالة نصوص فى الدستور ، وأن تنظروا اليها من وجهة انها حدث اجتماعى خطير جدا ، يتعدى حدود اختصاصنا ، من شانه أن يهدم وحدتنا ويغير من طابعنا الخاص ·

حضرة توفيق دوس بك ـ الدفع بعدم الاختصاص يلجا فيه دائما الى قانون يحدد الاختصاص ويرجع اليه فى تقرير عدم الاختصاص · وقد يصح أن تكون الاعتبارات التى ذكرها بدوى بك مدعاة لرفض الاقتراح ولكنى لا افهم على اى أساس يقول بعدم اختصاص اللجنة · ليقل أن هذا الاقتراح مضر ويشطر البلد شطرين فيجب رفضه ·

نحن ننشىء دستورا من اساس عملنا فيه مصلحة البلد ، فكل اقتراح جائز ، وما نراه فى المصلحة نقبله ، وما يكون ضد المصلحة نرفضه دون أن نتقيد بالاشكال والاجراءات ·

عندما بحثنا فى قواعد نظر البرلمان للميزانية اقترح بعضنا انه اذا اختلف المجلسان يجتمعان معا لبحث أسباب الخلاف · فسمعنا قائلا يقول : ان هذا مخالف للدساتير الاوربية ، ولكن لم يدفع أحد بعدم الاختصاص .

حضرة بدوى بك ـ القياس غير صحيح ·

لم أعرض مسالة الاختصاص باعتبارها مسالة اجراءات ، ولم اقصد أن الاسباب التى عرضتها تؤخذ باعتبارها أسبابا موضوعية · وانما عرضت مسالة عدم اختصاص جدية · اما القياس الذى اجراه توفيق بك بين مسالتنا ومسالة الميزانية فلا وجه له · واننا فى قواعد نظر الميزانية لم نخرج عن المبادىء العامة للدستور ، اذ قررنا عند قيام خلاف بين المجلسين يحل الخلاف بابقاء القديم على قدمه لكن فى السنين الخمس الاولى يكون حل الخلافات باجتماع المجلسين · واذا لم تكن هذه الطريقة الاخيرة مسطورة فى دستور معين فانها نتيجة التجارب الدستورية فى البلاد الاوربية وهذه التجارب لا تقل شانا عن الاحكام المسطورة ، بل هى اولى أن نسترشد بها · وعلى أى حال فان مسالة الميزانية صغيرة لا تقاس بمسالة اليوم فى خطورتها · مسالة اليوم ان صح ان تقاس انما تقاس بموضوع الدستور نفسه · لانها عبارة عن دستور للاقليات ومن يطالب بها فانما يطالب بأن يوضع الى جانب الدستور العام دستور آخر للاقليات ، وكانما يقول أن الدستور غير كاف لضمان الحرية للاقليات فيجب أن تكمله بدستور يصون هذه التجربة ·

حضرة توفيق دوس بك ـ يقولون أن تمثيل الاقليات بدعة أو ايجاد دستور خاص بجانب الدستور العام · وعن ذلك أجيب بان تمثيل الاقليات موجود فى دستور بلجيكا وفى دستور اسبانياوالفرق ان الاساس هناك سياسى وهنا دينى · فلا بدعة ولا ادخال دستور فى دستور · المسالة ليست مسالة شكل ولا اختصاص لاننا لسنا مقيدين الا بوضع دستورطبقا للمبادىء الحديثة ولمصلحة البلد .

اما خطورة الموضوع فأوافق عليها بدوى بك ،وساتكلم عنها عند البحث فى الموضوع · والان اقول أن هذه الخطورة هى التى دفعتنى لتقديم اقتراحى · ولا

اقول انى قدمته بصفتى قبطيا من الاقليات ،بل قدمته بصفتى مصريا اخشى ان يقع خطر عظيم اذا لم يتقرر مبدا تمثيل الاقليات ٠

حضرة عبد العزيز فهمى بك - اوافق بدوى بك فى دفعه بعدم الاختصاص ٠

لا يقاس عدم الاختصاص فى المسائل الدستورية بعدم الاختصاص فى القوانين العادية ٠ يقول بدوى بك بعدم اختصاص هذه اللجنة بالنظر فى تمثيل الاقليات ٠ وقد استعمل فى صدد ذلك تعبيرا ربما كان له شأن فى رد دوس بك اذ قال : اننا فى الواقع نضع دستورين : دستورا لعامة البلد وآخر للاقليات ٠ وكانه يقول اننا لسنا فى صدد وضع دستور عام اهم قاعدة من قواعده المسلم بها فى كل الدساتير ان الوطنيين متساوون امام القانون لا امتياز لاحد منهم على الاخر ٠ بل الواقع انه يراد من اللجنة اعطاء الاقليات امتيازا خاصا على مجموع الافراد ٠ فهل تملك اللجنة ذلك ؟ القاعدة العامة التى ستوضع ان الكل سواء ، وللكل حقوق واحدة وواجبات واحدة مشتركة فان ارادت اللجنة ان تقرر تمثيل الاقليات فكانها تقول ان الوطنى منهم ان لم يصبه الحظ فى التمثيل العام لانه غير متمتع عند الاكثرية بما يتمتع به غيره سياسيا وجب ان يكون لهذه الاقليات امتياز على الاكثرية وهو التمثيل الخاص ٠ هذا الامتياز لا اساس له ٠

وهذا ماأراده بدوى بك بقوله انه يراد منا وضع دستور خاص للاقليات بجانب الدستور العام ٠ وهل تملك ذلك ؟ لا تملك اللجنة ذلك ، لانها لم تكلف باعطاء امتيازات،بل ان مهمتهامقصورة على وضع دستور مؤسس على احدث المبادىء ٠ ومن اجل هذا يقول بدوى بك ونقول معه بعدم اختصاص اللجنة ٠

اذا اعطى هذا الامتياز للاقليات تنقسم البلد الان وفى المستقبل انقساما مستمرا : مع ان المراد هو احياء الروح الديمقراطية ٠ وهذا لا يكون الا بازالة الفوارق او بجعلها عديمة الاثر فى الحقوق السياسية ٠

لهذا اوافق بدوى بك واقول ان الكلام عن عدم الاختصاص قد يتعرض للموضوع ، ولكن لا يضيرنا التعرض للموضوع اذ ليس الغرض منه الهرب احتماء وراء الإشكال ٠

معالى طلعت باشا - الدفع بعدم الاختصاص يشعر بوجود جهة اخرى مختصة مع انه لا وجود لها ، ونريد البت فى المسالة نهائيا ٠

حضرة عبد الرحمن فهمى بك - اجاب عن ذلك بدوى بك بقوله :

ليس من شاننا ان نتحكم فى الاحساس العام بل يجب علينا ان نتاثر به ٠ ومن الممكن بعد انعقاد البرلمان ، اذا تبين وجه الحاجة لتمثيل الاقليات وظهرت الاضرار التى نتجت عن عدم التمثيل واتضح ان اضرارا حقيقية ، فالباب مفتوح ويمكن عندئذ تعديل الدستور ٠

لا محل للتحكم من الان ٠ بل يجب ترك المسالة الى ان يقوم الشعور العام مطالبا بتعديل الدستور ٠ اما الان فالبعض يطلب تمثيل الاقليات ولكن بعض رجال الاقلية الذين يدعون انهم عمد السياسة يقولون بعدم جواز التمثيل ٠

حضرة محمود ابو النصر بك - لا افهم كيف لا يكون تمثيل الاقليات بدعة كبرى على النحو الذى يقول به دوس بك ٠ ان تمثيل الاقليات بدعة لا تتفق مع اى مبدا من مبادىء الدستور ، بل وتهدم قواعد التشريع ٠ بالامس قررتم قاعدة عامة ، قاعدة كلية ، ان النائب لا يمثل ناخبيه دون غيرهم ، بل يمثل مجموع الامة وينطق بلسانها ويعمل لمجموع افرادها ٠

روح الدستور تقضى بذلك ، ووحدة الوطن تحتمه ٠ فكيف نهدم هذا الاساس الوطيد ، ونستبيح لانفسنا ان يحضر بين اولئك النواب الذين يمثلون الامة فى مجموعها افراد يقولون نحن نواب الاقليات ننطق بلسان افراد معدودين؟هذا يخالف روح التشريع واصول الدستور ٠ والقول بانه بدعة وخطر داهم وجرثومة تغرس للتفريق بين الاخ واخيه ، بل رجوع الى الوراء - قول يجب ان يحل منا محل الاعتبار ٠ اسمعوا صوت رجل من افاضل الناشئة المصرية ولا اقول القبطية الاستاذ عزيز ميرهم الدكتور فى القانون والذى يمارس السياسة ويكتب فيها ٠ اسمعوا صوته فى مقال ضاف نشره فى الجرائد تحت عنوان « حماية الاقليات » جاء فيه :

« هذه هى الروح التى يجب ان تحلها محل الاعتبار ونتبين خطر فتح باب تمثيل الاقليات ، لانه اذا فتح لا يكون ذلك لطائفة دون اخرى ٠ واذا سمحنا لكل الطوائف بالتمثيل النيابى فانا نقع فى فوضى وتفريق قاتل للروح الوطنية ٠ لذلك يجب اغلاق الباب » ٠

تجدوننا بالجمعية التشريعية ، فهل تقدم قبطى للانتخاب ورفض ٠ ؟

حضرة الياس عوض بك - تقدمت فى عابدين ولم انتخب ٠

حضرة ابو النصر بك - كما تقدم كثير من المسلمين مثلى ومثل المرحوم احمد عبد اللطيف بك وغيره ولم ينتخبوا ٠

حضرة دوس بك - سمعت الان ردين من زميلى عبد العزيز بك ، وابو النصر بك ٠ اما الرد الثانى فخاص بالموضوع وسنتكلم عنه عند البحث فى الموضوع ٠ اما الرد الاول فمتعلق بعدم الاختصاص لان اللجنة ليس من شانها ان تقرر امتيازا خاصا لفئة خاصة ٠ ليسمح لى ان اكرر القول بان دساتير كل البلاد التى تمثل الاقليات تعمل ذلك ٠ ومعنى تمثيل الاقليات ان القانون يفرض انتخاب اشخاص ولو لم ترض الاكثرية عن انتخابهم ٠

دولة الرئيس - هذه الدساتير وضعها على هذه الصورة اهل البلاد انفسهم ولم تضعها لجنة ٠

حضرة دوس بك - نحن الان نضع الدستور فيجب ان يكون لنا كل اختصاص الهيئة التى تضع الدستور كائنة ما كانت ٠

وقد قيل ان تمثيل الاقليات يجعل التفرقة قائمة الى الابد ٠ وانما نعمل لازالة كل الفوارق لنكون ديموقراطيين متساوين فى جميع الحقوق والواجبات ٠ وانا كمصرى اسر بهذا. ولكن مع الاسف مانتمناه شىء والواقع شىء آخر ٠ فقد صدر بالامس الامر الملكى الخاص بوراثة العرش ومع ان الاوصياء محاطون بسياجين : اولهما انتخاب الملك ، والثانى تاييد البرلمان - فقد جاء فى الامر المذكور ان الوصى يجب ان يكون مصريا مسلما ٠

دولة الرئيس - لان الدولة اسلامية ٠

حضرة دوس بك - لا نزاع فى ذلك ٠

دولة الرئيس - بحثك هذا غير منتج فانتقل الى غيره ٠

حضرة عبد العزيز فهمى بك - ارى ضم الدفع بعدم الاختصاص الى الموضوع

حضرة بدوى بك - لا اوافق على ذلك ، واطلب اخذ الراى على الدفع بعدم الاختصاص اولا ٠

حضرة دوس بك - فى يناير الماضى كان انتخاب اعضاء المجلس المحلى لبندر اسيوط وقد جرت العادة من عهد بعيد ان اعضاء المجلس الاربعة يكون ثلاثة منهم مسلمين، والرابع قبطيا ٠ وقد كنت الى آخر الدور الماضى عضوا فيه ولكنى لكثرة مشاغلى ولتغيبى فى القاهرة لم ارشح نفسى فى الانتخاب الاخير ٠ وقد كانت النتيجة انتخاب اربعة من المسلمين ٠

اخذ الاقباط يتذمرون من نتيجة هذا الانتخاب الذى يقضى بانه اذا استقال نائب او توفى يحل محله من نال اكثر الاصوات بعد الاربعة المنتخبين - وقد كان قبطيا - فرجونا محمود بسيونى بك ، احد النواب الاربعة ، ان يستقيل ويترك مكانه للمرشح الخامس ، فاستقال وحل محله عضو قبطى ٠

هذا مثال لما يمكن ان يشعر به الاقباط - خطا كان او صوابا - من انهم مهضومو الحق اذا لم يروا فى البرلمان نوابا اقباطا ٠ والعلاج الذى رايناه فى المجلس المحلى قولا لا يمكن الوصول اليه فى البرلمان ٠

دولة الرئيس - ولم لم يعلن الاقباط اراءهم فى هذا الموضوع الهام ؟

حضرة دوس بك - لم يات وقت الاحتجاج ٠ واذا صدر قرار بعدم الموافقة على تمثيل الاقليات وارجوا الا يصدر ، سترون الاحتجاجات تاتى تباعا ٠

حضرة بدوى بك - لا اريد ان اتطوح الى البحث فى الموضوع كما فعل حضرة دوس بك واريد ان اقصر الكلام الان على عدم الاختصاص ٠ لذلك لا اريد ان

التعرض لتحليل المثال الذى ذكره دوس بك والذىهو حجةعليه لا له ، لانالامر فى مجلس محلى أسيوط لم يكن راجعا لنص وانما كان راجعا للعرف ، وهو ما أطلبه • ولان الدستور العام لمصر لا يحل بالقياس على حالة خاصة بمجلس محلى أسيوط • وانما اريد أن اتعرض لنقطتين : الاولى قول توفيق بك انه قد يكون نظريا معنا ولكنه مضطر أن يلحظ الواقع • وهذا الواقع ان لدى الاقباط شعورا ـ قد يكون خطأ ـ بوجوب تمثيلهم : فان الذى افهمه ان الدستور لا يجوز أن يبنى على اصلاحه لا ان ننساق وراءه ، اذ الطبيعى ان الخطأ يقاوم لا يتبع •

اما النقطة الثانية فهى ان التمثيل النسبى فى بلجيكا ـ وهو الذى يستند اليه توفيق بك فى ان تمثيل الاقليات ليس بدعة ـ ليس تمثيل أقليات بالمعنى الذى نريده ، لانه نظام ديمقراطى سياسى وضع لتمثيل الاحزاب السياسية بنسبة عددها ، وهذه النسبة لا تعرف الا بعد الانتخاب والاقليات السياسية اقليات متحولة فقد تكون اليوم اقلية وتصبح فى الانتخاب الثانى اكثرية ، بعكس الاقليات الجنسية او الدينية فهى ثابتة محددة مقدما • فمحاولته تشبيه الواحد بالاخر تكلف وانكار التمثيل النسبى ولذلك اصمم على عدم اختصاص اللجنة ، واقترح أخذ الاصوات عليه •

حضرة الياس عوض بك ـ نحن نشعر بشعور الاقباط • فاذا حلت المسالة لغير مصلحتهم نتج عن ذلك امتعاض كبير •

حضرة بدوى بك ـ نحن نتكلم باعتبارنا مصريين ، لا نلحظ الا المصلحة العامة • وقد ذكرتم امتعاض الاقلية ولم تفكروا فى امر احساس الاكثرية • الا ترون انه ان صح ان تمثل الاقليات فانما يكون ذلك اذا رضيت الاكثرية عن هذا التمثيل ؟ ام تعتقدون ان الاكثرية تحمل على قبول التمثيل بمجرد التحدث فى احتمال حصول امتعاض من الاقلية ؟ الا ترون أن الاقلية بامتعاضها لا يمكن أن تدفع الاكثرية الى تقرير ما لا تريد اذا رأت الاكثرية أن هذه المسألة تهدد استقلال البلاد • ثم اين هذا الامتعاض ؟ وما هى علامته ؟ لقد طلبت التقرير بعدم اختصاص اللجنة لان هذا أسلم الحلول الان ـ فانكم تقولون انه اذا قررتم عدم التمثيل امتعضت الاقليات ، واقول انه اذا قرر التمثيل خشينا أن تمتعض الاكثرية لما تتوقعه من خطر هذا الراى ، خصوصا فى دورنا الحاضر على وحدتنا وتماسكنا •

اليس الاحكم تجنب الامتعاض من هذا او ذاك وترك المسألة تحل فى الاوقات العادية ، حين لا يشغلنا شاغل أجنبى عن شئوننا الخاصة ، او حين يكون هناك أمل فى حلها على الصورة التى ترضى الفريقين ؟

دولة الرئيس ـ هذه مسالة لها اهمية عظمى ويجب طول التروى قبل الفصل فيها • لذلك اقترح تركها لمجموع اللجنة الدستور • وأن ندون فى تقريرنا جميع الابحاث التى دارت فى الموضوع • وفى الاثناء ربما تكلم أرباب الشأن أو ادلوا بارائهم فى الصحف فنتنور بها أكثر من الان •

حضرة بدوى بك ـ لست أرى ان هذه المسالة من اختصاص اللجنة العامة ايضا •

دولة الرئيس ـ المسالة غير صالحة للحكم الان ، والاولى تاجيلها للجنة العامة •

(موافقة بالاغلبية)

حضرة المكباتى بك ـ اطلب أن يستدعى دولة الرئيس أفرادا من كبار الطائفة القبطية الذين يصح أن يكون لهم راى معدود ليستطلع آرائهم فى تمثيل الاقلية او عدم تمثيلها ، حتى يمكن أن يبنى على ذلك مساس الوحدة القومية او عدم مساسها •

تقر بالاغلبية رفض هذا الاقتراح •

(فى ١١ مايو سنة ١٩٢٢)

لجنة الدستور : ثم تليت المادة ١٣ ، وهذا نصها :

(ليس لوطنى مصرى أن يحتج باحكام دينه للتخلص من أداء الواجبات المفروضة عليه كوطنى وجندى)

حضرة عبد العزيز فهمى بك ـ حصل فى انجلترا ان بعض اشخاص ارادوا التخلص من الخدمة العسكرية برغم أن عقيدتهم الدينية تحرم القتل ، ونحن نريد تفادى ذلك •

فتقررت الموافقة عليها بالاجماع •

(فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٢٢)

ثم تليت المادة ٢٢ وهذا نصها :

« لكل مصرى اصاب حقوقه ضرر من تصرف موظفى الحكومة وعمالها فى استعمال سلطتهم أن يداعيهم الى القضاء بدون احتياج لتصريح سابق ، وهذا الحق لا يجوز تقييده الا فيما يتعلق بالوزراء والجنود الذين تحت السلاح » •

حضرة توفيق دوس بك ـ اقترح حذف الاستثناء من قول المادة « الا فيما يتعلق ••• الخ »

معالى الرئيس ـ تؤخذ الاراء على ذلك •

فتقرر باغلبية الاراء حذف هذا الاستثناء مع بقاء باقى المادة •

(فى اغسطس سنة ١٩٢٢)

ثم تليت المادة ٢٠ وهذا نصها :

« الاشخاص الحائزون للرعوية المصرية التابعون للاقليات القومية أو الدينية او اللغوية لهم الحق فى القانون وفى الواقع فى نفس المعاملة والضمانات التى يتمتع بها غيرهم من الحائزين للرعوية المصرية • وعلى الخصوص يكون لهم حق مساو لحق الاخرين فى أن ينشئوا او يديروا او يراقبوا على نفقتهم معاهد خيرية أو اجتماعية ومدارس أو غيرهامن دور التربية ، ويكون لهم الحق فى أن يستعملوا فيها لغتهم الخاصة وأن يقوموا بشعائر دينهم بحرية فيها » •

قررتها اللجنة الفرعية • فتقررت الموافقة عليها بالاجماع •

(فى ١٥ اغسطس سنة١٩٢٢)

ثم تليت المادة ١٢ وهذا نصها :

« اختلاف الاديان والعقائد والمذاهب لا يؤثر على اى شخص حائز للرعوية المصرية فى المسائل الخاصة بالتمتع بالحقوق المدنية والسياسية ، مثل الدخول فى الخدمات العمومية والتوظف والحصول على القاب الشرف ومزاولة المهن والصناعات •

فتقررت الموافقة عليها بالاجماع •

(فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٢٢)

ثم تليت المادة الثانية ، وهذا نصها :

« ليس فى الدولة المصرية اى تمييز بين الطبقات بل جميع المصريين متساوون أمام القانون يتمتع كل منهم بما يتمتع به الاخرون من الحقوق المدنية والسياسية من غير تمييز بينهم بسبب الاصل او اللغة او الدين • وهم ملزمون كافة باداء الضرائب وغيرها من التكاليف العمومية ، وهم وحدهم الذين يعهد اليهم باداء الوظائف العمومية ملكية كانت او عسكرية ، اما الاجانب فلا يقبلون فى هذه الوظائف الا فى احوال استثنائية تعنيها القوانين تعيينا خاصا »

حضرة عبد العزيز فهمى بك ـ هذه العبارةادمج فيها نص من النصوص التى سبق ان قررتها اللجية الفرعية ، وهو نص المادة ١٠١ •

هذا النص لا يجعل امتيازا لاحد على أحد ، فليس فى البلاد اشراف وصعاليك ، ولا فضل لعربى على أعجمى • نحن انما نريد التساوى بين جميع المصريين فى الحقوق والواجبات العامة ، وذلك حكم الديمقراطية الذى تتطلع اليه البلاد • وانما أردنا العرب بنوع خاص فلا يبقى لهم امتياز على سائر اهالى البلاد ، ولا يبقى من حقهم الاعفاء من الخدمة العسكرية •

سعادة صالح لملوم باشا ـ اطلب ان نترك هذه المسالة للبرلمان ، فهو وحده صاحب القول الفصل فيها •

حضرة ابراهيم الهلباوى بك ـ نحن الان نضع قانون البرلمان نفسه • ولقد فصلنا فيما هو اعظم من هذه المسالة وأخطر فلماذا نتحرج من الفصل فيها أيضا ؟

سعادة صالح لملوم باشا ـ للعرب قوانين خاصة ترتبط بهذه المبادىء ولهم حقوق مكتسبة من قديم الزمان • ولا زلت على رأيى فى وجوب تأجيل النظر فى هذه المسالة حتى يقضى فيها البرلمان •

حضرة على المنزلاوى بك ـ فى كلام سعادة صالح لملوم باشا شىء من الوجاهة فان للعرب امتيازا يتمتعون به يرجع الى عهد المرحوم سعيد باشا • فليس لنا أن نتقدم الى الغاء هذا الحق من الان بل يجمل بنا ان ننتظر قضاء البرلمان فى هذا الامر الخطير ، فهو اعرف بحال وأقدر على الحكم فى بقاء هذا الامتياز او الغائه •

حضرة محمود أبو النصر بك – أساس الدستور هو المساواة بين أهل البلاد ، وان سبة أن يبقى مثل هذا الامتياز لطبقة من الامة على سائر الطبقات ٠

فضيلة الشيخ بخيت – ما يقوله صالح باشا ليس خاصا بالعرب فان هناك طوائف أخرى ، كطلبة المعاهد العليا الدينية ، يعفون من الخدمة العسكرية ٠ فاذا اردتم أن يزاد على هذه المادة استثناء الطوائف التى لها امتيازات فذلك اليكم ٠

(اصوات كثيرة : لا ، لا) ٠

حضرة توفيق دوس بك – القاعدة تقضى بجواز تجنيد جميع المصريين ٠ وهذا لا يمنع استثناء الولد لوالديه مثلا ، ومن يدفع البدل النقدى والطالب الدينى وغير أولئك ٠

حضرة عبد اللطيف المكباتى بك – هذا استثناء لا امتياز ٠

حضرة زكريا نامق بك – تساوى الطبقات بحكم الدستور ضرورى جدا ٠ وان دستور يقوم على تمييز طبقات الامة بعضها على بعض عدمه أولى ٠

حقيقة قد اكتسب العرب حقوقا ونالوا امتيازات لكن كان ذلك لاسباب ٠ ولقد اعفوا من القرعة العسكرية لانهم كانوا يحرسون اطراف البلاد ويقومون بصد الغارة عنها ٠ والان قد وضع عنهم هذا العبء ، كما انهم اصبحوا يشاركون الفلاحين فى جميع مرافق الحياة ويساهمونهم فى كل الحقوق العامة ، فهم يزرعون الارض ويدخلون فى الانتخابات ويتولون النيابة فى المجالس على اختلاف انواعها فجعل امتياز لبعض الطوائف هدم لقواعد الدستور من أساسها ٠

حضرة محمد على بك – اوافق على المادة كما هى لاننا كلفنا وضع دستور طوعا للانظمة الحديثة ومعنى ذلك تحقيق الديمقراطية الحديثة باجلى معانيها واول مظاهرها هدم الفوارق التى تقوم بين الطبقات ولقد حدثنى كثير من أعيان العرب وقالوا لى ان بقاء هذا الامتياز مسبة لهم وعار عليهم لانه لا يصح وقت المحنة ان ينفر المصريون كافة للدفاع عن وطنهم والذود عن شرف أمتهم ويبقى العرب وحدهم جاثمين فى عقر دورهم ٠ قالوا لى ليس هذا امتياز ، انما هو عار لطائفة من أكرم طوائف المصريين

ليس اعفاء من يعفون من الخدمة العسكرية بحكم القانون امتيازا ولكنه اعفاء فى مقابل منفعة للوطن ٠ فان حاصل الشهادة العالية انما يعفى لاحتياج الوطن الى علمه وكفاءته ٠ ثم ان فى الامر من جهة اخرى تحريضا على طلب العلم وطول مدارسته ٠ على أنه حين يتسع عندنا نطاق التعليم وينتشر العرفان يزال هذا الاعفاء ايضا أسوة بفرنسا مثلا ٠

سعادة صالح لملوم باشا – لا املك التصرف فى امتياز العرب لان هذا حقهم لا حقى ٠

حضرة محمد على بك – انما يطلب منك رأيك انت ٠

معالى الرئيس – تؤخذ الاراء على المادة ٢ ٠

فتقررت الموافقة عليها باغلبية الاراء ٠

(فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٢٢)

تلى المبدأ الثالث عشر وهذا نصه :

« لا فرق بين الوزراء وبين الافراد فيما يتعلق بدعاويهم الخاصة التى لا علاقة لها بوظائفهم ، بل هذه الدعاوى تكون من اختصاص المحاكم » ٠

فتقرر قبوله بالاجماع

(فى ٢٢ أغسطس سنة ١٩٢٢)

ليس لوطنى أن يحتج بأحكام دينه للتخلص من واجباته كوطنى أو جندى

معالى الرئيس – ورد علينا خطاب من فضيلة شيخ الجامع الازهر يبلغنا فيه ملاحظة من بعض حضرات العلماء على اللجنة لانها قررت فى المادة ١٣ من باب حقوق الافراد انه ليس لوطنى ان يحتج باحكام دينه للتخلص من واجباته كوطنى أو جندى ٠ وقال ان فى هذا النص على الجملة مساسا بالدين الاسلامى الذى هو الدين الرسمى للحكومة وطلب تعديل المادة بما يزيل الشبهة ٠

وأمر معاليه فتلى نص الخطاب ، وهذه صورته :

حضرة صاحب المعالى نائب رئيس لجنة الدستور ٠

نتشرف بأن نخبر معاليكم بأن جمعا من العلماء حضروا عندنا وقالوا ان المادة ١٣ من مشروع الدستور تقول « ليس لوطنى ان يحتج باحكام دينه للتخلص من الواجبات المفروضة عليه كوطنى أو جندى » ٠ وقالوا ان هذه المادة فيها على الجملة مساس بالدين مع ان دين الحكومة المصرية الاسلام ٠

وأظن ، يامعالى الباشا ، انه لو عدل هذا النص تعديلا يدفع عنه توهم عدم الاعتداد بالدين لكان حسنا ، ولمعاليكم الرأى الاعلى والله سبحانه وتعالى يوفق معاليكم الى السداد والسلام عليكم ورحمة الله ٠

٢٨ ذى القعدة سنة ١٣٤٠ (٢٢ اغسطس ١٩٢٢)

شيخ الجامع الازهر

محمد ابو الفضل

ثم قال معاليه ان اللجنة بالطبع لم تمس الدين الاسلامى ولا غيره من الاديان وانما كان الغرض من تقرير المادة أن يكون المصريون سواء فى اداء الواجبات المفروضة عليهم ، فلا يباح لاحد ان يفر من اداء هذه الواجبات تذرعا باحكام الدين ٠ وقد سبق أن ذكر لنا حضرة عبد العزيز فهمى بك عند المناقشة فى المادة مثلا من الامثلة التى احترز عنها بهذه المادة ، وهو انه عند اعلان الحرب الكبرى حاول التخلف عن الحرب شيعة من الانجليز يزعم أن عقيدتهم تحرم سفك الدماء ٠

سعادة حافظ حسن باشا – قابلنى فضيلة شيخ الجامع بحفلة المحمل وقال لى ان ظاهر المادة يفيد أنه قد تتناقض أحكام الدين مع الواجبات الوطنية ، وانه عند التناقض تفضل الواجبات الوطنية ٠ وطلب ان تصاغ المادة على صورة لا يفهم منها وجود ذلك التناقض ٠ فذكرت له أمثلة مما يراد أن يحترز عنه بهذه المادة ، الحارس الذى يترك الحصن معتذرا بانه يريد ان يؤدى فريضة الجمعة ، وسائق القطار الذى يترك القطار ليؤدى صلاة العصر فى ميقاتها ٠ فوافقنى على أن الواجب فى هذه الاحوال مقدم على أداء الفريضة ٠

حضرة عبد العزيز فهمى بك – لو ان بلدنا قاصر على المسلمين فقط ولم يكن فيه سوى الدين الاسلامى لحكمنا الدين الاسلامى فى كل أمورنا الوطنية ، ولكن بلدنا يضم المسلم والمسيحى واليهودى وقد يدخل فى المصرية أيضا البوذى والبرهمى واللادينى – وكلهم فى نظر القانون سواء لاننا قد قررنا حرية الاديان ٠ وسيلحظ فى كل الاوضاع والانظمة الحكومية ان تكون مطابقة بقدر الامكان للدين الرسمى وهو الاسلام ، فاذا فعلنا ذلك ولحظنا دين الاكثرية فى انظمة الحكومة تحتم أن يقع تعارض بين هذه الانظمة واحكام الاديان الاخرى ٠ فهل يصح لمن يدين باحد هذه الاديان الاخرى ان يحتج بأن نظاما من هذه الانظمة يتعارض مع أحكام دينه ؟ واذا احتج بمثل ذلك فهل نقبل احتجاجه ٠ ؟

بيننا رجل هو اكبر علماء المسلمين فى الوقت الحاضر ، وهو فضيلة الاستاذ الشيخ بخيت ، وفى استطاعته أن يرد على اللجنة ما اتهموها به من الخروج عن الدين ٠

فضيلة الشيخ بخيت – العبارة كلها ان العلماء لم يفهموا مدلول هذه المادة ، فاذا رأى معالى الرئيس أن أرد عليهم فعلت ٠

حضرة الشيخ خيرت راضى بك – المسالة فى غاية البساطة ٠ وقد بين سعادة حافظ الوجهة التى اتجه اليها وهم شيخ الجامع الازهر وبعض العلماء ٠ وقد بين حضرة عبد العزيز بك أن المادة لم توضع للدخول فى مسائل الاعتقادات الشخصية ولكنها حكم عام يتعلق بالواجبات الوطنية العامة ٠ وكل ما يريد شيخ الازهر أن يقوله هو أن الواجبات الوطنية العامة لا تتنافى مع أحكام الدين الاسلامى فالجهاد كلها مفروضة على المسلم بحكم الدين ، ولكنه يخشى أن يفرض على المسلم واجبات اخرى تتنافى مع دينه – وليس هذا مما قدرنا وقوعه عند وضع المادة ٠ وعلى كل حال فانى اقترح دفعا لكل شبهة أن يضاف الى نص المادة كلمة « العامة » بعد عبارة « الواجبات الوطنية » ٠

حضرة على ماهر بك – لى ملاحظات على كلام حضرة خيرت بك فأولا : الخضوع لقوانين البلاد من الواجبات الوطنية العامة ، وقد يكون فى القوانين الوضعية ما يتعارض مع بعض الاديان ٠ فالطريق التى اراد أن يخلصنا منها لا تجدى ، وثانيا : ان ما يتألم منه شيخ

الجامع الازهر لا يزال موجودا فان النص الذى يقترحه خيرت بك لا يزال يوهم ما توهمه وهو احتمال المساس بالدين •

ثم ان لى اعتراضين على أصل المادة ـ اولهما : ان حكمها لا يشمل من يحتج بعقيدة فلسفية غير دينية ، وثانيهما : انه لا يكفى فى القانون أن يكون حسنا بل يجب فوق هذا أن يكون مقبولا عند من يطبق عليهم • فلهذا أقترح أن يعدل النص على الصورة الاتية : وهى « ليس لوطنى ان يحتج باية حجة ما للتخلص من الواجبات الوطنية الخ » • وبذلك تدفع هذا الوهم من جهة ، وتمد فى حكم المادة حتى تتناول من يتعذرون بعقيدة فلسفية أو غير ذلك •

فضيلة الشيخ بخيت ـ اقترح ان يرد على فضيلة شيخ الجامع بما يأتى : « ان هذه المادة لا تمس الدين الاسلامى بشىء ، وذلك لان الوطنى فى المادة لا يختص بالمسلم ولابغيره بل هو عام وكذلك احكام الدين لا تختص بدين الاسلام ، والواجبات المفروضة على الوطنى كوطنى أو جندى هى الواجبات العامة فلا تتنافى مع الاحكام الخاصة بعقائد الاديان الخصوصية • ومع ذلك فلازالة كل لبس قد زيد على كلمة « الواجبات » فى المادة كلمة « العامة » » •

فوافقت اللجنة بالاغلبية على هذا الرد وان يكتب به الى فضيلة شيخ الجامع الازهر وان تضاف كلمة العامة على المادة ١٣ من باب حقوق الافراد •

ثم قام سماحة السيد عبد الحميد البكرى وقال ـ اقترح ان يعدل نص المادة ١٣ على الوجه الاتى : « ليس لوطنى ان يحتج باى سبب او حجة للتخلص من الواجبات العامة الخ » • وذلك كما قال حضرة ماهر بك ، لان بعض الطوائف لا تدين بدين ما بل بعقيدة فلسفية ولا يوجد فى النص ما يمنعهم من الاحتجاج بهذه العقيدة •

فضيلة الشيخ بخيت ـ ليس المراد بالدين ، والدين السماوى فقط بل كل ما يدين به كل انسان •

حضرة على ماهر بك ـ كلنا مقتنعون بان النص الاصلى فى موضوعه لا غبار عليه ولكنا نريد ان نبتعد عن كل محذور • واننى اؤيد سماحة السيد البكرى •

معالى الرئيس ـ تؤخذ الاراء •

فتقرر بالاغلبية رفض اقتراح حضرتى ماهر بك والسيد البكرى •

(فى ٢٣ اغسطس سنة ١٩٢٢)

عدم الموافقة على تمثيل الاقليات الدينية

معالى الرئيس ـ لناخذ الان فى بحث مبدا تمثيل الاقليات المحدد لنظره جلسة اليوم •

حضرة توفيق دوس بك ـ طرحت على اللجنة الفرعية مسالة وجوب النص على تمثيل الاقليات فى الدستور ، وبعد مناقشة طويلة قررت ارجاء الفصل فيها الى اللجنة العامة •

ولقد كانت هذه المسالة سيئة الحظ فى جميع درجاتها ، سيئة الحظ فى كيفية طرحها ، سيئة الحظ فيما لاقته بعد ذلك مما ساعرضه عليكم بمنتهى الصراحة اذ لا يجوز مطلقا أن تحصل مجاملة فى مصلحة البلد •

اما سوء حظها فى كيفية طرحها فهى اننى انا الذى طرحتها وأنا أحد افراد تلك الاقليات • كان من الطبيعي أن تبادر الى الذهن اننى طرحتها لمصلحة الاقباط خاصة وكان مظهر ذلك أن حصلت مظنة ان الاقباط يطلبون حقا من المسلمين يخشون أن يصيبهم ضير اذا لم يحصلوا عليه • فاصطبغت المسالة بغير صبغتها الحقيقية أو التى أريدها لها أنا •

ولقد كانت الى ذلك العهد كل مناقشات اللجنة لا تتعدى دائرة جلستها • ولكن رأى دولة الرئيس المحترم رشدى باشا أن يؤخذ فى هذه المسالة رأى الاقباط فطلب حضرة أستاذنا الهلباوى بك أن ينشر باسم اللجنة الرأيان القائل احدهما بوجوب التمثيل والثانى بالعكس ليؤخذ رأى الاقباط فعارضته وغيرى فى النشر فراى دولة الرئيس توفيقا للرايين ان ينشر كل رأيه من نفسه لا باسم اللجنة •

ولكن المسالة كانت سيئة الحظ ايضا فى هذا ، فقبل ان ننشر شيئا من هذا ظهرت رسالة فى الاهرام لحضرة صديقنا المحترم ابراهيم دسوقى اباظة بك يقول ان مسالة تمثيل الاقليات طرحت على اللجنة ، وانه يؤكد ذلك ، والذى طرحها هو توفيق دوس ووضع عبارته بما يستفاد طبيعة لاول وهلة من هذا ان الاقباط يطلبون حقا من المسلمين لعدم اطمئنانهم لهم فى النظام الجديد للبلد •

كان من نتيجة هذا ـ وهى نتيجه طبيعية ـ أن قام نفر من الاقباط يدافعون ضد فكرة التمثيل ويقولون بوجوب عدم النص ، وبدأت حملة فى الجرائد ، غالبها من الاقباط ضد القائل بوجوب التمثيل •

رأيت بيانا للامر ان أطلب من دولة الرئيس رشدى باشا أن ينشر بلاغا للجمهور يظهر لهم حقيقة الغرض الذى لاجله تبحث اللجنة فى الامر ، وانه قاصر على الدفاع عن مصلحة البلد بمحاولة منع تداخل الدولة الاجنبية صاحبة القوة الفعلية فى بلادنا فى حماية الاقليات ، وان الفريقين لا غرض لهما الا هذا • فالفريق القائل بالتمثيل يرى أن أضمن طريقة لعدم تداخل الاجانب فى الامر أن ينص على تمثيل الاقليات فى الدستور فلا يصبح هناك محل لحماية دولة اجنبية لهم وقد حماهم الدستور والفريق القائل بالعكس يرى أن عدم النص على وجود الاقليات يؤدى الى عدم الاعتراف بوجودها فلا يبقى محل لحماية تلك الدولة الاجنبية ، وأن غرض الفريقين مصلحة البلد كافة دون غيرها من المصالح الخاصة •

وافق دولة رشدى باشا على هذا البلاغ وكلف حضرة صديقى احمد أمين بك نشره فى الجرائد • فبعد أن لاحظ أمين بك أن نشر البلاغ لم تقره الهيئة اقتنع بان أمر دولة الرئيس كاف لوجوب النشر •

وفى ذلك اليوم سافرنا معا لمصر ، فذكر ، امين بك ونحن فى القطار بنشر البلاغ فى ذلك اليوم حتى لا يضل الراى العام الباعث على طرح المسالة ، ولكننى علمت منه لسوء الحظ انه نسى البلاغ فى الاسكندرية ولم يحضره معه الى مصر ، ولكن الاستاذ هيكل كفانا مؤونة ذلك بان وعد ان يحرر بلاغا اخر بمعناه وينشره ـ على أن بلاغا بهذا المعنى لم ينشر ويظهر ان هيكل بك سها عليه كذلك •

كانت النتيجة الطبيعية لهذا ان بقى الراى العام فى ضلالة : الاقباط يعتقدون انهم فى طلبهم هذا يغضبون المسلمين ، وهم يرون من مصلحتهم طبعا الا يغضبوهم فتظاهروا بانهم لا يريدون التمثيل ، والمسلمون يعتقدون ان فى هذا تفرقة للبلد ومادام الاقباط لا يعارضون فى عدم تمثيلهم ، بل يرفضونه بشدة ، فيجب عدم التمثيل •

كان من الطبيعى عندئذ أن انشر فكرى للناس ، وقد كنت فيه اكثر صراحة مما كنت امام اللجنة الفرعية • رد على حضرة عبد الحميد بك ردين : اولهما

ممهور بامضائه ، والثانى بامضاء مستعار • وليسمح لى حضرة زميلى المحترم أن أعتب عليه عتب الصديق على الصديق ان عاب نشر الراى فى الجرائد ،

وتساءل لماذا نشرت هذه المسالة بالذات ؟ كانه لم يكن معنا وقت قرار رشدى باشا وقرار اللجنة الفرعية

بوجوب نشر ارائنا • كان من نتيجة هذا ان اعتقد الجمهور اننى نشرت آرائى هذه بغير اذن اللجنة وخلافا لقراراتها ، لاننى أرى فى هذه المسالة بالذات مالا اراه فى غيرها ، وهذا لا يكون الا اذا كان رائدى فيها البحث وراء مصلحة شخصية لى أو مصلحة للاقباط فقط دون مصلحة البلد •

هذا ما كان من الادوار السيئة التى مرت فيها المسالة ، طرحتها لتقدروا حضراتكم ان الجو الذى طرحت فيه لم يكن جوا نقيا كما كان يجب أن يكون •

وقبل البحث فى الموضوع أريد أن يكتب بالقلم العريض اننى لا أطلب هذا لمصلحة الاقباط ـ نظريتى بسيطة جدا وهى الاتية :

استبقت انجلترا لنفسها فى تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ حق حماية الاقليات • وهذا حق خطر جدا ، وهو فى نظرى مضياع لكل ما تناله من الاستقلال ، اذ تحت ستار هذا الحق يكون لانجلترا حق التداخل فى كل شئون المصريين صغيرها وكبيرها ، الداخلى منها والخارجى • فمهمة كل وطنى يريد خدمة مصر ان يحارب هذا الطلب بكل ما فى وسعه • وفى نظرى ان من اقوى الاسلحة لمحاربته هو مواجهة انجلترا فى المفاوضات المقبلة بان الاقليات يحميها الدستور فلا محل لحمايتها لها •

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى اخشى كثيرا اذا لم تمثل الاقليات فعلا فى مجلس النواب المقبل ان يمتعض بعضهم ويدرسوا

من وراء ستار فيتظاهروا بالوطنية الحادة ، وانهم لا يريدون هذه الحماية ، في حين انهم يطلبون التشديد في التمسك بها . تلك مصيبة كبرى ، وما كان لمثلي وانا احد افراد تلك الاقليات ان يفترضها فيتهم الاقليات فى شعورها الوطنى . ولكنى امام تشريع لمصلحة البلد ، وانا اعلم كما تعلمون ان الغالبية الساحقة من الامين . وبيننا كثير ممن اتخذوا لانفسهم صفة الزعامة يتجرون بها وراء اغراضهم . تستوى فى ذلك الاقليات والاكثرية . امام هذا يجب ان اقول الحقيقة المؤلمة : اخشى هذا الباب واريد اقفاله . واعتقد ان خير وسيلة تساعد على اقفاله هى النص على تمثيلهم فى الدستور .

هذه نظريتى . اما القول بان الاقباط يريدون بهذا حقا لانفسهم يضمنون به مصلحتهم فخطا محض ، اولا لان الاقباط متمتعون فى ظل جلالة الملك فؤاد ، كما كانوا متمتعين فى ظل ابيه وجده ، بكافة ما يتمتع به باقى المصريين ، ولم يشعروا بانهم مغبونون مطلقا ، وثانيا : لان البرلمان لا يشرع تشريعا خاصا لفئة دون فئة او طائفة دون اخرى ، بل يشرع قوانين عامة يستوى فيها الاقليات والاكثرية . على اننا لو فرضنا جدلا وارادت الاكثرية ان تظلم الاقلية فى قانون فلن يدفع هذا الظلم وجود عدد من افراد تلك الاقلية فى البرلمان لا يمكنها ان تمنع قرار تلك الغالبية .

لهذا قلت واكرر اننى لا اطلب هذا لمصلحة الاقباط . وارجوكم عند بحث المسالة الا تضعوا نصب عيونكم الا مصلحة البلد ، فاذا اعتقدتم ان مصلحة البلد لا تتعرض لخطر اذا لم تمثل الاقليات فلا تنصوا على وجوب تمثيلها ولو طالب ذلك منكم الاقباط جميعا بلسان واحد . واذا رايتم العكس وان البلد قد تتعرض لخطر تداخل اجنبى اذا لم ينص على وجوب تمثيل الاقليات فقرروا النص على ذلك ولو عارض فيه الاقباط والمسلمون جميعا .

لهذا ايضا كان من الخطا اخذ راى الاقباط فى الموضوع . ليس الامر متعلقا بالاقباط بل هو متعلق بالبلد ، واذا قال الاقباط الان بعدم التمثيل واتبعنا رايهم لانه رايهم فقط وظهر بعد ذلك فساد هذا الراى فلن يقتصر الضرر على الاقباط لنقول انهم جنوا نتيجة عدم صراحتهم او نتيجة خطاهم بل يعم الضرر كل البلد على السواء .

على انه اذا اردنا ان نستخلص نتيجة من اراء الاقباط فما الذى يمكن الوصول اليه ؟

قامت ضجة كبرى من قبل تلك الجماعة التى تسمى نفسها الوفد المصرى ينادى بعدم التمثيل ، قائلة ان القائل به لا يريد الا سوءا فاحذروه ، فاتبعها فى ذلك من يتبعها فى كل قرار تصدره او اتبعها جنودها القائلون بانهم جنودها ، مخطئة كانت او مصيبة .

لعمرى لماذا يغير هذه الاقوال فى هذه المسالة تلك الاهمية الكبرى ، وهذه الجماعة بالذات هى التى نادت باعلى صوتها انه ما كان يجوز للجنتنا ان تقبل عمل الدستور فان فى هذا افتياتا على حقوق الامة ، وغبنا عظيما لمصلحتها ، الى آخر ما تعلمون مما رموا به اعضاء اللجنة الكرام ؟ كل هذا لم تعيروه اى التفات ، ومضيتم فى عملكم مضر المطمئن الواثق بانه يعمل لمصلحة البلد ، ولم تقولوا : بل ناخذ براى غالبية الامة ، ويظهر ان الغالبية هى اولئك الافراد الذين يكتبون فى الجرائد ، وترفض العمل فى اللجنة .

ظهرت طلبات الاقباط على لسان معظم رجالهم الذين لا يتجرون ، وعلى لسان مجالسهم الملية .

وفى السكرتارية رسائل من المجلس الملى القبطى الانجيلى العام . ومن مجلس ملى المنيا . ومن مطران اسنا . والدير المحرق . والمنيا . وصنبو وغيرهم كثيرون يقولون بالتمثيل وعلى راسهم غبطة سيدنا البطريك الذى كلف حضرة زميلنا الياس عوض بك ان يقول برايه هذا فى لجنة الدستور واخذت الجرائد تطلب تصحيح هذا الحديث من هنا ومن هناك حتى ذهب محرر جريدة البورص وهو فى فرنسا واخذ من غبطته تاييد هذا الحديث ونشره فى الجرائد كما تعلمون .

اما من كتبوا فى الجرائد فانتم تعلمون ، كما اعلم انا ، ان كانوا جادين ام هازلين اعلم انا ان فريقا ممن اعلنوا رايهم فى اسيوط باشد عبارة ممكنة ضد التمثيل قالوا علنا فى قاعة المحامين فى اسيوط انهم يرون وجوب النص على التمثيل ، ولكن ما دامت الاغلبية لاترضى به فمصلحتهم ان ينادوا بعكس ذلك لان الاقلية فى كل بلد لا يمكنها ان تعيش الا بالحيلة والمالاة والنفاق ، يعلم هذا الحديث على ما اعتقد حضرة زميلنا المحترم محمد على بك حيث لابد سمعه من اخيه احمد على بك الذى كان حاضرا . لهذا كله انا اخاف واخاف جدا .

بقى بحث المسالة نظريا ..

يقول المعارضون لهذا الراى :

١ ـ اننا كلفنا بعمل دستور على احدث النظم ، ولا يوجد دستور واحد ينص على وجوب تمثيل الاقليات الدينية وان كان هناك دساتير عدة تنص على وجوب تمثيل الاقليات السياسية ـ فالنص اذن بدعة .

٢ ـ وان فى هذا النص ميزة خاصة للاقليات ، بمعنى ان الفرد فى الاكثرية لا يمكن ان ينال كرسيا فى مجلس النواب الا اذا حاز ثقة عدد معين من مواطنيه ، فى حين ان الفرد من الاقلية قد ينال كرسيا فى المجلس ولو لم يجز تلك الثقة ـ بنص القانون . وما كان لنا ان نعطى ميزة .

٣ ـ وان هذا النص يجرنا الى مالاآخر له من تمثيل الاقليات التى لا يعلم عددها الا الله مما نزل ببلادنا من الاجانب غير ذوى الامتيازات او ينزلها فى المستقبل .

٤ ـ وان النص على تمثيل الاقليات فيه تخليد وانماء لروح التفرقة وتقوية للفاصل الدينى الذى نريد هدمه والذى لابد وان يهتم بالتربية والتعليم لتضييعه وقد ادركت البلد ان الحقوق الدينية شىء والدين شىء آخر .

(هنا انصرف فضيلة الاستاذ الشيخ محمد بخيت اثناء القاء عبارة حضرة توفيق دوس بك والساعة ١١ ونصف) .

حضرة ابراهيم الهلباوى بك ـ استاذن فى الانصراف لانى مضطر للسفر لحضور جلسة خاصة بعد ظهر اليوم بوزارة الاوقاف .

حضرة عبد العزيز فهمى بك ـ يهمنا معرفة راى حضرة هلباوى بك فى تمثيل الاقليات .

حضرة عبد العزيز فهمى بك ـ يهمنا اسف جدا لاضطرارى للسفر الان ومع ذلك فرايى الذى انا مقتنع به هو عدم تمثيل الاقليات .

(انصرف حضرة الهلباوى بك فى الساعة ١١ و٤٥ دقيقة)

حضرة توفيق دوس بك ـ وقبل الرد على كل هذا اقول كلمة واحدة اجمالية:

لا اريد المناقشة طويلا فى صحة هذه النظرية وعدمها ، فقد يكون كل هذا صحيحا وقد تكون نظرية تمثيل الاقليات مخالفة لكل النظريات الحديثة ، ولم يقل بها الدستور ، هل اذا اعتقدنا ان فى عدم تمثيلهم ضررا بالبلد نضحى بالبلد لتبقى النظريات القانونية سليمة ؟ او بالمثل الفلاحى ، نقول كسر الجمل ولا كسر النحوى ؟ ـ يجب علينا ان نوفق ما امكننا التوفيق بين مصلحة البلد وبين النظريات الحديثة او ان تغفلوا النظريات وترعوا مصلحة البلد .

حضرة عبد العزيز فهمى بك ـ هذا حق لا ريب فيه .

حضرة توفيق دوس بك ـ لهذا ، وقبل الخوض فى الرد على هذه الدفوع ، اقول لحضراتكم قدروا مصلحة البلد وحدها دون غيرها . على اننى لا ارى ان هذه الدفوع وجيهة للاسباب الاتية :

حقيقة لا يوجد دستور واحد نص على تمثيل الاقليات الدينية ، وكثير من الدساتير نص على تمثيل الاقليات السياسية . ولكن يجب الا ننسى اننا فى الشرق لا نميز كما يجب بين السياسة والدين . وما دمنا فى جميع احوالنا الشخصية نرتكن على القواعد والاسس الدينية فسيبقى مظهر حياتنا السياسية مصبوغا بدرجة ما بطابع الدين .

هذا عن النقطة الاولى ، اما عن النقطة الثانية فهى خطا وان كان ظاهرها يدل على عكس ذلك ، الاكثرية لها بطبيعة انها الاكثرية ميزة طبيعية . اذا فرضنا ان فى اقليم من الاقاليم ثمانية اعشاره من الاكثرية وعشراه من الاقلية ، تقدم عشرة مرشحين للانتخاب كان لفريق الاكثرية ثمانية حظوظ من عشرة فى النجاح ، وكان لفريق الاقلية حظان . هذا مع ان لكل مرشح حظا مساويا للاخر تماما لا يزيد ولا ينقص .

حضرة عبد الحميد بدوى بك ـ هذا اذا كان اساس الانتخاب الدين .

حضرة عبد العزيز فهمى بك ـ يظهر ان حضرة دوس بك لايقدر ان الكفاح فى

الانتخابات بين آراء سياسية واحزاب مختلفة بل يعتبر انه كفاح بين دينين •

حضرة توفيق دوس بك ـ ارجو ان يصرف النظر عما ذكرته بشان النسبة بين ٨ و ٢ وأعود بعبارتى فاقول : اضف الى ذلك انه اذا تقدم مرشحان للانتخاب متساويان فى جميع المواهب والكفاءات كان لمرشح الاكثرية بحكم الطبيعة وصلة الجامعة الدينية ميزة خاصة لدى الناخبين لا توجد عند غيره تلك الميزة الطبيعية تعادلها الميزة القانونية التى تطلب النص عليها فى القانون •

هذا ويجب ان يلاحظ ان مبدأ التمييز على هذا النمط موجود فى الدساتير الحديثة التى تنص على وجوب تمثيل الاقليات السياسية ، فان هذا النص معناه ان افراد تلك الاقلية السياسية قد لا يحوزون ثقة العدد المطلوب من مواطنيهم ، لكنهم يجب ان تحفظ لهم مراكز بنص القانون • وهذه ميزة رأى القانون اعطاها لهم حتى يكون المجلس النيابى صورة مصغرة من مجموع الامة يضم آراء جميع طبقاتها وافرادها •

لكن هذه ميزة تمنحها الاكثرية للاقلية لمصلحة البلد ، أفى ذلك مانع ؟•

اما النقطة الثالثة فانا اعترض كل الاعتراض على من يقول بوجوب تمثيل الاقليات الجنسية تلك الاقليات اما أن تعتبر نفسها مصرية فتندمج مع المصريين ، للمسلم منهم مع المسلم المصرى، والمسيحى مع المسيحى المصرى ، واليهودى مع اليهودى المصرى ـ او تعتبر نفسها غير مصرية فلا شان لها بمجلس النواب وبحقوق المصريين • ولقد اعجبنى الحديث الذى فاه به بطريرك الارمن فى هذا الصدد حيث ذكر انه يرى وجوب تمثيل الاقليات ، ولكنه لم يطلب للارمن تمثيلا خاصا ، بل باعتبارهم مسيحيين يرى ان يندمجوا فى الاقباط •

بقيت النقطة الاخيرة وهى ان وجود هذا النص قد يؤدى الى تدخل الانجليز بحجة حماية الاقليات ، وانه يخلد تخليدا تلك الفروقات الدينية التى تريد العمل على محوها من الدستور •

اما عن القسم الاول من الاعتراض فاسمحوا لى انى لا افهمه • وجود الاقليات وعدمه لا يتوقف على النص عليها فى الدستور • فاذا كانت الاقليات موجودة فعلا فهى موجودة ويعلم الانجليز بوجودها ولو اغفلنا ذكرها فى الدستور بل ولو نصصنا على عدم وجودها فى الدستور • واذا كانت الاقليات لا وجود لها فعلا فلا يمكن ان يعتقد احد بوجودها ولو نصصنا على ذلك الوجود فى الدستور •

ولا شك مطلقا فى ان الاقليات موجودة فعلا ، بل ولا شك ان الانجليز يعلمون بوجودها وقد نصوا على ما ادعوه حقوقا لها فى تصريح ديسمبر سنة ١٩٢١ • كما بعثوا برسالة طويلة الى وفد صاحب الدولة عدلى باشا فى لندرة بحقوق الاقليات ـ كل هذا رغما من ان مصريا واحدا لم يوجد فى ذلك الحين يذكر اسم الاقليات ـ بل ان دستورنا نص على ذكر الاقليات صراحة فى المادة ١٠٤ مما قررته اللجنة الرعوية وأيدتموه حضراتكم بالامس • تلك الحكمة التى اضطرتنا جميعا ، على مضض ، ان ننقل نص المادة ١٠٤ هى التى تضطرنى الان على مضض ان اطلب وجوب النص على تمثيل الاقليات •

اما عن القسم الثانى من الاعتراض فقد يكون فى ظاهره صحيحا ، ولكنه غير منتج ، لان هذا الفرق الدينى باق وسيبقى مادمنا نرتكن على الدين فى كل معاملتنا الشخصية • نعم مادام القبطى يتزوج بكنيسة ويقضى مصلحته الشخصية فى المجلس الملى ، والمسلم يتزوج لدى المأذون ويرفع منازعاته الشخصية الى المحكمة الشرعية ـ مادام هذا باقيا فسيبقى الفرق قائما ـ تاملوا الفرق بين هنا وبين فرنسا مثلا ، تجدوا البروتستانى والكاثوليكى والذين لا دين لهم ، كلهم يتزوجون ويطلقون ويرفعون منازعاتهم الشخصية امام جهة واحدة وهى الجهة المدنية التى يتبعها الجميع •

اذا امكن وصولنا لهذا انهدمت الفوارق الدينية • اما اذا لم يمكن ، ومن الاسف ان هذا غير ممكن ، فمن العبث ان نؤمل ان نصل الى ذلك المركز الخيالى الجميل الذى نتوق اليه •

ذلك مبلغ ما وصل اليه بحثى فى مسالة تمثيل الاقليات ـ ولا انكر عليكم ان المسالة دقيقة جدا وفيها من كل وجهة ما يقال لها وعليها • فارجوا ان تبحثوها بتلك الدقة التى سيرتم بها دفة الدستور للان ، وارجو ان تنسوا دائما ان رافع هذه المسالة قبطى ، بل تذكروا دائما انه يرفعها بصفته مصريا • وارجوكم الا تجعلوا لمصلحة الاقباط خاصة أو الاقليات عامة اى نصيب من اهتمامكم ، بل كل ما ارجوه هو مصلحة البلد ، فان رايتم ان مصلحة البلد تستدعى هذا النص فقرروه بشجاعة • وان وجدتم غير ذلك فارفضوه بشجاعة وانا اول من يوافقكم على ما ترى الاغلبية خلافا لحضرة زميلى قلينى باشا الذى كان فى احد الطرفين بالامس فانقلب الى الطرف الاخر اليوم •

سعادة يوسف قطاوى باشا ـ اوافق حضرة دوس بك على كل ما قاله •

حضرة محمود ابو النصر بك ـ الاستاذ دوس بك جعل اساس دفاعه تمسك الانجليز بحق حماية الاقليات • وقد سمعت انه عند المفاوضات الرسمية فى العام الماضى وجه بعضهم لاحد المفاوضين البريطانيين السؤال الاتى : « هل يراد بحماية الاقليات ان يكون لها امتياز على الاكثرية؟ » فكان الجواب « ابدا ، انما نريد المساواة بين الاكثرية والاقليات » •

اردت ان اقرر هذا ليعلم لنا جميعا ان انجلترا لا تريد ان تتدخل للدفاع عن امتيازات تعطى للاقليات وانما تتدخل اذا لحق بالاقليات غبنا • وكل ما تريده هو المساواة بين الاقليات ، والاكثرية ـ وقد فعلنا ذلك بما نص عليه فى دستورنا •

حضرة توفيق دوس بك ـ نعم لقد نصت المادة ١٠٤ على ان للاقليات الحق فى القانون وفى الواقع فى نفس المعاملة والضمانات التى تتمتع بها الاكثرية وفصلنا عبارة ، « وفى الواقع » بانه لا يجوز بالفعل حرمان اقلية من حق مقرر لها فى القانون ، ولكن هل يكون تفسيرنا هذا حجة على الانجليز ؟ •

حضرة عبد الحميد بدوى بك ـ المسالة معروضة للبحث فى المساواة لا فى النسبة والتمثيل •

سعادة عبد الحميد مصطفى باشا ـ اساس اقتراح حضرة دوس بك هو تقرير حكم يحول دون تدخل الحكومة الانجليزية لحماية الاقليات •

ومبدأ حماية الاقليات نشأ فى اوربا عند وضع معاهدات الصلح التى اوجدت دولا حديثة تتكون من شعوب مختلفة بينها نزاع قديم وحزازات واحقاد من عهد بعيد ، وبعضها يريد ان ينضم لدول أخرى • فالعلاج الذى اقترح لذلك هو المساواة بين الجميع فى الحقوق والواجبات •

لو رجعنا لمعاهدات الصلح ما رأينا مطلقا ان الدول الكبير اعطت الاقليات امتيازا ما • ولكنها قررت مساواتها بالاكثرية • والمادة التى نصت على ذلك فى تلك المعاهدات هى المادة التى ذكرت بحروفها فى مشروع دستورنا والتى تنص على ان للاقليات الحق فى القانون ، وفى الواقع فى نفس المعاملة والضمانات التى تتمتع بها الاكثرية •

لذلك لا محل لتوهم الخطر الذى يظنه زميلنا حضرة توفيق بك دوس ، مادام دستورنا مدونا به نفس المادة بحروفها التى وضعت لهذا الغرض عينه فى المعاهدات الاوربية ، اما اذا اريد ارغامنا على قبول حماية الاقليات من دولة اجنبية فلا يكفى لمنع ذلك اى نص يوضع •

نيافة الانبا يؤانس ـ كنت اظن ان طلب تمثيل الاقليات فى البرلمان يجاب بلا جدال خصوصا بين الاقباط والمسلمين لانهم اخوان فى السراء والضراء متحدون خصوصا من بدء الحركة الاخيرة فهم يد واحدة ورأى واحد • ولا عجب فمصالحهم واحدة ومرافقهم واحدة ـ لذلك أرجو حفظا لهذا الاتحاد ، ان تقرروا تمثيلهم السياسى على نسبة عددهم •

حضرة على المنزلاوى بك ـ سمعتم حضراتكم حضرة زميلنا دوس بك وهو يقول فى خطابه انه مصرى من الاقلية القبطية فاسمحوا حضراتكم لمصرى من الاكثرية ان يسأل الذين يعارضون فى تقرير مبدأ تمثيل الاقليات عن الخطر الداهم الذى يرونه فى ذلك ، وعن الضرر الذى يتوقعونه من تقريره لانى اعتقد ان تمثيل الاقليات لا ضرر فيه بل فيه نفع عظيم •

اذا تقرر هذا المبدأ فكان الاكثرية تقول للاقلية : اما وعددك مبعثر فى البلاد واخشى الا تمثلى فى الانتخابات بسبب ذلك مع انى فى حاجة للاسترشاد برأيك والانتفاع بذوى المواهب السياسية

من إبنائك ، فانا اضمن لك مراكز معدودة في البرلمان بنسبة عددك .

هذا ما يجب عمله حفظا لاتحادنا الجميل الذى لولاه لوجد الانجليز لمناهضتنا سبيلا .

هذا ما يجب على الاكثرية ان تقرره حرصا على مصلحة وطننا العزيز وحتى لا يجد الاجنبى مكانا للتدخل في امور حماية للاقليات . أما القول بان مثل هذا الحكم لا يوجد في الدساتير الاخرى فارجو الا تعيروها اهتماما لانه لا شيء يمنعنا من ذكر نص في دستورنا لا يوجد مثله عند غيرنا مادام وجوده نافعا لنا .

حضرة عبد اللطيف المكباتي بك ـ ما قاله حضرة دوس بك وجيه ولكن ما اجاب به سعادة عبد الحميد باشا مصطفى بشان ما تقرر في معاهدات الصلح الاوربية كاف للرد عليه خصوصا بعد ان اصبح الفارق الدينى امرا شخصيا محضا لا يتعدى العبادات أو الواجبات الوطنية فكلنا فيها سواء .

ولكن مراعاة لشعور الاقليات وحفظا للرابطة بيننا وبين اخواننا الاقباط اوافق على تمثيل الاقليات احتفاظا بالوحدة العائلية ومنعا للامتعاض . الا ترون الاخوة الذين من اب واحد وامهاتهم متفرقة اذا عين عليهم وصى من فريق منهم لا يقابل بارتياح من الفريق الاخر حتى يعين منهم من يشرف على الوصى في العمل ؟ ؟

حضرة على ماهر بك ـ مع احترامى للاراء التى ابديت وتقديرى للشعور الذى بنى عليه هذا الطلب اخالف القائلين بتمثيل الاقليات وعلى الاخص في أن تقترحه هذه اللجنة .

لا شك ان تمثيل الاقليات والنص عليه في دستورنا يستبقى الانقسام وعدم الاتحاد في حياتنا السياسية ويبقى هناك قبطى ومسلم فكل من يدعو لازالة هذه الفوارق ويعمل على حصرها في امور العائلة ومحال العبادات يجب عليه الا يوافق على تدوينها في الدستور .

سمعتم حضراتكم ان لا خطر من تقرير تمثيل الاقليات . فاجيب على ذلك باننا لا ننص في دستورنا على كل ما لا خطر فيه بل نقرر ما فيه مصلحة وسعادة الجميع .

يقول حضرة دوس بك ان هذا التشريع استثنائى لانظير له في الدساتير الاخرى، ولكن ما الذى يلجانا الى تشريع استثنائى لا مبرر له ولا خطر مطلقا من عدم الاخذ به . الماضى القريب دل على أن الجمهور المصرى لا يفرق بين القبطى والمسلم . والخاصة لا تعرف هذا التفريق من زمن بعيد . وكم رأينا الثقة تنزع من المسلم لتعطى للقبطى .

كيف تغفل كل هذه الادلة ونعمل على عكسها كانها في كوكب ونحن نعيش في كوكب آخر ؟

سعادة الاكثرية لا تنفصل ابدا ولا يمكن أن تنفصل عن سعادة الاقلية في بلد واحد .

يقال ان مؤيدى تمثيل الاقليات يخشون الا ينتخب في البرلمان نواب من الاقباط واظن ان الواقع يخالف ذلك ، لاننا نراهم ممثلين في المجامع السياسية بنسبة تزيد عن نسبة عددهم زيادة كبرى . وعند الانتخاب اذا تقدم المرشح للانتخاب بمفرده غير مؤيد من حزب سياسى فحسابه على نفسه . اما اذا كان مرشحا من حزب معين ، سواء أكان قبطيا او مسلما فانصار حزبه يؤيدونه جميعا . الاقباط والمسلمون في ذلك سواء ، ولا ينازعهم في الانتخاب منازع منهم .

معالى احمد طلعت باشا ـ اضيف الى هذا ان المحامين انتخبوا في ثلاث سنوات متوالية نقيبا لهم قبطيا وهذا لم يحصل لغيره .

حضرة على ماهر بك ـ القاعدة العامة الا يلجا الى تشريع ما ، وعلى الاخص الى تشريع استثنائى ، الا اذا قامت الادلة على الحاجة اليه . ونحن الى الان لا نرى حاجة مطلقا الى النص على تمثيل الاقليات ، لاننا نعتقد ان الاقليات ستمثل بدون ذلك النص فلننتظر الانتخابات لنرى ما يقع . فاذا وجدنا ان الاقليات لم تمثل ينظر في الامر .

لا يكفى أن تضعوا دستورا على أى صورة من الصور ، بل يجب ان تقبل الامة دستورنا قبولا حسنا . وقد سمعتم ما قيل في كل مكان عن تمثيل الاقليات في الدستور .

حضرة محمود ابو النصر بك ـ من الادلة على ان تمثيل الاقليات في المجالس التشريعية من اقوى اسس الاستعمار ما قررته حكومة فرنسا في الدستور السورى ، فقد جعلت المسلمين ممثلين فيه بحسب فرقهم . ففيه ممثل للسنيين وآخر للشيعيين وثالث للدروز . وهكذا . مع ان الجميع مسلمون . وهكذا فعل بالمسيحيين فجعلتهم ممثلين بحسب طوائفهم . والغرض من هذا بذر بذور التفرقة بين الجميع حتى لا يقع الاتحاد بينهم مطلقا .

سعادة حافظ حسن باشا ـ عدم تمثيل الاقليات في مجلس النواب يمكن معالجته بتعيين نواب من الاقليات في مجلس الشيوخ وبذلك يكمل النقص الذى وقع في انتخاب مجلس النواب . ولكن النقطة المهمة في الموضوع هى أن حماية الاقليات محتفظ بها للمفاوضات . فهل النص على تمثيل الاقليات لا يضعف حجتنا عند المفاوضات المقبلة ؟ أرى أن عدم النص يجعل حجة المفاوض المصرى أقوى لان النص دليلا كبيرا على وجود الفوارق بيننا .

لذلك ارى الا ينص على شيء في هذه المسألة الان وننتظر نتيجة الانتخابات المقبلة وعندئذ يستطيع البرلمان ان يقرر ما يرى فيه المصلحة .

سعادة عبد الحميد مصطفى باشا ـ دار بحثنا بشأن النص على تمثيل الاقليات على اساس ان المفاوضات المقبلة ستبحث في امر حماية الاقليات . ولكن حضرة المكباتى بك الذى لم يوافق على بحث الموضوع . بناء على هذا الاساس ، بل قال انه يوافق على تمثيل الاقليات مجاملة لهم وحرصا على دوام الاتحاد .

ولكن حضرة دوس بك لم يعرض المسألة لتحل مجاملة بل طلب أن تحل طبقا لمصلحة البلاد سواء في ذلك نص على تمثيل الاقليات او لم ينص ، لان كل ما يريده أن يمنع خطر تدخل الاجنبى بحجة حماية الاقليات . فيجب ان لا نبحث المسألة على غير هذا الاساس .

انجلترا تريد حماية الاقليات ، ولكنها لا تريد لهم مطلقا امتيازا يزيد عما للاكثرية من الحقوق لا تريد لهم الا المساواة مع الاكثرية في الحقوق والواجبات . لكن حضرة دوس بك جسم المسألة وخرج بها عما تريده انجلترا وعما قرره الحلفاء للاقليات في جميع المعاهدات .

النص الخاص بحماية الاقليات واحد في جميع المعاهدات الدولية التى اعقبت الحرب . وقد وضعنا هذا النص بحروفه في دستورنا فيجب الا نتعدى هذا ولا نسبق انجلترا في اغراضها ونقرر للاقليات حقوقا تتجاوز ما للاكثرية . مع انه لا يطلب له الا المساواة وهى مضمونة بنصوص الدستور .

سعادة قلينى فهمى باشا ـ اوافق سعادة عبد الحميد باشا مصطفى وحضرة على ماهر بك على كل ما قالاه في هذا الموضوع واضم صوتى الى صوتهما لان فكرة تمثيل الاقليات هادمة للوحدة القومية ، وموجبة للتفريق بين العنصرين وهذا ما لا نود وقوعه .

معالى الرئيس ـ لتؤخذ الاصوات على تمثيل الاقليات او عدم تمثيلها .

تقرر بالاغلبية عدم تمثيل الاقليات :
(في ٢٥ اغسطس سنة ١٩٢٢)

ليس لوطنى مصرى أن يحتج باحكام دينه للتخلص من الواجبات العامة المفروضة عليه كوطنى أو جندى .

لجنة الدستور :

معالى الرئيس ـ ورد على اللجنة خطاب من فضيلة شيخ الجامع الازهر وستتلوه السكرتارية على حضراتكم .

تلى الخطاب وهذه صورته :

« تشرفنا بتلقى كتاب معاليكم المحرر في ٢٩ ذى الحجة سنة ١٣٤٠ (٢٣ اغسطس سنة ١٩٢٢) وقد جاء فيه :

ان المادة ١٣ من مشروع الدستور لا تمس الدين الاسلامى بشيء ، لان لفظ « الوطنى » الوارد في المادة لا يختص بالمسلمين ولا بغيرهم بل هو عام وكذا عبارة « احكام الدين » لا تختص بدين الاسلام ! .

والواجبات المفروضة على الوطنى كوطنى او جندى هى الواجبات العامة فلا تتنافى مع الاحكام الخاصة بعقائد الاديان الخصوصية .

ومع ذلك فلازالة اللبس قد قررت اللجنة ان تضيف على نص المادة لفظ « العامة » بعد كلمة الواجبات ليصير نصها كما يأتى :

« ليس لوطنى مصرى أن يحتج باحكام دينه للتخلص من الواجبات العامة او المفروضة عليه كوطنى أو جندى » .

وانا نشكر لمعاليكم وللجنة الدستور العناية بهذه المسالة ونرجو ان تسمحوا لنا ان نقول :

ان حضرات العلماء الذين اعترضوا على هذه المادة بان فيها على الجملة مساسا بالدين لما اطلعوا على التعديل السالف الذكر قالوا :

نحن نعلم ان لفظ « الوطنى » عام لا يختص بالمسلمين ولا بغيرهم ونعلم ان عبارة أحكام الدين عامة كذلك بحسب الوضع المعروف الان وقد جاء فى خطاب معالى الباشا ان الواجبات العامة لا تتنافى مع أحكام الدين فاذا كانت لا تتنافى معها فلا معنى لان يقال ليس لوطنى مصرى أن يحتج باحكام دينه للتخلص من الواجبات العامة .

فلا يزال اللبس والاعتراض باقيين بعد زيادة كلمة « العامة » التى قررت اللجنة اضافتها اخيرا الى المادة ، ولا يزال المساس بالدين متوهما من هذه المادة .

نبلغ ذلك الى معاليكم لتتفضلوا بالنظر فيه .

وندعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا جميعا الى ما فيه الخير والسداد والسلام عليكم ورحمة الله .

شيخ الجامع الازهر

ختم

٦ المحرم سنة ١٣٤١ ـ ٢٩ اغسطس سنة ١٩٢٢ .

معالى الرئيس ـ ما راى حضراتكم فى هذا الخطاب ؟

حضرة توفيق دوس بك ـ أرى أن يتولى فضيلة الشيخ محمد بخيت ابداء رأيه فى هذه المادة فى لجنة التحرير .

فضيلة الشيخ بخيت ـ الى الان لم يبين العلماء وجه المساس بالدين والمادة لا شىء فيها اصلا .

حضرة على ماهر بك ـ أرى احالة المكاتبة على لجنة تحرير الدستور وهى التى تنظر فيها وقت مراجعة المادة وتقترح ما تراه .

فتقرر احالة المكاتبة على لجنة تحرير الدستور (فى ٧ سبتمبر سنة ١٩٢٢) .

فضيلة الشيخ محمد بخيت ـ قررنا المبدأ ١٣ الذى يمنع أى مصرى من الاحتجاج بعقيدته للتخلص من الواجبات العامة المفروضة عليه بعد اذ رأينا أنه لا يمس الاديان ، ولا زلت أقرر أن ليس فى هذا المبدأ ما يمس دينا من الاديان ولا يحرج عقيدة من العقائد ، وأنه لم يتبين لى من إعتراض حضرات العلماء وجه هذا المساس المزعوم . على أن من يتصفح المبادىء الاخرى نرى أن فيها ما يغنى عن هذا النص وخصوصا المبدأ الذى يسوى بين المصريين جميعا فى الواجبات والتكاليف العامة . فلهذا اقترح على اللجنة حذف المبدأ ١٣ لان فى بقائه تكرارا لا مسوغ له .

حضرة عبد العزيز فهمى بك ـ كثرت الاقاويل بشأن هذا المبدأ ، ولا يزال رأى فضيلة الشيخ بخيت أن ليس فيه مساس بالدين ولكنه يقترح حذفه منعا للتكرار ولوجود ما يغنى عنه ، وقد بحثت لجنة التحرير فى هذا الامر ورأت أن لا مانع من الحذف .

حضرة عبد اللطيف المكباتى بك ـ يحسن ألا يبت فى امر الحذف حتى تقدم لجنة التحرير مشروعها الذى تحضره وعندئذ يكون للجنة العامة أن تدرس المسألة وتقرر ما تراه فيها .

فوافقت الهيئة على ذلك .

(١٥ سبتمبر سنة ١٩٢٢)

ثم تليت المادة الثانية ونصها :

« المصريون لدى القانون سواء ، لكل منهم ما لغيره من الحقوق المدنية والسياسية وعليه ما على غيره من الواجبات والتكاليف العامة ، لا تمييز بينهم فى ذلك بسبب الاصل أو اللغة أو الدين . واليهم وحدهم يعهد بالوظائف العامة : مدنية كانت أو عسكرية ، ولا يولى غيرهم هذه الوظائف الا فى احوال استثنائية يعينها القانون » .

فوافقت الهيئة عليها بالاجماع .

(فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٢)

تبدو الصيغة الاصلية لهذه المادة مطلقة اكثر مما يجب ، فالتوكيد بان لكل مصرى من الحقوق السياسية ما لغيره من المصريين ليس صحيحا اذا أخذ اللفظ بمعناه الحرفى . اذ أن الدستور نفسه وقانون الانتخاب قد أوجدا بالضرورة فوارق من حيث التمتع بالحقوق السياسية ومن جهة أخرى فانه يظهر أن نية واضعى الدستور كانت منصرفة الى وضع مبدأ عدم التمييز بين المصريين فى الحقوق المدنية بسبب الاصل او اللغة أو الدين . فيلوح أن الصيغة المقترحة ـ وهى مقتبسة من الدستور الايطالى ـ اقرب الى الغرض المقصود .

فى مقدمة ما حسمته لجنة الدستور هو اخذها بمبدأ عدم تمثيل الاقليات تمثيلا نسبيا فى البرلمان . وقد اتخذت هذا الموقف بعد المؤازرة الكاسحة من الراى العام بكافة فئاته لهذا المبدأ . وكان لجماهير القبط فى ذلك دور كبير عرضته الصحافة والاجتماعات العديدة التى كانت تعقد وقتها ، وهاجم غالبيتهم توفيق دوس وموقفه وكان للوفد دور كبير فى ذلك .

والمهم أن رفض هذا المبدأ لم يصدر عن فكرة الاخاء الدينى فحسب بين المسلمين وغيرهم . ولكنه صدر فى الاساس عن تبنى الجماعة المصرية فى هذا الوقت للمفهوم العلمانى للدولة ، ومن وقوف جماهير ثورة ١٩١٩ وراء فكرة الجماعة المصرية كجماعة سياسية وحيدة تربط المصريين كلهم بغض النظر عن الدين . رافضين بذلك فكرة الخلافة الإسلامية والاعتبار بالعامل الدينى فيما يتعلق بمجالات الحياة السياسية . وكان هذا خير تطبيق لشعار ثورة ١٩١٩ « الدين لله والوطن للجميع » .





الاهداف التى حققها القطاع الدوائى:

اولا : التنمية الالية :

تنتهج المؤسسة المصرية العامة للادوية سياسة ترتكز بصفة اساسية على :

- التخطيط للانتاج ، حسب احتياجات البلاد من المجموعات الدوائيـة ، وتحديد أولويات انتاجها .
- تنمية الانتاج راسـيا وافقيا ، بزيادة الكمية المنتجة من كل صنف ، وزيادة عدد المستحضرات ، حتى تغطى احتياجات الحقل الدوائى كما ونوعا .
- احكام الرقابة ، وتنشيط الابحاث ، ومطابقة الدواء المنتج للمواصفات المطلوبة .
- الانتاج تحت انسب الظروف الاقتصادية لخفض تكاليف الانتاج .
- توفير كل ما يلزم للصناعة المحلية من امكانيـات مادية وفنية ومعدات ، لتمكينها من تحقيق التوسـع فى حجم الانتاج ونوعه .

ورغم ان البداية فى صناعة الدواء كانت شديدة التخلف ، وكانت الالات المتاحة حينئذ قليلة ومتخلفة ، وقدرتها الانتاجية ضئيلة ، الا ان المؤسسة عملت على تدعيم صـناعة الدواء بأحـدث الالات واقدرها على الانتاج الضخم .. واستطعنا بذلك ان نضـاعف الانتاج ، وان نتوسع فى انتـاج مزيد من الاشكال الصيدلية المختلفة ، وفقا لاحـدث الاساليب والنظم .

وواجهت المؤسسة هذا التطور الالى ، بما يناسـبه من تطوير المصـانع ذاتها ، بالتوسع فى الاقسام والمصـانع القائمة ، وبانشاء مصانع جديدة ضخمة على أحدث ما عرفته صـناعة الدواء العالمية من نظام ودقة وضخامة .

كذلك كان لتدعيم صناعة الدواء المحلية بالمصـانع اللازم لانتاج الامبولات الفارغة وزجـاجات القطرات والاشربة والمحـاليل وعلب البلاسـتيك للاقراص والانـابيب المعدنيـة للمراهم واغطيـة الزجـاجات السبكاليت والورق والطباعة عليها ، اكبر الاثر فى توفير ما تحتاجه الصناعة الدوائية المحلية من مواد التعبئة والتغليف .



ELECTRIC POWER SAVED,
OPERATION OF SUPPLY MAINS & INSTALLATIONS OPTIMIZED

with the



Soviet-made **CAPACITORS**

ensuring radical improvement of the power factor of your plant or apparatus

Voltages : 220 V; 380 V; 400 V; 500 V; 6,600 V; 11,000 V

For detailed information please apply to :

V/O ENERGOMACHEXPORT

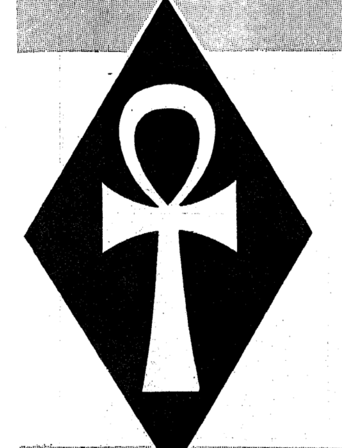


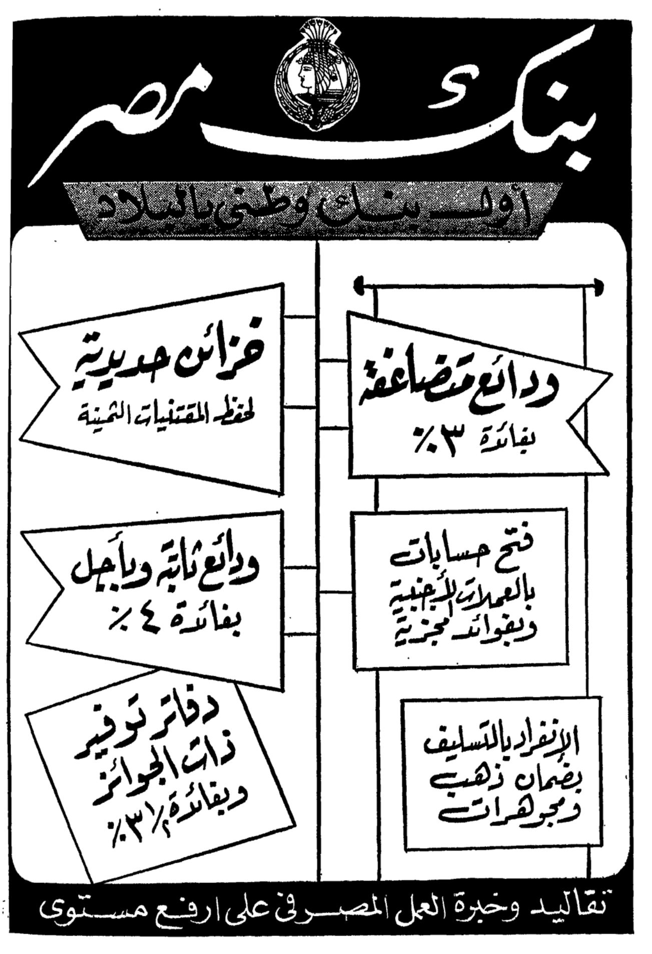
35, Mosfilmovskaya
Moscow V-330
USSR

189/37/324/102

الوكلاء في ج.ع.م

شركة النصر للتصدير والاستيراد ٣٧ شارع طلعت حرب - القاهرة





الثمن ١٠ قروش

مطابع الأهرام التجارية

الطليعة
طريق المناضلين الى الفكر الثورى المعاصر
العدد الثامن - السنة السابعة - أغسطس ١٩٧١

● الرواية مرآة الشعب

● التضامن مع العمل الفدائى ومخطط الاستعمار الجديد

● موقف البورجوازية الوسطى من الثورة الوطنية

● انتخابات البطريرك والتراث الديمقراطى المصرى

● كوريا .. البلد الذى يعيش ساعة الصفر



طريق المناضلين الى
الفكر الثورى المعاصر

مجلة شهرية

تصدر أول كل شهر

عنوان المراسلات :
مبنى مؤسسة الاهرام شارع الجلاء القاهرة تليفون ٤٦٤٦٤ — ٥٩٠٥١٠ — ٥٩٥٦٠

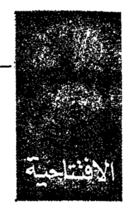
الاشتراكات :
لسنة بالبريد العادى ج.ع.م. ودول اتحاد البريد العربى ودول الدار البيضاء ١٢٠ قرشا

الفهرس

العدد الثامن — السنة السابعة — أغسطس ١٩٧١

ص

ان « الطليعة » ميدانمفتوح لكل راى
حر ، وفى اعتقادنا أن تفاعل الاراء
الحرة على اختلافها هو وحده الذى
يستطيع ان يبلور ويستخلص وحدة
فكرية أصيلة .
من هذا المفهوم تفتح « الطليعـــة »
صفحاتها لكل رأى لديه كلمة يقولها
ـ مؤمنة بشعار الحرية المجيد الذى
اطلقه فولتير فى القرن الثامن عشر
« قد اختلف معك فى الـــرأى ولكنى
على استعداد لان ادفع حيـــاتى ثمنا
لحقك فى الدفاع عن رأيك » ؟ .



التضامن مع العمل الفدائى ومخطط الاستعمار الجديد

ربما أصبح من اشق الامور على النفس أن يكتب الانسان عن المخطط الذى يجرى تنفيذه لتصفية منظمات الكفاح المسلح الفلسطينى ، هذا المخطط الذى بدأ بكيفية منظمة ومنهجية منذ فبراير ١٩٦٨ • وتتضاعف هذه الصعوبة عندما نرى ان هذا المخطط الملكى ـ الامريكى ـ الاسرائيلى قدقطع شوطا بعيد المدى منذ ذلك التاريخ • وعندهذا الحدقد يبدو للكاتب ـ لاى كاتب ـ أن الكتابة تعجز عن أن تقدم حلا عمليا يصون دماء المقاتلين الابطال فى الاردن، أويفشل المخطط الامبريالى الخبيث • وهيهات بعد ذلك ان تكون الكتابة بهدف البحث عن راحة مزعومة للضمير •

ولعل كل الجهد ـ وهو جهد المقال ـ الذى تبذله الاقلام ـ دفاعا عن الفدائيين ـ أن ينصرف الى التنبيه الى ابعاد المؤامرة التى تحيق بالكفاح الفلسطينى المسلح ، فربما يدفع الوعى الكامل بابعادها واهدافها الى ان تبادر القوى الوطنية المخلصة الى الاتفاق على خطوة او خطوات عملية ـ مهما كانت متواضعة ـ تقدم العون الحقيقى الى الفدائيين ، وتغنى ـ بعض الشىء ـ عن التأوهات وعن بعض الشعارات العامة التى تدخل في باب تطييب الخاطر أو المواساة •

وعند الحديث عن المؤامرة سنجد أنفسنا امام حقيقتين متلازمتين يلقيان الضوء على طبيعتها واتجاهاتها • اولاهما حقيقة طالما اثلجت ، فى وقت من الاوقات ، صدور الشعوب العربية وملاتها ثقة بالنفس ، وهذه الحقيقة تقول أن نشاط الفدائيين ، رغم كل عوامل الانقسام والقصور كان يشكل فى يوم من الايام مصدر ازعاج رئيسى للعدو على الجبهة الشرقية، هذه الجبهة التى لم تقم ابدا فى يوم من الايام •

وأما الحقيقة الثانية فهى قيام « اتفاق موضوعى » بين الرجعية الاردنية وبين العدو الاسرائيلى حول تصفية العمل الفدائى ، بما فى ذلك التصفية البدنية للفدائيين •

وعندما نتحدث عن اتفاق « موضوعى » ، قائم بالفعل ، بين السلطة الاردنية وبين

العدو الاسرائيلى فليس الهدف أن نستبعدامكانية وجود اتفاقيات مكتوبة ، أو غير مكتوبة · وليس الهدف أيضا أن نستهول امكانية اللقاء او الالتقاء بين أعداء الشعب الفلسطينى · فكل هذا ممكن ووارد ، ومنذحرب ١٩٤٨ ، دلـل حكام الاردن على « قدرة » لا تنكر على « اختراق » حدوداسرائيل ، وترتيب لقاءات شخصية مـع جولـدا مائيـر ، ومع غيرهـا من قـادةاسرائيل · وأنما نكتفى ، هنا ، باثبات مالا يحتاج الى اثبات :

● فمن ناحية الولايات المتحدة الامريكية ـ وهى المايسترو الذى يـوجه الشركاء الصغار فى الاردن واسرائيل ـ فـان المسئولين فيها لا يكفون ـ خصوصا بعد احداث سبتمبر ١٩٧٠ ـ عن التعبير عن ابتهاجهم وارتياحهم للاعمال التى تقوم بها السلطة الاردنية ضد الفدائيين ·

● ومن ناحية السـلطة الاردنيـة فقد « قطعت جهيزة قول كل خطيب » عندما قطع وصفى التل الشك باليقين اذا كان هناك من لا يزال يتشكك ، عندما أعلن عدم التزام الاردن باتفاقية القاهرة ·

● وفيما يتعلق باسرائيل فلسوف نقف قليلا أمام حديث جرى بين موشى ديان وبين مراسل جريدة معاريف الاسرائيلية · وهذا الحديث الذى نشر منذ مدة ، وعلى وجه الدقة فى ١٢ سبتمبر ١٩٦٩ يضع أيدينا على الحقيقتين اللتين اشرنا اليهما :

فلقد سأل المراسل موشى ديان عن تفسيره لظاهرة ازدياد الخسائر ـ فى ذلك الوقت ـ فى صفوف الاسرائيليين ، لا على جبهة قنال السويس وحدها ولكن على ايدى الفدائيين ايضا ·

قال المراسل : « أن هناك توازنا ، مفجعا عند مقارنة عدد المصابين فـى اغسطس وسبتمبر (١٩٦٩) · ففى اغسطس نشر أن عدد القتلى كان ٢١ قتيلا طوال الشهر ، و ١٢٩ جريحا ، وفى سبتمبر ، ونحن فى اليوم السابع منه ، تكبدنا حتى الان ما بين ٢٠ ، ٢١ قتيلا ؟

أدلى ديان باجابة مطولة ، وعلى الرغم من أنه حاول أن يزعم ان اسرائيل لا تزال تمسك بزمام المبادرة على جميع الجبهات ، الا انه قرر أن شدة مراس الجبهة المصرية لا تنفى حقيقة ان نشاط الفدائيين فى الجبهة الشرقية ينزل بالاسرائيليين خسائر تدعو الى الانزعاج · وكان مصدر « الانزعاج » عند ديان ـ كما قال ـ هو أن « حجم الخسائر لا يتناسب مع فعالية هذه الجبهة » · واضاف ـ فى مكان آخر من الحديث ان الفدائيين « لا يكتفون بالمرور قرب الحدود بل يتغلغلون فى داخل البلاد باعمالهم الارهابية · وانا لا انكر هذا ، ولا احاول ان اتجاهله · وهذه المشكلة تتطلب منا أن نفعل كل ما نستطيع بغرض محاربة الارهاب وابادة الارهابيين عن آخرهم » · (لاحظ أن ديان يطلق لفظ ارهابيين على الفدائيين) ·

وعندما سأل المراسل ديان عن الحلول التى يعدها قادة اسرائيل لمواجهة خطـر الفدائيين اشار ديان ـ فى الاساس ـ الى حل مزدوج ، احد جانبيه هـو « الجسور المفتوحة » والجانب الثانى مواجهة العمل الفدائى بما يحقـق ابـادة الفـدائيين وافناءهم ·

ولابد وأن يتبين المرء عندما يعود الى ما نشرته الجريدة الاسرائيلية ، ان طـريقة الجسور المفتوحة تندرج تحتها ـ فى نظر قادة اسرائيل ـ فتح حوار مباشر مـع المسئولين فى الاردن · ولقد قال ديان بالفعل ـ وهو يعتب على السلطة فى الاردن ـ أن تفاقم دور الفدائيين راجع الى أن الملك حسين لم ينفذ وعده « بالسيطرة على فتح وعلى الارهابيين » · فاذا ما اتضحت بشاعة المؤامرة التى تنفذ ضد المقاومة الفلسطينية ،

وباصرار عنيد لا يتزعزع ، فان الشعوب العربية ستواجه ـ فى حالة النجاح النهائى للمخطط ـ نتائج قد نكره أن نتصور وقوعها ـ الا أن هذا لن يغير عندئذ من الواقع الكريه فى شىء :

● **نتيجة أولى :** هى أن اسرائيل ستواصل بثبات توسعها الاقليمى وبناء المستوطنات والمستعمرات ، وستقول للمهاجرين الجدد من اليهود الذين زعزعت المقاومة المسلحة ثقتهم بقدرة حكومتهم على حماية أمنهم ، أن فى مقدورهم أن يطمئنوا وأن يمدوا ابصارهم الى ما وراء حدود اسرائيل ، الى اسرائيل اكبر واكثر أمنا .

● **نتيجة ثانية :** هى ان الاحتكارات الامريكية والمصالح الامبريالية الاخرى فى الشرق الادنى تكون قد تخلصت من بؤرة ثورية ، هى الكفاح المسلح الفلسطينى ، ومن المثل الذى يلهمه للبلاد التى تنهبها هذه الاحتكارات .

● **نتيجة ثالثة :** هى ان استمرار اعمال التصفية البدنية ضد الفدائيين يهدد الشعوب العربية بخسارة فادحة الى اقصى حد تتمثل فى فقد افواج متزايدة من هذا الجيل من الشباب الذى يقاتل منذ سنوات بكل وعى وبكل نكران حقيقى للذات ، والذى يمثل رافدا عميقا وجديدا من روافد الثورة العربية .

● **نتيجة رابعة :** هى ان استمرار السلطة الاردنية فى قتل الفدائيين الفلسطينيين يحقق هدفا طالما سعت اسرائيل الى تحقيقه منذ عدوان يونيو ولم تنجح بعد فى الوصول اليه . وهذا الهدف يتمثل فى انه اذا استحال على جيش اسرائيل الان ولاكثر من سبب أن يحقق انتصارات كبيرة عن طريق الاشتباك العسكرى ، فان على اسرائيل ان تحقق اهدافها من خلال احداث انهيارات داخلية فى هذا البلد العربى او ذاك . ان مثل هذه الانهيارات ـ لو حدثت ـ تكفى اسرائيل اخطار العمليات المسلحة المباشرة والواسعة ، وتحقق داخل الصف العربى آثارا نفسية بعيدة المدى ، وتحقق ـ بالتالى ـ بغير حرب ما تريد اسرائيل او بعض ما تريد . وهذا اسوأ ما يمكن أن يصيب الشعوب العربية فى معركة الحياة والموت : أن تنزل بهم الهزائم قبل أن يلتقوا بعدوهم .

ونستطيع أن نستمر ، بدون توقف فى تعداد النتائج الخطرة التى يمكن أن تترتب على نجاح المؤامرة الموجهة ضد العمل الفلسطينى المسلح . ولكن ربما يحسن أن نركز الانظار بقوة على المصدر الرئيسى للاخطار حتى نتبين الواجبات الملقاة على القوى الشعبية وعلى الحكومات الوطنية فى المنطقة بازاء التضامن مع الكفاح المسلح الفلسطينى .

هنا يثور السؤال : ان السلطة فى الاردن منذ حرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ ظلت على الدوام تمثل القنبلة الزمنية التى تنفجر فى وجه الكفاح الوطنى التحريرى وذلك فى كل مرة يدخل فيها هذا الكفاح منعطفا حاسما . فهل يكون مصدر الخطر على حركة التحرر أن فى الاردن مجموعات من عملاء الاستعمار وشركائه يسيطرون على مقدرات هذا البلد الشقيق ، ويوجهون سياسته ؟ بالطبع أن هذا وارد بالفعل . لكن أهم من ذلك كله وقبل ذلك كله ينبغى الاشارة الى أن العملاء فى الاردن هم مجرد خدم وشركاء صغار فى بلاط المستعمرين الجدد .

وعند هذه الظاهرة ، ظاهرة **الاستعمار الجديد** ، وفى أطار النضال ضدها يتعين أن نتفهم حقيقة وابعاد الخطر المحيط بالكفاح المسلح الفلسطينى .

فمن المعروف أن انهيار نظام الاستعمار التقليدى بزعامة بريطانيا وفرنسا لم يقض على النظام الامبريالى الذى تزعمته الولايات المتحدة الامريكية ، التى سعت الى أن ترث المنطقة العربية من المستعمرين التقليديين ، وفضلت أن تضع البلاد العربية داخل منطقة

نفوذها فى مقابل أن يكتفى هذا البلد العربى أو ذاك بمظاهر الاستقلال الشكلى • أما البلاد العربية التى قاومت المستعمرين الجدد ــ ومصر هى النموذج الواضح ــ فقد تعرضت ولا تزال لكل الوان الضغوط الاقتصادية والسياسية ولكل صنوف المؤامرات الداخلية • فاذا فشلت هذه المؤامرات والضغوط تحولت خطط الامبريالية الى تنظيم اعتداءات مسلحة سافرة عن طريق اسرائيل • أما البلاد العربية التى وقعت تماما فى شرك الاستعمار الجديد ، وابتلعت طعمه ، فان الاردن فى هذا الصدد يشكل المثل النموذجى •

فمنذ عام ٥٧ خضع الاردن لمبدأ **ايزنهاور** وتمكن الاستعمار الجديد من أن يقبض قبضة حديدية على مصائر هذا البلد العربى ، وليسيطر عليه إقتصاديا وعسكريا • وثقافيا • وأصبح الاردن يعتمد من ناحية المعونات المالية على المستعمرين الجدد ، وأصبح جيشه يسلح من قبل الامبرياليين بهدف أن يكون فرقة صدام ضد الحركة الوطنية الاردنية ، وضد نضال شعب فلسطين • وتحت نفوذ المستعمرين الجدد ، أصبح هذا البلد العربى الشقيق منطقة نفوذ للسياسة الامريكية ، ومحطة يهدد بالنزول فيها بعساكره كلما همت الحركة الثورية أن تحقق انتصارات حاسمة ، وتحت تأثير الاستعمار الجديد ونشاط عملائه ، عملت السلطات الاردنية على تمزيق الروابط الطبيعية بين الشعب الاردنى وبين الشعب الفلسطينى فى دولة الاردن •

ومنذ حرب يونيو ، ومنذ نهوض حركة الكفاح المسلح مضت السلطات الاردنية تبعد ابناء شعب فلسطين عن الوظائف الكبرى والعامة • بل ان هذا الابعاد يوشك أن يصبح أو هو قد أصبح عملية تطهير تجرى فى مختلف مستويات السلم الوظيفى فى جميع الوزارات والمؤسسات وبوجه خاص داخل القوات المسلحة الاردنية •

ومن هذه الزاوية الرئيسية بالذات زاوية اهداف ونشاط الاستعمار الجديد ، وانطلاقا من ضرورة تركيز الانتباه على حركة المستعمرين الجدد ، ينبغى أن ننطلق لنحدد مهام القوى الثورية تجاه الكفاح الفلسطينى المسلح • ومن خلال المعرفة العلمية بان امريكا زعيمة الاستعمار الجديد تقوم منذ مدة بهجوم متعدد الاتجاه فى الشرق العربى بهدف أجبار الشعوب العربية على أن تقبل حلا امريكيا لمشكلة النزاع العربى الاسرائيلى ، نقول من خلال هذا كله يجب أن نحدد العمل أو الاعمال الملموسة لدعم الكفاح الفلسطينى المسلح • على أن اية خطوة تكتيكية وأى حلول جزئية فى هذا الاتجاه انما تفرض أن يكون الموقف التكتيكى متوافقا ومنسجما الى أقصى حد مع استراتيجية الثورة العربية ، ثورة التحرر الوطنى والاجتماعى العربية ، بازاء خطر الاستعمار الجديد ، وبازاء هجومه المتزايد الحدة •

ان استراتيجية الاستعمار الجديد فى العالم العربى تهدف أساسا الى وقف عملية تحول الثورة الوطنية المعادية للامبريالية والاقطاع الى ثورة اجتماعية ترسى الركائز الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى تصون الاستقلال السياسى وتخدم قضية التقدم فى البلد المعين • وفى سبيل تحقيق هذا الهدف يستخدم المستعمرون الجدد وسائل متعددة فى مقدمتها :

ــ تخريب وتقسيم صفوف القوى الوطنية والتقدمية
ــ ضرب كل اتجاه تبديه الشعوب العربية فى معاركها الوطنية والاجتماعية نحو التقارب والوحدة •

ــ تخريب علاقات التضامن والصداقة بين البلاد العربية وبين اسرة البلدان الاشتراكية •

ــ دعم النظم العميلة والموالية بأجهزة ومؤسسات للقمع رهيبة تنظمها وتتعاون فى توجيهها أقلام المخابرات الاجنبية الاستعمارية •
ومن هذا الواقع لا يمكن أن نتصور استراتيجية عربية تصد خطر الاستعمار الجديد وتصفيه ، الا اذا أخذت فى الاعتبار حقيقة أن هزيمة مخططات الاستعمار الجديد

فى المنطقة العربية انما تتطلب مواجهة الوسائل الامبريالية بوسائل ثورية كاملة . فاذا كانت الحلقة الرئيسية فى هزيمة المستعمرين الجدد هو التمسك ، ومواصلة السير على خط التطور الاقتصادى المستقل ، وتعميق مجرى التحولات الاجتماعية لصالح الطبقات الشعبية وفى مقدمتها العمال والفلاحون ، فان هذا يتحقق بفضل وسيلة رئيسية هى تمكين الجماهير من ممارسة حقوقها الديمقراطية الاساسية لتنظم نفسها ، وتعبر عن آمالها . عندئذ تصبح الوحدة الوطنية حقيقة قائمة ، وهذه الوحدة هى الشرط المسبق والحيوى لكل تعبئة جادة تضمن انزال الهزيمة بمخططات الاعداء ، وعزل القوى الاجتماعية التى تعرقل التطور الاجتماعى .

من هذا المنطلق ، منطلق الديمقراطية والوحدة الصلبة بين كل القوى المعادية للامبريالية والاستعمار الجديد والرجعية والصهيونية لا تتحدد الواجبات المباشرة لمساندة الكفاح المسلح الفلسطينى فحسب بل « تتشكل أيضا » القاعدة المادية التى تفتح الطريق أمام فصائل العمل المسلح لكى تدعم وحدتها أكثر فأكثر . وفى هذا فان العمل الفورى المطلوب فى هذا الاتجاه يمكن أن يتحقق على أكثر من مستوى :

● على مستوى الحكومات الوطنية فقد آن الاوان لكى تتحرك هذه الحكومات بحسم فى اتجاه عزل عملاء الاستعمار الجديد وأعداء العمل الفدائى فى الاردن ، وانهاء عهد المصالحة معهم .

● على مستوى الجماهير الشعبية فان واجبات القوى الوطنية والتقدمية فى التضامن مع الكفاح الفلسطينى المسلح أكثر بما لا يقاس وأشد ثقلا . ولا يعفى القوى الوطنية والتقدمية من تبعات هذا الواجب حالة التمزق التى تتفشى الان بين صفوفها . وربما كان أخطر ما يواجه هذه القوى أن تستسلم لوهم مؤداه أن قوى الرجعية والردة فى الوطن العربى هى التى تفرض سياستها وتوجه مجرى الاحداث . وانما يتعين على هذه القوى الوطنية والتقدمية المنظمة ، فى منظماتها السياسية والجماهيرية وفى احزابها أن تقوم بمبادرات حقيقية ، تحدد بها وفقا لامكانياتها وهى امكانيات لا تنضب أشكال الكفاح وأشكال التنظيم اللازمة لتقديم اسناد عملى وفورى ومتصل للثورة الفلسطينية ولفصائلها المسلحة كل ذلك بالطبع — وفقا لحجم المعونات المادية والمعنوية التى تنفع المقاومة . واذا كان العمل المتواضع والمبادر هو المطلوب لاسناد العمل الفدائى على مستوى كل بلد عربى وعلى مستوى كل جماعة وكل تنظيم ، فان مجموع هذه الاعمال المتواضعة والمحدودة ، هو الذى يستطيع فى النهاية أن يحقق نجاحات تدخل فى باب المعجزات .

« الطليعة »

■■

الى قراء الطليعة :

فى أول سبتمبر القادم ، وعندما يكون العدد الجديد من « الطليعة » قد أصبح بين يدى قرائها ، سوف تكون افتتاحية العدد بقلم لطفى الخولى رئيس تحرير « الطليعة » .

ان أسرة التحرير التى ترحب بأن يواصل لطفى الخولى عمله ، والتى تعتز بكل جهد بذله فى الطليعة طوال السنوات الماضية ، تثق ثقة تامة بأن القراء الاعزاء سوف يشاركون أسرة التحرير فى استقبال كتابات لطفى الخولى بنفس الترحيب والاعزاز .

« أسرة تحرير الطليعة »

الـروايـــة

مــرآة الشــعب

لا تزال صحيحة عبارة ستاندال التى قال فيها ان الرواية هى مرآة تجوب الشوارع . وقد كان هذا التصور للفن الروائى موازيا للتطـور الاجتـماعى الخطير فى أوروبا ، بحيث كانت النشــأة الاولى للرواية الاوربية تجسيدا ثوريا لاحـلام وطموحات الطبقة الجديدة الوارثة للاقطاعيين والنبـلاء .. فالرواية هى فن البرجـوازية بحق ، فن اليقظـة القومية الجديدة .

ولا تكاد الرواية العربية تختلف فى نشأتها عن قوانين تطور الفن الروائى فى أوروبا، الا من حيث أننا استوردنا قالبها الفنى من تراث غيرنا فى أواخـر القرن الماضى وبدايات القرن الحالى . ولكن هـذا الاستيراد نفسه كان تعبيرا موضوعيا أمينا عن حاجة ملحة فى بنائنا الحضارى ، تلك هى حاجة « عصر النهضة » الى أساليب جديدة فى صياغة وجـدان القوى الاجتماعية البازغة .

غير ان التفاعل الايجابى الخـلاق بين القالب الروائى المأخوذ عن الغرب وتجربتنا المحلية ، قـد اثمر تيـارا روائيا أصـيلا فى كافة أرجاء الوطن العربى ، تعددت روافده ، ولكنها اتخذت مجـرى رئيسيا واحدا هـو الشعور العربى العـام بكافة نبذباته السالبة والموجبة ، الصاعدة والمنتكسة .

وحين تقدم « الطليعه » اليوم دراستها الرئيسيه حول الرواية العربية ، فانها لا تهدف الى تغطيـة



اكاديمية شـاملة للحيز الذى يشغله هـــذا الفن الجماهيرى الرفيع من ضمير الانسان العربى المعاصر .. وانما تسـعى الطليعة الى تركيز الضوء على بعض القضايا والهموم التى تشـغل بال الـروائى العربى فى وقتنا الحاضر . لذلك جاء تقسـيمنا للدراسة الى قسمين : الاول يتناول موقف الروائيين المصريين من ثلاثة محاور واضحة على مسار الرواية المصرية : محور الفلاح المصرى الذى احتـل على طول تاريخنا الروائى مكانا بارزا من أهتمام كتابنا . ومحور المقاومة الوطنية التى كانت هى الاخـرى من الملامح الاساسية فى تكوين الرواية المصرية . وأخيرا محور التجديد الفكرى والفنى الذى تقـوم به الاجيال الجديدة .

والقسـم الثـانى : يعـالج موقف روائيينا من الهزيمة التى منيت بها امتنا فى حرب حـزيران ١٩٦٧ وهو الموقف الذى يجتمع حـوله الروائيون العـرب من مختلف الاقطار العـربية ، وان كان اجتماعهم حوله لايعنى بالضرورة اتفاقهم فى الاسلوب وزاوية النظر .

و « الطليعة » وهى تقدم هذا المجهود المتواضع ، انما تتطلع الى فتح حوار موضوعى حـول ما جاء فى هذه الدراسة من آراء وأفكار .





صـــــورة الفـلاح في الروايـــة المصـــــرية

فـــــواد دوارة

اذا صح أن « مصر هبة النيل » ، كما أكد هيرودوت من قديم ، فالاصح أن الفلاح المصرى هو الذى حول هذه الهبة الى وطن وحضـارة ، ومع ذلك فلم يكن جزاؤه عبر القرون الطويلة غير العسف والمظالم من كل نوع ، وهاهو صوته منذ حوالى خمسة آلاف سنة ما زال يدوى فى آذاننا الى اليوم ·

« ·· انت ربانها ، سفينة البلاد ، وقد طفح كيل عذابى ، وفاض بحر آلامى ، وها هو ذا يتدفق من فمى أنينا وشكوى ·· لا تضع أصابعك فى اذنيك حتى لا تسمع من يتهم رجالك الذين أقمتهم لانصاف الناس ، فكانوا عونا لمن لا خلاق لهم ·· ايه يا سيدى الرئيس ! أرفع عقيرتى بالشكوى فـلا تسمع ؟ لم يبق لى الا أن أستجير منك بأنوبيس فى العالم الاخر ·· »

وتمضى القرون ، وتتوالى الدول على مصر ، ويتغير حكامها ، ودينها ولغتها ، وكل شىء فيها ·· الا فلاحها الذى يكون حوالى ثلاثة أرباع سكانها ، يظل كما هو ، محافظا على معظم عاداته وتقاليده وأدوات عمله ·· انه هو نفسه مصر الاصيلة الصامدة على الزمن ··

ومع ذلك فما أقل ما حفل به المـؤرخون والادباء · يقول محمـد عبد الغنى حسـن فى كتابه « الفلاح فى الادب العربى » :

« لقد لفت نظرى وانا أقلب صفحات التاريخ العربى الاسلامى فى أمهات كتبه وقديم مصادره أن « الفلاح » مهمل الذكر ، مغفل الاشارة اليه ، متروك الحديث عنه · وكيف نتوقع من المؤرخين أن يذكروا « الشعب » بكلمة ، أو يخصوا الفـلاح بحديث ، وهم وقفوا اقلامهم على التاريخ للملوك والامراء والحروب ؟ فلم تدخل طبقة الشعب ولا أهل الريف لهم فى حساب » ·

ويشير الباحث نفسه الى أنه لم يعثر فى الشعر العربى الحديث على قصيدة تتحدث عن الفلاح قبل نشيد « الفلاحة المصرية » لمصطفى صادق الرافعى سنة ١٩٠٨ ، اما أسبق من عالج شئون الفلاح نثرا فقد كان عبد الله النديم فى بعض مقالاته الحوارية حوالى سنة ١٨٨١ ·

وإذا كان هـذا هو موقف الادب المـدون من الفلاح ، فلا شك ان الادب الشعبي الشفاهي قد عوض هذا النقص خلال صوره الفنية المختلفة ، كالملحمة والموال وخيال الظل والتشـخيص . فادوار لين يشير فى كتابه « المصريون المحدثون: عاداتهم وشمائلهم » الى مشهد تمثيلى رآه يؤدى فى بعض شوارع القاهرة فى اوائل القرن التاسع عشر ، ويدور حول فلاح فقير اشتد عليه الموظفون الاتراك فى جباية الضرائب والغرامات حتى عجز عن الدفع ، فجلدوه وسجنوه ، واضطرت زوجته الى رشوتهم بالاموال والاطعمة والسكوت على مغازلاتهم الفاضحة ، حتى يفرجوا عنه ..

انـه صـــوت « الفلاح الفصيح » مازال يتردد على أفواه أولئك الفنانين الشعبيين الذيـن شهدهم « لين » .. ولســوف يتردد كثيرا على أقلام كثيرة من الروائيين الذين عنوا بتصوير حياة الفلاح ، وتبنوا قضـيته على اختلاف مذاهبهـم واتجاهاتهم ودرجات وعيهم السياسى والاجتماعى، ومدى نضجهم الفنى .

ورغم قلة هذه الروايات ، فقد وجدت أن خير منهج لمناقشتها هو تتبعها تاريخيا والاشارة الى أهم خصائص كل منها .

ولابد من الاشارة هنا الى محاولتين جادتين - بالاضافة الى كتيب الاستاذ محمد عبد الغنى حسن الذى سبقت الاشارة اليه - درستا هذا الموضوع بمنهجين مختلفين ، وهما : « قضية الفلاح فـى القصة المصرية » لحسـن محسـب ، و « الروائى والارض » للدكتور عبد المحسن طه بدر ، وكان من الطبيعى ان يبدأ الاعداد لهذا المقال بالرجوع الى هذه الكتب الثلاثة، وأن يلتقى معها أو مع أحدها ، فى بعض النقاط ، وان يختلف فى أخرى ، قبل أن يتخذ لنفسه مسارا مستقلا، والموضوع فى الحق أشمل وأعمق من أن تستوعبه هذه الدراسات الثلاث ، فما بالك بهذا المقال ؟!

فلنقل اذن أنه تنويعة جديدة على نفس اللحن تحاول أن تضيف عدة نغمات جديدة ، وسيظل اللحن الاساسى بعد ذلك قابلا للمزيد مـن التنويعات .. والدراسات ..

« عذراء دنشواى »

فيما بين سنتى ١٩٠٣ و ١٩٠٥ الف كاتب يدعى محمود خيرت روايتين اسماهما « الفتى الريفى » و « الفتاة الريفية » يقول عنهما د . عبد المحسن بدر : « ثوب المعلم والواعظ يرتديه محمود خيرت فى مقدمات روايتيه ، وفى هذا المجال يقدم لنا وصفا لمدينة الفيوم ، ويصف مركز البوليس فى المدينة مقر عمله ، ويذكر نبذة عن انتشار مرض الكوليرا فى الفيوم اثناء عمله بها . فاذا انتهى من المقدمات خلع ثوب الواعظ والمعلم ، ولبس ثوبا آخر هو ثوب القصاص الشعبى كاملا ، وهو ثوب قد يعارض صورته فى مقدماته ، وفى ثوبه الجديد يقدم لنا « فكاهة طلية الحوادث لا يملها القارىء الكريم » ، تعرض النموذج العادى لرواية التسلية القائم على الصراع بين الخير المطلـق والشر المطلق ، بين الملائكة والشياطين فى عالم الخوارق والمعجزات » .

وفى سنة ١٩٠٦ ، عقب حادث دنشـواى مباشرة ، بدأت جريدة « المنبر » - لصاحبيها محمد مسعود وحافظ عوض - تنشر رواية مسلسلة بعنوان « عذراء دنشواى » تأليف محمود طاهر حقى ، يقول عنها ابن شقيقه يحيى حقى :

« .. ان « عذراء دنشواى » هى أول رواية مصرية تتحدث عن الفلاحين ، تصف حيـاتهم ومشاكلهم وتنقل لنا لغتهم كما ينطقونها بلهجتهم واسلوبهم ودعابتهم فيدل كل هذا عليهم - والاطار هو مناظر الطبيعة فى الريف - سماؤه واشجاره ، ليله ونهاره ، حقوله وأجرانه ، زرائبه وابراج حمامه ، إنها أول رواية تدخل الفلاح فى نطاق الكرامة الانسانية ، - بل تنظر اليه نظرة تمجيد ، ارتفع مجلس الفلاحين للسمر ونظـر الشكاوى فى « عذراء دنشواى » الى مقام أعرق نـوادى المثقفين فى المدن الراقية ، بكل معانيه ، اذ اعضاؤه من طبقة واحدة وفكر واحد ، ويشتغلون بمهنة واحدة ، وللقرويين حرية فى الفكر والمناقشة فللابن انيحاج اباه وللاخ ان يناقش اخاه وللمرأة حظ الاجتماع والمناقشة كالرجل سواء بسواء .. » .

فاذا اضفنا الى ذلك الهدف الوطنى الواضح فى الرواية ، وأمانتها فى تسجيل مهزلة المحاكمة التى أخرجتها السلطات البريطانية ، ووحشيتها فـى تنفيذ أحكام الجلد والاعدام فى ساحة القرية وأمام أهلها ، ادركنا الى أى حد خسر تاريخ الرواية المصرية باغفال هذا العمل الهام المبكر .

« زينب » .. والعمدة

وفى العام التالى (١٩٠٧) ظهـرت « حديث عيسى بن هشام » لمحمد المويلحى التى اعتبرها الدكتور على الراعى - فى كتابه « دراسات فى الرواية المصريـة » « البداية الاولـى للـرواية المصرية » ، بالرغم من الصراع الواضح فيها بين

فني المقامة والرواية ، وفيها نموذج لعمدة القرية الذي هبط الى العاصمة ليلهو ويستمتع ، وهو نفس النموذج الذى خلده **نجيب الريحاني** فيما بعد فى شخصية كشكش بك ، عمدة كفر البلاص ، فى العديد من مسرحياته الاستعراضية الهازلة التى ما لبثت أن تطورت الى ملاه لم تخل من نقد اجتماعى لاذع .

من أهم ما يقوله العمدة فى حديث « عيسى بن هشام » تلك المقارنة التى يعقدها بين أهل المدينة وأهل القرية ، وشكواه من اضطرارهم لرشوة الحكام .. « فنحن فى اضطرار دائم الى استرضائهم ، والمبلغ المناسب الذى نقول عنه لا يكفى وحده فى قضاء الحاجة ، بل يلزم الانفاق عليهم فى كل زمان ومكان » .

انها احدى الصور الثابتة فى حياة الفلاح المصرى منذ شكايات الفلاح الفرعونى الفصيح ، وسنلتقى بها كثيرا وبوضوح اكبر فى الكثير من القصص والمسرحيات ، وبصفة خاصة « يوميات نائب فى الارياف » لتوفيق الحكيم ، و « المحروسة » لسعد الدين وهبة .

وتمر سبع سنوات قبل أن تولد الرواية المصرية ولادة شرعية يعترف بها الجميع على يدى الدكتور **محمد حسين هيكل** . لقد بدأ يكتب روايته الشهيرة « **زينب** » ــ كما ذكر فى تقديمه لها ــ « بباريس فى أبريل سنة ١٩١٠ ، وفرغت منها فى مارس سنة ١٩١١ ، وكان حظ قسم منها أن كتب بلندرة ، كما كتب قسم آخر بجنيف أثناء عطلة الجامعة فى أشهر الصيف .. » ، وان لم تنشر طبعتها الاولى الا سنة ١٩١٤ .

والرواية ــ على مايذكر المؤلف فى تقديمه أيضا ــ وليدة حنينه الى وطنه من ناحية ... « ولولا هذا الحنين ما خط قلمى فيها حرفا ولا رأت هى نور الوجود .. » ، والولع بالادب الفرنسى من ناحية أخرى ... « اختلط فى نفسى ولعى بهذا الادب الجديد عندى بحنينى العظيم الى وطنى ، وكان من ذلك أن هممت بتصوير ما فى النفس من ذكريات لاماكن وحوادث مصرية ... » .

وأيا كان الرأى فى هذه الرواية وفى ريادتها للرواية المصرية ، وفى صدق تصويرها لحياة الفلاح المصرى ، فالذى لا شك فيه أن بطلها الحقيقى هو « حامد » المثقف الحائر وليس « **زينب** » ولا « **ابراهيم** » ، وان أزمة حامد النفسية هى الموضوع الرئيسى للرواية ، وهى تعكس ملامح كثيرة من نفسية المؤلف وشخصيته .

يقول يحيى حقى فى كتابه « **فجر القصة المصرية** » عن « زينب » :

« ما أرخصها براعة لمن يمتشق القلم لتفنيد هذه الحكاية ، الباب مفتوح أمامه على مصراعيه ليقول ما يشاء فى غلوها فى الرومانسية وحلولها المفتعلة وانتقالاتها بغير تمهيد ، وتمييع عواطف البطلين ، وتكرار الوصف والتأثر بفلسفات مسيحية لا نعرفها ، ومجيئها بصور لا يألفها أدبنا أو قصصنا ... » .

وهكذا أتى على أهم عيوبها وهو يدافع عنها ، ويبقى عيب جوهرى آخر تنبه اليه الدكتور الراعى وهو يحلل موقف بطلها : « ان حامد ثائر ثورة لا طائل تحتها ــ ثورة لا تستهدف حتى مجرد التغيير ، بل ترمى الى التمجيد وحسب ــ تمجيد الوضع الراهن بكل ما فيه من محاسن ومساوىء . فاذا استطاعت أسرة كاملة أن تعيش على شىء من الخبز وحصوة ملح فليس فى هذا ما يؤسى ، بل هو جزء من جمال الريف وبركته . واذا وضع العمال الزراعيون طعامهم متجاورا واشتركوا جميعا فى اكله فتلك أكمل معانى الاشتراكية ، وان كانت مهنة العامل الزراعى هى فى حقيقة أمرها سخرة مقنعة تحت لهيب الحر وفى قلب الاوحال ، وبين براثن الرتابة اليومية المميتة ، فلا بأس .. ان هذا مصير الملايين .. والمصيبة ان تعم تهن .. وهكذا » .

يخيل الى أن حرص الكاتب على أن يدير أحداث روايته فى الريف المصرى لم يكن مصدره حنينه الى الوطن فحسب ، بل كان فى الوقت نفسه استجابة لتلك الدعوة لتأكيد معالم الشخصية المصرية فى مختلف المجالات التى تزعمها وقتذاك أستاذه **أحمد لطفى السيد** فى مجال السياسة ، وكان هيكل نفسه من أبرز دعاتها فى مجال الفن والادب ، وهل أقدر من الفلاح على ابراز الشخصية المصرية وتأكيد معالمها !! .. ولكن الدعوة شىء .. والنجاح فى النفاذ الى طبيعة الفلاح المصرى وتصوير ظروف حياته بصدق وموضوعية .. شىء آخر ..

« الايام » و « ابراهيم الكاتب »

ويختفى الفلاح من الرواية المصرية ــ بعد « زينب » ــ سنوات عديدة ، ليظهر ، بصور مختلفة ، ومن زوايا متباينة ، فى قصص قصيرة **لمحمد تيمور وعيسى عبيد ومحمود طاهر لاشين ومحمود تيمور** .. وغيرهم من أعلام « المدرسة الحديثة » التى تكونت قبيل ثورة ١٩١٩ ، ونضجت مواهبها على أتونها .. واذا كانت دراسة

اتجاهات هذه القصص لا تدخل فى نطاق مقالنا . فلا بأس من ملاحظة أن اهتمام القصة القصيرة بالفلاح منذ ذلك الوقت المبكر وحتى يومنا هذا ، قد يفوق اهتمام الرواية ..

واذا كانت « زينب » لهيكل قد اعتبرت فتحا جديدا فى مجال الرواية العربية ، فقد كان الجزء الاول من « الايام » (١٩٢٩) فتحا آخر أسهم به الدكتور **طه حسين** فى مجال السيرة الذاتية ، وان غلب الاسلوب الروائى على علاجه لها ، ومن هنا تصح دراستها باعتبارها رواية ذاتية .

ترسم « الايام » صورة عريضة ، دقيقة التفاصيل مع ذلك ، للحياة فى احدى قرى الصعيد ، وتقدم بنجاح عددا كبيرا من الشخصيات التقليدية فى معظم قرى مصر ، « كسيدنا » - معلم الكتاب - وعريفه ، وامام المسجد ، والقاضى الشرعى ، وشيخ الطريقة الصوفية .. وتعرض صورا حية عديدة للحياة اليومية للاسرة الريفية وعاداتها وتقاليدها والخرافات الشائعة فى القرية .. فكانت بذلك من أسبق الروايات التى صورت القرية المصرية من الداخل بخبرة وفهم كبيرين .

وتكون القرية خلفية ساحرة للجانب الاكبر من أحداث « **ابراهيم الكاتب** » (١٩٣١) **لابراهيم عبد القادر المازنى** ، ونلتقى فيها بعدة نماذج طريفة للفلاحين العاملين فى خدمة ضيعة أقرباء ابراهيم بطل الرواية ، كأحمد الميت الفلاح السكير ، وذلك الشيخ العجوز الذى لم ير القاهرة أبدا ، ويسخط عليها مع ذلك لانها تغوى شباب القرية وتصرفهم عن العيش فيها .. ثم « الشيخ على » زوج خالة « شوشو » ذلك الريفى الثرى الذى احتفظ بكثير من صراحة الفلاحين وشهامتهم وسلامة طويتهم ومحاولتهم التخابث ، وعجزهم مع ذلك عن المداورة والخداع .. انه أحد النماذج الانسانية الرائعة فى فننا الروائى .. ولكن يظل الموضوع الرئيسى للرواية هو قصة حب ابراهيم لشوشو أولا ثم ليلى من بعدها .. ويظل الطابع الغالب عليها هو التحليل النفسى والتأمل الفكرى لا التحليل الاجتماعى والتصوير البيئى .

فلاح « توفيق الحكيم »

وبعد الترحيب الكبير الذى استقبل به النقاد مسرحية « **أهل الكهف** » لتوفيق الحكيم سنة ١٩٣٣ ، تشجع ونشر فى العام نفسه روايته « **عودة الروح** » ، وكان قد كتبها فى باريس سنة ١٩٢٧ ، كنوع من التطوع القومى والفنى - على حد تعبيره - بعد ان اتجه الى المسرح بجهوده الرئيسية .

ونظلم « عودة الروح » كثيرا اذا اعتبرناها تسجيلا لثورة سنة ١٩١٩ أو حتى تصويرا فنيا لها فحديث الثورة فيها لايستغرق أكثر من ست عشرة صفحة من أكثر من خمسمائة وأربعين ، وانما الاقرب للصواب أن ننظر اليها باعتبارها عملا فنيا تاثر بهذه الثورة واستلهم روحها ، وطبق دعوتها الكبرى الى تأكيد معالم الشخصية المصرية ، التى سبق اليها كما أشرنا من قبل لطفى السيد وهيكل وغيرهما من كبار مفكرى تلك المرحلة .

ومن هنا جاء تمجيد « عودة الروح » للفلاح المصرى باعتباره خير ممثل للشخصية المصرية ، ففى أعماقه يكمن تراث قرون كاملة من الحضارة المصرية العريقة ، ونومه فى حجرة واحدة مع بهائمه ليس مظهرا للقذارة والتخلف كما يظن السطحيون ، ولكنه دليل على ايمانه بوحدة الوجود والاصل المشترك لكافة المخلوقات .. ألم يعبد أجداده القدماء الحيوانات ؟!

وتجسد هذا الاحساس بالوحدة والتضامن فى نظام حياة الاسرة ذات الاصل الريفى فى القاهرة .. كل ما ينقص شعب مصر لكى ينهض ويتقدم هو المعبود أو الزعيم الذى يوحد شمله ويكشف عن قوته الكامنة فى أعماقه ، وحين وجد هذا الزعيم فى شخص سعد زغلول عادت الروح الى شعب مصر كما عادت من قبل الى « أوزيريس » ، وهبت مصر كلها هبة رجل واحد فى ثورة ١٩١٩ .

ويتمشى مع ذلك نفور « محسن » - بطل الرواية - من والدته التركية لانها تسىء معاملة الفلاحين وتزدريهم بما فيهم أبوه ، وارتباط الفتى الحالم بالفلاحين واحساسه بالقرب منهم والتآلف معهم .

ان الصورة التى تقدمها « عودة الروح » للفلاح المصرى صورة فكرية نظرية أراد الكاتب عن طريقها أن يؤكد ايمانه بعظمة شعبه واستيعاب روحه للتراث الحضارى الضخم الذى صنعه الاجداد على نفس هذه الارض ، ولم يقصد الى تصوير الواقع ونقده أو العمل على اصلاحه .. والدليل على ذلك أنه رسم فى أعماله التالية صورة مناقضة تماما للقرية المصرية استلهمها من الواقع لا من أحلامه وآماله وتأملاته الفكرية .. وهو قابع خلف نافذة « **بنسيونه** » بباريس .

لقد عمل **توفيق الحكيم** فيما بين سنتى ١٩٢٩ و ١٩٣٤ وكيلا للنائب العام بطنطا ودسوق ودمنهور وكوم حمادة وغيرها من مدن وقرى مديريتى البحيرة والغربية ، فأتيح له أن يعرف ريف مصر

كما لم يعرفه من قبل، وغاص حتى الاذنين فى واقع مصر المتخلف، وسجل مشاهداته وتجاربه خلال تلك السنوات فى روايته «يوميات نائب فى الارياف» التى نشرت مسلسلة سنة ١٩٣٧ فى مجلة «الرواية»، ثم جمعت فى كتاب فى العام نفسه، فكانت بداية النظرة الواقعية النقدية للقرية المصرية، فحتى المشاعر الفردية التى عبرت عنها كانت مشاعر وكيل النيابة المرهق بعمله الشاق المتمرد على القوانين الجامدة الصماء التى يطبقها مضطرا على قوم لايفهمون منها شيئا، ولم تتوفر لهم أبسط مقومات الحياة الضرورية، أفليس من الحمق بعد ذلك أن نفترض فيهم القدرة على فهم مواد القانون المستورد من فرنسا وسويسرا .. والحرص على تنفيذ أوامره والابتعاد عن محظوراته ؟!

ان الفلاح فى «اليوميات» مختلف كل الاختلاف عنه فى «عودة الروح»، فلم يعد ذلك الصابر السعيد الذى ينتظر «المعبود» لينفض الغبار عن أصالته الحضارية العريقة .. بل استحال، بعد أن عرفه الحكيم عن قرب وعاشره، فلاحا آخر جاهلا مريضا محروما يحمل ذل أجيال من الاقطاعيين المستبدين .. وشتان ما بين الفلاحين رغم أن الكاتب واحد ..

غير أن توفيق الحكيم لا يصف لنا فى «اليوميات» سوء حال الفلاح المصرى وصفا تقريريا مباشرا، بل يقدمه من خلال مواقف حية متحركة، ضاحكة فى كثير من الاحيان، تفعل بالنفوس أكثر مما يفعل التقرير .. ومن خلال حبكة بوليسية مشوقة تشد انتباه القارىء وتنشطه .. ومن هنا احتلت هذه الرواية مكانتها الخاصة الفريدة فى أدبنا الروائى ..

فاذا أضفنا الى ذلك أنها لم تكتف بتصوير سوء أحوال الفلاح، بل قدمت فى الوقت نفسه المسئول الحقيقى عن ذلك ممثلا فى مندوبيه من رجال الادارة ابتداء من الخفير والعمدة حتى المأمور، فكلهم فاسد، وكلهم يتنافس فى اضطهاد الفلاح واستغلاله، وعرضت كذلك بتدخل الادارة فى تزييف ارادة الناخبين على أوسع نطاق .. استطعنا أن نزعم دون تحرج أن «يوميات نائب فى الارياف» هى النموذج الذى استوحاه عبدالرحمن الشرقاوى وطوره فى روايته الهامة «الارض» ..

ولا تختلف الصورة التى قدمها توفيق الحكيم للفلاح المصرى والقرية فى روايته «حمار الحكيم» (١٩٤٠)، كثيرا عن تلك التى قدمها فى «اليوميات»، وان كانت أقل منها عمقا واحاطة، اذ كانت نتيجة زيارة سريعة عابرة، فى حين ان اليوميات كانت ثمرة معايشة ومعاناة كاملتين .

«دعاء الكروان» و «سيدالعزبة»

ونلتقى سنة ١٩٤١ مرة أخرى بالدكتور طه حسين فى أنضج رواياته وهى «دعاء الكروان» التى تعالج قضية الثأر فى احدى قرى الصعيد القريبة من الفيوم، وقد أخذ عليها الدكتور محمد مندور فى كتابه «فى الميزان الجديد» بعدها عن الواقع فى كثير من أجزائها : «.. لا يقف عدم مشاكلة الواقع عند أسلوب المؤلف أو طغيان شخصيته بل يمتد الى بعض وقائع القصة والى الطريقة الفنية التى اختارها الكاتب لقصته .

ففى الوقائع منذ البدء نلاحظ شيئا غير طبيعى، وهو طرد الام وبنتيها محوا للعار بعد قتل عائلهن فى مغامرة أخلاقية، أى عار؟ ذلك ما لا نعلمه والعار لا يلحق فى هذه البيئات غير النساء، وما نظن بدو الريف يطردن نساءهن، وعرفهم أن يقتلن المذنبات منهن، وهؤلاء لم يرتكبن اثما . ولهذا كنا نفضل أن يحمل المؤلف الام وبنتيها على الهجرة سعيا وراء الرزق او ضيقا بالحياة، وأما أن يطردهن أهلهن و «يخرجوهن اخراجا» فذلك ما لا عهد لنا به ..»

و «.. آمنة هى التى تحلل شعورها نحو المهندس وتتبع مراحله وهى من وضوح الرؤية والجرأة على الحق النفسى بحيث لانظن صدور مثل هذا التحليل عن فتاة فى ثقافتها وطبيعتها النفسية بل لانظن ان كثيرا من الفلاسفة أنفسهم يستطيعون أن يجابهوا حقائقهم النفسية فى هذه الصراحة والقوة» .

على أن ذلك لا يقلل من صدق الصورة العامة التى تقدمها الرواية للحياة فى القرية، وان كان الطابع الغالب على الرواية هو التحليل النفسى لا النقد الاجتماعى، وأهم عناصر قوتها تتمثل فى براعة المؤلف فى تتبع مشاعر البغض والرغبة فى الانتقام فى نفس «آمنة» بطلةالرواية وهى تتحول الى ميلوحب للمهندسالذىغرر بشقيقتها «هنادى» فكان السبب فى مصرعها حفاظا على الشرف والعرض .

وللدكتورة بنتالشاطىء اهتمام واضحبالفلاح المصرى تمثل فى العديد من مقالاتها، وفى كتابين : الريف المصرى، (١٩٣٦)، قضية

الفلاح » (١٩٣٩) ، ثم فى روايتها الوحيدة «سيد العزبة» التى كتبتها سنة ١٩٤٢ وصدرت سنة ١٩٤٤ ، وجاء فى اهدائها : « الى مصر المصلحة .. لعلها تحارب هذه الاوضاع اللئيمة التى جعلت من فتاة ريفية غريرة امرأة خاطئة » .

وتقرأ الرواية ، فاذا بهذه الفتاة الريفية الغريرة غانية بالفطرة ، تغار وهى لا تزال طفلة من الخادمة التى اختارها سيد العزبة محظية له ، وتحرص على محاكاتها ، وتحتال بكل وسيلة للاقتراب من السيد ولفت نظره ، حتى اذا كبرت ونجحت فى مسعاها أخيرا ، استسلمت لاول اشارة تبدر منه ، ولم تفكر مجرد تفكير فى مقاومته والمحافظة على شرفها ... وما هكذا تكون الفتيات الريفيات الغريرات !!

بل ان سيرة « الغريرة » تمضى فى اثمها مع السيد حتى تنجب منه أربعة أطفال ، ولولا أنه زهد فيها ، وزوجها من راع عجوز ، لكانت على أتم استعداد للمضى فى علاقتها الاثمة به .. والواقع أنها كانت تنتهز الفرص للخلوة به كلما استطاعت بالرغم من زواجها وزواجه !!

فى الرواية صور قليلة من حياة القرية ، ولكن الجانب الاكبر منها يدور فى قصر السيد ، وفى جناح الخدم بصفة أخص .. والفقرة الوحيدة التى يمكن أن تحمل نغمة احتجاج أو رفض هى قول الخاطئة وهى تختتم قصة حياتها : « على انى ما زلت حتى اليوم أسالهم ما الذى أنكروا منى ؟ .. كنا جميعا ملكا للسيد ، يعز فينا من يشاء ويذل من يشاء ، ورثنا مع الماشية والقصر والارض عن ابيه ، ثم باعنا جميعا الى سيد جديد ، لم يساله أحد عما فعل ، فأين الفرق بيننا وبين الاماء والعبيد ؟ » .

« راوية » والشيخ متلوف

وفى سنة ١٩٤٨ تفوز رواية بعنوان « رجل المعجزات » بجائزة وزارة التربية والتعليم ، وينشرها مؤلفها المرحوم محمد أمين حسونة بعنوان « راوية » ويقول فى مقدمتها : « ... وقد يعيب بعض النقدة على الكاتب أنه عمد الى مجموعة من الخرافات الشائعة عن الجن والمتعلقة بالتعاويذ والسحر والرقى ، فأبرزها فى هذه الصورة . ولكن شفيعه فى ذلك أن نفرا من فحول الروائيين سبقوه الى تصوير هذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة وفى مقدمتهم مؤلف فاوست » .

بقى أن أذكر أن جميع الاشخاص والاماكن والاسانيد الوارد ذكرها فى هذه الرواية لها أصل محفوظ فى ذاكرة المؤلف ، وقد حرص على أن يحافظ على جوهرها الاصلى وعلى القالب والاسلوب اللغوى الذى صبت فيه ــ فهو لم يبدل شيئا من طبيعة الحوادث وانما الذى عمد الى تغييره هو أسماء الاشخاص والاماكن محافظة منه على روعة الذكرى » .

وتدور أحداث الرواية فى قرية « المسالمة » بأعماق الصعيد وتعرض بأسلوب سلس رصين كثيرا من جوانب الحياة فى قرى الصعيد وعاداتها وتقاليدها ونماذج من مشكلاتها ، وان كان موضوعها الرئيسى هو ايمان القرويين بالخرافات التى يمثلها الشيخ « مبروك » الدجال المحتال الذى خدعهم باساليب تذكرنا بسلفه العتيد « الشيخ متلوف » ، ويغرر مبروك « براوية » الجميلة بعد أن يسلبها من حبيبها « الكمونى » الراعى الفقير ، وحين يفتضح أمرها يقتلها أبوها الشيخ « غراب » غسلا للعار ، ولكن خداع « مبروك » ما يلبث أن ينكشف فيقتله أهل القرية ويقتلوا معه الخرافة والدجل والهدف الاجتماعى التعليمى فى الرواية أوضح من أن يحتاج الى تعليق .

وفى العام التالى (١٩٤٩) تفوز بجائزة وزارة التربية والتعليم رواية « بعد الغروب » للمرحوم محمد عبد الحليم عبد الله الذى قال فى حديث له بمجلة « آخر ساعة » سنة ١٩٦٨ انها أول عمل له تناول فيه القرية وملامحها ويضيف : « .. وهى قد تناولت آلام الفلاحين بصورتين ، صورة ابن الفلاح الذى يريد أن يهزم الطبقة المتحكمة فيه بملكية الارض . يهزمها بسلاح العلم والاخلاص والعمل . وهذه القصة لم تتناول مشاكل الفلاح بالصورة التى تصرخ فى وجه القارىء ، بل بصورة رقيقة تحمل كل المشاعر الانسانية . على أن هذه الصورة قد اختلفت فى قصة « الجنة العذراء » فبدأ الفلاح فيها مقهورا مظلوما .. وفى قصة « للزمن بقية » التى لم تنشر بعد ، بدت صورة الفلاح القديم وصورة المتحكمين بالارض وفى الارض ، بدت بشكل أكثر وضوحا وتأثيرا .. »

والحق أن القرية والفلاح فى رواية « بعد الغروب » ليسا أكثر من خلفية شاحبة لقصة حب رومانسى مشبوب بين ناظر العزبة المتأدب وابنة صاحبها الثرى ، بحيث يمكن أن نعتبرها امتدادا لرواية « زينب » ، بل لعل القرية والفلاح ان يكونا أوضح وأقوى فعالية فى هذه الاخيرة منهما فى « بعد الغروب » .

« الارض » والواقعية الاشتراكية

وبظهور « الارض » لعبد الرحمن الشرقاوى سنة ١٩٥٤ يحصل الفلاح المصرى على أخصب صورة واشملها فى ادبنا الروائى · فقد افاد المؤلف من كل التجارب التى سبقته ، وبصفة خاصة من « يوميات نائب فى الارياف » و « الايام » وأفاد أيضا من قراءاته لقصص الارض فى الاداب الاجنبية المتقدمة ، ايجنازيو سيلونى ، بيرل باك، شولوخوف وغيرهم ·· ولكنه أفاد أكثر من خبرته المباشرة بحياة الفلاح ومشكلاته ، حين كان الاقطاع فى عنفوانه يتفنن فى قهر الفلاح وامتصاص دمائه ، ويضرب بكل عنف ، اى رأس يرتفع لمقاومته أو المطالبة بأبسط حقوقه الانسانية ، يسانده فى وحشيته احتلال جاثم على صدر البلاد ، وسراى جشعة فاجرة ، وحكومات رجعية معظم أعضائها من كبار الاقطاعيين والرأسماليين ومن يدور فى فلكهم · وقتذاك كان الشرقاوى طفلا صغيرا يستوعب بكل كيانه ما يجرى فى قريته ، حتى اذا أرسل للمدينة ليتعلم ظل ارتباطه بالقرية وثيقا بحكم تردده الكثير عليها ، وتمضيته كل أجازاته فيها ، ومشاركته لاهلها فى كل ما يقع لهم من مظالم وآلام ، وما يعرض لهم من أفراح وأتراح ، وظلت هذه الصور والمشاعر مطبوعة فى وجدانه حتى نضج وعيه الفنى والسياسى ، فاستطاع ان يقدمها لنا فى تلك الصورة الناضجة القوية ·

ومع ذلك فلم تخل الارض من مآخذ · يقول الدكتور عبد المحسن طه بدر مثلا :

« تبدأ رواية الارض بدايتها الحقيقية حين يركز الشرقاوى على الصراع بين الفلاحين وبين السلطة ، أما بداية الرواية حين يترك الشرقاوى المجال للراوى ، أو حين يحاول جر القرية للدفاع عن الدستور ، وحزب الوفد ، أو لمقاومة الاستعمار ، فانه يورطنا ويورط روايته فى كثير من الاخطاء الفنية ، فكثيرا ما نراه يقع أسيرا لاعمال الكتاب السابقين عليه ، أو يتحدث عن قضايا تعرقل رؤيته وقد تناقضها ، ويتعرض تطور الاحداث للعرقلة ، وفرض أحداث الرواية ، أو جرنا الى أحداث لا ضرورة لها ، أو المبالغة فى تصويرها ، ويفرض علينا المؤلف شخصيات لا دور لها سوى شرح وجهة نظره ، وتنطق الشخصيات بما يتجاوز مستواها العقلى ، ويتكلم المؤلف على لسانها اذا عجزت هى عن الكلام ، ويفرض عليها المؤلف ان تتبنى قضايا غير قضاياها » ·

ولن يتسع المجال لمناقشة كل هذه المآخذ ، لذلك سأسلم بصحتها او صحة معظمها ، ثم التمس لها العذر فيما تنادى به الواقعية الاشتراكية من ضرورة تطلع الادب الى المستقبل من خلال علاجه التقدمى للماضى ، وعمله على بث روح المقاومة والنضال فى الشعب بتصويره البطولى للمقاومة والصمود ·· وقد حقق الشرقاوى فى « الارض » جانبا كبيرا من هذه الاهداف من خلال شخصيات قوية موحية ، ومواقف تفيض بالمشاعر والحركة والحياة ، وبأسلوب شاعرى مؤثر ، فاستحقت روايته مكانتها الفريدة بين انتاجنا الروائى ·

الحرب فى القرية

وبعد قيام ثورة ١٩٥٢ أراد يحيى حقى أن يصور التطور الكبير الذى احدثته فى حياتنا دون أن يتورط فى أسلوب التقرير المباشر الذى ينفر منه الفن الاصيل ، فاختار قرية من قرى مصر ليدير فيها أحداث روايته « صح النوم » (١٩٥٥) التى تنقسم الى قسمين : الاول يصور حياة القرية بالامس ، وما كان يسودها من انحلال ومفاسد وضياع ، والاخر يصورها بعد أن عاد اليها « الاستاذ » ، واستولى على مقاليد الحكم فيها ، وانشأ مجلسا قرويا وبدأ يعمل بجد فى اصلاح أحوالها وتنظيم شئونها · وواضح أن القرية ليست سوى مصر قبل الثورة وبعدها ، وأن « الاستاذ » هو زعيم الثورة وقائدها · وقد نجح الكاتب فى اقتطاع شرائح بشرية حية من أبناء القرية ، عرض علينا مآسيهم فى الجزء الاول ، ثم ما طرأ عليهم من تغير وتحسن فى الجزء الثانى ·· ولكنه لم يصور فلاحا بالمعنى الدقيق للكلمة فى الرواية كلها ، اذ آثر أن تكون نماذجه من الشخصيات الهامشية فى القرية ، المؤثرة فى حياتها مع ذلك كالحوذى وصاحب الحانة والجزار ·· وهكذا ·· ومن ثم لا نستطيع أن نعتبر « صح النوم » من الروايات البارزة فى تصوير حياة الفلاح المصرى ، وان كان ليحيى حقى أن يعتز بتصويره الرائع لقرى الصعيد وأبنائها فى الكثير من قصصه القصيرة ، وبصفة خاصة فى مجموعة « دماء طين » ثم فى كتاب ذكرياته « خليها على الله » فباستطاعتنا أن نزعم أن معرفة المصرى ببلاده تظل ناقصة لو لم يقرأ هذين الكتابين الممتازين ·

وفى سنة ١٩٥٨ نلتقى بصاحب « الارض » فى روايته « قلوب خالية » فاذا بنا فى نفس الجو والظروف التى عشنا معه فيها فى « الارض » مع اختلاف الزمن ، وتقدم العمر بالراوى ، ثم اختلاف الاحداث والمشكلات نتيجة طبيعية لذلك ، ونجد فى شخصية « غانم » فى « قلوب خالية » سمات عبد الهادى فى « الارض » وفى « رضوان أفندى » ملامح محمد أفندى المدرس الالزامى

فى « الارض » ، وكذلك الحال بين كل من الشيخ حسونة فى الاخيرة وفتح الله أفندى فى « قلوب خالية » . الى غير ذلك من المشابهات بين شخصيات الروايتين التى تكاد تجعل الرواية الاخيرة امتدادا للاولى ..

واذا كانت « قلوب خالية » لا ترتفع الى مستوى « الارض » فقد نجحت مع ذلك فى تصوير الشرور والخراب الذى جلبته الحرب العالمية الثانية على حياة الريفيين الامنين ، من خلال الاحداث والمواقف والانفعالات والشخصيات الحية الملتصقة بطين القرية المصرية .

عمال التراحيل

ويشهد عام ١٩٥٩ ظهور ثلاث روايات عن الفلاح متباينة الاتجاهات والاهداف ، وهى « **الحرام** » **ليوسف ادريس** ، « **والجبل** » **لفتحى غانم** ، و « **هارب من الايام** » **لثروت أباظة** ..

« والحرام » ليست « قصة خاطئة مصرية » كما سجل المؤلف على صفحة العنوان بقدر ماهى قصة عمال « التراحيل » والمجتمع الغريب الذى يكونونه بالقرب من القرية التى يعملون بها .. ونجاح الكاتب فى تصوير هذا المجتمع البائس والعلاقات التى تربط بين أفراده من ناحية ، وبينهم وبين مجتمع القرية المستقر من ناحية أخرى يكسب الرواية أبعادا انسانية واجتماعية عميقة تتفرد بها بين الروايات التى صورت الفلاح المصرى .

صحيح أن « الحرام » الذى ارتكبته « عزيزة » ـ بطلة الرواية ـ يمثل مسارا رئيسيا فى الرواية ، وفى تشكيل أحداثها والعلاقات بين شخصياتها .. ولكن الرواية تكتسب أهميتها من الصورة العريضة التى تقدمها للمجتمع الريفى الذى أخطأت فيه « عزيزة » ولاستجابته لهذه الخطيئة .. وشتان ما بين هذه الفلاحة الخاطئة وبين زميلتها « الغريرة » التى التقينا بها من قبل فى « سيد العزبة » !

وترسم « هارب من الايام » فى نصفها الاول صورة عريضة للحياة فى قرية « السلام » ـ واضح أن اختيار الاسم يحاول أن يضفى على الرواية معنى أشمل من أحداثها الواقعية ـ العمدة المصرى التقليدى بكل رذائله .. والمأمور المرتشى .. والمعلم الالزامى .. والمأذون البخيل .. الى آخر هذه الانماط .. وتبرز فى النصف الثانى من الرواية عصابة الاشرار بقيادة « كمال » الطبال السابق .. ولشد ما أسرف الكاتب فى تحقير بطله واهانته وكأن بينهما عداء شخصيا مستحكما .

واذا كنا نرفض أسلوب عصابة « كمال » فى سرقة الاغنياء لاعطاء الفقراء ، فانا لا نملك فى الوقت نفسه الا رفض منطق الكاتب الذى يرى أن الاغنياء ينبغى أن يظلوا أغنياء ليستطيعوا استخدام الفقراء والتوسعة عليهم .. فليست هذه سنة الله على الارض كما يتصور ، وانما سنته أن من يعمل يؤجر على عمله ، ومن لا يعمل فلا ينبغى أن يؤجر من كدح العاملين .

والخلاصة أن الرواية حافلة بالاحداث المثيرة والمغامرات المشوقة ، ومن ثم كان نجاحها فى حلقات التليفزيون والسينما .. ولكن وراء هذه الاحداث والمغامرات هدف كظيم لا يبين .. وهو ليس هدفا تقدميا على كل حال !

أما « الجبل » فتصور تجربة الكاتب حين كان يعمل مفتشا للتحقيقات بوزارة المعارف (التربية والتعليم الان) ، أن انتقل الى قرية « الجرنة » المواجهة للاقصر على الشاطىء الغربى للنيل ، للتحقيق فى شكوى أهاليها من القائمين على تنفيذ القرية النموذجية لانهم يحاولون أجبارهم على الانتقال اليها بالقوة وهجر مساكنهم الاصلية فى الجبل .. والرواية تصور الصراع الدامى العنيف بين أهل القرية المستمسكين بمنازلهم وقيمهم وبين القيم الغريبة التى يمثلها المهندس ذو الثقافة الغربية وأعوانه .. ومن خلفهم السلطة الحاكمة .

ويتعاطف الكاتب مع أهل القرية بدرجة توحى بمعارضته لمشروع القرية النموذجية .. لقد انتصرت ارادة الاهالى فى النهاية ومازالت القرية النموذجية خاوية حتى اليوم .. تؤكد ضرورة دراسة احتياجات الناس ومطالبهم قبل محاولة فرض الحلول الجاهزة عليهم .

ويبقى أن هذه الازمة أمدت أدبنا الروائى عملا فنيا ممتازا يصمد للمقارنة برائعة توفيق الحكيم « يوميات نائب فى الارياف » لاشتراكهما فى الاطار العام ، وان كانت « الجبل » محصورة فى قرية واحدة وموضوع واحد وفترة زمنية أقصر ، مما اتاح لبنائها المزيد من التماسك والتركيز الدرامى .

الموروث الشعبى والتاريخى ..

ولم اهتد بعد هذه الروايات الثلاث الى رواية اخرى تصور الفلاح الا بعد نحو خمس سنوات حينما صدرت « **احزان نوح** » **لشوقى عبدالحكيم** ، وهى تجمع بين نقيضين فيما يشبه المغامرة الفنية المثيرة .. تجمع بين استيحاء التراث الشعبى

الشفاهى بمصطلحاته الغيبية والجنسية واللغوية وبين مستحدثات الرواية الغربية من المناجيات الذاتية الطويلة واستخدام الرموز والانتقالات السريعة من الواقع الجارى الى أعماق اللاشعور وذكريات الماضى البعيد وتطلعات المستقبل •• مع رتابة فى الايقاع اللغوى ، ومحاولة للتنغيم فى الحوار والمناجيات •• والنتيجة محاولة تجريبية جيدة تستحق من صاحبها المزيد من الجهد والمتابعة فى محاولات توظيف الموروث الشعبى فى أعمال روائية أخرى تحاول أن تستحدث شكلا شعبيا يلائم المضمون ••

و « **السائرون نياما** » (١٩٦٥) **لسعد مكاوى** تستوحى تاريخ مصر أيام حكم المماليك فيما بين سنتى ١٤٦٨ و ١٤٩٩ ميلادية ، وتعرض بالتفصيل للمؤامرات والدسائس التى احاطت بكل مملوك تولى العرش فى تلك الفترة ، ومعاناة الشعب المصرى ونضاله فى تلك المرحلة المظلمة من تاريخه •

وهى لذلك لا تكتفى بتصوير جو الدسائس والتفسخ فى قصور المماليك ، بل تخرج فى كثير من فصولها الى حوارى القاهرة ومقاهيها وحلقات أوكارها ، وأوكار مجونها ، وصوامع متصوفيها ومجاذيبها ، كما تنتقل الى قرية « **ميت جهينة** » بقصر ملتزمها ، وبيوت فلاحيها وطاحونتها وحقولها ، فتقدم صورة حية لنضال الفلاح المصرى وصموده وما تعرض له من مظالم وتنكيل خلال تلك السنوات العجفاء المضطربة ••

فلاح ما بعد الثورة

وتمضى السنون بعبد الرحمن الشرقاوى وتتعدد اهتماماته وكتاباته بعد أن استقر بالمدينة ، وتكثر سفراته الى الخارج ، وتفتر لذلك علاقته بقريته حتى تكاد تنقطع ، فى الوقت الذى تتعرض فيه مع بقية قرى مصر لتغيرات كثيرة ، فتوزع الارض على الفلاحين ، وتنشأ فيها جمعية تعاونية زراعية ومدرسة ووحدة اتحاد اشتراكى •• وتواجه الفلاح نتيجة لهذه التغيرات مشكلات اخرى غير التى كانت تواجهه أيام الاقطاع والاحتلال وحكم الرجعية •

ويستشعر الشرقاوى تأنيب الضمير لابتعاده عن قريته ومشكلاتها فيقوم بزيارة مفاجئة لها ، يعود منها بروايته الاخيرة « **الفلاح** » (١٩٦٩) وفرق كبير بين أن تعيش حياة القرية كاملة ثم تصورها فى عمل أدبى كما حدث فى « الارض » وبين زيارة عابرة لها بقصد التعرف على مشكلاتها لتصويرها فى عمل أدبى •• وهذا الفرق الكبير هو الذى يفسر الفتور الشائع فى أجزاء كثيرة من « الفلاح » والخطب السياسية المباشرة ، والطابع الاخبارى للكثير من مواقفها ••

انك تلتقى كثيرا على صفحاتها بالشرقاوى الصحفى والكاتب السياسى والمسرحى بل والشاعر أيضا ، ولكن ما أقل ما تلتقى بالشرقاوى الروائى المحنك الذى عرفته فى « الارض » •

ترى هل يغفر لها هذه العيوب ما تحمله من أهداف سياسية سامية ، وما تميزت به من جراة فى عرض مشكلات الفلاح المصرى المعاصر ؟!

على كل حال انها الرواية الوحيدة التى صورت فلاح ما بعد الثورة فيما أعلم •• وليست هذه بالميزة القليلة ••

وتؤذن « **أيام الانسان السبعة** » (١٩٦٩) بمولد روائى شاب على قدر كبير من النضج والشاعرية اسمه **عبد الحكيم قاسم** ، خبر الحياة فى القرية طفلا وصبيا وشابا ، والراوى فى « أيام الانسان السبعة » كلما تقدم به العمر والعلم ازداد انفصالا عن عالم القرية وقل تقديسه له ، عالم الاب واخوان الطريق ، ودراويش السيد البدوى ••

انه عالم خاص وضيق ذلك الذى يصوره الكتاب لا يمكن أن يكفى للتعرف على القرية المصرية أو عالم الفلاح المتميز •• ولكن حشد التفاصيل الانسانية الدقيقة وعرضها بصدق وواقعية مع لمسات شاعرية مؤثرة ، منح الرواية شخصيتها المتميزة ، بالاضافة الى اطارها الجديد المتطور المتمثل فى سبع لوحات منفصلة زمنيا ، ومكانيا احيانا ، ولكنها متكاملة ومتداخلة فى الوقت نفسه •

ان الراوى فى « أيام الانسان السبعة » لا يتدخل فى الاحداث كثيرا وبصفة خاصة فى اللوحات الاولى ، ولا يفرض آراءه وتصوراته ، ولكنه يكتفى بالرصد والربط والتسجيل الفنى المؤثر ، ثم تزداد مشاركته فى الاحداث وتتضح معالم شخصيته شيئا فشيئا مع تقدم الزمن وزيادة وعيه بما يدور حوله •

لو ارتفعت لغة الكاتب فى عمله القادم الى مستوى احساسه ووعيه الفنى ، وخلت من الهنات والاخطاء الكثيرة لكان من المؤكد ان يحقق نجاحا أكبر بكثير •

النوبة والمنصورية

وتنفرد « الشمندورة » (١٩٦٨) للمرحوم محمد خليل قاسم بتصوير منطقة مجهولة تماما لادبنا ، وهى « النوبة » بطابعها الخاص وتقاليدها المتميزة ، وان اشتركت مع بقية ريفنا فى كثير من الخصائص والسمات .

و « الشمندورة » رواية تقليدية تحمل كل سمات الرواية الاجتماعية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، فتحرص على الوصف الدقيق المفصل للطبيعة والحياة والناس ، والعلاقات الشخصية الحميمة ، وتحتفى بمواقف الصراع الدرامى ..

أما من حيث المضمون فهى أقرب ما تكون للواقعية النقدية فى تصويرها لتعاسة أبناء القرية وردها الى عواملها السياسية والاقتصادية . وفيها بعد ذلك ملامح من السيرة الذاتية حين نتبين ملامح المؤلف فى شخصية « حامد » راوى الجزء الاكبر من أحداث الرواية ..

والى جوار الاحداث والشخصيات تبرز عناصر أخرى هامة .. فى مقدمتها النيل بجبروته وهديره ودواماته .. ثم الجموع المتحركة فى أفراحها وأحزانها .. رقصاتها ومآتمها .. ونكبتها بتعلية خزان أسوان الثانية سنة ١٩٣٤ ، وما ترتب عليها من غرق القرى وفقد الارض والبيوت .

وتذكرنا « الشمندورة » « بالارض » للشرقاوى فى مشكلتها الرئيسية ونضج وعيها السياسى ، و « بأيام » طه حسين فى وصفها لكتاب القرية وشيخه وعريفه .. ولكنها تظل مع ذلك عملا فنيا متميزا يمثل أحد المعالم الرئيسية فى الرواية المصرية ..

ومن شمال النوبة ، قبل أسوان بقليل تأتينا رواية « سلمى الاسوانية » لعبد الوهاب الاسوانى التى صدرت فى كتاب سنة ١٩٧٠ ، وان كانت قد فازت بالجائزة الاولى لنادى القصة سنة ١٩٦٦ ، فتصور جوانب ثرة عديدة من الحياة فى قرية « المنصورية » أو الجزيرة كما يسمونها أحيانا .

ورغم دقة التصوير وجماله فأخشى أن يكون بعد الكاتب الطويل عن قريته وافتتانه بالاسكندرية وأهلها قد أكسب نظرته لقريته وعاداتها طابعا سياحيا ، أو تسجيليا ، حيث لا يتفاعل هذا الوصف مع الاحداث ولا يقدم من خلال تأزمها واحتدامها .

ورغم أن الرواية تقوم على صراع داخلى فى نفس البطل بين حبه لفتاته « نادية » السكندرية وولائه لابنة عمه « سلمى » الاسوانية التى تحمل الرواية اسمها ، فقد أتاح الكاتب للاولى أن تتحرك بحرية كاملة على صفحات الرواية وتشغل حيزا كبيرا فيها بالقياس الى السطور القليلة التى سمح بها لسلمى !!

وفى الرواية بعد ذلك سمات كثيرة من السيرة الذاتية لكاتبها شأن غالبية الروايات التى صورت القرية والفلاح .. وبخاصة اذا كانت الرواية الاولى لكاتبها .. وهى فى الوقت نفسه احدى الوثائق الفنية الجيدة عن فلاح اقصى جنوب الصعيد وصورة صادقة لحياته وعاداته وتقاليده .. وفق الكاتب فى عرضها بأمانة واقتدار وحيوية ..

الفلاح فى عالم نجيب محفوظ

ونجيب محفوظ أكبر كتاب الرواية المصرية .. أليس للفلاح مكان فى رواياته التسع عشرة ؟ ..

ظل هذا السؤال يلح على طوال كتابة المقال ، وحين اهتديت الى الاجابة آثرت ان أرجئها للخاتمة لما تحويه من مفاجأة دالة ..

اذا تركنا جانبا روايات نجيب التاريخية الثلاث الاولى لم نكد نجد أثرا للفلاح فى بقية رواياته المعاصرة التى تخصصت فى تصوير الطبقة المتوسطة فى أحياء القاهرة الشعبية التى خبرها نجيب جيدا .. باستثناء روايتين حديثتين ..

ففى « ميرامار » ـ آخر رواياته ـ وقد ظهرت قبل هزيمة ١٩٦٧ مباشرة ، وأرهصت بها وحذرت منها ، تضطلع بالبطولة فلاحة شابة قوية أصيلة الملامح ، اراد جدها ان يزوجها من عجوز متهدم ، فهربت الى الاسكندرية لتعمل فى بنسيون « ميرامار » حيث أصبحت مطمح كل من فيه وموضع عشقهم وشهواتهم .. الوزير السابق الاقطاعى .. والارستقراطى الثرى المتفسخ .. والشيوعى المرتد .. والانتهازى الصاعد ، وهو الوحيد الذى نجح فى خداعها بعض الوقت .. أما الصحفى الوطنى بالمعاش فلم يملك لها سوى العطف والنصيحة ..

وتنتهى الرواية وقد اكتشفت فسادهم جميعا أو خيانتهم أو عجزهم .. وبدأت تبحث من جديد عن ابن الحلال الجدير بها ..

مثل هذه الشخصية الثرية الموحية كان لابد أن تكون فلاحة لكى تكتسب صفة الشمول الرامز الذى اراده الكاتب لها •

اما الفلاح الاخر الذى عثرت عليه فى روايات نجيب محفوظ فلم يظهر الا فى سطور قليلة فى « ثرثرة فوق النيل » (١٩٦٥) حينما خرجت جماعة السكارى المنحلين المتفسخين المساطيل المستهترين بكل القيم •• الساخرين من كل شىء حتى وجودهم نفسه •• حين خرجوا فى نزهة مجنونة بالسيارة فى طريق سقارة •• فاذا بهم يصدمون شبحا اسود يطير فى الهواء •• ويسارعون بالفرار دون أن يهتموا حتى بمعرفة مصيره ••

ويقرأون بعد ذلك فى جريدة المساء عن « جثة رجل فى الخمسين ، شبه عار ، كسر فى الفقار والساقين وعظام الرأس ، دهمته سيارة وهرب الجناة ، لم تعرف هويته كما لم يعرف له أهل » •

ويعلق واحد منهم على الخبر بقوله :

ـ رجل مسكين لعله من مهاجرى الريف ، مجهول بلا أهل ، ولا سبيل أمامنا لاصلاح الخطأ ، هل من سبيل ؟ ••

وهكذا يلهو مثقفو المدينة وفنانوها ويستهترون ويدمنون ويتفسخون •• ويدفع الثمن ـ فى عالم نجيب محفوظ ـ فلاح فقير مجهول شبه عار !! ••

واقرأ شكوى الفلاح الفصيح فى مستهل المقال •

[٢]



الرواية المصرية والمقاومة الوطنية

أحمد محمد عطية

لاشك أن الرواية عموما فن بورجوازى النشأة ، وهى أيضا فن مرتبط بظهور الطبقة الوسطى ، وفى خصوص روايتنا المصرية وحركة المقاومة الوطنية، تبرز الطبقة المتوسطة كقائدة لحركة المقاومة الوطنية، وككاتبة ومتلقية للرواية المصرية معا • ومن المعروف تاريخيا أن قيادات حركة المقاومة الوطنية فى مصر تنتمى الى البورجوازية المتوسطة ، وحتى فى أوج أشتداد الحركة العمالية والتنظيمات الثورية كانت القيادة للمثقفين وأبناء الطبقة الوسطى • ومن أبناء هذه الطبقة أيضا برز المثقفون والروائيون والمتلقون ، لان سائر الطبقات الشعبية كالعمال والفلاحين ظلت حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ محرومة من فرص التعليم والثقافة • وحتى بعد نجاح ثورة ٢٣ يوليو وتأكيد الاتجاه الى الاشتراكية وبروز العمال والفلاحين

كقوتين رئيسيتين من قوى الشعب المتحالفة، لم يظهر فى مصر أدب عمال أو أدب فلاحين، فمازال الادب يكتب بأيدى أبناء الطبقة الوسطى والمثقفين ولهم .

وقد اتخذت المقاومة الوطنية المصرية عدة اتجاهات فى نضالها ضد قوى الاستعمار والاحتلال، ومن أجل التحرر الوطنى . فبالاضافة الى مقاومة الشعب التلقائية برزت هذه الاتجاهات المنظمة : الاتجاه الحزبى الذى اتبعته أحزاب البورجوازية الوطنية . والاتجاه الاشتراكى الثورى الذى اتبعته التنظيمات الاشتراكية واللجان المنبثقة عنها . والاتجاه الارهابى الذى مثلته الجماعات الفاشستية كالاخوان المسلمين ومصر الفتاة (الحزب الاشتراكى فيما بعد) . وأخيرا الاتجاه الفدائى المستقل الموجه الى جنود الاستعمار وعملائه، وهذا الاتجاه الاخير - رغم افتقاره للفكر السياسى النظرى والايديولوجيات - الا أنه من أقوى الاتجاهات تجسيدا لحركة المقاومة الوطنية ضد الاستعمار الاجنبى لانه اتخذ طريق العمل والفعل وابتعد عن الشعارات والقتال بالكلمات .

وتهتم هذه الدراسة بانتقاء بعض النماذج الروائية الدالة على ارتباط الرواية المصرية بحركه المقاومة الوطنية والتاثيرات المتبادلة بينهما . اذ لا يتسع المجال لدراسة كل الروايات المتعلقة بموضوعنا هذا عن الرواية المصرية وحركة المقاومة الوطنية . كما أن هناك بعض الروايات الثورية الهامة ولكنها تخرج عن حدود المقاومة الوطنية الى النضال الثورى وتاليب المجتمع وحضه على الاحتجاج والرفض والثورة .

فى بيتنا رجل

نموذج المقاومة الفدائية

فى رواية « فى بيتنا رجل » التقط احسان عبد القدوس هذا الاتجاه الاخير من اتجاهات المقاومة الوطنية المصرية، الاتجاه الفدائى والعمل الانتحارى ضد جنود الاستعمار، ومن اجل حرية مصر واستقلالها الوطنى . وهو اتجاه مثله « ابراهيم حمدى » بطل الرواية . وقد استعان احسان عبد القدوس بالحادث المعروف الذى قتل فيه أمين عثمان الوزير المصرى والعميل الانجليزى، ومن خلال هذا الحادث حرك بطله الفدائى ورسم صورة لمصر الهادئة وكيف ادت تداعيات الحادث الى كشف السطح الهادىء لتظهر جذور المقاومة الوطنية وتنويعاتها فى الاسرة المصرية التى تمثل مصر كلها .

وقد أجاد احسان عبد القدوس تجسيد هذا الاتجاه الفدائى من اتجاهات المقاومة الوطنية وفى تشريحه . لقد تطور « ابراهيم حمدى » بطل رواية « فى بيتنا رجل » من رفض أسلوب المظاهرات والشعارات الكلامية الى بداية طريق العمل المسلح، تطور من المقاومة الكلامية الى المقاومة المسلحة . ويدلنا احسان عبد القدوس من خلال السرد المباشر على هذا التطور صراحة . فقد رفض ابراهيم حمدى السياسة والفكر السياسى والاحزاب السياسية وكان يفكر فى مصر على نحو رومانسى عاطفى، فكل افكاره عاطفية، فهو يكره ويحب، يكره الانجليز، والرجعية المصرية، ومعاهدة ١٩٣٦ ويحب مصر وشعبها . وتشكلت شخصيته الفدائية الانتحارية من رفضه القيام بدور الزعيم والقائد، الى التضحية والفداء دون حب للظهور . ونتيجة لافتقاره للوعى السياسى والفكر السياسى اضطر للاستعانة بالروايات البوليسية المحشوة بحوادث استخدام المسدسات والمتفجرات . ومن خلال عدة حوادث صغيرة لتصرفات جنود انجليز مع أبناء الشعب، عرف طريقه، جمعية سرية لاغتيال الجنود وعملائهم، وسنجد أن بطل الرواية ابن لموظف حكومى من الدرجة الرابعة، أى ابن للبورجوازية المتوسطة وهو قائد الجمعية السرية التى تضم أبناء البورجوازية أيضا مثل « فتحى المليجى » الذى يمارس النشاط الفدائى مع الجماعة من فيلته وبسيارته الفاخرة . ويفجر حادث اغتيال أحد كبار العملاء الوزير المصرى عبد الرحيم باشا شكرى سلسلة من الاحداث التى تهز حياة أسرة مصرية متوسطة ايضا، التى ظنت انها بمنأى عن احداث الصراع بين المقاومة الوطنية، وقوى الاستعمار والعمالة المحلية، فيسجن اثنان من أبناء الاسرة التى لم تهتم بالسياسة قط، ويستيقظ وعى الاب على ذكريات ثورة ١٩١٩ وتروع الاسرة الامنة بصورة القاهرة الجديدة الملتهبة الحافلة بحركة الصراع بين قوى المقاومة الوطنية وقوى الارهاب البوليسية العميلة للمستعمر . وبالجملة يقود ابراهيم حمدى بطل المقاومة الفدائية الاسرة المصرية والمجتمع المصرى الى الانخراط فى الصراع السياسى الدائر بشكل أو بأخر . أما ابراهيم حمدى البطل الفدائى الانتحارى فلم يجد سوى طريق الانتحار للخلاص من ورطة العمل العاطفى المفتقد للفكر السياسى، فقرر أن يموت لتحيا مصر، وهكذا مات فى عملية انتحارية ضد الانجليز، ومن الغريب أن موته جاء على ايدى البوليس المصرى ! وهكذا يصور احسان عبد القدوس هذا النموذج للمقاومة الفدائية، فهو ليس أكثر من طلقة فى المعركة ضد الاستعمار، ولكنها طلقة تصيب صاحبها اكثر مما تصيب هدفها .

فالعمل الانتحارى ينتهى بالانتحار ، والعمل الوطنى المقاوم الصحيح لا يتخلى عن الفكر السياسى والتخطيط النظرى . فقد احتوت اتجاهات المقاومة الوطنية المصرية اتجاهين متضادين ، الاول فكرى نظرى يقتات بالكلمات والشعارات دون عمل وفعل ، والثانى عملى وفعلى مل الشعارات والخطب والكلمات ورفضها تماما ومارس المقاومة بلا فكر . وقد صورت رواية احسان عبد القدوس « فى بيتنا رجل » الاتجاه الثانى . وسنرى رؤية عبد الرحمن الشرقاوى للاتجاه الاول فى روايته الطويلة « الشوارع الخلفية » .

الشــــوارع الخلفيـــة

نموذج المقاومة بالكلمات

المقاومة والكفاح فى روايات عبد الرحمن الشرقاوى مقاومة بالكلمات وبالعرائض وبالشعارات وبالمنشورات والمظاهرات والهتافات والخطب . (راجع دراستنا فى المحتوى الثورى لادب الشرقاوى – المجلة يوليو ١٩٧٠) .

وهو نموذج لمقاومة البورجوازية الوطنية وأحزابها ولجانها ، وتجسد رواية « الشوارع الخلفية » هذا النموذج من خلال أبناء البورجوازية المتوسطة أيضا . فشخصيات هذه الرواية من الطلبة والمثقفين ابناء العمد ، والبطل الرئيسى ضابط وطنى من ابناء الطبقة الوسطى . وربما تتميز هذه الرواية بوجود عامل مناضل ضمن شخصياتها المثقفة والطلابية والمنتمية الى الطبقة الوسطى ، ولكنا نشعر بأنه مقحم اقحاما هندسيا لاستيفاء هذا الشكل من أشكال المقاومة الوطنية فى الرواية .

ورواية « الشوارع الخلفية » رواية كبيرة من روايات « المقاومة الوطنية » ، المقاومة بالكلمات والشعارات والمظاهرات وهى النموذج الغالب على المقاومة الوطنية المصرية بعد ثورة ١٩١٩ ، وليست المقاومة المسلحة والكفاح المسلح ، التى مثلتها جزئيا المقاومة الفدائية ومقاومة المنظمات الاشتراكية السرية .

فأبطال رواية عبد الرحمن الشرقاوى « الشوارع الخلفية » يقاومون الانجليز وعملاءهم من مواقعهم الطبقية والفكرية ، مقاومة كلامية . وأقصى عنف وصل اليه شكرى عبد العال – بطل الرواية فى مقاومة قائده الانجليزى هو قيامه بضربه بالكرسى عندما أمره بالتصدى لمظاهرات المقاومة الوطنية .

وشكرى عبد العال بطل من أبطال المقاومة بالمظاهرات ، بطل سلبى تتوقف مقاومته عند حد الرفض ولا تتخطاه الى العمل الايجابى ضد المستعمر ، وحتى عندما تمكن القادة الجدد لحركة المظاهرات والمقاومة بالكلمات من التوصل الى نوع من التخطيط لهذا النموذج من المقاومة لم يستطع اللحاق بهم ووقف كالمتفرج العاجز عن المشاركة الفعلية فى خطط المظاهرات والمنشورات .

فشكرى عبد العال ضابط وطنى فقد ابنه ووظيفته فى مظاهرات عام ١٩٢٥ ، وفقد وظيفته للمرة الثانية فى مظاهرات ١٩٣٥ نموذج حقيقى لفكر وسلوك أحد أبناء الطبقة المتوسطة فهو يأنف من ان يؤجر شقة ببيته لعامل ، ولكنه « كتمضيقه ونفوره » عندما علم بأن هذا العامل أحد قادة مظاهرات ١٩٣٠ ، وهو رغم حرمانه من الوظيفة واحالته المبكرة الى المعاش لا يكف عن مداعبة احلامه بأمنيات الرتبة الكبيرة والباشوية وعندما أعيد الى الخدمة العسكرية كان اول مافكر فيه هو طبع كارت يحمل اسم « الاميرلاى شكرى بك عبد العال » .

أما قصته مع المظاهرات فتبدأ مع ثورة ١٩١٩ عندما كان برتبة الصاغ ورفض تنفيذ الاوامر بضرب المظاهرات فخفضت رتبته الى اليوزباشى ونقل منفيا الى السودان . وتكرر رفضه لاوامر ضرب المظاهرات . رفض شجاع ولكنه مجرد رفض سلبى . وفى مظاهرات ١٩٢٥ استشهد ابنه فى مظاهرات طلبة المدرسة الخديوية ولم يكن ابنه قد تخطى سن الرابعة عشرة .

وعندما جاءته الاوامر الجديدة بضرب المظاهرات رفضها رفضا عنيفا أخرجه من وظيفته الى المعاش ، ومع أنه وطنى ومقاوم للانجليز وأذنابهم الا أن هذا لم يمنعه من مصادقة سكرتير عام الوزراء الذى يعلم بانه وصل الى منصبه بمعونة الانجليز ، بل وقبل مسعاه للعودة الى الوزارة وتعويض مافاته من رتب فى سنوات الاستيداع . غير أنه لم يلبث أن اصطدم بواقع المظاهرات فعاد ادراجه الى المعاش .

أما ثورة الطلبة ، ومعروف جيدا الدور الكبير الذى لعبه الطلبة فى تغذية حركة المقاومة الوطنية وقيادتها واستمرارها ، ثورة الطلبة فى رواية « الشوارع الخلفية » تتراوح بين عقد الجمعيات المدرسية ومعاداة المدرسين الانجليز والناظر المصرى العميل للانجليز ، وبين المظاهرات والهتافات والشعارات من أجل الدستور والاستقلال . غير أن صلب الرواية كغيرها من روايات عبد الرحمن الشرقاوى يدور حول قضايا جزئية مثل اعادة جمعية التمثيل أو العمل من أجل اتحاد لطلاب المدارس الثانوية أو الحلم بدستور يعطى الحقوق للشعب رغم أنف الحكم الملكى الاوتوقراطى والامراء ، أو القاء الخطاب وترتيب المظاهرات لمواجهة مواقف بسيطة كمعاداة المدرس

الانجليزى والكيد لناظر المدرسة الذى تزوج من انجليزية ، وما الى ذلك • أما الكفاح الحقيقى ضد الانجليز فليس له نصيب كبير فى رواية عبد الرحمن الشرقاوى « الشوارع الخلفية » •

هذان نموذجان للمقاومة الوطنية فى الرواية المصرية ، المقاومة الفدائية الخالية من أى مضمون فكرى وسياسى ، والمقاومة النظرية بالكلمات والمظاهرات المفتقرة الى العمل والفعل • وثمة نموذج ثالث حاول الجمع بين هذين الاتجاهين للمقاومة الوطنية،نموذج المقاومة الاشتراكية،التى نظمتها التنظيمات الاشتراكية السرية ضد قوات

الاستعمار البريطانى فى مصر ، والتى تجمع بين الفكر والعمل وبين المقاومة بالكلمات والمقاومة بالسلاح • وسنرى كيف نقلت الرواية المصرية هذا النموذج على يد يوسف ادريس فى روايتيه « قصة حب » و « البيضاء » •

المقـــــــاومة الــــوطنية مــن « قصة حب » الى « البيضــاء »

كانت بداية الطريق التى صنعت ابـراهيم حمدى ، بطلرواية احسان عبدالقدوس « فى بيتنا رجل » ــ فى مشاهدته لوقائع قتل مصريين بايدى جنود الاستعمار البريطانى ، ومن رؤية المصريين البسطاء فى موقف ضعيف ، استمد رؤياه الجديدة باستخدام القوة المسلحة لمقاومة المستعمر •

ومع أن « حمزة » بطـل روايـة يـوسف ادريس « قصة حب » بدأ من نفس الموقف وانتهى الى ذات الرؤيا الخاصة بطريق المقاومة المسلحة ، الا انه بدأ من موقف قوة الناس البسطاء عندما رآهم يصمدون للعدوان الانجليـزى المسلـح وينتصرون عليه بالاسلحة البدائية البسيطة •

وهذا الاختلاف كان له الدور الاساسى فـى اختلاف الطريق أمام بطلى احسان عبد القدوس ويوسف ادريس ، فالاول اختار طريق البطولة الفردية الانتحار الفردى اليائس من قدرة الشعب، والاخر ظل على ايمانه بالناس والمقاومة الشعبية التلقائية القابلة للتنظيم • هذه ناحية من نواحى الاختلاف الكثيرة بين بطلى احسان عبد القدوس ويوسف ادريس ، وناحية اخرى هى الفكر والوعى والثقافة • فابراهيم حمدى نموذج لبطل المقاومة الفدائية المفتقرة الى الثقافة والفهم السياسى ، كان يكتفى بقراءة الروايات البوليسية او مطـالعة الاخبار فى الصحف العامة ، ولم تكن له نظرة

اجتماعية او سياسية للمجتمع المستقل الذى يسعى اليه بمقاومة الاستعمار ، بل فلنقل بانه لم يكن على ثقة من أن اعماله الفدائية قادرة على طرد المستعمر وبناء الدولة الجديدة المستقلة، وكان موقفنا من أن عمله مجرد رصاصة من الرصاصات الاولى التى يمكن أن تشعل الثورة ، لانه لم يكن يسعى الى اكثر من لفت انظار الناس الى عمله الفدائى ضد الانجليز فهو لم يفكر ولم يخطط ولم ينظر الا نظرة محـدودة الى هـدفه المبـاشر وعـدوه الوحيـد الاستعمار الانجليزى • ولم يكن يهتم بـالفكر والسياسة،بينما نجد « حمزة » بطليوسف أدريس فى رواية « قصة حب » مثقفا واعيا يتابع حركات انصار السلام والتحرر الوطنى فى العالم ويقرأ كثيرا وحين يطالع الصحف فانه يقرأها مـرة ومرتين بامعان ليفهم منها ما يريد وهو ينظر الى كل شىء من خلال رؤياه السياسية فيذهب الى متحف الفن الحديث ليستمع الى سيمفـونيات بتهـوفن ومـوزار وبرودين ، ولكنـه بفضـل سماع « مارش العبيد » لتشايكوفسكى لانه يرى فيها « انين البشرية كلها تحت لسـعات العسف ، وبحثها المرهف عن المصير » • وهو فى نظرته للمقاومة والوطنية والصراع ضد الانجليز لا يحصر نفسه فى هذه الزاوية المحدودة ولكنه يتطلع منها الى بناء المجتمع الجديد فى المائة سنة القادمة ، مجتمع العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص • ومع ان البطلين مطاردان ، الا ان سلوكهما يختلف فابراهيم حمدى بطل « فى بيتنا رجل » يفكر فى الهروب الى خارج مصر او الانتحار بالمقاومة الفردية ، بينما يتمسك بطل « قصة حب » بمصر وشعب مصر عن يقين وثقة بتوافر عناصر المقاومة الوطنية التى لا تنتظر سوى التنظيم ، وهو عندما يهرب من ايدى السلطة لا يفعل ذلك خوفا من العقاب بل حرصا على استمرار المقاومة الوطنية الصلبة التى لاتلين •• فحمزة عضو فى « اللجنة العامة للكفاح المسلح » عضو فى لجنة وليس بطلا اسـطوريا ، بـل أنـه يكـرر هـذا لحبيبتـه المناضلة « فوزية » انه انسان عادى من لحم ودم ، يحب ويعيش حياة عادية ، يحب مصر ويقاوم مستعمريها وحلفاءهم وعملاءهم • وهو مثقـف وابن لعامل كادح بسيط ، ونجد هنا ابناء الطبقة العاملة من المثقفين وليس من العمال •

بطل « قصة حب » احد اعضاء لجان الكفاح المسلح المنبثقة عن التنظيمات الاشتراكية التى جربت خلال معارك القناة عام ١٩٥١ الجمع بين الفكر والتطبيق • فهو يشارك فى انشاء معسكرات التدريب وتكوين اللجان وشراء الاسلحة ، وهو واقعى يخطط لمعاركه حسب قدراته الحقيقية ويبدأ بقتل عشرة من جنود الاعداء وليس مائة كما حلم غيره ، وهو يذهب الى الانجليز فى عقر دارهم على

شاطىء القناة ، ودائما يثق فى قدرة الشعب على المقاومة يرى ويشعر بأنه حل عطف النـاس ولمساعدتهم • وهذه تندرج ضمن ملاحظة عامة على موقف الشعب من رجال المقاومة الوطنية ، فالرواية المصرية عموما تعكس عطف النـاس العاديين ، والاسر المصرية البسيطة ، على رجال المقاومة الوطنية وتطوعهم لمساعدتهم وتحـدى السلطة • ففى كل رواية من هذه الروايات سنجد الناس العاديين يقدمون خدماتهم ومعـوناتهم بتضحية وبساطة ودون تخطيط او فكر او جزاء ، انهم يتصفون بروح الشعب المصرى الحقيقية روح المقاومة الصامدة •

ورأى حمزة بطل « قصة حب » المناضل السياسى العريق الذى امضى حياته متنقلا بين السجون والمعتقلات وأعمال المقاومة والكفاح السيـاسى المسلح ـ رأى حمزة كيف احترقت القاهرة، رأى بفكره الواعى الحارق الحقيقى الملك والاستعمار ورأى برؤيته السياسية الثاقبة الصلة بين ترحيب الرأسمالية المصرية بحكومة على ماهر التى جاءت بعد حريق القاهرة لتعوض الرأسمالية المصرية بتعويضات مجزية عن خسـائر الحريق ، وتنتهى الكفاح المسلح (راجع كتابنا ـ حريق القاهرة او نذير العاصفة ـ كتب قومية ١٩٦٦) ورغم احتراق القاهرة وارهاب السلطة وحظر التجول صور يوسف ادريس بطله وهو يعمل بثقة من اجل معاودة الكفاح المسلح والتنظيم ، بمعاونة ابناء الشعب المصرى الاوفياء لوطنهم • وقد ساعدت قصة الحب بين المنـاضلين حمزة وفوزية على الاقتراب من روح الشعب المصرى المقاومة ، وقد عبر يوسف ادريس بصـدق علـى لسـان بطله « حمـزة » عن مدى التحـول فى المـوقف السياسى لحمزة من جراء قصة الحب والزواج من المناضلة فوزية ، وبهذا حقق يوسف ادريس لحظة فنية هامة بامتزاج الهموم الفردية بالهموم العامة بحيث اصبحت الملامح الفردية لبطلى الرواية جزءا اصيلا من الملامح العامة لمجتمعهما وعصرهما ، وهكذا عبرت رواية يوسف أدريس « قصة حب » عن المقاومة الاشتراكية التى ظهرت فى خلال معارك الكفاح المسلح ضد الانجليز بمنطقة قناة السويس العامة فى تاريخ المقاومة الوطنيـة المصرية •

سنجد أبطال المقاومة الوطنية فى رواية يوسف ادريس « البيضاء » وقد طرحوا اسلوب المقاومة المسلـحة وعـادوا الى المقـاومة بـالكلمات والشعارات • سنجد كل ما حفلت به رواية « قصة حب » من ايمان بالشعب والكادحين والمقاومة المسلحة سنجد كل هذا ينحدر الى هاوية سحيقة • وقد لاحظت ان هذا التحول يكاد أن يكون عاما فى أدب يوسف ادريس الجديد (راجع دراسـتى عنـه بمجـلتى « الحـرية » و « الاداب » اللبنانيتين « يوسف أدريس من الالتزام الى الحياد والتشاؤم » و « يوسف ادريس الى أين ؟ » ، الحرية أول اغسطس ١٩٦٦ والاداب مايو ١٩٧١) اذ تمثل رواية « البيضاء » انموذجا كاملا للتراجع الشامل فى أدب يوسف ادريس • ورواية البيضاء ليست بعيدة عن موضوعنا فهى تتحدث عن « عمل جاد وخطير » تقوم به جماعة اشتراكية سرية من أجـل معركة الاستقلال ، أما هذا العمل الجـاد والخطير المخطط والذى يصل صداه الى حركات التحرر الوطنى فى المنطقة من قبـرص الى السودان ، فهو اصدار مجلة ثورية تقاتل بالكلمات والشعارات والمانشتات، وبطل « البيضاء » « يحيى مصطفى طه » طبـيب مثقف ابن لاسرة فلاحيـة كادحة ، تتوزع حياته ثلاثة اتجاهات عمله كطبيب للعمال فى احدى الورش الاميرية وحب من طرفه لمناضلة يونانية « سانتى » أو البيضاء التى اعطت اسمها للرواية ، ونضاله فى معركة الاستقلال كعضو فى جماعة اشتراكية سرية تصدر مجلة اسبوعية ويشارك هو فيها بتحرير باب بـريد القراء ! ويبدأ أول انحراف ليحيى طه بطـل البيضاء بمحاولاته المراهقة لاجبار المنـاضلة اليونانية سانتى على مشاركته الحب وعبثا تحاول بطلة الرواية تذكيره بالنضال والمقاومة وبأنها زوجة لرجل مناضل تحبه وتشاركه نضاله ، الا أن كل هذا لا يثنى بطل البيضاء عن المضى فى طريق الحب بالاكراه بالخطابات وبالعنف العضـلى أيضا • ولاشك أن قصة الحب هذه تنحرف بالبطل عن كل طريق للمقاومة الوطنية وتجعله يتنكر لمجلته ولاسرته الكادحة ويكاد أن تتوقف صلته بهما على استخدامهما لصالح مغامرة الحب اليائسة التى يخوضها • وكطبيب للعمال اكتشف فى سكرتير النقابة رجلا فاسدا مأجورا وأصبح العمال فى الورشة مصدر ازعاج له ووصل الامر به الى حد أن هتف العمال بسقوطه ونعلم من هذه التجربة أن قيادة الجماهير « خدعة » أما تجربة المقـاومة السرية فقد أخذ يتحلل منها ويبحث عن المبررات، فالاشتراكية اوروبية والعمل السرى لا يشعر به أحد ولم يعد يرى فيه سوى اجتماعات وشعارات وأوراق وخيانات ، وهكذا أخذ كل شىء يتهاوى أمام بطل رواية البيضاء ولم يعد أمامه سوى الضياع • فى « قصة حب » كان الشعب مصدر الهـام وايمـان بطـل الرواية « حمزة » ، امـا فى « البيضاء » فالناس هم مصـدر ازعـاج بطلها « يحيى » حتى ليفر منهم الى الزمالك حى البورجوازية المصرية • فى « قصة حـب » كان الحب وسيلة امتزاج البطل بوجدان الشـعب وانتمائه للمجتمع ، وبجملة كان الحب شعلة جديدة

للنضال والمقاومة، أما فى «البيضاء» فالحب هنا وسيلة هروب من التزامات النضال، والحب دنس لا تعترف به البطلة ويحاربه الناس والتنظيم ومن ثم يصبح وسيلة لتحطيم البطل وصرفه عن النضال، وفى «قصة حب» كان الارهاب حافزا لاشتداد النضال والعمل على التنظيم وازدياد الثقة بالناس، أما فى «البيضاء» فقدأسفرت أول ضربة للمقاومة عن انهيار البطل وشكه فى كل شىء فراح يلقى الاتهامات بالخيانة والعمالة جزافا حتى انهار تماما ولم يعد له سوى الضياع •

وهكذا تطور هذا النموذج للمقاومة الاشتراكية فى أدب يوسف ادريس من «قصة حب» الى «البيضاء»

عـــودة الـــــروح

المقـــاومة بالشـــعب

خلال اشتداد الحرب الاهلية الامريكية وفى عام ١٨٦٢ التقى الرئيس الامريكى ابراهام لنكولن بالروائيـة الامريكية، «هارييت بيتشر ستو» مؤلفة الرواية الشهيرة «كوخ العم توم» وحياها قائلا :

«سيدتى، انى سعيد بأن ارحب بك بوصفك مؤلفة تلك الرواية التى أحدثت هذه الحـرب العظيمة !» ولعل هذه كانت أول اشارة الى أهمية الرواية فى النضال الوطنى من أجل الحـرية والاستقلال ــ ولا يعادل هذه الرواية فى الاهمية سوى رواية «عودة الروح» لفناننا الكبير توفيق الحكيم • فاذا كانت رواية «كوخ العم توم» قد أشعلت حربا وطنية فى الولايات المتحدة الامريكية فان رواية «عودة الروح» قد أسهمت فى تشكيل فكر وروح جمال عبد الناصر قائد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ • وتأتى أهمية «عودة الروح» من أنها تعد من أقدم وأعظم الروايات المصرية تأثيرا فى دفع حركة المقاومة المصرية ونشر روح الوحدة الوطنية بندائها الشهير «الكل فى واحد» ان هذه الرواية تتحدث عن أسرةمصريةمتوسطة،وتعدها «الشعب» وتضرب الرواية فى جذور التـاريخ المصرى والوجدان المصرى بحثا عن روح الوحدة الوطنية والمقاومة الوطنية، فبعبارات قوية شدت الرواية جماهير الشعب الى التراث الوطنى الهائل للشعب المصرى الذى يصبر كثيرا وينفجر فجأة فى وجه اعدائه بقوة نفسية وحكمة مخزونة طوال الاف السنين • فأهم ما يميز رواية عودة الروح هو الايمان العظيم بقدرة الشعب المصرى التلقائية على المقاومة والصمود • وقد صورت الرواية كيف نشبت احداث ثورة ١٩١٩ تلقائيا بقوة الشعب المصرى المتوارثة والراسخة فى الوجدان المصرى عبر الاف السنين • وحتى عندما شـاركت الاسرة (الشعب) مشاركة فعلية فى احداث ثورة ١٩١٩ باختزان المنشورات الوطنية وتـوزيعهـا أوضح لنا توفيق الحكيم شكه فى أن يكون هذا العمل جزءا من نشاط جمعية سرية منظمة، انها رواية المقاومة بالشعب •

الرؤيا التاريخية للمقاومة

مــــن «بيــن القصــرين»

الى «العـودة الى المنفى»

فى «بين القصرين» يؤرخ نجيب محفوظ ــ ابن الطبقة المتوسطة وناقدها ــ لحركةالمقاومةالعفوية التى مثلتها أحداث ثورة ١٩١٩، وترسم روايه «بين القصرين» لوحة رائعة لمقاومة الشعب بكل الاسلحة والخناجر والكلمات لـلاستعمار البريطانى • ان نجيب محفوظ يسجل أحـداث الثورة يوما بيوم، فمن نصوص البيانات والخطب والمنشورات الى حوادث القتال اليومى ضد جنود الاستعمار • كل ذلك يرد من خلال حياة أسرة مصرية متوسطة عكفت الرواية على بيان ردود الفعل لدى كل فرد من أفرادها ازاء أحداث الثورة العنيفة، ثورة التلقائية المسلحة • كما تتضمن الرواية عدة تحليلات واعية لجذور المقـاومة الوطنية فى التاريخ المصرى الحديث ابتداء من ثورة عرابى الى خطب مصطفى كامل ومقالاته الحماسية الى احداث ثورة ١٩١٩ • وصورت الرواية أيضا السبب الحقيقى فى ثورة الشعب ومقاومته العفوية العنيفة لنفى سعد زغلـول ورفاقه، فقد ربط نجيب محفوظ بحق بين نفى أحمد عرابى الذى كان ايذانا بانتهاء الثورة العرابية ونفى سعد زغلول الذى جاء بمثابة الفارس وأمل الشعب فى يقظته ومقاومته للاحتلال، لقد خشى الشعب من تكرار النفى وتكرار الصورة أن يكون نفى سعد ايذانا باغلاق باب الامل الذى زخرت به نفوس الشعب المصرى والذى هب فجأة يقاوم كل محاولة لنفى زعيمه ووأد ثورته وتحطيم أمله الجديد فى الاستقلال والحرية • كما أن الرواية تقدم احتجاجا ضمنيا علـى لسـان أحـد شخصياتها (الشيخ متولى) ضد أساليب الكفاح البورجوازية التى اتبعها قادة الوفد المصرى، كفاح المكاتب والعرائض والصالونات، وضـد أسلوب الكفاح فى الخارج الذى استهلكته القضية الوطنية، بدلا من الكفاح بالداخل ضد العدو، فيقرر «الشيخ متولى» أن الانجليز لن يخرجوا الا بـالقتال وليس بـالوفود المسـافرة الى

الخارج . (راجع كتابنا « مع نجيب محفوظ » نشر وزارة الثقافة السورية ١٩٧١) أما آثار ثورة ١٩١٩ التى عكستها الرواية على فكر وسلوك أبناء الاسرة المتوسطة ، أسرة السيد أحمد عبد الجواد فقد تراوحت بين المقاومة الفدائية للابن فهمى الذى عاش أحداث الثورة وشارك فيها بكل قواه كفرد ضمن فريق ، وظل يراود جبنه وخوفه من الصدارة والزعامة حتى اذا تشجع وقاد احدى المظاهرات السلمية ابتهاجا بالافراج عن سعد زغلول ، لقى مصرعه فى الحال . وتراوحت آثار الثورة بين أفراد الاسرة الواحدة . فالاب التاجر البورجوازى اكتفى بالمشاركة بالمال دون المشاركة الفعلية وحين تعرض له الانجليز طرح المقاومة من حسابه وعندما اشتدت المظاهرات خاف الثورة . اما الام والبنات فظللن ينظرن الى الامر بسذاجة ولم يتغير نمط حياتهن المنزلية المحدودة .

ان رواية بين القصرين وثيقة تاريخية اجتماعية هامة تدلنا على صدق الرؤيا التاريخية للمقاومة الوطنية .

فى كتابه الهام « دراسات فى الواقعية » يؤكد جورج لوكاتش وظيفة الرواية التاريخية فى تقديم نموذج البطل الايجابى قائلا « ان الرواية التاريخية تضع نصب عينيها اذن خلق نموذج بطل ايجابى . » (ترجمة د . نايف بلوز ـ نشر وزارة الثقافة السورية) وقد وجد لوكاتش بطله الايجابى فى روايات هنريش مان التاريخية ، أما هذه الدراسة فقد وجدت نموذج البطل الايجابى فى الرواية التاريخية المصرية « العودة الى المنفى » كاوضح وأصلب ما يكون البطل الشعبى التاريخى فى شخصية عبد الله النديم كما أجاد تصويرها ببراعة الروائى المصرى أبو المعاطى أبو النجا ، ان أبو المعاطى لم ينجح فحسب فى اختيار بطله الايجابى المقاوم بل نجح أيضا فى النفاذ برؤية فنية وسياسية من خلال بطله عبد الله النديم الى رؤيا شاملة لعصر كامل عصر الثورة العرابية . ان رواية « العودة الى المنفى » هى أول عمل روائى يؤرخ للثورة العرابية ويكشف الستار عن أحداث المقاومة الشعبية ضد الاستعمار الاقتصادى والسيطرة الاجنبية والهجوم الاستعمارى ، اننا نطالع فى هذه الرواية لاول مرة فى الرواية المصرية صورة مصر المحاربة وصورة البطل المصرى المقاتل بالوعى بالكلمات وبالسلاح . ان « العودة الى المنفى » ليست وثيقة تاريخية اجتماعية فحسب ولكنها أيضا بحث علمى دقيق فى الاوراق المحتجبة ، ووثائق الثورة العرابية واستقراؤها . لقد تضمنت هذه الرواية من الناحية التاريخية وقائع المقاومة الباسلة لاولى خطوات الامبريالية العالمية ضد بلادنا ، وستطالع لدى قراءة الرواية هذا الحشد الهائل من المعلومات والتلغرافات والرسائل المتبادلة والخطب والمقالات والبيانات السياسية والحربية التى تنشر لاول مرة فى أخطر وثيقة فنية عن الثورة العرابية ، الثورة الام التى لم تنل القدر الكافى من اهتمام الروائيين المصريين قبل صدور رواية أبو المعاطى أبو النجا « العودة الى المنفى » .

فى رواية « بين القصرين » احتلت الرؤيا التاريخية للمقاومة الوطنية الثلث الاخير من الرواية ، اما فى رواية « العودة الى المنفى » فالرواية كلها تنصب فخاخها الفنية والموضوعية للرؤيا التاريخية لعصر المقاومة والثورة ، عصر الثورة العرابية . وقد اتخذت الرواية من بطل المقاومة الشعبية عبد الله النديم لسان حال الثورة العرابية محورا تؤرخ منه لاحداث الثورة العرابية مقدمتها ومجرياتها . فقبل ان تطلق مدافع الاسطول البريطانى طلقاتها على الاسكندرية فى يوم ١١ اغسطس ١٨٨٢ كانت مصر كلها قد سقطت بالفعل فى قبضة الاستعمار وأصبحت ملكا للاجانب ، فالديون تستحكم فى رقاب البلاد ووزيران أجنبيان يديران دفة الحكم ، ومراكز المال والتجارة كلها فى أيدى الاجانب ، وبالجملة كانت مصر مستعمرة من الداخل ـ كما أوضحت رواية أبو المعاطى أبو النجا ـ قبل أن تطلق مدافع الاستعمار طلقة واحدة فى طريق احتلالها من الخارج .

ان عبد الله النديم كما صورته رواية « العودة الى المنفى » بطل فذ يرسم بنشاطه الوطنى بانوراما هائلة لشعب مصر فى عصر الثورة العرابية ، وايجابية هذا البطل التى أتاحت لنا رؤية هذا العصر المجيد ، عصر الثورة العرابية ، وقد نجحت الرواية ببراعة فى استثمار هذا النموذج البطولى لبطل المقاومة فى الرواية المصرية حتى أن فشل القضية لم يسقط البطل بل استمرت قضية المقاومة الوطنية ، وليس أدل على ذلك من تلك الخيوط الرقيقة التى شدتنا بها الروائى الى الترابط بين عبدالله النديم لسان حال الثورة العرابية وداعيتها الاول وبين كل من أحمد عرابى قائد الثورة ومصطفى كامل بطل المقاومة الجديد . لقد كشفت الرواية عن صفحة مجيدة من تاريخ مصر ، وتاريخ أعظم ثورة مصرية شارك فيها المقاتل المصرى رجل الشارع والحقل والعمل والعرق والدم من أجل مصر المطهرة من أعدائها الاستعمار والرجعية المحلية . فقد رأينا مصر فى هذه الرواية تستيقظ وتتجمع وتقاوم . ورأينا النموذج الايجابى لبطل المقاومة المصرى الكادح ، عبد الله من صلب رجل كادح (خباز) من عامة الشعب وظل ملتصقا بعامة الناس بنبض مصر الحقيقى ، نموذجا لكفاح

رجل فقير[٢] كادح ، وهو نموذج غير مألوف فى الرواية المصرية التى ألفت مخاطبة وجدان الطبقة المتوسطة باختيار أبطالها من صفوفها · ان عبد الله النديم كما صوره أبو المعاطى أبو النجا فى روايته « العودة الى المنفى » نموذج حقيقى لبطل مقاوم صلب عنيد لم يسقط ولم يكف عن المقاومة ولم يضعف ايمانه بالناس لذلك استحق حبهم وتعاطفهم ، فهو بطل لانه منهم ولانه لسانهم المعبر عنهم والذى يجسد مقاومتهم البطولية لاعداء مصر ·

المقاومة حديثا

هذه بعض النماذج الدالة على ارتباط الرواية المصرية بحركة المقاومة الوطنية ، وليست هذه هى كل الروايات المصرية المعبرة عن مقاومة الشعب ، فثمة روايات أخرى يضيق المجال باستيعابها ، روايات ليوسف السباعى وعبد الحميد جودة السحار ونجيب محفوظ وعبد الرحمن الشرقاوى وغيرهم · وتندرج هذه الروايات جميعها تحت اطار رواية المقاومة الوطنية حتى أوائل الخمسينات ، أما السنوات التالية لها ، سنوات الثورة الحافلة بحركة الصراع بين قوى المقاومة الوطنية وقوى الاستعمار والرجعية على المستويين المحلى والعالمى ، هذه السنوات الحافلة بضروب شتى من المقاومة للاستعمار والرجعية والتى شارك فيها المقاتل المصرى مشاركة فعلية وشهدت حروب القناة المتكررة قبل توقيع اتفاقية الجلاء والعدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ وحرب الجزائر وحرب اليمن وحرب الكونغو حتى عدوان يونيو ١٩٦٧ — من الغريب أن هذه الفترة الخصبة من حياة مصر لم تفرز روايات ترتفع الى مستواها (مثل رواية « أطول يوم فى تاريخ مصر » — وهى تحقيق صحفى يستخدم أسلوب السرد والوصف الصحفى التقريرى لتصوير حال أسرة من السويس وآثار حرب يونيو على أحوال الاسرة وأفرادها) وحتى لا نظلم الروايات والروائيين علينا أن نعترف بوجود عشرات الروايات المحرومة من النشر ، والمختزنة فى قلوب أصحابها وأصدقائهم تقرأ كمخطوطات بعد أن حجبتها عن الخروج للناس دروب النشر الموصومة باسكلية والبيروقراطية والنظرة الرقابية للاعمال الفنية · وأعتقد انه قد جاء الوقت المناسب لتظهر روايات المقاومة المسلحة المكتوبة بأقلام المقاتلين أنفسهم ، فليس من المعقول أن تحارب مصر كل هذه الحروب التحريرية دون أن تفرز روايات المقاومة المسلحة المعبرة عن نضالها العنيد ضد قوى الامبريالية والرجعية الدولية ·

[٣]

الموجة الجديدة فى الرواية المصرية

صبرى حافظ

اذا كانت القصة القصيرة — كما يقول فرانك اوكونر — صوت انسان منفرد ، تتكشف فيه هموم احدى الجماعات الهامشية المغمورة ، فأن الرواية هى صوت مجتمع وصورة حياة (١) وهى لا تقدم — حتى لو قدمت — انسانها المنفرد وحده ولكنها تقدمه وهو يعيش حياة مجتمع ، وتتفجر أبعاد هذا المجتمع وملامحه وقضاياه من جنبات هذه الحياة · واذا كانت القصة القصيرة من حيث هى تجربة انسانية حادة الوعى بالتفرد الانسانى أقرب

[١] راجع فرانك اوكونر [الصوت المنفرد] ترجمة د· محمود الربيعى ، القاهرة ، ١٩٦٩ ص ١٦ ·

ما تكون الى القصيدة الغنائية واللقطة المكثفة ، فان الرواية ، من هذا المنطلق نفسه ، لوحة عريضة لحياةلهاقدركبير من الاستمرار والحضورفي الزمان والمكان . انها ملحمة الحياة في عرامتها وحيويتها وتأبيها على الجمود ، وهي الملحمة الوحيدة التي تتلائم مع الحضارة في العصور الحديثة ، أو حسب تعبير فنسنت هي الملحمة الديموقراطية ، ومن هنا فانها – كشكل فني – تمنح الروائي قدرا كبيرا من الحرية التي تفرضها المساحة الزمانية والمكانية الكبيرة التي يتاح له أن يتحرك فيها . وعلى قدر هذه الحرية تكون مسئوليته الفادحة ازاء القارىء والعمل الفني الذي يبدعه على حد سواء . فالرواية تتيح له أن يستخدم كل الحيل والاساليب التي اكتشفتها او استخدمتها كافة الفنون التعبيرية الاخرى، وتتيح لهكذلك الاستفادة من الكثير من امكانيات الفنون غير التعبيرية ، فهي كشكل فني ، فضفاضة الى اقصى حد ومحكمة الى اقصى حد . . « فالفن الروائي – كما يقول جوزيف كونراد – فن بسيط ، لكنه فيفنس الوقت أكثر الفنون الخلاقة كلها صعوبة في التمكن منه ، وأكثرها تعرضا للغموض نتيجة لمخاوف من نذروا انفسهم له . فهو الفن الذي قدر له اكثر من غيره ان يبعث القلق فيقلب الفنان وعقله. فمن الواضح ان خلق عالم ليس بالعمل الهين الا ربما لمن اوتوا الموهبة . والحقيقة ان على كل روائي ان يبدأ بخلق عالم خاص به . . عالم كبير او صغير، فردي وغامض بعض الشيء . . ومع ذلك فلابد ان يشبه شيئا مألوفا للقراء ، يعرفونه عن طريق تجاربهم وأفكارهم وأحاسيسهم » (٢).

الرواية اذن مسئولية فادحة . . وهي عند بعض الكتاب أعظم النشاطات التعبيرية قاطبة . . يقول د . هـ . لورنس : « انا روائي ولكوني روائيا ، اعتبر نفسي ارفع من القديس والعالم والفيلسوف والشاعر . ممن هم جميعا اساتذة كبار في اجزاء مختلفة من الانسان الحي . ولكنهم لا يعرفون الانسان كله قط » (٣) . . فالرواية في نظره هي القادرة وحدها على الاحاطة بهذا الكائن الانساني الحي كله . . ومن هنا فانها تستلزم قدرا كبيرا من الخبرة بالحياة ، ومن البصيرة الفنية القادرة على هتك الحجب عن مظاهرها، واستشفاف الجوهري خلف كل ما هو عرضي فيها . ومن الفهم العميق لاغوار النفس البشرية وصبواتها ، والقدرة الرحبة على استيعاب نزعاتها المتعارضة . . وهي تتطلب فوق كل هذا مقدرة فنية على السيطرة على مادتها – التي هي مادة الحياة ببساطتها وتعقيدها – وعلى اضفاء قدر من الوحدة على هذا التعدد الهائل ، وقدر من التصالح او بالاحرى الانسجام بين عشرات الصفات الكيفية المتعارضة . فالرواية – كما يقول لورانس – هي كتاب الحياة الوحيد المشرق . . « وهي الوسيلة المثالية للكشف عن قوس قزح المتغير لعلاقاتنا الحية . وتستطيع الرواية ان تساعدنا لنحيا ، كما لا يستطيع ذلك اي شيء آخر » « فالرواية تستطيع أن تربي غريزة للحياة بدلا من مجرد نظرية عن الصواب والخطأ » (٤) . أنها ترهف احساسنا بالحياة وتعمق خبرتنا بها . . ولا يمكن أن يعمق خبرتنا بالحياة من ضحلت خبرته بها . ولا يمكن أن يرهف احساسنا بالحياة من غمض احساسه بها .

فقارىء الرواية ينتظر من العمل الروائي – الجيد – أكثر بكثير مما ينتظره من أي شكل فني آخر . ليس فقط لانه يمنح الرواية من وقته وجهده – في عملية التلقي بالطبع – أكثر بكثير من اي عمل فني آخر ويتمنى أن يتوافق الحصاد مع العطاء . ولكن أيضا لان الرواية صورة حياة ونحن ننتظر من الحياة ، مهما كان جفافها ، أكثر بكثير مما ننتظر من اي شيء اخر . . ومن هنا كان من اليسير علينا أن نغتفر لكاتب أقصوصة رديئة او قصيدة ضعيفة ، بينما يصعب أن نغتفر لهذا الكاتب رواية رديئة . لاننا نفترض بداءة ان من يجد في نفسه الجرأة على تقديم عمل روائي ، اي على صياغة ملحمة من ملاحم عصرنا الحديث ، لابد وأن يكون قادرا على مخاطبة شيء عميق فينا . . فالروائي – كالمفكر والعالم – يستهدف البحث عن الحقيقة ، ولكنه على خلافهما لا يخاطب ادراكنا او ذكاءنا . . بل يخاطب شيئا اعمق . . انه – كما يقول كونراد – يخاطب قدرتنا على الفرح والدهشة والاحساس بالغموض الذي يكتنف حياتنا ، يخاطب احساسنا بالشفقة والجمال والالم . يخاطب الاحساس الكامن فينا بالزمالة مع كل الخليقة ، والاقتناع الخفي الذي لا يقهر بالتضامن الذي يؤلف بين قلوب عديدة تشعر بالوحدة ، التضامن في الاحلام ، في الفرح وفي

---

[٢] راجع جوزيف كونراد : [نظرية الرواية في الادب الانجليزي الحديث] مجموعة دراسات ترجمة د. انجيل بطرس سمعان ، القاهرة ١٩٧١ ص١٥٥

[٣] راجع د. هـ. لورنس [المرجع السابق] ص ٢٠٥ .

[٤] د. هـ. لورانس – المرجع السابق ، ص ٢١٨ ، ٢٠٩ .

الحزن ، فى الامانى وفى الاوهام ، فى الامل وفى الخوف ، وفى الاشياء التى تربط البشر كلا الى الاخر • وترتبط الانسانية كلها معـا • الميت بالحى • • والحى بمن لم يولد بعد » (٥)والكاتب الذى يفترض فى نفسه القدرة على مخاطبة هذا الجانب الدفين فى نفوسنا ، لا يستطيع أن يطلب منا ان نترفق به اذا ما فشل أو خيب أملنا فى العثور فى أشكال هذا العالم وفى الوانه • فى أضوائه وفى ظلاله ، فى مظاهر المادة وفى حقائق الحياة ، على كل ماهو باق وجوهرى فى كل منها • على حقيقة وجودها بالذات •

الرؤى •• والوعود

وتستهدف هذه الدراسة ، فى ضوء هـذا التصور النقدى للرواية كفن أدبى كبير ، التعرف على طبيعة الرؤى التى تطرحها روايات الكتاب الجدد فى مصر ، وعلى طبيعة تصورهم للحياة وعلى نوعية القضايا التى تلح على عـالمهم الروائى • كما تطمح بجانب هذا الى التعرف على صلابة الوعود التى تشي بها هذه الاعمال ، ومدى تبشيرها بروائى كبير قادر على أن يأسر فى قبضة عالمه الروائــى تفـاصيل حيـاتنا بهمـومها ومطامحها • وفى البداية أحب ان اقدم بعض الايضاحات البسيطة حول هذه الكلمة الغامضة الفضفاضة « الكتاب الجديد » فهذه الكلمة هنا لا تنطوى على اى تحديد نقدى لجدة التصور الروائى لدى الكاتب وحداثته فى مقابل مفهوم آخر للروائى التقليدى أو القديم ، فبعضهم يمعن فى التقليدية، بينما يمعن البعض الاخر فى التجديد •• ولكنى آثرت استعمالها بدلا من الروائيين الشبان عندما وجدت أن بعض الاعمال الاولى لروائيينا الجدد جاءت بعدما اقترب كاتبها او تجاوز الاربعين من العمر •• والكاتب الجديد بالنسبة لهذا الجنس الفنى قد يكون قديما بالنسبة لجنس آخر كما هى الحال مع محمد ابو المعاطى ابو النجا الذى جاءت روايته الاولى (العودة الى المنفى) (٦)، بعد تمرس طويل بفن القصة القصيرة دام أكثر من عشر سنوات قدم خلالها ثلاث مجموعا قصصية • او مع محمود دياب وشوقى عبد الحكيم اللذين تمرسا طويلا بكتابة المسرحية • غير ان هذا التعبير لا يخلو مع ذلك من دلالة على الجدة فى الرؤية ، أو فى الممارسة • فالكتاب الذين تناولتهم هذه الدراسة يشكلون فى اعتقادى الموجة الجديدة من كتاب الرواية وأحدث الوافدين الى حقلها •• بعضهم كما قلت قد أقترب من الاربعين أو تخطاها ولكنه ما زال رغم ذلك شديد الاقتراب من روح اللحظة الجديدة والادب الجديد • وهذا ما سيتأكد عندما نتحدث عن رؤاهم • ويفد معظم هؤلاء الكتاب الجدد الى واقع الرواية المصرية وفى يده رواية واحدة او على الاكثر روايتان • وهى لا تكفى بأية حال من الاحوال للحكم على روائى ولا تشكل عالما روائيا يمكن الحديث عما به من توازن او اهتزاز • فاذا حكمنـا على نجيب محفـوظ مثـلا (بعبث الاقدار) أو (رادوبيس) لقلنا انهما تقدمان وعدا شاحبا بروائى لا يبشر بمستقبل كبير، لكن نجيبا استطاع أن يتجاوز هذه البدايات الضعيفة، وأن يقدم عالما روائيا كبيرا • ومن هنا فان ما تقدمه روايات الكتاب الجدد اقرب الى الوعود منهـا الى الانجازات الكاملة •• والوعود اما قوية مخلصة او شاحبة واهنة • وفى نهاية هذه الايضاحات احب أن أشير الى أن هناك من مجايلى هؤلاء الكتـاب الجدد بعض من قـدم عددا وفيرا من الروايات مثل محمد جلال ونجيب الكيلانى ،ولكنى لم استطع دراسة أعمالهم هنا لكثرتها ، فللاخير اكثر من عشرين رواية ، وللاول سبع ، وكل منهما يحتاج الى تريث طويل عنده •

ومن الوهلة الاولى سيدهشنا هذا الكم الكبير من الروايات الجديدة • فعندما اقدمت على الاعداد لهذه الدراسة لم اكن اتصور أن هناك هذا العدد الوفير من المحاولات الروائية الجديدة •• كنت اتصور — ومعى كثيرون — أن السنوات الماضية كانت سنوات القصــة القصيرة الجديدة التى ازدهرت مع النصف الاخير من الستينات ، ولكنى تبينت انها كانت بنفس القدر سنوات الرواية • فاذا تحدثنا عن الروايات التى نشرت فقـط وتجاوزنا عن الروايات التى تعثرت فى الظهور سنجد أن هناك « احزان نوح » لشوقى عبد الحكيم ١٩٦٤، و « دم بن يعقوب »له أيضا ١٩٦٧ و « زقاق السيد البلطى ١٩٦٣ » والكداب ١٩٦٦ لصالح مرسى ، و « الطيور الشـاحبة » ١٩٦٩، و « حمام الملاطيلى» ١٩٧٠ لاسماعيل ولى الدين ، و « الموهوم » ١٩٦١ ، و «المغمورة» ١٩٦٧، ليونس الخضراوى، و « ثمار الشوك » ١٩٦٦ ، و « الجراز ٣٥ » ١٩٦٨ و « المزامير » ١٩٧٠ لفتحى سلامة و«اى شيء» ١٩٦٤ و « الذباب والخلاء » ١٩٦٧ لعاطف نصار وهؤلاء هم الكتاب الجدد الذين ظهروا فى الستينات وقدموا أكثر من رواية ، اما الكتاب الذين لم تظهر لهم سوى رواية واحدة فهم أكثر من ذلك بكثير •• هناك ابو المعاطى ابو النجا « العودة الى المنفى » وعبد الحكيم قاسم « ايام الانسان السبعة » ١٩٦٩،

[٥] جوزيفة كونراد — المرجع السابق ، ص ١٥١ .

[٦] صدرت عن دار الهلال « روايات الهلال » ١٩٦٩ فى جزئين .

وأمين العيوطى « الصمت والصدى » ١٩٧٠ ، **ومحمود دياب** « الظلال فى الجانب الاخر »١٩٦٣، **وصنع الله ابراهيم** « تلك الرائحة » ١٩٦٦ ، **وعنايات الزيات** « الحب والصمت » ١٩٦٧ ، وعبد **الوهاب الاسوانى** (سلمى الاسوانية) ١٩٧٠، **ومحمد يوسف القعيد** « الحداد » ١٩٦٩ ،ورزق **عمار** « الحب والجدار الاسود » ١٩٦٧ ،وعلى **شلش** (ثمن الحرية) ١٩٦٣ ، ووهبة غبريال « الدوامة » ١٩٧٠ ، **وزينب صادق** « يوم بعد يوم » ١٩٦٩ ، **وسمير ندا** « الشفق » ١٩٦٨ ،ومكرم **فهيم** « مدير » ١٩٦٧ ، وهدى جاد « الوشم الاخضر » ١٩٦٦ ، **ومحمود عوض عبد العال**« سكر مر » ١٩٧٠ ، **وعزت الامير** « رغبة سرية » ١٩٧٠

ولا ينبغى ان يخدعنا هذا العدد الكبير الذى يقترب من الثلاثين رواية ، وهناك أيضا روايات أخرى غيرها **لمصطفى فودة مصطفى** وما شابه ذلك • لان بعض هذه الروايات بالغ الرداءة ولان بعضها الاخر ملىء بالعيوب التى ترتوى اغلبها من ضحالة الخبرة بالفن وبالحياة • وضحالة الخبرة بالفن والحياة هى القاسم المشترك الاعظم فى اغلب هذه الروايات • لا تنجو منها تماما غير مجموعة قليلة من هذه الروايات • فى مقدمتها « احزان نوح » و « أيام الانسان السبعة » و « الصمت والصدى » و « العودة الى المنفى » و « تلك الرائحة »• اما بقية الروايات فتسهم بأنصبة متفاوتة فى صياغة هذه السمة وفى تأكيد ملامحها •• حيث نحس فى بعضها بتمكن فنى خادع لا تفلح ثيابه الفضفاضة فى اخفاء شبح الخبرة الهزيلة بالحياة ، او الفهم المبتسر للشخصية الانسانية • كما هى الحال فى سكر مر (٧) أو فى الشفق (٨) اللتين نلمس فيهما محاولة واضحة لاضفاء طابع شعرى على فهم كاتبهما القاصر للشخصية الانسانية وللحياة • بينما تسهم ضحالة الخبرة الفنية فى تشتيت وتمييع بعض الكشوف الناضجة التى تبددها المقدرة الضعيفة غير المتمكنة من اساليب التعبير الفنى عن شخصية انسانية خبرتها او عن موقف انسانى اقتربت منه ، كما هى الحال فى « المغرورة » (٩) التى بدد بناؤها الفنى المهلهل الملامح النفيسة للشخصية الانسانية التى اكتشفت ما بها من تعقيد وثراء — اعنى شخصية رجاء •

وفى هدير (١٠) التى فعلت نفس الشىء بالنسبة للموقف الدرامى الذى قدمته ، موقف المواجهة السريعة الضارية بين مرعى — والقرية من ورائه — والراغبين فى هدم مصنع السكر فى قرية الشيخ فضل • فشخصية رجاء فى الرواية الاولى بظروفها الرهيبة وشخصيتها المزدوجة شخصية على جانب كبير من الثراء • كانت تستطيع ان تقدم لنا شخصية روائية قادرة على استيعاب الكثير والافضاء بالكثير • والموقف الانسانى فى الرواية الثانية وهو يتطور بسرعة ويكاد يخلق له قانونه الخاص — قانون العنف — مستقلا عن ارادة المشاركين فيه ملتهما الترددات الصغيرة والمخاوف الكبيرة ، موقف قادر لو عولج بشكل فنى ناضج على الايحاء بالكثير والبوح بالكثير •• لكن ضحالة الخبرة الفنية اخمدت قدرة الموقف والشخصية على البوح والعطاء •• وجعلتهما على أحسن الفروض كاريكاتيرات شائهة لموقف أو لشخصية • وهناك الى جانب هذين النوعين عدد قليل من الروايات البالغة الرداءة ، وقد اغفلت اغلبها فى معرض حصرى للروايات الجديدة حيث لا نعثر فيها على اى قدر من الموهبة الفنية او المقدرة الروائية ولا على فهم او خبرة عميقة بموقف او بشخصية تفتقر الى القدرة على التجسيد الدال الموحى •• ومن هذه الروايات على سبيل المثال « أى شىء » لعاطف نصار •

وعلى ذلك فان أغلب الروايات التى ذكرتها والتى تتفاوت نضجا وموهبة الى حد كبير تساهم بصورة او بأخرى فى صياغة ملامح رؤية الكتاب الجدد للواقع وأسلوبهم الفنى فى التعبير عن تلك الرؤية • وسنحاول الان أن نتعرف على ملامح هذه الرؤية كما تقدمها معظم هذه الروايات الجديدة • سنحاول ان نتعرف عليها من المنطلق النقدى الذى يرى ان الرواية صورة مجتمع وتاريخ حياة تتعايش فيها وتغتنى اغلب الاشكال الحية فى زماننا ، بصورة تجعلنا نعى الغنى والتعقيد الذى تقدمه الرواية لزماننا (١١) • فهذه الروايات تقدم لنا — برغم كل الملاحظات والتحفظات — شهادة جيل وصورة مجتمع واستجابة ذات فنية الى حساسية اللحظة الحضارية المتغيرة • لا تقدمها كل رواية باكتمال ووضوح • ولكن تشارك كل واحدة منها فى صياغة تفصيلاتها ، وفى تعميق

---

[٧] صدرت ضمن سلسلة [كتابات معاصرة] القاهرة ١٩٧٠ .
[٨] صدرت عن دار الفكر الحديث للطبع والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ .
[٩] صدرت عن المؤسسة العربية الحديثة ، القاهرة ١٩٦٧ .
[١٠] صدرت عن دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ .
[١١] راجع ر.م.م. البيريس ـ [تاريخ الرواية الحديثة] ترجمة جورج سالم ، بيروت ١٩٦٧ .

ملامحها ، ولهذا فسأحاول ان أرصد هذه الرؤية ، وهى تتبدى فى اكتمالها المبهر من خلال هذا الابداع الجماعى .. الذى تستجيب كل ذات فيه الى حساسية اللحظة التى تصدر عنها بصورة متغيرة عن الاخرى ولكنها تظل تحمل البصمات المشتركة لهذه اللحظة والتى تؤكد لنا — أعمق من تأكيد المطابع والتواريخ — بان هذه الروايات صدرت فى مصر وفى هذه المرحلة من تاريخها بالذات .. هذه السمات العميقة المشتركة التى تصوغ تفاصيل الرؤية وملامحها .

اسقاط الميراث التاريخى

وأول ملامح هذه الرؤية هى الرغبة القوية فى اسقاط الميراث التاريخى والتحرر من قبضة التواريخ القديمة والرؤى القديمة والقيم القديمة . ومن هنا يتخلل أغلب الروايات حنين عارم الى بداية جديدة ، تتملص من الوشائج القديمة وتنطلق بعدها فى محاولة ضارية لتأكيد الحاضر المشكوك فى حقيقته .. ويطفو هذا الحنين فى بعض الروايات الى سطح الاحداث بالصورة التى يصبح فيها هو موضوع الرواية الرئيسى ، بينما يسقط فى بعضها الى قاع الذهن والموضوع ولكنه يترك بصماته واهنة تارة واضحة أخرى على كل الاحداث . وينعكس ذلك على البناء الروائى فى بداية الرواية من لحظة تشبه لحظة الميلاد ، وتتيح للكاتب والشخصية التنصل من ثقل الماضى والانطلاق فى الحاضر والتشوف الى المستقبل . فتبدأ رواية (تلك الرائحة) (١٢) من لحظة ميلاد حقيقية لبطلها اللامسمى ، لحظة خروجه من رحم السجن المظلم واطراح القيود واستقبال الحياة ، لحظة التسمية والتعرف — بعد الميلاد الفعلى — على الهوية . وتبدأ (الصمت والصدى) (١٣) هى الاخرى من لحظة انفلات بطلها طاهر من قبضة رؤى الاب ونمط حياته وأسلوب تفكيره . ويعلن هذا الانفلات عنوان فصلها الاول « هنا نفترق يا أبى » ثم يؤكده الفصل الثانى « الخروج من القوقعة » حيث ينسلخ البطل بصعوبة من جلد حياته القديمة ويطرح عنه الكثير من بقاياها . ليمضى بعد ذلك فى دربه الخاص الذى لا يلبث أن يعود به من جديد الى نقطة البداية بعد أن يعيش دائرة مكتملة ، كدورة الموت والميلاد فى الميثولوجيا القديمة . وتبدأ « الحداد » (١٤) من لحظة قتل الاب بكل ما ينطوى عليه قتل الاب فى تفسير فرويد من معنى . حيث تتقلص بتقلص قبضته عن عالم الرواية ، قبضة الفهم والامن والرعاية . لتنطلق شخصياتها بعد فقدانه كل فى طريق . وتقدم لنا (حمام الملاطيلى) (١٥) بطلها فى لحظة شبيهة بلحظة الميلاد ، لحظة وفوده وحده الى المدينة الكبيرة (القاهرة) يبحث عن كينونته فيها وعن عمله بعدما تهدم — وهو فعل له دلالته — بيته القديم ومدينته القديمة وتصدعت بعدهما أسرته وعلقت عليه الامال ليقيم عمدها الايلة للسقوط . أما « الحب والصمت » (١٦) فتبدأ ايضا من لحظة موت هشام شقيق البطلة وسقوط قسم بأكمله من حياتها معه لتتفتح نجلاء بعيون داهشة على الواقع من جديد وترى كل شىء فى ضوء مغاير وبفهم مختلف . وتستمر الرواية بعد ذلك فى تقديم تفاصيل قصة هذه الولادة الجديدة بما يصاحبها من آلام المخاض .

واذا كانت بداية الرواية من لحظة شبيهة بلحظة الميلاد هى وسيلة بارزة من وسائل اطراح الميراث التاريخى فى كتابات الروائيين الجدد فانها ليست الوسيلة الوحيدة . فرواية (أيام الانسان السبعة) (١٧) تقدم مرثيتها المدهشة لانهيار العالم القديم بعين بينما تضع عينها الاخرى على العالم الجديد وهو يتخلق تحت جلد هذا العالم القديم وضده .. ممثلا فى بطلها عبد العزيز ابن هذا العالم القديم وبذرة العالم الجديد فى داخله ومن هنا لا يجد عبد العزيز فى نهاية الرواية مناصا غير الانخراط فى عالم المقهى الذى نما على هامش ثلة الرفاق وضد عالمهم .. بينما تقدم رواية « الظلال فى الجانب الاخر » (١٨) فى بطلها جميل ذروة الرفض الارعن لكل أبعاد الميراث التاريخى ومحاولة العثور فى مزيجه الغريب من الفوضوية والعدمية على بديل مرتجى . كما قدمت هذه الرواية فى شخصية روز أكمل تعبير عن الشخصية المتحررة من الموارث التاريخية . حيث لا أب ولا أم ولا دين ولا ارتباط من أى نوع بقيم أو

---

[١٢] صدرت عن مكتب يوليو ، ١٩٦٦ .
[١٣] صدرت من الهيئة المصرية للتاليف والنشر ، ١٩٧٠
[١٤] صدرت من [كتاب الطليعة] ١٩٦٩ وهو احد المنشورات الفردية .
[١٥] صدرت ضمن سلسلة [كتابات معاصرة] ١٩٧٠ .
[١٦] صدرت عن دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ .
[١٧] صدرت عن دار الكاتب العربى ، القاهرة ، ١٩٦٩ .
[١٨] صدرت عن الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

علاقات • بصورة تبدو معها روز وكأنها البشرية البكر قبل أن تدركها مرارات الحياة والتلوث •

ولا تلوح هذه الرغبة الحادة فى اسقاط الميراث التاريخى فى الروايات الجديدة ترفا فنيا أو رفضا وجوديا لا يعى شرطه الحضارى • ولكنها فى حقيقتها ضيق واع بكل مثالب العالم القديم وسخافاته • فولادة بطل «تلك الرائحة» الجديدة طرحت وراء ظهرها سنوات السجن والاعتقال ومصادرة حرية البطل فى الرأى وفى التفكير • ورغبة طاهر فى (الصمت والصدى) فى الانفلات من اسار العالم القديم هى ضيق بتلك الازدواجية الرهيبة التى ما لبثت أن واجهته فى الواقع من جديد متمثلة فى شخصية الزواوى رئيس تحرير المجلة التى يعمل بها •• وهذا الازدواج الذى جنى على حياة جيلنا وتكوينه هو الذى دفع جميل فى (الظلال فى الجانب الاخر) الى الهروب منه وفقدان الطريق تحت وقع سياطه الدامية • وهو يهرب من أبيه الذى نجد أنه صورة مصغرة ــ لتناسب المدينة الصغيرة ــ من زواوى (الصمت والصدى) الذى يلائم الطموحات الكبيرة والمدينة العاصمة • أما الولادة الجديدة فى (حمسام الملاطيلى) و(الحب والصمت) و(الحداد) فانها بنت التوق العارم الى التحقق فى عالم تتنامى فيه أساليب الحيلولة بين الانسان والتحقق • وتنشر فطائطه الاحابيل فى طريق أى وافد جديد •• انها تعبير عن توق الوافدين الجدد الى العثور على مكان وأسلوب وحياة •

الوعى الحاد بالذات والعراك معها

بعد اسقاط الميراث التاريخى ومن خلال التوق العارم الى التحقق فى عالم فظ تطل السمة الثانية لرؤى هذه الروايات الجديدة •• وهى تقديمها لمجموعة من التنويعات الخصبة على شخصية اللامنتمى بدءا من المغترب حتى العدمى مرورا بالضائع والعازف عن الحياة والمرعوب وفاقد الامان • وليس غريبا أن تبدو هذه السمة وكأنها المقابل المضاد لتركيز أغلب روايات الجيل الماضى على شخصية المنتمى بتنويعاتها المتعددة بدءا من العصامى المنتمى لذاته ــ بطل أغلب روايات عبد الحليم عبد الله ــ حتى الشيوعى الملتزم بقضايا مجتمعه • ويبدو بطل الروايات الجديدة رافضا للمجتمع كلية كما هى حال جميل فى « الظلال فى الجانب الاخر » ولا مباليا برفض المجتمع الباطنى له ومهادنته الظاهرية كما هى حال بطل (تلك الرائحة) أو رافضا للمجتمع ومرفوضا منه فى الان نفسه ، وقدقدمت« احزان نوح » (١٩) تكثيفا رائعا لهذه الشخصية الثرية المعقدة • أو لامنتميا مفرطا فى السذاجة ، كما هى حال بطل « الموهوم » (٢٠) •غير أنه يظل فى جميع الاحوال غير راض عن نفسه • فبطل الرواية الجديدة بطل مضاد ان جاز التعبير ، سلبى ، متردد ، لا يحقق ، ان حقق ، غير الانتصارات الصغيرة • يشذ عن هذه القاعدة غير الثائر الابدى الذى جسدته باقتدار ونضوج (العودة الى المنفى) من خلال شخصية عبد الله النديم ، وان كان فى هذا الثائر الابدى الكثير من صفات بطل الرواية الجديدة أو بالاحرى الكثير من طموحات هذا البطل • فهو الرافض الابدى لكل نوازع اليأس والمهادنة والتردد • وهو الامل الكبير لآلاف المطحونين الذين يفتقدون المعبر عن رؤاهم ، وهو المشحون الدائم بنزعة عدم الرضى عن الواقع وعن النفس • وفيه أيضا من صفات البطل الجديد ، أو البطل المضاد ، تلك الصفة الهامة وهى الوعى الحاد بالذات ، بامكانياتها وقدراتها والرفض الدائم لنزعات هذه الذات ومطامحها الدنيئة •

وينعكس هذا الوعى الحاد بالذات على أبطال هذه الروايات الجديدة من خلال عراكهم الدائم مع ذواتهم •• عراك مع الذات لا مع الواقع الخارجى بالدرجة الاولى وان شمل هذا العراك تفاصيل الواقع الخارجى باعتباره مشاركا فى تكوين الذات • اذ تنعكس هموم العالم الخارجى فى هموم الذات لا فى نشاط خارجى لها • فقد كتبت أغلب هذه الاعمال أو فى بالاحرى بنت جيل الصمت والاستخفاء ولعبة القمع والمطاردة • بنت العكوف الدائم على الذات والخوف الذى تسلل من الخارج حتى استوطن فى الداخل واستقر •• وينبع العراك مع الذات من الوعى الحاد بامكانيات الذات وتشوفها الحاد الى التحقق واقتران هذا الوعى والتشوف بالعجز والخوف وفقدان الامان • وتجسد لنا « تلك الرائحة » من خلال رصدها الهادىء الذى يبدو للوهلة الاولى بجمله الخبرية الباردة وكأنه رصد محايد ، ولكنه فى الواقع ليس كذلك ، تجسد لنا وطأة هذه الحالة على انسانها الذى قذف به فجأة فى عالم غريب ، لا شىء فيه ، برغم صلابة الجمل الخبرية ، يبدو حقيقيا • من خلال بطلها الواقع دوما فى قبضة عسكرى المراقبة الذى تبدأ به الرواية وتنتهى بانتظاره • كما تقدم

[١٩] صدرت عن الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٤ م.
[٢٠] صدرت ضمن سلسلة « كتابات معاصرة » القاهرة ١٩٧٠ م.

« رغبة سرية » (٢١) من خلال لامبالاة بطلها اللامسمى تنويعا آخر على تلك الشخصية التى احس راويها انها ماتت قبل ان تقدم على الانتحار بكثير ‥ وهذا أيضا ما تجسده شخصية نوح فى (أحزان نوح) حيث نحس بالعراك مع الذات فى أحد معانيه وقد استحال الى نوع من فقدان الذكورة ‥ حيث يحس الرجل بأنه لم يصب فى انسانيته فحسب ، بل أصيب أيضا فى سيطرته القضيبية على أنثاه · اصابة تفقده السيطرة على نفسه وعلى العالم من حوله · وهذا أيضا هو ما يفسر لنا ذلك العجز الجنسى غير العضوى الذى يعانى منه بطل « رغبة سرية » اللامسمى ‥ الفاقد للاسم وللهوية وللتحقق ، وبالتالى للسيطرة الذكرية على أنثاه ‥ ومن هنا فان الانثى تحاول فى بعض الروايات أن تضطلع بدور الرجل بعدما عجز الرجل عن مباشرة مسئولياته · وهذا ما يدفع عائشة بطلة « الحداد » الى أن تكون أكثر تشددا من اخيها حامد ‥ صحيح انها تلوح فى حبها العارم لابيها وحرصها على الانتقام له وكأنها التجسيد الحى لاليكترا الطامحة الى الثأر لابيها · خاصة وانها تتهم امها بقتله · لكن اورست يبدو فى الرواية مثيرا للرثاء الى أقصى حد · ليس لانه أحد المتعاركين الدائمين مع ذواتهم ‥ أحد الذين تعذبهم الاسئلة الهاملتية وتستل من أعماقهم نضارة الفعل والمبادرة فحسب · ولكن أيضا لانه كلا منتمى لايعرف اين تكمن الحقيقة ولا أين يختفى الخطأ ·

لكن الاضطلاع بدور الرجل لا يحقق للمرأة ذاتها ، بل يسهم بالاحرى فى انحرافها عن جوهرها فتفقد خلال هذا الانحراف التحقق ‥ وفقدان التحقق سمة من السمات الاساسية لبطل الرواية الجديدة سواء أكان رجلا أو امرأة ‥ فأميرة بطلة« يوم‌بعد يوم » (٢٢)تقدم لناالصورة الانثوية من اللامنتمى ، فى فقدانها للتحقق ، وفى لامبالاتها التى وصلت الى درجة أصبحت معها شبه منومة مغناطيسيا ، تعيش حياتها يوما بعد يوم بصورة روتينية لا ارادية ، تحكمها الاستجابات الغريزية وحدها ، حتى تنفلت سعادتها من بين ايديها برغم انها كانت بين أصابعها طوال الوقت ‥ ليس فقط لانها تعيش حياتها فى لامبالاة مطلقة ، ولا لانها تحاول أن تضطلع بدور رجل ، ولكن لانها ظلت ككل المغتربين ، تؤثر الوهم على الواقع ‥ تؤثر مصطفى على صلاح · ورشدى عمر بطل « الحب والجدار الاسود » (٢٣) صورة أخرى من أميرة بمواجهته الدون كيشوتيه لجدار الموت الاسود ، وبتضحيته الغريبة بحبه على مذبح هذا الموت الرهيب ‥ والتعارض بين الموت والحب فى هذه الرواية ليس الا تعارضا بين الموت والحياة · ودرء الموت لا يحقق انتصارا للحياة ولكنه يترك البطل لحياة أقرب الى الموت ‥ حيث لا حب ولا تحقق ، بل دوران اعمى فى ساقية لا تعرف الهوادة · وهذه أيضا هى حال سامى بطل (المغرورة) فى عجزه عن مواجهة تعقد الحياة وتناقضها فى صورة رجاء ·

ويتحول العجز عن مواجهة الحياة فى بعض الروايات الى هزيمة مريرة كما هى الحال فى « دم ابن يعقوب » (٢٤) و « الشفق » و « سلمى الاسوانية » (٢٥) هزيمة للبطل‌ولتصوراته ورؤاه ‥ وكذلك فى (الظلال فى الجانب الاخر) و(سكر مر) و(رغبة سرية) ‥ وترتوى هزيمة البطل فى الروايات الجديدة من أكثر من رافد ‥ من اغترابه وعراكه الدائم مع ذاته بالطبع ، ومن صلابة وجهامة الواقع الذى ينازله ‥ فمصطفى بطل « سلمى الاسوانية » بطل سلبى يعانى من التمزق بين عالمين وحضارتين ، يعجز عن المشاركة فى الدفاع عن شرف سلمى التى تهب القبيلة كلها للذود عنه ، ويعجز أيضا عن الدفاع عن قناعاته الخاصة وعن الاسلوب الذى يبتغيه لحياته ‥ وكان لابد لمثل هذا البطل السلبى أن ينهزم أمام صلابة القيم التى يرفضها وأن يستسلم لها صاغرا ‥ الا تخفف محاولة الكاتب التوفيقية فى نهاية الرواية من وقع الهزيمة على نفسه أو علينا ‥ وهذا البطل المهزوم أيضا هو ما تحاول (دم بن يعقوب) أن تجسده من جديد وهى تصوغ مأساة ابن يعقوب فى صورة عصرية · تستعير من الميثولوجيا الدينية اسم البطل يوسف وروح المأساة الدينية المثقلة بالذنب والعذاب ، وارض الواقعة فى منطقة الفيوم بسحرها وتراثها · ثم تنطلق بعد ذلك لتنسج تفاصيل مأساتها الخاصة بمادة تكتظ بالمأثورات الشعبية لتقدم لنا من جديد الشخصية الاثيرة فى عالم شوقى عبد الحكيم الفنى ‥ شخصية البرىء المدان الذى لا يتيقن أبدا من دينونته ولا من براءته ‥ ولكنه‌يظل‌يكتوى‌بنيران

---

[٢١] صدرت عن مطابع دار الهنا ، القاهرة ١٩٦١ .
[٢٢] روايات الهلال ، ١٩٦٩ .
[٢٣] دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ .
[٢٤] دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ .
[٢٥] دار الكاتب العربى ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

الاعراف المرهقة فى شخصيتى سرحان ويوسف • غير أن مأساة أى منهما لا تبلغ فى ضراوتها او شمولها مأساة نوح الذى أخطأ فهوى فى لحظة ما بين النوم واليقظة ، وظل طوال الرواية يعانى من عذابات الداخل ونظرات الخارج الفاهمة المتفحصة وهى تحمل فى تضاعيفها الادانة •

وطـأة الصـمت •• والرعب

وعندما يحس الكاتب الجديد بفداحة الهزيمة وفقدان التحقق فانه يلجأ فى بعض الاحيان الى الماضى •• الى التاريخ •• وأبرز الروايات الجديدة التى لجأت اليه هى (العودة الى المنفى) لا لتقدم لنا فحسب، كماتفعل الروايات التاريخية صورة للوجود فى الماضى ، ولكنها تحاول أيضا أن تقدم هذا الوجود فى الماضى وهو يلقى بظلاله على ميوعة الوجود فى الحاضر •• حيث الاغتراب ـ واللاتحقق •• ومنهنا فانها تختار نموذجا رائعا للقدرة علىتجاوز الاغتراب واللاتحقق •• ليس لانه سياسى ثائر ـ والثائر فى رأى ايريك فروم أحد اثنين قادرين على تجاوز الاغتراب •• ولكن أيضا لانه نموزج حى لفكرة الثورة الدائمة والتمرد الدائم على كل القيود،والانتصار الدائم حتى فى الهزيمة • وهناك الى جانب هذه الرواية (ثمن الحرية) (٢٦) التىاستعارت عنوانها من عنوان الترجمة العربية لمرحية عمسانويل روبلس « مونسيرا » والتى حاولت أن تنقل لنا صورة لبطولة الشعب الجماعية فى معركة المنصورة •

تبقى بعد ذلك من السمات الخاصة بالشخصية الروائية ما يمكن تسميته بالشخصية الناقصة •• وهى الشخصية الناقصة التكوين ، الناقصة الخبرة،الناقصة الوعى بالعالم • • وهى شىء غير الشخصية الضحية •• لان الشخصية الضحية تعكس موقفا من العالم ازاء شخصية متكاملة • اما الشخصية الناقصة فانها هى التى تدفع يونس الخضراوى الى اختيار شخصية على درجة كبيرة من السذاجة فى (المغرورة) ومن ضحالة الخبرة بالحياة فى « الموهوم » وهى التى تدفع محمود عوض عبد العال الى اختيار شخصية نصف بلهاء فى « سكرمر » ولاتعكس هذه الشخصيات البلهاء موقفا من العالم حيث تجسد لنا الدهشة الدائمة لبكارة الحياة الانسانية وهى تواجه كل لحظة بتعقيدات لا عقلانية فى جوهرها كما هى الحال فى شخصية روز فى (الظلال فى الجانب الاخر) او فى شخصية اسما فى « هدير » ولكنها تشى بأن شخصية البطل الروائى الجديد برغم كل الملامح التى تعرفنا عليها مازالت فى طور التكوين ويرتبط بهذا الملمح سمة أخرى وهى الهروب من تقديم الهموم الباطنية المعقدة للشخصية •• فأغلب الشخصيات ذات اعماق ضحلة ، احادية ، لا تنوع فيها ولا تعقيد • واذا ما قدمت أعماق الشخصية الروائية فى بعض الروايات الناضجة فانها لا تقدم بنفس الصورة التقليدية التى عرفناها فى المدرسة التحليلية والواقعية ولكن بصورة مغايرة • تعتمد على الخارج وترصد أعماق الشخصية من خلال الصورة الخارجية لافعالها • هذا الرصد الذى يبدو للوهلة الاولى محايدا لكنه ما يلبث ان يشف عن عمق وعن موقف • والرواية المصرية الجديدة تواكب فى هذه السمة الرواية العالمية الحديثة •• والهروب من تصويرالشخصيةالباطنية للشخصية نتيجة حتمية لرغبة الكاتب فى انقاذ شخصياته الدائمة العراك مع ذاتها من وهدة الميلودراما والزعيق الانفعالى • هكذا يبدو فى الروايات الجيدة اما فىالروايات الرديئةفأنهيترتب على ما دعوته بالشخصية الناقصة •

ننتقل بعد هذا الى سمة جديدة من سمات الرؤية التى تطرحها هذه الروايات الجديدة وهى وقوع الموقف الروائى مهما اختلفت مادته وتنوع نسيج أحداثه تحت وطأة الصمت والرعب والمهانة • وكل التشوهات النفسية التى تعانى منها شخصيات هذه الروايات الجديدة هى بنت هذا المناخ وبنت تكوينها فى ظله ـ لا تسلم من هذا رواية واحدة من تلك الروايات الجديدة،وتبلغ هذه السمة ذروتها فى « تلك الرائحة » و « أحزان نوح » و (الصمت والصدى) حيث زحف القهر الخارجى حتى استقر فى داخل الشخصية ونغص عليها حياتها • • فكل تصرفات بطل (تلك الرائحة) معلقة بين عقربى ساعة عسكرى المراقبة ، تنزلق من فوق وعيه دون أن يعيشها فصورة العسكرى تحول دائما بينه وبين التحقق فى أية لحظة• •ومن هنا فأن دهشته الدائمة ازاء الموجودات تنطوى على افتقاد حاد للالفة مع الواقع •• وعلى حنين عارم للفهم والمشاركة • لكن الرعب من عسكرى المراقبة والاحساس بالمهانة ازاء الدفتر الصغير الذى يوقع فيه ، وحضوره الفظ حتى فىلحظات غيبته،تشكل سبلالحيلولة بينه والاندماج فى العالم وبالتالى بينه وبين التحقق • ويظل يحيا طوال الرواية تلك الحياة العادية التى تبدو وكأنها كابوس لا يطاق ولا يحتمل • وهذه الحياة غير الانسانية المرعبة التى تنزلق من فوق

[٢٦] المؤسسة العربية الحـديثة ،القاهرة ١٩٦٣ م

قشرة الوعى هى ما يكتوى بها ليل نهار نوح بطل (أحزان نوح) حيث يتأرجح على الحافة الفاصلة بين البراءة والديونة · وقدمه تنزلق فى رمال الشك الناعمة رويدا رويدا فتهوى به من علياء مكانته الاجتماعية وصلابته ورجولته الى حضيض شذاذ الافاق ومدمنى المخدرات · وتندمج مأساته بمأساة الازواج المخدوعين،وهو يجد عند الشحات وفى حديثه شيئا يضرب على الجرح منه · أما فى (الصمت والصدى) فأننا نتعرف على مجموعة من الاصداء المتنوعة للصمت الرازح وهو يخيم مع الرعب والمهانة على افق الرواية · فنشهده وهو يشوه الحياة فى أعماق طـاهر ويستلب منه القدرة على المبادرة · بينما ينعكس على عثمان عنفا ضاريا يجهز به على مرارة الاحساس الدامى بالدونية وتحقير الذات · اما حازم فان مذهبيته الجامدة تساهم مع وطـأة الصمت الرازحة فى احالته الى دون كيشوت تارة والى انسان فاقد للدور اخـرى · وتقـدم لنا « الحداد » تنويعا آخر على هذه السمة من خلال المناخ الذى يسيطر على الاحداث فيها والذى افسـدته تلك المسـحة البوليسية الضارة ، حيث تتحـول محاولة الضـهرية للتغلب عـلى رعبهـا من أبـى الليـــل الـى أنشـــطوة رعـب يفـزع شـبحها الجميـع · أمـا (الحب والصـمت) فانهـا تعمـد الى اصـطياد الاثر المباشر لضراوة القهر السياسى وهو يجهز على جذوة الحياة فى أعماق بطلها أحمد ، وتحاول أن تخلص هذه الاحداث الضارية من ميلودراميتها الواقعية بتقديمها هذا القهر وهو ينعكس على مرآة نجلاء ابنة الطبقة المرفهة التى يمارس هذا القهر لمصلحتها · أما « حمام الملاطيلى » فانها تقدم من خلال الاحداث العارية النابضة بالحياة فى حمام الملاطيلى هذا المناخ الخانق وهو يلقى بتشوهاته فى نفوس الجميع فيدفع بعضهم ـ كمال ـ الى العنف الدموى بعدما تردى فى حمأة الشذوذ · ويدفع الاخر ـ أحمد ـ الى خيانة ولى نعمتـه والتخلى عن القلب الوحيد الذى نبض بحبه فى المدينة الضارية عندما يترك نعيمة للموت دون أن يحس ـ وقد تبلد حسه ـ بأدنى مسئولية عـن مصرعها · وفى بقية الروايات نحس دائما بشبح عسـكرى خافت فى بعضها حتى لا يكاد يرى ·· زاعق فى بعضها الاخر حتى يكاد يستحوذ على كل شيء ولكنه موجود أبدا ·· يفرض ظله الكئيب على كل شيء ·

وفى انفلات الرواية الجديدة من هذا المراقب المخيف بعينـه البـاردة وسـحنته الجهمـة تحاول ـ وهذه من سماتها الهامة ـ أن تجوس أرضا جديدة وأن ترتاد آفاقا بكرا ·· وارتياد الافاق الجديدة من ملامح العالم الذى تقدمه هذه الروايات الجديدة ومن سمات تمردها على العالم المألوف والمناطق القديمة التى قتلتها الروايات السابقة ذرعا ·· ويمتزج هذا الارتيـاد البكر للافاق الجديدة بنوع من الحنين الى الارتداد للارض والى الجذور القديمة والرؤى الاصيلة · فبرفقة الجوس فى البقاع الجديدة نجد العودة الى القرية والارتباط بالارض · والحقيقة ان بعض الروايات الجديدة تفتح عيون القارىء لاول مرة على بقاع مجهولة وعلى مناطق جديدة للخبرة والمعرفة، فرواية « **سلمى الاسوانية** » تقدم منطقة جديدة من الارض والبشر وتؤكد من خلالها ان الرواية الواقعية مازال أمامها الكثير من المناطق البكر التى تحتاج الى تقديم · وان علينا أن نتريث قليلا قبل الجـرى وراء الاشكال الروائيـة المستحدثة ·· و « حمام الملاطيلى » تجوس بنـا منطقة جديدة وهى لما تبرح القاهرة التى حسبنا اننا قتلناها بحثا · و «زقاق السيد البلطى» (٢٧) تدلف الى عالم الرواية ومعها مجموعة جديدة من البشر لم يسمع لهم صوت فى الرواية المصرية من قبل · و (الظلال فى الجانب الاخر) تفتح عيوننا على عالم جديد بكل ما فيه من ألوان وظلال · و « المغرورة » تذهب ببطلها الى الواحات وان عجزت عن الالتفات الى ثراء الرقعة التى دفعت بطلها اليها · و (مدير) تحاول ان تقتنص لنـا تفاصيل الصورة فى منطقة صناعية صغيرة وهى تواجه تهديدا بالعودة الى حضن الزراعة وحده من جديد ·

أما «أيام الانسان السبعة» فانها تقدم لنا اكمل رؤية واقعية ناضجة للقرية المصرية ، بعد أن فشلت القرية المصرية فى العثور على نفسها من قبل على الورق ·· لا فى قرية هيكل الرومانسية ولا فى قرية عبد الرحمن الشرقاوى التى أوقعت الواقع فى براثن رؤاها المسبقة عنه · وهذه العودة الحقيقية الى الارض والى القرية قرينة الرغبة فى جوس البقاع البكر ·· لان القرية برغم كثرة ظهورها فى الرواية المصرية مازالت لم تظهر فيها على حقيقتها بعد ·· وقد قدمت الرواية الجديدة القرية المصرية الحقة لاول مرة وكانت « أيام الانسان السبعة » مع « أحزان نوح » أنضج المحاولات الروائيـة المصرية لتقديم القرية ·· وقد قدمت روايات جديدة اخرى القرية وارتدت الى الارض ، فهنـاك أيضا « الحداد » و « الصمت والصدى » و « دم بن يعقوب » و « مدير » و « الحب والجدار الاسود »

---

(٢٧) صدرت ضمن سلسلة [الكتاب الذهبى] ، دار روز اليوسف ، القاهرة ١٩٦٣ ·

وقد قدمت كل واحدة من هذه الروايات شيئا حقيقيا فى القرية المصرية ، وبلورت ملمحا بارزا من ملامحها او شخصية هامة من شخصياتها الاثيرة ٠

ويرافق هذا الجوس فى البقاع الجديدة والارتداد الى القرية ٠ ظاهرة أخرى هى تقلص الرقعة التى تدور فيها الرواية ٠ ويتجاوز التقلص نطاق المكان حتى يشمل الزمان كذلك ٠ فالزمان الروائى مختصر الى أقصى حد ، وأحد هذه الروايات وهى « سكرمر » تبدأ فى الثامنة والنصف صباحا وبطلها يشرب كوب شايه الصباحى فما أن ينتهى من رشفه على مهل فى العاشرة من نفس الصباح حتى تكون الرواية قد اكتملت فصولا ٠ فالشخصية الانسانية لم تعد فى حاجة الى رحلة فى الزمان حتى تكشف لنا عن ذاتها وعن تطورها ٠ فقد منحت الاساليب البنائية الجديدة الكاتب امكانية الانتقال السريع بين الازمنة بصورة تتيح له أن يهتك الحجب عن مناطق دفينة فى أغوار الشخصية ثم يواصل بها المسير ٠ وحتى اذا ما اتبع الكاتب الاسلوب التقليدى أو تقيد بالوقائع التاريخية كما فى رواية (العودة الى المنفى) فان الكاتب يستطيع أن يستفيد من امكانيات القص الروائى فى تقديم مادته ٠٠ وهذا ما فعله أبو المعاطى أبو النجا عندما بدأ روايته بأحداث عام ١٨٧٧ ثم ارتد بعد ذلك الى احداث تسبقها بما يقرب من عشرين عاما ٠ ويتم هذا التقلص فى الزمان والمكان لحساب العمق والتركيز فى أغلب الروايات الناضجة ٠٠ بينما يشف فى الروايات الرديئة عن ضحالة الخبرة الانسانية وعن عجز الكاتب عن الحركة خارج رقعة خبرته الضامرة ٠

تبقى بعد ذلك مجموعة من السمات التى تساهم فى تحديد بعض الزوايا الجزئية للرؤية التى تقدمها هذه الروايات ٠٠ وهى تساهم فى تحديد بعض الزوايا الجزئية لانها لا تظهر الا فى عدد محدود من الروايات ٠٠ مثل محاولة التأكيد على أن الواقع لا يحتمل المزيد من الضغوط وعلى انه يرهص بالانفجار ٠٠ وتذهب الرواية عند طرحها لهذه الفكرة الى العودة للسنوات السابقة على عام ١٩٥٢ بقليل ٠٠ لتدير احداثها فى مصر الحبلى بالثورة كما حدث فى (هدير) و (الحب والجدار الاسود) ، او الى التركيز على السنوات السابقة ليونيو عام ١٩٦٧ لتدير الاحداث خلال الشهور السابقة للنكسة ، كما فعلت (الصمت والصدى) وهى تضع ايدينا على جماعات المنتفعين الجدد ، الذين لا يقلون ضراوة عن جمعية المنتفعين التى وقفت خلف العدوان على مصر عام ١٩٥٦ ، وهم يتآمرون على روح مصر عام ١٩٦٦ ويمهدون السبيل لهزيمتها ٠ والى جانب هذه السمة نجد سمة أخرى هى غياب الوعى الطبقى لدى عدد كبير من الكتاب الجدد ٠ هذا الوعى الكامن فى لا وعى اية شخصية وان لم يظهر على سطح وعيها والذى يشارك فى صياغة الكثير من تصرفاتها الصغيرة الدالة وفكرياتها ورؤاها ٠ والذى يؤدى غيابه الى سقوط الكثير من الجزئيات المتناهية الصغر واغفالها برغم دورها الفعلى فى اضفاء الحس والحياة على الموقف او الشخصية ٠ وتبدو هذه الظاهرة فى بعض الاحيان وكأنها احدى النتائج السعيدة لتذويب الفوارق بين الطبقات ، وهناك أيضا الرغبة فى الاستفادة من كل انجازات الشكل الروائى الحديث ٠ ويشوب هذه الرغبة فى بعض الاحيان عجز عن السيطرة على هذه الادوات الفنية الجديدة ، او عن توظيفها توظيفا فنيا محكما يضيف الى العمل الفنى ولا يثقل كاهله ٠ وهناك ايضا تلك الاحالات الشعرية الكثيرة الى الميثولوجيا الدينية والانسانية والتى توسع افق العمل الروائى ، وتثريه بالايماءات فـ (دم ابن يعقوب) تشير الى الميثولوجيا الدينية فى قصة يوسف ، وتستخدم الكثير من المأثورات الشعبية ، والمشاهد التمثيلية المرتجلة فى تعميق أبعاد الحدث والشخصية فيها ـ وتشير « الصمت والصدى » الى ارم ذات العماد وهى تتصورها قرينا لمدينتنا السادرة فى الغى والعماء ٠ بينما تستخدم «الشفق» كمية هائلة من الاحالات الى الميثولوجيا اليونانية باسلوب نجيب محفوظ فى الاحالة الى التاريخ والى الاسطورة فى أعماله الروائية الاخيرة ٠ وهناك أخيرا مجموعة من الاخطاء اللغوية والنحوية الكبيرة فى معظم هذه الروايات ، لا استثنى منها غير ثلاث أو أربع ٠٠ وبعد ذلك يمكننا الانتقال الى التعرف على الوعود التى تطرحها هذه الروايات من خلال كتابها ٠

بماذا تعد هذه الروايات الجديدة ؟

يقول جوزيف كونراد : أن كل عمل يتطلع بأية درجة من التواضع ، الى الوصول الى مرتبة الفن ، يجب أن يحمل ما يبرر ذلك فى كل سطر من سطوره ،(٢٨) ، وأنا لا أريد أن أكون فى طهرانية كونراد ولا فى تشدده ، وان كنت أميل الى تأييدها ٠٠ فلا اتطلب ان تحمل الرواية ما يبرر

[٢٨] جوزيف كونراد [نظرية الرواية فى الادب الانجليزى الحديث] ، ص١٤٩ ٠

تطلعها الى بلوغ مرتبة الفن فى كل سطر من سطورها .. لانى أعرف أننا نتاج مجتمع متخلف وأبناء ظروف قاسية ، وأن الكاتب عندنا يحتاج الى فترة طويلة من التمرس والمران حتى تنضج ادواته وتتبلور موهبته الفنية . ومن هنا فان ما أطلبه مفرط فى التواضع اذا ما قيس بتشدد كونراد ، وهو أن تنطوى الرواية فى بعض أجزائها على تلك اللمسات السحرية التى تلمس شغاف القلب والتى ندعوها بالموهبة الفنية ونفشل فى تعريفها تعريفا دقيقا ، لانها تتمرد دائما على كل الاطر . وعلى قدر غنى هذه اللمسات وتاكدها يكون نضج الرواية وقدرتها على الاستحواذ ، فهذه اللمسات تنطوى على البصيرة الفنية القادرة على استشفاف ما فى أعماق المواقف والشخصيات . وهى القادرة وحدها مع الثقافة والوعى والخبرة بالحياة على خلق الروائى الجيد .. وتوحى بعض هذه الروايات الجديدة ، بان وراءها روائى جيد بالفعل .. كاتب مقتدر قادر على السيطرة على فنه ومادته . يعد بالكثير ويستطيع أن يحقق بالمثابرة الكثير .. بينما يوحى بعضها بكاتب غض العود تسرع فى كتابة روايته الاولى ، وكان الاجدر به أن « يرقد » عليها فترة أخرى من الوقت حتى تنضج تجربته وحتى يشتد عوده .. بينما يوحى قسم ثالث منها بأن كاتبها مازال واقعا تحت سيطرة كاتب شهير ، هو نجيب محفوظ غالبا وعبد الرحمن الشرقاوى أحيانا .. وسأحاول أن أتحدث عن هذه الاقسام الثلاثة بشيء من التفصيل :

ويضم القسم الاول ما يمكن أن ندعوه بالانجازات الحقيقية للرواية الشابة .. وهى انجازات قليلة اذا ما قيست بعدد الروايات الذى يربو على الثلاثين .. حيث لا تتجاوز الخمس وهى « العودة الى المنفى » و « الصمت والصدى » و « أيام الانسان السبعة » و « أحزان نوح » وتأتى بعدها تلك الرواية القصيرة (تلك الرائحة) ففى هذه الروايات الخمس نستطيع بالفعل أن نضع ايدينا على موهبة فنية أصيلة ، خبرت الموضوع الذى تناولته ثم أحكمت السيطرة على بنائه فشفت عن بصيرة مرهفة بالواقع والانسان . ففى « العودة الى المنفى » نحس بقدرة الكاتب البارعة على النفاذ الى جوهر موضوعه والسيطرة على السيل الوافر من المادة التاريخية المحيطة به . وتعكس هذه الوفرة النسبية للمادة التاريخية حرصا واضحا على الخبرة بشتى جزئيات الموقف الروائى المتناهيةالصغر . كما تنطوى فى أسلوب تناولها وعرضها على وعى الكاتب بما وراء الظواهر العرضية من جوهر ثابت . فهو لا يغفل عن تصوره الانسانى للشخصيات ولا عن تفسيره لمواقفها وان حرص على اسقاط هذا التصور وذاك التفسير دائما الى قاع الذهن . وفى « الصمت والصدى » نتعرف على مواليد الصمت والكبت والافواه المكممة حيث يمتزج العنف الذى بلغ ذروته فى ليلة الهزيمة بقتل عثمان للزواوى ، بتحقير الذات وهو يسرى فى كل أحداث الرواية التى تدمر شخصياتها نفسها بوعى ودونما وعى ، بفقدان الثقة فى المستقبل والخوف من فداحة الوزر الذى لا يطيقون له احتمالا ، بالتشوف العارم الى التحقق والانفلات من أسار هذا الواقع الراعب . وبلور الكاتب لنا هذا النسيج المتشابك المعقد من خلال تجسيمه لمجموعة من المشاهد واللحظات المتوهجة والدالة وهى تجهد فى الارتفاع على الموت ومعاندته . ومن خلال نغمة هادئة متوهجة بالحياة فى آن .. تدين لحسن محمود فى روايته الرائعة (الجدة الصغيرة) بالكثير .

أما « أيام الانسان السبعة » فقد عمدت الى أسلوب بنائى جديد ، نابض بالحياة والتركيز . يتصيد تفاصيل الحياة اليومية فى ناموسها وديمومتها حتى تستحيل هذه التفاصيل المتناهية الصغر تحت يديه الفنانتين الى طقوس لها قداستها ودلالتها . ثم يفاجئنا بعد ذلك وبنفس الرنة الهادئة المتمكنة بكل هذه الاشياء الثابتة ثبات النواميس وهى تتبدل ويدب فى أوصالها الوهن . فاستطاع بذلك أن يقدم لنا ولاول مرة ، باكتمال مبهر روح القرية المصرية وأن يفتح عيوننا على أغوارها السحيقة ، حيث تبدو المظاهر خاضعة الى أقصى حد . كل هذا من خلال لغة شفيفة ندية موحية . أما (أحزان نوح) فقد عمدت مباشرة ، وكاتبها درامى قبل أن يكون روائيا ، الى تعرية عصب الحياة فى داخل انسان ريفى مهزوم استطاع أن يحتوى ، برغم ايغاله فى الخصوصية ، هزيمة جيل بأسره . فقد بالخوف سلاحه وكرامته ورجولته فى آن ، وظل فى عراك طويل مع الذات ينشد البراءة لها ولكنه يميل الى ادانتها . لا يدرى ان كان الجانى أم الضحية . فمع الهزيمة ووسط كثافة الخوف الحالكة وبفقدان التحقق تتساوى كل الاشياء . وظلت هذه المرحلة التى تحتوى كما قلت حياة جيل بأسره ، تلقى بظلها على حياة نوح حتى بعد ما قيض له أن يسترد سلاحه . فهى التى دفعت ضرباته الى معانقة الفشل ، وهى التى وقعت بخطواته فى بيت العدو . وبرغم أن الرواية آثرت أن تقدم كل تفاصيل هذه المأساة العامة من خلال نموذج شديد الخصوصية ، فانها حرصت طوال الوقت على عدم التضحية بالصدق الفنى أو الموضوعى ، من خلال لغتها الشعرية الباطنية واللصيقة فكر الشخصية وتصوراتها . ومن خلال اعتمادها على نوع من المنولوج الحوارى لان

طبيعة الشخصية ومكوناتها وثقافتها لم تكن تتيح لها القدرة على استطرادات المنولوج الغنائى • تبقى بعد ذلك (تلك الرائحة) وهى عمل متميز الرؤية والبناء • يحاول من خلال غلبة الافعال الماضية والجمل الخبرية على لغة السرد فيه أن يقدم لنا الاحداث المألوفة للغاية وهى تبدو فى تتابعها ورتابتها وكأنها كابوس ثقيل لابد أن نعمل على تجاوزه وتخطيه • وأن يقدم لنا قصة الانسان وقد قذف به فجأة فى عالمغريب لا مفهوم، حيث يبدو وجود الاشياء أكثر صلابة وحقيقية من وجود الانسان •

ننتقل بعد ذلك الى المجموعة الثانية من هذه الروايات •• وهى الروايات التى يلوح خلفها كاتب موهوب ولكنه تعجل النشر • ولم يعكف على تجويد عمله وانضاج رؤاه بصورة كافية قبل أن يطرحهما على القارىء • وتميل بعض روايات هذا القسم الى جانب النضج والجودة بينما يميل بعضها الاخر الى القطب المضاد •• ومن الروايات الاولى (الظلاله فى الجانب الاخر) و « دم بن يعقوب » و « يوم بعد يوم » و « الحب والجدار الاسود » و (الحداد) و (حمام الملاطيلى) و (رغبة سرية) و «الحب والصمت » و (سلمى الاسوانية) ومن الروايات الاخيرة « هدير » و « سكر مر » و « زقاق السيد البلطى » و « الموهوم » و « المغرورة » و « الشفق » • وحتى أستطيع أن أقدم مبررات هذا التقسيم بلزمنى مساحة تبلغ حجم ما مضى من هذه الدراسة • فمن اليسير أن ندلل على جودة عمل فنى فى سطور قليلة أما الحديث عن مثالبه فانها تستلزم تفصيلا أكبر ،ومعهذا فسأحاول فى أيجاز سريع أن المس أهم العيوب التى قعدت بهذه الروايات عن بلوغ النضج والجودة • « فالظلال فى الجانب الاخر » لم تتمكن من الاستفادة الكاملة من أسلوب وجهات النظر المختلفة فى الحدث الواحد • ولم تعثر لكل شخصية على لغتها الخاصة وان عثرت لها على موقفها ولم تفلت من براثن الشخصية الجاهزة أو الاحادية • بينما عجزت (دم بن يعقوب) عن الارتفاع الى مستوى رواية الكاتب الاولى « أحزان نوح » بما فيها من شعر ونفاذ • أما (يوم بعد يوم) فقد أوقعها اغراقها فى الوصف الخارجى ورصد الباطن من خلال الظاهر فى وهاد التسطح فى كثير من الاحيان • ولم يمكن بطلتها من الافصاح عن أعماقها فى أغلب المواقف المثقلة بالمعنى • ومشكلة « الحب والجدار الاسود » تكمن فى وصولها الى ذروة شديدة الثراء والتوهج ثم هروبها من مواجهة هذه الذروة بشكل كامل • أما « الحداد » فقد وقعت فى نفس عيوب « الظلال فى الجانب الاخر » وان كانت لغتها أكثر شاعرية • لكنها لمتتمكنبرغمشاعريةاللغة وأخطائها معا من تقديم الابعاد الاجتماعية والطبقية للصراع وظلت واقفه فى الجانب البوليسى منه • ولم تول الخلفية التى تتحرك فوقها الشخصيات وتدور الاحداث العناية اللازمة • بينما تطرح « حمام الملاطيلى » قضية العثور على رقعة روائية تصب فيها صبوات المدينة وعذاباتها عندما يفترن بالفشل فى جعل هذه الرفعة البؤرية تقدم لنا روح المدينة وعذابها • وان كان هذا لا ينفى رهافة حس الكاتب بالمكان ووعيه المجرد به • بينما تثير « رغبة سرية » من خلال بطلها الذى يرى أنه شبيه روكانتان ، قضية عجز البطل الروائى عن العثور على القالب الفنى الذى يكشف غموض حياته باقتدار ووضوح • وهذه العيوب نفسها تتكرر بدرجات متفاوته فى بقية الروايات،ومن هنا سأكتفى بها حتى اتحدث فى النهايه عن ملاحظة أخيرة •

وهذه الملاحظة هى وقوع بعض الروايات تحت تأثير — أعنى تقليد — رواية معينة أو كاتب معين • فهناك التأثر بنجيب محفوظ الى درجة تقليده فى بعض الروايات •• فنجد أن « زقاق السيد البلطى » واقعة تماما تحت تأثير بعض رواياته الاجتماعية وخاصة « زقاق المدق » و « خان الخليلى » ونجد « الشفق » واقعة بنفس الدرجة تحت تأثير رواياته الاخيرة وخاصة « الشحاذ » و « اللص والكلاب » • أما « هدير » فواقعة بنفس الدرجة أيضا تحت تأثير عبد الرحمن الشرقاوى وخاصة فى روايتيه « الارض » و « قلوب خالية » • وهناك روايات لا يصل فيها التأثر الى هذه الدرجة ، بل يقل عنها كثيرا اذ تستعير لغة الكاتب أو أسلوبه فى الترابط والايحاء كما تفعل « الحداد » وهى تتأثر بلغة روايات نجيب الاخيرة هى وبعض أجزاء من « حمام الملاطيلى » و « سكر مر » • وقد دفع الجرى وراء السحر الخارجى للغة نجيب محفوظ بعض هؤلاء الكتاب الى التضحية بكثير من مقومات العمل الروائى • وفاتهم أن لغة الكاتب شيءلا ينفصل عن رؤيته أو تصوره أو موقفه من الفن والحياة • فاستحالت اللغة لدى بعضهم الى نثار من المزقالشعرية ، ومجتزءات من رؤى تفتقر الى الخط الدرامى ، والبؤرة التى تصب فيها • بينما ظلت لدى البعض الاخر عبئا على الموقف الروائى لانها ليست نابعة منه ولا وليدة لضروراته •



الرواية العربية تنادي حزيران

غالي شكري

بالرغم من أن الشعر كان أكثر الاصداء الفنية لهزيمة ٦٧ ضجيجا ، الا أن الرواية كانت اكثر الفنون استيعابا لابعاد الهزيمة وأقدرها على تمثل المأساة . لقد توقف الشعر والمسرح فى معظم الاعمال التى أنتجها شعراؤنا ومسرحيونا عقب الهزيمة ، عند حدود الرؤية الخارجية للاحداث ، سواء جاءت أعمالهم ندبا ولطما على ما كان او حماسا وهتافا لما سيكون . أما الرواية فقد استطاعت أن تنجو الى حد كبير من المأزق التقليدى الذى يحاصر الكاتب غالبا وهو يكتب عن « مناسبة » او « حدث سياسى » .

وربما كان من الاسباب الهامة لنجاة الرواية العربية من هذا المأزق هو أنها ظلت طيلة الستينات ، تحاول برفقة القصة القصيرة أن تثور على المفاهيم التقليدية للفن الروائى .. فلما اقبلت هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ لم تكن فى انعكاساتها الوجدانية والعقلية أكثر من امتداد علنى لما كانت تكتوى به الصدور فى السر قبل هذا التاريخ بزمن طويل . أقامت الهزيمة الديكور الخارجى المنظور ، للمشهد الداخلى الذى تعذرت رؤيته قبل ذاك الا على أصحاب البصائر النافذة الى أعماق المجهول . وهم قليلون .

كانت رؤيا الهزيمة هى المناخ الفنى السائد على ابناء الاجيال الجديدة ، من قبل أن تقع الهزيمة فى « حزيران » . هذه الرؤيا التى لونت أعمالهم الشابة طيلة الستينات بالقتامة والسواد .. هذه الرؤيا المشبعة بالسحب والغيوم حتى اصبحت مرادفا للضباب والغموض .. هذه الرؤيا التى اكتشفت خير تجسيداتها فى الرمز المثقل بالمعانى ، والتجريد الذى يشف عنها . هذه الرؤيا ـ أخيرا ـ كانت عماد التجريب والتجديد الذى عرفته القصة القصيرة والرواية فى أدبنا الحديث طيلة الستينات . ولقد استطاعت القصة القصيرة أن تسابق رياح التغير العنيف وأن تحرز من الاهداف اكثر مما حققته الرواية . ولكن الرواية بدورها لم تكف ـ وخاصة بعد ٦٧ ـ عن محاولة اللحاق بركب الثورة الفنية الشابة ، بل هى تمكنت من استغلال ديكور الهزيمة ـ سواء لتجاوزها او لتكريسها ـ الى اقصى الحدود .

وظلت الرواية العربية الجديدة بعد ٦٧ تنادى حزيران بين الحين والاخر ، تفتش بين الانقاض عن حقائق الماضى ، وتتوقف طويلا على أرض الحاضر الخراب ، تستعير أحيانا عينى زرقاء اليمامة تكتشف بهما آفاق المستقبل . وهى تجد نفسها فى ذلك كله مضطرة لان تخرج عن نطاق

الجاذبية للرواية التقليدية ، فتجرب من ادوات التكنيك ورؤى الفكر ما يتواءم مع الاحاسيس والمدركات الجديدة التى تطارد وجدانات الكتاب وعقولهمبلا هوادة،وهم يحلقون فىاجواء محفوفة بكل مخاطر المجهول .

ومن الطبيعى ان تختلف انجازات الرواية الجديدة من كاتب الى آخر أختلاف التجربة والثقافة والفطرة ، ولكنهم - أولئك الروائيين - يعودون فيلتقون فى أن حزيران كان نبع رؤاهم ، من قبل أن يقع وبعد أن وقع . ثم يعودون فيلتقون فى أن حس الهزيمة المشترك بينهم قد شاركبنصيب فعال فىصهرالوعىالقومى للرواية العربية .. فربما كانت هذه المجموعة من الاعمال التى اتخذت من مأساة ٦٧ محورا لها هى أكثر الاعمال الروائية التى رسخت كيانا « عربيا » للفن الروائى ، لا بمعنى الانفصال عن مؤثرات الغرب الفنية ، ولا بمعنى البحث عن أصول تاريخية لهذا الفن فى كهوف التراث القديم . ولكن بمعنى وحدة العقل والوجدان بين الكاتب المصرى والكاتب السورى والكاتب الفلسطينى والكاتب الاردنى ، والكاتباللبنانى .تجتمع غالبية أولئك الروائين أيضا ، مهما اختلفت اعمارهم وتواريخهم الفنية ، حول ناصية التجديد فى بنية الرواية العربية تجديدا ثوريا من شأنه ان يتجاوز بهذا الفن الجماهيرى الرفيع أعتاب المرحلة التقليدية .

وأعود الى القول بأن نجاح روائيينا لم يكن بالقطع متساويا ، باختلاف الموهبة والخبرة والوعى . على أنه مع هذا يظل ممكناً أن نقسم مجموعة الروائيين العرب الذين تناولوا رؤيا الهزيمة بالتعبير الفنى الى تيارين رئيسيين :

● أولهما ،وصلتبهالتجربة الى تخوم اليأس المطلق نتيجة قصور فى تصور الحركةالتاريخية، ونتيجة انتماء فكرى متعال على الحركة الاجتماعية ، ونتيجة تكوين طبقى بالغ القلق والتأرجح والذبذبة . والى هذا التيار تنتمى - بشكل عام يقبل التفصيل ومن ثم التعدد والتباين - روايات **حليم بركات وتيسير سبول وأمين شنار** .

● أما التيار الثانى فقد وصلت بهالتجربةالى حدود الامل المطلق نتيجة استبصار واع بالحركة التاريخية ، ونتيجة انتماء فكرى مرتبط بالحركة الاجتماعية ، ونتيجة تكوين طبقى مرتبط بالاتجاه القومى ،ومدغوم فى المجرى الرئيسى للوجودان الانسانى . والى هذا التيار تنتمى - بشكل عام يقبل التفصيل ومن ثم التعدد والتباين - روايات



أميل حبيبى وغسان كنفانىوأديب نحوىوممدوح عدوان والسيد الشوربجى . وربما كانت نقطة اللقاء السلبية بين هذين التيارين هى « المطلق »الذى يتوزعهما بين اليأس والرجاء ، رغم أنهما على طرفى نقيض . ان هذا الاطلاق هو الذى أكسب أعمالهم جميعا - وان يكن بدرجات متفاوتة - قدرا من السكونية فى تمثل أبعاد الهزيمة بحيث جاءت الرؤيا اليائسة بأرض خراب لا يعرفها واقعنا على وجه التمام ، كما جاءت الرؤيا المتفائلة بيوتوبيا الفردوس الارضى الذىلم يعرفه واقعنا - بعد - على وجه التمام . وبين الكابوس المروع والحلم السعيد ، سقطت أعمال روائيينا فى هاوية الاطلاق والتعميم والتجريد ، وهى السمات الفكرية الغالبة على التكوين الفنى لهذه الاعمال .. فحيث تغيب « النسبية » من تصور الفنان للانسان والكون والمجتمع ، تخضع خطواته على الفور لايقاع هندسى مجرد يشبه المعادلات الرياضية . وهو الايقاع الذى يورث المسافة بين الواقع والوهم ، بين الصدق والزيف ، المسافة التى ندعوها غالبا بالافتعال .

المثقف « أو الاله المعزول »

تلتقى الروايات الثلاث « **انت منذ اليوم** » لتيسير سبول ، و « **الكابوس** » لامين شنار ، و « **عودة الطائر الى البحر** » لحليم بركات (١) فى

[١] صدرت الروايات الثلاث ، عندار النهار البيروتية ، الاولى والثانية عام ١٩٦٨ ، والثالثة عام ١٩٦٩ .

الرؤيا اليائسة لهزيمة حزيران حيث يتبوأ « المثقف » قمة المشهد الروائي ، ينظر الى كل ما يدور على الارض من سماء الالهة المعزولة عن عروشها فهى غاضبة ساخطة متقززة ولكنها لا تستطيع ان تصنع شيئا • توجز الامور ايجازا مخلا بحركة التاريخ حين تراه مقصورا على وجه واحد من وجوه الحياة هو وجه الليل المظلم الابدى الكئيب حيث لا مجال للصراع بين الحق والباطل فقانون الغاب هو شريعة المتعاقدين • والكاتب منهم ـ صاحب هذه الرؤيا السوداوية المجردة ـ يدخل عالمه الفنى مزودا بنظرية مسبقة هى « البقاء للاقوى » • والقوة والضعف ليسا من الظواهر النسبية القابلة للفهم والتغيير ، وانما هما أقرب الى الظواهر الميتافيزيقية الغلابة على ارادة البشر • لذلك فرؤياهم للضعيف قاصرة على مظاهر الضعف الخارجية كالجهل والتخلف ، بعيدة كل البعد عن تلمس جوهر الضعف الكامن فى تاريخهم الاجتماعى وتاريخ اعدائهم • انهم يثبتون لحظة الحاضر ويكبرونها حتى لا يرونها فى سياق الماضى والمستقبل ، بل هم يثبتون النظر الى القشرة الخارجية للحظة الحاضرة دون الغوص فى أعماقها الخافية • انها ـ فى أعينهم ـ لحظة ساكنة من ناحية ، ولحظة خارجية من الناحية الاخرى • وموقفهم ـ تبعا لذلك ـ هو الرفض المشلول الارادة الذى يتحول بوعى منهم أو بغير وعى الى قبول الامر الواقع واقراره وتكريسه • وهم على الصعيد الجمالى يبذلون غاية الجهد فى ملء الخواء الفكرى بآيات من الفن الحديث ، يوظفونها باقتدار احيانا فى ادارة مسار اللعبة • ولكنهم ينسون أن الايات الفنية الحديثة أذا انفصلت عن سياقها الاصيل بدت شاحبة هزيلة من فرط ما اختنقت عصارتها فى اوردة جافة وشرايين متصلبة ، وبالتالى يبطل مفعولها الى حد كبير •

وبالرغم من أن الروايات الثلاث تلتقى فى هذا الاطار النظرى الشامل ، الا ان اللقاء الذى يكاد يصل الى حدود المطابقة هو ذلك التشابه بين روايتى تيسير سبول وحليم بركات ، وهما من حيث يلتقيان على هذا النحو يفترقان عن رواية أمين شنار على نحو آخر •

فى « عودة الطائر الى البحر » و « انت منذ اليوم » يتربع المثقف على عرشه الذهبى المطل على الاحداث من سماء الاخيلة الفكرية والشعرية المزوقة بسلاسل الجنس والملل • واذا كان بطل تيسير سبول مجرد طالب فقير فى الجامعة ، بينما بطل حليم بركات أستاذ جامعى ميسور ، الا أنهما معا يصوغان هذا « النموذج » الذى يعانى مالا يعانيه بقية الناس من حوله ، ومع ذلك يتخذ منهم موقف القاضى والمجنى عليه فى وقت واحد • وبالرغم من تشابه تفاصيل التكنيك فى الروايتين ، الا ان حليم بركات يكتفى بمواكبة احداث الخامس من حزيران على مدى اسبوعين ، بينما تتسع خلفية الصورة عند تيسير سبول حتى لتمتد الى سنوات سابقة على العاشر من حزيران ، وهو اليوم الذى يختتم به الكاتب روايته « أنت منذ اليوم » •

ويعتمد بناء هذه الرواية منجزات فن السيناريو فى السينما المعاصرة •• يقتطع الكاتب جزئيات من حياة البطل الخارجية ليطل منها المتفرج على حياته الداخلية •• أنها جزئيات مقتطعة بذكاء حتى لتبدو وكأنها هوامش حياته اليومية، بينما هى مركز وجوده وجوهر كيانه • تبدو هذه الجزئيات أيضا وكانها اقتطعت عفوا ودون قصد ، يتضح ذلك من انعدام الصلة المباشرة بينها فى الترتيب ، ولكن النظرة المتمهلة تضع ايدينا على خيط دقيق فى غاية الصلابة يربط بينها جميعا • وبالرغم من غياب الترابط الظاهرى ، فان هذا لا يدرج الرواية ضمن ادبيات تيار الوعى •• ذلك أن هذه الجزئيات ليست تدفقا انفعاليا ولا اضطراما نفسيا ، ليست أنبوبة اختبار للذات ، غليانها وبرودها ، ليست اضغاث احلام ولا كوابيس • وانما تكاد تكون هذه المقتطعات صورا فوتوغرافية لعديد من الاشياء المختلفة فيما بينها ، نسقها صاحبها تنسيقا مغايرا لاى تفكير خارجى ، مغايرا لاية مقاييس شكلية أو معايير منطقية • نسقها وفقا لرؤية خاصة به ، للعالم من حوله • هذه الصور الفوتوغرافية المنثورة على هوى الكاتب والتى التقطها من زاوية خاصة به لم تكن صورا للداخل ، وانما كانت صورا للخارج • ومع هذا فهى لا تندرج فى باب الرواية « الشيئية » التى تحصى عناصر العالم الخارجى احصاء ميكروسكوبيا يعزل الانسان عن الكون ، ومن ثم يشعر الكائن البشرى باغترابه الاصلى ـ أصالة الخطيئة الاولى ـ عن هذا الوجود • ان كاتبنا لا ينهج هذا النهج ولا يعرفه، لان بطله ـ الانسان كما يراه ـ هو مركز الكون ، وغربته ابعد ما تكون عن الاحساس الفلسفى بالعبث واللا جدوى، كما هو الحال عند الوجوديين وكتاب اللا معقول ، وابعد ما تكون عن الاحساس بوحدة الانسان وعزلته كما هو الحال عند كتاب الرواية المضادة •

يستخدم تيسير سبول ضمير المتكلم حينا وضمير الغائب أحيانا ، لشخصية واحدة اختار لها أسما دالا هو « عربى » الذى تبدأ به الرواية وتنتهى • تبدأ به منذ رأى احدهم يصارع قطة حتى صرعها « **ونفض أنفها مزيدا من الدم ، ثم سكنت •• عيناها ظلتا مفتوحتين** » وتنتهى به فى

عرض الطريق حين رأى «قطة مدهومة • الدم على اذنها وجانب من وجهها وهي تتحرك في دائرة لا يزيد قطرها عن متر، وعيناها في نفس الوضع وتظل تدور • لم ادر ما اذا كانت ترى وماذا كانت تريد» • وما بين البداية والنهاية يكاد أن يكون أجابة عن سؤال القى بمقرب الخاتمة، يقول «شعب نحن أم حشية قش يتدرب عليها هواة الملاكمة منذ هولاكو حتى هذا الجنرال الأخير» دماء القطة المضروبة او المدهومة ترسم اجابة السؤال في كل نقطة دم علقت بخياله المكدود، وانعكست على مرمى النظر في كل نقطة ضعف توسدت حنايا شعبه المذبوح • وهو يختار للوطن العربي عاصمة رامزة لكل العواصم هي «مجير» المترامية – دوما – على اطراف الصحراء، كل ما فيها من بشر وأحداث وأشياء، محكوم عليها كذرات الرمال كلما هبت عليها الرياح من أي اتجاه كان •

على نسق السيناريو في أفلام الموجة الجديدة، يقتطع تيسير سبول في «أنت منذ اليوم» بضع مشاهد من حياة «عربي» اليومية، تتوازى حينا وتتقاطع احيانا، ولكنها لا تتسلسل تسلسلا رياضيا من مشهد الى آخر • انه يكتشف في كل من وحدة الزمان ووحدة المكان خلخلة داخلية، لا تخضع المشاهد لنوع من التتابع التاريخي – الذي ندعوه بالتطور – وانما هي تخضع لتوتر الشخصية في محاذاة ما يمر بها من حوادث وأحوال • كذلك فان هذه الشخصية لا تخضع لنوع من الاطار الجغرافي – الذي ندعوه بالبيئة – وانما هي تخضع لتكوينها الذاتي الذي يوجز ما يحيط بها من مواقف واوضاع • وهذا التصور للزمان والمكان لا يلغي وحدة اي منهما – داخل البناء الروائي – وانما هو يكتشف معنى جديدا لهما، هو بمثابة الانعكاس «الشخصي» لصورتهما الخارجية، هذا الانعكاس الذي يتضح فيما ادعوه بالخلخلة الداخلية والتكوين الذاتي •

تصاحبنا هذه الخلخلة في الزمن الروائي منذ انطلق صوت المدفع في رمضان و «رفض» عربي ان يتناول طعامه الى أن كان الوقت صيفا وعاد أخوه من الحرب القديمة لان ذخيرته قد نفذت و «رفض» عربي أن يحب اخاه، وانتسب الى الحزب الثوري المعادي للشعوبية ثم «رفض» الاستمرار في لعبة السياسة، وأعترف على أحد زملائه امام الشرطة • حلم يوما بأنه يجري وراء شبح ميت يركب الاوتوبيس، وكانت أمه هي هذا الشبح • وحلم يوما آخر بأنه يضاجع امرأة ميتة • بعيدا عن الاحلام، كان يضاجع خادمة ذات جسد جميل ووجه قبيح، اشمأز منها فاتجه الى فتاة نظيفة كالوردة، ولكنها لم تكن تحب المضاجعة، استبدلها باخرى كانت تحب ذلك وما لبث أن ضجر منها هي الاخرى • اقترن صوت المذيعين العرب في أذنيه بصوت الانقلابات العسكرية المتوالية • صوت واحد وشعارات واحدة وهدف واحد هو صوت المذيعين ظل باقيا • الظروف الاستثنائية هي السلطة، لم يتغير الصوت في حزيران، لم تتغير الشعارات والهدف ايضا، فكانت الهزيمة • ولكن صوت المذيعين ظل باقيا • الظروف الاستثنائية هي الظروف الطبيعية في حياة شعبنا الذي استمرأ لعبة التصفيق لكل «بيان رقم واحد» الطلبة والشرطة عدوان، بينما زعماء المعارضة وسلاطين الحكم أصدقاء • تلك هي قواعد اللعبة • منذ زمن بعيد واللعبة لا تتغير، لا تختلف في ذلك شواهد الشعر القديم او الحديث • الخلاص الوحيد بالخمر والنساء، فهما زاد الايام الماضية والايام القادمة على السواء • عصور الظلمة في التاريخ الاوروبي تعني أن هناك نورا قبلها ونورا بعدها • عصور الظلمة العربية هي تاريخنا الوحيد •

لا يختلف منهج حليم بركات في «عودة الطائر الى البحر» عن هذا المنهج في التفكير والتعبير • رمزي صفدي لا يختلف كثيرا عن عربي، وهو يقدم لنا نفسه في البرولوج الروائي (العتبة: ١١–٢٠ حزيران ١٩٦٧) وقد انتصبت الهزيمة في وجهه تمثالا من الفحم المحروق على نفس الجسر المحطم الذي انتهت عنده كل الاحلام في رواية سبول • يقدم رمزي صفدي نفسه في هذا الحوار:

«– انت مسلم ؟

– لا • انا رافض ومرفوض • لست مؤمنا، لكني لست ملحدا •

– انت شيوعي ؟

– لا، ولكني لست رأسماليا •

– انت يميني ؟

– لا •

– انت يساري

– لا

– ماذا انت، اذن ؟

– لست جزءا من أي شيء • الذي اعرفه عن نفسي أنني رافض ومرفوض»

هذا التقديم هو وصف دقيق – من داخل الرواية – لبطلها الذي يدين كل ما تراه عيناه في جحيم دانتي، وخراب أرض اليوت وبحار الهولندي الطائر •• وهو لا يرى ذلك كله بعيني النائم على خريطة اوروبا، وانما هو يرى عصور الظلمة كلها وقد اجتمعت فوق خريطة وطنه العربي • وهو يدين بقسوة وعنف توهمنا للوهلة الاولى أنه خسر شيئا

ضمن من خسروا العالمكلم ولميخسروا أنفسهم. ولكنا نفاجأ بأن ادانته ميتافيزيقية لانها ادانةتأتى من خارج اسوار المشاركة والمعاناة . ان صاحب الديونة فى الكتب الدينية هو الخالق لكلشىء ، وصاحبنا لميخلقشيئا ولم يخلقشيىء ،فهو ليس طرفا فى المشكلة ومع هذا يسب الذين خلقوها ويلعن الذين لم يحلوها . جنسيته العربية لا تعطيه الحق فى هذا السب واللعن ، لانه هو نفسه يصف هذه الجنسية بقوله « **جلبت جسدى من شاطىء عربى** » أما روحــه فقد جلبت من شــاطىء آخر تفصح عنه احداث الرواية ومواقف شخصياتها .

الجامعة الاجنبية والشــوارع البيروتية هى الساحة التى شاهد فيها رمزى صفدى المسرحية القريبة من الميلودراما « **يفكر رمزى فى أن بلاده سفينة تبحر منذ زمن بعيد بلاهدف فوق بحار الخوف والرعب والجهل ويستحيل عليها الوصول الى شاطىء ما** » هكذا كان حكم الالهة علــى الهولندى الطائر وحكمها على الوطن العربى . ويدقق حليم بركات أكثر كثيرا من زميله تيسير سبول فى شرح هذه العبارة ، من ابواق الاذاعة وبقية وسائل الاعلام والحوادث السيــاسية . ويتوقف كذلك أكثر كثيرا من زميله عند « الحدث الجلل » بكل نتائجه السوداء كالوجــوه التى أحرقها النابالم والبيوت التى تحولت الى رماد ، والعيون التى أصبحت حفرا مظلمة . وتلك هى المعادلة السهلة التى اجاد الكاتب صياغتها فى قالب من الاسلوب الشعرى الخلاب : الجهــل والرعب هما السبب فى الهزيمة المــروعة . والمعادلة فيمااتخذت منالخارجصحيحة تماما . غير أنه حتى يصبح الجهل والرعب قدرا من الطبيعة ، يدهش المرء قليلا الا تكون البراكين الزلازل والاوبئة والمجاعات وانما تكونالصهيونية والاستعمار هى الاستجابة الســماوية لهــذا القدر .. فاذا ترددنا وقلناان اسرائيل وأمريكا ليستا من الكوارث الطبيعية ، وانما هما نتاج تاريخى وعناصر اجتماعية اضطررنا ان نعود من جديد الى المقدمة « القدرية » لنعدل فيها قليــلا ونفكر : ليست هناك كروموزات تدعى الرعب والجهل تتشكل بها أجنة البشر ، فهما ليسا من العناصرالثابتة فى تكوينالانسان ،وانما هما نتاج تاريخى لعلاقات اجتماعية ، ولما كان الاستعمار والصهيونية من « العلاقات » الرئيسية التــى أسهمت فى تشكيل الوضع التاريخى الحديث للامة العربية ، فاننا حينئذ قد نستطيع القول بأن قدرا كبيرامن مسئولية الجهل والرعبوالتخلف يقع على عاتق الاستعمار الغربى ، سواء ببرامجه الاقتصادية أو السياسية أو الثقافية **التى كرسها** فىوطننا حتىتهيء له مناخا مناسبا لاستقرارهفى نهب أراضينا وعقولنا .وأن القدر الاخر من المسئولية يقع على عاتق السلطات السيــاسية الرجعية وانظمتها المتعفنة التى رأت فى الاستعمار والتخلف أقوى حلفائها . وكانتالضحيةالحقيقية هى « الانسان »العربىالذى نخلع عليهالانصفات الجناة والمجرمين . حتى ونحننراه ميتانشيع جنازته باللعنات .

لا يختلف حليمبركات كثيرا كما قلتعن تيسير سبول ، وبخاصة فى رسمه طريق الخــلاص بالجنس . ولكن « عودةالطائر الى البحر » تتميز عن « انت منذ اليوم » بشاعريتها الدافقة التى تحميها من زلل التهافت والهامشية . فالخلاص بالجنس عند حليم بركات يشق لنفسه طــريقا واضحا من السطر الاول الى السطر الاخير . هكذا لجأ رمزى صفدى الى احضان الامريكية الشقراء باميلا التى يصل معها الى أعلى الذرى كلما توترت خلايا جهازه العصبى من صــوت الدمار ونذر الموت . وبدلا من الخمر الرديئة التى كان يجرعها عربى فى رواية سبول ، يفضل رمزى وباميلا كئوس الويسكى . وبدلا من غمز تاريخنا الحاضر بالشعر القديم ليثبت كاتب « أنت منذ اليوم » أن ماضينا وحاضرنا شىء واحد ، يلجأ كاتب « عودة الطائر الى البحر » الى الشــعر الاوروبى القديم والحديث ليثبت الجانب الاخر من وجهة النظر : اننا شىء وهم شىء آخر . ولكن يظل التضمين بالشعر وتسلسل المشاهد بطــريقة سيناريوهات السينما الجديدة ، والبطــل الذى يرفض العالم المحيط به رفضا يؤدى به الى نقيض الرفض ، اعنى الاستسلام الكامل .. تظل هذه كلها بمثابة القاسم المشترك الاعظم بين الكاتبين .

ومن هنا يختلف عنهما ــ فى الشكل التعبيرى للرواية ــ أمينشنار فى روايته «الكابوس» . ذلك انه قد اختار طريقا شبيها بالطريق الذى اختطه نجيب محفوظ فى روايته « اولاد حارتنا » . وهو التشابه الذى يصل الى حدود المطابقة فيما يختص بالشخصية الرمزية الرئيسية فى الرواية ومــا يحيطهــا من ملابســات .. فالشــيخ الكبير فــى « الكابوس » يكاد يكون « الجبــلاوى » فى « اولاد حارتنا » والبيت الكبير هنا وهناك بيت واحد ، ابعد ما يكون من الحارة وأقرب ما يكون الى أهلها فى قصة نجيب محفوظ ، وأبعد ما يكون عن القرية الصغيرة وأقرب ما يكون الى أهلها فى قصة أمين شنار . هو جد الجميع ، والعجوز الذى لا يموت ، فى وجوده القريب البعيد يعانى أهل الحارة اهوال الفتوات ، ويعانى أهل القــرية الصغيرة أهوال الخواجات ، ولكنهم ــ أهل القرية وأهل الحارة جميعا ــ لا يستطيعون الحيــاة بغيره . فى كلتا الروايتين نجد ذلك البطل الذى يحمل آلام الفقراء واحــلامهم فــى « المدينة

الفاضلة » ، ولكن عليه أن يمر بالجحيم والمطهر حتى يصل الى الفردوس · والجحيم فى الروايتين هو المصالحة المؤقتة مع العدو سواء كان ناظر الوقف أو شيخ الخفر · وفى الروايتين أيضا يحاول البطل ان يشق عباب بحر المستحيل ليلتقى بالرمز الاكبر ــ الجبلاوى او الشيخ الكبير ــ ويخرج من المحاولة وقد ارتكب جريمة قتل ، لا يدرى من يكون القتيل ، الرمز الاكبر أم خادمه · تختلف الروايتان بعدئذ حول طبيعة الصراع الدائر ، فهو صراع اجتماعى فى « اولاد حارتنا » وهو صراع وطنى فى « الكابوس » ثم يختلفان اخيرا ــ وربما اولا ــ فى تصور نتيجة هذا الصراع ، فنجيب محفوظ يحلم بأن يكون العلم والاشتراكية هما طريق الخلاص من الظلم ، بينما يرى أمين شنار رؤى العين جحافل العدو وقد انتصرت على بنى الوطن الجاهل المرعوب المتخلف ، انتصارا ساحقا لا سبيل الى دحره الا بالعودة الى الدين « **وتحرك ، ودحل المقام ، وتبعتــه ، وفى قلبى تولــد اغنيــة حزينة** » ·

وبالرغم من القالب التجريدى فى كلتا الروايتين الا ان بصيرة نجيب محفوظ لم تكن تحمل فى حدقتها اشعة صورة مسبقة ، لذلك فقد أحاط ــ بالرمز ــ كأنه جوانب الصورة الواقعية التى انتهت به الى تبيان « مشرق الفجر والاعاجيب » · بينما اقتصرت رؤية أمين شنار على جانب واحد لم ير فى الصورة غيره ، لانه رغم التجريد لم يكن يرى الصورة الواقعية المجردة اذ حجبتها عنــده الصورة المسبقة فى حدقة عينه ، وهو بذلك يلتقى جوهريا مع زميليه تيسير سبول وحليم بركات ، وان كان أصدق منهما فى الاستسلام للواقع اقصى درجات الاستسلام بالارتماء فى أحضان الدين · ولكنه بغير شك كان اكثرهما اقتدارا على امتلاك ناصية الفن الروائى ، بل هو رغم تأثره البالغ برواية نجيب محفوظ ، يتجاوزه تكنيكيا بخطوات كبيرة ·· فقد استطاع ان يوائم بين التجريد والتركيز بغير ثرثرة فى السرد ، أو استطراد فى الحوار ، وانتقى لغته الكثيفة بما يتناسب مع طبيعة الرمز الكامن فى الشخصيات · وهو بذلك وان يكن نقيضا لفكر نجيب محفوظ ، الا انه كان أكثر عمقا واستشفافا لابعاد رؤيته الخاصة ·

غير أن تيسير سبول وحليم بركات وأميــن شنار ، رغم التباين فى مناهج التعبير ، فانهم يلتقون حول مجموعة من الخصائص الفكريــة والفنية أهمها :

● **الرؤية الخارجية للاشياء** ، لا بتجريدها الفنى من ملابسات الحياة اليومية ــ بالنسبة للاحداث ــ ولا بتجريدها من ملامح وانفعالات اللحم والدم ــ بالنسبة للشخصيات ــ فهذا النوع من التجريد الفنى حق مشروع للفنان · وكذلك فان هذه الرؤية الخارجية لا علاقه لها بالمدرسة الشيئية فى الادب الاوروبى الحديث حيث يجىء التركيز على « خارج الاشياء » عنصرا من عناصر اغتراب الانسان عن الكون المحيط به وعزلته المفروضة عليه من خارجه · وانما الرؤية الخارجية لــلاشياء فى « أنت منذ اليوم » و « عودة الطائر الى البحر » و « الكابوس » هى التركيز على مظهر الاحداث دون التعرف على جوهرها الاعمق ، على فروعها دون جذورها ، وكأن هذه الاحداث معلقة فــى الفضاء ، تحركها يد عليا لا ارادة فيها للانسان ·

● **الرؤية السكونية للوجود** ، وهى الرؤية التى تفصل الظواهر عن بعضها البعض من ناحية ولا تراها فى سياق تاريخى من ناحية أخرى · وهكذا يصبح « السحون » هو الفعل الوحيد الغالب الذى يشل حركة التاريخ بايقاف التفاعل بين نقائضه · ومن ثم تصبح الحركة الروائية ــ خارج الزمان والمكان ــ حركة آلية ميكانيكية ·

● **الرؤية الاحادية الجانب** ، وهى الرؤية التى تتجنب تغييب كافة اوجــه الظاهرة الواحــدة ، وتكتفى بالتخصص تخصصا ميكروسكوبيا فــى رؤية الوجه الواحد ، فتبالغ من ثم فى تضخيمه واغوائه بأنه فارس الحلبة الوحيد ، وتنتصر له ــ وهما ــ انتصارات من شأنها دائما ان تكون جزئية وموقوتة · هكذا كان اللون الاسود هو سيد الموقف الروائى ، بالرغم من أن الطبيعة والمجتمع على السواء يعرفان عددا مذهلا من الالوان التى تتدرج من الابيض الى الاسود · لذلك كانت الهزيمه رؤيا الكتاب الثلاثة ــ وليست موضوعا فحسب ــ لانهم لم يستشفوا نقيضها : المقاومة ، مهما بدت ضعيفة متعثرة ، فهى النقيض النامى حتما ·

● **الرؤية الفردية** ، ولا أعنى بهــا التفرد والخصوصية التى تميز كاتبا عن آخر ، وانما أعنى بها عملية اسقاط الذات على الموضوع · ولو كان يكون موضوعا شخصيا داخل الذات المفردة ، كان يكون موضوعا شخصيا داخل الذات المفردة ، لامكن تقييم الرؤية الفردية على ضوء جــديد هى « الحالة الفردية » التى يصوغها الفنــان · وكذلك فانى لا أعنى بالرؤية الفردية أن تكون البطولة الروائية معقودة لفرد من الافراد ، فهذا حق مشروع للفن فى كل زمان ومكان ، وتتباين المعالجة الفنية للفرد من مذهب جمالى الى مذهب جمالى آخر · ولكن الرؤية الفردية فى هذه الروايات

الثلاث تتناقض تناقضا رئيسيا مع المادة الروائية وهى « حدث سياسى » ابعاده الاجتماعية أكثر شمولا من أن تحده رؤية فردية ، أيا كانت عبقرية الكاتب .. فالتعامل مع حقائق المجتمع والتاريخ والحضارة يستلزم الاقتراب ما أمكن من العناصر الموضوعية الصانعة لهذه الظواهر ، والابتعاد ما أمكن عن العناصر الذاتية التى تحجب الحقيقة بمجرد اسقاطها على الواقع الموضوعى .

هذه السلبيات الرئيسية كان من شأنها ان تصيب الاعمال الروائية بخطر الاطلاق والتعميم ، وهو الخطر الذى أتى ثماره فى « الرؤيا اليائسة » غاية اليأس من الخلاص ، فكانت المرآة والدين طريق كتابنا المسدود ،فى وجوههم ووجوهنا . ذلك ان السؤال الخطير الذى كان لابد من مواجهة انفسهم به مواجهة شجاعة هو « وماذا بعد ؟ » فاذا كان الامر هكذا ، فلماذا تجشموا عناء الكتابة ، ليس هناك بصيص ضوء يقدمونه للانسان العربى ، وانما هم يسدلون على عينيه مزيدا من الغمامات المظلمة . وربما كان ذلك ما يدعوهم - للاسف - الى تجشم عناء الكتابة . غير أن هذا الحصاد السلبى لتيار « الرؤيا اليائسة » فى الرواية العربية الجديدة ، وهى تنادى حزيران ، لا ينسينا على الاطلاق ما أسهم به هذا التيار فى تجديد الرواية العربية المعاصرة ، وهو تجديد وظفه أصحابه فى خدمة رؤى لا نراها ، ولكنها ستجد طريقها بالضرورة الى خدمة رؤى نراها ويراها غيرنا وقد يراها هؤلاء الكتاب انفسهم .. غدا او بعد غد .

رؤيا « المقاومة » رؤيا « الحياة »

يغلب التيار الثانى « المتفائل » على وجدان الروائيين العرب،وهو تيار يتأرجح - فنيا - بين التقليد والتجديد،وأعمار كتابه تتدرج من الشباب الى الكهولة ، ولكن أنضج آثار هذا التيار تميل فى جملتها نحو التجديد فى الفكر والفن معا .

والملاحظة الفنية الاولى على هذا التيار أنه متعدد الاصوات ، بحيث تتاح الفرصة واسعة لامكانيات الروائى الجيد أن يقلب مختلف وجهات النظر ويختار من بينها أكثرها صدقا مع الواقع الموضوعى.والملاحظة الثانية على هذا التيار أنه متعدد الازمنة بحيث لا ينفرد ضمير واحد - وبخاصة ضد المتكلم الذى يقوم بدور الراوية - بساحة العمل الروائى مما يهدد هذا الضمير بالتضخم وغواية الذات التى من شأنها ان تحجب الحقيقة بالاسقاط .

ولقد تسبب هذان العاملان فى أن يكتشف هذا التيار رؤيا « المقاومة » النقيض المقابل للهزيمة . ذلك أن تعدد الاصوات وتعدد الازمنة من أهم أدوات التعبير الفنى لرؤية نقائض الوجود وحركة التاريخ والدورة الجدلية للموت والحياة . ولعل هذه الرؤيا وحدها هى التى تدعونا الى القول بأن الانتاج الروائى لهذا التيار كان لابد له وأن يظهر بعد هزيمة حزيران لا قبلها ، أو - بلهجة أكاديمية أكثر تحفظا - أن ظهوره بعد الهزيمة كان محتملا ومبررا . أما التيار الاخر المناقض له فقد كان قائما قبل الهزيمة وسيظل قائما بعدها ، ذلك أن رؤياه اليائسة لاتحتاج الى « هزيمة » لتبررها،ولا تحتاج الى « مقاومة» لتعارضها . أنها رؤيا سابقة على العمل الفنى ومعزولة عن خامته الانسانية ، ورافضة لديناميه الحركة التاريخية .

وتأتى رواية « **سداسية الايام الستة** » (١) للكاتب الفلسطينى **اميل حبيبى** فى مقدمة أعمال« رؤيا المقاومة » غير أن المكان البارز والفريد الذى تحتله هذه الرواية لا يعود الى أهمية الموضوع الذى تعالجه ، ولا لان كاتبها يقيم فى الارض المحتلة ، وانما تحتل « سداسية الايام الستة » مكانتها الممتازة لضخامة الموهبة الفنية التى يتمتع بها اميل حبيبى . وهى موهبة ضخمة من الناحيتين التكنيكية والفكرية ، فمقدرته الكبيرة على استحداث صياغة روائية جديدة لا تنفصل عن سعة الافق والفكر المفتوح الذى رأى من خلاله كافة درجات اللون ومختلف زوايا الشكل وجملة عناصر السياق التاريخى .. وذلك كله من خلال رؤية شاعرية خلاقة ، يؤازرها الاختيار الحسى العميق الدلالة لجزئيات منثورة هنا وهناك ، جمعها الفنان وأعاد تركيبها وفقا لادراكه الجمالى البالغ الحساسية والتركيز .

ولست أود أن أدخل فى نقاش عقيم حول « روائية » هذه الرواية التى صدمت بحركاتها الست المستقلة - فى الظاهر - عن بعضها البعض ، المفهوم التقليدى للفن الروائى . باشتمالها على ست لوحات ينتظمها ايقاع رواية عربية جديدة بكل ما يعنيه لفظ التجديد من

---

(١) نشرت هذه الرواية لاول مرة فى مجلة « الجديد » ثم نقلتها « الطريق اللبنانية » واعيد نشرها فى سلسلة « روايات الهلال » القاهرية .

ثورة فنية تعادل – موضوعيا – ثورتها الفكرية. لذلك كان عطاؤها الرئيسى – فى تقديرى – هو تلك الاضافة الفذة الى تاريخ الرواية العربية .

والرواية – كما قلت – تتكون من ست حركات ، وأحب أن أضيف كلمة « روائية » أى أن الحركة الاولى تفضى الى الحركة الثانية فيما يشبه الحتمية الفنية بالرغم من أنه ليست هناك شخصية مكررة أو حدث معاد ، الا أن شيئا ما غير مرئى للعين المجردة هو الذى يؤدى بكل حركة الى الاخرى فى انتظام روائى اخاذ . هكذا نبدأ رحلتنا بالحركة الاولى « حين **سعد مسعود بابن عمه** » برفقة الابيات المختارة من أغنية فيروز « **لماذا نحن يا أبت – لماذا نحن أغراب ؟ أليس لنا بهذا الكون** أصحاب وأحباب ؟ » .. أن الماضى والحاضر هما الضلفتان الواسعتان اللتان يطل منها الكاتب على المستقبل ، فلقد فتحت حرب حزيران الحدود ، ولكنها – وهنا المفارقة المؤسية – لم تكن حدود فلسطين ، بل حدود «اسرائيل» . لذلك فهى حدود مفتوحة حقا ، تمنح العرب المسجونين فى الارض المحتلة والعرب المنفيين خارجها ، لاول مرة منذ عشرين عاما ، فرصة اللقاء ولكنه فى خاتمة المطاف لقاء الهزيمة وليس لقاء العودة . فالحدود مفتوحة بصورة عكسية تماما . والحركة الاولى فى رواية أميل حبيبى هى بداية هذه المفارقة المؤسية ، أنها لقاء « مسعود » الذى يناديه الجميع « فجلة » بابن عمه سامح الذى جاء مع والده من الضفة الغربية . ولم يكن الصبى « فجلة » ولا أولاد الحارة يعلمون أن له أقارب فى هذه الدنيا ، ومن هنا – فيما يبدو – ضاع اسمه الحقيقى ، وبقى اسمه الدال على الذل والهوان . ولقد تغير الامر بمجرد وصول ابن عمه ، عادله اسمه الحقيقى ، وعادله لسانه الحقيقى ، وعادله أصدقاؤه الحقيقيون ، يجلونه ويحترمونه . عادت له كرامته . ولكن عين الفنان البصيرة لا تضلل هذا الصبى ، فهذه العودة – التى كان ابن العم رمزا لها – هى عودة موهومة ، لانها ليست عودة حقيقية ، تساءل فيما بينه وبين نفسه « **هل حين ينسحبون سأعود كما كنت.. بدون ابن عم ؟** » فانسحاب اسرائيل من الاراضى التى احتلتها فى حزيران يجيب عن السؤال بأن «نعم» ، تنقشع غمامة العودة الموهومة وتطل من جديد سحابة العودة الحقيقية .. متى تمطر؟ فى الحركة الثانية « **وأخيرا .. نور اللوز** » ، وبرفقة الاغنية الفيروزية « **بلادى .. أعدنى اليها ولو زهرة يا ربيع** » يقوم الاستاذ « م » بعد حرب حزيران بزيارة أصدقائه فى الضفة الغربية ، يصل ما انقطع من علاقات الصبا والشباب الذى احتجب من عشرين عاما . وهو اليوم يقوم بزيارة الراوى الذى كان يتحاشاه فيما مضى ضمن من يتحاشاهم اتقاء لعيون بنى اسرائيل ، فى الضفة الاخرى فوجىء بأنهم « **يعرفون ذلك ويبررونه بشدة ، ويروننى على غير ما أرى نفسى . لقد رفعوا من قدرى فارتفعت وشالونى فطالت قامتى فأصبح رأسى فوق الضربات** » . و « م » لم يقم بزيارة صديقه لهذا السبب ، وأنما ليسأله سؤالا القاه على كل من صادفه من أصدقائه القدامى « كيف تعرفت على زوجتك » لانه يود أن يتذكر من الاعماق قصة حب جميلة ، بين عاشقين أهدى كل منهما للاخر غصنا من شجرة لوز منور « **وتعاهدا على أن يحتفظا كل بفرعه ، وأن يلتقيا فى الربيع القادم ، حين ينور اللوز ، فيأتى بأهله ويخطبها من أهلها . فكيف كانت نهاية قصتهما الجميلة** » . لقد استطاع « م » بارادة باطنية غريبة أن ينسى أنه هو نفسه صاحب قصة الحب الجميلة . وبالطبع فان الراوى لم يذكر له الحقيقة ، تركه يبحث عنها فى ماضيه ، اذا كانت قامته حقا قد طالت ، فانه يستطيع أن يعيد الروابط بماضيه « فينتشل نفسه من حاضرها » .. ذلك أن الحاضر هو الوهم المعلق بين قوسين من الماضى والمستقبل ، فهل يتذكر ؟ ولن نستطيع أن نتجاوز الحاضر الى المستقبل الا اذا أمسكنا بتلابيب الماضى ، فهل يتذكر ؟ وهكذا يتجدد سؤال الحركة الاولى ، لافى صيغة جديدة ، فالرواية ليست عدة تنويعات على ثيمة واحدة ، وانما يتجدد السؤال تجددا شاملا : العودة الراهنة هى عودة موهومة ، نعم ، وكذلك الحاضر كله هو حاضر وهمى يفتقد فيه الانسان «حضوره» ، وعيه بماضيه واستشرافه لمستقبله . فى الحركة الثالثة « **أم الروبابيكيا** » وبرفقة فيروز « **بالايمان راجعون – للاوطان راجعون – راجعون راجعون راجعون** » يثور السؤال من جديد على نحو أكثر تعقيدا ، فالسؤال فى كل مرة يصيبه « التغير » نتيجة التراكمات الجزئية التى يلتقطها الكاتب بعين شاعرية بالغة الحساسية والنفاذ الى الجوهر . هنا « أم الروبابيكيا » التى لم تشأ النزوح مع زوجها وأحد أولادها فى سفر الخروج الاول . ولم تقاطع «معرض المنهوبات» شأن العرب واليهود بل اشترت حاجيات كثيرة كانت تبيعها وتتلقى مع النقود القليلة السباب الكثير والغمز الاليم . ولكنها من بين المنهوبات العديدة التى اشترتها احتفظت برزم من رسائل الحب التى كان يتبادلها الشبان والفتيات منذ عشرين عاما وأكثر ، تخفيها فى مكان أمين وتهتف دامعة من القلب « **كنوزى كنوزى** » وبعد حزيران الاسيف

تألقت عيناها بأمل أن يعود أصحاب الكنوز ليأخذوها . لقد اكتشفت — مثلا — أن ابنها معتقل فى القدس متهما بتوزيع المنشورات وهاهى أصبحت تزوره وتكلف محاميا بالدفاع عنه . انهاتقابل الوجوه القادمة من الضفة ومن عمان ،بل ومن الكويت ومن لبنان وهم يتطلعون الى البيوت لعل كلا منهم يتذكر بيته « **بعضهم يقابله سكان البيت بابتسامة شفقة، وبعضهم يقابله سكان البيت بابتسامة شقاء ، وبعضهم يدخلونه البيت ، وبعضهم لا يفتحون البيت فى وجهه** » . ولكنهم جميعا لم يسمعوا بكنوزها ، رسائل الحب الاول ، قصائد وأساور وغويشات وأقراط وقلوب ذهبية ويوميات وتساؤلات « **ماذا يريد منى؟ وعن ايمان مغلطة : يا وطن !** » وها هى ذى تعطى الراوى مجموعة رسائلها ،كتبتها ولم تبعث بها الىالمرسل اليه ، فى هذه الرسائل سر بقائها ، وهى تقول « **لاننى الان فقط استطيع أن اكون معكم جميعا : إنتم أولادى فلا تتركونى ثانية** » ، ويذكر الراوى أنه حين كان طفلا كانت له جدة تروى له الحكايات حتى ينام ، وفى التسعين من عمرها بدأت الامور تختلط عليها فتبدأ حكاية الشاطر حسن من وسطها « **وأخذ الشاطر حسن عصاه السحرية وضرب بها المارد** » فاذا سئلت « أية عصا سحرية ياجدتى » تستمر فى الحكاية حتى ينام الاطفال فلا يعرفون للقصة بداية ولا نهاية . وما أشبه « أم الروبابيكيا » بهذه الجدة العجوز التى اختلطت عليها الامور أو الحدود ، وربما كان الجديد فى حكايتها هو الشاطر حسن نفسه ، الذى ما يزال معتقلا فى أحد سجون القدس القديمة . وفى الحركة الرابعة « **العودة** » يزداد السؤال القديم الجديد كثافة وتعقيدا ، فالقدس هى المكان الذى يخطو بنا الفنان داخله خطوات خمسا كونت فيما بينها علامة الاستفهام الكبيرة للسؤال المتعدد الاوجه ● « **كيفظهر فىشهورالسنة شهر جديد هو حزيران الثانى ؟** ، انتظمت المسيرة التقليدية فى الجمعة الحزينة وراء صليب خشبى كبير الى الجلجثة على طريق الالام، ألوفالشباب والشابات يضعون باقات الزهور على قبور الشهداء « **وأما الصليب الخشبى فقد حملناه على اكتافنا** » من ساحة المسجد الاقصى الى مقبرة اليوسفية . ● « **ماهو السر العجيب فى اسم الغزلان** » اكاليل الورود يتقدمها رجلان يحملان مصحفا وانجيلا ، تدفقت الجماهير من حوش الغزلان .. نفس الاسم الذى تحمله قرية قرب الناصرة ، وفيها أرض باسم « مراح الغزلان صودرت وهدمت بيوتها ● « **كيف أصبح لشاب واحد الف عام** » اصطدمت المسيرة بالشرطة ، دهمتهم السيارات الوحشية من كل جانب ، صرخت أم « ولدى » جرجروها ، أمطرت السطوح القديمة حجارة على رءوس الشرطة ، أخيرا دخلوا المقبرة ووضعوا الزهور ● « **كيف أعاد شاعر فى شعره ، وحده قرائه** » والشاعر هو كل شاعر عربى مناضل ، وهو أيضا عبد الرحيم محمود ، شعره منقوش على شاهد أحد المقابر ، لشهيد لا يذكر أحد اسمه ، قتل الشاعر عام ١٩٤٨ ودفن فى الناصرة ، والشهيد ضريحه فى القدس . التأم الشمل ● « **العودة** » **الشاب من هنا والفتاة من القدس. بعد حزيران يستطيعان الزواج . ولكنه معتقل ، وهى مطرودة لاشتراكهافى مسيرة الاربعاء الحدود مفتوحة نعم ، ولكن بشرط ألا يتم الزواج ذلك أن الحدود مفتوحة من الناحية الاخرى، بحيث يصبح الاعتقال والاستشهاد — وليس الزواج — هو الطريق الى فتح** الحدود من ناحية مغايرة هى الناحية الصحيحة . وفى الحركة الخامسة « **الخرزة الزرقاء وعودة جبينه** » يزاوج الفنان بين حدوته شعبية تعود فيها جبينه الى أمها بعد غيبة طويلة عن أهلها ، فتتفجر العين بلماء وكانت قد جفت منذ مضت جبينه ، وبين قصة جبينه الجديدة التى عادت ولا أحد يدرى ما اذا كانت العينستتفجر بالماء أم لا . ذلك أن الحدوتة الشعبية تقول أن جبينه ستبرهن لامها العجوز على حقيقتها بخرزة زرقاء كانت تعلقها فى عقدها منذ القديم « **أما جبينه الجديدة فلم تكن هى التى احتفظت بالخرزة الزرقاء** » على أية حال فقد ناولتها امهاالخرزة ، وقالت لها « **أبوك ، اللهيرحمه كان دائما يقول أنه لو احتفظت بهذه الخرزة لما حدث ما حدث . البسيها ولا تخلعيها ابدا** » . هكذا يعود الارتباط بالماضى كنزا لا ينبغى التفريط فيه حتى يصبح المستقبل ممكن التحقيق ، حتى يتفجر الماء من النبع . وفى الحركة السادسة والاخيرة « **الحب فى قلبى** » ينقلنا الكاتب الى لننجراد ، متحف البطولة الحية ، هناك قرأوا فى مفكرة الطفلة الشهيدة **تانيا سافتشيفا:**

« **اليوم ماتت جدتى** »

« **فى الصباح لم يستيقظ اخى الصغير** »

« **اليوم حملوا صديقتى الصغيرة على زحافة** »

« **علمت اليوم أن جارتنا ماتت** »

« **اليوم ذهبوا بامى النائمة ولم تعد** » .

وكان اخر سطر ، فى آخر صفحة فى المفكرة :

« **اليوم بقيت وحدى** » .

ما أعمق الروابط بين هذه الطفلة الروسية والفتاة الفلسطينية المعتقلة فى سجن الرملة تكتب بين الحين والاخر رسائل الى امها ، عن حياتها فى السجن ، عن خطيبها المعتقل،عنشجاعة زميلاتها المعتقلات معها ، أشواقهن وأحزانهن وأحلامهن ، وخصوصا عن هذه **الشرطية اليهودية** التى طردوها من وظيفتها لانها هى التى كانت تهرب الرسائل من الفتاة الى الام . اما الفتاة الحيفاوية المتهمة بالاشتراك معها فى تكوين خلية سرية داخل اسرائيل ، فان علاقتهما ليست أكثر من « **صداقة بريئة بين فتاتين من شعب واحد ، اجتمعتا ، بعد فراق طويل ، تحت سقف واحد ، سقف القاووش** » وبهذه العبارة البريئة نكون قد وصلنا الى خاتمة هذا العمل الفنى الكبير .

ولعلنا قد لاحظنا أن الراوية سواء كان ضميرا للغائب او المتكلم او المخاطب ، فان « الاخر » وليس « الانا » هو البطل الروائى ، بالرغم من أن تفاعليا جدليا حارا بين الذات والموضوع هو عماد العمل الفنى . والبطل فى هذه الرواية ليس شخصية من الشخصيات ، وانما هو التحدى الكامن فى المفارقة المؤسية القائمة على انفتاح الحاضر على الماضى . والفنان يعمد الى اداتين رئيسيتين من أدوات الرؤية الشعرية : أولاهما التقاط الظواهر البريئة المألوفة فى الحياة اليومية التقاطا « بسيطا » يصل فى بساطته الى حد مخاطبة الاطفال . ويكاد « الحب » فى صورته البدائية أن يكون هو الرمز الشامل للحركات الست فى « سداسية الايام الستة » . والاداة الثانية هى امتزاج الخيال الاسطورى بالواقع الخام امتزاجا لا تستطيع معه أن تفرق من أين يبدأ الخيال ومن أين يبدأ الواقع . تعددت الاصوات فى الرواية فتعددت الاوجه موضع النظر ، وتعددت الازمنة فتعددت الاحتمالات موضع الترجيح . ومن ثم جاءت الرواية سؤالا كبيرا مقدمته هى الماضى (العشرين عاما الماضية) وخاتمته هى الحاضر (المعتقلات والمقابر والمطاردة) . والسؤال مفتوح على كافة جوانب التحدى القائمة ، فهو ليس سؤالا مغلقا بحتمية الجواب - هزيمة كان اول انتصارا - وانما هو سؤال يؤمن بنسبية الجواب المطروح ، يؤمن بالمد والجزر ، بالسلب والايجاب ، فتلك هى حركة التاريخ وتلك هى ديناميته . اتجاه السهم يشير الى أن « المقاومة » هى رؤيا الحياة للشعب الفلسطينى ، ولكن الموت هو الجسر المؤقت الى هذه الحياة .. كتلك العودة المفاجئة والموقوتة التى حدثت بعد حرب حزيران ، انما تلغى العودة الحقيقية ، لان الحدود فتحت من الناحية الاخرى .. من الناحية العكسية .

اللقاء المستحيل فى العودة الراهنة

ربما كان الاصل الفلسطينى المشترك بين اميل حبيبى وغسان كنفانى هو السبب فى أوجه الشبه بين « سداسية الايام الستة » و « **عائد الى حيفا** » (٣) وربما كان وجود الاول فى الارض المحتلة ووجود الاخر خارجها هو السبب فى أوجه الخلاف بينهما .

يكاد يكون « الماضى » و « الحاضر » أيضا ، هما الضلفتان الواسعتان اللتان يطل منهما غسان كنفانى على المستقبل . وهو فى ذلك يتفق مع اميل حبيبى فى أن العودة المؤقتة التى حدثت بفتح الحدود من الناحية الاخرى هى عودة موهومة ، وان اللقاء الذى تم فى اطارها هو لقاء مستحيل . ذلك ان اللقاء الحقيقى سوف يتم بالعودة الحقيقية الشاملة التى تتم بفتح الحدود من الناحية المقابلة ، الناحية الصحيحة . ولكن بينما يصوغ اميل حبيبى المشكلة فى اطار الارتباط بالماضى والتساؤل حول المستقبل ، يميل غسان كنفانى نحو الطرف النقيض فيصوغ المشكلة فى اطار الارتباط بالمستقبل والتساؤل حول الماضى . بل هو فى سؤاله عن الماضى يكاد يدينه ويرفضه .

وهو فى ذلك يسلك طريقا مغايرا للطرق الفنية التى سبق له أن سلكها فى أعماله الاخرى ، انه لا يتوجه الى الرمز الشفاف الذى عرفناه فى « رجال فى الشمس » ولا يتوجه الى التركيب المعقد الذى عرفناه فى « ما تبقى لكم » . وانما هو ينحو فى « عائد الى حيفا » منحى موغلا فى البساطة التى تقترب به من تخوم الرواية التقليدية . لقد وقعت كارثة حزيران ، وها هو ذا « سعيد . س » يرافق زوجته فى رحلة الالم من رام الله الى حيفا مارا بالقدس، انه يرغبكالكثيرين - منذفتحت الحدود - فى زيارة مسقط رأسه ، طيلة الطريق المؤلم يجند الفنان كافة أسباب العذاب الذى يعانيه

(٣) الطبعة الاولى - دار العودة - بيروت .

الزوجان ، من أهوال اللحظة القادمة • لحظة أن يجوبا شوارع حيفا وأزقتها بحثا عن بيتهما القديم، بل في واقع الامر بحثا عن شيء آخر لم تتلفظ به الشفاه ، وان اكتوى به القلب طيلة العشرين عاما الماضية • ان الطريق من رام الله الى القدس الى حيفا هو طريق الذكريات الحلوة والمرة •• والزوجان كلاهما يطرحان بالصمت حينا والكلام حينا آخر قضية القضايا في حياة الانسان الفلسطيني ، ولكن من زاوية الخطأ والصواب فيما حدث،من زاوية تقييم الماضي، من زاوية الارتباط بهذا الماضي • ويختار الكاتب اسلوب « الفلاش باك » ليعود بهما ــ وبنا ــ الى هذا الماضي ، وفي لقطات سريعة بارعة يضع امامنا الفنان بانوراما هائلة لمأساة ١٩٤٨ تدعو الى امعان النظر والتقدير قبل اطلاق الحكم على الذين بقوا والذين مضوا •• ان المأساة في الحقيقة أشمل من أن تدين هذا أو ذاك ، وانما تضع أيدينا على اعدى اعدائنا ، على رأس الدمل •

وينكأ الكاتب جراح الزوجين ــ وجراحنا ــ حين يصل بنا وبهم الى ذروة المأساة ، الى اللحظة التي تركا فيها طفلهما الرضيع ولم يكن قد بلغ الشهور الخمسة،تركاه في غمرة المطاردة الجهنمية ببيتهما لا يدريان أي مصير شرير لقيه حينذاك • وهاهما بغير مشقة يصلان الى قدس أقداس الذكرى ، بعد عشرين عاما ، يصلان الى عتبة البيت القديم • ويخلع الفنان جلد شخصياته ويتتبع بمهارة مذهلة أدق خلجات أعصابهما وهما يتحدثان الى تلك المرأة البولندية التي جاءت هي الاخرى حوالي ذلك التاريخ من ايطاليا مع زوجها الذي زينوا له هناك ــ في الوكالة اليهودية ــ الطريق الى الهجرة • وبالرغم من تركيز الكاتب على الجزئيات الحسية في هذا اللقاء المشحون ، جزيئات الطبيعة الصامتة ، والطبيعة الحية على التي تتبلور من جراء هذا التركيز •• الا أنه لا السواء ، وبالرغم من عناصر التفرد والتخصيص يتخلى عن الوجه النمطي لشخصياته وأحداثه ومواقفه ، انه يستخلص بقدرة تكنيكية عالية السمات العامة الراقدة في حنايا كل لفتة وكل لفظة وكل حركة وكل ذكرى ، بحيث أعطانا في خاتمة المطاف **قضية مجردة ولكنها مليئة باللحم والدم والعظم** ، أعطانا الشخص الفرد والنموذج النمطي ، اعطانا الحياة الدافقة بالتفاصيل الصغيرة ، وأعطانا الفكر النظري الكامن في احشاء هذه الحياة •

وكما كان « السر » الدفين وراء هذه الرحلة ، سرا خافيا على الشفاه فقط ، ولكنه ليس سرا على القلبين الجريحين ، كذلك ظل الامر سرا على الشفاه التي تجاذبت أطراف الحديث المتوتر مع السيدة البولندية اليهودية ، حتى اطلقته هي من عقاله دفعة واحدة وقالت فجأة انها حين جاءت الى هذا البيت مع زوجها كانت تعرف أن بالبيت طفلا رضيعا يحتاج الى رعاية لا يتجاوز عمره خمسة شهور ، هو « دوف » الذي يأتي بعد قليل • دوف ؟! **تنصد « خلدون » ويا لنار جهنم التي ينبغي** ان تصعق الوجود باكمله هذه اللحظة •كانت هناك بعض اللوحات المعلقة ، وبعض حاجيات المنزل ، من مخلفات أثاثهما القديم الذي تركاه • وهي الحاجيات التي أشعرتهما لبعض الوقت بالألفة والمرارة • ولكن ما أن ظهر « دوف » بعد قليل حتى تلاشت الذكريات المادية المعلقة وتجسد الماضي كله مشنوقا بحبال صنعتها أيد كثيرة • كان دوف ــ ويا للهول العظيم ــ مرتديا الزى العسكري لضابط من قوات الاحتياط بجيش الدفاع الاسرائيلي • ولم يكن يعرف كلمة عربية واحدة • كان واضحا أن خلدون قد مات ، موتا أبشع من الموت الذي كانا يخشيان عليه منه • كان قد مات ، وهو بعد حي • كان تجسيدا مرعبا لحقيقة الماضي الذي لم يعد فقط مجرد ذكريات رومانسية منتشية أو متوترة •لذلك كان النقاش بين الابن الميت ،والاب نفاشا عقيما بلا جدوى • من المسئول ؟ سؤال لن يجيب عنه الله ولا الشيطان • وقد يتورط امرء لاول وهلة ويحسب الامر أنه تزيد ميلودرامي من الكاتب ، أن يجعل من الابن الفسطيني ضابطا اسرائيليا • ولكن الحق ان الكاتب اراد أن يضيء معنى الماضي اضاءة مشعة قد تصدم النظر ، ولكنا نفيق من هولها على الحقيقة • وهي أن الدم وحده لا يصلح عنوانا للابوة والبنوة ، ولا للحق والباطل ، وأن الذكريات المصورة على الحائط والمقاعد وأغصان الاشجار ليست اكثر من خيال الظل • وانما « **الانسان هو القضية** » كما قال دوف ووافقه سعيد على ذلك ، ولكن ــ كفتح الحدود تماما ــ من الناحية الاخرى • انها مشكلة لا تحلها سوى الحرب ، انها ليست فحسب مشكلة خلدون الذي تحول خلال عشرين عاما الى دوف ، وانما هي مشكلة فلسطين التي تحولت خلال نفس الفترة الى اسرائيل ،لذلك يحلم سعيد بأن يكون ابنه **خالد** قد خرج على طاعته وانخرط في صفوف الفدائيين • سبق له أن نهره عن ذلك ، وها هو ذا أمام دوف ، يندم على ذلك • سوف يأتي يوم يقف فيه دوف بالسلاح على طرف من الجبهة ، بينما يقف خالد على الطرف المقابل • ليكن •• أنها احدى مفارقات التاريخ • وعندما تقول له المرأة البولندية وهو يقف مع زوجته مودعا « لم نتحدث كفاية عن الموضوع » يجيبها ــ ونحن معها والعالم كله ــ « **ليس ثمة ما يقال** • بالنسبة لك ربما كان الامر كله حدثا سيء الحظ ، **ولكن التاريخ**

ليس كذلك، ونحن حين جئنا هنا كنا نعاكسه ، وكذلك اعترف لك ، حين تركنا حيفا ، الا أن ذلك كله كان شيئا مؤقتا ° أتعرفين شيئا ياسيدتي؟ يبدو لي أن كل فلسطيني سيدفع ثمنا ، أعرف الكثيرين دفعوا أبنائهم ، وأعرف الآن انني أنا الاخر دفعت ابنا بصورة غريبة ، ولكنني دفعته ثمنا °° ذلك كان حصتي الاولى، وهذا شيء سيصعب شرحه »°° وظل صامتا في طريق العودة ، صمتا عميقا وثقيلا لم يقطعه الا حين وصل الى مشارف رام الله ، حينذاك فقط نظر الى زوجته وقال « أرجو أن يكون خالد قد ذهب °° أثناء غيابنا » ° .

والحق أن الجزء الاخير من الرواية يكاد يكون اضافة نظرية الى العمل الفني ، وليس امتدادا طبيعيا يحتمه النسيج الروائي °° هذا النسيج الذي ينتهي فعلا بخلدون وقد أصبح الضابط الاسرائيلي دوف ° لقد أراد الكاتب أن « يقول » ان المقاومة المسلحة هي الطريق الوحيد لاستعادة الوجود الحقيقي أو « الوطن » بمعناه المغاير للذكريات . ولكن اطلاق القول من شأنه ان يتجاهل نسبية الفعل التي أثرها الكاتب في البداية ° ان مشكلة خلدون ــ دوف تواجهها على الطرف المقابل مشكلة الاب ــ خالد ° هذه المواجهة كان تجسيدها الفني هو المونولوج الداخلي المعذب ، وليس الصوت التقريري المباشر ° ولكن الكاتب آثر النهاية المتفائلة الميسورة على الانطباع التراجيدي الحاد ° هذا بالرغم من أن هذا الانطباع في مقدوره أن يتحول لا اراديا عند المتلقي الى طاقة مقاومة هادرة تعادل في عنفها التحول المأساوي لخلدون : الى دوف ربما ، ولكن الى خالد على وجه اليقين ° وهكذا كان المزلق الفني الوحيد في هذه الرواية الجيدة ، ان السؤال « المطلق » استدرج كاتبها الى جواب مطلق ° هذا لا ينفي صحة الجواب ، ولكن صحته تظل في دائرة « الايمان » مما يتحول بالرواية في نهايتها الى يوتوبيا °° بينما لو جاء الجواب نسبيا ، لكانت صحته في دائرة « الفعل » مما يجعل من الرواية سلاحا انسانيا باقيا على الزمان °

على غير هذا النحو يصور الكاتب السوري أديب نحوي في روايته الممتازة « عرس فلسطيني » (٤) ذلك اللقاء المستحيل بين الماضي والحاضر ، مقتربا بذلك من فكرة اميل حبيبي عن « الاعتقال والشهادة » كبديل للزواج في الحركة السادسة من روايته « الحب في قلبي » ° في « عرس فلسطيني » أيضا يجيء الموت جسرا ــ بديلا للزواج ــ الى اللقاء الحقيقي ، اللقاء الممكن الوحيد °° فالليلة عرس فهد البصاوي ، عائلته من جبل البصة في شمال فلسطين على طريق عكا الشريفة ° الليلة عرسه على فاطمة بنت ضيعته ، والعادة أن البنت تستأذن والدها في الزواج ° ولكن عرس فهد هو عرس فلسطيني ، من نوع خاص ، عليه أن يقلب القاعدة ويذهب هو الى والد العروس ليستأذن ° والرواية بكاملها « انتظار » للعريس الذي ذهب ليحصل على الاذن نيابة عن العروس ° ولا بأس من أن يتحول هذا الانتظار الى فلاش باك متقطع ، فهو انتظار مليء ، لا بآهات المطرب الحزين والزغاريد التي تشبه الولولات ، وانما هو انتظار مليء بحياة الفلسطيني ، طولها وعرضها ° والفنان يختزل هذه الحياة في رموز قليلة تكثف مأساة الانتظار وتعمقها في وجداننا ° انتظار العروس لعريسها ، انتظار أهل المخيم لفارس ليلتهم ، هو انتظار فلسطين الفاجع لمخلصها الوحيد ، لرجل المقاومة °

والانتظار ــ روائيا ــ هو التوتر والقلق المشحون بكافة الاحتمالات ° وفاطمة العروس ، قرأوا فاتحتها على فهد منذ كانا طفلين ° ولكن الاستئذان واجب لا مناص منه ، على فهد أن يقوم به حتى يحقق وعد السنين ° عليه أن يأتي بعلامة لاتقبل الشك ، كما قالت عمة العروس ، علامة الموافقة من عند أبيها ° وأذا كانت الرواية كلها « انتظارا » تعانيه مع العروس وأهل العريس والضيوف القادمين من الجبل ، انتظارا نحسه ونتشممه ونلمسه ونتسمعه ونذوقه ونراه ، الا أن الرواية ــ على الوجه الاخر ــ هي رحلة يقوم بها فهد الى حماه ويعود ، رحلة لا تمسك بها حواسنا الخمس ، ولكنها تظل محلقة على رؤوسنا كالطير حتى تقع الواقعة ويعود العريس ، ومعه علامة الموافقة ° عندما تصل ــ هكذا قالت له عمة فاطمة ــ فانظر « هل انه ما زال يطخهم ببارودته العثملية ؟ وفشكها ، يا حسرتي ، في الصرة المفتوحة أمامه قليل ومسترطب ° تطق واحدة من بين عشر فتصيب » ، « فان لم يكن بقي ، في الصرة ، يافهد شيء من الفشك ، فهات لي يا فهد يا ابن النمر ، ان كنت تقدر علامة » ° غير أننا جميعا نعلم أن والد العروس قد مات ° مات وهو يطخهم ° هذا لا يمنع فهد من الاستئذان ، بل هو يحتم عليه ذلك ، وهذا لا يمنعه من استحضار العلامة ، بل يتحتم عليه ذلك ° وقد برهن فهد منذ الطفولة على أنه عريس

---

(٤) نشرت لأول مرة في مجلة « الاداب » اللبنانية ، ثم صدرت في كتاب عن دار العودة ــ بيروت ١٩٧٠ .

فاطمة بلا منازع ، منذ كان يقود فى ألعاب الصبا الفريق العربى ويدخل فى صراع عنيف مع الفريق الذى يمثل اسرائيل .. فاذا اتيحت الفرصة للفريق الصهيونى أن يأسر فاطمة فان فهد وحده هو الذى يستطيع استردادها . من هذه الصورة الرمزية البسيطة ، يستطرد الفنان فى اضافة صورة أكثر تركيبا ، فقد اقتحم السيل مخيم اللاجئين ذات ليلة أكثر سوادا من لياليهم السود . وابتلع الوحش الرابض فى جوف الماء أطفال اللاجئين بالجملة . وكانت فاطمة من بين الاطفال الذين جرفهم السيل ، ولكن أمها هذه المرأة الاسطورة ألقت بنفسها فى غياهب المجهول ، وأمسكت أخيرا بفاطمة . كان الرجال قد توافدوا يبحثون عن الجثث والاحياء على السواء حين رأوا فيما يرى النائم أو المجنون « شيئا ما » يتأرجح فى الفضاء ، ما أن اقتربوا منه حتى صرخوا صرخة رجل واحد : انها فاطمة . وارتفق أحدهم الجدار الاملس للصخرة العاتية فاذا بأمها شبه ميتة وقد تجمدت أصابعها على ثوب فاطمة المدلاة من أعلى الهضبة ، لو أفلتت لسقطت فى الوادى السحيق . ورفع الرجال الام وابنتها معا ، ولكن الام لم تترك ذيل الثوب ، حتى لفظت النفس الاخير ، ولم يفلح الرجال العشرة أن يفكوا أصابعها عن ثوب الطفلة ، فمزقوه ، وبقيت قطعة الثوب راية مرفوعة على قبر الام الاسطورة . لذلك لم تدهش النسوة ليلة العرس حين تركتهن فاطمة وجرت من بينهن الى قبر أمها ، وعادت . كذلك عاد فهد من عند أبيها ، ولكن لا كما يعود العائدون ، وانما كما يعود الفلسطينيون هذه الايام ومعهم علامتهم ، فعرسنا عرس فلسطينى قح ، واحتفالنا يختلف عن كل ما يعرفه العالم من احتفالات . عاد فهد محمولا على أكتاف رفقته فى السلاح ، فقد نالته رصاصة من العدو وهو يغطى بالنيران رفاقه أثناء عودتهم من المهمة التى كلفوا بها هذه الليلة ، وأدوها بنجاح ، وان كان فهد قد استشهد . وعاد الى فاطمة بأروع علامة ، وافق أبوها اذن أن تزف الى فهد . وها هم الرفاق يحملون هديته الى عروسه ، بندقية ! لم تكن المفاجأة — فى عمق أعماق فاطمة — مفاجأة ، وانما بدت وكأنها على موعد مع هذا الزفاف الدموى . كان اللاجئون قد أعدوا فى ليلهم البهيم ثلاثا وعشرين لمبة كهرباء تضىء السنوات التى مضت من عمر فهـد ، تتوسطها لمبة كبيرة لفلسطين . أخذت فاطمة هدية العرس ، وقالت بل اليوم فقط ولد فهد ، وراحت تطلق الرصاصة تلو الاخرى بمهارة — ليست وليدة اليوم اطلاقا — على اللمبات الصغيرة ، وكلما انطفأت احداها ازدادت اللمبة الكبيرة توهجا .. حتى اذا انتهت من اطفاء اللمبات الثلاثة والعشرين ، بدت اللمبة الكبيرة كالشمس ، حرارة وومهجا . كأنه أبوها على باب الضيعة هكذا قال الجمهور الحاشد . وقالت فاطمة وهى تطلـق الرصاصة الاولى .. هذه لاول سنة من عمر فهد « **وهو يتعلم المشى فى ظل أشجار الزيتون فى كروم الضيعة** » والطلقة الثانية لفهد وهو يتعلم الكلام بالعربية « **لا لاجئية ولا مخيمية** » ، والثالثة لفهد وهو ينزح من الجبل ، ويتعلم لغة جديدة لغة اللجوء والخيام . ثم تبدأ السنوات العشرون ، سنوات القهر والذل ، والطلقة الاخيرة فى يوم ميلاد فهد ، لقد ولد اليوم ، ولتبدأ الرصاصة الرابعة والعشرون فى رحلتها الى صدور الظالمين « **فليسمعوا وليعدوا كم من الرصاص أطلق عليهم** » . وكما ان فهد هو الانسان الفلسطينى الجديد ، الانسان المقاوم ، لا لاجىء الخيام ، فان فاطمة هى الاخرى ، فلسطين الجديدة ، ليست الذكرى أو الحلم أو الامنية « **يا زهرة فى الجبل ، فواحة بالعز ، يا منارا على الشاطىء للضائعين فى لجة البحر** » . ومعذرة للضيوف الكرام ، فقد اكتمل بحضورهم السرور « **لا تؤاخذونا ، فنحن نفرح مثلكم ، مثل باقى البشر ، عندما نزوج بناتنا لاولادنا ، فلا تؤاخذونا ، ان كانت طريقتنا فى الفرح تختلف** » . ورددت الارض من حول المخيم زغاريد عرس الدم ، وهبط الصوت من قمة الجبل « **نعم ، نطقت أخيرا ، رغم عشرين عاما من الصمت يا لاجئون بنتكم الخرساء** » . وحقا ، لقد طال الطريق الى البصة ، فى القديم كان على مسافة يوم واحد من المشى من عكا الشريفة لا أكثر ، أما الان فقد طال عشرين عاما . لا يهم ، **قد تغفو قليلا ، فيظن الناس أننا ميتون . لكن متى توفرت الذخيرة يا ولد وكانت البواريد طيبة . آه . فلابد أن ينهض حتى الذين ماتوا منا** » . ربما كان الصوت لابى فاطمة أو لامها أو لفهد أو لغيرهم من شهداء الارض الاسيرة ، ولكن ما لا شك فيه هو ان ما نراه ليس جنازة ، وانما هو عرس فلسطينى .

والرواية على هذا النسق الشعرى المفجع ، تلتقى مع رواية غسان كنفانى — فضلا عن لقائها مع الحركة السادسة من رواية اميل حبيبى — فى اللقاء المستحيل ، وأن الدم وحده هو الجسر الوحيد بين سفر الخروج الاول وسفر العودة . ولكن أديب نحوى يختلف مع صاحب « عائد الى حيفا » فى ايمانه العميق بنسبية الحركة الفاعلة فى الصراع ، لذلك فهو — فنيا — لا يجرد المقاومة من أهم ملابساتها ، وهو الموت . سوف نفقد الكثير حتى نجد الكثير ، سوف نربح العالم كله ولو خسرنا أنفسنا . وخاتمة « عرس فلسطينى » تكاد توهمك هى الاخرى فى اختيار كاتبها لليلة زفاف بطلها موعدا لمصرعه — تماما كاختيار غسان

كنفانى للابن الفلسطينى أن يكون ضابطا اسرائيليا ـ بأنها خاتمة ميلودرامية .. لولا أن فكرة « عرس الدم » التى توسد البناء الروائى بأكمله بدءا من « الانتظار » المرئى والملموس وانتهاء بالرحلـة الخفيـة عن الانظـار ، هى الثيمـة الروائية الاساسية . وهى ثيمـة تزاوج بين الشـعر والاسطورة تزاوجا حارا عميق الدلالة بـاقى الاثر . وهو الاثر القريب من الحس التراجيدى والبعيد كل البعد عن الافتعال المسرف للعواطف السريعة الزوال .

بطولة الفرد بين الواقع والرمز

تنسحب فكرة الماضى الى الخلـف فـى رواية « الابتر » (٥) للكاتب السـورى ممدوح عدوان ، لتبرز فكرة البقاء فى الارض ، وهى الفـكرة التى داعبت الـكاتب المصرى السـيد الشوربجى فى الرواية المصرية الوحيدة التـى تصدت لواقعنا بعد الهزيمة ، رواية « أطول يوم فى تاريخ مصر » (٦) . ولكن ممـدوح عدوان منذ السطر الاول حتى الكلمة الاخيرة فى « الابتر » قدم الرمز الشعرى على الواقع الخام ، ومن ثم جاء العمل الفنى أقرب ما يكون الى التكامل بين الشكل والمضمون . بينما أراد السيد الشوربجى أن يراوح بين الواقع والرمز ، فاختلت رؤية الواقع وتاه الرمز .. لماذا ؟ لان ممدوح عدوان ـ وهو شاعر أولا ـ قد صاغ روايته على هوى القصيدة المحترقة فى ضلوعه وتأبى أن تخرج من القلب الا فى هذا القالب النثرى المركز والمركب من السرد والحوار . ان القصيدة تبرر لصاحبها دائما كافة المغريات لتضخيم الذات أو لتعذيبها على حد سواء ، انها تؤهل الشاعر لان يتصور أنه مركز الكون فى قوته وضعفه معا ، أما الرواية فانها اذا لم تكن قد وقعت فى نطاق جاذبية المونولوج الداخلى ، أو ضمير المتكلم عموما فانها كالمسرح تتيح لكاتبها فرصة الجدل بين الذات والموضوع ، فرصة الحوار بين الانا والاخر . والقصـيدة الحديثـة لم تعدم اسلوب الحوار بأن يلجأ الشاعر الى تعدد الاصوات ، ولكن صوته يظل مع هذا هو الصوت الاعلى . والشاعر ممدوح عدوان قد أحس بحوار النقائض داخله ، فاختار القالب الروائى المركز أسلوبا حيا لتجسيد هذا الصراع المؤسى بين الانسان والارض من ناحية ، والعدو الغاصب للانسان والارض من ناحية أخرى . ذلك أنه رفض منذ البداية أن تكون « الانا » هى سيدة الموقف الفنى ، ظاهرة أو متخفية ، فاحتمى بين جدران فن يمارسه للمرة الاولى فيما أعلم . ولكنها ممارسـة جـديرة بالاحترام والتقدير من جانبنا ، وبالتنمية والتطوير من جانب هذا الكاتب الاصيل والموهوب .

يركز الفنان الضوء الباهر على فلاح سورى عجوز رفض أن يغادر قريته مع المئات الذين تركوها ، الواحد بعد الاخر تحت تهديد السلاح ، حتى أخلص اصفيائه تركه أخيـرا تحت وطـأة اليأس من عودة الذين ذهبوا . ولكن الفـلاح العجوز لا يعبأ بكل ما يحيطه من مغريات الهجرة أو تهديداتها ، وانما هو يرى فى البقرة والارض والسـاقية والبيـوت والاكـواخ التى تركهـا أهلها وجوده الحقيقى الذى لا بديل له سـوى الموت . ويتخذ هذا الايمان بالوجود شكله الدرامى فى الانتظار الطويل المر « **لقد تأخروا قليلا . ولكن لا بأس ، انتى أتوقعهم اليوم أو غدا** » هكذا أجاب كل من سألوه وضايقوه وهددوه وأغووه . ويضع الكاتب بطله المتنظر ليوم سيطول ، أمام ثلاث تجارب رئيسية : أولاها حين أرسل الحـاكم العسكرى الاسرائيلى فى طلبه . وفى الطريق كان قبر الجندى المجهول هو كل ما استرعى انتباهه ، بعكس الذين أثارتهم الدهشة حين علموا أن الحاكم عرض عليه أن يشترى منه البقرة والارض ويرحل فرفض . نعم ، رفض العجوز أى ثمن ، رغم علمه بأن الحاكم يستطيع أن يأخذ ما يريد بالقـوة ، يستطيع حتى أن يقتله . ولكنه رفض . والموقف الثانى حين اقتحم وحدته ذات ليلة شـاب عربى فوجىء به أنه يقاتل ، وأنه ليس عسكريا وانما هو طالب بالجامعة ، وأنه ليس وحده يقاتل ، بل هناك مثله كثيرون ودار بينهما هذا الحوار :

« ـ كان علينا أن نقاتل منذ زمن طويل ، لقد تأخرنا كثيرا . ولكن لم يفت الاوان بعد

ـ هل أنتم كثيرون

---

[٥] الطبعة الاولى ـ عام ١٩٧٠ ـ دمشق [لا يوجد اسم الناشر] .
[٦] الطبعـة الاولى ـ ١٩٧١ ـ مطبعة دار التاليف بالقاهرة .

ــ لا بأس

ــ متى ؟

ــ بالآلاف

ــ عظيم

ــ لا يجب أن يقاتل الآخرون كلهم .

ــ والآخرون ماذا يفعلون ؟

ــ لا شيء ، يكرهون أنفسهم ، ويحبوننا لأننا نموت »

وفي احدى اللحظات المترعة بالحب والامل ، بدت من عيني العجوز نظرة وجله مشبعة بالخوف على مصير هذا البرعم المقاتل،فقال لهالشاب في ثقة « الموت فيكل مكان،لكنهيبتعد عنا كلما اقتربنا منه » . وبعد أن أكلا معا ما تيسر من الطعام الجاف والشراب المر ، حانت لحظة الوداع ، وبقي العجوز من جديد وحيدا . وراح يضرب بفأسه في الارض فازداد شعوره بالوحدة حين اصطدمت الفأس بصخرة لاتهتز من مكانها . ولكن سرعان ما فلسف هزيمته في رفعها بقوله « هذه الصخرة ضربت شروشها في الارض لانها تركت هناك منذ زمن طويل جاءت من مكان ما . سقطت ربما من الجبل ، ثم ساعدها اهمالنا لها على أن تصبح قسما من الارض ، وعلى أن تعذبني نهارا كاملا » . وهي كلمات تحمل رمزا مزدوج المعنى : فهو يعزي نفسه من ناحية على أنه كهذهالصخرة لا سبيلالى رفعها من مكانها ، أو أنه يستحلب مرارة الماضي في جرعة واحدة هي أن اهمالنا لتواجد العدو في أرضنا أتاحت له هذا الوجود . والموقف الثالث حين أقبل جنود العدو ذات يوم يفتحون البيوت والاكواخ،ويأخذون ما بها ،يحرقونمحصولالقمح في تمام نضجه ، يتغمزون عليه ويضحكون . وعبثا راحت توسلاته أن يتركوا ماليس لهم ،وان ينقذوا القمح منالحريق .قال له الضابط أنيترك كل شيء ــ كالباقين الذين لن يعودوا ــ ويرحل، ولكنه تحامل على نفسه وذهب الى جوار بقرته والساقية خوفا على الارض من أن يسرقونها بما عليها ويذهبون . ولم يكن القلق والحزن قد انزاحا عن صدره حين دوت بالقرب منه رصاصة ارتجفت لها قليلا ، والتفت الى الجنود باعياء . ولكن الطلقة الثانية رمته على خاصرته وافلتت منه ــ أخيرا ــ حبل البقرة ، وشهق متذكرا ذلك الشاب « الفدائي » الذي لن يراه وهو يمسن بالقرية « هل سيد فنوتني » واختلط دمه بالتراب .»

ان بطولة الفرد في «الابتر» هيبطولةرامزة الى موقف من الاحتلال . واذا لم نقرأ على ضوءهذا الاعتبارلبدتلنا غايةفيالتعسفوالافتعال فاستبقاء هذا العجوز في أرضه حتى الموت ، وتصوير سلوكه مع الجنود والضباط والفدائي على نحو بالغ العفوية التي تصل أحيانا الى درجة البلاهة ، هذه كلها صياغة رمزية للنبي المجنون.. والكاتب كان واعيا الىغير حد ،بأن « البقاء في الارض» ليسشعارا ميتافيزيقيا ، فهذا البقاء لن يحول دون حرق الارض ، ونهب البيوت وقتل العجوز .. ولكن البقاء في الارض معلق بهذا الامل المتحرك في جسد الفدائي ، الذي أقبل على العجوز ذات مساء كانما ــ في عشائهما الاخير ــ يسلم احدهما الامانة للاخر ، والاخر يقدم العهد على أن يكون الموتهو الجسر الىالحياة ،وليس نهاية للحياة .

أما السيد الشوربجي فقد اختار لروايته « أطول يوم في تاريخمصر» فكرة ذهبية كانت جديرة بأن يأخذها الكاتب مأخذ الجد ، وبخاصة وأنها الرواية المصرية الوحيدة التي تصدت لاوضاعنا بعد الهزيمة ، ولكن الكاتب تعجل في صياغتها على نحو قريب من صياغة الافلام المصرية متأثرا في ذلك ــ كما يبدو لي ــ بعمله المتواصل فيالاذاعة والتليفزيون .

والرواية على هذا النحو هي امتداد للشكل التقليدي ، ولكن في صورة ممعنة في التبسيط والهامشية من ناحية ، والتفكك من ناحية أخرى . بانتهاء حرب الايام الستة ، يبدأ أطول يوم في تاريخ مصر ، اليوم الذي مازلنا نعيشه من ذلك الوقت . والمدينة التيأختارها الكاتب مسرحا لاهم

الاحداث هى السويس ، والحدث الرئيسى هو الهجرة التى دفعت اليها ظروف الحرب ، من مدن القنال الى بقية محافظات الجمهورية • ومن الطبيعى أن يركز الكاتب الضوء على شريحة البرجوازية الصغيرة فى المدينة ، لان مشكلاتها هى الاكثر تجسيدا والاقدر تعبيرا عن رؤية الكاتب للهزيمة والمقاومة على السواء •

كمعظم الروايات التقليدية «الاجتماعية» تصبح « العائلة » هى بؤرة الاحداث الروائية ، من الجد الى الحفيد ، ومن الاصهار والانسباء والاقارب ، يختار الكاتب شخصياته « النمطية » التى الدرجة التى تتحول معها الى « أقنعة » •• فالكاتب لم يستفد كثيرا من تراث الرواية التقليدية فى ثوبها الواقعى حيث تمتلىء الشخصيات باللحم والدم ، وتبلغ حيويتها مبلغ الايهام الكامل • والجد العجوز الذى يعمل بقالا فى أحد شوارع السويس ، هو الشخصية التى تشبه من حيث المظهر الفلاح السورى العجوز فى رواية « الابتر » يرفض أن يهاجر حتى اذا ذهب الجميع الى القاهرة والاسكندرية وطنطا •• حتى زوجته ذهبت هى الاخرى مع بناتها وأحفادها •• لم يبق معه سوى « آمال » حفيدته من ابنه الكبير المتوفى ، وهى التى آثرت البقاء مع جدها ، خصوصا بعد هذه العلاقة البريئة التى نمت فى ضلوعها بينها وبين هذا الجندى الذى جاء يوما يطلب علبة سجائر ، فالتحمت العيون فى نظرة ربطت بينهما رباطا عميقا • تتوالى الغارات على السويس ، وتتوالى المصائب على الاسرة التى هاجرت ، بالوفاة والافلاس والتشرد والسجون • ولكن « آمال » وحدها هى التى صمدت فى حبها ، رغم كل الاهوال التى صادفتها •

والكاتب يهوى المفاجآت التى تزخر بها السينما المصرية •• ففى اليوم الذى قرر فيه « عزمى » أن يأتى ليخطبها ، يصاب بشظية وينقل الى مستشفى المعادى • وفى اليوم الذى تذهب اليه يخرج هو من المستشفى الى قريته التى لا تعرفها • وفى اليوم الذى تتم فيه خطبتها الى أحد أصدقاء العائلة ، يعود عزمى من القرية لتصطدم عيناه بدبلة الخطوبة اللامعة فى اصبعها • وهكذا المفاجآت تلو المفاجآت حتى تحولت الرواية الى ميلودراما حقيقية تستدر الدموع استدرارا • ولكن الكاتب يرفض هذه النهاية القاتمة ، فترفض آمال – بناء على طلبه – أن تخضع للخطبة المفروضة عليها • وفى الوقت نفسه يرفض حمدى – أحد شباب العائلة – حياة الصعلكة والتشرد ، وينضم الى صفوف الفدائيين فى الاردن •

والرواية تطيل النظر الى « الخارج » ونادرا ما تقتحم العالم الداخلى للشخصيات والاحداث والمواقف •• ولولا أن مجرد النظر الى الخارج من شأنه أن يصطاد الكثير من ملامح الفترة المضنية التى نعيشها لخلت الرواية من أى معنى يستوجب كتابتها • لقد جاءت ريبورتاجا واسعا لاطول يوم – فعلا – فى تاريخ مصر • وبالطبع فان صور الريبورتاج سطحية وجزئية ، ولكنها فى النهاية صور حقيقية **لبعض** أحزان مصر • وبالطبع ، فان صور الريبورتاج مأخوذة بعين البورجوازى الصغير القصيرة النظر ، ولكنها فى النهاية صور حقيقية لجزء من المرارة العالقة بحلق شعبنا •

وبعد ، فان الرواية العربية الجديدة وقد نادت حزيران فى نسيجها الفنى وبنائها الفكرى ، انما كانت تقوم بدور هام فى صياغة الوجدان العربى بعد الهزيمة ، بعضها صاغه سلبا ، وبعضها صاغه ايجابا ، وبعضها صاغه بين بين • ولكنها فى جميع الاحوال ، وبرغم انقسامها الى تيارين أحدهما يضخم « الانا » والثانى يضخم « الاخر » ، فانها استطاعت أن تنجز مهام « **الوثيقة الفنية الاولى** » عن أخطر مراحل تاريخنا ، وأن تنجز فى الوقت نفسه ، خطوة باهرة على طريق تطور فن عظيم بين فنوننا ، هو فن الرواية • تقول هذه الوثيقة وهذه الخطوة أنه :

● اذا جاز لنا أن ندعو التيار الاول فى الرواية الحزيرانية ، **تيارا مونولوجيا** ، فانه يجوز لنا أن ندعو التيار الاخر **تيارا ديالوجيا** • على أنه بينما لا يحرز ضمير المتكلم فى الاتجاه الاول كسبا موضوعيا للتعارض الجذرى بين أداة « الانا » والمادة الروائية المختارة – وهى حدث سياسى فى المقام الاول – فان ضمير الغائب فى غالبية الاتجاه الثانى يحرز كسبا محققا للتوافق الفنى بين أداة « الاخر » والمادة الروائية نفسها •

● ان ضمير المتكلم فى الاتجاه الاول لم يرتفع الى مستوى تيار الشعور ، فلم تمر الاحداث الخارجية من خلال أنبوبة الذات ، بحيث يصبح « الداخل » انعكاسا شخصيا للخارج .. وانما أدى التعارض بين أداة التعبير وموضوع التعبير الى خلل فى البناء الروائى ، تسطحت بواسطته المرئيات المباشرة ، لانها جاءت اسقاطا عنيفا لموقف مسبق من الواقع . هذا ، بينما كان الراوية فى الاتجاه الثانى همزة وصل موضوعية بين النظر والاشياء موضع النظر ، مما وفر لمعظم أعمال هذا الاتجاه درجة عالية من التماسك الروائى .

● كان من الطبيعى ألا تنفذ أعمال الاتجاه الاول الى نقيض الظاهرة ، الى المقاومة ، ولكن أعمال الاتجاه الثانى تورطت أحيانا ـ بدافع رد الفعل ـ الى تغليب النقيض النامى على النقيض السائد ، تغليب المقاومة على الهزيمة .. فيما عدا رواية « سداسية الايام الستة » التى اكتفت بصياغة السؤال ـ على الصعيد الجمالى ـ بصورة تطرح كافة الاحتمالات ، على الصعيد الفكرى .

● يشترك التياران كلاهما ـ فيما عدا رواية غسان كنفانى الجيدة ورواية السيد الشوربجى الرديئة ـ فى تحطيم الاصول التقليدية للرواية العربية والاسهام فى تأسيس رواية عربية جديدة ، مستفيدةمن تراثنا القليلنسبيا ،ولكنها تتجاوزه ـ بالقطع ـ الى آفاق غير مطروقة .

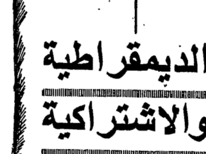
● من أهم ملامح التجديد فى كلا التيارين الكثافة الشعرية التى تتكون من الاختيار الحساس لجزئيات تنبت من الواقع ولكنها ترتفع الى مستوى الرمز ، سواء كانت هذه الجزئيات شخوصا أو حوادث أو مواقف ، تتكون هذه الكثافة الشعرية كذلك من تبطين الخامة الواقعية بالحواديت والخرافات والاساطير ، وأيضا باستخدام « التضمين » الشعرى بين موقف وآخر ، على لسان شخصية أو أخرى ، شعرا عربيا أو أوروبيا ، قديما أو جديدا ، لشاعر معروف أو لشاعر مجهول .

● تختفى من أهم أعمال الاتجاهين ، الشخصية ذات الابعاد التقليدية ، الجسمانية والنفسية ، كما تختفى الشخصية الخارقة للعادى والمألوف ، رغم أن بعض الاعمال تتحدث عن البطولة ، ولكنها حين تصنع ذلك فانها تتحدث عن بطولة الانسان العادى والمألوف . الشخصية فى الرواية الحزيرانية كالرمز الشفاف ، نمطية حينا وفردية أحيانا ، ولكنها رامزة الى ما هو بعد منها فى جميع الاحيان .

● الحدث فى أغلب هذه الروايات ـ من كلا التيارين ـ ليس هو الواقعة المتطورة طوليا مع الزمن التاريخى ، وانما هو الموقف المتجذر عمقا والمتفرع ارتفاعا .. فالنسيج الروائى هنا يشبه الشجرة ، ولا يشبه القطار او النهر . ذلك ان الاطار العام للحدث ـ على خلاف الرواية التقليدية ـ معروف مقدما ، انه الخامس من حزيران ، وليس هناك جديد فى حدود هذا الاطار . وانما الجديد حقا ، ينبع من الموقف فى مده وجزره ، بين تجمده وتوقده . لذلك كان اختزال التفاصيل من آيات حركة الحدث فى الرواية الجديدة ، ومن هنا جاء تركيزها البالغ الحدة والعنف والبرودةايضا . ولكن هذا التركيز الذى يصل ببعض الاعمال الى ستين صفحة من القطع المتوسط ، لايعنى بحال أننا بازاء قصة قصيرة ممطوطة ، وهى الشكل الذى يغرى النقاد بالانزلاق الى تعميم الحكم بأن هذه الاعمال ليست فنا روائيا . انها روايات قصيرة نعم ، ولكنها ليست قصصا قصيرة مطولة على الاطلاق . تستفيد من أساليب القصة القصيرة والقصيدة الشعرية والمسرح الجديد ، ولكنها فى خاتمة المطاف أعمال روائية .

● رؤية المثقفين هى الرؤية الغالبة على هذا الانتاج الحزيرانى ، وهى فى الاغلب رؤية البورجوازى الصغير البالغ القلق والتردد والاطلاق والتعميم . ولكن جانبا من هذا الانتاج ـ هو التيار الاول ـ لا يتحرك من اساس الحركة السلبية للبورجوازى الصغير ، وجانبا آخر ـ هو التيار الثانى ـ يبذل من الجهد والمعاناة ما يتحرك به ايجابيا الى فكرة الثورة . ولكن الامن فى جميع الاحوال لا يتجاوز رؤية المثقف البورجوازى الصغير سواء كان الها معزولا يطل من عليائه على دنيا البشر ، أو مناضلا ثوريا يحمل على كتفيه راية المقاومة قولا أو فعلا .

غير أننا فى النهاية أمام ظاهرة روائية جديدة ، تلازمت داخلها عناصر التجديد فى الفكر بعناصر التجديد فى الفن ، هذا التلازم الذى يؤدى فى خط سيره للامام ، الى قيام رواية « عربية » جديدة .




الديمقراطية والاشتراكية

فى هذا المقال يتناول مصطفى طيبة من وجهة نظره الخاصة قضية العلاقة بين الديموقراطية وبين الاشتراكية .

مصطفى طيبة

عندما اعلنت الثورة البورجوازية الفرنسية ميثاق حقوق الانسان ــ ١٧٨٩ ــ اهتز العالم بأسره لهذا الاعلان .

فالمبادىء التى تضمنها هذا الميثاق ، عبرت بعمق شامل عن اقصى ماكان يحلم به المفكرون خلال هذه المرحلة . فلقد جاء هذا الميثاق تتويجا لنضال طويل،قادته اكثر طبقات المجتمع الاقطاعى تقدما ، وهى البورجوازية .

كما ان هذا الميثاق ، استكمل صياغة جميع المواثيق التى حاولت الثورات البورجوازية من قبل اعلانها ، خصوصا ميثاق الثورة الوطنية الديموقراطية الامريكية عام ١٧٧٦ ، ومن قبلها الثورة البورجوازية الانجليزية عام ١٦٨٨ ، فضلا عن ميثاق « الماجناكارتا » ــ اى العهد الاكبر ــ عام ١٢١٦ .

فماذا احتوى هذا الميثاق التاريخى للثورة الفرنسية من مبادىء تعتبر بحق الاسس العامة للديموقراطية البورجوازية ؟

لعل المادة الثانية من هذا الميثاق ، والمادة الاخيرة ، يعبران بعمق عن مفهوم الحقوق الاساسية للانسان والمواطن كما اطلقتها اعظم الثورات البورجوازية قوة وحسما ، وهى الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ .

فالمادة الثانية تقول « كل الروابط السياسية هدفها الاحتفاظ بحقوق الانسان الطبيعية ، تلك التى لايمكن ان تنتزع ابدا ، وهذه الحقوق هى الحرية ، والملكية ، والامن ، ومقاومة الظلم ! »

اما المادة الـ ١٧ والاخيرة من هذا الميثاق فتقول « **بما ان الملكية حق مقدس لاتنتهك حرمته فلا يجوز ان يحرم احد مما يملك الخ** ..

ولاشك ان اعتبار الملكية حق طبيعى مقدس لاينتهك ، انما يعبر عن الجوهر الطبقى لميثاق الثورة الفرنسية .

ولكن هذا الميثاق ، بكل ماتضمنه من الاسس التى تحقق حرية الفرد ، وامنه ، وحقه فى اعتناق ما شاء من آراء ، كان خطوة ثورية كبرى فى طريق التقدم الانسانى ، رغم المحتوى الاجتماعى البورجوازى للثورة الفرنسية .. لان الاعتراف بهذه الحقوق السياسية — رغم طابعها الطبقى — يمثل ثورة بالقياس لعصر كان يحرق العلماء .. لانهم يعلنون ان الارض تدور حول الشمس!!

نمـــوذج جـــــديد

لجوهر حقوق الانسان

وفى يناير — ١٩١٨ — اى بعد ١٢٩ عاما من الثورة الفرنسية ، خرج الى العالم ميثاق لحقوق الانسان ، صاغته اول ثورة اشتراكية منتصرة فى التاريخ — ثورة اكتوبر الروسية عام ١٩١٧ — ليقدم للعالم نموذجا جديدا لجوهر حقوق الانسان يتجاوز الحدود التى وقفت عندها الثورة البورجوازية .

هذه الاسس الجـــديدة تنطلق من حقيقة اساسية ، هى : الحقوق الاساسية للانســان تبدأ من التحرر الاقتصـــادى والاجتماعى ، اى الغاء استغلال الانسان لاخيه الانســـان ... وتتكون هذه الحقوق الاساسية من جانبين يستحيل الفصل بينهما : الاول هو تأكيد الحقوق الاجتماعية للانسان وفى قمتها حق العمل ، والتعليم ، والعلاج والتأمين ضد المرض والشيخوخة ... مع تحقيق المساواة الحقيقية فى الفرص لجميع المواطنين ، بحيث تنطلق قدراتهم ، وتتأصل امكانياتهم فى الخلق والابداع .

والوجه الثانى : هو تحويل الحقوق السياسية ، والمدنية ، والقانونية الى التزامات يتعين على الدولة توفيرها .

فلم تعد حرية الصحافة ، وحـرية الرأى ، والفكر ، مجرد صياغات جميلة يستفيد منها أصحاب الامتيازات فى الصحف والمجلات ... انما ظهرت نصوص جديدة تؤكد التزام الدولة بالعمل على توفير وسائل هذه الحرية لجماهير الشعب .

نوعــان من الــديمقراطية

وشكلان متناقضان للدولة

هكذا برز الى الوجود نوعان من الديمو قراطية وشكلان متناقضان للدولة ... الديموقراطية البورجوازية ودولتها المعبرة عن مصـــالح هذه البورجوازية فى قمة تحـــولها الى احتـــكارات طاغية ... والديموقراطية الاشتراكية بدولتها المعبرة عن دكتاتورية الطبقة العاملة .

الاولى تحمل راية الحريات السياسية ، مثل **حرية الصـــحافة ، والفكر ، والتعبير ، وحرية تكوين الاحزاب ، وضمان اشراف القانون على الدولة نفسها ، وضمان حق الملكية** ، الخ ..

والثانية : تنبثق شعاراتها من واقع **التحرر الاجتماعى للانســــان اولا ، ثم ضمان حقـــوقه السياسية ثانيا .**

ومع نمو وتصارع هذين النموذجين ، شاع فى الاذهان وهم خطير ... قوامه ان الاشتراكية تتجاهل — او تنــكر — الحقوق السياســـــية للانسان .. وتكتفى بتحقيق حقوقه الاجتماعية .. لمجرد أنها طالبت بضمان الامن الاجتماعى للخائفين من شبح البطالة والشيخوخة ، وبعد توفير هذه الضمانات الاولية يمكن للانسان ان يبحث ويتحدث عن حرية الرأى ، والصحافة ، والفكر ، وغيرها من الحريات ! ... فنقبل توفيــر رغيف الخبز للجائع ، وضمان هذا الرغيف فى المستقبل ، يستحيل ان نطالبه بالدفاع عن حرية الرأى ، والفكر ، والانتخاب ، الخ ... !!

فهل حقا تتصف الديموقراطية الاشـــتراكية ، بتجاهل او انكار ، الحقـــوق السياســــــية ، والقانونية ، للانســـــان وتكتفى بضمان حقـــوقه الاجتماعية فحسب ؟

بعض المبادىء الاساسية

لعل من المفيد قبل مناقشة هذه القضـــية ، البدء باعادة تأكيد بعض المبادىء الاساسية فيما يتعلق بالاشكال المختلفة للديموقراطيـــة ... والخلافات العميقة بصدد هذه القضية :

اولا : ان كل شكل ، او نمط ، للديموقراطية ، لاينبع من قيم مجردة معزولـة أو منفصلـــة عــن الظروف التاريخية ، والاجتماعية ، التى تبرز فى أعماقها ... انما يتحدد نسيج هذا النمـط او ذاك من الديموقراطية ، فى علاقته الوثيقة بالواقع الذى ينبع منه ، والطبقة الاجتماعية المسيطرة على هذه الدولة الديمقراطية او تلك فى شتى اجهزتها التنفيذية .

ثانيــا : ان كل شكل للديمقراطيـــة ، مهما

اتسعت وازدهرت بداخله ابل الحقوق الانسانية هو فى الوقت ذاته نوع من الدكتاتورية ... ينطبق هذا على الديموقراطية البورجوازية ، والديموقراطية الاشتراكية على السواء .

ففى الغرب الرأسمالى « تسيطر الاحتكارات الرأسمالية والاحتكارية » على شتى الميادين الاقتصادية « والسياسية » والعسكرية ... ويمتد نفوذها ليشمل السيطرة الكاملة على جميع اجهزة ، وادوات « الديموقراطية » ... سواء فى صورة اجهزة تشريعية « او قضائية » او اعلامية .

ونفس الامر ينطبق على الديموقراطية الاشتراكية بالمفهوم « الماركسى » ... فخلف هذه الديموقراطيةتبرز دكتاتورية البروليتاريا ، كمرحلة انتقالية ضرورية لحماية الاشتراكية من خصومها فى الداخل والخارج .

ثالثا : ان الخلافات الجذرية بين هذين النظامين، الراسمالى « والاشتراكى ، حول مفهوم الديموقراطية وحقوق الانسان ، يمتد الى جميع الميادين ... فى صورة صراع لا ينتهى حول جميع القيم المستمدة من هذا الشكل او ذاك للديموقراطية .

ففى الميدان القانونى — مثلا — يتخذ هذا الصراع اطاره الرئيسى حول معنى سيادة القانون .

فالشرعية بالمفهوم الاشتراكى مرتبطة بنظام اجتماعى معين ... لايمكن ان تنفصل عنه ... القانون والشرعية « ظاهرتان نابعتان من النظام الاجتماعى وليس العكس ... بمعنى انهما لايخلقان هذا النظام أو يوجدان بمعزل عن اهداف القوى الطبقية المسيطرة عليه .

بينما يحاول فلاسفة القانون الخاضعون للمفهوم البورجوازى للديموقراطية « تقديم فكرة الشرعية » باعتبارها مبدأ فلسفيا ، قانونيا « يستند الى أهم المثل العليا للدولة التى يحكمها القانون « ويفرض هيمنته عليها كضمان وحيد لكرامة الانسان والدفاع عن حرياته .

ويقول مفكرو القانون الاشتراكى « ان السمة المميزة للشرعية — او سيادة القانون — من وجهة النظر البورجوازية ، تعتمد على أسطورة تتناقض مع التاريخ « والواقع ... فهى اذ تضع هذه الشرعية فوق الدولة « والتاريخ ، والطبقات » انما تؤكد فى نفس الوقت طبيعتها الحقيقية .

ولأن جوهر الشرعية البورجوازية يتمثل فى طبيعتها الطبقية .. ومن هذه الطبقية تتحدد رسالتها ... **المحافظة على النظام الاجتماعى فى أعتى مراحله ، الاحتكارية والاستعمارية ، والدفاع عن حق هذا النظام المطلق فى قمع قوى الطبقات الكادحة : وحقه — المشروع ! ! — فى استخدام تكنولوجيا الدمار الشامل ضد الشعوب الاخرى المناضلة من اجل حريتها ! ...**

ولعل نموذج الحرب فى فيتنام يعبر بعمق عن جوهر هذه الشرعية عندما تصطدم بتناقضها الدائم بين الشعارات المجردة ، والواقع العملى المتمثل فى صراعها ضد ارادة شعب عظيم قرر انتزاع «شرعية» حقوقه فى الاستقلال والحرية !!

من هنا كان التناقض بين تأكيدها لوحدة القانون وسيادته على الجميع ، وصراعها المحتوم للدفاع عن نظامها الاستغلالى ، داخل حدودها، وخارج هذه الحدود ... مستخدمة أعتى أدوات القهر السياسى ، والفكرى ، والتدميرى حينما تلوح فى الافق علامات الخطر على هذه «الشرعية» المقدسة !!

القانون نتاج تطور بشرى

ونحن نؤمن بوجوب احترام الدولة لحرية المواطن ... ونؤمن بأن الاشتراكية أفضل نظام يكفل هذه الحماية ... ولكن يجب مراعاة الحقائق التالية :

ان فكرة قيام حق مثالى مطلق ، يتجاوز حدود الزمان والمكان ، ويسمو على الصراعات الاجتماعية ، باسم القانون او الحرية ، انما هو وهم كبير ... لان القانون هو نتاج تطور بشرى انه ثمرة اجتماعية تسعى لضمان الحقوق المشروعة للقوى المهيمنة على هذا النظام الاجتماعى او ذاك ... **والذين يتصورون أن لسيادة القانون معنى مستقرا ، ثابتا ، أزليا ، يرتفع فوق التاريخ ، والمجتمعات ، والصراعات ، يقعون فى خطأ جسيم** ... لان القانون ظاهرة متغيرة .. وستظل دائمة التغير طالما استمرت الحياة .. بل أن أحد عمالقة الفكر القانونى الغربى — ديجى — قال بوضوح كامل « أن حكم القانون قد تغير وسوف يتغير بتغير اشكال النظم الاجتماعية .. وبالتالى فان سيادة القانون ليست مثلا أعلى ينبغى الاقتراب منها ... **ولكنها فى الحقيقة قاعدة متغيرة ، متطورة ... يجب على رجل القانون الذكى ، تحديد مدى ملاءمة قواعدها مع الواقع الاجتماعى الدائم التجدد والتغير !! »**

ولا يقف الصراع بين هـــذين النموذجين للديموقراطية — الرأسمالية والاشتراكية — عند هذه الحدود ... ولكن يمتد لميادين كثيرة .

ففى الامم المتحدة يتخذ هـــذا الصراع شكلا جديرا بالملاحظة والتسجيل ..

فعندما بدأت مناقشة ميثاق حقوق الانســـان داخل هذه ، المنظمة الدولية ، ثار جدل طويل بين ممثلى النظامين العالميين — الاشـــتراكى والرأسمالى — حول الجوهر الحقيقى لهــذه الحقوق .

وشهدت لجنة اعداد الميثاق عـــام ١٩٤٧ مناقشات بالغة الاهمية لهذه المشكلة .. عبر عنها **شارل مالك** مقرر لجنة صـــياغة حقوق الانسان بقوله « **ان الخلاف بين النظامين انحصر حول الاهمية النسبية لكل نوع من الحقوق ... ووجوب اعطاء الاولوية لاحدهما على الاخر ... ولقد رأت الدول الاشتراكية بوجه عام فى مشكلة حقوق الانسان انها قبل كل شىء حقوق اقتصادية واجتماعية لجماهير الشــعب ، وواجب الدولــة توفيرها ... بينما ركزت الكتلة الاخرى على الحريات الفردية التقليدية** »

وبعد اقرار هذا الميثاق العظيم لحقوق الانسان من جانب هيئة الامم المتحدة — ١٩٤٨ — لم تهدأ حدة الخلافات ..

فهناك من نادى بضرورة الالزام القانونى لهذا الميثاق ... بمعنى وجوب التزام دول العالم بتطبيقه ... مهما اختلفت النظم الاجتماعيـــة بداخلها .

فى حين وقف غالبية رجال القانون فى جانب آخر ... قوامه اثبات القيمة الادبية ، والمعنوية ، والتاريخية ، لهذا الميثاق العالمى ، بلا اوهام تحاول فرضه كقانون فوق كل قوانين دول العالم المختلفة اجتماعيا وسياسيا !

المفهوم الاشـــتراكى العلمى للديمقراطية

ونعود الى السؤال الذى طرحناه من قبل : هل تتسم الديموقراطية الاشتراكية ، بتجاهل ، او انكار الحقوق السياسية والمدنية للانســـان ، مكتفية بضمان الحقوق الاجتماعية ؟

وهل تعتبر الاخطاء التى شابت لبعض الانظمة الاشتراكية — الماركسية — بصدد الشرعية ، نابعة من ظروف خاصة ، أم انها جزء لا ينفصل من الفكر الاشتراكى الماركسى ومنطقه الاصيل ؟

لنبدأ بالجانب النظرى — والفلسفى — لهذه القضية :

ان جوهر المفهوم الاشتراكى العلمى ينطلق من الحقائق التالية :

أولا : ان الحرية الحقيقية الكاملة للانسان ، أمل عظيم وبعيد يستحيل الحديث عنه بمعزل عن التطور التاريخى للطبقات الاجتماعية ... وهى لن تتحقق بصورتها المثالية الا بزوال الفوارق الطبقية ، وأسباب الاكراه ، واستغلال الإنسان لاخيه الانسان ... ومثل هذا الهدف الكبير يمكن الوصول اليه بعد انهاء الصراعات الداخلية ، والعالمية ، بحيث يتضاءل تدريجيا الدور القمعى لجهاز الدولة ... بل وتهيئة الظروف لتلاشى هذا الجهاز مع زوال الاسباب التى خلقته .

ثانيا : ان الانتقال من الرأسمالية الى مجتمع الرخاء والحرية الكاملة ، يحتاج الى تشديد قبضة جهاز الدولة ، كأداة لدكتاتورية البروليتـــاريا والفلاحين ، كضرورة تاريخية لتصفية المقـــاومة الداخلية والخارجية لاعداء هذا التحول .

ثالثا : ان الحريات خلال هذه الفترة الانتقالية تكتسب مضمونا جديدا ... يختلف جذريا عن المضمون الرأسمالى .. فهى تبدأ من ضرورة تحرير الانسان اقتصاديا ، واجتماعيا .. كمدخل اولى لكفالة الحريات الاخرى ... فالانسان قبل ان يمارس حقوقه السياسية ، والقانونية ، يجب ان يأكل ، ويشرب ، ويلبس ، ويجـــد المسكن المناسب .. فالحرية الحقيقية تبدأ عندما تجتث جذور الاستغلال ، والتفرقة الطبقية ، حينئذ يبدأ عصر الاحلام العظمى للفلاسفة والمفكرين .

رابعا : ان الديموقراطية الاشتراكية — حتى فى مرحلة الانتقال — تحقق أرقى مســـتويات الحريات السياسية ... لانها لا تكتفى بتسجيل هذه الحقوق فى وثائق ، انها توفـــر لجماهيـــر الشعب أدوات تنفيذها ... فحرية الاجتماعات ترتبط بقيام الدولة بانشـــاء الاماكن المنـــاسبة لهذه الاجتماعات ... وحرية الصحافة ، والرأى تنتقل لمستوى الممارسة الفعلية للملايين عن طريق تعهد الدولة الاشتراكية بتوفير الصحف للملايين

ومع توفير هذه الحقوق ، وفى احضان هذه الحرية المنطلقة من التحرر الاجتماعى ، تنمو وتزدهر المواهب الشخصية .. لتسهم بدورها الخلاق فى النشاط المتعدد ... لانه مع الوصول لوضع فكرة **العدل الاجتماعى** فى مكانها الصحيح — عن طريق الاشتراكية — تتحول الحرية الى قوة خلق وابداع للملايين العاملين .

مبادىء الديمقراطية
الاشتراكية فى التطبيق

من هذه المنطلقات الفكرية الاساسية ، بدأت اولى التجارب الاشتراكية فى العالم ، بعد انتصار ثورة اكتوبر عام ١٩١٧ فى روسيا القيصرية .. فكيف انتقلت هذه القواعد العامة الى مجال التطبيق ؟ ..

ان اعداء هذه التجربة جاهدوا طويلا لاثبات ما اسموه بالارهاب الذى صاحب انتصار الثورة .

ولقد تكلموا طويلا عن الغاء الاحزاب، وانعدام الرقابة القانونية ، وفقدان حرية الرأى ، الخ ..

فهل بدأت التجربة الاشتراكية ايامها الاولى بشهر سيف الارهاب والكبت ضد المختلفين معها فكريا ، وسياسيا ؟

لعل استعراض بعض الحقائق المتعلقة بظروف انتصار اول ثورة اشتراكية يظهر الكثير من الزوايا التى يتعمد المعادون لها انكارها .

اولى هذه الحقائق : ان الاحزاب السياسية المعارضة للسلطة الجديدة بقيادة لينين ، ظلت تمارس نشاطها بحرية كاملة بعد الثورة ... من بين هذه الاحزاب ، « الكادت » — وهو حزب البورجوازية الروسية — **والاشتراكيين الثوريين** — حزب البورجوازية الصغيرة — **والمنشفيك** — الجناح اليمينى للحزب الاشتراكى الروسى — وغيرها من الاحزاب والمنظمات .

وثانى هذه الحقائق التاريخية : أن السلطة الاشتراكية المنتصرة التزمت ببرنامجها قبل الثورة ..وهو اجراء انتخابات عامة للجمعية التأسيسية، لتكون الاداة التشريعية لمرحلة الثورة .

ومع أن نتيجة هذه الانتخابات ، جعلت من حزب البلاشفة — الحزب الحاكم بقيادة لينين — اقلية داخل الجمعية التأسيسية ، فان لينين لم يتخذ فى البداية اى اجراء معاد ... ولم يصدر قرار حل هذه الجمعية ، الا بعد رفضها اقرار ميثاق حقوق الشعب الذى يضمن توفير الحقوق الاساسية التى اعلنها البلاشفة قبل الثورة .

والحقيقة الثالثة : أن السلطة المنتصرة حرصت على اكتساب شرعيتها بعد هذه الانتخابات بكسب غالبية حزب الاشتراكيين الثوريين الى جانبها ... واشراك بعض قياداته فى الحكومة الجديدة .

والحقيقة الرابعة : أن حرية الصحافة كانت فى أروع مظاهرها — حتى بالمفهوم البورجوازى— ولم تلجأ السلطة الجديدة لاى اجراء ضد صحف المعارضة ، رغم حملتها المسعورة ضد الثورة .

بل ان ثقة هذه الثورة بنفسها ، وايمانها بالحرية ، وصل الى حد اطلاق سراح جميع المعتقلين ، حتى أعضاء الحكومة البورجوازية التى أطاحت بها الثورة الاشتراكية فى اكتوبر !.

فكيف تطورت الامور بعد هذا ، لتصل حد الغاء هذه الاحزاب ، وصحفها ، وبداية ما أطلق عليه اسم : **الارهاب الثورى** ؟

الواقع أن هذا التحول لم يبدأ من جانب السلطة الاشتراكية الوليدة .. انما بدأ الارهاب أولا من جانب المعارضة .. فى صورة اغتيالات لقادة الثورة ، وبعض سفراء الدول الاجنبية ، ليصل قمته قرب نهاية عام ١٩١٨ ، فى صورة اطلاق الرصاص على قائد الثورة نفسه — لينين — وهى المحاولة التى كان لها أثرها فى موته عام ١٩٢٣ .

هكذا بدأ الارهاب من جانب أحزاب المعارضة ... وانطلقت خصومتهم للسلطة الجديدة ، تتجاوز كل دستور أو قانون .

ثم ارتبط هذا الارهاب ببداية المقاومة المسلحة المنظمة من القوى المعادية ، فاتحة بذلك مرحلة الحرب الاهلية والتى امتزجت بعد ذلك بحروب التدخل لضرب الثورة من جانب الدول الراسمالية وقتئذ .

وامام هذه الموجة من الارهاب ، والتحالف مع القوى المعادية المسلحة ، الداخلية والخارجية ، بدأت مرحلة جديدة من حياة هذه الثورة ، مرحلة مواجهة **الارهاب الرجعى المسلح** ، **بالارهاب الثورى المسلح** .

ودخلت السلطة الجديدة صراع الحياة والموت ضد هذه القوى ، وانتهى هذا الصراع بانتصارها بعد تصفية جميع الاحزاب والمجموعات المعادية .

فكان الموقف من الاحزاب،والحريات التقليدية، لم ينبع من منطق الثورة نفسها ... انما فرضته عليها ظروف الحرب الاهلية ، وحرب التدخل ، ومواجهة التخريب والارهاب ، والاغتيالات ، بالاسلوب الوحيد الذى تقره أكثر **الديموقراطيات** الغربية تشدقا بالحريات والقانون !.

انحراف بعض التجارب الاشتراكية

ان التاريخ الحقيقى لاول تجربة اشتراكية، يظهر بوضوح من الذى بدأ الارهاب، ومن الذى أرغم على استخدام الحق الانسانى المشروع لمواجهة هذا الارهاب.

الديمقراطية الاشتراكية اذن لا تفترض بالضرورة الغاء الاحزاب، أو مصادرة حريات المختلفين مع سياسة الثورة.

والدليل الاكبر هو اختلاف بعض التجارب الاشتراكية فى أوروبا، وآسيا، عن النموذج السوفيتى.. واستناد هذه التجارب لشكل جديد من السلطة، يعترف بوجود الاحزاب، ويتحالف معها.

ولعل أبرز نموذجين معبرين عن هذه الحقيقة، هما تجربة الاشتراكية فى ألمانيا الديمقراطية، وتجربة الثورة الصينية...

ثم يأتى هذا السؤال: بماذا نفسر انحراف بعض التجارب الاشتراكية، عن خط الشرعية الاشتراكية — أى سيادة القانون — وتضخم الاجهزة البوليسية وكبتها للحريات العامة؟

ما هى الظروف الحقيقية التى انتجت «ما سمى» بمرحلة الستالينية فى الاتحاد السوفيتى، ومرحلة الارهاب والبيروقراطية على يد راكوش فى المجر؟

هنا ينبغى التمييز بين أمرين:

الاول: حداثة التجارب الاشتراكية، وغموض بعض المفاهيم المتعلقة بالفروق بين الديمقراطية البورجوازية، والديموقراطية الاشتراكية...، وأثر هذا العامل فى بروز الظواهر السلبية، سواء فى صورة عبادة الفرد، أو اهدار مبدأ الشرعية.

فضلا عن التخلف الاقتصادى، والاجتماعى لعدد من البلاد الاشتراكية فى بداية الانطلاق، والحصار والتخريب من جانب الرأسمالية العالمية، بكل ما تحدثه هذه العوامل من تغليب لمفهوم **الوحدة القهرية**، بدلا من تحقيق هذه الوحدة من خلال الحوار، والخلاف، والتنوع...

والامر الثانى: أن هذه الظواهر السلبية عارضة وليست أصيلة...، منبعها عوامل تاريخية واجتماعية بعيدة عن جوهر المفهوم الاشتراكى للديموقراطية...، وكل محاولة لاتهام الاشتراكية كسبب أصيل لانعدام الحريات السياسية، تفتقد لابسط الحقائق الموضوعية...

وليس معنى هذا التسليم بأن الاشكال الحالية للديموقراطية فى المعسكر الاشتراكى، بلغت مرحلة العلاج الجذرى لامراض المراهقة الاولى...، أو أن هذه الاشكال بلغت حد التطابق بين الديموقراطية الاشتراكية وأساليب تطبيقها...

ففى اعتقادى أن التطور الاقتصادى والاجتماعى، لقوى الاشتراكية العالمية، مازال يفتقد خطوات جسريئة فى مجال تطوير الديموقراطية...، خطوات تعترف بأهمية القيم الانسانية الكامنة فى بعض عناصر الديموقراطية الغربية، بدلا من ادانة هذا الشكل بأكمله، باعتباره أداة صالحة لدكتاتورية البورجوازية فحسب...

ان الايمان بحرية الرأى، وحرية الابداع الفكرى، والادبى، والفنى،...، والثقة الكاملة فى قدرة الاجهزة السياسية، والاعلامية، والتنظيمية للاشتراكية على الدفاع عن قيمها من خلال الاقتناع الحر المباشر، ضرورة تفرضها التطورات المعاصرة لثورة العلوم والتكنولوجيا، فضلا عن ضرورتها فى معركة المنافسة الاقتصادية، والعلمية، والديموقراطية، مع الرأسمالية...

الديمقراطية الجديدة

فى البلاد الحديثة الاستقلال

واذا كان التنافس بين الرأسمالية والاشتراكية فى ميدان تقديم النموذج الاعظم لحريات الانسان وكرامته، قد شابته مغالطات أعداء الاشتراكية...، وأخطاء أنصارها، فان تجربة البلاد الحديثة الاستقلال، والراغبة فى تجنب الطريق الرأسمالى، فى البحث عن ديموقراطية جديدة تلائم فلسفتها الاجتماعية، وتحقق طموح شعوبها فى الحرية والتطور والعدالة الاجتماعية، جديرة بالمناقشة والتأمل...

ونستطيع تقسيم هذه الدول، الى ثلاث مجموعات...، لكل منها سماتها الواضحة... ولها تجاربها الغنية فى الميدان الاقتصادى، والاجتماعى، والسياسى...

المجموعة الاولى: تضم بعض الدول التى لم تستطع اكتساب حريتها الكاملة من الاستعمار...، وابقت على الكثير من الروابط الاقتصادية والعسكرية معه، وتعثرت محاولتها للتطور فى الميدان الاقتصادى، والسياسى، نتيجة لهذه الروابط... ولا شك أن فى عالمنا العربى، وفى أفريقيا، وآسيا، وأمريكا اللاتينية، نماذج كثيرة معبرة عن هذه المجموعة

والمجموعة الثانية : وتضم بعض الدول التى تعاطت شوطا كبيرا فى ميدان تحررها الاقتصادى، والسياسى ، وتسعى لاقامة نوع من النظام الاجتماعى ، يتخطى آلام الراسمالية ، بلا نظرية اشتراكية متكاملة ، وبالاعتماد على النمط البورجوازى للديموقراطية ، وتقديس كل القيم النابعة من هذا النمط ... ولعل الهند ، وسيلان، وشيلى ، من أبرز هذه النماذج ... مع تفاوت ملحوظ فى درجة الحسم الثورى أو الالتزام بفكر محدد .

أما المجموعة الثالثة : فتمتاز برفض الطريق الراسمالى ، ورفض الاشكال الديموقراطية التقليدية ، واتخاذ خطوات جذرية فى معركة التحول الاجتماعى ... وابرز نموذج لهذه الدول هى مصر الثورية .

والواقع أن المناقشة ، والمفاضلة بين طريق الديموقراطية التقليدية لتجاوز الراسمالية ، وطريق الديموقراطية الجديدة فى مصر ، المختلفة عن الديموقراطية فى المعسكرين ، الراسمالى ، والاشتراكى ، تستحق التركيز الان ..

ففى الهند محاولة للبحث عن طريق جديد للتطور الاجتماعى ، يحقق آمال الجماهير وطموحها المشروع ، فى الحرية والتقدم ، والرخاء .. والاشتراكية متخذة من الديموقراطية التقليدية الكاملة وسيلتها الاساسية ..

ولكن هذه التجربة فى التطور السلمى التدريجى ، الديموقراطى ، من أجل الاشتراكية تعترضها مشاكل كثيرة .

فالراسمالية الهندية بلغت درجة عالية من التطور .. وتمتلك من القوة الاقتصادية ، والسياسية ، والاعلامية ، ما يجعل المساس بمصالحها الاساسية قضية صعبة من خلال الاسلوب الديموقراطى .

ومع أن اليسار الهندى ، استطاع احراز انتصارات كبيرة داخل حزب المؤتمر الهندى الحاكم ، خصوصا خلال الانتخابات الاخيرة التى دارت على أرضية واضحة من الصراع بين اليمين واليسار ، فان المعركة فى جانبها الاجتماعى ما زالت غامضة .

فبقايا الاقطاع فى الهند ، والقوة الاقتصادية الواضحة للراسمالية هناك ، يشكلان عناصر ضغط تجعل من خطوات التحول الاجتماعى الجذرى للطريق غير الراسمالى ، عملية بالغة التعقيد .

ولكن الظاهرة الجديرة بالاعجاب ، والتقدير ، فى هذا البلد الصديق العظيم ، هى قدرة القوى الديموقراطية ، واليسارية ، على عزل اليمين الهندى عن مواقع السلطة ، من خلال الاشكال الديموقراطية البورجوازية التى طالما تشدق هذا الجناح بتقديسها ! .

ومن السابق لاوانه اصدار حكم شامل على تجربة الهند الاجتماعية ، والسياسية بعد الاستقلال ... فالمعركة بين أنصار الراسمالية والمعادين لها ، لم تحسم بشكل نهائى .

كما أن قدرة هذا الشكل من الديموقراطية التقليدية على تهيئة الظروف للتحول الحقيقى نحو الاشتراكية ، المستند الى تعدد الاحزاب والحريات الكاملة للمعارضة بشتى اتجاهاتها ... مسألة تحتاج الى جهود خارقة .

أما التجربة المصرية ، الثورية ، فأنها تختلف عن طريق الهند من أجل التقدم .

ففى مصر الثورة استطاعت القيادة أن تشل مقاومة الراسمالية الكبيرة من خلال اجراءات يوليو التاريخية .

وامتد أثر هذه الثورة الاجتماعية المتمثلة فى هذه الاجراءات ليشمل تغييرا شاملا للبناء السياسى ، والفكرى ، والتنظيمى ، للبلاد .

فلقد صدر الميثاق الوطنى ، بشكل أعظم وثيقة فكرية لبلد تحديث التحرر ، ينشد تحقيق العدالة الاجتماعية للجماهير ، جاعلا من الاشتراكية الطريق الوحيد لهذه العدالة .

ولا نبالغ اذا قلنا ان التجربة المصرية — سواء من حيث أشكالها الديموقراطية ، أو عمق اجراءاتها الاقتصادية والاجتماعية — تشكل مدرسة جديدة فى الفكر السياسى ، والاشتراكى، أحدثت تأثيرا كبيرا فى بعض بلاد « العالم الثالث »، فضلا عن تأثيرها المباشر فى تحديد معالم التطور الثورى فى عالمنا العربى .

والفكر الديموقراطى ، والاشتراكى ، فى اهم وثيقة نظرية للثورة المصرية — الميثاق — يمتاز بالاصالة ، والانفتاح ، والحسم ...

● ففى الجانب الديموقراطى : ترفض التجربة المصرية ، الديموقراطية البورجوازية التقليدية ، المرتكزة الى قيم تمجد حقوق الملكية للطبقات الغنية ، وتجهل من الحقوق السياسية والمدنية

للفرد غايتها النهائية .. متجاهلة الجوهر الاجتماعى لهذه الحرية .

فى هذه النقطة بالتحديد ، تقترب أفكار الميثاق عن الديموقراطية ، من المفهوم الاشتراكى العلمى لهذه القضية ... رغم السمات الخاصة المستمدة من التجربة المصرية .

ولعل النص الواضح على ضرورة تحرير المواطن اجتماعيا ، كمقدمة ضرورية لحرياته السياسية ، تبين هذا الاقتراب مع المفهوم العلمى للاشتراكية .

كما أن النص على ضرورة تمثيل العمال والفلاحين ، بنسبة ٥٠٪ على الاقل ، لجميع الهيئات السياسية ، والتشريعية ، يعبر بعمق عن اتجاه هذه الديموقراطية نحو أوسع الجماهير باعتبارها صاحبة المصلحة الاساسية فى التطور الاجتماعى .

وفى الجانب الاشتراكى ، صاغ الميثاق مجموعة من المبادىء الرئيسية .. تضمن سيطرة الشعب على وسائل الانتاج الرئيسية ، واشرافه عليها ، مع وضوح الحدود الحاسمة فيما يتعلق بدور القطاعين العام والخاص فى المجتمع ، والتأكيد على سيطرة القطاع العام كضمان للتحول الاجتماعى نحو الاشتراكية ... فكيف انتقلت هذه المبادىء الى مجال التطبيق ؟ !

التناقض بين النظرية والتطبيق

كما أن التناقض بين النظرية والتطبيق قضية واقعية قائمة فى كافة النظم الاجتماعية ، سواء فى ظل الرأسمالية ، أو الاشتراكية ، فان التجربة المصرية لم تفلت من هذا التناقض .. بل انه اتخذ فى بعض المراحل أشكالا حادة ، خصوصا فيما يتعلق بالديموقراطية .

فبينما احتوت سطور الميثاق ، والدستور المؤقت ، وبيان ٣٠ مارس ، على أنبل القيم الانسانية لحقوق الانسان السياسية ، والقانونية ، فان صعوبات المسيرة الثورية ، وصراعها الدائم ضد المؤامرات الاستعمارية ، والرجعية ، لاجهاضها .. جعل هذا التناقض يتخذ صورة حادة .

ان الروح العامة لوثائق الثورة المصرية الاساسية ، تحرص على تأكيد اطلاق فاعلية الشعب ، وتفجير طاقاته الخلاقة ، وضمان سيطرته السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، من خلال الديموقراطية .

ونفس هذه الروح تبدو رائعة المضمون ، عندما تحدد خطوات انتقال السلطة للجماهير ، فى كافة المستويات ، عن طريق المجالس الشعبية ، والتنظيم السياسى ، والسلطة التشريعية ، بل والاشراف على أجهزة الدولة .

بيد ان هذه الروح العظمى افتقدت نفسها عندما انتقلت من ميدان النصوص، لواقع التطبيق ومشاكله .. لماذا ؟

من الصعب تحديد عنصر واحد يفسر هذا التناقض ... انما هناك عوامل عديدة قادت فى النهاية لنتيجة بدت غريبة عن روح هذه الوثائق التاريخية .

فهناك **أولا** عنصر الصراع المستمر ضد **المؤامرات الاستعمارية ... وأثر هذا الصراع** فى تضخم الاجهزة البوليسية ، والبيروقراطية .

وهناك **ثانيا** مراكز القوى العاتية .. بكل ما تسيطر عليه من سلطان بوليسى ، وادارى ، وسياسى ، واجتماعى ... جعلها أشبه بحائط يحجب عن الثورة تدفق طاقات جماهيرها ، ويحد من ابداعها ، ويحكم عليها بالسلبية .

وهناك **ثالثا** هذه الطبقة الجديدة المسيطرة على كافة الاجهزة الحيوية فى البلاد ... بتطلعاتها وأحلامها المتناقضة مع آمال الجماهير ... ونضالها من أجل ابعاد جموع الشعب من المشاركة الحقيقية فى تقرير مصائر البلاد .
ثم هناك الفشل الدائم لخلق التنظيم السياسى الجماهيرى ، القادر على مد القيادة الثورية بحرارة الجماهير ، وخلق الاتصال العضوى الضرورى باستمرار .

هذه العوامل وغيرها ، استبدلت العنصر البيروقراطى ، والبوليسى ، بل والارهابى ، لحماية الثورة ، بدلا من السياج الديموقراطى الحقيقى لهذه الحماية ، عن طريق الجماهير .

مرحلة جديدة .. ومبادىء جديدة

وعندما وقف الرئيس **أنور السادات** ، بعد أحداث مايو التاريخية، يكشف بقوة هذه الاساليب البوليسية المعادية للديموقراطية ، فانه بذلك افتتح مرحلة جديدة فى حياة ثورة ٢٣ يوليو المجيدة

... تضمن تدعيم قيمتها التقدمية ، والانسانية ، وتسعى لاعادة الروح الديموقراطية ، والشعبية، لثورتنا التى انطلقت أساسا من أجل هذه المبادىء ».

وهكذا دخلت التجربة المصرية ، الثورية ، هذه المرحلة الجديدة ... فاتحة عهدها بانتخابات شاملة لجميع الاجهزة السياسية ، والنقابية ، والاجتماعية ... وتتويج هذا التحول باعلان الدستور الدائم للبلاد ».

هل يمكن على ضوء هذه التحولات ، ضمان تحقيق الملاءمة بين النظرية والتطبيق ــ خصوصا فيما يتعلق بالديموقراطية ــ بلا أخطاء تعزل الجماهير عن المشاركة الايجابية فيها ، مع اليقظة الدائمة لمحاولات القوى الرجعية للاستفادة من هذه الظروف الجديدة ؟

فى اعتقادى أن التمسك الحاسم بمبادىء هذه المرحلة ، والاحترام الكامل لمبادىء الدستور، والقانون ، هو المنطلق الاول لانتصار الاتجاه الديموقراطى ».

فالتحول نحو الاشتراكية ، فى الظروف العالمية ، والمحلية ، الجديدة ، لابد أن يرتبط بأوسع ديموقراطية لكافة القوى الوطنية ، والاشتراكية ، المناضلة من أجل التحرر الوطنى ، والقومى الشامل ، والحفاظ على جميع المنجزات الاجتماعية الهادفة لشق طريق جديد نحو الاشتراكية ».

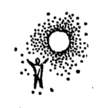
ومن الخطأ ، والخطر ، تصور الاشكال الديموقراطية ، ــ حتى أكثرها ليبرالية ــ خطرا على التحول الاجتماعى ... أو تهديدا لمكاسب الجماهير ... فتجربة المرحلة الماضية اكدت عكس هذا الوهم ... وأثبتت استحالة حماية الثورة ، بلا جماهير ثورية ايجابية تحمى بنشاطها الواعى جميع انتصاراتها الماضية ... ولا طريق لهذا سوى تأكيد حريات هذه الجماهير وحمايتها بسياج متين من القانون .

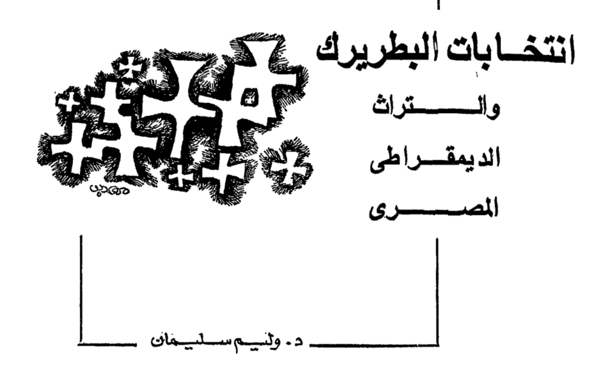
ويبقى هذا السؤال الاخير : أين تقف التجربة الجديدة للديموقراطية فى مصر ؟ ... هل تنتمى الى الديموقراطية الاشتراكية ــ من وجهة النظر الماركسية ــ أم أنها جزء من الديموقراطية التقليدية فى الغرب الرأسمالى ؟

أعتقد أن التجربة الثورية المصرية هى شكل جديد... فرضته الظروف التاريخية، والقومية ، والاجتماعية الخاصة بها ... انها ديموقراطية القوى الوطنية الساعية لاعادة بناء مصر العربية، جاعلة من الاشتراكية هدفا فى جميع وثائقها الرسمية .

وهذا النوع الجديد من الديموقراطية ، يشكل قوة ثورية تقدمية فى النضال العالمى ضد الاستعمار ، والرأسمالية الاحتكارية .

وليس صدفة أن يكون جميع أصدقاء ، وحلفاء ، هذه التجربة ، على النطاق العالمى ، من القوى الديموقراطية ، والثورية ، والاشتراكية ... وليس صدفة أيضا أن يحظى هذا النموذج الفريد ، بأوسع اهتمام من جانب اعظم مفكرى عصرنا ، باعتباره علامة بارزة على صحة الافتراض النظرى القديم ، وهو أن تحالف الثورات الوطنية ، مع الثورات الاشتراكية ، ومعسكرها الكبير ، ضرورة تاريخية تسهم فى تصفية الاستعمار ، والعدوان ، والعنصرية ، من وجه كوكبنا بأسره ! .





انتخابات البطريرك والتراث الديمقراطى المصرى

د. وليم سليمان

غيرت الدعوة المسيحية فى مصر ـ حين نادى بها لاول مرة القديس مرقس الرسول ـ نظرة الانسان التقليدية الى ذاته • فعلى الرغم من أن الاغلبية العظمى من المؤمنين بالمسيح لم يكونوا اغنياء او ذوى حسب عريق او مناصب كبيرة ـ الا أن المسيحية أكدت لديهم كرامة الانسان بصفته انسانا • حدث أن عبدا اسمه انسيمس آمن بالمسيح على يد بولس الرسول • ولكنه أبق بعد ذلك ، وأراد ترك سيده المسيحى والبقاء مع بولس . فكتب هذا الى فليمون السيد مالك العبد رسالة حفظها لنا العهد الجديد يقول فيها :

« اطلب اليك لاجل ابنى انسيموس •• الذى كان قبلا غير نافع لك • ولكنه الان نافع لك ولى • ابعث به اليك • وان اصنع هذا فانما ابعث بقطعة من نفسى •• لانه ربما •• افترق عنك الى ساعة لكى يكون •• فيما بعد لا كعبد ـ بل أفضل من عبد : أخا محبوبا •• كانسان وكمسيحى •• » (١) •

وحين أراد الرسل اقامة الشمامسة ، أى الخدام المعاونين لم يفرضوا رأيهم ، بل دعوا « **جمهور** » المسيحيين وقالوا لهم : « **انتخبوا** أيها الاخوة سبعة رجال منكم مشهود لهم •• **فحسن** هذا القول أمام كل الجمهور • **فاختاروا** •• » السبعة ، وأحضروهم أمام الرسل (٢) •

ولقد صاغت المسيحية نظرتها للانسان فى عقائدها وتقاليدها • وحفظت الكنيسة المصرية هذه الصياغة أصيلة وبأمانة ، ورتبت عليها نتائجها الحتمية • وكان من اعظم الانجازات المصرية فى هذا المجال أن شخصية الانسان ، الفرد ، لم تبتلعها الجماعة المسيحية ـ الكنيسة • او بتعبير أكثر دقة ، لم يصادر كيان الانسان العادى داخل

---

(١) الرسالة الى فليمون ، العهد الجديد .
(٢) اعمال الرسل ، الفصل السادس .

تنظيم كهنوتى مغلق ، يصنع تفرقة حاسمة داخل الكنيسة بين اقلية لها السلطان الكامل وأغلبية عليها الخضوع . وأصبح من الممكن ان يصدق هنا ما قيل بشأن الكنيسة فى التقليد الارثوذكسى من أنها الجماعة التى لا يظهر فيها التوفيق بين المصالح الفردية ومصالح الجماعة مسألة لا حل لها . ففى داخل هذه الجماعة التى لا تستهدف الا غايات روحية غير زمنية تتفق تطلعات كل فرد مع الهدف النهائى للجماعة كلها ، وهذا الهدف الاخير لا يمكن تحقيقه على حساب أى فرد (٣) .

لقد « حافظت الكنيسة القبطية على احترام الشخصية الانسانية – تراث المسيحية الاصيل . فلم تتحول الحياة الكنسية فيها الى حلقة كهنوتية مغلقة يكون فيها رجال الاكليروس أصحاب الكلمة الاولى والاخيرة ، ويهدر رأى جمهور الشعب لان السلطان الكنسى محصور فى رجال الكهنوت . على العكس من ذلك تماما – يثبت التراث القبطى كله فى القانون الكنسى ، وفى التطبيق المتواتر ، بل وفى طقوس الكنيسة نفسها – ان للجمهور سلطانا اصيلا لايمكن تجاوزه او اهماله » (٤) .

الانفصال بين الحاكم والمحكومين

وساعدت ظروف الحياة الاجتماعية والسياسية فى مصر على تأكيد هذا التراث . ففى مصر نجد – على مدى تعاقب نظم الحكم فيها الصورة النقية لانفصال الحاكم عن المحكومين . والانفصال هنا ليس اساسه طبقيا وحسب ولكنه أشد من ذلك . فالحكام منذ ما قبل الميلاد بسنوات كانوا من غير المصريين – غازين مستعمرين . حدث هذا أيام اليونان والرومان والمماليك والعثمانيين .

« لقد عاش المماليك أثناء حكمهم لمصر كطائفة منعزلة تماما عما حولها ولم يختلطوا باى عنصر من عناصر السكان المصريين سواء فى ذلك الاقباط او المسلمين . ولم يتزوجوا من أهل البلاد ، بل اختاروا زوجاتهم وجواريهم من بنات جلسهم اللائى جلبهن التجار . وقصروا اعمال الجندية على أشخاصهم ، واشترطوا الا ينخرط فى سلك المماليك الحربية الا من يستوردونه من جديد . فأبناء المماليك الذين أنجبهم هؤلاء فى مصر – مهما عظم شأنهم كانوا يقصرونهم على الاعمال الكتابية والادارية ولا يسمحون لهم بالدخول فى الجيش . وكانت المنازعات فيما بين المماليك وبعضهم البعض لا يفصل فيها القضاة طبقا للشريعة الاسلامية ، ولكن قضاة العسكر – الحجاب – هم الذين كانوا يقومون بهذا العمل ، طبقا للتقاليد المغولية التى اتوا بها معهم من ديارهم الاصلية . ومهما كانت امتيازات – رجال الدين فلم يرض المماليك ان تشاركهم فئة من السكان فى ركوب الخيل – واشترطوا على السلاطين حرمان المتعممين من ركوبها . وكان التعبير الاقتصادى الحاسم عن الانفصال بين الحاكم والمحكومين متمثلا فى نظام الاقطاع – فالارض ، وهى وسيلة الانتاج الرئيسية كانت من نصيب رجال الجيش . يقول القلقشندى : « تجرى الاقطاعات فى الدولة المملوكية على الامراء والجند ، وعامة اقطاعاتهم بلاد وأراض يستغلها مقطعها ، ويتصرف فيها كيف يشاء » وكانت الادارة الاقطاعية يشرف عليها ديوان الجيش ، وسمى الاصطلاح ديوان الجيش باسم ديوان الاقطاع كذلك (٥) .

ماذا كان موقف المصريين ازاء عزلهم عن الحياة السياسية لبلادهم ؟

لقد انصرفوا الى حياة شعبية واسعة ، متنوعة ، خصبة ، فى اطارها مارسوا العمل السياسى . بمعنى نسبى . كانت لهم مؤسساتهم الشعبية التى يتولون ادارتها . ويمارسون فى داخلها عملا ديمقراطيا جديا ، وهكذا تكونت داخل الطوائف الحرفية ، والطرق الصوفية ، وفى الازهر ، وفى الكنيسة القبطية نظم وتقاليد تقوم جميعا على احترام الرأى ، وحماية ارادة الاشخاص أعضاء الجماعة . وكانت محافظة الجماهير الشعبية على هذه النظم والتقاليد ، ودفاعهم عنها دفاعا كان يؤدى فى كثير من الاحيان الى انواع من الصراع والتمسك بالرأى سنوات

---

(٣) Vladimir Lossky, The Mystical Theology of the Eastern Church, London, 1957, p 175, 176.

(٤) وليم سليمان قلادة ، تيارات الفكر المسيحى فى الواقع المصرى ، الطليعة ديسمبر ١٩٦٦ ، ص ٨٩ – الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية ، ص ٣٢ .

(٥) على ابراهيم حسن ، دراسات فى تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر بوجه خاص ، ص ٣١ وما بعدها
صبحى وحيده ، فى اصول المسألة المصرية.
ابراهيم طرخان ، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة : ص ٢١٧
بولياك ، الاقطاع فى مصر وسوريا وفلسطين .
وليم سليمان ، القاهرة فى مصر المملوكية ، الطليعة ، فبراير ١٩٦٩ ، ص ٥١

ويأنفون مهادنة ــ كان هذا كله تعبيراً عن حيوية الشعب ، وتعويضا عما يعانيه من حرمان بسبب ابعاده عن المشاركة فى الحياة السياسية لبلاده • وهكذا تكون فى مصر تراث للديمقراطية يتعين على الدارسين ان يهتموا به وان يحددوا معالمه •

والحديث هنا عن هذا التراث كما حفظته كنيسة بلادنا المصرية • ولهذا الحديث أهمية خاصة نظرا لأن عملية اختيار بابا الكنيسة القبطية السابع عشر بعد المائة تتم اجراءاتها الان •

والمبدأ العام المستقر منذ بدء النظام الكنسى هو أن اقامة جميع رجال الكهنوت بكل درجاتهم تتم بالانتخاب الشعبى الذى يقوم به جميع أعضاء الكنيسة ــ جمهور المسيحيين • فهؤلاء أعضاء فى كيان عضوى ــ جسد واحد لا يمكن تجاهل وجودهم بدون انهيار الجماعة نفسها (٦) •

كيف حدث تطبيق مبدأ الإنتخاب الشعبى فى العمل ؟

أولا : الوظيفة الكهنوتية بكل درجاتها ومراتبها مرتبطة ارتباطا عضويا بجماعة معينة من البشر تخدم حاجاتهم الروحية • فكما أن رأس الجسم الانسانى أو عينه أو يده لا يمكن تصور أى منها منفصلة عن الجسم ككيان عضوى ــ هكذا الكنيسة • ولذلك فانه لا يمكن تصور الدرجة أو الوظيفة منفصلة عن مجموعة البشر الذين تخدمهم فليس للدرجة الكهنوتية وجود مستقل فى ذاته • أن الاسقف أو القس بدون ايبارشية هو استحالة قانونية (٧) •

ثانيا : جرى العمل منذ أقدم العصور المسيحية على تقسيم الكنيسة الى أجزاء جغرافية يسمى كل منها « ايبارشية » • وهو كتقسيم البلاد الى محافظات ، فكل ايبارشية تتكون من مجموعة من البشر ينتخبون رجال الكهنوت على مختلف درجاتهم • ففى عاصمة الايبارشية يكون المطران • وفى كل مدينة هناك الاسقف أى الراعى •

أما المطارنة والاساقفة جميعاً فرئيسهم هو البطريرك أى رئيس الاباء •

ثالثا : تؤكد القوانين الكنسية أن ادارة شئون الكنيسة لا تتم برأى منفرد ، بل أن السلطة العليا فى الكنيسة جماعية • ويقوم بها المجمع الاكليريكى وطبقا لتقاليد الكنيسة وانطلاقا من مفهومها الاصيل باعتبارها كيانا عضويا يضم أعضاء كثيرة ــ فان هذا المجمع ينبغى أن تمثل فيه كل فئات الكنيسة ، فيحضره جميع المطارنة والاساقفة والممتازون من الكهنة والقيادات الجماهيرية غير الكهنوتية الذين يوثق فى علمهم ودينهم على حد تعبير القوانين الكنسية • ويشهد التاريخ أن الصفى بن العسال ولم يكن راهبا أو كاهنا حضر المجمع الذى عقده فى القرن الثالث عشر الانبا كيرلس بن لقلق البابا الخامس والسبعون، « هذا المجمع العظيم الذى دل على حيوية الاساقفة ويقظة الشعب فى ذلك الزمان ــ حيث أجبروا البطريرك على الخضوع لرأيهم والزموه بأن يضع حدا لتعدياته الصارخة على القوانين، اذ هبوا فى وجهه وأرغموه على عقد مجمع اكليريكى حضره رجال الدين والعلمانيون ، فأذعن لمشورتهم وعقد المجمع فى ١٣ سبتمبر ١٢٣٨م • وكان من بين القوانين التى أصدرها هذا المجمع العظيم الا يقام أسقف الا من رضى به شعبه » (٨) •

هذه المبادىء الاساسية فى القوانين والتقاليد الكنسية توضح أن الدرجات الكهنوتية ، والتدرج الرئاسى فيها مرتبط أوثق الارتباط بخدمة الجمهور ، فالمطران قبل أن يكون رئيسا لاساقفة ايبارشيته هو راع لجمهور المدينة التى فيها يقيم • وينطبق المبدأ نفسه على البطريرك • ولهذا يقول الفقيه الكنسى ابن العسال ان « أكثر ما ورد للاسقف يلزم البطريرك ، لانه يسمى فى القوانين الاسقف الكبير والاول ورئيس الاساقفة »، كما أن هذا الفقيه ختم الباب الذى خصصه لاحكام البطريرك بأن « تتمة الكلام فى البطريرك من شروط اقامته ونحو ذلك ورد فى القوانين باسم الاسقف لانه أسقف مدينة كرسيه • ولذلك لا يعمل بطرك الاسكندرية أسقفا للاسكندرية (٩) •

---

(٦) ان التعبير الذى يستخدمه العهد الجديد من الكنيسة هو « الجسد » تاكيدا لعدم امكان انفراد اى عضو أو مجموعة فيه بحياة خاصة مستقلة من حياة الجسد فى مجموعه . وان أى نشاط يصدر من هذا الكيان العضوى انما تشترك فيها اعضاؤه جميعا . الرسالة الى افسس ١ : ٢٢ و ٢٣ و ٤ : ١٢ و ٥ : ٣٠ والرسالة الى كولوسى ١ : ١٨ و ٢٤ و ٢ : ١٩

[٧] أثير فى وقت ما . ومايزال يثار موضوع ما يسمى بالاسقف العام أى الذى ليست له مجموعة من البشر انتخبته وصار راعيا وخادما لها . وقد تكفل دير السريان بمناقشة هذا الموضوع وتفنيده تماما فى الحلقة الخامسة من سلسلة تاريخ البابوات بطاركة الكرسى الاسكندرى جمع كامل صالح نخلة ، مطبعة دير السريان ، ١٩٥٤ ، ص ١٩٧ ومابعدها .

[٨] وهيب عطا الله [الانبا غريغوريوس اسقف الدراسات العليا حاليا] ، مقال : وظيفة الاسقف ، مجلة مدارس الاحد ، السنة الثانية ، العدد التاسع .

فى اطار هذا التنظيم العملى تكون عملية الانتخاب اجراء شعبيا جديا • فأهالى المدينة الذين يعيشون معا ، ويجتمعون باستمرار سويا فى الكنيسة وفى الحياة اليومية يستطيعون التفاهم عن قرب ويمكنهم الحكم على الاشخاص واختيار الاصلح •

وطبقا لما جاء فى قوانين الرسل لا يرسم أسقف ــ والتعبير هنا عام يشمل الاسقف والمطران والبطريرك ــ الا اذا تم اختياره بوساطة الشعب كله(١٠)وتقول تعاليم الرسل،« فليقم الاسقف باختيار الشعب كله » و « يقام فى يوم الاحد وكل الناس متفقون على اقامته وكل الشعب والكهنة يشهدون له » (١١)

وقد أوردت بعض كتب الكنيسة القبطية تفصيلات عملية للتأكد من رضا الشعب بالشخص الذى يقام • يقول الفقيه الكنسى يوحنا بن زكريا المعروف بابن السباع بأنه فى صباح الاحد يقف المرشح الجديد فى احدى زوايا الكنيسة وشمعة متقدة أمامه •• (ويمر فى الكنيسة كلها من ابتداء الزاوية التى كان واقفا بها) « حتى ينظره كل شعب الكنيسة ليعرفه • وان كان أحدهم يعرف بأن عليه شيئا رديئا او عليه قضية تمنعه عن تتميم الرسامة فمعه اذن بأن يعرضها فى الحال •• ومتى ظهر عدم وجود شىء عليه (يقام) ، فان تعرض له أحد وذكر انه لا يصلح •• فليؤخر أمره ثلاثة أشهر ويكشف عنه بمحضر من خصمه أو فى غيبته • فان ثبت عليه سبب يمنع تقدمته منع والا فليقدم •• » (١٢)•

بل لقد وصل الامر فى تأكيد الطابع الشعبى على عملية الاختيار الى حد أن الفقيه الكنسى أبو البركات بن كبر قسيس كنيسة المعلقة فى القرن الثالث عشر يقول أنه ليس للاساقفة الا التكريز ، واما التعيين فانه لاهل الاقليم •• ويقول ان الاسقف يقام بعد اختيار الناس « دون الاساقفة والمطارنة الذين ليس لهم رأى ولا حديث فى ذلك بل لهم تقدمته ووضع اليد عليه » (١٣) •

ومهما يكن فى هذا القول من مبالغة ــ فانه يدل على أن الاصل هو الرأى الشعبى الذى يتعين احترامه قبل أى شىء آخر •

الممارسة الجماهيرية الفعلية

ولم يقتصر احترام المبدأ الديمقراطى فى الكنيسة القبطية على أن يسجل فى نصوص القوانين والتعاليم الكنسية،بل كان ممارسة فعلية قامت بها الجماهير الشعبية على مدى القرون الماضية • وكثيرا ما نقرأ فى سير البطاركة السابقين ان اقامة كل منهم كانت بعد اجتماع الشعب الارثوذكسى والتشاور فيما بينهم واتفاق رأيهم • على أن المبدأ كثيرا ما كان يمتحن امتحانا عسيرا سواء بمحاولة فرض شخص بذاته بوساطة سلطات خارجية مثل الامبراطور البيزنطى الذى تؤيده مجامع اساقفة الكنائس الاخرى ، أو بسبب عدم اتفاق رأى الجماهير على شخص معين •

وفى بعض الاحيان كان الصراع الشعبى يأخذ مداه ولو أدى الى حمامات دم لفرض الدخيل كما حدث فى أيام البابا أثناسيوس البطريرك العشرين (٣٢٨ ــ ٣٧٣ م) أو الى بقاء الكرسى خاليا سنوات طويلة لعدم اتفاق رأى الجماهير على الشخص المناسب ، أو الى رفض الاعتراف بشرعية رسامة شخص معين لانه اقيم على خلاف ارادة الشعب وحكم القانون •

ان متابعة هذا التاريخ الديمقراطى للشعب المصرى المسيحى لتقدم صورة نابضة لاصالة مبدأ احترام رأى الشعب على أرضنا • هذه الصورة الحية تقدم تنويعات خصبة لمبدأ واحد مستقر ومستمر ، يطبق فى كل عصر بالصورة التى تناسب ظروفه • وحين يدرس تاريخ الديمقراطية فى مصر دراسة شاملة متعمقة فان انتخابات بطريرك الاسكندرية ستكون فصلا هاما فى هذا التاريخ •

---

(٩) المجموع الصفوى طبعة جرجس فيلوثاوس ، الباب الرابع رقم ١ ص١٩ ورقم ٣٣ ص ٢٩ •

(١٠)

Les 127 Canons des Apôtres, Patr., Or,, VIII, F, 4, p 59/
Hippolite de Rome, La tradition Apostolique, Sources Chrétiennes, p 26

(١١) الدستولية ، طبعة حافظ داود ١٩٤٠ ، الباب ٣٦ ، ص ١٩١ و ١٩٤

(١٢) الجوهرة النفيسة فى علوم الكنيسة ، الباب الثمانون ، طبع بمطبعة عين شمس سنة ١٦٨ • وهيب عطا الله [الانبا غريغوريوس أسقف الدراسات العليا] ، وظيفة الاسقف ، مجلة مدارس الاحد ، السنة الثانية ، العدد التاسع ، ص ١٧

(١٣) مصباح الظلمة وايضاح الخدمة مخطوط ٢٧٥ لاهوت بالمتحف القبطى ص٢٤٧ ، نشرته مكتبة الكاروز ، ١٩٧١ ص ٣٧٧ ومابعدها •

النتــــائج القــــانونية

لاحترام الارادة الشعبية

ولقد صاغ القانون الكنسى لمبدأ احترام ارادة الشعب بناء متكاملا،واستخلص منه نتائجه المنطقية التى حددت معالم المبدأ وجعلت له كيانا واضحا مكتملا .

فأولا : يرتبط الاسقف بالجمهور الذى اختاره ارتباطا لا فكاك فيه ، وهو لا يستطيع أن يمارس سلطاته خارج ايبارشيته ، وجرى التقليد على أنه لا يجوز للاسقف أن يحمل عصا الرعاية رمز الوظيفة ـ خـارج حدود ايبارشيته ، وذلك كله احتراما لارادة الجماعة التى انتخبت الاسقف ، وللاخرى التى لم تشترك فى انتخابه .

ثانيا : ترتب على ذلك مبدأ مستقر منذ بدء المسيحية ـ هو عدم جواز نقل أسقف من رعاية ايبارشية ليكون أسقفا لايبارشية أخرى ، ونظرا لان البطريرك أساسا أسقفا كما سبق القول ،أذ هــو أســقف مدينـــة كرســـيه (١٤) عـلى حسب تعبير ابن العسال ، نظرا لذلك فقدم حرم القانون الكنسى ان يصبح أى من الاســاقفة بطريركا ، لان هذا التحول ليس فى حقيقةالامر الا انتقالا من الايبارشية التى اختاره جمهورها الى ايبارشية كرسى البطريرك . ويطول الحديث لو حاولنا سرد قوانين الرسل ، والمجامع العالمية والمصرية وأقوال بطاركةالكنيسةالمصرية وعلمائها والسوابق التاريخية،والاتفاق المبرم بين الكنيستين المصرية والاهوبية والدراسات القديمة والحديثة التى تؤكد هذا المبدأ (١٥) يكفى أن نقول ان مبدأ تحريم اختيار البابا من الاساقفة طبق فى مصر بانتظام واضطراد على مدى تاريخ الكنيسة . ولم يكسر الا فى الربع الثانى من القرن العشرين . ولم يستمر الانحراف الا أقل من خمسين عاما أقيم خلالها ثلاثة بطاركة ، وعاد احترام المبدأ من جديد مع رسامة البابا الراحل الانبا كيرلس السادس .

وترتيبا على مبدأ عدم جواز انتقال الاسقف من ايبارشيته ، وبالتالى عدمجواز اختيار البطريركمن بين الاساقفة لم يوضع أى قيد على حرية الشعب فى اختيار البطريركمن أية فئة . وجرى العمل فى القرون الاولى علىاختيار البابا منمديرى مدرسة الاسكندرية اللاهوتية وعلمائها . ولما أغلقت هذه المدرسة العظيمة جرى التقليد على اختيار البابا من الرهبان الذين لم يرسموا أساقفة قبل ذلك قط (١٦) ويعرف تاريخ الكنيسة المصرية بطاركة اختيروا من العلمانيين اى من أفراد الشـعب العاديين التجار والموظفين .

ثالثا : لم يحدث فى تاريخ الكنيسة المصرية أن وجدت درجة الاسقفية ممنوحة لشخص بـدون ايبارشية ، أى بدون مجموعة من البشر ينتخبون الاسقف الذى يقوم بخدمتهم ورعايتهم ، ان اعتبار شخص اسقفا بدون سند شـعبى هو ايغال فى الطابع الكهنوتى لا تعرفه كنيسة مصر ، لانه يكون بمثابة تصور وجود رأس بدون جسم تحيا به ومعه . ان الدرجة الكهنوتية فى هذه الحالية تعتبر كما قلنا استحالة قانونية وتسقط فى فراغ .

ونصل الى العصر الحديث ...

حدثت المخالفة الاولى لنظام الكنيسة القبطية وتقاليدها المستقرة عام ١٩٢٨ . فما هى الظروف التى حدثت فيها هذه المخالفة ؟

مع بدء ظهور الدولة الحديثة فى مصر لم يعد ممكنا أن يستمر هذا الانفصال الدقيق بين الحاكم والمحكوم ، وبدأت الجماهير تقترب من السياسة. ولم يعد مسألة اقامة شيخ للازهر أو بطريرك للاقباط أو شيخ لمشايخ الطرق الصوفية مسألة دينية خالصة ، بل تدخلت الاعتبارات السياسية فى هذه المجالات . وحاولت كل قوة سياسية فى مصر أن تكسب لنفسها شيئا من وراء هذه النشاطات الدينية المتنوعة ، ومع بزوغ القومية المصرية فى مواجهة الاتراك والجراكسة ، ومع انطلاق الثورة الوطنية ضد الاستعمار الانجليزى واشـتراك الشعب كله فيها تزايدت المشاركة الشعبية فى العمل السياسى على مختلف مستوياته . وفى نفس الوقت حاولت القوى الاستعمارية فــى مصر استخدام كل سلاح من أجل ضرب الحـركة

---

(١٤) القاهرة والاسكندرية

(١٥) نكتفى بأن نورد بعض الدراسات الحديثة الهامة : المرحوم الاستاذ يسى عبد المسيح ، أمين مكتبة المتحف القبطى سابقا والعالم المشهور فى الدراسات الكنسية ، مقال فى مجلة مدارس الاحد السنة الثامنة يونيو ويوليو ١٩٥٤ بعنوان عدم قانونية اختيار البطريرك من بـين الاساقفة قدم له نظير جيد (الانبا شنودة اسقف المعاهد الدينية حاليا) ولهـذا الاخير مقالات ودراسات عديدة فى تاكيد المبدأ من بينها ما نشره فى مجلة مدارس الاحد السنة السابعة سبتمبر ١٩٥٣ ، والسنة الثامنة ابريل ١٩٥٤ . وقد وضع الاستاذ البرت برسوم سكرتير المجلس الملى بالاسكندرية اخيرا دراسة بالغة الاهمية أوضح فيها الاسانيد القـانونية والتاريخية لهذا المبدأ .

(١٦) الذين لا تتجـاوز درجتهم القمص . انظر مقالات الانبا شنودة المشار اليها .

الوطنية . وكان أتنى الانجليز التجربة الهندية التى نجحوا من خلالها فى توجيه ضربات مؤثرة للحركة الوطنية هناك من خلال احداث عوامل الفرقة بين فئات الشعب . وكان العامل الدينى سلاحا فعالا . ويفصل مؤرخو الارساليات الاسلوب الذى استخدمته البعثات الدينية الانجليزية للنفاذ الى داخل الكنيسة الهندية القديمة ، وكيف تأثرت هذه الكنيسة وضعفت بسبب الانقسام الذى حدث بين ابنائها نتيجة هذا التدخل الخارجى .

ولم يدخر الانجليز أى جهد من اجل تكرار التجربة فى مصر ، وقد فصلنا فى مقالسابق (١٧) كيف أن **الكنيسة المصرية** شعبا واكليروسا لم تعط لهذه الاساليب فرصة للنفاذ الى داخلها ، ولكن الانجليز واصلوا الجهد .

وكانت وفاة البابا كيرلس الخامس عام ١٩٢٧ فرصة جديدة أتيحت لهم ، ووسط ظروف طائفية بالغة الحرج ومرسومة بعناية وشاركت فيها الصحف ، بدأت المحاولات لاقامة خليفة له . ولم يكن النقاش فى هذا الموضوع دينيا خالصا . بل ظهر على المسرح قوى اجتماعية وسياسية عديدة . وحتى هذا الوقت لم تكن ثمة صياغة قانونية حديثة لشروط المرشح للبطريركية ولجمعية الناخبين ولاجراءات الانتخاب . يقول الاستاذ حبيب المصرى فى محاضرة له (١٨) روى فيها بعض ما حدث عام ١٩٢٨ أنه بعد اعداد المشروعات التى تضمنت هذه الصياغة « كان المشروع (١٩) على وشك الصدور لولا أن طرأت ظروف خاصة .. كان من شأنها أن وضع نظام مؤقت .. وهو النظام الذى أنتخب بموجبه الانبا يؤنس ــ وطوى المشروع الاصلى مؤقتا والى أن يريد الله ... » .

كان على المسرح وقتئذ :

الاقباط : المجمع المقدس والمجلس الملى ، والجماهير التى تريد نهضة الكنيسة واستقلالها الكامل عن كل قوة دينية أو سياسية خارجية ويتمسكون الى أقصى حد بالوحدة الوطنية .

الملك فؤاد ــ ورغبته فى أن يسيطر على كل القوى المؤثرة فى المجتمع .

اللورد لويد والاسقف الانجليزى جوين ورئيس الارسالية الانجليزية جاردنر . وهؤلاء يريدون بأية وسيلة النفوذ الى مصر . وفى المجال الذى نتحدث عنه هنا يريدون أن يحدثوا شرخا حاسما داخل الكنيسة القبطية ، كما حققوا ذلك فى كنيسة الهند القديمة .

ويروى المعاصرون لهذه الفترة انه بعد أن أقيم الانبا يؤنس بطريركا على خلاف القانون الكنسى والتقاليد المستقرة بدأ الانجليز ــ رجال سياسة ودين ــ يحاولون استغلال حالة السخط بين الاقباط لجذب فريق هام منهم الى التمرد على الكنيسة واحداث انقسام فيها يضعفها وبالتالى يضعف أحد المقومات الهامة للوحدة الوطنية التى تواجههم فى مصر .

ولكن أبناء مصر لم يحققوا للانجليز أمانيهم . ورغم كل الاعتراضات التى كان الاقباط يوجهونها للنظام الذى أنتخب على أساسه الانبا يؤنس (٢٠) ولشخصه نفسه ــ فانهم حصروا معارضتهم داخل الكنيسة والوطن . ولم يسمحوا قط لقوة خارجية بأن تستغل الموقف وتحقق منه أية فائدة .

ولكن النقد الرئيسى الذى يمكن أن يوجه للقوة الوطنية وقتئذ ، هو أنها لم تستطع أن توفق الى صيغة قانونية تربط بين التقاليد الشعبية الديمقراطية فى الكنيسة وهى التقاليد التى تكون نظاما متكاملا على النحو السالف الذكر ــ وبين التطلعات الدينية والسياسية لمجتمع يكافح من أجل استكمال استقلاله والدفاع عن وحدته العميقة الجذور . وفى نفس الوقت لم تتمكن هذه القوى الوطنية من أن تبرز شخصا تتوافر فيه الشروط القانونية للترشيح للبطريركية ، ويكون فى نفس الوقت ممثلا للنضال المصرى من أجل الاستقلال والتقدم فى جميع المجالات الدينية والوطنية، ويكون وجها مشرفا لمصر كنيسة وشعبا ووحدة ونضالا .

لائحة ١٩٤٢

بعد انتقال الانبا يؤنس وضعت لائحة ترشيح وانتخاب بطريرك الاقباط الارثوذكس وصدرت بالامر الملكى رقم ٣٧ لسنة ١٩٤٢ فى ٧ ديسمبر ١٩٤٢ ، وانتخب على أساسها بطريركان : الانبا

---

(١٧) انظر تيارات الفكر المسيحى فى الواقع المصرى ، المقال السابق الاشارة اليه .

(١٨) انظر « نص الخطاب الذى القاه حضرة الاستاذ حبيب المصرى حين كان وكيلا للمجلس الملى العام فى ٩ اغسطس ١٩٤٣ بخصوص انتخاب البطريرك .

(١٩) طبقا لما جاء فى الخطاب السابق وضع كل من المجلس الملى العام والمجمع المقدس مشروعا بتنظيم انتخابات البطريرك ، عرض المشروعان على قسم قضايا الحكومة الذى استنبط منهما مشروعا جديدا كان على وشك الصدور . ولم يتضمن مشروع القسم شروطا دينية ، بل ترك تحديدها للسلطات الدينية .

(٢٠) صدر بهذا النظام أمر ملكى من الملك فؤاد حدد اسماء الناخبين ، كما أجيز لاول مرة ترشيح المطارنة . فكان النظام مخالفة مزدوجة سواء فى نطاق شروط المرشح أو الناخب .

مكاريوس البابا ١١٤ والانبا يوساب البابا ١١٥ . وبعد انتقال هـذا البابا الاخير فى ١٣ نوفمبـر ١٩٥٦ بدأت الاجراءات طبقا للائحة لانتخاب البابا ١١٦ .

هذه اللائحة على الرغم من كل الانتقادات التى وجهت اليها تحترم فى نصوصها المبـدأين الاساسيين فى هذا المجال .

أولا : بالنسبة للمرشح للبطريركية تشترط فيه أن يكون من طغمة الرهبنة وهذا الشرط كما سبق ورأينا هو النتيجـة القـانونية التى تترتب على احترام سيادة الرأى الشعبى فى اختيار الاسقف وعدم جواز اهداء هذا الرأى بالسماح للاسقف المنتخب من جمهور ايبارشية معينة يترك الشعب الذى اختاره الى ايبارشية أخرى .

ثانيا : بالنسبة للناخبين كانت اللائحة تعينهم بصفاتهم فلا تسمح لاية سلطة أن تحـددهم بأسمائهم . فعلاوة على رجال الاكليروس بمختلف درجاتهم كانت اللائحة تعطى حق الانتخاب لجميع موظفى الحكومة أو موظفى مجالس المديريات أو المجالس البلدية الذين تبلغ مرتباتهم ٤٠٠ جنيه سنويا على الاقل سواء كانوا فى الخدمة العاملة أو خارجها وموظفو الشركات والهيئات الخاصة ممن تبلغ مرتباتهم ٦٠٠ جنيه سنويا على الاقل . كذلك تعطى اللائحة هذا الحق للمحامين والاطبـاء والمهندسين وأساتذة المدارس وغيرهم من أصحاب المؤهلات العلمية التى يعدها القانون المصرى من الشهادات العالية . ويشترط ان يكونوا قد بلغوا خمسا وثلاثين سنة ميلادية كاملة على الاقل . وكذلك كل شخص من غير الفئات المتقدمة يؤدى للحكومة ضريبة أو ضرائب مباشرة لا يقـل مجموعها عن مائة جنيه سنويا بشرط ان يكون محسنا للقراءة والكتابة . وأصحاب الصـحف القبطية والمحررون الاقباط بالصحف اليومية .

بدأ تطبيق هذه الاجراءات وظهر من خلال النشاط الانتخابى أن ثمة قوى جديدة ظهرت بثقل غير معهود أو متوقع من خارج جبهات الصراع التقليدية التى عرفتها الكنيسة منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . ففى مواجهة المجلس الملى العام وما يمثله من قوى اجتماعية ، والمجمع المقدس الذى يضم السلطات الدينيـة العليا ـ ظهرت قوى الشباب القبطى ـ ناخبين ومرشحين . وكان من الواضح تماما أن البطريرك القادم سيكون من هذه الجبهة لا منازع .

وهنا لابد من ملاحظة .. ان هذه القوة الجديدة فى اغلبيتها العظمى كانت تمثل الفـكر الدينى المسيحى الخالص . لم يستطع هؤلاء الشباب وقياداتهم أن يستشرفوا آفاق العصر المتغيرة فى جميع المجالات . ولم تكن لديهم الخبرة الكافية والوعى الذى يضمن لهم وضوح الرؤية فى الطريق الوعر الذى تسلكه الكنيسة والوطـن . كانت المشاكل الرئيسية ان لم تكن الوحيدة أمامهم هى الاوضاع الكنسية الداخلية ، الامر الذى جعلهم يصطدمون بالقوى التقليدية الراسخة فى الكنيسة ، وأدى بهم الى العزلة والى أن يؤول نشاطهم تأويلات شتى . فكان أن أوقفت اجـراءات الانتخابات . وبدأ العمل لوضع لائحة جديدة هى التى طبقت عند اختيار البابا كيرلس السـادس الراحل والتى يجرى تطبيقها حاليا .

فما هو النظام الجديد الذى جاءت به اللائحة التى صدرت فى نوفمبر ١٩٥٧ ؟

كان من الواضح بادىء ذى بدء أن الهدف الرئيسى من اصدار اللائحة هو اسـتبعاد قوى الشـباب الجديدة سواء من الترشيح أو من الانتخاب . ولذلك نص على ضرورة أن يكون المـرشح للبطريركية قد بلغ من العمر أربعين سنة ميلادية على الاقل عند خلو الكرسى البطريركى ، وأن يكون قد قضى فى الرهبنة عند التاريخ المذكور مدة لا تقل عن خمس عشرة سنة ، وهى شروط لا تتوافر فى المرشحين الشبان جميعا .

ومن ناحية المرشحين فانها اختزلت عددهم اختزالا ضخما . ولم يعد المعول فى تحديد الناخبين توافر صفات معينة فى كل منهم ، بل ان الشخص يصبح ناخبا اذا عينته بالاسم جهة معينة . هى القائمقام البطريركى أو مطران الايبـارشية أو أسقفها أو لجنة ترشيح البطـريرك . ويمكـن أن تتضح الصورة الحقيقية لجمعية الناخبين طبقا لهذه اللائحة بالنظر الى عدد ناخبى البطريرك القادم وتصنيف فئاتهم . فقد بلغ عدد الناخبين ٦٦٢ (بعد أن كانوا عدة آلاف فى ظل اللائحـة السابقة) من هؤلاء الناخبين ٢٢٣ رجل دين . والباقون من المدنيين تضمهم المجموعات الاتية : ١١ وزيرا قبطيا حاليا أو سابقا ـ ١١ عضوا بمجلس الشعب ـ ٤٧ عضو بسابق بالمجلس الملى العام ـ ٧٢ شخصا من القاهرة ـ ٢٤ شخصا من الاسكندرية ـ ١٢ من كل محافظة ـ ٢٢ صحفيا .

هذا ومما تجدر ملاحظته أن اللائحة أعطت للمطارنة والاساقفة حق ترشيح أنفسهم على خلاف القوانين الكنسية المستقرة ، ومع ذلك أعطت لهم حق تعيين الناخبين سـواء بعضويتهم فى لجنـة الترشيح أو فى ايبارشياتهم . أى أن المرشحين أو أصحاب الحق فى الترشيح هم الذين يعينون

ناخبيهم أو جزءاً لا يستهان به من هؤلاء الناخبين .

ثم تضمنت اللائحة بعد ذلك كله نظاما يطيح بالبقية الباقية من الطابع الشعبى البشرى فى عملية الانتخاب . فليس يكفى أن يفوز مرشح بالاغلبية من بين أصوات الناخبين . ولو كانت أغلبية ساحقة . بل يتعين أن تجرى بين الثلاثة الفائزين الاول قرعة ، فتكتب اسماؤهم فى ثلاث ورقات يختار واحدة منهما صبى صغير . وصاحب الاسم الذى جاء فى الورقة المسحوبة يكون هو البطريرك ...

هذه هى الاجراءات القانونية فماذا كان مسار الحركة الشعبية ؟

أولا : تحركت جبهات عديدة للمطالبة بالرجوع الى التقليد الكنسى الاصيل ومنع الاساقفة والمطارنة من اهدار الرأى الشعبى الذى على أساسه قامت الرابطة بينهم وايبارشياتهم . **وقد عبر عن هذه التحركات فى نهاية الامر نيافة القائمقام البطريركى** الذى بعد أن كان أحد المرشحين للبطريركية أصدر فى ٢٥ أبريل ١٩٧١ بيانا بالتنحى ضمنه تأكيدا للتقليد المستقر واصرارا على عدم فصم الرابطة التى تربطه بايبارشيته ، قال بعد أن سرد رغبة البعض فى ترشيحه للبطريركية :

« ولا ابيح سرا اذا قلت انه من اللحظة التى علمت فيها بذلك الترشيح تملكنى شعور شديد من عدم الارتياح ، عبرت عنه مرارا للكثيرين من أحبائى واخوتى وأبنائى وبالاخص اعضاء المجمع المقدس وأعضاء لجنة الترشيح .. وأعلنتها صريحة بأنى أشعر بارتياح تام لو قصرنا الترشيح على الرهبان فقط .. »

ثم استطرد نيافته مؤكدا اعتزازه برابطته مع ايبارشيته :

« وأعلن فى الوقت نفسه عن حبى العميق وتمسكى واعزازى الكامل بابروشيتى الغالية كرسى سوهاج والمنشاة رعاة ورعية وبلادا ومواطنين أعزاء لا حرمنى الله منهم ولا من محبتهم » .

ثانيا : تحركت الاسكندرية وعبر عن هذا التحرك الشعبى المجلس الملى الفرعى لتلك المدينة . اذ عقد جلسة خاصة فى ٢٠ أبريل ١٩٧١ ، واستعرض الموضوع ودرسه على ضوء القوانين والتقاليد والدراسات ، والاتفاقية المبرمة بين الكنيسة فى مصر واثيوبيا عام ١٩٥٩ - واقتبس نص هذه الاتفاقية فى القرار الذى أصدره - بانه « وفقا لقوانين وتقاليد كرسى القديس مرقس بالاسكندرية ، فان البابا البطريرك يختار من بين الرهبان الذين لا تعلو رتبتهم عن درجة القمص وهو المبدأ المعمول به فى سائر الكرازة المرقسية » .

كما وضع سكرتير المجلس الملى الفرعى بالاسكندرية ، الاستاذ ألبرت برسوم سلامة عضو لجنة المائة للاشراف على انتخابات الاتحاد الاشتراكى دراسة قيمة عن عدم جواز انتقال الاسقف من ايبارشيته . ولهذا التحرك أهميته حين يصدر من مدينة الاسكندرية بالذات باعتبارها - وكما أشار الى ذلك نص قرار المجلس الملى الفرعى - ايبارشية البابا . اذ أن اهدار القانون الكنسى فى هذا الصدد يعنى أن يصبح أسقف مرتبط بايبارشية أخرى اسقفا لمدينة كرسى البابا وهى الاسكندرية ، الامر الذى يؤدى فى النهاية الى اهدار الارادة الشعبية فى الايبارشيتين .

وبعد . فتبقى بعض ملاحظات يمكن أن نوردها فيما يلى :

أ - ليس من شك فى أن خلو مثل هذا المركز السامى يثير تطلعات جهات كثيرة ، أفرادا ومؤسسات . كما أن مخططات عديدة داخلية وخارجية تجد فى الوصول الى هذا الكرسى فرصة سانحة لتقريب الوصول الى أهدافها . ومن هنا كان لابد من اليقظة الشديدة كى لا يصل الى هذا المركز الا الجدير به ، القادر على تمثيل هذه الكنيسة العريقة ، المقدر لمسئوليته تجاهها وتجاه وطنه ، أن البطريرك لم يعد رئيسا دينيا وحسب ولكنه شخص له وزنه فى الحياة المصرية وعلى الصعيد العالمى . ويلاحظ فى هذا الصدد أنه لم يصدر عن أى واحد من المرشحين برنامج من أى نوع - بل أن المفاضلة بينهم تجرى على مستوى شخصى ، دون مقارنة بين برامج يقدمها المرشحون يوضحون فيها مواقفهم من المشاكل العديدة التى تحتاج الى الدراسة والوصول الى آراء محددة فيها .

ب - ونقطة البداية فى كل نظام يوضع لاختيار الشخص المناسب هى الحرص على مبادىء القانون الكنسى التى يحترمها أبناء الكنيسة ، **وهى المبادىء التى تصدر فى حقيقة الامر عن احترام الارادة الشعبية** ، وأقامت من أجل حماية هذه الارادة البناء القانونى الذى أوضحنا معالمه فيما سبق : ان البابا الذى يأتى من خلال النظام السليم المستقر يكون أقدر على كسب احترام الجماهير والتأثير فيها .

ونحن نعتقد أنه من الممكن التوفيق بين مختلف الاعتبارات اذا أدخلنا التعديلات الاتية على النظام القائم :

١ ـ يحترم مبدأ ارتباط الاسقف بايبارشيته فلا يسمح بترشيح من تعلو درجته على درجة قمص دون تفرقة بين نوع من الاساقفة وآخر ، مع الغاء قيد مدة الرهبنة الذى لا تعرفه القوانين الكنسية .

٢ ـ يزاد عدد الناخبين من الاسكندرية والقاهرة ـ مدينتى كرسى البابا ـ بحيث يشمل القادرين على ابداء رأيهم ، ويكون تحديدهم بصفاتهم لا بالتعيين بأسمائهم . فهؤلاء الناخبون هم جماهير ايبارشية البابا الاصلية . وفى نفس الوقت هم يمثلون صفوة الجماهير الشعبية فى البلاد . أما باقى الايبارشيات فان النظام القائم يمكن أن يكون مقبولا لتمثيلهم ضمن جمعية ناخبى بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية .

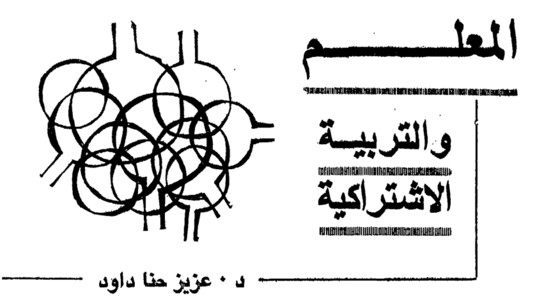
٣ ـ يقتصر تطبيق القرعة على حالة تساوى عدد الاصوات التى حصل عليها جميع المرشحين(٢١)

جـ ـ يجب أن يستبعد من المرشحين أى شخص له ارتباط بمنظمة معينة ذات وزن فى توجيه النشاط الدينى أو السياسى . وخصوصا اذا كانت هذه المنظمة عالمية ويحتل المرشح فيها مركزا فى أعلى مستوياتها القيادية . الافضل هنا ـ والحتمى ـ أن يكون رئيس الكنيسة فى مركز الرقابة والتوجيه بحيث لا يجلس داخل أجهزة المنظمة كعضو مثل باقى الاعضاء ، ويخضع رأيه لما يراه هؤلاء ، وهم يأتون من كل أنحاء العالم . فليس من شك فى أن الوضع السليم يقتضى أن تبعث الكنيسة الى هذه المنظمات العالمية بمندوب عنها يتفاوض ويتباحث وينشط ثم يقدم تقريره الى السلطات الكنسية العليا لترى فى شأن ما تم الرأى المناسب دون ارتباط سابق أو المشاركة مقدما فى اتخاذ تلك القرارات المعروضة . ولهذا يتعين أن يكون المرشح للبطريركية بعيدا عن أن يكون جزءا من أجهزة القيادات لهذه المنظمات العالمية، بل يكون تعبيرا صادقا عن أصالة كنيسة مصر واستقلالها .

د ـ واننا نثق فى أن دراسة التراث الديمقراطى ـ بل والفكر الاجتماعى ـ فى الكنيسة القبطية ، واحترامه وتطويره ـ هذا كله يساهم مساهمة فعالة فى تقدم الحياة الديمقراطية على مستوى الوطن . لقد كان الانسان المصرى يجد ذاته ويشعر بمشاركته فى حياة بلاده من خلال نشاطه داخل هذه المؤسسات الشعبية ، فى وقت حرم فيه من المشاركة فى حكم بلاده ، وأبعد عن الحياة السياسية العامة . ان تطوير هذا التراث الذى ظهر وعاش على مستوى الوطن انما هو ترقية لاعمق ما فى الانسان المصرى ، واعداد له للمهمة العظمى التى عليه أن ينهض بها ازاء بلاده . وفى نفس الوقت فان الخبرة التى تكتسبها الجماهير من ممارستها الديمقراطية داخل المؤسسات الشعبية والسياسية والدستورية والدينية هى خبرة متكاملة ، خصوصا فى وقت أصبح فيه كل انسان فى مصر مطالبا ويطالب بأن يكون له رأى محترم فى كل ما يمس الحياة على هذه الارض ، وحين تتعمق فى نفس المصرى المفاهيم السليمة لمسار الحياة السياسية والاجتماعية فى بلاده ، وبقدر ما تتأصل مبادىء الوحدة الوطنية التى لا تفرق بين المصريين بسبب العقيدة أو الدين ويحس بها كل فرد فى حياته اليومية ـ بقدر ما يكون العمل الجماهيرى فى جميع المجالات مستندا الى الوعى والخبرة ، ووضوح الرؤية ، قادرا على أن يختار قيادات كل المؤسسات اختيارا سليما ، يؤدى الى مزيد من التقدم والفاعلية .

[٢١] كتبنا فى عام ١٩٦٦ نقول : « ان اللائحة الاخيرة التى وضعت لانتخاب البطريرك لاتتفق مع التراث القبطى الصحيح وهى تحول بين الشعب وابداء رأيه فى انتخاب راعيه لانها تقصر جمعية الناخبين على عدد محدود جدا من الاشخاص يعين جزءا كبيرا منهم المطارنة والاساقفة . هذا فضلا عن تكريسها لمبدأ الصدفة فى الاختيار اذ تجعل الكلمة الاخيرة فى ذلك للقرعة . [!] »
مقال : تيارات الفكر المسيحى فى الواقع المصرى ، الطليعة ، ديسمبر ١٩٦٦ ، هامش ٦٥ ، ص ٩٠ . كتاب « الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية » ، ص ٣٥ .

المعلم والتربية الاشتراكية



د · عزيز حنا داود

لسنا فى حاجة الى تاكيد ان النصف الثانى من القرن العشرين قد شاهد العديد من الثورات التحررية فى دول العالم الثالث فى افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية · وقد تلاحقت تلك الثورات فى اصرار وعزم تعلن عن شجبها للاستعمار فى صورتيه التقليدية والجديدة . وقد وعت الشعوب فى بلدان العالم الثالث منتجارب الشعوب التى سبقتها دروسا بالغة الاهمية بحيث باتت تكشف الاعيب الاستعمار وتضليله ومحاولاته التخريبية للفكر والثقافة ، وللعمل الاقتصادى والسياسى فى تلك البلاد عن طريق الانقلابات العسكرية تارة ، وعن طريق العملاء والرجعيين تارةاخرى،وعن طريق عمليات المهادنة بهدف الاحتواء والدخول فى متاهات الاحلاف والمعاهدات وما شاكل ذلك تارات اخرى .

كما اننا لسنا فى حاجة الى تأكيد ان هناك التحاما عضويا فرضته الظروف الموضوعية بين الثورة الوطنية والثورة الاجتماعية فى بلدان العالم الثالث.بمعنى أن الثورة فى تلك البلدان لم تعد تقتصر على الجانب الوطنى الخاص بطرد المستعمر بجيوشه ومؤسساته او ضرب سيطرته واحتكاراته على اقتصاديات البلاد ، او حتى لفظ ثقافته · بل ان الثورة فى تلك البلاد باتت تعنى بعمليات التغيير الاجتماعى ، بمعنى تغيير العلاقات الاجتماعية التى هى بدورها تعبير عن التغيير فى علاقات الانتاج وانعكاس لها .من هنا اصبحت الاشتراكية العلمية هى الطريق . الوحيد والحتمى ، الذى فرضته الظروف التى تجتاح العالم فى النصف الثانى من القرن العشرين ·

وفى مرحلة الثورة الاجتماعية التى تعنى ببناء الاشتراكية تقوم الحكومات الثورية التقدمية باجراءات تعدل فى البناء التحتى للمجتمع ، كتأميم الشركات والبنوك ، واعادة توزيع الملكية او الغائها ، بحيث تقلم اظافر البورجوازيه الكبيره والاقطاع والراسمالية المستغلة المالكة لادوات الانتاج من مصانع والات واراض ومؤسسات · كما تعدل اللوائح والقوانين وتسن التشريعات التى تهدف اصلا لخدمة الجماهير - العريضة صاحبة المصلحة الحقيقية فى هذا التغيير الاجتماعى ، فيصبح التعليم بالمجان والعلاج ايضا ، كما تتوافر الضمانات للعامل والفلاح والكادحين ·· الخ · من اجراءات تقدمية · كذلك تضع الحكومات الثورية التقدمية برامج عمل قوامها التصنيع

خصوصا التصنيع الثقيل ، كذلك ميكنة الزراعة وتكثيفها ، ونشر التعليم على اوسع مدى وتقديم الخدمات الوقائية والعلاجيه .. وذلك من خلال خطط التنمية طويلة المدى او قصيرة المدى وفق الظروف الموضوعية المتاحة ووفق الاولويات التى يراها المختصون وتمليهـا مـرحلة التخلـف الموضوعية.وقد اثبتت التجارب العملية أن الدول الاشتراكية المتقدمة كالاتحاد السوفيتي والصين واوروبا الشرقية هى التى تقف بجانب الدول النامية فى العالم الثالث وتساعدها فى عمليات التحرر الوطنى والبناء الاجتماعى بالدعم السياسى والعسكرى والاقتصادى والثقافى دونتقديم عائد يتمثل فى ارتباط مصيرى او دخول فى شروط تعسفية سواء اكانت على المستويين الاقتصادى السياسي أو الايديولوجى ،وذلك خلافا لما هو جار بالنسبة للتحالف الغربى ، او المعونة عن طريق الاحلاف او المعاهدات المجحفة والارتباط بعجلة الامبريالية العالمية ، ناهيك عن العائد المـادى والتحكم مما تستحيل معه العلاقة مع تلـك الدول (الرأسمالية الامبـريالية) الى عمـالة صريحة او تباعة ذليلة على المستويين السياسى والاقتصادى ٠

الا ان هذا التعديل فى البناء التحتى للمجتمع الذى يبنى الاشتراكية لا يكفى بمفرده فى خلق المجتمع الاشتراكى ، فلا زالت الذهنية المسيطرة فى قطاعات كبيرة من الناس ذهنية متخلفة ، ولا زالت المفاهيم والاتجاهات والقيم والعـادات السلوكية متأثرة بشكل كبير بالمجتمع السـابق وبعيدة كل البعد عن المجتمع الجديد كفلسفته واهدافه ــ من هنا تظهر التناقضات الصارخة كما تظهر التطلعات الطبقية لدى بعض النـاس ــ خصوصا المثقفين غير الثوريين ــ كما تظهر ايضا الفئات الوصولية والانتهازية ٠ وبعضها قد يتبوأ مراكز هامة فى التنظيم الجديد ويتصرف بطريقة متخلفة وذهنية ورجعية ٠ كما تتصارع فئات أخرى على مواقع جديدة منشأة فتحيلها بذهنيتها المتخلفة الى أعباء على الثورة وعلى الاشتراكية ، فنلاحظ البيروقراطية بآثارها السيئة ، كما قد تتلـوث الادارة بعناصر متسولة ترتشى وتسىء الى البناء الاشتراكى ٠

والواقع ان كل ذلك يقوم عادة فى دول العالم الثالث التى اختارت الاشتراكية طريقا لها ، ولم تتم الثورة فى تلك البلدان بناء على نظرية ثورية متكاملة يتبناها حزب طليعى له كوادره المعدة والمدربة ويمكنه حينذاك وضع هذه الكوادر فى المراكز الادارية ومواقع العمل الهامة ، كما تقوم الاحزاب بتربية كوادر أخرى ، وهكذا مما يقللمن عملية المحاولة والخطـأ وتقـويم الانحـراف والانتكاسات احيانا فى ضوء وجود تيار قوى من عناصر غير اشتراكية تشكل رصيدا للثـورة المضادة حين تهب رياح معاكسة يغذيها الاستعمار وأجهزته وعملاؤه . ولعل ما حدث فى أندونيسيا وغانا ومالى يذكرنابعض تلك النكسات التى تصيب النظم الثورية التقدمية بسبب عدم وجود بناء فوقى وايديولوجى تلتزم به القيادات فى مواقع العمل التنفيذى وتترجمها الى سلوك ٠

الثورة الثقافية والتغيير الاجتماعى

وعليه تصبح الثورة الثقافية ضرورة حتمية فى دول العالم الثالث التى تتبنى التغيير الاجتماعى ، والمقصود بالثورة الثقافية اعادة البناء الفوقى للمجتمع بحيث تتحدد الايديولوجية ويعاد النظر جذريا فى طرق اعداد وتربية الناشئة فى التعليم النظامى ، بكل ملحقاته من كتب ومقررات ومناهج وانشطة ٠٠ كذلك يعاد النظر جذريا فى برامج الجامعات وفلسفتها ، فالجامعات ليست ابراجا عاجية تلوك برامج ومقررات تقليدية ومتخلفة بمعيار العصر ومعيار واقع التغيير الموضوعى فى تلك الدول ٠ مما يؤدى بها الى العزلة عن واقع المجتمع وربما تفرخ فيها عناصر مضادة للثورة ما دامت غير ملتزمة بواقع عملية التغيير فى الوقت الذى ينبغى فيه على رجال الجامعة أن يلعبوا دورا فى التنظير للثورة الاشتراكية ، كما يقع عليهم العبء فى التصدى للواقع بتحدياته وتسـخر الجامعة ببرامجها ومقرراتها لخدمة الواقع الجديد وايجاد الاطار النظرى والفلسفى له ، كما يتصدى البحث العلمى لمواجهة مشكلات المجتمع وايجاد الحلول لها ٠ كذلك تسهم الثورة الثقافية فى غربلة التراث فىهذا البلد أو ذاكوتحاول تصفيتهوتنقيته مما يسىء ويشين ، كما وان الثورة الثقافية تتدخل لتعيد صياغة وسائل الاعلام باجهزتها المختلفة تحت اشراف كوادر واعية ومثقفة بحيث تطرح على الجمـاهير ــ من خـلال الصحف والاذاعـة والتليفزيون والسينما والمسرح الخ ٠٠ ما يعدل من مفاهيمهم عن التغيير الجديد ، وما يرسخ فيهم أهداف مجتمعهم وفلسفته وعاداته الجديده التى ينبغى ان تكتسب بمفاهيم جديدة واتجاهات وقيم متطورة ٠

وفى عبارة واحدة تكون الثورة الثقافية مسئولة عن اعادة تربية الجماهير وفق التيار الفكرى الصاعد ومحاربة جميع الفكريات الهـابطة والمتخلفة فى كافة الاجهزة المسئولة عن الثقافة والتعليم الرسمى منها وغير الرسمى ، النظامى وغير النظامى ٠

التربية وفلسفة الثورة الثقافية

لعله من نافلة القول ان نذكر ان الثورة الثقافية تنبثق فلسفتها من فلسفة المجتمع الذى ينبنى الاشتراكية . وعليه فهى تطرح المفاهيم والافكار والقيم المنبثقة من واقع المجتمع الاشتراكى ، ونكتشف وتحارب المفاهيم والافكار والقيم المترسبة من المجتمع القديم والمعبرة عن المجتمع العبودى او الاقطاعى او الراسمالى الذى انخرط منه مجتمع ما قبل الثورة الاشتراكية . وعليه تنبثق الفلسفة التربوية من فلسفة الثورة الثقافية ، والتربية هى الوعاء النظامى الذى تتم عن طريقه تربية الناشئة وتطبيعهم اجتماعيا واعدادهم للحياة الاشتراكية فى مجتمعهم الجديد ، كما انها تعنى بتعليم الكبار ومحو الامية وتسهم فى طرح فكرياتها وتضع بصماتها على جميع الاجهزة الثقافية والاعلامية والترفيهية .

والتربية الاشتراكية تعتبر عملية انتاجية ، فهى ليست خدمة عامة تقدمها الدولة لابنائها كما ينظر اليها فى المجتمع الرأسمالى او الإقطاعى . ولذا فان الاموال التى تنفق عليها لا تدخل فى باب الإستهلاك ولكنها تدخل فى باب الاستثمار طويل الاجل تماما كما يحدث فى عمليات التصنيع الثقيل . فما يصرف على التربية ينتظر منه عائد او مردود يفوق فى احوال كثيرة العائد او المردود من الصناعات التحويلية وبعض الصناعات الثقيلة . وقد اثبت الإقتصادى الكبير « كيروف » ان العائد من تعميم التعليم الابتدائى فى الاتحاد السوفيتى قد قدر بما يساوى ٤٣ ضعف ما صرف على تعميم هذا النوع من التعليم وهذا استثمار رائع يؤكد ان التربية عملية انتاجية .

والتربية فى المجتمع الاشتراكى تخضع للتخطيط داخل خطة التنمية العامة للدولة فحيث أن التربية عملية انتاجية فهى تعتبر بمثابة مشروع كبير لاعداد القوى العاملة المعدة والمدربة وفق التخصصات المتباينة وبالاعداد المطلوبة . ومن المفروض ان يمون مخزون التربية هرم العمالة فى المجتمع الاشتراكى بحيث يكون فى مقدور التربية انتاج الكوادر العليا الادارية والباحثين والعلماء ، كذلك الفنيين بنوعياتهم المختلفة ومستوياتهم المتباينة ، كذلك العمال المهرة . من هنا تجد مشروعات خطط التنمية الكوادر الصالحة لها بالاعداد المطلوبة وبالتخصصات المناسبة . الا أننا نلحظ ان بلدان العالم الثالث ـ مع التباين الجزئى فيما بينها ـ تعانى من خلل واضح فى كل من هرمى التربية (مخزونها) والعمالة ، فنحن نجد فى هذه الدول نقصا خطيرا فى الفنيين بمستوياتهم المختلفة ونوعياتهم المتباينة ، فى الوقت الذى نجد فيه وفرا فى بعض الكوادر العليا ـ كذلك نلحظ نقصا خطيرا فى العمال المهرة ونصف المهرة وفائضا كبيرا فى العمال غير المهرة . وعلى سبيل المثال يوجد فى ايران عشرة اطباء لكل ممرضة (١٠ـ١) بينما ينبغى ان تصبح النسبة الطبيعية هى عشرة ممرضات لكل طبيب . وواضح بطبيعة الحال ان الظروف الاجتماعية اساسا هى المسئولة عن هذا الخلل تلك الظروف الطبقية التى تنظر الى التعليم المتوسط نظرة ازدراء ، كما تنظر الى العمل اليدوى على انه اقل مرتبه من العمل الذهنى ، هذا رغما عن الالتحام الموضوعى بينهما فى المرحلة الحالية من التطور ـ وكل ذلك نتيجة لترسب فكريات خاطئة عن التربية ووظيفتها ودورها وليس من شك فى ان المعاناة التى تواجه الدول النامية حاليا انما ترجع اصلا الى ترسبات فى المفاهيم والاتجاهات والقيم التى لا زالت تؤثر على سلوك الجماهير العريضة ، والتى هى نتاج ومحصلة لعهود طويلة من التربية الاستعمارية المقصودة فى تلك الدول ، من هنا كان التحدى الذى ينبغى على التربية ان تواجهه .

أين يقف المعلم؟

لن نجانب الواقع كبيرا اذا ما قلنا ان المعلم ـ فى اى دولة ـ انما وجد كضرورة اجتماعية ليعد الاجيال الصاعدة للحياة ولينقل لهم التراث الحضارى بكل مقوماته ،وذلك بعد أن ظلت عملية الاعداد للحياة ، كذلك نقل التراث الحضارى من وظيفة الاباء حقبة طويلة من الزمان . ولكن مع تعقد الحضارة وتعقد المجتمع ، اصبح الامر فى حاجة الى متخصصين لتحقيق تلك الوظائف ، من هنا نشأ اعداد المعلم كما نشأت المدرسة كمؤسسة اجتماعية تهدف الى اعداد الناشئة للحياة .

كما اننا لن نجانب الواقع كثيرا اذا ما قلنا ان المعلم ـ فى اى دولة ـ يعتبر حجر الزاوية بالنسبة للعملية التعليمية . وقد اثبتت دراسات كثيرة ان نجاح العملية التعليمية فى كل ابعادها يقع ٦٠٪ منه على المعلم بمفرده ، بينما تشمل الابعاد الاخرى كلها مجتمعة كالادارة ، المناهج ، الكتب المناشط، ظروف التلميذ العائلية، امكانات المدرسة ككل . . كل هذا يتضمن الـ ٤٠٪ الباقية لنجاح عملية التعليم .

وقد وعت هذه الحقيقة البلدان الاشتراكية المتقدمة فقام جيش المعلمين فى الاتحاد السوفيتى وفى الصين وفى بلدان اوروبا الشرقية بدور قيادى وفعال فى البناء الاشتراكى . فالمعلم بحكم طبيعة عمله وبحكم تأثيره على الناشئة يستطيع ان يبنى وان يصحح وان يعدل من افكار واتجاهات وقيم معتقدات سائدة فى القطاعات العريضة التى

يتعامل معها من التلاميذ ، كما ان له وزن آخر فى التاثير على الجماهير فى الريف حيث تكون للمعلم مكانة مرموقة بين اهل القرية ‥ هذا مع الافتراض مسبقا بأن هذا المعلم يكون قد اعد لمواجهة مسئولياته الكبيرة بوعى ،بمعنى ان يكون كادرا للثورة الاشتراكية ، وبدون هذا النوع من المعلمين تجتاح عملية التربية البلبلة والتخبط والتناقضات التى تنعكس بدورها على الناشئة .

من هنا ينبغى ان نحدد ما هى مسئوليات المعلم فى المجتمع الذى يبنى الاشتراكية وبمعنى آخر ما هو الدور او الادوار التى ينبغى على المعلم القيام بها ؟

وقبل ان نجيب على هذا السؤال ينبغى طرح بعض التحديدات :

أولا : حين نتكلم عن المعلم نحن نعنى جميع القيادات التى تتعامل مع الأطفال والمراهقين والشباب فى المدرسة الابتدائية او الثانوية او الجامعة او النادى او المؤسسات الدينية والمؤسسات الاعلامية والترفيهية .

ثانيا : حين نتكلم عن المعلم فاننا نرسم له الصورة التى ينبغى أن يكون عليها فى دولة من دول العالم الثالث فى طريقها الى بناء الاشتراكية ، اى اننا نقدم تصورا عن المعلم المطلوب فى هذه المرحلة من مراحل التطور بالنسبة للمجتمعات النامية التى اختارت الاشتراكية طريقا لها .

ثالثا : اننا لا نفرق بين المعلم والمعلمة ، اى بين الرجل والمرأة فى المجتمع الاشتراكى ، فكلاهما خلية منتجة فى جسم هذا المجتمع ، وعليه فان ما نذكره عن المعلم ينسحب بالضرورة على المعلمة .

رابعا : ان المسئوليات التى سوف نطرحها كأدوار للمعلم ليست منفصلة ، ولكنها متصلة ومتفاعلة كما اننا لن نحدد اولوية دور على دور وانما سنترك ذلك لظروف المرحلة موضوعيا ، كذلك لظروف المعلم وتقديره الشخصى ووعيه .

الدور الاول : « المعلم كمواطن فى مجتمع يبنى الاشتراكية فى بلدنا »

لقد أصبح مرفوضا الآن فى المجتمعات النامية والتى تبنى الاشتراكية ذلك المفهوم الخاص « بالتكنوقراط » بمعنى الاحتراف الوظيفى دون الالتزام بالمجتمع وسياسته مما يجعل قطاعات كبيرة من العمل بمستوياتها المختلفة يقوم بها افراد من التكنوقراط قد يكونون على درجة من الكفاءة فى العمل الادارى او الفنى او العلمى ، ولكنهم منعزلون عن التيارات التى تحدث فى مجتمعهم بمعنى انهم غير ملتزمين وغير منتمين ‥ والواقع ان هذا النمط من الموظفين والفنيين والباحثين والعلماء هم نتاج للفكر الغربى الرأسمالى ، ذلك الفكر الذى يعزل دائما بين العمل باعتباره سلعة وبين الايديولوجيا . ومن ثم فنحن نلاحظ العديد من الكفاءات فى دول العالم الثالث والبعيدة كل البعد عن العمل السياسى التقدمى ، وهى تفتقر الى وضوح الرؤية الايديولوجية . من هنا يكون المعلم سيئا وفاشلا اذا أجاد مادة تخصصه وعزلها عن تيار مجتمعه وارهاصاته وامانيه .

ومن نفس هذا المنطلق ينبغى على المعلم حينذاك ان يكون مدركا لقضية بلاده ، واعيا بها ومنفعلا، قادرا على تطويع مادة تخصصه بحيث تخدم قضية البناء الاشتراكى ، وفى عبارة واحدة ينبغى ان يعمل بالسياسة ويكون داعيا للاشتراكية .

الدور الثانى : « المعلم كعضو فى المهنة التى ينتمى اليها »

ينخرط المعلمون – وكذا الحال فى المهن الاخرى – فى نقابات يرتبطون بها عضويا ويفخرون بالانتماء اليها ‥ وقد كان دور نقابة المعلمين او اى نقابة اخرى قبل احداث التغيير الاجتماعى نحو بناء الاشتراكية ،كان هذا الدور ينحصر فى اعطاء حلول جزئية لمشكلات فردية لاعضاء هذه النقابة او تلك فى ضوء الاشتراك السنوى الذى يقدمه العضو ‥ وكان النقيب واعضاء مجلس الادارة هم فئة من المحترفين غالبا يسعون لتلك المراكز بتكتيكات متقنة وبتكتلات ذات طابع حزبى او طائفى غالبا ، وحيث ان غالبية المعلمين غير مهتمين اصلا بدور النقابة وعضويتهم فيها شكلية بحتة « فلم يكن هناك اهتمام جاد نحو انتقاء العناصر ذات الفعالية، والتى لها برنامج عمل يفيد فئة المعلمين – من هنا اقتصر دور النقابة على اعطاء المعاشات ، تشييع الجنازات ، عمل رحلة هنا او هناك ، اقامة ناد او قهوة يتجمع فيه بعض المعلمين للدردشة ولعب الطاولة .

الا أن دور النقابة فى المجتمع الاشتراكى يختلف كيفيا ، فهى مؤسسة تهدف الى الارتقاء بمهنة التعليم وتطويرها وربطها بالتغيرات الحادثة فى المجتمع . وتعتبر النقابة مدرسة للمنخرطين فى عضويتها ، تناقش فيها القضايا السياسية وتتخذ فيها مواقف معلنة ، كما تناقش فيها القضايا التعليمية والتربوية وتلقى القضايا العامة والتى ينعكس تاثيرها على أكبر قطاع من المعلمين المقام الاول فى الاهتمام كمشكلات الاسكان والاغتراب

والمرتبات والترقيات والمناهج والكتب وبـرامج النشاط السياسى والتربوى ، وبهذا تبتعد عن المشكلات الجزئية ذات الطابع الفردى ، ويكون للنقابة رأى واضح ومعلن فى القضايا المصيرية ، كقضايا الحرب والسلام وقضايا السلم التعليمى والتعريب والفلسفة التربوية التى ينبغى أن تسود المدرسة ـ الخ ٠ ويشكل مجلس ادارة هذه النقابة من أكثر العناصر وعيا وعملا وفعالية ، وتبتعد القيادات فى هذه الحالة بالضرورة عن التحيزات الصغيرة ، وعن ممارسة البيروقراطية وعن الاهتمام بالشكل دون الجوهر ٠

وبذلك يتكون منـاخ فكرى ثورى وعلمى يلتزم به المعلمون ، وتكون لهم لغتهم الموحدة ومنهجهم الفكرى المتسق مع أهداف مجتمعهم فى مرحلة بناء الاشتراكية ، وليس من شك أن ذلك سينعكس بالضرورة على مهنة التعليم ، باعتبارها ركيزة هامة فى البناء الفكرى والايديولوجى فى المجتمع النامى ٠

الدور الثالث : « المعلم كعضو فى مدرسته أو معهده أو كليته »

المدرسة مؤسسة اجتماعية ، ومن الطبيعى أن يتضمن دورها تفاعلا عضويا مع المجتمع الكبير بكل مؤسساته ٠ وبمعنى آخر مرفوض رفضا باتا أن تنعزل المدرسة أو الكلية عن المجتمع بمشكلاته ومطالبه وتناقضاته ٠

وعليه لا يقتصر دوره على تدريس مـادة تخصصه ـ ويتعلم منهم ٠٠ فالمعرفة متصلة ومتفاعلة ينبغى أن يطوع مادة تخصصه ويوظفها لخدمة أهداف مجتمعه وحاجات تلاميذه ٠ عليه أن يبذل جهدا خارج فصول الدراسة النظامية ، جهـدا متمما لعمله داخل الفصل فى اللقاءات الحية مع تلاميذه ، وفى تفاعله الحى مع المعلمين الاخرين ومع الادارة فى المدرسة ٠٠ وعليه أن ينمى علاقات بناءة مع المعلمين الاخرين ـ خارج نطـاق تخصصه ـ ويتعلم منهم ٠٠ فالمعرفة متصلة ومتفاعلة وانما نحن نخصص ونجزىء بهدف التحليل للدراسة فقط ، ومما لا شك فيه أن هذا سوف يكسبه النظرة الشاملة للكون بمتغيراته ، وتجعله تلك النظرة ديناميكيا لا يفرق بين العمـل الـذهنى والعـمل اليدوى ، ولا يقسم المعرفة الى علمى وأدبى ، ولكنه يكون له منهجا علميا يتناول به القضايا التاريخية والطبيعية والبيولوجية والانسانية على السواء ٠٠ وهذا المنهج العلمى قوامه الجدل أو الديالكتيك مبتعدا عن الافكار الغيبية وما يتصل بها من سحر وشعوذة ٠٠ وبذا ينعكس هذا كله على تلاميذه فيشبون علميين اشتراكيين واعين بدور المواد التعليمية وأنواع المعارف والمهارات التى تلقونها داخل وخارج حجرات الدراسة ، ومعروف ان هذه المعارف التى توصل اليها الطلاب والموجودة فى مقرراتهم ليست ثابتة بل هى متغيرة بالضرورة ، وعليه يكون من الاهمية بمكان بالنسبة للمعلم الواعى أن يدرك أن المادة الدراسية أو المقرر الدراسى ما هو الا وسيلة لتدريب الطلاب على طريقة التفكير السليم والبحث عن الحقائق وتأويل الظواهر علميا ٠٠ ومعنى آخر يهمنا المنهج الذى عن طريقه نصل الى التفسير أو التأويل ٠

الدور الرابع: «المعلم كناقل للثقافة»

لكل مجتمع ثقافته التى تنقل عبر الاجيال مع عمليات التنقية والغربلة والاضافة فحيث أن الثقافة يصنعها المجتمع اذن يمكن له أن يعدل بعض مظاهرها تلك الابعاد التى لا تتوافق مع مرحلـة تطور لاحقة ٠٠ الا أن هناك عبر الاجيال ملامح عامة للثقافة لاى مجتمع يحافظ عليها المجتمع قد تكون فى الزى أو فى المبانى أو فى بعض العادات أو التقاليد والمحارم ، بحيث يمكن للفرد أن يقوم آخر فى ضوء الثقـافة التى ينخـرط فيهـا ٠

والثقافة التى كانت سائدة فى معظم دول العالم الثالث قبل الثورات التحررية والثورات الاجتماعية كانت ثقافات معقدة ، فهى خليط من ثقافات مختلفة معظمها مستورد من المستعمر الاجنبى ، ولـذا للمستعمر أن يضع بصمات ثقافية فى الدول التى احتلها أو التى ارتبطت به سياسيا واقتصاديا وفكريا ٠٠ وقد أدى هذا الوضع الخطير الى وجود بصمات للثقافة الاجنبية ، ثقافة المستعمر بالتحديد فى ثقافات تلك البلاد التى طمست معالم الكثير منها ٠٠ ويتشرب هذه الثقافة الغربية أفراد من المجتمع خصوصا الافراد والجماعات التى ارتبطت بالمستعمر ثقافيا وتعليميا وهى فئة المثقفين على وجه التحديد ٠٠ ثم حين تتجه الدول النامية بعد تحررها وفى طريقها لبناء الاشتراكية تجد أمامها الكثير من معالم ثقافة المستعمر فى كل زاوية من زوايا الدولة ، وفى كل حركة أو ارهاصة من سلوك الافراد ، فى العادات السلوكية ، فى طرق المأكل والمشرب ، فى المبانى ، فى طريقة الحياة ، فى طريقة التفكير وأسلوبه ، فى المفاهيم والاتجاهات والقيم ٠٠ وقد يؤدى هذا الوضع بالبعض ضـعيفى الوطنية والثورية ، قد يؤدى بهم هذا الكوكتيل الثقافى الى العمالة والتعالى على فئات الشعب الكادحة التى لم تتسول ثقافة المستعمر فكريا ، وعادة ما يرتكن على أمثال تلك الفئات المستعمر

حين يغادر البلاد .. ثقافته لازالت قائمة ، هناك حماة لها من داخل نفس البلد .

ومن ثم فان المعلم الواعى ، والذى يسهم فى بناء الاشتراكية فى بلده ، عليه أن ينقل ثقافة بلده وينقيها من ثقافة المستعمر ، وعليه أن يبرز أسباب دخول هذه العناصر من ثقافة المحتل ومدى محاولاتها لاجهاض الثقافة الخالصة للبلد الذى ينتمى اليه هو وتلاميذه . ولكن لا يعنى هذا رفض كل ما هو غريب عنا بدعوى اشارته الى المحتل أو رمزه له ، والا فاننا سوف نهدم تراثا له وزنه الانسانى بحماقات نرتكبها دون وعى أو بصر . ولكن ما نريده هو تبصير المعلم تلاميذه بثقافته الاصيلة ، واستخلاص ما يتناسب وثقافتنا مما يكون له وزن انسانى أو علمى أو فنى ، ونرفض ونغربل ما يشين ثقافتنا من عناصر غربية ضارة وليست نافعة تجعلنا نقلد ونحاكى غيرنا فيما لا طائل تحته أو فائدة .

والمعلم الواعى والبصير يستطيع أن يدرك هذا وأن يتمثله وأن يشرحه لتلاميذه فيسهم فى اعادة التربية للاجيال الصاعدة وللكبار ، وفى تربية مشاعر الولاء والاحساس بالانتماء للثقافة السائدة مما يسهم فى توحد المنهج والفكر فى المجتمع ويؤدى الى تماسكه وقوته .

الدور الخامس : « المعلم كموجه لعملية التعلم »

اذا اعتبرنا أن التعليم هو توجيه لعملية التعلم ، فان هذا التوجيه يمارس عادة بأسلوبين :

أولهما ، ذلك الاسلوب التلقينى الذى يهتم فيه المعلم بتلقين المادة التعليمية الموجودة أمامه فى المقرر الدراسى أو الموجودة فى الكتاب المدرسى المقرر . ويكاد ينحصر دور المعلم التقليدى فى عملية النقل المذكورة من المقرر أو الكتاب الى كراسة التلميذ وعادة ما يتبع ذلك المعلم الفاشل غير الواعى والذى تنقصه النظرة الشمولية والذى يفتقر الى الفهم التربوى والوعى السياسى ، كما أنه يعانى غالبا من نقص فى الادراك بالنسبة لاهداف المنهج وفلسفته ، يتخذ مهنة التعليم وسيلة للارتزاق . وقد يتاجر فيها بالدروس الخاصة وغيرها من وسائل الانحراف ويهتم المعلم هنا باستظهار المادة المقررة ولو دون فهم ، كما يهتم فى تقويمه لتلاميذه فى نهاية العام بالكمية التى استطاع التلاميذ استظهارها وتقيؤها فى أوراق الاجابة .

وثانيهما ذلك الاسلوب المبنى على الاستبصار والذى يهتم فيه المعلم بفلسفة المقرر وأهدافه ، والذى يطوعه المعلم لتحقيق تلك الاهداف ، كما انه يحاول توظيف تلك المادة المقررة وربطها بحياة التلاميذ والطلاب .. وهنا يبتعد المعلم كلية عن التلقين ولكنه يصيغ مقرره فى صورة قضايا ومشكلات ويشجع ذاتية الطلاب ويناقشهم بهدف تنمية حاستهم النقدية والجدلية ، ويدرب تفكيرهم على الاسلوب العلمى فى تناول تلك المشكلات والبحث عن زواياها المتناقضة ، والهدف وراء ذلك أن يعى التلاميذ أبعاد القضايا المطروحة أمامهم ووجهات النظر المختلفة فى تناولها ، والخطوات التى اتخذت من جانب من سبقونا فى الوصول الى بعض هذه المفاهيم والافكار والحقائق والقوانين والنظريات .. الخ .

والمهم فى كل ذلك هو تدريب الطالب على الخطوات التى فى ضوئها نصل الى القانون العلمى أو الى تأويل ظاهرة من الظاهرات .

من هنا يدخل ضمن اختصاص المعلم الاشتراكى اثناء توجيهه لعملية التعليم ، بناء الاتجاه العلمى لدى تلاميذه ، ذلك الاتجاه المكتسب الذى يجعل الفرد لا ينحاز أو لا يتعصب لفكرة أو قضية أو شخص او نظام الا بعد ان يتفحص الامور ويحللها ويرى موضوعية جوانب الموضوع ، كل ذلك قبل أن يقرر شيئا ازاءه . واذا استطاع المعلم أن يكسب تلاميذه أو طلابه هذا الاتجاه العلمى ، فانه يكون قد اسهم مساهمة جبارة فى القضاء على الخرافات والمفاهيم القبلية والغيبية ، وارتفع بتلاميذه عن مستوى التحيزات والتعصبات للدين أو للجنس أو اللون أو للاقليمية والعنصرية .. الخ . من صياغات يرفضها الفكر العلمى وترفضها الانسانية .

الدور السادس : « المعلم كموجه لتلاميذه »

يواجه الفرد طوال مراحل حياته مشكلات وأزمات وألوان من الصراع . ويتطلب الموقف نوعا من التوجيه أو الارشاد أو على الاقل التفهم من جانب المحيطين بالفرد ، تلك المشكلات والازمات وألوان الصراع مع الاطفال والمراهقين والشباب فى المدارس والجامعات وخارجها ، ويتطلب الامر مساعدة هؤلاء على مواجهة تلك المصاعب خصوصا وأن التلميذ أو الطالب لا يجد مساعدة – فى الاغلب – من والديه لان بعض ما يعانيه قد يرتبط بقضايا أو موضوعات يخجل منها الطالب ولا يريد مكاشفة والده بها ، كما أن اصدقاءه قد لا يستطيعون مساعدته لقلة خبراتهم فى هذا المجال .. ويبقى المعلم ومن المفترض أنه ملم بما يعتمل فى نفوس تلاميذه ولديه تصور عن مشكلاتهم الشخصية والاجتماعية ، من ثم تفرضه الظروف الموضوعة كمسئول اساسى عن هذا الدور .

وعادة ما ينظر المتعلم ــ فى أى نوع من التعليم وفى أى مرحلة تعليمية ــ الى المعلم نظرة مشوبة بالتقدير والاعجاب والبطولة لانه يعـرف أكثر ، وبالنسبة للصغار يعتبر بديلا للاب ، وبالنسبة للمراهقين قد يعتبر « البطل » وبالنسبة للشباب يعتبر الصديق والخبير والقادر على المساعدة ورغما عن صلاحيات المعلم لاداء هذا الدور الذى تؤهله له ظروفه ووضعه المهنى ، فان ممارسة المعلم لهذا الدور تخـدم بالضرورة أدواره الاخـرى ، فعلاقة الثقة والمودة التى تنشأ ما بين المعلـم وتلاميذه أثناء ممارسته لعمليات التوجيه الشخصى والاجتماعى تساعده على أن يحقق أكبر كفاءة ممكنة فى ممارساته الاخرى مع تلاميذه فى الفصل وخارجه فى التعليم النظامى أو فى التعليـم المصاحب ·

كما أن ممارسة المعلم لهذا الدور تتيح له فرصة التعرف على أسرة التلميذ أو الطالب مما يوسع من دائرة اتصال المعلم ونفوذه ، من ثم تنتقل أفكاره واتجاهاته الى أسرة الطالب ، خصوصا الاسر التى تنتشر بينها الامية بدرجة كبيرة ، وهى سمة من سمات دول العالم الثالث ــ حيث تتراوح الامية فيها بين ٦٠ ، ٨٥ فى المائة ــ وبذا يكسب المعلم أرضية للعمل الجماهيرى وسط بيئة التـلاميذ الاجتماعية حين يطرح فكره ويلعب دوره فى التوعية السياسية كرجل اشتراكى ·

ولسنا فى حاجة الى الاشارة بان خلو التلميذ أو الطالب من المشكلات الشخصية والاجتماعية ، أوقدرته ــ عن طريق التوجيه ــ على مواجهتها بنجاح تقترب به خطوات نحو السواء ·

والان وقد تعرضنا بأيجاز للادوار التى على المعلم أن يؤديها حتى يسهم مع المؤسسات الاخرى فى اعادة بناء وتربية وصيانة الناشئة يبقى سؤال يتطلب الاجابة وهو كيف نعد هذا المعلم ؟

أعداد المعـلم

للاجابة على هذا السؤال هناك شقين :

أولهما : شكل الاعداد ، وثانيهمـا : جـوهر (محتوى) الاعداد ·

أولا : شكل الاعداد :

يوجد شكلان أو نظامان فى معظم أنحاء العالم أحدهمـا يسمى النظـام التكاملى والاخر يسمى النظـام التتـابعى · ويلتحـق بـالنظام الاول (التكاملى) الطلاب الحاصلين على الشهادة الثانوية · وتسمية هذا النظام بالتكاملى لان الطلاب يدرسون فى هذا النظام وفق شعب تخصصهم ويدرسون المواد المهنية كالتربية وعلم النفس وطرق التدريس ·· الخ · بجانب المـواد الاكاديميـة كالعلوم والرياضيـات أو العلوم الاجتماعيـة أو اللغات ·· الخ · وغالبا تكون الدراسة خـلال أربعة أعوام يحصل بعدها الطالب على اجازة التدريس · والنظام الاخر (التتابعى) يلتحق فيه خريجو الجامعة (كليات العلوم والاداب) لمدة عام واحد غالبا لدراسة المواد المهنية كالتربية وعلم النفس وطرق التدريس باعتبار انهم كانوا قد درسوا فعلا المواد الاكاديمية التى سيتخصصون فى تدريسها · وعليه تكون المدة التى قضوها فى الاعداد خمس سنوات عند مقارنتهم بأقرانهم الذين تم اعدادهم فى أربعة سـنوات بـالطريقة التكاملية ··

وقد شاهدت بلاد كثيرة صراعات بين النوعين من الخريجين فيما يتعلق بالكفاءة العلمية والمرتب والترقيات ·· الخ ، ولن نخوض فى هذا الموضوع حاليا ، كما اننا لن نظهر ميزات وعيوب كل من النظامين ·· ولكننا سوف نشير فقط الى بعض المسلمات الهامة من ناحية شكل الاعداد قبل أن تنطلق الى محتوى الاعداد وهو ما يهمنا هنا فى المقام الاول ·

١ ــ ينبغى أن يتوحد مصدر اعداد المعلمين للقضاء على النعرات والصراعات والمهـاترات الناجمة عن تعدد مصادر الاعداد ، كذلك يساعد توحيد المصدر على ايجاد أرضية فكرية مشتركة بين المعلمين ·

٢ ــ ينبغى أن يتم الاعداد داخل الجامعة ، فالثقافة الجامعية من حيث الشمول ومن حيث المناخ أفضل فى فعاليتها على الفكر من وجود كليات أو معاهد مفصلة تتبع مؤسسات أو وزارات مما يؤدى بها الى العزلة الفكرية عن تيار الفكر الجامعى ··

٣ ــ الاعداد المتكامل أفضل من المتتابع من حيث معرفة الطالب منذ البداية انه سيلتحق بالعمل كمعلم ·· فالميل والتهيؤ للعمل بمهنة التدريس أساسان هامان ، كمـا وان المقررات ــ كمـا سنتناولها بعد قليل ــ تعد على أسـاس المهنة ، بمعنى ان الكيمياء التى يدرسها الطالب الذى سيتخرج كمعلم لمادة الكيمياء من المفروض أن تختلف شكلا ونوعا عن الكيمياء التى سـتعد الكيماوى فى المعمل ·· هذا طبعا بعد دراسة أساسيات الكيمياء فى كلا الحالين ·

ومعلم اللغة يختلف فى اعداده عن اعداد الاديب أو المترجم ·· وعليه فان المتخرجين عادة من كليات الاداب والعلوم قد لا يلتحقون بمهنـة التدريس الا تحت ظروف اضطرارية ولكن من يلتحق بكلية تعد المعلم فانه قطعا يرغب فى ممارسة هذه المهنة بعد تخرجه هذا مع الافتراض المسبق

بانه دخل هذه الكلية بكامل رغبته وليس نتيجة لضغوط من أى نوع .

٤ ـ ينبغى ان يحظى التعليم الابتدائى بنفس المستوى الثقافى والاكاديمى الذى يحظى به التعليم الثانوى ، فالمعلمون فى هذا التعليم الابتدائى ينبغى أيضا أن يتخرجوا من الجامعة وبالنظام المتكامل .. الا أن نوعية برامجهم قد تختلف عن أقرانهم فى التعليم الثانوى وقد تقل عدد سنى الاعداد الى ثلاثة بدلا من أربعة مثلا . ولكن الاساس هو التخرج من الجامعة . ويؤسفنا أن نشير الى أن هناك اتجاها سائدا فى دول العالم الثالث يتمثل فى أن التعليم الابتدائى لا يحتاج الى كفاءات وعليه فان كل من هب ودب يستطيع أن يعلم فيه وهذا اتجاه خاطىء وخطير . فالتعليم الابتدائىهو الاساس فى بناء الطالب،واذا لم يكن المعلم على درجة كبيرة من الوعى والثقافة فاننا نسىء الى الناشئة أكبر اساءة . ونضيع ميزانيات كبيرة فى هذا النوع من التعليم دون عائد أو مردود ، فالملاحظ كثرةالتسرب فى هذا النوعمن التعليم ، وكثرة الارتداد الى الامية بعد أن يتركه التلميذ ولا يستمر فى دراساته فى المرحلة التالية ، كما انه بصورته الحالية لا يعد للحياة وهى تستقبل مالا يقل عن ٧٥٪ من المتخرجين من هذه المرحلة فى حين يلتحق بالمرحلة التالية من التعليم حوالى ٢٥٪ فى معظم دول العالم الثالث .

ثانيا : محتوى الاعداد :

فى تصورنا ان اعداد المعلم لاى مرحلة تعليمية ينبغى له أن يتضمن أربعة جوانب متصلة ومتفاعلة وسوف نعرض بايجاز شديد لكل جانب من هذه الجوانب الاربعة .

الجانب الاول : « الاعداد الثقافى العام »

لابد للمعلم من ارضية ثقافية عامة تجعل منه مواطنا مستنيرا وواعيا ، فلابد من أن يعرف شيئا كثيرا عن مجتمعه ماضيه وحاضره ومستقبله والتناقضات القائمة فيه وتاريخه وثقافته والخرافات الشائعة والفلكلور الشعبى ، كذلك ارتباطه بالعالم المحلى والقومى والعالمى ، والتيارات السياسية التى تجتاحه والقضايا الملحة كقضية فلسطين والكيان الاسرائيلى ..ويمكن أن يدخل ذلك تحت مقرر يسمى « المجتمع فى حركته وتطوره » .

كما لابد وان يدرس مقررا عن حركة التاريخ حتى يصل الى فهم عميق بحتمية الاشتراكية العلمية فى دولالعالم الثالث،ويمكن أن يدخلذلك تحت مقرر يسمى « ضرورة الثورة الاشتراكية».

وكذلك لابد للمعلم من أن يكون له منهج فى الفكر ، من هنا وجب اعطاء مقرر فى « مناهج البحث » يتوج فى نهايته بالمنهج الجدلى (الديالكتيكى) مع دراسة نقدية للمنهج الصورى ، كما وضعه أرسطو ، والمنهج الذرائعى (البرجماتى) أو الوسيلى كما أشار اليه ديوى .

كذلك يحتاج المعلم لدراسة منهج عملى (زيارات وتقويم) يهتم أساسا بزيارات مخططة لمشروعات التنمية فى الخطط التى تتبناها الدولة ، وفى كل مشروع تدرس اقتصادياته والهدف منه والعائد المتوقع ، كما تدرس العمالة ومعدلاتها ، ونظام الحوافز والاولويات فى خطة التنمية .. ويمكن أن يطلق على هذا المقرر أسم «التنمية فىالمجتمع».

كذلك ينبغى أن يدرس المعلم مقررا عن « تاريخ العلم » ،ومنه يتعرف الطالب المعلم على ماهية العلم ودوره كقوة ،وتاريخه واستخداماته والتكنولوجيا وأثرها فى العالم المعاصر ، والعقول الالكترونية وسيبرنطيقا . ومن المفروض أن يعدل هذا المنهج من رواسب تكون قد تعلقت بذهن الطلاب قوامها الغيبيات ، وتقسيم المواد الى (علمى وأدبى) وهى ثنائية غير قائمة اذا ما فهم ان العلم ما هو الا « المنهج » فى تناول الظواهر والوصول منها الى القوانين ، وعليه فالتاريخ علم بنفس القدر الذى تعتبر فيه الكيمياء علم والانسانيات علوم بنفس القدر الذى تعتبر فيه البيولوجيا علوما ، اذ يتوقف المصطلح نفسه على المنهج الذى يتناول الوقائع والتغيرات ، ويدرك الروابط بينها لاستكشاف القوانين التى تحكم تلك الظواهر والاحداث .

كذلك يحتاج الطالب المعلم أثناء اعداده الثقافى العامالى مقرر فى « اللغةالقومية » فاللغة القومية هى الوعاء الذى تنصهر فيه حياة المجتمع وثقافته ولابد من احيائها والتعامل بها ، واللغة القومية لاى فرد هى اللغة الوحيدة التى تستطيع أن تربطه بوطنه وقومه وتمنعه من الاحساس بالضياع والبحث عن الذات ، كما انها تجعله يتذوق ثقافة مجتمعه ، فيسهم فى تماسك مجتمعه ، وتوحيد منهجه وفكره ، وكلها أساسيات للوحدة الوطنية وللبناء الاجتماعى .

الجانب الثانى : « الاعداد العلمى أو الاكاديمى »

يحتاج المعلم أثناء اعداده بطبيعة الحال الى اعداد أكاديمى يرتبط أصلا بالمادة التى سيتخصص فيها .. ومن المهم أن نشيرالى ثلاث نقاط :

١ ـ فى كل فرع من فروع المعرفة لابد من معرفة الاساسيات لانها تتسم بالشمول وبالتوحد فى كافة أنحاء العالم .

٢ ـ لا ينبغى للمعلم أن يتخصص تخصصا دقيقا لانه لن يعمل كباحث فى مادة تخصصه بل عليه أن يعرف على الاقل مادتان يستطيع أن يتناولهما بمقدرة فى العرض والتحليل مع تلاميذه .

وعلى سبيل المثال (الطبيعة والكيمياء معا ، الكيمياء والبيولوجيا معا ، التاريخ والجغرافيا معا ، علم الاجتماع وعلم النفس معا وهكذا بالنسبة للرياضيات البحتة والتطبيقية .. الخ) .

٣ ـ لابد من أن يقر فى ذهن الطالب أثناء اعداده الاكاديمى أن ما يترسه الان سوف يصبح «متحفيا» بعد مدة معينة (يحددها سرعة التطور والمزيد من البحث والاستقصاء) من هنا يكون من الاهمية بمكان تزويد الطالب المعلم بالمهارات والاتجاهات التى تمكنه من متابعة الجديد المستحدث فى مواد تخصصه بعد تخرجه وعمله كمعلم ، أما بمجهود شخصى أو بحلقات تدريبية وتنشيطية تخططها الجامعات لاعداد خريجيها بالمستحدث والمستجد فى مجال المعرفة المطروقة .

الجانب الثالث : « الاعداد المهنى »

لمهنة التعليم أصولها وقواعدها وفلسفتها ، كما أن لها تكنيكها الخاص بها ، ومعروف بطبيعة الحال أن معرفة الشىء فى حد ذاته ليس دليلا على امكانية نقله الى الاخر بوضوح .. من هنا فان الاعداد المهنى يعتنى أساسا بقدرة المعلم على التوافق مع مهنة التدريس فى ضوء الادوار التى سبق طرحها . وهنا تأتى العلوم السلوكية لتساعد المعلم فى فهم وتشرب وامتصاص الطرق والوسائل التى عن طريقها يستطيع التعامل ـ من خلال مواد تدريسه ـ مع تلاميذه كما وانها تساعده أيضا على فهم « الانسان » وهو أهم عنصر فى عملية التعليم بمعنى انه يستطيع تفهم تلاميذه ودوافعهم ومشكلاتهم وامكانياتهم العقلية ونموهم فى مراحله المختلفة .. وكل ذلك ينبغى عليه المزيد من الندرة على التفاعل المثمر معهم .

كما انه أثناء الاعداد المهنى أيضا يلم المعلم بالسلسلة التربوية التى ينبغى عليه تبنيها وأهداف كل مرحلة تعليمية ، وكذا أهداف كل مقرر دراسى يقوم بها وكيفية تقويم ذلك كله ..

وعليه يقوم الاعداد المهنى على بعض المقررات فى مواد التربية وعلم النفس التربوى وكذلك طرق التدريس والصحة المدرسية والممارسة العملية كتربية تجريبية .

ويمكن التلخيص بايجاز لاهم المقررات المناسبة فى مجال الاعداد المهنى ، مقرر فى أصول التربية وأساسياتها ، مقرر آخر فى فلسفة التربية خصوصا الفلسفة الاشتراكية ، مقرر ثالث فى تاريخ التربية وتطور الفكر التربوى ، مقرر رابع فى المناهج وطرق التدريس .

كذلك مقرر خاص فى علم نفس الطفولة والمراهقة وآخر فى التعلم ، وثالث فى الشخصية ورابع فى طرق القياس والتقويم، هذا بالاضافة الى مقرر فى الصحة المدرسية .

ويتدرب الطالب أيضا أثناء الاعداد على ممارسة التدريس تحت اشراف وتوجيه أساتذته فى ضوء ممارسته ويسمى هذا بالتربية التجريبية أو العملية .

الجانب الرابع : « الاعداد الترويحى »

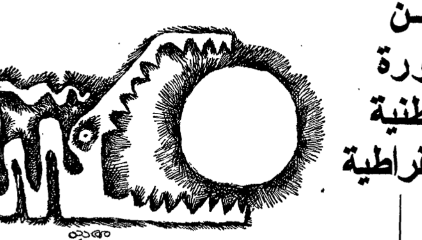
الترويح معلم هام من معالم اعداد المعلمين ولابد فى برنامج اعداد المعلمين من أن يتضمن ممارسات ترويحية ، كما تتمثل فى حفلات السمر والرحلات والمعسكرات والانخراط فى فرق موسيقى وأناشيد ، وتمثيل وانشطة رياضية مختلفة ككرة القدم والسباحة والتنس والبنج بنج .. الخ . ولا نقصد من عرض هذه الانشطة مجرد اعتبارها انها نشاط خارج المنهج من ثم يتسم بسمة الاختيار ، ولكننا نرى ضرورة أن يقوم الطالب المعلم فيها ، لانه بحكم طبيعة عمله فى المدرسة سوف يمارسها أو يشرف على ممارستها مع طلابه . لانه مرفوض طبعا أن لا يعرف المعلم كيف يخطط لرحلة لزيارة معالم بلده مع تلاميذه ، كما انه مرفوض أيضا عدم مشاركة المعلم لتلاميذه لعبهم وحفلاتهم ومعسكراتهم .

والهدف من هذا ان الترويح كأساس يؤدى الى السلامة النفسية فى أحوال كثيرة ، فهو يعتبر بمثابة التنفيس عن الكظوم . كما وانه يقرب التلاميذ من معلمهم بحيث لا يجدون هناك حاجزا يمنعهم من التعامل معه ونفض مشاعرهم وطرح مشكلاتهم فى هذا الجو غير الرسمى أو الشكلى .

كما أن الترويح الجماعى يساعد على تماسك الجماعة ويساهم فى احساسها بالانتماء ويوحد فكرها ، ويؤدى الى الانتظام ، وينمى روح الجماعية بدلا عن الروح الفردية الانانية التى تنتشر بين قطاعات كثيرة من شبابنا فى دول العالم الثالث .

واخيرا لقد حاولنا مع الايجاز الشديد أن نعطى صورة لما يجب أن يكون عليه المعلم فى ممارساته وفى اعداده ، فى ضوء الظروف الموضوعية التى تجتاح دول العالم الثالث فى تلك الدول التى تشق طريقها لبناء الاشتراكية باعتبارها الحل الحتمى والوحيد لتعويضها .

موقف البورجوازية الوسطى اليمنية من الثورة الوطنية الديمقراطية



د. محمد علي الشهاري

الثورات

الوطنية - على عكس ما هو شائع في المفاهيم المثالية - ليست مجرد تعبير عن الضيق النفسي بالاوضاع السياسية القائمة، وليست مجرد دلالة على « الحمية » الوطنية ، وعلى « الغيرة » على الشعب ، وعملا من أعمال الشهامة، والتضحية ، والفداء تقوم بها جماعة من الجماعات ويتزعمها فرد من الافراد .

الثورات الوطنية تخضع في قيامها لعوامل تاريخية ، واجتماعية ، ولشروط اقتصادية ، وسياسية ، وتأتي تعبيرا عن نضوج ظروف موضوعية ، وعن نمو قوى اجتماعية جديدة ضاق بها ، وبمصالحها الاقتصادية ، وتطلعاتها الطبقية ، ومطامحها السياسية اطار المجتمع القديم، وغدت امكانية وضرورة تفجيره هو السبيل الوحيد والمتاح لتحقيق مآربها الاجتماعية ، واطلاق عجلة التطور التاريخي من عقالها لتأخذ مداها الطبيعي والحتمي في التقدم والاندفاع نحو غاياتها .

والعوامل الذاتية - كالحماس الثوري ، واليقظة الوطنية ، وارادة التغيير - ليست الا مظهرا من مظاهر وعي القوى النامية بوجودها الاجتماعي ، ومصالحها المشروعة ، وادراكها لضرورة التحرك لازاحة القوى المعوقة التي تعترض عليها سبيل استكمال نمو هذه المصالح ، ومن أجل التمكن من تغليب مطامحها ، وفرض مشيئتها السياسية عليها .

ثورات البورجوازية في الغرب

وقبل ان تشتعل الثورات البورجوازية ضد الاقطاع كانت هناك طبقة بورجوازية سائرة في طريق الصعود والانطلاق ، وكان هناك اسلوب انتاج بورجوازي قائم بالفعل وآخذ في النمو والاكتمال ، في حضن اسلوب الانتاج الاقطاعي السائد نفسه ، وكانت هناك قوى انتاجية رأسمالية متحركة ، وعلاقات انتاج رأسمالية مطابقة لها نامية .

ولان أسلوب الانتاج الاقطاعى الجامد، وعلاقات الانتاج الاقطاعية المتخلفة، وطبيعة الحكم الاقطاعى المتحجرة المعبرة عن ذلك كانت تقف سدودا تاريخية منيعة، وحواجز طبقية عتيدة امام سيادة اسلوب الانتاج الرأسمالى وعلاقات الانتاج الرأسمالية، وأمام انطلاق قوى الانتاج الرأسمالية بكامل طاقتها وبكل عنفوانها، والى الامداد الاجتماعية والتاريخية المقدرة لها، كان لابد أن تهب الطبقة البورجوازية الناهضة لهدم السدود العائقة والقائمة، وتحطيم الحواجز الطبقية الاقطاعية السائدة والحاكمة، من أجل وضع يدها على السلطة السياسية، وتسخيرها فى اتجاه تنمية وتطوير مصالحها الاقتصادية.

وينطبق هذا التحليل أساسا على الثورات البورجوازية التى قامت فى الغرب، حيث كان للطبقة الوسطى وجود اقتصادى حى وفعال، وحيث ارتبطت حركة التطور التاريخى والاجتماعى بانتصار هذه الطبقة على قوى الاقطاع والتخلف.

ثورات التحرر الوطنى

اما بالنسبة للبلدان المستعمرة، وشبه المستعمرة، والتابعة فقد قادت البورجوازية الوطنية التى تعارضت مصالحها الاقتصادية النامية والمتصادمة مع مصالح الاحتكارات الامبريالية المهيمنة على السوق المحلية ثورات تحرير وطنية، بغية ازاحة العقبات من أمامها، حتى تتمكن من السيطرة على السوق الداخلية وتنمية رأسمالها الخاص دون عوائق، وانتزاع حقوق السيادة القومية من الاجنبى، وتحقيق الاستقلال الوطنى، وممارسة حكم البلاد.

وينسحب هذا الوصف على الثورات العربية المنتمية الى ثورات التحرير الوطنى العالمية، حيث قطعت هذه الثورات العربية خطوات حاسمة فى طريق تعميق وتطوير الثورة الوطنية، واكسابها محتوى ديمقراطيا متناميا من خلال القضاء على الطبقة الاقطاعية، وسن وتطبيق قوانين الاصلاح الزراعى، وتطوير وتجذير هذه القوانين باستمرار، وبوساطة اجراءات التأميم للمصالح الاحتكارية الاجنبية، والمصالح البورجوازية المحلية ذات الحجم الكبير والارتباط الوثيق بالاحتكارات الاستعمارية، وعن طريق التحولات الاجتماعية، والتغييرات السياسية، وغير ذلك من الاجراءات المستهدفة اعادة صياغة الكيان الوطنى والاجتماعى، واقامة نظم حكم متحررة، وطنية ديمقراطية، وذات تطلعات اشتراكية.

صراع البرجوازية والاقطاع

فى الثورة اليمنية

ولا تخرج الثورة اليمنية فى الشمال والجنوب عن هذا الاطار التاريخى للثورة العربية ذات النهج التحررى الوطنى الديمقراطى.

فالبورجوازية المتوسطة والصغيرة هى التى قادت حركة الثورة فى شطرى اليمن ضد الحكم الاقطاعى الامامى، وضد الاستعمار البريطانى.

ومن نافلة القول التأكيدمجددا بأنها - لظروف تتعلق بنشأتها المتأخرة وامكانياتها المحدودة - لم تستطع ذلك الا لانها ركبت الى هدفها هذا موج الثورة العربية الهائج العارم الذى كان فى أوج انطلاقه الهادر الصاخب قد اكتسح شواطىء الجزيرة العربية، واجتاح بطون شعابها، وبلغ الذرى من جبالها.

غير أن الطبقة الوسطى اليمنية رغم التطور السريع الذى حققته فى ظل الثورة، وفى ظل المساعدة والدعم العربى، ورغم القروض والتسهيلات التى قدمتها لها السلطة، والتراكم الرأسمالى الملحوظ، والتوسع الملموس فى شتى المشاريع العقارية، والتجارية، وفى مجالات وسائل النقل والخدمات والزراعة، وغير ذلك من مجالات ومشاريع الاستثمار الخفيفة والمتوسطة، الا انها بقيت طبقة ناقصة النمو، ضعيفة التكوين، هشة العود، وبالتالى قابلة للانكسار، بالمقارنة الى طبقة الاقطاع العريقة والعتيدة، الطبقة التى حكمت اليمن، واختلفت واختصمت على حكمها عبر التاريخ اليمنى كله، ومنذ القرن السادس الميلادى على أقل تقدير، والتى من أجل بسط سلطانها الكامل على مقاليد الحكم تمردت على «الملك» منذ عشرينيات هذا القرن، وظل القطاع الواسع منها فى حالة مناوأة سياسية له، سواء اتخذت هذه المناوأة شكل تمرد قبلى، او انقلاب سياسى، او اتصال بقوى خارجية، وسواء اتخذت طابعا ايجابيا او حتى طابعا سلبيا، والتى من جناحها المعادى للامام تشكل العمود الفقرى لحركة المعارضة اليمنية التى عرفت باسم حركة وحزب «الاحرار اليمنيين» والتى لم تكن بعيدة تماما عن الاسهام، بدور محدود فى قيام ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ من خلال مشاركة بعض ابناء المشايخ وبعض القضاة من رجال الدين، كما لم تكن بعيدة عن الاشتراك المباشر والقوى فى السلطة منذ الشهر الاول لقيام الثورة الى سبتمبر ١٩٦٦ حيث اخرجت ولاول مرة نهائيا من الحكم بعد تشكيل حكومة السلال الوطنية على أثر الصدام السياسى والعسكرى الذى كان وشيك الوقوع فى

اغسطس ١٩٦٦ بين التيار الاقطاعي ـ القبلي المدعوم من الفئة الكومبرادورية ، وتيار البورجوازية المتوسطة والصغيرة ، وهو الصدام الذي حسم بقوة وسرعة وحسم قبل أن يتسع نطاقه ، وانتهى بانتصار التيار الاخير ، وذلك بفضل المؤازرة الايجابية الفعالة ، والتدخل المباشر القاطع من الجانب العربي ٠

قوة الطبقة الاقطاعية

على أن الدعم العربي مهما بلغت قوته ومداه لم يكن في حوزته ولا مقدرته ـ بحكم طبائع الاشياء ـ ان يخلق طبقة اجتماعية جديدة خلقا جديدا مكتملا، حيث ان الطبقات الاجتماعية توجدها ظروف تاريخية وموضوعية داخلية في الاساس ٠

ولذلك بقيت الطبقة الوسطى اليمنية التي لا تسندها خلفية اقتصادية متينة ، ولا تحتفظ بقوى بشرية ملتزمة ازاءها ، وجاهزة للنضال ساعات الشدة والحسم ، بقيت ـ حتى وهي في دست السلطة وتمسك بمقاليدها ـ مزعزعة الوضع ، متعثرة الخطى ، مرتعشة الاقدام ، ولم تستفد من وحدات الجيش الحديث المنحدرة أساسا من أبناء الفلاحين وبعض سكان المدن ، والتي بذلت الجمهورية العربية المتحدة جهدا خاصا في تدريبها وتشكيلها ، والعناية بها لتكون درع الجمهورية الوليدة ، وصمام الامان لثورتها ، وظلت دوائر البورجوازية المتوسطة والصغيرة ، العسكرية منها والمدنية في حالة انفصال تام أو شبه تام عن هذه الوحدات التي كانت تمثل الرمز الحي ، والتجسيد القوي ، والتعبير المنظم والمسلح « لقوى الجديد » ٠

ومثلما بقيت القيادات الوطنية البورجوازية بعيدة عن وحدات الجيش الحديث وقياداتها الشابة المهيأة بفضل منشئها الاجتماعي لتقبل الفكر الثوري ، والتجاوب مع النهج السياسي الوطني ، والالتزام بالمواقف النضالية المرسومة والمحددة فقد بقيت هذه الوحدات وقياداتها بعيدة عن العمل السياسي اليومي ، وعن القيادات السياسية الحاكمة ، ولم يبق أمامها الا التفاعل ، بل والانتظام في التيارات التنظيمية ذات المسحة الوطنية والقومية التي اقتحمت أسوار الوحدات ٠

على العكس من ذلك كان وضع الطبقة الاقطاعية التي كانت ـ حتى وهي خارج السلطة تتصرف بثقة ، وتعارض باقتدار ، والتي بفضل اعتمادها على رابطة العصبية القبلية ، والمركز الاوتوقراطي للشيخ لدى أفراد قبيلته كانت قادرة على تحريك قوى قبلية مسلحة في أي وقت تشاء ، والضغط بها للحصول على نصيب أكبر في السلطة ، أو حتى من أجل انتزاعها كلها ، والانفراد بها نهائيا ، وهو ما أوضحته بجلاء « مؤتمرات استعراض القوة » القبلية ـ الاقطاعية في « عمران » عام ١٩٦٣ ، و « خمر » و « الجند » عام ١٩٦٥ ، وما اكده بصورة خاصة « زحف » الشيخ عبد الله بن حسين الاحمر شيخ مشايخ قبيلة حاشد بقوى قبلية هائلة على صنعاء بعد هزيمة يونية ١٩٦٧ ، وذلك بقصد اظهار مدى سطوة طبقته الاقطاعية وجبروتها ، ولتأكيد مدى سهولة حصولها على السلطة متى شاءتها ، انطلاقا من قلعته الاقطاعية الحصينة « خمر » الواقعة شمال صنعاء ، والتي كانت في الواقع المقر « الرسمي » لاركان حرب الطبقة ، وممثلي الارستقراطية القبلية ، وأقرب ما تكون الى « حكومة الظل » لهذه الطبقة وهذه القوى طيلة الفترات التي كانت تتقلص فيها مشاركتها السياسية في حكومة صنعاء ٠

لقد كان الحجم الكبير والسميك والمؤثر لهذه الطبقة ، وأعمدتها الارستقراطية القبلية ، ولرؤيتها السياسية والتاريخية السلفية والمحافظة ،وتطلعها الذي كان يبلغ حد السعار للاستحواذ على السلطة بعد حرمان طويل ، واتخاذها الحرب ـ سواء كانت قواها على الجانب الجمهوري أو الملكي من المعركة ـ مجرد وسيلة للاثراء ، واصرارها على عدم حسم الصراع حتى تشرب الكأس الى ثمالتها ، وتبتز أقصى حد ، وتحصل على اكبر قدر من الاموال باسم التجنيد لصالح هذا الفريق أو ذاك ، وأداؤها على هذا النحو « دور مقاول الانفار » ، وخروجها من هذه الحرب بمغانم هائلة ، كل ذلك قد حول رجالات الاقطاع والارستقراطية القبلية في هذه الطبقة الى « أغنياء حرب » بالفعل ، مما كان من شأنه أن يعقد مسيرة الثورة اليمنية ، ويشل حركة الطبقة الوسطى ، بل وأن يصيب خطى القيادة العربية نفسها بالارتباك والاضطراب ٠

ولذلك فان هذه القيادة رغم وضوح الهدف الثوري والقومي العظيم الذي جاءت من أجله ، ورغم نجاح الجيش العربي تحت ادارتها في ترسيخ دعائم الجمهورية في مواجهة حرب تدخل امبريالية ضارية ، الا أنها لم تستطع الفكاك من ضرورات الواقع القبلي ، والافلات من أسر الطبقة الاقطاعية ، ووجدت نفسها تقع في بعض الاحيان تحت تأثير التركيب القبلي ـ الاقطاعي المتشابك والمعقد ٠

ظهور مراكز القوى في اليمن

فبينما احتفظ مكتب الرئيس أنور السادات برؤيته صافية ازاء مهمة ج ٠ ع ٠ م التاريخية في اليمن ، ولم يمنح دعمه السياسي لغير القوى الجديدة المنتمية ـ بطبيعة الاوضاع ـ الى الطبقة الوسطى بمختلف مراتبها الاجتماعية ، غرق

المكتب العسكرى الى اذنيه فى التعامل الواسع مع القوى القديمة الممثلة فى رؤساء العشائر ، ومشائخ الاقطاع ، ولم يقف الامر عند حد التعاطف السياسى مع هذا المحور ضد المحور الاخر ، وعند حد الاعتماد على « مقاولى الانفار » من المشائخ فى التجنيد باسم مواجهة الخصم الملكى ، وانما بلغ حد تقاسم الاموال معه ، حتى بدا واضحا للقوى الوطنية فى اليمن أن « المجموعة العسكرية » التى نشأت فى ظل القيادة العربية ، وسارت فى هذا الطريق الخاطىء اما انها غير مدركة ـ بما فيه الكفاية ـ لطبيعة الواجب الجليل الذى كلفت به ، أو انها غير قادرة على معرفة الاسلوب الصحيح لتحقيقه ، أو أنها تسير فى خط مغاير لخط عبد الناصر الثورى ، والقومى ، والتقدمى .

ولم يتضح الا فيما بعد أن هذا السلوك لم يكن مستغربا ، ليس فقط لانتماء المكتب العسكرى الطبقى ، واحتفاظه ـ حتى بعد ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ ـ بعلاقات ما مع بعض بقايا المشايخ والعمد فى الريف المصرى ، وانما أيضا لان المجموعة العسكرية البيروقراطية المعينة فى القيادة العربية بصنعاء كانت ـ تحت تأثير ما وجدته تحت تصرفها من أموال طائلة ، وبحكم تطلعاتها السياسية الجديدة نحو السلطة فى القاهرة ـ قد أصبحت تشكل مركز قوة يعمل فى اتجاه غير اتجاه عبد الناصر ، ويسعى من أجل احباط غايته الثورية والنبيلة فى اليمن ، بما يترتب على ذلك من اصداء ونتائج سلبية داخل الجمهورية العربية المتحدة نفسها ، على أن يكون ذلك خطوة تمهيدية لتطويقه والانقضاض عليه فى ظروف معينة ملائمة ، وذلك هو بالضبط ما أظهرته وأكدته بوضوح حرب يونية ١٩٦٧ ، وما تلاها من محاولات استهدفت الاستيلاء على قلعة الثورة العربية من أساسها ، والامساك بقيادة الامور فيها وتوجيهها ، وتوجيه أحداث الوطن العربى معها فى مسار آخر مختلف تماما ، بل ومعاكس جملة وتفصيلا « **للمسار الناصرى** » .

وهذا بدلا م اطلاق قوى الثورة الاجتماعية ، وتنمية المبادرات الجماهيرية ، والاعتماد على القاعدة الشعبية ، والمساعدة فى تنظيم القوى الوطنية ، والاسهام معها فى وضع برنامج نضالى ، وطنى ديمقراطى ، تسير عليه وتجند الشعب من حوله ـ كما حدث بالنسبة للجنوب اليمنى ـ بدلا من ذلك كله آثر مركز القوى العربى فى اليمن ـ تعبيرا عن نفسه السياسى ، وبوحى مخططه الخاص ـ التعامل فى وضوح مع « القمم » الاقطاعية العالية « والرءوس » الارستقراطية البارزة ، ومع الممثلين الايديولوجيين والتقليديين الاقوياء لهذه الطبقة العريقة والعتيدة ، باعتبار ذلك أقرب طريق « لتهدئة الحال » فى اليمن .

وذلك هو مضمون ما اشار اليه الاستاذ **محمد حسنين هيكل** فى برنامج « **حوار مفتوح** » الذى اذاعه تليفزيون الجمهورية العربية المتحدة مساء ٢٢، ٢٣ يونيه ١٩٧١ عندما تحدث عن أن أول مركز للقوى نشأ فى اليمن بالذات حيث تجمع المال فى يد القيادة هناك ، وكان يحول الى ذهب ، ويتقاسم بين مركز القوى فى القيادة ، وبين زعماء القبائل اليمنية الذين كانوا يشترون بالمال ، بغية الحصول على ولائهم ، ونظرا لان شراء القبيلة كان أسهل دائما من تحريك لواء ضدها . وذلك ما كان قد أوضحه بجلاء فى التحقيق الصحفى الذى اجرته معه مجلة الصياد البيروتية فى ٢ يونية ١٩٧١ حيث قال : « ان مركز القوة الاول قد تكون فى اليمن حين أرسل عبد الناصر الجيش المصرى ليتولى حماية ثورتها هناك ، ولاول مرة . وبسبب من طبيعة العلاقات العشائرية السائدة ، ولان الولاء يشترى ولا يمنح ، بدأ الضباط يتعاملون مع الناس بالفلوس .. وكانت هذه تجربة جديدة لم يصمد فيها مع الاسف الا قلة من أقوياء النفوس . وهكذا تحولت قيادة الجيش الى مركز قوة بسبب ما فى يدها من صلاحيات وامكانيات هائلة ، خصوصا اذا ماتذكرنا أننا لم نكن وحدنا من يشترى الولاءات .. ونشأت على هامش المهمة الثورية النبيلة بؤرة فساد وافساد شمل شرها الكثير من القيادات الشابة ، والعناصر التى كانت مثالية فى طهارتها . وهو ما تنبه اليه الزعيم **الخالد جمال عبد الناصر** وقتها ، حيث أمر ـ وقد رأى أبعاده ومراميه السياسية أساسا ـ بوضع حد له ، بعد عملية تحقيق شملت مكتب المشير عامر نفسه ، بما فى ذلك « على شفيق الذى كان مديرا لمكتب المشير عبد الحكيم عامر ، واحيل الى التقاعد على اثر تحقيقات جرت عن بعض التصرفات » كما كتب الاهرام فى ٤ ـ ٩ ـ ١٩٧١ .

ضعف وصراعات

مراتب البرجوازية

ونتيجة ضعف الطبقة الوسطى اليمنية الحاكمة ، وعدم قدرتها على تنظيم نفسها ، أو تعبئة وتنظيم الشعب وراءها ، وعدم تمكينها أو سماحها للقوى والتجمعات الوطنية والديمقراطية بالعمل التنظيمى المشروع لملء الفراغ السياسى والتنظيمى فى البلاد وسد الفجوة القائمة ما بينها وبين الجماهير التى ظلت تعيش بعيدة ومبعدة عن المشاركة فى توجيه حركة الثورة ، وتحت هزيمة يونيه ١٩٦٧ التى كادت تصيب قلب الثورة العربية نفسه بالتوقف عن النبض ، والتى لحق أثرها البالغ بأضعف الحلقات والمواقع الثورية فيها ممثلة فى الجمهورية اليمنية ، وترجمة لتلك الصلات الحية والقوية التى كانت قد نشأت وتطورت ـ ولا سيما بعد نكسة يونيه ـ بين مركز القوى العربى فى صنعاء وبين محور القوى الاقطاعى القبلى

فى « خمرة » ـ بفعل ذلك كله كان لابد وأن تنسحب البورجوازية اليمنية من الحكم ، وتتركه للطبقة العتيدة والقوية فى البلاد ، طبقة رؤساء العشائر ومشائخ القبائل ورجالات الاقطاع ، وممثليها وحلفائها .

وبدون وضع هذه الحقائق السياسية فى الاعتبار فانه يصعب فهم أى حدث من الاحداث التى مرت بها الثورة اليمنية ، وتقييمه التقييم الصحيح والموضوعى . ولذلك فانه فقط فى ضوء التعقيدات السياسية الانفة الذكر ، وبوضع ضغوط المؤامرات الاستعمارية الواسعة التى استهدفت استنزاف قوى قاعدة وطليعة الثورة العربية المتقدمة فى اليمن فى الاعتبار يمكن وينبغى فهم اضطرار الجمهورية العربية المتحدة الى عقد **اتفاقية الاسكندرية** فى سبتمبر ١٩٦٤ بين القاهرة والرياض ، وعقد **مؤتمر أركويت** التحضيرى فى السودان على أساسها فى اكتوبر من نفس العام بين ممثلى الجانب الجمهورى والملكى ، وابرام **اتفاقية جدة** بين ج . ع . م والمملكة العربية السعودية فى ٢٤ أغسطس ١٩٦٥ ، وانعقاد **مؤتمر حرض** ، تطبيقا لها بين الطرفين اليمنيين فى ٢٣ نوفمبر من نفس السنة ، وتوقيع اتفاقية **الخرطوم** فى أغسطس ١٩٦٧ بين **الرئيس جمال عبد الناصر والملك فيصل** ، هذه الاتفاقيات والمؤتمرات التى حرصت القيادة الثورية فى القاهرة فيها كلها على عدم التفريط فى النظام الجمهورى ، وعلى العمل ـ خلال فترات السلم المتقطعة هذه ـ بكل الوسائل الدبلوماسية ـ ومهما يكن الثمن أو التنازل الذى تقتضى الظروف تقديمه ـ على الابقاء على هذا النظام باعتباره المكسب الرئيسى والاساسى والهام لثورة ٢٦ سبتمبر حتى لو استدعى الحفاظ عليه ومن أجل الحفاظ عليه أن تكون على رأسه ولادارته أية قوة سياسية تفرضها صيغة التصالح التى يمكن أن تسفر عنها مؤتمرات « الاطراف المعنية » .

ولقد كان مما سهل للطبقة الاقطاعية مهمتها اكثر ذلك الصراع الذى كان قد احتدم منذ حين بين مراتب الطبقة الوسطى نفسها ، وبالذات بين البورجوازية التجارية المتوسطة وممثليها ، وبين بورجوازية المدينة الصغيرة وقياداتها ، وهو الصراع الذى دفع بالاولى الى تناسى خلافاتها السياسية مع المحور الاقطاعى ـ القبلى ، واظهار ميلها واستعدادها ـ سواء بمواقف ايجابية أو سلبية ـ للتعاون معه ـ حتى ولو بشكل غير مباشر ـ من أجل توجيه « ضربة تأديبية » للبورجوازية الصغيرة المهيمنة على قمة السلطة ، والتى كانت ـ وهى ترى نفسها وحيدة فى الصراع ، وتواجه لذلك مصيرا مجهولا ـ تعيش حالة من الاضطراب السياسى العنيف والقلق النفسى العميق ، وتنتابها حالات شديدة من التذبذب البورجوازى الحاد ، حتى كانت مواقفها السياسية تتأرجح من النقيض الى النقيض ، وغدت كرقاص الساعة تماما من شدة التذبذب والارتباك وحيث كانت تذهب فى مواقفها المتعارضة المتنافية وفى لحظات متتابعة ذات اليمين وذات الشمال ، فبينما كانت ترتفع ثوريتها الى اقصى درجات الحماس والتشدد بل والتمرد فى بعض الاحيان ـ أملا فى الحفاظ على مواقعها السياسية ، ودفاعا عن خط الثورة الوطنى ـ واذا بهذه الثورية تصاب فجأة بحالة من التردد والتفكك وتهبط بقوة الى درجة الصفر ، الى حد الاستخذاء والاسترخاء ، واللامبالاة ، والسلبية والتسليم ، وهى طورا تؤثر الانضمام الى موقف الجماهير الصلب ، وتؤثر طورا آخر النكوص والهرب من مواجهة المواقف الحرجة والدقيقة ، وهى تارة تجد الرغبة فى نفسها الى خوض غمار المجابهة على أساس احتضان وقيادة المد الشعبى الذى فجرته اللحظات المصيرية الرهيبة والمهيبة التى مرت بها البلاد ووجدت الثورة اليمنية نفسها ازاءها بعد نكبة يونية ، وتارة اخرى تميل الى الابتعاد عن حلبة الصراع وايثار العافية والسلامة ، وتجنب الدخول فى معركة غير متكافئة الاطراف ، تشير كل الدلائل الداخلية والخارجية الى أنها ستخسرها حتما ، وهو الموقف الذى لاذت به آخر الامر ، حيث انسحبت من ميدان الصدام ، وألقت سلاح الالتحام ، وتركت الطريق مفتوحا لعبور وانتقال الجانب الاخر الى السلطة ، دون طلقة رصاص ، ودون سقوط قطرة دم واحدة .

انقلاب ٥ نوفمبر وانقسام الطبقة الوسطى ازاءه

تلك هى الظروف التى مهدت وصاحبت ما سمى فيما بعد بانقلاب ٥ نوفمبر ١٩٦٧ البارد الذى لقى التعاطف ـ فى أول الامر ـ وقبل أن تتضح بالكامل هويته الطبقية ومنحاه السياسى ـ من قبل جميع التيارات السياسية المتعارضة سواء من الكارهين للوجود العربى فى اليمن ، أو العاطفين عليه ، من فرع حزب البعث فيها الذى كان احد الاطراف القيادية فيه ، أو من فرع حركة القوميين العرب فيها ، الذى آزره بقوة ، من القوى العسكرية ذات الانتماء العشائرى ، أو من الوحدات الحديثة ذات الانتماء الفلاحى البورجوازى ، بل ولقى الترحيب من قبل الدول العربية التقدمية منها أو التقليدية ، وحيث لم يقف فى مواجهته ـ سياسيا ـ عدا العناصر الديمقراطية التى فى الوقت الذى كانت تدرك فيه الظروف المعقدة والمواتية التى ساعدت على قيام ونجاح هذه الحركة ، الا انها ـ وهى التى كانت تنبه منذ البداية الى مرماها السياسى ، وأثرها على مسيرة الثورة ـ كان عليها أن تتخذ منها موقفا مضادا ، وقد غدت صاحبة السيادة والسلطة فى البلاد .

ولقد التزم جزء من الطبقة الوسطى جانب السلطة بعد قيام هذا الانقلاب رغم بعض المضايقات التى تعرض لها ، بينما خرج جزء آخر من هذه الطبقة الى الصف المعارض لها .

والسؤال المطروح هو : هل يملك هذا الفريق من البورجوازية المتوسطة ـ بالتعاون مع بعض قيادات البورجوازية الصغيرة المقصاة من رفعة السلطة ـ تقديم أى برنامج نضالى يفتح به افقا سياسيا جديدا أمام جماهير الشعب ، وينزل به شعارات وطنية وديمقراطية يتخطى بها شعارات السلطة ، أم أن أوضاعه الطبقية المتداخلة عند بعض النقط ، والمتشابكة فى بعض الوجوه ، والمتجانسة فى بعض الحالات مع الاوضاع الطبقية للتحالف الاقطاعى ، الكومبرادورى ستكون قيدا طبقيا يحد من رؤيته السياسية ، ويشد خطواته العملية ، ويلزمه بالتوقف والتجمد عند موقعه السياسى المعروف والمحدود النظرة والطموح ؟

البرجوازية الوسطى والتناقض الرئيسى فى المجتمع اليمنى

ان الاجابة عن هذا السؤال مرهونة بمعرفة موقف الطبقة الوسطى اليمنية من التناقض الرئيسى القائم اليوم فى المجتمع والممتد على نطاق اليمن كلها ، والمتمثل فى قطبى النظامين اليمنيين ، وهو التناقض الذى شد اليه واستقطب من حوله كل القوى السياسية الموجودة على خارطة البلاد ، حيث أدى هذا الاستقطاب الى الغاء كل امكانية أو إحتمال او حتى مجرد فرض سياسى بحث لايجاد نظام وسط بينهما ، لا هو وطنى ديمقراطى ولا هو اقطاعى كومبرادورى ، أو يحمل خصائص النظامين المتنافية فى وقت واحد ، مما حتم بالتالى على الفئة المعارضة من الطبقة الوسطى تحديد موقفها بوضوح وحسم ، اما التعاون مع القوى الوطنية الديمقراطية ، مما يعنى فى نفس الوقت التعاون مع النظام الوطنى ، الديمقراطى فى عدن ، بكل ما يترتب على ذلك من ضرورة تطوير مفاهيمها واستيعاب حركة الثورة اليمنية فى شمولها ، وتقبل معطياتها وانجازاتها المتحققة بالفعل ، والتكيف مع شروطها ومقتضياتها التى يتطلبها المستقبل ، واما الانحياز الى جانب القوى الاقطاعية والكومبرادورية ، شأنها فى ذلك شأن الفئة الاخرى من البورجوازية المتوسطة التى ـ انسجاما مع مصالحها الطبقية ، وتلبية لتطلعاتها الاقتصادية نحو مزيد من التراكم الرأسمالى ـ اختارت هذا الجانب بالذات ، ووقفت معه فى وضوح .

وقبل الحصول على اجابة سياسية محددة من قبل القطاع البورجوازى المعارض بل للحصول على هذه الاجابة يجب التعرف على الموقف الطبقى الاقتصادى ، والسياسى والايديولوجى ، والنفسى الذى تتخذه هذه البورجوازية الوسطى ككل ، وبجميع فئاتها من الاجراءات الثورية التى اتخذتها الحكومة الثورية فى عدن ضد الشركات والبنوك ، والوكالات التجارية الاجنبية وضد الطبقة الاقطاعية فى الجنوب ، بما ترتب على ذلك من آثار مست بعض أفراد هذه الطبقة .

انزعاج الطبقة الوسطى من اجراءات التأميم

فبوقفة تحليلية كهذه يمكن ـ على وجه اليقين ـ معرفة موقف الطبقة المتوسطة من التناقض الرئيسى الذى يشد المجتمع اليمنى من أدناه الى أقصاه .

من المعروف أن عدن بالذات كانت المكان المثالى فى طول اليمن وعرضها الذى وجدت فيه البورجوازية التجارية اليمنية امكانية الحياة والنمو حيث كانت مستعمرة التاج البريطانى بالنسبة لها « ارض الاحلام » التى يهفو اليها فؤاد كل بورجوازى طامح فى تنمية رأسماله ولو فى اضيق نطاق ـ نظرا لانعدام فرص مماثلة فى ظل الاستبداد الامامى الذى كان يطبق على شمال البلاد ابان حكم بيت حميد الدين .

ومن المعروف أيضا أن البورجوازية الكومبرادورية كانت هى التى تضررت أساسا من انسحاب الاستعمار البريطانى من عدن ، ومن اجراءات التأميم التى اتخذتها حكومة اليمن الديمقراطية بعد جلائه ، و « جلاء » الفريق اليمنى الذى استلم منه السلطة مباشرة ، ومع ذلك فان البورجوازية المتوسطة لم تستقبل هذا الاجراء بارتياح ، نظرا لدخول الدولة الوطنية كمزاحم لها ـ الى ميدان السوق التجارى الخارجى ، والداخلى ، وشعورها بانسداد طريق الامل امامها فى التطور الى بورجوازية كومبرادورية ، ولمصادرة الدولة لامكانية تحولها الى بورجوازية كبيرة ، ونظرا للروابط التى كانت قائمة بينها وبين البورجوازية الكومبرادورية المؤممة مصالحها ، حيث أن « مثل هذه الطبقة فى اليمن الجنوبى (الطبقة الوسطى) وجدت ، ولكى توجد لم يكن أمامها الا أن تشتغل بالتجارة والبناء ، وارتبطت من ثم براس المال الاجنبى ، والوكالات التجارية الاجنبية ، وكانت تحتفظ برأسمالها فى البنوك ، الاجنبية التى كانت تحتفظ بقدر كبير من ودائعها فى الخارج ، أو كانت تستثمره فى التجارة مع الصومال والحبشة واليمن الشمالى ، والسعودية ، وقبل الاستقلال مباشرة استغلت جزءا من مدخراتها فى اقامة مساكن حديثة فى

عدن ، وبعد الاستقلال ، ونتيجة لبعض الاخطاء المتبادلة حدثت هجرة واسعة لرأس المال المحلي الى البلاد المجاورة » (١) ٠

موقف الرأسمال الوطني من التنمية الاقتصادية

ان جفول البورجوازية الوسطى عن المشاركة فى عملية التنمية ، وتهريب رءوس اموالها من جنوب اليمن الى شمالها ، والى البلدان الاخرى المجاورة يعود الى عوامل أكثر وأوضح وأدق من العامل الذى ذكره **الدكتور فؤاد مرسى** بقوله : « والسبب فى هذا فى تقديرنا هو الموقف الفكرى من البورجوازية الوطنية ، هذا الموقف الذى يعتبرها من القوى الطبقية الخارجة عن التحالف ، وهى من ثم واجبة التصفية » (٢) ٠ ذلك أن السلطة السياسية لم تطرح شعار تصفية البورجوازية المتوسطة كفئة اجتماعية ، وكقوة اقتصادية ، وانما استبعدتها ، بل وأقصتها من الحكم على مراحل متتابعة ، حتى تم اقتلاع آخر ممثليها البارزين منه بحركة ٢٢ يونية التصحيحية عام ١٩٦٩ ، وذلك — فى الواقع — هو أحد الاسباب الهامة التى جعلت البورجوازية الوسطى تقف موقفا حذرا ومرتابا من الحكومة الوطنية فى عدن ، ومن الاسهام فى أى مشروع تنمية اقتصادى ٠

ومن الجدير بالذكر أن الدكتور فؤاد مرسى لم يعترض على أى اجراء يتخذ لازاحة هذه الفئة الاجتماعية من « مركز السيادة والقيادة » ضمانا للسير بنجاح فى طريق التحرر الوطنى ، والتطور الديمقراطى ، وقيادة عملية التحول الاقتصادية والاجتماعية فى الاتجاه اللارأسمالى ،كما لم ينكر ثورية مثل هذا الاجراء ، فهو يقول على نفس الصفحة : « والعبرة عندئذ بالسلطة السياسية فى الدولة ، فما دامت هذه الرأسمالية بعيدة عن السيطرة على مقاليد السلطة ، ناهيك عن الانفراد أو الاستئثار بها فلا خوف منها على الثورة » ٠ وبالفعل فان أحدا لم يخف أو يرتعب من هذه الفئة الاجتماعية ذات القشرة الطبقية الرقيقة التى كما تمكنت البورجوازية الصغيرة والجماهير الشعبية فى اليمن الديمقراطية من كسرها سياسيا ، فقد تمكنت أيضا القوى الاقطاعية المتحالفة مع الكومبرادورية من كسر عمودها فى اليمن الشمالية واضطرارها الى تحديد موقفها من التناقض العام على نطاق اليمن كلها ٠

لقد أكد الدكتور مرسى أن « التمييز بين رأسمالية وطنية ورأسمالية غير وطنية لا يمكن أن يكون ضربا من التنجيم،ولا رجما بالغيب » ، وحيث أشار الى « أنه عملية موضوعية ، معيارها الجوهرى معيار عملى ، هو الموقف من التنمية الاقتصادية ، هل تشارك فيها أم لا تشارك ؟ » ٠

كما أكد الدكتور **اسماعيل صبرى عبد الله** فى معرض الحديث عن « الضمانات التى تمنع القطاع الخاص من معارضة أهداف الخطة ، والعمل على عرقلتها ، وتكفل اتساق نشاطاته مع الاهداف التى حددها المجتمع » ٠ بقوله : « فى الواقع أن نقطة البدء فى هذا هى أن يوجه القطاع الخاص نشاطه الى القطاعات الانتاجية من زراعة ، وصناعة ، وتجارة تجزئة ، الخ بعيدا عن الانشطة الطفيلية التى تتمثل فى أعمال التخزين ، والمضاربة ، وما يتبعها من تلاعب فى الاسعار ، وأعمال الوساطة ، وما الى ذلك ، والشرط الثانى هو احترام توجيهات الخطة القومية التى يجب أن تنقل اليه فى وضوح ، وتناقش معه ، والشرط الثالث هو الاحترام الكامل لقوانين العمل ، وحقوق العمال » (٣) ٠

فما هو موقف البورجوازية الوسطى اليمنية فى ضوء هذا التحديد العلمى والعملى لدورها ودور أمثالها فى التنمية الوطنية ؟ ٠

ان كل الدلائل تشير حتى الان الى أنها تصر على الاستمرار فى السير فى الطريق المعاكس ، طريق الاقتصاد الطفيلى المعتمد على الصفقات التجارية المربحة عن أى سبيل ، ومع أى كان ، طريق ابقاء السوق المحلية فى حالة تبعية دائمة للسوق الرأسمالية ، والبضائع الاحتكارية ، دون المساعدة بنصيب جاد من أجل خلق اقتصاد وطنى ، منتج ، متحرر ، مزدهر ٠

ولذلك فان ما نص عليه دستور اليمن الديمقراطية ، وما سنته حكومتها من قوانين لتشجيع الرأسمال المحلى ، وما اتخذته من اجراءات ، وما وجهته من نداءات — وباعلى صوت — الى القطاع الخاص بالاشتراك فى الاعمال النافعة لاقتصاد البلاد الوطنى ، كل ذلك لم يلق أذانا صاغية ٠

وباستثناء اسهام الرأسمال اليمنى المغترب بـ ٨٠ فى المائة فى مشروع مصنع الكبريت البالغة تكاليفه ١٢٠ ألف دينار يمنى — بناء على اتفاق تم فى مايو ١٩٧٠ ، والذى بدأ انتاجه فى ٢٢ — ٦

---

[١] مجلة الطليعة القاهرية يناير ١٩٧١ ، ملاحظات على الوضع الاقتصادى فى اليمن الجنوبى ، د. فؤاد مرسى ، ص ٧٠ — ٧١

[٢] المصدر السابق ص ٧١.

[٣] الاهرام فى ١٩٧١/٦/١٩.

١٩٧١ ، وتقدر طاقته الانتاجية سنويا بثلاثة ملايين علبة كبريت سنويا قابلة للزيادة ، واسهامه بـ ٤٩ في المائة في مشروع مصنع السجائر فان صيحات ومناشدات السلطة في عدن للتجار باستثمار رءوس أموالهم في المشاريع الانتاجية ، وتأكيداتها لهم باستعدادها لتقديم كل التسهيلات اللازمة ، وكل التشجيع الضروري قد ذهبت جميعها أدراج الرياح .

تشجيع الدولة للقطاع الخاص

ففي شرح موقف الحكومة من القطاع الخاص ، وبغية اقناعه بضرورة الاسهام في عملية التنمية الاقتصادية ، وتبصيره بآفاق المستقبل المنظور أمامه ـ اذا ما قورن بامكانيات الماضي المحدودة التي كان يقيده الاستعمار في اطارها ـ واستعدادها لحل جميع مشاكله ، وتقديم المساعدة اللازمة له قال رئيس وزراء اليمن الديمقراطية محمد علي هيثم ـ وهو يخاطب أعضاء الغرفة التجارية والصناعية بعدن في ١١ ـ ٢ ـ ١٩٧١ : « ان هدف اللقاء هو التعرف على الصعوبات التي تواجه التجار ، ومناقشة قضايا التجارة والاقتصاد بصراحة تامة ، بغية التوصل الى ما يكفل للتجارة نشاطها ، وللوطن تقدمه ، وللتجار آفاقا جديدة لتنمية أعمالهم ، والاستفادة من المكانة الهامة التي تحتلها المنطقة تجاريا .. ان عهد الاستقلال قد فتح للتجار كغيرهم من قطاعات الشعب آفاقا جديدة ، طالما ظل العهد الاستعماري يحرمهم منها ، محاولا الاحتفاظ بها لصالح الشركات الاجنبية ، أو جعل مجال التجارة والاقتصاد محصورا على اقتصاد الخدمات .. ان الحكومة قد وضعت خططاعديدة تؤكد فيها ايمانها بدور الرأسمال الوطني » . وأوضح أهمية استثمار التجار لرءوس أموالهم « في اقامة الصناعات الخفيفة ، والتوجه نحو تطوير اقتصاد البلد من اقتصاد خدمات الى اقتصاد انتاج » ، وشدد هيثم على ضرورة « ادراك الرأسمال الوطني لواجباته في هذه المرحلة ، وتجاوبه مع التسهيلات التي تعرضها الحكومة لتشجعه على استثمار أمواله في مشاريع انتاجية » ، كان منها « قرار الحكومة بتشجيع الرأسمال الوطني ، وتقديم كافة التسهيلات لتشجيع الاتجاه للصناعة ، ومنها اقامة منطقة صناعية تعطى الارض فيها مجانا لاقامة المصانع ، واعفاء الرأسمال الوطني الذي سيتجه لاقامة المشاريع الصناعية من الضرائب ، وتخفيض أسعار الكهرباء ، والماء ، والتليفون » ، اضافة الى توفير « الحماية الجمركية للانتاج المحلي بفرض الضرائب الكبيرة على أي انتاج خارجي ، يعتقد أنه سيكون منافسا للانتاج المحلي » (٤) .

وكان رئيس الهيئة التنفيذية العليا ، وعضو اللجنة التنفيذية للجبهة القومية قد ذكر التجار في مطلع حديثه بأن « الاستعمار لم يتح أية فرصة للرأسمال الوطني في أن يبدأ في استغلال أمواله استغلالا جيدا حتى في مجال الخدمات ، حيث كان يسيطر على كل مجالات الخدمات عناصر من الرأسمال الاجنبي ، سواء كانت على شكل شركات بريطانية ، أو فرنسية أو غيرها من الشركات الاجنبية ، وكان كثير من التجار الوطنيين والمحليين مجرد وكلاء لهذه الشركات التي تتحكم في البلد وأسواقه ، وحيث أن الاستعمار نفسه فتح البلاد ، وجعلها كلها سوقا حرة لمنتوجاته حتى تنافس المنتوجات المحلية التي كان من الممكن أن تنمو في اقتصاد البلد الانتاجي » . وذلك كماأكد رجل الدولة اليمني في محاضرته القيمة هو العامل الذي دفع كثيرا من التجار ، بدلا من استثمار رءوس أموالهم « في المشاريع الانتاجية والتطورية ـ الى استثمارها في مجال الخدمات السريع للربح » . وعلى هذا النحو وقع التجار « في الفخ الذي نصبه الاستعمار للرأسمال الوطني » (٥) .

وبمناسبة افتتاح المصنع الانف الذكر في ٢٠ـ٦ـ١٩٧١ ـ والذي مازال في حكم فلتات الطبيعة ـ قال رئيس مجلس الرئاسة وعضو اللجنة التنفيذية العليا سالم ربيع علي ـ مخاطبا أصحاب الرأسمال الوطني ـ وهو يريهم بأصبع اليد آفاق التعاون الواسعة التي يمكن أن تجمع مابين القطاعين العام والخاص وتتسع لهما معا ـ أنه بهذه « المناسبة السارة التي نحتفل فيها بافتتاح أول مصنع انتاجي في جمهوريتنا يسعدني أن أبدي ارتياحا لهذه المبادرة الطيبة التي أقدم عليها الرسمال الوطني ، وأن حكومة الثورة ستظل عند مسئولياتها في الدفاع عن الاستثمارات الوطنية الانتاجية ، وأن هذه التجربة المتواضعة التي أقدم عليها الرأسمال الوطني في هذا المصنع « مصنع الكبريت » تلزمنا جميعا الدولة من جهة والرأسمال الوطني من جهة أخرى بالعمل على ايجاد الثقة المتبادلة ليتم للكثير من هذه المشاريع الظهور الى حيز الوجود،ولنتمكن بمسئولية وطنية تاريخية من بناء وطننا هذا معتمدين على أنفسنا ..أن حكومةالثورة تعمل علىايجادصيغة

---

(٤) وكالة انباء عدن نشرة ١٢/٢/١٩٧١
(٥) جريدة الشرارة العدنية ١٣/٢/١٩٧١.

مشتركة بينها وبين الرأسمال الوطني ، واننا جميعا لانرغب ان نزج بالراسمال في مشاريع خاسرة » .

وفي بلورة المحتوى الثوري لهذه الصيغة التي بها وحدها تكتسب البورجوازية الوسطى اليمنية الصبغة الوطنية ، وبالاخذ بها تبتعد عن مزالق البرجوازية الكومبرادورية قال سالم ربيع علي ـ ذو الشعبية الواسعة والرأى المسموع : « اننا عندما نقول بوجود صيغة مشتركة بين الراسمال الوطني والدولة نقصد بذلك الرأسمال الوطني المقتنع بأن انتصار شعبنا على الاستعمار والرجعية وحربه ضدالامبرياليةوالرجعية اليوم حق مشروع، وأن العمل على التخلص من أنظمة الرجعيـة والاستعمار قضية مشروعة ايضا » (٦) .

ولتشجيع ودفع وتطمين الرأسمال المحلي أكثر أصدرت الدولة « قانون الاستثمار الصناعي الذي يحدد مجالات استثمار الرأسمال الخـاص ، والضمانات الخاصة على كافة المستويات » ، ولمزيد من تطمينه نفى عضو اللجنة التنفيـذية للجبهة القومية ونائب رئيس الوزراء للشئون المـالية والاقتصادية **محمود عبد اللـه عشيش** « كل الاشاعات المغرضة التي تدعي أن الدولة تنوى الاستيلاء على كل المواقع الانتاجية ، واوضح أن القوى الرجعية تحاول أن تعيق مساهمة المغتربين اليمنيين أو الرأسمال الوطني في مشاريع التنمية وبناء الاقتصاد في اليمن الديمقراطية » (٧)

كما نفى بقوة عضو اللجنة التنفيذية ووزير الثقافة والارشاد **عبد الله الخامري** « اشاعة تقول بأن الدولة ستقدم على تأميم الدكاكين ، والمطاعم ، والمخابز ، والافران ، والعقارات والمقاهي ، حتى صالونات الحلاقة » واشاعة « أن الحكومة ستقدم على مصادرة الاغنام والابقار » (٨) .

هجرة الرأسمال اليمني

من عـدن الى الشمـال

ورغم هذا التشجيع ، والدفع ، والتطميـن ، والتبصير الواضح والمتكرر ـ والذي بلغ حد الالحاح ـ والمصاغ في عبارات لا لبس فيها ولا التواء ، والصادر منالجهات المسئولة ، والمختصة في البلاد فأن رعشة القلق والخوف من المصير لم تبارح البورجوازية التجارية قط ، ورغم اعادته مرارا وتكرارا من أكثر مسئول وفي أكثر من مناسبة ، وفي أكثر من وثيقة من وثائق الدولة الحزبية والرسمية وأذاعته ونشره بمختلف وسائل الاعلام فأن الطبقة الوسطى اليمنية لم تلق بالا الى شيء من ذلك لانها كانت قد أصيبت ـ ولا سيما بعد سقوط آخر ممثليها من قمة السلطة بحركة ٢٢ يونية التصحيحية ـ بانسداد في التنفس ، وتصلب في الشرايين ، وغدت مخاطبتها أشبه مـاتكون بالحوار مع الصم ، ولم تعد تطيق الحياة أو حتى المقام في عـدن ، وقـررت الرحيل الـى مـدن الشمال « العامرة والمفتـوحة » حيث الحـرية الاقتصادية المطلقة ، وحيث يملك التجار امكانية الاتجار مع من شاءوا وفيما شاءوا ومع ايـة الاسواق في العالم ، ودون حسيب أو رقيب ، بل وحيث يملكون حق وامكانية الارتباط مع أي وسط تجاري أجنبي ، وحق وأمكانية احتكار تـوريد وتصدير هذه السلعة الرأسمالية أو تلك ، والعمل كوكلاء لاية شركة اجنبية ، كما يملكون فرص التطور الى بورجوازية كومبرادورية وكبيـرة ، وفوق ذلكيملكون ـ كما يبدو لهم ـ فرصالمستقبل كله ، وهو مالم يعد قائما على الاطلاق في عدن التي تحولت الى، جحيملايطاق، منذ صدور قوانين ٢٧ نوفمبر ١٩٦٩ للتأميم التي ضيقت مجال حركة البورجوازية التجارية ، وبالتالي حدث من امكانية نموها وصعودها الى مرتبة أعلى ، وقطعت عليها خط السير ـ دون أمل في التراجع ـ في اتجاه احتكاري أو كومبرادوري واتخاذ الاجراءات التي قيدت مدى نشاطها في السوق الداخلية والترتيبات التي جعلت معظم التجارة الخارجية ، وركزت استيراد أهم حاجيات البلاد الاساسية في يد المؤسسة الاقتصادية ، والزمت القطاع العام السير على « شريط ضيق » حيث نصت قوانينالتأميمعلى أن تبقى الاعمال التجارية قطاعا مختلطا يتعايش فيه القطاعان العام والخاص في جميع المجالات عدا ما يلي :

(أ) يحصر بهيئة التجارة والشركات والمنشئات التابعة لها (قطاع عام) استيراد الموادالتالية : ـ الدقيق ، القمح ، الارز ، السمن ، والزيوتالنباتية السكر ، الشاي ، السجائر ، السيارات .

(ب) يحصر بهيئة التجـارة والشركات والمنشئات التابعة لها استيراد طلبات الحكومة ،

---

[٦] صحيفة ١٤ اكتوبر ١٩٧١/٦/٢٢
[٧] صـحيفة ١٤ اكتوبر العـدنية١٩٧١/٦/١٤.
[٨] صـــحيفة الثورى العـدنيـة١٩٧١/٦/١٥.

وحاجات مستشفياتها للادوية والعقاقير الطبية فقط » . (٩) .

وحيث أن المادة ٢١ من دستور جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية الصادر فى ١٧ــ١١ــ١٩٧٠ ص ٢١ ــ ٢٢ تنص على ان « توجه الدولة التجارة الخارجية ، وتشرف عليها ، وتكيفها كما توجه القطاع العام للتجارة الداخلية ، وتعمل على تطويره كجزء لا يتجزأ من الاقتصاد الوطنى ، ومن واجب الدولة ان تقيم علاقات اقتصادية مباشرة مع البلدان الاخرى » ، وحيث تستطرد المادة فى شرح حدود ، ومدى ، وشروط التعاون مع التجار فى السوق المحلى بقولها : «ويجوز لها (الدولة) أن توجه التجارة الداخلية اما بمفردها أو بالتعاون مع القطاع الخاص بطريقة تضمن توزيعا عادلا لمصلحة الشعب » .

وحسبما جاء فى الدستور فأن دعم الرأسمال الوطنى مشروط باتجاهه وجهة انتاجية حيث منطوق المادة ٢٠ ص ٢١ : « تدعم الدولة القطاع الوطنى الخاص الانتاجى لكى تطور الاقتصاد الوطنى » .

وفى ٤ مايو ١٩٧١ صدر تشريع جديد لتنظيم « التجارة الخارجية .. خاصة فى مجال التصدير » يؤكد على ضرورة « جعل قطاع التجارة الخارجية فى خدمة مختلف القطاعات الاقتصادية فى اليمن الديمقراطية ، بعد ان كان دوره مقتصرا بالدرجة الاولى على قطاع الخدمات » ، ويمنح « عمليات الاستيراد والادخال والتصدير التسهيلات الكافية التى تتيح ممارستها على الوجه الافضل فى نطاق التجارة الدولية » (١٠)

الرأسمالية المتوسطة وطريق التطور اللارأسمالى

وأذن ليس بسبب « طيش » أو « مراهقة » بعض العناصر « المتطرفة » فى يساريتها ، أو لسوء تصرفاتها أخذت تنفر الطبقة الوسطى من « جحيم عدن » التى كانت بالامس القريب تمثل بالنسبة لها « جنة الخلد » و « دار الهجرة » و « مدينة السلام والاحلام » ، وأصبحت تولى وجهها شطر ج . ع . ى . وترى فى صنعاء قبلتها الجديدة ، وتؤثر حكمها حتى مع قسماته القبلية المتخلفة على الحكم الوطنى المنظم والمتقدم فى عدن .

وليس مجرد رفع اللافتات الصاخبة ، وطرح الشعارات الزاعقة هو السبب كما تراءى للاستاذ مكرم محمد أحمد الذى كتب فى الاهرام فى ١٢/١٢/١٩٧٠ : « والرأسمالية الوطنية التى أقلقتها الشعارات الحادة ، والكلمات الطنانة تشد رحالها الى اليمن الشمالية بالمئات ، لتمارس نشاطها هناك ، بعد أن فتح لها الطريق احتكارات البس الكبرى التى هاجرت من عدن الى الحديدة .. وهكذا تتجمع فى الشمال اليمنى مؤسسات التجارة الكبرى التى كانت تعمل فى عدن، وضباط الجيش المسرحون ، وتجار عدن القادرون » .

وانما يعود السبب الحقيقى والعميق فى موقف البورجوازية الوسطى ــ الى جانب ما أسلفناه من اسباب ــ الى ما يلى :

١ ــ ان هذه الطبقة أو الفئة ترى أن الحكم الوطنى الديمقراطى فى عدن الذى أشهر سيف التأميم ضد الشركات والمؤسسات الاجنبية لن يتراجع عن أن يضعه على رقبة الشركات والمؤسسات الوطنية فى أى يوم من الايام ، وكأنها لا تصنع بالاسهام فى مشاريع التنمية أكثر من تسمين العجل له حتى يحين موعد ذبحه بشفرة التأميم المغمدة اليوم ، والمتحفزة للانقضاض على « فريستها » غدا .

٢ ــ ان البورجوازية الوسطى ترى وتدرك جيدا ان اليمن الديمقراطية وقد هيمنت على القمم المسيطرة فى اقتصاد البلاد ، والمتمثلة فى البنوك، وشركات التأمين ، ووسائل المواصلات والتجارة الخارجية سائرة لا محالة فى طريق التطور اللارأسمالى ، وهو ما يدعو بالنسبة لها الى القلق العميق . وحتى ولو انطوى هذا الطريق على مكان لرأسمالها الخاص الا انه مكان محدود ومحاصر ومراقب بكل أجهزة الدولة ، وعيون التنظيم ، وفوق ذلك فهو ملزم بالسير حسب توجيهات ، خطط التنمية الوطنية ، التى استهلت الدولة عهدها بالفعل بوضع مشروع « الخطة الثلاثية » التى قدر لتمويلها ٤١ مليون دينار يمنى ، أفرد فيها مجال المساهمة للرأسمال الوطنى بمبلغ مليونين وستمائة الف دينار ، على أن يوظف فى المشاريع الانتاجية . ومثل هذه التوجيهات والقيود المفروضة على حركة الرأسمال المحلى الذى لا يرضى بغير النشاط الحر ، والانطلاق فى أى اتجاه ليس من السهل قبولها لها من ذات نفسه ، كما انه ليس من السهل اقناعه بها من الخارج ، طالما كانت هناك منافذ أخرى امامه حرة ، وطليقة ، ومجتمع مفتوح ومباح له يسرح ويمرح فيه كما

---

[٩] لماذا اجراءات التأميم ، وقانون [٣٧] الاقتصادى ، جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية ، وزارة الثقافة والارشاد ، ص ٢١

[١٠] الشرارة ٦/٥/١٩٧١

يشاء ، متمثل فى « الوطن الام » فى الجمهورية العربية اليمنية حيث الكثافة السكانية ، والقوة الشرائية المتنامية ، والاموال المتكدسة منذ فترة الحرب ، وحيث يتهيأ حتى الاقطاع الذى اغتنى حتى الشبع بل والتخمة من هذه الحرب لاستثمار وتوظيف أمواله فى شراء أراض واقطاعيات جديدة ، واقامة الحصون والعمارات ، والاشتراك فى المشاريع الاخرى المختلفة ذات الصبغة الرأسمالية .

واذن فما لزوم البقاء فى ذلك الشطر الجنوبى من اليمن الاقل مالا وسكانا ، وقوة شرائية ، والمتجه فوق ذلك فى الطريق « الخطر » طريق التطور اللارأسمالى ، بما يعنيه ذلك من ضياع احلام البورجوازية المتوسطة فى توسيع رأسمالها ، وبما يدل عليه حتى من الاسم وحده من اقفال أبواب المستقبل فى وجهها ، مما يجعلها ترى من البداية النهاية التى تنتظرها رأى العين ، ولا سيما وهى تعلم سلفا ان هذه المرحلة من التطور لا تعدو أن تكون مرحلة انتقالية ليس الا ، وعتبة نحو الولوج الى « جهنم » كل رأسمالى طامح ، الى المجتمع الاشتراكى .

٣ ـ ان الرأسمالية التجارية ـ شأنها شان أى بورجوازية متخلفة ـ أميل ما تكون الى العمليات السريعة والخفيفة، والى الصفقات التى تدر ربحا مجزيا وسريعا ، ولا يهمها مع أى مصدر تعقد مثل هذه الصفقات المربحة، سواء مع الاستعمار أو حتى مع الشيطان نفسه .

٤ ـ انها باعتبارها بورجوازية طفيلية غير منتجة، وغير طامحة الى الاتجاه ـ بشكل جاد ـ الى المشاريع الصناعية، وغير قادرة ـ بالتالى ـ على خلق اسلوب انتاج رأسمالى ، وعلاقات انتاج رأسمالية بالمعنى المعروف والاصيل لهذه العبارة فأنها لا تشعر بوجود تناقض رئيسى اقتصادى وسياسى يحتم التصادم الطبقى بينها وبين الطبقة الاقطاعية كما لا تملك القدرة على ذلك .

ان خير ما يعبر عن مدى قرب أو بعد البورجوازية الوسطى من الطبقة الاقطاعية من جهة ، والجماهير الشعبية من جهة أخرى هو رجع الصدى الذى صدر من هذه الفئة البورجوازية إزاء اجراءات الاصلاح الزراعى التى اتخذتها جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .

فعلى عكس مواقف البورجوازيات العربية المتطورة نسبيا التى ثارت على الطبقة الاقطاعية ، وحدت من ملكيتها منذ اللحظات المبكرة من قيام الثورة قبل أن تتطور الى ثورة وطنية ديمقراطية، فان البورجوازية التجارية المتوسطة فى اليمن لم تنظر الى اجراءات الحد من الملكية الاقطاعية فى جنوب البلاد بعين الرضاء ، بل قابلتها بتوجس واكتئاب باعتبارها اجراءات تمس « حقا مقدسا » و « تخدش مبدءا طبيعيا » هو حق ومبدأ « الملكية الخاصة » أيا كانت نوعيتها ، زراعية أو تجارية، أو حتى صناعية !

وتعبيرا عن وضعها الاجتماعى الناقص التكوين والمتهافت كان أفضل اسلوب لديها لحل تناقضاتها الثانوية مع الطبقة الاقطاعية هو رجاء « عطفها » والاستجارة بها ، والعيش فى كنفها ، وطلب الحماية والرعاية منها ، والتلاؤم معها عند مختلف المواقف، واصطناع أسلوب المساومة للتغلب على أية مشكلة تعترض طريق تعاونها المشترك، واياها والتذرع حتى بالقوى الحليفة والصديقة للطرفين معا والموجودة خارج البلاد لاستخدام نفوذها من اجل اقناع الجانب الاقطاعى باعطاء البورجوازية فرصة أكبر فى توجيه دفة السلطة ، بقطع النظر عن حجمها الطبقى !

لذلك يغدو انضمام البورجوازية المتوسطة بجميع فئاتها الى جبهة الاقطاع والبورجوازية الكومبرادورية وتكوين تحالف طبقى معهما هو أكثر الفروض السياسية احتمالا ، وأكثرها تبشيرا ، بفرص النمو لاشباع شتى التطلعات الطبقية لمختلف القوى ذات الملكية الخاصة تطبيقا لنص الدستور اليمنى الشمالى الذى نص على صيانتها وحظر المساس بها وباعتبار أن الانضواء فى ظل الطبقة الاقطاعية القوية ، وفى حماية علاقات الانتاج الاقطاعية الاخذة فى التطور التدريجى ـ حتى ولو كان بطيئا ـ فى الاتجاه الرأسمالى لا يتعارض على المدى المتوسط والبعيد ، بل يفسح المجال رحبا ـ فى ظروف مرحلة التطور التى تمر بها الجزيرة العربية ـ لان تتقدم الفئة البورجوازية فى سلم التطور الرأسمالى درجات متتابعة ، ولان يزداد خلال ذلك مركزها الاجتماعى بروزا ، وتاخذ فى النمو المطرد ، والصعود المتسارع ، ويبزغ نجمها السياسى ، وتغدو ظاهرة طبقية اكيدة وحقيقة رأسمالية ماثلة للعيان، بفضل التعاون المطلق والمفتوح مع السوق الرأسمالية ، وبالاستعانة بأمصالها المقوية ، وعلى أساس تراكم رأسمالها الداخلى ، وبفضل الارباح العالية والسريعة التى تحققها باستمرار !

البرجوازية المتوسطة وبرنامج التطور الوطني الديمقراطي

ومن جديد يعاد طرح السؤال الانف الذكر ، وهو : هل تملك العناصر الممثلة للجماعة المعارضة من البورجوازية الوسطى الاستمرار فى المعارضة

للتيار الاقطاعي ــ الكومبرادوري الحاكم في شمال اليمن ، وعلى أي أساس ستبنى معارضتها هذه المرة ، حيث أن المعارضة التي لا تملك أسبابا حقيقية وعميقة ، واضحة ومبلورة لا يعتد بها كمعارضة جادة ، وحيث ان المعارضة غير المؤصلة اجتماعيا ، وغير المسببة اقتصاديا وغير المحددة طبقيا ، وغير ذات البرنامج السياسي المعروف لا ينظر اليها على أنها معارضة محسوبة ،وحيث أن معارضة بدون فكر ثوري يبررها ويخطط لها ، ويقدر على اجتذاب الشعب اليها ، ويقنعه بجدواها تغدو غير ذات أهمية وغير ذات موضوع ، ذلك أن الجماهير الواسعة لم يعد في الامكان اكتسابها بمجرد الدعاية الديماجوجية الفارغة من المحتوى الوطني والاجتماعي وليس في الامكان أن تنضوي تحت لواء أي فريق بغير أن تكون له هوية واضحة ، ووجه سياسي محدد ،وبدون أن تكون في يده وثيقة عمل وطني معلنة ، ومطروحة للجماهير نفسها ، ومستوعبة مصالحها ، ومطامحها ، وتطلعاتها ، وأشواقها ، وقادرة على تحريكها ، وتحميسها وشدها الى جانبها ، ودفعها الى التجاوب معها ، والسير خلف قيادتها أو معها .

ان ذلك يتطلب بالضبط برنامج عمل وطني ديمقراطي تضعه هذه الفئة المعارضة من البورجوازية بالتعاون مع كافة القوى الثورية على ساحة اليمن ، فهل يتسع أفق وصدر ، ومصالح وطموحات هذه العناصر السياسية من البورجوازية المتوسطة والصغيرة لتمثيل وتفهم ، ووضع مثل هذا البرنامج ؟

مستقبل البورجوازية في الشمال

أغلب الامر ان عناصر من البورجوازية الوسطى بسبب الاتجاه اللارأسمالي في اليمن الديمقراطية وتحت ضغط مصالحها البورجوازية المتداخلة في بعض المواقع مع مصالح القوى الطبقية الاخرى ، وسأما من الاستمرار في معارضة تكاليفها باهظة ، وشروطها ثقيلة ، ومردودها غير مبشر بالنسبة لها ، ستؤثر الالتحاق ــ آخر الامر ــ بفئات البورجوازية المتكيفة والمتلائمة مع الوضع القائم في شمال البلاد ، حيث تجد البورجوازية المتوسطة كل التسهيلات التي يحلم بها كل بورجوازي على الاطلاق ، وكل صاحب رأسمال مهما كانت درجة رأسماله ، وحيث أصدرت الحكومة قانون التنمية الصناعية الذي أعفت بمقتضاه جميع المعدات والاجهزة والخامات المستوردة وغيرها من الادوات من الرسوم الجمركية بغرض تشجيع الاستثمار بالنسبة للرأسمال الخاص ، وحيث غدت ج . ع . ي ــ من زاوية مطامح البورجوازية المتوسطة المتعلقة بالمستقبل ، ومن ناحية مصالحها اليومية المباشرة ، ومن حيث تطلعاتها الطبقية من أساسها ــ الرئة الوحيدة والباقية للتنفس بعد أن سدت الرئة الاخرى التي كانت تتنفس منها في عدن لحقبة كاملة ، ونظرا لان الرأسمال حتى الوطني منه يختار عند تجابه المتناقضات الطبقية والاجتماعية الجانب الذي تسود فيه علاقات تقديس الملكية الخاصة ، وينحاز ــ ازاء الضغط القائم ، والمركز ، والمتصاعد من قبل الجماهير الشعبية في اتجاه تصفية مواقعه الرأسمالية ، ولو في فترة لاحقة ، أو حتى تقليص رقعة هذه المواقع ــ الى الجانب الاخر الذي يجد فيه نفسه ، ويضمن له استمرار مصالحه الرأسمالية ونموها ، وتطورها ، ومضاعفة حجمها ، وهي بذلك يندرج بموقفه السياسي ، ومصالحه الاقتصادية ، ومن الناحية الموضوعية والعملية البحتة ، بل ومن الناحية الايديولوجية والذاتية ــ ولاسيما في البلدان المتخلفة النمو ــ في ظل علاقات ونظام الملكية الاقطاعية ــ الرأسمالية المحلية والعالمية ، ذلك أنه « ليس من شك أن الرأسمال يتحكم على طول العالم الرأسمالي ، وليس من شك أيضا فيما يتعلق بالبلدان النامية في أن النظام المشاعي ، البدائي ، والقبلي ، والعشائري ، وفي أن التراكم الرأسمالي التجاري ،والربوي ،والبدائي .. وفي الزراعة الفلاحية الصغيرة على الارض المملوكة أو المستأجرة ليس من شك في أن كل ذلك تابع في التحليل النهائي للرأسمال المالي للقوى الامبريالية ، ووثيق الصلة بالرأسمال الوطني »(١١)

ومن ناحية أخرى فان عناصر من الطبقة الوسطى ستتساقط ، أو تتجمد على الطريق لاستحالة أن تجد سبيلها الى هذا الجانب أو ذاك من القوى المتضادة ، كما ستقف عناصر من البورجوازية الصغيرة الى جانب القوى الوطنية والديمقراطية التي تكافح من أجل ايجاد جبهة وطنية . ديمقراطية ، وبرنامج عمل وطني ديمقراطي ــ وفي تعاون كامل ووثيق مع النظام التقدمي في اليمن الديمقراطية ــ من أجل خلق وبناء جمهورية يمنية ،موحدة ، مستقلة ، متحررة ،وطنية ديمقراطية .

(١١) الثقافة الجديدة ــ عدن ــ اكتوبر ١٩٧٨ ــ بروفسور روستيلاف أوليانوفسكي ــ حول الطريق اللارأسمالي ــ ص ٨٦

دعت اللجنة المركزية لاتحاد الشباب العامل الاشتراكى فى كوريا الزميل خيرى عزيز لحضور المؤتمر السادس لاتحاد الشباب العامل الاشتراكى فى كوريا ، وزيارة جمهورية كوريا الديموقراطية الشعبية ، وقد قضى هناك ثلاثة أسابيع زار خلالها عديدا من المدن ، والقرى ، والمصانع ، والمزارع ، والمؤسسات الثقافية ، والتعليمية ، والفنية ، والانتاجية ، وهو يقدم هنا موجزا لانطباعاته الشخصية عن هذا البلد الاشتراكى الصديق .

كوريا الشمالية : البلد الذى يعيش فى ساعة الصفر

كيم ايل سونج

خيرى عزيز

أن أول ما يسترعى انتباهك والطائرة تهبط بك فى مطار بيونجيانج عاصمة جمهورية كوريا الديموقراطية الشعبية ، أن بلاط ممر الهبوط يتكون من مضلعات سداسية ذات طابع زخرفى تختلف عن المربعات الدولية المعروفة فى سائر مطارات العالم . ويبدو من أول لحظة أن هنا انسانا يحاول دائما تأكيد طابعه الخاص على كل شىء . ومن قرأ عن مبدأ « جوتشيه » ، مبدأ الاعتماد على النفس ، وتأكيد الطابع الوطنى المستقل فى التجربة الكورية ، يلاحظ فى هذه الجزئية البالغة البساطة ، الاصرار على تأكيد ذلك الطابع فى كل صغيرة وكبيرة فى حياة الشعب المادية والمعنوية والايديولوجية .

وأول ما يستلفت النظر عامة فى جمهورية كوريا الديموقراطية الشعبية أن البلد جديد تماما ، مدنه وقراه ، فقد دمر الامريكيون مدن كوريا الشمالية وقراها تدميرا تاما وأصبح كل مركز لتجمع السكان فى كوريا « خرابا بلقعا أو قاعا صفصفا » اذا ما استعرنا التعبير العربى الملائم ، ويريك الكوريون صورا لبيونج يانج بعد تدميرها ، فلا تجد أثرا لبناء قائم ، ويقولون لك انه لم يسلم من الدمار فى بيونج يانج كلها سوى مبنيين فحسب . وهكذا استلم الرفيق كيم ايل سونج وقيادة حزب العمل الكورى البلاد ، « خرابة » سنة ١٩٥٣ بعد العدوان الامريكى ، ولذا فستعجب أشد العجب اذا أدركت أن كل معالم الحضارة المادية والفنية المزدهرة فى هذا البلد عمرها ١٧ عاما فقط ، فضلا عن المنشآت الصناعية والانتاجية العملاقة فى كانجسون وونسان وخوانجهى وغيرها الخ . ولا يكون بوسعك أن تصدق للوهلة الاولى ، عندما يقولون لك أن كل العمائر الجميلة التى أقيمت على جانبى شارع « تشوليما » ــ وهو شارع جديد فى بيونج يانج ــ قد أقيمت فى العام الماضى ، وذلك لضخامة عدد وحجم هذه العمارات وجمالها الشكلى وتعدد ألوانها ونسقها وطرزها .

ويحرص الرفيق كيم ايل سونج دائما فى توجيهاته على أن يراعى المهندسون المعماريون

والبناة الجمال التشكيلي ، وتعدد الطرز ، وهـذه العمائر الجميلة المقامة في مجتمع اشتراكي لا فوارق طبقية فيه ، لم تعد قط نسخا من علب كبريت معمارية متكررة تفتقر الى الجمال ، وتضفي على المشاهد طابع الاملال والجهامة ، وانما أصبحت صورة للاحياء السكنية الانسانية المزدهرة في مجتمع اشتراكي سعيد ، يعيش في سلام مـع ضميره ، لانه يسير ــ كما لمسنا ــ بوحي العدل الاجتماعي قولا وعملا • والشارع الرئيسي في بيونج يانج هو « ستالين افنيو » ، الا انهم يضعون في ميدان « كيم ايل سونج » ، وهو أحد الميادين الرئيسية التي تستخدم في الاحتفالات والمناسبات العامة ، صورتين كبيرتين « لماركس » و « لينين » فقط ، بالاضافة الى صورة الرفيق كيم ايـل سونج • ولا أثر في بيونج يانج أو في أية مدينة كورية زرتها ، للازقة والحواري والقذارة وأحياء أكواخ الصفيح المكتظة الحقيرة التي كانت علامة على بؤس المدن والقرى الاسيوية وتعاستها التي لا حد لها ، في ظل سيطرة الاقطاع والرأسمالية المحلية والاجنبية •

والرجال والنساء والاطفال في الشـوارع بملابس نظيفة جيدة ، والقمصان و « البلوزات » البيضاء دائما نظيفة ناصعة ، الامر الذي يدل دون شك على وفرة الملبس لدى المواطن العادي • ولا تلمس في العاصمة ، أو في المدن أو القرى التي زرناها أي مظهر لتباين اجتماعي ظالم ، يمكن أن يعكس وجود طبقة مستغلة جديدة ، أو بيروقراطية أيا كانت ، تعيش على حساب بؤس الكادحين وظلمهم وحرمانهم • ان ذلك أمر له دلالته ، لانه لا توجد قوة على الارض تستطيع أن تخفي عن الاعين الفاحصة الثاقبة معالـم الظلـم الاجتمـاعي والاضطهاد والاستغلال ، أيا كانت درجة خفائها وتمويهها ، وانما مظاهر العدالة الحقيقية هي التي تشع دوما هناك برؤاها ، وتؤكد دوما وجودها بالمظاهر البينة الدالة عليها •

ولا توجد في كوريا سيارات خاصة ، وانما كل السيارات ملك للدولة ، ومن أجل مهام وتشهيلات الدولة • ووسيلة المواصلات الرئيسية هـي الاتوبيسات والدراجات في المدن ، والقطارات بين مختلف أنحاء البلاد • والانتظار منظم علـى محطات الاتوبيس في العاصمة والمدن • والكل يأخذ دوره في طابور الانتظار ، ويلتزم الجميـع باحترام عميق للطابور والنظام • فلا تدافع أو تسابق أو تزاحم فرديا • وبكل محطة « سماعات » راديو تذيع الاناشيد الثورية ، وبرامج اذاعة بيونج يانج ، فلا وقت ينبغي أن يضيع دون أن تتلقى الجماهير جرعات من التوعية والتثقيف والتعليم الثوري ، وجرعات من الفن الثوري الملهم أيضا • والبرامج الاذاعية والتليفزيونية في اذاعـة وتليفزيون بيونج يانج ثورية حماسية ملتهبـة دائما ، كأن المعركة قائمة بالفعل اليوم • وفي بيونج يانج وفي كوريا كلها تحس بأن شعلة الثورة لا تزال ساخنة متأججة كأن الثورة قد اندلعت بالامس فحسب •

ومدينة بيونج يانج والمدن الكورية عامة ، عامرة بالسكان ، لكنك لا تحس قط أن المدن مكتظة أو أن هناك أي اختلال في تركز السكان في مناطق معينة • ان كثافة السكان في العاصمة والمدن تعطي لك الانطباع بأن كل شيء قد نظم تنظيما دقيقا ، وخطط تخطيطا دقيقا ، وألا مكان هناك للفوضى ، ولنوازع التكنوقراط والبيروقراطيين ، الانانية الرخيصة التي تركز كل نشاط اقتصادي في العاصمة ، في الموقع الجغرافي القريب من مصادر المتعة على حساب مصالح المجتمـع الاقتصادية وعلى حسـاب ظـروف تـوزيعه الانسانية • وقد وضع الرفيق كيم ايل سونج منذ اللحظة الاولى لانتهاء القتال مع الامريكيين سنة ١٩٥٣ الخطة لبناء صناعة مركزية مع بناء صناعة اقليمية في الوقت نفسه ، وفي غضون فترة قليلة ، بنى الشعب الكوري في أقاليم البلاد أكثر من ألف مصنع ومعمل يكاد يعادل انتاجها انتاج الصناعة المركزية ، وقد ضمن ذلك تقليل الفوارق الحضارية بين العاصمة والاقاليم من ناحية ، والمدن والقرى من ناحية أخرى •

وفي كافة أنحاء العاصمة الكورية ، تلتقي دوما بطوابير الفتيان والفتيات ، تصدح بـالاناشيد الثورية وهي في طريقها الى المدارس ، وتجعل المدينة خلية نحل للجيل الجديد الذي يفعمونه بالحماسة والقوة والامل • وأجمل شيء يمكن أن تحبه في بيونج يانج ، « الرواد والرائـدات » الصغيرات ببلوزاتهن البيضاء وأربطة أعناقهن الحمراء « وجيباتهن » الكحلية « البليسيـه » •

وهؤلاء لا يمكن أن يلتقوا بك فى أى مكان ، دون أن يؤدوا لك تحيتهم العسكرية الخاصة ، سواء كنت فى بيونج يانج أو فى أبعد جبال كوريا وقراها ، أو على الطرق الزراعية أو الكبارى أو فى المزارع والمصانع . انهم ورود بيونج يانج الصغيرة الذين لا تكف « عصاباتهم الشيطانية » الخفيفة ، عن التحرك النشط الدائب فى شوارع العاصمة وطرقاتها . وقد استلفت نظرى بشكل خاص أن الرائدات الصغيرات ، أكثر حماسا والتزاما وتدفقا من أقرانهن . كما تبدو المرأة الكورية بوجه عام ، أكثر حيوية وتدفقا وحماسا لتأكيد ذاتها ، وربما يكون ذلك رد فعل طبيعي لتحررها من عبودية المظالم السابقة ، ومصداقا فى الوقت نفسه للحقيقة القائلة بأن الالم العظيم يتمخض عنه فى العادة تدفق عظيم فى الطاقة .

ولاحظت فى بيونج يانج أن جميع العاملات فى صالونات الحلاقة من الفتيات ، وسألت الرفاق الكوريين عن سر الظاهرة فأوضحوا لي أن حلاقة الشعر عمل خفيف يمكن للمرأة أن تقوم به ، ولا داعى لتضييع جهود الرجال فيه ، وانما ينبغى توفير جهودهم لما هو أشق وأصعب . وتحس فى كل شيء أنهم لا يريدون تضييع أية طاقة بشرية هدرا وانما يريدون تحقيق أقصى استخدام لكل الطاقات البشرية . ان ذلك وغيره من المظاهر يعنى بوضوح أنه لا توجد طاقات بشرية معطلة ، وانما يحتاج هذا البلد الاسيوى ـ الذى يزداد سكانيا بمعدلات الزيادة المعروفة تاريخيا وتقليديا عن البلدان الاسيوية ـ الى المزيد من الطاقات البشرية التى تتطلبها خطط التنمية السريعة الطموحة ، التى خططت لكل طاقة مقدما ، أفضل استخدام لها .

ولا تجد فى بيونج يانج أثرا لطبقة منحلة ذات امتيازات خاصة ، ويمكن أن تشكل مجالا للمشاعر العميلة ، وداعية للفكر الخياني الذى يفلسف بيع الاوطان لمن يدفع من المستعمرين ثمنا أكبر ، وانما تجد الشعب الكورى كله متقاربا موحدا حول المفهوم والتطبيق المخلص السليم لمبدأ العدل الاجتماعى ، الذى تجده واضحا ملموسا بجلاء فى حياة الشعب اليومية .

التكتم والسرية

وفى مانجيو نجداى ، وبونج هوارى ، وفى كل المتاحف الثورية ، يقدم لك الكوريون كل المعلومات الضرورية عن تاريخهم ، وكفاح زعامتهم ضد الامبريالية اليابانية والعدوان الامريكى . وفى المصانع والمزارع والمعامل والمؤسسات الثقافية والتعليمية يقدمون لك أيضا كل المعلومات الضرورية عن عملهم ونشاط شعبهم ، لكنهم شديدو التكتم والحذر من الناحية الأخرى ، فانك لا تستطيع ان تعرف الهوية الحزبية مثلا لاقرب العاملين معك من الكوريين ، برغم الود والمحبة الحقيقية العميقة التى يظهرونها نحوك ، بيد ان من يزور متحف سينشون عن جرائم الحرب الامريكية مثلا ، يستطيع ان يفهم الكثير عن سر ذلك التكتم الشديد ، اذا أدركنا ان الجزء الاكبر من اعمال التعذيب البشعة كان من نصيب كوادر حزب العمل الكورى وكادراته النسائية ، الذين اظهروا بسالة وشجاعة واخلاصا منقطعى النظير ، أمام وحشية التعذيب الامريكى . ان أسهل شيء فى الحرب ان تقتل بالرصاص فى لحظات سريعة ، لكن هذا أمر مختلف تماما عن التعذيب الوحشى البطىء من أجل الحصول على المعلومات عن الحزب ونشاطه والشعب ومنظماته . لقد كان السحل ، وسمل العيون ، وقطع الاطراف ، والدفن أحياء ، ودق المسامير فى الاجساد البشرية ، والتمزيق عن طريق استخدام العربات التى تسير فى اتجاهات متضادة ، الضريبة الباهظة التى دفعها الالاف من افضل ابناء وبنات حزب العمل الكورى ثمنا لخدمتهم للامة الكورية ومحبتهم للشعب . ومادام الجيش الامريكى فى الجنوب ، والعسكرية اليابانية تعاود الظهور فى الشرق « فسيظل الخطر محدقا بشعبنا وبافضل كوادرنا وكادراتنا » . ان **الثورة الكورية تعيش فى ظروف السرية والتكتم وبمنتهى اليقظة والحذر ، حتى فى ظل سلطتها هى ، وهذا هو قدرها فى ظروف الخطر الماحق من الجنوب والشرق** . ان الرفاق الكوريين يؤكدون لك دوما ، ان الحرب قد تندلع ، بسبب عدوانية الامبرياليين الامريكيين فى أية لحظة ، **وهم يعيشون دوما فى ساعة الصفر ، على أتم استعداد لكافة المفاجآت** ، ويحتفظون لكل ما ينبغى أن يكون سرا ، بتكتمه وخفائه وغموضه .

انك لن تجد منزلا رائعا أو قصرا منيفا فى بيونج يانج يشير اليه الرفاق الكوريون ويقولون لك مثلا : هذا هو منزل الرفيق كيم ايل سونج ، لان أحدا لا يعرف أين يقيم زعيم الثورة الكورية وقائد الشعب ، وكل ما شهدناه كانت منازل سابقة له ، لا تتعدى بضع حجرات من الطابع الاسيوى البالغ البساطة والمتواضع الاثاث ، اذا كان يمكن ان تسمى الادوات التى يتطلبها الحد الادنى من ضروريات الاستعمال البشرى ، أثاثا . أما المنزل الذى ولد فيه الرفيق كيم ايل سونج فى مانجيو نجداى ، فهو منزل ريفى آسيوى بالغ التواضع ، بنيانه من جذوع الاشجار وسقفه من قش الارز . وتعجب كيف أمكن للطفل الذى ولد فى هذا العش الاسيوى الفقير أن يصارع ، بعد دحره للامبريالية اليابانية ، اكبر الامبراطوريات العدوانية المعاصرة وأن يهزمها بكل تعقيدات وتكنيكات وابتكارات حضارتها الصناعية الجبارة ، وبكل الخبرات والمعارف التى توفرت لاستراتيجييها العسكريين .

ان ذلك يذكرك على الفور بالمثل الذى اتخذ به المؤرخون الاوربيون الصراع فى العصور الوسطى بين المسيح والامبراطور الوثنى : « انتصار الحظيرة على العرش » ٠

لقد تنقلت فى انحاء كوريا الديموقراطية شمالا وجنوبا ، طولا وعرضا بالسيارة والقطار ، لكننى لم اجد قط اثرا لقطعة سلاح ثقيل ، لدبابة أو لمدفع مضاد للطائرات لرادار ، أو لجنزرة ، وانما وجدت فحسب دائما ، الجبال الكورية الخضراء بمناظرها الساحرة حيث كل شيء عظيم التمويه والاخفاء ٠ واذا كنت قد تناولت هذه النقطة ، فالامر المؤكد أن **الكوريين يعتقدون أن التكتم والسرية الشديدة احد اسرار قوتهم الكبرى** ٠ على ان ذلك لا يحول بينك وبين ان ترى فى شوارع بيونج يانج طوابير الشباب الكورى تحمل رشاشات الكلاشينكوف وغيره من الاسلحة الخفيفة الاخرى ٠

الطفل الكورى والحجم الفنى

واذا استمتعت فى مجال الثقافة والفنون ، بالعروض المسرحية الممتازة التى يقدمها المسرح الكبير ، ومسرح الهواء الطلق ، وغيرهما من المسارح التى تقدم فى الاساس والجوهر موضوعات ثورية عن نضال الشعب والحزب والزعيم ، والتى تستخدم فرق اوركسترالية وفرق كورال تصل أعدادها الى المئات من العازفين والمنشدين والممثلين والمزودة بتجهيزات تكنيكية متقدمة جدا ، يعدوجودها هناك مفاجأة لك عن تقدمهم فى مجال التكنيك المسرحى الحديث، فانما يترك انطباعا أقوى فى ذاكرتك دائما ، هو **قصر الرواد فى بيونج يانج ، ومسرح الاطفال فيه،** وهو من احدث واجمل المبانى ومجهز تجهيزا متقدما كذلك ٠ فى هذا المسرح مثلا ، نجد اوركسترا من الاطفال يبلغ عدة مئات من العازفين ، يقوده طفل كورى « مايسترو » صغير ، يقدم لك مستوى من الاداء لا تفرقه قط عن أية فرقة اوركسترالية محترفة كبيرة ٠ والاعمال الفنية التى يقدمها مسرح الاطفال فى بيونج يانج لكشف لك البراعة الفنية الرائعة للاطفال هناك ، وتلهمك الانطباع بان **الطفل الكورى يشكل أيضا فى أطار عالمه الاسيوى الصاعد تحديا للطفل الغربى والامريكى على مستوى الفن والحضارة والتقدم** ٠ وعلى وجه العموم ، فان أقوى انطباع تتركه فى نفسك مشاهدة الفرق المسرحية والغنائية والفنية الكورية بضخامة حجمها ودقة تنظيمها واعدادها ، هو أن **الحجم الفنى لهذه الفرق أكبر بكثير من الحجم السكانى لجمهورية كوريا الديموقراطية الشعبية وامكانياتها العامة ، الامر الذى يعكس دون شك اهتماما كبيرا بالفنون من أجل الحزب والثورة والشعب** ٠

الرواد واللاسلكى والسلاح

وفى مجال اعداد الجيل الجديد ، تعد **معسكرات « الرواد »** التى تضم الاطفال والفتيان والفتيات من سن الثامنة الى السادسة عشرة ، من ابرز وأهم مجالات الاعداد ٠ ففى كل اقليم ومنطقة وناحية ، تجد معسكرات الرواد فى الاقليم والمنطقة والناحية ، حيث يقضى الاطفال فترة اعداد وتدريب مدتها أسبوعان ، وتستهدف هذه المعسكرات اعداد الاطفال **ثوريا وعسكريا واخلاقيا** ، وتعد الفترة التى يقضونها فيها بمثابة فترة **اعداد ايديولوجى للعمل المقبل فى التنظيمات الثورية الاعلى فى البلاد** ٠ ويبلغ عدد « الرواد » مليونين ويتالف من بينهم « حرس التشجير » و « حرس الصحة العامه » من الفتيان والفتيات اللاتى يعمن بزراعة الاشجار على جانبى الطرق ، والزهور فى الحدائق ، وتنظيف الشوارع والقرى والمدارس ٠ ومعسكرات الرواد فى الحقيقة هى **المدرسة الاولى فى كوريا الشمالية للحياة والعمل داخل تنظيم** ٠ وخلال العام يشترك كل الاطفال الكوريين تقريبا فى معسكرات الرواد ٠ وقد زرت **معسكر الرواد المركزى بوونسان الذى** يعمل من أبريل الى أكتوبر ٠ وأول شيء يدرس فيه التاريخ الثورى للزعيم والحزب ، وتوجد بهذا المعسكر وبكل معسكرات الرواد فى العادة قاعات لدراسة التاريخ الثورى للحزب ، وافكار وتعاليم الرفيق كيم ايل سونج ٠ والحياة فى المعسكرات جماعية ، يتدرب الاطفال فيها على الطابع المنظم الدقيق الصارم للحياة ، كما هو الحال فى الجيش ٠ ويقوم الاطفال فى المعسكر **بالتدريب العسكرى وتعلم فك الأسلحة وتركيبها واستخدامها** ، وعندما تشاهد طوابيرهم ، لا يمكنك الاعتقاد بانك بازاء أطفال صغار ، وانما جيوش حقيقية « صغيرة » تتحرك ٠ فالطابور العسكرى للفتيات الكوريات ليس بأية حال من الاحوال من قبيل البهرج الاستعراضى أو الترف الرياضى النسائى المتسم بالطراوة ، وانما هو عسكرية حقيقية تدك الارض بجدية وصرامة وحزم ، ويتدرب « الرواد » كذلك على تسلق الجبال ، واقتلاع الاعشاب ، وعديد من الاعمال الاخرى ، ويقومون باعداد الطعام بأنفسهم ، ويعتنون بالجرحى ، ويبعثون بالبرقيات اللاسلكية ، ويتمرنون على كافة الاعمال الضرورية فى حالة الحرب ٠ ومعظم نشاط الرواد فى المعسكر المركزى بوونسان على شاطيء البحر ، حيث يربى الاطفال بعقلية عدم الخوف من البحر ، ويعلمونهم السباحة والغوص ، وقيادة اللنشات واعطاء الاشارات البحرية ٠ وتقدم للاطفال فى المعسكرات العروض السينمائية العديدة بالاضافة الى النشاط الفنى والثقافى والمناقشات والمناظرات بين مجموعات الرواد المختلفة حول الاعمال الفنية والثقافية كالمقالات والقصص والاشعار ٠ وتنمى

المعسكرات فى الاطفال الشخصية القوية والانطلاق وروح الجرأة الاجتماعية، وستجد فى هذه المعسكرات مثلا، الفتاة الصغيرة التى تستطيع ان ترتجل أمامك خطابا سياسيا لمدة نصف ساعة دون اضطراب أو تلعثم، بل وبحماس وقوة وتدفق • الا انهم قبل كل ذلك وبعده، يعلمون أطفالهم، الا ينسوا اطفال كوريا الجنوبية الذين يعيشون فى بؤس وتعاسة وحرمان، ويتسول الكثيرون منهم فى شوارع مدن الجنوب وقراه، ويعلمونهم كذلك الاستعداد دائما للعمل من اجلهم •

وأينما اتجهت فى كوريا، بين العمال او الاطفال بين النساء والامهات تجدهم يقولون لك دائما: «اننا لاننسى عمال كوريا الجنوبية وأطفالها ونساءها وأمهاتها» • والكورى الشمالى شديد العاطفة عميقها فيما يتعلق بالجنوب • وانت لا يمكنك أن تزور كوريا الشمالية وتغادرها دون ان تنطبع فى قلبك دموع شعب الشمال على الجنوب حيث افترق الزوج عن زوجته، والام عن ولدها، والخطيبة عن خطيبها، وحيث يذرف الاهل والاباء دموعهم فى صمت، فى مأساة من أقسى مآسى التقسيم العالمية •

المدرســة الكــورية والرعاية الشخصية

وفى المدارس والمؤسسات التعليمية والثقافية وغيرها، تجد الحديث يدور دائما عن الرعاية الشخصية للرفيق كيم ايل سونج بأبنائه وبناته وأفراد شعبه، الذى يذكرك بالعطف العظيم **لفلاديمير ايليتش** وحدبه على الشعب الروسى، المدون فى ذكريات ثورة اكتوبر العظيمة • ولا توجد مؤسسة صناعية أو تعليمية او زراعية هامة فى البلاد، لم يزرها الرفيق كيم ايل سونج مرات عديدة، ليعرف بنفسه على الطبيعة كيف تطبق نظم البلاد، وأهداف الثورة وسياسة الحزب • وفى مدرسة وونسان لابناء وبنات الشهداء والجرحى ومشوهى الحرب التى زرتها قالوا لى عندما جاء الى هنا تفقد كل شىء وسأل عن كل شىء يتعلق بظروف معيشة الطلبة، وظروف حياتهم وسكنهم وأحوالهم العائلية، وعن كل تفصيلة، ومثلا عما اذا كان السمك متوفرا بشكل كاف لهم فى الوجبات، وعن ضرورة توفيره الخ • وتقول لك الطالبة: «انه عندما يكون كيم ايل سونج هو والدنا، فنحن الاكثر سعادة فى العالم» وتقول «ان الرئيس يعلمنا المواءمة بين النظرية والتطبيق (فى قاعة البيولوجيا يدرسون ما جمعوه من أعشاب وحشرات أثناء العطلة)، ومتوسط الوعى السياسى للفتاة الصغيرة، التى تحدثت معنا والقضايا النظرية التى طرحتها فى حديثها عن العمل العقلى واليدوى الخ أعلى بالتأكيد فى اعتقادى من المتوسط العقلى وربما لاية فتاة غربية

ويلاحظ فى كافة المدارس التى زرتها سواء بالعاصمة أو الاقاليم، أن النظافة شديدة والاثاث الخشبى رائع ومتوسط عدد الطلبة والطالبات فى فصول المدارس الكورية عامة لا يتجاوز ٢٥ طالبا وطالبة • والحالة الصحية للطلاب جيدة تنضح بها وجوههم، والى هذه المدرسة التى نالت جائزة تشوليما مرتين والتى يبلغ عدد طلبتها ٣٠٠ طالبا، أرسل الرفيق كيم ايل سونج ٦٠٠ آلة موسيقية • وبالمدرسة قاعات للطبيعة، والكيمياء، والبيولوجيا، ولتنظيم الرواد، والموسيقى، ومركز للخدمات الطبية • فى أحد الفصول وجدت الفتيات الصغيرات يتدربن على الارسال اللاسلكى، فمن توجيهات الرفيق كيم ايل سونج، **أن خريج المدرسة الثانوية ينبغى أن يعرف ارسال البرقيات اللاسلكية** • وفى المدرسة كذلك قاعة للاسلكى مجهزة بأجهزة الارسال وغيرها، وفى قاعة الطبيعة لاحظت أنهم يحاولون أن يصنعوا بعض الاشياء التى تعلموها نظريا خلال الدراسة •

وزرت كذلك **كلية الزراعة بوونسان** التى اسست فى ١٩٤٨ لتكوين كوادر زراعية وطنية حيث كان التعليم العالى أيام الاستعمار اليابانى، محظورا على الكوريين، وقد جاء كيم أيل سونج الى هذه الكلية شخصيا عند تأسيسها ليشرف بنفسه على مختلف المسائل ويشارك فى تحديد محتوى وشكل الدراسة والطرق التى ينبغى اتباعها، وفى كل مرحلة من مراحل تطور الثورة والتنمية، يأتى الى الكلية ليحدد مهام المرحلة المقبلة • ويوجد بالكلية ٨ اقسام لمختلف الدراسات الزراعية وبها ٣٣ برنامجا دراسيا لتكوين العناصر العاملة فى الابحاث الزراعية، ويتبع الكلية معهد لرسائل الدكتوراه، ويدرس بالكلية التى يمكن اعتبارها جامعة زراعية وليست كلية بالمعنى الضيق المعروف للكلمة، ١٩٠٠ طالب منتظم و ٢٠٠٠ بالمراسلة • وتصرف للطلبة الملابس والادوات الدراسية • اما ابناء ضحايا الحرب فتتكفل الدولة بكل نفقات حياتهم وتعليمهم • وبالكلية طلبة أجانب ايضا (من فيتنام واليمن الجنوبية) وتخرج منها حتى الان ٨٠٠٠ مهندس زراعى •• أما الاتجاه الرئيسى للتعليم والدراسة فيقوم على تسليح طلبتنا بأفكار كيم ايل سونج الثورية، وفكرة جوتشيه لتكوين ثوريين شيوعيين نافعين فى البناء الاشتراكى، والشيوعى»، اما فيما يتعلق بتطوير التعليم فيقوم على الجمع بين النظرية والتطبيق، والعمل والانتاج، كما يقوم الطلبة كذلك بالابحاث العلمية ويركزون جهودهم حاليا على المشاكل المتعلقة بالثورة التكنيكية • ومنذ ١٩٦١ طالب الرفيق كيم ايل سونج بايجاد الوسائل الكفيلة بمكننة بعض الاعمال الشاقة فى زراعة الارز مثل استبدال شتل الارز ببذره • وتستخدم العلوم الطبيعية والكيميائية لبذر حبوب الارز مباشرة،

كما تجرى ابحاث علمية هامة للحصول على انتاجية عالية فى الحبوب والماشية وللامتحانات عدة أساليب منها اسلوب المناقشة الفردية واسلوب كتابة الابحاث • كذلك توجد بالجامعة الزراعية ، قاعة لدراسة السياسة الزراعية للحزب ، تدرس فيها السياسة العامة للحزب فى الزراعة ، وتبدا بالسياسة الزراعية التى طبقها الحزب فى قواعد حرب العصابات ضد اليابان ، ثم سياسة الحزب الزراعية ، اثناء الثورة المعادية للاقطاع والرأسمالية فى مرحلتى الثورة الديمقراطية والثورة الاشتراكية • وتدرس فيها كذلك الطرق الصناعية فى الانتاج الزراعى ، والاستخدام الرشيد للمنشآت وترشيد أستخدام الاراضى • هذا ويوجد بكل مقاطعة كورية ، جامعة زراعية كذلك •

٨٠ زيارة للجامعة

والتعليم الالزامى المجانى فى كوريا مدته تسع سنوات ، تتلوه دراسة لمدة سنتين فى مدرسة متوسطة ،يصبح بعدها الطالب مؤهلا للالتحاق بالجامعة • وقد انشئت اول جامعة فى كوريا ، وهى **جامعة الرفيق كيم ايل سونج** سنة ١٩٤٦ لانشاء كادر وطنى ، وقد وضع الرفيق كيم ايل سونج بمساعدة الخبراء خطة طموحة لتحويل هذه الجامعة الى جامعة عالية مرموقة وقد تم الى حد كبير تنفيذ أجزاء هامة من هذا المشروع الكبير • وتضم الجامعة حاليا كليات للطبيعة والرياضيات والكيمياء والجيولوجيا والجغرافيا ، والتاريخ ، والاقتصاد ، والفلسفة ، والقانون ، واللغة ، واللغات الاجنبية ، وبالجامعة ١٠٫٠٠٠ طالب منتظم و ٥٠٠٠ يدرسون دراسات مسائية وبالمراسلة ، ومدة الدراسة خمس سنوات ، بالاضافة الى معهد للدكتوراه لمدة سنتين ، و ١٢ معهدا للدراسات العليا العلمية ، و ٥٠ قاعة للابحاث المتخصصة ، ومكتبة بها ٢ مليون كتاب ، وللجامعة مطبعة خاصة ، ودار نشر خاصة بها ، وبالنسبة للطلبة والطالبات من أبناء الشهداء فى الحرب ضد اليابان أو الامريكيين او الابناء الذين لا عائل لهم ، فتصرف لهم الاحذية والملابس وكل ما يلزمهم للدراسة بالاضافة الى منحهم الدراسية • **وقد زار الرفيق كيم ايل سونج الجامعة ٨٠ مرة منذ تأسيسها** للتعرف على سير العمل بها ، وتقديم النصائح والتوجيهات اللازمة • وعدد الطلبة الاجانب بها ٣٠٠ طالب ، ومن بين كل عشرة طلاب تعد نسبة دارسى العلوم الطبيعية الى دارسى العلوم الانسانية ٦ الى ٤ ، **ويبلغ عدد الطلبة والطالبات فى كوريا الشمالية فى جميع مراحل التعليم ٤ ملايين طالب وطالبة ، يبلغ عدد الملتحقين منهم بالتعليم الالزامى المجانى ٣٫٢٠٠٫٠٠٠ طالب ، أما عدد المعاهد العليا فيبلغ ١٢٩ معهدا عاليا •**

دور الحضانة ورياض الاطفال

أما **دور الحضانة** التى شهدناها سواء كانت بداخل المصانع لابناء وبنات العمال أو فى مبانى مستقلة ، فقد كانت مثالا للنظافة والعناية وجودة الاثاث وجماله • وقد دخلت دار حضانة كوميونة **« سو هونج تون »** ببيونج يانج ، وهى تخدم أقل من مائة عائلة ، وتضم ١٥٠ طفلا أبناء عمال وعاملات وموظفين حتى سن الخامسة • وكل نفقات دار الحضانة على حساب الدولة ، وبها عيادة مسئولة عن صحة الاطفال وقسم خاص بالمؤن والتغذية الجيدة • وبين الوجبات الرئيسية الثلاث فى اليوم ، يقدم للاطفال اللبن والمواد الغذائية الاخرى • وفى كل مقاطعة وناحية توجد دائما مؤسسات لاعداد مربيات الحضانة ، وهناك نظام لتبادل الخبرة بين مختلف دور الحضانة • ذلك أن عمل المربيات فى نظر الرفاق الكوريين « ليس مجرد العناية بابناء الاخرين ، وانما تكوين جيل يواصل الاستمرار بالثورة فى المستقبل ، انه عمل ثورى يتصل بالقضية الثورية فى بلادنا » • وتقول لى مديرة دار حضانة كوميونة « سو هونج تون » : « اننا نربى الاطفال منذ الصغر على الروح الجماعية وحب الوطن • وكلما كان أطفالنا اكثر سعادة ، كلما تذكرنا أطفال كوريا الجنوبية الذين يعيشون حياة بؤس وفقر • كيف يمكن أن ننسى أن الاطفال وأمهاتهم فى كوريا الجنوبية يسقطون برصاص الامريكيين • وكيف يمكن أن ننسى ظروفهم الجديرة بالعطف والشفقة • اننا لا نحس بهذا الشعور نحو أطفال كوريا الجنوبية فحسب ، وانما نحو كل الاطفال البؤساء فى مختلف مناطق العالم ، ونحن بعملنا نشارك بشكل ما فى النضال الثورى » • ويمكن للام أن تلحق طفلها بدار الحضانة بعد انتهاء أجازة الوضع مباشرة وتبلغ هناك ٧٧ يوما قبل وبعد الوضع • ويظل الطفل بدار الحضانة من الثامنة والنصف صباحا حتى السادسة مساء ، وكل أم هى التى تحضر طفلها الى الحضانة • وكل كوميونة لها دار حضانة خاصة بها ، والكوميونة عادة أقل من ١٠٠ عائلة ، والمدينة مقسمة الى أحياء ، والاحياء الى كوميونات ، وبالاضافة الى المربيات وموظفى الحضانة الذين يقومون بادارتها ، توجد بالدار طبيبة واحدة على الاقل ، وسكرتيرة للحزب تهتم بعمل الحزب والعمل الايديولوجى ، وبالحضانة حجرة للموسيقى يتعلم فيها الاطفال الاكبر من ٣ سنوات الاغانى والاناشيد بمصاحبة أرغن صغير • والحضانة مقسمة الى أقسام مختلفة حسب اعمار الاطفال ما بين سنتين ونصف ، وسنة ونصف ، وستة أشهر الخ • كما يوجد بالحضانة تنظيم نسائى تابع لاتحاد النساء •

وفي كوريا ، لا يترك أي شيء نهبا للفوضى أو الفردية أو الصدفة ، فأعضاء الاتحاد النسائى فى الكوميونة يقمن بتوعية الامهات فى الكوميونة فيما يتعلق بنظافة منازلهن ونظافة أطفالهن وتغذيتهن ، ويعملن مع الامهات اللاتى يبقين فى المنازل فى كل كوميونة كى يمكن تربيتهن ثوريا • ذلك أن الاتحاد النسائى يعمل من أجل « تثوير العائلة » طبقا لتعاليم الحزب بشأن دور المرأة فى عملية البناء الاشتراكى والشيوعى • ويكافح أعضاء الاتحاد النسائى بين الامهات ضد الافكار البالية التى لا تزال موروثة منذ عهد الاستعمار اليابانى مثل الانانية الفردية،والبحث عن السعادة فرديا ،بغض النظر عن الاخرين ، والعادة السيئة المتمثلة فى عدم حب العمل الخ • وكل شيء هناك خاضع لعناية الحزب وتوجيهه وتنظيمه • ففى اكتوبر سنة ١٩٦١ عقد « المؤتمر الوطنى للامهات » حدد فيه الرئيس عديدا من التعاليم وبرنامجا للامهات فى كوريا كلها • وفى ٢٠ اكتوبر سنة ١٩٦٦ عقد « المؤتمر الوطنى لمربيات الحضانة ومدرسات رياض الاطفال » قدم اليهن فيه برنامج المارشال كيم ايل سونج المتعلق بهن • وقد أشار فيه المارشال الى أن مربيات الحضانة ومدرسات رياض الاطفال « ينبغى أن يكن شيوعيات حقيقيات قبل أن يتعهدن الاطفال ، فبدون ذلك ، لا يمكن تحقيق أى شيء »•

ويلتحق الاطفال الكوريون برياض الاطفال من سن الرابعة الى السادسة ، ووجدنا فى روضة تشونج سونج ببيونج يانج ، أن هناك ٨ مدرسات لـ ١٩٠ طفلا ، ومتوسط عدد الاطفال بالفصل ٢٤ طفلا ، والوسائل التعليمية ووسائل الايضاح عديدة ، وباحدى الحجرات وجدنا عددا هائلا من الالعاب وأدوات الموسيقى ووسائل الايضاح المتوفرة بكثرة • وبالروضة قاعة لدراسة طفولة الرفيق كيم ايل سونج ، وبها فصل لدراسة الموسيقى به أرغن ، ولكل طالب فيه كراسة موسيقى • وكل فصل بروضة الاطفال به بيانو ، وبالروضة قاعة للرقص مزودة ببيانو كبير ، وتليفزيون وخشبة مسرح ، وهناك فرقة موسيقية من أطفال الروضة مزودة بآلات موسيقية شعبية ، قدموا لنا عليها بعض المقطوعات الموسيقية الشعبية •

فروق الاجور بين العمال والمهندسين

وكانت اطلالتنا على الصناعة الكورية من خلال زيارة مصنع ٤ يونيو للقاطرات بوونسان ، كان هذا المصنع فى البداية ورشة للتصليح فقط أثناء الاستعمار اليابانى • وفى سنة ١٩٤٧ طالب المارشال كيم ايل سونج بانتاج القاطرات فى البلاد • وأثناء الحرب دمر الامريكيون المصنع كله ، والقوا عليه ٣٠٠٠ قنبلة ، ولكن المصنع أعيد بناؤه وأصبح انتاجه يعادل ٨ مرات الانتاج السابق • وقد زار المارشال كيم ايل سونج المصنع عدة مرات ، وفى كل مرة يقدم توجيهات ويحدد نقاطا برنامجية • وهو ينتج ٢٠ نوعا من العربات والمعدات • ويكمل العمال دراستهم فى المدرسة العليا التابعة للمصنع وعدد كبير منهم يدرس فى نطاق تخصصه المهنى • وعدد عمال المصنع ٤٠٠٠ عامل منهم ١٠٠٠ فنى معظمهم مهندسون و ٣٠٠ مجموعة عمل ، والمجموعة من ١٠ الى ٢٥ عاملا والمصنع انجز المقرر من الخطة فى العام الماضى قبل الموعد بشهر ونصف وسيعمل العمال على انجاز خطتهم للسنتين القادمتين قبل ١٥ ابريل سنة ١٩٧٢ • ولاحظت أن ادارة المصنع فى مبنى بسيط التجهيز والاثاث برغم أهمية انتاج المصنع • وتصنع ورشة العجلات بهذا المصنع ٤٨٫٠٠٠ عجلة قطار فى العام تكفى الاستهلاك ويصدر منها لكوبا وغيرها من الدول ، ودار الحضانة بالمصنع وأسرة الاطفال والرضع شديدة النظافة والعناية الصحية ملحوظة ولعب الاطفال من (طائرات ـ دراجات ـ أراجيح ـ زحافات الخ) متوفرة بشكل ملحوظ وللخمسمائة طفل بالحضانة ١٣٠ مربية • وفيما يتعلق بالاجور ، **ينال عمال المصنع من الدولة خدمات مجانية تزيد بكثير عن الاجر مثل الخدمات الصحية والتعليم المجانى لاطفالهم** وملابس الاطفال التى تصرف بانتظام ، وملابس العمل المجانية للعمال ، والحبوب المجانية والاجازات مدفوعة الاجر الخ • ويبلغ الحد الادنى للاجر الذى يناله العامل فى هذا المصنع ٧٠ ون فى الشهر ، والحد الاقصى الذى يناله الفنى والمهندس ١٢٠ ون فى الشهر •

أما مصنع الصلب تشوليما بكانجسون ، فينتج حاليا فى أسبوع ما كان ينتجه فى عام قبل التحرير سنة ١٩٤٥ وعدد عماله ١٠٫٠٠٠ عامل • وينتج كل أنواع الصلب المدرفل المهم للاقتصاد والدفاع الوطنى • قبل التحرير لم يكن فى المصنع فنى كورى، أما الان فيوجد فنى أو مهندس بين كل ستة عمال • وفى كل مرحلة من مراحل تطور الثورة يأتى الرفيق كيم ايل سونج لبحث أهداف ومهام المرحلة الجديدة • وقد زار هذا المصنع ٢٩ مرة حتى الان • الامريكيون دمروا المصنع كلية على أساس أنه لن يكون باستطاعة الكوريين اعادة بنائه الا بعد عشرات الاعوام ، ولكن الصلب بدأ يسيل ثانية بعد ٤٠ يوما • وفى خلال عام ١٩٧٠ تضاعف انتاج الصلب عن العام الذى سبقه « وهى نسبة زيادة لم تحدث فى التاريخ » • ولذا يقول كيم ايل سونج « ان كانجسون هى مسقط رأس تشوليما » (وتشوليما هو الحصان المجنح رمز السرعة الثورية فى الانجاز) • وتستهدف الخطة

السداسية الحالية زيادة الانتاج بمقدار مرتين ونصف عما كان عليه فى آخر سنة من الخطة السبعية الماضية . العمال يذهبون لبيوت الراحة مجانا والعاملة التى لديها ثلاثة أطفال أو أكثر لا تعمل أكثر من ست ساعات فى اليوم . وهناك مدرسة تابعة للمصنع بها ٦٠٠ طالب ، وكلية شيوعية ومدرسة فنية عليا من حق العمال أن يدرسوا بها بعد انتهاء فترة عملهم . قبل التحرير كان عمال المصنع يعيشون فى مساكن بائسة والاطفال يتسولون فى الشوارع ولا يذهبون الى المدارس ، أما الان فيعيشون فى مساكن نظيفة وعمارات ، والاطفال فى دور الحضانة والمدارس . لاحظت أن مدير هذا المصنع الضخم يرتدى ملابس لا تختلف عن ملابس أى عامل فى وقت الراحة .

أعلى الاجور لمن يتعب أكثر

اما مصنع خوانجهى للحديد والصلب والكوك فيبلغ عدد عماله ١٠٫٠٠٠ عامل . وقد زاره الرفيق كيم ايل سونج ٢٥ مرة حتى الان ، وأعطى تعليمات مباشرة بالتليفون بشأنه أكثر من مائة مره وهو أحد الدعائم القوية للصناعة فى البلاد ، ويتكون من ٧٠ ورشة . وله مزرعة تنتج ٩٠٫٠٠٠ بيضة يوميا ، وبها ٢٥٠ ثورا ، و ٨٠٠٠ خنزير ، وتقدم كل الوجبات من هذه الاصناف مجانا للعمال . وتبلغ مساحة مزرعة الخضروات ٢٠٠ هكتار تروى بالمطر الصناعى ، وهناك معهد تابع للمصنع ، ومدرسة تكنيكية لرؤساء الفرق ، وأخرى لمساعدى رؤساء الفرق . وبالمصنع قصر ثقافة به دار سينما ، وعشرة أجهزة عرض سينمائية متحركة بين الورش ، وللمصنع ٣ بيوت راحة ومصحة للاستشفاء وقاعة لدراسة التاريخ الثورى ، ولكل فرقة قاعة خاصة بها لهذا الغرض ، وبسبب شدة الحرارة تقدم للعمال مشروبات الصودا والسيدر مجانا ، وبالمصنع دار حضانة وروضة أطفال . أثناء الحرب الكورية دمر هذا المصنع والقى الامريكيون عليه بمعدل ٢ طن قنابل لكل متر مربع ، ٩٥ فى المائة من ورش المصنع دمرت ومساكن العمال دمرت تماما . وعندما جاء الرفيق كيم ايل سونج الى هنا ليبحث اعادة بنائه لم يكن ينتظره سوى الاعشاب والدخان والدمار ، ولكن كانت هناك الارادة الانسانية أيضا . وتبلغ نسبة العاملات فى المصنع ٢٥ فى المائة من عدد العمال . والحد الادنى لاجر العامل العادى ١٠٠ ون شهريا ، والحد الاقصى ١٢٠ ون ، وأجور العمال الذين يعملون فى الحرارة تتراوح ما بين ٢٠٠ ون كحد أدنى و٣٠٠ ون كحد أقصى ،وتبلغ نسبة عمال الحرارة ٣٥ فى المائة من اجمالى عمال المصنع .والمدير ونائب المدير وعملهما ادارى مكتبى ينالان أجورا أقل تبلغ ١٥٠ ون شهريا . وعدد المهندسين يمثل نسبة ٢٠ فى المائة من عدد العمال ، والمهندسون تخرجوا من المدرسة البوليتكنيكية للمصنع . وعدد ساعات العمل عموما ٨ ساعات ، ولعمال الحرارة ست ساعات فقط . والانتاج السنوى مليون طن . وسكن العمال مجانا ، والحضانة ورياض الاطفال مجانا ، والتعليم لابنائهم مجانا ولذا ينفقون الاجور فحسب على الطعام وشراء التليفزيونات والراديوات وماكينات الخياطة الخ . ثمن كيلو جرام الارز ٨ تشون والون الواحد يساوى ١٠٠ تشون .

مزارع الدولة ، والمكننة ونظام الفرق

وفيما يتعلق بمزارع الدولة ، زرت مزرعة الدولة للفواكه الخاصة بمدينة بيونج يانج ، وهى تابعة لمكتب الدولة العام للفواكه . وهى مزرعة تفاح وكريز وعنب و ٧٠ نوعا آخر من الفواكه ، ومساحتها الكلية ١٠٠٠ هكتار ، وقد أنشئت على أرض قاحلة كانت تسمى « بولدونج شون » أى المنطقة التى يستحيل العيش فيها . والمزرعة تسير فيها السيارة كيلو مترات عديدة دون أن تبلغ مداها . وقد جاء الرفيق كيم ايل سونج الى هذه المنطقة فى سنة ١٩٥١ ابان اشتداد حدة القتال مع الامريكيين ، وبعد تفقد الجبهة ، واختار هذه المنطقة لاقامة مزرعة للفواكه عليها . ومنذ تأسيس المزرعة وهو يقوم بزيارتها لتفقد تطورها وتقديم التوجيهات اللازمة لتقدم العمل بها . وكل انتاج هذه المزرعة مخصص لمواطنى بيونج يانج فقط ، ومحصولها السنوى ١٠٫٠٠٠ طن من الفواكه . وقد أرسل جنودا مسرحين وعمالا للعمل فى هذه المزرعة . ويعمل فيها حاليا ١٠٠٠ عامل مع عائلاتهم ومجموع السكان بالمزرعة ٥٧٠٠ نسمة (يوجد عدد كبير من الاطفال والعجائز) . وتوجد بالمزرعة ٣٧ فرقة للعمل لكل فرقة حوالى ٤٠ هكتار . ويطبق هنا نظام مسئولية الفرقة عن متابعة المحصول والعناية به وجمعه ، فاذا وفت الفرقة بمتطلبات الدولة تصبح الكمية الزائدة مكافأة خاصة لها ، وكل فرقة لها مستودع خاص لحفظ محصولها . ويوجد بالمزرعة قسم خاص بالتعبئة ، وآخر خاص بالخدمات الاجتماعية للعاملين . ويبدأ العمل فى الساعة السابعة والنصف صباحا بتنظيف مكان العمل من الاعشاب الضارة ، ثم تحدث مناقشة عن خطة العمل فى نفس اليوم . وفى الساعة الثامنة يبدأ العمل حتى الثانية عشرة ظهرا ، يعقب ذلك فترة راحة حتى الثانية بعد الظهر ، ثم فترة عمل من الثانية الى السادسة مساء فى الشتاء ، والى السابعة مساء فى الصيف . وبعد العمل يتجه العمال الى النوادي ، أو المركز الثقافى للمزرعة أو السينما أو

المنزل والتليفزيون * وقد تمت مكننة العمل في مجال قتل الاعشاب الضارة وغيرها بنسبة ١٠٠ في المائة وتستخدم الجرارات في خدمات متعددة ، وبخاصة الجرارات المنخفضة للعمل بين أشجار الفواكه ، وتروى المزرعة بالمواسير التي تخلط في مياهها المواد السائلة ، القاتلة للاعشاب كما تستخدم الطائرات لرش المزرعة لوقايتها ، وبالمزرعة كذلك مصنع لتعليب الفواكه،وتبلغ النسبةالتي يتم حفظها في العلب ١٥ في المائةمن المحصول · كذلكفانهناك سعرا موحدا للفواكه على النطاق القومي · ويوجد بالمزرعة ١٠٠ مهندس زراعي ومساعد مهندس ، وتكاد لا توجد فروق في الاجور · ويستمتع عمال المزرعة بخدمات من الدولة ربما تفوق أجرهم النقدي · والفرق بين العمل في مزارع الدولة والمزارع التعاونية ، يكمن في المكننة ، لان مزارع الدولة أكثر مكننة من المزارع التعاونية ، وبخلاف ذلك لا يوجد فرق سوى أن المزرعة التعاونية ملكيتها جماعية ، أما مزرعة الدولة ، فملكيتها للدولة ، والجدير بالذكر أن المساحة المزروعة فواكه في كوريا الشمالية تزيد عن الـ ٣٠٠,٠٠٠ هكتار ·

المزارع التعاونية

ومساعدات الدولة

وفيما يتعلق بالمزارع التعاونية زرت مزرعة شونجسان رى التعاونية التي جاء الرفيق كيم ايل سونج لادارتها بنفسه ، ومكث فيها ١٥ يوما وضع أثنائها « الخطوط الاساسية لطريقة شونجسان رى » التي تقوم على أساس مساعدة الاجهزة العليا للاجهزة الدنيا ، ونزول أعضاء اللجان العليا الى اللجان الدنيا لمساعدة القواعد واعطاء الاهمية الاولى للعمل السياسي والتعليم الشيوعي · وأثناء اقامته تحدث الرفيق كيم ايل سونج مع عدد كبير من الفلاحين واخذ رأيهم في كل صغيرة وكبيرة ، كما أجرى أحاديث مع العناصر الحزبية النشطة ، ومع الرفيق الذي كان يدير المزرعة · وقد زار الرفيق كيم ايل سونج هذه المزرعة أكثر من ٦٠ مرة وبفضل توجيهاته سارت المزرعة خطوات كبيرة الى الامام ، وحققت عدة نتائج هامة في موضوع الثورة التكنيكية وبالذات في الري · اذ يوجد الان نظام كامل للري من ٢٠ محطة ضخ و ٢٠٠ خط لقنوات الري يبلغ طولها ١٠٠ كم ، وبفضل استخدام الموتورات أصبح في الامكان القيام بالاعمال الثقيلة · وكل منازل الفلاحين في هذه المزرعة وفي كل كوريا مضاءة بالكهرباء وقد طبقت المكننة هنا بنجاح وأصبح لكل ١٠٠ هكتار ١٥ جرارا قوة كل منها ١٥ حصانا ، ويتم ادخال المكننة الكاملة في باقي العمليات الزراعية ، وبفضل ذلك أصبح بامكان الفلاح أن يتابع زراعة ٥ هكتارات والمزرعة تزود كل وحدة قاعدية فيها بوسائل الزراعة وأدواتها ، كذلك أشار الرفيق كيم ايل سونج الى ضرورة استخدام الكيمياء بشكل أكبر في المجال الزراعي · وبالمقارنة مع ما كان عليه الانتاج منذ عشر سنوات ، زاد انتاج المزرعة من الحبوب بمقدار مرتين ونصف ، واللحم بمقدار عشر مرات ، والفواكه تسع مرات ، وازداد توزيع الدخل بالحبوب مرتين ونصف مرة ، وتوزيعه بالنقود خمس مرات · وعندما جاء الرفيق كيم ايل سونج لاول مرة هنا طالب بهدم المساكن القديمة وبناء مساكن جديدة متحضرة ، وبنت الدولة مجانا تقريبا ٧٠٠ مسكن للفلاحين · ويوجد بالمزرعة ١٥٠ مهندسا زراعيا ومساعد مهندس : والرعاية الطبية مجانية ، ويوجد بالمزرعة عدد كبير من العيادات ، ولعمال المزرعة ١٤ يوما أجازةمدفوعة الاجر ، وللمرأة ٧٧ يوما قبل وبعد الوضع ، وبالمزرعة ناد به ٣ أجهزة عرض سينمائية ، و ٣٠ في المائة من عائلات العاملين بالمزرعة لديها تليفزيونات · وقد أشارالزعيم فيالمؤتمر الاخير الخامس لحزب العمل الى أنه ينبغي تلقزة البلاد » ، ولكل فرقة عمل قاعة لدراسات مؤلفات القائد والخبرات الثورية · وتستهدف الخطة الدراسية الحالية زيادة انتاج الحبوب بمقدار مرتين ، واللحم بمقدار ثلاث مرات والفواكه بمقدار خمسمرات،والفرقة في هذه المزرعة تتكون من ٧٠ عاملا ، والمزرعة كلها تتكون من ٧٠٠ عائلة فلاحية ، وكانت منذ عشر سنوات ٧٥٠عائلة،ولكن العاملة · وتساعد الدولة المزرعة في بناء المنشئات أمكن بفضل المكننة تخفيض العدد وأرسال الفائض الى المناطق الصناعية التي تحتاج الى الايدي المتعلقة بالانتاج والقنوات ومحطات الضخ ، ومراكز تصليح الالات الزراعية ومخازن البذور وكلها على نفقة الدولة بالاضافة الى بناء بيوت الثقافة ، ومساعدة المزرعة في المحافظة على الارض اذ يوجد بها ٢٠ آلة لحفر النهيرات والترع التي تحتاجها المزرعة ، الا أن المزرعة تدفع ثمن البترول الذي تستهلكه جراراتها للدولة ·

ويقول الرفاق الكوريون في النهاية ان مزرعة الدولة هي الشكل الذي نريده في النهاية · لاننا نريد تطوير المزارع التعاونية بحيث تصبح في النهاية مزارع دولة ·

٥٠,٠٠٠ خزان مياه

وليس ثمة شك أن أحد الادلة الاخرى على صلابة الارادة الانسانية لهذا الشعب ، وهذه البلاد ، نظام الري فيها · ذلك أن كوريا الشمالية ليست بأية حال من الاحوال منطقة سهلية منبسطة ، وانما هي متوالية جغرافية من جبال خضراء وهضاب مرتفعة ، ولذا فقد أنشئت في

بجميع انحاء البلاد شبكة أنابيب للري تتفرع من محطات للضخ ترفع مياه الانهار بـأسماكها بالمضخات الى ارتفاعات كبيرة لري المناطق المرتفعة • وقد زرت **المرحلة الثانية من محطة مياه نهر تادونج كانج** ، وبها ١٠ مضخات ترفع٢٣ مترا مكعبا فى الثانية الى ارتفاع ٤٧ مترا (فى مناطق أخرى يبلغ الارتفاع ٦٠ مترا) ثم تجمع المياه فى خزان كبير (خزان تيسونج) • ويبلغ طول الانابيب هنا ١٦٠٠ كم أدت الى التمكن من رى ٥١٫٠٠٠ هكتار • ويوجد بالبلاد ٣٠٠ مركز للضخ ، أمكن بفضلها رى حقول مرتفعة جدا لم يكن من الممكن تصور ريها فى الماضى • وقد حدد الرفيق كيم أيل سونج أربع مهام أساسية للثورة التكنيكية أولها **الرى ثم الميكنة ، والكهـربة ، واستخدام الكيمياء** • وقد زار الرفيق كيم أيل سونج المحطة المذكورة **ست مرات** حتى الان • ولم تكن انتاجية الهكتار فى البداية تتعدى طنا أو ١٫٥ طن من القمح أو الذرة ، أما بعد اتمام هذه الشبكة ، أصبح المحصول الاول هو الارز وأصبح محصول الهكتار أكثر من ٦ أطنان أرز • وبعد أن كانت كوريا مضطرة لاستيرادالحبوب، تمكنت من تحقيق الاكتفاء الذاتى فى الحبوب بفضل نظام الرى المذكور • ويوجد بكوريا الشمالية ٥٠٫٠٠٠ خزان ميـاه للرى ، وهى صـناعية وليسـت طبيعية • ومن ناحية أخرى ، تمتد شبكة الكهرباء فوق المرتفعات فى جميع أنحاء البلاد ، وقد تمت كهربة كوريا الشمالية ، والريف الكورى كله مضاء بالكهرباء ، ويقول لك الرفاق الكوريـون : « انه حتى القرى الصغيرة فى جبل بيليج (فى أقصى حدود البلاد) مضاءة كذلك بالكهرباء » •

الشــباب والكفاح ضد أسلوب الحياة الغربى

وقد حضرت المؤتمر السادس لاتحاد الشباب العامل الاشتراكى فى كوريا فى الفترة من ٢١ الى ٢٩ يونيو الماضى فى بيونج يانج ،وقد اشترك فيه ١٥٥٠ ممثلا لاتحاد الشباب العامل الاشتراكى الكورى،وعدد كبير من ممثلى حركات ومنظمات الشباب من جميع قارات العالم ، وعديد مـن الشـخصيات الديمقـراطية والاجتمـاعية والصحفية • وألقى الرفيق **كيم ايل سونج** خطابا هاما فى المؤتمر أشار فيه الى أنه « اذا كانت التربية الثورية ضرورية بالنسبة للجميع ، الا أنها أكثر ضرورة والحاحا بالنسبة للجيل الجديد الذى لم يعرف تجارب الكفاح الثورى » • وقال : « انه كلما شعر الشباب بالسعادة أكثر ، كلما كان عليه أن يحذر بشكل أكبر من نسيان الماضى ، حيث كان شعبنا مستغلا مقهورا ، وينبغى عليه أن يتسلح بحزم بالوعى الثورى للطبقة العاملة ، ويتبقى الحرص باستمرار على أن تكون لدى الشباب معرفة عميقة بالطبيعة العدوانية لـلامبريالية ، وبخاصة الامبـريالية الامـريكية والعسكريـة اليابانية ، وبالطبيعة الاستغلالية للملاك العقاريين والرأسماليين ، وينبغى الحرص باستمرار على أن يكره الشباب العدو ، ويكافح بحزم حتى النهاية ضد الامبريالية والنظام الاستغلالى » •

وأضاف الرفيق كيم ايل سونج أنه « ينبغى على الشباب كى يكون الطليعة فى الثورة التكنيكية أن يكتسب المعارف العلمية والتكنيكية الحديثة • ان عصرنا عصر يتطور فيه العلم والتكنيك بمعـدل سريع ، وقد تم ادخال العلم والتكنيك الحديثين على نطاق واسع فى الانتاج والبناء وهما يلعبان دورا متعاظما • ومن الان فصاعدا ، بدون معرفة العلم والتكنيك ، لا يمكن تحقيق تقدم اقتصادنا الوطنى ، ولا يمكن للشباب أن يلعب دوره الطليعى من أجل بناء الاشتراكية » • وأضاف « أنه لا ينبغى على الشباب أن يقع قط أسير المشاعر المسالمة ، ويجب عليه بخاصة أن يحذر بشدة من تسلل التيار الايديولوجى المراجع الذى يخشى الحرب ، الى صفوفنا » •

وأشـار « **التقرير عن عمـل اللجنة المركزية** » والذى قدم الى المؤتمر الى أن مليونا وخمسمائة الف من الشباب ذوى الحماسة العالية ،تسابقوا فى السنوات الماضية على الذهاب الى مناجم الفحم والحديد وفروع قطع الاشجار وصيد الاسماك والى أماكن بناء محطات الطاقة الكهربائية وفروع صناعة الحديد والصلب والفولاذ رافعين عاليا شـعار الحزب « ليتحمل الشباب جميعا العمل الصعب » و « الشـباب الى البحـر والى منـاجم الفحم والى الغابات » ، وأشار كذلكالى انه تم تنظيم أكثرمن٧٠٫٠٠٠ فرقةطليعية تضم مليونين و ٦٠٠٫٠٠٠ شاب وشابة فى العـاصمة وكل محافظة وكل مدينة وكل ناحية وفى المصـانع والمؤسسات والارياف ، لبناء العاصمة والمحطات الكهربائية ، والسكك الحديدية الكهربائية وجزيرة الحديد ، وبناء مشاريعالرى وغيرها منالمشاريع الهامة فى البلاد التى كانتالخطةالسبعية تتطلب سرعة انجازها •

ومن الناحية السياسية والعسكرية أشـار التقرير الى أن الوضع المتوتر السائد فى بلادنا بسبب المناورات المتزايدة التى تقوم بها الامبريالية الامريكية وعملاؤها لشن الحرب ، هذا الوضع تطلب منا أن نعد جميع الشباب حتى يتمكنوا من مواجهة الحرب بصورة قوية أكثر فأكثر • وأن واحدا من أهم النجاحات التى حققناها فى النضال

من أجل تطبيق الخط العسكرى للحزب ، هو اتمام تسليح الشباب كله » •

وأشار التقرير كذلك الى الخط الاساسى لنضال اتحاد الشباب العامل الاشتراكى فى كوريا ،وحزب العمل الكورى من أجل حماية الشباب الكورى ودفعه الى الامام على طريق الثورة والبناء ، وبهذا الصدد أبرز التقرير عدة حقائق هامة وهى : « أن التجارب التاريخية تبين أنه اذا لم نثقف الشباب ثوريا بحجة اقامة النظام الاشتراكى وارتفاع مستوى المعيشة ، يزداد تاثير الفكر البورجوازى بينهم ، ويكرهون الثورة ، ويتحولون الى أفراد مغرقين فى الترف والفجور والدعارة مما يشل وعيهم الثورى ، وفى نهاية الامر ، لا يصبح فى امكان الشباب أن يرثوا القضية الثورية ، ليس ذلك فحسب ، بل انهم ليعرضون حتى مكاسب الثورة التى اكتسبناها ، للاخطار • والاكثر من ذلك ، فان الاوضاع الداخلية والخارجية المعقدة التى تواجهنا اليوم، ومهمات الثورة الشاقة الهائلة التى تبرز أمامنا ، تتطلب منا تعزيز أعمال التثقيف السياسى والايديولوجى بين الشباب أكثر من أى وقت مضى » •

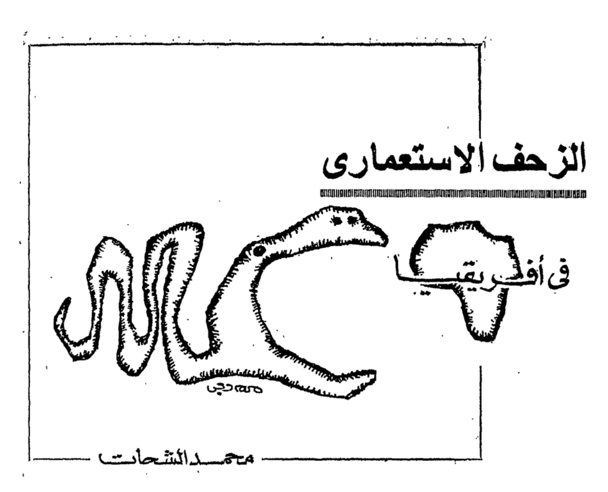
وأبرز التقرير بصفة خاصة تعاليم الرفيق كيم أيل سونج التى جاء فيها : « علينا أن نوجه سهما رئيسيا فى الثورة الثقافية قبل كل شىء ، ضد التغلغل الثقافى من جانب الامبرياليين ، ويجب أن نحذر بحزم شتى ألوان الثقافة البورجوازية ونمط الحيــاة البورجــوازية اللــذين ينشرهمـــا الامبرياليون ، واللذين يحاولون تسريبهما الى صفوفنا ، كما لا يجب أن نتسامح قط مع أدنى عنصر بورجوازى فى مجال البناء الثقافى » •

وأضاف التقرير « الى أن الامبرياليين بزعامة الامبريالية الامريكية يدعمون اليوم التغلغل الايديولوجى الثقافى أكثر من أى وقت مضى ، بجانب العدوان العسكرى على البلدان الاشتراكية والبلدان التقدمية من أجل تصفية قضية الثورة والشعب • ويقوم الامبرياليون بتحركات ماكرة من أجل طمس الثقافة القومية للبلدان الاخرى ، وتخدير الوعى بالسيادة الوطنية والروح الثورية للشعوب ، وجعل الشعوب تغوص فى حمأة من الانحلال والفساد والاسفاف ، وذلك عن طريق التغلغل الايديولوجى الثقافى • وأن الشباب الذين تنقصهم التجارب الثورية ، يعتبرون هدفا رئيسيا للتغلغل الايديولوجى الثقافى الذى يقوم به الامبرياليون ، وفى هذه الظروف ، اذا لم نقم بالنضال القوى ضد التغلغل الثقافى الامبريالى بين الشباب ، فاننا لا يمكننا أن نضمن التطور السليم للثقافة القومية الاشتراكية ، ولا أن نربى الشباب كثوريين حقيقيين • وتبين التجارب التاريخية بوضوح أنه اذا لم نمنع التغلغل الثقافى الامبريالى بين الشباب بشكل أكثر دقة ، يمكن تخدير وعى الشباب الثورى تدريجيا ، واغراقه فى السم الرأسمالى ، ودفعه حتى الى خيانة الثورة والنظام الاشتراكى بلا تردد » •

وأكد التقرير فى النهاية على أنه « يجب على منظمات اتحاد الشباب العامل الاشتراكى أن تشن كفاحا قويا ضد الثقافة الرجعية الرأسمالية ، والافكار الرجعية البورجوازية بين الشباب ، وعليها أن تربى الشباب كجنود مثابرين يقفون على الجبهة الامامية ضد التغلغل الثقافى الامبريالى ، وكثوريين صلبيين لا يتأثرون بسموم الثقافة الامبريالية ، ولا يتطرق الفساد الى نفوسهم ، وكمدافعين حقيقيين عن الثقافة الاشتراكية • وعلينا بشكل خاص ، أن نقوم بالنضال العنيد من أجل اعاقة تغلغل نمط الحياة الرأسمالية الغربية بيننا ، واقامة نمط الحياة الثورى والكفاحى بين الشباب » •

وبعد ، فان أحد الانطباعات التى تخرج بها من هذه الزيارة ، هى أن كوريا الشمالية أصغر بكثير من الطاقة العظيمة للمارشال كيم ايل سونج ، وأنه يعمل لكوريا الشمالية بطاقة الحب والعمل المضاعفة التى كان سيبذلها للجنوب فيما لو كان الوطن محررا وموحدا • ان جمهورية كوريا الديموقراطية الشعبية حصن هام من حصون الثورة العالمية ، ومركز هام من مراكز الوعى العميق فى العالم بماهية النضال ضد الامبريالية وعلى رأسها الامبريالية الامريكية فى المرحلة التاريخية الحالية ، وبأشكال هذا النضال •

اننا ننحنى احتراما وتقديرا للنضال العظيم لحزب العمل الكورى البطل ، ولتضحيات الشعب الكورى وبطولاته وأمجاده ، وللانجازات العظيمة التى حققتها قيادته •



تعيش القارة الافريقية الان مرحلة حاسمة من تاريخها ، بسبب المحاولات المستمرة للقوى الاستعمارية والعنصرية والاحتكارات العالمية ، لاجهاض الثورة الافريقية ، واحتلال مراكز انطلاق جديدة تعيد لها سيطرتها السابقة .

وقد دخلت هذه المحاولات مرحلة التآمر العنيف منذ اسقاط حكم نكروما في غانا سنة ١٩٦٥ ، وهو الامر الذي اعتبرته هذه القوى المتآمرة ، علامة هامة على طريق تحركها في القارة الافريقية ، ودليلا على امكانية احداث شروخ في الثورة الافريقية على كل مستوى القارة ، وهذا مما يفسر التحركات المعادية التي تشهدها أفريقيا الان في أكثر من مكان ، في جنوب السودان وتنزانيا وزامبيا وغينيا وسيراليون وغيرها ، هذه التحركات التي تستهدف استنفاد طاقات قوى الثورة الافريقية وعزلها عن بعضها ، حتى تحول بينها وبين تنسيق قواها ، أو حتى مواقفها ، حتى لا تشكل بوحدتها عقبة في وجه التحرك الاستعماري العنصري .

وثمة ظواهر هامة وعديدة تميز هذا التحرك المعادي في مرحلته الراهنة ، اولها أن هذه القوى تخوض المعركة ضد قوى الثورة الافريقية موحدة الصفوف ، منسقة الاهداف ، برغم اختلاف مصالحها وتطلعاتها في أفريقيا . أما الظاهرة الثانية ، فهي ان هذه القوى المعادية في تحركها ، تتخذ من جنوب القارة ، مرتكزا أساسيا لها ، بحكم الوجود العنصري والاستعماري في جنوب أفريقيا وروديسيا ومستعمرتي انجولا وموزمبيق .

ولعل الظاهرة الثالثة ، والاهم ، هي أن هذا المد الاستعماري الجديد بلغ ذروته منذ وصول حزب المحافظين البريطاني الى الحكم في يونيو سنة ١٩٧٠ . فبرغم محاولات بريطانيا المحافظين الظهور على المسرح الدولي بوجه اكثر قبولا واشراقا ، الا انها على المسرح الافريقي تبدو أكثر شراسة وعنفا .

وقد يكون لهذا الاتجاه لحزب المحافظين اكثر من مبرر ، كما يرى بعض المحللين السياسيين ، اولها أن أفريقيا ما تزال أهم مصادر الخامات الطبيعية ، بالاضافة الى أنها تشكل سوق استهلاك هامة ومؤثرة ، تستطيع أن توفر للاقتصاد البريطاني الضعيف فرصة لتقويم العجز الدائم في ميزان المدفوعات ، كما أن السيطرة على هذه السوق الافريقية ، مما يجعل لبريطانيا القدرة على التصدي للسيطرة الفرنسية المتعاظمة داخل أوربا وأفريقيا على السواء . أما ثاني المبررات

فهو أن لحزب المحافظين ارتباطات خاصة ومعنوية بالنظم العنصرية البيضاء فى أفريقيا ، هـذا بالاضافة الى ان أفريقيا ما تزال تثير مشاعر العظمة الاستعمارية فى بعض قيادات المحافظين المتزمتة ، والتى ترى فى الجيوب الاستعمارية الباقية فى أفريقيا ذكرى لامجاد الامبراطورية الغاربة ، وهـذا مما يجعل المحافظين اكثر حرصا على ابقاء السيطرة البريطانية فى افريقيا الى أطول مدة ممكنة .

ولو استعرضنا الدراسات الاستراتيجية التى خرج بها حزب المحافظين ، قبل توليه الحكم ، عن الاقليات الاوربية فى أفريقيا ، ووضعية المستعمرات البرتغالية فى أفريقيا ، وما قد توفره من دعم للوجود الاستعمارى فى أفريقيا ، نجد تفسيرا لما سبق ، فقد خرجت لجنتان للحزب قبيل توليه السلطة فى يونيو الماضى ، باستراتيجية عريضة ، تستهدف تكريس الوجود العنصرى والاستعمارى فى قارة أفريقيا ، وقد قامت هـذه الاستراتيجية على عدة أسس ، هى :

١ ـ دعم حكومة جنوب أفريقيا ، وتوفير الحماية لها ، من خلال امدادها بالاسلحة وزيادة حجم التبادل التجارى معها ، ومحاولة كسر اطار العزلة التى تعانى منها .

٢ ـ الدخول فى مفاوضات جديدة مع نظام الحكم العنصرى فى روديسيا ، لاعطائه صفة الشرعية ، وتمكينه من الانفتاح على العالم ، والحصول على اعتراف عالمى به .

٣ ـ وحتى يمكن تحقيق البندين السابقين ، فانه يجب تشجيع الاتجاهات التى ينادى بها بعض الحكام الافريقيين المرتبطين بالاستعمار فى مالاوى وساحل العاج وغيرهما ، وتستهدف الدخول فى حوار مع الحكم العنصرى فى جنوب أفريقيا ، والاعتراف به ، بزعم ان هذا الاسلوب ، وليس أسلوب الثورة المسلحة ، هو الذى سيحد من سياسته فى التفرقة العنصرية .

٤ ـ الدخول مع حكومة جنوب أفريقيا فى معاهدة عسكرية ، تسمح لبريطانيا باستغلال قاعدة سايمونزتاون ، بزعم مواجهة التهديد السوفيتى المتزايد فى المحيط الهندى ، وان كان الهدف الاساسى من ذلك هو حماية جنوب أفريقيا واتخاذها مرتكزا جديدا ضمن مرتكزات استراتيجية شرقى السويس [فقد نص الكتاب الدفاعى البريطانى ، الصادر فى ١٧ من فبراير سنة ١٩٧١ ، على ربط الوجود البريطانى البحرى فى الخليج العربى [قاعدة مصيرا العمانية] ، بقاعدة سايمونزتاون ، من خلال غواصة ذرية ، وخمس قطع بحرية أخرى ، يقف معظمها بالقرب من سواحل جنوب أفريقيا] .

٥ ـ توثيق العلاقات العسكرية مع البرتغال ، وعقد اتفاقيات جديدة معها ، توفر لبريطانيا امكانية استخدام قاعدتى بيرا [بمستعمرة موزمبيق] ، ولوبيتو [بمستعمرة أنجولا] ، وذلك لدعم النظم العنصرية والاستعمارية ، وتشجيعها على التحرك العنيف .

٦ ـ دراسة امكانية عقد اتفاق عسكرى ، يضم جنوب أفريقيا والبرتغال وبريطانيا والبرازيل والارجنتين ، لدعم الوجود الغربى فى جنوب المحيط الاطلنطى [١] وطريق راس الرجاء الصالح ، وللحيلولة دون وصول الوجود السوفيتى الى هذه المنطقة .

وفى أعقاب تولى المحافظين الحكم فى يونيو الماضى ، شرعوا فى تنفيذ هـذه الاستراتيجية ، التى عرفت باسم استراتيجية حزام بيرا ـ لوبيتو ، فكان امداد جنوب أفريقيا بالاسلحة الهجومية من بحرية وجوية ، وتنسيق العمل مع البرتغال ، التى أعلنت فى يناير سنة ١٩٧١ ، انها تضع كل امكانياتها وقواعدها فى مستعمراتها الافريقية فى خدمة الوجود الغربى والمصالح الانجلوبرتغالية .

وترجع أهمية قاعدتى بيرا ـ لوبيتو ، الى انهما ، بحكم وموقعهما المتقدم على ساحلى أفريقيا الشرقى والغربى الى الشمال من جنوب أفريقيا ، يشكلان معا حزاما استعماريا يفصل جنوب القارة تماما عن شمالها ، كذلك فان هـذا الحزام يمكن استخدامه كراس حربة استعمارية يمكن الزحف منها الى الشمال الشرقى ، والى الوسط والى الشمال الغربى ، ولما كانت زامبيا ، بحكم موقعها الجغرافى ، كعامل فاصل بين مستعمرتى انجولا وموزمبيق ، وبحكم مجاورتها لروديسيا ، تشكل العقبة الرئيسية أمام تحرك هذه الاستراتيجية ، فقد تقرر العمل على اسقاط الحكم فيها اذا لم يمكن ايجاد مصالحة مع هذا الحكم ، بجعله يدخل فى نطاق استراتيجية حزام بيرا ـ لوبيتو ، وهو الامر الذى يعنى تجريد قوى الثورة فى انجولا وموزمبيق وروديسيا من قواعد عملها وانطلاقاتها ، كما انه يعنى توفير المناخ الصالح لضرب الحكم التقدمى فى تنزانيا فى مرحلة تالية ، ومن ثم فان ما تعانيه زامبيا الآن من مشاكل وتهديدات من التحالف العنصرى الاستعمارى ، بالاضافة الى ما تعانيه تنزانيا والسودان من الحكم الانقلابى فى أوغندا ، يمكن أن يعطينا تفسيرا واضحا لكل هذه الاضطرابات فى ضوء هـذه الاستراتيجية الاستعمارية [٢] .

---

[١] Afro. Asia, Aout 2 — 8, 1970.

[٢] محمد الشحات ـ استراتيجية شرقى السويس ـ دراسة تحت النشر .

وبالاضافة الى هذا التحالف العنصرى الاستعمارى الانجلوبرتغالى ، تتحرك قوى أخرى معادية فى اماكن أخرى من القارة الافريقية ، أبرزها قوى الاحتكارات الامريكية والالمانية الغربية ، فبالنسبة لامريكا واحتكاراتها ، فانها تنطلق فى تحركها مما يسمى بالمفهوم المترابط بهدف تقوية ودعم كل النظم الافريقية العميلة ، والتآمر ضد النظم الثورية والتقدمية [٣] لتوفير المناخ الملائم للاحتكارات الامريكية للقيام بعمليات استنزاف للثروات الافريقية على أوسع مستوى .. وابرز مثال على ذلك هيمنة الاحتكارات الامريكية على ثروات الكونغو كينشاسا وغانا وانجولا ، ومحاولاتها للسيطرة على الثروات البترولية فى شمال القارة .

أما الاحتكارات الالمانية الغربية ، فانها تدخل القارة الافريقية ، وهى فى عجلة من أمرها فى كل شىء ، فهى تحاول استعادة السيطرة الالمانية السابقة ، وتحقيق كل ما فشلت فيه المانيا سابقا ، ولهذا نراها تتحرك فى أكثر من مكان ، فهى مساهمة فى المشاريع والاحتكارات فى جنوب أفريقيا ، كما انها تتحمل أكبر قدر فى تكاليف بناء سد كابوراباسا فى موزمبيق ، وهو مشروع استعمارى خطير ، كما أن دورها فى حوادث غينيا الاخيرة لا يخفى على أحد ، بعد ان كشفت المحاكمات التى أجريت هناك دور هذه الاحتكارات ، بالتعاون مع البرتغال ، فى محاولة اسقاط حكم سيكوتورى .

كذلك فان فرنسا واحتكاراتها ، تحاول أن تفرض سيطرتها على أكبر قدر ممكن من اسواق أفريقيا ، بالاضافة الى هدف فرنسا الثابت ، وهو جعل الزعماء الافريقيين الناطقين بالفرنسية يلعبون دورا بارزا فى ادارة شئون القارة ، بمعنى اقامة زعامة أفريقية — فرنسية بديلة عن الزعامة المسيطرة حاليا ، والتى يمثلها كاوندا ونيريرى ، وهما ناطقان باللغة الانجليزية [٤] ، ولعل هذا يفسر لنا أن الدعوة الى قيام حوار مع جنوب أفريقيا ينتهى بالاعتراف بها ، صدرت من الرئيس هوافيه بوانييه ، رئيس دولة ساحل العاج ، كما ان هذا يفسر لنا صفقات السلاح والاتفاقات التجارية بين جنوب افريقيا وفرنسا [٥] .

بداية حملة الدعوة

للاعتراف بجنوب افريقيا

وهكذا ، وبرغم اختلاف مصالح القوى الاستعمارية والاحتكارية فى افريقيا ، الا انها ، كما قلنا ، كانت تنطلق فى تحركها من مخطط مرسوم ، فبعد رفض الرئيس الامريكى مقابلة الرئيس الزامبى كينيث كاوندا فى أكتوبر الماضى ، بحجة انشغاله ، وهو الامر الذى اعتبر اهانة لافريقيا كلها ، وخاصة القوى الثورية ، باعتبار كاوندا من أقطابها ، بعد هذا الموقف الامريكى الشاذ ، وبأيام قلائل وجه سير اليك دوجلاس هيوم وزير خارجية بريطانيا تحذيرا للقوى الافريقية المتحررة ، بسبب موقفها المعادى لجنوب أفريقيا ، وزعم هيوم أن موقف الرفض الافريقى للحكم العنصرى فى جنوب أفريقيا هو المسئول عن اطالة أمد التفرقة العنصرية فى كل جنوب القارة ، وان على القوى الافريقية الرافضة لهذا الحكم أن تدخل فى حوار مع جنوب أفريقيا ، والا فعليها أن تتحمل مسئولية ما قد تتطور اليه الاحداث [٦] .

وفى أعقاب هذا التحذير البريطانى ، خرجت الصحافة الغربية فى حملة منسقة للترويج لاجراء حوار أفريقى مع جنوب أفريقيا وغيرها من النظم العنصرية ، بزعم أن الثورة الافريقية والدول التى تدعمها لن تستطيع تقويض حكم الاقليات الاوربية لعدة أسباب ، أهمها حرص الدول الاوربية على حماية هذه الاقليات ، بحكم الانتماء والمصالح الاستراتيجية المتبادلة ، وثانيا لوجود دعم مستمر لهذه الاقليات من الاحتكارات والصهيونية العالمية بالاضافة الى تفوقها التكنولوجى والاقتصادى [٧] وقد كانت هذه الحملة بمثابة مقدمة للقنبلة التى فجرها هوافيه بوانييه رئيس دولة ساحل العاج ، فى نوفمبر سنة ١٩٧٠ ، بدعوته الدول الافريقية لعقد مؤتمر قمة للاتفاق على اتباع اسلوب جديد مع حكومة جنوب أفريقيا ، يستهدف الاعتراف بها ونبذ أسلوب التحدى وفرض الحصار والعزلة عليها ، بزعم ان هذا الاسلوب — أسلوب التحدى — لن يقدر له النجاح .

وفى أعقاب دعوة بوانييه هذه ، بدأت الحملة الصحفية الغربية تأخذ أبعادا جديدة ، فزعمت أن هذه الدعوة موضوعية وعاقلة ، كما اعتبرتها

---

[٣] انظر البحث المنشور حول هذا الموضوع فى الهيرالد تريبيون الدولية عدد ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٧٠

[٤] The Observer, April 25, 1971.

[٥] Daily Mail, Oct. 29, 1970.

[٦] لم يشر الى دور اسرائيل فى هذه المحاولات المعادية ، لان هذا الدور يستحق دراسة واسعة مفصلة نظرا لخطورته .

[٧] La Libre Belgique, Nov. 11, 1970.

بعض الصحف دليلا على تصدع جبهة المعارضة الافريقية لجنوب افريقيا ، وانتصارا لسياسة الانفتاح الافريقى على النظم العنصرية ، ولم تنس صحيفة التايمز البريطانية أن تشير ابان هذه الحملة ، الى أن تولى المحافظين الحكم فى بريطانيا هو السبب فى كل هذه التحولات الخطيرة فى أفريقيا ، كما أعلنت الصحف ان أكثر من اثنتى عشرة دولة أفريقية بصدد تبادل التمثيل الدبلوماسى مع جنوب افريقيا ، وأن معظمها من الدول الناطقة بالفرنسية فى غرب القارة [٨] ، كما أعلنت صحف أخرى أن جنوب افريقيا بصدد الدخول فى علاقات دبلوماسية مع دول أخرى خارج القارة الافريقية لتأمين مواردها البترولية والاقتصادية [٩] ، ودعم الاقتصاد الوطنى لبعض الدول الافريقية المرتبطة بها كمدغشقر وملاوى [١٠] ، وقد صورت صحيفة الاوبزرفر البريطانية هذه الدول المتعاونة مع جنوب أفريقيا على انها حمائم أفريقية عاقلة ، تدرك أن استمرار التحدى والعداء يشجع النظم العنصرية على بناء قوة عسكرية قادرة على ضرب أفريقيا السوداء [١١] .

وبعد ذلك دخلت الصحافة الغربية ، وخاصة البريطانية ، مرحلة أخرى فى حملتها للدفاع عن جنوب أفريقيا وضرورة الاعتراف بها ، بزعم أن لديها من الامكانيات والقدرات ما يمكنها من دعم وتنمية الاقتصاد الافريقى ، وكان أبرز الامثلة فى هذه الحملة ، الحديث عن سد كابور اباسا ، الذى سيقام فى مستعمرة موزمبيق بأموال جنوب أفريقيا ، وبالاشتراك مع عديد من الاحتكارات الدولية ، أهمها الاحتكارات الالمانية الغربية ، فتحدثت الديلى تلجراف وغيرها من الصحف البريطانية عن امكانيات هذا السد فى مجالات الزراعة وتوليد الكهرباء والتصنيع ، فقالت ان طاقة الكهرباء التى سيولدها تفوق طاقة السد العالى ، وأنه سيوفر فرص عمل لحوالى مليون ونصف مليون أفريقى .

وثمة حقيقة يجب أن نؤكدها ، وهى أن هذه الحملة ، بجانب ترويجها لضرورة الاعتراف بجنوب أفريقيا ، كانت تستهدف أمرين :

أولهما : احداث شرخ بين الدول الافريقية حول هذه الدعوة .

وثانيهما : تحويل أنظار أفريقيا والرأى العام العالمى ، عن بدء بيع الاسلحة الهجومية لجنوب أفريقيا .

وبرغم ذلك ، فان هذه الحقائق لم تفت على قوى النضال الافريقى ، حيث ارتفعت الأصوات عالية ، منددة ومحذرة من مغبة هذا الاتجاه لتسليح جنوب أفريقيا ، وكان أقوى هذه الاصوات ينبعث من زامبيا وتنزانيا وأوغندا [قبيل اسقاط ميلتون أوبوتى] ، والسودان وغينيا ، وهى الدول الهدف فى المخطط الامبريالى . وأمام هذه الثورة الافريقية ، تحركت القوى المعادية بسرعة ، فأسقطت ميلتون أوبوتى فى أوغندا ، وأقامت حكما انقلابيا عميلا ، ويرجع السبب فى هذا التحرك السريع ، وخاصة فى أوغندا ، الى ان أوغندا ، بحكم موقعها الجغرافى ، يمكن اتخاذها قاعدة متقدمة لتبديد طاقات تنزانيا والسودان ، وهو الامر الذى يعنى عزل زامبيا ، تمهيدا لضربها فى مرحلة تالية .

الحملة ضد تنزانيا والسودان [شرق افريقيا]

ويلاحظ ان اسقاط ميلتون أوبوتى جاء فى أعقاب مؤتمر الكومنولث ، الذى انعقد فى سنغافورة ، فى الفترة من ١٤ الى ٢٢ يناير سنة ١٩٧١ ، والذى كان بمثابة محاكمة لبريطانيا ، بسبب تسليحها لجنوب أفريقيا ، وكان أعنف المهاجمين فى هذا المؤتمر هما كينيث كاوندا وميلتون أوبوتى ، اللذين نددا ببريطانيا ، وهددا بالانسحاب من الكومنولث ، وهو الامر الذى كان يعنى ارتفاع موجة المد الثورى فى أفريقيا ، وبالتالى نسف كل محاولات بريطانيا تقوية وجودها فى أفريقيا ، كجزء من استراتيجيتها شرقى السويس ، واستراتيجيتها العامة ، ومن ثم فقد كان من الضرورى اسقاط أوبوتى ، وتم بالفعل اسقاطه ، لان هذا مما يعطى لقوى التآمر فى شرق أفريقيا قدرة على ممارسة دورها المرسوم ، وقد وضح ذلك منذ البداية ، فبعد ساعات من الانقلاب ، زعم الانقلابيون أن وضعهم فى أوغندا مهدد من قبل تنزانيا ، ثم زعموا بعد ذلك أن التهديد أصبح محصورا فى السودان وليس تنزانيا ، ومؤخرا أعلنوا أن التهديد أصبح مشتركا من تنزانيا والسودان معا ، والهدف من هذه الاتهامات واضح ومعروف ، وهو تشكيل قيود على حركة هاتين الدولتين واستنفاد طاقاتهما وتبديدها ، تمكينا للمؤامرة من النجاح ، فابان الترويج لهذه الاتهامات المزعومة ضد السودان وتنزانيا ، تعرضت الدولتان لعديد من المؤامرات ،

---

[٨] The Guardian, Nov. 9, 1970.
[٩] Daily Telegraph, Nov. 9, 1970.
[١٠] Le Monde, Nov. 21, 1970.
[١١] The Observer, Nov. 15, 1970.

ففى تنزانيا قامت محاولة انقلابية لفصل زنجبار ؟ وفى السودان تصاعد نشاط حركة انيانيا الانفصالية ، فى نفس الوقت الذى بذلت فيه محاولات مستميتة لتأزيم العلاقات بين السودان واثيوبيا ، باثارة مشكلة ارتيريا ، والزعم بأن الثورة التى تفور فيها تقف وراءها دول عربية ، منها السودان ، وقد وصل الامر باذاعة لندن ، الى حد التهديد بأن ارتيريا يمكن أن تكون امتدادا لجبهة السويس [١٢] ، بمعنى أن السودان سيتعرض لعملية عدوانية اسرائيلية ، لان اسرائيل ترى فى أرتيريا عمقا استراتيجيا لها ، يمكنها من ضرب العمق الاستراتيجى الذى أعطته الثورة السودانية للجبهة المصرية .

وكذلك أخذت الحملة ضد تنزانيا ابعادا جديدة بعد اسقاط أوبوتى ، فقد صورت الصحافة الغربية تنزانيا ، على أنها بؤرة ثورية تستخدمها الصين لمد نفوذها وتقويته فى القارة الافريقية ، بحكم تواجدها لانشاء الخط الحديدى الذى يربط زامبيا بتنزانيا ، والذى يحرر البلدين وغيرهما من الدول الافريقية من القيود الاقتصادية التى تفرضها البرتغال على واردات وصادرات هذه الدول . وبالاضافة الى ذلك ، لوحت الصحافة الغربية بأن الاوضاع فى شرق أفريقيا يجب ترتيبها من جديد ، وبما يخدم المصالح الغربية العسكرية والاحتكارية ، لان هذا مما يفتح الطريق الى قلب القارة الافريقية ، بحكم ان الحكم القائم فى الكونغو كينشاسا لا يشكل عقبة فى وجه المصالح الغربية ، بل العقبة الوحيدة هى فى زامبيا وتنزانيا والسودان ، التى تعيق حركة الاتصال الارضى بين جنوب القارة وشمالها الشرقى والغربى ، حيث الكتلة الافريقية الناطقة بالفرنسية ، والتى تتبنى حاليا الدعوة للاعتراف بجنوب أفريقيا ، وانه فى حالة اقامة اتصال ارضى من هذه الكتلة الافريقية فى غرب القارة فان حكم سيكوتورى يصبح أمرا منتهيا لانه هو الاخر يشكل عقبة فى وجه المصالح الاستعمارية والعنصرية .

التحرك ضد زامبيا

وبرغم كل هذه التحركات فان أخطرها هو ما تتعرض له زامبيا ، لانه المخطط الاستعمارى العنصرى يرتب كل الاوضاع فى كل القارة بهدف اسقاط حكم كاوندا فى زامبيا لان ذلك يفتح ثغرة استراتيجية خطيرة فى جدار الصمود الافريقى ويمكن للزحف الاستعمارى من التوغل فى أى مكان فى القارة ، كما أنه يعنى الزحف بحزام بيرا — لوبيتو الى مواقع متقدمة ، بالاضافة الى ان اسقاط حكم كاوندا يعنى — كما سبقت الاشارة — القضاء تماما على حركة المقاومة الافريقية فى جنوب افريقيا وروديسيا ومستعمرتى موزمبيق وانجولا .

ولهذا ومنذ اكثر من ثلاثة أعوام وزامبيا تتعرض لضغوط متوالية بلا كلل ، ومع دخول زامبيا مرحلة الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى لتذويب الفوارق بين المدن والريف ، وهى الفوارق التى برزت بوضوح فى أعقاب مقاطعة روديسيا ، وقد استغل الاستعمار هذه الفوارق لتحريك الاوضاع السياسية فى صالحه ، الا أن كاوندا تحرك بسرعة من خلال خطة اصلاح خمسية انتهت عام ١٩٧٠ ، وبرغم أنها لم تحقق الآمال المرجوة الا أنها رفعت نوعا من مستوى الدخل والانتاج ، وساعد على عدم نجاحها نجاحا كاملا اضطراب الاوضاع فى الريف بسبب حدوث هجرة محمومة منه الى المدن (١٣) .

ومع نهاية سنة ١٩٧٠ واتضاح أبعاد الخطة الخمسية الثانية التى تستهدف كذلك الوصول الى تقريب كبير للفوارق بين الريف والمدن ، وتفادى كل العقبات والسلبيات السابقة ، تحركت القوى المعادية لاستنفاد طاقات وامكانيات زامبيا وتبديدها حتى لا تقدم أى دعم لحركات المقاومة التى فشلت كل محاولات ضربها فى روديسيا أو موزامبيق وانجولا برغم عمليات الاختراق التى قامت بها أجهزة المخابرات البرتغالية والجنوبية الافريقية داخل صفوف حركات المقاومة (١٤) ، كذلك اشتركت المخابرات والاحتكارات الامريكية فى التآمر ضد زامبيا لان سقوط حكم كاوندا بالنسبة لها كان يعنى امكانية التوسع فى انتاج خام الحديد من أنجولا ، هذا الانتاج الذى بلغ سنة ١٩٦٥ حوالى ١ر٦ مليون طن (١٥) والذى ينتظر القفز به خلال هذا العام الى الضعف ، ونفس الوضع فى موزمبيق حيث تشارك الاحتكارات الالمانية الغربية فى بناء سد كابورا باسا ، وحتى تضمن نجاح المشروع فانه لابد من اسقاط كاوندا حتى لا يشكل الثوار تهديدا لمبانى المشروع وملحقاته ، بالاضافة الى أن اكتمال بناء هذا السد مما يمكن هذه الاحتكارات مجتمعة من استنزاف الثروات الطبيعية فى جنوب أفريقيا ومالاوى وروديسيا وبوتسوانا وليسوتو **وأوغندا وتنزانيا وكينيا والكونغو وزامبيا .**

---

[١٢] استماع اذاعة لندن ، يوم ٢٩ / ١٢ / ١٩٧٠ .
(١٣) The Guardian, April 23, 1971.
(١٤) Daily Telegraph, Mars 16, 1971.
(١٥) Jeune Afrique, Fev. 23, 1971.

وفى البداية حاول هذا التكتل الاحتكارى العنصرى الاستعمارى أن يركز على أوضاع زامبيا الداخلية بهدف امكان تحويل القلاقل التى ظهرت فى بعض اجزائها الى ثورة ، فقد أوحت الصحافة الغربية بأن زامبيا تعيش مرحلة حرجة لابد وان تهدد وحدتها، وقبيلوأثناء انعقاد مؤتمر الكومنولث الاخير ازدادت الحملة الصحفية ضد زامبيا ، فقالت صحيفة الديلى تلجراف انزامبيا معرضة لانفجار قريب بسبب ماأسمته بانقسام حكومتها على نفسها وارتفاع موجة النقد ضد كاوندا [١٦] وتأكيدا لهذه المزاعم حاولتالصحافة الغربية أن تركز على الاوضاع القبلية فىزامبيا، وأن تختلق صراعات لم يكن لمعظمها أساس من الصحة [١٧] ، وبعد اسقاط حكم ميلتون أوبوتى فى اوغندا ، وصمود كاوندا تساءلت الصحافة الغربية عن تاريخ سقوط كاوندا ومتى يحدث ، بينما حاولت بعضالصحف أن تسدىاليه النصح حتى لايلقى نفس مصير أوبوتى ، وكان هذا النصح يتمثل فى الابتعاد عن السير فى الطريق الاشتراكى بالتأميمالتدريجى للاحتكارات والبنوك الاوربية [١٨] ، وأن يبتعد كذلك عن التعاون مع الصين الشعبية أو الكتلة الشرقية ككل ، وكان المقصود بذلك حفز زامبيا على تخريب مشروع الخط الحديدى الذى يربطها بتنزانيا .

وكانت هذه الحملة تستهدف كمرحلة أولى استخدام الضغوط دون العمل العنيف لاجبار زامبيا على ترك سياسة التحدى والتعايش فى اطار الشرعية الاستعمارية ، ولما تأكد ان هذه الضغوط لم تزد زامبيا الا عنفا ودعما لقوى النضال الافريقى ، بحيث استطاع الثوار أن يقوموا بعمليات ناجحة فى روديسيا وموزمبيق ، كما بذلت محاولات مخلصة لرأب الصدع فى اتحاد ريمبابوى، وهو اطار المقاومة فىروديسيا، عقد اجتماع لرؤساء أجهزة المخابرات لجنوب أفريقيا وروديسيا والبرتغال فى سالزبرى فى بداية شهر فبراير الماضى وقد تم فىهذا الاجتماع وضع أسس التحرك الجديد ضد زامبيا بزعم أن تقديراتهم تتفق مع التقديرات البريطانية فى أن سقوط أوبوتىقد مهد المسرح فى شرقووسط أفريقيا للعمل للقضاء على أية معارضة لسيطرة الاقليات البيضاء [١٩] . وكانت أول خطوة فى التحرك الجديد فرض حصار على وارداتزامبيا وصادراتها ، ولم تعدم البرتغال وسيلة تبرر بها اغلاق موانى موزمبيق فى وجه زامبيا ، فزعمت فى البداية أن خمسة من مواطنيها قد اختطفوا من موزمبيق وقتلوا فى زامبيا ، ثم أعلنت أن مسئولا فى حكومة زامبيا فى طريقه الىمالاوى للتفاوض مع البرتغال على هذهالمشكلة ومشكلة الحدود عموما ، وصورت هذا الامر على أنه اعتراف من زامبيا بشرعية وجود البرتغال فى موزمبيق ، فأعلنت زامبيا أن هذا الموضوع كله ليس له أساس من الصحة ، وفيما يبدو كانت البرتغال فى انتظار هذا الرد الزامبى ، اذ على الفور اصدرت تعليماتها باغلاق موانى موزمبيق فى وجه صادرات وواردات زامبيا بحيث أصبحت زامبيا تحت حصار اقتصادى عنيف ، وهو الامر الذى استغلته الدعاية الانجلوبرتغالية لتهيئة الاوضاع فى زامبيا للثورة مع التهديد بامكانية حدوث غزو برتغالى لردع محاولات الاعتداء المستمرة ضد البرتغال من قواعد فى زامبيا ، ولم يكن أمام زامبيا الا التحرك الدعائى وبشكل مكثف لان الأوضاع حولها لم تكن تؤهل لها امكانية الحصول على اى دعم ، فتهديداتالحكم الانقلابى فىأوغندا لتنزانيا بالاضافة الىالمحاولة الانفصالية تجعل تنزانيا فى حالة توتر مستمر لمواجهة أية تحركات داخلية ، وبرغم ذلك فقد نجحت تحركات زامبيا الاعلامية وساعد على نجاحها أن صدى تآمر البرتغال ضد غينيا كان مايزال ماثلا فى الاذهان [٢٠] .

وامام هذا الفشل الذى أصاب المخططات المعادية لزامبيا دخل التآمرمرحلة جديدةتستهدف تشويه سمعة كاوندا بحكم كونه رئيس منظمة الوحدة الافريقية لهذا العام قبيل انعقاد مؤتمر القمة الافريقى خلال الشهر الحالى ، بمعنى أن تشويه سمعة كاوندا سيكون بمثابة قنبلة تمزق منظمة الوحدة الافريقية ، وتعطى ثقلا للدول المنادية بالحوار مع جنوب أفريقيا للظهور على مسرح الاحداث دونما خشية توقع أى هجوم أفريقى ، مادام اكبر المعارضين لهذا الحوار قد شوهت سمعته .

ولهذا وفى ٢٢ ابريل الماضى اعلن فورستر رئيس وزراءجنوب أفريقيا أنه قد تمتبينه وبين الرئيس كاوندا مراسلات سرية منذ ثلاثسنوات وأنها كانت ما تزال مستمرة حتى تاريخ اعلانه لهذا السر ، وقال فورستر انه اضطر الىكشف هذه الاتصالات بسببماأسماه بازدواجيةسياسة كاوندا ، كما اعلن أنه برغم ذلك فانه مايزال مستعدا للدخول فى مفاوضات مباشرة مع كاوندا [٢١] ، وقد ردت حكومة زامبيا على ذلك

(١٦) Daily Telegraph, Jan. 26, 1971.

(١٧) The Times, Jan. 26, 1971.

(١٨) Financial Times, Feb. 19, 1971.

(١٩) The Guardian, April 23, 1971.

[٢٠] تقرير لوكالة انباء المانياالغربية من لوزاكا فى ١٩٧١/٣/٢٢ ، استماع لندن يوم ١٩٧١/٣/٢٢ .
Financial Times, April 22, 1971.

بنشر كل الرسائل المتبادلة التي كان البادئ فيها فورستر ، وقد وضح من المراسلات المنشورة أن فورستر كان يحاول بالحاح أن يجتمع بكاوندا لاستغلال هذا الاجتماع على أنه اعتراف من أبرز المعارضين بحكمه العنصرى .

ولكن مثل هذا الحادث الذى احدث أصداء متباينة على مستوى القارة الافريقية ، وقبيل أسابيع معدودة من اجتماع مؤتمر القمة الافريقى كان يستهدف تحقيق عدة أهداف هى :

١ — اسقاط كاوندا لاحلال خليفة له يكون اكثر تعاونا مع النظم العنصرية ، أو على الاقل هز الثقة فى كاوندا على المستوى الافريقى والدولى ، وهو الامر الذى يعنى زيادة عزلة تنزانيا ، ومن ثم يسهل ضربها هى وزامبيا فى مرحلة تالية .

٢ — تقوية مركز فورستر الداخلى الذى ظهر ضعفه على ضوء نتائج الانتخابات الاخيرة [٢٢]

٣ — احداث انقسام بين الدول الافريقية قبيل اجتماع مؤتمر القمة الافريقى بحيث تكون اجتماعات هذا المؤتمر هى مجرد صراع بين كتلتين احداهما تنادى بالحوار مع جنوب أفريقيا والاخرى تنادى باستمرار التصدى لها وعزلها [٢٣] .

ولعل تعقيب صحيفة سكوتسمان على هذه الحملة هو نقطة الضوء الوحيدة فى الصحافة الغربية ، فقد قالت الصحيفة ، ان حملة الاساءة الى كاوندا سببها رفضه الدخول فى حوار مع جنوب أفريقيا ينتهى بالاعتراف بها ، وأن هذه الحملة تأتى كستار لاخفاء تشدد جنوب أفريقيا العنصرى الذى برز من جديد على السطح الداخلى [٢٤] .

وثمة ملاحظة يجب أن نضيفها هنا وهى ان أسلوب الشوشرة على مؤتمرات القمة الافريقية ظاهرة دائمة ومستمرة بحكم كونها هدفا استعماريا للحيلولة بين دول المنظمة الافريقية واتخاذ مواقف موحدة عند الوجود العنصرى والاستعمارى ، وعادة مايتضمن أسلوب الشوشرة دعاوى مزعومة كثيرة أبرزها التلويح بخطورة الوجود الشيوعى فى افريقيا أيا ماكانت صورة هذا الوجود ، لان الغرب يرى فى أية علاقات مع الكتلة الشرقية تهديدا مباشرا للاقليات البيضاء ، وفى المرحلة الراهنة يتخذ الحديث عن هذا الموضوع صورا مختلفة ، حتى لقد زعمت الصحف الغربية ان الوجود الشيوعى هو القوة الكامنة وراء مطالبة بعض الدول الافريقية بممارسة مزيد من الضغوط العسكرية ، بجانب الضغوط السياسية ضد البرتغال وجنوب أفريقيا وروديسيا [٢٥] .

ولعل أكثر المزاعم مدعاة للسخرية فى هذا المجال ماجاء فى صحيفة المساجيرو الايطالية [عدد ٧١/٣/١٨] من أن اهتمام الاتحاد السوفيتى بأفريقيا مرده العمل على ضمان مصادر بترولية فى أفريقيا بسبب قرب نضوب احتياطيه البترولى .

وخلاصة القول ان هذه الهجمة الاستعمارية العنصرية الجديدة تفرض على الثورة الافريقية التسلح بمزيد من وضوح الرؤية ، وتنسيق الاهداف والمواقف والصفوف ، والبعد عن الصراعات أيا ماكانت وأيا ماكانت أسبابها ، وان عليها أن تدرك كذلك أنه ليس أمامها سوى حل واحد لابديل له وهو خوض المعركة مهما كانت قوتها وضراوتها ، والا تخدعها شعارات الحكم الذاتى والمشاركة فى الحكم فى اطار الشرعية القائمة [الشرعية الاستعمارية] ، لان هذه كلها شعارات تستهدف استقطاب بعض القيادات الثورية كما هو حادث فى انجولا وموزمبيق ، ونفس الامر صحيح بالنسبة للمزاعم القائلة بامكانية اسهام النظم العنصرية والاستعمارية فى دعم التطور والنمو فى افريقيا ، لان هذه حقيقة لاتستساغ فى ضوء حلقات التآمر المستمرة والمتعاقبة ، بل هى فى الواقع محاولات تحذير للثورة الافريقية بهدف تطويقها ثم ضربها ، أن القوى العنصرية الاستعمارية، مدعومة بامكانيات الاحتكارات ، تستهدف ضرب التقدم والثورة فى أفريقيا ، وهى لن تتنازل عن مخططها هذا تحت اى ظرف لان تنازلها يعنى هزيمتها واندحارها، ومن ثم فانها ستستمر فى معركة التحدى، وعلى قوى الثورة الافريقية أن تدرك ذلك تماما ، وعليها أن تتخذ من هذه المواقف المعادية منطلقا لتكثيف نشاطها ودعم صفوفها وتوحيد نضالها لمواجهة الاستراتيجية الاستعمارية العنصرية ، باستراتيجية ثورية منظمة تتحرك على كل مستوى القارة، وتركز على حصر التآمر فى جنوب القارة تمهيدا للقضاء عليه ، وهذا يعنى توفير كل الدعم الممكن لزامبيا ، لان سقوطها يعنى امكانية اجتياح القوى العنصرية لوسط وشرق القارة ، ومن ثم ترتيب الاوضاع فيها بما يخدم مخططاتها على المدى الطويل .

---

(٢١) (٢٢) Financial Times, April 22, 1971

(٢٣) The Observer, April 25, 1971.

(٢٤) Scatsman, April 27, 1971.

[٢٥] انظر على سبيل المثال [التايمز عدد ١٩٧٠/١٢/١١] والصنداى تلجراف عدد ١٩٧١/٢/٧ ، والديلى تلجراف عدد ١٩٧١/٢/١٥ .

■ الجمهورية العربية المتحدة ■

المؤتمر القومى الثانى
للاتحاد الاشتراكى العربى

بناء الاتحاد الاشتراكى
من القاعدة الى القمة

■ الاردن ■

استكمال مؤامرة سبتمبر

■ الصين الشعبية ■

نيكسون « يذهب الى
حيث يجب الا يذهب »

■ شيلى ■

الاختيارات قاسية
لتجربة جديدة

■ بريطانيا ■

ماذا يعنى الانضمام
الى السوق المشتركة ؟

تقارير الشهر

■ الجمهورية العربية المتحدة

المؤتمر القومى الثانى للاتحاد الاشتراكى العربى

شهدت قاعة جمال عبد الناصر بجامعة القاهرة اجتماع المؤتمر القومي الثانى للاتحاد الاشتراكى العربى مساء الجمعة ٢٣ يوليو • وقد شهد المؤتمر حوالى ١٦٣٥ عضوا منهم ١٤٧٥ منتخبون و ١٦٠ معينون بالاضافة الى اعضاء الاتحاد العام للعمال ورؤساء النقابات المهنية وممثلى محافظات سيناء والاسماعيلية والسويس وبورسعيد •

وافتتح المؤتمر بانتخاب الرئيس **انور السادات** رئيسا للمؤتمر • والقى الرئيس السادات خطابا ضافيا فى المؤتمر استهله بقوله « اننا اذا كنا نواجه هذا اليوم وليس بيننا بطل ٢٣ يوليو فان جمال عبد الناصر معنا دائما بمبادئه ولكل الاجيال مثلا أعلى للمناضل الشريف يحمل علمه على كتفه ، ويحمل قلبه على كفه ويواجه ويصارع ويحلم وينجز » •

وحدد الرئيس **السادات** فى خطابه مهام المرحلة القادمة ، فى المجال الداخلى والخارجى • وعن المعركة قال الرئيس السادات « ان قرار الحرب والسلم لازم نأخذه بمنتهى الحكمة،ونأخذه واحنا فاهمين مسئوليتنا تمام » واعلن « لن نسمح أن تمر سنة ٧١ دون حسم قضية العدوان سياسيا أو عسكريا »وأكد أن قواتنا المسلحةمستعدة ، تقدر مسئوليتها ، وأنه فى خلال زيارته لها فان احدا من أفرادها لم يقدم اليه شكوى خاصة أو ملتمسا وانما كان الطلب الوحيد هو اصدار الامـر بالعبور • واننا لن نقبل الوضع القائم وضع لا حرب أو لا سلام مهما كانت التضحيات التى سنتحملها • واعلن أن مصر مازالت قابلة لقرار مجلس الامن والانسحاب الوارد فيه مـن كل الاراضى وأنها مازالت تؤيد مهمة يارنج ، كما أن المبادرة التى تقدم بها الرئيس مازالت قائمة •

وعن الاتحاد الاشتراكى العربى ومهمة التنظيم السياسى فى المرحلة القادمة وحتى لا يقع فى الخطأ الذى وقع فيه التنظيم السابق حدد **الرئيس** بعض المبادىء الخاصة بالتنظيم السياسى : أن الاتحاد الاشتراكى يخدم ولا يحكم ، وانه يستمد سلطته من الجماهير وليس من السلطة ، وانه يجب وأن يكون له برنامج عمل محدد يلتزم به أمام الجماهير • وأنه يجب وأن يكون الى جانب الاتحاد الاشتراكى ثلاث دعامات أساسية ، حركة عمالية قوية ، حركة شبابية وطلابية قوية ، حركة نسائية قوية •

وعن مسئولية الحكم قال انها هى ادارة وتنمية الموارد الاقتصادية والبشرية للدولة •

واعلن **الرئيس** أن اقامة النظام الديمقراطى الذى يكفل تجدد القيادات يتطلب أن يذوب جيل الطلائع من ثورة ٢٣ يوليو داخل تنظيم الاتحاد الاشتراكى ، بحيث لا يكون لفرد ، أو لفئة حق الوصاية على الشعب • وفى هذا أكد **الرئيس** على أهمية أن يطلع التنظيم السياسى بمهام القيادة فعلا « لا شكلا » •

وعند الحديث عن الوضع العربى أشار **الرئيس** الى مظاهر التفكك البادية • وفى الوقت نفسه أشار الى أن دول اتحاد الجمهـوريات العربية تناضل لكى يقوم الاتحاد على اسس واقعية تحفظ لكل دولة كيانها ، وتأخذ فى الاعتبار كل دروس الوحدة المصرية السورية •

وأبرز الرئيس فى خطابه موقف بلادنا من احداث الاردن الفاجعة ، وحمل قادة النظام فى الاردن مسئولية المخطط الاجرامى الذى ينفذ منذ مدة لتصفية العمل الفدائى •

وعند معرض الحديث عن الاصـدقاء والاعداء أكد الرئيس على أن اتساع جبهة الرأى العام العالمى المؤيدة للحق العربى وأبرز دور الاتحاد السوفيتى وما يقدمه من عون مادى وعسكرى غير مشروط ، كما أبرز حقيقة التعاون البناء بين مصر وبين الاتحاد السوفيتى فى مجال تصنيع البلاد •

واذا كنا قد اكتفينا فى هذا المقام بالاشارة فى ايجاز شديد الى بعض معالم خطاب الرئيس عند افتتاح المؤتمر فان هذا الخطاب يكمله برنامج العمل الوطنى الذى قدمه الرئيس فى اليوم الثانى من انعقاد المؤتمر ليكون أساسا للعمل السياسى فى الاتحاد الاشتراكى •

وهذا البرنامج الذى **قدمه الرئيس** يستهدف تحقيق ثلاثة أهداف رئيسية : **أولا** : تحقيق النصر **وثانيا** : اقامة دولة حديثة ، دولةالانسان الحر ، **وثالثا** : تحديد دور واضح للتنظيمات السياسية للاتحاد الاشتراكى والنقابات •ويستهدف برنامج العمل الوطنى ، مضاعفة الدخل القومى خلال عشر سنوات على أن تعد الوزارة خطة تفصيلية لمرحلة السنوات الخمس الاولى خلال ستة شهور ، اعادة بناء قرى الجمهورية خلال عشرين عاما بتكلفة

قدرها ألف مليون جنيه، تطوير التجمعات الصناعية الاساسية، تشغيل ثلاثة ملايين مواطن يصلون سن العمل خلال السنوات العشر القادمة، إعادة النظر فى أوضاع العاملين الذين جمدت أجورهم ووضع نظام جديد للحوافز والترقى وإزالة الفوارق بين العاملين بأجهزة الدولة والعاملين بالقطاع العام ووضع لائحة جديدة للعاملين، أن تصل الصناعة بانتاجنا خلال هذه المرحلة الى ٤٦٦٣ مليون جنيه بدلا من ٢١٢٣ مليون جنيه، وزيادة الانتاج الزراعى من ١٠٧٥ مليون جنيه الى ١٦٠٠ مليون جنيه، اعادة تنظيم الاداة الحكومية وتحديد المسئوليات، بحيث لا تتضارب، ومنح المواطنين الحق فى أن يلجأوا الى المدعى العام عندما يرون انحرافا عن القانون أو سوء استخدام السلطة، واشراك العاملين فى وحدات القطاع العام فى مناقشة خطة وحدتهم، وتوفير الضمانات اللازمة للقطاع الخاص ليقوم بدوره المحدد فى خطة التنمية، وتحت المراقبة الشعبية.

وحدد برنامج العمل الوطنى مجموعة من المهام الرئيسية للاتحاد الاشتراكى تركزت فى محو الامية بحيث يكون تقييم نشاط العضو على أساس الجهد الذى يبذله من أجل محو الامية، وأن أى وحدة انتاجية يبقى فيها أمى واحد بعد سنة يجب أن تحل لجنتها الاساسية. وفى تنظيم الاسرة باعتبارها قضية سياسية واجتماعية، والتوعية بخصائص المرحلة الحالية وبقضايا التنمية والمشاركة فى بناء الانسان الجديد. والعمل على اقامة البناء الداخلى للتنظيم بحيث يخدم الخط السياسى ويضمن الوحدة التنظيمية، وسيادة مبدأ الديمقراطية فى الحياة الداخلية للتنظيم، ووضع نظام ثورى للرقابة والمحاسبة، ووضع خطة لتثقيف الاعضاء وتربيتهم سياسيا وتنظيميا وفكريا وخلقيا، وقيام تنظيم طليعى كما نص الميثاق داخل الاتحاد الاشتراكى يجمع العناصر القيادية التى ظهرت اثناء العمل بين الجماهير، وان يكون جهازا علنيا لان الاشتراكية لا تبنى سرا والحرية لا تتحقق من وراء ستار.

وحدد البرنامج واجبات لبناء التنظيم الشبابى والنسائى والنقابات العمالية والمهنية ولجان المواطنين من أجل المعركة لترتبط بشكل أعمق وفعال بقضايا التحرر والبناء.

وفى الجلسة المغلقة للمؤتمر تحدث **محمود رياض** والفريق الاول **محمد صادق** عن السياسة الخارجية وما حققته القوات المسلحة، وقد أوضح وزير الخارجية أن اسرائيل تتصور انها تستطيع البقاء فى سينا بشكل مؤقت لتوقيع اتفاقية هدنة وهذا ما نرفضه. وقال ان الولايات المتحدة الامريكية طرف فى العدوان ولا نخاف مناقشتها ما دمنا متمسكين بمبادئنا ومواقعنا، لان الحل السياسى هو الذى نراه نحن وليس ما تراه أمريكا أو غيرها. وأكد وزير الحربية على اصرار القوات المسلحة واستعدادها لخوض المعركة الضارية وانها تواقة لاداء مهمتها لتحرير الارض. وكما استمع المؤتمر الى خطاب من الصديق الاتحاد السوفيتى القاه الرفيق **بوريس بوناموريف** سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى ورئيس الوفد السوفيتى فى احتفالات الذكرى التاسعة عشرة لثورة ٢٣ يوليو. وقد حيا فى كلمته ثورة ٢٣ يوليو وأشاد بقيادة القائد الخالد **جمال عبد الناصر** لثورة ٢٣ يوليو التى مهدت لشعب مصر طريق التحرر الوطنى والاجتماعى، وأوضح فى خطابه أن ثورة ٢٣ يوليو لم تقف عند حد مرحلة التحرر الوطنى، ولكنها بفضل الشعب المصرى وابنه البار جمال عبد الناصر انتقلت الى الثورة الاجتماعية واستطاعت أن تحقق التنمية الاقتصادية بمعدلات سريعة رغم الانفاق الهائل على متطلبات الحرب. وقال: ان المعتدين الاسرائيليين يجب أن يطردوا وسيطردون من جميع الاراضى العربية المحتلة، وأن الاتحاد السوفيتى يتفهم تماما موقف مصر فيما يتعلق بتسوية الازمة بما فى ذلك الانسحاب الاسرائيلى الكامل وضمان الحقوق المشروعة لشعب فلسطين.

بناء الاتحاد الاشتراكى من القاعدة الى القمة

انتهت عملية انتخابات الاتحاد الاشتراكى ابتداء من الوحدات الاساسية حتى اللجنة المركزية. وقد تميزت الانتخابات الاخيرة عن الانتخابات السابقة فى عام ١٩٦٨ بعدة ظواهر جديدة، مثل دخول أقسام واسعة من الشباب من الجنسين الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و ٢١ سنة، وافساح المجال أمام المرأة للاشتراك فى العمل السياسى. وذلك بهدف اتاحة الفرصة أمام الاجيال الصاعدة من الشباب للاشتراك فى الحياة السياسية للبلاد، ومنحهم العضوية العاملة للاتحاد الاشتراكى. وأيضا بالنسبة لاعضاء منظمة الشباب وطلاب الجامعات والمعاهد العليا الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و ٢٥ سنة، واضافة عضوين من الشباب وعضوين من النساء للاعضاء العشرة للوحدة السكنية، والسماح للاعضاء المتخلفين عن سداد اشتراكاتهم عن عضويتهم فى الاتحاد الاشتراكى بدخول الانتخابات.

وكانت اللجنة المؤقتة قد قررت عدم تغيير الصفة من فئات الى عامل أو فلاح • وعدم منح المنتسب العضوية العاملة فى هذه المرحلة الانتخابية الا بقرار من اللجنة التنفيذية ، ومنع المشاركة فى الانتخابات لكل من اشترك بأى شكل من الاشكال مع « المتآمرين » ، كما منعت لجنة المائة الدعاية السياسية « خشية تحولها الى مهاترات » •

وبلغ عدد المرشحين ١٦٠ ألف مرشح فى ٥٧٢٠ وحدة أساسية ، وأجريت الانتخابات فى ٥٣٩٨ وحدة وأعلن نجاح المرشحين بالتزكية فى باقى الوحدات ، وبلغ عدد الذين أدلوا بأصواتهم فى الانتخابات ٣٫٠٥٤ر٣٫٤٤٩ من بين ٤٫٦٦٠ر٩٢٤ هم عدد الاعضاء العاملين بالاتحاد الاشتراكى •

والجدير بالذكر أن عدد المرشحين لانتخابات الاتحاد الاشتراكى فى انتخابات عام ١٩٦٨ كان حوالى ١٨٠ ألف مرشح فى ٧٥٨٠ وحدة أساسية ، وقد تم تصفية ١٨٦٠ وحدة أساسية وهى الوحدات التى يقل عدد اعضائها عن ٢٠٠ بعد الغاء الوحدات الجماهيرية التى يقل عدد أعضائها عن ٢٠٠ عضو ، ونقل العضوية الى الوحدات التى يرغبون الانضمام اليها • وينطبق هذا على جميع وحدات الاتحاد الاشتراكى بالمدارس وتقدر بنحو ٦٠٠ وحدة قد الغيت لنقص عدد أعضائها عن ٢٠٠ عضو •

وقد نجح فى لجان الوحدات الاساسية ٥٨ر٦٤٨ عضوا ، منهم ٣٨ر٢٣١ ينطبق عليهم تعريف العمال والفلاحين و ٢٨٢٩ من الشباب ، و ١٢١٠ من النساء ، والباقى من الفئات •

وبلغ عدد المنتخبين فى المؤتمر القومى العام ١٠٥٤١ من أعضاء مؤتمرات المحافظات من بينهم : ٦٧٥ فئات ، و ٤٩٦ عاملا ، و ٢٢٨ فلاحا ، و ٥ شبان ، و ١٦ سيدة ، و ١٩ من أعضاء هيئات التدريس بالجامعات ، و ٢٠ من المعيدين ، و ١٩ طالبا ، و ١٩ من العاملين بالجامعات والمعاهد العليا •

والمعروف أنه لم تتم انتخابات ممثلى محافظات السويس وسيناء وبور سعيد والاسماعيلية الذين أصدر رئيس الجمهورية بوصفه رئيسا للاتحاد الاشتراكى قرارا بتعيينهم بسبب تعذر اجراء الانتخابات نتيجة لظروف العدوان •

كما أصدر رئيس الجمهورية قرارا بضم ١٦٠ عضوا جديدا الى المؤتمر القومى العام ، هم نائب رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ورئيس مجلس الشعب ونواب رئيس الوزراء ونوابهم ، وأعضاء لجنة الامانة العامة المؤقتة والامناء المؤقتون للمحافظات وأعضاء لجنة الاشراف على الانتخابات والمحافظون • على أن ينضم هؤلاء الاعضاء الى مؤتمرات المحافظات التى ينتمون اليها •

وقد قام اعضاء المؤتمر بانتخاب نصف عدد الاعضاء المنتخبين من مؤتمرات المحافظات لعضوية اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى وذلك حسب النسب المقررة لتمثيل كل محافظة •• وهكذا تم تشكيل اللجنة المركزية من ٢٣٠ عضوا منهم ٢٠٠ من بين المنتخبين (١٥٥ عضوا اصليا و ٤٥ احتياطيا) و ٣٠ عضوا معينا (٢٥ اصليا و ٥ احتياطيين) •

وقد أعطى المؤتمر القومى تفويضا كاملا للرئيس السادات لاتخاذ القرارات اللازمة التى تمكن من مواجهة الازمة بكل احتمالاتها •

واعلن فى الجلسة الاخيرة المقفلة عن انتخابات جديدة لمجلس الشعب ، على اساس انه الجهاز الوحيد الذى لم تتم اعادة تشكيله بالانتخاب الحر المباشر ، كما حدث بالنسبة للمؤسسات السياسية فى الدولة •

وقد قدم الرئيس السادات برنامج للعمل الداخلى والعسكرى والسياسى للمؤتمر ، قام المؤتمر بدراسة فى لجان متخصصة واصدر قراراته فى ضوء هذا البرنامج •

•

مشروع الدستور الدائم

خلال الشهر الماضى اتصل العمل فى اعداد مسودة الدستور الدائم • كان الشهر الاسبق (يونية) يتسم العمل فيه بطابع استطلاع رأى الجمهور فى المدن والقرى فيما يقترحه الافراد من أحكام وضمانات فى الدستور ، حتى بلغ عدد الاقتراحات التى قدمها الافراد فى هذا الشأن ٤٥ الف اقتراح فى أحد الاقوال ، ٩٢ ألفا فى قول آخر ، وتراوحت الاقتراحات بين المطالب السياسية والاقتصادية المتعلقة بنظام الحكم وضمانات الافراد فيه والنظام الاجتماعى والاقتصادى للمجتمع ، وبين المطالب النثرية التى تعكس آمالا ومطامح عامة أو فردية ، علمية أو وجدانية •

اما فى الشهر الماضى (يولية) فقد كان غالب النشاط فى اعداد الدستور داخل اللجان المتفرعة من اللجنة التحضيرية ، لتحديد اطار نظام الدولة

والمجتمع وضمانات الافراد ، وتحديد العلاقات بين السلطات المختلفة ومؤسسات الحكم • وظهر من المتابعة الظاهرية لاعمال اللجان من خلال ما تنشره الصحف اليومية ، أن المناقشات اتخذت طابع الجدل الحى بين الاتجاهات الفكرية السياسية المختلفة • واستعرض فى اللجان كثير من الدراسات التى تتعرض لمشاكل الحكم وكيفية معالجتها فى ضوء الهدف الاساسى وهو كفالة الحريات للمجتمع وللمواطنين فى ضوء خبرة السنين الماضية. ثم وجهت اللجان نشاطها الى صياغة ما استقر عليه الرأى فيها من أحكام توضع بمشروع الدستور •

ومما ساقته الاخبار ان اللجنة الفرعية للحريات العامة قد قررت وجوب النص فى الدستور على المساواة بين المواطنين مع تهيئة امكانيات تكافؤ الفرص بينهم،وكفالةالحريات الشخصية ومجازاة أى موظف على اعتدائه على الحريات واستقلال القضاء وعدم جواز حله • وغير ذلك مما أستقر لـزوم وروده فى جميع الدسـاتير الحديثـة • واقترحت اللجنة النص على انه يحظر القبض على أى شخص أو تفتيشه أو حبسه أو اعتقاله أو تقييد حريته بأى طريق ، الا بموجب أمر قضائى مسبب يبلغ للمقبوض عليه أو المعتقل خلال يومين على الاكثر من القبض عليه ، مع تحديد حداقصى لمدد الحبس الاحتياطى الذى ينبغى ألا يتم الا بأمر المحكمة أو النيابة ، ومع جواز الطعن أمام رئيس محكمة الجنايات فى قرارات الاعتقال ليتم الفصل فى شرعيةهذا الاجراء • كما قررت لجنةالحريات وجوب النص على حظر تكوين الجمعيات السرية أو الجماعات ذات الطابع العسكرى أو المعادية للنظام الديمقراطى الاشتراكى • ورأت انه لا يجوز اسقاط الجنسية المصرية عن مصرى الا اذا كان بالخارج وثبت بحكم قضائى انه تسبب عمدا فى الاضرار بالمصـالح القوميـة للبـلاد ، ثم عدلت الصيغة الى جواز اسقاط الجنسية أو الحرمان من مزاياها طبقا لاحكام القانون فى حالة ما اذا ارتكب مصرى فعلا يتنافى مع الولاء للوطن • كما رأت اللجنة أن التأميم لا يكون الا بقانون وتراعى فيه اعتبارات الصالح العام وأن يكون نظير تعويض عادل •

وبالنسـبة لمؤسسـات الحكم ، فيظهر أن لجنة نظام الحكم قد فضلت الا تضع اقتراحاتها جميعا فى صورة اختيار حاسم بين البدائل المختلفة، أنما تضع صيغا متعددة ليتم الاختيار منها باللجنة التحضيرية •

ويجعل المشروع ــ فى صورته الحالية ــ من اختصاص رئيس الجمهورية السهر على احترام الدستور والقانون وحماية الوحدة الوطنية وتأكيد سيادة الدولة ورعاية الحدود بين السلطات• وأن يتولى السلطة التنفيذية ، ويعين رئيس الوزراء والوزراء ويضع معهم سياسة الدولة ويشرف معهم على تنفيذها • ويكون له حق اصدار قرارات لها قوة القانون حتى تعرض على مجلس الشعب ويكون هو القائد الاعلى للقوات المسلحة .

وبالنسبة للسلطة التشريعية فقد رأت اللجنة الابقاء على النظام الحالى من حيث انتخـاب عضوين عن كل دائرة انتخابية يكون أحدهما من العمال أو الفلاحين ، ولكن على أن يترك النص على نسبة العمال والفلاحين فى المجالس النيابية للقانون دون أن يرد بالدسـتور حتى يمكن عنـد الضرورة تعديل هذه النسبة اذا وجد ما يدعو لذلك • ورأت اللجنة الابقاء على الوضع الحالى بالنسبة لضمانات عضو مجلس الشعب وتنظيم المجلس وفقدان العضوية • وأن يكون المشاركة فى رسم السياسة العامة للدولة ووضع الخطـط ومراجعتها والتوسع فى أعمال الرقابة • ورئى أن يقوم ازاء مجلس الشعب تنظيم شعبى آخر يتمثل فى الاخذ بمبدأ الاستفتاء الشعبى والاقتـراح الشعبى وحل مجلس الشعب بواسطة الاستفتاء على ذلك •

وقد ثار جدل حى داخل لجنة نظام الحكم حول موضوع وجود المعارضة داخل مجلس الشعب ، وأيد البعض وجوب الاعتراف بوجود المعارضة داخل المجلس ، وأن بعض النواب فى مجلس الامة سنة ١٩٥٧ طالبوا باعتبارهم مجموعة معارضة وأن يعترف رسميا لهم بهذه الصفة ، وأن مجلس الامة الاخير قد انعدمت فيه المعارضة • وذهب اتجاه آخر الى انه مادام أعضاء مجلس الشعب ينتمون الى تنظيم واحد ، فيجب أن تكون المعارضة فى أطار تحالف قوى الشعب العـامل • كما ثار جدل حول مبدأ التعيين فى مجلس الشعب ، فأيد البعض مبدأ التعيين لاعتبارات تتعلق باختيار الكفـاءات ، ورفض البعض مبـدأ التعييـن فى المجلس الشعبى لان المجلس لا تتوافر له صفة النيابة الا بالانتخاب الحر المباشر السرى •

وقد اقترح د • ابراهيم درويش أن يكون رائد الدستور ، ايجاد سلطة تشريعية قوية تستطيع أن تمارس دورها التقليدي ازاء السلطة التنفيذية ،

وايجاد سلطة تنفيذية قادرة فعالة ، وذلك بالاخذ بنظام المجالس المتخصصة،وضمان عملها فى اطار سيادة القانون ، وايجاد وسيلة للتعاون بين هاتين السلطتين تكفل الموازنة بينهما ، وأن تكون مدة الرياسة ستسنوات غير قابلةللتجديد ،وأن يكون الاتحاد الاشتراكى مؤسسة سياسية لا علاقة لها بالسلطة ولا تتدخل فى سلطة الدولة . كما اقترح د. سليمان الطماوى تقوية مجلس الشعب بأن ينص على عدم حله لاى سبب ولا حتى بالاستفتاء الشعبى . وابدى الكثيرون تخوفهممن انطلاق يدالسلطةالتنفيذيةبغير ضوابط ، وجهدوا فى اقتراح الضوابط الدستورية التى تكفل تبديد هذا الخوف .

•

اتجــاهات جــديدة فى المجلس الوطنى الفلسطينى

سبعة ايام إستغرقتها الدورة التاسعة للمجلس الوطنى الفلسطينى ، فيما بين ٧-١٣ يوليو (تموز) ، والتى عقدت جلساتها فى مبنى الامانة العامة للجامعة العربية بالقاهرة ،وقد ضم المجلس الوطنى الحالى ١٥٦ عضوا خُص [فتح] منها ٣٣ مقعدا ، ولكل من [الجبهة الشعبية) و (الصاعقة) ١٢ مقعدا ، وللديموقراطية ٨ ، ووزعت بقية المقاعد على المستقلين والمنظمات الصغيرة والتنظيمات الشعبية وجيش التحرير .

وقد تميزت هذه الدورة عن سابقاتها ببروز اتجاهات جديدة عقلانية ، واقعية ، تقدمية وجريئة .

فايق وراد : ممثل **الانصار** ، والذى اعتبرته اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير ضمن الاعضاء المستقلين بدعوى ان للانصار تحفظات على بعض بنود الميثاق القومى الفلسطينى . يقولفايق ورادانه لابد من عدم رفض قرار مجلس الامن الخاص بتصفية يونيو (حزيران) ١٩٦٧ ، كما طالب بتكوين لجنة لاستطلاع رأى التجمعات الفلسطينية المختلفة بخصوص تصورها ومطالبها ، على أن تعود هذه اللجنة لتعرض نتائج استطلاعاتها على الدورة القادمة للمجلس الوطنى . وقد اعترض الدكتور فايز صايغ (مستقل) على هذا الاقتراح ، وطالب بتحويله الى الجامعة العربية . ومن المعروف ان الدكتور فايز صايغ هو مدير مكاتب الجامعة العربية فى الولايات المتحدة ومندوب الكويت فى الامم المتحدة فى نفس الوقت .

وقال **سعيد حمامى** (فتح) ان رفض المقاومة لقرار مجلس الامن يضعها فى مواجهة الحركة

تعليق: الانتخابات النقابية والدرس المستفاد

فى الشهر الماضى تم اعادة تشكيل الاجهزة القيادية لكافة مستويات التنظيم النقابى — اللجان النقابية — النقابات العامة — الاتحاد العام للعمال — وقد عبر العاملون فى مختلف المستويات عن ارادتهم فتمكنوا من تغيير غالبية القيادات النقابية التى تمكنت من التحكم فى التنظيم النقابى سبع سنوات منذ منتصف عام ١٩٦٤ مخالفة بذلك القانون ٦٢ لسنة ١٩٦٤ وكل قواعد الديمقراطية النقابية التى توجب الرجوع الى قاعدة عضوية التنظيم النقابى كل فترة زمنية ، حيث يقدم الحساب للعضوية النقابية عما قدمت ايديها ولتستمد ارادة وجودها لفترة قادمة من ارادة العاملين انفسهم .

والملاحظ أن جماهير العاملين المنظمة فى النقابات العمالية قد حجبت ثقتها بحسم فى كثير من المواقع عن عدد كبير من القيادات النقابية السابقة ، وتدفق دم جديد فى شرايين التنظيم النقابى ؟ وتقدمت قيادات شابة الصفوف للعمل فى كافة المستويات النقابية آخذة القيادة من قيادة السنوات السبع الماضية ومن العناصر النقابية الانتهازية ، والتى لم تعبر عن ارادة القاعدة او تلتحم بها ، والتى احالت النقابات العمالية الى مجموعة من السجلات والدوسيهات ودفاتر « منه » « له » فجمدت الحركة الديمقراطية للتنظيمالنقابى ولجماهيره واحالت اياها الى حركة ادارية بيروقراطية ، معرضة عن ممارسة مسئولياتها القيادية بالاسهام الجدى فى رفع الكفاية الفكرية والانتاجية للعمال وعن العمل لصيانة حقوقالعاملين ومصالحهم ورفع مستواهم المادى والثقافى .

ولقد جاءت نتيجة العملية الانتخابية لاعادة تشكيل البناء النقابى معبرة عن انحياز جماهير العاملين فى اغلب المواقع لعناصر اشتراكية وديمقراطية ، فتاكد بذلك اصرار العمال المصريين على اختيار العناصر القادرة فعلا على التحرك باخلاص من اجل قضايا الثورة ولحل مشاكل الجماهير . ورغم وجود كثير من السلبيات خلال اعادة بناء التنظيم النقابى ، فان جماهير العاملين عبرت عنارادتها فى كثير من المواقع وأكدت خلال العملية الانتخابية انه ليس بالقرار الادارى تعزل العناصر الفاسدة والانتهازية والرجعية ولكن بتمكين الارادة الديمقراطية للعاملين أن تتخذ هذا القرار . والامثلة عديدة على ذلك — فحيثما تركت بعض هذه العناصر لارادة جماهير العاملين كان القرار حاسما بابعادها جماهيريا وهناك عشرات الامثلة على ذلك جدير

الاشتراكية العالمية وحركة التحرر العربية • وتأتى اهمية هذا الكلام من كون **ياسر عرفات** لا يعارض اتجاه **حمامى** •

اما **عبد الله حورانى** (مستقل) فقد أشار الى أن حركة المقاومة الفلسطينية ليست الا جزءا من حركة التحرر العربية ، وأن قيادة حركة التحرر العربية هذه هى ، موضوعيا بيد الانظمة التقدمية العربية •

اما **العقيد محمد الشاعر** (مستقل) فقد ندد بمحاولات تسريح بعض العناصر الثورية من جيش التحرير ، كما طالب بضرورة تشغيل وحدات جيش التحرير الفلسطينى فى العمليات الفدائية •

وبالرغم من التباين البسيط بين **وراد والشاعر وحمامى وحورانى** ، الا أنه يمكن القول انهم يكونون نواة اتجاه عقلانى داخل المجلس ، سيتسع ويقوى بمرور الايام •

وقد وزعت [الجبهة الشعبية] على اعضاء المجلس اربع نشرات •• الاولى بعنوان (البيان السياسى) والاخريات مشاريع برامج عمل عسكرى موحد ، ومالى ، وخطة اعلامية موحدة • وقد طالب احمد اليمانى ، مسئول فريق الجبهة الشعبية لدى المجلس ، بتشكيل قيادة عسكرية مركزية تمثل فيها كافة منظمات المقاومة •

وتقدمت **(الجبهة الشعبية الديمقراطية)** بكراسين حول **(المهام الراهنة لحركة المقاومة الفلسطينية)** ، و **(نحو وحدة وطنية فلسطينية واسعة • نحو جيش شعبى موحد)** ، وقد نجح **أديب عبد ربه** ، ممثل الديمقراطية فى المجلس ، فى تكثيف ما جاء فيهما ، حين طالب بانجاز الوحدة الوطنية ، وبناء جيش موحد فى اطار منظمة التحرير ، مع احتفاظ كل تنظيم باستقلاله الايديولوجى والسياسى والتنظيمى ، مع التزام الجميع ببرنامج سياسى مشترك •

اما **احمد جبريل** (الجبهة الشعبية ــ القيادة العامة) فقد شن هجوما قاسيا على بعض منظمات المقاومة ، فسره البعض بأنه دفاع من التنظيم الصغير فى مواجهة مطالبة الاخرين له بالانضمام الى فتح ، على غرار ما أقدمت عليه **(منظمة فلسطين العربيه)** و **(الهيئة العاملة لتحرير فلسطين)** و **(جبهة النضال الشعبى)** •

اما **كمال عدوان** (**فتح**) فقد بدا ساخطا ضجرا طوال فترة انعقاد المجلس ، وقد عبر عن سخطه حين أخذ فرصته فى الكلام ، فأشار الى أن المشكلة تكمن فى كون المجلس ينسى قراراته السابقة ، وتساءل عن معنى اصرار بعض المنظمات على ضرورة الخروج ببرنامج سياسى جديد تقوم على اساسه الوحدة الوطنية • وأكد عدوان أن تجربة المجلس الوطنى الحالية تكون قد سقطت ، ان هى لم تنجح فى انجاز الوحدة الوطنية •

وقد هددت (فتح) بالانسحاب من المجلس ، عندما بدا أن الوصول الى اتفاق بين المنظمات

بنا ان نجعلها موضعا لدراسة نستخلص منها درسا هاما فانه بالارادة الحرة للجماهير تبنى الديمقراطية الحقيقية وليس بالقرارات الادارية ، فقد شملت هذه القرارات عناصرصالحة وكفؤة وجديرة بثقة الجماهير وتحمل مسئولية العمل الوطنى فى المرحلة القادمة فاستبعدتها .

ولقد جاء التشكيل النهائى للاتحاد العـام للعمال معبرا عن الدم الجديد المتدفق فى شرايين التنظيم النقابى من القاعدة الى القمة ، فمن بين الـ ٢١ عضوا اعضاء المجلس التنفيذى للاتحاد عضوان اشتركا فى دورة الاتحاد الماضية وسبعة أعضاء ذوى خبرة فى العمل النقابى أو مارسوه فى المستويات الدنيا من قبل واثنا عشر عضوا يمارسون العمل النقـابى لاول مرة . ورغم تدفق هذا الدم الجديد فانه من ناحيـة التعبير الاجتماعى عن تكوين الطبقة العاملة فانه لم يعبر عن التطور الصناعى فى بلادنا ، فجاء تركيب المجلس التنفيذى على النحو التالى: عشرة أعضاء مؤهلين جامعيا ومن القيادات الادارية واعضاء فى نقابات مهنية من أبناء الطبقة الوسطى وعضو واحد حصل على المؤهل الجامعى خلال العمل وعضو واحد ذو مؤهل متوسط وتسعة أعضاء عمال صناعة وخدمات ان الظاهرة الايجابية الهامة هو أن تغييرا هاما حدث فى التنظيم النقابى ــ وانه لكى يصبح هذا التغيير واقعا ماديا ملموسا فى حياة العاملين وحركتهم وليس مجرد حركة انتخابية فان التنظيم النقابى فى وضعه الجديد مواجه بمهام وواجبات عديدة عليه أن يقبل على العمل لانجازها بكل وعى واصرار .

انه يمثل خطوة هامة واساسية فى تحويل التنظيم النقابى الى حركة جماهيرية منظمة ، ديمقراطية ، وواسعة ..وذلك ليكون بحق المدرسة التى تتعلم فيها الطبقة العاملة ممارسة الديمقراطية ، ولتعى ذاتها كطبقة طليعية فى بناء المجتمع . ان القيادات الجديدة يجب أن تعمل من أجل تعبئة جماهير العاملين لياخذوا موقعهم الطليعى فى معركة التحرير وفى معركة البناء . ان هذه القيادات الجديدة قد منحتها الجماهير ثقتها لانها تنتظر منها عملا كثيرا ودفاعا عن الحقوق ، ولتعى هذه القيادات الجديدة درس السنوات السبع العجاف الماضية فى حياة التنظيم النقابى . هذا الدرس هو أنه بدون الحركة الديمقراطية للجماهير وبدون مشاركتها الفعلية واليومية فى العمل يستحيل اطلاق طاقات الجماهير الخلاقة ويمتنع علينا تعبئة الجماهير للنضال من أجل اهداف التحرير والبناء .

عبد المنعم الغزالى

اصبح مستحيلا ، وقد عادت فتح وسحبت تهديدها بعد توصل المنظمات الى اتفاق فيما بينها •

وعندما عرض على الجبهة الشعبية الاشتراك فى اللجنة التنفيذية ، سافر صلاح صلاح الى بيروت لاستشارة جورج حبشى ، زعيم الجبهة ، وبعد عودة صلاح من بيروت طالب وفد الجبهة بمقعدين للشعبية ، فى حين عارضت (الصاعقة) هذا المطلب ، وتمكن ياسر عرفات ، اخيرا ، من الوصول الى تسوية ، بحيث حصلت الشعبية على مقعدين ، احدهما بشكل مباشر والثانى عن التنظيمات الشعبية ، وقد شغل الاول تيسير قبعة ، فى حين شغل المقعد الثانى صلاح صلاح •

وقد رفع المجلس توصيات لجانه الخمس (السياسية والاعلامية ، الوحدة الوطنية ، الوطن المحتل ، المالية ، العسكرية ، الى اللجنة التنفيذية ، قبل اقرارها • وربما كان هذا يعطى للجنة التنفيذية المزيد من حرية الحركة فى مواجهة التبدلات السريعة المنتظرة فى الموقف السياسى والعسكرى •

وفى مساء اليوم الاول لابتداء الدورة التاسعة للمجلس ، اهتزت مستعمرة بتاح تكفا ، بضواحى تل ابيب بانفجارات مروعة ، نتيجة قذفها بخمسة صواريخ كاتيوشا ، وقدرت رويتر الاصابات باكثر من ٣٠ وانتقل ديان وباراليف الى المنطقة ، وحلقت الطائرات والهليوكبتر فى المنطقة لملاحقة الفدائيين الذين نفذوا العملية ، وشنت السلطات الاسرائيلية حملة اعتقالات واسعة بين عرب الارض المحتلة •

وبعدها بثلاثة ايام دوت الانفجارات فى الحى اليهودى بالقدس ، وهى العملية الاولى بعد مرور سبعة أشهر من الهدوء فى القدس • وكانت آخر عملية قد تمت فى ديسمبر (كانون الاول) الماضى فى (راهافيا) الضاحية التى يقيم بها عدد كبير من المسئولين الاسرائيليين •

وفى فجر اليوم الاخير للمجلس الوطنى السابع ، بدأت السلطات الاردنية الرجعية فى تنفيذ مذبحتها البشعة ضد الفدائيين الفلسطينيين فى الاغوار وشمال الاردن • وتأتى هذه المذبحة فى اطار ما هو مطروح من تسويات بين السلطة الاردنية وبين اسرائيل ، وكثمن لهذه التسوية •

تعليق
حول التطورات الجارية فى الخليج العربى

تثير التطورات الجارية فى منطقة الخليج العربى اهتمام المراقبين والرأى العام العربى .فهناك فشل اتحاد الامارات العربية التسع واعلان تاسيس اتحاد سداسى جديدباستثناء امارات البحرين وقطر وراس الخيمة ، وكذلك التهديد الايرانى بالاستيلاء على الجزر العربية الثلاث [طنب الكبرى ، وطنب الصغرى ، وأبو موسى] عند مضيق هرمز فى مدخل الخليج ، وعدم اعتراف ايران بأى اتحاد قبل ان تحل مشكلة الجزر الثلاث التى تدعى ملكيتها ، ورفض اى محادثات مع العرب بشان هذه الجزر باعتبار ان المشكلة مع انجلترا التى كانت تحتل الخليج ، ومعارضة ايران لبقاء بريطانيا فى المنطقة بعد عام ١٩٧١ وانها تعتبر نفسها المسئولة وحدها من الدفاع عن الخليج ، ثم التزام بريطانيا بجلاء قواتها العسكرية عن المنطقة فى نهاية العام الحالى ، واستبدال معاهداتها القديمة مع امارات الخليج باخرى جديدة تنص على تقديم المعونات العسكرية لها والابقاء على بعض القوات البريطانية بها للقيام بمهام الاتصال والتدريب .. كل هذه المشاكل التى تبدو غامضة ومعقدة ومثيرة للانزعاج فى نفس الوقت .

والواقع أنه لايمكن النظر الى هذه التطورات بعيدا عن الترتيبات التى تقوم بها كل من بريطانيا والولايات المتحدة لشغل الفراغ بعد انسحاب بريطانيا فى نهاية العام الحالى وذلك وفق كل من المخطط البريطانى الذى يقضى بتجميع الامارات الصغيرة فى وحدةسياسية اكبر لتكون نظامادفاعيا بديلا عن الوجود العسكرى البريطانى بحجة توفير الاستقرار والامن فى المنطقة، والمخطط الامريكى الذى يقضى بأنتتولى القوى الرجعية فى المنطقة وايران أساسا مسئولية الدفاع عن الخليج تحت اشراف الولايات المتحدة .

ولقد أظهرت تجربة السنوات الثلاث الماضية تعثر اتحاد الامارات التسع فى الخليج بسبب التناقضات بين الامارات الغنية المنتجة للبترول وبين الامارات الفقيرة التى يعتمد حكامها على المساعدات البريطانية مقابل وجود القواعد العسكرية ، وكذلك الخلافات حول توزيع المناصب فى دولة الاتحاد ، ثم اتجاه كل من امارتى البحرين وقطر أخيرا الى تعزيز العلاقاتمعايرانوالسعوديةوالاستعداد لاعلاناستقلالهما، وعند ذلك لم يعد امام الامارات الاخرى [ابو ظبى ، ودبى ، والشارقة ، والفجيرة ، وعجمان ، وأم القيوين] سوى اعلان قيام اتحاد سداسى جديد ، ومن الواضح ان الاتحاد سيكون تحت زعامة [أبو ظبى] اغنىاماراتالخليجكما وان حكومة المحافظين فى بريطانيا مازالت تنظر باهتمام الى عرض [أبو ظبى] السابق بتقديم مبلغ ٢٥ مليون جنيه استرلينى قيمة تكاليف الوجود العسكرى البريطانى فى الخليج .

وربما كان فى ذلك مايلقى الضوء على موقف ايران بعد ذلك .. وان ما يشاع عن الخلاف بين ايران وبريطانيا ، هو محل شك بين جميع المراقبين ، وانه ليس سوى مناورة الهدف منها التأثيروالضغط على الاماراتالضعيفة والاستفادة من الظروف الصعبة التى تمر بها الدول العربية التقدمية وانشغالها بمشكلة الاحتلال الاسرائيلى ، وعدم رغبتها فى فتح جبهة نزاع اخرى . وكل ذلك من اجل « الوصول الى تسوية أو تفاهم حول الجزر الثلاث » على حد قول وزير خارجية ايران ، وحتى يتم ذلك قبل جلاء بريطانيا فى نهاية

وفى الثامن عشر من يوليو (تموز) الماضى ، اعلنت السلطة الاردنية انسحابها من اتفاقيتى عمان والقاهرة ، اللتين تنظمان العلاقة بين السلطة الاردنية والمقاومة ، معتبرة ان (الظروف التى عقدت فيها هاتان الاتفاقيتان قد انتهت) • وقد كان هذا الانسحاب تحصيل حاصل ، بعد ان ظلت السلطة الاردنية تدوس على هاتين الاتفاقيتين منذ توقيعهما •

■ ■

■ الاردن

استكمال مؤامرة سبتمبر

دخلت مؤامرة تصفية الثورة الفلسطينية على أيدى حكام عمان مرحلتها الفاصلة،عندما أقدمت السلطات الاردنية فى الثالث عشر من الشهر الماضى على شن هجوم واسع النطاق على قوات المقاومة الفلسطينية فى شمال الاردن ، واشتركت فيه أسلحة الجيش المختلفة من المدفعية والذبابات والطيران ، وذلك بهدف التصفية الكاملة للثورة الفلسطينية وجماهيرها •

والواقع أن المعارك التى يشنها الجيش الاردنى ضد رجال المقاومة لم تتوقف منذ مجازر سبتمبر الماضى ، وكانت تهدأ حينا وفقا لتكتيكات الحكومة الاردنية لتفادى سخط وغضب الرأى العام العربى وتدخل الوساطات العربية الرسمية ، لتنشب من جديد كأعنف ما تكون •

وقد أخذت السلطات الاردنية تمهد للهجمة الشرسة الاخيرة ضد الثوار الفلسطينيين عقب زيارة وليام روجرز وزير خارجية الولايات المتحدة للاردن واسرائيل فى بداية شهر مايو الماضى ، وذلك بالعمل على ازالة المعسكرات الفلسطينية فى عمان وشمال الاردن ، ووقف تحويل مرتبات الموظفين فى الضفة الغربية ووقف الاعانات المخصصة لاهالى الضفه الغربية ، وشل حركة الفدائيين واعاقه نشاطهم ضد العدو الاسرائيلى ، وعرقلة وصول التموين والسلاح اليهم ، وتقييد حركتهم فى أماكن خالية من طرق المواصلات أو مصادر المياه ، كما أخذت قوات الجيش الاردنى تقصف مواقع

العام الحالى ، وهنـــاك بين المراقبين من يرى أن ايران تطلب ثمن تأييدها للعرب فى جلاء اسرائيل عن الاراضى العربية التى استولت عليها نتيجة حرب يونيو عام ١٩٦٧ •

وتعد هذه الجزر العربية ذات قيمة اقتصادية وعســكرية هامة ، اذ تقع فى مياه الجرف القارى الملىء بالبترول ، كما أن الذى يسيطر على هذه الجزر يستطيع أن يتحكم مى مدخل الخليج العربى •

ان تضارب تصريحات المسئولين البريطانيين حول ملكية العرب للجزر الثلاث تفسره رغبة بريطانيا فى ارضاءشريكتها الولايات المتحدة فى تدعيم نفوذ ايران الاقتصادىوالعسكرى فى الخليج ، ولقــد حصلت ايران أخيرا على امتيــازات اقتصادية فى البحرين من بينها انشاء فرع لبنك ملى ،وذلك مقابل تراجعها عن المطالبة بجزر البحرين •

ومن هنا نفهم ما جــاء فى تصريح ريتشــاردســون وكيل وزارة الخارجية الامريكية عقب اجتماعاته المتتالية فى شهر أبريل ١٩٧٠ بالسفراء الامريكيين فى المنطقــة ، واجتماع الحلف المركزى فى طهران ، والاجتماع مع شاه ايران فى طهران وقوله : « ان ايران تقوم بدور هام فى منطقــة الشرق الاوسط ، وان الولايات المتحدة مرتاحة لهذا الدور، وانه بحث مع الشاه المصالح الامريكية الايرانية المشتركة والوضع فى الخليج ، ودور ايران فى الدفاع عن المنطقة ، وان الولايات المتحدة ستقدم المساعدات الاقتصادية والمعدات الحربية لدول المنطقة » •

وحتى الان لايمكن التكهن بما ستسفر عنه ألاعيب السياسة البريطانية فى الخليج عند نهاية العام الحالى •• وانتصور وجود تناقضات اساسية بين بريطانيا وايران والولايات المتحدة وامكانية اللعب عليها فى هذه الظروف كما يتصــور بعض العرب ، انما يعد ضربا من الوهم وخداع النفس ، اذ أنهم يتجاهلون طبيعــة العــلاقات بين هذه الدول ، وان التناقض الاساسى حتى من وجهة نظر هذه الدول هو بينها وبين حركة التحرر الوطنى العربية ، وانها تشترك جميعا فى الحلف المركزى ، وســواء تمت ادارة شــئون الخليج بالاسلوب البريطانى أو الامريكى أو بالاسلوبين معا وهذا هو الارجح فان ذلك لن يغير من واقع الامرشيئا • فالاتفاق تام بين بريطانيا والولايات المتحدة فى الحفاظ على الخليج كجزء أساسى هام فى استراتيجية شرقى السويس لضرب حركة التحرر الوطنى واستمرار نهب بترول الامارات العربية بالخليج •

ولقد كانت لتيجة التهديدات الايرانية أن بدات ترتفعأخيرا أصوات عربية تحذر من أخطار الهجرة الايرانية الــكثيفة الى امارات الخليج ، ومن وجود جاليات ايرانية كبيرة فى جميع الامارات العربية بالنسبةلعدد السكان العربالاصليين، ومن سيطرة الايرانيين على أجهزة الادارة والامن والحيــاة التجارية فى الامارات ، وأنه ليس من الغريب أن تــكون بريطانيا هى التى مهدت لهذا الغزو الايرانى خلال مدةحكمها للامارات العربية ، الامر الذى يثير قلق وخوف الرأى العام العربى من تكرار مأساة فلسطين فى الخليج ، الى جانب مأساة اقليم عربستان ولواء الاسكندرونة فى المــــاضى القريب ، فضلا عن الاحتــلال الاسرائيلى لاجزاء هامة من اراضى الدول العربية •

وديع أمين

الفدائيين لاجبارهم على الرحيل من مواقعهم التى يتحصنون فيها . وقد ظهر اثر هذه الهجمات على الفدائيين فكان انشغالهم بالدفاع عن أنفسهم واضحا فى انخفاض عملياتهم ضد العدو الاسرائيلى ، الامر الذى عبر عنه **الجنرال ثروكمورتون** مدير التخطيط العسكرى للشرق الاوسط بوزارة الدفاع الامريكية فى ٥/٢٧ بقوله: ان تضاؤل قوة المقاومة العسكرية والسياسية بعد هجوم الجيش الاردنى يعد دليلا على مدى نجاح المساعدات العسكرية الامريكية للاردن !!

هذا فى نفس الوقت الذى كان فيه اللواء **زيد بن شاكر** نائب رئيس أركان الجيش الاردنى يجرى محادثات مع المسئولين الامريكيين أثناء زيارته للولايات المتحدة فى النصف الثانى من شهر مايو لتسليح الجيش الاردنى بأسلحة أمريكية ، ومن الحقائق الملفتة للنظر أن التوقيع على اتفاق المعونة الامريكية للاردن وقدرها ٥٠ مليون دولار فى عمان تم فى نفس اليوم (٧/١٣) الذى بدأت فيه العمليات العسكرية الاردنية ضد رجال المقاومة الفلسطينية .

وتواصل قوات المدفعية والدبابات الاردنية محاصرة وقصف اماكن الفدائيين ، بينما تواصل الطائرات ضرب الفدائيين بالصواريخ وقنابل النابالم والقنابل الفسفورية ، وقد استهدفت خطة الجيش الاردنى وضع رجال المقاومة داخل كماشة ومحاصرتهم بين النيران الكثيفة وبين الوقوع فى أسر القوات الاسرائيلية ، وتتولى القوات الاردنية مطاردة وتعقب مئات الفدائيين الذين نجوا من الموت ودفعهم فى اتجاه الاراضى المحتلة مما أدى الى وقوع عشرات الفدائيين فى أسر القوات الاسرائيلية ، التى كانت تتولى مساعدة المدفعية الاردنية وتسهيل مهمتها عن طريق تسليط كشافات قوية أثناء الليل للارشاد عن أماكن الفدائيين ، مما يشير الى وجود تنسيق وتعاون بين الطرفين .

وتفيد الانباء الواردة من مسرح المعارك الى ان الفدائيين يقاومون ببسالة حملة الابادة الوحشية للقوات الاردنية التى يقدر عددها بنحو ٣٣ الفا ، فى ظروف بالغة القسوة والارهاق نتيجة المعارك المستمرة طوال الليل والنهار ، وافتقار الكثير منهم الى الطعام والماء والذخيرة ، ويقدر عدد القتلى والجرحى الفلسطينيين بالمئات بالاضافة الى ٢٣٠٠ فدائى اعتقلوا فى معسكرات الجيش الاردنى منذ بدأ الحملة المسعورة .

وقد رفضت الحكومة الاردنية الاستجابة للمساعى المصرية والسعودية والسورية لوقف المذابح التى تقوم بها حقنا للدماء العربية فى هذه الظروف الحرجة التى تجتازها الامة العربية، هذا فى الوقت الذى يعلن فيه **وصفى التل** رئيس وزراء الاردن : « أن الجيش الاردنى لن يتوقف حتى ينتهى من تصفية المقاومة الفلسطينية نهائيا » .

وتثير مذابح الاردن ردود فعل عنيفة فى كافة الاوساط العربية وفى الصحافة العربية ، والتى تطالب جميعا بضرورة التصدى لهذه المؤامرة الرجعية بحزم لمنع النظام الاردنى من تنفيذ المخطط الاستعمارى الصهيونى ، كما تدعو الحكام العرب الى التدخل السريع وبكل الوسائل لوقف حرب الاستنزاف التى يقوم بها الاردن لصالح الامبريالية الامريكية والصهيونية .

■ ■

■ المغرب

أسباب محلية للسخط

قبل محاولة الانقلاب فى المغرب بأيام ، أدلى **الملك الحسن الثانى** بحديث الى **صحيفة « الفيجارو » الفرنسية** : يتفجر ثقة وايمانا باستقرار نظامه وحكمه ، أنكر فيه تماما وجود أى تذمر بين صفوف الجيش ، وتحدى السائلين أن يجيئوه باسم ضابط واحد غير راض أو ساخط .

وبالطبع تناسى الملك تماما أنه فى ١٤ يونيو الماضى بدأت محاكمة ٢٠٠ مواطن بتهمة المساس بأمن الدولة ، وأن فى السجون حوالى ٢٠٠ معتقل آخرين ، وأن الاضرابات والمظاهرات ومن ثم الاعتقالات والمحاكمات والسجن والاختطافات نظام



يومى فى المغرب • ولكن الملك الحسن نفسه أصبح يتحدث كثيرا بعد الاحداث الدامية عن استعداده للنقد الذاتى ، وان كان لا يفوته أن يعلن فى الوقت نفسه أن أسس وجوهر النظام باقية لن تمس ، وأنه اما « الاشتراكية المستبدة واما الملكية » •

والواقع أن الاختيار الذى يعرضه الملك ، مطروح فعلا فى المغرب ، بحيث ان اطلاق يد أوفقير كما تقول « لومانتيه » الفرنسية ليس هو الحل على الاطلاق لمشكلة النظام فى المغرب • بل انه يطرح كما قال بعض الصحفيين الغربيين سؤالا منطقيا عن طبيعة العلاقة بين الملك وأوفقير فيما بعد ومن ستكون له الكلمة العليا •

ومع أن الصحف والمسئولين المغاربة اعتادوا فى كل انتفاضة أن يلمحوا الى « الايعاز الاجنبى من الشرق » فى محاولة لاخفاء الاسباب الحقيقيه للسخط ، ولتبرير اية مواقف عدائية من الدول العربية ، الا أن العنف الذى تفجرت به أزمة النظام فى المحاولة الاخيرة ، لن يجدى معهاخفاء حقيقتين أساسيتين تحكمان حركة الاحداث فى المغرب وتحددان مسيرتهما وهما :

● انللسخط اسبابا محلية تماما • فنصف عدد السكان لا يملك الحد الادنى الضرورى لاستمرار الحياة ، والغالبية لا تجد مجالا للعمل • فالواقع أن الازمة الاقتصادية بدأت تتفاقم فى المغرب بعد ١٩٦٠ ، بعد أن اتضح تماما تصميم الحكومة على ابتلاع كل الوعود التى بذلت ابان النضال من أجل الاستقلال وفى أعقابه ، باجراء اصلاح زراعى جذرى واصلاح جهاز الدولة •

فقد تمت الاطاحة بحكومة عبد الله بن ابراهيم فى ١٩٦٠ التى كانت تحاول فعلا القيام بعملية تحويل ديمقراطى ، سياسى واجتماعى ، واصلاح زراعى وتصنيع حقيقى ، وتحرر خارجى • وبالفعل أجرت هذه الحكومة انتخابات المجالس البلدية كأجهزة شعبية ، ونظمت بعض التعاونيات ، ووضعت خطة خمسية من ١٩٥٩ الى ١٩٦٤ • وفى عهدها لم تتم أية محاكمات ولم تغلق أية جريدة • وأنشأت الدولة مع القطاع الخاص بعض الصناعات التى ساهم فيها مكتب الدراسات الاقتصادية ، وقامت بانشاء بنك للتجارة الخارجيةوبنك وطنى للتنمية ، وقامت أيضا بتأميم بنك المغرب ، وفصل العملة المغربية عن الفرنسية • واهتمت بالتعليم فزاد عدد الاطفال فى الابتدائى بنسبة ٥٠ فى المائة ، وانشأت مجلسا أعلى للتعليم وكلية للطب والهندسة ، وقررت نظام الضمان الاجتماعى ، ووضعت سلما متحركا للاجور ، ووقعت اتفاقيات الجلاء ، وعقدت مؤتمر الدار البيضاء •

وبعد الاطاحة بهذه الحكومة بدأ البنك الدولى للانشاء والتعمير يملى القوانين ويضع برامج التنمية التى تعتمد على تنمية السياحة فحسب بالضرائب التى تقطع من قوت الصغار • وتم التراجع عن فكرة الاصلاح الزراعى ، بل وساعدت الحكومة الملاك العقاريين على زيادة ملكياتهم بالحلول محل الملاك الاجانب ، وآخر الاحداث فى هذا الصدد ، هو الصدام الذى تم بين ٥٠٠ من الفلاحين (المعدمين والبوليس) وقتل فيه خمسة من الفلاحين الذين كانوا قد جمعوا نقودا فيما بينهم دفعوها للشركة الاجنبية لشراء ارضها ، ولكن أوفقير ألغى العقد وأعطى الارض لكبار الملاك ومنهم أحمد النجاعى وزير الفلاحة السابق ورئيس اتحاد الفلاحة ورئيس جمعية منتجى الحمضيات ، مما دفع الفلاحين للتصدى لهم دفاعا عن أرضهم ، وجاء أوفقير بقواته ليقوم بمهمته المعهودة •

وفى المغرب حاليا يوجد ما يزيد عن ٢ مليون عاطل (من ١٤ مليون) سيصلون الى ٤ ملايين • ومستوى المعيشة انخفض باعتراف الرسميين بنسبة ٢٠ فى المائة • واقتصاد المغرب منقسم تماما الى قسمين ليس هناك ما يربطهما ، بل ان لاحدهما وهو القسم الحديث علاقات بالخارج أقوى بكثير من علاقاته بالقسم الاخر التقليدى • ويضم هذا الاخير صغار الفلاحين والتجار والحرفيين ، وصغار الموظفين ويشمل ١٤ مليون مغربى من مجموع السكان البالغ ١٥ مليونا ، ويساهم بنسبة الثلث فى الانتاج •

اما القطاع الحديث ويضم الزراعة الحديثة والصناعة التعدينية والتحويلية ، والنقل والاشغال العامة والتجارة الخارجية والادارة والخدمات والمهن الحرة والبنوك ، فيعمل به ١٠ فى المائة من السكان ، ويقدم ثلثى الانتاج القومى •

وفى حين يزداد انتاج القطاع الحديث ويتقدم ، يهبط ويتدهور انتاج القطاع التقليدى ، مما يؤدى الى انخفاض انتاج الفرد فى المغرب كله • ويفاقم من المشكلة تزايد عدد السكان ، ومعظمهم فى القطاع التقليدى بنسبة مرتفعة ٣,٢ فى المائة سنويا ، مما يؤدى الى انخفاض فى مستوى معيشة واستهلاك الغالبية العظمى من السكان ، بسبب انخفاض دخولها الناجم عن عدم التوزيع المتساوى للدخل ، اذ يحصل ١٠ مليون من الفلاحين وسكان الريف على ٢٠ فى المائة من الدخل ، فى حين يحصل بضعة آلاف من الملاك على ٥٠ فى المائة من الدخل •

وحتى العاملين فى القطاع الحديث ، يشتد التفاوت بينهم بصورة هائلة ، ففى القطاع الخاص

فى ١٩٦٦ مثلا ، حصل ٨٣ فى المائة من العاملين فيه من الاجراء على حوالى ٥٠ فى المائة من الأجور المدفوعة فيه ، وحصل ٥ فى المائة من العاملين فيه على ٢٥ فى المائة من الاجور . ويفاقم من هذه المشاكل ارتفاع أسعار السلع الضرورية كالسكر مثلا ، واتباع سياسة تجميد الاجور ، وانخفاض مستوى المعيشة،ففى ١٩٦٦ كان ٤٢ فى المائة من السكان يحصل على ١٦٠٠ سعرا حراريا فى حين أن الحد الادنى اللازم ٢٢١٠ سعرا .

وقد أدت كل هذه الاوضاع الى تلك الحلقة « الجهنمية للفقر »

فبسبب ضعف الدخول ينخفض معدل الادخار ومن ثم الاستثمار وبالتالى يقل الانتاج وتنخفض الدخول ، ولم تجد فى هذا شيئا المعونة الامريكية التى حولت المغرب كما يقول منشور « للشباب العربى فى المغرب » الى « **مخزن ذرى وخنجر فى ظهر العرب** » .

ومع أن تكوين المغرب السكانى الذى تغلب عليه نسبة الشباب (٧٢ فى المائة من السكان أقل من ٣٠ سنة) ، (٤٦ فى المائة أقل من ١٥ سنة، فى حين أن النسب المماثلة ٤٣ فى المائة فى مصر ، ٣١ فى المائة فى أمريكا) يقتضى اجراءات محددة لتوفير فرص التعليم والاعداد والعمل ، الا أن هذه الفرص محدودة تماما .

فالتعليم الابتدائى يضم ٣٠ فى المائة فحسب ممن هم فى سن الالزام ، والتعليم الثانوى يضم ١٤ فى المائة ممن هم فى سن الدراسة الثانوية ، والتعليم العالى يضم أقل من ١ فى المائة ممن هم فى سن التعليم العالى ، ناهيك عن قلة عدد الفرص أمام البنات .

وبالنسبة للعمل فان السكان الذين فى سن العمل يبلغون ٧ مليون نسمة ، فى حين أن الوظائف التى يتيحها الاقتصاد القومى ، بما فيه الزراعة المتخلفة والتى تحتاج الى أيد عاملة كثيرة نسبيا حوالى أربعة ملايين فرصة . أى أن ٦٠ فى المائة فقط ممن هم فى سن العمل ، أو ٣٠ فى المائة من مجموع السكان ، أمامهم فرصة للعمل . وبالنسبة للشباب بين ١٥ و ١٩ سنة يجد ٤٣٫٤ فى المائة فقط فرصة العمل ، وبين ٢٠ و ٢٤ سنة يجد ٤٣٫٤ فى المائة منهم فرصة العمل، وبين ٢٥ الى ٢٩ سنة يجد ٤٦٫٦ فى المائة منهم فرصة العمل ، أى أن أكثر من نصف الشباب بين سن ٢٠ و ٣٠ سنة لا يجد عملا .

ونوع الاعمال ، طبقا لدراسة على عينة هو : ٢٢ فى المائة عمال يدويون ، ١٦٫٥ فى المائة تجار صغار ، ٨ فى المائة حرفيون ، ٤ فى المائة فى الادارة ، ١٣٫٥ فى المائة حمالون وعمال حدائق ومقاه هذا فى المدن أما فى الريف فالبطالة تزيد عن ٥٠ فى المائة من مجموع سكانه .

● أما السبب الاخر لازمة الحكم فهو محاولة تجاهل القومية العربية فرغم كل محاولات طمس الطابع القومى والقضاء على البعد القومى للمغرب الذى بذل الاستعماريون الكثير فى سبيله ورغم محاولات العزل التى اتبعها الحكام الحاليون من بعدهم والذين ورثوا اساليبهم، فان الصفة القومية ظلت متأججة فى الاعماق تتحين الفرصة للانطلاق والانفجار . وما اتساع نطاق وشمول حركة المطالبة بتعريب التعليم والانفعال الجياش بأحداث الوطن العربى (خاصة أحداث ٥ يونيو ١٩٦٧) الا مظهرا لها . كذلك فان تعليقات صحف اسرائيل تعكس مدى رعبها من استعادة المغرب لوجهها العربى ، وفرحها ببقاء الاوضاع فيه على ما هى عليه . وفى حين أن حركات الشباب فى اوربا تهدف الى تدمير القيم والافكار الموروثة، فان حركة الشباب فى المغرب ترمى الى بعث التراث العربى وازالة التشويه الذى أصابه لخدمة طبقات بعينها ، واستخدامه سلاحا ضد التسلط الاجنبى والاستبداد الداخلى .

وفى بلد يمثل فيه الشباب ٧٢ فى المائة من السكان ، وترتبط مصالحهم المباشرة بمصالح آبائهم وأخوانهم من العمال العاطلين والفلاحين الذين يضطرد افقارهم ، كان لابد وأن يكون الشباب هو الذى يتصدى لمهمة التغيير . ومن ثم فان شباب المغرب لم ينته رفضه للوضع القائم مثلما انتهى اليه رفض شباب مجتمعات الاستهلاك ذلك الرفض السلبى المريض ، لان المشكلة فى المغرب هى نقص الاستهلاك أصلا . ان الشباب هناك متعطش للمشاركة فى البناء ويسعى بكل قواه للتحرر من القيود الاقتصادية والاجتماعية التى تكبله وحركته ترتبط تماما بالازمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الناجمة عن تركز الثروات فى أيدى قلة محدودة .

أن الاستمرار فى اصدار احكام الاعدام بلا محاكمات والسجن والنفى والفصل من العمل « لن تمنع تكرار الانفجارات التلقائية المدمرة [قدرت خسائر اضرابات وانفجارات ١٩٦٥ بمبلغ ١٠٠ مليون دولار) فحركة الشباب التى تمثل الجديد كما يقول **الفريد سونى** الكاتب الفرنسى « لن تسمح لنا باخمادها ، فاذا أصررنا على هذا ، وظللنا على مناهجنا وأفكارنا القديمة ، فان الشباب سيطيح بالنظام كله ، وفق قانون الحياة . أنظروا الى تلك النبتة الصغيرة التى تبزغ فى منزل مهجور ، تضغط عليها الحوائط الصماء ، قد يبدو لكم أنها مقضى عليها بالموت . ولكن عودوا اليها بعد بضع سنوات ، فسترون أنها تمكنت من الاطاحة بالاحجار الصماء ، وذلك لان المادة الحية تنتصر على المادة الميتة» وكل ذلك يؤكد أن الجولات ستتكرر وبمعدل أسرع .«

■ الصين الشعبية

نيكسون « يذهب الى حيث يجب ألا يذهب »



تجمع الاغلبية الساحقة للمراقبين السياسيين فى العالم ، على اعتبار اعلان نبأ زيارة الرئيس الامريكى ريتشارد نيكسون للصين الشعبية من أهم الاحداث السياسية العالمية فى ربع القرن الاخير • والحقيقة أن هذا الحدث لا يكتسب أهميته من ناحية النتائج المحددة المترتبة على الزيارة فى حد ذاتها ، وانما من ناحية مغزاها التاريخى العام •

وأهم المعانى التاريخية التى ينطوى عليها هذا الحدث هو أنه تعبير مكثف واضح عن فشل سياسة الولايات المتحدة الامريكية تجاه الصين ، تلك

مراحل تقرب أمريكا من الصين منذ بداية حكم نيكسون

— فى مارس ١٩٦٩ اعلن وليم روجرز امام لجنة الشئون الخارجية بمجلس الشيوخ ان حكومته ستبذل قصارى جهدها من أجل اقامة علاقة بناءة مع بكين •

— وفى ٢١ يوليو ١٩٦٩ بدء فى اتخاذ الاجراءات الاولية لتخفيف القيود على المبادلات التجارية ، وتقرر السماح لاى امريكى له مصلحة عمل معقولة بالسفر الى الصين ، كما سمح للسياح الامريكيين بان يحملوا معهم هدايا من الصين الشعبية فى حدود مائة دولار •

— وفى ١٩ ديسمبر ١٩٦٩ اتخذت اجراءات جديدة لتخفيف القيود على التبادل بين البلدين ، فقد سمح لفروع الشركات الامريكية فى الخارج بتصدير بعض السلع غير الاستراتيجية للصين ، كما الغى الحد الاقصى ١٠٠ دولار بالنسبة للهدايا المسموح للسياح الامريكيين بحملها معهم من بكين •

— وفى ٢٠ يناير ١٩٧٠ عقد سفيرا الصين والولايات المتحدة فى وارسو اول اجتماع بعد انقطاع استمر لمدة عامين.

— وفى ٢٠ فبراير سنة ١٩٧٠ عقد ثانى اجتماع للسفيرين الامريكى والصينى فى وارسو وقد الغى الصينيون الاجتماع الثالث وكان مقررا له ٢٠ مايو سنة ١٩٧٠ وذلك على اثر التدخل الامريكى فى كمبوديا •

— وفى ٧ ابريل ١٩٧٠ سمحت الولايات المتحدة باستخدام المواد الاولية المصنعة فى الولايات المتحدة فى انتاج المنتجات غير الاستراتيجية التى يتم تصديرها الى الصين •

— وفى ٢٦ اغسطس ١٩٧٠ سمح للشركات البترولية الامريكية بان تزود بالوقود ، السفن الاجنبية التى تنقل منتجات غير استراتيجية الى الصين •

— وفى ١٠ ديسمبر ١٩٧٠ أعلن الرئيس نيكسون خلال أحد مؤتمراته الصحفية ، أن جميع الجهود التى بذلها لم تجد بعد استجابة من بكين ، وأنه سيمضى فى هذه الجهود على الرغم من ذلك •

— وفى أواخر ديسمبر ١٩٧٠ بدأت الحكومة الامريكية تعيد النظر فى سياستها ازاء الصين بما فى ذلك مشكلة انضمام الصين لعضوية الامم المتحدة •

— وفى ٢٥ فبراير ١٩٧١ تحدث نيكسون لاول مرة فى رسالة حول « حالة العالم عن « جمهورية الصين الشعبية » وليس عن « الصين الشيوعية » •

— وفى ١٥ مارس ١٩٧١ رفع نيكسون كافة القيود الخاصة برحلات الامريكيين الى الصين •

— وفى ٦ ابريل ١٩٧١ وجهت الى فريق تنس طاولة امريكى كان يزور اليابان دعوة رسمية لزيارة الصين •

— وفى ١٠ أبريل ١٩٧١ وصل فريق تنس الطاولة الأمريكى الى الصين واستقبله شواين لاى رئيس الوزراء فى ١٤ أبريل •

— وفى ١٤ أبريل ١٩٧١ أعلنت الولايات المتحدة رفع الحظر جزئيا على التجارة مع الصين الشعبية • وهو الحظر الذى كان مفروضا منذ واحد وعشرين عاما •

— وفى ١٦ أبريل ١٩٧١ ، أعلن نيكسون فى مؤتمر صحفى « اننا على استعداد للذهاب الى أبعد من ذلك ، ولكن على الصينيين أن يقوموا بالخطوة التالية » •

— وفى ١٠ يونيو ١٩٧١ نشرت الحكومة الامريكية قائمة بسبعة واربعين من انواع المنتجات غير الاستراتيجية التى يسمح بتصديرها الى الصين بدون رخصة ، ووضعت الواردات الصينية فى نفس مرتبة واردات الدول الشيوعية الاخرى.

— وفى ١٥ يوليو ١٩٧١ « اعلن فى واشنطن وبكين نبأ زيارة نيكسون للصين قبل مايو ١٩٧٢ »

السياسة التى استهدفت منذ نجاح الثورة الصينية سنة ١٩٤٩ ، خنق الصين وعزلها وحصارها ومحاولة القضاء على ثورتها ؟ ولعل اهم المعالم الاخيرة لهذا الفشل ، هو سلسلة الانهيارات السريعة فى الجبهة المعادية للصين والتى تبدت بوضوح فى الاعتراف المتوالى بها من عديد من دول العالم ، الغربية منها ، والتى تدور فى فلك الغرب ، وفلك الولايات المتحدة الامريكية .

ويؤكد هذا الحدث - فى نظر عديد من المراقبين الثوريين - حقيقة هامة وهى أن المستعمرين ، والمستعمرين الامريكيين بوجه خاص لا يرضخون ويرتدعون الا بمنطق القوة . ومن الواضح أن نيكسون وغيره من زعماء العالم الغربى الاستعمارى ، لم يكونوا ليعبأوا بالصين الشعبية ، لو انها لم تكن تملك أسباب القوة المادية الاقتصادية والسياسية والعسكرية ، فمما لاشك فيه أن عاملا هاما من عوامل هذا المنحى الجديد للمستعمرين الامريكيين تجاه الصين ، يرجع الى حقيقة هامة وهى أن كل مدنهم الامريكية سوف لا تصبح بمنأى فى العام أو العامين القادمين - عن مدى الصواريخ النووية الصينية . بالاضافة الى ذلك وجد عديد من كبار رجال الصناعة الامريكيين ، أن سياسة تجاهل الصين من قبل الولايات المتحدة ، لم تؤد من الناحية الاقتصادية وفى الفترة الاخيرة بخاصة ، سوى الى خسائر للصناعة الامريكية ، لانها اكسبت منافسى الاقتصاد الامريكى (وبخاصة رجال الصناعة فى اليابان وأوربا الغربية) ميزات اقتصادية كبيرة عليهم ، نابعة من الافاق التى تفتحت أمام الاولين نتيجة التعامل مع السوق الصينية الضخمة ، وهى ميزة حرم منها تماما رجل الصناعة الامريكى بسبب السياسة الخارجية غير الواقعية للولايات المتحدة الامريكية ، وفى ظروف يعانى فيها الاقتصاد الامريكى أزمة متفاقمة .

وثمة عامل آخر من عوامل زيارة نيكسون للصين ، والتقرب الامريكى العام من الصين الشعبية ، هو احساس أمريكا بالهزيمة فى فيتنام والاتجاه لسحب القوات الامريكية منها . ويعتقد الساسة الامريكيون ان تقربهم من الصين ذات الثقل الكبير فى القارة الاسيوية يمكن أن يساعدهم على سحب قواتهم من فيتنام مع حفظ ماء وجههم . وليس ثمة شك فى أن فشل أمريكا فى الحرب الكورية من سنة ١٩٥٠ الى سنة ١٩٥٣ ، والحرب الفيتنامية كان عاملا هاما من عوامل التحول فى السياسة الامريكية نحو التقرب من الصين والعمل على اقامة علاقات طبيعية معها ، بعد أن ظل هدفها لمرحلة طويلة هو العدوان العسكرى المباشر على جمهورية الصين الشعبية عن طريق اجتياح الباب الشمالى للصين المتمثل فى جمهورية كوريا الديموقراطية ، الشعبية ، واجتياح بابها الجنوبى المتمثل فى جمهورية فيتنام الديموقراطية .

وليس ثمة شك فى أن الاعلان عن زيارة نيكسون للصين ، يرتبط أيما ارتباط بمعركة انتخابات الرئاسة فى الولايات المتحدة ، ذلك أن نيكسون يريد أن يكسب الى صفه القوى الداعية الى اتباع سياسة واقعية تجاه الصين الشعبية وهى قوى متزايدة النمو والاتساع فى الولايات المتحدة سواء فى الدوائر السياسية والكونجرس أو فى دوائر رجال الاعمال وبين الرأى العام الامريكى بعامة فى الوقت الذى أصبحت فيه جماعات الضغط الامريكية التى تدافع عن نظام كاى شيك ظلا لنفسها ، على انه ينبغى الا يتبادر الى الذهن ان التقرب الامريكى الى الصين قد جاء دفعة واحدة ، ذلك أنه سار فى خط مضطرد النمو منذ أن أعلن **وليم روجرز** فى مارس ١٩٦٩ ، أمام لجنة الشئون الخارجية بمجلس الشيوخ أن حكومته ستبذل قصارى جهدها من أجل اقامة علاقة بناءة مع بكين . وان مراحل هذا التقرب حتى الاعلان عن زيارة نيكسون لبكين انما تكشف لنا حقيقة أن الولايات المتحدة الامريكية هى التى سعت مضطرة الى الحقيقة الصينية وليس العكس بأية حال من الاحوال .

ويرى عديد من المراقبين أن دعوة نيكسون لزيارة الصين بعد أن علم شواين لاى برغبته فى زيارتها ، يعد فرحة طيبة بالنسبة للصين الشعبية من ناحية أن المرحلة الانتخابية القادمة فى الولايات المتحدة يمكن أن تتيح للصين امكانية الحصول بشكل أسرع على ما كان يمكن أن تحصل عليه من أى رئيس أمريكى جديد تكون أمامه فسحة من الوقت تبلغ أربع السنوات يقرر فيها على مهل السياسة التى سيتبعها ازاء الصين . على أن ما تشير اليه مصادر البيت الابيض فى حد ذاتها تلقى الضوء على حجم التغيرات الحقيقية التى يمكن أن تطرأ على العلاقات الامريكية الصينية فى الفترة القريبة القادمة اذ أعلنت هذه المصادر فى ١٦ يوليو الماضى « أن الولايات المتحدة لا تتوقع اقامة علاقات دبلوماسية مع الصين الشعبية قبل سفر الرئيس الامريكى نيكسون ، وليس من المؤكد الوصول الى مثل هذه النتيجة حتى بعد سفره ، ولكن وزارة الخارجية الامريكية ستعلن قريبا جدا

عن تعديل فى السياسة الامريكية بشأن قبول الصين الشعبية فى الامم المتحدة .

كذلك فليس من السهل بحال الوصول الى اتفاق بشأن المشاكل الاستراتيجية فى العلاقات الامريكية الصينية مثل الوجود الامريكى فى **فورموزا** ، وفكرة وجود دولتين صينيتين ، واعادة تسليح اليابان والوجود الامريكى فى كوريا الجنوبية، لان الصين ليست لها سوى استراتيجية واحدة فى كل هذه القضايا هى الاصرار على تصفية الوجود الامريكى الاستعمارى من القارة الاسيوية ، وهو اتجاه لا يعتقد أن الولايات المتحدة سوف تستسلم أمامه سريعا وانما ستستميت فى مواجهته محافظة على أوضاعها الاستعمارية فى المنطقة ، كذلك فقد أعلن نيكسون أن زيارته للصين لا تعنى بحال التخلى عن اصدقاء الولايات المتحدة فى الشرق الاقصى . والحقيقة ان الحجم الدعائى الذى يحيط بزيارة نيكسون للصين ، انما يرتبط بجهود الرئاسة الامريكية الحالية للدعاية من أجل انجاح نيكسون فى الانتخابات القادمة أكثر مما يرتبط بحجم النتائج المباشرة التى يمكن أن تسفر عن ذلك بالنسبة للقضايا الاستراتيجية موضع الصراع بين الصين والولايات المتحدة .

ذلك ان بكين اعلنت على لسان شواين لاى فى ٢٠ يوليو الماضى أنها تعارض أية سياسة حول وجود « دولتين صينيتين » أو أية صيغة مشابهة وقال انه « **اذا ما وافقت الامم المتحدة على موقف من هذا النوع ، فلن ندخلها ، وأن موقفنا لن يتغير** » مما يلقى الضوء على حجم التقدم الحقيقى الذى يمكن أن يحرز وصلابة وأصرار الصين فى الدفاع عن مواقفها المبدئية .

على أن عددا من المراقبين يرون من ناحية أخرى أن هذا التقارب الامريكى الصينى قد يدفع الى العمل على ايجاد قطب سياسى دولى رابع قد يكون **اليابان أو أوربا** كوسيلة لاعادة التوازن العالمى . كما قد يدفع الاوربيين شرقا وغربا الى محاولة تنقية الموقف فى أوربا عن طريق مؤتمر الامن الاوروبى بالتخفيض المتوازن للقوات بين الكتلتين هناك . ويجمع العدد الاكبر من المراقبين على أن **رومانيا وباكستان** هما الدولتان اللتان لعبتا الدور الاساسى فى تسهيل سبل الحوار الامريكى الصينى السابق على الاعلان عن هذه الزيارة ، وذلك منذ زيارة الرئيس الامريكى نيكسون لبوخارست فى أغسطس ١٩٦٩ . ومن ناحية أخرى فان حكومة باكستان التى تحتفظ مع كل من الولايات المتحدة والصين بعلاقات طيبة ترحب بالتقارب بين الصين والولايات المتحدة لانها كما تعتقد دوائر كراتشى — ترى أن هذا التقارب سيغير الى حد كبير الموقف فى جنوب القارة الهندية، ويعزز موقف الباكستان فى مواجهة الهند » .

وثمة نتيجة اخرى لهذا التقارب اشارت اليها الصحف الامريكية هى أنه قد يكون بمثابة الضوء الاخضر لعقد مؤتمر لنزع السلاح بين الدول النووية الخمس . أما بالنسبة لليابان فقد كان الاعلان عن نبأ زيارة نيكسون صدمة قوية لرجال الاعمال اليابانيين الذين يمارسون تأثيرا قويا على سياسة حكومة **ايزاكو ساتو** ، واتضح ذلك من تصريحات رئيس الاتحاد اليابانى للهيئات الاقتصادية ومدير بنك فوجى باليابان . وفيما يتعلق باسرائيل أوضحت الصحف الاسرائيلية أن النجاح الذى سيحرزه نيكسون من رحلته الى الصين « سيقلل الى حد ما، كما أوضحت « **يديعوت احرونوت** » الاسرائيلية » من ضرورة احراز انتصار دبلوماسى أمريكى عاجل فى الشرق الاوسط ، وقد ينجم عن ذلك تقليل حدة الضغط على اسرائيل » . لكن هذا ليس الا وجها واحدا للمسألة لانه اذا كانت الولايات المتحدة تضع حسبانا لوجهات نظر الاتحاد السوفيتى فى القضايا الدولية ، فان دخول الصين الى مسرح السياسة العالمية كقطب جديد تتعامل معه الولايات المتحدة ، يمكن أن يشكل عنصرا مناصرا لقضايا التحرر العربى بالنظر الى مواقف الصين التى تؤيد وتتضامن مع النضال العربى ، الامر الذى سيدفع الولايات المتحدة الى أن تضع فى اعتبار توازنات سياستها الدولية لا وجهة نظر الاتحاد السوفيتى فحسب وانما وجهة نظر الضيف الجديد على مسرح القوى الكبرى فى العالم .

أما فيما يتعلق بالاتحاد السوفيتى ، والافاق المتزايدة التى تتاح للصين بالنسبة لدخول الامم المتحدة ، فقد أوضح فى الخطاب الذى بعث به وزير خارجيته **أندريه جروميكو** الى **يوثانت** سكرتير عام الامم المتحدة ،بعد الاعلان عن زيارة نيكسون بخمسة أيام » ان رد الحقوق الشرعية لجمهورية الصين الشعبية فى الامم المتحدة ، سيساعد على جعل الامم المتحدة عالمية حقا ، أما فيما يتعلق بمستقبل العلاقات السوفيتية — الصينية ، فقد أوضح الرفيق **بريجنيف** حقيقة لها مغزاها فى خطابه فى المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتى وهى « ان اعادة توطيد علاقات حسن الجوار بين الاتحاد السوفيتى

والصين سوف يتحقق» .. «وأن ذلك ضرورى بسبب الجهود التى تقوم بها الامبريالية» .

أما فيتنام الشمالية التى تغد مع ثوار فيتنام الجنوبية، صاحبة المعضلة الرئيسية التى تؤرق الولايات المتحدة فى جنوب شرقى آسيا، فقد أوضحت وجهة نظرها فى زيارة نيكسون للصين، على صفحات جريدة حزب العمال الفيتنامى « نهان وان » التى علقت على الحدث بقولها : أن نيكسون فى حيرته لايجاد وسيلة ينسحب بها من الهند الصينية، سيذهب الى حيث يجب ألا يذهب (أى الى اكثر القوى تشددا ضد أمريكا فى آسيا، والقوى التى ستصفى بالقطع الوجود الامريكى فى آسيا) فقد كان باب الخروج مفتوحا فى مباحثات باريس، ولكنه وضع نفسه فى طريق مسدود . أن الامبرياليين اعتادوا أن يملوا رغباتهم على الاخرين بالقوة، ولكن العالم قد تغير، وأصبحت الدول الصغرى الان سيدة مصيرها . فقد مضى العهد الذى كان فيه الامبرياليون يستطيعون املاء أرادتهم، كذلك مضى العهد الذى كانت تستطيع فيه دولة قوية أن تسىء معاملة دولة أضعف منها . وبهذا الصدد صرح شواين لاى رئيس وزراء الصين الشعبية فى ٢٠ يوليو الماضى « بأن اعادة العلاقات الطبيعية بين الصين وأمريكا لن يؤثر على تضامن الصين مع النضال الذى تخوضه شعوب الهند الصينية »، وقال« أن أهمية الانسحاب الكامل للقوات الامريكية من فيتنام وكذلك قوات الدول الاخرى التى حذت حذو الولايات المتحدة فى تدخلها فى الهند الصينية، تفوق بكثير اعادة العلاقات بين الشعبين الصينى والامريكى » كما أكد شواين لاى مساندة الصين الكاملة للمشروع ذى النقاط السبع الذى قدمته وزيرة خارجية الحكومة الثورية المؤقتة فى أول يوليو الماضى فى مؤتمر باريس من أجل حل المشكلة الفيتنامية .

وعلى أية حال فقد كتبت صحيفة « لومانتيه » الفرنسية تعليقا له مغزاه الكامل بصدد هذه الزيارة المرتقبة وهو « أن المعتدين على الهند الصينية، ومحرضى الارهاب فى اندونيسيا، والذين أجتاحوا كوريا ولايزالون يحتفظون فى جنوب البلاد بعدد كبير من قوات الاحتلال، والذين اعادوا تسليح اليابان، والذين وضعوا مبدأ « جوام » الذى يقضى باستخدام الاسيويين ضد الاسيويين، لم يتحولوا فجأة الى حجاج سلام، انهم لايزالون يتطلعون الى نفس الاهداف حتى لو كانوا مضطرين الى اللجوء الى وسائل جديدة» .



الفنون التشكيلية بين تغيير القيم و تغيير اللجان

تهب فى هذه الايام، بمناسبة المعرض العام السنوى الثالث للفنون التشكيلية عواصف من جهات متعددة حول تكوين لجنة الفنون المسئولة عن تنظيم هذا المعرض، وكذلك حول اختصاصاتها المختلفة، واسلوب تصرفاتها فى باقى نواحى الحياة التشكيلية، والنتائج التى تؤدى اليها .

والمتتبع لتاريخ الحركة الفنية التشكيلية فى مصر، يجد ان هذه العواصف ليست حديثة العهد، بل انها بدأت منذ ذلك التاريخ الذى بدأت توضع فيه الميزانيات الخاصة باقتناء الاعمال الفنية التشكيلية، فظهرت الحلقة تلو الحلقة من الصراعات المختلفة بين الفنانين وبين مدعى الفن والمشرفين عليه ..

واذا أريد ان يعرف السر فى تلك الصراعات المختلفة، فيكفى ان يطلب السيد وزير الثقافة من ادارات وزارته المختصة احصاء شاملا — منذ ان انشئت وزارة الثقافة مثلا — يحصر فيه كيف كانت هذه الميزانيات تصرف فى بذخ لفئات معينة دون أخرى من ارباب الفن التشكيلى .

هذا بينما لم يوجد للان الفنان التشكيلى، الوجدانى الحر، الذى استطاع ان يهب كل جهده وحياته للفن وللفن وحده، فهو مضطر دائما الى وأد موهبته باللجوء الى عمل آخر يعتمد عليه، سواء فى ميدان التعليم او فى ميدان الصحافة أو فى ميادين الفنون التجارية .. وكل هذه الميادين لها وظائفها ودرجاتها المنتظمة، بل ولها نقاباتها المهنية التى تشرف عليها . وبهذا الوضع المؤلم، أصبح الفن نوعا من الهواية، يشغل الفنان بها وقت فراغه، دون أن يستطيع دوام التعمق فيه .

ولئن ظهر فى الاونة الاخيرة « مشروع التفرغ » وهو مشروع خطير جليل، لتغطية هذه المأساة، الا ان لوائح هذا المشروع المتعددة تعتبر فى حقيقتها هدما للفكرة الاساسية الكبرى لفلسفة التفرغ التى تريد أن تعترف بأن خالق الفن مواطن نافع من حيث هو فنان لايصح أن يشغل بغير فنه طوال حياته، ولا أن يعوق المجتمع الاشتراكى المتفتح موهبته من النمو والانطلاق . كما أن هذه اللوائح لم تستطع أن تصمد أمام بعض الطامعين الذين توهموا أن هناك مغنما فى هذا المشروع، ثم انتهى بهم الامر الى الرحيل عنه الى حيث المركز الاكثر مغنما .. وهكذا أصبح وأمسى « مشروع التفرغ » بالرغم من كل ماحققه من بطولات — وكأنه كالمنحة الدراسية المؤقتة .!

ولن تهدأ هذه العواصف الدورية باصدار القوانين وتنظيم اللوائح، بل بالعمل على رفع المستوى الثقافى العام، وارساء القيم وتدعيم التقاليد العريقة . ولكى يستطاع وضع القضية كلها — قضية الفن التشكيلى فى مصر — على الطريق السليم أرى ضرورة التمسك بمجموعة من الضمانات، فيها — كما اعتقد — بداية تحقيق آمال الفنان التشكيلى واهدافه :

أولا — لاينبغى أن يقتصر الامر على لجنة واحدة للنظر

اختبارات قاسـية لتجـــربة جــديدة

التجربة التى بداها **الرئيس الليندى** فى شيلى والتى تستهدف التمهيد ـــ على المدى الطويل ـــ للاشتراكية عن طريق اقامة حكومة جبهة شعبية تعتمد على المؤسسات الدستورية التقليـدية ، هذه التجربة ، تواجه اختبارات قاســية ، كما يلاحظ عدد من المعلقين والمراقبين .

وهذه الاختبـــــارات يمكن أن نتبين طبيعتها بالاشارة الى بعض التطورات والاحداث الهامة التى وقعت فى شيلى خاصة فى غضون شهرى يونيو ويوليو الماضيين .

ففى ٩ يونيو أغتيل **أدموندو بيريز** نائب رئيس جمهورية شيلى الســابق . واتهمت الحـكومة المخابرات المركزية الامريكية باغتياله ، وعقب هذا الحادث أعلنت الاحكام العرفية فى البلاد .

ثم كان يوم ١١ يوليو هــو اليوم الذى أطلق عليه الشعب فى شــيلى اسم « **يوم الكرامة الوطنية** » لانه فى اجتماع مشترك لمجلس الشيوخ



الليندى

والنواب وافق الكونجرس الوطنى بالاجماع على مشروع قانون بتعديل الدستور نص على أن جميع الموارد الطبيعية ملك للبلاد . وبعــد أيام قامت حكومة الليندى بتأميم بعض منـاجم النحـاس الرئيسية التابعة لشركات النحاس الامريكية . وفى الوقت نفسه اشارت الانباء الى اضرابات قام بها عمال المناجم فى بعض انحــاء البلاد .

فى جميع موضوعات الفنون التشكيلية ، بل يجب أن تتعدد اللجان ، وكل لجنة تختص بدراسة أحد الموضوعات واتخاذ القرارات الملزمة ، فمثلا لجنة للاقتناء ، وأخرى للمعارض الخارجية ، وثالثة للتشجيع ، ورابعة للتسويق ، وخامسة للنشرات الخاصة بالمعارض .. وهكذا .

ثانيا ـــ لايزيد عدد أعضاء اية لجنة عن سبعة اعضاء ، وذلك لعدم تشتيت الجهود والتركيز فى الدراسة واتخــاذ القرارات .

ثالثا ـــ يختار عضو اللجنة ممن عرفوا بالثقافة العــامة الواسعة ، فضلا على الثقافة الفنية المتخصصة ، وكذلك ممن أثبتوا قدرتهم على الحكم الموضوعى ، وعلى الحيدة فى تقييم مختلف أنماط الفن ومذاهبه المختلفة ، وذلكلضمان عدم السقوط فى مهاوى التعصب لنمط او اتجاه بعينه فيكون للجنة القدرة على استيعاب كافة الاتجاهات والفلسفات التى لاغنى عن تعددها لاثراء الحياة الفنية ، واثراء الوجــدان المصرى المعاصر .

رابعا ـــ تستمر عضويــة اللجنة سنتين متواليتين على الاكثر ، ولا تجوز بعدها العضوية من جديد الا بعد سنتين أخريين على الاقل ، وذلك لافساح الطريق لاجيال اخرى وآراء جديدة .

خامسا ـــ الواجب على عضو اللجنة أن يتنحى ولايستمر فى عضويته فى حالة ما اذا كان فنــانا ويريد الاشتراك بعمله فى أى نشاط فنى .

سادسا ـــ على أعضاء لجنــة الاقتناء التعرف المستمر على الفنانين ، وعليهم تقع مسئولية البحث المستمر عن « صفوة الاعمال الفنية » التى سيلتقون بها حتما بين الحين والحين ، سواء فى المعارض الخاصة أو الجماعية أو عن طريق زيارة مراسم الفنانين الخاصة.. وهذا البحثالمستمر هدفه اقتناء صفوة الاعمال الفنية قبل أن تتسرب الى الخارج عن طريق المعارض الخارجية أو شراء الاجانب المقيمين فى مصر أو الزائرين لها .

سابعا ـــ الفصل التام بين المعرض العــام السنوى ، بل وبين أى معرض آخر جماعى أو فردى وبين الاقتناء . واقصد هنا الاقتناء للمتاحف العامة ، محافظة على صفوة الاعمال الفنية باعتبارها ذخيرة الوطن الوجدانية .

ثامنا ـــ مادام العمل الفنى يرقى لمستوى الاقتناء للمتاحف ، الذى يجب أن يقوم على اساس الكيف لا الكم ، والقيمة لا العدد او الحجم ، فنظرا للظروف الحاضرة ينبغى أن يكون الاقتناء بأثمان تتراوح بين المائتى جنيه والخمسمائة للعمل الفنى الواحد . ولا أريد ، ولا احد غيرى يريد لوزارة الثقافة عندما تبدأ صحوتها فى القريب العاجل لتبــدأ فى تنظيم متاحفها ان تجد فى مخازنها الاعمال الفنية التشكيلية التى ترقى الى الدرجة الثالثة على اكثر تقدير .

تاسعا ـــ الفصل التام بين الاقتناء والتشجيع ، فتشجيع المواطنين وطلاب الفن وهواته على الانتاج الفنى وعرضه ، له خططه المعروفة وأساليبه الخاصة .. ولا يصح أبدا أن يخلط بين الاقتناء والتشجيع ، فضلا عن أن التشجيع ينبغى ان تكون له ميزانيته الخاصة .

فؤاد كامل

غير ان هذه الاضرابات لم تكن المشكلة الوحيدة التى ظهرت على السـطح . بل ربما كانت من أبسط المشكلات التى واجهها النظام الجديد الذى يتعرض هذه الايام لتحـديات رهيبة من جـانب أقصى اليسار المغامر وأقصى اليمين الذى يحتفظ بقوة ضخمة فى البرلمان .

هكذا ، بدأت بعض عناصر « اليســار » فى شيلى تعرب عن عدم رضـاها عن « سـياسة الهدوء والملاينة » التى تتبعها حكومة الليندى . وهذه الجماعات ترفع شعارات « ملتهبة وبراقة » مثل :

● اذ أن الجماهير تريد، ويجب أن نريد معها ، يجب الا نتخلف عن ارادة الجماهير .. والفلاحون يريدون الارض، فلتتحرك جموعهم لطرد الاقطاعيين والاستيلاء الفورى على أراضيهم » .

وهذه الشعارات ترفعها جماعة تكونت أخيرا تحت اسم « **منظمة الطليعة الشعبية** » . وهذه المنظمة تتهم الليندى بأنه مجرد « اصلاحى» غير قادر على حل مشـكلات شيلى حلا جذريا . وتقود هذه المنظمة عمليات استيلاء الفلاحين على الاراضى ..

ومنذ قامت حكومة الليندى استولت جموع الفلاحين على ٣٠٠ مزرعة بصورة غير مشروعة .. وفى الاسابيع الاخيرة اتسعت من جـديد عمليات الاسـتيلاء على المـزارع . وفى بعض الحالات اعتدى الفلاحون على الملاك القـدامى وسـجنوهم ..

وواجهت حكومة الليندى هذه الحركة « بضبط النفس » فأصدرت تعليمات مشـددة للبوليس والجيش بالا يتدخل ، خشية الاصطدام بالفلاحين وهنا تفقد حكومة الليندى جزءا كبيرا من شعبيتها كحكومة اشتراكية ..

لكن « ضبط النفس » لا يمكن ان يسـتمر الى الابد فقد أعلن الملاك انه اذا لم تكن الحكـومة قادرة على حمايتهم فانهم سوف يحمون أنفسـهم بأنفسهم .

وهكذا يتحول الامر ــ كما يلاحظ المراقبون ــ الى تهديد خطير للاسلوب « الدسـتورى » من ناحية اقصى اليسـار واقصى اليمين .

ان قادة الحركة الجديدة يعلنون انهم يساريون .. ويقول المراسلون الذين زاروهم فى قواعدهم أنهم يعلقون بسور جيفارا . وهناك حديث صحفى اجرى مع طالب فى جامعة فالديفيا يتزعم مجموعة من « منظمة الطليعة الشعبية » قامت بالاستيلاء على عـدد من المـزارع ويسـمى نفسـه القومندان بيبى .

وقال هذا « القومندان » اننى ماركسى لينينى . كنت أنتمى للحزب الشيوعى غير اننى انسحبت لوجود تناقضـات بين تكتيكات الحـزب وبين مبادئه .

غير ان أعوان القومندان لم يقفوا عند هـذا وانتقلوا الى القيام بأعمال اعوان الاغتيالات . وبعد اغتيال ثلاثة من رجال الامن وقف الليندى أمام جموع محتشدة ليطالب الشعب كله أن يعلن الحداد ثلاثة أيام كاملة [١٦ ــ ١٧ ــ ١٨ يونيو] على ضـحايا الارهاب . وكانت المشـاركة الكاسحة لجماهير الشعب فى حداد الايام الثلاثة تعبيرا جديدا عن مساندة الجماهير للحكم الجديد.

وأمام الجماهير تحدث الليندى بصراحة عن مشكلات شـيلى وقال ان ضغوطا اقتصـادية قاسية قد وجهت ضـد شيلى فى محاولة لاثنائها عن السير فى الطريق الذى اختارته لكن شيلى واجهت هذه الصعاب وانتصرت عليها . وهكذا لم يعد امام الامبرياليين الا البحث عن سـبيل جديد للتآمر .

وقال الليندى انهم يشنون الارهاب ويخرقون القوانين بهدف اجبار الحكومة على اتخاذ اجراءات تعسفية فى مواجهة الارهاب . لكن الليندى اكد تمسك حكومته بموقفها « الدستورى » .

وقال « برغم الاعمال المنافية للقـانون وبرغم الارهاب فان الديمقراطية هى الطريق . ولا يوجد الان أى معتقلين ، والحرية مكفـولة تماما لكل الصحف حتى لصحف الديمقراطيين المسـيحيين التى ترفع صحفهم شـعار « الوحدة القومية » ضد الحكومة الشيوعية » .

وقال ان هذا الشعار يفضح الجهل والغبـاء لقادة الحزب الديمقراطى المسـيحى فانه ليس هناك أى بلد يطبق « النظام الشيوعى » حتى الان .. والاتحاد السوفيتى حتى بعد اكثر من خمسين عاما من النظام الاشتراكى لا يزال يعيش مرحلة البناء الاشتراكى » .

وقال الليـندى « ان تمسـكنا بالديمقراطية

والدستورية لا يعنى أننا ضعاف فان الشعب الشيلى لديه من الشجاعة ما يكفى لسحق كل من يجرؤ على الوقوف فى وجهه » .

واخيرا فان الليندى قد هاجم « منظمة الطليعة الشعبية » وكشف عن علاقاتها المريبة بالمجموعة الفاشية وببعض الدوائر الرجعية المشبوهة .

واورد « الليندى » عددا من الشواهد التى تعزز وجهة نظره هذه فان واحدا من أعضاء هذه المنظمة قد قتل خلال عملية اغتيال اثنين من رجال الامن . وبتفتيش منزله عثر على كمية من النقود التى سرقتها المجموعة الفاشية فى حادث سطو « سياسى » على أحد البنوك . وعثر فى منزله ايضا على جهاز ارسال لاسلكى كانت الجماعة الفاشية قد سرقته أيضا فى حادث » .

وقال الليندى ان التحقيقات قد أثبتت ان احدى المجموعات الفاشستية فى الجامعة الكاثوليكية بزعامة شخص يدعى « آرامبورو » على علاقات وثيقة مع هذه المنظمة التى تدعى لنفسها موقفا يساريا متطرفا » .

والحقيقةان مايضفى علىالصراع داخلىشيلى حدة غير طبيعية ان حكومة الوحدة الشعبية الائتلافية قد وصلت الى السلطة بأغلبية ضئيلة جدا . ويبدو ان هذه الاغلبية لم تزد كثيرا فى انتخابات البلدية التى جرت أخيرا فقد حصلت الجبهة الحكومية على ٤٩ر٧٢٪ من الاصوات بينما حصلت المعارضة على ٤٨ر٠٥٪ .

والغريب ان كلا المعسكرين قد أعلن انه حقق انتصارا باهرا فى انتخابات البلدية التى جرت مؤخرا ، وربما كان لكل طرف بعض الحق فى ادعائه هذا . فأحزاب التحالف الحكومى حصلت على نسبة تفوق كثيرا عما حصلت عليه من أصوات فى انتخابات الرئاسة .

بينما ــ من الناحية الاخرى ــ كان الحزب الديمقراطى المسيحى المعارض قد حصل على أكبر نسبة من الاصوات بين الاحزاب التى شاركت فى الانتخابات .

كذلك فان التعقيد الاخر فى الموقف يأتى من أن الليندى وتحالفه لايتمتعانبالاغلبية فى الجمعية الوطنية .. ومن هنا فان كل تحرك « دستورى »

ــ وكل تحرك فى شيلى يجب أن يكون « دستوريا » كما وعد الليندى نفسه ــ يجب أن يتم فى اطار مقبول من الحزب الديمقراطى المسيحى أو بعض أجنحته على الاقل .

والحقيقة ان الحزب الديمقراطى المسيحى المعارض قد اضطر الى تبنى برنامج يطالب أيضا باصلاح زراعى وبتأميم البنوك وصناعة النحاس الخ .

وليس معنى ذلك أنه يوافق على كل برنامج الليندى،فثمةخلافاتكبيرة جدا فىالتكتيكوأسلوب التنفيذ وفى المدى الذى يصل برنامج التأميمات . بالاضافة الى ان الليندى يقترح تغييرات أساسية فى تكوين المؤسسات الدستورية والتشريعية وفى أنظمة القضاء حيث يطالب بانشاء محاكم شعبية ذات صبغة ثورية ..

ومثل هذه المطالب لا يمكن أن تكون مقبولة من الجمعية الوطنية بتركيبها الحالى ، والدستور يعطى الليندى حق الاستفتاء .

لكن الامر قد يبدو وكأنه مجازفة خطيرة ، اذا ما وضعنا فى الاعتبار نتائج الانتخابات البلدية والاغلبية الضئيلة التى حصلت عليها حكومة التحالف .

كذلك فان الطابع المميز للساسة الشيليين عموما وللرئيس الليندى أو كما يسمونه « الرفيق الرئيس » يلعب دورا فى رسم ابعاد الموقف . وفى دراسة عميقة نشرها البروفيسور **هيوتوماس** فى التايمز البريطانية عن الطابع المميز لشيلى يقول :

« أعتقد أنه من الواضح أن الليندى وهو ابن أسرة راديكالية برجوازية وبالرغم من أنه ماركسى مخلص لايرغب فى أن يكون فيدل كاسترو رقم ٢ ، لكنه مصمم على أن يكون الليندى رقم ١ .

ومع التأكد من اخلاص الليندى كماركسى فاننا يجب أن ندرك بالضبط معنى «الماركسية» عنده . ومن المؤكد أنها تعنى تأميم البنوك ومناجم النحاس ولكن هل تعنى نهاية المزارعين الصغار والتجار الصغار ؟ هذا غير محتمل أبدا »

ويمضى البروفيسور هيوتوماس قائلا « ويدرك الليندى والمحيطون به تماما « الاخطاء » التى وقعت فى دولة اشتراكية مثل كوبا . فقد عمل كثير من الاقتصاديين اليساريين الشيليين فى

كوبا . بما فيهم جاك شونشول وزير الزراعة الحالى » .

« كذلك يلاحظ البروفيسور توماس عدة ملاحظات عامة تؤثر فى الطابع العام لشيلى فالجيش بعيد عن السياسة ،وكذلك فان العنف السياسى مسألة غريبة على مناخ شيلى ، فان احدا من الشيوعيين أو الاشتراكيين لم يقض زهرة عمره فى السجون كما فعل معظم شيوعيى أوربا الشرقية ، كما أن أحدا منهم لم يقض سنوات الكفاح وسط الجبال كما فعل كاسترو » .

ويوجه توماس النظر أيضا الى بعض المصاعب الاقتصادية، فالاجور قد ارتفعت فى عهد الليندى لكن الانتاج العام قد انخفض .. والاستثمارات تقل ، فالاجانب يحجمون عن استثمار أموالهم وكذلك البرجوازية « المحلية » أما البرجوازية الوسطى فانها تنفق كل مدخراتها فيما تتخيل أنه آخر فرصة للاستمتاع بمباهج الحياة قبل التقشف الاشتراكى .. ويؤدى هذا الى حالة من التضخم الشديد » .

واذا كان الدستور الشيلى يمنع اى رئيس للجمهورية من أن يرشح نفسه مرة أخرى فان شركاء الليندى يتطلعون من الآن الى انتخابات الرئاسة فى عام ١٩٧٦ ويتحفظ كل منهم فى شعاراته ومواقفه استعدادا لهذه الانتخابات .

ويرى المراقبون أن الصعوبات التى تواجه حكم الليندى لايمكن الا أن تفضح المناورات والمحاولات المشبوهة التى تنظمها الامبريالية الامريكية ضد النظام التقدمى فى شيلى . ومن الواضح أن قوى الامبريالية تضارب بشدة على حركة أقصى اليمين وحركة اليسار المغامر فى آن واحد .

■ ■

■ مالطة

رياح جديدة تهب على الموانى الخمس

بأغلبية صوت واحد استطاع حزب العمال أن يصل الى السلطة فى مالطة ، الجزيرة ذات الموانى الخمس .

وطوال السنوات السبع للاستقلال ظلت مالطة تحت حكم الحزب الوطنى برئاسة بورج ، وهو حزب لا يخفى أن تصوره لمستقبل مالطة هو أن تظل حوضا عائما ومرفأ لسفن الاسطول الامريكى السادس وأساطيل حلف الاطلنطى .



دوم منتوف

وقد وقع بورج اتفاقا « دفاعيا » مع بريطانيا مدته عشر سنوات ، وحصل على معونات اقتصادية منها .

وعندما بدأ الاستعداد للانتخابات البرلمانية نزل حزب العمال ببرنامج مناهض للبريطانيين وأعلن رفضه لفكرة تحويل مالطة الى قاعدة امداد لاساطيل حلف الاطلنطى .

وقد شعرت « ديلى تلجراف » البريطانية المحافظة بالخطر من احتمال فوز العمال فى الانتخابات فدعت الى « تصعيد » مالطة الى مرتبة « الشريك» بدلا من مكان « العميل » وطالبت « بالبدء » فورا فى مباحثات جادة لضم مالطة كعضو عامل الى حلف الاطلنطى » .
وقالت « الديلى تلجراف » « ان الاتحاد السوفيتى يمكن أن يكون مرشحا للحصول على قواعد عسكرية فى مالطة اذا فاز حزب العمال فى الانتخابات » .

أما دوم منتوف زعيم حزب العمال فقد تسلح قبل دخوله المعركة الانتخابية بالاضافة الى شعاراته الوطنية « بتحييد » الكنيسة الكاتوليكيه ذات النفوذ القوى والتى وقفت فى انتخابات عام ١٩٦٦ صراحة ضد حزب العمال وقد أعلن انه « لا يريد السوفيت لكنه أيضا لا يريد الامريكيين ولا الانجليز » وأعلن أن مالطة بحكم وضعها الاستراتيجى « يجب أن تقف على الحياد » .

ان شعب مالطة الذى يعانى من انتشار البطالة بصورة متزايدة أعطى صوته لمنتوف مؤملا أن تخرج مالطة من حصار حلف الاطلنطى وأن تفتح

مواثيها أمام جميع الأساطيل بما فى ذلك الاسطول السوفيتى .

ويبدو أن هذه هى « عقدة » الخوف الاساسية عند الغرب من حكم منتوف . وقد عبر عن هذا الخوف المعلق الامريكى المعروف **سالزبرجر** فى مقال له « بالنيويورك تايمز » فقال « ان الاسطول السوفيتى فى البحر الابيض والذى يتراوح عدده بين ٤٢ و ٥٣ قطعة يعانى أساسا وحتى الان من نقص حاد فى حاملات الطائرات » . ثم يمضى سالزبرجر قائلا فى تلميح واضح « وعلى أية حال فان مالطة قد لعبت طوال الحرب العالمية الثانية دور حاملة طائرات لا يمكن اغراقها .

ويروى سالزبرجر فى مقاله فقرة من تقرير أعدته مجموعة من خبراء الامن فى دول غرب أوربا تقول : ان لمالطة موقعا هاما جدا فى هذه المنطقة .. وهكذا فان اقتراح ضم مالطة الى حلف الاطلنطى ليس مجرد طلب تقدم به عضوان فى الحلف وانما هو طلب يتمتع بتأييد أكثرية الاعضاء » .

ويمضى التقرير قائلا « ان حكومة مالطة تريد أن تتخلص من الاحساس « بالعزلة » وتريد أن تجابه دعوة حزب العمال الى « الحياد » ..

ولم يكن الضغط على الناخبين فى مالطة مركزا فقط على سلسلة من المقالات أو المطالبات « بمنح » مالطة عضوية حلف الاطلنطى ، وانما كانت هناك المناورات التى قام بها الاسطول الفرنسى تحت اشراف شخصى من بومبيدو . وكانت هذه المناورات كما نشرت صحيفة « كومبا » الفرنسية اعلانا عن أهمية المصالح الفرنسية فى البحر الابيض » وقد ربطت صحيفة « كومبا » بوضوح تام بين هذه المناورات وبين الانتخابات فى مالطة قائلة « ان هذه الانتخابات ذات أهمية تاريخية لانها ستقرر ما اذا كانت هذه المستعمرة البريطانية ستواصل طريقها فى الاطار الذى حدده لها العالم الغربى أم انها ستختار الطريق الاشتراكى . ومثل هذا الاختيار قد يدفعها الى انتهاج سياسة حيادية لن تستفيد منها سوى البلاد والقوى المعادية لكتلة الدول الرأسمالية والامبريالية » .

ونجح منتوف وصحيح انه نجح باغلبية مقعد واحد لكنه نجح على أية حال ، وتولى السلطة فى مالطة ليعلن فى اليوم الاول « انه لا يزال على عهده الذى قطعه على نفسه فى الانتخابات بالغاء الاتفاقيات الدفاعية الحالية مع بريطانيا »

وقال منتوف « ان على بريطانيا اذا ارادت أن تنتفع بتسهيلاتها العسكرية فى مالطة أن تعقد اتفاقات اخرى تكفل للجزيرة أجرا ملائما ، والا فان من يريد الانتفاع بهذه التسهيلات سيتعين عليه أن يتفاوض مع حكومة المالطة ولا يحصل عليها من الانجليز مباشرة » .

ولم يضع منتوف كثيرا من الوقت فعلى الفور طلب الى سير موريس دورمان الحاكم البريطانى للجزيرة أن يستقيل وعين بدلا منه كبير القضاة كأول حاكم وطنى .

ثم أسرع أيضا باتخاذ سلسلة من الاجراءات لتصفية معارضى سياسته من مناصب السلطة فأقال قائد البوليس ، وطرد عددا من كبار المسئولين والسفراء الموالين للغرب .

ثم توجه بنفسه الى عمال أحواض الميناء الذين استمروا مضربين عن العمل لمسبعة أشهر كاملة وبعد مناقشات شخصية معهم أعلن العمال انهاء الاضراب .

وفى ٢٥ يونيو قرر منتوف طرد قائد قوات حلف الاطلنطى فى جنوب اوربا من الجزيرة .

وفى ٢٧ يونيو اخطرت حكومة مالطة الولايات المتحدة بأنها لا ترغب فى استقبال زيارات من السفن الحربية الامريكية فى الوقت الحاضر حتى تتم اعادة النظر فى الترتيبات العامة » .

وانفجرت مظاهرات شعب مالطة تأييدا للسياسة الجديدة ، وسارت مظاهرات ضخمة تؤيد منتوف الذى وقف ليردد مع المتظاهرين شعارات العداء لبريطانيا وحلف الاطلنطى .

وتشجع منتوف مستندا الى تأييد شعبى جارف وأعلن الغاء الاتفاقية العسكرية مع بريطانيا وأعلن البيان الذى أصدرته حكومة مالطة فى هذا الصدد أن « وجود حلف الاطلنطى فى الجزيرة لم يكن قائما على اتفاق تعاقدى . وأنه فى الوقت الراهن فان زيارات الاسطول السادس الامريكى لمالطة تتعارض مع المصالح القومية لمالطة » .

ورفضت بريطانيا أن تعترف بالغاء المعاهدة وصرح متحدث بريطانى قائلا « اننا نأمل أملا كبيرا فى أن تتم تسوية مسألة القوات البريطانية فى مالطة بصورة ودية بين البلدين باعتبارهما عضوين فى الكومنولث » . ثم ما لبث وزير الاعلام فى حكومة مالطة ان أعلن « أن حكومته ترغب فى أن تتخلص نهائيا من وجود قيادة حلف الاطلنطى

والقواعد البريطانية كما ترغب في تحقيق موقف الحياد وتنمية العلاقات القائمة على أساس المساواة مع كل دول العالم » .

لقد أعلن منتوف برنامجا انتخابيا من أربع نقاط أساسية :

- عمل لكل عاطل فى ظل اشتراكية تنبع من واقع الجزيرة .
- الغاء المعاهدة البريطانية .
- الحياد بين الشرق والغرب .
- علاقات أقوى مع الدول العربية ودول الشمال الافريقى .

وهكذا فان جانبا هاما من جوانب سياسة الحكومة الجديدة هو تعزيز العلاقات مع العرب .

والحقيقة أن هذا الموقف يمثل خطوة بالغة الاهمية بالنسبة للصراع العربى الأسرائيلى الذى لعبت فيه مالطة وقوى الاسطول السادس وحلف الاطلنطى دورا مباشرا وأساسيا .

ويرى المراقبون أن تقارب مالطة مع البلاد العربيه وانتهاجها سياسة محايدة ربما يمثل كسبا هاما فى توازنات القوى فوق أمواج البحر الابيض ، تلك الامواج التى تتلاطم دوما على ضفاف المنطقة الملتهبة فى الشرق الاوسط .

وكانت ليبيا هى أكثر الدول العربية تجاوبا مع الاتجاه الجديد واهتماما به ، وفى ٧ يوليو أعلنت حكومة ليبيا الافراج عن الاموال المالطية المجمدة فى المصارف الليبية ، وأعلنت أن الرئيس القذافى قد استقبل مبعوثا خاصا لمنتوف ، وتباحث معه حول تعزيز العلاقات التجارية والاقتصادية بين البلدين .

والغرب لا يخفى قلقه المتزايد من تعزيز العلاقة بين مالطة والعرب حتى أن « كومبا » الفرنسية تقول « ان منتوف بعيد كل البعد عن أن يكون ماركسيا راديكاليا ، بل هو فى الواقع رجل ماكر وواقعى ويرغب فى أن يساير جميع الاطراف . ولكنه لن يستطيع الصمود طويلا أمام الضغط الذى يتعرض له من جانب نوابه الذين سيدفعونه الى التقرب من الدول العربية . وبعد ذلك الى التقرب من المعسكر الاشتراكى » .

وفى وجه التهديدات المتزايدة من جانب حلف الاطلنطى فان نشرة آخر الانباء السوفيتية قد أذاعت مقالا هاما ختمته بقولها « ان شعب مالطة يطالب بوقف سياسة التهديد المشينة التى يتبعها حلف الاطلنطى وان جميع المناضلين المخلصين من أجل السلام والامن ليقفون الى جانب شعب مالطة فى نضاله العادل » .

■ ■

■ بريطانيا

ماذا يعنى الانضمام للسوق المشتركة ؟

اصبح دخول بريطانيا الى السوق الاوروبية أمرا وشيك الوقوع ، وقد حددت الحكومة البريطانية موعدا لذلك فى شهر يناير (١٩٧٣) .

وفى صفحات الكتاب الابيض الذى اصدرته الحكومة خلال الايام الماضية تضمنت صفحات هذا الكتاب وجهات النظر المؤيدة للدخول . بعد أن اصبحت « السوق الأوروبية » بمثابة التكتل الاقتصادى الذى لا يمكن اغفاله فى مجال التجارة العالمية . فبينما ارتفع « الانتاج القومى » للولايات المتحدة الامريكية بنسبة ٣٠ فى المائة زاد انتاج دول السوق ٦٠ فى المائة .

ومن ناحية أخرى ، ترى الحكومة البريطانية أن نصيب بريطانيا قد أنحسر خلال السنوات الاخيرة فى نطاق الصادرات العالمية وقد أدى ذلك الى تزايد العجز فى الميزان التجارى . ومن ثم فان مجد بريطانيا الذى انحسر بالفعل فى القارات الاخرى . لابد وأن يلمع داخل القارة الاوروبية ... ومن خلال صفحات هذا الكتاب ظهرت أبرز النقاط التى سيترتب عليها دخول بريطانيا الى السوق فى ذلك الموعد :

- سيؤدى انضمام بريطانيا الى ازالة للحواجز الجمركية الصناعية بينها وبين دول السوق ، وسوف يتم ازالة هذه الحواجز تدريجيا . وفى كل عام بنسبة ٢٠ فى المائة حتى تنتهى تماما .. أما الحواجز الجمركية المفروضة

على الدول غير المشتركة فى السوق فانها سوفة تزداد من جانب دول السوق ٠

● سوف تساهم بريطانيا فى ميزانية السوق فى العام الاول بمبلغ ١٠٠ مليون جنيه استرلينى، ثم ترتفع هذه المساهمة فى العام التالى الى ٢٠٠ مليون أسترلينى ٠

● سيترتب على دخول بريطانيا السوق ارتفاع واضح فى أسعار المنتجات للمزارع البريطانية بزيادة قدرها ٨ فى المائة تقريبا ٠

● من المتوقع أن ترتفع أسعار المواد الغذائية خلال مرحلة الدخول بنسبة ١٥ فى المائة وهذا من شأنه أن يؤدى الى ارتفاع فى تكاليف المعيشة بنسبة ٥ر ٠ فى المائة فى كل عام على الاقل ٠

● وقد رفضت الحكومة البريطانية فى هذا الصدد أن تحدد بشكل كمى نسبة الخسائر المتولدة من فقدان « المزايا الجمركية » التى تتمتع بها بريطانيا فى دول الكومنولث ، وان كانت قد بررت تلك الخسائر بما جاء فى الكتاب الابيض بأن نصيب بريطانيا فى نطاق التجارة مع دول الكومنولث تضاءل بشكل واضح خلال السنوات الاخيرة . هذا ، بالاضافة الى عامل اخر لا يقل خطورة عن العامل السابق وهو أن حصول دول الكومنولث على استقلالها السياسى قد غير علاقاتها الاقتصادية بالطبع مع بريطانيا وما زالت هذه العلاقات تتغير منذ ذلك التاريخ ٠

ومضى الكتاب يفسر اسباب الدخول وكان أبرز ما جاء فى صفحاته الطويلة أنه أما أن تدخل بريطانيا السوق وتبنى مجد أوروبا القوى ، أو تنحسر جانبا لتحقق اهتماماتها من أضيق الابواب ومضت الحكومة تقول : ـ ان دخول بريطانيا الى السوق سوف يؤدى حتما الى عمليات انعاش واسعة للاقتصاد البريطانى ، وانه يمكن الحكومة من مواجهة مشاكلها الاقتصادية كما أن مبدأ القبول التدريجى للسياسة الزراعية المشتركة سوف يؤدى حتما الى انعاش منتجات المزارع البريطانية ، وأن يفتح بالفعل أسواق دول السوق للصادرات البريطانية وعلى الاخص الصادرات من المواد الغذائية ٠ بيد أن هذا من شأنه أن يؤدى الى ارتفاع أسعار هذه السلع وارتفاع تكاليف المعيشة ، لكن هذا سوف يواجه بخفض الاسعار للسلع المصدرة من جانب بريطانيا نتيجة لخفض الحواجز الجمركية ٠٠ ومن ثم يحدد الكتاب الابيض الاثار التى سوف يجنى ثمارها « المصدر » البريطانى اذا ما تم خفض هذه « الحواجز » على صادراته ٠ فاما أن يبقى هذا المصدر على « اثمان » صادراته ويزيد من ارباحه المحققة او يعمل على « خفض » هذه الاثمان لكى يوسع من نطاق « مبيعاته » ٠ هذا من ناحية ٠ ومن ناحية أخرى سيؤدى انضمام بريطانيا الى السوق الى خلق سوق واحدة قوامها ٢٣٦ مليون نسمة ٠ وفوق ذلك كانت هناك اعتبارات بالغة الاهمية ـ من وجهة نظر الكتاب الابيض ـ فلقد اثبتت التجربة ان دول السوق حققت نموا صناعيا أسرع مما حققت بريطانيا ٠ ففى خلال المرحلة ما بين ١٩٥٩ ، ١٩٦٩ كانت كل دولة من دول السوق توجه ما يقرب من ٢٣ فى المائة من « الناتج القومى الاجمالى » الى أغراض الاستثمار ، بينما بلغت النسبة فى بريطانيا ١٧ فى المائة ٠ وقد استطاعت دول السوق أن تحقق الفائض فى ميزان المدفوعات بما يقرب من ٠٠٠ ر ٢٥ مليون دولار، بينما عانت بريطانيا من العجز فى ميزان المدفوعات خلال هذه المرحلة ٠٠

ورغم كل ذلك ، فهناك طوائف المعارضين وعلى رأسهم حزب العمال البريطانى ، والاتجاهات الشعبية الموالية له ، حيث يرى حزب العمال أن انضمام بريطانيا الى السوق سوف يؤدى الى عملية نزوح كبيرة لرءوس الاموال البريطانية عبر بحر المانش الى أوروبا ـ أما رجال الصناعة فهم يؤيدون بالطبع هذا الدخول ٠ وكان منطقهم فى هذه المرحلة ان النتائج المثمرة لدخول بريطانيا السوق لن تظهر بطريقة « اوتوماتيكية » ولكنها ستظهر على المدى الطويل ومن ثم يجب اقتناص الفرصة المتاحة للدخول الى السوق ، ومن هنا نرى أن الاراء تتضارب بخصوص هذا الامر وسوف تحمل الايام القادمة المزيد من الاتجاهات المؤيدة والمعارضة لدخول بريطانيا السوق المشتركة .

■ اليابان

اتفاقيـة عـودة أوكيناوا وخيبة أمل الشعب الياباني

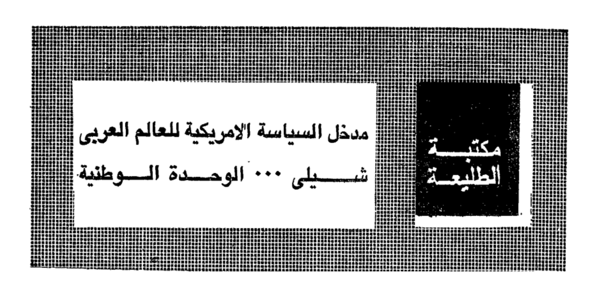
فى فبراير ١٩٦٩ صرح رئيس مجلس مشكلات أوكيناوا : « ان أوكيناوا قد أصبحت ورما خبيثا فى العلاقات الامريكية اليابانية » ورغم توقيع اتفاقية لازالة هذا الورم فى يونيو ١٩٧١ الا أن اليابان اشتعلت بمظاهرات سقط فيها القتلى واعتقل المئات ــ احتجاجا على العودة المشروطة لاوكيناوا الى اليابان من تحت السيطرة العسكرية للاحتلال الامريكى الذىحدث فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، والذى استمر ، حتى وقعتمعاهدة الصلح مع اليابان فى ١٩٥١ ، فأعطت للولايات المتحدة السيادة المطلقة على الجزيرة ، وظلت السلطات العسكرية الامريكية تحكمها من الناحية الفعلية بواسطة مندوب سام ، واقامت فيها أضخم مجموعة من القواعد العسكرية النووية وغير النووية (١٤٨ قاعدة) شنت منها الهجمات على الشعبين الكورى والفيتنامى والحملات الموجهة لارهاب الشعوب .

ولا شك أن الاهمية الاستراتيجية لاوكيناوا ــ وهى احدى أربع جزر تضمها جزر ريوكيو ــ هى التى جعلت منها معتقلا استراتيجيا للدفاع عن المصالح الامريكية فى آسيا كلها وفيتنام خاصة ، « فبدون أوكيناوا لا نستطيع الاستمرار فى حرب فيتنام » . اذ تقع الجزيرة فى المحيط الهادى فى مركز قوس طويل من القواعد العسكرية يمتد من كوريا الجنوبية واليابان الى منطقة جنوب شرق آسيا مارا بفورموزا ، بحيث أصبحت تمثل قلب الدرع النووى الامريكى بما تضمه من المعدات الهجومية والاسلحة الكيماوية والذرية التكتيكية ومنها منصات للصواريخ وطائرات للتجسس .

والاتفاقية الجديدة التى تقضى بعودة أوكيناوا قبل يوليو ١٩٧٢ تتمشى مع مضمون البيان الامريكى اليابانى الصادر فى ١٩٦٩ والذى يدعو لاعادة أوكيناوا دون اضرار بالمصالح الامريكية فى الشرق الاقصى . وهذا ما خيب آمال الشعب اليابانى بأحزابه وقطاعاته المختلفة وخاصة الاشتراكيين والشيوعيين ، فاندفعت المظاهرات التى نظمتها الاتحادات المختلفة هاتفة بسقوط الاتفاقية ، ومنقضة على المعسكرات الامريكية بقنابل مولوتوف وقد عارضت أحزاب الجزيرة الاتفاق باعتباره « يتجاهل مشاعر اهالى أوكيناوا من أجل مصالح امريكا » أما موقف ، مجلس أوكيناوا للعودة الى الوطن » كما هو معروف فيتمثل فى « المطالبة بالعودة الفورية الكاملة غير المشروطة لاوكيناوا ، وأوجاساوارا عن طريق الغاء المادة ٣ من معاهدة الصلح والغاء معاهدة الامن اليابانية الامريكية ومعارضة صيغة اعادة الجزر المشروطة بالسماح للولايات المتحدة بالاحتفاظ بقاعدتها النووية تلك الصيغة الزائفة التى تطرحها الدوائر اليابانية والامريكية الحاكمة » .

ومن ثم يرى المراقبون أن غضبة الشعب اليابانى ترجع الى بنود الاتفاقية التى تربط اليابان بالاستراتيجية الامريكية أكثر من قبل ، وتقوى من معاهدة الامن التى يعارضها،وحيثتخلو الاتفاقية من النص على دفع تعويضات عن خسائر الاهالى وعلى اخلائها من الاسلحة النووية وبسماحها بأستمرار الطابع العسكرى للجزيرة ، وبقاء ٨٨ قاعدة (حيث ستعاد ٧٪ فى المائةمن مساحةالقواعد فقط) وحق امريكا فىالعودة للقاعدة عند الضرورة واتخاذأى اجراء عسكرى يخدمامنها ضد أى دولة. وتخشى قطاعات الشعب اليابانى أن يدفع هذا الوضع اليابانى الى التورط فى حرب لا تريدها ، على اعتبار أن الاتفاقية لا تكفل الا عودة صورية للجزيرة .

ويتوقع المراقبون أن تستغل الحكومة الاتفاق فى انتخابات مجلس الشيوخ المقبلة ، كما حدث عام ١٩٦٩ حين استغلت صدور البيان اليابانى الامريكى فى انتخابات مجلس النواب . ولكن يتبقى أمر يقلق المسئولين ، فعندما يأتى ابريل القادم ، ستعرض الاتفاقية على البرلمانين اليابانى والامريكى للتصديق عليها ــ بعد هذه المعارضة للشعب اليابانى المعارض للاسلحة الذرية وللوجود الامريكى خاصة وأنه سيتصادف فى نفس الشهر أيضا يوم أوكيناوا السنوى للمطالبه بالعودة للوطن والذى يسقط فيه عادة الكثير من القتلى والجرحى كل عام .



مدخل السياسة الأمريكية للعالم العربى

■ تاليف :

جون . س . بادو

■ عرض وتلخيص :

محمد عبد الرءوف سليم

■ الناشر :

مجلس العلاقات الخارجية

ترجع اهمية هذا الكتاب الى ان مؤلفه جون بادو استاذ الدراسات العربية ، ومدير معهد الشرق الاوسط بجامعة كولومبيا ، صاحب خبرة بالسياسة الامريكية تجاه الشرق الاوسط ، وعلى علم بأهداف تلك السياسة ومراميها من خلال عمله كسفير امريكى بالقاهرة ، ورغم النص على ان ما جاء فى الكتاب يعبر عن وجهة النظر الشخصية دى المؤلف ، الا أن ذلك لم يمنع من أن يجد جون بادو حين تأليفه للكتاب منطلقات من وجهة النظر الامريكية الرسمية .

وفى هذا الكتاب يحاول المؤلف أن يعالج تطور العلاقات العربية الامريكية ، ورغم أنه تعرض كثيرا للاحداث السياسية فى المنطقة العربية خلال السنوات القليلة الماضية فى محاولة للتعرف على دور الولايات المتحدة ، الا أنه يقر فى تقديمه للكتاب بأنه لم يكن يرمى الى اعطاء القارىء تسجيلا اخباريا لتفاصيل السياسة الامريكية تجاه كل من الدول العربية ، وانما كان هدف جون بادو وضع اطار عام للحقائق من وجهة نظره والموضوعات التى استخدمها كقاعدة للاحكام

السياسية التي ستكون اثناء قراءة صفحات الكتاب تقييما للدور الذى قدر للولايات المتحدة الامريكية أن تلعبه على مسرح الشرق الاوسط، ولذلك فقد فضل أن يكون عنوان كتابه « الاقتراب الامريكي من العالم العربي » وليس « السياسة الامريكية تجاهه » على أساس أن الكتاب يعالج ماهية الاتجاهات الامريكية فى تعاملها مع دول المنطقة .

ويعترف المؤلف انه أولى قدرا كبيرا من الاهتمام بالشخصية المصرية فى السياسة العربية بعامة ، ويرجع ذلك بسببين : أولهما اقامته الطويلة بالقاهرة ، وثانيهما أن الجمهورية العربية المتحدة تقوم بدور القيادة فى الشرق العربي ونالت قدرا كبيرا من اهتمام السياسة الامريكية تجاه المنطقة العربية .

ويرى السفير الامريكي بأن السياسة الامريكية تجاه الشرق الاوسط تعبر عن تطور جديد فى العلاقات الدولية الامريكية منذ اتخذت الولايات المتحدة طريق الحيدة السياسية تطبيقا لوصية جورج واشنطن ومبدأ منرو ، غير أن اكتشاف البترول فى الشرق الأوسط أوجد مجالا للمصالح الامريكية ، ورغم أن بريطانيا ظلت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية تقوم بدور القيادة السياسية والعسكرية فى المنطقة ، الا أن مركز بريطانيا تعرض لعوامل الضعف وبصفة خاصة بعد أزمة السويس ، وفى نفس الوقت طرأت على المنطقة عوامل سياسية حتمت التدخل الامريكي بشكل أو بآخر حماية للمصالح الغربية ، منها انفجار الصراع العربى الاسرائيلي والحركات التقدمية والثورية ذات الصفة القومية العربية وتزايد النشاط السوفيتي فى المنطقة . وقد بدأ « الاشتراك الامريكي » جزئيا فى السياسة الغربية تجاه المنطقة منذ التصريح الثلاثى المعلن فى ١٩٥٠ والذى ضمنت فيه كل من بريطانيا وفرنسا وأمريكا الحدود الدولية فى المنطقة العربية ، ثم تكوين منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط (١٩٥١ ــ ١٩٥٢) وعقد ميثاق بغداد سنة ١٩٥٥ ، وبعد انهيار مركز بريطانيا كنتيجة لحرب السويس برزت فكرة احلال النفوذ الامريكي محل نظيره البريطانى فى العالم العربي ، ذلك ان فشل العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ لم يكشف فقط حقيقة أن بريطانيا فقدت القدرة على حماية مصالح الغرب فى البلاد العربية ، وانما كانت نتائج الفشل قد هددت مركز الغرب فى المنطقة بأسرها ، هذا على الرغم من أن الولايات المتحدة عارضت العدوان .

ويرى بعض المراقبين كما يذكر المؤلف ــ انه لو أنعكس الموقف الامريكي الى تأييد للعدوان لتم تدويل القناة ، غير أن جون بادو ينحو باللائمة على بريطانيا وفرنسا مؤكدا انه لو أن العمل البريطاني الفرنسى بدأ بعد تأميم القناة مباشرة لكان انصياع مصر أمرا لا مفر منه ولواجه المجتمع الدولى الامر الواقع . على اى الاحوال فان الدبلوماسي الامريكي يقر بأنه ليست هناك دلالة على امكان وجود حكم بديل لحكم ناصر له شخصية تختلف جوهريا عن سالفه ، أو أن يكون تابعا للغرب ، فلو امكن الاطاحة بحكم ناصر لكانت النتائج تحتم ايقاظ ما أسماه جون بادو بقومية مصريه أكثر راديكالية ، ولكان من الممكن أن يبتعد العالم العربى ومعظم الدول الجديدة النامية عن المعسكر الغربى ، والاكثر اهمية انه كان من المحتمل أن يكون مصير الامم المتحدة نفس مصير عصبة الأمم حين عجزت عن ان تقف موقفا مؤثرا اثناء احتلال ايطاليا للحبشة . ولذلك فان المؤلف يؤيد موقف بلاده من أزمة السويس ، وفى نفس الوقت يحاول تبرير تدخل الولايات المتحدة فى شئون الوطن العربى كوسيلة لمتابعة الاهداف الغربية المشتركة ، ومنها استمرار ضخ البترول واحتواء اى توسع سوفيتي فى المنطقة .

ويحاول جون بادو أن يعرض سريعا للعلاقات العربية السوفيتية منذ اتجهت مصر الى المعسكر الشرقى فى محاولة ناجحة لكسر الاحتكار الغربى للسلاح ، ثم استمرار المساعدات السوفيتية للدول العربية الثورية فى المجالات الاقتصادية والسياسية فى نطاق الامم المتحدة ، وفى هذا السياق يؤكد الدبلوماسي الامريكي حقيقة هامة تتمثل فى أن شخصية الاتحاد السوفيتي المتعاملة مع الدول العربية لم تكن منطلقة من منطق التهديد بالقوة ، وانما من خلال التعرف على امانى القومية العربية ، ومن هنا كان نجاح السوفيت فى تقديم بديل عن الشخصية الغربية تختلف فى المضمون والجوهر ، الامر الذى جعل الولايات المتحدة تواجهه كما يذكر المؤلف منافسا قويا وخطيرا ، لم تواجهه بريطانيا أو فرنسا فى المنطقة منذ الاندفاع الالمانى نحو الشرق .

ويحاول المؤلف فى الفصل الثانى تحديد طبيعة المصالح الامريكية فى المنطقة ، فيذكر أن بعض تلك المصالح كانت غربية ودولية وليست أمريكية بالمعنى الضيق ، وفى نفس الوقت يحاول الربط بين المصالح الاجنبية وبين التغير الطارىء على الحياة العربية فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، ويحدد المؤلف عاملين اثنين لتدخل الولايات المتحدة فى شئون الشرق الاوسط ، أولهما يتحقق باحتواء « التوسع السوفيتي » بجوانبه السياسية والاقتصادية والعسكرية والعقائدية ، ويتمثل ثانيهما فى المحافظة على السلام العالمي ، ومن هذا المنطلق يعطى جون بادو تعريفا محددا للمصالح

الامريكية يتصل بالاعتبارات ذات الصلة بالامن الامريكي بصورة مباشرة سواء فى أمريكا ذاتها أو فيما له علاقة بالعالم غير الشيوعى ، وعلى ذلك فالمصالح الامريكية تنبثق اساسا من مركز العالم العربي الاستراتيجي ، فرغم أن الدول الشمالية فى الشرق الاوسط (تركيا وايران وباكستان) اكثر تعاونا مع الغرب فى النواحى السياسية والعسكرية الا انموقعهاالجغرافى يبعد عن الطريق الرئيسىللمواصلات العالمية بين الشرق والغرب والتى تقع داخل المنطقة العربية ، وبالاضافة الى المركز الاستراتيجى تتمثل المصالح الامريكية فى الموارد البترولية واستثماراتها .

ويحاول المؤلف تبرير ما يشبه الوصاية الأمريكية على الدول العربية بالدعوة الى الحفاظ على استقلال دول المنطقة بصرف النظر عن شكل حكوماتها او شخصياتها العامة تقليدية كانت أم ثورية تقدمية ، ومن وجهة نظر بادوفان اســتقلال احد الدول او وقوعها تحت سيطرة دولة اجنبية وبصفة خاصة لو كانت شيوعية يعرض المصالح الامريكية لاخطار جسيمة ، كذلك فان هجوم دولة ما فى الشرق الاوسط على دولة اخرى فى المنطقة ـ لامريكا مصالح مباشرة فيها مثلبترول السعودية او قنــاة الســويس ـ يثير الاهتمــام الامريكى ، وبالمــثل فأن اتحــاد دولتين عربيتين لا يهــدد المصالح الجوهرية الامريكية الا اذا ترتبت عليه نتائج من شانها ايقاف ضخ البترول او قطع المواصلات ، واكثر من هذا فان النزاع داخل المنطقة العربية قد يدعو الى تدخل خارجى (كما حدث فى التهديد السوفيتى أثناء العدوان الثلاثى على مصر وموقف الاتحاد السوفيتى من المواجهة العربية الاسرائيلية سنة ١٩٦٧) ، الامر الذى قد يجبر الولايات المتحدة على الدخول فى مواجهة مباشرة مع الاتحاد السوفيتى .

وينتقد جون بادو هؤلاء الذين يؤيدون احتساب الحفاظ الامريكى على الوجود الاسرائيلى مصلحة امريكيــة ذاتيــة ، ذلك ان مــؤيدى اسرائيل فى الولايات المتحدة يرون أن نمو اسرائيل مصلحة أمريكية جوهرية،زاعمين أن اسرائيل تضم بين جنباتها المجتمع الديمقراطى الوحيد فى المنطقة ، كما أنها مثال للتقدم الذى تفتقده الدول العربية ذاتها ، ولذلك فهم يؤكدون امكان اعتبار اسرائيل حجر الزاوية والاداة فى التعامل السياسى الامريكى مع الدول العربية ، غير أن جون بادو يخالف هؤلاء فى الرأى على أساس أن الوجود الاسرائيلى لا يشكل مصلحة أمريكية ذاتية تقارن بغيرها فى المنطقة فيما عدا اذا كان الاستقلال الاسرائيلى ذاتــه معرضا للخطر ، أى أن الدبلوماسى الامريكى يقف فى صف المؤيدين للعدوان الاسرائيلى المستمر على الحق الفلسطينى العربى ، وحجته فى ذلك يعتريها الوهن حين يعزو ذلك التأييد الى أن السياسيين الامريكيين يجدون فى يهود بلادهم مصــادر للاصوات الانتخابية والنفوذ ، ومن هنا يبــرر تعرض الكونجرس الامريكى والحكومة الفيدرالية لضغوط متصلة من أجل وضع اعتبار خــاص لاسرائيل حتى وان كان ذلك على حساب المصالح الامريكية .

ويرى المؤلف أن توجيه السياسة الخارجية للدول العربية من صميم المصلحة الامــريكية ، فبينما يظهر ارتياحه لوقوف دول الشرق الاوسط غير العربية (تركيا وايران والباكستان) مــع الغرب فى المشكلات العالمية كانعكاس لتحالفها مع الدول الغربية من خلال حلف الاطلنطى والحلف المركزى،يبدى المؤلف استياءه من معارضة الدول العربية فى الاشتراك فى أحلاف عسكرية مع الغرب وانتهاجها سياســة عــدم الانحيــاز ، بــل ان الدبلوماسى الامريكى يعيب علــى بعض الدول العربية موقفها المتحرر المتعارض مع موقف الدول الغربية الاستعمارية فى مراكز التوتر العالمى ، ويضرب على ذلك مثلا فى موقف الجمهــورية العربية المتحدة من مشكلة الكونجو والنــزاع اليونانى التركى على قبرص .

وفى الفصل الثالث يناقش المؤلف التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى سادت المنطقة العربية بعد الحرب العالمية الثانية ، اى مع الفترة التى شهدت انتقال السلطة الى أيدى أبناء البلاد فى نطاق استقلال وطنى فى أعقاب مرحلة تاريخية شهدت السيطرة العثمانية الفعالة على معظم البلاد العربية ثم السيطرة الغربية التى حلت محلها ، وما يستتبع ذلك من موقف الدول العربية الحديثة الاستقلال من حركة الاستعمار العالمى ، ويرى المؤلف أن سياسة عدم الانحياز التى اتبعتها الدول العربية جمعاء أوجدت مرتعا خصبا للتحرك السياسى السوفيتى فى الدول الاكثر راديكالية مثل الجمهورية العربية المتحدة وسوريا بعكس الدول العربية التقليدية مثل السعودية والاردن والتى اما رفضت اقامة علاقات دبلوماسية مع الاتحــاد السوفيتى او كانتصلاتها به مشوبةبالحذر حتى فى الامور التى لا تؤثر على علاقاتها بالغرب ، ومن هنا ينتهى الى ان عدم الانحياز العربى ، أما يتجه نحو الشرق ، أو يتجه نحو الغرب ، رغم انه يقر بأن عدم الانحياز العربى خلق نوعا من الاحجام عن مساندة السياسة الخارجية الغربية او الشرقية ويسوق دليلا على ذلك معارضة الدول العربيــة لاستئناف الاتحــاد السوفيتى للتجــارب الذريــة واعادة تنظيم الامم المتحدة ومعارضة دول عربية عديدة للسياسة الامريكية فى فيتنام .

وتشكل القومية العربية قوة جديدة فى المنطقة

العربية ، تغيرت شكلا ومضمونا بعد الحرب العالمية الثانية ،وقبل الحرب نادى بالفكرة القومية نخبة تقليدية من ملاك الاراضي والتجار وشيوخ القبائل ، مثال ذلك أن هياج العشرينات الذي حدث بمصر ضد البريطانيين كان بقيادة الطبقات العليا من المجتمع المصرى،كما أن القادة القدامى فى مصر كانوا بصفة عامة فكريا نتاج الثقافة الغربية والحركات الاصلاحية الاسلامية ، حيث سار أغلب الزعماء فى نطاق تعاليم الامام محمد عبده، وبعد الحرب حل الناصريون والعارفيون محل رجال النحاس باشا ونورى السعيد ، وتغير مفهوم القومية فأصبح – فى رأى المؤلف – ثورة الطبقات الادنى والوسطى على النخبة التقليدية التى تستأثر بالامتيازات ، كذلك حملت سنوات الصراع من أجل القومية أفكارا تحررية جديدة الى ذهن الرجل العادى غيرت المفاهيم السياسية عند العامة بشكل رسخ فكرة الوحدة العربية كهدف قومى أسمى رغم الفشل الذى منيت به تجربة الوحدة المصرية السورية سنة ١٩٦١ والوحدة الثلاثية سنة ١٩٦٣ ٠

ويعتقد جون بادو أن الخلافات العربية الداخلية الناتجة عن الاختلاف بين أشكال الحكم والنظم السياسية والاقتصادية أجبر الولايات المتحدة على اتخاذ أنماط سياسية متباينة تجاه الدول العربية المختلفة كرد فعل للسياسة التى تتبعها كل دولة على حدة ، ويقسم المؤلف البلاد العربية من حيث الانماط السياسية الى معسكرين متضاربين هما المعسكر التقدمى الثورى وتقوده الجمهورية العربية المتحدة ، والمعسكر التقليدى المتمثل فى الدول التقليدية المحافظة مثل السعودية والمغرب، وينتهى الى أن الشخصية العربية تأثرت بعد الحرب العالمية الثانية بانتقال السلطة الى أيدى العرب ، وسياسة عدم الانحياز ، والصراعات المحلية وما يتبعها من حرب باردة محلية ، والمفاهيم القومية الجديدة ، وهى فى نظر المؤلف عوامل لا يجب الاستخفاف بها أو التقليل من قيمتها أثناء التخطيط للسياسة الامريكية تجاه الدول العربية ٠

وفى الفصل الرابع يتعرض جون بادو لادوات السياسة الخارجية الامريكية ، ويحددها فى القوة العسكرية ، وقيادة العمل السياسى فى الامم المتحدة ، والمصالح المشتركة بين الولايات المتحدة والدول العربية ، والمعونة الامريكية المقدمة الى الدول العربية ، والنفوذ الثقافى الامريكى ، وفى عرضه للمقدرة العسكرية الامريكية فى الشرق الاوسط يشير الى المنشئات العسكرية الامريكية فى اليونان وتركيا وحلف الاطلنطى والحلف المركزى والاسطول السادس المتمركز فى البحر الابيض ، ويقارن ذلك بعدم وجود قواعد عسكرية سوفيتية فى المنطقة ، غير أن المؤلف يقر بأن الوجود العسكرى الامريكى الحالى فى الشرق الاوسط لا يقى من هجوم ذرى سوفيتى ٠

وقد حقق الدور القيادى الامريكى فى نشاط الامم المتحدة فوائد كثيرة للسياسة الامريكية ، ومن الممكن أن تجد الولايات المتحدة وسيلة للتدخل فى شئون الشرق الاوسط من خلال نشاط الامم المتحدة ، على أن المؤلف يؤمن بعدم امكان استخدام المعونة المقدمة للدول العربية سواء من الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتى كعامل سياسى ضاغط ، ذلك أن التهديد بقطع المعونة الامريكية عن الجمهورية العربية المتحدة لم يرغمها على تغيير سياستها ، وتستند الولايات المتحدة على بعض المراكز الثقافية فى الشرق الاوسط فى خلق نوع من النفوذ الثقافى مثل كلية روبرت فى أستامبول ، والجامعتين الامريكيتين بالقاهرة وبيروت ، غير أن النشاط الثقافى الامريكى فى العالم العربى أضعف من أن يحقق ذلك الهدف ٠

وينتقل المؤلف فى الفصل التالى الى القول بأن السياسة التى تتبعها الولايات المتحدة فى العالم العربى أدت الى « توريطها » فى أكثر من موقف ، فعدم المشاركة فى النزاعات المحلية جعل الولايات المتحدة تقدم مساعدات لدول تنتهج سياسة معادية لها منها مصر رغم علاقاتها الوثيقة بالسوفيت ، بالاضافة الى النشاط المصرى فى أفريقيا والذى وصل الى درجة امداد المتمردين فى الكونجو بالسلاح ومساعدة حركات الانشقاق فى أفريقيا والمناوأة بأزالة قاعدة هويلس مما عرض الولايات المتحدة لنقد شديد من قبل أصدقائها ٠

وقد خصص المؤلف الفصل الثامن لمقومات الصراع الدائر فى الوطن العربى ، محددا تلك المقومات فى دوائر ثلاث تتمثل فى الوجود السوفيتى ، والنزاع العربى الاسرائيلى والتوتر العربى الامريكى، أن الوجود السوفيتى – فى نظر المؤلف – يناقض تماما نظيره الامريكى ، من حيث أن المصالح الامريكية تتطلب الهدوء والاستقرار والتقدم المنظم بينما نمت المصالح السوفيتية من خلال القلاقل والتوتر والتغيير الراديكالى فى المنطقة !!

اما النزاع العربى الاسرائيلى فقد زاد فى وعورة مسار الدبلوماسية الامريكية فى الشرق الاوسط ، وكان عبئا مستمرا على الاقتراب الامريكى من الوطن العربى، غير أن المؤلف يرى انه رغم أن الوجود الاسرائيلى يشكل عاملا هاما فى التوتر العربى الامريكى الا أنه ليس العامل الوحيد ، فالمصالح الامريكية فى المنطقة قد

تتعارض مع المصالح الوطنية ، مثال ذلك أن احتواء التوسع السوفيتي كهدف أمريكي يتعارض مع المصالح الذاتية للدول العربية التي ترى الاعتماد على المساعدات الاقتصادية والعسكرية المقدمة من قبل دول غير أوربية .

وفي الفصل التاسع والاخير يتعرض المؤلف لمستقبل العلاقات العربية الامريكية ، وبعد حرب يونيو كان على الولايات المتحدة أن تعمل ليس فقط على استعادة مركزها القديم في العالم العربي وانما تأسيس مركز جديد ، وهنا يجب ادراك حقيقة هامة هي أنه رغم أن النفوذ المصري دمر بشدة في حرب يونيو فانه سوف يستمر عاملا أساسا في الشئون العربية ، والنتيجة الوحيدة لهزيمة العرب هي تصعيد الشعور بالحاجة الى تغييرات اكثر في المجتمعات العربية التقليدية ، وبالاضافة الى ذلك ادراك أن المراكز الراديكالية في البلاد العربية سوف تلعب في المستقبل دورا أكبر مما كان لها في الماضي .

لذلك فان المؤلف يعتقد في أن الحياد الامريكي ازاء النزاعات المحلية في المنطقة العربية أمر ضروري لأي اقتراب أمريكي من العرب حتى ولو كان ذلك على حساب النزعات التوسعية الاسرائيلية ، فحيثما تاهت السياسة الامريكية في الوطن العربي ، كان ذلك بسبب تنفيذها تعهدات لا علاقة لها بالمصالح الامريكية ، فأصبحت تشايع في الوقت الذي كان يجب أن تكون فيه منصفة ، وفشلت في مساعدة دائرة أهدافها من خلال وضع أهمية للمراكز المتوسطة .

■■

شيلي ... الوحدة الوطنية

■ تأليف :

ا . اكوافيفا ، ج فورنيال

ب . جيلود ، . ج . مارسيلان

■ عرض وتلخيص :

كمال السيد

■ الناشر :

دار المنشورات الاجتماعية

باريس ١٩٧١

عندما أعلنت نتيجة الانتخابات في شيلي ، علقت « التايم » الامريكية على مجيء **سلفادور الليندي** قائلة : « انه أخطر علينا من **كاسترو** » ، وقالت « بالتيمورصن » الامريكية أيضا : « لقد دمرت مكانة الولايات المتحدة في أمريكا اللاتينية » . وانهالت كل الصحف الامريكية والتابعة في حملة مسعور على الليندي أو على « **كاسترو بلا ذقن** » كما أسمته .

والحق ان الاسلوب الذي اتبعته حركة « الوحدة الشعبية » في شيلي ، والمكونة من ستة أحزاب هي : الحزب الشيوعي ، والاشتراكي ، والراديكالي ، والاشتراكي الديمقراطي ، وحركة العمل الشعبي الموحد ، والعمل الشعبي المستقل ، جدير فعلا بأن يثير حنق ورعب قادة الولايات المتحدة ، فهو درس في العمل السياسي الجماهيري ، الدءوب والذكي ، الذي استطاع أن يعبيء جماهير المعدمين والفقراء والاميين ، والعمال والفلاحين والمثقفين ، لهزيمة مخططات وخبراء البنتاجون والمخابرات المركزية ، والفروع والشركات المحلية لروكفلر وأمثاله ، والاقطاعيين المحليين وأصحاب المناجم والمصانع والمصارف والذين تولوا الحكم واحتكروه لمدة تزيد عن قرن ونصف قرن ، والعسكريين الانقلابيين ، والاصلاحيين ومفكري البورجوازية الصغيرة . هذا العمل يمثل نموذجا جديدا يهدد بالانتشار

والتوسع ، انه بالفعل نموذج « معدى » كما وصفه الامريكيون ٠

والكتاب الذى اصدرته دار « المنشورات الاجتماعية » عن « شيلى الوحدة الشعبية » بقلم أربعة من المتخصصين يعطى صورة واضحة عن ذلك الانتصار الذى لم ينبت شيطانيا ، بل انه انتصار تضرب جذوره فى « مجتمع متخلف اقتصاديا ومتطور سياسيا » ٠ وجاء محصلة لعمل واع ومخطط ٠ وهذه الصورة تبعث تماما على الرضى والتفاؤل بما يحدث هناك ٠ واول المسهمين فى الكتاب هو **أنطوان اكوافيفا** ، صحفى فى لوماتيه ، جاب معظم انحاء شيلى وشهد معركتها الانتخابيه ووصول الليندى الى السلطه ، والثانى هو **جورج فورنيال** المتخصص فى المشاكل الامريكيه وصاحب كتاب « أمريكا فقيرة أم غنية » ٠ اما الثالث **بيير جيلود** ، فيلقى دروسا فى معهد العلوم السياسية وفى معهد الدراسات العليا لامريكا اللاتينية ، ورابعهم **جان مارسيلان** الذى عاش فى شيلى لمدة ١٢ عاما ٠

شيلى ذلك البلد النائى

ظلت شيلى أو « الارض الباردة » كما يعنى اسمها ، محاطة بنوع من الغموض او حتى عدم الاهتمام ، حتى استطاعت أن تجذب اليها انظار العالم كله ، بل وقدمها البعض كنموذج يحتذى للتغيير الثورى ، ليس فى بلدان العالم الثالث فحسب ، بل وفى أوروبا نفسها ، فقد رشح البعض ايطاليا للاخذ بالنموذج الشيلى ٠

والواقع أن الحضارة قديمة فى شيلى فقد انتقل اليها الانسان الاول من آسيا عبر المضايق ٠ وظل سكانها يعيشون فى آمان حتى جاءتهم اوروبا ٠ ومع أن **ماجلان** البرتغالى كان أول من رآها فى بحثه عن طريق لجزر الهند الشرقية أقصر من طريق رأس الرجاء الصالح ، الا أن الاسبان هم الذين احتلوها فى أوائل القرن السادس عشر ، بعد استيلائهم على بيرو وتنصيب نائب للملكهم فيها ، وتوسع هذا الاخير فى شيلى المجاورة ، فسير اليها عدة حملات عسكرية ، حتى تمكن منها فى ١٥٤١ ، وأنشأ الاسبانيون سانتياجو التى اصبحت العاصمة فيما بعد ٠

ورغم امتلاك الاسبان للبارود ووحشية جنودهم من المرتزقة والمغامرين ، فان نضال السكان لم يخمد حتى ١٨٨٠ ، بقيادة ابطال قوميين مثل **لوتارو** الهندى الذى عاشر الاسبان فى مدنهم كسايس فى اسطبل حتى أدرك كثيرا من نقط ضعفهم ، ثم غادرهم لينظم ويقود المقاومة ضدهم ٠

وأول ما فعله الاسبان هو البحث عن الذهب والفضة والمعادن الثمينة ، ولكن كان عليهم أيضا أن يعيشوا من فلاحة الارض وتربية الماشية ٠ وفى الحالتين طردوا الاهالى من أراضيهم ، واستعبدوهم للعمل فى المناجم والمزارع ٠ ووزعت الاراضى على الغزاه ، فى ملكيات وصل بعضها الى نصف مليون هكتار ، لزراعتها " على مدار جيلين ، اى للغازى وابنه ، ولكنها اصبحت عملا محليه خاصه « وكانت ظروف الهنود ، سكان البلاد المحليين ، المستعبدين مماثله لظروف العبيد فى الحضارات القديمة أو الاقنان فى العصور الوسطى ، يسخرون بلا أجر وبلا غذاء كاف والسياط تلهب ظهورهم » ٠

وتركزت السلطه العليا بيد الحاكم والقائد العام ممثل الملك ، وكان له حق تقسيم الاراضى بين الغزاه وقيادة الجيش وتعيين الموظفين والقضاء كما كانت الكنيسة ، بممتلكاتها الدينيه وبمنحياتها من الاراضى والعبيد ، تحتل مكانه تعادل مكانه الحاكم أو تفوقها ، واقامت فى شيلى كما فعلت فى أسبانيا محاكم للتفتيش ٠

استعمار تجارى

ومنذ اليوم الاول أعلنت أسبانيا احتكارها للتجارة مع شيلى ، وتحريم الاتجار مع اية دولة أخرى ، ومنع سفن ومهاجرى البلدان الاخرى من الوفود الى شيلى ٠ كما حرمت اسبانيا على شيلى انتاج محاصيل مشابهة لتلك تزرع أو تنتج فى البلد الام حتى لا تنافسها ٠ ونتج عن احتكار التجارة فرض اسعار بخسه لمنتجات الشيليه ، والمبالغه فى بيع السلع اليها حتى وصل ثمن السلعه الى ١٠ أضعاف قيمتها ٠ وكان من جراء هذا ان نشطت تجارة التهريب ٠ وبدا سكان البلاد سواء من الاسبان المهاجرين من شبه القارة لتولى وظائف الحكم او للاستحواذ على الامتيازات ، او من المولودين فى شيلى وان جرت فى عروقهم دماء أسبانيه ، أو المخلطين الذين جاءوا نتيجة لتزاوج السكان المحليين مع الاسبان أو مع المولدين ، بدا كل هؤلاء يتذمرون من القيود على التجارة ، ومن جانب اخر بدات الدول الاخرى خاصه انجلترا تضغط لتخفيف القيود التجارية ٠ ومع تداعى مكانة أسبانيا دوليا ، اضطرت الى تخفيف القيود ٠ ومع احتكار الاسبان للوظائف العامة والامتيازات ، فى حين أن الثروة بين المولدين وتطلعهم للمناصب السياسية ، وعزو نابليون لاسبانيا وتوليه جوزيف بونابرت ، اعلن سكان شيلى استقلالهم ٠ واقيمت أول حكومة وطنية عسكرية فى ١٨ سبتمبر ١٨١٠ ، وعقد مؤتمر قومى ضم ٤٠٠ من الاعيان ، أعلن حريه التجارة ، والغاء العبودية ٠ ولكن نائب الملك فى بيرو لم يسلم ، وبعث الى شيلى بعدة حملات حتى تمكن من استعادتها فى ١٨١٤ ، ولكن حرب العصابات استؤنفت فى ١٨١٦ ، وتمكن سكان البلاد من

تخليصها نهائيا فى ٥ أبريل ١٨١٨ ، وأعلن « الوطن الجديد » ٠

١٣٠ عاما من الحياة الجمهورية

لم تكن الجمهورية نتاجا لحركة ديمقراطية وجماهيرية ، بل لقد انتهز أصحاب الاملاك فرصة عدم وجود عرش أسبانى ، وأعلنوا الاستقلال ٠

وحتى ١٩٧٠ ظل هؤلاء يتقاسمون الحكم فيما بينهم ٠ وفور الحصول على الاستقلال نشب الصراع ضاريا بين اصحاب المصالح ، والملاك العقاريين وأصحاب المناجم ، والتجار ، والمصرفيين ، وأصحاب المصانع فيما بعد ٠ وكانت أساليبهم هى : الانقلابات العسكرية ، تزوير الانتخابات وشراء الاصوات ، ارهاب السكان بالدوريات المسلحة من الانصار ، الاغتيال السياسى ، رفع الشعارات الاصلاحية الجوفاء ٠ فأول رئيس لشيلى اوجينز اغتال فورا زعيم الراديكاليين لانه طالب بمجلس تأسيسى ٠ وبين ١٨٢٦ ، و١٩٢٩ شهدت شيلى أربعة رؤساء ٠

وبعد الاستقلال استمرت عمليات ابادة السكان المحليين فى الجنوب ٠ وجعلوها عملية مشروع لحماية وتوسيع الملكيات العقارية الكبيرة للملاك الذين ينتجون للتصدير ، والذين استولوا على السلطة السياسية واقاموا نظاما « محافظا » استبعد كل معارضيه بالقتل والارهاب ، خاصة من الضباط ، وأنشأ حرسا رجعيا ، ووضع دستورا فى ١٨٣٣ استمر حتى ١٨٩١ يجعل كل السلطات بيد رئيس الجمهورية ٠

وشيئا فشيئا بدأت التناقضات تحتدم بين ملاك الارض والمصرفيين المرتبطين بالكنيسة ، وحزبهم المحافظ وبين ملاك المناجم ، الذين تجمعوا حول الحزب الليبرالى ، الذى ضم الى صفوفه التجار أيضا ، والصناعيين وبعض كبار المزارعين ٠ وفى مواجهة هؤلاء ظهر تيار راديكالى كون حزبا سياسيا أكثر عصرية من الحزبين المحتكرين للسلطة السياسية ٠ وكان الحزب الراديكالى هو الحزب الوحيد المنظم على نطاق البلاد ، وضم البيروقراطيين ، والجامعيين والملاك المتطورين وكذلك أصحاب المناجم ، وكان حزبا علمانيا ٠

« وتحت تأثير الثورات الاوروبية فى ١٨٤٨ ، تجمع شباب سانتياجو حول بعض القادة الاشتراكيين ، ونشروا الافكار الجديدة فى « مجتمع المساواة » ٠ وتمت ترجمة لويس بلان ، وانتشرت كتب ماركس باللغات الاجنبية » ٠ وبدأ الفكر الاشتراكى فى الانتشار بين صفوف عمال المناجم والنقل وغيرها ، وفى ١٨٩٧ تكون الحزب الاشتراكى ٠ ومع ازدياد السخط على الاجانب ، وتفاقم اضرابات العمال ، تشكل الحزب الديمقراطى ممثلا للبورجوازية الصغيرة فى محاولة لتجميع أصوات الفئات الشعبية ، وفى ١٩٠١ تشكل جناح يسارى فى الحزب الديمقراطى ٠

ومع الاستقلال تدعم نفوذ رأس المال العالمى ، ففى ١٨٨٤ أصبحت الاستثمارات الانجليزية ٣٤ فى المائة من مجموع الاستثمارات ، والبلدان الاوروبية ٣٠ فى المائة ، وبعد الحرب الاولى تدعم نفوذ الولايات المتحدة وأصبحت تستورد ٤٣ فى المائة من صادرات شيلى وتصدر لها ٣٣ فى المائة من وارداتها ٠ وظلت السلطة الاقتصادية بين ملاك مناجم النترات والنحاس الاجانب ، ووكلائهم وشركائهم الصغار المحليين ٠ وفى موازاة زيادة الارتباط برأس المال الاجنبى نمت بعض الصناعات المحلية ففى ١٩٠٠ كان هناك ١٠٠ مشروع صناعى كبير يستخدم ٦٣٠٠ عامل ، معظمها فى الصناعات الاستهلاكية ، وكانت بدورها تخضع لسيطرة الاجانب ، الذين كانوا يصدرون الى بلادهم فى ١٩١٣ ، ثلاثة ملايين جنيه حصتهم فى الارباح ٠

وظل العمل السياسى حكرا على المالكين ، فكان ٥ فى المائة فقط من السكان لهم حق التصويت ، واستخدام الاعيان نفوذهم فى شراء الاصوات ٠ وكان رؤساء الجمهورية ينتخبون من مجموعة محدودة للغاية من الاسر من الملاك والمصرفيين ، فقد كانت الثروة شرطا للعمل السياسى ٠ وكان الحزب الوحيد الذى له برنامج هو الحزب الراديكالى مثل : اللامركزية الادارية ، سيطرة الدولة على التعليم ، حرية الاختراع ، فصل الكنيسة عن الدولة ٠ وفى ١٩٠٦ وضع فى برنامجه بعض المطالب الاجتماعية وذلك تحت اشتداد ضغط الحركة العمالية ، وتدعم الحركة النقابية ، فقد طالب بمقاومة التضخم ، والتنمية الصناعية ، وانشاء وزارة للعمل ٠ وقد نظمت الحركة العمالية ، الاتحاد العام لعمال شيلى فى ١٩٠٩ ٠ وفى ١٩١٢ تم تاسيس حزب اشتراكى عمالى فى مدن المناجم ٠ وبعد الحرب تدعم نفوذ الجناح اليسارى فى الحزب الراديكالى وطالب قادته بالتخلص من سيطرة رأس المال الاجنبى ، وتقصير يوم العمل ٠ وعند قيام ثورة اكتوبر حياها الاتحاد العام للعمال ، ونظم مسيرات ضد الجوع ، بالاشتراك مع الحزب الراديكالى ، والحزب الاشتراكى العمالى ، والحزب الديمقراطى ، واتحاد الطلبة ٠

وفى ديسمبر ١٩٢٠ قرر الحزب الاشتراكى العمالى الانضمام الى الدولة الثالثة وتحول فى يناير ١٩٢٢ الى الحزب الشيوعى ، وأصبح له عضوان فى البرلمان ٠ وانضم اتحاد العمال الى الاممية النقابية الحمراء ٠ وادت أزمة ١٩٢٩

الاقتصادية الى زيادة نفوذ الاحزاب اليسارية ، خاصة الحزب الشيوعى الذى زادت قوته كثيرا بين ١٩٢٧ و ١٩٣١ . وتحول الحزب الراديكالى الى حزب ينادى بسيطرة الشعب على وسائل الانتاج عن طريق مصادرتها . وفى ٤ يونيو ١٩٣٢ قام صغار الضباط بثورة وأعلنوها جمهورية اشتراكية ، ولكنها لم تستمر سوى أسابيع وأعقبها حكم فاشى . وكون الاشتراكيون ، والديمقراطيون ، والتروتسكيون ، والراديكاليون الاشتراكيون كتلة يسارية .

وفى نهاية ١٩٣٥ بعد المؤتمر السابع للدولية الشيوعية ، وعلى غرار ما فعل الحزب الشيوعى الفرنسى ، اقترح الحزب الشيوعى الشيلى ، تكوين جبهة شعبية معادية للفاشية . ووافق الحزب الراديكالى والحزب الاشتراكى ، وقدمت الجبهة مرشحا للرئاسة فى انتخابات ١٩٣٨ ، ولكنه لم ينجح .

من الجبهة الشعبية

الى الوحدة الشعبية

مع اقتراب ٤ سبتمبر ١٩٧٠ ، كانت الاوساط الراقية فى سانتياجو على ثقة تامة من سقوط مرشح الوحدة الشعبية ، وراهنت واشنطن على فوز المرشح رقم ٢ .

وكان المرشح رقم ١ هو رادوميرو توميك ، وهو ديمقراطى مسيحى ، يمثل الاستمرار ، ويثرثر برطانة ثورية ، وينادى بالطريق الثالث الذى لا يعرف احد الى أين يقضى . اما المرشح رقم ٢ فكان جورج اليسندى ، الذى رأس الجمهورية من ١٩٥٨ حتى ١٩٦٤ ، وماضيه محل رضاء رجال الاعمال ، وهو من كبارهم اذ يدير او يسيطر على ٥٠ من أكبر ١٥٠ شركة فى البلاد . وبرنامجه يتلخص فى الدفاع عن الملكية الخاصة ، ويرى ترك الحرية كاملة للحكومة تطبق التأميم او لا تطبقه ، ويعلن انه شخصيا ضد التأميم ، اما الاصلاح الزراعى فيقول انه لا يعارضه من ناحية المبدأ ، وان كان لا يوافق على المصادرة .

وصاحب رقم ٣ من المرشحين هو « الخاسر ابدا » أى سلفادور الليندى الذى هزم فى ١٩٥٨ وفى ١٩٦٤ . وهو عضو بمجلس الشيوخ عن الحزب الاشتراكى ، ولم يكن له سند فى الاوساط المالية ، وان رأى فيه المعدمون و « الحديون » والاميون املهم .

ومع ذلك فقد فاز الليندى ، رغم خطط البنتاجون والوكالة المركزية ورغم اهدار كميات كبيرة من الاموال على شراء الاصوات ، ورغم التخريب والارهاب الاقتصادى والسياسى ، فكيف حدث هذا ؟

الواقع أن انتصار الوحدة الشعبية لم ينبثق من العدم ، بل جاء نتيجة لعمل دءوب ودروس مريرة للطبقة العاملة وتنظيماتها السياسية والمهنية . ففى ١٩٣٠ ، استخدمت الطبقة المتوسطة العمال « وقودا للمدافع » فى الحركة الانتخابية ضد الاوليجاركية الزراعية للحصول على مكانة للطبقة المتوسطة . وفى ١٩٣٨ لعبت الطبقة العاملة كما يقول الكتاب دور « الكمان الثانى » فى المجىء بحكومة مثلت فيها الجبهة الشعبية ، واستطاع اليساريون فيها ان يكسبوا جزءا من السلطة السياسية وان ظلت السلطة الاقتصادية لليمين . وفى ١٩٤٢ ، و ١٩٤٦ ساهم اليسار فى الاتيان برؤساء سرعان ما تنكروا له ، وكذلك حدث فى ١٩٥٢ وفى ١٩٥٨ لم يفز اليسندرى على مرشح اليسار الا بثلاثين الفا من الاصوات .

ومع تدهور الاوضاع فى ١٩٦٤ وفيما بعدها وزيادة عدد الاضرابات العمالية تكونت جبهة العمل الشعبى من الشيوعيين والاشتراكيين . واستمر تحالف الاشتراكيين والشيوعيين على أساس برنامج مشترك ، وكان قادة الاشتراكيين يحضرون اجتماعات اللجنة المركزية للحزب الشيوعى والعكس ، واعتبر الحزب الشيوعى جريدته « السيجلو » لسانا لحال الحزب الاشتراكى . وفى المؤتمر ١٤ للحزب الشيوعى الذى عقد فى نهاية ١٩٦٩ اتخذ قرار بان الوحدة الشعبية الدائمة هى الطريق للتغيير ، على أن تقوم على أساس من تحديد برنامج مشترك ، وحلف سياسى يحدد مفهوم السلطة ودور كل طرف فى العمل المشترك ، وأسلوب خوض المعركة الانتخابية ، واختيار مرشح للرئاسة .

ووافقت على هذا احزاب ستة ، ورشح كل منها رئيسا ، من بينهم بابلونيرودا الشاعر الشيلى الكبير عن الحزب الشيوعى (سفير شيلى فى باريس حاليا) ولكن هذا أعلن « أن ترشيحى يمكن أن يكون مركزا للوحدة ، ولكن يمكن ايضا سحبه من أجل الحفاظ على الوحدة . يجب القضاء على كابوس الانقسام . واذا ازدهرت الوحدة الوطنية فسيزدهر الوطن كله . وسيحل المطر محل الجفاف ، وتنضج الكروم بنبيذ الخريف » . واتفق بالفعل على اختيار سلفادور الليندى مرشح الحزب الاشتراكى ، وطوال سبعة شهور تكونت ١٥٫٠٠٠ لجنة للدعاية له . وجاب هو كل أنحاء البلاد ومعه لويس كوفالان ، سكرتير الحزب الشيوعى . وأعلن الليندى « لا أريد أن اكون رئيسا كالاخرين ، بل اريد ان أصبح اول رئيس ثورى » . وتجول الليندى بين الفلاحين الفقراء معلنا لهم « أن حكومة شعبية تستطيع اعطاءكم الارض . ان الوحدة الشعبية لن تشترى أصواتكم بالنقود كما يفعل الاخرون ، بل ان هؤلاء يحتقرونكم بمعلمهم هذا . انهم كل ٦ سنوات

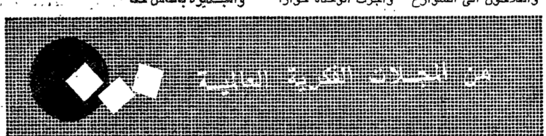
ينفحونكم مبلغا تافها يصرف فى أسبوع · لابد لكم من أن ترفضوا نقود العار » ، وأعلن الليندى موقفه من كوبا « فى كوبا كان كل شىء للبانكى ، وجاءت الثورة لتعطى الشعب كل شىء ، لبنا وكتبا للاطفال وملابس وعملا للجميع · اننـا نؤيد كوبا تمامـا ، اننا ضدالعنف ، ولكننا سنقاتلكل من يريدون تكبيل بلادنا » · وكان الليندى يرد على اتهامه بالسعى لاقامة دكتاتورية حمراء « ان من يبقون عليكم فى العبودية يزعمون الدفاع عن الديمقراطية · ان أربعين فى المائة لا يستطيعون قراءة كلمة ديمقراطية لانهم أميون » ·

واتفقت الاحزاب المشتركة فى الوحدة الشعبية على اقامة حكومة شعبية مشتركة ، لا حكومة حزب واحد ، وتكوين لجنة سياسية مشتركة تدرس مع الرئيس المقبل المشاكل الرئيسية ، وتكوين حكومة قوية ليس من الناحية البوليسية وانما بتأييد الشعب ومساندته ·

وفى ٤ سبتمبر ١٩٧٠ فاز الليندى على اليسندرى بأربعين الف صوت · ووفق الدستور يتولى الرئيس الجديد الحكم بعد شهرين ، واذا لم يحصل على الاغلبية المطلقة ، يكون للبرلمان حق الاختيار بين الاول او الثانى ·· وفى الحالات السابقة · كان البرلمان يختار تلقائيا من يتفوق فى عدد الاصوات (مثلا فاز اليسندرى على الليندى فى الانتخابات السابقة فى ١٩٥٨ بثلاثين الف صوت وعلى الفور اختير اليسندرى) · وكان لليسار فى البرلمان ٨٠ صوتا فقط من ٢٠٠ صوت · وبدات عمليات الضغط والارهاب والتخريب ومحـاولة تدبير انقلاب فى الجيش ، وشنت الوحدة الشعبية حملة تعبئة ضخمة وشاملة ، ونزل العمـال والفلاحون الى الشوارع · وأجرت الوحدة حوارا خصبا حول ضرورة احترام الشرعية مع الحزب الديمقراطى المسيحى ومع الضباط وساهم اتحاد العمال فى الضغط (٩٠٠ الف عضو) · ولعب الجناح اليسارى فى الحزب الديمقراطى المسيحى دوره فى الضغط ايضا حتى قرر مؤتمر الحزب التصويت لصالح الليندى · وبالفعل حصل هذا على ١٥٣ صوتا ضد ٣٥ صوتا وغياب ٧ أصوات · وتكونت حكومة ضمت ٣ وزراء اشتراكيين ، و ٣ شيـوعيين (للمالية ، والعمـل ، والاشـغال العمومية) و ٣ راديكاليين ، وممثل لحركة العمل الشعبى ، وممثلين للعمل الشعبى المستقل ، وممثلين للحزب الاشتراكى الديمقراطى ·

ولاول مرة يتولى العمال الوزارة ، فقد كان وزراء العمل ، والاسكان والتعليم ، والمالية من العمال والنقابيين · ويهدف الحكم الجديد كما حدد فى برنامجه المشترك الى فتح طريق شيلى الى الاشـتراكية بتاميم مصادر الثروة الاسـاسية كمناجم النحاس التى تم تاميمها بالفعل ، واجراء اصلاح زراعى ، وهنا ايضا تمت مصـادرة حوالى ٩٠ اقطاعية عن طريق مجلس الفلاحين ، ووضعت خطـة للاسـكان السريع ، وتخفيض الاسعار ، وتم أنشاء القطاع العام ، وضوعفت ميزانية التعليم ، واقيمت العلاقات مع كوبـا ، وأعلنت شـيلى تضامنها مع بيرو واكوادور فى النزاع مع رأس المال الامريكى ·

ويوما بعد يوم تثبت تجربة شيلى أن عملا سياسيا واعيا ودءوبا ، يعتمد على طاقات ومبادرات الجماهير ، قادر فعلا على تحقيق الإنتقال السلمي للسلطة ، على الرغم من كل خطط الولايات المتحدة وركائزها في الداخل ، والتجربة التى تقدمها شيلى مليئة فعلا بالدروس الرائعة والجـديرة بالتأمل حقا ·



مجلة « الطليعة » المغربية

يمثل الاتحاد الوطنى المغربى للشغل قوة اجتماعية وسياسية هامة فى المغرب ، والمقال الذى نقدمه اليـوم نشر قبـل أحداث المغـرب الاخـيرة ، ولعله يلقى ضـوءا هاما على خلفية هذه الاحـداث وأسبابها ·

لسان حال الاتحاد الوطنى المغـربى للشـغل

• • •

عشر سـنوات من الكفـاح والتضـحيات من أجل التقدم الاجتماعى والنهوض الوطنى

• • •

عشر سنوات ، اى طريق قطعها المغرب خلال هذه السنوات الحيوية من حياة شعوب العالم

الثالث، هذه السنوات التي حققت فيها التكنولوجيا تقدما عظيما دفع بالدول الصناعية الكبرى الى ولوج عوالم جديدة لم تكن لتخطر ببال •

اي طريق قطعها المغرب في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية ؟ ان الجواب يفرض نفسه ، لانه مخيب للامال : فالمغرب بدل أن يتطور في اتجاه ايجابي ، تقهقر خلال هذه العشر سنوات ، ولم يسجل هذا التقهقر في ميدان واحد ، بل في جميع الميادين ، وما زال المغرب يسير في هذا المنحدر ، لكون السياسة المتبعة تناقض مصالح المغرب والمغاربة •

لندرس الواقع :

فمنذ عشرسنوات اقيلت حكومة الاخ عبد الله ابراهيم ، وحيل بينها وبين مواصلة الاصلاح والتحرر ومراجعة الهياكل القائمة • وقد كانت الاختيارات التي يقوم عليها اتجاه هذه الحكومة وعملها تتمثل فيما يلي :

– الديموقراطية الاجتماعية والسياسية ، وهي تعني ارادة العمل على تحويل هياكل المجتمع وأجهزة الحكومة تحويلا ديموقراطيا ، باعطاء سلطات حقيقية في تسيير الجماعات البلدية والقروية ، وتحقيق ديمقراطية الاجهزة العليا للحكم •

– تغيير الهياكل الاقتصادية على أساس اصلاح فلاحي حقيقي ، وتوسيع قطاع الصناعة واحداث وسائل التدخل الاقتصادي للدولة ، وخلق وسائل مالية لذلك ، تكفل نجاح هذه السياسة •

– تحرير سياستنا الخارجية عن طريق تحقيق جلاء جميع القوات الاجنبية ، وتأكيد عدم تبعية المغرب ازاء الكتل ، وانتهاج سياسة تقدمية في مساندة جميع حركات التحرر في العالم •

ولم تبق هذه الاختيارات حبرا على ورق ، بل وجدت تعبيرها الايجابي في الواقع :

– فعلى الصعيد السياسي : جرت سنة ١٩٦٠ لاول مرة الانتخابات البلدية والقروية ، وحددت اختصاصات هذه المجالس بشكل يجنبها وصاية الحكومة ويعطي المنتخبين وسائل العمل ، بتسيير الاراضي الجماعية ، واحداث تعاونيات وانشاء ممتلكات تسير ذاتيا • ويقضي قرار انشاء المجالس البلدية والقروية (الذي جرى مسخه فيما بعد) باتخاذ الاجراءات المستعجلة لاقرار مثل هذه المؤسسات التي تستهدف اعطاء سلطة ومسئولية حقيقيتين للهيئات المنتخبة ، كما ان هذا المطمح قد تضمنه أيضا التصميم الخماسي لسنوات ١٩٦٤ـ١٩٦٩ • وقد كان الغرض من اقامة مثل هذه المؤسسات في البادية أن تكون هي المرحلة الاولى لاصلاح زراعي حقيقي باتاحة الفرصة لمنتخبي الشعب بأن يسيروا جماعيا اراضي الدولة •

ويضاف الى هذه المسئولية الحقيقية التي تعتبر شيئا جديدا ، ضمان الحريات العامة والحقوق الديموقراطية لسائر المواطنين • ويجب التذكير بأنه لم تتم خلال سنة ١٩٦٠ أية محاكمة صحفية • ولم يقع حجز على أية جريدة • بينما كانت حرية التعبير بجميع أشكالها مضمونة بشكل أكيد •

– في الميدان الاقتصادي : عرفت سائر المستويات مجهودا كبيرا للقيام بتغيير جذري • وتضمن التصميم الخماسي مبدأ الاصلاح الزراعي ، لكن هذا التصميم قد توقف العمل به بعد ذلك ، بطبيعة الحال ، لان اختياراته لم تعد تتلاءم أبدا مع التوجيهات الجديدة للحكم • وحظيت الصناعة الجديدة بطريقة اصيلة في مساهمات الدولة مع الرأسمال الخاص مما أدى الى خلق أهم المؤسسات التي لا زال التفاخر واقعا حتى الان ، والذي لعب من أجلها مكتب الدراسات والمساهمات الصناعية ، الذي انشيء لهذا الغرض ، دورا أساسيا • وعملت الدولة على توفير الوسائل لانجاح سياستها في الميدان المالي بانشاء مؤسسات جديدة كالبنك المغربي للتجارة الخارجية والبنك الوطني للتنمية الاقتصادية ، وتأميم بنك المغرب •• وفصل الفرنك المغربي عن الفرنك الفرنسي ، وتقنين التحويلات لتمكين التراكم الداخلي للرأسمال ، والتخطيط للاقتصاد وللمبادلات ومراقبة ذلك •

– وعلى الصعيد الاجتماعي : حظيت السياسة التعليمية بعناية خاصة حيث تم ادخال ٥٠ في المائة من الاطفال الى المدارس ، وتمت دراسة تصميم لتدارك النقص الحاصل من أجل تعليم من لم يسبق لهم أن تعلموا وتوفير العمل لهم ، وانشيء المجلس الاعلى للتعليم الوطني بغاية أن يصبح برلمانا حقيقيا في هذا المجال • ووقع خلق كليات ومعاهد جديدة ككلية الطب ، والمدارس العليا ، ومدرسة المهندسين مما عزز الجامعة المغربية التي لم يمر كثير من الوقت على انتزاعها من التبعية الخارجية • وانطلقت سياسة التكوين المهني ، ومن جهة أخرى وقع اقرار نظام الضمان الاجتماعي وانشاء السلم المتحرك للاجور والاسعار لصالح الطبقات الكادحة في نفس الوقت الذي وقع فيه الغاء ضريبة الترتيب الذي تمتع به ٧٥ في المائة من الفلاحين ذوي الدخل القليل •

– وفي ميدان السياسة الخارجية : حصلت الحكومة المغربية ، بعد كبير عناء على جلاء القواعد العسكرية الاجنبية ومغادرة البلاد من

طرف كل موظفي الجيوش الاجنبية (من الجيش والجمارك والشرطة) • وهكذا غادرت بلادنا القوات العسكرية الاجنبية سواء كانت فرنسية او اسبانية او امريكية • وسلكت بلادنا سياسة الانفتاح على اقطار العالم الثالث ، وبالاخص على اقطار الوطن العربي والقارة الافريقية حيث مارس المغرب تاثيرا مدهشا قطف ثماره وبقى يعيش على نفوذه وكان من اهمه عقد مؤتمر الدار البيضاء • وساند المغرب سائر الشعوب والاقطار التي تخوض غمار معارك التحرير ، وأيد كل حركاتها • وجعلته سياسته هذه وديناميكيته في وضعية البلد القائد عن جدارة واستحقاق •

هذا باختصار هو الوضع الذي كنا عليه منذ عشر سنوات • فقد كنا على موعد مع سياسة للتغيير تعتمد التقدم والديمقراطية والتنمية ، وأن تكون مساهمة الجماهير أساسا لها •

فاين نحن من هذا كله بعد عشر سنوات ؟

بعد اقالة حكومة عبد الله ابراهيم التي كانت تتمتع بمساندة الجماهير الشعبية وقع قلب الاختيارات رأسا على عقب • فتم الاستنجاد بالبنك الدولي للانشاء والتعمير ليملي على السلطات المغربية القوانين التي ينبغي أن يسير عليها اقتصاد البلاد ، ويحضر برامج للتنمية • مما أدى الى التخلي عن سياسة التحرر الاقتصادي والعودة الى الهياكل الاقتصادية التي عانينا منها تحت الحماية •

– **وفي الميدان الفلاحي :** مثلا ، وقع بطبيعة الحال التراجع عن كل اصلاح زراعي ، ولكن جميع المحاولات المبذولة في هذا الميدان لا تهدف سوى الى منح كبار الملاك الذين لا علاقة لاغلبيتهم بالبادية مزيدا من الثراء • وقد استعملت كل الوسائل لبلوغ هذه الغاية حيث أن هذه الزمرة من المعمرين الجدد أخذت تحتل تدريجيا مكانة الاجانب وتحرم الفلاحين الصغار من أراضيهم • وما السدود الا وسيلة لخدمة هذه السياسة للاستيلاء على أراض جديدة • وإذا كان الانتاج يرتفع في بعض القطاعات الغنية فانه ينخفض في بقية القطاعات القروية الاخرى • فالمغرب الذي كان يصدر القمح سنة ١٩٦٠ تحول الان الى مستورد •

أما الفلاحون والمحرومون من الاراضي فان عددهم ينمو سنة بعد أخرى من جراء سياسة الافقار المستمرة •

– **وفي ميدان الاقتصاد العام :** فان القرض العام بلغ حدا مزعجا ويدعو الى القلق ٦٠٠ مليار من الفرنكات أي ثلث الدخل القومي • وكل المؤسسات المالية الوطنية وقع افراغها من محتواها وانحرف بها عن اتجاهها الاصلي ، وهيمنت الرشوة على كل القطاعات ، وأصبح الركود هو السمة العامة للحياة الاقتصادية •

– **اما السياسة الاجتماعية ، فما هي سوى نتيجة لهذه الاختيارات الاقتصادية ولعواقب تطبيقها • فالبطالة تزداد سنة بعد أخرى ويزيد النمو الديموغرافي من حدتها • واذا استمر الوضع على ما هو عليه ، فسيصبح عدد العاطلين سنة ١٩٨٠ اربعة ملايين بدلا من أكثر من مليون عاطل حاليا • وتبرهن الارقام الخاصة باستهلاك الزيت والسكر على انخفاض القوة الشرائية للجماهير الشعبية • كما أن تجميد الاجور يسير العمل به في نفس الوقت الذي ترتفع فيه الضرائب المباشرة وحتى غير المباشرة باطراد ، هذا الارتفاع الذي سيشمل جماهير البادية مع اعادة العمل بضريبة « الترتيب » بطريقة مقنعة • لقد انخفض مستوى المعيشة ، حسب التصريحات الرسمية ، بـ ٣٠ في المائة خلال عشر سنوات ، بالقياس الى الارتفاع الحاصل في الائتمان ، هذا الارتفاع الذي لم يعوض بالنسبة للفئات الكادحة والمحرومة عن طريق ارتفاع الاجور ، أما وضعية التعليم فعلى شفى الكارثة ، فالرقم الرسمي لمجموع السكان المستفيدين من التعليم يبلغ ٣٠ في المائة في الابتدائي ، و ٧ في المائة في الثانوي و ١ في المائة في العالي • فالتقهقر واضح ايضا في هذا الميدان •**

– **وفي ميدان السياسة الخارجية ،** اصبحت التبعية تحتل مكان عدم التبعية ، وذلك بالرغم من تغذية الملابسات ، ونهج سياسة تتصف بتناقضات مستمرة ، والتي تبرهن عن حيرة الحكم • وتعبر الوقائع عن نفسها : فتوجد ، اليوم ، ثلاث قواعد امريكية فوق ترابنا ، اعيد انشاؤها بعد الجلاء التفاوض بشأنه سنة ١٩٦٠ ، حيث وقع اتفاق سري مبني على متطلبات جديدة تقنية وسياسية للولايات المتحدة الامريكية • وحتى الان ، فاز

المرافق المسلحة (مثل بوليس وجيش) لا زالت تعج بعناصر كثيرة من المساعدين الاجانب • واذا استثنينا بعض المبادرات التى ظلت دون نتيجة ، نجد أن الدبلوماسية المغربية منعدمة الوجود فى الواقع ، وحينما تحاول الظهور فبوساطة اتباع سياسة التخلى •

ـ اما فى ميدان السياسة الداخلية ، فان الجماهير الشعبية تتحمل قمعا متزايدا يهدف الى تغطية سياسة مبيتة وللحيلولة دون كل التظاهرات الاحتجاجية للجماهير • فمنذ الميثاق الملكى ، ومرورا بالدستور الاول ثم بالثانى ، تقلصت الحريات بشكل واضح • فاذا وقع تزوير الانتخابات فى سنة ١٩٦٣ ، فان انتخابات ١٩٦٩ و ١٩٧٠ قد تعرضت لعملية اشنع من التزوير • فقد شوهت سلطات المثلين ، وانتقص منها تدريجيا حتى أصبحت مظهرية فقط • وتحولت الحريات العامة الى محاكمات ، وتدابير المنع ، واعتقالات ، وتعذيب ، واختطافات ، واختفاءات، أما الاجتماعات فهى ممنوعة عمليا ، والصحافة مكممة ، والحياة السياسية متلاشية • • هذا هو الوضع الذى وصلنا اليه اليوم •

ان هذه حصيلة سلبية تماما بالنسبة للحكم الذى اصبح كل واحد على علم تام بالانهاك الذى أصابه،والحيرةالتى يعانى منها ،والتقهقر الذى تسبب فيه ، بالرغم مما يحاوله لتغطية كل هذه المظاهر معتمدا على القمع والاضطهاد •

وبالنسبة للشعب المغربى ، فقد احرز مكسبا ايجابيا ، فقد تطور حماس الجماهير الى وعى متزايد واصرار متصاعد • ولم تتراجع القوات الشعبية ومنظماتها بل انها على العكس من ذلك فقد اغتنت تجربتها وازدادت رؤاها وضوحا • وهى ترفض تزكية السياسة القائمة او الرضوخ لها كما تدل على ذلك الاضرابات المتوالية للتلاميذ، والطلاب والعمال ،وقد تعبأت كلالقوات الوطنية على أساس تقدمى •

وهكذا يستقبل الشعب المغربى السنوات العشر المقبلة باصرار متزايد وايمان كبير •



مناقشات مفتوحة
وكتابات جديدة

قضية التعليم الخاص والدستور

التعليم الخاص ، قضية من القضايا الهامة التى تتعلق بالتنمية الاجتماعية . وتحظى هذه القضية دائما باهتمام واسع لدى مختلف قطاعات شعبنا ، والمهتمين بقضايا التنمية .
وهذه وجهة نظر يعبر فيها كاتبها ــ فايز مراد ، وهو مدرس بالقاهرة ــ عن رأيه الخاص تجاه هذه القضية الهامة .

من أخطر الامور أن نسلم ببعض القضايا التى لاتناسب تطورنا الاجتماعى ، باعتبارها أوضاعا طبيعية ، فلا يتطرق التفكير الى تغييرها .

ومن هذه القضايا قضية التعليم الخاص فى بلادنا . وبالرغم من اهمية هذه القضية وتعدد مناقشتها فى الفترة الاخيرة ، الا انها لم تأخذ من الاهتمام مايتناسب مع حجم المشكلة وأهميتها بل وخطورتها ، ومع مايتناسب مع المكانة التى احتلتها فى نضالنا الوطنى . مما دفعنى الى تناول زاوية منها هى ديمقراطية التعليم .

والتعليم الخاص فى بلادنا نوعان رئيسيان : نوع باهظ التكاليف ، وتكون الدراسة فى جزء كبير منه باللغات الاجنبية مما يعرف بمدارس اللغات . والنوع الاخر اقل تكلفة والخدمات التعليمية التى تقدم به ــ على وجه العموم ــ أقل بكثير من المستوى المتوسط .

وعلى الرغم من أن هذين النوعين يعدان على طرفى نقيض ، الا انهما يؤديان الى نتائج واحدة تتفق فى انها تعد من معوقات بناء مجتمعنا . وأهم هذه النتائج :

١ ــ تحطيم مبدأ تكافؤ الفرص ، فالمدرسة الاولى تدتقدم من أوجه الرعاية والنشاط المدرسى مايحرم منه التلميذ فى المدارس الرسمية . والمدارس الثانية تقبل التلاميذ الذين لم يجدوا فرصة للالتحاق بالمدارس الرسمية لضعف مجموعهم والوسيلة فى كلتا الحالتين الامكانيات المادية . وبغض النظر عن قدرات التلميذ وميوله واستعداداته .

٢ ــ تخريب تحالف قوى الشعب العاملة : فاذا كان فى مقدمة أهداف التعليم التوحيد الفكرى والثقافى بين ابناء الامة ، فان التعليم الخاص يؤدى فى النوع الاول الى تنمية اتجاه لدى التلاميذ بأنهم صفوة التلاميذ [اجتماعيا] ، وهم تبعا لذلك ينظرون باستعلاء نحو التلاميذ الاخرين الذين يمثلون ابناء الشعب العامل . كما يلاحظ فى مدارس اللغات الضعف البالغ فى اللغة القومية التى هى الاداة الثقافية

للتفاهم بين قوى الشعب ؟ والاحساس بالانتماء القومي .

أما تلاميذ النوع الثاني ؟ فهم ينظرون الى المجتمع من خلال مدارسهم ، فيكون اتجاههم نحو المجتمع باعتباره مجتمعا مستغلا تنتشر فيه كافة الوان السلوك المنحرف واللا أخلاقي ، وحيث يكاد ينعدم النشاط المدرسي الذي يعد جزءا رئيسيا من مناهج المدرسة .

٣ ـ تشترك المدارس الخاصة بحكم وجودها ونشاطها في تدعيم الاتجاه الخاطيء نحو التعليم الفني والمهني ، باعتباره تعليما لايناسب أبناء الطبقة الوسطى والمثقفين عموما ـ بل ويتسرب هذا الاتجاه الى الطبقات الشعبية في بلادنا ـ دون النظر الى قدرات التلاميذ واستعداداتهم وميولهم ، مما ينعكس في نتائج الامتحانات . ونتائج امتحانات التعليم الخاص من النوع الثاني على وجه الخصوص ـ وأعني بالطبع الامتحانات العامة ـ تطرح سؤالا هاما هو ببساطة : **ماهي ضرورة وجود هذه المدارس ؟** هل المشكلة هي أن يطمئن المواطنون الى أن أبناءهم بالمدارس ، وحيث يعمل مدرسون واداريون وعمال في ظروف سيئة للغاية بينما يثرى أصحاب المدارس ثراء فاحشا وتنتهك كل قيم المجتمع وكل أصول العملية التربوية ، ثم ينتهي الامر الى تخريج عدد ضئيل من التلاميذ يواصل التعليم منهم عدد أقل ضآلة ويمثل باقي التلاميذ ـ وهم غالبيتهم ـ مشكلة للدولة ولاسرهم ولانفسهم !!

٤ ـ لايقوم التعليم الخاص بدوره في خطة التنمية ، حيث تتجه استثماراته الى المجال الاكثر ربحا . وخلال الخطة الخمسية الاولى لم يقم التعليم الخاص بدوره ازاء مراحل التعليم المختلفة . أما التعليم الفني ـ وعلى وجه الخصوص التعليم الصناعي ـ فنصيبه ضئيل جدا في التعليم الخاص .

٥ ـ خلق التفرقة والطبقية بين أبناء المهنة الواحدة . وعلى سبيل المثال يمنح المدرسون بالمدارس الرسمية علاوات سنوية في الوقت الذي تجيز فيه اللائحة التنفيذية لقانون التعليم الخاص أن تمنح العلاوة مرة كل ثلاث سنوات للمدرسين بالمدارس الخاصة وذلك في ضوء ميزانية المدرسة .. وليس من الصعب أن تكون الميزانيات خاسرة ، فيحرم المدرسون من العلاوات والأرباح التي أقرت منحها هذه اللائحة .

هذا الى جانب الحرمان من الامتيازات التي تمنح للمدرسين في المدارس الرسمية كعلاوة الماجستير والدكتوراه . ولا شك أنه سيكون مثار دهشة الكثيرين أن أذكر الان أن بعض عمال المدارس الخاصة مازالوا يعاملون معاملة خدم المنازل ، فلا يخضعون للحد الادنى للاجور ، ويبلغ أجر بعضهم ثلاثة جنيهات شهريا !

أما عن الفصل التعسفي ، فقد أثبتت التجربة عجز سلطات وزارة التربية والتعليم عن التدخل في هذه الحالات وحماية المدرس أو العامل . وأبسط مايقال أن العقد شريعة المتعاقدين ، وعلى المدرس أو العامل أن يلجأ للقضاء ، ولينتظر شهورا طويلة بدون مورد ، والسلطات التعليمية عاجزة عن التدخل اداريا . وبالطبع فمن الغريب أن هذا المدرس المهدد في رزقه وقوته الضروري ، مطالب بأن يربي ابناءنا ليخرجوا مواطنين مؤمنين بنظامنا الاجتماعي ، وليسهموا في بناء الدولة الحديثة !..

هذا الى جانب سعى بعض أصحاب المدارس الخاصة الى محاولة شراء الذمم وافسادها باغراء المال .

ومن الغريب أن عددا من أصحاب المدارس لاعلاقة لهم بالتربية والتعليم ، وانما آلت هذه المدارس الى بعضهم بالوراثة واذا كان القانون قد عالج هذه النقطة ، الا أنه لم يتصد للاوضاع الغريبة والشاذة القائمة قبل صدور القانون .

والان .. **فانني أرى ضرورة أن ينص الدستور على عدم جواز الملكية الخاصة في مجال التعليم ،** وانما يقتصر الامر على الملكية العامة والتعاونية ، أو التبعية للهيئات العامة والمؤسسات والجمعيات المصرية .. ولست في حاجة ، بعد أن تعرضت للمشاكل الخطيرة التي تنشأ عن التعليم الخاص في بلادنا ، أن أشير الى أن الملكية الخاصة في مجال التربية والتعليم تختلف عن الملكية الخاصة في أي مجال من مجالات التجارة أو الزراعة أو الصناعة .

وفي مجال الاجراءات التنفيذية العاجلة فانني أقترح :

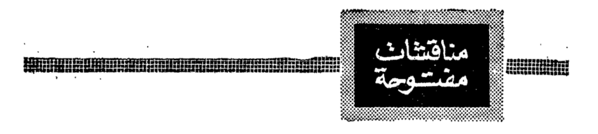
● أن تكون الدراسة في جميع المدارس باللغة العربية ، وهذا لايتعارض مع التوسع في دراسة اللغات الاجنبية ، والعمل على تطوير تدريسها .

● تقييم المدارس الخاصة التي يملكها الافراد؛ واصدار أسهم بقيمتها ضمن جمعيات تعاونية تنشأ لهذا الغرض على ان تتجه مجالات استثمار هذه الجمعيات في تناسق مع خطط التنمية .

● اعتبار جميع العاملين بالمدارس الخاصة [وعلى وجه الخصوص المدرسين] ، معارين من الوزارة الى المدارس الخاصة وتسوية حالاتهم على هذا الاساس ، وعدم جواز تعيين المدرسين الجدد الا عن طريق الاعارة ، مع ضرورة أن يكون ناظر المدرسة الخاصة ووكلاؤها معارين من الوزارة .

● يترتب على ذلك الغاء ادارات التعليم الخاص بالمناطق التعليمية، وتحويل اختصاصاتها الى ادارات المراحل التعليمية المختصة .

ان قطاع التعليم الخاص يجب أن ينضم قلبا وقالبا ، الى مجتمعنا الذى يهدف الى بناء الاشتراكية في وحدة مع هذا المجتمع ، وليس في عزلة وانفصال واختلاف عنه .



الديمقراطية .. لمن .. ؟

كتب المواطن السورى محمد بشير احمد — من القامشلى — يناقش مفهوم الديمقراطية ، يقول :

منذ ان بدات عبارة « هذا لى » انقسم المجتمع الى طبقات متصارعة وظهرت فيه مؤسسات تسيطر عليها الاقلية المستثمرة لقمع الاغلبية المستثمرة التى اصبحت تناضل من اجل الديمقراطية .

والسؤال الذى تطرحه الحياة اليوم في وطننا العربى وبلدانه الطليعية هو : الديمقراطية لمن؟

الديمقراطية للمنتجين الحقيقيين ، انها ترياق الابداع والالهام والعمل، فهى حق وهبته الطبيعة لمن يحولها والحياة لمن يصنعها . ان شغيلتنا في العمل والحقل والجبهة هم اصحاب البلد ، ومن المسلمات ان يكونوا احرارا فى بنائه بناء يستند على تواجدهم الحى الفعلى فى كافة مستويات السلطة .

ان مجالس ومؤسسات الشعبي المنتخبة والتى يجب أن تتسلم السلطة التشريعية والاسهام والمشاركة بالسلطة التنفيذية من أصغر وحدة انتاجية حتى أعلى المستويات ، هى التعبير الحقيقى عن هذا التواجد الذى يستحيل بدون أطر فكرية وتنظيمات طليعية . فمن خلال التجربة التاريخية الحديثة والمعاصرة ، ترسخت النظرية القائلة بألا ثورة بدون نظرية ثورية ولا اشتراكية بدون اشتراكيين كحقيقة واقعة حتمت ضرورة :

— النظرية التى تعبر عن مصالح أوسع طبقات الشعب انتشارا واكثرها فاعلية العمال والفلاحين ، والتى تضع الحلول العملية لكافة قضايانا القومية والاجتماعية : نظرية الاشتراكية العلمية .

— التشكيل الطليعى كعقل جماعى للشعب وهيئة أركان للثورة وممثل حقيقى للعمال والفلاحين والمثقفين الثوريين المتراصين على اساس من وحدة المصالح الوطنية والاجتماعية .

— وحدة كل القوى المعادية للاستعمار والصهيونية وصاحبة المصلحة فى التحرر الوطنى والتقدم الاجتماعى على اساس ميثاق عمل لخدمة المصالح الوطنية المشروعة للطبقات الثورية .

نداء من العراق الى المثقفين فى كل مكان

جاءنا من العراق « نداء الى رجال الفكر والثقافة فى البلدان العربية وفى العالم »، موقـــع من « مجمـــوعة مـــن المثقفين العراقيين »، هذا نصه :

« اسمحوا لنـــا أن نطلعكم على وقائع عن بلادنا » .

« اغتيل وقتل تعذيبا فى بغداد والعراق خلال عامى ١٩٦٩ — ١٩٧٠ » .

احمد محمود الحلاق ، متى هنـــدو ، هاشم الالوسى ، عزيز فعل ضمد ، شـــعبان كريم ، كمال نامق ، صالح العسكرى ، عبـــد الامير سعيد ، ستار خضير ، محمد الخضرى ، لطفى صبرى ، عزيز حميد ، ماجد العبايجى ، ثامر التكريتى ، كاظم الجاسم ، مشكور مطرود .

« كما قتل آخرون . وفى [قصر النهـــاية] ومراكز الحرس الخاص ، السرية ، المنتشرة فى عموم البلاد ، يعانى آخرون صنوف التعذيب الجسدى والنفسى » .

« وفى عنـــاد تنتهك أولى ضرورات الوجود المتحضر ، حماية المواطن واحترام انسانيته » .

« ونحن نواجه مفترق طرق فى وقت انتهاك حرمة الفكر والانسان . فاما أن تدفع من الظهر الى جهنم الاهانات والتشويه الجسدى والموت قتلا ، واما الانطواء ثم الصمت واختزان الخوف فى داخلنا » .

« نحن نزاء لكم ، نتهم فى مجدكم ونضوق لـــكم وللـــكلمة مجد الديمومة » .

« بلادنا يسودها ارهاب اسود ، يهدد حياة القومى والديمقراطى والشيوعى والبعثى المتنور اما اغتيالا أو اختطافا . وفيما بعـــد التشويه البارد لوجود الانسان ، أفضل مخلوق ارضى يمشى ويعمل ويفكر . وتتم حوادث القتل والتعذيب فى العراق ضمن علاقات شبه اقطاعية ، قبلية فى مضامينها الاجتماعية والاخلاقية ، فتفرض بالمقابل ، الثأر وسفح دم جديد » .

« يمارس محققو الحرس الخاص ، المنبعث من جثة الحرس القومى الذى تم تشـــكيله فى انقلاب عام ١٩٦٣ ، سياسة هدر دم الانسان ، وتشديد الارهاب مما يؤدى جدليا الى أحكام حلقة الرعب التى تطوقهم . فهم يواجهون ضحاياهم دون أعتبار للقوانين المحلية والدولية ، وبتأييد من اجهزة الدولة يملكون القدرة على تصـــفية ضحاياهم جسديا . والتعبير عن غضبهم بأبشع مايمكن ، مصحوبا بقيم التحدى القبلى والجهل والسادية . فى حين يفتقد المعتقلون ، الضحايا ، أية حماية انسانية أو قانونية » .

ثم يقول النداء :

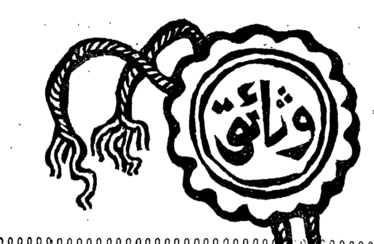
« وهكذا تنحسر سياسة الاقناع بالفكر والحجة وتحل محلها سياسة المسدس ، وكسارة العظام ، والمواقد الساخنة ، وسلخ أجزاء من لحم اجساد المعتقلين ، واســـقاط قطرات ماء على هامات الضحايا ، والتعليق من تقـــاطع الذراعين من الخلف » .

ويقول النداء :

« ... ومن هنا تكتسب الدعوة الى قطع نزيف دم القوى الديمقراطيـــة والقوميـــة فى العراق ، جوهرها الانســـانى وتكتسب تقدميتها وحضاريتها باستنكار اسلوب التصفية الجسدية لحملة الافكار ، واســـتبداله بحوار مفتوح مع الاطراف السياسية التقدمية ، وتمهـــد الدعوة بوعى الى بعث قيم الفكر القومى الانسانى فى بلادنا . كما تساعد على تجاوز الخلافات بروح التعاون والانفتاح على جوهر حضارة عصرنا ، الاشتراكية ، وتعزز جبهة النضال ضد أعـــداء شعوبنا ، الامبريالية والصهيونية والرجعية » .

« نكتب اليكم وفى داخلنـــا خوف ، ارفعوا أصواتكم ياحملة الفكر والثقافة ، وطالبوا بايقاف نزيف دم الضحايا من المعتقلين السياسيين فى معتقلات العـــراق ، طالبوا بايقـــاف عمليات قتل الديمقراطيين والقوميين والشيوعيين ، الحزبيين وغير الحزبيين ، ومعاقبة المجرمين على جرائمهم » .

مجموعة من المثقفين العراقيين
بغـــداد



دستور ١٩٢٣

اعداد وتعليق
د . رفعت السعيد
طـــارق البشرى

تواصل « الطليعة » فى هذا العدد نشر وثائق دستور ١٩٢٣ .

و «الطليعه» لا تكتفى بتقديم نصوص المـواد الهـامة من الدستور ولا المناقشـات التى دارت حولها فى اللجنـة التى اعـدته ، وانما تتبع « المادة »موضوع النقاش لتقـدم ما ثار حولها من آراء خـلال المراحل المختلفة لوضـع هذه « المادة » موضع التطبيق .

وفى العـدد المـاضى كان التركيز منصبا حول موضوع هام هو « تمثيل الاقليات الدينية »وتتبعت الـوثائق التى قـدمت الآراء والمواقف والاتجـاهات المختلفة فى هـذا الصـدد والصراعـات التى دارت حتى انتهى الامر بسـيادة فكـرة علمانية الدولة تحت شـعار « الدين لله والوطن للجميع » .

واليوم نقدم عددا من المـواد الاخرى مركزين اسـاسا على المواد المتعلقة بالحريات العـامة وحرية الصـحافة والـرأى والعقيدة على وجه الخصوص .

ان « الطليعة » تستهدف من تقديمها لهذه الوثائق ليس مجرد تقديم مادة ذات قيمة تاريخيـة بالغة الاهمية ، وانما ـ وهـذا هو المهم ـ تقديم صـــورة للاتجاهات الفكرية التى سادت فى هذه الفترة ، وان تبرز مدى اصالة فكرة الحرية فى الوجدان المصرى .

لجنة الدستور ٣

مادة ٥ — « لا يجوز القبض على اى انسان ولا حبسه الا وفق احكام القانون »

ثم تليت المادة الرابعة ، وهـــذا نصها :

لا يجوز القبض على اى شخص او حبسه أو محاكمته أو الحكم عليه الا وفق احكام القانون .

حضرة على ماهر بك — ارى ان يضاف الى هذه المادة أنه لايجوز محاكمة مصرى أمام محكمة استثنائية الا بمقتضى قانون صادر قبل ارتكاب تلك الجريمة

حضرة عبد العزيز فهمى بك — هذا مستفاد من قول المــادة : « وفق أحكام القانون » .

حضرة توفيق دوس بك — حيث انه وقعت حادثة رأى البرلمان ان تجرى المحاكمة فيها على أسلوب خاص .

حضرة على ماهر بك — هذا الذى أطلب تفاديه .

معالى الرئيس — تؤخذ الاراء على أصل المادة أولا .

فتقررت الموافقة عليها بالاجماع .

معالى الرئيس — الان تؤخذ الاراء على الاضافة التى يقترحها حضرة على ماهر بك .

وبعد المناقشة فى أن ذلك مستفاد من نص المادة أو غير مستفاد ، تقرر باجماع الاراء ان المبدأ مقبول وان ذلك المعنى يراعى عند تحرير المشروع .

(فى ١٥ اغسطس سنة ١٩٢٢)

تليت المادة الرابعة ، ونصها :

لا يجوز القبض على اى انسان ولا حبسه الا وفق أحكام القانون .

فوافقت الهيئة عليها بالاجماع .

(فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٢)

★ ان التحفظ الذى قدمه على ماهر والذى ينص على انه « لا تجوز محاكمة مصرى امام محكمة استثنائية الا بمقتضى قانون صادر قبل ارتكاب تلك الجريمة » هــو تحفظ بالغ الاهمية لانه يشل يد السلطة عن مواجهة الافراد باجراءات استثنائية لم تكن موجودة وقت وقوع الجريمة وقد ناقشت اللجنة النص المقترح وقررت بالاجماع «أن المبدأ مقبول»

لجنة الدستور ٣

مادة ٨ — « للمنازل حرمة ، فــلا يجوز دخولها الا فى الاحوال المبينة فى القانون ، وبالكيفية المنصوص عليهــا فيه » .

ثم تليت المادة السابقة ، وهـــذا نصها :

للمنازل حرمة واجبة ، فلا يجــوز دخولهــا لتفتيشها او معاينتها الا فى الاحوال وبالكيفية المنصوص عنهــا فى القانون .

تقرر الموافقة عليها بالاجماع .

(فى ٢٥ اغسطس سنة ١٩٢٢)

ثم تليت المادة السابعة ، ونصها :

للمنازل حرمة ، فلا يجوز دخولهــا لتفتيشها أو معاينتها الا فى الاحوال المبينة فى القانون وبالكيفية المنصوص عليها فيه .

سعادة عبد الحميد مصطفى باشا — المفهوم ان المنازل لا يجوز دخولهــا اطلاقا ، فأطلب حذف عبارة « لتفتيشها او معاينتها » .

حضرة توفيق دوس بك — هـــذا الاعتراض فى محله .

فوافقت اللجنة بالاجماع على المادة بعد حـــذف عبارة « لتفتيشهـــا أو معاينتها » .

(فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٢)

هناك فرق لفظى بين نصى المــادة فى كل من مشروع اللجنة الاستشارية ولجنة الدستور باللغة الفرنسية .

أما النص العربى فهو واحد . وتقول اللجنة فى ذلك أن التعديل الذى ادخلته شكلى محض ، وأنه انما يرمى الى زيادة الدقة والوضوح فى التعبير عن الغرض المقصود ، (انظر الدســتور البلجيكى والايطالى) .

مادة ١٠ — « عقوبة المصادرة العامة للاموال محظورة » .

تليت المادة التاسعة ، وهذا نصها :

عقوبة مصادرة الاموال عامة ممنوعة

فتقرر الموافقة عليها بالاجماع .

(فى ١٥ اغسطس سنة ١٩٢٢)

ثم تليت المادة التاسعة ، ونصها :

عقوبة المصادرة العــامة للاموال محظورة .

حضرة محمد على بك — النص خاص بالمصادرة التى تقع على عموم المال ، فهل مصادرة ثلاثة أرباع المال جائزة ؟

حضرة عبد الحميد بدوى بك — هذه المسألة لها أصل تاريخى . فقد كانت المصادرة تقع على عموم الاملاك دائما ومن أجل هذا نص على منعهـــا فى الدساتير . فاذا أراد الشارع أن يتحيل على الدستور باباحة مصادرة البعض دون الكل لم يكن ذلك جائزا على ما أعتقد ، ووجب منعه بحكم المادة التى نحن بصددها . ولا قلق لنا ، على كل حال ، من ابقاء كلمة « العامة » فى النص ، لان رفعها يخرجنا من حرج موهوم الى حرج حقيقى ، وهو منــع المصادرة اطلاقا — وهذا غير مقبول لان المصادرة جائزة فى أحــوال كثيرة خاصة ، كمصادرة السلاح ، والحشيش والالات التى اســتعملت فى ارتــكاب الجرائم ، وغير ذلك ...

حضرة الياس عــوض بك — ليس الغرض هنا بيان حكم مصادرة الاشياء الممنوعة ، وانما الغرض معرفة ما اذا كان يباح مصادرة جــزء من الملك المشروع .

سعادة فلبلى فهمى باشا — اطلب منع المصادرة اطلاقا لانها من الاحكام الاستبدادية القديمة التى لا يجــوز ابقاؤها فى القرن العشرين ، وابدالها بأى عقاب كالغرامة أو الحبس ، وان يستثنى من ذلك فقط الحشيش والاسلحة وما أشبهها من الاموال الممنوعة ، بشرط الا تتناول المصادرة ما سوى ذلك من الاشياء التى قد يستعان بها على التهريب ، كالمراكب والجمـــال وغيرها ، لجواز أن تكون هى كـــل ما يملك الشخص من ثروة ، فاذا صودرت جرد الشخص من كل ما يملك من أسباب الرزق .

فضيلة الشيخ بخيت — المصــادرة شرعا هى أخذ المال بطريق غير مشروع ولهذا حرمت فى الشريعة . واما اعدام الضار فلا يسمى مصادرة ، ولهـــذا اجازوا اعدام الحشيش ، واراقة الخمر وكسر دنانها ، وغير ذلك مما لايعتبر فى عرفهم مصادرة . فلذلك اقترح ان يكون نص المادة « مصادرة الامــوال ممنوعة » .

حضرة محمد على بك — اريد ان اطمئن على مســألتين : (الاولى) عوقب شخص بمصــادرة ثلاثة ارباع ماله أو تسعة أعشاره ، فهل يجوز هذا أو لا يجوز ؟ و (الثانية) هرب شخص حشيشا فصـــودر الحشيش والمراكب التى كانت تحمله ، وكــانت هى كل ما يملك المهرب ، فهــل المصادرة هنا جائزة او لا ؟

حضرة عبد الحميد بدوى بك — أما عن المسألة الاولى فهـــذا النوع من المصادرة ممنوع لانه تحيل على الدستور وأما عن المسألة الثانيـــة فالمصادرة جائزة لانها واقعة على مفردات الملك ولو استغرقت فى النهاية كل ما يملك المهرب لان الغرض لم يكن مصـــادرة عموم ماله .

حضرة توفيق دوس بــك — أقترح أخذ الرأى على بقاء المادة على حالها مع الاخذ بالتفسيرين اللذين استفسر عنهما حضرة محمد على بك وأجــاب بهما حضرة بدوى بك .

معالى الرئيس — يؤخذ الرأى على ذلك .

فتقرر بالاغلبية الموافقة على بقــاء النص على حاله مع الاخذ بالتفسيرين المذكورين .

(فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٢٢)

★ كان الملاك المصريين على حذر شديد من أن يتضمن الدستور اية نصوص تحمل شبهة تمكن الدولة من اتخاذ اى قرار تأميمى تجاه اموالهم ولهذا فقـــد ضمنت الدستور تلك المــادة التى تقــول بأن « عقوبة المصادرة العامة للاموال محظورة» لـــكن محمد على بك يريد أن يطمئن وأن يطمئن كل الملاك المصريين فيسأل :

« هل مصادرة ثلاثة ارباع المسائل جائزة ؟ »

وتؤكد اللجنة أن هذا ممنوع لانه تحايل على نصوص الدستور الصريحة ..

مادة ١١ — « لا يجوز افشاء اسرار الخطابات والتلغرافات والمواصلات التليفونية الا فى الاحوال المبينة فى القانون » .

لجنة الدستور :

ثم تليت المادة العاشرة ، وهـذا نصها :

اسرار الخطابات والتلغرافات التى تودع بمكاتب البريد والتلغراف واجبة الصون الا فى حالة التحقيقات الجنائية

حضرة عبد العزيز فهمى بك — لم تتناول المادة حكم مراقبة المخابرات التليفونية . فهل ترى الهيئة النص أيضا على حرمة المخابرة بالتليفون فلا يجوز مراقبتها سواء بتكليف العمال أو غيره باستراق السمع ؟ .

تقررت الهيئة الموافقة بالاجماع على أصل المادة مع اضافة النص الاتى اليها :

وكذلك اسرار المواصلات التليفونية

(فى ١٥ اغسطس سنة ١٩٢٢)

تليت المواد ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ونصها :

١٠ — لا يجوز افشاء أسرار الخطابات والتلغرافات التى تودع مكاتب البريد والتلغراف ولا أسرار المواصلات التليفونية الا فى حالة التحقيقات الجنائية .

... ...

... ...

تقررت الموافقة عليها بالاجماع .

(فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٢)

اللجنة الاستشارية التشريعية :

ان مبدأ عدم افشاء اسرار الخطابات والتلغرافات والمواصلات التليفونية مبدأ ذو صبغة عامة ودستورية .

والواقع ان الافراد يجدون ضمانا فعليا فى النص بصفة خاصة على عدم افشاء مصلحة البريد ومصلحة التلغرافات لاسرارهم ...

ولكن الصيغة الاولى كانت قابلة لان تؤول تأويلا مقيدا يكون من الخطر ابقاؤه حتى لهذه المصالح بالذات .

فمن جهة ، ليس سهلا ان يحدد متى حصل ايداع الكتاب او البرقية مكتب البريد أو التلغراف ومتى وجد مودعا »

ومن جهة أخرى ، يجب الا يقصر الاستثناء من مبدأ تحريم افشاء الاسرار على التحقيقات الجنائية دون غيرها . ذلك لان هناك احوالا اخرى — مثل حالة الافلاس البسيط اى الافلاس من غير تدليس حيث لا تحقيق جنائى — يصح فيها للسنديك أن يطلع على الكتابات او البرقيات المرسلة الى المفلس .

ولهذا فالافضل ان يكون المبدأ العام هو تحريم افشاء أسرار الرسائل الا فى الاحوال المبينة فى القانون .

★ كانت لجنة الدستور حريصة أشد الحرص على التأكيد على ضمان سرية الخطابات والتلغرافات والمخابرات التليفونية .. وأكد عبد العزيز فهمى بك أنه لا يجوز مراقبة التليفونات سواء بتكليف العامل او غيره باستراق السمع ..

وقد بلغ حرص لجنة الدستور فى تأكيد هذه الضمانة بان نصت على أن انتهاك هذه الحرمة غير جائز « الا فى حالة التحقيقات الجنائية » .

بمعنى أنه لا يجوز لاية جهة من جهات الامن ان تأمر بذلك طالما أن تحقيقا جنائيا لم يبدأ فى واقعة محددة .. فسدت بذلك اى احتمال للتلاعب بحجة « الامن » ..

لكن اللجنة الاستشارية التشريعية سجلت أن هذه الصيغة قابلة لان تؤول تأويلا مقيدا — وقد كان هذا هو بالفعل هدف لجنة الدستور — ومن ثم فقد اقترحت أن تحل العبارة المطاطة « الا فى الاحوال المبينة فى القانون » محل العبارة المقيدة والمحددة « الا فى حالة التحقيقات الجنائية » .

مادة ١٢ — « حرية الاعتقاد مطلقة »

تراجع التعليقات الواردة على المادة الثالثة من الدستور عند عرض المادة السادسة من اقتراح الرئيس .

(جلسة ٧ مايو سنة ١٩٢٢)

لجنة وضع المبادىء العامة للدستور :

حرية الاعتقاد الدينى مطلقة . فلجميع سكان مصر الحق فى أن يقوموا بحرية تامة ، علانية او غير علانية ، بشعائر اية ملة او دين . او عقيدة ما دامت هذه الشعائر لا تنافى النظام العام او الاداب العمومية .

تقررت الموافقة عليها بالاجماع .

(فى ١٥ اغسطس سنة ١٩٢٢)

فضيلة الشيخ بخيت — اطلب تعديل المادة العاشرة من باب حقوق الافراد لانها ، بحالتها الحاضرة ، لا يترهسا دين من الاديان ولانها تؤدى الى الفوضى والى الاخلال بالنظام . واطلب أن يكون النص قاصرا على الاديان المعترف بها سواء كانت سماوية او غير سماوية ؛ فلا يسمح بأحداث دين جديد كأن يدعى شخص مثلا أنه المهدى ويأتى بشرع جديد .

حضرة الشيخ محمد خيرت راضى بك — اطلب تعديل الفقرة الاولى من المادة وحذف كلمة الدينى منها ، فيقال أن حرية الاعتقاد مطلقة . وبغير هذا يباح لكل شخص أن يترك دينه ويعتنق دينا آخر دون أن يتحمل مسئولية من جزاء مدنى وغير مدنى مع انه لا نزاع فى أنه يترتب على تغيير الدين نتائج هامة فى الميراث وغيره . ويكفى أن يكفل النص حرية الاعتقاد لان هذا هو كل الغرض المقصود من المادة على ما اعتقد . أما الفقرة الثانية من المادة فقد جعلت اقامة الشعائر الدينية مطلقة من كل قيد وهذا قد يؤدى الى الاخلال بالنظام .

حضرة ابراهيم الهلباوى بك — اى اعتقاد تريد ؟ وهل يدخل فيه الاعتقاد الدينى او لا ؟ .

فضيلة الشيخ بخيت — الاعتقاد شىء والدين شىء آخر .. فالمسلمون افترقوا الى ثلاث وسبعين فرقة ، لكل فرقة اعتقاد خاص — مع أن لهم دينا واحدا

حضرة توفيق دوس بك — حذف كلمة الدين يوسع نطاق المادة ، فيجعل حرية الاعتقاد شاملة للمعتقدات الدينية وغير الدينية .

نيافة الانبا يؤنس — اقتراح الاستاذ مفيد ، ولنا عليه دليل قريب . فان سرجيوس المعروف لحضراتكم خرج من الدين ، وشرع فى استحداث دين جديد وطلب من الحكومة الترخيص له بذلك فرفضت وهذا دليل على أنه لا يمكن الترخيص بغير الاديان المعترف بها .

حضرة عبد العزيز فهمى بك — اقامة الشعائر الدينية ان اخلت بالنظام العام بمقتضى النص الحالى منعها ، وأن لم تخل به فلا سبيل لمنعها . والفت نظر اللجنة الى أن هذا النص مأخوذ بحروفه من مشروع اللورد كرزون ، وقد اتفقنا على أن نأخذ هذه النصوص فى دستورنا حتى لا نرغم على وضعها عند المفاوضات .

معالى الرئيس — تؤخذ الاراء . تقرر بالاغلبية بقاء المادة على حالها

(فى ٢٨ اغسطس سنة ١٩٢٢)

فضيلة الشيخ بخيت — حسما للنزاع الذى قام بشأن المبدأ الخاص بحرية الاديان اقترح أن تحذف كلمة « الدينى » فى صدر المبدأ السابق من حقوق الافراد ليكون «حرية الاعتقاد مطلقة » بدلا من «حرية الاعتقاد الدينى مطلقة » . واقترح للسبب نفسه استبدال كلمة « دينه » فى المبدأ الثانى عشر من حقوق الافـراد بـ « عقيدته » ، لتكون العبارة « ليس لوطنى مصرى أن يحتج بأحكام عقيدته» موافقة عامة »

(فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٢)

١١ — حرية الاعتقاد مطلقة .

(فى ٢٩ أغسطس سنة ١٩٢٢)

مادة ١٣ — « تحمى الدولة حرية القيام بشعائر الاديان والعقائد طبقا للعادات المرعية فى الديار المصرية ، على الا يخل ذلك بالنظام العام ولا ينافى الاداب » .

لجنة وضع المبادىء العامة :

دولة الرئيس (حسين رشدى باشا)

مادة ٢ — لجميع سكان مصر الحق فى أن يقوموا ، بحرية تامة ، علانية أو غير علانية بشعائر أية ملة أو دين أو عقيدة ما دامت هذه الشعائر لاتنافى النظام العام او الآداب العمومية [1]

موافقة بالاجماع .

(فى ٧ مايو سنة ١٩٢٢)

تراجع التعليقات الواردة على المادة الثالثة من الدستور عند الكلام على المادة السادسة من اقتراح الرئيس .

(جلسة ٧ مايو سنة ١٩٢٢)

فضيلة الشيخ بخيت — وثالثهما اقترح حذف الفقرة الواردة ضمن نصوص حماية الاقليات التى نصها « لجميع سكان مصر الحق فى أن يقوموا ، بحرية تامة ، علانية أو غير علانية ، بشعائر أية ملة أو دين أو عقيدة » لان فيها مساس بجميع الاديان الموجودة الان فى مصر ، وتؤدى بها الى الفوضى بل هى تؤدى الى محوها

رفض الاقتراح .

(فى ١٩ مايو سنة ١٩٢٢)

لجنة الدستور :

١٢ — تحمى الدولة حرية القيام بشعائر الاديان والعقائد طبقا للتقاليد المرعية فى الديار المصرية ، على الا يخل ذلك بالاداب ولا ينافى النظام العام

(فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٢)

اللجنة الاستشارية التشريعية :

ان لفظة « عادات » أدق فى المعنى من لفظة « تقاليد » وتمتاز عليهما بدلالتها القانونية وتحقق الغرض المقصود .

ورد فى النص الفرنسى الاصلى لفظة « Morale » فاستبدلت اللجنة بها لفظتى « bonnes moeurs » مشيرة الى ان كلمة « Morale » تعتبر ترجمة موفقة للفظة « آداب » بل هى أوسع منها دلالة واكثر مرونة فلا يصح بقاؤها فى المادة الثالثةعشرة ولا فى المادة السابعة عشرة .

★ وردت هاتين المادتين ضمن ما اسمىبمواد «لحماية حقوق الاقليات»

وقد حاول الانجليز أن يدعوا انهم حماة الاقليات الدينية وأن تسليم الحكم للمصريين لا بد وأن يصاحبه تقديم ضمانات للاقليات . لكن الاقليات الدينية كانت من الوعى ومن التمسك بالمبادىء الوطنية بحيث أفسدت مخطط المستعمرين .

وان كان يتضح من المناقشات ان شبح المناورة البريطانية كان ماثلا خلال جلسات مناقشة هذه المواد فنرى عبدالعزيز فهمى يطالب بتحرير المادة كما هى « حتى لا نرغم عليوضعها عند المفاوضات».

ومن الجدير بالذكر ان المادة ١٣ لم تكتف بضمان « حرية القيام بشعائر الاديان والعقائد » وانما نصت بشكل وجوبى على ضرورة قيام الدولة بحماية هذا الحق .

مادة ١٤ — « حرية الرأى مكفولة ولكل انسان الاعراب عن فكره بالقول او الكتابة او بالتصوير او بغير ذلك فى حدود القانون » .

لجنة الدستور :

تم تليت المادة الرابعة عشرة ، وهذا نصها :

حرية الراى مضمونة . فلكل انسان الحق فى التعبير بحرية عن فكره سواء بالكلام او بالكتابة او بطريق الصحف او بالتصوير بشرط أن يراعى حدود القانون .

حضرة عبد اللطيف المكباتى بك — كلمة « بشرط أن تراعى حدود القانون » تجعل هذه المادة فى حكم العدم . فأقترح ابدالهـا بكلمة « بشرط ان تراعى حدود القوانين العامة » لاننا لو حددنا حرية الصحافة فقد هدمنا بأيدينا كل ما نحاول تشييده من قواعد الحرية .

حضرة على ماهر بك — أرى تقرير النص الاتى ، بحيث تصاغ له مادة جديدة وهو : « حرية الصحافة مضمونة . فلا يجوز وضعها تحت الرقابة ولا تقييدها بامتياز . والمسئولية المترتبة على اساءة استعمال هذه الحرية يحددها القانون » .

الحرية الصحافية هى المظهر الاول لسائر أنواع الحريات الاخرى . وانما أريد من اثبات هذا النص أنه لا يمكن ولا للبرلمان ، وخصوصا فى الاحوال العادية ، وضع الصحافة تحت أية مراقبة ، ولا أن يكون للسلطة الادارية الحق فى منع أحد من اصدار صحيفة

أرى أن يكون هذا الحق ثابتا مطلقا من كل قيد . فاذا أساء أحد لاستعماله بأى نوع من انواع الاساءة ففى القانون العادى غنى وكفاية .

حضرة محمد على بك — أرى انه لا يجوز لكل شخص أن يصدر صحيفة

حضرة على ماهر بك — اذا أردتم اشتراط صفات خاصة فى الصحافى فبينوها ؟ كالا يكون محكوما عليه بما يخل بالشرف ، ونحو ذلك ، ولكن لا تفسحوا المجال لتحكم الادارة .

وانى مع موافقتى على أصل المادة المعروضة أقترح اضافة مادة جديدة بالنص الذى ذكرته .

فضيلة الشيخ محمد بخيت — أقترح ان يضاف الى حرية الصحافة حرية التأليف .

حضرة محمود أبو النصر بك — هذه يدخل فى حرية الكتابة .

حضرة عبد العزيز فهمى بك — لقد اجلت الفكر طويلا فى هذه المسألة ، وكان مما عرض لى وضع النص الاتى « ولا يجوز فى اى حال ان يقيد القانون هذا الحق فى ذاته » . وهذا النص واف بما يرمى اليه حضرة عبد اللطيف المكباتى بك .

وكان عرض لى كذلك المبدأ الاتى : « لا حاجة الى تصريح سابق من اى سلطة كانت لاخراج اى نشرة من اى نوع يكون . ولا يجوز اقتضاء اية ضمانة من مؤلف النشرة أو مديرها أو ملتزم طبعها أو طابعها . والمراقبة والانذارات الادارية للنشرات المطبوعة ممنوعة .

ترددت فى تقرير هذين المبدأين بين رأيين مختلفين ، وهما : هل يجب أن نكون احرارا فى صحافتنا حرية مطلقة لا يحدها اى اعتبار ، أم الواجب ان نأخذها بقيود خاصة ضمانا لجريانها فى انفع الطرق وأمثلها لمصلحة البلاد ؟

والسؤال هو : هل نضع فى يد البرلمان حق تقييد الصحافة بقيود وأخذها بشروط خاصة بحيث يستطاع منع السياسيين ونهشة الاعراض مثلا من معالجة مهنة الصحافة ، وبحيث لا نسمح لكاتب بالاخلال بالنظام أو مخالفة الاداب العامة ؟ .

أم أن نطلق الحرية الصحافية اطلاقا تاما ، والحرية نفسها كفيلة بتنظيم نفسها وتطورها مع الزمن إلى الاصلح الانفع ، فلا يجسد السباب المعتدى من يقبل على قراءة جريدته — فهو بين أن يستقيم وبين أن يترك المهنة بتاتا ؟ وأى الرأيين أجدى علينا وأنفع فى ظروفنا ؟ وانى أميل الان للرأى الثانى وهو اطلاق الحرية الصحافية .

ولقد عرضت على حضراتكم مابدا لى من وجوه الرأى فى هذه المسألة ولكم أن تقرروا ما ترون .

حضرة محمد على بك — أوافق على ابقاء المادة الرابعة عشرة على أصلها والموضوع انما ينحصر فى النقطة الاتية :

---

[1] هذه المادة اقتراح من دولةالرئيس .

هل يملك البرلمان الحق فى وضع القوانين اللازمة للصحافة تأمينا للنظام وصونا للاعراض أم لا ؟

حضرة على ماهر بك ـ هذا تكفل به قانون العقوبات . والذى أريده الا يكون للبرلمان ـ خصوصا فى الاحوال العادية ـ الحق فى تشريع قوانين تبيح للحكومة مراقبة الصحف أو عدم الترخيص باصدارها .

سعادة قطاوى باشا ـ لماذا نضعف ثقتنا بالبرلمان الى هذا الحد ، ان البرلمان من جهة اخرى لا يعسر عليه ان يقرر اعلان الاحكام العرفيـة ، وحينئذ يستطيع القبض على ناصية الصحافة وتعطيل حريتها .

معالى الرئيس ـ يؤخذ الرأى أولا على ابقاء المادة الرابعة عشرة أو تعديلها كما اقترح حضرة المكباتى بك .

فتقرر باغلبية الاراء الموافقة عليها من غير تعديل .

معالى الرئيس ـ اذن يؤخذ الرأى على المادة الجديدة التى اقترح وضعها حضرة على بك ماهر .

حضرة عبد اللطيف المكباتى بك ـ ان من أعظم الخطر على البلاد أن يسمح لكل انسان بأن يتصدى للصحافة ويجلس فى مجلس الارشاد العام .

حضرة توفيق دوس بك ـ نعم هذا خطر شديد .

حضرة على ماهر بك ـ أسلفت أنه لا مانع من تقييد هذا الحق كأن ينص على أنه لا يجوز مزاولة الصحافة للاشخاص المحكوم عليهم بأحكام تخل بشرفهم .

حضرة عبد العزيز فهمى بك ـ النص الذى اقترحه على بك ماهر يتضمن أمرين : أولهما ان كل انسان له الحق فى مزاولة مهنة الصحافة بدون تصريح والثانى انه لا يمكن اصدار قانون يجعل الجرائد تحت مراقبة أو عقوبة ادارية فالنص الذى عرضه لا يجىء مباشرة مع النص الذى وافقتم عليه ، وعلى ذلك ينبغى تعديله كما يأتى : « لا حاجة الى تصريح سابق من أى سلطة كانت » الخ .

حضرة على ماهر بك ـ انى اتقبل ذلك واترك للهيئة اختيار أحد النصين

معالى الرئيس ـ تؤخذ الاراء .

فتقرر بالاغلبية رفض كلا الاقتراحين

(فى ١٥ اغسطس سنة ١٩٢٢)

لا يمنع المحامى من الاشتغال بالسياسة الا كممثل للمحامين أو لجمعيتهم العمومية أو مجلس نقابتهم

وحظر الاشتغال بالسياسة على الجمعية العمومية ومجلس النقابة وهما منعقدان بهذه الصفة ، سببه أن هذه الهيئات المشكلة بمقتضى القانون انما تشكل لاصلاح طائفى واجتماعى فلا يصح ان تكون اداة سياسية .

مشروع قانون المحاماة لدى المحاكم الاهلية :

مجلس النواب :

المقرر :

مادة ١١٠ ـ اجتماعات الجمعية العمومية للمحامين لا تسرى عليها احكام القانون الخاص بالاجتماعات العامة ، وتكون اجتماعاتها فى سراى محكمة الاستئناف أو دار النقابة بالقاهرة .

« ويحظر على الجمعية العمومية ومجلس النقابة أن يشتغلا بالسياسة كما يحظر عليهما الاشتغال بالامور الدينية » .

حضرة النائب المحترم الاستاذ الشيخ محمد عبد اللطيف دراز ـ اقترح أن تضاف كلمة « الحزبية » بعد كلمة « بالسياسة » .

المقرر : كلمة السياسة كلمة عامة تتضمن كل ما يتعلق بالسياسة الحزبية كانت أو غير حزبية .

حضرة النائب المحترم الاستاذ محمد عبد اللطيف دراز ـ يوجد نوع من السياسة العامة أرى أنه يجب أن يشتغل به جميع المصريين وفى مقدمتهم المحامون .

المقرر ـ لا شك أن لكل مصرى أن يشتغل بالسياسة ، ولكننا اذا وجدنا هيئة شكلت قانونا لتنظر فى أحوال طائفة معينة فلا يمكن أن نزج بها فى تيار الاشتغال بالسياسة .

وحظر الاشتغال بالسياسة مقصور على الجمعية العمومية ومجلس النقابة وهما منعقدان بهذه الصفة انما هذا لا يمنع من أن يشتغل أى محام بالسياسة كيفما شاء .

حضرة النائب المحترم الاستاذ الشيخ محمد عبد اللطيف دراز ـ اعلم أن الاشتغال بالسياسة مباح لجميع الافراد ولكنى اقصد نوعا معينا من السياسة وأرى أنه يجب على كل فرد من أفراد الامة أو هيئة من هيئاتها ، فى ظرف من الظروف أن تشتغل به . وقد سبق فى ظرف من الظروف أن طلبتها الى القضاة الاشتغال بهذا النوع من السياسة القومية . ولا أفهم كيف يحرم على طبقة مستنيرة كالمحامين الاشتغال به .

حضرة صاحب المعالى الاستاذ ابراهيم عبد الهادى (وزير الدولة للشئون البرلمانية) ـ مثل هذه التشكيلات فى الهيئات الخاصة مقصود بها صيانة اجتماعية لهذه الهيئات ولهذه الجماعات باعتبار أن وجودها وكيانها لازم لتقويم فكرة علمية أو فضائية فى البلد . اما النظام السياسى وتشكيل الهيئات للعمل السياسى ، فقد كفله الدستور ، فأوجد المجالس النيابية وما دامت المجالس النيابية موجودة ، وما دام حكم الدستور قائما ، فليس محل مطلقا لان توزع هذه الاختصاصات توزيعا لا مقتضى له بحال من الاحوال اترك الجماعات الخاصة تكون تكوينا عائليا ، فلا يقوم الحرج الحزبى أو السياسى مانعا لاحد أفرادها من أن ينتفع بها طوائف كهذه ، كلها من خلاصة الخلاصة ، لافرادها كرامتهم وتفسيتهم . فتصور اذا هم استمروا يتناحرون كمجموعة ويتقاتلون سياسيا وانت لا تستطيع أن تحكم الجماعة فى فكرة واحدة ، اذ لا بد من أن يختلف الناس ، وقد اختلفوا منذ كانوا ، فى أفكارهم وآرائهم . فان أنت سمحت للسياسة أن تدخل فى هذه الجماعات سمحت للحزبية أن تدخلها .

هذا شأن الله فى الناس من يوم أن خلقوا « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » . بناء على هذا قصد المشروع أن يكون كل خير من هذه الهيئات منتفعا به كل واحد من أهلها ، فلا يجد فى نفسه حرجا أن يطلبه من القائم بأمر هذه الهيئة .

انما اذا مرت التيارات الحزبية بين هذه الجماعات فلا شك أن كل صاحب فكرة اذا مسته الحاجة الى التماس معونة من هذه الجماعات فان كبرياءه سيمنعه ، وتحول بينه وبين أن ينتفع بحقه من يد الآخر ، ما دام يراه خصمه . أما اذا امتنعت الهيئات من الاندماج فى السياسة صارت النظرة لفكرة اخوة وصداقة ووحدة واسرة ، لا يرى أحدهم مانعا من أن ينتفع بكامل حقوقه من أية يد ، لانه فى هذا الوقت ليس هناك الا محام ومحام ، وصديق وصديق ، وزميل وزميل .

من اجل هذا كان المبرر الصحيح الصادق فى منع هذه الهيئات وعزلها من الاشتغال بالسياسة . وللسياسة مجالها ، ولها هيئاتها التى كفلها الدستور ، فليشتغل كل من شاء

بالسياسة ؟ لكن خارج هذه الجماعات العائلية حتى يمكنها أن تؤدى الغرض الاسمى الذى أنشئت من أجــــــله (تصفيق) .

حضرة النائب المحترم الاستاذ محمود سليمان غنام — إعتقد أن حضرة النائب المحترم الاستاذ الشيخ محمد عبداللطيف دراز ما كان يرمى الى تسجيل فى صلب هذه المادة وانما كان يقصـــد ذلك الشعور العام الــذى طغى على البلاد فى يوم من الايام ، وهو لايريد أن يحرم مجلس النقابة أو الجمعيــة العمومية من إظهاره أو مشاركة الامة فى ابدائه ، كأن تساهم البلاد فى الدفاع الوطنى بالمال ، فيقرر مجلس النقابة أو الجمعية العمومية — كمـا حدث فى الماضى — المساهمة فى مثل هذا المشروع الوطنى العام .

فاذا كان هذا — كما فهمت — هو الذى يقصـده حضرة الزميل المحترم فأرى ان يكتفى باثبات ذلك فى مضبطة الجلسة . أما الاشتراك فى السياسة الحزبية فلا يوجد شخص يوافق على زج مجلس النقابة او الجمعية العمومية فيها ، ولكن الشعور العام الــذى قد يفيض على البلاد فى يوم من الايام فاعتقد انه لا للدستــور ولا قانون المحاماة يمنعان اعضاء مجلس النقابة أو الجمعية العمومية — سواء بصفتهم الشخصية او بصفتهم الرسمية العامة — من أن يشاركوا الامة فى ابداء هذا الشعور .

حضرة النائب المحترم الاستاذ محمد حامد محسب — اريد أن استفسر عن الجزء الذى يوقع فى حالة اشــتغال مجلس النقابة أو الجمعية العموميـة بالسياسة ، حيث أن المادة العاشرة بعد المائة خلو من النص على ذلك .

المقرر — لقد وافقنا على هذا المشروع فى الدورة الماضية ، واذا رجع حضرة النائب المحترم الى الاحكام الاصلية فى صلب القانون ، وجد الجواب على استفساره .

حضرة النائب المحترم الاستاذ محمد حامد محسب — الذى يتبين من نص المادة العاشرة بعد المائة أن اجتماعات مجلس النقابة والجمعية العموميـة ، لا يسرى عليها قانون الاجتماعات . فاذا اشتغلت الجمعية العمومية بالسياسة فهل يطبق عليها قانون الاجتماعات أولا ؟

وهل تعتبر القرارات التى تقررهـا ملغاة أو تمنع من الاجتماع ؟ هـذا ما أردت الاستفسار عنه .

حضرة النائب المحترم الدكتور حلمى ابو العلا — لا أوافق زميلى المحترمين الاستاذ الشيخ محمد عبد اللطيف درازا والاستاذ محمود سليمان غنام فيما يتعلق بحـــق الجمعية العمومية فى الاشتغال بالسياسة أو الشعور العام كما وصفه الاستاذ غنام ، اذ الواقع انه قد آن الأوان لهيئاتنا التى تشتغل بشئون الطوائف والجماعات أن تكون بعيدة كل البعد عن التدخل فى السياسة سواء كانت عامة او خاصة ، حزبية أو غير حزبية . واعتقد أن هـــذه الهيئات تستطيع أن تشتغل بالسياسة كأفراد لا كهيئات ، بمعنى أنه اذا أراد محام أن يتبرع للدفاع الوطنى فله أن يتبرع كمحام فقط . أما صدور قرار من الجمعية العمومية بالتدخل فى السياسة فهذا ما يجب أن نترفع عنه فى التشريع المعروض علينا الان . لذلك أؤيد اللجنة فى بقاء المادة كما هى .

حضرة النائب المحترم الاستاذ عزيز مشرقى — فيما يختص بالجزء الــذى يستفسر عنه حضرة الزميل المحـــترم الاستاذ محمد حامد محسب أرى أن محل ذلـــك اللائحة الداخليــة التى ستضعها الجمعية العمومية ، واذكر أن بعض القوانين الاوربية تنص على أن للنائب العام أن يرفع الى محكمة النقض كل قرار يصدر من الجمعيــة العمومية مخالفا لقانون المحـامين ، فتصدر محكمة النقض حكمها فى ذلك . وبطبيعة الحال ستراعى الجمعيــــة العمومية عند وضع اللائحة الـداخلية النص على عقوبة فى حالة مخـالفة حكم المادة العاشرة بعد المائة .

حضرة النائب المحترم الاستاذ محمد عبـد اللطيف دراز — يظهر أن بعض حضرات النواب المحترمين فهموا أنه سيترتب على الاخذ باقتراحى تعطيـل تنفيذ هذا القانون الذى بذلت فى سبيل إصداره جهود شاقة ، تلك الجهـود التى تحدث منها حضرة المقرر . وهذا ما لا اقصده ، وانما قصدت أنه لا ينبغى أن ينص القانون على أن تحرم نقابة المحامين من استعمال حق يملكه المصريون جميعـــا ، هبوا حضراتكم ان ظلما طغى على البلاد ، فحل البرلمان والغى الدستور ، وقضى على الــكثير من حقوقنا ، ألا يجب علينا جميعـا ، افرادا وجماعات ، وعلى هيئاتنـــا المختلفة كلها ، أن نقف فى وجه هــذا الخطر ، لا شك ان هذا النظام الذى سيطغى علينا فى يوم من الايام احتمالا (ضجة) سيتمسك بهذا القانون . وانى اكتفى بأن يصرح حضرة المقرر بأنه فى هذا الظرف لا يمنع هيئة من الهيئات المصرية من الاشتغال بالسياسة (ضجة) .

المقرر — فى مثل هذا الظرف أكون أول من يشتغل بالسياسة .

حضرة صاحب المعـــالى الاستاذ ابراهيم عبد الهادى (وزير الـــدولة للشئون البرلمانية) — حقا ان حضرة النائب المحترم الاستاذ الشيخ دراز ، وهو من أخبر الناس بمثل هذه الفروض يعرف أن هذه المسائل حينما تفترض لا ينتظر ممن يتخذ هذه الاجراءات أن يستند الى تشريع ما ، اذ ما الفائدة من اعطاء مجلس النقابة او غيره هذه الرخصة فى اليوم الذى تقول فيه ان مجلس النواب غير موجود ؟ وما القيمة او الاهمية فى التوقيع من شـــخص ما بأنه عضو مجلس النقابة ، وزميلى المحترم اعلم الناس بأن هذه اعتبارات لا وزن لها ، فى مثل هذه الظروف التى تنادى كل اهل الوطن للدفاع عن حق من حقوقهم ؟ هذه مسألة لا تحتــاج الى تصريح ، بل هو الهـــام وطنى وتقدير شخصى ، أما اعطاؤك ترخيصا مثل هذا فلا قيمة لـــــه ، اعنى ان المحامين اذا اتفقوا على توقيع ملتمس باعتبارهم محامين ، لا باعتبــــارهم جمعية عمومية ، لماذا تخلع عليهم بتسميتهم جمعية عمومية ؟

اننى ارى أن هذه فروض لا محل لها مطلقا ، والنص على منع الاشتغال بالسياسة لا يحرم احدا من شىء الا كممثل للمحامين او لجمعية عموميـة فبعد أن ينفض اجتماع الجمعية العمومية أو مجلس ادارة النقابة يكون المحامون أحرارا فيما يعملونه ، والحكومة عندما تسمح بتشكيل خاص للمحامين لاتفترض أنها تعمل بهذا أداة سياسية تقـوم باصلاح طائفى واجتماعى .

(تصـــفيق)

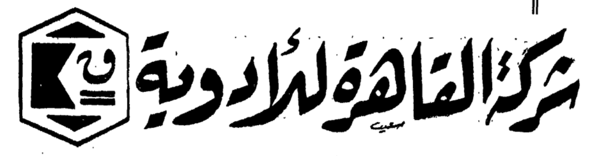
حضرة النائب المحترم الاستاذ الشيخ محمد عبـــد اللطيف دراز — اقتنعت وموافق .

الرئيس — والان هـــل توافقون حضراتكم على المادة العاشرة بعـــد المائة ؟

(موافقة عامة) .

[فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٣٩]

★ من المعروف أن حكومات الاقليات كانت تحاول الحد من النفــوذ السياسى لحزب الوفد فى التجمعات المهنية وفى نقـابة المحامين التى كانت على وجه الخصوص تجمعـا يمارس الوفد فيه نفوذا أساسيا . وقد كان مشروع قانون المحاماة الذى تقدمت به الحكومة عام ١٩٣٩ احدى حلقات هذه المحاولة وقد نص فيـه على انه « يحظر على الجمعية العمومية وعلى مجـلس النقابة أن يشتغلا بالسياسة ..»



الاهداف التى حققها القطاع الدوائى:

التنمية البشرية :

عملت المؤسسة منذ انشائها على خلق جيل جديد من العلماء والعمال المهرة المتخصصين فى صناعة الدواء ، يساعد على ذلك البعثات الداخلية والخارجية والتدريب فى مصانع الادوية العالمية .

العمالة :

فى عام ١٩٥٢ كان عدد العاملين فى صناعة الدواء ٤٥٠ عاملا غير مدربين تلزمهم الدقة والاصول الفنية لهذه الصناعة .

وفى عام ١٩٦٠ — ١٩٦١ وصل عدد العاملين فى قطاع الدواء الى ١١٠٠ عامل .
ومن ناحية اخرى تطورت نسبة الفنيين والخبراء بشكل اعطى القطاع الدوائى قدرة المشاركة والمعاونة الفعالة فى خلق وتشييد الصناعات الدوائية فى كثير من الدول العربية والافريقية .

الاجور :

فى عام ١٩٥٢ :
كان متوسط اجر العامل ١٠٠
فى عام ٦٠ — ١٩٦١
أصبح متوسط اجر العامل ١٧٩
فى عام ٦٩ — ١٩٧٠
أصبح متوسط اجر العامل ٣٧٠
بزيادة تدرها ١٠٧٪ .

بجانب الميزات العينية التى تقدمها المؤسسة وشركاتها مثل تقديم الواجبات الغذائية وتوفير الرعاية الصحية ووسائل المواصلات والملابس الموحدة داخل المصانع كما تقوم بتشجيع الانشطة الرياضية والاجتماعية والترفيهية ، هذا علاوة على توفير الارباح والمكافآت التشجيعية والجوائز التقديرية .

انتاجية الفرد :

فى عام ١٩٥٢ كان متوسط انتاجية الفرد ٤٥٠ جنيها .

فى عام ٦٠ — ١٩٦١ اصبح متوسط انتاجية الفرد ١٠٠٠ جنيه .

وبقيام المؤسسة المصرية العامة للادوية حدثت طفرة كبيرة فى متوسط انتاجية الفرد أذ بلغت عام ٦٩ — ١٩٧٠ ماقيمته ٢٩٠٠ جنيه .

أسباب زيادة متوسط انتاجية الفرد

- الشعور بالتحرر من اثر رأس المال الفردى ، وملكية الشعب لوسائل الانتاج .
- اشتراك العاملين فى مجالس ادارة الشركات .
- الاشتراك فى الحصول على نسبة من الارباح .
- تنسيق المؤسسة لجهود شركاتها فى حسن اداء الطاقة الالية والبشرية .

وقد قفز الانتاج المحلى للادوية قفزات واسعة ، فبعد أن كان قيمة انتاجنا المحلى نصف مليون جنيه عام ١٩٥٢ الى ٣ر٤ مليون جنيه عام ٦٠ — ١٩٦١ ليصبح انتاجنا ١ر٣٩ مليون جنيه عام ٦٩ — ١٩٧٠

مطابع الأهـرام التجارية

الثمن ١٠ قروش



٩
السنة السابعة - سبتمبر ١٩٧١

- ليس بالألم وحده ، يعيش الانسان العربي

- **الثورة العرابية :**

الفكر والصراعات الاجتماعية في الثورة الوطنية الأولى

- نيكسون يطرق ابواب سور الصين العظيم

- ٨٠ شهرا من حياة الطليعة : المواقف والاتجاهات

عدد خاص



طريق المناضلين الى

الفكر الثورى المعاصر

مجلة شـــــهرية
تصدر اول كل شهر

رئيس التحرير :

لطفى الخولى

مستشارو التحرير :

د. ابراهيم سـعد الدين
ابو سـيف يوسـف
د. اسماعيل صبرى عبدالله
د. جمـال العطيفى
د . رشـدى سـعيد
د. عبـد الرازق حسـن
د. لطيفـة الزيات
د. محمـد الخفيف
محمـد سـيد احمـد

مدير التحرير :

ميشيل كامل

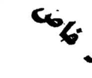
■

عنوان المراسلات :

مبنى مؤسسة الاهرام شارع الجلاء القاهرة تليفون : ٤٦٤٦٤ — ٩٥٠١٠ — ٥٩٥٦٠

الاشتراكات :
لسنة بالبريد العـادى ج.ع.م. دول اتحـاد البريد العـربى ودول الدار البيضاء ١٢٠ قرشا .







الفهـــــرس

عدد خاص

العدد التاسع ـ السنة السابعة ـ سبتمبر ١٩٧١

ورقة رأى

مع هذا العدد « ورقة رأى » تتوجه بها « الطليعة » الى اصدقائها · وذلك فى محاولة لاستكشاف آراء وانتقادات الاصدقاء · وهى على ثقة من أن الاصدقاء سوف يولون هذه الورقة ، اهتمامهم ، فهذا الاهتمام ، فوق انه رصيد الثقة الذى تعتز به الطليعة ، يغدو - اليوم - ونحن على اعتاب مرحلة جديدة ، ضروريا لتوجيه المسار باستمرار نحو الطريق الصحيح ·

و « الطليعة » تقدم « ورقة الراى » الى الاصدقاء ، مستلهمة الحكمة العربية القائلة : صديقك من اصدقك لا من صدقك » !

ان « الطليعة » ميدان مفتوح لكل راى حر ، وفى اعتقادنا أن تفاعل الاراء الحرة على اختلافها هو وحده الذى يستطيع ان يبلور ويستخلص وحده فكرية أصيلة ·

من هذا المفهوم تفتح « الطليعة » صفحاتها لكل راى لديه كلمة يقولها - مؤمنة بشعار الحرية المجيد الذى اطلقه فولتير فى القرن الثامن عشر « قد اختلف معك فى الراى ولكنى على استعداد لان ادفع حياتى ثمنا لحقك فى الدفاع عن رأيك » ! ·



ليس بالألم وحده ..
يعيش الانسان العربى

ليس بالالم وحده ، يعيش الانسان العربى المعاصر ، مآسيه وصراعاته • وبتحديد أدق ، نقول : ليس بالألم وحده ، نواجه الاحداث الدامية الاخيرة ، فى الوطن العربى •

فالالم الانسانى مهما بلغت حدته ، يغدو – مع الزمن – ذكرى وعبرة • والاحداث رغم قسوتها ، لن يتخلف عنها سوى بعض البصمات ، يحفظها التاريخ فى سجلاته ، كاشفا عن الدور الحقيقى لصاحب كل بصمة •

أما الوطن فيبقى دائما حيا ، متجدد الحيوية ، يعيش المستقبل فى الحاضر بكل آلامه ، ويحضر الى المستقبل بكل آماله ، متخطيا جميع الاحداث العارضة وشخصيات الافراد ، أيا كان وزنها •

بيد أن هذا كله ، لا يعفينا – ونحن ابناء يومنا الذى تفجرت فيه هذه الاحداث – من المسئولية • وبتعبير آخر ، نحن مطالبون بأن نواجه هذه الاحداث من خلال مسئولياتنا تجاه الثورة العربية : بناء ومسارا وأهدافا •

فالأحداث التى استعذب فيها الاخ سفك دماء أخيه ، كشفت ببشاعة ، عن خلل خطير فى حركة الثورة العربية المعاصرة •

وتنبع خطورة الخلل من أنه يتصل مباشرة بمركز الثقل الاستراتيجى لحركة الثورة ، ونعنى به وحدة القوى الوطنية والتقدمية •

وهذه الوحدة ، بكل ما تحمله من طاقات وخبرات بشرية واجتماعية وسياسية واقتصادية ، هى أمضى مايملكه وطننا – على المستوى الاقليمى والقومى – من سلاح

دفاعي هجومي ضد العدوان الصهيوني الامبريالي ، وضد التخلف الاقتصادي والاجتماعي لشعوبنا •

وافتقادنا لهذا السلاح ، أو لجزء من فاعليته ـ وخاصة في مرحلة الجذر ـ لا يضعف فحسب من جبهتنا ، وانما يمنح العدو ميزة استراتيجية جديدة •

واعتقد ، اننا لسنا في حاجة الى مزيد من الحديث حول هذه القضية • ذلك ان درس التاريخ الانساني بتجاربه المحلية والعالمية أبلغ من كل كلام يمكن أن يقال أو يكتب •

ولقد قلنا ـ جميعا ـ وكتبنا ، شعرا ونثرا ، خطبا منبرية ومقالات صارخة وهامسة ، حتى لا نخشى أن يكون ذلك قد أجهدنا عن فعل شيء • والواقع أنه مالم نلزم أنفسنا الزاما عمليا بالتعلم من تاريخنا فسنظل ندور في حلقتنا المفرغة • نطرب لشعارات مصقولة الرنين ، نهلل لنغماتها ونتهرب من أحكامها العملية • نبكي شهداءنا الذين هم ضحايانا قبل أن يكونوا ضحايا العدو ، في محاولة لغسل أيدينا من دمائهم • نشغل أنفسنا بلعبة تبادل الاتهامات البيزنطية ، ونتوهم تارة بأنها نقد ذاتي، وتارة بأنها نقد فراح • ونظل ننكبو من هزيمة الى أخرى ونحن نتغنى ـ بماسوشتية غريبة ـ بالصمود ، وكأننا أصحاب هواية جديدة : هواية تلقي الهزائم ورفع رايات الصمود فيما بين كل هزيمة وهزيمة •

وبتنا نتعلل بالقدر حينا ، وبقوة العدو الاسطورية حينا آخر • ونقبع داخل ذواتنا أو طبقتنا أو اقليمنا في انتظار معجزة ، كما ينتظر أبطال مسرحية « بيكت » العبثية • « جودو » • وليس من بأس بين آونة وأخرى أن ينقض بعضنا على بعض ، قتلا وابادة ، تحت شعار تطهير الجبهة من الطابور الخامس استعدادا للمعركة • ومع ذلك تظل الهزيمة جاثمة على حياتنا يحاول كل منا أن يتخفف من ثقلها والقاء تبعتها على غيره وتبرئة نفسه من وزرها •

كفانا ـ جميعا وبلا استثناء ـ خداعا للنفس وللتاريخ • نحن ـ جميعا وبلا استثناء ـ المسئولون أولا وأخيرا ، عن الهزيمة بكل أبعادها العسكرية والاجتماعية والسياسية ونحن كذلك ، أولا وأخيرا ، المسئولون أمام أنفسنا وأمام التاريخ ، عن تخطي الهزيمة نحو النصر •

والنصر هنا ، ليس انهاء العدوان واستعادة حقوق شعب فلسطين فحسب ، وانما هو في الاساس عودة روح النضال الجاد والمسئول الى حركة الثورة العربية بآفاقها التحررية والاشتراكية ، فبدون عودة الروح سنظل موتى ، مكفنين في اجساد حية • ولن تعود هذه الروح الا من خلال عودة الجماهير الشعبية •• عودة حقيقية لا شكلية •• عودة كمية وكيفية في وقت واحد •

وعلى قدر عمق واتساع وديمقراطية هذه العودة الجماهيرية ، يتوقف مصير الهزيمة : الاستمرار بكل مضاعفاته ، أو التصفية بجميع آفاقها الرحبة نحو التقدم •

ولن نستطيع تحقيق هذه العودة التاريخية الى روح الثورة العربية ، مالم نبادر فكرا وعملا ، الى علاج ذلك الخلل الخطير الذي كشفت عنه الاحداث الدامية الاخيرة بوطننا العربي ، في بناء وحدة قوانا الوطنية والتقدمية •

وعلاج الخلل يستلزم أول ما يستلزم تشخيصه بدقة • والتشخيص الدقيق لا يتوفر من خلال انطباعات ذاتية أو نظرة جزئية ، وانما من خلال رؤية علمية وشاملة للحقائق الموضوعية التي يطرحها واقع الحياة خارج ذواتنا •

والرؤية العلمية الشاملة تكشف لنا عن اربع حقائق موضوعية ، يمكن أن نجملها فى :

اولا : عدم توافر القدرة لدى اية قوة اجتماعية بمفردها داخل كل بلد عربى ، لتعبئة وقيادة شعبها ومواردها للمعركة ضد التخلف وضد العدو ، دون تحالف مع بقية القوى الوطنية الاخرى ، التى تكون - فى الظروف الخاصة لهذا البلد أو ذاك - جبهة التقدم والحركة فى المجتمع .

ثانيا : عدم توافر قوة كافية وقادرة وحدها ، على انزال الهزيمة بالعدوان الاسرائيلى فى شكله ، الامبريالى الامريكى فى محتواه ، لدى أى قطر عربى بمفرده دون قوة اقطار أخرى ضرورية بحكم طاقاتها أو مواقعها الاستراتيجية .

ثالثا : المعركة ضد التخلف وضد العدوان ، وكلاهما وجهان لعملة واحدة تتطلب بالضرورة - ككل معركة فى عصرنا معقدة الاحتياجات والابعاد ، حليفا قويا وفعالا فى مساندته المعنوية والمادية ، يقف معنا فى مواجهة تحالف العدو مع مناصريه من الامبرياليين الاقوياء .

رابعا : الانسان - فى النهاية - هو القوة الاساسية فى المعركة بوجهيها . وبدون جهده الواعى ، والمخلص الى حد التضحية بالنفس ، لا أمل فى شىء . ولو تجمعت لدينا كل موارد الارض وأسلحة ترسانات العالم .

وفى ضوء هذه الحقائق الاربع نلمس « الخلل » مجسدا فى اربعة تناقضات رئيسية :

● التناقض الاول ، بين ما هو « معلن عن وحدة القوى الوطنية والتقدمية فى البلد العربى الواحد ، وبين ماهو « كائن فعلا » من تمزق وبعثرة وتفتت .

● والتناقض الثانى ، بين « التصريحات الرسمية » الصادرة من السلطات المختلفة فى الدول العربية حول قومية المعركة ووحدة كل البلاد العربية فى مواجهة الخطر الصهيونى - الامبريالى ، وبين « الافعال » المحطمة لكل وحدة عمل ضد العدو ، ولو فى أدنى الدرجات .

● والتناقض الثالث ، بين « الوعى » بدرس الهزيمة الخاص بضرورة احترام انسانية الانسان العربى ، كى تكون مشاركته عميقة وخلاقة فى المعركة وليست مشاركة المتفرج ، وبين « استمرار عمليات الانتهاك » للانسان ومصادرة حقوقه وارتخاص حياته .

● والتناقض الرابع ، بين « السعى » الى جذب اكبر عدد من الحلفاء الى صفوفنا وبين « قيام البعض بحملة معادية » ضد أقوى وأخلص الحلفاء جميعا وهو الاتحاد السوفيتى .

والواجب الملح امامنا - اليوم - هو المواجهة الصريحة لهذه التناقضات الاربعة وتكثيف الجهود لحلها فى اطار اهداف ومصالح الثورة العربية بآفاقها التحررية والاشتراكية .

والحق أن التناقض الاول الخاص بوحدة القوى الوطنية والتقدمية فى البلد العربى الواحد وخاصة تلك البلاد التى اصطلح على وصفها - سياسيا - بالنظم التقدمية ، هو اخطر التناقضات الاربعة التى تميز المرحلة المعاصرة . بل لعلنا لانبالغ اذا قلنا ان

المفتاح لحل بعية التناقضات . ذلك أن قيام مثل هذه الوحدة ، فى تفاعل خصب مع قوى الواقع الاجتماعية والسياسية ، من شأنه أن يهىء المناخ الصحى لاطلاق الطاقات الهائلة الكامنة فى شعبنا . وهى طاقات لم تستخدم بعد ، استخداما كاملا وحقيقيا فى المعركة .

ونقطة البدء الصحيحة لحل هذا التناقض ، هو الاعتراف بفشل كل تجارب بناء الوحدة بأسلوب شكلى وتعسفى مفروض على الواقع ، يفرغ الوحدة من القدرة والفاعلية ، لتغدو مجرد تميمة معلقة على جبين هذا النظام أو ذاك . ونعنى بهذا الاسلوب قيام القوة الوطنية التى تمكنت من السيطرة — فى ظروف خاصة — على الحكم ، بمنح نفسها حق انتقاء القوى التى تدعيها للوحدة . وذلك وفقا لمعايير المصالح الضيقة لتنظيم أو حزب الطبقة المسيطرة لا المصالح الوطنية الشاملة فى اطار اهداف الثورة العربية التقدمية . بل وأحيانا وفقا للرغبات الذاتية للشخصيات القيادية فى الحزب أو التنظيم . وهذا الاسلوب الانتقائى (الفئوى — الذاتى) يستبعد عمليا من اطار الوحدة قوى وطنية وتقدمية أخرى لها وزنها الاجتماعى والسياسى فى المجتمع . وهذه القوى المستبعدة تتفق فى الخط العام للحركة السياسية للنظام ، ولكنها تختلف فى أساليب ووسائل الحركة والمدى الذى يمكن الوصول اليه — مرحليا — على طريق التطور . وذلك نتيجة الاختلاف فى المنابع الفكرية والاجتماعية لهذه القوى بعضها عن بعض .

وهكذا نجد أنفسنا أمام ظاهرة شاذة فى المجتمع ..

شعارات عامة واحدة أو متقاربة، ترفعها جميع القوى الوطنية والتقدمية ، غير أنها مع ذلك متناحرة فيما بين بعضها وبعض فى السلوك العملى . الكل يدعو الى الوحدة الوطنية . بيد أن الكل لا يحقق الوحدة . وغالبا ما ينتهى التناحر الى التصادم ومزيد من التمزق تصاحبه الاتجاهات بالثورة المضادة تارة وبالانحراف والوقوع فى احضان الرجعية تارة أخرى . ورغم افتقاد معظم هذه الاتجاهات لاساس موضوعى ترتكز عليه ، فان دائرتها تستمر فى الاتساع . واذا بالتناقضات الثانوية والغير عدائية بين فصائل القوى الوطنية والتقدمية ، تنقلب الى تناقضات رئيسية وعدائية . والنتيجة المنطقية لهذه الظاهرة الشاذة أن الامبريالية والرجعيات المحلية تحقق من خلال ذلك مكاسب على حساب جميع القوى الوطنية والتقدمية بلا استثناء .

والبديل الصحيح والممكن للاسلوب الانتقائى (الفئوى — الذاتى) لبناء الوحدة ، هو أسلوب التحالف الموضوعى على أساس استيعاب كل قوى الواقع فى اطار أهداف الثورة العربية بآفاقها التحررية والاشتراكية . وبتعبير اخر الإعتراف بحق كل قوة وطنية وتقدمية — بمعيار ظروف المرحلة — فى أن تكون عضوا كامل العضوية فى الوحدة .

وهذا الاسلوب الموضوعى يأخذ فى اعتباره أن الاشتراكية — بصفة عامة — والتى تتشكل أحيانا فى اصطلاحات سياسية من نوع « العدالة الاجتماعية » و « الطريق اللارأسمالى » و « الاصلاحات التقدمية » قد غدت بانتصاراتها وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية موضع جذب شديد وتاثير متزايد على شرائح مختلفة من القوى الوطنية فى بلاد التحرر الوطنى المعادية للاستعمار سياسيا واقتصاديا . بمعنى ان الاشتراكية — كأفكار عامة — قد امتد تأثيرها فى المجتمع الى اوسع من دائرة الطبقة العاملة والمثقفين الثوريين فى ظروف البلاد التى أصبحت تعرف باسم العالم الثالث .

ورغم أن التجربة — فى هذا المجال — دلت على أن هذا التوسع لدائرة التأثر بالافكار العامة للاشتراكية يمزج بين الافكار البرجوازية والافكار الثورية ، الا أنه من ناحية أخرى يحقق — عمليا — أكبر وأقوى تجمع وطنى تقدمى فى تاريخ حركة التحرر الوطنى .

ومن هنا ، فانه علي طريق الثورة العربيةفي مرحلتها المعاصرة ، تلتقي ـ موضوعيا ـ حول الاهداف العملية الاستراتيجية ، قوى وطنية وتقدمية متعددة ، تنبع عن أصول فكرية واجتماعية مختلفة .

وهذا الالتقاء الموضوعي ، هو الواقع الحي . واحترام حقيقة هذا الواقع والتفاعل معها ، هما جوهر القضية . وبدون استيعاب هذا كله في التجسيد العملي لبناء الوحدة الوطنية التقدمية ، نصبح من أولئك المغرمين بخداع أنفسهم والذين يبنون قصورا في الهواء أو على مقاسهم الذاتي فحسب . ان الوحدة الحقيقية بنـاء على ارض الواقع ، وعلى مقاس وحجم كل القوى صـاحبة المصلحة .

وما دمنا نسلم باختلاف المنابع الفكرية والاجتماعية لقوى الوحدة ، فان التمـايز الفكرى لا يجب أن يكون سببا في اغلاق الباب في وجه اية قوة وطنية أو تقدمية . ان الوحدة عمل سياسي يخدم أهداف مرحلة محددة . وبالتالي فان الالتزام بـالخط السياسي العملي للنشاط الوحدوي الوطني التقدمي ، هو وحده معيار القبول أو عدم القبول .

والانخراط في عضوية الوحدة الوطنية ، لا يشل حق كل عضو في التعبير الصريح عن أفكاره داخل الاطار العام . بل ان حرية التعبير هنا ضرورية لانها تفيد في بلورة الاتجاه العام وتصحيح مساره باستمراره نحو الاهداف الاستراتيجية .

بمعني أن الوحدة الوطنية تتم وتزدهر من خلال العمل المشترك من ناحية ، والحوار النقدي المتبادل من ناحية أخرى . فهـي حركة « أحادية » في أهدافها ، و « جدلية » في بنائها وفكرها .

وبهذا الاسلوب الواقعي ـ الموضوعي ، تتمكن القوى الوطنية والتقدمية من أن تجند كل طاقاتها من حول برنامج وطني ، يغدو محور الالتزام المشترك .

والواقع أن التجارب العملية قد أكدت ان المسئولية الاساسية في انتهاج الاسلوب الواقعي ـ الموضوعي لبناء الوحدة ، تقع ـ بالدرجة الاولى ـ على عاتق القوة صاحبة الاغلبية النسبية ، أو القوة التي تمكنت من السيطرة على نظام الحكم . اذ انها بحكم وزنها وتأثيرها تملك حرية وامكانية المبادرة الى بناء الوحدة الوطنية واختيار أسلوب التعامل مع القوى الاخرى . وبدون قيامها بدورها التاريخي يتعذر قيام وحدة حقيقية منتجة وفعالة .

ولاشك أن الاحداث الدامية الاخيرة في الوطن العربي ، قد طرحت للنقاش قضية ذات طابع مميز في خصوص بناء وحدة القوى الوطنية والتقدمية ، وهي الموقف من الماركسيين والاحزاب الشيوعية العربية .

ثمة اتجاهات ، كانت قد تلاشت فـي الستينات ، برزت أخيرا مرة أخرى ، تدعو الى اقصاء الماركسيين والاحزاب الشيوعية من الوحدة الوطنية .

وتستجلب هذه الاتجاهات ، في صور جديدة ، الدعاوى القديمة المعروفة والتي تتركز أساسا في أن الماركسيين أو الاحزاب الشيوعية ، ليست بالقوى الوطنية وانما هي عناصر عميلة لقوى أجنبية ، وتحمل أفكارا مستوردة غريبة على واقعنا ومعادية لقيمنا وخاصة قيمنا الروحية والدينية .

والواقع انه ثبت من خلال التجـارب العديدة ـ بطلان كل هذه الدعاوى .

فليس هناك من حركة وطنية تحررية ، ابتداء من ثورة ١٩١٩ الوطنية فى مصر، حتى حركة المقاومة الفلسطينية اليوم ، لم يشارك فيها الماركسيون العرب، سقط منهم — خلال المعارك — العديد من الشهداء الوطنيين جنبا الى جنب مع شهداء بقية فصائل القوى الوطنية الاخرى .

أما الاتهام بالفكر المستورد ، فانه ان دل على شيء — فى الثلث الاخير من القرن العشرين الذى وطئت فيه أقدام الانسان أرض القمر — فانما يدل على تخلف عقلى، قبل أن يدل على رجعية فى التفكير . فالاشتراكية نتاج انسانى . غدت ، اليوم ، علما ، مثلها مثل العلوم الانسانية (الفلسفة — التاريخ الخ ··) والعلوم الطبيعية (الطب — الهندسة الخ ··) . ولذلك فهى تدرس فى كل جامعات العالم بما فى ذلك جامعات البلدان الرأسمالية نفسها .

وبحكم أننا جزء من الانسانية ، لا نملك ولا نستطيع أن ننفصل عن حركة تقدمها ، نتبادل معها التأثر والتأثير المستمرين ، تصبح الاشتراكية العلمية جزءا من تراثنا الانسانى جنبا الى جنب مع حصيلة تراثنا القومى المتميز .

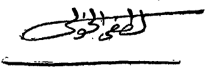
والقول بأن الاشتراكية تتعارض مع القيم الروحية والدينية لمجتمعنا ، هو تصور سرابى . فالاشتراكى العلمى — فكرا — والاشتراكية — كنظام فى التطبيق — لا يستطيعان ان يغفلا لحظة واحدة ، القيم والعادات والسلوك السائدة فى المجتمع . ذلك انها بجانب قوتها الفكرية تغدو واقعا ماديا . وفى مجتمع اكثر من ٩٠ فى المائة منه متدينون يتحول الاشتراكى الى عدو فعلى للاشتراكية اذا لم يحترم القيم الروحية والدينية ويجند اشعاعها التقدمى لخدمة البناء الاشتراكى ..

خلاصة القول ، أن المعايير الموضوعية الواقعية لبناء وحدة القوى الوطنية والتقدمية ، هى وحدها التى يجب أن يقاس بها قبول أو عدم قبول الماركسيين أو الاحزاب الشيوعية كقوى وطنية فى الوحدة . وبالتالى فان المحك العملى هو الالتزام بالبرنامج الوطنى لاهداف الثورة العربية المعاصرة بآفاقها التحررية والاشتراكية ، وتبنى الخط السياسى العام للمسيرة الوطنية .

ولا خيار أمامنا جميعا — ونحن نواجه اشرس معركة واعقدها فى تاريخنا الحديث — الا أن نرتفع الى مستوى المسئولية ، ونتخطى مشاعر الالم وجراح الدم ، كى نصحح — بعمق ووعى — مسارنا الوطنى ، قبل أن يفوت الاوان، واذا بنا فى مواجهة هزيمة جديدة من صنع ايدينا ، ابتداء من الفها حتى يائها ..

وبعد ...

لقد استهلك الحديث عن التناقض الاول، المجسد للخلل الخطير الذى كشفت عنه الاحداث الدامية الاخيرة ، الصفحات المخصصة للافتتاحية فى هذا العدد . وأرجو أن أتمكن من معالجة التناقضات الثلاثة الاخرى ، فى افتتاحية العدد القادم .



عبد الناصر والنظرية الثورية



د. فؤاد مرسى

بفضل حسه الثورى الاصيل الذى تمثل منذ حداثة عمره فى العداء الثابت لكبار ملاك الاراضى والذى أكتمل بعد ذلك بالعداء المرير للاحتلال الاجنبى ولحكم السراى تطورت المفاهيم الثورية عند **جمال عبد الناصر** فى اتجاه صاعد وبخاصة منذ يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حتى يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ . ويمكن القول بأن هذا التطور قد انطوى على ثلاث مراحل هامة يمكن التمييز بينها على الرغم من تداخلها وترابطها واستمرارها (١) .

مراحل تشكيل الفكر

ففى مرحلة اولى تبدأ بالاستيلاء على الحكم وتنتهى بتأميم قناة السويس وهزيمة الغزو الثلاثى ، كانت أفكاره تدور حول حتمية تصفية

[١] سبق أن أوردت بعض أفكار هذا المقال فى مقال بمجلة الاداب البيروتية فى عددها الصادر فى فبراير من العام الحالى [١٩٧١] .

الاقطاع تمهيدا لكسب الاستقلال السياسي من بريطانيا العظمى عن طريق المفاوضات وبالتفاهم مع الولايات المتحدة • وفى الداخل كان الامل ان تبدأ تنمية الانتاج بالتصنيع عن طريق قيام الدولة بتحضير المشروعات التى يتولاها الرأسماليون • غير ان مساندة الولايات المتحدة لاسرائيل وحجب السلاح عن مصر ، ثم سحب وعدها بقرض السد العالى كانت مواقف حاسمة لم تلبث ان وضعت نهاية لمرحلة التردد فى صياغة مفاهيم القضية الوطنية بوصفها ثورة معادية للامبريالية العالمية •

وابتداء من هذه النهاية بدأت مرحلة ثانية هى مرحلة تثبيت الاستقلال ، كانت الثورة قد قطعت شوطا بعيدا ضد مناورات رأس المال الاجنبى فى محاولة أولى للتصنيع • لكن من معركة السويس انبعثت ، كما يقول عبد الناصر ، احتمالات العمل الثورى غير المحدود • من معركة بورسعيد تأكد اتجاه الثورة انها « ثورة قوى الشعب العاملة التى كانت تدافع عن ارض الوطن » • وبصفة خاصة ، فانه من قلب النار خرجت قرارات تمصير الاقتصاد ، ثم خطة التصنيع الاولى ، والخطة الشاملة لمضاعفة الدخل القومى فى عشر سنوات • عندئذ طرح عبد الناصر مفهومه عن أعادة بناء الاقتصاد الوطنى • وطالب « باقامة اقتصاد وطنى ثم العمل على تنمية هذا الاقتصاد ثم تطوير هذا الاقتصاد ليواجه حاجات المجتمع والعمل على اقامة عدالة اجتماعية » كان ما زال يتوجه الى الرأسماليين من أجل التنمية • لم يكن يريد ان يصفى ، او يقضى على الرأسمالية ، فرأس المال الوطنى ضرورة لازمة « فى هذا الوقت » من أجل تطوير الاقتصاد القومى • وانما كان يطالب بأن تكون القيادة الاقتصادية للدولة ، فلقد عانى كثيرا من مراوغات رأس المال الكبير فى مجالات التنمية الاقتصادية المقترحة • لم يرفض ، بل طلب مساهمات رأس المال الاجنبى ورأس المال المحلى الكبير • وطلب معونة البلدان الاشتراكية • كانت اعتبارات التنمية الملحة تدعوه لطرق كافة الابواب المحتملة لتمويل هذه التنمية • فلقد توصل الى فهم دقيق لموضوع التنمية بوصفها « الصيغة المحققة للتقدم فى جميع نواحيه » • وهكذا طرحت قضية تثبيت الاستقلال ، بوصفها قضية كسب الاستقلال الاقتصادى ، قضية بناء اقتصاد وطنى حديث ، قضية التنمية الاقتصادية ، وعندما فشلت تماما كافة محاولاته لجذب رأس المال الاجنبى ورأس المال المحلى الكبير ، بحيث غدت التنمية فى خطر ، كانت قرارات يوليو ١٩٦١ •

وبدأت مرحلة ثالثة واخيرة فى فكر عبد الناصر هى مرحلة التحول الاجتماعى • فمن واقع معركة التنمية الاقتصادية كان لابد ان تدخل الثورة فى صراع اخير لتصفية مراكز رأس المال الاجنبى ورأس المال المحلى الكبير • ومن واقع معركة التنمية الاقتصادية كان لا بد ان تطرح قضية التوزيع بعد طرح قضية الانتاج • يقول عبد الناصر نفسه « لقد ادركنا بوضوح ان التنمية لابد ان تقترن بالتوزيع » • هكذا طرحت القضية الاجتماعية

وهكذا اكتسبت الثورة مضمونا اجتماعيا واضحا • ومن ثم دخل دنيا التحولات الاجتماعية الفسيحة من باب التنمية الاقتصادية ، ومنذ ذلك الحين صارت التنمية الاقتصادية محور الحياة السياسية نفسها • وتحددت ابعاد العمل الثورى وسار فى اتجاه فكرى موحد ، اخذ يزداد نضجا منذ صياغة ميثاق العمل الوطنى • وبعد ان كان العمل الثورى يبدو وكأنه رد لفعل خارج عنه ، صار فعلا له منهج واهداف واساليب عمل وصيغ تنظيمية •

لقد فرض الحل الاشتراكى نفسه بغير بديل كطريق للتقدم الاقتصادى والاجتماعى • واذا كان عبد الناصر قد اخذ بالطريق الاشتراكى للبناء ، فان « الاشتراكية لا يمكن ان تكون الا اشتراكية علمية » • وهذه الاشتراكية العلمية هى اشتراكية واحدة ، هى الغاء استغلال الانسان للانسان ، وازالة المجتمع المتعدد الطبقات « تقريب الفوارق بين الطبقات بالقضاء على هذه الطبقات » • ومن ثم فلابد من بناء مجتمع جديد هو مجتمع الكفاية والعدل ، الذى يفترض مرحلة انتقال تقضى على الطبقات ، وتصفى التفكير الطبقى بالاعتماد على قوى الشعب العاملة وبخاصة الفلاحين والعمال والتسليم بدور الرأسمالية الوطنية • بعدها يتم الانتقال الى الاشتراكية التى هى « طريق لا نهاية له » لان « الاشتراكية هى مراحل » ولانه « باستمرار كل ما نحقق مرحلة ستنتظرنا مرحلة أخرى » •

هكذا نما فكر جمال عبد الناصر ونضج من خلال نمو الثورة المصرية ونضجها • فالثورة المصرية التى بدأت مجرد ثورة وطنية قد تحولت من ثورة وطنية الى ثورة اجتماعية ، أى الى ثورة وطنية ذات مضمون اجتماعى • ولذلك يضع **عبد الناصر** هذه المشكلة التى تواجه البلدان الفتية عقب نجاحها فى كسب استقلالها • « كل واحد واجه هذا التحدى حين كان يظن أن اصعب الاوقات قد مرت بالخلاص من الاجنبى • وكل منا بغير جدال وقف أمام هذا التحدى يسأل نفسه : والان ماذا أفعل ؟ » ومن ثم اجاب عبد الناصر « ان شعوبنا لا تصنع بالاستقلال علما ونشيدا وصوتا فى عداد الاصوات فى الامم المتحدة فحسب • ولكنها تريد الى جانب ذلك ان يكون للاستقلال مضمون اجتماعى » • وذلك هو طابع الاستمرار فى الثورة • وهذا الاستمرار هو الذى ميز ايضا فكر وعمل جمال عبد الناصر وصنع طول نفسه الثورى • ولهذا يقول

عبد الناصر « ان هذه الثورة المستمرة هي سبيلنا الى بناء بلدنا ، وهي سبيلنا الى ان نعوض مافات » . لم تعد الثورة المصرية تكتمل الا باعادة بناء مصر اجتماعيا . وعلى الرغم من التضارب بين طبيعة كل من الثورة السياسية والثورة الاجتماعية ، فلقد أصبحتا ثورة واحدة مستمرة تنجز أهدافها بالقضاء على الظلم الاجتماعي والاستبداد الطبقي . وهكذا بعد الاستيلاء على السلطة اصبح الاحتفاظ بها مطلوبا لاجراء تغيير اساسي لنظام المجتمع . وهنا نلمس الاحساس العميق بعامل الزمن ، أي بالحتمية التاريخية فالضرورة الموضوعية هي التي حكمت استمرار الثورة وتحولها من ثورة وطنية الى ثورة اجتماعية .

تطور حركات التحرر الوطني

فالواقع اننا نشهد تحولات هائلة في البلدان التي كانت مستعمرة أو شبه مستعمرة فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، اطردت حركات التحرر الوطني لتصبح ظاهرة عالمية بارزة . ومن ثم أندمجت الثورة الاشتراكية العالميــة مع الثورة العالمية لتشكلا تيارا ثوريا واحدا يــرمي الى التصفية الكاملة لنظام الاستعمار العالمي ولنظام الرأسمالية العالمي . ولقد ظهرت الى الوجود مجموعة البلدان التي استقلت حديثا . وبعد كسب الاستقلال السياسي ، تواجه هذه البلدان مهمة تثبيت الاستقلال الوليد وذلك بالسعي لكســب استقلالها الاقتصادي وبناء اقتصادها الوطنــي المستقل . ان هذه المهمة تتخذ عندئذ صورة السعي لانجاز تنمية اقتصادية تقضي على التخلف الموروث الطويل الامد ، عن طريق الاصلاح الزراعي ، وبدء عملية التصنيع ، وازاحة الاحتكارات الاجنبية ، واقامة قطاع للدولة ، والسعي لرفع مســتوى المعيشة للطبقات الكادحة . ويكون امام هــذه البلدان الفتية طريقان لا ثالث لهما لاحداث تلك التنمية . فهناك طريق التطور الرأسمالي المألوف بكل ما يخف به من مخاطر وآلام ، مخاطر استمرار التبعية للاقتصاد الرأسمالي العــالمي ، وآلام الاستغلال المفروض على عاتق الطبقات الكادحة . ولهذا يبدو طريق التطور الرأسمالي وكأنه طريق مسدود . وهناك طريق آخر هو طريق التطور غير الرأسمالي ، الذي يتخذ ما يلزم من اجراءات التنمية للاقتصاد الوطني في مواجهة الطبقــات الاجتماعية الرجعية المتخلفة ومراكز السيطــرة الاقتصادية الاستعمارية . ومن شأن الطريق غير الرأسمالي ان يسعى بالضرورة لتحسين مستوى معيشة الطبقات الكادحة حتى تشارك غيرها في التمتع بثمار الاستقلال ، وفي الوقت ذاته لتأمين مشاركة هذه الطبقات في اتخاذ القرارات الحاسمة بالنسبة لمصير بلادها . ولهذا يتميز الطريق غير الرأسمالي عن الطريق الرأسمالي ليس فقط بطبيعة الاجراءات الاقتصادية التي تتخذ تحت اســم التنمية ، وانما كذلك وبصفة أهم بطبيعة السلطة السياسية في الدولة . ان السلطة في الطريق غير الرأسمالي يجب أن تستقر في أيدي تحالف الطبقات الثورية ذات المصلحة في استمرار الثــورة ، وبخاصة العمال والفلاحين وممثليهم من المثقفين الثوريين . ولقد دلت التجربة في البلدان الفتية على ان السلطة الثورية تقع في العادة في أيدي تحالف من البرجوازية الوطنية والبــرجوازية الصغيرة والطبقة العاملة . ونظرا لفشل التجارب التي قادتها البرجوازية الوطنية ، ونظرا لغلبة البرجوازية الصغيرة في التركيب البشري للبلدان الفتية ، ونظرا للضعف الكمي والنوعي للطبقة العاملة ، فان قيادة التحالف غالبا ما تقع في أيدي البرجوازية الصغيرة وممثليها من المثقفيــن الثوريين . ولهذا تكون السلطة في العادة هي سلطة الديمقراطية الثورية للبرجوازية الصغيرة . ولقد بحث « لينين » بعد ثورة فبراير امكانية قيام ديكتاتورية الديمقراطية الثــورية للبــرجوازية الصغيرة في روسيا باستخدام سوفيتات نواب العمال والجنود كوسيلة لتمكين الثورة البرجوازية الديمقراطية من التطور الى ثورة اشتراكية في ظروف بلد فلاحي متخلف ، وذلك عن طريق وقف عملية التطور العفوي للرأسمالية . ومع التسليم باختلاف ظروف روسيا عندئذ عن ظروفنا الحالية ، فان البرجوازية الصغيرة لم تستطع هناك القيام بهذه المهمة موضوعيا . وعلى العكس من روسيا ، توجد حاليا الظروف التي تسمح بقيام هذه السلطة في البلدان الفتية ، وبخاصة حيث تتبنى العناصر المتقدمة من البرجوازية الصغيرة أفكار الاشتراكية وتطمح الى صياغة اشتراكية للمجتمع .

وفي ظل السلطة الثورية للبورجوازية الصغيرة المعادية للاقطاع والاستعمار يكون موطن الضعف الرئيسي هو ثقة جماعات البورجوازية الصغيرة في الرأسماليين . ويصبح من الضروري حسم الموقف من الرأسماليين ، على النحو الذي تم فــي الجمهورية العربية المتحدة بعد يوليو ١٩٦١ . ومع ذلك تظل أوهام البورجوازية الصغيرة قائمة حول امكانية التوافق الطبقي والتعاون مع البورجوازية في حكم الدولة . ولا يمكن التغلب على هذه الاوهام الا من خلال التجارب العملية وحدها . فهنا لا تجدي النظريات ولا النصائح مهما يكن صدقها واخلاصها . لكن الخطير في الامر هو قدرة البورجوازية عندئذ على التستر خلف أوهام البورجوازية الصغيرة للسيطرة على الاقتصاد والسياسة في الدولة . ولهذا فان مسئولية الطبقة العاملة وممثليها تتمثل بالضرورة في الوقوف موقف الحليف الثابت للبورجوازية الصغيرة - والسعي بصبر ودأب للتغلب على أوهــامها ومخاوفها من خلال التجربة العملية . ولعل على

رأس هذه المخاوف موقف العداء الذي قد تتخذه من الطبقة العاملة وممثليها ونظريتها . فمثل هذا العداء عداء ذاتي لا موضوعي ليست له أرضية موضوعية من مصالح الطبقتين الثوريتين بوصفهما طبقتين غير مستغلتين . وانما هو ينبنى فى الاساس على اعتبارات ذاتية . ولذلك فهو عداء مفتعل . ومع التسليم بأن هذا العداء قد يتحول من تناقض ثانوى الى تناقض رئيسى ، الا أن الطبقة العاملة مطالبة بألا تقع هذا الموقع ، وأن تتخذ من المواقف ما يجرد البورجوازية الصغيرة من مخاوفها الذاتية ، فان الطبقة العاملة لا يمكنها أن تنجز الاشتراكية دون التحالف الوطيد مع جماهير البورجوازية الصغيرة وبخاصة الفلاحين .

فى هذه الحدود وحدها يمكن الكلام عما يسمى بالناصرية . والناصرية ، ان صح هذا التعبير ، هى مجموعة المفاهيم الثورية التى أعلنها جمال عبد الناصر تعبيرا عن الثورة التى قادها أكثر من ثمانية عشر عاما . واذ جمع فى شخصه بين المناضل والمفكر ، فانه يمكن القول بأن الناصرية هى نظرية للبورجوازية الصغيرة عن الثورة الوطنية الديمقراطية فى عصر انتقال على النطاق العالمى من الرأسمالية الى الاشتراكية . أنها تقدم صيغة نظرية للثورة الوطنية المستمرة التى تكتسب مضمونا اجتماعيا صريحا ، ومن ثم تقطع مراحل ثلاثا واضحة من حيث الجوهر هى مرحلة كسب الاستقلال، ثم مرحلةالتنميةالاقتصادية، ثم مرحلة التحول الاجتماعى . هى اذن صيغة نظرية للثورة الوطنية والعداء السافر للاقطاع والاستعمار والرأسمالية الكبيرة ،للقضاء على التخلف الموروث من أجل التنمية الاقتصادية الشاملة ، للتحول الاجتماعى والطموح الى بناء الاشتراكية ، أنها صيغة نظرية للتحرر الوطنى والتقدم الاجتماعى والوحدة القومية .

لكنها محاولة لم تتخلص بعد من أصولها البورجوازية الصغيرة ، ومن ثم تنطوى على تناقضاتها . ولعل أخطر هذه التناقضات جميعا هو قيامها منهجيا على التجريب والانتقاء .

فقد اعتمدت على برهان التجربة والخطأ ، على منطق التجربة والممارسة . وتقدمت النظرية مستفيدة من تجربتها ، مع ما انطوت عليه من خسائر فادحة أحيانا . وظل هذا المنهج سائدا حتى وضع الميثاق . ومن ثم استطاع جمال عبد الناصر أن يقول « لقد حققنا شيئا هاما كانت له كل الفائدة فى الوصول بمرحلة التحول العظيم الى قرب نهايتها . هذا الشىء الهام هو الوضوح الشامل ، لم تعد جزئيات المشاكل أمامنا معارك متفرقة وأصبحت الكليات مرتبطة متماسكة تكاد تكون فى متناول أيدينا قوانين للحركة الاجتماعية والسياسية » .

كذلك اعتمدت على منهج الانتقاء . ومع أن الميثاق يعتبر الحل الاشتراكى حتمية تاريخية ويرفض اعتباره اختيارا انتقائيا ، الا أن جمال عبد الناصر كان حريصا على تمييز اشتراكيته التى يعلن بحسم أنها اشتراكية علمية عن الاشتراكية الماركسية اللينينية . وعلى الرغم من هذا التفريق بين الاشتراكيتين ، فان جمال عبد الناصر لا يتردد فى اعلان حقيقة جوهرية هى وحدة الاشتراكية وعدم تعددها : « أنا فى رأيى أن الاشتراكية واحدة ولكن يختلف التطبيق فيها باختلاف المكان » .

غلبة الاتجاه الاجتماعى

لهذا يمكن القول بأنه على خلاف أغلب نظريات البورجوازية الصغيرة الثورية لتفسير تطورات حركة التحرر الوطنى فى البلدان الفتية ، تلك النظريات التى تتجه عادة لتثبيت التطور ومن ثم يكمن فيها خطر التجمدالذى يمكن أن يعدىالثورة الوطنية ذاتها ، كانت عبقرية عبد الناصرتكمن فى استمراره ثوريا قادرا على التطور مع تطور الثورة . ومن هنا استطاع أن يتغلب بوعيه الثورى على خطر التجمد ، وعبرت أفكاره عن تجدد وارتقاء حكمتهما عنده غلبة الاتجاه الاجتماعى نهائيا — أعنى بذلك الحرص على المضمون الاجتماعى .

فمنذ بداية الثورة كشف عبد الناصر عن ادراك حقيقى وأصيل للصراع الطبقى وانقسام المجتمع الى طبقات متعارضة هى فى الاساس طبقة الملاك وطبقة الاجراء — وان تطور مفهومه عن الملاك من الاقطاعيين فى البداية الى كبار الرأسماليين بعد ذلك . ومن ثم كان ادراكه لحقيقة أن طبقة الملاك هى التى تستولى على الحكم وتسخره لتحقيق أغراضها وحماية مصالحها « لاستغلال الاجراء ومنعهم من المطالبة بحقهم » . ومن هنا يخلص الى هذه النتيجة وهى أن الحكم يتبع المجتمع ، فان هناك علاقات وثيقة بين السياسة والاقتصاد ، ولذلك ينتهى مفهومه عن سلطة الدولة الى المطالبة بتحرير الانسان من الاستغلال « بكل معانيه » .

ان ادراك عبد الناصر لحقيقة الصراع الطبقى وانقسام المجتمع الى طبقات متعارضة كان هو المسئول عن تطور كثير من افكاره تجددا وارتقاء . ويكفى هنا أن نذكر تصوره لقضايا الوحدة الوطنية والوحدة العربية .

● فلقد تطور مفهوم عبد الناصر عن الوحدة الوطنية . وبعد هيئة التحرير التى كانت فى رأيه

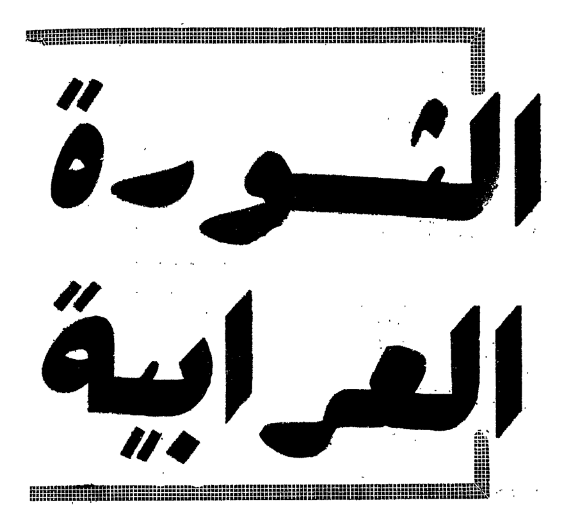
صيغة لوحدة الامة بكافة طبقاتها بما فيها الاقطاعيون لمواجهة مهام التحرر من الاستعمار ، وبعد الاتحاد القومى الذى كان صيغة لوحدة الامة بكافة طبقاتها عدا الاقطاعيين وبما فيها كبار الرأسماليين لمواجهة مهام التنمية وتثبيت الاستقلال ، ظهر الاتحاد الاشتراكى بوصفه صيغة لوحدة الامة بكافة طبقاتها عدا الاقطاعيين وكبار الرأسماليين وبما فيها الرأسمالية الوطنية لمواجهة مهام التحول الاجتماعى « يضم بداخله أكثر من طبقة ، لكنه يسعى نحو تذويب الفوارق بين الطبقات » • وفى ايمانه بالوحدة الوطنية كان يغلب وحدانية الوحدة الوطنية ، بمعنى تغليب جانب الوحدة على جانب الصراع • فقد كان يرى أنه « فى اطار الوحدة الوطنية الواعية يمكن أن يجرى تفاعل الطبقات » • ومع تسليمه فكريا بضرورة التنظيم الطليعى نوعا من الحزب الطبقى ، لم يتوصل فى الواقع الى صيغته التنظيمية •

● وقد تطور لابعد من ذلك تفكيره عن الوحدة العربية • فانطلاقا من فكرة أن الثورة العربية هى الحركة التاريخية للامة العربية للقفز عبر التخلف الى التقدم السياسى والاجتماعى والاقتصادى ، أعلن أن الوحدة ثورية تستهدف اقامة المجتمع الذى نريده ، فان « الشعب حينما كافح الاستعمار وتخلص منه فان الاستقلال فى حد ذاته لم يكن غاية ، ولكنه كان الوسيلة لتحرير ارادته ليكون الشعب قادرا على أن يطور نفسه وعلى أن يضع الثورة السياسية والثورة الاجتماعية موضع التنفيذ » • ولذلك رأى أن أمل الوحدة لا يمكن أن يتحقق الا اذا « سبقته وتأكدت قبله » آمال أخرى تفتح له الطريق ، وهو يعنى بذلك الحرية السياسية والحرية الاجتماعية • وانتهى عبد الناصر الى القول صراحة بأن هناك « ترابطا كبيرا بين الاشتراكية والوحدة » • ولذلك فاننا « نقول باستمرار اننا لن نتحد أبدا مع أى بلد عربى الا حين يطبق الاشتراكية ويعلن ماذا يعنى بالاشتراكية • وبذلك لا تتعرض الوحدة للخطر • فان الوحدة معناها الاشتراكية » •

من هنا أعلن عبد الناصر مسئولية القوى الثورية العربية ودعاها للوحدة • وقال ان معركة وحدة هذه القوى الثورية معركة متشعبة متعددة الجبهات ، فى أوطانها الصغيرة وعلى المستوى القومى ثم فى الصراع مع العدو الاساسى للامة العربية وقوى التحالف معه (حيث يمثل الاستعمار فى القلب والرجعية العربية على يمينه والعنصرية الاسرائيلية على شماله) • ولهذا رأى فى النهاية ان وحدة القوى الثورية العربية « يمكن أن تكون فى عدة أشكال وليس ضروريا أبدا أن نصمم على الوحدة بصفتها المطلقة التى هى الوحدة التى هى الدمج والتوحيد الكامل » • لان « أنا فى رأيى أن هذا الموضوع عسير قوى الوصول اليه • وقد يكون من الاسهل نبتدى بنوع من الجبهات أو عمليات بهذا الشكل • فالجبهة هى اللى ممكن تكون مدخل لكل الافكار اللى بتجول برؤوسنا لان عملية التوحيد بمعنى التوحيد قد تكون عسيرة وقد تكون عملية صعبة • بل قد تكون اذا قامت تلقائيا عملية مصطنعة • وطبعا لن يمكن أن تكون هناك وحدة قوى ثورية فى الوطن العربى الا اذا كانت هناك وحدة قوى فى كل قطر من الاقطار العربية » • ومن هنا دعا العمال العرب كى يلعبوا دورهم فى قيادة هذا العمل الوحدوى كله •

وهكذا صارت نظرة عبد الناصر الى جميع القضايا ، وبخاصة القضايا الوطنية الخاصة بالنضال ضد الاستعمار ، نظرة يغلب عليها الاتجاه الاجتماعى الذى صار يمنحها بالتالى تبصرا وعمقا وصوابا أكبر(*)





يوما بعد يوم يتضح لنا أكثر فأكثر أن أحوج ما تحتاج اليه الأجيال الطالعة هو « الرؤية التاريخية » لمسيرتنا القومية والاجتماعية .. أن عزلة احدى المراحل عما سبقها من مراحل تضعف البصيرة الموضوعية وتؤدى الى التأرجح بها بين المبالغة سلبا والمبالغة ايجابا .

لذلك كان « السياق التاريخى » للأحداث هو حجر الزاوية فى تلمس أبعاد اللحظة الراهنة ، اذ لاسبيل الى تحليلها وتقييمها الا بتجديد موقعها من التاريخ . ولقد عرف التاريخ المصرى الحديث، العديد من الحركات والمراحل والحلقات الثورية قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وبالرغم من أن الوثائق الرسمية لثورة يوليو قد اكدت على أهمية هذه الحركات والمراحل والحلقات الثورية السابقة عليها ، الا أن هذا التأكيد لم يحل دون تجاهلها لأسباب لا يحصرها العد ، وأبعد ما تكون عن الموضوعية .

وقد آمنت « الطليعة » دوما ، بأن تكامل الوعى الثورى للجماهير من المهام الرئيسية التى ينبغى الاضطلاع بها فى مثابرة وعمق . لهذا قدمت فى بعض أعدادها ملامح عزيزة من تراثنا القومى والسياسى ، وكانت « ثورة ١٩١٩ » موضوعا لدراستها الرئيسية فى ذكرى مرور خمسين عاما على هذه الثورة المجيدة .

واليوم تقدم « الطليعة » فى دراستها الرئيسية « الثورة العرابية » التى قادها الضابط



الفكر والصراعات الاجتماعية في الثورة الوطنية الأولى

أحمد عرابى

المصرى الفلاح أحمد عرابى منذ تسعين عاما .. ان هذه الثورة التى أقبلت تتويجا فكريا وسياسيا لمرحلة النهضة فى تاريخنا المعاصر ، مازالت بحاجة الى « الاكتشاف » المستمر ، لما اشتملت عليه من قضايا ومشكلات تشغل بال الدارسين فى مصر والخارج الى الآن . ولكن اهم ما يعنينا ونحن نقدم فى هذه الدراسة بعض ملامح هذه الثورة الرائدة أنها فى انتصارها وانكسارها على السواء كانت الشرارة الثورية الأولى لمسيرتنا القومية والاجتماعية . ولا سبيل الى تفهم الكثير من تعرجات هذه المسيرة الا بالادراك الواعى العميق لمختلف جوانب هذه الخطوة الأولى .

والثورة العرابية التى تدخل التاريخ المصرى والعربى الحديث كاول ثورة وطنية ، قد جمعت بين يقظة الفئات البورجوازية الوطنية الناشئة وتمردات الفلاحين المقهورين وثقافة العسكريين المستنيرين .. بكل ما يوحد هذه القوى المتباينة من معاداة الإتراك والشراكسة ، والاقتراب من الروح العلمانية القادمة من أوروبا والاحساس بالذل الإجتماعى . لذلك تجاور البعد القومى والبعد الاجتماعى فى محتوى الثورة ، ولذلك أيضا استقطبت ضدها ـ داخليا وعالميا ـ قوى التخلف والقهر والعدوان .

ولكن « الثورة العرابية » وقائدها ، تظل فى مجدها وهزيمتها معا درسا بالغ الأثر ، ما أحوجنا بعد تسعين عاما ، الى فهمه من جديد .

ملامح من الخريطة الفكرية للثورة العرابية

القومية - العقلانية - الراديكالية

صلاح عيسى

لم تكن مجموعة الفكريات التي ظهرت خلال الثورة العرابية مولودا غريبا عن المجتمع المصري أو جديدا عليه، فمن الصحيح أن نقول أن الثورة قد ولدها ـ بين عوامل متعددة ـ ذلك المناخ الفكري الذي استمر اكثر من ثمانية عقود من الغزو الفرنسي الى اللحظة التي ظهرت فيها بشائرها • وخلال هذه العقود الثمانية **انتشرت الاسس العامة للفكر الليبرالي الاوروبي، والاتجاهات الراديكالية التي جنحت به الى اليسارية، وانتشرت ايضا الافكار الاسلامية، التي نبتت من تفاعل الفكر الديني التقليدي الذي كان يكرس الثيوقراطية العثمانية مع الاتجاهات الليبرالية والعلمانية،** وهو التفاعل الذي طرح فيما بعد فكر جمال الدين الافغاني ومدرسته •

على أن فكر الثورة، لم يكن مجرد **استمرار تقليدي** للمناخ الذي مهد لها، ففي مجرى الثورة نفسها حدثت **طفرات في الفكر السياسي والاجتماعي** نتيجة لحركة الثورة الصاخبة والسريعة وما واجهته من تحديات وتكتلات ومحاولات احباط • وبذلك يمكن **اعتبار الثورة العرابية من أهم العوامل التي ادت الى تطور الفكر المصري وتجاوزت به حركته الرتيبة وتطوره البطيء ودفعته الى آفاق ثورية شديدة الرحابة •**

وبالتأكيد فان اى محاولة لفهم الظواهر الثورية عموما ـ ومن بينها الظاهرة العرابية ـ دون اعطاء الالتفات الكافي لتأثير **العوامل الفكرية،** لهي محاولة ناقصة لا يمكن أن تؤدي الى فهم او تقدير حقيقي للظاهرة محل الدراسة • والسبب في هذا ان **الفكر بجانب انه جزء من البناء العلوي للظواهر الاقتصادية والاجتماعية، فهو ايضا**

مظهر الوعي الاجتماعي بضرورة الثورة ، أو عدم ضرورتها • وهو حافز شديد الاثر ، قد تكون له — فى بعض الظروف — قوة دافعة ذات حجم هائل • وبالنسبة للظاهرة العرابية بالذات فهى تعتبر أول حركة ثورية مصرية تملك نصيبا لابأس به من الوعي بذاتها ومن التحديد لاهدافها ، ومن القدرة على التنظيم لتحقيق هذه الاهداف ، ولم يكن من الممكن أن تملك هذه الصفات كلها لولا أنها تبلورت فى مناخ فكرى عرف وتمثل التيارات الثورية وخضع للتأثيرات العقلانية ، ولم تكن الخبرة العالمية فى مجال التنظيم السياسى والحشد الجماهيرى بعيدة عن ادراكه •

مصادر التأثير الفكرى ومراكزه

تعرضت مصر — منذ بدايات القرن السابع عشر ومع تفكك الحكم المملوكى — لتاثيرات فكرية عاصفة أرست بذور الصراع الفكرى الحاد فى التربة المصرية • وكان لابد أن تتعرض مصر للغزو الفرنسى لتجد حياتها الراكدة وبقايا حضارتها المضمحلة نفسها فى مواجهة الحضارة الاوربية التي كانت البرجوازية الاوربية قد ارست دعائمها الاساسية فتدخل بذلك عصر الصراع الشرس بين الفكر « الثيوقراطى »وبين الفكر الجديد بمقياس ذلك العصر — الذى جاءت به البرجوازية الصاعدة ، والذى كان يؤكد فيما يؤكد فكرة الدولة العلمانية •

وحتى الان فان نقطة التماس الاولى غير معروفة لنا بالضبط • فنحن نقرأ فى تاريخ الجبرتى تراجم لعناصر متعددة عرف بعضها فكر العالم الجديد من خلال رحلات الى البلاد الاوربية ، فجاهروا بالعقلانية ، وعرفوا مهاوى الشك وصراعاته المدمرة • ونفسوا عن انفسهم فاستحقوا لعنة معاصريهم ، وجوزى ما تركوه من مؤلفات وكتب وأفكار بالحرق • وبرغم افتقادنا لهذه الوثائق الهامة فان تاريخ الجبرتى وثيقة تمكننا من رصد بذور الصراع بين العقل المصرى والعقل الاوربى خلال السنوات الثلاث التى كانت مصر اثناءها جزءا من الجمهورية الفرنسية الاولى •

خلال تلك السنوات جاءت الحملة الفرنسية بتطبيقات الليبرالية وببعض مؤسساتها وعرضتها على العقل المصرى وتحاورت معه بشأنها ، ورغم حالة الحصار التى كان يعانيها هذا العقل مما يؤمن به من ناحية ، وما شاب العرض من ظروف الاحتلال والقهر من ناحية أخرى ، رغم هذا فان السنوات الثلاث كانت مصدرا هاما وأساسيا من مصادر التأثير فى الفكر المصرى •



سان سيمون

ثم أتى بعد هذا الاحتكاك القصير احتكاك آخر، عندما رحل العقل المصرى نفسه الى أوروبا ، فعاش طلاب البعثات الذين ارسلهم محمد على الى هناك مبهورين بعملية تشكيل الانسان الاوروبى فى دول لم تكن قد خانت بعد — ولعلها لم تكن تستطيع أن تفعل ذلك — أمجد شعارات البرجوازية الثورية كما تمثلت فى الليبرالية والديمقراطية السياسية •

لقد خضع المجتمع المصرى فى عصر محمد على وخلفائه لمجموعة من التأثيرات الاوروبية ، فعلى الرغم من ان محمد على لم يذهب الى أوروبا ، وكذلك عباس وسعيد ، الا أن اسماعيل كان عضوا فى البعثة الثالثة التى عرفت ببعثة الانجال ، والتى ضمت عددا من ابناء الاسرة العلوية ، وقد نال اسماعيل فى باريس حظا من العلوم الهندسية والرياضية والطبيعية ، ويعزى الى اقامته الطويلة فى باريس ميوله الفرنسية والاوربية • على أن من لم يتح له هذا الاحتكاك الاوروبى من خلفاء محمد على قد اتيح له هذا عن طريق المربين الاوربيين الذين كان محمد على يعهد اليهم بتربية ابنائه • وهذه التأثيرات ليست هينة ، ذلك أن خضوع ولى الامر لتأثيرات فكرية معينة ذو أهمية بالغة عندما تكون سلطته مطلقة وشخصية •

على ان محمد على — والمجتمع المصري ككل — قد خضع لتاثيرات الراديكالية الاوروبية كما تمثلت فى استخدامه لعدد من اتباع الفيلسوف الفرنسى سان سيمون ، الذين رحلوا الى مصر فى اواسط عهده ، فأعطاهم سلطة واسعة فى الاشراف على المشروعات الانشائية والعمرانية والتنظيمية • وعلى الرغم من أن الشكل التنظيمى العام لدولة محمد على يتضمن تاثرا باتجاهات السان سيمونيين الا انه بالقطع لم يوافق على جوهر فكرهم ، وهو ما دعاهم الى العودة الى بلادهم •

ولسنا ندرى هل حاولوا تحقيق مجتمعهم الطوباوى ، أم أنهم خضعوا ـ وهو الارجح ـ لشروط محمد على وقيود احلامه هو ، على أنهم بالتأكيد قد تركوا أثرا ما فى فكر المجتمع وتركوا تلامذة ومريدين ٠

ثم تعرضت اكثر عناصر المجتمع المصرى تأثيرا ونشاطا لعملية التفاعل مع الفكر الاوروبى ، عندما اتبع محمد على سياسة البعثات ، فأرسل اعدادا كبيرة من المصريين الى مختلف البلاد الاوروبية ، لدراسة العلوم والفنون ، ومنذ بداية حكم محمد على ، والى نهاية حكم اسماعيل ، بلغ عدد طلاب البعثات ٦١٨ طالبا كان اكثر من ثلثيهم يتلقون تعليمهم فى فرنسا وذهب سدسهم الى انجلترا ٠ اما الباقى فقد توزع على عدد من البلاد الاوروبية الاخرى ٠

وفى العقد السابع من القرن وفد الى مصر عدد كبير من المهاجرين الشوام ـ وخاصة الموارنة ـ الذين تعرضوا لمذابح طائفية قامت بينهم وبين الدروز سنة ١٨٦٠ وأدت الى هجرتهم الى مصر بما يحملونه من افكار تشربوا اكثرها من الدراسات التى كانوا يتلقونها على يد البعثات التبشيرية الاوروبية و الامريكية وما انشأته من مؤسسات تعليمية فى لبنان والشام ٠

والاهمية القصوى لمصادر التأثير تكمن فى انها استطاعت ان تنشىء مراكز اشعاع مصرية ثابتة تعمل على نشر فكرياتها واتجاهاتها ، وبهذا اصبحت بؤر التنوير بؤرا ثابتة تحدث تفاعلا مستمرا ويوميا فى المجتمع المصرى ، وتوسع آفاق تأثيرها بما تخرجه من اجيال جديدة تحمل فكر « التنوير » وتعمل على نشره ٠ وعلى مشارف الثورة العرابية كانت مؤسسات التأثير الفكرى الثابتة فى المجتمع المصرى تتمثل فى :

● مؤسسات تعتمد على فكر شخصيات رائدة فى مجال التنوير ، وما يحيط بهذه الشخصيات من مراكز تنشأ بتوجيهاتها او باشتراكها وما يحيط بها من تلاميذ ومريدين ٠ وفى هذا الصدد فان الدور الذى لعبه كل من رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ـ١٨٧٣) ، وجمال الدين الافغاني (١٨٣٩ـ١٨٩٧) ، هو دور المؤسسة الفكرية الكاملة الابعاد ٠

● ومن أهم مراكز التأثير الفكرى الثابتة ، ما أرسيت قواعده فى عصر محمد على من الاسس الجديدة للتعليم المصرى ، وما نتج عنها من تنظيمات فى مجال التربية والتنشئة الاجتماعية ، وأهم هذه الاسس والتنظيمات ان التعليم المصرى اصبح ثنائيا ، فبجانب التعليم الدينى الذى كان الازهر يقوم به ، انشىء التعليم المدنى الذى يعتمد على اكساب خبرات حياتية ودنيوية ، والذى يلقن الطلاب فيه اسس العلوم الطبيعية والحديثة ٠

ومن اهم الظواهر الفكرية ذات الدلالة ، ان المؤسسات التعليمية قد دعمها ـ كمراكز تنوير اضافية ـ انشاء مدارس مصرية رسمية لتعليم البنات ، وانشاء مدارس اهلية لنفس الغرض ، وذلك بالاضافة الى انشاء مدارس اوروبية تابعة للجاليات ، وتقوم بتقديم برامج تعليمية مشابهة لبرامج المدارس الاوروبية ٠

● ثم كان انتشار الصحافة ورسوخ اقدامها فى مصر ، بناء لمؤسسة فكرية ذات تأثير حاد ، فبعد الوقائع المصرية التى صدرت فى عام ١٨٤٢ بدأت الصحف تتوالى فى حكم اسماعيل ٠ فصدرت اول صحيفة سياسية غير حكومية وهى « وادى النيل » (١٨٦٧) ٠ وقد بلغ عدد الصحف السياسية فى آخر عهد اسماعيل ١٢ جريدة عربية ٠ كذلك عرفت مصر الصحف المتخصصة ، فصدرت مجلات طبية وعسكرية وثقافية ٠ ولعبت « روضة المدارس المصرية » ، اول دورية ثقافية مصرية (١٨٧٠ ـ ١٨٧٨) ، دورا هاما ، باعتبارها المنبر الذى اتخذه طلاب البعثات بقيادة رفاعة الطهطاوى والذى اخذوا ينشرون من خلاله افكارهم التنويرية ٠ كذلك صدرت ـ مع تزايد اعداد الجاليات الاجنبية ـ صحف غير عربية ، وفتحت السوق المصرية للعديد من الصحف الاجنبية والعربية ٠ ويلاحظ من يستقرىء موضوعات هذه الصحف ان حوارا ذا جوانب متعددة كان يجرى بين الصحف المصرية والعربية والاجنبية ٠

● واستقرت المطبعة ككائن ثابت فى المجتمع المصرى ٠

● وكذلك انشئت دار الكتب لتضاهى كتبخانة باريس كما يقول منشئها على مبارك ٠

● وانشىء مدرج للمحاضرات العامة عرف بـ « الانفتياتر » بسراى درب الجماميز وكانت تلقى فيه الدروس العامة فى الادب والفن والعلوم الانسانية والطبيعيات والهندسة والميكانيكا والفقه ٠

● وانشئت أولى الجمعيات والمنظمات العلمية والثقافية ، فأعيد تدعيم المجمع العلمى المصرى ، وانشئت العديد من الجمعيات العلمية والثقافية ٠

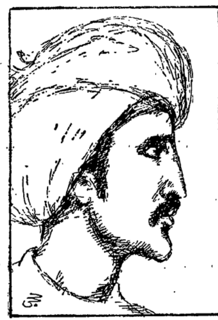
ان تبلور مصادر التأثير فى مؤسسات ثابتة فى

البيئة المصرية ، يعنى أن حركة التنوير المصرية قد اتيح لها أن تمارس نشاطها لفترة طويلة بلغت حوالى **نصف القرن** · ولكن **القيود** التى أحاطت بهذا النشاط قد **قللت من فاعليته بشكل عام** · فمن ناحية كانت **السلطة الشخصية** طاغية ترفض أى تحول جدى فى مسار الفكر المصرى يمكن أن يتحول الى حركة سياسية أو تنظيمية · ومن هنا تأخر تبلور المنظمات العلمية والفكرية ، وظلت بعيدة عن الديمومة ، وحدث كثير من الانقطاع فى نشاطها ، بل والتدمير لهذا النشاط ، وهو ما نلاحظه خلال حكم عباس الرجعى ، اذ ألغيت المؤسسات التعليمية والتربوية ونفى رفاعه الطهطاوى الى السودان · وفى أوائل حكم توفيق اذ نفى جمال الدين الافغانى فضلا عما كانت الصحافة تتعرض له من اضطهاد ومصادرة والغاء فى خلال حكم اسماعيل ·

ان **الجانب الاخر والهام للقيود** التى حالت دون تحرك مراكز التنوير لاداء دورها القيادى ، **هو تاخر التبلور الطبقى فى مصر** وضعف البورجوازية المصرية وعدم قدرتها على التفاعل مع فكرها وقيادته والانقياد له وفرضه على الخريطة الفكرية للمجتمع ·بيد أنمصادر التاثير ومراكز التنوير قد لعبت مع هذا دورا هاما فى التمهيد لحركة البورجوازية المصرية ، ولقبول مطامحها الثورية · وينبغى أن نلاحظ هنا أن حركة التنوير الاوروبية قد سبقت استيلاء البورجوازية على السلطة بسنوات طويلة ، وأن ارهاصاتها بدأت مبكرة مع بزوغ البروتستانتية ، وتدعمت مع دور الانسكلوبيديين الرائد ، وخاضت صراعا حادا مع الكنيسة ومع المؤسسات الفكرية الرجعية ، ثم تطورت ونمت مع ظهور الحركات السياسية للبورجوازية ·

الاتجاهات العامة للفكر الثورى

صب فى مسار الثورة العرابية **تياران فكريان ، هما التيار الليبرالى والتيار الاسلامى المتحرر** ، وبينما كان التيار الاول يعيش على استحياء وفى كنف السلطة ، ويحرص على الابتعاد عن السياسة مؤمنا بالاصلاح التدريجى ونشر التعليم كوسيلة وحيدة لا يملك غيرها ، كان التيار الثانى تيارا سياسيا بالدرجة الاولى ينطلق من تحليل للقوى السياسية العالمية ويدعو لوحدة الشعوب الاسلامية فى النضال ضد الغزو الاوروبى · واذا كان هذان التياران هما أبرز التيارات الثورية **فان تيارا ثالثا** يضاف اليهما ذلك هو **التيار الراديكالى** الذى يتجه



رفاعة الطهطاوى

الى نشر تصورات تتعدى فكرة التحرر الوطنى والديمقراطية الليبرالية الى اضافة بعد اجتماعى الى القضية الوطنية ككل ، وعلى الرغم من ان هذا التيار كان **أكثر التيارات ثورية ، فقد كان بالطبع اخفتها صوتا ، اذ نشأ فى مرحلة من البعد الشاسع عن أرضيته الاجتماعية ، وبالطبع فان الفقراء يوجدون فى كل مكان وزمان · ولكن بزوغ فكر يعبر عنهم رهين بقوة تنظيمهم وقوة تحركهم السياسى ·**

ولابد أن نلاحظ أن **القوى المناوئة للفكر الثورى كانت سائدة** وتتمثل فيمن يسميهم الدكتور « لويس عوض»**بالسلفيين (١)** ، وهمالذين **رفضوا الفكر الليبرالى العلمانى ورفضوا أيضا حركة تنوير الفكر الاسلامى** ، (**كما أن كراهيتهم الشديدة للاتجاهات الراديكالية ليست فى حاجة الى تأكيد**) ، ويضافالى هذا **انصار الاوتوقراطية الخديوية** والمعارضين أساسا للافكار الديمقراطية ·

ومن الخطأ أن نتصور **أن حركة التنوير قد** فرضت نفسها على الخريطة الفكرية للمجتمع المصرى ، اذ الحقيقة انها **اصبحت عنصرا مؤثرا وواضحا** فى حين أن **الغلبة ظلت فى الاساس للافكار السلفية** التى كانت قادرة على شل حركة التنوير والزامها **موقف الدفاع** · وان كان **الفكر السلفى قد انقسم** على نفسه أحيانا فاتجه جزء منه الى تشكيل **اللوثرية الاسلامية** وهى عملية دفاع فى الاساس الزمه اياها هجوم الفكر العلمانى عليه مما أجبره على التحرك لكيلا يفقد كل أراضيه ·

(١) لويس عوض — تاريخ الفكر المصرى الحديث — أول —

واتجه قسم آخر من السلفيين الى التحصن فى مواقعه السلفية ورفض « اللوثرية الافغانية » فان ذلك لم يمنعه من اتخاذ مواقف سياسية متقدمة وثورية ، فان القسم الاخير قد اتخذ موقفا رجعيا فكريا واجتماعيا وسياسيا • وكانت تلك العناصر أكثر العناصر تعفنا وتخلفا فى المجتمع المصرى •

وسنلاحظ أن الصراع بين مختلف الاتجاهات الفكرية قد خلق « ردود أفعال » و « مواقف دفاعية» لدى كل الاطراف ، وهو ما سيكون له آثره ليس فى المواقف العملية للمثقفين فحسب ، ولكن أيضا فى صعوبة تصنيفهم ووضع بطاقات بهويتهم الفكرية جامعة وشاملة •

ان طبيعة الصراع الفكرى فى المجتمع المصرى ، لم تسمح بالتوصل الى خريطة محددة المواقع تحديدا تاما ، فالذين يبحثون عن مفكر ليبرالى نقى ليقابلوه بمفكر محافظ ، او براديكالى متكامل ، يبحثون عن وهم ، ذلك أن أزدواجية الرؤية قد شملت الكل • ومن الطبيعى أنه فى الترجمة لا مفكرين ، فأن الاهتمام بتوائم افكارهم وانسجامها يصبح مسألة أساسية أما فى رسم تخطيط عام للخريطة الفكرية للمجتمع فان الاساس هو التركيز على المفاهيم الفكرية وتصنيفها ، ويصبح التناقض بين فكريات كل مفكر على حدة ، جزء من التناقض الفكرى العام فى المجتمع ، ويصبح فى هذه الحالة أن نفسر هذا التناقض فى محاولة تفسيرنا لاشكال التناقضات الفكرية فى المجتمع •

وتفيد دراسة الخريطة الاجتماعية للثورة فى تفسير هذه الظاهرة العامة • ذلك أن السمة الرئيسية للتطور الاجتماعى المصرى ، هى نمو البورجوازية المصرية متخلفة قرنين أو أكثر عن البورجوازية الاوروبية ، وبعد تحول الاخيرة من قوة ثورية الى قوة محافظة ، وهو ما أدى الى أن البورجوازية المصرية بدأت محاولاتها لتحقيق ثورتها ضد معسكرها العالمى وليس فى حمايته • وبالتالى تأخر التبلور الطبقى فى مصر طويلا • واصبح فائض الانتاج الزراعى هو وسيلة تجميع رأس المال ـ بعكس الحال فى أوروبا عندما تكون هذا الفائض من التجارة والصناعة الحرفية ـ وبهذا سادت الفكريات الزراعية • وافتقدت الطبقات المصرية الى تعبير أيديولوجى نقى ، لانها فى الاساس طبقات غير نقية سواء كان هذا فى مجالات الفلسفة أو الفكر السياسى والاجتماعى والاقتصادى وحتى الحركات السياسية ، ومن هنا فان التوفيقية كتيار ايديولوجى سمة أساسية فى كل هذه المجالات مما يجعل معالجة الظواهر الفكرية أكثر صعوبة ، ويصبح احتمال الخطأ فى ادراك بعض ظواهره النوعية غير قليل •

والواقع اننا لا نعنى بتناقض افكار المفكر الواحد ، تطوره الخاص ، فالمفكر ككل الكائنات قابل للتطور والتغير فى خط صاعد أو هابط ، ومن الطبيعى أنه فى هذا التغير قد يتناقض مع نفسه سلبا أو ايجابا ، ولكننا نعنى أن يجمع فى المرحلة الواحدة بين الايمان بأفكار عقلانية وغيبية فى نفس الوقت ، ونشير كعامل مفسر لهذه الظاهرة الى « موقف الدفاع » الذى أخذته أفكار متخلفة أو متقدمة لتواجه هجوم الافكار المناقضة لها • وهو مظهر من مظاهر التناقض ، وعامل يفسره فى نفس الوقت •

وهناك صعوبة أخرى تحول دون التحديد الصحيح للافكار التى صبت فى مجرى الثورة تلك هى افتقادنا للعديد من الوثائق الفكرية للثورة ، ورغم كل هذه الصعوبات فاننا نستطيع أن نرصد بعض قضايا الفكر الثورى التى صبت فى مسار الثورة العرابية ، وانتهاء بسنوات الثورة نفسها ، ومن خلالها تتضح لنا صورة الثورة العرابية بأوضح ما يمكن •

وقد اخترنا أن نعالج ثلاثا من قضايا الفكر الثورى • ومن البديهى أن التيار التحررى وتطبيقاته الدستورية ، كان واضحا فى مسار الثورة ، بما يدفعنا الى تنحيته جانبا لنفرد هذه الدراسة لتيارات فكرية أخرى ، خاصة وأن دراسة الاتجاهات التحررية والدستورية تحتاج الى توسع لا تسمح به ظروف هذه الدراسة •

الفكرة القومية

يعتبر تصدر الفكرة القومية لخريطة الفكر الثورى فى تلك المرحلة من أبرز ما نجحت الثورة العرابية فى اضفائه على هذه الخريطة ، وهو ما لا يستطيع أحد أن يغفله عند مراجعة الحصاد الفكرى الذى خلفته الثورة بعدها ، سواء فى ذلك الوثائق الفكرية البحتة أو المواقف السياسية العملية وخاصة تلك المواقف التى ارتبطت بقضية حماية الوطن القومى من الاستعمار بكل اشكاله • وعلى الرغم أن الفكرة القومية قد أخذت حجما مائلا من جهد الثوار فان مناحيها قد غمضت على الكثيرين ، واختلف تقييمها أو أهمل عديد من دلالاتها الهامة •

ان الفكرة القومية كجزء من الفكر السياسى

للثورة تتضح أذا ما تابعنا ثلاث نقاط :أولها يجيب عن سؤال حول مدى ادراك الثوار لوجود خصائص قومية مشتركة بين المصريين تفصلهم عن غيرهم من الاجناس ، والدعوةلتنمية تلك الخصائص والمحافظة عليها ، وثانيها يرتبط بتصور الفكر الثورى لحق المواطنة ، والمساواة بين المواطنين على أساس انتمائهم للوطن ، وليس لدين معين ، ويرتبط بهذه النقطة النقطة الثالثة حول تصور الفكر الثورى لطبيعة العلاقة بين مصر وتركيا .

وبالرغم من اننا لن نجد فلسفة قومية متميزة لدى مفكرى الثورة والذين مهدوا لها ، فانه ليس من العسير أن نجد بعض المقولات الهامة حول الموضوع ، ومن هذه المقولات اهتمام رفاعه الطهطاوى اهتماما بالغا بمراجعة التاريخ المصرى القديم ، والخروج ببعض الانطباعات عن حضارة مصر الفرعونية ، وقد خرج من هذه المراجعة بأن هناك اجماعا من المؤرخين على « أن مصر دون غيرها من الممالك عظم تمدنها وبلغ اهلها درجة عليا فى الفنون والمنافع العمومية ، كيف لا وآثار التمدن وعلاماته مكثت لمصر نحو ثلاثة واربعين قرنا » كما أنه ادرك فضل الحضارة المصرية على الحضارات المعاصرة لها « ولم يكن فى الارض ملك اعظم من ملك مصر ، وكان جميع الارضين تحتاج الى مصر ، وهذا عين التمدن ، أذ لا يمكن ذلك الا بتقدم الصنائع والفنون » (٢) .

وفى تحليل سبب ازدهار الحضارة المصرية يرجعها الطهطاوى الى عاملين ، أولهما : تهذيب الاخلاق بالاداب الدينية والفضائل الانسانية ، وثانيهما المنافع العمومية التى تعود بالثروة والغنى وتحسين الحال وتنعيم البال على عموم الجمعية (أى المجتمع) وتبعدهما عن الحالة الاولية الطبيعية (يقصد البداثية وحياة الفطرة (٢) ويقرر الطهطاوى فى كتابه «مناهج الإلباب المصرية فى مباهج الاداب العصرية » مظاهر اعجابه بالحضارة المصرية ، ويدعو الى التربية الوطنية فهو « يعلمنا ان الوطنية هى قمة الفضائل ، وأن حب الوطن ركن من أركان الدين وأن دليل الوطنية هو الرغبة فى تمدين الوطن والعمل على تجديد شبابه بالعمران »

والطهطاوى الذى يصف نفسه بأنه « عاشق لجمال العمران » يقول أن غاية كل وطنى هو بعث مجد مصر القديم بالاخذ بأسباب الحضارة الحديثة وأن دوره كمفكر ودور كل المثقفين هو خدمة المجتمع بفكرهم وعلمهم » (٣)

ومن المراكز الفكرية التى عملت على الاهتمام بالحضارة المصرية « مدرسة اللسان المصرى القديم » التى انشئت فىسنة ١٨٧٠ بهدف تعليم اللغة الهيروغيريفية وآدابها ،وامتدادا لنشاط هذه المدرسة وتعميما لفائدة هذا النشاط فتحت مجلة « روضة المدارس المصرية » صفحاتها لطلبة هذه المدرسة ومدرسيها لنشر مباحثهم . فنشرت فى أحد ملاحقها دروسا فى قواعد اللغة الهيروغليفية ، كما نشرت العديد من المقالات للمستر « هنرى بروكش » ناظر المدرسة ، ولعدد من تلامذتها تضمنت ترجمة لعدد من النصوص الفرعونية فى الاداب أو الوصايا .

ومن المقولات الهامة فى الفكرة القومية محاولات وضع تعريفات للوطن ، منها محاولة مبكرة للشيخ محمد عبده فسر فيها مفهومه لمعنى الوطن ، فرأى أن « الوطن فى اللغة محل الانسان مطلقا ، فهو والسكن بمعنى واحد : استوطن القوم هذه الارض وتوطنوها أى اتخذوها مسكنا ، وهو عند أهل السياسة مكانك الذى تنسب اليه ويحفظ حقك فيه ، ويعلم حقه عليه ، وتأمن فيه على نفسك وآلك ومالك » . ويجمل الاستاذ الامام العلاقة بين الانسان ووطنه فى أنه « فى الوطن ثمة موجبات للحب والحرص ، ثلاثتشبه ان تكونحدودا ، الاول انه السكن الذى فيه الغذاء والوفاء والاهل والولد ، والثانى انه مكان الحقوق والواجبات التى هى مدار الحياة السياسية وهما حسيان ظاهران والثالث انه موضع النسبة التى يعلو بها الانسان ويعز أويسفل » . ثم ربط بين المواطنة وكفالة الحقوق والواجبات السياسية ، فأعطى لفكرته القومية بعدا ليبراليا واضحا .

وسنجد فى آثار عبد الله النديم اشارات متعددة الى الفكرة القومية ، تكشف أنه كان يضع هذا الموضوع بين أهداف نشاطه العملى فهو يقول فى حفل افتتاح أولى المدارس التى أسستها « الجمعية الخيرية الاسلامية » ان هذا الاحتفال « سيكون تاريخا لبعث الارواح العربية ونشاة الغيرة الشرقية ، وهذا يكون الميل الذاتى للانس بالنفع النوعى والمصلحة الوطنية ، فالاعضاء شتى والنفس واحدة ، والعروق عدة ، والدم واحد ، والافكار وان تنوعت فمحورها لسان واحد »(٤)

[٢] رفاعة الطهطاوى – مناهج الالباب المصرية بمباهج الاداب العصرية
[٣] نفس المصدر
[٤] د. على الحديدى – عبد الله النديم . خطيب الوطنيه ص ٨٧

وسنلاحظ أن التفرقة بين « **العروبة** » و « **المصرية** » كانت نادرة فى هذه المرحلة ، اذ كان التقسيم يعتمد على **اللغة كأساس للتمييز بين القوميات** • وفى وثائق العصر الفكرية والعصر السابق له ، سنجد تعبير « **اولاد العرب** » كناية عن المصريين ، فى مواجهة « **ابناء الترك** » و « **الشوام** » و « **الارمن** » الخ •• وللنديم بالاضافة الى هذا **محاولات متعددة للدفاع عن الشخصية القومية** وذلك بالهجوم على **الفرنجة وتقليد الاجانب** • فى مقال له بعنوان « **عربى تفرنج** » صور شابا من أعماق الريف المصرى اسمه « زعيط » سافر الى اوروبا وتعلم بها ، ثم عاد الى بلاده فتنكر لما يفعله **أبوه « معيط »** ، فحين يقابله الاب على المحطة يلومه لانه قبله واحتضنه ، ويطلب منه ان يحييه برفع يده فقط ويقول له « بون أريفيه » ، وينسى لغته ، حتى البصل لا يتذكره ويسميه « أونيون » وتحاول امه « معيطة » أن تفهم ما يعنيه فلا تستطيع ويختتم النديم قصته بذكر المغزى منها ، وهو **أن لا أمل فى مثل هؤلاء « الا اذا حافظوا على لغة قومهم وصرفوا علومهم فى تقدم بلادهم** . (٥) وركز فى مقال آخر على ضرورة **الحفاظ على اللغة القومية** على أساس « **أن من سلم فى لغته سلم فى وطنه ونفسه** » ويخاطب المصريين طالبا أن **يحافظوا على لغتهم** باعتبارها مظهرا من **مظاهر الشخصية القومية** ، « **اللغة هى ان كنت لا تدرى هى أنت وهى وطنك ان لم تعرف ما الوطن ، أما كونها وطنك فأنه انما يعمر ويسمى وطنا برجال يتعاونون على احيائه واظهاره فى الوجود محلا للسكنى ودارا للاقامة ، وقد علمت أنك بمفردك لا تهتدى لشىء ولا تقوى على اى امر كان • ومن فقد المواطن فقد الوطن** » (٦) •

والنديم يعتبر أن **اللغة ليست مظهرا للوطنية فقط ولكنها ايضا مظهر للعقيدة الدينية** ، « **ومن اضاع وطنيته ومعتقداته وأفكاره فقد أضاع نفسه فأضاعة اللغة تسليم للذات** » (٧) •

وسنلاحظ بالاضافة الى ما سبق أن فكرة **الحفاظ على السوق القومية وعلى الثروة الوطنية** من التبدد الى أيدى الاجانب ، وأيضا **الاحتفاظ بالوظائف الادارية للمصريين ، كلها افكار متداولة** وشائعة تخدم آمال الجنين البورجوازى وتعبر عن مصالح أبعد من طاقته • وتتكرر فى كتابات **النديم والافغانى والطهطاوى** وغيرهم من مفكرى المرحلة الدعوة الى **احياء الصناعة المصرية والتجارة المصرية ، والهجوم على فكرة الاستغلال الزراعى، والدعوة الى حماية الثروة القومية من التبدد فى الفراغ** •

ويتميز يعقوب صنوع بالدعوة الى **مقولتين هامتين** : الاولى « **الوحدة القومية** » وذلك عن طريق « **مكافحة الاباطيل التى تفرق بين المسلمين والمسيحيين بأظهار سماحة القرآن وحكمة الانجيل، وهكذا يتسنى لى الملاءمة بين قلوب الفريقين** » (٨) و « **محاربة التعصب الدينى بسلاح الاخاء** » (٩) **والثانية** ابراز **الخصائص المتحضرة للشعب المصرى** ردا على المزاعم الاوروبية التى كانت تطمح فى حرمان مصر من حريتها بدعوى تخلفها ،وفى حوار له مع « **ج• سودان** » الكاتب الفرنسى ومحرر صحيفة « **هنرى الرابع** » سأله عما اذا كان المصريون يستطيعون أن يكونوا شعبا حقا ، فرد عليه ناقدا سطحية العقل الاوروبى الذى يفشل فى التعمق فى **طبيعة الشعب المصرى** ، فيزعم أنه شعب كسول متعصب وجاهل ، « **اما انا فأقول لك ان الشعب المصرى ليس متعصبا بل هو على عكس ذلك أكثر شعوب العالم تسامحا على شرط ألا يستفز أكثر من اللازم والتاريخ على ذلك شهيد ، واخيرا اقول أن الشعب المصرى ليس على درجة الجهل التى تتخيلونها** ، فهناك المدارس المدنية والدينية التى أسستها الحكومة ، ومدارس القاهرة الحربية **وخاصة مدرسة أركان الحرب ليست بدائية كما يظن الباريسيون الظرفاء** » (١٠) ، **ويبرز يعقوب مظاهر التقدم الحضارى** والنظامى للشعب المصرى، مؤكدا ان الشعب « لاينقصه سوى زعيم جدير به»(١١)

ان يعقوب ــ **الذى تربى لابوين يهودين ، وتعلم الاسلام واعتنقه ــ** وأصبح ــ بتعبير **ايرين جينديزيه ــ متحدثا باسم الفكر الليبرالى** ، كان يبعث فى حسه القومى روحا شديدة السماحة جعلته يفكر فى بلورة **نظرة متكاملة عن المساواة بين الاديان** ، لكى يرفض الى النهاية **المنطلقات التى تؤدى دائما الى تفتيت الوحدة القومية** • بل انه طمح يوما الى **التقريب بين مصر وأوربا** ، ولعله كان يرى أن الحضارة الاوربية تستحق أن تهدى مصر اليها بكل ثقلها الحضارى فى وقت لم تكن حضارة اوروبا **قد تخضبت بالدم تماما ، او**

---

[٥] نفس المصدر ص ١١٣
[٦] نفس المصدر ص ١٢٠
[٧] نفس المصدر ١٢١
[٨] د• ابراهيم عبده ــ الصحفى الثائر ــ ص ١٤
[٩] نفس المصدر ص ٣٩
[١٠] نفس المصدر ص ٥٨
[١١] نفس المصدر ٥٩

كشفت عن عدوانيتها ، أو حلت محلها حضارة جديدة أكثر انسانية (١٢)٠

على ان الفكرة القومية لم تسلم من انعكاس الفكر السلفى والمحافظ عليها ، مما وضع العديد من الظلال على وضوح رؤيتها ، ومن أبرز هذه الظلال ما القته مدرســة التنوير الاسلاميـــة وعلى رأسها جمال الدين الافغانى من تمييع على الفكرة القومية ، وعلى الرغم من أن كثيرين من اصدقاء الافغانى ومن المختلفين معه قد حاولوا تفسير طبيعة موقفه من المسألة القومية ، فانه يظل موقفا غير واضح الوضوح الكافى ٠ وخاصة أن الافغانى نفسه كان يؤمن بمجموعة من الفكريات المتناقضة كما أنه احدث تعديلات واضافات كثيرة علـــى افكاره فى فترات لاحقة ٠ ويقر بعض انصار مدرسته من المعاصرين بأنه كان من دعـــاة فكرة « القومية الاسلامية » ، وعندهم ان « جـــمال الدين الافغانى» لم يكن هو مخترع القـــومية الاسلامية ، بل انها من صميم نظـــام الحكم الاسلامى ، فبلاد المسلمين هى دار الاسلام ، وكل من يسكنها يحمل جنسيتها مهما كانت ديانته (١٣) وهو تفسير يتضمن القول بأن هناك مـــا يسمى « بالجنسية الإسلامية » ، اى ان « المسلمين » جنس واحـــد ، والاســـلام « جنسية » فـــوق أنه « دين » ٠

وبرغم ان كثيرين ممن درسوا فكرة الافغانى ، لم يحاولوا أن يكتشفوا ما اذا كان هناك فـــرق بين « الوحدة الاسلامية » و « القومية الاسلامية » لديه ، فأن النظرة العـــامة لفكره لا تكشف هذا بسهولة ٠ ان الوجه البارز لدعوة الافغانى هو أن حركة الوحدة الاسلاميـــة هى « الامل الاخير فى مقاومة الاستعمار الغربى الذى امتد من البلاد المغربية حتى الهند » (١٤) ، ولكن ما شكل هـــذا الوحدة ؟ هل هـــى تضامن للنضال المشترك بين الشعوب الاسلامية ضد الاستعمار ؟ ٠ أم « وحدة سياسية » ، تقوم أساسا على توفر خصائص قومية مميزة فى كل الشعوب الاسلامية ٠ واذا فرض وتوفرت هذه الخصائص فما هـــى ؟ ان بعض المتشيعين حتى الان لفكرة الجامعة الاســـلامية « يرون أن الصراع الدينى كان مظهرا من مظاهر الصراع بين الدول الاسلامية وبين الاستعمار فى الفترة التى تفجرت فيها دعوة الجامعة الاسلامية وعندهم أن « الدول الاستعمارية كانت تملـــك مخططا هدفه الاول هو تحطيم القيم الاســـلامية ومحاولة ازاحة الايمـــان بمبـــادىء الاســـلام حتى تستطيع السيطرة على بلاد المسلمين » (١٥) وهذا التفسير يضفى على دعوة الجامعة الاســـلامية طابعا مختلفا ، اذ يضع من بين عناصر الصراع مع الاستعمار عنصرا دينيا ، رغم أنه – كتفسير لا يقيد الافغانى – لا يهمل العناصر الاخرى للصراع الا أنه على أى الاحوال يعالج القضية بشكل يتضمن مزالق خطيرة فى الظروف الراهنة ٠

وسنجد لدى الافغـــانى معطيـــات فكريـــة كثيرة تؤكد أنه كان يخلط – وخاصة فى المرحلة الاولى من دعوته – بين « الجامعة الاسلامية » كتضامن مشروع للشعوب الاسلامية ضد الاستعمار وبين الخصائص القومية ٠ فهو يرى أن « الاصـــول الدينية الحقة المبرأة عن محدثات البدع تنشىء للامم قوة الاتحاد وائتلاف الشمل ، وتقدم الشعب اليابانى الوثنى ، قد تم ببعض تعاليم الدين مثل العلم والشورى » (١٦) ٠ وفى مرحلة متقـــدمة عرض الافغانى للعناصر المكونة للقومية فحددها بخمسة خواص « تميزت بها القبائل والشعوب التى خلقها الله من نفس واحدة ، وتقسم المعمورة الى ما يسمونه ممالك وأوطانا ، أما الخواص فأربع منها تستمد من طبيعة الاقليم ، والخامسة تطرأ فتؤثر وهى الدين » اما الخصائص الاربع الرئيسية فهى « اللسان والاخلاق والعوائد والاقليم وتأثيره على المجموع » ٠ ويذكر الافغانى انه بتوفر هـــذه الخصائص « تحصل للاقوام ميزة وتتأصل فيهم محبة البقاء على مألوفهم والذود عنه ، واعتبار انه ليس منهم هو غيرهم بمعنى الغـــيرية المطلقة » فمتى تم لقوم من سكان الارض أو لاهل اقليم أو مصر تلك الجوامع أو الخواص الخمس المميزة ، وحصلت المساواة بين العموم منهم وتـــأثروا بمؤثراتها ، أصبحت دعوى الكفاءة بينهم ميسورة »

---

[١٢] الطليعة القاهرية – عدد مايو ١٩٦٧ –

[١٣] عبد المنعم شميس – الافغانى – الجمهورية القاهرة فى ١٩٦٨/١٢/٥ ، وراجع ايضا الحوار الذى دار بينه وبين الاستاذ أمير اسكندر فى نفس الفترة على صفحات الجمهورية

[١٤] نفس المصدر

[١٥] نفس المصدر

[١٦] الاعمال الكاملة للافغانى – نشر وتقديم محمد عماره – ص ١٩٩ ، ٢٠٠

والمن - التمييز أو تعيين الافضلية غير ميسون » (١٧)

وقد يكون من الصحيح عند النظر الى هذه القضية أن نقر بأن تيار الجامعة الاسلامية لم يكن يدعو الى « التعصب الديني » ولكن الى « العصبية الدينية » وقد ظل له هذا الطابع النقي بفضل ما تميزت به حركة التنوير الاسلامية من افق فكرى واسع فضلا عن احتضانها لابرز المقولات الليبرالية الخاصة بحرية العقيدة ومعاداة الاضطهاد الديني • ولكن ذلك لم يمنع من أن يتضمن هذا التيار مزالق خطيرة ، وخاصة عندما ينحدر الى عناصر لا يمكنها وعيها الذاتي من أدراك الفروق بين المقولات المختلفة ، ومن تمييز الصحيح والخطأ منها •

ولا ينفى هذا كله ، أن التيار الاسلامي قد ساهم في حركة التحرر الوطني مساهمة فعالة ، وكان واقع العصر قد فرض بالفعل أن تكون أكثرية الشعوب الاسلامية اما مستعمرات ، او مهددة بأن تكون كذلك • ثم أن الاسلام كان مظهرا أساسيا من مظاهر الوحدة القومية آنذاك ، قبل أن تنضج الحركات القومية وتتسع ،وهو ما حدث أكثره في القرن التاسع عشر • وقد حاولت قوى الإحتكارات الاوربية أن تضلل الاقسام العريضة من جماهيرها بتشويه الحركات القومية في بلاد المستعمرات باتهامها بالتعصب الديني ومعاداة المسيحية ، وهي تهمة غير صحيحة لان هذه الحركات لم تكن تتجه الى محاربة الدول المسيحية غير الاستعمارية ، ولكنها كانت تحارب اساساقوى الإستعمار ، وكانت استعانة الحركات القومية بالشعور الديني مسألة طبيعية قبل نضوج الشعور القومي ، خاصة وقد لعب هذا الشعور ادوارا عظيمة في الجزائر وتونس خلال المقاومة الباسلة التي خاضها شعباهما ضد الغزو الفرنسي •

وأروع ما نجحت الثورة العرابية في بلورته من اتجاهات فكرية هو حرصها على تأكيد الطابع القومي للفكر الثوري المصري ، وضربها المراكز المتخلفة التي كانت تحاول الخروج بفكرة الثورة عن مداها الحقيقي الى اتجاهات متعصبة ومعادية لفكرة الوحدةالوطنيةوالقومية • ومن البداية كان التيار الذي مثله « عرابي » يتميز عن تيار الجامعة الاسلامية رغم انه كان من الذين تأثروا بالافغاني كما انه لم يكن ينتمي الى التيار الليبرالي – من حيث نشأته الفكرية وتكوينه الخاص – ومظهر هذا التميز كما حدده بلنت هو « الدفاع عن حقوق الفلاحين » فبينما كانت حركة الاصلاح الازهرية « تشمل المسلمين ولا تميز بين الاجناس، فان حركة عرابي كانت قومية ولذلك كانت الوطنية فيها أظهر واقبال الناس عليها اقوى واكثر » (١٨)

ولم تكن قومية عرابي مانعة له من أن يكون متدينا شديد التدين ، مسلما شديد النقاء في اسلامه ، بل ان هذا التدين كان شديد الاثر في اجتذابه للجماهير ، كما كان عاصما اخلاقيا منعه طيلة فترة الثورة من أن يخضع لمغريات الحياة التي تلوث الثوار الذين لا يعتصمون بالقيم الاخلاقية دينية كانت أو اجتماعية ، لقد كان عرابي بتعبير بلنت من « الليبراليين المسلمين » (١٩) .

وسنلاحظ عند مراجعة أساليب الحشد الجماهيري التي استخدمتها القيادات الثورية اعتمادها كثيرا على استثارةالحماس الديني لدى الجماهير ، وهي ظاهرة تدل على مناحي التخلف الفكري ، وتتضمنمزالق خطيرةقد تحرفالجماهير عن قضاياها الرئيسية الى منعطفات غير صحية ، ولذلك نلاحظ انبعاثها في البدايات الاولى ، وايضا في لحظات اضطراب المواقف ، وعدم القدرة على التمييز بين الصواب والخطأ • ويشير الشيخ محمد عبده في مذكراته الى أن عرابي في الفترة بين تمرد أول فبراير ١٨٨١ ونشوب الثورة في ٩ سبتمبر من نفس السنة كان يعتمد اعتمادا كبيرا على العنصر الديني في دعوته فقد كان يقابل عناصر مختلفة من طبقات الشعب ، ويصور لهم السلطة الاجنبية الحاضرة اذ ذاك كأنها نسر يحوم في جوها لاختيار خير الفرائس لينقض عليها ثم اختار من بينها الدين والعوائد الموروثة عنه لينشب فيها مخالبه ، وانه لو دامت سياسة رياض باشا في منهجها لقضى على الدين وسننه » (٢٠) .

ويبدو أن عرابي قد التجأ الى هذا تحت تأثير عامل اساسي هو تدينه هو نفسه وتأثره بمدرسة الإصلاح الازهرية ، بالاضافة الى أنه وضع هذا الشعار بين شعارات الحد الادنى التي جمع على اساسها الجبهة الوطنية ، ليضم اليها قوى الشعب ومن بينهم طلبة الازهر ومشايخه ، ويذكر الشيخ محمد عبده أنه بعد هذا العرض للخطر على الاديان « وجد من حضرات المشايخ اصغاء لقوله وتأييدا لرأيه » (٢١)

على أنه ينبغي أن نقلل نوعا ما من خشيتنا من

---

[١٧] نفس المصدر ص ٤٢٨

[١٨] بلنت – التاريخ السرى لاحتلال انجلترا لمصر – طبعه اخترنا لك –

[١٩] نفس المصدر

[٢٠] مذكرات الامام محمد عبده – طبعة الهلال – ص ١٤٢.

[٢١] نفس المصدر والصفحة

أن يؤدى هذا التركيز على المشاعر الدينية الى مهاوى التعصب • وما يتضمنه من افقاد الوطن لصفه الجامع لكل ابنائه والذى لا يضطهد اى فئة بسبب الدين أو العنصر ، وما يجعلنا نقلل من هذه الخشية ان من الجوانب الواضحة فى فكر الثورة • خلوها كحركة وقيادة من أى مظهر من مظاهر التعصب الدينى ، وهى حقيقة مؤكدة • ان اتهام العرابيين بالتعصب الدينى هو اشهر الاكاذيب عنهم وقد يكون من المقبول آن تطلق هذه الاكذوبه على حركة لا تلتفت كثيرا لهذه المسألة أو تأخذ منها موقفا حياديا • أما أن تطلق على حركة ذات صفة قومية وشديدة المعاداة للتعصب الدينى فهذا ما يثير بالفعل •

ان مجلس النواب الذى انتخب بعد الثورة قد ضم أربعة من الاقباط من بين ٧٥ عضوا هم كل اعضاء المجلس انتخبوا انتخابا حرا • وضمت وزارة البارودى — وهى وزارة الثورة — وزيرا مسيحيا هو بطرس غالى ؛ ويقول بلنت «كانت العلاقات بين البطريرك والوزارة ودية جدا ، وكان الاقباط على العموم فى جانب الوزارة ، كذلك كان اليهود بزعامة الرباعى يطلبون الحكم الدستورى » (٢٢)

والملاحظ أن محاولات ضرب الثورة بافتعال حرب طائفية بين المصريين المسلمين والمصريين المسيحيين قد فشلت تماما • وقد دعيت « الجمعية العمومية » — وهى مجلس طبقات الامة — الى الانعقاد فى ٢٢ يوليو ١٨٨٢ عقب خيانة الخديو وانضمامه للاسطول البريطانى ، فكان من بين اعضائها ٢٥ يمثلون الرؤساء الروحانيين من المسلمين — شيخ الازهر وممثلى المذاهب والمفتى والقضاة والاشراف — و١١ يمثلون الرؤساء الروحانيين من الاديان الاخرى ، منهم رؤساء الارمن الكاثوليك والاقباط الكاثوليك وحاخام اليهود وبطريرك الاقباط ، غير عدد آخر من المسيحيين الذين مثلوا طوائفهم المختلفة كمواطنين. وتدرع عبدالله النديم أثناء الغزو شعار دعوة المؤمنين من جميع الاديان للذود عن حقوق الوطن ، مستندا على فتوى كان البطريرك المصرى قد اصدرها ضد الانجليز يتهمهم فيها بخروجهم عن تعاليم المسيحية الحقة •

وموقف الثورة القومى ذاك ، لا يقلل منه ولا يتعارض معه بتاتا اتجاهها سياسيا — بعد تفجر الموقف وبدء الغزو — الى الاعتماد على الشعوب الاسلامية لكى تمدها بالمعونة لحصر الغزو وصده ، وتهديدها باثارة حرب دينية ضد الاحتلال • فهى سياسة طبيعية فى ضوء الوعى القومى المحدود لدى الجماهير ، ولانه من الطبيعى أن تتجه الثورة الى شعوب المستعمرات والشعوب غير المستعمرة لتطلب معونتها كجبهة عالمية — وليس ذنب الثورة أن كل هذه الشعوب كانت اسلامية •

على أن فكرة الجامعة الاسلامية عند مبدعها الافغانى ، عادت فتطورت بعد ذلك الى فكرة الجامعة الشرقية ، أى التى تضم شعوب الشرق ضد الغرب الاوروبى ، وهو تغير أفضل قليلا ، وان كانت المسألة ليست مسألة صراع أديان أو اتجاهات اصلية ، ولكنها اساسا صراع بين قوى التحرر الوطنى والقوى الاستعمارية •

ومن الجوانب التى ظهرت بواكيرها فى الفكر القومى أثناء تلك المرحلة ، فكرة القومية العربية • يذكر بلنت أنه قابل الشيخ محمد خليل من مشايخ الازهر ، وانه ذكر له انه عضو فى جمعية المصلحين الاحرار ، وذكر له أن مركزها هو مكة وأنها تهدف الى معارضة السلطان عبدالحميد، وتتطلع الى خلافة عربية (٢٣) ؛ ويذكر كرومر أنه بعد مظاهرة سبتمبر « زاد الهمس عن قيام حركة سرية ترمى الى انشاء دولة عربية من مصر وسوريا •• فلو فرضنا لهذه الحركة النجاح فما ترى كان يصبح مصير أجزاء هذه الامبراطورية العثمانية وولاياتها ، بل مصير آل عثمان أنفسهم » (٢٤) • ويقول محمود سامى البارودى لصابونجى : أن فكرة أعلان الجمهورية فى مصر كانت تتضمن « انضمام سوريا اليها ثم الحجاز »(٢٥) •
والملاحظ أنه فى حين كانت بعض العناصر الثائرة فى الازهر تتجه الى انشاء خلافة عربية — أى دولة ذات طابع دينى — فان العناصر الثورية الاخرى كانت تطالب بجمهورية أو دولة عربية ، فى اطار الانفصال النهائى عن الخلافة سواء كانت عثمانية أو غير عثمانية •

[٢٢] بلنت — التاريخ السرى
[٢٣] نفس المصدر
[٢٤] كرومر — مصر الحديثة — ترجمة عبد العزيز عرابى — ص ٧٠
[٢٥] بلنت — التاريخ السرى — ص ٤٥٣

على أن أهم وأخطر ما طرحه الجنين البرجوازى المصرى ، بمختلف مراكزه الطبقية والفكرية والسياسية فى مرحلة الثورة العرابية ، هو طرحه شعار « مصر للمصريين » • أن هذا الشعار لا يبلور فلسفة قومية مميزة، ولكنه شعار سياسى من أهم شعارات الثورة وأكثرها استقطابا للجماهير الشعبية•وقد كان رفعه كاحد شعارات الجيش فى بواكير حركته ضد السيطرة الجركسية والتركية أحد الاسباب التى أدت الى اتساع هذه الحركة والتفاف عديد من القوى الاجتماعية حولها بالاضافة الى أن مختلف شعارات الثورة وحركتها السياسية بعد ذلك قد نبعت من خلال محاولة وضع هذا الشعار موضع التطبيق العملى • ويبدو الاهتمام الذاتى به اذا ما لاحظنا أن الزعماء الثلاثة للحركة العسكرية ـ عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى ـ كانوا ينهون أسماءهم بلقب « المصرى » كنوع من التمييز بينهم وبين غيرهم من العناصر الاخرى •

والواقع أن جوهر هذا الشعار يطرح بالاضافة الى كل مظاهر الفكر القومى التى أشرنا اليها فيما سبق ، قضية العلاقة بين مصر وتركيا باعتبار أن تبعية مصر لتركيا كانت انتقاصا من الاستقلال وتذويبا للشخصية القومية فى كيان استعمارى فكيف نظر الثوار الى هذه العلاقة ؟ •

سنلاحظ أنه منذ نهايات عصر اسماعيل تزايد العداء لتركيا بين صفوف العناصر المثقفة ، وكذلك بين صفوف الجماهير ، وقد وصف القاضى الهولاندى « فان بملن » هذا الشعور بقوله « يخطىء من يظن أن المصريين المثقفين لا يهتمون الا بمصالحهم الخاصة ومصالح عائلاتهم ، فانهم على العكس يكرهون الحكم التركى والحكم الاوروبى على السواء ، ويريدون حكومة وطنية بكل معانى الكلمة وهم يحبون مصر الحديثة ومصر التاريخية ، ويهتمون بمصير الشعب ويتألمون لمصائبه التى لا نهاية لها » (٢٦) •

ويؤكد المستر ماك كون أن « الولاء السياسى نحو الباب العالى قد تلاشى بسبب احساس المصريين بفداحة الجزية التى تؤدى لتركيا دون مقابل ، وأصبح شعار الامة المصرية « مصر للمصريين»،ولا يشك فىذلك أحدممن عرفوا حقائق الامور فى مصر ولو أن الخديو اسماعيل أراد أن يعلن الإستقلال التام للقى التعضيد والتأييد من جميع طبقات الامة » (٢٧) •

وسنلاحظ بالاضافة الى هذا تكرر كلمة المصرى فى وثائق العصر الفكرية وعلى ألسنة الخديويين وأعضاء مجلس النواب ،وخاصة سعيد الذى يذكر عرابى أنه خطب مرة فاستعرض ما تعرضت له مصر من غزاة وفاتحين ثم قال « وحيث أننى أعتبر نفسى مصريا فوجب على أن أربى أبناء هذا الشعب وأهذبه تهذيبا ، حتى أجعله صالحا لان يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة،ويستغنى بنفسه عن الاجانب، وقد وطدت نفسى على أبراز هذا الرأى من الفكر الى العمل » (٢٨) •

وقد سعى اسماعيل الحصول على امتيازات استقلالية جديدة لمصر من الباب العالى ودعم هذه الامتيازات • ووضع ذكاءه كله فى خدمة مطامحه للاستقلال بمصر ، فعندما قامت الحرب التركية الروسية أراد أن يتهرب من الالتزامات التى تفرضها عليه الفرمانات بوجوب مساعدة السلطان بالمال والرجال والعتاد فجمع مجلس النواب وعرض عليه العجز المالى ليتهرب من مساعدة تركيا ، ثم رأى فى اشتباك تركيا فى الحرب مع الروسيا فرصة لتوسيع سلطانه وتأكيد استقلاله عن السلطان فأباح للصحافة فى عهده فرصة الهجوم على الحكم العثمانى ، وبهذا نشأت عدة صحف « القليل النادر منها وقف الى جانب السلطان ، والكثير كان حربا عوانا على مفاسد الإتراك » (٢٩) •

وفى عهد اسماعيل ايضا تطورت القوى الوطنية وأدرك النواب من خلال ممارستهم لعملهم مصلحة الوطن الخاصة ، حتى انهم فى اجابة على خطاب العرش الاخير فى حكمة أشاروا الى الخطاب « الذى بعث فينا روح العصر الجديد وأحيا آمال هذه الامة التى لا تزال راجية أن تنال شرفها التليد الذى شهدت به التواريخ ، وانبأت به الاثار » ، بل أن الخديو توفيق نفسه لم يسلم وهو ولى العهد من الوقوع تحت تأثيرات قومية ، رغم عدم تجددها ، فقد شكا الكولونيل « بيرشر » ـ وكان معلما فرنسيا له ـ من أن المعلمين العرب ملاوا رأس الصبى بأسوأ الاتجاهات ضد الاوربيين ، ونتيجة لهذا ، بدأ الصبى توفيق يجرى هنا وهناك ويتحدث عما سيفعله عندما يصبح

---

[٢٦] فان بملن ـ مصر واوروبا ـ ج ١ ص ٢٦ ـ نقلا عن الرافعى عصراسماعيل جـ ٢ ص ١٢٢

[٢٧] ماك كون ـ مصر كما هى ـ ص ٨٥ ـ نقلا عن الرافعى ، عصر اسماعيل جـ ٢ ص ١٢٣

[٢٨] مذكرات عرابى ـ طبعة الهلال ـ ١ ـ ص ١٦ ـ

[٢٩] ابراهيم عبده ـ الصحفى الثائر ـ ص ٨ ، ٩

حاكما لمصر ، ويعلن لكل من يود أن يسمع أن المساهمات التكنيكية التى تقدمها الحضارة الغربية لمصر ، ليست الا اضحوكة وأن كل شىء فى العالم الغربى أتى من العرب فى المحل الاول • وانه مقتنع أن العلماء العرب وضعوا منذ زمن طويل الالة البخارية والسكة الحديدية وهو ما أثار فزع بيرشر الشديد (٣٠)

وعقب نشوب الثورة أرسلت تركيا بعثتها الاولى برياسة على نظامى باشا فاستطاعت أن تلمح أن عرابى هو مركز القوة الجديدة فى مصر ، ومن هنا كان خطاب السلطان السرى الى عرابى الذى أعلن فيه احتضان الحركة الثورية الجديدة ، ورغبته فى التحالف معها ضد الخديو توفيق والاجانب • ولم يكن الثوار من الغباء السياسى بحيث يهملون هذه المعونة ، أو يغفلون عن الاستفادة من التناقض بين الباب العالى ودول الاستعمار والخديو ، كما لم يكونوا من البلاهة بحيث يحسنون الظن على اطلاقه بالسلطان عبد الحميد ، الصورة المركزة للاوتوقراطية التركية ، لذلك فان برنامج الحزب الوطنى كان يعبر عن ادراك الثوار لهذه النقطة، عندما نص على أن الثوار يرون أن « المحافظة على الروابط بين مصر والباب العالى ركنا يستند عليه الحزب الوطنى فى عمله ، ويعترف الحزب بالسلطان عبد الحميد كمتبوع وخليفة وامام للمسلمين ولا يريد تبديل هذه الصلة الودية مادامت الدولة العلية فى الوجود ، ثم يعترف باستحقاق الباب العالى لما يأخذه من الخراج بمقتضى الفرمانات وما يلزمه من المساعدات العسكرية، اذا طرأت عليه حرب أجنبية • كما يحافظ الحزب على حقوقه وامتيازاته الوطنية بكل مافى وسعه ويقاوم كل من يحاول اخضاع مصر وجعلها ولاية عثمانية »

ومن الواضح أن التأكيد بالحفاظ على التبعية العثمانية هو تكتيك سياسى قبل كل شىء لم ينسحب الى التنازل عن الاستقلال الذاتى الذى نالته مصر • كما أنه أيضا لم ينسحب على النضال من أجل تمصير السلطة السياسية واقصاء العناصر التركية والمملوكية عنها ، رغم أن هذه العناصر تابعة للسلطنة العثمانية • وقد عبر عرابى عن فهمه للعقلية التركية فى قوله لصابونجى « لقد علمنا الدهر واسماعيل كيف نفهم مكر الاتراك وكما نستعمل مدافع الترك وأسلحتهم وذخائرهم كذلك نستعمل مكرهم عندما يضطروننا الى ذلك » (٣١)

وعندما حاول السلطان بعد ذلك بشهور وفى يونيو ١٨٨٢ أن يعيد استكشاف القوى المصرية بعد قيام الازمة الكبيرة بين وزارة البارودى والخديو حول المؤامرة الشركسية فأرسل لهذا الغرض بعثة درويش التى فوجئت باصرار الشعب على مقاومة التدخل الاوروبى ، ورفض محاولة التدخل العسكرى التركى • ويصف صابونجى تأثير حضور بعثة درويش فى خطة الثوار فيقول انها قد أدت الى كراهية الاتراك والسلطان نفسه ، وأنه قد سمع البارودى ومحمد عبده والنديم يلعنون السلاطين والامم التركية من عهد جنكيز خان وهولاكو الى عبد الحميد • وصرح النديم بأنه سيهدم عرش السلطان قبل أن يموت • وتألف حزب كبير يستعد لاعلان الاستقلال عن تركيا اذا تدخل الاتراك فى مصر تدخلا حربيا • وقد عبرت جميع القوى الوطنية وعلى رأسها علماء الازهر أنفسهم عن رفضها للتدخل التركى •

ان شعار « مصر للمصريين » هو أول صيحة قومية ناضجة فى تاريخ مصر الحديث ، ويتبلور موقف عرابى منه فى تصريح مبكر قاله لبلنت عقب مظاهرة سبتمبر، فأكد أنه لا يضمر حبا للاتراك الذين أساءوا حكم مصر قرونا ، وأنه لا يقبل أى تدخل من جانب الاستانة فى شئون مصر الداخلية ، ولكنه فرق بين الحكومة العثمانية وبين السلطة الدينية للسلطان الذى قال عرابى أن طاعته واجبة عليه باعتباره أمير المؤمنين مادام يحكم بالعدل والانصاف ، وضرب مثلا بتونس التى فصلتها فرنسا أولا عن الامبراطورية العثمانية ثم ضمتها اليها بعد ذلك • وقال عرابى « كلنا أبناء السلطان ، ويجب علينا أن نعيش كأسرة واحدة فى منزل ، وكما أن أعضاء الاسرة الواحدة يكون لكل منهم غرفة ينظمها حسب هواه ولا يحق لرب المنزل أن يستبيح حرمتها فكذلك لكل شعب من الشعوب الاسلامية بلاد يعيش فيها وينظمها حسب هواه »، ثم قال « لقد كسبت مصر استقلالها بالفرمانات وستبذل كل جهدها فى المحافظة على ذلك الاستقلال، ولكننا نخطىء اذا طلبنا أكثر من ذلك، ولا يبعد أن نفقد حريتنا فى مثل هذه المجازفة » (٣٢)

ويبدو أن قيادة الثورة كانت تعمل حسابا للمنزلة الدينية للسلطان فى نفوس الجماهير باعتباره خليفة المسلمين، وهو الشعور الذى يصفه « ماك كون » بقوله « ان الشعور الدينى نحو الخلافة لم يفقد شيئا من قوته ، بحيث اذا شعر المصريون بخطر يستهدف له الاسلام أو دولة الخلافة فانهم

---

[٣٠] لاندز ــ بنوك وباشوات ــ ترجمة عبد العظيم انيس ــ ص ٣٠٢ ، ٣٠٣.
[٣١] بلنت ــ التاريخ السرى
[٣٢] نفس المصدر

يتعاونون مع الترك ومثلهم كذلك كمثل الارلنديين فى شعورهم نحو البابا » (٣٣)٠

ان هذا الشعور الجارف ـ بجانب موقف السلطان المؤيد للثورة ـ هو الذى جعل الثوار يحددون العلاقة مع تركيا بالشكل الذى عرضناه ٠ ولكنها بالتأكيد كانت **علاقة مؤقتة** ، وكانوا يدركون ذلك ٠ وقد أشار صابونجى فى رسالة مؤرخة فى ٢٤ يونيو ١٨٨٢ الى أن **عقيدة الثوار الحقيقيه أنهم لا يعنون بعبد الحميد، ولا يهمهم فى شىء ٠٠ فهم يستخدمونه لمصلحتهم ، ويعتمدون عليه حتى يروا الوقت ملائما لاعلان الجمهورية المستقلة** » (٣٤).

ولكن ماحال دون ذلك كما صرح البارودى لصابونجى « **أننا وجدنا العلماء ـ المشايخ ـ لم يستعدوا لهذه الدعوة لانهم كانوا متأخرين عن زمنهم** » (٣٥)٠ وأذن فان **فكرة الاستقلال القومى التام عن أى وجود أوروبى أو تركى لم تكن بعيده عن مطامح القيادة الثورية ٠ وهو ما يؤكد الدور الرائد للانتفاضة العرابية كحركة من أقدم الحركات القومية فى العالم العربى** ٠

ومن العسير أن نتصور أن هذه الحركة كانت تعبيرا عن **أفكار مجردة** ، أو أنها كانت تعكس فحسب **نموا فى احتياج بعض طبقات المجتمع الى الاستقلال الكامل أو الجزئى بالسوق القومية** ٠ ذلك كله كان بعض دوافع هذه الحركة ، بل لعله كان أهم دوافعها ٠ وهو أيضا خالق الشعور النفسى بالقومية ، وهو ما ساعد عليه ذلك العداء الذى أحس به المصريون تجاه الاجانب عموما ـ أوروبيين وعثمانيين ـ لقد كان هذا الشعور طبيعيا ، لانه رد فعل مباشر لاساءات الاجانب ٠ وقد عمق من هذا الشعور بالعداء ، **الوضع الاقتصادى** لكل من المصرى والاجنبى ٠ فقد كان معظم الاوربيين من أصحاب الاعمال أو من **الرؤساء الاداريين** ٠ وكذلك كان الامر بالنسبة للاتراك والجراكسة ، وكانوا جميعا يمارسون موقفهم ذاك بكل ما فى الاوروبى **من ضجر واحتقار لاسلوب حياة الشعوب الاخرى ، التى يظن ـ لغروره اللاتينى ـ انها أبطأ وأقل دقة وأكثر غباء** ٠ **وبكل ما فى شعوب آسيا الصغرى من اندفاع وصلابة رأى وتهور ، فان الاتراك قد احتقروا المصريين ، ومارسوا الاحساس بالكبرياء القومى** **عليهم فى ظل وهم بأن الخضوع للاخرين صفة ثابتة من صفات الشعب المصرى** ٠

وحتى هؤلاء الذين يمكن أن نسميهم مع التجاوز فى استخدام المصطلح **البروليتاريا الاوربية العاملة فى مصر** ، قد كانوا لا يجدون عزاء لوضعهم المطحون سوى ممارسة التفوق المزعوم على السكان المحليين ٠ وهو ما ينطبق أيضا على صعاليك الاتراك والجراكسة ٠ وكان لابد أن يكون رد فعل هذا الاضطهاد حالة عداء للاجنبى عموما ، واذا أخذ هذا العداء أحيانا صورة « **كراهية الكفار** » فليس ذلك سوى عجز عن التوصل الى مصطلح صحيح للتعبير عن شعور قومى، وهو عجز لدى فئة محدودة من الجماهير ، لا تقاس به الحركة القومية فى مجملها ولا الفكر القومى فى مجموعه ، ولا تؤاخذ عليه الا لدى باحث متحيز مثل كرومر ، أو يشوب انصافه بعض الغيوم مثل لاندز (٣٦)

وفى مجرى الحركة القومية ستبرز على السطح تفصيلات بسيطة لكن دلالتها لا تقل عن دلالة أكبر الحوادث والحركات ، وما يسميه « لاندز » « **مرحلة المضايقة** » ، هو جزء من الحركة الاجتماعية فى مضمونها القومى ٠ ففى هذه المرحلة كان « البوليس المصرى الذى كان يستفزه افتقاده للسلطة على الاوربيين ، ينتقم بتطبيق تعليمات وقوف العربات على عربات الاجانب ويترك سائقى العربات المصريين يفعلون ما يشاءون ، وموظفو الجمارك يستمرئون مضايقة رجال الاعمال الاجانب» (٣٧) ٠

وربما افتقد اللسان المصرى ـ فى أسفل مستويات السلم الاجتماعى ـ القدرة اللفظية لكى يقول انه « قومى » ، وانه يشعر» بشخصيته المصرية » ، ويعادى القوى المتسلطة عليها ، وقد يستسهل كلمة « كفار » أو « نصارى » ولكن هذا لا يعنى فى الحقيقة أى شىء !

العقل فى موقف الدفاع

اذا كانت الفكرة القومية التى ركزت

[٣٣] ماك كون ـ مصر كما هى ـ ص ٨٥
[٣٤] بلنت ص ٤٥٧
[٣٥] نفس المصدر ص ٤٥٣
[٣٦] راجع لاندز ص ٨٤ ، ٨٥
[٣٧] لاندز ص ٣٠٣

على « المواطنة » كحالة من الحقوق السياسية والديمقراطية هى **أبرز مقولات الفكر البرجوازى الثورى فى فكر الظاهرة العرابية** فان العقلانية هى **أخطر** مقولات هذا الفكر ، وهى التى تعطيه **سمته البرجوازية الواضحة** •

كانت **العقلانية أخطر المعطيات التى توصل اليها** الفكر البرجوازى فى أوروبا من خلال صراعه مع **الفكر الاقطاعى** الذى غلبت **اللاهوتية** عليه،وظلت تفرض سيطرتها وتناجز عن بقائها فى مناخ لم تكن العلوم الطبيعية والحديثة قد عكرت ثباته أو قلبت له مسلماته الفكرية الساذجة ، فلما استطاع العقل الاوربى عبر عصر النهضة أن يستوعب العلوم الحديثة من كيمياء وطبيعة وهندسة وميكانيكا ، ثم انتقل الى استخدامها تكنولوجيا بتطبيق قواعد تلك العلوم على الصناعة ، فاشبع احتياجات الانسان ، اشباعات جديدة ومتقدمة،ووضعت كتل عريضة من الجماهير أمام تحدى العقلية الصناعية ، حيث يمكن أن تعرف مقدما النتائج المحسوبة لكل فعل ، **اهتزت العقلية اللاهوتية القائمة على الفكر الزراعى** ، حيث تلعب « **الارادة العليا أو الخالدة** » دورا أساسيا • ونتج عن هذا الاهتزاز ظهور معطيات فكرية جديدة فحلت فكرة « **العمل من أجل الحياة الدنيا** »،محل« **العمل من اجل الدار الاخرة فقط** » وسادت **قيم اجتماعية جديدة** ، شكلت **أخلاقا جديدة** ووضعت **محكات جديدة لقياس القيمة الاجتماعية للفرد** ، فلم يعد للأصول والانساب نفس التقديس وأصبح **العصامى** شخصية مقبولة،بل ومثالا يحتذى وأساس ذلك كله فكرة **فتح الباب امام الانسان لكى يعمل فى سبيل منفعته الفردية** ، **التى كان هناك تصور اذ ذاك بانها لابد ان تؤدى الى منفعة النوع الانسانى ككل** •

على أن **العقلانية المصرية قد ولدت مأزومة** شأنها فى ذلك شأن كل معطيات الفكرة الليبرالية فى مصر ، **وقد شاركت عوامل ثلاثة فى تأزيم موقفها** :

● وأول هذه العوامل أن **ظهورها لم يواكب تقدما كبيرا فى مباحث العلوم الطبيعية والتجريبية** ، كذلك لم يواكب ظهور صناعة مصرية • لقد احتكت هذه العلوم بالعقل المصرى عن طريق مراكز التأثير ومصادره،فاستطاعت بعثة العلماء والفنانين المصاحبة للحملة الفرنسية أن تعرض على العقل المصرى بعض منجزات العلوم الطبيعية ثم شاهد المبعوثون الى أوروبا منجزات أخرى ، بيد أن هذا كله لم يجد فرصة التمكين الكامل له نتيجة لبقاء أثره فى حيز محدود نسبيا •

● أما العامل الثانى فهو **أن العقلانية كانت تصارع مناخا فكريا تراكم تخلفه** ، فالعقل الدينى التقليدى كان قد تكلس بفعل عوامل التخلف المتراكمة ـ على معطيات ثابتة ، وأوصد باب الاجتهاد بشكل نهائى • وسنلاحظان دعاوى التكفير لاوهى الاسباب متكررة فى أى مستند تاريخى عن الحكم التركى المملوكى •هذا بالاضافة الى طبيعة الفكر الدينى الاسلامى نفسه الذى يجمع بين العقيدة والشريعة ، وبين العبادات والسلوك الاجتماعى • وهو ما تحول بفعل العقول التى تراكم فيها التخلف الى سبل مسدودة أمام أى اضافة أو تغيير فى التنظيم الاجتماعى •

● أما العامل الثالث فهو **تخلف البرجوازية المصرية ونموها متأخرة عدة قرون عن نظيراتها الاوربيات** ، وهو ما أشرنا اليه من قبل ، ولقد كان من نتيجة هذا التخلف اعتماد البرجوازية المصرية فى نموها على الفائض الزراعى ، فتزاوجت صفة التاجر ومالك الارض ، والصناعى ومالك الارض ، وأيضا المثقف الليبرالى المتشرب بتراث الفكر الاقطاعى وهو ما انتهى الى الازدواجية ثم التوفيقية ، وأدى فى النهاية الى ان الزراعية كتيار فكرى القت بظلالها على الفكر المصرى لفترة طويلة اطول مما نظن •

وبرغم هذا فسنجد العديد من **المعطيات العقلانية فى الفكر الذى مهد للثورة العرابية** ، **ولكن سمة رئيسية** سنلاحظها فى هذا الفكر ، تلك أنه كان يلتزم **موقف الدفاع** دائما • انه لم يكن **فكرا هجوميا** ، وانما كان يتسلل ببطء وعلى استحياء ويحاول **أن يجد لنفسه من الفكر السائد حماية ووقاء** ، وهو ما قبله بعض المفكرين المحافظين ورفضه أغلبهم • على أنه رغم عدم طبيعته الهجومية **قد أجبر بعض أجزاء من الفكر السلفى على اتخاذ موقف الدفاع** أيضا ، ولم يكن هذا نتيجة لقوته الذاتية ، ولكنه كان نتيجة **لضعف شديد فى السلفية** التى جوبهت بتخلفها الشديد وعجزها عن الرد على التحدى ، فاتخذت موقفا دفاعيا ، **وهذا التبادل** فى اتخاذ المواقف الدفاعية ظاهرة تؤشر الى أن الصراع وقتها كان يعمل فعله فى العقل المصرى وأن نتائجه فى الطريق

لقد عرف الفكر المصرى **العلوم الطبيعية** فى ظل حكم **مصر الاسلامية** ، بل وكان بعض الخلفاء الفاطميين يدرسونها (٣٨)،ولكن ما أصاب العقل

(٣٨) العقاد ــ عبقرى الاصلاح محمد عبده ص ٤٨ .

الاسلامى من جمود جعل بعض الذين يقتنعون بضرورتها من علماء الازهر يفتون بأنها « **فروض كفاية** » اى يتخصص لها من يطلبها ولا تفرض على الذين يحضرون الدروس العامة . فوصل تخلفها الى الخلط بينها وبين **العلوم المزيفة** ،فاختلط الفلك بالتنجيم،وانتقل من العلماء الى المحتالين،واختلطت الكيمياء بتحضير الذهب وسحر المعادن وأصبح المنطق خليطا من السفسطة اللفظية ...الخ(٣٩)

ومع تزايد تخلف **العقل السلفى** ، كان من الطبيعى أن يشعر بالانهيار لدى اطلاعه على ثمار العلوم الحديثة وتجاربها ، وهو ما نلاحظه بكثرة **لدى الجبرتى** ، الذى دهش لكثير من الالات والمعدات التى أحضرتها الحملة الفرنسية معها ، حتى تلك الالات البسيطة التى لا تتضمن فنونا معقدة . ثم اضطر عند زيارته لمقر البعثة العلمية واطلاعه على تجربة كيماوية الى الاقرار ببساطة بأن « **لهم فيه – يقصد العلم – أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا** » (٤٠) .

وكان الشيخ حسن العطار ، وهو من معاصرى الجبرتى أكثر قدرة على **التأثر الواعى** بما شاهده من منجزات العلم الحديث ، فقد أكد على **فكرتين أساسيتين : الاولى ، ضرورة الاهتمام بالعلم الطبيعى ودراسته** ،وأشار فى هذا الصدد الى أنه اطلع على كتب « **من بلاد الافرنج ترجمت باللغة التركية والعربية وفيها أعمال كثيرة وأفعال دقيقة، اطلعنا على بعضها ، وقد تتحول تلك الاعمال بواسطة الاصول الهندسية والعلوم الطبيعية من القوة الى الفعل** »،وضرب مثلا بالصناعات الحربيه المتقدمة ،ثم نصح الاخرين بالاطلاع على ذلك،ومن سمت به همته الى الاطلاع على غرائب المؤلفات وعجائب المصنفات انكشفت له حقائق كثيرة من دقائق العلوم وتنزهت فطرته – ان كانت سليمة – فى رياض الفهوم ، فالنفس الانسانية بالاطلاع على حقائق المعارف تتكمل ، والفاضل الكامل بأنواع العلوم يتفوق ويتفضل . أما **الفكرة الثانية فهى** دعوته الى **فتح الباب للصراع الفكرى والفلسفى حتى فى أمور العقائد الدينية نفسها** على أساس أن الائمة الاعلام « **كانوا مع رسوخ أقدامهم فى العلوم الشرعية والاحكام الدينية لهم اطلاع عظيم على غيرها من العلوم واحاطة تامة بكلياتها وجزئياتها وحتى فى كتب المخالفين فى العقائد والفروع** » ، وذكر أمثلة من ذلك عند **الائمة المتقدمين** وانتقد علماء عصره لانهم بالنسبة الى العلماء المتقدمين كنسبة عامة زمانهم اليهم « **ان قصارى أمرنا النقل عنهم بدون أن نخترع شيئا من أنفسنا وليتنا وصلنا الى هذه المرتبة ، بل اقتصرنا على النظر فى كتب محصورة ألفها المتأخرون المستمدون من كلامهم نكررها طول العمر ، ولا تطمع أنفسنا الى النظر فى غيرها حتى كان العلم انحصر فى هذه الكتب** » (٤١)

ثم جاء **رفاعة الطهطاوى** فكرر دعوة أستاذه حسن العطار ، ودعا دعوة صريحة الى أدخال العلوم العصرية فى الازهر . **وانتقد** محمد على لانه « **لم يجذب طلابه الى تكميل عقولهم بالعلوم التى كبير نفعها ليس ينكر** » ، وأشار الى أن الازهريين عليهم أن يضيفوا الى معارفهم « **معرفة سائر المعارف البشرية المدنية التى لها مدخل فى تقدم الوطنية من كل ما يحمد على تعلمه وتعليمه علماء الامة المحمدية** » ، « **فلو تشبث من الان فصاعدا نجباء أهل العلم الازهريين بالعلوم** العصرية لفازوا بدرجة الكمال » (٤٢) .

وبالاضافة الى هذا فان الطهطاوى قد عبر فى كتابه الاول « **تخليص الابريز** » عن اعجابه بالمنهج العقلى وما أرساه من قواعد لتنظيم المجتمع وخاصة التنظيم السياسى فقال « **لنقل بأن أحكامهم القانونية ليست مستنبطة من الكتب السماوية ، وانما هى مأخوذة من قوانين أخرى غالبها سياسى** » (٤٣)،وأقر بأنها «**مخالفة بالكلية الشرائع وليست قارة للفروع** » ولكنها رغم هذا كله **تحوز اعجابه** فهو يدعو الى التأمل فى هذه الاحكام « **لتعرف كيف حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف** من **أسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقادت الحكام والرعايا لذلك حتى عمرت بلادهم وكثرت معارفهم وتراكم غناهم وارتاحت قلوبهم، فلا تسمع فيهم من يشكو ظلما أبدا** » (٤٤) . ان تحيز الطهطاوى للعقلانية تحيز واضح ، وما عمل على نشره من مباحث العلم الطبيعى بالترجمة وبانشاء المدارس أكثر من أن يحصى .

ومن المصادر التى عملت على اقتناع العقل المصرى **بالنظرة العلمية والصناعية** ، عدد من

[٣٩] نفس المصدر ص ٨٤
[٤٠] الجبرتى – الجزء الثالث
[٤١] العقاد – عبقرى الاصلاح
[٤٢] العقاد – عبقرى الاصلاح ص٦٤
[٤٣] رفاعه الطهطاوى – تخليص الابريز –
[٤٤] نفس المصدر

الدوريات الثقافية التى بدأ صدورها فى هذا الوقت ، ومنها « روضة المدارس المصرية » ــ وهى التى أصدرها رفاعة الطهطاوى نفسه ورأس تحريرها ابنه على فهمى رفاعة • ثم « الجنان » وهى بيروتية اصدرها العلامة بطرس البستانى فى عام ١٨٧٠ • و « النحلة » وهى بيروتية أيضا أصدرها القس العلامة لويس صابونجى ، و « المقتطف » التى صدرت فى عام ١٨٧٥ ببيروت ، برئاسة تحرير يعقوب صروف وفارس نمر ونقلت بعد ذلك الى مصر • وكانت هذه الدوريات تقدم الحد الادنى من المعرفة العلمية العامة للقارىء العربى ، فلم تكن دوريات متخصصة فى فرع واحد من فروع العلوم الإنسانية أو الطبيعية تكتب للمختصين فى هذا الفرع أو ذاك ، ولكنها كانت دوريات معارف عامة تستهدف القارىء العادى تقدم له معارف شتى كانت كلها تقريبا جديدة اذ ذاك على العقل المصرى ، فقدمت مباحث فى الاجتماع والاقتصاد والتاريخ والسياسة والجغرافيا فضلا عن مباحث أخرى فى الفلك والطب والفسيولوجيا والطبيعة والكيمياء••الخ ، وعنيت بتقديم أخبار عن أحداث المكتشفات والاختراعات العلمية ، ورصد التطبيقات المختلفة للعلم فى الصناعة • وترجمت فصولا متعددة فى هذه المجالات كلها •ومن هنا ساهمت هذه الدوريات جميعها فى ترسيخ المفاهيم العلمية فى ذهن المثقفين ككل ووضعت عقولهم المشبعة بالخرافة فى مواجهة حادة مع المفاهيم الجديدة • وسنلاحظ أن كثيرا من مباحث هذه المجلات كان يبدأ بالرد على العلم المزيف الذى وقر فى أذهان الناس والهجوم أيضا على الخرافات التقليدية التى كانت منتشرة اذ ذاك • (٤٥)

وفى مواجهة هذا التحدى ، وتحديات عصرية أخرى ، بدأ جمال الدين الافغانى حركة الاحتجاج الإسلامية التى استهدفت تجديد الدين وفتح باب الاجتهاد الاسلامى لمواجهة تحديات العصر العقلية والعلمية • وهو موقف دفاعى اضطر العقل السلفى اليه وان لم ينتبه اليه سوى أذكى العناصر السلفية التى خشيت أن تفقد كل مواقعها اذا ظلت ملتزمة موقف الجمود والتخلف •

وقد انتهت الحركة العقلانية الإسلامية تلك الى أن أخذت موقفا وسطا بين السلفيين الجامدين من ناحية والعقلانيين التقدميين من ناحية أخرى • ويلخص الشيخ محمد عبده جوهرها فى سيرته الذاتية فيقول : « ارتفع صوتى بالدعوة الى أمرين عظيمين : أولها : تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الامة ، قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه الى ينابيعه الاولى واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه وتقلل من خلطه وخبطه لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الانسانى ، وانه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم باعثا على البحث فى أسرار الكون ، داعيا الى احترام الحقائق الثابتة مطالبا بالتعويل عليها فى أدب النفس واصلاح العمل • كل هذا أعده أمرا واحدا • وقد خالفت فى الدعوة اليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الامة • طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم وطلاب فنون هذا العصر ومن هو فى ناحيتهم » (٤٦) •

وهذا التلخيص الدقيق هو موجز لدعوة الافغانى ، الذى انطلق فى البداية من اعجاب بالبروتستانتية باعتبارها حركة تمرد فى المسيحية ، وموقف دفاعى التزمت به العناصر الثائرة والاكثر ذكاء من الكاثوليكيين فى مواجهة هجوم العقلية العلمية والصناعية على الفكر اللاهوتى ، وكان الافغانى واعيا بالدور الذى يقوم به ، فأشار أكثر من مرة الى انه يستهدف القيام باصلاح دينى شامل مشابه لما قام به لوثر • وقد حلل الافغانى الحضارة الاوروبية باعتبارها نتيجة للصراع بين البروتستانتية والكاثوليكية • فعنده أن « سبب انقلاب عالم أوروبا من الهمجية الى المدنية هو الحركة الدينية التى قام بها « لوتير » وتمت على يديه ، فان هذا الرجل الكبير لما رأى شعوب أوروبا زلت وفقدت شهامتها من طول ما خضعت لرؤساء الدين ولتقاليد لا تمت بصلة الى عقل قام بتلك الحركة الدينية ، ودعت اليها أمم اوروبا بصبر وعناد والحاح زائدين ، فأصلح بذلك أخلاقهم وقوم أعوجاجهم وطهر عقولهم ونبههم الى انهم ولدوا أحرارا فلماذا استعبدهم المستعبدون » (٤٧) • وذكر بعد ذلك أن انبعاث الحضارة الاوروبية « نتج عن نشوء البروتستانتية فى أوروبا والمباراة والمسابقة بينها وبين عدوتها الكاثوليكية » • وهو تفسير غير صحيح ولكنه ينسجم مع رؤية الافغانى العامة التى ترى أن الصراع الدينى ــ وليس الطبقى ــ هو محرك التاريخ • ودلالته الهامة تكمن فى تركيز الافغانى على أهمية حركة التجدد الدينى والرجوع الى أصول الدين النقية وتفسيرها عقليا يخدم

(٤٥) صلاح عيسى ــ الدوريات الثقافية فى مصر فى القرن ١٩ ــ دراسة لم تنشر ــ
(٤٦) مذكرات محمد عبده ــ ص ٢٧
(٤٧) عبد القادر المغربى ــ جمال الدين الافغانى ــ اقرأ ص ٩٩

مصلحة المسلمين » بالاضافة الى أن جوهر فكرة الانبعاث الدينى هذه ، الهجوم على فكرة الزهد فى العالم وعدم الفاعلية فيه ، بدعوى أن هذا تحقيق لإرادة الله ، فى حين انه قضاء على النشاط الرأسمالى الذى لا يمكن أن ينطلق الا مع اليقين بفكرة المنفعة والعمل فى الحياة .

لقد كانت البورجوازية الاوروبية تتحصن بالبروتستانتية لكونها « تناسب بشكل أفضل مصالح وأفكار البورجوازية » . ذلك أن الكاثوليكية قد قدمت خدمات عظمى للاقطاع « بخداع جماهير المؤمنين ، وتعتمد على التباهى بالتقوى سطحيا » ، وتطبيقا لتعاليم جان كلفن أبو البروتستانتية ، فان «مصير البشر قد سبق أن تقرر قبل أن يخلق الله العالم بزمن طويل » ومن ثم فالمرء يستطيع أن يثبت انه من الذين يختارهم الله فقط بواسطة النجاح الذى يحققه فى مشروعاته المهنية . وبشر كلفن بأن الهدف الاساسى للتجار ، وأرباب العمل ينبغى أن يكون زيادة ثروتهم التى استؤمنوا عليها من قبل الله ، وبناء على ذلك فاستغلال العمال الاجراء كان يعتبر فى رأى كلفن والتعاليم البروتستانتية التى جاءت بعد ذلك قضية عادية » (٤٨) .

وقد أشار الافغانى الى أن الهدف الاساسى من أهداف دعوته فقال « ان حركتنا الدينية هى كناية عن الاهتمام بقلع ما رسخ فى عقول العوام ومعظم الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها مثل حملهم نصوص القضاء والقدر على معنى يوجب عليهم أن لا يتحركوا الى طلب مجد أو تخلص من ذل ومثل فهمهم لبعض الاحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمن أو قرب انتهائه فهما يثبط الهمم عن السعى وراء الاصلاح والنجاح فى نظير ذلك مما لا عهد للسلف الصالح به ، فلابد اذن من بعث القرآن وبث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور وشرحها لهم على وجهها الثابت من حيث يأخذ بهم الى ما فيه سعادتهم دنيا وأخرى » (٤٩) .

من هذا المنطلق كان عدم اقتناع الافغانى بالتصوف وهو مظهر من مظاهر عدم الفاعلية مع المجتمع وعدم المساهمة فيه ، فكان اذا ذكر التصوف قال : « انا لا أفهم معنى لقولهم الفناء فى الله ، وانما الفناء يكون فى خلق الله ، ومعنى الفناء فيهم تعليمهم وتنبيههم الى وسائل سعادتهم وما فيه خيرهم » (٥٠) وقد أحدث موقفه هذا تأثيرا فى الكثيرين من المثقفين المصريين الذين كان اندراجهم فى الفرق الصوفية يكاد يكون سنة (٥١) ، ومن أبرز من أثر فيهم هذا الاتجاه محمد عبده الذى انصرف عن ممارسة الزهد وعن اعتزال الناس الى تذوق الحياة ودراسة العلوم المختلفة التى لم يدرسها فى الازهر .

وكان من الطبيعى أن يؤدى ازالة العديد من الخرافات والتزيدات عن جوهر الدعوة الدينية الى ابراز طابعها العقلى ، فبدأ الافغانى يبشر بأن « الوحى هو مصلحة المسلمين » . وبالتالى أعطى الاولوية للمصلحة على النص « لان الله لا يفعل الا ما فيه مصلحة العباد كما يقول المعتزلة فى أصلهم الثانى ، وكما أبرزه المالكيون فى قولهم بالمصالح المرسلة ، ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن » فالدين هو المصلحة « والدين فى أصوله ما ينفع فى الامور الدنيوية » ، وعنده أن « من قال ان الدين يأمر بالعسر دون اليسر ، بالضار دون النافع لمجرد التقليد والمألوف فهو كذاب » (٥٢) .

وكان منهج الافغانى فى تفسير النصوص الدينية ، يقوم على الاعتماد الكلى على العقل المفسر على أساس أنه أدرى بالمصلحة المعاصرة من المفسرين القدماء ، يقول عبد القادر المغربى أحد تلامذته أن الافغانى علمهم أن يفهموا النص الدينى فهما صحيحا يراعون فيه قوانين اللغة وقواعد بلاغتها ويستوثقون من مطابقة النص للكتاب والسنة ثم الجرأة على التصريح بما فهمناه فهما حرا مستندا الى قواعد اللغة العربية ، وقوانين بلاغتها ، ثم الجرأة فى الدعوة الى الصحيح المعقول من تلك النصوص والتعاليم ، واطراح الباطل الدخيل عليها ، والجهر بذلك من دون حجب فى قول ، أو تقييد من ذوى حول » (٥٣) .

وقد ذكر أحد المتحدثين فى مجلسه قولا للقاضى عياض ، تمسك به ، فقال الافغانى : « سبحان الله ، ان القاضى عياض قال ما قال على قدر ما وسعه عقله ، وتناوله فهمه ، وناسب زمانه ،

---

[٤٨] ف. - كيروف - موجز تاريخ مجتمعات ما قبل الرأسمالية - ص ١٣٦، ١٣٧.
[٤٩] حسن حنفى - الافغانى - الفكر المعاصر - العدد ٥١
[٥٠] المغربى - ص ٣٤
[٥١] محمد عبد الغنى حسن - عبدالله فكرى - ص ٣٤
[٥٢] الافغانى - الاعمال الكاملة ص ٩٩
[٥٣] المغربى - ص ٤٧

أفلا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب للحق وأوجه وأصوب من قول القاضي عياض وغيره من الائمة ؟ وإذا كان القاضي عياض وأمثاله **سمحوا لانفسهم أن يخالفوا من تقدمهم ، فاستنبطوا وقالوا مايتفق وزمانهم . فلم لا نستنبط ونقول ما يوافق زماننا ؟** وما معنى أن **باب الاجتهاد مسدود** ، وبأى نص سد ؟ وأى امام قال **لا يصح لمن بعدى أن يجتهد ليتفقه فى الدين** ، ويهتدى بهدى القرآن وصحيح الحديث والاستنتاج **بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجات الزمان وأحكامه** ؟ ان الفحول من الائمة اجتهدوا وأحسنوا ، ولكن **لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن واجتهادهم فيما حواه القرآن ليس الا قطرة من بحر** . (٥٤) .

ان هذا الاعلاء لشأن العقل قد أثر فى محمد عبده ، الذى بدأ يناصر رأى **السنيين والاشاعرة** ـ وهم يمثلون حزب المحافظين فى الاسلام ـ فتحول بعد لقائه بجمال الدين ، **الى مناصرة المعتزلة والعقليين وجميع المفكرين الاحرار والمتسامحين فى الفكر الاسلامى** (٥٥) .

وقد كان هذا كله تعبيرا عن **موقف دفاعى تحصن فيه الدين** ، امام تقدم العلوم الطبيعية ومناهج البحث فيها ، ثم البناء الفلسفى الذى أقيم على نتائج هذه البحوث ، ويبدو هذا الموقف الدفاعى كأوضح ما يكون فى **محاولة الافغانى استعارة العلم لتفسير النصوص الدينية به ، وهى قمة التكريم للعلم** . ففسر الاية القرآنية « وانى مرسله اليهم بهديه » بأنها تعنى اللاسلكى ، وأشار الى أن القرآن قال بكروية الارض فى الاية « والارض بعد ذلك دحاها » ، وبأن الارض جزء من الشمس « كانتا رتقا ففتقناهما » . وهذه المحاولة تكشف عن احساس بالنقص والهيبة أمام العلم (٥٦)

على أن **العلم** رغم هذا **لم يتخلص من هيبته أمام الدين** ، اذ ظل يشعر بهذه الهيبة ، ويلتزم موقف الدفاع هو الاخر ـ ربما لحداثة عهده أو لغلبة الفكر الدينى وسيطرته على العقول . وسنلاحظ هذا الموقف الدفاعى فى الكثير من المعطيات العقلانية ، ولدى العديد من المفكرين ، وهناك سمة عامة لاغلب وثائق العصر الفكرية ، تلك هى نثر العديد من الايات القرآنية والاحاديث النبوية وأقوال الفقهاء فى نصوص تعالج موضوعات علمية بحتة وكدليل على هذا الموقف الدفاعى الذى التزمه العلم نشير الى نقاش هام دار حول موضوع من الموضوعات الصالحة للاشتباك بين العلم والدين حولها ، وهى مسألة « دوران الارض » . فقد نشرت « المقتطف » مقالا عن دوران الارض بقلم محررها الدكتور « **يعقوب صروف** » أشار فيه الى أن **العلوم الحديثة** أثبتت صحة الفرض القائل بدوران الارض حول الشمس خلافا لرأى القدماء الذين كانوا يقولون بثباتها وعدد سبعة براهين على ذلك . وفى مقال بعنوان « **العلوم الطبيعية** » أشار **يعقوب صروف** الى خطأ الذين يقرون بمنافع العلوم الطبيعية ولكن **يحسبونها مضرة بالدين** ، كما أبان ضلال الذين يعتقدون صحة هذه العلوم ونفعها وينكرون الوحى لاجلها . وذكر أن الخلط والضلال يتضحان بعد ما ظهر من **التوفيق** والاتفاق العظيم بين الوحى والعلوم الطبيعية . وأثنى على الذين يوفقون **بين صحة تلك العلوم** وبين صدق الوحى . ورغم هذا الموقف التهادنى فان أحد رجال الدين المسيحى أرسل الى المجلة رسالة يؤكد فيها بالادلة التوراتية **ثبوت الارض وعدم دورانها ويقرر أن دوران الارض يناقض ما فى الكتب السماوية** . وقد أثار **هذا حوارا حادا** بين القائلين بموافقة القول بدوران الارض لما هو وارد بالكتب السماوية ، والقائلين بمخالفته لها . وهو تحكيم لمسائل غير علمية فى مسائل علمية . **أو بمعنى آخر وضع محكات منافية للعلم يقاس عليها العلم** .

والغريب أن نصراء العلم والداعين له قد استدرجوا اليها . ومن أهم البحوث التى نشرت فى هذا الموضوع بحث للمفكر المصرى **عبد الله فكرى** وكيل وزارة المعارف آنذاك ووزيرها فى عهد وزارة البارودى ـ نشر بعنوان « **المقارنة بين الوارد فى نصوص الشرع والوارد فى الهيئة** » ، دافع فيه عن العلوم الطبيعية على أساس أنها لا تناقض الدين ، واقتبس من أقوال الامام الغزالى ما يفيد أنه من بين أقوال الفلاسفة والعلماء ما لا يصطدم بأصل من أصول الدين ، وليس من ضرورة تصديق الانبياء والمرسلين منازعة العلماء فيه ، لان من ينازع فى مثل هذه المسائل من رجال الدين لا يفيد ما يعتقده بل يضره » **فان هذه الامور تقوم عليها براهين هندسية وحسابية لا تبقى معها ريبة فمن يطلع عليها ويحقق أدلتها اذا قيل له : هذا**

---

[٥٤] الاخبار القاهرية ـ ١٩٧٠/٤/١٠
[٥٥] د. عثمان أمين ـ الافغانى فى القاهرة ـ الفكر المعاصر ـ عدد ٥١
[٥٦] د. حسن حنفى ـ الافغانى ـ الفكر المعاصر ٥١

على خلاف الشرع ، لم يسترب في العلم وانما استراب في الشرع » ورغم هـذه المقدمة الهجومية فقد استمر عبد الله فكري يؤكد فكرته معتمدا على أن العلم لا يختلف مع الدين ، مؤكدا أن الاختلاف اذا كان صريحا فالحق بالطبع في جانب الدين ٠ وتمتلىء كتب الطهطاوي وجيله بمواقف دفاعية تؤكد أن العلم كان عاجزا عن الهجوم الساحق على الفكر المحافظ ، وأنه كان عليه أن يتحسس مواقفه بهدوء شديد ٠

على أن الاتجاه العقلي قد نجح في ارساء أسس لا بأس بها ، فأرسى فكرة المنفعة ، ولم يعد سعي الانسان للثروة شيء غير لائق ٠ وأصبح الاهتمام بالعلم وتقدم الحياة عملا جليلا وليس وقت فراغ لدى بعض هواة الازعاج ٠ وهو ما نشاهده في الهجوم الحاد على قيم المجتمع الاقطاعي وعلى الاسس التي يقيس عليها القيمة الفردية للانسان ٠ وهو ما نلمحه في أزجال متعددة للنديم سخر فيها من كراهية الفكر الاقطاعي لاعمال العقل « اوعـا تفوت دي الاريا هباب ، وتمشي ماسك لك في كتاب «وكراهيتهم للعمل اليدوي واحتقارهم للابتكار» وان كنت صانع متفنن ، قالوا اخينا دا اجنن ، وحتى كراهيته للفن والادب واهتمامه بالملاذ الحسية المباشرة ، وان كنت شاعر أو منشي٠٠ قالوا ياشيخ فضك وامشي ٠٠ دا احنا كلامنا في المحشي ولا طبيخ البدنجان ٠ أما أن كنت نحـوى أو صرفي والعلم في ذهنك محوي قالوا اتانا بوز ملوى يقول لنا عمرو وزيدان ٠ أن هذه كلها مظاهر للجهالة يكرهها النديم « شوف الجهالة يا سيدنا اللي جلبناها بايدنيا حتى صبح يوم عيدنا نسمع بلادنا تنشدنا ٠٠ شرم برم حالي غلبـان » ٠

واتجهت قيمة الفرد للتحدد على أساس عمله الفردي وقيمته الذاتية ، وليس على أصوله وأرومته ، فرأينا عددا من الرجال الذين نشأوا من أصول متواضعة يصعدون السلم الاجتماعي حتى قمته بعلمهم واجتهادهم ، ومن هنا ظهر العصامي كنمط اجتماعي ليحل محل « الشريف » تدريجيا ٠ ان رجالا عظماء مثل الطهطاوي وعلي مبارك وعبد الله فكري ومحمود الفلكي ومحمود فهمي وطلبة عصمت ٠٠ الخ ٠ قـد نالوا لقب الباشا وتبوأوا اكبـر المناصب بعلمهم وعملهم وليس لانهم ذوي أصـول عريقة ، وهو ما أحدث هزة في نظرة المجتمع الى قيمة الفرد ، فأصبح يقيسها بمقاييس « نفع الفرد للمجتمع وليس بمقياس الوراثة والشرف التليد ٠ ونلاحظ أن هذا قد أثر في النظرة التقليدية لقيمة الفرد عند بعض الذين يؤمنون بنقيضها وان بقيت هناك بعض الظلال القديمة عندهم ٠ ان الشـيخ محمد عبده ينتقد مبالغة العرب في الاعتزاز بشرف الانساب على أساس انهم كانوا لايعدون من خلال الخير شيئا يساوي شرف النسب وهيهات أن يرتفع ذو أدب بأدبه الى رتبة الشريف بنسبه وان كان خاملا بنفسه غير ذي شيء في عمله » والوجه المنتقد في ذلك عند الاستاذ الامام أنه «بخس للحق واستهانة بالجهد الذاتي والشرف العصامي ، واتكال في نيل المقاما العالية بين الناس على مافعل السابقون لا مايكسبه المرء بجده واجتهاده » ٠ على انه رغم هذا الانتقاد يعترف بفائدة الفخر بالارومة والانساب ويفسره تفسيرا جددا « كأن في الافتخار بالاباء والاجداد ومعها ما أوتوا من جلل الاعمال وماكانوا عليه من كريم الخصال تحريض لاخلافهم على الاقتداء بهم وحفظ ماورثوه من علاورفعه ٠ ولكن الكسل الملازم لطبيعة الانسان كان يغلب جانب الاتكـال على جانب الاسوة فجاء الدين الاسلامي ينكـر الافراط في الغلو في اعتبار الانساب » (٥٧) ٠

وكان من الطبيعي مع انتشار العقلانية أن يعاد النظر في تقدم الوطن على أساس المنفعة ، وان يستخدم الداعون الى نهضة الوطن من مطامح البورجوازية الصاعدة والراغبة في المنفعة شعارات يطالبون بها ٠ فيخطب الشاب مصطفى أفندي ماهر (باشا ووزير المعارف فيما بعد) في احتفال عقد في فبراير ١٨٨٢ فيدعو الى أن تقوم النهضة على أساس العلوم والفنون ، ويحث الاغنياء على انشاء بنك أهلي» (٥٨) ويطالب عبد الله النديم في الحاح مستمر الى تشجيع التجارة الوطنية ومقاطعة المصنـوعات الاجنبيـة والى تشجيع التجارة الوطنية ويضرب المثل بالهند التي نزحت بريطانيا ثرواتها الطبيعية لتصنعها وتعيدها اليها سلعا مصنعة ، فصيرت اهالي الهند كالالة في يدها لفقدها الصنعة بينهم واحتياجاتهم لما يستترون به ٠ وقـد ربحت انجلترا الكسـب مضاعفا من المحصـول عند شرائـه بثمـن بخس مرة ٠ ومن المصنوع عند بيعه مرة أخرى باغلى الاسعار ٠ أما الافغاني فقد كانت دعوته الى التصنيع أكثر تكاملا ٠ فقد عني بتحويل العلم الى قوة لتطوير المجتمـع البدائي الى مجتمـع مدني ، وتحويل العلم الى صناعة أي الى علم تطبيقي ٠ وأهم الصناعات صناعة الحـديد

[٥٧] مذكرات محمد عبده ـ ص ٤٠
[٥٨] د٠ علي الحديدي ـ المرجع السابق ص ٧٦

والاسلحة اى الصناعات الثقيلة . وقد ادرك الافغانى اهمية التصنيع خاصة فى المجتمعات الاسلامية التى يغلب عليها الطابع الرعوى او الزراعى او التجارى وما يخلفه ذلك من عقليات . وتقوم الصناعة عنده على الاختصاص وتقسيم العمل . ويضع الافغانى الاولويات فى التصنيع من الاكثر نفعا لاكبر عدد من الناس للاقل نفعا للعدد القليل . فالصناعات الثقيلة لها الاولوية على صناعة العربات ، وصناعة الاحذية فى بلد جاف له الاولوية على صناعة التجميل . (٥٩) .

ان هذه المعطيات العقلانية هى اخطر ما بذر فى المناخ الفكرى المصرى اذ ذاك ، ذلك لانها كانت **تمهد الارض للبورجوازية لكى تخطو بأقدامها نحو بناء مصر الصناعية ، مصر العلوم الحديثة** . كما ان تسويدها كان يعنى تحرير الفكر من قيود التخلف والرجعية ، وانطلاقة لبناء مستقبل الانسان .

الراديكالية والرومانتيكية الثورية

مع التزام **الفكر الليبرالى** لموقف الدفاع عموما ، قد يبدو غريبا أن تظهر بشائر **فكر اشتراكى** ، ووجه الغرابة هنا أن الليبرالية وهى فكر البورجوازية فى مرحلة صعودها ونموها ، **لم تستطع أن تمكن لنفسها لاسباب عددناها ، فكيف يستطيع فكر اكثر ثورية منها يعبر عن طبقات لاشك فى أن عناصرها الاكثر وعيا — وهى الطبقة العاملة الصناعية — لم تكن قد ولدت بعد ، كيف يستطيع مثل هذا الفكر أن يجد من الظروف ما يسمح له بالظهور ؟** ولكن الظاهرة أمامنا لا نستطيع أن ننكر لها ، ومن المفيد أن نحاول تفسيرها بدلا من تجاهلها الذى لن يفيد .

ويبدو أن الخطأ الرئيسى فى تناولنا للموضوع ككل يكمن فى استخدام مصطلح « الاشتراكية » لوصف مجموعة **الافكار الداعية الى الاصلاح والعدل الاجتماعى** فى تلك المرحلة . وقد يكون استخدامنا المصطلح صحيحا ولكن دلالته العقلية العامة تنصرف لدى الكثيرين ممن يتلقونه الى « **الاشتراكية العلمية** » باعتبارها التيار الفكرى السائد فى عصرنا . فى حين أن مصطلح الاشتراكية بشكل عام ينصرف الى اشكال متعددة من أفكار العدل الاجتماعى ، ميز بعض منها بالاشتراكية الخيالية ، وظل الباقى منها بلا تصنيف عموما . واذا كانت الاشتراكية العلمية هى فكر الطبقة العاملة الصناعية بالاساس فان المصطلح دون تحديد صفته يشير الى مطامح الفقراء والمعوزين والعاطفين عليهم عموما . ومن هنا فمن الطبيعى أن تظهر هذه الفكريات فى مرحلة الثورة العرابية .

وعلى الرغم من أن بعض الذين أرخوا لفكر المرحلة استخدموا المصطلح بالصيغة السابقة — على تفاوت فى فهم المدلول الصحيح له (٦٠) فاننا نفضل أن نستخدم المصطلح الذى يفوت الفرصة على الفهم المغلوط من ناحية ويكون أكثر دلالة على طبيعة هذا التيار الفكرى فهذا التيار تيار « راديكالى » بالاساس نعنى به أنه أنعطاف الى اليسار الليبرالى ، أو الى اليمين الاشتراكى ، **وهو فى كلا الحالتين جزء من التراث الفكرى للبورجوازية ، ولا ينتمى الى الطبقة العاملة .**

وأما عن **مصادر هذا التيار** ، فانها فى الاساس **مصادر خارجية** ، ويرجع الى « **السان سيمونيين** » الفضل فى احداث تأثيرات فى هذا الاتجاه . فمن المعروف أن السان سيمونيين قد أشرفوا على تعليم عدد من طلاب البعثات المصريين وأثروا فيهم تأثيرا اتخذ عند البعض صورة **العلاقة بين الاستاذ والتلميذ** ، كتب **اوجست كونت** (١٧٩٨ — ١٨٥٧) مؤسس علم الاجتماع وصاحب الفلسفة الوضعية — وكان سكرتيرا لسان سيمون ، ومن أبرز المتأثرين به — الى صديقه الفيلسوف البريطانى **جون ستيوارت ميل** بتاريخ ٢ فبراير ١٨٤٣ يقدم اليه الطالب المصرى « **محمد مظهر** » فوصفه بأنه « **تلميذ قديم من تلاميذى** » وأعتبره « **انجب الشبان المصريين وأذكاهم عاطفة** » وانه « **ظل مع شابين آخرين تحت توجيهى لاعلمهم الحساب من اول مراحله البسيطة الى الافتراضات الراقية لهذه المرحلة الوضعية** » وهو بهذا يقر ان مظهر وزميله لم يكونا مجرد دارسين للعلوم الهندسية فقط ، **ولكن درسا كذلك الاصول الاولى للفلسفة الوضعية كما صاغها كونت** ، الذى لم يكتف بتقديم مظهر الى جون ستيوارت ، بل طلب منه أن يشرفه « بجواركم الفلسفى الرفيع ، وانى أؤكد لكم انه جدير تماما بهذا الجوار على طريقته ووجهة نظره الخاصة ، واقر **كونت** ايضا أن

(٥٩) د. حسن حنفى — المرجع السابق — وهذا المقال يتضمن ابداعا حقيقيا فى تفسير فكر الافغانى

(٦٠) راجع على سبيل المثال هذا المفهوم لدى الدكتور الحديدى فى كتابه عبد الله النديم والاستاذ محمد عماره فى «الافغانى — ملف الطليعة — ابريل ١٩٦٩»

مظهر « رجل ممتاز حقا » ، فقد جعلني أشعر بالرضاء المذب لانه اثبت لي أن جهودي الدائبة لرفع روح هؤلاء الشباب كانت بالفعل جهودا مثمرة .

وبالطبع فان مظهر وزميلاه قد عادا الى مصر واشتغلا بالاعمال العامة . فكيف أثروا في الواقع الفكري المصري ؟ ذلك ما لا نجد له وثائق تفسره . ولكن السان سيمونيين رغم هذا لم يكتفوا بالتأثير فيمن التقوا بهم من المصريين في فرنسا . بل اتجهوا الى الهجرة أيضا اليها على يد زعيمهم « بروسبير انفانتان » الذي دعا الى الذهاب الى مصر في « حملة فكرية » تصحيحا للحملة البونابرتية العسكرية ، وتسويدا للعلماء والادباء والفنانين والمفكرين بدلا من العسكريين وتلك احدى مقولات السان سيمونيين . وقد استطاع انفانتان أن يجمع في أول رحلة ٥٥ مهندسا وطبيبا وفنانا وعاملا وصحفيا وامرأة ، واتجه بهم الى مصر التي كانت مكانهم المفضل باعتبارها ملتقى القارات والموقع الذي منه يمكن تحقيق ما نادى به سان سيمون من توحيد العالم فكريا بديانة جديدة هي مذهبه ، وبوسيلة مادية هي القنوات البحرية والمواصلات الحديدية . وفي مصر كان السان سيمونيين وراء العديد من الانشاءات الهندسية فانشاوا القناطر الخيرية ومدرسة الرسم في الجيزة والمزرعة النموذجية في شبرا ، وسكنوا في شارع الموسكي حيث كانوا في أوقات فراغهم يديرون حوارا حول القضايا الفكرية والسياسية والفنية .

وليس بعيدا أن يكون نظام محمد على متأثرا بفكرهم في بعض نواحيه ، فقد ظهر السان سيمونيين بعد وفاة زعيمهم وكانهم دعاة نظام تكنوقراطي شامل ، اذ ازدروا تماما بالديمقراطية البرلمانية وبعملية الانتخاب ، وكانوا يرون أن الزعيم الكفء حقيقة هو الرجل الذي يفهم عملية الانتاج ولديه القدرة على ادارتها : لا ينتظر حتى ينتخبه جمهرة من الجهلاء ، انه يختار نفسه بواسطة ظهور حقيقة قدرته المتفوقة . فضلا عن انهم كانوا يشعرون بريبة عميقة في حكم الغوغاء باعتبار انه ينطوي على سيطرة الجهل على المعرفة .

فهل أثروا على محمد على الذي بنى سلطته على فئات تكنوقراطية ؟ أم انهم قد وجدوا في نظام محمد على صورة يمكن تطويرها لتطابق افكارهم . وخاصة ان محمد على كان قريبا من سان سيمون الذي لم يكن يؤمن بالافكار التي تمجد حقوق الفرد أو حرياته ، وانما كان يقدس النظام باعتباره الشرط الضروري للتنظيم الاجتماعي العلمي .

بيد أن ما يهمنا من أفكارهم في مبحثنا هذا ، هو فكرة دعم رفاهية الطبقة الاكثر عددا والاكثر فقرا وتوزيع الناتج بحيث ينال كل حسب قدرته كما تعبر عنها خدماته الايجابية لقضية الرفاهية الاجتماعية ، والمطالبة بمجتمع مخطط جماعيا . هذه الافكار التي تنتمي لمقولة العدل الاجتماعي هل انتشرت في التربة المصرية ؟ وما مدى انتشارها ؟ هذا ما لا نجد وثائق تثبته ، على انه من المؤكد ان العقل المصري عرف هذه الافكار وتحاور معها ، ولدينادليل على ذلكفي حوار مظهر افندي مع أوجست كونت — فهي أفكار أذن لم تكن غريبة على الاذن المصرية . (٦١) .

ولاشك ان اصداء من هذه الافكار قد صلت الى الطهطاوي وهو في باريس ، حيث كان واعظا واماما للبعثة الاولى التي كان مظهر أفندي من أعضائها . ولعله قد اطلع على أصول أخرى للفكر الاشتراكي وهو ما جعله — بتعبير الدكتور لويس عوض — يتجه الى الراديكالية في فكره الاجتماعي والاقتصادي بالذات . ويتمثل هذا الاتجاه في اقرار الطهطاوي بأن مصدر القيمة الاساسي هو العمل وليس رأس المال، فعندهأن العمل ليس عنصرا ثانويا ، ولكن راس المال هو التابع ، حتى الارض وصفاتها الطبيعية ليست مصدرا أساسيا للقيمة « لو زرعنا أرضا خصبة وميزنا ما يمكن ان ينسب من ايرادها للعمل وما ينسب للخصوبة ، وفرزنا كل على حدة وجدنا محصول العمل اقوى من محصول الخصوبة » وعند تطبيق افكاره تلك على الواقع المصري حلل الطهطاوي توزيع فائض قيمة العمل ، ورأى أن « المجتبي لفوائد هذه الاصلاحات الناتجة في الغالب عن العمل واستعمال القوى الالية والمحتكر لمحصولاتها الارادية انما هو طائفة الملاك فهم من دون اهل الخدمة الزراعية متمتعون باعظم مزية » . اما بائعوا قوة العمل من الفلاحين والعمال الزراعيين فلاينالون حقهم ، فالملاك « لا يدفعون نظير العمل الجسيم الا المقدار اليسير الذي لا يكافيء العمل كما أن ما يصل الي العمال نظير عملهم في المزارع أو الى أصحاب الالات في نظير اصطناعهم لها هو شيء

[٦١] كامل زهيري — السان سيمونيهفي مصر — الهلال ١٩٦٨

قليل بالنسبة للمقدار الجسيم العائد للملاك » .. ثم حلل الطهطاوى مغزى تحول قوة العمل الى سلعة تخضع لقانون العرض والطلب فراى أن من يريد من الاهالى أن يتعيش من الخدمة « **والتى هى العمل يصير مضطرا لان يخدم بالمقدار الذى يتيسر له أخذه من الملاك بحسب رضائهم ولو كان هذا المقدار يسيرا جدا لا يساوى العمل** ، لاسيما **اذا وجد بالجهة كثير من الشغالين فانهم** يتناقصون في الاجر ويتنافسون فى ذلك لمصلحة **صاحب الارض** » . وينطبق هذا التحليل ايضا على العاملين فى مجالات الصناعة الضئيلة اذ **ذاك** « كما أن أرباب الاملاك يحتكرون **جميع الصنائع لان الصنائع كلها تسعى وتنهض فى الاشغال والعمليات التى تستدعيها حاجة الزراعة كالحدادة والنجارة وجميع صنائع اهل الحرف المتعلقة بأمور الفلاحة** » (٦٢) .

والطهطاوى بهذا قد دعا — بتلخيص الدكتور لويس عوض — الى رفض الاساس الاقتصادى الكلاسيكى الذى يقوم عليه توزيع حاصل الزراعة فى النظام الاقطاعى ، وفى النظام الرأسمالى الليبرالى وهو اعتبار ان الملكية أو راس المال أساس القيمة فى الانتاج . وطالب باعتبار العمل أساسا للقيمة وتوزيع غلة الارض بناء على ذلك فهو « **باختصار ينقض الاركان الاساسية التى يقوم عليها الاقتصاد الرأسمالى الليبرالى ويطالب بتدخل الدولة لحماية العمال من الملاك أو أصحاب رؤوس الاموال** » (٦٣) . ثم يذهب فى النهاية الى التحذير من **ثورة فلاحية** .

وبالطبع فان زمن هذه الثورة كان بعيدا جدا ولكن **الراديكاليون المصريون** كانوا يطمحون فيه .. ولم تكن أفكارهم كلها وليدة **دراسة وفهم منظمين** ، أو **تأمل فكرى** ، بل انها عند بعضهم حالة من التمرد الرومانتيكى ساهم فى توليدها ما عاشوه من ظروف ذاتية غريبة .. وفى مقدمة هؤلاء **عبد الله النديم** الذى عاش حياة عريضة اختلط خلالها بسواقط المجتمع وطبقاته الدنيا ، فاختلط بالفلاحين واشتغل معهم بالزراعة فرأى بؤسهم ورأى العناصر التى يطحنها القلق النفسى المدمر فى مجتمع استغلاله يمحق انسانية الانسان ، فى ترجمته يقول « **عندى من الاوباش** كل سكير حشاش ، حزب يلعب الدمنة وفريق يقرأ كليلة ودمنة ، وقوم يلعبون النرد وشخص يقزح كالقرد » وخالط اناسا « أغلبهم سكارى وكلهم حيارى لا يعرفون الهدى ولا يدركون الردى أعبدهم اذا رأى الخمر هام فلا يرد الا بالجمام وأصلحهم نواسى العمل واقنعهم أشعبى الامل ، لا يركعون ولا يتصدقون ويحلفون ولا يصدقون ولا يرون عيبا فى فحش فهم أغلظ طبعا من وحش . اذا حدثوك كذبوا وان ائتمنهم خانوا وسرقوا ، وأن صديتهم ضللوا ومرتوا » (٦٤) . وفى هذا الجو الذى عاشه النديم مقيرا « سرير نومى الحديدى الخشن وسترتى الوحيدة القديمة » (٦٥) **نمت التاثرات التى جعلته فى النهاية يعقوبيا متطرفا ، عندما تكون وعيه السياسى والاجتماعى** .

ان مخالطة **الفقراء** — شرفاء وغير شرفاء هى التى أعطت النديم ملامح فكره الراديكالى « فلم يجد طريقا لتنبيه الاغنياء الا **بعصبية من الفقراء** » (٦٦) ودافع بالفعل عنهم واتجه اليهم خطيبا، فى جولته بمدن القطر وقراه بين أول فبراير سنة ١٨٨١ و ٩ سبتمبر من نفس العام وحدث الفلاحين « **عن حياة البذخ التى يحياها الاغنياء والحكام يرفلون فى ثياب العز ويتمتعون بأسباب المدنية وينعمون بالمراقص والغانيات والمغنيات وينفقون الاموال ذات اليمين والشمال وما هى فى الحقيقة الا أموال الفلاحين البؤساء . فهم أساس النعمة وأسبابها يجمعونها بعرقهم ودمائهم من فلاحة الارض وتربية الماشية لياخذها الاغنياء ويبعثرونها على ملاذهم ومتعهم** » .

بل انه يتجه مباشرة الى **الاغنياء** مخاطبا أياهم « تعال فانظر الى **سلم رفعتك** ومعدن حياتك **ونبع ثروتك** ، **أخيك** — استغفر الله — خادمك الفلاح — انظر الى ثوبه المهلهل ولبدته التى لا تستر الا يافوخه ورغيفه الذى لا تكسره نوتك ومشه الذى تعاف النظر اليه وارقبه وهو يسقى الزرع والطين الى فخذيه والشمس تشوى وجهه وجسمه ، **يقطع يومه فى عذاب وعمل** .. **وهو صاحب الفضل عليك** ، وانت لا تنظره الا بعين المقت ولا تعامله الا بيد الاهانة ولسان السب » (٦٧) .

ومن أهم المعطيات الراديكالية التى قدمها النديم **تنبهه الى خطورة مجلس النواب كمؤسسة وحرصه على الا يجيء مغفلا لمصلحة الطبقات الشعبية ومطالبته بأن يشكل المجلس من هلف طبقى حقيقى . وهو بهذا أول من تنبه الى خطر**

---

(٦٢) الطهطاوى — مناهج الالباب — ص ٩٣ ، ٩٤ — راجع لويس عوض — تاريخ الفكر المصرى

(٦٣) د. لويس عوض — ح ٢ ص١٨٤

(٦٤) الحديدى — المرجع السابق ص٢٣

(٦٥) نفس المصدر ص ٢٢

(٦٦) عبد الله النديم — تاريخ مصرى هذا العصر — ص ٥٣

(٦٧) التنكيت والتبكيت — ١٨٨١/٨/١٥

التسليم الكامل بمعطيات الديمقراطية الليبرالية التى يمكن أن تتحول الى ديكتاتورية مقنعة . ففى تحليله لهذه المسألة، انطلق من أساس طبقى الى **حد كبير** ، فرأى « **ان الوطن فيه الذكى وفيه الغبى . والغنى والفقير ، والامير والحقير فان كان حق الانتخاب قاصرا على الاغنياء دون الاذكياء كان مجلس النواب وبالا على الشعب والوطن** » . وهو يقسم هؤلاء الاغنياء الى قسمين ، **مصريين وأتراك** ، فأما أبناء **كبار الملاك المصريين فهم عنده** « مولعون بالاستبداد والاستعباد ، يميلون الى استخدام الفقراء بلا تعليل وضرب الضعفاء من غير أن يعارضوا أو يحاكموا وهذا بعينه هو الاستبداد المضر بالشعب . على أن أباه ان كان من حكام البلاد فانه ادرك **الثروة بنهب الفلاحين** وظلمهم فان أغلب الحكام متسلطون على المحكومين تسليط الهواء على النار يضربون ويحبسون وينهبون، ومن كانت هذه أفعال أبيه كان بعيدا عن الحق أجنبيا عن الانصاف لا يميل الى المساواة ولا يعترف للفقير بحق معه فى الوجود . فوجود مثله فى مجلس النواب علة لزيادة هلاك الشعب فيشرعون من القوانين ما يضمن لهم مصالحهم ليضعفوا بذلك حدة أذهان الفقراء ويحبسوا الثروة لانفسهم» اما عناصر **الارستقراطية التركية المملوكية** « فلا نحكم عليهم الا بعد معرفة أسباب ثروتهم فان كانت بجدهم واجتهادهم كانوا أحرص الناس على الهيئة الاجتماعية وان كانت بطريق الظلم والنهب والرشوة كانوا أشد ضررا لحبهم الظلم الذى صيرهم فى هذه الثروة بعد أن كانوا لا يملكون قوت يومهم ، ومن هذا القسم **من لم ير الريف ولا يعرفه فكيف يكون نائبا عنه** » . **أما الخبراء وأهل الدراية فهم مطلوبون** « ولكن حبهم لذاتهم يعطل كثيرا من المنفعة ويجلب الكثير من الضرر فان وجدوا فى مجلس النواب ، **ولم يكن معهم أحد من النبهاء الاذكياء من أهل البلاد كان نواب هذا المجلس عبارة عن لعبة يديرونها كيف شاءوا** » .

ويبلور النديم فى هذا العرض انضج الافكار الديمقراطية فهو يرى :

●● ان المجلس **تشكيل طبقى** ، وان الديمقراطية بهذا المفهوم ديمقراطية طبقة ، وأن سيطرة الملاك على المجلس سيجعلهم يصدرون تشريعات تخدم مصالحهم وتضر بمصالح بقية الطبقات .

●● انه يعارض فى **سيطرة طبقة الاغنياء على المجلس** « **بل تشكيله من جميع الطبقات نبهاء ومثقفين واتراك واغنياء وعلماء وعمال** واعيان » .

●● ان المجلس لابد ان يكون « **مطلق الحرية فى** افكاره لا يعارض فى المصلحة ولا يلزم بشىء لم يقر عليه » .

●● وهو يؤكد ان **للفلاحين مصلحة متميزة لن يعبر عنها الاثرياء** ، وان اصواتهم يجب ان تسمع من خلال «**النبهاء والاذكياء من أهل البلاد**» ، أو بمصطلح حديث من خلال **طليعة شعبية واعية** .

●● انه يفرق بين نوعين من الاغنياء الذين **جمعوا ثروتهم بالنهب والسلب والظلم** ، والذين جمعوها **بالعمل والجد والكفاح** .

●● انه يرى ان **الديمقراطية ممارسة وان الشعب لابد ان يدرب عليها** « **الشىء فى اوله لا** يجىء على صورته الحسنة فى سائر الجهات بل لابد من النقض والابرام والخطأ والتصويب والتغيير والتبديل حتى تتقدم الافكار وتحسن الاعمال « ذلك أن اهل البلاد وان جهلوا » احسن فى أخلاقهم ومبادئهم وحكم بلادهم من كثير من المتمدينين » (٦٨)

ان عبد الله النديم يرسي هنا أوائل الافكار **حول شكل جديد للديمقراطية** ، هى الديمقراطية الراديكالية ، ويبدو ذكاءه السياسي فى اقراره بضرورة بقاء الطبقات غير الشعبية فى المجلس طالما انها تنمى ثروتها بطرق مشروعة جنبا الى جنب مع الطبقات الشعبية . ومن هنا جاء دفاعه عن اقرار حق الانتخاب للجميع وليس للمتعلمين فقط .

بل ان فكرة التركيز حول **الطابع الطبقى للديمقراطية** تتسلل ايضا الى الشيخ محمد عبده الذى **لا يمكن وصف مجمل نظرته العامة بالراديكالية** بل كان اخفت الاصوات ثورية واكثرها اقترابا من الاصلاح التدريجى ، فقال « المعهود فى سير الامم وسنن الاجتماع القيام على الحكومات الاستبدادية، وتغيير سلطتها، والزامها الشورى والمساواة بين الرعية انما يكون **من الطبقة الوسطى والدنيا** اذ نشأ فيهم التعليم الصحيح والتربية النافعة وصار لهم رأى عام ، وانه لم يعهد فى أمم من أمم الارض أن

الخواص والاغنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة أنفسهم بسائر الناس وازالة امتيازاتهم واستئثارهم بالحياة والوظائف بمشاركة الطبقات الدنيا لهم فى ذلك » (٦٩) ومحمد عبده يرى ان **الديمقراطية مطمحا من مطامح الطبقة الوسطى وحلفائها** ، فيضفى على الفكرة الديمقراطية طابعها الحقيقى ، فلا تفسر الدعوة اليها على أسس اخلاقية أو صوفية .

وفوق هذا كله فان **الفكر الانقلابى** لم يكن غريبا على الثوار . فتجاوز فكرهم المطالبة **بالملكية المقيدة الى التمهيد لاعلان الجمهورية** . يقول عرابى فى تاريخه الذى كتبه لبلنت انه لو قدر للقوى الثورية ان تخلع اسماعيل بنفسها — وليس عن طريق التدخل الاوربى — « **لكنا تخلصنا من عائلة محمد على باجمعها وكنا اعلناها جمهورية** » (٧٠) وفى رسالة معاصرة لحوادث الثورة كتبها لويس صابونجى لبلنت ذكر انه سمع البارودى يتكلم عن **فوائد الجمهورية لبلاد مثل مصر ثم قال** « كنا نرمى منذ **بداية حركتنا الى قلب مصر جمهورية مثل سويسرا وعندئذ كانت تنضم الينا سوريا ويليها الحجاز ولكننا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة لانهم كانوا متاخرين عن زمنهم ومع ذلك سنجتهد فى جعل مصر جمهورية قبل ان نموت** » (٧١) وفى رسالة أخرى قال صابونجى ان الثوار ينتظرون الوقت الملائم لاعلان الجمهورية المستقلة « **وقد كان هذا اساس عقيدتهم منذ البداية ولكنهم تبصروا فى العواقب فراوا ان يسيروا سيرا وئيدا فى هذا الموضوع . وعبد الله النديم يوجه جهوده نحو هذه الغاية ببذر بذورها فى اذهان الجيل الجديد** » (٧٢)

واخطر الحقائق التى تكشفت لنا حول التيار الراديكالى فى صفوف الفكر الثورى ، انه كان هناك فيما يبدو عناصر **من الاشتراكيين الاوربيين ساهمت فى العمل الثورى** ، ولكن حجم هذه العناصر ودورها بالضبط ما يزال يحتاج الى مجهود آخر ، نأمل أن نتوصل اليه او يتوصل اليه غيرنا من الباحثين .

قالت « **الجوائب** » — وهى صحيفة عربية كان يصدرها بالعربية فى الاستانة المفكر السورى احمد فارس الشدياق — فى عدد ١٩ سبتمبر ١٨٨٢ — بعد هزيمة الثورة ، تتهم عرابى بأنه « **نجس صفوف عساكره بالاشتراكيين الفرنساويين الذين أحرقوا مدينة باريس فى سنة ١٨٧١ وطردوا منها فان هؤلاء الاشقياء بعد ان ضاقت بهم الارض لم يروا وسيلة لاجراء مآربهم الابليسية الا الحكومة العرابية** » .

وذكرت **الجوائب** فى عدد ٣ اكتوبر ١٨٨٢ نقلا عن صحف الاسكندرية **أنه قبض على جون نينيه من أهل سويسرا وغيره من الاورباويين الاشتراكيين الذين فروا من فرنسا واشتغلوا باضلال عرابى فى الحركات العسكرية والافكار السياسية** .

وناقشت جريدة « **الوطن** » وهى جريدة مصرية يصدرها ميخائيل عبد السيد — فى عدد ٣٠ أكتوبر سنة ١٨٨٢ نبأ القبض على بعض الاوربيين وترحيلهم . وقالت ان المدافعين عنهم **يقصدون ان يجعلوا مصر مركزا للتهليست ، وان مصر ترى ما فعلته حكومة فرنسا بالكومون بعد ان قهرتهم وأكدت ان الذين نفيا هما اثنان من المفسدين الاجانب لما رأت الحكومة أنهما متلبسين بمبادىء الاشتراكيين وعند امثالهما ان الحرية هى التمشدق ببعض اوهام فاسدة او السعى لغايات سياسية شخصية** .

وبالطبع فانه من الممكن اهمال هذه الاقوال على أساس أنها استهدفت تشويه سمعة الثوار بما كان متواترا اذ ذاك من أكاذيب عن **الحركة الاشتراكية** وخاصة عن **ثورة كومون باريس** .. وخاصة أن مسار الثورة نفسه لم يكن ينبىء باحتمال وجود **تيار اشتراكى علمى فى داخلها** ، رغم وجود **عناصر يعقوبية ومتطرفة** — ولكن دلالتها عندنا هى وجود مناخ فكرى ثورى يدرك بشكل جنينى بعض ملامح الفكر الثورى العالمى أن هذا المناخ قد ساهم فى بلورة فكر سياسى واجتماعى ان لم يكن شديد النقاء فهو **يتضمن أكثر عناصر الفكر القومى ثورية** بمقياس ذلك العصر .

وعلى المستوى الفكرى ، فان هذه هى النقطة الخلافية الاساسية حول طبيعة التيار الراديكالى فبينما يذهب بعض الباحثين ومنهم الاستاذ **روجيه جارودى** ، والدكتور **رفعت السعيد** ، الى أن هذا التيار هو تيار اشتراكى ، يتحفظ الاخرون ، ويرون ان هذا توسع فى تطبيق « مصطلح الاشتراكية العلمية » يخرج به عن جوهره الحقيقى . ويرى الاستاذ جارودى ان الطهطاوى هو « **المهد الحقيقى لاشتراكية قائمة على**

---

[٦٩] تاريخ الاستاذ الامام — للشيخ رشيد رضا — جـ ١ ص ٤٨

[٧٠] بلنت — المصدر السابق — ص ٤٢٤

[٧١] نفس المصدر ص ٤٥٣

[٧٢] نفس المصدر ص ٤٥٧

اساس خلقى دينى » وانه « **انتقل من الوطنية الى الاشتراكية** » كما يراه ، « **وجد المبادىء الاساسية للماركسية عندما درس المشكلة الاقتصاديةللقيمة** » .ويضرب الامثلة على ذلكمن كتاب مناهج الالباب معتمدا على نفس المقتطفات التى اعتمدنا عليها من الكتاب ، ويرى ان « **نظريات الطهطاوى** فى مناهج الالباب لعبت دورا كبيرا فى **ادخال الفكر الاشتراكى فىالحركة القومية استنادا الى تعاليم القرآن** ، كما انه « **عندما تم التلاحم بين الجماهير الشعبية والمثقفين الثوريين من عام ١٨٧٩ الى ١٨٩٢ قام النديم وهو احد تلاميذ الطهطاوى بدور حاسم فى تحقيق هذا التلاحم** » (٧٣)

ويرى الاستاذ « **محمود اسماعيل عبد الرازق**» ان منهج جارودى **للتوفيق بين الاسلام والاشتراكية الماركسية** ينطوى على تعسف **يرفضه العلم ، وترفضه الماركسية ولا يقبله الاسلام** » وان هذا ينطبق على تقييمه للطهطاوى الذى يراه الاستاذ محمود ليس « **اشتراكيا فى قليل او كثير** » وانه مجرد «**عارض لما وقف عليه فى اوربا** — وخاصة فرنسا من تيارات فكرية متقدمة اعجب بها جميعا على اختلافها وتناقضاتها فهو يبدو **ليبراليا احيانا** حين يعرض للفكر الليبرالى ، **وراديكاليا** احيانا اخرى حين يعرض للفكر الراديكالى ، ويبدى **اعجابه بالاشتراكية ويشيد بها حين يطالع الفكر الاشتراكى** ،وهو يرى أن الطهطاوى قد دعم سلطة **الدولة فى مصر** استنادا الى فكر مونتسكيو ، كما انه لم يكن اشتراكيا **لا فى فكره او سلوكه فهو من اصحاب الاقطاعيات** ، وانه كان لابد من تقييمه فهو أميل الى ان يكون **ليبراليا وليس اشتراكيا ، كما يذهب جارودى** (٧٤)

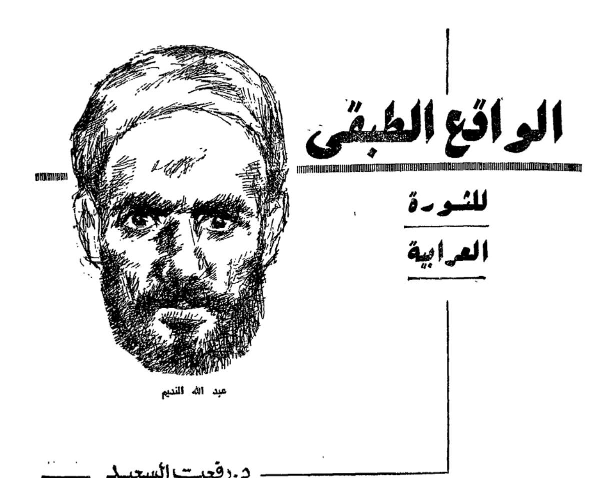
وبالطبع فان مناقشة هذه القضية يحتاج الى توسع يخرج بنا عن حدود هذه الملامح للخريطة الفكرية للثورة العرابية ، بيد اننا نلاحظ ان الاستاذ جارودى قد اعتمد على استنتاج خاطىء وهو تلمذه النديم على الطهطاوى ، ليربط بين اتجاههما الفكرى ، وقد أشرنا الى مناحى الاختلاف فى هذه المسألة، كذلك فان **اعتبار ان الطهطاوى قد دعم دولة محمد على استنادا الى افكار مونتسكيو غير صحيح ، فدولة محمد على ، وسلطتها ، تختلف عما نادى به** مونتسكيو والاصح أن من **يقتنع بفكرمونتسكيو لا يلجا الى تأييد سلطة محمد على.**

ونحن نوافق الاستاذ **ابو سيف يوسف** على ان الطهطاوى وغيره ممن عاصروه أو تلوه « كانوا اشتراكيين طوباويين » ، وأنهم يمثلون « **طلائع الجناح الراديكالى داخل صفوف الحركة الوطنية فى مجموعها** ، وهو **الجناح الذى سينمو ويجذب اليه باستمرار طلائع البرجوازية الصغيرة** ومثقفيها — **بشكل عام — والذى سيحمل الى الحركة الاجتماعية** مفهوماته **الخاصة عن** الإشتراكية **غير البروليتارية** » (٧٥)،ونضيف الى هذا تذكيرا بأن هذا التيار فى مجموعه هو جزء من التراث الفكرى للبورجوازية .

---

[٧٣] جارودى — الاسلام والاشتراكية — الطبعة يناير ١٩٧٠
[٧٤] محمود اسماعيل عبد الرازق — جارودى والاسلام — الفكر المعاصر — فبراير ١٩٧٠.
[٧٥] جارودى — المصدر السابق

الواقع الطبقى للثورة العرابية



عبد الله النديم

د. رفعت السعيد

حاول بلنت أن يقدم عرابى لقرائه فكتب يقول : « وفى أسابيع قليلة قفز عرابى الى المقدمة ، فصبح واحدا من مراكز السلطة فى البلد ، ولو أنها سلطة مفترضة، وكعادة أهل مصر انهالت عليه العرائض من كل انسان مظلوم، أو مهضوم حقه طالبا منه الانصاف والعدل ، أليس هو الرجل الذى استطاع أن يغير الوزارة وأن يطرد الوزير المستبد . وفى الحقيقة لقد أصبح عرابى فى هذه الفترة الوجيزة بطلا وقائدا للفلاحين المضطهدين فى نضالهم ضد طبقة الاتراك .. وقد منحه هذا الموقف جماهيرية كبيرة خارج القاهرة فاتصل به كثيرون من الاعيان ومشايخ البلاد يطلبون مساعدته ، وفتح عرابى صدره للجماهير يساعدهم قدر استطاعته يبتسم فى وجوههم جميعا تاركا فى نفس كل منهم أثرا لا يمحى » .

ويمضى بلنت ليكمل الصورة « ان عرابى هو نموذج للقائد الفلاح .. طويل عريض المنكبين ، بطىء الحركة نوعا ما لكنه يبدو قويا مقداما .. انه نموذج لمشايخ البلد الاقوياء ..

كانت عيناه ذات نظرة حادة لكنها حالمة ولم يكن الانسان يكتشف طيبته وذكاءه الا عندما يفتح فمه ليتكلم أو ليبتسم .. لقد لوحت الشمس وجهه فصار أسمر الامر الذى نفر منه الاتراك .. أما رياض فقد كرهه منذ أول نظرة ، وحتى رجال الاصلاح فى الازهر كانوا لا يعطونه تقديرا كافيا كسياسى ، لكن أهم ما يميز عرابى هو أنه فلاح .. واحد من طبقة الفلاحين .. واحد منهم وليس مجرد زعيم لهم .. قطعة منهم تتسم بنفس صفاتهم ،وكأنه ببشرته السمراء قطعة من طمى نيل مصر » (١)

Blunt — Secret History of English occupation, of Egypt — London — 1901 p. L 39.

وكم كان غريبا أن تسرى دعوة عرابى فى الريف المصرى سريانا سريعا أذهل الجميع وأدهشهم ، فالفلاحون المصريون وجدوا فى « **دعوة تحرير الفلاح** » تلك الدعوة التى تولى عرابى قيادها ، شيئا تتوق اليه نفوسهم ، وأخذ الناس فى الاقاليم يذكرونه بقولهم « **الوحيد** » وقد استحق هذه التسمية حقا فانه كان فى مدى عدة قرون الرجل الوحيد من صميم عنصر الفلاحين الخالص الذى استطاع أن يقاوم بنجاح طغيان رجال الطبقة الحاكمة من الاتراك والشراكسة » (٢)

هكذا كان عرابى ...

لكنه لم يبدأ زعيما للفلاحين وانما مجرد زعيم لقطاع منهم ، لابنائهم فى الجهادية ، والحقيقة أن جيش مصر كان مكونا فى ذلك الحين بطريقة غاية فى الغرابة ، أعلى فئات – الارستقراطية الاتراك والشراكسة والارناؤوط – تحتل القيادة ثم بقية الجيش من أبناء الفلاحين الفقراء ، أفقر طبقات الشعب .

فالطبقة الوسطى فى المدن لم تكن قد أدركت حتى ذلك الحين أهمية ارسال ابنائها ضباطا فى الجيش ، فالامر لم يبدأ بهذه الصورة ، ولم يكن لاحد أن يتصور أن جيش مصر سوف تتاح له فى فترة وجيزة أن يقفز الى مراتب القيادة الوسطى فيه مئات من الضباط المصريين . كانت الرتب الوسطى والكبيرة كلها من نصيب الاتراك والشراكسة وغيرهم أما المصريون فلم يكن أمامهم سوى الجندية ، والجندية فى أحط صورها ، مرتب قدره ١٩٫٥ قرشا فى الشهر .. والاشتغال فى أعمال السخرة وفى أحط الاعمال فترة طويلة من السنة ..

وهكذا أصبحت الجندية وقفا على أبناء الفلاحين الفقراء وقد ظلت لفترة طويلة نوعا من السخرة الاجبارية أو الشبه اجبارية .

أما المناصب العليا فى الجيش فقد كانوا محرومين منها وفقا لمخطط قديم منذ عهد محمد على . فمحمد على كان يدرك خطر أن يصل المصريون الى الرتب العليا للجيش ، وعندما طلب اليه ابراهيم ترقية بعض المصريين الى رتبة اليوزباشى رد عليه قائلا « من المعلوم يا ولدى أننى أتجنب حتى الان ترقية العربى الى الرتب العليا ، وقد ظللت محجما عن ذلك مدة طويلة مقدرا النتائج التى ستترتب على ذلك بعد مائة عام » (٣) .

لكن الزمن يتغير سريعا ومن تحت السلاح يرتقى مئات من الضباط المصريين ليصبحوا ضباطا . ويسرع بهم سعيد فى سلم الترقى وكأنه **يسابق الزمن ، فعرابى مثلا أو « الشيخ احمد »** كما كانوا ينادونه فى ذلك الحين يدخل الجيش وعمره ١٤ عاما نفرا عاديا .. ولا تمضى سوى ست سنوات فقط حتى يصبح قائمقاما . وعندما يذهب سعيد ينتهى العيد الذهبى للضباط المصريين أو كما كانوا يسمونهم « الضباط الفلاحين » ويبقى عرابى ١٩ عاما بدون ترقية وكان لابد له ان يتذمر هو وزملاؤه .

وهكذا ووجها لوجه تقف طبقتان لتتنازعا السلطة فى الجيش : الارستقراطية .. وفقراء الفلاحين والشرائح الصغرى منهم .

وتمتزج الاحاسيس القومية والعزة الوطنية بالروح الطبقية ويبدأ الصدام مبكرا قبل أن تستعد له أطرافه لكنه كان فى البداية صراعا بين ضباط وقياداتهم وكان يمكن وحتى بالرغم من اطاره القومى والطبقى ان يظل محصورا فى صفوف الجيش .

لكن الجماهير أدركت بغريزتها أن هذا الصراع يهمها وأنه تعبير عن نموذج أكبر تعيشه مصر ، وانطلقت الجموع تحيط بالضباط يوم ٩ سبتمبر وعندما حاول الخديوى أن يجادل عرابى فى مطالبه التفت عرابى خلفه ليشير بيده الى الجماهير التى ملات ميدان عابدين معلنا انه يمثل الامة كلها ..

ولم يكن هذا التطور بغير دافع وبغير عقل مفكر .

واعتقد أن النديم كان صاحب الفكرة .

وعبد الله النديم مثقف كان أبوه عاملا انتزع من الريف ليعمل فى مصانع محمد على ، فلما انهارت صناعة محمد على بقى بالمدينة ليعمل فرانا .

ولقد شارك النديم فى كثير من الحركات السياسية وأسهم فى تحرير المجلات وانضم الى جمعيات سرية وعلنية وأدرك فى النهاية انه « لن يجد طريقا لتنبيه الوجوه والامراء بغير عصبة يكونها من الفقراء .. »

(٢) محمود الخفيف – احمد عرابى الزعيم المفترى عليه – الجزء الاول – طبعة كتاب الهلال – ص ٧٥

(٣) د . عبد العزيز نوار – مقال بمجلة الهلال سبتمبر ١٩٦٥.

وكانت لمحة عبقرية أن يضم النديم جهوده الى حركة الضباط الفلاحين ، لكننا نخطىء لو تصورنا أن ثمة قرارا اتخذ بتحويل حركة الضباط السرية من مجرد حركة تطالب بمطالب فئوية الى حركة تدافع عن أماني الجماهير ٠٠

فالجمـاهير نفســـها هى التى فرضت ذلك ، فرضته على الاحداث وعلى الضباط وربما على عرابى نفسه ٠

وقبل حركة ٩ سبتمبر بقليل يكتب مـراسل **التايمز اللندنية** ليقول : « لست مبالغا اذا قلت ان فى القاهرة الآن مئات من المشايخ ، كل منهم يمثل قريته جاءوا بعرائضهم التى تطـالب بتخفيض الضرائب،وقد كونوا جموعا محتشدة أمام أبواب النظارات يعتـرضون النظـار فـى غـدوهم ورواحهم ٠٠ وعرائضهم تملأ مكاتب الموظفين » ٠

وعندما أحس عرابى بتـآمر الشراكسة عليه ، حاول أن يجد لنفسه سندا فى جموع الفلاحين وانطلق النديم الى القرى يجمع « التواقيع » على عريضة تفوض عرابى فى المناداة بمطالب الامة٠٠ وتقول العريضة :

« الوزارة الرياضية قد ركبت متن الشطط وعدلت عـن الصراط المستقيم ، ولم يكن مقصدها مؤديا الا الى اضمحلال البلاد وتلاشيـها بمـا هو جـار مـن بيع أراض للاجانب ووجود كثير منهم فـى ادارات الحكومة ومصالحهـا بالرواتب الفـادحة والسعى فى رفع الاحجار الطبيعية الموجودة فى بوغـاز الاســكندرية ، وان سـكوتنا واضرابنا عن ذلك يعد من العجز والجبن ، والتفريط فى وطننا ومقر نشأتنا ، فاعلموا يا معاشر الوطنيين، ان أولادكم المنتظمين فى سلك الجادية قد اتكلوا على البارى سبحانه وتعالى وعزموا على منع كل ما من شأنه الاجحاف بشئونكم وذلك لا يتم الا بسقوط وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس النواب ليحصل الوطن على الحرية المبتغاة ، فالمطلوب منكم أن توقعوا على الكتابة المرسلة اليكم من ضمن هذه النشرة وهى الكتابة المقصود بها أن أكون نائبا عنكم فى كل ما يتعلق بأحوال البلاد » (٤) ٠

وحمل النديم العرائض وانطلق الى الريف الذى كان يعبر عن تذمره بايفاد مشايخ القرى والعمد ورؤساء العائلات الى القاهرة يحملون العرائض والشكاوى والالتماسات ٠

والجديد فى هذه المرة هو أن عريضة عرابى كانت توحيدا لهذه المطالب المحلية والالتماسات والعرائض التى تشكو من ظلم هنا أو تعنت هناك ٠٠ الى مطالب قومية محددة ٠

- ● ● **اقالة وزارة رياض ٠**
- ● ● **منع بيع الاراضى الزراعية للاجانب ٠**
- ● ● **تشكيل مجلس النواب ٠**

ومن يتأمل هذه المطالب يلمح فيها الرغبة فى خلـق أوسـع جبهـة ممكنـة خلـف أولاد الامة « المنتظمين فى سلك الجهـادية » ٠ وهكذا حصل النديم على أختام الجميع ما عدا شخصا واحدا هـو عميد الاقطاعيين المصريين **سـلطان باشا** « الذى أعلن أن هذه الطلبات لا تعلق لها بالعسكرية وقد أنبأ الخديوى بأمرها » ٠

وعلى أية حال فقد كانت استجابة الامة لطلب توكيل عرابى عنها أكثر من رائعة ٠

وعندما وصل **درويش باشا** مبعوث السلطان ليحقق فى الخلاف بين **توفيق وعرابى** كان فى انتظاره عرائض تحمل أكثر من ٣٠ ألف توقيع تعلن تأييدها لعرابى ٠

لقد كان الريف يموج بالثورة ولم تكن حركة الضباط سوى المفجر الذى أتاح له الحركة وعندما تحركت جموع الفلاحين أصبحت سيدة الموقف ٠

وكانت عبقرية عرابى انه استطاع ان يستجيب لها سريعا ، وأن يتجاوب معها باخلاص ٠وكانت عبقرية النديم أنه أحس بقيمة الحركة وبوجودها وبفاعليتها قبل غيره وحث الضباط على الارتباط بها ٠ وهكـذا تهيأت الظروف لحركة طبقيـة من الطراز الاول ٠

وثمة عوامل أخرى ايجابية ٠٠

كان الاجانب يفدون الى مصر باعداد كبيرة ٠ ويحاول **دافيد لاندز** أن يقدم صورة لهذه الجموع فيقول : « وباستثناءات قليلة كان القادمون جميعا مجموعة انتهازية شديدة المراس خرجت لتبحث عن الثروة بصرف النظر عن كيفية جمعها ٠ ان جمهرة المهاجرين كانوا من حثالة البحر المتوسط جاءوا

(٤) سليم نقاش ــ مصر للمصريين ــ الجزء الرابع ــ ص ٩٠.



محمـد على — سـعيد باشا

الى مصـر ليلبوا احتياجات وملذات وشهوات الرواج يديرون المحلات والحانات فى الحوارى والمطاعم والمحالج وكازينوهات القمار والفنادق وبيوت الدعارة » (٥)٠

لكن الصورة لم تكن كلها ظلالا سوداء ·· فقد كان من الضرورى ان تنعكس مع هذه الحشود الوافدة من أوربا آثار حركة البروليتاريا الاوروبية والحركة الاشتراكية واليسارية هناك ·· كان لابد أن يفد مع الوافدين اشتراكيون ويسـاريون وليبراليون ·· والاسماء قليلة والمعلومات اقـل لكنها مع ذلك ذات دلالة كبيرة ·

كان هناك اشخاص مثل **بلنت وجون نينه** الذين وقفوا الى جانب الحركة الوطنية يسـاندونها بحزم · وكانت هناك أسماء اخرى · « **غوسيو** » وكان من أنصار مجلة مصر الفتاة العـاملين المتحمسين وهو يونانى الاصل كان يعمل ببنك الانجلو اجيبشيان ، وكان ينشر مقالاته فى المجلة بالفرنساوية فتترجم الى العربية » (٦)٠

بل ان الامر قد اضطر السلطات الى أن تشن حملاتها على بعض هؤلاء الاجانب ، فقـد نشرت جريدة **الجوائب** أنه قد قبض على « **جون نينه** من أهل سويسره وغيره من الاورباويين الاشتراكيين الذين فروا من فرنسا واشتغلوا باضلال عرابى فى الحركات العسكرية والافكار السياسية » (٧) ·

وتنشر جريدة « **الوطن** » ان السلطات قد قبضت على بعض الاوربيين وقامت بترحيلهم ، وقالت ان المدافعين عن هؤلاء « يقصدون ان يجعلوا مصر مركزا للنهيليست » وأن مصر تضـع نصـب عينيها « ما فعلته حكومة فرنسا بكوميون باريس بعد أن قهرتهم » (٨) ·

بل أن **مجلة الجوائب وهى لسان حال الباب العالى** قد اتهمت عرابى بأنه قد « نجس صفوف عساكره بالاشتراكيين الفرنساويين الذين احرقوا مدينة باريس سنة ١٨٧١وطردوا منها فان هؤلاء الاشقياء بعد ان ضاقت بهم السبل لم يروا وسيلة لاجـراء مـآربهم الابليسيـة الا الحكومـــة العرابية » (٩) ·

وتحت عنوان « بث عواطف » يورد **سـليم نقاش** البرقية التالية التى أرسلها رئيس جمعية العمـال الايطاليين لتهنئة محمود سامى البارودى عندما تولى رئاسة الوزارة بناء على طلب العرابيين ·

« **الى حضرة صاحب السعادة محمود باشا سـامى :**

عقدت امس جمعيتنا حفلة عمومية قررت فيها ان ترفع لمقامكم السامى بيان ما تتمناه من نجاح الحزب الوطنى المصرى وأمـانيه الوطنية ، وما الفعلـة « العمـال » الاتياليان الا ابناء إمة حـاربت فى نوال استقلالها فهم يتمنون ان المقاصد التى ابدتها الامة المصرية وسعت اليها بالتانى وحسن السياسة

(٥) دافيد لاندز « بنوك وباشوات » ترجمة د . عبد العظيم انيس ص ٨١
(٦) شبلى شميل « مجموعة مقالاته » ص ٣٢٨
(٧) اساليب النضال المصرى . مقال بمجلة الطليعة ديسمبر ١٩٦٧
(٨) ، (٩) اساليب النضال المصرى . مقال بمجلة الطليعة ديسمبر ١٩٦٧.

تفوز بادارة الوزارة الحالية فوزا يعدل عظم الغاية المطلوبة وكبر شأنها .

رئيس الجمعية
كاميني (١٠)

لكن الامر لم يقتصر على تأييد الاجانب المقيمين بمصر فان برقيات أخرى كانت تصل الى عرابي من مختلف الاحزاب العمالية والاشتراكية في أوربا التي اتخذت في صراحة ووضوح موقف المساندة والتأييد للثوار المصريين ..

ويورد **سليم نقاش** نص برقية وردت في ٤ فبراير ١٨٨٢ من المستر **ماكدونالد بلوندره** الى عرابي يقول فيها ما معناه : هيا للتقدم فليس هناك خوف ، وللامة الانكليزية مزيد الميل والمودة القلبية للفلاح الذليل ، خيب الله آمال الظالمين المستبدين المختلسين للاموال وحفظ الامة المصرية » (١١) .

والحقيقة ان الاحزاب العمالية والاشتراكية الديمقراطية في أوربا قد اتخذت موقفا أمميا صحيحا فقد تضامنت بقوة مع الثوار العرابيين وتعمدت أن يصل صوتها الى مصر .. وكان لابد لهذا الصوت ان يترك آثاره وسط الاجانب المقيمين في مصر وأن يترك أثره وسط الثوار العرابيين أنفسهم فيملاهم حماسا وثقة .

ويروى **بلنت** واقعة ذات دلالة ، فقد شاهد بنفسه عرابي وهو يستقبل وفدا من الجالية الايطالية فاذا بهم ينهالون على يديه تقبيلا ويقول بلنت « لقد بدى عرابي لهم في صورة قديس يدافع عن الحرية .. » .

أما الثوار فقد اهتموا اهتماما بالغا بتأييد الحركةالاشتراكية الاوربية لهم، وكلفوا **مصطفى فهمي باشا** بترجمة كافة البرقيات التي كانت تتضمن تأييدا لهم ..

ولنستعرض بعضا من هذا التأييد الذي تردد صداه قويا في مصر فوجد سبيله الى الصحف ومنها الى كتب التاريخ .ولنقلب مرة أخرى صفحات كتاب (**مصر للمصريين**) **لسليم نقاش** .

« في ١٦ يوليو عقدت في لندرة جلسة حضرها وكلاء عن جمعيات الفعلة الانجليز النظر في سير الحكومة في المسألة المصرية وحضرها بعض أعضاء البرلمان واستقر الرأي على آنيعرضوا لرئيس الوزراء كدرهم من اطلاق المدافع على حصون الاسكندرية واعلان معارضتهم لكل تداخل حربي في داخلية مصر حيث لا سبب يوجب هذا التدخل شرعيا وأن يطلبوا الى الحكومة استدعاء الاسطول سريعا وايقاف القتال الذي عدوه متجاوزا لحدود المساواة بين الامم بل قالوا انه ما من شيء دعا اليه الا مصلحة أرباب البنوكه التي لا توازي ما يترتب عليه من الاخلال بشرف الانجليز وابادة آمال الشعب المصري الحديث .

وتكلم اثناء الجلسة سير لوزن بما يلائم مشرب الجلسة فقال ان من رأي الفعلة تقديم شرف انجلترا على مصالح ارباب البنوكة .. وقرر المجلس تشكيل لجنة لابلاغ قرارات الاجتماع والاستمرار في عقد المؤتمرات لتعضيد هذا القرار » (١٢)

ويقف سير لوزن في مجلس العموم ليعلن « ان الحكومة قد خالفت قواعد الحرية فان السعي في بث الراحة واعادة النظام لا يتاتي باطلاق القنابل واشهار الحرب وسفك الدماء لمنع أمة ما من تدبير أحكامها بنفسها » (١٣)

ولم يقتصر التأييد على العمال الانجليز وانما شمل أوربا كلها .

« ففي ٣٠ يوليو ١٨٨١ اقيم في قاعة ريفولي بباريس احتفال شائق عقده قوم الفعلة وتليت فيه مقالات مهمة بشان المسالة البريطانية فاجمع الخطباء على مقاومة أي تداخل كان على ضفتي ترعة السويس وقبحوا اشهار انجلترا للحرب وذهب أحدهم كلوفيس هوجس وهو من النواب أنه عندظهور المشاكل الفرنسيةاستحسنت جميع الاحزاب ومنهم الجمهوريون المقاصد الحربية ماعدا حزبا واحدا هو حزب الفعلة فانه قاوم تلك السياسة وبعد أن صفقت الحفلة للقرار الموجب للسلم أعلن الموسيو المان القرار التالي :

« ان الحفلة قد اقترعت على التنديد بالحكومة الفرنسية وبالمجلسين النيابي والسناتو .وتعلن انه من الواجب على حزب الفعلة ليس مخالفة كل تداخل حربي فقط بل ومعارضة كل حيادة من جانب فرنسا يكونمن شانها ان تبيح للانجليز البطش بامة نرى من فرائضنا المحاماة عنها وارشادها الى طريق حريتها » .

كل هذه العوامل بالاضافة الى الانتفاضة الفكرية التي كانت تموج بها مصر والتي تزعمها في ذلك الحين مفكرون تقدميون امثال **شبلي شميل** وغيره كانت كفيلة بأن تمنح الثورة العرابية مزيدا من الاتجاهات الاجتماعية .. لكن ثمة عوامل سلبية أثرت في الموقف :

أولها : ان قادة الثورة ربما كانوا على درجة كافية من الذكاء والفهم وحب الجماهير وحب الوطن لكنهم لم يكونوا على قدر كاف من التعليم

(١٠) سليم النقاش . المرجع السابق ج ٤ ص ٣٢٥
(١١) المرجع السابق ص ٢٣٥
(١٢) المرجع السابق – ج ٥ – ص ١٦١.
(١٣) المرجع السابق ص ١٦٨

فالضباط المصريون كانوا انفارا من تحت السلاح يعرفون القراءة والكتابة وبعض الحساب · وكان ذلك القدر كافيا جدا بالنسبة لاى ضابط ولهذا فقد ابتعدوا بأنفسهم عن دائرة تأثير التفكير العلمى والتفكير الاشتراكى ··

ويقدم بلنت صورة غريبة لمجلس الوزراء الذى شكله العرابيون برئاسة البارودى والذى تولى فيه عرابى وزارة الدفاع فيقول : « لم يكن هناك وزير واحد من الوطنيين يجيد لغة اجنبية ، ولما كانت اللغة الفرنسية ضرورية للتفاهم مع القناصل والدول الاجنبية فقد كان مصطفى فهمى باشا وزير الخارجية هو الوحيد القادر على القيام بهذه المهمة وكان يقوم ايضا بترجمة البرقيات والرسائل · وكان مصطفى فهمى هذا فى معية الخديو اسماعيل، واسهم فى عملية اغتيال اسماعيل باشا المفتش لكن الجريمة ظلت تفزعه باستمرار الامر الذى قاده الى معسكر المطالبين بالدستور لكنه كان دستوريا من مدرسة شريف التى تتعالى على الفلاحين بل وتحتقرهم وكان يترجم البرقيات بطريقة مغرضة ولم يدرك عرابى ذلك الا بعد فوات الاوان » (١٤) ·

وثانيها : أن موجة الفكر التقدمى التى تزعمها شميل كانت تقدم فى بعض الاحيان فى صورة علمية بحتة ، مثل نظرية النشوء والارتقاء أو مناقشات فلسفية حول نشأة الكون وماديته وتتبلور فى دعاوى تطالب بنبذ العلوم الفقهية والتركيز على الطبيعة والكيمياء وغيرها · وكل هذه موضوعات كانت أبعد من أن تؤثر فى ضباط ذوى ثقافة محدودة بل كانت بعيدة عن افهامهم ، كذلك فان تمسك شبلى شميل المتزمت بأفكاره المادية كفيلا بتنفير هؤلاء الرجال ذوى الثقافة الازهرية مما يدعو اليه ·

وثالثها : ذلك الهجوم الخطر الذى شنه **الافغانى** على الاشتراكية الغربية وعلى دعاتها فى رسالته « **الرد على الدهريين** » والتى أصدرها عام ١٨٨٠ أى فى أحرج فترات المد الثورى المصرى ، واذا كان الافغانى قد صحح بعد ذلك موقفه من الاشتراكية فى كتاب خاطرات جمال الدين الا أن هجومه الاول ظل يؤثر فى جيل آمن به وتتلمذ على يديه ·

واذا كانت هناك عوامل عديدة قد أثرت بلا شك فى قدرة فكر شميل على الاثمار الخصب فى ذلك الجو المشحون بالثورة فانه على أية حال لم يمض بلا اثر · ولا شك ان عرابى قد تأثر وهو يصوغ برنامجه بالافكار الاشتراكية التى ترددت كثيرا اما فى كتابات شميل أو فى كتابات غيره · ولابد أنه قد أمعن التفكير فى وقوف الاشتراكيين الاوربيين والاشتراكيين الانجليز على وجه التحديد الى صفه مؤيدين ثورته · المهم أن ذلك كله قد انعكس فى صورة لمحات متقدمة فى فكر عرابى ·

ومرة أخرى نلجا الى **بلنت** ليقدم لنا **صورة صادقه لفكر واهداف وبرنامج عرابى** ·

«فى ٢٧ فبراير قررت العودة الى انجلترا ، ومررت على وزارة الدفاع لاقابل عرابى مودعا ، وقد حدثنى عن الاصلاحات العملية التى تنوى حكومة سامى باشا البارودى احداثها وهى :

- الغاء نظام السخرة الذى يفرضه الباشاوات الاتراك على الريف المصرى ·
- القضاء على اقطاع الماء واحتكار الباشوات الاتراك لمياه الفيضان ·
- حماية الفلاحين من المرابين اليونانيين الذين ينشبون أظافرهم فى أجساد الفلاحين مستعينين بالمحاكم المختلطة ·
- اصلاح القضاء فهو ملىء بالفساد ·
- نشر التعليم بالنسبة للرجال والنساء على السواء ·
- انتخابات حرة لبرلمان جديد ·
- الغاء نظام العبيد وتكلم عرابى بالتفصيل عن هذا الموضوع مشيرا الى تحجج الاجانب بأن منح السلطة للمسلمين سوف يعنى مزيدا من الازدهار لتجارة العبيد · وقال عرابى أن الذين يملكون العبيد هم الخديوى والامراء والباشوات الاغنياء وحدهم وهؤلاء هم الاعداء الذين تتمنى حركة الفلاحين أن تتخلص من سطوتهم ، ويمضى عرابى مؤكدا أن مبادىء الحرية والاصلاح تقضى بأن الناس جميعا متساوون بغض النظر عن الجنس واللون والعقيدة وفى النهاية أكد عرابى أن الحكومة الوطنية لن تتخلى عن حذرها وسوف تستمر فى تدعيم الجيش حتى تتم اقامة نظام دستورى حقيقى ، وحتى تعترف أوربا بهذا النظام (١٥) ·

وثمة رسائل وجهها عرابى الى بلنت احداها فى ١ أبريل سنة ١٨٨٢ تقول :

---

(١٤) بلنت — المرجع السابق ص ٢٠١

(١٥) بلنت — المرجع السابق ص ٢١٠

« ان أى انجليزى حر لابد له وان يؤيد هؤلاء الذين يسعون لتحقيق الاستقلال لوطنهم ، ويسعون للاصلاح ولاقامة حكومة عادلة ٠

ان هدفنا الوحيد هو انقاذ وطننا من ذل العبودية والظلم والجهل وأن نرفع شعبنا الى المستوى الذى يمكنه من مقاومة أية محاولة لإعادته الى ظلمات الماضى »

ورسالة أخرى بتاريخ ٦ أبريل ١٨٨٢ :

« لقد عقدنا العزم على أن نبذل غاية الجهد لتتبوأ أمتنا مكانها بين الامم المتحضرة ، وذلك عن طريق نشر المعارف فى كل أنحاء البلاد والحفاظ على الوحدة والنظام وكفالة العدل لكل انسان ، ولاشىء على وجه الارض سوف يجبرنا على التراجع خطوة واحدة عن تحقيق هذا الهدف (١٦) ٠

وثمة رسالة من بلنت الى جلادستون يصف فيها مقابلته مع عرابى تقول :

٠٠ « ان الافكار التى عبر عنها عرابى لم تكن مجرد ترديد للجمل التقليدية التى تتداول فى أوربا لكنها أفكار نابعة من معرفةحقيقية بالتاريخ،ومن المواقف المتحررة للفكر العربى ذات الصبغة الاسلامية ولا شك فى أن الجيش يدين له بالولاء لكنه متواضع جدا ٠٠ وقد قال لى : اننى ممثل الجيش الا أن الظروف هى التى دفعت الجيش لان يثق بى ، لكن الجيش ليس سوى ممثل للشعب وحام له وسيظل كذلك حتى يستغنى الشعب عن هذه الحماية ، ولهذا فاننا الان نمثل روح الحركة الوطنية التى تحول بين الوطن وبين الحكام الاتراك من أن يمثلوا به ويعيدوه الى عهد التحكم ، لقد كسبنا للشعب حقه فى أن يقول كلمته داخل مجلس الاعيان ونحن نحتفظ بمواقعنا لكى نحفظ له هذا الحق ونصونه من أى عدوان أو انتقاص ، اننا لا نعمل من أجل أنفسنا وانما من أجل بلادنا ، ومن أجل هؤلاء الذين منحونا ثقتهم ٠٠ ان موقفنا اليوم هو نفس موقف العرب الذين سألهم الخليفة عمر هل يرون أنه يسير فى طريق العدل فأجابوه « اسمع يابن الخطاب انك تنهج طريق العدل ونحن نحب فيك ذلك لكن سيوفنا قادرة على أن تقوم أى اعوجاج فى سلوكك »(١٧)

هذا عن عرابى ٠٠ فماذا عن النديم روح الثورة المتأججة والمدافع باخلاص عن أمانى الفقراء ٠

الحقيقة أن القارىء يستطيع أن يلمس على الفور فى كتابات النديم روحا تقدمية وعطفا عميقا على الفقراء وسخطا على الاغنياء والاعيان ، وهو الى جانب ذلك جرىء غاية الجراة يعرض أفكاره فى وضوح بل فى سخط وهو وان كان لا يمكن اعتباره اشتراكيا بالمعنى العلمى للكلمة الا اننا لا يمكن أن نتجاهل الاتجاهات الاجتماعية الواضحة ذات الصبغة الطبقية الصارخة لدى عبدالله النديم٠

ولنقرأ معا هذه الكلمات التى حدد بها النديم هدف جريدة مصر فكتب فى عددها الاول :

«مسلكى أن أكشف حقائق الامور ملتزما جانب التصريح متجافيا عن التعريض والتلميح ، وأن أجلو مبادىء الحرية وآراء ذوى النقد وأن أبين ما يظهره البحث عن عواقب الحوادث ومقاصد أهل الحل والعقد ٠٠ وأن أوضح معايب اللصوص الذين نسميهم اصطلاحا (أولى الامر) ومثالب الخونة الذين ندعوهم وهما (أمناء الامة) ، ومفاسد الظلمة الذين ننعتهم جهلا (ولاة النظام) ٠

ومقصدى أن أرفع الغشاوة عن أعين السائجين وأحيي الغيرة فى قلوب العارفين ليعلم قومى أن لهم حقا مسلوبا ، فيلتمسوه ، ومالا منهوبا فيطلبوه ٠٠ (١٨) ٠

ويتحدث النديم عن مواجهته للاستبداد قائلا : « وأعلنت حب العسكر والتعويل عليهم وناديت بانضمام الجموع اليهم وأوغلت فى البلاد ونددت بالاستبداد ، وتوسعت فى الكلام ، وبينت مثالب الحكام الظلام ، لا أعرفهم الا بالجهلة الاسافل ولا أبالى بهم وهم ملء المحافل » (١٩) ٠

ويؤكد بلنت أن العرابيين كانوا يعتمدون على النديم فى تحضير الاذهان للاستقلال عن الخلافة

---

(١٦) بلنت — المرجع السابق ص ٢٤٤

(١٧) المرجع السابق ص ١٧٠

(١٨) انور الجندى — الصحافة السياسيةفى مصر منذ نشاتها الى الحرب العالمية الثانية طبعة سنة ١٩٦٢ وقد نسب المؤلف هذه الكلمات لاديب اسحق ناقلا اياها عن الافتتاحية الواردة بغير توقيع لكن النديم كان قد أكد فى أواخر أيامه أنه كاتب هذه الافتتاحية وغيرها مما نشر فى جريدة مصر ونسب لاديب اسحق ٠

(١٩) د ٠ على الحديدى ٠ المرجع السابق ص ١٣١.

التركية واعلان الجمهورية فى مصر (٢٠) ، ويروى فى مذكراته : وفى أثناء عودتى من شبرا آكد لى النديم أن أمنيته قبل أن يموت هى أن يهدم عرش السلطان فوق رأسه » (٢١) .

ولقد دافع النديم عن حرية الجماهير ساخطا فى عنف على جو الارهاب الذى فرضه الخديو على مصر معلنا « أن لفظ الحرية محجور عليه لا يتلفظ به الا فى سرداب ولا يكتب الا فى أوراق لا يعلم ظاهر الوجود صورتها ، ولا يكون اللفظ حرا الا اذا دعى له فى كل مكان ، وتلى على أعواء المنابر والسنة المحابر .. ، فصارت الحرية الحقيقية عبارة عن سر من أسرار الوجود يلقن فى الخلوة على بعد من الناس آخر الليل بصوت الهمس وبعد ايمان الشرف وحلف القسامة » (٢٢) .

والنديم ينظر الى فكرة الحرية نظرة طبقية تطالب بأن تشترك الجماهير فى صياغة القوانين اشتراكا فعليا وليس الاغنياء وحدهم » وان قيل ان الممالك تعرض القانون على مجالسها قبل تدبيره قلنا ان المجالس مقصورة على أرباب الثروة وأهل الكلام وليس كل الامة » (٢٣) .

والنديم هو لسان الثورة ومندوبها لدى الجماهير ، هو الذى حمل العريضة التى أعدها عرابى ليجمع عليها تواقيع عمد وأعيان الريف يعلنون فيها باسم الامة تفويض عرابى فى المطالبة بمطالبها ، وعندما وصل درويش باشا ممثل الباب العالى الى الاسكندرية ليحقق فى النزاع بين توفيق وعرابى أعد له توفيق رشوة مقدارها ٥٠,٠٠٠ جنيه نقدا وما قيمته ٢٥٠٠٠ جنيه من الجواهر ، أما عرابى فقد أوفد النديم الى الاسكندرية حيث أعد فى انتظار درويش باشا وعلى طول الطريق من الميناء الى القصر ألوفا لا حصر لها من الرجال والنساء والاطفال تهتف فى حماس « اللايحة اللايحة .. مرفوضة مرفوضة .. الله ينصرك ياعرابى » .

لقد كانت للنديم قدرة فائقة على التأثير فى الجموع وعلى تحريكها وتهييجها ، ونبعت هذه القدرة من حبه الشديد للفقراء ، وارتباطه بهم واحساسه بمطالبهم ، ومن كراهيته للاغنياء الذين شن عليهم هجوما شديدا متحدثا عن مملكة الثراء فيصفها بأنها « مملكة البهدلة وهى على شاطىء بحر الجنيهات تحد بالخمور من جهة الغرب والعاهرات من جهة الشرق وبالمضلين من جهة الجنوب والمخرفين من جهة الشمال » (٢٤) .

ويحاول النديم أن يجيب عن السؤال التالى : بأى سبب ماتت صنائع الشرق وافتقر أهلها وبأية وسيلة تحيا وتعود ثروة أهلها ؟

فيحاول أن يقدم نموذجا متطورا للجمعيات التعاونية التى تنظم الانتاج الحرفى فيقول :

« يلزمنا أن نسعى فى عقد جمعية لكل طائفة تحت رئاسة عقلائها فاذا طرأ عليهم عمل من الاعمال كان أمره مفوضا لمجلس الرؤساء يساوم من يشاء ويأخذ ما يشاء ثم يوزع فيه من المال بقدر ما يحتمل وعندمايطرأ غيره يوزع فيه من لم يكن فى الاول وهكذا ..

وهذا العمل يلزمه رأس مال يديرونه به فعلى رؤساء الطائفة أن يفرضوا فريضة على كل صانع بصفة سهام على قدر قوته واقتداره والمجموع يكون فى صندوق تدور به الاعمال وعندما توزع الارباح يحجز المجلس من كل صانع جزءا يضيفه لسهامه ..

والا فاننا لن نلبث ان نرى أهل الصناعة (وهم السواد الاعظم) خدما للمتمولين (وليتهم منا) يصرفونهم كيف شاءوا ويستعملونهم فيما يريدون ونفقد رجالنا بلا حرب ولا وباء وتعدم الهيئة الاجتماعية قوتها فيتعذر التحصيل من فقير لا يأخذ من سيده الا القوت أو غنى اذا طولب لجأ الى الغير (٢٥) .

وهو يتحسر شعرا على هؤلاء الغرباء الذين سادوا وتحكموا :

هل فى القصور رجال غير من عظموا
بما لدينا وكانوا من موالينا
أو فى الديار اناس غير من وفدوا
من القفار فصاروا من مبانينا

(٢٠) بلنت ص ٣٤٧
(٢١) بلنت ص ٣٤٥
(٢٢) سلافة النديم — الجزء الاول — الطبعة الاولى طبعة مطبعة الجامعة عام ١٨٩٧ — ص ١٢٠
(٢٣) المرجع السابق ص ١١٩
(٢٤) سلافة النديم فى منتخبات السيد عبد الله النديم جمع شقيقه عبد الفتاح النديم — الجزء الاول الطبعة الثانية سنة ١٩١٤ ص ١١٦
(٢٥) سلافة النديم — المرجع السابق ص ١٠٦ ، ١٠٧ .



ورقة رأى

من الطليعة الى الاصدقاء

بعد سبع سنوات من صدور الطليعة ، تجد أسرة التحرير أن من حق أصدقائها عليها ــ أن يدلوا برأيهم فيها :
ماذا راوا فيها من ايجابيات وما هى النواقص والسلبيات التى لفتت أنظارهم .
و « الطليعة » التى صدرت تحت شعار « **طريق المناضلين الى الفكر الثورى المعاصر** » تؤمن بأن اشتراك اكبر عدد من الاصدقاء فى تقييم ونقد المادة التى قدمتها خلال تلك الفترة ، من شأنه أن يثرى محتواها لانه يربطها برباط حى وخلاق بجمهور الاصدقاء .
لكل هذا تثق الطليعة بأن أصدقاءها سيبادرون الى المشاركة فى الاستفتاء المطروح منطلقين من باب الحرص على دعم هذا المنبر وتطويره ، بكل ما يتطلبه هذا من رأى صريح تتقبله أسرة التحرير بالتقدير والعرفان .

[١] صدرت الطليعة تحت شعار « طريق المناضلين الى الفكر الثورى المعاصر » .. هل ترى أن الطليعة حققت هذا الشعار والى أى مدى ؟
....
....

[٢] هل ترى أن تتوسع الطليعة فى الدراسات ذات الطابع الفكرى (الأيديولوجى) . أم تقترح التركيز بقدر أكبر على دراسة مشاكل الواقع المحلى والعربى ؟
....
....

[٣] هل ترى أن الطليعة تتابع ــ فى دراساتها وأبوابها ــ بقدر كاف القضايا الرئيسية التى تشغل اهتمام الرأى العام . واذا كان هناك نقص ففى أى مجال بالدقة ؟
....
....

[٤] ما هى الموضوعات التى تحتاج ــ فى رأيك ــ الى مزيد من التعمق والتركيز فى معالجتها فى عام ١٩٧٢ ؟
....
....

[٥] ما هى ــ فى رأيك ــ اكثر أبواب الطليعة اهمية وفائدة ؟
....
....

[٦] اى الموضوعات والابواب التى تبدأ بقراءتها فى الطليعة ؟
....
....

الاسم : ....

السن : ....

المهنة : ....

المؤهل : ....

العنوان : ....

[٧] ما هى الابواب التى تقترح حذفها والابواب التى ترى اضافتها .. ولماذا ؟
....
....
....

[٨] من هم كتاب الطليعة الذين تحوز كتاباتهم على اهتمامك ؟
....
....
....

[٩] ما هى الاعداد السابقة من الطليعة التى نالت منك اهتماما خاصا .. ولماذا ؟
....
....
....

[١٠] هل توافق على قيام الطليعة بنشر أعمال أدبية وفنية كالقصة القصيرة والشعر والنقد الخ ..
....
....

[١١] ما رأيك فيما يتعلق بشكل وحجم الطليعة ؟
....
....

[١٢] ملاحظات عامة واقتراحات اخرى .
....
....

تأمل أسرة « الطليعة » أن تتلقى رأيكم فى هذه الورقة وذلك على العنوان الآتى : مجلة الطليعة مبنى الاهرام ــ شارع الجلاء ــ القاهرة مع رجاء أن يكتب على هامش المظروف الايسر عبارة « ورقة رأى »

هــذى معالمنــا تبــكى وتنشــــدنا
قــول ابن زيدون اذ قــامت تعــزينا

بنتـــم وبنا فما ابتلت جوانحنــا
شــوقا اليكم ولاجفــت مآقينـا (٢٦) ٠

وهو يشدد هجومه على التجار المرابين مقدما صورة بشعة لما كان يحدث فى ريف مصر فى ذلك الحين ٠ فيكتب تحت عنوان « محتاج جاهل فى يد محتال طامع » احتاج احد الزراع لاستدانة مائة جنيه فقصد بعض التجاروطلب منه المبلغ فجرت بينهما هذه الحكاية بحضور بعض النبهاء ٠٠

الزارع : عاوز ميت جنيه بالفرط (بالربا) ياسيدى
التاجر : فرط الميه عشرين كل سنة ٠
الزارع : اعمل اللى تعمله ٠
التاجر : شيل عشرين من الميه يبقى كام ؟
الزارع : لهو انا كاتب شوف بفضل كام ؟
التاجر : يبقى سبعين ٠٠
الزارع : يدوب كده ٠
التاجر : دلوقت صارلى ميت جنيه ، ضم عليهم عشرين واكتب الكمبيالة ٠

الزارع : اكتب وخد الختم ٠
وفي وسط السنة قدم له الزارع عشرة قناطير قطن وعشرة ارادب سمسم وعشرين من القمح وثلاثين من الفول وأربعين من الشعير ٠ وجاء يحاسبه فكانت الحكاية هكذا :

الزارع : طلع لى ورقة الحساب يا سيدى ٠
التاجر : يبقى أربعين جنيه شيلهم من ميه وعشرين وشعير بعشرة جنيه يبقى كام ؟
الزارع : مـا قلت لك من ديك المره مـا بعرفش الحساب ٠

التاجر : يبقى أربعين جنيه شيلهم من ميه وعشرين يكون الباقى تسعين وفرطهم عليهم عشرين يبقى ميه وخمس عشر طالب انت كمان ثلاثين يبقى ميه وستين ضم عليهم اربعين فرط يبقى الكمبيالة بمائتين وعشرة ونصف ٠

الزارع : هو ايه ٠٠ من الاصل سبع عشرات وعشرتين وجالهم ثلاثين وثلاثين شلت منهم ثمن البتوعات اللى جبتهم يبقى لك دلوقت مائتين وعشرة بس ٠٠ امال النص جبتو منين ٠٠

التاجر . النص اجرة كتابتى ٠٠

الزارع : اى دلوقت صحت الحسبة والسنة دى ابيع لك خمسين فدان بعشرة جنيه الواحد يبقى لك ايه بعد كده ٠٠ يا جنيهين يا تلاتة خد لك بيهم جاموسة ويبقى على رأى المثل شيل ده عن ده يستريح ده ٠(٢٧)

ولقد تعمدت أن أورد الصورة الكاريكاتورية التى رسمها النديم كاملة فهى توضح حقيقة العلاقات الاجتماعية التى كانت سائدة فى ريف ذلك العصر ٠ وتوضح أيضا قسوة الهجوم الذى شنه النديم علىهؤلاء المرابين الذين كانوا يشكلون قطاعا جديدا بدأ ينمو فى الريف والذين كانوا فى مجموعهم من الاجانب ٠٠

ويصب النديم نيران هجومه الشجاع على الاغنياء جميعا متهما اياهم بأنهم أشد قسوة من البهائم مؤكدا أن تسمية البهيم بالمتوحش ظلم من الانسان قائلا: «أنت يا أيها الفرجبما ملكتيداه ما أحزنك لو تأملت المضطر يتضور جوعا والبائس ينتفض بردا والغريب لا مأوىلهيستكن فيه واليتيم لا قيم له ترشده والمريض المعدم لا مال له يطيب به نفسه ولا متاع يبيعه لينفقه فى حفظ حياته أف لك وللمال قل أو كثر فانت تحجر على الانسان قوته ومسكنه وملبسه بما تصنعه من اكتناز المال وما ظهرت الا لتخريب البلاد من حصر النقد عندك وعدم تمكن الافراد مما يبتاعون به ما يلزم لعمان الديار،فتعسا لك ما حييتوسحقا للكبعد موتك٠٠ ولا مرحبا بك اذا قدمت ولا سلامة تصحبك اذا ذهبت ويا أيها المتصف بهذه الصفات الذميمة ألا يدلك البرهان على فساد أخلاقك واحتياجك الى مؤدب يقف بك عند حدودك ويعلمك ما تطهر به دنس الطباع وتنظف به قاذورات الجهالة ويعرفك قذر اخوانك أبناء جنسك ، ألست ترى نفسك من المتوحشين المغتالين قطاع طريق التقدم معدمى الحياة الساعين فى خراب الاكوان » (٢٨) ٠

ويواصل النديم هجومه على الاغنياء فيتحدث اليهم قائلا : « تعال فانظر الى سلم رفعتك ومعدن حياتك ونبع ثروتك أخيك ــ استغفر الله ــ بل خادمك الفلاح انظر الى ثوبه المهلهل ولبدتهالتى لا تستر نافوخه ورغيفه الذى لا تكسره قوتك ، ومشه الذى تعاف النظر اليه ، وارقبه وهو يسقى الزرع والطين الى فخذيه والشمس تشوى وجهه وجسمه يقطع يومه فى عذاب وعمل ٠٠ وهو صاحب الفضل عليك وأنت لا تنظر اليه الا بعين المقت ولا تعامله الا بيد الاهانة ولسان السب ، مستقبحا صورة عنونت بفلاح » (٢٩) ٠

وهكذا يحدد النديم موقفا غاية فى الثورية والعنف من جماعات الاغنياء معلنا فى وضوح وقوفه ووقوف الثورة معه الى جانب الفقراء ٠

---

(٢٦) المرجع السابق ص ١٣٠ .
(٢٧) د . عبد اللطيف حمــزة ــ ادبالمقالة الصحفية فى مصر جـ ٢ الطبعة الثانية سنة ١٩٥٧ ص ١٢٧ نقـلا عن العدد الاول لمجلة التنكيت والتبكيت
(٢٨) سلافة النديم ــ الجزء الاول ص١١٥ الطبعة الاولى
(٢٩) د . على الحديدى ، عبد اللهالنديم ص ١٢٦ نقلا عن التنكيت والتبكيت

وثمة حادثة مهمة توضح موقف النديم من جماهير الفلاحين وهى مفيدة أيضا فى ايضاح موقف الجناح المعتدل من الثورة • ففى ١٣ فبراير ١٨٨٢ أقامت جمعية المقاصد الخيرية حفلا كبيرا ابتهاجا بتشكيل وزارة العرابيين برئاسة سامى البارودى وفى هذا الحفل وقف محمد عبده ليروج لافكاره المعتدلة مهاجما الاسلوب الثورى العنيف مطالبا بالاهتمام بنشر التعليم ويقصر حق الانتخاب على المتعلمين • لقد تعمد أن يحرض الاغنياء وأن يبث فى قلوبهم الرعب من حركة الفلاحين الصاعدة •• وقال : « ان المعهود فى سير الامم وسنن الاجتماع أن القيام على الحكومات الاستبدادية وتغيير سلطتها والزامها الشورى والمساواة بين الرعية انما يكون من الطبقة الوسطى والدنيا اذا نشأ فيهم التعليم الصحيح والتربية النافعة ، وصار لهم رأى عام ، وانه لم يعهد فى أمة من أمم الارض أن الخواص والاغنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة أنفسهم بسائر الناس وازالة امتيازاتهم واستئثارهم بالجاه والوظائف بمشاركة الطبقات الدنيا لهم فى ذلك فكيف حصل فى هذه المرة ومن أهل هذا المجتمع ؟

- فهل تغيرت سنة الله فى الخلق وانقلب سير العالم الانسانى ؟ أم بلغت فيكم الفضيلة حدا لم يبلغ اليه أحد من العالمين حتى رضيتم واخترتم عن روية وبصيرة أن تشاركوا سائر أمتكم فى جاهكم ومجدكم وتتساووا بالصعاليك حبا بالعدالة والإنسانية ؟ أم تسيرون الى حيث لا تدرون وتفعلون ما لا تعلمون » •

وكلمات محمد عبده هذه ذات مغزى هام فهى توضح كيف نجح العرابيون فى أن يسوقوا تحت ضغط الجماهير الشعبية وقوى الجيش التى التفت حولهم أجزاء واسعة من الطبقة العليا والوسطى فى المجتمع لتطالب معهم بمطالب الجماهير ، لتطالب بالعدالة والمساواة • ولقد كانت صيحة محمد عبده هذه نذيرا للخواص والاغنياء ورجال الحكومة « بأن هذه الثورة لا تمثلهم ولا تستهدف تحقيق مصالحهم ، وانما هى بالتحديد تستهدف تحقيق مصالح الطبقات الدنيا والصعاليك ولم يسكت النديم على هذا التحريض السافر والتحدى الصريح للثورة فوقف ليرد على محمد عبده وليؤكد أن الحرية يجب أن تكفل لكل فرد ، وأن الحياة الدستورية وحق الانتخاب والترشيح يجب أن تكفل للمواطنين جميعا على قدم المساواة •• وهاجم فكرة قصر الانتخابات على المتعلمين قائلا ان الفلاح هو صاحب المصلحة الحقيقية فى البلاد وهو يكون الاغلبية العظمى من سكانها ، وأن الفلاحين أدرى بمشكلاتهم من غيرهم •• (٣٠)•

وهكذا اضطر محمد عبده الى أن يرتب اجتماعا آخر ليعتذر فيه عما قاله •

والحقيقة أننا اذا اكتفينا بوصف أفكار النديم بأنها دعوة عامة للخير والعدالة فاننا نكون قد جافينا الحقيقة الى حد كبير • فالنديم يقدم فى بعض كتاباته فهما أصيلا للطبقات والصراع بينها والعلاقات الاجتماعية القائمة ، الامر الذى يوحى أن مناداته بمصالح الفقراء لم تكن مجرد موقف عاطفى •• ولنتأمل هذا الحوار •• لنتأمله فى ضوء المعركة التى كانت دائرة بينه وبين محمد عبده والتى أشرنا اليها فيما سبق •

يبدأ النديم حواره مع تلميذه بمقدمة قصيرة تقول : الشورى هى غرس الافكار فى أرض التبادل ، وسقيها بماء الحرية ، وخدمتها بيد الاعتدال لتثبت العدل وتزهر الحق وتثمر العمران •• ولا يقوم بها الا عاقل عالم بأحوال الدول الاخرى واتجاهاتها ، خبير بأحوال أمته وحاجاتها •• حر فى فكره لا يرى الا منفعة وطنه بحيث لا ترهبه الظواهر ولا تخيفه الهيئات ••

ثم يبدأ الحوار •

التلميذ : وهل يوجد فى وطننا من فيه أهلية لذلك أو جامع لهذه الخصال غير الاغنياء والوزراء ؟

النديم : لايخفاك أن ابن الغنى مولع بالاستبداد والغبى والنبيه ، والغنى والفقير ، والامير والحقير فان كان الانتخاب قاصرا على الاغنياء دون الاذكياء كان مجلس النواب وبالا على الشعب والوطن •

التلميذ : من أين يأتى الوبال وهم من أهل الوطن الحائزين للرتب العالية وهم أدرى بحال الوطن وصالح المواطنين ••

النديم : لا يخفاك أن ابن الغنى مولع بالاستبداد والاستعباد ، فهو يميل الى استخدام الفقراء بلا مقابل ، وضرب الضعفاء من غير أن يعارض أو يحاكم •• وهذا بعينه هو الاستبداد المضر بالشعب •

على أن أباه اذا كان من حكام البلاد فانه أدرك

(٣٠) د • على الحديدى ص ١٧٧ وما بعدها

الثروة بنهب الفلاح وظلمه فان اغلب الحكام متسلطون على المحكومين تسليط الهواء على النار يضربون ويحبسون وينهبون .. ومن كانت هذه افعال أبيه كان بعيدا عن الحق .. أجنبيا من الانصاف .. لا يميل للمساواة ولا يعترف للفقير بحق معه فى الوجود ..فوجود مثله فى مجلس النواب علة لزيادة هلاك الشعب فيشرعون من القوانين ما يضمن مصالحهم ليضعفوا بذلك حدة اذهان الفقراء ويحبسوا الثروة لانفسهم .

التلميذ : واذا كان من أولاد الاتراك الذين تولوا مناصب الرئاسات فى الدولة ..

النديم : اعلم أن الحكم على الشىء فرع من تصوره .. ولا نحكم على الرؤساء الاتراك الا بعد معرفة أسباب ثروتهم ، فان كانت بجهدهم واجتهادهم كانوا أحرص الناس على حفظ الهيئة الاجتماعية ، وان كانت بطريق الظلم والنهب والرشوة كانوا اشد ضررا لحبهم الظلم الذى صيرهم فى هذه الثروة بعد أن كانوا لا يملكون قوت يومهم .. ومن هذا القسم من لم ير الريف ولا يعرفه فكيف يكون نائبا عنه ..

وقد يكون فيهم كثير من أهل الخبرة والدراية .. ولكن حبهم لذاتهم يعطل كثيرا من المنفعة ويجلب كثيرا من الضرر .. فاذا وجدوا فى مجلس النواب ولم يكن معهم أحد من النبهاء الاذكياء من أهل البلاد كان نواب هذا المجلس عبارة عن لعبة يديرونها كيف شاءوا فاذا تشكل المجلس من هذين القسمين جعلتكم الدولة رواية تياترية يشخصونها فى المحافل ليضحكوا على أهلها ..

كل هذا اذا كان للمجلس مطلق الحرية فى أفكاره لا يعارض فى المصلحة ولا يلزم بشىء لم يقر عليه ، أما اذا كان مقيدا بما يصدر اليه من الوزراء فلا تسأل عن أعضائه وأهله فانهم صورة وهمية لا حقيقة لها ولا أثر ..

التلميذ : وهل يحتمل الشعب اطلاق حرية الافكار قبل أن يتدربوا على أعمال المجلس واستخدام هذه الحرية ؟

النديم : نعم يحملونها ويحفظونها ويسيرون بها فى طريق يعز على غيرهم الوصول اليها .. ولكن بعدم تسلط الطبقية على المجلس بل تشكيله من جميع الطبقات : نبهاء ومثقفين وأتراك وأغنياء وعلماء وعمال وأعيان (٣١) .

وهكذا فند النديم كل دعاوى محمد عبده معلنا رأيه واضحا وعلى أسس طبقية والغريب انه قد استخدم هذا اللفظ بالذات معبرا باستخدامه له عن تمكنه من ادراك حقائق الصراع الذى يخوضه .

ولقد كان هذا الصراع محتوما داخل معسكر الثورة ذاته فقد كان هناك الاقطاعيون الذين يطالبون بالدستور تخلصا من نفوذ الخديوى وتسلطه عليهم ، وهناك مثقفو الطبقة الوسطى الذين يأملون فى الدستور سلاحا يمكنهم من نيل بعض فتات السلطة ويخلصهم من مزاحمة الاجانب لهم فى تولى الوظائف العامة « كان عدد الموظفين الاجانب فى مارس ١٨٨٢ ــ ١٣٥٥ موظفا تبلغ مرتباتهم ٣٧٩٠٥٦ جنيها مصريا » (٣٢) .

وكانت الفئتان السابقتان تتصارعان معا لكنهما كانتا متفقتين على خشية الثورة وعلى احتقار الفلاحين ، أو كما أسماهم محمد عبده « الصعاليك » .

ويؤكد محمد عبده بنفسه لبلنت « كان سليمان أباظة (٦٠٠٠ فدان) والشريعى (٤٠٠٠ فدان) يؤيداننى ضد الثورة لكننا كنا جميعا نطالب بالدستور » (٣٣) .

واذا كانت هذه القوى قد انحرفت فى تيار الثورة العارم فانها قد ظلت باقية على تحفظها تجاه الجماهير واحتقارها للفلاحين .

وفى الناحية الاخرى كان هناك الضباط أبناء الفلاحين الفقراء .. والنديم ومن على شاكلته من المثقفين الشعبيين ...

والحقيقة أن كتابات النديم لا تنم عن مجرد حب للفقراء أو موقف عاطفى تجاه قضية العدل الاجتماعى لكنها تعبر بشكل أو بآخر عن اتجاه متقدم يؤمن بالشعب وبالفلاحين على وجه الخصوص .

(٣١) التنكيت والتبكيت ١٨٨١/٩/١٨

(٣٢) تيودور روذشتين Ruin of Egypt.
وقد ترجمه على شكرى الى العربية تحت عنوان « تاريخ مصر قبل الاحتلال وبعده »ص ١٣١ وما بعدها من الترجمة العربية طبعة ١٩٢٧

(٣٣) بلنت ص ٤٩٣

لكن المهمة أمام النديم كانت صعبة للغاية فهو يحدد أفكاره الثورية فى وضوح ، لكنه يريد أن يحافظ على الحلف القومى الذى يضم هؤلاء الاعداء الطبقيين ..

كان الموقف شائكا فهؤلاء الاغنياء الذين يهاجمهم النديم ويسميهم « حمير المال » و « اللصوص » و « الظالمين » و « أعداء الشعب » .. هؤلاء الاغنياء كانوا جزءا من الجبهة السياسية التى التفت حول الثورة والتى كانت يتحتم على قادة الثورة أن يكسبوها الى صفهم ..

فهل كان النديم يخفف من وقع كلماته عامدا ؟ هل كان يخفى اتجاهه نحو مزيد من التقدم ؟

من الصعب الاجابة عن هذا السؤال بدون دراسة أكثر عمقا لكتابات النديم التى ضاع منها الغالبية العظمى والتى لإزال الباقى منها مبعثرا ومهملا ..

غير أن الصورة لم تكتمل بعد ..

فلقد رأينا كيف اقتحمت سيول الفلاحين فكرة الثورة لتحويلها الى ثورة فلاحية وتكسبها مضمونا اجتماعيا .. ثم إنطلقنا فى الحديث فاذا بنا لا نتحدث الا عن المثقفين .. فماذا عن الفلاحين أنفسهم .. ؟

الحقيقة أن كتب التاريخ قد أهملت هذا الجانب فلم يرد فيها غير القليل من المعلومات عن حركة الفلاحين ..

ولست أعتقد أننى بحاجة الى أن أصف حماس الفلاحين للثورة فكلنا يعلم ذلك .. ويعلم أن كثيرين من الاهالى تبرعوا بنصف ما يمتلكون من الغلال والمواشى بل ان منهم من تبرع بكل ما يمتلك أما هؤلاء الذين لا يمتلكون شيئا فقد قدموا حياتهم .. بل أن كثيرين قد قدموا أولادهم تعويضا عن عدم قدرتهم على القتال » (٣٤) .

كل هذا معروف وطبيعى .. لكن ما هو موقف الفلاحين من الاغنياء ؟ ما موقفهم من قضايا الاستغلال والارض ؟ وخاصة بعد أن أحسوا بقوتهم وامتلكوا السلاح فى أيديهم وانزاح عنهم كابوس الطغيان الخديوى الذى انزوى بعيدا فى الإسكندرية ..

لقد بدأ الفلاحون على الفور فى تصفية حسابهم مع أعدائهم التقليديين .. مستخدمين ـ ولاول مرة فى تاريخ مصر ـ أسلوب العنف الثورى لتحقيق أهداف طبقية واضحة .

كان الريف يعانى من المرابين ، وكان معظمهم من الاجانب الذين استندوا الى حماية السلطات والتحكم الاجنبى فى نهبهم البشع للفلاحين .

وانطلق الفلاحون يستردون الكمبيالات عنوة .

ويفزع مستر كارترايت نائب القنصل الانجليزى فيرسل من الاسكندرية فى ٢٦ يونيو ١٨٨٢ ليخبر وزير خارجيته أن الفلاحين يهاجمون الاجانب وينتزعون منهم الكمبيالات التى تثبت ما عليهم من دين ويقول « ان خبرا رسميا ورد من الحكومة يقول ان هناك فى ناحية بنها قتيلا يونانيا وأن الباعث على قتله تمنعه من اعطاء الفلاحين سنداتهم التى له بمقتضاها دين عليهم واجب الاداء » (٣٥) .

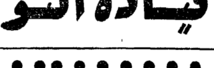
وثمة رواية أخرى أكثر دلالة ..

« طلب عرابى معونات من الشعب للجيش على أن يخصم من الضرائب المستحقة عليهم وكان المديرون يرفضون الاعانة المطلوبة على معدل قيمة الفدان وقد عهدوا بذلك الى المشايخ فكانوا يظلمون أصحاب الابعاديات من الاتراك والشراكسة ومن ينتمى اليهم وكان بعض المشايخ يقولون للمعتذر أو طالب المهلة هل أتيت من تركيا بلادك بأطيان ؟ انما هذه أطيان القطر ونحن أبناء القطر لا يحق لغيرنا أن ينتفع بها ..أتيتمونا فقراء لا تملكون أرضا ولا فلسا فصرتم الان أصحاب أراض وأملاك تحرموننا من خيرها ..

وكان بعضهم لا يكتفى بمثل هذا الكلام **بل كانوا يعمدون الى الارض ويقسمونها بالفعل قائلين هذه القطعة لك وهذه لى** .. بل ويقولون لصاحبها أخرج من البلاد كما جئتها فكان أصحاب الاراضى يزدادون خوفا وحسبانا لبلاء أعظم فانقطع كثيرون منهم عن التردد الى أراضيهم ولزموا منازلهم واستمرت هذه الحالة جارية من ابتداء شهر رمضان الى انتهائه **وهى مدة قضاها بعض أصحاب الاراضى فى معاناة ، وتحمل الذل والهوان .. (٣٦) .**

وهكذا فان الريف كان قد أعلن ـ منتهزا فرصة مساندة الجيش لامانية ـ ثورة فلاحية بالفعل .

(٣٤) عبد الرحمن الرافعى .. الثورة العرابية ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٤٩ ص ٤١١
(٣٥) سليم نقاش جـ ٥ ص ٤٩
(٣٦) سليم نقاش جـ ٥ ص ١٤٩.



قيادة الثورة وفكرة السلطة

د. عبدالعظيم رمضان

حين يذكر اسم « قادة الثورة العرابية » ينصرف الذهن فورا الى الحزب العسكرى الذى كان يرأسه عرابى، ويضم **على فهمى وعبدالعال حلمى وطلبة عصمت ويعقوب سامى ومحمود سامى البارودى** وغيرهم • وهذا الكلام ليس صحيحا الا اذا كنا نتكلم عن « القادة العرابيين » وليس عن « قادة الثورة العرابية » . أما اذا كنا نتكلم عن قادة الثورة العرابية » فان هؤلاء القادة كانوا يمثلون تحالفا من حزبين : الحزب الاول هو الحـزب العسكرى الذى سلفت الاشارة اليه • والحزب الثانى هو حزب البورجوازية المصرية الكبيرة الذى كان يضم أمثال **شريف باشا وسلطان باشا وحسن الشريعى باشا وسليمان أباظة باشا وعمر لطفى باشا واسماعيل راغب باشا** وغيرهم من زعماء الحركة الدستورية التى ازدهرت فى أواخر عهد اسماعيل •

وهذه الدراسة لا تعالج موضوع « القادة العرابيين وفكرة السلطة » ، وانما تعالج موضوع « قادة الثورة العرابية وفكرة السلطة » ، لان حصر المعالجة فى الموضوع الاول قد يجوز فقط اذا كانت الثورة ثورة عسكرية بحتة ، أو اذا كانت انقلابا عسكريا • أما وقد كانت الثورة ثورة بورجوازية وطنية وقومية ، تقودها البورجوازية الوطنية وأداتها العسكرية ، فان من الافضل أن تعالج فكرة السلطة فى هذا الاطار •

ولعل وصفنا للثورة بأنها ثورة بورجوازية وطنية يثير اعتراض الكثيرين الذين يتحدثون عن عرابى بوصفه « فلاحا » ويستندون الى ذلك فى وصف الثورة بأنها ثورة فلاحين. **وفى الواقع أن عرابى لم يكن فلاحا ، ولم يكن غيره من القادة العرابيين فلاحين** • وانما كان عرابى ابنا لاحد مشايخ البلد • وقد وصفه هو بأنه كان « شيخا جليلا رئيسا على عشيرته عالما ورعا » (١) وقد ورث عرابى عنه ثمانية فدادين ونصف ، استطاع أن ينميها ليصل بها الى ٧٠٧ افدنة ، هى التى صادرتها الحكومة وقت محاكمتـه (٢) . فهو على هذا النحو بورجوازى قح ينتمى للبورجوازية الصغيرة وتقوده تطلعاتها . أما لفظ « فلاح » الذى يستخدمه الكتاب المعاصرون مثل « بلنت » Blunt وكرومر Cromer فى وصف عرابى ، فان هذا اللفظ يعتبر مرادفا للفظ « مصرى » فى مواجهة طبقة الاتراك والشراكسة التى لم تكن تشتغل بفلاحة الارض •

لم تكن الثورة العرابية اذن ثورة فلاحية ، وانما هى ـ كما ذكرنا ـ ثورة بورجوازية وطنية بالدرجة الاولى • وهذا يقتضى منا التعرض لنشأة هذه

---

(١) مذكرات عرابى جـ ١ ص ١١ ، كتاب الهلال فبراير ١٩٥٣ •
(٢) نفس المصدر جـ ٢ ص ١٥٦ ـ ١٥٧ وهذا الرقم مستقى من قائمة كتبها عرابى بنفسه وقدمها لمحاميه المستر برودلى •


عبد العال حلمى


محمود سامى البارودى

الطبقة التى قادت الثورة ، والتحديات التى واجهتها ، ودورها التاريخى فى تلك الفترة ، حتى يمكننا تتبع فكرة السلطة عند زعمائها ، سواء أكان هؤلاء الزعماء ينتمون للحزب العسكرى أم للحزب الوطنى ·

وترجع نشأة هذه الطبقة الى أواخر عهد محمد على ، والى عام ١٨٣٧ بالذات حين قرر ايجاد طبقة أرستقراطية جديدة الى جانبه « تحصر فى نفسها نسب الغنى العقارى » ، فأمر بأن تورث « الابعاديات » التى كان قد أنعم بها على كبار رجال ادارته ورجال الجيش والاعيان والاعراب ، لاولادهم وأولاد أولادهم · وبعد خمسة أعوام أى فى فبراير ١٨٤٢ أعطى أصحاب « الأبعاديات والجفالك » ملكيتها المطلقة وكافة التصرفات الشرعية من بيع ووقف وهبة وما الى ذلك بدون قيد ولا شرط » (٣) ·

وكان هذا الامر العالى هو الميلاد الحقيقى للبورجوازية المصرية الجديدة ، التى ورثت البورجوازية القديمة التى كانت مؤلفة حينذاك من كبار التجار وكبار مشايخ الازهر والسادة الاشراف ، والتى قدر لها أن تواجه زحف البورجوازية الاوروبية التى كانت فى ذلك الحين تنتقل من مرحلة « تصدير البضائع » حيث السيادة التامة للمزاحمة الحرة ، الى مرحلة « تصدير رأس المال » حيث السيادة للاحتكارات ، والتى كانت قد أخذت تدفع برءوس أموالها ، ومن ورائها نفوذها السياسى الى مصر فى الستينات والسبعينات من القرن ١٩ ·

بنك وطني وحكم دستوري

وفى البداية لم يكن فى وسع هذه الطبقة الجديدة أن تقوم بدور ايجابى ذى فاعلية فى مواجهة الزحف الامبريالى · فعلى الرغم من ثرائها ، الا أن **نظام الحكم الاوتوقراطى الذى كانت تمارسه أسرة محمد على ، كان يحرمها من المشاركة فى حماية نفسها والدفاع عن مصالحها.** ولكن الظروف لم تلبث أن أخذت تتهيأ لها لتقوم بدورها التاريخى ، حين أخذت التناقضات بين مصالح الخديوية ومصالح الاحتكارات الرأسمالية تظهر وتهدد بصورة مباشرة مسند الخديوية نفسها · فحين أخذت سلطة الخديوية تضعف ، أخذ ساعد البورجوازية المصرية يشتد · وفى الوقت نفسه حين وقع الخطر على الخديوية واضطرت الى الدخول فى صراع مباشر مع الوصاية الدولية ، لم تجد مفرا من الالتجاء الى البورجوازية المصرية تستعين بها على مواصلة النضال · وكان الثمن هو مشاركتها فى الحكم ·

وقد تبدى أثر ذلك فى مجلس شورى النواب الذى تأسس فى نوفمبر ١٨٦٦ لذر الرماد فى عين أوروبا · فقد أخذ ساعد هذا المجلس يشتد تدريجيا حتى صار الاعضاء فى دورة نوفمبر ١٨٧٦ ودورة فبراير ١٨٧٧ يرون من اختصاص المجلس البحث فى مسألة « تسوية الديون » (٤) · وحين سقط الحكم المطلق فى أغسطس ١٨٧٨ بانشاء أول « وزارة مسئولة » فى تاريخ مصر ، كان ذلك اشارة للبورجوازية المصرية للتحرك لتحمل مسئولياتها فى حكم بلدها ·

وقد اتخذت حركة البورجوازية شكلين هامين : الاول ، اقتصادى ، والثانى سياسى · وفيما يتصل بالشكل الاقتصادى ، فقد اتخذ صورة السعى لانشاء « بنك وطنى مصرى » تكون مهمته « استرداد المصالح العزيزة » التى أصبحت فى يد الاجانب · ففى أبريل ١٨٧٩ عقد اجتماع عام من التجار والاعيان فى منزل **راغب باشا** ،

(٣) يعقوب أرتين : الاحكام المرعية فى شأن الاراضى المصرية ، تعريب سعيد عمون ص ٥٤ دكتور محمد كامل مرسى . الملكية العقارية فى مصر وتطورها التاريخى من عهد الفراعنة الى الان ص ٨٤

(٤) دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ١٦٤ ، دار المعارف ١٩٥٧ .

رئيس مجلس الشورى الاسبق ، حيث « نزعت بهم غيرتهم الى تقرير أمر يحاولون به تخليص الوطن من أسر الدين فى ظرف ثمانية وعشرين عاما ، وهو أنهم يفتتحون « بنكا وطنيا » يكون رأس ماله أربعة عشر مليونا من الجنيهات تجمع من سائر أفراد الامة » • وفى نفس الوقت كان فريق آخر على رأسه محمدسلطان باشا وعمر لطفى باشا وغيرهما من كبار الملاك يعقدون عدة اجتماعات لدراسة هذه الفكرة من جميع زواياها • وأصدروا منشورا تاريخيا بعنوان « انماء المال » يشرحون فيه فكرتهم ويدافعون عنها (٥) .

ولقد دهمت أحداث الثورة العرابيةهذه الفكرة فأوقفتها مؤقتا ، ولكن وزارة **محمود سامى البارودى** لم تلبث أن تبنتها ، **ففى حديث عرابى مع « بلنت » فى أوائل مارس ١٨٨٢ اطنب فى تفصيل مشروعات الاصلاح التى تنويها الوزارة وذكر من بين هذه الاصلاحات « انشاء بنك زراعى تحت اشراف الحكومة »** (٦) .

هذا فيما يتصل بالشكل الاقتصادى لحركة البورجوازية المصرية • اما بالنسبة للشكل السياسى فقد اتخذ صورة النضال من أجل الحكم الدستورى ليكون أداة للحد من السيطرة الاجنبية من جهة ، والحكم المطلق من جهة أخرى •

وكان الحكم المطلق قد سقط ـ كما ذكرنا ـ بتاليف « الوزارة المسئولة » فى أغسطس ١٨٧٨ • ولكن سقوط هذا الحكم لم يكن لحساب القوى الوطنية ، وانما لحساب القوى الاستعمارية • فلم تكن « الوزارة المسئولة » مسئولة أمام مجلس شورى النواب ، وانما كانت مسئولة أمام نفسها ، وبمعنى آخر كانت هذه الوزارة تمثل دكتاتورية مؤلفة من نوبار ، وريفرز ولسون Rivers Wilson ، ودى بلنيير de Blignières ، تمارس الحكم نيابة عن حملة السندات والماليين واصحاب المصارف الاوروبيين •

وقد انحصر نضال البورجوازية المصرية فى ذلك الحين فى المطالبة بوضع مبدأ المسئولية الوزارية ، الذى تطبقه « الوزارة المسئولة » خطأ ، فى موضعه الصحيح ، وذلك بأن تكون الوزارة مسئولة أمام مجلس شورى النواب وليس أمام نفسها • وقد عبر الخديو اسماعيل فى حديثه مع القنصل الانجليزى « فيفيان » Vivian عن ذلك ، فأوضح أنه اذا كان ما يفهمه من المبادىء الاولى للحكم الدستورى صحيحا ، فلابد أن يوضع مبدأ المسئولية الوزارية فى موضعه الصحيح ، وذلك بأن يكون لمجلس شورى النواب القول الفصل فى المسألة التى اعتبرت دعامة الحياة النيابية منذ ظهورها : لا ضرائب من غير تمثيل • ثم قال انه لن يوافق على فرض ضرائب جديدة بدون تحدى ارادة الشعب (٧)

وبناء على ذلك ، فقد دعا الخديو اسماعيل مجلس شورى النواب للانعقاد فى ٢ يناير ١٨٧٩ • وصرح فى اجتماع سرى عقده قادة الرأى فى المجلس ، بأنه لن يضيره أن يتصدى الجميع لمعارضة الادارة الاجنبية التى أرغم هو على قبولها (٨) •

وقد وقف هذا المجلس الذى كان يستند لتأييد الخديو ومشاركته العاطفية ، موقف التحدى للوزارتين الاوروبيتين الاولى والثانية • فقد بدأ نشاطه بالاهتمام بالمسألة المالية رغبة فى احراج الوزارة الاوروبية الاولى والحيلولة دون تماديها فى تدعيم حقوق الدائنين على حساب البلاد ، واخذ على النظار عدم حضورهم جلسات المجلس وتقديم المهم من المشروعات اليه (٩) • وعندما سرحت هذه الوزارة فى فبراير ١٨٧٩ حوالى ٢٥٠٠ ضابط من الجيش دون أن تدفع لهم مرتباتهم المتأخرة ، وقرر هؤلاء القيام بأول مظاهرة عسكرية فى يوم ١٨ فبراير ١٨٧٩ ، اشترك مجلس شورى النواب فى هذه المظاهرة بثلاثة من النواب اظهارا لسخطه على الوزارة ! وقد أسفرت هذه المظاهرة عن سقوط الوزارة الاوروبية الاولى (١٠) • وعندما عزمت الوزارة الاوروبية الثانية التى تألفت برياسة محمد توفيق ولى العهد على التخلص من مجلس شورى النواب عقابا له على موقفه ، واستصدرت الدكرتيو الخاص بفض

---

(٥) دكتور عبد العظيم رمضان : تطور الحركة الوطنية من ابرام معاهدة ١٩٣٦ الى نهاية الحرب العالمية الثانية « الفصل الاول » بحث للدكتوراه غير مطبوع »

(٦) Blunt, W.S.; Secret History of the English Occupation of Egypt p. 210 (London, T. Fisher Unwin 1907)

(٧) Cromer, The East of; Modern Egypt P. 52 — 58 (London 1911)

[٨] دكتور محمد فؤاد شكرى : المرجع المذكور ص ١٦٧ .

[٩] دكتور عبد العزيز رفاعى : فجـر الحياة النيابية فى مصر الحديثة ١٨٦٦ ـ ١٨٨٢ ص ١٠٣ ـ ١٠٨ « المؤسسة المصرية للتاليف والنشر ١٩٦٤ »

(١٠) دكتور محمد فؤاد شكرى : المرجع المذكور ص ١٦٧ .

دورته التى تنتهى بها مدة الهيئة النيابية الثالثة، تحدى المجلس رغبة الوزارة . فعندما توجه اليه رياض باشا وزير الداخلية بقرار الحل، عارض النواب ذلك « الا اذا نظر المجلس فى المسائل التى تحرر عنها، وفى الميزانية»، والا اذا اعطى للمجلس حقوقه وأجيبت طلباته » (١١) . وفى هذه الجلسة التاريخية وجه عبدالسلام المويلحى(الذى كان على صلة ودية بالخديو حيث انعشه الخديو من كبوته كأحد تجار القاهرة) (١٢) نقدا شديدا لرياض باشا لانه وصف اهالى مصر « للجرنالجية » بأنهم « همج » لا يوجد فيهم عشرة يفهمون مايقال فى الجرانيل، مع انه لا يصح نسبة جميع اهالى الوطن لهذه الحالة التى لاتليق » (١٣) !

الوكلاء عن « عموم الامة »

هم البورجوازيون وحـــدهم

ولقد دفع هذا الموقف من جانب شورى النواب بالموج الثورى للبورجوازية المصرية الى ذراه . ففى ظل الشعور القومى الذى أصبح يسود البلاد، أخذت البرجوازية المصرية تنظم صفوفها للتخلص من الوزارة الاوروبية الثانية ونقل السلطة من يد الحكم الاجنبى الى يدها . فأخذ اعضاء مجلس النواب والاعيان وضباط الجيش والموظفون والتجار يعقدون عدة جلسات فى دار السيد البكرى نقيب الاشراف وفى دار اسماعيل راغب باشا رئيس مجلس شورى القوانين، ثم وضعوا مشروع « لائحة وطنية » رفعوها الى الخديو اسماعيل يوم ٢٠ ابريل ١٨٧٩، طالبوا فيها بمنح مجلس شورى النواب الحرية التامة وجميع الحقوق وتقرير كافة الامور المالية والداخلية كما هو جار فى بلاد اوروباوتأليف وزارة مصرية مسئولة أمام مجلس النواب عن جميع تصرفاتها، وتكليف الوزارة « بتنقيح لائحة النواب الاساسية والنظامية وعرضها على المجلس عند التئامه لاقرارها » (١٤) . وقد بلغ عدد الذين وقعوا هذه اللائحة، او هذا « المحضر الاصلى » ٧٠ من العلماء، ٦٠ من الباشوات، ٦٠ من البكوات، ٤٠ من الاعيان، عدا عدد عظيم من رجال الجيش (١٥) .

وبهذا المستند الذى قبله الخديو، دعا ممثلى الدول الاجنبية فى ٧ أبريل ليعلن اليهم عزمه على تأليف وزارة وطنية . وأصدر أمره الى شريف باشا المعروف بميوله الدستورية بتأليف وزارة جديدة « تكون مسئولة لدى مجلس الامة الذى سيجرى انتخاب اعضائه وتعيين مأموريته بوجه كاف للقيام بتأدية ما يلزم للحالة الداخلية ومرغوب الامة نفسها » (١٦) .

وعلى هذا النحو، وبفضل الصراع الديالكتيكى المتشعب، بين الخديوية والوصاية الدولية أولا، وبين البورجوازية المصريةوالخديويةثانيا، وبينها وبين الرأسمالية الاحتكارية ثالثا ـ برزت مرحلة جديدة تقدمية للبورجوازية المصرية احتلت فيها بين القوى المتصارعة على السلطة، موقعا افضل من موقعها السابق قبل سقوط الحكم المطلق . فقد أبعد الوزيران الاوروبيان من الوزارة المصرية، وتقرر مبدأ المسئولية الوزارية، وجعل حل مسألة الديون من عمل الوزارة ومجلس النواب وحدهما (١٧) . ومعنى ذلك اقصاء النفوذ الاجنبى وتراجع نفوذالخديو بعدأن أصبح نيابيا متحمسا !

وقد اقرت الوزارة الوطنية فى ١٠ ابريل ١٨٧٩ استمرار مجلس شورى النواب على انعقاد جلساته، لان مقتضيات الاحوال تستلزم بقاءه للمذاكرة والمفاوضة معه فى أمور هامة، والغت الدكريتو السابق صدوره بفض دور انعقاد ! ثم قدمت للمجلس فى ١٧ مايو ١٨٧٩ ما اعتبر اول مشروع لدستور نيابى برلمانى كامل (١٨) . فقد خول هذا الدستور، أو « اللائحة الاساسية » لمجلس النواب سلطة البرلمانات الحديثة فى اقرار القوانين (مادة ٢٧، ٢٨) وجعل الوزارة مسئولة أمامه (مادة ٣٦) وجعل للنواب الاشراف على المصروفات وفرض الضرائب وتحصيلها وتقرير الميزانية العامة (مادة ٤٥ و ٤٦)،وأوجب على مجلس النظار المبادرة الى وضع قانون لمحاكمة النظار عند الاقتضاء (مادة ٣٦)، واعتبر كل

---

(١١) محمد خليل صبحى : تاريخ الحياةالنيابية فى مصر جـ ٤ ص ٢٦ ـ ٣٢ وكانتاريخ الجلسة ٢٧ مارس ١٨٧٩

(١٢) دكتور عبد العزيز رفاعى : المرجع المذكور ص ١٠٢

(١٣) محمد خليل صبحى : المرجع المذكور

(١٤) نفس المصدر ص ٣٢ ـ ٣٣ ،مذكرات الامام محمد عبده ص ٦١ « كتاب الهلال أبريل ١٩٦١ »

(١٥) تيودور روشتين : تاريخ المسالة المصرية ١٨٧٥ ـ ١٩١٠ ترجمة عبدالحميدالعبادى ومحمد بدران ص ٨٥ ـ ٨٦ «القاهرة ١٩٢٣ » .

(١٦) نفس المصدر

(١٧) دكتور محمد فؤاد شكرى : المرجع المذكور ص ١٦٩ .

(١٨) دكتور طعيمة الجرف: الموجز فى القانون الدستورى ص ١٩٨ « مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦٠ »

نائب وكيلا عن عموم الامة المصرية ، لا عن الجهة التى انتخبته فقط ، وله الحرية التامة فى ابداء آرائه وقراراته ، ومتمتعا بالحصانة البرلمانية (مادة ٨ و ٩ و ١٠) ، ثم عبر الدستور عن طابعه البورجوازى حين قصر عضوية مجلس النواب على الموسرين فقط وحرم منها « الفقراء المحتاجين والاشخاص الذين أعينوا على حالهم قبل الانتخاب بسنة (مادة ٣) وحصر عملية الانتخاب فى مشايخ البلد فقط بحجة أنهم « معينون برغبة الاهالى » (١٩) .

تفاؤل مبكر تعقبه نكسة

وعلى هذا النحو بدا كأن القوى البورجوازية قد انتصرت فى صراعها مع القوى الاستعمارية ، وأن مصر قد تخلصت من التدخل الاجنبى فى شئونها ولكن التدخل الفرنسى الانجليزى لم يلبث ان جاء ليقلب الموقف رأسا على عقب ، وذلك حين رأت فرنسا ان السبيل الوحيد لابطال مسعى مصر فى التحرر من النفوذ الاجنبى انما يكون بالتعجيل بعزل الخديو اسماعيل نفسه . ومع أن انجلترا لم تكن من هذا الرأى ، الا انها لم تلبث ان اتفقت مع فرنسا والمانيا على أن تطلب الدول الثلاث من الباب العالى كآخر خطوات التدخل ، ان يبادر بعزل الخديو اسماعيل . فتم ذلك فى ٢٦-٢٧ يونيه ١٨٧٩ (٢٠) .

وبعزل اسماعيل يدخل نضال البورجوازية المصرية مرحلة جديدة . ذلك ان هذا العزل كان يمثل فى الحقيقة نكسة كبيرة للحركة الوطنية ، وانتفاضة حقيقية للنفوذ الاجنبى . فحين تسلم توفيق مقاليد السلطة طلب شريف باشا وكلفه بتاليف الوزارة على قاعدة الاصلاح الدستورى ، فالفها فى ٢ يوليه ١٨٧٩ . ولكن توفيق لم يلبث ان وجد نفسه بين قوتين متعارضتين : الاولى ، قوة زعماء الاصلاح الدستورى الذى كان على صلة وثيقة بهم فى عهد والده ، وقوة القناصل التى منعته من ان ينزل عن شيء من **السلطة التى كانوا يريدون أن يستعملوها باسمه** . فاذعن لقوة القناصل ، وأمر « بتوقيف » اللائحة الاساسية ولائحة الانتخاب اللتين أقرهما مجلس شورى النواب فى اواخر عهد اسماعيل ، واللتين عرضهما عليه شريف باشا فى ٣٠ يولية . ثم لم يلبث حين وصل الفرمان السلطانى بتعيينه ، أن أعلن ان الاصلاح بالصورة الواردة فى اللائحتين المذكورتين سابق لاوانه ، فقدم شريف استقالته يوم ١٧ اغسطس ١٨٧٩ . ثم اصدر توفيق فى اليوم التالى أمرا بالغاء مجلس النظار وابطاله ، والف وزارة بدون رئيس تولى هو رئاستها ، ومعنى ذلك الحكم المطلق (٢١) . على أنه لما كانت عودة الحكم المطلق على هذا النحو تجافى **الصيغة الدستورية** التى تم التوصل اليها فى أغسطس ١٨٧٨ فى عهد اسماعيل ، وهى صيغة « الوزارة المسئولة » ، فقد عاد توفيق ، تحت اعتراض القناصل ، الى هذه الصيغة مرة اخرى ، وعهد الى رياض باشا بتأليف الوزارة محتفظا لنفسه بحق حضور جلساتها ، وتولى رئاستها عند الاقتضاء .

وعلى هذا النحو عادت الامور الى ما كانت عليه تقريبا قبل المظاهرة العسكرية التى اسقطت وزارة نوبار ، مع فارقين هامين : الفارق الاول ، هو أن النفوذ الاجنبى فى عهد توفيق أصبح على اشده ، لان هذا النفوذ كان قد تمكن توا من خلع حاكم عن عرشه هو الخديو اسماعيل ، وكان متعطشا لتوطيد أقدامه . أما الفارق الثانى ، فهو أن القوى الوطنية التى كانت تحظى بمساندة الخديوية فى أواخر عهد اسماعيل ، أصبحت تتعرض لضغط وقمع عنيفين فى عهد توفيق .

وبالنسبة للنفوذ الاجنبى ، فان شريف باشا كان قد اقترح ، فى بداية عهد توفيق ، على القنصلين الانجليزى والفرنسى ، ما كان قد سبق أن اقترحه الخديو اسماعيل بعد سقوط الوزارة الاوروبية الثانية ، من عودة منصبى المراقبين الماليين اللذين كانا قد الغيا بعد تأليف الوزارة الاوروبية الاولى . وقد رفض عرض اسماعيل فى ذلك الحين . ولكن اقتراح شريف باشا قبل ، « لان الظروف فى مصر كانت فى ذلك الحين لا تلائم ايجاد نظام حكم أوروبى مباشر - كما يقول كرومر » (٢٢) . على أن هذا القبول اقترن بشرط هو الا يمكن لمصر عزل المراقبين الا بموافقة حكومتيهما وبهذا الشرط انقلبت المراقبة المالية الى « مراقبة سياسية بكل ما تحمله هذه العبارة من معنى » - كما يقول جلادستون (٢٣) .

(١٩) سليم خليل النقاش : مصر للمصريين ج ٤ ص ١٥١ ، محمد خليل صبحى : المرجع المذكور ص ٣٤ - ٣٨ ، دكتور محمد فؤاد شكرى : المرجع المذكور ص ١٧٠ - ١٧١

(٢٠) دكتور محمد فؤاد شكرى : المرجع المذكور ص ١٧١ - ١٧٦

(٢١) محمد خليل صبحى : المرجع المذكور ص ٣٧ - ٣٨ ، Blunt, op. cit. p. 127

(٢٢) روشتين : المرجع المذكور ص ٨٨ ، Cromer, op. cit. p. 126.

(٢٣) Ibid P. 146

على أنه لما كانت سلطة المراقبين تتوقف على نظام الحكم القائم ، فاذا كان دستوريا أصبحا خاضعين فى عملهما لنـواب الامة ، وأصبحت سلطتهما بالتالى محدودة، وأصبح منصباهما ثانويين واذا كان الحكم اوتوقراطيا أصبحا سيدى مصر المتصرفين فيأمورها ،فقد كان لهذا السببأن شددت حكومتا بريطانيا وفرنسا على توفيق لرفض الدستور (٢٤)

فى الوقت نفسه لـما كان رياض باشا قد اثبت أثناء توليه منصبه فى وزارة نوبار انه آلة صماء فى أيدى الاوروبيين ، وكانت اراؤه فى الاصلاح الدسـتورى ممـا يتفـق مـع مصـلحة النفـوذ الاجنبى ، اذ كان يعتقد ـــ كما يقول الشيخ محمد عبده ـــ أن فى مجلس الشورى تعويضا عن عمل الاصلاح المطلوب (٢٥) فلذلك رشحه القناصل لدى توفيق ليتولى رئاسةالوزارة المسئولة(٢٦) وعلى هذا النحو خضعت مصر تماما للنفوذ الاجنبى وأنتقلت السلطة من يد الخديو الى يد القناصل والمراقبين الماليين حتى ليذكر **كرومر** أن رياض كان يوقع على بعض الاوراق التى يعرضها عليهدون أن يعنى بقراءتها (٢٧)٠

الجيش يساند الحركة الدستورية

ولقد كان رد الفعل من جانب البورجوازية المصرية ازاء هذه الانتكاسة الكبيرة أن عمدت الى تكتيل جهودها لمقاومة حكومة رياض ومقـاومة السيطرة الاجنبية معها ٠ فتألف فى نوفمبر ١٨٧٩ **الحزب الوطنى** برئاسة **شريف باشا** وعضـوية **شاهين باشا كنج وعمر لطفى باشا وأسماعيل راغب باشا وسلطان باشا وحسن شريفباشا** ، وعدد من العظماء والكبراء والعلماء والنبهاء ، وجعل مركزه فى مدينة حلوان (٢٨)

وهذا الحزب ليس هو الحزب الاول فى مصر كما يعتقد بعض الكتاب (٢٩) فقد سبقه الحزب الوطنى الحر ، الذى ألفه **جمال الدين الافغانى** فى أواخر عهد اسماعيل ، وكان من أغراضه السعى فى عزل الخديو ٠ وقد خدم هذا الحزب أغراض فرنسا فى ضرب الحركة الدستورية بطريق غير مباشر حين توجه الافغانى فى وفد من المصريين الى القنصـل الفـرنسى **تريكو** ليخبـره بأن فى الى القنصل الفرنسى تريكو (Tricou) ليخبره بأن فى مصر حزبا وطنيا يطلب تنازل الخديو ٠ وأن الاصلاح لا يتم الا على يد ولى العهد توفيق باشا ، كما سعى لدى شريف باشا لاقناع الخديو بقبول التنازل عن العرش على أساس أن الناس فى انصراف عنه ، وأنه اذا أراد المقاومة فان الجيش سيخذله فى أول موقعة (٣٠) ٠

وعلى كل حال ، فقد سارع الحزب الوطنى الجديد الى اصدار منشور ضد رياض باشا فى يوم ٤ نوفمبر ١٨٧٩ طبع منه عشرين ألف نسخة ، وندد فيه بالحكومة القائمة علـى أسـاس أنها « بشكلها الحالى ليست لها نشأة حقيقية فى البلاد ، فانها تقوم على أساس صناعى ، اذ أن الدول وحدها هى التى عاونت على تأليفها ، ولم يكن للامة رأى فى ذلك » ثم بين أن برنامجه ينوى النهوض بالشعب عن طريق تقدم التعليم الذى يناسب عاداته ومهـن السـكان ، ويرى أنه مـن الضرورى أن يعـرف الشـعب حقـوقه وواجباته » (٣١) ولما اشتد رياض فى كبت حرية الرأى ، أرسل الحزب **أديب اسحق** الى باريس لانشاء جريدة أسماها « **القاهرة** » لم يكن لها مهمة سوى رمى رياض بالاستبداد والظلم والرغبة فى بيـع البـلاد الى الاجـانب حتـى كانت تسميه « رياضستون » (٣٢) ٠

وقد عمد رياض تحت توجيه المراقبين الماليين وأعضاء صندوق الدين ، الى معاقبة كبار الملاك ٠ فقرر فى ٦ يناير ١٨٨٠ الغاء قانون المقابلة ، الذى كان تمويله قد قام على أكتاف هذه الطبقة بصفة خاصة ، فأبطل بذلك ما كان يقضى به هذا القانون من اعفائهم من نصف المربوط على أطيانهم من الضرائب ٠ وعندما نشر **حسن موسى العقاد** عن الملاك مظلمة موجهة الى لجنة التصفية فـى جريدة « لاريفورم » يصف فيها هذا العمل بأنه

(٢٤) روشتين : المرجع المذكور ص ٩٩ ـــ ١٠٠
(٢٥) مذكرات الامام محمد عبده ص ١٠٧
(٢٦) Blunt, op. cit. p. 127
(٢٧) Cromer, op. cit. p. 134.
(٢٨) مذكرات الامام محمد عبده ص ١٠٥ ، احمد عرابى : كشف الستار عن سر الاسرار جـ ١ ص ١٤٨ ـــ ٩
(٢٩) محمد عودة : قصة الحزب الاول » الكاتب عدد ٣٩ يونية ١٩٦٤ »
(٣٠) مذكرات الامام محمد عبده ص ٦٢ ـــ ٦٣ ، السيد محمد رشيد رضا : تاريخ الاسـتاذ الامام الشيخ محمد عبده جـ ١ ص ٧٤ ـــ ٧٥
(٣١) يوسف خليل ، الدكتور : تطور الحركةالقومية فى مصر من ١٨٨٢ ـــ ١٩١٩ ، بحث للدكتوراه غير مطبوع (١٩٥٧) ص ٣٩
(٣٢) مذكرات الامام محمد عبده ص ميل

استبداد أحاله رياض الى المحاكمة ثم نفاه الى « فازوغلى » فى السودان (٣٣) • وفى ١٨ يناير قرر رياض زيادة الضرائب على الاراضى العشورية بمقدار ١٥٠,٠٠٠ جنيه سنويا (٣٤) فكشف بذلك فى جلاء عن هدفه فى معاقبة كبار الملاك ، لان هذه الاراضى فى الاصل هى الابعاديات التى أنعم بها الولاة السابقون على كبار رجال الادارة والجيش والاعيان ، وكانت فى البداية معفاة من الضرائب لانها فى معظمها أراض بور ، ثم فرض محمد سعيد باشا عليها العشر فى ٣٠ سبتمبر ١٨٥٤ (٣٥) •

وفى الوقت نفسه اشتد رياض على أعضاء الحزب الوطنى بالمراقبة والتهديد وبالنفى والسجن حتى اختمى بعضهم بالدول الاجنبية ومنهم **حافظ باشا** وولده **محمد بك نشأت** اللذين دخلا فى حماية النمسا ، **وشاهين باشا كنج** الذى دخل فى حماية ايطاليا وقد أمر الخديو بتجريده من رتبه وألقابه الرسمية لهذا السبب (٣٦) •

وعلى هـذا النحو كانت حـركة البورجـوازية المصريه تمر بأزمة كبيرة وانتكاسة أليمة حين ظهرت حركة الضباط العرابيين • فـاكتشفت البورجوازيه المصريه أنها « ليست من الضـعف والعجز بحيث ظنت نفسها ،وان لها فى الجيش المصرى قوة طبيعية متجمعة لا يستهان بها ، فاذا استطاعت أن تضمه الى جانبها فى قضية الاصلاح الدستورى فانه لابد قاض على ما حاق بها من شدة وهوان » (٣٧) وهكذا التقى الرافدان : رافـد الحركة الدستورية ورافد حركة الجيش فى مجرى الحركة الوطنية العريض •

مقـدمات الثورة العرابية

المظاهرة العسكرية الاولى

والجيش المصرى فى ذلك الحين كانت الاقدار تعده للقيام بدوره التاريخى الذى قام به فى المجالين القومى والوطنى • فعند قيام الثورة كان الجيش يعد المؤسسة الوحيدة من بين مؤسسات الدولة التى لم يكن للعناصر التركية والشركسية الغالبية فيه • ففى خلال حكم **عباس وسعيد واسماعيل** أخذ العنصر المصرى بين الضباط يتزايد حتى أصبح يهدد البقية الباقية من نفوذ العناصر التركية والشركسية (٣٨) وحتى لم يعد يزيد عدد الضباط من هذه العناصر على ٨١ ضابطا (٣٩)

ومنذ عام ١٨٥٤ بدأت تدخل فى سلك الضباط عناصر من البورجوازية الصغيرة وذلك حين أمر سعيد بانتظام أولاد العمد ومشايخها فى سلك العسكرية • وكان ذلك بمثابة القاء بذور الثورة فى أرض خصبة ، لان هذه العناصر البورجوازية الصغيرة لم تلبث أن وجدت نفسها تتنفس فى جو ثقيل من النفوذ التركى والشركسى الذى كان يسيطر على الجيش • ولئن كان هذا المناخ أقل حدة فى عهد سعيد ، الا انه لم يلبث أن اشتد فى عهد اسماعيل على نحو راح يمهد للثورة •

ومن المحقق أن ظروف النضال الدستورى الذى كانت تخوضه البورجوازية ضد الخديوية وظروف الصراع على السلطة بين الخديوية والوصاية الدولية كانت عاملا هاما آخر فى اجتذاب الضباط الى العمل الوطنى • فلم يكن فى وسع الضباط وهم جزء من البورجوازية المصرية المناضلة أن يقفوا بمعزل عن مجتمعهم فى وقت كانت تضطـرب جوانحه بالثورة • ففى ذلك الحين ـ كما يقول كرومر كانت عادة الطاعة التى ورثها المصريون عن آبائهم الاولين قد اهتزت بعنف ، ولم يكن من الممكن تهدئة الغليان فى نفوسهم فى الحال وكانت النذر تشير الى وقوع مزيد من الانهيار فى جهاز الحكم أشد من أى انهيار سابق ، قبل أن يمكن الوصول الى المياه الدافئة لعهد من التقدم السلمى » • وقد أورد كرومر عبارة قالها له سياسى معروف من حزب المحافظين : « **ان الشرق فى حـاجة الى ثورة** » (٤٠) •

وقد بدأت أولى مقدمات الثورة فى الجيش حين أدركت الوزارة الاوربية الاولى بذكاء مصـدر الخطر على النفوذ الاجنبى الزاحف ، وهو الجيش الوطنى ، فعمدت فى غير ذكاء الى الاصطدام به ، ومحاولة تصفيته بانقاص عدده واحالة عدد كبير

(٣٣) الرافعى ، عبد الرحمن : الزعيم احمد عرابى ص ٢٧ ــ ٢٨ « كتاب الهلال مارس ١٩٥٢ »
(٣٤) Cromer, op. cit., P. 132
(٣٥) دكتور عبد العظيم رمضان : المرجع المذكور
(٣٦) احمد عرابى : كشف الستار .. الخ ص ١٤٩
(٣٧) روشتين : المرجع المذكور ص ١٢٢
(٣٨) Royle, Chares; The Egyptian Campaigns 1882 To 1885 p. 14 (London 1900), Cromer, op. cit. p. 137.
(٣٩) Blunt, op. cit. p. 252.
(٤٠) Cromer, op. cit. p. 118.

من الضباط (٢٥٠٠) ضابط الى الاستيداع بحجة التوفير لاداء اقساط الديون · ثم دعت هؤلاء الضباط الذين لم يكونوا قد تسلموا مرتباتهم من عدة شهور لتسلم جزء من هذه المرتبات وتسليم أسلحتهم ، فحشدت بذلك فى القاهرة نحو ٢٥٠٠ من الضباط الساخطين · وكانت تلك هى الفرصة السانحة للخديو اسماعيل لضرب الوزارة الاوروبية الاولى ضربة قاصمة ـ كما ذكرنا ـ فتحت تأثير المعركة اليائسة التى كان يخوضها ضد الوصاية الدولية ، لم يتردد فى استخدام الجيش المصرى على نحو ما كان يستخدم مجلس شورى النواب · فحين عرض عليه شاهين باشا كنج متاعب الضباط تساءل الخديو قائلا : « ما الذى يبقى هؤلاء الضباط ساكنين ؟ » (٤١) ولم يسكن الضباط فقد قاموا بمظاهرة ١٨ فبراير ١٨٧٩ وسقطت الوزارة الاوروبية الاولى ·

ولقد قبض على عرابى وزميليه محمد بك النادى وعلى بك الروبى فى أعقاب هذه المظاهرة بتهمة التحريض عليها ، على أنه كان فى الحقيقة بريئا منها · ومع ذلك فحين أطلق سراحه ، دعا زميليه الى اجتماع اقترح فيه أن يشتركوا جميعا فى عمل لخلع الخديو اسماعيل · ولكن هذا الاقتراح لم يقدر له التنفيذ ، اذ لم يكن هناك فى ذلك الحين من يتولى القيادة على حد قول عرابى · وقد علق على ذلك قائلا : ولو تم ذلك لكنا قد تخلصنا من أسرة محمد على بأسرها ولكنا أعلنا الجمهورية (٤٢) ..

ومن المحقق أن عرابى ـ فيما عدا هذه المحاولة المتواضعة ـ لم يشترك بأية صورة من الصور فى النضال الدستورى فى عهد اسماعيل · وقد أورد تشارلز رويل Charles Royel أنه التحق بجمعية سرية قبل حملة الحبشة ، ولما عاد منها استأنف اتصاله بها وأصبح رئيسا لها (٤٣) · على أن هذه الرواية لا دليل عليها فى المصادر الاخرى ، كما لم يرد أى شىء عنها فيما كتبه عرابى ·

على كل حال ، فاذا كان عرابى لم يشترك فى مظاهرة ١٨ فبراير ١٨٧٩ ، الا أن هذه المظاهرة من جهة الواقع تعد أولى مقدمات الثورة العرابية لسببين : السبب الاول ، أن هذه المظاهرة قد بعثت الاضطراب فى الجيش وهزت نظامه بعنف · وكان لذلك تأثيره المحتوم فيما وقع من أحداث الثورة العرابية بعد ذلك · ثانيا ، أن النجاح الذى لقيته هذه المظاهرة فى قلب وزارة تلقى التأييد الاجنبى ، كان مثلا يحتذى به ودرسا هاما تلقنه الخديو توفيق ، وكان له أثره فى أحداث الثورة العرابية ·

وفى الحقيقة أن الثورة العرابية تختلف عن كل الثورات الاخرى فى أنها لم تقم أساسا ضد السلطة ، ولم تسع للاستيلاء عليها ، وانما بدأت بتشجيع من السلطة وبايعاز منها كما سوف نرى فلقد رأينا كيف أراد توفيق ، بعد استقالة شريف باشا ، أن يرتد الى نظام الحكم المطلق السائد قبل تأليف « الوزارة المسئولة » فى أغسطس ١٨٧٨ ، وأن يستجمع فى يديه مقاليد السلطة ، فألف وزارة جديدة بدون رئيس وزارة ، وجعل نفسه رئيسا لها ، وكيف اعترض القناصل على ذلك ، فألف توفيق وزارة جديدة تحت رئاسة رياض باشا الذى رشحه القناصل ليحكم باسم الماليين الاوروبيين وأصحاب المصارف وحملة السندات · كذلك رأينا كيف انقلبت المراقبة المالية الى مراقبة سياسية بحرمان مصر من حق عزل المراقبين الماليين دون موافقة حكومتيهما · ولقد كان معنى ذلك أن الموقف قد عاد تقريبا الى ما كان عليه فى عهد الوزارة الاوروبية الاولى ، فقد أصبح توفيق ـ كما يقول بلنت ـ « مسلوب السلطة » وأصبح يعامل من القناصل الذين اطاعهم ومن وزارته كأنه دمية » (٤٤) ·

ولما كان تجمع ظروف أو مقدمات معينة يؤدى غالبا الى نتائج متشابهة ، فان توفيق أصبح يعانى من كراهيته لرياض باشا ما كان يعانيه والده اسماعيل من كراهيته لنوبار · وكما أن اسماعيل أصبح يسعى لطرد نوبار ، فان توفيق أصبح بدوره يسعى لطرد رياض باشا · ولما كان اسماعيل قد استعان بالجيش فى تحقيق هذا الغرض ، فقد كان ذلك هو النموذج الذى اختاره توفيق للتخلص من رياض باشا ·

وقد شرح الشيخ محمد عبده هذا الدور لتوفيق فى تشجيع ضباط الجيش على التظاهر لعزل رياض باشا ، فقال ان الخديو توفيق « لم تكن له أمنية الا عزل رياض باشا ، ولكنه كان يظن أن قناصل الدول ، خصوصا قنصلى فرنسا وانجلترا يعارضان فى عزله لو أراده ، فأخذ يتلمس الوسائل لفصله من وجه يحمل الدول على الرضا به بدون معارضة ·· فاستلفت بعض من حوله نظر جنابه الى الحادثة القريبة العهد التى كانت سببا

(٤١) Ibid p. 62.
(٤٢) Blunt, op. cit. p. 482.
(٤٣) Royle, op. cit. p. 15.
(٤٤) Blunt, op. cit. p. 128.

فى عزل نوبار باشا من رئاسة الوزارة أيام الخديو اسماعيل ، فرآها أنجع الوسائل » • ثم قال الشيخ محمد عبده ان الخديو توفيق « أخذ من ذلك العهد يقرب منه أمير الالاى الاول الذى كان يحرس السراى ، وهو **على بك فهمى** ، ويستدعيه الى مجالسه الخاصة ويمازحه ، ويظهر له أمانيه فى الاحسان عليه ، وعدم وجود السبيل الى ذلك ، حتى قال له مرة : « انى أردت الانعام عليك بالف جنيه ، ولم يمكن ذلك لمعارضة رياض باشا . ومرة قال : « انى أردت الاحسان عليك برتبة اللواء فلم يقبل رياض باشا • وأمثال ذلك ، حتى اعتقد على بك فهمى أن الخديو توفيق ساخط على رئيس نظاره ، وأن رئيس نظاره عدو منفعته ومنفعة اخوانه • وعلى المألوف عندنا لم يخف شيء من ذلك عن بقية الضباط الكبار ، بل ولا على كثير من الخاصة ومن يحبون الوقوف على حقائق ما يجرى حولهم » (٤٥) •

ومن الحقائق الثابتة أن عرابى لم يكن معاديا للخديو توفيق عند صعوده الى الاريكة الخديوية ، بل لقد كان الامر على العكس ، فقد كان توفيق هو الذى رقاه الى رتبة أميرالاى التى كان يصبو اليها طوال عهد اسماعيل ، وقد عينه ياورا خديويا ضمن ياورانه ، وأميرا على الالاى البيادة الرابع بالعباسية (٤٦) • وفوق ذلك فقد كان متزوجا من كريمة وصيفة الامير **الهامي باشا** ، وهى أخت حرم الخديو توفيق فى الرضاعة (٤٧) • ومن أجل ذلك كان عرابى — كما يقول بلنت — يرى فى توفيق مركز نفوذ لصالحه (٤٨) •

التحام الحزب العسكرى بالحزب الوطنى

ولقد كانت الظروف هى التى اتاحت للخديو توفيق استخدام الضباط فى إسقاط رياض باشا كما أتاحت ذلك للخديو اسماعيل من قبل دون تدبير فى حادث مظاهرة ٨ فبراير ١٨٧٩ ، فقد اعتزمت حكومة رياض فى أواخر عام ١٨٨٠ تخفيض عدد الجيش وحصر ترقى الضباط فى خريجى الكلية الحربية دون غيرهم ، ومعنى ذلك تجميد الضباط المرقين من تحت السلاح وحرمانهم من الوصول الى الرتب العليا (٤٩) • ولما كان هذا الاجراء يمس بصفة خاصة الضباط المصريين من أبناء العمد والمشايخ الذين لم يدخلوا الكلية الحربية ، وانما دخلوا العسكرية أنفارا ثم ترقوا من تحت السلاح ، فقد كانت النتيجة الطبيعية لذلك اشتعال مرجل الغضب والاضطراب فى نفوسهم جميعا •

ولسنا بسبيل الحكم على هذا الاجراء من جانب حكومة رياض باشا من حيث الصواب والخطأ ، فان الدولة فى عصرنا الحاضر تمنع ترقى غير الحاصلين على مؤهلات متوسطة من الموظفين الى الدرجة الثالثة حفاظا على مستوى الادارة العليا ، ولكن شعور الضباط المصريين بأن الهدف من هذا العمل هو اعطاء الافضلية للضباط الشراكسة دون المصريين فى جميع التعيينات والترقيات ، وابقاء القيادة العليا للجيش فى أيدى هؤلاء الضباط ، « وجعل أبناء الوطن أنفارا تحت تسلط الترك والجركس » — كل ذلك قد دفعهم للعمل دفاعا عن مصالحهم دون ابطاء •

وكانت اشارة البدء لهؤلاء الضباط بالعمل ، حين أصدر **عثمان رفقى** ناظر الجهادية الشركسى أمره باحالة عبد العال بك حلمى الى ديوان الجهادية ليكون معاونا فيه ، وكان عمره اذ ذاك أربعين سنة ، وعين **خورشيد بك عثمان** بدلا منه وهو ضابط شركسى يبلغ الخامسة والستين من عمره • كما أصدر أمرا آخر برفت أحمد بك عبد الغفار قائمقام السوارى ، وكان فى الاربعين من عمره أيضا وأقام مكانه ضابط آخر شركسيا •

ففى نفس الليلة التى صدر فيها هذا الامر توجه أحمد عرابى الى بيته ليجد فى انتظاره كلا من **الاميرالاى عبد العال بك حلمى والبكباشى خضر وعلى بك فهمى والبكباشى محمد عبيد والبكباشى الفى يوسف والقائمقام أحمد بك عبد الغفار** ، «وكانوا فى هياج عظيم » • وفى هذا الاجتماع دار حوار ذكى أداره عرابى : فقد طلب الى الضباط أولا أن يفوضوا الى رؤسائهم النظر فى مصالحهم وهم يتخذون من بينهم رئيسا يثقون به ويطيعون أمره ويحفظونه بمعاضدتهم اذا أرادت الحكومة به شرا • وقد رد الضباط بأنهم يثقون به ولا يريدون سواه • فقال ان الوقت عصيب ولا يسع الحكومة الا قتل من يتصدى له • فقالوا : « نحن نفديك ونفدى الوطن العزيز بأرواحنا » ،

(٤٥) مذكرات الامام محمد عبده ص ١٠٩
(٤٦) مذكرات عرابى ج ١ ص ٥٦
(٤٧) سليم خليل نقاش : المرجع المذكور ج ٤ ص ٨٣
(٤٨) Blunt, op. cit. p. 128.
(٤٩) مذكرات الامام محمد عبده ص ١١٢ ، مذكرات عرابى : المرجع المذكور

فطلب اليهم أن يقسموا له على المصحف والسيف ، فأقسموا ، وعاهدوه على « أن يكون قائدا عموميا مطالبا بحقوقهم وحقوق آبائهم » وتقاسموا بالايمان على حفظه من كل من يريده بسوء ما دام فيهم الحياة وانهم لا يعصون له أمرا ولو كان فيه ازهاق أرواحهم (٥٠) .

وعلى هذا النحو تألف الحزب العسكرى فى يناير ١٨٨١ . وقد بدأ عمله بارسال عريضة الى رياض باشا تضمنت مطالب ثلاثة هامة : الاول ، عزل عثمان رفقى باشا . والثانى ، اعادة النظر فى قوانين الترقية بحيث تكفل العدل والمساواة بين جميع الضباط ، والثالث ، اجراء تحقيق للتثبت من أهلية من تمت ترقيتهم واستحقاقهم لها . وقد وقع العريضة أحمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى (٥١) .

فكيف كان موقف توفيق من هذه العريضة ؟ يقول الشيخ محمد عبده ، أن الاخبار أخذت تأتى الى الضباط بأن الخديو لا يأبى اجابة طلبهم ، بل يحب أن يمكن لهم أمنيتهم ، وأن رياض باشا هو الذى لا يريد ذلك بينما كان الامر على العكس ، فقد اقترح الخديو فى مجلس الوزراء اعتقال الضباط ومحاكمتهم رغبة فى توريط رياض باشا فى صدام مع الضباط ، بينما كان رياض الحريص يرى اجابة طلب الضباط فى تأليف المجلس العسكرى . ولما رأى توفيق أن رياض يصر على رأيه أوعز اليه سرا أن موقفه سوف يلقى ظلالا من الشك على ولائه ، فسحب اعتراضه (٥٢) .

وما حدث بعد ذلك معروف ، فقد تقرر القبض على أصحاب العريضة الثلاثة وسجنهم يوم ٣١ يناير ١٨٨١ ، ولم ينفذ هذا القرار بقوة الحكومة ، ولكن بأسلوب الخيانة والغدر ، فقد دعى الضباط الثلاثة للمذاكرة فى ترتيب حفل زفاف شقيقة الخديو أول فبراير ، ولما كان موضوع الدعوة لا يحتاج بطبيعة الحال الى مذاكرة ثلاثة من أمراء الالايات ، فقد فطنوا للحيلة ، وقرروا مقاومة المؤامرة بالقوة . وبناء على ذلك ، فعندما ألقى القبض على الثلاثة فور وصولهم الى ديوان الجهادية بقصر النيل ، وألقوا فى السجن ، هب البكباشى محمد عبيد بالعسكر الذى تحت قيادته ، وقام بهجوم خاطف على الديوان أدخل به الرعب فى قلوب الحكام والضباط الشراكسة ، وفتح معتقل الضباط عنوة واطلق سراحهم . ولم تجد الحكومة ازاء هذا العمل مفرا من الاذعان ، فعزل ناظر الجهادية عثمان رفقى وعين مكانه محمود سامى البارودى (٥٣) .

كان هذا الحادث هو الثانى من نوعه فى تاريخ الجيش المصرى . وقد سار على وتيرة التمرد الذى سبقه ، فبدأ بترديد مظالم فلم تلق عناية كافية، ثم تدرج الى تمرد ، وانتهى الى اذعان كامل لارادة المتمردين (٥٤) . ويلاحظ أن الجيش فى هذا الحادث ، كما كان فى الحادث الذى سبقه لم يكن يدافع عن مصالح عامة وانما عن مصالحه الخاصة . وهذه الحقيقة تختلف عما ذكره عرابى فى مذكراته . فقد أورد أن العريضة التى قدمها وزميليه باسم الضباط قد احتوت على مطلب « تأليف مجلس نواب من نبهاء الامة » (٥٥) . على أن أحدا من المعاصرين لم يوافق عرابى على ذلك ، ومنهم محمد عبده وصديقه بلنت . بل لقد ذهب محمد عبده الى حد أكبر ، فقال ان عرابى « لم يكن بباله ولا يهتف فى منامه أن يطلب اصلاح حكومة أو تغيير رئيسها ، فذلك مما كان يكبر على وهمه أن يتعالى اليه » (٥٦) . وهذا الاعتراض على ما أورده عرابى معقول ؛ لان الحادث انتهى — كما رأينا — بعزل عثمان رفقى باشا فقط دون أى شىء آخر ، ولو أن مطلب تأليف مجلس النواب كان من بين الطلبات ، لظهر أثر ذلك فى الاحداث التالية ولاخبرنا عرابى بما آل اليه هذا الطلب سواء فيما يتصل بموقف الحكومة أو موقف الضباط منه ، ولكن من الواضح تماما أن عزل عثمان رفقى قد أرضى الضباط وأن عودة التمرد فى حادث عابدين انما يرجع لاسباب أخرى غير التى انتجت حادث قصر النيل .

على كل حال ، فان هذا يبين أن فكرة السلطة لم

(٥٠) مذكرات عرابى ص ٥٧ — ٥٨ ، الهلال عدد مارس ١٩٧١ خطاب عرابى الى يعقوب صنوع يوم ٢٥ سبتمبر ١٨٨٤

(٥١) مذكرات محمد عبده ص ١٢٣

Blunt, op. cit. p, 137; Cromer, op. cit. pp. 138 — 139.

(٥٢) مذكرات محمد عبده — ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(٥٤) Cromer, op. cit. p. 140.

(٥٥) مذكرات عرابى ص ٥٨

(٥٦) مذكرات الامام محمد عبده ص ١٢٧ ، Cromer, op. cit. p. 138, Blunt, op. cit. p. 485.

تكن تخطر ببال الضباط الثلاثة عند قيامهم بتأليف حزبهم ، ولا عند ترتيبهم الهجوم على قصر النيل ، بل انهم لم يتطاولوا لتغيير رئيس الحكومة رغم علمهم بانحراف الخديو توفيق عنه • وفى الحقيقة أن خطة الضباط قبل تقديم العريضة كانت قائمة على حماية الخديو والعائلة الخديوية والوزراء لو حدث من الضباط الشراكسة حادث • ولذلك فعند هجوم محمد عبيد على قصر النيل وقفت الاورطة الاولى فى ساحة عابدين « فى هيئة طابور » ، وكان وقوفها على هذا النحو ـ كما يقول عرابى ـ « لاجل حفظ الخديو مما عسى أن يطرأ من الامور » (٥٧) • أما بالنسبة للسلطة الفعلية التى كانت فى يد القناصل ، فلم يتعرض لها الضباط ، بل لقد طلب الضباط وساطتها فى النزاع بينهم وبين الحكومة ، فكتب عرابى الى القنصل الفرنسى دى رنج de Raing بعد اطلاق سراحه وزميليه راجيا أن يخبر وكلاء الدول المتحابة وخصوصا قنصل جنرال دولة انجلترا بأنه قد حصل خلاف بيننا وبين حكومتنا ، وأننا نؤمل منهم التوسط فى اصلاح ذات البين (٥٨) •

على أن الحادث مع ذلك كانت له آثاره البعيدة ، فاذا كان عرابى وزملاؤه لم يسعوا الى السلطة فى هذا الحادث ، الا أن السلطة لم تلبث أن سعت اليهم • فكما يقول « بلنت » لقد أكسب الحادث عرابى شهرة كبيرة ،وصار اسمه ملء جميع الافواه كرجل استطاع أن يتحدى الحكومة بنجاح ويرغمها على تغيير الوزراء (٥٩) • ويصور الشيخ محمد عبده نتائج الحادث فى صورة بليغة فيقول : « هب عند ذلك جميع الراغبين فى تغيير الحال من علماء وأعيان وذوات كرام ومقربين من الخديو ، واتحدت وجهتهم فى الغاية وان اختلفت فى الدواعى والبواعث : فطلاب مجلس النواب يؤملون فى التغيير أن ينالوا تأليفه • والمتضجرون من استبداد بعض المأمورين ، والخائفون من أن يؤخذوا بالشبه ، يرجون بالتبديل كشفا لكربتهم وأمنا على أنفسهم • والواجدون من السلطة الاجنبية يرجون شفاء شىء من وجدهم • والذوات الكرام الطامعون فى رجوع سلطتهم على ابدان الرعية وأموالها يطمعون فى أرضاء شرههم • والاجانب الربويون يتطلعون الى انقلاب تزيد به الشدة المالية حتى تتسع لهم طرق الكسب الماضية • وقنصل فرنسا ، البارون دى رنج ، يسعى فى الانتقام من رياض باشا ويحب أن يأتى خلف له يمكنه مجاراته فى مطالبه • والجناب الخديو لا يكره أن يتخلى رياض باشا عن رياسة النظار ، بل ان تلك أمنية من أمانيه (٦٠) • وعلى هذا النحو أخذت حركة الضباط تتجه برافدها الضيق ، رافد المصلحة الخاصة ، لتصب فى المجرى الرئيسى للحركة الوطنية •

وهناك خلاف حول من سعى الى الثانى: هل سعى القادة العرابيون الى الزعماء الدستوريين رافعين علم الدستور أم سعى الزعماء الدستوريون الى الضباط العرابيين يستعينون بهم فى نضالهم من اجل الدستور ؟ •

أما الشيخ محمد عبده فيقول ان ما دخل قلب عرابى من سلطان الخوف من حادث قصر النيل وما أخذ يتعرض لهمن دسائس بعد الحادث ، كان العاملون فيها منخاصة الجناب العالى ،قد دفعه الى التماس قوة تفوق قوته وقوة الحكومة معا ، قوة يكون من حقها مراقبة اعمال الحكومة ومناقشتها الحساب • فرأى انه لو كانت فى البلاد قوة نيابية وكانت حكومتها حكومة شورية ، لكان مجلس الامة عاصما لحياته حافظا لحقوقه • لهذا أراد أن يستعمل ما بيده من السلطة على الجيش فى المطالبة بانشاء مجلس نواب يكون له من الحقوق ما لمجالس النيابات فى اوروبا • **فأخذ يخاطب العلماء ويخالط بعض الاعيان ومشايخ العربان** ، ويقرر لكل من لاقاه ان لا سبيل الى مبتغاه الا بتأييده فى طلب مجلس النواب • واستحثه الحرص على ادراك المطلب الى اقناع ضباط الجيش بألا سبيل الى الصعود الى أعلى مراتب الرقى والمناصب الا بمجلس النواب ، ولم يكفه ذلك فكان يطلب الى بعض الضباط أن يكتبوا العرائض يبينون بها ضرورة انشاء المجلس (٦١) •

أما « بلنت » فيقول العكس ، وهو أن الزعماء الدستوريين هم الذين سعوا الى الضباط • فعلى حد قوله ، لقد امتزجت بالحركة مصالح أخرى :

(٥٧) مذكرات عرابى ، المرجع المذكور ص ٥٩ ـ ٦٣
(٥٨) نفس المصدر ص ٦٧
(٥٩) Blunt, op. cit. p. 189.
(٦٠) مذكرات الامام محمد عبده ص ١١٥ ـ ١٤٦
(٦١) نفس المصدر ص ١٤٠ ـ ١٤٤

فالى جانب الاعيان الذين سعوا الى عرابى ، أخذ يسعى اليه أيضا الزعماء الدستوريون الذين اعتبروه حليفا لهم ، والذين كانت فكرتهم عن الدستور تنحصر فى تخليص السلطة من يد الخديو ووضعها فى أيديهم • وكان رئيس هؤلاء الدستوريين شريف باشا الذى وجد نفسه خلال الصيف (١٨٨١) على اتصال بعرابى عن طريق مراسلات وثيقة وان كانت غير مباشرة من أجل الحصول على دستور يمهد لشريف العودة الى رئاسة الوزارة • ولما كان عرابى يعطف على الحركة الدستورية فسرعان ما استجاب للفكرة ، خصوصا وان سلطان باشا الذى كان أقوى الاعيان ، وكان دستوريا كذلك ، كان واسطة الاتصال بينه وبين شريف باشا • وقد اتفقوا فيما بينهم على أنه متى حانت اللحظة المناسبة فان عرابى يرمى بثقل نفوذ الجيش فى كفة أى ضغط قد يكون مطلوبا لحمل الخديو على الموافقة على الدستور (٦٢) •

وعلى كل حال ، فسواء أكان الساعون الى الاتحاد هم القادة العرابيون أم القادة الدستوريون فقد أخذت الاجتماعات تعقد بين الفريقين لتقريب وجهات النظر والاتفاق على برنامج عمل • ويقول معاصر ، هو الشيخ محمد عبده ، الذى كان معروفا فى ذلك الحين ــ على حد قوله ــ « بمناوأة الفتنة واستهجان ذلك الشغب العسكرى وتسوئة رأى الطالبين لتأليف مجلس النواب على ذلك الوجه ، وتلك الوسائل الحمقى » ، أنه كان يذهب لزيارة سلطان باشا أحيانا ، فيرى من لدن الباب عرابى وبعض رفقائه جالسين فيه ورءوسهم بادية من النوافذ ، «فاذا استأذنت للدخول وسمعوا اسمى، أسرعوا بالفرار من محل الاستقبال العام الى محل آخر ليختفوا ثم ينصرفوا » •ويقول أنه مرا فى أحدى المرات ببيت « طلبة عصمت » فسمع جلبة ورأى بعضا من صغار الضباط يجولون من جانب الى آخر من البيت ، فدخل للزيارة ، فوجد عرابى وجمعا من الضباط ، وأحد أساتذة المدرسة الحربية ، ودار حوار بين الشيخ محمد عبده من طرف وبين عرابى واستاذ المدرسة الحربية من طرف آخر ، هما يقولان « ان الوقت قد حان للتخلص من الاستبداد وتقرير حكومة شورية » والشيخ محمد عبده يقول بالتدرج : « علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض سنين ، وأن نحمل الحكومة على العدل بما نستطيع وأن نبدأ بترغيبها فى استشارة الاهالى فى بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات ، ويكون ذلك تمهيدا لما يراد من تقييد الحكومه » • وقد أثار الشيخ محمد عبده قضية هامة هى مشروعية الدستور الذى يأتى عن طريق القوة العسكرية فقال : « لو فرض أن البلاد مستعدة بان تشارك الحكومة فى ادارة شئونها ، فطلب ذلك بالقوة العسكرية أمر غير مشروع • فلو تم للجند ما يسعى اليه ونالت البلاد مجلس شورى لكان بناء على أساس غير شرعى فلا يلبث أن ينهدم ويزول » (٦٣) •

وعلى هذا النحو ، ففى الوقت الذى كان الضباط والاعيان يرون ألا سبيل للحصول على أى مكسب دستورى الا عن طريق القوة والا عن طريق اجراء ثورى ، كان المفكرون ينادون باحترام السلطة وتقديسها ويشجبون أى عمل عسكرى حتى ولو تحققت به ارادة الامة •

ولقد حدثت محاولة من سلطان باشا للعمل منفردا دون اشراك الجيش ، فقد اتصل بالاعيان فى الوجه القبلى والبحرى لتأليف وفد يطلب الى رياض باشا ويلح عليه فى الطلب أن يستصدر من الجناب الخديوى أمرا باستدعاء مجلس النواب ، وتخويله حق النظر فى وضع دستور يوسع من سلطاته حتى يكون كمجالس النواب فى اوروبا • ولكن هذه الاتصالات لم تسفر عن نتيجة حاسمة ، فقد انصاع البعض وعارض البعض الاخر ، وبذلك فشل تأليف الوفد ، وازاء هذا الافلاس من جانب البورجوازية المصرية ، لم يجد سلطان بدا من الانقلاب الى عرابى ، فحالفه على أن يجمع له أعيان القطرين البحرى والقبلى وعلماءه على تعضيد طلبه متى استقال رياض باشا (٦٤) •

فى ذلك الحين ، وبينما كان الاتفاق يدور بين البورجوازية المصرية والحزب العسكرى لاستخدام الجيش فى الحصول على دستور ، ينقل السلطة من يد الخديو الى يد الامة وبمعنى آخر الى يد البورجوازية ، كان الخديو توفيق يسعى من جانبه هو الاخر لاستخدام الجيش فى عزل رياض باشا واسترجاع السلطة الفعلية التى كانت مركزة فى يد القناصل والمراقبين الماليين • وقد أكد « بلنت » على حقيقة دور الخديو توفيق فى مظاهرة عابدين يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١ فقال : « من المؤكد تماما أن فكرة المظاهرة بأهدافها المحددة كان توفيق قد أخذ

(٦٢) Blunt, op. cit. pp. 144 — 5.

(٦٣) مذكرات الامام محمد عبده ص ١٥٣ ، ١٥٤.

(٦٤) نفس المصدر ص ١٥٢.

يقترحها من وقت لآخر على الضباط فى خلال الصيف عن طريق على فهمى بك اركان حربه(٦٥) • وقد اعترف عرابى بذلك أيضا فقال : « أما فيما يختص بالمظاهرة الثانية فى ٩ سبتمبر فاننا كنا نعرف ان الخديو كان معنا ، فقد كان يرغب فى التخلص من رياض الذى لم يكن يكترث بسلطته • ولقد رأيته مرتين وتحدثت معه فى ذلك الصيف ، ولكنا لم نتحدث أبدا فى السياسة ، لقد كانت اتصالاته بنا عن طريق على فهمى الذى أبلغنا أن الخديو يقول ما معناه : « أنتم ثلاثة جنود وأنا رابعكم » • ثم ذكر عرابى أن الخديو لم يكن مخلصا فى ذلك ولكنه كان يرغب فى التماس حجة لفصل رياض باشا • » وعلى ذلك فقد طلبنا فى المرة الثانية عزل رياض مع سائر الوزراء ونحن نعلم أنه سوف يكون مسرورا » (٦٦) وقد أيد الشيخ محمد عبده رواية عرابى هذه ووصفها بأنها » ممتازة » وقال انها توضح الوضع الذى كان قائما بين الخديو والضباط (٦٧) • بل لقد ذهب بينيه Ninet وبعض الكتاب الى أن مظاهرة عابدين يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١ كانت « بترتيب مسبق تام » بين توفيق والقادة العسكريين فى ذلك اليوم، ابتغاء اسقاط رياض والتخلص من الوصاية القنصلية التى ضاق بها الخديو (٦٨) •

مع ذلك فيمكن القول أن الخديو توفيق انما كان يتظاهر فقط أمام الضباط بانحرافه عن رياض باشا وعجزه عن اقالته الا عن طريق مظاهرة عسكرية كتلك التى اسقطت نوبار ، ولكن ليس عن طريق مظاهرة كمظاهرة عابدين ، فذلك مما لا يتصور حدوث « اتفاق مسبق وتام » عليه بين الخديو والضباط ـ كما يقول « نينيه » بل انه من المشكوك تماما أن الخديو توفيق كان مخلصا فى اشاراته للضباط بخصوص المظاهرة وان كان ذلك لا قيمة له فى الواقع ، لان المهم هو فى حدوث الاشارات من الخديو للضباط ، وذلك ثابت باعتراف المعاصرين وباعتراف عرابى نفسه •

ولعل هذا يفسر الدسائس والمؤامرات التى أخذت تلاحق عرابى والضباط منذ حادث قصر النيل ، والتى أدت فى النهاية الى يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١ • وان كانت مسئولية الخديو توفيق عن هذه المؤامرات والدسائس مشكوك فيها الآن فى ضوء التفسيرات الجديدة السالفة الذكر • وفى الواقع أن توفيق كان مسلوب السلطة فى عهد وزارة رياض « المسئولة » ويتبين ذلك بوضوح اذا عرفنا أنه فى يوم عابدين كانت المفاوضات بين عرابى والخديو تتم عن طريق القناصل وليس عن طريق الوزراء • فقد استشار الخديو السير أوكلند كلفن المراقب البريطانى العام قبل الحادث ، فأشار عليه بأن يسبق عرابى الى العمل ويستدعى القوات الموالية له ومعها ما يمكن جمعه من رجال البوليس الحربى، ثم يقبض على عرابى فور حضوره• وقد أيد كلفن فى ذلك ستون باشا الامريكى كما أيده أيضا السير تشارلز كوكسن القائم بعمل القنصل البريطانى ،ولكن توفيق خشى أن تطلق قوات عرابى النار عليه • وعندما وصل عرابى الى ساحة عابدين على رأس قواته ، نصحه كلفن بأن ينفذ ما نصحه به ، فأحجم الخديو أيضا • وعندما قدم عرابى الى الخديو مطالبه الثلاثة : اسقاط وزارة رياض ، ودعوة البرلمان الى الانعقاد،وزيادة عدد الجيش الى ١٨٫٠٠٠ جندى ، تحول توفيق الى كلفن قائلا : « هل سمعت ما يقول ؟ » فنصحه بعدم مناقشة مثل هذه المسائل مع قائمقامات فى جيشه ، وأن يترك له المناقشة تماما وهذا ما حدث ، اذ ادار « كلفن » و « كوكسن » المناقشات مع عرابى ، وأخذا يترددان بينه وبين الخديو فى العصر حتى انتهت المفاوضات بموافقة الخديو على اقالة الوزارة وتأجيل المطلبين الباقيين الى ما بعد الرجوع بشأنهما الى الباب العالى (٧٠) •

فى الواقع أن هذه المظاهرة العسكرية وان لم تستهدف اسقاط حاكم ، الا انها اسقطت نظام حكم • فقد أسقطت نظام الحكم المطلق ، واقامت مكانه نظام الحكم الدستورى • ولما كان هذا الحكم الدستورى ينقل السلطة من يد الحاكم الى يد البورجوازية المصرية ، فان هذه المظاهرة تكون قد استهدفت الاستيلاء على السلطة فعلا ، ولكن لصالح البورجوازية ، وهى بتلك الصفة ولانها تمت بالقوة المسلحة فانها تكون ثورة بورجوازية • ولما كانت السلطة الفعلية فى يد النفوذ الاجنبى ، وكان قادة الثورة يعرفون ذلك ، فان هذه الثورة تكون ثورة ضد النفوذ الاجنبى ايضا ،فهى ثورة بورجوازية وطنية • فضلا عن ذلك ، فمن الخطأ اعتبار يوم ٩ سبتمبر وحده هو الثورة العرابية ، لان الثورة هى

---

(٦٥) Blunt, op. cit. p. 143.
(٦٦) Ibid p. 486.
(٦٧) Ibid p. 491.
(٦٨) Ibid p. 143.
(٧٠) Cromer, op. cit. pp. 143 — 5.

يوم ٩ سبتمبر وكل ما ترتب على هذا اليوم من أحداث .

الصراع على السلطة

على كل حال ، فاذا كان الجيش قد وضع نفسه فى يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١ موضع الآلة المنفذة لاهداف البورجوازية الوطنية ، الا أن فكرة السلطة لم تلبث أن أخذت تدفع بنفسها فى رءوس قادته . وقد ساعد على ذلك ما أصبح يتمتع به عرابى وزملاؤه من الشهرة والتأييد فى جميع انحاء البلاد ــ كما ذكرنا ــ حتى اطلق عليه اسم « الوحيد » وهنا وقع التناقض بين ما يقتضيه نظام الحكم الدستورى من ابتعاد الجيش عن السياسة وانقياده انقيادا تاما لسلطة الحكومة الدستورية وبين الوضع الممتاز الذى أصبح للجيش وعلى رأسه عرابى باشا وزملاؤه .

وقد وقع الصراع على السلطة بين الحزب الوطنى والحزب العسكرى منذ اليوم الاول لمظاهرة عابدين ، وهو صراع أظهرت فيه البورجوازية المصرية أنها ليست على استعداد لان تستبدل بأوتوقراطية القصر دكتاتورية الجيش . فقد أشترط شريف باشا لتوليه الوزارة أن تنسحب الالايات التى اشتركت فى مظاهرة عابدين الى الجهات التى تحدد لها وأن ينسحب معها قادتها وعلى رأسهم عرابى وعبد العال حلمى (٧١) ولم يجد عرابى مفرا من الاذعان لان البديل هو أن يتولى بنفسه ومعه الحزب العسكرى الحاكم ، أو يعود الحكم المطلق والنفوذ الاجنبى من جديد ، ولكنه اشترط أعادة محمود سامى البارودى الى نظارة الجهادية وتعيين مصطفى فهمى باشا ناظرا للخارجية . كما تعهد فى بيان مكتوب بانقياد الجيش للحكومة وعدم التدخل فى السياسة . وفى يوم ١٤ سبتمبر أمنت البورجوازية المصرية على موقف شريف وتعهد عرابى ، وذهبت الى حد تقديم تقرير لشريف باشا تضمن فيه تعهد عرابى والضباط بعدم الاشتغال بالسياسة ، وقد ورد فى هذه الوثيقة التاريخية : « نحن الواضعون اسماءنا أدناه علماء ومشايخ وأعيان وعمد مصر واسكندرية والثغور والوجهين البحرى والقبلى ، لاعتقادنا التام بحسن صفات وغيرة أعضاء مجلس النظار الذين صار انتخابهم بمعرفة دولتكم بالحكومة المصرية ، واظهارا لصداقتنا التامة ولخلوص نية الجيش ، نحن ضامنون ومتكفلون بصدق وصحة التعهدات التى من مقتضاها تمام الانقياد لاوامر دولتلو شريف باشا » .

وقد عاد شريف باشا فأكد على ضرورة ابتعاد الجيش عن السياسة فى خطابه فى وفد الضباط الذى قدم لتهنئته برئاسة الوزارة ووافقه عرابى على ذلك قائلا : « اننا نعترف بأننا القوة المنفذة لما يصدر من الاوامر التى تكون ان شاء الله فى خير البلاد وصلاح العباد (٧٢)

على أن عرابى لم يستطع أن يلتزم بهذا التعهد ، فعندما صدر الامر بنقله على رأس الالاى الرابع الى رأس الوادى ، لم يخرج بوصفه أمير الاى على فرقة من الجيش ، بل سار فى موكب كمواكب الملوك فى شوارع القاهرة التى ازدحمت بجماهير غفيرة واستقبلته بالحماس (٧٣) وكان قد سبقه الى محطة السكة الحديدية جميع ضباط الجيش المصرى ورؤساؤه وكثير من الذوات والتجار وعامة الناس » . وقد خطب فى مودعيه كزعيم سياسى فقال : « لقد فتحنا باب الحرية للشرق ليقتدى بنا من يطلبها من اخواننا الشرقيين ثم خص اخوانه رجال الجيش بحفظ وحدة الاتحاد .. فالبلاد محتاجة الينا وامامنا عقبات يجب أن نقطعها بالحزم والثبات والا ضاعت مبادئنا ووقعنا فى شرك الاستبداد بعد التخلص منه » . وراح بعد ذلك يتجول فى انحاء مديرية الشرقية لمدة ثلاثة أشهر مصطحبا معه **عبد الله النديم** « لبث مبادئى وأفكارى فى نفوس عمد البلاد ومشايخ العربان حاضا على وجوب مؤازرتى فى مشروعاتى الوطنية » (٧٤)

وعلى هذا النحو فشلت خطة شريف باشا فى أبعاد عرابى عن السياسة . وعندئذ استقر رأيه بموافقة معتمدى فرنسا وانجلترا على أن « ينظم » عرابى مركزه بقبول المسئولية المترتبة على نفوذه السياسى المعترف به ، وذلك بأن يتقلد منصب وكيل وزارة الجهادية . وبذلك يتوقى خطره ويكتسب لصف النظام (٧٥) .

على أن فكرة السلطة كانت قد تمكنت من اذهان العرابيين . ففى يناير ١٨٨٢ اقترح محمود سامى

---

(٧١) Ibid p. 146.

(٧٢) مذكرات عرابى ص ٨١ ــ ٨٣ ، الرافعى : الزعيم احمد عرابى ص ٦٢.

(٧٣) Cromer, op. cit. p. 163.

(٧٤) مذكرات عرابى ص ٩٠ ــ ٩٨ ، مذكرات الامام محمد عبده ص ١٦٩.

(٧٥) Blunt, op. cit. p 180.

البارودى على عرابى المناداة باسمه خديويا لمصر اذا رغب فى ذلك • وكان قد قدم لاقتراحه ، أو عرضه ، بمقدمة أطنب فيها فى الثناء على عرابى « لنشره راية الحرية فى مصر وملحقاتها من بعد مضى خمسة آلاف سنة على المصريين وهم يرسفون فى قيود الاستبداد ، وأقسم انه مستعد أن يضحى بحياته ويجود باخر نقطة من دمه فى تنفيذ رغبة عرابى ويجرد حسامه وينادى باسمه خديويا لمصر اذا رغب فى ذلك • وقد رفض عرابى هذا العرض بحجة أنه لا يريد الا تحرير بلاده ولا يرى سبيلا لذلك الا بالمحافظة على الخديو (٧٦) • على أن الحقيقة أن عرابى كان قد ادرك بذكاء أن البارودى يطمع فى العرش لنفسه • ففى ذلك الحين كان البارودى شديد الاهتمام بمعرفة نسبه وتتبعه الى اصله ، وقد جند لذلك فريقا من العلماء ، وأنفق ما يقدر بنحو ثلاثة آلاف جنيه حتى خرج على الناس فى عام ١٨٨١ بصحيفة لنسبه تبين انه ينتسب من جهة أمه الى الملك الاشرف برسباى ، كما يتصل نسبه أيضا بالسلطان نور الدين شاهنشاه اخ السلطان يوسف صلاح الدين (٧٧) • ولذلك فحين رفض عرابى اقتراح البارودى تنصيبه خديويا لمصر لم ينس أن يظهر اعتراضه ايضا على « انتقال الاريكة الخديوية الى عائلة اخرى ، لما فى ذلك من الضرر ، مع علمى بانك تنتسب الى الملك الاشرف برسباى » (٧٨) •

الوقيعة بين الحزب الوطنى والحزب العسكرى

وعلى هذا فحين انعقد مجلس النواب فى يوم ٢٦ ديسمبر ١٨٨١ كان الحزب العسكرى يمثل الجناح الاقوى فى التحالف ، حتى ساد الاعتقاد ــ حتى فى بريطانيا ــ كما يقول جلادستون ــ بأن هذا الحزب هو الذى يمثل الشعب ، وانه هو الذى يناضل فى سبيل حرياته (٧٩) وكان من الطبيعى الا يرضى ذلك شريف باشا ، فقد كانت سياسته تقوم على أساس فصل الحزب الوطنى عن الجيش ، وقد صرح للسير مالت فى ٢١ سبتمبر ١٨٨١ بأنه يأمل أن يصبح مجلس النواب بالتدريج هو المعبر الشرعى عن مصالح البلاد الداخلية ، وبذلك يجرد الجيش من الصفة التى انتحلها لنفسه فى الحركة الاخيرة • • ويكون الاعيان فى هذه الحالة الهيئة الممثلة للامة التى يستطيع الخديو والحكومة الاعتماد على تأييدها ضد التسلط العسكرى (٨٠) •

لذلك فسرعان ما أخذ الصراع على السلطة يقسم التحالف بين الحزب الوطنى والحزب العسكرى • وكان من المتوقع بعد اجتماع مجلس النواب خاصة أن يتراجع دور الجيش الى مكانه الطبيعى ، لولا التدخل الفرنسى الانجليزى بالمذكرة المشتركة فى ٦ يناير ١٨٨٢ التى قصد بها تشجيع الخديو على الوقوف فى وجه القوى الوطنية المدنية والعسكرية • فقد كان الاثر المباشر لهذه المذكرة كما كتب ماليت ــ انها ادت الى توثيق عرى الاتحاد بين الحزب الوطنى والحزب العسكرى ومجلس النواب وتوحيد هذه الجبهات الثلاث ضد الدولتين ، لاشعارهما بأن الرباط الذى يربط مصر بالدولة العثمانية هو خير ضمان يجب على المصريين التمسك به لحماية مصر من أى عدوان (٨١) ، وفى الحق لقد أشعرت هذه المذكرة المشتركة جميع المصريين بالخطر الذى يتهددهم اذا لحقتهم الفرقة ، فانضم الشيخ محمد عبده ومصلحو الازهر ممن كانوا يتمسكون بسياسة الحذر ، الى الحزب المتطرف بكل قوتهم (٨٢) • وعلى هذا النحو أصبح الجيش معقد آمال الامة فى حماية البلاد من التدخل الاجنبى ، وكتب ماليت يوم ١٠ يناير الى حكومته يقول : « ان الحزب العسكرى الذى كان قد تراجع مركزه الى الخلف بعد دعوة مجلس النواب للانعقاد ، أصبح اسمه الان على كل لسان » (٨٣) •

وقد ترتب على ذلك أنه بعد أن كان شريف باشا قد اتفق مع سلطان باشا رئيس مجلس النواب على اتخاذ موقف معتدل فى مسألة حق المجلس فى اقرار الجزء غير المخصص للدين العام من الميزانية ، فان المذكرة المشتركة جعلت النواب بعيدين عن المسألة ، وصرح سلطان باشا بأن

---

(٧٦) مذكرات عرابى ص ١٠٠

(٧٧) دكتور على الحديدى : محمود سامى البارودى ص ١٧ « طبعة وزارة التربية والتعليم ١٩٦٩ »

(٧٨) مذكرات عرابى ص ١٠٠ ، الرافعى : المرجع المذكور ص ٩٤

(٧٩) Cromer, op. cit. p. 176.

(٨٠) Ibid p. 161.

(٨١) Ibid p. 178.

(٨٢) Blunt, op. cit. p. 190.

(٨٣) Cromer, op. cit. p. 178.

(٨٤) Blunt, op. cit. p. 194 — 5.

دستور شريف باشا انما هو «كالطبل الاجوف» • وكانت تلك هى فرصة عرابى باشا والحزب العسكرى لاسقاط شريف عن الحكم على يد الاعيان أنفسهم الذين كان يأمل فى مساندتهم له • وهذا ما حدث تماما ، فقد تألفت لجنة من خمسة عشر عضوا من النواب وطلبت الى الخديو اما قبول الدستور وفيه بند الميزانية كما قرره النواب ، واما تغيير الوزارة • وازاء هذا الموقف قدم شريف باشا استقالته فى يوم ٢ فبراير ١٨٨٢ (٨٥) •

وبعد سقوط وزارة شريف باشا بحق ـ وكما يقول الرافعى ـ اقصاء تاما لسلطة الخديو ، وانتصارا حاسما للحزب العسكرى وعلى رأسه عرابى • لان الخديو لم يكن راغبا فى استقالة شريف باشا • وقد ذاعت شهرة عرابى فى أوربا عقب سقوط هذه الوزارة بعد ما تبين أن له النفوذ الفعال فى مجلس النواب ، اذ استطاع بوساطته اسقاط الوزارة التى رغب فى التخلص منها (٨٦) • وفى يوم ١٣ نوفمبر ١٨٨٢ كتب «كلفن» يقول : «ان المجلس قد أصبح خاضعا تماما لنفوذ جيش متمرد ظافر» (٨٧) •

على أن تناقضات الموقف من حيث سقوط السلطة فى يد الحزب العسكرى فى نفس الوقت الذى اعتزمت فرنسا وانجلترا التدخل لتأييد مسند الخديوية ، لم يلبث أن قذف بالخديو توفيق مرة أخرى فى أحضان النفوذ الاجنبى • والخديو توفيق قد رأينا انه كان يؤيد سرا «أن لم يكن علنا» كل مظاهرة عسكرية يكون الغرض منها سقوط وزارة رياض باشا الخاضعة للنفوذ الاجنبى ، وكيف انتهى الى ما انتهى اليه والده اسماعيل من أن التغلب على السيطرة الاجنبية والقوى الاستعمارية ليس فى مقدور حاكم مطلق ، وانما هو فى مقدور حاكم دستورى • على ان توفيق بطبيعة الحال لم يكن مستعدا بأية حال من الاحوال لان يستبدل بحكم القناصل حكم الحزب العسكرى • لذلك فقد قامت سياسته منذ ذلك الحين على أساسين : الاساس الاول ، التخلص من الحزب العسكرى ولو أدى الامر الى الاستعانة بالدولة العثمانية أو بالقوى الدولية الكبرى • والاساس الثانى ، فض التحالف بين الحزب العسكرى والحزب الوطنى الذى دعمته المذكرة المشتركة فى ٦ يناير ١٨٨٢ •

وقد حانت الفرصة للخديو لتنفيذ الشق الاول من سياسته عندما عرضت عليه الاحكام العسكرية فى قضية مؤامرة الضباط الشراكسة ، **وهى الاحكام التى قصد بها القادة العرابيون ـ على الظن ـ تصفية النفوذ الشركسى فى الجيش ، اذ تضمنت نفى ٤٠ ضابطا (من ٨١ من الضباط الشراكسة كل عددهم فى الجيش) نفيا مؤبدا** (٨٨) وهنا أستشار الخديو ماليت الذى نصحه بعدم التوقيع واعادة المحاكمة من جديد • ولما تدخل الباب العالى بحجة أن عثمان رفقى الذى كان من بين المحكوم عليهم كان حائزا لرتبة الفريق وهى رتبة لا يصح لغير السلطان تجريده منها ، وافق الخديو على رفع الاحكام اليه ضاربا عرض الحائط بما نالته مصر من استقلال داخلى منذ عهد اسماعيل ، وصرح لماليت قائلا انه «رأى من الافضل أن تفقد مصر بعض امتيازاتها على يد الباب العالى ، وتستقر السلطة من جديد ، بدلا من استمرار سوء الحكم الحالى» (٨٩) •

وكان من الطبيعى أن يثير هذا التصرف غضب الحزب العسكرى ، **فلقد قامت سياسة عرابى تجاه الدولة العثمانية على ضرورة التمسك بالرابطة التى تربط مصر بها ، ولكن فى اطار استقلال مصر الداخلى الذى كسبته بالفرمانات** • **ومع أنه كان يعلن عن كراهيته للاتراك ، الا أنه كان يرى أن احتلال فرنسا لتونس قد أصبح يحتم على المصريين التمسك بدولة الخلافة** (٨٩) • ولما كان تصرف الخديو يتضمن انتقاصا من حقوق مصر ، فقد كان لذلك أن أعلن البارودى لماليت فى يوم ٨ مايو انه اذا أرسل السلطان أمرا بابطال الحكم على الضباط الشراكسة فان الامر لن يطاع • وأنه اذا أرسل السلطان مندوبين ، فلن يسمح لهم بدخول البلاد ، بل سيطردون بالقوة اذا لزم الامر» (٩٠) • كما توجه البارودى الى الخديو ولامه فى عنف لنزوله على ارادة القناصل واهماله رأى الوزراء • ثم اجتمعت الوزارة يوم ١٠ مايو اجتماعا انتهت فيه الى وجوب انعقاد مجلس

(٨٥) مذكرات عرابى ص ١٢١
(٨٦) الرافعى : المرجع المذكور ص ٩٠
(٨٧) Cromer, op. cit. p. 198.
(٨٨) مذكرات عرابى ص ١٢٧
(٨٩) Cromer, op. cit. p. 205.
(٨٩ مكرر) Blunt, op. cit. p. 172.
(٩٠) Ibid

النواب للنظر فى هذا الخلاف . وقد كان لهذا القرار خطورته . لان عرض الخلاف بين الخديو والوزارة على مجلس النواب مع اصرار الخديو على موقفه معناه التهديد بخلعه . فضلا عن ذلك ، فان دعوة المجلس للانعقاد انما يجب أن تصدر عن الخديو بحكم الدستور ، وقد رفض الخديو دعوة المجلس ، ولكن الوزارة دعت النواب الى الاجتماع بوساطة المديرين ، وكان معنى ذلك اعلان الثورة على الخديو (٩٠ مكرر) . وقد اجتمع المجلس فى بيت سلطان باشا وتقرر بأغلبية ٤٥ صوتا ضد ٢٠ صوتا انه اذا استمر الخديو على دسائسه مع القنصلين الفرنسى والانجليزى ، لم يكن ثم مناص من محاكمته وخلعه (٩١) .

على أن التحالف الجديد بين الخديو والقناصل لم يلبث أن أثمر المظاهرة البحرية المشتركة التى أخذت تصل الى مصر ابتداء من ١٩ مايو ١٨٨٢ ، لمساعدة الخديو على اقالة وزارة البارودى وتأليف وزارة أخرى برئاسة شريف ، أو أى رئيس آخر يتمتع بثقته . وفى يوم ٢٥ مايو قدمت الدولتان مذكرة مشتركة طلبتا فيها اخراج عرابى من مصر ، واقالة وزارة البارودى ، وابعاد عبد العال حلمى وعلى فهمى الى الريف (٩١ مكرر) .

وقد أستغل الخديو هذا التدخل لتنفيذ الشق الثانى من سياسته وهو فصل الحزب الوطنى عن الحزب العسكرى وفض التحالف بينهما . فحين أخبره ماليت بأن الأسطولين الانجليزى والفرنسى قد صدر اليهما الامر بالابحار الى الاسكندرية ، أرسل فى طلب سلطان باشا وعرض عليه الموقف ، وأغراه بالانحياز اليه لتخليص الحكم الدستورى من الحزب العسكرى بدلا من المغامرة بالحرب . وقد وعد ماليت سلطان باشا بشرفه بأن حقوق البرلمان المصرى سوف تراعى فى هذه الحالة (٩٢) . ولذلك فحين اجتمع أعضاء المجلس النواب للمرة الثانية بصفة غير رسمية أعلن سلطان باشا أنه فى جانب الخديو ، وأنه يعارض خطة الوزراء (٩٢ مكرر) . ثم بلغ انتصار الخديو قمة حين قدمت المذكرة المشتركة يوم ٢٥ مايو فقد اجتمع مجلس الوزراء يوم ورود المذكرة وقرر رفض مطالب الدولتين ، ولكن الخديو أبلغ البارودى أنه « استحسن » قبولها . فلم يجد البارودى مفرا من تقديم استقالته فى يوم ٢٦ مايو ١٨٨٢ احتجاجا على ما أجازه الخديو للدول الاجنبية من التدخل فى شأن مصر تدخلا مخلا بحقوق السلطان (٩٣) . على أن الخديو توفيق تنصل من اتهام الوزارة له بقبول المذكرة المشتركة . ففى خطابه لثابت باشا فى الاستانة يوم أول يونية ١٨٨٢ ذكر أن هذه المذكرة « حيث قدمت من طرف الدولتين الى هيئة النظار من غير أن يطلب منى جواب عنها ، كان الجواب عنها رفضا أو قبولا من شأن مجلس النظار . فباستقالة هيئة النظار بقيت المذكرة من غير جواب الى الان ، فيكون ادعاء أنها قبلت من طرفنا محض افتراء » ! (٩٤) .

تحديد البديل وفكرة الجمهورية

على كل حال ، فأن انتصار الخديو لم يكتمل ، لان عرابى لظهر عزمه على البقاء على المسرح السياسى . فمع أنه استقال باستقالة الوزارة ، الا أنه لم يلبث أن أرسل الى أنصاره من الضباط خطابا بتاريخ ٢٧ مايو ١٨٨٢ أعلن فيه أنه مع استقالته من وزارة الحربية فانه لم يستقل من رياسة الحزب الوطنى . وطلب اليهم أن يأتمروا بأوامره وأن يحافظوا على الامن . وفى نفس اليوم جاء تلغراف للخديو من ضباط الايات اسكندرية بأنهم لا يرضون البتة بغير عرابى ناظرا للجهادية ، وأنه اذا لم يرجع الى منصبه فى خلال ١٢ ساعة ، فانهم يكونون « غير مسئولين عما يحدث مما لا يستحب وقوعه » (٩٥) .

وفى نفس اليوم أيضا اجتمع النواب فى دار محمد سلطان باشا وحضر عرابى ومعه على فهمى وعبد العال حلمى ومحمد عبيد وجمع من الضباط فى شكل مظاهرة عسكرية ، يطلبون خلع الخديو علنا ويتهددون من يظهر له الولاء . وفى هذا الاجتماع ألقى عرابى خطبة ملاها طعنا فى الخديو وفى العائلة الخديوية ونادى بخلعه ، واختتم

(٩٠ مكرر) الرافعى : المرجع المذكور ص١٠٠ — ١٠٢

(٩١) Blunt, op. cit. p. 268 — 9.

(٩١ مكرر) Cromer, op. cit. p. 211 — 3.

(٩٢) Blunt, op. cit. p. 285.

(٩٣) روشتين : المرجع المذكور ص ١٧٩ ، محضر استجواب محمود سامى البارودى « الطليعة يونيو ١٩٦٦ »

(٩٤) الامير محمد على : بعض وثائق تاريخية من عهدى ساكنى الجنان اسماعيل باشا وتوفيق باشا خديوى مصر » مطبعة عنانى ١٩٤٨ »

(٩٥) مذكرات عرابى ص ١٣٦ — ١٣٩.

خطبته بقوله : « من كان معنا فليقم » ، فحدثت ضجة كبيرة فى المكان ووقف الضباط ، ولكن معظم النواب والمدنيين لم يقوموا ، فتهددهم الاميرالاى محمد بك عبيد بالسيف ، فظلوا جالسين . وازاء ما تبين من أن النواب لا يوافقون على الخلع ، رأى عرابى وطلبة عصمت ويعقوب سامى الاكتفاء بطلب بقاء عرابى وزيرا للجهادية ، فتألف وفد من سلطان باشا وحسن الشريعى باشا وسليمان أباظة باشا للتوسط لدى الخديو ، والحصول على موافقته ، وعـاد عـرابى ناظـرا لوزارة الجهـــادية والبحرية (٩٦) . على أن العلاقات كانت قد تأثرت بين عرابى وسلطان باشا . فكما يقول الشيخ محمد عبده ، فان عرابى شهر سيفه فى وجه سلطان فى هذا الاجتماع كما شهره فى وجه النواب عندما رأى منهم التخاذل (٩٧) .

وهنا يثور السؤال : من كان ينوى عـرابى والحزب العسكرى اقامته مكان الخديو توفيق فى حالة عزله ؟ . لقد ذكر « كرومر » عند تعرضه لازمة الاحكام العسكرية ، وهى التى هدد الضباط فيها بخلع الخديو بأن « نية الحزب العسكرى كانت ترمى الى عـزل الخديو ونفى أسرة محمد على وتعيين محمود سامى باشا حاكما عاما بارادة الامة » (٩٩) . ومعنى ذلك اعلان الجمهورية . وقد روى صابونجى ، محرر جريدة النحلـة وسكرتير بلنت ، أنه كان فى اجتماع ببيت السيد حسن موسى العقاد يوم ١٨ يونية ١٨٨٢ وحضره عرابى ومحمد عبده وعبد الله النديم والبارودى ، وقد جرى الحديث حول أشكال الحكومات . فكان الشكل الجمهورى هو المفضل فى الحديث . وقد تكلم البارودى عن مزايا الحكومة الجمهورية لبلاد مثل مصر ، وكان ما قاله : « منذ بداية حركتنا كنا نرمى الى تحويل مصر الى جمهورية صغيرة مثل سويسرا ، وحينئذ كانت تنضم الينا سـوريا والحجاز . ولكنا وجدنا بعض العلماء غيـر مستعدين لذلك ، لانهم كانوا متأخرين عن زمانهم . ومع ذلك فسنحاول أن نجعل مصر جمهورية قبل أن نموت (١٠٠) . وفى تعليق عرابى على فشـل الاقتراح الذى كان قد عرضه على زميليه محمد بك نادى وعلى بك فهمى بعد اطلاق سراحهما فى حادث مظاهرة ١٨ فبراير ١٨٧٩ ، للاشتراك فى عمل لخلع الخديو اسماعيل قال : « ولو تم ذلك ، لكنا قد تخلصنا من اسرة محمد على بأسرها ، ولكنا أعلنا الجمهورية » . وقد روى عرابى ذلك لبلنت فى مارس ١٩٠٣ ـ كما يقول بلنت (١٠١) . ومعنى ذلك أن الرغبة فى اعلان الجمهورية نعتبر دفينة فى أذهان العرابيين ، وقد ظلت تتبعهم حتى بعد فشل حركتهم .

على أن هناك من الجانب الاخر دلائل تشير الى أنهم كانوا بسبيل تعيين حليم باشا مكان توفيق اذا وفقوا لخلعه . فقد صرح « جلادستون » بعـد اجتمـاع مجلس النـواب السـالف الذكر ، بأن « عرابى قد خلع عن وجهه القناع ، وهدد الخديو بالعزل ووضع حليم مكانه على عرش مصر » (١٠٢) . وفى برقية ماليت الواردة فى الكتاب الازرق (مصر رقم ١١ ، ١٨٨٢) أورد أن الخديو « أرسل فى طلبى وطلب المستر سينكيفيتش فى هذا الصباح ، وأخبرنا بأنه وصل الى علمه أن الحزب العسكرى ينوى خلعه مساء اليوم واعلان حليم باشا خديويا على مصر (١٠٣) . وقـد أورد « بلنت » أنه وان لم يكن عرابى منتميا لحزب حليم فى مصر ، الا أنه على وجه التأكيد لم يكن ليعارض فى توليته بعد أن ارتمى توفيق فـى أحضان الانجليز ضده . « واستطرد قائلا : أن تولية حليم باشا كانت تقابل من عدد عظيم من وجوه مصر بالترحيب ، لانهم كانوا يعرفون أنه كان أكثر ذكاء وأكثر ليبرالية من توفيق (١٠٤) . وفى خطاب صابونجى يوم ١٤ يونية سنة ١٨٨٢ لبلنت أورد أنه عجم عود عرابى بالنسبة لحليم « فوجدته يفضل حليما على توفيق » (١٠٥) .

فهل يفهم من هذا التناقض أن العرابيين كانوا مترددين بين اعلان الجمهورية أو اعلان حليم على العرش ، أم يفهم من ذلك أنهم كانوا يريدون أن يعلنوا الجمهورية ، ولكن الظروف السيـاسية الداخلية والخارجية كانت تمنعهم من تحقيـق رغبتهم ! . اننا نرجح الاحتمال الثانى خصوصا اذا علمنا أن النظام الجمهورى كان يعد نظاما

(٩٦) الرافعى : المرجع المذكور ص ١٠٦ ـ ١٠٧

(٩٧) Blunt, op. cit. p. 491.

(٩٨)

(٩٩) Cromer, op. cit. p. 206.

(١٠٠) Blunt, op. cit. p. 343 — 4.

(١٠١) Ibid p. 297.

(١٠٢) Ibid p. 262.

(١٠٣) Ibid

(١٠٤)

(١٠٥) Ibid

تقدميا جدا في هذا العصر ، كما أن موافقة السلطان عليه تعد شبه مستحيلة .

على كل حال فان مما يثير الدهشة أن الاشارات السالفه الذكر جميعها لم تتضمن رغبة عرابي في تنصيب نفسه حاكما عاما أو خديويا . فهل كان عرابي خاليا تماما من مطمع الوصول الى عرش البلاد ؟ في الواقع أن السلطان كان في ذلك الحين يلمح لعرابي بالعرش . ففي كتاب أحمد راتب بك ياور السلطان الى عرابي يوم ٢٢ فبراير ١٨٨٢ ، أي بعد اعتلاء وزارة البارودي الحكم وسيطرة الحزب العسكري على الحزب الوطني ، كتب يقول : « أقسم لكم أن جلالته يأسف أسفا عميقا لما سبق أن اعاره من اهتمام للبيانات المزيفة والكاذبة عنكم ، وحتى يبرهن على هذا الاسف ، فقد أمرني جلالته بأن أكتب اليكم هذا الخطاب لاعبر لكم عما يلي :

« ان جلالته لا يهمه من يكون شخص الخديو ، وانما على حاكم مصر أن تكون أعماله كلها موجهة نحو المحافظة على مستقبل مصر والتمسك بسيادة الخليفة .. فلذلك يجب عليكم أن تمنعوا أي شيء يمكن أن يؤدي الى التدخل الاجنبي ، وألا تحيدوا عن جادة العدل والصواب » .

وفي خطاب الشيخ محمد ظافر الذي كتبه بناء على أمر السلطان الشخصي لعرابي باشا قال :

« أخبركم بصفة خاصة وسرية بأن السلطان لا يثق في اسماعيل أو حليم أو توفيق . ولكن الشخص الذي يفكر في مستقبل مصر ، ويوثق الروابط بين مصر والخلافة والذي يحترم جلالته ويراعي الفرمانات والذي يؤكد سلطته المستقلة في الاستانة وغيرها .. والذي يدرك مؤامرات ودسائس أعدائنا الاوروبيين ، ويحتاط لها ويحافظ على البلاد وعلى عقيدته ـ مثل هذا الرجل هو الذي يكون مقبولا عند مولانا السلطان » (١٠٦) .

فهل كانت هذه التلميحات والاشارات من السلطان الى العرش في ذهن عرابي وهو يضغط على النواب لخلع الخديو توفيق ؟ . اننا نعلم أنه في حوالي ذلك الوقت بالذات الذي حدثت فيه تلميحات السلطان السالفة الذكر ، عرض البارودي على عرابي المناداة به خديويا على مصر ، فقد كانت هذه التلميحات في شهر فبراير ، أما العرض فكان في شهر يناير ـ كما يقول عرابي ـ ولعله فبراير . وقد رفض عرابي هذا العرض كما ذكرنا ، لانه كان يعلم أن البارودي يطمع في العرش . فهل كان هذا العرض تحت تأثير اشارات السلطان ؟ وهل كان عرابي مخلصا في رفضه ، زاهدا في السلطة ؟ .

من المحقق أن عرابي لم يكن زاهدا في السلطة ، بدليل أنه لم ينفذ ما تعهد به لشريف باشا من عدم الاشتغال بالسياسة ، وأخذ يتصرف كزعيم سياسي لا كقائد جيش ، يجوب البلاد ومعه عبد الله النديم ، ويخطب الناس « ويبث مبادئه وأفكاره في عمد البلاد ومشايخ العربان حاضا على وجوب مؤازرته في مشروعاته » ـ حسب قوله ـ ثم أخذ يتدرج ليصبح حاكما فعليا للبلاد يجبر الوزارات على الاستقالة ويبسط سيطرته على النواب ويستخدم لغة التهديد في مخاطبتهم ـ وتلك كلها مظاهر رغبة في السلطة وتشوق اليها ، وليست مظاهر زهد في السلطة وتجنب لها . وقد اعترف السلطان بالمركز المتفوق لعرابي ، كما يتضح من الخطابين السالفي الذكر اللذين أمر بكتابتهما اليه . وعندما بعث بمندوبه درويش باشا الى القاهرة ليستدرج عرابي الى الاستانة ، خاطب درويش عرابي قائلا : « انك أنت وحدك الامر الناهي في مصر ، أنت مع كونك لست الا ناظر الجهادية ، بيدك السلطة العليا » . وقد رد عرابي على هذا القول قائلا : « لست حريصا على السلطة التي تريد أن تنسبها الي ، هي سلطة غير مغتصبة ، الامة هي التي أفضت الي بها (١٠٧) . وفي هذا اعتراف من عرابي بالسلطة التي في يده ، وان دافع بأنها سلطة غير مغتصبة وأن الامة هي التي أفضت بها اليه .

واذا كان الامر كذلك فكيف يمكن تفسير أن عرابي لم ينصب نفسه خديويا أو حاكما على مصر على نحو ما يفعل قادة الانقلابات العسكرية والثورات في عصرنا الحاضر ؟ . هناك سببان لذلك : الاول ، أن مثل هذا الاجراء كان يهدد بتدخل الدول والسلطان ، وهو ما حدث فعلا عندما سقطت السلطة الفعلية في يد عرابي . ثانيا ، أن مثل هذا الاجراء كان يتطلب تأييد ومساندة الحزب الوطني ، حليف عرابي وشريكه في الثورة .

(١٠٦) Ibid p. 256 — 261.

(١٠٧) مذكرات الامام محمد عبده ص ١٨٠ ـ ١٨١

وكانت الدلائل تشير الى أن هذا الحزب لن يمنح عرابى هذا الحق مطلقا · لسبب بسيط ، هو أن الحزب لم يكن ليستبدل بأوتوقراطية القصر دكتاتورية عسكرية مهما كانت الظروف ·

ولعل ذلك ما كان يمنع النواب من الاستجابة لمطلب خلع توفيق ، حتى عندما انحاز هذا الى الاعداء بعد ضرب الاسكندرية ، وعندما أصدر مشايخ الازهر فتوى بمروقه من الدين ـ فقد اكتفى المؤتمر الذى عقد لهذا الغرض ، والذى ضم نحو خمسمائة من « أكابر العلماء والرؤساء الروحانيين من الطوائف المختلفة ومأمورى الحكومة الحائزين على الرتبة الثانية مما فوقها وأمراء العائلة الخديوية واكابر الذوات المتقاعدين وأعيان التجار » ـ وبعبارة أخرى ممثلى البورجوازية المصرية بجميع فرقها وطوائفها باصدار قرار « بتوقيف أوامر الخديو وما يصدر عن نظاره الموجودين معه فى الاسكندرية كيفما كانت ولاية جهة من الجهات وعدم تنفيذها حيث ان الخديو خرج عن قواعد الشرع الشريف والقانون المنيف » (١٠٨) · ولكن لم يصدر المؤتمر قرارا بخلع الخديو ·

وقد ذكر عرابى فى خطاب أرسله الى صديقه يعقوب صنوع من سيلان بتاريخ ٢٥ سبتمبر ١٨٨٤ أنه قد ترتب فى مصر فى ذلك الحين « مجلس ادارى للنظر فى ادارة البلاد عبارة عن جمهورية مؤقتة ، الى أن تنقشع سحب المصائب المتكاثفة على مصر » (١٠٩) · على أن هذا الكلام لا وجود له أصلا فيما بين ايدينا من المصادر الاساسية ، ولم تتعرض له مذكرات عرابى بأية اشارة ، فضلا عن أن عرابى كان فى ذلك الوقت فى معسكره بكفر الدوار ولم يكن حاضرا فى المؤتمر المذكور · ولعل اشارة عرابى فى خطابه الى يعقوب صنوع تنصب على « المجلس العرفى » الذى ألفه يعقوب سامى من وكلاء الوزارات وبعض كبار الضباط والموظفين واحد يمارس سلطة الحكم فى مصر أثناء الحرب (١١٠) على أن هذا المجلس قد تألف قبل قرار المؤتمر السالف الذكر بتوقيف اوامر الخديو ، بل قبل عقد المؤتمر الاول الذى كان قد اتخذ قرارا باستمرار التجهيزات الحربية ودعوة الخديو الى العاصمة · ومن ثم فان حديث عرابى عن « جمهورية مؤقتة » اعلنت فى ذلك الحين هو من قبيل المجاز وليس من قبيل الحقيقة ·

من ذلك يتبين أن البورجوازية المصرية لم تذهب فى ثوريتها الى الحد الذى ذهبت اليه البورجوازية القديمة فى اوائل القرن التاسع عشر التى عزلت خورشيد باشا ونصبت محمد على مكانه · ولعل وجه الشبه بين محمد على وعرابى من حيث كون كل منهما عسكريا ، وما نال البورجوازية القديمة على يد محمد على من تصفية ، كانا وراء احجام البورجوازية الجديدة عن تكرار التجربة القديمة ·

---

(١٠٨) مذكرات عرابى ص ١٩٢ ــ ١٩٦ ، الرافعى : المرجع المذكور ص ١٦٠ ــ ١٦٤
(١٠٩) الهلال مارس ١٩٧١ ص ٧٧
(١١٠) الرافعى : المرجع المذكور ص ١٦١ ــ ١٦٢

التيار الإصلاحى

والثورة العرابية

محمد عمارة


الشيخ محمد عبده

عندما نفى **جمال الدين الأفغانى** من مصر فى يوليو سنة ١٨٧٩م تبلورت فى صفوف تلاميذه و (الحزب الوطنى الحر) الذى كونه بمصر حينئذ اتجاهات ثلاثة :

● الاتجاه الثورى الذى تمثل فى الضباط المصريين (الفلاحين) بالجيش المصرى الواقع تحت سيطرة الضباط الشراكسة .. وهو اتجاه يؤمن بدور العسكريين فى العمل السياسى ، ويرى ضرورة الاستفادة من السلاح الذى بأيديهم، ويضع لهذا السلاح اهمية كبرى فى حسم المعارك ضد أعداء البلاد من الاجانب والمحليين .. ويقود هذا الاتجاه : **أحمد عرابى** ، **وعبد العال حلمى** ، **وعلى فهمى** ، وغيرهم من الضباط .

● الاتجاه الثورى الذى يؤمن بالشعب وقواه وطبقاته الكادحة الى ابعد الحدود ، والذى ورث عن **الأفغانى** خاصية الايمان بقدرات « **العامة والجماهير** » ، واضاف الى فكر الأفغانى اضافات خلاقة تمثلت فى الحذر واليقظة من ان يجنى الأغنياء ثمار العمل الثورى الذى ينهض بعبئه وتضحياته الفقراء . ولقد قاد هذا التيار واحد من ابر ابناء مصر بها ، واكثرهم التصاقا بشعبها وترابها وتراثها ، وأجدرهم بأن يكون تجسيدا مكثفا لشخصيتها ، وهو **عبد الله النديم** ، ومن خلفه كثيرون لم يحفل التاريخ الرسمى بتدوين اسمائهم ، ربما لأنهم من « العامة والجماهير » ، وربما لأنهم اكبر من صفحات هذا التاريخ ؟! .

● أما الاتجاه الثالث الذى بقى من تلامذة الأفغانى ورجال حزبه الوطنى الحر فهو ذلك الذى تزعمه وعبر عنه **الشيخ محمد عبده** ، والذى تبلورت آراؤه فى مقالات **(الوقائع المصرية)** التى كتبت تحت عنوان (قسم غير رسمى) حتى يكون معروفا انها لا تعبر عن رأى الحكومة، بالرغم من نشرها

فى صحيفتها الرسمية ، ولم يكن هذا الاتجاه « ثوريا » ، بل كان « اصلاحيا » ، ولم يكن مؤمنا « بالثورة » كطريق لتحقيق نهضة الشرق وتجديد حياته ، وانما كان يرى فى « التربية والتعليم والاستنارة الفكرية » السبيل لبلوغ هذه الغاية .. لقد كان تيارا « وطنيا » يقف ضد النفوذ الأجنبى ، وهو فى نفس الوقت لا يؤمن « بالجماهير والعامة » ، وانما يعلق الامال على « الفئة المثقفة المستنيرة » ويراهن على الطبقة الوسطى النشطة الطموح التى تريد كسب مواقع الأجنبى فى البلاد لحسابها ، والتسلح بالعلم لخدمة التقدم وتطوير البلاد ... وكان هذا الاتجاه فى مجموعه ، يعادى الطبقة الاقطاعية ، لأن اغلبها شراكسة اجانب عن ضمير الأمة وحياتها ، ولأنهم عموما ، حتى المصريين منهم ، أسرى للخرافة والتقاليد البالية ، فرائس للكسل والبطالة والخمول ... كما كان هذا الاتجاه قليل الثقة جدا فى « جماهير الشعب وعامته » ، بل يراهم كما مهملا لا يفيد فى التقدم ولايعوق هذا التقدم .

ولقد ضم هذا الاتجاه الاصلاحى ــ غير الشيخ محمد عبده ــ كثيرين ، سلطان باشا ، وسليمان اباظة ، وحسن الشريعى ، وحسن موسى العقاد، وسعد زغلول ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، والشيخ سيد وفا ، والشيخ محمد خليل ... الخ وتبلورت أفكار هذا الاتجاه فى كتابات الشيخ محمد عبده كأحسن ما يكون التبلور ، وتجسدت فى أفكاره أفكار هذا الاتجاه فى الاصلاح . ومن ثم كانت دراسة فكره وموقفه من الثورة العرابية دراسة للموقف الفكرى والعملى الذى اتخذه التيار « الاصلاحى » من « الثورة » فى ذلك التاريخ ...

* * *

ولقد كان التيار الثورى فى الجيش (الحزب الجهادى] هو الذى بدأ فى اتخاذ المواقف العملية التى قادت الى اندلاع الثورة وتفجرها بمظاهرة عابدين فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١م . ففى أبريل من نفس العام كانت حركة هذا (الحزب الجهادى) قد تعدت نطاق الجيش ، ومطالب الضباط الفلاحين (المصريين) ، وآمن قادة هذا الحزب أن فى تحقيق مطالب الأمة وأهدافها فى الحكم الدستورى النيابى والتصدى للنفوذ الأجنبى ، الضمان الأكيد والوحيد لانتصار الضباط المصريين على قياداتهم الشركسية المؤيدة من الخديو توفيق ، ومن ثم آمن هذا الحزب بأن وضع الضباط المصريين فى الجيش لابد وأن يكون وضع وكلاء الأمة المفوضين منها لتحقيق مطالبها العامة، بما فيها مطالب الجيش ، وانهم بذلك بمثابة القوة الضاربة بيد الجماهير .. ولقد تحققت هذه المهمة الجوهرية والهامة بفضل التحام تيار « النديم » بتيار « عرابى » ، وتلك التوقيعات والتفويضات التى جمعها النديم من انحاء مصر لعرابى ، كوكيل عن الأمة يتحدث باسمها ، ويطلب لها المطالب ، ويتصدى ــ وهى من خلفه ــ لكل الأعداء ..

ومنذ هذا التاريخ ، وتلك التحركات الثورية ، تبرز تميز الاتجاه « الاصلاحى » عن الاتجاه « الثورى » ، ودعا محمد عبده الى التدرج فى الاصلاح بدلا من الحسم والطفرة بالثورة ، والى سلوك طريق التربية البطىء بدلا من طريق الثورة السريع ، والى الثقافة والاستنارة لتكوين « الرأى العام » الذى يستحق الحياة السياسية والحقوق السياسية قبل المطالبة بالدستور ومجلس النواب ، وتقييد الحكومة بهما ، وأخذ يتهم التيار الثورى بأنه يقلد أوربا وأمريكا ، وينقل عن الاخرين دون مراعاة للفروق بين الشعب عندنا والشعوب المستنيرة فى بلاد الأوربيين والامريكيين .

ولقد كان محمد عبده يعتبر دعاة الحياة الدستورية النيابية « عقلاء » ، ولكنهم فى نظره عقلاء « مخطئون » !! فكتب فى أبريل سنة ١٨٨١م سلسلة من المقالات تحت عنوان (خطأ العقلاء) دافع فيها عن وجهة النظر « الاصلاحية » وانتقد الاراء التى كان يدعو لها التيار « الثورى » فى الحركة الوطنية المصرية فى ذلك الحين .. فهو يعارض التغيير الثورى لنمط حياة الأمة ، ويطلب « أن تحفظ لها عوائدها المقررة فى عقول افرادها » .. فقط يطلب « بعض تحسينات فيها لا تبعد عنها بالمرة ، فاذا اعتادوها طلب منهم ما هو ارقى بالتدريج ، حتى لا يمضى زمن طويل الا وقد انخلعوا عن عاداتهم وافكارهم المنحطة الى ما هو ارقى واعلى ، من حيث لايشعرون »..

فهو هنا يحدد أن التيار الاصلاحى ليس ضد التغيير ، ولكنه ضد الثورة كطريق لهذا التغيير ، ومع « التدرج » كسبيل لبلوغ هذه الغايات ..

ثم يتحدث ، فى معرض التمثيل ، عن حسنات النظام الجمهورى فى امريكا ، ولكنه يقول أن التفكير فى الاستفادة من حسنات هذا النظام فى بلاد مثل «أفغانستان» مثلا هو ضرب من الخطأ ، لأن مثل هذه البلاد تحتاج الى سلوك طريق التربية والتعليم ، أولا ، ولابد لها « من قرون حتى ينشأ فيها ما يسمى بالرأى العمومى ، فعند ذلك يحسن لها ما يحسن لأمريكا » .. وهو يعمم هذه القاعدة لتشمل مصر وما يشابهما من البلاد « التى تعودت أن يكون زمامها بيد ملك أو أمير

أو وزير ؟ يدبر أعمالها بدون أن يكون لها تدخل فى رؤية مصالحها » **فلا « يمكن أن يطلب منها الدخول فى أعمالها العامة والا فسدت »** ؟! ..
ثم يلخص نظريته التى يدعو اليها عندما يقول : أن « من يريد خير البلاد فلا يسعى الا فى اتقان التربية ، وبعد ذلك يأتى له جميع ما يطلبه ... بدون اتعاب فكر ولا اجهاد نفس »(١) .
وفى مقال آخر جعل عنوانه (اختلاف القوانين باختلاف أحوال الأمم) عاد ليحذر من أن « من عجل بشىء قبل أوانه عوقب بحرمانه » ؟! وأن « عقلاء الناس يجتهدون أولا فى تغيير الملكات وتبديل الأخلاق عندما يريدون أن يضعوا للهيئة الاجتماعية نظاما محكما فيقدمون التربية الحقيقية على ما سواها ، ليتسنى لهم أن يحصلوا على هذه الغاية . »(٢)

ويستمر هذا التيار الاصلاحى على موقفه هذا من « الثورة » ، ويتزايد نشاط الشيخ محمد عبده فى التعبير عن هذا الموقف الفكرى ، ويبلور الرجل أكثر فأكثر نظرته لهذه القضية فى تلك المناقشة الحامية التى دارت بينه وبين عرابى ، عندما جمعتهما الصدفة فى منزل طلبة باشا ، أحد قادة الضباط العرابيين ، قبل مظاهرة عابدين بعشرة أيام ، فيقول محمد عبده لعرابى : ان البلاد لم تؤهل بعد لنيل الدستور ومجلس النواب ، وان الواجب أن نبدأ بالتربية والتعليم ، وأن نقيم مجالس المديريات والمحافظات كمرحلة يتدرب فيها الناس على ما يأتيهم مستقبلا من مؤسسات نيابية قومية ... يقول : « **ان أول ما يبدأ به : التربية والتعليم** ، لتكوين رجال يقومون بأعمال الحكومة النيابية على بصيرة مؤيدة بالعزيمة ، وحمل الحكومة على العدل والاصلاح ، ومنه تعويدها الأهالى على البحث فى المصالح العامة ، واستشارتها اياهم فى الأمر **بمجالس خاصة تنشأ فى المديريات والمحافظات** وليس من الحكمة أن تعطى الرعية مالم تستعد له ، فذلك بمثابة تمكين القاصر من التصرف بماله قبل بلوغه سن الرشد وكمال التربية المؤهلة والمعدة للتصرف المفيد .. ان المعهود فى سير الأمم وسنن الاجتماع أن القيام على الحكومات الاستبدادية ، وتقييد سلطتها ، والزامها الشورى والمساواة بين الرعية ، انما يكون من الطبقات الوسطى والدنيا اذا فشا فيهم التعليم الصحيح والتربية النافعة وصار لهم رأى عام »(٣)
وانصافا للرجل وللحقيقة ، فان نفوره من الأسلوب العسكرى فى العمل السياسى ، ومعارضته لتولى الجيش زمام الأمور ، كان من بين العوامل التى جعلته يعارض مسعى الضباط و (الحزب الجهادى) ، لأن طبيعة تكوين الرجل النظامية العقلانية قد جعلته شديد النفور من سلوك هذا السبيل ، فهو يقول لعرابى فى هذا اللقاء : « انه لو فرض أن البلاد مستعدة لأن تشارك الحكومة فى ادارة شئونها ، فطلب ذلك بالقوة العسكرية غير مشروع ، فلو تم للجند ما يسعى اليه ، ونالت البلاد مجلس شورى ، لكان بناء على اساس غير شرعى ، فلا يلبث أن ينهدم ويزول »(٤)


جمال الدين الافغانى

وهكذا ظل طوال تسعة أشهر من عمل الحركة الثورية ، والمخاض الثورى ، « **اصلاحيا** » ، يعبر عن التيار الاصلاحى ، ويعارض «الثورة» كأسلوب للتغيير ، ويختلف مع الثوار حول أهلية مصر ، فى ذلك التاريخ ، لأن تنال حكومة قانونية مقيدة بالدستور ومجلس النواب .. وساهم فى وقوفه هذا الموقف عجز تياره الفكرى والعملى عن أن يبصر ما خلف الأفق الاصلاحى المحدود الذى عاش فيه ، والذى كان لا يرى سوى قضايا الاصلاح التربوى .. وأيضا عزلته عن الحياة الثورية التى كانت تحياها مصر يومئذ ، بما فيها من دفء الثورة وحرارة الحركة التى يصنعها الثوار ..

---

(١) الوقائع المصرية . عدد ١٠٧٩ مقال « خطأ العقلاء » فى ٤ ابريل سنة ١٨٨١م .
(٢) الوقائع المصرية . عدد ١١٤٢ مقال « اختلاف القوانين باختلاف أحوال الامم » فى ١٩ يونيو سنة ١٨٨١ م .
(٣) محمود رشيد رضا « تاريخ الاستاذ الامام » ج ١ ص ٢١٧ ، ٢١٨ الطبعة الاولى سنة ١٩٣١ م .
(٤) المصدر السابق . نفس الصفحات .

الانحيــاز للثــورة

وعندما تفجرت احداث الثورة العرابية بمظاهرة عابدين فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١م حدثت تحولات هامة فى الموقف الفكرى والعملى لهذا التيــار الاصلاحى ، الذى يعبر عنه الشيخ محمد عبده ، من السياسة ، وبالذات من الموقف ازاء طلب الدستور والحياة النيابية للبلاد ، بل وازاء دور الجيش المصرى فى العمل الســـياسى فى تلك التاريخ ..

● فلم يعد باستطاعته التحـديث عن « خطأ العقلاء » فى طلب مجلس النواب ، لأن هــذه المظاهرة قد اجبرت الخديو توفيق على التسليم للامة بمجلس نيابى ينهض بما تنهض به مجالس النواب فى غير مصر من البلاد .

● ولم يعــد مصطفى رياض باشا — وهــو نموذج مصغر للمستبد المصلح عند محمد عبده — هو الذى يحكم البلاد ، فلقد استجاب الخــديو لمطلب عرابى باقالته هو ومجلس نظاره ، وخلفه شريف باشا ، صاحب الاراء الثورية ونصــير الحكم بالدستور .

● ولم يعد [الحزب الجهادى] مجرد حزب عسكرى ، كما كانت حاله عند بدء تحركه فى يناير سنة ١٨٨١ م ، وانما استطاع بالتحامه بتيار النديم الثورى ، وبالتوكيلات التى جمعها له النديم من الأمة أن يقف فى ساحة عابدين فى ٩ سبتمبر كممثل للأمة المصرية كلها ، ينطق باسمها ويعبر عن ارادتها ، ويسجل لحظة فى تاريخها تشبه بارقة الامل وسط قرون من المذلة والعبودية والهوان، كادت بها هذه الامة أن تحول مجرى هذا التاريخ الذى صنعه لها الكثيرون من الاعــداء .

● ولم تعد « الجماهير والعامة » كما مهملا لا يفيدون تقدما ولا يزيلون تأخرا ، بل وقفوا من خلف أبنائهم الجنود والضباط فى ساحة عابدين ، فهزوا ضمير ذلك المثقف والمفكر : محمد عبده ، من الاعماق ، واجتذبوه وصحبه نحو معسكرهم عدة خطوات ، وأذابوا بحرارة مواقفهم الثورية ودفء عواطفهم الملتهبة الكثير من جليد العقلانية التى عاش تحت سطحه ما مضى من السنوات .

ونحن نعتقد ان هذا العامل الاخير كان حاسما فى تغيير موقف محمد عبده وتياره الاصلاحى من « الثورة » و « الثوار » ، فهذا الحدث الذى صنعته مصر بساحة عابدين فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ م قد فتح عقل الرجل وقلبه على عالم من الحياة والنشاط الوطنى الثورى كان معزولا عنه قبل ذلك التاريخ . ولاشك أن هذه الفترة المفعمة بالنشاط السياسى ، الذى شمل جميع الطبقات ، قد غيرت رأيه ، أو على الاقل جعلت الصورة التى بدت للجماهير المصرية أمام عينيه مختلفة عن تلك التى كانت لها من قبل — والذين يعيشون فترات الثورة الحاسمة ، وتتعرض عقولهم وقلــوبهم لحرارة العمل الثورى ونضال الجماهير ، يعرفون جيدا كيف ترغم مثل هذه الاحداث حتى غير المخلصين على مجاراة المواقف ومسايرة الامور ..

ولقد كان محمد عبده — فى تعبيره عن التيار الاصلاحى — من النوع الاول : مفكرا « معتـدلا اصلاحيا » يرى أن شرط وجود « الرأى العام » لم يتحقق فى مصر حتى تعطى جماهيرها مقاليدها فى أيديها .. مثل هذا المفكر يعايش العمل الثورى عن قرب ، فتبدو لجماهير مصر صورة أخرى فى ناظريه ، فيتقدم خطوات للقاء « التيار الثورى » العرابى فى الحركة الوطنية المصرية ، ويسهم منذ ذلك التاريخ فى العمل الثورى وفى صنع الاحداث الثورية التى شهدتها البلاد .

وعندما يكتب محمد عبده ، فى أخريات حياته ، عن هذا الحدث الذى تغير بعده موقف التيار الاصلاحى من الثورة العرابية ، يشير بشكل غير مباشر ، الى الاسباب التى جعلته يغير موقفه هذا فيقول : « أما عن مظاهرة عابدين فى ٩ سبتمبر سنه ١٨٨١ م فانى أقول : انسبعة الاشهر التى كانت بين مسألة قصر النيل ومظاهرة سبتمبر كانت مفعمة بالنشاط السياسى الذى شمل جميع الطبقات .. فقد صار عرابى محبوبا عند الامة ، واتصل بالحزب الوطنى ، وعرف سلطان باشا ، وسليمان أباظة ، وحسن الشريعى ، وعرفنى أنا أيضا .. » (٥) وقبل ذلك « لم تكن الثورة من رأيى .. ولكن لما منح الدستور انضممنا جميعا الى الثورة لكى نحمى الدستور .. » (٦)

ومنذ ذلك التاريخ أخذ الرجل ، وتياره يخطو خطوات وئيدة ولكنها ثابتة ، نحو مواقع « الثورة » ومنطلقات « الثوار » ، ففى ديسمبر من نفس العام دافع عن دور الجيش و « رجال العسكرية » فى العمل الوطنى والسياسى ، وكتب فى المادة الرابعة من برنامج (الحزب الوطنى الحر) — الذى صاغه هو — هذا النص الهام الذى يقول : « ويرى هذا الحزب أن مجلس النواب ربما أكره على الصمت ،

---

(٥) التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر » لبلنت » ص ٦٢٩ طبعة القاهرة الثانية

(٦) المصدر السابق ص ٦٤٧

كما حصل لمجلس الاستانة ·· فيتكدر صفو الراحة، ويحرم الابناء من التعليم، ولهذا فوض الاهالى أمرهم الى أمراء الجهادية، وطلبوا منهم أن يصمموا على طلبهم، لعلمهم أن رجال العسكرية هم القوة الوحيدة فى البلاد، وهم يدافعون عن حريتهم الآخذة فى النمو، وليس فى عزمهم ابقاء الحال على ما هو عليه، بل متى حصلت الامة على حقوقها، عدلوا عن السياسة الحاضرة، فان أمراء الجهادية عازمون على ترك التدخل فى السياسة بعد أن فتح المجلس فهم الان بصفة حراس على الامة التى لا سلاح لها» ·

كما يكتب فى هذه المادة من هذا البرنامج ما يفيد تقديمه لعوامل «الحياة الشورية النيابية» و «حرية المطبوعات» على عوامل «تعميم التعليم ونمو المعارف» فى عملية النهضة والتقدم والاصلاح (٧) ·· فهو الذى طالما علق الحرية السياسية والحياة النيابية والدستورية على «التهذيب» وعموم المعارف والتعليم، يذكر للمرة الاولى فى تاريخه الفكرى أن «التهذيب» سيكون «بوساطة» مجلس شورى النواب وحرية المطبوعات وليس العكس ·· فنحن هنا ازاء تطور فكرى على جانب كبير من الاهمية فى نظرية هذا التيار الذى قاده الاستاذ الامام ·

وفى شهر يناير سنة ١٨٨٢ م تطورت الاحداث الوطنية والسياسية على نحو زاد من اقتراب الشيخ محمد عبده وتياره الاصلاحى من مواقع الثورة والثوار، فلقد اتفقت حكومة «غامبتا» الفرنسية مع حكومة «غلادستون» الانجليزية على أن حصول مصر على الحياة النيابية والدستورية هو بمثابة انعتاق لهذه البلاد من طوق التخلف، ومن ثم ضعف الامل فى ايقاعها فى قبضة الاستعمار الاوربى الزاحف على بلاد الشرق، وأن التدخل ضد النظام الثورى فى مصر هو أمر لابد منه، وأن باب حماية العرش الخديوى هو المدخل الى هذا التدخل الاستعمارى ·· وفى ٨ يناير سنة ١٨٨٢ م جاءت المذكرة الثنائية (الانجليزية - الفرنسية) الى مصر تتحدث عن عزم الحكومتين على حماية عرش الخديو توفيق؟! وعدت هذه المذكرة بمثابة اعلان للحرب على الحركة الوطنية المصرية، ووجد الشيخ محمد عبده وتياره أن وطنهم فى خطر، فأذاب هذا الخطر الجديد بعضا من تحفظاتهم ازاء النظام الجديد · وكما يقول «بلنت»: «·· هنا وجد المصريون أنفسهم متحدين لاول مرة ·· ليس فيما يتعلق بالحزب الوطنى وحده، بل فيما يتعلق بجميع الاحزاب والطبقات، وانضم الشيخ محمد عبده والازهريون المعتدلون الى الحزب المتطرف بكل قوتهم» (٨) ·

وبذلك التجمت من جديد، أمام هذا الخطر الاجنبى، تلك الاجنحة الثلاثة التى خرجت من تحت عباءة جمال الدين الافغانى وحزبه الوطنى الحر · جناح عرابى ·، وجناح النديم، وجناح محمد عبده ·· وعاد الحزب الوطنى الحر من جديد حزب «الثورة»، عندما تمت لصفوفه هذه الوحدة، والتقى الجناح الاصلاحى بأولئك الذين سلكوا طريق الثورة منذ بداية الطريق ··

معتدلون فى صفوف الثورة

ورغم هذه الوحدة الوطنية التى تمت لصفوف الثوار منذ مظاهرة عابدين، والتى زادت درجتها منذ برزت نوايا التدخل الاستعمارى فى شئون البلاد، الا أن التيار الاصلاحى الذى كان يقوده الشيخ محمد عبده، قد ظلت له بعض القسمات المميزة، حتى بعد انضمامه لصفوف الثورة والثوار، فنحن نستطيع أن نميز فى هذه الفترة مجموعتين من الظواهر والوقائع والاحداث والاراء تكونان خطين متوازيين فى حياة هذا التيار، كما عبر عنها الشيخ محمد عبده:

المجموعة الاولى: تتمثل فى المواقف والاراء التى تدل على أن الرجل وان اقترب من مواقع الثورة والثوار، وساهم فى صنع احداثها فى تلك الفترة، الا أنه ظل يمثل الاتجاه الاقرب الى «الاصلاح» فى صفوف «الثوار» ·· واذا جاز التعبير، قلنا: انه يمثل الجناح «المعتدل» فى صفوف الثورة العرابية ··

١ - فعندما يجتمع مجلس شورى النواب فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ لمناقشة مواد الدستور الجديد، تظهر فى صفوف النواب الاتجاهات الثورية، وكان أصحابها قلة من حيث العدد، بينما يقف فى الجانب «المعتدل» أكثر النواب، ويتحدث «بلنت» عن هذه الاغلبية المعتدلة فيقول: «ان أغلبيتهم - بسبت، كأصدقائى الازهريين، ميالة للاعتدال» ويذكر أن الشيخ محمد عبده كان زعيما لهذا الاعتدال، وأنه قال يومئذ: «لقد لبثنا عدة قرون فى انتظار حريتنا، فلا يشق علينا أن ننتظر الان بضعة أشهر» (٩)

٢ - وعندما أصر الاتجاه الثورى فى الحركة الوطنية على حق مجلس النواب فى مناقشة

(٧) المصدر السابق ص ٧٩٥ - ٧٩٧

(٨) المصدر السابق ص ٢٥٠

(٩) المصدر السابق ص ٢٣٠، ٢٣٦، ٢٣٧

ميزانية الدولة واقرارها ، وعارضت ذلك الدول الاوربية صاحبة الديون على مصر ، والمراقبون الماليون الذين يمثلونها فى القاهرة ، وقف الاتجاه المعتدل الى جانب استثناء الميزانية من المناقشة فى المجلس ، ونشط محمد عبده على رأس هذا الاتجاه ، فجمع أعيان البلاد الاعضاء بمجلس شورى النواب فى ١٧ يناير سنة ١٨٨٢ كى يناقشهم فى هذا الامر مع أصدقائه « بلنت » و « لويس صابونجى » ولقد نجحوا فى اقناع النواب بتعديل ثلاث أو أربع مواد كانت محل معارضة المراقبين الماليين السياسيين .. ولكن النواب أصروا على ضرورة مناقشة المجلس لميزانية البلاد (١٠)

٣ ــ وعندما يمتدح الشيخ محمد عبده وزارة **شريف** باشا ، التى خلفت وزارة **رياض باشا** ، وسبقت وزارة **البارودى** يصف رئيس النظار وزملاءه بأنهم يعملون « فى تمهيد سبيلنا وازالة العقبات منه ، **متوسلين الى ذلك بالحكمة والاعتدال آخذين بأسباب التؤدة ومراعاة الاحوال** » (١١) .

ثم يخطب فى حفل أقامه النواب بمناسبة التصديق على لائحة مجلسهم ، فيتحدث عن « ان الفضيلة **وأن تفرعت أصنافها الا أنها ترجع الى أمر كلى وهو الاعتدال فى السير الانسانى** » (١٢)

٤ ــ وهو عندما يقيم هذه المرحلة الجديدة التى دخلتها مصر فى تاريخها الحديث ببدء الثورة العرابية ، يحدد أن البلاد لا تزال فى أول مراحل الطريق ، طريق السياسة والحرية ، والاعتدال عنده هنا لا يعنى التوقف عند هذه المرحلة الابتدائية ، بل بالعكس يعنى ضرورة التقدم ، ولكن مع **المرور بسائر الدرجات** ، أى الاستمرارية فى التطور ، دون طفرة قد يحبذها « الثوار » فيكتب فى هذا المعنى مخاطبا المواطن المصرى فيقول : « فأنت أيها الوطنى فى أول درجة من مرقاة السياسة ، وفى أول مرحلة من طريق الحرية ، فلن تبلغ الدرجة العليا الا اذا **صعدت سائر الدرج ولن تدرك الغاية القصوى ما لم تقطع سائر المراحل** ، فان حاولت غير ذلك لم تأمن الهبوط من الدرجة التى بلغت ، والرجوع من المرحلة التى وصلت ، بل ربما صرت على مسافة أعوام مما كنت ترجو ادراكه بأيام » (١٣)

٥ ــ وعندما تشيع فى صفوف الثورة والثوار أفكار عن اعلان الجمهورية فى مصر ، كرد فعل لانحياز الخديو توفيق الى صفوف الاعداء ، ويسجل البارودى واقعة وجود هذه الافكار بقوله « لقد كنا نرمى منذ بداية حركتنا الى قلب مصر الى جمهورية ، مثل سويسرا ، وعندئذ كانت تنضم الينا سوريا ويليها الحجاز . ولكننا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة لانهم كانوا متأخرين عن زمنهم ، ومع ذلك سنجتهد فى جعل مصر جمهورية قبل أن نموت .. (١٤) عندما يتبنى التيار الثورى فى الحركة الوطنية مثل هذه الافكار ، يعترف الشيخ محمد عبده بأنه قد وقف ضد هذه الافكار ، لان الجهل لم يكن يمكن البلاد يومئذ من الرقى الى النظام الجمهورى (١٥)

٦ ــ وعندما تشتد أزمة الثورة بسبب التهديد البريطانى المسلح ، والمتمثل فى الاسطول الذى دخل مياه الاسكندرية فى يونيو سنة ١٨٨٢ م يبحث الناس عن حل سلمى للازمة ، وعن رسول معتدل يذهب الى لندن لعرض القضية على المسئولين هناك ، فتميل الاراء الى أن يكون هذا الرسول هو الشيخ محمد عبده ، ويكتب « بلنت » كيف انه اجتمع فى ١٩ يونيو سنة ١٨٨٢ م مع محمد عبده ونديم والبارودى وتحدثوا فى الوسائل السلمية لعبور الازمة « فقال عبده انه أجمع رأيه على أن يجمع جميع الوثائق والمستندات التى لديه او التى يستطيع حيازتها ويذهب بها الى انجلترا ، لكى يعرضها بنفسه على المستر غلادستون والبرلمان الانجليزى ، وسيأخذ معه أحد وجهاء التجار وأحد الاحرار (أى أعضاء الحزب الوطنى الحر) ممن ينوبون عن الفلاحين فوافق محمود سامى على هذا الرأى ، وقال : انه هو أيضا يود أن يذهب الى أوربا لهذه الغاية » (١٦) وبالطبع ما كان لاحد أن يفكر فى ارسال النديم أو عرابى أو محمد عبيد ، مثلا ، لمثل هذه المهمة فان اعتدال الشيخ محمد عبده كان أهم عامل يرشحه لمثل هذه السفارة الى لندن فى ذلك التاريخ . بل ان « بلنت » أرسل الى « لويس صابونجى » برقية

---

(١٠) المصدر السابق ص ٢٥٤ ، ٢٥٥
(١١) الوقائع المصرية ، مقال « الحياة السياسية » فى ٩ نوفمبر سنة ١٨٨١ م
(١٢) المصدر السابق ، مقال « مقابلة الشكر بالشكر » فى ٢١ فبراير سنة ١٨٨٢ م
(١٣) المصدر السابق ، مقال « الحياة السياسية » فى ١٠ نوفمبر سنة ١٨٨١ م
(١٤) التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر ص ٤٥٣
(١٥) المصدر السابق ص ٦٣٧
(١٦) المصدر السابق ص ٤٥٣

من « لندن » فى ٥ يوليو سنة ١٨٨٢ يقول له فيها « يجب الا تعاكسوا الاسطول أرسلوا عبده الى غلادستون » (١٧)

ولقد كانت هذه الاراء والمواقف المعتدلة التى اتخذها الشيخ محمد عبده ، وهو فى موقع الثورة وبين الثوار ، امتداد طبيعيا لفكره السابق ، ونهج التيار الفكرى والسياسى الذى ارتبط به ومثله ، فى الفترة التى سبقت الانضمام الى العرابيين كما كانت انسجاما طبيعيا مع تكوينه العقلانى والنظرى (التأملى) ومزاجه الميال الى الاعتدال ، وتعبيرا عن مواقف القوى الاجتماعية التى وقفت من قضية التقدم والتحرر موقفا متميزا عن موقف« العامة والجماهير » .

والمجموعة الثانية : من الظواهر والوقائع والاحداث والاراء التى عايشت ظاهرة «الاعتدال » هذه فى تلك الفترة التى انضم فيها تيار محمد عبده الى الثورة العرابية ، وزاملت ظاهرة الاعتدال هذه ، وكونت معها تلك **الازدواجية** التى ميزت موقف الرجل وتياره ، هى **تلك التحولات الفكرية التى اقتربت به من مواقع الثوار الفكرية ومواقفهم العملية** ، بعد أن كان يقف بعيدا عن هذه المواقع يناهض ما لاصحابها من أفكار . ونحن عندما نقرأ كتاباته السياسية فى هذه الفترة من حياته نشعر بأنه يهاجم آراءه هو نفسه التى قالها قبل انضمامه للعرابيين ولعله كان يناقش يومئذ أولئك الذين ظلوا على موقفه الفكرى القديم ، واحتفظوا بالزعم القائل ان مصر ليس لها « رأى عام » تستحق به أن تنال الدستور والحياة النيابية والحكومة القانونية المقيدة بهذه القيود .

١ ــ فبعد أن كان ينكر أن فى مصر «رايا عاما » يجعلها أهلا للحكم الدستورى النيابى عدل عن هذا الموقف ، وكتب يقول « **ان أهالى بلادنا المصرية دبت فيهم روح الاتحاد وأشرقت نفوسهم منه على مداوك الرأى العام** .. فهم بهذا الاستعداد العظيم أهل لان يسلكوا طريق الشورى ، وسن قانون يراعى فيه ضبط المصالح على الوجه الملائم ، يتبادلون فيه الافكار الحرة ، والاراء الصائبة ، فلهذا أجمعوا رأيهم على تأليف مجلس الشورى ، وصدرت الاوامر السامية بانتخابهم نوابا حسب ما قضت به نواميس الحرية ، وانشرحت صدور الناس عامة بهذا الامر ، واستبشروا بما يكون من عاقبة هذا المسعى الجليل .. (١٨)

٢ ــ وعندما تتعرض التجربة المصرية الوليدة فى الحكم الدستورى الشورى النيابى لهجمات الخصوم وانتقاداتهم ، ويطلقون ضدها نفس الحجج التى أطلقها من قبل الشيخ محمد عبده قبل انضمامه للثورة يتصدى الشيخ محمد عبده لهؤلاء الخصوم ويسوق ضد حججهم نفس الادلة التى قدمها العرابيون منذ البداية فيقول : « **ان بلادنا المصرية ، بلا ريب ، لا فرق بينها وبين بلاد أخرى تحققت فيها الشورى ونالت منافعها وعادت عليها فوائدها .. ان ابناء قطرنا المصرى وقد انتقلت أفكارهم من مركز الرقدة الى مجال الجولان فى المنافع والمضار ، ووجوب السعى لطلب الاولى من طرقها ، ولزوم الاجتهاد فى دفع الثانية** » ..

وبعد أن يتحدث عن « الخواص » الذين حصلوا طرفا من المعارف والعلوم .. يتقدم خطوة هامة جدا ليقول لنا ان التطور الثورى قد شمل « العامة والجماهير » ولم يعد وقفا على الخاصة من المثقفين ، فيقول : « **ولا نخص ذلك بالخواص ، فان العامة ، وهم أهل الاعمال البدنية المستغرقة لبياض النهار وسواد الليل قد انتقلوا عما كانوا فيه من قبل بكثير** ، وان كان الانتقال فى كل من الفريقين ــ (الخواص والعوام) على درجته اللائقة به ، المناسبة لما اكتسبه من المعارف أو **التجربة أو تأثير الحوادث أو غير ذلك** من أسباب الانتقال من حال الى أعلا منه فى الوجود » (١٩) .

ونحن نلحظ فى هذه العبارة الاخيرة تطورا هاما فى تفكير الرجل ، فلم تعد المعارف والعلوم هى السبيل الوحيد لانتقال الانسان من حال الى حال أعلا منه فى الوجود ، وانما هو قد أضاف الى هذا العامل عوامل أخرى منها « **التجربة** » و « **تأثير الحوادث** » وغيرهما .. وهى العوامل التى أتت بها الثورة العرابية، فخلقت روحا جديدا فى حياة الناس انتقل بهم الى طور جديد من أطوار الحياة ..

٣ ــ وفى مقالاته عن (**الحياة السياسية**) يحدد أن الذين يستحقون أن تكون لهم الحقوق فى التمتع بالحريات العامة : حرية الرأى وحرية القول ، وحرية الانتخاب ، هم الذين حصلوا القدرة على امتلاك « الادب السياسى » الذى لابد فى تحصيله « من الطلب والاجتهاد ، وحسن الاقتداء ، ودقة النظر ، والتبصر فى أحوال الناس من قبل

(١٧) المصدر السابق ص ٨٠ .
(١٨) الوقائع المصرية عدد ١٢٩٠ مقال« الشورى والقانون » فى ٢٥ ديسمبرسنة ١٨٨١ م .
(١٩) المصدر السابق . مقال « فى الشورى » ١٣ ديسمبر سنة ١٨٨١ م .

وفى الحال » (٢٠) ولكنه ينتهز هذه الفرصة ليزيل ما قد يتبادر الى الاذهان من أن هذا « الادب السياسى » هو وقف على « خاصة » الامة ، وفئاتها المستنيرة فيقول : « على أن الادب السياسي وان لم يتيسر عمومه فى الامة ، الا أنه قد يحصل لافراد كثيرة منهم ، على مقادير مختلفة ، فيمكن لمجموعهم أن يسيروا فى سبيله آمنين مهتدين اقتداء وتقليدا ، ويتدرجوا به فى مراتب الحياة السياسية حتى يتوالى التكرار ويطول الاستمرار فيصير فيهم من الملكات الذوقية التى تعرف ولاتعرف كما كان العرب فى الجاهلية بالنظر الى اللغةينطقون بالكلام المركب بالوضع ولا يعرفون له من قاعدة غير الذوق » (٢١) فهو هنا يثبت امكانية تحصيل « العامة » للادب السياسى ، ومن ثم استحقاقهم التمتع بحقوقهم فى حرية الرأى والقول والانتخاب .. وذلك دون أن يكونوا مثقفين قد تحصلت لهم وتوفرت لديهم المعارف والعلوم .

٤ ـ وهو يحدد لنا طبيعة المرحلة التى أوصلت الثورة الشعب اليها وقادته الى رحابها ، ويسميها مرحلة « الوطنية » التى برزت فيها عاطفة التعلق بالوطن ، وظهرت فيها ملامح القومية وقسماتها ، ويحدد العوامل المادية والمعنوية التى جعلت جامعة الوطن رباطا يجمع أبناءه بصرف النظر عن العقيدة والاصل العرقى والدين ، فيقول : « ان فى الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة ، تشبه أن تكون حدودا (أى تعريفات) :

الاول : انه السكن الذى فيه الغذاء ، والوفاء ، والاهل والولد .

والثانى : انه مكان الحقوق والواجبات التى هى مدار حياة السياسة (وهما حسيان) .

والثالث : انه موضع النسبة التى يعلو بها الانسان ويعز ، أو يسفل ويذل (وهو معنوى محض) فاذا تقرر ذلك .. وجب على المصرى حب الوطن من كل الوجوه » .

ثم يمضى ليشن هجومه على اولئك الذين يزعمون أن مصر لم تبلغ طور « الوطنية » ولم توجد بها هذه العاطفة بعد ـ وكانوا يريدون ارجاع تبعيتها للعثمانيين ـ فيقول : « **ولقد كان بعض الناس يحاولون خلع الشعار الوطنى عن ذوى الحقوق والواجبات فى مصر ، والباسهم جميعا لباس الجهالة والذل . ولكن أبت الحوادث الا أن تثبت لنا وجودا وطنيا ، ورأيا عموميا ، ولو كره المبطلون** » (٢٢)

٥ ـ ويتصدى لاولئك الخصوم الذين يحتجون بماضى هذا الشعب الذى عاش فيه اسير انظمة الاستبداد والاسترقاق ، يحتجون بهذا الماضى على عدم اهليته للتحرر والديمقراطية ، فيقول : ان هناك « فئة لا يزالون يؤلمون اسماعنا بما يكررون من سفاسف القول ، من مثل : اننا تعودنا احتمال الظلم والحيف ، وألفنا الخدمة والرق ، فلن يستقل لنا رأى ، ولن نهتدى سبيل الحرية ـ كانما هم لا يعلمون أن أهل الغرب أجمعين تعودوا مثل ذلك الحيف اعصارا ، وكانوا فى قديم الايام على ضروب من الرق وانخفاض الجناح ، وأن العالم بأسره كان فريقين : أحرارا يظلمون ، وعبيدا يطيعون » ثم يشير الى فضل الثورة الفرنسية فى تحرير أوربا والى الامال المعلقة على أن تحرر الثورة العرابية شعبنا من رقه ، فيقول : « ولئن كان من فضل هذه المائة (القرن التاسع عشر) أن يكتب فى صدر تاريخها تحرير أرقاء العصر السالف ، فلقد رجونا وحقق الله هذا الرجاء ـ أن يختم ذلك التاريخ بتحرير الذين كانوا أرقاء فى هذا العصر ، وحسن ذلك ابتداء وحسن ذلك ختاما » (٢٣)

٦ ـ وبعد اجراء انتخابات مجلس شورى النواب اتخذ خصوم الثورة من دخول بعض الجهلة وقليلى الكفاءة الى المجلس حجة للطعن فى هذه التجربة ، وقالوا : ان مصر ليست أهلا لهذه المؤسسات وأن هذا المجلس بدع بين المجالس النيابية فى العالم ، فتصدى الشيخ محمد عبده لمناقشة هذه الاراء وتفنيدها ، وقال ان هذا هو حال كل المجالس النيابية فى كل البلاد لا يمكن أن تخلو من مثل هذه العناصر ، والعبرة بوجود العناصر التى يحقق وجودها الغاية من وراء قيام هذا النظام ، وعندنا « لا يخلو المنتخبون من أن يكون غالبهم من أهل الدراية والمعرفة وأرباب النظر والفكر ، الذين يعرفون ما هى الشورى ، وما هو المقصد منها وما هى المنفعة للبلاد ، وما هو الطريق الموصل اليها . وقد وقع الانتخاب على كثير منهم فى هذه المرة لمجلس النواب ، ولا نشك فى أن هذا العدد فيه الكفاية التامة لتحقيق منفعة الشورى المقصودة منها فى بلادنا المصرية . فان أى قطر لا يكون المجموع فيه للمشورة الا على هذا

---

(٢٠) المصدر السابق . مقال « الحياة السياسية » فى ١٠ نوفمبر سنة ١٨٨١ م
(٢١) المصدر السابق . مقال الحياة السياسية » فى ١٣ نوفمبر سنة ١٨٨١ م
(٢٢) المصدر السابق . مقال « الحياة السياسية » فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٨١ م

الناس ... يضرنا أن يكون القليل ليسوا كالكثيرين فى هذه الصفات ، كما لم يضر فى أحد الممالك المتمدنة وجود مستشيرها على هذا المنوال ، بمعنى أن غالبهم كالغالب عندنا ، والقليل منهم كالقليل منا ، ومع ذلك نالوا ثمرات الشورى ، فالقول اذن بأنهم هم ينالونها ونحن نحرم منها ، مع تساوى الامر بيننا وبينهم ، مما لا يصح فى الاذهان ولا تقوم عليه حجة ولا يؤيده برهان » (٢٤) ٠

٧ ـ ولم يقف الشيخ محمد عبده عند حد الدفاع عن هذه التجربة الثورية ، والتصدى للـذين يجتهدون للنيل منها والتسفيه لمؤسساتها ، وانما اجتهد فى الادلاء بآرائه البناءة التـى تعكس المواقف الفكرية للتيار الذى قاده وعبر عنه فى صفوف الثورة العرابية ، وقدم هذه الاراء كى يتضمنها الدستور الذى كانت مواده مـوضع مناقشة فى مجلس شورى النواب٠ وفى احتفال اقامته جمعية (**المقاصد**) بمناسبة التصديق على لائحة مجلس النواب ، دعاه عبد الله النديم الى الخطابة ، فألقى الرجل كلمة ضافية ـ فى وجود البارودى وعرابى وغيرهما من النظار والضباط ـ حدد فيها المبـادىء الاساسـية التى يجب أن يتضمنها قانون البلاد الاساسى (الدستور) وذلك مثل :

أ ـ التأكيد من أن حكومة هـذه البلاد هـى حكومة قانونية ، أى مقيدة بالدستور والقوانين ٠

ب ـ النص على دور مجلس شورى النواب فى مساعدة الحكومة فى حكم البلاد ٠

جـ ـ النص على السعى لتعميم المعـارف والعلوم فى البلاد ، وذلك لتربية الاعداد اللازمة لتولى مسئولية النيابة عن جماهير الناس ٠

د ـ النص على وجوب تحسين التربية التى تكسب الفضيلة والشرف ، وذلك حتى تصيـر المصلحة العامة أهم من المصلحة الخاصة عند من يتصدون للمصلحة العامة ، وحتى لا يلتمس احدهم « منفعته الا من طريق منفعة العموم » ٠

هـ ـ النص على ضرورة ووجوب اطـلاق الحريات العامة « حرية المجامع (الاجتماعات) ، والمطابع ، والافكار ، والاعمال ، والاقوال ٠٠ على شريطة أن يكون هذا الاطلاق تحت قانون عـدل يرسم الحدود ، ويبين الواجبات على تفصيل يرفع الابهام وتبيين يزيل الالتباس » ٠

و ـ النص على ايجاد الحوافز « وتقرير أمر المكافأة لمن أتى بعمل غريب وجاء بصنع بديع ، حتى يكون سائقا للنفوس على التفكر والتدبر فى الوصول الى ما يستحقون عليـه المكافـأة والامتياز » ٠

ز ـ القيام بوضع القوانين الحديثة والـملائمة والنظامات التى « تكون الحد الفاصل بين الحق والباطل ، والصحيح والفاسد » ، فى مختلف جوانب حياة المجتمع المصرى الجديد (٢٥) الخ ٠٠

وهكذا احتل الشـيخ محمد عبـده ، والتيـار الفكرى والسياسى الذى مثله وعبر عنه ، مكانة فى الحركة الثورية العرابية ، وتحول الى صوت يدافع عن ايجابياتها ، بعد أن كان صوتا يهاجم هذه الايجابيات ، والى مساهم فى بناء الحياة الثورية الجديدة والتاريخ الجديد لوطننا الذى بـدأ بمظاهرة عابدين فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ م ، بعد أن كان بعيدا عن هذه الظاهرة الثورية ، ينتقدها من موقع المثقف الذى عزل نفسه عن مجال التأثير الثورى والتأثر بالثورة والثوار ٠

ولقد شهد النصف الاول من سنة ١٨٨٢ م تقدم الشيخ محمد عبده ، رغم خصائصه المعتدلة ، فى ميدان العمل داخل اطار الحركة الثورية العرابية ، حتى لا يجد الباحث وسط أحداث الثورة بدا من وضعه بين القلة القليلة التى يمكن أن يطلق عليها وصف القيادة لهذه الثورة خلال تلك الشهور ٠٠ **لقد كان واحدا من قادة هذه الثورة ، وان يكن الممثل للتيار المعتدل بين هؤلاء القادة الثوار ٠٠ فهو « اصلاحى » اعتقد أن « الثورة » قد حققت وستحقق الان ما عمل لتحقيقـه بعـد سـنوات وسنوات ٠٠ فارتبط بالثورة والثوار ٠ وهـو صاحب مزاج غير ثورى ساهم دفء الثـورة وحرارة الثوار فى اعطائه جرعة من الحماس جعلته يتقدم خطوات بعيدا عن موقع « المصلح » وقريبا من موقع « الثورى » ٠٠ وهو ممثل تيار فى الحركة الوطنية يومئذ ٠ تحول الى مدرسة فى الفكر المصرى وأسلوب فى العمل السياسى ، لعبت دورا خطيرا فى حياتنا ولا زالت مؤثرة حتى هذه الايام ٠**

هكذا كان موقف هذا التيار الاصلاحى من فكر الثورة وانجازاتها ٠ وهكذا تعايشت فى عقـل الشيخ محمد عبده وكتاباته ومواقفه ظاهرتا : الاعتدال ، والدفاع عن الثورة والمساهمة فى صنع أحداثها منذ انفجار أحداثها فى سبتمبر سنة ١٨٨١ م وحتى هزيمتها التى انتهت بـدخوله السجن مع زعمائها الاحياء فى سبتمبر سـنة ١٨٨٢ م ٠

(٢٣) المصدر السابق . مقال « الحياة السياسية » فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٨١ م

(٢٤) المصدر السابق . مقـال « فى الشورى » فى ١٣ ديسمبر سنة ١٨٨١ م

(٢٥) المصدر السابق . مقال « احتفال جمعية المقاصد بالتصديق على لائحـة النواب » فى ١٥ فبراير سنة ١٨٨٢ م

الثورة العرابية والملاك العقاريون



فتحى عبد الفتاح

في يوم ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ عاد الخديوى توفيق الى القاهرة فى حراســـة خمســـة آلاف جندى بريطانى (*)

وكان ثمة وجـوم حزين يخيـم على شــوارع القاهرة وبيوتها مثلما هو فى كل القرى والمدن بعد هزيمة **أحمـد عرابى** والجيش المصرى فى التل الكبير ، ودخول قوات الاحتلال الى القاهرة ومعهم الامر العالى الذى اصدره الخديوى بأن « قائد الجيوش البريطانية العام قـد أتى الى مصر لاعادة الأمن والنظام ومن ثم فقد سـمحنا له باحتلال جميع الامكنة التى يرى فى احتلالها ما يســـاعد على قمع العصيان » .

وكان على رأس قوات الاحتـلال التى دخلت القـاهرة « محمد سـلطان باشا » يدلهم على الطريق . وهو نفس محمد سـلطان الذى كان منذ ما لايزيد عن ثلاث ســنوات [١٨٧٩] قد اشترك مع عدد آخر من كبار الملاك منهم **سليمان أباظة وحسن الشريعى ومحمد شريف واسماعيل راغب** فى تكوين ما سمى بالحزب الوطنى والذى طالب فى أول برنامج نشر له فى ٤ نوفمبر سنة ١٨٧٩ بأن تكون مصر للمصريين وبضرورة انقاذ مصر من الاستغلال الاجنبى الذى كان يتمثل فى ذلك الوقت فى صندوق الدين ووجـود وزراء يمثلون نفوذا أوربيا خاصا .

والواقع أن هذا الموقف من جانب ســلطان باشا كمعبر عن الطبقة الارستقراطية الزراعية الحديثة النشأة ، سواء فى التأييد الاولى للثورة العرابية ثم بعد ذلك فى معاداتها والتحالف مع قوى الاحتلال الاجنبى انمايعبر تعبيرا خاصـا عن نشأة وتطور طبقة كبار الملاك المصريين فى

تلك الفترة ، فترة وضع أسس الملكية الفردية فى مصر وخلق الارستقراطية الزراعية وهى نفس الفترة التى سبقت بقليل الثورة العرابية ثم واكبتها ..

طبقة بلا تراث

والقول بأن مصر لم تشهد فى تاريخها قبل محمد على « نبالة زراعية » فيه كثير من الحقيقة، اذ أن الحكام وكبار الموظفين والعسكريين الذين كانوا يستولون تاريخيا على ريع الارض فى مصر لارتباطهم بالحاكم وأجهزته المركزية ، عاشوا يحتقرون العمل الزراعى ، بعيدين عنه يقيمون فى المدن ويحكمون القرى بأجهزة الدولة المركزية التى هم جزء منها ، **ولهذا كانت الصفة الاولى للارستقراطية الزراعية فى مصر انها ارستقراطية بيروقراطية تحصل على الريع الزراعى من خلال أجهزة الدولة وليس من خلال الملكية التى ظلت تاريخيا وحتى المرحلة الاخيرة من حكم محمد على فى يد الحاكم وحده .**

وطوال فترة حكم المماليك ثم الاحتلال العثمانى الذى استمر أكثر من ٥٥٠ عاما نظرا لان السلطة كانت تنتقل من وال لآخر ومن حاكم له أتباع معينون الى حكام يتبعهم مجموعات أخرى فانه فيما عدا العائلات المملوكية والتركية وبعض العائلات العربية فاننا لانجد عائلات مصرية لها تراثها فى المشاركة فى الحكم وبالتالى فى الملكية الاقتصادية أو الاستقلال الاقتصادى،ولئن كنانعثر فى بعض الاحيان فى تاريخ مصر أيام المماليك والعثمانيين على بعض العائلات المصرية التى لها تراث واستمرار فى أجيال عديدة فهى بعض العائلات المقيمة فى المدينة من التجار أو من رجال الدين ..

ولقد قام محمد على بعد الغائه لنظام الالتزام باعادة توزيع الاراضى وهو يستهدف مثلما أكد **يعقوب ارتين باشا** تكوين طبقة من كبار الملاك لتكون سندا لحكمه ولعائلته من بعد ذلك ..

وعلى الرغم من احتفاظ محمد على بحق الرقبة الا انه قام بتوزيع الجزء الاكبر من الاراضى الزراعية على عدد محدود من افراد أسرته وكبار الموظفين ومشايخ البلد والأعراب والمتعهدون فى شكل جفالك وأبعاديات ومسموح مشايخ ووسايا وأراضى عرب وأراضى عهدة ..

وكان أغلب « الملاك الجدد » من المماليك والاتراك والجراكسة ، ربما فيما عدا العمد والمشايخ الذين استفادوا من مسموح العاطب ، وهوالذى كان يمثل حوالى ٤٪ من زمام القرية تمنح لهم يستغلونها ويسخرون فيها أهل القرية لصالحهم ..

كما أن أغلبهم لم يكن يعمل بالزراعة ولا يهتم بها ، ويقيم بعيدا فى العاصمة أو المدن ، مع استثناء العمد ومشايخ البلد وان كان تطورهم بعد محمد على قد مضى فى نفس اتجاه الملاك الآخرين وهو الاقامة فىالمدينة والبعد عنالعمل الزراعى .

كذلك فمن الواضح أنهم حصلوا على الاراضى الواسعة التى منحت لهم من خلال شغلهم لمناصب ادارية فى أجهزة السلطة وليس لدور انتاجى لهم فى مجال الزراعة ..

وبالرغم من أنه من الناحية القانونية لم تكن الارض ملكا خالصا لهم ، اذ كان حق الرقبة فى يد الحاكم ، الا انه من الناحية العملية كانوا يتمتعون بكل حقوق الملكية والتصرف ، وأكد هذا قرارات محمد على نفسه سنة ١٨٤٢ وما تلاها من قرارات سنة ١٨٤٨ والتى أعطت لهم حق الارث والبيع والرهن ..

ولقد سارت سياسة سعيد ومنبعده اسماعيل على نفس الخط العريض الذى رسمه محمد على وهو خلق ودعم طبقة كبار الملاك لتكون سندا اجتماعيا قويا لحكم الاسرة فى الاساس وما يتطلبه ذلك من مزيد من منح الاقطاعيات والابعديات مع التوسع فى حقوق الملكية ..

ومن الملاحظ أن القوانين التى صدرت فى اتجاه دعم الملكية الفردية للارض فى مصر فى سنة ١٨٥٦ ثمسنة ١٨٥٨ وهى المعروفة **باللائحة السعيدية الى قانون المقابلة** سنة ١٨٧١ كانت كلها تهدف وفى الاساس الى تحقيق هذا الغرض اذ واكبها توسع كبير أيضا فى منح الاقطاعيات والابعديات حتى أنه يمكن القول أن كل القوانين المنظمة التى صدرت فى تلك الفترة لتؤكد حق الملكية لم تكن فى واقع الامر سوى تحويل الاراضى الزراعية فى مصر « **من اقطاعية حكومية الى اقطاعيات خاصة تستغل الغالبية الساحقة من الفلاحين** » (١) ..

(١) صبحى وحيدة ــ اصول المسالة المصرية .

اسس توزيع الاراضى

ولقد رأينا ان هذه الارستقراطية الزراعية الجديدة التى خلقها محمد على تشكلت فى الاساس من عائلات اجنبية ... وهو أيضا خط ثابت التزم به كل من سعيد [١٨٥٤ ــ ١٨٦٣] ثم اسماعيل [١٨٦٣ ــ ١٨٧٩] .

ولقد تميز عهد سعيد بالكرم الواسع فى هذا المجال ، ولم يقتصر على منح الابعاديات لكبار الموظفين فقط بل وأيضا لكثير من الاجانب الذين بدأوا يمثلون جزءا هاما من حاشية سعيد بالاضافة الى انه جعل الابعادية مقابل استبدال بعض الموظفين والضباط عن معاشاتهم .

اما اسماعيل فقد كان اكثر كرما من سعيد وفى نفس الوقت اكثر جشعا واكثر حرصا على تدعيم الارستقراطية الزراعية بل واعادة تشكيلها بما يتفق مع مزاجه الخاص (٢) .

والوثيقة التى عثر عليها فى قصر عابدين وتحوى أسماء من أنعم عليهم الخديوى بالاقطاعيات الواسعة بلغت ٨٧٦٠٨٦٣ (٣) الف فدان تعطى نموذجا حيا لدور اسماعيل فى خلق وتدعيم شريحة كبيرة من هذه الطبقة اذ اننا من بين ١٠٧ أسماء حوتهم الوثيقة سنجد ٢٣ من الاسرة المالكة ثم أسماء أخرى تشمل الخدم الخصوصيين والشماشرجية [رؤساء الخدم] ونظار أراضي الخديو ومستشاريه فى الامور الخاصة ... ثم عددا من المحظيات والجوارى .

ولقد كان اسماعيل نموذجا للحاكم الذى لا يرتبط بأية قوانين موضوعة سوى قوانينه الخاصة حتى ولو كان جزء من هذه القوانين وضعت فى عهده ... ويشهد تاريخ اسماعيل أنه باسم الدولة صادر كثيرا من الاراضى بعضها كان فى حوزة الفلاحين الصغار وبعضها فى حوزة كبار الملاك وضم معظم هذه الاراضى الى ملكيته أو وزعها على معاونيه .

وهناك حكايات بشعة عن الاساليب التى استخدمها اسماعيل مستعينا بوزيره الأول فى تلك الفترة [اسماعيل باشا المفتش] فى سلب الكثير من الاراضى مستخدما سلاح الرى الخطير الذى كان تقليديا لعبة الحكام فى مصر . فلم يكن يستطيع اى مالك سواء أكان كبيرا أم صغير أن يرفض رغبات الخديوى فى ضم ارضه الى التفتيش الخديوى والا كان الجفاف التام عقابا له ولمحاصيله (٤) .

كما ان القرب او البعد عن رغبات الخديوى [الخاصة غالبا] كان مقياسا هاما لمنح الاقطاعيات ولسلب اخرى .

ولقد كان اسماعيل المفتش نفسه [الذى جمع للخديوى مساحات واسعة من الاراضى] احد ضحايا هذه السياسة حين غدر به الخديوى وصادر اراضيه التى كانت تبلغ ٣٠ الف فدان موزعة فى البحيرة والغربية ومحافظات أخرى .

ولقد تمثل هذا الموقف من جانب اسماعيل فى عدم التفرقة بين أمواله وأموال الدولة ، فحين تراكمت عليه الديون ووضع البلاد على شفا الافلاس تم بيع ٤٢٥٫٧٢٩ الف فدان من املاك أسرته الى الدولة كضمان لديونه لبنك روتشيلد وحده والتى بلغت ٨٫٥ مليون جنيه استرلينى .

وحين احتاج الى المال للسفر الى باريس للاشتراك فىمعرض باريس سنة ١٨٦٧ للحصول على لقب خديوى عرض قرضا مع بنك اوبنهايم بمبلغ ٣٫٧٠٤ مليون جنيه ورهن ضمانا لذلك أراضى مديرية الشرقية والدقهلية والجيزة (٥)

مغامرون ومضاربون

وهكذا نرى انه منذ الفترة التى بدأ فيها محمد على منح اقطاعياته الى ان برزت وتأكدت الارستقراطية الزراعية الجديدة فى ستينات وسبعينات القرن التاسع عشر تجددت هذه

---

[٢] ويلفريد بلنت ــ التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر [الجزء الاول ص٣١] ترجمة اخترنا لك .
[٣] حسين خلاف ــ تطور الملكية العقارية فى مصر [محاضرة ماخوذة عن كتاب التجديد فى الاقتصاد المصرى ــ مطبوعات المعهد العالى للدراسات الاشتراكية] .
[٤] ارتفعت أملاك اسماعيل فى تلك الفترة ويقدرها ويلفريد بلنت انها وصلت الى ٩٠٠ الف فدان او اربعة امثال ما كان يملك قبل وصوله الى الحكم [ويلفريد بلنت ــ التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر ــ الجزء الاول ص ٣٠ سلسلة اخترنا لك .
[٥] دكتور مصطفى عفيفى .. تاريخ مصر الاقتصادى والمالى [ص٢٤٥ ــ ٢٤٧] الطبعة الثانية [١٩٥٣] مكتبة الانجلو

الطبقة فى عائلات وأسر تتدرج كلها تحت المواصفات التالية .

١ ـ **الاسرة الحاكمة**

٢ ـ **كبار الموظفين وغالبيتهم من أسر غير مصرية .**

٣ ـ **شيوخ القبائل البدوية** ، وظلوا محافظين على التراث البدوى فى احتقار العمل الزراعى والفلاحين .

٤ ـ **العمد ومشايخ البلاد**

٥ ـ **كبار الملاك الاوربيين** الذين بدأوا يفدون الى مصر منذ أيام محمد على ثم ازداد دورهم أيام سعيد ولعبوا دورا كبيرا فى عهد اسماعيل حين جذبتهم تجارة القطن وبذخ اسماعيل وارتفاع سعر الفائدة .. وقدفتح ذلك الباب واسعاللبيوت المالية فى أوربا ، وفى الفترة بين سنة ١٨٥٧ ، ١٨٦١ كان يدخل البلاد حوالى ٣٠ الف أجنبى كل عام ، وبدا كما لو أن مصر قد تحولت الى كاليفورنيا جديدة تجذب اليها المغامرين الباحثين عن الذهب .. **واندفع الى مصر بيوت مالية وغرباء من القسطنطينية ولندن وباريس ومرسيليا والماليون الاقوياء وأصحاب المشاريع الفقراء والمضاربون والمغامرون والمزيفون** » (٦) .

ونشرت شركة التجارة المصرية ، وهى شركة انجليزية ، تقريرا لها جاء فيه « انه من المؤكد ان الزراعيين فى مصر يستطيعون أن يقترضوا بسعر ٤٠٥ ٪ فى الشهر وأن ميدان العمليات المالية ليس له حدود » ..

وخلال ذلك كانت ديون اسماعيل تتضخم من (٣٫٥ مليون ونصف سنة ١٨٥٩ الى ٩١٠ مليون سنة ١٨٧٧) وكان الطريق الوحيد هو بيع ورهن مساحات من الاراضي لبيوت مالية ومموليين أجانب ..

وقد أدى ذلك الى ان هؤلاء فى شكل أفراد أو شركات كانوا يملكون فى أواخر القرن التاسع عشر جزءا كبيرا من أخصب الاراضى فى مصر [١٠٫٩ ٪ من كل الاراضى المزرعة فى ذلك الوقت] أي ما يوازي ٥٥٠ الف فدان .

ملكية بالإكراه

هكذا كانت تتشكل وتتبلور الارضية الاقتصادية لكبار الملاك فى مصر فى سبعينات القرن التاسع عشر ، وفى نفس الوقت كانت تتبلور أرضية أخرى بالنسبة للفلاحين ويقصد بهم سكان القري العاملون فى الزراعة بأنفسهم والذين كان محمد على قد وزع عليهم ماتبقى من الاراضى بعد الجفالك الشفالك والوسايا ومسموح المشايخ والعربان من ٣ الى خمسة أفدنة .

وبغض النظر عما يحلو للبعض من اعتبار تنظيم محمد على للزراعة علي انه اصلاح زراعى فالثابت أن أعدادا كبيرة من الفلاحين نتيجة ازدياد الضرائب والتعسف فى جمعها والاستغلال المكثف فى احتكار المحاصيل والتوسع فى أعمال السخرة والارهاب ، قد فضلوا الهرب وترك الارض .

وفى عهد سعيد ثم اسماعيل لم تتوقف هجرة الفلاحين عن الارض بل انها زادت بشكل ملحوظ وفي الفترة من سنة ١٨٦٥ الى سنة ١٨٨٠ أى الفترة التي كانت فيها قوانين الملكية العظيمة إلا تتدعم وتتأكد ..

وقد أدت سياسة سعيد ومن بعده اسماعيل فى الغرق وفى البذخ ومحاولة التطور المظهري الى الغرق فى الديون ، ولم يكن أمامهم من مصدر محلى ينهبون منه الاموال اللازمة سوى الفلاح ، وفى سنة ١٨٥٦ زاد سعيد من الضرائب على الاراضى الخراجية [الاثرية] فجعلها ١/٣ المحصول بعد أن كانت الربع أيام محمد على . وقد أدى ذلك الى أن ترك كثير من الفلاحين أراضيهم « **حتى أن كثيرا من الفلاحين تقدموا بالتماسات برجاء اعفائهم من الارض الممنوحة لهم** » (٧) .

وكان اسماعيل أكثر احتياجا للمال نتيجة لازدياد ديونه وبذخه فقام بزيادة أخرى للضريبة فى ديسمبر سنة ١٨٦٤ وجعلها حوالي نصف المحصول بعد أن كانت الثلث أيام سعيد ..

وفي سنة ١٨٧٧ بلغت الضرائب من الارض الخراجية [ارض الفلاحين] حوالى ٣ ملايين و١٤٣ الف جنيه انجليزي في حين كانت ضرائب الاراضي العشورية (أراضي كبار الملاك) ٣٣٣,

---

[٦] بنوك وباشوات .. ترجمة عبدالعظيم أنيس ص ٦٦ [دار الكاتب العربى] .

[٧] على مبارك ـ الخطط التوفيقية.

الف جنيه استرليني وكان متوسط ضريبة الفدان على الارض الخراجيــة ١٦٢ر١ جنيه فى حين متوسط ضريبــة الفدان من الاراضى العشورية ٣٠ر. من الجنيه (٨) ..

وزادت هجرة الفلاحين وتركهم للأرض بالطبع، وزادت ايضا طلبات الاعفاء من تملك الارض، حتى أنه **صدر قرار بمنع اعفــاء « أى مالك من زراعة أرضه » سنة ١٨٦٥**، ومع ذلك استمرت الهجرة بشكل واسع ، أى أن كل الضجة التى يحلو للبعض أن يثيرها حول حقوق المــلكية العظيمة والتوسع فيها فى تلك الفترة لم يقنع جمــاهير الفلاحين بأن هناك تغييرا الى الاحسن ، على العكس كان اقتناعهم وبالتالى تصرفهم العملى غير هذا .. والفلاح المصرى الذى قاسى كثيرا من الالتزام والملتزمين ومن السناجق المماليك لم يكن يفكر بشكل واسع فى الهجرة ، بل ان احدى سماته طوال تاريخ مصر الطويل هى الارتباط بالارض ، ولــكن فيما هو واضــح فان ظروف الــكبت والاستغلال بالنسبة له ابتداء من « ثورة محمــد على الزراعية !! ثم اضافات سعيد واسماعيل جعلت الحياة غير محتملة ، فترك الارض وترك حقوق الملكية الاجبارية وهرب .

بل اننــا نجد منــذ محمد على وبالذات أيام اسماعيل فرقا خاصة للبحث عن الهــاربين من الارض لاعادتهم بالقوة وكم كان حظه تعسا ذلك الهارب الذى يقع فى الاسر من جديد فالفلكة والكرباج وسجن الدوار القذر هو أبسط جزاء له على رفضه نعمة الملكية ..

ولم تكن الضرائب وحدها وهى فى حد ذاتها مبرر كاف للهرب ، بل كانت هناك عوامل أخرى مثل التوسع فى أعمال السخرة والتى لم تعد قاصرة على المنافع العامة فقط بل كانت فى أغلبها فى أراضى كبار المــلاك من أصحــاب الجفالك والوسايا والابعديات ..

اما هؤلاء الفلاحون الذين لم يستطيعوا الهرب واعيدوا ليتملكوا اراضيهم ، فلقد كانوا يعيشون ظروفا غاية فى القسوة وكان احد الحلول التى لجأوا اليها فى محاولة للاســتمرار فى الحيــاة المفروضة عليهم أن لجأوا الى اقتراض الاموال ممن تتوفر لديهم وكانوا دائما من الاعيان [العمد والمشايخ] أو من المرابين الافراد والاجانب الذين جــذبهم القطن وانتشروا فى القــرية المصرية يقرضون الفلاحين مستغلين حاجتهم الشديدة ثم بعد ذلك ينزعون ملكيتهم .

الملاك المصريون

ولقد كان من النتائج الاساسية لهــذه الحالة اليائسة للفلاحين :

أولا : زاد كبار الملاك من مساحة اراضــيهم وخاصة العمد ومشايخ البلاد الذين كانت لهم سلطات ادارية واســعة منها تحــديد الاراضى المهجورة واعادة توزيعها ومنهــا أيضــا جمع الفلاحين لاعمال السخرة ، وقــد شــهدت هذه الفترة نموا أكبر فى القطاع المصرى من كبــار الملاك بتحول عدد من أعيان القرى الى ملاك كبار وأصبح الاعيان المصريون ــ كتفرقة لهم عن كبار الملاك الاخرين الذين كان معظمهم من أصل تركى وجركسى يمثلون أحد العمــد الاساســية للطبقة الاقطاعية الجديدة، **ولذلك كان من الطبيعى ان يتطلعوا فى هذه المرحلة لان يوضع لهم الاعتبار الاول فى تصريف أمور البلاد** مثل المطالبة بمجلس نيابى وبأن يكون لهم صوت مسموع فى القوانين التى تصدر .. **وحين تشكل الحزب الاهلى او الوطنى فى أواخر السبعينات كان كبــار الملاك المصريين هم عمده الاساسية لذلك أطلقت عليه الارستقراطية الاخرى [الجراكسة والاتراك] اسم « حزب الفلاحين »** .

ولعل هذا يفسر التحالف المؤقت الذى تم بين كبــار المــلاك المصريين وقطــاعات أخرى من العسكريين والمثقفين من أصحاب الفكر القومى المصرى [**مدرسة رفاعة الطهطاوى**] أو اصحاب الفكر الاسلامى الليبرالى (**جمال الافغانى**) فى المرحلة الاولى من الثورة العرابية ثم انســلاخ كبار الملاك المصريين وخيانتهم للثورة بعــد ذلك بعد أن وعدت قوات الاحتلال باتاحة الفرصــة أمامهم للمشاركة فى الحكم والحصول على مركز خاص ..

الفئات الوسطى

ثانيا : ربما كان بروز المــلكية المتوسطة فى هذه الفترة هى واحدة من سماتها الرئيسية، بل

[٨] كرومر .. مصر الحديثة ــ ص١١٤ ــ ١١٥ .

انها قدمت فى تاريخ الاستغلال الزراعى فى مصر طبقة لم تكن معروفة طوال هذا التاريخ الطويل .

ولقد كانت هناك سمة عامة لشكل وعلاقات هذا الاستغلال قبل صدور الملكية الزراعية وبعدها وانحصرت دائما فى وجود ارستقراطية حاكمة تحصل على الجزء الاكبر من ناتج الارض ، وقطاع واسع من الفلاحين يفلح الأرض فى ظروف قاسية .

ولهذا فان كبار الملاك الذين ثبتتهم قوانين الملكية ، كانوا عنصرا جديدا من زاوية التثبيت والاستمرار فقط ، ولكنهم بالتأكيد لم يكونوا عنصرا جديدا فى قوى الانتاج ، فطوال التاريخ الزراعى لمصر وأيا كان شكل استغلال الملكية ، كانت هناك دائما طبقة كبار المنتفعين بناتج الارض ، بل ويمكن تسميتهم فى عهد الالتزام بكبار الاقطاعيين ، وتكون لدى هذه الارستقراطية الزراعية تراث وتقاليد رغم عدم ثبات شكلها وشخوصها ، وبالطبع ورث كبار الملاك الجدد كل هذا التراث والتقاليد وأبرزه الغياب عن القرية والبعد عن العمل الزراعى نفسه واحتقاره وعدم الاهتمام بتطويره والاهتمام الى الحد الاقصى بالحصول على الناتج الزراعى ليس عن طريق الاهتمام بتطوير وسائل الزراعة وأساليبها بل باعتصار الفلاح نفسه مستخدمين كل اساليب الضغط والكبت والاكراه كذلك ، ومن ناحية أخرى فان طبقة صغار الملاك والمعدمين وهى الطبقة التى تجددت فى منتصف القرن التاسع عشر بعد ثبوت قوانين الملكية ، ليسوا هم الاخرون طبقة جديدة على المجتمع الزراعى المصرى ، فلقد ورثوا كل تراث الكبت والضياع والخوف والمهانة وأيضا الارتباط بالأرض طوال التاريخ الطويل لاجدادهم وبالذل فى الفترة السوداء التى امتدت منذ الغزو العثمانى والسيطرة المملوكية .

ولكننا نجد فى الخريطة الطبقية للملاك الزراعيين فى سبعينات القرن التاسع عشر طبقة متوسطة جديدة تماما تسيطر على مساحة من الاراضى تبلغ نسبتها ٣٧٪ من الاراضى المنزرعة فى ذلك الوقت والتى كانت تبلغ ٤٫٧١٢٫٢٠٠ مليون فدان .

فمن أين جاءت هذه الملكية ..؟

لقد رأينا محمد على واسماعيل يمنحون الاقطاعيات والابعديات ولم يحدث أن منح واحد منهم اقطاعية أقل من ١٠٠ فدان ، ومن ناحية أخرى كان الفلاحون الذين وزع عليهم محمد على الارض للانتفاع يملكون بين ٣ ، ٥ أفدنة حسب تقسيم محمد على ... فكيف تكونت اذن هذه الطبقة الوسطى ؟

ان هناك عددا من الظروف التى ساعدت فى تلك الفترة على ظهور هذه الطبقة وتعود فى الاساس الى ثبات الملكية الزراعية واتساع فرص البيع والشراء ...

ولذلك نلاحظ أن قطاعا هاما من الملكية الزراعية المتوسطة تمثل فى استحواذ عدد من الموظفين وساكنى المدن ، وخاصة التجار على الحدائق التى كانت منتشرة فى أماكن متفرقة وتبلغ مساحتها بين ١٠ و ٢٠ فدانا (٩)

كما جاء قطاع هام من هذه الملكية المتوسطة الزراعة من متوسطى الموظفين والضباط الذين استن سعيد لهم تشريعا باعطائهم مساحات من الارض فى مقابل معاشهم ، مثلما كان يحدث مع كبار الموظفين والقادة العسكريين ، مع فارق بالطبع هو حجم الملكية الممنوحة . وقد كانت منح سعيد ثم اسماعيل للضباط تتراوح بين ٥٠ و ١٥٠٠ فدان وذلك وفقا لرتبة الضابط ابتداء من صاغ وبمباشى فقائمقام واميرالاى ..

كذلك مثل العمد والمشايخ قطاعا هاما من هذه الطبقة وخاصة هؤلاء الذين كانوا أكثر ارتباطا بالقرى التى يعيشون فيها ولم تتح لهم الظروف ، أو رفضوا استغلال الظروف التى كانت تتيح بما لهم من سلطات الاستيلاء على مساحات واسعة من الارض والانضمام الى الشرائح العليا من كبار الملاك ..

ولذلك فنحن أميل الى الاعتقاد بأن من لعبوا دورا ايجابيا فى الثورة العرابية كانوا ينتمون بشكل أو بآخر لهذه الطبقة سواء أكانوا من الجناح العسكرى أو الجناح المدنى ..

وهكذا ومن خلال تكوينهم الطبقى نستطيع أن نميز وسطهم جناح الوطنيين الذين استطاعوا من خلال التعليم المدنى والبعثات الى أوربا أن يعودوا متشبعين بالفكر الليبرالى .. هذا الفريق هو الذى رأيناه فى السبعينات من القرن

(٩) على مبارك — الخطط التوفيقية الجزء العاشر ص ٩٨ .

الماضى يقوم بعمليات ترجمة ويعمل فى صحافة الحزب الوطنى التى تألفت أساسا من جريدتى **مصر والتجارة** .

كما نستطيع أن نميز وسطهم مجموعة العسكريين المصريين الذين عانوا من تعزيز اقدام الاتراك والجراكسة فى مراكز الجيش وأجهزة الدولة ووقفوا سدا أمام التطور الطبيعى للعسكريين والمثقفين المصريين .

وكان تأسيس جمعية « **مصر الفتاة** » السرية سنة ١٨٧٦ (١٠) من هؤلاء الضباط هو أول تحرك ايجابى من جانبهم فى اتجاه تغيير الاوضاع .

ثمن الخيانة

وفى المراحل الاولى للثورة العرابية نجد تحالفا بين طبقة كبار الملاك المصريين ..وطبقة متوسطى الملاك من الموظفين والمثقفين والتجار وتبلور هذا اللقاء فيما يسمى **بالمحضر الاهلى** فى أبريل سنة ١٨٧٩، حين عقد اجتماع حضره ٦٢ من رجال الدين من بينهم شيخ الأزهر وبطريرك الاقباط وحاخام اليهود **وسبعة وثلاثون منضباط الجيش وواحد وأربعون من كبار الملاك والتجار.**

وخرج الاجتماع بوثيقة طالبوا فيها «بالحرية التامة وجميع الحقوق فى كافة الامور المالية والداخلية كما هو جار فى أوربا »وبتأليفوزارة مصرية صرفة والابقاء على قانون المقابلة (١١). ويلاحظ فى هذا البرنامج أنه تناول قضايا تهم فى الاساس الطبقتين المشار اليهما مع البعد الكامل والمطلق عن المشاكل الحقيقية لجماهير الفلاحين والشعب فى ذلك الوقت .

ولذا كان من الطبيعى بعد تطور الاحداث وبروز قيادات ثورية أكثر وأكثر أن بدأتقطاعات كبار الملاك المصريين تنفصل عن الثورة ثمتعاديها فى سفور ..

ونحن نرى بذور هذا الخلاف حتى قبل ذلك حين اقترح عرابى مثلما جاء فى مذكراته ، أن يقوم الحزب الوطنى بخلع اسماعيل « ولكن لقتراحى لم ينفذ » وعزل أسماعيل بعد ذلك ولو فعلنا ذلك بأنفسنا لكان أفضل اذ أننا كنا نتخلص من اسرة محمد على كلها ونقيم الجمهورية ..

ثم هناك أيضا تلك القضايا التى بدأت تثيرها قطاعات من الفئات الوسطى والمثقفين وخاصة حول بؤس الفلاح المصرى ومشاكله مثلما جاء فى مقالات وقصص يعقوب صنوع فى مجلة « **أبو نظارة** » (١٢)·ومثلما جاء أيضا فى كتابات النديم فى « **التبكيت والتنكيت** » ثم « **الطائف** »·

ولذلك رأينا بوضوح أنه كلما زادت سيطرة « الفئات الوسطى » الثورة واتجهت أكثر وأكثر الى بعض القضايا الاجتماعية التى تمسجماهير الفلاحين .. كانت طبقة كبار الملاك المصريين ، وقد أرضاها عزل اسماعيل واعتماد الخديوى توفيق عليهم بدرجة أكثر ، يتجهون الى معاداة الثورة وينضمون بوضوح الى الحلف المعادى .

« فحين تطورت مطالب العرابيين من عزل بين الضباطالى تغيير شكلالحكومة والىالتهييج ضد الخديوى توفيق ، والى المناداة بعزله لالتجائه الى الدول الاجنبية والى الدعوة للجهاد ضد المغيرين ، واتسعت الحركة من حركة محصورة فى الجند والضباط الى حركة وطنية شاملة (١٣)·بدأتقيادات كبارالملاك وعلى رأسها محمد سلطان نفسه يضربون الثورة من الخلف ويتآمرون مع الخديوى وقوى الاستعمار على ضربها ..

فشريف باشا ــ وكان من اقطاب الحزب الوطنى ــ يشترط لقبوله الوزارة ابعاد عرابى وعبد العال حلمى بفرقتهما من القاهرة ، وحين يصر مجلس النواب على مناقشةالميزانية يستقيل·

وسلطان باشا ومعه قيادات الحزب الوطنى القديم يرفضون طلب عرابى بعزلالخديوى حين

---

[١٠] كونها على الروبى بعد عودتهمن حملة الحبشة الفاشلة ثم انضم اليهبعد ذلك احمد عرابى وعلى فهمى [د. محمد انيس ـــ مطبوعات المعهدالعالى للدراسات الاشتراكية] مصرمن الاقطاع الى الرأسمالية .

[١١] كانهذا القانونيعطى الارضلمنيدفع عنها الضريبة عشر سنوات دفعةواحدة ملكية خاصة ، وكان المستفيد من هذا كبار الملاك ..

[١٢] كان ابو نظارة يكنى الفلاحالمصرى فى قصصه « بابو الغلب »ويفضح سياسة الاستغلال والنهب التى يتعرض لها الفلاح سواء من السلطة أومن كار الملاك او المرابين الاجانب .

[١٣] زعماء الإصلاح فى العصرالحديث ـــ أحمد أمين ص ٢٢٢ .

رفض التصديق على الاحكام التى صدرت ضد الضباط الجراكسة الذين قاموا بمؤامرة بموافقة الخديوى للتخلص من عرابى وزملائه .. ثم يقومون بعد ذلك بتدبير المؤامرات والاتفاقات السرية مع الخديوى وقوات الاحتلال والتى انتهت بهزيمة الجيش المصرى (١٤ سبتمبر) فى التل الكبير واحتلال القاهرة ودخول الخديوى للقاهرة فى مركبته المذهبة وعلى يساره الدوق أون كنوت وأمامه الجنرال ولسلى قائد حملة الاحتلال ومعه محمد سلطان باشا ليبدا عهد جديد من الاحتلال الاجنبى معتمدا على قوتين اساسيتين هما النظام الملكى من ناحية وطبقة كبار الملاك من ناحية أخرى ..

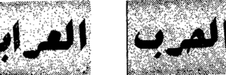
وهكذا حققت طبقة كبار الملاك التى لم يكن قد مضى على انشائها ، ووضع أسس الملكية الزراعية فى مصر سوى بضع عشرات من السنين الغرض الذى استهدفه محمد على حين فكر فى تكوينها بناء على نصيحة مستشاريه الفرنسيين لتكون سندا ودعما له فى الحكم ولاسرته من بعده ..

كما ان توفيق ، وبعد هزيمة الثورة العرابية، أعاد تشكيل قطاع هام من هذه الطبقة حين قام بمنح آلاف الافدنة للذين ساهموا بشكل ايجابى فى خيانة الثورة العرابية والتمهيد للاحتلال الاجنبى .

وكان من أولى القرارات التى اتخذها الخديوى توفيق بعد فشل الثورة العرابية هو مصادرة أملاك القيادات العسكرية والمدنية للثورة ومنهم عرابى وعلى فهمى وسامى البارودى وفى نفس الوقت منح المكافآت السخية للخونة وكانت غالبية هذه المكافآت فى شكل اقطاعات واسعة .. وبالعودة الى القائمة الرسمية سنجد اسماء مثل محمد سلطان ، وكان اصلا من كبار الملاك ، وسيد الفقى واحمد عبد الغفار [احد الضباط الذين تعاونوا من الانجليز] وعلى يوسف خنفس [احد الضباط الذين لعبوا دورا كبيرا فى هزيمة التل الكبير] وعددا كبيرا من الضباط والعمد ومشايخ العربان الذين غرروا بعرابى وتعاونوا مع الخديوى والانجليز ..

وكانت هذه هى أول وابرز نتائج قوانين الملكية الزراعية فى مصر التى هلل لها البعض، واعتبرها خطوة للامام !!





أضواء حول معارك الحرب العرابية



محمود عزمي

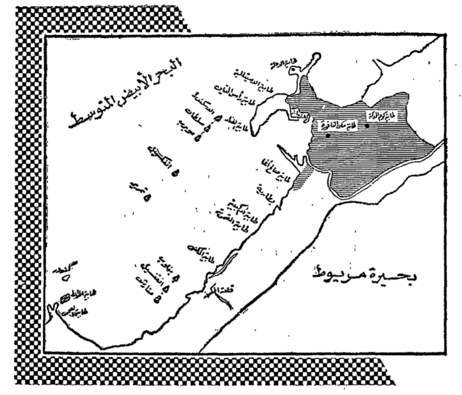
شهدت الفترة الواقعة بين يومى ١١ يوليو و ١٣ سبتمبر عام ١٨٨٢ مجموعة من المعارك والاشتباكات الحربية بين قوات الثورة العرابية المسلحة وقوات العدوان البريطانى الاستعمارى انتهت كما كان محتما لها أن تنتهى ـ رغم كل ما يمكن أن يقال عن أخطاء قيادة الثورة العرابية السياسية والعسكرية ، وعن الدور الذى لعبته الخيانات المختلفة فى التعجيل بالهزيمة ـ به أى حرب نظامية بين شعب شبه أعزل من السلاح الحديث ودولة شبه اقطاعية شبه مستعمرة تتبع امبراطورية اقطاعية شديدة التخلف مثل الامبراطورية العثمانية فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، وبين دولة رأسمالية حديثة تخطو بسرعة عصرها الامبريالى ولديها أقوى صناعة فى أوروبا وأغنى تجارة فى العالم وأضخم مستعمرات فى تاريخ الاستعمار كله وأحدث وأكبر الاساطيل الحربية والجيوش البرية، أى دولة مثل بريطانيا العظمى فى عصرها الفيكتورى الذهبى .

وتهدف هذه الدراسة الموجزة الى القاء بعض أضواء البحث العلمى أو الحقيقة الموضوعية حول أحداث هذه المرحلة البطولية الهامة من مراحل نضال الشعب المصرى ضد الامبريالية العالمية ، التى طالما شوهت معالمها وحقرت من مكانتها فى التاريخ المصرى الحديث أقلام الكتاب والمؤرخين الاستعماريين أو الموالين للرجعية المحلية والاستعمار .

توازن القوى عشية يوم ١١ يوليو ١٨٨٢

حين أرسل الاميرال « سيمور » قائد الاسطول البريطانى ، الذى توافدت قطعه الحربية الى مياه الاسكندرية الاقليمية ابتداء من يوم ١٩ مايو عام ١٨٨٢ تمهيدا للقضاء على الثورة الوطنية الديموقراطية فى مصر واحتلال البلاد نهائيا ، انذاره الوقح المشهور الى « طلبة باشا عصمت » قائد حامية الاسكندرية صبيحة يوم ١٠ يوليو ، الذى طلب فيه من حكومة الثورة العرابية تسليم بطاريات المدفعية المصرية المنصوبة فى طوابى شبه جزيرة «رأس التين» وشاطىء ميناء الاسكندرية الجنوبى قبل شروق شمس اليوم التالى والا قام أسطوله بضربها بمدافعه نظرا لانها تهدد سلامة وأمن أسطوله المرابط فى المياه المصرية ! كانت توجد تحت قيادته وقتئذ السفن الحربية التالية :

١ ـ البارجة « انفلكسيبل » (Inflexible) وكانت من أقوى وأهم قطع الاسطول البريطانى وتبلغ حمولتها ١١٫٤٠٠ طن وكانت مسلحة بأربعة مدافع عيار ١٦ بوصة الذى يزن الواحد منها نحو ٨٠ طنا من الحديد ويطلق قذيفة وزنها ١٧٠٠ رطل تقريبا ، ويتألف طاقمها من ٣٤٩ رجلا ، وقد كانت من أحدث البوارج البريطانية وقتئذ اذ تم بناؤها عام ١٨٧٦ .



خريطة توضح مواقع الحصون المصرية والبوارج البريطانية يوم ١١ يوليو ١٨٨٢.

٢ — البارجة « الكبسندرا » (Alexandra) وهى بارجة حديثة أيضا فقد صنعت عام ١٨٧٥ ، وتبلغ حمولتها ٩٤٩٠ طنا وكانت مسلحة بعشرة مدافع عيار ١٠ بوصة ومدفعين عيار١٢ بوصة ويبلغ وزن المدفع الواحد من النوع الاول ١٨ طنا ومن النوع الثانى ٢٥ طناً ، ويتألف طاقمها من ٦٧١ رجلا ٠

٣ — البارجة « سوبرب » (Superb) وهى سفينة حديثة أيضا تم صنعها عام ١٨٧٥ ، وتبلغ حمولتها ٩٠٠٠ طن وكانت مسلحة بستة عشر مدفعا عيار ١٠ بوصة فضلا عن ٦ مدافع اخرى عيار ٦ بوصة ، ويتألف طاقمها من ٦٢٠ رجلا ٠

٤ — البارجة« تمرير » (Temraire) وقد صنعت عام ١٨٧٦ ، وتبلغ حمولتها ٨٤٥٠ طنا ، وكانت مسلحة بأربعة مدافع عيار ١٠ بوصة وأربعة مدافع عيار ١٢ بوصة ، ويتألف طاقمها من ٥٣٤ رجلا ٠

٥ — البارجة «انفنسيبل» (Invincible) وقد صنعت عام ١٨٦٩ ، وتبلغ حمولتها ٦٠١٠ أطنان ، وكانت مسلحة بعشرة مدافع عيار ٩ بوصة، ويتألف طاقمها من ٤٥٠ رجلا ٠

٦ — البارجة « موناركِ » (Manarch) وقد صنعت عام ١٩٦٨ ، وتبلغ حمولتها ٨٣٢٠ طنا ، وكانت مسلحة بأربعة مدافع عيار ١٢ بوصة ومدفعين عيار ٩ بوصة ومدفع عيار ٧ بوصة ، ويتألف طاقمها من ٥١٥ رجلا ٠

٧ — البارجة « بنلوب » (Penelope) وقد صنعت عام ١٨٦٧ وتبلغ حمولتها ٤٤٧٠ طنا ، وكانت مسلحة بثمانية مدافع عيار ٨ بوصة ، ويتألف طاقمها من ٢٢٣ رجلا ٠

٨ — البارجة « سلطان » (Sultan) وكانت مسلحة بأربعة مدافع عيار ٩ بوصة وثمانية مدافع عيار ١٠ بوصات (لم تتوفر لنا أية بيانات أخرى عن هذه البارجة) ٠

٩ — سفينة المدفعية « كوندور » وتبلغ حمولتها ٨٠٥أطنان ، وكانت مسلحة بثلاثة مدافع أحدها عيار ٧ بوصة والاخران عيار ٦٤ ليبرة ، ويتألف طاقمها من ١٠٠ رجل ٠

١٠ — سفينة المدفعية « بيترن » وتبلغ حمولتها ٨٠٥أطنان ، وكانت مسلحة بثلاثة مدافع أحدها عيار ٧ بوصة والاخران عيار ٤٠ ليبرة ويتألف طاقمها من ٨٠ رجلا ٠

١١ — سفينة المدفعية « بيكون » وتبلغ حمولتها ٤٣٠ طنا وكانت مسلحة بأربعة مدافع (لم تتوفر لنا بيانات مفصلة عن عياراتها) ويتألف طاقمها من ٧٥ رجلا ٠

١٢ — سفينة المدفعية « ديكوى » وتبلغ حمولتها ٤٥٥ طنا وكانت مسلحة بأربعة مدافع (لم تتوفر

لنا بيانات أعيرتها) ويتألف طاقمها من ٥٩ رجلا .

١٣ ـ سفينة المدفعية « سيجنت » (لم تتوفر لنا أية بيانات مفصلة عنها) .

١٤ ـ سفينة المدفعية « هليكون » (لم تتوفر لنا أية بيانات مفصلة عنها) .

وهكذا توفرت لسيمور قوة بحرية كبيرة ضمت ٨ بوارج ضخمة (بمقاييس العصر) مبنية على هيكل حديدى ومصفحة بدروع حديدية خارجية تحميها من القذائف العادية فضلا عن حمايتها بشباك فولاذية مدلاة من أعلاها ألى اسفلها كى تصطدم بها القذائف المضادة قبل أن تصل الى جسم السفينة الاصلى فيضعف تأثيرها الاصلى كثيرا فى غالب الحالات . فضلا عن ٦ سفن صغيرة للمدفعية كانت غير مجهزة بـالدروع الحديدية القوية مثل البوارج . هذا وقد كانت البوارج المذكورة مسلحة أيضا بعديد منالمدافع الرشاشة المركبة فوق أبراجها وسارياتها (١) .

ويلاحظ أن جميع البوارج البريطانية المدرعة كانت حديثة الصنع نسبيا ، اذ أنها صنعت فى الفترة ما بين عامى ١٨٦٧ ، ١٨٧٦ . بل ان نصفها تم صنعه فى عامى ١٨٧٥ ، ١٨٧٦ أى قبيل ضرب الاسكندرية بسبع أو ست سنوات فحسب وهى مدة قصيرة للغاية فى عمر السفن . وعموما فانها جميعا تم صنعها بعد عام ١٨٥٩ الذى بنيت فيه أول سفينة حربية فى العالم ـ وكانت بريطانية أيضا وتدعى « وارير » ـ مكسوة بدروع حديدية مثبتة على هيكل حديدى بدلا من الهياكل الخشبية التى كانت تبنى بها السفن قديما وكانت تسير بالبخار أساسا (٢) . ولذلك كانت البـوارج البريطانية كلها ذات حمولات كبيرة ومسـلحة بمدافع ثقيلة وتتميز بسرعة الحركة وسـهولة المناورة نسبيا ، وذلك بحكم بنائها من الحـديد وتسييرها بالبخار ، كما أن مدافعها جميعا كانت ذات مواسير مششخنة أى غير ملساء ، الامر الذى يكفل لها بعدا فى المرمى ودقة فى الاصابة وقوة فى صدمة القذيفة .

وهكذا مكنت الصناعة البريطانية المتطورة فى عصر البخار الاميرال « سيمور » من استخدام قوة نيران هائلة نسبيا مؤلفة من ٧٧ مدفعا فى البوارج الثمانية ، ٤ منها عيار ١٦ بوصة ، ١٠ عيار ١٢ بوصة ، ٣٨ عيار ١٠ بوصات ، ١٦ عيار ٩ بوصة ، ٨ عيار ٨ بوصة ، ١ عيار ٧ بوصة . ٧٧ مدفعا موضوعة داخل ٨ قواعد محصنة متحركة تضمن سهولة وسرعة تركيز النيران بمرونة . وحين ردت الحكومة المصرية على انذار «سيمور» مساء يوم ١٠ يوليو قائلة « نحن هنا فى وطننا وبيتنا ، فمن حقنا بل من الواجب علينا أن نتخذ عدتنا لكل عدو مباغت .. ومصر الحريصة على حقوقها الساهرة على تلك الحقوق وعلى شرفها لا تستطيع ان تسلم أى مدفع ولا أى طابية دون أن تكره على ذلك بحكم السلاح .. (٣) » كان لديها فى مواجهة قـوة الاسطول البريطانى سالفة الذكر الدفـاعات والقوات التالية :

كان الدفاع الساحلى عن مدينة وميناء الاسكندرية يقوم أساسا على مجموعة مـن الحصون أو الطوابى القديمة التى كانت الحملة الفرنسية قد بدأت اقامة بعضها مثل حصن « كوم الدكة » وحصن « كوم الناظورة » وبطارية « رأس التين » واستكملها محمد على بعد ذلك بواسطة مهندس فرنسى يدعى « جاليس بك » وقد بقيت هذه الطوابى على حالها باستثناء بعض الترميمات التى أجريت بها فى عهد الخديوى « اسماعيل » الذى زودها أيضا ببعض المدافع الحـديثة الانجليزية الصنع من طراز « ارمسترونج » ذات الماسورة المششخنة عيارات ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ بوصة بلغ عددها ٤٥ مدفعا وتعمر من الامام فضلا عن ٤ مدافع أخرى من نفس الطراز عيار ٤٠ رطلا وتعمر من الخلف (كانت معظم مدافع البوارج تعمر من الامام أيضا) . وقد بقيت فيها أيضا كافة المدافع والهاونات الملساء الماسورة القديمة المصنوعة فى عصر « محمد على » وكان يبلغ عـددها ٢٢٩ مدفعا ، ٤٠ هاونا . ولكن جميـع . مـدافع « الارمسترونج » الحديثة الموجودة بالطوابى كانت بدون أجهزة التنشين أى آلات تقدير المسافة ولم يكن يوجد سوى جهاز واحد فحسب فى مدرسة المدفعية بالعباسية استحضر ليلة الضرب وسلم لطابية « الفنار » (٤) .

وقد كانت هذه الحصون تبدأ من عند « السلسلة » شرقا وتنتهى عند « العجمى » غربا وقد وزعت فيها المدافع المختلفة الانواع والعيارات على النحو المفصل الذى يوضحه الجدول الآتى :

---

[١] المعلومات المفصلة عن السفن البريطانية مستمدة من كتاب محمد فيصل عبد المنعم « مصر تحت السلاح » الصادر فى القاهرة ـ مكتبة القاهرة الحديثة ـ ١٩٧١ ـ صفحات ٤١٨ ـ ٤٢١

[٢] برودى ، برنارد ـ الاستراتيجية البحرية ـ القاهرة ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٦٤ ـ صفحة ٣٤

[٣] الرافعى ، عبـد الرحمن ـ الزعيم الثائر احمد عرابى ـ القاهرة ـ دار الشعب ١٩٦٨ ـ صفحة ١٤٦

[٤] محمد فيصل عبد المنعم ـ مصر تحت السلاح ـ المرجع السابق ـ صفحات ٤١٤ ، ٤١٧

«حالة الطوابى المصرية يوم الثلاثاء ١١ يوليو ١٨٨٢» (٥)

اسم الطابية	مدافع ارمسترونج مششخنة						المدافع غير المششخنة	هاونات	الجملة
	٧ بوصة	٨ بوصة	٩ بوصا	١٠ بوصة	تعمر من الخلف	المجموع			
طابية السلسلة	—	١	١	—	—	٢	٢	١	٥
قلعة قايتباى	—	٢	٣	١	٢	٨	٣٨	٤	٥٠
طابية الهلالية	—	—	—	—	—	—	٤	—	٤
طابة الاطة	—	١	٣	١	—	٥	١٤	٥	٢٤
طابية الاستبالية	٢	—	—	—	—	٢	١٠	٥	١٧
طابية راس التين	—	٢	٢	١	١	٦	٢١	٥	٣٢
طابية الفنار	—	١	٤	١	—	٦	٢٨	٣	٣٧
طابية صالح آغا	—	—	—	—	—	—	٢١	١	٢٢
برج رقم ١٥	—	—	—	—	—	—	٤	—	٤
طابية أم قبيبة	—	٢	—	—	—	٢	١٦	٣	٢١
طابية القمرية	—	—	—	—	—	—	٥	—	٥
طابية المكس	—	٣	١	١	١	٦	٣٦	١٠	٥٢
طابية الدخيلة	—	—	—	—	—	—	٤	—	٤
طابية العجمى	١	—	٥	٣	—	٩	—	—	٩
طابية المرابط	—	—	٣	—	—	٣	٢٦	٣	٣٢
الجملة	٣	١٢	٢٢	٨	٤	٤٩	٢٢٩	٤٠	٣١٨

وقد كانت القوة الرسمية لحامية هذه الحصون من رجال المدفعية الساحلية مؤلفة من ١٧٦٢ ضابطا وجنديا تحت قيادة الاميرالاى « اسماعيل بك صبرى » ويقول « عرابى » فى مذكراته أن العدد الفعلى يوم الضرب لم يزد عن سبعمائة جندى ويؤكد « جون نينيه » هذا الامرمن واقع مشاهدته العملية لاحداث يوم ١١ يوليو حيث كان يمثل عميد الجالية السويسرية فى مصر وقتئذ فيقول أن نصف « الطوبجية » المصريين كانوا متغيبين فى قراهم بحجة الاقتصاد والتوفير يوم الضرب (٦) . هذا وقد كانت جميع المدافع المصرية منصوبة فوق الطوابى دون ساتر علوى لحمايتها ولذلك كان يمكن قتل طاقمها نتيجة شظايا القنابل القريبة المتطايرة ورصاص رشاشات السفن . كما أن السواتر الامامية كانت مبنية من الاحجار العادية التى لا قدرة لها على احتمال قوة صدمة القذائف الحديثة التى تطلقها مدافع البوارج الضخمة العيار ، هذا فضلا عن أن كل الحصون كان بها مبان عديدة تستخدم كمخازن للذخيرة وكثكنات وخلافه ترتفع عن الحوائط الخارجية الساترة ، الامر الذى كان يجعلها هدفا سهلا مباشرا لنيران مدافع الاسطول .

أما حامية مدينة الاسكندرية والتى كان قد تم تعزيزها بعد مذبحة يوم ١١ يونيو المشهورة فقد كانت تتألف يوم ١١ يوليو من القوات التالية :

١ ـ الالاى الثانى مشاة بقيادة الاميرالاى « خليل بك كامل » ويتألف من ثلاث أورط (كتائب) ومجموع قواته من الضباط وصف الضباط والجنود ١٨٨٥ فردا .

٢ ـ الالاى الرابع مشاة بقيادة الاميرالاى « عيد بك أحمد » ويتألف من ثلاث أورط ومجموع رجاله ١٨٨٥ أيضا .

٣ ـ الالاى الخامس مشاة بقيادة الاميرالاى « مصطفى بك عبد الرحيم » ومجموع قوته ١٨٢٤ رجلا .

٤ ـ الالاى السادس مشاة بقيادة الاميرالاى « سليمان بك سامى » ومجموع قوته ١٨٩١ رجلا .

وبذلك بلغ عدد قوات المشاة فى حامية الاسكندرية ٧٤٨٥ ضابطا وجنديا يضاف اليهم

---

[٥] المرجع السابق ـ صفحة ٤١٤

[٦] عبد الرحمن الرافعى ـ المرجع السابق ـ صفحة ٤٤٩ .

أيضا ٢٦٢ ضابطا وجنديا آخرين من جنود السوارى أى الفرسان (أورطتان بقيادة البكباشى محمد منيب) (٧) · وبهذا يمكن القول أن مجموع القوات المصرية فى الاسكندرية يومئذ كان حوالى ٩٠٠٠ جندى · وقد وزع « عرابى باشا » بصفته وزير الحربية ، وكان مقيما فى ليلة ١١ يوليو فى الترسانة ومعه طلبة باشا عصمت قائد حامية الاسكندرية ومحمود باشا فهمى كبير مهندسى الجيش المصرى ، وزع قواته على النحو التالى :

١ ـ الالاى الخامس مشاة فى مواقع متفرقة خلف حصون « قايتباى » و « الهلالية » و « الاطة » و « الاستبالية » و « رأس التين » و « الفنار » · والالاى الرابع مشاة فى منطقة باب شرقى كاحتياطى ·

٢ ـ الالاى السادس مشاة فى مواقع متفرقة خلف المنطقة الممتدة من طابية « صالح أغا » حتى طابية « العجمى » والالاى الثانى مشاة فى منطقة القبارى كاحتياطى ·

٣ ـ اورطتان الخيالة تقومان بواجب الخدمة بصفة مراسلة بين مختلف الحصون والمواقع (٧) ·

أما الاميرال « سيمور » فقد قسم اسطوله الى قسمين ووزع واجبات كل قسم منهما على النحو التالى :

القسم الاول : وقد سمى بالاسطول الخارجى وكان مؤلفا من خمس بوارج هى « الكسندرا » و « انفلكسيبل » و « سلطان » و « وسوبرب » و « تمرير » ويقودها جميعا الكابتن « هنت » قائد البارجة « سلطان » وكان على سفن هذا القسم أن تقف خارج الميناء فى عرض البحر لمهاجمة حصون « قايتباى » و « الهلالية » و « الاطة » و « الاستبالية » و « رأس التين » و « الفنار » وعلى أن تركز السفن نيرانها سويا على كل حصن سويا ثم تنتقل بعد تدميره أو اسكات نيرانه المضادة الى الحصن الذى يليه وبذلك تحقق تفوقا كاملا فى النيران ، كما كان على السفن أن تقوم بالضرب من مسافات قصيرة نسبيا تتراوح بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ ياردة محتمية بمتانة دروعها وشباكها الفولاذية وهى تعرف مقدما مدى ضعف الحصون المصرية والمدفعية الموجودة بها ، وبذلك تمكنها قصر المسافة التى تقذف قذائفها منها من اختراق وتدمير الطوابى بسهولة كبيرة ·

القسم الثانى : وقد سمى بالاسطول الداخلى وكان مؤلفا من البوارج الثلاث « انفنسيبل » ، و « مونارك » و « بنلوب » · وكانت مهمته أن يقف فى الجزء القريب من الميناء تحت قيادة « سيمور » نفسه ، الذى اتخذ من « انفنسيبل » سفينة للقيادة بعد أن كان فى الكسندرا سابقا ، ويهاجم طوابى « صالح أغا » و « البرج رقم ١٥ » و « أم قبيبة » و « القمرية » و « المكس » « والدخيلة » و « العجمى » و « المرابط » · أما سفن المدفعية الصغيرة فقد كان عليها أن تبقى فى الخارج بعيدة عن مرمى المدافع المصرية الى أن تجد الفرصة المناسبة للاشتراك فى القتال فتهاجم « المكس » · وكان على بوارج هذا القسم أن تقف على مسافات تتراوح بين ١٠٠٠ ، ٣٠٠٠ ياردة فى الشمال الغربى من « المكس » · هذا وقد كان « سيمور » يتوقع استمرار المقاومة لمدة يومين أو ثلاثة ولذلك قال فى أمر القتال الصادر منه يوم ١٠ يوليو « ويجب استعمال المقذوفات بحرص ، وعلى كل حال من المرتقب قدم الباخرة « همبر » الى هنا يوم ١٢ يوليو وعليها مقدار كبير من الذخيرة · واذا وصلت البارجة «اتشيلز» (Achilles) فى الوقت المناسب عليها أن تهاجم حصن « فاروس » (قايتباى) والوقوف فى الموقف الذى يأمرها قائد الاسطول الخارجى أن تتخذه » (٧) ·

معركة ١١ يوليو ونتائجها

فى محاولة أخيرة لتجنب الاشتباك المسلح بين مصر وبريطانيا أرسل « اسماعيل راغب باشا » رئيس الوزراء المصرى وقتئذ ،برقية مساء يوم ١٠ يوليو الى الاميرال « سيمور » يعرض عليه فيها انزال ٣ مدافع من البطاريات التى أشار اليها « سيمور » فى انذاره للبرهنة على حسن النية ، ولكن « سيمور » رد على هذه البرقية قائلا « انى آسف أن أخبركم أنه ليس فى استطاعتى أن أقبل ما عرضتموه (٧) » ! وفى السابعة من صباح يوم الثلاثاء ١١ يوليو ١٨٨٢ أعطى اشارة بدء القتال ، وأطلقت «الكسندرا» القذيفة الاولى على طابية « الاستبالية » وتلتها بقية البوارج ·

[٧] محمد فيصل عبد المنعم ــ معركة السلاح ــ المرجع السابق صفحات ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١٦ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩

وقد بدأت مدافع الحصون المصرية ترد على البوارج بعد القذيفة الخامسة وفقا لتعليمات « عرابى » المسبقة التى أعطاها بعدم الرد الا بعد الطلقة الخامسة لتأكيد عدوانية الاسطول البريطانى وحسن نوايا مصر . وبعد ٦ ساعات تقريبا من الضرب المستمر استطاعت بوارج الاسطول الخارجي أن تسكت نيران طوابى رأس « التين » و« الفنار » و« الاستبالية » ، ثم اتجهت جميعا بعد ذلك الى حصن « الاطة » حتى دمرته تماما فى حوالى الثالثة مساء اثر انفجار مخزن ذخيرته ، وتحولت قافلة البوارج بعد ذلك الى قلعة « قايتباى » وظلت تقصفها حتى الخامسة مساء حيث أعطى « سيمور » اشارة ايقاف الضرب .

وفى المنطقة الجنوبية من الميناء قامت بوارج الاسطول الداخلى بقصف طوابى « المكس » و « الدخيلة » و« القمرية » ، وقد أصابت قذيفة من البارجة « مونارك » مخزن الذخيرة الذى كان مقاما خلف حصن « الدخيلة » وعلى اثر ذلك اقتربت البارجة بالقدر الذى يسمح به غاطسها من الحصن وأخذت تطلق نيران رشاشاتها لابادة من تبقى من جنوده . كما قامت سفن المدفعية الصغيرة الاربعة « كندور » و« بيترن » و« بيكون » و « ديكوى » بضرب حصن « المرابط » المقام على جزيرة أمام العجمى حتى دمرته تماما ، وفى الرابعة مساء استأنفت البوارج قصف حصنى « القمرية » و « المكس » مرة أخرى حتى اسكتتهما تماما فى حوالى السادسة مساء حيث توقف الضرب .

وطوال الساعات العشر التى استمر فيها القصف البحرى الوحشى كان رجال المدفعية المصرية يطلقون نيران مدافعهم بثبات وشجاعة حتى تدمر أو تقتلهم الشظايا أو الاحجار المتناثرة من انفجارات قذائف الاسطول عند اصابتها لجدران الحصون العتيقة ، ولكن قذائف المدافع القديمة كانت تسقط فى البحر دون أن تصل الى أهدافها ، أما قذائف مدافع « الارمسترونج » فكان معظمها غير محكم الاصابة باستثناء ما كان يطلق منها من طابية « الفنار » حيث كانت توجد آلة ضبط التنشين الوحيدة مع قائد الطابية البكباشى « سيف النصر بك » (والد حمدى باشا سيف النصر) الذى كان يتنقل بها من مدفع الى آخر ليحكم الاصابة أثناء القتال كما يقول « عرابى » فى مذكراته (٨) .

ولذلك ونظرا لقوة دروع البوارج ومتانة الشباك الفولاذية المحيطة بها فقد كانت آثار ضرب المدفعية المصرية عليها ضئيلة للغاية ، فرغم أن « سلطان » أصيبت ٢٣ اصابة وكانت اصابات مدخنتها وساريتها شديدة الا خسائر طاقمها بلغت قتيلان و٣ جرحى فحسب ، ورغم أن « الكسندرا » أصيبت ٣٠ اصابة فى جدرانها وآلاتها وبـ ٢٤ اصابة فى أجزائها غير المدرعة الا أن خسائرها كانت قتيلا وجريحين ، كما أصيبت « انفلكسيبل » بقذيفة فى جزئها الغاطس تحت الماء من مدفع عيار ١٠ بوصة ارمسترونج ، وقد كادت أن تغرق نتيجة ذلك لولا اصلاحها بسرعة ولذلك توجهت بعد المعركة الى مالطة لاصلاحها . ويقول « سيمور » فى تقريره الرسمى عن المعركة أن جملة خسائره فى الرجال كانت ٥ قتلى و ٢٨ جريحا (٩) . كما قال أيضا « ولقد قاتل المصريون قتال الابطال بأقدام ثابتة ، وكانوا يجاوبون النيران الشديدة التى تصبها على حصونهم مدافعنا الضخمة الى أن قتل عدد كبير منهم (٩) » .

وقد علق أحد قادة المعركة البريطانيين على ما لمسه من بطولة جنود الطوابى فقال « ان جنود المدفعية المصريين جاوبوا على نيران الاسطول الانجليزى الجهنمية مجاوبة مدهشة لم تكن متوقعة تماما ، وأظهروا بسالة عجيبة رغم التفاوت الجسيم من حيث أعداد المدافع وأعيرتها .. ولقد كانت البارجة « انفلكسيبل » عندما تطلق مقذوفاتها التى تزن الواحدة منها ١٧٠٠ رطل على حصن الفنار وتصطدم بساتره الضخم تثير الاتربة والشظايا الى ارتفاع الفنار نفسه ، ويخيل للمرء عندما يرى ذلك أنه ليس فى استطاعة البشر أن يعيش تحت هذه النيران ، ولكن بمجرد أن ينقشع التراب والدخان يرى جنود المدفعية المصريون فى مواقعهم يطلقون النار من مدافعهم على خصمهم الرهيب (٩) » !

هذا ولقد بلغت جملة القذائف الضخمة التى أطلقتها البوارج على الطوابى ومدينة الاسكندرية يوم ١١ يوليو المشئوم نحو ١٨٤٩ قذيفة فضلا عن ٣٩٦ قذيفة أخرى أطلقتها سفن المدفعية ، وعن ٢٦١ طلقة « شرابنل » و ١٧ « صاروخ » ، ٧١٩٠ طلقة مدافع السريع (الرشاشات) ، ١٠١٦٠ طلقة بندقية « مارتينى هنرى » ، ١٦٢٣٣ طلقة مدفع « نيوردفلت » (٩) !

(٨) محمود الخفيف — أحمد عرابى الزعيم المفترى عليه — القاهرة — كتاب الهلال — الجزء الثانى — يوليو ١٩٧١ — صفحة ٧١ .

(٩) محمد فيصل عبد المنعم — المرجع السابق — صفحة ٤٥٨ ، ٤٤٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٥ .

ويقدر عدد القتلى من المصريين فى هذا اليوم بعدد يتراوح بين ٧٠٠ ، ٨٦٠ شخصا بينهم ٢٠٠ من المدنيين تقريبا ، وذلك وفقالتقديرات « جون نينيه » والجنرال « ستون » رئيس أركان حرب الخديو توفيق (٩) .

ويروى « جون نينيه » ضمن ما يروى عن مشاهداته فى هذا اليوم فى الاسكندرية فيقول « ما كان أروع منظر الرماة المصريين الذين كانوا خلف مدافعهم المكشوفة ، كأنما هم فى استعراض حربى لا يخافون الموت الذى يحيط بهم ، وكانت معظم الحصون بلا حواجز تقيها ولا متاريس ، ومع هذا فقد كنا نلمح هؤلاء البواسل من أبناء النيل خلال الدخان الكثيف ، كأنهم أرواح الابطال الذين سقطوا فى حومة الموت ، قد بعثوا ليناضلوا العدو .. ولقد أدى الجميع واجبهم رجالا ونساء كبارا وصغارا ، ولم تكن ثمة أوسمة أو مكافآت تستحث أولئك الفلاحين على أداء واجبهم ، وانما كانت تثير الحماس فى نفوسهم عاطفة الوطنية والثورة ، على ما استهدفوا له من فظائع ، وهم فى مواقفهم البواسل المجهولون الذين لم يفكر أحدفيماتحملوا من آلام .. وقد بدأ نقل جثث القتلى منذ الساعة العاشرة صباحا ، وظلت عربات النقل حتى هبط الليل تحمل الجثث من الحصون وتخترق المدينة الى شارع محطة الرمل حيث المستشفى العسكرى ، وهناك كانت تدفن بعد المعاينة بغير احتفال فى المقابر المجاورة للمستشفى .. وكان مما يؤلم النفوس حقا منظر تلك العربات تقل الواحدة عشرين أو ثلاثين قتيلا من الاهالى أو الجند وقد شدوا بالحبال على ألواح من الخشب فوق العربات والدماء تقطر من أجسامهم ... » (١٠) .

وقد ترتب على القصف حدوث حرائق فى بعض مناطق المدينة نتيجة سقوط بعض قنابل الاسطول عليها واندفعت جموع السكان المدنيين من الطبقات الشعبية الى الهجرة منها (اذ كان معظم أفراد الطبقات الثرية قد تركوا المدينة قبل الضرب وكذلك الاجانب تجمعوا فى سفينة على مقربة من الاسطول) بينما اعتصم الخديوى ومعه مجموعة من الباشاوات فى قصر الرمل انتظارا لانضمامهم الى قوات الاحتلال .

وفى العاشرة صباحا من اليوم التالى استأنف « سيمور » ضرب طوابى « قايتباى » و « الاستبالية » التى قال عنها فى تقرير له فى ٢٠ - ٧ - ١٨٨٢ « لقد كانت حركات بطاريات حصن (الاستبالية) تدار بطريقة موفقة جدا من البداية الى النهاية ، ومع أن هذا الحصن سكت وقتا ما على اثر ضربة بقذيفة من المدرعة (انفلكسيبل) فان جنوده لم يتخلوا عن مدافعهم (١١) » . ثم توقف الضرب بسرعة اثر طلب الحكومة المصرية التفاوض ليستأنف مرة أخرى فى الرابعة مساء على طابية « المكس » وعندئذ رفع علم طلب الهدنة مرة أخرى فتوقف الضرب وتوجه ضابط بريطانى على ظهر السفينة « هليكن » الى يخت « المحروسة » التابع للخديو لاستئناف المفاوضات من أجل تسليم الطوابى التى تتحكم فى ممر بوغاز الميناء ، الا أنه وجد اليخت خاليا والمدينة كلها تبدو كذلك والنار تشتعل فى أنحاء عديدة منها . فقد كانت الحامية تنسحب من المدينة وعلى رأسها « عرابى » الذى رأى عدم الاشتباك المسلح البرى مع القوات البريطانية التى ستنزل من السفن فى المدينة نفسها وتحت مرمى مدافع الاسطول ، بينما كان بعض البدو من أولاد على ينهبون المحال التجارية وكذلك بعض الاروام والمالطيين ، كما أشعل بعض جنود الالاى السادس النار فى بعض أنحائها بناء على أوامر « سليمان سامى داود » قائد الالاى الذى رأى أن يعرقل احتلال الانجليز للمدينة بهذا الاسلوب .

الصمود فى كفر الدوار

انسحبت القوات المصرية بقيادة طلبة باشا عصمت واشراف عرابى باشا شخصيا الى « كفر الدوار » حيث بدأت فورا فى اقامة خط دفاعى قوى هناك تمهيدا لصد تقدم القوات البريطانية نحو القاهرة ، بينما بقى الخديوى توفيق فى الاسكندرية وانتقل الى قصر « رأس التين » حيث استقبل الاميرال « سيمور » بعد أن أرسل اليه برقية يوم ١٣ يوليو يخوله فيها حق احتلال المدينة لحفظ النظام ! وهكذا أكد ممثل طبقة كبار الملاك الاقطاعيين المصريين موقفه من قضية الثورة الوطنية الديموقراطية بشكل واضح ثابت ، وهو الخط الذى استمر ، كخيط أسود متصل عبر تاريخ مصر الحديث طوال مرحلة الاحتلال البريطانى ، مميزا لموقف الاقطاعيين وكبار الرأسماليين .
وهكذا رسمت قنابل الاسطول البريطانى حدودا واضحة بصفة عامة بين معسكر الثورة ومعسكر

[١٠] محمود الخفيف — احمد عرابى الزعيم المفترى عليه — المرجع السابق — صفحة ٧٢ ، ٧٣ .
[١١] محمد فيصل عبد المنعم — المرجع السابق — صفحة ٥٩ .

الثورة المضادة الذى ينضوى أيضا تحت لوائه دائما عند المواقف الحاسمة كافة من يسمون « بعقلاء الامة » الذين يدعون الى التهدئة والمسالمة والاخذ بسياسة الامر الواقع مع الاستعمار والرجعية ! عين « عرابى » المهندس محمود باشا فهمى رئيسا لاركان حرب الجيش المصرى عقب معركة الاسكندرية مباشرة • وقام الاخير بوضع خطة عامة للدفاع عن البلاد تضمنت انشاء ٥ مواقع دفاعية أساسية أى مناطق دفاعية لمواجهة احتمالات الهجوم البريطانى المختلفة لاحتلال البلاد ، الاول فى « كفر الدوار » بقيادة « طلبة باشا عصمت » واشراف « عرابى » ، والثانى فى « رشيد » و « أبو قير » بقيادة خورشيد باشا طاهر » ، والثالث بين « رشيد » وبحيرة « البرلس » بقيادة « على باشا الروبى » ، والرابع فى « دمياط » بقيادة عبد العال باشا حلمى » ، والخامس فى « الصالحية » و « التل الكبير » بقيادة « راشد باشا حسنى » •

وقد أقيمت فى منطقة « كفر الدوار » ثلاثة خطوط دفاعية متوالية يفصل الواحد عن الاخر ٤ أو ٥ كيلو مترات ، وحفر أمام كل خط خندق عمقه ١٥ قدما كعائق صناعى كما أقيمت فوق المرتفعات والاكام مواقع للمدفعية ركبت فيها نحو ٥٠ مدفعا من مدافع الميدان طراز « كروب » الالمانى (وهى التى كان اسماعيل قد استوردها) • وامتدت هذه الخطوط عمقا من « عزبة » خورشيد » حتى « كفر الدوار » وعرضا من ترعة المحمودية غربا حتى الملاحة « أى بحيرة مريوط » وشرقا حتى « أبو قير » ، وساهم نحو ٥٠٠٠ رجل من المدنيين أى الفلاحين فى بناء هذه الاستحكامات تحت اشراف « محمود فهمى باشا » والاميرالاى « محمد بك شكرى » أحد الضباط الاكفاء فى أركان حرب الجيش المصرى وقتئذ (١٢) • ويصف « بلنت » فى كتابه « التاريخ السرى للاحتلال البريطانى لمصر » موقع « كفر الدوار » فيقول « لقد كان الفضل فى اختيار هذا الموقع المنيع للغاية الواقع على الخط الحديدى المؤدى الى القاهرة والذى تقع على جناحيه بحيرة مريوط الضحلة ومجموعة من المستنقعات ، انما يرجع ، فى اعتقادى ، الى مهارة محمود فهمى الهندسية ، ولم يكن فى وسع عرابى أن يصنع خيرا أفضل من اختياره هذا المكان مستقرا لمعسكره الجديد • فلقد كان بعيدا بدرجة كافية عن مدافع « سيمور » ، ولا يمكن لجيش معاد أن يقترب منه الا على امتداد جسر السكة الحديد الضيق ، وبهذا كان لا يمكن اختراقه عمليا من ناحية الاسكندرية ، فى حين أنه كان من ناحية الارض تقع الدلتا بأكملها مفتوحة للقوات الموجودة فيه ، بامداداتها التى لا تنفذ ومواصلاتها المفتوحة مع القاهرة » (١٣) •

وساعد على مناعة الموقع من الناحية الطبيعية وجود المستنقعات الصناعية الناتجة عن سد القوات المصرية لمجرى ترعة المحمودية عند « كنج عثمان » لمنع وصول مياهه العذبة الى الاسكندرية المحتلة • هذا وقد أخذ « سيمور » يعمل بسرعة منذ أن أنزل مشاة الاسطول بعد ظهر يوم ١٣ يوليو الى البر عند « رأس التين » ، على تدعيم مواقعه فى المدينة وحمايتها من مختلف الجهات ، ثم وصل اليه مدد آخر من مشاة البحرية يوم ١٥ يوليو فاستكمل احتلال كافة النقاط الاستراتيجية فى المدينة وحولها • وقامت البوارج « انفلكسيبل » و « تمرير » و « أشيل » بالوقوف فى البحر أمام شاطىء منطقة الرمل للسيطرة بنيران مدافعها بعيدة المدى على طرق الاقتراب البرية المؤدية للاسكندرية من « كفر الدوار » و « أبو قير » ، كما سدت القوات البريطانية التى احتلت دفاعات « القبارى » طريق الاقتراب من ناحية « المكس » • وحفرت هذه القوات الخنادق حول المدينة عند منطقة « وابور المياه » والتل المرتفع خلفه حيث يوجد فنطاس كبير وحيث أقيم مركز قيادة للاشراف على الدفاع ، الذى تعزز بخمس مدافع ميدان عيار ٤٠ رطلا ومدفعين عيار ١٢ رطلا ومدفعين عيار ٩ أرطال ، كما احتلت قوة بريطانية أخرى قصر « انطونيادس » للسيطرة على طرق الاقتراب من ناحية جسر السكة الحديد وترعة « المحمودية » ولذلك انشئت على الترعة جسور مؤقتة ، ولتأمين الجانب الايمن لهذه القوات من ناحية بحيرة « مريوط » وضع الكابتن « فيشر » — قائد البارجة « انفلكسيبل » والمشرف المؤقت على القوات البرية — قطارا مدرعا كان يتكون فى بادىء الامر من عربتين مصفحتين بألواح من الحديد وأكياس الرمل مسلحتين بمدفع « نيورفلت » ومدفعين « جاتلنج » ومدفع « ٩ أرطال » مجهز بونش يمكن به خفضه مباشرة ، فضلا عن ٢٠٠ جندى مسلحين بالبنادق آخرين • على الخط الحديدى هناك ليعمل كقوة مدفعية متحركة ، ومشاة راكبة للتصدى لاى تقدم من هذه الجهة •

---

[١٢] محمود الخفيف — المرجع السابق — صفحة ١٢٩

[١٣] Blunt, Wilfrid Scawen. « Secret History of the English occupation of Egypt », P. 295

وهكذا دعم الانجليز رأس الجسر البرى الذى احتلوه فى « الاسكندرية » التى انصرفوا الى تحويلها بسرعة الى قاعدة قوية لعملياتهم البرية الكبرى الهادفة لاحتلال مصر كلها ، وهى العمليات التى كان يجرى التحضير لها منذ بداية عام ١٨٨٢ خاصة من حيث جمع المعلومات واستطلاع الارض واعداد الخطط العامة · وحول هذه المسألة يقول الكاتب البريطانى « م · ج · وليامز » فى مقاله « عن الحملة المصرية عام ١٨٨٢ » المنشور ضمن كتاب « الحملات العسكرية فى العصر الفيكتورى » الصادر فى « لندن » عام ١٩٦٧ « ان امكانية التدخل المسلح فى مصر كانت ، لعدة شهور ، محل الدراسة لدى وزارة الحربية · وفى بداية عام ١٨٨٢ قام الماجور « تولوش » (Major Tulloch) من ادارة المخابرات باستطلاع طريق التقدم الاسماعيلية ـ القاهرة ـ كما أن « ولسلى » نفسه (وهو قائد الحملة) كانقدأمرباعداد مجموعةمن الاوراق،خاصةمنالكابتن « هار » (Captain Hare) منادارةالمخابرات، حول عديدمن نواحيالمشكلة· وفى ٢١ يونيو ١٨٨٢ صدرت الاوامر لادارات الخدمات الادارية بالتجهيز لحملة عسكرية · وفى ٢٤ يونيو تم تجنيد عالم جامعة « كمبردج » الشهير فى اللغة العربية ، الاستاذ « ادوارد بالمر » ، بواسطة مخابرات الجيش والبحرية (مقابل ٥٠٠ جنيه كدفعة أولى ووعد بمكافأة كبيرة فى حالة نجاح مهمته كما يقول « بلنت » فى كتابه السابق الاشارة اليه !) للقيام بمهمة تأمين « قناة السويس » بواسطة كسب صداقة قبائل البدو التى تعيش شرقها ·· الخ » (١٤) · وهكذا كانت بريطانيا تعد لغزو مصر تحقيقا لاطماعها الاستراتيجية فى السيطرة على قناة السويس أساسا قبل مذبحة الاسكندرية وقبل أن تقع ما يزعم به بعض المؤرخين « أخطاء عرابى » التى صوروا أنها كانت السبب فى اقدام انجلترا على احتلال مصر ·

الخطة البريطانية العامة للحملة المصرية

فى ٣٠ يونيو ١٨٨٢ عقد فى وزارة الحرب البريطانية اجتماع عسكرى على مستوى عال برئاسة الجنرال « ولسلى » (Wolseley) · حضره رؤساء مختلف ادارات الوزارة لبحث خطة الحملة البريطانية لاحتلال مصر وسحق الثورة العرابية التى تلخصت فى الاتى :

١ ـ احتلال الاسكندرية وتحويلها الى قاعدة رئيسية للعمليات ونقطة تجمع للقوات والمعدات والسفن والقيام من هناك بكل ما يمكن من المناورات الخداعية لخداع القيادة العرابية عن اتجاه التقدم الحقيقى نحو القاهرة والذى سيتم عن طريق الاسماعيلية الذى يبلغ طوله ٧٥ ميلا فقط ويمر فى مناطق صحراوية تقريبا بجوار ترعة المياه العذبة لا تعترض زحف القوات فيها سواء المشاة أو الفرسان أو المدفعية الموانع المائية العديدة الموجودة فى الدلتا خاصة فى فترة الفيضان التى تمتد منأغسطس حتى اكتوبر ، فيما لو سلكت القوات طريق كفر الدوار ـ القاهرة الذى يبلغ طوله نحو ١٢٠ ميلا · هذا فضلا عن ما يوفره طريق الاقتراب من الاسماعيلية من امكانيات سهلة لزحف أو مطاردة الفرسان السريعة حتى القاهرة عقب هزيمة القوات المصرية قرب القناة ، لان احتلال القاهرة بسرعة عقب ذلك سيؤدى الى نهاية الحملة بحكم أنه لن يعطى الفرصة أو الوقت الكافى لاعادة تجمع القوات المصرية الاخرى الموزعة على المواقع والمناطق الاخرى (١٥) ·

٢ ـ لتوفير ظروف النجاح للخطة سالفة الذكر كان من الضرورى من الاستيلاء السريع على « بور سعيد » و « الاسماعيلية » لتأمين القناة نفسها من أى تخريب وكذلك الترعة العذبة للحيلولة بين قطع المياه عن « بور سعيد » و « الاسماعيلية » ، مع الاستيلاء على وصلة السكة الحديد « عند نفيشة » وإصلاح كل تخريب بها لتسيير القطارات المحملة بالمؤن وراء الجيش فضلا عن تسيير كل ما يمكن من القوارب فى الترعة ؛ واستكمالا لعملية تأمين القناة كان من الضرورى احتلال « السويس » بقوات هندية تبحر من بومباى » ·

٣ ـ بعد حل المشكلات الادارية اللازمة لزحف القوات وتكديس المؤن والذخائر الكافية فى موقع متقدم على طريق الإسماعيلية ـ التل الكبير تشتبك القوات البريطانية فى معركة عامة مع الجيش المصرى لتوجيه ضربة فعالة ونهائية ان أمكن يتلوها التقدم السريع نحو القاهرة لاحتلالها · وكان من المفروض أن تكون القوة البريطانية الضاربة المحتشدة فى الاسماعيلية مؤلفة من فرقتين مشاة

---

[١٤] Bond, Brian. Edited by, « Victorian Military Campaigns ». London, Hutchison, 1967. P. 250.

[١٥] Bond, Brian. « Victorian Military Campaigns ». Williams, M.J. « The Egyptian Campaign of 1882 », London, Hutchinson, 1967. P. 251, 52.

ولواء فرسان ووحدات مدفعية ووسائل النقل والمواصلات اللازمة (١٥) . وكان على القوات المتقدمة أن تحمل معها الى جانب تسليحها الخفيف مؤن يوم واحد فقط وتتبعها عربات نقل خفيفة تجرها الخيول تحمل مؤونة يومين آخرين بما فى ذلك الوقود ثم تتبعها امدادات خمسة أيام أخرى بالقطارات . ولذلك تقرر ارسال ٥ قاطرات حديدية ومعها مقطورات الماء والوقود ، ١٠٠ عربة نقل بضائع ، ٥ عربات اصلاح مزودة بكل ما يلزمها من أدوات وبما يوازى ١٠ أميال على الاقل من الخطوط الحديدية ، ومع كل هذه المعدات أفراد المهندسين اللازمين . كما تمت الترتيبات لارسال الخيام والاخشاب من « قبرص » ، وانشأت مستشفيات فى « مالطة » و « قبرص » . هذا وقد أعدت الامبرالية فى بريطانيا ٦٩ سفينة نقل من الخطوط التجارية لنقل القوات الرئيسية للحملة ومعداتها من بريطانيا نفسها فضلا عن تأجير ٥ سفن أخرى لنقل البغال من ناتال الى مصر ، وعن استخدام البحرية لسفن نقل الجنود التسعة الخاصة بها والتى كان على خمس منها المعاونة فى نقل القوات الهندية الى « السويس » ومعها بعض القوات البريطانية الموجودة هناك .

وقد بلغت جملة القوات الرئيسية للحملة ، والتى بدأت تبحر من موانى بريطانيا ابتداء من ٢٧ يوليو ، ١٦٫٤١٦ رجلا ، ٥٤٨٧ حصانا . وكانت تشتمل على أربع وحدات فرسان تتألف من ٢٣٩٧ رجلا ، ٢٠٤٧ حصانا ، ١٠ كتائب مشاة تتألف من ٨١٦٩ رجلا ، ٨ بطاريات مدفعية كاملة تضم ١٨٨١ رجلا ، ١٤٠٦ حصانا ، ٥٤ مدفعا . ثم وحدات مهندسين وجنود وسائل نقل وتلغراف وسكة حديد وصيانة للمعدات الحربية ووحدات بوليس حربى وخدمة طبية يبلغ مجموعها جميعا ٣٨٥١ رجلا ، ١٤٢٣ حصانا (١٦) . وقد استكمل وصول هذه القوات كلها تقريبا فى الاسكندرية فى ٢٢ أغسطس .

وهذا فضلا عن ارسال الحاميات البريطانية المرابطة فى « جبل طارق » و « مالطة » والبالغ عددها ٩ كتائب مشاة تضم ٧٥٩٢ رجلا الى الاسكندرية حيث أصبحت جزءا من قوات « ولسلى » . كما تشكلت القوة المبحرة من الهند فى أغسطس من ٧ سفن نقل من كتيبتين مشاة بريطانيتين و ٣ وحدات من فرسان « البنغال » و ٣ كتائب مشاة هندية أخرى ، وجنود ألغام ، وبلغت جملة هذه القوات ٦٩٣٠ جنديا (١٦) .

هذا وقد بلغت جملة قوات الحملة البريطانية فى مصر نحو ٣٥ ألف جندى كما يقول الكاتب البريطانى « وليامز » سابق الذكر ، ومما يرجح صحة الرقم الذى أورده أن « بلنت » يقول أن « الجيش البريطانى فى مصر قد تعدى الثلاثين ألف جندى » (١٧) . ويردف ذلك معلقا « ورغم أن هذه القوات لم تكن لها قيمة كبرى عند مقارنتها بأى قوات أوربية ، الا أنها كانت كافية للتعامل مع القوات الضئيلة الموجودة تحت قيادة « عرابى » . اذ لم تزد كل القوات التى كانت فى « كفر الدوار » عن ٨٠٠٠ جندى نظامى ومعهم ٨٠ مدفعا من طراز « كروب » ، بل لم يزد عدد الجنود النظاميين فى مصر كلها عن ١٣٠٠٠ جندى ، فى حين أن المجندين الجدد الذين تم جمعهم خلال شهر كانوا صالحين لاى خدمة عسكرية باستثناء العمل اليدوى فى حفر الخنادق . ولذلك فان « ولسلى » ، كانت مهمته سهلة نسبيا ، متى وجد نفسه قد نزل الى البر وليس أمامه من عائق بينه وبين « القاهرة » ، سوى خطوط الدفاع التى لم يكتمل اعدادها عند التل الكبير » (١٧) » .

تقدير القيادة العرابية للموقف العسكرى

على أساس تصور أن القناة منطقة محايدة دوليا لا يجوز لاية دولة أن تمارس فيها اية عمليات حربية قد يترتب عليها تعطيل الملاحة ، وهو تصور ظل « المسيو دليسيبس » يؤكده مرارا وتكرارا على آذان « عرابى » خاصة فى أواخر شهر يوليو ١٨٨٢ ، بنى « عرابى » خطته العامة على أساس التزام موقف الدفاع الاستراتيجى فى « كفر الدوار » أساسا ، على أمل تحقيق أكبر قدر ممكن من الصمود لفترة طويلة يمكن خلالها للعوامل الدولية من ضغط الرأى العام الاوربى والميول الليبرالية فى بريطانيا نفسها ، داخل الوزارة ومجلس العموم ، الى استمرار انعقاد مؤتمر الاستانة الخاص بمعالجة المسألة المصرية ، الى احتمالات تدخل تركيا والسلطان لنجدة مصر متى شعرت باستمرار وقوفها بثبات ، يمكن لكل هذا أن يؤدى الى توقف العدوان البريطانى ودخول الحكومة البريطانية فى مفاوضات مع مصر لحل المشكلة (١٧) . ونتيجة لذلك أهمل « عرابى » تحصين الجبهة فى منطقة ، واكتفى بوضع قوة

(١٦) المرجع السابق — صفحات ٢٥٦ ، ٢٥٧

(١٧) بلنت — المرجع السابق — صفحة ٣٠٢ ، ٢٩٩

ليست كبيرة فى معسكر « التل الكبير » على مبعدة ٥٠ كيلو مترا من « الاسماعيلية » ، كما رفض اقتراح لمحمود باشا فهمى بردم الترعة العذبة وكذلك ردم « قناة السويس » لمنع السفن الانجليزية من اختراقها ٠

وظل عرابى على اعتقاده هذا رغم دخول سفينة نقل جنود بريطانية القناة من ناحية بور سعيد فى ٢٦ يوليو، والقائها مراسيها يوم ٢٧منه فى بحيرة « التمساح » على مبعدة ٨٠٠ متر من الاسماعينية ووصول ٤ سفن حربية أخرى بقيادة الاميرال « هويت » الى السويس واحتلاله للمدينة يوم ٢ أغسطس دون مقاومة من حامية المدينة التى فرت منها (١٨) ! وقد اشترك الجاسوس «بالمر» فى عملية احتلال السويس هذه ثم غادرها اثر ذلك مباشرة الى صحراء سيناء ليقوم بقطع خطوط التلغراف بين مصر وفلسطين حيث قتل يوم ١١ أغسطس بواسطة البدو عند « عين رجوم » على مقربة من وادى « سدر » ٠

هذا وقد تم تجنيد نحــو ٢٥ ألفا من الخفراء فضلا عن استدعاء جنود الاحتياطى الذى بدات اجراءاته منذ مايو سنة ١٨٨٢ حتى بلغت اجمالى القوة العددية للجيش المصرى يوم ١٢ سبتمبر ، اى قبل «التل الكبير» مباشرة، ١٠٨ر٦٦١ جنديا (١٩) الا أن القــوة النظــامية المدربة الفعالة لم تكن تزيد عن ٢٥ ألف جندى على أحسن تقدير ٠

وقد كانت الحالة المالية للحكومة العرابية بعد ضرب الاسكندرية سيئة للغاية ، اذ كان المراقب المالى الانجليزى قد هرب أموال الخزينة العامة قبل الحرب بأيام الى الاسطول فى الاسكندرية ، وكذلك قام المسئولون الاجانب عن صندوق الدين بنقل أموال الصندوق الى السفن الحربية أيضا (١٨) ٠ ولذلك اعتمدت حكومة الثورة على تبرعات الجماهير النقدية والعينية وعلى ما حاولت جبايته بسرعة من ضريبة قدرها عشرة قروش عن الفدان الواحد ، فى تمويل عمليات التعبئة العامة وتنظيم الدفاعات !

اشتباكات « كفر الدوار »

أرسل «ولسلى» قبيل وصوله الاسكندرية الى الاميرال « سيمور » والجنرال « اليسون » الذى كان يتولى قيادة القوات البرية حتى ١٠ أغسطس باجراء الترتيبات اللازمة للاستيلاء على «بورسعيد» و « الاسماعيلية » و « نفيشة » حال صــدور الاوامر بذلك ، والقيام بخلق حالة من التأهب الدائم للقتال لدى القوات المصرية فى « كفر الدوار » لجـذب انتبـاه القيـادة العـرابية الاستراتيجى الى هذا الميدان فحسب ٠ وتنفيذا لذلك قام « أليسون » يوم ٥ أغسطس بهجوم من النوع الــذى يسـمى « اســتطلاع بالقــوة » قوة مؤلفه من نحو ٢٠٠٠ جندى من المشاة العادية ومشاة الاسطول يعززهم ٤ مدافع عيار ٩ أرطال ويغطى تقدمهم القطار المصفح الذى ركب فيه مدفع جديد عيار ٤٠ رطلا ٠وقد تقدمت القوة فى الساعة ٤٥ر٤ مساء على شكل طابورين بكل منهما ١٠٠٠ جندى ، زحف الايسر منهما بمحاذاة تـرعة المحمودية ، والايمن زحف مستترا بجسر السكة الحديد ليقطع خط الرجعة على القوات المصرية المشتبكة مع الطابور الايسر ، وقد نشب قتال عنيف لمدة ثلاث ساعات تقريبا بنيران المدافع والبنادق والسلاح الابيض ، كما قامت خلاله قوات الفرسان بقيادة « خورشيد باشا طاهر » بهجوم مضاد من منطقة ابو قير لتهديد الجناح الايسر البريطانى ، فكان أن انسحبت القوات البريطانية كلها الى مواقعها مستترة بظلمة المساء ٠ وقد فقد الانجليز فى هذه المعركة حوالى ١٧ قتيلا وعددا مــن الجرحى ، أما خسائر القوات المصرية فيقــول عرابى فى مذكراته أنها بلغت ٣١ قتيلا بينهم ضابطان كما جرح اثنان آخران و٦٥ جنديا ٠

وقد تكررت مثل هذه الهجمات تقريبا فى أيام ٧ أغسطس ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ من نفس الشهر وأسفرت عن نتائج مماثلة ، مؤكدة صحة اختيار القيادة البريطانية لاتجاه الهجوم الاستراتيجى الرئيسى نحــو القــاهرة مــن ناحية الاسماعيلية وصعوبة طريق الدلتا التقليدى عبر عنق الزجاجة عند موقع « كفر الدوار » ٠ ويعلق « بلنت » على ذلك قائلا « لقد أثبتت بضعة أيام قليلة أن تثبيت الجيش عند « كفر الدوار » كان اختيارا حكيما ، لان الانجليز ، تحت قيادة جنرال « أليسون » الذين نزلوا الى البر فى عدة آلاف ، قد أمكن صدهم دائما ، مع أنهم قد هاجموا الموقع مرارا ٠٠ لقد استطاع الجيش المصرى أن يحتفظ هنا بموقعه بنجاح ضد الانجليز مدة تقرب من خمسة أسابيع، ويصد جميع الهجمات ، بل ويزعج العدو بهجمات مضادة كانت تصل الى أبواب الاسكندرية تقريبا ٠

[١٨] محمــود الخفيف ــ المرجــع السابق ــ صفحة ١٦٦ ، والرافعى ــ المرجع السابق ــ صفحة ١٦٩، ١٣٢.
[١٩] محمد فيصل عبد المنعم ــ المرجع السابق ــ صفحة ٥٣٤

ولو أنه لم تكن توجد بوابة أخرى لدخول مصر خلاف « كفر الدوار » لكانت المباراة الوطنية قد كسبت » (٢٠) ٠

الحرب النفسية

وحرب المخابرات والخونة

أرسل « توفيق » ، خديوى مصر الخائن ، برقية من قصر « رأس التين » يوم ١٧ يوليو ، الى « عرابى » فى « كفر الدوار » بايعاز من « سيمور » يطلب منه فيها الحضور الى الاسكندرية ليتلقى تعليماته بخصوص انهاء الحرب مع الانجليز الذين وعدوا بتسليم المدينة الى جيش منظم ومؤتمر خاصة اذا كان هذا الجيش من تركيا ٠ وبطبيعة الحال كان الغرض من هذه البرقية استدعاء عرابى للقبض عليه وانهاء الثورة بدون حاجة الى جهد قتالى آخر من جانب بريطانيا ٠ ولما رفض « عرابى » هذا العرض بادر « توفيق » يوم ٢٠ يوليو باعلان عزل « عرابى » من منصبه كوزير حربية وأصدر منشورا ناشد فيه الشعب بالانضمام اليه ومناصرة الجيش البريطانى الذى جاء ليؤدب العصاة ويعيد الى البلاد الامن والنظام !

كما أصدر سلطان تركيا بعد ذلك وبضغط من بريطانيا ، بيانا يوم ٦ سبتمبر يعلن فيه عصيان « عرابى » ويطلب من الشعب المصرى عدم اطاعته والامتثال لسلطة الخديوى توفيق وكيل الخليفة الاسلامى فى مصر !

وقد قام توفيق بتوزيع العديد من نسخ هذين المنشورين بواسطة عملائه أمثال محمد سلطان باشا و « عمر لطفى باشا » بين العمد ومشايخ البلاد والاعيان فى الريف والمدن الذين انضم الكثيرون منهم الى معسكر الثورة المضادة بسرعة اثر ذلك أمثال « السيد الفقى » من المنوفية و « أحمد عبد الغفار » عمدة تلا الخ ٠

والى جانب هذه الحرب النفسية المنظمة ، التى كان لها أثرها فى ظل ظروف العصر وتأثر الوجدان الدينى بفكرة الخلافة الاسلامية التى أسبغها سلاطين العثمانيين على أنفسهم وشبه قدسية قرارات الخليفة ، الى جانب ذلك نظمت المخابرات البريطانية عمليات شراء واسعة النطاق للعملاء والجواسيس بين رجال الجيش وبدو القبائل التى تعيش فى الشرقية ساهم فيها الجاسوس البريطانى « بالمر » بدور فعال قبل مصرعه ٠ وهكذا تم تجنيد ضباط خونة مثل « على يوسف بك » قائد الالاى الثالث مشاة والاميرالاى « عبد الرحمن حسن » قائد الالاى الثالث خيالة ، والاميرالاى « حسن رأفت » قائد الالاى الثانى مدفعية والاميرالاى « أحمد عبد الغفار » قائد الالاى الاول خيالة ، وكل هؤلاء القادة كانوا ضمن قوات « التل الكبير » بعد ذلك ! ولهذا لم يكن من المصادفة أن أطلق الشعب المصرى المثل القائل « الولس كسر عرابى » بعد الهزيمة ٠

● « **ولسلى » يحتل قناة السويس** : وصل « ولسلى » الى الاسكندرية ليلة ١٥ أغسطس التى كان يتوالى عليها وصول القوات الرئيسية للغزو ، حيث قابل الخديوى وتفقد موقع « كفر الدوار » ، ثم غادر المدينة مبحرا مع القوات المتجهة الى الاسماعيلية عبر القناة يوم ١٩ أغسطس ٠

وكان الاسطول الذى أقلع ظهر ذلك اليوم من الاسكندرية مؤلفا من ٨ بوارج و ١٨ باخرة بقيادة « سيمور » ٠ وقد أحيطت وجهة الحملة الحقيقية بنطاق كبير من السرية ، وعلن ان الغرض منها هو النزول فى « أبوقير » وفى فجر يوم ٢٠ أغسطس فاجأ مشاة الاسطول الذين هبطوا متسللين من قواربهم بقيادة أحد ضباط المخابرات « تولوش » حامية مدينة بورسعيد وهم نيام داخل ثكناتهم وتم احتلال المدينة بذلك ، وتكرر نفس الاسلوب تقريبا من مشاة البحرية الذين كانوا على ظهر السفينة « أوريون » فى بحيرة التمساح فاحتلت الاسماعيلية أيضا فى نفس اليوم وتمكن رجال التلغراف المصريين فى المدينة من ابلاغ القاهرة بذلك النبأ ، وقد بادرت القوة الانجليزية الى أرسال تلغراف آخر الى القاهرة عن طريق اجبار موظفى التلغراف المصريين، تفيد بأن مجموع القوة البريطانية هو ٥٠٠٠ جندى وأن أى محاولة لاستعادة المدينة لن تجدى ، وبذلك تجنبت هذه القوة احتمال قيام حامية نفيشة البالغ عددها ٢٠٠٠ جندى(٢١)،والمرابطة على مبعدة ٣ كيلومترات من المدينة بأى هجوم مضاد سريع وفعال ٠ وفى الجنوب أقفل الاميرال « هويت » مدخل القناة أمام حركة السفن التجارية ثم قام بالاستيلاء على بلدة « الشلوفة » الواقعة على القناة بعد اشتباك قصير مع الحامية ، وهكذا تم تأمين القناة ورأس الجسر اللازم لانزال قوات « ولسلى » الرئيسية الذى وصل الى الاسماعيلية يوم ٢١ أغسطس بصحبة الاميرالين « سيمور » و « هوبكنس » ، وفى ٢٢ أغسطس وضعت قواته يدها على السكة

(٢٠) بلنت — المرجع السابق — صفحات ٢٩٨ ، ٢٩٥.

الحديد المتجهة الى « السويس » وعلى الترعة العذبة بين المدينتين . وفى ٢٣ أغسطس هاجمت هذه القوات نفيشة بعد قصفها بمدافع الاسطول واحتلتها اثر انسحاب القوات المصرية منها ، وفى هذا اليوم كان عدد القوات البريطانية قد بلغ فى الاسماعيلية نحو ٩٠٠٠ جندى ، وبدأت وحدات المهندسين فى اصلاح واعداد السكة الحديد للعمل فى خدمة عمليات التموين (٢١) . وأخذت القوات المصرية فى اقامة سد لقطع المياه العذبة لترعة الاسماعيلية عند بلدة « المجفر » حيث كان يسهل اقامة هذا السد هناك نظرا لعدم ارتفاع ضفاف الترعة كثيرا على خلاف الحال فيما بعد ذلك . ولذلك دفع « ولسلى » بقوة مؤلفة من بعض وحدات المشاة والفرسان ومدفعين عيار ١٣ رطلا فجر يوم ٢٤ أغسطس الى « المجفر » استطاعت أن تستولى على السد المذكور بعد معركة شديدة مع القوة المصرية وكان « عرابى » قد أرسل فى الاسبوع الاول من أغسطس « محمود فهمى باشا » رئيس الاركان ليبنى ما يمكن بناؤه من الاستحكامات عند « التل الكبير » و « الصالحية » ، ثم عقد يوم ٢٠ أغسطس اجتماعا حربيا فى مقر قيادته فى « كفر الدوار » — وكان فى خيمة كبيرة فاخرة مملوكة أصلا لسعيد باشا أهدته اياها أرملته كمظهر تأييد له — تقرر فيه ردم القناة على ضوء الانباء الواردة بدخول الانجليز فيها وثبوت عجز « دليسبس » عن منعهم الدخول فيها واستخدامهم لها فى عملياتهم الحربية ، وارسلت برقية بهذا المعنى الى « راشد باشا حسنى » قائد الجبهة الشرقية الا ان الوقت كان قد أصبح متأخرا للغاية لامكان تنفيذ هذا القرار الاستراتيجى الحيوى . وقد قال الجنرال « ولسلى » فيما بعد أثناء خطبة له « لو أن عرابى « سد القناة » ، كما كان ينوى أن يفعل، فاننا كنا سنصبح حتى هذه اللحظة نفرض الحصار البحرى على مصر . ولقد انقذنا تأخره عن ذلك يوما واحدا » ! (٢٢) .

معركة القصاصين

هاجمت القوات البريطانية القوات المصرية الموجودة عند « تل المسخوطة » ، الذى كان بمثابة موقع مرتفع حاكم ، يوم ٢٥ أغسطس بواسطة هجوم تثبيتى بالمواجهة وآخر تطويقى من الجانب الايسر لقطع خط انسحاب القوات المصرية والاستيلاء على قطارات السكة الحديد الموجودة عند « المحسمة » . وقد تم لها ذلك قبيل الغروب رغم شدة الحرارة التى أرهقت جنود المشاة وأصابت ٤١ منهم بضربة شمس مات بسببها احدهم فى هذا اليوم . اذ أن مدافع « كروب » المصرية لم تكن فعالة الاثر فى صدر القوات المهاجمة بسبب أن فتائل كبسولات قنابلها كانت تسقط فى الرمال قبل أن تنفجر القذيفة . وقد غنمت القوات البريطانية فى هذا اليوم ٧ مدافع « كروب » و ٧٥ عربة نقل بضائع سكة حديد فضلا عن كميات كبيرة من المؤن ساهمت فى حل أو تخفيف حدة المشكلات الادارية التموينية للقوات المتقدمة . وتابع الفرسان الانجليز تقدمهم فى الساعة الثامنة مساء نفس اليوم للاستيلاء على « القصاصين التى تبعد عن المحسمة بميلين ونصف ، وقد أمكنهم تحقيق ذلك فعلا يوم ٢٦ أغسطس دون مقاومة تذكر . هذا وقد بلغت جملة خسائر القوات البريطانية فى يومى ٢٤ ، ٢٥ أغسطس ٥ قتلى ، ٢٨ جريحا . وكانت أكبر خسارة لحقت الجيش المصرى فى هذه المعركة أسر « محمود فهمى باشا » يوم ٢٥ أغسطس حيث كان يقوم باستطلاع بشخصه منفردا بملابس مدنية لوادى « الطميلات» ليلقى نظرة على الصحراء تجاه الاسماعيلية فأسرته جماعة من الفرسان الانجليز تصادف مرورها هناك فى ذلك الوقت .

وباستيلاء « ولسلى » على « القصاصين » أصبحت مقدمة قواته على مسافة ١٥ كيلو مترا فقط من « التل الكبير » . ولكنها كانت عاجزة عن مواصلة التقدم السريع فورا بسبب تفاقم مشكلات امدادها وضرورة حلها قبل أى زحف جديد . وقد أسرع « عرابى » اثر سقوط « القصاصين » الى « التل الكبير » من « كفر الدوار » وجلب الامدادات الكبيرة الى هناك ومنها آلاى المشاة الاول من القاهرة وآخر من « كفر الدوار » ووحدات فرسان من هناك أيضا وكتيبتين مشاة سودانيتين من دمياط . وقد قرر « عرابى » القيام بهجوم عاجل لاسترداد « القصاصين » وتم هذا الهجوم بالفعل يوم ٢٨ أغسطس تحت قيادة « راشد باشا حسنى » بواسطة كتيبة مشاة وأورطة فرسان ومدفعين تتقدم فى أقصى الجناح الايمن ، آلاى المشاة الاول ومدفعين الى اليسار وفى الوسط ٦ أورط فرسان وأورطتين مشاة ومدفعين ، وعلى أن تتقدم كل هذه القوات على هيئة نصف دائرة تحيط بموقع العدو من كل جهة . وقد استمر القتال طوال النهار الا أن تدخل لواء الفرسان الانجليزى المرابط فى المحسمة والذى شعرت طلائعه ببدء الزحف المصرى أفسد الهجوم ، وانسحبت القوة المهاجمة قبيل الغروب نحو التل الكبير . وقد خسرت القوات البريطانية فى هذه المعركة ١٦ قتيلا و ٧٩ جريحا ، أما المصريون فقد قتل منهم ٦٠ وجرح ٨٥ ما بين جندى وضابط .

---

(٢١) Williams. « Victorian Military Campaigns». London, Hutchinson, 1967. P. 261, 62 64.

(٢٢) بلنت — المرجع السابق — صفحة ٣٠٢ .

واثر هذه المعركة عزز « ولسلى » مواقعه فى « القصاصين » بحيث اكتمل هناك احتشاد الفرقة الاولى باكملها ، ووصلت أيضا وحدات هندية قوية يوم ٣ سبتمبر ، كما تم مد خط تيفونى وتلغرافى بين « الاسماعيلية » و « القصاصين » ، كما تم حل المشكلة الادارية الرئيسية من حيث تشوين كميات كبيرة من المؤن والذخيرة نتيجة لتسيير القطارات والقوارب فى ترعة الاسماعيلية وتوفير عربات النقل الخفيفة بالخيول ولذلك أمكن للقوات البريطانية ان تصد بسهولة محاولة « عرابى » الثانية فى استرداد « القصاصين » يوم ٩ سبتمبر وهى المحاولة التى سلمت خطتها سلفا الى القيادة البريطانية بواسطة الخائن « على يوسف خنفس » كما تبين فيما بعد كما ترتب عليها جرح « راشد باشا حسنى » وعلى « باشا فهمى »

معركة التل الكبير

كانت خطوط الدفاع فى « التل الكبير » تمتد من السكة الحديد بطول ٦ كيلو مترات من الجنوب الى الشمال حيث يرتكز جانبها الايسر على الصحراء الممتدة بين « الصالحية » و « التل الكبير » وقد أنشأت هذه الخطوط بعمق ينتهى عند المعسكر الرئيسى حيث قيادة الجيش والمؤخرة وقد بلغت جملة القوات المصرية الموجودة هناك نحو ٢٠ الف جندى لديهم ٧٥ مدفعا « كروب » من عيارات ٦ر٨ سم التى تعمر من الخلف ، ولكن القوات النظامية المدربة كانت لا تزيد عن ٧٠٠٠ جندى ونحو ٢٠٠٠ آخرين من الخيالة (وفقا لتقدير بلنت) وكانوا مسلحين ببنادق « رمنجتون » ، التى تعمر من الخلف ، وقد وضع « ولسلى » خطته فى الهجوم على موقع « التل الكبير » يوم ١٣ سبتمبر لتوجيه ضربة فاصلة ونهائية للجيش المصرى الذى أصبح موقفه حرجا بعد معركتى « القصاصين » وهبطت نتيجة لفشله فيهما روحه المعنوية على أساس القيام بزحف ليلى صامت نحو الموقع بالقوات التالية :

١ ــ على اليسار شمال ترعة الاسماعيلية لواء مشاة بقيادة « هاملى » وخلفه لواء اخر مختلط التشكيل .

٢ ــ وعلى اليمين لواء مشاة آخر بقيادة « جراهام » وخلفه لواء الحرس بقيادة « دوق أوف كنوت » .

٣ ــ وجنوب الترعة كان سيزحف لواء مشاة هندى ولواء مشاة اسطول ومعهم قطار مدرع يحمل مدفعا عيار ٤٠ رطلا على ان تتحرك هذه القوة بعد تحرك القوات الاخرى بساعة حتى لا تنذر المواقع المصرية بصوت القطار وهو يتحرك .

٤ ــ وفى الوسط بين الفرقتين ستزحف المدفعية بقيادة الجنرال « جود » وكانت مؤلفة من ٤٢ مدفعا من عيارات ٩ ، ١٣ ، ١٦ رطلا لتقديم المعاونة بالنيران لكلا الفرقتين .

٥ ــ وعلى أقصى الجناح الايمن سيزحف لواء الفرسان بهدف تطويق ومطاردة العدو . وقد بلغت جملة القوات المشتركة فى الهجوم ٤٠١ر١٧ جندى من بينهم ١٢٤ر١٢ مشاة ، ٢٧٨٥ فرسان ، ٢٤٩٢ من رجال المدفعية ، وجملة المدافع ٦١ مدفعا و٦ مدافع لمشاة الاسطول طراز « جاتلنج » كما حمل كل جندى مائة رصاصة ومئونة يومين كاملين ، وقد بدأ التقدم الصامت فى الواحدة والنصف بعد منتصف الليل بمعدل ميل فى الساعة بمعاونة الادلاء من البدو وقام الخونة من ضباط الجيش المصرى بدور كبير فى عدم انذار المواقع المصرية المتقدمة بالزحف البريطانى وكان أن بدأ القتال فجأة فى الرابعة والنصف تقريبا ، ثم هاجمت الفرسان المواقع المصرية فى الرابعة وأربعون دقيقة والتفت حول ميسرة القوات المصرية ، كما بدأت المدفعية قصفها فى الخامسة وعشرين دقيقة وقد قاومت الكتائب السودانية مقاومة عنيفة بقيادة « محمد عبيد » اجبرت القوات التى تهاجمهم على التراجع لاستئناف تنظيم صفوفها ومعاودة الهجوم . وفى السادسة صباحا انهار الخط الدفاعى المصرى تماما ، وعمت الفوضى بين الصفوف واضطر « عرابى » الى الفرار بحصانه نحو « بلبيس » وفى السابعة صباحا كانت محطة التل الكبير والمعسكر كله فى أيدى القوات البريطانية ، وقد بلغت جملة خسائر القوات المصرية فى هذه المعركة نحو ٢٠٠٠ قتيل و ٤٠٠٠ جريح . بينما فقدت القوات البريطانية ٥٧ قتيلا ، ٣٨٢ جريحا ، ٣٠ مفقودا .

وهكذا انتهت آخر معارك الحرب العرابية وقد دخل الجيش البريطانى القاهرة فى ١٥ سبتمبر

واستسلم عرابى ورفاقه لقادته .

وبعد .. لقد كانت الثورة العرابية وصمودها المسلح ضد الغزو البريطانى رغم كل ما احتوره من أخطاء مجهودا كفاحيا بطوليا رائعا من الشعب المصرى على طريق ثورته الوطنية الديمقراطية الطويل الملىء بالتضحيات والجهود المضنية ، ويجب عند تقييم الجانب العسكرى للثورة العرابية أن نتذكر دائما أن هذه المعارك قد دارت منذ ٩٠ عاما ومن شعب شبه أعزل لا يملك صناعة حربية أو خبرة عسكرية حديثة وفى مواجهة أقوى دولة أمبريالية وقتئذ ، وفى عالم يسوده الاستعمار والرأسمالية العالمية ويخلو من أية دولة اشتراكية .

٨٠ شهرا من حياة الطليعة المواقف والاتجاهات

بهذا العدد تقف ((الطليعة)) على اعتاب ((الشهر الثمانين)) من حياتها ، التى بدات فى يناير ١٩٦٥ • عمر قصير زمنيا ، بيد أن شحنة الأحداث والصراعات التى تفجرت خلاله ، اجتماعيا وسياسيا ٠٠ محليا وعربيا ودوليا ، قد أثرت أبعاده ، عمقا وعرضا •

والاثراء هنا ، لا يقتصر على ما أمكن تحقيقه من ايجابيات ، ولكن أيضا على ما اكتشف من قصور وسلبيات فى حركة الثورة العربية • ولعل هزيمة ١٩٦٧ مابرحت - برواسبها وأسبابها ومشكلاتها - أعظم تحد لمسئوليات قوى الثورة العربية ازاء حصيلة السلبيات ، الموضوعية والذاتية ٠٠ على طريق النضال التاريخى لامتنا وللانسانية •

والتاريخ حركة لاتهدأ • ونحن - كل فى موقعه الاجتماعى والفكرى من الثورة - جزء من هذا التاريخ الحى المتحرك ، يعيش مؤثرا فيه ومتأثرا به • ومن هنا تنبع مسئوليتنا فى صنع تاريخنا • وهذه المسئولية تلقى على أكتافنا جميعا واجبا أساسيا ، هو امتلاك القدرة النضالية والفكرية اللازمة لممارسة هذه المسئولية • ويستدعى الامر - من آن لآخر - امتحان هذه القدرة مع الواقع بايجابياته وسلبياته • ووسائل مثل هذا الامتحان متعددة • من بينها محاسبة النفس ، ورؤية الصورة العامة لما فات ، بكل خيوطها ، تمهيدا للخطوات المقبلة ، والدخول مع رفاق الطريق فى حوار جاد ومسئول عن مدى صحة المواقف والاتجاهات ، والتسلح باقصى قدر من الشجاعة الأدبية للاعتراف بالاخطاء والنواقص ، التى لامفر منها انسانيا ، بهدف تداركها فى المستقبل ، وتصحيح اتجاه المسيرة على ضوء حصيلة التجارب •

ومن هنا نبع قرار « هيئة تحرير الطليعة » فى أول اجتماع لها بعد عودة رئيس تحريرها لممارسة عمله ، لتقييم مرحلة الثمانين شـــــهرا من حياة الطليعة ـ كطريق المناضلين الى الفـكر الثورى المعاصر ـ عرضا ، ونقدا ذاتيا ، وحوارا مع رفاق الطريق .

وابتداء من هذا العدد ، نقوم تبـــاعا ، بنشر العرض العام لمواقف واتجاهات « الطليعة » فى مختلف المجـالات .. داعين من ناحيـــة ، كتاب الطليعـــة ، الى ممارسة نقد ذاتى يبتعـــد عن الشكليات وعن الاسلوب العربى التقليدى « المدح بما يشبه الذم » . وداعين من ناحية أخـــرى ، وبالحاح نضالى ، رفاق الطريق الى ممارســـة حقهم على الطليعة وواجبهم نحو الثورة العربية ، من خلال النقد والحـــوار ، دون ما عقـــد أو حساسيات . فكلنا شركاء فى المسئولية .

■■

٨٠ شـهرا من حيـاة الطليعـة

المواقف والاتجاهات « العرض العام »

أولا : حـركة التحـرر الـوطنى

عرض : حسين شـعلان

■ احتلت قضية التحرر الوطنى فى افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية ـ اهتمام الطليعة فى ٤٠ مقالا فى داسات رئيسية ومقالات منفردة وافتتاحيات متعددة على امتداد ٨٠ عددا .

■ شغلت حركة التحرر الوطنى الافريقية حيزا ملحوظا من هذه المقالات ، احتلت اهتمام ٢٠ مقالا .

وجدير بالذكر هنا أن نرصد أن الطليعة كانت قد نظمت بالاشتراك مع مجلة السلم والاشتراكية الدولية ـ فى أكتوبر عام ١٩٦٦ ندوة « افريقيا ثورة التحرر الوطنى والاشتراكية » التى شهدت لقاء عريضا لما يقرب من ثلاثين حزبا وتنظيما ثوريا افريقيا ، قدم فيها ٦٨ بحثا وكلمة تضمنت مختلف المسائل المتعلقة بقضية التحرر الوطنى الافريقية ، وقد نشرت الطليعة على صفحاتها ٦ أبحاث من التى قدمت الى الندوة .

■ احتلت قضية التحرر الوطنى ـ كظاهرة عالميه ـ اهتمام ١٠ مقالات .

● احتلت قضية التحرر الوطنى فى آسيا اهتمام ٤ مقالات .

■ احتلت قضية التحرر الوطنى فى أمريكا اللاتينية اهتمام مقالين .

■ احتلت قضية عدم الانحياز اهتمـام ٣ مقالات .

■ احتلت قضية مشاكل الثورة التكنولوجية بالنسبة « للعالم الثالث » بشكل خاص اهتمام مقال واحد .

■ قدمت الطليعة .. باسمها ـ كراسة طرحتها للمناقشة فى أكتوبر ١٩٦٧ بعنوان « نظرات فى

الوضع الراهن » تضمن فصلا خصصته لرؤيتها ـ كمجلة ـ لحركة التحرر الوطنى العالمية ·

■ انفردت الطليعة بنشر حوار أقامته فى ابريل ١٩٦٥ مع المفكر البارز والمناضل العالمى الشهيد ارنستو شى جيفارا تناول بعض قضايا التحرر الوطنى · بالاضافة الى نشرها فى يونيو ١٩٦٧ نص رسالة جيفارا الى مؤتمر القارات الثلاث ، والتى نشرتها الطليعة بعنوان « فلتكن هناك اكثر من فيتنام واحدة : هذا هو الشعار » ·

■ نظمت الطليعة محاضرة عامة للمفكر السوفيتى البارز أوليا نوفسكى حول قضايا التحرر الوطنى ، نشرتها ـ مع الاسئلة التى وجهت اليه واجاباته عليها ـ فى يونيو ١٩٧٠ ·

ملحوظة : لم يدخل فى حسابات هذا الرصد مانشر فى الطليعة حول قضية التحرر الوطنى العربية حيث انه يدخل فى مجال تقارير اخرى تقدمها الطليعة فى نطاق رصد خطواتها خلال ٨٠ شهرا من حياتها ·

خطوط عامة « لرؤية الطليعة »

ترى الطليعة انه « منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، تجرى عملية تاريخية حاسمة هى احدى علامات عصرنا المميزة · ونقصد بها التصفية المستمرة وشبه الكاملة لنظام الحكم الاجنبى المباشر فى المستعمرات والبلدان التابعة فاستقلت ٥٩ دولة ولم يبق تحت الحكم الاستعمارى المباشر سوى ١ ونصف من الشعوب التى كانت تحت نير السيطرة الاستعمارية ·

ولا تزال قوى الشعوب التى تحررت تهجم على طول جبهة عريضة لتدك صروح الامبراطوريات الاستعمارية القديمة وأوشكت أن تصفى الاستعمار القديم تصفية نهائية !! (١)

ونتيجة لقيام وتوطد النظام الاشتراكى ـ كنظام عالمى ـ واخفاق محاولات الامبريالية فى ضرب الدول الاشتراكية بشكل مباشر ، برزت ظاهرة التحرر الوطنى التى لم يكن ممكنا ، أن تقف دولها عند حد الحصول على الاستقلال الشكلى · وفى غمار المعارك الضارية من أجل بناء الاقتصاد الوطنى وللقضاء على التخلف ، توصل أكثر من بلد من دول التحرر الوطنى الى أن الاشتراكية هى الحل الحتمى الذى يضمن مواجهة مشاكله ويسهل على هذه الدول امكانية قطع خطوات فى هذا الطريق ـ طريق التنمية غير الراسمالية وذات الافاق الاشتراكية ـ جهود المعسكر الاشتراكى لحماية السلام العالمى وافشال محاولات الامبريالية اثارة حرب عالمية ثالثة (٢)

وقد ولد الكفاح الوطنى التحريرى فى هذه الدول ، سياسة الحياد الايجابى فى مقابل سياسة الارتباط « بالعالم الحر » التى حاولتها الاوساط الامبريالية ·

وقد تميزت السنوات الثلاث الاخيرة « مقصود بها ٦٥ـ٦٦ـ١٩٦٧) بهجوم مضاد نظمته وقادته على جبهة عريضة الولايات المتحدة الامريكية ضد الدول الثورية والحركات الوطنية فى أسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية وضد الدول الاشتراكية · وهذا الهجوم الامبريالى يتمايز هدفا وأسلوبا من مكان الى اخر ، أى من بلدان العالم الثالث الى البلدان الاشتراكية ·

« وبالنسبة للهجوم المضاد على بلدان العالم الثالث والدول الثورية فيه بوجه خاص ـ فانه على الرغم من أن التناقض الرئيسى هو بين النظام الرأسمالى من ناحية والنظام الاشتراكى من ناحية أخرى ، الا أن الامبريالية الامريكية قد ركزت ـ خلال السنوات الثلاث الاخيرة ـ نشاطاتها العدوانية السافرة ضد الجناح الاخر للحركة الثورية العالمية : ونعنى به جناح الدول المستقلة والثورية ، فشعوب هذه الدول التى استقلت حديثا جزء لا يتجزأ من الحركة الثورية العالمية · وقد تجاوزت ثورة التحرر الوطنى فى عدد من البلدان المتحررة أبعاد الثورة الوطنية الديمقراطية ومضت تشق طريق الثورة الاجتماعية محققة الالتحام بين المرحلتين » (٣)

ويمكن تقسيم دول التحرر الوطنى الى مجموعتين : « أ ـ مجموعة الدول التى تخلصت من الاستعمار القديم عند حد كسب الاستقلال السياسى · ب ـ مجموعة الدول الثورية التى اخذت تشق طريق التغييرات الاجتماعية العميقة » (٤)

وبالاضافة الى عدوانية الامبريالية وشراستها فى هجومها على الدول الثورة » لابد من الاشارة الى أن هجوم الاستعمار عليها انما يساعد عليه ويغذيه حاليا عاملان أحدهما خارجى والاخر داخلى · أما العامل الخارجى : فيتمثل فى الانقسام العميق الذى أصاب وحدة الحركة الشيوعية (أساسا بين الاتحاد السوفيتى والصين) ، وأما العامل الداخلى : فيتمثل فى هذه الظاهرة وهى أن الدول الثورية قد أمكنها أن تحل بنجاح قضايا مرحلة التحول السياسى ولكنها عندما انتقلت الى حل قضايا مرحلة التحرر الاجتماعى واجهتها صعوبات خطيرة ولم يكن مصدر هذه الصعوبات أن العالم

[١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٦] كراسة للطليعة : افكار للمناقشة : نظرات فى الوضع الراهن » ـ الطليعة ـ اكتوبر ١٩٦٧ ·

ينقسم الى دول غنية ودول فقيرة ، لان كثيرا من البلدان المتحررة تزخر بطاقات بشرية وثروات طائلة ولكن مصدرها هو أن هذه البلدان لم تتوصل حتى الان الى الكشف عن أفضل الحلول للمشكلات التى تطرحها التنمية . وعلينا ان نضيف أنها ايضالم تكتشف أفضل الحلول لقضية الديمقراطية قضية تمكين الطبقات الثورية من السلطة وتحت تاثير هذه العوامل وغيرها كان التطور يتم ببطء شديد ، الامر الذى يفسر ضعف البناء الداخلى لهذه الدول ، ويجعلها هدفا مغريا لمؤامرات المستعمرين الجدد ونشاطاتهم العدوانية » (٥)

ومن ثم يمكن استخلاص سمتين رئيسيتين متناقضتين :

● - **السمة الاولى :** هى انميزان القوى هو بالقطع - على الصعيد العالمى - فى مصلحة قوى السلام والاشتراكية والديمقراطية والتحرر الوطنى . وان هذه القوى فى مجموعها وفى مسيرتها العامة ، توطد مراكزها وتنتقل بشكل عام من موقع الى موقع اكثرتقدما .

● **السمة الثانية :** هى ان الامبريالية العالمية لم تزدد قوة ، ولكنها **ازدادت عدوانية** فى السنوات الاخيرة .

ومن هاتين الظاهرتين نستنتج انه فى امكان قوى الشعوب أن تكبح جماح المعتدى وتمنع قيام حرب عالمية مدمرة ولكن بشرط : ١ - أن تميز الخطر فى الوقت المناسب ٢ - ان تسارع الى صد كل محاولة للعدوان ، حتى لاتتحول المحاولة الى مغامرة أو الى حرب نووية ٣ - ان يكون النضال ضد الامبريالية عملا تقوم به الجماهير الشعبية : عملا للفلاحين من أجل الارض وللعمال وللمثقفين من أجل حياة أفضل » (٦)

تلك خطوط عامة لرؤية الطليعة التى قدمتها باسمها ، ولا يختلف معها - بشكل عام - أى من المقالات التى نشرت حول قضايا التحرر الوطنى .. بأسماء كتابها .

١ - الكفاح ضد الامبريالية

النضال ضد الامبريالية - فى مختلف صورها - هو السمة المميزة لحركة التحرر الوطنى والحلقة الرئيسية لصراعاتها ، سواء بالنسبة لحركة كفاح الشعوب التى لم تحصل على استقلالها الوطنى بعد وتناضل من أجله ، أو بالنسبة للحركة العامة لنضال تلك الشعوب التى حصلت على استقلالها السياسى وتعمل على بعث حياتها القومية على أسس جديدة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا .

وازاء زحف حركات التحرر الوطنى ، ذبلت ظاهرة الاستعمار القديم ونمت ظاهرة الاستعمار الجديد الذى تمثل الولايات المتحدة الامريكية رأس الرمح فيه .

ويجمع كتاب المقالات على أن الامبريالية العالمية - بقيادة امريكا - تشن اعنف هجوم لها على حركة التحرر الوطنى ، فان مؤشره البارز هو الانقلاب ضد حكومة **نكروما** فى غانا . وبينما نجد نظرة تقول بان الامبريالية تشن الان هجوما شاملا ضد حركة التحرر الوطنى (٧) ، نجد نظرة أخرى تقول « .. القول بأن الامبريالية تقوم الان بهجومها الشامل ، فهذا غير صحيح وتقييم خاطىء لحقيقة الموقف ، فحركة التاريخ تؤكد ان القوى الاشتراكية وكذلك قوى التحرر الوطنى هى التى تقوم بالهجوم وأن الاستعمار هو الذى يأخذ موقف الدفاع بصفة عامة . ومن هنا فان القوى الاشتراكية وقوى التحرر الوطنى هى التى تمثل العامل الحاسم لذلك يزداد عنف الاستعمار فى مواجهة هذه القوى . ولكن هذا العنف الاستعمارى يقع فى بعض الاجزاء التى قد تسمح له بالكسب المؤقت » (٨) .

ويجمع الكتاب على أن الهدف الاساسى لهذا الهجوم الامبريالى العنيف هو ضرب مسيرة مواقع حركة التحرر الوطنى التى سعت نحو تنظيم اقتصاديات بلادها على أسس اشتراكية . وان الامبريالية سوف تستخدم كل الوسائل الممكنة لتحقيق هذا الهدف .

أما اسباب هذا العنف الاستعمارى فيعود الى اشتداد التناقضات الاجتماعية بين الاستعمار وبين قوى التحرر الوطنى من جهة والى وجود الخلافات والصراعات الداخلية التى يستغلها الاستعمار من جهة أخرى .

وبينما ترى وجهة نظر « أن المعركة فى افريقيا اليوم هى الميدان الرئيسى الملتهب للصراع بين

[٧] « حماية وتدعيم النظم التقدميةفى افريقيا » - ميشيل كامل - يناير١٩٦٧ .
[٨] « الموقف اللينينى من قضاياالتحرر الوطنى عامة .. والقضية العربيةخاصة » - اوليانوفسكى - يونيو ١٩٧٠.

القوى الثورية والقوى الامبريالية » (٩) ، ترى وجهة نظر ثانية « ان بؤرة المتناقضات مركزة الان فى اراضى الهند الصينية وفى البلاد المجاورة لها وهى تتسم باقصى درجات الحدة » (١٠) ، وترى وجهة نظر ثالثة « ان الاستعمار حول العالم الثالث كله الى ميدان رئيسى للصراع فى معركته ضد الاشتراكية والتحرر الوطنى » (١١) .

ويجمع الكتاب على أن أعوام ٦٥-٦٦-٦٧-١٩٦٨ ، هى السنوات التى شهدت اعنف هجمات للامبريالية ضد حركة التحرر الوطنى ابتداء من انقلاب اندونيسيا الى سلسلة الانقلابات فى افريقيا والتى يميزها انقلاب غانا بشكل كيفى . اما بعد ذلك فى ٦٩-١٩٧٠ فقد شهدت مبادرات جديدة لحركة التحرر الوطنى ابرز ملامحها ثورة السودان (مايو ١٩٦٩) ثم ثورة ١٩٦٩) وتصحيح مسار الثورة فى الكونجو برازافيل ، ثم حركة التأميم فى زامبيا واوغندا وفنزويلا وشيلى .. الخ .

ولكن تبقى وجهة نظر منفردة تقول بان « المد الاستعمارى الجديد بلغ ذروته منذ وصول حزب المحافظين البريطانى الى الحكم فى يونيو ١٩٧٠ » (١٢) .

اسباب نجاح الهجوم الاستعمارى

ولا تختلف الكتابات التى تناولت هذا الموضوع فى الطليعة اى اختلاف حول هذه الاسباب ، بل انها تكمل بعضها بعضا . وهى - جميعها - لا تلقى بمسئولية نجاح هذا الهجوم الاستعمارى المضاد على شراسة **الإستعمار وعدوانيته وتربصه بقوى التحرر الوطنى** .. فحسب ، وانما تردها - كذلك - الى سبب آخر خارجى هو **النزاع الصينى - السوفيتى** الذى افقد حركة الثورة العالمية كثيرا من عناصر مبادراتها ، وانعكس على مختلف سياسات حركة التحرر الوطنى ، ووحدة القوى المعادية للاستعمار فى العالم . وبالاضافة الى هذين السببين ، فاننا نخدع انفسنا أول ما نخدع اذا نظرنا الى نجاح هذا الهجوم لا على ان مسبباته الرئيسية من صنع القوى الاستعمارية وحدها ، وأغفلنا ما فى صفوفنا وواقعنا من عوامل سلبية ساعدت على نجاح الضربة الاستعمارية الرجعية » (١٣) .

وترصد الكتابات التى تناولت العوامل السلبية الداخلية التى ساعدت على ذلك فى :

- الطبيعة المغامرة للراسمالية المحلية ، فقد اعتمدت السلطة الجديدة فى هذه الدول على « النخبة » التى اكسبتها ظروف نشأتها صفات وخصائص الرأسمالية النامية ، فشكلوا - حيث لهم الغلبة فى الظروف الخاصة بمجتمعاتهم - نواة طبقة جديدة أثرت عن طريق مواقعها (المرتبات الكبيرة والامتيازات وعمل كثير منهم بالنشاط التجارى والمضاربة والنشاط الزراعى ، فضلا عن أعمال السرقة والرشوة والاختلاسات) . لكن جمع هذه الطبقة للمال وحده لا يكفى ولابد من السلطة (بالانقلاب) لتقنين اعمالها ومصالحها وتحقيق اهدافها » (١٤) .

- « الاتجاه الى المبالغة فى تقدير قوة وضخامة القوى الاشتراكية والوطنية وفى نفس الوقت التهوين من قدرات العدو وامكانياته » (١٥) .

- الروابط القبلية اقوى من الروابط الوطنية .

- « الاهتمام بالكم لا بالكيف كقضية عامة » (١٦) .

- « اسلوب تصفية القوى المعادية ، حيث تم ضرب الرجعية بجهاز الدولة لا من خلال معارك سياسية وفكرية على مستوى الجماهير . فالتأميم او حتى المصادرة اجراء سهل والمشكلة هى تصفية الجذور الاجتماعية والفكرية والسياسية التى تستند لها القوى الرجعية » (١٧) .

- نتيجة للدور الفردى البارز للزعماء فى هذه الدول « جمدت مؤسسات السلطة والاجهزة

---

[٩] « الكفاح المعادى للامبريالية بافريقيا فى المرحلة الراهنة » - لطفى الخولى - ديسمبر ١٩٦٦
[١٠] « فلتكن هناك اكثر من فيتنام واحدة : هذا هو الشعار » - شى جيفارا - يونيو ١٩٦٧
[١١] « العالم الثالث بين صياغة عدم الانحياز ومتطلبات الواقع الجديد » حسين شعلان - نوفمبر ١٩٦٧
[١٢] « الزحف الاستعمارى فى افريقيا » - محمد الشحات - اغسطس ١٩٧١
[١٣] « الكفاح المعادى للامبريالية بافريقيا فى المرحلة الراهنة » - لطفى الخولى - ديسمبر ١٩٦٦
[١٤] « الانقلابات والطريق الى سد الثغرات فى الجبهة الافريقية التحررية » - ميشيل كامل - ابريل ١٩٦٦
[١٥] نفس المقال السابق
[١٦] نفس المصدر السابق
[١٧] « غانا .. ومواجهة الثورة المضادة فى افريقيا » - حسين شعلان - ابريل ١٩٦٦

الديمقراطية مما نمى ظاهرة الولاء الشخصى لا الولاء المبدئى » (١٨) .

● استدراج بعض قيادات هذه الدول الى سياسة « العداء للشيوعية » ، التى أدت الى عزل القيادات الوطنية التقدمية عن القواعد الشعبية الواسعة واليسار الثورى فى هذه البلدان » مما سهل على الاستعمار « الاجهاز عليها باستخدام قوى اليمين المحلى والدولى » (١٩) .

● « الاتجاه العاجل الى عمل تنظيم واحد دون توحيد أو تقارب بين اتجاهات القوى فيه ، فتختفى الصراعات المكشوفة العلنية ليحل محلها النزاع والصراع الخفى الذى يتميز بالتآمر على السلطة والانفراد بها باستخدام اية أساليب » (٢٠)

● « تنافس قيادات النظم والحزب على حماية نفوذها ومراكزها » (٢١) .

● « ان أهم موقعين فى جهاز الدولة هما تنظيما القوات المسلحة وقوات البوليس . ويسعى الاستعمار من خلال تدريب كادرهما الى التاثير عليهما » (٢٢) .

● الصعوبات والمشاكل التى تترتب على عمليات التنمية الاقتصادية لبناء اقتصاد وطنى مستقل وحيث يؤدى ذلك ــ نتيجة لعدم توفر الوعى بسبب قصور أعمال التنظيمات السياسية ولفكرة امكانية التنمية دون تضحيات أو تقشف عام ــ يؤدى كل ذلك الى مشاكل اقتصادية فى الحياة اليومية للجماهير تشكل أرضية عامة من عدم الرضا تستغلها القوى المعادية للثورة وتركز عليها ويزيد من حدة هذه المشاكل أن الصادرات الاساسية لهذه الدول ــ وتمثل المواد الخام أساسا ــ مازالت خاضعة للسوق الرأسمالية العالمية التى تتحكم فى أسعارها وتتخذ من ذلك وسيلة للضغط على ثورات التحرر الوطنى .

● تمكن الاستعمار الجديد من احداث تخريب داخلى « بعزل عدد من الدول الوطنية عن تيار حركة التحرر التقدمية من جهة ــ وتمكنه من جهة أخرى التسلل الى الكيان الاجتماعى لبعض الدول الوطنية الحديثة ذات الطابع التقدمى وكسب فئات من البورجوازية الصغيرة فيها تشكل جيوبا رجعية متفاوتة الخطر تعرقل استمرار حركة التقدم، وتثير باستمرار التشكيك فى علاقات التعاون مع الدول الاشتراكية ، وتلجأ الى رفع شعار تاكتيكى : « الطريق الثالث » أمام شعار « اشتراكية واحدة وتطبيقات متعددة » (٢٣) .

طريق مواجهة الهجوم الاستعمارى

حظى هذا الموضوع باهتمام وافر من الكتابات الذى تناولت حركة التحرر الوطنى وصراعها ضد الاستعمار ولا يكاد يكون هناك خلاف حول أساليب مواجهة الهجوم الاستعمارى، وانما تكمل وجهات النظر بعضها .. لكننا نستطيع أن نلاحظ وجود نقطتين متميزتين سيرد رصدهما بعد ذلك .

وتنقسم مهام هذه المواجهة الى قسمين :

● قسم يتعلق بالاوضاع والسياسة الداخلية لنظم التحرر الوطنى ، ويرى ضرورة :

ــ تصفية جهاز الحكم القديم .

ــ وضع السلطة بيد العاملين .

ــ خلق التنظيمات السياسية الشعبية لمساندة الحكم .

ــ اشراك العاملين فى ادارة المؤسسات .

ــ الموقف الحازم ضد الاستعمار وحلفائه الرجعيين فى الداخل » (٢٣)

ــ « قيام الدول الوطنية المتحررة بانهاء سياسة المعاداة للشيوعية وتصفية الطابور الخامس فيها المكون من الطبقات والفئات الاجتماعية ذات المصالح والفكريات المتفاعلة مع القوى الامبريالية وبناء وحدة القوى الوطنية التقدمية وسلطتها على أساس تحالف العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين

---

[١٨] نفس المصدر السابق و« الكفاح المعادى للامبريالية بافريقيا فى المرحلة الراهنة » ــ لطفى الخولى ــ ديسمبر ١٩٦٦
[١٩] « انقلاب كمبوديا .. وتاكتيك العزل عن اليسار ثم ضرب الوسط » خيرى عزيز ــ يونيو ١٩٧٠
[٢٠] « الانقلابات والطريق الى سد الثغرات فى الجبهة الافريقية التحررية » ــ ميشيل كامل ــ ابريل ١٩٦٦
[٢١] « الثورة الافريقية بعد انقلاب غانا » ــ دافيد ديبوا ــ يونيو ١٩٦٦
[٢٢] « الانقلابات والطريق الى سد الثغرات فى الجبهة الافريقية التحررية » ــ ميشيل كامل ــ ابريل ١٩٦٦
[٢٣] « ملاحظات عن حركة التحرر الوطنى فى ضوء افكار لينين » ــ لطفى الخولى ــ ابريل ١٩٧٠

والجنوب مع فئات البورجوازية الوطنية التى تقبل التحول السلمى الى الاشتراكية » (٢٤)

ـ « لا طريق آخر أمام الدول الوطنية المحايدة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية سوى طريق الوحدة النضالية بين القوى الوطنية التقدمية وقوى اليسار الثورى فى البلدان » (٢٥)٠

ـ « أن شعار « الامة ككل » ثبت خطؤه ، ولابد من الاعتماد على طبقات محددة هى صاحبة المصلحة فى الثورة والتغيير » (٢٦) ٠

● ويتعلق القسم الثانى بعلاقة دول التحرر الوطنى بعضها البعض وعلاقاتها بالمعسكر الاشتراكى ، ويرى ضرورة :

ـ وحدة القوى الوطنية والثورية على أساس : ١ ـ برنامج سياسى مشترك كأساس للوحدة ٢ ـ تقوم على أساس من المصالح المشتركة ٣ ـ على أساس الالتزام بتنفيذ البرنامج ٤ ـ ان الوحدة ليست تعويذة، وليست قضية مسلما بها ولكنها تحتاج الى عمل صبور٠ ٥ ـ وحدة العمل لتنفيذ سياسة طويلة المدى (٢٧) ٠

ـ أن تعمل دول التحرر الوطنى وتساهم فى وضع حد للنزاع الصينى السوفيتى (٢٨) ٠

ـ تقصير خطوط عملها بحيث تتحملها الامكانيات الفعلية للقوى الثورية وبناء وحداتها الضاربة على صورة ونسق موحدين (٢٩)٠

ـ « ممارسة سياسة التعايش السلمى على نحو واقعى وجدلى ، يحول دول الحرب النووية الشاملة » (٣٠)، ولكنه « يقوم على الرد بالعنف الثورى المشروع ضد عنف الثورة المضادة » (٣١)

ـ « تركيز مساعدات المعسكر الاشتراكى بجرعات أقوى للنظم الثورية وحدها دون بعثرتها بغير طائل » (٣٢) ٠

ـ مع التسليم بأهمية التجمعات العامة بين الدول الوطنية والدول التقدمية فى حركة التحرر الوطنى ، لابد من وجود « نواة ثورية لتضامن القوى الثورية » (٣٣) مع « ايجاد صياغة لهذه التجمعات العامة فى اطار اعتبارين : ١ ـ نشاط القوى الرجعية المتزايد داخلها ٢ ـ عدم العودة الى الوضع الانقسامى السابق على وجود هذه التجمعات٠ وبمعنى آخر العمل على جبهتين : جبهة عامة للدول الوطنية والمستقلة، وجبهة خاصة للدول الثورية » (٣٤) ٠

ونأتى الى ذكر النقطتين المتميزتين :

● اذ ترى وجهة نظر ان التضامن الذى يعبر العالم التقدمى لحركة التحرر الوطنى فى فيتنام « يثير فى ذهننا السخرية المريرة التى كان يحس بها المتصارعون الرومان من تشجيع العامه من الشعب لهم ٠ ليس الامر آن نتمنى فوز ضحية العدوان بل ينبغى مشاركته المصير والسير معه حتى الموت أو النصر » (٣٥)

وتلك وجهة نظر متكاملة تستطرد فتقول « ليس من رد سليم وصحيح على ابتزاز الامريكيين بنشوب الحرب سوى عدم الخوف منها ٠ على الشعوب أن تقيم تاكتيكها العام على أساس الهجوم فى شدة فى كل موقع من مواقع المواجهة » (٣٦) ٠ وترى « ان البورجوازية المحلية الاهلية فقدت كل قدرة على مقاومة الامبريالية ـ على فرض ان كانت لديها تلك القدرة يوما من الايام ـ وتكون تلك البورجوازية الان المنفذ الخلفى للامبريالية ٠ ليس هناك أية تغييرات يمكن اجراؤها وليس أمامنا سوى الثورة الاشتراكية او مسخ من الثورة » (٣٧) ٠

وتستمر وجهة النظر هذه لتقول « ينبغى تشتيت جهد الامبريالية بوجود اكثر من فيتنام ٠ انها حرب قاسية ولنفهم هذا جيدا » (٣٨)٠

---

[٢٣] « واجب القوى الثورية فى حماية وتدعيم النظم التقدمية فى افريقيا» ـ معاوية ابراهيم ـ ديسمبر ١٩٦٦
[٢٤] « ثورة اكتوبر وثورات التحرر الوطنى فى ضوء حرب الشرق الاوسط » ـ لطفى الخولى ـ نوفمبر ١٩٦٧
[٢٥] « انقلاب كمبوديا .. وتاكتيك العزل عن اليسار ثم ضرب الوسط » ـ خيرى عزيز ـ يونيو ١٩٧٠
[٢٦] حماية وتدعيم النظم التقدمية فى افريقيا » ـ ميشيل كامل ـ يناير ١٩٦٧ ٠
[٢٧] « الوحدة الافريقية ٠ حقيقة أم خيال ؟ » ـ مبزوانديل بيليسو ـ مايو ١٩٦٩
[٢٨ ـ ٢٩ ـ ٣٠] ـ « ماالعمل ؟ » ـ لطفى الخولى ـ ابريل ١٩٦٦
[٣١] « عام التقاط الانفاس والمبادرة من جديد » ـ حسس شعلان ـ يناير ١٩٧٠
[٣٢] « ما العمل ؟ » ـ لطفى الخولى ـ ابريل ١٩٦٦
[٣٣] « حماية وتدعيم النظم التقدمية فى افريقيا » ـ ميشيل كامل ـ يناير ١٩٦٧
[٣٤] « عام التقاط الانفاس والمبادرة من جديد » ـ حسين شعلان ـ يناير ١٩٧٠
[٣٥] « فلتكن هناك اكثر من فيتنام واحدة : هذا هو الشعار » ـ شى جيفارا ـ يونيو ١٩٦٧
[٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤١ ـ ٤٢] ـ نفس المصدر السابق ٠

وتقول وجهة النظر هذه بضرورة خلق « مجالس للتنسيق بين حركات الكفاح المسلح » (٣٩) وأن حركات الكفاح المسلح هذه « ستتخذ حتما سمات الثورة الاشتراكية » (٤٠) . وأن الهدف من هذه الحركات المسلحة « هو القضاء على الامبريالية قضاء مبرما . ويمكن أن نختلف حول التاكتيك وعلينا ان نضع فى الاعتبار تقديرات الاخرين ، اما الهدف فيجب أن نكون صارمين بشأنه » (٤١) والوسيلة هى « الدعاية المسلحة وذلك بأن يتسلح جنودنا بالحقد ضد العدو » (٤٢) .

وتختم هذه النظرة رايها بالقول « ان عملنا يتركز فى صرخة الحرب ضد الامبريالية الامريكية عدو الجنس البشرى الاكبر . فليفاجئنا الموت على أية بقعة من الارض . مرحبا به طالما أن آذاننا صاغية تسمع صرخة الحرب وطالما تمتد يد اخرى لتقبض على أسلحتنا وطالما يقف رجال آخرون ينشدون الاناشيد الجنائزية مصحوبة بفرقعة المدافع،وبأصوات اخرى من الحرب والنصر»(٤٣).

● وترى وجهة نظر اخرى أن « الامبريالية وفى مقدمتها الاستعمار الامريكى تلجأ لتاكتيك جديد فى العدوان تحت أعلام دول صغيرة تابعة لها يستطيع جهازها الحربى أن يستوعب جهاز الحرب الامريكى بحيث أصبح الاثنان كلا واحدا لا يتجزأ .. « فحالة فيتنام » – التدخل السافر – هى فى ارجح الاحتمالات آخر حالة من نوعها فى تاريخ هذا القرن ، أو بتعبير اكثر تحديدا فى تاريخ الامبريالية . ومن هنا تجند أمريكا جهاز حربها فى خدمة جهاز حرب دولة صغيرة عميلة للعمل فى مناطق ثلاث رئيسية مرشحة للعمل العدوانى الامبريالى : هى افريقيا وملحق بها الشرق الاوسط ثم أمريكا اللاتينية ثم دول أوربا الاشتراكية . وتعد المنطقتان الاوليان مناطق مفتوحة لصدام ساخن . اما المنطقة الثالثة فهى منطقة صدام بارد » (٤٤) .

وتلك أيضا وجهة نظر متكاملة تستطرد لتقول « .. على القوى الاشتراكية والقوى الوطنية التقدمية أن تسرع لمواجهة هذا التاكتيك الجديد بتاكتيك ثورى مضاد وفعال – ويستلزم هذا – فى رأينا – وحدة فى العمل ضد العدو المشترك :»: ويمكن أن نجسد وحدة العمل هذه فى نقطتين :

– وضع وتنفيذ خطة متكاملة لتصنيع الاسلحة التقليدية وتطويرها محليا فى البلدان الوطنية التقدمية بالاشتراك مع الدول الاشتراكية . (ويمكن أن تستخدم للانتاجين المدنى والحربى) .

– بناء مراكز دفاع ثورية مشتركة اختيارية فى المواقع الاستراتيجية من البلدان الوطنية التقدمية تعمل فيها قوات مشتركة من البلدان الاشتراكية والوطنية التقدمية . وهى مراكز تختلف جذريا عن القواعد العسكرية بسبب العامل الاختيارى فى تكوينها والمشاركة على أساس المساواة فى بنائها وسيادة الدولة القائمة فيها عليها والحرية الكاملة لها فى انهائها . ومن شأنها أن تكون درعا قوية ومسلحة بتكنولوجية حديثة لا تستطيع دولة وطنية صغيرة فى حدود زمن قصير نسبيا أن تحصل عليها بمفردها » (٤٥) .

أما فى البلدان التى لم تحصل على استقلالها بعد ، فترى وجهة نظر حول هذه الدول فى افريقيا « أن الوضع الفاشى القائم على العنف والهمجية والقمع الوحشى والاساليب المجافية للانسانية ، أصبح وضعا عاديا فى البلاد الافريقية التى تسيطر عليها النظم العنصرية . ومن هنا فان الكفاح المسلح هو السبيل الوحيد لتحرير هذه البلاد » (٤٦) .

٢ – الحياد الايجابى وعدم الانحياز

نستطيع ان نرصد وجهتى نظر اساسيتين فى هذا الموضوع :

● تقول الاولى ، « بأن الاوضاع التى أعقبت الحرب العالمية الثانية تميزت بظاهرتين اساسيتين : الاولى : قيام معسكرين دوليين كبيرين يملكان الاسلحة النووية ويتنافسان من أجل التفوق كل فى مواجهة الاخر ، سواء عن طريق اختراع اسلحة اكثر تدميرا أو عن طريق محاولة

---

[٤٣] نفس المصدر السابق
[٤٤] « نحو مراكز دفاع ثورية ومشتركة » – لطفى الخولى – اكتوبر ١٩٦٧
[٤٥] « نحو مراكز دفاع ثورية ومشتركة » – لطفى الخولى – اكتوبر ١٩٦٧
[٤٦] « الى اين تتجه جنوب افريقيا » – ميزوانديل بيليسو – ديسمبر ١٩٦٥

ضم الدول الصغيرة الى احلاف كل منهما • الثانية : انتشار حركات التحرر الوطني وظهور دول مستقلة جديدة تعاني من التخلف والفقر » (٤٧)

ثم تستطرد لتقول « ان سياسة عدم الانحياز لا تقوم على انشاء كتلة ثالثة لانها قامت للقضاء على الاثار الضارة الناتجة عن قيام كتلتين متنافستين (٤٨)

وتهدف سياسة عدم الانحياز الى « تصفية الاستعمار بكل اشكاله وصوره وتأكيد حق كل الشعوب في الاستقلال التام والمساواة وفي اختيار نظمه السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفق ذاتيته القومية • والتخلص من العلاقات غير المتكافئة في العلاقات الاقتصادية ومنع استخدام المعونات الاقتصادية بغرض النفوذ والسيطرة أو الضغط • وكذلك ازالة القواعد العسكرية الاجنبية ، وتأييد حق شعوب فلسطين وجنوب أفريقيا وروديسيا الجنوبية وانجولا وموزمبيق التي مكن الاستعمار العنصرية منها ، في استعادة حريتها وتقرير مصيرها • أما السلام العالمي فلا يمكن اقراره الا بتصفية التكتلات العسكرية ونزع السلاح نزعا عاما وشاملا ، على ان يتم ذلك كله على مراحل وتحت رقابة دولية فعالة » (٤٩)

وترى وجهة النظر هذه « ان اتساع الفجوة بين الدول المتقدمة والدول النامية خطر على السلام مادام العالم منقسما الى كتلتين : احداهما **غنية** والاخرى **فقيرة** » (٥٠)

وتعتقد وجهة النظر هذه ان يوم الانتصار الاكبر لسياسة عدم الانحياز هو اليوم الذي تصبح فيه هذه السياسة غير ذات موضوع » (٥١)

● وترى وجهة النظر الاخرى « ان صياغة عدم الانحياز – التي تخطت صياغة الحياد الايجابي بمرونة واضحة – كانت انعكاسا لمناخ سياسي عام ساد مواقع العالم الثالث الاساسية ، يؤمن بفكرية ترى امكانية بقاء السلطة فوق الطبقات وصراعاتها ودون الانحياز الى اي منها لتحقيق برنامج اجتماعي اصلاحي عام » (٥٢)

وبرغم ظروف « تعدد المراكز وانحسار خطر الحرب النوويه الا ان سياسة عدم الانحياز مازالت تدور في اطار تقليدي يتفق ومتطلبات ظروف عصر الكتلتين » (٥٣)

وترى وجهة النظر هذه ان سياسة عدم الانحياز « قد اتخذت طابع الكم بالبحث عن أكبر عدد ممكن لتجمع الدول المستقلة حديثا وبغض النظر عن نظمها السياسية والاجتماعية أو حتى اتجاهات سياستها الخارجية المختلفة ، بل والمتناقضة في معظم الاحوال • وقد غلب على سياسة عدم الانحياز سيادة فكرية المساواة بين المعسكرين بغض النظر عن طبيعة وأهداف كل منهما » (٥٤)

وتستكمل وجهة النظر هذه رأيها بأن « الوضع قد تغير في اندونيسيا مما كان له أثره على ثقل حركتها في السياسة الدولية واصبحت الهند بعد نهرو اقل قوة وتأثيرا • اما يوغوسلافيا فقد تحركت لحظة استشعار الخطر (في أعقاب حرب الشرق الاوسط ١٩٦٧) كواحدة من الاسرة الاشتراكية العالمية • ويبقى ان نجد صياغة جديدة تنسجم فيها خطوط سياستنا التقدمية الداخلية مع سياستنا الخارجية » (٥٥) ومن ثم « فان الواقع الدولي الراهن في أشد الحاجة الى تكوين **جبهة عالمية معادية للاستعمار** تضم دول المعسكر الاشتراكي جميعها الى جانب المواقع الثورية والوطنية لدول العالم الثالث والتي يتم فيها تعاونها الوثيق في كل المجالات على أساس من الاحترام الكامل المتبادل ومعاملات الند للند في مواجهة مخططات الاستعمار العالمي • ولسنا في حاجة الى التأكيد على ان مثل هذا التنسيق لا يقوم على أساس من التبعية أو حتى على اساس قاعدة : انصر اخاك ظالما أو مظلوما • » (٥٦)

٣ – قضايا البناء الاجتماعي

يمكن تقسيم دول التحرر الوطني بعد الاستقلال الى ثلاثة أقسام :

[٤٧ – ٤٨ – ٤٩ – ٥٠ – ٥١] – « النصر الحاسم لموقف عدم الانحياز .. يوم اختفاء الحاجة اليه » – عبد المنعم النجار – مارس ١٩٦٥

[٥٢] « العالم الثالث بين صياغة عدم الانحياز ومتطلبات الواقع الجديد » – حسين شعلان – نوفمبر ١٩٦٧

[٥٣] « حسابات ٦٥ وآفاق ٦٦ في عالم عدم الانحياز » – خيرى عزيز – يناير ١٩٦٦

[٥٤ – ٥٥ – ٥٦] « العالم الثالث بين صياغة عدم الانحياز ومتطلبات الواقع الجديد » – حسين شعلان – نوفمبر ١٩٦٧

« ١ ـ مجموعة من البلدان عجزت نظمها عن شق طريق التطور الاقتصادى والاجتماعى ، وظلت فى اطار الصورة القديمة ٠

٢ ـ ومجموعة ثانية استطاعت قوى الرجعية الحاكمة ـ بسند من الاستعمار ـ ان تخضعها للتبعية الاستعمارية بأشكال حديثة ٠

٣ ـ مجموعة من الدول الثورية التقدمية » (٥٧) ٠

وقد شغلت المجموعة الثالثة (الدول الثورية التقدمية) الاهتمام الاعظم للمقالات التى نشرت بالطليعة ٠

« فمن أبرز ظواهر انتصارات الثورات الوطنية التى اندلعت بعد الحرب العالمية الثانية ، واعتمدت فى نجاحها على نضال العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين ، انه لم يكن من الممكن أن تقف عند حد الحصول على الاستقلال الشكلى ، ففى كثير من بلاد العالم الثالث طرحت الشعوب مسألة القضاء على التخلف الاقتصادى والاجتماعى ، لكن هذه الشعوب اكتشفت أن طريق التقدم ، انما هو طريق تصفية النظم الاقطاعية وشبه الاقطاعية وتأميم المصالح الاستعمارية والكفاح ضد محاولات الاستعمار الجديد العودة بأساليب وأشكال متجددة ٠ وفى غمار معارك مريرة وضارية من أجل بناء اقتصاد وطنى ، توصل أكثر من بلد الى أن الاشتراكية هى الحل الحتمى الذى يضمن القضاء على التخلف ٠ من هنا بدأ عدد من هذه البلدان يتخذ فى مجال التنمية اجراءات عميقة تحقق التقدم الاجتماعى وتمهد الارض أمام بناء الاشتراكية » (٥٨)

وحققت هذه النظم ـ بذلك ـ الالتحام بين « مهام وأهداف الثورة الوطنية التحررية وبين الثورة الاجتماعية ذات الافاق الاشتراكية » (٥٩)

قضية القيادة

غير أن هذا الالتحام « لم يكن مع ذلك جديدا ٠ فقد تحقق من قبل فى كل الثورات الوطنية الديمقراطية التى قادتها بعض الاحزاب الشيوعية (من لينين الى ماو) ٠ لكن الجديد هنا هو أن ظروف عالم اليوم جعلت هذا الالتحام ممكنا بدون قيادة بروليتارية ٠ بل لقد تم أحيانا تحت قيادات ثورية تنتمى الى البورجوازية الصغيرة الثورية » ٠ (٦٠) ٠

فقد فجرت هذه المرحلة ـ منذ ناهية الستينات ، وفى عصر عالمية الاشتراكية والانهيار المتزايد للقوى الامبريالية ـ « اقساما من البورجوازية الصغيرة تلقحها بدرجات متفاوتة الافكار والاتجاهات الاشتراكية التى تتراوح بين الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية » (٦١) ٠

فقد فجرت هذه المرحلة ـ منذ نهاية الستينات ، وفى عصر عالمية الاشتراكية ، والانهيار المتزايد للقوى اجتماعية محددة ، وانما مثلت فى حركتها العامة مصالح مجموع الامة يومها ٠ وحاولت مختلف الطبقات جذبها الى جانب مصالحها ، ولكن من خلال المعارك اليومية الخارجية والداخلية التى خاضتها هذه القيادات الوطنية الثورية المخلصة ، ارتبطت باخلاص بأمال الفلاحين والعمال والبورجوازية الصغيرة وأصبحت تمثل ـ فى اتجاهها العام ـ حركة المثقفين الثوريين المخلصين لشعوبهم » (٦٢)

وغالبا ما تتجه هذه النظم الثورية الى « تصفية طبقتى الاقطاع والبورجوازية الكبيرة وتطبق لصالح الفلاحين الفقراء والمتوسطين اصلاحا زراعيا ، وتؤمم عددا من الكيانات الاساسية أو الكبرى فى الاقتصاد الوطنى لتكون قطاعا عاما يصبح العمود الفقرى والقيادة الموجهة للاقتصاد الوطنى جنبا الى جنب مع القطاع الخاص (الذى تهيمن فيه البورجوازية الصغيرة على ملكياتها المحدودة لبعض وسائل الانتاج) بالاضافة الى قطاع تعاونى يقوم فى أغلبه على أساس الملكية ، وفى أقليته على أساس العمل » (٦٣) ٠

قضية الحزب الواحد

تجمع الكتابات التى نشرت فى الطليعة حول هذه القضية أن حكم المؤسسات تعتقد فى هذه النظم الثورية من حركة التحرر الوطنى ٠ وقد نهجت معظم هذه الدول « نظام الحزب الواحد » لممارسة الديمقراطية من خلاله ٠ وتلتقى فى هذا الحزب قوى ذات منابع اجتماعية وايديولوجية مختلفة

---

[٥٧] « واجب القوى الثورية فى حماية وتدعيم النظم التقدمية فى افريقيا » ـ معاوية ابراهيم ـ ديسمبر ١٩٦٦
[٥٨] « كراسة للطليعة : افكار للمناقشة : نظرات فى الوضع الراهن . عالميا » ـ الطليعة ـ اكتوبر ١٩٦٧
[٥٩] « الكفاح المعادى للامبريالية بافريقيا فى المرحلة الراهنة » ـ لطفى الخولى ـ ديسمبر ١٩٦٦
[٦٠] « كراسة للطليعة : افكار للمناقشة : نظرات فى الوضع الراهن .. عالميا » ـ الطليعة ـ اكتوبر ١٩٦٧
[٦١] « ملاحظات عن حركة التحرر الوطنى فى ضوء افكار لينين » ـ لطفى الخولى ـ ابريل ١٩٧٠
[٦٢] « الصراع بين قوى التحرر الوطنى وقوى الاستعمار القديم والجديد » ـ حسين شعلان ـ مارس ١٩٦٥
[٦٣] « ملاحظات عن حركة التحرر الوطنى فى ضوء افكار لينين » ـ لطفى الخولى ـ ابريل ١٩٧٠

ولكنها تتفق على « الحل الاشتراكى » ومن هذه القوى ما هو بورجوازى صغير أو عمالى ومنها ما يسعى الى التميز عن الاشتراكية العلمية باشتراكية وطنية ومنها ما يتخذ من الاشتراكية العلمية منهاجا كاملا أو يقترب منه دون عداء واقعى فيرفض الجانب الفلسفى منها ويقبل جانبها السياسى والاقتصادى . وهى قوى الفلاحين والعمال والجنود والمثقفين الثوريين والبورجوازية المتوسطة .

وهناك وجهتا نظر مختلفتان حول قضية الحزب :

● تقول الاولى ـ وهى الغالبية العظمى من الكتابات التى نشرت فى الطليعة ـ بأن انقسام المجتمع فى هذه الدول الى طبقات متصارعة ظاهرة لابد من الاعتراف بها . ومن هنا فانه يمكن ايجاد تنظيم أو تجمع عام يضم ممثلى قوى التحالف بشرط توفير المناخ الديمقراطى لتعبير كل طبقة ـ داخل التنظيم الواحد ـ عن وجهات نظرها ومصالحها فى التزام عام بخط النظام الثورى الهادف الى بناء الاشتراكية . ولكنه يستحيل ضمان استمرار العمل الوطنى من أجل بناء الاشتراكية وحماية المتغيرات التقدمية الا بوجود **حزب طليعى** ـ داخل التنظيم الذى يجمع قوى التحالف يضم فقط القوى الاشتراكية بمدارسها المختلفة والمتبنية لفكر العمال والفلاحين ومصالحهم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . على أن يكون هذا الحزب الطليعى قائدا لتجمع التحالف وموجها لحركته .

وتقول وجهة النظر الثانية ـ وهى لقائل واحد ـ « ان التمايز بين الفئات الاجتماعية فى الدول المتحررة ـ وافريقيا بشكل خاص ـ لم يبلغ ما وصل اليه فى اوربا فى أواخر القرن التاسع عشر ، فالوجود الاجنبى قد خفف حدة هذا التناقض . ورغم أنه لم يوجد قبل النصف الثانى للقرن العشرين ، **حزب جماهيرى** تولى اقامة الاشتراكية ، الا انه بعد النصف الثانى من القرن العشرين نشأ حدث جديد . اذ وجدت احزاب جماهيرية ، واتجه البعض منها الى بناء الاشتراكية كنتيجة مباشرة لتحرر الشعوب المستعمرة واختيار بعضها بناء الاشتراكية بقيادة حزب جماهيرى » (٦٤)

وهذا الحزب الجماهيرى « يتولى تحقيق اهداف تتسم بطابع الاشتراكية (طريق التنمية غير الرأسمالية) فهو يمهد السبيل الى طريق جديد أعلى هو طريق الاشتراكية الذى لا يمكن ان يشقه الا حزب طليعى » (٦٥)

وشروط هذا الحزب الجماهيرى هى : « ١ ـ تحقيق الوحدة فيها على أساس من الرغبة الحرة . ٢ ـ تعمل طبقا لمبدأ المركزية الديمقراطية ٣ ـ ترنو بوضوح الى طريق اشتراكى فى التنمية على أساس من الاشتراكية العلمية ٤ ـ نشاطها العملى ومنجزاتها عمل اشتراكى أصيل » (٦٦) .

دور الجيش الوطنى

وتجمع الكتابات على أن « **الجيش الوطنى** » فى الدول الثورية يلعب دورا خاصا . « فثمة ظاهرة جديدة يكشف عنها عدد غير يسير من ثورات التحرر الوطنى التقدمية المعاصرة . وهى أن الجيش الوطنى يقوم بديلا ـ استثنائيا ـ عن الحزب الوطنى الثورى الذى تفتقده معظم هذه البلاد . فيقوم الجيش الوطنى بتفجير الثورة واسقاط النظام الرجعى المساوم مع الاستعمار . بمعنى ان ثورة التحرر الوطنى هنا تتخذ فى البداية صورة انقلاب عسكرى لا حركة جماهيرية » (٦٧) .

وقد قامت « جيوش المستعمرات بمقاومة الغزو فى طليعة شعوبها . انها نقيض مباشر للجيوش الاستعمارية . وقد رفعت هذه الجيوش راية قوميتها . لانها بحكم الوضع العام للمجتمع الذى نشأت فيه وبحكم تركيبها الاجتماعى ، تشكيلات وطنية معادية للاستعمار الاجنبى » (٦٨) .. « وقد نشأت جيوش جديدة على يد الثورة الوطنية نفسها وكدرع لها مثل جيش التحرير الجزائرى وجيش التحرير الفيتنامى والجيوش الوطنية فى أنجولا وموزمبيق .. الخ . وهى قوى ثورية خالصة » (٦٩) .. وتتفاوت الامكانيات الثورية لهذه الجيوش ـ عمقا واتساعا ـ من مستوى التحالف مع الحركة الوطنية الى مستوى القيام بدور طليعى فى هذه الحركة . وفى هذه الظروف الاخيرة ، تجرى فى حركة تطور القوات المسلحة ، نفس التحولات التى تجرى فى فكر الثورة الوطنية وايديولوجيتها . وهى تزداد عمقا فى اتجاه التحول الى ثورة اشتراكية » . (٧٠) .

الثورة العلمية والتقدم

اهتمت الكتابات التى نشرت بالطليعة ـ حول موضوع الثورة التكنولوجية ودول التحرر

[٦٤ ـ ٦٥ ـ ٦٦] « الحزب الجماهيرى وحزب الطليعة فى البلاد المتحررة » ـ ادريساديبرا ـ يناير ١٩٦٧
[٦٧] « ملاحظات من حركة التحرر الوطنى فى ضوء افكار لينين » ـ لطفى الخولى ـ ابريل ١٩٧٠
[٦٨ ـ ٦٩ ـ ٧٠] « حول الامكانيات الثورية للجيوش فى ثورات التحرر الوطنى » ـ زكى مراد ـ نوفمبر ١٩٦٦

الوطنى ، بآثار هذه الثورة على التقدم الصناعى والاقتصادى فى هذه الدول والمهام المطروحة أمامها لتلبيتها • وترى هذه الكتابات ضرورة :

« ● اعادة تحديد الاولويات فى عملية التنمية وذلك باعطاء العلم والبحث العلمى أهمية أكبر •

● تخطيط عمليات التشييد بصورة تؤدى الى التركيز فى كل فترة معينة على عدد محدود من المشروعات المترابطة التى يمكن تنفيذها فى أقل فترة ممكنة ، مع التركيز على بناء الصناعات التى لا تتعرض للتقادم السريع كنتيجة للمعدل السريع المرتفع للتطور التكنولوجى •

● التخصص فى نشاط اقتصادى معين تتبين فيه الدولة قدرات خاصة على تطويره وتقدمه •

وربما تطلب هذا اعادة النظر فى اتجاهات التصنيع الحالية على ضوء التنبؤ بالتطورات العلمية المحتملة •

● العمل على قيام تكتلات اقتصادية دولية بين الدول الصغيرة •

● الحذر من الاتجاه الى استخدام العقول الالكترونية باعتبارها دليلا على التقدم دون استفادة حقيقية منها • ويتطلب هذا اعادة النظر فى تنظيم الوحدات الانتاجية ليصبح حجم العمل مما يستوجب استخدام هذه الوسائل المتقدمة •

● استخدام الكيمياء الحديثة كحل لمشكلة الدول الصغيرة التى لاتملك مواد خام (٧١)».

■ ■

ثانيا : القضيــة العربيــة

عرض : سعد رحمى ..

■ اهتمت الطليعة بالقضايا العربية اهتماما احتل ١٥٠ مقالا على امتداد ٨٠ عددا •

■ قدمت الطليعة ملفا خاصا عن البترول العربى بعنوان « التخطيط لمستقبل البترول العربى » فى مايو ١٩٦٥ •

■ ساهمت الطليعة فى « ندوة الاشتراكيين العرب » التى عقدت بالجزائر فى يونيو ١٩٦٧ ، وذلك بدراسات نشر منها أربع فى عدد يونيو ١٩٦٧ •

■ قدمت الطليعة دراسة ـ باسمها ـ بعنوان « من أجل السلام والتقدم : الصهيونية أم الحركة الوطنية العربية ؟ » ، بمناسبة زيارة « بعثة راسل لتقصى الحقائق حول جرائم الحرب » • وذلك ـ بتعبير الطليعة ـ « لمواجهة الدعايات الاستعمارية المضللة التى تروجها الدوائر الصهيونية » نشرت فى أكتوبر ١٩٦٧ •

■ قدمت الطليعة باسمها « كراسة للطليعة ، أفكار للمناقشة ، نظرات فى الوضع الراهن » ـ تضمن جزءا خاصا بالوضع العربى ، فى اكتوبر ١٩٦٧ •

■ قدمت الطليعة ملفا خاصا لثورة السودان ، فى اغسطس ١٩٦٩ بعنوان « السودان من داخل السودان » •

■ ساهمت الطليعة فى « الملتقى الفكرى العربى » الذى عقد بالخرطوم فى مارس ١٩٧٠ حضره مائة من العرب يمثلون ١٣ بلدا عربيا وينتمون الى ٩ منظمات ثورية • وحضر عن الطليعة ٦ من أسرة تحريرها قدموا دراسات حول « قضايا الثورة العربية بعد يونيو ١٩٦٧ » • وقد نشرت الطليعة عرضا لكل دراسات « الملتقى الفكرى العربى » فى عدد مايو ١٩٧٠ •

■ قدمت الطليعة ملفا خاصا عن ثورة ١٩٣٦،

---

(٧١) « الثورة التكنولوجية وبعض مشاكل التقدم فى العالم الثالث » ـ د. ابراهيم سعد الدين ـ سبتمبر ١٩٧٠.

الفلسطينية ، نشر فى عدد أبريل ١٩٧١ بعنوان « ثورة ٣٦ : التجربة والدروس » .

خرجت « الطليعة » الى الحياة فى مرحلة حاسمة من تطور النضال الثورى العربى وتقدمه نحو تحقيق السيادة الوطنية أو تثبيتها ، وتطلعه الى بناء حياة جديدة على أرضه تعوضه عن التخلف الرهيب عن الركب الحضارى المعاصر ، والذى فرضته عهود طويلة من السيطرة الاستعمارية والرجعية بشتى ألوانها .

ولقد كان للطليعة من قضايا الوطن العربى العامة مواقف محددة تميزت ـ على تعدد كتابها ـ باطار عام نلمح فيه بوضوح رؤية علمية واعية لحقائق الصراع المحتدم على الارض العربية فى كل مواقعها سواء ضد قوى الامبريالية العالمية أو ضد قوى الرجعية المحلية ، ومن خلال هذه الرؤية أيضا نضع أيدينا فى يقين على مواقف وحقائق مبدئية رئيسية حكمت نظرة « الطليعة » لحاضر النضال العربى ، وحكمت مواقفها بالنسبة لمستقبل هذا النضال وآفاق تقدمه .

نظرة شاملة للوضع العربى

قدمت الطليعة خطوطا عامة لرؤيتها للوضع العربى بعد شهور أربعة من عدوان يونيو ١٩٦٧ ، حددتها من خلال قضايا ثلاث [★] :

١ ـ **الوضع عشية العدوان** : لقد أصبح ثابتا أن الاستعمار العالمى يدفع اسرائيل الى العدوان فى كل مرحلة تحرز فيها الحركة القومية العربية تقدما ملحوظا .

● فقد كانت الاوضاع تتجه نحو الاستقرار فى اليمن الجمهورى فى حين تحرز ثورة التحرر الوطنى فى الجنوب المحتل انتصارات فى طريق تصفية الواقع الاستعمارى .

● تأكد المحتوى الاجتماعى المتقدم للقومية العربية باعتبارها حركة تحرر وطنى وتقدم اجتماعى ووحدة قومية .

● ظهور مجموعة من الدول العربية التقدمية والتقارب المتزايد بينها .

● تطور أسلوب معالجة قضية الوحدة بالتركيز على التحرر والاشتراكية كأساسين للتوحيد .

● تعاظم دور الجماهير الشعبية .

ولكى تحرص « الطليعة » على رصد فى هذا الجانب الايجابى لا ينبغى أن تغفل معه الظواهر السلبية . فهناك **أولا** : اتجاهات انعزالية ظهرت فى عدد من الدول العربية ، حتى فى أكثرها تقدما . **ثانيا** : دور البورجوازية الصغيرة الغالب فكريا وقياديا وما يترتب عليه من اتجاهات غير علمية وغير واقعية .

٢ ـ **نتائج العدوان** : لم ينجح العدوان فى تحقيق هدفه الاساسى وهو الاطاحة بالنظم التقدمية العربية . بل يمكن رصد آثار ايجابية هامة :

● كشف حقيقة أن أمريكا هى العدو . وأن اسرائيل قاعدة عدوانية أمامية تمولها أمريكا وتسلحها وتدفعها ضد الدول العربية . فتبددت صورة أن النفوذ الصهيونى هو الذى يجعل أمريكا تنحاز لاسرائيل ضد العرب .

● تعاظم الحركة الثورية للشعوب العربية .

● بروز أهمية دور الجماهير العربية وبخاصة العمال العرب .

وترى الطليعة أن النكسة العسكرية كان لابد وأن تخلق بعض الظواهر السلبية .. أبرزها : **أولا** : محاولة الاستعمار والدوائر الرجعية تحميل النظم التقدمية ، والدعوة الاشتراكية مسئولية النكسة . **ثانيا** : انكشاف بعض نواحى الضعف فى البنيان الداخلى للدول التقدمية وسعى الاستعمار والرجعية لاستغلال ذلك بالمؤامرة والانقلاب والضغط الخارجى .

وترى الطليعة أن تصفية العدوان وآثاره هى المشكلة الرئيسية للثورة العربية . ولابد من تحقيق أوسع جبهة عربية حول « برنامج أدنى » لمواجهة العدوان ، و « برنامج أقصى » للتعاون بين الدول التقدمية العربية .

٣ ـ **قضية شعب فلسطين** : دعت الطليعة الى ضرورة تبنى فكر واضح بشأن طبيعة اسرائيل ودورها ، وبشأن الشعب العربى الفلسطينى وحقوقه ودوره .

بالنسبة لاسرائيل : ترى الطليعة أنها « قاعدة استعمارية عدوانية » ، فهى ليست أمة وليست قومية .. ويجب أن نميز بوضوح بين اليهود والصهيونية والوجود العدوانى الاسرائيلى . فاسرائيل ظاهرة استيطان استعمارى أوربى ، وهى عندما تتحدث عن « صلح » مع العرب ،

[★] كراسة الطليعة : أفكار للمناقشة : نظرات فى الوضع الراهن » ـ الطليعة ـ اكتوبر ١٩٦٧ ـ ص ١٩ ، ٢٠ ، ٢١

تسعى لان تكون « كونتوار » تجارى وصناعى للراسمالية الغربية تنفذ منه الى البلاد العربيــة وتدفع له العمولة و « قومسيونجى » لحسابه فى القارات الثلاث · ومن هنا فان تصفية الوجود الاسرائيلى جزء من تصفية الوجود الاستعمارى · وانها بالتالى معركة طويلة ·

أما بالنسبة **للشعب العربى الفلسطينى** : فتركز الطليعة على أن مشكلة فلسطين هى فى الاصل مشكلة تحرر وطنى بين عرب فلسطين المطرودين وبين النازحين الاوربيين · وينبغى فى نظر الطليعة العمل على توحيد حركات المقاومة الفلسطينية فى جبهه للتحرر الوطنى ذات قيادة جادة تتمتع بثقه الاغلبية · ولابد من التركيز على مطالبة الامم المتحدة بتنفيذ كافة قراراتها وبخاصــة عــودة اللاجئين بل وقرار التقسيم الاصلى ذاته « باعتباره خطوة أكثر تقدما على الطريق فى اتجاه حل المشكلة فى المدى الاستراتيجى البعيد » · ثم تدعو الى « العمل على وجود دولة فلسطين العربية المستقلة لكى تجد المقاومة الفلسطينية قاعدة لها متميزة عن الدول العربية المجاورة » ·

ثم تنتقل الطليعة الى مناقشة **قضية تحرير الاراضى المحتلة** ، فترى ضرورة استنفاد كل وسائل النضال السياسى والاقتصادى قبل الاحتكام للسلاح حيث « ان القتال فى الاجل القصير ، وقبل دعم الجبهات الداخلية الى أبعد الحدود ليس أفضل الظروف بالنسبة للحرب » · وأنه حتى من أجل نجاح الحلول السياسية « لابد من الاســتعداد للقتال » · وأن القتال ضد اسرائيل والامبريالية « لا يمكن أن يكون حربا نظامية خالصة بل لابد من الاعتماد فيه على مختلف أشكال الحرب غير النظامية والتنسيق بين المقاومة داخل الاراضى المحتلة وبين أعمال الفدائيين وبين الاعمــال العسكرية التقليدية ، كما أن احتمالات الموقف فى حالة تجدد القتال لا يمكن حصرها ، وبالتالى لابد من الاستعداد الكامل للحرب الشعبية فى كل المناطق التى يمكن أن تصل اليها قوات معادية » ·

فاذا انتقلنا الى المقالات التى نشرت فى الطليعة بأســماء كتابها ، فيمكن ان نرصــد اتجاهاتها وخطوطها من خلال قضايا أربع هى :

١ ـ الوحدة العربية ·

٢ ـ الصراع العربى الاسرائيلى ·

٣ ـ موقع الحركة الثورية العربية من النضال العالمى المعاصر ·

٤ ـ وحدة القوى العربية الثورية ·

اولا ـ الوحدة · ضرورة واقعية وتاريخية ··

ومضمون ثورى جديد :

١ ـ كانت قضية الوحدة العربية من كبــرى القضايا التى أولتها كثير من الكتابات عنايتها ، ومنذ العدد الاول ، وعلى امتداد صفحاتها حتى اليوم :

وتجمع هذه المقالات على ان الوحدة « ضرورة تاريخيه وواقعية ومصير مشترك لجميع شعوب الوطن العربى مشرقا ومغربا » (١) ثــم تمضى بعضها فى تحديد أدق لهذه الوحدة بأنها « اقامة مجتمع عربى شامل متحرر الارادة من التبعية الاستعماريه القديمه والجديدة على السواء تسوده العلاقات الاجتماعية الاشتراكية بين جميع ابنائه دون ما تمييز ، متطور اقتصاديا لصالح العاملين ، على أحدث الاساليب والنظم العلمية المتكيفه مع الروافع والتراث العربيين ، والمتفتحة انسانيا دون ما تعصب أو عنصرية (٢) ·

٢ ـ وفى تحديد طبيعة القوى التى يلقى عليها التاريخ مسئولية انجاز مثل هذه الوحدة ،يقول مقال : « لما كانت هذه الاهداف بطبيعتها لا تنبثق الا عن القوى الشعبية العاملة والصانعة للحياة ، فان وحدة الوطن العربى لابد وأن تكون اذن وبالتحديد وحدة هذه القوى الشعبية العاملة فى تحالفها دون غيرها من طبقــات الاقطــاع والرأسمالية الكبيرة والمتحالفة مــع القــوى الاستعمارية والاحتكارية » (٣) ·

وتمضى الكتابات التى نشرت فى تعميق هذا المفهوم العلمى لطبيعة الوحدة وقواتها فتقول:« ان الوحدة لم تعد تعبيرا عن مصالح البرجوازية التى توحد نفسها فى مواجهة الاقطاع ، وهى لم تعد أيضا تعبيرا عن توحيد كل قوى الامة لمواجهة الاستعمار وخططه ومشاريعه ، وانمــا أصــبحت تعبيرا عن آمال الطبقات الشعبية المطحــونة الساعية الى التغيير الاجتماعى · لقد ارتبطت حركة الوحدة العربية بحركة الثورة العربية ، وعلى هذا الاساس أصبح موقف الطبقــات الاجتماعية فى الثورة هو نفس موقفها فــى الوحدة » (٤) ·

٣ ـ وقــد اولت هذه الكتابات اهتماما كبيرا

---

[١] لطفى الخولى ـ العدد ١٩٦٥/٩ص ٩
[٢] لطفى الخولى ـ العدد ١٩٦٥/٩ص ١٠
[٣] لطفى الخولى ـ العدد ١٩٦٥/٩ ص ١٠
[٤] مصطفى طيبة ـ العدد ١٠ـ ١٩٦٥ ص ٨٤

بتحديد الاطار العام للحركة الثورية العربية المعاصرة محددة ـ كما سبق أن رأينا ـ الارتباط الذى لا ينفصم بين شعاراتها الوطنية وبين مواقفها الاجتماعية ومضمونها التقدمى الاشتراكى شأنها فى ذلك شأن جميع حركات التحرير الثورية المعاصرة التى تواجه فى نفس الوقت قضايا التحرر وكسب الاستقلال وقضايا بناء الحياة الجديدة وشق طريق التطور غير الرأسمالى كمعبر طبيعى نحو الاشتراكية ، ومن خلال هذه المعالجة لقضية التوحيد العربى ، تتصدى هذه الاراء لقوى الثورة العربية وتحددها بدقة ، ملقية فى نفس الوقت الاضواء على معسكر أعداء الثورة العربية ، وأعداء الوحدة فى نفس الوقت ، فتقول : « الثورة العربية منذ الخمسينات قد شرعت تتخذ مسارا جديدا وتأكد ذلك بوضوح فى الستينات ، ونعنى بهذا المسار الجديد التزاوج العضوى الذى وقع بين أهداف التحرر الوطنى وأهداف الثورة الاجتماعية ذات الافاق الاشتراكية (٥) • وتستمر فى تحليلها فتقول : « وهكذا لم يعد الموقف العربى الذى يواجه الثورة العربية المعاصرة ذات الطابع المزدوج ببساطة موقف الامس حينما كانت الثورة تقليديا تقتصر على تحقيق التحرر الوطنى من ناحية وسجينة الحدود الاقليمية لكل بلد عربى تقريبا من ناحية أخرى ، ومن هنا أصبح الامر يستلزم وضع استراتيجية وتاكتيك جديدين » (٦) •

٤ ـ وفى تحديد قوى الثورة العربية بمفهومها المعاصر ـ وهى أيضا قوى الوحدة بمفهومها الثورى ، نجد أن « القوى الاجتماعية للثورة اليوم تختلف اختلافا جوهريا عن القوى الاجتماعية للثورة التقليدية ذات البعد الوطنى الواحد بالامس ، فمثلا لم يعد ممكنا اعتبار الطبقة الرأسمالية بجميع فئاتها ككل احدى القوى الاجتماعية للثورة الجديدة ذات الابعاد الثلاثة ، كما كانت فى الماضى ، بل أصبح الواقع يكشف عن عداء هذه الطبقة ـ وخاصة فئاتها الكبيرة ـ للثورة ، حتى بمفهوم البلد الواحد التقليدى ، وذلك لان الاحداث التاريخية قد اكدت انه لم يعد ممكنا لشعوب المستعمرات أن تملك مصيرها بحرية حقيقية فى العالم المعاصر ما لم تصغ مجتمعاتها الجديدة صياغة اشتراكية » (٧) •

ويمضى هذا الرأى فى تعميق المفهوم والمضمون الجديد للثورة العربية ، وما تهدف اليه من توحيد ثورى ، وما يجلبه معه هذا المفهوم والموقف المبنى عليه بالضرورة من استقطابات حتمية فى الخريطة الطبقية للمجتمع • تقول الطليعة : « ولكن هذا الموقف الجديد للثورة ذات الابعاد الثلاثة قد كشف ايضا عن ظاهرة جديدة ، وهى ان الاشتراكية قد عدت ـ بصفة عامة ـ موضع جذب شديد لفئات متوسطة وصغيرة من الطبقة البرجوازية بالاضافة الى الطبقة العاملة ، ومن هنا أصبحت هذه الفئات جزءا موضوعيا من قوى الثورة فى التحول نحو الاشتراكية ، ومن الخطورة بالتالى اهماله او عزله والا كسبته القوى الرجعية المعادية للثورة وأصبح رصيدا لها » (٨) •

٥ ـ وهكذا يمكننا أن نضع أيدينا على مبادىء رئيسية حكمت نظرة المقالات التى نشرت بالطليعة لقضية الوحدة العربية ومضمونها وقواتها ، هذه المبادىء يمكن اجمالها فيما يلى :

١ ـ الوحدة تتحقق من خلال نضال عربى شامل من أجل التحرر من السيطرة الاستعمارية القديمة والجديدة على السواء •

٢ ـ الوحدة تهدف الى اقامة مجتمع جديد تسوده العلاقات الاجتماعية الاشتراكية •

٣ ـ الوحدة يجب أن تكون طريقا لبناء مجتمع متطور اقتصاديا ومرتكز على أحدث الاساليب والنظم العلمية •

٤ ـ الوحدة تنطلق استنادا الى التراث العربى الاصيل وتنفتح فى نفس الوقت انسانيا دون ما تعصب أو عنصرية •

٥ ـ الوحدة هى بالتحديد وحدة القوى الشعبية العاملة فى تحالفها دون غيرها من طبقات الاقطاع والرأسمالية الكبيرة المتحالفة مع القوى الاستعمارية والاحتكارية •

٦ ـ الوحدة اذ تكتسب مضمونا اشتراكيا فى ظل أوضاع عالمنا المعاصر تصبح نضالا وطنيا واجتماعيا ، فى نفس الوقت ، لا يمكن فصل أى من جانبيه عن الاخر والا انحرفت عن مسارها ووقعت فى قبضة أعدائها •

وان كانت الوحدة ومفهومها ومضمونها وقواتها قد احتلت جانبا كبيرا من الاهتمام ، فقد لقى المسار أو الاسلوب الذى يمكن أن تتحقق به الوحدة عناية هامة بدوره •

« فالوحدة لا تتحقق بمجرد اصطناع أشكال دستورية واعلان قوانين توحيدية ، وانما الوحدة

---

[٥] لطفى الخولى ـ العدد ٢ \ ٦٧ص ٧
[٦] لطفى الخولى ـ العدد ٢ \ ٦٧ص ٧
[٧] لطفى الخولى ـ العدد ٢ \ ١٩٦٧ ص ٧
[٨] لطفى الخولى ـ العدد ٢ \ ١٩٦٧ ص ٧

ترتبط أساسا بمدى التحولات الاجتماعية للبلد المطالب بالوحدة ، وبمدى تحقيق الوحدة الوطنية له ، وبقدر بعده هو عن هذا او ذاك ، بقدرماتبتعد قضية الوحدة » (٩) .

كما نجد وجهة نظر تركز على أن « أظهر اثر للاشتراكية فى الوحدة انها حددت نهائيا اسلوب تحقيق الوحدة وإلغاء التجزئة . اذ اصبح مفهوما أن الوحدة العربية التى ستتم ستكون اطارا سياسيا للتحول الاشتراكى ، أو لمزيد من بناء الاشتراكية وبهذا أصبحت مجرد الوحدة السياسية فى ظل الاستعمار كما يحاولون فى الجنوب العربى ، أو فى ظل الرجعية كما يتمنى بعضهم ، مرفوضة . كما أصبحت الوحدة التى تتم بين حكومات رجعية بقصد صنع حاجز رجعى ضد المد الاشتراكى مرفوضة ايضا ، لأن الوحدة والاشتراكية ملتحمتان . ولما كانت الاشتراكية قضية الجماهير فقد أصبحت الوحدة أيضا قضية الجماهير وأصبحت الجماهير العاملة فى الشعب العربى هى صاحبة المستقبل الوحدوى الاشتراكى وأداة تحقيقه . وكما أنه لم يعد مقبولا – نتيجة لهذا الالتحام بين الوحدة والاشتراكية – أن يتستر البعض بالاشتراكية لتدعيم التجزئة ، لم يعد مقبولا أيضا أن يتستر البعض الاخر بالوحدة لمحاربة الاشتراكية » (١٠) .

ثانيا – المزيد من الالتزام بالطريق الثورى .. طريق الخروج من النكسة :

١ – وان كانت هذه الخطوط المبدئية العريضة قد حكمت نظرة المقالات لجوهر القضايا العربية ، بعد كانت النكسة وما صاحبها من معاناة مريرة ووجد أنها عاشتها الطلائع الثورية فى جميع ارجاء الوطن العربى بوتقة انصهرت فيها هذه الخطوط المبدئية وازدادت تحديدا .

فان كانت هناك آراء تحدد قبيل النكسة أن « الصراع على الارض العربية قد دخل مرحلة لم يعد يسمح معها بدون العلاج الحاسم حلا للتناقض الذى يستقطب قوى الثورة فى جبهة ، وقواها المضادة فى جبهة أخرى » (١١) . وان « القوى المضادة للثورة والتى زاد حجمها بعد قرارات يوليو كانت أكثر ادراكا لصلابة الارض التى اختارتها الثورة العربية ميدانا لنضالها » (١٢) .

وأن « قوى الثورة العربية صارت مطالبة بأن تعى حقيقة أن التناقضات القائمة فيما بينها يجب ألا تؤدى الى طمس التناقض الاساسى القائم فى الوطن العربى بين معسكرين متعارضين ، ومن ثم فان وحدة الهدف أساس لازم ونقطة بدء لابد منها لتحقيق الوحدة الدستورية بين البلدان العربية . وبديهى ان وحدة الهدف انما يتطلب تحقيقها بناء وحدة متعاظمة بين القوى الثورية ، هذه القوى التى ألقت عليها التطورات الجديدة عبء قيادة النضال الوطنى التحريرى وتعميق الطريق الذى شقته الثورة العربية بمضمونها الجديد » (١٣) .

نقول ان كانت هذه الاراء تحدد هذا الفهم فى مرحلة ما قبل النكسة ، فهى تواصله فيما بعدها ، مؤكدة أن العلاقة بين وحدة القوى الثورية والتحالف الوطنى « تفترض طرح عدد من المسائل التى قد يبدو من الوهلة الاولى أنها من باب المسلمات :

اولا : ان تطور الثورة العربية وديناميكيتها التى بلغت طلائعها مشارف التحول الاجتماعى نحو الاشتراكية لا تحتمل فى نضالها ضد الاستعمار – شأنها فى ذلك شأن كل حركة ثورية – الانتكاس الى منتصف الحلول : فاما السير قدما الى الامام – مع تصحيح العوامل التى انتقصت من فعاليتها ، واما التعرض لفقدان مكاسبها والانتكاس بالوضع انتكاسا خطيرا .

ثانيا : **أن أسباب النكسة لا يمكن البحث عنها فى انتهاج الثورة الوطنية طريق الاشتراكية وانما فى النواقص التى شابت ممارسة هذا الطريق نحو الاشتراكية** . والواقع أن مكاسب النضال العربى نحو الاشتراكية هى أثمن رأس مال أحرزته فى المعركة المريرة والطويلة ضد الاستعمار ، وهى المكاسب التى يستهدف الاستعمار الان سلبها بكل ما أوتى من قوة ، وهى الدعامة التى تكفل تعبئة قوى الثورة العربية على اتساع العالم العربى كله ، **واحتمالات العمل العربى الموحد رهن بتأكيد هذا الاتجاه لا بوضع العمل العربى الاوحد كبديل له** (١٤) .

---

[٩] مصطفى طيبة – العدد ١ \ ١٩٦٦ ص ٤٧
[١٠] د. عصمت سيف الدولة – العدد ٢ \ ١٩٦٦ ص ٦٧
[١١] م . طيبة – العدد ٣ \ ١٩٦٧ ص ٢٢
[١٢] م . طيبة – العدد ٣ \ ١٩٦٧ ص ٢٢
[١٣] م . طيبة العدد ٣ \ ١٩٦٧ ص ٢٣
[١٤] الافتتاحية العدد ٨ \ ١٩٦٧ ص ٥٤

٢ ـ وتركز «الطليعة» على الجانب الاجتماعي للثورة العربية وأهمية عدم التضحية به في خضم التطلع الى وقفة عربية موحدة في مواجهة النكسة وآثارها فتقول : « في هذه المعركة الحاسمة يتوقف على تأكيد منجزات الثورة الاجتماعية واكسابها أبعادا شعبية أعمق وازالة عوامل التعثر ومظاهر التعالي على الجماهير والابتعاد عنها ـ على هذه العناصر تتوقف التعبئة الشاملة للجماهير العربية ، وبقدر انجازها بجرأة واقدام تتحقق الشروط اللازمة لتوحيد العمل العربي على أوسع نطاق بما يكفل الانتصار الحاسم في نهاية المطاف » (١٥) .

ولعل من أدق ما انتهت اليه الطليعة من تحديد لواجبات القوى الثورية في مرحلة ما بعد النكسة ـ وهو في الواقع تأكيد لموقف مبدئي سابق ومستمر ـ هو ما ذكرته من أنه « مهما يكن من أمر ، فان تصفية العدوان وآثاره قد أصبحت المشكلة الرئيسية للثورة العربية ، لذلك لابد من تحقيق أوسع جبهة عربية لمواجهة العدوان ، **ولكن هذه الجبهة لا تقيد حق الدول التقدمية في التعاون على برنامج أمضى** » (١٦) .

هكذا تناولت المقالات التي نشرت بالطليعة قضية العمل العربي بين الواقع والضرورة ، وهكذا حاولت أن تضع يدها على ما قد يحمله الواقع العربي المتطور المشحون بالتيارات من امكانيات لجذب هذه القوة ، أو تلك الى موقف ـ مهما قصر مداه ـ لصالح القضية العامة لازالة آثار العدوان دون أن تفقد الاتجاه أو الادراك الواعي لمتطلبات التطور الثوري الشامل والجذري لحركة التحرر العربي في طورها الحديث تقول الطليعة : « وليس من شك أن كل العرب المعادين للامبريالية والصهيونية يرحبون بكل جهد يبذل في سبيل دعم وتنسيق العمل العسكري على الجبهة الشرقية بكل ما يكفل ردع اسرائيل والتعجيل بهز عمقها ، وسوف تدعم قوى الثورة العربية كل خطوة في هذا الاتجاه .. غير اننا سندرع الجهود المبذولة على مستوى الدول العربية تمضي في طريقها المرسوم وسنلتفت ـ **بتركيز أكبر ـ الى قضية وحدة العمل بين فصائل الثورة العربية على المستوى الشعبي ايمانا منا بأن القضايا الكبرى انما تحسم في نهاية الامر بقدر ما تتحرك القوى الوطنية والشعبية من أجل حسمها ،** ولايماننا من ناحية أخرى بأن هذه القوى الشعبية والوطنية هي التي تستطيع أن تهيء المناخ الصالح لكل حركة على مستوى الدول والحكومات العربية (١٧) .

٣ ـ وتبلور « الطليعة » نظرتها للواجبات الرئيسية الملقاة على عاتق قوى الثورة والوحدة في الظروف الخطيرة الراهنة على هذا النحو :

مهمة اولى : دعم الثقة بين القيادات الوطنية التقدمية في كل بلد عربي وبين الجماهير ، فهذه الثقة هي التي تسهل على القيادة في كل بلد عربي حرية الحركة ، وتسندها في كل المواقف ، وتمكنها من أن تتجاوز الازمات الحادة . وغني عن الذكر أن هذه الثقة **انما تتطلب اتخاذ اجراءات اقتصادية واجتماعية تضمن توزيع اعباء الحرب على الطبقات المختلفة ، وتضمن تطبيق شعار المساواة في التضحية .**

مهمة ثانية .. هي التلاحم والتقارب بين قوى الثورة العربية خصوصا بين كل القوى التي ترفع شعارات الاشتراكية والتقدم الاجتماعي . ان هذه القوى مدعوة الى عمل ثوري منسق ومتكامل يتجاوز الحساسيات ، ويدفع الى الوراء التناقضات والخلافات الثانوية لصلحة معركة التحرير ، ويغلب عوامل الوحدة بين قوى العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين والجنود (١٨) .

كما تحدد أن « النصر النهائي يتطلب مزيدا من العمل لا في جبهة واحدة بل على جبهات متعددة . ان الدور التحريري للجيوش النظامية لابد وأن يمتد الى جبهة وطنية متحدة في كل بلد عربي ، وكفاح الشعب الفلسطيني لكي يحرز النصر لابد أن يكون جزءا من كفاح الامة العربية كلها في مواجهة الاستعمار والصهيونية . واذا كانت وحدة وتراص كل القوى الوطنية ووقوفها كتفا الى كتف هو السبيل الوحيد لصد وتحطيم أسلحة العدوان في مواجهة كل بلد عربي ، فان تحقيق وحدة القوى الوطنية على الصعيد العربي هي سبيلنا الوحيد لتحرير كل الارض العربية المحتلة واستعادة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » (١٩) .

٤ ـ وهكذا تركز الطليعة في تناولها للقضايا العربية العامة بعد النكسة على أن الطريق الاوحد لازالة آثار العدوان ولخوض معركة جادة وحقيقية

---

[١٥] الافتتاحية العدد ٨ \ ١٩٦٧ ص ٥٥
[١٦] « كراسة للطليعة : افكار للمناقشة » نظرات في الوضع الراهن » ـ الطليعة ـ اكتوبر ١٩٦٧ .
[١٧] الافتتاحية ـ العدد ٧ \ ١٩٧٠
[١٨] الافتتاحية العدد ٨ \ ١٩٧٠ ص ١٠
[١٩] الافتتاحية العدد ٢ \ ١٩٦٧ ص ٦

من أجل تحقيق النصر انما هو طريق التشبث الى أقصى حد بطريق الثورة ، طريق الربط الذى لا ينفصم بين أهداف التحرير واسترداد الارض السليبة وأهداف التحول الاجتماعى التى أعطت الحركة الثورية المعاصرة كل آفاقها ومضمونها الجديد .

ثالثا – موقع الحركة الثورية العربية من النضال العالمى المعاصر .

١ – فى هذا الجانب الهام من جوانب النضال العربى المعاصر تميزت آراء الكتاب بملامح محددة وثابتة سواء فيما نشر قبل النكسة أو بعدها ..
« ان معركة الشعوب العربية ضد الاستعمار الجديد انما تحتاج أكثر من أى وقت مضى الى توحيد جهودنا الكفاحية وقوانا مع سائر الشعوب الاخرى فى البلاد النامية التى تقع مثلنا فريسة للنهب الاستعمارى وللضغط الغربى الاقتصادى . ذلك أن معركة عدم التكافؤ الاقتصادى انما هى معركة عالمية فى جوهرها ولا يمكن لشعب واحد أو لمنطقة واحدة ، مهما اوتيت من ثورية ويقظة أن تدعى قدرتها منفردة على تغيير ميزان القوى الاقتصادى العالمى ، لانه بدون ذلك التوحيد العالمى المنتظر للشعوب النامية – أيا كانت أشكال التوحيد لا يمكن لهم اجبار عدوهم المشترك على الرضوخ لمنطق العدل فى العلاقات الاقتصادية العالمية »(٢٠) .

٢ – وعن العلاقات مع قوى الاشتراكية العالمية كان للطليعة أيضا موقف ثابت محدد ينتشر على طول أعدادها عبرت عنه بتحديدها أنه : « لا أحد ينكر أهمية هذه العلاقات فى تطوير الامكانيات العسكرية والمادية للقوى الثورية العربية وفى تطوير مكانتها ومهابتها فى العالم كله . ولاشك أن كل ذلك يترك أثرا ايجابيا فى القدرة الثورية العربية ، وفوق هذا كله هناك الاثر الايجابى والفعال الذى يتركه على معركة التطور الاجتماعى والبناء الاشتراكى فى البلدان العربية المتحررة وفى بناء القاعدة الفعلية للمجتمع الاشتراكى» (٢١) .

رابعا – القوى العربية الثورية .. والوضوح الفكرى :

الى جانب ما بذلت الطليعة من جهد على الجبهة الفكرية لتشخيص المرحلة الراهنة من النضال العربى وتحديد أهدافها ومتطلباتها ، حرصت على الدعوة الدءوبة لتحقيق أكبر قدر من الوضوح الفكرى حول قضايا هذا النضال ، ايمانا منها بأن هذا الوضوح انما هو الاساس الواقعى لبناء وحدة ثورية حقيقية وأصيلة .

ففى دعوتها لندوة فكرية سياسية عن قضية بناء الاشتراكية ومشاكلها فى الوطن العربى « تفسر الطليعة أهمية هذه الندوة بأنها » تنبثق فى مناخ فكرى وسياسى ملائم تماما .. بحيث لم يعد هناك « اشتراكى عربى » مهما كانت اتجاهاته وارتباطاته الحزبية ، الا ويقف موقفا ايجابيا من هذا الشعار ويعمل على تجسيده كحقيقة واقعة فى ميدان النضال » ... ولكل ذلك « فالقوى الاشتراكية فى الوطن العربى اليوم – كظاهرة موضوعية – ذات منابع اجتماعية وايديولوجية مختلفة ، آومن ثم تتبدى أهمية بذل الجهد الجماعى لتوسيع حجم وعمق الارضية المشتركة » (٢٢) .

وبعد ، فلعل من أبرز مواقف الطليعة فى تناولها للقضايا العربية هو نظرتها الايجابية والبناءة لظروف وملابسات النكسة فى العالم العربى ، وما حددته من طريق لمواجهتها والخروج منها ، « وان أول ما يجب أن تعيه شعوبنا العربية هو انها فى معركة مصيرها كله ، وليس أمامها الا أن تكسب المعركة والا فقدت كل شيء ، وان الوقوف عند موقع بذاته يهدد بالانهيار الكامل . وتصبح المهمة الاولى للطلائع الوطنية والثورية هى متابعة التعبئة النفسية والسياسية للامة العربية والمحافظة على حرارتها عن طريق تدعيم المراكز التقدمية وتصفية المراكز المتخلفة بضرب المراكز الاستعمارية – والامريكية منها على وجه الخصوص – فى كافة الميادين السياسية والادارية والثقافية » .

وان التراجع المؤقت فى حركة الثورة العربية والتوقف العارض فى زحفها لا يجب أن يفقد الاتجاه الثورى قدرته على الاستفادة من المستويات المختلفة لوحدة النضال العربى ، وهو قادر على ذلك بالمرونة والحسم معا بالاستناد الكامل الى الشعب .

« وان عزل العالم العربى عن أصدقائه لن يفيد الا المستعمرين ، وبأن النصر النهائى فى المعركة رهن بالتعبئة الكاملة لقوى الامة العربية من جانب والتعاون الفعال مع كافة القوى الصديقة من جهة أخرى ! (٢٣) .

---

(٢٠) خيرى عزيز – العدد ١٩٦٧\٣ ص٥١
(٢١) خالد محيى الدين – العدد ١٩٦٧\٣ ص ٧٧
(٢٢) لطفى الخولى – العدد ٢ \ ١٩٦٧ ص ٧ – ٨

ملف الطليعة

قراءة واقعية لنصوص دامية

نصوص اتفاقيتى القاهرة وعمان والمذكرات الملحقة بها بشأن المقاومة الفلسطينية

تقدم « الطليعة » فى هذا العدد نصوص اتفاقيتى القاهرة وعمان والمذكرات الملحقة بها . وتشعر « الطليعة » أن لتقديم هذه النصوص اهمية خاصة ، تتضح اكثر فأكثر بالنظر الى الخطر الذى تتعرض له المقاومة فى الاردن ، خطر التصفية والابادة على يدى النظام الاردنى الذى يقوده الملك حسين .

ان موضوع هذه الاتفاقيات والمذكرات الملحقة يكشف ببساطة ـ بل وبكيفية لامكان فيها للمبالغات والانفعالات ـ حقيقة العلاقة التى قامت فى الاردن، بين المقاومة الفلسطينية وبين النظام الاردنى ، وبعبارة اخرى بين فصيلة مقاتلة من فصائل حركة التحرر الوطنى العربية وبين نظام يسنده ويوجهه الاستعمار الجديد ، خاصة الامبريالية الامريكية .

ولسنا نريد فى هذه المقدمة أن نصادر على المطلوب ! وانما تلزمنا قراءة هادئة .

ففى ٢٧ سبتمبر ١٩٧١ وبعد قتال ضار فرض على المقاومة ، مات فيه وقتل الآلاف من المقاتلين الفلسطينيين وابناء شعب فلسطين والاردن ، فى ذلك التاريخ وقع الملك حسين على اتفاقية القاهرة جنبا الى جنب مع ملوك ورؤساء العرب . وفى هذا الاتفاق تعهد **الملك حسين :**

« بدعم الثورة الفلسطينية والوقوف معها حتى تحقق اهدافها فى التحرير الكامل ودحر العدوان الاسرائيلى الغاصب » ، وبما يتطلبه هذا من استمرار نشاط العمل الفدائى .

وضماناً لتنفيذ هذه الاتفاقية اتفق الملوك والرؤساء العرب على تكوين « اللجنة العربية العليا للمتابعة » لتشرف على تنفيذ هذه الاتفاقية . وفى ١٣ اكتوبر ١٩٧٠ وضع الملك حسين توقيعه مرة اخرى على « اتفاقية عمان »، هذه الاتفاقية التى تقرأ فيها :

- **« ان العدو يعد المخططات الرهيبة لتدمير الاردن كقاعدة للصمود والتحرير »**
- و **« ان الاردن هو القاعدة الاساسية للثورة الفلسطينية وللنضال من اجل تحرير فلسطين »** .

● و « انه لابد وان تسخر الطاقات الشعبية والعسكرية فى الاردن لهدف تحرير فلسطين » .

● وان الوجود والتعبئة والتنظيم الشعبى والقتالى وحرية العمل والتنظيم السياسى والعسكرى والاعلامى والمالى من الامور الأساسية للثورة الفلسطينية وتمارسها بحرية » .

وفى ٢٢ اكتوبر ١٩٧٠ بادرت اللجنة العسكرية العليا المتفرغة من « اللجنة العربية العليا للمتابعة » الى وضع بروتوكول ، ينظم تنظيما دقيقا العلاقات بين السلطة الاردنية وبين المقاومة الفلسطينية . بل لقد اهتم هذا البروتوكول بتحديد تفصيلات كثيرة : تبدأ من تحديد اماكن وقواعد قوات الثورة الفلسطينية ، لا تغفل فى الوقت نفسه قضية ثانوية مثل قضية تحديد عدد افراد الحراسات التى توضع على جميع قيادات ومكاتب جيش التحرير الفلسطينى . بل ان البروتوكول لم يهمل تحديد نوع السلاح الذى يصرح لاعضاء اللجنة المركزية لمنظمة التحرير بان يحملوه [المسدس أو البندقية الكلاشينكوف] !

وعلى الرغم من هذا فقد بدا واضحا ان النظام الأردنى يوقع على الاتفاقات بيد ويضرب المقاومة باليد الاخرى ، يتظاهر بالالتزام بما تقضى به اللجنة العربية العليا للمتابعة ، ثم ينسف — وفقا لمخطط موضوع — كل نصوص الاتفاقات والبروتوكولات . وهكذا فانه فى ظل قيام اللجنة العربية العليا حدثت — على سبيل المثال — المخالفات الصارخة التالية :

(١) احتلت القوات المسلحة الاردنية مواقع كثيرة لم تكن قد سيطرت عليها ، أو استطاعت الوصول اليها اثناء معارك سبتمبر ١٩٧٠ .

(٢) قامت القوات الملكية بتوسيع الصدام مع الفدائيين وفى ذلك وقعت المجازر الاخيرة : مجازر جرش والهملان والبقعة والمفرق واربد . اضطرت كثيرا من المقاتلين الى الوقوع أسرى فى ايدى الاسرائيليين

(٣) جمعت اسلحة الميليشيا ، وبعد أن تم جمعها ، خطا النظام الاردنى خطوة اخرى فطلب سحب السلاح كلية من عمان . وكل هذا لاتتضمنه الاتفاقات والبروتوكولات ، وكل هذا مخالف لها كل المخالفة .

أما قيادة الثورة الفلسطينية فقد كان يحركها باستمرار مبدأ أساسياً ، هو تفادى الصدامات المسلحة الواسعة مع الجيش الاردنى . وفى سبيل هذا المبدأ قدمت — من موقع الاحساس بالمسئولية التاريخية — تنازلات متتالية ، رغم مخالفتها لكل الاتفاقيات ، منها — على سبيل المثال — سكوتها عن دخول الجيش الاردنى عمان وقيامه بتفتيشها شبراً شبراً وبيتاً بيتا .

هنا نصل الى نتيجة صاعقة ، وهى انه بينما استهدفت الاتفاقات والبروتوكولات — فى الاساس — حماية العمل الفدائى وضمان استمراره على ارض الاردن ، وجد النظام الاردنى الفرصة سانحة ليطبق باعصاب باردة تاكتيكا خبيثاً ، متعدد الجوانب :

● جانب منه : تخدير الرأى العام العربى بالحديث عن مساندة المقاومة والالتزام بالاتفاقيات .

● جانب ثان منه : تسعير الخلافات بين الفلسطينيين والاردنيين .

● جانب ثالث هو التسلل عن طريق « **الشعبة الخاصة** » التى أنشأها الملك الى صفوف المقاومة لتقوم بدورها فى تفجير الخلافات بين المقاومة وبين الشعب الاردنى وبين منظمات المقاومة بعضها والبعض .

واذا كان قد قيل فى الامثال « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » ، ومعناه انه يجب الا يسمح الانسان لنفسه بأن يخدع مرتان ، فان الثابت وفقا لأى استقراء موضوعى وهادىء — انه منذ فبراير ١٩٦٨ وجدت خطة رجعية اردنية واستعمارية امريكية لتصفية المقاومة ، والاجهاز على العمل الفدائى ؟ .

وهذه الخطة « ابرع » ما فيها أنها تعمل حساباً للرأى العام العربى فلا تعارضه بصراحة . بل تلتف حوله وتحاول أن تستوعبه ، متخذة كافة المواقف التى توهم الشعوب العربية بأنه لازال هناك أمل فى ان يأخذ النظام الاردنى القائم مكانه فى خط المواجهة ضد العدوان الصهيونى والاحتلال الاسرائيلى .

والسؤال بعد هذا هل انكشفت خـــدعة النظام الاردنى الى الابد ، أم انه لا تزال ثمة آمال اشبه بالسراب ، بل هى السراب بعينهفى أن يساند الملك حسين العمل الفدائى ؟

ان الاجابة على هذا السؤال يجب الا تكونشكلية بحال من الاحــوال ، وذلك اذا اردنا أن نقف مع الثورة الفلسطينية ومع المقاومة.. وربما يحسن أن نستمع الى المقاومة وهى تقول فىمذكرتها الى الملوك والرؤساء العرب:

((**واليوم ... فنحن نشعر بصدق وشرف أننـــانقف وحدنا**)) .

ان هذه العبارة الدامية والمــريرة تلخصكل المجازر المتالية والمســتمرة وكل المخطط الموضوع لضرب العمل الفدائى .

ومن هنا تنبع بالدقة المســئولية العاجلةللشعوب العربية تجاه المقاومه .. مسئولية المشاركة الحقيقية والتواجد الفعلى فى صف المقاومة .

((**الطليعة**))

① نص اتفاقية القاهرة بتاريخ ٢٨/٩/١٩٧٠

وصولا الى حقن الدمــاء العربية نتيجة لما حدث فى المملكة الاردنية الهاشــمية خـلال عشرة الايام السابقة لهذا الاتفــاق . وصــونا لامن وسلامة الامــة العربية لما تتعرض له من مؤامرة استعمارية وتحقيقا للاستقرار فى الاردن الشقيق الذى يتعــرض للتمزق والالم .

تم الاتفاق التام هذا اليــوم الســادس والعشريـــن مـــن رجل ١٣٩٠ هجرية والمــوافق للســابع والعشرين من شــهر أيلول ١٩٧٠ بين المجتمعيـن فى مؤتمر الملوك والرؤساء العرب على ما يلى :

اولا ــ انهاء كافة العمليات العسكرية من جانب القــوات المسلحة الاردنية وقوات المقاومة الفلسطينية مع انهــاء كافــة التحركات العسكرية التــى لا تحتمها مقتضيات النشاط المعتاد وايقاف كافة الحملات الاعلامية التى تتنافى مع أغراض هــذا الاتفاق .

ثانيا ــ السحب السريع لكافة القوات الاردنية مـــن عمـــان وارجاعها الى قواعدها الطبيعية مع سحب جميع القوات الفدائية من عمان ومركزتها فى أماكن تلائم العمل الفدائى .

ثالثا ــ فيما يتعلق بمدينة اربد وغيرها من المدن تعود الاوضاع العسكرية والمدنية الى ما كانت عليه قبل الحوادث الاخيرة .

رابعا ــ تتحمل سلطات الامن الداخلى حفظ الامن تحت اشراف الادارة المدنية .

خامسا ــ اطلاق سراح جميع المعتقلين لدى الجانبين فورا .

سادسا ــ تكوين لجنة عليا لمتابعة تطبيق هذه الاتفــاقية الاساسية مع ما قد ينبثق عنها من اتفاقات فرعية مع ممارسة تنسيق العمل والعلاقات بين كل من السلطة الاردنية والمقــاومة الفلسطينية حتى يستتب الامــن وترجع الامــور الى حــالتها الطبيعية . كما أن لهذه اللجنة الحق ومسئولية الايصاء باتخاذ ما تراه مـــن تدابيـــر عمليــة واجرائية كفيلة بما يحقق عودة الوفاق بين الاطراف المعنيــة وعودة الحيــاة الى حــالتها الطبيعية .

سابعا ــ تكون للجنة المتابعة العليا ثلاثة مكاتب فرعية تابعة لها تاتمر بأمرها على النحــو التالى :

أ ــ مكتب عسكرى يمارس جميع الشئون العسكرية لتنفيذ هذه الاتفاقية .

ب ــ مكتب مدنى يعنــى بالشئون المــدنية التــى تهــم العلاقات الاخرى غير العسكرية بين الطرفين .

جـ ــ مكتب الاغاثة والاسعافات .. ويتـــــولى الاشراف على توزيع المؤن .. والمساعدات التى تصل اليه عن طــريق الدول العربية وغيرها على الضــحايا والمصابين والمحتاجين

ثامنا ــ تقوم اللجنــة العليا للمتابعة باعداد وابرام اتفاقية ملزمة للطرفين تضمن استمرار النشاط والعمل الفدائى واحترام سيادة البلاد فى حدود القانون فيما عدا قانون الاســتثناءات اللازمة للعمل الفدائى

تاسعا ــ القرارات التــى تتخذها اللجنة العليا للمتــابعة تنفيذا لهذه الاتفاقية تكون ملزمة الزاما نهائيا لكل من الطرفين

عاشرا ــ تمارس اللجنة العليا للمتابعة مسئوليتها المشار اليها على أن ترفع تقارير عنها الى الملوك والرؤساء العرب حول ما تقوم به من مهام وما تتخذه من مقررات وعلى مدى سير هــذه الاتفاقية وتقيد الاطراف المعنية بها .

حادى عشر ــ تتألف اللجنــة العليــا برياســة السـيد الباهى الادغم رئيس وزراء جمهــورية

تونس وعضوية آخرين أحدهما يمثل السلطة الاردنية يعينه الملك حسين والثانى يمثل المقـاومة ويعينـه السيد يـاسر عرفـات وللجنة العليا أن تستعين بمن تراهم ·

ثانى عشر ـ تهيئة الجـو المناسب لتنفيذ هذه الاتفاقية بما يجعل الوصول الى ما رمت اليه من أهداف سامية ممكنا وشرعا يلتزم الطرفان بموجبه بـانهاء كافـة الاوضـاع الاسـتثنائية والحكم العسكرى ·

ثالث عشر ـ فى حالة اخلال أى من الطرفين الاردنى والمقاومة الفلسطينية بأى بند من بنود هذه الاتفاقية أو عرقلة تنفيذه ستقوم كل الدول العربية الموقعة باتخاذ اجـراءات مـوحدة وجمـاعية ضده ·

رابـع عشر ـ دعـم الثـورة الفلسطينية والوقوف معها حتى تحقق أهدافها فى التحرير الكامل ودحـر العـدوان الاسرائيلـى الغاصب ·

القاهرة فى ٢٨-٩-١٩٧٠.

وقع الاتفاق كل من الملك فيصل والامير صباح السالم الصباح والرئيس جمال عبد الناصر والسيد ياسر عرفات والعقيـد معمـر القـذافى واللواء جعفر نميرى والملك حسين بن طلال والسيـد الباهى الادغم رئيس وزراء تونس والرئيس سـليمان فـرنجية والسيـد احمـد الشـامى عضـو المجلس الجمهورى اليمنى ·

(٣) نص اتفاقية عمـان بتاريخ ١٣/١٠/١٩٧٠

· وأيمانا منـا بأن الشـعب الاردنى متمسك بوحدته مخلص لقضيته ، عازف عن الشـقاق والفرقة ومستنكر لاى مظهر من مظـاهر الصـدام المسلح بين القوات الاردنية المسلحة وقوات الثورة الفلسطينية ·

واجماعا منا على هدف تحرير فلسطين الذى يجب أن تلتقـى عنده كافة الجهـود وجميـع الاطراف المعنية فى صف واحد يرنو بأبصاره نحـو الوطـن السليب من وراء النهر الخالد ·

ويقينا منا بـأن احتـراب الاشقاء انمـا يفيد منه العدو الصهيونى والامبريالى الذى يعد المخططات الرهيبة لتدمير الاردن كقاعدة للصمود والتحرير ، وأن هناك من رجال هذا العـدو وعملائه من يفتعل الاحـداث ويعمل على استمرار الفتنـة العمياء ·

واعتقادا منا بأن التحـام القـوات المسلحـة وقوات الثورة الفلسطينية أمام العدو الصهيونى كفيل وحده بتحقيق النصر كما حدث فى الكرامة حيث استردت بعض الكرامـة من خلال أخـوة السلاح واختلاط دم الشهداء فى المعركة ·

وتعزيزا لاسـباب الوحـدة الوطنية ·· وتنفيـذا للمـادة الصدع وتضميد الجراح بروح مـن التصـافى والمصـالحة الوطنيـة ·· وتنفيذا للمـادة الثامنة والثانية عشرة من اتفاقية القاهرة التى وقعـهـا الملوك والرؤسـاء العـرب فـى ٢٧-٩-١٩٧٠ والتى مـا زالت سارية المفعول بـالاضافة الى الاتفاقية المنبثقة عنها المتعلقـة بالانسحاب والمؤرخة بعمان فى ١-١٠-١٩٧٠ ، والمرفقة معهذه الاتفاقية والمعتبرة من ملحقاتها فقد تم الاتفاق على ما يلى :

اولا ـ قواعد عامة :

١ ـ الاردن بضفتيه ارضـا وشعبـا وحدة واحدة لا تتجزأ ، وهو القاعدة الاساسية للثـورة الفلسطينية وللنضال من أجـل تحرير فلسطين ·

٢ ـ تأسيسا على ما جاء فى الفقرة (١) أعلاه ومن أجـل تحقيق مضمونها تسخر الطاقات الشـعبية والعسكرية فى الاردن لخدمة هدف تحرير فلسطيـن ولتقـوم الحكومـة الاردنيـة بمساعدة الثورة فى المعركة من أجل التحرير وانتزاع الحق من يد العدو الغاصب واتخاذ كل ما من شأنه تمكين التساند بيـن الجيش العربى الاردنى والثورة الفلسطينية ليصبحا قولا وفعلا فى خندق واحد ضد العـدو الصـهيونى ولتحقيـق هـدف التحرير ·

٣ ـ الوجود والتعبئة والتنظيم الشعبى والقتـالى وحرية العمل والتنقـل السيـاسى والعسكرى والاعلامى والمالى من الامـور الاساسـية للثورة الفلسطينيـة وتمارسها بحرية ·

٤ ـ الشعب الفلسطينى وحده متمثلا فى الثورة الفلسطينية هو صاحب الحق فى تقرير مصيره ·

٥ ـ ان الثورة الفلسطينية هى قوة نضالية وهى من المستلزمات الاساسية للمعركة ضد العدوان من أجل التحرير ولهذا ينبغى تعضيدها وتصعيدها ·

٦ ـ تتعهد الحكومة بألا يقوم او يعمل اى جهاز او تنظيم أو أية جهة فى الاردن ضد مصـلحة الثورة الفلسطينيـة والوحـدة الوطنية ·

٧ ـ تعميق الوحدة الشعبية والوطنية بممـارسة المسـاواة التامة فى الحقوق والواجبـات بين كل أبناء الشعب فى كافة ميادين الحياة ومؤسسات الدولة

المدنية والعسكرية والسياسية والاقتصادية بدون أى نوع من أنواع التمييز .

ثانيا - شئون العمل الفدائى :

١ - تعتبر عمان المقر الرئيسى للجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية بجميع فروعها السياسية والعسكرية والاعلامية والاجتماعية وغيرها .

٢ - تنشىء اللجنة المركزية مكاتب فرعية لها فى مدن وقرى المملكة حسب ما ترى ذلك مناسبا .

٣ - تؤمن اللجنة المركزية الحراسات اللازمة لمكاتبها فى العاصمة والاماكن الاخرى كما تؤمن الحراسة للقياديين .

٤ - تتكون قوات الثورة الفلسطينية من قوات جيش التحرير الفلسطينى وقوات الفدائيين وتتولى القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية المعينة من قبل اللجنة المركزية مسئولية هذه القوات باجمعها .

٥ - اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية هى المسيطرة والملتزمة والمسئولة عن الثورة الفلسطينية سياسيا وعسكريا وفى كل الميادين الاخرى . ويجرى الاتصال من قبل الحكومة الاردنية مع اللجنة المركزية فى كل ما يتعلق بشئون العمل الفدائى ونشاطه وحقوقه وواجباته .

٦ - ما تلتزم به اللجنة المركزية نحو الحكومة الاردنية يكون ملزما للثورة الفلسطينية بكافة قواتها ومؤسساتها وما تلتزم به الحكومة نحو اللجنة المركزية يكون ملزما لكافة أجهزة الدولة .

٧ - حرية وحماية العمل الفدائى وتأمين سلامته وحقوقه فى التعبئة الشعبية والوطنية تضمنه الحكومة الاردنية بما لا يمس سيادة البلاد فى حدود القانون مع مراعاة الاستثناءات اللازمة للعمل الفدائى .

٨ - يجرى توجيه أجهزة التعبئة المعنوية والاعلام لخدمة هدف التحرير المشترك .

٩ - تعتبر المؤسسات التالية مؤسسات رئيسية للجنة المركزية وتمارس عملها بحرية تامة :

أ - مؤسسة الهلال الاحمر الفلسطينى .

ب - مؤسسة الميليشيا وتتولى القيادة العامة للثورة الفلسطينية المعينة من قبل اللجنة المركزية ومسئولية هذه المؤسسة وكل شئون الضبط والربط الخاصة بها ويلتزم افراد الميليشيا بأحكام البنود (أ) و (ب) و (هـ) من المادة - ٢ - من الفصل الرابع أدناه .

ج - مؤسسة الفتوة والاشبال وتتولى القيادة للثورة الفلسطينية المعينة من قبل اللجنة المركزية مسئولية هذه المؤسسة وكل شئون الضبط والربط بها . ويلتزم أفراد الفتوة والاشبال بأحكام البنود (ب) و (هـ) من المادة -٢- من الفصل الرابع أدناه .

د - مؤسسة رعاية أسر المجاهدين والشهداء .

هـ - جريدة واذاعة فتح .

و - الخدمات الطبية لقوات الثورة الفلسطينية .

ز - المؤسسات الانتاجية الخاصة للثورة الفلسطينية .

ح - مؤسسة الدراسة والبحث العلمى .

ثالثا - مواقع وقواعد قوات الثورة الفلسطينية :

١ - القيادات :

١- القيادة العامة وفروعها الرئيسية ومركزها عمان .

٢ - القيادات الفرعية وتتكون من :

١ - القطاع الشمالى ومركز قيادته للشئون الادارية والعامة - اربد .

٢ - القطاع الاوسط ومركز قيادته للشئون الادارية والعامة - السلط .

٣ - القطاع الجنوبى ومركز قيادته للشئون الادارية والعامة - الكرك والطفيلة .

٤ - قطاع عجلون ومركز قيادته للشئون الادارية والعامة - جرش .

٥ - قطاع الارض المحتلة ومركز قيادته فى عمان ومراكز القيادات الفرعية .

٦ - انضباط الكفاح المسلح الفلسطينى فى عمان وفروعه فى كافة أماكن تواجد قوات الثورة الفلسطينية .

٢ - المواقع والقواعد التعبوية :

وتتواجد المواقع والقواعد التعبوية فى المناطق الواقعة قرب الخط الممتد من الحدود السورية شمالا الى الرمتا والطريق العام الرئيسى الموصل الى جرش - صويلح - السلط الى مأدبا فالطريق العام من مأدبا الى الكرك - الطفيلة - الشويك وادى موسى على أن تكون المواقع والقواعد بعيدة عن الخط مسافة لا تقل عن كيلو مترين .

٣ - القواعد التدريبية والتخزينية تتواجد فى المنطقة قرب الخط الوهمى ابتداء من الحدود السورية شمالا الى المفرق ثم الطريق العام - المفرق - الزرقا - عمان - مثلث الطريق الصحراوى - مأدبا - ثم الطريق الصحراوى وحتى معان ويتم تحديد مواقع التدريب والتخزين فيما بعد ضمن هذه المنطقة بالاتفاق فيما بين القيادة العامة للثورة والمكتب العسكرى العربى .

٤ - يراعى فى اختيار أماكن القواعد التعبوية والادارية والتدريبية البعد عن المدن والقرى المأهولة .

٥ - التنقلات والتحركات :

تؤمن حرية التنقل والتحرك لقوات الثورة على كافة الطرق الرئيسية والفرعية الى كافة قيادات ومواقع وقواعد قوات الثورة الفلسطينية بما فى ذلك الطرق المؤدية الى داخل وخارج البلاد

ولا يجوز اقامة الحواجز والموانع من كلا الطرفين على هذه الطرق ·

● حرية التنقل ضمن القواعد من والى المناطق المحتلة ·

● يسمح بمرور قوات الثورة الفلسطينية داخل المدن والقرى سواء كانت مسلحة او غير مسلحة · على أن يكون لديها آمر مهمة موقع حسب الاصول من المرجع المختص لدى قيادة الثورة مع الالتزام بقواعد السير المقررة ·

● يسمح للمجازين بارتداء اللباس العسكرى أثناء تنقلهم على أن يتم التنقل بدون سلاح ويستثنى من ذلك القادة السياسيون والعسكريون اذ يجوز لهم حمل الاسلحة الفردية باذن خطى من القيادة العامة للثورة الفلسطينية ·

٦ - العمليات والتدريب :

● تقدم كافة التسهيلات والدعم العسكرى من قبل القوات المسلحة الاردنية الى قوات الثورة أثناء تحركها للقيام بعمليات فى الارض المحتلة او عودتها منها ·

● تمنع الرماية من خط المواجهة فى الضفة الشرقية لنهر الاردن الا فى حالة اسناد العمليات ·

٧ - انضباط الكفاح المسلح الفلسطينى :

● انضباط الكفاح المسلح الفلسطينى هو المسئول عن ملاحقة المخالفات المسلكية والانضباطية لقوات الثورة الفلسطينية ·

● تتواجد مفارز من انضباط الكفاح المسلح حيث تتواجد مراكز تفتيش الشرطة العسكرية أو الامن العام وتنحصر واجبات الكفاح المسلح فى أفراد وقوات الثورة الفلسطينية ·

رابعا - تنظيم العلاقة بين العمل الفدائى والدولة :

١ - تلتزم الحكومة الاردنية بمراعاة ما يلى :

أ - عدم التعرض لافراد قوات الثورة الفلسطينية أو التدخل فى شئونهم من قبل أية سلطة وتحت أى ظرف الا عن طريق قيادتهم ·

ب - اعتماد الوثائق الصادرة عن اللجنة المركزية والقيادات العسكرية واجهزتها ·

ج - المخالفات العسكرية والانضباطية يبت فيها من قبل قيادة الثورة الفلسطينية ويخضع أفراد الفدائيين فيما عدا ذلك الى المحاكم الاردنية المدنية ·

د - تقوم مديرية الامن العام بتبليغ قيادة الكفاح المسلح الفلسطينى لدى توقيف اى فدائى من جراء ارتكاب جريمة من الجرائم الداخلة فى اختصاص المحاكم المدنية والجزائية والنظامية ·

هـ - فى الجرائم التى لها مساس بالقوات المسلحة الاردنية يجرى تحقيق مشترك من قبيل الطرفين ويحال المتهم الى المحكمة ذات الاختصاص ·

و - يعامل أفراد قوات الثورة المعاملة اللائقة التى يعامل بها أفراد القوات المسلحة الاردنية ويكون لقوات الثورة الفلسطينية نفس الحقوق والتسهيلات العائدة للقوات المسلحة الاردنية ·

٢ - تلتزم اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية بمراعاة ما يلى :

أ - عدم التعرض للمواطنين وممتلكاتهم بأى شكل من الاشكال من قبل أى فرد ينتمى لقوات الثورة الفلسطينية ·

ب - عدم التعرض لاى فرد من افراد القوات المسلحة الاردنية من قبل أى فرد ينتمى الى قوات الثورة الفلسطينية ·

ج - التقيد بالقوانين والانظمة المرعية مع مراعاة الاستثناءات اللازمة للعمل الفدائى ·

د - تمنع الجباية من قبل الافراد ويعتمد أسلوب الجباية الموحدة المقرن من اللجنة المركزية ·

و - يحمل كل فدائى هوية تثبت شخصيته وتحمل صورته الشمسية على غرار الهوية المعتمدة فى جيش التحرير الفلسطينى وفى حالة تحركه تعتبر هذه الهوية وثيقة سفر مقبولة على أن يحمل معه اجازة أو أمر مهمة من مرجعه المختص ·

ز - يجرى ترقيم كافة السيارات التابعة لقوات الثورة الفلسطينية من المرجع المختص فى اللجنة المركزية أو القيادة العامة لقوات الثورة ويترتب على كل سائق أن يحمل شهادة قيادة سيارة اما مدنية صادرة عن دائرة السير أو عسكرية صادرة عن قيادة الثورة على أن يراعى توحيد علامات السيارات وأماكن تثبيت العلامات على السيارات ·

ح - عدم حمل السلاح من قبل كافة افراد الثورة الفلسطينية فى المدن الا فى الحالات الواردة فى البنود السابقة ·

ط - عدم القيام باية تظاهرات عسكرية ·

ى - عدم اطلاق الرصاص واجراء المناورات والتدريب بالذخيرة الحية داخل المدن والقرى والاماكن الاهلة بالسكان ·

خامسا - احكام عامة :

بما أن البند الخامس من اتفاقية القاهرة يقضى باطلاق سراح المعتقلين فورا فانه لا يجوز مستقبلا اعتقال او توقيف اى فرد بسبب الحوادث الاخيرة ·

سادسا - اللجان المشتركة الدائمة :

انطلاقا من الرغبة المشتركة فى تنفيذ اتفاقية القاهرة نصا وروحا وهذه الاتفاقية ومن أجل معالجة اية قضية تنشا تؤلف لجنة مشتركة دائمة تتكون من ممثل عن حكومة المملكة الاردنية الهاشمية وممثل عن اللجنة

المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية ويرأسها رئيس لجنة المتابعة العربية العليا المنبثقة عن اجتماع الملوك والرؤساء العرب المنعقد فى شهر أيلول سبتمبر ١٩٧٠ بالقاهرة أو ينتدبه وتفرع عنها بنفس تركيب اللجنة المشتركة الدائمة •

١ – مكتب سياسى دائم الانعقاد يعنى بكل الشئون غير العسكرية •

٢ – مكتب عسكرى دائم الانعقاد يعنى بجميع الشئون العسكرية يتبع له جهاز تنفيذى مكون من عدد كاف من الضباط العرب •

٣ – مكتب اغاثة ويعنى بجميع شئون اغاثة المواطنين ومساعدة المنكوبين فى الحوادث الاخيرة ••

والله ولى التوفيق

تحريرا بمدينة عمان يوم الثلاثاء ١٣ شعبان ١٣٩٠ هـ الموافق ١٣ تشرين الاول أكتوبر ١٩٧٠ •

توقيعات :

جلالة الملك حسين بن طلال – ملك المملكة الاردنية الهاشمية •

السيد ياسر عرفات – رئيس اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية والقائد العام لقوات الثورة الفلسطينية •

السيد الباهى الادغم – الوزير الاول للجمهورية التونسية ورئيس اللجنة العربية العليا للمتابعة •

③ اللجنة العربية العليا للمتابعة – اللجنة العسكرية العليا

بروتوكول بشأن العمل الفدائى

تنفيذا للبنود الثانى والثالث والرابع والسادس من اتفاقية عمان فى ٢٢ – ١٠ – ١٩٧٠

تنفيذا للبنود الثانى والثالث والرابع والسادس من اتفاقية عمان واعمالا لنصوص لائحة تنظيم أعمال اللجنة العسكرية العليا وما يتفرع عنها من لجان فقد اجتمع فى الساعة التاسعة من صباح يوم الاربعاء الموافق ٢١–١٠–١٩٧٠ الاتى اسماؤهم :

العميد احمد عبدالحميد حلمى رئيس اللجنة العسكرية العليا ••

اللواء الركن محمد خليل عبد الدايم رئيس هيئة الاركان •

اللواء الركن زيد بن شاكر مساعد رئيس هيئة الاركان •

اللواء الركن زهير عمر مطير مدير الامن العام •

الزعيم الركن مفضى عبد المصلح مدير العمليات الحربية •

المقدم احمد عبيدات مساعد مدير المخابرات العامة عن الحكومة الاردنية •

العميد الركن عبد الرزاق اليحيى القائد العام لجيش التحرير •

العقيد الركن سمير الخطيب

العقيد احمد عفانة •

العقيد جواد عبد الرحيم

المقدم نهاد نسيبة

السيد ابو صبرى •

السيد ابو اياد عن اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية •

واتفقوا على ما يلى :

اولا : أ – ان يكون المقر الرئيسى للجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية بجميع فروعها حسب الجدول الملحق بهذا البروتوكول ••

ب – ان يكون عدد العمارات المخصصة لجميع مكاتب ودوائر منظمة التحرير الفلسطينية عشر عمارات بحد اعلى ••

جـ – يخصص عمارتان لجيش التحرير بجميع فروعه ومكاتبه •

د – تخصص عمارة واحدة كمستشفى لجيش التحرير •

هـ – يختار مكان جديد لمبنى الكفاح المسلح وكذلك مكان جديد لجيش التحرير على ألا يعود لاى من هاتين الهيئتين او « اية هيئة او مكاتب او قوات من قبل الفدائيين الى اعادة احتلال المبنيين القديمين •

ثانيا – مكاتب اللجنة المركزية :

يفتح فى كافة مدن المملكة الاردنية الهاشمية مكاتب تابعة للجنة المركزية ، وكذلك فى المخيمات كالاتى :

أ – تخصص عمارة فى مدينة اربد وبناية مناسبة لتكون مكتبا فى مدينة الزرقاء •

ب – تحدد أماكن المكاتب فى المدن بمعرفة اللجنة العربية العليا

جـ – تحدد أماكن المكاتب فى المخيمات بمعرفة اللجنة العربية العليا •

ثالثا – الحراسات :

تكون الحراسات على جميع القيادات والمكاتب والدوائر التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية كالاتى :

أ – فصيلة من جيش التحرير قوامها ثلاثون فردا •

ب – عشر حظائر من جيش التحرير تتكون كل حظيرة من ثمانية أفراد •

ويكون بذلك مجمل إفراد الحراسات اللازمة مائة وعشرة افراد •

التسليح :

جـ – يكون التسليح لهذه الحراسات تسليحا شخصيا وهو اما المسدس أو البندقية الكلاشنكوف •

رابعا – حراسات القيادات :

تخصص الحراسات للقادة العسكريين لمنظمة التحرير الفلسطينية كالاتى :

أ – القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية :

وحرسه الخاص حسب تقدير

القائد العام من حيث عدد الافراد والتسليح •

ب ـ القائد العام لجيش التحرير الفلسطيني :

يحرسه حرسه الخاص حسب تقديره من حيث عدد الافراد والتسليح •

جـ ـ قادة القوات :

يخصص لكل قائد فردان للحراسة •

خامسا ـ القيادات :

القيادة العامة ومقرها الرئيسي فى مدينة عمان حسب ما ورد فى التشكيل السابق الموضح فى الجدول « أ » الملحق بهذا البروتوكول •

القيادات الفرعية :

يشكل فى كل قطاع من القطاعات العسكرية مركز للقيادة ومركز تموين ومستودعات للاعاشة يختار مكانان فى أطراف المدن ليكونا مقرا للورش ومشاغل الصيانة ولا يجوز اطلاقا ان يتواجد مسلحون فى هذين المكانين •

القواعد :

تحدد مراكز القواعد كما حددت باتفاقية عمان •

مراكز القواعد التدريبية تحدد بعد استطلاع الارضيما يناسب وينسجم مع تواجد القواعد الفدائية على الا يتجاوز المناطق المنصوص عليها فى اتفاقية عمان •

سادسا ـ الكفاح المسلح :

أ ـ توزيع الافراد :

يتم توزيع الافراد فى الكفاح المسلح كالاتى :

١ ـ في عمان :

أ ـ في نقط التفتيش على مداخل المدينة :

ـ المدينة الرياضية خمسة افراد

ـ مثلث صويلح خمسة افراد

ـ ماركا خمسة أفراد

ـ أم الحيوان خمسة أفراد

ب ـ في داخل مدينة عمان :

يحدد عدد أربعين فردا للعمل كدوريات داخل المدينة للمحافظة على الانضباط العسكرى •

٢ ـ في جرش :

أ ـ فى داخل مدينة جرش عشرة افراد

ب ـ فى مخيم سوف خمسة افراد

جـ ـ فى مخيم فزة خمسة أفراد

د ـ فى مخيم البقعة خمسة أفراد

وبذلك يكون جملة الافراد فى منطقة جرش خمسة وعشرين فردا •

٣ ـ في السلط :

يتواجد ستة أفراد

٤ ـ في ؟؟

يتواجد ستة أفراد

٥ ـ في الزرقاء :

أ ـ يتواجد فى مدينة الرصيفة خمسة افراد

ب ـ يتواجد فى مخيم شنلر خمسة افراد

جـ ـ يتواجد فى مدينة الزرقاء عشرة أفراد •

وبذلك يكون جملة الافراد فى منطقة الزرقاء عشرين فردا •

٦ ـ يتواجد فى مدينة أربد خمسة عشر فردا

٧ ـ في مثلث الرمثا :

يتواجد فى مثلث الرمثا خمسة افراد

٨ ـ الرمثا :

يتواجد فى مدينة الرمثا سبعة افراد

ب ـ نظام العمل :

١ ـ لا يجوز لسيارات الكفاح المسلح ان يركب عليها اية رشاشات •

٢ ـ أفراد الكفاح المسلح فى مدن جرش والزرقاء واربد والسلط والرصيفة والمخيمات يكونون عبارة عن داوريات راجلة وليست نقطا ثابتة •

سابعا ـ التنقل والتحركات :

أ ـ يسمح لاعضاء اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية ولجميع ضباطها بحمل سلاحهم الفردى (المسدس) على أن يكون مع كل منهم ترخيص من قيادة الثورة بحمل هذه الاسلحة •

ب ـ ترقيم السيارات :

أ ـ تحدد أرقام السيارات العسكرية التابعة لجيش التحرير من قبل قيادة جيش التحرير وتعطى أرقام خاصة وتحمل جميع الوثائق الخاصة بملكية هذه السيارات لهذه القوات وتتقيد بأنظمة السير المعمول بها فى المملكة ••

ب ـ يحدد لون خاص لهذه السيارات ••

جـ ـ تحدد أرقام سيارات قوات الثورة الفلسطينية وتعطى أرقام محدودة وتحمل جميع الوثائق التى تثبت ملكية هذه السيارات للثورة ، وتتقيد بأنظمة السير المعمول بها •

④ بيان هام بشأن تنفيذ اتفاقيتى القاهرة وعمان فى ١٩٧١/١/١٤

عقد اجتماع بدار السفارة التونسية فى عمان بتاريخ ١٢ و ١٣ـ١ـ١٩٧١ • وحضر عن الحكومة الاردنية دولة رئيس الوزراء السيد وصفى التل وممثل الحكومة الاردنية السيد رياض المفلح ورئيس الاركان اللواء الركن محمد خليل عبد الدايم واللواء الركن الشريف زيد أبن شاكر مساعد رئيس الاركان للعمليات ومدير الامن العام السيد عبدالمجيد الشريدة ومدير المخابرات العامة الزعيم الركن نذير رشيد • وعن اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية السادة ابراهيم بكر وأبو صبرى وابراهيم البرغوثى وحامد أبو ستة وكمال عدوان والعقيد الركن سمير الخطيب والعقيد أحمد

عقاشة (أبو المعتصم) والمقدم نهاد نسيبة ..

وحضر الاجتماع العميد احمد عبد الحميد حلمى رئيس هيئة الرقابة العربية والسيد محمد عمامو القائم بأعمال السفارة التونسية بعمان ..

وقد تقرر ما يلى :

١ - شكلت لجنة مشتركة بغرض تحديد قواعد الفدائيين وقد تم الاتفاق على اختيار هذه القواعد وحددت وسوف يعود اليها الفدائيون فورا ..

٢ - تسلم اسلحة المقاومة الموجودة لدى الحكومة الى المقاومة فى ظرف اسبوع ..

٣ - توضع موضع التنفيذ الفورى تعليمات القائد العام للقوات المسلحة ورئيس الاركان بخصوص معاملة الفدائيين وسياراتهم على نقاط التفتيش بحيث يعامل الفدائيون كما يعامل الجيش ويكلف رئيس الاركان أن يعيد النظر جذريا فى نقاط التفتيش على ضوء الشكاوى المتكررة من بعض هذه النقاط وعددها بغية تأمين الحرية الكاملة لتحرك العمل الفدائى ولوازمه على أن يجرى التيسير فى مدة اقصاها أسبوع من تاريخه ، والغاء ما لا يراه ضروريا .

٤ - تسليم مبنى الكفاح المسلح فى منطقة الرمثا فورا ..

٥ - تحريم ضرب قواعد الفدائيين ومراكز الجيش مهما كانت الاسباب ، ومعاقبة المسئول عن اى ضرب لهذه القواعد والمراكز .

٦ - تكفل حرية التنقل للفدائيين ، وسياراتهم على كافة الطرق بدون أية عوائق .

٧ - اعتماد الاوراق الثبوتية الصادرة عن اللجنة المركزية واحترام هذه الوثائق .

٨ - استكمال فتح المكاتب والقواعد المقررة للعمل الفدائى المبينة فى اتفاقية عمان فى مدة اقصاها شهر اعتبارا من اليوم . وعلى الحكومة أن تسهل هذه العملية وتضمنها ..

٩ - لمراقبة وتسهيل كافة الممارسات فى البنود أعلاه يشكل مكتب ارتباط مؤلف من العقيد الركن سمير الخطيب من اللجنة المركزية والعقيد الركن محمد بشير من القوات المسلحة والعقيد أحمد الروسان من الامن العام .

١٠ - لا يجوز اعتقال اى فدائى فى أى مكان الا فى حالة الجرم المشهود ويبلغ انضباط الكفاح المسلح فورا ..

١١ - اطلاق سراح جميع المعتقلين والمحتجزين باستثناء مرتكبى الجرائم العادية قبل نهاية يوم ٢٠-١-١٩٧١

١٢ - وقف الحملات الاعلامية فورا من كافة أجهزة الاعلام الصحفية والاذاعية والتليفزيونية والتصاريح والنشرات التابعة للحكومة الاردنية وجميع أجهزة اعلام اللجنة المركزية حيثما وجدت .

١٣ - بالنسبة لاسلحة الميليشيا والمقاومة الشعبية فقد اتفق على تنفيذ الاتى :

أ - تجمع اسلحة الميليشيا فى بيوت مستقلة مفاتيحها من المسئولين الذين تعينهم اللجنة المركزية ويكون لها حراسات من الميليشيا .

ب - تجمع اسلحة المقاومة الشعبية فى المخافر .

جـ - تشكل لجنة رباعية للتأكد من استكمال التجميع والتقرير بذلك مكونة من ضابط فى هيئة الرقابة . ضابط من الفدائيين . ضابط من الجيش . وضابط من الامن العام .

د - فورا وخلال ثمان وأربعين ساعة من التقرير يقوم الامن العام باشراف اللجنة الرباعية بالتأكد من خلو الحى من السلاح غير القانونى .

هـ - مباشرة لانتهاء الثمانى والاربعين ساعة من التقرير يعاد الامن العام العادى الى المراكز بالاسلحة الفردية .

و - يتوازى مع هذه الخطوات تخفيف المظاهر العسكرية عن المدينة والمخافر بصورة عامة لخلق جو ملائم .

ز - تتمتع بيوت أسلحة الميليشيا المجمعة بالحصانة ولا يجوز التعرض لها بأية صورة من الصور الا بمعرفة اللجنة المركزية .

ح - لا توزع أسلحة الميليشيا لغرض الاستعمال الا بقرار من اللجنة المركزية .

ط - يعين ضابط من المقاومة الشعبية يكون مسئولا عن ضبط أسلحة المقاومة الشعبية المجمعة بالمخفر وعدم توزيعها واستعمالها الا بأمر من القيادة العامة للقوات المسلحة .

ى - يجمع سلاح الميليشيا والجيش الشعبى من اربد والسلط وجرش وكافة المدن والقرى فى المملكة الاردنية بنفس الطريقة وخلال المدة الزمنية المقررة والتى تنتهى بتاريخ ٢٢-١-١٩٧١ . بمعرفة لجنة مشتركة من مندوب الجيش ومندوب الامن العام ومندوب حركة المقاومة ومندوب الرقابة العسكرية فى المنطقة ..

توقيع

عميد أحمد عبدالحميد حلمى

رئيس هيئة الرقابة العربية

توقيع

ابراهيم بكر

ممثل اللجنة المركزية

لمنظمة التحرير الفلسطينية

توقيع

وصفى التل

رئيس وزراء المملكة الاردنية

وفيما يلى الجدول الزمنى لتنظيم وضبط أسلحة الميليشيا والمقاومة الشعبية فى الاحياء المبينة أدناه ..

١ - تخرج القواعد الفدائية والاسلحة الممنوعة والفدائيون من عمان واربد وبقية المدن وتبدأ العملية ساعة صدور البيان وتنتهى كليا فى الساعة السادسة من مساء يوم الجمعة ٢٢-١-١٩٧١.

٢ - يبدأ تجميع أسلحة الميليشيا فى حى المصاروة والجبل الاخضر وحى نزال وجبل النظيف ساعة صدور هذا البيان وينتهى الجمع فى الساعة

السادسة من مساء يوم السبت الموافق ١٦-١-١٩٧١ .

٣ - يبدأ جمع أسلحة الميليشيا فى أحياء ماركا والمحطة والهاشمى الشمالى والهاشمى الجنوبى ساعة صدور هذا البيان وينتهى الجمع فى الساعة السادسة مساء يوم الاثنين ١٨-١-١٩٧١ .

٤ - يبدأ بجمع أسلحة الميليشيا فى أحياء جبل القلعة وجبل الحسين ومخيم الحسين وجبل اللويبدة ساعة صدور هذا البيان وتنتهى العملية فى الساعة السادسة من مساء الاربعاء ٢٠-١-١٩٧١ .

٥ - يبدأ بجمع أسلحة الميليشيا فى الوحدات والاشرافية والمصدار والتاج والجوفة والنصر ساعة صدور هذا البيان وحتى الساعة السادسة من مساء الجمعة ٢٢-١-١٩٧١ .

٦ - ينطبق جميع ما تقدم وبنفس الترتيب والتوقيت على كافة أسلحة المقاومة الشعبية فى الاحياء المذكورة أعلاه .

عمان فى ١٣-١-١٩٧١ .

توقيع

عميد أحمد عبد الحميد حلمى

رئيس هيئة الرقابة العربية

توقيع

ابراهيم بكر

ممثل اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية

توقيع

وصفى التل

رئيس الحكومة الاردنية الهاشمية

⑤ مذكرة اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية الى السفراء العرب فى عمان فى ١٠/٥/١٩٧١

سلمت اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية اليوم التاسع عشر من حزيران يونيو ١٩٧١ مذكرة هامة الى السفراء العرب فى عمان .. وذلك لتوضيح حقائق الموقف وتعنت السلطة فى الاردن الذى يخالف جميع الاتفاقيات .

وفيما يلى نص المذكرة :

منظمة التحرير الفلسطينية

اللجنة المركزية

الاخوة السفراء العرب

تهديكم اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية تحياتها وتود أن تعلمكم بما يلى :

فى أعقاب العمليات العسكرية التى تعرضت لها قواعد الفدائيين قبل أسبوعين تم اجتماع عسكرى ضمن اطار نشاط مكتب الارتباط وبناء على طلب من قيادة الجيش وخلال هذا الاجتماع قال وفد المقاومة ان سبب العمليات التى تتعرض لها القواعد ناتج عن عدم التزام الحكومة لاتفاقيتى عمان والقاهرة وبروتوكول عمان .. وان الحكومة مطالبة بتنفيذ ما يلى أساسا لتعامل جديد يخلق الثقة بين الطرفين :

أولا - ضمان حرية الحركة والمرور ضمن المناطق التى تحددها الاتفاقيات .

ثانيا - حرية العمل ضد العدو الصهيونى .

ثالثا - حرية التموين والتسليح .

وبعد نقاش واسع لكافة الاوضاع العسكرية القائمة وما يرافقها من استفزازات وعمليات قصف وقطع طرق فى وجه تحرك قواتنا التى أثارها وفد المقاومة ..

وافق على احالتها الى لجنة مشتركة تقوم بوضع تفاصيل هذه النقاط .

وفى اللقاء الثانى اجتمعت اللجنة المنبثقة عن الاجتماع وناقشت النقاط الثلاث ..

واتفق على البدء فى توزيع مناطق تواجد الفدائيين ابتداء من منطقة أم قيس شمالا وحتى البحر الميت جنوبا .. وتقرر قيام لجان مشتركة لتحديد أماكن هذه القواعد ضمن المنطقة واستطلاعها ولدى توجه ضباطنا للمشاركة فى لجان الاستطلاع فوجئوا بأن ضباط الجيش يحملون تعليمات مخالفة لما اتفق عليه .. خصوصا عدم استعدادهم لاستطلاع أى جزء من المنطقة الشمالية .

وفى اللقاء التالى لمكتب الارتباط فوجىء وفدنا بوفد الجيش يقدم خارطة عسكرية تحدد فيها قيادة الجيش الاماكن التى يحق حسب رأيهم للفدائيين ان يتواجدوا فيها وهى مخالفة بالاضافة للاتفاقيات - لما تم ترتيبه فى الاجتماعات السابقة .

وهذه الخارطة تمنع تواجد الفدائيين فى المناطق التالية :

اولا - كامل المنطقة الشمالية من أم قيس الى مثلث اشتيفينا فى عجلون .

ثانيا - منطقة دبين .

ثالثا - طريق جرش القديم .

رابعا - ساكب - الكتة - نحلة - رميمين - تل الاقرع - تل التينة .

خامسا - تقذف هذه الخريطة بقواعدنا الى مناطق جرداء لا توجد فيها مصادر مياه أو طرق مواصلات ..

على ضوء هذا الطلب أكد وفدنا مخالفة هذه الخارطة للاتفاقيات .. وأكد عدم استعداد الثورة بتلبيةمثل هذا الطلب الذى يهدف الى تضييق الخناق وتشديد الحصار على القواعد ..

وفى صباح الخميس السابع عشر من حزيران - يونيو ١٩٧١ استدعى رئيس مكتب الارتباط

احد ضباطنا وأبلغه ان الحكومة تطلب تنفيذ ما يلي :
اولا ـ اخلاء تل النينة حتى صباح السبت الموافق التاسع عشر من حزيران ـ يونيو ١٩٧١.
ثانيا ـ تمرير سيارات عسكرية على طريق جرش القديم بالرغم من حالة الحصار الشديد والتوتر القائم فى المنطقة اعتبارا من صباح اليوم السبت التاسع عشر من حزيران ـ يونيو ١٩٧١ .

وتلي توجيه هذا الانذار تحركات عسكرية حول قواعد الفدائيين مع رماية وقصف لقواعدنا استمر ساعتين وعشر دقائق .
اننا نوضح هذه الحقائق امامكم ونرجو ان نلفت الانتباه الى أن كافة طلبات الحكومة هذه تخالف أبسط القواعد التى وردت فى الاتفاقيات والتى تحدد حرية اقامة القواعد على بعد ثلاثة كيلو مترات غربى طريق الرمثا ـ عمان ـ معان .
راجين أن تبلغوا هذه الوقائع حكوماتكم ..
وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ...

عمان فى التاسع عشر من حزيران ـ يونيو ١٩٧١

التوقيع

اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية .

(٦) مذكرة من منظمة اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية الى الملوك والرؤساء العرب

السادة الملوك والرؤساء العرب المحترمين :

تهدى اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية تحيتها لكم وتود فى هذه الظروف القاسية والمصيرية التى تمر بها الثورة الفلسطينية والشعب الفلسطيني أن تضع بين أيديكم الحقائق التالية فيما يتعلق بالعلاقات بين الثورة الفلسطينية والنظام الاردنى ، ومحاولة هذا النظام ضرب وتصفية الثورة والاجهاز على حق الشعب الفلسطيني فى الكفاح المسلح وحق تقرير المصير ..

اولا ـ قبل حزيران وعندما انطلقت طلائع الفدائيين فى مطلع عام ١٩٦٥ كانت الاردن البلد العربى الذى امتلأت معتقلاته وسجونه باحرارنا وثوارنا بل تمادت فى اجراءاتها التعسفية الى حد القتل لكل ثائر يعود من الارض المحتلة .

ثانيا ـ بعد نكسة حزيران وما رافقها من شعور باليأس والهزيمة عند المواطن العربى قامت الطلائع الفلسطينية مرة أخرى بمقاومة المحتلين واستطاعت من خلال عملياتها الناجحة أن تعيد للانسان العربى احساسه بكرامته ووجوده الا أن النظام الاردنى حاول وبشتى الطرق الاجهاز على الثورة الوليدة عبر هجمات شرسة مريرة تمثلت فى احداث مادية على النحو التالى:

أ ـ منذ الخامس عشر من حزيران ١٩٦٧ كانت كل دورية تقع فى يد الامن العام أو المخابرات أو الجيش تلاقى صنوف العذاب ثم يفرج عنها بعد اخذ تعهد منها بعدم العمل من الاراضي الاردنية ، هذا فضلا عن تصريحات مشهورة ضد العمل الفدائى بداها الملك حسين حين قال : مجرم كل من يحاول أن يضرب فى الارض المحتلة . وتبعه يومها وزير داخليته (الكايد) الذى هدد بضرب الفدائيين وتصفيتهم .

ب ـ بعد تواجد الفدائيين فى قاعدتهم فى « الكرامة » وفي يوم ٢ فبراير ١٩٦٨ قامت قوات من الامن العام والجيش بمحاصرة هذه القواعد وبدأت باطلاق النار على الفدائيين ، ولولا تحرك الجماهير للوقوف بين الفدائيين والقوات المهاجمة لحدثت مجزرة كبيرة .

جـ ـ فى ٤ـ١١ـ١٩٦٨ قام الجيش باحتلال مدينة عمان وتوابعها ، ومحاصرة قواعد الفدائيين فى الاغوار فى محاولة لضرب الثورة ويومها لم يكن العمل الفدائى ما يسمى بالاخطاء او الجرائم التى يدعيها النظام ولولا تدخل بعض الدول العربية وصمود الثورة لتمكن الجيش يومها من سحق الفدائيين وتصفيتهم .

د ـ فى ١٠ـ٢ـ١٩٧٠ فوجئت قيادة الثورة بمجموعة من القرارات التى تقيد حرية العمل الفدائى وتسلبه كافة الحقوق المتفق عليها وبدأت السلطة بتنفيذ القرارات مباشرة دون اعلام مسبق لقيادة الثورة ، وكادت الامور أن تصل الى حد الصدام العنيف يذهب ضحيته الالاف لولا التصرف الحكيم ، وضبط الاعصاب التى تحلت بها قيادة الثورة وانتهت مؤامرة فبراير باتفاق على عودة الاوضاع الى ما كانت عليه ، ولكن السلطة مع ذلك لم تلتزم واستمرت فى مؤامرتها المخطط لها والمدروسة فانشأت ، **الشعبة الخاصة وكانت لها** ثلاث مهمات رئيسية :

ـ اشاعة جو نفسى ضد الفدائيين بين المواطنين والقيام بتصرفات من شأنها ان تساعد على تثبيت هذا المناخ المعادى ضد الفدائيين .

ـ اثارة النعرات الاقليمية فى صفوف الشعب الواحد وفى صفوف القوات المسلحة عن طريق افتعال الحوادث باسم الفدائيين وارتكاب جرائم خلقية باسم الفدائيين .

ب ـ دس العناصر التابعة للشعبة فى وسط الفدائيين للتخريب من الداخل وللقيام باغتيالات داخل صفوف الثورة وخارجها .

وقد لعبت هذه الشعبة دورا كبيرا فى أحداث ٧ يونيو ١٩٧٠ المشهورة ، ولأهمية هذه الشعبة فقد كان اتصالها بالملك شخصيا وبعضوية زيد الرفاعى رئيس الديوان الملكى سابقا والشريف ناصر بن جميل قائد الجيش وآخرين من المخابرات والاستخبارات وضباط الجيش والامن العام .

هـ ـ فى ٧ ـ ٦ ـ ١٩٧٠ كانت المحاولة الجادة والمصممة من قبل النظام الاردنى لضرب الثورة فقد افتعلت الشعبة الخاصة وقوات الصاعقة الاردنية التابعة لهاعدة حوادث اسندتها للفدائيين ، وبدأت معارك عنيفة ولكن حكومة الثورة تغلبت على هذه الازمة التى انتهت بطرد المسئولين عن الازمة والجريمة وهما الشريفان ، ناصر بن جميل وزيد بن شاكر .. الا أن النظام الاردنى بعد هذه الاحداث والتى أشرف على انهائها وتصفية ذيولها مؤتمر طرابلس الذى أوفد الى عمان أربعة ممثلين عن الجمهورية العربية المتحدة والجزائر وليبيا والسودان ليضعوا حدا للمؤامرات ولقد توجت جهودهم باتفاقية ١٧ـ٧ـ٧٠ والتى وضعت حدودا للسلطة وحدودا للعمل الفدائى .

السادة الملوك والرؤساء العرب:

ما كادت الاتفاقية الاخيرة توضع موضع التنفيذ حتى بدأت العراقيل والسدود تقف فى طريقها وكانت الحكومة الرفاعية فى واد واداة وأجهزة الحكم الحقيقية فى واد آخر وبدأت ولاول مرة فى تاريخ المنطقة محاولات قتل جماعية لشعبنا بقصف المخيمات والاماكن الاهلة بالسكان بالمدفعية ساعات طويلة مما اضطرنا الى أن نطلب عقد جلسة عاجلة لمجلس جامعة الدول العربية والذى كان من نتيجته ارسال لجنة عسكرية برئاسة السيد أمين شبلى الى عمان واستقبلنا اللجنة وحاولنا أن نقدم لها من جانبنا كل التسهيلات الممكنة ولكن اللجنة ووفد الثورة ووفد الحكومة الرفاعية آنذاك لاحظ ان الملك حسين لا يريد نقاشا مع المقاومة والثورة وأنه ينوى توجيه ضربة قاصمة للفدائيين فى كل أماكن تواجدهم وفى يوم الثلاثاء ١٥ـ٩ـ١٩٧٠ عقد اجتماع مشترك ضم الحكومة واللجنة العربية والمقاومة وخرج الجميع باتفاق تام حول كافة القضايا المطروحة وأعلن من راديو عمان وفى تمام الحادية عشرة نصوص الاتفاق والبرنامج الزمنى لتنفيذه . الا أن الملك وأعوانه وبعض ضباط الجيش كانوا يعدون لشعبنا مذبحة همجية بربرية لم يعرف التاريخ مثيلا لها وتوالت الاحداث بعد اعلان الاتفاق كما يلى :

ـ يوم الخميس ١٧ـ٩ـ١٩٧٠ وفى تمام الساعة الخامسة بدأت حملة ايلول الاسود بكل شراستها المدفعية تطلق نيرانها على عمان وعلى كل ناحية بها لا تفرق بين قاعدة وبين منزل بين فدائى ومواطن وبدأت الدبابات الاردنية تخترق الشوارع والاحياء تضر بمدفعيتها الثقيلة ذات اليمين وذات الشمال وتحركت أفواج المشاة تعتقل وتقتل وتذبح كل فلسطينى حسب هواها وعصبيتها ، وتعبئتها الحاقدة واستمرت المجزرة بكل تفاصيلها التى تعرفونها أكثر من اثنى عشر يوما .

السادة الملوك والرؤساء العرب:

وأخيرا وقف القتال وعقدت اتفاقية القاهرة ولعقنا جراحنا ومددنا يدنا للقاتل الذى ذبح شعبنا وقلنا : لننس كل شىء وحرام أن ينزف مزيد من الدم العربى فى غير موضعه وحضرت اللجنة العربية برئاسة السيد الباهى الادغم لتشرف على تنفيذ الاتفاقية وفى ظل اللجنة تم التوقيع على اتفاقية عمان وملحقاتها ومنذ اللحظة الاولى لتوقيع اتفاقية عمان ، رفض الجانب الاردنى اذاعتها عبر وسائل اعلامه المتعددة ، ولن نتحدث عن الفترة ما بين توقيع الاتفاقية ومغادرة السيد الباهى الادغم لعمان لان السيد الباهى الادغم قد كفانا ذلك بمذكرات رسمية رفعها لحضراتكم ولكن الذى نريد التأكيد عليه هو ما يلى :

أنه فى ظل اللجنة العربية احتلت القوات الاردنية مواقع كثيرة لم تكن قد سيطرت عليها ، أو استطاعت الوصول اليها أثناء القتال .

أنه فى ظل اللجنة العربية جرت مجازر جرش والهملان والبقعة والمفرق وأخيرا مجزرة اربد .

أنه فى ظل اللجنة العربية جمعت أسلحة المليشيا والتى تنص عليها الاتفاقيات هذه الخطوة التى شجعت النظام الاردنى فيما بعد على طلب سحب السلاح كلية من عمان .

السادة الملوك والرؤساء العرب:

تاجرت حكومة عمان بقضية الامن وسخرت كل أجهزتها الاعلامية لتعبئة الرأى العام فى اتجاه قضية الامن وحتى تفوت الثورة على النظام الاردنى القيام بمجزرة جديدة اتخذت سلسلة من الاجراءات العسكرية الذاتية فى عمان رغم أن ذلك مخالف لكل الاتفاقيات وعلى غير ما اتفق عليه دخل الجيش الى عمان وفتشها شبرا شبرا وبيتا بيتا وصبرنا وسكتنا ، كل ذلك من أجل تجنب معركة بين الفدائيين والجيش تسيل فيها الدماء العربية الا أن كل هذه الخطوات الايجابية من جانبنا لم تقابل من النظام الا بمزيد من الاصرار على التآمر والسير فى المؤامرة الى نهايتها وكنا نحذر من خيانة النظام وعدم احترامه لشرف

توقيعاته وعدم التفاته لكل نداءات ووساطات الملوك والرؤساء ، بل تحدى هذه النداءات بمزيد من الاجراءات القمعية ضد الثورة ، كانت آخر حلقاتها مجزرة جرش وعجلون الاخيرة .

اننا لن نصف ما جرى وما حدث ولن نرد على أكاذيب الحكم الاردنى الرخيصة فى تبرير وتبسيط ما جرى ولكننا نقول لكم اننا صبرنا أكثر من ثلاثة وعشرين عاما على هذا .. الذى استأجره الاستعمار علينا رعى شعبنا وامتنا العربية لقتل روح القتال والنضال فى شعبنا واليوم فنحن نشعر بصدق وشرف أننا وحدنا فى المعركة وأن النظام الاردنى بات عقبة حقيقية فى وجه استمرار طريق الكفاح المسلح والثورة من هنا فنحن نطالبكم باسم شعبنا الجريح الذى يعيش اقسى مأساة حياته منذ النكبة ونطالبكم باسم الجماهير العربية التى احتضنت طلائع وثوار فلسطين بما يلى :

اولا ـ بما ان النظام الاردنى يمثل عقبة فى طريق التحرير وبما أن النظام قد قطع بنفسه كل علاقاته العربية عبر تنصله من اتفاق القاهرة واتفاقية عمان فاننا نرى أن تقطع الدول العربية كل علاقاتها السياسية والاقتصادية بالنظام الاردنى ، كما نرى أن تطرد المملكة الاردنية الهاشمية من عضوية جامعة الدول العربية .

ثانيا ـ الاقرار بوثيقة رسمية بأن شعب فلسطين لا تمثله الا الثورة الفلسطينية بقياداتها المتمثلة فى اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ومجلسها الوطنى الفلسطينى وابلاغ مضمون هذه الوثيقة الى كافة الدول والمؤسسات العربية والعالمية .

ثالثا ـ الاقرار بحق الثورة الفلسطينية ومساندة الجماهير العربية لها لتصميم وبناء وحدة الضفتين على الاسس التالية :

١ ـ حق الشعب الفلسطينى فى الاستمرار فى ثورته ومتابعة كفاحه المسلح ضد العدو الصهيونى على طريق تحرير كامل التراب الوطنى الفلسطينى .

٢ ـ الحرية الكاملة لقوات الثورة الفلسطينية فى الحركة ضد العدو الصهيونى .

٣ ـ حق الشعب الفلسطينى الكامل فى الاردن فى حمل السلاح لمقاتلة العدو والدفاع عن الثورة .

٤ ـ حق الجماهير فى الاردن فى التعبئة الجماهيرية والتنظيمية حول الثورة .

٥ ـ حق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره بنفسه وعلى أرضه .

٦ ـ قيام حكم وطنى ديمقراطى لتوحيد وحدة الشعب والضفتين ويضمن كل الحقوق الوطنية للشعب الفلسطينى .

رابعا ـ حماية الوجود الفلسطينى فى الضفة الشرقية والوقوف موقفا حازما وجادا فى وجه أية محاولة لمزيد من الذبح والقتل والتشريد والاعتقال لشعبنا .

السادة الملوك والرؤساء العرب :

هذه خطوط عريضة للمأساة التى يعيشها شعبنا هذه الايام والثورة الفلسطينية التى نشأت من خلال أصعب الظروف قادرة على شق طريقها والاستمرار فى خطها النضالى رغم كل العقبات وهى ستحدد موقفها من كل دولة عربية على اساس موقفها من الثورة والنظام الاردنى .

ولكم تحياتنا وتحيات شعبنا .





تقرير خاص

المغرب غني

والمغربي فقير

تقرير خاص

نيكسون يطرق أبواب

« السور العظيم »

■ ■

■ نيودلهي ■

معاهدة الصداقة والتعاون

بين الهند والاتحاد السوفيتي

■ واشنطن ■

اجراءات نيكسون الاخيرة

ومحاولة انقاذ الدولار

■ اتحاد الجمهوريات العربية ■

«وحدة» المواجهة قد اقتربت من الحسم

تتوجه اليوم (أول سبتمبر) جماهير الناخبين في كل من جمهورية مصر العربية والجمهورية العربية السورية والجمهورية العربية الليبية، الى صناديق « الاستفتاء » لتدلي برأيها في قيام دولة **اتحاد الجمهوريات العربية**، على أساس المبادىء والاحكام التي تضمنها دستور الاتحاد . وتعد هذه الخطوة نتيجة الاستفتاء ـ « القرار الاخير » الذي يكتسب بها الاتحاد شرعيته الشعبية .

وترى الدوائر الاسرائيلية أن الاتحاد ـ كما تقول صحيفة على همشمار الاسرائيلية ـ «محاولة لضرب حصار حول اسرائيل ومواصلة عزلها » . وفي تصريح لحاييم هيرتزوج ـ كبير المعلقين العسكريين الاسرائيليين والمدير السابق للمخابرات الاسرائيلية ـ قال « أن اسرائيل محاطة الان باتحاد تتكون قوته في مجموعها من ٤٢ مليون نسمة ومساحة قدرها ٦ ملايين كيلو متر مربع ومليون رجل في حالة تعبئة وألف طائرة مقاتلة و ٢٥٠٠ دبابة » وقد أعاد هذا الى أذهان المراقبين وصف بن جوريون لقيام دولة الجمهورية العربية المتحدة ـ بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ ـ بأن اسرائيل وقتها أصبحت « كالبندقة بين فكي الكماشة » .

واتجهت معظم التعليقات في العواصم العربية الى أن الاتحاد « جاء ترسيخا لحقيقة أن الوحدة العربية ليست مجرد تعبير عن وحدة التاريخ العربي، وانما هي استجابة لايمان عميق لدى الشعوب العربية بضرورة الوحدة تجسيدا لحقائق تفرضها ضرورات الظروف الراهنة وضرورات العصر » .

وكان الرؤساء الثلاثة : **أنور السادات وحافظ الاسد ومعمر القذافي** ، قد وقعوا **دستور الاتحاد** « **وأعلان دمشق** » ، في ٢٠ أغسطس الماضي . وبعد « اعلان دمشق » كبيان ختامي بنتائج اجتماعات ومحادثات الرؤساء التي جرت في العاصمة السورية

ويركز « **اعلان دمشق** » على « المعركة وتحرير الارض المحتلة » باعتبارهما محور العمل الوطني العربي اليوم ، يقول البيان « **أن المواجهة مع العدو الصهيوني الجاثم فوق أرضنا العربية قد اقتربت من الحسم** ، وأن العدو **استشعارا منه بذلك قد زاد من ضراوته وشراسته وتصميمه على تكريس احتلاله مستخدما في ذلك أبشع وسائل القهر والغصب ضد المواطنين العرب في الاراضي المحتلة الى جانب تصعيد قوى الاستعمار العالمي بكل اشكاله بقيادة الولايات المتحدة الامريكية المعادي للامة العربية والمستقبل العربي من مؤامراتها في محاولات محمومة لاضعاف جبهتنا ـ جبهة المواجهة للعدو ـ وتفتيت وحدتها النضالية وسلب قدراتها على حسم المعركة عسكريا مع العدو لصالح الحق العربي المشروع** » .

ويربط « **اعلان دمشق** » بين ما يجرى على الارض المحتلة وبين ما يجرى في الاردن فيقول « .. **وأن ما يجرى الان من تصفية المقاومة الفلسطينية لاجهاض حركتها جزء من المخطط الصهيوني الاستعماري الواسع الذي يستهدف حماية الاحتلال الاسرائيلي للارض العربية وتأمينه ودعمه وتكريسه ضد الانتفاضة الكبرى التي يتأهب لها الشعب العربي على أمتداد الوطن العربي كله** » .

وجدير بالذكر أن **ياسر عرفات** ـ رئيس منظمة تحرير فلسطين قد شهد توقيع الدستور والاعلان « تعبيرا عن قومية المعركة وتأكيدا لدور المقاومة الفلسطينية فيها .

ثم يستطرد « **اعلان دمشق** » فيؤكد على ان تحرير الارض العربية المحتلة « هو الهدف الذي ينبغي أن تسخر في سبيله كل الامكانيات والطاقات » . على اساس أنه « لا صلح ولا تفاوض مع العدو الصهيوني ولا تنازل عن أي شبر من الارض العربية المحتلة وأنه لا تفريط في القضية الفلسطينية ولا مساومة عليها » .

وينص دستور الاتحاد بأن يكون لدولة الاتحاد علم واحد وشعار واحد ونشيد واحد وعاصمة واحدة ، وأن يتولى الاتحاد وضع أسس السياسة الخارجية « ومسائل السلم والحرب وتصدر فيها قرارات مجلس الرئاسة بالاجماع » ، والتنسيق بين الجمهوريات الاعضاء في مجال التمثيل الدبلوماسي والقنصلي مع الدول الاجنبية . ويتكون **مجلس رئاسة الاتحاد** من رؤساء جمهوريات الدول الاعضاء ويقوم بانتخاب رئيس له من بين اعضائه لمدة سنتين قابلة للتجديد ، ويعين مجلس رئاسة الاتحاد عددا من الوزراء يتكون منهم **مجلس وزارى** يعقد اجتماعات دورية وطارئة للنظر في الشئون التنفيذية للاتحاد . ويكون للاتحاد **برلمان** يشكل من ٢٠ عضوا عن كل بلد . كما يقضي الدستور بأنه اذا وقعت اضطرابات من الداخل أو الخارج في احدى الجمهوريات تخطر حكومة هذه الجمهورية السلطات الاتحادية فورا لكي تقوم الاخيرة باتخاذ الاجراءات الضرورية لحفظ النظام والامن . وفي حالة ما اذا كانت حكومة أحدى الجمهوريات الاعضاء في وضع لا يسمح لها بطلب العون فللسلطات الاتحادية المختصة أن تتدخل وبدون طلب لحفظ النظام واعادة الامور الى نصابها .

وقد شكل الرؤساء الثلاثة « لجنة المتابعة لتنفيذ دستور دولة الاتحاد » من : **حسين الشافعي** نائب رئيس جمهورية مصر العربية **ومحمود الايوبي** نائبرئيسالجمهورية السورية والرائد **عبدالسلام جلود** عضو مجلس الثورة في جمهورية ليبيا .

ومن الجدير بالذكر أن الرؤساء الثلاثة كانوا قد وقعوا في أبريل الماضي « اعلان اتحادالجمهوريات العربية » في بنغازي بليبيا .

■ ■ ■

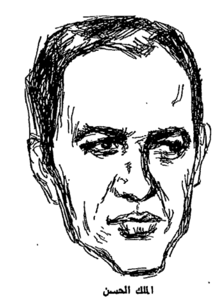
تقرير خاص

المغرب غني .. والمغربي فقير

باعلان الوزارة المغربية الجديدة ، يؤكد **الملك الحسن** اصراره على المضي في الطريق الذي اختطه لنفسه منذ أن جاء الى الحكم ، طريق الحكم الفردي وحماية مصالح كبار ملاك الارض والبرجوازية الكبيرة .

فلقد توقع كثيرون من أصدقاء الملك ، أن يعدل جزئيا عن سياسته ، بأن يتعاون مثلا مع ممثلي الطبقات الوسطى من السياسيين ، لتهدئة النفوس على أثر حمام الدم الذي افلت منه بالحظ وحده . ولكن الملك لم يكن عند ظن أصدقائه،واكد مرةاخرى ايمانه **بأوفقير** وبالاجهزة ورغم العنف والدم الذي صاحب الاحداث الاخيرة في المغرب ، فقد كان في مقدور العاهل أن يتدارك بعضا من عوامل الانفجار والتي لن تفلح الاجهزة ، كما قالت « **لومانتيه** » في القضاء عليها . لقد كان في مقدوره مثلا أن يوهن روابط « **الكتلة الوطنية** » والتي تكونت من حزب الاستقلال ، ومن الاتحاد الوطني للقوى الشعبية فالحزب الاول ، كما يعتقد كثير من المراقبين ، استعداده دائم للتعاون مع النظام القائم ، بل ويذهب البعض الى حد القول بأنه مستعد أيضا للتنكر لشريكه في الكتلة ، بل ولانكار بعض من الميثاق المعادي للرجعية وللامبريالية والذي أعلناه معا في ٢٢ يوليو الفائت والذي يطالب بالاتي :

- تأميم القطاعات القائدة في الاقتصاد .
- التعبئة الذاتية للديمقراطية واتباع سياسة للتصنيع في هذا الاطار .
- اصلاح زراعي على أساس مبدا الارض لمن يفلحها .
- تحرير الاراضي التي مازالت تحت السيطرة الاستعمارية .



الملك الحسن

- مساعدة وتأييد شعب فلسطين ، وتكامل أراضي وشعوب المغرب العربي .

ويبدو أن الملك مازال يعتمد كثيرا على « **مكانته الدينية** » والمكانة الوطنية للملك ، ابان الثورة ضد فرنسا عندما خلع **محمد الخامس** ، وبذلك اعتبر رمزا للاستقلال والسيادة . فقد استغل الملك الحالي شعبية محمد الخامسودوره التاريخي ليثبت فكرة أن النظام الملكي مظهر من مظاهر السيادة الوطنية ، ساعده على ذلك التراجع المؤقت **للتناقضات الطبقية الداخلية** في فترة النضال التحرري وغلبة **الاهداف الوطنية** والاستقلالية . وما أن تم الحصول علىالاستقلال حتى أعلن الملك السابق تأجيل تكوين جمعية تأسيسية تضع دستورا ، واكتفى بمجلس استشاري . ومع اضطراره الى تشكيل حكومة من الجناح المعتدل من الحركة الوطنية ، برياسة **عبد الله بن ابراهيم** ، فقد كان الجناح اليميني

برئاسة **علال الفاسي** رئيس حزب الاستقلال ، والجناح اليساري في الحزب نفسه برئاسة **المهدي بن بركة** ، فان الملك سرعان ما أطاح بهذه الحكومة وتولى بنفسه رياسة الوزارة ، وتنكر لكل ما بذل من وعود باجراء اصلاح زراعي واصلاح للجهاز الحكومي واشاعة للديمقراطية . بل واصدر الملك عفوا عن ١٦٦ ممن اتهموا بالخيانة والتعاون مع الاستعمار الفرنسي ، وكون « هؤلاء » حزب الدفاع عن المؤسسات الدستورية » وكون الاقطاعيون وملاك الارض الكبار حزب « **الحركة الشعبية** » واسند لهؤلاء الممثلين للبرجوازية الكبيرة ، ووكلاء الاجنبي ، والاقطاعيين مناصب الحكم والوزارة وازاح منها ممثلي الطبقة الوسطى (من التجار والموظفين في المدن ، والملاك المتوسطين في الريف] ، وطليعتهم الممثلة في حزب الاستقلال [تكون في ١٩٤٤] ذلك الحزب ذو النزعة العربية الاسلامية الواضحة .

وقد ادت النزعة التهادنية للقيادة الى انقسام الجناح اليساري عنه ، في يناير ١٩٥٩ ، والذى تسمى **الاتحاد الوطني لحزب الاستقلال** ثم رأى أن يقطع كل صلة ولو في الاسم مع حزب الاستقلال فتسمى باسم « **الاتحاد الوطني للقوى الشعبية** » (ويضم ممثلي العمال والبرجوازية الصغيرة والمثقفين في المدن ، وقد اهمل الارتباط بمجموعة فقراء الفلاحين] .

وأطلق **محمد الخامس والحسن** من بعده الحرية كاملة لرأس المال الاجنبي ، وكان متمكنا بالفعل منذ مؤتمر الجزيرة في ١٩٠٦ الذى قرر حرية كل الدول في الاستثمار في المغرب ، وزاد الاتجاه الى الولايات المتحدة واصبح لها ٤ قواعد جوية وأخرى بحرية في القنيطرة .

[وحتى مع اعلان الجلاء عن هذه القواعد ، فقد أبرمت معاهدة سرية اضطرت الحكومة الامريكية الى الاعتراف بها اخيرا] . وتوالت القروض الامريكية ، خاصة من البنك الدولى للانشاء والتعمير ، واستحوذت امريكا وفرنسا على الجزء الاعظم من الصادرات والواردات . وبالطبع جاءت سياسة المغرب الخارجية ، انعكاسا لهذه التبعية الاقتصادية ، ومازلنا جميعا نذكر موقف المغرب في الخروج على الاجماع العربي بمقاطعة المانيا الغربية ، وفي تأييدها للعدوان الامريكي البلجيكي على الكنغو ، ومناواتها المستمرة للدول العربية المتحررة ، كافتعال حوادث الحدود مع الجزائر في ١٩٦٣

واذا كانت الاهداف الوطنية قد تغلبت في مرحلة الاستقلال ، فان الصراع الاجتماعي سرعان ما تفجر عنيفا بعد الحصول عليه واتضاح عزم السلطة على ممالاة رأس المال الخاص في الزراعة والتجارة والصناعة . فالوضع في الزراعة يسير على النحو التالي : ٣٣٪ من سكان الريف لا يملكون أرضا ، ٢٧٪ منهم يملكون أقل من هكتار ، ١٢٪ يملكون اقل من هكتارين ، ٤٪ اقل من أربعة هكتارات ، ٢٪ من ١٠ الى ٢٠ هكتارا ، وهناك ١٠٪ من الملاك يملكون ما يزيد عن ٥٠٪ من الاراضي : أما العائلة المالكة وحدها مثلا فتملك ١٢٠ الف هكتار ، والاجانب كانوا يملكون مليون هكتار [٦٠٠ الف حاليا] ورغم هذا لم تف الحكومة بوعدها باجراء اصلاح زراعي . ورغم انخفاض دخل الفرد في الريف (يبلغ من ١٢ الى ١٦ دولارا سنويا هي الدخل النقدى] ورغم ارتفاع أسعار ضروريات المعيشة كالسكر والحبوب بصورة مروعة ، ورغم الانخفاض الهائل في نسب التعليم (١٪ مثلا مقيدون في التعليم الجامعي من هم في سن الالتحاق به] ، ورغم الظروف الصحية المتدهورة والظروف السكنية المشينة ، فان الحكومة لم تتخذ اجراءات جذرية لمواجهة هذه المشاكل .

ومع أن **حزب الاستقلال** ، **والاتحاد الوطني للقوى الشعبية** ، **واتحاد العمال** ، **واتحاد الطلاب** ، **والحزب الشيوعي** ، ترفع شعارات تأميم الملكية الاجنبية ، فان الاوروبيين ما زالوا يملكون ٨٠٪ من الصناعة ، يرحلون منها سنويا ١٥٠ مليار فرنك فرنسي كأرباح ، فضلا عن سيطرتهم على التجارة الخارجية وعلى وسائل نقلها . والمخطط الخمسي الذي وضعته الحكومة من ١٩٦٠ الى ١٩٦٤ ومن بعده المخطط الثلاثي من ٦٥ الى ١٩٦٧ لم يغير من هذا شيئا ، والسبب في ذلك اعتماده على الاموال الاجنبية التي تقدم كما جاء في بيان البنك الدولى للانشاء والتعمير بمناسبة منح المغرب قرضا قيمته ١٥ مليون دولار في ١٩٦٤ « لحفز وتوسيع القطاع الخاص والسياحة » ولعدم بناء صناعة جدية . وتقتصر النصائح الاجنبية فيما يتعلق بالتصنيع ، على اقامة « مصانع البلاستيك ودقيق السمك ، وزيت الزيتون ، والمشروبات » .

ولم يحل ذلك التخطيط الراسمالي الذي اخذت به الدولة شيئا من المشاكل : فلم تتم تلك التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التى تعتبر شرطا مقدما له [بتحديد الملكيات الاقطاعية ، وتأميم القمم المسيطرة في الاقتصاد] ولم يقم قطاع قائد تملكه الدولة ولم تلعب هذه دورا يذكر في تنظيم الحياة الاقتصادية ، وبنت قصورا من الاوهام على مساعدات الاجانب ، ولم يوضع

مخطط لتوجيه القطاع الخاص ، ولا خطط لاعادة التوازن الاقليمي وضمان المشاركة الشعبية .

فبقى الفائض الاقتصادى الذى يمكن تعبئته للتصنيع مبددا فى أيدى الملاك العقاريين والوسطاء والتجار والمرابين ، وفى ايدى الشركات الاجنبية والبرجوازية . وظل ثلثا السكان جاثمين على أنفاس الارض المجهدة ، يزرعونها باستخدام الجمال والبغال وما أشبه ، ومع أن « الفائض الذى يمكن تعبئته يبلغ ٣٠٪ من الناتج . وانه يمكن تمويل التصنيع بوساطة راس المال الداخلى ، فى نطاق الاجهزة التى تضمن اعادة استثمار الارباح بشكل مستمر ، بما يؤدى الى تنمية صناعية تتوالى تواليا هندسيا » ، فقد قل الانتاج بنسبة ١٠٪ فى المخطط الاول وزاد السكان بنسبة ١٥٪ ، أى انخفض الدخل بنسبة ٢٥٪ ، وزاد العجز المالى ، واصبح الموقف المالى كما اعترف تقرير البنك الدولى « يعكس التوتر فى الاقتصاد بسبب الفشل فى زيادة الانتاج بطريقة تشبع احتياجات السكان الذين يتزايدون سريعا . ولم يزد الانتاج الا بنسبة ١ر٦٪ وهى نسبة تقل مرتين عن نسبة الزيادة فى السكان » وبالطبع فان النصيحة التى يقدمها البنك الدولى بعد هذا الاعتراف هى انه « ليس هناك حدود للاستثمار فى الزراعة والسياحة والمناجم» أما الصناعة فيصمتون عنها. والواقع أن الاستثمارات توزع بالفعل حسب نصائح البنك الدولى : ٢٦٪ للزراعة ، ٢٧٪ للسياحة ، ١٢٪ للنقل ، ٤٪ خدمات اجتماعية . ولقد تجمد الانتاج فى المغرب من ١٩٦٠ ، وارتفعت الاسعار بنسب هائلة [السكر بنسبة ١٠٠٪] وزاد العجز المالى وطبع الاوراق المالية ومن ثم التضخم ، ووصلت نسبة التشغيل فى الريف الى ٨٠ يوما فحسب ، أما التشغيل الكامل فلا يشمل سوى ٣٣٪ من اليد العاملة .. ان البطالة تبلغ حوالى ١٥٪ فى المدن ، ٥٠٪ فى الريف ..

وفى أحد اعداد مجلة **المغرب** ، يفخر الكاتب بأن « الغابة فى المغرب مظهران اقتصادى واجتماعى . الاقتصادى هى أنها توفر سلع التصدير . والاجتماعى يتمثل فى أنها تأوى جموعا هائلة من الحطابين والرعاة والفحامين وغيرهم من العملة » . والواقع أن هذا القول يلخص بجلاء الوضع فى المغرب . فالسمة الاولى هى أنه بلد مصدر لكثير من ثرواته ، فى صورة خام ، تلك الثروات التى تجعله فى المركز الاول بالنسبة لبعض السلع . والسمة الثانية هى وجود تلك الجموع من البؤساء . اذ يعيش ٩ر٥ مليون من سكان البوادى على ٢٠٪ من الدخل ، و ٣ر٥ مليون فى المدن [العمال ، وصغار التجار والموظفين والحرفيين] على ٢٥٪ من الدخل ، فى حين تستولى بضعة ألوف من الاثرياء على ٥٥٪ من الدخل . ان الحرية كاملة كما يقول على يعته ، سكرتير الحزب الشيوعى المغربى « للاحتكارات الاجنبية وللاقطاعيين فى استغلال الثروات البشرية والطبيعية كما يشاءون » .

ان ظاهرة « المجاعة » ظاهرة أصيلة فى المجتمع المغربى وكثيرة هى الارقام التى تبين انخفاض نصيب الغالبية العظمى من السكان عن الحد الادنى الضرورى لاستمرار الحياة . ويرتبط أيضا بظاهرة المجاعة ظاهرة نقص فرص العمل . ولما كان الشباب يكون ما يزيد عن ٧٠٪ من سكان المغرب ، والحكومة لا تتخذ اجراءات جدية لاستيعابهم فى المدارس واعدادهم للحياة العملية وتوفير فرص العمل لهم ، فقد تعددت ثوراتهم واضطراباتهم . وتولى الشباب والطلاب من خلال التنظيمات السياسية والفئوية ، رفع شعارات التغيير والاشتراكية .

وينادى اتحاد الطلاب ، رغم عمليات اعتقال وسجن ونفى قادته ، بالاشتراكية واصلاح التعليم والتعريب .

ويرفع الاتحادالمغربى للشغل[٦٠٠ الف عضو] شعارات الاشتراكية . وقد تكون هذا الاتحاد فى ١٩٥٥ ، وكان قادته من أعضاء الاتحاد العام للعمال الفرنسى ، وارتبط بحزب الاستقلال . ثم انشق ٧٥٪ من أعضائه على الاتحاد القديم ، وكونوا اتحادا مرتبطا بحزب الاتحاد الوطنى للقوات الشعبية بعد انشقاقه عن حزب الاستقلال . ومع حدوث توتر فى العلاقات بين قيادة هذا الحزب الاخير وقيادة اتحاد العمال ، الا أن التعاون بينهما قائم ومتزايد .

كذلك فان المهدى بن بركة ، قائد الاتحاد الوطنى للقوى الشعبية ، كان بالفعل رسول اليسار فى المغرب ، وساعد على تبنى الحزب لمواقف اشتراكية علمية .

أما الحزب الشيوعى المغربى ، وكان فى الاصل جزءا من الحزب الفرنسى ، فيدعو للاشتراكية العلمية ، ويطالب بوحدة كل الاشتراكيين والتقدميين ، واقترح قادتهم حل تنظيمهم والانضمام « لحزب التحرير الاشتراكى» وهو « الاتحاد الوطنى للقوى الشعبية » .

حتى حزب الاستقلال رفع اخيرا شعارات التأميم والمغربة والاصلاح الزراعى والاستقلال الاقتصادى . بل والاشتراكية الاسلامية .

وفيما يتعلق بالجيش فقد كان محل اهتمام

خاص من القصر . اذ عين الحسن قائدا له حتى قبل تعيينه وليا للعهد . واعاد اليه الملك السابق ٢٤ الف ضابط وجنـدى ممن عملوا فى جيش الاحتلال [منهم اوفقير الذى حارب مع الفرنسيين ضد ثوار الهند الصينية) ، وامتص فيه ايضـا جزءا من اعضاء جيش التحرير . ومع تعيين الملك لانصاره واتباعه ، ورغبته فى تحويله الى «جيش للزينة والابهة مطعم بعناصر من اعداء الشعب» واشراف الضباط الفرنسيين ، وتحريم الاشتغال بالسياسة على الجيش ، فقد تكونت فيه طلائع وطنية وقومية ، من أبناء البرجوازية الصغيرة والمتوسطة الساخطين على الاوضاع هنـاك . كذلك فان الصراع فيه محتدم بين أنصار فرنسا وانصار أمريكا من كبار الضباط والجنرالات .

ومع عدم الاخذ بنظام الحزب الواحد ، فان السلطات التى يخولها دسـتور ١٩٦٢ ، الذى وضعه خبيران فرنسيان وليس جمعية تاسيسية وانقلب عليه الحسن وعطله ، ودستور ١٩٧٠ [صدر باجماع ٥ر٩٨٪ رغم مقاطعـة حـزب الاستقلال والاتحاد الوطنى للقوى الشـعبية] هذان الدستوران يضعان السلطات كلها فى يد الملك ويجعـلان له احتـكار العمل السـياسى والحكومى المؤثر .

واذا كان المؤرخ الانجليزى يقول ان مصـير شعوب الشرق سيشكله شبابها ، فان هـذا الوصف ينطبق بصفة خاصة على المغرب . فضيق فرص التعليم ، وقلة الوظائف ، وانكار الطابع القومى والذى اثبت انه كامن وراسخ فى الاعماق وأسلوب الحكم الذى قال الملك انه لن يغيره فى تصريح له الى الوكالة الفرنسية فى أعقاب مجزرة القصر ، كل ذلك سيدفع الشباب الى مزيد من الحركة . فكما قالت جريدة المساجيرو الايطالية « فان فصائل تنفيذ الاعدام لن تستطيع أن تدعم السلطة لزمن طويل » .

ومع ذلك فان التغيير فى المغرب لن يتم تلقائيا ، أو بمغامرة ، وانما عبر وحدة كل قوى المعارضة التقدمية ، وعلى أساس برنامج وطنى وقومى واجتماعى ، فكما اكدت لومانتيه ، فان « سرعة الانتصارات المدوية التى حققها فى بادىء الامر ، بعض الضباط المتمردين ، قد تثير الدهشـة بنفس القدر الذى تثيره السهولة التى أمـكن بها بعد ذلك احباط محاولتهم . ذلك لان الشعب المغربى كان غائبا عن هذه المحاولة التى تثبت ضعف نظام الحكم ، كما تثبت ضعف المؤسسات التى تبتعد عن الجماهير » .

■ الاردن :

محاولة جديدة لشق صفوف المقاومة

استجدت جملة اوضاع واحداث فى مجـال العمل الفلسـطينى ، لعل اهمهـا تلك المحاولة الساذجة التى قامت بها السلطة الاردنية لشـق صفوف حركة المقاومة الفلسطينية .

ففى اغسطس الماضى ، عمـدت السـلطات الاردنية الى ممارسة اسلوب جديد فى محاربتها للعمل الفدائى الفلسطينى ... فقد عرضت على المقاومة — من خلال احد قادتها الذى كان محدد الاقامة فى الاردن — التعامل مع منظمة **فتح** ، دون غيرها من المنظمـات ، كممثلة للشـعب الفلسطينى . وقد كررت الحكومة الاردنية هذا العرض على مسامع الوسيط السعودى **الشيخ عمر السقاف** ، الممثل الشخصى **للملك فيصل** .

وتأتى هـذه المحـاولة من جانب الحـكومة الاردنية ، امتدادا لمحـاولاتهـا المتكررة لتفتيت المقاومة ، والانفراد بفصائلها فصيلة تلو الاخرى والفتك بها على التوالى .. فطالما تغنت الحكومة الاردنية — قبل ذلك — بما اسمته [**المقـاومـة الشريفة**] ! وان كانت فى مذابحها لم تكن تفرق بين فدائى وآخر ، مما يدل على أنها لاتستخدم هذه الصيغة الا للوقيعة والتمويه .

وهى اليوم اذا تسعى **فتح** للتعامل معها ، فهى تهدف — بالاضافة الى شق صفوف المقاومة — الى ضرب شعبية **فتح** ، وتحريك بعض الانظمة العربية المشـبوهة والمتخاذلة للضغط على فتح لطاطاة راسها للنظام الاردنى وقبول هذا العرض !

وقـد حـدث عنـدما زار **وصفى التل** [فى ١٠ — ٨ — ١٩٧١] القوات السعودية المرابطة فى الاردن ، ان خطب **اللواء محمد بن عامر** ، قائد هذه القوات ، مرحبا برئيس الوزراء الاردنية مؤكدا « ان افراد هذه القوات عاهدوا الله ، بتوجيه من الملك فيصل ، على الوقوف الى جانب القـوات المسلحة الاردنية ، والى جانب **الفدائيين الشرفاء** [!] والى جانب الشعب الاردنى ، لاستعادة مقدساتنا واراضينا المقدسة » . ورد **التل** فأشاد بعلاقات الود والاخـوة القائمة بين **الملك حسـين والملك فيصل** ، كما اشاد بجهود القـوات السـعودية ومرابطتها على خطوط النار ، واعلن انه « واثق كل الثقة من تحقيق النصر والظفر بفضل قيادة وتوجيهات العاهلين الاردنى والسعودى » .

اما محـاولات الوسـاطة ، التى تقوم بهـا الجمهورية العربية المتحدة والسعودية ، فقد بددها النظام الاردنى ، واضاع جهود القائمين بهـا ،

وكثرت تنقلات **الدكتور حسن صبرى الخولى** [مصر] **وعمر السقاف** [السعودية] بين الرياض والقاهرة وعمان ودمشق والعقبة وبيروت ، دون جدوى . فقد عمد النظام الاردنى الى توزيع الادوار بين ممثليه ،فما يقبله **الملك حسين** يرفضه **رئيس وزرائه التل** ، فى حين يقبل التل ما يرفضه الملك . كل ذلك من أجل اضاعة الوقت . وفى الوقت الذى تقدمت فيه الجمهورية العربية المتحدة والسعودية بمقترحات للتسوية تقوم على اساس حرية الحركة للعمل الفدائى والسيادة الاردنية ، فان **وصفى التل** قد رفض هذه المقترحات ،الا أن الملك حسين ، حين عرضت عليه فى العقبة ،وافق عليها . وقد اشيع ان **ياسر عرفات** قد قبلها هو ايضا ، باعتبارها تتضمن **نفس** محتوى **اتفاقيتى** عمان والقاهرة ، الموقعتين بين المقاومة والسلطة الاردنية فى العام الماضى . وفى السادس عشر من اغسطس الماضى ، نفى متحدث باسم **الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين** — ان يكون **ياسر عرفات** قدوافق علىهذه الاقتراحات ، ودلل على ذلك بكون **اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية** — والتى يرأسها **عرفات** نفسه — لم تجتمع بعد لمناقشة هذه المقترحات .

● ومن جهة أخرى تجرى اليوم ، فى صفوف المقاومة ، حركة تقييم شاملة للموقف بعد المذابح الرهيبة التى نظمها النظام الاردنى ضد القوات الفدائية الفلسطينية فى الاغوار وشمال الاردن ، فى يوليو [تموز] الماضى . وقد اعلنت قيادة المقاومة ، فى السادس عشر من اغسطس [آب] الماضى ، عن استشهاد **وليد أحمد نمر** ، والمعروف باسمه الحركى **ابو على اياد** ، على أيدى القوات الاردنية اثناء الهجوم الذى شنته على قواعد الفدائيين الفلسطينيين فى يوليو الماضى . **وأبو على اياد** هو قائد قوات المقاومة فى منطقة عجلون ، وعضو اللجنة المركزية لفتح ، واحد ابرز قادتها العسكريين . وبعد اعلان قيادة الثورة لاستشهاده، مباشرة وفى نفس اليوم ، اعلنت الحكومة الاردنية انها قد افرجت عن **صالح رافت** [الجبهة الشعبية الديمقراطية] ومجموعة من الفدائيين . وكانت القوات الاردنية قد أسرته ضمن من أسرتهم من الفدائيين الفلسطينيين عقب **هجمة يوليو** الماضى . وكانت الحكومة الاردنية قد اغلقت وحدات **الهلال الاحمر الفلسطينى** ، بدعوى انها تساعد المقاومة!

● وفى الجزائر ، تحول مؤتمر الطلبة الفلسطينيين ، المنعقد فيما بين ٢٩ يوليو — ٨ اغسطس ، الى مظاهرة سياسية ، تندد بكل المؤامرات المشبوهة التى دبرت ضد القوى الوطنية والتقدمية فى المنطقة العربية .



الملك حسين

● وفى قطاع غزة ، نجح الاضراب العام الذى كانت قد دعت اليه المنظمات الفدائية والنقابية فى القطاع ، يوم السبت ١٤ — ٨ — ١٩٧١ ، احتجاجا على ترحيل سكان القطاع الى صحراء **سيناء والضفة الغربية** .

● وفى السادس عشر من أغسطس المنصرم، وصل الى نيويورك — عائدا من اسرائيل — **يوسف تكواه** — رئيس الوفد الاسرائيلى لدى الامم المتحدة ، وصرح لدى وصوله الى نيويورك ، بأنه يحمل **مبادرة اسرائيلية جديدة** لحل مشكلة الشرق الاوسط ، وانه « يجب على العرب أن يفهموا بأن التصريحات العلنية لن تجدى شيئا،ولابد من اجراء محادثات مباشرة » .

وقد نشرت الصحف الامريكية،فى مطلع الشهر الماضى ، خبرا مفاده ان الحكومة الاردنية قد شكلت ، من بعض الوزراء الاردنيين ، تحمل اسم [**لجنة شئون الارض المحتلة**] ، وترجح الصحف الامريكية ان تكون مهمة هذه اللجنة ، هى القيام باجراء اتصالات مباشرة ، بهدف التوصل الى تسوية منفردة مع اسرائيل .

وتجىء « مبادرة اسرائيل » هذه ، فى اعقاب الموقف الحازم لقيادة الجمهورية العربية المتحدة ، واعلانهم — اكثر من مرة — ان هذا العام هو عام حاسم . وان كان هذا الاعلان قد اقلق الخارجية الامريكية ،مما دفع متحدثها الرسمى ، **ماكلوسكى**، الى ان يعلن ، يوم ١٤ اغسطس ، انه لا يجب تحديد موعد نهائى لحل الازمة ! ! .

تقرير خاص

التقارب الصينى ـ الامريكى

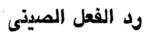
نيكسون يطرق أبواب «السور العظيم»

كان لابد ان يمر بعض الوقت على بيان الرئيس الامريكى **نيكسون** المفاجىء فى ١٤ يوليو الماضى عن زيارته القادمة للصين الشعبية ، قبل أن يصبح فى الامكان القيام بمحاولة تقييم موضوعى لهذه الخطوة ومعانيها وردود أفعالها المختلفة بالنسبة للقوى العالمية المحيطة بالصين وبأمريكا على السواء • وقبل الدخول فى التفصيلات فان الوقت القصير الذى أعقب بيان نيكسون قد شهد انخفاضا واضحا فى درجة الحماس الذى قوبلت به مجرد فكرة أن يقوم رئيس الولايات المتحدة بزيارة للصين الشعبية لاجراء محادثات مع رجل السياسة الاول فيها **شواين لاى** • وقد حدث ذلك لسببين :

● **ان الصين الشعبية ـ وكان ذلك متوقعا بدرجه كبيرة للمتابعين للشئون الصينية ـ لم تتوقف عن نقد السياسه الامبريالية الامريكية ونقد سياسه حكومة نيكسون على وجه التحديد بعد اذاعة نبأ دعوة نيكسون لزيارة بكين •**

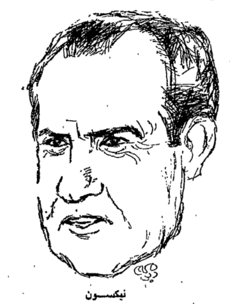
● **أن نيكسون نفسه ـ وقد خشى من احتمالات المستقبل ـ لم يضيع الوقت فبادر الى التحذير من الافراط فى التفاؤل بهذه الزيارة ، ومن الاندفاع الى توقع وفاق أمريكى صينى كامل وسريع •**

ويمكننا أن نعتبر هذين السببين بمثابه ردّ الفعل الصينى ورد الفعل الامريكى لهذا الاتفاق على قيام الرئيس الامريكى بزيارة لبكين • وهناك بطبيعة الحال موجات متلاحقة من ردود الفعل من جميع الاتجاهات (الامم المتحدة • الاتحاد السوفيتى • هانوى • فورموزا • اليابان • باقى حكومات آسيا • الشرق الاوسط • أوروبا) أسهمت كلها فى القاء الضوء على احتمالات النتائج بالسلب والايجاب •



رد الفعل الصينى

لقد جاء اتفاق زيارة نيكسون لبكين بمثابة مفجر جديد لكل المشكلات القائمة بين الصين والولايات المتحدة •• ولم يكن من المتصور أن محادثات الساعات العشرين التى أجراها هنرى **كيسنجر** مستشار الرئيس الامريكى فى بكين قد قضت على تناقضات المبادىء والسياسة والمصالح بين الشعب الصينى والولايات المتحدة • ومن هنا اخذت تتوالى من داخل الصين بيانات وتصريحات تحدد ـ قصدا فى أغلب الظن ـ موقف بكين من سياسة الولايات المتحدة ازاء المشكلات التى تضعها فى موقف الصدام المباشر مع الشعب الصينى ، وأهمها مشكلة احتلال تايوان (فورموزا) ومشكلة



نيكسون

عضوية الصين فى الامم المتحدة • والمشكلات الاخرى التى تضع الولايات المتحدة فى موقف الصدام غير المباشر مع الشعب الصينى ، وأهمها الحرب العدوانية الامريكية المستمرة ضد الشعب الفيتنامى ، ومشكلة كوريا ، ومشكلة العلاقات الخاصة بين الولايات المتحدة واليابان ودور الولايات المتحدة فى محاولات احياء العسكرية اليابانية وخطرها على الصين وشعوب المنطقة •

وبالنسبة لمشكلة تايوان وهى لا تنفصل كثيرا عن مشكلة عضوية الامم المتحدة فان الولايات المتحدة قامت بجهد دعائى ضخم للايحاء بأن زحزحة الصين الشعبية عن موقفها بالنسبة لتايوان امكانية قائمة • وذهبت هذه الدعاية الى حد الترويج لشائعات بأن هناك محادثات سرية بين بكين وتايبين ! وكان لابد من عملية تحديد موقف

جديد من جانب بكين .. ولم تتردد بكين فى القيام بهذه العملية بوضوح وبحسم . وكان أوضح بيان هو ذلك الذى أصدرته وكالة أنباء الصين الجديدة يوم ٤ أغسطس الماضى وقد قرر أن محاولة الولايات المتحدة للترويج لفكرة وجود « صينين » هى مؤامرة تهدف لمواصلة الحيلولة دون استعادة كافة الحقوق الشرعية لجمهورية الصين الشعبية فى الامم المتحدة والاصرار على معاداة الشعب الصينى .

وكانت النتيجة «التى انتهى بها البيان الصينى « أن **الحيلة السمجة التى تتلاعب بها الامبريالية الإمريكية حول وجود صينين هى حيلة غير شرعية قلبا وقالبا ولا جدوى منها . ان مقاطعة تايوان هى جزء لا يتجزأ من أراضى الصين . ويعارض الشعب الصينى بحزم وعزم ادعاءات وجود صينين أو صين واحدة وتايوان واحدة أو غيرها من الادعاءات السخيفة المماثلة ، ونحن على ثقة تامة بأن الدول والشعوب المؤيدة للعدالة فى العالم بأسره هى الاخرى لن تسمح أبدا لاى شخص بأن يواصل تحت شعار وجود صينين احتلال تايوان أرض الصين وعرقلة استعادة المقعد الشرعى لجمهورية الصين الشعبية فى الامم المتحدة »** .

وعبر **شواين لاى** بنفسه عن وجهة نظر الصين الشعبية فى المحاولة الامريكية الجديدة للاحتفاظ بتايوان داخل الامم المتحدة (وداخل اطار النفوذ والاحتلال الامريكى أيضا) وذلك فى الحديث الذى أجراه معه **جيمس ريستون** نائب رئيس تحرير « **نيويورك تايمز** » . حيث قال ان **الموقف الامريكى** فى مسألة انضمام الصين الشعبية للامم المتحدة كما عرضه **وليام روجرز** وزير الخارجية الامريكى « **لا يمثل خطوة الى الامام .. انها صيغة متناقضة وضعت تحت ضغط المحادثات التى دارت بين الحكومة اليابانية وممثل تشانج كاى تشيك فى طوكيو . ان اليابان تريد السيطرة على تايوان . وليست هذه بالمسالة البسيطة اذا أيدت اليابان تايوان فى الامم المتحدة** » . وقد أكد شواين لاى أن الصين لن تقبل الجلوس فى الامم المتحدة بأية حال من الاحوال اذا تم قبول فكرة وجود دولتين صينيتين اذا ما احتفظت تايوان بمقعد باعتبارها دولة مستقلة .

وفيما يتعلق بتحرير تايوان قال شواين لاى فى الحديث نفسه انها مسألة داخلية وتتطلب اجراء مفاوضات مع الولايات المتحدة . « وإذا كان المطلوب أن تعود تايوان الى الوطن الام فان على الولايات المتحدة أن تسحب قواتها من هناك ، والا فكيف يمكن أن تعود الى الوطن الام ... ويستوجب هذا بطلان **معاهدة الدفاع المشترك المزعومة بين الولايات المتحدة وتشانج كاى تشيك** وهى المعاهدة التى كنا نعتبرها على الدوام باطلة » .

وفى نفس الاتجاه وبنفس القدر من التأكيد كان تصريح **لى هسيين نيين** نائب رئيس وزراء الصين فى كلمة فى حفل تكريم لوفد اقتصادى من كوريا الديمقراطية « **ان اقليم تايوان جزء لا ينفصل من الارض الصينية وتحريره مسالة داخلية صينية لا تتطلب اى تدخل خارجى** » .

وقد كتب الصحفى الامريكى **جيمس ريستون** ـ الذى أتيح له خلال زيارته الطويلة للصين فى أغسطس الماضى أن يتلمس أكثر من غيره ملامح ردود الفعل الصينية ازاء زيارة نيكسون ـ « **ان مواقف الصين وتكتيكاتها تجاه الولايات المتحدة تتغير بشكل واضح ، ولكن استراتيجيتها ومبادئها تظل كما هى . هذا هو الانطباع الرئيسى لى هناك (فى بكين)** » . وقال ان الدبلوماسيين الغربيين فى بكين يعتقدون ان شواين لاى قد أبلغ كيسنجر خلال اجتماعهما فى يوليو بأن اتفاقا من حيث المبدأ لابد أن يتم التوصل اليه أولا بين واشنطن وبكين قبل أن يصبح فى الامكان تسوية المسائل المحددة .. وهذه المسائل المبدئية كما تراها الصين هى :

● لا توجد « صينين » وانما حكومة صينية واحدة على الارض الصينية الاساسية وتايوان ، وهذه الحكومة هى القائمة فى بكين .

● أن كل المنازعات بين الصين والولايات المتحده ربما فى ذلك النزاع على تايوان ـ لابد أن تسوى عن طريق المفاوضات السلمية دون تهديد بالقوة أو استخدام لها .

● أن على واشنطن بالتالى أن توافق على سحب قواتها المسلحة من تايوان ومن مضايق تايوان ، أما عن وقت وكيفية اتمام هذا الانسحاب فهذه مسائل تسوى بمفاوضات لاحقة .

ويقول ريستون أن الدبلوماسيين الغربيين فى بكين يعتقدون أن كيسنجر قد أبلغ شواين لاى بان نيكسون يوافق على هذه المبادىء ولولا ذلك لما وجه رئيس الوزراء الصينى الدعوة للرئيس الامريكى لزيارة الصين ، خاصة وأن الشعور القوى السائد ـ داخل اعلى القيادات فى الجيش الصينى أنه ينبغى عدم الدخول فى مفاوضات مع واشنطن طالما بقيت القوات الامريكية فى تايوان .

وهنا نجد أنفسنا أمام موقف صينى معلن بوضوح فى بيانات رسمية وتصريحات للمسئولين فيما يتعلق بمشكلة تايوان ، وموقف أمريكى غير معلن ازاء هذه المشكلة ، وانما تقارير ترد على لسان مراسل أمريكى نقلا عن « مصادر دبلوماسية غربية » . ولعل هذا ما يجعل المراقبين يشعرون أن

مشكلة تايوان لا تزال هى العقبة الرئيسية أمام تحقيق علاقات طبيعية واعتراف متبادل بين الصين وأمريكا ٠

رد الفعل الامريكي

لا يمكن الحديث عن رد فعل أمريكي متجانس ازاء محاولة الوفاق بين أمريكا والصين ، لانه بازاء هذه القضية لا توجد أمريكا واحدة ٠ فان الفترة التالية لاعلان بيان نيكسون عن زيارته القادمة لبكين سادت موجة حماس فى بعض الدوائر الامريكية ، وموجة غضب فى دوائر أخرى ٠٠ بينما لا تزال بعض الدوائر فى حالة ذهول المفاجأة عاجزة عن تقدير الموقف ٠ ولعل **العنصر الوحيد المشترك فى ردود الفعل الامريكية كلها هو ربط هذه الخطوة من نيكسون بمحاولاته ليس فقط لكسب انتخابات الرئاسة القادمة بل لاكتساح خصومه فى هذه الانتخابات تماما باعتبار أن الرأى العام الامريكي يسوده ـ نتيجة لزاد دعائي يومي يزود به ـ اعتقاد بأن مشكلة السلام فى الشرق الاقصى كله تتوقف على التقارب مع الصين ٠**

وبطبيعة الحال فان العناصر الليبرالية فى الحزبين الجمهورى والديمقراطى كانت اكثر العناصر الامريكية ترحيبا بقيام الرئيس الامريكى بزيارة للصين ٠ فى هذا الاتجاه كانت تصريحات السناتور وليام فولبرايت رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ والسناتور جورج ماكجوفرن المرشح لخوض معركة الرئاسةالقادمة عن الحزب الديمقراطى والسناتور الديمقراطى مايك مانسفيلد ٠ والظاهرة الغريبة فى رد الفعل بين زعماء الكونجرس **أن الحماس للتقارب مع الصين كان على أشده بين الديمقراطيين الذين اعتبروا فى التقديرات الداخلية للنتائج المحتملة لزيارة نيكسون الجانب الخاسر انتخابيا نتيجة لها ٠** على حين أن أشد العناصر معارضة للرحلة **العناصر اليمينية المحافظة داخل الحزب الجمهورى الذى ينتمى اليه نيكسون ٠** واتخذ عدد من أصدقاء نيكسون القدامى فى هذا الحزب موقف النقد العنيف لقراره بزيارة بكين ، وأتخذت مجموعة المحافظين الجمهوريين (١٥ من زعماء الكونجرس) قرارا بعدم تأييد نيكسون فى انتخابات الرئاسة القادمة ٠

وقد اهتم نيكسون نفسه فى أكثر من مناسبة بأن يحذر من توقع نتائج باهرة لرحلته القادمة لبكين ٠ وقد قال انه يتطلع الى تحقيق « **بعض التقدم فى تسوية الخلافات مع الصين » ولكنه لا يعتقد أنه سيحدث « وفاق فورى » نتيجة لمحادثاته مع الزعماء الصينيين ٠** وعلى وجه التحديد فان نيكسون قد رفض حتى الان أن يعطى شيئا من ملامح تصوره للاثار المحتملة لمحادثاته فى بكين علىمشكلة فيتنام٠وقال فىمؤتمرصحفىسريعغقده فى ٤ اغسطس ـ ان كل ما يستطيع أن يقوله عن محادثاته فى بكين انها ستتناول مناقشة واسعة النطاق للمسائل التى تهم البلدين ٠٠ وانه يعتقد ان الانجاز الهام لهذه المحادثات هو « **فتح باب الاتصالات** » بين امريكا والصين ٠

وقد وصف موقف المحافظين داخل الحزب الجمهورى من زيارة نيكسون للصين بأنه «**تمرد يمينى**» وهو اصطلاح من الغريب أن يستخدم على هذا النحو داخل الاوساط السياسية والحزبية فى الولايات المتحدة ٠ وقد بلغ هذا « **التحرر اليمينى** » ذروته فى موقف مجلة « **ناشيونال ريفيو** » التى تعبر اصلا عن جناح مؤيدى نيكسون فى الحزب الجمهورى ، وهو نفس الجناح الذى يسيطر عليه عداء أعمى للشيوعية ويبث فى كل ما ينشر ـ وخاصة فى هذه المجلة ـ أفكارا بشعة عن المجتمع الصينى وقيادتهالسياسية والعسكرية،مثل قول وليام باكلى رئيس تحرير « ناشيونال ريفيو » ان ماوتسى تونج قد نجح فى اقامة مجتمع المضللين تضليلا كاملا لانه قتل كل المعارضين ! وقد **حاولت هذه المجموعة من غلاة الرجعيين الامريكيين الذين يعد نيكسون نفسه واحدا من كبار زعمائها (بصرف النظر عن قراره الفجائى بمحاولة اقامة علاقات طيبة مع الصين) أن تصور أن أساس معارضتها للتقارب مع الصين هو أساس اخلاقى ، وان امريكا زعيمة العالم الحر لا ينبغى أن تضع يدها فى يد ماوتسى تونج ٠** ولهذا وجد من بينهم من يصف الالتقاء مع الصين بأنه حدث لا نظير له منذ توقيع معاهدة عدم الاعتداء بين حكومة ستالين السوفيتية وحكومة هتلر فى المانيا قبيل الحرب العالمية الثانية ، الا أنالحقيقةالتى تتضح وراء بيانات هذه المجموعة اليمينيةالمتطرفة تكشف احساسهم **بأن رحلة نيكسون تشكل هزيمة مباشرة لهم ولكل الولايات التى روجوا لها طوال السنوات الماضية ،** وهو ما عبر عنه بيان مجلة « **ناشيونال ريفيو** » **فى قوله أن محاولة الانفتاح على الصين تجرى فى غياب أية تنازلات علنية من جانب الصين « الحمراء » للقضايا الامريكية أو الغربية ٠**

على أنه كان بين المعارضين والمؤيدين على السواء شعور بضرورة التحذير من التضحية بالعلاقاتالتى أقامتها الولايات المتحدة على طول السنوات العديدة الماضية مع الاتحاد السوفيتى لحساب المحاولة الجديدة لكسب ود الصين الشعبية ٠ وكان هذا اعلى الاجراس التى دقت تحذيرا من آثار الزيارة المحتملة ٠ ولهذا طرح عدد

كبير من رجال الكونجرس اقتراحا بقيام نيكسون بزيارة لموسكو قبل أو بعد زيارته للصين . وقد استبعد نيكسون نفسه فكرة قيامه بزيارة لموسكو قبل ذهابه الى بكين ، وقال أن مثل هذه الزيارة تتطلب اعدادا كبيرا ولابد أن يكون هناك شيء جوهرى يمكن مناقشته مع الزعماء السوفيت . ولكنه فى الوقت نفسه حرص فى تصريحات متوالية له على أن يؤكد حرص حكومته على العلاقات مع الاتحاد السوفيتى .

على أنه لا يمكن اغفال الجناح الضخم من رجال الحزبين الامريكيين الرئيسيين الذين رحبوا بهذه الزيارة ، وفى أذهانهم انها يمكن أن تؤدى الى فتح أبواب ٧٥٠ مليون مستهلك صينى أمام الاقتصاد الامريكى فتحل مشاكله واختناقاته ، ويقضى على التضخم المالى ويعالج العجز فى ميزان المدفوعات الامريكى (أكثر من ٣٠ ألف مليون دولار) ، وتنتهى أزمة الدولار فى أسواق العالم . والواقع أن الاقتصاديين الامريكيين كانوا أسبق كثيرا من نيكسون فى التفكير فى ضرورة اقامة علاقات طيبة مع الصين الشعبية حتى تفتح أسواقها للولايات المتحدة .

ولكن ما ان بدأ يتضح أن هذا الامل الذى لمع فجأة مع اعلان نبأ الزيارة لا يزال بعيد الاحتمال حتى بدأ يتغلب على رجال الاعمال الامريكيين اتجاههم الطبيعى المعادى للمجتمعات الاشتراكية ولهذا أصدروا فى ١٠ أغسطس بيانا أذاعه جورج مينى رئيس اتحاد العمال ، وأصحاب الاعمال (وهو من أشد المنظمات الامريكية رجعية) هاجم فيه سياسة التقارب مع الصين ، ووصف زيارة نيكسون المزمعة بأنها عمل « حقير وغير أخلاقى » وقال ان على حكومة نيكسون الا تغير موقفها من منع الصين الشعبية من الحصول على عضوية الامم المتحدة .

رد الفعل السوفيتى

لم يكن العالم كله أكثر اهتماما بواحد من ردود الفعل ازاء محاولة الالتقاء الامريكى الصينى منه برد الفعل السوفيتى . ولهذا وجدت فيه الدوائر الاستعمارية فى الغرب ـ وفى الولايات المتحدة بوجه خاص برغم ترديد نغمة الحرص على العلاقات الامريكية السوفيتية ـ مجالا خصبا للدعاية المعادية للمعسكر الاشتراكى كله بهدف تعميق الخلاف بين الاتحاد السوفيتى والصين الشعبية ، وبهدف الايحاء بوجود انشقاقات متعددة الجوانب متفرعة عن الخلاف السوفيتى الصينى .
ولم تتناول الاجهزة الغربية موقف الاتحاد السوفيتى من زيارة نيكسون المزمعة للصين بأى قدر من الموضوعية وانما حاولت بطبيعة الحال أن تحفر وراء كل عبارة فى بيان أو مقال أو تصريح بحثا عن أداة لزيادة حدة الخلاف بين بكين وموسكو .

والحقيقة أن ردود الفعل المباشرة الاتية من موسكو ـ والتى تتمثل بصفة خاصة فى تعليقات صحيفة الحزب الشيوعى السوفيتى « برافدا » ـ انما تضع موقف الاتحاد السوفيتى بايجاز ووضوح فى اطار هذه القضية « ان الاتحاد السوفيتى يهمه فوق كل شيء ألا يؤدى التقارب الصينى الامريكى الى أى اضرار بمصالح الغير ـ سواء كان هذا الغير الاتحاد السوفيتى نفسه أو الدول الاشتراكية الاخرى أو حركة التحرر الوطنى فى العالم التى تناضل ضد الامبريالية الامريكية » .

على أن هذا الاطار نفسه لا يخفى ولا يلغى قلق الاتحاد السوفيتى والدول الاشتراكية الاخرى من أغراض وعواقب هذا التقارب على قضايا الاشتراكية والسلام والتحرر فى العالم ، على أساس أنه ليس من المتصور أن تتخلى الولايات المتحدة برئاسة واحد من أكثر زعمائها عداء للشيوعية ولقضية السلام عن أهدافها بين يوم وليلة ، وعلى أساس أن سعى الولايات المتحدة بنفسها الى تحقيق هذا الالتقاء لابد وأن تكون وراءه أغراض تحققها هى قبل أية قوة أخرى .

ويمكننا ان نجد رد الفعل السوفيتى فى أوضح صورة واكثرها تعبيرا عن وجهة النظر الرسمية فى مصدرين هامين : أولهما بيان اجتماع القمة الذى عقده فى القرم زعماء دول أوروبا الشرقية الذين كانوا يقضون أجازاتهم فى الاتحاد السوفيتى (باستثناء رومانيا) يوم ٢ أغسطس وثانيهما التعليق الذى نشرته جريدة « برافدا » السوفيتية لجورجى ارباتوف مدير « معهد مشكلات الولايات المتحدة التابع لاكاديمية العلوم السوفيتية » يوم ١٠ أغسطس .

اجتماع القرم : لقد كان مجرد عقد مؤتمر القمة السريع لدول حلف وارسو فى القرم ـ لمدة يوم واحد ـ مؤشرا دالا بذاته على الجدية التى تأخذ بها هذه الدول وفى مقدمتها الاتحاد السوفيتى التحول الفجائى من جانب الصين الشعبية والولايات المتحدة لتحقيق وفاق بينهما ، رغم أن هذا الاجتماع يرتبط فى الاساس بما اتفق عليه رؤساء حكومات هذه الدول فى اطار مجلس العون الاقتصادى المتبادل (الكوميكون) من برنامج لتحقيق التكامل الاقتصادى بين دول المجلس . وقد لاحظ المراقبون أن البيان ـ وان لم يذكر اسم الصين على وجه التحديد ـ قد ركز تركيزا خاصا على ضرورة الالتزام بالخط الذى رسمه مؤتمر الاحزاب الشيوعية والعمالية فى موسكو عام ١٩٦٩ كأساس لا يتزعزع لسياسة الاحزاب

الماركسية اللينينية الشقيقة ». وقد أكد البيان « أن الخبرة تؤكد الاهمية التاريخية للمؤتمر بالنسبة لزيادة قوة وحدة الحركة الشيوعية العالمية وحركة الطبقة العاملة على أساس الصراع الماركسي اللينيني ضد الانتهازية اليمينية واليسارية ، ولتجميع كل القوى التقدمية وقوى التحرر الوطني في النضال ضد الامبريالية » .

وقد أعطى هذا الجزء من البيان ايحاء للمراقبين الغربيين – لم يترددوا في استغلاله بطبيعة الحال – بأن اجتماع القرم لدول حلف وارسو انما ناقش التطورات الاخيرة في العلاقات بين الولايات المتحدة والصين الشعبية ، للاتفاق على موقف موحد بينها ، ووجد المراقبون الغربيون في غياب الزعيم الشيوعي الروماني نيكولاي شاوسيسكو عن هذا الاجتماع مادة خصبة للدعاية على أساس ما تردد طوال الفترة الماضية من أن رومانيا قد لعبت دورا رئيسيا في التقارب الامريكي الصيني وخاصة اثناء زيارة شاوسيسكو الاخيرة للصين .

تعليق برافدا : قال ان الرأي العام العالمي يريد أن يعرف كيف ستؤثر التغيرات التي بدأت في العلاقات بين الولايات المتحدة وجمهورية الصين الشعبية على الموقف الدولي . « ان حقيقة كون الاعداء الالداء للاتحاد السوفيتي في الدول الاخرى – بما فيهم ممثلو الثورة المضادة المهاجرون من البلاد الاشتراكية والصهيونيون المتطرفون – يؤيدون تقارب الولايات المتحدة الى الصين حقيقة ينبغي ألا تغيب عن النظر » .

وقال تعليق « برافدا » أيضا ان اعتقاد البورجوازية والبورجوازية الصغيرة في أمريكا أن الصين في الواقع لم تعد « ثورية » و « شيوعية » الى هذا الحد المتطرف قد أثار الامل في أن تتمكن الولايات المتحدة بمساعدة بكين من انهاء الحرب في فيتنام بالشروط التي تناسب البورجوازية الامريكية تماما . كما قال التعليق « ان اختيار هذه اللحظة بالذات لتوجيه الدعوة (الى نيكسون لزيارة الصين) لا يمكن أن يثير دهشة الكثيرين سواء في الولايات المتحدة أو في الخارج ، كخطوة تلحق الضرر الواضح بنضال الوطنيين الفيتناميين » .

وأضاف تعليق « برافدا » أيضا عنصر تأثير الزيارة على حملة انتخابات الرئاسة الامريكية القادمة .

وأبرز ما يعكسه هذا التعليق لمدير معهد المشكلات الامريكية بأكاديمية العلوم السوفيتية هو

تعاليق

حول لقاء الرئيس السادات مع قيادات النقابات العمالية

في لقاء الرئيس انور السادات مع القيادات النقابية العمالية الجديدة في الشهر الماضي اثار الرئيس مجموعة من المبادىء والقواعد الهامة للعمل النقابي .

من هذه المبادىء والقواعد ان تقوم النقابات « بتطهير الصفوف بصفة مستمرة من الانتهازيين والمنحرفين » على أن تقوم النقابات نفسها بذلك الدور الهام دون التجاء الى السلطة « وأن يكون » الاسلوب الديمقراطي العلني الواضح والمفتوح في مواجهة جميع مشاكلنا » .

وتعليقا على ذلك نؤكد على امور ثلاثة ، اولا ، ان الدعوة الى تطهير الصفوف انما تجيء بعد خبرة سبع سنوات عجاف في حياة التنظيم النقابي المصري حيث تمكنت العناصر الانتهازية والمنحرفة من السيطرة على التنظيم ولم تلق حتى هذه اللحظة جزاءها . وقد ارتكبت عناصر منها افعالا تعاقب عليها القوانين السائدة ، ويتطلب ذلك ضرورة وضع الاسس والقواعد اللائحية التي تسمح للجماهير بفرض سلطتها باستمرار على التنظيم النقابي ، فاللوائح الحالية للنقابات والتي وضعت وفق لائحة نموذجية صاغها قرار وزاري لوزير العمل هي لوائح تتناقض تماما مع كل مبادىء الديمقراطية النقابية ، ان هذه اللوائح يجب أن تعدل وأن تتضمن نصا صريحا يبيح لاغلبية معينة من العاملين أن تطلب سحب الثقة من أي قائد نقابي منحه العاملون ثقتهم ثم ولى وأدبر عنهم وانتهز الفرصة ليرضي تطلعاته ولينحرف .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان حركة الجماهير للمتابعة والمراقبة والمشاركة يجب وأن تكون حركة منظمة وأن تتحقق من خلال قنوات تنظيمية حتى لا يكون الامر فوضى ، وحتى لا يسمح لاتجاهات شللية أو عصبية أن تعبث بالانضباط الديمقراطي للعمال .. ولذلك يجب أن توضع الاسس التنظيمية التي تسمح بالاجتماعات الموسعة لمجالس ادارات المستويات المختلفة للتنظيم النقابي ، وأن يؤخذ بمبدأ عقد الجلسات المفتوحة التي يحضرها مندوبون من القواعد العمالية ، وأن تكون هنالك نوافذ طبيعية يطل منها العمال على قادتهم – صحافة عمالية حقيقية وحرة – وممارسة للنقد والنقد الذاتي ، وأن تعرض ميزانية نصف سنوية على العمال وأن يوجد شكل تنظيمي يحقق وصولها لكل عضو ومناقشته لها وأن يتم بسطها بطريقة سهلة بعيدا عن تلاعب المحاسبين وأحابيلهم .

ثانيا : أن الدعوة الى ان تقوم النقابات نفسها بذلك الدور دون التجاء الى السلطة ، انما هي دعوة شاملة لاعلان استقلال التنظيم النقابي . وقضية استقلال التنظيم النقابي هي قضية جديرة بان يوليها القادة الجدد اهتمامهم الحقيقي وان يضعوا الاسس والمبادىء لتحقيقها . فالنقابات العمالية هي أوسع المنظمات الجماهيرية بحكم كونها منظمات ديمقراطية تدافع عن المصالح اليومية المباشرة للعمال ، وهي ليست تنظيمات حزبية ، ولا حكومية أو شبه حكومية ، وأي تصور يناقض هذا الفهم لايضر الحركة النقابية وحدها في الحقيقة انما يضر التنظيم السياسي نفسه لانه يحيل التحرك الديمقراطي لقادة العمل اليومي الى تحرك يشبه حركة العرائس على مسرح العرائس ، ويمتد هذا الضرر – كما امتد من قبل – الى قضية الانتاج نفسها لان بناء الاشتراكية أو التحول بمجتمعنا من الراسمالية الى الاشتراكية انما يكون نتيجة

التنبيه الى خطر احتمال التفات الولايات المتحدة ـ عن طريق التظاهر بالتقرب الى الصين ـ حول العالم الاشتراكى لضربه ولضرب النضال التحررى الوطنى فى فيتنام الذى يشــكل أكبر أزمة أمـام الامبرياليـة • وقـد أكـد المعلـق اربانوف فى الختام « أن مواقف الاتحاد السوفيتى ومواقف الاشتراكية العالمية من القوة بما يكفى لتمكينها من آن تواجه تبعة أى تحول ممكن للاحداث » •

رد الفعل الفيتنامى

منذآن اعلن نبأ زيارة نيكسون لبكين ترددت مرات عديدة العبارة القائلة بأنه من المؤكد ان مسألة الحرب الفيتنامية ستكون على رأس الموضوعات التى سيناقشها نيكسون مع زعماء الصين • وليس هناك خلاف بين المراقبين على ذلك ، حتى ان بعضهم ردد فى الايام الاولى التى أعقبت نبأ الزيارة أن نيكسون قد يسعى لزيارة هانوى ، ولكن شيئا من هذا لم يتأكد •• ولكن ميل صحافة الغرب وامريكا على وجه الخصوص لتجاهل وجود ووزن حركة التحرر الوطنى بشكل عام ومعاملتها على انها مجرد « توابع » لبعض العواصم الكبرى مثل بكين •• هذا الميل قد حكم أيضا معالجتها لرد الفعل الفيتنامى ـ سواء لدى فيتنام الديمقراطية او لدى ثوار فيتنام الجنوبية ممثلين فى حكومتهم المؤقتة ـ وحاولت الدعايات الغربية فى هذه النقطة بالذات الايهام بان الولايات المتحدة تستطيع أن تحل مشكلة فيتنام مع الصين من وراء ظهر الثوار وتحدثت عن قلق فى هانوى وعن خلاف بين فيتنام الديمقراطية وبكين ما لم تستطع أن تقدم له اى اساس موضوعى •

ولكن ردود الفعل الرسمية من جانب حكومة فيتنام الديمقراطية والحكومة الثورية المؤقتة لفيتنام الجنوبية حرصت على وجه التحديد على أن تكون بمثابة رد على هذه الحملات • وكان أول تعقيب فيتنامى على بيان نيكسون يوم ١٤ يوليو الماضى عن زيارته القادمة للصين هو تصريحات السيدة نيوين ثى بين وزيرة الخارجية فى حكومة الثوار • وقد أكدت أن وقت الاتفاقات بين الدول الكبرى لتقرير مصائر الدول الصغرى قد مضى وأن فيتنام لن تلتزم بأى اتفاق لا تكون هى طرفا فيه • وبعدها اعلن لى دوك تو ـ عضو المكتب السياسى للحزب الشيوعى فى فيتنام الديمقراطية والمستشار الخاص لوفد هانوى فى محادثات باريس ـ أن مصير فيتنام يقرره الفيتناميون وحدهم •

وثمرة الجهد الواعى الذى تبذله ملايين العاملين المنظمين فى نقاباتهم واتحاداتهم الديمقراطية . فبالجهد الواعى تكون التضحية وليس بالقرارات العلوية ولا بالشعارات التى ترددها ببغاوات .

ان العناصر التى سمحت لمراكز القوى وللسلطة أن تعبث باستقلالية الحركة النقابية فى الفترة الماضية هى عناصر دخيلة على الحركة العمالية المصرية ـ لم تعش تاريخ هذه الحركة ونضالها وتضحياتها من أجل تنظيم نقابى مستقل نابع من ارادة جماهير العمال ومتحرك بهذه الارادة ولا يستمد قوته من ارادة غيرها . وكل الافكار التى روج لها نقابيون فى الفترة الماضية لالحاق التنظيم النقابى بالتنظيم السياسى أو السلطة هى أفكار عناصر عاجزة عن القيادة ووافدة على الطبقة العاملة من صفوف البورجوازية الصغيرة والمتوسطة . وأن العلاقة بين التنظيم السياسى الطليعى والتنظيم النقابى يجب أن تكون تعبيرا عن الجهد والعمل الواعى الذى يقوم به الاشتراكيون داخل التنظيم النقابى ليتمكنوا وهم اعضاؤه من قيادته قيادة اختيارية واعية دعامتها أن تقتنع جماهير العاملين بصحة قراراتهم وشعاراتهم وخططهم السياسى .

وثالثا : انتهاج « الاسلوب الديمقراطى العلنى والواضح والمفتوح فى مواجهة جميع مشاكلنا » . وان ذلك ليتطلب تحقيق ديمقراطية واسعة داخل التنظيم النقابى فى كافة مستوياته ، ديمقراطية تستهدف اشراك أعرض الجماهير فى النشاط النقابى ، وتنفيذ خطة تثقيف وتوعية اشتراكية ، يكون محورها نشر الفكر الاشتراكى العلمى ، ان الطبقة العاملة يجب وأن تتسلح بنظرية ثورية تكون دليلها ومرشدها وهى تتحمل اعباء المرحلة الثورية التى تمر بها بلادنا مرحلة التحرير وانجاز البناء للانتقال بالبلاد الى مرحلة البنـــاء الاشتراكى . وتحقيق الديمقراطية الحقيقية للتنظيم النقابى يوجب على القيادات الحالية أن تلتزم بخطة محددة وموقوته ـ وليس بشعارات أو تصريحات صحفية أو خطب منبرية ـ فالديمقراطية عند الاشتراكية العلمية ديمقراطية ملتزمة بالمجتمع وأهدافه وطموحه ، وبالطبقات صاحبة المصلحة الرئيسية فى بناء المجتمع المتحرر من استغلال الانسان للانسان ـ ومن هنا على النقابات أن تصوغ مفهومها عن المجتمع الجديد ويجب أن تصوغه كما قال الرئيس أنور السادات فى لقائه مع قادتها « بنفسها وبارادتها » . وعليها أن تواجه كل مشكلة بالحوار السليم ، وبالديمقراطية الكاملة ، فى ظل اطار تحالف قوى الشعب العاملة .

ان العمل النقابى عمل صعب ومعقد والجماهير تحاسب عليه كل يوم ومن هنا فانه يختلف عن العمل السياسى وعن كل عمل آخر كالعمل القانونى والخيرى . وقادة العمل النقابى الجدد مواجهون باختيار صعب ، لانهم لم يصلوا الى مواقعهم القيادية تلك لانهم دعاة اصــلاحيين أو لانهم أناس خيرين يعطفون على العمال ـ انما هم وصلوا الى مواقعهم تلك بارادة العمال الذين منحوهم ثقتهم لانهم يريدون أن تتغير حياتهم لاحسن وان يتحول دورهم فى المجتمع فعلا من تعبير الميثاق النظرى عن وجودهم الطليعى فى عملية التحول الى تعبير واقعى وكائن حى يتحرك بسواعده البانية وبنظريتــه العلمية والثورية ـ الاشتراكية العلمية ـ لانجاز أهــداف التحرير والبناء . وأخيرا فليكن ولاء القادة الجدد كما قال الرئيس أنور السادات : « الولاء كل الولاء لجماهير الشعب ولتحالف قواه العاملة ، والدفاع عن حقوق هذه الجماهير وتدعيم مكاسبها » .

عبد المنعم الغزالى

وبطبيعة الحال ليس هناك ما يدعو للاعتقاد بأن هذه التصريحات من قبيل الهجوم او النقد من ثوار فيتنام ــ فى الشمال أو الجنوب ــ على الصين الشعبية وانما هى فى الاساس تأكيد لاستقلالية حركة التحرر الوطنى الفيتنامية وحقها فى تقرير مصير قضيتها بنفسها وبطريقة ثورية ٠

والامر الذى يؤكد ان التنسيق بين فيتنام الثورة والصين الشعبية قائم وقوى ان الصين نفسها لم تتردد فى أن تعلن انه لا تقارب ولا وفاق ولا اتفاق مع الولايات المتحدة دون أن تنسحب القوات الامريكية المسلحة بالكامل من جنوب شرق آسيا والهند الصينية كلها ٠ وقد أوضح شواين لاى فى حديثه مع جيمس ريستون فى بكين أن الصين الشعبية « **ستستمر فى تقديم المساعدات لفيتنام حتى النهاية ، حتى الانسحاب الكامل للقوات الامريكية ٠ ان المشكلة الملحة جدا فى الوقت الحاضر هى مشكلة فيتنام** ٠٠ ان موقفنا هو أن أول مسألة ينبغى أن تحل هى مسألة فيتنام والهند الصينية وليس مسألة تايوان او المسائل الاخرى » ٠

وقد اتخذت الصين الشعبية موقفا مطابقا لموقف فيتنام الثورة حينما أعلنت رفضها فكرة عقد مؤتمر جنيف من جديد لبحث مشكلة فيتنام ٠ وأعلنت أن الولايات المتحدة هى نفسها التى دمرت اتفاقات جنيف ، وقرر شواين لاى بوضوح أن حل مشكلات فيتنام ولاوس وكمبوديا مسألة تدخل فى اطار سيادة شعوب كل من هذه الدول الثلاث ٠

والامر المؤكد أن الولايات المتحدة تعتبر مشكلة فيتنام مشكلتها الاولى ، وهى اذا كانت تريد تحقيق نتيجة عملية معينة من وراء زيارة نيكسون فهى التوصل الى مخرج من ورطتها وهزيمتها فى الحرب الفيتنامية ٠ وبغير ذلك فانه لا تقارب مع الصين أصلا ، ولا تهدئة لمشاعر التحزن داخل المجتمع الامريكى نتيجة لمحنة حرب فيتنام ، ولا نجاح لنيكسون فى انتخابات الرئاسة القادمة ، ولا اصلاح لصورة الولايات المتحدة التى تطل على العالم بملامح بشعة منذ بداية حربها العدوانية فى فيتنام ٠ وباختصار فان مرحلة نيكسون الى الصين اما أن تأتى بالسلام الذى يطالب به الشعب الامريكى وشعوب العالم كله ، واما أن تفقد كل أهمية يمكن أن تكون القوى المختلفة فى العالم قد علقتها عليها ٠ ومن هنا يمكن القول بان نجاح نيكسون او فشله ليس بيده ولا بيد بكين ٠٠ وانما هو بيد الثورة الفيتنامية أساسا ٠

ولقد كان من أبرز التعليقات التى لقيت اهتماما داخل الصين الشعبية نفسها وفى فيتنام بوجه خاص التعليق الذى اذاعته وكالة الانباء المركزية فى كوريا الديمقراطية والذى وصف رحلة نيكسون الى الصين بأنها « **رحلة المهزوم لا رحلة المنتصر** » ٠ وهزيمة نيكسون هى بالتأكيد هزيمته فى فيتنام قبل أى شىء آخر ٠ ولعل هذا هو السبب الرئيسى وراء الانزعاج الشديد الذى يبدو على كل الحكومات الاسيوية المعتمدة على الوجود الامريكى العسكرى أو السياسى فى شرق آسيا ٠٠ سواء فى ذلك تايوان (فورموزا) او تايلاند أو الفلبين ٠ ان هذه الحكومات تشعر فعلا بأن انتقال نيكسون الى بكين فى محاولة للتقارب معها مظهر هزيمة وضعف وأنه سينتهى بخروج السند الاساسى لها فى المنطقة ٠ فهذه الحكومات تنظر الى الموقف الامريكى الجديد من الصين على أنه بمثابة تقرير مصير لها ٠

وقد امتد هذا الانزعاج الى **اليابان** التى لا تزال تعانى من عقدة وصفها بأنها « **عملاق اقتصادى وقزم عسكرى** » ٠ فحكومة اليابان تشعر أن الولايات المتحدة قد تخلت عنها واستسلمت لاهداف بكين وهى تحييد اليابان فى شرق اسيا وابعادها عن فورموزا ، وقطع الطريق عليها للسيطرة على هذه المنطقة وهى الخطة التى كانت قد شرعت منذ سنوات فى تنفيذها بتأييد من الولايات المتحدة ٠ بينما يشعر أنصار الاعتراف بالصين الشعبية داخل اليابان بأن اقدام نيكسون على التقارب مع بكين يؤكد خطأ سياسة حكومة ايزاكو ساتو اليابانية التى تقف ضد الاعتراف بالصين وهو خطأ يكبدها ــ فى نظر هؤلاء ــ الكثير من الناحية الاقتصادية لانهم يعتبرون ان الولايات المتحدة قد سبقت الى اسواق الصين وتركت حليفتها اليابان وراءها ٠

ان التكهنات والتكهنات المضادة التى اثارتها رحلة نيكسون القادمة للصين الشعبية خلال الفترة القصيرة الماضية تحمل فى طياتها تاريخا طويلا من التناقضات الحادة التى صنعتها السياسة الامريكية العسكرية والسياسية والاقتصادية فى آسيا ٠٠ واذا كان بيان نيكسون المفاجىء المقتضب عن هذه الزيارة قد آثار **اكبر طوفان من ردود الفعل والتكهنات على هذا النحو فان شيئا منها لا يمكن التحقق منه الا عندما تتم الزيارة نفسها ٠٠ وعندما تعلن نتائجها ٠٠ بل عندما تعرف نتائجها عمليا على النحو الذى ستنعكس به فى مواقف الولايات المتحدة والصين الشعبية ليس فيما يتصل بالعلاقات الثنائية بينهما ، وانما فيما يتصل بكل القضايا الهامة المثارة فى العالم فى الوقت الراهن ابتداء من مشكلة فيتنام الى مشكلة تايوان وامتدادا الى مشكلة الامم المتحدة وفاعليتها والعلاقات الدولية وقضاياها الاساسية مثل نزع السلاح وتصفية الاستعمار والعنصرية والتعايش السلم والمنافسة بين النظم الاجتماعية المختلفة** ٠

معاهدة السلام والصداقة والتعاون بين الهند والاتحاد السوفيتى

منذ اللحظة التى أعلن فيها نبأ توقيع معاهدة السلام والصداقة والتعاون بين الهند والاتحاد السوفيتى فى ٩ أغسطس الماضى **فى نيودلهى** ، اتضح اتجاهان متعارضان فى النظر الى هذه المعاهدة ، أو الى دلالة توقيعها .

الاول ينظر اليها باعتبارها ذروة عشرين عاما من العلاقات التى تزداد توثقا بين البلدين .

والثانى ينظر اليها باعتبارها عملا فجائيا يرد به الاتحاد السوفيتى والهند على تحدى التقارب الفجائى بين الولايات المتحدة والصين وتحدى التوتر الحادالذى خلقتهمشكلة باكستان الشرقية على الحدود بين الهند وباكستان .

والواقع أن الحكم على أحد الاتجاهين يتوقف على النظر ، بموضوعية الى نص المعاهدة ، والى طبيعة وتطور العلاقات الثنائية بين الهند والاتحاد السوفيتى ، والى الدور الذى يقوم به كل منهما فى النضال من أجل السلام فى جنوب آسيا .

ويلاحظ أن أول فقرة تبدأ بها معاهدة السلام والصداقة والتعاون بين الاتحاد السوفيتىوالهند تنص على : « **الاستعداد لتوسيع وتقويةعلاقات الصداقة المخلصة** » بين البلدين ، و « **زيادة انماء الصداقة والتعاون باعتبارها محققةلصالح ايجاد سلام دائم فى آسيا وجميع انحاء العالم** » ، و « **التصميم على الاسهام نحو تقوية السلام والامن العالميين وبذل جهود لاتكلتحقيق تخفيف التوتر الدولى والالغاء النهائى لبقايا الاستعمار** » ، و « **تأكيد الايمان الراسخ بمبادىء التعايش والتعاون السلميين بين الدول ذات الانظمة السياسية والاجتماعية المختلفة** » ، و « **الاقتناع بأن المشكلات الدولية فى عالم اليوم يمكن أن تحل فقط عن طريق التعاون وليس عن طريق الصراع** » .


انديرا غاندى

وتؤكد هذه المبادىء ـ التى تعكس فى الواقع الاسس العامة لسياسة الاتحاد السوفيتى وسياسة الهند الخارجية ـ حرص البلدين على تأكيد الطابع السلمى والاهداف التى ترمى المعاهدة الى تحقيقها والوسائل التى تعتبرها موصلة اليها

وقد أثيرت فى الغرب ـ وهذا أمر متوقع ومفهوم ـ مجادلات كثيرة حول بعض بنود المعاهدة ، وخاصة المادة التاسعة التى تنص على مايلى : « **ان كلا من الطرفين المتعاقدين الساميين يتعهد بالامتناع عن تقديم اى مساعدة لاى طرف ثالث يشترك فى نزاع مسلح مع الطرف الاخر . وفى حالة تعرض اى من الطرفين لهجوم أو تهديد بهجوم فان الطرفين المتعاقدين الساميين يشرعان فورا فى مشاورات متبادلة بهدف ازالة هذا التهديد واتخاذ الاجراءات الفعالة المناسبة لتامين السلام والامن لبلديهما** » .

والحقيقة أن هذه المادة قد تكون من أهم بنود المعاهدة ، ولكن الحقيقة أيضا أن كل المجادلات حولها فى الدوائر الغربية انما قامت على أساس عزلها عن باقى السياق العام للمعاهدة والمبادىء القائمة عليها . وبعد هذا فقد تضاربت الاراء الغربية فى هذه المادة من المعاهدة ، فعلى حين اعتبرها البعض بمثابة تأكيد لما يشبه تحالفا عسكريا بين الاتحاد

السوفيتي والهند ضد اى عدوان خارجي ؟ فان البعض الاخر اعتبرها بنصها على مجرد التشاور فى حالة التعرض للتهديد — بمثابة تأكيد للتأييد السياسى المتبادل بين البلدين فحسب .

ولكن الامر المؤكد أن الترحيب الحماسى الهائل الذى قوبل به توقيع هذه المعاهدة فى جميع أنحاء الهند سواء على المستوى الرسمى أو الشعبى، وبين دوائر الاحزاب السياسية التقدمية فى الهند قد أكد أن المعاهدة كانت عملا مطلوبا من الجماهير الهندية وقياداتها السياسية كعامل يحقق استقرارا وسلاما فى منطقة تغلى بالتوتر . وقد استقبلت المعاهدة على أنها « واحد من أهم أحداث السياسة الخارجية الهندية منذ الاستقلال » وقالت صحيفة « باتريوت » الهندية أنه « فى تاريخ العلاقات الخارجية للهند بعد الاستقلال لم يلق أى عمل فى مجال السياسة الخارجية مالقيته معاهدة السلام الهندية السوفيتية من موافقة اجماعية فى هذا البلد » .

كذلك فانه ينبغى النظر الى المعاهدة فى ضوء ما أكدته انديرا غاندى رئيسة وزراء الهند — بعد ساعات قليلة من توقيع المعاهدة — من أن الهند لم تغير من سياستها اللانحيازية بتوقيعها المعاهدة وأن المعاهدة انما تمد الهند بقوة حقيقية للعمل من أجل السلام فى المنطقة التى تعيش فيها .

ومن المعروف أن انعدام ثقة الهند بالولايات المتحدة ليس شيئا جديدا خاصا بالتقارب الاخير بينها وبين الصين ، وانما هو حصيلة تراكمات كثيرة على طول تاريخ العلاقات بين البلدين ، وهى تراكمات أسهمت فى وضع الهند فى معسكر القوى الناهضة الامبريالية بشكل حاسم . ولعل بداية عدم احتياج الولايات المتحدة لسياسة الهند التحررية المعادية للاستعمار ترجع الى وقت رفض الهند ربط نفسها بهذا المعسكر خلال الحرب العدوانية التى شنتها الولايات المتحدة فى كوريا فى أوائل الخمسينات تحت علم الامم المتحدة . وتأتى بعد ذلك كل مواقف الهند المناهضة للاحلاف العسكرية التى خلقها الاستعمار الامريكى حولها وخاصة حلف جنوب شرق آسيا والحلف المركزى . ثم موقف الهند المؤيد لحركة التحرير الوطنى وضد الحرب العدوانية الامريكية فى فيتنام ، والدور القيادى الذى قامت به فى ارساء قواعد جبهة عدم الانحياز والدور الكبير الذى لعبته فى هذه الجبهة ضد الامبريالية العالمية .

وفى مقابل هذا يوجد — تاريخيا — عديد من مواقف المساندة والتأييد بين الاتحاد السوفيتى والهند ، والعديد من المواقف المشتركة فى صف السلام العالمى . ابتداء من دور الدولتين فى التوصل الى اتفاقات جنيف الخاصة بالهند الصينية عام ١٩٥٤ ، ثم موقفهما ضد العدوان الثلاثى ضد مصر عام ١٩٥٦ ، وتأييد الاتحاد السوفيتى لحركة تحرير الهند لمستعمرة « جوا » البرتغالية عام ١٩٦١ ، وموقف الاتحاد السوفيتى غير المعادى للهند خلال الصدام العسكرى بينها وبين الصين عام ١٩٦٢ .

وفضلا عن كل هذا فان الاتحاد السوفيتى قد قدم للهند طوال السنوات الخمس عشرة الماضية من المساعدات الاقتصادية والفنية ما أسهم بأكبر دور خارجى فى مشروعات وبرامج التنمية فى الهند طوال هذه السنوات . وتقدر قيمة القروض التى قدمها الاتحاد السوفيتى للهند حتى عام ١٩٦٩ بنحو ١٠٢١٠ر١٠ مليون روبية .

ولقد لعب الاتحاد السوفيتى طوال السنوات العشرين الماضية دورا هاما للحفاظ على السلام فى آسيا ، وفيما يهم الهند بوجه خاص فان دوره فى توقيع « اعلان طشقند » يشكل نقطة تحول هامة فى العلاقات الهندية السوفيتية من ناحية وفى العلاقات السائدة فى المنطقة من ناحية أخرى .

وينبغى أن نضيف الى هذا أن معاهدة السلام والصداقة والتعاون بين الهند والاتحاد السوفيتى تقدم اضافة جديدة هامة للبناء الذى تكونه فى السياسة الخارجية السوفيتية مجموعة معاهدات الصداقة والتعاون الموقعة بينه وبين عدد من الدول التى تلتقى سياستها الخارجية مع أهداف السلام والتعايش السلمى وازالة بقايا الاستعمار وارساء التعاون السلمى بين الدول . وقد كانت آخر هذه المعاهدات — قبل المعاهدة مع الهند مباشرة — المعاهدة بين الاتحاد السوفيتى والجمهورية العربية المتحدة . وهذه السلسلة من المعاهدات هى الرد الحاسم والطبيعى على محاولات الامبريالية — بزعامة الولايات المتحدة — تطويق حركة التحرر الوطنى فى العالم وضرب النظم المعادية للامبريالية بأساليب اثارة الحروب العدوانية أو الانقلابات والانقلابات المضادة ، وتطويق الاتحاد السوفيتى نفسه بالقواعد العسكرية والتحالفات العدوانية باعتباره أكبر القوى التى تقف فى وجه مخططات الامبريالية الامريكية (•)

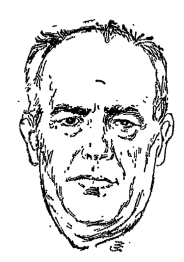
■ الاتحاد السوفيتي :

مؤتمر القرم
ومواجهة التطورات الجديدة

استعرض زعماء سبعة احزاب شيوعية وعمالية من الدول الاشتراكية فى اوروبا الشرقية ومنغوليا المشكلات الدولية الرئيسية ، وذلك فى الاجتماع الذى عقدوه فى القرم ابتداء من ٢ اغسطس الماضى ، وقد اشترك فى هذا الاجتماع **ليونيد بريجنيف** سكرتير عام الحزب الشيوعى السوفيتى ، **ونيكولاى بودجورنى** رئيس الدولة السوفيتية ، **وبيوتر شيليست** سكرتير الحزب الشيوعى فى اوكرانيا ، وقد عقدوا حسبما اوضحت وكالة تاس لقاء وديا مع **تودور جيفكوف ويانوش كادار** ، **واريك هونيكر** ، **وأومجاجين تسيدينبال وادوارد جيرك** ، **وجوستاف هوسك** زعماء الاحزاب الشيوعية والعمالية فى بلغاريا والمجر ، والمانيا الديمقراطية ، ومنغوليا الخارجية ، وبولندا ، وتشيكوسلوفاكيا على الترتيب .

وقد اتضح من بيان وكالة « تاس » أن « **نيكولاى شاوشسكو** » سكرتير عام الحزب الشيوعى الرومانى هو الزعيم الوحيد الذى لم يحضر هذا الاجتماع من بين زعماء الاحزاب الشيوعية فى الديموقراطيات الشعبية فى اوربا الشرقية،هذا اذا استثنينا بالطبع البانيا ويوغوسلافيا .

وقد أوضح المشتركون فى المؤتمر أن برنامج السلام الذى قدمه المؤتمر الرابع والعشرون للحزب الشيوعى السوفيتى تنتظره جهود اساسية حتى يمكن التوصل الى وفاق دولى حقيقى يكفل السلام والامن للشعوب . ويرى عديد من المراقبين ان المؤتمر وجه اهتماما كبيرا الى الموقف فى اوربا وان اعضاءه اعربوا عن يقينهم بان المصالح الحيوية للشعوب الاوروبية تتطلب المساعى الجادة من جانب كل الدول الاوربية من اجل تحقيق الوفاق . كما أعربوا عن أن « اجتماع مؤتمر الامن الاوروبى والتصديق على الاتفاقيتين المبرمتين بين المانيا الغربية وبين كل من الاتحاد السوفيتى وبولندا وتسوية مشكلة برلين الغربية والاعتراف ببطلان اتفاقيات **ميونيخ** والحد من الاسلحة وتخفيض عدد القوات المسلحة ، يمكن وينبغى أن يكون ركائز هامة على طريق السلام الوطيد فى اوربا » . وقد تحقق اعضاء المؤتمر من « التطابق التام فى وجهات نظرهم ازاء تأييد الكفاح العادل الذى تخوضه الشعوب العربية لاقرار السلام فى



بودجورنى

منطقة الشرق الاوسط ومن أجل تصفية آثار العدوان الاسرائيلى » .

واعرب المشتركون فى المؤتمر عن ارتياحهم لموافقة مجلس **الكوميكون** على برنامج طويل الاجل « سيسهم فى رفع مستوى معيشة العمال وفى تدعيم الوحدة السياسية والاقتصادية بين البلاد الشقيقة ، وسيقوم بدور تاريخى فى تحقيق انتصارات جديدة للاشتراكية والشيوعية تسهم فى تدعيم السلام والامن » ، واوضح اعضاء المؤتمر « ان كل تطور فى الموقف الدولى يؤكد صدق تقديرات ونتائج المؤتمر الدولى للاحزاب الشيوعية والعمالية فى عام ١٩٦٩ والذى لا يزال يشكل القاعدة الثابتة لسياسة الاحزاب الماركسية اللينينية الشقيقة » . واكدوا على « الاهمية التاريخية لهذا المؤتمر فى تدعيم وحدة الحركة الشيوعية الدولية وفى النضال ضد الانتهازية اليمينية واليسارية ومن اجل تماسك كل القوى التقدمية وقوى التحرر الوطنى فى كفاحها ضد الامبريالية » ، وقد اعرب المشتركون فى المؤتمر كذلك واوضحت وكالة تاس ان الاجتماع تم فى جو ودى للغاية وساده التفاهم والاجماع الكامل فى الاراء بصدد كافة المسائل التى تناولها البحث .

ويرى عديد من المراقبين السياسيين أن تعدد الموضوعات التى تناولها زعماء الاحزاب الشيوعية بالبحث فى المؤتمر ـ كما أوضح ذلك البيان الرسمى الذى صدر عقب المؤتمر ـ يوحى بان المؤتمر كان بالنسبة لهؤلاء الزعماء فرصة لاستعراض شامل للموقف . ويبدو بالنسبة لعدد من المراقبين ان المسالة الصينية وخاصة بعد

الاعلان عن زيارة نيكسون القادمة للصين ، كانت احدى النقاط الرئيسية التى نوقشت خلال المؤتمر ، رغم أنه لم ترد اشارة لهذه المسألة فى البيان الرسمى .

ويميل عدد كبير من المراقبين الى الاعتقاد بأن الارتياح الذى أعرب عنه البيان بالنسبة للدورة الاخيرة للكوميكون فى بوخارست (رومانيا) والمقال الافتتاحى الذى نشرته صحيفة برافدا فى ٣ ــ ٨ الماضى حول نفس الموضوع ، يشيران الى ان عدم حضور **نيكولاى شاوشيسكو** السكرتير العام للحزب الشيوعى الرومانى لمؤتمر القرم لا يرجع الى وجود خلاف حول مشكلة التكامل الاقتصادى بين دول حلف وارسو ، وانما يرجع فى الاغلب الى الموقف الخاص الذى تتخذه رومانيا ــ بالنسبة للعلاقات بين دول اوربا الشرقية والصين الشعبية .

والذى يؤكد فى نظر عديد من المراقبين اهتمام مؤتمر القرم بالمشكلات الايديولوجية والسياسية الناشئة عن العلاقات مع بكين ، هو وجود أربعة خبراء سوفيت رئيسيين فى شئون وحدة الحركة الشيوعية العالمية هم : **كونستانتين كاتوشيف** سكرتير اللجنة المركزية المسئول عن العلاقات مع الاحزاب الحاكمة ، **وبوريس بونوماريف** المسئول عن العلاقات مع الاحزاب الاخرى ، **وكونستانتين روساكوف** المسئول عن الدعاية ، **وجورج تسوكانوف** وسبق أن اشترك جميع هؤلاء الاربعة ، وخاصة المسئولين الأخيرين فى جميع المناقشات الهامة حول العلاقات بين بكين وبوخارست .

■ ■

■ **بلغاريا :**

أول انفصال عن المحرفين وأول انتفاضة ضد الفاشية

احتفل الحزب الشيوعى البلغارى فى ٢ أغسطس الماضى بمرور ثمانين عاما على تأسيسه . وكان ذلك الاحتفال فرصة لكل قوى التقدم والثورة فى العالم لاستعراض تاريخ عمل وكفاح هذا الحزب من اجل الديموقراطية والاشتراكية وتاريخ كفاحه ضد الفاشية ، ومن أجل السلام فى البلقان والعالم .

ففى ٢ أغسطس عام ١٨٩١ اجتمعت فى جبال « **ستارا بلانينا** » العناصر الاشتراكية الرائدة فى بلغاريا ووضعت أسس الحزب الماركسى الثورى للطبقة العاملة البلغارية ، ويعود الفضل التاريخى فى تأسيس الحزب الاشتراكى الديموقراطى البلغارى الى **ديميتر بلاجوييف** الذى وضع مع الماركسيين الثوريين البلغار ، أسس هذا الحزب بعد تحليل ظروف البلاد الاقتصادية والسياسية البالغة التخلف . وقد خاض الحزب البلغارى كفاحا متصلا من أجل المحافظة على سياسة الحزب الطبقية المعبرة عن مصالح الطبقة العاملة والشعب . وتحت قيادته عام ١٩٠٤ تكون الاتحاد العام **للنقابات العمالية** الذى تولى قيادته **جيورجى ديميتروف** الذى أصبح قائدا للحزب كله فيما بعد .

وقد حقق الحزب نجاحات انتخابية متواصلة منذ تأسيسه ، وبشكل خاص منذ نهاية القرن التاسع عشر اذ كان الحزب يرسل ممثليه الى البرلمان البورجوازى ، وفى عامى ١٩١٠و١٩١٢ تكونت أول الكوميونات فى بلغاريا وكافحت ببطولة ضد السياسة التوسعية وضد الشوفينية والقومية البورجوازية والاسر المالكة فى البلقان ، وتبنت الطريق الديموقراطى لحل المشاكل القومية والاجتماعية ، ورفعت شعار السلم وشعار الجمهورية البلقانية الاتحادية .

وعندما اندلعت الحرب العالمية الاولى ، وقف الحزب الاشتراكى الديموقراطى البلغارى ضد الحرب ، ورفع شعار السلم بين الشعوب ، والثورة البروليتارية وأدان بحزم الاتجاهات الاشتراكية الشوفينية التى عبر عنها قادة الاممية الثانية ، وانضم الى الاممية الثورية التى كان على راسها البولشفيك بقيادة **ف . ا . لينين** ، وكافح من أجل انشاء اساس أممى ثورى جديد .

وعندما قامت ثورة اكتوبر فى روسيا سنة ١٩١٧ ، نشر الحزب أفكارها وبياناتها فى بلغاريا ، وتولى تأجيج وقيادة حركة التذمر الجماهيرى من استمرار حرب الاستنزاف المعادية للشعب حينذاك ، ووجه العمال الى المثال الذى ضربه اخوتهم فى روسيا . وكان تأثير الحزب فى مؤخرة الجيش ضخما . وكانت « **الصحيفة العمالية** » وهى صحيفة الحزب تتسرب الى كل حامية ومعسكر للجيش .

وبتأثير ثورة اكتوبر التى اوضحت بجلاء امكانية الاطاحة بالطبقات البورجوازية الخائنة ، وبتأثير شعارات الحزب الثورية ، شبت فى عام ١٩١٨ انتفاضة الجنود التى اعلنت قيام « **جمهورية بلغاريا** » ، ولكن سرعان ما أخمدت الانتفاضة . . وفى عام ١٩١٩ انعقد المؤتمر الثانى والعشرون للحزب الاشتراكى الديموقراطى العمالى البلغارى وغير اسم الحزب فأصبح « **الحزب الشيوعى**

البلغارى » ، واصبح ذلك المؤتمر ؟ هو المؤتمر الأول له . وأعرب **ديميترى بلاجوييف** رائد الاشتراكية فى بلغاريا فى المؤتمر ، عن تصميم وعزم الشيوعيين البلغار على الكفاح من أجل انتصار الثورة الاشتراكية فى بلغاريا .

وفى يونيو عام ١٩٢٣ وقع فى بلغاريا « **انقلاب فاشى** » ، واسقطت الحكومة الشرعية للحزب الفلاحى ، « **اتحاد الفلاحين البلغار الشعبى** » بقيادة **الكساندر ستابولسكى** واصبحت البلاد على شفا الحرب الاهلية . وتحت قيادة الحزب الشيوعى البلغارى هب الشعب الكادح فى انتفاضة مسلحة منظمة لاسقاط الديكتاتورية الفاشية ، واقامة حكومة عمالية ـ فلاحية • وكانت انتفاضة سبتمبر عام ١٩٢٣ **أول انتفاضة منظمة معادية للفاشية فى العالم** • وفى غمرة الكفاح الضارى رفرفت أعلام الحزب والاشتراكية على عديد من مدن بلغاريا وقراها .

وكان كفاح الحزب بعد هزيمة الانتفاضة شاقا وعسيرا ، فقد عمل لما يزيد عن عشرين عاما بشكل سرى . وتوالت الانتصارات والنكسات ، واستشهد عشرات من الشيوعيين البارزين والشبيبة ، وزج فى السجون الفاشية بمئات من أعداء الفاشية ، وأعضاء الحزب . وفى هذه الفترة لعبت مقررات المؤتمر السابع للأممية الشيوعية الذى عقد فى موسكو ١٩٣٥ دورا حاسما فى دفع الحزب فى الطريق اللينينى ، واصبح التقرير الذى القاه السكرتير العام للحزب « **جيورجى ديميتروف** » حول « **الجبهة الشعبية المتحدة** » سلاحا فكريا جبارا للحزب لتجميع كل القوى المعادية للفاشية فى الكفاح من أجل اسقاط الديكتاتورية الفاشية . فتشكلت لجان الجبهة الوطنية وتم الاتفاق بين عديد من القوى والأحزاب الديموقراطية وتحققت وحدة العمل فى صفوف الشبيبة المعادية للفاشية والقوى النقابية .

الا أن القيصر « **بوريس** » والحكومة الفاشية أعلنا فى مارس ١٩٤١ رسميا **انضمام بلغاريا الى المعسكر الفاشستى** • وفى يونيو ١٩٤١ وبعد يومين من هجوم ألمانيا الهتلرية على الاتحاد السوفيتى ، اصدر المكتب السياسى للحزب الشيوعى البلغارى نداء يدعو الشعب الى الكفاح المسلح ضد الغزاة الهتلريين وعملائهم البلغار ، ولاسقاط الديكتاتورية الفاشية واقامة السلطة الشعبية الديموقراطية . وبدأ الشعب المقاومة المسلحة وتشكلت فصائل الانصار والمجموعات المقاتلة فى المدن والقرى وكونت شبكة كبيرة من الاعوان قاموا بنشاط فعال فى صفوف الجيش القيصرى • وتنجح الحزب فى ١٩٤٢ فى توحيد القوى المعادية للفاشية فى جبهة وطنية ضمت ممثلى الحزب ، واتحاد الفلاحين ، والحزب الاشتراكى الديموقراطى ، وحزب « الحلقة » السياسى وشخصيات سياسية مستقلة . وسادت البلاد اوضاعا ثورية مباشرة ، فى نفس الوقت الذى كان يحقق فيه الجيش السوفيتى انتصاراته على الغزاة الهتلريين وفى ٢٦ أغسطس ١٩٤٤ اصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى البلغارى منشورها الشهير الذى أعلن أن ساعة الصفر المصيرية قد حلت فى بلغاريا . وأعلن عن بدء الاستعداد المباشر للانتفاضة المسلحة لاقامة السلطة الشعبية الديموقراطية .

وتغيرت الأوضاع فى بلغاريا بسرعة وفى ٥ سبتمبر عام ١٩٤٤ ، **أعلن الاتحاد السوفيتى الحرب على الحكومة الملكية الفاشستية**• وادرك الشعب ان اللحظة الحاسمة قد حلت . وقامت فى العديد من المواقع ، الأضرابات والمظاهرات، وتحول الانصار الى الهجوم المباشر . وتحت ضغط الجماهير اطلق سراح المسجونين السياسيين ، وتحقق النصر فى الوقت الذى عبر فيه الجيش السوفيتى الحدود البلغارية فى ٨ سبتمبر . **وفى ٩ سبتمبر انتقلت السلطة الى ايدى الشعب** واقيمت حكومة الجبهة الوطنية .

وفى فترة وجيزة ازيلت الملكية الراسمالية الكبيرة فى المدينة والريف . وأصبح العمال هم سادة المعامل والمصانع ، وبدأ الفلاحون بالانضمام الى التعاونيات وزراعة الأرض بشكل جماعى .

ومن الأحداث البالغة الأهمية فى حياة الحزب البلغارى والشعب ، الاجتماع الكامل للجنة المركزية للحزب عام ١٩٥٦ . الذى حلل النتائج المستخلصة والتجربة المكتسبة ، وادان الأخطاء المرتكبة بسبب الروح الفردية فى أساليب القيادة ، ووجه نشاط الحزب بما يتفق مع القوانين الموضوعية للتطور مع الحفاظ التام على المبادىء اللينينية فى حياته الداخلية .

وفى الحقيقة فلقد فتح التاسع من سبتمبر سنة ١٩٤٤ السبيل لبناء الاشتراكية فى البلاد وتحقق النصر بفضل التحالف بين الطبقة العاملة والفلاحين الكادحين تحت قيادة الحزب الشيوعى البلغارى ، وبالمعونة المباشرة من الاتحاد السوفيتى . وتجسد ذلك فى الانجازات الاقتصادية التى حققتها التجربة البلغارية والتى يتمثل بعضها فى أنه منذ عام ١٩٥٨ كانت ٩٢٪

من الاراضي الزراعية قد اتحدت في مزارع تعاونية ، في حين ازداد الانتاج الاجتماعي في ١٩٧١ بمقدار عشرة أضعاف عن انتاج سنة١٩٣٩ .. كما ازداد الدخل القومي بمقدار خمسة أضعاف عن ذلك العام ايضا ».

■ ■

انقاذ « الدولار المريض » .. بدماء الآخرين

فاجأ الرئيس الامريكي نيكسون العالم بالقرارات والاجراءات التى أعلنها يوم ١٦ اغسطس الماضي في محاولة منه لانقاذ الدولار • وقد كان اعلان تلك القرارات والاجراءات محل اهتمام بالغ وأسع النطاق في مختلف انحاء العالم ، ليس فقط للوزن الكبير الذى للاقتصاد الامريكي في الاقتصاد العالمي ولكن أيضا لان الدولار يعد القاعدة النقدية الرئيسية للنظام النقدي الدولي حيث يمثل الدولار نسبة هامة في احتياطيات عدد كبير من دول العالم ، كما يستخدم على نطاق واسع بين مختلف تلك الدول في تسوية المعاملات التي تنشأ بينها •

وبعض تلك الاجراءات التى أعلنها الرئيس نيكسون اجراءات خارجية والبعض الاخر اجراءات داخلية ، وأهم الاجراءات الخارجية تتمثل في وقف تحويل الدولار مؤقتا الى ذهب لصالح الهيئات الاجنبية ، والبدء في مشاورات اولية لتغيير معدل التحويل بين الدولار والعملات الاخرى دون المساس بسعر الدولار بالنسبة للذهب وهو ٣٥ دولارا لاوقية الذهب ، وخفض جميع المساعدات الاقتصادية الخارجية الامريكية بنسبة ١٠ في المائة ، واخيرا فرض رسوم جمركية اضافية مؤقتة بنسبة ١٠ في المائة على جميع الواردات الخاضعة للتقدير الضريبي ، وأهم الاجراءات الداخلية تتمثل في تجميد جميع الاجور والاسعار والايجارات تجميدا تاما لمدة ٩٠ يوما يتم بعدها تثبيت الاسعار والاجور لفترة من الوقت قبل العودة الى الاوضاع الطبيعية ، خفض نفقات الحكومة الاتحادية في ميزانية السنة الحالية بما قيمته ٤٧٠٠ مليون دولار،ويترتب علىهذا الاجراء فصل ٥ في المائة من موظفي الحكومة وتجميد علاوات الموظفين ، وتقرير خصم ضريبي مقداره ١٠ في المائة على الاستثمارات فيمجال الصناعة اعتبارا من ١٥ أغسطس ، ولمدة عامكامل،والغاء الضريبة على شراء السيارات البالغة نسبتها ٧ في المائة اعتبارا من ١٥ اغسطس •

ولقد احدثت تلك الاجراءات ردود فعل عنيفة سواء في داخل الولايات المتحدة أو في مختلف العواصم في الخارج • ففي داخل الولايات المتحدة وصفت بعض الصحف الامريكية الاجراءات الجديدة بأنها تخفيض فعلي لقيمة الدولار بالرغم من تصريح وزير الخزانة الامريكي بأن الدولار لم يخفض قيمته ، كما تحدت نقابات عمال صناعة السيارات وعمال الشحن البحري في الولايات المتحدة قرار نيكسون بتجميد الاجور لمدة ٩٠ يوما ، كذلك اعلن حاكم احدى الولايات الامريكية تحديه لقرار نيكسون الخاص بتجميد الاجور والعلاوات ، كذلك حذر رجال الاعمال الامريكيين من عاقبة تلك الاجراءات واعلنوا ان الولايات المتحدة ستواجه أخطر تضخم في تاريخها عند انتهاء فترة تجميد الاجور التى حددت بتسعين يوما •

وبالنسبة لردود الافعال خارج الولايات المتحدة فانه على اثر اعلان تلك القرارات أغلقت أسواق الاوراق المالية،وأوقفالتعامل بالعملاتالاجنبية في أسواق سويسرا وايطاليا والدانمرك والسويد والنرويج وبلجيكا وهولندا وبريطانيا ، وارتفعت في الوقت نفسه أسعار الذهب في الاسواق المختلفة واستمر انخفاض سعر الدولار وواجه السياح الامريكيون صعوبات كبيرة في استبدال دولاراتهم بالعملات الاخرى •

ولقد شنت فرنسا هجوما شديدا على اجراءات نيكسون واتهمت الولايات المتحدة بانتهاك الاتفاقات الدولية التى تحكم النظام النقدي العالمي وقواعد صندوق النقد الدولي • وطالبت فرنسا — فيالاجتماع الطارىء الذىعقده وزراء مالية دول السوق الاوروبية المشتركة وبريطانيا يوم ١٩ اغسطس لبحث وسائل ايجاد حل « اوروبي » للازمة النقدية التى أثارتها اجراءات نيكسون — بايجاد سوق مزدوجة للدولار في اوروبا • بحيث يكون هناك سعر ثابت للدولار بالنسبة للمعاملات التجارية وسعر عائم آخر •

وطالبت المانيا الغربية في الاجتماع المشار اليه بتعويم جميع العملات الاوروبية في سوق واحدة حرة وأن يترك لقانون العرض والطلب تحديد أسعار تحويل هذه العملات بالنسبة للدولار • اما بريطانيا فاعلنت عن رغبتها في الاحتفاظ بنظام ثابت للتحويل ، وعلى أن يتم رفع سعر الين الياباني والمارك الالماني كنوع من المساومة لاقناع نيكسون بالتخلي عن الضريبة الجديدة التى فرضها على الواردات بنسبة ١٠ في المائة •

ويبدو أن وزراء المالية لدول السوق المشتركة وبريطانيا فشلوا في التوصل الى اتفاق حول موقف مشترك لمواجهة الازمة فقد أصدر وزراء

المالية بيانا اعلنوا فيه أنهم قرروا أن يتركوا الحرية لكل دولة لاتخاذ ما تراه مناسبا من الاجراءات ٠

وفى برقية بعث بها مدير صندوق النقد الدولى الى جميع محافظى الصندوق ذكر فيها ان القرار الامريكى بوقف قابلية الدولار للتحويل الى ذهب وفرض ١٠ فى المائة رسوما اضافية على واردات الولايات المتحدة سيخلق اضطرابا تجاريا عالميا وسيدمر النظام النقدى العالمى ٠ وقد دعا مدير الصندوق الى عقد اجتماع عاجل لجميع دول الصندوق لاقامة نظام نقدى دولى أفضل ومواجهة المشاكل التى تخلقها الاجراءات التى أعلنها نيكسون ٠

واضح ان الاجراءات التى اعلنها نيكسون **تهدف الى مواجهة مشكلتى التضخم وعجز ميزان المدفوعات الامريكى مع محاولة تجنب تخفيض سعر الدولار رسميا الى المستوى الذى يعكس قيمته الفعلية** ، وبعد أن فشلت مساعى الولايات المتحدة لاقناع بعض حليفاتها وخاصة المانيا الغربية رفع قيمة عملاتها رسميا بالنسبة للدولار ٠

وليس فقط اضطراب الاوضاع الاقتصادية الداخلية للاقتصاد الامريكى أو اضطراب الاحوال الاقتصادية العالمية وخاصة نظام النقد الدولى يعكس خطورة تلك الاجراءات ، وانما ترجع الخطورة الى عاملين : **أولهما** ، أن الحلول والاجراءات التى أعلنها نيكسون هى فى الداخل على حساب الشعب العامل الامريكى ،وفى الخارج على حساب مصالح البلاد الاخرى وخاصة أصدقاء الولايات المتحدة ٠ **وثانيهما** أنه يشك كثيرا فى جدوى فعالية تلك الاجراءات ٠

وينظر بعض المراقبين الى قرار نيكسون الاخير « لمحاولة انقاذ الدولار المريض » من زاوية انه استمرار لنهج سياسة نيكسون التى اتبعها فى آسيا من قبل تحت شعار « **فتنمة الحرب** » والتى كانت تعنى تحميل الاسيويين عبء الحرب ٠ ويعنى ذلك القرار ــ من هذه الزاوية ــ تحميل المجتمعات الرأسمالية الاخرى بالاضافة الى الطبقات الفقيرة داخل امريكا نفسها ، عبء الازمة الاقتصادية الامريكية « على صليب الدولار » ٠

ان الطبيعة العدوانية للاقتصاد الامريكى هى السبب الرئيسى فى كل ما يعانيه هذا الاقتصاد من مشاكل أصبحت الان مزمنة ، وأساسا مشكلتى التضخم وعجز ميزان المدفوعات ٠ ان استمرار السياسة العدوانية للرأسمالية الامريكية للشعوب المتمثلة فى استمرار حرب فيتنام والعدوان الامريكى على كمبوديا والمساعدات العسكرية الطائلة لعملائها كأسرائيل وكوريا الجنوبية ٠ الخ وما يصحب ذلك من نفقات عسكرية طائلة اثقلت كاهل الاقتصاد الامريكى ، كل هذا يعد السبب الرئيسى والعامل الحاسم فى تصاعد موجات الاسعار والتضخم واستمرار عجز ميزان المدفوعات ٠ ان وضع حد للطبيعة العدوانية للاقتصاد الامريكى ــ وليس الاجراءات التى أعلنها نيكسون ــ هو الاسلوب الفعال لمواجهة مشاكل التضخم وعجز ميزان المدفوعات الامريكى ٠

ان الاجراءات الداخلية التى أعلنها نيكسون وخاصة التجميد التام للأجور والعلاوات وفصل حوالى ٥ فى المائة من موظفى الحكومة ، أجراءات موجهة أساسا الى الشعب الامريكى العامل ، فالطبقة العاملة الامريكية هى دائما الضحية ، ففى فترات تصعيد العدوان الامريكى على الشعوب وما يصحبها من تصاعد موجات التضخم وأرتفاع الاسعار تتحقق الارباح الطائلة لصناعات الحرب الامريكية والصناعات الاخرى التى تغذيها فتجنى الطبقة الرأسمالية الامريكية الثروات الطائلة ولا تجنى الطبقة العاملة الامريكية الا الانخفاض المستمر فى الاجور الحقيقية حتى لو ارتفعت الاجور النقدية ٠ أى أنه سواء فى فترات التضخم أو فترات مواجهة التضخم فان الغنم كله للطبقة الرأسمالية والغرم كله للطبقة العاملة ٠

كذلك فان فرض رسوم جمركية اضافية على الواردات الامريكية هو بمثابة وضع المزيد من الوقود لاشعال نيران الحرب الاقتصادية بين الولايات المتحدة والبلاد الاخرى وخاصة حلفائها الغربيين ٠ ان هذا الاجراء من جانب نيكسون سيزيد من حدة المتناقضات الاقتصادية داخل المعسكر الرأسمالى ٠ هذا فضلا عن انه يشك كثيرا فى جدوى هذا الاجراء من حيث أثره على تخفيف حدة العجز فى ميزان المدفوعات الامريكى ، اذ ان هذا الاجراء لن يكون من جانب واحد فقط فلا شك فى أن الدول الاخرى التى ستتأثر صادراتها مثل اليابان وكندا وبعض دول اوربا الغربية ستبادر الى اتخاذ اجراءات مماثلة مما قد يؤدى الى تفاقم حدة العجز فى ميزان المدفوعات الامريكى وليس تخفيفه ٠

وخلاصة القول ان نيكسون لم يكن موفقا على الاطلاق فى اتخاذ تلك الاجراءات فهى لن تساعد الاقتصاد الامريكى على الخروج من ازماته بل من المتوقع تزايد حدة تلك الازمات ٠ هذا فضلا عن الاثار الضارة التى سوف تصيب الاقتصاد العالمى وخاصة النظام النقدى الدولى ٠ ولا نشك ابدا فى ان تلك النتائج ليست بغائبة عن أذهان المستشارين الاقتصاديين للرئيس الامريكى ، ولكنها طبيعة

التناقضات المتزايدة حدة فى النظام الرأسمالى العالمى .

■ ■

■ ثقافة

الشاب المتمرد يموت عن ٧٣ عاما

مات **هربرت ماركيوز** المفكر الالمانى الاصل والامريكى الجنسية عن ٧٣ عاما ، مات وقد خرج اسمه — رغماعنه — من الدائرة الاكاديمية الضيقة الى اوسع الدوائر انتشارا ، سواء فى الجدل الفكرى الخصب والخلاق حول كتاباته ، أو فى حركات الشباب المتمردة التى جعلت منه — وهو أعجز الفلاسفة — اكثرهم شبابا .

وقد عاش **ماركيوز** حياته الفكرية كلها بين جدران الجامعة ، سواء فى تلك المرحلة التى كان فيها ماركسيابالمعنى الملتزم [وهىالثلاثينات من هذا القرن] أو ابان بقية المراحل التى تلتها، والتى عاش فيها خلال عديد من المذاهب والاتجاهات والهموم .

ولقد كان « **ماركيوز** » أول الذين فوجئوا بالاضواء التى ركزت عليه عند أواخر الستينات فى مؤازرة حركة الشباب الغاضب ، شرقا وغربا . ذلك أنه قد بنى حياته العلمية على أساس الانزواء والعكوف على الدراسات الاكاديمية المتخصصة ، بحيث بات منبره شبه الوحيد هو « الكتاب » الفلسفى ، وجمهوره الصفين من الدرسات العليا .

وكان « **ماركيوز** » قد ولد فى ١٩ يوليو ١٨٩٨، فى برلين حيث تلقى تعليمه فى جامعتى برلين وفرايبرج . ثم هاجر الى الولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٣٤ حيث عمل بمعهد البحوث الاجتماعية بجامعة كولومبيا حتى عام ١٩٤٠ وحينئذ التحق بالعمل فى المعهد الروسى التابع لجامعتى كولومبيا وهارفارد . وبين عامى١٩٥١ و١٩٥٣ عمل أستاذا للعلوم السياسية والفلسفة بجامعة برانديز ، وانتقل فيما بعد [١٩٥٤] أستاذا متخصصا فى الفلسفة بجامعة كليف بسنتياجو وظل بها حتى عام ١٩٦٥ حيث نقل الى جامعة كاليفورنيا .

وخلال هذه الفترة الطويلة من البحث العلمى المتواصل، كان ماركيوز تدانجز مؤلفاتهالاساسية وهى « **العقل والثورة** » [١٩٤١] و « **ايروس والحضارة** » [١٩٥٤] و « **الماركسيةالسوفييتية** » (١٩٥٨) و « **الانسان ذوالبعدالواحد**» (١٩٦٥) و « **مقال عن أخلاقياتالثورة** » [١٩٦٦] وكتابه الاخير « **السلبيات** » [١٩٦٨] وقد تمت ترجمة هذه الاعمال جميعها الى العربية ، غير أن بعض المترجمين قد تصرفوا فى عناوينها ، فالكتاب الثانى أصبح عنوانه « الحب والحضارة » والكتاب الأخير ترجم بعنوان « النفى » .

لم يعمد ماركيوز الى مواجهة الحياة العامة مواجهة مباشرة ، كشأن القادة السياسيين أو بعض رجال الفكر المعنيين بالسياسة **كبرتراند راسل وجان بول سارتر وروجيه جارودى** من فلاسفة جيله وعصره .. وانما ماحدث هو أن أجيال النصف الاخير من الستينات من الطلبة والشباب عامة « اكتشفوا » فيه عقلا قريبا من عقولهم ، وقلبا حميما الى قلوبهم . اكتشفواذلك من خلال كتاباته التى كان يتوفر عليها بمعزل « مادى » عن حركة الحياة من حوله ، ولكن فى ارتباط « روحى » وثيق بما يدور بين جنبات هذه الحياة .

لم يكن « ماركيوز » فى كتاباته الاكاديمية الخالصة يوجه الخطاب الى **جماهير** بعينها ، وانما كان يقيم حوارا بينه وبين العصر الذى يعيش فيه .. ولم يكن يتصور ان يأتى ذلك اليوم الذى تصل فيه أصداء هذا الحوار الصامت الى آذان الملايين ممن لايعرفونه فىمدرجات الجامعة معرفة شخصية ، وأن يتحول هذا الحوار من الاذان الى شرايين الدم . فيصبح اسمه جمرة متقدة من الجمرات التى أشعلت فكر الشباب وتمرده خلال السنوات الأخيرة .

ولقد تعرض فكر « ماركيوز » لنقد عنيف من أغلب الاتجاهات الفكرية اليسارية واليمينيةعلى السواء . ذلك أن تصوره لتخاذل دور الطبقة العاملة فى الغرب الرأسمالى الى الدرجة التى باتت هذهالطبقة غير مؤهلة — منوجهة نظره — للقيام بالثورة .. كان هذا التصور هو السبب الرئيسىوالمباشر لهجوماليسارالماركسىعليه، ومن جهة أخرى كانت تحفظاته العديدة على وضع الحريات الفردية بالعالم الاشتراكى سببا آخر — وان لم يكن رئيسيا — لهذا الهجوم . ولكن ماركيوزا فى نفس الوقت كانضوءا كاشفا لحقيقة الحضارة الغربية المعاصرة فى أوروبا وامريكا فكانت أقوى حملاته الفكرية ضد هذه الحضارة « الاستهلاكية » من ناحية و « القمعية » من ناحية أخرى . ومنهنا تعرض أيضا لهجوم ضار من جانب اليمين الرجعى على كافة المستويات

الفكرية والسياسية فى أوروبا الغربية والولايات المتحدة . ذلك أن ماركيوز أخذ يعرى الوجه الحضارى لاوروبا وأمريكا من أقنعة « التقدم » التكنولوجى ، فلم ير الا هذا الوجه الدميم: الاحتكارات الكبرى **تخلق** للطبقات المستغلة **احتياجاتها** عن طريق أجهزة الدعاية والاعلام الراقية رقيا مذهلا ، ثم تعمل هذه الاحتكارات على **اشباع** هذه الاحتياجات التى سبق لها أن خلقتها بأيديها .. ومن ثم تصبح **الحرية** عند المواطن الاوروبى الغربى والامريكى هى اشباع هذه الحاجات المزيفة أصلا ، وبالتالى فحريته ــ عمليا ــ هى حرية موهومة وغير حقيقية ..

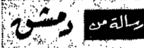
ذلك أن احتياجاته الاصيلة والحقيقية قد حجبتها عن « **وعيه** » أحدث منجزات التكنولوجيا التى تقبض على ناصيتها مجموعات الاحتكاريين المتربعة على عرش السلطة السياسية . ومن هنا كان **التقدم** العلمى فى الغرب تقدما زائفا ، لانه التقدم الذى من شأنه احكام السيطرة الشمولية ، أى الدكتاتورية . والتقدم المعادى للحرية لا يمكن ان يكون تقدما ، لان التقدم الحقيقى يفجر منبع الحرية لدى الانسان ، ولا يمكن أن يكون غير ذلك .

ويستخلص ماركيوز من هذه المصادرة المنطقية برهانا على أن المجتمع الصناعى المتقدم لم يزيف حاجات الانسان المادية فحسب ، بل زيف أيضا حاجاته الفكرية ، لان الفكر ــ كفكر ــ هو عدو لدود لمجتمع السيطرة ، فهو قوة العقل النقدية، قوة التجاوز والتخطى لما هو كائن ، « **وهذه القوة هى فى خاتمة المطاف قوة أيديولوجية** ، **والحال ان المجتمع ذا البعد الواحد قد أحاط الايديولوجيا بالازدراء والتحقير باسم عقلانيته التكنولوجية، بل امتصها وابطل مفعولها ،وهذا لايعنى بالطبع أنه لم تعد هناك ايديولوجيا :وكل ماهنالك أن المدنية التقنية اصبحت هى الايديولوجيا** » .

ويرى ماركيوز أن البديل الثورى الوحيد الذى يشكل املا ضئيلا هم أولئك الذين لاتطولهم مخالب « **التكنولوجيا ــ الايديولوجية** » هم جماعة « **المنبوذين** » من المجتمع ، هم الشباب ، وليسوا الطبقة العاملة حتما . وتلك هى نقطة الضعف الاساسية فى تفكير ماركيوز كما يراها نقاده الماركسيون، ولكنها فى نفس الوقت محور الجذب الذى يلتف حوله الشباب الجديد فى حركته المتمردة والرافضة للمجتمعات الرأسمالية .

والنقاد الماركسيون وهم يرون صحة العديد من الظواهر التى قام ماركيوز بتشخيصها فى المجتمع الامريكى خاصة ، والحضارة الغربية عامة ، فانهم يختلفون معه بشأن تشخيصه لدور الطبقة العاملة فى المجتمعات الصناعية المتقدمة .. لقد انفصلت عنها بالفعل بعض الاجزاء التى تبرجزت ، ولكن هذه الاجزاء لاتشكل الا القشرة العليا للطبقة ، وليست هى جوهر الطبقة العاملة التى لازالت مصالحها فى تناقض رئيسى مع انظمة الاحتكارات الرأسمالية ، قد يخفت التناقض حينا وقد يحتد أحيانا ، ولكن التناقض لم يذب والوعى به يزداد . وأما حركات الشباب ، فرغم المناخ الثورى الذى تسهم فى صنعه الا انها فى أحسن الاحوال ليست أكثر من تمردات كمية غير قادرة على صنع التغير الكيفى المنشود .

■ ■ ■



سوريا .. وقضية الوحدة الوطنية

فى وسط الضباب الذى يخيم على العالم العربى ، وفى معمعة هذا التفكك بين القوى الوطنية العربية ، ومحاولة تصفيتها ، تجرى تجربة أخرى ، تحاول أن تعكس بارقة أمل مضيئة رغم الضباب الكثيف ، الذى يلف الحركة السياسية فى الوطن العربى كله ، **ففى سوريا** تجرى الآن **محاولة جادة** للخروج بقوى الثورة والتقدم من مأزق الشتات العربى عامة والسورى خاصة ، وذلك باجراء حوار بين القوى الوطنية والتقدمية للوصول الى صيغة موحدة **للجبهة الوطنية** .

واذا كانت سوريا ــ من بين كل الدول العربية ــ قد شهدت عبر نضالها محاولات متعددة للتآلف الوطنى واقامة جبهات وطنية ، الا أن الذى يجرى الآن فيها شىء مختلف ، لعل أظهر ملامحه **الجدية والاصرار** ، خاصة بعد مراحل الصراع السياسى العنيف التى شهدتها البلاد بعد الانفصال وحتى نوفمبر ١٩٧٠ . فمنذ هذا التاريخ رفع **الرئيس**

السورى حافظ الأسد ، بعد نجاحه فى الاستيلاء على السلطة ضد قيادة حزب البعث السابقة [قيادة صلاح جديد ـــ نور الدين الاتاسى ـــ يوسف زعين ـــ ابراهيم ماخوس] **شعار المصالحة الوطنية** بين كل القوى الوطنية ، وضرورة التحامها فى جبهة واحدة مؤهلة لقيادة البلاد ، فى معركة المصير ضد العدو الصهيونى .

ولقد ترجم هذا الشعار فى عدة خطوات لعل اهمها :

● اشراك ممثلى القوى التقدمية **الاتحاد الاشتراكى ـــ الحزب الشيوعى ـــ الوحدويين الاشتراكيين ـــ الاشتراكيين العرب** مع حزب البعث فى الحكومة القائمة برئاسة اللواء **عبد الرحمن خليفاوى** ، وفى مجلس الشعب ، بنسب متفاوتة ، وان كانت الاغلبية فى الحكومة والمجلس للبعث .

● تشكيل لجنة تحضيرية للجبهة الوطنية برئاسة السيد **محمود الايوبى** نائب رئيس الجمهورية ـــ ممثلا للبعث ، وتضم فى عضويتها قيادات القوى التقدمية الاربع الاخرى . ومهمة هذه اللجنة مناقشة صيغة قيام الجبهة ومهامها وأسس تشكيلها ... الخ ، والذى يلفت الانتباه هنا هو ايمان كل أطراف المناقشة بشيئين رئيسيين :

أولهما هو ادارة **حوار صريح** كطريق وحيد للتفاهم والالتقاء ، وأن نتائج هذا الحوار يجب ان تقتصر الان على اللجنة التحضيرية حتى تنضج المناقشة ويتحقق قدر من التفاهم ويكون الجليد قد بدأ يذوب بين هذه القوى التى طال الصراع بينها !

وثانيهما : هو **ضرورة التانى** فى اخراج الجبهة الوطنية الى الوجود حتى لا تولد ضعيفة أو تبنى على اسس هشة تنهار عند أول هزة تواجهها ... الشعار المرفوع من اطراف الحوار هو **المناقشة بنظرة متأنية بل باردة احيانا !**

ومن هذه الفكرة تخرج دائما كل الحجج من جانب قادة القوى المشتركة فى الحوار لتفسير التأخير حتى اليوم فى الخروج بنتيجة محددة واضحة ، ويخرج الرد على تساؤلات الجماهير التى تتحدث احيانا بشىء من التعجل وعدم الثقة بنتائج هذا الحوار

نماذج رائدة ..

وفى مواجهة تانى القيادات ، نلحظ ظاهرة تعمل القواعد حول اخراج الجبهة واعلان تشكيلها ، نتيجة وعيها بأنها فى مواجهة معركة الحياة أو الموت التى تخوضها سوريا والشعوب العربية وفى أزماتها وصراعاتها ضد القوى المعادية ، يصبح اللجوء الى **الجبهة الوطنية السبيل للالتحام الشعبى** . **وكصيغة للحكم الوطنى** ، هو الطريق لكسب المعركة ضد العدو ... والنماذج هنا كثيرة ، لكن يكفى الاستشهاد **بتجربتى الجزائر** فى حرب الاستقلال ، **وفيتنام** التى تخوض منذ سنوات والى الآن أشجع معركة يدخلها شعب فقير صغير ضد أكبر قوة عالمية هى الولايات المتحدة الامريكية !

ولقد ترسبت دلائل هذين النموذجين فى عقول قيادات القوى الوطنية السورية وهى تحاول الان تجربة الجبهة الوطنية ، فى ظل الصراع الحاد الدائر بين القوى القومية التقدمية العربية وبين الاستعمار والصهيونية من جهة ، وضد التخلف والرجعية المحلية من جهة أخرى .

ولقد أنبت هذا الصراع العنيف والمزدوج ايمانا لدى هذه القيادات بضرورة أن تتميز الجبهة الوطنية السورية المرتقبة بطابعين اساسيين :

● الطابع الأول : أن تكون **جبهة وطنية** ، باعتبار ان القوى المكونة لها قوى **معادية للاستعمار والصهيونية** ، ولها أهداف وطنية مشتركة تتمثل فى النضال ضد هذين العدوين ، وفى التعبئة القومية لتحرير الارض المحتلة ، تحت قيادة تجمع وطنى لقوى الشعب .

● الطابع الثانى : ان تكون **جبهة تقدمية** ، باعتبار أن قواها **معادية للاقطاع والرأسمالية الاجنبية والمحلية والقوى الرجعية** المختلفة ، وأنها تؤمن بالاشتراكية طريقا للتقدم والنمو ، وتؤمن باندماج **الثورة الوطنية** الديموقراطية مع الثورة **الاجتماعية الاشتراكية** .

ثم هى فى النهاية جبهة ترفع فى ظل هذين الطابعين شعار واحد ورئيس متفق عليه بين جميع أطرافها وهو : **الديموقراطية للجماهير ـــ الاشتراكية ـــ الوحدة العربية** . وتؤمن بأن السبيل لتحقيق ذلك هو **تعبئة القوى الاجتماعية** الاساسية فى الدولة وهى ، العمال والفلاحون والمثقفون الثوريون ، والعسكريون الثوريون ، وصغار المنتجين ، تحت قيادة الجبهة ، **فى مواجهة الأعداء الرئيسيين وهم** : الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية والاقطاع والبورجوازية الكبيرة .

واذا ما طبقت أطراف الحوار ـــ القائم الان فى دمشق والهادف الى اقامة الجبهة ـــ هذا المفهوم فى مناقشاتها النظرية وخطواتها العملية ، لتحققت لها **الرؤية** السياسية والاجتماعية الواضحة للقضية الوطنية ولقضية الثورة بمنطلقيها السياسى والاجتماعى ، **ولتوفرت لها** القدرة التحليلية السليمة التى تساعدها ـــ عند قيام الجبهة ـــ على العمل السياسى ، **والنظرة** السليمة .●

القوى الجبهوية

وطالما أن فكرة الجبهة الوطنية تأخذ كل هذا الاهتمام وهو فى الواقع اهتمام سورى وطنى واهتمام عربى قومى فان من المفيد تحليل القوى المشتركة فيها من ناحية ، والقوى الخارجة عن نطاقها من ناحية أخرى ، لتبدو الصورة متكاملة :

أولا : القوى الجبهوية : وهى كما سبق أن ذكرنا تضم البعث الحاكم — الاتحاد الاشتراكى — الحزب الشيوعى — الوحدويين الاشتراكيين — الاشتراكيين العرب .

■ واذا ما اعتبرنا أن مجموعتى **الوحدويين الاشتراكيين والاشتراكيين العرب يمثلان انسلاخين تنظيميين عن حزب البعث** ، بعد انفصال دولة الوحدة بين مصر وسوريا فى ١٩٦١ ، لوجدنا أن منطلقاتهما النظرية وأفكارهما السياسية تتفق وتلتقى مع منطلقات الحزب الأم — البعث — وبالتالى فهما الان — فى ظل جو المصالحة القائم — **يتقاربان بشدة مع البعث** ، ويكاد الاندماج معه يكون وشيكا . هما يشكلان مع البعث — كما قال لن السيد **مصطفى الحلاج** زعيم الوحدويين الاشتراكيين ووزير الاقتصاد السورى — أبناء عم .. وعائلة واحدة .

■ **البعث** (تأسس ١٩٤٦ — واستولى على السلطة فى سوريا ١٩٦٣) يخوض منذ فترة معارك سياسية فى الداخل والخارج ... واذا ما طرحنا معاركه — كجزء من حركة التحرر العربية ضد الاستعمار والصهيونية — نراه يخوض معارك مذهبية ضد البعث العراقى وضد القيادات السابقة للبعث السورى نفسه» ويذهب أحيانا فى هيكله الداخلى الى حد الخلاف بين جناحيه العسكرى والمدنى ، ثم بين قواه المحافظة وقواه الشابة .. لكنه على أى حال فهو يقع الان بين ثلاثة ضغوط أساسية :

١ — **القوى التقدمية** السورية التى تضغط عليه لينهى فكرة انفراده بالحكم ومجافاته للقوى الأخرى ، التى لها الحق بحكم منطلقها الايديولوجى والسياسى وبحكم قواعدها الجماهيرية المتزايدة ، فى المشاركة فى القيادة السياسية والتنفيذية .

٢ — **القوى المحافظة** داخل الحزب : والتى تقاوم فكرة اشراك الاخرين مع البعث فى الحكم تحت حجة أن فى تحقيق ذلك **ازاحة** عملية للحزب من السلطة واذابته فى القوى الأخرى .

٣ — **القوى الشابة** فى الحزب ، و **المطرودون** الذين استردوا عضويتهم فى البعث بعد استيلاء الفريق الأسد على السلطة فى نوفمبر ١٩٧٠ ، وهؤلاء جميعا يطالبون بضرورة **انفتاح** الحزب على القوى التقدمية الأخرى وهم القوى الضاغطة داخل تنظيم الحزب لتحقيق فكرة الجبهة الوطنية .

وبحكم النظرة التحليلية الشجاعة للشباب وبحكم التجربة المريرة التى تعرض لها المطرودون من الحزب ، فانهم يؤمنون بأن البعث منذ استيلائه على السلطة فى عام ١٩٦٣ لم يستطع تحقيق المصالحة الوطنية ولم شتات الثورة وقوى التقدم ، وتحقيق الاستقرار السياسى ، كما أنه فشل فى الحكم منفردا ، وفى استقطاب الجماهير غير المنتمية حزبيا — وهى الأغلبية الصامتة فى سوريا — والتى بدأ صوتها يعلو الأن مطالبا بضرورة الوحدة الوطنية .

لكن هنا — كما يقول أيضا **مصطفى الحلاج** — يجب مساعدة الحزب على تخطى هذه العقبة ، وتغلب مؤيدى الجبهة الوطنية على معارضيها من القوى المحافظة فى الحزب ، ويجب أيضا على القوى الداخلة فى حوار الجبهة الوطنية عدم خلق حساسية لدى البعث واقناعه بأن الجبهة ليست ازاحة له من الحكم، ولكنها تدعيم للحكم الوطنى التقدمى بالتفاف أوسع القواعد الجماهيرية حوله .

موقع الجبهة فى القيادة

■ **الاتحاد الاشتراكى العربى** : وهو مرتبط أيديولوجيا وسياسيا مع الاتحاد الاشتراكى المصرى : وفكره كما يقول زعيمه **الدكتور جمال الاتاسى** ، يهدف الى اقامة الجبهة الوطنية لتضع وحدة وطنية حقيقية منظمة تقود المعركة لدعم نظام الحكم التقدمى على أسس ديموقراطية وشعبية وتعبىء الجماهير لمعركة التحرير ، وتسند قيام اتحاد الجمهورنات العربية ، وتهدف الى تنظيم تحالف قوى الشعب العاملة كاطار للعمل السياسى دون صراع على السلطة بين القوى المشتركة فى الجبهة حاليا .

لكن الاتحاد الاشتراكى يطرح هنا سؤالا هاما : **هو أين مكان هذه الجبهة المقترحة من القيادة...** هل هى فى قمة القيادة، أم انها ستكون مجرد شكل نظرى ؟! هل سيذوب الجميع فى جبهة واحدة حقيقية ، أم سيظل البعث يقود والباقى يشارك فى التنفيذ ! ؟ وبمعنى أوضح **هل البعث جاد فعلا فى فكرة الجبهة الوطنية كخطة طويلة المدى أم انه شعار تكتيكى ؟**

ورغم كل هذه التخوفات فان الاتحاد الاشتراكى يشارك باقى القوى التقدمية والوطنية جدية المناقشة والحوار الدائر لانضاج الجبهة .

مراحل تاريخية

■ **الحزب الشيوعى** : وقد سبق له أن طرح فكرة الجبهة عند مقاومة الاحتلال الفرنسى ثم فى الستينات وخاصة بعد مشاركته للبعث فى الحكم منذ عام ١٩٦٦ .. ولقد قدم الحزب — ورقة عمل للجنة

التحضيرية للجبهة ، تتضمن أفكاره حول انشاء هذه الجبهة . وهى كما يوضحها السيد **يوسف فيصل سكرتير اللجنة المركزية للحـــزب ووزير الدولة** : أن سوريا تمر بمرحـــلة تاريخـــية هى مرحلة استكمال التحرر الوطنى ومتابعة السير فى طريق التقدم الاجتماعى نحو الاشـــتراكية ، ولذلك فمهام الجبهة هى تحرير الأرض المحتلة ، وتوطيد التحـــولات الاقتصـــادية والاجتماعـــية وتطويرها أو بناء نظام حكم قائم على الديموقراطية الشعبية وبناء القاعدة المـــادية للاشـــتراكية ، وتحقيق خطوات وحدوية مع البـــلاد العربيـــة التقـــدمية ، واحباط مـــؤامرات الاســـتعمار والصهيونية ، وتوطيد الصداقة مـــع المعسكر الاشتراكى ».

والحزب الشيوعى يطرح فكره على أساس أن تقوم الجبهة على أساس **بناء التنظيم المهنى النقابى والتنظيم السياسى**، وتعبئة قوى الجماهير الكادحة داخلهما ، والجبهة التى يدعو لها « هى ذات الطابع الوطنى التقدمى التى تتعـــاون فى اطارها الأحزاب التقدمية وتتوجـــه للجماهـــير **ببرنامج مشترك وبخطط موحدة** وهى التى يمكن أن تكون القيادة السياسية المشتركة الطليعية لـــكل الشعب ».

وبرد **يوسف فيصل** هنا ... على **تســـاؤلات** طرحتها بعض القوى عن **مدى جـــدية** الحـــزب الشيوعى فى التعاون داخل اطار الجبهة ... هل هو يطرح شعار الجبهة كشعار استراتيجى أم أنه شعار مرحلى ... **هل هو جاد فعلا فى فكرة الوحدة العربية** ، أم أنه يرفعها الآن تملقا لعواطف الجماهير العربية .. يقول : أن حزبنا يؤمن بأهمية الجبهة التى يناط بها مهام تاريخية عظيمة مثل التحرر والتنمية والاندفاع فى الطريق اللارأسمالى ، وهذا يتطلب تعاون كل القـــوى التقدمية ويتطلب مراحل تاريخية طويلة المـــدى **ولذلك فان الجبهة فى نظر حزبنا شعار استراتيجى دائم** . أما عن الوحدة العربية ، فنحن نرفـــع شعارها بايمان ، ونحن نريد أن يهب من سوريا روح التعاون العربى بين كل القوى التقـــدمية ويجرى الى باقى البلاد العربية .

قـــوى خـــارج الجبهة

يبقى بعد ذلك القوى الخارجة عن الجبهـــة الوطنية وهى :

● **الجماهير غير الملتزمة وغير المنتمية حزبيا** : وهى تشكل فى الواقع الأغلبية التى كانت صامتة طوال الفترة الماضية والتى ســـئمت الصراعات الحزبية والتصفيات الدموية . ودورها الآن هو الضغط لانضاج الجبهة الوطنية على أسس سليمة واعادة التفاهم بين القوى التى طال خـــلافها وتشتتها، وهذه الجماهير غير المنتمية تشكل قوى جبارة ترفض دفع البلاد مرة أخرى الى موجات الصراع الدموى الذى كرهته سوريا .

وفى رأيى فان نجاح الأحزاب والقوى التقدمية فى اقامة الجبهة ، يتوقـــف على نجاحهـــا فى استقطاب تأييد هذه الجماهير غـــير المرتبطـــة بالأحزاب .

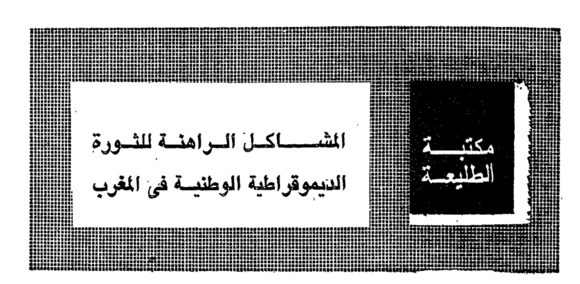
● **البورجوازية المتوسطة** : وهى تشكل فى الحقيقة عصب الحياة السورية ، حيث تسيطر على التجارة التى تلعب الدور الأساسى فى الحياة السورية . وقد خلا الجو لهذه الطبقة النـــامية بعد نجاح دولة الوحدة ثم حكم البعث فى حزب بقايا الاقطاع والبورجوازية الكبيرة .

ولقد اســـتفادت البورجـــوازية المتوسطـــة استفادة كبيرة من **القرارات الاقتصـــادية** التى أصدرها الحكم الحالى ، نظرا لأن هذه القرارات **ساعدت على فتـــح أســـواق التعـــامل الخـــارجى** وسهلت حركة التبادل التجارى ، ومن ثم وجدت البورجوازية الصغيرة فى هذه التسهيلات فرصة تحاول من خلالها النمو مرة أخـــرى ، واخـــراج رؤوس أموالها المخبأة أو المهربة لاستغلالها فى السوق التجـــارية وفى المشروعات المتوســـطة والصغيرة والتى تدر ربحا أكثر هذه الأيام .

● **القوى اليمينيـــة والرجعـــية** : ولعل أبرز تنظيمات هذه القوى غير المعلنة هى : **تنظيمات الاخوان المسلمين وحزب التحرير الاسلامى**. ومن الخطأ أن نتصور اندثار هذين التنظيمين تماما من الحياة السياسية ، حقيقـــة ليس لهما نشـــاط واضح ومعلن ، لكن بعضا من جذورهما مازال قائما بشكل أو بآخر ، يحاول باستمرار الاطلال برأسه وانتهاز الفرصة لضرب حركة التقـــدم الاجتماعى .

ولا شك أن هذين التنظيمين سيحاولان استغلال البورجوازية المتوسطة وحركة الرواج التى تمر بها ، للقفز الى الحياة العامة ومحاولة السيطرة مرة أخرى .. وهنا يكمن **التحدى الحقيقى** الذى تواجهه القوى التقدمية الخمس فى سوريا ... تحدى الحياة أو الموت ، وسط ضباب الصراعات غير المفهومة فى بعض أجزاء الوطن العربى ، وفى ظل عدوان القوى الامبريالية والصهيونية ، وتربص القوى الرجعية ومخلفات المـــاضى .. التى ستنتهز كل فرصة لضرب الحركة التقـــدمية الوطنية للجماهير اذا ما وجدت الى ذلك سبيلا .

صلاح الدين حافظ



■ تاليف :

علي ياطا

سكرتير حزب التحرر والاشتراكية المغربى

■ عرض :

ممدوح عبد الرحمن

فى كتاب « **المشاكل الراهنة للثورة الديمقراطية الوطنية فى المغرب** » يكشف على ياطا سكرتير حزب التحرر والاشتراكية المغربى عن السبب الذى من أجله عرف المغرب خمسة عشر سنة من الركود الاقتصادى والاجتماعى والسياسى بعد نضال ناجح ضد الاستعمار من أجل التحرر الوطنى .

وطوال صفحات كتابه ، حرص **على ياطا** على ضرورة وضع مفاهيم لظروف وعوامل هذا الركود الذى يعانى منه المغرب حتى تستطيع القوى الوطنية فى المغرب ان تحدد المرحلة التالية من النضال .

ويرى على ياطا ان الحركة الوطنية فى المغرب والطبقة العاملة المغربية قد نمتا فى الفترة من عام ١٩٤٥ الى عام ١٩٥٣ حينولد مطلب جماهير المغرب فى التحرر الوطنى .

وكان رد فرنسا على ذلك تقوية ودعم سيطرتها على المغرب والهبوط به الى حد جعله فى وضع استعمارى تام . وحظر الاستعمار الفرنسى نشاط كل من الحزب الشيوعى وحزب الاستقلال ، كما نفى الملك **محمد الخامس** . وقد

احدث ذلك رد فعل شديد من جانب القوى الوطنية المغربية لم يستطع الفرنسيون صده ، خاصة وانهم كانوا مشغولين بحرب عدوانية فى الجزائر فاضطروا الى منح المغرب استقلاله عام ١٩٥٦ .

وفى فترة الاستقلال انشقت الجماعات الثورية على حزب الاستقلال الذى كانت تتزعمه البورجوازية وكونت تلك الجماعات الثورية الاتحاد الوطنى للقوى الشعبية . وقد نتج عن هذه الانتفاضة الشعبية محاولة قصيرة الامد من اجل محاولة اقامة حكومة شعبية . وكان هناك رد فعل مرة اخرى تمثل فى اعادة حظر نشاط الحزب الشيوعى ومحاولة فرض دستور غير وطنى . وقد اجاب الشعب على ذلك بحركات شعبية شبيهة بالتمرد عام ١٩٦٥ مما دعا بالحكومة الى اعلان حالة الطوارىء .

وقد اتسم الموقف فى المغرب فى هذه الفترة بوجود عدة عوامل مؤثرة فى الحياة السياسية فقد قويت العناصر الاقطاعية وانتشر السخط فى الريف — حيث كان الاصلاح الزراعى ومايزال مطلبا رئيسيا — كما انتشر السخط ايضا بين اهل المدن . ومن ناحية اخرى عانت القوى التقدمية فى المغرب من نكسات شديدة. وبالرغم من ذلك كله فقد وجدت فى المغرب ظروف ساعدت على قيام تغير كيفى يساير النضال العالمى ضد الامبريالية والاستعمار الجديد .

وتنشأ المشكلات الخاصة التى تواجه المغرب — فى نظر على ياطا — من الشكل الاقطاعى للدولة ومن آثار السيطرة الاستعمارية الفرنسية. فهو يرى أن التحكم فى الاقتصاد المغربى ونموه هنا الان فى قبضة الاحتكارات الاجنبية . وان الاصلاح الزراعى والبطالة والجوع والامية ومستوى المعيشة المنخفضة كلها من المشكلات التى تبحث عن حل . ويضيف اليها أيضا مشاكل حدود المغرب وتوحيد البلاد ومشاكل الحريات المدنية والدستور .

فاقتصاد المغرب تسيطر عليه احتكارات الرأسماليين الاجانب ،وتبلغ الاموال التى يستثمرها البورجوازيون الفرنسيون حوالى الفين مليار فرنك . وقد نتج عن ذلك سلسلة من الظواهر الضارة . فالاحتكاريون الاجانب يسحبون كل عام رأسمالا يبلغ مقداره من ٨٪ الى ١٠٪ من دخل المغرب القومى . وديون المغرب الداخلية والخارجية زادت فى فترة الاستقلال الى ثلاثة اضعاف ما كانت عليه من قبل. وقد وصلت الديون الداخلية الى ثلاثة اضعاف ما كانت عليه من قبل فوصلت الى حوالى ٢٣٣ مليار فرنك . ووصلت الديون الخارجية الى ٤٢٨ مليار فرنك . كما ان هناك انخفاض دائم فى الرصيد الاجنبى الذى هبط من ١٢٦٫٨ مليار فرنك سنة ١٩٦١ الى ٦١٫١ مليار فرنك سنة ١٩٧٠ . وقد بلغت النسبة السنوية للنمو الاقتصادى ٦ر١٪ فقط بالرغم من ان الخطة السنوية الاخيرة قد تم تخطيطها بحيث يصل معدل النمو السنوى الى ١٠٪ . وقد نقصت الصادرات فى فترة ما بعد الاستقلال بمقدار ٤ر٩٪ فى الحجم و ٩ر٠٪ فى القيمة . وقد اظهرت خطة الثلاث سنوات الاخيرة عجزا فى مجال الاستثمار وصل الى ٥١ مليار فرنك كل عام . كما ان تحصيل الدولة لرأس المال يعتبر ضئيلا ، وهى بذلك تقوض كل اسس ايجاد مورد قوى للتنمية الصناعية .

ويحلل على ياطا الاقطاع الزراعى فى المغرب فيقول ان الزراعة فى المغرب تتصف ببنائها الاجتماعى الاقطاعى وهى بذلك لا تستطيع ان تحل مشكلات التخلف الفنى والمشكلات الناتجة عن الظروف الصعبة . وخلال فترة الاستقلال لم تحدث زيادة فى انتاج الغلال وهى المحصول الرئيسى فى المغرب . وفى الحقيقة فان جملة الانتاج الزراعى اخذت فى التناقص ففى عام ١٩٣٩ تم انتاج ٣٧ مليون قنطار ، وفى سنة ١٩٦٥ هبط المحصول الى ٢٧ مليون قنطار وفى سنة ١٩٦٩ انحدر المحصول الى اكثر من ذلك فوصل الى ١٥ مليونا .

وفى هذه الفترة زاد سكان المغرب بمعدل من ٣٥٠ الى ٤٠٠ الف نسمة سنويا ، مما ادى الى اعتماد متزايد على الواردات لعجز اصحاب الاراضى البورجوازيين فى المغرب وملاك الاراضى الاستعماريين الفرنسيين عن الوفاء بمتطلبات الغذاء الرئيسية للمواطنين . وقد مكن ذلك الامبرياليين الامريكيين من استغلال المغرب كمستودع يفرغون فيه الفائض من المنتجات الزراعية .

ويحلل على ياطا سياسة التعليم فى المغرب فيقول انه بعد خمسة عشر سنة من الاستقلال لا يوجد فى المدارس الابتدائية بالمغرب سوى ١٠٠ الف طفل من ٢٥٠ الف طفل بلغوا سن الدراسة . كما يوجد فى التعليم الثانوى ١٧٤ الف طالب فقط ، مع ملاحظة ان هناك انخفاضا ملموسا فى مستوى التعليم .

وعن مشكلة الاسكان فى المغرب يقول على ياطا انه بالرغم من زيادة عدد السكان فقد قل استهلاك الاسمنت . وان حالة الاسكان فى الريف سيئة كما ان المدن نفسها تشتمل على الازقة والاكواخ. والدار البيضاء نفسها بها مدينة

ذات اكواخ تحتوى على ٧٢ الف مسكن صغير تضم مايزيد على ٣٠٠ الف نسمة . ويضيف المؤلف انه بينما نجد اسرافا فى الانفاق على المساكن الفاخرة نجد الركود والفوضى يسودان التخطيط الاسكانى لجماهير الشعب .

ويعطى على ياطا ابعاد اخرى لمشاكل المغرب الاقتصادية . فنتيجة للفقر الشائع يصل عمر الفرد فى مدن المغرب الى ٤٧ سنة بينما ينخفض المتوسط فى الريف الى ٤٣ سنة !. وتعنى الازمة الاقتصادية المغربية وجود نسبة كبيرة من البطالة وندرة العمل المناسب . وهو ما ينعكس على مستويات المعيشة الاخذة فى الانخفاض الشديد . وقد اصبح المغرب مستودعا للعمل يخدم الاحتكاريين الاجانب الذين يستوردون الايدى العاملة . وفى الوقت الذى اخذت فيه الهجرة من الريف الى المدينة فى الازدياد نتيجة لسعى العمال الزراعيين الموسميين للبحث عن اعمال صناعية وقتية .

وبينما يوجد فى المغرب اعترافا بحق تكوين نقابات او اتحادات عمالية بالاضافة الى بعض الحريات المدنية . فان المغرب لا يعرف اية ديمقراطية شعبية كما يقول المؤلف. فنظام الدولة اقطاعى ودستور ١٩٦٢ مستورد من الخارج وقد فرض على الشعب فرضا عن طريق انتخابات مزيفة ، كما أن كثيرا من الصحف قد صودرت ، وانتشرت الرقابة على نطاق واسع بحيث لم يعد من الممكن عقد اجتماعات ديمقراطية حقيقية .

ويتهم على ياطا فى كتابه حكام المغرب بانهم يدعون ان لهم سياسة خارجية تقوم على عدم الانحياز وعلى تأييد الشعوب المناضلة ضد الامبريالية وعلى الاعتراف بمبدأ التعايش السلمى، فى نفس الوقت الذى يتبع هؤلاء الحكام **بون وواشنطون** ويقفون ضد الاشتراكية ويتخذون موقفا سلبيا من الشعب المناضل فى فيتنام .

وفى تقدير على ياطا ان الازمة العامة التى يمر بها المغرب كان لها اثرها على التنظيمات السياسية المغربية . ويبدو ذلك واضحا فى حالة حزب **الاستقلال والاتحاد الوطنى للقوى الشعبية** وهو الحزب الذى يضم صغار البورجوازيين التقدميين وشباب المثقفين . كما يبدو ايضا فى **اتحاد العمل المغربى** . وقد ادت الفوضى والاخطاء والانقسام والافتقار الى التنظيم الى جانب الكبت الشديد الى ضعف هذه المنظمات فى الدفاع عن نفسها حتى تكون قادرة على ان تتقدم بالثورة .

ويحلل المؤلف الظروف الدولية بعد الحرب العالمية الثانية ويربط بينها وبين ظروف المغرب .

فبعد الحرب العالمية الثانية حدث تقهقر للفاشية على المستوى العالمى . وبالرغم من الحرب الباردة ومن محاولة الاستعمار الامريكى السيطرة على العالم الامبريالى فلقد اصبح زحف القوى التقدمية هو الذى يشكل المستقبل . ومع ذلك فلا زالت هناك عدة مهام تنتظر الانجاز . فمن الضرورى تعبئة الجماهير ضد الاستعمار الجديد وهى مهمة مشتركة لكل حركات التحرر الوطنى. والعمل من اجل الثورة فى العالم الثالث يستلزم تنظيم القوى الطليعية واتصالها بالجماهير وتكوين جبهة عريضة للقوى التقدمية فى القارات الثلاث بالتعاون مع النظام الاشتراكى العالمى وحركات الطبقة العاملة . وبهذه الوسيلة وحدها يمكن للنضال الثورى من اجل السلام ان يكتسب اهميته، كما يمكن لسياسة التعايش السلمى بين الدول ذات الانظمة الاجتماعية المختلفة ان تصل الى هدفها فى تجنب قيام حرب عالمية ثالثة. ان الخلافات الايديولوجية والسياسية التى حدثت فى السنوات الاخيرة قد منعت الحركة الشيوعية من القيام بعمل حاسم. ومن أجل حل جزء من هذه المشكلة يجب ان يكون هناك مساواة واستقلال وعدم تدخل فى الشئون الداخلية لمختلف الاطراف. وفوق ذلك يجب ان يكون هناك تحديد اكثر جدية لاخطار الاستعمار وطبيعته ولمدى الحرب فى فيتنام .

وفى داخل هذا الاطار العام فان المهمة العاجلة فى المغرب ليست بناء الاشتراكية. لكنها التحقيق الكامل للثورة الديمقراطية الوطنية . وتلى ذلك مرحلة تحقيق الثورة الاشتراكية . واتمام الثورة الديمقراطية يتطلب تأميم البنوك والمناجم والتجارة الخارجية والتأمين والمشروعات الصناعية والاحتكارات الأخرى ويقول على ياطا انه يجب على المغاربة تأمين انفسهم ضد ابتزاز مواردهم ومصادر ربحهم . ويجب وضع خطة تنمية جديدة لكل من القطاعين الصناعى والريفى ، كما ان تجميع رأس المال يجب ان يكون من موارد المغرب الداخلية او من المساعدات الاجنبية غير المشروطة. وزيادة على ذلك يجب بذل الجهود من اجل انقاص الديون الداخلية وخلق سوق داخلية اكبر . ويجب ان يذهب حوالى ٢٠٪ من الدخل القومى للاستثمار . كما يجب العمل من أجل زيادة المرتبات وتحقيق العمالة الكاملة وخفض الضرائب بالنسبة للصناع المحليين .

وفى المناطق الريفية يجب مصادرة الارض واعادة توزيعها وتحديد حجم الملكيات الشخصية. كما يجب توزيع المزارع الجماعية على الفلاحين الذين يقومون بزراعتها . كما يجب تسليم الملكيات الكبيرة للجان الادارة . ويجب ايضا حماية التربة الزراعية والثروة الحيوانية وتنفيذ مشروعات الرى ومد الفلاحين بالاسمدة والقروض لتحسين

التنمية الزراعية . كما ان الادارة العلمية والمهنية للمزارع لازمة من اجل تقدم الزراعة المغربية .

ويجب تعليم كل الاطفال الذين بلغوا سن الدراسة فى اطار الثقافة والتراث الوطنيين . ويجب الغاء دراسة اللغات الاجنبية فى التعليم الابتدائى واحلال اللغة القومية محلها . واكثر من ذلك يجب ان يكون هناك تعليم فنى جديد ومنح تعليمية وتدريب سليم للمدرسين . كما يجب ان يحصل عمالنا على تدريب صناعى فنى .

كما يؤكد على ياطا على ضرورة العمل على وضع خطة للقضاء على الامراض المختلفة مثل الدرن والامراض التناسلية والرمد الحبيبى . وكذلك يجب شن هجوم على سوء التغذية ، وان يتوفر الدواء فى المناطق الريفية ، وان يعمم التأمين الاجتماعى .

وهناك ٣٠٫ نسمة فقط يعيشون فى كل كيلو متر مربع فى المغرب لذا فليست هناك حاجة الى حملة لتحديد النسل وذلك ان نظرنا بجدية لقضية تنمية الموارد ولمسالة الانتفاع بها ، وبالنسبة للاسكان يجب ازالة اكواخ المدن واقامة مساكن صحية جيدة مع تزويدها بمياه اكثر نقاء ومجار وشبكة كهرباء مع الحرص على تخفيض ايجارات هذه المساكن .

ان البطالة تزداد فى المغرب ويجب مواجهة ذلك وفى نفس الوقت تظهر الحاجة الى زيادة فى المرتبات بنسبة ٣٠٪ وكذلك الى زيادة العلاوات الاسرية والتأمين الاجتماعى ويجب ان يكون للنقابات او الاتحادات الحق الكامل فى ان تقرر احتياجات العمال فى مختلف المشروعات كما يجب اعادة استيعاب المتعطلين فى اعمال انتاجية مفيدة .

ويدعو على ياطا الى الغاء حالة الطوارئ واختيار جمعية تشريعية وطنية عن طريق انتخابات عامة ، ووضع دستور جديد ورفع الحظر عن نشاط الحزب الشيوعى ، والاعتراف بحق الاحزاب السياسية فى العمل الحر وانهاء الرقابة على الصحافة ، ويشير الى ان قانون الانتخابات الحالى يزيد من تأثير العناصر الاقطاعية ويشجع الروح القبلية كما يسهل عملية الاحتيال . وان التمثيل النسبى يمكن لحد ما ان يساهم فى حل هذه المشكلات .

ان من الواجب تعبئة الجماهير ضد الاحتلال الاسبانى للاراضى المغربية . بل ويجب ارغام الامبريالية الاسبانية على ترك الأراضى المغربية عن طريق قطع العلاقات الدبلوماسية وغيرها .

وبالنسبة للسياسة الخارجية يرى على ياطا الى نبذ فكرة التهدئة التى تشجع الاستعمار وان عليه ان يناضل ضد الامبريالية الامريكية وان يتخذ موقف الحياد الايجابى .

يقول على ياطا ان المغرب قد اعترف بعصابة حاكمه فى سايجون ولم يعترف رسميا بجمهورية فيتنام الديمقراطية ويطالب بتغيير هذه السياسة وبالاعتراف بجبهة التحرير الوطنية باعتبارها الممثل الوحيد لشعب فيتنام . كما يطالب بالتعاون مع البلاد الاشتراكية وبتوحيد المغرب العربى [ليبيا وتونس والجزائر والمغرب] وذلك على مراحل تدريجية تبدأ باقامة علاقات اقتصادية وثقافية . وان يتحمل المغرب مسئوليته كاملة كدولة افريقية فى مساعدة حركات التحرير وبخاصة فى جنوب افريقيا وفى روديسيا .

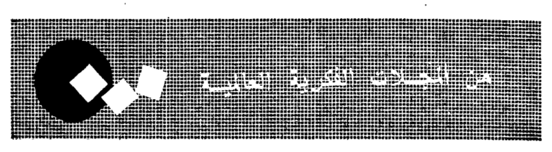
ويرى على ياطا أن قوانين التطور التاريخى تستلزم ثورة ديمقراطية وطنية على مرحلتين اولاهما التحرير من الحكم الاستعمارى المباشر وثانيهما التحرر الوطنى الكامل اقليميا واقتصاديا. وخلال هذه المرحلة الثانية من الثورة الديمقراطية فان المصلحة الوطنية تبقى هى القوة الدافعة للتطور الاجتماعى التقدمى ، بينما فى فترة التحول من الثورة الديمقراطية الوطنية الى الثورة الاشتراكية يكون التطور من اجل مصالح الطبقة العاملة المرتبطة ارتباطا وثيقا بالمصلحة الوطنية»

ويؤكد الكاتب انه لايوجد حزب سياسى فى المغرب يستطيع بمفرده ان يمضى قدما فى مرحلة النضال ضد الامبريالية والاستعمار الجديد . وان السبيل الوحيد لضمان انتصار الثورة الديمقراطية الوطنية هو اتحاد القوى المناهضة للامبريالية وللاقطاع .

وقد دعا **محجوب بن صديق** السكرتير العام لاتحاد العمل المغربى **وعبد الله ابراهيم** رئيس الاتحاد الى اقامة مثل هذا الاتحاد على أسس متينة اذ يجب الوصول الى اتفاق بين كل الاحزاب السياسية على اساس برنامج محدد مختصر ، وطالب بأن تجتمع الاحزاب السياسية على عمل مشترك عن طريق جهاز يتكون من ممثلين لكل المنظمات الشعبية وان تضع هذه الاحزاب برنامجا للعمل من أجل اقامة حكومة ائتلافية وانتخاب جمعية تشريعية تاسيسية . ويمكن ان يكون هذا الاتحاد قويا اذا ضمن المشاركة الايجابية لجماهير الشعب عن طريق المناقشة والحوار . وفى المرحلة الراهنة فان مثل هذا الاتحاد سوف يكون ثوريا . وهذا الائتلاف يجب ان يضم اتحاد العمل المغربى والاتحاد الوطنى للقوى الشعبية والحزب الشيوعى .»

ومن الضرورى ان يكون هذا التحالف استراتيجيا طويل المدى ، ويجب أن يؤدى ذلك فى المستقبل الى خلق حزب ثورى متحد قائم على الاسس الايديولوجية للاشتراكية العلمية . ويرى على ياطا ان الظروف ليست ملائمة بعد لخلق مثل هذا الحزب ، ولكن يمكن البدء فى المناقشات من الان كما يؤكد الكاتب ان العدالة الاجتماعية والمساواة لا يتعارضان اطلاقا مع مبادىء الاسلام . لقد ندد الاسلام بالظلم ، وهاجم القرآن الكريم المستغلين . ان المغرب يجب ان يجد طريقا مغربيا للاشتراكية كما يقول على ياطا .

ان كتاب « المشاكل الراهنة للثورة الديمقراطية الوطنية فى المغرب » لا يكتفى باعطاء صورة واضحة لمدى ما يعانيه المغرب بل يعطى ابعادا جديدة وواقعية لحل مشاكل المغرب .



الصهيونية ودولة اسرائيل

مجلة « النقد الجديد »

— يونيو ١٩٧١ —

يطرح **اندريه جيسلبرشت** فى مقاله عن **« الصهيونية ودولة اسرائيل »** ، عددا من القضايا الفكرية التى قد نتفق معها أو نختلف ، ولكننا فى كل الاحوال نعترف له بعمق النظرة وأصالة التحليل .

ودراسة جيسلبرشت التى نشرت فى عددى مايو ويونيو ١٩٧١ من مجلة **« النقد الجديد »** جاءت فى أعقاب زيارة قام بها الكاتب لاسرائيل للاستقصاء والتنقيب ، والاطلاع والدراسة الامر الذى جعل نظرته شاملة « وبانورامية » فعلا . ويرى جيسلبرشت أن صهيونية اليوم ، ليست هى تلك التى أوجدت اسرائيل ، فقد أصبحت الآن تقوم على :

١ — معاداة الشيوعية [اى البلاد الاشتراكية] والعداء للسوفيت

٢ — ايديولوجية العالم الحر . فاسرائيل لا « تدافع » عن مصالحها القومية ، ولكن عن مصالح العالم الحر ، والولايات المتحدة فى المحل الاول : تدافع عنها فى الجولان وضفاف نهر الاردن ، وشرم الشيخ ، تماما كما يتم الدفاع عنها فى برلين وسايجون »

٣ — معاداة القومية العربية ، والعنصرية المعادية للعرب فى اسرائيل وفى الخارج .

وتحاول اسرائيل باثارة ما يسمى « بالمشكلة اليهودية » فى البلاد الاشتراكية ، أن تبرهن على عجز الاشتراكية عن حل المشكلة . والواقع ان تهجير يهود البلدان الاشتراكية الى اسرائيل ليس هو المشكلة التى تعنى قادة اسرائيل ، بل الرغبة فى التشهير والهجوم على المعسكر الاشتراكى ، فاليهود الذين يهاجرون من الاتحاد السوفيتى لايفضلون اسرائيل، بل لندن وغيرها ، فضلا عن أن المهاجر الواحد الى اسرائيل يتكلف ٣٠ الف دولار ، فاذا ما هاجر كل اليهود السوفيت اليها لتكلفوا ٦٠ مليون دولار .

ان الامر الهام بالنسبة لحكومة اسرائيل ، ليس هو مصير يهود الاتحاد السوفيتى ، بل ان الهدف الاساسى هو اثارة الصعاب الداخلية والخارجية أمام البلاد الاشتراكية . فالغريب ان كثيرا من اليهود الملحدين » بل وغير اليهود ، فى اسرائيل وفى خارجها ، يشنون كثيرا من الحملات الهجومية والافترائية دفاعا عن حقوق « ثقافة اليديش » اليهودية » فى حين أن هذه الثقافة نفسها لا تجد فرصتها فى اسرائيل كما تجدها فى الاتحاد السوفيتى .. **ويقول الصهيونيون ان الطريقة التى يعامل بها بلد اشتراكى « يهوده » ، هى المعيار والمقياس لطابعه الاشتراكى ، وبالطبع لايطبق نفس المقياس بالنسبة للبلاد الراسمالية .**

ويقول الكاتب ان معاداة السوفيت والبلاد الاشتراكية لدى الصهيونية والدولة اسرائيل لا تنفصل عن الارتباط العضوى بالعالم

الرأسمالى ، « الحر » ، والولايات المتحدة أساسا .. فغداة حرب الايام الستة ، بدأت الدعاية الصهيونية تركز على فكرة أن اسرائيل تدافع عن العالم الحر ، ضد التسلل السوفيتى فى البحر الابيض . وتحدث ديان كثيرا عن ضرورة تحويل « القضية » الاسرائيلية الى قضية غربية . وفى كل هذه الاساليب، لا تأت الصهيونية بشىء جديد وأصيل ، بل تبرهن عمليا على أنها مجرد امتداد للحملات الصليبية، وللحرب الباردة، وأنها أداة لمواجهة وتخريب سياسة التعايش السلمى .. ولكن الصهيونية كما تتجسد فى سياسة حكومة اسرائيل ، ليست أداة سلبية للامبريالية ، بل ان المصالح المتميزة لكل منهما تتوافق فى هذه المنطقة . والواقع ان الاتجاه الموالى لامريكا من جانب حكومة اسرائيل نابع من هيكل الاقتصاد الاسرائيلى ، ومن خصائص التطور الرأسمالى فيها ، والذى يتميز باختلال واضح فى التوازن يظهر فى : عدم وجود صناعة ثقيلة ، وتضخم القطاع الثالث والخدمات والبنوك وشركات التأمين ، وشركات الاستيراد والتصدير على حساب الانتاج الصناعى ، فالصناعة فى اسرائيل أقل منها فى بلد رأسمالى كلاسيكى ، والزراعة فيها أقل من بلد متخلف تقليدى ، والاعتماد الاقتصادى على المعونات والقروض الاجنبية أمر واضح مما يزيد الديون الخارجية [تضاعفت منذ يونيو ١٩٦٧ ، وهى أعلى معدل فى العالم بالنسبة للدخل القومى] ومن جانب آخر هنالك الزيادة المستمرة فى عبء التسليح [٥٠٪ من الميزانية ، وأعلى معدل فى العالم بالنسبة للدخل الفردى] والتعبئة الاقتصادية لاسرائيل هى النتيجة المنطقية تماما والطبيعية لتحقيق البرنامج السياسى التوسعى للصهيونية التى تدعمها الرأسمالية العالمية . ففى ١٩٦٨ حصلت اسرائيل على ١٠٪ من مجموعة ما قدمته البلدان الرسمالية لبلدان العالم الثالث . وفى ذلك يقول الدبلوماسى الامريكى **دافيد نيس** ان المعونة الاقتصادية التى تقدمها أمريكا الى اسرائيل تتجاوز كثيرا ما تقدمه لاى من حلفائها ، بريطانيا العظمى أو جنوب فيتنام ، وللرئيس الامريكى حق تقديم الاسلحة الى اسرائيل دونما حدود ، الامر الذى يعتبر « **شيكا على بياض** » فريد فى نوعه فى العلاقات الامريكية ، وتفوق أنواع الاسلحة المقدمة لاسرائيل عن مثيلتها المقدمة لدول الاطلنطى ..

وفيما بين ١٩٤٩ و ١٩٦٧ حصلت اسرائيل على ٧ر٧ مليار دولار من أمريكا ، [ثلثا هذا المبلغ لايرد] . وعلاوة على ذلك فقد أصبحت اسرائيل هى المكان المفضل للاستثمارات الاجنبية ولتصدير رأس المال ، خاصة الامريكى ، للتسلل من ورائها الى أسواق بعض بلدان العالم الثالث .

ويقول الكاتب ان العسكرة المتزايدة للاقتصاد الاسرائيلى قد وجدت بعد ١٩٦٧ بداية للصناعة الثقيلة التى تتطلب استدعاء يد عاملة متخصصة وتكنيكيين مؤهلين من الخارج ، ومرة أخرى جاء العون من أمريكا ، فقد تدفق اليها اللاجئون ، من ذوى التخصصات العالية، بما فيهم العسكريون .

وعن رغبة الصهيونية فى السيطرة والسيادة، يؤكد الكاتب أنها لا تنفصل عن العداء للعرب ولحركة التحرر العربى ، وعن الرغبة فى التحكم فى العرب والسيادة عليهم . فالاحزاب الاسرائيلية جمعاء ، حتى تلك التى تدعى اسماء اشتراكية تريد فلسطين بدون عرب . وهذا يؤكد ان الخلاف الصحفى بين « **الصقور** » و « **الحمائم** » فى اسرائيل ، أو بين « **اليساريين** » و « **انصار مملكة اسرائيل** » ليس خلافا جوهريا، فالجميع توسعيون .

ويوضح جيسلبرشت تحت عنوان فرعى فى المقال هو « **داود صغير أشقر وجرىء** » **أن العقلية التى روجت لها الصهيونية وتمكنت من غرسها فعلا بين الاسرائيليين ، وبين اليهود فى العالم فيما يتعلق بالعرب هى عقلية استعمارية متعالية عنصرية** . فالعرب فى كتب الاطفال اليهود: أغبياء ، وكسالى ، وجبناء ، وقساة ، ولصوص ، يهددون داود ، الاشقر الجرىء الشجاع الكريم . فقد نشرت **التايم الامريكية** استفتاء تم اجراؤه بين اليهود الامريكيين، أعلن فيه ٦٧٪ منهم أن العرب أناس منحطون ، و ٧٥٪ أنهم قساة ، و ٨٠٪ أنهم أقل شجاعة من الاسرائيليين . ان الصهيونية تؤكد أنهم متخلفون ، ومتعصبون دينيا ، ونظمهم دكتاتورية مستبدة ، وان تخلفهم لا يرجع الى الاستعمار وانما الى عجزهم الطبيعى والخلقى . ويتباهى المسئولون الاسرائيليون بالتقدم الذى جلبوه للعرب الذين وضعوهم تحت سيطرتهم ، ولكنهم يتناسو تلك التفرقة الاقتصادية والسياسية التى يمارسونها ضد العرب فى اسرائيل .

وتحاول اسرائيل وأجهزة دعايتها التفرقة بين الحكام والشعوب العربية ، فالشعوب العربية دائما متخلفة فى نظرهم . أما الحكام فقسمان : قسم مكروه فى اسرائيل مثل **عبد الناصر** ، وقسم محبوب مثل **حسين** وآخرين على شاكلته . والمدائح التى يكيلها حكام اسرائيل لحسين تغنى عن أى بيان ، خاصة عند تصفيته للمقاومة .

ويذكر جيسلبرشت أن يهود شمال افريقيا ، هم « الزنوج » فى اسرائيل . ويرى أن الصهيونية « **فكرة أوربية** » وضعها أوربيون لخدمة أوربيين ، ومن ثم فهى ترى فى هؤلاء

الشرقيين البروليتاريين عائقا اجتماعيا وثقافيا ؟ تعتبرهم عبئا وعارا . وتمارس عليهم عدوانها .

ومنذ أن بدات الصهيونية تفقد تعاطف الراى العام معها بعد احتلال أراضى العرب ورفض اجراء المفاوضات معها ، لجأت الى الارهاب الفكرى باتهام كل من يرفض أهداف التوسع الصهيونية ، بمعاداة السامية ، بل ان كل من يزور القاهرة ، مثل وفد أتحاد العمال الفرنسى، يعتبرونه معاديا للسامية .

والواقع أن الستار الدينى لاسرائيل لم يستطع ان يخفى ان « **التكتل العسكرى الصناعى** » هو الذى يحكم ، وأن معظم الصهيونيين ، بل وغالبية الاسرائيليين غير مؤمنين بأى دين . وأن الخلط مقصود بين الدين ، والانتماء العرقى ، بين الايمان والقومية . وعلاوة على الطابع الثيوقراطى للدولة الاسرائيلية ، يتضح الطابع العسكرى ، وطابع عدم المساواة الاجتماعية ، والطابع الاحتكارى للاقتصاد .

وتقدم الصهيونية والاستعمار لاسرائيل فى مواجهة البلاد العربية ، كبلد ديمقراطى . ولكنها فى الواقع ديمقراطية مستوردة . فكل الاحزاب فيها نشأت فى الخارج ، واحتفظت بتقاليدها الاجنبية ، خاصة الانجلو سكسونية . والسبب فى استقرارها حتى الان هو : أن كل عمليات توطين المهاجرين ، تنظمها وتمولها الاحزاب التى توجد مراكزها فى أوربا ، ثم ان هذه الاحزاب عبارة عن مشاريع اقتصادية توظف هؤلاء القادمين وبذا تضمن أن يكونوا من أنصارها . مما يخفف من حدة التناقضات الطبقية نسبيا ، هذا بالاضافة الى الاسطورة الاساسية للصهيونية عن السلام الاجتماعى [تجميد الاجور ، التشريعات المعادية للاضراب] أى التعاون بين الطبقات ، والذى يروج له أساسا الحزب الحاكم **والهستدروت** . والوجه المقابل لذلك فى السياسة الخارجية هو « **الاتحاد المقدس** » . ومن ثم تصبح الحرب والعدوان ضروريين لهذا التلاحم القومى . والهستدروت ممثل حقيقى للجوهر القومى المتعصب للصهيونية فهو اتحاد نقابى وهو فى نفس الوقت أكبر « رب عمل » . لقد أقيم : « **لغزو العمل** » و « **غزو الارض** » و « **غزو الانتاج** » . لقد كان الهدف من اقامته :

١ — تحقيق التراكم الراسمالى ، الذى لم يكن فى مقدور رأسمالية تقليدية أن تحققه هناك .

٢ — التخلص من العمال العرب ، والاستيلاء على الارض وعلى المشروعات . وهذا التكوين الغريب لم يقم على اساس اقليمى أو طبقى بل قام على أساس عنصرى .

وفى ختام المقال يؤكد الكاتب أن عقلية الفئران [وهى فى حقيقتها عقلية النمر] التى ترى فى كل المفاوضات ، والمبادرات نوعا من « **الفخ** » **لم تختف ، بل وما زالت سائدة . ومع ذلك فان المعارضة تنمو وتتزايد ، ولكن ليس هناك من بين حركات المعارضة من يضع وجود اسرائيل محل نقاش ، وهذه الخلافات حتى مع ضعفها دليل على أن التناقضات الطبقية لابد وأن تنتصر فى النهاية . فاسرائيل ليست استثناء بين الامم ان المصالح الطبقية تقسمها وتفتتها وان الذى سيسود فى النهاية هو الصراع الطبقى . ولا يجب أن نعتقد أن كل الجماهير فى اسرائيل مستعبدة جسديا وروحيا للصهيونية . وهذه الايديولوجية لن يختلف مصيرها عن أى ايديولوجية برجوازية وامبريالية : انها ليست خالدة . ولكن اختفاء دولة اسرائيل لن يترتب على اختفاء الايديولوجية الصهيونية ، بفعل الصراع الطبقى ، الذى سيحفزه الجلاء والسلام ، وزوال حجة « التهديد الخارجى » .**

ويعترض المؤلف على محاولات بعض أصدقاء العرب اعتبار اسرائيل « مجرد استمرار للوجود الامبريالى فى فلسطين » ومن ثم فليس هناك مشكلة بين العرب واليهود ، بل هناك مشكلة بين الحركة الثورية العربية « والقوى الامبريالية جمعاء » . ويقول الكاتب ان اسرائيل قد أصبحت أمة يمكن أن نناقش ما اذا كانت قد تكونت بالفعل ، أو ماتزال تتكون . واذا كانت بعض العوامل الهامة قد أخرت التكوين [الاختلافات الثقافية بين المهاجرين] فان عوامل قوية للتكامل مثل المدرسة والجيش والوعى المشترك ووسائل الاعلام ، تقلل من المدة اللازمة لعملية التكوين . فالعناصر التأسيسية للوجود القومى متوافرة : اقتصاد مشترك ، ثقافة خاصة ، لغة اصطنعت ولكنها أصبحت مشتركة . والواقع أن هذا الجزء من المقال هو الذى يحتاج الى دراسة وبحث مستفيضين ، حول ما اذا كانت هناك قومية أم لا ، وحول دور العمل العربى الواعى والذكى والدءوب فى التأثير على التطور الداخلى فى اسرائيل بما يخدم قضية العدل والسلام .



الدرجة الحادية عشرة

كتب احد المواطنين عن « **الدرجة الحادية عشرة** » أدنى مستوى فى جدول الوظائف والمرتبات ــ باستثناء الدرجة الثانية عشرة لانه لا يعيين فى هذه سوى الصبية .

يقول المواطن أن الاسعار الشرائية التى وضع فى ظلها جدول المرتبات الملحق بالقانون رقم ٤٦ لسنة ١٩٦٤ ارتفعت خلال السنوات الماضية ارتفاعا كبيرا ــ ويقدم اقتراحين لضمان أن يصل فعلا الى المعين فى هذه الدرجة أجر بواقع ١٥ قرشا فى اليوم وهو الحد الادنى للاجور ــ أو ما جملته سبعة جنيهات ونصف جنيه فى الشهر .

أولا : اما رفع بداية مربوط الدرجة الحادية عشرة من سبعة جنيهات الى ثمانية جنيهات ونصف جنيه مع التيسير عليها فى مجموع الضرائب والاستقطاعات الاخرى ، وكى لا يقل الصافى عن سبعة جنيهات ونصف جنيه .

ثانيا : او رفع قيمة العلاوة الى ٧٥٠ مليما ، بالاضافة الى وضع حد أقصى ست سنوات لمدة البقاء فى الدرجة تكون الترقية بعده حتمية الى الدرجة التى تليها .

والطليعة تقدم اقتراحا ثالثا : أن يؤخذ بالاقتراحين معا .

■ ■

عن الديمقراطية

يقدم مواطنان ــ احدهما من سوريا ، والاخر من مصر وجهتى نظرهما عن الديمقراطية . الاول من زاوية نظرية ، والاخر من واقع التجربة العملية .

كتب المواطن محمد بشير أحمد ، من القامشلي بالجمهورية العربية السورية عن الديمقراطية يقول :

« ان انتصار الديمقراطية لا تحدده التصورات الذاتية والاحلام الوردية ، بل الواقع الاقتصادى .. لقد أثبتت الحياة أن اى شكل سياسى انما يخدم الطبقة المسيطرة المالكة لوسائل الانتاج .. فليس هناك مفهوم مجرد للديمقراطية يهوم فوق المجتمع ..

« ان مجالس الشعب المنتخبة والتى يجب أن تتسلم السلطة التشريعية والمشاركة بالسلطة التنفيذية ، من أصغر وحدة انتاجية واجتماعية حتى أعلى المستويات ــ هى التعبير الحقيقى عن تواجد المنتجين فى كافة مستويات السلطة . وهو تواجد مستحيل بدون أطر فكرية وتنظيمات طليعية ونظرية تعبر عن مصالح أوسع طبقات الشعب انتشارا وأكثرها فاعلية .

« والحزب الطليعى يعمل كعقل جماعى للشعب وهيئة أركان للثورة وممثل حقيقى للعمال والفلاحين والمثقفين المتراصين على أساس من وحدة المصالح الوطنية والطبقية .. »

وكتب المواطن **عاطف جودة على ــ ديوان عام محافظة مطروح** عما عاصره فى انتخابات مجلس الامة السابقة :

« انى أدعو الله أن نكون قد استفدنا من الاخطاء السابقة حتى نشعر حقيقة وعملا وواقعا بالحرية والديمقراطية ، حتى لا يساء الى تنظيم الاتحاد الاشتراكى الام الذى يجمع تحالف قوى الشعب العاملة ــ بالتفرقة بين العضو القيادى المفروض فرضا وبين العضو العامل ، حتى تكون هناك انتخابات نظيفة حرة دون تدخل

من الجهاز التنفيذى ؟ حتى نثق فعلا بأن الحرية والديمقراطية حق طبيعى مكفول لكل مواطن وليس شعارا أجوف يتردد على أسماعنا وعند التطبيق العملى لانجد له أثرا ..

«ماهى الحكمة فى أن كان يقف الجهاز التنفيذى بكل قوته وسلطته وراء مرشحى قيادات الاتحاد — وأن تصدر القيادة السياسية العليا بيانا بالاذاعة والصحف بضرورة العمل على تأييد هؤلاء المرشحين — وأن تنظم مسيرات شعبية لمرشحى الاتحاد يتقدمها المحافظ وكبار المسئولين ضد المرشحين الاخرين الذين هم أيضا أعضاء عاملون بالاتحاد الاشتراكى .. »

■ ■

انتخابات البطريرك

وكتب **الدكتور منير شكرى** من الاسكندرية تعليقا على مقال د . وليم سليمان قلادة فى العدد الماضى عن « **انتخابات البطريرك والتراث الديمقراطى المصرى** » . يقول :

« ... كم كان سرورى بأن أجد فى هذا المقال متنفسا لما يضيق به صدرى .. فلاول مرة فى تاريخ كنيسة الاسكندرية يطمع فى منصب البطريركية ستة أساقفة [!] متجاهلين كل ما تأمر به التقاليد والقوانين الكنسية والمجامع المسكونية ...

« ان البطريرك هو أسقف المدينة العظمى الاسكندرية ، وجلوسة على هذه الاسقفية خليفة للقديس مرقس الانجيلى يجعله بالضرورة رئيسا لكنيسة الاسكندرية . وان التقليد الذى اتبعته الكنيسة بعد زوال مدرسة الاسكندرية بأن تختاره من الرهبان وعند الضرورة من العلمانيين يحتوى على حكمة عميقة ومعان سامية كثيرة .

« ان الاقتراحات والاراء التى عرضها المقال يجب أن تنشر على أوسع مدى .. ومن الغريب أن [الاساقفة العموميين] الذين قيل أن لا ايبارشيات لهم يطالبون بأن تقدم عنهم قوائم فى كل منها ١٢ اسما ، شأنهم فى ذلك شأن باقى الايبارشيات . وقد ووفق على اقتراحهم وقدم كل منهم قائمته . فكأنهم وهم المرشحون يعينون ناخبيهم — فيعين كل منهم ١٢ اسما مضمونا . فهل هذه انتخابات ؟ أليست نوعا من [استغفال] الشعب واللوائح والقوانين ومبدأ تكافؤ الفرص ؟ ... »

عن الشباب

تستأثر قضية الشباب واعداده وواجباته فى هذه المرحلة المصيرية من تاريخ وطننا باهتمام العديد من قراء المجلة . ونحن ننشر هنا رسالتين وردتا الينا فى هذا الخصوص : الاولى تتحدث عن القضية بصفة عامة وتقدم نقطة بداية لمعالجتها والثانية تدرس تجربة منظمة الشباب . فى ايجابياتها وسلبياتها وضرورة اعادة بنائها مع تقديم مقترحات عملية فى هذا الصدد .

■ ■

شبابنا وكيف يعيش ظروف المعركة ؟

كتب المواطن عبد العال الباقورى :

أن اعداد الشباب اعدادا نضاليا فى المجال الفكرى والسياسى والخلقى مهمة عاجلة لا تحتمل أى تعطيل . أن كل البناء الذى أقمناه ، وكل التقدم الاجتماعى الذى أحرزناه ، سيظل عرضة للسقوط والانهيار ، طالما بقى شبابنا غارقا فى حالة « الضياع » التى يعيشها منذ وقت طويل ، والتى تضافرت عوامل عديدة فى خلقها ، واستمرارها . وهذا القول ليس جديدا ، فقد تحدث كثيرون — حتى قبل النكسة — عن ضرورة الاهتمام بالشباب ، الجيل الذى سيحمل الرسالة ، وبقى هذا القول معلقا فى الهواء ، بدون أقدام يستند بها ويقف فوقها على أرض الواقع .

وفى مثل هذه الظروف ، تكون النتيجة معروفة وملموسة ، وهى — كما نراها جميعا — أن شرائح هامة من شبابنا — الشباب المتعلم بالذات — تقف خارج دائرة الاهتمامات الوطنية والقومية ، وتعيش حالة غريبة من عدم الاكتراث بكل ما يجرى فى بلادهم ، وبكل ما يؤثر على بلادهم . وفى نفس الوقت الذى يطالب فيه أبناء الشعب المخلصون بغرس قيم جديدة ، هى قيم العمل والانتاج ، قيم النضال والكفاح من أجل خوض المعركة وتحقيق النصر فيها ، فان هؤلاء منجذبون بشكل غير عادى الى قيم المظهرية ، والفخفخة ، والكسل ، والتراخى ، والبعد عن كل ما هو جاد وأصيل ، والجرى وراء كل زائف وسهل (فى تقديرى أن انتشار ظاهرة الدروس الخصوصية ، وجرى التلاميذ وراء شراء الاسئلة لضمان النجاح ، مرتبط بنفس هذه القيم واستفحال خطرها) .

والمشكلة فى الحقيقة أعمق بكثير من جانبها الاخلاقى ، فهذا الجانب هو مظهر من مظاهرها

العديدة . المسألة الاعمق من ذلك هى غياب أى خطة شاملة لاعداد الشباب ، لتربيته سياسيا وفكريا ، لغرسه فى تربة بلاده ، فى كل مشاكلها ، ومآسيها ، ليزرعه فى حقول واديها ، وربطه بانتاجها فى المصانع والمعامل والحقول ، لمعايشته لظروف شعبها عماله وفلاحيه وجنوده على خط النار .

وقد يؤخذ على هذه النظرة « تشاؤمها » ، بدعوى أن شبابنا بخير ، وأن هذه الفئات الخارجية على دائرة الاهتمامات الوطنية ضئيلة العدد ، ولا تستحق هذا الانزعاج ، ففى كل مجتمع يوجد من يهتمون بقضاياه ومن لا يهتمون ، ولا يوجد المجتمع الذى يكون اهتمام كل شبابه بالقضايا العامة على درجة واحدة . وقد يقول البعض أن حالة « التمزق » التى يعيشها جزء من شبابنا هى صدى طبيعى لظروف الهزيمة ، ولما هو قائم من موقف « لا حرب ولا سلام » . ويرتبون على ذلك القول بأن هذا ليس شباب مصر ، فشبابها الحقيقى هو شباب الانتاج والعمل فى الحقول والمصانع ، شباب بناء السد العالى ، واستصلاح الاراضى ، واقامة مجمع الحديد والصلب ، ثم هو فوق ذلك كله شباب الجبهة ، خريجو الجامعات الذين يقفون « ديدبانا » يقظا يحرس مصر ، ويستعد لان يطهر شرفها بدمه ، يقدمه عطاء سخيا .

ولا انكار لهذه الحقائق . ولكن الجزء الاكبر من شباب مصر لم يذهب بعد الى الجبهة ، ولم يلهب جفون عينيه قدم جندى معاد يتباهى بوقفته على شبر من أرضنا المحتلة (حقيقة أنه يعرف بوجود ارض محتلة ، ولكنه لا يعى ما هو مطلوب منه لتحرير هذه الارض) . ثم أن هذا الشباب لم يشعر بأثر واقعة الاحتلال على أسلوب حياته ، فهو لا يجد شيئا ناقصا ، فكل البضائع الاستهلاكية والترفيه متوافرة ، والبضائع الاجنبية التى كنا لا نراها من قبل ، اصبحت تملأ الاسواق ، وتغص بها دكاكين خاصة ، وأرصفة الشوارع . والافلام والمسلسلات الاجنبية على «قفا من يشيل» فى السينما والتليفزيون . والشباب الذى يحاول أن يقرأ يجد طوفانا من المجلات شبه العارية ، صادرات بيروت ، ثم يجد سيلا من كتب قتل الوقت والتسلية ما بين الروايات البوليسية الرخيصة ، وكتب الكلمات المتقاطعة ، والالف نكتة ، ومسلسلات زعيم الهيبز وفتاته سماتى . وغير ذلك كثير وكثير . ولا شىء غير ذلك يملأ فراغ هذا الشباب . واذا كانت الطبقة الجديدة والشريحتان العليا والمتوسطة من الطبقة البورجوازية «الوسطى» تستطيع أن تجعل من النوادى ستار اللادعاء بجدية شغل أوقات شبابها ، فان أبناء الطبقة البورجوازية الصغيرة ، الى جانب أبناء الطبقات الكادحة لا يملكون ما يدفعونه رسوما لهذه الاندية والانتساب اليها حتى ولو فى شهور الصيف ، مما يصرفهم جميعا الى التنفيس عن أنفسهم بالخروج الى الشوارع والتجمع على نواصيها .

وكل هذه أساليب ووسائل لا يمكن أن تربى شبابا لامة تعيش معركة ، شبابا سيعيش مراحل مقبلة أكثر شراسة وضراوة من التى نعيشها ضد العدو المثلث : اسرائيل ، والصهيونية ، والامبريالية . ان هذه الاشكال كافية لقتل كل روح مبدعة وخلاقة لدى شباب هذا الوطن ، لتجريده من كل معنوياته ، لتركه نهبا لامراض القلق والتشتت ، والضياع ، والاستسلام . من يتحمل مسئولية ذلك ؟ هل نكتفى بالقول ــ كما هى عادتنا ــ أن الاستعمار يغزونا فكريا ويعمل لهدم شبابنا وتبديد قواه . واذا كان هذا صحيحا فماذا فعلنا لنجنب شبابنا هذه المأساة . ان معركة الاستعمار كانت دائما وستبقى موجهة الى شعب مصر ، الى عماله وفلاحيه وكل قواه الشريفة والمناضلة ، وهو لم يتوقف يوما عن محاولة الغزو من الداخل ، ولكنه فى هذه المرحلة يركز أكثر على هذه العملية ، وهو يركز الان بالذات على رصيد شعب مصر من شبابه ، رجال مستقبله . ويبدو أننا نسهل أمام العدو تحقيق هذه المهمة .

هنا يرد سؤال ما العمل ؟

نقطة البدء الصحيحة فى مواجهة الموقف كله هى « عسكرة الشعب » ، وعسكرة الشباب جزء أساسى من هذه المهمة . و « العسكرة » هنا لا تعنى بأى حال اى مدلول «فاشى» فى تربية الشباب . ان العسكرة الشعبية وبالنسبة للشباب بالذات يجب أن تتم بأساليب سياسية فى المقام الاول ، أساليب التربية الفكرية والسياسية القائمة على تزويد الشباب بكل قيم الدفاع عن الوطن ، وأرضه ، وحمايته ، وصد الغزو ، وتزويده بقيم انسانية لا تعرف التعصب القومى الاعمى ، ولاحتقار اى جنس أو شعب ، وتربية الشباب على أساليب اختيار قياداته ديمقراطيا ومحاسبتها على الخطأ ، وغرس مبدأ النقد والنقد الذاتى فى عقولهم ، وفتح أبواب النقاش الحر حول كل قرار يتخذ وحول كل خطة تنفذ .

ولابد من التفرقة بين « العسكرة » كأسلوب نضالى وسياسى فى تربية الشباب وبين التزمت ، فلا يستطيع أحد أن يقف ضد حق الشباب فى أن يفرح ويسعد ، فى أن يلهو لهوا جادا ، ويمرح ويضحك . والفرق بين « العسكرة » كعمل سياسى منظم ومطلوب ، وبين التزمت وتحريم كل أنواع التمتع الشريف الذى يثرى النفس ، ويشحنها بقيم

نضالية جديدة ، تؤكده تجربة « جبهة التحرير الوطنى فى فيتنام الجنوبية » • لا أحد يستطيع أنه أكثر جدية من هؤلاء الشباب الذين يلحقون الهزيمة مائة مرة كل يوم بأكبر قوة عدوانية ظهرت حتى الان • ولكن هذا الشباب يغنى ويرقص ، ويقيم حفلات السمر ، ويعرض المسرحيات ، ويحفر خنادق خاصة لاقامة هذه اللقاءات الفنية • والمقاتلون هم أنفسهم الذين يؤلفون الاغانى ويلحنونها ويشدون بها ، وهم الذين يعزفون ويرقصون ويدخلون السرور والبهجة على رفاقهم وعلى مواطنيهم فى الاراضى التى حرروها • واذا كان هذا يحدث فى صفوف جيش يقاتل أضرى المعارك وأكثرها شراسة ، ألا يمكن أن يحدث مثله أو أكثر منه فى صفوف شبابنا حين نربيه تربية سياسية ، وحين « نعسكره » ونوعيه بظروف المعركة التى دقت الابواب من أربع سنوات ، ووصل تأثيرها الى كل أسرة ، وكل بيت •

علينا ان نطرح بسرعة سؤال : ماذا نريد من شبابنا ؟ وماذا نريده ؟ ولن نختلف كثيرا حول الاهداف المطلوبة من ولشبابنا فى هذه المرحلة ، مرحلة خوض المعركة الحتمية • وبعدئذ نبدأ فى تطبيق كل ما يساعد على تحقيق هذه الاهداف بشكل سليم ، وصحيح •

الاخيرة •

اذا فعلنا ذلك ، سنتجنب أن تكون الهزيمة مضاعفة ، واذا لم نفعل فاننا نساعد العدو فى تحقيق أهدافه • ان من يريد بناء مصر ، ومن يريد تحرير الجزء الغالى والعزيز المحتل من أرض مصر ، ومن يريد المزيد من التقدم الاجتماعى لمصر ، عليه أن يهتم بشباب مصر ، وأن يخرجهم من حالة السلبية التى وضعوا فيها وليكن شعارنا : يا شباب مصر ، ان مصر فى خطر •

■ ■

منظمة الشباب بين الضرورة والمسئولية والمستقبل

كتب المواطن صلاح زكى سيد أحمد — بكالوريوس علوم وتربية وعضو منظمة الشباب الاشتراكى بمحافظة الشرقية — الزقازيق •

لا تعتقد جماهير الشباب المناضل على اتساع ارضنا . ان هناك مؤسسة سياسية تعرضت للهجوم فى مجتمعنا . بقدر ما تعرضت منظمة الشباب الاشتراكى ، وهى بوصفها ظاهرة سياسية جديدة فى حياتنا كانت مصادر الهجوم لها متعددة . **ولعلنا نوفق فى التحليل لو حددنا مصادر الهجوم فى ثلاث مصادر رئيسية :**

اولا : بقايا طبقة الاقطاع والرأسمالية التى اصابت قوانين يوليو الاشتراكية تكوينها الاجتماعى والطبقى . أصابة «محددة» ولكنها غير «محدودة» التأثير .

وانحصر دور هذه البقايا فى التشكيك . والهجوم على منظمة الشباب الاشتراكى ، والتعرض لاعضائها بالتشهير والارهاب ، الذى وصل الى حد القتل فى بعض الاحيان .

ولكن قوانين يوليو الاشتراكية صنعت بقوانين من القيادة السياسية العليا . وتلقتها الجماهير بدون المشاركة فى الصنع الاجتماعى والسياسى لهذه القرارات ، فقد انحصر دور الجماهير ، فى حماية هذه القوانين ، وتدعيم المكتسبات الاشتراكية ، وحمايتها ، والدفاع عنها . وكان الشباب فى طليعة هؤلاء . وكان دور منظمة الشباب فى ذلك الوقت واضحا فى الشركات والمؤسسات الصناعية المؤممة . او فى الريف ضد بقايا الاقطاع وذيوله التى لم تخمد حتى الان . والتى راح ضحيتها على سبيل المثال . شهيد كمشيش « صلاح حسين » ، وشهيد الاقطاع فى قرية « بنى سلطان » دسوقى محمد على .

ثانيا : بعض القيادات السياسية والتنفيذية سواء فى التنظيم السياسى ، او الاجهزة التنفيذية .. وكان دافع بعض القيادات السياسية هو تحجر فكرها السياسى والاجتماعى ، وتوقفه عند حدود معينة ، وتصورها ان جيل الشباب الواعى هو خطر داهم سوف يكتسح القيادات من مواقعها .

والقيادات التنفيذية كانت تبدأ بالهجوم عندما يتعرض لها الشباب بكشف انحرافاتها الادارية ، والمالية ... الخ .

ومن الملاحظ ان بعض القيادات فى التنظيم السياسى او الاجهزة التنفيذية لم تتوقف عند حد الهجوم بالكلمات أو التشهير ، بل تعدى ذلك وشمل أساليب الاعتقال ، والعزل السياسى ، واسقاط العضوية . فى التنظيم السياسى ... وشمل النقل والتأخير فى الترقية والتشتيت الوظيفى فى الجهاز التنفيذى .

ثالثا : قطاعات كبيرة من الشباب هاجمت منظمة الشباب بوعى ، وبلا وعى . دونما تمييز من ناحية الانتماء الطبقى لهذه الجماعات ، ولعلنا نستطيع تحديدهم فى ثلاث قطاعات معينة :

١ — أبناء الطبقات الاجتماعية المنهارة من اقطاع ورأسمالية ، بحكم الانتماء الطبقى ، والكراهية لكل قرار ثورى أخل بما كانوا يملكونه بغير حق .

٢ — ابناء الطبقة الاجتماعية الجديدة التى نشأت بعد الثورة . والتى تحولت بفعل قوانين الإرث الغير شرعى الى وريث بديل للطبقات المنهارة ... فتحولت الى اقطاع احتكارى جديد فى ظل نظام ثورى ! ! .. ونشأ ابناء هذه الطبقة فى جو رافض للتغيير والفكر الثورى ! .

٣ — ابناء العمال والفلاحين الذين انساق بعضهم وراء موجات التعصب الكروى المهووس ، او الانشغال فى الذات ، والسلبية تجاه ما يجرى على ارض الوطن نصرا او هزيمة ، او السلبية السياسية والفراغ السياسى الفاحش ! !

المظاهر السلبية والايجابية فى حياة المنظمة

ولكى نكون واقعيين فى تحديدنا لحياة المنظمة ضمن دراسة واعية ، علينا ان نحدد بعض المظاهر السلبية والايجابية فى حياة المنظمة

وسوف نبدأ بالجوانب السلبية اولا — من موقع الصديق المخلص — ونحددها فى بعض المظاهر التالية :

اولا : بدافع الحماسة والاندفاع الذى يميز الشباب بصفة عامة . تحولت منظمة الشباب وكثير من افرادها الى قوة ، احست بأنها الرقيب على تصرفات الناس ،وانها أعلى من كل السلطات، تحاسب من تشاء وتعفوا على من تشاء .

ثانيا : بحكم تكوين منظمة الشباب بوصفها الجناح الشبابى للتنظيم السياسى ، فانها نقلت بعض «أمراضه» من المركزية والادارة البيروقراطية الى الشللية والعصبية لافراد كانوا أعمدة لمراكز القوى .

ثالثا : بعض الاساليب السرية التى تحولت كثيرا من اعضاء منظمة الشباب الى « كتبة » للتقارير السرية ، أعطت طابعا أقرب ما يكون الى الاساليب الفاشية التى اضرت بالمنظمة اكثر مما افادت .

رابعا : كان واضحا ان جرعات الفكر السياسى والاشتراكى لجماهير الشباب فى المنظمة ، ضمن الدورات الدراسية فى المعاهد المختلفة ، اكثر من اللازم ، واقل وضوحا مما يجب ، حتى ان هناك قيما اختلف مظهرها عن مضمونها ، فكلمة الالتزام تحولت سلوكيا الى الالزام ، ووضوح الرؤية تحول الى غيبية فكرية ، والوطنية تحولت الى شيء مضاد الى الاشتراكية ، والفكر المفتوح تحول الى ترديد مونولوجى ... ! !

وبالاضافة الى ما سبق نريد التوضيح بان فى موجة النقد الذاتى التى تتعرض لها المنظمة ،هناك النقد الخبيث الساعى للهدم دون البناء ، نقد من موقع العداء ، دون النقد من موقع الاصدقاء .

مع كل ما سبق من عرض للجوانب السلبية فى حياة المنظمة ، لم تخل من مظاهر ايجابية كانت اكثر أملا واشراقا مما سبق .

اولا : كانت منظمة الشباب أول تنظيم سياسى للشباب فى مجتمعنا ، يجمع الشباب ضمن فكرة سياسية واحدة ، وداخل أطار تنظيمى محدد ، وعمل سياسى جاد ومخلص .

ثانيا : لعلى لا اتجاوز اذا قلت : ان بذور الفكر الاشتراكى والتقدمى حملتها عناصر الشباب الثورى المخلص وزرعتها على التربة المصرية فى كل قرية ، وكل مصنع ، وداخل كل بيت ، وبين كل تجمع انسانى .

ثالثا : ان مجرد الانتماء لمنظمة الشباب ، واعتناق الصحيح من افكارها . اعطى للشباب الحماية والحصانة من اى عزلة سياسية ، أو بعيدا عن اى انحراف سياسى او اغتراب فكرى ، او تساو خلقى .

رابعا : ان اساليب العمل السياسى من مشاريع خدمة بيئة ، ومحو أمية، ونظافة ،وخدمة الجبهة، كانت فى جوهرها اساليب جديدة لم تشهدها اى تنظيمات سياسية سابقة ، كذلك فى مجالات العمل التثقيفى طرحت قضايا فكرية لها الاهمية البالغة فى مجتمعنا ، ولها قيمتها الفكرية العالية . حتى انه طرحت بين اعضاء منظمة الشباب قضايا فكرية نالت مستوى الرضا ، والاعجاب كانت من قبل حكرا على افراد معينين لم يخرجوا من نطاق أسوار الجامعة .

كذلك فان اساليب العمل التنظيمى اعطت للاعضاء القدرة على تناول القضايا السياسية المختلفة على اساس الطابع العلمى فى التحليل ، وبناء النتائج على مقدمات صحيحه ...

خامسا : ان منظمة الشباب أمدت واعطت التنظيم السياسى « الاتحاد الاشتراكى » افضل عناصره ، واخلص قيادته ، وذلك حكم منطقى . فالذى يبدأ الطريق من اوله غير الذى يعترضه من منتصفه .

بالاضافة الى ما سبق . فان منظمة الشباب بقطاع مخلص من اعضائها ساعد على رفع الكفاية الانتاجية فى كثير من الوحدات الصناعية ، والزراعية ، وقلل بقدر الامكان من حجم الفاقد الاقتصادى فى مشاريعنا المختلفة .

الضرورة لاعادة البناء

اذا تصورنا ان باعادة بناء الاتحاد الاشتراكى العربى من القاعدة الى القمة ، قد تم البناء السياسى لمجتمعنا فاننا نكون مخطئين . فليس من المتصور ان يكون هناك تنظيم سياسى بدون منظمة شباب تمده بالعناصر المخلصة وتكشف عن قيادات جديدة ، وتضمن استمرار الثورة . ودواعى البناء هنا ضرورية ، **وسوف نتناولها على ثلاث مستويات ، وطنيا ، وعربيا ، وعالميا :**

اولا : على المستوى الوطنى

١ — والعدو ما برح يحتل ارضنا تزداد اهمية وجود منظمةالشباب ، وذلك لمجموعة من الاسباب منها على سبيل المثال . ان الشباب يستطيع ان يقوم بدور كبير فى الاجهزة المعاونة للقوات المسلحة ، بالاضافة الى ذلك . فالتربية السياسية والعقائدية المخلصة والنقية لها الاهمية لكل مقاتل قبل التحاقه بصفوف القوات المسلحة .

٢ — ان حالة الفتور السياسى ، واللامبالاة السائدة بين جموع الشباب والتى تخلق جوا غير صحى للمعركة القادمة ، تقع مسئولية اشعال الروح الثورية فيها على منظمة شباب تقوم على فكر واضح صحيح واع .

٣ — لعلى لا اتجاوز اذا قلت انه لا مستقبل للتنظيم السياسى فى مجتمعنا بدون منظمة شباب تكون مهمتها بمثابة « المشتل » الذى يعطى للتنظيم افضل العناصر لكى تقود وتعمل .

ومن هنا ايضا فانه لقيام الجهاز الطليعى ، او ما اسماه المناضل جمال عبد الناصر ، « الحزب الاشتراكى » لابد أن يكون فى اعضائه من منظمة الشباب لنضمن مستقبل التنظيم السياسى فى مجتمعنا .

ثانيا : على المستوى العربى

١ — من الملاحظ فى اغلب التنظيمات السياسية العربية عدم وجود تنظيمات سياسية خاصة بالشباب ،وربما يرجع افتقاد العالم العربى لقيادات سياسية مسئولة الى غياب تنظيمات الشباب العربية

ولذلك فضرورة قيام تنظيم سياسى عربى للشباب ضرورة ملحة .

٢ — مع التسليم بان المستقبل للشباب ، فاننا ان لم نحسن صنع الشباب سياسيا وفكريا وسلوكيا ، من اليوم ، فلا يحق لنا ان نطمئن لصورة الغد ، واذا لم يكن المستقبل عربيا فلا مستقبل لبلد عربى على حساب بلد آخر .

٣ — ان هناك تيارات سياسية غربية تسيطر الان على كثير من البلدان العربية ومن ضمنها « مصر » . ومؤداها ، ان عزلة مصر هى طريق السلامة ، وابتعادها عن الامة العربية بمشاكلها هو طريق النجاة ، ومن الغريب ان هذه النزعات تسيطر على كثير من عقول شبابنا

فكيف نلغى هذه التيارات بدون تنظيم سياسى للشباب ؟ .

٤ — ان هناك عربيا الان قضايا تحتاج الى تعاطف ، وفهم ، وتأييد جموع الشباب العربى المنظم . وهى على سبيل المثال قضية « العمل الفدائى الفلسطينى » الان وما يتعرض له الان من اخطار التصفية والعزل عن الجماهير العربية ، واعتقد لذلك ان تنظيمات الشباب العربية تستطيع ان تقوم بدور هام فى تدعيم العمل الفدائى الفلسطينى ، باعتباره محورا للنضال بين كل المخلصين الشرفاء على ارضنا العربية .

٥ — انه من المعروف ان هناك تنظيمات شبابية سياسية على اتساع العالم العربى « اغلبها يعمل سريا» تعتنق الفكر الاشتراكى الناصرى الوحدوى، وضرورة قيام تنظيم سياسى للشباب فى مصر له اهمية ، ومسئولية القيادة والتوجيه والتعاون مع تلك المنظمات الشبابية التقدمية .

ولذلك فان القول بأن مستقبل الناصرية على الارض العربية، ورفع رايتها يتوقف بالدرجة الاولى على وجود تنظيمات سياسية للشباب على اتساع الارض العربية .

ثالثا : على المستوى العالمى

١ — بعد حالات التفسخ السياسى والاجتماعى التى تتعرض لها النظم الرأسمالية ، فان حركات التمرد والتحلل انتشرت فى هذه المجتمعات ، والتى اعتنقت فلسفات خاصة ، وغريبة ، ومن امثلة هذه الحركات ، حركات الهيبز ، والبيتنكس ، والبرونوس ، والبيتلز . وكلها فى مجموعها حركات انحلالية . لم يقتصر تأثيرها على المجتمع الرأسمالى وحده . بل انتشر حتى شمل قطاعات كبيرة من شباب العالم الثالث . تقلده بلا وعى وبلا فهم .

والسبيل الوحيد لمنع هذه الظاهرة . من الانتشار . هو التحليل العلمى لطبيعة المجتمع الرأسمالى ،واختلافه على النقيض عن طبيعة المجتمع الاشتراكى او النامى .. والتنظيم المسئول

عن ذلك هو منظمة سياسية للشباب ذات فكر أصيل وواع .

٢ — ان بعض مظاهر التمرد فى المعسكر الاشتراكى يفهمها كثير من شبابنا على أنها رفض للمجتمع الاشتراكى بقوانينه الاساسية ! ! وذلك تصور غير صحيح بالمرة .

فالرفض هنا يختلف فى مضمونه عن الرفض فى المجتمع الرأسمالى . فالاول رفض لكل السلبيات التى تعوض اتمام البناء الاشتراكى . أما الثانى فهو رفض للمجتمع الراسمالى ككل . بفلسفاته ونظمه ، وقوانينه ، وتكوينه الاجتماعى والطبقى ، وعلاقات القوى المسيطرة فيه .

ولغياب التنظيم السياسى للشباب لا يمكن ان تتوفر الرؤية السليمة لقطاعات كبيرة من شبابنا تجاه مثل هذه القضايا .

٣ — ان حركات التقدم والسلام التى تغطى العالم . سواء الغربى منه او الشرقى . يشكل فيها الشباب الجانب الاكبر من الفاعلية والعمل . باعتبار الشباب الوحيد الاساس لاستمرار النضال ضد قوى الامبريالية والعدوان .

ومع التبسليم بدور مصر ومسئوليتها فى حركات السلام والتقدم العالمى . فان دورها يزداد فاعلية، بزيادة فاعلية شبابها العقائدى المنظم .

٤ — ان اهم ما يميز المجتمعات الاشتراكية هو انتشار الامراض الادارية مثل البيروقراطية ، والتكنوقراطية بين أجهزتها العاملة . وتلك اخطار تهدد مستقبل التحول الاشتراكى فى هذه البلدان . وتزداد الخطورة فى دول تسعى الى اتمام التحول الاشتراكى بدون صراع طبقى ، وفى نفس الوقت تجابه عدوانا خارجيا ... وافضل الامثلة على ذلك هو ما يجرى على ارضنا العربية . وفى مصر على وجه الخصوص .

ومسئولية تنظيم سياسى للشباب فى مصر هو ان يسعى الى غرس المبادىء ، والقيم الاشتراكية، ويناضل بحزم ضد قوى التخلف والجمود .

مقترحات للمستقبل

نود فى نهاية هذا الحديث ان نضع عدة مقترحات للعمل بالنسبة لتنظيم الشباب :

أولا : ان تتحدد علاقة صحيحة وسليمة تمنع اى حساسيات يمكن ان تقع بين التنظيم السياسى « الاتحاد الاشتراكى » ومنظمة الشباب الاشتراكى

ثانيا : ان يكون تنظيم الشباب تنظيما قائما بذاته ، له لجنته المركزية ، وله ممثلوه فى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى

ثالثا : ان تسبق مرحلة الالتحاق بعضوية منظمة الشباب « منظمة للطلائع » ، تعد من هم دون الخامسة عشرة اعدادا فكريا وسياسيا ونضاليا .

رابعا : ان تلقى مسئولية القيادة على اكتاف شباب لا يتجاوز عمره ٢٥ عاما . لانهم الاقدر على فهم الشباب ومعرفة أحاسيسه ، وتحديد مجالات العمل التى تتناسب مع قدراتهم وامكانياتهم

خامسا : ان تكلف منظمة الشباب بمسئوليات نضالية على مستوى الوطن بأكمله ، مثل التصدى لقضية محو الامية كما حدث فى الاتحاد السوفيتى، أو تكوين فرق للدفاع الذاتى كما فى فيتنام ، أو لجان الدفاع عن الثورة كما فى كوبا .

سادسا : ان تكون مسئولية رفع راية الناصرية هى محور ثورة ثقافية عظمى تشمل مجتمعنا بأكمله تجدد قيمه الطيبة ، وتكشف كل القيم الفاسدة فى مجتمعنا وتسعى الى دحرها .

واعتقد بأن هذه المسئولية الخطيرة لا تقع على اى تنظيم سياسى ، بقدر ما تقع مسئوليتها على منظمة الشباب الاشتراكى

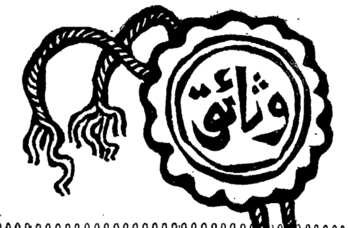
سابعا : ان تكون مهمة منظمة الشباب هى تربية طلائع « الحزب الطليعى » الاشتراكى داخل التنظيم السياسى الذى تقع عليه مسئولية قيادة النضال الحزبى داخل التنظيم السياسى « الاتحاد الاشتراكى »

ثامنا : الا يكون الاهتمام بالكم على حساب الكيف ، ولا يهمنا على الاطلاق . ان تبدا منظمة الشباب باعداد هائلة غير فعالة . ولكن ما يهمنا هو ان نهتم باعداد محدودة لها تأثير فعال غير محدود، واقصى ما نتمناه أن نحول الكم المهمل الى كم فاعل

تاسعا : ان تضع القيادة السياسية لتنظيم الشباب الخطوط العامة لاى عمل . وان تترك للشباب فى مواقع العمل حرية التصرف والمرونة فى التنفيذ لكى تتاح فرصة خلق قيادات تصقلها التجربة والممارسة الفعلية للنضال .

عاشرا : ان يفتح تنظيم الشباب قلبه وعقله لكل التيارات الفكرية والسياسية ،يحللها ويصححها غير رافض لها بالتعصب او الكراهية ، باحثا عن الشباب فى كل مكان ، ساعيا لهم بالفكر المفتوح، داعيا لهم بغير قسر او ارهاب .

وفى النهاية لعلنا نكون قد وضعنا بعض التصورات لضرورة قيام تنظيم سياسى للشباب فى مجتمعنا ، حاملا مسئولياته واعيا لابعادها ، مبتسما للمستقبل على الدوام — برغم مصاعبه وتضحياته — لانه يثق فى النصر ثقته بنفسه وبوطنه .●





دستور ١٩٢٣

اعداد وتعليق
د. رفعت السعيد
طارق البشرى

تواصل الطليعة نشر الوثائق الخاصة بدستور ١٩٢٣ - وهى تقدم فى هذا العدد حصيلة هامة وغنية من المناقشات والمواقف والافكار التى دارت حول « **حرية الصحافة** » « **وحرية الصحفى** » فى ابداء رأيه ».

وتحاول هذه المجموعة من الوثائق تتبع الصراعات المختلفة التى دارت حول هذه القضية عبر فترة هامة ومتكاملة من تاريخ مصر الحديث .

فهى تورد نصوص مناقشات لجنة الدستور ، ثم تعليق اللجنة الاستشارية التشريعية ، ثم تقدم فوق ذلك مجموعة هامة من المناقشات البرلمانية التى جرت فى دورات برلمانية متتالية حول القضايا المتعلقة بحرية الصحافة سواء فى مجلس النواب أو مجلس الشيوخ .

ان استعراض هذه الوثائق بهذه الصورة يمثل تجميعا لعدد من الوثائق ذات القيمة التاريخية الهامة حول موضوع بالغ الاهمية ، كما أنه يسهم فى تقديم صورة ايجابية تعبر عن تراث نضالى مصرى من اجل اقرار قواعد ديمقراطية لفكرة حرية الصحافة والصحفيين .

[(مادة ١٥] « الصحافة حرة فى حدود القانون . والرقابة على الصحف محظورة . وانذار الصحف أو وقفها أو الغاؤها بالطريق الادارى محظور كذلك الا اذا كان ذلك ضروريا لوقاية النظام الاجتماعى » .

لجنة الدستور :

ثم تليت المادة الرابعة عشرة ونصها : الصحافة حرة فى حدود القانون ، والرقابة على الصحف قبل نشرها محظورة .

حضرة على ماهر بك — الاحظ ان لجنة التحرير انقصت شيئا مما تقرر فى اللجنة العامة وهو النص على أن لكل مصرى حق اصدار الصحف . فاذا أريد حذف ذلك فاقترح أن يكون النص «حرية الصحافة مكفولة» .

حضرة عبد الحميد بدوى بك — رؤى أن بين المادتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة بعض التداخل فالاولى قررت حرية الاعراب عن الرأى بكل الطرق، ومنها الكتابة ، فلم يبق لحرية الصحافة معنى سوى ابداء الرأى على صورة مخصوصة وهى اصدار الصحف وهذا المعنى هو الذى يؤديه صدر المادة الرابعة عشرة ، فذكر عبارة ان لكل مصرى حق اصدار الصحف الخ بعد ذلك تكرار لا مسوغ له .

فوافقت الهيئة بالاجماع على بقاء المادة على حالها .

[فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٢]

معالى الرئيس — هل تسمحون بعرض الاقتراحات ؟

حضرة على ماهر بك — لقد تليت المبادىء الخاصة بحقوق الافراد مرة واحدة فارى أن تتلى مرة ثانية ، فاننى اريد ان اتكلم عن حرية الصحافة المتعلقة بالمادة الرابعة عشرة من تلك المبادىء واتكلم فى مسائل التعليم فى المادتين السادسة عشر والسابعة عشرة. حرية الصحافة قانونا معناها حرية اصدار الصحف ، لان حرية الـرأى والكتابة قد سبق لنا تقريرها وحرية اصدار الصحف لا تكون الا اذا لم توضع قيود وعقبات فى سبيلها ، واهم القيود الرقابة والرخص .

ليس معنى منع الرقابة الا تحاكم الجرائد على ما يكتب . كلا . اننى معكم فى أنه يجوز للبرلمان فى ظروف خاصة أن يزيد ان شاء فى الجـرائم الصحافية لاننى لا ارضى الفوضى ابدا . لكن هذا يقع بعد صدور الصحف . أما ما اتكلم الان عنه فرقابة الصحف قبل صدورها . وهذه هى الرقابة التى قررت الدساتير منعها . فليس يصح ان تعرض صحيفة قبل نشرها على هيئة ادارية للتصريح بنشر شىء وتحريم نشر شىء آخر فيها . هذا لا يجوز مطلقا فى الازمنة العادية . ولهذا تقرر مبدأ عدم الرقابة حتى فى بروسيا العسكرية وحتى فى تركيا . وكما أننا لا نريد الفوضى لا نريد الاستبداد . فأرجو ان تقرروا ان الرقابة على الصحف قبل نشرها ممنوعة .

سعادة حافظ حسن باشا — الرقابة على الصحف غير موجودة حتى فى قانون المطبوعات .

حضرة على ماهر بك — انما اطلب تقرير حرية موجودة الان فعلا لان الرقابة على الصحف غير موجودة الآن بحكم القوانين المصرية .

حضرة عبد اللطيف المكباتى بك — حضرة على ماهر بك يريد منع الرقابة على الصحف قبل اصدارها ، ولكن للبرلمان ان يضـع فى قانون الصحف من الاحكام ما شاء غير هذا .

حضرة على ماهر بك — أريد أن تنشر الصحف بدون تقديم لرقيب . وهذا واقع اليوم بالفعل .

حضرة توفيق دوس بك — وهذا مسلم به من الجميع .

حضرة محمود ابو النصر بك — لكن الرقابة موجودة فى الاحكام العرفية .

حضرة على ماهر بك — فى وقت الاحكام العرفية تتعطل أحكام الدستور وتحرم البلاد من حريات كثيرة .

حضرة توفيق دوس بك — وتقريرنا منع الرقابة على الصحف قبل اصدارها انما نريد به أن يكون فى الايام العادية فتقررت الموافقة على ذلك .

حضرة على ماهر بك — النقطة الثانية ان لكل فرد حق اصدار الصحف بلا حاجة الى ترخيص خاص متى توفرت فيـه الصـفات التى يقررها القـانون حتى لا تتحكم الادارة فى العطاء والمنع . ولا تميز بين الاشخاص الذين يتقدمون لها ماداموا حائزين للصـفات التى اشترطها القانون .

حضرة توفيق دوس بك — أرى الا يقيد البرلمان فيما يضعه من القوانين للصحف فقد يجوز أن يعطى للادارة هذا الحق .

حضرة على ماهر بك — انما نريد ان نحول دون استبداد الادارة ، ومتى كان الطالب حـائزا للشروط المطلـوبة قانونا وجب أن يرخص له باصـدار صحيفته .

حضرة توفيق دوس بك — يجوز ان يقرر البرلمان شروطا أخـرى غير الشروط الشخصية .

حضرة على ماهر بك — نريد ان نمنع البرلمان من هذا .

حضرة زكريا نامق بك — البرلمان هو الذى يمنع الادارة من الاستبداد فى اعطاء الرخص .

حضرة محمد على بك — برى زكريا بك أن القانون اذا أعطى للحكومة هذا الحق فالبرلمان يراقبها فى تنفيذه تنفيذا عادلا . ويرى حضرة على ماهر بك عدم ترك التصرف باعطاء الرخص وعدم اعطائها للحكومة . واننى أؤيد حضرة ماهر بك . فقد يكون طالب الرخصة من حزب الاقلية فترفض الحكومة اعطاء الرخصة . والحكومة دائما من حـزب الاكثرية ، فتجد من حزبها مؤيدا لها فى عملها ، واذ ذاك تستبد الاكثرية بالاقلية استبدادا يمنعها من أن تنشر آراءها .

حضرة على ماهر بك — أضرب مثلا يوضح فكرتى . اشترط للدخول فى مدرسة الحقوق أن يكون الطالب حائزا للبكالوريا ، وأن تكون سنه كذا ، فلا يصح منعه بعد ذلك من دراسة الحقوق — مثل هذا هو ما أطلبه للصحافة .

حضرة عبد اللطيف المكباتى بك — فى أول عهد الدستور يدخل الامة دخلاء كثيرون فسيكون يومئذ مصريون حقيقيون يصدرون الصحف لخدمة الامة ، ومصريون بالاسم يدخلون فى الصـحافة لخـدمة سياسة اجنبية . فلا محل لشـل يد البرلمان من أن تمتد لمنع مثل هذا الاذى من البلاد .

حضرة على ماهر بك — ان هذا التفريق بين مصرى ومصرى هدم لما سبق تقريره من أن المصريين متساوون فى الحقوق والواجبات . فان كان الضرر بالمصلحة العامة هو ما تخشى فامامك طريقان : طريق العقوبة فى الاحوال العادية ، وطريق اعلان الاحكام العرفية اذا استفحل الخطر .

حضرة على المنزلاوى بك — ارجو حضرة على ماهر بك ان يضع اقتراحه فى صيغة نص ويتلوه علينا .

حضرة على ماهر بك — الصحافة حرة ، والرقابة ممنوعة ، ولكل مصرى حق اصدار الصحف مادام حائزا للشروط التى يقررها القانون .

حضرة محمود ابو النصر بك — اذن لا خلاف بينك وبين حضرة مكباتى بك .

حضرة زكريا نامق بك — هذا مفهوم المادة الرابعة عشرة .

حضرة على ماهر بك — المادة الرابعة عشرة لم تتعرض مطلقا لحرية اصدار الصحف . على اننا مادمنا متفقين على المبدأ فلنقرره وندع الامر للتحرير ، فان كان هناك محـل لهـذا النص بعينـه اثبت ، وان اغنت النصوص الاخرى عنه لم تكن حاجة للاثبات .

حضرة عبد اللطيف المكباتى بك — أنا متفق مع حضرة على بك ماهر اذا هو استبدل عبارة « الشروط التى يقررها القانون » بعبارة « فى الحـدود التى يقررها القانون » .

حضرة على ماهر بك — هذا قد يسمح للبرلمان ان يضع قانونا يجعل للحكومة حق الترخيص بالصحف وعدم الترخيص بها .

حضرة محمد على بك — عبارة « الشروط

التي يقررها القانون » انما نقصد بها صفات شخصية فالحكم في وجود هذه الصفات وعدم وجودها هو القانون. أما عبارة « في حدود القانون » فقد تسمح بوضع قانون يجيز للحكومة اعطاء التصريح أو عدم اعطائه .

سعادة حافظ حسن باشا — لقد قررنا انه لا رقابة الا في وقت الاحكام العرفية ، ولم يكن عندنا قط رقابة بحكم القانون . أما مسألة التصريح باصدار الصحف عند توفر شروط خاصة فلي عليه اعتراض ، ذلك أن الادارة كثيرا ما ترى اناسا تتوفر فيهم جميع الصفات القانونية ولكنهم على جانب عظيم من الانحطاط الخلقي . فالشخص الدنيء الاخلاق وان توفرت فيه الصفات القانونية يخشى منه على الاخلاق العامة . وهذا أمر يجب ترك تقديره لجهة من جهات الحكومة . للمحلات العمومية والترخيص بها شروط ، فاذا فرضنا أن حصل خلاف بين صاحب المحل والحكومة ترى الرجل غالبا يفتح المحل بدون رخصة ، وفي هذه الحالة يكون الحكم للقضاء يدلي كل من الطرفين أمامه بحجته ، وهو صاحب القول الفصل في الموضوع . وما دام ذلك فعندنا ضمانان : أولهما نظر البرلمان فيما اذا كان هناك محل لرخصة او لا . والثاني مراقبة القضاء ، وذلك خير من ترك الامر فوضى فيدخل في الصحافة كل من اراد ، ولذلك ارى ان يكون النص : « لكل مصري حق اصدار صحيفة في حدود القانون »

معالي الرئيس — رأى حضرة علي ماهر بك أن لكل مصري حق اصدار الصحف ما دام حاصلا على الشروط التي يقررها القانون بلا حاجة الى ترخيص خاص . ورأى سعادة حافظ باشا ان نترك للبرلمان وضع شروط اصدار الصحف وقد يشترط القانون الذي يضعه البرلمان اخذ رخصة وقد لا يشترط .

حضرة توفيق دوس بك — أما حضرة علي ماهر بك فلا يرى بحال من الاحوال استصدار رخصة .

حضرة علي ماهر بك — النص الذي وضعته لا يحرم البرلمان من كل انواع المراقبة لتوطيد الامن وحماية الاداب . فللبرلمان ان يقرر ما شاء في حدود النظام العام .

هناك في بلاد اخرى ضمانات للصحافيين ، كاشتراط المحلفين في محاكمتهم حتى في الجنح ، وانا لم اقترح هذا تاركا للبرلمان أمر النظر فيه . وهناك حظر دفع التأمين ، ولم اقترح أنا حظره ، ثم ان الضمان ضد ما يخشاه سهل . فيمكن النص في القانون الذي يصدره البرلمان على أنه لا يتولى الصحافة غير الاكفاء . ويمكن تشديد العقوبة عند المساس بالاداب العامة ، وهذا أفضل أثرا من الترخيص والرقابة .

فقد رأينا تحت حكم قانون المطبوعات أن الجرائد التي تعتدي على الاداب لم تمس بسوء ، مع أن البرلمان له أن يمنع ذوي الاخلاق الفاسدة من احتراف الصحافة .

حضرة محمود ابو النصر بك — تؤخذ الاراء على النصين .

معالي الرئيس — نص حضرة ماهر بك هو : « الصحافة حرة ، والرقابة ممنوعة ، ولكل مصري حق اصدار الصحف مادام حائزا للشروط التي يقررها القانون » . فهل تأخذ الهيئة به أو تأخذ بالنص الثاني ؟

تقرر الاخذ بالنص الثاني وهو : « الصحافة حرة ، والرقابة ممنوعة ، ولكل مصري حق اصدار الصحف في الحدود التي يقررها القانون » . على أن تكون مادة ١٤ مكررة .

[في ٢١ اغسطس ١٩٢٢]

الصحافة حرة في حدود القانون ، والرقابة على الصحف محظورة ، وانذار الصحف او وقفها او الغاؤها بالطريق الاداري محظور كذلك .

حضرة علي ماهر بك — اريد أن اتكلم عن المادة الرابعة عشرة من باب حقوق المصريين وواجباتهم الخاصة بالصحافة ، ونصها هو : « الصحافة حرة في حدود القانون . والرقابة على الصحف قبل نشرها محظورة » .

تكلمنا عن هذا النص كثيرا ، ودولة رشدي باشا ابلغنا امس أن له ملاحظات على هذه المادة ويود ان يبلغها للجنة ، وهي تعديلين على النص وزيادة فقرة عليه .

أما التعديل الاول فهو زيادة كلمة « العام » بعد عبارة « في حدود القانون » حتى لا تكون الصحافة مقيدة في حريتها الا بالقانون العام .

والتعديل الثاني هو حذف عبارة « قبل نشرها » ليكون النص « والرقابة على الصحف محظورة » أي بصفة عامة .

أما الفقرة التي يريد اضافتها فهي « ان الصحف لا يجوز أن تكون محلا لعقوبات ادارية »

معالي ظلعت باشا — الاضافة الاخيرة لا لزوم لها اكتفاء باضافة كلمة « العام » لان هذا النص يمنع جهات الادارة من التعرض للصحافة بأي عمل كان .

حضرة عبد اللطيف المكباتي بك — اننا الان في حالة انتقال . وأول واجب علينا هو تربية الشعور العام على المبادئ الصحيحة ونشر الاراء السليمة . وحالتنا تقبل التطرف . وأول ما يقبل التطرف هو الصحافة . ومع الاسف اقرر أن كثيرا من الصحف لا يعمل للمصلحة العامة بل يسير وراء آراء أو اغراض خاصة — لذلك أرى أن يترك للبرلمان الحرية التامة لوضع الانظمة التي يرى وضعها للصحافة .

لقد مرت ايطاليا بتجارب عديدة تشبه ما نمر وما ينتظر أن نمر به . وقد وضعت لنفسها دساتير تقرب من العشرين . وقد جاء في دستورها الاخير نص حكيم يتعلق بالصحافة ارجو ان نتخذه نبراسا لنا في وضع نص مثله في دستورنا ، وهذا هو نص المادة في الدستور الايطالي :

« الصحف حرة ولكن للبرلمان أن يقيد التطرف فيها » .

نرى الان الكثير من صحفنا لا يتبع الطريق القويم ، وأخشى أن يزداد ذلك . فأرجو أن يترك البرلمان حرا ليمكنه وضع العلاج الذي يكون ضروريا لحالة البلاد . وذلك بأن نضع في دستورنا نصا شبيها بنص الدستور الايطالي .

حضرة الياس عوض بك — المادة بنصها الحالي فيها الضمان الكافي .

حضرة عبد العزيز فهمي بك — النص الحالي هو النص الذي ادخل على الدستور التركي في سنة ١٩٠٩ ، أي عقب الثورة التركية . ومع ذلك فلا اعارض في التوسع في حرية الصحافة فقد كان لي نص عرضته فيما مضى أوسع من كل هذا .

ولكني اعارض في زيادة كلمة « العام » في اول المادة لانه لايمكن ان يحجر على البرلمان وضع قانون خاص للصحافة .

حضرة علي ماهر بك — المراد هو منع تسلط الادارة على الصحف بأية طريقة من الطرق فلا يباح للادارة انذار الصحف أو اقفالها .

حضرة عبد العزيز فهمي بك — نحن متفقون على منع جهة الادارة من ارسال انذارات الى الصحف أو وقفها بغير حكم قضائي . وسأتفق مع حضرة علي ماهر بك على وضع الصيغة المطلوبة .

موافقة عامة على ذلك ، وأن يعرض النص غدا في أول الجلسة .

[في ٥ اكتوبر سنة ١٩٢٢]

حضرة عبد العزيز فهمي بك — قررتم في الجلسة الماضية تعديل نص المادة الرابعة عشرة من باب حقوق المصريين الخاصة بحرية الصحافة فأقترح عليكم النص الاتي :

« الصحافة حرة في حدود القانون ، والرقابة على الصحف محظورة ، وانذار الصحف أو وقفها أو الغاؤها بالطريق الاداري محظور كذلك » .

[موافقة عامة]

[في ٦ اكتوبر سنة ١٩٢٢]

اللجنة الاستشارية التشريعية

هنالك بعض حريات دستورية لا يمكن السماح بها في حالة الاعتداء على الاسس

الجوهرية للهيئة الاجتماعية » فخطر الدعاية الشيوعية القائمة فى الوقت الحاضر يجعل من واجب الحكومات ان تعمل على حماية الدولة ولو استلزم ذلك الرجوع الى تدابير قد تكون مخالفة للمبادىء المقررة فى الدستور لصيانة حرية السكان الهادئين والمخلصين للبلاد، فيكون من الحكمة التمكين من وضع التشريع المناسب لمناهضة مثل هذه الدعاية الهدامة ، وذلك بتضمين ثلاثة من أحكام الدستور تحفظات ، وهى الحكم الخاص بحرية الصحافة [مادة ١٥] ، والحكم الخاص بحق الاجتماع [مادة ٢٠] والحكم الخاص بعدم تسليم اللاجئين السياسيين [مادة ١٤٠ قديمة ومادة ١٥١ جديدة] » .

● يحاكم الصحفيون فى الجنح أمام محاكم الجنح :

مجلس النواب :

مشروع قانون :

بالغاء القانون رقم ٢٧ لسنة ١٩١٠ الصادر بشأن دعاوى الجنح التى تقع بواسطة الصحف أو غيرها من طرق النشر والمرسوم بقانون الصادر فى ١٩ اكتوبر سنة ١٩٢٥ بتعديل القانون رقم ٢٧ لسنة ١٩١٠ بشأن دعاوى الجنح التى تقع بواسطة الصحف أو غيرها من طرق النشر .

الرئيس — ننتقل الى نظر مشروع القانون الخاص بالجنح التى تقع بواسطة الصحف لنأخذ الرأى على القانونين معا بالنداء على الاسماء .

مغازى البرقوقى افندى [المقرر] :

« نحن فؤاد الاول ملك مصر

قرر مجلس الشيوخ ومجلس النواب القانون الاتى نصه ، وقد صدقنا عليه وأصدرناه :

مادة ١ — يلغى القانون رقم ٢٧ لسنة ١٩١٠ الصادر بشأن دعاوى الجنح التى تقع بواسطة الصحف أو غيرها من طرق النشر ، وكذا المرسوم بقانون الصادر فى ١٩ أكتوبر سنة ١٩٢٥ بتعديل [القانون رقم ٢٧ لسنة ١٩١٠ الصادر بشأن دعاوى الجنح التى تقع بواسطة الصحف أو غيرها من طرق النشر] .

الاستاذ عمر عمر — مع موافقتى على الغاء القانون رقم ٢٧ لسنة ١٩١٠ اعترض على نص المادة الاولى على الغاء المرسوم بقانون الصادر فى ١٩ اكتوبر سنة ١٩٢٥ أيضا . وأرى أن يكتفى بالنص على الغاء القانون رقم ٢٧ لسنة ١٩١٠ لان المرسوم الصادر سنة ١٩٢٥ صدر فى أثناء العطلة البرلمانية ويسرى عليه حكم المادة ٤١ من الدستور ، فيكفى لبطلانه عدم موافقة أحد المجلسين عليه ، فلا داعى أن ينص فى المادة الاولى على الغائه ، لانى أخشى أن توافق على الغائه هنا ثم يأتى مجلس الشيوخ ولا يوافق على الغائه فنكون قد أعطيناه قوة القوانين الصحيحة .

لذلك أرى أن يكون نص المادة الاولى ما يأتى :

« يلغى القانون رقم ٢٧ لسنة ١٩١٠ الصادر بشأن دعاوى الجنح التى تقع بواسطة الصحف أو غيرها من طرق النشر » .

« هنا رأس المجلس حضرة صاحب العزة الاستاذ حسين هلال بك وكيل المجلس » .

المقرر — أظن ان حضراتكم توافقوننى على ان الطريقة التى يشير بها حضرة الاستاذ عمر عمر يترتب عليها تكرار وارتباك فى العمل لا مبرر لهما ، فان حضرته يقترح أن نلغى أولا القانون رقم ٢٧ لسنة ١٩١٠ ، ثم نلغى بعد ذلك المرسوم بقانون الصادر فى ١٩ اكتوبر سنة ١٩٢٥ — وفى هذا ضياع لوقتنا رغما من كونه لا يؤدى من الوجهة العملية الى نتيجة أخرى .

ان حضرة الاستاذ عمر عمر متفق مع اللجنة على ضرورة ارجاع الحالة ، فيما يختص بجنح الصحف ، الى ماكانت عليه قبل سنة ١٩١٠ ، اذ كانت المحاكم الجزئية هى المختصة بنظر قضايا الصحف فلما صدر قانون سنة ١٩١٠ أصبحت محاكم الجنايات هى المختصة بنظرها .

أما المرسوم بقانون الصادر فى ١٩ اكتوبر سنة ١٩٢٥ فتقضى باختصاص المحاكم الجزئية اذا كانت الجريمة الصحفية ضد أحد الافراد والا فتكون محاكم الجنايات هى المختصة فى الاحوال الاخرى فاذا تركنا المادة الاولى خلوا من النص على الغاء المرسوم بقانون الصادر فى سنة ١٩٢٥ ولم يوافق مجلس الشيوخ على ارجاع الحال الى ماكانت عليه قبل سنة ١٩١٠ ، كانت النتيجة أن تصبح محاكم الجنايات هى المختصة وحدها بنظر قضايا الصحف ، وهذا مالا يتفق مع رغبة حضراتكم جميعا — لهذا تصر اللجنة على ابقاء المادة الاولى على ماهى عليه .

محمد يوسف بك — اننى أرى أن ملاحظة حضرة الاستاذ عمر عمر وجيهة لان مشروع القانون الذى نحن بصدده كان فى الاصل اقتراحا بمشروع قانون قدمه أحد حضرات الاعضاء لاجل الغاء القانون رقم ٢٧ لسنة ١٩١٠ ، ولما بحثت لجنة الحقانية ذلك الاقتراح وجدت ارتباطا بين قانون سنة ١٩١٠ وبين مرسوم سنة ١٩٢٥ ، ولذلك أضافت الى الاقتراح نصاً بالغاء المرسوم المذكور

وقد كان واجب اللجنة — مادامت قد اتجهت فكرتها الى عدم اقرار مرسوم سنة ١٩٢٥ — أن تسرع بتقديم ذلك المرسوم الى المجلس وتدلى اليه برايها فى عدم الموافقة عليه . فاذا اقر المجلس هذا الراى زالت تلك العقبة وأصبح المرسوم لا وجود له ، وبعد ذلك كانت تقدم الاقتراح الخاص بالغاء القانون رقم ٢٧ لسنة ١٩١٠ وتعرض على المجلس رايها فيه .

هذا هو الطريق الذى كان يجدر باللجنة أن تسلكه .

اننا اذا بحثنا مشروع القانون الان على الصورة التى هو عليها فكأننا أنزلنا المرسوم الصادر فى سنة ١٩٢٥ منزلة القوانين وجعلناه محل اخذ ورد بين مجلسى النواب والشيوخ . واذا ماوافقنا على هذا المشروع كما هو أعطينا المجلس حق الموافقة على الغاء المرسوم المشار اليه أو عدم الموافقة .

لهذا أرى اما أن يؤجل البحث فى هذا المشروع حتى ينظر المجلس فى مرسوم سنة ١٩٢٥ أو أن يقتصر الامر على الغاء قانون رقم ٢٧ لسنة ١٩١٠ .

وانى أرى من الوجهة العملية ان يؤجل هذا المشروع لمدة أسبوع على أن تقدم لجنة الحقانية رايها الى المجلس فى المرسوم الصادر فى اكتوبر سنة ١٩٢٥ على حدة . فاذا ما وافق المجلس على الغائه تلا ذلك فورا الكلام فى الغاء القانون رقم ٢٧ لسنة ١٩١٠ .

المقرر — اننا اذا اخذنا برأى حضرة الاستاذ محمد يوسف بك ، والغينا المرسوم لسنة ١٩٢٥ أولا ، ترتب على ذلك انتقال جميع القضايا التى رفعت أمام المحاكم الجزئية بمقتضى هذا المرسوم الى محاكم الجنايات ، وكذلك القضايا فى الفترة بين الغاء هذا المرسوم والغاء قانون سنة ١٩١٠ وهذا يتنافى مع رغبة المجلس ورغبة اللجنة . على انى لا أجد فائدة عملية من القول بأن مجلس الشيوخ ليس من اختصاصه عدم الموافقة على مرسوم سنة ١٩٢٥ بعد أن الغاه مجلس النواب اذ لا ضرر من موافقته كذلك على الالغاء ، ولا مبرر للخوف من ان يترتب على السير على هذه القاعدة أى ضرر ، اذ الواقع ألا ضرر منها مطلقا .

عمر عمر أفندى — أرى ألا نتعرض الان لمرسوم سنة ١٩٢٥ ، فتستمر المحاكم فى تطبيقه الى أن ينتهى المجلسان من النظر فى الغاء قانون سنة ١٩١٠ . ومع ذلك أرجو ان نعرف رأى وزارة الحقانية فى هذا الموضوع ، لانى اعتقد أن مشروع القانون المعروض علينا بالحالة التى هو عليها الان يعطى مرسوم سنة ١٩٢٥ قوة القوانين الصحيحة ، وهذه سابقة خطيرة أرى أن نتحاشاها .

محمد يوسف بك — يمكننى أن أوافق على رأى اللجنة بشرط أن تستبدل بكلمة « وكذا » الواردة فى المادة الاولى من مشروع القانون كلمة « ويرفض » .

الرئيس — ان الالغاء حكمه حكم الرفض .

محمد يوسف بك — نريد الدقة فى تأدية المعنى المطلوب . ومع ذلك ، فهل توافق اللجنة على أن يثبت فى مضبطة الجلسة

انها تتصل الرتقن بكلمة « وكذا » الواردة فى المادة الاولى من مشروع القانون ؟

المقرر — لا مانع لدى اللجنة من ذلك .

محمد يوسف بك — وهل يوافق معالى وزير الحقانية على ذلك ؟

وزير الحقانية — اننى فى الواقع أرى انه كان من الممكن اختصار جميع المناقشة التى دارت حول هذا الموضوع ، لان الغاء قانون سنة ١٩١٠ — الذى يترتب على الغائه طبعا الغاء المادة الاولى منه — يلغى المرسوم بطبيعة الحال . اذ ان الغاء المادة المذكورة يجعل جميع الجنح التى تقع بواسطة الصحف من اختصاص المحاكم الجزئية . واذن فلايصح التعرض لمرسوم سنة ١٩٢٥ مطلقا .

المقرر — أن القانون رقم ٢٧ لسنة ١٩١٠ قضى بأن دعاوى الجنح التى تقع بواسطة الصحف ترفع جميعها أمام محكمة الجنايات أما المرسوم فقد اشار الى أن جميع الجنح التى تقع بواسطة الصحف تحكم فيها محاكم الجنايات ، الا ماكان منها مضرا بأفراد الناس . وبناء على ذلك اذا الغينا القانون رقم ٢٧ لسنة ١٩١٠ بقى المرسوم معمولا به بنصه .

وزير الحقانية — أرجو تلاوة المادة الاولى من القانون رقم ٢٧ لسنة ١٩١٠

المقرر — هاهو النص اتلوه على حضراتكم :

« المادة الاولى — الجنح التى تقع بواسطة الصحف أو غيرها من طرق النشر تحكم فيها محاكم الجنايات ، ويكون حكمها غير قابل للاستئناف » .

وانى اتلو على حضراتكم المادة الاولى من مرسوم ١٩ اكتوبر سنة ١٩٢٥ ، ونصها :

« مادة ١ — تعدل المادة الاولى من القانون رقم ٢٧ لسنة ١٩١٠ السابق ذكره على الوجه الاتى :

« الجنح التى تقع بواسطة الصحف او غيرها من طرق النشر — عدا الجنح المضرة بأفراد الناس — تحكم فيها محاكم الجنايات ويكون حكمها قابلا للاستئناف » .

من هذا ترون حضراتكم أننا اذا الغينا قانون سنة ١٩١٠ بقى مرسوم سنة ١٩٢٥ معمولا به بالشروط المدونة فيه ، أى أن كل قضايا الجنح المذكورة تنظر أمام محاكم الجنايات الا ما هو خاص بالجنح المضرة بافراد الناس ، وهذا لا يتفق مع غرض المقترح ولا مع غرض اللجنة .

حسن صبرى بك — الواقع أن المادة الاولى من مشروع القانون المعروض علينا الان قد تضمنت حكمين متعارضين ، لان مرسوم سنة ١٩٢٥ يصبح باطلا بمجرد اقرارنا اللبلة المادة الاولى ، وبذلك تصبح القضايا التى يجعلها المرسوم من اختصاص المحاكم الجزئية « من اختصاص محاكم الجنايات ، أما قرارنا بالغاء قانون رقم ٢٧ لسنة ١٩١٠ فلا يصبح نافذا الا بعد موافقة مجلس الشيوخ ثم موافقة جلالة الملك عليه .

أعنى ان الشق الاول من المادة يستلزم قرار المجلسين وموافقة جلالة الملك .

أما الشق الاخير فلا يستلزم الا قرارنا ومعنى هذا اننا اذا الغيناه فاننا نلغى حكمه من الان » وتكون النتيجة ان الجنح التى تنظر الان بناء على هذا المرسوم أمام المحاكم الجزئية يحكم فيها — بمجرد قرارنا — بعدم الاختصاص . وبهذا تكون النتيجة غريبة لاننا نريد أن نعيد جنح الصحافة الى اختصاص المحاكم الجزئية . وحتى يصبح هذا المشروع قانونا — وقد يمضى وقت طويل قبل أن يصبح كذلك ، اذ يجوز الا يتمكن مجلس النواب من نظره فى هذه الدورة كما يجوز الا يقره مجلس الشيوخ — تكون النتيجة اننا نقع فى عكس ما أردناه ، اى أن الجنح التى تنظر أمام القاضى الجزئى تصبح من اختصاص محاكم الجنايات . كذلك أرى منعا لهذا أن تضاف الى آخر المادة فقرة نصها :

« أن يكون الغاء هذا المرسوم بقانون من تاريخ العمل بهذا القانون » وبذلك تبقى جنح الصحافة من اختصاص القاضى الجزئى .

محمد صبرى ابو علم افندى — ان ملاحظة الاستاذ حسن صبرى بك وجيهة ، ولهذا لجأت اللجنة الى الطريقة التى اقترحتها لالغاء المرسوم . ولو أن اللجنة قدمت الى المجلس مشروع قانون بالغاء قانون سنة ١٩١٠ فقط لكان لاعتراض حضرة حسن صبرى بك محل ، ولكنها رأت فى الوقت الذى نتقدم فيه بطلبه الغائه ان تطلب الغاء المرسوم بقانون الصادر فى ١٩ اكتوبر سنة ١٩٢٥ لانهما مرتبطان أحدهما بالاخر . وكذلك رأت اللجنة ان يكون الطريق الدستورى لالغائهما طريقا واحدا . ولهذه الطريقة قيمتها من الوجهة العملية ، اذ يجب ان يكون للقضاء مرجع واحد ووثيقة واحدة لمعرفة وجهة البرلمان فى مسألة واحدة حتى تسهل عليهم تكوين فكرة خاصة عن رأى المشرع .

وبما ان قانون سنة ١٩١٠ ، ومرسوم سنة ١٩٢٥ كلاهما مرتبط بموضوع واحد وكلاهما متعلق بتحديد الجهة المختصة بالنظر فى جنح الصحافة ، وكلاهما معروض على المجلس ، والمجلس يرى ان تكون جنح الصحافة من اختصاص محاكم الجنح ، وقانون سنة ١٩١٠ يجعلها من اختصاص محاكم الجنايات ومرسوم سنة ١٩٢٥ جعل الجنح التى تحصل ضد الافراد من اختصاص محاكم الجنح — لذلك رأت اللجنة ان تأخذ من مرسوم سنة ١٩٢٥ الشطر الخاص بجعل الجنح التى تقع ضد الافراد من اختصاص محاكم الجنح » أما الشطر الاخر الذى يؤيد فيه قانون سنة ١٩١٠ فلم تأخذ به ولذلك طلبت الغاءه « وقد كان يمكن للجنة الا تشير لمرسوم سنة ١٩٢٥ لولا انه مؤيد ضمنا لقانون سنة ١٩١٠ الذى ينظر المجلس فى الغائه اليوم » وهذا ما دعا اللجنة الى ان تمسح مرسوم سنة ١٩٢٥ فى المشروع الذى تقدمت به لحضراتكم » وهذه الطريقة « مهما وجه ضدها من الاعتراضات ، لها قيمتها من الوجهة العملية » وهى مفيدة جدا اذ لا يمكن بها ان تتضارب الاراء فى معرفة الاختصاص الذى يقرره مجلس النواب ومجلس الشيوخ بالنسبة لجنح الصحافة .

لذلك لا أرى اية شائبة على شكل مشروع القانون الذى تتقدم به اللجنة .

أحمد رمزى بك — ان الطريقة التى عرضها حضرة الاستاذ عمر عمر ، والتى انضم اليه فيها حضرة الاستاذ حسن بك صبرى » هى الطريقة الصحيحة . تقول اللجنة ان الغاء المرسوم الصادر فى سنة ١٩٢٥ » من الان تتوافر فيه الفوائد العملية المطلوبة والمؤدية للغاية ، ولكن السؤال الذى وجهته هو : هل يملك المجلس ان يصدر قانونا يخالف قاعدة نص عليها قانون سابق ؟

لقد صدر فى سبتمبر سنة ١٩٢٦ قانون وافق عليه المجلسان ، ووقعه جلالة الملك ، نص فيه على أن عدم موافقة أحد المجلسين على المراسيم بقوانين التى صدرت فى اثناء عطلة البرلمان موجب لسقوطها » وهذه القاعدة يجب احترامها لانها سهلت على أحد المجلسين الغاء اى مرسوم وجعلت له سلطة خاصة تخالف السلطة العادية فى الدستور ، وانما قد نص عليها قانون يجب احترامه والعمل بنصوصه « فلا يجوز مطلقا اصدار قانون بالغاء المرسوم بقانون غير المرغوب فيه ، لان هذا » كما قلت لحضراتكم « يتناقض مع القاعدة التى نص عليها قانون سنة ١٩٢٦ » وهى أنه يكفى لسقوط المرسوم بقانون الا يوافق عليه أحد المجلسين .

أما ما يقوله حضرة الاستاذ حسن صبرى بك من اضافة عبارة « يعمل بهذا القانون من تاريخ الغاء المرسوم » فهو لا يرد الاعتراض الذى وجهته لانه على كل حال اعطى للمرسوم بقانون الصادر فى سنة ١٩٢٥ قوة ليست له .

الرئيس — الا يملك الالغاء من يملك عدم الموافقة ؟

أحمد رمزى بك — ان وضع مادة خاصة لالغاء مرسوم سنة ١٩٢٥ يتناقض تماما مع القانون الصادر فى سنة ١٩٢٦ » الذى ينص على ان القوانين الصادرة فى العطلة البرلمانية تعتبر صحيحة الا اذا لم يوافق عليها أحد المجلسين .

المقرر — توفيقا لهذه الاراء المتشعبة تقترح اللجنة أن يكون نص المادة ما يأتى :

« يلغى القانون رقم ٧ لسنة ١٩١٠ » الصادر بشأن دعاوى الجنح التى تقع

بواسطة الصحف أو غيرها من طرق النشر . ومن تاريخ العمل بهذا القانون يبطل العمل بالمرسوم بقانون الصادر في ١٩ أكتوبر سنة ١٩٢٥ ..... الخ » .

الرئيس — هل توافقون على ذلك ؟

[موافقة عامة] »

أحمد رمزي بك — اطلب تأجيل نظر هذه المادة الى جلسة اخرى حتى نضع لها صيغة دقيقة .

الرئيس — لقد وافق المجلس على المادة بعد تعديل اللجنة .

المقرر — لا

« مادة ٢ — دعاوى الجنح التي وقعت بواسطة الصحف أو غيرها من طرق النشر قبل صدور هذا القانون ، ولاتزال منظورة أمام محاكم الجنايات ، تحال بالحالة التي هي عليها على المحاكم الجزئية المختصة » .

الرئيس — هل توافقون على هذه المادة ؟

[موافقة عامة]

المقرر — انا

« مادة ٣ — على وزير الحقانية تنفيذ هذا القانون ، ويعمل به من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية نأمر بأن يبصم هذا القانون بخاتم الدولة وأن ينشر في الجريدة الرسمية وينفذ كقانون من قوانين الدولة .

صدر في :...... »

الرئيس — هل توافقون على ذلك ؟

[موافقة عامة] .

الرئيس — لناخذ الان الرأى على هذا المشروع وعلى مشروع قانون تحضير القضايا بمناداة الاسماء ، ويؤخذ الرأى وافق المجلس عليهما باجماع ١٢٢ صوتا .

[في ٢١ مايو سنة ١٩٢٨]

يفرد للصحفيين اماكن مستقلة في السجن ويعاملون معاملة خاصة

حضرة الاستاذ المحترم يوسف أفندى الجندى [الوكيل البرلماني لوزارة الداخلية]

... ...

صدر في عهد وزارة حضرة صاحب الدولة على ماهر باشا مرسوم بقانون رقم ٢ لسنة ١٩٣٦ بشأن نظام المحكوم عليهم في جرائم الصحافة .

وتنص الفقرة الاولى من المادة الاولى من هذا المرسوم بقانون على ما يأتي :

« تنفيذ عقوبة الحبس البسيط او الحبس مع الشغل المحكوم بها في الجنح التي ترتكب باحدى طرق العلانية المنصوص عليها في المادة ١٤٨ من قانون العقوبات في أماكن مستقلة عن الاماكن المخصصة للمسجونين الآخرين ، وتفرد لكل محكوم عليه غرفة خاصة تجهز بالطريقة التي يحددها قرار من وزير الداخلية » .

من العجب العجاب ان قرأت اليوم في صحيفة من الصحف ان الوزارة الحالية أغفلت هذا القانون وأسقطته ولم تقدمه للبرلمان ، والحقيقة غير ذلك . فالقانون قائم ومعمول به ولم ينتظر وزير الداخلية حتى تبنى أمكنة للمسجونين السياسيين ، فأصدر في ١١ أغسطس سنة ١٩٣٦ قرارا بأن المسجونين السياسيين تنفذ عليهم العقوبة في أماكن مستقلة عن الاماكن المخصصة للمسجونين الاخرين وتفرد لكل محكوم عليه غرفة خاصة تجهز بالاثاثات الاتية وهي :

سرير ، مرتبة ، مخدة ، بطانية .. الخ

ولا يجبر المسجونون المذكورون على لبس الكسوة المقررة في السجن .

فالوزارة لم تغفل هذا القانون بل أخذت به وادرجت في مشروع ميزانية وزارة الاشغال مبلغ أربعة عشر ألفا من الجنيهات لبناء سجن خاص للمسجونين السياسيين .

[في ١٠ يونية سنة ١٩٣٧] .

مجلس النواب (دور الانعقاد غير العادى)

كل ما يقال في المجلسين لن يكون محلا للرقابة ، ويكون صداه مرددا بين الشعب المصرى باجمعه اثناء الاحكام العرفية ، كذلك حرية الصحافة مكفولة .

الرئيس — مرسوم باعلان الاحكام العرفية نصه :

نحن فاروق الاول ملك مصر

بعد الاطلاع على القانون رقم ١٥ لسنة ١٩٢٣ الخاص بنظام الاحكام العرفية :

وبناء على ما عرضه علينا وزير الداخلية وموافقة راى مجلس الوزراء ، رسمنا بما هو آت :

[المادة الاولى]

ابتداء من ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٩ تجرى الاحكام العرفية في جميع أنحاء المملكة المصرية .

[المادة الثانية]

يخول على ماهر باشا السلطة في اتخاذ التدابير المشار اليها في المادة ٣ من القانون المذكور ، ويرخص له ، علاوة على ذلك ، باتخاذ أى اجراء آخر لازم للمحافظة على النظام أو الامن العام في جميع انحاء المملكة المصرية أو في جهات معينة منها .

[المادة الثالثة]

على وزرائنا تنفيذ هذا المرسوم كل فيما يخصه .

صدر بسراى المنتزه في ١٧ رجب سنة ١٣٥٨ [اول سبتمبر سنة ١٩٣٩] .

... ...

حضرة النائب المحترم الاستاذ عبدالحميد عبد الحق — أريد أن أوجه سؤالا بسيطا الى حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء ، هل يعد رفعته بأن جميع المناقشات التي ستجرى في المجلس أثناء هذه الدورة غير العادية ، لا يتعرض الرقيب لنشرها في الصحف ؟

حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء — لا شك أن من أحب الامور الينا ، ان كل ما يقال في هذا المجلس يكون صداه مرددا بين الشعب المصرى بأجمعه ، فما نحن الا وكلاء .

حضرة النائب المحترم الدكتور أحمد ماهر

... ...

فاتنى أن أشير الى مسألة حرية الصحافة ، وهي المسألة التي أشار اليها حضرة النائب المحترم الاستاذ عبدالحميد عبد الحق . اننا دون شك نطمع من الحكومة ان تخفف يد الرقيب نوعا ما من الصحف ، لاننا لا نريد أن نقرأ جرائد من نوع واحد ومن نسخة واحدة . ولكننا من جهة اخرى نريد ان تكون مراقبة الحكومة كاملة وشديدة اذا ما وجدت ان مصلحة البلاد تقتضى ذلك .

وانى اعتقد ان كل ما سيقال في هذا المجلس سيراعى فيه هذا الاعتبار ، فتتمكن الحكومة من ان تسمح للجرائد بنشر كل ما يقال . وهذا هو ما أشار اليه حضرة النائب المحترم الاستاذ عبد الحميد عبد الحق . وانى ارجو ان يوفقه الله لتحقيق ما بينته من القول الصالح المفيد لمصلحة البلاد ولخيرها ، حتى يمكن ان تنشر كل اقواله كاملة .

[تصفيق وضحك] .

... ...

حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء — سمعت من بعض حضرات النواب المحترمين . كلمات خاصة بالصحافة ، لذلك اردت أن أطمئن حضراتكم قبل ختام هذه الجلسة ، فأعلن انه اذا كان قد وقع بعض الخطأ من تصرفات المراقبين ، فلا يدل ذلك على سياسة حكومية ، انما هو نظام جديد ، اخترنا للاشراف عليه في مبدأ الامر أكبر موظف في وزارة الداخلية ، وعندما بلغنى أن هناك اعتراضا او شكوى على تصرفاته عينت من يحل محله .

واظن ان الشكوى الان اصبحت قاصرة — على ماسمعت اليوم — على بعض صغار الموظفين الذين يتولون رقابة محلية . وهذه الناحية أيضا سأتولاها بالتعديل ، لاننا لا نرضى أن نمنع الصحف من ان تصور لنا حقيقة الحال في البلاد . لا نريد مطلقا الا نسمع كل نقد يكون رائد صاحبه فيه خيرا لبلاده . ان هذا هو الذى يقوينا ، وهذا هو الذى نريده على الدوام

[تصفيق] .

اننا لم نوجه الى الرقباء أية تعليمات من هذا النوع الذى كان محلا للشكاوى التي سمعناها وكل ما طلبناه منهم أن يعملوا على أن تكون البلاد قوية لتقابل الظروف والحالات التي قد تتعرض لها ، واهم ما وجهنا نظرهم اليه هو منع نشر كل ما يدعو الى ايجاد الشقاق في البلاد . اننا نريد البلاد قوية ، نريد وحدة الامة [تصفيق] .

حضرة النائب المحترم عباس محمود العقاد — حضرات النواب المحترمين : اما وقد عرض هذا المجلس لرقابة الصحافة ، فانى كصحفى ومن أشد

الناس غيرة على حرية الصحافة ، أحب أن نذكر دائما ان الرقابة التى تفرض فى هذه الاحوال على الصحف ليست حدا للحرية ، بل هى تحقيق لمصلحه وطنية عظيمة يجب ان نتضافر عليها [تصفيق] .

ان من واجبنا جميعا ان نمنع دسائس الاعداء ، وأن نمنع اشاعات الجواسيس ، وان نمنع ما يتسرب خلال السطور من اقوال المأجورين .

فاذا حدث خلال ذلك أن خبرا من الاخبار او اشاعة من الاشاعات ، حذفت بنوع من التشدد أكثر مما ينبغى ، فيجب الا ننتظر من الرقباء ان يكونوا أكثر دقة من قضاة المحاكم ، وهؤلاء القضاة — كما تعلمون — قد تفلت منهم احكام هى مجال للاستئناف والمراجعة .

لذلك كان من واجبنا ان نذكر الاعداء الكثيرين الذين يبذلون ملايين الجنيهات فى سبيل نشر الدعوة ، ولا يهملون مصر ولا الصحف المصريه ، بل هم يجتهدون فى ان يدسوا عليها — عالمة او غير عالمة — اخبارا نحن اول من يصادرها ، ولو كنا هنا فى مجلس النواب [تصفيق]

هذه هى الحقيقة . وانما الذى اشعر به الان هو أن رقابة الصحف فى مصر ارقى واوسع من رقابة الصحف فى فرنسا . ومعى الان مصادفة عدة صحف جاءتنى من فرنسا ومواضع البياض فيها اكثر من السواد . والحق ان شيئا من هذا لم يحدث فى مصر ونرجو الا يحدث . ولا شك أن الرقابة عمل وطنى وليست من نوع الرقابة التى كانت تفرض فيما مضى لخنق حرية الامة ولتنفيذ السياسة الاجنبية [تصفيق] .

[فى ٢ اكتوبر سنة ١٩٣٩]

يطبق قانون العقوبات على ما ينشر فى الصحف ، ولو كان الرقيب ، اثناء قيام الاحكام العرفية ، اجاز نشره ، لانه لا يملك تعطيل احكام قانون العقوبات

تقرير لجنة العدل

من المرسوم بقانون رقم ٩٧ لسنة ١٩٣٩ باضافة احكام جديدة الى قانون العقوبات

... ...

حضرة النائب المحترم الاستاذ محمد فكرى أباظة — الان وقد اعلنت الاحكام العرفية وعين رقيب للمطبوعات ، فهل اذا نشرت بيانات محظور انشاؤها ، أعاقب عليها ولو كانت مما اجازها الرقيب ؟

المقرر — ليست مهمة الرقيب تطبيق قانون العقوبات ، وانما تطبيق القانون الخاص بالاحكام العرفية . فالفرض من تعيينه ملاحظة عدم نشر اى شىء من شأنه اثارة الخواطر . أما ما ينشر وينطبق عليه قانون العقوبات فالكاتب والناشر مسئولا عنه .

حضرة النائب المحترم الاستاذ فكرى اباظة — صدرت الاوامر للرقيب ، بموجب قانون الاحكام العرفية ، بعدم اجازة نشر البيانات التى ترى الحكومة عدم نشرها ، اذن فمعنى ذلك ان الناشر لا يقع تحت طائلة قانون العقوبات ما دام الرقيب قد اجاز نشره .

حضرة صاحب المعالى وزير العدل — تقرر الحكومة ان قانون العقوبات نافذ . فاذا تبين ان هناك ما يعاقب عليه فى نشرة دورية ، فان قانون العقوبات يطبق فى هذه الحالة ، ولو كان الرقيب قد اجاز نشره ، لانه لا يملك تعطيل احكام قانون العقوبات .

[فى ٥ اكتوبر سنة ١٩٣٩]

مجلس النواب

مناقشـــة

بيان حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء

... ...

حضرة النائب المحترم محمد محمود باشا .

... ...

لم اكن اريد ان ازيد على ماتقدم فى شأن الاحكام العرفية . لكن بعض حضرات النواب المحترمين أشاروا فى جلسة ماضية الى الرقابة على الصحف والى انها تتجاوز فى تطبيقها الغرض الذى اعلنت الاحكام العرفية من اجله ، وان الرقباء لا يبيحون ان يتناول احكام الحكومة بالنقد احد ، ولا ان يبدى لها احد رأيا قد لا يروقها .

ياحضرات النواب المحترمين :

ان الرقابة التى تؤدى الى مثل ماقدمت من نتائج تتجاوز الغرض الذى أعلن الحكم العرفى من أجله فى الوقت الحاضر وهى ، الى ذلك ، عظيمة الضرر . وأقل ضررها أن تجعل الناس يتصورون من الحوادث التى تمس الحرية وتخالف قواعد العدل أضعاف ما يقع بالفعل ، وكلكم تقدرون الاثر السىء الذى ينشأ عن انتشار هذه العقيدة بين الناس حين تساورهم المخاوف على الحرية ، وبالتالى على استقرار النظام الديمقراطى الذى يكفل لهم الامن والسلام .

ثم ان الضرر الذى ينشأ عن مثل هذه الرقابة يصيب الحكومة نفسها . فالناس جميعا يقدرون أن الحكومات القوية تترك للصحافة الحرية فى نقدها وفى التحدث بما شاءت عن أعمالها وتترك للرأى العام تقدير هذا الذى تقوله الصحافة . وكلما كانت الصحافة أوسع فى هذه الناحية حرية كان ذلك أفصح دليل على قوة الحكومة وعلى نزاهتها ، وعلى حرصها على الحرية ، وعلى احترامها لمبادىء الدستور ونصوصه [تصفيق] .

هذه الحكومة القوية — ياحضرات النواب المحترمين — تقف الرقابة على الصحف فى ظلها فى ظروفنا الحاضرة عندما توجه الاحوال الدولية .. فأما ماجاوز ذلك فيجب أن يكون موضعا للتسامح من جانب الحكومة . فاذا هى رأت التسامح ضررا ، او رأت النقد جاوز حدود القانون العام فليكن ملجؤها الى القانون والى القضاء ليستقر كل أمر فى نصابه ، ولتظل الحقوق العامة التى لا ضرر من التمتع بها فيما يتصل بالاحوال الحاضرة مكفولة للصحافة وللناس جميعا .

... ...

حضرة النائب المحترم الاستاذ عبد الحميد عبد الحق — طلب رفعة محمد محمود باشا وطلبت الاقلية قصر الرقابة الصحفية على الشئون الحربية الخاصة بالدفاع فقط . فقالوا : كيف يتيسر ذلك للحاكم العسكرى ؟ والمرء اذا اراد التدليل على فكرة لا يعوزه التدليل . وكيف يمكن حصر هذه السلطة ووضع حد فاصل بين ما هو عسكرى وما هو غير عسكرى ؟ وكيف تكون للوزارة الهيبة التامة اذا قصرتم رقابة الصحف على ما هو خاص بالمسائل العسكرية ؟

فلما راجعت راى الفقهاء فى فرنسا ، وتعرفت الامر الذى جرى عليه العمل فى انجلترا بعد اعلان الاحكام العرفية ، وجدت أن هذا الراى الذى قالت به الاقلية وايده رفعة محمد محمود باشا هو الراى الذى يجب أن يكون ولا يكون غيره . جاء فى مقال للاستاذ جاستون جيز [مجلة القانون العام سنة ١٩١٥ ص ٢٣٢] :

« ان مهمة الصحافة فى كل وقت ، سواء أكانت فى زمن السلم أو فى زمن الحرب ، ان ترقب بعين ساهرة سير الامور العامة . وأن تظهر الناس لا على الاخطاء الجسيمة للسلطات العامة فحسب ، بل على أقل العيوب فى سير المصالح العامة . ومن مهمتها أن تقترح الاصلاحات وان تناقش فى اسس وتفاصيل النظام السياسى والادارى . وهذا النقد وحده هو الضمان الوحيد ضد عيوب واخطاء السلطة » .

وفى ص ٢٤٢ وص ٢٤٣ وص ٢٤٤ ما يأتى :

« ومن الخطر العظيم أن تعمد السلطات الى التشديد على الصحافة فى زمن الحرب بحجة أن الحكومة فى حاجة الى الظهور بمظهر القوة ، لان رقابة الرأى العام ضرورية فى زمن الحرب ضرورتها فى زمن السلم . ومن المسلم أن كل انسان له أن ينقد سير الامور العامة . والحكام ليسوا آلهة ، وهم فى الدنيا يؤدون حسابا للشعب قبل أن يؤدوا حسابهم لله ، ولكل فرد أن يبدى رأيه فى الشئون العامة وفى سير الحرب . ومن راى الانجليز أن الوزراء والحكام قد يكونون غير اكفاء او أقل من المستوى اللازم لمواجهة الحال ، وهم غير معصومين وعرضة للخطأ وقد يجرون الاخطار على البلاد . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فمهما حسنت

الثبات فالمشاهد أن ميل الحكومات فى زمن الحرب قد يتجه الى السلطة ثم الى الديكتاتورية والطغيان ، ويختلط الامر على الحكام فلايفرقون بين الحرص على سلامة البلاد والحرص على المراكز والاصدقاء السياسيين ».

« ولما كانت الدكتاتورية ليست اقل خطرا من الفوضوية ، فلا مناص من محاربة الاثنين ولا سبيل لقطع الطريق على الدكتاتورية سوى حرية النقد والصحافة . ولاشىء أخطر من الدكتاتورية فى زمن الحرب ، فلابد من رفع الصوت والاحتفاظ بحق كل فرد فى الانتقاد ، أى انتقاد الحكومة القائمة وبيان ما ترتكبه من أمور مخالفة للقانون ومن أخطاء مع نشر جميع الاقتراحات المتعلقة بالاصلاح » .

وفى صفحة ٦٣٤ :

« لا شىء يدعو لاستعمال حق الرقابة فى زمن الحرب الا فى حالة واحدة ، وهى أن يكون نشر الخبر من شأنه خدمة العدو او الاضرار بدفاع الوطن »

وفى صفحة ٦٥٩ أوردت المجلة اقوال اللورد [بك ماستر] وهو ممن أسندت اليهم الرقابة ومنها :

« ان نقد الوزراء لا يجوز منعه كما لا يجوز منع النقد السياسى ، ولم يحصل شىء من ذلك الى الان » .

فمن العبث أن يقولوا : كموا أفواهكم وكسروا اقلامكم فى زمن الحرب ، لا لشىء الا لان الوزراء فى حاجة لان يظهروا بمظهر القوة ، ولا شك ان الخطر يكون اشد والبلاء أعم فى زمن الحرب اذا لم يطلع الرأى العام على حقيقة الامور .

حضرات النواب المحترمين :

هذا رأى احد الشراح ، ومنه تتبينون أن المعارضة لا تلقى الكلام لشهوة المعارضة مطلقا . أمامى عدة وقائع معينة أود أن أبينها لحضراتكم ، غير انى اكتفى بأن اذكر ما طبق بالنسبة لهذه الوقائع . فمثلا يباح لبعض الصحفيين الموالين للوزارة أن يقذفوا ويسبوا فى خصومهم السياسيين الذين يحرم على كتابهم ان يردوا على هذه الالفاظ المقذعة ، وهذه التى توجه اليهم ، لا لشىء الا لان الوزارة يجب أن تكون فى زمن الحرب بمأمن من النقد ، ولو كان هذا النقد وجيها ، واعتقد أنكم توافقوننى على انه مما لا يمكن قبوله الا تتيح لخصمك ان يدفع عن نفسه التهم التى قد تكون شديدة خطيرة جدا .

حضرات النواب المحترمين :

اذكر لحضراتكم مثلا آخر هو انرئيس هيئة سياسية كبرى ، هى التى اتشرف بالتعبير عن رأيها ، يلقى بيانا برأيه فيما يختص بتأييد او عدم تأييد هذه الوزارة ، واعتقد انه من أبسط الحقوق وأوليات أسس صيانة الحريات ، أن لرئيس هيئة ، وزعيم حزب ، أن يعبر عن رأيه فيما يختص بالثقة بالوزارة .

ولكن أتدرون حضراتكم ماذا حدث ؟ حدث أن منع نشر هذا البيان فى الجريدة التى يملكها الحزب والتى يصدرها للتعبير عن رأيه ! ما أهون الحرية اذا كان يراد بالرقابة على الصحف أن يحال بين الزعماء السياسيين وبين حرية ابداء رأيهم ، وهذا من ابسط حقوقهم !!

لو كان هذا البيان يتضمن قذفا أو ما الى ذلك لكنت أقول انه ربما يكون للوزارة بعض العذر فى منع نشره ، ولكنه لايحوى الا رأى الحزب فى الوزارة . فانظروا الى اى درك نزلنا بالحرية أو اذا كان لا يباح لرئيس حزب أن ينشر بيانه فما قيمة حرية الافراد ممن ليسوا زعماء ! ؟

حضرة النائب المحترم الاستاذ على ايوب — أمام حضرة النائب الفرصة الان لبيان رأى — الزعيم .

حضرة النائب المحترم مصطفى مراد السلانكلى — هل يكفى أن يلقى زعيم بيانا حتى يسلم بصحته ؟ وهل يصح أن يلجأ زعيم الى الادعاء بأنه ليس لديه بيانات فى قضية البنك التجارى توصلا الى تأجيل نظرها ؟ وهل هذا يتفق وما تقتضيه صفات الزعامة ؟

الرئيس : اوجه نظر حضرة النائب المحترم الى عدم المقاطعة .

حضرة النائب المحترم الاستاذ عبدالحميد عبد الحق — لم يقتصر الامر على ذلك ، ياحضرات النواب المحترمين ، بل ذهبوا فى ذلك مذهبا خطيرا ، فلم يكتفوا بأن يدعوا الموالين لهم يسبون زعماء الاحزاب وفى الوقت ذاته لا يباح لهؤلاء الزعماء الرد عليهم ، بل ذهبوا الى أن مجرد توجيه النقد الهين اليهم يكفى لعدم النشر ، كانوا يهللون ويمجدون بتقديس الزعامة ، وهم الان لا يريدون تقديس زعيم واحد بل تقديس أربعة عشر وزيرا . ؟

حضرة النائب المحترم الدكتور احمد ماهر باشا — فى هذه الحالة تصبح القدسية موزعة [ضحك] .

حضرة النائب المحترم الاستاذ عبد الحميد عبد الحق — اذكر لحضراتكم مثلا آخر لتعلموا الى أى حد بلغ ضيق الصدر ، وبلغ التماس الفرصة لحد من الحرية ولتكسير الاقلام فالرقيب يبعث الى محرر « آخر ساعة » وهى مجلة فكاهية كما تعلمون — ليقول له : « لا ترسم دولة عبد الفتاح يحيى باشا برقبة طويلة » . [ضحك وتصفيق] »

حضرة النائب المحترم الاستاذ ممدوح رياض — ليس دولة عبد الفتاح يحيى باشا عضوا فى هذه الوزارة .

حضرة النائب المحترم الاستاذ عبد الحميد عبد الحق — كتبت هذه المجلة أيضا أن موظفا تقدم بطلب الى الوزارة الحاضرة لتحسين حالته ، فأشر معالى الوزير المختص على هذا الطلب بالرفض وينفصل الموظف [ضجة] .

وهذه روح لا أعتقد بامكان وجودها اذا كان الوزير يعمل فى ظل الاحكام العادية وفى حالة ما اذا كانت الجرائد حرة فى التعبير عن الرأى العام ، لانه فى هذه الحالة لا يجوز الوزير على طرد موظف لا ذنب له ، وبمثل هذه السهولة ، وقد منع الرقيب نشر هذا الخبر ..

حضر النائب المحترم الاستاذ على أيوب — الم ينشر هذا الخبر فى الجرائد

حضرة النائب المحترم الاستاذ عبد الحميد عبد الحق — لقد صرح حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا فى هذا المجلس ، يوم أن سألناه عن شدة الرقابة على الصحف ، وعن وجوب اطلاقها حرة ، بأنه هو نفسه يرى انه قد اساء استعمال الرقابة وان هناك رقيبا معينا أو موظفا معينا اساء استعمال هذه السلطة . فما قول حضراتكم فى أن ذات كلام رفعته هذا الذى قيل هنا فى هذا المجلس منع الرقيب نشره فى بعض الصحف ؟؟

حضرات النواب المحترمين :

هناك مسألة أخرى أريد أن اوجه نظر حضراتكم اليها ، لانها تضع الحكومة امام الواقع والحقائق ، وهى اننى اتحدى الحكومة أن تذكر لنا ان صحيفة من الصحف على اختلاف الوانها أو أحزابها نشرت خبرا يضر بمصلحة البلاد فى الظروف الحاضرة ، فاذا تبين لحضراتكم إن صحفيا نشر خبرا من هذا القبيل ، فمنعه الرقيب ، فانى اقول بأن حقوق الصحافة قد أسىء استعمالها ، أما اذا تبين لحضراتكم أن الصحفيين هم قبل كل شىء مصريون ، وأنهم غيورون على كرامة بلادهم كغيرة الوزراء أنفسهم ، وأن لديهم من الخبرة وحسن التقدير ما يمنعهم من نشر مثل هذه الاخبار — اذا تبين لحضراتكم هذا كله وجدتم أن هذه الرقابة لم تفرض فى الواقع لحماية الاخبار الحربية والدفاع ، انما فرضت لحماية الوزارة فى سياستها الداخلية .

قيل : كيف تراقب الاعمال العسكرية فقط ولا يراقب غيرها من الاخبار ؟

وارد على هذا بأنه فى انجلترا التى نقف معها صفا واحدا للدفاع عن الديمقراطية صدر قانون الطوارىء ، وهو قانون يشابه فى بعض نصوصه قانون الاحكام العسكرية . انظروا حضراتكم لقد تصرفوا فيه تصرف الذين يحترمون القانون والحريات بكل بساطة حتى تحقق منه غرضان : الاول المحافظة على الاسرار الحربية وكل الاخبار المتعلقة بالدفاع ، والثانى المحافظة على الحريات ومنها حرية النقد . ذلك ان المستر بتلر وكيل وزارة الخارجية البريطانية صرح فى مجلس العموم بأنه عند اختيار الرقباء على الجرائد استشير رجال الصحافة فى أسماء هؤلاء الرقباء . فانظروا حضراتكم كيف يحترمون الصحافة

والنقد ؟ فهم لا يستشيرون الوزراء وانما يستشيرون رجال الصحافة الذين سيجرى قلم الرقيب على ما يكتبونه بالحذف . وصرح اللورد كامروز فى مجلس اللوردات بأن وزارة الاستعلامات قد جمعت رجال الصحافة واستشارتهم فى طريقة الرقابة قبل اعلانها .

وفى ٧ سبتمبر صرح السير صمويل هور ، وزير الداخلية ، فى مجلس العموم بأنه شكل مجلسا استشاريا مكونا من ممثلى الصحافة والاذاعة ونقابات العمال وممثلى جميع الاحزاب السياسية ، ووزع الوزير على الاعضاء قائمة بأسماء أعضاء هذا المجلس الاستشارى .

ومن هذا يتبين لحضراتكم مقدار تقدير الانجليز لحريات الصحافة ، واتساع صدورهم للنقد ، واحترامهم لخصومهم السياسيين واعطائهم الفرصة لاظهار آرائهم بكل حرية

انظروا أيضا حضراتكم ، اتصل بالصحف الانجليزية أن الجنود البريطانيين نقلوا من انجلترا لفرنسا ، وانه بعد أن تم هذا النقل ، ضنت وزارة الاستعلامات باذاعة هذا الخبر على الصحف، فقامت ضجة شديدة فى الصحف وقدم استجواب فى مجلس العموم ، مع أن الخبر يتعلق بنقل جنود ، ولم يكن خاصا بنقد وزير ، أو نقد عمل داخلى ، ولكن الاعضاء قدروا ان هذا الخبر ولو انه يتعلق بنقل جنود الا أن العدو لا يستفيد من وراء اذاعته شيئا . فمن الحرام بل من الخيانة أن تترك البلاد فى ظلام ، فلا تعرف من هذا الخبر الهام شيئا . وانى لاتألم أشد الالم حينما أقابل بين حالتنا وحالتهم .

عندما انشئت وزارة الاستعلامات فجأة فى انجلترا ، وطلب اليها أن تؤدى مهامها الخطيرة فى الحال ، وقعت منها أخطاء ، كان بعضها شديدا جدا بسبب حداثة انشائها أدت الى سخط رجال الصحافة ، فقام المستر تشمبرلن فى مجلس العموم يعتذر وقال : « انى آسف جد الاسف لما حدث ، وانتهز هذه الفرصة لاشيد بالصحفيين على وطنيتهم وكفاحهم معنا » .

فاذا تذكرتم حضراتكم أن صحافيينا لم يكونوا اقل وطنية من زملائهم ، وانهم لم يتعرضوا الى الاخبار العسكرية من تلقاء أنفسهم ، وجدتم انهم جديرون بأن تطبق عليهم تلك القواعد التى طبقت فى انجلترا صيانة لحرية الراى والنقد . انظروا كيف تجرى رقابتهم هنالك ..

[ضجة ومقاطعة] .

فى ٢١ سبتمبر وجه المستر ماكدونالد سؤالا فى مجلس العموم عما اذا كانت الحكومة تستطيع أن تدلى بتأكيدات قاطعة بأن وزارة الاستعلامات لن تستعمل سلطتها فى منع الصحف من نقد سياستها فى أية ناحية من النواحى ، سواء أكانت حربية أم مالية أم دبلوماسية أم ادارية مادام النقد لا يتضمن معلومات سرية يستفيد منها العدو . فأجاب وكيل وزارة الاستعلامات البرلمانى اجابة رسمية حدد فيها قواعد لرقابة الصحف ، وذكر أن عمل الوزارة هو اذاعة الاخبار لا منعها ، بينما نرى العكس هنا ، حتى أن جميع الصحف قد أصبحت لدينا — كما قال سعادة الدكتور ماهر باشا — كأنها من صورة واحدة .

واذا رأت الحكومة حذف خبر كان معدا للنشر باحدى الصحف أمرت صاحب الصحيفة أن يشغل مكان هذا الخبر بموضوع آخر ، وقد يحدث هذا قبيل موعد اعداد الجريدة للطبع ، مما يضطر معه الى اشغاله بموضوع قد يكون تافها جدا . وغرض الحكومة من ذلك هو الا يتنبه الرأى العام الى أن هناك خبرا محذوفا وانها تعمل ضد مبادىء الحرية والعدالة .

والواقع أن الحكومة تعمل بذلك على خفض المستوى الثقافى للصحافة ، لانه لا يعقل أن يطلب من صحفى — بعد أن أعد صحيفته للطبع — أن يحرر مقالات بدلا من التى شطبت بالقلم الاحمر .

ومما ذكره الوكيل البرلمانى أنه يؤكد أن وزارة الاستعلامات لن تستعمل سلطتها فى تقييد حرية الرأى ، لو كان فى هذا الرأى نقد لسياسة الحكومة ، الا اذا كان النقد يشمل أسرارا حربية تفيد العدو .

لهذا أرى — وانتم المطالبون بصيانة الحريات — الا توافقوا على استمرار الاحكام العرفية وهى تنفذ بهذه الروح التى تخالف العدالة ومبادىء الدستور ، وكل رأى سواء فى انجلترا او فرنسا تلك البلاد التى تفنى صفها للدفاع عن الديمقراطية ونحن نحرم منها فى هذه البلاد .

ولذلك فانى اهيب بكم الا توافقوا على اقرار هذا العبث بالحريات .

[تصفيق من اليسار]

... ...

حضرة صاحب المعالى وزير الدولة للشئون البرلمانية لمجلس النواب [الاستاذ ابراهيم عبد الهادى] .

... ...

لو استطاع الزميل المحترم أن يقول ان الحكومة نهجت فى شأن الرقابة الصحفية نهجا حزبيا فسمحت لصحافتها بما لم تسمح به لصحافة خصومها ، لكان له فى ذلك حق أكبر الحق ، ولكن شيئا من ذلك لم يقع ولم يجر بحال من الاحوال . فكل الذى يقال هنا انما يقصد به شىء واحد .. الا تعد الصحافة فى مصر أداة ارهاب وعنف وشر لا يأمن معه انسان على كرامته ، ولا مفكر على فكرته ولا كريم على حريته — فالصحافة اذن مهدرة .

... ...

حضرة النائب المحترم الاستاذ محمد فكرى أباظة :

... ...

أما من حيث الصحافة فأشكر اولا لحضرات الخطباء عن الصحافة والقراء حسن دفاعهم عنها ، ثم اؤكد لحضراتكم ان الصحافة لا تشعر بقليل ولا كثير من الحرية فى جو هذه الاحكام العرفية ولم يتذوق مرارة الصحافة كالمشتغل بها . انتعرفون أنه يكتب عن الدكتور طه حسين أن الوزارة قد استدعته من الخارج ، فيشطب هذا الخبر شطبا ، وعندى الدليل ؟

انى انتهى من عملى يوم الثلاثاء ، فاذهب بنفسى الى الرقيب واعرض عليه ٥٠٠ ورقة فيشطب منها ٤٠٠ [ضحك] .

فأناقش الرقيب فلا يقتنع ، فأستأنفه الاقناع مع رئيسه ، فاذا اقتنع كان بها ، والا وجب على أن أعطل المطبعة وعمالها واخترع كلاما جديدا وصفه بحق حضرة النائب المحترم الاستاذ عبد الحميد عبد الحق حين قال انه كلام فارغ .

أرجو أن يشعر رفعة رئيس مجلس الوزراء بشىء من مرارة هذا العمل لينقذنا من تصرفات الرقيب ، ويعفينا من سلطته فى المسائل التى لا مساس لها بالنسبة للسياسة العامة او الدفاع عن البلاد .

او تعرفون ان الذى قاله الاستاذ العقاد هنا وما حدث له منعه الرقيب فلم تجرؤ صحيفة ولا مجلة ان تنشره !!

وهناك امثلة اخرى :

فخبر يقول ان الذخائر تسرد الى الجيش من انجلترا يراد نشره لنشر الطمأنينة فى الجماهير ، ولكن الرقيب يشطبه شطبا لانه يخشى ان رجال الغواصات الالمانية يقرأون المصرى تحت البحر ، فتتجه جهودهم الى اغراق السفينة الاتية بهذه الذخائر .

انى اعتقد ان رفعة رئيس مجلس الوزراء مجنى عليه أيضا ، فها هى جميع الاحزاب شكت من الرقابة على الصحف :

رفعة محمد محمود باشا شكا ، عبد الحميد عبد الحق شكا ايضا ، ورفعة رئيس الوزراء نفسه يشكو [ضحك] .

فكلنا أجمعنا على الشكوى المرة من الرقابة ، ولكنه لا أحد من هذه الصفوف قال لنا كيف يكون العلاج ومتى يكون ؟ فهل يليق فى عهدكم ، ياحضرات الوزراء وانتم تفيضون كل يوم على البلاد بمشروعات هامة نافعة ، أن تظل الصحافة فى عهدكم مزورة زائفة ، وان تكون الكتابة فيها ليست من انشاء كتابها بل من انشاء القلم الاحمر الذى يجرى بالشطب والحذف . ؟ !

هذا لا يليق ولا يمكن ان نقبل الاستمرار عليه ، وأخشى ما أخشاه انه بمثل

هذا التضييق يتجاوز الحالة الطبيعية ؟ وهى الادهى والامر والاخطر على امن البلاد ، هى رواج الاشاعات الكاذبة، وأؤكد لحضراتكم ان كلمة تقال فى قهوة تذاع بين الناس بأسرع مما يذاع النبأ فى الجريدة ؟ وبين عدد اكثر من قراء الجريدة خمس عشرة مرة ؟ وما أخطر مثل هذه الاذاعة المكتومة .

فى عهد الاحكام العرفية سنة ١٩١٤ صدرت منشورات سرية دفعت اليها شدة التضييق والرقابة على الصحافة ، ومن المدهش اننا نقرأ فى التلغرافات الخارجية اخبارا من مركز ايطاليا ازاء العراك الحالى : اتنضم الى المانيا أم تبقى على الحياد ؟ ولكننا ممنوعون من أن نتكلم عن ايطاليا . ثم نقرأ عن روسيا ويحرم علينا ان ننشر ما تنشره الجرائد الفرنسية او الانجليزية !

تلك مبالغة فى التضييق على حرية الفكر وعلى الفن ذاته لا تنتهى الا الى نتيجة واحدة ، هى ان تجعل الجرائد جميعها صورة واحدة ، وان تشل الفكر المصرى والعمل الصحافى فى مصر ، ثم تكون النتيجة فى غير صالح الحكومة والبلاد .

فأود ، قبل ان اغادر هذا المكان ، أن اسمع من رفعة رئيس مجلس الوزراء كلمة طيبة لاسجل هنا اننا نحن الصحفيين ظفرنا بعطفه على الصحافة وعلينا عدة مرات فى شتى الظروف والمناسبات، فنريد أن تظفر الاراء الحرة الصحيحة بكلمة من رفعته الان تكون كالحلو الذى يؤكل فى آخر الطعام . وها انذا آخر المتكلمين فى هذه المناقشات ؟ فليختمها رفعة الرئيس بكلمة حلوة لذيذة الطعم . نكن له من الشاكرين [تصفيق] .

... ...

حضرة صاحب المقام الرفيع محمد محمود باشا — اتقدم بشكرى الجزيل لحضرة صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء على ما نوه عنه فى خطبته بصدد ما تلته الليلة ؟ ثم اطمع فى كلمة صغيرة من رفعته من الرقابة على الصحافة تبعث فى نفوسنا الطمأنينة على أن حريتها ستكون مكفولة فى حدود القانون فيما يتعلق بالشئون الداخلية للحكومة المصرية [تصفيق] .

حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء — يسرنى أن اعلن أن حرية الصحافة مكفولة وأن سياسة الحكومة لم تكن أبدا بعيدة عن ذلك [تصفيق] .

تقرير لجنة الاحكام العرفية بمجلس النواب

رابعا ؟ رأى احد الاعضاء أن تكون رقابة الصحف قاصرة على المسائل الحربية بحيث لا تشمل الشئون الداخلية البحتة . ولم تر اغلبية اللجنة مشايعة هذا الرأى لان النص الوارد فى القانون رقم ١٥ لسنة ١٩٢٣ والنص الوارد فى المادة ٧ من المعاهدة تشير الى فرض رقابة وافية ولا يمكن ان تكون وافية ، اذا اقتصرت على الانباء العسكرية البحتة فقد يكون فى نشر خبر داخلى تأثير كبير على الحالة الاقتصادية والسياسية، بل والعسكرية ايضا ، تنشأ عنه اضرار قد يصبح من العسير تداركها .

يضاف الى ذلك انه قد جرى العرف فى جميع البلاد التى اعلنت فيها الاحكام العرفية ان تكون الرقابة شاملة كاملة ، ذلك لان هذه البلاد تسعى فى الاوقات العصيبة التى تبرر اعلان تلك الاحكام الى تقوية الروح المعنوية وضم صفوف الامة وتوحيد كلمتها . ولن يتسنى ذلك اذا ما ظلت المشاحنات والمنازعات الحزبية تشغل اهم مكان فى الصحف .

بناء على ذلك وافقت اغلبية اللجنة على استمرار الاحكام العرفية ووافقت اقليتها على استمرار الاحكام بقيود ، وهى :

١ — استمرار انعقاد البرلمان .
٢ — الا يكون الحاكم العسكرى وزيرا .
٣ — ان تكون رقابة الصحف قاصرة على المسائل الحربية الداخلية والخارجية بحيث لا تشمل الشئون الداخلية البحتة .

[فى ١١ اكتوبر سنة ١٩٣٩] .

مجلس الشيوخ [دور الانعقاد غير العادى]

حضرة الشيخ المحترم الاستاذ يوسف احمد الجندى — أشكر باسم المعارضة حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس الحكومة ما تخلل كلمته من عبارات لطيفة موجهة حضرات الشيوخ المحترمين . ولقد كان بود المعارضة أن تلقى فى هذه الجلسة ردها على ما جاء فى هذه الكلمة الهامة ولكنها قد جرت على الا ترتجل القول ارتجالا ، خصوصا فى هذه الظروف الاستثنائية الخطيرة التى تجتازها البلاد. وترى المعارضة أن تؤجل ردها على هذا البيان الى جلسة اخرى ، انما لا يفوتها ان تتقدم فى هذه المناسبة برجاء ، نعتقد أن حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس الحكومة يشاركنا الرأى فى اجابته ، وهو ان سلطة الرقيب على الصحافة سلطة واسعة لا حد لها ، واظن ان من حق مجلس الشيوخ ان يرجو الا يكون لهذه السلطة أثر فى الاقوال التى تتردد فى هذا المجلس . ذلك لان هذا المجلس يمثل الامة ، ومن الحق والمصلحة ان تعرف الامة ما يقال فيه هذا فضلا عن ان حضرات الشيوخ المحترمين من الحكمة والرزانة والتعقل وتقدير الامور بحيث لن ينتظر ان يصدر منهم فى هذا المجلس ما يمكن ان يتعارض مع المصلحة التى قد تكون الاحكام العرفية قد اعلنت من اجلها ، ولا مع الاسرار التى يجب ان يحتاط فى عدم اذاعتها حتى لا تضار المصلحة العامة .

حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا [رئيس مجلس الوزراء] — سمعت فى سرور زائد كلمة حضرة زميلى الشيخ المحترم الاستاذ يوسف احمد الجندى ، زعيم المعارضة ، وانى لسعيد بأن اعلن انى اشاركه الرأى فى أن ما يقال فى هذا المجلس الموقر لن يكون محلا للرقابة .

[تصفيق]

حضرة الشيخ المحترم الاستاذ يوسف احمد الجندى — أشكر لحضرة صاحب المقام الرفيع رئيس الحكومة هذا التصريح.

[فى ٢ اكتوبر سنة ١٩٣٩] .

... ...

اعلان الحاكم العسكرى انه سيقضى بكل شدة على كل ما يحدث الشقاق والنفور والتنابذ بين طبقات الامة وجماعاتها مع كفالة حرية الرأى والنقد لشئون الوزارة واعمالها .

تقرير اللجنة المشكلة لنظر مرسوم الاحكام العرفية

رأى أغلبية اللجنة

هذا وقد استعرضت اللجنة بعض الصور التى طبقت فيها الاحكام العرفية، ولفت نظرها بصفة خاصة الطريقة التى روقبت بها الصحف وعوملت بها حرية النقد . فتبين لها من الوقائع التى وصلت الى علمها ومن كون الصحف جميعها كانت تكون نشرة واحدة ، ان حرية الرأى اصبحت معدومة ، وان حرية النقد لا وجود لها ، فضلا عن انه حصل تمييز بين صحف واخرى فى مراقبة الاخبار والاراء التى تنشر . ولا شك ان حرية الصحافة ، وبصفة خاصة حرية النقد فى الظروف الحاضرة هى من الضمانات الجوهرية لحسن سير العدالة والمحافظة على مصالح البلاد . فاذا انعدمت فان هذه تتعرض لاعظم الاخطار ، وفضلا عن أن السلطة التى تتركز فيها السلطات الواسعة اذا ما امنت من النقد لمنعه ، فانها من حيث تشعر أولا تشعر ، تتمادى فى الاستئثار بالامر والانفراد بالسلطان والوقوع فى الاخطاء .

وقد تكون الشكاوى التى تتردد من جراء الاحكام العرفية — رغما من انها لا تزال فى خطواتها الاولى — كثيرة ، ولكن ليس هناك من سبيل فى ظل الاحكام العرفية ومع انعدام حرية النقد وغيرها الى أن ترتفع اصوات اصحابها بالشكوى . فما بالك اذا ما رأى صاحب السلطة فى الاحكام العرفية لسبب ما ان يشتد فى تطبيق الأحكام . فلا شك أن الضرر الذى سيقع فى هذه الحال بالمصالح سيكون خطيرا ولا سبيل الى تعويض من يقع عليه .

... ...

رأى الاقلية

... ...

[٣] تخفيف الرقابة على الصحف بحيث تقتصر على الانباء التى يترتب على نشرها اضرار بسلامة البلاد

وبالقوات المصرية وبالقوات الحليفة والصديقة

حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا [رئيس مجلس الوزراء]

... ...

وقد ارادت اغلبية اللجنة التى ندبها هذا المجلس الموقر أن تجد مأخذا على تصرفات السلطة ، فرأت ان حرية الرأى اصبحت بسبب الرقابة معدومة، وان حرية النقد لا وجود لها ، فضلا عن التمييز بين صحف واخرى فى مراقبة الاخبار والاراء التى تنشر .

ويذكر هذا المجلس الموقر ان حضرة زعيم المعارضة طلب الى فى أول جلسة تقدمت فيها الى المجلس الا تشمل الرقابة على الصحف ما يجرى بين جدرانه ، فلم اتردد فى تأكيد ذلك . ولو ان هذا المجلس بدا له ان يستعمل حقه فى نقد تصرفات معينة للحكومة لاصبح هذا النقد منشورا فى الجرائد فى اليوم التالى . أما القول بأن حرية الرأى اصبحت معدومة فانى ارفضه بكل قوتى ولا أظن مطلقا ان تكون حرية الرأى التى تعنيها اللجنة هى المهاترات الحزبية والمطاعن الشخصية التى كانت الجرائد تفيض بها الى وقت قريب . فان كانت تلك هى الحرية فانى احمد للجرائد انها من تلقاء نفسها تجنبتها حياء من أن تظهر الغريب والقريب على تلك الطريقة فى الجدل التى تصم مصر اشد وصمة فى وقت تصطنع فيها البلاد كافة مظاهر الوحدة والتآلف .

وقد اعلنت انى سأقضى بكل شدة على كل ما يحدث الشقاق والنفور والتنابذ بين طبقات الامة وجماعاتها . وليس لى وراء هذا غرض من حيث حرية الرأى والنقد لشئون الوزارة او اعمالها. واعلنت أكثر من مرة فى مجلس النواب وفى تصريحاتى العلنية انى ارحب بالنقد . فهل للجنة أن تذكر فى أى شأن أعدمت الرقابة حرية الرأى ومست حق النقد ؟

نعم قد يقع للرقابة انها تخطىء فى الشدة كما قد يقع انها تخطىء فى التساهل . ولكن كل عمل انسانى عرضة للخطأ خصوصا فى أول امره اذا كان بطبيعته يتولاه اكثر من واحد واذا كان يجب ان يقضى بمنتهى السرعة . واما كم البلاد الاجنبية لا تخلو من الداعية للرقابة بل من الشكوى منها .

انما تكون الشكوى اذا كانت الشكوى لا يسمع لها ولا يحفل بها .

ولا يستطيع أحد ان يقول فيما فعلته بالنسبة للرقابة شيئا من ذلك . فانى أصغيت بكل اهتمام لما قيل فى هذا الصدد ولم اتردد فى معالجة أى خطأ وقع .

على انه قد انتدب لادارة رقابة النشر منذ شهر مدير قسم التشريع والمباحث بمصلحة الضرائب، وقد استقبلت الصحف على اختلاف نزعاتها هذا الانتداب بعظيم الترحيب لما تعرف بوجه من كفاية فى عالم الصحافة سنوات عدة .

وانه ليسرنى ان اعلن ان العلاقة بين الرقابة والصحافة هى الان من خير علاقات التعاون فى سبيل المصلحة العامة المقدورة من الجانبين . ولا شك أن حضرات الصحفيين من اعضاء هذا المجلس الموقر يقرونني على هذا الاعلان

ورجائى ان تستمر هذه الروح الطيبة تمكينا للرقابة من اداء واجبها نحو الدفاع القومى والامن العام ، وتوحيد جهود الامة ، وتدعيم الحكم الصالح، وكفالة المساواة فى الاعراب عن جميع الاراء الناضجة على حد سواء .

... ...

حضرة الشيخ المحترم وهيب دوس بك

... ...

تعلمون حضراتكم ان الرقابة التى فرضت على الصحف بموجب الاحكام العرفية ، ما برحت قائمة ، تلك الرقابة التى ضجت منها اللجنة فى تقريرها .

ومع ذلك فقد طالعتنا جريدة المصرى اليوم بنشر تقرير اللجنة كاملا عن المرسوم باعلان الاحكام العرفية . ولقد وفى على ماهر وعده وقام بواجبه ، ولو كنت محله لما سمحت بنشر هذا التقرير لانه حين صرح برفع الرقابة عن نشر ما يجري فى البرلمان من مناقشات لم يعد مطلقا برفع الرقابة عن نشر تقارير اللجان قبل عرضها على البرلمان ، لان فى نشر هذه التقارير وما فيها من ابحاث تعبية ما يبلبل أفكار الجمهور .

ولقد وعد رفعته فأنجز ما وعد . اكثر من ذلك ، يا حضرات الشيوخ المحترمين ، لقد رجعت الجريدة المذكورة الى الاوراق والمستندات القديمة ونشرت منها رأى « على ماهر بك » فى مسألة الاحكام العرفية نقلا عن محاضر لجنة الدستور . اليس رفعة على ماهر باشا هو بذاته على ماهر بك الذى وقف فى لجنة الدستور وقال : « ان اعلان الاحكام العرفية أمر خطير ، وارى انه يجب فصل هذا الحكم من المادة وافراده بمادة يقرر فيها ان الاحكام العرفية من حقوق حكومة جلالة الملك . فاذا اعلنها وكان المجلس منعقدا عرض عليه فى اول جلسة ، واذا كان الاعلان فى وقت اجازة المجلس دعى فى الحال للنظر فى بقائها او الغائها » .

اليس على ماهر هو الذى قال هذا القول الذى كان الكافة الوحيدة فى دعوة البرلمان للانعقاد فورا فى دور غير عادى ؟ ربما قيل ان على ماهر يوم أبدى هذا الرأى كانت ميوله وعواطفه طيبة لانه كان وقتئذ بعيدا عن سلطان الحكم وجاهه ، ولكن تعالوا نستعرض ماضى على ماهر

[فى ١٦ اكتوبر سنة ١٩٣٩] .

مجلس الشيوخ :

استئناف النظر فى تقرير اللجنة المشكلة لبحث المرسوم الخاص باعلان الاحكام العرفية .

حضرة الشيخ المحترم الاستاذ الشيخ يوسف احمد الجندى

... ...

يا حضرات الشيوخ المحترمين :

فى هذا الجو المضطرب اعلنت الحرب واعلنت الاحكام العرفية وأعطى رفعة على ماهر باشا سلطة لا يحدها قيد ولا سلطان « أليس من الحق بعد هذا كله أننا نخشى ؟ أليس من الحق اننا نطمئن ؟ أليس من الحق اننا نخشى ان هذه السلطات فى هذا الجو الصاخب المضطرب قد يساء استعمالها خصوصا اذا لاحظنا انه لم يكن هناك من موجب لان يتسع سلطان الحاكم العسكرى الى هذا الحد ؟ أليس من حقنا ان نتساءل — مادامت الحليفة هى التى طلبت اعلان الاحكام العرفية فى حدود وبقيود معينة — لماذا انتهزت هذه الفرصة لان يعطى الحاكم العام لا السلطات المبينة فى قانون الاحكام العرفية فحسب ، بل اعطى السلطة ايضا فى اتخاذ أى تدبير آخر ؟ والمسألة التى يهمنا كل الاهتمام ان تكون مصونة ، ويهمنا الا يكون سلطان الحاكم فيها سلطانا تعسفيا هى حرية الصحافة » فمن الواجب ان تكون حرية الصحافة مضمونة ، وأن تكون حرية النقد مكفولة ولكن الذى لاحظناه ، على اختلاف الاحزاب والشيع ، بل واعترف به رفعة على ماهر باشا نفسه فى مجلس النواب .....

حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا [رئيس مجلس الوزراء] — ولقد اعترفت بذلك ايضا امام حضراتكم فى هذا المجلس الموقر .

حضرة الشيخ المحترم الاستاذ يوسف احمد الجندى — ما الذى لاحظناه ؟ لاحظنا ان الصحافة بعد اعلان الاحكام العرفية أصبحت لا تتكلم بخير او بشر .

حضرة صاحب المعالى الدكتور حامد محمود [وزير الصحة العمومية] — ونحمد الله على ذلك »

حضرة الشيخ المحترم الاستاذ يوسف احمد الجندى — أنا أعرف ما يقصده حضرة صاحب المعالى الدكتور حامد محمود وزير الصحة العمومية ، فنحن جميعا نحمد الله على أن الصحافة اصبحت لا تشتم »

أظن انه لا يرضى معالى الوزير الا تكون حرية الصحافة مضمونة ، وليس من مصلحة البلاد ان الرقيب يشطب مقالا لاحد الكتاب — وهو الاستاذ كريم ثابت — أراد ان يشير فيه الى كثرة المتسولين » ولم يكن الرقيب من نحية الى الآن هذا المقال لما يمس وزارة الشئون الاجتماعية التى يقوم عليها معالى عبد السلام الشاذلى باشا »

[ضحك]

أسوق لحضراتكم مثلا آخر ، فقد

ارادت جريدة المصرى ان تنشر خبرا يتضمن ان سمو الامير عمر طوسون دعا حضرة صاحب السمو الملكى الامير محمد على لتناول الشاى ، فمنع الرقيب نشر هذا الخبر . وارادت جريدة الاهرام ان تنشر خبر قدوم الاميرة نعمت هانم مختار من الخارج فمنع الرقيب نشر هذا الخبر ايضا . ولما احتج حضرة الشيخ انطون الجميل بك رئيس تحرير جريدة الاهرام على ذلك المنع سمح الرقيب ونشر الخبر .

اظن انه ليس من مصلحة احد ان تمنع الصحف من الاشارة الى دعوة البرلمان الى الانعقاد فى دورة غير عادية كما حصل ذلك اخيرا .

وانى لانتهز هذه الفرصة ، وهى مناسبة طيبة ، لارد على ملاحظة حضرة صاحب المعالى وزير الصحة فاقول له انه برغم كون الشتم قد منع حقا ، فانى لاحظت ان احدى المجلات رسمت رفعة على ماهر باشا والى جانبه رسمت زعماء آخرين فى صورة اقزام . وهناك أشياء اخرى من هذا القبيل عرضت لها بعض الصحف والمجلات لا اريد الان ان اعرض لها .

ومن الطريف ما بلغنى ان جريدة الاهرام ارادت ان تنشر خبرا يتضمن سفر سعادة وزير الخارجية الايطالية الى برلين ، فاعترض الرقيب على ذلك ، وامر ان ينشر الخبر على صورة اخرى من مقتضاها ان وزير الخارجية الايطالية « دعى للسفر الى برلين » .

وكذلك ارادت جريدة الاهرام ان تنشر ان الهر هتلر منع ضرب المدنيين بالقنابل ، فاعترض الرقيب وامر بأن ينشر الخبر على ان الهر هتلر امر بضرب المدنيين .

[ضحك]

ولم يقف رقيبنا عند هذا الحد بل ذكر للصحيفة انه يعجب كيف سمح الرقيب فى انجلترا بنشر هذا الخبر فى الصحف الانجليزية . ولدى مجموعة اخرى من الامثلة التى من هذا القبيل واقتنى بها جريدة الوفد المصرى . وهناك أخبار كثيرة منعت بعض الجرائد الوفدية من نشرها ، بينما أبيح نشرها فى جرائد أخرى كالاهرام والمقطم . وهذا ماترمى اليه اللجنة باشارتها فى تقريرها الى وجود تمييز بين بعض الجرائد والبعض الاخر .

لماذا لا يباح حرية النقد ؟

هل أنزلت تصرفات الوزارة واصبحت مقدسة لا تمس ؟ هل ترانم فى الجرائد من يوم اعلان الاحكام العرفية اى نقد للوزارة ؟ من الجائز ، ياحضرات الشيوخ المحترمين ، أن هذه التفصيلات على النحو الذى أشرت اليه لم تصل الى مسامع رفعة على ماهر باشا ، ولكن عماله هم الذين تصرفوا هذا التصرف . ولقد ضج الصحفيون بالشكوى من هذه الحال ، ومع ذلك استمرت الحال واخيرا رؤى استبدال الرقيب برقيب آخر ؟

ويقال ان الحالة الان احسن مما كانت عليه من قبل . ولكن هل ابيحت مع ذلك حرية النقد ؟ كلا ياحضرات الشيوخ المحترمين ، لا افهم سببا لذلك اللهم الا ان يكون النقد وقعه شديدا على النفوس . فلقد لاحظت الان ان رفعة على ماهر باشا غضب أكثر من مرة أثناء شرحى لبعض التصرفات التى اشرت اليها ، وقد يجعلنا هذا الغضب نعتقد ان رفعته لايحتمل النقد ، ومن هنا نفهم سبب التشدد الذى لاحظناه فى منع النقد .

حسن ان تقف ، ياحضرات الشيوخ المحترمين ، حملات الشتم والمهاترات ، وانا مع رئيس الحكومة فى هذا ، ولقد دعوت الى ذلك المنع من فوق هذا المنبر حينما كنت وكيلا برلمانيا لوزارة الداخلية فقد اوذيت الناشئه كثيرا من نشر هذه المهاترات فى الصحف . ولكن لدينا قانونا طبق فى غير هوادة ولاقصى حد ، سواء ابان حكم رفعة محمد محمود باشا او رفعة على ماهر باشا . ولقد عانيت متاعب كثيرة فى الذهاب الى المحاكم للمرافعة عن صحفيين قدموا للمحاكمة بسبب التشدد فى تطبيق القانون على الصحفيين ، ولكننى اقرر ان هناك فارقا كبيرا — واوجه نظر معالى وزير الصحة لما اقول — بين وقف حملة الشتائم والمهاترات ، وبين منع نشر الاخبار والنقد مما يؤدى الى الاضرار بالحاكم والمحكوم على السواء .

ان الحاكم بشر ، وهو غير معصوم من الخطأ وكلما زاد سلطانه كان اكثر استهدافا للخطأ واشتدت خطورته . فان لم يجد تبصرة بالامور من تلقاء نفسه او من زملائه وجدها فى الرأى العام الذى تصوره الصحافة . والصحافة خبيرة بالامور ، تعبر عن الرأى العام فى عبارات مختارة رصينة بعيدة عن الاقذاع .

اؤكد لحضراتكم ان النقد على هذا النحو لازم لتقويم الحاكم . ولولا النقد لظلم الحاكم ولاغرق فى الخطأ ، ولو كان فى عدل عمر ابن الخطاب . فمن حقنا ان نتألم من منع حرية النقد ، ومن حقنا كوفديين — وليس لدينا ما نعبر به عن آرائنا الا الصحف — ان نتخوف عندما نجد ان الاحكام العرفية طبقت بمجرد اعلانها اسوأ تطبيق .

... ...

حضرة الشيخ المحترم ابراهيم الهلباوى بك — ... ...

... ...

ويعقب على ذلك حضرة الشيخ المحترم الاستاذ يوسف الجندى بأن هذه عقيدة رفعة على ماهر باشا فى نفسه ، ولكن هل يستطيع ان ينقل هذه العقيدة الى نفوسنا . وانه يريد ان يقتنع بأن رئيس الوزارة لن يسىء استعمال هذه السلطات الواسعة بعد ما كان من أمر الحجر على حرية النقد فى الجرائد حتى اصبحت صورة واحدة ، واخذ يقدم الامثلة الكثيرة منها ان الجرائد قد منعت من نشر خبر دعوة سمو الامير عمر طوسون باشا لسمو الامير محمد على باشا ، ما هو الضرر الذى حاق بهذا البلد من عدم نشر هذا الخبر ؟

الواقع ان هذه امثلة لا يصح ان يضربها ، واذا اراد ان يستشهد ببعض الحوادث فليضرب لنا مثلا له اهميته وخطورته .

واخذ يذكر امثلة اخرى منها انه لايستطيع ان يعقد اجتماعا عاما ، فهل طلب من السلطات المختصه اجابة هذا الطلب فمنعه ؟

كما ذكر ان وزارة الشئون الاجتماعية منعت نشر خبر يختص بكثرة المتسولين فى البلاد ، فما عيب هذا ، ياحضرات الشيوخ المحترمين ، اذا كنا نريد ان نستر عيوبنا ونظهر بمظهر الامة المجيدة التى تحافظ على مبادئها السامية ، ولا شك ان حضراتكم تعلمون أن فى جميع البلاد المتمدينة ملاجىء لامثال هذه الفئة ، وانهم ممنوعون من الظهور فى الشوارع ، فهل اذا ما رأى وزير الشئون الاجتماعية او احد مندوبيه ان فى نشر هذا الخبر خطأ من قدر هذه الامة ومقدار عنايتها بأمر ضعفائها ، فهل يعتبر هذا من الامور التى تؤخذ على الرقابة على الصحف ؟

اعتقد اننا نحمد هذا ونشجعه .

[١٧ اكتوبر سنة ١٩٣٩] .

هل يجوز أن تمتد يد الرقيب اثناء قيام الاحكام العرفية الى منع نصوص الاسئلة والاستجوابات فى الصحف ، بعد ان ادرجت فى جدول الاعمال وقبل عرضها على المجلس .

مجلس الشيوخ

الاستجواب الموجه الى حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء ووزير الداخلية من حضرتى الشيخين المحترمين الاستاذ محمود بسيونى والاستاذ يوسف احمد الجندى عن الاجراءات التى اتخذت مع الصحافة — تحديد جلسة ١١ مارس المقبل للمناقشة فيه .

حضرة صاحب المعالى محمد على علوبة باشا [وزير دولة للشئون البرلمانية] — لقد اتفقت مع حضرتى الشيخين المحترمين مقدمى الاستجواب على ان تكون المناقشة فيه بعد اربعة اسابيع ..

حضرة الشيخ المحترم الاستاذ يوسف احمد الجندى — قبل ان نتكلم فى تحديد يوم للمناقشة فى هذا الاستجواب ارانى مضطرا ان اتقدم بشكوى وهى ان هذا الاستجواب تقدم من شيخين فى هذا المجلس وكان يجب على الرقيب الا يتناوله بحذف او تعديل اذا ما ارادت الصحف نشره ، ولكن الذى حدث ان الرقيب منع نشر هذا الاستجواب فى

الصحف — وهو عمل لايليق وغير جائز ، هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان هذا العمل لايتفق مع ما ادلى به من قبل رفعة رئيس مجلس الوزراء بجلسة ٢ اكتوبر سنة ١٩٣٩ اذ طلبت وقتئذ من رفعته ان يعدنا بأن المناقشات البرلمانية وما يحصل هنا من اخذ ورد لايجوز ان تمتد اليه يد الرقيب بأى حال ، فأجاب رفعته بأنه يسره الا تتناول يد الرقيب هذه المناقشات البرلمانية ، وانها لن تكون موضعا للرقابة بطبيعة الحال .

وانا اقرر الان انه مادام هذا الاستجواب تقدم للمجلس وأدرج فى جدول اعماله فقد اصبح جزءا من اعمالنا البرلمانية فلا يجوز ان تمتد اليه يد الرقيب . وانى اعترض كل الاعتراض وارجو معالى وزير الشئون البرلمانية كما ارجو الحكومة ان يسمحا لى بأن احتج باسم زميلى وباسمى واعتقد ان حضرات الشيوخ المحترمين يشاركوننى الاحتجاج على ان يد الرقيب امتدت الى عمل من اعمالنا البرلمانية وكان الواجب الا يتعرض الرقيب مطلقا الى مثل هذا الاستجواب .

الرئيس — يثبت هذا فى مضبطة الجلسة .

حضرة الشيخ المحترم الاستاذ يوسف احمد الجندى — لايكفى ان يثبت هذا فى المضبطة بل اطلب ان تدلى الحكومة الان برأيها لاسيما ان هذه المسألة لاتخص حزبا دون حزب وانما هى مسألة تتعلق بكرامة الاعضاء جميعا . ولايخفى على حضراتكم ان اعمالنا البرلمانية يجب ان تكون معروفة عند الجمهور والرأى العام ، والا يحول دون نشرها فى الصحف فيجب ان نعرف من الان اذا كانت هذه الاعمال يجوز ان تمتد اليها يد الرقيب او لايجوز . فان جاز ذلك وجب علينا ان ننفض .

[تصفيق] .

حضرة صاحب المعالى محمد على علوبة باشا [وزير دولة للشئون البرلمانية] — الذى اعرفه ان يد الرقيب لم تمتد الى هذا الاستجواب .

حضرة الشيخ المحترم الاستاذ يوسف احمد الجندى — ارجو ان ترجأ هذه المسألة الى آخر الجلسة لانى على استعداد لاستحضار المستند والدليل القاطع فى هذا الموضوع .

حضرة الشيخ المحترم وهيب دوس بك — هل معنى هذا ان معالى الوزير يقرر ان يد الرقيب لم تمتد الى هذا الاستجواب ؟

حضرة الشيخ المحترم الاستاذ يوسف احمد الجندى — قد لايكون معالى الوزير واقفا على ما حصل فى هذا الموضوع ولكننى اقرر تحت مسئوليتى انه لما ارادت بعض الصحف نشر الاستجواب منع الرقيب هذا النشر ، ورأى أن يشار الى مضمونه فقط .

حضرة صاحب المعالى محمد على علوبة باشا [وزير دولة للشئون البرلمانية] — هل يسمح حضرة الشيخ المحترم بأن يضم هذا الاعتراض الى موضوع الاستجواب ونناقشا معا ؟

حضرة الشيخ المحترم الأستاذ يوسف احمد الجندى — لا ، ولست ارى من المصلحة ان تمر هذه المسألة الان وترجأ اربعة اسابيع .

واذا كان معالى الوزير يرى الان ان ما اقوله صحيح فأرجو ان يصرح معاليه بأن المسألة لن تتكرر .

حضرة صاحب المعالى محمد علوبة باشا [وزير دولة للشئون البرلمانية] — يظهر أن حضرة الشيخ المحترم متأثر قليلا ، فأرجو ان يرجأ النظر فى هذه المسألة الى آخر الجلسة .

حضرة الشيخ المحترم الدكتور محمد حسين هيكل باشا — هل معنى هذا ان الحكومة تصرح بأنه لن يحصل فى المستقبل ان تمتد يد الرقيب الى اى عمل من اعمالنا ؟

حضرة صاحب المعالى محمد على علوبة باشا [وزير دولة للشئون البرلمانية] — الحكومة لم تعترف بأن يد الرقيب امتدت الى هذا الاستجواب

الرئيس — ومتى تكون المناقشة فى هذا الاستجواب ؟

حضرة صاحب المعالى محمد على علوبة باشا — نظرا لغياب حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس الحكومة فى السودان ارجو تأجيل المناقشة فى هذا الاستجواب اربعة اسابيع .

حضرة الشيخ المحترم الاستاذ يوسف احمد الجندى — أعتقد ان ثلاثة اسابيع كافية .

الرئيس — هل توافقون حضراتكم على تحديد يوم ١١ مارس سنة ١٩٤٠ للمناقشة فى هذا الاستجواب ؟

[موافقة] .

[فى ١٩ فبراير سنة ١٩٤٠]

عود الى الاستجواب

الموجه الى حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء ووزير الداخلية من حضرتى الشيخين المحترمين الاستاذ محمود بسيونى والاستاذ يوسف الجندى عن الاجراءات التى اتخذت مع الصحافة :

حضرة الشيخ المحترم الاستاذ يوسف احمد الجندى — ارجو ، قبل استئناف المناقشة فى الاستجواب الموجه منى الى حضرة صاحب المعالى وزير المالية ، ان اوجه النظر الى انه اثيرت فى جلسة الامس مسألة الرقابة على الصحف ، وقد رأى المجلس تأجيل الكلام فيها الى آخر الجلسة ، ولكن لم تحصل المناقشة نظرا لعدم تكامل العدد القانونى ، وأظن أن الفرصة سانحة الان للكلام فيها .

حضرة صاحب المعالى محمد على علوبة باشا — ان الرقيب لايتعرض بشىء من الحذف أو التعديل لجداول الاعمال فى البرلمان . وقد نشرت الصحف جميعها جدول اعمال جلسة الامس بالنص الذى ابلغته اياها سكرتيرية المجلس ، وافرد بعضها للبند الخامس باستجواب حضرتى الشيخين المحترمين عن الاجراءات المتخذة مع الصحف مكانا بارزا فى احدى صفحاتها الرئيسية .

اما الاسئلة والاستجوابات فلا يعرض الرقيب الا لما يراد نشره منها على حدة قبل ان يتلى فى الجلسات ، ويكون عرضه فى احدى حالتين اثنتين وعلى احد وجهين اثنين : الاسئلة والاستجوابات التى لا تكون مدرجة بجدول اعمال المجلس ، فلا يعرض لها الرقيب بالمنع اخذا بقرار مجلس الشيوخ الموقر الصادر بجلسة ١٠ يناير ١٩٤٠ ، والاسئلة والاستجوابات التى تكون متضمنة امورا تقضى تعليمات الرقيب العام بعدم اذاعتها يعرض لها الرقيب بالتأجيل الى ان تتلى فى المجلس فتنشر ضمن ما يتردد فيه من اقوال ، وذلك نزولا على تصريح رئيس الحكومة فى جلسة ٢ اكتوبر سنة ١٩٣٩ .

وهذا الاجراء الاخير هو الذى اتخذه الرقيب نحو استجواب حضرتى الشيخين المحترمين اذ اريد نشره قبل ان يتلى فى الجلسة ، واذا تضمن امرا ممنوعا نشره بمقتضى تعليمات الرقيب العام الصادرة بتاريخ ١٨ سبتمبر سنة ١٩٣٩ والمبلغة حين صدورها لمديرى الصحف والناشرين جميعا ، وهو « الاشارة بطريق مباشر او غير مباشر الى اجراءات الرقابة » . فعرض له الرقيب لا بالحذف كما يقول حضرة الشيخ المحترم الاستاذ يوسف احمد الجندى بل بالتأجيل الى يوم يتلى فى الجلسة والاكتفاء الان بالنص الوارد عنه فى جدول الاعمال المبلغ من سكرتيرية المجلس الى الصحف مباشرة .

الرئيس — هل يرغب معالى وزير الشئون البرلمانية ان يتناقش حضرة الزميل المحترم الاستاذ يوسف الجندى مع الوزارة فى هذه المسألة ؟ او ان يعتبرها قائمة بذاتها ؟

حضرة صاحب المعالى محمد على علوبة باشا [وزير دولة للشئون البرلمانية] — لقد جاءت هذه المسألة عرضا اثناء تحديد موعد المناقشة فى الاستجواب المقدم من حضرتى الشيخين المحترمين الاستاذ محمود بسيونى والاستاذ يوسف الجندى واعتقد انها جزء من موضوع الاستجواب الذى سيعرض على المجلس للمناقشة فيه فى الموعد المحدد لذلك ، فاذا تفضل حضرة الشيخ المحترم واجل ما يريد

توقفه اليوم الى يوم المناقشة فى الاستجواب كان ذلك اجدى .

حضرة الشيخ المحترم الاستاذ يوسف احمد الجندى — ان الملاحظة التى ابداها سعادة الرئيس وكان جواب معالى وزير الشئون البرلمانية عنها كما سمعتموه حضراتكم لا محل لها مطلقا .

شكوت لحضراتكم امس وقلت ان الاستجواب الذى تقدم من حضرة الزميل المحترم الاستاذ محمود بسيونى ومنى ، الخاص بالرقابة على الصحف ، قد امتدت اليه يد الرقيب بالحذف بعد ان ادرج فى جدول الاعمال ، وقلت لحضراتكم ان هذه المسألة بالذات لاتخصنى ولا تخص حزبا بل تخص حضراتكم جميعا ، كما تخص مجلس النواب . فقال معالى الوزير فى جلسة الامس انه لايعرف ان يد الرقيب قد امتدت الى الاستجواب بالحذف .

ولما كان المستند الدال على ذلك تحت يدنا فقد استحضرته ، وها هو بيدى ، وقد اطلعت معالى الوزير عليه امس ، وهو عبارة عن تجربة من جريدة المصرى نشر فيها الاستجواب برمته فأشر عليه الرقيب بما يأتى ، « يكتفى بنشر هذا الخبر بنفس الصيغة التى نشرته بها جميع صحف المساء ، اى بالاشارة الى تحديد يوم للمناقشة فى الاستجواب الموجه الى رئيس مجلس الوزراء عن الاجراءات التى اتخذت مع الصحافة » .

لانزاع اذن ، يا حضرات الشيوخ المحترمين ، فى ان هذا الاستجواب لم يبح نشره ، واجابة معالى الوزير اليوم تلطف المسألة نوعا ما ، اذ يقول ان كل ما حصل من الرقيب هو انه اجل ، والواقع انه منع النشر . اذن المسألة التى يصح عرضها على حضراتكم هى هل ممنوع نشر ما يقدم منا من استجوابات او اسئلة او اقتراحات او مشروعات قوانين فى الصحف او غير ممنوع ؟

يا حضرات الشيوخ المحترمين : قال سعادة رئيس مجلس الشيوخ فى احدى الجلسات ان التقاليد البرلمانية فى اوربا لاتبيح نشر مثل هذه المسائل قبل ادراجها فى جدول الاعمال ، فهذه القاعدة التى وضعها سعادة رئيس المجلس واقرها المجلس بسكوته يجب ان تكون هى القاعدة المتبعة ، بمعنى انه لايصح نشر الاستجواب قبل ادراجه فى جدول الاعمال ..

حضرة الشيخ المحترم محمد حلمى الجزار بك — لا افهم معنى لعدم نشر الاسئلة والاستجوابات فى الصحف قبل ادراجها فى جدول الاعمال . اننا لانقر ذلك مطلقا .

حضرة الشيخ المحترم الاستاذ يوسف احمد الجندى — انا اتكلم عن القاعدة التى وضعها الفريق المعتدل .. ولكن الحكومة تريد ما هو ادهى وامر ، فهى ببيان معالى وزير الشئون البرلمانية تقول لحضراتكم بصريح العبارة ان يد الرقيب من حقها ان تمتد الى الاسئلة والاستجوابات ، وايضا الى اعمال الاعضاء بالحذف او التعديل او التأجيل مادامت لم تعرض على المجلس ولم تحدث المناقشة فيها .

لماذا يحرم على الاعضاء بعد ان ادرجت اسئلتهم واقتراحاتهم واستجواباتهم فى جدول الاعمال ان تنشر فى الصحف قبل عرضها على المجلس ؟ اننا هنا لانعمل لحساب انفسنا ولمصلحة خاصة بنا انما نحن موكلون عن الشعب وممثلون للرأى العام ، ولا يصح بحال ان يؤجل نشر اعمالنا حتى تطرح على المجلس للمناقشة فيها .

فحضراتكم تعلمون ان هذه الاعمال تحال الى اللجان المختصة لتقدم تقاريرها عنها فيستغرق عملها هذا زمنا ، فهل يرضيكم ان يكون الرأى العام بمنأى عما يتقدم من حضرات الاعضاء والا يطلع عليه الا بعد المناقشة فيه ؟ لم هذا كله ؟ هل يمكن ان تمتد يد الرقيب الى الاقتراح او الاستجواب بالحذف بعد ان تحصل المناقشة فيه ؟ انى لا افهم معنى لهذا .

يرى معالى وزير الشئون البرلمانية ان يكون نشر السؤال او الاقتراح او الاستجواب بعد المناقشة فيه مع انه من المصلحة ان يعرف الرأى العام المسائل قبل مناقشتها حتى يتداولها بالنقد او التقريظ ، ويجب ان تطرح اعمالنا النيابية على الرأى العام دائما ليقول كلمته فيها ، ان ذلك التصريح الذى صرح به رفعة رئيس الوزراء فى اول اجتماع غير عادى عندما طلبت الى رفعته الا تتعرض مناقشاتنا للحذف — فوافق رفعته على ما طلبته — كان تصريحا جميلا .

لايمكن ان افهم ان العقلية التى صدر عنها مثل هذا القول تمنع نشر الاستجواب قبل المناقشة فيه . هذا امر غير معقول ، فلا يسعنى الا ان اطرح على حضراتكم المسألة لتبدوا رأيكم فيها ، فهى تختص بالضمانات البرلمانية ولا تختص بحزب دون حزب .. وانى لا اوافق ولا اقر التصريح الذى ادلى به معالى وزير الشئون البرلمانية لانه يقيد حريتنا فى اعمالنا .

وقد فاتنى ان اذكر لحضراتكم انه طرح موضوع الاستجواب امس منعت الرقابة نشره .

حضرة الشيخ المحترم انطون الجميل بك — أرجو ان يتلو حضرة الزميل المحترم نص الاستجواب .

الرئيس — لقد طلب معالى الوزير الكلمة قبل ذلك .

حضرة صاحب المعالى محمد على علوبة باشا [وزير دولة للشئون البرلمانية] — حضرات الشيوخ المحترمين :

ارجو ان نتناقش فى هدوء حتى نصل الى الحقيقة .

انى غير مقتنع بالملاحظة التى ابداها حضرة الشيخ المحترم الاستاذ يوسف احمد الجندى فى جلسة امس . ولكى يطمئن حضرة الشيخ المحترم اقول انه ذكر فى جلسة ٢ اكتوبر سنة ١٩٣٩ ان سلطة الرقيب على الصحافة سلطة واسعة لاحد لها ، وان من حق مجلس الشيوخ ان يرجو الا يكون لهذه السلطة اثر فى الاقوال التى تتردد فى هذا المجلس .

والفت نظر حضراتكم بنوع خاص الى العبارة التى نطق بها حضرة الشيخ المحترم ، وهى الا يكون لهذه السلطة اثر فى الاقوال التى تتردد فى هذا المجلس . وقد اجابه رفعة رئيس مجلس الوزراء بما ملخصه انه سعيد ان يعلن انه يشارك حضرة الشيخ المحترم الرأى فى ان ما يقال فى هذا المجلس الموقر لن يكون محلا للرقابة . اذن حصل اتفاق بين حضرة الشيخ المحترم وبين رفعة رئيس مجلس الوزراء على ان سلطة الرقابة لاتمتد الى مايقال فى المجلس ، وقد نفذت السلطة هذا الوعد ، فأمامنا الآن مسائل ثلاث ارجو ان نلتفت اليها ، اولاها ، جدول الاعمال ، وهو من صميم عمل رياسة المجلس ، وقد اتفق على ان توافق سلطة الرقابة على نشر جدول الاعمال الذى يرسل من المجلس .

الرئيس — اذا اتبعتفى جدول الاعمال نص الاسئلة والاستجوابات فما الذى يحصل من جانب الرقابة ؟

حضرة صاحب المعالى محمد على علوبة باشا [وزير دولة للشئون البرلمانية] — الرقابة مستمرة على خطتها فى ان جدول الاعمال الذى يشمل ملخص الموضوعات التى تطرح على المجلس ينشر برمته .

المسألة الثانية ، هى ان كل مايقال فى هذا المجلس قد اتفق على ان ينشر برمته . فاذا كانت اسئلة او استجوابات يبيح المجلس تدوينها فى مضابطه ، فهذه يأمر الرقيب بنشرها .

اما المسألة الثالثة ، وهى الاستجوابات وأمر نشرها ، فلم تكن محلا للاتفاق بين رفعة رئيس الوزراء ، او بعبارة اخرى بين الحاكم العسكرى وبين حضرة الشيخ المحترم المستجوب .. لم يتفق على نشرها [الاستجوابات] التى لم تناقش بعد فى المجلس .

قد يحدث ، يا حضرات الشيوخ المحترمين ، ان تكون هناك استجوابات لايسمح المجلس بنشرها وقد تكون هناك استجوابات اخرى وردت فى جدول الاعمال ولكنها لم تناقش . وقد رئى بناء على انها لم تكن داخلة ضمن الاتفاق

وعلى ان الرأى العام لايصح ان يطلع على اقوال جهة واحدة دون ان يطلع على اقوال الجهة الاخرى ، وبعد ان ينشر كل ذلك وقته نشره فى مضابط المجلس .

هذا عمل درجت عليه الرقابة ، فاذا كان حضرة الزميل المحترم يريد ان تسير الرقابة على غير ما اتفق عليه فى جلسة ٢ اكتوبر سنة ١٩٣٩ او على اكثر منه . فهل هناك ضرر جسيم من انتظار عودة رفعة رئيس مجلس الوزراء — بصفة كونه الحاكم العسكرى — للاتفاق معه على شيء مخالف او على ازيد مما اتفق عليه من قبل ؟

هذا رأيى اعرضه على حضراتكم ، وهو يدل على انى كنت محقا فى طلبى فى جلسة امس ان تؤجل مناقشة الاستجواب لحين حضور رفعة رئيس مجلس الوزراء

حضرة الشيخ المحترم حسن صبرى باشا — لو طبقت اللائحة الداخلية كما يجب ان تطبق لما كنا فى حاجة لهذا الجدل ، فان المادة ٤٩ من اللائحة الداخلية تنص على ما يأتى :

« على العضو الذى يريد ان يستجوب واحدا او اكثر من الوزراء ان يقدم الى الرئيس بيانا مكتوبا بموضوع هذا الاستجواب ، فيأمر الرئيس بتلاوة هذا البيان فى الجلسة ويحدد المجلس موعد المناقشة فى موضوع الاستجواب بعد ثمانية ايام على الاقل ، الا اذا رأى المجلس الاستعجال ووافقه الوزير » .

عرض هذا الاستجواب بالامس ولم يتل ، فليس هناك من حل لما نحن فيه الا ان يتلى هذا الاستجواب الان ، ويثبت فى مضبطة الجلسة وينشر فى الصحف ، وينتهى الامر ، ولا داعى ان نعود للماضى او نؤجل للمستقبل ، ويوافق هذا او يجيء ذلك .

المسألة فى غاية البساطة فتكملة لما حصل بالامس من ان الاستجواب لم يتل ، وقد حددت جلسة ، فليتل اليوم الاستجواب . وما كان علينا ان نعمله بالامس نعمله الان ، فالتمس من سعادة رئيس المجلس ان يأمر بتلاوة الاستجواب

حضرة الشيخ المحترم الدكتور محمد حسين هيكل باشا — حضرات الشيوخ المحترمين : هذه المسألة المعروضة امام حضراتكم يقوم فيها الجدول على اساس ان اتفاقا وقع بين هذا المجلس بناء على طلب حضرة المحترم الاستاذ يوسف احمد الجندى وبين رفعة رئيس مجلس الوزراء — سواء اكان بصفة كونه رئيسا لمجلس الوزراء او حاكما عسكريا — وانا قد سمعت الان حضرة صاحب المعالى وزير الدولة للشئون البرلمانية يقول : « لهذا يجمل ان ننتظر عودة رفعة الحاكم العسكرى للنظر فى هذا الاتفاق حتى نتفق على مدى توسيعه او تضييقه وابسحو لى حضراتكم ان اقول ان هذا الاتفاق ليس مما يجوز ان يتناوله بحث ؟ وليس هو فى الواقع بين المجلس ورفعة رئيس مجلس الوزراء او الحاكم العسكرى ، لان النشر والعلانية حق مطلق لهذا المجلس قرره الدستور ولا يجوز بأى حال من الاحوال باسم الاحكام العرفية او بأية صفة من الصفات ان يحدد او اسم الحرب او يقيد هذا الحق حتى يكون هناك موضع لتوسيعه او تضييقه او للحد من مداه » .

[حضرة صاحب المعالى محمود غالب باشا وزير المواصلات] .

فلقد نص الدستور فى المادة ١٥٥ على ما يأتى :

« لايجوز لاية حال تعطيل حكم من احكام هذا الدستور الا ان يكون ذلك وقتيا فى زمن الحرب او اثناء قيام الاحكام العرفية وعلى الوجه المبين فى القانون .

وعلى اى حال لا يجوز تعطيل انعقاد البرلمان متى توفرت فى انعقاده الشروط المقررة بهذا الدستور » .

فلا يجوز اذن تعطيل انعقاد البرلمان ، والدستور صريح فى ان انعقاد البرلمان علنى الا اذا استوجب الامر السرية فقررها احد المجلسين » واذا قيل اجتماع علنى — وبخاصة اذا كان هو اجتماع الهيئة التشريعية ، اى مجلس النواب او مجلس الشيوخ — فيجب ان تعطى للعلانية كل احكامها فى اوسع مدى ممكن .

فالعلانية لا تقتصر على ان يجيء الزائرون الى الشرفات ليسمعوا ما يدور فى احد المجلسين من مناقشة » فهذه الشرفات محدودة المساحة بطبيعتها ، والبطاقات تصرف للزائرين بمقدار ما يتسع لهم المكان » فلو أن الفا او الفين او اكثر ارادوا الحضور فهذا حق لهم بمقتضى حكم الدستور . واذا كان الواقع يقضى بأن تكون العلانية المكانية محدودة بحدود مادية فان المنطق المتفق عليه ، وبنوع خاص فى دور القضاء ودار البرلمان ، أن تمتد العلانية حتى تتحطم هذه القيود المادية بكل الوسائل . فهذه الجدران اذا كان من الممكن انساحها فيجب ان يعمل ذلك لتتوفر اسباب العلانية المقررة بمقتضى احكام الدستور . لهذا يقع فى بعض المناسبات كما يقع عند القاء خطاب العرش ، الا يكتفى فى العلانية بالنشر بل تذاع اذاعة تتناول البلاد من اقصاها الى اقصاها كما تتناول الخارج ايضا .

ومادام الدستور قد نص على أن اعمال البرلمان يجب ان يكون مستمرا فيجب ان يترتب على هذا كل اثر له ، ومن ذلك أن كل ما يقع فى المجلس ان يكون علنيا . لماذا ؟ لانه ليس ملكا للمجلس ولا للحكومة ولكنه ملك للمصريين كافة ، وكل كلمة تقال هنا لا نقولها الا ليسمعها الناس جميعا فيحكموا لنا او علينا ، ويطلعوا على قرارات المجلس واعمال الحكومة فيدلوا بآرائهم فيها ان كانت لها او عليها .

اما أن نتقيد بوجود اتفاق مع رفعة الحاكم العسكرى ونخضع لسلطة من الرقابة ايا كان نوعها فاعتقد أن فى هذا اعتداء واضحا على الدستور ، واعتقد ايضا أن كل تحديد يمكن ان تتناوله الرقابة لاعمال هذا المجلس قبل الجلسات او بعد الجلسات او فى اللجان او فى كل ما اباحت اللائحة الداخلية نشره قبل المناقشة او اثنائها ، اعتقد انه لا يجوز بحال من الاحوال ، والدستور قائم ، والمادة ٩٨ تنص صراحة على ان جلسات المجلسين علنية ، اى ان نشر ما يدون فيها واجب حتى اثناء قيام الاحكام العرفية — ولذلك فانى اقول انه يجب الا تخضع لرقابة ايا كان نوعها وسلطانها .

[تصفيق حاد] .

الرئيس — بناء على نص المادة ٤٩ من اللائحة الداخلية يتلى نص الاستجواب

حضرة الشيخ المحترم الاستاذ لويس اخنوخ فانوس — لقد طلبت الكلمة .

[حضر حضرة صاحب المعالى الاستاذ ابراهيم عبد الهادى وزير دولة للشئون البرلمانية] .

الرئيس — فليتفضل حضرة الزميل المحترم .

حضرة الشيخ المحترم الاستاذ لويس اخنوخ فانوس — حضرات الشيوخ المحترمين : مسألة الاستجواب من اهم واخطر المسائل فى الدستور ، لانه بواسطة الاستجوابات تتحقق سلطة البرلمان على الوزراء ، وقد ورد على لسان بعض من سبقونى من حضرات الزملاء المحترمين ما قد يفهم منه انه قد توجد هناك سلطة تحول دون عرض الاستجوابات على المجلس » .

[انصرف حضرة صاحب المعالى محمود فهمى النقراشى باشا وزير المعارف العمومية] .

وقد اشير الى ان تعرض الرياسة او لا تعرض الاستجوابات ، فخوفا من ان يثبت هذا الكلام فى المضبطة وتكون هذه سابقة خطيرة طلبت الكلمة لابين انه ليس لاية سلطة الحق فى منع ادراج اى استجواب فى جدول الاعمال الا سلطة المجلس وحده . ان حق الاستجواب حق اساسى للعضو فى اى من مجلسى البرلمان ، ولا يمكن باى حال من الاحوال الحيلولة دون تمتع حضرات الاعضاء بهذا الحق .

انتقل الان الى مسألة النشر فاقول اننا لانزال نذكر الروح الطيبة التى بدت من رئيس مجلس الوزراء والحاكم العسكرى عند نظر مرسوم الاحكام العرفية . فلقد اوضح بكل جلاء انه يريد ان يستعمل تلك السلطة الواسعة التى خولها له القانون تحت رقابة البرلمان وبالتعاون مع مجلسيه ، وكان من آثار ذلك تصريحه

الذى جاء فيه انه لايمكن للرقابة ان تمتد بأى حال الى مناقشات البرلمان او تحد من حرية نشرها ، فاذا كان هناك خطأ فهو من الرقابة فى تفهم معنى هذا التصريح الذى ادلى به رفعة رئيس مجلس الوزراء والحاكم العسكرى ، فمالت الرقابة الى تضييق هذا التصريح وارادت ان تحصره فيما يتلى فقط فى المجلس ، وهذا تفسير تعسفى فى تفهم روح التصريح ومعناه »

وكان اجدر بالرقابة ان تبتعد عنه ، وان تسير فى عملها طبقا للروح التى جرى عليها صاحب المقام الرفيع ورئيس مجلس الوزراء والحاكم العسكرى فى جميع تصرفاته الخاصة بالاحكام العرفية وبخاصة أنه كان يلجأ الى الاستنارة بآراء لجنتى الاحكام العرفية فى مجلسى البرلمان ، فكان يجب على الرقابة ان تنهج على هذا المنوال ، مستمدة من هذا الشعور ومن الروح الطيبة التى بدت فى كلام رفعة رئيس مجلس الوزراء »

اما المسألة الخاصة بنشر الاستجواب واعمال البرلمان فهى حق من حقوق الامة كما هى حق من حقوق البرلمان ، لان الامة هى الرقيب الاعلى على اعمال البرلمان اذ يجب ان يتمكن الشعب عامة وبسهولة من الوقوف على مايجرى من الاعمال فى البرلمان ، ويلمس الروح التى يعمل بها من وكل اليهم تمثيله فى المجلسين حتى يحكم لهم او عليهم عند الرجوع اليه فى رأى من الآراء » لذلك ارى انه يجب ان تكون حرية النشر مكفولة تماما لجميع اعمال البرلمان »

[تصفيق]

الرئيس — الآن يتلى نص الاستجواب .

تلى الاستجواب ، وهذا نصه :

« نريد استجواب رفعتكم بصفة كونكم رئيسا لمجلس الوزراء ووزيرا للداخلية فيما اتخذته الوزارة من اجراءات افضت الى خنق حرية الصحافة والرأى فى مصر ، ولا سيما بعد ان ابدى مجلس الشيوخ باجماع رأى اعضائه رغبته الصريحة القوية فى ان تكون الرقابة على الصحافة مقصورة على الضرورات الحربية والا تتناول الشئون الداخلية للبلاد »

ولكننا تبينا ، مع الاسف ، ان الامر يجرى على نقيض هذه الرغبة الصادرة من ممثلى الامة ، فمن الامثلة التى سيتناولها الاستجواب :

أولا : منعت الرقابة ، منعا باتا ، ان يكون شاملا ، كل نقد لاعمال الوزارة سواء أكان متعلقا بالمسائل السياسية والدستورية ام بالمسائل الاقتصادية رغم مساسها بالمرافق الحيوية للبلاد ورغم انها جميعا ابعد ما تكون عن الحرب وشئونها .

ثانيا : بلغ الأمر بالرقابة ان منعت نشر الايات القرآنية والحكم القديمة ، ولو أنه تفضل فسمح بنشرها فى صفحة خاصة بالادب ، فلما نفذ امره منع نشرها بتاتا . وكذلك منعت جريدة الوفد المصرى من نشر الايات القرآنية والحكم

ثالثا — ومما يثير الاسف ان الرقابة فى اجحافها بحرية الرأى لم تكن عادلة حتى فى توزيع هذا الاجحاف على الصحف ، فسمحت للصحف الحكومية بالمهاترة ضد خصومها السياسيين ، فى حين انها لم تسمح لصحف المعارضة بالرد عليها الا فى حدود الدفاع ولا فى حدود النقد البرىء .

وسنقدم فى استجوابنا نماذج عديدة من المقالات والفقرات التى منع نشرها مما يدل دلالة قاطعة على ان منع النشر قد أريد به فى جميع الاحوال اتخاذ الرقابة الصحفية وسيلة لحماية الوزارة نفسها من النقد الموجه الى تصرفاتها وليس لخدمة الاغراض الحربية او القضية الديمقراطية التى نؤيدها جميعا .

وانه ليحزننا ان نقرر ان البلاد تعانى اليوم الكثير من فداحة الرقابة الصحفية ، ومع ان مصر مازالت بعيدة عن ويلات الحرب فهى تكابد من تدابير الضغط على حرية الرأى مالم نجد له نظيرا فى البلاد التى اصبحت ارضها ميادين للقتال او التى اشتركت فى الحرب بالفعل كحليفتنا بريطانيا العظمى وغيرها من البلاد الديمقراطية »

محمود بسيونى ، يوسف احمد الجندى

١٤ فبراير سنة ١٩٤٠ »

حضرة الشيخ المحترم الاستاذ يوسف احمد الجندى — المسألة التى اثرناها لا تنتهى بتلاوة الاستجواب . وانى اؤيد حضرة الشيخ المحترم الدكتور محمد حسين هيكل باشا فى جميع ما قاله ، واضيف اليه ان الاتفاق الذى تم بين الحكومة والمجلس فى احدى جلساته يقرر هذا الحق »

اما مايطلبه حضرة صاحب المعالى محمد على علوبة باشا ، وزير الشئون البرلمانية من ارجاء هذا الموضوع حتى يعود رفعة رئيس مجلس الوزراء من سفره ، فالذى استطيع ان اقوله الآن اننى لا اريد ان اطرح على المجلس هذه المسألة لاخذ رأيه فيها ، وانما اريد ان الفت النظر الى ان آراء الجميع تتجه الى الا تمتد الرقابة الى اعمال البرلمان ، وكل ما ارجوه من الحكومة الان ان تعمل على تحقيق ذلك ، ولا مانع عندى من ان نثير هذ المسألة من جديد عند عودة رفعة رئيس مجلس الوزراء .

الرئيس — اظن ان هذه المسألة يمكن ان تضم الى الاستجواب الخاص بها والمحددة له جلسة ١١ مارس المقبل ، واعتقد انكم توافقون على ذلك .

[موافقة] .

[فى ٢٠ فبراير سنة ١٩٤٠]

[١] مدى الرقابة على الصحف اثناء قيام الاحكام العرفية .

[٢] الامور التى منع الرقيب العام نشر شىء عنها اثناء قيامها .

[أ] الاضرار بعلاقات مصر مع حلفائها او مع الدول الاجنبية

[ب] ايجاد أسباب التنافر بين صفوف القوات المصرية او قوات الحلفاء او التدخل فى نظامهم او فى شئون الصحة والتدريب الخاصة بهم او التعرض لتادية واجباتهم ، وكذلك ايجاد هذه الاسباب بين صفوف القائمين بالخدمة العامة او عرقلتهم عن اداء واجباتهم او تحريضهم على التمرد على القيام بواجباتهم

[جـ] الحض على كراهة الحكومة القائمة والهيئات العامة فى مصر او ازدرائها او اثارة الخواطر عليها .

[د] بث روح الكراهية والعداء بين مختلف الطبقات فى مصر او بين مصر وحلفائها .

[هـ] اثارة مخاوف ورعب الجمهور او طائفة معينة منه .

[و] تقويض دعائم الثقة العامة فى السمعة القومية والمالية لمصر وحلفائها ، وكذلك منع انتشار معلومات عن حركات العمال او عدم كفاية المؤن او اى معلومات اخرى يكون من شأنها انماء الروح المعنوية فى العدو .

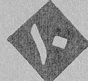
مطابع الأهـرام التجارية

الثمن ١٠ قروش

الطليعة

طريق المناضلين إلى الفكر الثوري المعاصر

السنة السابعة ـ اكتوبر ١٩٧١



- قومية المعركة .. فى التطبيق
- **برنامج العمل الوطنى**
الوثيقة الثالثة لثورة يوليو
- بيروت : التسلح لماذا ؟ وضد من ؟
- موسكو : خروشوف بين الأصدقاء والأعداء
- برلين : من الذى خسر الجولة ؟



طريق المناضلين الى

الفكر الثورى المعاصر

مجلة شــــهرية
تصدر اول كل شهر

رئيس التحرير :

لطفى الخولى

مستشارو التحرير :

د. ابراهيم ســـعد الدين
ابو ســيف يوســـف
د. اسماعيل صبرى عبدالله
د. جمـــال العطيفى
د. رشـــدى ســـعيد
د. عبـــد الرازق حســـن
د. لطيفـــة الزيات
د. محمـــــد الخفيف
محمد ســيد احمــد

مدير التحرير :

ميشيل كامل

■

عنوان المراسلات :

مبنى مؤسسة الاهرام شارع الجلاء القاهرة تليفون : ٤٦٤٦٤ — ٩٠٥٠١٠ — ٥٩٥٦٠

الاشتراكات :
لسنة بالبريد العادى ج.ع.م. دول اتحاد البريد العربى ودول الدار البيضاء ١٢٠ قرشا .

الفهـــرس

العدد العاشر — السنة السابعة — اكتوبر ١٩٧١

ورقة رأى

مع هذا العدد « ورقة راى » تتوجه بها « الطليعة » الى اصدقائها · وذلك فى محاولة لاستكشاف آراء وانتقادات الاصدقاء · وهى على ثقة من ان الاصدقاء سوف يولون هذه الورقة ، اهتمامهم ، فهذا الاهتمام ، فوق انه رصيد الثقة الذى تعتز به الطليعة ، يغدو - اليوم - ونحن على اعتاب مرحلة جديدة ، ضروريا لتوجيه المسار باستمرار نحو الطريق الصحيح ·

و « الطليعة » تقدم « ورقة الرأى » الى الاصدقاء ، مستلهمة الحكمة العربية القائلة : صديقك من صدقك لا من صدقك » !

ان « الطليعة » ميدان مفتوح لكل راى حر ، وفى اعتقادنا أن تفاعل الاراء الحرة على اختلافها هو وحده الذى يستطيع ان يبلور ويستخلص وحدة فكرية أصيلة .

من هذا المفهوم تفتح « الطليعة » صفحاتها لكل رأى لديه كلمة يقولها - مؤمنة بشعار الحرية المجيد الذى اطلقه فولتير فى القرن الثامن عشر « قد اختلف معك فى الرأى ولكنى على استعداد لان ادفع حياتى ثمنا لحقك فى الدفاع عن رأيك » ؟ .



ليس بالألم وحده .. يعيش الانسان العربى [٢]



تحت عنوان «ليس بالالم وحده ، يعيش الانسان العربى»، تعرضت « افتتاحية » العدد الماضى ، الى مناقشة الخلل الخطير الذى كشفت عنه الاحداث الدامية الاخيرة فى الوطن العربى ، بالنسبة لمسار حركة التحرر العربية .

وردت « الافتتاحية » هذا الخلل الى اربعة تناقضات رئيسية ، هى :

● **التناقض بين ما هو « معلن »** عن وحدة القوى الوطنية والتقدمية فى البلد العربى الواحد ، وبين ما هو « **كائن فعلا** » من تمزق وبعثرة وتفتت .

● **التناقض بين « التصريحات الرسمية »** الصادرة عن السلطات المختلفة فى الدول العربية حول قومية المعركة ووحدة كل البلاد العربية فى مواجهة الخطر الصهيونى ـ الامبريالى ، وبين « **الافعال** » المحطمة لكل وحدة عمل ضد العدو ، ولو فى أدنى الدرجات .

● **التناقض بين « الوعى »** بدرس الهزيمة الخاص بضرورة احترام انسانية الانسان العربى ، كى تكون مشاركته عميقة وخلاقة فى المعركة ، وليست مشاركة المتفرج ، وبين « **استمرار عمليات الانتهاك** » للانسان ومصادرة حقوقه وارتخاص حياته .

● **التناقض بين « السعى »** الى جذب أكبر عدد من الحلفاء الى صفوفنا وبين « **قيام البعض بحملة معادية** » ضد أقوى وأخلص الحلفاء جميعا ، وهو الاتحاد السوفيتى .

وتناولت الافتتاحية بالعرض والتحليل ، التناقض الاول ، وكيفية مواجهته وعلاجه موضوعيا .

وتواصل افتتاحية هذا العدد ، مناقشة التناقضات الثلاثة الأخرى .

قومية المعركة .. فى التطبيق

لعل أحدا من جيلنا ـ على طول الوطن العربى وعرضه ـ لم يسلم من « صفعة البراءة المدوية » ، لذلك السؤال الذى ما انفكت السنة اطفالنا ترمينا به ، منذ هزيمة يونيو ١٩٦٧ :

ـ كيف أمكن لمليونين ونصف المليون من البشر ، أن يهزموا مائة مليون فى أقل من أسبوع ؟

ومازلنا ، بعد مرور أكثر من أربع سنوات على يونيو الدامي ، نقف تحت وهج عيون أطفالنا عرايا من كل شيء ، الا بصمات الهزيمة . ومهما تلونت اجاباتنا التبريرية ، بالصدق او بالزيف ، فهي لا تقنع أصغر طفل من شعبنا .

فعين الطفل الصافية ، تلمح بوضوح متطهر من سفسطائيتنا ، ذلك التناقض الصارخ بين ما « **قلناه** » له ، وما «**فعلناه**» بأيدينا .

قلنا له — معلمين — الكثرة تغلب الشجاعة .

وفي الفعل ، شاهد كثرتنا تتمزق وتتبعثر أمام نوع خاص من شجاعة علمية منظمة ، رغم بدائيتها العصرية .

قلنا له — مربين — الاتحاد قوة ، وحكيناله قصة ذلك الرجل من الزمن القديم ، الذى جمع أولاده وهو على فراش الموت ، وأعطى لكل ولد عصا فكسرها بسهولة ويسر . فلما ربط العصى فى حزمة واحدة ، لم يقدر أى منهم على كسرها .

وفي الفعل ، رآنا نقدم لاولاد « الرجل المريض » فى عصرنا ومنطقتنا ، عصيا مفردة ، تتكسر الواحدة بعد الاخرى .

وما زال اطفالنا حتى اليوم ، **يسمعوننا** نصرخ فى كل ركن من أرجاء وطننا العربى بشعار « قومية المعركة » . **ولكنهم** لايلمسون — **فى العمل** — غير التناحر والتطاحن فيما بيننا الى درجة سفك الدماء . وذلك على مدى رقعة هائلة من الارض تفترش أكثر من عشرة ملايين كيلومتر مربع من افريقيا وآسيا ، تمتد من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي ، ومن البحر الابيض المتوسط الى حدود السودان الجنوبية .

وهنا — بالدقة — حيث يرى أطفالنا فى بساطة حدة التناقض بين القول والفعل ، يكمن سبب جوهرى من أسباب هزيمتنا فى ١٩٦٧ ، واستمرارها حتى اعتاب عام ١٩٧٢ الذى أوشك أن يهل .

ربما يكون من المحال أن نطلب لعيوننا صفاء عيون أطفالنا . **فواقع الكبار أكثر تعقيدا — كما ونوعا — من واقع الصغار . ولكن هل يستحيل علينا — على الاقل — ان نعانى ، فكرا وعملا ، أزمة هذا التناقض — على المستوى القومى — بنفس العمق الذى يدمى وجدان أطفال السبعينيات فى وطننا ؟**

لنحدد ، منذ البداية ، وبدقة موضوعية : المطلوب من هذا السؤال .

المطلوب — فى اعتقادى — هو وحدة عمل لكل قوى الوطن العربى فى مرحلة النضال للانتصار على هزيمة ١٩٦٧ ، ودحر قوى العدوان المتمثلة أساسا فى اسرائيل **الصهيونية التى تساندها الامبريالية الإمريكية بالذات** .

ونقصد **بكل قوى الوطن العربى** — فى هذه المرحلة — جميع طاقات البلاد العربية على اختلاف نظمها السياسية والاجتماعية .

ونقصد ، **بالمرحلة** ، تلك الفترة الزمنية من التاريخ التي يستلزمها النضال العربى ، السياسي والعسكرى ، لاجلاء الاحتلال عن الارض التى اغتصبت عام ١٩٦٧ ، وشل « العدو » عن القدرة على القيام باعمال عدوانية جديدة ، وتمكين الشعب الفلسطينى — بنفس طويل — من مواصلة كفاحه التحريري المشروع .

ونقصد **بالعدو** ، هنا ، المؤسسة العسكرية وبنيانها العصرى الاسرائيلى ، والصهيونية العالمية ، وقدرة الامبريالية الامريكية على التحرك بالمساندة العسكرية والاقتصادية .

ويجب ان نعترف أن هناك صعابا جمة فى هذا المجال . بيد أن مواجهتنا لهذه الصعاب وتخطيها ، هو جوهر مسئوليتنا القومية بصفة عامة . ومسئولية القوى الثورية العربية ، الاكثر قدرة على استيعاب حركة التاريخ ، بصفة خاصة .

ولعل فى مقدمة هـذه الصعاب ، ذلك التمايز الاجتماعي والسياسي بين النظم العربية • وبتعبير آخر ذلك الصراع الاجتماعي الذى شمل الوطن العربي كله منذ التحام حركة التحرر الوطنى العربية بحركة الثورة الاجتماعية ذات الافاق الاشتراكية عند فجر الستينيات •

وليس من شك فى ان هـذا الصراع الاجتماعي ، بشموله القومي ، لايفصل فقط بين النظم العربية بعضها وبعض ـ كدول ـ بل وبين القوى الاجتماعية فى جميع الدول العربية ـ كطبقات •

ومن هنا يصبح من الضرورى البحث فى الواقـع المعـاصر عن مصلحة قوميـة موضوعية ، تفوق في وزنها ومداها ، المصالح الاجتماعية التي يدور من حولها الصراع الاجتمـاعي الشـامل فى هـذه المرحلة • بحيث يمكن أن تكون هذه المصلحة الموضوعية بثقلها القومي المشترك ، قـوة جذب نحو التجمع ، تتغلب ـ مرحليا ـ على قوة الطرد التى تنبع عـن الصراع الاجتماعى الدائر •

ونستطيع ، فى مرحلتنا هذه ، أن نعثر ـ واقعيا وسياسيا ـ على هذه المصـلحة القومية ، ذات القدرة على تجميع الاطراف المتصارعة ، فى ذلك الخطر التـوسعى الصهيونى ـ الامبريالى القـائم فعـلا ، والمحتمل فى المستقبل ، اذا ما استمر الوضع الانهزامى للامة العربية على ما هو عليه الان •

فقد بات يقينـا ـ بحكم التجـارب التاريخية ـ منذ الهجرة الصهيونية الاولى الى فلسطين حتى حرب الايام الستة فى يونيو ١٩٦٧ ، أن الهدف الاستراتيجى هو بناء اسرائيل الكبرى ، فوق رقعة واسعة من الارض العربية ، تضم كل فلسطين والاردن وأجزاء من لبنان وسوريا والعراق ومصر والسعودية • وذلك على مراحل عدوانية متعاقبة •

ومعنى ذلك ان سيادة كل بلد من هذه البلدان العربية ـ على الرغم من اختلاف نظمها الاجتماعية والسياسية ـ مهـددة تهديدا فعليا ، فى الحال وفى المستقبل •

ومعناه ايضا ، أنه اذا تمكنت الحركة الصهيونية ـ الامبريالية ، من بناء اسرائيلها الكبرى على هذه الرقعة الواسعة فى قلب الوطن العربى ، فان كل الدول العـربية ـ وحتى تلك التى لن تخسر أرضا ـ سوف تصبح فى ميزان القوى بالمنطقة ـ وقتئذ ـ مجـرد دويلات صغـيرة منهكة ، مستغلة ومقهورة ، تدور فى فلك اسرائيل الممثلة للمصالح العنصرية والامبريالية ، تدين لها بالولاء ، عسكريا وسياسيا واقتصاديا • بل ان بقاء العربي ـ كعربي ـ يغدو موضع شك • سواء أكان ملكا متوجا أم فلاحا معدما ، وسواء أكان برجوازيا كبـيرا ، أم عاملا أجيرا •

واجلاء الحقيقة الموضـوعية لهـذه المصلحة القومية فى مواجهة الخطـر الصهيونى ـ الامبـريالى ، واسـتزراعها بوعى فى وجدان الانسان العربى أيا كانت انتماءاته الاجتماعية ، من شأنه أن يحرك ـ بدرجات متفاوتة ـ كل الطبقات رغـم صراعاتها الاجتماعية داخل كل بلد عربي ، وذلك فى اتجاه الضغط على حكوماتها من أجل الالتزام بحد أدنى من وحدة العمل ضد الخطر القومى العام •

نعم •• فالواقعية السياسية المرحلية ، لاتتطلب ـ على المستوى القومي العام ـ أكثر من حد أدنى من وحدة العمل العربى ضد الخطر المشترك • ويمكن أن يتمثل ذلك فى أربع نقاط محددة :

● انتهاج خـط سـياسى موحـد ، دبلوماسى ـ دعائى ، فى مواجهة المجتمع الدولي بصفة عامة ، وفى مواجهة اسرائيل والولايات المتحدة بصفة خاصة •

● رصد نسبة مئوية محددة من الميزانية السنوية لكل دولة عربية ، تخصص للمجهود الحربي الخاص بجيوش البلاد التى تتحمل مسئولية المواجهة المباشرة ضد العسكرية الاسرائيلية ـ الامريكية • وذلك وفقا لحجم ومسئولية كل جيش فعليا •

● اجراء نوع من التنسيق الموحد – ولو في اطار عمليات استراتيجية محدودة – لحركة الجيوش العربية المواجهة بصفة مباشرة للعدوان الاسرائيلي – الامريكي • وتوقيع عقاب جماعي ضد أي نظام عربي لا يلتزم بعملية التنسيق يصل الى حد المقاطعة والحصار الكاملين •

● المساندة المادية والسياسية لحركة التحرير الفلسطينية المسلحة ، باعتبارها الممثل الشرعي للشعب الفلسطيني • واقرار حقها القومي في استخدام الارض العربية من حول الارض المحتلة •

ومن هنا فنحن لا نطلب الحد الاقصى من وحدة العمل العربي القومي • بمعنى تجنيد شامل لطاقات كل بلد عربي ، بشريا وجيشا وامكانيات مادية في المعركة • ولا نطالب بتضحيات كاملة ومتساوية في الوزن والقيمة – نسبيا – من جميع النظم العربية • وذلك كما حدث مثلا بين دول الحلفاء ضد الخطر النازي العام في الحرب العالمية الثانية •

لا •• نحن – مع الاسف – أكثر تواضعا •

كان «الحلفاء» وقتها ، مجموعة من النظم المتصارعة اجتماعيا وسياسيا فيما بينها •• الولايات المتحدة الامريكية في أقصى اليمين ، والاتحاد السوفيتي في أقصى اليسار •• بيد أنها – بوعي مسئول تاريخيا – نسجت فيما بينها وحدة عمل ، بأقصى درجة ممكنة من الشمول والتكامل ضد الخطر النازي المشترك حيث استهدف التحالف الوصول الى استسلام النازية الكامل دون قيد أو شرط ..

واذا كان التاريخ قد أثبت امكانية قيام وحدة عمل – بحد أقصى – بين دول الحلفاء في مواجهة الخطر النازي **في الاربعينيات** •• فان بناء وحدة عمل – بحد أدنى ، ولا نقول بحد أقصى – بين الدول العربية في مواجهة الخطر الصهيوني – الامبريالي **في السبعينيات** ، يصبح امكانية متاحة بدرجة أكبر •

لماذا نصر – تحت تأثير مخدر الجمل الثورية الفارغة المضمون – على اهدار درس التاريخ ، وتبديد معطيات واقعنا ، ودفع مسيرتنا الى حافة الانتحار ؟!

ان ما بين البلاد العربية – في ناحية – من أواصر قومية ، تقوم على أساس وحدة اللغة والارض والمصالح الاقتصادية والتراث والتكوين النفسي والروحي المشترك •• حتى ليصهر من شعوبها أمة واحدة ، أعمق بكثير مما كان بين دول الحلفاء ذات القوميات المتعددة المتميزة •

فضلا عن أن الخطر الصهيوني الامبريالي – في ناحية أخرى – يهدد مستقبل وطبيعة البلدان العربية ، بما لا يقاس مع خطر النازية ازاء دول الحلفاء وقتذاك •

وما برح التاريخ يعلمنا المرة بعد المرة ، دون ملل من التكرار ، انه في حالة تبلور مصلحة قومية عامة ازاء خطر عدوان داهم من الخارج ، فان الصراع الاجتماعي – مع استمراره – لا يحول دون وحدة جميع القوى المتصارعة ضد هذا الخطر • بل ان بناء الوحدة القومية ضد هذا الخطر ، هو الذي يحكم ويحدد اطار ووسائل الصراع الاجتماعي ويضبط أبعاده ومداه بحيث لايؤدي الى تحطيم الوحدة القومية •

ففي فيتنام اليوم ، جبهة قومية موحدة ضد العدوان الامريكي تضم جميع القوى المعادية للاستعمار والامبريالية ، ابتداء من رجال الدين البوذيين والبورجوازيين حتى الشيوعيين •

وبالامس في فرنسا ، خلال الاحتلال النازي في الاربعينات ، تشكلت جبهة قومية لمقاومة العدو ، شملت كل القوى والاحزاب – على الرغم من صراعاتها الاجتماعية والسياسية – ابتداء من رجال الدين الكاثوليك والديجوليين والاشتراكيين الديمقراطيين حتى الشيوعيين .

ما أريد أن أؤكد عليه من وراء ذلك كله ،أن تجارب التاريخ الانساني تكشف عن أن الصراع الطبقي ـ سواء في حدود مجتمع كبير أو صغير ـ لا يمنع من وحدة كل القوى الاجتماعية المتصارعة في وحدة عمل لمواجهة خطر داهم خارجي ، لاتستطيع قوة واحدة بمفردها التصدي له . ويكون هناك في نفس الوقت مصلحة مشتركة للجميع في درء هذا الخطر باعتباره أولوية تسبق كل ماعداها من أهداف اجتماعية او سياسية بالنسبة لاستراتيجية كل قوة على حدة .

وتقع على أكثر القوى تقدما ـ فكريا واجتماعيا ـ مسئولية الدفع في هذا الاتجاه الوجدوى ازاء الخطر العام الداهم . وذلك بحكم بعد وعمق وشمول نظرتها الاستراتيجية . آخذة في الاعتبار دوما أن بناء وحدة العمل ـ سواء بحدها الادنى او الاقصى ـ هو في النهاية عمل سياسي من صنع قوى مختلفة ، تنبع عن زوايا ومصالح مختلفة . وكل قوة ـ بالضرورة ـ تحاول أن تكسب من هذا العمل السياسي الى اقصى درجة وتنزل بخسائرها وتنازلاتها الى ادنى درجة . بيد أنه في النهاية لا مفر من حساب الارباح والخسائر بالنسبة لكل قوة .

ومن هنا فان التحدى الذى يواجه أكثر القوى تقدما في وطننا العربى ، وهى تواجه مسئولية المبادرة لبناء وحدة العمل العربي ، أن تبتكر من الصياغات الممكنة والمقبولة ما يدعم من المواجهة القومية للخطر العام من ناحية ، ويحافظ دائما ـ من ناحية أخرى ـ على ضمان استمرار حركة التقدم التاريخية ويجنبها الانتكاسات وان تباطأ ـ بالضرورة ـ معدل سرعة الحركة ذاتها .

والابتكار الثورى ، ليس خلقا من العدم ـ أو نسجا تجريديا لاردية فضفاضة أو ضيقة . وانما هو استلهام علمى للواقع الحى وظروفه الخاصة . وذلك طبقا للمبدأ القائل بأن السياسة هى فن الممكن واقعيا بهدف التحرك نحو تغيير هذا الواقع .

وفي واقعنا الراهن ، تتواجد مجموعتان أساسيتان من الدول العربية .

أولاهما : مجموعة الدول التى اصطلح على تسميتها بالنظم التقدمية .

وثانيتهما : مجموعة الدول التى اصطلح على تسميتها بالنظم المحافظة أو الرجعية .

وذلك على تفاوت في درجات التطور والتخلف بالنسبة لبلاد كل مجموعة .

ولكى لا نظل نلدغ من نفس الجحر مائة مرة ، يجب أن نستبعد النظام الاردنى الراهن تماما من حساب المجموعتين ، وبالتالى من حساب وحدة العمل العربى واحتسابه ـ استراتيجيا ـ في صف العدو . ذلك ان حركة الاحداث الدامية في الوطن العربى تداثبت مشاركة هذا النظام لاسرائيل وللولايات المتحدة الامريكية في خطة موحدة معادية للمصلحة القومية العربية حتى في أبسط صورها الوطنية . ويدل على ذلك حملات الابادة المتكررة ضد المقاومة الفلسطينية والاتصالات السرية مع قادة الصهيونية والعدوان في اسرائيل ، فضلا عن تدفق الاسلحة الامريكية الى الاردن بكميات هائلة دون ما أن يتحرك جفن عين واحدة في اسرائيل بالاعتراض . في حين ان طائرة ميج واحدة ، تصل لمصر أو لسوريا تصيب الجسد الاسرائيلى العسكرى كله بالهستيريا .

وثمة ظاهرة خاصة تتصل بالواقع العربى الراهن ، وهو أن الهجوم الصهيونى ـ الامبريالى ضد الوطن العربى يتأرجح منذ الخمسينيات بين استخدام وسائل الاستعمار القديم بعنفها الدموى ، وبين استخدام وسائل الاستعمار الجديد للاحتواء السياسى والاقتصادى كلما أمكن ذلك . ومنذ عام ١٩٦٧ فان الامبريالية قد عمدت الى استخدام وسائل الاستعمار القديم ، والاستعمار الجديد في آن واحد . ورغم أن هذا الاسلوب المزدوج قد تميز بالشراسة والخديعة معا ، وحقق بذلك بعض النجاحات الهامة نسبيا . الا أنه في نفس الوقت قد فتح عيون قوى اجتماعية متميزة على الخطر الاستعمارى . وهو خطر ، كانت هذه الطبقات تعتبره قد رحل ، وتحاول اقناع او ايهام الجماهير الشعبية المناضلة انها تكافح عدوا وهميا لم يعد له

وجود . ويتـولد عن ذلك ، فى المرحلة الراهنة ، أرضية شعبية تتسع باستمرار لمواجهة هذه الظاهرة الخاصة ، تتبلور عنها قوة ضغط متزايدة على حكومات البلدان المحافظة والرجعية ·

وهناك بعد ذلك ظاهرة النهوض الثورى ، القومى الجديد للشعب الفلسطينى فى حركة مقاومة مسلحة ذات فصائل متعددة .دفعها الكبت والتمزق زمنا طويلا من ناحية، وعمق هزيمة ١٩٦٧ من ناحية أخرى ، الى تصور امكانية تخطى المراحل الاستراتيجية القصيرة المدى ودمجها ـ نظريا وعمليا ـ فى مرحلة استراتيجية واحدة تنتهى بتحرير فلسطين فى ضربة واحدة ، الامر الذى عرضها ـ مع تربص القوى الرجعية والاستعمارية ـ الى صدمات عنيفة ودامية · ولكنها ـ ورغم كل ما يبدو على السطح ـ أمسكت بتوازنها وأسرعت الى حماية كادرها ومراجعة خططها الاستراتيجية على ضوء التجربة والواقع · ومن هنا تلاحمت حركة التحرير الفلسطينية بحركة التحرر الوطنى العربية بصورة أعمق ، متخطية العديد من التناقضات الفرعية التى كانت قائمة ، والتى سببت ارتباكات فى الحركة العامة للقوى التقدمية العربية .

والسؤال الان : **كيف يمكن فى اطار هذا الواقع الراهن للوطن العربى بظروفه وظواهرة الخاصة أن نبنى وحدة العمل العربى ·· وبتعبير آخر ماهى الصياغة الملائمة ؟ ·**

فى اعتقادى ، أن الصياغة الملائمة والممكنة ، هى بناء وحدة عمل بين كل النظم العربية على اختلاف اتجاهاتها باستثناء النظام الاردنى · وذلك من حول برنامج النقاط الاربع التى سبق عرضها · ولكى نوفر لهذه الوحدة **عمودا فقريا** ، وضمانا موضوعيا لاستمرارها فى الاتجاه الصحيح ، فان الامر يتطلب أن تقوم القوى الوطنية التقدمية فى البلاد العربية ببناء جبهتها والتعامل **كطرف واحد متماسك** مع بقية القوى الاخرى على المستوى القومى ·

واذا كانت وحدة العمل العربى ، على أساس المصلحة القومية المشتركة ازاء الخطر الصهيونى ـ الامبريالى الداهم ،تضم بالضرورة البرجوازية الكبيرة ، كبار ملاك الاراضى كطبقات حاكمة ومسيطرة فى بلادها · وهذا هو حكم الواقع ·· فان تعامل القوى الوطنية التقدمية من خلال جبهتها كطرف واحد متماسك مع وحدة العمل العربى القومى سيقدم ضمانا موضوعيا لعدم تسلط البرجوازية الكبيرة وكبار الملاك على مسيرة الحركة العربية · ذلك أن جبهة القوى الوطنية التقدمية لا تضم بطبيعتها سوى العمال والفلاحين والمثقفين الوطنيين والثوريين والشرائح التقدمية من البرجوازية الصغيرة · أى كل القوى المؤهلة تاريخيا لدفع حركة التقدم الاجتماعى والاقتصادى فى واقعنا العربى .

ولعل مثل هذه الصياغة لوحدة العمل القومى من شانها أن تجنبنا الوقوع ، مرة أخرى أسرى الدائرة المفرغة لمؤتمرات القمة . ذلك ان صياغة مؤتمرات القمة افتقدت دوما وجود عمود فقرى تقدمى متماسك ·

خلاصة القول أن « قومية المعركة » **فى التطبيق** تستلزم العمل المكثف على صعيدين فى وقت واحد وبتفاعل عضوى :

● **حد أدنى** من وحدة العمل القومى بين كل النظم والقوى العربية على اختلاف اتجاهاتها ·

● **وحد أدنى** من وحدة العمل الثورى بين كل القوى الوطنية التقدمية من خلال جبهة متماسكة ذات خطة استراتيجية مرحلية واحدة ·

ومن هنا فان وحدة القوى الوطنية التقدمية ـ ابتداء من الشرائح التقدمية للبرجوازية الصغيرة حتى الماركسيين ـ ليست ضرورة تحتمها حركة الثورة العربية بآفاقها الاشتراكية فحسب ، وانما هى أيضا شرط جوهرى لبناء وحدة عمل منتجة وفعالة لكل القوى القومية ضد الخطر الصهيونى ـ الامبريالى .

وفى اعتقادى : أنه يمثل هذا الاسلوب الجدلى فى العمل ، يمكننا أن نعالج موضوعيا ذلك التناقض القائم بين شعار قومية المعركة وبين الافعال المحطمة لكل وحدة عمل ضد العدو .

نحو منظمة عربية لحقوق الانسان

لعل أول درس تلقيناه عن هزيمة ١٩٦٧، هو أن الانسان العربى ـ فردا وشعبا ـ لم يتح له أن يوظف قواه وطاقاته فى خدمة المعركة . باختصار كان غائبا .

ولغيابه أسباب كثيرة .. تتعلق بطبيعة النظم السياسية والمناخ الديموقراطى والعلاقة بين الشعب والجيش الخ . . بيد أن ما يهمنى التركيز عليه هنا هو ذلك السبب الذى دمر انسانية الانسان العربى ودفع به الى التغرب فى ذات وطنه . واثلم بالتالى قدراته الخلاقة عند مواجهة العدو .

ويكمن هذا السبب ، أولا واخيرا ، فى تلك الانتهاكات المستمرة لحقوق وكرامة الانسان وحريته فى التعبير عن رأيه ، وقيام السلطة باضفاء الشرعية على هذه الانتهاكات . بحيث أصبح الانتهاك هو القاعدة العامة ، وممارسة الحق الانسانى فى الحياة هو الاستثناء .

وفى عديد من بلادنا العربية تكلست عند السلطة مجموعات من مراكز القوى البيروقراطية ، دثرت دكتاتوريتها البورجوازية بأردية ثورية وشعارات اشتراكية . وراحت ـ بوعى وبغير وعى ـ تصادر حقوق الانسان فى الشعب ، وتجرم حرية التعبير والنقد وخاصة تلك التى تنطلق من أرضية تحررية واشتراكية ، وتعمر السجون والمعتقلات بكل مواطن يحاول أن يمارس حقوقه وحرياته الانسانية ، وتستخدم أسلوب عصابات شيكاغو والمافيا فى الابتزاز السياسى والاجتماعى ، وتهدر الامن الشخصى للمواطنين فتستبيح اسرارهم الشخصية والعائلية ، وتبذر آذان التصنت والتسجيل فى البيوت والمكاتب والمحلات العامة . وتتحكم دون مسوغ قانونى أو مهنى أو اقتصادى أو اجتماعى ـ فى لقمة عيش الانسان بالمنح والمنع . وتطالب الانسان ـ تحت شعار الالتزام ـ بالولاء الفردى لها بديلا عن الولاء الموضوعى ، الوطنى والاجتماعى . ومن هنا أصبح قبول الانسان للعبودية ، فكرا وأسلوبا وعلاقة ، هو شرط تمتعه بحقوق المواطن المادية كحيوان بشرى .

وانعكس هذا التدمير لانسانية الانسان فى المجتمع على الجيش فتجمعت عند القمة مجموعة صغيرة من البيروقراطية العسكرية أفرغت الجندى والضابط من طاقاته ومشاعره الانسانية ، وغربته عن وطنه وجيشه معا .

ومن خلال هذا كله تكونت ـ فى المجتمعات العربية ـ تلك الشرائح الصدئة اجتماعيا وسياسيا التى عزلت الى حد كبير القيادات الثورية ، عن الجماهير الشعبية .

وحينما انفجرت حرب الايام الستة ، كانت المعركة فى حقيقتها هى معركة هذه الشرائح الصدئة اجتماعيا وسياسيا التى كونت مراكز القوى البيروقراطية فى قمة السلطة السياسية والقيادة العسكرية . وكان طبيعيا أن تهزم فى غياب الجماهير الشعبية التى استلبت منها حقوقها الانسانية وقدرتها على الحركة الجماعية الخلاقة . لكن الجماهير ، ما أن احست بعمق الهزيمة ، وتخطيها مراكز القوى البيروقراطية الى قلب الوطن ومسيرة حركته التحررية ذات الافاق الاشتراكية ، حتى حطمت قيودها واستعادت روحها الثورية الانسانية وانطلقت ، بقوتها الخلاقة ، فى وجه العدوان فأوقفت تقدمه وأقامت من نفسها جدار الصمود العظيم .

وعبرت الصحوة الانسانية للجماهير العربية فى وجه العدوان ومراكز القوى البيروقراطية عن ارادتها فى :

- احترام حقوق المواطن وحرياته .

● سيادة القانون •

● دفع حركة التقدم الاجتماعي على أساس المشاركة المسئولة للجماهير •

● استبدال الولاء الفردى ، بالولاء الموضوعى لاهداف حركة التحرر العربى بآفاقها الاشتراكية •

● وقف كل انتهاك لانسانية الانسان واطلاق ملكاته الخلاقة فى كل مجال •

وتمثلت تلك الصحوة فى أكثر من شكل ، وتعددت بالتالى طرق نضالها . وخلال حركة المد والجزر ، أمكن تحقيق بعض المكاسب • غير أن المراكز البيرقراطية استطاعت ـ بمعدل سرعة أكثر ـ أن تستعيد قدرتها على الحركة والتسلط • ولكنها ووجهت ، هذه المرة ، وبحكم جو المعركة الوطنية ، بمقاومة جماهيرية متزايدة أمكن معها محاصرتها وعزلها • ولكنها فى مواقع أخرى تسلحت بالعنف الدموى الذى استرخص حياة الانسان بدرجة لم يسبق لها مثيل • وذلك باسم حماية النظام أو الوطن أو الثورة الخ •• تلك الشعارات ذات الكلمات التى انتهك شرفها وغالت فى بهرجة وجوهها •

وهكذا نواجه من جديد ، ونحن على أعتاب مواجهة فاصلة مع العدو ، ذلك التناقض بين الوعى بدرس الهزيمة الخاص بضرورة احترام انسانية الانسان العربى وبين استمرار عمليات الانتهاك للانسان ومصادرة حقوقه وارتخاص حياته •

ان المعركة ـ سواء مع الخطر الصهيونى ـ الامبريالى أو مع التخلف أو مع الاستغلال ـ هى أولا وأخيرا معركة الانسان . فالانسان اثمن رأسمال وأقوى سلاح •

وجوهر قوة الانسان ، هو انسانيته

ومادام الامر يتعلق بالوطن العربى ككل ، وبالانسان العربى أيا كان موقعه أو فكره أو وضعه الاجتماعى ، فان عملا منظما على المستوى القومى يجب أن يبذل ـ بسرعة وحسم ـ لوقف ذلك الانتهاك للقوة الخلاقة فى الانسان العربى وتوفير مظلة حماية قادرة وفعالة باستمرار •

ومن هنا فنحن نطالب بتكوين « **منظمة عربية لحقوق الانسان** » ذات ميثاق محدد الاهداف والوسائل ، على أن تستمد هذه المنظمة فاعليتها من القوى الشعبية بمختلف منظماتها السياسية والنقابية والجماهيرية • وتتصدى لمحاربة أى انتهاك لانسانية الانسان فى أى مكان من الوطن العربى • وذلك باعتبار أن هذا الانتهاك يشكل جريمة فى حق السلامة الوطنية وفى حق مسيرة حركة التقدم الاجتماعى والسياسى فى وقت واحد • وبحيث نمنع والى الأبد ، تكرار تلك الاحداث الدامية الاخيرة فى الوطن العربى ، والتى تحاول انتزاعنا ـ حضاريا ـ من القرن العشرين وردنا الى عصور محاكم التفتيش المسيحية وجاهلية ما قبل الاسلام •

والحق ان ممارسة الوعى بدرس الهزيمة الجوهرى ، يتحدد فى أن يكون الانسان العربى ، بكل جلاله وقوته وملكاته ، حاضرا حضورا حقيقيا فى كل مواجهة ضد العدو أو ضد التخلف على حد سواء •

العداء للسوفييت .. عداء لحركة التحرر العربى

يكشف الصراع العربى ـ الاسرائيلى ، وما يستقطبه على جانبيه من قوى ، أن حركة التحرر الوطنى العربية تواجه من خلف القوة الضاربة للعنصرية الاسرائيلية ، الامبريالية العالمية ، وبالذات الامبريالية الامريكية ، وهذا طبيعى ، بحكم اتفاق

المصالح الاستراتيجية والتكتيكية بين الحركة الصهيونية وبين سياسة الولايات المتحده الامريكية فى المنطقة .

ومن الطبيعى أيضا - فى المقابل - أن يتجمع عند الطرف العربى من الصراع كل القوى المعادية للعدوان والعنصرية والامبريالية ·

ومن هنا، تواجد الاتحاد السوفيتى والبلاد الاشتراكية - ماديا ومعنويا - فى جانب حركة التحرر الوطنى العربية · وهو تواجد يحكمه ويمليه الخط الاساسى للاستراتيجية الاشتراكية فى المجتمع الدولى منذ قيام الاتحاد السوفيتى بعد انتصار ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ ، ونعنى به خط التحالف بين القوى الاشتراكية وقوى حركة التحرر الوطنى فى العالم ، ضد الامبريالية والاستعمار والعنصرية ·

وطالما أن الطابع الغالب على الحركة فى المجتمع الدولى - اليوم - هو الصراع بين النظام الاشتراكى والنظام الرأسمالى · فان التحالف بين السوفيت وبلاد التحرر الوطنى هو قضية مبدأ ومصلحة مشتركة فى نفس الوقت ·

فالنظام الاشتراكي يعنى فيما يعنى تصفية القوى الاستعمارية والامبريالية وفتح الطريق وأسعا أمام التقدم الانسانى ·

والنظام الرأسمالي يعنى فيما يعنى السيطرة الاستعمارية بجميع صورها السياسية والاقتصادية والعسكرية وتصفية حركة التحرر الوطنى العالمية ·

وتقطع التجارب التاريخية المتعددة ، بصدق وحيوية ، قيام الاتحاد السوفيتى والبلدان الاشتراكية فى ممارسة مسئولية هذا التحالف وتحمل العديد من التضحيات دون أى نظرة نفعية أو استغلالية · وذلك ابتداء من تسليح الحركة الوطنية بمختلف الاسلحة الحديثة ، الى المعونات الاقتصادية والفنية ، الى المواقف السياسية الحاسمة فى المجال الدولى ·

ونتيجة لهذا التحالف فان عدوان ١٩٦٧ لم يتمكن من تحقيق أهم أهدافه ، وهو ضرب حركة التحرر الوطنى العربية وشل حركتها الاجتماعية والسياسية فى المنطقة ·

وبسبب هذا التحالف ايضا لم تنجح - حتى الان - محاولات فرض الحلول الامريكية - الاسرائيلية على الامة العربية ، رغم استمرار الاحتلال الصهيونى ·

ولعل فى مقدمة أهداف الخطة الاستراتيجية الامريكية - الاسرائيلية اليوم هو اضعاف روابط التحالف السوفيتى العربى ، ان لم يكن فصمها تماما · وذلك حتى يمكن للامبريالية الامريكية أن تحتوى حركة التحرر الوطنى العربى لصالحها ولصالح أسرائيل ، أداتها البوليسية فى المنطقة ·

ومن هنا يغدو من اهم الاهداف الاستراتيجية لحركة التحرر العربية - هو على العكس - دعم وتوطيد التحالف السوفيتى العربى وزيادة فاعليته · وذلك فى اطار الاحترام المتبادل وعلى أساس قاعدة عدم التدخل فى الشئون الداخلية لاى من الجانبين · وهى قاعدة أكد الاتحاد السوفيتى دائما تمسكه بها فى علاقاته الدولية

وانطلاقا من هذا الفهم ، لواقع وطبيعة المعركة واستقطاباتها الدولية فان انتهاج سياسة معادية للسوفيت والبلدان الاشتراكية فى الوطن العربى ، هو ضربة موجهة فى الاساس لحركة التحرر الوطنى العربية قبل أن تكون موجهة للقوى الاشتراكية ·

ان القوى الاشتراكية - فى العالم - تستطيع أن تستمر فى مواجهة الامبريالية العالمية ومقاومتها بدون حركة التحرر الوطنى . ولكن حركة التحرر الوطنى لا تستطيع بدون دعم ومساندة القوى الاشتراكية أن تستمر فى مواجهة الامبريالية

العالمية ومقاومتها مقاومة جذرية وفعالة . وأبسط حساب لموازين القوى العالمية المعاصرة يكشف عن هذه الحقيقة .

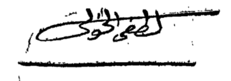
ولهذا فان حركة التحرر الوطنى العربية تخون نفسها وأهدافها أول ما تخون ، عندما تسمح بممارسة سياسة معاداة السوفيت والبلدان الاشتراكية فى صفوفها ·

واذا كانت حركة التحرر الوطنى العربية فى صراعها مع الصهيونية والامبريالية تسعى اليوم ، بكل قوة الى جذب أكبر عدد من الحلفاء الى صفوفها بل وتحييد عدد من القوى الدولية فى العالم الغربى كلما أمكن ذلك ، بهدف عزل التحالف الاسرائيلى ـ الامريكى سياسيا فى المجال الدولى ·· فانه يبدو تصرفا سياسيا سفيها الى اقصى حد ، أن نقف مكتوفى الايدى أمام قيام البعض بحملة ضد أقوى وأخلص الحلفاء جميعا وهو الاتحاد السوفيتى ·

ان جهدا مكثفا وواعيا ، على كل المستويات الواعية بمسئولياتها فى المعركة ، رسميا وشعبيا ، يجب ان يبذل لتعرية حقيقة العداء للسوفيت من حيث أنه ، فى جوهره عداء لقدرة **الحركة الوطنية العربية** على استمرار مسيرتها التقدمية · والدعوة الى معالجة ما يثور خلال علاقات التحالف من خلافات فى الرأى والمواقف ـ وهذا طبيعى ـ بمنطق الاصدقاء الذين تجمعهم جبهة تاريخية واحدة ·

وبعد ···

ان آلام الهزيمة التى أوقعها العدو بنا ، والهزائم التى مابرحنا نوقعها نحن بأنفسنا ، **لا يجب أن تمتص** عافيتنا وتقيدنا ـ باليأس الذاتى ـ عن التحرك الجماعى لمواجهة **تناقضات واقعنا الراهن** ، مواجهة علمية المنهج ، ثورية الطاقة · وبقدر انتصارنا على **هذه التناقضات** يكون انتصارنا فى المعركة ·



برنامج العمل الوطنى الوثيقة الثالثة لثورة يوليو

« برنامج العمل الوطنى » الوثيقة الثالثة لثورة ٢٣ يوليو ، والتى قدمها الرئيس أنور السادات الى المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى العربى وأقرها المؤتمر فى ٢٣ يوليو الماضى ، هى موضوع الدراسة الرئيسية للطليعة .

ان الاهتمام الذى توليه الطليعة لدراسة هذه الوثائق لا يرجع فحسب ، الى أن الطليعة طالما تابعت بالدراسة والنقاش أهم قضايانا الداخلية والقومية ، بل لان « البرنامج » — فى المحل الاول — هو الوثيقة المرشحة لأن تحكم مجموع النشاط السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى لعشر سنوات مقبلة .

واذا كنا لا نزعم أن كتاب الطليعة قد قالوا كل شىء فى كل قضية طرحها البرنامج ، الا أن الامر المؤكد هو أن الطليعة حاولت أن تناقش معظم القضايا التى تعرض لها .

وتنقسم الدراسة الى اربعة اقسام يجيب كل منها على سؤال محدد :

١ — ما هو الموقع الفكرى والاجتماعى والسياسى للبرنامج ؟

٢ — التنظيمات السياسية والمنظمات الجماهيرية التى القى البرنامج عليها مسئولية النضال من أجل تنفيذ الاهداف المطروحة .

٣ — بعض الاسئلة التى يطرحها البرنامج . هنا نبحث عن الدراسة عن الحلقة الرئيسية فى كل قضية من القضايا المطروحة .

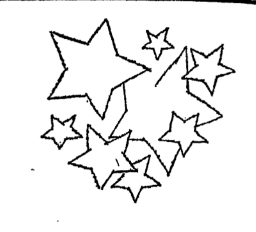
٤ — واذا كان البرنامج قد ركز على أهمية بناء الانسان الجديد فان القسم الرابع والاخير يجيب على سؤال حول مفهوم القيم فيه





الموقع الفكرى والاجتماعى والسياسى للبرنامج

- الجديد الذى يطرحه البرنامج
- موقع البرنامج من وثائق ثورة ٥٢
- الاهداف المطروحة . . ووسائل التحقيق
- الصداقة العربية السوفيتية : سلاح مشترك للنضال ضد الامبريالية والعدوان



البرنامج :
قسماته .. وآفاق النضال من أجل تنفيذه

أبو سيف يوسف

التعرف على قسمات « برنامج العمل الوطني » الذى قدمه الرئيس أنور السادات الى المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى ، وأقر فى ٢٣ يوليو الماضى ، يتطلب منا — ونحن نقرأ البرنامج — أن نضعه فى موضعه من الاحداث والمناسبات الهامة فى واقعنا الذى نحياه وفى تاريخنا القومى .

— ١ —

● فالبرنامج يصدر فى ظل معركة مسلحة فرضتها علينا الامبريالية الامريكية وشريكتها وتابعتها اسرائيل . وفى مواجهة هذا العدوان تحدد مطلب الشعب فى تحرير كل الارض المحتلة ، دون تفريط ، ودون تنازلات تمس الاستقلال الوطنى أو تمس خط البناء الاقتصادى والاجتماعى المستقل الذى سلكته مصر خصوصا منذ عام ١٩٦١ .

● والبرنامج يصدر بعد مرور عشر سنوات على صدور قوانين يوليو ٦١ التاريخية وما نصت عليه ، وما تلاها من اجراءات جذرية فى مجال الاقتصاد ، واجراءات هامة اجتماعية ترتب عليها اعطاء مضمون جديد لقضية الوحدة الوطنية ، ولنوع الحلف الوطنى الشعبى المدعو للتصدى لمهام مرحلة جديدة من مراحل ثورة يوليو . وهذه المرحلة الجديدة كانت فى مركز الاهتمام فى وثيقتين من وثائق ثورة يوليو هما « الميثاق » وبرنامج ٣٠ مارس .

● والبرنامج يصدر مباشرة فى أعقاب فترة شهد فيها الوضع الداخلى تأزما وتعقيدات بالغة ، وتناقضات وصلت الى ذروتها فى الايام التى سبقت ١٥ مايو . وفى هذه الايام — كما نذكر — تعرضت الوحدة الوطنية الداخلية لتصدعات ، وتفشت البلبلة الفكرية الى حد الخطر .

● والبرنامج يصدر فى بداية فترة ركز فيها النظام القائم على اعادة بناء المؤسسات السياسية والجماهيرية ، واعادة تنظيم جهاز الدولة . ففى هذه الفترة جرت انتخابات الاتحاد الاشتراكى والنقابات العمالية والمهنية ، وصدر الدستور الدائم الذى أشار الى ضرورته بيان ٣٠ مارس . ونحن نعلم أنه فى الظروف التى أعيد فيها تشكيل تلك المؤسسات عبرت حركة الجماهير تعبيرا صريحا عن اتجاهات قوية لا سبيل الى تأويلها أو التهوين من جديتها : حرية التنظيم والتعبير ، والاصرار على المضى قدما فى سبيل حماية وتوسيع المكتسبات الاقتصادية والاجتماعية . لا يغير من هذه الحقيقة المحاولات المحمومة التى بذلتها قوى الرجعية واليمين المحافظ ، تحت شعاراتها الخاصة « بالحرية » و « الديمقراطية » للانقضاض على الشعارات الاساسية الوطنية والتقدمية لثورة يوليو .

هذه الظروف والملابسات السياسية والاجتماعية التى أحاطت وتحيط بصدور « برنامج العمل الوطنى » تطرح علينا بالضرورة سؤالا عن الملامح والقسمات الجديدة للبرنامج — كوثيقة — مقارنة بوثائق ثورة يوليو : الميثاق وبرنامج ٣٠ مارس .

غير أن الاجابة عن هذا السؤال تفترض مقدما أن نعرف ماذا يريد البرنامج أن يقول ٠

فى اعتقادنا أن البرنامج يقدم فى الاساس تصورا « للدولة الحديثة » يمكن اعتباره بمثابة الهدف الاستراتيجى للبرنامج ، وفى الوقت نفسه يطرح البرنامج المهام المطلوب انجازها ، ويتحدث عن الوسائل والادوات اللازمة لهذا الانجاز ٠

فاذا جئنا الى الصورة التى يرسمها البرنامج للدولة الحديثة ، فانه يقدم صورة لمجتمع تمحى فيه البطالة والامية ٠ ويتحقق فيه لكل العاملين زيادة فى الدخل ، وارتفاع فى الثقافة ، وتحسن فى ظروف الصحة والمسكن ٠ مجتمع ـ كما يقول البرنامج ـ ليس لاحد فيه فضل على أحد الا بالعمل ٠ ويصبح فيه العمل متعة لا سخرة ٠ مجتمع تنتفى فيه الفروق الصارخة بين المدينة والريف على أسس راسخة من العلم والتكنولوجيا يقوم بفضلها التصنيع الثقيل ، وتتم ميكنة الزراعة ٠ وباختصار هذه الصورة للدولة الحديثة يمكن تلخيصها فى كلمات قليلة هى مجتمع الانسان الحر الذى ينتفى فيه استغلال الانسان للانسان ، أى مجتمع الاشتراكية ٠

وهذا الهدف الاستراتيجى لا يتحقق ـ وفقا للبرنامج ـ الا اذا تم انجاز مهام أساسية يمكن أن تطرح فى ثلاث جبهات رئيسية :

١ ـ **الجبهة الاقتصادية** من أجل تصفية التخلف الاقتصادى عن طريق التصنيع الثقيل وتطوير الزراعة على أساس التخطيط العلمى ٠

٢ ـ **الجبهة الثقافية** من أجل محو الامية واصلاح التعليم العام والعالى ، والنهوض بالبحث العلمى ، ورفع دور الادب والفن فى صياغة وعى الانسان الجديد ٠

٣ ـ **الجبهة السياسية** بتمكين الجماهير الشعبية من المشاركة الواعية والنشطة فى بناء المجتمع الجديد من خلال تنظيماتها السياسية والنقابية والتعاونية والمهنية ٠

هنا نعود الى سؤالنا عن الجديد فى برنامج العمل الوطنى ؟

من المهم أن نقرر أن البرنامج ـ وهذا ما تؤكده نصوصه ـ يرتكز الى القضايا الفكرية ، والى النقاط البرنامجية العامة فى « الميثاق » وينطلق منها ٠ كما أنه ينطلق من القضايا المحورية لبيان ٣٠ مارس ، ومن بيان الرئيس أنور السادات فى ١٠ يونيو ١٩٧١ ٠

ولقد يقال هنا ان « برنامج العمل الوطنى » هو فى الاساس برنامج سياسى ، اذا ما قورن بالميثاق الذى يركز على القضايا الايديولوجية المتعلقة بتصوره للاشتراكية ، وبالمجتمع الاشتراكى ، وبالمشكلات الخاصة بالمرحلة التى سميت « بمرحلة الانتقال » تلك المرحلة التى بدأت بعد صدور قوانين يوليو ٦١ ٠ لكن ـ مع ذلك ـ يظل لارتباط برنامج العمل الوطنى بالميثاق وبيان ٣٠ مارس أهمية حيوية من حيث أن هذا الارتباط يؤكد فى ذهن القارىء التزام البرنامج ، واستمراره على خط النضال المعادى للامبريالية والصهيونية والرجعية ، خط التحولات الاقتصادية والاجتماعية لثورة يوليو ١٩٥٢ ٠

ومع ذلك فان برنامج العمل الوطنى ليس مجرد صياغة جديدة لما فى الميثاق وبيان ٣٠ مارس ٠ بل ان له قسماته الخاصة كوثيقة سياسية ٠ وعلى سبيل المثال :

١ ـ **تقييم البرنامج** لخبرة السنوات العشر الماضية ، وفى هذا التقييم يطرح الايجابيات والسلبيات جنبا الى جنب ٠ وهو هنا ينقد السلبيات من زاوية موضوعية ، وبروح التواضع ويتجنب الوقوع فى منهج اخفاء النواقص وتجميلها وتحويلها الى حسنات ٠ وهكذا عندما يتحدث البرنامج عن قضايا النهوض بالريف ينص بوضوح على أنه :

« لا يمكن أن نتكلم عن بناء الدولة الجديدة للمجتمع الاشتراكى ، طالما ظلت حياة الفلاح منتج الغذاء للملايين ، والخامات للعاملين بالصناعه على ما هى عليه ٠ ان أسلوب الحياة اليومية لفلاحينا الذين يكونون غالبية الشعب لم يلحقه أى تغيير حقيقى لا فى وسائل وأسلوب الانتاج ، ولا فى السكن والغذاء والصحة ٠

« ان جانبا كبيرا من فلاحينا على الرغم من المجهودات الضخمة التى بذلت فى سنوات الثورة لا يزال يعانى من البطالة ، وانخفاض مستوى الدخل والامية ، وسوء التغذية والصحة والقلق على المستقبل » ٠

ان مثل هذه المواجهة الصريحة للسلبيات لا يقلل بحال من انجازات ثورة يوليو فى النضال ضد استغلال كبار ملاك الارض الاقطاعيين ، بل على العكس انه يؤكد الالتزام بالسير على طريق النضال من أجل المزيد من الاصلاحات ٠

وهذا المثل الذى أوردناه نجده فى أكثر من مكان فى البرنامج عند تقييم ما تم فى مجالات التعليم والصحة ٠٠ الخ ٠

٢ ــ والقسمة الثانية المميزة للبرنامج اتجاهه العلمى والواقعى فى التعرض للمهام المطروحة ٠ فمن ناحية يعيد البرنامج الى قضية التخطيط العلمى كل قيمتها ، بعد أن افتقد ــ فى التطبيق ــ هذا التخطيط طوال السنوات الماضية ٠ ولعلنا نذكر ولاشك انه لا يمكن ان يضع مجتمع نام أهدافا تقدمية واشتراكية دون أن يترجم هذه الاهداف الى خطة قومية والى خطط تفصيلية يرتبط تنفيذها بأجل محدد ٠ وبهذا الاتجاه العلمى يبدأ البرنامج من منطلقات واقعية فهو يحدد مهام ممكنة التحقيق ، ويشير فى ــ فى الوقت نفسه ــ الى وسائل التحقيق ٠ وهذا ما نراه بشكل خاص عندما يتحدث عن خطة النهوض بالصناعة والزراعة وتحسين دخول العمال والنهوض بالقرية ٠

٣ ــ والقسمة الجديدة الثالثة فى البرنامج هى انعطافه البارز نحو قضايا النهوض بالريف والاهتمام الذى يوليه لرفع مستوى الفلاحين ٠ وفى اعتقادنا أن البرنامج ــ فى هذا المجال ــ يمسك باحدى الحلقات الرئيسية عندما يقدم تصوره الجديد للملكية التعاونية ، اذ ينص على أن :

« الملكية التعاونية لابد أن تقوم على مضمون اشتراكى ٠ انها ليست مجرد تجمع لعدد من الافراد من أجل حل مشاكلهم فيما يتصل بالاستهلاك أو الحصول على الخامات أو تسويق ما ينتجون ٠ ان هذه الامور على أهميتها لا يجوز أن تقتصر على وظيفة التعاون ، بل لابد وأن تتطور وظيفته بحيث يصبح تعاونا انتاجيا سواء فى الصناعة أو الزراعة ٠ ان هذا هو الطريق الى اقامة علاقات انتاجية متقدمة تدفع بالانتاج الى الامام وتنمى قيما اجتماعية جديدة » ٠

هذا التصور لقضية التعاون فى الريف انما يحقق ــ اذا ما وضع موضع التطبيق ــ خطوة على الطريق بعد تحديد الملكية ، وبداية مجددة للسير فى مهمة استكمال الثورة الزراعية ، هذه المهمة التى بدونها يصبح أى حديث عن « الاشتراكية » و « التقدم » مجرد أحلام لا سبيل الى تحقيقها ٠

٤ ــ والقسمة الجديدة الرابعة فى البرنامج ولعلها أن تكون أهم قسمات البرنامج هى احتفاله بأهمية النشاط السياسى للجماهير الشعبية٠ فهذا النشاط هو النغمة التى تعاود الظهور فى أكثر نصوص البرنامج ٠ فانطلاقا من ان كل منجزات ثورة يوليو هى فى الاساس ثمرة العمل الجبار لجماهير الشعب المصرى طوال السنوات التسع عشرة الماضية ، وانطلاقا من المبدأين القائلين «بأنه لا تعارض ــ ولا ينبغى ــ أن يكون هناك تعارض بين الديمقراطية وبين الاشتراكية » ، « وأن الدولة يجب أن توضع فى خدمة الجماهير ، تؤكد نصوص البرنامج على أهمية أن تتوافر للاتحاد الاشتراكى الرؤية الواضحة ، وهذا يتطلب أن يكون له « خط سياسى استراتيجى وتاكتيكى واضح وضوحا كاملا امام المستويات القاعدية والقيادية على حد سواء » ٠ ولابد وأن تتوافر فى داخل الاتحاد الاشتراكى « حرية الرأى والتعبير لكل عضو ، ولكل مستوى ، ولكل قوة من قوى التحالف » ٠ ويقرر البرنامج « انه لا سبيل الى اتخاذ قرار على أساس الخبرة والقيادة الجماعية الا بفتح باب الحوار حرا حول القضايا المثارة أمام جميع المستويات » وعندما يتحدث البرنامج عن المهام التثقيفية للاتحاد الاشتراكى يقرر أن « الاساس الفلسفى للتثقيف هو الانتماء الكامل للجماهير والتوحد معها » ٠

والبرنامج يبرز أهمية النشاط السياسى للجماهير فى بناء الدولة الجديدة عندما يؤكد على حق الجماهير فى بسط رقابتها عن طريق تنظيماتها على أجهزة الدولة ٠ ليس هذا فحسب بل لابد من أن« تفتح الابواب الى تولى المناصب القيادية أمام العناصر الشابة المثقفة وخاصة من أبناء العمال والفلاحين » ، لان جهاز الدولة ــ كما يقول البرنامج ــ وفى بلاد كبلادنا ، نشأ وتربى فى ظل علاقات طبقية وتبعية لمختلف الوان الاستعمار » ٠

لكن النشاط السياسى للجماهير الشعبية هو فى التحليل الاخير ضمان نجاح كل مشروعات التنمية ، التى تستهدف تقدم البلاد فى كافة المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وفى هذا يقرر البرنامج « أن نجاح التنمية رهن بايمان الجماهير وحماستهم لها » ، ولكنه يقرر فى الوقت نفسه « ان الايمان والحماسة لا طريق لهما سوى الفهم العلمى بالمهام الاقتصادية ، والوعى بأعباء المرحلة ٠ ويرتب البرنامج على ذلك واجبات محددة هى توعية الجماهير بمشكلات التنمية وهذا يتم عن « طريق ربط العمل السياسى بتنفيذ خطة التنمية ، بحيث تلتزم كل وحدة أساسية (من وحدات الاتحاد الاشتراكى) وكل مستوى من مستويات التنظيم بتحقيق أهداف محددة فى فترات زمنية محددة ، ويجب أن يكون هذا اساس تقييم الافراد واللجان والمستويات » ٠ ولما كان النشاط السياسى للجماهير فى مجال الانتاج مرادفا للمبادرات التى تقوم بها الجماهير ذاتها ، فان تولد هذه المبادرات يتطلب توفر شرطين : أحدهما

الحقوق الديمقراطية الاساسية التى تمكن الجماهير من تأكيد رقابتها على الدولة ، والثانى هو مشاركة الجماهير الشعبية فى أجهزة الدولة ومؤسسات الانتاج ·

واخيرا فاذا اردنا فى هذه النقطة ان نوجز الجديد فى البرنامج قلنا انه يضع النشاط السياسى للجماهير فى الموضع الذى يجعل منه العامل الذى يقرر مصير خطة التنمية كلها ، والمفتاح الرئيسى لحل عدد من المشكلات قد تبدو « لاول وهلة » ذات طابع تكنيكى بحت ، ومن اختصاص الفنيين وحدهم : محو الامية ، تنظيم الاسرة « من حيث أنها قضية توعية الجماهير وتبصيرها بأهداف العمل الوطنى ، والتبصير بالاضرار التى يلحقها تزايد عدد السكان بهذه الاهداف » ·

— ٢ —

فاذا اردنا بعد ذلك تقييم البرنامج — واضعين فى الاعتبار — جميع الملابسات التى صاحبت وضعه ثم اقراره فى المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى ومركزين الانظار على أهدافه وقسماته البارزة أمكن أن نقول ما يلى :

١ — ان «برنامج العمل الوطنى» يتضمن معالم البرنامج الديمقراطى العام الذى تطرحه فى العادة حركة التحرر الوطنى المعادية للامبريالية والاقطاع والرجعية · هذا البرنامج الذى يتجه الى الدفاع عن الاستقلال السياسى ودعمه ، عن طريق تحقيق الاستقلال الاقتصادى ، وما يتطلبه هذا الاستقلال من وضع خطط للتنمية توسع قاعدة الصناعة ، وتستهدف تطوير العلم والتكنيك والثقافة والقضاء على الامية ، كما يطرح الشعارات الديمقراطية التى يفسح تطبيقها أمام الجماهير مشاركة أوسع فى الحياة السياسية ، ويؤكد على أهمية التعاون مع الاتحاد السوفيتى ·

من هذه الزاوية ، وبهذا المفهوم يصلح البرنامج لان يكون أساسا لتحالف واسع بين كافة القوى المعادية للامبريالية والاستعمار الجديد والصهيونية والرجعية ·

٢ — ان برنامج العمل الوطنى يطرح من منطلق ما هو ممكن ، مجموعة من الاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية التى يعلن البرنامج انها ترسى التطور فى اتجاه بناء « الدولة الجديدة » أو « المجتمع الاشتراكى » · وهذه المجموعة من الاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية هى من الحيوية والاتساع بحيث تستحوذ بالضرورة على اهتمام كل القوى الاشتراكية على اختلاف مناهجها ومدارسها الفكرية لان تحقيق هذه الاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية على أساس من مبادرات الجماهير الشعبية وخاصة العمال والفلاحين ، من شأنه ان يضع أقدام البلاد على أبواب مرحلة جديدة يتم فيها انجاز مهام الثورة الوطنية الديمقراطية ، ويتم فيها تمهيد الطريق المؤدى الى عتبات مرحلة جديدة هى مرحلة الاشتراكية ·

ومن هذه الزاويه ، وبهذا المفهوم يصلح البرنامج لان يكون أساسا لوحدة عمل بين كافة القوى الاشتراكية على اختلاف مدارسها الفكرية ومناهجها · ولا يغير من هذا الاستنتاج واقع ان مضمون الاتجاهات الاشتراكية فى وثائق ثورة يوليو ليس مضمونا بروليتاريا ذلك ان « الاشتراكية » فى هذه الوثائق لاتزال حتى الان ذات طابع ثورى ديمقراطى عام،يميزها عن غيرها من نماذج بعض « الاشتراكات »فى بعض البلدان الناميةوالمتحررة حديثا ، هذه النماذج التى بينما تستعير « صيغا اشتراكية » تبقى على جوهر نظام التبعية الاقتصادية لقوى الاستعمار الجديد · هذا من ناحية · ومن ناحية أخرى فان خطب وأحاديث جمال عبد الناصر منذ ٦١ ، وخطب وأحاديث أنور السادات فيما بعد ، قد دللت على أن مضمون « المفاهيم الاشتراكية » يتطور ويتجه الى مزيد من التحديد فى استكشاف الواقع الاجتماعى ، والتعرف على دور القوى الاجتماعية الطليعية المدعوة الى قيادة التغييرات الاجتماعية والاقتصادية · ولا يغير من هذه الحقيقة أن هذا يتم ، لا وفقا لاحتياجات نظرية مجردة ، بل استجابة للضرورات الموضوعية لتطور الحركة الثورية العامة ونضال الجماهير الشعبية فى البلاد ·

ولعلنا لا نخطىء بعد ذلك كله — وعلى ضوء ما تقدم — اذا قلنا ان التقييم العام لبرنامج العمل الوطنى هو تقييم ايجابى · لانه كوثيقة سياسية — يصلح منطلقا لوحدة عمل بين القوى الوطنية والتقدمية والاشتراكية . هذه الوحدة التى تعتبر الاداة الرئيسية والشرط المسبق لمواجهة قوى الامبريالية والصهيونية ولدحر العدوان وتحرير الارض المحتلة ·

تبقى — بعد هذا التقييم الايجابى للوثيقة ملاحظة أساسية نجد لزاما ان نذكرها بروح الجدية والمسئولية ، وحرصا على أن يظل هذا البرنامج دافعا للنشاط السياسى فى البلاد ·

ففى الحديث الذى وجهه الرئيس أنور السادات الى الامة يوم ١٦ — ٩ — ٧١ طرح الرئيس صورة التغييرات الجديدة التى ستطرأ على أجهزة الدولة · لكننا نذكر أن الرئيس قد جعل نقطة

البداية فى حديثه والمدخل اليه الحديث عن المعركة وتحرير الارض . واعتقادنا أنه عندما يوضع البرنامج موضع التطبيق ، فلابد من ان يؤخذ بهذا المنهج ، بحيث تكون قضية التحرير هى زاوية الرؤية ،والمنطلق الاساسى.ذلك انقضيةالتحرير وهذا ما عكسته جميع خطب واحادث الرئيس السادات – هى التى تحكم ويجب أن تحكم مجمل النشاط السياسى والاقتصادى فى البلاد . وهذا كله لا ينفى مع ذلك حقيقة أن البناء الاقتصادى والاجتماعى هو الوجه الاخر لمعركة تحرير الارض ، وأن الامبريالية الامريكية ركيزة الاستعمار الجديد تحاول عن طريق أداة الحرب الاسرائيلية صرف بلادنا عن طريق التطور المستقل .

— ٢ —

اذا كان البرنامج – كوثيقة – يصلح أساسا لوحدة عمل بين الطبقات الشعبية والوطنية ، وبين قوى كل التقدم والاشتراكية فى البلاد ، فان القضية التى يتعين ان تشغل بال هذه القوى والطبقات هى : ما السبيل الى أن يوضع هذا البرنامج موضع التنفيذ ، لمصلحة الوطن ، ولمصلحة الطبقات الشعبية التى طال حرمانها ؟

ان طرح قضية وضع البرنامج موضع التنفيذ ليس مجرد موقف شكلى ينقضى بانقضاء المناسبة : تصدر الوثيقة فتكرم ، وتعامل معاملة النصوص المقدسة تمتطوى ، ولايستشهد بهاالا من باب ارضاء الضمير .

والواقع اننا نجد انفسنا هنا بازاء قضية جدية . فمن الميسور نسبيا أن تصاغ وثيقة نظرية أو سياسية ولكن ، بين صياغتها وبين وضعها موضع التطبيق تكمن صعوبات وأخطار كثيرة : التناقض بين الفكر وبين الواقع ، التناقض بين الوسائل والغايات .. الخ . وفوق ذلكفنحننجد أنفسنا بازاء صعوبات مضاعفة خلقها العدوان الصهيونى الامبريالى على بلادنا ، وعلى خريطة اجتماعية تتسم بالتناقضات والاستقطابات الطبيعية بين الطبقات الشعبية والوطنية المدعوة الى الوحدة والتحالف .

ولكن ربما ساعدنا على ان نشق طريقنا وسط مجموع هذه التعقيدات أن نعود الى الماضى القريب لنستخلص الدروس التى تفيدنا فى هذا الموقف ، وذلك على ضوء ما وقع فى مجرى تطبيق الميثاق وبيان ٣٠ مارس .

المرحلة الراهنة وطبيعتها

هنا نقول انه لا خلاف على أن « الميثاق » قد صدر عام ٦٢ كوثيقة فكرية وبرنامجية هى فى الواقع من معالم تاريخنا القومى . والسبب هو أن « الميثاق » عبر عن بدء مرحلة جديدة فى حياة ثورة يوليو . ان ثورة يوليو ١٩٥٢ ، عندما قامت ضد الاستعمار وضد الاقطاع ، كان يمكن بحكم أهدافها المعلنة فى الايام الاولى ان تتوقف عند حدود الثورة الوطنية الديموقراطية بالمعنى الكلاسيكى ، أى الثورة التى تأتى بالبورجوازيةالى الحكموتطلق قوى التطورالرأسمالى فىالبلاد . لكن ثورة يوليو فى ظل ظروف عالمية مواتية من انتصار الاشتراكية علىالصعيد العالمى ،وتعاظم حركة الطبقة العاملة وحركة التحرر الوطنى ، وبفضلقياداتهاوقواها المحركةالتىعبرتشعاراتها عنمصالحالطبقاتالوطنيةوالشعبية فىمجموعها، نقول ان ثورة يوليو لم تقف عند حد النموذج القديم للثورة الوطنية الديموقراطية ولكنها قدمت نموذجا جديدا للثورة الوطنية الديموقراطية يتجاوز الاطار الكلاسيكى،ففى ١٩٦١ دخلتبحسم مرحلة جديدة تميزت على الصعيد الدولى باشتداد الصراع بينها وبين قوى الاستعمار الجديد من ناحية ، ومن ناحية أخرى بتدعيم علاقاتها مع أسرة البلدان الاشتراكية وتميزت على الصعيد الداخلى بتنفيذ اجراءات اقتصادية واجتماعية جذرية ذات طابع معاد للرأسمالية الكبيرة . وهذه الاجراءات عبرت عنها ثورة يوليو بموقف صريح ورفض خط التطور الرأسمالى كحل لقضية التنمية . هذه المرحلة الجديدة سميت فى بلادنا « بمرحلة الانتقال » من الرأسمالية الى الاشتراكية ، وتسمى فى ادبيات الماركسية بمرحلة « النمو اللارأسمالى » وبغض النظر عن التسميات فان المفهوم هو ان انجاز مهام هذه المرحلة انما يعنى الانتقال الى الاشتراكية .

وسواء اخذنا بتعبير « مرحلة الانتقال » أو بتعبير « مرحلة النمو اللارأسمالى » فان هذا لا يغير من حقيقة أن هذه المرحلة تقع فى نطاق الثورة الوطنية الديموقراطية . وفى جميع الاحوال فان هذه المرحلة الانتقالية من التطور اللارأسمالى – هى على حد تعبير أوليانوفسكى(١) مغامرة غامضة من ناحيتين : ناحية النظرية ، وناحية التطبيق أو الممارسة . وهذا لا يرجع – فقط – الى التنوع الهائل فى الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية فى بلدان العالم الثالث . ولكنه يرجع ايضا الى ان مرحلة النمو اللارأسمالى تتميز بتعقد شديد فى كافة الظواهر السياسية والاقتصادية والايديولوجية .

واذا كان جمال عبد الناصر قد أشار فىفترة مبكرة،وفى كتابفلسفة الثورة الى تداخلمرحلتى

(١) أوليانوفسكى : بعض مشكلات التطور اللارأسمالى – مجلة لوميونست – العدد ٤ – ١٩٧١ الترجمة الانجليزية

الثورة الوطنية والثورة الاجتماعية والى ما ينطوى عليه هذا التداخل من تناقضات بين ضرورة الوحدة الوطنية وبين حقائق الصراع الطبقى ، فان مرحلة النمو اللارأسمالى تمتلىء بتناقضات لا تقل حدة على الصعيد الاقتصادى • ويكفى - مثلا - أن نلاحظ أنها تتيح نموا للقطاع العام وللقطاع الخاص فى وقت واحد مع ما يتولد من هذا من تعقيدات • وعلى الصعيد الايديولوجى يشتد صراع لا يقل تعقيدا وحدة حول أنسب الطرق لحل قضايا الصراع الطبقى فى مظاهرها السياسية والاقتصادية والثقافية •

باختصار ، لقد واجهت ثورة يوليوبعد قوانين يوليو ٦١ جميع هذه المشكلات • وكانت الثورة قد طرحت داخل وثيقتها الايديولوجية « الميثاق » نقاطا برنامجية لحل هذه المشكلات الا أن الحياة برهنت على أن تنفيذ هذا البرنامج قد صادفته عقبات رهيبة • وعلى سبيل المثال :

● منذ صدور الميثاق ، وعلى مدى عشر سنوات تقريبا لم يحقق تنظيم الاتحاد الاشتراكى الاهداف التى حددها له الميثاق •

● منذ صدور الميثاق لم يقم التنظيم الطليعى داخل الاتحاد الاشتراكى بتحقيق الاهداف التى حددها له الميثاق •

● منذ صدور الميثاق ، وعلى مدى عشر سنوات لم تقم المجالس الشعبية بعد ولم تباشر مهامها (ستبدأ فى أول أكتوبر ١٩٧١) •

● من وقت صدور الميثاق لم تتحقق « الديموقراطية السليمة » وظلت عقدة العقد •

● منذ صدور الميثاق ، ومع تركيز الميثاق على الاهمية الحيوية للتخطيط العلمى ، فان اقتصادنا القومى ومواردنا لم تخضع لخطة أو خطط قومية شاملة •

فاذا جئنا الى بيان ٣٠ مارس رأينا أن الاهداف التى طرحت تحت شعارات بناء الاتحاد الاشتراكى بالديموقراطية وسيادة القانون والدولة العصرية ، لم تكن أقل حظا من الميثاق ، بل انها لم تر سبيلا حقيقيا الى التنفيذ •

ولقد أدى هذا كما نعلم ، وبعد مرور أربع سنوات تقريبا على بدء الثورة الاجتماعية ، الى أن يكتشف **جمال عبد الناصر** أن ثورة يوليو تواجه بخطر التجمد أو الانتكاس • فلم يكن من قبيل الصدفة أن طرح فى عام ١٩٦٤ شعار « **الثورة على الثورة** » .ولم يكن من قبيل الصدفة أن انطلق يحذر من محاولات تبذلها قوى الرأسمالية والرجعية للاستيلاء على الثورة . ونستطيع أن نقرر أن قيادة عبد الناصر الثورية قد نجحت بجهد خارق فى صد جميع الهجمات الرجعية والامبريالية التى أرادت أن تصفى منجزات ثورة يوليو • غير أن كل جهوده المضنية فى وضع الشعارات الاساسية فى الميثاق موضع التطبيق الفعلى لقيت معارضة شرسة وضارية متعددة المصادر والاصول:محافظة ورجعية وامبريالية . فاذا أردنا أن نشخص معالم الازمة التى بدأت تتعرض لها ثورة يوليو عام ٦٤ أمكن أن نقول بشكل عام :

انه بينما نجحت ثورة يوليو فى تحقيق تحولات اقتصادية واجتماعية جذرية عام ١٩٦١ ، وبينما أدت هذه التحولات الى أن يكتسب الانتاج طابعا اجتماعيا أكثر فأكثر بقيام القطاع العام فى الاقتصاد ، فان الابنية السياسية الفوقية المقابلة لم تخدم وعجزت أن تتلاءم مع مقتضيات التحولات الاجتماعية والاقتصادية التى تم انجازها • وبعبارة أخرى أن بناء التنظيم السياسى وبناء جهاز الدولة وضعف التنظيمات الجماهيرية كان يتعارض مع توفير شروط التطور الواجب بمعدلات سريعة للاقتصاد ، والحماية اللازمة لمكتسبات العمال والفلاحين • وأخيرا ، اذا صح انه كان فى مقدور النظام الذى أقامته ثورة يوليو أن يكتفى فى « مرحلة الثورة السياسية » ضد الاستعمار والاقطاع بتأييد عام من الطبقات الشعبية والوطنية دون أن يشعر بالحاجة الى تنظيم جماهيرى واسع ، وهذا ما حدث قبل بدء « الثورة الاجتماعية عام ١٩٦١ » فان هذا الامر لم يعد ممكنا بعد هذا التاريخ • وهذا ما لمسه عبد الناصر عندما أشار الى أن **الثورة الاجتماعية تتطلب استبعاد قوى وفئات طبقية لا تتفق مصالحها مع مصالح هذه الثورة** •

ماهى الحلقة الرئيسية ؟

على أية حال لعلنا لا نخطىء اذا قلنا ان قيادة ثورة يوليو كانت منذ ٦٤ قد بدأت تشق طريقها لحل الصعوبات التى واجهت النظام • وفى هذا سار عبد الناصر فى طريقين :

أحدهما ايديولوجى : وفى هذا قدم صياغات اوضح واكثر تحديدا عن مضمون الاشتراكية وعن الطبقات الاجتماعية المدعوة - بحكم مصالحها - الى المشاركة بدور متزايد وقيادى الى انجاز مهام مرحلة التحول • وهنا نذكر ان **عبد الناصر** كان قد حدد فى خطابه الى مجلس الامة « أن الانتقال من الرأسمالية والاقطاع الى الاشتراكية لا يمكن

تنفيذه الا عن طريق النشاط السياسى للجماهير العاملة ونضال الجماهير العاملة لاخذ السلطة بين أيديها » (١٣ــ١١ــ٦٤) . ثم حدد ان للطبقة العاملة دورها القيادى فى بناء المجتمع الاشتراكى .

والطريق الأخر سياسى: ومضمونه العمل لخلق التنظيم السياسى الطليعى وجهاز الدولة القادرين على الارتفاع الى مستوى الحلول المطلوبة فى الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية ولكن اذا كانت هذه المهمة لم تتحقق فى حياة عبدالناصر الا ان هذا لاينفى هذه الحقيقة وهى ان الحلقة الرئيسية التى يضمن الامساك بها انجاز اهداف الثورة الوطنية الديموقراطية وتأمين الانتقال الى الاشتراكية تمثلت منذ يوليو ٦١ فى تغيير المضمون الطبقى للسلطة بحيث تشارك فيها الطبقات الشعبية وفى مقدمتها العمال والفلاحون .

موقف الطبقات المتوسطة

وربما تذكر أسباب كثيرة لتفسير هذا الذى حدث وربما تكون هذه الاسباب صحيحة . ولكن تبقى مع ذلك علة رئيسية فى كل ما حدث . أما العلة فكامنة أساسا فى نشاط تلك الاقسام الاجتماعية التى تنفصل عن مجرى الثورة ، والتى تمثلها ــ فى الاساس ــ الشرائح العليا من الطبقة المتوسطة . ونحن لا نتحدث هنا عن الرأسمالية الوطنية التى تتطلب التنمية الاقتصادية التحالف معها وتوفير عوامل الحماية لها . ان الميثاق ــ فى أكثر من موضع ــ وبرنامج العمل الوطنى والدستور الدائم الذى أقر فى الاستفتاء الاخير تقدم ضمانات كافية وتشجيعا صريحا لهذا القطاع من الرأسمالية الوطنية الذى يشارك فى دفع عجلة الانتاج وهذا سليم . ولكن ما لم ينفذ من الميثاق هو هذه الافكار الجوهرية التى تضع النشاط الرأسمالى الخاص تحت رقابة حازمة من قبل القطاع العام ، وتحدد له مكانة فى خطط التنمية . ولقد ترتب على هذا أن شهد مجتمعنا ما كان يسميه **جمال عبد الناصر** « بالبروز الرأسمالى » . أو « الطبقة الجديدة » حسب تعبير الميثاق أى نمو فئات قوية من الرأسمالية الطفيلية التى لم تتكون ثرواتها من المشاركة فى الانتاج وانما من أعمال السمسرة ومقاولات الباطن وتطويق القطاع العام الخ . . واخيرا فان هذا «البروز الرأسمالى» هو الذى ساعد على ان يجعل من الطبقات الوسطى أعلى الطبقات صوتا داخل الحلف واكثرها نفوذا فى الاتحاد الاشتراكى وفى جهاز الدولة . وهو الذى قاوم كل مسعى لاشراك العمال والفلاحين اشراكا حقيقيا فى السلطة .

وفى الوقت ذاته فان قيادة ثورة يوليو فى محاولتها للحد من نمو هذه الشرائح (مثلا تأميم تجارة الجملة ، وقطاع المقاولات) قد واجهت هجوما ضاريا من قبل قوى الاستعمار الجديد خاصة من قبل الامبريالية الامريكية . فلما لم تفلح محاولات التخريب من الداخل عن طريق الضغوط الاقتصادية والتجسس وتشجيع أعمال الارهاب والاغتيال ، عادت الى الاسلوب الامبريالى التقليدى اسلوب العنف السافر ، فكان اشتراكها فى تنظيم عدوان يونيو وهو ما كشفه **الرئيس السادات** فى خطابه الاخير .

فاذا أردنا بعد ذلك ان نستخلص من كل ما تقدم المؤشرات التى تساعد على أن تسلك بلادنا الطريق المؤدى الى وضع برنامج العمل الوطنى موضع التنفيذ أمكن أن نقول ما يلى :

لابد وأن نتفق على أن ثورتنا الوطنية الديموقراطية هى فى مرحلة الانتقال أو النمو اللارأسمالى . وأنه أيا كانت الاجتهادات حول طبيعة هذه المرحلة وخصائصها فان لها قسمتين أساسيتين :

الاولى : مواصلة النضال الحازم ضد الامبريالية والاستعمار الجديد وضد الصهيونية .

الثانية : مواصلة التحولات السياسية والاجتماعية الثورية وفق برنامج واضح يستجيب للمطالب الحيوية للعمال والفلاحين والمثقفين الثوريين ، ويستطيع بالتالى ان ينظم ويعبئ أوسع الجماهير ، ويشركهم اشراكا فعليا فى السلطة .

ومن هذا نصل الى أنه لكى يتم « تنفيذ برنامج العمل الوطنى » يتحتم أن تطلق مبادرات الجماهير لتتحرك من خلال تنظيماتها ، وفى مناخ ديموقراطى ، على « محور محدد » كما يتحرك أى جيش نظامى . هذا المحور أحد طرفيه النضال الحازم ضد الامبريالية والاستعمار الجديد ، والطرف الاخر رفع النشاط السياسى للجماهير عن طريق التنظيم السياسى لتقوم بمبادرات خلاقة فى تنفيذ خطة التنمية .



أما النضال ضد الامبريالية وضد الهجمات المتزايدة للاستعمار الجديد فان بلادنا تجد نفسها فى قلب المعمعة وهى معركة ضارية وشرسة كما هى مجيدة ونبيلة وبها تتعلق أنظار كل قوى الشعوب فى العالم الثالث ، وكل قوى الاشتراكية والديموقراطية والسلم وهذا النضال يجب أن نواصله بدون اهتزاز على جميع الجبهات السياسية والاقتصادية والثقافية لرد غــزوة المستعمرين الجدد · واذا كان لنا أن نؤكد على أهمية هذا النضال فيكفى أن نقول : انه فقط من خلال تشديد النضال ضد الاستعمار الجديد نستطيع ان نحل على افضل وجه وبأكثـر الاســاليب سـلمية التناقضات الطبقية بين قوى « تحالف الشـعب العامل » ·

واما النضـال لـرفع النشـاط السياسى الديموقراطية للجماهير باشراكهم اشراكا متزايدا فى ادارة شئون البلاد فهو الضمان الاساسى لحماية المكتسبات الاقتصـادية والاجتمـاعية وتوسيعها وبناء الدولة العصرية الحديثة · ان هذا النضال هو الذى يعد الارضية اللازمة أمام القيادة السياسية ـ وفقا لمبدأ الولاء للجماهير ـ التى تمكن من حل ما قد ينشأ من تناقضات بين السياسه وبين الاقتصاد ، أو بين متطلبات العمل السياسى لحل المشاكل الملحة لمصلحة الجماهير وبين القوانين الموضوعية التى تحكم مرحلة التحول ·

وفى اعتقادنا بعد هذا كله ان القيادة السياسية للبلاد لهـا من الحس الوطنى · والرغبـة فى تحقيق التقدم ، نستطيع بالاعتماد على وحدة كل القوى الوطنية والتقدمية أن تستثمر الى أقصى حد الظروف الداخلية والدولية ، المـادية والمعنـوية الملائمة لتحقيق النصر فى المعارك ضد الامبريالية والصهيونية وفى معارك البناء الداخل فى مقدمة هذه الظروف :

- ارتفاع الوعى السياسى فى صفـوف الجماهير الشعبية خاصة فى صفوف العمـال والفلاحين ·
- تمسك الجماهير الحـازم بالمكتسـبات الاقتصادية والاجتماعية ورغبتها العارمة فـى المحافظة عليها وتوسيعها باستمرار ·
- استعداد متزايد فى صفوف قوى الثورة العربية للالتفاف حـول مصر فى معاركها الوطنية والاجتماعية ·
- استعداد متزايد برهنت عليه الاحداث فى صفوف قوى الثورة العالمية وخاصة فى الاتحاد السوفيتى والبلدان الاشـتراكية لتقـديم كل المساعدات اللازمة لردع العدوان وبناء الاقتصاد القومى ·



موقع البرنـامج من وثـائق الثـورة

عـادل سـيف النصر

جاء برنامج العمل الوطنى الذى قدمه الرئيس أنور السـادات واقره المؤتمر الثانى للاتحاد الاشتراكى ليضيف وثيقة جديدة الى الوثائق التى قدمتها ثورة يوليو « الميثاق » . وبيان ٣٠ مارس ·

والبرنامج حين يقدم مفهومات جديدة لمهـام

وأهداف العمل الوطنى والاجتماعى الا أنه يقدر فى نفس الوقت للمفهومات الفكرية المتطورة لوثائق الثورة الاساسية .

لذا يصبح من الضرورى عند التصدى للمهام التى طرحها برنامج العمل الوطنى ووضعها فى التطبيق أن نسترجع بالفهم ونقيم بالتحليل كافة المحاولات والجهود التى بذلتها قوى التحالف لوضع المهام المتضمنة لهذه الوثائق فى التطبيق .

مراحل الثورة وبرامجها

منذ أن فجر جمال عبد الناصر ورفاقه ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ دخلت مصر والأمة العربية مرحلة ثورية جديدة من تاريخ نضالها الوطنى والاجتماعى

وتحت قيادة عبد الناصر خاض الشعب المصرى وشعوب الامة العربية معارك متصلة ضد قوى الامبريالية والصهيونية والرجعية من أجل كسب الاستقلال السياسى والتحرر الاقتصادى والتقدم الاجتماعى .

ومن حول هذه المعارك تبلورت لثورة يوليو برامج ومهام وطنية واجتماعية وقومية سطرتها جماهير الشعب بنضالها فى وثائق أساسية من كتاب « **فلسفة الثورة** » و « **ميثاق العمل الوطنى** » « **وبيان ٣٠ مارس** » وأخيرا فى « **برنامج العمل الوطنى** » .

وطوال مراحل النضال هذه استمات جمال عبد الناصر فى أن تكون بلادنا « أكثر البلدان المستقلة استقلالا » .

وانطلاقا من هذا الهدف الوطنى العظيم تحدد خطان أساسيان حكما مضمون ما قدمته تلك الوثائق .

- خط النضال الحازم ضد قوى الاستعمار والصهيونية .
- خط النضال المتطور ضد قوى الاقطاع والاستغلال والرجعية .

برامج العمل الوطني والصيغة النظـرية لثـورة يوليـو

ولقد استندت خطوط النضال الوطنية والاجتماعية هذه الى أساس فكرى تجسد أولا فى « الميثاق » بما تضمنه من مفهومات فكرية لقضايا التحرر الوطنى والتقدم الاجتماعى والوحدة القومية .

وبالاضافات الفكرية التى قدمها عبد الناصر منذ عام ١٩٦٤ عن مفهوماته للاشتراكية خاصة فيما يتعلق بتطبيقها وحسم للحوار الذى دار عن هذه القضية فى لقائه مع المبعوثين حينما قال :

« ان الاشتراكية عموما هى **القضاء على استغلال الانسان للانسان** ولكن التطبيق الاشتراكى فى كل بلد قد يختلف عن الاخر ، فيه ناس تحب تسميها الاشتراكية العربية على أساس أن دى اشتراكية لها طابع خاص . أنا رأيى هى « **تطبيق عربى للاشتراكية** مش هية اشتراكية عربية » .

نقول أنه بالميثاق والاضافات الفكرية لعبد الناصر تحددت المفهومات النظرية لثورة يوليو عن قضايا التحرر الوطنى والتحول الاشتراكى فى :

١ — ان هدف الاشتراكية عموما هو القضاء على استغلال الانسان للانسان .

٢ — ان وسيلة الاشتراكية هى اقامة الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج .

٣ — ان الاشتراكية تبنى بنقل السلطة الى تحالف الشعب العامل ، فهذه السلطة اداة الشعب فى احداث التغيرات الاجتماعية .

٤ — ان المركز القيادى فى المجتمع الاشتراكى هو للطبقة العاملة .

٥ — ان التخطيط الشامل للاقتصاد هو اطار تطوير اقتصادنا على أسس اشتراكية .

وبصياغة وتبنى هذه المفهومات أصبح نجاح التطبيق الاشتراكى فى بلادنا رهنا بتطبيق :

- **المضمون الاقتصادى** : وهو تطوير الملكية الاجتماعية لصالح الشعب العامل .
- **المضمون السياسى** : وهو نقل السلطة للشعب العامل .

وهكذا أصبح لثورة يوليو وبرامجها مفهومات نظرية اعتبرت نموذجا لما يمكن أن تقدمه حركات التحرر الوطنى ذات المضمون الاجتماعى المتقدم

تطـور برامج الثـورة وأثره على الـوحـدة الـوطنيـة

وبتطور أهداف النضال الوطنى والاجتماعى لثورة يوليو وباختيار طريق « **التطبيق العربى للاشتراكية** » وبمحاولة وضع المضامين الاقتصادية والسياسية فى التطبيق تطورت حتما برامج العمل وأشكاله مطورة بذلك صيغ الوحدة الوطنية من « هيئة التحرير » والاتحاد القومى » الى « الاتحاد الاشتراكى » .

وبصيغة تحالف قوى الشعب العاملة برزت تناقضات مبعثها فى الاساس الفهم المتميز لقوى التحالف لنقاط وبرامج العمل الامر الذى أدى الى :

● الاستقطاب المستمر لقيادات وممثلي بعض فئات التحالف من صفوف التحالف ومراكز السلطة ، خاصة قيادات بعض شرائح الرأسمالية الوطنية والطبقة الجديدة التي عرقلت أو قاومت تطوير المضمون الاقتصادي والسياسي لعملية التطبيق الاشتراكي اي باختصار شديد وقفت في وجه استمرار الثورة وتقدمها على طريق البناء الاشتراكي .

● التفاقم المستمر للتناقضات بين القوى الاجتماعية المشكلة للتحالف والذي أدى اكثر من مرة الى تهديد الوحدة الوطنية واغرى بالفعل قوى الثورة المضادة وعلى رأسها الاستعمار الامريكي واسرائيل بالتعجيل بتصفية الثورة وسحقها بضربة واحدة .

الاستعمار الجديد ومخططاته

وبتطور اهداف النضال الوطني والاجتماعي، وبتلاحم المهام الوطنية والاجتماعية للثورة ، وببروز التناقضات داخل قوى التحالف وباستمرار الثورة وتقدمها على طريق التحول الاشتراكي تعدلت مخططات الاستعمار الجديد وازدادت شراسة وخبثا ، وانتهت الى :

١ — التسليم الاولي بالاستقلال السياسي للبلدان المستقلة حديثا .

٢ — الوقوف بحزم ضد كل محاولة لتطوير النضال الوطني لشعوب هذه البلدان الى آفاق التطور الاجتماعي .

٣ — ضرورة الاجهاز بعنف على النموذج الذي تحاول ان تقدمه الثورة المصرية خشية نجاحه .

٤ — وهذا يتم اما بالانقضاض عليه من الداخل بالاستفادة المدروسة من التناقضات القائمة بين قوى التحالف وتغذيتها الى اقصى حد أو بضربة من الخارج وبالقوة المسلحة .

وهكذا تنوعت المحاولات حتى كان العدوان المدبر عام ١٩٦٧ واتضح كما حدد عبد الناصر التصد الحقيقي له « القضاء على الثورة الاشتراكية » .

وتحديد مقصد العدوان وجوهره مسألة رئيسية من حيث انها تحدد لقوى التحالف طبيعة المهام الاساسية لنضالها والتي لا يجب ان تحيد عنها لحظة واحدة .

فعلى الرغم من انه قد ترتب على العدوان احتلال جزء من أراضينا المصرية ؟ وعلى الرغم من أن المهمة المباشرة العاجلة لقوى التحالف أصبحت مهمة تحرير الارض وتصفية آثار العدوان .

على الرغم من ذلك فان تحقيق هذه المهمة لم يغير من طبيعة المهام الرئيسية للثورة مهام التحول الاشتراكي .

فهزيمة العدوان واستخلاص الارض من أيدي الد الاعداء لن يتأتى الا باصرار قوى التحالف على المضي قدما على طريق التحول الاشتراكي.

وهذا ما قدمته بالفعل جماهير ١٠،٩ يونيو .

جماهير التحالف ومخططات الاعداء

والجماهير الوطنية والثورية لتحالف الشعب العامل هي دائما أبدا القوى الكامنة لكشف مخططات الاعداء ، والقادرة فعلا على هزيمتها وحماية الثورة واهدافها .

فالهزيمة الخاطفة لم تخدع الجماهير التي خرجت بحسها السياسي المرهف مدركة منذ اللحظة الاولى الهدف الرئيسي للعدوان الاسرائيلي وهبت ترفض الهزيمة وتحدد بقوتها طريق الصمود والنصر ، معطية للثورة وبرامجها طاقات جديدة تضمن للثورة استمرارها وذلك عن طريق مواصلة « النضال لتحرير الارض العربية »والسير في «طريق التحول الاشتراكي»

الجماهير بنضالها

تصون الوحدة الوطنية

ورغم الهزيمة وضرورات الوحدة الوطنية فان القوى الاجتماعية المشكلة لتحالف قوى الشعب بطبيعة تكوينها الاجتماعي والفكري المتميز تختلف فيما بينها وتتناقض في فهم وتحقيق مهام النضال ضد الاعداء لتحرير الارض وبناء الاشتراكية .

واختلفت بالفعل في أعقاب النكسة واحتدم الصراع حول أسباب الهزيمة وطبيعة التغيرات المطلوبة لتحقيق النصر .

فبعض القوى طالب بالتغيير ولكن الى الوراء والبعض الاخر سلم شكلا بالتغيير ولكن التغير الذي يضمن له الاستمرار والبقاء ، أما القوى الواعية والمخلصة لاهداف النضال فأصرت على التغير الجدري الجاد .

واحتدم الصراع وتشعب ووصل الى الحد الذي كادت فيه بعض مراكز القوى بالسلطة ان تهدد مسيرة الثورة ذاتها . وحسم بيان ٣٠ مارس الوضع .

بيان ٣٠ مارس

ثمرة نضال الجماهير

وجاء بيان ٣٠ مارس اثر المقاومة المتعاظمة لجماهير الثورة والتي قاومت بأشكال مختلفة كافة المحاولات لاجهاض حركة ٩ ، ١٠ يونيو وخرج البيان برنامج عمل كان من المفروض « أن

لا تختلف فيه الاجتهادات ، ولا تتصارع الاراء ، ولا تتصادم القوى » على حد قول البيان نفسه.

فبيان ٣٠ مارس لم يقتصر على طرح نقاط محددة للعمل يمكن أن تتوحد من حولها قوى التحالف بل قدم فى نفس الوقت وسائل تنفيذها عن طريق حشد كل القوى الشعبية بوسيلة ديمقراطية وراء واجب المعركة وأمل اتمام بناء المجتمع الاشتراكى مؤكدا أن صيغة الاتحاد الاشتراكى هى أكثر الصيغ ملاءمة لحشد القوى الشعبية بوسيلة ديمقراطية .

وان السبيل الى ذلك هو اعادة بناء الاتحاد الاشتراكى ديموقراطيا بالانتخاب الحر من القاعدة الى القمة ، وبناء التنظيم السياسى لطلائع الاتحاد الاشتراكى .

وضوح الافكار لاتكفى وحدها

غير أن وضوح الافكار وطرح البرامجوالاتفاق عليها وتحديد وسائل تنفيذها لا يكفى وحده لماذا ؟

لان الافكار والبرامج ووسائل تحقيقها تصطدم فور طرحها بمصالح القوى الاجتماعية المشكلة للتحالف .

وسريعا ما تحدد كل قوى اجتماعية موقفها العملى من مضمون ما تقدمه البرامج وتحدده من وسائل ، وتسعى لتطويعها لواقعها الاجتماعى المتميز مستفيدة من المواقع التى تحتلها فىأجهزة الدولة ومراكز التنظيم السياسى .

وعبر الصراع الذى يدور يكتب النجاح او الفشل المؤقت لبرامج العمل المطروحة .

بيان ٣٠ مارس فى التطبيق

واليوم ندرك جميعا مصير محاولات وضع بيان ٣٠ مارس فى التطبيق خاصة النقاط الجوهرية المتعلقة بقضية « تأكيد وتثبيت دور قوى الشعب العاملة وتحالفها وقيادتها فى تحقيقسيطرتها بالديمقراطية على العملالوطنى فى كافة مجالاته » . اى تحقق سلطة تحالف قوى الشعب العاملة جميعها ، وبناءالديمقراطية باعتبارهما المحور الاساسى لجدية اى تغيير كان يضمن وضع برنامج ٣٠ مارس فى التطبيق .

فبدلا من أن تتوحد قوى التحالف حول وضع مضمون البيان فى التطبيق ، تفاقم الصراع داخلها يوما بعد يوم خاصة بعد وفاة الرئيس عبد الناصر الى الحد الذى تعرضت فيه الوحدة الوطنية ذاتها للخطر وكاد ان يضيع الصوت الاصيل لمعركة تحرير الارض. بل والمفهومات الاساسية لثورة يوليو .

حركة التصحيح

● اهتزاز المفهومات الاصيلة للثورة ●

وعند هذا الحد من توالى فشل محاولات التطبيق لجانب من برامج الثورة وأهدافها ، وتفاقم الصراع بين قمة السلطة ومراكزها الاساسية ، وبأحداث الايام التى تبعت مباشرة حركة ١٥ مايو لتصحيح مسار ثورة ٢٣ يوليو .

أقول عند هذا الحد كان من الطبيعى بل والحتمى ان تختلف وتنقسم قوى التحالف على بعضها ليس فقط حول فهمها وتفسيرها للاحداث بل وحتى حول المفهوماتالاساسية التىسطرتها بتضحياتها على صفحات « الميثاق » و « بيان ٣٠ مارس » .

وأصبحت قوى التحالف بالبلبلة وفقدان الاتجاه كنتيجة منطقية لتكرار الفشل ، والاحساس بالعجز عن امكانية احداث أى تغير جاد بالسلطة واجهزتها والتنظيم السياسى وطلائعه .

وأصبح من الطبيعى فى هذه الايام أن نسمع وبأعلى صوت آراء اليمين الاجتماعى تدعو لاعادة النظر فى كل ما قدمته ثورة يوليو من افكار ومفهومات وصيغ تتعلق بالقضايا الوطنية والاجتماعية والقومية .

فمثلا سمعنا عن :

— جدوى السير فى طريق التنمية الاشتراكية

— ومعنى الاصرار على ضمان نسبة ٥٠٪ للعمال والفلاحين .

— ومدى نجاح صيغة الاتحاد الاشتراكى وأفضليته على صيغة التنظيمات الحزبية القديمة وامكانية تحقق الديمقراطية عن طريقها .

— وفائدة استمرار التعاون مع المعسكر الاشتراكى ، وأثر هذا على الاستقلال الوطنى .

واهمية التوصل لتسوية سلمية عن طريق التفاهم مع الغرب وتحت مظلة الحل الامريكى. واخيرا فوائد ومضار التزامات النضال القومى وأثره على المصالح الوطنية .

وازاء هذا التدهور الذى انتهت اليهالاوضاع كان من الحتمى على الرئيس أنور السادات أن يوضح المواقع الفكرية لحركته .

وكان خطابه التاريخى فى مجلس الامةوالذى اكد فيه أن حركة ١٥مايو هىأولا وأخيرا تصحيح وتطوير لمسار ثورة ٢٣ يوليو واستمرار واع لكلماقدمته هذهالثورة وزعيمها جمال عبدالناصر من افكار ومفهومات .

وهكذا تم تثبيت المفهومات الاصيلة والمتطورة لثورة يوليو عن القضايا الوطنية والاجتماعية والقومية .

برنامج العمل الوطني

ومهام النضال الوطني والاجتماعي

لعل من ابرز ما تميز به برنامج العمل الوطني هو منهج الفهم الاستراتيجي لقضايا المرحلة الراهنة مرحلة تحرير الارض وانجاز مهام التحول الاشتراكي .

والجديد الذي يقدمه البرنامج على ضوء هذا الفهم هو التلاحم التام بين مهام العمل الوطني والاجتماعي .

هذا التلاحم الذي يكسب القضية الوطنية بعدها الاستراتيجي الاصيل .

فالبرنامج يرى أن :

« ثورة التحرر الوطني لايمكن ان تحقق هدفها الاصيل في تحرير الشعب الا اذا اختارت للتحرر طريق الاشتراكية » .

وهكذا يرى ان التحرر الوطني لم يعد مجرد كسب الاستقلال السياسي واجراء بعض الاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية ، ولا حتى تأميم بعض المصالح الاجنبية ، بل ان **جوهره الاصيل هو اختيار طريق الاشتراكية .**

وبمعنى آخر فان الاهداف الوطنية الاصيلة لثورات التحرر الوطني في عصر الاستعمار الجديد لا يمكن أن تتحقق الا عن طريق السير قدما في طريق التحول الاشتراكي . وهكذا يصبح العداء للتحول الاشتراكي ومناهضته — في التحليل الاخير — ليس مجرد موقف اجتماعي بل هو في حقيقته عداء للاهداف الوطنية الاصيلة للثورة .

وفي مجال آخر يؤكد هذا التلاحم حينما يتحدث عن الامبريالية وأهدافها ويقول :

« ان الامبريالية على الرغم من اتساع وتعاظم حركة التحرر العالمية لم تضع السلاح ، بل **انها لتزداد شراسة وضراوة وتريد أن تبقى على استغلالها للشعوب ، وأن تضرب النظم التقدمية الحديثة ، وأن تبقى على الرأسمالية مصدر ثرائها ونفوذها » .**

فالامبريالية في حركتها لن تضع السلاح بل ستظل تحاول أن تضرب الشعوب ونظمها التقدمية . وسوف تسعى دائما للابقاء على النظام الرأسمالي مصدر ثرائها ونفوذها .

ومرة أخرى يربط البرنامج بين النضال الوطني ضد الامبريالية وبين النضال الاجتماعي ضد الرأسمالية .

وبهذه المفهومات الواضحة عن تلاحم العمل الوطني والاجتماعي عالج البرنامج قضايا ومهام تحرير الارض من خلال معالجته للاهداف الاستراتيجية للثورة ومهام المرحلة المقبلة . فمعركة تحرير الارض أصبحت جزءا لا يتجزأ من انجاز أهداف التحول الاشتراكي ويجب أن تساعد على تعميقها عن طريق :

- مواصلة التنمية .
- بناء قاعدة الصناعة الثقيلة
- تطوير الريف واعادة بناء القرية .
- خلق الدولة الحديثة ووضع أسسها .

وكل هذا تحت شعار : « **أقصى استعداد** للمعركة مع الاستمرار في التنمية بأعلى المعدلات » .

برنامج العمل الوطني في التطبيق

بعد كل هذا تبقى قضية التطبيق ، محك جدية أي عمل فكري وسياسي .

وقضية وضع برنامج العمل الوطني في التطبيق تكتسب اليوم اهمية خاصة في نظر جماهير الثورة ، هذه الجماهير التي لم تتأخر لحظة عن تبني واثراء اهداف وبرامج ثورة يوليو ولم يهتز ايمانها أمام مشاكل وأخطاء التطبيق الماضية ، وقبلت بفهم في كل مرة النقد الذاتي والتفسير الموضوعي .

لذا يصبح من الاهمية ونحن على مشارف وضع برنامج العمل الوطني في التطبيق أن نتوقف قليلا دون ما حساسية لاستخلاص الاسباب الجوهرية التي حالت دون وضع برامج العمل الوطني والاجتماعي وعلى ضوء ما سلف ذكره ، ويمكن أن نوجز الاسباب في :

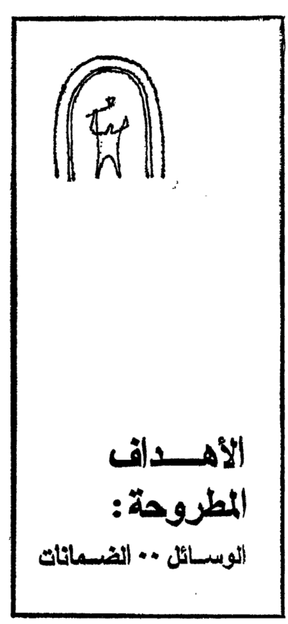
١ — افتقار التنظيم السياسي للديمقراطية .

سبق أن أوضحنا أن القوى الاجتماعية المشكلة للتحالف تختلف وتتصارع حول تطبيق البرامج وكان من المفروض أن تكفل تنظيمات الاتحاد الاشتراكي ، وأن يتم هذا الصراع بالحوار الديموقراطي الجاد والموضوعي داخل المستويات التنظيمية المختلفة وتحت مبدأ المركزية الديمقراطية — وأن تضمن حق وفرض هذا الحوار لكافة قوى التحالف خاصة قوى العمال والفلاحين والمشكلة بوزنها وحجمها الاجتماعي الاغلبية الساحقة للتحالف .

ان كبت الصراع وانكاره أو التسليم الشكلي به لم يولد في الماضي غير مراكز القوى وأساليب القمع والتجسس المنافية للديمقراطية والقيم الانسانية .

٢ — عرقلة تطوير السلطة لتصبح سلطة تحالف قوى الشعب العاملة جميعها .





الأهــــداف المطروحة :
الوســائل .. الضـمانات

د. فــؤاد مـرسى

لقد حاولت تاريخيا ثورة يوليو أن تقدم حلا لقضية السلطة يجنبها طوال مراحل النضـــال الوطنى والاجتماعى المخاطر الكثيرة خاصة فى لحظات الانعطافات الحاسمة لمجــرى التطور . ولقد تجسد هــذا « الحل » فى عمليـــة الاستقطابات المتتالية التى كانت تتم بالسلطة واجهزتها ، وهى استقطابات ذات مدلول اجتماعى واضح يطور من طبيعة السلطة وتمثيلها للقـــوى الاجتماعية صاحبة المصلحة فى تطور الثورة واستمرارها.

غير ان وضع هذا الحل فى التطبيق مســـألة معقدة وصـــعبة ويجب أن تتم وفقـــا لقواعـــد المشروعية الثورية والا اتخذت طابع الانقـــلاب والمناصرة ،وأخيرا فان نجاح هذا الحل واستمراره يتوقف على اقتناع جمـــاهير الشـــعب ودورها الفعال فى مساندة السلطة وتأييدها .

وبيان ٣٠ مارس صدر فى الاساس من أجل « نقل السلطة بالديمقراطية الى تحـــالف قوى الشـعب العاملة » .

وفى التطبيق عرقلت أحداث هـــــذا التطوير بالسلطة قبل وفاة عبد الناصر وبعده ، وازدادت حدة الصراع ، وسعت بعض العناصر التى كان بيدها بالفعل المراكز الاساسية لاجهزة السلطة الى فرض مفهوماتها الضيقة عن السلطة ،الامر الذى كان يمكن أن يؤدى — فى احسن الاحوال — الى انفراد ممثلى بعض فئات التحالف بالسلطة . الامر الذى يعنى تصفية سلطة التحالف ذاتها .

ان تكرار ظاهرة مراكز القـــوى والازدواج الذى يتم فعلا بالسلطة هو فى التحليل الاخير تعبير عن أن قضية السلطة وتطويرها لم تحل بعد بالشكل الذى تصبح فيه ممثلة لقوى التحالف جميعها وبدون هذا تتعرض التجــربة المصرية وصيغتها الثورية للخطر الاكبر ، خطر فشـــل التطبيق المتتالى ، والذى حتما لابد وأن يمتد الى صحة الصيغة ذاتها .

وباخلاص شديد فان الصيغة لم تعد تحتمل تجربة فاشلة جديدة .

ان فرصة جديدة قد أتيحت لقوى تحالف قوى الشعب العاملة من اجل النضال لتحقيق وتطبيق برامج العمل الوطنى لصـــالح تحـــرير الارض العربية المحتلة وبناء الاشتراكية على أرض مصر العربية .

ان الجماهير الكادحة الوفية لم تتأخـــر فى ان تعطى الرئيس أنور السادات وحركة مايـــو المساندة والتأييد ، ويمكن أن تعطى المزيد وبلا حدود يوم أن تشعر من واقع حياتها اليومية بأن السلطة فى بلادنا تتطور وبالديمقراطية لصالح قوى التحالف جميعها ، وأنها كل يوم تنجح فى ان تسير ولو خطوة واحدة للامام من أجل تنفيذ المهام الطموحة لبرنامج العمل الوطنى .

نبدأ

أولا بتحديد الاهداف ، فما هى أهـداف برنامج العمـل الوطنى ؟ باختصار يرمى هذا البرنامج الى استخلاص درس الهزيمة التى حلت بنا فى يونيو ١٩٦٧ . وهذا الدرس هو ما نادت به جماهير ٩ ، ١٠ يونيو من ضرورة التغيير . وكان التغيير عندئذ بحيث يعنى بلغة الجمـــاهير اعـــادة بنـــاء مصر على أسس حديثة ،

بحيث تتأكد السير بخطى ثابتة وحثيثة نحو هدف الاشتراكية . وكان ذلك يعنى فى الواقع تغييرا فى السلطة . وجاء بيان ٣٠ مارس ليجسد ارادة التغيير الجماهيرية . لكن لم تتحول فقرات بيان ٣٠ مارس الى حقيقة مادية فى واقع المجتمع والدولة . من هنا يتلقى برنامج العمل الوطنى هذا الواقع بحرفيته ، ويعيد تقديم هدف الجماهير فى صورة عملية قابلة للتنفيذ هى صورة برنامج تلتزم به المؤسسات الدستورية والسياسية للبلاد .

ان **الهدف هو** اعادة بناء مصر ، من أجل مسح عار الهزيمة العسكرية ومن أجل بناء وطن يحمى الاجيال القادمة ، وتعتز الاجيال القادمة بالانتماء اليه . ان الهدف البعيد كان ولا يزال هو التحول الاشتراكى فى المجتمع والدولة . لكن الهدف القريب لعشر سنوات مقبلة هو اعادة بناء الدولة الحديثة . الهدف اذن هو ترشيد التجربة الثورية والتمهيد بذلك لمرحلة أخرى على طريق الاستقلال الوطنى والتقدم الاجتماعى .

نحن اذن أمام هدف مرحلى هو ترشيد التجربة الثورية الغنية التى عاشتها البلاد . فكيف يكون ذلك ؟

أولا ــ بمضاعفة الدخل القومى فى السنوات العشر المقبلة ، ويتضمن ذلك اعادة بناء قرى الريف وتطوير تجمعات الصناعة المهمة واتساع المرحلة الاولى من التعليم بجميع من بلغ سن الالزام تمهيدا لرفع هذه السن الى ١٥ سنة ، وتوجيه العناية الصحية الى العمال والفلاحين أساسا ، وامتداد التأمينات الاجتماعية لتشمل جميع المواطنين وتحسين ظروف العمل ومستويات المعيشة للعمال وترشيد وتدعيم تنظيمات القطاع العام وأسلوب الادارة فيه وتحقيق زيادة سنوية قدرها ٢ فى المائة على الاقل فى الناتج القومى تخصص لزيادة دخول المواطنين ورفع مستوى معيشتهم .

ثانيا ــ بتطوير جهاز الدولة من القمة تحديدا للمسئوليات ، وتأكيدا لرقابة الجماهير عليها مع منح المواطنين من خلال تنظيماتهم الحق فى أن يلجأوا الى المدعى العام عندما يرون انحرافا عن القانون ، أو سوء استخدام للسلطة ، وفتح أبواب المناصب القيادية فى الدولة أمام العناصر الشابة المثقفة وبوجه خاص من أبناء العمال والفلاحين ، وبعد وضع الدستور الدائم ودعوة الناخبين لانتخاب مجلس الشعب الجديد ، يبدو ملمحان جوهريان فى اتجاه تطوير الدولة . أولهما التأكيد على الوحدة الوطنية لطبقات الشعب مع التسليم بحتمية الصراع الطبقى فى اطار الوحدة الوطنية . وثانيهما البدء بالتدريج فى تكوين المجالس الشعبية فى المحافظات بوصفها أقدر على الاحساس بمشاكل الجماهير وأقدر على حلها . ان جزءا من سلطة الدولة ينتقل ها هنا من القاهرة الى الاقاليم . ومن ثم يتخذ الحكم المحلى طابعا جديدا عميق الدلالة بعيد الاثر .

هــــل يمــــكن ؟

هل يمكن تحقيق تلك الاهداف ؟ نعم ، يمكن . بالطبع .. ليست المهمة بالسهلة . وانما هى مهمة لا طريق لها الا بذل الجهد والعرق .

فهدف مضاعفة الدخل القومى لا يمكن أن يكون هدفا خياليا أو مستحيلا . ولقد حاولناه من قبل واقتربنا منه فى الخطة الخمسية الاولى . ولقد حققنا فى السنوات العشر الماضية زيادة فى الانتاج من ٢٨٢٠ مليون جنيه الى ٤٥٤٠ مليون جنيه ، على الرغم من كل المصاعب والاخطاء ، وعلى الرغم من اعباء حرب اليمن وعدوان اسرائيل واعباء المجهود الحربى .

ان تحقيق هدف مضاعفة الدخل القومى لا يتطلب أكثر من أن نزيد استثماراتنا تدريجيا خلال السنوات العشر المقبلة حتى يصبح متوسطها السنوى بين ٥٠٠ ، ٦٠٠ مليون جنيه . وهذا لا يعنى أكثر من أن نرفع نسبة الاستثمار الى الدخل القومى من وضعها الحالى وهو ١٣ فى المائة الى ٢٠ فى المائة فى المتوسط . وهى نسبة تجاوزتها بلاد كثيرة فى مرحلة التنمية المبكرة . بالطبع لا تحتاج بلاد الى السلام مثل احتياج بلادنا . لكن الخطة يجب أن تعد على أساس استمرار حرب التحرير الوطنية ضد اسرائيل والقوى الامبريالية التى تساندها . ولهذا لا تستبعد الخطة احتمال تخصيص جزء هام من مواردنا لعدة سنوات مقبلة لاغراض الدفاع والتحرير . ومع ذلك فان المجتمع الذى يخصص حاليا أكثر من ٣٥٠ مليون جنيه لاغراض التنمية قادر بمزيد من الترشيد لقطاعاته الانتاجية على أن يضاعف من معدلات نموه ، حتى بغير أن يخصص لذلك استثمارات جديدة . ومن هنا فان هدف مضاعفة الدخل القومى لا يبدو مستحيلا . وفى الامكان أن نحققه اذا اتخذنا عددا من الاجراءات العملية التى تكفل :

ا ــ زيادة الفائض الذى يتولد فى القطاع العام بغير زيادة تذكر فى الاستثمار .

ب ــ زيادة انتاجية العمل على المستوى القومى بسحب فائض العمالة من الزراعة الى الصناعة والتشييد .

جـ ــ تخطيط الاستهلاك الجماعى والعائلى لنتخلص من الاسراف والتبديد والتخبط فى توجيه الانفاق .

د ــ الاهتمام بتطوير سريع للخدمات الدولية مثل السياحة ونقل البترول والنقل البحرى .

هـ ــ التوسع فى الاعتماد على الجهود الذاتية للجماهير ولاسيما فى قطاع الخدمات .

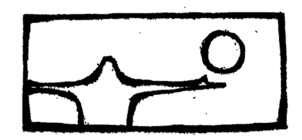
أما هدف تطوير جهاز الدولة ، فيبدو فى الظاهر

أسهل منالا ، والواقع أنه أصعب بكثير من هدف مضاعفة الدخل القومي ، لانه انما يتعلق بتطوير سلطة الدولة لا مجرد اجراء تغيير في التنظيمات ، وبعض التغيير في الاشخاص • من المهم طبعا تشكيل المجالس الفوقية المتخصصة وتطوير البحث العلمي واخضاع حياتنا العامة لاحكام العلم وقواعده وضروراته • كما أن نقل جزء من السلطة المركزية الى الحكم المحلى واشراك العاملين في ادارة القطاع العام،تطبيقان ديمقراطيان، وضمانتان عمليتان لرقابة الجماهير على الدولة والاقتصاد ، ولكن يبقى أن تجد الطبقات المختلفة فرصا متساوية للتعبير عن نفسها في اطار الوحدة الوطنية • وستظل هذه قضية عويصة لا تحل بالشعارات كما لا تحل بتجاهلها أو طمسها • ولابد أن يتوصل العمل السياسي يوما ما الى حل أصيل لها • وكما يقول البرنامج فان الديمقراطية تعني حرية الرأي والتعبير لكل عضو في الاتحاد الاشتراكي ولكل مستوى من تنظيماته ولكل قوة من قوي التحالف • وايجاد الظروف الملائمة لممارسة هذه الحرية •

ماهي الوســـائل ؟

أما هدف مضاعفة الدخل القومي فـوسيلته الاولى والاخيرة هي التخطيط • فالتخطيط هو عصب التنمية الشاملة • واستمرار هذه التنمية متوقف على أن ترتبط جهود الملايين بعمل تنظيمي مخطط • والتخطيط مطالب بأن يحقق التناسب والتوازن بين فروع الاقتصاد وقطاعاته ، وأن يضع أولويات الاستثمار بحيث تدر أكبر عائد في أقل وقت ،وان يهتم بتطوير فروع الصناعة الثقيلة التي تحقق خفضا في نفقات الانتاج وزيادة في حجمه •

من هنا لابد أن يطرح هدف مضاعفة الدخل القومي في اطار خطة شاملة للتنمية مدتها عشر سنوات ، تنقسم الى خطتين مدة كل منهما خمس سنوات • وعلى الحكومة أن تشرع على الفور في اعداد الخطة القومية الشاملة ، على أن تنتهي من الاعداد التفصيلي للمرحلة الاولى منها في يناير ١٩٧٢ بحيث يعرض مشروع الخطة على المؤتمر القومي لمناقشته واقراره في فبراير التالي ليتم ادراج الاعتمادات اللازمة للتنفيذ ابتداء من ميزانية ٧٢ ـ ١٩٧٣ •



أما تطوير جهاز الدولة فهدف عويص ووسيلته لا يمكن أن تكون وسيلة واحدة • والى جانب ما اتخذ من اجراءات دستورية وقانونية وتنظيمية هامة ، فان من الضروري أن نبرز بعض أهـم الوسائل التي تطرح نفسها في هذا المجال :

فهناك أولا حتمية أعمال وتشغيل المؤسسات الدستورية والسياسية وتمسك كل منها بوظيفتها ودورها •

وهناك ثانيا ضرورة تحـرك التنظيمـات الجماهيرية وممارستها لحياتها الطبيعية بيـن الجماهير وفي مقدمتها •

وهناك ثالثا الفهم الجديد لطبيعة العمـل السياسي ، وهو أن العمل السياسي في نهاية الامر عمل اقتصادي • بعبارة أخرى فان جدية العمل السياسي في بلدنا يتمثل بالدقة في أن يرتبط ارتباطا كاملا بالعمل على تنفيذ خطة التنمية الشاملة ، بحيث يكون تنفيذ الخطة هو أساس تقييم الافراد واللجان والمستويات التنظيمية • هنالك يصبح التنظيم بحق تنظيما خادما للجماهير لا متسلطا عليها •

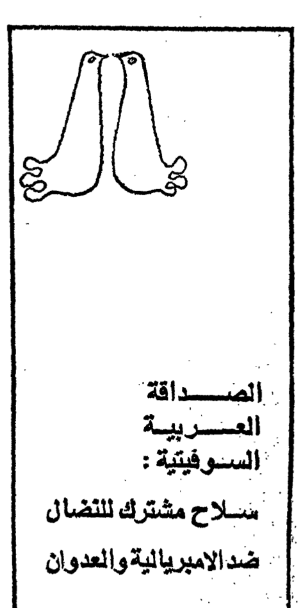
وهناك أخيرا حتمية قيام التنظيم الطليعي الذي يجمع العناصر القيادية التي تظهر أثناء العمل بين الجماهير من أجل تنفيذ الخطة الشاملة في تفان واخلاص وانكار للذات وبغير تطلع الى جزاء أو جاه أو منصب ، والجهاز الطليعي جهاز ينشر الفكر الاشتراكي بالقول والعمل والمسلك والقدوة الحسنة ، ولا شك أن قيام هذا التنظيم كفيل بتنشيط الحياة السياسية وتطوير أجهزة الدولة مثلما يكون كفيلا بدفع الانتاج وانجاز بل تجاوز أهداف خطة التنمية •

ما هي الضـمانات ؟

لا ضمانة هناك الا حركة الجماهير ذاتها ، يقظتها ، فطنتها ، وعيها ، مما يتوقف الى حد كبير على مدى تنظيمها •

بالطبع هناك ضمانات ظاهرة يجب الحديث عنها ، ضمانة أولى هي الحرص على مصالح الطبقات الشعبية ، مصالح العمـال والفـلاحين ، وضمانة ثانية هي الحرص على أهمية وضرورة الوحدة الوطنية بين الطبقات التي تشكل تحالف الشعب العامل ، وضمانة ثالثة هي اليقظة ازاء تحركات القوى المعادية للتحول الاجتماعي •

وبعد ذلك ، وقبل ذلك ، تبقى الضمانة التي لا ضمانة سواها وهي حركة الجماهير المنظمة ، فسيظل التنظيم هو أقوى سلاح تملكه الطبقات العاملة من أجل بلوغ أهدافها • وعندئذ فيجب أن نتذكر دائما أن برنامج العمل الوطني هو برنامج لمرحلة واحدة تستغرق السنوات العشر المقبلة وليس برنامجاابديا ، ويجب بالتـالي أن يهيىء بعدها لبرنامج عمل وطني آخر يستهدف أهدافا أخرى أبعد مدى •



الصداقة العربية السوفيتية : سلاح مشترك للنضال ضد الامبريالية والعدوان

عبد اللطيف حنفي

رغم أن برنامج العمل الوطني الذي قدمه الرئيس أنور السادات الى المؤتمر القومي العام للاتحاد الاشتراكي العربي في يوليو الماضي لم يفرد بندا خاصا للحديث عن المهام المحددة المطروحة أمام حركتنا في المجال الدولي خلال المرحلة القادمة .. الا أن البرنامج قد حرص على أن يؤكد من جديد — وفي مواضع متفرقة من بنوده — الاسس العامة لسياستنا الخارجية كما رسمتها الوثائق النظرية لثورة ٢٣ يوليو المجيدة وفي مقدمتها الميثاق الوطني ، مبرزا بشكل خاص « انتماءنا الى معسكر الشعوب المناضلة من أجل التحرر والقضاء على الاستعمار » ومحددا بوضوح كامل من هو العدو الذي ينبغي أن نحذر منه ومن هو الصديق الذي لابد أن نحرص على التحالف معه في معارك نضالنا من أجل التحرر والبناء .

العدو .. والشريك

فعلى الجانب الاول — جانب تحديد من هو العدو — أشار البرنامج الى « **أن الامبريالية على الرغم من اتساع وتعاظم حركة التحرر العالمية لم تضع السلاح، بل انها تزداد شراسة وضراوة ، تريد أن تبقى على استغلالها للشعوب وأن تضرب النظم التقدمية الحديثة وأن تبقى على الرأسمالية مصدر ثرائها ونفوذها . وانها لتلجأ في سبيل تحقيق اهدافها الى كل الوسائل الى الحرب ، الى الضغط الاقتصادي ، الى المخادعة ، الى التخريب من الداخل** » .

ثم انتقل البرنامج الى تحديد أكثر وضوحا حينما تيم دون الولايات المتحدة الامريكية وموقفها من العدوان الاسرائيلي ضدنا ليضعها موضع الشريك الكامل في هذا العدوان .. قائلا « **ان تصميم الولايات المتحدة على استمرار دعم اسرائيل عسكريا وماديا يجعلها — كما سبق ان قلت — مشتركة في احتلال اراضينا والعدوان على سيادة اوطاننا ويبين انها بذلك تضع نفسها في موقع العداء للأمة العربية كلها .. وعليها وحدها تبعة مايمكن أن يحدث عن هذا الوضع من نتائج** » .

الصديق .. والطريق الصعب

وعلى الجانب الاخر — جانب تحديد من هو الصديق — نجد أن البرنامج قد قيم العلاقة بيننا وبين الاتحاد السوفيتي تقييما ايجابيا ، ونستطيع أن نلحظ هذا الامر بوضوح من خلال استعراضنا للمواضع الاربعة التي تعرض فيها البرنامج للحديث عن الاتحاد السوفيتي .

الموضع الاول ، حينما تحدث البرنامج عن ايجابيات مسيرة ثورة ٢٣ يوليو في المجال الدولي عبر التسعة عشر عاما الماضية فنجده يقول هنا أنه بفضل السياسة الثورية التي اتبعناها في المجال الخارجي « احتلت بلادنا مكانا بارزا في المجال الدولي ، واصبحت في مقدمة صفوف الشعوب المناضلة ضد الاستعمار

ومن أجل التحرر والسلام والرخاء » وحظيت **بأثمن الصداقات التى برزت قيمتها فى أوقات الشدة ، وفى المقدمة منها صداقة شعوب الاتحاد السوفيتى »** .

وكان الموضع الثانى عندما تحدث البرنامج عن المحاولات الدائبة التى يقوم بها « **أعداء الاشتراكية** » دون كلل وبشتى الوسائل للتشكيك فى مسيرة ثورتنا وفى منجزاتها العظيمة داخليا وخارجيا . فهنا أشار البرنامج الى ان محاولات التشكيك هذه قد امتدت حتى « **الى سياستنا الخارجية والى انتمائنا لمعسكر الشعوب المناضلة من أجل التحرر والقضاء على الاستعمار والى صداقتنا للاتحاد السوفيتى البطل** » .

اما الموضع الثالث فقد جاء بمناسبة الحديث عن ضرورة وضع خطة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية تستهدف مضاعفة دخلنا القومى خلال السنوات العشر القادمة ، والحديث بالتالى عن ضرورة توفير المدخرات اللازمة لتحقيق أهداف هذه الخطة وتغطية الاستثمارات المطلوبة لها فهنا أشار البرنامج الى تجربة « **الاتحاد السوفيتى** » كنموذج « للدول التى اجتازت مرحلة التنمية بنجاح فى وقت قصير جدا » .

واخيرا كان الموضع الرابع ، حينما تحدث البرنامج عن دور الصناعة فى خطة التنمية الجديدة المقترحة لمضاعفة دخلنا القومى خلال السنوات العشر القادمة . فهنا ايضا حرص البرنامج على أن يشيد بالدور العظيم الذى لعبه ويلعبه « **الاتحاد السوفيتى** لمساعدتنا على تحويل اقتصادنا القومى من اقتصاد زراعى متخلف الى اقتصاد صناعى عصرى .. **فقال** « .. ويقتضينا الانصاف هنا أن نشير بالشكر العميق الى دور الاتحاد السوفيتى الصديق الكبير لنا ولكل الشعب العربى ، فان معاونته الصادقة لنا غير المشروطة بأى شرط فى تطوير اقتصادنا القومى فى مختلف مجالاته، وبوجه خاص على سبيل المثال لا الحصر اتفاقية التصنيع الاخيرة لتمثل سندا رئيسيا لنا فى تحقيق أهدافنا وبناء دولتنا الجديدة » .

تلك اذن هى المواضع الاربعة التى تعرض فيها البرنامج للحديث عن الاتحاد السوفيتى ويبدو واضحا فيها كل الوضوح مدى **تقدير البرنامج** للتجربة السوفيتية ومدى حرصه على التعبير عن **العلاقات النضالية الوطيدة** التى تربط بين **شعب مصر العربى** بل بين الشعب العربى كله وبين **شعوب الاتحاد السوفيتى الصديقة** .

والامر الجديد بالذكر هنا أن موقف البرنامج ازاء الاتحاد السوفيتى لايمكن أن يكون صادرا عن **رغبة ذاتية** فى المجاملة أو حتى مجرد **العرفان بالجميل** وذلك لان **المواقف المبدئية للشعوب** لايمكن أن تبنى على رغبات ذاتية قابلة للتغيير كما لايمكن أن تكون مجرد ردود افعال غير منضبطة أو غير واعية مما تقطعه على نفسها من عهود ولكن هذا الموقف هو باليقين انعكاس مباشر وبسيط لحقائق الواقع وخبرة التجربة وصلابة المبدأ فى آن واحد . كما أن له جذوره الممتدة فى تاريخ ثورتنا ومعاركنا من أجل التحرر والتقدم المادى والاجتماعى .

الصراع ضد الامبريالية

فمنذ ان رفض شعبنا بقيادة **جمال عبدالناصر** الخضوع للنفوذ الامبريالى بمختلف صوره وأشكاله نشأت على الفور الظروف الملائمة لبناء علاقات متكافئة وقائمة على الاحترام المتبادل بيننا وبين الاتحاد السوفيتى حيث ظهرت **أولى نقاط الالتقاء المبدئى بيننا وأكثرها تأثيرا حتى الان متمثلة فى موقف العداء الصارم للاستعمار والاستعمار الجديد ومحاولات تقسيم العالم أو اعادة تقسيمه الى مناطق للنفوذ الامبريالى** .

وفى مواجهة **الغول الامبريالى** لم يكن هناك من نطلب مساعدته لنا سوى **العملاق السوفيتى** وكان حصولنا على الاسلحة من المعسكر الاشتراكى فى مواجهة امتناع المعسكر الاستعمارى عن تسليح جيشنا — وهو ما اصطلح على تسميته فى تاريخ ثورتنا بمعركة كسر احتكار السلاح — أو تعبير عملى عن هذا الموقف المبدئى المشترك . وكما يقول الميثاق الوطنى بحق « **أن الشعوب لا تستخلص ارادتها من قبضة الغاصب لكى تضعها فى متاحف التاريخ وانما تستخلص الشعوب ارادتها وتدعمها بكل طاقاتها الوطنية لتجعل منها السلطة القادرة على تحقيق مطالبها** » وبالفعل فقد تتابعت بعد ذلك المعارك الثورية التى خاضها شعبنا من نفس الموقع المعادى للامبريالية والطامح الى بناء تقدمه المادى والاجتماعى المستقل . وكانت كل معركة من هذه المعارك تخطو بالعلاقات البناءة بيننا وبين الاتحاد السوفيتى خطوة جديدة الى الامام . ولعل أ حل تلخيص لما انتجته العلاقات العربية — السوفيتية خلال تلك الفترة من ثمار ايجابية هو تلك الكلمة التى القاها **جمال عبد الناصر** فى ٩ مايو عام ١٩٦٤ حيث قال :

« ان الصداقة التى تربط بين شعوبنا لم تكن صداقة المصادفة ولا صداقة الطريق السهل . ان القوى الاستعمارية ارادت دائما ان تضع الحواجز على طريقنا .. **وحينما ملكت شعوبنا ارادتها فانها سعت الى اللقاء مع شعوبكم**

متخطية كل هذه الحواجز » ثم اكدت التجارب واحدة بعد واحدة ان هناك مجالات واسعة رائعة تنتظر هذه الصداقة خدمة لشعوبنا وخدمة للانسانية وهى :

أولا : الوقوف الى جانب شعب مصر فى تصميمه على كسر احتكار السلاح .

ثانيا : الوقوف الى جانب شعب مصر فى تصديه للغزاة المستعمرين الذين أرادوا اقتحام أجوائه وشواطئه وانتزاع قناته التى بناها بدمه وأراد استردادها بحقه .

ثالثا : الوقوف الى جانب شعب مصر فى مقاومته للحصار الاقتصادى وللحرب النفسية التى بلغت مداها فى المنطقة بتشديد ضغط حلف بغداد على سوريا عام ١٩٥٧ .

رابعا : الوقوف الى جانب شعب مصر فى جهده البطولى لبناء وطنه اقتصاديا ومعاونته فى اقامة صناعته ثم معاونته فى بناء السد العالى العظيم الذى أصبح رمزا للبناء ورمزا للصداقة »

النمو اللارأسمالي وطريق الاشتراكية

وحينما انتهجت ثورة ٢٣ يوليو بشكل حاسم **طريق النمو اللارأسمالى** بدءا بقوانين التأميم التى صدرت فى يوليو عام ١٩٦١ ، **وأعلنت رسميا** فى وثائقها النظرية ان المرحلة الجديدة التى تدخلها الثورة هى مرحلة **التحول نحو الاشتراكية** بما يعنى أن انتصار علاقات الانتاج الاشتراكية والعلاقات الاجتماعية الاشتراكية هو الهدف الذى تسعى الثورة الى بلوغه كان ذلك يمثل بالنسبة لمعسكر الاستعمار شيء وبالنسبة للمعسكر الاشتراكى شيء آخر .

فمعسكر الاستعمار وجد فى هذا الامر تحديا خطيرا ونهائيا لمصالحه وأهدافه فى المنطقة واعتبر منذ ذلك الحين أن الثورة المصرية قد دخلت بالنسبة له الى منطقة اللاعودة وانه لا سبيل الى ارجاعها الا بتحطيمها وتحطيم ارادة الشعب الذى يتولى حمايتها حتى ولو تطلب الامر العودة الى استخدام أسلوب الغزو العسكرى ضد هذا الشعب وثورته .

أما المعسكر الاشتراكى فكان الامر بالنسبة له يعنى تأكيدا جديدا بأن **مصر باقية على موقفها المبدئى** ، موقف العداء الصارم للاستعمار والاستعمار الجديد ومحاولات تقسيم العالم أو اعادة تقسيمه الى مناطق للنفوذ الامبريالى . بل ويعنى أكثر من ذلك ان الثورة المصرية ماضية فى مختلف المجالات السياسية والاقتصادية فى تطوير هذا الموقف المبدئى الى آفاقه الطبيعية والاجتماعية وهو ماسوف يؤدى عاجلا او آجلا الى انتصار الاشتراكية فى مصر .

وهكذا .. فمثلما تسجل تلك المرحلة تزايد المؤامرات الامبريالية ضد ثورة ٢٣ يوليو شراسة وخبثا فانها تسجل على الطرف النقيض نمو العلاقات والصداقة المصرية — السوفيتية وتعمقها كما وكيفا فى مختلف المجالات . وقد عبر **جمال عبد الناصر** عن ملامح هذه الحقيقة حينما قال فى خطابه يوم ٢٤ مايو عام ١٩٦٤ « **ان** الصداقة العربية — السوفيتية تجاوزت بكثير كل الاعتبارات المؤقتة .. أى أن صداقتنا بهم الان لايمكن أن يكون مصدرها السلاح الذى نشتريه أو أنهم مصدر العون السياسى ضد الاستعمار ، والعون الاقتصادى ضد حصاره ، أو ضد التخلف الذى فرض علينا .. ان الصداقة تجاوزت هذه الاعتبارات .. ان الصداقة العربية — السوفيتية هى فى حد ذاتها الان هدف يسعى اليه ، وغاية تبذل من أجلها الجهود .. فنحن واياهم بعد ذلك كله وقبله شركاء فى بناء عالم السلام المقبل حيث لا استغلال ولا تخلف » .

العدوان الاسرائيلي أو الامتحان الخطير

ولم تمض سوى أعوام قليلة حتى كانت الهجمة الامبريالية ضد ثورة ٢٣ يوليو وانجازاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية قد بلغت ذروة جديدة بعملية الغزو الاسرائيلى — الامبريالى المسلح للاراضى العربية فى مصر وسوريا والاردن والبقية الباقية من فلسطين صباح الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ .

وفى رأيى أن هذا العدوان الامبريالى بمغزاه وأهدافه .. بالظروف التى أحاطته والنتائج التى ترتبت عليه كان اكبر واخطر التحديات التى واجهت الصداقة العربية — السوفيتية وما زال كذلك حتى الان .

فقد كان يمكن أن تتحطم ارادة الثورة المصرية تحت وطأة الثقل الرهيب للعدوان وتنجح الامبريالية [مرحليا بطبيعة الحال] فى تنفيذ مخططاتها وتنشأ أوضاع تجعل من التعاون والصداقة المصرية — السوفيتية مجرد « فعل ماض » ولذلك فان صمود ارادة الثورة المصرية وقدرتها الذاتية — رغم كل شيء — على تخطى صدمة الهزيمة العسكرية الساحقة التى لحقت بها كان هو نقطة البدء التى أمكن بعدها للصداقة العربية — السوفيتية أن تقف — حتى الان — فى وجه هذا الامتحان الخطير .

وقد يكون من قبيل التكرار أن نتحدث هنا تفصيلا عن ملامح الصمود المصرى ، وكيف تشبث شعبنا بكل منجزات ثورته ، مستمرا على طريقه المعادى للامبريالية والطامح الى بقاء الاشتراكية وقد يكون من قبيل التكرار ايضا أن نعدد المواقف المبدئية التى وقفها الاتحاد السوفيتى معنا يدعم هذا الصمود ويدفعه الى تجاوز أزماته فى جميع المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية .

معاهدة الصداقة وضد العدوان

ولكن الاهم من ذلك هو ان نشير الى ان صمود الصداقة العربية ــ السوفيتية فى وجه امتحان العدوان قد أدى بها ــ كسبب وكنتيجة فى آن واحد ــ الى تطورات بالغة الاهمية تشكل دون مغالاة مرحلة جديدة كميا وكيفيا . فبدءا من تحليل علمى لطبيعة العدوان الاسرائيلى باعتباره جزء من مخطط امبريالى عالمى موجه ضد حركة التحرر الوطنى ، ووعيا بحقيقة التحالف الاسرائيلى ــ الامريكى وأبعاده وأهدافه فى المنطقة العربية ، وفى مواجهة اصرار هذا التحالف الاسرائيلى ــ الامريكى على تحطيم ارادة شعبنا ، واجهاض استعداداته لتحرير الارض سعت بلادنا الى دفع التعاون مع الاتحاد السوفيتى ــ وعلى نحو خاص ــ فى المجالات الاقتصادية والعسكرية الى أوسع نطاق ممكن : وجاءت الزيارة التى قام بها جمال عبد الناصر الى الاتحاد السوفيتى فى بداية عام ١٩٧٠ [حينما اشتدت غارات العمق الاسرائيلية بطائرات الفانتوم الامريكية ضدنا] لتعتبر بما ترتب عليها من نتائج نقطة بارزة فى هذا السبيل، ثم كانت **معاهدة الصداقة والتعاون** التى وقعها **الرئيس أنور السادات** والرئيس السوفيتى نيكولاى بودجورنى نيابة عن البلدين فى مايو الماضى بمثابة تقنين لهذا الاتجاه الذى راحت العلاقات العربية ــ السوفيتية تسير فيه منذ العدوان الاسرائيلى بخطوات حثيثة ومنتظمة ولقد قال **بودجورنى** بعد توقيع المعاهدة « ان هذه المعاهدة تثبت وترسخ كل مانضج وتكون أثناء السنوات الاخيرة فى بوتقة نضال شعبينا المشترك ضد الامبريالية والاستعمار الجديد من أجل التقدم الوطنى والاجتماعى على الاساس الخصب من الافكار الاشتراكية العظيمة » كما قال **السادات** ايضا « ان هذه المعاهدة التى تمثل أول ماتمثل حزما شديدا وحسما قاطعا برفض العدوان يمشى واثقا نحو تصفيته ..تمثل أيضا آمالا كبيرة فى آفاق البناء بعد تصفية العدوان حتى تسودنهائيا المبادىء والقيم والحقوق التى ترفع أعلامها » وهكذا يتضح بجلاء الارتباط الوثيق بين استمرار الخط التحررى المعادى للامبريالية والراسمالية الذى تنتهجه ثورة ٢٣ يوليو وبين نمو وتوثيق العلاقات والصداقة العربية ــ السوفيتية ، ويتضح فى نفس الوقت حجم الدور الذى تلعبه هذه الصداقة فى تدعيم استمرار ذلك الخط التحررى وتأمين تطوره المطرد .

واذا كان ثمة تعقيب اخير على هذه النقطة فهو أن الامتحان الخطير الذى واجهته الصداقة العربية ــ السوفيتية بعدوان الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ مازال ــ فى رأيى ــ قائما بكل أبعاده .. صحيح انها تواجهه من مواقع نضالية أكثر تقدما وأكثر ملاءمة ولكن صحيح أيضا أنه امتحان ليس سهلا وانه يتعين علينا مواجهته بكل مايمكن أن تثمره هذه الصداقة من قدرة على التفكير الواعى والفعل المحسوب المنضبط .

مرة أخرى .. البرنامج

واذا كان هذا العرض السريع لتطور العلاقات العربية ــ السوفيتية هو تفسير لما قلته فى البداية من أن موقف برنامج العمل الوطنى ازاء الاتحاد السوفيتى قد جاء انعكاسا مباشرا وبسيطا لحقائق الواقع وخبرة التجربة وصلابة المبدأ فى آن واحد . الا انه تبقى بعد ذلك **ثلاثة ملاحظات** على جانب كبير من الاهمية فى ايضاح المزيد من ملامح صداقتنا مع الاتحاد السوفيتى :

الملاحظة الاولى ، هى ان العلاقة بين الثورة المصرية وبين الاتحاد السوفيتى كانت دائما وفى مختلف مراحلها نموذجا تاريخيا فى العلاقات بين الدول والشعوب .. فلاول مرة تشهد العلاقات الدولية تعاملا بين دولة عظمى وبين دولة نامية قائما على هذا القدر الكبير من الفهم المشترك والاحترام المتبادل وعدم التدخل فى الشئون الداخلية للطرف الاخر . وقد عبر **جمال عبدالناصر** عن هذه الحقيقة مرات عديدة فقال فى خطاب له امام مجلس الامة يوم ٢٢ نوفمبر عام ١٩٦٤: « لقد ساعدنا الاتحاد السوفيتى ، واحنا كنا باستمرار بنشيد بهذه المساعدة ، ولكن طبعا الاتحاد السوفيتى دولة شيوعية واحنا دولة غير شيوعية . هل ده له اثر ؟ .. ليس له اثر ، وانما هوه بينفذ مبادىء التعامل بين الدول ذات المذاهب الاجتماعية والسياسية المختلفة . لم تطلب منا روسيا ان احنا نبقى شيوعيين ، واحنا ماطلبناش من روسيا انهم يغيروا الشيوعية ويبقوا زينا ويمشوا بالسياسة اللى احنا ماشيين بيها ، ابدا .. ابدا . ولم يتدخلوا فى أمورنا واحنا لم نتدخل فى أمورهم » .

وفى خطاب آخر القاه فى أسوان يوم ١٨ فبراير عام ١٩٦٥ **قال عبد الناصر** « والحقيقة

أنا أحمل للاتحاد السوفيتي كل تقدير ؟ على أساس أننا حينما اختلفنا فى سنة ١٩٥٩ وصل الخلاف بيننا الى حد الازمة ، الازمة العنيفة ، وكلنا نذكر خلافنا سنة ١٩٥٩ لم نسمع كلمة تهديد أو تلميح ، ان هذا الخلاف لم يؤثر على اتفاقية السد العالى أو يؤثر على اتفاقية التصنيع » .

ومن بعد عبد الناصر ظلت سياسة الاتحاد السوفيتى ثابتة لم تتغير تسير على نفس المبادىء الممتازة فى العلاقات بين الدول وهو الامر الذى أكده **الرئيس أنور السادات** فى كثير من خطاباته .. بل أكثر من ذلك فان معاهدة الصداقة المصرية ــ السوفيتية حينما عقدت فى مايو الماضى كانت هى الاخرى سابقة تاريخية باعتبارها أول معاهدة من هذا النوع تعقد بين دولة نامية من خارج المعسكر الاشتراكى وبين الاتحاد السوفيتى وقد أعقبتها منذ أسابيع قليلة معاهدة مماثلة بين الهند والاتحاد السوفيتى .

الملاحظة الثانية ، هى ان جمهورية مصر العربية رغم أن نظامها الاجتماعى المتميز الا انها أدركت خطورة العداء للشيوعية .. وقد عبرت مصر عن هذا الموقف فى البيان المشترك الذى صدر عن **مباحثات الاتحاد الاشتراكى العربى مع وفد الحزب الشيوعى السوفيتى** يوم ٣١ يوليو الماضى حيث قال البيان « وقد أعرب الطرفان عن الاعتقاد بأن العداء للشيوعية يلحق ضررا بالامانى التحررية والمصالح الوطنية للشعوب ولا ينبغى ان يكون هناك مجال لهذا العداء .. ان العداء للشيوعية لايخدم سوى الاوساط الاستعمارية والرجعية العالمية ويهدف الى اثارة الوقيعة فى صفوف المناضلين الثوريين العرب الذين يخوضون نضالا ضد الامبريالية والصهيونية والعدوان الاسرائيلى فى سبيل ضمان حق الشعوب العربية فى تطوير مستقبل حر . وان هذه المحاولات ترمى كذلك الى افساد التضامن والتعاون بين الشعوب العربية وأصدقائها » .

وبالاضافة الى ماذكره البيان العربى ــ السوفيتى فان موقف العداء للشيوعية فضلا عن كونه موقفا فكريا وحضاريا متخلفا هو فى نفس الوقت موقف مناقض تماما لطبيعة فكر الميثاق .

فالميثاق يذكر بالتقدير « **ظهور المعسكر الشيوعى كقوة كبيرة يتزايد وزنها المادى والمعنوى يوما بعد يوم فى مواجهة المعسكر الرأسمالى** » كأحد التغييرات البارزة التى طرأت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .

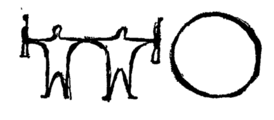
والميثاق يتحدث عن الضمانات التى وفرها النضال الشعبى لنجاح ثورته الشاملة فيذكر من بينها « **فكر مفتوح لكل التجارب يأخذ منها ويعطيها ، لايصدها عنه بالتعصب ولا يصد نفسه عنها بالعقد** » .

والميثاق يقول ان « **الثورة العربية وهى تواجه هذا العالم لابد لها ان تواجهه بفكر جديد لايحبس نفسه فى نظريات مغلقة يقيد بها طاقته وان كان فى نفس الوقت لاينعزل عن التجارب الغنية التى حصلت عليها الشعوب المناضلة لكفاحها . ان التجارب الاجتماعية لاتعيش فى عزلة عن بعضها وانما التجارب الاجتماعية كجزء من الحضارة الانسانية تعيش بالانتقال الخصب وبالتفاعل الخلاق .**

ان مشعل الحضارة انتقل من بلد الى بلد ، لكنه فى كل بلد كان يحصل على زيت جديد يقوى به ضوءه على امتداد الزمان وكذلك التجارب الاجتماعية . انها قابلة للانتقال . لكنها ليست قابلة لمجرد النقل ، قابلة للدراسة المفيدة ، لكنها ليست قابلة لمجرد الحفظ عن طريق التكرار » .

والميثاق يقول .. « **ان التجربة الوطنية لاتفترض مقدما تخطئة جميع النظريات السابقة عليها أو تقطع برفض الحلول التى توصل اليها غيرها فان ذلك تعصب لاتقدر ان تتحمل تبعاته خصوصا وان ارادة التغيير الاجتماعى فى بداية ممارستها لمسئولياتها تجتاز فترة أشبه بالمراهقة الفكرية تحتاج خلالها الى كل زاد فكرى ، لكنها فى حاجة الى ان تهضم كل زاد تحصل عليه وان تمزجه بالعصارات الناتجة من خلاياها الحية** » .

ومع ذلك فان هذه القضية تبقى بحاجة الى عناية أجهزة الثقافة والفكر والاعلام فى بلادنا سواء على مستوى الدولة أو مستوى التنظيم السياسى لانها فى النهاية جزء من قضية مواجهة الارث الثقافى والفكرى العقيم الذى زرعه



الاستعمار فى مختلف بلدان العالم الثالث ليعرقل به تقدمها ويعوق انطلاقها للتفاعل مع تيارات الفكر والثقافة التقدمية فى عالمنا الراهن تحت تأثير الخوف من أشباح هى فى النهاية من صنع الاستعمار نفسه .

والملاحظة الثالثة والاخيرة ، هى أن مسئوليتنا فى حماية الصداقة العربية ــ السوفيتية لاتقل بل ربما تزيد عن واجب الاتحاد السوفيتى فى دعمها . وذلك لان هذه الصداقة **لم تفرض علينا** وانما كنا نحن الذين سعينا اليها **باختيارنا الثورى** وعملنا على تطويرها ، ودفع خطواتها الى الامام **بارادتنا الحرة وباصرارنا على الاستمرار فى طريقنا المعادى للاستعمار والاستعمار الجديد والطامح الى بناء مجتمع متقدم ماديا واجتماعيا على ارضنا .**

ولعله من هنا جاء التعبير الشهير للرئيس أنور السادات « **ان التشكيك فى الاتحاد السوفيتى خيانة وطنية** » .

كذلك كانت كلمات بيانه فى العاشر من يونيو الماضى تأكيدا لهذا المعنى الذى لابد أن نعمل على ترسيخه فى حياتنا السياسية بمختلف الطرق وعلى أصلب الاسس .. لقد قال البيان :

« ان صداقتنا للاتحاد السوفيتى صداقة مبدأ وليست صداقة موقوتة . انها صداقة دائمة وليست صداقة مرحلية ، ولقد وقفنا معا وسنقف معا دائما فى جبهة الثورة العالمية المعادية للاستعمار ، وعملنا ووقفنا معا وسنقف دائما نؤيد ونساند حركات التحرر الوطنى ، وعملنا وسنعمل معا من أجل السلام العادل ومن أجل التعاون الدولى ومن أجل الرخاء .. لقد اثبت الاتحاد السوفيتى بالتجربة العملية وقوفه الصلب فى جبهة الثورة العالمية المعادية للاستعمار ، لم يتأخر عن مد كل عون أدبى ومادى وعسكرى لكل شعب يكافح من اجل التحرر ، كما اثبت صدق رغبته فى السلام والعمل بجد على ان يذلل العقبات على طريقه ثم هو لايتوانى عن وضع امكانياته وخبراته تحت تصرف الدول النامية العاملة على تنمية اقتصادها وصون استقلالها دون قيد أو شرط وهذا واقع نعيشه وليس كلاما نسمعه لقد أرسى جمال عبدالناصر أسس الصداقة العربية ــ السوفيتية على أقوى الدعائم وكان أمرا طبيعيا أن تزدهر هذه الصداقة وتنمو الى أن تصل ذروتها فى معاهدة الصداقة والتعاون بيننا وبين الاتحاد السوفيتى التى نعتز بها اشد الاعتزاز ، أن هذه المعاهدة تأتى تأكيدا للمبادىء النبيلة المشتركة التى نعمل لها معا وتجسيدا للصداقة الشريفة التى جمعتنا معا ودعما للتعاون الوثيق الذى امتد بيننا ، وتمكينا لنا من زيادة قدراتنا على تحرير الارض وتعهدا من الدولة الصديقة التى تملك كل مقومات العلم والتكنولوجيا بالاسهام معنا فى عملية بناء دولتنا العصرية دولة العلم والايمان والقوة والحرية والرفاهية .. الدولة القادرة على مواجهة التحدى الكبير الممتد امامنا وامام أجيالنا المقبلة .

واستطرد الرئيس السادات قائلا :

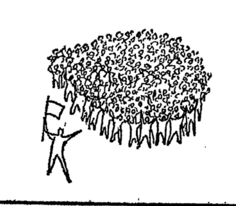
« **لقد قال جمال عبد الناصر ومن بعده اقول** ان التفريط ولو للحظة فى صداقة الذين يساعدوننا ولا يساعدنا غيرهم على القتال والنصر تفريط فى مصير بلدنا ، وتمكين للاستعمار الذى يريدنا **بغير صديق فى معركة التحرير ومعركة البناء** »



التنظيم السياسى والمنظمات الجماهيرية .. فى البرنامج

- التنظيم الطليعى ضرورة بعد بناء الاتحاد الاشتراكى
- الحركة النقابية المصرية ... قضايا الوقت
- السؤال الذى يطرحه البرنامج على النقابات المهنية
- مفاهيم أساسية للحكم المحلى

التنظيم الطليعي ضـــرورة بعد بناء الاتحاد الاشتراكي



مصـــطفى طيبـــة

لاشك فى أن برنامج العمل الوطنى ، يعبر عن ضرورة فكرية ،وسياسية، واجتماعية ، وتنظيمية فى هـــذه الظروف .

لان اجتياز اى ثورة لمرحلة جديدة فى تاريخها ، يحتاج بالتأكيد الى وثيقة تعكس ملامح هذه المرحلة وتعبر عن اهدافها .

ومن ناحية أخرى ، فان برنامج العمل الوطنى ، جاء فى مرحلة بالغة الخطورة فى تاريخ الثورة العربية ، وفى تاريخ علاقة هذه الثورة بالعالم الخارجى .

فلاول مرة فى تاريخ الثورات الاصيلة ، ترتبك صورة الصراع داخل هذه الثورة فى العالم ، وتبلغ حدا يثير الذهول .

قطاع من العالم يصف الحركة التصحيحية بقيادة انور السادات بأنها ثورة مضادة . يتزعم هذا القطاع الغرب الاستعمارى ، مسخرا كل اجهزته لنشر هذا الوهم .

وقطاع آخر يقف مذهولا لما يجرى مكتفيـــا بعبارات الاسى ، والاشفاق لتمـــزيق الوحـــدة الوطنية .

هكذا اتسم الصراع فى هذه المرحلة بطابع فريد قوامه الفهم الكامل لشعب مصر فيما يتعلق بضرورات هذه المرحلة ، والثقة الكاملة فى طابعها الثورى التقدمى . بينما وقف العالم الخارجى ما بيـــن استعمارى معادى ، يسعى لاســـتغلال البلبلة المصطنعة لطبيعة هذا الصراع .. أو صديق لم يستطع – فى بداية الامر – ادراك جوهر هذا التحول الكبير .

معركة تحويل البرنامج لواقـــع عمـــلى

وبعد اقرار برنامج العمل الوطنى من المؤتمر القومى للاتحاد الاشتراكى ، واقتحامه مرحلـــة التنفيذ ، تنتهى فترة الارتباك والبلبلة ، وتبـــدأ معركة تحويلية لواقع عملى .

ومع ان اقسام هذا البرنامج التاريخى ،عالجت قضايا يصعب فصلها ، فان هذا الجزء من البرنامج الخاص بالاتحاد الاشتراكى والتنظيم الطليعى ، يستوجب المناقشة والتعليق ، بل ويحتاج لجهـــود خاصة وجادة من أجل تحويل هذه المهام الى واقع حى ، يسهم فى تطوير الافاق الفكرية لهذه المرحلة .

يقول برنامج العمل الوطنى ، أن قيام تنظيم طليعى – كما نص الميثاق – داخل الإتحـــاد الاشتراكى ، يجمع العناصر القيادية التى ظهرت اثناء العمل بين الجماهير .. من اجل تنفيذ مهام البرنامج ، فى اخلاص وتفان وانكار للذات ، وبغير تطلع الى جزاء ، أو جاه او منصب ، فتثق به الجماهير ، وتلتف حوله ، ويجب أن يكون جهازا علنيا » .

بهذه الفقرة يحدد البرنامج المهام الرئيسية

لعناصر التنظيم الطليعى ، بل وتحدد الصفات الثورية ، والاخلاقية ، التى يتعين أن تتصف بها قيادات هذا التنظيم .

فهى عناصر ، برزت اثناء العمل من اجل تنفيذ مهام الثورة .. تتسم بالاخلاص والتفانى وانكار الذات .. تلتف حولها الجماهير وتثق فى تفانيها من أجل الوطن والشعب .

ثم يتطرق البرنامج لقضية هامة ، وهى طبيعة هذا التنظيم الطليعى ، ومهامه ، فيقول « انه جهاز علنى . لان الاشتراكية لاتبنى سرا ، والحرية لاتتحقق من وراء ستار » . الى أن ينتهى لفهم حاسم لطبيعة هذا التنظيم : فيقول : « ان الجهاز الطليعى ــ كما اراده الميثاق ــ جهاز ينشر الفكر الاشتراكى بالقول،والعمل ، والمسلك .. يؤمن بالجماهير ، وقدراتها ، يعيش بينها ،يتعلم منها ويعلمها ، ينظمها ويرتفع بوعيها ، ويعبىء طاقتها من أجل التحرر والبناء .. فكيف اذن يكون سريا ؟

قضايا ترتبط بالاتحاد الاشتراكى والتنظيم الطليعى

والواقع ان هذا التساؤل ــ حول السرية ــ يطرح عددا من القضايا الهامة ترتبط ببناء الاتحاد الاشتراكى ، والتنظيم الطليعى .

القضية الاولى : لماذا اتسمت المحاولات الاولى لبناء الاتحاد الاشتراكى ، والتنظيم الطليعى ، بطابع البيروقراطية ، والسرية ، بكل ماترتب على هذه المحاولات من اثار ضارة لهدف هذا التنظيم وآفاق تطوره ؟

والقضية الثانية : هل كانت هذه السرية للتنظيم الطليعى ــ فى محاولة بنائه الاولى ــ تعبر عن غموض صيغة وجوده فى الميثاق ، وغيره من الوثائق التاريخية للثورة العربية ، أم أن هذه السرية اقترحتها ، وفرضتها ، بعض مراكز القوى القديمة ، بهدف الاستفادة منها لاغراض بعيدة عما استهدفه الميثاق ؟

والقضية الثالثة : اذا كانت الاشتراكية لاتبنى سرا ــ كما يقول برنامج العمل الوطنى ــ فما هو السبيل لبناء تنظيم اشتراكى ، طليعى ،يطوى بين صفوفه خيرة ابناء الشعب ، المتصفة بالوعى الاشتراكى ، والتفانى ، بلاتطلع لجاه او جزاء ، هدفها خدمة الوطن والشعب ــ تعلمه وتتعلم منه ، فى وضح النهار ، بعيدا عن السرية القاتلة لكل هذه القيم ؟

والقضية الرابعة : هل يمكن وجود معيارحقيقى، عملى ، لنجاح أو فشل الاتحاد الاشتراكى ،والحكم على مدى قدراته على خدمة الجماهير ، مشاكلها الوطنية ، والاجتماعية ، بنجاح يمنحه حق التعبير عن الشعب ومصالحه العظمى ؟

جذور القضية

الاجابة على هذه الاسئلة تتطلب العودة لجذور هذه القضية ،وأسباباعادة طرحها بهذا القدر من الوضوح فى برنامج العمل الوطنى ، فضلا عن ضرورة البحث عن أساليب جديدة ، تحقق فاعلية الاتحاد الاشتراكى ، واهداف التنظيم الطليعى ، بلا سرية ، تستغل فى مسالك ودروب بعيدة عن اغراضها ، أو بيروقراطية تزيف ارادة الجماهير .

لنبدأ اولا باستعراض سريع للظروف التاريخية التى انبثقت من اعماقها فكرة الاتحاد الاشتراكى والتنظيم الطليعى .

فى يوليو ١٩٦١ صدرت قرارات يوليو المجيدة، معلنة بداية الانعطاف التاريخى للثورة المصرية لرفض الطريق الرأسمالى ، والتطلع لافاق جديدة تقود للاشتراكية .

ولان هذه القرارات ضربت مصالح الرأسمالية الكبيرة بعمق ، فان مقاومة هذه الطبقة ــ فى مصر وسوريا ــ كانت عنيفة ، ضارية .

وبعد شهرين من هذه القرارات ، وقع الانقلاب الانفصالى الرجعى فى سوريا ، مستفيدا من اخطاء أول تجربة للوحدة العربية .. ومن التناقضات الموضوعية التى عمقتها قرارات يوليو الثورية. وكان الانفصال يعكس ضراوة الرد الرجعى الاستعمارى على هذه الاجراءات ويلهب آمال الرجعية المصرية للاجهاز على النظام الثورى .

بيد أن القيادة الثورية لم تتح لقوى الثورة المضادة فى مصر فرص تحقيق احلامها ، وسارعت بتوجيه ضربات سريعة لها اسهمت بدور رئيسى فى شل نشاط هذه القوى .

ولكن المواجهة الصارمة للتآمر الرجعى فى هذه الفترة ، كانت الجانب الدفاعى لاجتياز هذه المرحلة .. لم تقف القيادة الثورية عند حدوده ، انما بدأت تبحث عن الجذور الحقيقية التى سمحت لهذا الهجوم الرجعى بتحقيق هذا النجاح «الجزئى»، والبحث الجاد عن اسلوب جديد يضمن علاج التناقضات ، والثغرات ، ويمنح معركة التحول للاشتراكية طاقتها الضرورية !

ثغرات فى النظام السياسى

وعندما تكون القيادة جادة فى اكتشاف النقائص والاخطاء ، فان علاج هذه الامراض تكون ممكنة ، وحاسمة •

ولقد كانت قيادتنا اثناء لهيب معارك هذه المرحلة ، أمينة مع نفسها ، ومع الشعب • من هنا اكتشفت بسرعة أبرز الثغرات فى النظام السياسى ، والتى سمحت للرجعية بالانقضاض الخاطف على الوحدة الجديدة ، ثم محاولة ضرب النظام نفسه فى مصر •

أولى هذه الثغرات : التناقض الحاد بين التغير العميق فى الاساس الاقتصادى ، والعلاقات الاجتماعية ، بعد قرارات يوليو التاريخية ، وبين التنظيم السياسى الرسمى فى المجتمع •

فعندما بدأت معركة التاميم الكبرى للمؤسسات ، والشركات ، الرأسمالية الكبيرة ، كان « الاتحاد القومى » هو التنظيم السياسى الرسمى فى مصر وسوريا ، هذا التنظيم الذى نشا فى مرحلة الصراع الوطنى ،واستطاعت القوى الرجعية التسلل لكثير من مواقعه الحيوية ، مستفيدة من شعار « وحدة كل الطبقات ضد الاستعمار » •• وحالمة بتحويل الاستقلال الوطنى الى جسرذهبى يؤدى الى سيطرتها على الاقتصاد القومى ، واستبدال الاستغلال الاستعمارى للجماهير ، باستغلال الرأسمالية الكبيرة •

هذا التناقض الاول ، مابين اجراءات ثورية تضرب مراكز رأس المال الاحتكارى ، وتنظيم سياسى تسيطر على الكثير من قياداته هذه الفئات ــ بشكل مباشر او غير مباشر ــ كان الثغرة الاولى التى نفذ من خلالها الانقضاض الرجعى على الوحدة ، والثورة •

ومن جهة اخرى ، فان اقتحام معركة الطريق اللارأسمالى ، بلا فكر معاد للرأسمالية ،وبلا قيادات تعى ابعاد هذه المرحلة الجديدة ، شكل حالة فريدة يندر تكرارها ، قوامها وجود قيادة ثورية فى قمة الدولة ، بلا قيادات جماهيرية قادرة على تشكيل فكر،ووجدان ،القواعد الشعبية بروح هذه المرحلة •

ظهور ميثاق العمل الوطنى

بل ان الامر لم يقف عند هذا الحد •••

فهذه الانعطافة الكبرى فى الميدان الاقتصادى والاجتماعى ، لم يسبقها ، او يواكبها ، انعطافة فكرية وسياسية ، تحقق الاتساق الضرورى بين القاعدة الاقتصادية للمجتمع ،والفلسفة الفكرية له•

من هنا برزت الضرورة الموضوعية لعلاج هذه التناقضات بحسم ثورى • فكان المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية • وظهور ميثاق العمل الوطنى • بكل ماانطوت عليه سطور هذا الميثاق من اتجاهات فكرية تمثل بحق محاولة صادقة للملاءمة بين البناء الاقتصادى الجديد ــ بعد اجراءات يوليو وسبتمبر ١٩٦١ ــ والاطار الايديولوجى ، والسياسى للمجتمع •

ولاشك أن الجانب التنظيمى فى هذه الثورة الفكرية التى عبر عنها الميثاق ، وجد تعبيره فى أمرين جوهريين هما :

اولا : استبدال الاتحاد القومى ــ كتنظيم لمرحلة تجاوزتها الثورة العربية ــ بالاتحاد الاشتراكى •• كتنظيم لتحالف قوى الشعب ذات المصلحة الاكيدة فى رفض الطريق الرأسمالى ، بكل ما يحيط هذا الطريق من سيطرة للاحتكارات المحلية، والاجنبية ••

ثانيا : اعلان ضرورة تشكيل تنظيم طليعى ، اشتراكى من داخل الاتحاد الاشتراكى ، يضم العناصر القادرة على نشر الفكر المعبر عن ضرورات هذه المرحلة ، أى الفكر الاشتراكى •

رفض فكرة المصالحة

كان منطق التنظيم السياسى فى مرحلة ماقبل يوليو ١٩٦١،تحكمه فى الاساس فكرة «المصالحة» مع كبار ملاك الاراضى ، وكبار الرأسماليين • ومن هذا المنطق تقرر قبولهم فى الاتحاد القومى ، جنبا الى جنب مع العامل الكادح والفلاح الفقير•

وفى ١٦ اكتوبر ١٩٦١ ،كشف جمال عبد الناصر هذه الحقيقة ، عندما قال « ان الرجعية تسللت الى الاتحاد القومى •• وتمكنت من شل فاعليته الثورية ، وحولته الى مجرد واجهة تنظيمية لاتحركها قوى الجماهير » •

ثم اضاف عبد الناصر أثناء جلسات المؤتمر الوطنى عن البديل لدعم المصالحة فقال « قبل ذلك قلنا الاتحاد عموما •• أما الان فاننا نضفى عليه الصفات التى لابد أن تنطبق عليه ، فاصبح الاشتراكى •• أى أن الرجعيين لايدخلون الاتحاد الاشتراكى •• هكذا بوضوح » •

وبالنسبة للجهاز السياسى ، الطليعى ، للاتحاد الاشتراكى ، فان الميثاق يقرر « انه يجند العناصر الصالحة للقيادة ، وينظم جهودها ، ويبلور الحوافز الثورية للجماهير ، ويتحسس احتياجاتها ، ويساعد على ايجاد الحلول الصحيحة لهذه الاحتياجات »

بهذا الوضوح ، انتقلت الثورة المصرية الى مرحلة جديدة فى الميدان الفكرى ، والتنظيمى ، تتناسب مع عمق التغيرات الاقتصادية ، والاجتماعية ، النابعة من آثار اجراءات يوليو ١٩٦١ ، وعمق اصطدامها مع أشرس فئات الرأسمالية ، المتحالفة مع كبار الملاك فى الريف، ومع الرأسمالية العالمية فى مرحلتها الاستعمارية ·

مشكلة الجهاز الطليعى

وبدأت بعد الميثاق الوطنى مرحلة الوضوح الفكرى ، تواكبها معركة تحويل نصوصه الى واقع حى ، وبشكل خاص فى الميدان التنظيمى·

وبغض النظر عن المحاولات المتكررة لبناء الاتحاد الاشتراكى بأسلوب يضمن التعبير عن أهداف وجوده ـ كما وردت فى الميثاق وخطابات جمال عبد الناصر ـ فان مشكلة بناء « الجهاز الطليعى » أتسمت بطابع غريب ، وذلك بسبب غياب الجماهير عن محاولات تكوينه ·

فلاسباب مازالت مجهولة ، اتجهت هذه المحاولات نحو « السرية » ، ودارت اجتماعاته فى جو يشبه الاساطير ··

فاعضاء التنظيم يجتمعون ·· ويجتمعون ·· بلا رقابة جماهيرية على مايقومون به من نشاط·· وبلا هدف منطقى يبرر هذه « السرية » أو يفلسف اغراضها ·

والاخطر من ذلك كله ، غياب الوضوح لاهداف هذه الاجتماعات ، هل تمهد لاعلان تنظيم جديد يضم « العناصر الصالحة للقيادة ، وينظم جهودها ، ويبلور الحوافز الثورية للجماهير ·· الخ » ـ كما يقول الميثاق ـ أم أنه جهاز جديد للدولة ، أو لمراكز القوى فيها ، يستطيع أى مغامر استغلاله حينما يرغب فى الانقضاض على السلطة ؟

السرية تقود الى السرية

ثم اتضحت أخطاء هذا الاسلوب فى بناء التنظيم الطليعى بعد معركة التصحيح فى مايو الماضى ·

فالسرية وغياب الرقابة الجماهيرية ، تقود بالضرورة الى المزيد من « السرية » · ثم خلق تنظيمات اكثر « سرية » داخل التنظيم « السرى » ·

من هنا بالتحديد جاء الخطر ، عندما أكتشف وجود تنظيم سرى ، داخل الجهاز الطليعى ، تحكمه ، وتسيطر عليه ، فئات ابعد ما تكون عن الاشتراكية ، وبالتالى لاتملك حق قيادة تنظيم طلائعى للقوى الاشتراكية ·

وماكانت هذه الاخطاء غريبة ، او يصعب التكهن بحدوثها · فطالما افتقد أى تنظيم مقومات **الوضوح،** فى صورة برنامج محدد تعرفه الجماهير ، ولائحة واضحة يعرفها الاعضاء ، واسم محدد يلتف حوله الشعب ويؤمن باخلاص هذا التنظيم · اذا افتقدت هذه القيم فى أى تنظيم ، فالنتيجة لابد ان تكون احد امرين :

اما العبث بطاقات الاعضاء وتبديدها لسبب او آخر ، أو اضافة جهاز جديد يمكن عنداللزوم توجيهه لخدمة مراكز القوى ·

وكان الامر الثانى هو مصير هذه المحاولة لبناء « التنظيم الطليعى » كما نص عليه الميثاق·

وهذا لايعنى بأى حال أدانة من كانوا فى هذا التنظيم ، ولا انكار الدوافع الثورية لقبول انتظامهم فى اجتماعاته ، انما فقط رفض اسلوب فى العمل التنظيمى ، اثبتت التجارب استحالة تحقيقه لما يستهدفه الميثاق من وجود « الجهاز الطليعى » ·

الحاجة الى أسلوب جديد

ويمكن القول بصفة عامه ان الاخطاء والانحرافات، التى شابت تكوين الجهاز الطليعى ، لاتنفصل عن الاخطاء التى اقترنت ، بمحاولات تكوين الاتحاد الاشتراكى ، فالمناخ الذى أحاط بهذه التجارب التنظيمية واحد ، قوامه **تجاهل الارادة الشعبية الحرة ، وفرض اساليب تنظيمية ضارة فوق هذه الارادة ، تفقدها ايجابية التفاعل بين الثورة والشعب ، وتجرد حركة الجماهير من فاعليتها الاصيلة ·**

ومع اعادة تجديد الاجهزة السياسية ، والنقابية، والتشريعية ، والادارية فى البلاد ، تبرز منجديد ضرورة البحث عن اسلوب جديد لاطلاق فاعلية الاتحاد الاشتراكى ، وبناء التنظيم الطليعى ، اسلوب يستفيد من اخطاء الماضى ، ويضمن لاجهزتنا السياسية القيام بمهامها السرية ·

فما هو الطريق لانجاز هذا الهدف ؟

فى اعتقادى أن الوضوح الكامل لمهام هذه المرحلة وتحديدواجباتمحددة للاتحاد الاشتراكى، وتنظيمه الطليعى ، هما اساس الانتصار ·

فكيف نحقق هذه المهام ؟

الجديد فى الاتحاد الاشتراكى

لنبدأ اولا بالاتحاد الاشتراكى ، وابراز الجديد فى عملية اعادة بنائه بعد ١٥ مايو ، والمهام الاساسية التى حددها له برنامج العمل الوطنى·

يقول البرنامج : « ان العمل السياسي ليس شعارات ترفع في تشنج ، وليس اصطلاحات وتعبيرات تردد عن ظهر قلب دون فهم أو وعي ، وليس حشدا للناس في اجتماعات يتبارى فيها الخطباء بالكلمات ثم ينفض ، فلاهم تكلموا ، ولاهم استمعوا الى من يتكلم » .

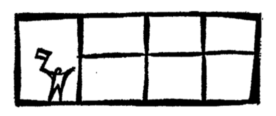
ثم ينتهي الرئيس أنور السادات في برنامجه للعمل الوطني بفكرة لامعة عن مهام الاتحاد الاشتراكي كاداة لخدمة الجماهير ، لامجرد مردد لشعارات محفوظة لاتغني ولاتشبع من جوع فيقول « بهذا الفهم التنظيمي للاتحاد الاشتراكي ، ولاسلوب عمله ، ولدوره ، أضع امامكم تصوري للمهام الاساسية التي يجب أن يركز عليها اهتمامه ، وأبدأ بمهمتين محددتين ، لما لهما من أهمية بالغة ، وأثر مباشر على تطوير اقتصادنا القومي ، وهما مهمتان لايمكن أن تتولاهما أجهزة الدولة وحدها ، ولايمكن أيضا تركهما للجهود الفردية للجماهير ، وأعني بهما : محو الامية ، وتنظيم الاسرة .

والواقع ان هذا التحديد يعكس الجديد في فكر خليفة عبد الناصر ، خلال هذه المرحلة . بدلا من الشعارات الجوفاء الخالية من التأثير الحي في الواقع ، يقدم برنامج العمل الوطني اهدافا عملية ، واضحة للاتحاد الاشتراكي .

ولان هذه المهام - كما اعتقد - هي العيار الأول لجدية وفاعلية الاتحاد الاشتراكي في المرحلة القادمة ، فسوف اركز عليها ، مؤمنا بأن حديث البرنامج عن الوضوح الفكري ، والديموقراطية في حياة التنظيم ، وخدمة البناء التنظيمي لخطنا السياسي ، وتزويد الاعضاء بمنهاج نظري لحل المشاكل الطارئة ، هذه المعاني الواردة في برنامج العمل الوطني وغيرها لاتحتاج لمزيد من الايضاح .

القيادة من موقع الشعب

وليس صدفة ان تترجم فقرات البرنامج عن علاقة الاتحاد الاشتراكي بالجماهير ، فكر عبد الناصر ، ففي حديثه للمؤتمر الاول لاعضاء المكاتب التنفيذية للمحافظات في عام ١٩٦٦ قال « ليس عندي موضوع أساسي للكلام الا أسلوب العمل في الاتحاد الاشتراكي ، ان كل الناس تنتقد الاتحاد الاشتراكي ، فمن هو المسئول عن بناء الاتحاد الاشتراكي ؟ .. هل أنا المطلوب بمفرده أن أبني الاتحاد الاشتراكي ، لا ، انا لا أستطيع وحدي أن أبني شيئا ، لافي البلد ، ولا في الحكم ، ولافي الاتحاد الاشتراكي ، وبالتالي فأنتم وحدكم لاتستطيعون ان تعملوا شيئا . لابد من الاعتماد على الجماهير ، وعلى القيادات الاخرى المختلفة لكي نتمكن من بناء الاتحاد الاشتراكي .



هكذا تبرز أفكار عبد الناصر ، مشكلة الاتحاد الاشتراكي ، نقد الجماهير له ، وضرورة الاعتماد على هذه الجماهير في حل جميع المشاكل .

ثم يؤكد هذه المعاني في خطاب ٢٣ يوليو ١٩٦٧ ، حيث يقول « التنظيم السياسي أيضا يجب أن يكون في الميدان ، مع الجماهير ، وأن يقود بالحقيقة وحدها ، مش بالمظاهر ، ولا تكبير الامور ، أن يقود من موقع الشعب ، لامتسلط ولامتعال .

مع الجماهير ، لامتسلط ، ولامتعال .

هذه الصيحة الصادقة لجمال عبد الناصر ، ترجمها أنور السادات في برنامج العمل الوطني ، من خلال مهام محددة هي احد المعايير الاساسية للنجاح او الفشل للتنظيم السياسي .

من أجل أداة صادقة لخدمة الجماهير

وبديهي أن أعظم وأخطر مهام هذه المرحلة هي النضال لتصفية آثار العدوان ، وتلك حقيقة لاتحتاج لاعادة تأكيد في هذا المجال .

نعود الى هذه المهام الرئيسية للاتحاد الاشتراكي ، كمؤشر صادق لفاعليته ، وتحويله من جهاز للتسلط ، وترديد الشعارات ، الى اداة صادقة لخدمة المجتمع والجماهير .

اولا : محو الامية : وتلك مهمة بالغة الاهمية والخطورة .

فالامية وصمة عار في جبين القرن العشرين ، عصر تفجير الذرة ، والنفاذ لاسرار الخلية الحية وتحريك السيارات فوق القمر .

والامية محنة وطنية يدفع ثمنها الباهظ اقتصادنا القومي ، وتطورنا الاجتماعي ، وضمير المثقفين الغارقين مع احدث اساليب الفن الحديث ، وفوارق التكنولوجيا ، واحدث قضايا الحرية في العالم ، بينما غالبية شعبنا تعيش في عصر آخر ، تستخدم « الختم النحاس » عند التوقيع او بصماتها ،

وتسمع عن كلمة الحرية فى الترانزستور بلا قدرة على قراءة ، أو كتابة هذه الكلمة .

والامية ظاهرة مشينة لعالمنا العربى ، احصاءات « اليونسكو » الاخيرة قالت أرقام اليمة ، اكثر بلدان العالم أمية هى بلاد العالم العربى ، تبلغ نسبتها فى بعض هذه البلدان حدا يثير الذهول : ٩٥ ٪ من السكان لايعرفون القراءة .

فكيف استطاعت ثورتنا الانتصار على صخور أسوان الجرانيتية ، وحولت مجرى النيل،واقامت السد العالى كأعظم رمز لارادة الانسان المصرى فى التقدم ، وعجزت عن مواجهة محنة الامية ؟

هنا تبرز من جديد ضرورة المواجهة الحاسمة لهذه الظاهرة أو بمعنى ادق هذه المحنة .

ولسنا وحدنا نقتحم أسوار ظلام الامية وننتصر عليها ، ثورات كثيرة واجهتها بارادة صارمة ، وسجلت مسيرتها صفحات مضيئة عند الانتصار عليهـــا .

والتنظيم السياسى اداة رئيسية للخلاص من هذه المحنة ، هكذا اكدت جميع التجارب فى العالم .

ومن هنا يصبح هذا الهدف احد المعايير الجوهرية لنجاح تنظيمنا السياسى فى المرحلة القادمة ، بل انه المعيار الرئيسى لهـا .

فكل حديث عن خدمة الجماهير ، والتفاعل معها، وتحريكها ، يتحول الى شعارات جوفاء من جديد مالم ننجز هذه المهمة .

تنظيم الاسرة .. البـــديل

الوحيد للكوارث الاجتماعية

ثم ننتقل الى تنظيم الاسرة ، كمهمة ثانية رئيسية للاتحاد الاشتراكى .

والواقع أن المهمتين ــ محو الامية وتنظيم الاسرة ــ يصعب الفصل بينهما ، كلاهما يربطه بالثانى خيط سميك ، وكلاهما يعبر عن مشكلة واحدة اسمها (التخلف الثقافى والاجتماعى)

فعندما تنتقل الجماهير من عصر « الاختام » الى عالم القراءة والكتابة ، ينبثق الوعى بضرورة تنظيم الاسرة ، باعتباره البديل الوحيد للكوارث الاجتماعية ، والعائلية ، فى زمن يحذر فيه علماء الدنيا من خطر الانفجار السكانى .

ان العمل السياسى لم يعد مجرد خطط عامة بعيدة عن الاحتكام لعيار النجاح او الفشل ، ولكنه قدرة متعاظمة على حل المشاكل الوطنيـــة ، والجماهيرية ، من خلال اهداف محـــددة يعتنف الاختلاف حول ضرورتها .

ومن هنا ايضا يبدأ العمل السياسى، من المعاناة الصادقة لهموم الوطن والجماهير، والتقدم الجسور من أجل الانتصار عليها .

وكما قال أحد المفكرين العظام منذ أكثر من مائة عام « خطوة عملية واحدة خير من الف تخطيط ، أو شعارات »

حتى تنطلق قـدرات

الاتحـــاد الاشتراكى

وعلينا التسليم بحقيقة جوهرية ، الاتحـــاد الاشتراكى مازال يفتقد جهازه الطليعى القادر على الاسهام فى اطلاق الدماء لكل عروقه الحيوية . يستحيل الحديث عن فاعليته بمعزل عن هذا الجهاز الحيوى ، بكل مايحمله من صفات فكـــرية ، وسياسية ، واخلاقية ، هى بمثـــابة العنصر الضرورى لاكمال مهامه ، والانتصار على جميع صعاب الطريق .

فما هو السبيل لاستكمال البناء السياسى ،بخلق الجهاز الطليعى ، بحيث يلعب هذا الجهاز دوره التاريخى فى اطلاق كل مايحمله اتحادنا الاشتراكى من قدرات ، ومايجسده من آفاق حيوية لتطورنا الفكرى ، والسياسى ،والاجتماعى ؟

ملامح التنظيم الطليعى

البداية تكون بالوضوح الشامل لمهام هـذا الجهاز ، واسلوب تكوينه ، وعلاقته بالاتحـــاد الاشتراكى، والافكار التالية محاولة لتحديد ملامح هذه القضية الهامة :

اولا : الجهاز الطليعى هو تنظيم متجانس فكريا ، مهامه الرئيسية تتمثل فى شرح وتأصيل الخط الثورى الاشتراكى،والدفاع عن القيم الجديدة لمجتمعنا ، ونشر الوعى الاشتراكى داخل اوسع قطاعات الجماهير .

ثانيا : والتجانس الفكرى لهذا التنظيم يتحقق عن طريق الاختيار المناسب لقياداته ، هذه القيادات التى تختلف عن اعضاء الاتحاد الاشـــتراكى بفكرها الاشتراكى المتطور والتزامها الكـــامل بتحويل هذا الفكر الى قوة دفع وتنشيط لتنظيمات الاتحاد الاشتراكى . والسعى لتثقيف جميـــع التنظيمات النقابية ، والجماهيرية بروح وقيـــم المجتمع ، باسلوب ديموقراطى يبتعد عن الغطرسة ، أو التعالى ، او الارهاب .

ثالثا : واذا كان الاتحاد الاشتراكى يمثل جبهة واسعة لجميع الطبقات الوطنية ، فان التنظيـــم الطليعى لايحمل طابع الجبهة ، ولاتنعكس بين صفوفه ماتحمله صفوف أى جبهة من تناقضات موضوعية ، انما يمتاز التنظيم الطليعى ، بفهم

عميق لواجباته نحو علاج التناقضات الاجتماعية عن طريق الحوار الواعى ، وبأساليب ديموقراطية، تدعم اركان الوحدة الوطنية الثورية داخل الاتحاد الاشتراكى .

هذا بالنسبة للفهم العام لمهام هذا الجهاز الطليعى ننتقل بعده للجانب الاخر ، وهو اسلوب تكوينه ، وضرورة أن يكون اعضاء هذا التنظيم قدوة حسنة للجماهير ، فضلا عن اهمية انبثاق قيادات هذا التنظيم من اعماق هذه الجماهير .

فكيف نصل الى حل سليم يضمن تطبيق هذه الاسس ، ويحقق فى نفس الوقت مانشده من حتمية تمييز هذا الجهاز عن الاتحاد الاشتراكى، وضرورة احتوائه على أنضج العناصر فكرا ، وأشدها صلابة ، وأحسنها خلقا وعملا ، وسلوكا أمام الجماهير ، كل هذا بلا سرية ، وبأفضل الاساليب ديموقراطية ؟

أسس بناء التنظيم الطليعى

هنا نقترح الاسس التالية :

● تشكيل لجنة من المفكرين الاشتراكيين ، تضع لائحة محددة لهذا الجهاز ، تبدأ بمقدمة تحدد مهامه ، ثم تضع الاسس العامة لقواعد هذا التنظيم .

● تطرح هذه اللائحة لاوسع المناقشات فى كافة التنظيمات السياسية والجماهيرية ، وتنشر الاراء الهامة حول هذه القضية فى الصحف .

● ونقترح أن تتضمن بنود هذه اللائحة النصوص الكفيلة باستبعاد جميع العناصر الوصولية ، والانتهازية ، والخالية من الحد المعقول من الثقافة السياسية والاشتراكية .

● بعد اقرار هذه اللائحة من القيادة السياسية، تشكل لجنة تأسيسية .. مهمتها اختيار اعضاء هذا التنظيم ممن تنطبق عليهم الشروط المحددة فى اللائحة .

● يواكب هذه العملية تنشيط المعاهد الاشتراكية فى جميع المحافظات ، على أن يتم اختيار الدارسين بعناية فائقة ، تراعى البدء بأحسن العناصر التى برزت من بين الجماهير ، ويعبر سلوكها عن رغبة حقيقية فى خدمتها ، بلا بحث عن جاه أو منصب، فضلا عن توفر الاستعداد الفكرى للثقافة الاشتراكية .

● ومن خريجى هذه المعاهد ، وغيرهم من العناصر الاشتراكية فى جميع المجالات ، تبدأ الخطوات العملية لبناء التنظيم ، فتشكل لجان مؤقتة فى جميع المحافظات تليها لجان فى الاقسام والمراكز .

● ثم تأتى الخطوة الرئيسية ، التحضير للمؤتمر التأسيسى للتنظيم الطليعى ، يضم مندوبين منتخبين من جميع المستويات التى تم تشكيلها، تسبقه مؤتمرات اقليمية تنتخب القيادات المحلية وتختار اعضاء المؤتمر العام ، الذى يقوم بانتخاب اللجنة المركزية ، بعد اقرار جميع الخطوط الاساسية لمهامه خلال المرحلة القادمة .

وينبغى ان تصاحب هذه العمليات وجود مجلة اسبوعية - يمكن ان تكون « الاشتراكى » - تعبر عن فكر هذا التنظيم ، وتفتح صفحاتها لمناقشة جميع القضايا المحلية ، والعالمية بأسلوب يجمع بين الدراسة العميقة ، والتبسيط القادر على جذب القطاعات المستنيرة من الجماهير للاقبال عليها .

العلنية والديموقراطية ضرورة للتنظيم الطليعى

هذه الافكار ، والاقتراحات تحتاج الى تطوير ، فهى مجرد تمهيد لمناقشات من الضرورى أن تجرى حول هذه القضية ، تشترك فيها كل الفئات القادرة على اغناء الموضوع .

والفكرة الاساسية التى تحكم كل هذه الاقتراحات، هى ضمان احتواء هذا التنظيم لافضل القيادات الاشتراكية ، وضمان العلنية والديموقراطية الكاملة فى بنائه ، مع أوسع مشاركة جماهيرية أثناء خطوات هذا البناء .

وتبقى مسألة اخيرة : ماهى العلاقة بالتحديد بين الجهاز الطليعى ، والاتحاد الاشتراكى ، وكيف نضمن تحقيق اكبر قدر من التجانس بينهما فى جميع المجالات التى يوجدا فيها ؟

أعتقد أن حسم هذه المسألة غاية فى الاهمية ..

ينبغى ان يكون التنظيم الطليعى قوة مساعدة ومنشطة ، ومثقفة للاتحاد الاشتراكى ،وأن تكون مهام كل منهما فى المجالات الجماهيرية واضحة لا غموض حولها .

الاتحاد الاشتراكى - كتحالف لقوى الشعب - يقوم بمهامه المحددة فى كل مجال من حيث حشد الجماهير ، والمساعدة على حل مشاكلها ، والرقابة الايجابية على شتى الاجهزة الادارية .

اما التنظيم الطليعى ، فمهامه فكرية بالدرجة الاولى ، يقدم الدراسات الشاملة لكل المواقع الجماهيرية ، ويقترح الحلول المدروسة لهذه المشاكل ، الى جانب دوره الرئيسى فى نشر الوعى السياسى ، والفكر الاشتراكى بين الجماهير .

بل اننا نقترح فى المرحلة الاولى ، ضم اعضاء الجهاز الطليعى لتنظيمات الاتحاد الاشتراكى فى المجالات المختلفة ، خصوصا داخل الوحدات الجماهيرية ، بحيث تمارس هذه العناصر مسئوليتها

الفكرية ، والنضالية ، مشتركة مع أعضاء الوحدات المنتخبين ٠

وأهمية هذا المزج — فى المرحلة الاولى — ضمان عدم التداخل ، أو التصارع داخل الوحدات الجماهيرية ، وتجنب حدوث أى ارتباك لدى الجماهير عندما تتواجد فى مجال واحد قيادتان سياسيتان ٠

وربما يبدو هذا الاقتراح غير مفهوم ، اذ كيف تكون هناك لجنتان مركزيتان مستقلتان لكل من الاتحاد الإشتراكى ، والتنظيم الطليعى ، ولا يمتد هذا الاستقلال داخل الوحدات الجماهيرية ؟

الاجابة على هذا السؤال يمكن تركيزها فى الاتى:

أولا : قيادة التنظيم الطليعى تقوم باعداد الدراسات الاساسية المتعلقة بالقضايا الفكرية ، والاقتصادية ، والتثقيفية ، تستفيد منها قيادات الاتحاد الاشتراكى ، التى ينبغى تركيز نشاطها على المشاكل السياسية المباشرة ، فضلا عن اشرافها على تنفيذ قرارات المؤتمرات القومية ٠ من هنا تنبع ضرورات استقلالها ٠

ثانيا : ان هذا الاستقلال للقيادتين ، لايحتاج فى المراحل الاولى لاستقلال التنظيمات القاعدية ٠

فمن داخل لجان الاتحاد الاشتراكى ، تستطيع عناصر التنظيم الطليعى ممارسة دورها بعد تحديد حاسم لهذا الدور ٠

بل ان هذا الاسلوب فى تشكيل لجان الاتحاد الاشتراكى من عناصر منتخبة واخرى معينة يضمن علاج اخطاء الانتخابات واخطاء التعيين الكامل ، ويحقق توازنا بين القيادات الجماهيرية المنتخبة ، بغض النظر عن مستواها الفكرى ، والعناصر الاشتراكية الناضجة القادرة على اغناء اجتماعات ومناقشات ومهام هذه اللجان ٠

تلك افكار عامة تحتاج — كما قلت من قبل — الى مناقشات اخرى تضمن تطويرها ، وانضاجها بحيث نصل فى النهاية لافضل الطرق لاطلاق فاعلية الاتحاد الاشتراكى وبناء التنظيم الطليعى ٠

ان مهام المرحلة القادمة بكل ما تحتاجه من تعبئة جماهيرية شاملة من أجل المعركة وتحرير ارضنا من آثار العدوان تفرض على الاتحاد الاشتراكى استكمال كل عناصره واطلاق جميع طاقاته ٠

ولاشك ان المهام الجديدة التى اوكلها اليه الرئيس انور السادات ، خصوصا فى ميدان الرقابة الشعبية ، تتطلب الانطلاق الكامل لتنفيذ هذه المسئوليات ، ومن خلال هذه المعارك والمهام، يتأكد الالتحام العميق بين التنظيم والجماهير ، كضرورة ثورية افتقدتها الثورة المصرية حتى اليوم ٠



الحركة النقابية المصرية وقضايا الوقت

عبد المنعم الغزالى

ان مناقشة قضية مركز الحركة النقابية العمالية فى ثورتنا الوطنية والديمقراطية والاجتماعية وصياغة برنامج لها فى مرحلة تطور بلادنا عبر الطريق الرافض للرأسمالية كنظام ومنهج وفكر ، حظيت باهتمام بالغ من القيادة السياسية ومن المفكرين والكتاب ومن جماهير الطبقة العاملة نفسها . وكانت

دائما موضع اهتمام خاص من جميع الـوثائق والبرامج الفكرية والسـياسية منذ اجـراءات يوليو ١٩٦١ ، [الحـوار الذى دار فى مؤتمر القوى الشعبية ـ ميثاق العمـل الـوطنى ـ بيان ٣٠ مارس ـ] وأخيرا من برنامج العمل الوطنى المقدم للمؤتمر القـومى العـام الثـانى للاتحـاد الاشتراكى العربى [يوليو ١٩٧١] .

الاسبـاب الرئيسيـة لتحجر التنظيم النقـابى

ويهمنا ونحن نقدم فى مقالنا هذا برنامج عمل وطنى للنقابات العمالية ـ أن نبدى مجموعة من الملاحظات عن الفقـرة التى جـاءت فى برنامج العمل الوطنى عن النقابات العمالية :

أولا : جاء فى هذه الفقرة ـ « ان النقابات العمالية وقد أعيد تشكيلها بالارادة الحرة للعمال بعد أن تحجرت أوضـاعها واحتكر مراكـزها القيادية لعدة سنوات عناصر أقل ما توصف به أنها كانت تخشى الجماهير خشية الخفافيش من النور ، اصبحت اليوم فى وضع يمكنها من قيادة سليمة من أجل الدفاع عن مكاسـبها وحمايتها ودعمها ومن أجل حشـد طاقاتها لتحقيق أهداف خطة التنمية » .

وهذه الفقرة ترجع تحجر اوضاع الحـركة النقابية العمالية المصرية فى الفترة الماضية الى احتكار « عناصر اقل ما توصف به أنها كانت تخشى الجماهير » للمراكز القيـادية . واذا اردنا ان نتبين حقيقة الداء أو المـرض القـاتل ، وحتى نتجنبه ، يجب أن نحلل الظاهرة المرضية للحركة النقابية المصرية تحليلا شاملا . حقا ان وجـود عناصر تخشى الجماهير فى المراكز القيادية هو سبب من جملة أسباب عديدة ادت الى تجميـد التنظيم وانحرافه . الا ان وصف هذه العناصر بأنها مجرد عناصر تخشى الجماهير دون تحـرى أصلها الاجتماعى والطبقى لن يسـاعد على التوعية بها حتى لاتعود بتقاليد وفكرية وعادات طبقاتها الى السيطرة على التنظـيم فى ظـل شـعارات قد تكون أكثر بريقا ولمعانا من شعارات الثوريين . ان هـذه العناصر كانت فى غالبها عناصر من أبناء الطبقة الوسطى والبورجوازية الصغيرة بكل تقاليدها وعاداتها وتطلعاتها الطبقية ومنطلقاتها « الحرفية » و « المهنيـة » ، وكانت تستمد بقاءها و « سيطرتها » على المراكز القيادية من « السلطة » و « الادارة » ومن « الطبقـة الجديدة » بمراكز قواها السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

أما عن الاسباب الرئيسـية والتى ادت فى الواقع الى تحجر وانحـراف الحركـة النقابيـة ـ والتي ان لم نتبينها ـ فسيصعب على القيادة الجديدة أن تتبين الوضع « الذى يمكنها من قيادة الحركة قيادة سليمة » كما يرى برنامج العمـل الوطنى . نقول هذه الاسباب يمكن اجمال أهمها فى :

١ ـ ان الحركة النقابية لم تتمكن منذ قيامها على اسـاس القانـون ٦٢ لسـنة ١٩٦٤ من أن تكسب الى التنظيم الملايين العديدة المفروض ان تكسب عضويتها للتنظيم . فمنذ قيام هذا التنظيم وعضويته حوالى ١,٥ مليون من مجموع العاملين القابلين للتنظيم والذين يزيد تعدادهم على الـ ٧,٥ مليون . بل ان عضوية الـ ١,٥ مليون لم تتعـد كونها عضوية دفترية ..

٢ ـ ان الحركة النقابية المصرية فى وضعها المعاصر عجزت عن صـياغة فكرها كمـدارس للديمقراطية والاشتراكية ، وكأجهزة تناضل من اجل بناء القطاع العـام وحمايته من خطـر البيروقراطية وتحقيق الالتحام الثورى بين عناصر العمل اليدوى والذهنى ، وبين جماهير العمال والقدرات الفنية والتكنيكية .

٣ ـ اخضاع النقابات للوصـاية الادارية من قبل الاجهزة التنفيذية فضاعت شـخصيتها المسـتقلة وحصرت حركتها فى أعمـال مكتبية وارشيفية وانعدمت روح المبادرة عندها .

٤ ـ انعدام الديمقراطية النقابية داخـل التنظيم النقابى نفسه .

٥ ـ ان الغـالبية العظمى من القيـادات النقابية ـ وخاصة العليا منها ـ لم تكن معدة فكريا وسياسيا لتتجاوب بحق مع نظرة الاشتراكية العلمية ، التى ارتضاها ميثـاق العمـل الوطنى دليلا للعمل ، فضـاق أفق نشـاطها فى اطر اصلاحية اقتصادية ولم تتحول الى وحـدات للنضـال فى مجـال الثورة الاجتماعية وامتلأت بالشلل والتكتلات مراكز القوى الغير منتمية الى الاشتراكية والى فكر الطبقة العاملة .

٦ ـ انعدام وجود خطة شاملة وثورية للعمل فى مجـال العـلاقات الدوليـة على أسـاس أن حركتنا الثورية الوطنية جزء من حركة التحـرر العالمى ، من الجبهة العالمية المعادية للاستعمار والرأسـمالية العالمية .

كل هذه الاسباب أدت الى تحجر العمل النقابى وتجمده وانحرافه ، وان وجوب الاشارة اليها كان أمرا ضروريا حتى تتبين الحركة العمالية المصرية موقع اقدامها فى المرحلة القادمة ، وحتى تتمكن من تبنى خطة تنفيذية واضحة ومحددة لمواجهة هذه المخاطر وحتى يكون هناك اساس واضح أمام الجماهير لمسالك الطريق الجديد لاعادة بناء الحركة النقابية .

ثانيا : وتحدد الفقرة الخاصة بالنقابات العمالية فى برنامج العمل الوطنى كذلك فى الجزء الثانى منها

القضية الرئيسية للنشاط النقابى على الوجه التالى : « لم تعد القضية الرئيسية للنشاط النقابى هى الموقف ازاء اصحاب رؤوس الاموال انما اصبحت المحافظة على حقوق العمال وتعبئتهم ضد أى عدوان على مجتمعهم الذى يبنونه لانفسهم ولأولادهم ، وتنمية قدراتهم والارتفاع بمستوى ادائهم وصولاالى زيادة الانتاج ،وبالتالى الى زيادة الدخل والاجور ، متعاونين فى ذلك تعاونا كاملا مع لجان الاتحاد الاشتراكى » (*)

وما نلاحظه **أولا** على هذه العبارة أنها كان يجب أن تؤكد ما ذهب اليه ميثاق العمل الوطنى فى فقرته المشهورة : « ان الوضع الجديد يجعل من المنظمات العمالية **قاعدة طليعية فى عملية التطوير الاجتماعى** ... الخ » هذا القول الذى استهدف أن تكون النقابات العمالية **قوة طليعية مشاركة فى عملية التغيير الجذرى** للمجتمع ، انهاء للعلاقات الاجتماعية الراسمالية ، واقامة لعلاقات اجتماعية انتقالية استهدافا للتحول بالبلاد الى الاشتراكية (*)

القضايا الرئيسية للنشاط النقابى

وما نلاحظه ثانيا : أن رؤية البرنامج للقضية الرئيسية للنشاط النقابى بأنها لم تعد ــ « هى الموقف ازاء اصحاب رؤوس الاموال ... الخ » لم تراع كل جوانب واقعنا الاجتماعى المصرى المعاصر ، حيث تتميز بنيته الاقتصادية بوجود قطاعات اقتصادية ثلاثة ، القطاع العام وهو القطاع القائد لعملية التنمية والتطور ، والقطاع التعاونى ، والقطاع الخاص . ومن هنا فان **القضايا الرئيسية وليس** القضية الرئيسية الوحيدة التى تواجه النشاط النقابى فى هذا المجال انما هى :

أولا : العمل من أجل حماية القطاع العام والمحافظة عليه ، ودعم تطوره ، مما يوجب صراعا ضد بيروقراطية الاجهزة التنفيذية وصراعا ضدالعادات والقيم والافكار البورجوازية، والعمل الواعى الحد من الفروق الكبيرة فى الدخول بين العمل اليدوى والعمل المكتبى .

ثانيا : صراع ضد التخلف . التخلف الاقتصادى والعلمى والثقافى والفنى والتكنولوجى ومن ثم المحافظة على القدرات والكوادر الفنية التى يعتمد عليها كل تطور حقيقى داخل حركة بناء الصناعة المؤممة والصناعات الكبيرة التى تنشئها الدولة .

ثالثا : صراع ضد كل تطلعات الراسمالية « الوطنية » ــ القطاع الخاص ــ للتحول الى رأسمالية كبيرة تعاود سيطرتها على مقدرات التطور ، الامر الذى يوجب :

أ ــ صراعها ضد القوى الطبقية والاجتماعية والمعادية للتحول الاشتراكى والتى مازالت برغم أنها مضروبة باجراءات يوليو ١٩٦١ ــ تقف ضد عملية التحول فكريا واقتصاديا واجتماعيا ، ويضاف الى هذه القوى كل العناصر والمراكز التى ترى الثورة بعين مصلحتها وآفاق تطلعاتها الخاصة .

ب ــ ان الحركة النقابية العمالية مدعوة للدفاع عن حقوق العاملين وتحسين شروط عملهم فى القطاع الخاص ــ فعمال التراحيل ما زالوا يعانون من وطأة الاشكال الاستغلالية العديدة التى كانوا يعانون منها فى الماضى على أيدى مقاولى الانفار بأشكال ووسائل جديدة ، وهم مازالوا محرومين من مظلة التأمينات الاجتماعية والصحية والحماية التشريعية ، ومازال العمال فى الورش ومحلات القطاع الخاص التجارية ، ومصانعه المتوسطة وكذلك العمال الحرفيون وأشباه العمال يعانون الكثير ، وأعداد كبيرة منهم لاتحصل على الحد الادنى للأجر (*)

استقلالية التنظيم النقابى العمالى

هذا **وما نلاحظه ثالثا** ، عن قضية العلاقة بين التنظيم النقابى العمالى والاتحاد الاشتراكى ، والتنظيم السياسى الطليعى ــ فقد اعتبر البرنامج النقابات العمالية تنظيمات مساعدة للاتحاد الاشتراكى ، ووصفها بأنها علاقة تعاون ــ والقضية هنا تتعلق « باستقلال الحركة النقابية »، ولئن كان وصف البرنامج لهذه العلاقة بأنها علاقة تعاونية لايعنى التبعية والاخضاع ــ فان تعريفها بأنها تنظيمات مساعدة يجعلها ملحقا بشكل أو آخر بالاتحاد الاشتراكى . وهذه القضية على جانب كبير من الأهمية وكان على البرنامج أن يحسمها حتى يكون الامر واضحا فى التطبيق العملى ، وانطلاقا من مفهوم الاشتراكية العلمية نرى أن مفهوم الاستقلالية والاستقلال الذاتى للحركة النقابية العمالية ، انما يتحدد فى النقاط التالية :

١ ــ النقابات العمالية بطبيعتها تنظيمات طبقية تدافع عن مصالح الطبقة العاملة ، وهى تنظيمات جماهيرية ديمقراطية عريضة تضم لعضويتها كل العمال على اختلاف أديانهم وعقائدهم السياسية والاجتماعية .

٢ ــ وانطلاقا من هذا المفهوم فالنقابات العمالية ليست تنظيمات حزبية ولايمكن أن تخضع لوصاية أى حزب ، لان مثل هذه الوصاية تعتبر قيدا على الارادة الديمقراطية للجماهير العريضة التى اقامت تنظيمها الديمقراطى ، وهى كذلك بحكم طبيعتها الديمقراطية والجماهيرية ليست تنظيمات حكومية أو شبه حكومية .

٣ ــ وكذلك ــ فان النقابات العمالية بحكم

كونها التنظيمات الديمقراطية للطبقة العاملة — ليست محايدة فى الصراع الدائر فى المجتمع من اجل الانتقال به من الراسمالية للاشتراكية — بل هى منحازة بحكم تمثيلها لأكثر الطبقات مصلحة فى الاشتراكية الى الاشتراكية . فهى على النطاق القومى منحازة لبناء وطن متحرر تماما من كل سيطرة استعمارية ووجود أجنبى ، ولبناء مجتمع لايستغل الانسان فيه الانسان ، وعلى النطاق الدولى منحازة لمعسكر الثورة العالمية ضد الاستعمار وضد الرأسمالية العالمية .

ان استقلال الحركة النقابية عن أى تنظيم سياسى لايلغى وجود علاقة بينها وبين التنظيمات الاشتراكية — وهى فى ظروف بلادنا علاقة مزدوجة — علاقة بالاتحاد الاشتراكى [اطار تحالف قوى الشعب العامل] وعلاقة بالتنظيم الطليعى القائد للتحالف .

فأولا : بما أن الاتحاد الاشتراكى العربى هو تجمع جماهيرى واسع لقوى التحالف بكل تناقضاتها ومصالحها الخاصة المتعارضة ، فان التنظيم النقابى العمالى وبحكم طبيعته التى أشرنا اليها ليس تنظيما تابعا للاتحاد الاشتراكى، ويتحقق التعاون بينه وبين الاتحاد الاشتراكى بأن يكون تمثيله داخل الاتحاد الاشتراكى باعتباره تنظيما ديمقراطيا قائما بذاته بوساطة الاتحاد العام للعمال .

وثانيا : ان العلاقة بين التنظيم الطليعى والتنظيم النقابى ليست علاقة عضوية ولا علاقة تبعية انما الأساس فيها — ان التنظيم النقابى هو أهم القواعد الجماهيرية للتنظيم الطليعى الاشتراكى — وجوهر العلاقة يعبر عنها بمدى قدرة الاشتراكيين على العمل داخل النقابات كأعضاء فيها يمارسون نشاطهم القيادى دون جبر أو قسر أو تعال ، انها تتحقق باقتناع الجماهير بصحة خطهم السياسى وسلامة شعاراتهم ، فالقيادة ليست وظيفة أو منصبا انما هى عملية نضالية فيها بذل وتضحية . وتستهدف هذه العلاقة كذلك قيام التنظيم الطليعى بالعمل على ادماج الفكر الاشتراكى بحركة الطبقة العاملة — فان وعى الطبقة العاملة بحركة الثورة الشاملة وخروجها من الاطر النقابية البحتة لان تكون وفق تعبير ميثاق العمل الوطنى « قاعدة طليعية » فى النضال من أجل تغيير المجتمع لا يتحقق الا بتبنى الطبقة العاملة لنظرية ثورية تكون لهم دليلا ومرشدا للعمل . ان عنصر الوعى بالحركة الكلية للمجتمع لاتستطيع الطبقة العاملة أن تستوعبه من داخلها — فحركتها الداخلية لاتوفر لها غير الوعى النقابى — انما يكون استيعابها له من خلال حركتها النضالية مع كل الطبقات الاجتماعية المطحونة الاخرى ، نضالا من أجل التحرر والديمقراطية والاشتراكية .

حول برنامج عمل وطنى للنقابات العمالية

وعلى ضوء هذا كله — يمكننا أن نقدم مجموعة من المهام للنقابات العمالية تضمن وضع برنامج العمل الوطنى موضع التطبيق ، نجملها فيما يلى :

أولا : التعبئة الديمقراطية لجماهير الطبقة العاملة فى المصنع والقرية وفى كل أماكن العمل لمواجهة العدوان الاستعمارى الصهيونى وليكون لها دورها فى معركة التحرير — وباعتبارها العمود الفقرى للجبهة الداخلية . فانه لما كانت الحرب المعلنة ضد وطننا ، هى هجوم من القوى المضادة للثورة على طريق تطور ثورتنا نحو الاشتراكية ، ولتقويض الاسس التى عليها ترسى قواعد انتصار ثورتنا الاجتماعية ، فانه يصبح واجبا رئيسيا ونحن نواجه العدو أن تستمر عملية البناء الثورى لاقتصادنا الصناعى والزراعى ، وان نحقق معدلات عالية فى خطة التنمية وأن نعمق اكثر جذور مكاسب اجراءات يوليو ١٩٦١ الثورية وواجب الطبقة العاملة وهى قوة العمل البانية وتنظيمها النقابى — الا تكون واعية فقط بذلك ، بل ان تحمل على أكتافها عبء هذه العملية بكامل رضائها الواعى .

ثانيا : انه فى مرحلة التحول تبرز مهمة جذرية تستهدف اقامة تركيب اجتماعى أعلى من التركيب الاجتماعى للرأسمالية . وهذا التركيب قوامه زيادة انتاجية العمل ، وهو أمر يرتبط بضرورة تنظيم العمل تنظيما عاليا — ويتطلب تحقيق أمور ثلاثة :

أ — تأمين القاعدة المادية للصناعة الكبيرة .

ب — نهوض التعليم والثقافة عند جماهير شعبنا العريضة [والتى تصل نسبة الامية فيها الى نسبة عالية] .

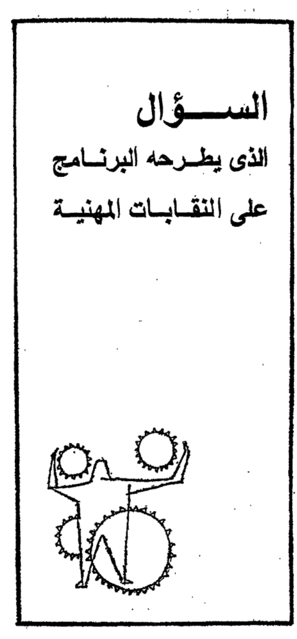
جـ — تطوير طاقة العمال ومهارتهم ودرجة اجتهادهم وتحسين تنظيم العمل والتغلب على كل فوضوية بورجوازية صغيرة وعلى الروح المهنية والحرفية العتيقة . وهنا يبدو دور الحركة النقابية العمالية فى بلادنا فى النضال من اجل تطوير السلوك الجماعى للعاملين وتعبئة طاقاتهم لخدمة اهداف خطة التنمية وتعميق الايمان بالملكية العامة لوسائل الانتاج واحترامها والتعامل معها بوعى ، واحلال المنافسة الجماعية محل الصراعات الشخصية والانانية والفئوية . وهنا يجب أن يكون واضحا أن مهمة النقابات العمالية الرئيسية هى المشاركة الطليعية فى تنظيم الانتاج — وليس كما يرى السندكاليون والفوضويون ممثلو فكر البرجوازية الصغيرة « ادارة الانتاج

وتنظيمه »، وتستطلب ذلك أن يكون لدى النقابات العمالية برامج للتدريب والتثقيف والتعليم ورفع الكفاية الانتاجية ورفع المستويات المادية والصحية والاسكانية والاستهلاكية .. الخ لجماهير العاملين .

ثالثا : ان الحركة النقابية العمالية مدعوه لان تناضل وتدافع عن الحقوق العمالية والحفاظ عليها ومن اجل المزيد ، وهى بذلك تناضل فى جبهتين — **جبهة القطاع العام** — والمفروض ان يكون محميا أساسا من جماهير الطبقة العاملة ومنظماتهم — وهى فى هذه الجبهة تشن نضالا اقتصاديا واجتماعيا وفكريا لحماية مصالح الجماهير العاملة من عدوان اللوائح والقوانين المتخلفة ومن عدوان البيروقراطية والعناصر والمراكز التى مازالت تفكر عن الاشتراكية وتنفذها بفكرية البورجوازية ، **والجبهة الاخرى** هى جبهة القطاع الخاص والذى مازال يمثل قطاعا هاما فى اقتصادنا الوطنى ويستخدم القطاع الاكبر من القوى العاملة — والذى لم تتطور فيه شروط العمل وظروفه لتتمشى مع اى تطور ثورى شهدته بلادنا فى علاقات العمل .

والنضال من اجل الحقوق يرتبط به بالضرورة تعميق الديمقراطية داخل التنظيم النقابى ، وتمكين اللجان النقابية فى الوحدات الانتاجية من القيام بدورها على مستوى وحدات الانتاج — وتعديل تشريع العمل الحالى تعديلا جذريا يتفق مع التطورات الثورية فى مجالات الاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والعمل منذ اجراءات يوليو ١٩٦١ .

رابعا : انه على الحركة النقابية العمالية المصرية — فى مجال العلاقات الدولية — أن تغير من استراتيجية علاقاتها الدولية وأن تحسم قضية انحيازها الى صف الوحدة العمالية العالمية المعادية للاستعمار والرأسمالية العالمية، وأن تعلن موقفها فى التخلى عن بعض الارتباطات الدولية بالاتحادات التى تأكد انها فى الخدمة المباشرة للدوائر الاستعمارية العليا فى البلدان الرأسمالية مثل اتحاد البترول الدولى التابع للاتحاد الدولى للنقابات الحرة . وفى هذا المجال يجب أن تحدد موقفها من الاتحاد العالمى للنقابات — ١٣٧ مليون عامل — وقد أصبح عضوا فيه سبعة اتحادات عمالية عربية وذلك حتى تتمكن من ممارسة دورها الطليعى فى المجال الدولى، وأن تراجع خطط وبرامج عملها فى مجال العلاقات النقابية الدولية العربية والافريقية لمواجهة النشاط الأمريكى والغربى والصهيونى والذى أصبح يمثل خطراً على وحدة العمل الدولية ضد الاستعمار والرأسمالية (•)



السؤال
الذى يطرحه البرنامج على النقابات المهنية

د. جمال العطيفى

فى ٥ يونيو من هذا العام ، وفى أعقاب أحداث مايو سنة ١٩٧١ ، صدر قرار رئيس الاتحاد الاشتراكى باعادة تشكيل مجالس النقابات المهنية ، واجراء انتخابات جديدة فيها تمت خلال نفس الشهر .

وقد أشارت مذكرة الأمانة المؤقتة للاتحاد

الاشتراكى التى اسندت اليها قرار اعادة تشكيل هذه المجالس ، الى انها تتمة لعملية التصحيح ، وأن قرار رئيس الاتحاد الاشتراكى الصادر فى ٢٠ مايوباعادة تشكيلتنظيمات الاتحادالاشتراكى ينسحب الىمجالس ادارة النقابات المهنية أيضا، باعتبارها أجهزة مساعدة للاتحاد الاشتراكى تقوم على تنفيذ السياسة التى يرسمها . ثم اشارت هذه المذكرة الى تعاون بعضأعضاء هذه المجالس وتبعيتهم واستسلامهم الكامل لبعض العناصر التى افسدت الحياة السياسية ونشرت حالة من الارهاب الفكرى التى انعكست على كل عمل ونشاط فى هذه النقابات ، مما صرفها عن مهمتها الاصلية من التمكين للعلاقات الانسانية بين اعضائها ودعم روح الأخوة والزمالة بين أبناء المهنة الواحدة ، الأمر الذى باعد بين هذه النقابات وبين مهمتها الأصلية فى السعى لرفع مستوى المهنة والمشاركة فى المعركة وفى عملية البناء الاشتراكى .

على أن اعادة النظر فى أوضاع النقابات المهنية ما كان يجب أن يكون مقصورا على اعادة تشكيل مجالسها والعودة الىقواعدها العريضة، بل ان النظرة كان يجب أن تكون أكثر شمولا وعمقا .

وقد كان « برنامج العمل الوطنى » مناسبة هامة لالقاء هذه النظرة الشاملة المتعمقة ، ومطالبة النقابات المهنية بأن تعيد التفكير بجد فى رسالتها ، وأن تتخلى عن فكرة التميز الطائفى أو الفئوى ، وعن فكرة أنها تجمع النخبة الممتازة. واستطرد البرنامج محددا وضع هذه النقابات بأن خدمة المهنة لا يمكن أن تتم بمعزل عن خدمة الجماهير أو على حسابها . وأن النقابات بوصفها منالتنظيمات الشعبيةالمعاونة للاتحاد الاشتراكى يمكن أن تكون هيئات استشارية نافعة له فيما يتصل بحل كثير من مشاكل الانتاج والخدمات .

وفى اعتقادى أن هناك ثلاث مسائل رئيسية يجب التعرض لها بالدراسة ، وهى تتناول دور النقابات المهنية ، ثم تنظيمها والتناقضات التى تحكمها ، وأخيرا علاقتها بالاتحاد الاشتراكى .

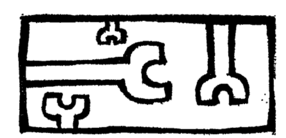
دور النقابات المهنية

يجب أن نبدأ بأن نميز بوضوح بين النقابات العمالية وبين النقابات المهنية ، وهى التى تسمى تجوزا أيضا بالنقابات . فنقابات العمال هى التى ترعى مصالح العمال الناشئة عن مزاولتهم العمل طبقا لعقد العمل ، وتدافع عن حقوقهم تجاه أرباب العمال وتعمل على تحسين حالتهم المادية والاجتماعية . ولها اختصاصات هامة فى حماية الأجر وفى تشغيل العاطلين وفى التوفيق والتحكيم بين العمال وأصحاب الأعمال وفى ابرام عقود العمل المشتركة وفى تطبيق نظام التأمينات الاجتماعية . ولكن نقابة العمل لا شأن لها بتنظيم حق العمل أو مزاولته كما أن الانضمام اليها اختيارى .

أما النقابات المهنية فقد اختلطت فى تطورها بفكرتين : **فكرة طوائف المهن** التى تنتخب شيخا للطائفة وتسرى على أعضائها قرارات الطائفة ، وقد كانت طوائف المهن تستوعب المشتغلين بالمهنة وخاصة المهن الحرفية ، كما اختلطت النقابات المهنية فى تطورها بفكرة **الجمعية** وهى تنظيم اختيارى يسعى لتحقيق أغراض غير الحصول على الربح المادى .

واذا انتقلنا من هذا التعميم العام والقينا نظرة عى وضع النقابات المهنية فى مصر فى الوقت الحاضر ، لتبين لنا أن هذه النقابات يتعددطابعها . فهىتختلط برسالة **النقابة العمالية** فى الدفاع عن مصالح أعضائها وهى تختلط بفكرة **التمثيل الطائفى** فى أنها تنظم أعمال المهنة ، فالانضمام اليها شرط لمزاولة المهنة . وهى تستعير بعض اختصاصات السلطة العامة، حينما يعهد اليها القانون بأن تكون سيدة الجدول الذى تنشئه لقيد أعضائها وأن يكون لها حق تأديبهم ، بل وبما هو مقرر لها من دمغات أو رسوم تفرض على المتعاملين مع أعضائها ، وهى أحيانا تملك سلطة وضع **اللوائح الداخلية** الخاصة بها ، وهى فى هذا أشبه **بمؤسسة عامة** تباشر نشاطا يتعلق بمرافق عامة . وكأن هذه النقابات تقوم باختصاصات كانت أصلا من صميم اختصاص الدولة ، ولكنها تخلت عنها لأبناء المهنة انفسهم مع احتفاظها بنوع من حق الرقابة والاشراف . وأخيرا فان للنقابة المهنية بعض الأهداف المقررة **للجمعيات** حينما تعمل علىتنشيط البحوث العلمية ، والارتقاء بالمستوى الثقافى لاعضائها .

ويبدو ان الهدف الأساسى للنقابات المهنية فى نشأتها ، كان تنظيم ممارسة المهنة . وهذا واضح من تقصى الظروف التى نشأت فيها أول نقابة مهنية فى مصر وهى نقابة المحامين . اذ انه لما انشئت المحاكم الأهلية لم يحدد القانون شروط الاشتغال بمهنة المحاماة أو تنظيمها ، ثم صدرت أوامرعالية باعتماد لائحة شروطالاشتغال بالمهنة حتى صدر القانون رقم ٢٦ فى عام ١٩١٢ بانشاء نقابة المحامين لدى المحاكم الأهلية .



ومع أن بعض النقابات المهنية الاخرى قد بدأت فى صورتها الأولى ، وهى أقرب الى الجمعية فى أهدافها ، ولم يكن الانضمام اليها شرطا لمزاولة المهنة ، مثل نقابة الصحفيين عند تأسيسها فى عام ١٩٤١ — الا أن تطور تشريعات النقابات المهنية قد انتهى الى ابراز هذا المفهوم لدورها فى تنظيم ممارسة المهنة ، حتى أنه حينما تأسست أول نقابات للمهن التمثيلية والسينمائية والموسيقية عام ١٩٥٥ نص قانونها أيضا على عدم جواز احتراف احدى هذه المهن الا للمقيدين بجداول هذه النقابات .

وقد لحقت النقابات المهنية عدة تطورات هامة فى رسالتها حينما صدرت قوانين جديدة منظمة لمعظمها فى السنوات الأخيرة . وعلى سبيل المثال فان قانون نقابة **المهن الزراعية** الصادر عام ١٩٦٦ يجعل من اختصاص النقابة « تعبئة قوى أعضاء النقابة وتنظيم جهودهم فى خدمة المجتمع لتحقيق الأهداف القومية وأهداف التنمية الاقتصادية ومواجهة مشكلات التطبيق بوضع الحلول المناسبة لها — والاشتراك فى دراسة خطط التنمية الاقتصادية والمشروعات الزراعية وفى وضع قواعد تطوير القوانين الزراعية — والمساهمة فى تخطيط برامج التعليم الزراعى وتطوير نظمه بحيث تساير حاجات المجتمع الجديد وتخدم مصالحه » .

ثم صدر قانون جديد **للمحاماة** عام ١٩٦٨ وهو يضع بين أهدافه « تعبئة قوى أعضاء النقابة وتنظيم جهودهم لتطوير الفكر القانونى فى خدمة التحول الاشتراكى والمساهمة فى تطوير التشريع ابتغاء تيسير العدالة على المواطنين بغير موانع مادية أو تعقيدات ادارية ودفع الانتاج لكى تتوافر له سرعة الانطلاق وصولا الى غايته » .

وقانون نقابة **الأطباء** الذى صدر فى عام ١٩٦٩ يجعل فى صدر أهداف النقابة « تجنيد طاقات الأطباء ليتودوا رسالة الطب من أجل حل المشاكل الصحية للشعب بحيث تصبح الرعاية الصحية للشعب وقاية وعلاجا حقا مكفولا لكل مواطن — والعمل على نشر ودعم الأفكار والقيم الاشتراكية بين الأطباء — والعمل على تطوير مهنة الطب وقائيا وعلاجيا بما يحقق للشعب أكبر قدر من الرعاية ويتمشى مع تطور المجتمع الاشتراكى » .

بل ان قانون نقابة **المهن التعليمية** الصادر فى نفس العام ينص أيضا على « تعبئة قوى أعضاء النقابة وتنظيم جهودهم فى خدمة المجتمع لتحقيق الأهداف القومية والعمل على نشر الثقافة والتعليم والمعاونة على تحقيق أهداف المشروعات التربوية والتعليمية » . وقانون نقابة **المهن العلمية** أيضا يجعل من بين أهداف النقابة « العمل على نشر الثقافة العلمية ورفع الوعى العلمى بين أفراد الشعب بما يساعد على تحسين وزيادة الانتاج ودعم التطبيق الاشتراكى فى البلاد والاسهام فى دراسة المشاكل الانتاجية والاجتماعية بل والاشتراك الايجابى فى العمل الوطنى العام » .

وآخر قوانين النقابات المهنية الجديدة ، وهو قانون **الصحفيين** الذى صدر عام ١٩٧٠ ، ينص على أن النقابة « تستهدف نشر وتعميق الفكر الاشتراكى والقومى بين أعضائها وتنشيط الدعوة اليه داخل المؤسسات الصحفية وبين جمهور قرائها » .

وواضح من هذه الأمثلة جميعا ، أن قوانين النقابات المهنية الجديدة ، — ومعظم النقابات قد شاركت فى وضعها — قد عنيت عناية بالغة بتسجيل شعارات الاشتراكية والانفتاح على قضايا المجتمع . وانه يبدو من ذلك أنها لم تتخلف عن المعانى التى أوردها برنامج العمل الوطنى من وجوب أن تضع نفسها فى خدمة المجتمع ومن وجوب ارتباطها بشكل أعمق بقضايا التنمية .

وفى الظاهر فان هناك نشاطات أعلن عنها وكانت تبشر بهذا الانفتاح على قضايا المجتمع ، مثل تنظيم ندوات عن اقتصاد الحرب فى أعقاب العدوان سواء فى نقابة المهندسين أو نقابة المحاسبين ، ومثل اعلان نقابة المحامين عن مساهمتها فى تطوير التشريعات ومثل ما نشرته نقابة الاطباء عن العمل على تعميم الفحص الطبى الشامل بالقرية . ولكن المشكلة الحقيقية هى مشكلة الجدية والفاعلية . فما زالت النقابات المهنية عملا متقوقعة فى نظرتها الطائفية الضيقة ، وان كانت بين حين وآخر أو فى مناسبة وأخرى تعلن بالقول لا بالعمل تبنيها لمطالب جماهيرية أو تأييدها لقضايا عامة .

واذا كان لى أن استرعى النظر الى مثل

صارخ ٪ فانه المثل الخاص بآداب المهنة . وهى التى ترسى علاقة أعضاء النقابات بأفراد الجمهور الذى يتعامل معهم .

لقد اشار « **الرئيس السادات** » فى خطابه أمام مجلس الشعب فى ٢٠ مايو ١٩٧١ الى مواثيق الشرف التى يجب أن يكلف الدستور النقابات بوضعها ، كتأكيد لأخلاقيات المجتمع الجديد وأن يضعها أصحاب المهنة أنفسهم . فالطبيب الذى يرتكب شيئا ضد شرف المهنة ٪ تحاسبه نقابة الأطباء ، والصحفى الذى يلجأ الى التشهير تحاسبه نقابته على ذلك .

ويبدو أن سبب هذه الدعوة الملحة أن هناك شعورا عاما لدى المواطنين بأنهم لا يجدون الرعاية المطلوبة من أصحاب المهن الحرة لاداب مهنتهم . مع أن الواقع أن معظم قوانين النقابات المهنية تتضمن فى صلبها أحكاما متعلقة بآداب المهنة ٪ وتعهد الى مجالس نقاباتها باعداد لائحة بذلك ينص غالبا على اعتمادها من الوزير المختص. وقد كانت هناك لائحة فعلا لاداب مهنة الطب منذ عام ١٩٥٤ ، وكانت هناك لائحة مثلا لاداب مهنة الصحافة منذ عام ١٩٦٤ . ولكن المشكلة هى مشكلة التطبيق . ومالم تبادر مجالس النقابات الى احكام الرقابة على تنفيذ آداب المهنة ومحاسبة من يخرج عنها ٪ فلن ينفعها كثيرا أن تعلن التأييد فى المواقف القومية أو أن تزجى التهنئة بها !

واعتقد أن على مجالس النقابات أن تقدم حسابا سنويا عن نشاطها وهو أمر سأعرض له فيما بعد ، حينما أتناول علاقة النقابات بالاتحاد الاشتراكى .

على أنى أود أن الفت النظر الى ظاهرة التناقض بين رفع شعار الاشتراكية والانفتاح على مصالح الجماهير الذى نجده بين أهداف النقابات المهنية بصفة عامة ٪ وبين مواقف أخرى نقابية لازالت تحمل « فكرة التميز الطائفى أو الفئوى » .

ان قوانين النقابات المهنية التى تنظم مهنا يتعامل أصحابها مع الجمهور ٪ لازالت تضع أعضاءها فى موضع متميز فى علاقتهم بالأفراد المنتفعين بخدماتهم . فلا يكاد قانون يخلو من تنظيم لتقدير أتعاب المهنيين عند الخلاف مع صاحب الشأن ٪ كالمريض فى علاقته بالطبيب ٪ أو المتقاضى فى علاقته بالمحامى . وفكرة تحكيم النقابة فى الخلاف فكرة سليمة فى حد ذاتها . ولكن الممارسة أثبتت أن هناك مغالاة فى تقدير الأتعاب تضطر المتعامل مع عضو النقابة الى أن يلجأ الى القضاء . ونجد مثل هذا التميز الطائفى فى قانون حديث مثل قانون نقابة الصحفيين ٪ عنى بتقرير ميزات خاصة للصحفيين تجاوز الحقوق التى يتمتع بها سائر العاملين فى المؤسسات الصحفية، سواء فيما يتعلق بالاجازات أو مكافآت الخدمة أو الأجر اثناء المرض . وبطبيعة الحال فان أحدا لايمكن أن يعترض على زيادة الميزات المقررة لأى عامل ، فهذا مطمح نسعى اليه عن طريق التنمية والوفرة ، كما أنه من المسلم به أنه يمكن اعطاء ميزة خاصة لطائفة من العمال نزولا على طبيعة عملهم ، مثل تمييز عمال المناجم والمحاجر مثلا وغيرهم من ذوى الأعمال الشاقة بساعات راحة أكثر وساعات عمل أقل ٪ أو اعطاء ميزة لطائفة تعمل فى مناطق نائية ، أو تقرير معاملة خاصة للنساء أو الأحداث. وانه بقدر تقدير هذه الظروف يسمح بالاختلاف فى المعاملة . ولكن هل هناك مبرر مثلا لأن تكون اجازة صحفى لا يزال تحت التمرين شهرا ٪ بينما لا يحصل زميله العامل فى المطبعة أو الموظف فى الحسابات الا على اجازة قدرها أربعة عشر يوما تزاد الى واحد وعشرين يوما اذا تجاوزت مدة خدمته عشر سنوات !

تنظيم النقابات المهنية والتناقضات التى تحكمها

وينقلنا هذا الحديث الى تنظيم النقابات المهنية. وسوف نلاحظ أن هناك منظمات جماهيرية أخرى تتداخل اغراضها مع النقابات المهنية وتنشأ عن ذلك عدة متناقضات .

هناك **جمعية للمهندسين** تقوم جنبا الى جنب مع **نقابة المهندسين** . وهناك **نادى التجارة** وكان أسبق فى تأسيسه من **نقابة المحاسبين** ، اذ أنه يرجع الى عام ١٩١٨ ، وهناك جمعية أيضا للمحاسبين أقدم فى تأسيسها من نقابتهم . وهناك **جمعية طبية** الى جانب **نقابة الاطباء** . وأهداف مثل هذه الجمعيات تتداخل مع اهداف النقابات المهنية المتعلقة بالارتقاء بالمستوى العلمى او أداء الخدمة العامة .

وهناك تنظيمات عمالية تتداخل اختصاصاتها مع أهداف الدفاع عن مصالح المنتمين الى النقابة المهنية . هناك نقابات عمالية مثل نقابة العاملين فى الخدمات الصحية ، ومثل النقابة العامة للصحافة والطباعة والنشر . وهناك أعضاء نقابيون ينتمون الى نقابات المهن الحرة والى نقابات عمالية فى نفس الوقت ٪ ذلك أن معظم النقابات المهنية أصبحت تضم عاملين يخضعون لقوانين العمل ٪ مثل الطبيب الذى يعمل فى مستشفى حكومى والمحامى فى ادارة قانونية فى القطاع العام .

ثم أنه داخل النقابة المهنية نفسها ينشأ صدام بين مصالح الذين يزاولون عملهم استقلالا ، وبين الذين يرتبطون بعقود عمل . وفي بعض النقابات ينشأ صدام بين من يحملون مؤهلا من الجامعة ومن يحملون مؤهلا من معهد عال او اقل من ذلك . وقد كانت نقابة المهندسين ترفض مثلا قيد خريجي المعاهد العليا الصناعية .

وبعض النقابات مثل نقابة المهن التعليمية تجيز تمثيل المحالين الى المعاش ، بينما لا يجيز قانون المحاماة ذلك لمن ينقل الى جدول المحامين غير المشتغلين .

ونقابة مثل نقابة الزراعيين ، تضم الى جانب المهندسين الزراعيين ، مهندسين مساعدين من حملة دبلومات الزراعة المتوسطة او الثانوية .

ونقابة الصحفيين تشير في قانونها الجديد الى هدف التقريب بين اعضاء النقابة وبين اعضاء نقابات العمال العاملين في الصحافة باقامة اتحاد فيما بينها يستهدف الارتقاء بالمهنة . وهو نص لايزال عاريا من التطبيق .

ونقابة مثل نقابة المحاسبين والمراجعين لاتزال تقف موقفا مترددا بالنسبة لقبول محاسبي القطاع العام الذين يتبعون الجهاز المركزي للمحاسبات ، وهناك مشروع اقترح بتحويلها الى نقابة للتجاريين .

الاضطراب ظاهر اذن في طريقة معالجة تنظيم النقابات المهنية . وتقع بعض هذه النقابات في تناقض حاد ايضا بينها وبين مصالح الجمهور . وقد استسهلت معظم النقابات كطريقة لتنمية مواردها فرض رسوم دمغة نقابية يتحملها الجمهور المتعامل مع افراد النقابة .

ومثال آخر لانعكاس التناقضات داخل النقابة على مصالح الجمهور ، ما ينص عليه قانون المحاماة الجديد من قصر العمل في هيئة المعونة القضائية على المحامين ذوى المكاتب . وهذه الهيئة هى التى نص القانون على ان تشكلها النقابة لتقديم الخدمات القضائية المجانية للمواطنين غير القادرين [وهو نص لم يطبق بعد ايضا] .

وقد لمس « عبد الناصر » خلال مناقشات اللجنة التحضيرية لاعداد الميثاق ، هذه التناقضات التى تقع بين مصالح المنتمين الى النقابات المهنية ومصالح الجمهور قائلا [جلسة ٢٧ نوفمبر ١٩٦١] :

« ارسلنا التشريعات مرة ، قانون المحامين ، المهم الاساسى . الحاجة التى لا تحتاج محام لازم يمضي عليها محام لان عندهم محامين قطعا مايزين يشتغلوا . كان فيه محامين فى بحث هذه التشريعات

ولكن لماذا يعملون هذه العملية ، لانهم يبحثون عن مصالحهم . يقولون مثلا لا يقدم احد شيئا الا بمحام . حصل هذا فى نقابة المحامين وكانت العملية هى تشغيل عدد من المحامين وكنا قد استجبنا فعلا لهذا لانه كان امامنا مشكلة فهل هذا هو الصحيح؟ هذا « اسبيرين » نصفه بالنسبة لمشكلة من المشاكل ولكن هذا لا يمثل بأى حال الخط السليم الذى يجب ان نسير فيه بالنسبة للنقابات الاخرى » .

ولا شك ان تنظيم النقابات المهنية بطريق الانتخاب وتخويلها حق تشكيل هيئاتها وتنظيم قيد المنتمين اليها ومحاسبتهم ، يجعلها نوعا من المؤسسات التى تقوم على ديموقراطية الادارة الذاتية . ومع ذلك فاننا نلمس فى نقابة المحامين مثلا تعارضا مع هذا المبدا الديموقراطي فى التنظيم حينما يقصر قانون المحاماة حق الترشيح لمنصب النقيب على المحامين ذوى المكاتب الخاصة ، وحينما يجعل تمثيل المحامين العاملين فى القطاع العام فى مجلس النقابة محدودا باربعة مقاعد من مجموع اعضاء المجلس البالغ عشرين عضوا ، وذلك رغم أن عدد المحامين العاملين فى القطاع العام اصبح يجاوز اكثر من نصف مجموع اعضاء النقابة .

بل انه بينما تشترط معظم قوانين النقابات المهنية ان يكون قد مضى على قيد المرشح لمنصب النقيب او تخرجه خمس عشرة سنة [او عشر سنوات بالنسبة لنقابة الصحفيين] اذ بقانون المحاماة يشترط ان يكون قد مضي على اشتغاله بالمحاماة عشرون سنة متصلة ، فيقصر بذلك فرصة الترشيح على عدد محدود قد لا يكون من بينه من هو اقدر على تمثيل المحامين .

النقابات المهنية والاتحاد الاشتراكى

من أدق الامور التى صادفت التجربة المصرية ، تحديد العلاقة بين النقابات المهنية وبين الاتحاد الاشتراكى . وقد كان كل ما ورد بشأنها فى الميثاق عبارة عامة عن « ان التنظيمات الشعبية وخصوصا التنظيمات التعاونية والنقابية تستطيع ان تقوم بدور مؤثر وفعال فى التمكين للديموقراطية السليمة ، وان هذه التنظيمات لابد أن تكون قوى متقدمة فى ميادين العمل الوطنى الديموقراطى وان نمو الحركة التعاونية والنقابية معين لا ينضب للقيادات الواعية التى تلمس باصابعها مباشرة اعصاب الجماهير وتشعر بقوة نبضها . بينما كان الميثاق اكثر تحديدا لدور النقابات العمالية التى خصها بعبارات واضحة من اهمية دورها

واسهامها فى رفع الكفاية الفكرية والفنية وصيانة حقوق العمال ومصالحهم ورفع مستواهم المادى والثقافى وانجاح عملية التطوير الصناعى .

وقد تناول تقرير **لجنة الرد على الميثاق** موضوع النقابات بصفة عامة دون تمييز بين النقابات العمالية والنقابات المهنية ، فأشار الى ان التنظيم النقابى فى المجتمعات الرأسمالية قد نشأ نتيجة لاستغلال رأس المال للطبقات العاملة ، فكان تنظيما دفاعيا يبلور صراع الطبقات ويدفع عن النقابيين ظلم المجتمع المستغل .وهو وصف يصدق على النقابات العمالية ، ولكنه لا يصدق على النقابات المهنية التى نشأت أساسا بين مهنيين يزاولون مهنتهم استقلالا ولا تنشأ علاقة عمل أصلا بينهم وبين أرباب الاعمال بل تنشأ علاقة وكالة أو مقاولة بينهم وبين افراد الجمهور .

وانتهى تقرير الرد على الميثاق الى نتيجة هامة بالنسبة لعلاقة التنظيمات النقابية بسائر أنواعها، بالاتحاد الاشتراكى . فذكر انه من الطبيعى ان يكون الاتحاد الاشتراكى اطارا يجمع فى داخله كل فئات الشعب وتنظيماته المختلفة وأنه ترتيبا على ذلك فان التنظيمات النقابية يجب ان يكون تشكيلها فى اطار الاتحاد الاشتراكى العربى .

وقد طرحت فى المناقشات التى جرت فى اللجنة التحضيرية للميثاق ، تفرقة بين السياسة الحزبية التى كانت تجرى عليها النقابات المهنية فيما مضى ، وبين السياسة القومية التى تهدف الى أن تكون المهنة فى خدمة المجتمع [الدكتور سليمان حزين — جلسة ٢٧ نوفمبر ١٩٦١] .

وقد عاد قانون الاتحاد الاشتراكى العربى ، وأشار فى ديباجته الى أن الاتحاد الاشتراكى العربى ، وهو السلطة الشعبية ، يقوم بالعمل القيادى والتوجيهى وبالرقابة التى يمارسها باسم الشعب، بينما يقوم مجلس الامة وهو سلطة الدولة العليا ومعه المجالس النقابية والشعبية بتنفيذ السياسة التى يرسمها الاتحاد الاشتراكى العربى . واضاف ان الاتحاد الاشتراكى العربى لا يحل محل النقابات او التعاونيات او منظمات الشباب ، وانما يعمل على القيام برسالته وتحقيق اهدافه بمساعدة هذه المنظمات .

ونستخلص من ذلك امرين :

- **الاول** : ان النقابات المهنية ليست جزءا من تنظيمات الاتحاد الاشتراكى .

- **الثانى** : أنها فى نفس الوقت تساعده على تحقيق أهدافه .

ومن ثم فقد كان من أهم الامور ، تصور علاقة واضحة تنشأ بين النقابات المهنية وبين الاتحاد الاشتراكى ، علاقة لا تذوب فيها هذه النقابات فى تنظيمات الاتحاد الاشتراكى ولا تصبح مجرد فروع لها ، وفى نفس الوقت فانها تتصل بتنظيمات الاتحاد الاشتراكى وتعمل فى تعاون معه .

وقد كانت الصيغة السهلة التى أمكن وضعها فى تحديد هذه العلاقة ، أن يكون للاتحاد الاشتراكى هيمنة كاملة على النقابات المهنية من خلال الموافقة على المرشحين لمجالس النقابات أو من خلال سلطة الاعتراض على ترشيحهم . وبالتالى يصبح زمام مجلس النقابة فى يد الاتحاد الاشتراكى .

وهى صيغة سهلة كما أوضحنا ، ولكنها خطرة ايضا . ذلك انها قد تنتهى — ولعلها قد انتهت فعلا — الى ان يستسهل اعضاء مجالس النقابات بدورهم الاعتماد على توجيهات اجهزة الاتحاد الاشتراكى ، ثم يتطور الامر او لعله تطور ، الى نوع من التلويح برغبات خفية او تطلع الى ماتوحى به أجهزة غير مرئية .. بما يولده ذلك من بيروقراطية ضارة وما يخلقه من نفاق نقابى .

وقد جرت جميع قوانين النقابات المهنية التى صدرت فى السنوات الاخيرة على تطلب العضوية العاملة فى الاتحاد الاشتراكى كشرط للترشيح فى مجالس النقابات . وشذ قانون نقابة المهن الزراعية الذى يتطلب هذا الشرط ايضا لحضور الجمعية العمومية للنقابة ! كما شذ قانون نقابة المهن الهندسية ، الذى لم يلحقه تعديل فى هذا الشأن رغم بعض التعديلات التى ادخلت عليه بعد صدوره فى عام ١٩٤٦ ، فلم يتضمن شرط العضوية العاملة للترشيح فى مجلس النقابة ، ولكن يبدو ان هناك رايا بأن هذا الشرط مفترض استنادا الى قانون كان قد صدر فى ظل الاتحاد القومى عام ١٩٥٨ وتطلب العضوية فى الاتحاد القومى للترشيح فى كافة المستويات النقابية .

على أن العمل قد جرى على عدم الاكتفاء بالعضوية العاملة ، فكان الاتحاد الاشتراكى يمارس سلطة الاعتراض على المرشحين . ذلك انه هو الذى يملك فى نفس الوقت سلطة سحب العضوية العاملة بلا معقب . وهى سلطة ما لم تحطها الضمانات وما لم تجر فى اطار التنظيم الديموقراطى بالانتخاب ، فانها تصبح خطرة على حرية النقابات فى اختيار ممثليها .

وهنا يعترضنا تحفظ هام تجب الاشارة اليه فى صدد تطلب العضوية العاملة للاتحاد الاشتراكى فيمن يرشح لمجالس النقابات . هذا التحفظ هو

أن الانضمام الى الاتحاد الاشتراكى لا يصح ابدا ان يكون شرطا لمزاولة المهنة . لان من بين أسس اى تنظيم سياسى ان يكون الانضمام اليه اختياريا، ولان الحق فى لقمة العيش يجب الا يكون مستمدا من الولاء السياسى ايا كان نوعه .

كذلك نصت جميع قوانين النقابات المهنية التى صدرت فى السنوات الاخيرة، على أن تباشر نشاطها فى اطار السياسة العامة للاتحاد الاشتراكى ، وهو نص مستفاد من عبارات تقرير لجنة الرد على الميثاق .

ولكن السؤال الهام والذى لم يحظ باجابة سليمة ، كان الاتى : **وكيف تمارس النقابات نشاطها فى اطار السياسة العامة للاتحاد الاشتراكى؟ وهل هو التزام يزيد عن الالتزام بمبادىء الميثاق ، وهل تكون ممارسة هذا النشاط فى نطاق مبادىء الميثاق او السياسة العامة للاتحاد الاشتراكى ، عن طريق نشاط اعضاء النقابات المنتمين الى الاتحاد الاشتراكى ، ومدى ما يحققونه من تفاعل مع اعضاء النقابات . ام تكون الطريقة هى تنفيذ لتعليمات توصف بانها «سياسة عامة»؟**

ومع أن « **بيان ٣٠ مارس** » كان قد تعرض للنقابات بصفة عامة واشار بين المهام الرئيسية للمرحلة التى تلته « الى اطلاق القوى الخلاقة للحركة النقابية سواء فى نقابات العمال او نقابات المهنيين » . فان هذا المبدأ لم يترجم الى واقع عملى ملموس .

كذلك فان الدستور الجديد الذى وافق عليه الشعب فى استفتاء عام فى ١١ سبتمبر ، قد تضمن نصا هاما يتعلق بالنقابات اذ جاء به : أن انشاء النقابات والاتحادات **على اساس ديموقراطى** حق يكفله القانون ، **وأن القانون ينظم مساهمة النقابات والاتحادات فى تنفيذ الخطط والبرامج الاجتماعية** ، وفى رفع مستوى الكفاية ودعم السلوك الاشتراكى بين اعضائها وحماية اموالها .»

وهذا النص يصلح منطلقا لاعادة تنظيم النقابات المهنية .

وفى اعتقادى انه وقد تم تشكيل امانة خاصة للمهنيين فى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى ، فان عليها وهى تتعاون مع امانة برنامج العمل الوطنى فى وضعه موضع التطبيق ان تعنى بالامور الاتية :

● مدى الاتفاق والخلاف بين النقابات المهنية وبعضها فى ظروفها . فهناك نقابات اكثر اتصالا بالجمهور مثل نقابة الاطباء ونقابة المحامين . وهناك نقابات تضم جميعها عاملين يخضعون لقوانين العمل او لنظم التوظف مثل نقابة الصحفيين ونقابة العلميين . وهناك نقابات تجمع بين من يزاولون مهنتهم استقلالا وبين العاملين فى القطاع العام او الحكومة .

● الى اى مدى تؤثر هذه الظروف فى طريقة تشكيل النقابة ، والى اى مدى تقترب بذلك من فكرة « الجمعية » وتبعد عن فكرة « النقابة »؟ وما هى العلاقة التى يمكن أن تقوم بينها وبين النقابات العمالية ؟، أتكون فى المرحلة الحالية عن طريق اقامة اتحادات مختلطة مع الابقاء على كيان النقابات المهنية ؟ واى النقابات اصبحت الحاجة ملحة الى ربطه بهذا النوع من الاتحادات ؟

● كيف يمكن تنظيم علاقات النقابات المهنية بجمهور المنتفعين بخدمات اعضائها . وهل يعاد النظر فى كثير من السلطات التى تتمتع بها النقابة تجاه الجمهور ؟ وكيف يمكن ايجاد جهة مشاركة فى الرقابة على التزام آداب المهنة ؟

● كيف يمكن محاسبة مجالس النقابات على دورها الذى يجب أن تؤديه فى خدمة المجتمع ؟ وهل تلزم بأن تقدم حسابا سنويا بما ادته من جهود الى الاتحاد الاشتراكى . وماذا يمكن ان يكون دور الاتحاد الاشتراكى فى هذه الحالة ؟ وكيف يمكن أن تصبح هيئات استشارية نافعة له ؟

وفى النهاية، فان السؤال الذى يطرحه البرنامج عن وجوب أن تضع النقابات المهنية نفسها فى خدمة قضية المجتمع حتى لا تفقد شرعية بقائها . هذا السؤال تملك النقابات المهنية وحدها الاجابة عنه . ان هذه النقابات تضم المثقفين الذين يشكلون كيانا مؤثرا فى تحالف قوى الشعب العاملة . وكلما تطورت العلاقات الاجتماعية الى علاقات اشتراكية ، كلما انعكس ذلك على وضع النقابات المهنية ، واقتربت مصالح اعضائها من مصالح سائر العاملين فى المجتمع . والمهم فى أى تنظيم أن يبدأ بتحليل العلاقات القائمة ثم يضع لها الحل الذى يتفق وطبيعة هذه العلاقات وطبيعة المرحلة .

مفاهيم أساسية للحكم المحلى

د. وليم سليمان قلاده

يفترض «البرنامج» ـ اى برنامج ـ اهدافا لاتوجد فى الواقع ، ويسعى المجتمع بجهد منظم أن يصل اليها . ونتيجة لذلك فان البرنامج يصدر فى حقيقة الامر عن رؤية مستقبلية للواقع ـ وقد تطور ونفى نواحى القصور الكائنة فيه وحقق صورة جديدة تكون بدورها اساسا لانطلاقة جديدة . فالبرنامج يشكل لخطة فى تاريخ الشعب ـ لها ماقبلها وأمامها مابعدها .

ويأتى برنامج ٢٣ يوليو ١٩٧١ بعد حوالى عشرين عاما من قيام ثورة ١٩٥٢ . فما هى دلالته الرئيسية :

لقد شخص الميثاق صورة الواقع المصرى قبل ١٩٥٢ ـ على النحو التالى :

أولا : « كانت هناك واجهة ديمقراطية مضللة . ان الشعب لم يعد صاحب السلطة .. ولم تعد الجماهير هى التى تقرر خط السير الوطنى ، وانما أصبحت أصوات الجماهير تساق وفقا لارادة السلطات الحاكمة ... » .

ثانيا : ابرز الميثاق العلة فى هذا الفشل الديمقراطى . « كان ذلك نتيجة طبيعية لاغفال الجانب الاجتماعى من أسباب ثورة الشعب سنة ١٩١٩ » .

ومن هنا فان نصف مبادىء الثورة الستةكانت اجتماعية لمواجهة الاقطاع ورأس المال والاستغلال .

وكان المبدأ الاخير منها هو اقامة ديمقراطية سليمة . ولقد أوضح عبد الناصر أن مجىء هذا المبدأ فى النهاية كان مقصودا ـ لانه بدون الديمقراطية الاجتماعية لا يمكن أن تقوم حياة ديمقراطية سياسية صحيحة .

ولكن السؤال مازال قائما .. ماهى دلالة برنامج يولية ١٩٧١ فى مسار حركة المجتمع المصرى قبل ١٩٥٢ وبعدها ..

نستطيع فى كلمات عامة أن نقول ان التركيز طوال سنوات الثورة الماضية كان على الجانب الاجتماعى . ولقد كان لهذا التركيز ما يبرره من ناحية ، كما أنه أفرز نواقص جديدة حملت التجربة أعباء ثقيلة من ناحية اخرى .

أما أن هذا التركيز على الجانب الاجتماعى له ما يبرره فلأن الاستغلال كان يسيطر على المجتمع المصرى ، تمارسه الطبقات المالكة . وتدريجيا وضح أمام الثورة طريقها ، وصدرت قوانين يوليو ١٩٦١ وانفتح مسار جديد أمام الشعب المصرى .

ولكن السير فى هذا المسار كان محملا بالاوضاع التى تراكمت اثناء مسار ثورة ١٩٥٢ نتيجة لان هذه الثورة كما يقول الميثاق بدأت « من غير تنظيم سياسى يواجه مشاكل المعركة ... كذلك .. من غير نظرة كاملة للتغيير الثورى .... »

ومن هنا جاءت النواقص التى تراكمت فى طريق الثورة طوال العشرين عاما الماضية .

ولعل أخطر هذه النواقص هو تعطيل الحركة الشعبية ، وعدم اتاحة الفرصة لها كى تعبر عن ارادتها ، وان تمارس بالفعل سيطرتها على الحياة الاقتصادية والسياسية . وازداد تحكم البيروقراطية فى الحياة السياسية والاقتصادية، وارتفعت الشعارات .. فما كسبته مصر اجتماعيا كان يهدده الخسران الديمقراطى .

ان نفى التحكم البيروقراطى لا يعنى الغاء التطور الاجتماعى أو المساس بانجازاته مباشرة أو بطريق غير مباشر . على العكس من ذلك ان هذا النفى يعنى تعميق المكاسب التى تحققت ، وفتح الطريق أمامها كى تحقق كل أهدافها . وتوسيع القطاعات الشعبية التى تمارس من خلالها سلطتها وتستفيد منها .

كيف ؟

نقطة البداية هنا هى المجتمع المصرى ـ وما يعانيه من استغلال اجتماعى وخداع ديمقراطى . واذا كان حل مشكلة التخلف الاجتماعى والاقتصادى فى مصر هو فى « حتمية الحل الاشتراكى » كما يقول الميثاق ، فان الانطلاق الديمقراطى لمسار الثورة انما يعنى تأكيد هذه الحتمية ، وارسائها على أسس فكرية صحيحة واطلاق حرية قوى الشعب التى تصنع الحياة على هذه الارض كى تمارس حقها فى العمل الوطنى ـ السياسى والاقتصادى ـ بكل أبعاده .

فى الوثائق السابقة

والحقيقة ان الميثاق ربط الديمقراطية بالثورة ، وصنع من الاثنين وحدة متكاملة . ففى الباب الخامس الذى خصصه للحديث عن « الديمقراطية السليمة » يبدأ بأن « الثورة بالطبيعة عمل شعبى تقدمى » ثم يخلص الى ان « الديمقراطية هى الترجمة الصحيحة لكون الثورة عملا شعبيا » ويقدم تعريف الديمقراطية ـ « هى توكيد السيادة للشعب ، ووضع السلطة كلها فى يده وتكريسها لتحقيق أهدافها » .

أما الجانب الاخر للثورة ـ التقدمية ـ فان ترجمته الصحيحة فى الميثاق هى الاشتراكية .

وهكذا فان « الديمقراطية والاشتراكية من هذا التصور تصبحان امتدادا واحدا للعمل الثورى »

وتابع الميثاق نظرته فى خصوص شعبية الثورة . ففى نفس الباب الخامس أوضح معالم « ديمقراطية الشعب » وكان من بين الضمانات اللازمة التى ارتأى الميثاق ان ينص عليها الدستور الجديد حماية للديمقراطية ـ المجالس الشعبية . وأورد فى هذا المجال عبارة صارت مشهورة من كثرة ما تناقلتها الاقلام ، وهى بالفعل تستحق ان تعاد كثيرا حتى تنتقل من نطاق المبادىء الى حيز التطبيق الواقعى .

يقول الميثاق :

« ان سلطة المجالس الشعبية المنتخبة يجب أن تتأكد باستمرار فوق سلطة أجهزة الدولة التنفيذية، فذلك هو الوضع الطبيعى الذى ينظم سيادة الشعب ، ثم هو الكفيل بأن يظل الشعب دائما قائد العمل الوطنى ، كما أنه الضمان الذى يحمى قوة الاندفاع الثورى من أن تتجمد فى تعقيدات الاجهزة الادارية والتنفيذية بفعل الاهمال أو الانحراف .

« كذلك فان الحكم المحلى يجب أن ينقل باستمرار وبالحاح سلطة الدولة تدريجيا الى السلطات الشعبية ، فانها أقدر على الاحساس بمشاكل الشعب ، وأقدر على حسمها » .

ثم جاء بيان ٣٠ مارس فنص على أن ادارة الحكومة فى الدستور الجديد يجب أن تكون عن طريق « **التخصص واللامركزية** »

وهكذا تضمن برنامج ٢٣ يوليو ١٩٧١ وهو يتحدث عن الدستور الدائم مبدأ خاصا بالمجالس الشعبية المحلية ، بمقتضاه تتكون هذه المجالس عن طريق الانتخاب المباشر، تنقل اليها السلطة تدريجيا ، وتسهم فى اعداد خطة التنمية وتنفيذها، كما تراقب الانشطة المختلفة .

وتضمنت المواد ١٦١ و ١٦٢ و ١٦٣ من الدستور صياغة هذه المبادىء جميعا .

م ١٦١ ـ تقسم جمهورية مصر العربية الى وحدات ادارية تتمتع بالشخصية الاعتبارية . منها المحافظات والمدن والقرى ، ويجوز انشاء وحدات ادارية اخرى تكون لها الشخصية الاعتبارية اذا اقتضت المصلحة العامة ذلك .

م ١٦٢ ـ تشكل المجالس الشعبية المحلية تدريجيا على مستوى الوحدات الادارية عن طريق الانتخاب المباشر ، ويكفل القانون نقل السلطة اليها تدريجيا ، ويكون اختيار رؤساء ووكلاء المجالس بطريق الانتخاب من بين الاعضاء .



م ١٦٣ ـ يبين القانون طريقة تشكيل المجالس الشعبية المحلية واختصاصاتها ومواردها المالية وضمانات اعضائها وعلاقاتها بمجلس الشعب والحكومة ودورها فى اعداد وتنفيذ خطة التنمية وفى الرقابة على أوجه النشاط المختلفة (١) .

ولقد قصدنا عمدا ان نورد ماحوته وثائق الثورة الرئيسية من نصوص بخصوص المجالس الشعبية كى نوضح الاطار العام الذى تعالج هذه الوثائق الموضوع فيه ولكى يظهر الى أى حد تبلغ اهمية المجالس الشعبية .

ومن خلال هذه المتابعة لما أتته الوثائق المتوالية نستطيع ان نقول ان برنامج يوليو ١٩٧١ قد أكد على نفس المبادىء والخطوط الرئيسية . ويبقى بعد ذلك ما تتمخض عنه الممارسة العملية من نتائج فاذا كان المبدأ نفسه لم يوضع موضع التطبيق ، فكل حديث بصدده سيكون بالضرورة اعادة تأكيد للمبدأ مرة اخرى .

مفاهيم أساسية

والحقيقة ان للحكم المحلى تاريخا طويلا فى مصر كما أن ثمة قانونا صدر عام ١٩٦٠ نظم الادارة المحلية ويجرى تطبيقه بالفعل .

ماهو الجديد الذى تجهد وثائق الثورة من اجل ادخاله فى الواقع المصرى اذن .

الاجابة عن ذلك تنطلق من المفاهيم الاساسية التى تقوم عليها فكرة الحكم المحلى .. وهى ثلاثة :

- اللامركزية
- الديمقراطية
- المفهوم الطبقى

اللامركزية

أول كل شىء يتعين التفرقة بين عدم التمركز (٢) واللامركزية (٣) فعدم التمركز يقوم على توسيع سلطات موظفى الادارة الموجودين فى الاقليم . فيكون لهم الحق فى اصدار القرارات فى شئون معينة خاصة بالاقليم دون الرجوع الى السلطة المركزية فى العاصمة . ويبنى على ذلك أنه اذا أصدر وزير التربية والتعليم قرارا بنقل اختصاصاته الى مديرى المناطق التعليمية فى العاصمة او الاقاليم ـ أو أصدر وزير الداخلية قرارا بنقل بعض اختصاصاته الى مرؤوسيه فى الوزارة او المحافظين أو المديرين فى الاقاليم ، عد ذلك من قبيل النظام المركزى المبسط ، او النظام المركزى غير التركيزى أو النظام اللاوزارى » (٤) .

والامر مختلف عن ذلك تماما فى اللامركزية ان الاساس فى هذه الاخيرة هو وجود ارادة مصدرها الاقليم نفسه ، تعبرعنها اداة يختارها أهل الاقليم ، فبينما هدف مبدأ عدم المركزية الفعالية فى اتخاذ القرارات وفى تنفيذها ، تقوم اللامركزية على الديمقراطية (٥) .

الديمقراطية

وهذا هو المفهوم الثانى الذى تقوم عليه اللامركزية . ففى بلد لا توجد فيه حياة ديمقراطية بالمعنى الصحيح لايكون لتقسيم ذلك البلد الى وحدات جغرافية،ومنح أهل كل اقليم سلطة اختيار مجلس يدير شئونهم ـ لايكون ذلك صورة حقيقية أصيلة للحكم المحلى .

ان الدراسة المقارنة لنظم الحكم المحلى اذا كانت مقصورة على اظهار اوجه الشبه والاختلاف الكائنة بين النصوص التشريعية فى مختلف البلاد ، هذه الدراسة القانونية الخالصة للموضوع تؤدى الى اشاعة الغموض فيه . فالحقيقة ان هذا النظام موغل فى القدم وموجود فى جميع بلاد العالم بصرف النظر عن اوضاعها السياسية والاجتماعية . وفى منهج المقارنة الشكلية تتسع كلمة الحكم المحلى كى تشمل نظام حكومة القبيلة المطبق فى المملكة العربية السعودية ، ونظام

---

[١] ولم تكن نصوص الدستور المؤقت الصادر عام ١٩٦٤ بمثل هذا التفصيل ـ كما انها لم تتضمن اشارة الى المجالس الشعبية . فقد خصص دستور ١٩٦٤ مادتين للادارة المحلية :

م ١٥٠ ـ تقسم الجمهورية العربية المتحدة الى وحدات ادارية . ويجوز ان يكون لكل منها او لبعضها الشخصية الاعتبارية وفقا للقانون

م ١٥١ ـ تختص الهيئات الممثلة للوحدات الادارية بكل مايهم الوحدات التى تمثلها ، وتساهم فى تنفيذ الخطة العامة للدولة . ولها ان تنشىء وتدير المرافق ، والمشروعات الاقتصادية ، والاجتماعية ، والصحية ، وذلك على الوجه المبين فى القانون .

[٢] déconcentration

[٣] décentralisation

[٤] د. فؤاد العطار ، نظرية اللامركزية الاقليمية ، مجلة العلوم القانونية والاقتصادية ، يناير ١٩٦٦ ص ٦٦

[٥] Georges Lescuyer, les Perspectives Actuelles de la Décentralisation Territoriales. مجلة العلوم القانونية والاقتصادية ، المرجع السابق ص ٤٢

الكوميونات فى يوغسلافيا ٦ ونظام المحافظ والمدن والقرى فى مصر .

ونحن نقرأ فى بحث عن « نظام الادارة المحلية فى ج . ع . م - تجربته وتطويره » مقدم الى المؤتمر العربى الثالث للعلوم الادارية الذى عقد بالقاهرة فى اكتوبر ١٩٦٥ :

« لقد عاشت غالبية الجماعات السياسية التى ظهرت فى المراحل الاولى للتاريخ السياسى العالمى فى قرى او مدن وخضعت « لحكومات القبيلة » فالحكومة فى بدايتها ظهرت فى « المفهوم المحلى » ولهذا يطلق على حكومة القبيلة اسم « الحكومة المحلية التقليدية » وهى لاتزال حتى الان تؤدى دورا هاما فى بعض الدول الافريقية والاسيوية ودول العالم العربى .. ومن الناحية الفنية البحتة نجد ان الشاغل الاكبر لخبراء الادارة فى كثير من الدول هو كيفية الوصول الى ربط مناسب للادارة المحلية بادارة الحكم المحلى بحيث يمكن تحقيق وحدة البناء الادارى العام فى الدولة .. (وهكذا) نجد أن كلا من : يوغسلافيا والهند والباكستان والجمهورية العربية المتحدة والمملكة السعودية وليبيا قد قطعت شوطا كبيرا فى هذا المجال واحرزت نجاحا ملحوظا جعل أسس ومقومات التطوير لانظمة الادارة المحلية والحكم المحلى فى هذه الدول محل دراسة الخبراء والفنيين » (٦)

ولقد اثبت الدارسون أن النظام الاستعمارى فى افريقيا اذ سخر السلطات التقليدية الافريقية كى تحقق اغراضه أقام اشكالا من الحكم غير المباشر ومن الادارة المحلية بواسطة رؤساء القبائل الاقطاعيين أو بتعيين رؤساء جدد ليقوموا بدورهم كموظفين ذوى مرتبات تابعين للاستعمار ، بل واقام انظمة جديدة للحكم المحلى — لم تكن موجودة من قبل ، واستخدم فيها مثل هؤلاء الرؤساء (٧)

والواقع انه حين يكون كفاح الشعب منصرفا الى استخلاص استقلاله من الاستعمار ، فانه لايلتفت الى النتائج التى لاتترتب فى الواقع الا اذا خلصت الارادة الوطنية من القيود . ولهذا سجل الدارسون فى تاريخ الادارة المحلية :

ان الحريات القومية شغلت اذهان المصريين منذ بداية القرن عن موضوع الحريات المحلية (٨)

ولم يكن يهتم بهذه الحريات الاخيرة الا أصحاب المصلحة فيها . وهم فى المحل الاول الملاك الزراعيون الذين كانت تتفق مصالحهم واهداف السياسة الاقتصادية للاحتلال البريطانى (٩) على النحو الذى سنشير اليه فيما يلى .

ومن ناحية اخرى فانه مع ازمة النظام الديمقراطى تظهر نفس الاغراض فى الحكم المحلى . وهذا ماحدث فى ايطاليا والمانيا اثناء الحكم الفاشى والنازى (١٠) .

المفهوم الطبقى

على أن المفهوم الثالث الذى تقوم عليه فكرة الحكم المحلى - المفهوم الطبقى - هو الذى يفرق على وجه الدقة واليقين بين تطبيقات هذه الفكرة فى مختلف الازمنة والبلاد .

ومن المعروف أن « المدن فى أوربا كانت هى المناطق الجغرافية التى تحقق لساكنيها فيها التحرر من ربقة الاقطاع ، فى هذه المدن تجمع التجار والصناع ، وكان نمط حياتهم مختلفا عن المجتمع الزراعى الذى تركوه . وكان أهم مطلب لهذا التجمع هو الحرية الفردية ، فبغير الحرية والقدرة على الذهاب والاياب والبيع تكون التجارة أمرا محالا . ومما ساعد على حصولهم على هذا المطلب واقعيا أن الكثيرين منهم نزحوا من اماكن بعيدة تقصر يد سادتهم الاصليين عن الوصول اليهم فى تجمعاتهم الجديدة . وما دام أصبح من المستحيل واقعيا اعادتهم الى العبودية فقد أصبحوا بالفعل أحرارا . وتحول الواقع الى حق . وسلم السادة بذلك . وهكذا أصبحت الحرية هى الحالة القانونية لسكان المدن - للبرجوازيين . ولم تعد الحرية ميزة فردية بل ميزة اقليمية ملازمة لارض المدينة كما لازمت العبودية أرض الريف . وللحصول عليها يكفى للانسان أن يعيش سنة ويوما داخل أسوار المدينة . وجرى المثل الالمانى : « هواء المدينة يجعل المرء حرا » ونشأت قواعد قانونية جديدة تتفق مع الاوضاع الجديدة . واستتبع التكتل داخل المدن عددا من التدابير اللازمة للدفاع والاستقرار ، ونجحت البرجوازية فى اقامة الادارة البلدية ، ونشأت مجالس المدن ، وقامت ببناء الاسوار والارصفة والاسواق والجسور - كل ذلك بالاموال والرسوم التى كانت تجمع من سكان المدن .

---

[٦] ص ١١ و ٧

[٧] Jack Woodis, Africa the Way Ahead, New York, 1963, p. 71.

ترجمة احمد فؤاد بلبع ، افريقيا على طريق المستقبل ، ص ١٠٧

(٨) عثمان خليل ، اللامركزية ، رسالة دكتوراة .

(٩) لطفى السيد ، صفحات مطوية

[١٠] وحيد رأفت ، القانون الادارى ، الجزء الثانى ، ص ٧٨٨ ، ٧٨٩

هكذا يتضح الجوهر الطبقي للحكم المحلي في أوربا . أن نشأته مصاحبة لصعود البرجوازية وازدهارها .

وعلى العكس من ذلك لم تكن المدن في بلادنا وسيلة لتحرر الفلاحين . ولم تقم فيها نظم وقيم يمكن أن تقف في مواجهة الاقطاع . الواقع أن المدينة كانت هي المكان الذى يعيش فيه أمراء الاقطاع ومنه يمارسون سلطانهم . لهذا كانت مذلة الفلاح تتضاعف في المدينة .

ولقد كرس هذا الوضع التنظيم الحديث للادارة المحلية في مصر (١١) الذى وضعته السلطات الانجليزية بمجرد دخولها الى بلادنا . فطبقا للقانون النظامي الصادر في اول مايو ١٨٨٣ أنشىء مجلس مديرية في عاصمة كل مديرية من مديريات القطر ، وكان عدد أعضاء كل مجلس يتراوح بين ثلاثة (الفيوم) وثمانية (الغربية) .

وتكشف شروط عضوية هذه المجالس واختصاصها عن جوهرها الطبقي : فهي مجالس تمثل مصالح الملاك الزراعيين ، وتؤكد تسلطهم . فكان يشترط في عضو مجلس المديرية أن يكون مؤديا مالا مقررا على عقارات أو أطيان في نفس المديرية قدره خمسون جنيها في السنة وذلك منذ سنتين على الاقل . أما الاختصاصات فكانت محدودة ، اذ يجب « استمزاج » أي استطلاع رأى المجلس في اجراء تغييرات في زمام المديرية أو زمام البلاد ... كما يجوز اذا رأت الحكومة أخذ رأى المجلس في بعض المسائل الاخرى كعمليات الطرق والملاحة والرأى .. وأخيرا كان له أن يبدى رغبات من تلقاء نفسه في كل ما من شأنه ترقية المعارف العمومية والزراعة كتجفيف المستنقعات وتحسين الزراعات وتصريف المياه .

على أنه في جميع الاحوال كان رأى المجلس استشاريا بحتا . أى أن قراراته غير ملزمة للحكومة المركزية .

وفي هذا كله يتفق التنظيم مع الاهداف الاستعمارية الانجليزية . فانجلترا كانت تريد جعل مصر وحدة اقتصادية تتخصص في زراعة القطن ، وأن يكون سند وجودها في البلاد هي طبقة الملاك الزراعيين . ولذلك ترك لهؤلاء حكم الريف، وتقديم خبراتهم ومشوراتهم للحكومة المركزية التي توافقت أهدافها مع رخائهم وازدهار مصالحهم وتأكيد سلطانهم على الريف وسكانه .

أما المدن فكان لها وضع آخر . وأول مجلس بلدى أنشىء في مصر كان في الاسكندرية عام ١٨٦٩ . ففى تلك السنة قبل تجار الصادرات والواردات وأصحاب الاملاك فرض رسوم على أنفسهم لتحسين المرافق البلدية. وتكون منهم عام ١٨٨٥ قومسيون تناولت مهمته تحسين المدينة صحيا وعمرانيا ، وجاء الامر العالى عام ١٨٩٠ يكرس هذا الوضع وأنشىء مجلس بلدى الاسكندرية لتمثيل المدينة .

ويكشف تشكيل هذا المجلس عن طبيعته الطبقية أيضا . فهو مكون من ٢٨ عضوا . ستة منهم أعضاء بمقتضى القانون أى بحكم وظائفهم . وثمانية أعضاء تعينهم الحكومة . أما الباقى فبالانتخاب . ستة ينتخبهم سكان المدينة بالانتخاب العام (١٢) . وثلاثة ينتخبون بمعرفة تجار الصادرات . وثلاثة ينتخبهم تجار الواردات . واثنان بمعرفة أرباب العقارات بالاسكندرية .

الشىء الهام هنا أن الامر العالى نص على أنه لايجوز أن تنتخب أكثر من ثلاثة أعضاء من جنسية واحدة من الاجانب أو حتى من المصريين .

وحتى بعد تعديل هذا النظام عام ١٩٣٥ ، نص القانون على أن يكون من الاعضاء المنتخبين والمعينين ١١ عضوا على الاقل من الاجانب (**عدد الاعضاء** طبقا للقانون الجديد ٢٨ عضوا) .

وفي عام ١٨٩٦ أنشىء مجلس بلدى المنصورة عدد الاعضاء المنتخبون فيه ثمانية . أربعة عن الاهالى وأربعة عن الاجانب . وتتابع انشاء المجالس البلدية المختلطة على نفس الطراز .

ونخلص من هذا الى أنه اذا كانت مصالح الملاك الزراعيين هى التى تعبر عنها مجالس المديريات، فان مصالح البرجوازية الاجنبية ـ على خلاف الوضع في المدن الاوربية ـ كانت وراء مجالس المدن .

لقد استطردنا في عرض هذا المفهوم الاساسى للحكم المحلى ـ الجوهر الطبقي ـ لان هذا هو المفهوم العلمى الصحيح لهذا النظام ، ولاننا ونحن بصدد اعادة النظر في هذا النظام ببلادنا يجب أن تكون نقطة البداية هي : لصالح من نريد ان ننشىء المجالس الشعبية ؟ أن الإجابة عن هذا السؤال تحدد تشكيل المجالس واختصاصاتها .

خطوط عريضة

ان مفهوم البرنامج أنه ذو طابع عملى . فهو وان انطلق من مفاهيم نظرية ، الا أن القصد منه تحقيق نتائج عملية وتحويل النظريات الى واقع .

البرنامج يضع الخطوط العريضة والاهداف

---

[١١] انظر في ذلك كله عثمان خليل ووحيد رأفت ، المرجعان السابقان

[١٢] نص النظام على شروط مالية في الناخب . اذ يشترط ان يدفع اجر لمساكنهم ٧٥ جنيها فاكثر سنويا ، واثبتت لجنة التحقيق ان عدد الناخبين الذين يدفعون هذه القيمة ٨٤٢٣ منهم ٢٤١٤ مصريين و ٦٠٠٩ أجانب . فبحسب هذا النظام كانت اغلبية الناخبين من الاجانب

للخطة » خطة طموح – ولكنها تبدأ بالواقع – هكذا يقول البرنامج – « خطة يحلق فيها فكرنا فى الافاق الواسعة ، القريبة والبعيدة ، لعالم المستقبل ولكن دون أن يغيب عن انظارنا واقعنا الذى نريد أن نبنى على أرضه دولتنا الحديثة » ٠

ان لدينا قانونا للادارة المحلية صدر عام ١٩٦٠ ٠ هذا هو الواقع الذى نبدأ به ٠ ودراسة كيفية تنفيذه ، وأوجه القصور التى شابت ذلك هو الطريق العلمى للتطوير المقبل . ولقد سجلت الدراسات والمذكرات والقرارات المتعددة فى هذا المجال ان هذا القانون : (١٣) ٠

● صدر ولم تكن قد وضحت بعد أبعاد ومعالم الطريق الاشتراكى وقبل استكمال الثورة الاجتماعية بصدور قوانين يوليو الاشتراكية عام ١٩٦١ التى أكدت ارادة الشعب فى بناء مجتمع أفضل قائم على الحرية والعدل بمفهومهما الحقيقى، وسيطرة الشعب على كافة الاجهزة التنفيذية وجميع وسائل الانتاج ٠ لقد صدر القانون والتناقضات الطبقية والاجتماعية كانت ما تزال تحكم العمل السياسى .

● نتيجة لذلك فانه لا يوجد تنسيق للعلاقة بين أجهزة الادارة المحلية وأجهزة الانتاج والاجهزة السياسية على النطاق المحلى . فالواقع يثبت أن الابعاد الحقيقية لتجربة الادارة المحلية لم تتضح ولم تمارس وبسبب الاهتمام بأداء الخدمات وتحقيق المطالب الاقتصادية المباشرة ، مع قصور الامكانيات المالية ٠

● ومن العقبــات التى واجهت نظام الادارة المحلية عدم وجود تقسيم علمى صحيح لخريطة مصر الجغرافية ٠ بحيث أن الحدود الادارية للوحدات المحلية لا تمثل مجتمعات متكاملة اقتصاديا واجتماعيا وعمرانيا ٠

هذا من ناحية – كما أثبتت الدراسات أن من اهم المشكلات التى تواجه المجالس القروية صغر حجم الوحدة المحلية التى يخدمها المجلس بحيث لا تكون الحجم الامثل من الناحية الاقتصادية لتأدية الخدمة ولا تتوافر فيها الخبرات الفنية والادارية المطلوبة ٠

واظهرت التجارب الحاجة الملحة الى ايجاد صلة مباشرة بين المدينة وبين ما يحيط بها من قرى، اذ ان المرافق والمشروعات والخدمات الموجودة فى المدن لا تقتصر على سكان المدينة فحسب ، ولكنها تخدم فى الوقت نفسه سائر المواطنين من سكان القرى المحيطة بها ٠ كما أن المدينة تتركز فيها عادة الوحدات الادارية والمالية التى تخدم مجالس القرى ٠

ولهذا فقد اقترح انشاء مجالس محلية على مستوى المركز بحيث يتكون من المدينة عاصمة المركز وما يحيط بها من قرى وحدة تتمتع بالشخصية المعنوية ٠

مقترحات عملية

طبقا للمنهج الذى وضعه البرنامج ، أن تبدأ الخطة بالواقع ، وكما نص الدستور على ان يكون تشكيل المجالس الشعبية تدريجيا – ومن أجل وضع المفاهيم النظرية السابقة والخطوط العريضة التى أشرنا اليها موضع التطبيق فانه من الممكن أن يتم ذلك كله عمليا على النحو الاتى :

● يبدأ بتكوين المجالس الشعبية على مستوى المحافظة والمركز ٠ ولتحقيق التنسيق بين العمل السياسى ، والانتاج ، والخدمات والنشاط الشعبى المنظم يشكل المجلس من ممثلين للتنظيم السياسى ، ووحدات الانتاج الزراعى والصناعى ، وأجهزة الخدمات ، وممثلين للنقابات ٠

وهكذا يضم المجلس أمناء وحدات الاتحاد الاشتراكى وعدد من أعضاء لجانه – وممثلين للجمعيات التعاونية الزراعية – وممثلين لمجالس ادارات الوحدات الانتاجية الصناعية وممثلين للنقابات ٠ وتراعى فى تحديد عدد ممثلى كل قطاع تحقيق مصالح الاغلبية التى طال حرمانها – صاحبة الحق المشروع فى النصيب العادل من الدخل القومى ٠

هنا نجد فى حقيقة الامر المدرسة العملية لتدريب القيادات من أبناء هذه الاغلبية – العمال والفلاحون . ولقد أوضحت دراسة ميدانية عن المجالس القروية (١٤) ، ان « الرأى العام فى القرية لم ينضج نضجا كافيا مستنيرا بحيث يكفل اشراك الناس فى الجهود الاصلاحية بطريقة فعالة ٠ وما زالت هناك صعوبات ملموسة فى اثارة اهتمام الناس وحثهم على الاسهام فى الجهود وفى الادارة وفى التمويل ٠ لان موقف الغالبية منهم ما زال سلبيا سواء فى المجالس أو اللجان أو فى نواحى النشاط المختلفة فى القرية – لانهم لم يمارسوا هذا الاسلوب الديمقراطى من قبل ولم يشتركوا اشتراكا فعالا فى حكم أنفسهم وفى ادارة شئونهم على النحو المرغوب » ٠

على ان هذه المدرسة الشعبية هى خير الفرص المتاحة للقيادات الشعبية للتدريب ، ومنها يمكن ان تخرج القيادات التى تستطيع ان تنتقل الى مستويات أعلى من المجالس ٠ وأن تدخل الى الجهاز الحكومى نفسه – فتكون من أكبر عوامل تطويره ٠

---

[١٣] انظر فى هذه الدراسات والمذكرات والقرارات مجمعة فى كتاب الاتجاهات الحديثة فى الادارة المحلية اعداد خالد عبد الحميد فراج ، ١٩٦٩ وقد اعتمدنا عليه فى الكثير مما اوردناه هنا

[١٤] على عبد العليم محجوب ، تقويم المجالس القروية بمحافظة المنوفية سرس الليان ، ١٩٦٨ ، ص ١٥٨

● الاختصاص الاول للمجالس الشعبية ؟ هو الخطة ، وضعها وتنفيذها ومتابعتها والرقابة عليها ٠

هذه الخطة هى التى تتضمن الرؤية المستقبلية للواقع ، وهى الرؤية التى يهدف البرنامج الى تحقيقها ٠

وفى اطار الخطة التى تقدم الصورة الشاملة تواجه المجالس الشعبية مختلف المشاكل التى تعرض لقطاعات النشاط الوطنى المختلفة ٠ وبالذات تضع المجالس امامها تنفيذ المهام العاجلة التى وضعها البرنامج وهى تغيير وجه الحياة فى القرية، وتنظيم النسل ، ومحو الامية ٠

● ومن خلال التكامل فى تمثيل القرية والمدينة — فى مجلس المحافظة ومجلس المركز — وكل منهما يضم ممثلى القطاعين معا — يتحقق ما استهدفه الميثاق والبرنامج من تذويب الفوارق بين المدينة والقرية ٠ فالخطة تشترك المجالس فى وضعها وتنفيذها ومتابعتها على أساس التوازن بين احتياجات القطاعين ٠

● وتعطى للمجالس الشعبية سلطات نهائية ٠ بمعنى أن القرار الصادر من المجلس لا يكون خاضعا لاقرار من سلطة أعلى ٠ وعلى وجه الدقة تقسم اختصاصات المجالس الى نوعين : أحدهما تكون القرارات فيه نهائية ٠ أما النوع الثانى فلا تكون ثمة سلطة تراجعه سوى المجلس الشعبى الاعلى ٠ وهكذا تتدرج السلطات من المجلس الشعبى للمركز الى المجلس الشعبى للمحافظة ، الى مجلس الشعب نفسه ٠

فاذا صار قرار المجلس نهائيا فيتعين أن تخضع له أجهزة الانتاج والخدمات ٠ بحيث يتكون محور للسلطة الشعبية يوجه ويراقب سلطات الانتاج والحكومة ٠

هذا التوجيه والرقابة الشعبيتان هما الوسيلة الناجعة لمقرطة جهاز الدولة ، وهما توجيه ورقابة يتمان من خلال مؤسسات محددة — فالشعب هنا يكون له تنظيمه وسلطاته ويمارس سلطة حقيقية على الاجهزة التنفيذية فى الانتاج والخدمات ٠

ملاحظات ثلاثة أخيرة

الاولى : ان ممارسة الحكم المحلى مرتبطة بالمناخ والممارسة الديمقراطية على الصعيد الوطنى . فلقد أثبتت التجربة أن الادارة المحلية لم تحقق أهدافها نتيجة لعدم خبرة المواطنين فى ادارة شئونهم الخاصة أو ممارسة العمل السياسى (١٥) ٠

الثانية : أن الامر ليس مجرد وضع نصوص فى برنامج اودستور او قانون ٠ ليس ادل على ذلك بالرغم من أنه قد مضت سنوات عديدة على اصدار قانون الادارة المحلية فان مقومات هذا النظام لم تستكمل بعد ٠ سواء من ناحية الموظفين والخبراء اللازمين ، أو الاختصاصات التى يجب أن تنقل الى المجالس المحلية، أو تدبير الاعتمادات اللازمة لعملها ٠

وفى واقع الامر وكما أشرنا الى ذلك من قبل ، فان تطوير التجربة واستكمالها لا يمكن أن يتم الا خلال الممارسة التى تستكمل كل مقوماتها ٠ وبدون ذلك ستظل المسألة محصورة فى نصوص بالغة الدقة ورائعة المضمون تنقل من وثيقة الى أخرى ٠

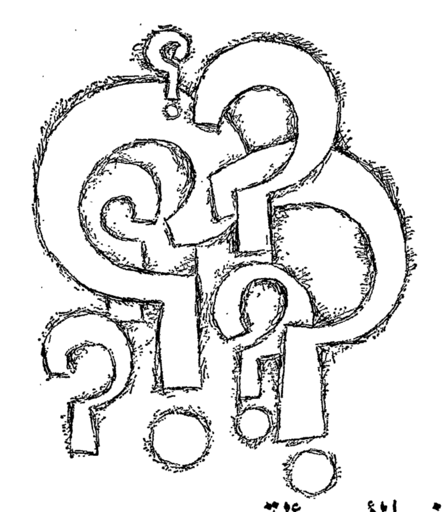
الثالثة : لابد من أجل تغيير الحياة على هذه الارض خصوصا فى الريف أن تعاد صياغة الانسان المصرى ماديا وثقافيا ٠ واذا كانت المعركة قد وضعت بين يدى الجندى المصرى معدات بالغة الدقة والتعقيد ، فان صنع الحياة يتطلب أيضا التعرف على المنهج العلمى وعلى انجازاته التكنولوجية ٠

أن أية خطوة فى طريق التقدم تتطلب ثورة ثقافية حقيقية ، يتعرف فيها الشعب على الاسس التى تقوم عليها الحضارة المعاصرة ٠

ان التقدم الحضارى هو الطريق الوحيد للوصول الى الاشتراكية ، لان هذه الاخيرة لا تعتمد فى الاقناع بها على مجرد اشباع الحاجات البيولوجية المباشرة ٠ انها تحتاج الى الوعى ، والنظرة الشاملة ، واستشراف المستقبل ٠ وهذا كله لا يمكن أن يحدث الا من خلال ثقافة متحضرة ٠ فلابد من فترة تاريخية تمحى فيها الامية ، وتكتسب فيها المهارات الفنية فى استخدام الالات فى الريف خصوصا ، واضاءة الليل الطويل بالكهرباء ، وتعليم الشعب بحيث يتعود على صداقة الكتاب والاستمتاع به ٠٠ هذا كله هو الطريق المأمون والوحيد نحو الاشتراكية ٠

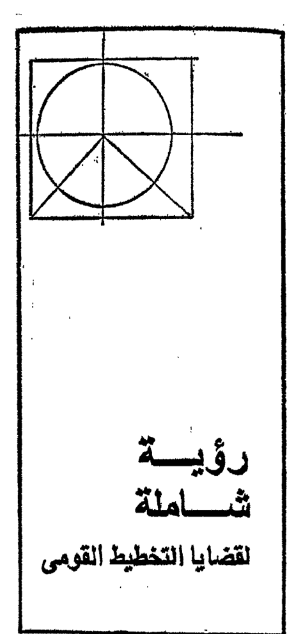
---

[١٥] فراج ، المرجع السابق ، ص ٢٠٥ محجوب ، المرجع السابق ، ص ١٥٨.



بعض الأسئلة التى يطرحها البرنامج

- ☐ رؤية شاملة لقضايا التخطيط القومى
- ☐ القطاع العام . . . وديمقراطية الانتاج
- ☐ محو الامية : مهمة لا تحتمل التأخير
- ☐ مشكلة التعليم..وقضية التقدم الاجتماعى
- ☐ البحث العلمى :الواقع ــ المشاكل ــ الحلول
- ☐ الدراسات الاجتماعية وتطوير المجتمع
- ☐ حرية الابداع : جوهر الادب والفن
- ☐ اعادة بناء القرية: معركة سياسية وجماهيرية
- ☐ بناة المستقبل فى « برنامج العمل الوطنى »



رؤيـــة شـــاملة لقضايا التخطيط القومى

د. عطية مهدى سليمان
أحمد حسـن ابراهيم

أعطى برنامج العمل الوطنى الذى اقره المؤتمر القومى العام الثانى ، فى دور انعقاده الاول فى ٢٣ يوليو ١٩٧١ ، اهتماما كبيرا للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ودور التخطيط كأسلوب وحيد لتوجيه الاقتصاد القومى فى بلد يتحول الى الاشتراكية .. وكذلك حدد البرنامج الدور الحاسم للمنظمات الشعبية فى توجيه التخطيط القومى ومتابعته ودور الحكومة فى عملية وضع البرامج المختلفة التى تمثل فى اطارها العام خطة قومية ترسم مسار الاقتصاد القومى لسنوات قادمة . فقد اكد برنامج العمل الوطنى على ضرورة وأهمية التخطيط فى تطوير اقتصادنا وتقدمه ، « ان زيادة الانتاج والانتاجية لتفرض علينا ايضا ان نهتم اهتماما حقيقيا بالتخطيط ،فالتخطيط هو عصب ايةتنمية اشتراكية ولئن كانت جهود الجماهير وحماستها هى التى مكنتنا من بلوغ ما بلغناه ، الا ان استمرار التقدم متوقف على ان ترتبط الجهود بعمل تنظيمى مخطط» (برنامج العمل الوطنى ص ٢٧) .

كذلك قدم برنامج العمل الوطنى واجبا محددا يرى ان ظروف ومهام المرحلة الراهنة من تاريخنا الوطنى ، ومقتضيات بناء الدولة الحديثة ، تفرضه على شعبنا بكافة فئاته ومؤسساته وتنظيماته .. « ان علينا جميعا ، فردا فردا ، ومؤسسة مؤسسة ، الدولة والاتحاد الاشتراكى والتنظيمات النقابية العمالية والمهنية ، وكل التنظيمات الشعبية » ان علينا جميعا ان نبذل كل ما فى طاقاتنا من جهد ، لا مكان بيننا للكسول او السلبى او الطفيلى او المتعالى ، واننا لكى تؤتى جهودنا ثمارها لابد وان تنظمها برامج تنفيذية مفصلة موزعة على فترات زمنية محددة ، على ان يضمها جميعا خطتان مدة كل منهما خمس سنوات ، وعلى الحكومة ان تشرع على الفور فى اعداد الخطة القومية الشاملة متضمنة الاهداف والمهام والوسائل التى اشرت اليها ، على ان تنتهى من الاعداد التفصيلى لمرحلة الخمس سنوات الاولى فى بحر ستة شهور على الاكثر بحيث يعرض مشروع الخطة على اللجنة المركزية لمناقشته واقراره فى شهر فبراير المقبل ليتم ادراج الاعتمادات اللازمة فى ميزانية ٧٢ ــ ١٩٧٣ » . (برنامج العمل الوطنى ص ٣٧) .

قضايا للمناقشة

ان مهمة اعداد خطة قومية شاملة بالصورة التى اشار اليها برنامج العمل الوطنى وفى الفترة الزمنية التى حددها لاعدادها ، وهى ستة شهور على الاكثر ، انما تعيد من جديد طرح قضية التخطيط القومى الشامل للمناقشة ، ليس بطبيعة الحال من زاوية اختياره كأسلوب لتسيير اقتصادنا فهذا أمر تم حسمه منذ اكتشفت ثورة يوليو حقيقة ان الاخذ بمبادىء الاشتراكية العلمية هو حل حتمى لمشاكل مجتمعنا ، (الميثاق) . وعلى ذلك فان ما قصدنا اليه من اعادة طرح قضية التخطيط القومى الشامل للمناقشة فى الوقت الحالى هو التعريف به وعرض المبادىء الاساسية له وشرح

الجوانب الرئيسية للعملية التخطيطية والتى يلزم الالمام بها كخطوة أساسية أولى لابد منها لنجاح اعداد وتنفيذ أى خطة قومية لمجتمع يسير فى طريق التحول الى الاشتراكية ».

ولعله من الامور المسلم بها انه من غير المنطقى أن نبدأ بتطبيق أسلوب التخطيط القومى الشامل فى بلدنا قبل ان نبدأ أولا بالتعرف على هذا الاسلوب ومناقشة مفهومه وفلسفته وخطوطه العامة . كان لابد لنا على سبيل المثال أن نحدد مفهوم الشمول ، وأن نحدد بشكل أولى ما هو ضرورى وصالح لبلدنا من وجهة النظر الاقتصادية والاجتماعية ، ثم كان علينا أن نناقش معنى ومضمون الخطة القومية ، وعملية اعداد الخطة ، والشروط الواجب توافرها والخطوات الواجب اتباعها حتى نستطيع أن ننجح فى اعداد خطة قومية تتفق مع الواقع الموضوعى لظروفنا ولا تتعارض معه — كذلك كان من الضرورى أن نحدد لانفسنا رأيا واضحا ومعلنا حول المعدلات التى تتم بها التنمية ، وأن نحدد المدى الذى يجب ويمكن أن تصل اليه تضحية جيل من الاجيال فى سبيل أجيال أخرى قادمة ، وأن نحدد ايضا القطاع الذى يتحتم عليه أن يتحمل أعباء التنمية ومسئولياتها بقدر اكبر من غيره ، وأى فئات المجتمع سوف تستفيد من عوائد عملية التنمية أكثر من غيرها ».

ان مناقشة علمية وموضوعية لتلك النقاط تعتبر أمرا حيويا بل ضرورة لازمة لنجاحنا فى تطوير حياة مجتمعنا ، الا أنه لم يتح لمثل هذه المناقشة أن تتم بالشكل الملائم والمفيد ، الامر الذى أدى بالضرورة الى العديد من نواحى النقص فيما أنجزه نضالنا الشعبى عبر السنوات الماضية .

ولقد ادرك برنامج العمل الوطنى هذه الحقيقة واعتبر أن نواحى النقص فى مجال التخطيط تأتى فى مقدمة النواحى السلبية ، أو نواحى النقص الاساسية فيما أنجزه نضالنا الشعبى عبر تلك السنوات . « لقد صدرت الخطة الخمسية الاولى كقسم من خطة عشرية هدفها مضاعفة الدخل القومى ، غير اننا لم ننجح فى تحقيق هذا الهدف بالرغم من أن معدلات التنمية خلال الخطة الخمسية الاولى قد اقتربت الى حد كبير من المعدلات المطلوبة لتحقيقه ، وربما كان السبب الرئيسى هو أن التخطيط القومى الشامل ، كفلسفة وسياسة ، لم يلق الاهتمام الكافى الذى يرفع من كفاءة أجهزته وينشر الوعى به بين المواطنين » . (برنامج العمل الوطنى ص ٨) ».

التخطيط والتنظيم السياسى

ان ادراك برنامج العمل الوطنى لهذه الحقيقة وأبرازها يكتسب اهمية خاصة تستمد قوتها من حقيقة أخرى هى أن بناء وتطوير التخطيط القومى الشامل يعتبر أمرا مستحيلا ما لم يكن مرتبطا بالتطوير المستمر للنظام السياسى والاجتماعى للاشتراكية كالديمقراطية ونظام الموضوعى بين الجوانب الاقتصادية لنظام يتحول الى الاشتراكية وبين الجوانب السياسية والاجتماعية للاشتراكية كالديمقراطية ونظام التعليم المناسب وغير ذلك . كذلك تتأكد أهمية ادراك برنامج العمل الوطنى لهذه الحقيقة وابرازها اذا ما نحن سلمنا ببديهية أنه بداية لاستخدام أسلوب التخطيط القومى الشامل فى بلد نام يتحول الى الاشتراكية ، وكبديل وحيد للاسلوب الرأسمالى للادارة الاقتصادية ، يجب أن تقوم حملة سياسية واسعة ومنظمة للتوعية بأهمية التخطيط القومى والدعوة له ، وتوضيح دور ومسئولية كل مواطن — بالنسبة لهذا الاسلوب الجديد على حياتنا — سواء فيما يتعلق بمناقشة أبعاده واهدافه أو فى الالتزام بالعمل على تحقيق تلك الاهداف ، أو فى متابعته لها وتقييمه لمستوى تحقيقها ، على ان يكون واضحا انه يجب على كل مواطن أن يمارس مسئولياته هذه من خلال التنظيم السياسى على مختلف مستوياته ، ومن خلال ممارسة حقيقية لديمقراطية شعبية تتمكن كل فئة وجماعة أن تعبر بواسطتها عن مصالحها ومطالبها وتطلعاتها لسنوات قادمة .

ولعله من المفيد هنا أن نؤكد أن مناقشة أسلوب التخطيط القومى الشامل ، كفلسفة وسياسة ، يجب الا تكون مقصورة على المنظمات السياسية وحدها بل يجب ان تتم ايضا وعلى نفس المستوى من العمق والوعى ، وبنفس القدر من الديمقراطية داخل الاجهزة التى تتولى اعداد خطط التنمية القومية حيث انها ، اى تلك الاجهزة ، بالتأكيد أحوج الى الوعى التخطيطى من غيرها ، فضلا عن أن ذلك يحول دون ان يتحول مفهوم التخطيط القومى الشامل بمرور الوقت الى مجرد مفهوم فنى ضيق ومجموعة من العمليات الحسابية المجردة .

مفهوم التخطيط القومى الشامل

يعنى التخطيط القومى الشامل بمفهومه الفنى وضع **خطة عمل للاقتصاد القومى ككل، ولكل وحدة اقتصادية على حدة خلال فترة زمنية محددة** على أن تحدد هذه الخطة اهدافا استثمارية وانتاجية واستهلاكية لكل وحدة ولكل قطاع وللاقتصاد القومى ككل . ويهتم التخطيط بتحديد نوعية وكيفية تطور العلاقات الهيكلية بين المتغيرات الاقتصادية المختلفة كتحديد معدلات النمو لكل قطاع وللاقتصاد القومى كله ، وتحديد العلاقات ذات التأثير المتبادل بين توزيع الدخل القومى بين التراكم الرأسمالى ، أو الاستثمار ، وبين

الاستهلاك الجماعى والفردى من ناحية ، وتوزيع الدخل القومى بين الافراد واعادة توزيع الدخل القومى لصالح أصحاب المصلحة الحقيقية فى التحول الاشتراكى وربط الاجر والزيادة فيه بالانتاجية ونموها من الناحية الاخرى ، وكذلك تحديد اولويات الاستثمار التى تساعد على تحقيق معدلات النمو المطلوبة لكل قطاع ، وللاقتصاد القومى كله والتى يؤدى تحقيقها الى تحقيق الاهداف المحددة لخطة التنمية .

وبالاضافة الى ما تقدم فانه يجب أن ينظر الى التخطيط القومى الشامل فى اطار زمنى ومكانى بمعنى أن يراعى التخطيط القومى ويتضمن التوزيع الزمنى للانشطة الاقتصادية اى انه مطالب بتقديم الاجابة على سؤال بماذا يجب ان نبدأ ؟ كما أنه مطالب ايضا بمراعاة التوزيع المكانى للخطة الاقتصادية بشكل يحقق التوزيع الجغرافى الامثل للانشطة الاقتصادية من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ، وفى هذا الشأن فان التوصية بضرورة الاهتمام بمفاهيم اكثر علمية وموضوعية للتخطيط الاقليمى تصبح أمرا واجبا ، وهذا هو ما يدعو اليه البعض من ضرورة عمل خريطة اقتصادية اجتماعية لمصر للسنوات القادمة .

التخطيط والجماهير

لعل من الامور الجديرة بالاشارة ، بل وبالتاكيد هنا أن كل ما تقدم ذكره فى السطور السابقة يجب أن يتم بناء على تحليل سياسى واجتماعى يقوم على أساس من الايمان الثابت بأن التخطيط القومى لابد وان يخدم بالدرجة الاولى طبقات الشعب وفئاته العاملة وفى مقدمتها الفلاحين والعمال وان يضع رفع وتحسين مستوى معيشتها كهدف رئيسى له ينبغى تحقيقه . فالقضاء على التخلف والامية ، ورفع المستوى الاقتصادى والتعليمى والصحى لطبقات الشعب الكادحة ، وتحقيق توزيع افضل للدخل القومى تراعى فيه مصالح هذه الطبقات ، وتنمية الاقاليم المتخلفة ، واقامة مراكز اقتصادية متعددة متطورة وحديثة ، وتحقيق توزيع افضل للموارد بين القرية والمدينة والقضاء على تخلف القرية وتحويلها الى مدينة حديثة صغيرة . كل ذلك يجب أن يمثل اهدافا أساسية للتخطيط القومى الشامل ، وهى بلا شك أهداف ممكنة التحقيق لو خطط لتحقيقها بشكل علمى وموضوعى . على أنه يجب ان يكون واضحا من البداية أن شيئا من ذلك لا يمكن ان يتحقق ما لم يسبقه عمل جاد ومخلص ومنظم لتوعية جماهير الشعب الكادحة بمفهوم التخطيط القومى الشامل واهميته لحياتها وربطها وربط مصالحها بنجاحه عن طريق مشاركتها مشاركة فعلية فى وضع اهداف الخطة ، ومناقشتها فى مراحلها المختلفة بشكل يجعلها مستعدة وقادرة على الدفاع عن التخطيط والتمسك به والعمل على انجاحه ، وهذا يتطلب تعبئة سياسية واقتصادية مستمرة وعلى أسس موضوعية للجماهير وهذه تعتبر واحدة من المهام والواجبات الاساسية للتنظيم السياسى . كما أن ذلك يتطلب ايضا أن يرتبط المخططون ارتباطا يوميا وثيقا ودائما بالجماهير ومشاكلها اليومية . فانفصال المخططين عن جماهير الشعب ومشاكلها وأهدافها وآمالها يمكن أن يعيق بل ويقضى على امكانيات تطوير التخطيط القومى الشامل ، وفى احسن الاحوال ومع التفاؤل الشديد فان انفصال المخططين عن الجماهير ومشاكلها اليومية وآمالها لابد وان يؤدى الى ان يصبح التخطيط مجرد عملية فنية بيروقراطية بحتة قد تؤدى الى حدوث اضطرابات اقتصادية وسياسية بالغة الخطورة على تطور ونمو المجتمع ، وهذا ما تؤكده تجارب التخطيط السابقة عندنا وعند الاخرين .

التطور التاريخي لاساليب التخطيط

ان عملية اعداد خطة شاملة للتنمية الاقتصادية لابد وأن تبدأ من الاجابة على سؤال هام هو : ما هى طريقة اعداد الخطة ؟ واذا أخذنا فى الاعتبار التطور التاريخى الذى اجتازته أساليب التخطيط وطرق اعداد الخطة فى الدول التى سبقت الى الاخذ بالتخطيط كأسلوب لتوجيه النمو الاقتصادى والاجتماعى فانه يمكننا التمييز بين ثلاث مراحل اساسية مر بها تطور اساليب التخطيط او طرق اعداد الخطة .

المرحلة الاولى : ويمكن تسميتها بالمرحلة التقليدية وفيها كان التخطيط يتم عن طريق وضع أهداف انتاجية واستهلاكية للوحدات الاقتصادية بناء على فروض معينة للجهاز المركزى للتخطيط تتصل بالموارد المتاحة وكيفية استخدامها وتصوره لنمو الاقتصاد القومى خلال الفترة المعنية ، ثم تأتى بعد ذلك الخطوة الثانية على طريق اعداد الخطة وفيها تحدد الوحدات الاقتصادية اهدافها الانتاجية والاستهلاكية بناء على فروضها الخاصة وفى ضوء ظروفها الانتاجية والموارد المتاحة لديها



وتصوراتها لنموها الذاتي ؟ ويتبع ذلك عملية مواجهة بهدف التوفيق والمواءمة بين مقترحات الجهاز المركزى للتخطيط ومقترحات الوحدات الاقتصادية بهدف الوصول الى حل ما لمشكلة تحديد الاهداف الانتاجية والاستهلاكية ، وتلعب المساومة دورا كبيرا في تحديد وصياغة هذا الحل الذي يتوقف بطبيعة الحال على قدرة الاطراف المختلفة على المساومة وما يتبعها من رفع او تخفيض او تعديل الاهداف الانتاجية والاستهلاكية لوحدات الاقتصاد القومى . ومن الواضح أن لهذه الطريقة مزاياها وعيوبها ، وتتلخص اهم مزاياها فى اشراك عدة آلاف من المسئولين فى اعداد الخطة وبالتالى يصبح لدى كل منهم صورة واضحة الى حد كبير عن أهداف ومشاكل الخطة الشاملة . أما عيوب هذه الطريقة فتتلخص فى التعارض والتناقض المحتمل ، والذى كان يحدث فى اغلب الاحيان ، بين فروض ومقترحات الجهاز المركزى للتخطيط وفروض ومقترحات الوحدات الانتاجية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان هذه الطريقة لا تضمن تحديد واختيار الاستخدام الامثل للموارد حيث انها لا تقدم استخدامات بديلة للاستخدام المطروح من قبل الجهاز المركزى للتخطيط ، وعلى الرغم من احتمال تغيير هذا الاستخدام بشكل أو باخر نتيجة لعملية المساومة ، فانه لا يمكن القول بأن الاستخدام النهائى ، وحتى بعد المساومة ، هو الاستخدام الامثل . وينتج عن ذلك بطبيعة الحال سوء استخدام للموارد ، وظهور عجز او زيادة عما كان مستهدفا ومخططا له فى انتاج بعض السلع والخدمات ، اثناء تنفيذ الخطة .

المرحلة الثانية : بدأت باستخدام الموازين السلعية والموازين القومية فى التقريب بين فروض ومقترحات كل من الجهاز المركزى للتخطيط والوحدات الاقتصادية بخصوص الموارد والاستخدامات الخاصة بالسلع الرئيسية والموارد الاساسية (عمل ـ راس مال ـ تجارة خارجية .. الخ) ، ولضمان الاتساق بين الانشطة الاقتصادية المختلفة . ومن هنا فأن احتمال التعارض أو التناقض بين هذه الفروض والمقترحات يكون أقل مما هو عليه فى حالة استخدام الطريقة الاولى ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان استخدام الموازين السلعية والموازين القومية قد ادى الى تطور تقنين التخطيط والتعبير عن العلاقات الهيكلية بين المتغيرات الاقتصادية بصورة كمية . وعلى الرغم من أن هذا التعبير الكمى عن العلاقات الهيكلية لم يكن يضمن تحقيق الكفاءة الاقتصادية فى توزيع الموارد ، الا انه ادى الى تطور أساليب التخطيط الى المرحلة التالية .

المرحلة الثالثة : هى مرحلة تقنين التخطيط فى شكل نماذج اقتصادية كمية تعبر عن العلاقات الهيكلية بين المتغيرات الاقتصادية بأبعادها الزمنية والمكانية واختبار ذلك كله من ناحية الكفاءة على اساس الفروض الموضوعة والخاصة بأهداف التطور الهيكلى للاقتصاد القومى ، ونمو القطاعات المختلفة وعلاقاتها المتشابكة وتأثيراتها المتبادلة . وكنتيجة لكل هـذا أصبح من الممكن وضع استخدامات بديلة للموارد ، وأصبح من الممكن أيضا اختيار الاستخدام الامثل أو الاستخدام الاقرب الى الاستخدام الامثل . وقد ساعد على سرعة تطور أساليب التخطيط واستخدام هذه الطريقة تطور ونمو كثير من فروع العلم المختلفة التى تساعد على جعل التوصل الى حل أمثل لمشكلة الاختيار الاقتصادى أمرا ممكنا .

من العرض السابق لاساليب وطرق اعداد الخطة نستطيع أن نقرر أنه من الافضل فى اعدادنا لخطة التنمية الاقتصادية الشاملة لبلادنا أن نبدأ بطريقة استخدام الموازين السلعية والموازين القومية كنقطة بداية تصل بنا الى الطريقة الثالثة وهى وضع عدة نماذج للتطور الاقتصادى والاجتماعى للمجتمع المصرى خلال فترة العشر سنوات أو الخمس عشرة سنة القادمة ، يعبر كل نموذج منها عن تصور حل معين لمشكلة الاختيار الاقتصادى .

البعد الزمني للخطة

يتميز التخطيط من حيث البعد الزمنى للخطة الى ثلاثة انواع: هى التخطيط السنوى، أوقصير الاجل ، والتخطيط المتوسط ، والتخطيط طويل الاجل . ونستطيع القول بأن أى تخطيط اقتصادى شامل لابد أن يقوم أساسا وبالدرجة الاولى على أساس التخطيط طويل الاجل . والتخطيط طويل الاجل ، والذى يمتد مداه لفترة ١٥ ـ ٢٠ سنة ، هو فى الاساس تصور علمى لما يمكن أو يجب أن يكون عليه الاقتصاد والمجتمع خلال هذه الفترة من الزمن ، وحتى يمكن أن يكون هذا التصور تصورا علميا سليما فانه يجب أن يقوم على أساس دراسات **مفصلة** لتطور ونمو الموارد الاقتصادية ، والتطور السكانى ، والتغيرات التى ينتظر ان تطرأ على هيكل السكان سواء من ناحية السن أو الخبرة أو التعليم ، ودراسات التطور العلمى والتكنولوجى خلال هذه الفترة ، ثم انه يجب أن يؤخذ فى الاعتبار الاهداف الاجتماعية والاقتصادية الخاصة بالمستوى المعيشى للسكان ، وتوزيع الدخل ، وهيكل ونوعية الاستهلاك الفردى والجماعى ، ومعدلات النمو المطلوب تحقيقها بالنسبة لانتاجية العمل ، وادخال قطاعات اقتصادية جديدة ، والغاء قطاعات قائمة ... الخ . ويمكن فى هذا المجال

المتوقعة بين نوعية العلاقات بين التخطيط طويل الاجل والتخطيط المتوسط (٥ — ٧ سنوات) والتخطيط السنوى . والنـوع الاول من هذه العلاقات بين انواع التخطيط الثلاثة هو ما يمكن تسميته العلاقات الثابتة ، ويمقتضى هذه العلاقة توضع خطة اقتصادية طويلة الاجل (١٥ سنة مثلا) ثم تقسم هذهالخطة الى ثلاث خطط متوسطة الاجل يتم تقسيم كل منها بدورها الى خطط سنوية تحقق فى مجمـوعها الهدف الثابت للخطة طويلة الاجل .

اما النوع الثانى من هذه العلاقاتفهو مايمكن أن يطلق عليه العلاقة المتحركة ، بمعنى أن يتم وضع خطة طويلة الاجل تم تقسيمها الى خطط متوسطة الاجل ، والفرق الاساسى بين هذاالنوع والنوع السابق ، اى بين العلاقة الثابتة والعلاقة المتحركة ، هو انه فى ظل العلاقة المتحركة يتم اعـداد الخطة ، ببعـديهـا الزمنى ، الطويل والمتوسط ، بشكل دورى كل سنة ، وبالتالى فانه يتم تغيير اهداف كل خطة فى ضوء ما امكن انجازه فعلا اثناء التنفيذ فى السنة السابقة وبناء على ما يمكن ان يجد من جديد سواء عن احتمال أكتشاف مصادر جديدة للطاقة او ظهور اساليب انتاج جديدة ، او ظهور مشاكل معينة فى التنفيذ تجعل تنفيذ الجزء المتبقى من الخطة امرا صعبا او مستحيـلا .. وهكذا . ويسـاعد التخطيط المتحرك على توفر المرونة فى الخطة ، وفى تغيير الاهداف طبقا لما يكشف عنه واقع التنفيذ ، الا ان هذا النوع من التخطيط عالى التكلفة بالمقارنة بالتخطيط الثابت الذى يتصف بعدم المرونة فى تغيير الاهداف ويتطلب مستوى عاليا من الدقة فى جمع البيانات حتى يمكن تحدد اهـداف ثابتـة للخطة ، ويتميز هذا النوع من التخطيط ، اى التخطيط الثابت ، بأنه منخفض التكاليف بالمقارنة بالنوع المتحرك . واذا اخذنا فى الاعتبار ظروف الاقتصاد المصرى وطبيعة وكمية ومـدى الثقـة بالبيانات المتاحة امام المخططين ، بالاضافة الى المزايا التى توفرها العلاقة المتحركة ، فأنه يمكن التوصية بأختيار طريقة التخطيط المتحرك لتحديد العلاقة بين التخطيط طويل الاجل ، والتخطيط المتوسط والتخطيط السنوى ، على الرغم مـن ارتفاع تكلفتها . وفى هذا المجال يمكن اضـافة ميزة اخرى الى المزايا السابق ذكرها للتخطيـط المتحرك ، ذلك ان هذا النوع من التخطيط يخلق الارتباط المستمر للمخططيـن بالخطـة ، ويحقق متابعتهم المستمرة للخطة الاقتصادية بدلا من عملهم المتقطع وارتباطهم الموسـمى بالخطـة فى حالة أتباع التخطيط الثابت .

مراحل اعداد الخطة

تتكون عملية اعداد الخطة من عدة عمليات مركبة ومعقدة تتم فى مراحل ترتبط ببعضـهـا البعض وتسير فى تسلسل وتتابع زمنى دقيق . وتتم عملية اعداد الخطة بصفة عامة فى ثلاث مراحل هى :

أولا : المرحلة التحضيرية : وتتم فيها عمليات جمع البيانات والحقائق الخـاصة بالاقتصـاد والمجتمع وتصنيفها وتحليلها والاستفادة منها فى اجراء دراسات وصفية وتحليلية للاقتصاد والمجتمع ككل ولقطاعاته المختلفة كل على حدة ، بهدف التعرف على المشاكل التى تواجه الاقتصاد القومى والصعاب التى تعترض عمليـة التنمية وحصر كافة الموارد البشرية والمادية والمـالية للمجتمع ، والتعرف على العـلاقات الهيكليـة وعلاقات التشـابك بين كافة قطاعات الاقتصاد القومى ومختلف اوجه النشاط الاقتصادى به ، والتعبير عن تلك العلاقات فى صورة رقمية . ويجب أن يقوم باجراء هذه الدراسات لجنـة للتخطيط القومى ، ويمكن ان يساعدها فى ذلك معهد التخطيط القومى بتقديم الاساس النظرى للتخطيط وطرح بعض الحلول العلمية لمشاكل التخطيط النظرية والعملية . وبالاضافة الى تلك الدراسات والتى يمكن أن نطلق عليها الدراسات التخطيطية الرئيسية ، فان وضع الخطـة الاقتصادية الشاملة يتطلب اجراء دراسات أخرى مساعدة لتحديد بعض المتغيرات الاقتصادية ، ومنها على سبيل المثال تحديد هيـكل الاسعار وتطورها ، ويمكن الاشارة فى هذا المجال الى أن جهاز الاسعار المركزى المزمع انشاؤه يمكن أن يكون خطوة هامة لتحسين وتطوير عملية وضع الخطة القومية الشاملة . كذلك يجب الاشارة الى ضرورة انشاء جهاز مركزى للقوى العاملة والاجور تكون مهمته الرئيسية تخطيط نمو وتوزيع القوى العاملة بين القطاعات الاقتصادية المختلفة والعمل على توفير الخبرات الضرورية للوظائف الاقتصادية والاجتماعية ، ويمكن بل ويكون من الافضل أن يرأس كل من الجهاز المركزى للاسعار والجهاز المركزى للقوى العاملة والاجور مسئول بدرجة وزير . وفى جميع الاحوال ينبغى مراعاة أن تتم عملية جمع البيانات والحقائق الخاصة بالاقتصاد والمجتمع ، وكذلك الدراسات القائمة عليها بشكل يخدم عملية وضع الخطة القوميـة . كذلك يجب أن يؤخذ فى الاعتبار التطـور التكنولوجى والامكانيات المادية فيما يتعلق بجمع وتخزين واعادة المعلومات والبيانات ، كما يجب العمل على الاستفادة بهذا التطور وتلـك الامكانيات الى اقصى حد مستطاع ، ويمكن ان يقوم بهذه العملية جهاز مركزى للاحصاء ، (الجهاز المركزى للتعبئة والاحصاء) على أن تكون هذه البيانات والمعلومات متاحة بصفة مستمرة تحت تصرف لجنة التخطيط القومى .

ثانيا : مرحلة اعداد الاطار التجميعى المبدئى للخطة : وفيها يتم تحديد الاهداف الرئيسية الاجمالية للاقتصاد القومى فيما يتعلق بالمتغيرات الرئيسية للنشاط الاقتصادى من دخل وانتاج واستثمار وعمالة واستهلاك وصادرات وواردات ، وتكون هذه الاهداف الرئيسية فيما بينها اطارا لا يتعداه المخطط عند اعداد التفاصيل كما أن هذه الاهداف تصور المعالم الاساسية لشكل المجتمع فى الفترة المقبلة ، تلك المعالم التى يكون قد سبق تحديدها بواسطة السلطات السياسية العليا والتى يمكن أن يمثلها فى هذا الشأن مجلس اعلى للتخطيط يضم أكبر مستويات السلطة السياسية المسئولة ، وتصدر تلك المعالم بعد تحديدها فى شكل توجيهات سياسية عريضة يصدرها المجلس الاعلى للتخطيط الى لجنة التخطيط القومى لكى تلتزم وتهتدى بها عند اعدادها لكل من الاطار الاجمالى والاطار التفصيلى للخطة .

ثالثا : مرحلة اعداد الاطار التفصيلى للخطة : وفيها يتموضع تفصيلات دقيقة للاهداف الاجمالية التى تحددت على مستوى الاقتصاد القومى ومستوى القطاع والتدرج بها حتى مستوى المشروع ومستوى المجاميع السلعية والسلع الرئيسية . ويتم اعداد الاطار التفصيلى للخطة باستخدام اسلوب الموازين الاقتصادية وهو اسلوب مباشر لتوزيع الموارد السلعية والبشرية والمالية بين مختلف الاستخدامات البديلة توزيعا يكفل تحقيق الاهداف الجزئية والكلية للخطة ويكفل أيضا تحقيق الصورة التوازنية ، أى أنه يكفل تساوى المقادير المتاحة من جميع الموارد مع الاستخدامات التى يمكن تخصيصها لها ، بالاضافة الى أنه يكفل حدا أدنى من المرونة بالنسبة للوحدات الانتاجية فيما يتعلق باتخاذ القرارات الخاصة بتطوير نشاطها الإنتاجي . ويمر اعداد الإطار التفصيلى للخطة القومية بعدة خطوات متتالية يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ — تقوم لجنة التخطيط القومي بتفصيل الاهداف الاجمالية التجميعية للاقتصاد القومي وتوزيعها على المستوى القطاعى .

٢ — ترسل الاهداف بعد تفصيلها على المستوى القطاعى الى الوزارات والقطاعات المسئولة لمناقشتها ولكى تعد فى ضوئها الاطار التفصيلى المبدئى للخطة والذى يستند أساسا الى مقترحات الوحدات الانتاجية القاعدية من حيث اعطاء الاولوية لمشروعات معينة فى ضوء معايير استثمار معينة ، وفى ضوء تحقيقها للاهداف الاجمالية التى سبق أن حددتها لجنة التخطيط القومى .

٣ — يرفع كل قطاع من القطاعات الاطار التفصيلى المبدئى لخطته الى الوزاره المختصة التى ترسله بدورها الى لجنة التخطيط القومى حيث يتم تجميع كل الخطط القطاعية فى صورتها التفصيلية المبدئية ، ثم تجرى مناقشات ودراسات لهذه الخطة التفصيلية المبدئية المجمعة للتأكد من مدى تحقيقها للاهداف الاجمالية ، ومن مدى تحقيقها للتوازن والتناسب بين القطاعات المختلفة .

٤ — تعيد لجنة التخطيط القومى الى الوزارات المختلفة تلك الخطط القطاعية مضافا اليها اية تعديلات واقتراحات تراها ضرورية حتى يمكن للوزارات والمؤسسات والوحدات الانتاجية التابعة لها أن تضع الخطط القطاعية فى صورتها التفصيلية النهائية .

٥ — بعد ان تنتهى الوزارات والمؤسسات من اعداد الخطط القطاعية التفصيليه فى صورتها النهائية فانها ترفعها من جديد الى لجنة التخطيط القومى التي تقوم بتجميعها واصدارها فى شكل خطة مركزية واحدة لها صفة الالزام بمقتضي القانون وعلى ذلك تلتزم كافة الوزارات والمؤسسات والوحدات الانتاجية بتنفيذها بعد أن تكون لجنة التخطيط القومى قد قامت بعرضها على المستويات الاعلى كالمجلس الاعلى للتخطيط ومجلس الوزراء والمجالس النيابية والهيئات السياسية (*)

محتويات الخطة القومية الشاملة

لا جدال فى أن محتويات الخطة القومية تحتاج الى تحليل شامل وعميق قد لا يسمح المجال هنا باجرائه ، ولذلك سنكتفى بعرض موجز وسريع للمحتويات التى لابد وأن تشتمل عليها اى خطة قومية شاملة وهى :

١ — **اهداف اقتصادية قومية تحدد قيم المتغيرات الاقتصادية خلال الفترة الزمنية المحددة للخطة ، وكذلك تحديد التفضيلات الاقتصادية بين هذه المتغيرات وترتيبها حسب درجات الافضلية** (*)

٢ — تحديد لوسائل السياسات الاقتصادية من حيث نوعيتها وقيمتها ، وكذلك تحديد قواعد للتصرف لكل وحدات النشاط الاقتصادى ، كما انه يجب أن تشتمل أيضا على تحديد لمراكز اتخاذ القرارات الرئيسية والثانوية وتوزيع سلطة اتخاذ القرارات طبقا للتنظيم الاقتصادى (المركزية أو اللامركزية) على أن يؤخذ فى الاعتبار عند تحديد السياسات الاقتصادية ووسائلها ضرورة اتساقها

مع الاهداف المحددة فى الفترة السابقة وعدم تعارضها أو تناقضها معها .

٣ ــ العلاقات الهيكلية ، وهذه العلاقات الهيكلية اما علاقات انتاج أى علاقات تكنولوجية واما علاقات سلوكية أو علاقات تنظيمية . وتوجد درجة كبيرة من الحرية فى اعتبار ما اذا كان متغير ما يمثل علاقة هيكلية أم لا ، ويتوقف ذلك على أى حال على طول فترة التخطيط ، ويمكن تحديد ذلك بالاستعانة بالنتائج العلمية والدراسات فى النظرية الاقتصادية ودراسات الاقتصاد القياسى والخبرات الادارية فى الجهاز الحكومى وكذلك الدراسات الاحصائية والقياسية التى يمكن أن تستخدم فى التطبيق العلمى .

العلاقات الانتاجية والهيكلية

يمكن تلخيص العلاقات ذات الصفة الانتاجية البحتة فيما يلى :

١ ــ العلاقات الانتاجية بين السلع والخدمات وبين الموارد اللازمة لانتاج هذه السلع والخدمات ،ويمكن تحديد هذه العلاقات باستخدام عدة أنواع من النماذج الاقتصادية لعل أهمها نماذج المدخلات والمخرجات والنماذج القطاعية المجمعة .

٢ ــ علاقات الدخل ــ الاسعار ــ الاستهلاك للقطاع العائلى . وتختلف النماذج التى تدرس وتحدد نوع وقيمة العلاقات بين الدخل والاسعار والاستهلاك ، وبين الدخل والاسعار والادخار ، وبين مستوى الاستهلاك الكلى ومستوى استهلاك انواع معينة من السلع ، وكذلك تحديد مستوى الاسعار خلال الفترة الزمنية للخطة وتحديد مرونات الاسعار بالنسبة لبعض أو لكل السلع . كل ذلك يمكن أن يؤدى الى جعل التخطيط اكثر دقة .

أما العلاقات الهيكلية ذات الصفة التنظيمية والسلوكية فمنها على سبيل المثال :

١ ــ العلاقة بين الاسعار والارباح فى كل من الانتاج والتسويق .

٢ ــ العلاقة بين الاجور والدخل .

٣ ــ علاقات تحدد توزيع الدخل واعادة التوزيع داخل القطاع العائلى .

٤ ــ علاقات تحدد التجارة الخارجية .

التخطيط والتجارة الخارجية

يمكن القول بأن احد المؤثرات الاقتصادية الهامة فى نشاطنا الاقتصادى كبلد نام يوجد خارج حدود بلدنا ، وهذا المؤثر هو ما يمكن تسميته تقسيم العمل الدولى . فمن المعروف أن علاقات التجارة الخارجية (المنظورة وغير المنظورة) تؤثر تأثيرا واضحا على المتغيرات الاقتصادية ، وعلى ذلك فليس هناك شك فى أن تخطيط التجارة الخارجية على أساس ربطة بتقسيم العمل الدولى عن طريق اقامة علاقات تجارية طويلة الاجل ، على أساس من مراعاة التطور الاقتصادى للبلاد المعنية ، هو ضرورة لا غنى عنها للتغلب على كثير من المشاكل التى قد تظهر أثناء تنفيذ الخطة ، وكذلك يجب أن يؤخذ فى الاعتبار عند اعداد الخطة مستوى النمو الاقتصادى والتكنولوجى للدول التى تربطنا بها علاقات تجارية ، والتغيرات الهيكلية التى تحدث فى اقتصاديات تلك الدول . ان الوصول الى تقسيم عمل دولى يأخذ فى اعتباره الظروف الموضوعية لكل دولة وتطلعاتها ويحقق فى نفس الوقت الاستخدام الامثل لامكانيات وموارد كل منها فى هذا الاطار الدولى ، يعتبر شرطا أساسيا لوضع خطة اقتصادية متناسقة وممكنة التنفيذ ، كما يحقق فى نفس الوقت الاستخدام الامثل للموارد . ومثل هذا التقسيم الدولى للعمل يمكن التوصل اليه بالاتفاق مع الدول الصديقة ، التى تربطنا بها علاقات اقتصادية وتجارية ، حول طريقة لتحديد نظام تبادل المعلومات عن الخطط والموارد الاقتصادية . ولقد بدأت مجموعة الدول الاشتراكية بالفعل فى تنفيذ مثل هذا النظام فيما بينها من أجل تنفيذ برنامج اقتصادى موحد خلال فترة الـ ١٥ ــ ٢٠ سنة القادمة .

وبالاضافة الى ما سبق الاشارة اليه فان اى خطة اقتصادية قومية شاملة لابد وأن تشتمل على دراسة تحليلية وافية لما تم انجازه فى الماضى وتقييم التطور الاجتماعى والنمو الاقتصادى خلال هذه الفترة ، وبالتالى يمكن عند وضع الخطة الجديدة الاستفادة من معرفة الصعاب والاخطاء والتعديلات التى حدثت خلال الفترات السابقة ، فى كل القطاعات والمجالات ، وبغير ذلك فان وضع خطة دقيقة وسليمة يصبح فى حكم المستحيل .

أجهزة التخطيط

ان نجاح التخطيط لا يتطلب فقط استخدام الاساليب والطرق العلمية فى اعداد الخطة ، وانما يتوقف أيضا على مدى سلامة الاطار التنظيمى لاجهزة التخطيط ومدى ملاءمة هذا الاطار لمقتضيات اعداد الخطة فى مراحلها المختلفة ، وفى التوقيت الزمن المحدد لها .

فالتخطيط القومى الشامل كأسلوب لادارة الاقتصاد القومى يحتاج الى أجهزة متعددة لاعداد الخطة ومتابعة تنفيذها ، ليس هذا فقط بل لابد وان يتوفر لهذه الاجهزة وللاطار التنظيمى الذى يجمعها معا ثلاثة شروط أساسية هى :

اولا : أن تكون تكلفة ادارتها (أجور ومهايا — ايجارات — مصروفات ادارية — كهرباء ومياه .. الخ) اقل تكلفة ممكنة · ومن هنا ينبغى اختيار النظام الامثل لهذه الاجهزة بما يحقق هذا الشرط .

ثانيا : ان يكون هناك اتساق وعدم تعارض بين الوظائف والمهام التى تقوم بها هذه الاجهزة من ناحية ، وان لا يكون هناك تكرار لبعض الوظائف أو المهام التى تؤديها من الناحية الاخرى .

ثانيا : ان يكون هناك اتساق وعدم تعارض ملزمة للاجهزة التنفيذية . وهذا يتحقق بربط سلطة اجهزة التخطيط بأعلى مستويات السلطة فى الدولة .

ويمكن هنا تقديم مقترح بالبناء التنظيمى لاجهزة التخطيط فى مصر ، نعتقد أنه قادر على تحقيق مهام التخطيط السابق ذكرها ، على النحو التالى :

١ — **مجلس أعلى للتخطيط** : تكون مهمته الرئيسية تحديد الاهداف العامة ، الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، لتطور ونمو المجتمع خلال فترة التخطيط طويل ومتوسط الاجل . ولذلك يجب أن يضم هذا المجلس أعلى مستويات السلطة السياسية والتنفيذية ، أى انه يجب أن يرأسه رئيس الجمهورية ويضم رئيس الاتحاد الاشتراكى العربى ورئيس مجلس الشعب ورئيس الوزراء ورئيس لجنة التخطيط القومى وممثل عن الاتحاد العام للنقابات العمالية واعضاء من اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى وبعض الشخصيات العلمية والاجتماعية .

٢ — **لجنة التخطيط القومى** : تكون مهمتها ترجمة الاهداف التى يضعها المجلس الاعلى للتخطيط الى أرقام وسياسة اقتصادية اكثر تفصيلا وتحديدا . ونعتقد أنه ، لضمان فعالية اللجنة ، ينبغى أن يرأسها نائب لرئيس الوزراء وتضم فى عضويتها الوزراء المختصين أو من ينوب منهم ، ورؤساء أجهزة التخطيط المساعدة ورئيس الجهاز المركزى للتعبئة العامة والاحصاء ، كما يمكن أن تضم أيضا بعض الشخصيات ذات الكفاءة فى المجالات المرتبطة بعمل التخطيط .

٣ — **معهد التخطيط القومى** : ويقوم اساسا باعداد الخطة طويلة الاجل (١٥ — ٢٠ سنة) ، وتقديم دراسات علمية حول مشاكل التخطيط ، وتدريب كوادر المخططين ورفع مستواهم العلمى والفنى .

٤ — **جهاز فنى للتخطيط على المستوى القومى**: يتبع لجنة التخطيط القومى مباشرة ، ويقوم بوضع خطط الانتاج وتوزيع الاستثمارات على المستوى القومى بالتعاون والاشتراك مع أجهزة التخطيط على المستوى القطاعى ومستوى المشروع . ويمكن القول أن الجهاز الفنى لوزارة التخطيط يمكن أن يقوم بهذه المهمة بعد تطويره التطوير الضرورى .

٥ — **أجهزة التخطيط القطاعية** : وتكون على مستوى الوزارات والمؤسسات العامة وتكون مهمتها وضع خطط القطاع اوالوزارة بالتعاون مع أجهزة التخطيط بالمشروعات التى تتبعها والتنسيق بين خطط هذه المشروعات ورفعها الى الجهاز الفنى للتخطيط ، والتعاون معه فى تنسيقها ، ووضع الخطة القومية .

٦ — **اجهزة التخطيط على مستوى المشروع**: تقوم باعداد الخطط المالية والعينية للمشروع ورفعها الى الجهات الاعلى متضمنة مقترحاتها بخصوص الانتاج والاستثمار لنشاطها الاقتصادى وتوضيح احتياجاتها من الموارد المادية والبشرية والمالية .

٧ — **اجهزة تخطيط على المستوى الاقليمى** : تقوم بربط وتنسيق خطط المشروعات والمؤسسات الواقعة فى دائرة الاقليم (مركز أو محافظة) ووضع خطة اقتصادية للاقليم تبين توزيع النشاط الاقتصادى ونموه داخل الاقليم وتستطيع بتعاونها مع أجهزة التخطيط الاخرى أن تصل الى تحقيق توزيع أمثل للنشاط الاقتصادى من وجهة النظر الجغرافية أى المكانية .

٨ — **جهاز التخطيط المالى** : يختص بوضع الخطة المالية المقابلة للخطة العينية . والخطة

المالية تضبط وتحكم التدفقات المالية فى خط موازٍ ومتفق مع التدفقات السلعية . ويجب أن يتم وضع الخطة المالية بنفس طريقة وضع الخطة العينية وعلى نفس المستويات .

أجهزة التخطيط القومي المساعدة

بالاضافة الى الاجهزة السابقة والتى تعتبر اجهزة تخطيط رئيسية فان هناك ثلاثة أجهزة أخرى لا تشترك بشكل مباشر فى اعداد الخطط الاقتصادية الا أنعملها يعتبر ضروريا لاعداد هذه الخطط وهذه الاجهزة هى :

١ — **الجهاز المركزى للتعبئة والاحصاء :** ويقوم بجمع البيانات والحقائق ووضعها بصفة مستمرة تحت تصرف لجنة التخطيط القومى وأجهزتها الفنية .

٢ — **الجهاز المركزى للقوى العاملة والاجور :** وتكون مهمته تخطيط وتوزيع القوى العاملة ووضع سياسات التوظف بما تتفق وأهداف الخطة ، وكذلك دراسة هيكل الاجور وتحديد مستواها العام ، وتوصيف الوظائف ، وربط ذلك كله بمستوى الدخل المتاح للانفاق ، وتوزيع الدخل القومى بين الاستهلاك والاستثمار . ويمكن تحويل وزارة العمل الى جهاز مركزى للقوى العاملة والاجور ، بعد نقل بعض أختصاصاتها الحالية الى جهات أخرى .

٣ — **الجهاز المركزى للاسعار :** ومهمة هذا الجهاز اقتراح السياسات العربية ، وتسعير السلع والخدمات الرئيسية ومن ثم تحديد هيكل عام للاسعار ، على أن يتم تسعير السلع والخدمات على أساس التكلفة والتفضيل الاجتماعى ، وأن يكون ذلك كله مرتبطا بأهداف الخطة الاقتصادية وسياسة توزيع الدخل بين الاستهلاك والاستثمار ، وكذلك توزيع الدخل بين الافراد والفئات وسياسات الضرائب والاعانات وغيرها .

٤ — **الجهاز المركزى للتكنولوجيا والبحوث العلمية :** يهتم بوضع الخطوط العامة للتقدم العلمى واختيار أساليب الانتاج على ضوء نتائج البحث العلمى والتطورات التى ينتظر أن تطرأ على أساليب الانتاج .. الخ . وكذلك التنبؤ باتجاهات الابحاث والتقدم العلمى ، والاشراف على البحوث العلمية وتوجيهها بما يخدم أهداف الخطة . ونعتقد أن وزارة البحث العلمى يمكن أن تتحول الى مثل هذا الجهاز .

أجهزة الرقابة والمتابعة

لضمان تنفيذ الخطة القومية تنفيذا سليما يتفق مع أهدافها ويحققها لابد من توفر نظام دقيق لمراقبة ومتابعة تنفيذ الخطة يقوم على عدد من الاجهزة يتوفر لها شرط التناسق وعدم التعارض فيما بينها . وأهم أجهزة الرقابة التى يمكن أن يكون لها حق مراقبة ومتابعة تنفيذ الخطة هى :

١ — **اجهزة التخطيط على كافة المستويات .**

٢ — **جهاز التخطيط المالى :** وتكون رقابته على المتابعة والتقييم ، ونقترح أن يقوم الجهاز ومرتبطة بوظيفة الجهاز من حيث امساك حسابات المشروعات والمؤسسات ومنحها الائتمان الذى يتفق مع الخطة المالية السابق اعتمادها ووفقا لمراحل تنفيذ مشروعات الخطة .

٣ — **جهاز رقابة عام :** ويعتبر اهم اجهزة الرقابة ويجب أن يكون أقواها سلطة وأقدرها على المتابعة والتقييم ، ونقترح أن يقوم الجهاز المركزى للمحاسبات بمهمة جهاز الرقابة العام .

٤ — **الرقابة الشعبية :** وتقوم بها المنظمات الشعبية المختلفة كلجان العمال فى المصانع والتنظيم السياسى ومجلس الشعب .

على أنه يجب أن يكون واضحا أن عملية الرقابة والمتابعة يجب الا تقوم أساسا بهدف اكتشاف الاخطاء فقط، ومحاسبة مرتكبيها ولكنها تقوم بهدف اجراء دراسات وتحليلات لمشاكل التنفيذ وأسبابها واقتراح حلول لهذه المشاكل سواء كانت انتاجية أو تسويقية أو ادارية وذلك بهدف زيادة الكفاءة الاقتصادية للمشروعات وتحقيق أهداف الخطة .

كادر المخططين

ان أجهزة التخطيط لابد أن تدرك أنها لا يمكن أن تبدأ عملها من فراغ لتجمع لنفسها خبراتها الخاصة بها ، وهناك بالتاكيد خبرات مصرية أتيح لها أن تشارك فى التجربة المصرية للتخطيط وهناك أيضا خبرات دولية فى مجال التنبؤ الاقتصادى (التخطيط طويل الاجل) واستخدام النماذج الكمية وفى أساليب المتابعة والتصحيح الديناميكية ذات الكفاءة العالية . وعلى ذلك فانه لضمان نجاح هذه الاجهزة فى مهمتها ، وباقل قدر من التكلفة ، لابد من توجيه دعوة جادة ومخلصة الى الذين عاشوا التجربة المصرية للتخطيط

وكذلك الى الخبراء الدوليين الذين اكتسبوا خبرتهم من تجارب دولهم فى التخطيط القومى الشامل ، للمشاركة فى عمل هذه الاجهزة .

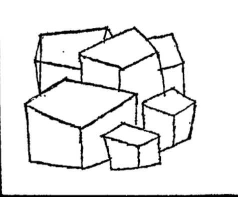
كذلك ينبغى هنا أيضا اثارة نقطة هامة تتصل بكادر المخططين وطبيعة تخصصاتهم ويلزم التأكيد هنا على ضرورة تمتع كادر المخططين بأفق سياسى وأيديولوجية سياسية ترتبط أساسا بجماهير وطبقات الشعب العاملة والتى يتم التخطيط أولا وقبل كل شىء لمصلحتها والعمل على تحسين ورفع مستوى معيشتها . واذا عجز كادر المخططين عن ربط نفسه وعمله بمصالح هذه جماهير وطبقات الشعب العاملة والتى يتم سوف تكون معاكسة تماما لما تتطلبه ظروف مرحلة التحول الى الاشتراكية وقيام المجتمع الاشتراكى لمصلحة طبقتى الفلاحين والعمال والطبقات والفئات المتحالفة معهما من مثقفين وجنود ورأسمالية وطنية .

ويجب التأكيد أيضا على ضرورة أن تضم أجهزة التخطيط تخصصات وخبرات فى مختلف فروع العلم والا يقتصر على الاقتصاديين وحدهم . ومثل هذا التأكيد ينبع من طبيعة عملية التخطيط بما تتسم به من تشابك وتعقيد ، كما أنه ناتج أيضا من طبيعة تطور ونمو الوسائل الالية والحسابية التى يمكن أن تساعد فى عملية التخطيط ومتابعتها . ومن هنا يمكن القول أيضا بضرورة انشاء « نظام معلومات » موحد كوسيلة للتخاطب بين أجهزة التخطيط المختلفة وبين المخططين من مختلف التخصصات .

ان الصمود فى معركة التنمية الاقتصادية منعا لأى انهيار اقتصادى لا يمكن ان يقل فى أهميته عن الصمود العسكرى ، بل يمكن القول انه شرط ضرورى له . وانطلاقا من هذه الحقيقة يمكن القول بأن العمل فى أجهزة التخطيط يجب أن يفهم ، وخاصة فى الظروف الحالية لبلدنا ، على أنه عمل وطنى بالدرجة الاولى ، ينبغى حشد كافة الطاقات الممكنة له ، وأحيانا بدون عوامل الاغراء المادى ، كما يحدث فى الجبهة العسكرية .

وفى النهاية ، فاننا نعتقد أن هذه المقالة كان يجب أن تنتهى الى تصور لنمو وتطور الاقتصاد المصرى خلال فترة الخمسة عشر أو العشرين سنة القادمة، الا أننا ندرك أن الوصول الى مثل هذا التصور يحتاج الى دراسات عديدة ومتشعبة تتطلب جهود أعداد كبيرة من الخبراء والباحثين . ولذلك فقد اكتفينا هنا بعرض ما يمكن اعتباره مدخلا نظريا للدراسات فى التخطيط القومى الشامل .

القطاع العام وديمقراطية الانتاج



د. اسماعيل صبرى عبد الله

يمكن القول بأن القطاع العام هو ، بعد التعبئة السياسية ، الركيزة الاساسية التى يعتمد عليها برنامج العمل الوطنى الذى قدمه الرئيس انور السادات واقره المؤتمر القومى الثانى للاتحاد الاشتراكى العربى . فالمهام الضخمة والاهداف الطموحة التى احتواها البرنامج من كهربة الريف الى التصنيع المكثف

الى تطوير الزراعة ، الى اعادة بنــاء القرية المصرية .. كل هذا يعتمد فى الاساس على وجود القطاع العام ونمــوه وزيادة فاعليته . وعبر صفحات البرنامج تتحدى النصوص مؤكدة دور القطاع العام وموضحة اهميته :

● « ان القطاع العــام هو قلعة التنميــة الاشتراكية فى بلادنا » .

● « ونال القطاع العام ــ العمود الفقــرى للتقــدم والتطور ــ نصيبــا من حملة الهجوم والتشكيك وهو الذى قام بالدور الاساسى فى تحقيق استقلالنا الاقتصادى ومواجهة متطلبات الحرب » ... الخ .

واذا كان النص الاول يقرر حقيقة علميــة يجب التسليم بها من حيث المبدأ، فان النص الثانى يأخذ من تجربتنا الحية صدق المبدأ وسلامته ، وفى هذا يقول البرنامج :

« ان مؤتمرنا الحالى ينعقد بعد انقضاء عشر سنوات على اعلان قوانين يوليو المجيدة التى كانت تعبيرا عن اختيارنا الواعى الحر لطريق التنمية الاشتراكية ،كالطريق الحتمى للقضاء على التخلف الاقتصادى والاجتماعى من أجل بنــاء دولة جديدة ، دولة الكفاية والعدل . أن التجربة العملية فوق ارضنا خلال العشر الســنوات الماضية لتثبت بما لا يدع مجالا للشك ســلامة الطريق الذى اخترناه لبناء حياتنا » .

نجاحات حققها القطاع العام

وبالفعل لقد حقق القطاع العام فى بلادنا ، بين ما حقق ، امورا بالغة الاهمية :

● ادارة كل المشروعات الاستثمارية التى تم تأميمها وتطوير انتاجها ، مما جعل من الاستقلال الاقتصادى حقيقة واقعة وليس مجرد شعار .

● ادارة كل المشروعات المحلية التى تم تأميمها وزيادة انتاجها وتوجيهــه فائضهــا الى تمــويل التوسع فى الاستثمار والزيادة المطردة فى الانتاج والدخل .

● **النهوض بمشروعات التنمية** العظمى مثل السد العالى ومجمع الحديد والصلب ، واقامة صرح صناعى ضخم ، أصبــح معه من المنتظر أن يتجاوز دخلنا من الصناعة دخل الزراعة فى ظرف سنوات قليلة فتنتهى الى الابد خرافة أن مصر بلد زراعى لا مكان للصناعة فيه .

● **تولى مشروعات اســتصلاح** واستزراع الاراضى الضخمة التى لم يسبق لها فى بلادنا مثيل . لقد زادت الرقعة الزراعية فيما بين ١٩٥٢ و١٩٧٠ بنسبة ١٣٪ فى مقابل ٨٪ فقط خلال النصف الاول من القرن العشرين .

● **قام بما يشبه المعجزات** فى خدمة المجهــود الحربى . ويكفى ان نذكر مثــالا هنــا قواعد الصواريخ التى اقيمت خلال اربعين يوما فقط والتى تبلغ قيمتها أربعين مليونا من الجنيهات

● **يلعب الفائض الذى** يحققه ســنويا دورا حاسما فى تمويل المجهود الحربى .

● **وفر للبلاد فى ظروف الحرب** كل الضرورات التى تلزم المستهلكين من الانتاج الصناعى. ويكفى أن نتذكر هنا ظروف الحرب العالمية الثانية وما عانيناه فيها من نقص فى معظم السلع بما نحن فيه وحالة الحرب قائمة منذ اربع ســنوات ولا نفتقد شيئا يذكر .

لهذا يهاجمه الرجعيــون

فهل بعد ذلك محل للدهشة فى ان يركــز الاستعمار وعملاؤه وقوى الرجعية حملة مسعورة ضد القطاع العام ؟ لقد استخدم خصوم التقدم واعداء الشعب كل اساليب الهجوم والتشكيك من البيانات الزائفة الى « النكتة » « الخبيثة » ليوهموا البسطاء من الناس أن امورنا تكــون افضل لو لم يكن هناك قطاع عام . وبينما ترتفع الاصــوات فى كل مكان للدفاع عن القطــاع الخاص ، ندر أن نجد كلمة انصاف تقال لصالح القطاع العــام . ودعــاة التنمية الرأسمالية لايفتأون يقارنون المتعثر من شركات القطاع العام بالناجح من الشركات الرأسمالية ، كما لو كانت الشركات الرأســمالية لم تعرف الاختلاســات والتلاعب والافلاس بالعشرات . أن اختيــار شعبنا لطريق التنمية الاشتراكية حاسم لا رجعة فيه . ولكن هذا لايعنى بحال عدم الاهتمــام بتوضيح دور القطاع العام وبيان منجزاته ، لان القطاع العام يحتاج لثقة الناس فيه ، ودفاعهم عنه ، وحرصهم على نجاحه لانه ملكهم جميعــا ومطية املهم الى مستقبل افضل . ومن هنا كان اهتمــام برنامج العمل الوطنى بالدفــاع عن القطاع العام ، وبتلمس أسباب تطويره وزيادة فعاليته ، ومضاعفة ما يلقى على عاتقه من أعباء.

فالدفاع الحار عن القطاع العام ،لايعنى اغفال نواحى القصور فيه ، والا لتأصلت تلك النواحى وتفاقمت ووفرت لخصوم التقدم المزيد من الحجج ولذلك فان البرنامج حين يعدد الجوانب السلبية فى تجربة السنوات الماضية يذكر من بينها أن زيادة الانتاج لم تصل الى حد الوفــاء بجميع

احتياجات الجماهير ، ويرجع ذلك الى أسباب ثلاثة من بينها :

« تخلفنا النسبى فى ميدان العلم والتكنولوجيا وما يعانيه القطاع العام من اوضاع بيروقراطية تقلل من فاعليته » .

وحين يعرض البرنامج للوسائل العملية التى يمكن من طريقها أن نوفر الزيادة المطلوبة فى الاستثمار ، يذكر فى رأسها .

« زيادة الفائض الذى يحققه القطاع العام بترشيد تنظيمه ورفع الكفاية الانتاجية ، واستخدام الطاقات الانتاجية المتاحة بالكامل » .

ومن هنا يتضح ان البرنامج يرى ان أوضاع القطاع العام تعيبها بعض البيروقراطية وانها بحاجة الى ترشيد شامل . وهذا تأصيل لمصدر العيوب الجزئية والمتفرقة التى يلاحظها الجمهور ، بل والعاملون فى القطاع العام أنفسهم . ولا شك أن قضية الادارة تقع فى مقدمة تلك الاوضاع التى تشوبها البيروقراطية وتحتاج الى ترشيد ومن ثم استحقت هذه القضية اهتماما خاصا من البرنامج .

البرنامج وقضية الادارة

وقد تعرض البرنامج بالفعل لقضية الادارة فى أكثر من موضع . ويمكن بقراءته استخراج النصوص التالية بما تحويه من أفكار اساسية :

— « أن اساس الادارة الرشيدة هو الحرية والمسئولية ، الحرية فى اتخاذ القرارات ، ثم المسئولية عن تحقيق الاهداف المحددة تحديدا واضحا . ولايجوز أن تتعدى وظيفة الاجهزة الاشرافية الحكومية دور المتابعة والمساعدة على حل المشاكل وذلك دون تدخل فى القرارات والاجراءات التى تتخذها الادارة . أن هذا هو السبيل لان يسير القطاع العام على اسس علمية من الحسابات الاقتصادية بعيدا عن البيروقراطية والقيود الادارية المتخلفة » .

— « أن اشتراك العاملين فى الادارة أمر على اقصى درجة من الاهمية ، انه اولا تطبيق عملى للديموقراطية ، ثم هو ثانيا من الضمانات المهمة لزيادة الانتاج ومتابعة تنفيذ الخطة » .

— « أن اشتراك العاملين فى الادارة يصبح مجرد شعار أن لم يشتركوا فى مناقشة خطة وحدتهم واقرارها وأن لم يلعبوا دورهم فى المتابعة اثناء التنفيذ وبعد انتهاء فترة الخطة .

انهم يستطيعون عن هذا الطريق ، لو اتيحت لهم الفرص ان يتقدموا بكثير من المقترحات المفيدة وبعديد من الحلول الذاتية لمشاكل الانتاج ، ان اشتراكهم فى التخطيط يساعد على واقعية الخطة من ناحية وعلى سلامة تنفيذها من جهة اخرى » .

وبتأمل هذه **النصوص** ، يتضح أن فى خلفيتها فكرا متكاملا عن طبيعة الوحدة الانتاجية فى القطاع ، وعن ادارتها بشكل ديموقراطى وفعال .

١ — فالوحدة الانتاجية فى القطاع العام فى هذا المفهوم لها استقلالها الذاتى ، لها حرية اتخاذ قرارات وعليها أن تتحمل مسئولية ما تتخذ من قرارات فى حدود الخطة القومية . لقد عانى القطاع العام طويلا من سيادة أساليب الادارة الموروثة فى الجهاز الحكومى . وكثيرا ما ظن البعض ان الوحدة الانتاجية مادامت ملك الدولة تصبح كالمصلحة الحكومية تخضع للتسلسل الادارى الشديد وتفقد كيانها المستقل ويمكن أن تسير بقرارات من أعلى . وكان ذلك كله خطأ بعيدا . فالنشاط الانتاجى يخضع لقوانين اقتصادية موضوعية تحكم التأليف بين عوامل الانتاج كما تحكم التكلفة والناتج . فحجم الوحدة الانتاجية مثلا ليس امرا تحكميا ، لانه اذا نقص بشكل ملحوظ عن حد معين ارتفعت تكلفة الانتاج ، وبالتالى أسعار المنتجات واضطربت اقتصاديات الوحدة ، كما يلحق الضرر بالمجتمع . وبالعكس اذا تجاوز ذلك الحجم بشكل ملحوظ الحد الامثل تعثرت الادارة وتعقدت وارتفعت التكاليف بعد انخفاض .. ويمكن أن نعدد الامثلة : ان كل اجراء يتخذ فى وحدة انتاجية يجب ان يخضع لحساب اقتصادى بقدر تكلفته وعائده . وكل ذلك ولا شك امور جديدة على مجتمع الف لمئات السنين زراعة اقطاعية أو شبه اقطاعية وجهاز حكم تسوده البيروقراطية . ولكن التقدم البشرى اصطحب بالحساب . لقد ولدت المحاسبة الحديثة القائمة على مبدأ التعبير المزدوج مع مولد الرأسمالية . وفى حمى المنافسة الهائلة بين الاقتصاد الاشتراكى والرأسمالية الاحتكارية ظهرت اساليب الحساب الالكترونية الحديثة والنظريات الرياضية التى تحكم قرارات الانتاج : نظرية القرارات ، نظرية المباريات ، النماذج الرياضية للتخزين ، نظرية الصفوف ، ونماذج المحاكاة .. الخ . أن جوهر مشكلة التنمية فى المستوى الاقتصادى هو ندرة الموارد ، وبالتالى ضرورة أن يحصل منها المجتمع على أعلى عائد مباشر وغير مباشر باقل تكلفة . ومن ثم لابد من المحاسبة الاقتصادية والادارة العلمية . وفعالية القرار — فى مجال الانتاج — تتأكد حين تكون سلطة اتخاذ القرار بيد من يملك القدرة

الفعلية على اتخاذه بشكل مفيد . فمن المستحيل ادارة الاقتصاد القومى كله بقرارات من مجلس الوزراء . ومن المستحيل كذلك ادارة قطاع بأكمله من مكتب الوزير . ولذلك فان السلطة المركزية تملك التخطيط ،والسلطة الوزارية تملك الاشراف ، والوحدة الانتاجية تملك الادارية الجارية فى حدود الخطة القومية وتحت اشراف الوزارة،وهذا ما يعبر عنه فى الاقتصاد الاشتراكى بالاستقلال الذاتى للوحدة الانتاجية (١) . وهو فى ذاته مظهر من مظاهر الاسلوب الديموقراطى فى ادارة الانتاج .

٢ — **ولكن مفهوم حرية الادارة** ومسئوليتها فى اطار الخطة يجب ألا ينصرف الى شخص رئيس مجلس الادارة كما يتوهم البعض . ان الوحدة الانتاجية ليست مجموعة من المبانى والآلات والمعدات والمواد الأولية . فتلك جميعا جوامد لاتنتج بذاتها شيئا ، ولاتدب فيها الحياة الانتاجية الا بعمل الانسان الخلاق . ولذلك فالوحدة الانتاجية هى أولا وقبل كل شىء « مجموع من العاملين » وضعت الدولة ، ممثلة الشعب ، تحت تصرفهم كمية من وسائل الانتاج وكلفتهم بأن ينتجوا اكبر كمية ممكنة من منتجات معينة وبأقل تكلفة معينة . ان الاقتصاد الراسمالى يعرف « المشروع » أى الوحدة الانتاجية الراسمالية بشخصية « المنظم » أى الراسمالى الذى يتصدى لعمليات الانتاج ويتحمل مسئولية نشاطه ان ربحا أو خسارة فى ملكيته الراسمالية . وفى ظل التأميم ، تصبح وسائل الانتاج ملك الشعب كله وهو ممثل فى الدولة التى تحدد العاملين الذين يعهد اليهم بتلك الوسائل لانتاج ما يلزم للمجتمع . ولذلك فان الاستقلال الذاتى للوحدة الانتاجية يجب أن ينصرف الى مجموع العاملين فيها . ومن هنا كان النص على أن اشتراك العاملين فى الادارة أمر على أقصى درجة من الاهمية . والنظام الذى استقر عندنا منذ قوانين يوليو المجيدة يقدم صورة جديدة للادارة فيها تدبر من التسيير الذاتى لا يفقد الوحدة الانتاجية انتماءها الى الاقتصاد القومى فى مجموعه . فرئيس مجلس الادارة تعينه الدولة ، ممثلا للمصلحة العامة ، واعضاء مجلس الادارة فى الواقع كلهم من العاملين : النصف ينتخبهم العاملون انتخابا حرا مباشرا ، والنصف الآخر تعينهم الدولة من بين كبار العاملين بالوحدة ذاتها . ومرة أخرى يؤسس البرنامج حق العاملين فى الادارة على أسس ثلاثة : فهو أولا تعبير عن ملكية الشعب لوسائل الانتاج وتحرر العمل من استغلال الملكية ، وهو ثانيا تطبيق عملى



للديموقراطية ، وهو ثالثا من الضمانات المهمة لزيادة الانتاج وتنفيذ الخطة .

٣ — **على أن البرنامج يتوسع** فى مفهوم المشاركة فى الادارة . فهو لايقف عند حد انتخاب بعض العاملين ليجلسوا فى مجلس الادارة . ولكنه اهتداء بالمبادىء التى سبقت الاشارة اليها يريد أن يسهم مجموع العاملين مساهمة فعلية فى قضايا الانتاج وأسلوب سير الوحدة الانتاجية . ان البرنامج يقول بصريح العبارة : **« ان اشراك العاملين فى الادارة يصبح مجرد شعار ان لم يشتركوا فى مناقشة خطة وحدتهم واقرارها وان لم يلعبوا دورهم فى المتابعة أثناء التنفيذ وبعد انتهاء الخطة »** . ان البرنامج يريد ان يشترك مجموع العاملين فى مناقشة الخطة واقرارها ومتابعة تنفيذها . اى أن الاشتراك فى الادارة يجب أن يأخذ شكلين : الشكل الأول والأساسى ، هو اشتراك كل العاملين فى مناقشة الخطة واقرارها ومتابعة تنفيذها، والشكل الثانى هو المشاركة فى الادارة الجارية فى اطار الخطة بعد اقرارها .

وهذا التحديد أمر بالغ الاهمية . فهو اولا لايقصر المشاركة فى الادارة على مندوبى العاملين المنتخبين ، ولكنه ينشىء مبدأ الديموقراطية المباشرة التى تجعل لكل عامل صوتا فى وضع الوحدة التى يعمل بها وفى وضعه داخلها . وهو ثانيا يزيد من فعالية انتخاب مندوبى العاملين فى مجلس الادارة . فمناقشة الخطة ومتابعة تنفيذها توفر اطاراً موضوعيا لتقييم عمل الأعضاء المنتخبين ، كما أنها تكون فرصة مواتية لبروز العناصر الأكثر قدرة على تفهم القضايا العامة وابتكار الحلول لمشكلات الانتاج . وهكذا يتم انتخاب اعضاء مجلس الادارة على أساس من الكفاءة للادارة وليس على أساس نقابى يختلط بانتخابات النقابة ، أو أساس سياسى يختلط بانتخابات الاتحاد الاشتراكى . وبالاضافة الى ذلك كله يزيد هذا الاسلوب من « حماسة العاملين ويكسبهم الثقة بوحداتهم وقياداتها ويشعرهم بأن عملهم نافع ومثمر ، وأنهم ملاك حقيقيون لوسائل الانتاج ومنفذون لأهداف الشعب فى نفس الوقت » .

---

(١) لمزيد من شرح الاسس النظرية، وتفصيل الامثلة العملية ، انظر : اسماعيل صبرى عبد الله « تنظيم القطاع العام » — « الاسس النظرية واهم القضايا التطبيقية » دار المعارف سنة ١٩٦٩ .

والواقع ان القضية هنا هى قضية الحافز الرئيسى على زيادة الانتاج وتحسين نوعية المنتجات وتقليل التكاليف . لقد عاشت البشرية عصورا طويلة على استخدام الحافز السلبى : القهر والاجبار . وفى ظل نظام الرق كان هذا القهر بدنيا يتمثل فى السوط . وفى عهد الاقطاع كان الاكراه يتمثل فى ربط رقيق الارض بأرض الاقطاعية واجباره بدنيا على البقاء فيها والعمل عليها واستخدام السطو عند اللزوم . وفى ظل الرأسمالية حل السوط الاقتصادى ، سوط الفصل ، محل سوط الجلد . فالعامل يصنع مايريده صاحب العمل أو يفصل . أما فى ظل الاشتراكية حيث العمل حق وواجب ، وحيث العمل شرف وكرامة فأن الحافز عليه يصبح ايجابيا ، يصبح شعور العامل أنه يعمل لنفسه ولأولاده ولزملائه وللشعب كله وليس لحساب سيد او مستغل . ولايتأصل هذا الشعور الحر ـ بعد قرون القهر ـ بمجرد ترديد الكلمات وانما بالممارسة الفعلية من خلال ابداء الرأى ديمقراطيا فى كل ظروف العمل .

وفى هذا المقام طرح البرنامج هذا الاسلوب الجديد ثم ترك باب الاجتهاد مفتوحا لوضع « الاشكال التنظيمية المناسبة » لتطبيقه . وفى تقديرنا ان أنسب الاشكال هو «الجمعية العمومية للعاملين » التى تضم كل العاملين اذا كان عددهم معقولا ، أو مندوبين عن كل عنبر أو ورشة اذا كان عدد العمال ضخما لاتتيسر معه مناقشة جدية . ويجب أن تنعقد هذه الجمعية مرة كل سنة على الاقل لتناقش تقرير مجلس الادارة وخطة الوحدة للسنة الجديدة وميزانيتها . كما يجب ان يكون لها رأى فى طريقة توزيع حصة العاملين فى الارباح وفى القواعد العامة لمنح العلاوات التشجيعية والحوافز ... وغير ذلك من القضايا العامة لحياة الشركة . كما تنتخب الجمعية العامة فى المواعيد المقررة أعضاء مجلس الادارة . ووجود هذه الجمعية لايتنافى مع وجود أى اشكال أخرى مثل لجان الانتاج ، أو مجالس الانتاج ، التى تضم عدداً محدوداً من العاملين بحكم مواقعهم فى الانتاج او فى التنظيمات الشعبية والتى تعاون الادارة فى تسيير دفة العمل .

الاجور .. والحوافز والترقيات

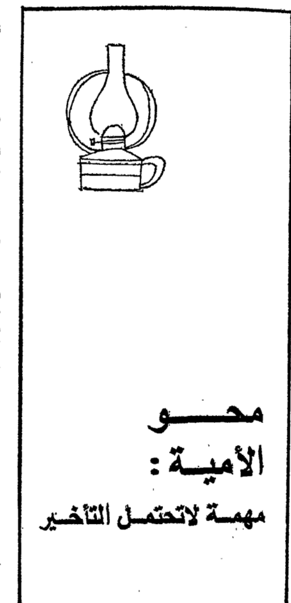
٤ ـ ولا يكتمل هذا البناء الا بنظام سليم للأجور والحوافز . ان البرنامج يقول « لقد آن الأوان بعد اتساع رقعة النشاط ، وفى ضوء ما اسفرت عنه التجربة خلال السنوات الماضية ، أن يعاد وضع لائحة العاملين بما يعالج نواحى القصور ويتيح لكل وحدة انتاجية مرونة للتصرف وفقا لطبيعة أوضاعها ونشاطها وبحيث تتضمن المبادىء الآتية :

أ ـ نظام جديد للترقى بالاختيار بحيث لاتكون الاقدمية المطلقة قيداً على الاهتمام بالعمل والابداع فيه ، وبحيث لايكون الاختيار وسيلة غير مشروعة لترقية من لايستحق الترقية .

ب ـ نظام للحوافز يوسع من مداها ويحقق الغرض منها ويكون غير معقد وقابلا للتطبيق »

ان المسئولية هى الوجه الآخر للحرية فى كل تطبيق ديمقراطى سليم . وديموقراطية الانتاج بالمعنى الذى أوضحناه فيما سبق، يقابلها مسئولية العاملين عن الانتاج . ان كل تقدم او تأخر فى حياة الشركة يجب أن ينعكس على مجموع العاملين به حتى يحسوا بآثاره ، ويعملوا على زيادة ما هو ايجابى وتصفية ما هو سلبى . ومن ثم فان حجم الحوافز الجماعية والفردية يجب أن يتوقف على درجة تقدم الانتاج مادامت الدولة قد وفرت له شروط التقدم . كما أن الاشتراكية تقوم على مبدأ « من كل بحسب قدراته ولكل بحسب عمله » ، وترفض تماما التسوية بين من يعملون ومن لا يعملون . ولا يمكن أن تنسق المسئولية الجماعية الا اذا استقرت قواعد لتحديد المسئولية الفردية فى نظام للأجور والترقى يفتح الباب لتنافس العاملين فى الابداع والاجتهاد والبذل ويعطى لكل منهم بقدر ما خدم المجتمع من خلال عمله فى موقعه . كما أن المكافآت التشجيعية يجب أن تأخذ دورها الحقيقى كجزاء لعمل غير عادى ، ولا تكون بحال أجرا اضافيا يوزع « بالعدل » ـ أى بالمساواة ـ بين الجميع .

وبعد .. ان السمة المميزة لبرنامج العمل الوطنى فى قضية القطاع العام وديموقراطية الانتاج ، كما فى غيرها من القضايا هى انه لايقف عند حد صيانة مكاسبنا الاجتماعية والدفاع عنها، ولكنه يفتح الطريق أمام تطويرها وتعميقها . والضمان الاساسى لتحقيق هذا البرنامج الطموح هو أن تتبناه الجماهير وتعمل من خلال تنظيمها السياسى وتنظيماتها النقابية وفى مواقع الانتاج على أن تعطى الحلول الملموسة الذى يغير الواقع بالفعل لتلك الافكار التقدمية التى احتواها البرنامج فكانت الرد الحاسم على دعاة الردة وخصوم التقدم والاشتراكية .



محــــو الأميــة :
مهمــة لاتحتمــل التأخير

ممدوح عبـد الرحمن

عندما حـدد برنامـج العمـل الوطنى تصوره للدولة الحديثة ، ابرز أن احدى قسماتها الاساسية هىأنها دولة لا مكان للامية فيها ، وبذلك فان البرنامج يضع قضية محـو الامية باعتبارها احدى المهام الاسـاسية التى يجب القيام بهـا كشرط ضرورى لبنـاء الدولة الحديثة .

ولم يكتف البرنامج بابراز هذه المشكلة ، بل قدم نقدا ذاتيا اعترف فيه بأنه على الرغم من الجهود المضنية والاموال الطائلة التى انفقتعلى التعليم ، فان عدد الاميين قد زاد .

ويكتسب ذكر البرنامج لهذهالقضية واعطاؤها مكانها الواجب أهمية كبرى اذا علمنا أن تلكهى المرة الاولى منذ قيام ثورة يوليو سنة ١٩٥٢التى تتعرض فيها وثيقة سياسـية أو برنامج عمـل لقضية الامية .

فعندما حددت الثورة عند قيامهـا مبادئهـا الستة المشهورة وهى القضاء على الاستعمار وأعوانه من الخونة المصريين ، والقضـاء على الاقطاع، والقضاء على الاحتكار ، وسيطرة رأس المال على الحكم ، واقامة عدالة اجتماعيـة ، واقامة جيش وطنى قوى،واقامة حياة ديمقراطية سليمة ، عندما حددت الثورة هـذه المبـادىء والاهداف لم تضع محو الامية كهدف أساسى من أهداف الثورة . فى الوقت الذى كانت خـبرة جميع الثورات تؤكد أنه لا يمكن تصفية الاقطاع تصفية كاملة وتحقيق اصلاح زراعى جذرى دون أن يصحب ذلك اصلاح تعليمى ديمقراطى تكون أولى مهامه محو الامية ، كما تؤكد أنه لا يمكن اقامة جيش وطنى قوى يعتمد على جنود أميين ويستند الى شعب أمى ، وكذلك الحال بالنسبة لباقى الاهداف والمبادىء .

وبعد النصر على الاستعمار فى معركة ١٩٥٦ وسيطرة الدولة على المؤسسات الاقتصـادية الاستعمارية ، كان الطبيعى والمنطقى أن ينعكس هذا النصر الوطنى على موقف الثورة من قضية الاميةفتعطيها الاهتمام الاكبرحتى يستطيعالشعب المتعلم حماية هذه المكاسب الوطنية ، ولكن بيان وزير التربية والتعليم فىمجلس الامةعام ١٩٥٧ ، وهو الوثيقة التى تحدد سياسة الثورة التعليمية بعد النصر ، هذا البيان لم يذكر كلمة واحدة عن الامية على الرغم من أنه ذكر تفاصيل المسائل الثانوية التى تتصلمنقريب أو من بعيدبمشكلات التربية والتعليم فى مصر . وكان تجاهل هـذا البيـان لمشكلة الامية يعنى زيادة تفاقم المشكلة وزيادة حجمها .

ثم جاءت قرارات يوليو ١٩٦١ وتمت سيطرة الدولة على جميع المنشآت الاقتصادية والتجارية وتحقق للشعب كثير من المكاسب الثورية وكان لابد أن تخوض الثورة معركة حاسمة ضد الامية لتأمين هـذه المكاسب وحمايتها ومن أجل أن تعود فائدة هذه الاجراءات على الشعب . وصدر

ميثاق العمل الوطنى عام ١٩٦٢ لكنه لم يبرز قضية محو الامية كمهمة ثورية عاجلة .

وبعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ وبعد أن اتضح أن أحد الاسباب الجوهرية لانتصار اسرائيل فى تلك المعركة هو اعتمادها على العلم والتكنولوجيا، واننا لانستطيع أن نتجاوز النكسة وأن نحقق النصر ، بينما الملايين من أبناء الشعب لا يقرأون ولا يكتبون ، واننا لا يمكن أن نضع أحدث الاسلحة العلمية فى أيدى الجنود الاميين ، وأن الجيش لن يستطيع النصر معتمدا على جبهة داخلية تتفشى فيها الامية وينخر فى عظامها الجهل .

بعد كل ذلك صدر بيان ٣٠ مارس ولم يضع محو الامية كنقطة من نقاط البرنامج ، كل ذلك يبرز اهمية معالجة برنامج العمل الوطنى لمشكلة الامية .

لمحة تاريخية ..

لقد كان الاهتمام بنشر التعليم في النصف الثانى من القرن الماضى انعكاسا للنهضة القومية واصبح المطلب الاول لرجال مجلس الشورى والاحزاب الوطنية هو نشر التعليم وتمت عدة محاولات فى هذا السبيل تعثرت لمقاومة الرجعية لها ، ثم أتى الاحتلال ليعمل على منع نشر التعليم قدر استطاعته ، ومع اشتداد الحركة الوطنية فى نهاية القرن الماضى وبداية القرن الحالى ادركت القوى الوطنية أن احد اسلحتها فى حربها ضد الاحتلال هو نشر التعليم . ولذلك فقد شكلت هذه القوى الجمعيات الخيرية لانشاء المدارس التى توفر التعليم المجانى أو ذا المصروفات المخفضة لابناء الشعب بعد أن فرض الاحتلال مصروفات على المدارس وعلى الكتاتيب .

وتأسست جمعية لتحسين الكتاتيب انشأت خلال سنتين ٧٥٨ كتابا بينما كانت «**نظارة المعارف**» لا تدير أكثر من ١٤٤ من الكتاتيب . ثم قاد **الحزب الوطنى** حملة ضخمة عام ١٩٠٨ من أجل انشاء مدارس الشعب الليلية لتعليم العمال والزراع حقوقهم وواجباتهم ، ذلك انه أدرك أن أبناء الاجانب والاقطاعيين والرأسماليين والطبقة المتوسطة يستطيعون الحصول على التعليم مقابل دفع المصروفات ، أما هؤلاء العمال والفلاحون فقد كان الاستعمار يعمل على أن يفرض عليهم الجهل . ومما هو جدير بالذكر أن مدارس الشعب الليلية لم تكن تهدف فقط الى مجرد محو الامية بمعناها الضيق ، بل الى تربية العمال والفلاحين تربية وطنية سليمة فقد كانت مناهج مواد الدراسة بها تتضمن دراسة تاريخ مصر ، والتاريخ الاسلامى وجغرافية مصر ، وقوانين المعاملات اليومية ، وعددا آخر من المواد الدراسية . وقد انتشرت هذه المدارس انتشارا كبيرا وسريعا ..

وقد اقترح أحد فقهاء الكتاتيب عام ١٩٠٨ أن تفتح الكتاتيب ليلا لتعليم العمال والفلاحين وعندما نفذ الاقتراح وكثر الاقبال على هذا الكتاب انتشرت هذه الطريقة من طرق محو الامية .

وقبل صدور قانون التعليم الالزامى عام ١٩٢٤ طالب الشعب بفتح المدارس الاولية والكتاتيب ليلا لتعليم العمال والفلاحين وزاد الاقبال على هذه الاقسام الليلية حتى بلغت ٥٠٠ قسم ، يتعلم بها ٣١٨٧٧ دارسا ولكن بدأ عدد هذه الاقسام ينقص مع بداية الثلاثينات عندما بدأت الوزارة تبطىء فى تنفيذ قانون التعليم الالزامى وتنقص مدة ذلك التعليم من ست سنوات الى خمس ..

وتأسست « جمعية نهضة القرى ومكافحة الامية » عام ١٩٣٢ والتى كان يقوم بالتدريس فى فروعها طلبة المدارس الثانوية والمدارس العليا والازهر بالتطوع ودون مقابل مادى وبعد نضال طويل ضد الامية صدر قانون محو الامية رقم ١١٠ لسنة ١٩٤٤ استجابة لاصرار الشعب على محاربة الامية ، وبصدور هذا القانون بدأت مرحلة جديدة تقوم الدولة فيها بعبء محو الامية .

ولكن مجهودات « وزارة المعارف » فى محو الامية لم تحقق نجاحا كبيرا لمجموعة من الاسباب اهمها :

● **أن الدولة التى اضطرت** الى اصدار القانون وضعت العراقيل فى طريقه ، وذلك عن طريق تقليل الاعتمادات المالية للمشروع ، فكانت جملة المبالغ التى اعتمدت للمشروع خلال تسع سنوات (من ١٩٤٤ حتى ١٩٥٣) هى ٣٠٨٥٠١٠٠ر جنيه بينما عدد الاميين كان يقدر بـ ١٢ مليونا من الاميين ولذلك فان أقسام مكافحة الامية لم تستطع أن تمحو أمية أكثر من ٦٢٧٠٠٠ر دارس خلال هذه المدة .

● **أن التعليم الالزامى** لم يكن يستوعب الا نسبة ضئيلة ممن بلغوا سن الالزام ، بينما تنضم مئات الالوف من الاطفال الذين لا تستطيع هذه المدارس أن تستوعبهم وهم فى سن الالزام سنويا الى الاعداد الضخمة من الاميين ..



● **ان الدولة لم تشرك جماهير الشعب للنهوض** بواجبها فى هــذا المشروع وبذلك حولته مــن مشروع قومى تسخر من أجله جميع الجهود الى مشروع حكومى يقوم به موظفون مقابل الاجور الاضافية دون حماس .

● **سوء الاحوال الاقتصادية لجماهير الفلاحين** والعمال ، مما يؤثر تأثيرا شديدا على مواظبتهم على الحضور وعلى قدرتهم على الاســتيعاب والفهم . وقد أدرك المصلحون الاجتماعيون أن العمود الفقرى لاية سياسة تهدف الى محوالامية بجدية يجب أن تعمل علىرفع المستوىالاقتصادى للشعب لان الفقر هو العدو الاول للعلم .

● **انخفاض المستوى الثقافى** فى الريف بحيث يتعرض الفلاحون الذين أمضوا بضع سنوات فى المدرسة الالزامية الى العودة للامية . ويوضح البحث الذى أجراه معهدالتربية للمعلماتبجامعة عين شمس عام ١٩٥٤ فى قريتى دهشور وأبو النمرس أثر هذا العامل فى زيادة حجم الامية . اذ اتضح من البحث الذى أجرى على نســاء القريتين المذكورتين أن ٤ر١٠٪ من بين النساء اللاتى تلقين تعليما لمدة تتراوح بين سنتين وست سنوات لم ترتد لهن الامية بينما ٤ر١٠ منهن نسين الكتابة أما الباقيات فقد ارتددن الىالامية. اما احتمالات الارتداد الى الأمية فى المدينــة فانها اقل من ذلك نظــرا لارتفــاع المســتوى الثقافى فيها .

● **تسرب التلاميذ من المدارس** الالزامية، اذ ان نسبة التلاميذ الذين يكملون السنوات الست او الخمس للتعليم الالزامى ضئيلة وهذه الظاهرة تعود فى أساسها الى البندين الرابع والخامس ومن الممكن أن ندرك مقدار هــذا التسرب اذا علمنا أن نسبة عدد تلاميذ الصف السادس فى المدارس الاولية والالزامية الى عدد تلاميذ هذه الانواع من المدارس فى عام ٤٩ ــ ٥٠ كان فى مدارس التعليم الحر ٢٣ر٠٪ بينما تلاميذ السنة الاولى ٦ر٧٣٪ وفى مدارس مجالس المديريات ١٧ر٠٪ بينمــا تلاميــذ الســنة الاولى ٧ر٥٠٪ وفى مدارس وزارة المعارف ٤ر٪ بينما تلاميذ السنة الاولى ٤ر٪

الثورة وتجربة محو الامية

ان ارتفاع عدد الاميين من اثنى عشر مليونا قبل الثورة الى ما يقرب من سبعة عشر مليونا بعد ١٩ عاما من الثورة قد يدعو الى الدهشة خاصة اذا قارنا ذلك بما قامت به كوبا أو الاتحاد السوفيتى أو عدد آخر من البلدان التى قامت بها ثورات تقدمية . وقد يبدو غريبا أن تصبح نسبة الاميين بين المصريين فى عام ٦٩ ــ ٧٠ حوالى ٧٠٪ ممن هم فى سن الانتاج فى الوقت الذى نعمل فيه من أجل مضاعفة الانتاج ، ولكن اذا نظرنا الى موقف وزارة التربية والتعليم من مشكلة الامية فاننا سندرك أن ذلك كان نتيجــة طبيعية لذلك الموقف .

فقد قامت سياسة التعليم بعــد الثورة على أساس محاربة الامية عن طــريق التوسع فى التعليم الابتدائى لاستيعاب جميع الملزمين وبذلك تنتهى الامية . ولذلك فقد لجــأت الوزارة الى تقليل اعتمادات محو الامية وبالتالى نقص عــدد الدارسين فى هذه البرامج .

المبلغ بالجنيهات	السنة
٤٢٢ر٠٠٠	٥١/٥٢
٢٠٠ر٠٠٠	٥٢/٥٣
٧٤ر٠٠٠	٥٤/٥٥
١٢٤ر٣٥٠	٦٤/٦٥

وقد بلغ عدد الدارسين فى فصول محو الامية التابعة للوزارة عام ٦٤/٦٥ ١٦٥ر٥٩ دارســا بينما كان عــدد الدارســين عام ٥١/٥٢ هــو ٤٤٩ر٣٧٢ دارسا . وبعد أن وضعت الوزارة سياستها التعليمية فى مشروع الخطة الخمسية الثالثة على أساس القيام بمحو امية ١٥٠ر٠٠٠ دارس فىالسنة الاولى للخطةفان عددالدارسين عام ٦٩/٧٠ كان حوالى ٤٨ر٠٠٠ دارس فقط نظرا لضــآلة الاعتمادات المالية الذى خصصت لمحو الامية . ولعل الرقم الاخير يوضح ضــآلة الجهد الذى تقوم به الوزارة وضآلة الاعتمادات التى تخصصها : ولذلك كان لابد من أن تتضخم أعداد الاميين لان المدارس تغلق أبوابهــا دون مئات الالوف من الذين بلغوا سن الالزام بينما الوزارة لا تفتح أبواب فصــول محو الامية الا لبضعة آلاف من الدارسين

لا يمكن الحديث عن الامية دون التعــرض لســياسة الوزارة ازاء التعليم الابتدائى بعــد الثورة ، باعتبار أن هــذا التعليم الابتدائى هو مصدر اساسى من مصــادر الامية . وتتلخص السمات الاساسية لهذه الســياسة فى النقاط الآتيــة :

(١) البطء الشــديد فى التوســع من أجل اســتيعاب الملزمين : وضــعت الوزارة خطة لاستيعاب جميع الملزمين فىمدى عشر سنوات . وسارت بسرعة لا بأس بها فى أول الامر ولكنها

عادت وأبطأت السرعة بطئا شديدا تحت شعار أن الدولة تتحول نحو الانتاج، وبذلك وضعت التوسع فى التعليم والتحول نحو الانتاج فى تناقض . فالتوسع فى الانتاج طبقا لرأى الوزارة يجب أن يتم على حساب التوسع فى التعليم الابتدائى . مع أن خبرة جميع الثورات تؤكد أن التوسع فى التعليم شرط ضرورى للتوسع فى الانتاج . وكانت نتيجة البطء فى التوسع فى استيعاب تلاميذ الابتدائى انه فى عام ٦٧/٦٨ اى بعد ١٥ عاما من قيام الثورة كان عدد الاطفال بين سن السادسة والثانية عشرة ٥٫٢٤٥٫٠٠٠ بينما عدد تلاميذ المرحلة الابتدائية ٣٫٥٨٣٫٨٩٣ ، والفرق بين العددين يضاف الى أعداد الاميين . ولقد لجأت الوزارة الى وضع خطة لتصفية دور المعلمين والمعلمات الزائدة عن الحاجة فى ٦٨/٦٩ مما يؤكد أن الوزارة تسير على نفس الطريق .

وما دامت المدارس الابتدائية لم تستوعب جميع من هم فى سن الالزام فسوف تظل اعداد الاميين فى زيادة مستمرة . ولذلك فقد حدد برنامج العمل الوطنى مهلة عشر سنوات تتمكن خلالها المدارس الابتدائية من استيعاب جميع الملزمين تمهيدا لرفع سن الالزام .

٢ — **اسلوب النقل الآلى** : لقد كان الغاء امتحانات النقل بين سنوات المدرسة الالزامية سببا فى تدهور التعليم الالزامى وفساده لدرجة انه أصبح من الامور العادية أن يصل التلميذ الى نهاية الالزام دون أن يعرف القراءة والكتابة . وقد تبنت الوزارة نفس طريقة النقل فى التعليم الابتدائى بحجة أن الوزارة ليست ملزمة بتوصيل التلميذ الى مستوى معين ولكنها ملزمة بأن تسمح له بقضاء ست سنوات فى التعليم . وهكذا اصبحت المدارس الابتدائية تخرج فى كل عام مئات الآلاف من الاميين .

٣ — **نظام الفترتين الدراسيتين** : كان نظام نصف اليوم أحد اسباب فشل التعليم الالزامى وتحولت المدارس الالزامية بوساطته الى أماكن لا توفر لا التربية ولا التعليم . وقد اجمع كل من درس حالة التعليم الالزامى على ذلك . ولم تكتف وزارة التربية والتعليم بنظام نصف اليوم ولكنها ابتكرت نظام ثلث اليوم وذلك بتشغيل المدارس الابتدائية ثلاث فترات فى اليوم .

٤ — **مستوى معيشة الفلاحين** : اذا كانت الامية منتشرة أساسا بين جماهير الفلاحين والعمال وأنه كما سبق أن ذكرنا أن أية محاولات لمحو الامية سوف تصطدم بعقبة الفقر وانخفاض مستوى المعيشة . فانه لا يوجد خير مما جاء ببرنامج العمل الوطنى عندما وصف احوال الفلاحين بقوله « ان اسلوب الحياة اليومية لفلاحينا الذين يكونون غالبية الشعب لم يلحقه تغيير حقيقى لا فى وسائل واسلوب الانتاج ، ولا فى السكن والغذاء والصحة ولا فى تحصيل العلم والثقافة . ان جانبا كبيرا من فلاحينا على الرغم من المجهودات الضخمة التى بذلت فى سنوات الثورة لايزال يعانى من البطالة وانخفاض مستوى الدخل والامية وسوء التغذية والصحة والقلق على الحاضر والمستقبل »

وهذا الانخفاض فى مستوى المعيشة تدلعب دورا فى زيادة حجم الامية بعد الثورة .

قانون محو الامية لعام ١٩٧٠

لقد صدر قانون محو الامية الاخير متأخرا عن الوقت الذى كان يجب أن يصدر فيه بثمانى عشرة سنة ، اذ انه كان من الواجب أن يصدر فى سبتمبر عام ١٩٥٢ فى نفس الوقت الذى صدر فيه قانون الاصلاح الزراعى . ومن الممكن أن يكون صدور هذا القانون بداية لمرحلة جديدة فى مكافحة الامية ، مرحلة تتم فيها مواجهة حاسمة تزيل الامية الى الابد من أرض مصر . كما انه من الممكن أن يتحول هذا القانون الى مجرد وثيقة تضاف الى وثائق وزارة التربية والتعليم ، والذى سوف يحدد مصير هذا القانون هو اسلوب تطبيقه والروح التى سينفذ بها والايدى التى يوكل اليها تنفيذ هذا القانون .

فلقد كان من الممكن ان تمحى الامية لو وضعت هذه القضية فى مكانها المناسب واعطيت الاهتمام الواجب فى ظل القانون القديم ، واذا كان القانون الجديد قد سد بعض الثغرات أو استحدث بعض المواد فلابد أن نتذكر أن الذى عطل عمليات محو الامية ليست عيوب القانون السابق ولكنها عوامل اجتماعية واقتصادية وسياسية .

ولقد صدرت مجموعة من القوانين لتعميم التعليم الالزامى بدأت بقانون التعليم الالزامى الذى صدر عام ١٩٢٤ حتى قانون التعليم العام رقم ٦٨ لسنة ١٩٦٨ ولازال مئات الآلاف من أبناء مصر لا يجدون مكانا لهم فى المدرسة الابتدائية

ان محو الامية لا يمكن أن يتم الا بنضال شاق تعبأ له جميع الطاقات وتوضع فى خدمته جميع الموارد والامكانيات اللازمة ، وتشترك فيه جميع الهيئات والمنظمات والافراد على شكل حملة عامة تستهدف انجاز هذه المهمة القومية بأسرع ما يمكن .

ويلعب تشكيل المجلس الاعلى لمحو الامية

دورا هاما في مسيرة النضال هذه ، فهذا المجلس اذا أحسن تشكيله بحيث يضم مجموعة من العناصر الثورية المؤمنة بهذه القضية والتي تهتم بالمشكلات الاجتماعية ، فانه سوف يصبح قوة دافعة تبعث الحياة في العمل وتملأ القائمين به والعاملين فيه بالحماس . اما اذا شكل من مجموعة من العناصر بحكم وظائفها فلن يكون في أحسن الاحوال قادرا على أن يقدم جديدا في هذا السبيل وقد يكتفي بالاحتفال بالعيد العالمي لمحو الامية واصدار مجموعة من النشرات عن هذا الموضوع

الجهود الذاتية ومحو الامية

لقد أكد برنامج العمل الوطني على ضرورة التوسع في الاعتماد على الجهود الذاتية للجماهير ولاسيما في قطاع الخدمات . واذا كانت الجهود الذاتية ضرورية في مجالات كثيرة فانها في مجال محو الامية تكون أكثر الحاحا . فان واجب التنظيم السياسي وأجهزة الاعلام والصحف أن تثير حماس الجماهير من أجل المشاركة في مشروعات محو الامية ، لكي يساهم كل مواطن فيها بقدر ما يستطيع . وليست المساهمة على شكل تبرعات أو القيام بالتعليم فقط ، بل ان هناك أيضا التنظيمات التي يمكن أن يبتكرها الشعب لتتم من خلالها عملية محو الامية ، وقد سبق أن أسس الشعب المصري الجمعيات الخيرية ومدارس الشعب الليلية وجمعية مكافحة الامية . وهو قادر اليوم اذا ما أتيحت له الفرصة أن يقدم لنا أشكالا جديدة . فلنشجع اقامة جمعيات لمكافحة الامية ولتساهم جميع النوادي الرياضية والثقافية في فتح فصول لمحو الامية ولتفتح المدارس الخاصة فصولا لمحو الامية ، ولتقدم الدولة لهذه الجمعيات وهذه النوادي والمدارس الاعانات والمكافآت والجوائز .

ولتعتمد الدولة جميع المبالغ والاعتمادات اللازمة لتنفيذ الخطط التي سيضعها المجلس الاعلى وحتى لا تقف عقبة قلة الاعتمادات في وجه تنفيذ هذه الخطط مثل ما يحدث حاليا . على أن تتم هذه الجهود جميعها تحت اشراف وزارة التربية والتعليم باعتبارها الجهة الوحيدة المسئولة عن هذه المعركة القومية ، على أن تضع الوزارات والمصالح الاخرى جميع امكانياتها تحت تصرف هذه الوزارة .

ان ما جاء ببرنامج العمل الوطني يجب ان يكون اشارة البدء في هذه المعركة وعلينا ان نبدأ فورا بالسير في هذا الطريق فكل مواطن تمحى أميته هو كسب انساني وكسب اجتماعي وكسب اقتصادي وكسب وطني .●



مشكلة التعليم وقضية التقدم الاجتماعي

أديب ديمتري

من الطبيعي أن يحتل التعليم في أي برنامج للعمل الوطني في هذه المرحلة مكانة خاصة .. وقد أخذ التعليم بالفعل مكانه البارز في البرنامج الذي قدمه الرئيس أنور السادات الى المؤتمر القومي .●

فقد جاء على رأس المهام في البرنامج ضرورة

أن تتسع المرحلة الأولى من التعليم فى نهاية السنوات العشر لجميع من بلغوا سن الالزام تمهيدا لرفع هذا السن فى المستقبل الى سن ١٥ أى الى نهاية المرحلة الاعدادية

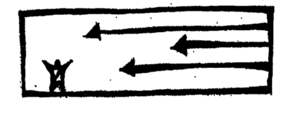
وعندما خص الاتحاد الاشتراكى بمهمتين محددتين رئيسيتين جعل أولاهما محو الامية ثم تنظيم الاسرة

التعليم .. قضية محورية ..

والواقع أن التعليم يدخل فى نسيج متكامل مع بقية المهام التى اولاها البرنامج عناية خاصة مثل اقامة الدولة الحديثة بمواصفاتها ومهمة مضاعفة الدخل القومى فى كافة ميادين الانتاج الصناعى والزراعى وما يتطلبه ذلك فى ميدان البحث العلمى والتخطيط وتنمية الاستثمار ، وقد اضحى العلم والتعليم رأس مال استثمارى منتج بالدرجة الاولى ، هذا الى ضرورات رفع انتاجية العمل وهى لا تنفصل عن التعليم ورفع المستوى الثقافى العام ، بالاضافة الى ما نص عليه البرنامج فى الجانب السياسى من احتياجات الوضوح الفكرى وسيادة مبدأ الديمقراطية والرقابة والمحاسبة والتوعية بالتنمية وكلها تتطلب التعليم كأداة من أدواتها الاساسية فضلا عن بناء الانسان الجديد ، الى جانب مشروع اعادة بناء قرى الجمهورية وما يعنيه هذا البناء فى نواحيه الحضارية والثقافية والفكرية الروحية .

وفى كل بلاد العالم الثالث النامية ، والتى تناضل ضد مظاهر التخلف وآثار التبعية تفرض قضية التعليم نفسها بقوة ، كجزء لا ينفصل عن مشكلات التخلف ذاتها ، ومظهر أساسى من مظاهره ، وكذلك فى نفس الوقت أداة فعالة فى مواجهته ، وفى عبور الهوة والاسراع فى عمليات التطوير والتنمية والتقدم .

ومن هنا فان ما يوليه البرنامج من اهتمام بقضايا التعليم يستحق كل تأييد ومساندة



ومشاركة فعالة من كافة المثقفين والتنظيمات النقابية والمهنية والمنظمات الجماهيرية .

ويزيد من اهمية هذه المشاركة والجهد الفعال من التنظيم السياسى وبقية التنظيمات والهيئات أن جانبا كبيرا من عبء القضية ، وبالاخص فى محو الامية لا يجوز أن يقع على كاهل الدولة وحدها وانما هو بالطبيعة وبحكم الواقع ، كما أوضح البرنامج ، من مسئولية التنظيم السياسى والتنظيمات والهيئات الجماهيرية ، لان هذه الهيئات هى القادرة وحدها على أن تحول محو الامية الى مسئولية قومية شاملة ودور يؤديه كل فرد قادر وجماعة .

وفى المرحلة الراهنة تضغط مشاكل التعليم على جبهات عدة ، وفى كافة المراحل التعليمية والاداء التعليمى .

هناك أولا وقبل كل شىء قضية القاعدة العريضة من الاميين وهناك ثانيا قضية الابناء الذين يبلغون سن الالزام ولا يجدون لهم مكانا فى مدارس الالزام

مدة الالتزام .. لابد ان تمتد

ويأتى بعدهم من يبداون تعليمهم فى سن الالزام ، ولكنهم لا يواصلون الدراسة الابتدائية حتى نهايتها أو يتسربون فى الطريق بالمصطلح التعليمى ، ويعودون من حيث بدأوا أميين وهناك رابعا قصر مدة الالزام وعدم وفائها بالاحتياجات الاساسية لمستوى المواطنة والانتاج فى الدولة العصرية ، وفى عصر الثورة العلمية والتكنولوجية ، وما يتفق عليه الجميع من ضرورة مد الالزام الى المرحلة الاعدادية بل والى نهاية المرحلة الثانوية وهو ما وصلت اليه عديد من الدول المتقدمة .

وتبرز بعد ذلك مشاكل القبول فى المرحلة الاعدادية والثانوية بأنواعها والجامعات والتعليم العالى ، وهى التى تضغط اليوم ضغطا شديدا على أعصاب الابناء والآباء وتلقى صراعا شديدا بين أنصار التضييق والتوسيع .

محتوى التعليم

وهناك سادسا قضايا المحتوى فى التعليم ومستوى الاداء أو ما اصطلحنا على تسميته بصراع الكم والكيف ، وهى قضايا تندفع اليوم بشدة الى الصدارة مع الاحساس العام بقصور العملية التعليمية وعجزها عن تحقيق المستوى المطلوب والعائد الذى يتفق مع فداحة الانفاق ..

والبرنامج عندما يرتب الأولويات فى هذه المشاكل ، ويتصدى فى المحل الاول لقضية محو الامية ، وقضية استيعاب كل الأطفال من سن الالزام تطلعا فيما بعد الى مد فترة الالزام ، فهو ترتيب للاولويات صحيح ، والقضيتان شقان لقضية واحدة هى الامية بين القاعدة العريضة من شعبنا بأوضاعها الراهنة ومنابعها المقبلة .

ولا شك أن الارقام فى هذا الشأن معروفة ، ولكن لا بأس من أن نضعها دائما أمام أعيننا لعلها تؤرق ضمائرنا وتحرك فينا كل ارادة الانتصار فى قضية تكدست فيها الاقوال حتى اغنت عن الافعال !!

تطورت نسبة الامية فى سنوات التعاقد للافراد من عشر سنوات فأكثر كما هو معروف على الوجه التالى :

سنوات التعداد	ذكور	اناث	جملة
١٩٣٧	٧٦ ٪	٩٤ ٪	٨٥ ٪
١٩٤٧	٦٥ ٪	٨٤ ٪	٧٥ ٪
١٩٦٠	٥٦ ٪	٨٣ ٪	٧١ ٪

ومن واقع تعداد ١٩٦٠ بلغت جملة الاميين ١٢ر٥٨٨ر٠٠٠ : فى الحضر ٣ر٥٩٠ر٠٠٠ ، وفى الريف ٨ر٩٩٨ر٠٠٠ وتشير بيانات هذا الجدول الى أن نسبة التعليم فى المناطق الحضرية بلغت ٤٨ ٪ ، نصيب الذكور منها ٣٢ ٪ ، ونصيب الاناث ١٦ ٪ ، بينما بلغت هذه النسبة فى الريف ٢٠ ٪ ، نصيب الذكور منها ١٦ ٪ ، ونصيب الاناث ٤ ٪ ، فقط .

فاذا كان حجم السكان الحالى يقرب من الخمسة والثلاثين مليونا ، فاننا نستطيع أن نحسب بسهولة ونترجم نسبة الـ ٧٠ ٪ التى تدور وتلف حولها الامية . والحقيقة المزعجة فى هذا الصدد أنه وان كانت نسبة الامية فى تراجع ولو يسير كما تدل عليها التعدادات السكانية المتوالية الا أن كتلة الأميين فى ازدياد مضطرد نتيجة الانفجار السكانى والقصور عن استيعاب الملزمين أو ملاحقة الاعداد الجديدة التى تنضم سنويا الى هذا الموكب الحزين ، فضلا عن الفشل الفاضح فى مواجهة مشكلة قدامى الاميين .

القدرة على استيعاب الملزمين

ولنأخذ صورة عن نسبة الاستيعاب فى الالزام ننقل الصورة التالية عن (زيادة السكان فى ج . ع . م وتحدياتها للتنمية نوفمبر ١٩٦٦ — الجهاز المركزى للتعبئة والاحصاء) .

فقد بلغت نسبة الاستيعاب سنة ١٩٦٦/٦٥ ٦٩ر٧ ٪ وكانت فى ٦١/٦٠ ٦٠ر٧ ٪ وكانت نسبة الاستيعاب سنة ١٩٦٦/٦٥ فى البنات ٥٥ر٧ ٪ ، وفى البنين ٨٣ر٠ ٪ .

وبرغم أن هذه الارقام تدل على أن ثلث اطفالنا فى سن الالزام خارج المدارس ، من بينهم نصف البنات تقريبا ، ولكن علينا أن نأخذ هذه النسب بحذر ، فالواقع قد يكون أكثر فداحة مما تكشف عنه البيانات الرسمية التى تعتمد على السجلات والكشوف فى المدارس .

يضاف الى هذه الحقائق المفجعة ، قضية التسرب ، وهم الاطفال الذين قد يدخلون المدارس فى سن السادسة ، ولكن لايلبث بهم المقام طويلا فى دور التعليم ، وذلك تحت ضرورات الفقر وضغوط الفقر ، والحاجة واحتياجات العمل .

وعلى سبيل المثال نقدم مآل صف واحد من الملزمين حسب البيانات الرسمية (احصاءات وزارة التربية والتعليم) ففى العام الدراسى ١٩٧٠/٦٩ كان عدد التلاميذ فى الصف السادس الابتدائى ٤٩١ر٥٨٠ تلميذا فاذا عدنا الى المنبع عند دخول هؤلاء التلاميذ أنفسهم بالمدرسة الابتدائية سنة ١٩٦٥/٦٤ وجدنا أن عدد الذين التحقوا بالسنة الاولى الابتدائية فى هذا العام ٦٥٣ر٦٤٠ أى بفارق يزيد على ٦٠ر٠٠٠ هؤلاء تساقطوا فى الطريق وعادوا من جديد الى صفوف الامية .. وهذه العملية تتكرر سنويا ، وعاما بعد عام .

هذه هى الصورة الرقمية ، وهى بلاشك فادحة سواء من حيث نسب الامية ، أو عدد الاميين أو عدد المؤهلين سنويا لنفس المصير . والبرنامج على حق عندما يستشعر تناقضا صارخا بين هذه الحقائق وبين آمالنا فى العصرية ، وفى التخطيط ، وفى الوعى بالتنمية ، وفى مضاعفة الدخل القومى فى عشر سنوات .. والحقيقة انه يصعب أن نتحدث بأمانة وجدية عن تحقيق هذه الاهداف فى ظل استمرار مثل هذه الاوضاع .

لماذا فشلنا حتى الآن ؟

ولكن السؤال الذى يقفز الى الذهن ويحتاج حقيقة الى اجابة واضحة قبل كل شىء هو : لماذا فشلنا حتى الان فى محو الامية حيث نجح غيرنا ؟

.. هـذا برغم كل الجهود والخطط والقوانين ؟ وآخرها قانون محو الامية الجديد الذى اشرك الاتحاد الاشتراكى والهيئات النقابية والمنظمات الجماهيرية والشعبية ... ومع ذلك لم نتقدم خطوة .. ولازالت النسب هى نفس النسب .. والارقام تتضاعف دون انقطاع ؟!

هل يعوزنا القصد أم قوة العزيمة والارادة ... أم ماذا ؟ ..

من المعروف أن القضاء على الامية فى بلدان العالم التى أنجزت هذه المهمة تم فى مرحلتين أساسيتين : فى بلدان اوربا الغربية المتقدمة تم تعميم الالزام وقضى على الامية أو كاد فى خلال القرن التاسع عشر وأوائل العشرين .. وفى القرن العشرين تم القضاء تماما على الامية فى فترات وجيزة جدا نسبيا ، وفى بلدان لم تكن نسب الامية فيما تقل عنها عندنا، وذلك فى البلدان الاشتراكية بعد انتصار الثورة .. تم هذا فى الاتحاد السوفيتى عقب انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية مباشرة ، وفى الصين ، وفى كوبا ، وفى البلدان الاشتراكية الاخرى التى كان مايزال فيها بقية من أمية ..

فماذا يعلمنا هذا التاريخ القصير فى القرنين التاسع عشر والعشرين ؟ وماذا يجمع بين البلدان الرأسمالية المتقدمة التى نجحت فى القضاء على الامية فى هذا التاريخ المتقدم والبلدان الاشتراكية فى القرن العشرين على بعد الشقة بين النظامين؟

نجاح أوربا الغربية فى نشر التعليم والقضاء على الامية ارتبط بانتصار الثورة البورجوازية الديموقراطية ومرحلة صعودها ، واحتياجات الرأسمالية النامية والصاعدة الى طبقات عاملة تملك الحدود الدنيا من المعرفة والعلم لاحداث ثورتها الصناعية .. كان نشر التعليم الابتدائى الاجبارى ومحو الامية فى أوربا فى ذلك الوقت جزءا لا يتجزأ عن عملية ضرب الاقطاع وتصفية مراكزه وفتح الطريق واسعا أمام البورجوازية الثورية فى البداية لتحقيق ثورتها الديموقراطية .. كان محو الامية وجها للحركة الاجتماعية الشاملة والثورة التى اجتاحت أوربا فى ذلك الزمان ..

والامر فى القرن العشرين وبعد الثورات الاشتراكية أكثر وضوحا وتحديدا .. فقد نجحت البلدان الاشتراكية بتخطيط ورسم ، ثم بتصميم وعزم فى التصدى للامية والقضاء عليها فى فترة وجيزة .. لأن محو الامية أصبح أداة الطبقة العاملة وحلفائها فى انتصار الثورة الاشتراكية ، وضرب مواقع أعدائها من الاقطاعيين والرأسمالية الاحتكارية والرجعية التى تحولت الى عقبة فى سبيل استنارة جماهير الشعب ، وذات مصلحة فى تجهيل جموعه .. جاء محو الامية تعبيرا عن ثورة شاملة ، وعنصرا هاما من عناصر انتصارها وتقدمها واندفاعها .

الدرس المستفاد من هذه الامثلة البسيطة ، والذى يمنحنا وضوحا فكريا يطلبه ويتطلبه برنامج العمل الوطنى أن محو الامية ليس عملية فنية فى الاساس عمادها الخبراء والمستشارون والتكنوقراط التربويون ، ولا عملا اصلاحيا جزئيا معزولا ، بل عملية ثورية ، هى جزء من حركة الثورة واندفاعها .. وحتى نترجم هذا الكلام الى صيغ أكثر وضوحا وتحديدا نقول : ان محو الامية لا يمكن انجازه فى عصرنا ، وفى كل بلدان العالم الثالث المتخلفة الا كجزء من انتصار الثورة الاشتراكية وبالاخص على مخلفات الاقطاع فى القرية ، وعلى الطبقات الرجعية ذات المصلحة فى حجب النور عن فقراء الفلاحين والمدينة .. وبتعبير آخر فان نجاح محو الامية هو وجه لانتصار الديموقراطية فى الريف والمدينة وتصفية الطبقات الرجعية المعوقة .. عندئذ فقط يخلق ذلك التيار القوى العارم الذى يثير حماس المعلمين والمتعلمين معا ، وتلك الحركة الواسعة التى لازلنا نبحث عنها ، والتى لايجدى فى احداثها مراسيم ولا قوانين ولا كل فنون التكنوقراط .. يحدثها فقط فهم وايمان عميق وضرورات الثورة وتقدمها فى الريف والمدينة ، وطبيعة المرحلة التى نمر بها ، وطبيعة الاهداف التى ينبغى أن نتحرك فى اتجاهها .

بنفس الفهم تتحدد زاوية الرؤية الى كافة قضايا التعليم ..

امثلة من كومة المشاكل المتراكمة

ولنأخذ على سبيل المثال من كومة المشاكل المتراكمة ، مشاكل القبول فى كافة المستويات ، من الاعدادى الى الثانوى الى العالى والجامعى

وهى التى تتسبب لنا كل عام صداعا بلا آخر ..
ولتلاميذنا وآبائهم آلاما وحيرة وقلقا بلا حدود ..

ثم مشاكل المستوى والعائد من التعليم .. هذا المستوى الذى يتفق الجميع على ترديه .. أضف اليها مشاكل المناهج التى تتغير وتروح وتجىء مع بندول الساعة !!

فالمفروض أن امكانياتنا فى هذه المرحلة ستقصر بالضرورة عن استيعاب كل المتقدمين والمتطلعين فى كافة المراحل والمستويات .. ذلك أمر طبيعى يحدث فى كل بلاد العالم الثالث ، فما بالك ببلادنا وهى تواجه كل التحديات التى نعرفها .. فكيف يكون الحل بين أمكانيات قاصرة وتطلعات بلا حدود ؟.

بأن تمتد حركة الثورة لتمس مفهومنا فى التعليم الذى لم يتغير فى الجوهر .. والمرحلة التى نمر بها هى مرحلة وطنية ديموقراطية بآفاق اشتراكية .. فلابد أن تمتد المقرطة الى نظام التعليم فماذا يعنى هذا الكلام .

مجانية التعليم جزء من هذه المقرطة ولكنها وحدها لا تكفى .. لابد أن تمتد الديموقراطية لتشمل جوهر النظام . فنظام التعليم الطبقى يفصل فصلا يكاد يكون تاما بين مواقع العمل ودور التعليم ويصبح العمل فى قاعدته العريضة لغير المؤهلين ، أو ذوى المؤهلات المتوسطة والبون شاسع بينهم وبين ذوى المؤهلات العالية فى المستوى المادى والادبى .. وهؤلاء جميعا من غير ذوى المؤهلات العالية يحال بينهم وبين مواصلة الدراسة بكل السدود والقيود . وبذلك يتحول العلم والتعليم والشهادات الى أداة لتعميق الفروق الطبقية لا تذويبها .. اداة تفتقد الديموقراطية وتعوقها .. ومقتضيات الديموقراطية أن تنقلب الاية ، وتصبح مواقع العمل هى الاساس ، تنفتح على دور التعليم ، وهى التى ينبغى أن تغذى نظامنا التعليمى بخير كوادرها والمبرزين من العاملين فيها لتتاح لهم كل الفرص لمواصلة الدراسة ، ويشجعون عليها بكل الوسائل .

بذلك يستقر العامل فى عمله دون عناء .. عندما يجد أبواب الترقى كلها أمامه مفتوحة : الترقى المادى والأدبى والعلمى والفكرى معا ، لا يصاب الطالب أو ولى أمره بالذعر عندما لا يقبل فى اى مرحلة .. ولا يصبح العمل فى أدنى درجاته بمثابة حكم الاعدام أو المستقبل الضائع الى غير رجعة .

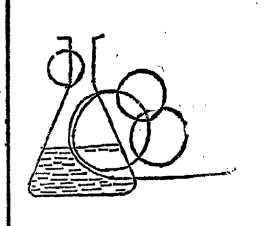
ذلك معنى مقرطة النظام التعليمى . أن تتكافأ الفرص حقيقة ، لمن يعمل ، اولا يعمل .. ولا يصبح التعليم هو جواز المرور الى الطبقات المميزة ، وبراءة المحافظة على امتيازاتها .. بل يصبح العمل هو الاصل ، وتفتح المدرسة للمصنع لايقبل فى اى مرحلة .. ولا يصبح العمل فى المصنع للمدرسة ..

وبنفس المستوى **تماما قضية المناهج والمستوى** والعائد من التعليم .. ان تكنوقراطيينا وخبراءنا يعقدون المؤتمرات ويغيرون ويتلهون فى لعبة التغيير .. ويشددون قبضتهم فى نفس الوقت .. بينما المعلم العامل غائب عن الساحة .. حتى نقابته والمفروض ان تعبر عن ارادته ، لازالت بحكم تراثها وأوضاعها القديمة ولوائحها احتكارا للنقابيين المحترفين ، بعيدة عن التعبير الصحيح عن ارادته .

عندما نمقرط الجهاز التعليمى والادارة التعليمية والنقابة التعليمية ، وعندما يجد المعلم وأرادته طريقها الى التعبير الصحيح .. عندئذ نخلق حركة .. حركة جماهيرية أساسها وشرطها الديموقراطية ، وهى التى تستطيع أن تحدث من اسفل ومن أعلى التغيير .. وهى التى تستطيع أن تصب روحا دافقة فى كل المناهج والكتب مهما ضاقت الامكانيات ...

هذه متطلبات المرحلة التى نمر بها ، مرحلة الثورة الوطنية الديموقراطية بآفاقها الاشتراكية .. وعندما تتصل مقرطة التعليم بالحركة الشاملة فى المجتمع ولا يعود الاصلاح جزئيا معزولا ، ويتخلص التعليم من طبيعته الطبقية ، ويتحول الى أداة للتقريب بين الطبقات ، وتصفية امتيازات الطبقات المعوقة والرجعية ، وعندما يصبح جزءا من تقدم الثورة فى شمولها فى الريف والمدينة ، وننفض اى جمود من ردائها .. عندئذ تنبعث من داخله وخارجه تلك الحركة القوية النشطة التى نفتقدها .. وهى وحدها القادرة على تغيير وجه التعليم ..

البحث العلمي :
الــــواقع
المشـــــاكل
الحلـــول



د. محمد أحمد عجلان

عندما تعـرض برنامج العمـل الوطني لقضية مضاعفة الدخل القومي ، وصل في النهاية الى انه « ليس من سبيل أمامنا ســوى الارتفاع في أقصر وقت ممكن بالانتاجية الى أعلى مستوى ممكن » . وبعـد ان اشــار الى ما تستلزمه المعركة من نصيب كبير من مواردنا الحالية قرر انه « اذا ما اضفنا الى هذا الظرف الحيوى ، الضيق النسبي في مواردنا ، والمعدل العالي لزيادة عدد السكان ، اتضح بما لا يدع للجدل مدى ارتباط تطورنا بل مجرد استمرارنا بزيادة الانتاج والارتفاع بمستوى الانتاجية »

والقضية اذ تصل بهذا الى درجة من التشابك والتعقيد ، ضرورة الارتفاع بالانتاجية من ناحية ، وضعف الموارد بالنسبة لتزايد السكان من ناحية اخرى ، وضرورة التقدم على الاقل لمجرد الاستمرار ان لم يكن التطور ، يقدم البرنامج حلا صحيحا وصادقا حين يقرر بصورة مباشرة بأنه « هنا يلعب العلم والبحث العلمي الدور الرئيسي » .

العلم والبحث العلمي والنـــاتج القـومي

ونكرر ان هذا الحل صحيح وصادق الى أبعد الحدود . ولا يقتصر صدقه علينا باعتبارنا نحاول ان نعوض نقص المتاح من الاستثمارات برصيد كبير من البحث العلمي وانجازاته ، بل انه حقيقة اصبحت صادقة في كل الدول وجميع المجتمعات. ورب نظرة الى الجدول المرافق الذي يوضـح اسهام العوامل المختلفة في الناتج القومي لعدد من البــلاد تفيد مباشرة بأن الدور الرئيسي في التقدم لم يعد يقدمه مقــدار الاســتثمار المتاح ، ولا زيادة العمالة ، قدر ما يتحقق عــن التقــدم الفني . انه يمكن ان يلاحظ ببسـاطة انه في جميع البلاد الواردة في الجدول وفيما عدا كندا لظروف تطورها الخاصة ــ قدم التقدم الفني دائما حوالي الــ ٥٠ ٪ من معدل النمو السنوي لاجمــالي الناتج القومي .

ولا يقتصر صــدق أن العلم والبحث العلمي يلعبان الدور الرئيسي في تحقيق التقدم على هذه الدول ، بل يتعداه الى العمــلاقين الـكبيرين كذلك . فنجد أنه في الاتحاد السوفيتي وصلت الابتكارات واقتراحات الترشيد الى ٠٠٠ر٢٤٠ر١ في ١٩٥٠ تزايــدت الى أكثر من ٠٠٠ر٠٠٠ر٢ في ١٩٥٥ ، ثم الى حوالي ٠٠٠ر٠٠٠ر٤ في ١٩٦٥ ، انساب الى التطبيق منها حوالي ثلاثة

اسهام العوامل المختلفة فى الناتج القومى *

الدوله	معدل النمو المركب السنوى			الاسهام فى الناتج القومى			٪ ٣/٦
	العماله	رأس المال	اجمالى الناتج	العمل	راس المال	التقدم الفنى	
المانيا الغربية	١ر٦	٦	٧ر٤	١ر١	١ر٨	٤ر٥	٦٠
ايطاليا	١ر١	٣ر٢	٥ر٩	٠ر٨	١ر-	٤ر١	٦٩
يوجوسلافيا	١ر١	٤ر٩	٥ر٥	٠ر٨	١ر٥	٣ر٢	٦٠
هولندا	١ر٢	٤ر٨	٤ر٨	٠ر٨	١ر٤	٢ر٦	٥٤
فرنسا	٠ر١	٣ر٤	٤ر٥	٠ر١	١	٣ر٤	٧٥
كندا	٢ر١	٧ر١	٤ر٢	١ر٥	٢ر١	٠ر٦	١٣
النرويج	٠ر٣	٤ر٦	٣ر٤	٠ر٢	١ر٤	١ر٨	٥٣
السويد	٠ر٥	٢ر-	٣ر٤	٠ر٣	٠ر٦	٢ر٥	٧٤
بلجيكا	٠ر٣	٢ر٦	٣	٠ر٢	٠ر٨	٢	٦٦
انجلترا	٠ر٦	٣ر١	٢ر٤	٠ر٤	٠ر٩	١ر١	٤٦

[*] روبى وليامز — المجلة الدوليةللعلوم الاجتماعية — المجلد ١٨ — عدد٧ ، ١٩٦٦ اليونسكو

ملايين فى ذلك العام ، وادت الى اقتصاد يربو على ١٨٨٠ مليون روبل سنويا [٢] .

ذلك بينما فى الولايات المتحدة يرى الاقتصادى أ.ف. دينيسون بعد البحث أن زيادة دخل الشخص العامل فيما بين أعوام ١٩٢٩ ، ١٩٥٧ يرجع ٨٧٪ منها الى التقدم فى العلوم والتعليم، بينما يعود ٩٪ منها فقط الى نمو الراسمال الخاص . كما يلاحظ أنه بينما يرجع أكثر من نصف التطور الاقتصادى فى المجتمع الامريكى فى الفترة من ١٩٠٩ الى ١٩٢٦ الى زيادة القوة العاملة ورأس المال المستثمر ، فان نصيب هذين العاملين مجتمعين قد انخفض الى الثلث فقط فيما بين عامى ١٩٢٩ ، ١٩٥٧ بينما كان الثلثان نتيجة كل من التعليم والابتكارات التكنولوجية [٣]

وتتعدى آثار العلم والبحث العلمى هذه الحدود، الى حد أن التجارة فى براءات الاختراع والابتكارات العلمية ، واتاوات استخدام الحقوق التكنولوجية المسجلة قد ارتفع نصيبها من حجم التجارة العالمية ارتفاعا كبيرا ، وبحيث ان معدل تزايدها صار فى السنوات الاخيرة ثلاثة أمثال معدل تزايد التجارة العادية . وتشير بعض التقديرات الى ان بيع براءات الاختراع ،وحقوق الانتاج قد عادت على الولايات المتحدة بما يربو على ٦٠٠٠ مليون دولار خلال سنوات الستينات

ومن ذلك — على اختصاره الشديد ، وعلى عديد مايمكن أن يورد من أمثلة من كل بقاع العالم — يمكن أن ندرك أن أثر العلم والبحث العلمى على الاقتصاد القومى لم يعد أمرا يتعلق بدولة معينة ، بل صار طابعا عالميا ينطبق فى جميع الحالات . ولم يعد التقدم متعلقا — فى جانبه الاعظم — بزيادة رؤوس الأموال المستثمرة، ولا بزيادة استغلال جهد العاملين أو زيادة أعدادهم بل يرتبط فى اندفاعه بمدى التقدم الفنى والتحسين التكنولوجى المستخدم .

والعلم ليس نتاج صوامع للبحث » أو مصدرا للرزق للبعض ، ولا الهاما روحيا لدى بعض العباقرة فان « منجزات العلم مهما كانت هائلة، ومهما بلغت من روعة تظل عديمة الاثر ان لم تقدم للعاملين آلات حديثة، وأساليب جديدة للانتاج تساعد على توفير فى الجهد والوقت والتكلفة ، وتحقق فى نفس الوقت زيادة ملموسة فى الانتاج » .

وأصبحت هذه فى الواقع سمة العصر، ونعنى بها الا ينعزل البحث العلمى كما كان فى الماضى بل يرتبط دائما بقضايا الانتاج والخدمات، يأخذ منها زادا من المشاكل الفعلية يتصدى لحلها ، وفى نفس الوقت يترجم بحوثه — مهما كانت اتجاهاتها — الى وسائل جديدة فى التطبيق . ولعل أصدق الامثلة على مدى تغيير السرعة فى تحويل الانجاز العلمى الى مجال التطبيق » هو ذلك الجدول التالى الذى يعطى الفارق الزمنى بين الابتكار العلمى وتطبيقه [٤] وكيف تضاءل تماما خلال القرنين الأخيرين »

---

[١] مجلة السلام والحرية والاشتراكية — اكتوبر ١٩٦٦

[٢] أ.ف. دينيسون — « مصادر النمو الاقتصادى فى الولايات المتحدة » — لجنة التطور الاقتصادى نيويورك ١٩٦٢

الكشوف العلمية وتطبيقها

الابتكار	سنة الكشف علميا	سنة الظهور عمليا	الفارق بالسنة
التصوير	١٧٢٧	١٨٣٩	١١٢
التليفون	١٨٢٠	١٨٧٦	٥٦
الراديو	١٨٦٧	١٩٠٢	٣٥
الرادار	١٩٢٥	١٩٤٠	١٥
التليفزيون	١٩٢٢	١٩٣٤	١٢
القنبلة الذرية	١٩٣٩	١٩٤٥	٦
الترانزيستور	١٩٤٨	١٩٥٣	٥
الدوائر المتكاملة	١٩٥٨	١٩٦١	٣

حصاد استثمار البحث العلمي

فالعائد من العلم والبحث العلمي لا يتحقق تلقائيا ، ولم يعد نتيجة أفكار ملهمة ، بل هو مردود طبيعي لاستثمار يتزايد كل عام ولا يصب في مراكز البحث ومعاهده فحسب ، بل يصب كذلك حيثما كانت روافد تثرى البحث وتدفع عجلته الى الامام .

فالثابت مثلا أن الولايات المتحدة كانت تنفق في عام ١٩٦٥ على أعمال البحث العلمي والتكنولوجي حوالي ٢٠٫٠٠٠ مليون دولار او مايعادل ٣٫٦٪ من ناتجها القومي، ارتفعت خلال الاعوام الاخيرة الى ٤٫٥٪ . ويستهدف الامريكيون زيادة الانفاق على البحوث النظرية وحدها بمعدل ٢٦٪ كل عام اى بحيث تصل في مدى ثلاثين عاما الى ثلاثين ضعفا لما هي عليه اليوم [٥] كما تدل الأرقام الصادرة عن الاتحاد السوفيتي الى ارتفاع انفاقه على البحوث بمقدار ست مرات خلال الاعوام من ١٩٥٥ الى ١٩٦٥ . هذا بينما استمرت أوربا عامة تخصص ٢٪ من ناتجها القومى لنفس الغرض ارتفعت الان الى ٢٫٥٪ .

ولا يقتصر الانفاق على الحكومات ، بل أصبحت الشركات تخصص نسبة عالية من انفاقاتها قد تصل الى ١٠ أو ٢٠ في المائة احيانا لاغراض البحث العلمي. وأصبح المختبر يسبق في انشائه، وقد يزداد في حجمه عن الوحدة الانتاجية ذاتها. **ولا يقف الانفاق عند** حدود مستلزمات معامل البحث العلمي بل تعداه كذلك الى النشر العلمي حتى وصلنا الى مايمكن أن نسميه الطوفان العلمي المعاصر ٪ حيث يصدر سنويا في مجال العلوم البحتة والتطبيقية ٥٥٫٠٠٠ مجلة علمية شكل دوري تحتوي في المتوسط على حوالى ١٫٢٠٠٫٠٠٠ مقالة علمية وفنية ، فضلا عن ٦٠٫٠٠٠ كتاب وحوالى ١٠٠٫٠٠٠ تقرير بحث[٦]

وايمانا بالبحث العلمي ونتائجه يتجه جانب كبير من الاستثمار في التعليم الجامعي كذلك ٪ حتى يمكن أن يتوفر العدد اللازم من القوى البشرية القادرة على الخلق ، خاصة وقد اثبت البحث العلمي في شئون العلم ذاته انه ازاء كل عالم في المرتبة الاولى أو العليا يوجد أربعة في المرتبة الثانية ، وتسعة في المرتبة الثالثة، الامر الذي عبر عنه أحد العلماء بقانون يقول ان عدد العلماء الذين ينشرون بحوثا يتناسب تناسبا عكسيا مع مربع عدد البحوث المنشورة . فهناك عالم واحد نشرت له عشرة بحوث علمية مقابل كل مائة مشتغل بالعلم لم ينشر له سوى بحث علمي واحد . وبالتالي فلتوفير هذا العدد الواسع من العلماء الباحثين بمراتبهم المختلفة يتسع التعليم الجامعي بحيث أنه من بين كل ١٠٠٠ من السكان ينخرط في الجامعة عدد قدره ٢٩ فردا في الولايات المتحدة [أو ٤٣٪ من المواطنين الواقعة أعمارهم بين ٢٠ ، ٢٤ عاما] ، عشرة أفراد في هولندا ، وعشرة كذلك في السويد . وبينما ينخفض هذا الرقم في الاتحاد السوفيتي عن الولايات المتحدة الى ١٨ في الالف نجد انه يفاخر بأنه قد خرج من الجامعة كمهندسين خلال الستينات مايزيد عن أربعة أمثال ماخرجته الولايات المتحدة ، وأنه يحتفظ بعدد من الباحثين بين جدران معامله يصل الى ربع اجمالى العدد على مستوى العالم كله .

ولان اعداد هذه الارقام المتزايدة أصبح يمثل عبئا على الميزانيات حتى في الدول المعروفة

[٣] ج.ج. سرفان شرايبر — كتاب التحدى الامريكي
[٥] لورد باودن — « العلم في عالم متغير » مجلة المهندس الميكانيكي
[٦] مجلة الجهاز المركزي للتدريب — ج.م.ع — العدد الاول .

بثروتهـا ؛ لذلك كان السعى الدائب من جانب الدول المتقدمة — فى الغرب — الى جذب العناصر العلمية من بعضها البعض ، ومن الدول النامية بالذات نظرا للاغراء الشديد الذى يقع تحت تأثيره أبناء الاخيرة من واقع المقارنة بين مايعرض عليهم وما يعيشـونه فى بلادهم من ظـــروف مادية وعلمية .

وكنتيجة للنجاح الذى أصبح يحققه العلم فى عالمنا المعاصر ، فقد أصبحت معامله فى الواقع « وحدات بحوث » تماثل الوحدات الانتاجية كما نعرفها سواء فى مجـال التنظيم أو الادارة أو حساب الارباح والخسائر . وصار معمل البحث بما يحوية من معدات حديثة وتكنولوجيا متطورة ومتقدمة مماثل من حيث الشكل للوحدة الاقتصادية تماما ، ولكنه بدلا من المنتجات المادية ذات السعر المعين ، ينتج أفكارا جديدة ، ومقترحات للتطوير سرعان ماتأخذ طريقها الى التطبيق لتولد قيما مادية جديدة قد تصل الى مئات وآلاف أضعاف الاستثمار الذى بذل فى سبيلها . وأصبح لوحدات البحوث عملاء ثابتون يلجأون للتعاقد معها من أجل حل مشاكلهم ، كما اتجهت هى الى التخصص حسب الاستثمارات المتاحة لديها ، ونوع المعدات التى حصلت عليها ، ونوعية الباحثين بها .

ولـكن رب ظاهرة يحسن الاشارة لهـا فى هذا المجال والتى أصبحت تميز من وجهة نظر ادارة العمل أسلوب تسيير البحوث الان . فانه فى ضوء هذا الطوفان من الابحاث العلميـة ، وعدم استطاعة أى فرد الالمام بكل ماينشر مهما اقتصر فى هذا على تخصص دقيق معين ، نجد انه قد انتهى الان من العالم صورة ذلك العالم الملهم ذى الصومعة الخاصة ، وأصـبح العلم يمارس بأسلوب الفريق أو المجموعـة المتكاملة التى قـد يتغير تشكيلها كماونوعية بين الباحثين كلما تغير الموضوع الذى تكلف المجموعة بمعالجته . وقـد لا يكون قائد الفريق عالى التخصص فى موضوع البحث ، ولكن لابد أن يكون لديه حد أدنى من المعرفة العلمية به ، فضلا عن ضرورة تميزه بالقدرة على توجيه جهود المجموعة الباحثة والربط والتنسيق بينها وبين غيرها .

وان كانت ادارة البحث العـلمى وأسـلوب ممارسته قد خرجت بنا عن سياق الحديث الا انها ظاهرة تميز النشاط العلمى فى العالم كله الان . ذلك النشاط الذى تضاعف الاستثمار فيه حتى تحقق لنا من المحصـــول العلمى فى القرن العشرين وحده أضعاف كل ماحصلته البشرية فى ملايين السنين من قبله . وهو النشـــاط الذى



أصبح محل المنافسة الكبرى بين جميع المجتمعات المتقدمة بحيث أنه قـد صار معـدل مضاعفة المحصول العلمى يتم فى عدد من السنوات يتراوح فى معظمها حول عدد أصابع اليدين . فلقد ثبت أن الفترات الزمنية اللازمة لمضاعفة حجم النشاط العلمى فى مجتمعات أربعة نسلم اليوم بأنها قد حققت تقدما علميا مؤكدا : هى كما يلى [٧] :

البلد	فترة مضاعفة النشاط العلمى	بداية حركة التقدم
اوربا	١٥ عاما	منتصف القرن السابع عشر
امريكا الشمالية	١٠ اعوام	منتصف القرن الثامن عشر
الاتحاد السوفيتى	٧ اعوام	عام ١٩١٨
الصين	٥ اعوام	عام ١٩٥٠

العلم اسلوب شائع

فالابتكارات العلمية التى تتم حتى فى أعقـد المشاكل التكنولوجية تظل تتسلسل الاستفادة منها حتى تصل الى الوســائل البسيطة فى الحيـاة اليومية للناس ، فنشاهـد آثارها فى البيوت والمحال العامة والملاهى والمنتديات . ولا يكاد المواطن يتساءل عن أية مشكلة الا ويجـد فى صـددها عشرات من الـكتب أو النشرات أو الصحافة العلمية أو البرامج الاعلامية يعثر فيها على ضالته ، أو يقرأ فيها مستزيدا من المعرفة العميقة . [ويحسن الا ننسى هنا أنه فى الاصل **يقرأ وبالطبع يكتب**] . ان انعكاس العلم والمعرفة العلمية أصبح يبدأ مع المواطنين منـذ الطفولة تجده فى لعب الاطفال التى تعدت منـذ سنين طويلة « الحجلة » و « الترنجيلة » الى الالعاب التى تحركها الالكترونيات ، وتلك التى تقرب الى مداركه العديد مما يشاهد ، كيف يبنى الكوبرى مثلا ، أو كيف تعمل الرافعة الجبارة ، أو كيف يسير القارب البخارى وهكذا .. وحين تتلقفه المدرسة تجد ان الدراسة قد تحولت بحيث صار التركيز الاكبر على اكتساب أكبر قدر ممكن من

[٧] من ليونارد مارساك : نهضـة العلم فى علاقتها بالمجتمع ماخوذة مـن كتاب ديريك برايس « العلم منذ بابل »

المعرفة بالعلوم وانجازاتها والقواعد العلمية التي تحكمها [٨] .

ولا تأخذ الدراسة أسلوب أن يحفظ هذا كله كمسلمات يضيق بها وبتعقيداتها ، بل اسلوب أن يجرب وأن يبحث وأن يشاهد ويلمس الظواهر بيديه ويترجمها عقله ، وبالتالي يتعود البحث والاستقصاء وتنمى قدراته فى هذا المجال ، بحيث اذا خطا فى التعليم مراحل أخرى وجد بجوار المدرسة العديد من أندية العلوم التى يتزايد عددها عاما بعد عام فى كل البلاد المتقدمة [٩] حتى صارت تستوعب نسبة كبيرة من قطاع الشباب ، يتمرسون فيها على المحاولة العلمية أو تطبيقا لمعارف قائمة ، أو محاولة للاستفادة من محصولها فى مشكلة خاصة ، أو محاولة لبناء النماذج المصغرة . وما زالت الالعاب تلاحقه حتى سن متقدمة فى شبابه فتجد مجموعة الميكانيكى الصغير أو الكيميائى أو البيولوجى أو الكهربائى التى بما يقدم معها من ارشادات ، وما تمرس عليه الشاب الصغير من القراءة والبحث والتجريب كفيلة كل منها بأن تعطيه محصولا من المعرفة العلمية قد يقارب مايحصله لدينا فى عام كامل .

ولا يمكن أن يكون غريبا عندئذ ، بعد أن يرضع الناس العلم مع لبن الام ، وأن يمارسوه أطفالا وشبابا ، الا يكون الايمان به فى أعلى درجاته عند وصولهم الى مرحلة الرجولة والانخراط فى سلك المنتجين . سوف يصبح طبيعة فى التصرف ، وملجأ أمينا فى التصدى للمشاكل بدلا من الدوران حولها « بالفهلوة والشطارة » ، وسوف يكون الاسلوب لايجاد الحلول بحث فى مضمون المشكلة ومداها ، وتفتيش عن أبعادها وارتباطها بظواهر أخرى ، وتقص احصائى لمدى تكرارها ودرجتها فى مرات التكرار .. وهكذا ، ولا بأس فى النهاية أن تقدم كل هذه المعلومات ، اذا تضخمت ، فى صورة معادلات رياضية الى حاسب الكترونى يقدم لها مختلف الحلول وأمثلها .

وليس غريبا اذن أن يقدر ج.ج سرفان شرايبر [١٠] أنه بحلول نهاية عام ١٩٧٠ — وقد تخطيناه — سوف تمثل العقول الالكترونية أكبر استثمار فى أية منشأة حيث تبتلع وحدها مايزيد على ١٠٪ من الاستثمار الكلى ؟ ولا أن تتنبأ الايكونومست [١١] أنه سيتم فى خلال السبعينات التحول الى ادارة العمل اليومى عن طريق التحليل الرياضى للبيانات ، وأن تصبح الصفات المطلوبة فى رجال الادارة العليا ليست الخصال المتميزة ، والخبرة الطويلة ، والقدرة على اتخاذ القرارات السريعة والحاسمة ، بل القدرة على اتخاذ التصور والابتكار بحيث يمكنه على الدوام أن يقدم أفكارا جديدة يراجعها له الحاسب الالكترونى ، ويتميز بالقدرة على اقامة العلاقات الصالحة وقيادة مجموعات الخبراء [بما فى ذلك منع العلماء وخبراء الحاسبات الالكترونية من أخذ الامور كاملة فى أيديهم] بحيث تتخذ القرارات العليا بروح الفريق المتكامل التخصصات بعد مراجعتها على الحاسبات .

الواقع والمشاكل

يضع البرنامج العلم والبحث العلمى فى موضعهما الصحيح من قضية التنمية ومضاعفة الدخل القومى ، فهو يقرر أن لهما فى هذا المضمار دورا رئيسيا ، كما يحدد أنهما يصبحا عديمى الاثر ان لم يقدما آلات حديثة وأساليب جديدة للانتاج تحقق زيادة فيه ، وتوفر فى الجهد والوقت والتكلفة .

واذ يتصاعد بالضرورة السؤال الحائر عن كيف السبيل الى ذلك يجيب البرنامج فيما يتعلق بقوى البحث أن « لدينا رصيدا لايستهان به من العلماء والباحثين ومنهم من له مكانه المميز بين علماء العالم . ويضيف فيما يتعلق بمراكز البحث أن « لدينا العديد من مراكز البحث فى الجامعات والوزارات والشركات » . وفيما يتعلق بنسجها قوة تلعب دورها فى التنمية يحدد أنه « ينقصنا التنظيم ، ينقصنا ايجاد رابطة تنسيق بين المراكز بعضها البعض ، ثم ربطها جميعا ربطا وثيقا بعملية الانتاج القومى » . ويصل فى النهاية الى الهدف بقوله « ان الهدف الاول للبحث العلمى يجب أن يكون الوصول الى تكنولوجيا مصرية عصرية » .

وفى اعتقادنا ان ذلك كله قد يكون سليما وصحيحا ، ولكنه سوف يقصر عن أن يصل

---

[٨] قدم د. لويس عوض فى اهرام الجمعة ١٩ — ٢ — ١٩٧١ دراسة عن الفارق الكبير بين تحصيل تلميذ المرحلة الابتدائية عندنا وفى فرنسا . وان كانت الدراسة قد ركزت على العلوم الانسانية والادبية الا ان الفارق مازال اكبر اذا ما عقدنا المقارنة بين برامج العلوم والرياضيات فى البلدين وفى مختلف مراحل التعليم .

[٩] صلاح جلال — الاهرام

[١٠] المرجع السابق

[١١] الايكونومست ٢٧ — ١٢ — ٦٩

بنا الى مانريد ان لم نتكشف واقعنا فى دقة ؟ ونرى مشاكله فى وضوح ، ونحدد الفوارق بيننا وبين غيرنا من الامم التى أخذت بسبيل العلم والبحث العلمى فقطعت فيه شأوا بعيدا ، ولا حاجة بنا الى أن نعيد ونكرر الا نكون فى هذا مجرد ناقلين، بل نأخذ من الخبرات كما عرضناها فيما سبق زادا لننظر على ضوئها فى أمورنا ونشكلها حسب واقعنا .

ولقد عرض البرنامج حاجتنا الى مجرد التنظيم والتنسيق بين مراكز البحث وربطها بعملية الانتاج ولعلنا نذكر أنه منذ أكثر من عشر سنوات برزت هذه الدعوة — وهى صحيحة تماما — وانشأنا على اثرها المجلس الاعلى للعلوم ثم تحول الى وزارة للبحث العلمى وعادت الوزارة الى مجلس مرة أخرى ، ثم الغى للمرة الثانية وعادت الوزارة من جديد . وفى كل مرة وضع المجلس أو الوزارة خطة علمية وبرامج للبحث . ولكن هانحن بعد سنوات عشر أو أكثر يقرر العديد من المسئولين بأننا لم نصل من وراء هذا الى نتيجة تذكر فى المعضلات الرئيسية من مشاكلنا . وتكررت القصة مع مراكز البحوث المتخصصة هى الاخرى فقد تجاذبتها الايدى ناحية وزارة البحث العلمى تارة وناحية الوزارات الاخرى تارة ثانية . وفى كلتا الحالتين لم نلمس بالدليل القاطع أى الرأيين أفضل .

ان التنظيم والتنسيق ضرورة ملزمة . وهى قاعدة تعمل بها كل الدول . ولا يمكن أن نتصور البحوث تجرى فى هذا الموقع أو ذاك دون صلة وترابط وتنسيق . ذلك كله حقيقة ، ولكن وقد جربناه ولم يكن كافيا ، أو لم يؤد الهدف المرجو منه ، فان المشكلة لابد وأن تكون فى هذه الحالة ذات جذور أعمق من أن يحلها مجرد الترابط والتنسيق .

وذلك فى الواقع اعتقادنا ، وما نؤمن به . ولنبحث عن الحل بعد استعراض بعض المشاكل كما نحاول لمسها من الواقع .

قوى البحث

انها حقيقة أن لدينا رصيدا لايستهان به من العلماء والباحثين ومنهم من يحتل مركزا عالميا مرموقا . وحقيقة كذلك — لنا أن نفخر بها — اننا نحتل أحد المراكز الاولى فى العالم فى نسبة من يحملون مؤهلا فوق البكالوريوس أو الليسانس ولكن وجب علينا هنا أن نضع عددا من التساؤلات ؟ كم من هؤلاء موجود فى موقع يستطيع منه أن يمارس البحث العلمى ؟ واذا وجد فى مثل هذا الموقع فكم هو ذلك القدر من وقته الذى يستطيع أن يخصصه للبحث بعد الفراغ من المشاكل الادارية والروتينية واجازات الموظفين وحسابات المخازن .. وما اليها ؟ وكم من وقته يضيع فى الجرى وراء اعتماد من أجل جهاز بسيط ؟.. وهكذا ؟ والخلاصة كم منهم فى موقع للبحث العلمى الفعلى يقوده ويعطيه كل وقته — أو على الاقل معظمه — ويجد مستلزمات بحثه ميسرة واعتماداتها جاهزة دون تعقيدات ؟

ان مشكلة هؤلاء جزء من مشكلتين رئيسيتين فى المجتمع هما **مشكلة الرجل المناسب فى المكان** عصر يتطور بسرعة الصواريخ .

وقد يصبح فى ظل هذا من الصعب أن نسألهم كم منهم — وعددهم كما قلنا كبير — كون مدرسة متكاملة للبحث ، ولكنا مع ذلك نسأل . ونعود هنا الى شكواهم من قلة الدخل واضطرارهم للجرى هنا وهناك وراء استيفاء الاحتياجات المادية للمعيشة لانسان وظيفته التفكير المستمر والاطلاع الدؤوب .

ولكن مع هذا الدفاع عنهم ، ليس لنا أن نغفل انتشار ظواهر خطيرة مثل نقص فى الاستعداد للعمل بروح الفريق ؟ أو الرغبة فى السيطرة وعدم اعطاء الفرصة للجيل الجديد ، أو الانغلاق فى ابراج قد تكون عاجية ، أو اللجوء الى الدعاية أكثر من الانتاج الايجابى الجيد .

وهى مشاكل ليست فريدة ؟ بل هى انعكاس لظواهر عامة مضمونها **العمل بأسلوب غير علمى** .

واذا انتقلنا الى خريجى الجامعة وحاملى شهاداتها لوجدنا كل الدول المتقدمة تعتبرهم طاقة بحث ، وقوى ممكنة بالقليل من التدريب أن تتناوله عملا وتسهم فيه بقدرات متزايدة يوما بعد الاخر . ولا يمكن أن نجد فى أى من هذه الدول خريج الجامعة وقد اقتصر عمله على توقيع سراكى الحضور والغياب وامضاء اذونات الصرف وتوقيع الاجازات أو الجزاءات يعمل «كالخولى» لا وظيفة له الا أن يسوق « الانفار » . ان النظرة الى خريج الجامعة وطبيعة العمل الذى ينساط به لابد أن تتغير ، ولابد أيا كان موقعه الا يدفن حيا بقصر عمله على وظائف لاتتفق مع ما انفق فى تكوينه من ثروة البلاد . وعمله بالتحديد يجب أن يتحول اما الى البحث فى حلول المشاكل التى تقابله فى موقع العمل ، أو القيادة العلمية — وليست أبدا الادارية — لهذا الموقع . ان تحويل عمله الى هذا الوضع كفيل بحل قضية أساسية تقابلنا قبل قضية البحث العلمى الا وهى استخدام المتاح من المعرفة العلمية بالفعل .

وان لم نفعل ذلك كان **اهدارا لطاقات قائمة ؟ وتبذيرا فى ثروة قومية** .

ولابد عند الحديث عن قوى البحث الا نغفل التعليم الجامعى والتوسع فيه رغم كل اعتراض . فخريجو الجامعة هم عدة التقدم ، ولن يمضى

وقت طويل على العالم والا ويكون هذا هو مقياس ثروة الامم . ان نسبة الجامعيين الى تعداد السكان لا تعدو ٤ فى الالف الان ، ويحسن أن نضعه هدفا فى عشر السنوات القادمة أن نصل الى نسبة الـ ١٠٪ فى الالف تلك التى وصلتها دول عديدة منذ سنوات .»

مراكـــز البحـث

وحقيقة أن لدينا عديدا من مراكز البحـوث المتخصصة ، ولكنا هنا كذلك نستطيع أن نجـد العديد من المعوقات عن أن يحقق هذا العديد ما ننشد من تقدم .»

فالكثير منها قد نشأ فى غياب استراتيجيـة متكاملة للتنمية يمكن منها أن نحدد فى ضـوء دراسة لواقعنا المـادى وثروتنا واحتمالاتها .. ووضعها داخل السـباق العالمى ، أى أنـواع المعاهد ، وأى البحوث تلزمنا ، ويصبح المعهـد منذ نشأته مرتبـطا بهـدف محـدد فى تلك الاستراتيجية .»

والكثير منها منعزل عن حقل الانتـاج ، ان اقترب منه أو حاول ذلك لم يجد ترحيبا أومساعدة ، أو على الاقل وفى افضل الاحوال منعت مشاكل العمل اليومى وملاحقات المسئوليـة أن يصـبر القائمون على الانتاج على هؤلاء الباحثين ويعطوهم قدرا من المعونة وقدرا اكبر من الثقة .

والمعاهد جميعا تسير على قواعد فى الترقيات ترتبط بالشهادة التى يحصل عليها الباحث ، ولان البحوث التطبيقية — وخاصة فى مرحلة تطورنا الحالية — قد لايفى الواحد منها بالمستوى المطلوب للماجستير أو الدكتوراه ، تجد الباحث يستعيذ هو الاخر بالله منها ، ويسعى مضطرا الى البحوث الاكاديمية لانها فى بساطة الطريق العملى الوحيد له الى الشهادة المطلوبة ، وبالتالى التقـــدم المـــادى .

والكثير منها — ان لم يكن كلها — تعانى من نقص الاعتمادات ، بحيث أن الفائض من ميزانياتها بعد دفع الاجور لا يكفى لمجرد تواجـد المـواد الكيماوية اللازمة . والنتيجة من ذلك أن صارت أجهزتها ومعداتها — بلغة العصر — عتيقة وقديمة لا تلاحق المستوى العلمى المعاصر ، وبالتـالى لاتعين على الدفع بسرعة البحث ومداه .»

العـــلم والمجتمـع

انه يصبح كانفصام الشخصية أن نتحدث عـن العلم والبحث العلمى فى مجتمع لايعرفهما وبالتالى لن يؤمن بهما . ولن يأتى الايمان بالعلم من مجرد ترديد ذلك ، ولا من الاكثار من حملة الدكتوراه والماجستير ، أو من تعداد مراكز البحث ، لانه ونتائجه عندئذ سيكونان نباتا فى أرض لا تعرفه وقد لا تطلبه . ان العـلم والبحث العلمى كأى نشاط فى المجتمع يتزايد انتعاشهما كلما تزايدت الحاجة الاجتماعية لهما . ومن ثم كان من أكثر ما يلزمهما هو تغيير طبيعة المجتمع ذاتها .

ان النسبة العالية من أمية القراءة والكتابة — ناهيك بالأمية فى صورها الاخرى — والتى تتعدى الـ ٦٠٪ من مجموع السكان ، والتى لابد أن نخجل من ذكر رقمها هذا فى السبعينيات من القـرن العشرين ، تمثل جيشا — هو الاغلبية — لن يعرف بالعلم أو يؤمن به .

ان استثمارا — مهما بلغ — فى مصنع لانتاج لعب الاطفال المبنية على اسس علمية ، وتبـاع بارخص الاسعار لهو خطوة نحو انعاش العـلم والبحث العلمى ، ومصنع أو وحدة — وليـكن اسمها ما كان — لانتاج وسائل الايضاح للانجازات العلمية عبر تاريـخ البشرية توزع على متـاحف للعلوم من شمال الجمهورية الى جنوبها خطوة اخرى وكبيرة فى نفس الاتجاه .

ان اعادة النظر فى المحصول العـلمى الذى يكتسبه التلميذ خلال سنى تحصيله ، وأسلوب التحصيل الذى يعتمد — ولو فى جزء منه — على البحث والاستقصاء ، يعتبر ضرورة قومية هامة وعاجلة .

ان ظهور الصحافة العلمية الواسعة الانتشار، وبرامج الاعلام التى تقرب العلم الى الجماهير وتبسطه وتربط بحياتها اليومية ، والكتب العلمية المبسطة ، والسينما العلمية ونشر نوادى العلوم فى كل الجهات تعتبر جميعها ضرورة للنهـوض بالمجتمع ضرورة المـاء والهواء فى عالم اليوم .»

ان وحدات الانتاج وقد جرت عادتنا أن نحاسبها على أسـاس مـن الميزانيات فحسب يجب أن تحاسب كم قدمت من ابتكار ، وكم جديدا حققت ، وكم بحثا أجرت أو مولت أو شاركت .

ان اعادة تقييم الاعمال بحيث تصنف الى وظائف مطلوب فيها الخلق والتجديد والابتكار ، وأخرى مهمتها التسيير وتحديد المشاكل وتقديمها لجهات البحث ضرورة أخرى حتى نستفيد بما لدينا من طاقات .

والخلاصة أنه اذا أردنا للبحث العلمى أن يلعب دوره — ولابد أن نريد ذلك — اذا أردنا الا يزداد بنـا التأخر ، يستلزم بالضرورة أن نحول مجتمعنا من منطق الخطابة الى منطق العلم كما قال مؤخرا أحد الكتاب الكبار . ان ازدهار البحث العـلمي

لايمكن أن ينبت الا حيث يوجد المناخ الذى يريده وبالتالى يشجعه .

وبعـــــــد ...

فلسنا نغالى اذا قلنا انه لو حددنا للسنوات العشر القادمة استثمارا قدر ما بذلنا فى السد العالى ــ وقد استغرق هو الاخر عشر سنوات ــ فى كل هذه النواحى المتعلقة بالبحث العلمى بدءا من محو الامية عبر مراحل التعليم ونشاط قطاعات الثقافة والشباب وصولا الى الجامعة ومراكز البحث سواء المستقلة أو التى تحويها وحدات الانتاج لحققنا بكل تأكيد نتائج بعيدة المدى للتطور الصناعى فى البلاد .

وأخيرا ، فاننا حين نرفع شعار جعل العلم والبحث العلمى أداة رئيسية للتنمية ، فاننا نعيد الى الاذهان معانى رفعها القادة وكررت منذ أخذنا باحتفالات عيد العلم وتكريم العلماء وكانت دائما مجالا لمحاولة دفع عجلته الى الامام ، ومنذ صدر الميثاق وقد مجد العلم بما لا مزيد عليه ، ثم فى بيان ٣٠ مارس وقد نص على ضرورة اقامة العلم والتكنولوجيا ، ثم فى الفقرات العديدة التى تضمنها برنامج العمل الوطنى ..

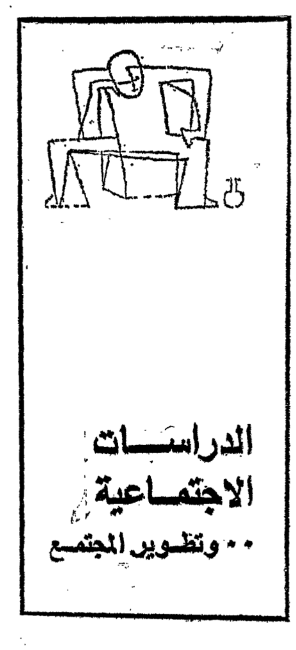
ولكن ستظل المشكلة الكبرى القائمة هى كيف ننقل كل هذه المعانى السامية الى دائرة التنفيذ ..

كيف سيتحول الشعار من مجرد معنى جميل ، وأمل يراود الى واقع حى نعيشه ..

ولن يتحقق ذلك اذا نظرنا لمشكلة العلم والبحث العلمى كمشكلة مجردة منفصلة عن المجتمع ككل. قد تصدر قرارات بالتنسيق بين معاهد البحث وتكوين مجالس لادارتها من عديد من علمائنا الافاضل ، ولكن ستظل قراراتها حبيسة الاوراق مالم يرتبط البحث العلمى عضويا ــ وليس تنسيقا فحسب ــ بمراكز الانتاج والخدمات ، ومالم يعتبر العديد من مراكز البحث وحدات اقتصادية ، ومالم تحل مشاكل الباحثين ، وقد تخصص قدرا أكبر من الاعتمادات للبحث العلمى ولكن أخشى ماأخشاه أن تتحول ــ كما حدث كثيرا ــ الى فم تنين الروتين يبتلعها فى أجهزة ادارية ومراسلات واعداد من الوظائف كبيرة وصغيرة ولا يبقى للبحث ذاته الا نصيب الأيتام ..

ان التقدم فى جبهة العلم والبحث العلمى لن يتم الا فى ضوء حركة عامة لمعالجته على مستوى الشعب ، وفى حقل التربية والتعليم ، وفى حقل الثقافة ، ثم فى حل العديد من المشاكل الجذرية فى المجتمع .

ولقد قدمنا أمثلة للمعوقات نرجو أن يكون فيها ما يفيد لاكتشاف أول الطريق ..



الدراسـات الاجتماعية .. وتطوير المجتمع

السيد ياسين

ــ ١ ــ

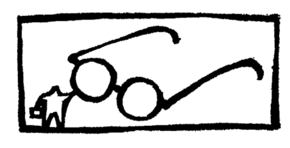
يمكن القول بأن البحث العلمى الاجتماعى ــ ونعنى به اجراء البحوث الواقعية فى مجال علم الاجتماع وعلم النفس والانثروبولوجيا الاجتماعية على المستوى القومى ــ يعد تقليدا جديدا فى مجتمعنا ، ليس له جذور راسخة .. ولا نكون مغالين اذا أرخنا نقطة التحول الحاسمة فى هذا المجال بانشاء المعهد القومى للبحوث الجنائية

عام ١٩٥٦ ، والذى اقتصر فى بدايته على البحث فى العلوم الجنائية : علم الجريمة، وعلم العقاب، وعلم كشف الجريمة ، ثم تحول بعـد ذلك عام ١٩٦٠ ليصبح **المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية** ، وبذلك امتد نشاطه ليسع العـلوم الاجتماعية بمعناها المعروف ونعنى علم الاجتماع وعلم النفس وعلم الانثروبولوجيا الاجتماعية .

وبالرغم من أن الجامعات المصرية درس فيها علم الاجتماع منذ وقت مبكر نسبيا ، الا ان الجيل القديم من أساتذة عـلم الاجتماع اقتصروا على تدريس هذا العلم — فى أغلب الاحيان — على غرار التقاليد الفرنسية ، التى تعنى — اشـد ما تعنى — بالتنظير الذى يفتقر الى الدراسات الميدانية الواقعية . وانصب جزء كبـير مـن أهتمامهم على شرح أعمال المدرسة الدوركايمية ابتداء من عميدها اميل دوركايم ومرورا بأعمال موكونيه عن المسئولية والجزاء ودراسات ليفى بريل الانثروبولوجية . غير أن هذا المجهود الذى بذله هؤلاء الاساتذة الرواد ، اقتصر تماما — كما فعل زملاؤهم فى أمريكا اللاتينية فى موقفهم من علم الاجتماع الفرنسى — على النقل دون التأصيل أو التفسير . ونعنى بذلك أن هؤلاء الاساتذة لم يعنوا بربط النظـرية الاجتماعية بالظـروف الاقتصادية والسياسية التى نشأت فى ظلها ، والتى اثرت تأثيرا حاسـما على اتجـاهاتها وتطوراتها ، فلا يمكن فهم دوركايم الا فى ضـوء فهم أوجست كونت ، ولا يمكن فهم كونت الا فى ضوء العصر الذى عاشه ، والـذى هيمن عليه الصراع بين البورجوازية والطبقة العمالية على مستوى حركة المجتمـع ، وبين الوضـعية والاشتراكية على مستوى الصراع الايديولوجى .

بعبارة مختصرة ، عجز هذا الجيل عن تقديم منظور سوسيولوجيا المعرفة الذى يربط بين الفكر وبين البناء الاجتماعى برباط وثيق ، وبالتالى قدم الفكر السيسولوجى الفرنسى معزولا عن جذوره، وبكل ما يتضمنه من تحيزات ايديولوجية صارخة ، لم يكن الغرض منها سوى الحفاظ على مصالح الطبقة البورجـوازية الاوربية ، واهم هـذه التحيزات ضرورة الفصل بين القيم والوقائع ، ومنـع الباحث الاجتماعى من تقييم الظـواهر الاجتماعيـة أو الحكم عليهـا نزولا على مطلب « موضوعية » العلم « وحياده » .

ثم جاء جيل من الاساتذة المصريين بعـد ذلك ادخـلوا لاول مرة فى البيئـة العلمية المصرية مناهج البحث الاجتماعى الميدانى ، وشرعوا فى تطبيقها على نطاق بالغ الضيق ، سـواء فى صورة بحوث للحصول على درجة الدكتوراه أو فى صورة بحوث جزئية أجريت على موضوعات خاصة .



وحتى فى هذه المرحلة لم يكن هنـاك وعى نقدى بأن الاطر النظرية فى علم الاجتماع وحتى بعض مناهجه وأدوات البحث فيه يمكن أن تتأثر تأثرا واضحا بالتحيزات الايديولوجية للباحثين ، مما يقتضى توفر الفطنة النظرية لدى البـاحث حتى يكتشـف عن الجـذور الايديولوجية فى الصياغات النظرية المتعددة التى يزخر بها علم الاجتماع .

وكانت المرحلة الثالثة والحاسـمة هى تلك المرتبطة بانشاء المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية . فلاول مرة فى بلادنا اصـبح **البحث العلمى الاجتماعى مهنة معـترفا بها** ، ينقطع لها باحثون متفرغون لا يشـغلهم سـوى البحث العلمى . ولاول مرة أيضا أجريت بحوث علمية اجتماعية واسعة المدى ، تعددت فيها العينات وزاد حجمها بحـكم أن الدولة هى التى تمـول البحوث ، وبالتالى لم تكن هناك عقبات ماليـة تحـول بين الباحثين وبين الانطـلاق فى بحث الظواهر على مستوى واسع .

ولا ندعى أن هذا التطور الذى حاولنا أن نركز على مراحله الرئيسـية من التأمل النظرى الى التجريب فى مجال البحث العلمى الاجتماعى ، يغطى بالدقة الكاملة كل مراحل الرحـلة التى قطعتها العلوم الاجتماعية فى بلادنا ، ولكننا أردنا فقط أن نحاول التمييز بين المراحل الاسـاسية حتى تتضح أمامنا الصورة الكلية الشاملة .

ولا يمكن لنا ان نحكم على التطـورات التى لحقت بالبحوث العلمية الاجتماعية بغـير ربط نشأتها بالظروف التى صاحبتها . فالعلم — طبيعيا كان أو اجتماعيا — لا يمكن فهم تطوراته بغـير ربطه بالبناء الاجتماعى . فما هى العلاقة بين العـلم الاجتماعى والبنـاء الاجتماعى فى الخمسينيات حين أنشىء المعهد القومى للبحـوث الجنائية ؟

يمكن اجمال هذه الاعتبارات فيما يلى :

١ ــ لم يكن هنالك وعى كاف ، لا على مستوى أجهزة الدولة ولا على مستوى الجماهير بأهمية وفائدة البحث الاجتماعى . بل لقد لاقت فكرة البحوث الميدانية فى هذا الوقت مقاومة عدد من الاساتذة الذين مرنوا على أساليب التفكير التأملى والنظرى ، ولم يتح لهم ممارسة هذا النوع من أنواع البحث العلمى من قبل .

كل ذلك بالاضافة الى تشكك وتشكيك بعض القيادات الادارية فى أجهزة الحكومة فى قيمة واهمية النتائج التى يمكن أن تصل اليها هذه البحوث .

٢ ــ لم يكن لدى الاجيال الجديدة من الباحثين فى هذا المجال ــ بحكم حداثة الميدان الذى ارتادوه ــ النظرة الكليةالشاملةللعلم الاجتماعى فى اتساعه وشموله ، وبما يتضمنه من مشكلات وتناقضات . ومن هنا قنعوا فى المراحل الاولى بمحاولة السير على هدى تقاليد البحث العلمى الامريكية بحكم أنها التقاليد التى كانت لها السيادة العالمية فى هذا الوقت .

ولابد لنا أن نتذكر أنه فى الخمسينيات كان علم الاجتماع مازال منفيا ومضطهدا فى البلاد الاشتراكية ، بتأثير التفسير الدوجماطيقى للماركسية ، والذى كان يرى أن المادية التاريخية هى علم الاجتماع الماركسى ، وان علم الاجتماع بصورته الغربية علم اجتماع بورجوازى .

٣ ــ غير أنه أهم من هذين العاملين أن المجتمع المصرى لم يكن قد توصل الى صياغة ايديولوجية واضحة يسير التطور الاجتماعى وفقا لها . ومن المتفق عليه أن الثورة لم تسفر عن وجهها الاجتماعى الا فى الستينيات ، حين أصبحت الاشتراكية هى العقيدة الرسمية . ولذلك لم يكن فى الامكان للبحث العلمى الاجتماعى أن تتضح الرؤية أمامه ، مادامت الرؤية لم تكن واضحة أمام المجتمع بأسره فى هذا الوقت ..

ولكن ماذا حدث بعد الستينات ؟

بالرغم من أن الدولة تبنت الاشتراكية وبدأت فيما أطلق عليه مرحلة التحول الاشتراكى ، الا أن الايديولوجية الجديدة ــ ربما بحكم أنها لم تكن سوى حل توفيقى للمشكلة الاجتماعية ــ لم تتسم بسمة الالزام . بعبارة أخرى لم تكن هناك موجهات ايديولوجية واضحة ومحددة وحاسمة تلتزم بتطبيقها أجهزة البحث العلمى الاجتماعى وذلك فى وضع سياساتها العلمية ؟ وتحديد برامجها العلمية ، بما يتضمنه ذلك من وضع معايير واضحة لأسبقية المشكلات الجديرة بالبحث . ومن هنا لم تسيطر على اختيار مشكلات البحث استراتيجية واضحة مستقاة منايديولوجية محددة . ولذلك فلابد فى مثل هذا المناخ الفكرى الهلامى من أن تكون السيطرة لذوق الباحث أو تفضيله الخاص للمشكلة ، التى يبحثها ، أو لدى احساسه بأهمية مشكلة دون أخرى ، أو فى النهاية لعامل الصدفة والعشوائية .

غير أن الخبرة المتراكمة من اجراء عديد من البحوث الاجتماعية ، والمتابعة النقدية الواعية للاتجاهات السائدة فى العلوم الاجتماعية فى العالم ، أدت الى عدد من التغيرات الايجابية فى مجال التفكير النظرى الاجتماعى فى بلادنا لعل أهمها ما يلى :

١ ــ نتيجة لبحوثودراسات عدد من الباحثين التقدميين وضعت مشكلة تأثير الايديولوجية فى العلوم الاجتماعية نظريا وتطبيقيا فى الصدارة بين المشكلات التى رؤى أنها تحتاج الى دراسة واتخاذ موقف واضح منها .

وقد اتجهت بعض هذه الجهود الى تأصيل النشأة التاريخية للنظرية الاجتماعية فى القرن التاسع عشر ، على ضوء موجهات علم اجتماع المعرفة للكشف عن الجذور الايديولوجية للفكر الاجتماعى الغربى ، ليس بغرض رفضه فى جملته ، وانما بهدف تقديره التقدير الحقيقى ، وابراز حدوده الطبيعية التى لا يمكن له أن يتجاوزها .

وحاولت بعض الجهود الاخرى ابراز تأثير الايدولوجية فى علم الاجتماع المعاصر ، وذلك بالاستعراض النقدى للاتجاهات الراهنة فى علم الاجتماع الامريكى باعتباره الترجمة المخلصة والامينة ــ فى اتجاهه الغالب ــ للايديولوجية الرأسمالية . ومن ناحية أهتم بعض الباحثين بعرض الوضع الحالى لعلم الاجتماع الماركسى الذى نشأ فى منتصف الخمسينات ، وانطلق ونما نموا كبيرا ، لابراز وجهة النظر الاشتراكية فى دراسة المجتمع وفهمه وتفسيره .

٢ ــ بدأ الاهتمام بمفهوم « السياسة العلمية » على أساس أن أية خطة قومية للبحث العلمى الاجتماعى ، لابد أن توضع على هدى سياسة علمية واضحة المعالم . وقد جاء هذا الاهتمام مواكبا لاهتمام عالمى بهذا المفهوم الذى تحول لكى يصبح علما قائما بذاته ، له مصطلحاته

ومباحثه وعلماؤه المتخصصون مثل كيدزوفا السوفيتي ، وروسو البلجيكي ، وأوجير الفرنسي

٣ — **زاد التركيز** على أهمية تنمية الاطر النظرية في اجراء البحوث ، تلافيا للسطحية الشديدة ، وللسذاجة الفاضحة التي تميز بها عديد من البحوث الميدانية المصرية التي تمت في ظل تقاليد البحث الامبريقي الامريكي ، الذي يركز على الاعتماد الاساسي على أدوات بحث مثل الاستخبارات أو استمارات البحث ، لجمع اكبر عدد من البيانات ، وتحليلها تحليلا احصائيا ، بغير محاولة لتقديم تفسير علمي للظواهر المدروسة يردها الى أصولها الحقيقية الكاملة في البناء الاجتماعي ، وفي هذا الاطار ارتفعت الدعوة الى أهمية المنظور التاريخي في دراسة المشكلات الاجتماعية .

٤ — **وضحت الرؤية** في مجال اختيار مشكلات البحوث ، على أساس ضرورة ربطها بخطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية . وبالرغم من أنه لا يمكن القول بأنه تم الوصول الى الصيغة المناسبة تماما لتحقيق هذا الهدف الاساسي ، الا أن ازدياد الوعي بأهميته يعد علامة ايجابية في مسيرة البحث الاجتماعي في بلادنا .

— ٢ —

المشاكل والحلول

اذا كان ما سبق عرضا مجملا وسريعا — بقدر ما يتسع له المقام — لواقع البحث العلمي الاجتماعي في بلادنا فما هي على وجه التحديد المشاكل الاساسية التي تقف عقبة في سبيل انطلاقه وتطوره ؟

أهم هذه المشاكل تنحصر — من وجهة نظرنا — فيما يلي :

١ — انعدام العلاقة بين التخطيط والبحث والتنفيذ :

ونعني بالتخطيط ضرورة أن يوجد جهاز على أعلى مستوى قومي يقوم بتحديد الجهات الاساسية للبحوث العلمية الاجتماعية من ناحية، وباقتراح مجالات البحث الكبرى التي ينبغي تكريس أجهزة البحث لدراستها ، مع التحديد الاجمالي للمشكلات الاجتماعية الهامة الجديرة بالبحث وأسبقياتها .

وهذا الجهاز الذي نفتقر اليه حتى الان ، يمكن أن يجد صورته المثلى في المجالس القومية المتخصصة التي نص عليها بيان ٣٠ مارس ولم يتم تشكيلها حتى الان .

وفي رأينا أن المجلس القومي الاجتماعي لاينبغي أن تقتصر عضويته على عدد من كبار المسئولين التنفيذيين ، أو واضعي السياسات ، وانما ينبغي أن يطعم بعدد من الخبراء في العلوم الاجتماعية، القريبين من الواقع الاجتماعي والمحتكين به مباشرة ، حتى يأتي التخطيط بناء على خبرة واقعية حية ، ولا يكون مجرد تنظير منبت الصلة بالاعتبارات العملية .

غير أن هذا المجلس لابد له — ان اريد أن ينجح في اداء مهمته — أن يدرك أن **العلم الاجتماعي — في مفهومه الصحيح — هو علم سياسي .** بمعنى أنه لابد من ادخال الاعتبارات السياسية المستقاة من الايديولوجية الرسمية موضع الاعتبار حين التخطيط للبحث الاجتماعي .

فاذا كانت الاشتراكية كايديولوجية رسمية تعنى أساسا بالطبقات الكادحة ، فلابد أن ينصرف أكبر جهد من البحث لدراسة أوضاع ومشكلات الفلاحين والعمال ، باعتبار أن هاتين الطبقتين هما عماد المجتمع، واللذان يمثلان الغالبية العظمى من الشعب المصري .

وتأتي بعد ذلك اجهزة البحث العلمي التي سترد اليها توجيهات المجلس القومي المتخصص لكي تترجمها في صورة برامج بحوث .

وهذه الاجهزة لابد من تطويرها تطويرا شاملا لكي تكون على مستوى المسئولية . ويقتضي ذلك أولا دعمها من الناحية المالية والوظيفية ، ووضع الخطط اللازمة للنهوض بالمستوى العلمي لباحثيها ، واتاحة الفرص امامها للسفر في بعثات ومهمات علمية . وحضور المؤتمرات والندوات في الخارج ، حتى تزداد خبرتهم ، وتصقل مواهبهم من خلال الاحتكاك بالاوساط العلمية العالمية .

وتبقى امامنا أخيرا الجهات التنفيذية ، هذه الجهات تحتاج الى جهد خاص لاقناعها بأهمية البحث العلمي الاجتماعي في حل المشكلات المتعددة التي تجابهها . غير أن أهم من ذلك كله ، ينبغي عن طريق التشريعات الملزمة لها ، أن تأخذ في الاعتبار التوصيات الواقعية المدروسة التي تصل اليها البحوث العلمية الاجتماعية . وبذلك تكتمل الدورة من التخطيط الى البحث الى التنفيذ .

بغير اتباع هذه الدورة المتكاملة ، يمكن — كما يحدث الان بالنسبة لعدد كبير من البحوث الاجتماعية — أن تتراكم عاما بعد عام . بغير

ان تقوم بدورها فى تغيير الواقع الاجتماعى ؟ وفى ترشيد الفعل الاجتماعى الذى كثيرا ما يتم فى بلادنا بطريقة مرتجلة ، لا تتفق اطلاقا مع مواصفات التفكير العلمى .

٢ ـ حرية البحث العلمى الاجتماعى :

يثير البحث العلمى الاجتماعى مباشرة قضية حرية التفكير فى المجتمع . وقد أثبتت خبرة كثير من البلاد ، وخصوصا البلاد الاشتراكية التى بذلت مجهودات خارقة لتمويل مجتمعاتها منحالة التخلف الى حالة التقدم ، أنه لا يمكن للبحث العلمى أن يؤدى دوره فى القضاء على التخلف بكل صوره ، وفى مساعدة المجتمع على الانطلاق بغير أن تكفل للمثقفين عموما وللباحثين العلميين خصوصا حرية التفكير ، وحرية البحث ، بما يتضمنه ذلك من نقد الاوضاع الخاطئة،وتشخيص السلبيات السائدة ، ومهاجمة القيم الفاسدة ، والتعرض بالبحث لانحرافبعض الفئات الاجتماعية المسيطرة ، التى من شأن سلوك اعضائها اعاقة مسيرة العمل الوطنى .

ويشير برنامج العمل الوطنى الذى قدمه السيد الرئيس أنور السادات بوضوح كامل الى اهمية البحث العلمى فى تطوير المجتمع المصرى ، كما أنه يركز تركيزا شديدا على ضرورة كفالة الحريات للمواطنين جميعا ، فى ظل سيادة القانون .

وعلى ضوء هذه الآفاق الجديدة التى يفتحها برنامج العمل الوطنى أمام الفكر المصرى ، يحق لنا أن نتفاءل بالمستقبل ، وأن نثق فىأنه سيتاح للباحثين العلميين الاجتماعيين بأن يدخلوا مجالات بحث عديدة كانت محرمة عليهم من قبل نظرا لحساسية مزعومة كانت تركز عليها مراكز القوى التى أرادت أن تحكم بالارهاب ، وأن تسيطر باشاعة الخوف .

ففى الوقت الذى يحرص فيه عدونا على قياس اتجاهات الاسرائيليين بصفة دورية فى المجالات السياسية وبالنسبة لعديد من المشكلات التى تجابه الدولة الاسرائيلية ، حيث يوجد عديد من معاهد قياس الرأى العام ، مما يتيح لصانع القرار الاسرائيلى أن يتخذ قراره على ضوء المعرفة العلمية باتجاهات المواطنين ، نجد أن **دراسة الاتجاهات السياسية عندنا وربطها بالاوضاع الاجتماعية السائدة ، كان ومازال منطقة محرمة لا يجوز للباحثين أن يدخلوها .**

ونجد نفس الاوضاع بالنسبة لكثير من مجالات البحث الداخلة فى نطاق علم الاجتماع السياسى، ومن أهمها دراسة « الجماعات الضاغطة » التى أطلقنا عليها فى مصر مراكز القوى ، من حيث تكوينها وطبيعتها والعلاقات بينها ، والمصالح الطبقية التى تعبر عنها . ومثل دراسة « النخبة السياسية الحاكمة » من حيث تكونها ، واصولها الطبقية ، واتجاهاتها الايديولوجية ، وآثار ذلك كله على مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

ترى هل يمكن لنا كباحثين اجتماعيين ان نفهم طبيعة عمليات التغير الاجتماعى فىمجتمعنا بغير أن نتعرض بجسارة لدراسة التكوين الطبقى للمجتمع المصرى ، ولنوعية الصراع الطبقى الذى يشق مجراه فى الخفاء فى أغلب الاحيان ، وفى العلانية فى أحيان اخرى ؟

ان الحل الوحيد للمجابهة الحقيقية لمشكلات المجتمع المصرى الاساسية يكمن فى كفالة حرية التفكير وحرية البحث العلمى . **ويرتبط بذلكحق الباحث العلمى فى اعلان نتائجه واعطائه من الضمانات القانونية ما يكفل عدم تعرضه لاى ضغط أو تهديد .**

٣ ـ عدم توفر الكادر العلمى المتخصص فى المشكلات الاجتماعية التطبيقية :

لا يمكن للبحث العلمى الاجتماعى أن يقوم بدوره فى خدمة خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية مالم يتوفر عدد كاف من الخبراء ذوى الخبرة فى الجوانب التطبيقية . ممثلا مشكلة كمشكلة الاسكان فى بلدنا ، ستظل لفترة طويلة فى الصدارة بين مشكلاتنا ، كم عدد الخبراء الاجتماعيين الذين يستطيعون تقديم الخبرة العلمية الاجتماعية لاجهزة التخطيط والتنفيذ فى الحكومة والقطاع العام فيما يتعلق بمشاريع الاسكان الضخمة التى تنفق عليها الحكومة ملايين الجنيهات ، والتى قد يؤدى اغفال الجانب الاجتماعى فيها ، الى خسارة وضياع مؤكد ؟ **وكم عدد الخبراء الاجتماعيين عندنا المتخصصين فى مشكلات التحضر بما تتضمنه من توسع المدن ،** وهدم الاحياء القديمة ، وبناء أحياء جديدة والانطلاق فى مجال التعمير والعمران ؟

لقد أتيح لى ان احضر ندوة نظمتها مجلة « الطليعة » منذ سنوات بمناسبة العيد الالفى للقاهرة ، وحضرها مسئول كبير فى « هيئة تخطيط القاهرة الكبرى » وشكا فيها من عدم توافر الخبرة الاجتماعية فى مجال تخطيط المدن، بالرغم من احساس المسئولين فى الهيئة بأهميتها،

وبالرغم من تعميم الدائب للبحث عن خبراء اجتماعيين فى هذا المجال .

وحل هذه المشكلة ينبغى أن يبدأ فى أقسام علم الاجتماع بالجامعات ، التى ينبغى عليها أن تعيد النظر فى مقرراتها من ناحية وفى برامج تدريباتها العملية من ناحية أخرى .

أما من ناحية المقررات فيكفى أن نعلم أنه ليس فى هذه الاقسام جميعا — وبدون استثناء — مقرر واحد **مخصص لدراسة المجتمع المصرى** ! فطالب الاجتماع يدرس عن التحضر فى المجتمع الامريكى ، ومشكلات المجتمع الريفى فى الولايات المتحدة الامريكية أكثر بكثير مما يدرسه عن التحضر أو الريف فى المجتمع المصرى .

ولذلك فهناك ضرورة — على مستوى الدراسة الكلية الشاملة — لدراسة البناء الاجتماعى للمجتمع المصرى ، ويمكن الاستعانة فى هذا المجال بكل رسائل الماجستير والدكتوراه والبحوث الخاصة والعامة التى جرت على جانب أو أكثر من جوانب المجتمع المصرى ، للقيام بمحاولة تركيبية مبدئية تحدد سمات مجتمعنا بناء على البحوث الواقعية التى تمت .

ومن ناحية أخرى هناك حاجة قصوى للتخصيص ، بمعنى أهمية تدريس مقررات عن المشكلات الاجتماعية الاساسية ، كمشكلة غير أن هذا الجهد لايمكن أن يفى بكل ما هو مطلوب لاعداد هؤلاء الخبراء التطبيقيين . يبقى على أجهزة البحث العلمى الاجتماعى أن تعد من بين خبرائها ، من يتخصصون تخصيصا دقيقا فى هذه الجوانب ، حتى يساعدوا أجهزة الدولة المختلفة على ترشيد سياساتها وخططها فى هذا المجال .

وبعد ، ان ما سبق ليس سوى نظرة عامة ألقيناها على واقع البحث العلمى الاجتماعى فى بلادنا ومشكلاته والحلول المقترحة لحلها ، حاولنا فيها أن نقدم مناقشة موضوعية تتناول الابعاد الاساسية للبحث العلمى الاجتماعى فى منطلقاته النظرية وفى ممارسته العملية .

ونستطيع فى ختام هذا المقال ان نقرر — بناء على عديد من الشواهد — أن البحث العلمى الاجتماعى المصرى يدخل الان فى مرحلة حاسمة، قوامها التفكير النقدى الذى لا يقنع بالتأثر بالمصادر الاجنبية ، ولا يكتفى بالنقل الاعمى من خبرات مجتمعات أخرى . وانا لواثقون أن الباحثون المصريين فى المرحلة القادمة سيكونون اكثر قدرة على فهم وتحليل البناء الاجتماعى للمجتمع المصرى ، ولعل هذا الفهم يهم فى تحويل مجتمعنا الى مجتمع اشتراكى حقيقى ينتفى فيه الاستغلال، وتنتصر على أرضه ارادة الانسان .

حرية الابداع :
جوهر الأدب والفن

غالى شكرى

« ان للادب وللفن ووسائل الاعلام دورها الكبير فى هذه القضية ، قضية تكوين الانسان الجديد فى مواجهة حرب الدعاية التى تشنها ضدنا قوى الامبريالية والصهيونية ، ان هذا الدور يفرض التصدى لقضايا مجتمعنا من وجهة نظر الجماهير ، من وجهة نظر التقدم ، من وجهة نظر الانسان الشريف الكادح الذى يبنى الحياة.

ان ادباءنا وفنانينا وكتابنا والعاملين فى أجهزة الاعلام مطالبون بأن يقفوا هذا الموقف الثورى وبوجه خاص فى هـذه المرحلة المصيرية من حياتنا ، وعلى الاتحاد الاشتراكى وأجهزة الدولة المختصة ان نقـدم لهم كل عون وأن تيسر لهم ظروف الابداع دون ماتدخل فى حرية تفكيرهم ودون مافـرض لاسلوب معين لعملهم . اننـا نريد ادبا وفنا ، والادب والفن ابداع ولا ابداع بلا حرية ، ولـكن لا حرية بدون الالتحـام مع الجماهير . ولعله يكون من المناسب أن يتبنى الاتحاد الاشتراكى فكرة انشاء اتحاد عام للكتاب يضـم الادباء وكتـاب السياسـة والقـانون والاقتصاد ، واتحـاد للفنـانين بتخصصـاتهم المختلفة » .

هذه السطور هى ماجاء حول الادب والفن فى برنامج العمل الوطنى فى معرض حديثه عن « بناء الانسان الجديد » . وبالرغم من أن هذه الكلمات بالغة التعميم الا أن صدورها فى هذه الوثيقة الرسمية له أهميته القصوى ، اذ خلت الوثائق الرسمية السابقة كالميثاق وبيـان ٣٠ مارس من هذه الاشـارات الواضحة الى مكانة الادب والفن فى التشريع والتخطيط بقيم انساننا الجديد . لقد أشار الميثـاق الى حرية الفكر ، ودعا بيان ٣٠ مارس الى تكوين مجلس قومى أعلى لشئون الثقافة ، غير ان هاتين الوثيقتين لم تتعرضا للادابوالفنون علىوجه التخصيص. وهكذا كانت الدلالة الاولى لهذه السطور الموجزة فى برنامج العمل الوطنى أنه سجل مبادرة رائدة للتنظيم السياسى هى تصويره المتحضر والتقدمى لدور الاديب والفنان فى المجتمع . وقـد كانت هناك ظلال فى المـاضى ما تزال باقيـة فى الحاضر ، تلقى على هذا الدور شبهة السلبية والهامشية والقيمة الثـانوية ، باعتبـار الادب والفن ــ عند أصحاب هذه الظـلال ــ مجرد ترف زخرفى وواجهة طريفة لا أكثر ولا أقل . ان هذا الاعتراف من جانب أعلى سلطة سياسية فى الدولة بالاهمية الـكبيرة للادب والفن يظل شعارا جميلا فحسب مالم يترجم الى اعتراف عملى من جانب السلطة التنفيذية فيما يتصـل بينها وبين الادب والفن من أسـباب . ولعل السبب المادى هو أول ما يضع الاعتراف الجديد موضع الامتحان .. فالنظرة المتخلفة الى الثقافة تحجب عنها الامكانيات المادية التى يدونها لاتصل هذه الثقافة الى الجماهير ، وهى الهدف الذى ركزت عليه كلمات البرنامج . وباسم المعركة واقتصاديات الحرب والتقشف احتلت الثقـافة الجادة دائما المركز الاول فى جـداول تخفيض النفقات ، وكأنها عبء أثقلت المعركة لتخلصنا منه . وربما كان الامر ــ كما سترى بعد قليل ــ على العكس من ذلك تماما ، فالعمل الفنى سـلاح جوهرى فى معركة حياتنا كلها ، ولنتخذ عبرة من الحرب النفسية التى يشنها العدو ؟ انها فى المقام الاول حرب ثقافية ضارية . ولا ينبغى أن نتعجل فى فهمعبارة « الحربالثقافية » فانها شىء مغاير للدعاية المباشرة والاعـلام السريع . والسبب الثانى الذى يصل بين السلطة التنفيذية والادب والفن ــ بعد العلاقة المادية وقبلها فى نفس الوقت ــ هو مـاأشـار اليـه البرنامج صراحة ودون التواء : حرية الابداع الفنى ، فاذا كان الاعترافبالقيمة العظمى للاداب والفنون يستوجب اعترافا عمليابكفالة الامكانيات المادية لتجسيد هذه القيمة فى النشر والمسرح والسينما والوصول بها الى أوسع رقعةجماهيرية فان الاعتراف بحرية الابـداع الفنى تستوجب مراجعة شاملة لاساليب السلطة التنفيذية فى التعامل مع مبدعى الفن . فالقضية هنا لاتتعلق فحسب بحرية الفكر التى يجب أن يتمتع بهـا المواطن عموما فى ظل القانون ، بل انها تتجاوز هذا التعميم الى الطبيعة الخاصة للعمل الفنى. هذه الطبيعة التى لا يمكن الركون فى فهمهـا واستيضاحها الى العيون الادارية سواء كانت عيونا سياسية أو عيونا بوليسية . وانما لابد وأن يشكل « أهل الاختصاص » من ناحية ــ وهم نقاد الادب والفن ــ والجماهير من ناحيةاخرى، الضوابط الوحيدة لحرية الفنـان والاديب فى المجتمع .

قوى الانتاج .. ووسائله

اذا كانت قـد تحددت للبرنامج فترة زمنية معينة تتحقق خلالها الاهداف التى رمى اليها ، فان هذا التحديد يعد أمرا علميا وواقعيا فىكافة مجالات الحياة المادية ، وبعض أوجه الحيـاة المعنوية كالاعلام والتربية والتعليم . ولكن هذا التحديد فى مجال الفن لاينبغى أن يتخطى أسوار قوى الانتاج الفنى ــ أى الفنانين انفسهم ــ ووسائل هذا الانتـاج . ومعنى ذلك بصراحـة ووضوح أننـا لانستطيع ــ اذا كنا جادين فى طلب الفن العظيم ــ أن نضـع خطة خمسية أو عشرية لـما « يجب » أن نحصـل عليه من أعمال أدبيـة وفنية ، سـواء من ناحية الـكم أو من ناحيـة الـكيف . ان الابـداع الفنى لايخضع فى جوهره الاصيل للحدود الصـارمة أيا كانت زمنية أو اقتصادية ، أو سياسية ، والعملية الفنيـة رغم تعقيـدها البـالغ الا انه بات ثابتا فى علم الجمـال ، أن « الواقع » من المؤثرات الاساسـية فى تـكوين العمل الفنى ــ وبالتـالى فان واقعنـا ــ بما يشتمل عليه من معركة مصـيرية أشـار اليها البرنامج ــ سوف ينعكس بالضرورة على آدابنـا وفنوننا ، بل هو منعكس فعلا على هذه الاداب والفنون. ربما اختلفت أساليب الانعكاس ورؤاه من اتجاه

فنى الى آخر ومن كاتب الى آخر ـ وهذا حق مشروع يكفل الخصوبة والحيوية للحركة الفنية ـ ولكن القضية تظل صحيحة ، وهى أن الواقع بكل ثقله وكثافته يشكل عنصرا رئيسيا من عناصر الفن . ولكننا بعد التسليم بهذه البديهية لانستطيع ، ولا نملك ، أن نحدد للفنان أو نخطط له ، مايجب وما لايجب « عمله » خلال « زمن » معين . فالحق أن الباحث الاجتماعى أو الاقتصادى أو السياسى يمكنه الخضوع لهذا التحديد ، أما الفنان فاننا لانقدر على قسره بهذا الاسلوب ، والا فاننا سوف نحصل منه ، اذا كان ضعيف الارادةالفنية والاصالة والصدق، على منشورات دعائية ساذجة ترتبط بقرارات وأحداث مرحلية ولاعلاقة لها بالفن والادب. ولنتعلم من خبرة البلدان الاشتراكية فى هذا الصدد . لقد مرت الاداب والفنون فى هذه البلدان ، شأن بقية أشكال الحياة ـ بمرحلة من الجمود العقائدى شاعت خلالها مفاهيم سطحية ومبتذلة عن الجمال باسم الاشتراكية . وقد كانت النتيجة الحتمية لهذه المرحلة فقرا مدقعا فى حصاد الفن الحقيقى ،وبذخا مدهشا فى مجال البروبجندا المقنعة بماكياج النظم اذا كان العمل المقصود شعرا ، وماكياج الحدوتة اذا كان العمل قصة قصيرة أو رواية أو مسرحية . ولقد تغير الامر تغيرا حثيثا فيما بعد ، ابان مرحلة ذوبان الجليد . ولا يزال الصراع عنيفا بين هذين الاتجاهين فى بعض المجتمعات الاشتراكية . الفن منحاز ، نعم ، ولكنه فن أولا وقبل كل شىء ، وفى مسألة الانحياز يجب أننعى نقطتين هامتين : انالانحياز الفكرى فى الاداب والفنون يتخذ لنفسه من الاساليب البعيدة عن الجهد والمباشرة والتقريرية ماينأى به كثيرا أو قليلا عن شكل الانحياز فى العلوم الانسانية الاخرى . والمسألة الثانية هى أنثمة فرقاأساسيابينناوبين المجتمعاتالاشتراكية هو أننا لسنا ـ بعد ـ فى مجتمع اشتراكى ، وبالتالى فان الاتجاهات الفكرية التى يجمعها اطار برنامج العمل الوطنى عديدة . والاعمال الادبية والفنية تحمل فى أحشائها هذا « التعدد » ى الاتجاهات الفكرية ، ومن ثم فان نوعية « الانحياز » لا أشكاله فحسب سوف تختلف ن تيار الى آخر . ولابد من أن تكون يموقراطية الصراع بين المذاهب الفنية ، حقا شروعا لجميع الاطراف الداخلة فى [التحالف والصراع] الاجتماعى . وهكذا فان التحديد الزمنى لمتطلبات برنامج العمل الوطنى لا ينطبق على جوهر العملية الابداعية ، وانما يستطيع هذا التحديد أن يهيىء مناخا صحيا للابداع الفنى اذا التفت الى أمرين آخرين هما قوى الانتاج الفنى ووسائله ، وهما أمران يتصلان فى واقع الامر بالجانب المادى للفن . قوى الانتاج الفنى هى « الخامة البشرية » ، هى الادباء والفنانون أنفسهم . ووسائل الانتاج الفنى هى « همزات الوصل » بين الفنانين والجماهير ، هى مؤسسات النشر والمسرح والسينما ، وما اليها من أجهزة الارسال الثقافية .

الموهبة الفنية من الاكتشاف الى التعمق

ان الاعتراف الرسمي من جانب أعلى سلطة سياسية فى البلاد بقيمةالادب والفن فى حياتنا، يجب أن يصاحبه اعتراف ضمنى وتنفيذىبقيمة الاديب والفنان ، وهذه القيمة ليست قيمة معنوية خالصة ، بل لابد من التعبير عن هذه القيمة المعنوية تعبيرا ماديا محسوسا كذلك . فالادباء والفنانون لايزالون فى مجتمعنا نباتات شيطانية تظهر صدفة ويختفى بعضها صدفة ويبقى بعضها صدفة . بينما استنبات الاديب والفنان مهمة اولية فى جدول أعمال البلاد الرأسمالية والاشتراكية على السواء . وفى مجتمع كمجتمعنا لم يعد فيه رأس المال الفردى قادرا علىتكوين التربةالثقافية الصالحةلاستنبات الادباء والفنانين ، لابد وأن تقوم الدولة بهذا الدور الخطير ، مستلهمة فى ذلك تجارب البلدان الاشتراكية . والحق اننا أنجزنا من حيث الشكل بعض الانجازات ، كمجانية التعليم فى جميع المراحل ، ومؤسسات القطاع العام فى النشر والمسرح والسينما ، ونظام التفرغ . ولم يعد باقيا الا الاهم ، وهو المضمون الفلسفى الشامل لهذه المؤسسات والنظم ، ثم استكمال ماينقصنا منها .

ان الموهبة الفنية لاتظهر فجأة فىسن متأخرة الا فى الاحوال الاستثنائية النادرة ، والمقدمة الاولى للتعرف على هذه الموهبة فى سن مبكرة هو التغيير الجذرى لمناهج التربية والتعليم وبخاصة فيما نحن بصدده . اى مواد الادب والفنون التشكيلية والموسيقى والمسرح والسينما . ان بعض هذه الفنون تسمى فى مدارسنا « هوايات » حرة ، ولامانع من أن تبقى فى جانب منها كذلك لاكتشاف المبادرات الفردية للاطفال ، ولكنها من زاوية أساسية يجب أن ترقى الى مستوى المادة المدروسة والبرامج التى من شأنها أن تنمى المبادرة الفردية فلربما تحمل فى جوفها موهبة أصيلة ، والتى من شأنها أيضا ايجاد خلفية ثقافية وتذوقية معقولة عند غير الموهوبين اصلا للخلق الفنى . ذلك أن هذه الخلفية التى لابد

من رعايتها وتطويرها فى بقية مراحل التعليم ؟ تخلق البيئة الصالحة للتذوق الفنى ، أى أنها تخلق جهاز الاستقبال المتطور والذى بدونه تبطل أجهزة الارسال وترين عليها العزلة . أى اننا فى نفس الوقت الذى نكتشف فيه أدباء المستقبل ، يجب أن نربى قراء المستقبل .وارجو الا يكون غريبا القول بأن هذا التوازى ـ الذى ينبغى أن يواكب مختلف مراحل التعليم ـ يحل مشكلة قديمة جديدة ، هى مشكلة العلاقة بين الفنان والجماهير ، فلكم ثارت المناقشات حول ضرورة نزول الفنان الى الجماهير او صعود الجماهير الى مستوى الفنان . ان هذه التربية المزدوجة للفنان والمتذوق تخلق « الارضية المشتركة » للقائهما وبنائهما لقيم الانسان الجديد .

على ان اكتشاف الموهبة فى مرحلة الطفولة ليس الا الخطوة الاولى ، نحو استنبات الاديب والفنان ، فالامر يزداد تركيبا كلما نما الطفل الموهوب وكبر اهتمامه بالفن الذى يستهويه . وفى مدارسنا الان نظام يسمى « فصول المتفوقين » تصد به أولئك الذين يحصلون على « مجاميع » عالية فى نهايات المراحل الابتدائية والاعدادية والثانوية ،حبذا لو فكرنا قليلا فى أنواع أخرى من التفوق لا علاقة لها بالمجاميع المذكورة . ولا ضرورة لان يرتبط هذا التفكير بشكل « فصول المتفوقين » فربما استطعنا ايجاد أشكال اخرى فى صلب مناهج تدريس الاداب والفنون ، وبرامج تربية أولئك الذين ثبت « تفوقهم » عاما بعد عام ، وأود أن أؤكد هنا مرة ومرات على أن العناية الخاصة بأصحاب المواهب الادبية والفنية ليست عناية كمية أو شكلية ، أى تتحقق فقط بزيادة ساعات الدراسه او زيادة مقررات المادة أو تخصيص فصول مواهب ، وانما قبل ذلك كله وبعده تتحقق الرعاية العلمية لمواهب الادب والفن بالتغيير الثورى لمناهج تعليم المادة وأساليب تدريسها . ان النصوص الادبية والمحفوظات المقررة حاليا لاتخرج فى الاغلب الاعم من كونها اختيارا محافظا لعقليات بالية أو مادة ارتزاق لمفتشى اللغة العربية . هذا من ناحية المضمون ، أما من ناحية الشكل فان هذه النصوص والمحفوظات يتم حشوها فى أدمغة التلاميذ والطلاب بصورة تراكمية عشوائية لايضبط حركتها فى التصور ايقاع التاريخ أو منطق العصر . ومن هنا كانت ضرورة التغيير الجذرى لمضمون المادة الادبية والفنية وأساليب تدريسها على السواء . وثمة ناحية أخيرة فى هذا الصدد هى « النظرة » المتخلفة الى مدرس الرسم أو الموسيقى ، وكأنه اضافة هامشية الى ديكور التعليم فى مدارسنا . ان هذه النظرة تنعكس بلا ريب على « معلم الفن » وبالتالى على مادته وتلاميذه .

لاينتظر الطالب الموهوب شهادة التخرج من الجامعة حتى يتقدم بانتاجه الادبى والفنى الى مؤسسات النشر ووسائل الذيوع ، وانما هو يحاول غالبا ـ أثناء الدراسة ـ ان يكتب أو يصور أو ينحت أو يلحن أو يمثل . وهنا لابد من توافر الاسس الموضوعية لاستقباله ، فالصدفة والوساطة والملق هى العمود الفقرى لحياة الاجيال الادبية والفنية الجديدة فى بلادنا . ولو أننا بدأنا بالمقدمة الصحيحة منذ اكتشاف الموهبة فى مهادها ، ثم تركناها بعد ذلك نهبا للتخبط بين أبهاء دور الصحف ومكاتب السكرتيرين وسماسرة أجهزة الاعلام، لكنا نقضى على هذه الموهبة بالموت واقعيا ، او معنويا بانحرافها الى دهاليز الرخص والابتذال . وهنا لابد من استحداث وسائل التنسيق بين معاهد العلم وبين مؤسسات الانتاج الادبى والفنى بحيث يخضع ظهور الكاتب والفنان للرأى العام ، لمعايير اقرب الى الموضوعية . ولكن مرحلة التجريب والمحاولة فى حياة الشباب ، لايجب أن تقترن من جانبهم بنظرة احادية الجانب هى الذيوع والانتشار فحسب، بل يجب ان تقترن من جانب الجميع بنظرة تربوية تتصل فيها الاجيال ، بعضها ببعض ، اتصالا وثيقا .وتاريخ الادب يكشف لنا صفحات رائعة عن الصلات العميقة بين كبار الكتاب وشبابهم الذين اصبحوا كبارا بعد ذلك . ان تنظيم اتصال الاجيال السابقة بالاجيال اللاحقة فى مقدمة المهام التى ينبغى التركيز عليها بشأن تربية المواهب الجديدة، فالخبرة القديمة والرؤيا الجديدة لاغنى لاحداهما عن الاخرى . انها لاتكسب الثقة بين الطرفين فحسب ، وانما هى تغنى الدورة الجدلية للفن بزاد لا ينفد من التجارب . ولعله من تقاليدنا العريقة « صالونات » الادب والفن و «الندوات» الدورية لبعض كبار الكتاب ، والشكلان كلاهما لايتفق مع مقتضيات « التخطيط » لمجتمع أدبى وفنى جديد ومنظم . لسنا فى عصر الصالونات، والندوة الخاصة بكاتب مالاتفى بالغرض . وانما لابد من تنظيم الصلة بين الاجيال على نحو جديد.

ثروتنا القومية ووسائل استغلالها

اذا آمنا حقا بأن الكتاب والفنانين هم مهندسو النفس البشرية ـ وهو المعنى الكامن فى تعبير البرنامج عن بناء الانسان الجديد ـ فاننا مطالبون كما قال البرنامج أيضا « بتيسير ظروف الابداع » لهؤلاء الذين يشكلون ثروة قومية حقيقية ، ما أحوجنا اليها . لذلك كانت

وسائل استغلال هذه الثروة فى مقدمة الانجازات التى نحرص على تحقيقها حتى يتهيأ لادبائنا وفنانينا بعد مراحل اكتشافهم ورعايتهم والتثبت من أصالة مواهبهم وصقلها ثقافيا — المناخ المناسب لانتاجهم ، ابداعا وتطويرا وانتشارا . وفى هذا الصدد نقدم عناصر أربعة رئيسية تصلح كمدخل لتهيئة هذا المناخ :

اولا : التفرغ ، ولعله من أهم انجازات المرحلة الماضية ، ذلك النظام الذى تبنته وزارة الثقافة لتفرغ الادباء والفنانين . ولكن تغير اللوائح الخاصة بهذا النظام من عام لعام كادت تفقده فى السنوات الاخيرة الغاية التى أسس من أجلها . ونقطة الضعف الرئيسية فى مختلف اللوائح التى تغيرت هى أنها نظرت الى «التفرغ» على أنه **منحة** ، فكانت النتيجة المزدوجة لهذه النظرة المتخلفة ان « انتفعت » بهذا النظام عناصر غير موهوبة تسربت اليه بدافع « العطف الابوى » من جانب بعض كبار الكتاب والفنانين أعضاء لجان التفرغ . ومن ناحية أخرى أضيرت بعض العناصر الموهوبة والاصيلة من جراء البنود المجحفة التى طرأت على لائحة التفرغ عندما تنبه المسئولون الى أن هذا النظام يوشك أن يتحول الى أحد فروع وزارة الشئون الاجتماعية . ولا ريب أن فكرة التفرغ فى ذاتها فكرة تقدمية أصيلة فى تبنى المواهب اليافعة والناضجة ، ولكن بشرط يتكامل مع بقية الشروط السابقة التى أثمرت الفنان الحقيقى الاصيل ، شابا أو كهلا أو شيخا ، وهى أنه فنان فعلا ، لا متطفلا أو دعيا أو مريضا أو مرتزقا . فاذا كان الثابت أن هذا أو ذاك من الادباء والفنانين المرشحين للتفرغ أديبا حقا وفنانا حقا ، فان التفرغ لايعود بالنسبة له « منحة » وانما « حقا » يستوجب اعادة النظر فى كافة البنود المتخلفة فى اللائحة الحالية ، والمجحفة بحق الفنان شكلا ومضمونا . ويعنينى هنا من هذه البنود اثنين : الاول يخص التقييم المادى ، اذ تعتبر اللائحة الفنان المتفرغ موظفا حاصلا على اجازة بمرتب اذا كان مرتبه فى الوظيفة الاصلية صغيرا ، ولا تعير مرتبه التفاتا اذا كان مرتبه فى الوظيفة الاصلية كبيرا . والحل الموضوعى لهذه الازدواجية المعقدة أنه اذا اعترفت الدولة والمجتمع بأحقية هذا الفنان فى التفرغ فانه يجب النظر اليه ماديا من هذه الزاوية ، وهى أنه « فنان » لا من زاوية أنه كان يمارس قبل التفرغ عملا آخر كالتدريس أو الصحافة أو العمل فى مصنع .. وهو كفنان — لا كموظف فى اجازة ، يستحق منا أن نصوغ حياته المادية على نحو « ييسر له ظروف الابداع » دون أية مقارنة بين وضعه السابق ووضعه الجديد ، وانما يشرع له القانون كادرا ماليا جديدا يضع فى اعتباره — الى جانب الوحدة الانسانية المشتركة بين العاملين جميعا — مستواه الفنى وخبرته وثقافته وآية نضجه الى غير ذلك مما يؤرخ له عمره الادبى والفنى وفق التقارير الموضوعية المأخوذة من أكثر المصادر رسمية فى هذا الشأن . والبند الثانى الذى يحتاج الى مراجعة شاملة فى اللائحة الحالية يخص الزمن الذى يقضيه الاديب أو الفنان متفرغا . فالسنة القابلة للتجديد بحد أقصى ثلاث سنوات متتالية ، لا تصلح من البداية نظاما حقيقيا للتفرغ ، فهى لاتجسد الغاية البعيدة لهذا النظام ، والتى أشار اليها برنامج العمل الوطنى فى تأكيده على ضرورة القيم الجديدة للمجتمع الجديد . اننا اذا اقتنعنا حقا بأن للفنان دورا خاصا به فى بناء هذه القيم ، يختلف عن دور المعلم والصحفى وغير ذلك من أصحاب المهن الاخرى ، فاننا يجب أن ننظر الى التفرغ للانتاج الفنى نظرة جديدة قوامها أن الفنان المتفرغ هو « فنان » فقط ، وليس فنانا الى جانب كونه معلما أو صحفيا أو عاملا أو فلاحا . وحينئذ لن نشهر عليه سيف الزمن بانتهاء السنة او السنوات الثلاث ، وانما سنتيح له تفرغا دائما للانتاج الفنى غير المعزول عن بقية أشكال النشاط الانسانى فى المجتمع . لن نضعه فى قمة برج من العاج ، ولكننا فى نفس الوقت لن نضعه فى مهب الرياح ، بين عام وعام ينهش استقراره قلق التجديد والمد لسنة أخرى . باختصار اذا توفرت لنا القناعة بأصالته ، علينا أن نوفر له القناعة بأهميته والطمأنينة فى حياته . وفى مقابل ذلك ، فان انتاج هذا الفنان ملك للمجتمع الذى يرعاه ، وليس التفرغ — من جانبه هو الاخر — اجازة من هذا الانتاج ، كما اتضح بالنسبة لبعض من حصلوا عليه . وللقانون الذى يطمح المرء الى صدوره لتنظيم التفرغ أن يحدد الظروف والاحوال التى ينتهى عندها حق الفنان فى التفرغ ، ان اعادة النظر فى هاتين النقطتين : التقييم المادى والتفرغ المتقطع ، من شأنه أن يضعنا أمام ضرورة عاجلة هى التشريع لنظام جديد تماما لتفرغ الادباء والفنانين .

ثانيا : اتحادات الكتاب والفنانين ، ولقد كانت اشارة البرنامج الى هذا الموضوع تلبية صحيحة لحاجة حقيقية يشعر بها المثقفون منذ أمد طويل ، ولكنهم عبروا عنها فى الاونة الاخيرة تعبيرا صريحا . ومن المفيد القول بأنه قد تمت فى الماضى محاولات لتأسيس اتحاد للادباء واتحاد مماثل للفنانين التشكيليين ، ولكن هذه المحاولات ظلت أسيرة « المشروع » دون التحقق . وأيا كانت الاسباب التى قيلت فى تفسير هذه المشكلة الا أن المهم الان هو البدء فورا فى تنفيذ هذه الخطوة البالغة الاهمية والتى أشار البرنامج على الاتحاد الاشتراكى أن يتبناها . ان قيام

هذه الاتحادات المهنية للـكتاب والفنانين يتسهم بصورة فعالةفىانجاز الوسائل الرئيسية للانتاج الادبى والفنى .. فالاتحاد هو جهة الاختصاص الاولى فى تربية الموهبة الفنية وتعهدها بالنمو ، هو المنبر الذى ستتصل منخلاله الاجيال وتنسق من خلاله العلاقة بين الفنان وأجهزة النشر ،وهو الذى يضع انظمـــة التفرغ والمؤتمرات الادبيـــة وبعثات التبادل الثقافى ، وهو — أولا وأخيرا — حصن الحرية الفكرية للـكاتب والفنـــان . ان الاتحاد المهنى هو التجســيد الارفـــع لشخصية الكتاب والفنانين الاعتبارية ، فكل شىء مما سبق أن ذكرناه يظل عملا اصلاحيا وجزئيا مالم يتحقق فى الاطار العام للاتحاد . انه جهـــة التشريع والتنفيذ والرقابة والمتابعة لهذا الانتاج المعنوى، منذ ميلاده الاول كفكرة على الورق حتى ميلاده الثانى كقوة مادية بين الجماهير . على أن هذا الاتحاد ، وقد دعا البرنامج .الاتحاد الاشتراكى الى تبنيـــه يجب ان يظل على استقلال نسبى عن أجهزة الاعلام والثقافة التنفيذية من جانب ، وعن التنظيم الســـياسى من جانب آخر . انه كالنقابات المهنية سواء بسواء فىاتصالها الوثيق بالتنظيم السياسى واستقلالها فى الوقت نفسه. وعلى المثقفين انفسهم أن يبـــادروا الى اتخاذ الخطوة الاولى نحو عقد مؤتمر عام تحضر له « لجنة مبادرة » تدعو الى تـــكوين الاتحاد من كافة الاتجـــاهات الفكرية والفنيـــة عن طريق الانتخاب الحر المباشر . وفى اطار الاتحاد ، على الادباء والفنانين أن يصدروا مجلتهم المتخصصة فى شئون الثقافة الادبية والفنية ، وأن يكونوا — بصورة ديموقراطيـــة خالصـــة من النوازع والاهواء — لجان الرأى والرقابة والنشر والتفرغ وأشكال التنسيق بين الاتحاد والاجهزةالتشريعية والتنفيذية المتصلة بمهامه . ان قيام الاتحاد ، هو الضـــمان الحقيقى والاول لحمـــاية الاديب والفنان وكرامتهما المادية والمعنوية .

ثالثا : المؤسسات العـــامة ، فقيـــام اتحاد للـكتاب أو اتحـــاد للفنـــانين لايلغى بأية حال اختصاصـــات وزارتى الثقـــافة والاعـــلام ، فالمؤسسات التابعة لهما — ولابد من أن تتحول كلها الى هيئات خدمات — هى أجهزة الارسال المساعدة لانتـــاج الادب والفن ، انهـــا المطابع والورق وســـتوديوهات الاذاعـــة والتليفزيون وبلاتوهاتالسينما وخشبات المسرح. والاسلوب الديموقراطى الســـليم يخضع هـــذه المؤسسات جميعها لقرارات المثقفين وجماهير الثقافة ، معا وبغير انفصال . وذلك يقتضى الاخـــذ بقرارات وتوصيات وتوجيهات اتحادات الكتاب والفنانين من ناحية ، والدراسات الميدانيـــة الواســـعة لاحتياجات شعبنا الثقافية من ناحية أخرى . ومن هنا كان لابد من اشراك ممثلى اتحادات الـكتاب والفنانين وممثلى الشعب فى التخطيط للثقافة وصنع القرار الثقافى . بغير ذلك سوف تظل جميع « الخطط » عشوائية ومرتجلة تتغير من شهر الى آخر بتغير هذا المسئول أو ذاك ، كما ستظل فى جوهرها « يوتوبيات ذاتية » لانها صادرة عن تصور فوقى وارادة علوية .

رابعا : الدورات التدريبية فى الخارج ، حيث لا تزال قواعد اتفاقيات التبادل الثقافى قاصرة عن أداء دورها ومقصورة على فئات بعينها . ان تعرف الادباء والفنانين على العالم الخـــارجى ليس ترفا أونزهة ،وانما هواحتياج حقيقىلتلمس أبعاد روح العصر ، كما تتجلى فى « الحركة والحياة » الثقافية بالعالم الخارجى . ولا يمكن ان يترك الامر للصدفة أو الحظـــوة او العمـــل الادارى ، فلا يسافر الكاتب او الفنان الا اذا كان موفدا منجهة عمله — غيرالثقافية أحيانا — أو لانه عضـــو فى مؤتمر او لانه صـــديق أحـــد المسئولين . يجب الاعتراف أولا بضرورة معايشـــة الفنان للعالم الفنى الخارجى معايشة خصـــبة وخلاقة ، ثم يجب تنظيم الحصول على هذا الحق عن طريق التنسيق بين اتحادات الكتاب والفنانين وبين وزارة الثقافة .

حرية الابداع هى الجوهر

تلك هى العناصر الاربعـــة الرئيســـية التى تصلح فى تقديرى لان تكون مدخلا الى تهيئـــة المناخ الصحى لانتاجنا الادبى والفنى ، وهـــو الهدف الذى عبر عنه البرنامج بقوله « تيسير ظروف الابداع » . وتبقى أخيرا النقطة الجوهرية التى ركز عليهـــا البرنامج فى سطوره الموجزة عن الادب والفن تركيزا واضحا ، وهى **حرية الابداع الفنى** . ولقد ربط البرنامج بين تأكيده الذى لا يقبل الشك على هـــذه الحرية ، وبين ضرورة أن يقف الاديب والفنان الى جانب قضايا بلاده من وجهة نظر التقدم ، فلا حرية بغـــير الالتحام بالجماهير . والحق أن الارتباط بـــين الحرية والضرورة فى مختلف أشكال النشـــاط الانسانى لا فى الادب والفن وحدهما ، من أعقد القضايا النظـــرية التى تشغل بال الفلاســـفة والمفكرين على مر العصور والاجيال .ولن نخوض هنا بالطبع فى خضم هذه التعقيدات النظرية ، وانما نكتفى بايراد عدة ملاحظات :

● ان التوجه الى الجماهير فى حـــد ذاته لا يعنى بالضرورة موقفا تقدميا من قضية الانسان ، فلربما كان الرخص والابتذال والركاكة والسطحية سبلا تؤدى الى الجماهير ، ولـــكنها تخـــدعها وتضللها وتعمل بالفعل على الجبهة المعادية لها .

● اننا نعيش فى مجتمع تصل نسبة الامية بين أبنائه الى ما يزيد على السبعين فى المائة ، وهذا مجرد رمزا الى ما نعانيه فى كافة مجالات حياتنا المادية والمعنوية من تخلف ، ولقد ركز البرنامج تركيزا واضحا على ضرورة القيام بعمل سياسى منظم لمحو الامية ، فلا حرية مع الجهل ولا حضور للانسان بغير المعرفة . وليس من شك فى أن الفن عنصر حيوى من عناصر المعرفة الانسانية ، وهذا يقتضى منا النظر الى قضية « الجماهير » من عدة زوايا .. فاذا كان ثمة تقدم فى بعض جوانب أدبنا وفننا ، كاستخدام أساليب متطورة فى التكنيك لا ينبغى التحفظ بشأن هذا الوجه المتقدم لثقافتنا باسم «الجماهير» بدعوى أن هذه الجماهير لن تفهم هذا التعقيد والغموض .. ان الادباء والفنانين ليسوا كتلة واحدة متجانسة ، وانما هم كجماهير شعبنا ، مستويات متعددة . وجنبا الى جنب محو الامية بأسلوب ثورى منظم ، سوف تجد « الجماهير » من يخاطب مستويات ادراكها العقلى وتذوقها الوجدانى بأساليب تتعدد تعدد هذه المستويات. ان تقدم التكنيك فى بعض الوان فنوننا هو — للنظرة البعيدة المدى — انجاز تقدمى لهذه الجماهير . ربما كانت دائرة ضيقة هى التى تستذوق الان ثمار هذا التقدم ، ولكن الفن العظيم ستبقى ثماره صالحة للتذوق غدا وبعد غد ، والجماهير بدورها ليست « حالة ساكنة » وانما هى حركة حية متطورة ، وما لن تتذوقه جماهير اليوم سوف تحرص على تذوقه جماهير الغد ، وهكذا لا ينبغى أن نمارس باسم جماهير اليوم ارهابا عقليا ووجدانيا ، لا على الادباء والفنانين وحدهم ، وانما على جماهير الغد أيضا .

● والقضية ، سواء كان الشكل الفنى طليعيا أو متطورا أو فى مستوى الجماهير ، هى ماذا يكتب الفنان ؟ والاجابة عن هذا السؤال لا ينبغى أن توكل الى أية جهة ادارية ، سياسية أو بوليسية ، وانما الادباء والفنانون أنفسهم وجماهير الادب والفن من جانب آخر هم أصحاب الولاية الوحيدون فى الرد على هذا السؤال . هنا — أيضا — يصلح اتحاد الكتاب أو اتحاد الفنانين لان يكون جهة اختصاص فى النزاع حول عمل فنى ، وهنا كذلك دور نقاد الادب والفن . أما « الرقابة عن الاعمال الفنية والادبية » تحت أية تسمية ، وفى ظل أية مبررات فانها تتناقض شكلا وموضوعا مع « حرية الابداع الفنى » التى نادى بها برنامج العمل الوطنى . وعلينا أن نتمثل هذه الحقيقة الاجتماعية فى بلادنا ، وهى أننا مجتمع يموج بطبقات متعددة ، وبالتالى اتجاهات متعددة فى التفكير والتعبير . وما لن نؤمن بالفعل لا بالقول ، بأوسع معانى الديمقراطية لصراعات الفكر والفن ، فان العقم والبوار هو مآلنا الوحيد . والديموقراطية وحدها هى التى تخلق وتدعم التيار الاكثرتقدما . وعندما تخطىء الديموقراطية فلنصحح الامر بمزيد من الديموقراطية .

● ولعل أبرز الامثلة على الاخطار الفادحة التى ترتكب فى حق الادب والفنباسم «الجماهير» هو ذلك المثل التقليدى الذى نضربه عادة على ابتذال البعض لمعنى الفن وانتهاكهم لحرية الفنان، وهو المثل القائل بأن هذا العمل الفنى ايجابى والاخر سلبى ، هذا متشائم وذاك متفائل ، هذا أبيض والثانى أسود . وبالرغم من ان طبيعة الفن تنأى عن هذا التصور المبتذل للعمل الفنى الذى يكتسب عمقه بتعدد طبقاته وتنوع مستوياته ، بحيث أنه لا يعرف لغة المطلقات الاحادية الجانب .. الا اننا مع ذلك نقول ان الاثر الايجابى للفن قد يتأتى بتركيزه على الجانب السلبى فى الحياة . والفن العظيم هو دوما ، من أحد جوانبه نقد للحياة ، ولعل الادب المصرى الغاضب قبل هزيمة ١٩٦٧ كان أصدق من أدب راحة البال والاستغراق فى الوهم . بالاضافة الى ذلك لا ينبغى أن ينسى « البعد الذاتى » فى كل عمل فنى ، ربما كان الحزن يتوسد عمق أعماق الفنان ، فلا مفر من أن ينعكس هذا الحزن على عمله الفنى ، اذا كان فنانا صادقا .. فهل نطلب اليه أن يفتعل الفرح ويصطنع التفاؤل ويزيف الحياة ؟ أم نقول : ليكن، ان الحزن العظيم أروع اثرا وأعمق ايجابية من التفاؤل السطحى السريع الزوال . الحق أن القضية فى خاتمة المطاف هى فن أولا فن ، والفن الحقيقى ، الصادق والاصيل ، هو بطبيعته انجاز تقدمى من جانب الحياة،لانه يملا بالحلم الفراغات السلبية فى قلب الوجود .

...

وبعد ، فهذه مجموعة من الانطباعات حول ما جاء فى برنامج العمل الوطنى من سطور موجزة عن الادب والفن ، وهى رغمايجازها تشد المرء أحيانا من حافة اليأس الى حافة الرجاء .

اعادة بناء القـرية :
معــركة
سـياسـية وجمـاهيرية



حســنى حســين

الهدف

من هذا المقال ليس تقـديم حلول لهذه القضية الكبيرة ، وانمـــا المقصود هو طرح عدد من الافكار حول بعض الجوانب المتصلة بتلك القضية والتىطرحها برنامج العمل الوطنى لعلهاتكون مساهمة متواضعة فىمناقشتها وبداية لدراسة واسعة حولها .

الجانب الاجتماعى والاقتصادى
فى اعــــادة بنـــاء القــرية

جاء التفكير فى اعادة بناء القرية المصرية وقد بدات كهربة الريف تخطو خطواتها الاولى الى داخل القرية المصرية . ولسوف تلعب كهربة الريف دورا هاما فى احداث تغييرات اساسية فى حياة الفلاحين المصريين ، سوف تقترب بهــم وبالقرية من حياة المدينة فتضيق الهوة بينهما . فمن الضرورى اذن والحالة هذه ان يتلاءم وضع القرية المصرية مع واقع التغييرات التــى ستحدث ، ذلك انه ليس مقبولا ان تدخل الكهرباء القرية ثم تظل هى على حالها القديم ، بأزقتها وحواريها ، بأكوام القش فوق اسطح المنازل ، وأكوام السباخ فى الشوارع ، وامام ابواب الدور .

غير انه فى عملية اعادة بناء القرية يجب الا يكون الجانب الهندسى والفنى هو الجانب الوحيد للعملية . وانما يجب ان تكون النظرة اشمل من ذلك واوسع وان تشمل العملية الحياة الاجتماعية والاقتصادية للقرية ، اى ان تكون العمليــة اساسها الفلاح المصرى تطويره والنهوض به .

ويأتى التفكير فى اعادة بناء القرية بعد حوالى عشرين عاما من قيام الثورة ، وفى هذه السنوات صدرت عدة قوانين هزت الوضــع الاقتصادى والاجتماعى داخل الريــف المصرى اهمها قوانين الاصلاح الزراعى وقد ادى تنفيذ هذه القوانين الى احداث تغييرات فى الاساس الاجتماعى والاقتصادى للفلاحين ، فبينما اختفت العناصر الاقطاعية من التكوين الطبقى للريف اتسعت شريحة اغنياء الفلاحين من جانب وصغار الملاك من جانب اخر ، كما ظلت فئة عمال الزراعة وعمال التراحيل تمثل جانبا هاما من سكان الريف . ومن الضرورى عند التفكير فى اعادة بناء القرية ان يكون هذا الوضـع الاجتماعى والاقتصادى للقرية اساس هذا التفكيــر .. فالقرية الجديدة سوف تضم بين جنباتها الفلاح الغنى كما تضم المالك الصغير والعامل الاجير ومتطلبات كل فئة من هذه الفئات بالنسبة لمسكنها سوف تختلف بالضرورة . كما ان قدرتها على تمويل بناء هذا المسكن وتغطية نفقات هــذه المتطلبات ، سوف تختلف ايضا ، ففى حين يقدر الفلاح الغنى على تمويل بناء مسكنه يقف العامل الاجير عاجزا عن ذلك ولابد من وضع هذا فى الاعتبار عند دراسة جانب تمويل المشروع وامكانية المساهمة فيه .

غير ان النظرة الى الوضع الاجتماعى والاقتصادى للقرية اليوم واعتباره اساس

الدراسة والحكم فى عملية بناء سوف تستغرق اكثر من عشرين سنة لن تؤدى الى نتائج سليمة وصادقة ، اذ من الضرورى ان نضع فى اعتبارنا تطور الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية خلال هذه الفترة الزمنية نفسها بل وما بعدها .

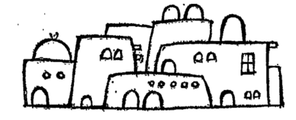
من هنا فان اهم القضايا التى ستلعب دورا فى تشكيل مستقبل القرية قضية استكمال مهام مرحلة الثورة الديمقراطية والانتقال بالريف الى الاشتراكية . وتحقيق هذا الهدف مرتبط اوثق الارتباط بانجاز اصلاح زراعى جذرى فى الريف ، مرتبط اوثق الارتباط بتطوير الزراعية والوصول الى اعلى معدلات ممكنة من خلال استخدام الالات الزراعية والاساليب العلمية . وما يتطلبه ذلك فى تخطيط القرية من ضرورة وجود مراكز لتجميع الالات الزراعية والمحاصيل ومحطات وورش للصيانة .. الخ .

ومن غير المنطقى ان يعاد بناء القرية على ماهى عليه من تخلف ، وانما لابد وان يرتبط اعادة بناء القرية بتطوير الريف تطويرا ثوريا شاملا .

وليس تطوير الريف فى حالة الزراعة فقط هو ما يجب دراسته والالتفات اليه ، بل يجب ان نضع فى اعتبارنا ان تطوير الريف والانتقال الى مرحلة حضارية متقدمة سوف يشمل ايضا تصنيع الريف خصوصا وان الكهرباء وهى مصدر الطاقة تكون قد اصبحت جزءا من حياة القرية . وهذا يفترض ارتباط المشروع بخطط التصنيع وتوزيعها الجغرافى ، وآفاق الثروة البترولية ، والمعدنية وما ستطلبه من اقامة مدن داخل الصحراء وخطط التعليم والبحث العلمى .

المناخ السياسى والجماهيرى لعملية اعادة بناء القرية

ومن المفيد ان نسال منذ الان : هل ستمضى هذه العمليه باعتبارها عملا فنيا فحسب بعيدة عن مشاركة ملايين المصريين عامة وجماهير الفلاحين خاصة ، بعيدة عن الحياة السياسية فى الجمهورية بشكل عام وفى الريف بوجه خاص .



وهذا السؤال يبدو فى الواقع من قبيل تسجيل المواقف . ذلك لان اعادة بناء القرية سوف يمس مصالح بل ووجود الملايين من الفلاحين المصريين ومن الضرورى لكى ينجح مثل هذا المشروع ان يجذب اهتمام هذه الملايين ، بل ويضمن مشاركتهم فيه مشاركة ايجابية .

ونقطة البدء فى هذا العمل الجماهيرى والسياسى ان يطرح الموضوع للمناقشة الواسعة عن طريق جميع وسائل الاعلام والاجهزة السياسية ، وان تقام ندوات لمناقشته داخل القرى ، ومن خلال هذه المناقشات يمكن معرفة الامكانيات المتاحة ، والصعوبات المتوقعة وكيفية التغلب عليها .

ومن الضرورى عند اجراء هذه المناقشات الواسعة طرح التخطيط المقترح او على الاقل المتصور لكل قرية ومناقشته مع اهاليها ، ليأتى التخطيط متمشيا مع الظروف الموضوعية لهذه البلد واحتياجاتهم الفعلية ، ويجب أن نشعر الفلاح ان هذا التخطيط هو مصدره ، ومن هنا يستمد المشروع قوة هائلة فى التنفيذ .

غير ان هذا العمل السياسى والجماهيرى ليس عملا سهلا وانما يحتاج الى مجهود دائب منظم من جانب التنظيم السياسى والجمعيات الزراعية والنوادى الريفية ، وفروع نقابة عمال الزراعة وغيرها من اشكال العمل السياسى والجماهيرى ولكى تقوم كل هذه الاجهزة بدورها كما ينبغى يجب ان يكون وراء هذا النشاط عدد ليس بالقليل من الكادر السياسى المدرب والقادر على تحويل عملية بناء القرية الى معركة سياسية يجذب اليها جميع سكان الريف .

تكاليف المشروع وكيفية تمويله

مثل هذا المشروع العملاق سوف يبلغ تكاليفه دون شك الاف الملايين من الجنيهات . فلو رجعنا الى مشاريع استصلاح الاراضى والتى اقيم بها مساكن جديدة للفلاحين لوجدنا ان تكاليف مسكن الفلاح وهو مسكن مكون من حجرتين ودورة مياه وحوش سماوى ، مبنى بالطوب الاحمر وسقف من الخرسانة المسلحة قد بلغت تكاليفه حوالى ٥٠٠ جنيه للمسكن الواحد ، كما بلغت تكاليف نفس المسكن عندما بنيت حوائطه بالطوب الاخضر وسقفه على شكل قباب من الطوب الاخضر ايضا بلغت حوالى ٣٠٠ جنيه .

فاذا تصورنا ان المطلوب هو اقامة مثل هذا المسكن — رغم ضيقه وعدم ملاءمته لجميع فئات السكان فى القرية — ثم خصص مسكن لكل اسرة

لكان المطلوب هو اقامة خمسة ملايين مسكن وبلغت تكاليف بناء المساكن وحدها حوالى ٥ر٢ الف مليون جنيه ، هذا بالاضافة الى تكاليف شبكات الطرق والمرافق والكهرباء الخ .. وكذلك تكاليف اقامة الابنية العامة كالمدارس والوحدات الصحية والاندية الريفية والجمعيات الزراعية وغيرها .

لقد جاء فى برنامج العمل الوطنى « ان تكاليف هذا المشروع الثورى الضخم تبلغ حوالى الف مليون جنيه على اساس بناء اربع ملايين وحدة سكنية جديدة لسكان الريف الذين يبلغ عددهم حوالى عشرين مليونا » .

والملاحظ على هذا التقدير انه يعتمد على تعداد السكان اليوم بينما الواجب ان نضع فى اعتبارنا تعداد السكان فى نهاية المشروع اى بعد عشرين سنة على الاقل . واعتقد ان من المتوقع ان يبلغ تعداد الشعب المصرى عام ١٩٩٠ اكثر من خمسين مليونا وان تعداد الريف المصرى سوف يتخطى الثلاثين مليونا وبذلك يصبح افتراض اقامة خمسة ملايين مسكن بدلا من اربعة ملايين — كما جاء فى البرنامج — هو اقرب الارقام الى الحقيقة .

هذا من حيث العدد ، اما من حيث تكاليف المسكن الواحد فقد افترض البرنامج ان المسكن الواحد سوف تبلغ تكاليفه حوالى ٢٥٠ جنيها ، غير ان الدراسات والتطبيقات التى اشرنا اليها دلت على ان هذا الرقم متواضع جدا حتى اذا افترضنا بناء القرى جميعها بالطوب الاخضر . ذلك انه من المهم ان نلاحظ ان البرنامج اغفل فى تقديره للتكاليف ، تكاليف الخدمات بالريف ، ورغم انه ينص على « ان القرية المصرية يجب ان تخطط تخطيطا علميا حديثا بحيث تضم مدرسة او اكثر يكون فيها مكان لكل الاطفال الذين يبلغون سن الالزام ووحدة صحية ريفية تقدم الخدمة لسكانها جميعا ، كما يجب الا تظل قرية بدون مياه نقية للشرب ، وان تصل الكهرباء الى كل منزل وان تضىء كل شارع » . كما جاء فى البرنامج ان القرى سيعاد بناؤها « بحيث يكون لكل مجموعة من القرى مركز يتوسطها لتجميع الخدمات التى لا يمكن توفرها فى كل قرية على حدة كقصور الثقافة ومحطات الصيانة للالات الزراعية والمدارس الثانوية والعالية والمعاهد الفنية والمستشفيات العامة ثم وحدات لتصنيع المنتجات الزراعية آليا » .

واعتقد ان تكاليف جميع هذه الابنية العامة ومشاريع الخدمات ، كمشاريع مياه الشرب وشبكات المجارى وهى شىء ضرورى لاستكمال بناء قرية جديدة ، وشبكات الكهرباء والطرق الخ .. ان هذه التكاليف يجب ان تضاف الى تكاليف المشروع .

ومن كل هذا سوف تبلغ التكاليف مبالغ باهظة جدا كفيلة بارهاق ميزانية الدولة مهما طالت سنوات التنفيذ ، ولذا فان طريقة تمويل هذا المشروع يمكن تصورها فى احد اسلوبين .

الاول : أن تتصدى الدولة لتمويل هذا المشروع وعندئذ يصبح اشتراك الجماهير فى اوسع أشكاله ضرورة لابد منها ، لاختصار المبالغ الطائلة المطلوبة من الدولة ويمكن ان تأتى مساهمة الجماهير فى اشكال عديدة ومتنوعة ، كأن تتحمل القرية العمالة غير الفنية او تقوم بتوريد بعض المواد الخام المطلوبة كأن تورد الرمل والزلط او الطوب ، او تتحمل القرية تكاليف نقل المهمات والمواد الخام المطلوبة لها او تنقلها بمعرفتها وغير ذلك من اساليب المشاركة ، والتى يمكن عن طريقها اختصار التكاليف .

وعيوب هذا الحل فى المرتبة الاولى ان تتحمل الدولة عبء هذا العمل نيابة عن القادر وغير القادر ، هذا من جانب ، ومن الجانب الاخر انه سيكون على الدولة استخدام انماط من المساكن قد لا تتفق مع رغبات واحتياجات الفئات المختلفة فى الريف ، مما قد يخلق تناقضات بين الجماهير من جانب وبين تنفيذ هذا المشروع نفسه .

الثانى : والاسلوب الثانى المتصور فى تنفيذ هذا المشروع هو ان تقوم الدولة بتنفيذ وتمويل مبانى الخدمات والمرافق العامة على ان يقوم الاهالى بتمويل بناء مساكنهم الخاصة بما يتفق مع رغباتهم من جانب ومع التخطيط الذى تضعه الدولة من جانب آخر وفى اطار التمويل الذاتى للمشروع يمكن ان تتعدد طرق هذا التمويل ووسائله .

ونقطة الضعف فى هذا الاسلوب هو اننا سنواجه فئات كالعمال الزراعيين وعمال التراحيل وفقراء الفلاحين ، هذه الفئات غير قادرة على تمويل مساكنها وحتى لو قامت الدولة بدفع التكاليف لهذه المساكن ثم تقسيطها عليهم فلن يكونوا قادرين على دفع هذه الاقساط ، ومن هنا جاءت الضرورة ان يدرس هذا المشروع فى ارتباط بواقع القرية الاجتماعى والاقتصادى وتطور هذا الواقع مستقبلا .

بعض الجوانب الفنية والهندسية

ولهذا المشروع جوانب كثيرة فنية وهندسية يجدر الاهتمام بها ودراستها . وسوف اشير الى بعض هذه الجوانب :

١ ــ تخطيط شامل ومدروس ؟ اذا كان وجود تخطيط مدروس يعتبر عنصرا من عناصر نجاح أية عملية ، الا انه عند عملية اعادة بناء القرية يأخذ التخطيط اهمية بالغة اذ تعتبر نقطة البدء التى لابد منها ، ولست اعنى بالتخطيط عملية التخطيط الهندسية لهذه القرى وانما أعنى التخطيط الشامل للمشروع : احتياجاته المادية والبشرية ، امكانيات تمويله ووسيلتها • ظروف التنفيذ ، الخامات المستخدمه ومدى توفرها ، تتابع التنفيذ وخطواته الخ .. ان مثل هذا التخطيط وهذه الدراسة هى نقطة البدء الاولى وبدونها لا يمكن التقدم خطوة فى طريق التنفيذ خاصة وعملية اعادة بناء القرية عملية طويلة المدى سوف يستغرق انجازها عشرين عاما على احسن الفروض ومن الضرورى فى هذه الفترة الزمنية الطويلة دراسة خطوات المشروع وتوقيت كل خطوة .

اما فى التخطيط الهندسى لكل قرية فان المتصور ان يتم مسح القرية مع اضافة مساحات جديدة من الارض لها وتخطيط هذه المساحة الجديد من حيث الشوارع والميادين وترك مساحات لاسواق القرية والمبانى العامة الخ .. ويجب حساب هذه المساحات الجديدة بحيث تكون قادرة ــ على الاقل ــ على استيعاب الزيادة المتوقعة فى مبانى القرية طوال فترة تنفيذ المشروع يضاف اليها ٢٠ فى المائة او ٢٥ فى المائة من مساحة القرية الاصلية ، ثم يلتزم الاهالى بضرورة ان تقام المنازل الجديدة فى هذه المساحات بموجب التخطيط الموضوع ، مع قيام حملة جماهيرية بين الفلاحين لترغيبهم فى اعادة بناء مساكنهم ، وذلك وفق الخطوط العامة التى توصلت اليها الدراسات .

٢ ــ الاستفادة من التجارب السابقة : ومن حسن الحظ اننا فى هذا الموضوع لن نبدا من فراغ ، ففى خلال السنوات التى تلت الثورة تم بناء عديد من القرى الجديده فى مناطق الاستصلاح •• مديرية التحرير • • ابيس •• مريوط .. الخ .. وفى مناطق التهجير لاهالى النوبة ، كما تمت محاولات اخرى لبناء مساكن تتلاءم مع البيئة فى **الوادى الجديد** ، ومعنى ذلك انه قد تم بناء مساكن فى مناطق بيئية مختلفة من اقصى الجنوب الى اقصى الشمال .

ومن الضرورى عند دراسة مشروع اعادة بناء القرية البدء بهذه الدراسات وتقييمها ومعرفة نتائج تطبيقها ، فاغلب هذه القرى قد تم شغلها منذ سنوات ومن المفيد معرفة ما آلت اليه هذه المساكن : هل ظلت على حالها كما صممها المهندسون ام اجرى الفلاح عليها تعبيرات رآها اكثر ملاءمة لظروفه •• فمثلا فى بعض القرى قام الفلاح باختصار فتحات الشبابيك الى ما يقرب من النصف وبنى فى حوش المنزل فرنا رغم وجود مخبز بالقرية، كما بنيت فى هذه القرى مخازن لاستقبال محاصيل القرية ، وجراج للالات الزراعية وجمعية زراعية الخ .. من وحدات الخدمات المختلفة ومن المفيد معرفة مصير هذه الابنية وهل استخدمت فيما صممت من اجله ، خاصة فى القرى التى يسكنها منتفعون .

ان تقييم الدراسات السابقة فى بناء القرى الجديدة ومعرفة تطور الحياة بها خلال سنوات استخدامها يعتبر احد الاعمال الهامة والضرورية فى دراسة عملية اعادة بناء القرية وليست فقط دراسات بناء القرية الجديدة فى مناطق الاستصلاح والتهجير هى وحدها الخبرة المتاحة وانما توجد ايضا خبرة طويلة للمصريين فى بناء قراهم ، فمما لا شك فيه ان الفلاح المصرى قد أكتسب على مدى آلاف السنين خبرة عميقة فى كيفية ملاءمة مسكنه مع ظروف البيئة من جانب واحتياجاته هو من جانب آخر .. فمثلا : ليس صدفة ان ينتشر نموذج القباب اسقفا للمنازل فى مناطق من بلادنا دون غيرها ، وليس صدفة أن تكون فتحات **الشبابيك فى هذه المناطق ايضا ضيقة فلابد لهذا من سبب وان لم يعرفه الفلاح فهو قطعا ادركه وأحس ضرورته .**

ومن المسلم به ان هذه الخبرة غير مؤسسة على اسس علمية وغير منسقة وينقصها الكثير من ضروريات الحياة الحديثة . ولكننا لو استطعنا ان نقيم هذه الخبرة وان نؤسسها على أساس علمى فسوف نكون قادرين ــ بلا شك ــ على الاستفادة منها وتطويرها بما يتلاءم مع متطلبات العلم والمدنية الحديثة . ولسوف تكون هذه الخبرة مضافة الى الخبرة المستفادة من دراسة وتقييم القرى الجديدة التى بنيت ، سوف يكون كل هذا رصيدا هاما ومفيدا عند عمل التصميمات المطلوبة لمشروع اعادة بناء القرية .

٣ ــ التصميمات والمواصفات : فى مثل هذا المشروع الضخم والمطلوب منه اعادة بناء حوالى خمسة آلاف قرية مبعثرة من اقصى الجنوب الى اقصى شمال البلاد ، يجب ان تكون التصميمات والمواصفات مرة غاية فى المرونة ، فبعض القرى سوف تبنى فى مناطق لا تعرف المطر تقريبا وبعضها الا ر يستقبل امطارا غزيرة طوال فصل الشتاء وبعض المناطق حارة وبعضها معتدل الى آخر ذلك من اختلافات فى الجو والطبيعة كما ان بعض الجهات قد يتوفر فيها هذا العنصر من المواد الخام او ذاك . فالمعروف ان بعض الاماكن يتوفر فيها الطوب الاحمر بأسعار رخيصة ، بينما اماكن اخرى تتوفر فيها الاحجار ، وبعض

المناطق على مقربة من المحاجر بينما الاخرى على مسافات بعيدة منها ، كل هذا يجعلنا نطالب بمرونة فى التصميم والتنفيذ يتلاءم مع طبيعة المناطق التى سيجرى فيها العمل ، غير اننا لطالب فى نفس الوقت بتوحيدمواصفات الخردوات المختلفة ، انواع الاخشاب المستخدمة فى الابواب والشبابيك ، خردوات النجارة ، والادوات الصحية والكهربائية البلاط .. الخ .

ان توحيد هذه المواصفات وجعلها بحيث تتلاءم مع ما هو موجود ومتوفر عندنا من الخامات وبذا نستفيد من الخامات المحلية من جانب ونكون قادرين على التحكم فى توقيت الاعمال من جانب آخر خاصة وان المشروع سوف يحتاج الى كميات هائلة من المواد الخام ، ومن الضرورى ان يتم التحضير لها والتنسيق مع طاقة المصانع المختلفة المنتجة لهذه الخامات حتى لا تتعارض احتياجات هذا المشروع مع احتياجات مشاريع اخرى ومع مطالب السوق المحلية ، وحتى نتجنب بذلك خلق سوق سوداء فى هذه المواد .

٤ ـ اعادة بناء القرية وعلاقته بما يجرى تنفيذه الان من مشاريع : تم ان هناك مشاريع كثيرة يجرى تنفيذها الان ، او خلال السنوات القليله القادمه يمكن ، بل يجب ان نكون على ارتباط وثيق بخطة اعادة بناء القرية حتى يمكن تجنب التكرار فى العمل والتكاليف وسوف نقدم بعض الامثلة على ذلك :

١ـ اعادة بناء القرية وكهربة الريف : لقد بدات خطة كهربة الريف تخطو خطواتها الاولى والمفروض حسب التخطيط لهذا المشروع ان يتم انجازه فى خمس السنوات المقبلة ، اى فى الوقت الذى يكون فيهمشروع اعادة بناء القرية فى مراحله الالى .

ومن الطبيعى ان تتم تنفيذ كهربة الريف على الواقع الحالى للقرى هو الواقع المطلوب تغييره خلال العشرين سنة القادمة ، وسوف يترتب على حدوث هذا التغيير واعادة النظر فى الشبكات التى اقيمت فعلا ، لذلك فمن المفيد ومنذ اليوم دراسة العلاقة بين خطة كهربة الريف والشبكات التى ستقام تبعا لها ، وبين مستقبل القرى حسب الصورة المتوقعة فى مشروع بناء القرية من جديد حتى لا نجد انفسنا فى لحظة مضطرين لاعادة الانفاق على كهربة الريف مرة اخرىوتكرار الجهدالانسانى والمادىالذى سيبذل طوال السنوات الخمس القادمة .

ان هذه القضية احدى القضايا الهامة التى يجب الالتفات اليها ضمن دراسة اعادة بناء القرية .

٢ ـ اعادة بناء القرية وشبكات الطرق والمواصلات : كما انه من المفيد دراسة عملية بناء القرية أن تشمل الدراسة شبكات الطرق ووسائل المواصلات المؤدية اليها،فكثير من القرى مازال حتى اليوم يفتقر الى طريق ممهد يصلها بالحياة باقرب مدينة . ومن ثم فان عمل شبكات من الطرق الممهدة وليس بالضرورة أن تكون مرصوفة ، هو شيء ضرورى وهام وليس فقط لكى تخدم القرية مستقبلا وتصلها بالحياة ، بل لتساعد على اعادة بنائها . ان هذه الشبكات من الطرق هى الشرايين الحيوية التى منخلالها سوف تتدفق المون والخامات الى داخل القرى ووجود طرق ممهدة صالحة لاستخدام العربات من شأنه الاقلال من مصاريف النقل الى ما يقرب من النصف ؛ فلو قدرنا استهلاك العربات والجرارات واسعار نقل الخامات فى حالة عدم وجود هذه الطرق ثم قدرنا هذه التكاليف نفسها فى حالة استخدام طرق صالحة للاستعمال لوجدنا ان الفرق بين التكلفتين يسمح ليس فقط بتغطية نفقات انشاء الطرق ولكن بتحقيق وفر أيضا .

عمل تجارب ميدانية

وفى مثل هذا العمل الواسع النطاق والذى يرتبط بعديد من القضايا الهامة والاساسية ، كما يرتبط بحركة الجماهير ومشاركتها من المفيد البدء بعمل عدد منالتجارب الميدانية وذلك باختيارعدد من القرى كل واحدة فى محافظة ودراستها ووضع هذه الدراسات فى التطبيق لتتجسد الصورة وتتبلور الجوانب المختلفة للمشروع .

غير انه لكى تنجح مثل هذه التجارب الميدانية لابد من توفير مناخ طبيعى بعيد عن المبالغات والافتعال ، اى انه لا بد من ان توضع هذه التجارب فىالجو المعتاد الذى سينفذ المشروع من خلاله . الا أن ذلك لا ينفى ضرورة توفير كادر سياسى وفنى مقتنع بالتجربة قادر على التصرف وعلى اجتذاب الجماهير اليه ودفعها الى المشاركة الايجابية ،عندئذ يمكن أن نخرج بنتائج تصلح بعد دراستها وتطويرها لتعميمها فى سائر المشروع .

واخيرا فان مثل هذا المشروع لا تكفى فيه مثل هذه المقالة وليست هذه هى كل جوانبه وانما هى كما قلت فى بداية المقال محاولة لفتح المناقشة حوله .

بنــاة المســـتقبل

فى «برنامج العمل الوطنى»

عبـد التواب يوسـف

شغلت « قضية الطفولة » حيزا كبيرا فى مجال العمل السياسى خلال الاسابيع الاخيرة .. ونوقشت بشكل جاد على كل المستويات ، حتى انها فرضت نفسها على « المؤتمرالقومى » ولجنته «السياسية والعسكرية» وعلى « اللجنة المركزية » ، واللجنة المنبثقة عنها لوضع الهيكل التنظيمى للاتحاد الاشتراكى العربى .. واشترك فى مناقشتها السيد رئيس الجمهورية ، والقائد العام للقوات المسلحة ، والسكرتير الاول للجنة المركزية ، ولفيف من المثقفين ، والمفكرين ، وسيدات التنظيم النسائى.

وأشار « برنامج العمل الوطنى » الى هذا الموضوع الحيوى فى اجزاء عديدة منه ، بعضها بشكل مباشر ، ففى تصوره للدولة الحديثة يرى انها « **دولة الانسان الحر ، المطمئن الى غده ، وغد أولاده** » ، وفى حديثه عن المرحلة الاولى من التعليم يرى مده الى ١٥ سنة ، « **والعلم الحديث لا يبدأ فى مراكز البحث والاكاديميات ، بل يبدا مع أول يوم يذهب فيه ابناؤنا ، بناة المستقبل وأمله ، الى مدارسهم الابتدائية . انهم لابد أن وان يجدو فى الدراسة عبر جميع مراحلها ، علميا وتربويا ، ما يساعد على نموهم وتفتحهم ، فكرا وجسدا واستعدادا ليخرجوا الى حياة العمل والانتاج وقد تفتحت عقولهم على العلم الحديث وتربوا على حب البحث واكتسبوا القدرات اللازمة لاستيعاب كل ما يجد فى ميادين العلم والاسهام فى تطويره وتمصيره ووضعه فى خدمة المجتمع** » ..

وهناك اشارات ضمنية كثيرة الى موضوع الطفولة ، فان كل حديث عن المستقبل يعنيهم ، ويقصدهم ، بل يقينا هم يطلون من بين السطور ونحن نتحدث عن خطة التنمية ، ومضاعفة الدخل فى عشر سنوات .. وهم ايضا يبرزون خلال الكلام عن « **بناء الانسان الجديد ، الذى يحتاج الى عمل تربوى مستمر** » .. وخلال الحديث عن « المعركة القائمة » ، والعدو الذى يمد غاراته الى العمق « **لا يفرق بين تلاميذ فى مدرسة او عمال فى مصنع أو فلاحين فى حقل** » ..

العـالم والطفـولة

وكلما ثارت قضية الطفولة تكرر الحديث عن العناية الفائقة بها فى البلدان المتحضرة ، التى لا يشغلها ماضيها والتغنى بأمجاده وحاضرها والاشادة به ، عن الاهتمام بمستقبلها الذى هو مرهون بالطفولة .. وقد أشار الرئيس السادات الى ذلك حين تعرض للتضية ، فقال انه فى انجلترا خلال الحرب خضع الجميع للبطاقات التموينية فيما عدا الاطفال ، وقال ان اهتمام الاتحاد السوفيتى بالطفولة يفوق كل اهتمام .. ويقول السوفيت « انه رغم مرور خمسين عاما على ثورتهم ، فمازالت هناك طبقة مميزة ، لها قصورها ، وحدائقها ، ونواديها ، وملاعبها ، وفنونها ، ومسارحها ، وأفلامها ، ومكتباتها .. وباختصار تتجاوز حقوقها وامتيازاتها ما تتمتع به الطبقات الاخرى .. **هذه الطبقة الجديدة هى الاطفال** » .

وكلما عاد المسافرون الى الخارج تحدثوا فى اسهاب عن الطفولة فى المانيا الشرقية ،والصين واليابان .. والولايات المتحدة الامريكية . ومشروعات الطفولة فيها .. شأن كل شيء — تنهض به مؤسسات مملوكة للافراد ، ولكنها تنتشر بشكل ضخم ، لانها — فضلا عن اهميتها — مشروعات تدر أرباحا خيالية ، فهم قديرون على استغلال كل شيء ، والاتجار بكل شيء ، مهما اضفوا على الامر من صفات وسمات انسانية وتربوية .. وأوضح مثال لذلك « مؤسسة والت ديزنى » ، التى وضعها خرشوف فى أول قائمة الاماكن التى طلب زيارتها حين ذهب الى أمريكا لحضور اجتماعات الامم المتحدة .. ولكنهم لم يسمحوا له بزيارتها لضخامتها فهى مقامة على مساحة تقدر بآلاف الافدنة ، وعليها منشآت ضخمة ، يصعب فيها حراسة الضيف الكبير ! . وهكذا نرى العالم ، شرقه وغربه ، يرعى الطفولة بما تستحقه .

الطفل العربى ..

والطفل الاسرائيلى

ولسنا فى حاجه الى هذا الحديث المعاد عن العالم والطفولة ، ولكننا لن نمل ترديده حتى يقتنع به المسئولون ، فان الكثير من الاهتمام يقف عند حد الكلام ، والتصريحات ، والصور الباسمة فى الصحف أثناء مداعبة الاطفال .. ولكن الامر لا يمكن أن يمضى على هذه الصورة ، ويكفى مثل واضح لخطورة القضية .. ذلك أن احدى الصحف البريطانية بعثت بعدد كبير من الصحفيين مهمتهم دراسة « الطفل العربى » ، و « الطفل الاسرائيلى » وكيف يفكر كل منهما ، وفيم يفكر ، لانهم يرون أن المعركة بين العرب واسرائيل ستحسمها الاجيال المقبلة .. وهذه المسألة ليست غائبة عن أذهان المسئولين فى بلادنا ، ففى اللجنة السياسية والعسكرية المنبثقة عن المؤتمر القومى فوجىء بعض اعضاء المؤتمر بوزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة يتحدث عن « الاطفال » ، ويسهب فى الحديث ويضرب الامثلة عن الوان العناية بهم ، وضرورة ذلك فى بلادنا ، فان حربنا مع العدو لن تحسم فى المعركة القادمة ، بل هناك معارك عدة على الطريق ، ربما بعد عشر سنوات .. ومعروف أن الذين سيخوضونها عمرهم الان عشر سنوات .

والعناية بالطفولة لا تاتى من هذا المنطلق فحسب ، وان كان يكفى .. ولكنها تاتى من أن هذه العناية ليست مجرد « خدمة » بل هى « استثمار » ، وأن أية خطة تنمية تغفل العامل البشرى مقضى عليها بالفشل .. وخطتنا التى تستهدف مضاعفة الدخل فى عشر سنوات ، توضع من اجلهم ، ولهم .. وتكشف الدراسة التى قامت بها الامم المتحدة عن مستوى الحياة فى كل من البرازيل ، الغنية بالمواد الطبيعية ،وسويسرا الغنية بالانسان تكشف هذه الدراسة عن أن الانسان أهم أدوات الاستثمار وأخطر وسائل الانتاج واعظم الموارد اطلاقا .

من هو الطفل ؟

وفى كل مرة تناقش فيها هذه القضية ، نجد انفسنا أمام سؤال يتكرر : من هو الطفل ؟ ! .. ويثور الجدل والخلاف : البعض ينزل بسنه الى مادون الثالثة أو السادسة ، والبعض يرتفع به حتى ليصل الى العمر الذى يستطيع فيه أن يعول نفسه ! .. ويتدخل الطب ، فيوقف عمر الطفل عند الثانية عشرة ، وتدلى التربية برأيها ، ولا يسكت علماء النفس ، بل ويتقدم اللغويون ليقولوا كلمتهم .. وقد لا يعنينا هذا الجدل كثيرا لولا انه يعين ويفيد بالنسبة للتعداد والاحصاء أخطر اسس التخطيط واهمها ، فضلا عن انه يحدد مجال العمل .. والحق أن علماء اللغة بالذات فى حاجة الى من يستمع اليهم ، ففى اللغات الاجنبية هناك لسنوات عمر الطفل مسميات ، ولدينا أيضا بعض هذه المسميات ولكننا قلما نستخدمها ، لذلك نقع فى المحظور ونثير الجدل .. ان لدينا بالنسبة للطفولة : الوليد ، الرضيع ، الحضين ... الصبى ، الغلام الفتى ، الشاب .. هذه التسميات لمراحل العمر قد تريحنا خلال عملنا مع الطفولة ، فلا تضطر « اللجنة المركزية » لمناقشة من يتولى أمر الطفولة ؟ أهى أمانة النساء ؟ أهى أمانة الشباب ؟! هل تنشأ للطلائع أمانة خاصة بهم ؟ .. وقد يفيدنا فى هذا المجال ما أوصت به « حلقة العناية بالثقافة القومية للطفل العربى » التى عقدتها جامعة الدول العربية فى بيروت فى سبتمبر ١٩٧٠ ، فقد رأت أن تصل بمرحلة الطفولة حتى السادسة عشرة ، وطلبت الحلقة من الاجهزة والوزارات المختصة — الصحة والشئون الاجتماعية والتربية وغيرها — أن تعمل على توفير اسباب النمو الجسمى والنفسى والاجتماعى للاطفال العرب فى السنوات الثلاث الاولى من العمر عن طريق انشاء وتشجيع الجمعيات والاجهزة التى تعنى بالاسرة والطفولة .. كما

تدمت الحلقة تقسيماً لأطوار الطفولة للاستئناس به ، خلال العمل مع الاطفال .. ورأت أن يكون الطور الاول حتى السادسة ، والثاني حتى العاشرة ، والثالث حتى السادسة عشرة .

دور الحضانة

هناك عوامل عديدة تزيد من حاجة بلادنا الى دور الحضانة ، أهمها زيادة نسبة الامهات العاملات ، وعدم توفر أماكن اللعب تحت الظروف السكنية الخاصة التي تعيش فيها بعض الاسر ، والخلافات الزوجية المستمرة التي قد تفضي للطلاق ، ثم غياب الام بالوفاة أو السجن أو لاى سبب آخر ، فضلا عن الصعوبات التي تفرضها الحياة الحضرية فى تحقيق التكيف الاجتماعى .

ولقد انتشرت دور الحضانة فى بلادنا فى الاونة الاخيرة ، غير أن الاشراف عليها موزع ما بين جهات عدة .. أو هى بلا اشراف على الاطلاق .. بعضها تابع لوزارة الشئون الاجتماعية ، والبعض الاخر تابع للتربية والتعليم ، **وقد آن الاوان لكى يتم وضع خطة كاملة لدور الحضانة** ، وكنا نتمنى لو أن هذا حدث خلال مؤتمر « نحو طفولة أفضل » الذى عقده الاتحاد الاشتراكى — لجنة القاهرة — فى ٢٨ يناير ١٩٧١ ، لولا أن هذا المؤتمر لم يكن يزيد على سوق خيرية ومزاد علنى لجمع الاموال للجمعية العامة لدور الحضانة وللدعاية لبعض الشخصيات التى يهمها أن تظهر صورها فى الصحف والمجلات والنشرات المصقولة ، وهى تقطر حنانا على الطفولة ، حتى لقد بلغت الاموال التى تم التبرع بها فى افتتاح المؤتمر خمسين ألف جنيه ، بدون الرجوع الى مجلس الامة أو أية جهة مالية .. ويعلم الله وحده مصير هذه الاموال ، اذ أن سير العمل فى ذلك المؤتمر يدل دلالة قاطعة على فشل المؤتمر ، ولعل لجنة من الاتحاد الاشتراكى تعيد النظر فى هذا الامر برمته ، فقد بات من الضرورى القيام بعمل ثورى فى مجال دور الحضانة ، وبات من الصعب الصبر على مايجرى فى هذه المخازن التى تودع فيها الامهات أبناءهن حتى تنتهى ساعات العمل .

طفل « الابتدائى »

وبانقضاء فترة الحضانة ، اخطر واهم مراحل الطفولة كما يرى التربويون وعلماء النفس ، تبدأ مرحلة جديدة ، يرى برنامج العمل الوطنى انها بداية « العلم الحديث » الذى « لا يبدأ فى مراكز البحث والاكاديميات ، بل مع أول يوم يذهب فيه ابناؤنا ، بناة المستقبل وامله الى مدارسهم الابتدائية » .. وهنا يركز البرنامج حديثه على نقطة جوهرية بالغة الخطورة بالنسبة للطفولة ، ان الدراسة ليست فصولا ولا كتبا ، انما هى « نمو » و « تفتح » ، فليس يعنينا قدر مايحصل عليه الطفل من معلومات ومعارف ، ولا نستهدف خلق عقول حافظة وأدمغة تحوى شرائط تسجيل وكفى ماحدث فى الماضى ، بل ومازال الكثير منه باقيا الى اليوم .. حشد كبير وحشو ولغو فى المواد الدراسية ، يجعل الطفل يعيش فى عالمين منفصلين : عالم الكتب الجامدة المتجمدة ، المنفصلة عن كل واقع ، وعالم حياته المليئة بالاحداث بل والخيالات .. ان « البرنامج الوطنى » يحدد فى وضوح ما يجب أن يلقاه الاطفال .. «انهم لابد وان يجدوا فى الدراسة — عبر جميع مراحلها — علميا وتربويا ، مايساعد على **نموهم وتفتحهم فكرا وجسدا** واستعدادا ليخرجوا الى حياة العمل والانتاج » .. والسؤال الذى يطرح نفسه .. هل مناهجنا ، ومقرراتنا الدراسية ، ومدارسنا تنهض بهذا العبء الآن ؟ اننا جميعا متفقون على انها قاصرة عن اداء هذا الدور ، ومهما كانت الاسباب ، فليس هناك مبرر قط لان ندع الامور على هذه الصورة ، ولابد من « ثورة » فى هذا المجال ، تخلق جيلا جديدا .. والامر بالطبع هنا ليس قاصرا على اطفال المرحلة الابتدائية ، بل على « الدراسة عبر جميع مراحلها » .. ونظرة واحدة للاهتمامات العامة لتلميذ المرحلة الابتدائية ، ولطالب الاعدادى والثانوى ، تكشف لنا اشياء مرعبة : اننا نجد البعض قد اكتفى من دنياه بما هو مسطور على صفحات كتبه ، والبعض الاخر له اهتمامات صغيرة تافهة يدور فى فلكها ، وقليلون هم الذين يشعرونك بأنهم « ينمون » و « يتفتحون » على الحياة ، وبأنهم يستوعبون دروسهم ويربطونها بما يجرى من حولهم .. والحق أن أطفالنا فى منتهى الذكاء ، ولكننا نخنق هذا الذكاء ، ونهدره ونبدده فى سفاهة ..

وتعيش اجهزة ثقافة الاطفال فى « وادى » والمدرسة فى « واد » آخر .. فلا يكملان ، ولا يتمان المهمة والرسالة ، بل يتبادلان الاتهام .. اجهزة ثقافة الاطفال ترى المدرسة تكبل الطفولة بأغلالها ، والمدرسة ترى أن هذه الاجهزة تصرف الاطفال عن دراستهم ، وتبقى التهمة عالقة بكل منهما ، ولاتحسم هذه القضية ، بل تقع «العقوبة» فيها على الجناة الحقيقيين ، بل على رأس الطفولة المعذبة بين المدرسة واجهزة الثقافة ..

ثقافة الاطفال

الحديث عن اجهزة ثقافة الطفل قد يطول ، ويسبب الكثير من الحزن والاسى .. فان طفلنا

يتيم الثقافة ؟ فهو يعيش على فتات مائدة الكبار ؟ أو متطفلا على الثقافة الاجنبية .. والجهود المبعثرة المبذولة فى حقل ثقافة الاطفال متواضعة الثمار كما أنها ليست دانية القطوف .. ونحن نعلم ان مشاكل الثقافة لا تحل بالسهولة واليسر والسرعة التى تحل بها المشاكل السياسية أو العسكرية .. لان الثقافة بطبيعتها تحتاج الى جهد اشق ووقت اطول .. ومع ذلك فان نظرة مقارنة سريعة لرعاية ثقافة الاطفال — فى الشرق او فى الغرب او فى الهند مثلا — سوف تكشف لنا عن قصور وتقصير .. ولسنا نلوم شخصا بذاته ولا هيئة معينة ، فان الامر فوق طاقة الافراد ، وفوق قدرة هيئة ما .. ان الامر يعني الشعب كل الشعب والدولة كل الدولة .. انه امانة فى اعناقنا جميعا وواجب وضريبة ولابد وان تؤدى من اجل المستقبل الحضارى لامتنا ، ويكفى ان اشير الى محنة كتب الاطفال فى بلادنا لنعرف حقيقة المأساة .. فى العام الماضى طبع الاتحاد السوفيتى ٢٥٠ مليون نسخة كتاب للاطفال — غير الكتب المدرسية — من اجل نحو ٦٥ مليون طفل ، وبذلك يكون متوسط ما يطبع لكل طفل ٣٫٨ كتاب سنويا .. وعندنا اوقفت دار الهلال كتب الهلال للاطفال ، إما دار المعارف فتصدر مسلسلات بوليسية مترجمة عن كاتبة مرفوضة فى بلادها انجلترا لانها كتبت فى حياتها مايزيد على ٥٠٠ كتاب للاطفال ! ، وتغرق هذه المسلسلات الاسواق من دار احتضنت قلم « سعيد العريان » ، وغيره من المربين ، وحملت مسئولية ادب الاطفال فى بلادنا لفترة طويلة واذا بها تتخلى عن هذه المسئولية .. وتكتفى بعض الدور الاخرى باستيراد الكتب المترجمة من بيروت او باستيراد المجلات الاجنبية لتضعها بين ايدى أكبادنا وقد نقلت الى العربية بكل ما تحمله هذه المجلات من سموم .. البعض يتناسى او ينسى متعمدا ان الذين يصنعون الفانتوم هم الذين يصنعون « ميكى » .. وكلاهما — الفانتوم وميكى — يقتل أطفالنا فى « بحر البقر » وفى غير « بحر البقر » .. وليتنا اكتفينا بهذه المجلة ، ولكننا بلينا بشقيقة لها لم تجد ما ترويه لاطفالنا عن اخناتون سوى ان جيش مصر كان « لا يهدأ فهو دائم التنقل من فلسطين الى سوريا لينزل الرعب فى قلوب شعبها ويحقق لمصر السيطرة عليها » .. ثم تنشر الكراهية لاثارنا فهى فى رأيها « تشهد على تبذير أمتنا وقسوة الحكم فيها وظلمه » ..

ونريد أن نؤكد اننا لسنا ضد الترجمة ، ولسنا ضد فتح نوافذ الفكر على الانتاج العالمى للاطفال ولا نرغب فى أن يشب اطفالنا دون أن يعرفوا « ميكى » و « تان تان » و سوبرمان » الذين يعرفهم أطفال العالم .. ولكن يجب أن يعرفوا « سندباد » و « علاء الدين » وفى تراثنا الكثير مما يصلح للاطفال ، وبعض مترجم للغات الدنيا وليس منشورا للاطفال بالعربية ، لاننا لانجد من يساند الانتاج القومى ، بينما تقف المؤسسات الاجنبية وراء ما ينشر من مترجمات ، تعود على اصحابها بربح مادى ، فضلا عن التسلل الى عقول اطفالنا ، لتلقينهم افكارا تخالف تقاليدنا القديمة ، وقيمنا الجديدة .. كما انها تهتم بالرسوم المسلسلة التى لا تدرب الاطفال على القراءة الجادة ، وتتحرك احداثها بسرعة تحدث توترا لدى الاطفال ثمرة لقصص الرعب والاثارة التى تنشرها .. وتقول مجلة [القرن العشرون الانجليزية] عن دور « الكوميكس والاستريبس » الامريكى عبارة ، هذا نصها ..

« اذا قدرنا ان هناك اكثر من ٢٠٠ مليون شخص فى نحو ٦٠ دولة يتتبعون الكوميكس الامريكى بشراهة وانهم يقراون هذه الكابسولات من الفكاهة والدراما والمغامرة والفانتزى لسنوات فنحن على يقين من اننا نتعامل مع قوى ثقافية ضخمة لها تأثيرها الكبير فى اهتمامات الناس » .. رغم رأى الانجليز فيها ، اذ يرونها أرخص ثقافات العصر وانها تعكس القلق وتشيعه فى نفوس الاطفال وانها محاولة لـ [أمركة العالم] » .

ولا تكفى هذه السطور ، اذ يحتاج الموضوع الى عودة فى دراسة متأنية ، نتحدث فيها عن دور الاذاعة والتليفزيون ، ففى برامجهما للاطفال من السلبيات ما يجعلنا فى حاجة ماسة الى مراجعة شاملة لكل مايذاع وما يقدم على الشاشة الصغيرة .. وقد تكون برامج الاذاعة أفضل ، ثمرة للاسس التى وضعها « بابا شارو » ، ولكن برامج الاطفال فى التليفزيون فى السنوات الخمس الاخيرة حفلت بأسوأ العروض ، رغم الضجيج الذى احاط بالبرامج المستوردة « فرافيرو » و « بطبوط » و « بوبى » ، اذ أن ذلك لن يجعلنا نغض الطرف عن التفاهة والضحالة

والسطحية التي اتسمت بها برامج الاطفال في تلك الفترة ، ولم نستطع بعد اقالة هذه البرامج من عثرتها واخراجها من الهوة التي سقطت فيها

المدرسة والمعلم

ان « البرنامج الوطني » يطالبنا بأن يشب الأطفال وقد « تفتحت عقولهم على العلم الحديث، وتربوا على حب البحث واكتسبوا القدرات اللازمة لاستيعاب كل ما يجد في ميادين العلم والاسهام في تطويره وتمصيره ووضعه في خدمة المجتمع » ... والمدرسة وحدها لاتستطيع هذا ولا بد وأن تشارك أجهزة الثقافة معها ، وأن تعاونها الاسرة والبيت .. ولست أنسى أننا حين كنا نتعلم في فصول الدراسة أن « الذرة لاتنقسم ولا تنشطر » القيت القنبلة الذرية على هيروشيما ونجازاكي ، وظل بعض الزملاء على ايمان بان الذرة لا تنقسم ، لان معلمنا قال هذا !

ومنذ الثورة الصناعية ونحن غير قادرين على ملاحقة تطورات العلم الحديث ، وعلى ملاحقة الاحداث السياسية ،اذ يدرس الطفل في الخامسة الابتدائية « الملكة المتوكلية اليمنية » ويفاجأ بها في السادسة وقد أصبحت الجمهورية العربية اليمنية ... وكثيرون تقف بهم معارفهم ومعلوماتهم عند حد ما تلقوه في فصول الدراسة . وكلنا ولا شك نذكر زملاء لنا كانوا يضيقون بالمدرسين المتطورين حين يخرجون عن الدرس وعن الكتاب ليفتحوا أمامنا آفاقا أرحب ، ويستصرخهم هؤلاء « خلونا في دروسنا » ويطالبونهم بالعودة الى موضوع الدرس .. وكثير من المدرسين المتفتحين عوقبوا من مفتشيهم نتيجة رغبة شديدة لدى هؤلاء المعلمين في القيام بدورهم الحقيقي روادا، وقدوة ، ومربين ، ومثقفين ، وموجهين ...

وقد آن الاوان لكي تضع « امانة الفكر » خطة لنشر الوعي العلمي ، وتكوين الجمعيات العلمية ، وانشاء المتاحف التي تفتح عيون ابنائنا على « العلم » .. ويجب أن نكشف عن تراثنا في هذا المجال ، وكيف تلقفه العالم ومضى به قدما وطوره ، وأعاده الينا .. ان موضوع الطفولة والشباب والعلوم أمر يحتاج الى دراسة .. كما أن تربية الاطفال والشباب على حب البحث يجب أن يدفع بنا الي التفكير في ضرورة الغاء الكتب المقررة ، وعدم فرض « كتاب » على صف بذاته ، بل يكتفى بالمنهج ، ومجموعة من المراجع، وعلى المدرسين والتلاميذ معا بحث موضوعات المنهج ، دون الاعتماد على كتاب معين ، فقد أصبحت هذه سمة الدراسة حتى السنوات النهائية من جامعاتنا ، وعرفنا « الملازم » ولم نتعلم البحث ، والدرس ، والرجوع الى العديد من الدراسات حول موضوع واحد .. بل عرفنا كيف نكتب عبارات أستاذ بعينه ، فاذا ما تضمنت اجاباتنا عبارات أستاذ آخر، كنا آثمين ومجرمين ، نستحق « السقوط » عقابا لنا ! .. وتخرج الجامعيون ، وقد حصرت معارفهم داخل الكتب والمذكرات ، بل لقد حفظوها ويستطيعون استظهارها ، صفحة بصفحة ، وسطرا بسطر ، دون فهم أو وعى ، فهم بذلك لم يستوعبوها ، فكيف يمكن أن يستوعبوا « الجديد » ، « المتطور»، فمابالنا بقدرتهم على الاسهام في تطويره ،وتمصيره، ووضعه في خدمة المجتمع .. اننا مطالبون بأن نجول أدمغة أطفالنا وعقولهم الى « اسفنج » يتشرب العلم باستمرار ، ويتقبله على الدوام ، وسبيلنا الى ذلك في سنوات العمر الاولى الافادة من حب الطفل للخيال ، واستمتاعه به ، ان الخيال هنا يقوم بفتح آفاق واسعة أمام الاطفال تعينهم في المستقبل على تقبل العلم والمعرفة .. واني لاجد متعة كبيرة في تشبيه ذهن الطفل بالبالون الذي يلعب به ، والخيال يضخم من حجم الذهن كما يفعل الهواء في البالون ، وعندما يتسع الذهن يتقبل الكثير .. لذلك يعنون في الخارج بالحكايات الخرافية والاساطير وقصص الطفولة المبكرة بما يثير الخيال ، لانه السبيل الى الحقيقة والواقع ، والطريق الى العلم والمعرفة .. ولست أنسى أستاذ التربية الكبير الذي كان عضو لجنة جوائز الدولة لأدب الاطفال حين اعترض على قصة قائلا : هل تتكلم نقطة المطر ؟! .. وردت عليه الدكتورة سهير القلماوي : بأنه ولد « بشنب » ، وبأنه لم يعرف الطفولة . وصدقت فقد تجاوز عمره السبعين ، وانتهت طفولته قبل بداية أدب الاطفال في بلادنا !

بناء الانسان الجديد

ويتحمل الاتحاد الاشتراكي مسئولية « بناء الانسان الجديد » .. والانسان الجديد ، في تقديري ، ليس هو الذي شب عن الطوق ، وكون

نفسه ؟ فقد يكون هذا فى حاجة الى تقويم أو اعادة بناء . .ولكن الانسان الجديد هو ذلك النبت الصغير الذى نعده للمستقبل، لانفرض عليه أفكار الحاضر ، انما نمنحه سبل الدرس والبحث والاستيعاب والتطوير .. ويجب أن يتم تدريب الاطفال على تطوير أنفسهم من كافة الوجوه .. فالاشتراكية لا تتحقق تماما الا من خلال مستوى عال من الثقافة والوعى والنضج .. وان خصال أبنائنا تتشكل وفق نمط حياتنا وتربيتنا فكريا وعقائديا ، ولا يمكن للأفكار والمعتقدات أن تتحول الى قوة حقيقية الا اذا رسخت واستقرت فى الاحاسيس والوجدان ، تحث الناس على العمل، والخلق والابتكار .. وهذه مهمة شاقة ولا شك، فنحن فى حاجة الى حماس دافق تجاه **العمل** ، ويجب أن تغرس فى النفوس قدسيته، كما أننا فى حاجة الى النضال ضد مخلفات الماضى من نزعات فردية ، واتكالية وسلبية وتطفلية ، وغير ذلك من الوان السلوك التى يجب القضاء عليها ، مع تهيئة جو خلقى ومعنوى يؤكد احترام الانسان، والنزاهة وعفة النفس والترفع عن الصغائر ، مع ضرورة التشدد مع النفس ومع الغير تجاه القيم والمسئوليات ، وذلك كله ليس مجرد « أخلاقيات » ، بل لابد وأن يسود كالقانون وأن يحترم كدستور للحياة .. ويتأتى بناء الانسان الجديد عن طريق تربيته سياسيا ، على حب وطنه : مصر ، وقومه العرب .. ويشير البرنامج هنا الى تنظيم المسيرات الى أماكن المنجزات الوطنية والقومية .. وهنا نحن فى حاجة الى الحرية ، والى التبصر بالقضايا التى نعايشها ، والى ضرورة استشراف المستقبل بكل احتمالاته وتوقعاته .. ثم لابد من تعليم المواطن ويجب أن يكون مفهوما أن كل تعليم يحصل عليه الطفل أو الشاب ما هو الا قاعدة أساسية تحتاج الى استكمال البناء عن طريق التزود الدائم بالمعرفة .. وتأتى الثقافة لتسير جنبا الى جنب مع التعليم ، وتشاركه فى بناء الانسان الجديد ، عن طريق الآداب والفنون .. ونحن هنا فى حاجة الى تشجيع الانتاج الفنى والأدبى الصادق ، الذى يمس الوجدان ، وننبذ الهتافات والشعارات المرفوعة ، والأدب والفن المباشرين ، اللذين لن يفيدا فى كثير أو قليل .. وأدب وفنون الاطفال من أروع أساليب البناء الفكرى .. على أن نحميهم من الوافد الضار من الافكار ، ونحميهم من كل ما يؤثر على نفوسهم البريئة المتطلعة الى حياة أفضل ..

وادرك بالطبع ان البناء ليس فكريا فحسب، بل نحن نحتاج الى بناء أجسادهم ، بالرياضة والوقاية من المرض والعلاج .. نحن نريد أن نحيط الطفولة بكل ما يسهل لها النمو ، والتفتح بالاستفادة بكل الوسائل والسبل ، فهم فى حاجة الى الحدائق والمسارح ، قصور الثقافة ، ودور الكتب ، الملاعب والمستشفيات ، الافلام والكتب، الرعاية الاجتماعية والنفسية ...

بناء الانسان الجديد ، يقول عنه البرنامج :

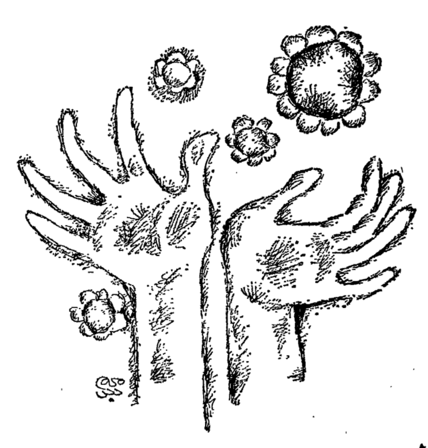
« انها لمهمة صعبة ، تتطلب عدة سنوات ، من العمل الجاد المثابر، الا انها مهمة نبيلة تستحق أن تكرس لها الجهود » و « أن الاستعمار ، علما منه بما للقيم الثورية من اثر يشن ضدنا وضد قيمنا حربا فكريا يستخدم فيها أحدث الوسائل ، وأن علينا أن نواجه هذه الحرب » .

ان بناء الانسان الجديد فيما أرى يتطلب ثورة شاملة فى حقل الطفولة ، من الحضانة ، بل من الرحم ، الى أن يشب الصغير وينضوى تحت لواء منظمة الشباب ، ليلعب دوره كاملا فى بناء الحاضر والمستقبل .

الطلائع ..

وقد دارت مناقشة حول الاطفال ، أية أمانات الاتحاد الاشتراكى تتحمل مسئوليتهم ؟ ! ..

أمانة الشئون النسائية ترى أنهاالحق.. وأمانة الشباب ترفض أنيناقش الموضوع، فهى صاحبته اولا وأخيرا .. وتتصدى أمانة « الفكر والثقافة » لذلك فتعلن أنها مسئولة عن ثقافة الطفل .. وكل هذه غيرة محمودة ، ورأى البعض أن الامانات ــ كل الامانات ــ لابد وان تضع الطفولة فيحسابها وهى تعد برامجها.. واستقر الامر على أن تنهض أمانة الشباب بتشكيل « الطلائع » ، وان كان ذلك لا يخلى بقية أجهزة التنظيم السياسى من مسئوليتهم عن الطفولة .. ليت أطفال بلادنا جميعا ينضوون تحت لواء الطلائع ، تمهيدا لان تحتويهم منظمة الشباب ، ولكن ذلك بالطبع مازال يمثل أمنية عزيزة غالية ، يصعب تحقيقها .. غير أننا على يقين من أن القضية ستحظى باهتمام أكبر ، فان الكثيرين من العاملين فى الحقل السياسى يؤمنون بها ايمانا عميقا ، ولسوف يترجم هذا الايمان الى عمل ، وعمل كبير ، تتضح ثمراته فى المستقبل ، حين يتحمل هؤلاء الامانة والمسئولية .



حـــول
مفهوم «القيـــم»
فى البـــرنــــامج

□ بنـــاء الانســـــان الجـــديد
□ أرض مشتركة للقيم الروحية والاشتراكية
□ القيم المسيحيـــة .. وقضية الاشتراكيـــة



بنـــــاء الانسان الجديد

لطفى فطيم

يقرر برنامج العمل الوطنى « أن بنـاء الدولة الجديدة لا يمكن أن ينجـح بدون بناء الانسان الجديد»، وهو فى ذلك يقرر حـكمة مستمدة من تاريخ الثورات فى العالم أجمع ، فما من نظام اجتماعى أراد لنفسه البقاء والاستمرار الا وسعى لتغيير الانسان نفسه،بعبارة أخرى خلق المواطن ذى القيم وانماط السلوك المختلفة عن تلك التى كان يتبناها فيما سبق .. وهى مهمـة صعبة وشاقة ليس النجاح فيها أمرا سهلا على الاطلاق . ولعل أصعب ما يواجه تلك القضية أن الثورات التى تحمل التغيرات الاجتماعية تمر هى ذاتها بمسار طويل من التغير والتبدل حتى تستقر فيها ومسالكها وتتبين الطريق السليم والمناسب الذى لابد أن تسلكه لتحقيق مصالح الطبقات التى تمثلها .

لذلك يجعل برنامج العمل الوطنى من مهمة بناء الانسان الجديد واحدة من خمس مهام رئيسية للاتحاد الاشتراكى العربى ، ويضع يده على العيبين الرئيسيين فى معالجـة تلك المشكلة وهما « أن تكوين الانسان الجديد لا يمكن أن يتم بمجرد الوعظ والارشاد ـ خاصة اذا كان الوعظ بعيدا عما يعظ به .... وان يتم ذلك من خلال الصراع الدائم ضد القيم البالية التى فرضتها على حياتنا العلاقات الاقطاعية والرأسمالية » ..

نظرية نقـــدية

ولكى نتناول الطريقة التى تساعد على تحقيق ذلك الهدف ، لابد أن ننظر نظرة نقدية لتجربة ثورة ٢٣ يوليو فى هذا المجال . ونعنى بالنظرة النقدية استخلاص الجوهر الثورى التقدمى فى التجربة ، وادانة العوائق والاتجاهات التـى تعرقل تقدم الجانب الثورى ، ثم اضافة الخطوة الثورية التى لابد منها لكى يستمر مسار الثورة فى طريقه لتحقيق مطالب الشعب ..

ولعله مما يتفق مع طبيعة الامور أن عملية للتصحيح يعلن عنها ، يجب أن تتضمن خلق المناخ اللازم لدعم منهج النقد ، خصـوصا اذا ركزنا الاعلان عن عملية التصحيح على قضيـة الديموقراطية .. وتدلنا تجربة الشعب المصرى فى بناء التنظيمات السياسية ، أنه ما لم ينشأ التنظيم تلقائيا أى باندفاع وحماس من الجماهير التى تؤمن أن هذا هو سبيلها لتحقيق مطالبها ، فلن يكن له النجاح .. وأمامنا تجربة تـكوين الحزب الوطنى وحزب الوفد .. وأمامنا فى الوقت نفسه تجربة هيئة التحرير والاتحاد القومى . لقد نجح التنظيمان الاولان ــ فى بداية تكوينهما ــ لانهما كانا تعبيرا حقيقيا عن مطالب الشعب ، ولانهما تكونا بشكل أقرب الى التلقـائية والمبادرة ، وتعثر الاخـران لانهما لم يستطيعا التعبير عن مطالب الجماهير ولانهما تكونا تحت تأثير السلطة .. وتحضرنى عبارة قالهـا نابليون يوما لوزير ماليته « فولتان » ... « أتعرف ما أعجب أكثر من عجبى من أى شىء فى هـــذا العالم ؟ ... عجز القوة والقهر عن أن تضفيا النظام على شىء ! » ..

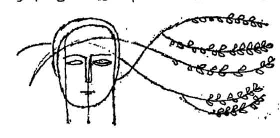
لقد ادرك ذلك الجبار أن القوة مهما بلغت فلن تستطيع بلوغ مرادها من اخضاع الانسان لها ، ولكن ذلك المخلوق العنيد يصبح سلس القيادة كطفل اذا ما اقتنع بشيء ،وهذه هي المشكلة في مسألة القيم ، فيستحيل اجبار انسان على الايمان بقيمة معينة، أو اتخاذ سلوك معين انماهو يتشرب ذلك باقتناعه الذاتي وعلى مهل ومن هنا فان الثورات التي تبقى وتستمر هي وحدها التي يمكنها خلق الانسان الجديد ، وكل ثورات العالم ، لكي تستمر وتؤدي رسالتها ، تضع نصب أعينها دائما خلق جيل جديد مؤمن بها ، أي خلق جيل تخلى عن القيم والعادات والمطامح القديمة المرتبطة بالنظام القديم واعتنق القيم والعادات والمطامح التي أتت بها الثورة . وبقدر ما تنجح الثورة في ذلك بقدر ما تستطيع تحقيق أهدافها تحقيقا يدوم على مر الزمن . ولكن المشكلة المعاصرة خاصة في دول العالم الثالث أنها تجعل اعتمادها الاساسي على البيانات والخطب الثورية ولا تقدم شيئا ملموسا في مجال الانجاز . ولكن ثورة ٢٣ يوليو على العكس قدمت منجزات ثورية ملموسة ولكنا عجزنا عن خلق الانسان الجديد .

سؤال صريح

فاذا طرحنا بصراحة سؤالا لماذا لم نستطع خلق الفرد اللازم من القيادات السياسية الواعية بين الشباب بقدر كاف ويعتمد عليها ، ولماذا لا تزال توجد في المجتمع قيم اللامبالاة ، و « شيلني وأشيلك » و « مشي حالك » ولماذا لا يؤمن أحد بقيم المحافظة على الملكية العامة ، وأداء الواجب بضمير يقظ ، وقول الحق في وجه القوة ، لماذا ذهبت الشجاعة أو كادت ، ولماذا لم يعد احد يحافظ على كرامته الانسانية بدمه ؟ .. لوجدنا الاجابة في تفسير عبارة كيف نجعل الشباب يؤمن بالقيم الجديدة .

ما هي القيم ؟

القيم هي كليات معنوية تعمل كحوافز ومعايير للسلوك ، فالحق والخير والفضيلة هي قيم حركت الانسان منذ القدم ، ويسعى البشر



لتحقيق هذه القيم في سلوكهم ، على أن هذه القيم ليست أشياء مجردة وانما ما جعلها حوافز ومعايير للسلوك أنها حققت للبشر على مر العصور التقدم والرخاء وطمأنينة البال وحافظت على وجود علاقات انسانية بين البشر وبعضهم البعض . على أنه لما كان تقدم المجتمع لا يصير الا بتذويب الفوارق بين طبقاته وفئاته المختلفة ومنذ ان انقسم المجتمع الى طبقات على أساس الملكية سعت الطبقات الحاكمة والمالكة دائما الى اظهار نفسها بمظهر المدافع عن مصالح الشعب كله وعن القيم الانسانية كالعدل والحق والخير والفضيلة . بينما مارست في الواقع كافة أنواع المظالم حفاظا على ملكيتها وابقاء على حكمها وسيطرتها . ومن هنا كان الصراع في المجتمع بين الطبقات هو صراع من أجل ازالة الظلم والاستبداد واعادة توزيع الثروة ،وهو في الوقت نفسه صراع من أجل توطيد القيم الانسانية التي هزأت بها الطبقات الحاكمة .

لذلك تكون القيم السائدة في كل مجتمع — بشكل عام — هي بالضرورة قيم الطبقات السائدة فيه وذلك بحكم التماسك الاجتماعي الذي يجعل من المجتمع المتناقضة طبقاته وحدة بين الاضداد . ويكون من نتيجة ذلك أن تفسد قيم الطبقات الاخرى المتحالفة أو المرتبطة مصالحها بمصالح الطبقة الحاكمة وتشيع في المجتمع القيم السلبية والفاسدة لان ذلك في الحقيقة هو دستور الطبقة الحاكمة ، ويصبح حملة القيم الايجابية والشريفة موضع اضطهاد وسخرية .

ولقد تكررت تلك الصورة في التاريخ ولعل المجتمعات الرأسمالية الحديثة هي خير دليل على احتدام صراع القيم .

حرية النقد مفتاح المشكلة

ويكون مفتاح مشكلة تغيير القيم كامنا في حرية النقد ، فمن خلال النقد يتبلور الصراع ويتضح أمام الجماهير ما هي القيم التي يجب أن تنتصر والقيم التي يجب أن تهزم .

ويضعنا هذا مباشرة أمام تجربة الاتحاد الاشتراكي في مصر ، الذي لم يستطع أن يجعل من نفسه قوة قائدة لنضال الشعب من أجل تغيير ما هو متخلف في المجتمع رغم شعارات الحرية والاشتراكية التي يرفعها . ونترك هنا **برنامج العمل الوطني** يتكلم :

« **ولربما كان أخطر ما واجهنا فكريا خلال السنوات الماضية هو ذلك التناقض المصطنع بين**

الإشتراكية والحرية والذى افتعله أعداء الحرية والاشتراكية على حد سواء . ان مراكز القوى التي لا يمكن لها أن تظهر أو تعيش ، بل لابد وأن تختنق فى جو الحرية والديموقراطية وجماعية القيادة ، اتخذت من الاشتراكية ودعوى حمايتها حجة لتكميم الافواه ولتسكت كل صاحب فكر ولتفرغ مؤسسات الشعب من مضمونها الثوري ، لكي تشق طريقها الى الانفراد بالسلطة والتحكم في مصير البلد بما يحقق اطماعها ونزواتها .. » .

حرية النقد اذن فى رأينا هى الشرط الاساسى لتغيير القيم ، علي أنها حرية مرتبطة بتغيير العلاقات الاجتماعية التى أدت الي ظهور القيم الفاسدة . فالاساس فى تغيير القيم هو تغيير الظروف الاجتماعية فلا يمكن الحديث عن حرية النقد فى ظل بقاء الفئات الاجتماعية التي تسببت في الافساد ، ان تلك الحرية هي السلاح الذي يكمل مهمة التغيير الاجتماعى ، ان عزل الفئات الجديدة التى قفزت الى مواقع السلطة وعلى ما أتيت به من علاقات وانواع من الاستغلال وتكوين الثروات وجعل حرية النقد سلاحا مشرعا فى وجه المنافقين والمتسللين « والمبايعين » هما الشرطان اللازمان لبناء الإنسان الجديد .

علي ان تفسير حرية النقد كشيء مطلق منعزل عن التوازن الفعلى للقوى الاجتماعية وخارج نطاقه ، سوف يكون فى الحقيقة وهما عظيما أو مناورة سياسية ساذجة . فالمسألة ليست مسألة مبدأ مطلق ، ولا هى مسألة نظرية مجردة . انما هي فى الاساس مشكلة عملية من مشكلات العلاقات السياسية فى المجتمع . فما هي الطبقات أو الفئات التي يجب أن تكبت حريتها وتنزع ملكيتها وتحارب قيمها ، وما هى الطبقات التي يجب أن تترك لها حرية النقد ويفسح أمامها مجال تثبيت قواعدها وحقوقها وقيمها .. ذلك أمر تحسمه علاقات القوى في المجتمع الطبقي .. ان الحرية الليبرالية التي تعني النقد علي اطلاقه ولا تضع فى اعتبارها طبيعة مرحلة التحول الاجتماعي القائمة وطبيعة صراع القوى الطبقية فيه هي حرية زائفة .. ان ما نعنيه بالحرية وحرية النقد هو حرية النقد للشعب ولفئاته الثورية المتطلعة الى بناء مجتمع جديد وانسان جديد ..

ولقد وعي برنامج العمل الوطنى تلك الحقيقة فقال : « ان الديموقراطية تعني حرية الرأي والتعبير لكل عضو ولكل مستوى ولكل قوة من قوى التحالف وايجاد الظروف الملائمة لممارسة هذه الحرية ، كما تعنى حق النقد وممارسة النقد الذاتي » ..

فما هو الطريق العملى لممارسة حرية النقد ؟

بعبارة اخرى ما هى القيم التى نود استبعادها والى اى الطبقات تنتمى ؟ وما هى القيم الجديدة والي أى الطبقات تنتمى ؟ وما هو الاسلوب الذي يجب اتباعه لازالة القديم ووضع الجديد وفى أي اطار تنظيمى يجب أن يدور ؟

لقد غيرت ثورة ٢٣ يوليو من مواقع الطبقات والفئات الاجتماعية فى مصر ، فازالت الفئات العليا من ملاك الاراضى الاقطاعيين ، وكبار الرأسماليين الاحتكاريين ، كما ازالت السند القوي لهذه الفئات المالكة وهو الاستعمار .. لقد نزعت تلك الفئات من مواقع السلطة وحلت محلها فئات جديدة .. ولكن علم الاجتماع يخبرنا أن قيم تلك الفئات المبعدة تظل فعالة حتى بعد زوالها لانها شيء زرع فى وجدان الناس لسنين طويلة ، وكان يجب على الفئات الحاكمة الجديدة أن تعمل على خلق قيمها الجديدة لتحل محل القديمة ، وهي عملية طويلة تحتاج لجهد ومثابرة..

ويكفى أن أشير هنا الى ما فعلته الثورة الفرنسية الكبرى بقيم الاقطاع والى ما فعلته ثورة أكتوبر الاشتراكية بقيم الرأسمالية ذلك فى العصر الحديث ، أما ما فعلته ثورة الاسلام بقيم قريش القبلية فأمر لا يحتاج الى بيان .. لقد خاضت الثورتان الفرنسية والاشتراكية حربا لا هوادة فيها في المجال الفكري والسلوكي لارساء قيم المساواة وعدالة التوزيع من ناحية وضد الانانية والجشع والحق المتوارث من ناحية أخري .. وخاضت ثورة أكتوبر الاشتراكية ، ولاتزال معركة عنيفة ضد قيم المنافسة الرأسمالية وجعل الربح الفردي هو الدافع لكل سلوك فى المجتمع . وكان سبيل الثورتين الى ذلك هو خلق تنظيم سياسي قوى واضح البرنامج محدد الاهداف يأخذ قادته انفسهم بقاعدة ضرب المثل والتفانى في خدمة الاهداف ..

فماذا فعلت ثورة ٢٣ يوليو ؟ لم تتمكن فى ثلاث محاولات متتالية من اقامة التنظيم السياسي القوى الذى يستطيع جذب الجماهير الى صفوفه

بدافع من نفسها ودون انتظار لكسب فردى أو منفعة شخصية . كما فشل الكثير من القادة فى التغلب على الاطماع البورجوازية والتطلعات الطبقية فى داخل أنفسهم . لذلك لم يستطع اى تنظيم للشباب ان يقنع الشباب — وهم القطاع من الشعب المتطلع الى المثل الاعلى والاقرب الى تمثل القيم الجديدة — لم يستطع ان يقنعهم بأهدافه وبرنامجه . . بل للاسف لم يكن لديه مثل تلك الاهداف والبرامج .

الحرية .. و « مضادات » الحرية

ولقد وضحت خبرة تصحيح مسار ثورة ٢٣ يوليو ان النضال من اجل الحرية يخلق على الفور « مضادات الحرية » كما يولد مؤسسات تهر بالنسبة لتلك القوى الاجتماعية التى تتحرك فى الاتجاه المضاد . ويتخذ كبت الحريات أوضاعا مقننة ومشروعة حيث يصبح استبعاد القانون هو القانون وتأخذ بالتالى شكل الامر الواقع حتى فى ظل أوسع ديموقراطية شكلية . ان المطالبة بحرية النقد انما تتقدم بها دائما قوى اجتماعية كلما رغبت هذه القوى فى ان تخلق وتوسع رأس جسر لنشاط اجتماعى ما .

ان تغيير القيم يرتبط أشد الارتباط بالتحولات الاجتماعية فى البلاد . ولابد له من حركة اجتماعية ثورية ، اى تغير وتطور مستمر فى العلاقات الاجتماعية والطبقية ، حتى ترسخ أقدامه ، وهذا هو ما عناه برنامج العمل الوطنى حين قال .. « **وأن يتم ذلك من خلال الصراع الدائم ضد القيم البالية التى فرضتها على حياتنا العلاقات الاقطاعية والرأسمالية** » . فالصراع هنا لا يفهم الا على انه صراع القوى والطبقات الثورية فى المجتمع ضد قوى الاستغلال والكبت والتأخر والذى من خلاله تتأكد القيم الاصيلة فى الشعب وتتجه حركة التصحيح الى مسارها المطلوب .

وعندما شرعت القيادة السياسية للبلاد تواجه مشكلة « مراكز القوى » ظهر مطلب حرية النقد الاجتماعى وكان شعارا أساسيا لحركة ١٥ مايو . ولا يخفى على أحد ان هذا المطلب قد تقدمت به أيضا البقايا السياسية والايديولوجية للمجتمع القديم . ولكن كما سبق أن بينا أن حرية النقد مشروطة بمصالح الطبقات الثورية فى المجتمع . فالمجتمع المصرى مكون من طبقات يحكمه تحالف بينها وهو مجتمع وطنى تقدمى معاد للاستعمار والاقطاع والاحتكار . ولكن الطبقات المتحالفة بينها صراع فى الوقت نفسه . ومن الواضح أن وسائل النقد وأشكاله فى صراع سياسى يتميز بتناقضات طبقية اى لا يدور فى اطار التحالف بين الطبقات الثورية لا يمكن أن تكون هى نفسها وسائله وأشكاله فى نقد اجتماعى ينشأ فى مجتمع وطنى تقدمى يسير تطوره على أساس التحالف والصراع بين قوى طبقية ذات اهداف واحدة فى مرحلة معينة من مراحل تطور المجتمع . ففى الحالة الاولى نحن نعالج سلطة سياسية ، سلطة طبقية ، ومن ثم أيضا صراعا سياسيا بين الناس ، وفى الحالة الثانية نعالج خلافا فى الاراء بين أنداد يسهمون أو بالاحرى يمكنهم أن يسهموا فى ادارة المجتمع على قدم المساواة . وانا لا أزعم أن مجتمعنا فى مجموعه قد وصل بالفعل الى هذا المستوى ، فمن المعروف اننا سنحتاج الى جهود أجيال متعددة للقضاء على بقايا النظام البيروقراطى والادارى الموروث من عهد الاقطاع والاستعمار والذى لم تستطع ثورة ٢٣ يوليو حتى الان أن تغيره تغييرا جذريا . ومن الواضح أن تقدم ومستقبل الديمقراطية عندنا يكمن فى تدعيم التحالف الطبقى واحتلال كل طبقة لموقع فيه يتفق مع دورها فى البناء الاجتماعى فى اطار وعى عميق بضرورة التحالف وأهميته .

واذا كانت هذه هى نقطة البدء عندنا ، فمن الواضح أن الصراع السياسى من أجل السلطة لا يمكن أن يكون هو منهج النقد الاجتماعى . واذا ما حدث هذا بالفعل فانه يبرهن ببساطة على وجود بقايا نزاعات طبقية عدائية أو اتجاهات نمو الاستبداد البيروقراطى . ان المنهج الذى يجب على النقد الاجتماعى أن يستخدمه فى ظل ظروف التحالف الطبقى هو صراع الاراء الديموقراطى بين اناس متساوين ومسئولين مشتركين فى الحكم . وتكمن أهمية ذلك الصراع فى الجهد الواعى المبذول لكى يتطور المجتمع فى سبيل الاشتراكية تطورا ديموقراطيا نحو علاقات اجتماعية واقتصادية اكثر تقدما ، كما تكمن فى السعى لتوفير حرية وانسانية وثقافة ذات أبعاد جديدة .. اى ببساطة خلق الانسان الجديد .

ان المسئولية الديموقراطية للنقد الاجتماعى هى دون شك السلاح الاكثر فعالية فى النضال ضد القهر البيروقراطى للنقد الاجتماعى وضد القيود الادارية التى لا مبرر لها محل النقد .

ان الطبيعة الديموقراطية للنقد ، أو على وجه أدق ، التأثير التربوى الديموقراطى الذى يمكن أن يمارسه النقد على الوعى الاجتماعى هو فى الوقت نفسه مصدر نفوذه الاخلاقى — السياسى على المجتمع أى مصدر تأثيره على تغيير القيم . فالنقد الذى يزخر فقط بالنفى وبالصراع السياسى للانسان ضد الانسان لا يمكنه أن يولد الصفات الاخلاقية والقيم التى لا غنى عنها اذا كان يراد للمجتمع أن يسمو ويتطور .

ولقد أكدت تجربة ممارسة الحكم في كافة أشكال الحكم الاشتراكي والوطني الحقيقة المعروفة بشكل عام وهي انه ما من جهاز للسلطة يكون محصنا ضد أمراض الانحراف الذاتي والاستخدام المتعسف للسلطة . والعلاج الاكثر فعالية وجوهرية ضد هذه الميكروبات هو دون شك وجود نظام من الحقوق والمؤسسات الديمقراطية يضمن الطابع العام لاتخاذ القرارات والحرية الاوسع للنقد الديموقراطي . وفي تجربة شهيرة في علم النفس الاجتماعي اراد العلماء الوصول الى نتيجة علمية فيما يتعلق بالمقارنة بين النظام الاوتوقراطي والنظام الديموقراطي ، اى بين الجماعة التى تلقى اليها الاوامر لتنفذها دون مناقشة ، والجماعة التى تتبع ما يسمى بأسلوب قرار الجماعة في تحديد انواع سلوكها وذلك من حيث الكفاءة والانجاز . فتم اختيار مجموعتين من الطلاب أوكلت الى كل منهما مهمة انجاز عمل واحد واتبعت احداهما اسلوبا أوتوقراطيا والاخرى أسلوبا ديموقراطيا . ووضحت النتائج أن الجماعة الديموقراطية هي الاكفأ من حيث الانجاز ومن حيث انتشار العلاقات الانسانية السليمة بين أفرادها .

فاذا ما استخف المجتمع « الاشتراكي » بأهمية مثل هذه الميكانيزمات الديموقراطية ، واعتمد كلية على الصفات التقدمية الذاتية للقوى الاجتماعية القائدة وعلى تفانيها في مصلحة الشعب العامل ، فلابد أن ينفتح الباب على مصراعيه في المجتمع أمام الاسلوب الاوتوقراطي واتخاذ القرارات بشكل ذاتي ، بحيث يصبح كل موظف او كل رئيس صغير حاكما بأمره في مجاله .

قيمتان .. أساسيتان

ويقدم برنامج العمل الوطني قيمتين ينادى بالتمسك بهما : هما تقديس العمل واحترامه ، وحب الوطن .

أما القيمة الاولى « تقديس العمل واحترامه » فلا شك انها رد فعل لما شاع من الوصولية والانتهازية وعن وثوب المحاسيب والانصار الى مواقع السلطة والقيادة مما أهدر قيمة العمل والكفاءات وجعل اسلوب الارتقاء في الحياة ليس العمل والاخلاص فيه وانما هو التملق والتسلق .. الخ . ان ما انكشف لاعين الشعب من خلال الاحداث الاخيرة وما عرف قبل ذلك في صمت ــ بين بوضوح ان قيمة تقديس العمل واحترامه والكفاءة والدأب والمثابرة على خدمة الوطن قد اهدرت ، وان كثيرين ممن يكافأون ويتولون المناصب هم أقل الناس عملا وكفاءة وأكثرهم ايمانا بالخرافة وتحضير الارواح .

لذلك وجب اعادة تلك القيمة الى مكانها ولن يتأتى ذلك الا بحرية النقد ويضرب المثل واحدى الاساليب العملية لذلك هي جعل المراتب بين اقل مرتب واعلى مرتب في الدولة محدودة بحيث لا يزيد أعلى مرتب عن عشرة أضعاف أقل مرتب مثلا مع وضع جداول ومعايير محددة لانواع المكافآت والبدلات على أساس العمل .

أما القيمة الثانية وهي حب الوطن ، فلا أظن انها قيمة مطروحة للمناقشة فلا يوجد في تاريخ الشعب المصرى ما يشير من بعيد أو قريب الى أنه تراخى في حب وطنه حتى في أحلك الظروف والملمات .. واغلب ظنى ان ايراد تلك القيمة انما جاء كرد فعل لما يشاهد من سلبية ولامبالاة لدى فئات معينة من البورجوازية . والاصح ان تكون القيمة التى يراد تدعيمها هى المبادرة والمباداة الخلاقة لدى الجماهير . ان حب الوطن قيمة خالدة عند هذا الشعب ولست في حاجة الى ايراد الامثلة الشعبية ، والمواويل الفولكلورية ، ولا الامثلة من تاريخ كفاح هذا الشعب ونضاله لاثبت ان هذه القيمة لم ولن تتزعزع . انما المشكلة ان البورجوازية الصغيرة وغيرها من فئات الراسمالية التى تربعت في مقاعد السلطة ، والتى افقدتها الهزيمة صوابها واغلقت أمامها أبواب الاستغلال والتى انعدم صبرها وزاد قلقها من جراء عدم الوصول الى حل .. والتى تخشى مواجهة جادة مع العدو ، وتهلع لذكرها ، هى الواجهة الزائفة لقيم هذا الشعب وتراثه التليد .. اما حب الوطن فهو بخير لدى الطبقات الثورية . واحب ان اقول ان تدعيم حب الوطن لن يأتى عن طريق « تنظيم المسيرات والزيارات لاماكن المنجزات التى حققها اجدادنا والتى بناها ويبنيها جيلنا » وانما عن طريق اعتراف الوطن بقيمة كل فرد فيه وان يكافئه اذا أحسن ويعاقبه اذا اساء . وان يكون معيار الثواب والعقاب واضحا يلتزم به الجميع . ان الحب بكافة صوره هو علاقة اخذ وعطاء . ويبين تاريخ الشعب انه لجأ دائما الى السلبية واللامبالاة في عهود الاستبداد فقط اذ كان هذا هو سلاحه ضد الظلم ان الديمقراطية وحرية النقد هما المناخ الذى تنمو فيه المبادرة الخلاقة لدى الجماهير ويتضح فيه حبها لوطنها واستماتتها في الدفاع عنه .

أمور يجب الالتفات اليها

اننا في صراعنا من أجل ارساء القيم الانسانية يجب ان نلتفت الى الامور التالية :

اولا : يجب الالتفات الى الاصول الطبقية

الفئات المختلفة من الشباب ومراعاة أساليب السلوك المقبولة منهم . فمن المعروف مثلا أن غالبية العمال من اصول فلاحية وانهم لم يتحولوا بعد الى طبقة عاملة صناعية متطورة ولذلك فان أساليب وقيم الريف لازالت سائدة بينهم، كما أنهم بحكم كونهم أقل الطبقات دخلا تكون المشكلة الاقتصادية ذات أهمية خاصة لديهم ، وذلك على عكس الطلاب مثلا الذين يأتون من اصول بورجوازية وتلعب العوامل الثقافية والحضارية دورا كبيرا فى تشكيلهم .

ثانيا : يجب ان تدرك الحقيقة السيكولوجية الاساسية القائلة بأن الانسان لا يتمسك الا بما ينبع من ذاته ، ولذلك فان عملية غرس أو تدعيم القيم الجديدة يجب أن تهدف الى جعلها جزءا من «وجود الانسان » ولن يتأتى هذا الا فى جو من الديمقراطية وحرية النقد والاختيار . ان الاطار الذى يجب أن تدور فيه عملية خلق الانسان الجديد هو تكوين جماعات متجانسة من الشباب خاضعة لاقل قدر من الرقابة والتوجيه تمارس فيما بينها حرية النقد الذاتى والاجتماعي بحيث تبنى نفسها بنفسها فى ظل الايديولوجية العامة للتنظيم السياسى ، ومن المقطوع به أن مسألة وجود ايديولوجية عامة هى شرط أساسى لبرنامج العمل الوطنى كله .

ثالثا : خلق الكادر القيادى الواعى فى مختلف المجالات . ويجب أن ندرك انه بدون الكادر أى ذلك المناضل الواعى الذى يتخذ من تضحية وطنه تضحيته الذاتية لن يمكن قيام تنظيم يستطيع البقاء على أنه يجب أن نضع فى اعتبارنا خبرة منظمة الشباب والمعهد الاشتراكى ومعسكرات الشباب .. الخ . ان تلك الاشكال لم تستطع القيام بدورفعال فىخلق الكادر المطلوب ،ولابد أن نضيف أن كثيرين من القائمين على امور الشباب فى الاتحاد الاشتراكى فيماسبق لم يكونوا يهدفون الى أن يخلقوا منهم شخصيات ذات رأى يعتد بها ، ويعتمد عليها . وانما كانوا يهدفون الى جعلهم أدوات بحيث قتلوا فيهم روح المبادرة الخلاقة ، هذا الى جانب انعدام أى مثل اعلى يمكن التعلق به .

● ● ●

ان توجيه الشباب الى تكوين تنظيماتهم تلقائيا وبأقل قدر ممكن من التدخل من السلطة ، وتربية كادر واع قيادى نشأ من صفوف الشعب ولم يأت اليها « من فوق » وجعل أساس هذه التنظيمات الديموقراطية وممارسة النقد ، وذلك فى اطار من التزام القيادة أمام القاعدة ببرنامج وأهداف وقيم محددة هى الشروط الاساسية للبدء فى خلق تنظيمات تشرع فى ذلك العمل الجبار الا وهو تغيير القيم .

ان مشكلة تغيير القيم لا تخص الشباب وحده بل هى أوسع من ذلك بكثير ، أنها فى الحقيقة كما سبق أن قلنا مشكلة التغير الثورى فى المجتمع كله (١) . قلنا ولقد علمتنا الخبرة التاريخية او يجب أن تعلمنا — اننا فى مسيس الحاجة الى تأكيد القيم الايجابية التى تملا المناخ الثقافى المصرى . وعلمتنا الاحداث أن شعبنا المصرى شعب أصيل وان أصالته نابعة من التراث الثقافى الذى يعيش فيه ويعيش به. واننا اذا درسنا عناصر هذه الاصالة دراسة موضوعية علمية فسوف يزداد فهمنا لهذا الشعب وبالتالى تزداد قدرتنا على تغييره الى الافضل. ونحن فى مسيس الحاجة ايضا الى مواجهة القيم السلبية التى مازالت تمثل جزءا من هذا المناخ ، ان مواجهة القيم السلبية والعناصر الثقافية البالية فى هذا المجتمع اصبحت فى هذه المرحلة ضرورة ملحة، ذلك لأن عملية بناء المجتمع الجديد وحدها لا تكفى للتحكم فى هذه القيم السلبية ، فلابد من الاستفادة من مرونة شعبنا واصالته واتاحة الفرصة أمام العناصر الصالحة لتأدية دورها التاريخى .

لقد وضحت الخبرة انه لابد من الثقة فى الشعب والاستناد الكامل اليه ، وقد اثبت هذا الشعب فى كل مرة أصالة معدنه . وان اخطر قيمة تتهدد مبادرة الشعب وقدراته الخلاقة هى السلبية . وهى قيمة موروثة وجوهرها الاعتماد على السلطة والخوف منها فى الوقت نفسه ،مما يقتل المواهب ويصيب القدرة على الخلق بالشلل — ان السلبية والاتكالية واللامبالاة هى فى رأيى أخطر الامراض التى أصابت حيوية هذا الشعب ، وذلك نتيجة لاعتماد السلطة على « الاجهزة » والقيمة التى نريد تقويتها فى مواجهة السلبية هى المبادرة والتلقائية والايجابية، وهى ضعيفة جدا الان ولا تظهر الا فى الازمات فى حين أننا نريد جعلها قوتنا اليومى . ومن الواضح ان السلبية لا تذبل وتنزوى وأن المبادرة لا تزدهر وتتفتح الا فى تربة الديموقراطية وحرية النقد .

أن الخطوة الأولى فى دحر السلبية لابد أن تأتى من جانب السلطة ، فلابد أن يقل الاعتماد على« الاجهزة » ويزداد الاعتماد على التنظيمات الشعبية . ولا أمل يرتجى بغير ذلك . وان السلطة اذا اقتربت من الشعب قيراطا اقترب هو منها أربعة وعشرين . وبذلك يتكون الاساس الصلب لقيام تنظيم سياسى متين يواجه المهمة العسيرة مهمة تغيير القيم .

---

(١) د. سيد عويس « حديث عن الثقافة » مكتبة الانجلو

أرض مشتركة للقيم الروحية والاشتراكية



محمد عمارة

في عبارة موجزة حدد « **برنامج العمل الوطني** » الموقف التقدمي من قضية [القيم الروحية] في المجتمع . وبتعبير آخر موقف الانسان التقدمي منها ، ودورها في مجتمع ينحو نحو التحول الاشتراكي ، وقبل كل ذلك ماهية هذه القيم وقسماتها وطبيعتها ، تلك الماهية التي تميز بين ما هو متقدم وما هو متخلف في ميدان [القيم الروحية] المطروحة أمام انساننا المعاصر في المجتمع الذي نعيش فيه ..

قال « برنامج العمل الوطني » عن هذه القضية ، في معرض حديثه عن بناء الانسان الجديد في الدولة الجديدة : **« ان بناء الدولة الجديدة لا يمكن أن ينجح بدون بناء الانسان الجديد ... ان تكوين الانسان الجديد لايمكن أن يتم بمجرد الوعظ والارشاد ، وخاصة اذا كان الواعظ بعيدا عما يعظ به ، وانما يتم من خلال القدوة ، من خلال التمسك بقيمنا الروحية النبيلة، ومن خلال الصراع الدائم ضد القيم البالية التي فرضتها على حياتنا العلاقات الاقطاعية والرأسمالية »** .

ونحن اذا شئنا أن نقدم تفسيرا موجزا لما تقدمه هذه العبارة من هدف تطلب السعي لبلوغه، ونقد للواقع القائم في هذا الحقل من حقول مجتمعنا ، نظريا وتطبيقيا .. وسبيل محدد لبلوغ هذا الهدف ... اذا شئنا تقديم هذا التفسير، فاننا نستطيع أن نلمح كيف جاء « برنامج العمل الوطني» هنا امتدادا وتطبيقا لفكر الثورة المصرية العربية ازاء هذه القضية ، قضية الموقف الثوري ازاء « القيم الروحية » التي يجب أن يفسح لها المجتمع الطريق ، كي تلعب دورها في بناء الانسان الجديد ... وأن « برنامج العمل الوطني» هنا يوجز ويكثف — مع اهتمام بالجانب النقدي والتطبيقي — ما فصله « الميثاق » ...

أهداف يحددها البرنامج

يحدد « البرنامج » أن الحفاظ على القيم الروحية ، من وجهة نظر الموقف الثوري ، هو أمر وثيق الصلة جدا ، ببناء الانسان الجديد ، الذي بدونه لايمكن لأية ثورة أن تبني مجتمعها الجديد ، ومن ثم تظل شعاراتها وفكرها ومؤسساتها في قبضة المجتمع القديم الذي قامت لهدمه ، او تطويره ، أو تخطيه ، مما يفضي الى احتوائها في احشاء هذا المجتمع القديم، وتحويلها الى مسخ مشوه ينضح بكل ما في هذا المجتمع القديم من قيم بالية ومثل عليا مؤسسة على تبرير استغلال الانسان للانسان .

وتوظيف « القيم الروحية » في هذه العملية البنائية للانسان الجديد في الدولة الجديدة يفضي بنا الى الوسيلة التي أشار اليها «البرنامج» سبيلا لبلوغ هذا الهدف ، واشارته هنا قد تمثلت فيها جوانب النقد للواقع الراهن، وجوانب البديل المقترح لتلافي سلبيات هذا الواقع الراهن .

سخر « البرنامج » من الظن بأن مجرد « الوعظ والارشاد » سيفضي بنا الى تلك التغييرات الفكرية التي نريد احداثها في قلب وعقل هذا الانسان الجديد. وهو بذلك **يفتح الباب لحوار فكري لابد من قيامه حول السبل الجديدة والعصرية والعلمية التي لابد من اللجوء اليها لتوصيل القيم الجديدة الى هذا الانسان الجديد** ، ومدى صلاحية او كفاية الوسائل

التقليدية فى هذا الميدان . ثم هو يلمس قضية جوهرية باشارته الى ضرورة أن يتم « التوصيل » لهذه القيم الروحية من خلال القدوة التى تتجسد فيها هذه القيم .. واذا كنا قد اتفقنا على أن هذه القيم الروحية مدعوة لبناء انسان ثورى جديد يناضل من أجل الانتقال بمجتمعه الى الاشتراكية ، وانها لهذا السبب ذات طابع ثورى انسانى تقدمى ، وذات طابع عقلانى مستنير ، بحكم مزاملتها وتعايشها مع العلم ، بحقائقه وتطبيقاته ، فلابد وأن يكون « القدوة » و « الموصل » متحليا ، بل ونموذجا طيبا تتجسد فيه القيم والافكار والسلوك الثورى والانسانى والتقدمى والاشتراكى . فليس مستساغا مثلا أن يدعو « متخم » الى « التقشف » ، خصوصا عندما يكون جمهوره من الفقراء والمساكين ؟! . ولا أن يبشر صاحب السلوك « البورجوازى » بما فى تراثنا الروحى والفكرى من « قيم » و « مثل » و « سوابق فكرية وسياسية » تزكى الاتجاه الى التطور والتقدم والتحول الى الاشتراكية ؟ !

فهذه الاشارة النقدية التى يقدمها « برنامج العمل الوطنى » تطرح قضية لم ننجح فى حلها حتى الآن . ونعنى بها قضية بناء القدوة ، وتكوين كتائب من شباب علماء الدين الذين يستطيع « ايمانهم » بالاستنارة والانفتاح على حقائق العصر النظرية والتطبيقية، يستطيع ، «ايمانهم» هذا أن يزامل « العلم » ويصاحبه .

ان « **ابن رشد** » (١١٢٥ — ١١٩٨م) مثلاقد تدم للفكر الاسلامى الفلسفى تصورا يستطيع المفكر المسلم بتمثله والتزامه أن يكون « مؤمنا » حقا و « فيلسوفا » حقيقيا ، وخلص بفكره الخلاق هذا الى ان الفلسفة [الحكمة] هىو [الشريعة] أختان متعاونتان . وهو قد أنجز عمله الفكرى هذا من فوق « أرض الفلسفة » مستعينا فى ذلك بالاستنارة الدينية ، وعرض الفكر الموروث على العقل المسلم المستنير (١) .

وفى مجالنا نحن ، مجال الحديث عن القيم الروحية ودورها فى بناء الانسان الجديد ، تبرز الحاجة الملحة لايجاد هذه الكتائب الجديدة من علماء الدين الذين يواكب « ايمانهم » « العلم » ، والذين تصدر من قلوبهم وعقولهم الدعوة الى القيم الروحية القادرة على هذا الاسهام الذى اشار اليه « برنامج العمل الوطنى » فى بناء الانسان الجديد . أما أن يظل اعتمادنا الأساسى، خصوصا فى قرى الريف التى تستوعب مساجدها الأغلبية الساحقة للقوى المنتجة والثورية فى مجتمعنا ، أما أن يظل اعتمادنا الأساسى فى هذه القرى على « الواعظ البعيد عما يعظ به » — كما عبر برنامج العمل الوطنى — فان هذه القيم الروحية المنشودة لبناء هذا الانسان الجديد ستظل بمعزل عن قلوب هذه الملايين وعقولها . ولن يجدى فى تلافى ذلك أن نبعث بخطب مكتوبة تتحدث عن مشاكل« المدينة » وقضاياها ، وتضرب الأمثلة من واقعها وأخلاقياتها ، كى يلقيها خطيب المسجد على جمهور لا يفهمها ، فضلا عن أن يستجيب لها ويتجاوب معها ، وهو الوضع الذى يوجد « الغربة » بين الانسان المؤمن وبين « المسجد » ، بعد ان كان هذا « المسجد » — لقرون طويلة فى تاريخنا — ولا يزال وسيظل صالحا لأن يكون، مدرسة للفكر المستنير والمتقدم، وساحة لاعداد الرجال القادرين على مواجهة المظالم ومجابهة التحديات التى مر ويمر بها هذا الوطن عبر تاريخه الطويل وحاضره الحافل ومستقبله المنشود ..

قيم ثورية

محتوى القيم الروحية « التى تستطيع أن تسهم فى بناء هذا الانسان الجديد ، اللازم لزوم الضرورة الملحة لبناء الدولة الجديدة، حدد « برنامجالعملالوطنى » أنه المحتوى الثورى الذى يكسب هذه القيم وصف « القيم الروحية النبيلة » .. وهذا التحديد يثير قضية هامة ، طرحها البرنامج ، ولا بد لها من حوار ودراسات تطرح أبعادها الحقيقية على عقول وقلوب ، الناس ، وخاصة « الدعاة » والمفكرين والمثقفين المعنيين بهذا الحقل فى مجتمعنا . فتحديد « البرنامج » لهذهالقيم وتمييزه لها بأوصاف محددة يعنى **انه ليس كل « موروث روحى » وليس كل « تراث » بصالح كى يخدم قضية تقدمنا ، ويسهم فى بناء انساننا الجديد** ، وذلك لان الدين ، ومن ثم « القيم الروحية » برىء من كثير من الاضافات التى شوهت جوهره وتحولت به عن طريقه ،



(١) انظر كتابنا [المادية والمثالية فى فلسفة ابن رشد] ط دار المعارف — القاهرة سنة ١٩٧١م .

والقت على حقائقه البسيطة وقيمه الانسانية ركاما من الخرافة عطل فعاليته فى دفع عجلة التقدم ، بل وظف هذه الفعالية فى محاولة شد عجلة التاريخ الى الخلف خدمة لمصالح القلة المستبدة والمستغلة لجماهير الناس . وهذه القيم الغريبة عن جوهر الدين هى التى يحدد (**برنامج** العمل الوطنى] انها قد طرات وصدرت عن العلاقات الاقطاعية والرأسمالية ، التى هى من مستحدثات تطور المجتمع، ولا علاقة لها بجوهر الدين ، فيطلب الصراع الدائم ضدها ، بل يرى « البرنامج » أن تحقيق الهدف فى هذا الميدان لا يتم الا « من خلال التمسك بقيمنا الروحية النبيلة ، ومن خلال الصراع الدائم ضد القيم البالية التى فرضها على حياتنا العلاقات الاقطاعية والرأسمالية » .

ونحن اذا شئنا ضرب بعض الامثلة التطبيقية التى تؤكد أنه ليس كل « موروث » روحى بصالح كى يسهم اليوم فى بناء انساننا الجديد ، وجدنا الكثير مما يمكن تقديمه فى هذا الباب . « فالتواكل » « قيمة روحية » ربطت وارتبطت خطأ بالدين ، وسادت ولازالت تسود فى حياة الجماهير الواسعة فى بلادنا ، وهى تعتمد اعتمادا كبيرا وتستفيد كل الاستفادة من « القيم الفكرية » التى ترى فى الانسان كائنا « مسيرا غير مختار » « مجبور وليس بحر » فى صنع أفعاله وبناء حياته وتشكيل ملامح مجتمعه ومستقبل أمته . **ونحن اذا كنا جادين حقا فى وضع اشارات « برنامج العمل الوطنى » فى التطبيق ، فلابد لنا ، مثلا ، من توجيه عناية خاصة لنشر « القيم الفكرية » التى تؤكد على « حرية الانسان واختياره » وقدرته الحقيقية على صنع الحياة على أرضه .. وفى تراثنا الكثير جدا من الآثار الفكرية التى تزكى هذا الاتجاه ، نجده فى مدرسة المعتزلة كلها ، وعند عديد من مفكرى الشيعة الامامية ، والخوارج ، والزيدية ، ونفر غير قليل من أهل السنة . (٢) ولابد لنا من الحد والتقليل من نشر آثار التراث الفكرية التى تزكى فكر « الجبر » المؤسسة عليه فكرة « التواكل » ، بحيث يكون نشره للدراسة والمقارنة وعمل الابحاث والدراسات المتخصصة لا للجماهير . ومن ثم فلابد لنا من تخطيط علمى مستنير فى هذا الميدان ، يوقف نشر الكتب التى يعاد طبعها كى يقتنيها الناس « تبركا » بمؤلفيها ، بينما يظل تراثنا العلمى والعقلى حبيس المخطوطات والمصورات بعيدا عن أن يلعب دوره التقدمى فى بناء الانسان الجديد** . أليس شاذا ، وداعيا للتساؤل أن يستهل أحد مجامعنا العلمية نشاطه فى نشر التراث بكتاب من جزءين للامام السيوطى يهاجم العقل وثمراته ومنجزاته ، ويسفه من المنطق والفلسفة ، فى ذات الوقت الذى نتحدث فيه عن بناء الدولة العصرية القائمة على العلم وتطبيقاته ، وعلى الايمان الذى يواكب هذا العلم ويزامله ؟ ! أليس غريبا أن يفكر قطاع الدولة فى صناعة الكتاب بنشر كتاب هو بمثابة دليل سياحى الى « مقابر الابرار » فى الوقت الذى أصم فيه هذا القطاع الثقافى العام أذنيه عن نشر بعض تراث المعتزلة ، وخصوصا ما يتعلق منه بفكرة حرية الانسان فى مفهوم الاسلام ..

ان هذه الامثلة تؤكد الحقيقة التى اشار اليها [برنامج العمل الوطنى] .. **ليس كل ما قدم للانسان المصرى على انه « قيم روحية » يستحق البعث أو يستأهل البقاء ، وليس كل ما حبس عن هذا الانسان من هذه القيم الروحية يستحق ان يظل حبيسا وبعيدا عن عقل وقلب هذا الانسان .. ولا بد من وعى ثورى واستنارة فكرية تحدد ماذا نقدم للجماهير ، وماذا نقدم للباحثين المتخصصين ، فى حقل احياء التراث ، المؤسسة على فكر قيمنا الروحية ، ومعيار هذا التحديد ما أشار اليه [البرنامج] من ضرورة أن تكون قيمنا الروحية المرغوبة والمطلوبة « نبيلة » وصالحة للاسهام فى بناء الانسان الجديد ، وأن تكون نابعة « من خلال الصراع الدائم ضد القيم البالية التى فرضتها على حياتنا العلاقات الاقطاعية والرأسمالية »**

واذا كانت هذه هى القضايا الرئيسية المستنبطة من عبارة [البرنامج] حول هذه القضية الحيوية ، فان عبارة [الميثاق] تفصل الايجاز ، وتقدم فكر الثورة المصرية العربية فى هذا الميدان منسجما فى تطوره ، وذلك عندما تبرز وتلقى الضوء على عدة نقاط منها :

- قداسة حرية العقيدة فى المجتمع الجديد الذى نبنيه ..
- وان الخير والحق والمحبة يجب أن تكون أهدافنا ، لا الشر والظلم والبغضاء ..
- وأن جوهر الرسالات السماوية كان دائما وأبدا « ثورات انسانية » استهدفت تخفيف قيود الانسان والاقتراب به من تحقيق آماله .
- وأن الايمان بحرية الانسان واختياره هو من القيم الجوهرية فى الدين ، بل هو جوهر الدين ..
- وأن الطبيعة التقدمية ، ورفض النظام

---

(٢) انظر تقديمنا للجزء الاول والجزء الثانى من [رسائل العدل والتوحيد] ط دار الهلال . القاهرة سنة ١٩٧١ م

الطبقى الظالم ، هو الاقرب للرسالة التقدمية للاديان .

ان هذه النقاط هى التى يشير اليها [الميثاق] عندما يقول : « **ان حرية العقيدة** يجب أن تكون لها قداستها فى حياتنا الجديدة الحرة . ان القيم الروحية الخالدة النابعة من الاديان قادرة على هداية الانسان ، وعلى اضاءة حياته بنور الايمان ، وعلى منحه طاقات لا حدود لها **من أجل الخير والحق والمحبة** . ان رسالات السماء كلها ، فى جوهرها ، كانت **ثورات انسانية** استهدفت شرف الانسان وسعادته ، وان واجب المفكرين الدينيين الاكبر هو الاحتفاظ للدين بجوهر رسالته . ان جوهر الرسالات الدينية **لا يتصادم مع** حقائق الحياة ، وانما ينتج التصادم فى بعض الظروف **من محاولات الرجعية** ان تستغل الدين — ضد طبيعته وروحه — لعرقلة التقدم ، وذلك بافتعال تفسيرات له تتصادم مع حكمته السامية . لقد كانت جميع الاديان **ذات رسالة تقدمية** ، ولكن الرجعية التى ارادت احتكار خيرات الارض لصالحها وحدها ، اقدمت على جريمة ستر مطامعها بالدين ، وراحت تلتمس فيه ما يتعارض مع روحه ذاتها لكى توقف تيار التقدم . ان جوهر الاديان **يؤكد حق الانسان فى الحياة وفى الحرية** ، بل ان اساس الثواب والعقاب فى الدين هو فرصة متكافئة لكل انسان . ان كل بشر يبدأ حياته أمام خالقه الاعظم بصفحة بيضاء **يخط فيها أعماله باختياره الحر** ، **ولا يرضى الدين بطبقية** تورث عقاب الفقر والجهل لغالبية الناس وتحتكر ثواب الخير لقلة منهم ... »

وهكذا تطرح هذه الوثائق الثورية قضية الموقف من « القيم الروحية » النابعة من جوهر الاديان ، فتحدد طبيعتها ، على ضوء ارتباطها بطبيعة المرحلة ، وتطورها بتطور المجتمع ، وترسم الغايات المبتغاة من وراء العمل فى هذا الميدان ، وهى الغايات التى يسهم تحديدها فى تحديد مضمون هذه « القيم الروحية » .. كما تشير ، ضمنيا ، الى الوسائل التى يمكن بها وضع هذه الآمال فى التطبيق ..

بقيت قضية هامة ، تتعلق بأمر نجاحنا فى تحقيق ما أشارت له عبارة [برنامج العمل الوطنى] عن القيم الروحية ودورها فى بناء الانسان الجديد . وهذه القضية تتعلق بنظرة كل من « المفكرين الاشتراكيين » و « علماء الدين » الى هذا الموضوع ؟! فنحن لن نحقق شيئا ذا بال اذا لم نتبين الارض المشتركة بين هذين الفريقين ، خاصة فى بلد مثل بلادنا **تملك العزم على انجاز التحول الاشتراكى ، وتملك فى ذات الوقت تراثا روحيا وفكريا هو فى أساسه وجوهره طاقة خلاقة باستطاعتها الاسهام الفعال فى دفع المجتمع لتحقيق هذا الهدف المنشود .**

والامر الذى يحسم حركتنا الثورية من هذه الطاقة الحبيسة والمستكنة فى هذا التراث الفكرى والروحى هو عجز اصيبت به عناصر كثيرة فى حركتنا الفكرية والثقافية ، بعضها ينتسب الى المفكرين والمثقفين الاشتراكيين ، وبعضها الآخر ينتسب الى علماء الدين .

فمن المفكرين الاشتراكيين كثيرون ينظرون بريبة وحذر الى كل ما يمت بصلة الى «التراث» والقيم المؤسسة على فكره ومضامينه . وذلك لانقطاع الصلة بين ثقافتهم وبين كنوز هذا التراث ، ولان الصورة التى قدمت اليهم عنه هى التفسيرات الرجعية التى حاولت بها « الرجعية أن تستغل الدين — ضد طبيعته وروحه — لعرقلة التقدم » .. كما يقول الميثاق .. ولغياب الوجه المشرق لصفحات هذا التراث عن ذهن هؤلاء المفكرين والمثقفين ، وبعده عن أيديهم ..

ومن علماء الدين من يلزم موقف الرفض والمقاطعة — على الاقل بقلبه — لاية محاولات تبذل لايجاد أرض مشتركة مع الفكر الانسانى التقدمى ، ومع الاشتراكية وتطبيقاتها ، وينظر بريبة لاى حديث عن دور للقيم الروحية فى هذه المجالات ، ويحسب أن هدف الآخرين لا يعدو محاولة **الاستفادة** من تأثيرات الدين وقوته المحركة لحساب أغراضهم التى لا صلة لها بأغراض هذا الدين واهدافه ..

والموقف الامثل الذى نعتقد به يرى بخطأ كل من هذين الموقفين اللذين يرى أصحابهما فى « القيم الروحية » وفى « الفكر الاشتراكى » ما رآه « كبلنج » من « أن الشرق شرق والغرب غرب ، ولن يلتقيا » .. **فهناك بالقطع أرض مشتركة حقيقية وواسعة وثابتة بين تراثنا الروحى والدينى وبين فكرنا المعاصر عن التقدم الاجتماعى ، والاشتراكى منه على وجه التحديد ..**

الفكر الاشتراكى والتراث

والامر الذى يبرىء قولنا هذا من شبهة « حديث المناسبات » أو القول المبنى على « المجاملات أو المجازات » أن صلات الجوانب المشرقة والقيم الثورية فى التراث بالفكر الاجتماعى التقدمى ليست اكتشافا حديثا ، ولا هى بالامر المخترع لايجاد صلات مفتعلة بين تيارات منقطعة الصلات . ففى التراث الانسانى للفكر الاشتراكى العلمى موقف واضح وحاسم يقف فيه الاشتراكيون مع التراث التقدمى للمجتمع الذى يناضلون فيه .. وهذا الموقف ليس خاصا بمدارس الاشتراكيين الديمقراطيين ، بل لقد سبقهم اليه الماركسيون .. « فلينين » عندما كان يناقش التيارات البورجوازية الصغيرة المنحرفة ، ومنها تيار « الشعبيين » حدد أن الماركسيين

يجب أن يقفوا الى جانب التراث الذى صنعه كل الرجال المستنيرين ، وقال : انه « حين يدور الحديث عن التراث الذى صار الى معاصرينا ، يجب التمييز بين تراثين اثنين : احدهما تراث المستنيرين بوجه عام .... وثانيهما تراث الشعبيين ... » (٣) ، كما حدد أن الماركسيين « هم حراس للتراث اكثر انسجاما بكثير من الشعبيين ، أكثر أمانة بكثير ، وهم لا يجحدون التراث » ولكنهم « لا يحفظون التراث كما يحفظ القيمون على الأرشيفات الاوراق القديمة » (٤)، ولكنهم يتلقون هذه التقاليد عن هؤلاء الاسلاف بروح معاصرة مستنيرة نقادة تتبنى ايجابياتها وترفض سلبياتها وتقوم « بتطهير خيرة هذه التقاليد » (٥) وهو يعتبر أن الحديث عن أن الماركسيين الروس « يجحدون التراث ، وانهم قطعوا كل الصلة بخيرة تقاليد القسم الافضل، الاكثر تقدما ، من المجتمع الروسى » يعتبر أن هذا الحديث داخل « فى عداد التلفيقات السيئة ...الواسعة الانتشار ... » (٦)

وبعد « لينين » و « تان مالاكا » جاء « **سلكان جاليف** » الذى اختلف مع « **ستالين** » اختلافا جذريا حول قضايا ذات صلة وثيقةبتقدير كل منهما للدور التقدمى الذى باستطاعة التراث الاسلامى أن يلعبه فى حياة المجتمعات المسلمة ودفع عجلتها فى طريق التقدمالاجتماعى .. فلقد أبصر « **جاليف** » فعالية هذا الدور ، وتعرض بسبب موقفه هذا لاضطهاد شديد على يد ستالين (٧) ، ومع ذلك ظل مصمما على رأيه . واليوم يعاد طبع مؤلفات **جاليف** على نطاق واسع فى الاتحاد السوفيتى نفسه .

ومن المعاصرين لنا كثيرون ، يمثل المفكر الفرنسى « **روجيه جارودى** » اتجاههم الفكرى الذى يرى أن للفكر الاسلامى والتراث التقدمى فى هذا التراث دورا لا يزال مطلوبا ومنتظرا فى اثراء الفكر الاجتماعى التقدمى المعاصر ، بل فى اثراء الماركسية نفسها ، وانقاذها من أن تصبح نظرية « ريفية تفقد قدرتها على النمو اذا هى اكتفت بالحوار مع نفسها » واهملت الحوار مع مبدعات الانسان» .. وجارودى يعتبر أن التراث الاسلامى فى مقدمة هذه الابداعات ، بل يحدد ان المفكر والمثقف، « ذا الثقافةالاسلامية يستطيع أن يصل الى الاشتراكية العلمية بدءا من منطلقات أخرى غير سبل « هيجل » أو « ريكاردو » أو « سان سيمون » .. فلقد كانت له هو الآخر اشتراكيته الطوباوية ممثلة فى حركة القرامطة ، وكان له ميراثه العقلانى والجدلى ممثلا فى ابن رشد ، وكان لديه مبشر بالمادية التاريخية فى شخص ابن خلدون . وهو على هذا التراث يستطيع أن يقيم اشتراكيته العلمية . وهذا لا يمنعه ابدا أن يتمثل تراث ثقافتنا ، تماما كما ينبغى لنا نحن أن نتمثل تراث ثقافته .. » (٨)

اذن فتراث الاشتراكية العلمية يقطع بأن للفكر الاسلامى بالذات دورا ، لا كمجرد أداة ، كما يحسب البعض ، وانما كمصدر ومنطلق ، وكمحرك وفاعل ، وكجهد فكرى وعلمى لابد أن يعطى ويؤثر ويتفاعل ، لان بنيته العقلانية التقدمية تعطيه الصلاحية والاهلية كى يزود الانسان المعاصر ، والانسان الاشتراكى بالذات بزاد لابد منه لهذا الانسان الجديد وهو يبنى مجتمعه الجديد ..

فهناك اذن أرض مشتركة بين الفكر الاشتراكى ، بمفهومه العلمى ، وبين التراث الاسلامى بقيمه الروحية التقدمية ، وقيمهالفكرية المتطورة .. وهذه الارض حقيقية ، وواسعة ، وثابتة ... وهى لذلك صالحة كى يجرى من فوقها الحوار البناء الذى يقضى الى قيام فكر اسلامى يواكب قضايا العصر ويدلى فيها برأى ، يستوعب فيه احتياجات هذاالعصر ومقتضياته ، ويستشرف فيه المستقبل المأمول ، منطلقا الى ذلك من اكثر صفحات تراثنا وقيمنا الروحية اشراقا وتمجيدا للانسان ..

وهناك اذن مجال واسع للدراسة التى تضع التفاصيل لتطبيق ذلكالهدفالذى حدده [برنامج العمل الوطنى] لدور القيم الروحية النبيلة فى بناء انساننا الجديد ، فى دولتنا الجديدة عندما قال : « **ان بناء الدولة الجديدة لا يمكن أن ينجح بدون بناء الانسان الجديد ... ان تكوينالانسان الجديد لا يمكن أن يتم بمجرد الوعظ والارشاد ، وخاصة اذا كان الواعظ بعيدا عما يعظ به ، وانما يتم من خلال القدوة ، ومن خلال التمسك بقيمنا الروحية النبيلة ، ومن خلال الصراعالدائم ضد القيم البالية ، التى فرضتها على حياتنا العلاقات الاقطاعية والرأسمالية ...** » .

---

[٣] مختارات لينين . مجلدا جـ ١ ص١٣٦ . طبعة موسكو العربية .
[٤] المصدر السابق . ص ١٣٥
[٥] المصدر السابق . ص ١٤٥
[٦] المصدر السابق . ص ٩٧ ، ١٤٤
[٧] الطليعة . دراستنا عن جمالالدين الافغانى عدد ابريل سنة ١٩٦٩م ص ١٣٠
[٨] روجيه جارودى .[ماركسية القرنالعشرين]. ص ٦٠ ، ٩٤ ترجمة نزيهالحكيم . ط بيروت لسنة ١٩٦٧ م .

القيم المسيحية وقضية الاشتراكية

القمص جرجس متى

« ان بناء الدولة الجديدة لا يمكن أن ينجح بدون بناء الانسان الجديد » .

هكذا يقول برنامج العمل الوطنى الذى قدمه الرئيس انور السادات الى المؤتمر القومى فى ٢٣ يوليو ١٩٧١ .

والانسان فى حقيقة الامر هو الهدف من الرسالة الدينية . ومن هنا حماس المتدين لكل ما من شأنه رفعة الانسان وتقدمه .

ان كل ما يهدر مكانة الانسان فى المجتمع هو عدوان على الدين ، واهدار لمبادئه .

والدين شيء عميق الجدور فى النفس المصرية . واسادت هده النفس أن تجعل لكل ما يجرى على مستوى الحياة المنظورة بعدا اخر - يربط بين ما هومنظور وما هو غير منظور . ومن هذا العمق الخفى استمد المصرى قيما وقوى جعلته يتجاوز مراحل التاريخ فى صلابة وصبر ويقين بمجيء الغد الافضل .

الدين والحضارة

وفى مصر القديمة ارتبط الدين بالحضارة . يكفى أن نعلم أن أوزيريس أعظم الالهة المصريين هو الذى علم أهل بلاده الزراعة والتمدن وسن لهم القوانين . وبعد أن اتم ذلك انتقل الى البلاد الشرقية المجاورة . ما وراء سيناء ، بنقل اليهم رسالة الحضارة التى نبتت على ضفاف النيل . وكان يستميل هذه الشعوب بالاقناع والتهذيب ويسحرهم بجميع الوان الغناء والموسيقى .

واتصلت مصر بالاديان السماوية الثلاثة أوثق اتصال : موسى - يقول عنه الكتاب المقدس انه تهذب بكل حكمة المصريين . والى مصر لجأت العذراء القديسة وابنها يسوع .

وفى مصر كان الازهر زمانا طويلا مصدرا للمعرفة الاسلامية .

واعتاد المصريون التعايش والتعاونفى الحياة العريضة - دون أن يؤثر على ذلك الاختلاف فى المعتقد الدينى . وفى وقت الازمات القاسية كان هذا التعايش يتبدى وحدة متينة يندهش لهـا المراقبون من الخارج .

الوحدة .. مع التنوع

والحقيقة ان هذه الوحدة مع التنوع ظاهرة حضارية لم تنل بعد حظها المناسب من الدراسـة والتعمق . ومن الممكن القول بأن المصرى وهو ينظر الى الحياة نظرة سلامية تقصد أول كل شيء الى صنع الحياة ، لا يقحم فى هذه الحياة الا ما يساهم فى بنائها ودعمها ودفعها الى المضى نحو غايتها . هىنظرة عملية واقعية حين تتأمل الدين تستنبط منه القيم والقوى التى تبنى الحياة وتربط بين البشر وتزيد تعاونهم . ومن هنا كان الدين وقت الازمات فى مصر عامل توحيد لا عامل فرقة . لان

القمص جرجس متى : مدير عام الديوان البابوى للاقبـاط الارثوذكس

الجميع كانوا يواجهون خطرا واحدا فكانوا يعبئون كل قواهم المادية والمعنوية لمواجهته · ومن تكرار التعرض للازمات والترابط والتعبئة لمواجهتها ومن كثرة ما الهمهم الدين فى هذه الازمات من عناصر القوة ، أصبح الالتفات من جانب المصرى الى دينه ، يتجه الى القيم والقوى التى تربطه بأخيه وندعم البناء العام ·

التحدى الذى يواجهنا

وان بلادنا اليوم لتتعرض لتحد تاريخى ، يتطلب أكثر من أى وقت مضى فى تاريخها الوحدة واكتمال التعبئة · والتحدى الذى نواجهه متعدد الميادين ـ داخليا ـ وفى ميدان المعركة ، وعلى الصعيد العالمى ·

أما فى الداخل فامامنا تحدى التخلف وتحقيق العداله · وفى هذا الميدان يلزمنا الدين بالتغلب على التخلف ، وبالغاء الاستغلال · لانه اذا كان الانسان هو أكرم كائن على هذه الارض ـ صورة الله ومثاله كتعبير الكتاب المقدس ـ فلا يليق مطلقا أن يعيش فى مستوى لا يتفق وكرامته ·

واذا كان عقل الإنسان هو أسمى ما فى كيانه فعليه أن يستخدم هذا العقل ـ أن يستخدم العلم وكل انجازاته ، ليرفع مستوى حياته · ان اقامة المدارس ومحو الامية واعادة بناء القرية المصرية ونمو مداخن المصانع كالاشجار النخيل المثمرة وامتداد الخضرة على صحارينا واضاءة ليل الفلاح بالكهرباء ·· هذه كلها حين ينجزها الانسان فانه فى حقيقة الامر يقوم بعمل دينى ـ لانه بهذا يكرم الانسان الذى تهدف القيم الدينية الى تمجيده واعلاء كرامته ·

الدين يرفض التخلف

واذا كان التخلف أمرا يرفضه الدين ، فان الاستغلال شىء يحرمه ويهدد صانعيه ومؤيديه بأقسى الانذارات · ولكم أرجو أن نتأمل طويلا عبارات القديس يعقوب الرسول وهو يخاطب الاغنياء ويكشف لهم عن السر الكامن وراء الاموال التى جمعوها :

« قد كنزتم ···

« هوذا أجرة الفعلة الذين حصدوا حقولكم ـ تلك الاجرة التى بخستموها (أى انقصتموها) تصرخ · وصياح الحصادين قد دخل الى أذنى رب الجنود » ·

الرسول هنا يعلن فى مواجهة الاغنياء أن تراكم كنوزهم مصدره البخس فى أجرة الفعلة ·

ولكم أود أن نستذكر صورة المجتمع المسيحى الاول ، كما يصفه سفر أعمال الرسل :

« وجميع الذين آمنوا كانوا معا ـ وكان عندهم كل شىء مشتركا · والاملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع بحسب ما يكون لكل واحد احتياج ··

« ولم يكن أحد يقول ان شيئا من امواله له · بل كان عندهم كل شىء مشتركا ·· اذ لم يكن فيهم أحد محتاجا ـ لان كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ·· فكان يوزع على كل واحد كما يكون له احتياج ··· » ·

رؤية المسيحى لدينه

هذه هى الرؤية التى يجب أن تبرز أمام المتدين المسيحى حين يفكر فى دينه ·

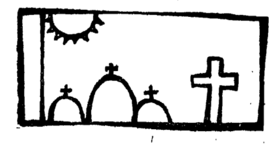
وهى رؤية عامة فى كل دين · لان الانسان عظيم القدر جدا لدى كل من يؤمن بالله وبرسالته الى البشرية · والاستغلال وكرامة الانسان ضدان لا لقاء بينهما ·

وفى ميدان المعركة ـ تمتحن القيم الحضارية المصرية أمام العالم كله · ففى مواجهة الوحدة الحضارية التى قامت على ضفاف النيل ـ مع التنوع ، يقف النظام العنصرى المتعصب · وبين الاثنين تقوم المعركة ·

ان الصهيونية مبدأ لو عمم لسادت الفرقة بين البشر · ولاستمد كل فريق من دينه عوامل الانقسام لا الترابط ·

الصهيونية تعلى اليهودى على الانسان · أما فى مصر فلم يكن الامر قط على هذا النحو · لقد أبصر المصريون جميعهم الانسان من خلال أديانهم ·

وهكذا تدور المعركه بين الطرفين · ومن أجل خير الانسان فى كل مكان يجب أن تنتصر مصر ، لان انتصارها يحمل رسالة الحضارة والتمدن وامكانية الحياة دون عنصرية أو تعصب أو تفرقة بين البشر بسبب الجنس أو العقيدة أو الدين ·



ان العالم كله اليوم يحتاج الى مصر • وهذه الحقيقة ليس مصدرها الفخر القومي وحسب • لان القيم التى ازدهرت علي ضفاف النيل يحتاج اليها العالم • ان الوحدة فى التنوع ، ورسالة السلام وكرامة الانسان هذا كله زرع فى مصر ـ علينا ان نحافظ عليه وان نمكن له أسباب النمو فى كل مجالات حياتنا • لتستمر مصر مصدر رسالة الحضارة والتقدم الحقيقيين •

هذه المعانى جميعا ركزها الرئيس أنور السادات فى عباراته التى تحدث بها الى رجال الدين الاقباط وهم يزورونه قبيل الاستفتاء على رياسة الجمهورية ، قال لهم :

« الوطن يجتاز محنة • ويحيط بنا الاعداء • وأول سلاح يحاولون ان ينفذوا اليه من بيننا هو سلاح الفرقة • فلنكن يقظين • فنحن شعب واحد ـ هكذا عشنا وهكذا تعلمنا وهكذا سنمضى ان شاء الله برسالة زعيمنا وبما تركه لنا من مبادىء •

« لقد قرأت تاريخ بلدى ••

« واليوم وفى حضور قداسة البابا أقول : لقد آن الاوان لكى تأخذ كنيسة الاسكندرية مكانها كما كانت عبر التاريخ فى العالم المسيحى •

« لقد كانت منارة فى عالم المسيحية قبل كنائس كثيرة ••

« وانى أثق أيضا أنه بادراككم لمعركتنا القومية ستحافظون على وحدتنا الوطنية حتى نخلص وطننا من عدونا •• حتى نعود للبناء ونسعد بمستقبل زاهر •• »

وان جماهير الشعب فى وطننا الحبيب مطالبة اليوم بأن تضع هذا كله موضع التنفيذ •

ان الوحدة الوطنية تتطلب مزيدا من التعارف الحضارى • فالتراث الحضارى القبطى وثيق الصلة بالتراث الاسلامى • بل انهما فى حقيقة الامر ثمرة واحدة للنفس المصرية وامتداد لعبقريتها • هذه الحقيقة تحتاج الى مزيد من التوعية على الصعيدين الثقافى والشعبى • ومن خلال الموسيقى والالحان والفنون التشكيلية والتراث الشعبى فى مختلف صوره ـ من خلال هذا كله حين يعرض على صعيد الوحدة وانطلاقا منها سيكون له أثره الفعال فى تدعيمها •

وفى كل مجالات العمل الوطنى على رجال الدين أن يربطوا القيم الدينية بكل الجهود التى تبذل من أجل التقدم فى بلادنا •

فالدين يريد أن « تزدهر شخصية الانسان وثقافته وتتنوع معارفه وتنطلق قدراته » •

والدين الحقيقى النقى يقف فى اصرار « ضد القيم البالية التى فرضتها على حياتنا العلاقات الاقطاعية والرأسمالية » •

والدين يدعو الى « تقديس العمل » والى « حب الوطن »

وهو يقف « بشدة ضد الجشع والرشوة والطفيلية والوشاية والكذب ، ضد السلبية والتملق والتشهير بالناس والادعاء عليهم بمالم يقولوه أو يفعلوه » •

وهو يريد « ان نربى فى أنفسنا حب الناس والثقة بهم ، والايثار والتشدد مع النفس ، والوقوف مع الحق ، وحسن الإستماع الى الغير ، والثقة بالنفس بغير غرور ، وتحمل المسئولية » •

هذه القيم التى وردت فى برنامج العمل الوطنى وصايا يتعين على المتدين أن يأخذ نفسه بها بكل تدقيق • وعلى رجل الدين فى كل مجال أن ينبه من يعلمهم اليها حتى تصبح جزءا لا يتجزأ من أسلوب الحياة اليومية لكل فرد على هذه الارض العظيمة •

واننا واثقون من أن الحياة التى ازدهرت فى بلادنا لن تستطيع قوة على الارض أن تحول دون تقدمها ومواصلة مسيرتها الحضارية من اجل الانسان فى مصر ، ولخير البشرية فى كل مكان •

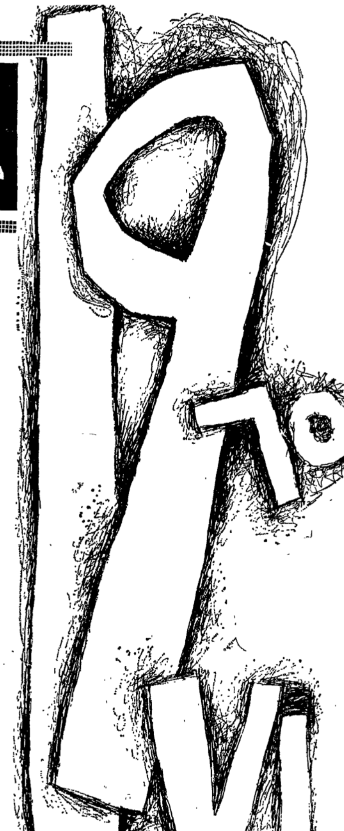
الى اصدقاء الطليعة

فى بريد الطليعة اكثر من رسالة عبر فيها عدد من القراء والاصدقاء عن مشاعرهم النبيلة بمناسبة استئناف الزميل لطفى الخولى عمله رئيسا لتحرير المجلة •

ان اسرة التحرير ولطفى الخولى اذ يعتزون بمشاعر القراء والاصدقاء يودون فى الوقت ذاته أن يعبروا عن شكرهم وامتنانهم العميق •

اسرة التحرير

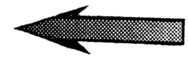
٨٠ شهرا من حياة الطليعة



فى العـــدد المـاضى أكملت « الطليعة » شهرها الثمانين ، ورأت أن من واجبها نحو قارئها ونحو نفسها أن تستعرض ما انجزته من أعمال حول أهم القضايا الفكرية التى تهم وطننا .

ومن ثم فقد قدمت فى العدد الماضى عرضا عاما لما تردد على صفحاتها من مواقف واتجاهات حول قضيتين هامتين هما « حركة التحرر الوطنى » و « القضية العربية »

وفى هذا العدد تقدم « الطليعة » عرضا لمواقفها تجاه « القضية الفلسطينية » ملحين على دعوتنا للاصدقاء أن يستعرضوا معنا من خلال نظرة نقدية مواقفنا هذه كسبيل لمجابهة مسئولياتنا تجاه حركة الثورة العربية بصورة أكثر فعالية وأكثر ايجابية .



المواقف والاتجاهات

(العرض العام)

القضية الفلسطينية

عرض : د. رفعت السعيد

■ منذ ما قبل عدوان ١٩٦٥، والطليعة تهتم — الى حد كبير بدراسة الابعاد المختلفة للقضية الفلسطينية ، سواءبدراسة تاريخ المشكلة الفلسطينية أو أحداثها المعاصرة ، أو بدراسة الايديولوجية الصهيونية ومدى الخطر الذى يمثله الكيان الصهيونى المتمثل فى اسرائيل على حركة التحرير العربية .

■ وبعد عدوان ١٩٦٧ — كانت هناك — بطبيعة الحال مرحلة جديدة ذخرت فيهاصفحات « الطليعة » بدراسات ومقالات وبحوث عديدة شملت كافة جوانب القضية الفلسطينية سواء من الناحية التاريخية أو السياسية أو العسكرية وقد ركزت « الطليعة » اهتمامها على « المقاومة » باعتبارها أمل البعث الفلسطينى وهى لم تكتف بادارة حوار مستمر مع مختلف فصائل المقاومة الا باتاحة الفرصة لمثلى مختلف المنظمات بالتعبير عنوجهة نظرهم علىصفحاتها، لكنها حاولت — أيضا — أن تطرح أمام رجال المقاومة مقترحات وتصورات محددة بشأن خطة العمل الفدائى واستراتيجيته .

قبل العدوان

ففى مايو ١٩٦٥ نشرت « الطليعة » دراسة تاريخية استعرضت بشكل واف الوقائع الهامة لتطورات القضية الفلسطينية تحت عنوان « فلسطين منذ زيارة مونتيفيديو ١٨٤٩ حتىحركة التحرير الفلسطينية ١٩٦٥ » وقد أعد هذه الدراسة الكاتب الفلسطينى الاستاذ خيرى حماد

وفى عدد مايو ١٩٦٦ قدمت الطليعة لقرائها دراسة متكاملة عن الصراع العربى الاسرائيلى متناولة الابعاد المختلفة لهذا الصراع متيحة الفرصة لقارئها لتتبع مختلف القضايا المتعلقة بهذا الصراع .

فقد تناولت هذه الدراسة مقالات حول :

- جذور وابعاد الصراع العربى الاسرائيلى — لطفى الخولى .
- الوجود الاسرائيلى فىالمخطط الاستعمارى — خيرى حماد .
- الجذور التاريخية والطبقية لعنصريةشعب الله المختار — ميشيل كامل .
- اقتصاديات اسرائيل واجهة مدنيةلمؤسسات عسكرية — سعد زهران .
- أزمة اسرائيل من الداخل — مجدى فهمى
- الهستدروت لافتة نقابية لمؤسسة راسمالية — عبد المنعم الغزالى .
- القنبلة الذرية والصراع العربى الاسرائيلى — هشام صلاح الدين .
- اسرائيل وافريقيا — مهدى بن بركة .
- قضية فلسطين اليوم . عربيا وعالميا — د. برهان الدجانى .
- ثورة يوليو فى مواجهة التحالفالاستعمارى الصهيونى .

وفى دراسته حاول « **لطفى الخولى** » انيحدد صورة التناقضات التى تحيط العلاقة بين العرب واسرائيل مؤكدا بوضوح أنها « لاتصدر عنموقف عنصرى » مشيرا الى روح الاخوة التى سادت مع اليهود المصريين والى البيان التاريخى الذى أصدره حاييم ناحوم افندى حاخام اليهودالمصريين غداة العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ والذى قال فيه « ان اليهود المصريين جزء لايتجزأ

من الامة المصرية وانهم يتمتعون بكل مايتمتع به المواطن المصرى الصالح ، وعلى ذلك فليس لاية دولة اجنبية سواء أكانت هذه الدولة اسرائيل أو غيرها أية صفة للتحدث باسمهم » .

اما « خيرى حماد » فقد أشار فى دراسته الى العلاقة المصيرية بين الصهيونية والاستعمار وذلك « لان الصهيونية نفسها حركة استعمارية تقوم على استعمار الارض واستيطانها بعد اخراج أهلها منها ، ولانها فى واقعها تؤلف جزءا لايتجزأ من الراسمالية العالمية التى تعتبر الامبريالية أعلى مراحلها » .

وتحدث « سعد زهران » عن الطابع المميز للتكوين الاسرائيلى فقال « والفلاح الاسرائيلي الذى يقيم فى مستعمرة من المزارع المحصنة ليس فلاحا مثل أى فلاح آخر ، وحتى ولو كان يفلح الارض ويجنى المحاصيل ويرعى الماشية والأغنام ، وانما هو كائن عسكرى أولا وقبل كل شىء ، فهو لم يجلب من أقصى بلاد العالم ولم ينفق عليه هو وكل واحد من أمثاله الاف عديدة من الدولارات لكى يعيش فلاحا يزرع ويحصد وينجب البنين والبنات ، وانما جىء به ليحارب ويموت ، جىء به ليقتل ويقتل دفاعا عن مصالح من دفعوا ثمن مجيئه .. ومولوا اقامته وأقاموا دولته » .

بل ان « الطليعة » تكاد تتنبأ بوقوع العدوان وتستشعر مخاطره صراحة فى مقال « مجدى فهمى » الذى يطرح التساؤل التالى « ان اسرائيل تعانى أزمة اقتصادية ، وانفجارات عنصرية ، ويأس متزايد من جانب غالبية شعبها تجاه أحلامه السابقة فى أرض الميعاد ، فكيف تواجه هذا الوضع بكل مايحمله من اعاصير وانفجارات ؟ »

واجابة عن هذا التساؤل يقدم المقال وجهتى نظر كانتا تطرحان داخل السلطة الاسرائيلية ذاتها .. « الزمن ليس فى جانب اسرائيل هكذا يعطى جولدمان اجابته عن هذا السؤال فى تصريحه فى ديسمبر ١٩٦٥ مؤكدا بهذا اتجاه بن جوريون الداعى الى الحرب كحل للازمة » .

أما الاتجاه الثانى بزعامة أشكول فيقول « الحرب ليست فى صالح اسرائيل » .

فأى الاتجاهين سيسود ؟ ، تحاول «الطليعة» أن تتنبأ بما سيحدث فتقول « واذا كانت السياسة الامريكية فى المرحلة الراهنة تساند اتجاه اشكول فان بن جورين سيكون بلا شك فارس الامل فى المستقبل القريب . وبغض النظر عن قيمة الانتخابات الاخيرة بكل ماأسفرت عنه من نتائج لصالح اشكول ، فالقوة الحقيقية المسيطرة فى اسرائيل هم العسكريون ، وهؤلاء يقفون من وراء « بن جوريون » وينتظرون الوقت الذى تراه القوى الاستعمارية مناسبا » .

ولم يطل انتظار العسكريين الاسرائيليين ، وكان عدوان يونيو ١٩٦٧ .

وبعد يونيو ١٩٦٧ كان من الطبيعى أن تبذل « الطليعة » الكثير من اهتماماتها للقضية الفلسطينية .

نقطة البدء أن نفهم العدو

وكانت نقطة البدء أن ندرس عدونا ، تاريخه ، منطلقاته الفكرية ، حقيقة القوى المؤثرة فى جبهته ، علاقات القوى التى تحكم تصرفاته .. كان ذلك كله ضروريا حتى نستطيع أن نعى حجم المسئولية التى تواجهنا ونحن نسعى للانتصار على مخططه ..

وفى هذا المجال قدمت « الطليعة » الكثير من الدراسات .

فقدمت على سبيل المثال دراسة عن نشأة الحركة الصهيونية وتاريخها بعنوان « عالم الصهيونية » وقد أعد هذه الدراسة الهامة المستشرق الفرنسى « مكسيم رودنسون » (١) .

وفى نفس العدد قدمت « الطليعة » رؤية مصرية لتاريخ الصهيونية للدكتور « وليم سليمان » بعنوان « نقطة البدء فى مواجهة الصهيونية » .

وبمناسبة زيارة بعثة راسل لتقصى الحقائق حول جرائم العدوان الاسرائيلى قدمت «الطليعة» دراسة شرحت فيها حقيقة الحركة الصهيونية ومنطلقاتها الفكرية ، وغاياتها وأهدافها الحقيقية وكان عنوان هذه الدراسة « الصهيونية أم الحركة العربية » (٢) .

ثم وجهت « الطليعة » نداء الى « اللجنة التحضيرية لندوة الاشتراكيين العرب » تحدد فيها طبيعة المواجهة مع الصهيونية واسرائيل ، ذلك أننا انما ندرس تاريخ الصهيونية كما تحدد آفاق مواجهتها فى المستقبل .. وكى نحدد طبيعة التناقض القائم بيننا وبينها .

« فالتناقض المشتعل منذ عشرينيات هذا القرن بين القومية العربية — بمراحل تطورها المختلفة — وبين الصهيونية [لا اليهودية] — بمراحلها المختلفة كذلك — هو نوع من التناقض العدائى الذى لاسبيل لحياة أى منهما — فعليا — مع الاخر على نفس الارض . فكل منهما يريد — لاسباب مختلفة — السيطرة على نفس الارض ومصيرها دون منازع من الاخر .»

[١] مكسيم رودنسون — اغسطس ١٩٦٧ م
[٢] اكتوبر ١٩٦٧

اننا لانستطيع أن نوفق بين الماء والنار فى وعاء واحد . أن حل التناقض بينهما لايتم فعليا الا بتبخير « كل الماء » أو اخماد « كل النار » .

ولعل حرب يونيو ١٩٦٧ قد أغرقت التناقض بين القومية العربية والصهيونية حتى قمة رأسه فى الدم ... كما انها اكدت بصورة فعلية وعميقة ، طبيعة هذا التناقض ، ومفترق الطرق الذى يواجه الامة العربية ، وسذاجة وسرابيه مايسمى بالبديل الثالث أو الطريق الثالث لحل التناقض » (٣) .

اسرائيل من الداخل

وبعد ثلاث سنوات من العدوان عادت « الطليعة » لتركز الاضواء من جديد على اسرائيل من الداخل فى محاولة لتفهم حقائق الصراعات الداخلية فيها وأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية وقد حددت هذه الدراسة ملامح الاوضاع الجديدة داخل اسرائيل بعد العدوان فأشارت الى تفاقم الأزمة الاقتصادية ، والى تساقط الاقنعة التى كانت الصهيونية قد نجحت فى أن تغطى بها وجه وليدها اسرائيل وكيف ان اسرائيل قد ظهرت أمام العالم على حقيقتها معتدية على حقوق الغير مستندة فى الاساس الى الاستعمار ومساعداته » (٤)

ولقد حاولت « الطليعة » أن تتتبع كل رأى جديد فى هذا الصدد وأن تخضعه للدراسة والتحليل ، وعندما قدم « **جولدمان** » تصورا جديدا لدور اسرائيل فى المنطقة ولطبيعة علاقاتها مع العرب .. قال فيه « .. وفى ظل القواعد الطبيعية للحياة الدولية ، لاجدال فى أن دعوى العرب لها معناها وجوهرها ، ومن الحماقة وعدم الانصاف انكار مبرراتها . فقد صرح دكتور حاييم وايزمان مرارا بأن الصراع العربى — اليهودى بشأن فلسطين هو صدام بين حقين وليس بين حق وباطل . وهذا مايجعل الصراع مركبا وحادا .

وقال فيه أيضا « فلا زال العالم العربى ينظر الى اسرائيل كجسم غريب فى قلبه ويرفض الاعتراف بوجودها .. هذا الشعور يتزايد مع كل انتصار اسرائيلى جديد كتعويض عن شعور العرب بالمهانة والقصور . ولا يعدو أن يكون سخفا الامل فى فرض السلم على العالم العربى سواء بضغط القوى الكبرى أو بانتصار اسرائيلى جديد . والتاريخ يثبت أن السلم الذى يفرض فرضا لايدوم طويلا حتى ولو اضطر الشعب المهزوم الى قبول هدنة معينة بقوة السلاح » .

وقد أوردت « الطليعة » النص الكامل لدراسة « جولدمان » هذه والتى خلص منها الى ضرورة أن تبحث اسرائيل عن صيغة جديدة لبقائها فى المنطقة ودعا الى « تحييد » اسرائيل تحييدا كاملا .

وتعليقا على آراء «جولدمان» قالت «الطليعة» « ان ظاهرة جولدمان التى طغت على سطح الحركة الصهيونية العالمية فى هذه الايام تستحق من المفكرين العرب الاهتمام وتلزمهم باليقظة كل اليقظة . ان « جولدمان » يعزف هذه الايام على وترجديد « ضرورة التفاهم بين العرب واسرائيل » وعن « حل سلمى » لكن جولدمان يظل بالمبادىء التى ينطلق منها صهيونيا حتى النخاع يدين بنظرية « الشعب المختار » ذى « التاريخ الفريد » وصاحب الحق فى فلسطين (٥) .

ثم أعقبت « الطليعة » هذا التعليق بثلاث مقالات تدرس كل منها جانبا من جوانب فكر « جولدمان » وقد وصفت أحدى المقالات هذا الفكر بأنه « حل لمشكلة اسرائيل وليس لازمة الشرق الاوسط (٦) . أما المقال الثانى فقد أكد « أن القانون الدولى لايعرف حيادا لدولة عدوانية» (٧) .

وقد تناول المقال الثالث فكر جولدمان بالدراسة على ضوء معطيات تاريخ الحركة الصهيونية نفسها ، وخلص من هذه الدراسة الى أنها « رؤية قديمة فى ثوب عصرى » (٨) .

ولم تكتف « الطليعة » بمحاولة نزع الاقنعة عن الايديولوجية الصهيونية ، بل حاولت ايضا نزع « القناع » عن وجه اسرائيل كاشفة دورها كعميل للاستعمار فى أرض المنطقة ..

وفى هذا الصدد قدمت « الطليعة » عددا وافيا من الدراسات والمقالات ..

فحول علاقة اسرائيل بالمانيا الغربية نشرت « الطليعة » مقالا بعنوان « حلف بون — تل أبيب » وريث النازية والعدوان ، قالت فيه « فوراء التستر بضمير أوربا المثقل باضطهاد النازى لليهود . ووراء خدعة التكفير عن ذلك الاضطهاد البشع ، أطلقت الطغمة العسكرية الحاكمة فى بون ستارا كثيفا من الدخان امام دعمها السياسى والاقتصادى والعسكرى لاسرائيل ، ويحكم تلامذة الفكر النازى الحاكمين فى بون فى دعمهم لاسرائيل ، ضرورة أن يحتفظوا لانفسهم بموضع

---

[٣] لطفى الخولى — افتتاحية — فبراير ١٩٦٨
[٤] يونيو ١٩٧٠
[٥] اغسطس ١٩٧١
[٦] د. اسماعيل صبرى عبد الله — اغسطس ١٩٧١
[٧] د. جمال العطيفى — العددالسابق
[٨] د. وليم سليمان — العددالسابق

لتدم في القاعدة العسكرية التي أعدها الاستعمار العالمي للعدوان على ثورة التحرر العربي أملا في تحقيق أطماع فشل هتلر في تحقيقها من قبل (٩).

وحول علاقة اسرائيل بالمخطط الامبريالي بشكل عام ودورها في تنفيذه كتبت الطليعة تقول « ان اسرائيل تمثل من وجهة نظر الاستعمار العالمي حلا موفقا لعدد من مشاكله .. فهي قد أتاحت الفرصة لايجاد حل استعماري لمشكلة أنشأتها الرأسمالية وعمقتها النازية وهي مشكلة العداء لليهود والسامية .. »

« ولكن الوجه العنصري الصهيوني لاسرائيل ليس سوى جزء من استثمارات الاستعمار في اقامة هذه الدولة ، والوجه الاخر لاسرائيل هو استيطان دولة «أوربية الطابع» متفوقة تكنولوجيا في قلب العالم العربي ، قادرة على ممارسة دور فعال في مناهضة حركة التحرير العربيسة بل وحركة التحرير في أرجاء مختلفة من افريقيا وآسيا » (١٠)

لكن « الطليعة » كتبت في افتتاحيتها في عدد تال تقول « ورغم ان الولايات المتحدة لاتزال بحكم مصالحها وسياستها الخارجية ، هي الحليف القوى لاسرائيل ومنبع ترسانتها العسكرية والتبرعات والمساعدات المالية والاقتصادية ، والمنبر الاساسي للدعاية والدبلوماسية الصهيونية الا أن المراقب يستطيع أن يلحظ أن جرعات التقوية العسكرية والمادية والمعنوية لاسرائيل محكوم عليها موضوعيا بالهبوط النسبي حاليا » (١١) .

ومع تطورات الاحداث المتلاحقة عادت الولايات المتحدة لتضاعف من شحنات أسلحتها لاسرائيل وعادت الطليعة لتكشف الدور الحقيقي للولايات المتحدة في مساندة اسرائيل وتشجيعها على العدوان .

اسرائيل .. والمعسكر الامبريالي

كذلك فقد كشفت « الطليعة » في اكثر من مناسبة الدور الذي تلعبه اسرائيل كشريك في المخطط الامبريالي العالمي ، وعن علاقات اسرائيل بالانظمة العنصرية في جنوب أفريقيا وروديسيا والدور الذي تلعبه اسرائيل لتخريب حركة التحرر الافريقية .

وعندما تم انقلاب « ايدى أمين » في أوغندا سارعت « الطليعة » الى التحذير من اصبع اسرائيل في هذا الانقلاب ، فكتبت تحت عنوان « حول الهجمات الاسرائيلية ضد أوغندا » تكشف دور اسرائيل في الانقلاب ، وعلاقة هذا الانقلاب بالمخطط الامبريالي لفصل جنوب السودان (١٢) .

واذا كانت اسرائيل قد استطاعت لفترة طويلة من الزمن أن تخفى عن الرأى العام العالمي وجهها الحقيقي ، وأن تضلله عن منطلقاتها وطبيعتها الحقيقية ، فان أحد عوامل نجاحها في عملية التضليل هذه هو خطأ المنطلقات والاساليب العربية في التوجه الى الرأى العام العالمي .

كيف نخاطب الرأى العام العالمي ؟

وفي مرات عديدة قدمت « الطليعة » رأيها في تحديد منطلقات وأساليب التوجه العربي الى الرأى العام العالمي ، وفي واحدة من المقالات التي قدمتها في هذا الصدد تحددت عدة واجبات أساسية ..

أ ــ تجريد مواجهتنا مع اسرائيل من شبهة العنصرية في أية صورة كانت .

ب ــ تجاوز النظرة الى اسرائيل ككتلة واحدة متجانسة والاسهام بصورة ايجابية في فك مكوناتها المتنابذة بدلا من العمل على تجميعها وتدعيمها .

جـ ــ التمييز بين اسرائيل كدولة عنصرية وعدوانية وتوسعية تعمل على جلب عدد متزايد من اليهود الى فلسطين بصورة مطردة ، وبين اليهود كبشر ــ عموما ــ وكطائفة في فلسطين » (١٣) .

وبعد ستة أشهر من عدوان ١٩٦٧ قدمت « الطليعة » دراسة طويلة بعنوان « حسابات ستة شهور عن العدوان والمقاومة ــ حرب الفيل والغراب في الشرق الاوسط » تحدثت في الجزء الاول منها عن « خريطة السياسة الدولية للصراع » وطالبت بضرورة العمل على عزل محور واشنطن ــ تل أبيب عن أوربا الغربية ثم قالت

---

[٩] حسين شعلان ــ يوليو ١٩٦٧
[١٠] محمد سيد أحمد ــ اكتوبر ١٩٦٧
[١١] افتتاحية ــ يونيو ١٩٦٨
[١٢] عبد المنعم الغزالي ــ مارس ١٩٧١
[١٣] محمد سيد احمد ــ اكتوبر ١٩٦٧

« ولكى نلتزم الدقة فى التحليل فان الأمر يستوجب أن نستبعد المانيا الغربية من تيار الفكر الاوربى الاستقلالى الجديد ونظمها فى محور واشنطن — تل أبيب » (١٤) .

وهكذا فقد كان احد المحاور التى دعت « الطليعة » الى التنبه اليها هو تفهم الطابع المتميز لعلاقة أوربا الغربية بالأزمة فى الشرق الاوسط ، ومحاولة بذل جهد خاص تجاه الرأى العام فى أوربا الغربية انطلاقا من هذا الفهم .

كذلك قدمت « الطليعة » سلسلة من المقالات حول الرأى العام العالمى وكيفية التوجه اليه وكسبه ، وقد كتب هذه المقالات « **خالد محيى الدين** » من موقع الاحتكاك المباشر بأوساط الرأى العام العالمى والعلاقة الوثيقة بعملية مخاطبة الرأى العالمى ..

كذلك فقد اهتمت «الطليعة» بابراز « المضمون الانسانى لقضية فلسطين »، وأبرزت أهمية التوجه من هذا المنطلق لكسب أوساط هامة من الرأى العام العالمى . فنشرت فى هذا الصدد دراسة هامة لوثائق المؤتمر العربى الاقليمى لحقوق الانسان الذى عقد فى بيروت فى ديسمبر ١٩٦٨ والذى تناول بالبحث والدراسة حقوق الانسان الفلسطينى فى الارض المحتلة من مختلف النواحى (١٥) .

المقاومة .. أولا

لكن أهم ماركزت عليه « الطليعة » فى تناولها للقضية الفلسطينية هو « المقاومة » باعتبارها صورة البعث الحقيقى للشعب الفلسطينى ، وطريقه الاساسى لاستعادة حقوقه .

وكان تناول قضية « المقاومة الفلسطينية » شاملا لكافة الجوانب ابتداء من الجوانب التاريخية التى حاولت أن تستلهم دروسا من التاريخ النضالى للشعب الفلسطينى حيث قدمت عددا من الدراسات عن تاريخ الثورات الفلسطينية منها « ثورة ١٩٣٦ الفلسطينية بداية الكفاح المسلح ضد الصهيونية » ، ودراسة أخرى لنفس الكاتب عن « ثورة القسام » (١٦) .

وكان تناول « الطليعة » لقضية المقاومة شاملا كما قلنا لمختلف الجوانب ابتداء من تمجيد شهداء المقاومة والدفاع عن سجنائها الى تناول المخططات التاكتيكية والاستراتيجية لمختلف فرق المقاومة بالدراسة والتحليل .

وعن أحد أبطال المقاومة الذين استشهدوا كتبت «الطليعة» افتتاحيتها « جيفارا وأبو غزالة » فقالت « جيفارا فى بوليفيا ، وأبو غزالة فى فلسطين ، من أبناء الانسانية الذين لايموتون ، لان لهم أشقاء عديدين ينبتون بلا انقطاع فى أحضان الفلاحين والعمال والمثقفين الثوريين فى كل الشعوب » (١٧) .

كذلك فقد نظمت « الطليعة » حملة واسعة تحت شعار « فلترفع النازية الصهيونيه يديها عن المناضل وليم نصار »، ودعت المواطنين العرب الى الاشتراك فى حملة استنكار عالمية لانقاذ هذا المناضل ، واستجاب آلاف المواطنين العرب لهذه الدعوة ، ولقد كان من دواعى اعتزاز « الطليعة » بمبادرتها بهذه الحملة أن استجاب لها رجال الازهر الشريف وفى مقدمتهم فضيلة الامام الاكبر شيخ الجامع الازهر الذين وجهوا نداء يطالبون فيه الرأى العام العالمى بالدفاع عن وليم نصار .

ثم واصلت « الطليعة » حملتها من اجل « وليم نصار » فنشرت رسالة من والده (١٨) .

كما رددت « الطليعة » أيضا صوت المناضل « **نعيم الاشهب** » الذى تردد عبر قضبان الاراضى المحتلة مدينا المعتدين الاسرائيليين مؤكدا صمود شعب الارض المحتلة فى وجه طغيانهم .

وفى ديسمبر ١٩٦٧ قدمت الطليعة رصدا دقيقا لما قدمته المقاومة ، ايجابياته وسلبياته فى محاولة مبدئية للتوصل الى صياغة محددة لدور المقاومة وكيف يجب أن يكون وكان موضوع الدراسة « حسابات ستة شهور عن العدوان والمقاومة » .

وقد أدركت «الطليعة» منذ البداية أن المقاومة وان كانت تعبيرا عن بعث الشعب الفلسطينى الا أنها جزء لايتجزأ من مقومات نضال الامة العربية كلها ، كذلك استشعرت « الطليعة » مخاطر التآمر الرجعى ضد المقاومة . ومن ثم فقد رفعت صوتها منذ البداية « نحو جبهة عربية من حول المقاومة الفلسطينية » .. ولقد تحدثت « الطليعة » بصراحة ووضوح حول هذا الموضوع فقالت « لم يعد خافيا على أحد بعد حرب يونيو أن مسألة المائة مليون عربى الذين يواجهون المليونين والنصف مليون اسرائيلى لم تكن الا مجرد مسألة تصبها العواطف كلاما حماسيا على الورق وترتفع بها الشعارات الملتهبة . هذه حقيقة مرة ، ولكنها واقعية ، ولانها مرة وواقعية ، فان علينا جميعا وبلا استثناء اليوم

---

[١٤] لطفى الخولى — ديسمبر ١٩٦٧
[١٥] يحيى أبو بكر — يناير ١٩٦٩
[١٦] عبد القادر ىس — مايو ١٩٦٩
[١٧] لطفى الخولى — نوفمبر ١٩٦٧
[١٨] أغسطس ١٩٦٨

أن نتصدى لها بكل شجاعة وموضوعية ، اذا كنا حقا ، كما تقول السنتنا واقلامنا : عازمين على ممارسة مسئولياتنا التاريخية فى تصفية العدوان الاستعمارى الصهيونى قبل ان يتحول بالفعل الى اسرائيل الكبرى » (١٩) .

كذلك اهتمت « الطليعة » بأدب المقاومة الفلسطينية وشعراء الارض المحتلة ، فقد أدركت « ان هذا الشعر بالنسبة لقائليه يؤدى وظيفة هامة وخطيرة لم يؤدها الشعر العربى من قبل، انه تعويض عن الارض التى سلبت ، وحلم بالغد الذى لم يشرق بعد » (٢٠) .

كذلك كانت « الطليعة » رافعة لواء تقديم وتمجيد النضال البطولى الذى يشنه المناضلون العرب واليهود من سكان اسرائيل ، وأبرزت « الطليعة » دور « ركح » الحزب الشيوعى الاسرائيلى الذى يخوض معركة شجاعة لادانة العدوان والمعتدين ، بل ان « الطليعة » قد قدمت افتتاحيتها يوما لنشر مقال « **لمحمود درويش** » أحد أعضاء هذا الحزب (٢١) .

وقد بذلت « الطليعة » غاية جهدها كى تتفهم المقاومة الفلسطينية عن قرب ، وأن تتعرف على مشاكلها وتستمع الى كوادرها وأعضائها العاديين ، وان تثير حوارا خصبا مع مختلف فصائل المقاومة .

وفتحت « الطليعة » صفحاتها لممثلى هذه الفصائل المختلفة ليقولوا رأيهم بحرية تامة، وليعبروا عن منطلقاتهم المختلفة كسبيل طبيعى لتحقيق لقاء موضوعى ..

وفى يونيو ١٩٦٩ خصصت « الطليعة » دراستها الرئيسية لممثلى عدد من فصائل المقاومة المختلفة كل يعرض وجهة نظره تحت عنوان عام « رؤية المقاومة الفلسطينية للعدو » .

فكتب عبد القادر ياسين (الجبهة الوطنية المتحدة بغزة] دراسة عن الخلفية التاريخية للمقاومة فى فلسطين ، وقدمت **ثروت كاتبه** [الجبهة الوطنية المتحدة بغزة] دراسة عن تأسيس الجبهة فى غزة فى عام ١٩٥٦ ، وفى عام ١٩٦٧ تحت عنوان « تحويل العمل الفدائى الى قضية جماهيرية» أشارت الى قيام جبهة يسارية عقب عدوان ١٩٦٥ باسم « الجبهة الوطنية المعادية للاستعمار والصهيونية فى غزة » . وقالت ان هذه الجبهة قد أعدت مشروع ميثاق عرضته على مختلف المنظمات « التى رفضت التحالف لان البرنامج الذى تقدمت به الجبهة كان يتضمن ما اعتبرته تلك المنظمات خيانة وطنية فقد جاء فى المشروع « اننا نعتمد فى كفاحنا ضد طغمة بن جوريون على كفاح شعبنا والشعوب العربية أولا ، وعلى تأييد القوى التقدمية ثانيا، وعلى مساندة الشرفاء فى اسرائيل ثالثا، وقامت القيامة احتجاجا من تلك التنظيمات على الحملة الاخيرة ، فهم يعتبرون أن كل من أقام فى الوطن المحتل صهيونى لايجب التعامل أو التحالف معه وغير ذلك يعد خيانة وطنية » .

ثم تحدثت بعد ذلك عن تجربة « **الجبهة الوطنية المتحدة فى غزة** » التى تأسست فى أغسطس ١٩٦٧ بين حزب البعث — جبهة تحرير فلسطين — الحزب الشيوعى — الجناح العسكرى لمنظمة التحرير .

وقالت ان الجبهة عند تأسيسها واجهت تيارين خاطئين : الاول استسلامى فقد الثقة والامل فى كل شىء . والثانى متعجل يطالب بالتصدى عسكريا للاحتلال فورا .

« وبالنسبة للاتجاه الثانى فقد رأت الجبهة فى الشهور الاولى بعد الهزيمة أن هناك هوة عميقة تفصل امكانية العمل العسكرى عن جماهير الشعب اليائسة ، وان هذه الهوة لن يجتازها الا تنظيم قوى ، قادر على ممارسة كافة أشكال النضال بادئا بالنضال الفكرى والسياسى بهدف انتشال الجماهير من وهدة اليأس .... ومن المظاهرات .. الى الاضراب السياسى .. الى رفض مغادرة القطاع ، الى العصيان المدنى »، وبعد ذلك اكدت المقاومة « فى ١٧ نوفمبر ١٩٦٧ ان الحل العسكرى أصبح فى طريق الحتمية » .

حوار مع « فتح »

وعلى صفحات نفس العدد أجرى « **لطفى الخولى** » حوارا فكريا طويلا وعميقا مع « أبو أياد » احد قادة فتح تعرض فيه لمختلف القضايا السياسية والاستراتيجية التى تمس قضية المقاومة ومستقبلها .

وجوابا عن سؤال حول الظروف التى تكونت فيها فتح والتى ادت بها الى انتهاج خط الكفاح المسلح ؟ قال « **أبو أياد** » .. « ان فتح هى عملية رد فعل لمجموعة أوضاع عربية، ومجموعة أخطاء كانت موجودة فى السياسة العربية وفى الاحزاب العربية ايضا ، وهذا كله دفع كثيرا من الشباب الفلسطينى الى الاحساس بأن طريق التحزب والبعثرة والتفكك ، ليس هو الطريق

---

[١٩] لطفى الخولى — افتتاحية —مايو ١٩٦٨
[٢٠] مازن النقيب — يونيو ١٩٦٨.
[٢١] فبراير ١٩٧٠.

الموصل لحل قضية بلادهم .. فى الخمسينات نادرا ماكنت ترى شابا فلسطينيا غير منتم الى حزب او حركة سياسية .. وكانت انتماءات الشباب الفلسطينى من اقصى اليمين الى اقصى اليسار . البعض كان يعتقد أن الاتجاه الدينى يمكن أن يحل قضيته . وكان البعض الاخريعتقد أنه ممكن أن يكون طريق الشيوعية هو الطريق. البعض الثالث اتجه اتجاها قوميا .. فمجموعة من هذا الشباب الذى اختلط فيكل هذهالاحزاب والحركات ، ولم يستطع من خلالها أن يعثر على الطريق لتحرير وطنه ، فانسلخ فعلا بوعى عن هذه الاحزاب والحركات ، وربما لايكون دقيقا أن نقول بأن الانسلاخ كان فكريا وانما كان فى الاساس عن الانتماءات الحزبية » .

وحول العلاقة بين العمل السياسى والعمل العسكرى قال « أبو اياد » « .. ان مناضل فتح سياسى أولا ومقاتل ثانيا ، والاستثناء انه فى الفترة الاولى الصعبة التى اعقبت الهزيمة اضطررنا الى قبول متطوعين للقتال مباشرة دون المرور بعضوية التنظيم السياسى لفتح . ولكن سرعان ماعدنا الى تطبيق القاعدة الاساسية بعد معركة الكرامة بشهرين تقريبا . والان لايقبل اى مقاتلمباشرة . وانما عن طريقالتنظيم السياسى . وهذا يوضح لك أن التنظيمالسياسى والعقل السياسى هو القائد » .

وعن الخطوط السياسية لفتحقال « أبو اياد » « ان فتح هى حركة تحرر وطنى تعمل علىحشد طاقات الشعب الفلسطينى من خلال كفاحه المسلح لتحرير الارض الفلسطينية كلها من الاستيطان الاستعمارى الصهيونى .. وهى تعتبر نفسها جزءا منالثورة العربية الشاملة.. كما أنها تعتبر نفسها جزءا من حركة التحرر العالمى ضد الامبريالية .. وقد جمعت « فتح » شبابا من اقصى اليمين الى أقصى اليسار فى اطار الكفاح المسلح . والكفاح المسلح يطهر النفوس ويلغى الحساسيات ويجعلها تسير فى خط ثورى تقدمى حقيقى .. البعض يطرح الان أن البرجوازية الصغيرة سقطت ولا يحق لها أن تكافح . لكن فتح تجاوزت هذه الامور نتيجة خبراتها . قالت لا .. ان من حق كل فلسطينى أن يساهم أيا كان وضعه فى المعركة . لكن قيادة العمل الفلسطينى يجب أن تكون فى أيدى وطنية نظيفة ، لايمكن أن تبيع أو تساوم أو تحول هذا العمل لمصلحة اية قوى رجعية ، أما أن تقصر العمل على طبقة معينة فهذا ليس من حق احد فضلا عن أنه يضعف حركة التحرير ، فيه طبقات الان أو فئات من الطبقات لم تكن معروفة أيام كارل ماركس .. هل بحث ماركس طبقة اسمها طبقة النازحين التى ظهرت فى الشعب الفلسطينى النازح كان عامل يشتغلفى وطنه لكنه لايشتغل عاملا . فيه نازح فلاح الان لايعمل بالفلاحة ؟ ففيه اذن فى الواقع طبقة النازحين تفرض نفسها علينا ولا ينفع فىتحديدها القواعد التقليدية حتى ولو كانت ثورية فى ظروفها ومنبتها .

ويمضى « أبو اياد » قائلا « يمكن هناك من يأخذ على فتح أنها لم تسلك خط ماركس لينين ، أو شيئا من هذا القبيل حتى توصف بأنها تقدمية وانا اقول ان هؤلاء الذين يطرحون حاليا هذا الخط لوسألنا عنخلفياتهم وممارساتهم السابقة نجدها كلها خلفيات وممارسات بعيدة عن الماركسية اللينينية .. ثم بعد ذلك ، القول وحده لايفيد ، الممارسة هى المحك » .

وحول مفهوم « فتح » « للدولة الفلسطينية الديمقراطية » قال « أبو اياد » « لقد آمنا دائما، واعلنا ذلك ، ان الكفاح المسلح ليس غاية فى حد ذاته ، وانما هو وسيلة لهدف انسانى كبير. وهذا الهدف هو أن هذه الرقعة من خريطةالعالم المسماة فلسطين والتى هى منذ سنة ١٩١٧ تقريبا ارض حروب وثورات ودم .. آن لهذه الارض وشعبها أن يعيشا فى سلام ويستمتعا به كباقى البشر .. آن للدماء أن يتوقف سفكها ومن هنا فنحن نحمل السلاح من اجل الوصول الى حل سلمى حقيقى للمشكلة .. ولا يمكن أن يتحقق هذا السلام الا فى اطار دولة ديمقراطية فى فلسطين .. ماهى تفاصيلها ؟ أنا اعتقد أن النضال والكفاح فى تطورهما سيتكفلان بوضع هذه التفاصيل » .

وبعد حوار طويل حول الموقف منقرار مجلس الامن قال « أبو أياد » « الحقيقة انا لم اتعرض عامدا لموضوع أن من شروط تنفيذ قرار مجلس الامن فى الدول الاستعمارية، هو تصفيةالمقاومة الفلسطينية .. لم أتعرض لذلك لان المقاومة — وهذا ليس غرورا — قد صارت حركة شعبية ولا يمكن أن تصفى .. »

وعندما قال « لطفى الخولى » « على الاقل تواجه بمشاكل ليست هينة ؟ » قال « أبو أياد » « حتى هذا .. ووضع المقاومة الفلسطينية ، رغم كثير من الثغرات الداخلية فيها ، الا انها أصبحت ملكا للشعبالفلسطينى والشعبالعربى كله . وليس سهلا ولا ميسورا القضاء علىحركة ذات جذور عميقة وتتبناها الجماهير ؛ وتنتمى الى منطق العصر بالاساس » .

كما قدم « أبو خالد » من فتح ايضا دراسة مطولة بعنوان « عدو قوى لكنه ليس اسطوريا » وهى دراسة طويلة تناول فيها كثيرا من القضايا الهامة مثل الصراع الاستعمارى واثره على نشوء وتطور الصهيونية — الحلف البريطانى الصهيونى واثره على تطور الحركة الصهيونية — النكبة عواملها الاساسية ونتائجها على شعب فلسطين وعلى اسرائيل — ثم بعد ذلك دراسة تفصيلية للواقع الاسرائيلى .: تتناول القضايا الاقتصادية

والعسكرية والتجمعات السياسية والدينيةداخل اسرائيل ، واشار أبو خالد فى دراسته الى الحزب الشيوعى والى انقسامه الى مجموعتين وقال « مازال الموقف فى الشقين يدعو الىتحرير الغزاة من حكامهم كحل بديل للتحرير » .

ثم قدم « **أبو خالد** » دراسة لاوضاع الشعب الفلسطينى — عدد المواطنين ومناطق تجمعهم واحوال اللاجئين ودخولهم ، ثم جدولا تفصيليا بتقديرات دخل الفلسطينيين فى البلاد العربية .

وحول موقف المقاومة من المدنيين اليهود داخل اسرائيل قال « **أبو خالد** » ان القوات المسلحة الاسرائيلية تبلغ ٨٠٠٠٠ر٨٠ جندى ويتم تعبئة ١/٧ التعداد السكانى اى حوالى ٣٠٠٠٠ر٣٠٠ فى حالة الحرب ، فمعنى هذا أن المجموع الكلى للافراد العاملين فى اطار القوات المسلحة يبلغ ٨٨٠٠٠٠ر١ وذلك اذا أخذنا فى الاعتبار أن كل جندى لابد أن يكون فى خدمته ستة أفراد على جبهة العدو الداخلية .

وهذا يعنى أننا نقاتل قاعدة عسكرية محصنة أشبه بقاعدة « دين بيان فو » أو « خى سانة » ومن هنا فالحديث عن المدنيين يصبح حديثا غير علمى اذا استثنينا الاطفال والشيوخ من الرجال والنساء . ونحن بالطبع لا نستهدف هؤلاء فى قتالنا للعدو الصهيونى ، كما لم تستهدف قاذفات القنابل السوفيتية الشيوخ والاطفال عندما قامت بقصف برلين .

« وهنا يبقى سؤال ماذا يجب أن نفعل بالذين يفضلون البقاء فى فلسطين بعد النصر ، .. لسنا قتلة أو مجرمين ولكننا محررون .. وبمواصلة الثورة حتى النصر الحتمى انما نقوم بتحرير اليهودى من وهم الدولة الصهيونية ومن سيطرة الحركة الصهيونية » .

رأى الفصائل الاخرى للمقاومة

ومن فصيلة اخرى من فصائل المقاومة يتكلم « **جورج حبش** » عن « السلاح النظرى فى معركة التحرير » طالب فيها باستبعاد القوى الرجعية بصورة قاطعة وحاسمة وقال « ان مسألة تحديد القوى الرجعية والعميلة العربية والفلسطينية كطرف من أطراف معسكر الخصم الذى يقف فى مواجهة تحرير فلسطين مسألة سياسية لابد من حسمها ، ولابد من رفضوتفنيد أية محاولة لطمسها أو تمويهها مهما كانت المبررات التى تسوقها .. ان مثل هذهالمحاولة انما تعنى فى النهاية أن نتجاهل ، أن نغمض أعيننا عن عدو حقيقى قائم بيننا وكامن وسط صفوفنا ويمارس عداءه وتخريبه لمسيرة الثورة ممارسة يومية وفعلية » .

والتزاما من « الطليعة » بالموقف الذى اعلنته دوما ، وهو اقامة حوار مفتوح وصريح معمختلف فصائل المقاومة بهدف تحديد الأرضية الفكرية والعملية لحركة المقاومة الفلسطينية ، فقد فتحت صفحاتها لحوار طويل وصريح بين « **لطفى الخولى** » و « **نايف حواتمة** » عضو اللجنة المركزية للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين »

وفى بداية النقاش عرض « **نايف حواتمة** » للخلاف الذى ادى الى انقسام « الجبهة الشعبية » وقال أنه تعبير عن « الصراعات الايديولوجية والسياسية بين الجناح اليسارى الذى يمثل الان فى الجبهة الشعبية الديمقراطية وبين الجناح اليمينى البرجوازى الصغير الذى يمثل الان الجبهة الشعبية » .

وتحدث « **نايف حواتمة** » طويلا عن بواعث واسباب الانقسام الذى طرأ على صفوف الجبهة الشعبية ، ثم تحدث عن معارضته لدور « البرجوازية الصغيرة » العربية . وقال « ان المسألة المطروحة ليست مسألة وطنية او لا وطنية البرجوازية الصغيرة . ففى بلد متخلف تحمل البرجوازية الصغيرة هذه الخصائص الذاتية هى طبقة وطنية معادية للتحالفالطبقى الاستعمارى المضاد لقضية الثورة الوطنية . الا أن المسألة المطروحة هى أن طبيعة تكوين هذه الطبقة ومصالحها لا تمكن هذه الطبقة من أن تلبى مهمات التحرر الوطنى التام الناجز . فعملية التحرر الوطنى فى البلدان المتخلفةتتطلب نضالا طويل النفس ودؤوبا أمام التحالفالطبقى الاستعمارى المضاد . والطبقة البرجوازية الصغيرة لا تحمل هذا النفس الطويل ، انطلاقا من طبيعة مصالحها . كما أن برنامج الطبقة البرجوازية الصغيرة يقف بالضرورة عند حدود رؤيا ومصالح هذه الطبقة ايديولوجيا وسياسيا واقتصاديا ، ومن هنا تطرح هذه الطبقةبرنامجها للتحرر الوطنى الديمقراطى ، أو برنامجها الاشتراكى البرجوازى الصغير للتحرر الوطنى القائم ضمن حدود مصالح هذه الطبقة والذى يعتمد بالاصل على ابقاء هيمنة البرجوازية الصغيرة على راس المجتمع ثقافيا وسياسيا واجتماعيا ، وعلى فرض ديكتاتورية البرجوازية الصغيرة على باقى طبقات المجتمع ، لتضع طبقات المجتمع تحت شعارات اللا طبقية وتعنى الصراع الطبقى ، أو القول بالحلول الديمقراطية لمسألة الصراع الطبقى . وذلك كى تحتفظ لنفسها بالموقع القيادى ، واضعة كل عملية الثورة الوطنية الديمقراطية ضمن أفقها ، القائم بالضرورة على رؤياها ومصالحها » .

ويمضى « نايف حواتمة » ليحدد موقع « البرجوازية الصغيرة » من خريطة الصراع الطبقى فيقول « البرجوازية الصغيرة بحكم خصائصها الذاتيةوعلاقاتها الموضوعية معالقوى الطبقية الاخرى فى المجتمع تحتل موقعا وطنيا بالضرورةمعاديا للاستعمار والاقطاعوالكمبرادور

الا ان هذه الطبقة أيضا بحكم طبيعتها المزدوجة بقدر ما تخشى من التركز الاقطاعى والراسمالى الكمبرادورى والاستعمارى ، هى تخشى من برنامج العمال والفلاحين الفقراء ، وهى فى التحليل الاخير اذا جوبهت بحركة نهوض للعمال والفلاحين الفقراء وجوبهت ببرنامج العمال والفلاحين الفقراء مستعدة للتحالف مع الشيطان لهزيمة برنامج العمال والفلاحين الفقراء » .

وتحدث « **نايف حواتمة** » عن تصوره لوضع المقاومة الفلسطينية فقال « ماهو قائم حتى الان أن قطاعا من شعب فلسطين ، بتكوين ذاتى متباين يجمع بين الموقف البرجوازى الصغير اليمينى والتقدمى والموقف اليسارى الثورى ، يتحرك حاملا السلاح ، وعلاقاته مع الجماهير الفلسطينية أقرب الى العلاقات العفوية والعاطفية. وكذلك الحال مع الجماهير العربية ، ومع حركة التحرر الوطنى ومع الثورة الاشتراكية العالمية. من هنا يصبح مطروحا من أجل تطوير حركة المقاومة ، الانتقال بها الى ثورة شعبية مسلحة تنتظم فيها أوسع الجماهير التى تحمل السلاح وتقاتل ، الجماهير الفلسطينية والعربية . هذه العملية تتطلب مجموعة من التطورات الذاتية فى بيئة المقاومة ، تكسبها أفقا فكريا وسياسيا تقدميا قادرا على طرح برنامج لحرب التحرير الشعبية وتنظيم هذه الجماهير وتعبئتها ودفعها للقتال المسلح على جبهة عريضة ضد اسرائيل ومن هم وراء اسرائيل » (٢٢) .

غزة .. كتجربة نضالية

كذلك فقد كانت خبرة النضال الفدائى فى غزة المنبثق من خلال النضال السياسى الموحد لجماهير غزة جميعا فى صفوف « جبهة وطنية موحدة » محط اهتمام « الطليعة » ومجالا لدراستها واستخلاص الدروس المفيدة منها .

وبالاضافة الى ما سبق أن أشرنا اليه من مقالات عن خبرة بناء « الجبهة الوطنية المتحدة فى غزة » قدمت « الطليعة » دراسة عن أوضاع المقاومة فى غزة بعنوان « ملاحظات حول مدينة محتلة » جاء فيه « هذه المدينة ليس بها غابات ولا مستنقعات ولا جبال وليس بها أية قاعدة تقليدية من قواعد حرب العصابات المعروفة تاريخيا .. كيف استطاعت أن تكون النموذج الحى الرائع للمدينة المقاتلة التى تضع اصبع ديناميتها كل ليلة تحت وسادة الاحتلال ؟ .. ان المفهوم الجديد الذى تقدمه غزة لا يمكن العثور عليه الا فى تلك المرحلة التى يتبلور فيها النضال السياسى للجماهير الى تلك الدرجة التى تتحول فيها كوادر التنظيم السياسى الى كوادر مسلحة » (٢٣) .

لكن التطلع من بعيد لا يكفى لأى باحث مدقق، وهكذا فقد وجدت « الطليعة » انه من الضرورى كى نفهم ظاهرة المقاومة وحقيقة مشاكلها أن تحقق نوعا من المعايشة معها .

وهكذا وبمناسبة مرور خمس سنوات على بدء منظمة فتح بكفاحها المسلح قامت بعثة من « الطليعة » مكونة من « **أبو سيف يوسف — عبد المنعم القصاص — حلمى ياسين — خيرى عزيز** » بزيارة لمواقع المقاومة ، وكانت ثمرة هذه المعايشة مجموعة حية من الشهادات الواقعية عن الافراد العاديين فى صفوف المقاومة من فصائلها المختلفة ، الجندى العادى فى المقاومة، من هو ، كيف يفكر ، كيف يحلم بالمستقبل ؟ (٢٤)

لكن حوارنا مع المقاومة لم يكن كله كيلا للمديح وتجاهلا للنقائص ، ذلك أن « الطليعة » قد رأت انه من واجبها ، ومن موقع الصداقة المخلصة أن تلفت نظر المقاومة الى بعض النواقص فى أساليبها ، وأن تقترح عليها ما تراه صوابا .

مقترحات للمقاومة

وفى سبتمبر ١٩٦٨ قدمت « الطليعة » مقترحات سبعة ترى انها ضرورية كى تتحول حركة المقاومة من « الارهاب الثورى » الى « حركة تحرير وطنية » وكانت هذه المقترحات .

- بلورة كيان تنظيمى موحد لحركات المقاومة المسلحة يمتص كل الثغرات الفردية والشللية .
- ربط حركة المقاومة ربطا مصيريا بتيار الثورة العربية الوطنية التقدمية ..
- الالتزام ببرنامج سياسى اجتماعى محدد الاهداف يستطيع ان يجذب من حوله أوسع وحدة وطنية تقدمية ممكنة للشعب الفلسطينى وخاصة فى المناطق المحتلة ، بحيث تتم عملية « تسكين » المقاتلين بين احضان شعبهم ويكون الشعب منظما وقادرا باستمرار على الحماية والعطاء والابداع دون توقف . فالشعب المنظم هو العمق الاستراتيجى لحركة المقاومة ، وبتواجده تتحول حركة المقاومة الى حركة تحرير وطنية شاملة .
- الانطلاق من أفق النظرة العسكرية الضيقة البحتة الى أفق النظرة السياسية الشاملة وتصحيح أسس العلاقة بين العمل السياسى والعمل العسكرى بحيث يكون الاول قائدا للثانى لا العكس .

[٢٢] نوفمبر ١٩٦٩
[٢٣] معين بسيسو — يونيو ١٩٧٠
[٢٤] مارس ١٩٧٠

● الاسهام فى بناء جبهة عربية عريضة ..
لحماية حركة التحرير الفلسطينية المسلحة ..
● الارتباط بحركة التحرير الوطنى العالمية
وذلك تعبيرا عن كونها جزءا لا يتجزأ من مسار الانسانية التقدمية .
● وحركة التحرير الفلسطينية المسلحة مطالبة على وجه خاص بأن تقدم اجابة واضحة عن تساؤلات الراى العامالعالمى عامة ،واليهود غير الصهاينة خاصة حول تصورها للموقف ومصير سكان اسرائيل الحاليين بعد انتصارها، فتؤكد مثلا علىشجبها وادانتها للتفرقةالعنصرية والتعصب الدينى وتمييزها الفكرى والعملى بين اليهود والصهيونية (٢٥) .

وتحت عنوان « المقاومة أولا .. المقاومة أخيرا » كتبت « الطليعة » تطالب :
● بسرعة بناء هيكل تنظيمى نضالى شعبى على نطاق الوطن العربى كله لحماية ظهر المقاومة الفلسطينيةومدها بكل الامكانياتالمادية والمعنوية .
● زيادة تعميق الالتحام السياسى معجماهير الشعب الفلسطينى فى كل مكان وخاصة فى الارض المحتلة (٢٦) .

ثم جاءت « الطليعة » لتؤكد مره اخرى على أهمية توحيد قوى المقاومة الفلسطينية ، فكتبت تحت عنوان : « آفاق جديدة لثورة فلسطين » ، و « نحن نعلم ان طريق الوحدة فى الظروف الشاقة التى يمر بها شعب فلسطين ليس مفروشا بالرياحين ، بل تواجهه صعوبات تنوء بحملها الجبال ، ولكننا نأمل مع ذلك وبفضل تزايد تدفق الجماهير الشعبية الى ساحةالمعركة أن تنطلق القيادات الوطنية من هذه الحقيقة ، وهى أن الوحدة الوطنية ممكنة ، بل انها ممكنة على وجه التحديد من خلال التنوع ، والاختلاف (٢٧) .

وحول ضرورة تحديد استراتيجية محددة المعالم للمقاومة الفلسطينية كتبت « الطليعة » افتتاحية هامة تحت عنوان بالغ الدلالة « جبهة عربية — يهودية — عالمية ضد الامبريالية والصهيونية» جاء فيها « نقطةالبدء — فى رايى — لطرح استراتيجية المقاومة انها تكافح ضد واقع استعمارى مفروض بالقوة على بلد فى شكل احتلال عنصرى استيطانى . ولما كان الكفاح يستهدف بالضرورة تغيير هذا الواقعبواقع جديد، فان هذا الواقع الجديد يجب أن يكون أكثرتقدما وتمشيا مع حركة التاريخ الانسانى من الواقع الراهن. ولكى يكون الواقع الجديد تقدميا، فلابد من أن يكون معاديا للاستعمار بجميع اشكاله وللعنصرية بكل صورها ومنابعها .

.. وهو يواجه مشاكل وقضايا محسوسة وعلى استراتيجيته بالتالى ان تقدم حلولا واقعية محددة وممكنة التنفيذ فعليا ، من هذه المشاكل مثلا :
● طبيعة نظام الدولة فى الواقع الجديد .
● موقفها الدولى والمحلى فى المنطقة .
● مصير الـ ٢ر٥ مليون يهودى الذين يعيشون اليوم فى اسرائيل ..

ويمضى المقال قائلا : « .. طبيعة نظام الدولة فى الوضع الجديد يجب أن تكون « علمانية » وذلك فى مقابل الطابعاليهودى بأبعادهالعنصرية لاسرائيل .

والواقع الجديد بقيامه كثمرة لحركة تحررية معادية للاستعمار ، فانه يصفى نظامه من كل ارتباط أو تبعية بالامبريالية والاستعمار القديم والجديد ، ويصبح جزءا لا يتجزأ من نسيج قوى المنطقة المتحررة التقدمية ، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا .

والواقع الجديد ايضا يواجه مشكلتين أساسيتين : مشكلة جماهير الشعبالفلسطينى التى طردت من وطنها ، ومشكلة المليونينونصف مليون من اليهود الذين هاجروا الى فلسطين واستوطنوها . ومنهم من ولد بها . والحل الاستراتيجى التقدمى للمقاومة هو عودةالشعب الفلسطينى الى وطنه من ناحية ، وحق المواطنة الكاملة لكل من المليونين ونصف المليون يهودى الذين يرون الاستمرار فى الحياة بالواقعالجديد غير العنصرى » .

وأخيرا تصل « الطليعة » الى شكل تنظيمى محدد تدعو الى السعى لتكوينه فتقول : « ولكى تكتسب هذه الاستراتيجية قوة حركية ذات ثقل محلى وعالمى متزايدين فى الصراع بين حركة التحرر الانسانى وبين حركة الامبرياليةالعنصرية فانها يجب أن تتبلور فى تنظيم « حركى » يعبىء قوى كل العرب واليهود المعادين للامبريالية والصهيونية وجميع صور العنصرية . وذلكعلى المستوى المحلى والعالمى على السواء » (٢٨).

وفى مايو ١٩٦٩ توجه « الطليعة » مرة أخرى نداء تحتعنوان « ٣ ملاحظات لمنظمات المقاومة» مؤكدة على ملاحظات ثلاث تدور حول حشد مختلف القوى العربية حول المقاومة ، وتنظيم الجماهير العربية فى وعاء قادر على الحركة بسرعة وفاعلية ، » وضرورة تجنب مزالق الصراعات المفتعلة مع القوى الحليفةوالصديقة

[٢٥] لطفى الخولى — افتتاحيه —سبتمبر ١٩٦٨
[٢٦] افتتاحيه — ديسمبر ١٩٦٨
[٢٧] افتتاحية — مارس ١٩٦٩
[٢٨] لطفى الخولى — افتتاحية —ابريل ١٩٦٩

فى المعركة ونعنى بها البلاد الاشتراكية عـامة والاتحاد السوفيتى خاصة » (٢٩) .

وفى ابريل ١٩٧١ ومع تصـاعد المؤامره الرجعية ضد المقاومة كتبت « الطليعة » مقـالا بعنوان « فلسطين بين الثورة والثورة المضادة » جاء فيه « فى هذا المقال تعالج جانبا واحدا من الصورة العامة وهو الجانب الذى يبرز على انه اشدها قتامة ومدعاة لليأس .. وضـع حركة المقاومة الفلسطينية بعد خمسة أشهر من المذبحة الدامية البشعة التى استهدفت تصفية القضية الفلسطينية ووأد حركة المقاومة المسلحة ..لقد اصبحت اهمية « وحـدة القوى الثـورية » من البديهيات التى لا تحتاج لمزيد من التأكيد ، ولكن تجربة الوحدة فى عديد من البلدان النامية أدت الى نتائج مريرة ، فكم من الاخطاء — ان لم نقل الجرائم — ارتكبت باسم الوحدة .. »

« ثم توجه « الطليعة » سؤالا يقول « وحدة من ؟ » وتجيب « وحينئذ يتعين علينا أن نحدد قوى الثورة والقوى المعادية لها حتى لا تتسرب الى صفوف الثورة القوى المناوئةلتسيطر وتخرب وتحرف الاتجاه . ان تطهير الثورة من العناصر اليمينية المعـادية — حتى وان لبست مسـوح الثورية — وتخليص القيادة من القوى المترددة والمتخاذلة — مع الحرص على كسبها داخـل اطار الحلف الوطنى رغم ذلك » .

وتختتم « الطليعة » مقالها قائلة : « ان النجاح فى صـد هجمات الرجعيـة ، وحماية الثورة والانتقال من موقع الدفاع الى موقع الهجـوم يتوقف على بناء الجبهـة الوطنيـة الاردنيـة الفلسطينية التى تضم حركة المقاومة وكل القوى والاحزاب والنقابات والعناصر الوطنية المعادية للاستعمار والاحتلال والصهيونية ، للنضال من اجل فرض حكم وطنى ديمقراطى ، باعتباره مهمة مباشرة تكفل ضمانات تهيئة المنـاخ المنـاسب لانطلاق « وتفرغ » الحركة التحررية لمواجهـة العدو الامبريالى الصهيونى » (٣٠) .

المواقـف والاتجاهات

« النـقد »

عندما بدأت « الطليعة » فى تقديم العـرض العام لمواقفها واتجاهاتها خلال الثمانين شـهرا الماضـية ، كانت تنطلق من موقف الراغب رغبةحقيقية فى التعرف على آراء مختلف الاتجاهات فيما قدمته من مواقف وآراء .

وتاكيـدا لهـذه الرغبة ، وعرفانا بأهميـة« النقد » ، وكبداية لادارة حـوار مثمـر بين « الطليعة » وأصـدقائها وناقديها على أسس موضـوعية وحول أهم القضايا المعاصرة تنشر « الطليعة » فى هذا العدد تعليقين على العرض العام الذى قدمته فى العدد الماضى .

وقد كتب التعليق الاول الدكتور بطرس بطرس غالى حـول مواقف الطليعة من « حركة التحرر الوطنى » .

اما التعليق الثانى فقد كتبه الدكتور كلوفيس مقصـود حول مواقف الطليعة من « القضـية العربية » .

ولسوف تحرص الطليعة فى اعدادها القادمة على أن تنشر ما يرد اليها من تعليقات أخرى .

■ ■

• حول حركة التحرر الوطنى •

لكـم دينكـم ولى ديـن

د. بطرس بطرس غالى

تفضل صديقى الاستاذ لطفى الخولى رئيس تحرير الطليعـة ، فطلب منى ابـداء الرأى فى مجموعة الدراسات والتقارير التى نشرتها المجلة على مدى ثمانين شهرا من حياتها حول موضوع حركة التحرر الوطنى . وقد لخصت تلك التقارير وهذه الدراسات ونشرت بالمجلة فى عشر صفحات من عدد اول سبتمبر سنة ١٩٧١ .

[٢٩] لطفى الخولى — افتتاحية — مايو ١٩٦٩

[٣٠] ميشيل كامل — ابريل ١٩٧١

ولم تكن مهمتى هذه هينة أو يسيرة ، فحين يطلب منى أن أقوم بدور الناقد فى هذا الموضوع ، يكون شانى مثل شان ناقد لمجموعة من الدراسات اللاهوتية الكاثوليكية كتبها مجموعة من اليسوعيين ، فى حين ان هذا الناقد متشبع بلاهوتية غير كاثوليكية .

وعلى الرغم من ان « الطليعة » قد جعلت شعارها « طريق المناضلين الى الفكر الثورى المعاصر » ، الا انها قصرت هذا الفكر على مذهب واحد لا تتعداه وهو الماركسية . ومن هنا ينبثق أول نقد أوجهه الى مجموعة الدراسات التى كتبت عن حركة التحرير الوطنى ، لانها عالجت تلك الحركة من الزاوية الماركسية وحدها ، ومن هذا النقد الرئيسى تنبعث فروع أخرى من النقد :

اولا - الامبريالية ، والاستعمار بصوره المختلفة ليسا وقفا على دولة عملاقة دون دولة عملاقة أخرى ، لان الاستعمار بمعناه العلمى هو التسلط الناجم قبل كل شىء عن علاقة غير متكافئة بين دولتين غير متساويتين فى القوة ، فنستطيع أن نتصور علاقة استعمارية داخل أى معسكر من المعسكرات الدولية ، او بين دول متجاورة أو متصادقة . وهذا الجانب من الاستعمار لم يعالج قط فى مجموعة الدراسات التى نشرت بالمجلة حتى الان .

ثانيا - العلاقة الاستعمارية بين القوى المتسلط والضعيف المغلوب على أمره ، المستغلة ثرواته ، عالجتها مجلة الطليعة من ناحية واحدة ، هى ناحية موقف القوى . وقلما تحدثت عن الجانب الضعيف من ناحية التخلف ، والعيوب التى تسرى فى مجتمعاته عزتها الى مصدر الداء ، وهو الامبريالية ، متناسية بذلك قابلية الدول المتخلفة لان تخضع للاستعمار ، تلك القابلية التى ساعدت ، وتساعد ، الامبريالية على التحكم . والامثلة على ذلك كثيرة ، فحين يقول تقرير الطليعة « الامبريالية العالمية لم تزد قوة ، ولكنها ازدادت عدوانية فى السنوات الاخيرة » كان الاولى أن يقول التقرير ان الامبريالية لم تتغير ، ولكن دول العالم الثالث هى التى زادت تخلفا وضعفا ، أو أن يقول ان الهوة بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة زادت اتساعا ، مما يسر مهمة المتسلط فى دعم تسلطه . وحين يقول التقرير أيضا متحدثا عن الهجوم المضاد للامبريالية « ان المؤشر البارز للهجوم المضاد للامبريالية هو الانقلاب ضد حكومة نكروما فى غانا » ، كان الافضل أن يتحدث عن التناقضات والغرائب التى أفسدت وقوضت النظام من الداخل ، فمكنت « الامبريالية » من القضاء عليه :

وقصارى القول ان رؤية الطليعة لحركة التحرير الوطنى موجهة الى الخارج ، وهو الامبريالية ، فى حين أنها تهمل الداخل ، أى قابلية دول العالم الثالث للوقوع فى براثن الاستعمار الجديد .

ولا شك ان تعبئة الرأى العام لمكافحة العدو الخارجى أمر ميسور وسهل بالنسبة لتعبئة هذا الرأى العام لمقاومة ما بداخل الاوطان من تخلف . ونحن نخطىء حين نقصر كل جهودنا على مكافحة العدو الخارجى وننسى ان العدو الداخلى أشد خطرا من العدو الخارجى .

ثالثا - فيما يتعلق بسياسة عدم الانحياز التى كانت موضع الاهتمام فى دراسات الطليعة ، أرى أثر الانحياز العقائدى فى هذه الدراسات التى جعلت مهمة عدم الانحياز محصورة فى تكوين جبهة عالمية معادية للاستعمار ، مع ان تلك السياسة ترمى قبل كل شىء الى جعل الدول المعتنقة لهذه السياسة قادرة على أن تسير وفق سياسة استقلالية ، بمنأى عن سيطرة الدول العملاقة ، سواء منها العملاق الامريكى أو العملاق السوفيتى أو العملاق الصينى .

رابعا - فيما يتعلق بالجزء الاخير من التقرير الذى عنوانه «الثورة العلمية والتقدم» فاننى أؤيده فى مضمونه ومحتواه ، وأرى أن الثورة العلمية هى الطريق السليم المؤدى الى التحرر الوطنى ، والى تخليص العالم الثالث من التخلف والتجزئة والقابلية لان يستعمر ، ومن ثم يقع فريسة فى أيدى الدول العمالقة .

وكما جاء فى التقرير ، فان ابرام التكتلات الاقتصادية بين الدول الصغيرة واقامة الاتحادات فيما بينها ، لهى الخطوة الاولى لنجاح حركة التحرير الوطنى ، تلك الحركة التى منيت بنكسة فى العالم الثالث . وان كانت « الطليعة » قد حاولت الا تبرز أبعاد هذه النكسة بمعالجتها اياها من الناحية العقائدية الخالصة ، دون أن تتصدى لها من ناحية

التنمية الاقتصادية ، أو التنمية السياسية ، أو الناحية الاستراتيجية العسكرية ، أو من ناحية تاثير توازن القوى العالمى عليها ٠

على أنه قد يقال أن مجلة « الطليعة » مجلة عقائدية متخصصة لا تعنى الا بالتحليل الماركسى لحركة التحرير الوطنى ، والتحليل العلمى عندها لا يصح الا اذا كان ماركسيا .

هذا رأيهم فى طريق النضال الشورى المعاصر ، ولا يضير أيا منا أن يكون له رأى يخالف رأى الاخر ، وذلك مما جعلنى أقول فى مفتتح هذا التعليق ان شأنى حين أنقد ما نشرته الطليعة ، شأن لاهوتى غير كاثوليكى أسندت اليه مهمة نقد آراء أبدتها طائفة من اليسوعيين المناضلين ، فينقد ثم يقول اخيرا « ٠٠٠ لا انا عابد ما عبدتم ، ولا انتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولى دين » ٠

■■■

● حول القضية العربية ●

لنواجه محاولات تطويق الارادة العربية

د٠ كلوفيس مقصود

ان معالجة الطليعة للقضية العربية تنطوى على تركيز سليم للمشاكل والمضامين الاجتماعية للقومية العربية ، ورغم ان هذا التركيز يعنى ان النضال فى سبيل الوحدة العربية مرتبط ارتباطا عضويا بالنضال فى سبيل الاشتراكية ٠ الا أن الاشتراكية لا تشكل صورة للمجتمع المطلوب تحقيقه فحسب ، بل منهجا لتحديد معالم ومراحل النضال التحررى والاجتماعى ٠ ولعله من بعد عام ١٩٦٧ أى بعد الهزيمة العسكرية التى منى بها العرب تحول الارتباط بين النضال الوحدوى والنضال الاشتراكى الى مقتضيات ازالة اثار العدوان وما يستتبع هذا من تجميد مرحلى للتناقضات الحادة القائمة بين الاقطار العربية ثم ان توجيه الطاقات النضالية والثورية نحو المقاومة الفلسطينية ادى الى أن تصبح المقاومة بؤرة العمل اليسارى والتقدمى فى المنطقة ٠ فالمقاومة الفلسطينية عبرت عن نزعة التمرد على الهزيمة وبالتالى تمكنت من استقطاب القوى التصحيحة الكامنة فى المجتمع العربى ٠

تبقى بعد ذلك خطوات احتمال النزوع الى اقليمية فلسطينية تكون نتيجة لموقف انفعالى ازاء التروى فى المؤسسات والانظمة العربية الذى حدث بعد يونيو ١٩٦٧ وكان لابد ان يلازم الاحتضان الجماهيرى للمقاومة الفلسطينية تأكيد على العلاقة العضوية القائمة بينها وبين هذه الجماهير ٠ من هنا نتج أن تأكيد البعد القومى للمقاومة الفلسطينية كان مطلبا أساسيا لدى المقاومين الفلسطينيين الاساسيين ، ولدى القوى الكامنة الثورية فى الوطن العربى ٠

ان الثورة العربية من حيث القدرة على أن تتحرك تحركا موحدا لن تتمكن من أن تكون لنفسها الرصيد الكافى من الثقة الذى يجيز للشعب الفلسطينى تذويب ذاته فى حركة الثورة العربية ٠ وقد تكشف ذلك بالضرورة بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ ٠ ولكن كان لابد أيضا من تأكيد أن شرعية عدم الذوبان لا تضفى بدورها شرعية على تأكيد اللاانتماء الفلسطينى للتحرك الثورى الموحد ٠

ولعل أهم ما استحوذ على اهتمام المفكرين الطليعيين فى هذا المضمار ايجاد الصيغة الحية التى تؤمن حقيقة الانتماء العربى ، وواقع التحيز الفلسطينى ٠ ولعل الارتباك الذى حصل من جراء عدم ارساء الصيغة بالدقة المطلوبة هو الذى أوجد العديد من التيارات الانشقاقية فى مسيرة تنظيم المقاومة الفلسطينية وتحديد علاقاتها مع الدول العربية ٠

ان الارتباك الذى حدث فى تنظيم المقاومة الفلسطينية كان مدخلا للمتربصين لها والذين عملوا على الانقضاض عليها وحصلت مجازر متتالية كثيرة فى الساحة الاردنية كما حصل عرقلة لحرية عمل المقاومة فى ساحات اخرى وكان من جراء هذا الوضع المخجل ان برزت المقاومة الفلسطينية وكأنها طرف من الاطراف العربية المتصارعة ، وليست ما هى عليه واقعيا طليعة النضال العربى المصطدم مع الصهيونية والامبريالية واسرائيل ، ونتج اثر ذلك تحرك على مستويات ثلاثة مختلفة ومترابطة فى نفس الوقت ·

أولا : حماية العمل الفدائى وحماية الفدائيين ·

ثانيا : تجنيب المقاومة الفلسطينية الوقوع فى شرك التحول الى طرف عربى من الاطراف المتصارعة ·

ثالثا : ارجاع حالة الثقة والتداخل بين الجماهير العربية والمقاومة الفلسطينية بغية ابقاء قضية تحرير فلسطين قضية مصيرية للعرب جميعا ·

من هنا كان لابد للمفكرين الملتزمين التقدميين العرب أن يعملوا على ترسيخ بعض القواعد النظرية التى من شأنها ان تؤمن وضوح الرؤية واستقامة المسيرة النضالية · وبالتالى جعل المسلك العربى العام والمقاومة الفلسطينية بشكل خاص بمنأى عن المساومات المطروحة والمزايدات الهادرة · وفى هذا الصدد كان لانعقاد المجلس الوطنى الفلسطينى فى أوائل يوليو الماضى أهمية تاريخية بأنه للمرة الاولى تم انضمام كافة فصائل المقاومة الرئيسية الى اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير التى هى بمثابة اطار تفاعل هذه المنظمات الهادفة نحو وحدتها العضوية · وقبيل اتضاح هذا التفاعل عمدت السلطات الاردنية المرتبطة بالخط الامبريالى الصهيونى فى المنطقة أن تفقد هذه الوحدة اسسها فراحت تنقض على عناصر المقاومة فى جرش وعجلون حتى تتمكن السلطة الاردنية من التمادى فى تحدى ارادة الامة وعرقلة مسيرتها ومجابهة احتمال تزايد التحام القوى الوطنية والوحدوية فى المنطقة العربية الكفيلة بترجيح الحق العربى مرحليا وتأمين صيرورته ·

ان مجلة «الطليعة» فى هذا المضمار مدعوة الى القاء أضواء على العمليات التآمرية التى من شأنها تطويق الارادة التحررية القومية ، وأن تسهم فى توضيح الافاق المستقبلية للعمل النضالى فى كافة قطاعاته الوطنية والقومية الاجتماعية الجذرية حيث التحول فى المجتمعات العربية ، ومن حيث المجابهات السياسية والاصطدامية المتنوعة مع الامبريالية العالمية · كما أن على المفكرين الملتزمين أن يدركوا ان أى تخل من قبلهم عن الالتصاق مع المعاناة يؤدى الى املاء الفراغ بواسطة المذهبية اليمينية الذكية والعشوائية القادرة على تبنى شعارات مستساغة بغية افقاد الجماهير قدرة التمييز وقدرة التصور وقدرة الفعل · وفى هذا المضمار نقترح أن اليسار الوطنى الشامل لابد أن يكون فى حالة علاقة منتظمة مستمرة نامية مع مناهل الفكر اليسارى المذهبى وأن يتكون الاطار السياسى المتقدم على المستويين العربى والفلسطينى بشكل يؤكد ألا عداء على اليسار انما التناقض الاساسى والدائم هو بين حركة الجماهير الوطنية المنفصلة بالثورة الاجتماعية الجذرية وبين الامبريالية العالمية وقواعدها وعناصرها ، وأجواء الفكر المتخلف اليمينى الذى يجيز لهذه القواعد وللعناصر ديمومة تتحدى التاريخ وتتجاوز المنطق ، اذن فأولوية الفكر الملتزم تكمن فى ايضاح معالم اليسار الوطنى الشامل لكافة القوى الجماهيرية العاملة والانفتاح على اليسار المذهبى والمنظم كى يكون التلقيح المتبادل مدخلا لفاعلية المذهبيين وجدواهم ، ولتعميق مفاهيم الحركة الجماهيرية الوطنية وتسليحها بالسلاح السياسى النظرى الذى هو فى النهاية السلاح الامضى ضد الامبريالية والعدوانية الاسرائيلية والاغتصاب الصهيونى والرجعية العربية ·

ان مساهمة الطليعة فى هذا المضمار يجب أن تكون دوما مساهمة قادرة على المراجعة النقدية لمسيرة النضال من جهة ، وعلى اخصاب الفكر السياسى بمزيد من التوضيحات النظرية ذات العلاقة العضوية بالمعاناة الجماهيرية العربية ·

تعتذر الطليعة عن عدم نشر باب « مكتبة الطليعة » وباب « مناقشات مفتوحة » ، فى هذا العدد وسوف تستمر فى نشرهما العدد القادم ·

- بيروت :
التسلح .. ؟ وضد من ؟
- اوغندا واثيوبيا :
بارلييف يفتش عن الاعماق
- موسكو :
خروشوف بين الاصدقاء والاعداء
- الولايات المتحدة :
أزمة الدولار وصراعات العالم الرأسمالي
- برلين :
من الذى خسر الجولة ؟

تقارير الشهر

■ جمهورية مصر العربية :

البناء الجديد للدولة المصرية

في السادس عشر من سبتمبر الماضى أعلن الرئيس أنور السادات الخطوط العريضة لاعادة بناء الدولة تطبيقا لبرنامج العمل الوطني وفي ظل دستور ١٩٧١ . وقد دعا الرئيس السادات في بيانه الى جعل هزيمة ١٩٦٧ منطلقا لبناء دولة جديدة حتى نتمكن من مواجهة مسئولياتنا بالنسبة للاجيال المقبلة ، والتي يتحمل الجيل الحاضر مسئولية خلقها .

● الهدف هو المعركة

ويستهدف التغيير الذى أعلن الرئيس السادات خطوطه العريضة خدمة معركة تحرير الارض من العدوان الامبريالي الصهيوني ، لان الحديث عن التغيير ،وعن اعادة تنظيم الدولة ، أو اى بناء يبنى يجب أن يكون الهدف منه هو كسب المعركة .

وفي بيان الرئيس السادات عن المعركة فضح موقف الولايات المتحدة الامريكية ، ودحض دعواها الباطلة بان مصر قبلت الحل الجزئي وأكد

ان الاتصالات بين مصر والولايات المتحدة متوقفة تماما منذ ٧٠ يوما ورفض أى تسوية مرحلية بدون تسوية شاملة على أن تنفذ اسرائيل كل التزاماتها الواردة فى قرار مجلس الامن وأعلن انه لا وقف أبدى لاطلاق النار طالما يوجد على الارض عسكرى أجنبى واحد • وأن القول بأن عام ١٩٧١ هو الحاسم ان قتالا او سلما مازال يضع مصر امام المسئوليات القادمة •

وأعلن **الرئيس** انه على المجتمع الدولى ان يتحمل مسئوليته ، ولذلك فاننا نطالب : السكرتير العام للامم المتحدة أن يقدم تقريرا الى مجلس الامن عن موقف اسرائيل وموقفنا ، ونطالب : باجتماع مجلس الامن على مستوى وزراء الخارجية وأن تحدد أمريكا موقفها الحاسم امام هذا الاجتماع ، ونطالب : بفضح التآمر بين أمريكا واسرائيل •

● اعادة بناء الدولة :

وأعلن **الرئيس** أن عملية اعادة بناء الدولة يجب أن تضع فى اعتبارها بعض الاسس الرئيسية : **أولا** : ان الدستور الدائم هو المنطلق الاول لاعادة بناء الدولة • **ثانيا** : تحديد سلطة الدولة بأنها هى سلطة تحالف قوى الشعب العاملة • **ثالثا** : أن يكون كل شىء بالحوار الديمقراطى وستكون هنالك حتما خلافات فى المطالب والمصالح لكن يتعين مناقشتها وحلها بالحوار الديمقراطى • **رابعا** : كل شىء فى الدولة يجب أن يخضع لسيادة القانون **خامسا** : اننا نبنى دولة المؤسسات السياسية والتنفيذية والتشريعية وليست دولة الافراد وان الشعب هو حارس هذه المؤسسات **سادسا** : يجب تحرير الوحدات الانتاجية من الروتين الحكومى روتين اللوائح •

● فى قطاع الزراعة :

وحدد الرئيس ضرورة الانطلاق بأقصى طاقة فى قطاع الزراعة باعادة تنظيمه وحسم العوائق التى تواجهه • ولتحقيق ذلك فانه سيعاد تنظيم القطاعات الزراعية وأجهزة وزارة الزراعة والهيئات التابعة لها ومؤسسات استصلاح الاراضى •

وسيكون الاساس فى اعادة بناء قطاع الزراعة تقسيم الارض الجديدة والمستصلحة الى وحدات اقتصادية تدار كوحدات انتاجية لكل وحدة مجلس ادارة يضم الى جانب مدير الوحدة مديرى الادارات وأربعة من العاملين ، والحد الادنى من الارض لكل وحدة هو ٥٠ ألف فدان • ولا تلتزم الوحدة بالمحصولات التقليدية ، ولن تكون مجرد مزرعة ولكنها ستقوم بتصنيع انتاجها الزراعى واعداده للتصدير • وتقوم ادارتها على أساس التقليل من عدد الموظفين فى الوحدة الانتاجية الزراعية وخاصة المعينون على درجات مالية كبيرة تبتلع جزءا كبيرا من عائد الوحدة ولا تترك للعاملين بها من المنتفعين ما يشعرهم بنتيجة جهدهم •

● وفى مجال الصناعة :

وفى مجال الصناعة تحقيق الانطلاق بالانتاج الصناعى وتوفير كل ظروف المرونة والحرية والحوافز له • ويكون ذلك بالعمل على : اولا : تحرير الوحدات الانتاجية من سيطرة الاجهزة الاشرافية ، وتدخلها فى اعمالها مع ربطها بأهداف محددة عليها أن تحققها فى مجالات الانتاج والعمالة والتصدير والارباح • وبذلك تقوم كل مؤسسة بدور التنسيق بين الوحدات الاقتصادية التابعة لها فتقوم كل مؤسسة بوضع برنامج محدد للتدريب تلتزم بتنفيذه والاشراف عليه وذلك لرفع مستوى التدريب والخبرة والاهتمام بالاساليب التكنولوجية الجديدة ، كما تقوم بتقييم اداء الوحدات الانتاجية دون تدخل فى شئونها الداخلية ويمنح النظام الجديد كل مؤسسة أو وحدة انتاجية الحق فى أن تضع لائحتها الخاصة فتنوع بذلك اللوائح بدلا من النظام القديم الذى كان يتضمن لائحة موحدة لجميع المؤسسات وبذلك يتحقق للمؤسسات والوحدات الانتاجية أن تمارس نشاطها طبقا للظروف الخاصة وطبيعة العمل بها . **ثانيا** : اصدار قانون جديد للعاملين يستهدف الانطلاق والمرونة الكافية للوحدات الانتاجية ، ويؤدى الى وضع نظم للحوافز تلائم طبيعة العمل بالوحدات الانتاجية وتحرير اللائحة من القيود التى كان يعانى منها العاملون • وفى اللائحة الجديدة تصبح مستويات الدرجات أربع مستويات وتستمر العلاوة السنوية لمدة طويلة دون أن يؤثر عليها الحد الاعلى لمربوط الدرجة ، وأن تحقق الترقية الى الوظائف الاعلى حصول المرقى على مربوط الوظيفة المرقى اليها لاتاحة فرص التقدم للممتازين من العاملين • وتحقق اللائحة الجديدة اجازة مرضية بالاجر الكامل بعد أن كانت بـ ٧٠ فى المائة من الاجر ، وزيادة الاجازات السنوية ورفع الحد الادنى للاجور بنسبة ٢٠ فى المائة فأصبح ١٠٨ جنيهات سنويا بدلا من ٨٤ جنيها سنويا • ورفع الحد الادنى للمعاش وزيادة جميع المعاشات المدنية بنسبة ١٠ فى المائة وستتكلف الزيادة السنوية للاجور ٤٠ مليون جنيه سنويا والزيادة فى المعاشات حوالى ثلاثة ملايين من الجنيهات سنويا • وسيصبح للمرأة العاملة الحق فى الجمع بين مرتبها أو معاشها وبين استحقاقها فى معاش زوجها فى حدود ٢٥ جنيها • وقد أعلن **الرئيس السادات** انه كان يتمنى مضاعفة الاجور

ولكن ظروف المعركة ومتطلباتها تحول دون تحقيق هذه الامنية .

● **ازالة المعوقات فى قطاع الاقتصاد :**

وأعلن الرئيس **ضرورة العمل على رفع القيود المعوقة فى قطاع الاقتصاد بما لايضر بنظامنا الاقتصادى ويوفر ضمانات الثقة لرؤوس الاموال المستثمرة** . وفى هذا المجال سيحقق مخطط العمل الجديد **أولا :** اعادة تنظيم البنوك على اساس التخصص فيكون خمسة بنوك كبيرة متخصصة ، **لشئون التجارة الخارجية ، ولشئون التجارة الداخلية ، ولشئون الانتاج ، ولشئون التشييد والاسكان ، ولشئون الخدمات . ثانيا :** وفى مجال التجارة الخارجية انشىء **بنك مصرى دولى للتجارة الخارجية** تكون مهمته تمويل عمليات التجارة الخارجية بين مصر والدول العربية وبينها وبين العالم أجمع . ولا يخضع هذا البنك لقانون البنوك والائتمان المعمول به فى البنوك المصرية ولا يسرى أى من قوانين القطاع العام عليه ، كما لا يخضع نشاطه للضرائب وذلك تشجيعا لرأس المال العربى والاجنبى . **ثالثا :** اقامة هيئة عامة لاستثمار رأس المال العربى والاجنبى ، بهدف اقامة صناعات تصديرية وبعض الصناعات التى يحتاجها الاستهلاك المحلى والتى يتم استيرادها من الخارج ، والصناعات التى تحتاج الى خبرات فنية متقدمة ، ومشروعات الاسكان فوق الاقتصادى والتى يتجه اليها رأس المال العربى وفى هذا المجال سيتمتع رأس المال الاجنبى والعربى بضمانات ثلاث : ١ ــ اعفاء رؤوس الاموال المشتركة فى أى من مشروعات هذه الهيئة الاستثمارية الجديدة من الضرائب لمدة خمس سنوات . ٢ ــ تيسير تحويل ارباحها الى الخارج وكذلك مرتبات وأجور الخبراء الاجانب الذين يحتاجهم العمل فى هذه المشروعات ٣ ــ اعطاء المستثمرين الحق فى تحويل رؤوس أموالهم الى الخارج فى حالات الضرورة .

● **اعادة تنظيم الجهاز الحكومى :**

طالب الرئيس باعادة تنظيم الجهاز الحكومى بمنع التضارب والازدواج وتحديد الاختصاصات . **فأولا :** تحديد دور الاجهزة الخاصة برئاسة الجمهورية ورئاسة الوزراء وتحديد العلاقة فيما بينها أجهزة الحكم والمنظمات السياسية . **ثانيا :** ابراز الاهمية الخاصة فبعض قطاعات العمل التى تقتضيها عملية التنمية والتى تحتاج فى المرحلة القادمة الى دفعة خاصة . وتنظيم الوزارات لضمان تحقيق الاهداف وتكامل الاشراف وعدم تعارض الاختصاصات أو تداخلها أو ازدواجها أو تكرارها ، الامر الذى أوجب الغاء بعض الوزارات ونقل اختصاصاتها الى وزارات أخرى أى الى التنظيم السياسى أو الحكم المحلى . وكذلك تصفية بعض المؤسسات التى لم تحقق أهدافها أو لم يكن انشاؤها ضروريا . ويوجب التنظيم الجديد أن يكون لكل وزارة هيئة متخصصة للتخطيط لضمان سير العمل على أسس وأهداف مخططة وليرتبط التخطيط على المستوى القطاعى والتخصصى بالتخطيط القومى الشامل .

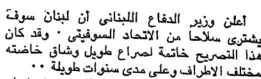
● **الادارة المحلية ونقل السلطة الى الشعب :**

وحدد الرئيس فى بيانه أن نقل السلطة الى الشعب يتحقق بالتطبيق الحقيقى لقانون الادارة المحلية ونقل السلطة باستمرار الى الحكم المحلى وتحقيق اللامركزية وتحقيق المشاركة الشعبية فى اتخاذ القرارات وفى مناقشة المشاكل المحلية . ويقضى قانون الادارة المحلية الجديد بتشكيل مجلسين مجلس شعبى محلى ومجلس تنفيذى على مستوى المحافظة وعضوية رؤساء المصالح بالمحافظات وعدد من ممثلى الوحدات الانتاجية العاملة فى نطاق المحافظة ، وستكون اختصاصات المجلس التنفيذى . . **أولا :** القيام بالاعمال القانونية والاجراءات التنفيذية اللازمة لتنفيذ ما يصدر عن مجلس الشعب من سياسات وخطط وقرارات . **ثانيا :** يقوم فى نطاق السياسة العامة للدولة والسياسة والخطة المحلية للمجلس الشعبى باتخاذ كافة الاجراءات الادارية والتنفيذية والمالية المتعلقة بوضع سياسات وخطط وقرارات المجلس الشعبى للمحافظة موضع التنفيذ وخاصة فيما يتعلق بانشاء وادارة المرافق والمشروعات والهيئات والمؤسسات العامة المحلية والتى تعود بالنفع العام على مجتمع المحافظة والتى تقع فى اختصاص المجلس الشعبى للمحافظة .

وتحددت سلطات المجلس الشعبى ــ فمن سلطته ان يقرر مسئولية المحافظ أو أى موظف ادارى آخر بالمحافظة عن أى أمر من الامور وفى هذه الحالة يقدم بذلك تقريرا الى رئيس مجلس الوزراء لاتخاذ ما يلزم من اجراء حيال المسئول طبقا للقانون . كما أصبحت مشاركة مجلس الشعب واجبة فى كثير من الامور التى يختص بها المجلس التنفيذى طبقا لقانون نظام الادارة المحلية رقم ١٢٤ . وأجاز القانون لاعضاء المجلس توجيه أسئلة ، واستفسارات الى أعضاء المجلس التنفيذى وأوجب القانون على من وجه اليه سؤال أن يجيب عنه . أما مشروعات الموازنة والحسابات الختامية فستعرض على مجلس الشعب للموافقة عليها . وكما أوجب القانون عقد جلسات مشتركة للمجلسين ، أجاز القانون أيضا دعوة الوزراء المختصين لحضور هذه الاجتماعات المشتركة لتساعد مشاركتهم على حل كثير من المشاكل فى نطاق المرافق العامة التى تقوم عليها وزاراتهم .

■ تقرير خاص

• بيروت •



التسلح لماذا؟ وضد من؟



• الياس سابا •

أعلن وزير الدفاع اللبنانى أن لبنان سوف يشترى سلاحا من الاتحاد السوفيتى . وقد كان هذا التصريح خاتمة لصراع طويل وشاق خاضته مختلف الاطراف وعلى مدى سنوات طويلة ..

وذات يوم كتبت جريدة لبنانية تقول « ان لبنان هو البلد الوحيد فى العالم الذى تجرى فيه مناقشات علنية وصحفية حول شراء السلاح ، وحول الاماكن التى سيتم منها شراء هذا السلاح ، وعن مقدار الكميات ونوعية الاسلحة ومراحل التفاوض على شرائها » (**الكفاح — ١٠ — ٥ — ١٩٦٥**) .

ولعل هذا صحيح تماما ، فان أغرب ما يميز « أزمة التسليح » الاخيرة فى لبنان هى علنيتها الكاملة ، وان كل شىء فيها مطروح وخاضع للنقاش .

وحتى الوثيقة السرية الوحيدة التى أعلن وزير الدفاع عن تمسكه بسريتها ورفض حتى توزيعها على النواب فى الجلسة السرية التى أقر فيها المجلس ميزانية التسليح الأخيرة فوجىء الجميع بجريدة الانوار وهى تنشر صورة زنكوغرافية لها وهى تتضمن كل مطلوبات لبنان من السلاح بالنوع والكمية .. (**الانوار — ١ ايلول ١٩٧١**) .

لكن المسألة ليست مجرد « علنية » النقاش ، فان العلنية فى ذاتها قد ترتبت على أن قضية التسليح قد تحولت الى صراع مزمن بين مختلف القوى السياسية فى لبنان .

سياسة « تجنب الشر »

لقد اختطت الرجعية اللبنانية منذ ١٩٤٨ سياسة محددة تجاه اسرائيل ومن ثم تجاه قضية التسليح . ويمكن تلخيص هذه السياسة فى عبارة واحدة « تجنب الصدام » أو كما قال احد قادة الجيش يوما ما « تجنب الشر » .

وبالنسبة للحدود الجنوبية فقد رسمت « الرجعية » اللبنانية سياستها على الاسس الآتية :

● مراقبة الحدود والسهر عليها بوساطة جهاز دفاعى بسيط

● الاعتماد فى حالة أى هجوم اسرائيلى على الجيوش والقوات العربية

● عدم التحرش باسرائيل — ويدخل فى نطاق عدم التحرش — عدم اقامة تحصينات أو مواقع حربية على الحدود الجنوبية .

● الاعتماد فى حماية لبنان على صداقات لبنان الخارجية فهى فى ذاتها قادرة على ردع اسرائيل . (**الصياد — ٩ سبتمبر ١٩٧١**)

واعتمادا على هذا المخطط فان « قضية التسليح » ظلت « خامدة » أو « غير مثارة » بالحدة المطلوبة لبلد لا يملك جيشا بالمعنى المفهوم (١٠٫٠٠٠ جندى متطوع) ذلك أن عدم تسليح الجيش كان فى ذاته بناء على مخطط يدعو الى اشهار مسالمة لبنان وابتعادها عن أى مجال للتحرش أو المصادمة .

وعندما قامت القيادة العربية المشتركة ، ورؤى فى اجتماعاتها تعزيز جيش لبنان ليقوم بواجبه على الجبهة الجنوبية فقد اعتمد لبنان فى تسليحه على شراء بعض الطائرات ثم تسلم بعض الدبابات « كهدية » من **الملك حسين (الاهرام ٣٠ سبتمبر ١٩٦٥)** .

وعندما أقامت « **النيويورك تايمز** » الدنيا وأقعدتها حول ما اسمته صفقة طائرات فرنسية للبنان (**نيويورك تايمز ٣ — ٢ — ١٩٦٦**) رددت الانباء ان اجمالى ما يقال أن لبنان سيشتريه من فرنسا ١٢ طائرة وأن كل ما تمتلكه لبنان هو ٢٦ طائرة فقط .

قضية التجنيد الاجبارى :

وفى مطلع عام ١٩٦٧ ومع تصاعد خطر

المواجهة مع اسرائيل تصاعدت أصوات بعض القوى الوطنية مطالبة بتعزيز الجيش اللبناني حتى يلعب دوره فى المعركة ضد اسرائيل ، وتبلور كفاح هذه « القوى الوطنية » فى المطالبة « بالتجنيد الاجبارى » ٠

وظل الموضوع محل أخذ ورد ، وفى ٢٨-٢-١٩٦٧ أعلن رسميا أن مجلس الوزراء سوف يجتمع ليبحث مشروع « خدمة العلم » أو التجنيد الاجبارى ، لكن الموضوع مالبث أن « ركن » بحجة عدم توفر الاعتمادات (١ ٠ ش ١٠)

وظلت « القوى الوطنية » تصعد من مطالبتها بالتجنيد الاجبارى وتعتبره مطلبا قوميا ووطنيا الى حد أن نظم الطلاب اضرابا عاما مطالبين باقرار مشروع التجنيد الاجبارى وتسليح القرى الامامية . (١ ٠ ش ١٠ ٠ ٩-١١-١٩٦٨) ٠

وفى البرلمان وقف رئيس الحكومة من جديد ليعلن أن ذلك مستحيل لقلة الامكانيات المادية ٠ (و ١٠ ٠ ف ١١ - ١٢ - ١٩٦٨)

ثم كان حادث ضرب مطار بيروت فى نهايات عام ١٩٦٨ ، وكان لشلل وعجز القوات اللبنانية المسلحة عن فعل أى شىء تجاه المهاجمين ردود فعل خطيرة على الشعب اللبنانى وحتى بالنسبة « للدوائر العليا » اللبنانية فقد وجدت أنه يتعين عليها أن تعيد حساباتها من جديد ٠ وان سياسة « المسالمة بالظهار الضعف » أو سياسة « تجنب الشر » ليست كافية وحدها .

اعادة حساب الموقف :

وهكذا بدأت عمليات اعادة الحساب ...

● فالجيوش العربية التى كان لبنان يعتمد عليها للدفاع عن حدوده قد تعرضت للهزيمة ٠

● وصداقات لبنان اتضح بعد حادث المطار أنها ليست كافية لردع اسرائيل ٠

● وعدم التحرش أصبح فى ذاته غير ممكن نظرا لتمركز بعض قوات الفدائيين فى بعض أماكن جنوب لبنان ٠

وهكذا أعلن متحدث عسكرى لبنانى أن القيادة العليا للجيش قدمت الى مجلس الوزراء مشروع قانون خاص « بالتجنيد الاجبارى » (رويتر - ٥ - ١ - ١٩٦٩)

لكن «القوى المحافظة» كانت لا تزال بغيرحاجة الى جيش ٠ وتعثرت مناقشات مشروع « خدمة العلم » فى مجلس الوزراء أمام معارضة « ريمون اده » الذى أعلن أن لبنان بلد غير عسكرى بطبيعته وان حماية حدوده الجنوبية لاتكون بغير « وضع وحدة من قوات الامم المتحدة على خطوط الهدنة، أو بالحصول على ضمان من الدول الاربع الكبرى لامن لبنان » (الاهرام ٦ - ١ - ١٩٦٩)

وظلت « القوى الوطنية » تطالب بتسليح الجيش وبالتجديد الاجبارى وامتلات شوارع المدن اللبنانية بالمظاهرات مطالبةبتسليح قرى الجنوب وحمايتها ٠

وأخيرا ٠٠ وبعد كل هذا الصراع اقر مجلس الوزراء فى ٢٣ - ٤ - ١٩٦٩ قانون « خدمة العلم » لكنه كان مجرد محاولة شكلية لتهدئة الموقف ، ذلك أن مجلس الوزراء قد أعلن « أن الدراسات الخاصة بالقانون قد اوضحت أنه سيشمل ١٢ ألف مجند يحتاج تدريبهم الى ٢٠٠ ضابط والى ١٤٠٠ عريف ورقيب ، وأنه من المتعذر تامين هذا العدد نظرا للاوضاع الراهنة وقيام وحدات من الجيش بمهام قتالية وحراسات فى كافة الاراضى اللبنانية »

ولهذا قرر القانون أن يبدأ « كمرحلة أولى » بالتدريب العسكرى لطلاب الجامعات والمدارس الثانوية ، وفى المرحلة الثانية يصدر مرسوم بالتدريب العسكرى الشامل لجميع اللبنانيين الذكور ، كذلك أعلن أنه نظرا لعدم توفر الامكانيات اللازمة لتنفيذ المشروع وهى مبلغ ٨٣ مليونليرة فقد اقترحت وزارة الدفاع توزيع هذا المبلغ على ست سنوات ٠

وعندما أعربت الجماهير والقوى الوطنية اللبنانية عن عدم رضاها عن هذا القانون القاصر صرح **السيد - رشيد كرامى** رئيس الحكومة فى ذلك الحين « أن أى قرش سيدفعه لبنان لميزانية الدفاع من شأنه أن يزيد الضرائب وهو ما لا يتحمله الشعب اللبنانى فى الظروف الاقتصادية الصعبة التى مر ويمر بها » (١٠ ش ١٠ ٧ - ٨ - ١٩٦٩)

وحتى منتصف عام ١٩٧٠ كانت الرجعية اللبنانية ترفض تسليح الجيش وتدعو الى أن « يثبت لبنان حسن نواياه » بعدم اقامة أية استحكامات أو استعدادات . وعندما عرضت حكومة رشيد كرامى على البرلمان مشروع ميزانية هزيلة قيمتها ٦٠ مليون ليرة (٨ ملايين جنيه) لتعزيز القدرات الدفاعية للجيش اللبنانى لجأت احزاب « الحلف الثلاثى : شمعون - اده - الجميل » الى مقاطعة جلسات البرلمان فلم يتوفر النصاب القانونى وبهذا شل البرلمان وعجزت الحكومة عن اقرار المشروع ، وانتهت الدورة البرلمانية دون اقراره (الاهرام ٣١-٥-١٩٧١)

وفى مواجهة ذلك نظمت اتحادات العمال والطلاب سلسلة من المظاهرات والاحتجاجات ومرة أخرى أعلن الامام موسى الصدر ان اللاجئين حول بيروت من قرى الجنوب (٣٠ الف لاجىء) سوف يزحفون على بيروت مطالبين بتعزيز وتسليح مواقع الجنوب .

تغير مفاجىء ؟

وفجاة انقلبت الصورة رأسا على عقب . القوى المحافظة تطالب بالتسليح . والقوى الوطنية والتقدمية تقاوم .

ولم يكن الامر كما حاولت بعض الصحف اللبنانية أن تصوره « ساسة يلعبون لعبة الكراسي الموسيقية » أو مجرد خلافات شخصية بين **صائب سلام** وكمال **جنبلاط** ، وانما كان لهذا التحول المفاجىء أسبابه الموضوعية .

فمذابح السلطة الاردنية ضد الفدائيين والتى أدت الى « تطهير » الاردن منهم على حد قول « **التل** » قد أثارت شهية الرجعية اللبنانية لتقوم بعمل مماثل لكن الامر يتطلب بعض المعدات والتجهيزات حتى يمكن انجاز هذه « المهمة »

وهكذا فان **الشيخ بيار الجميل** – الكتائب – الذى صرح بانه « بصراحة يلمس الخطر الهدام فى الداخل وليس فى الخارج ، وقال ايضا انه وبصراحة – مرة أخرى – لا يخاف من العدو الاسرائيلى لان قوة لبنان ليست فى عسكره ودباباته وطائراته بل هى فى قيمته ومكانته الدولية وعلاقاته الطيبة مع الدول المتمدنة » (**الانوار ٣٠ أغسطس ١٩٧١**) تقول ان الجميل يغير من موقفه وبسرعة مذهلة فيصرح فى اليوم التالى مباشرة « ان تقوية الجيش وتعزيز امكانياته موضوع لا يختلف عليه اثنان ، ولكن اذا انفقنا المائتى مليون ليرة دون ان نعالج الاساس ، نكون كمن يداوى المرض بالمسكنات . واقصد بذلك ان لكل بلد خصائصه ، ولبنان ليس دولة عسكرية وليس من طبيعته ورسالته أن يكون دولة عسكرية .. فمن الطبيعى الا تكون سياسته الدفاعية سياسة عسكرية بحتة » ، ثم يتناسى « **الجميل** » كل أحداث الماضى ويقول « ان المخربين والهدامين لا يريدون أبدا أن يكون لنا جيش قوى لانهم حرب على استقرار البلاد » . (**الانوار ١ سبتمبر ١٩٧١**)

أما – اده – الذى طالب فى فترة سابقة بعدم تسليح الجيش والاكتفاء بقوة طوارىء دولية فانه يصرح هو أيضا « انه مادام الجيش موجودا فيجب أن يتسلح ولكنه قال انه لو حضر جلسة اقرار قانون الـ ٢٠٠ مليون ليرة لكان طرح هذين السؤالين :

اولا : اذا اصبح بامكان الجيش أن يرد عدوانا كالعدوان على الصرفند فهل ستأمر الحكومة الجيش بأن يرد هذا العدوان ؟

ثانيا : اذا أمرت الحكومة الجيش اللبنانى بأن يرد فى معركة شبيهة بمعركة الصرفند فهل بامكانه أن يرد هجوما أكبر سيتم حتما من قبل الجيش الاسرائيلى وربما تستفيد اسرائيل من هذه المعركة لاحتلال جنوب لبنان حتى الليطانى ؟ » (**الانوار ١ سبتمبر ١٩٧١**)

ودلالات الاسئلة واضحة وليست بحاجة الى تعليق .

وفى مواجهة ذلك فان القوى الوطنية والتقدمية عارضت المشروع . وقدم **جنبلاط** مشروعا مضادا طالب فيه بتخصيص ٤٠ مليون ليرة فقط للتسلح و ١٦٠ مليونا لمشاريع التنمية .

وتقول « **الصياد** » ان جنبلاط لم يخف مخاوفه وأنه قد طرحها تفصيلا فى الجلسة السرية لمجلس النواب وأوردت عنه أنه قال « ان مشروع الحكومة قد أشاع القلق فى صفوف العمال والاجراء والطلاب وقادة الحركة الوطنية والعربية .. كما لا أكتم أن جماهير أخواننا الفلسطينيين والفدائيين قلقة لهذا المشروع الذى يصدر بهذه الاسباب الموجبة التى يبدو منها وكأنه وضع لكبت الحريات وتسييس الجيش وجعله يتدخل فى السياسة للوقوف فى وجه الفكر فى هذا البلد » .

وقال **جنبلاط** أيضا « نحن لا نريد أن يتحول هذا البلد الى دوامة للانقلابات العسكرية . فاذا تمت تقوية الجيش منفصلة عن التنمية الاقتصادية والاجتماعية وتنظيم الحكم اللبنانى لكى يمكن من المشاركة الشعبية . وعندما لاتكون عناصر الدفاع ملتزمة بالقاعدة الشعبية ونابعة منها بأسلوب التجنيد الالزامى ، فانه يحق لنا أن نتساءل عن مصير هذا البلد وعما اذا كنا سنتعرض لمسلسل انقلابات عسكرية أو ما اشبه ، كذلك تساءل جنبلاط لماذا لم تستفد الحكومة من التعهد الذى قدمه الرئيس الليبى **معمر القذافى** بتسليح لبنان .

وردا على هذه المخاوف **تحدث وزير الدفاع بما** يؤكد المخاوف ويزيدها فقال ان من مهام الجيش « مساعدة قوى الامن فى حفظ النظام وحمايته من أى خطر يتهدده . ومن البديهى أن الجيش هو حامى النظام .. وبالتأكيد فاننى لن اتردد فى القيام بواجبى – كوزير للدفاع – اذا ما قامت فى البلاد ثورة .. أى لو كلفنى مجلس الوزراء الحائز على ثقة مجلس النواب المفترض انه ممثل الشعب بقمع أى تحرك معاد للنظام فلن أتردد لحظة فى تنفيذ هذا التكليف » (**الصياد ٩ سبتمبر ١٩٧١**)

والان .. ما هى الصفقة محل النزاع ؟

تقول الانوار فيما أسمته باللائحة السرية لخطة التسليح الخمسية انها لا تتضمن أية صواريخ أو شبكات رادار أو طائرات حربية ، وانما فقط « دراجات نارية وسيارات جيب وسيارات نقل عسكرية كبيرة ، وشاحنات وسيارات بيك آب .

وجرافات بالاضافة طبعا الى دبابات ومصفحات ومدفعية ميدان » (**الانوار ١ سبتمبر ١٩٧١**)

ولعل طبيعة هذه المعدات كافية بذاتها لتوضيح طبيعة المهام المتوقع استخدامها فيها وهى التى دفعت بالشيوعيين اللبنانيين الى اعلان ان تسليح الجيش يجب ان يكون بمعدات تمكنه من مجابهة العدو الخارجى ومن حماية أرض الوطن (شبكات رادار ، صواريخ ـ طائرات مقاتلة ٠٠ الخ) أما تزويده بمثل هذه المعدات المقترحة فهو أمر يوحى بأن العملية كلها متعلقة بصراعات محلية (**الفداء ـ ١١ آب ١٩٧١**) .

واخيرا وبعد ان تقرر « التسليح » بدات معركة أخرى هى كيف نتسلح ومن اين ؟ وفى البداية صرح **الياس سابا وزير الدفاع اللبنانى** « انه لا يوجد مانع لدى لبنان لشراء الاسلحة من الدول الشرقية • وقال ان حكومته ستشترى السلاح من الدول التى تقدم عروضا أفضل سواء أكانت شرقية أو غربية » (**الجمهورية ٢٠ـ٧ـ١٩٧١**)

غير أن سابا عاد ليتنكر لفكرة شراء السلاح من الدول الاشتراكية فأعلن « ان لبنان لن يشترى السلاح من الدول الاشتراكية ويبرر ذلك باستحالة الحصول على قطع غيار لهذه الاسلحة فى حالة قطع العلاقات مع هذه الدول » (**الاهرام ٢١ ـ ٣ ـ ١٩٧١**)

لكن الامور تتطور بسرعة ويعلن « **سابا** » مرة أخرى فى ٢٩ أغسطس ١٩٧١ « أن لبنان سيشترى السلاح من الاتحاد السوفيتى » •

ثم يصرح بعد يومين «ان الحكومة لاتشعر بأى حرج فى شراء السلاح من الاتحاد السوفيتى • وأنها سوف ترسل بعثات الى سوريا وغيرها من الدول العربية للتدريب على استعمال السلاح •

واخيرا ٠٠ استقرت المعركة العنيفة التى تدور منذ ١٩٤٨ على أن يتسلح الجيش ، لكن السؤال المطروح الان وبالحاح التسلح لماذا ؟ وضد من ؟ •

د• رفعت السعيد

■■■

■ **اوغندا واثيوبيا :**

بارليف يفتش عن « الاعماق »

ينظر المراقبون السياسيون الى الزيارة التى قام بها حاييم بارليف ـ رئيس أركان حرب الجيش الاسرائيلى ـ الى كل من **اوغندا واثيوبيا** ، فى اطار مجريات الاحداث الخاصة بقضيتين محوريتين : الصراع العربى الاسرائيلى ، والعلاقات الخاصة بين اسرائيل وهاتين الدولتين . ويجمع كل المراقبين على أن زيارة بارليف الى هاتين الدولتين ـ فى هذا الوقت « ذات دلالات سياسية وعسكرية خطيرة »

فقد تواترت ـ فى الآونة الاخيرة ـ انباء ، شبه مؤكدة ، عن أن اسرائيل « قد أجرت جزيرة أثيوبية على الساحل الافريقى » . وجدير بالذكر أن حكومة **اليمن الجنوبية** قد طلبت فى مذكرة لها الى **الجامعة العربية** ، أن يعرض للبحث فى مجلس الجامعة « سعى اسرائيل لاستئجار جزيرة **هليب** الواقعة على **البحر الاحمر** والتابعة لاثيوبيا ، لتحويلها الى قاعدة عسكرية . » ولا يخفى المراقبون فى نظرتهم الى هذه الانباء ، أن يربطوا بينها وبين النتائج الاستراتيجية **لاتحاد الجمهوريات العربية** ، وازماع حكومة السودان الانضمام الى الاتحاد . وفى هذا الصدد يذكر المراقبون حديث الرئيس **أنور السادات** الذى أشار فيه الى الاعماق الاستراتيجية الجديدة ـ من جهة الغرب فى ليبيا والجنوب فى السودان ـ التى توفر ميزات عسكرية جديدة للجانب العربى فى الصراع مع اسرائيل . هذا ، بالاضافة لما يعنيه ان تكسب اسرائيل « أرضا ثابتة » مجاورة لحدود السودان الجنوبية واهتمامها بتغذية عناصر التمرد فى جنوب السودان وآثار ذلك على حجم الدور الذى يمكن أن يلعبه السودان فى الصراع مع اسرائيل .

ومن رأى المراقبين ايضا أن اسرائيل ـ عشية اجتماع الدورة الجديدة للجمعية العامة للامم المتحدة ومجلس الامن ـ تسعى الى « تفجير موقف » بين أثيوبيا والدول العربية ، وما يمكن أن ينجم عن ذلك من تأثير على موقف أثيوبيا التى تؤيد قرار مجلس الامن الصادر فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ ، والتى شاركت فى « **لجنة الرؤساء العشرة الافريقيين** » المنبثقة عن مؤتمر القمة الافريقى الاخير .. لتحريك أزمة الشرق الاوسط وايجاد حل لها .

ويربط المراقبون بين هذه الزيارة وبين الاستراتيجية الاسرائيلية العامة المتعلقة بأوضاع البحر الاحمر . فموقع هاتين الدولتين على البحر الاحمر يحقق أهداف اسرائيل التى تتحدث عنها صحيفة **دافار** الاسرائيلية بوضوح فتقول « .. لقد حاربت اسرائيل مرتين من أجل حرية الملاحة فى البحر

الاحمر والمحيط الهندى ، ولابد لها من أن تستغل العلاقات الميسرة فى شرقى أفريقيا وفى آسيا » . [دافار — ٢٧ يونيو ١٩٦٩] .

ومن المعروف أن تجارة اثيوبيا مع العالم الخارجى تمر عبر ميناء « **ايلات** » منذ اغلاق قناة السويس فى عام ١٩٦٧ . وتقوم اسرائيل بتقديم ما تسميه « بمساعدات فنية » [اكثر من ١٥٠ خبيرا وفنيا اسرائيليا فى أثيوبيا] بالاضافة الى توليها مشروعات حفر الآبار وبعض المشروعات الزراعية فى أثيوبيا .

أما أوغندا — وبخاصة فى ظل حكومة **ايدى أمين** — فتعلق عليها اسرائيل أهمية استراتيجية كبيرة . فبالاضافة الى استثماراتها فيها وقيامها ببعض المشروعات الانشائية [البناء اساسا] ، فان الجنرال ايدى أمين يحتفظ بأواصر صداقة خاصة وشخصية مع المسئولين الاسرائيليين وخاصة حاييم بارلييف وموشى ديان . فحينما زار ايدى أمين اسرائيل فى يوليو ١٩٧١ كان يضع على صدره وسام فرقة المظلات الاسرائيلية الذى فاز به اثناء تدريبه فى فرقة المظلات بتل أبيب عام ١٩٦٤ . ومعروف أنه كان قد زار اسرائيل عام ١٩٦٨ بدعوة خاصة من بارلييف . وفى ختام زيارته الاخيرة لاسرائيل (١٩٧١) أعرب عن أمله فى « أن يقوم وزير الدفاع الاسرائيلى ورئيس الاركان فيها بزيارة أوغندا قريبا . » وقد وجه الدعوة لهما شخصيا لاتمام هذه الزيارة التى لباها بارلييف مؤخرا .

والجدير بالذكر أن اسرائيل قد وافقت على بيع اسلحة بمليون دولار الى أوغندا ، بناء على طلب ايدى أمين . وينظر المراقبون الى أهمية امدادات الاسلحة هذه ، على ضوء اشتباكات الحدود التى جرت أخيرا بين **تنزانيا** وأوغندا .

■ تقرير خاص

● موسكو ●

خروشوف .. بين الأصدقاء والأعداء



● خروشوف ●

من أصدق ما قيل فى خروشوف العبارة التى قالها انه سيرجى **على قبره لحظة** دفنه يوم ١٢ سبتمبر الماضى : « **لم يكن هناك من يقف من أبى موقف اللامبالاة ، فقد كان هناك من يحبونه وكان هناك من يكرهونه ، ولكن لم يكن هناك من يتجاهله** » .

وترجع هذه الحقيقة الى أن خروشوف خلال فترة توليه السلطة من منتصف الخمسينات حتى قرب منتصف الستينات فى الاتحاد السوفيتى ، قد خاض معارك كبيرة رئيسية فى مجالات عديدة، بصرف النظر عن اختلاف الآراء فى مدى ما أصابه فيها من توفيق أو اخفاق ، وبصرف النظر عن تقييم الاخرين لمدى النفع الذى حققته الحركة الشيوعية العالمية أو الضرر الذى جنته من وراء خوض هذه المعارك الكبيرة العديدة .

لقد شغل « نيكيتا خروشوف » منصب السكرتير العام للحزب الشيوعى السوفيتى من سبتمبر عام ١٩٥٣ [أى بعد ٦ أشهر فقط من وفاة ستالين حتى اكتوبر عام ١٩٦٤ ، وشغل منصب رئيس مجلس الوزراء

السوفيتي من مارس عام ١٩٥٨ الى اكتوبر ١٩٦٤ ، أي حتى تنحيته من رئاسة الوزراء وسكرتارية الحزب اللذين جمع بينهما كما جمع بينهما ستالين من قبل . **وكانت فترة وجود خروشوف في السلطة فترة تحولات كبيرة في الاتحاد السوفيتي داخليا ، وفترة تحولات كبيرة في السياسة الدولية بالمثل . وكانت للمعارك الداخلية والخارجية التي خاضها خلال تلك الفترة آثارها المتبادلة على الصعيدين الداخلي والخارجي .**

المؤتمر العشرون والمعركة ضد الستالينية :

على أن **اسم خروشوف يرتبط أكثر مما يرتبط بأي شيء آخر بالمؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي . لان هذا المؤتمر شهد أكبر معارك خرشوف على الاطلاق « وهي معركته ضد الستالينية »** وكانت بطبيعتها ومداها معركة داخلية وخارجية في آن معا . فان المفاجأة التي حملها تقرير خروشوف أمام ذلك المؤتمر الى العالم — وهي فترة الضيق لستالين وعبادة الفرد واتهاماته العديدة بالدكتاتورية والارهابية — تشكل نقطة تحول بالغة الاهمية في الحركة الشيوعية العالمية ، لم تؤثر في الحياة السياسية فحسب للدول الاشتراكية ، بل اثرت في كل أوجه النشاط السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري والعلمي فيها على أوسع نطاق .

وابتداء من نقد خروشوف واتهاماته لستالين وقعت سلسلة أحداث تاريخية هامة في مقدمتها **الصدع الكبير في علاقات الحزبين الشيوعيين السوفيتي والصيني** . ويأتي بعده أحداث بولندا **والمجر** في خريف عام ١٩٥٦ وبالنسبة للتطورات الداخلية في الاتحاد السوفيتي نفسه كانت هناك معركة خروشوف ضد زعماء الحزب الشيوعي السوفيتي « الستالينيين » الذين وجه اليهم تهمة « العداء » للحزب [**فياسيسلاف مولوتوف** — جورجي **مالينكوف** — لازار **كاجانوفيتش** .. الخ] .. هذا من الناحية السياسية والصراعات داخل الحزب . **أما** من الناحية الاقتصادية الاجتماعية فان فترة حكم خروشوف ، وبالاحرى فترة زعامته للحزب الشيوعي السوفيتي — قد تميزت **بالاتجاه لتحقيق الاصلاحات الاقتصادية** التي كانت الحاجة الموضوعية قد أصبحت ملحة الى تحقيقها ، وهي تلك التي تتمثل في الاهتمام **بالإنتاج الاستهلاكي بعد سنوات البناء** وتقشفها .

التعايش السلمي

وقد أطلق خروشوف عددا من الشعارات الاساسية التي اعتبرها البعض ترديدا لأفكار لينينية قديمة ، واعتبرها البعض تطويرا لهذه الأفكار اللينينية . واعتبرها آخرون مبادىء جديدة تماما في السياسة السوفيتية وتعني بهذه الشعارات « **التعايش السلمي** » . « **التنافس السلمي بين النظامين الاشتراكي والرأسمالي** »، « **الانتقال بلا عنف من الرأسمالية الى الاشتراكية** » « **الطرق الوطنية المختلفة الى الاشتراكية** »، الخ .

وتحت هذه الشعارات خاض خروشوف عددا حافلا من المعارك :

● **معركته ضد الحزب الشيوعي الصيني**، وقد تميزت فترة خروشوف بشكل واضح بتعمق الخلافات الايديولوجية والنزاعات على نطاق أوسع بين الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية . ووصل النزاع السوفيتي الصيني الى أوجه في السنوات السابقة مباشرة على تنحية خروشوف . وتميزت هذه الفترة بتبادل الاتهامات الحادة بين الحزبين بدرجة لم يسبق لها مثيل .

● **معركته من اجل تحقيق نزع السلاح** ، وقد شهدت فترة خروشوف أول انجاز هام في هذا المجال بتوقيع معاهدة موسكو للحظر الجزئي على التجارب الذرية . وقد تم ذلك في اطار دعوته للتعايش السلمي وسعيه للالتقاء بزعماء الغرب ، وكان اجتماعه بايزنهاور عام ١٩٦٠ — على سبيل المثال — أول اجتماع قمة سوفيتي غربي منذ الحرب العالمية الثانية .

● **معركته من اجل اعادة الحزب الشيوعي اليوجوسلافي** ، ورابطة الشيوعيين اليوجوسلاف ، بزعامة تيتو الى صفوف الحركة الشيوعية العالمية . وقد حققت العلاقات بين الاتحاد السوفيتي ويوجوسلافيا خلال فترة خروشوف تقدما ملموسا استمر بعده بصورة طبيعية .

● معركته **للتغيير الداخلي في الاتحاد السوفيتي** بأبعاد هذا التغيير :

— **السياسية** متمثلة في الانتقال من « دكتاتورية البروليتاريا » الى « دولة كل الشعب » ومن الحزب البروليتاري الى حزب كل الشعب .

— **الاقتصادية** متمثلة في البرامج الاصلاحية العديدة في مجالات الانتاج الصناعي والزراعي وادخال مبادىء حرية الادارة والحوافز وتلبية الحاجات الاستهلاكية .

— **الفكرية** متمثلة فيما أصبح يعرف بظاهرة

« ذوبان الجليد » [أى التخلص من الجمود العقائدى الستالينى] فى الانتاج الادبى والفنى والفكرى عامة فى الحياه السوفيتية .

● معركته فى صف **حركات التحرر الوطنى** فى العالم . وفى هذا الاطار كان الدور الذى لعبته فترة خروشوف فى **دعم وتعميق العلاقات السوفيتية المصريه او خروج الاتحاد السوفيتى ــ لاول مرة على هذا النطاق ــ الى « العالم الثالث » كله فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. ولقد كانت معركة خروشوف فى تأييد حركة التحرر العربى فى مراحلها وصراعاتها المتتالية من منتصف الخمسينات الى منتصف الستينات الاساس الذى أرسى القواعد للعلاقات القائمة حاليا بين الاتحاد السوفيتى وشعوب الامة العربية وهى تواجه صراعا آخر حادا يفوق فى ضراوته صراعاتها السابقة التى وقف فيها الاتحاد السوفيتى الى جانبها ضد الامبريالية الامريكية والتوسعية الاسرائيلية .**

أزمة كوبا :

● معركته ضد **المحاولات الامبريالية الامريكية لتطويق الاتحاد السوفيتى** عسكريا واستراتيجيا وضرب نطاق ضد قيام أى نظام تقدمى فى نصف الكرة الغربى، وهذه المعركة، كما تمثلت فى مشكلة كوبا عام ١٩٦٢ ــ تعتبر فى نظر الكثيرين أخطر معركة خاضها خروشوف على الاطلاق من حيث اسهامها فى تقرير مصيره السياسى ، ثم فى تقرير استراتيجية الاتحاد السوفيتى كلها بعد ذلك . وقد جرت عليه مشكلة ادخال الصواريخ السوفيتية الى كوبا ثم سحبها فى ذلك الوقت انتقادات حادة من كثير من الجوانب ، وكانت موضع نقد من جانب **الصين** بالذات التى **اعتبرت ادخال الصواريخ « مغامرة » وسحبها بمثابة « تسليم »** . وكان هدف خروشوف المعلن آنذاك مواجهة الوجود الذرى الامريكى فى تركيا على مرمى الهدف من الاراضى السوفيتية .

أسباب تنحيته :

وفى كل المعارك التى خاضها خروشوف فان أسلوبه قد تميز بالدينامية والنشاط حتى اصبح مركزا لاهتمام عالمى واسع النطاق فى كل تحركاته وتصريحاته الكثيرة، واكتسب شعبية واسعة فى كثير من البلاد حتى الراسمالى منها . ولهذا كان لتنحيته الفجائية فى أكتوبر عام ١٩٦٤ وقع هائل فى العالم ـ وقد قيل الكثير فى أسباب تنحية خروشوف . ويبدو ان الاحتمال الارجح هو أن كل الاسباب التى سيقت تد أسهم فى قرار الحزب الشيوعى السوفيتى بتنحيته من رئاسة الحكومة ومن منصب السكرتير العام للحزب . وتتناول هذه الاسباب فى مجموعها :

١ ــ السياسة الاقتصادية للاتحاد السوفيتى خلال السنوات الخمس الاخيرة من فترة خروشوف أى السنوات من ١٩٦٠ الى ١٩٦٤ . وبصفة خاصة فى مجال الانتاج الزراعى وما تعرض له من معوقات .

٢ ــ تعمق الخلافات المذهبية بصورة حادة بين الاتحاد السوفيتى والصين . ومسئولية خروشوف عن « أسلوب الصراع » المذهبى ضد الصين .

٣ ــ الاضرار السياسية والمعنوية التى لحقت بالاتحاد السوفيتى عالميا نتيجة **أزمة الصراع السوفيتية فى كوبا** ومسلك خروشوف تجاهها .

٤ ــ **انفراد خروشوف بالسلطة** الى حد كاد يعيد الى الاذهان ــ فى رأى بعض المراقبين ــ الاسلوب الستالينى فى ممارسة السلطة فضلا عن اتهام خروشوف باعادة ظاهرة عبادة الفرد بتركيز اهتمام شديد بشخصه .

وبقدر ما حدث اختلاف فى تحديد « أخطاء خروشوف » التى أدت الى تنحيته ، حدث **اختلاف فى تقييم هذه « الاخطاء »** . اعتبرها البعض أخطاء « استراتيجية » واعتبرها البعض الآخر مجرد **أخطاء فى التكتيك** . وأصحاب كل من هذين الرأيين يجدون مبرراتهم فى سياسة القيادة الجماعية السوفيتية التى تولت السلطة بعد خروشوف (بريجنيف وبودجورنى وكوسيجين) .

وفى الوقت نفسه فان بعض المراقبين ــ من داخل العالم الشيوعى نفسه ــ يقيمون فترة سلطة خروشوف بأنها كانت فترة انتقالية ، بمعنى أنه لا يمكن القول بأنه كان هناك « **عهد خروشوفى** » على نحو ما كان هناك « عهد ستالينى » لان خروشوف لم تكن له أفكار سياسية خاصة به ، ولانه تولى السلطة لمدة تعادل ثلث المدة التى تولاها فيها ستالين ، ولان خروشوف نفسه كان قد تجاوز الستين من عمره عندما تولى السلطة بينما كان ستالين فى الاربعين .

كذلك يقيم بعض المراقبين من داخل العالم الشيوعى خروشوف بأنه **انعكاس للتوازن الاجتماعى فى الاتحاد السوفيتى فى النصف الثانى من الخمسينات** وهى الفترة التى كان فيها وزن الطبقة الفلاحية التى أصابت حظا قليلا من التقدم أرجح بكثير مما هو عليه الآن فى بداية السبعينات . وهؤلاء يعتبرون أن خروشوف كان يقف على التخوم بين روسيا القديمة والحديثة . وأن قوة الخروشوفية فى وقتها أنها كانت انعكاسا لهذا الخليط .

ولا تنســينا المحــاولات والآراء المختلفة فى تقييم دور خروشـــوف أن الغرب قد قام بأكبر الجهود دائما لاستغلال مواقف خروشـــوف فى حملات الدعاية البشعة ضد الاتحاد السوفيتى وضد الدول الاشتراكية الاخرى . بدأ باستغلال بيان خروشـــوف فى المؤتمر العشرين للحـــزب الشيوعى السوفيتى ضـــد ســتالين ، وانتهى « باخراج » ما يسـمى بمذكرات خروشوف فى أواخر عام ١٩٧٠ ، وقد كشفت مصادر غربية حقيقة انتماء هذه المذكرات الى المخابرات المركزية الامريكية ، فضـــلا عن البيان الـــذى أصـــدره خروشوف نفسه فى موسكو مؤكدا انه لم يسلم مذكراته الى اى ناشر أجنبى .

على أنـــه أيا كـــانت الاختـــلافات فى تقييم خروشوف وفترة حكمه ، وأيا كانت محـــاولات الغرب لاستغلالها ضد الاتحاد السوفيتى وضد الاشتراكية بوجه عام ، فان هناك اتفاقا واضحا على أن خروشوف قد قامبدور كبيرفى فترة مابعد الستالينية ، وأن فترته فى السلطة قد أرسـت الاسس التى تقوم عليهاسياسة الاتحادالسوفيتى فى الوقت الحاضر فى أكبر دوائر نشـــاط هذه السياسة : الدائرة الداخلية ودائرة العلاقات داخل العالم الشيوعى ، ودائرة القوى الاعرض المناهضة للامبريالية ، ودائرة العلاقات الدولية فى اطارها الاوسع .

ســمير كرم

■ ■ ■

■ **الولايات المتحدة :**

أزمة الدولار .. وصـــــراعات العالم الرأسمالى

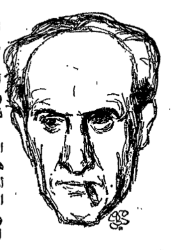
لا جدال فى أن أزمة الدولار قـــد فجرت عمق الخلافات الناشبة بين الدول الرأسمالية الكبرى، فعندما اهتزت الثقة بالدولار كعملة رئيسية فى نطاق العالم الرأسمالى وتدفقت ملايين الدولارات الى الخارج بواسطـــة الافراد و « المضـــاربين » لتحويلها الى عملات أخرى أكثر قوة واستقرارا مثل : المارك الالمانى والين اليابانى كانت هـــناك الاسباب الواضحة التى أدت الى فقدان الثقة فى أسواق النقد ، ومن أبرز هذه الاسباب العجز المتزايد خلال هذا العام « فى الميزان التجارى » لزيادة الواردات من الخارج . فبعـــد أن كان الفائض فى عمليات التجارة الخارجية يخفف من التأثير الكلى لعجز ميزان المدفوعـــات الامريكى انقلب هذا الفائض الى عجز واضح اثناءالشـهور الماضية ، وأشارت وزارة التجارة الامريكية أن التدهور فى الميزان التجارى قد وصل عام (١٩٧١) الى ٢ بليون دولار بعـــد أن سجل فائضا مقداره ١ر٢ بليون دولار فى العام الماضى . وقد صاحب نمو النفقات العسكرية غير المنتجةوزيادة المعونات العسكرية للدول الحليفة والتابعة العوامل التى سبق ذكرها مما جعل المراقبين فى جميع انحـــاء العالم يتوقعون الاجراء السريع لتخفيض قيمـــة الدولار بعد أن أصبح واضحا بأنه مقيما بأعلى من سعره الحقيقى ــ وفى مواجهـــة هـــذه الازمة الطاحنة التى لم يتعرض لها الدولار منذ ٣٧ عاما كانت الولايات المتحدة تبحث عن مخرج ينتشلها من هذه الازمات بدون أن تقوم رسميا باعـــلان خفضه ، والحد من الانفـــاق العســـكرى وازالة القواعد العسكرية المنتشرة فى جميع أنحاء العالم والتى وصلت الى ٢٠٠٠ قاعدة ... رغمأن كل الاوضاع والظروف كانت تشير منذ شهر مارس ١٩٦٨ بأن الدولار لم يعد محتفظا بمكانته كعملة رئيسية دولية ، « فسعر الصرف » الذى احتفظت به الولايات المتحدة بواقع ٣٥ دولارا لكل أوقية من الذهب أدركه الاهتزاز عندما اشتد الطلب على الذهب وظهرت « حمى المضاربة » على العملات الاخرى تخلصا من الدولار ، بيد انه عندما رفضت الحكومة الامريكية بأن تقوم بهـــذا الخفـــض الرسمى لقيمة الدولار كانت هناك محاولات أخرى من جانبها لعلاج هذه الازمات ومحاولات التخلص منها ومن أبرز هذه المحاولات البديلة ما لجأ اليه الرئيس الامريكى « نيكسون » فى فرض رسم اضافى علىالواردات مقداره١٠٪ ،ولقدأدىهذا الاجراء الى آثار واضحـــة ســـواء فى داخل الولايات المتحدة وخارجها ، ففى نطاق الخارج نجد أن أسهم الشركات الغربية التى تعتمدبعض منتجاتها على التصدير الى السوق الامريكى قـــد انخفضت بشكل واضح ، ثم القيام ببيع العديد من هذه « الاسهم » بسبب عدم وضوح الرؤية للمستثمرين ازاء الاضطرابات المستمرة فى نظام النقد الدولى .وفىداخل الولاياتالمتحدةارتفعت أســـهم أغلب الشركات وعلى الاخص الشركات التى كانت معظم منتجاتها تواجه المنافسة مـــن الخارج ، وعندما قامت بعض الدول من ناحيـــة أخرى « بتعـــويم » عمـــلاتها ازاء الدولار بحيث أصبحت هذه العملات غيرمستقرة عند معـــدل ثابت للصرف بل سمح لها بالتقلب معتمدة فىذلك

على قوى « العرض » و « الطلب » — **كان هذا يعنى فى اتجاهه رفع أسعار الصرف لهذه العملات وهو ما ترغب فيه الولايات المتحدة** ، وهنا يتعين علينا أن نلقى هذا الاستفسار لماذا ترغب الولايات المتحدة فى « تعويم » أسعار الصرف لهذه العملات ؟!!

ان هذه الرغبة تحاول أن تبرز الى الوجود فكرة « معدلات الصرف المرنة » ، وهومايعنىفى اتجاهه التخلى عن مبدأ « تعادل القيم الثابتة للعملات » بيد أن المعارضة الشديدة أزاء فكرة « معدلات الصرف المرنة » قد ظهرت بشكل واضح من جانب دول غرب أوروبا فهذه الدول على يقين تامبأن نظام « معدلات الصرف المرنة » سوف يقدم المزايا الاقتصادية والسياسية للولايات المتحدة ، وان ما يرغب فيه الامريكيون من وراء ذلك الاقتراح المقدم هو ترك عملات الدول الرأسمالية تتقلب بحرية أكثر ازاء بعضها البعض وازاء الدولار على وجه الخصوص ، **وطالما أن اعادة التقييم لعدد من هذه العملات سوف لا يحدث فى نفس الوقت فان ذلك سوف يعطى الانطباع الوهمى بأن الدولار لم يدركه الاهتزاز ومن ثم فانافلاس السياسة الاقتصادية الامريكية سوف يغطى بصورة واضحة ، ومن الناحية النظرية ايضا سوف لا يكون هناك خفض فعلى فى قيمة الدولار** . من خلال ذلك تتجنب الولايات المتحدة اجراء الخفض وتقدم العلاج لميزانها التجارى وذلك بالحد من صادرات هذه الدول التى تطلب منها الولايات المتحدة أن تقوم برفع أسعار عملاتها بينما تتجه الحكومةالامريكية الى تنشيط صادراتها فى السوقالعالمى ، وعلى ذلك يرى المراقبون الغربيون أن فكرة « معدلات الصرف المرنة » بمثابة التهديد ان لم يكن الحكم بالموت لدول السوق المشتركة ومصالحها الاقتصادية،وعندما ظهرالخلاف والصراع بينهذه الدول وبين الولايات المتحدة اضطرت الحكومة الامريكية أن تلجأ الى وسائل الضغط السياسى لنشر فكرة « معدلات الصرف المرنة » وليسادل على ذلك من ضغطها على بريطانيا باعلان هذه الفكرة والدعوة اليها اثناء المفاوضات الدائرة بينها وبين دول السوق المشتركة .. وفى هذا الصدد أشارت مجلة « لونوفيل أوبزيرفاتير » الفرنسية فى شهر يوليو الماضى بأن المرحلة الحادة للتناقضات بين العالم الرأسمالى والتى تنبأ بها الاقتصاديون الماركسيون قد ظهرت بشكل واضح .

وعندما تتحدد أيضا رغبة الولايات المتحدة فى رفع أسعار الصرف لعملات هذه الدول وتطالب « **اليابان** » من ناحية اخرى بأن ترفع القيود الجمركية على الصادرات الامريكية ، وان تقوم اليابان برفع سعر الين مما يؤدى الى التقلص الواضح فى حجم الصادرات اليابانية الى السوق الامريكى ... فان التناقض الواضح

ماركيوز : الشاب المتمرد .. حى ويستعد لجولة دراسية فى الشرق الأوسط



تأسف « الطليعة » للخطأ البالغ الذى وقعت فيه عندما كتبت فى العدد الماضى — باب تقارير الشهر — تقريرا عن المفكر والفيلسوف « هربرت ماركيوز » بعنوان : « الشاب المتمرديموت عن ٧٣ عاما » .

فالشاب المتمرد من حسن الحظ — ما برح يتدفق حياة وفكرا . أما من طواه الموت فهو « ماركيوز »آخر ينتمى الى نفسالعائلة — قرابة — ويعمل ايضا — بمستوى أكاديمى — فى حقول الفلسفة والتاريخ ، وله فى ذلك عدة كتب قيمة .

ولقد وقعت الطليعة — كما وقعتغيرها من الصحف العربية — فى هذا الخطأالمؤسف — نتيجةعدم دقة وكالات الانباء . ولعل أفضل تقييم لهذا الخطأ هو أستمرار حياة هربرت ماركيوز ، واستعدادالفيلسوف الكبير — كما أخبرنا — للقيام قريبا بجولة دراسية فى الشرق الاوسط ليتعرف على الطبيعة على مشاكل شباب البلدان الحديثة النمو ، حيث أن دراساته وأفكاره مقصورة على مشاكل البلدانالغربية الرأسمالية المتطورة ، ودون الشباب الثورى المعاصر فى تغييرمجتمعاتها .

يظهر بصورة كاملة ، ومن ثم يرى المراقبون الفرنسيون أن فكرة « معدلات الصرف المرنة » التى تقترحها الحكومة الامريكية لن تقدم الحلول لمشاكل النقد الدولى ولكنها تؤدى الى انعاش الدولار فحسب بينما تترك المشاكل الاخرى فى الطريق ، وبذلك فان هدفة التعاون الدولى ليس ازاحة مشاكل دولة على دولة أخرى لأن الهدف النهائى هو الوصول الى اتفاق شامل لمشاكل النقد الدولية ، غير أن الولايات المتحدة تتجاهل حتى ذلك الوقت الراهن الاسباب الرئيسية لاهتزاز الدولار طوال الشهور الماضية وهو ما عبرت عنه الصحيفة اليابانية المشهورة « مينيشى » بأن مشكلة الدولار لن يقدم لها الحلول ما لم تتغير الدبلوماسية الامريكية ككل بما فى ذلك سياسة الحرب فى فيتنام وما يصاحبها من انفاق عسكرى باهظ ، هذا وسوف تشهد الشهور القادمة عمق الخلافات والتناقضات بين الولايات المتحدة والدول الرأسمالية الكبرى .

■

■ تقرير خاص

• برلين •

من الذى خسر الجولة ؟

علقت صحيفة « نيوز دويتشلاند » الناطقة باسم الحزب الاشتراكى الالمانى الموحد (الحزب الشيوعى فى المانيا الشرقية) على المبالغات التى ترددت بشأن وجود أزمة حادة فى المفاوضات بين الدولتين الالمانيتين من أجل تنفيذ اتفاقية برلين الغربية التى عقدتها الدول الاربع الكبرى فأوضحت أن برلين الشرقية « ليس لديها استعداد لموافقة (مختلفى الافكار) فى المانيا الاتحادية الذين يتحدثون عن وجود أزمة فى المفاوضات بين الدولتين وأوضحت أن الجانبين قد اتفقا على بعض النقاط » .

وأشارت الصحيفة الى حسن نوايا جمهورية المانيا الديموقراطية واكدت أن المسألة بأجمعها بعيدة كل البعد عن عمل المترجمين وأساتذة الاداب ، وان الخلاف القائم بين جمهورية المانيا الاتحادية وجمهورية المانيا الديموقراطية حول الترجمة الالمانية للاتفاقية الرباعية بشأن برلين الغربية لن يؤدى الى حدوث أزمة فى المفاوضات بين الدولتين . .

وليس ثمة شك فى أن اتفاقية برلين الغربية تعتبر نجاحا هاما للسياسة الخارجية للاتحاد السوفيتى وللنضال الثابت لاسرة مجموعة الدول الاشتراكية فى سبيل تعزيز التعايش السلمى ، فلاول مرة يقر فى معاهدة ملزمة طبقا للقانون الدولى بأن كلا من جمهورية المانيا الديمقراطية ، وجمهورية المانيا الاتحادية شخصيتان خاضعتان للقانون الدولى . ولاول مرة يقر صراحة فى معاهدة ملزمة حسب القانون الدولى بأن برلين **الغربية ليست جزءا من جمهورية المانيا الاتحادية ولايمكن أن تحكم بوساطتها** ، وأن وجود الجمهورية الاتحادية فى برلين الغربية يجب تخفيضه كذلك فان الوثيقة المبرمة تستند الى الحقائق الاقليمية والسياسية القائمة اليوم فى أوربا ، كما تقوم على احترام الحقوق المشروعة والمصالح الحيوية للدولة الالمانية الاشتراكية المحبة للسلام أعنى جمهورية المانيا الديمقراطية وجدير بالذكر أنه بخصوص توقيع هذه الاتفاقية أكد **فالتر أولبريشت رئيس مجلس الدولة** فى المانيا الديمقراطية فى ٧ سبتمبر الماضى « **الدور الخاص للاتحاد السوفيتى وخدماته التاريخية بهذا الصدد اذ أن نهجه الثابت الذى يهتدى بروح لينين والذى يرمى الى تحقيق التعايش السلمى بين الدول ذات الانظمة الاجتماعية المختلفة ، قد حقق من جديد انتصارا باهرا** » .

نظرة تاريخية :

فطوال ربع قرن ، استخدمت مشكلة برلين الغربية بوساطة دوائر غربية معينة كبؤرة للتوتر من أجل **تفاقم الموقف الدولى** ، ومن أجل احباط كل محاولات الاتحاد السوفيتى وسائر الدول الاشتراكية ، وكل القوى المحبة للسلام ، من أجل تخفيف حدة التوتر فى القارة الاوربية ، والحقيقة أن ظهور هذه المشكلة ، وتهديدها للسلام والامن فى أوربا والعالم ، لم يكن نتيجة الصدفة ، وانما كان نتيجة الاستراتيجية الامبريالية الموضوعة عن قصد متعمد لتحويل نتائج انتصار التحالف المعادى لهتلر فى الحرب العالمية الثانية لصالح الامبريالية .

وقد شرح **فالتر أولبريشت** فى ٧ سبتمبر الماضى بعض الحقائق التاريخية التى تسببت فى نشوء مشكلة برلين الغربية وتهديدها لامن وسلام أوربا . وأوضح « أن قرارات بوتسدام

التي اتفقت عليها دول الحلف المعادى لهتلر ؟ قد فرضت المبادىء المستندة الى احكام القانون الدولى للقضاء على العسكرية والامبريالية العدوانية الالمانيتين من جذورهما وبصفة نهائية اما برلين العاصمة الالمانية السابقة ، فكان من الواضح بالنسبة لها ان تكون باعتبارها جزءا من منطقة الاحتلال السوفيتية — مقرا لمجلس الحلفاء للرقابة ، وذلك لفترة احتلال المانيا من قبل الحلفاء الاربعة — كذلك فانه بعد أن قام الجيش السوفيتى بتحرير برلين ، كان من المقرر السماح للحلفاء الغربيين الثلاثة بمرابطة قوات لهم فى القطاعات الغربية من المدينة . ولكن الوضع كما يقول اولبريشت « اصبح معقدا عندما تجلى الخط الاستراتيجى للقوى الرجعية الامبريالية الامريكية المتطرفة وتم تطبيقه» وساهم فى ذلك عدم **تنفيذ معاهدة بوتسدام عن طريق فصل المانيا الغربية** ، وبدء **مرحلة ما يسمى بالحرب الباردة عن طريق تطبيق السياسة العدوانية الرامية الى طرد الاشتراكية من اوربا**». وعلى الفور وجدت الاوساط الرجعية فى المانيا الغربية أن ذلك يتيح لها امكانيات جديدة ، فانضمت الى استراتيجية الولايات المتحدة . واحتلت برلين الغربية مكانا خاصا فى هذه الخطط الامبريالية التى اتجهت بالدرجة الاولى ضد التطور الديمقراطى والمعادى للفاشية فى المنطقة التى ادارتها حينذاك قوات الاحتلال السوفيتية ، كما اتجهت بالتالى ضد جمهورية المانيا الديمقراطية والدول الاشتراكية الاخرى ، واصبحت برلين الغربية تلعب دور « رأس الجسر » للعالم الامبريالى الغربى .

وعملت الدول الغربية مجتمعة على أن تجعل من برلين الغربية واجهة لمجتمعات الاستهلاك الغربية ، وجعلت منها فى الوقت نفسه اخطر بؤرة فى اوربا لاعمال الجاسوسية والتآمر المعادية لجمهورية المانيا الديمقراطية والمعسكر الاشتراكى بأسره ، واصبحت المدينة مركزا للتخريب والنشاط الهدام وراس رمح للدعاية الغربية المعادية للمعسكر الاشتراكى فى القارة الاوربية . ولذا فقد ظل الغرب يعتقد لفترة طويلة أن المعسكر الاشتراكى يضمر نية غير معلنة تستهدف « ابتلاع » برلين الغربية فى أول فرصة مواتية ، مستندا الى تفوق القوات السوفيتية فى الاراضى الالمانية وقد ازداد رعب اهالى برلين الغربية والمانيا الاتحادية فى هذا الخط ، بعد الدخول السريع الحازم لقوات حلف وارسو الى تشيكوسلوفاكيا .

غير انه لما كانت الازمة الكوبية فى بداية الستينات قد اظهرت بوضوح خطورة حدوث صدام نووى لا يعرف لنتائجه مدى ، لذا كان من مصلحة كل القوى المحبة للسلام فى العالم ، العمل على تفادى خطر وقوع صدام آخر من هذا النوع بسبب اكثر المشاكل احتداما فى قلب أوربا إعنى مشكلة برلين الغربية . ولذا ، فانهاء لكل التباس حول نوايا الاطراف المختلفة ، تقدم **نيكيتا خروشوف** سكرتير أول الحزب الشيوعي السوفيتى وقتذاك بفكرة أن تصبح برلين **مدينة حرة مجردة من السلاح وأن تضمن الامم المتحدة هذا الوضع داخل اطار الاعتراف بقيام دولتين المانيين وبالحدود الشرقية لالمانيا** ، غير أن اصرار الغرب على عدم الاعتراف بحقائق ما بعد الحرب وتمسك حكومة الحزب المسيحى الديمقراطى فى المانيا الاتحادية بالذات بهذه السياسة ، دفع المانيا الديمقراطية الى موقف لم تجد فيه بدا لوقف ما تتعرض له من نزيف بشرى عن طريق برلين ، الا ان تقيم **حائط برلين الشهير** ، على أن تسعى للوصول الى حل بعد ذلك مرتكزة الى وجود الحائط .

العلاقات الداخلية أم الدولة ذات السيادة ؟ :

وقد اتخذ الاتحاد السوفيتي وجمهورية المانيا الديمقراطية خطوات عديدة متنوعة لحل تلك المشكلة لصالح السلام والامن وازالة التوتر . وقدمت جمهورية المانيا الديمقراطية بتنسيق وتعاون وثيقين مع الاتحاد السوفيتى ، والدول الاخرى الاعضاء فى حلف وارسو ، مساهمتها البناءة فى ذلك . فقد عرضت على جمهورية المانيا الاتحادية اجراء مفاوضات ، وتقدمت لها باقتراحات للقيام بتنظيمات تمكن سكان برلين الغربية من دخول المانيا الديمقراطية وعاصمتها كذلك اقترح **فالتر اولبريشت** رئيس مجلس الدولة فى المانيا الديمقراطية **عقد اتفاقية بين جمهورية المانيا الاتحادية وجمهورية المانيا الديمقراطية ، تضع أسس تسوية دائمة للعلاقات بينهما** على أساس الاعتراف المتبادل بينهما والاتفاق على عدم التدخل فى الشئون الداخلية ، وعدم المساس بالحدود الحالية ، وترشيح الدولتين الالمانيتين لعضوية الامم المتحدة ، واقرارهما بعدم امتلاك الاسلحة الذرية والبكتريولوجية والكيميائية ، وذلك الى جانب تخفيض نسبة ٥٠ ٪ من نفقات الدفاع ، ومراجعة ديون جمهورية المانيا الاتحادية لجمهورية المانيا الديمقراطية مراجعة نهائية ، واقرارها كذلك بتحمل بون لمختلف التعويضات الناتجة عن الحرب ، ولكن الاستعداد لتسوية الوضع لم يكن متوفرا لدى الجانب الاخر ، لان بعض القوى هناك حسبما أوضح **فالتر اولبريشت** نفسه فى ٧ سبتمبر الماضى : كانت لا تزال تعتقد انه باستطاعتها القضاء على جمهورية المانيا الديمقراطية عن هذا الطريق أو ذاك ، انطلاقا من سياستها الانتقامية الامبريالية .

ذلك أن قوى الانتقاميين فى المانيا الغربيــة كانت تعمل دائما على استبعاد قيام اى شــكل من العـلاقات بين المانيا الاتحـــادية والمانيا الديمقراطية ، يمكن أن يضفى على الاخيرةصفة الدولة المستقلة ذات السيادة ، وكانت هــذه القوى تجاهد دائما لادخال العلاقات بينشطرى المانيا فى اطار مايسمى « **بالعلاقات الداخلية** » بين الالمان **بعيدا عن قواعد القانون الدولى** ، على أساس أن كل خلاف بين الدولتين الالمانيتين هو مسألة داخلية بحتة بمعنى انه لو تحركت قوات « البوند سفهر » [جيش المانيا الغربية] لدخول لايبزج مثلا فى المانيا الشرقية ، فانه يكون فى وسعها فى هذه الحالة الزعم بأنهــا تقوم بعملية بوليسية داخلية » .

ولكن نجاح جمهورية المانيا الديمقراطية فى تأكيد وجودها السياسى المستقل ونجــاحها فى توطيد دعائم **اقتصادها ودفاعها الوطنى** ، كان له أثره على رؤية كثير من الســـــاسة الالمان الغربيين والاوربيين ، لحقائق الشكلة الالمانية . وقد أوضح **أولبريشت** فى سبتمبر الماضى انه كان على أنصار السياسة المتعصبة ، ادراك **تغير ميزان القوى فى العالم** ، **كما ازداد عدد الذين تملؤهم روح الواقعية** ، واصبح من الممكن عقد الاتفاقية الهامة بين الدول الاربع بشــأن برلين الغربية » . وليس ثمة شك فى أن سياسة الانفتـــاح على الشرق التى اتبعها المســتشار الالمانى **فيلى برانت** وعقد معاهدةعدم الاعتـداء بين المانيا الغربية وكل من الاتحــاد السوفيتى وبولندا كان لها أثرها فى التمهيد لعقد اتفاقية برلين .

محتوى الاتفاقية :

وتنص هذه الاتفاقية فيما يتعلق **بالطرق المؤدية الى برلين** على أن يضطلع الاتحاد السوفيتى مع الدول الغربية الثلاث بالمسئولية العليا عن حرية المرور البرى الى برلين عبر اراضى جمهورية المانيا الديمقراطية من [١٥٠ الى ١٨٠ كم] ، وقد وافق الاتحاد السوفيتى على الاسس التى ستجرى وفقا لها عملية المرور الى برلين .. وسيتم المرور بلا عوائق وبغير تمييز وبسرعة . وستقتصر رقابةالركاب فى القطاراتوالسيارات على التحقق من شخصياتهم . أما النقل التجارى فسيتم عن طريق قطارات الشحن ، وسيارات النقل بحيث يتم ختم المنقولات بالرصاص قبــل ارسالها ، ولن يدفع ركاب السيارات تكاليف التأشيرة ، ورسوم العبور ، اذ ستقوم جمهورية المانيا الاتحادية بدفعها اجمـــالا لبرلين الشرقية وفقا للترتيبات التى ستتحدد فى المباحثات التى ستجرى بين الدولتين الالمانيتين .

وفيما يتعلق بالمواصلات بين برلين الشرقية وبرلين الغربية ? نصت الاتفاقية على أنه يمكن لاهالى برلين الغربية ان يعبروا « حائطبرلين » الى برلين الشرقيـــــة ، وجمهورية المانيـــــا الديموقراطية ، ونفس القواعد تسرى علىسكان المانيا الشرقية ، وهو الامر الذى لم يكن معمولا به حتى الان ، وبشأن **وجود المانيا الاتحادية فى برلين الغـربيـة** ، اكـدت الاتفاقيـة على الروابط الاقتصادية والمالية والثقافية والرياضــيه التى تطورت منذ ادخال المـارك الالمانى الغربى فى برلين الغربية أثناء مايسمى بالاصـــلاح النقدى الذى حــدث فى يونيو عام ١٩٤٨ فى المـانيا الغربية ، ولـــكن أكدتالاتفاقية على **عدم انتماء برلين الغربية سياسيا لالمانيا الاتحادية** عنطريق منع المؤسسات الالـمانية الغربيـــة « رئاسة الجمهورية والبرلمـــان الخ .» من أداء اعمالهـــا الدستورية فى برلين الغربية . وبصدد **تمثيل برلين الغربية فى الخارج** نصت الاتفاقية علىأنه يمكن لسكانبرلين الغربية أنيستخدموا جوازات سفرهم الالمانية الغربية عند قيامهم برحلات فى بلاد حلف وارسو ، ولـكن الجوازات ستختم بختم الحلفــاء الغربيين لتوضـيح الفـــرق بين المسافرين من أصل المانى غربى ، وسكان برلين الغربية . كذلك أشارت الاتفاقية الى **حق الاتحاد السوفيتى فى اقامة قنصلية ، او حتى قنصلية عامة** فى برلين الغربيــة ، مما يؤكد انفصـــال برلين الغربية سياسيا عن المانيا الاتحادية .

وقد تناول جيرهارد دانيليوس رئيس **الحزب الاشـــتراكى الموحد** فى برلين الغربيـــة اتفاقية برلين من زاوية محلية، فأشار فى ٨ ســبتمبر الماضى فى الحديث الذى أدلى به الى جمعيـــة « **دى فارهايت** » التى تصدر فى برلين الغربية الى أن هذه الاتفاقية تعكس أيضا نشاط الحزب الاشتراكى الموحد فى برلين الغربية الذىناضل منذ سنوات ضد السياسة الرجعيـــة والحرب الباردة ، ومن أجل اعادة العلاقات مع المانيـــا الديموقراطية الى صورتها الطبيعية ، ذلك أن **الحزب الاشتراكى الموحد فى برلين الغربية ، هو الحزب الوحيد فى برلين الغربية الذى كان يدعو الى هذه الاراء فى الوقت الذى كان فيه علينا أن نسبح على عكس التيار ، وأن نناضل ضد محاولات التأثير على الرأى العـــام** ، وفى الوقت الذى شكل فيــه الحزب الاشــتراكى الديموقـــراطى ، والديموقـــراطى الليبرالى ، والمسيحى الديموقراطى ، كتلة موحدة ضد أية سياسة واقعية ازاء برلين الغربية .

وليس ثمة شك فى نظر عديد من المراقبين أن توقيع اتفاقيـــة برلين ، ســيدفع الى الامام بقضية السلام والامن فى أوربا ، وسوف يزيل كافة الحجج التى كانت تضعها المانيا الاتحادية

بمام التصديق على معاهدتى عدم الاعتداء التى وقعتها مع كل من الاتحاد السوفيتى وبولندا ، ومن شأن ذلك أن يؤدى بدوره الى دفع قضية عقد مؤتمر الامن الاوربى خطوات الىالامام نحو العمل التمهيدى المباشر لعقد المؤتمر كذلك فمن شأن اتفاقية برلين أن تساعد علىازالة العقبات أمام بدء المباحثـات بين ممثلى حلفى الاطلنطى ووارسو ، من أجل تخفيف قواتهما فى أوربا . كما وأن النجاح فى عقد الاتفاقية قبل دورة الامم المتحدة الحالية التى قدتشهد تحولا هاما بالنسبة لقضية دخول الصين المنظمة الدوليـة ، هـذا الظرف قد يدفع بمناقشة **مشكلة الدول المقسمة** وفى مقدمتها المانيا خطوات الى الامام ، وذلك **من أجل قبول الجمهوريتين الالمانيتين كعضوين متساويين فى الامم المتحدة .**

وقد بدأت منـذ ٧ سبتمبر الماضى فى كل من برلين الشرقية وبون ، المفاوضـات الخاصـة بوسائل تطبيق الاتفاقية الرباعية ، واجتمع فى بون **مايكل كوهـل** وزير الـدولة فى المـانيا الديموقراطيـة ، **وايجون بهر** وزير الدولة فى المانيا الاتحادية ، وبدأ بحث مسألة المبالغ التى ستدفعها جمهورية المانيا الاتحادية فىالمستقبل ، لاستخدام طرق المواصلات المؤدية الى برلين ، وهى المبالغ التى ستحل محل المبالغ الفردية التى كانت السلطات الالمانيـة الشرقيـة تقوم بتحصيلها من الافراد . كذلك شرح **مايكل كوهل** وجهات نظرحكومة المانيا الديموقراطية فيمايتعلق بعقد معاهدة مع المانيا الاتحادية تتعلق بمشكلة المواصلات ، وأبرام اتفاق حول دخول المانيـا الاتحادية وبرلين الغربيـة . ويرى عـديد من المراقبين السياسيين بهذا الصـدد ان المـانيا الديموقراطية ترى اعطاء الاولوية **لتسوية عامة بين الدولتين حول المواصلات فيما بينهما .**

وعلى أية حال ينبغى مع التأكيد على القيمة الايجابية التى لاشك فيها لاتفاقيـة برلين ، أن توضع فى اطارها السياسى الصحيح والواقعى بالنسبة للتطورات الاستراتيجية فى القارة الاوربية وبخاصة الصراع الاستراتيجى بين الاشـتراكية والامبريالية فى القارة ، وهو صراع لن يتصف قط بالتجمد والثبات ، وبهذا الصدد ينبغى النظر بشكل أكثرتمعنا الى تصريحات القادة السياسيين الامبرياليين والشيوعيين على جانبى حائط برلين ، فعلى الرغم من أن **فيلى برانت** مستشار المانيـا الاتحادية أعرب أمام أعضاء حكومته عن ثقتـه فى هذا الاتفاق ، الا أنه أوضـح ان الاتفـاق الرباعى لن يغير شيئا بالنسبة لتقسيم المانيا ، وبأن حائط برلين لن يختفى من الوجود . ومن ناحية أخرى أعلن **كورت باخمان** رئيس الحزب الشيوعى فى المـانيا الاتحـادية ، « **ان نجاح المباحثات يتوقف على الحكومة الاتحادية وعلى انتهاجها للامور بشكل واقعى** ، وان وضع شروط مسبقة جديدة سيكون أمرا غيرمفيد ، فليس من مبرر يدعو الى تأجيل التصديق على المعاهدتين المعقودتين مع الاتحاد السوفيتى وبولنـدا حتى انتهاء المباحثات بينجمهورية المانيا الديموقراطية وجمهورية المانياالاتحادية ، كما أن علىالحكومة الاتحادية أن تعلنعن استعدادها للاشتراك فورا فى المحادثات التحضيرية للدعوة الى عقد مؤتمر للامن الاوربى ولعقده فى أقرب وقت » .

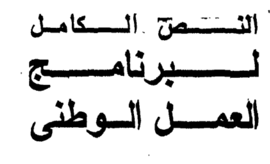
● **من الذى خسر الجولة ؟ :**

وعلى أية حال فالامر الذى اتضـح خـلال المباحثات التى أدت الى عقد اتفاقية برلين انه أمكن فعلا تحقيق نوع من التوازن بين المصالح حاز القبول من جانب جميع الاطراف . ولذا فان محاولات بعض المعلقين الغربيين لاثارةالمناقشات حول من الذى كسب أكثر ، ومن الذىكسب أقل من وراء الاتفاقية ، لاتستند الى أى أساس . فالواقع ان **الذى كسب من الاتفاقية هم جميع أولئك الذين تعنيهم قضية دعم السلام العالمى ، والذين يتوقون لان يروا فىبرلين الغربية عنصرا مساهما فى تخفيف التوتر فى أوربا ، والذين يقفون من أجل دعم الثقة والتعاون بين الدول ومن أجل حل القضايا الهامة على أسس واقعية ولصالح السلام العالمى** . أما الذين خسروا من الاتفاقية فهم حسبما أوضحت صحيفة « برافدا » السوفيتية فى ٤ سبتمبر الماضى ـ « **الانتقاميون والنازيون الجـدد الذين يتطلعون الى احيـاء الحرب الباردة : والذين لم يعد باسـتطاعتهم اليوم تحديد الاتجاهاتالرئيسية للتطور فىالقارة الاوربية** » .

والحقيقة انه فيما يتعلق بالتطوراتالسياسية الاستراتيجية فى القارة الاوربيـة والتى اشرنا اليها ، يكتسب الفهم المتكاملالذى قدمه **جيرهارد دانيليوس** رئيس الحزب الاشتراكىالموحد مغزاه الكامل بهذا الصدد ، فقد أوضح أنه لايجوز الان الاعتقاد بأن كل شىء سيحل من تلقاء نفسه ، فاتفاقية الدول الاربع ، لن تكون مثمرة الا اذا دخلت الحكومة الاتحادية وحكومة برلينالغربية، المفاوضات الحالية بنفس الارادة الطيبـة التى تبديها حكومة المانيا الديموقراطية « **لقـد كان عقد هذه الاتفاقية خطوة هامة فى طريق التقدم، ولـكن لايمكن القول بان برلين الغربيـة قـد أصبحت عاملا واقعيا للسلام والامن الاوربى ، ويجب حل هذه المشكلة فى المستقبل** ، ولا يمكن حلها الا عن طريق العمل النشيط من قبلالطبقة العاملة والشبيبة وقوى السلام والديموقراطية والتقدم الاجتماعى فى برلين الغربية وجمهورية المانيا الاتحادية أولا وقبل كل شىء » .

خيرى عزيز

وثائق



الوثيقة التى تقدمها « الطليعة » النص الكامل « لبرنامج العمل الوطنى » الذى قدمه الرئيس انور السادات فى ٢٣ يوليو الماضى الى المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى العربى . واقره المؤتمر بعد مناقشات جرت فى لجانه المتخصصة .

وان حرص الطليعة على تقديم النص الكامل للبرنامج يزكيه أن هذه الوثيقة السياسية سوف تكون محور نشاط التنظيمات السياسية واجهزة الدولة .

وفوق هذا فان الطليعة تشعر أن نشر البرنامج على صفحاتها هو فى الواقع جزء لايتجزأ من المهمة التى اضطلعت بها عندما اخذت على عاتقها أن تقدم وجهة نظرها ، وتحدد زاوية الرؤية التى تنطلق منها فى مناقشة البرنامج ودراسة فقراته الرئيسية ، واهم القضايا التى يطرحها ، والاهداف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى يحددها .



أيها الاخوة والاخـــوات أعضاء المـــؤتمر القومى !

ان اجتماعكم فى هذا المؤتمر يعتبرحدثا تاريخيا لا يخطىء دلالته أحد · فلسنا نجتمع لنحتفل فقط بمرور تسعةعشر عاما على ثورة يوليو الخالدة التى صارت مبادئها جزء لا يتجزأ من ضميرالشعب ، ولسنا نجتمع لنحتفل فقط بمرور عشر سنوات على اصدار قوانين يوليو المجيدة ، واختيـار طـريق التنميـة الاشتراكية سبيلا وحيدا للقضاء علىالتخلف الموروث الطويل الامد · لكن هذا المؤتمر ينعقد ايضا تحت رايات التصحيح الشامخة · فعملية التصحيح التى أعلنها الشعب فى ١٥ مايو يجىء مؤتمركم هذاكثمرة بارزة من ثمارها · فلقد كان من الضرورى اعادة ثورة يوليو الى مسارها الاصيل الذى اختطه جمال عبد الناصر والذى وقف الشعب كله حارسا له ، كذلككان من الضرورى تمكين الشعب من بدء مرحلة جديدة فى ثورته يتطلع منها الىمستقبله القريب والبعيد · ولقد اثبت درس ١٥ مايو أن الشعب كانهوالحامىوالدافع ، وأنه هو الذى قاد عملية التصحيح وارساها على أساسها السليمتاسيسا على تقاليدنا الراسخة وأخذا بعبرة الماضى القريب والبعيد ·

ان اجتماع هذه المؤتمر ، تعبيرا عنتحالف قوى الشعب العاملة هو اشارة واضحة الـى ان خطـوة حاسـمة قدتحققت ، فلقد تمت بالفعل اعادة بناء الاتحاد الاشتراكى بطريق الانتخاب الحرمن القاعدة الى القمة ، وتشكل تنظيم سياسى حر بارادة أعضائه الحرة ، لميصطنع ولم يفرض من أعلى · كذلك تم وضع مبادىء للدستور الدائم ، وشاركالشعب فى اعـدادها · وهكذا أرسى الشعب حجر الاساس الدائم للمستقبل ·

اننا باستكمال هذه الخطوات نبدأمرحلة مهمة من تاريخ ثورتنا ، هى مرحلة بناء الدولة الحديثة ، مرحلة بناءالمجتمع الجديد الذى نريده لانفسنا ، مجتمـع الكرامـة والامن والطمانينـةوالرفاهية ، فمن الحق أن نقول ان مؤتمركم هذا ينعقد تحت رايات البناء من أجل مستقبل افضل ·

دور الشعب

ان مؤتمرنا الحالى ينعقد مع احتفالنا بالعيد التاسع عشر لثورة ٢٣ يوليـو الخالدة ، ففى مثل هذا اليوم منذ تسعة عشر عاما خرج زعيمنا جمال ورفاقه معتمدين على الله والشعب ، ليحققوا أملا تاريخيا حملته الاجيال من شعبنا الخالد جيلا بعد جيل ، عبـر نضـاله المتواصل ، أمل اقامة حياة افضل فوق أرضنا العربية الطيبة ، حياة حرة كريمة طليقة من كل قيود الاستغلال والتخلف فى مختلف صورها المادية والمعنوية ·

ان جمال ورفاقه لم يكونوا سوى طلائع ثورية نبتت فى حقل النضال الشعبى ، لم يكونوا سوى عدد من أبناء شعبنا العظيم داخل الجيش الذى أراد له المستعمر وتحالف العملاء والاقطاع أن يكون جيشا للشعب ·

ان دم الشهداء عبر السنوات الطوال من النضال ضد الغزاة الاجانب وضد تسلط الحكام العملاء والاقطاع ورأس المال هو الذى دفع بالطلائع الثورية من أبناء الشعب فى الجيش الى التصدى لحمل مسئولية العمل الثورى ، وكانت تجارب الشعب واهدافه التىرسم النضال الشعبى خطوطها العامة فى المبادىء الستة المشهورة ، هى النور الهادى لهذه الطلائع على طريق الظلام ·

ان التفاف الشعب حول الثورة وتأييده وحمايته لها منذ اليوم الاول لقيامها كان العـامل الحـاسم فـى نجـاحها واستمرارها · ان طلائع أية ثورة أيا كان حظهم من الثورية وأيـا كان استعدادهم للتضحية لتعجز عن أن تتقدم خطوة ان لم يلتف حولها الشعب وان لم يمدها بخبرته وحكمته وان لم يسهر على حماية الخط الثورى وان لم ينزل بكل ثقله وطاقاته ميدان العمل الثورى ·

ان الثورة لا يمكن بحال من الاحوال ان تكون عمل فرد أو فئة بل هى – ولكى تكون حقا ثورة – عمل جماهيرى أولا وأساسا ، عمل الشعب كل الشعب ، وما كان ممكنا لثورة ٢٣ يوليو وهى التى قامت دون تنظيم سياسى شعبى ، ودون نظرية كاملة للعمل ما كان ممكنا أن تستمر بل أن تقوم اصلا ، لولا العمل الجبار لجماهير الشعب المصرى البطل طوال السنوات التسع عشرة الماضية ·

ان جماهير الشعب لم تتاخر فى يوم من الايام عن العمل وبذل التضحية ، هى التى حمت الثورة من كل محاولات التامر عليها من الخارج وتخريبها من الداخل ، هى التىكانت السند الاساسى لكل عمليات القضاء على سيطرة تحالف العمـلاء والاقطاع والرجعية وتسلط راس المال ، هى التى بنت بجهودها الخلاقة والعمل المتواصل ليل نهار قاعدتنا الاقتصادية ، هى التى وقفت الوقفة التاريخية الصلبة ضد عدوان ٥٦ فى معركة السويس ، وهى التى هبت صفا واحدا فى عزم واصرار ترفض الهزيمة فى ٩ ، ١٠ يونيو ، وراحت منذ ذلك التاريخ تعطى كل ما فى طاقتها بل وفوق ما فى طاقتها لعملية اعادة بناء قواتنا المسلحة ، وهى التى قامت فى ١٥ مايو تحمى الثورة ممن ادعوا زورا انهم حماة الثورة ·

ان شعبا هذا شانه ، وهذا نضاله ووعيه ، لابد وان تكون له السيادة كل السيادة ، لابد وأن تسخر فى خدمته وتحقيق أهدافه كل الاجهزة الحكومية وغير الحكومية ، لابد وأن تكون له اليد العليا فى صياغة مجتمعه وحياته · انه الاصل وما عداه فروع ، انه الخالد ابدا والمعلم ابدا ، اننا نكون قد فرطنا فى الامانة اذا غابت عنا ولو للحظة واحدة هذه القضية الرئيسيـة · وأن الدور الاساسى لتنظيمنا السياسى هو ان يجعل من هذا الهدف وفى أقصى وقت ممكن ، واقعا نحياه وليس مجرد شعار نرفعه ·

ان على تنظيمنا السياسى ان يطهر صفوفه باستمرار من كل فرد يصور له مركزه انه اعلى قدرا من الشعب ، ومن اية فئة تتصور ، وهما أو صدقا ، أن لها من تاريخها أو من المعرفة ما يجعلها أرفع مكانة أو صاحبة فضل · ان الشعب هو صاحب الفضل الاول والاخير ، انهصانع الثورة وصانع الاشتراكية وصـاحب المصلحة فى الثورة الاشتراكية ·

ولعل اعظم ما فى ثورة ٢٣ يوليو – كما يقول الميثاق بحق – ان القوات التى خرجت من الجيش لتنفيذها لم تكن هى صانعة الثورة وانما كانت اداة شعبية لها ·

واننا فى هذه اللحظة ، وفى كل لحظة ، لنتطلع فى فخر واعتزاز وحب الى قواتنا المسلحة الباسلة ، الى اخوتنا وابنائنا الصامدين كالطود المنيع على خطوط القتال ، أياديهم على السـلاح وعيونهم على العدو وقلوبهم كلها ثقة وايمان ، ينتظرون على أحر من الجمر اشارة بدء القتال والاستشهاد · انهم يتمون الرسالة التى بداها جيلنا منذ تسعة عشر عاما عندما جعل من الجيش أداة الشعب التى تحرره وتصون استقلاله وحدوده وتحمى بناءه وكيانه ضد كل معتد أو متامر أو مخرب ·

تقييم الماضي

ان مؤتمرنا الحالى ينعقد بعد انقضاء عشر سنوات على اعلان قوانين يوليو المجيدة التى كانت تعبيرا عن اختيارنا الواعى الحر لطريق التنمية الاشتراكية كالطريق الحتمى للقضاء على التخلف الاقتصادى والاجتماعى من أجل بناء دولة جديدة ، دولة الكفاية والعدل ، أن التجربة العملية فوق أرضنا خلال العشر السنوات الماضية لتثبت بمالايدعمجالا للشك سلامة الطريق الذى اخترناه لبناء حياتنا ، وتؤكد أمرين على أعلى قدر من الاهمية :

الاول : هو ان ثورة التحرر الوطنى لا يمكن ان تحقق هدفها الاصيل فى تحرير الشعب الا اذا اختارت للتحرر طريق الاشتراكية .

الثانى : هو ان الاشتراكية ليست شعارات تردد وانما هى منجزات محددة ترد للجماهير التى طال حرمانهامن حقوقها المشروعة التى سلبت منها .

ان شعبنا بالرغم من مختلف الضغوط الاستعمارية التى تعرض لها والتى بلغت ذروتها بالعدوان الصهيونى الامبريالى ، وبالرغم من المحاولات النشيطة لكل القوى المعادية للاشتراكية فى الخارج والداخل ، وبالرغم من كل الاخطاء ونواحى النقص ومحاولات الانحراف بمسيرة الثورة ، قد حقق من المنجزات خلال العشر السنوات الماضية ما لم يستطع تحقيقه فى عشرات السنين .

النواحى الايجابية

● اقتصاديا ●

١ ـ تم بناء السد العالى ، اعظم انجاز فى تاريخنا المعاصر ، فتحقق حلم الانسان المصرى منذ فجر التاريخ فى السيطرة الكاملة على مياه النيل ، واصبح فى قدرتنا أن ننتج من الكهرباء ما يعادل كل ما تنتجه باقى الدول الافريقية كلها .

٢ ـ قطعت عملية التصنيع شوطا بعيدا واستطعنا أن نقيم قاعدة اقتصادية أساسها صناعة متعددة الفروع ويكفى تقديرا لاهمية ما تم فى ميدان التصنيع أن نقارن وضعنا فى سنوات الحرب العالمية الثانية وما عانيناه من نقص خطير فى المنتجات الصناعية بوضعنا الراهن، وبعد اربع سنوات من العدوان ، حيث تقدم الصناعة المصرية للمواطن كل المنتجات الرئيسية ، لقد زاد انتاجنا الصناعى خلال العشر السنوات بنسبة ١٠٧٫٣ ٪ . وزاد دخلنا من الصناعة عن نفس الفترة بنسبة ١١١٫٥ فى المائة .

٣ ـ زادت مساحة الارض الزراعية بنسبة ١٣ فى المائة فى حين لم تزد النسبة خلال النصف الاول كله من القرن العشرين على ٨ فى المائة كما ارتفع انتاجنا فى معظم المحاصيل الاساسية .

٤ ـ بلغت الاستثمارات التى تم تنفيذها فى العشر السنوات الاخيرة مبلغا وقدره ٢٢٥٤٫٤ مليون جنيه .

● سياسيا واجتماعيا ●

١ ـ تم اسقاط تحالف الاستعمار وحكم العملاء والاقطاع وقام تحالف قوى الشعب العاملة على اساس ضمان خمسين فى المائة على الاقل من مقاعد جميع الهيئات المنتجة بمختلف مستوياتها للعمال والفلاحين باعتبارهم ـ كما نص الميثاق ـ القوى التى طال استغلالها وصاحبة المصلحة العميقة فى الثورة .

٢ ـ تم تحقيقا لديمقراطية الانتاج اشراك العاملين فى مجالس الادارة عن طريق الانتخاب وتخصيص اربعة اخماس مقاعد مجالس ادارة الجمعيات التعاونية لصغار الفلاحين .

٣ ـ تحققت مجانية التعليم فى كل مستوياته وبلغت نسبة استيعاب المدارس الابتدائية ٧٥ فى المائة ممن بلغوا سن الالزام ، وزاد عدد التلاميذ فى المرحلة الابتدائية بنسبة ٧٫٣ فى المائة ، وفى المرحلة الاعدادية والثانوية بنسبة ٩ فى المائة ، وقفز عدد الطلبة فى المرحلة العالية الى حوالى مائتى الف طالب .

٤ ـ وضع حد ادنى للاجور ونظام للترقى والحوافز .

٥ ـ شملت التامينات الاجتماعية جميع العمال .

٦ ـ اتسع نطاق الخدمات الصحية وبدأ مشروع التامين الصحى .

٧ ـ بدأنا فى الاخذ بسياسة التخطيط القومى كأسلوب علمى يكفل تعبئة كافة الموارد القومية وتحقيق أرشد استخدام لها .

● فى المجال العربى ●

أعادت الثورة الى مصر وجهها العربى ومكنتها من ان تتحمل مسئوليتها وان تلعب دورها التاريخى كقاعدة للنضال العربى من أجل الحرية والاشتراكية والوحدة . وكان توقيع ميثاق طرابلس ـ بالرغم من كل النكسات ومؤامرات الانفصال ـ دليلا على أن جذوة الوحدة لايمكن ان تخمد ، وعلى أن نورهاالداخيا فى قطر لا يلبث أن يشع فى اقطار أخرى . ولقد أمكننا بعون الله وبفضل نضال الشعب العربى أن نخطو خطوة هامة اخرى على طريق الوحدة باعلان قيام دولة اتحاد الجمهوريات العربية كنموذج متقدم وواقعى للوحدة الشاملة المرتقبة .

● فى المجال الدولى ●

امتد اشعاع الثورة المصرية الى اقاصى العالم ملهما شعوب افريقيا واسيا وامريكا اللاتينية .

ان شعبنا العريق كالعهد به دائما عبر تاريخه الحضارى الطويل أبىوهويتحرر الا أنيكون مثلا وقدوة وأن يعطى لثورة التحرر الوطنى ما وسعه العطاء .

ولقد كانت السياسة الخارجية لبلادنا انعكاسا أمينا وصادقا لعملنا الوطنى وكانت ـ كما رسمها الميثاق ـ تمتد فى ثلاثة خطوط : الحرب ضد الاستعمار والسيطرة ، والعمل من أجل السلام ، والتعاون الدولى من أجل الرخاء . وبفضل هذه السياسة الثورية احتلت بلادنا مكانا بارزا فى المجال الدولى واصبحت فى مقدمة صفوف الشعوب المناضلة ضد الاستعمار ومن أجل التحرر والسلام والرخاء . وحظيت بأثمن الصداقات التى برزت قيمتها فى أوقات الشدة ، وفى المقدمة منها صداقة شعوب الاتحاد السوفيتى .

النواحى السلبية

ان لنا حقا ان نفخر ونعتز بما انجزه نضالنا الشعبى ، غير أن منجزاتنا على ضخامتها يجب الا تنسينا نواحى النقص وما ظل معلقا دون انجازه . اننا لا نخشى محاسبة أنفسنا ، فذلك وحده طريق تجنب الاخطاء ، ان مبدأ النقد الذاتى الذى رفعناه قولا وأعملناه عملا لابد أن يكون سبيلنا جميعا فى تقييم اعمالنا على المستوى القيادة والقاعدة ، وعلى مستوى الفرد والجماعة .

ان نواحى النقص الاساسية يمكن اجمالها فيما يلى :

١ ـ لقد صدرت الخطة الخمسية الاولى كقسم من خطة عشرية هدفها مضاعفة الدخل القومى ، غير اننا لم ننجح فى تحقيق هذا الهدف بالرغم منأن معدلات التنمية خلال الخطة الخمسية الاولى قد اقتربت الى حد كبير من المعدلات المطلوبة لتحقيقه ، وربما كان السبب الرئيسى هو ان التخطيط القومى الشامل ، كفلسفة وسياسة ، لم يلق الاهتمام الكافى الذى يرفع من كفاءة اجهزته وينشر الوعى به بين المواطنين .

٢ ـ على الرغم من الزيادة المستمرة فى الانتاج الا أننا لم نستطع أن نفى بجميع احتياجات الجماهير التى تزايد هى الاخرى وتتنوع عاما بعد عام وذلك لثلاثة اسباب رئيسية : الاول ان تنظيمنا السياسى لم يقم بدوره كاملا فى توعية المواطنين بقضية التنمية الاقتصادية وما تتطلبه من ضبط فى الاستهلاك وزيادة فى الادخار لضمان ازدياد الاستهلاك فى المستقبل ، والثانى هو تخلفنا النسبى فى ميدان العلموالتكنولوجيا وما يعانيه القطاع العام من اوضاع بيروقراطية تقلل

عن فاعليته ، والثالث تزايد عدد السكان بمعدل لانستطيع تحمله .

٣ - بالرغم من الجهود المضنية والاموال الطائلة التى انفقت على التعليم ومن زيادة عدد الطلبة فى مختلف مراحل الدراسة الا ان نسبة الامية لم تتناقص ، ونتيجة لذلك زاد عدد الاميين بسبب تزايد عدد السكان .

٤ - بالرغم من اتساع قاعدة الخدمات المختلفة الا انها لا تزال أضيق من أن تمد الجماهير بجميع حاجاتها .

٥ - بالرغم من ازدياد متوسط دخل الفرد الا ان الحد الادنى للاجور لايزال كما هو عليه ، كما أن ارتفاع الاسعار يمتص كل زيادة فى الاجر .

٦ - بالرغم من ان الميثاق وبيان ٣٠ مارس ، قد نصا على اتخاذ بعض الاجراءات السياسية اللازمة لدعم الديمقراطية والعمل الوطنى الا انها لم تنفذ ، واذكر منها على سبيل المثال : المجالس الشعبية ، والمجالس القومية المتخصصة .

وربما كان اخطر ما واجهنا فكريا خلال السنوات الماضية هو ذلك التناقض المصطنع بين الاشتراكية والحرية والذى افتعله أعداء الحرية والاشتراكية على حد سواء . ان مراكز القوى التى لا يمكن لها أن تظهر أو تعيش ، بل لابد وأن تختنق ، فى جو الحرية والديمقراطية وجماعية القيادة اتخذت من الاشتراكية ودعوى حمايتها حجة لتكمم الافواه ولتسكت كل صاحب فكر ولتفرغ مؤسسات الشعب من مضمونها الثورى ، لكى تشق طريقها الى الانفراد بالسلطة والتحكم فى مصير البلد بما يحقق أطماعها ونزواتها . ثم شوهوا الاشتراكية كما لو يشوهها أعدى أعدائها . وحجبوا عن أنظار الشعب ما شيده من منجزات عظيمة وتسببوا فى تشكك الناس فيما حصلوه من جدوى نضالهم ، فوقع البعض فريسة للسلبية وعدم المبالاة . لقد فتحوا الباب واسعا أمام أعداء الاشتراكية فتعرضت المشروعات الاساسية للتنمية لحملات متتالية من الهجوم القائم على النقد الهدام الخبيث ، ونال القطاع العام - العمود الفقرى للتقدم والتطور - نصيب الاسد من حملة الهجوم والتشكيك وهو الذى قام بالدور الاساسى فى تحقيق استقلالها الاقتصادى ومواجهة متطلبات الحرب .

وامتد التشكيك الى سياستنا الخارجية والى انتمائنا الى معسكر الشعوب المناضلة من أجل التحرر والقضاء على الاستعمار والى صداقتنا للاتحاد السوفيتى البطل وبدأت ترتفع أصوات تنادى بالتخلى عن التنمية وأهدافها الطموحة وتضييق مجال القطاع العام وتسوية أمورنا مع القوى الاستعمارية وفتح الابواب أمام استثمارات احتكاراتها .

ان الدعوى التقليدية الزائفة لاعداء الاشتراكية بانها ضد الحرية ، ولقنجاعت مراكز القوى فقدمت لهم فرصة العمر . وهكذا التقى دعاة الاشتراكية المتباكون عليها المدعون أنهم حملة مشعل الناصرية والاشتراكية منهم بريئة والناصرية بريئة هكذا التقوا مع أعداء الاشتراكية الذين لم تقم الناصرية الا للقضاء عليهم .

ان نواحى النقص والانحراف ، وبقاء عدد من القضايا معلقا لم يحل لا يحجب الحقيقة الجوهرية وهى صلابة شعبنا ووعيه عندما ضرب بعنف ثورى مراكز القوى ، ثم ضخامة ما أتمه من انجازات خلال سنوات الثورة وبوجه خاص العشر السنوات الاخيرة . ان هذه الحقيقة هى التى مكنته ان يفتتح يوم ١٥ مايو باب مرحلة جديدة من مراحل نضالهالثورى . مرحلة بناء الدولة الحديثة ، بل ان هذا الشعب باصالة حسبه الثورى قد رفع غداة الهزيمة فى شهر يونيو شعار التغيير وترجم الشعار فى بيان ٣٠ مارس بانه الدولة الحديثة . لقد ادرك الشعب بحكمته ان الغزوة الصهيونية نزوة مستمرة لن تنتهى بتحرير الارض المحتلة ، بل ستظل قائمة تتحدى جيلنا وجيل اولادنا ، وانه لا سبيل الى مواجهة هذا التحدى الا باقامة دولة حديثة مسلحة مدنيا وعسكريا باحدث أسس العلم والحضارة والتقدم ، والانكون قدحكمنا على انفسنا وعلى أولادنا من بعدنا بالتشرد .

ثم كان من بين انجازات هذا الشعب العظيم اسهامه فى قيام دولة اتحاد الجمهوريات العربية، وتلكخطوة مهمةعلى طريق الوحدة العربية التى تمثل املا أصيلا من امال النضال العربى ، وهدفا اساسيا منأهداف ثورة يوليو.وما من شك فى ان بناء دولة حديثة على ارض مصر . وهى معقل آمال الشعب العربى وقاعدة نضاله ، وواجهته على افريقيا جنوبا وأوروبا شمالا لبعد دعامة مهمةمن دعائم قيام دولة الوحدة العربية الحديثة .

هكذا اصبح الامل الكبير الذى حلم به الشعب المصرى منذ أمد طويل فى متناول يده بفضل تطور نضاله الثورى ونجاحه . وان لنا - وقد بلغنا مستوى من النمو يصلح أساسا للبناء - أن نشرع فى اتخاذ الخطوات اللازمة لتحقيق هذا الامل وفق خطة مدروسة تحدد المهام والوسائل خلال العشر السنوات المقبلة ، وترسم بوضوح دور كل قوة من قوى الشعب العامل ، ودور الاتحاد الاشتراكى والتنظيمات الشعبية المعاونة له ، ودور أجهزة الحكم . خطة طموح ولكنها تبدأ بالواقع . خطة يحلق فيها فكرنا فى الافاق الواسعة . القريبة والبعيدة ، لعالم المستقبل ، ولكن دون ان يغيب عن انظارنا واقعنا الذى نريد أن نبنى على ارضه دولتنا الحديثة .

اعادة تشكيل التنظيمات الشعبية

ولقد كان أمرا طبيعيا أن تكون اعادة تشكيل مستويات الاتحاد الاشتراكى وجميع التنظيمات النقابية ، من القاعدة الى القمة بالانتخاب الحر المباشر . هى الخطوة الاولى على طريق البناء ، ذلك لان الدولة الجديدة هى دولة قوى الشعب العاملة صانعة الثورة وصانعة الاشتراكية ودور هذه القوى هو الدور الاساسى فى عملية البناء وهى تقوم به من خلال تنظيمها السياسى وتحت قيادته ، ومن هنا كان أمرا حتميا ان يعبر هذا التنظيم حقا عن آمالها ، وان يكفل حقا جهودها ، وان يحمى حقا وحدتها الوطنية ، كان لابد ونحن نبنى دولة الانسان الحر ان يطهر تنظيمنا صفوفه من مراكز القوى التى ارادت بوسائل البطش والارهاب والخديعة ان تكبت الحريات وتوقف التطور الذى يهدد مصالحها الذاتية ، وتفتت الوحدة التى تخشى أن تكتسحها غير عابئة بمصالح الوطن ولا بخطورة المرحلة التى يعيشها ، كان لابد ونحن نبنى دولة الاشتراكية أن يلفظ تنظيمنا بعيدا عنه كل الرجعيين والانتهازيين والمفسدين والمعادين للتحول الاشتراكى .

الدستور الدائم

وكانت الخطوة الثانية أن يكون لنا دستور دائم يشترك الشعب فى اعداده عن طريق النقاش الحر المفتوح والحوار الديمقراطى المتبادل بين مختلف قوى التحالف . وقد عقدت لجنة الدستور المنبثقة من مجلس الشعب ولجانها الفرعية ما يزيد على مائة اجتماع ولقاء مع الجماهير ، كما تلقت من مختلف افراد الشعب اثنين وتسعين الف اقتراح ، الامر الذى يدل على ان وضع دستور دائم كان مطلبا شعبيا ملحا ، وعلى ان الشعب مصر على أن يكون هو واضع دستور بلاده .

وقد استطاع مجلس الشعب من خلال استطلاع واسع للرأى شمل فئات الشعب وطوائفه المختلفة ، ومن خلال عمل متصل شارك فيه نخبة من المثقفين ومن المشتغلين بالسياسة والقانون والاجتماع ورجال الدين .. استطاع المجلس أن يرسى عددا من المبادىء الدستورية التى تصح أن

انظر مقال : الحركة النقابية المصرية وقضايا الوقت ص ٤٦

تكون اساسا لصياغة كاملة لمشروع الدستور الدائم لجمهورية مصر العربية ، يعرض ـ بعد موافقة مؤتمركم ـ على الشعب فى استفتاء عام ، ليمنحه من ارادته الحرة القوة التى تجعله مصدرا لكل السلطات .

واذا كنا قد حملنا اسم الجمهورية العربية المتحدة وعلمها ونشيدها ومسئوليتها العربية امانة وايمانا بواجب عربى وبأمل عربى ، نحن منه فى مركز القلب وفى موقع القيادة والطليعة ، فقد تقدم منا أخوة أشقاء ليشاركونا حمل الامانة .. فى الجمهورية العربية الليبية ، وفى الجمهورية العربية السورية ، وقام اتحاد الجمهوريات العربية ليكون أقوى وأقدر على استكمال رسالة الوحدة العربية الشاملة .

لذلك كان من الطبيعى ان يعود الشعب المصرى الى حمل اسم مصر العظيمة ، مصر المؤمنة برسالتها والمؤمنة بعروبتها ، والتى لن يتوقف نضالها ، من أجل تحقيق الوحدة العربية الشاملة ، واتساقا مع ذلك ، جاء المبدأ الاول من المبادىء الاساسية ، مقررا أن « مصر جمهورية عربية ، نظامها ديمقراطى واشتراكى يقوم على تحالف قوى الشعب العاملة . والشعب المصرى جزء من الامة العربية يناضل من اجل تحقيق وحدتها الشاملة .

والوثيقة التى وزعت على السادة أعضاء المؤتمر والتى تحتوى المبادىء الاساسية لمشروع دستور جمهورية مصر العربية ، قد استقت نبعها من ميثاق العمل الوطنى ، ومن دستور سنة ١٩٦٤ ، هذا الدستور الذى يمثل مرحلة تاريخية من مراحل تطورنا ، وهى المرحلة التى فتحت الطريق لعملية التحول الاشتراكى .

والوثيقة الى جانب ذلك ، تأخذ من دروس التجربة التى مرت بنا منذ سنة ١٩٦٤ ، وتأخذ من دروس نكسة سنة ١٩٦٧ ، ومن بيان ٣٠ مارس وتأخذ مما كشفت عنه أحداث مايو سنة ١٩٧١ التى كادت تعصف بالوحدة الوطنية ، وتأخذ أولا واخيرا من المعانى والقيم الكبيرة التى تلقيناها من الشعب العظيم فى ٩ ، ١٠ يونيو وفى ١٥ مايو .

ومن هذه المعانى والقيم يأتى المبدأ الدستورى الثالث مؤكدا أن : « السيادة للشعب وحده، وهو مصدر السلطات . ويحمى الشعب هذه السيادة ، ويصون الوحدة الوطنية . وتكون ممارسة الشعب للسيادة عن طريق الاستفتاء الشعبى وعن طريق ممثليه على الوجه المبين فى الدستور » .

وتأتى هذه المبادىء مؤكدة لسلطة تحالف قوى الشعب العاملة ، محددة لدور الاتحاد الاشتراكى العربى ومقررة ، « انه التنظيم السياسى الذى يمثل بتنظيماته القائمة على أساس مبدأ الديمقراطيه ، تحالف قوى الشعب العاملة من الفلاحين والعمال والجنود والمثقفين والرأسمالية الوطنية . وهو اداة هذا التحالف فى تعميق قيم الديمقراطية والاشتراكية وفى متابعة العمل الوطنى فى مختلف مجالاته ، ودفع هذا العمل الوطنى الى اهدافه المرسومة . ويؤكد الاتحاد الاشتراكى العربى سلطة تحالف قوى الشعب العاملة عن طريق العمل السياسى الذى تباشره تنظيماته وسط الجماهير وفى مختلف الاجهزة التى تضطلع بمسئوليات العمل الوطنى .

ويبين النظام الاساسى للاتحاد الاشتراكى العربى شروط العضوية فى تنظيماته المختلفة ، وضمانات ممارسة نشاطه بالاسلوب الديمقراطى » .

وقد تناولت هذه المبادىء الدستورية القيم الخلقية والاجتماعية لمجتمع سليم مصمم على ان يعيد بناء الحياة على ارضه ، سليمة نظيفة مطهرة ، مبرأة من الشوائب الغريبة عنه والدخيلة عليه . فان مجتمعنا مجتمع الاستقرار والطمانية والامان ، وليس مجتمع الانقلابات والمؤامرات والعمل والدس فى الظلام .

وحرصت هذه المبادىء على ابراز دور العمل فى المجتمع واهميته من حيث انه واجب وشرف تكفله الدولة لابنائها ، وتضع التخطيط الاقتصادى الوطنى الذى يكفل القضاء على البطالة وزيادة فرص العمل وربط الاجر بالانتاج ، مع ضمان حد أدنى للاجور ، حفاظا على مستوى معيشة العامل ، وحد أعلى يكفل تقريب الفروق بين الدخول فى مجتمع قائم على الكفاية والعدل ، وعلى تحقيق تكافؤ الفرص بين ابنائه ، مجتمع يكرم العاملين الممتازين فيه ، يكرم أسر شهدائه وابطاله ، مجتمع تكفل فيه الدولة التعليم ، وتعنى بتنمية الشباب بدنيا وخلقيا وثقافيا ، وتربط بين التعليم وبين حاجات المجتمع والانتاج .

وحمايه لكل المكتسبات الاشتراكية ، ودعما لها ، وخلقا للظروف الملائمة لتوسيع نطاقها ، تضمنت المبادىء الدستورية تبيان الاساس الاقتصادى الاشتراكى القائم على الكفاية والعدل الذى يمنع كل أشكال الاستغلال ويهدف الى تذويب الفوارق بين الطبقات . وتاكيد سيطرة الشعب على كل ادوات الانتاج، وتحقيق نصيب العمال فى ادارة المشروعات وفى ارباحها وضمان تمثيل العمال فى مجالس ادارة وحدات القطاع العام بما لا يقل عن نصف عدد اعضائه ، وأن تكون نسبة تمثيل صغار الفلاحين وصغار الحرفيين ٨٠ فى المائة من عضوية مجالس ادارة التعاونيات الزراعية والتعاونيات الصناعية .

ولم تغفل المبادىء الدستورية المقترحة تأكيد دور القطاع العام والقطاع التعاونى والقطاع الخاص وحماية كل منها مع الضمانات اللازمة لها . وتأكيد سلطة تحالف قوى الشعب العاملة على مستوى القرية ، وتحديد الملكية الزراعية بما يضمن حماية الفلاح والعامل الزراعى من الاستغلال .

وأكدت هذه المبادىء الدستورية ايضا اهمية الحركة النقابية العمالية فى دفع التطور ، فكفلت حق انشاء النقابات والاتحادات التى تنظم على اساس ديمقراطى ، لتساهم فى تنمية الخطط والبرامج الاجتماعية ، وفى رفع مستوى الكفاءة ودعم السلوك الاشتراكى بين اعضائها وحماية اموالها والدفاع عن الحقوق والحريات التى يتمتع بها الاعضاء .

ثم جاءت هذه المبادىء مؤكدة ان الشرعية الاشتراكية هى اساس كل العلاقات فى المجتمع وفى الدولة ، وان سيادة القانون اساس الحكم ، واستقلال القضاء وحصانته ضمان اساسى لحماية الحقوق والحريات ، وان التقاضى حق مصون مكفول للجميع ، ويحظر النص فى القوانين على منع سماع الدعوى او على تحصين اى عمل أو قرار ادارى من رقابة القضاء تعويضا او الغاء ، كما ان الامتناع عن تنفيذ الاحكام او تعطيلها يعتبر جريمة يعاقب عليها القانون .

ولقد أسبغت المبادىء حماية خاصة على الحرية الشخصية والحياة الخاصة للمواطنين ، فأكدت أن الحرية الشخصية حق طبيعى لا يمس ولا يقبض على أحد او يفتش هو او مسكنه أو يحبس أو تقيد حريته الشخصية بأى قيد أو يمنع من التنقل الا بأمر قضائى مسبب تستلزمه ضرورة التحقيق وصيانة أمن المجتمع .

وأوضحت المبادىء الدستورية ان المدعى العام هو الذى يتخذ الاجراءات التى تكفل سيادة القانون ، ورفع الاعتداء على الحريات العامة والنظام الاشتراكى والمكاسب الاشتراكية ، والحفاظ على قيم المجتمع،كما ان للشعب ان يسهم فى اقامة العدالة بما يكفل ديمقراطية القضاء .

وقد جاءت هذه المبادىء مستجيبة لرغبة أبديتها ، وهو ان يكون رئيس الجمهورية الذى يختاره الشعب بانتخاب حر مباشر حكما بين سلطات الدولة ودافعا لها لتقوم بمسئولياتها على أكمل وجه ، يرعى الحدود بين كل سلطة والاخرى ، بما يكفل اقامة علاقات صحية سليمة بينها ، ويحقق ارتباط السلطة بالمسئولية .

وانطلاقا من مبدأ ضمان التجدد والتجديد باستمرار فى تولى الوظائف السياسية والتنفيذية وضع مبدأ فى مقتضاه ان مدة الرئاسة ست سنوات ميلادية ، ولا يجوز انتخاب رئيس الجمهورية اكثر من مرتين متتاليتين .

كما جاءت المبادىء لتؤكد سلطة مجلس الشعب فى التشريع وفى رقابته على أعمال السلطة التنفيذية ، وفى اقرار السياسة العامة للدولة والخطة العامة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، والزمت

كل عضو من أعضاء مجلس الشعب ، والمجالس الشعبية المحلية ، أن يقدم للناخبين بيانا عن نشاطه النيابى ، واعطت للناخبين حق سحب الثقة من العضو فى الاحوال وبالشروط التى يحددها القانون ٠

وكفلت المبادىء الدستورية للمجلس عدم حله خلال مدته الدستورية الا فى حالة الضرورة ، وباستفتاء شعبى ، وكفلت ايضا حماية الحكومة ، مع الاحتفاظ بمبدأ المسئولية الوزاريةالفردية والتضامنية ، وذلك لدعم سلطات الدولة ، بما يمكنها من التعبير تعبيرا دقيقا وسليما عن ارادة الشعب ، وبما يجعلها قادرة على أداء المسئولية الكبيرة التى تنتظرها على الطريق ، وذلك الى جانب تأكيد رقابة الشعب على كل السلطات بتوسيع دائرة الاستفتاء الشعبى ليشارك الشعب مشاركة ايجابية فى صنع القرار ٠

وانشأت المبادىء الدستورية المقترحة مجلسااقتصاديا واجتماعيا لمعاونة رئيس الجمهورية بالمشورة فى جميعالمسائل ذات الطابع الاقتصادى والاجتماعى ، كما تطلبت تشكيل مجالس شعبية محلية بمختلف مستوياتها عن طريق الانتخاب المباشر ، تنقل اليها السلطة تدريجيا ، وتسهم فى اعداد خطة التنمية وتنفيذها ، كما تراقب الانشطة المحلية ٠ وبذلك نضع من المبادىء التى شملها الميثاق الوطنى ، وبيان ٣٠ مارس ، موضع التطبيق الفعلى ٠

واننا لنرجو – بعد موافقتكم – ان نسرع الخطى الى الصياغة النهائية لهذه المبادىء لتعرض بعد ذلك على الاستفتاء الشعبى فى اقرب وقت ممكن لنبدأ بالدستور الجديد عملية بناء الدولة الحديثة القائمة على العلم والايمان ، العلم الذى يدفع بنمونا الاقتصادى خطى واسعة تصل بنا الى التقدم والرفاهية ، والايمان الذى يغرس فى النفوس الثقة بالله ، والثقة بكل فرد من ابناء شعبنا العظيم وبأن المستقبل المشرق ، طريقه العمل الجاد المخلص المرتكز على الايمان ٠

تصور الدولة الحديثة

اسمحوا لى ان اضع أمامكم تصورى للدولة الحديثة التى ننشد بناءها :

●● انها دولة الانسان الحر الفخور بوطنه ، المعتز بكرامته ، المطمئن الى يومه وغده ، وغد أولاده ٠

●● دولة قوى الشعب العاملة صانعة التاريخ وصانعة الحاضر والمستقبل ٠لا دولة الاقلية أو الصفوة أو النخبة الممتازة ٠

●● دولة مؤسسات شعبية قوامها افراد احرار ٠

● دولة لا استغلال فيها للانسان ولا تناقض بين الفرد والمجتمع ، ولا فضل لاحد على أحد ألا بالعمل ٠

●● دولة لا تقنع باستيراد بعض منجزات العلم الحديث بل تزدهر فيها شخصية الانسان وثقافته وتتنوع معارفه وتنطلق قدراته ليقيم بنفسه منجزاتالعلم على أرضه ٠

●● دولة تسخر كل ما وصل اليه العلم الحديث فى خدمة المجتمع ليصبح العمل متعة لا مشقة ، وعملية ابداع مستمر وليس تكرارا مملا ، ورسالة انسانية وليس مجرد رسالة فردية لحصول على رغيف الخبز ٠

●● دولة لامكان للامية فيها ٠

●● دولة تزول منها البطالة الى الابد وتوفر لكل من بلغ سن العمل فرصة كريمة للعمل ، وتحقق لكل العاملين على مختلف مواقعهم من عملية البناء ومختلف تخصصاتهم ومهنهم ازديادا مطردا فى الدخل وارتفاعا فى الثقافة والعلم ، وتحسنا فى ظروف المعيشة ، واتساعا فى الخدمات بكافة انواعها ، وفرصا حقيقية سهلة للتمتع بأوقات الفراغ ، وتأمينا مجزيا ضد العجز والشيخوخة ٠

●● دولة تقوم على الديمقراطية والتكنولوجيا المتطورة باستمرار من اجل زيادة الانتاج كما ونوعا ، وبمعدل نمو يرتفع باطراد من اجل زيادة الدخل القومى بمعدل يزيد علي معدل نمو عدد السكان ٠

●● دولة المجتمعات الصناعية التى تربط بين مقر العمل والسكن ، وتوفر للعمال افضل ظروف العمل وفق احدث الاساليب ، وأفضل ظروف المسكن المريح ٠

●● واخيرا وليس اخرا دولة القرية الحديثة ٠٠ انناﻻيمكن أن نتكلم عن بناء الدولة الجديدة للمجتمع الاشتراكي طالما ظلت حياة الفلاح منتج الغذاء للملايين والخامات للعاملين بالصناعة . على ما هى عليه ٠٠ ان اسلوب الحياة اليومية لفلاحينا الذين يكونون غالبية اسعب لم يلحقه تغيير حقيقى لافىوسائلواسلوب الانتاج ، ولا فى السكن والغذاء والصحة ولا فى تحصيل العلم والثقافة ٠

ان جانبا كبيرا من فلاحينا علىالرغم من المجهودات الضخمة التى بذلت فى سنوات الثورة لا يزال يعانى من البطالة وانخفاض مستوىالدخل والامية ، وسوء التغذية والصحة ، والقلق على الحاضر والمستقبل ٠٠٠

ان حجر الزاوية فى بناء الدولة الجديدة هو القرية الحديثة التى توفر لكل فلاح المسكن الصحى الحديث المزود بالماء والكهرباء والتى تمده فى يسر وبدون استغلال بالخدمات الصحية والثقافية والترويحية والتىتخفف عن طريق تزويده بالالات من مشاق العمل اليدوى ٠ ان ميكنة الزراعة على اساس من التعاون الانتاجى المتطور هى السبيل الامثل الى زيادة الانتاجية والانتاج الزراعى ٠

ان الدولة الجديدة دولة يشعر فيها الفلاح انه فلاح ومواطن لا يقل شأنا عن مواطنى المدينة ، وهو امرلايتمالابارساء علاقات اجتماعية انسانية جديدة فى الريف ، وارساء هذه العلاقات مرتبط بتصنيع الريف ، وميكنة الزراعة ، وبناء قرى جديدة مخططة تتوفر فيها المساكن الصحية ودور العلاج وساحات الرياضة ووسائل الثقافة والمتعة ٠ وكلها امور ليست فوق طاقتنا بعد ان تم بناءالسد وما يوفره من كهرباء وبعد أن قام مجمع الحديد والصلب وما سينتجه من ادوات البناء ومستلزمات التصنيع ٠ ان كل ما نحتاج اليه هو العمل المنظم والعزم والايمان بالقضية ٠

لقد نص الميثاق على أن وصول القرية الى المستوى الحضارى ليس ضرورة عدل فقط ولكن ضرورة اساسية من ضرورات التنمية ٠ ان هدفا اساسيا من اهداف التنمية لابد وأن يكون تذويب الفوارق بين القرية والمدينة ، وبين الفلاحين والعمال الذين يمثلون محور تحالف قوى الشعب ٠٠ ان هذه الفوارقنتيجة حتمية للسنوات الطويلة من التخلف التى فرضها تحالف الاستعمار والاقطاع ، وما قامت الثورة أصلا الا لتقضى الى الابد على كل آثار التخلف ، والحرمان ٠ ان مسئولية تطوير القرية وميكنة الزراعة لا تقع على عاتق سكان الريف واجهزته فحسب بل تقع أيضا وبقدر أكبر على الصناعة والاجهزة المركزية ٠

ان الزراعة والصناعة هما الفرعان الاساسيان للاقتصاد القومى ، وعلى الزراعة أن تتطور بحيث تلحق بتطور الصناعة لكى ينمو الاقتصاد القومى ككل متوازن وبسرعة تحقق تحسين احوال المعيشة لسكان القرية والمدينة على حد سواء فى أقصر وقت ممكن ٠

البرنامج والمهام

اذا كان هذا هو تصورنا للدولة الجديدة فان علينا أن نضع برامج تفصيلية تضمها خطة قومية تحدد مهام العمل الوطنى لفترة زمنية محددة هى العشر السنوات القادمة ، منطلقين فكريا

من الاسس النظرية التى تضمنتها وثائق نضالنا الشعبى : الميثاق وبيان ٣٠مارس وبيان ١٠ يونيو ، وتطبيقيا من التراث العظيم لخبرتنا الفنية خلال السنوات الماضية • اننا حريصون على الا تجرفنا امواج الاحلام بعيداعن شاطىء الواقع فنبنى على الماء ، وعلى الا تربطنا حبال الحذر فنبطىء الخطى او نتوقف والعالم من حولنا يقفز •.

ان هذه المهام كما اتصورها هى اساسا :

١ ـ اعادة بناء قرى الجمهوريه خلال عشرين سنة بحيث يصبح لكل سكان الريف فى نهاية هذه الفترة مساكن صحية جديدة مزودة بالماء النقى والكهرباء وبحيث يكون لكل مجموعة من القرى مركز يتوسطها لتجميع الخدمات التى لا يمكن توفرها فى كل قرية على حدة كقصور الثقافة ، محطات صيانة الالات الزراعية والمدارس الثانويةوالعالية والمعاهد الفنية والمستشفيات العامة . ثم وحدات لتصنيع المنتجات الزراعية اليا •

ان تكاليف هذا المشروع الثـــورى الضخم تبلغ حوالى الف مليون جنيه على أساس بناء أربعة ملايين وحدة سكنية جديدة لسكان الريف الذين [illegible] عددهم حوالى عشرين مليونا •

ان القرية المصرية الجديدة يجب ان تخطط تخطيطا علميا حديثا بحيث تضم مدرسة أو اكثـر يكون فيها مكان لكل الأطفـال الذين يبلغـون من الالـزام، ووحدة صحية ريفية تقدم الخدمة الصحية لسكانها جميعا • كما يجب الا تظل قرية بدون ميـاه نقيـة للشرب ، وان تصـل الكهرباء الى كل منزل وان تضىء كل شارع •

وفى هذا الجو الصحى النظيف تتيح لنا الكهرباء فرصة اقامة الصـناعات الريفية والبيئية وفرص للنشاط الثقافى والاجتماعى • وبهذا يحق لنا أن نتطلع الى ان تصبح القرية المصرية فى المستوى الذى يليق بالمواطن المصرى الحر فى الدولة الجددة •

ان تنفيذ هذا المشروع يتطلـب ان يخصص له سنويا مبلغ قدره خمسون مليون جنيه ، ولابد أن يعتمد التنفيذ على اسهام الاهالى بجهودهم الذاتية وعلى الدولة أن توفر لهم مواد البنـاء والتصميمات والخبـرة الفنية اللازمة • ولقد ان الاوان لان نخطو الى عهد بناء المساكن الجاهزة الاجزاء باقامة المصانع اللازمة لذلك • ان هذا من شانه أن يوفر فى الوقت والمواد وأن يتم التنفيذ فى اقصر وقت ممكن •

٢ ـ واذا كنا نقيم لفلاحينا قراهم الجديدة فان علينا فى نفس الوقت أن نعمل على تطوير تجمعات الصناعة المهمة بحيث يصبح كل منها مجتمعا صناعيا متكاملا يضم الى جانب المصـانع ، المساكن الحديثة المقامة فى احياء سكنية تتوفر فيها جميع الخدمات اللازمة للعمال واسرهم من مدارس ومستشفيات ومواد ودور الثقافة والترفيه ، وغير ذلك من خدمات الحياة الحديثة •

انظر مقال : البرنامج : قسماته وآفاق النضـال من أجل تنفيذه ص ١٧

ان هذه المجمعات سيكون لها اثرها الكبير فى انتظام الانتاج وزيادته ، وفى حب العامل لعمله • ان أشق ما يواجه العامل هو مشكلة السكن ، والواقع هو اننا درجنا فى السنوات الاخيرة على أن نعالج مشكلة الاسكان من زاوية واحدة هى زاوية متوسطى الدخل ، ولم نهتم الاهتمام الكافى بملايين الفلاحين والعمال فظلت المشكلة قائمة ، على الرغم من ضخامة الاموال التى انفقت فى تشييد المساكن . بسبب اننا لم نحل مشكلة غالبية الشعب • واذا كان الحل بالنسبة الى الفلاحين هو بناء القرى الحديثة ، فان الحل الحقيقى بالنسبة الى العامل هو أن يسكن بالقرب من مقر عمله ، فذلك كفيل بـان يحل لـه مشـكلته الاخـرى ـ مشكلة المواصلات ـ انه بذلك تتحقق له ثلاث مزايا : وفر فى النفقات ، واقتصاد فى الوقت وتخلص من عناء الانتقال ، فيصل الى مقر عمله فى موعده ودون اجهاد ، كما يجد فسحة مـن الوقت يستطيع أن يقضيها فى نشاط اجتماعى او ثقافى •

ولتمويل اقامة هذه المناطق الصناعية المتكاملة علينا أن نخصص لهذا الغرض حصيلة الـ ١٥ فى المائة من اربـاح شركات القطاع العام بالاضافة الى ما تخصصه ميزانية الدولة كل عام لهذه الخدمات •

لقد طبقت الفكرة فعلا فى شـبرا الخيمة ، وكلنا نعرف التخلف الشديد الذى كانت تعانى منه هذه المنطقـة الصناعية المهمة ، ولكنها اليوم ونتيجة لتطويرها وفق خطة متكاملة مدروسة ، اصبحت فى وضع تتطلع اليه باقى المناطق الصناعية • وواجبنا أن نحقق لها هذا الامل •

اننا بتنفيذنا لهذين المشروعين : بناء القرى الجديدة واقامة المناطق الصناعية المتكاملة نحقق للعامل والفلاح ـ وهما عماد قوى الشعب العاملة ـ مستوى الحياة الذى يجب أن يتوفر لاولئك الذين يقومون بالدور الاساسى فى بناء الدولة الحديثة .

٣ ـ يجب أن تتسع المرحلة الاولى من التعليم فى نهاية العشر السنوات لجميع من بلغ سن الالزام تمهيدا لرفع هذه السن الى ١٥ سنة • والواقع أن قضية تطوير التعليم من أخطر قضايا التحدى الذى يواجهنا ، فنحن ـ كما سبق أن قلت ـ اكثر من غيرنا ، لا أمل لنا الا فى العلم الحديث • والعلم الحديث لا يبدأ فى مراكز البحث والاكاديميات بل يبدأ مع

انظر مقال البحث العلمى : الواقع •• المشاكل •• الحلول ص ٨٨

اول يوم يذهب فيه ابناؤنا ، بنـاة المستقبل ، وأملـه ، الـى مدارسـهم الابتدائية • انهم لابد وأن يجدوا فـى الدراسة عبر جميع مراحلها ، علميا وتربويا ما يساعد على نموهم وتفتحهم ، فكرا وجسدا ، واستعدادا ليخرجوا الى حياة العمل والانتاج وقد تفتحت عقولهم على العلم الحديث وتربوا على حب البحث واكتسبوا القدرات اللازمة لاستيعاب كل مايجد فى ميادين العلم والاسهام فى تطويره وتمصيره ووضعه فى خـدمة المجتمع •

ان الميثاق حين تحدث عن تحصيل العلم كحق من الحقوق الاساسية التى ينبغى تكريس الجهد لتحقيقها لكل مواطن كان يعنى العلم كاخر ما وصل اليه الفكر الانسانى فى مختلف فروع المعرفة لا على ازمان خلت •

اننا لا نستطيع القول بان العلم قد اصبح حقا لكل مواطن طالما ظلت مرحلة الالزام قاصرة عن استيعاب كل من بلغ سن الالزام ، وطالما ظل الطالب معتمدا فى التحصيل على ما يتلقاه من دروس خصوصية • ان هذا الوضع فوق انه يجعل التعليم ، رغم مجانيته رسميا ، مرتبطا بالقدرة المالية للاباء ، وفوق انه يحمل الكثيرين فوق طاقاتهم ، يؤدى الى نتيجتين غير صحيتين : الاولى أنه يجعل من ابناء غر القادرين اشباه أميين رغم ضخامة الاموال المستثمرة فى التعليم ، والثانية أنه يحد كثيرا من الفرص أمام ابناء العمال والفلاحين وهم الغـالبية العظمى من الشعب والمصادر الطبيعية للعمل الثورى والقادرين ـ بحكم نشأتهم وانتمائهم ـ على خدمة الجماهير •

٤ ـ ان صحة جماهير الشعب يجب ان تكون هدفا دائما من أهداف الدولة • ان السياسة الصحية يجب [illegible] تقوم على دعامتين : الاولى ان يكون الاهتمام الاول للفلاحين والعمال فهم اكثر تعـرضا للمرض بحكم البيئة وظروف العمل واعجز عن مواجهته بحكم دخولهم المحدودة ، أما الدعامة الثانية فهى الطب الوقائى « ان الوقاية خير من العلاج » لابد ان يكون شعارنا ، واعنى بالوقاية تهيئة الظروف التى تحد من فرص التعرض للمرض ، الوبائى منه وغير الوبائى ، على مستوى الفرد ومستوى الجماعة . اننا لا نزال بعيدين عن أن يصبح حق كل مواطن فى الرعاية الصحية حقا مكفولا غير مشروط بثمن مادى وذلك بالرغم من ضخامة الجهود التى بذلت خلال سنوات الثورة • وربما كان السبب الرئيسى افتقارنا الى سياسة مفصلة •• تحدد الاحتياجات الحقيقية وتضع نظاما شـاملا للرعـاية الصحية ، تغطى مظلته جميع العاملين فى

الدولة دون استثناء ، أو تفرقة فى المعاملة ، وتضع برنامجا لمسح الريف صحيا بهدف الوصول الى أنسب نظام للوقاية والعلاج يخلص الفلاح من مختلف أنواع الاستغلال التى يتعرض لها بسبب مرضه .

٥ ـ يكمل هذا ان تشمل التأمينات الاجتماعية جميع المواطنين . ان اطمئنان المواطن الى استمرار عيشه عيشة كريمة اذا اقعده المرض أو العجز أو لحقت به الشيخوخة ، واطمئنانه الى انه لن يترك اولاده للجوع بعد وفاته ، أمر يجب أن يحتل المكان الاول من اهتمام الدولة . انه حق من الحقوق الاساسية ، حق لابد أن يؤدى الى صاحبه فى كرامة ويسر ، أنه حق وليس منة أو احسانا . هذا الى جانب ان نظام التأمينات الاجتماعية وخاصة اذا شمل الجميع يوفر قدرا غير قليل من المدخرات التى يمكن استثمارها فى عملية التنمية .

٦ ـ ان الانسان العامل هو عماد عملية التنمية فلابد من أن نهيىء له الظروف المناسبة للعمل ، وأن نؤمن له حاضره ومستقبله لكى يعطى كل جهده للعمل وزيادة الانتاج . وفى هذا الصدد فاننى أتصور ، فى ضوء قدرتنا على تنفيذ الخطة والسير بها الى تحقيق اهدافها ، ومن بينها زيادة الدخل القومى بالمعدلات الموضوعة ، أن يأتى وقت قريب نعيد فيه النظر فى عدد ساعات العمل ليصبح أربعين ساعة أسبوعيا مع حساب الاجر على أساس اثنتين وأربعين ساعة ، وفى أوضاع العاملين الذين تجمدت أجورهم .

ولقد آن الاوان ، بعد اتساع النشاط ، وفى ضوء ما أسفرت عنه التجربة خلال السنوات الماضية ، أن يعاد وضع لائحة للعاملين بما يعالج نواحى القصور ويتيح لكل وحدة انتاجية مرونة التصرف وفقا لطبيعة أوضاعها ونشاطها ، وبحيث تتضمن المبادىء التالية :

(أ) نظام ملائم للعلاج والاجازات الاعتيادية والمرضية ، وبحيث لا ينخفض اجر العامل بسبب مرضه . ان معالجة التلاعب عن طريق التمارض لا تكون بالحاق الضرر بالمريض والمتلاعب على حد سواء ، بل بوضع نظام يكفل حسن الرقابة ، ومجازاة المتلاعبين .

(ب) نظام جديد للترقى بالاختيار بحيث لا تكون الاقدمية المطلقة قيدا على الاهتمام بالعمل والابداع فيه ، وبحيث لا يكون الاختيار وسيلة غير مشروعة لترقية من لا يستحق الترقية .

(جـ) نظام للحوافز يوسع من مداها ويحقق الغرض منها ويكون غير معقد وقابل للتطبيق .

ويجب ان تزول جميع الفوارق فى المعاملة بين العاملين بأجهزة الدولة والعاملين بالقطاع العام .

مضاعفة الدخل القومى

ان السبيل الوحيد الى تحقيق هذه الاهداف هو مضاعفة الدخل القومى فى العشر السنوات المقبلة حتى نستطيع توفير حجم الاستثمارات اللازمة للبناء .

انه هدف طموح غير انه ممكن ولا طريق غيره . ان تحقيقه يفرض علينا ان نعيد التفكير على أساس علمى فى استغلال مواردنا بأقصى كفاءة ممكنة . وفى البحث عن موارد أخرى اهملناها دون استغلال يذكر .

ان المصدرين الاساسيين لزيادة الدخل هما الصناعة والزراعة وبوجه خاص فى بلاد كبلادنا عانت سنوات طويلة من التخلف ، والعلاقات الاجتماعية البالية التى اوقفت نموها . واذا كنا نضع من بين اهم اهداف خطتنا المقبلة هدف تطور الزراعة وميكنتها الا ان قضايا تطوير الزراعة ، بسبب طول تخلفها ، يحتاج حلها الى وقت طويل ، واعتمادات مالية ضخمة ، وجهود بشرية جبارة .

لذلك فان الصناعة هى سلاحنا الرئيسى فى عملية مضاعفة الدخل القومى ، وذلك عن طريق زيادة الانتاج بمعدلات عالية بانتظام تزيد كثيرا على معدلات نمو عدد السكان . ان حجم الانتاج لابد وان يزيد زيادة كبيرة ومطردة بالنسبة لكل وحدة عمل ولكل استثمار ، فان اشباع احتياجات الجماهير رهن بما ينتجونه . وازدياد اجورهم ، ارتفاعا بمستوى رفاهيتهم ، رهن بما يدره عليهم من دخل . وليس من سبيل امامنا سوى الارتفاع فى اقصر وقت ممكن بالانتاجية الى أعلى مستوى ممكن بشكل مطرد . ان هذه القضية تكتسب أهمية مضاعفة اذا ادخلنا فى اعتبارنا ان معركة المصير التى نخوضها تفرض علينا فرضا ان نخصص نسبة كبيرة من دخلنا القومى لدعم قواتنا المسلحة التى تقف على اتم استعداد لان تجود بالدم والروح . فاذا ما اضفنا الى هذا الظرف الحيوى الضيق النسبى فى مواردنا والمعدل العالى لزيادة عدد السكان ، اتضح بما لا يدع مجالا للجدل مدى ارتباط تطورنا بل ومجرد استمرارنا بزيادة الانتاج والارتفاع بمستوى الانتاجية .

● البحث العلمى ●

هنا يلعب العلم والبحث العلمى الدور الرئيسى . ان منجزات العلم مهما كانت هائلة ومهما بلغت من روعة تظل عديمة الاثر ان لم تقدم للعاملين آلات حديثة وأساليب جديدة للانتاج تساعد على توفير فى الجهد والوقت والتكلفة وتحقق فى نفس الوقت زيادة ملموسة فى الانتاج .

انظر مقال : الاهداف المطروحة الوسائل .. الضمانات ص ٢٩

ان لدينا العديد من مراكز البحث فى الجامعات والوزارات والشركات ، ولدينا رصيد لا يستهان به من العلماء والباحثين ومنهم من له مكانه المميز بين علماء العالم وباحثيه ، ولكن ينقصنا التنظيم ، ينقصنا ايجاد رابطة تنسيق بين المراكز بعضها البعض ثم ربطها جميعا ربطا وثيقا بعملية الانتاج القومى . ان الهدف الاول للبحث العلمى يجب أن يكون الوصول الى تكنولوجيا مصرية عصرية .

كما يقول الميثاق ..

« لقد تخلفنا من قبل عن عصر البخار وعن عصر الكهرباء ، ولقد كلفنا هذا التخلف ، مع أن ظروف القهر الاستعمارى الرجعى هى التى فرضته علينا ، كثيرا ، ومازال يكلفنا الكثير ، ولكننا مطالبون الان ـ وعصر الذرة يشرق فجره على الدنيا ـ ان نبدأ الفجر مع الذين بدأوه »

● التخطيط ●

ان زيادة الانتاج والانتاجية لتفرض علينا أيضا أن نهتم اهتماما حقيقيا بالتخطيط ـ فالتخطيط هو عصب أية تنمية اشتراكية ولئن كانت جهود الجماهير وحماستها هى التى مكنتنا من بلوغ مابلغناه ، الا ان استمرار التقدم متوقف على ان ترتبط جهود الملايين بعمل تنظيمى مخطط . والتخطيط مطالب بأن يحقق التناسب والتوازن بين الفروع المختلفة للاقتصاد ، وان يضع أولويات الاستثمار بحيث تدر اكبر عائد فى أقل وقت ، وان يهتم بتطوير فروع الصناعة الثقيلة التى تحقق خفضا فى نفقات الانتاج وزيادة فى حجمه .

انظر مقال : رؤية شاملة لقضايا التخطيط القومى ص ٦٥

مصادر أخرى للدخل

● السياحة ●

اذا كانت الصناعة هى عصب الحياة لنا الا ان هناك من مصادر الدخل ما اهملناه أو ما لم نهتم به الاهتمام الكافى فليس هناك من شك فى ان السياحة فى بلادنا من الممكن ان تكون مصدرا اساسيا من مصادر الدخل . لقد وهبنا الله مناخا وطبيعة يتطلع اليهما كثير من الشعوب ، وقد خلف لنا اجدادنا آثارا كانت ولاتزال وستظل مركزا يتوق الى التمتع بمشاهدته كل المتحضرين ، ولقد اصبحت بالاضافة لنضالنا الثورى وما حققناه من منجزات طوال سنوات الثورة محط انظار الكثيرين

من العلماء والمفكرين والادباء ورجال السياسة ، يريدون ان يروا باعينهم ما يسمعونه ويقرأون عنه ، ثم نحن بعد هذا كله شعب طيب كريم يحسن لقاء الضيف ويسعد بخدمته ، كل هذه عوامل لو أحسن استغلالها واهتممنا بدراسة رغبات السياح وطبائعهم ، وسهلنا لهم الانتقال والاقامة وأحسنا استقبالهم ، ونظمنا لهم البرامج السياحية التى تشعرهم بانهم حصلوا مقابل ما تكلفوا من نفقات وما قضوه من وقت قدرا مناسبا من المتعة والثقافة دون مشقة أو استغلال ، لارتفعنا بدخلنا من السياحة ماديا واعلاميا الى اضعاف ماهو عليه الان •

• الخدمات الدولية •

ومن المصادر الاخرى للدخل التى يجب أن نحسن استغلالها اسهامنا فى مجال الخدمات الدولية واقرب مثل هو مد خطوط انابيب نقل البترول من السويس الى الاسكندرية وقد تم بحمد الله توقيع العقد النهائى للمشروع الذى سوف يدر دخلا كبيرا ويقدم خدمة كبرى للتجارة العالمية ، كما أن مكاننا الجغرافى يتيح لنا فرصة الاستفادة من النقل البحرى • أن انشاء أسطول بحرى يربط أسواقنا بأسواق العالم فى يسر وانتظام فوق انه عملية لازمة لتطور اقتصادنا الوطنى ، يمكن ان يكون ايضا مصدرا هاما من مصادر الدخل •

تنمية الاستثمار

لقد كان هدفنا عند بدء الخطة الخمسية الاولى هو مضاعفة الدخل القومى كل عشر سنوات ولم يكن هدفا يتجاوز امكانياتنا ، بل كان ضرورة تمليها احتياجاتنا • وان عدم تحقيقنا لهذا الهدف لا يعنى ان نتخلى عنه ، بل يعنى أن نعيد دراسة واقعنا وامكانياتنا باسلوب علمى يمكننا من تحقيقه خلال العشرات السنوات القادمة •

ان مضاعفة الدخل القومى تعنى تحقيق زيادة فى الناتج القومى بنسبة ٢ر٧ فى المائة فى المتوسط سنويا • ولقد كان معدل زيادة السكان خلال السنوات العشر الماضية ٧ر٢ فى المائة ونامل ان يهبط فى السنوات العشر المقبلة الى اقل من ٥ر٢ فى المائة الامر الذى يعنى زيادة فى متوسط دخل الفرد قدرها حوالى ٥ر٤ فى المائة •

فاذا اقتطعنا من تلك النسبة ما يلزم لمواجهة الاستهلاك الجماهى وما يلزم للاستثمار اصبحت الزيادة فى متوسط دخل الفرد حوالى ٢ فى المائة سنويا • وانننا لانملك وفاء لجماهير شعبنا الكادحة التى طال حرمانها وعانت طويلا من الفقر والجهل والمرض ان نقبل باقل من هذا هدفا ، وذلك الى جانب ضرورة استكمال القاعدة التكنولوجية للاقتصاد القومى وبناء الصناعات الثقيلة بكل ما تتطلبه من استثمارات ضخمة ، وضرورة توفير فرص العمل لحوالى ثلاثة ملايين من العاملين يقدر أنهم سيبلغون سن العمل خلال السنوات العشر المقبلة • واخيرا فان تحسين انماط تعاملنا مع العالم الخارجى ومواجهة سداد ما يستحق علينا له ، يقتضى زيادة الناتج القومى باطراد •

ان الحل الوحيد لمشكلات التنمية هو المزيد من التنمية ، وتلك حقيقة اقتصادية يجب أن نعيها سياسيا ونعبىء الجماهير حولها لتقف بالمرصاد لكل من يريد أن يفت فى عضدها بدعوى الواقعية التى لا تستند فى حقيقة امرها الى الواقع •

ان تحقيق هدف مضاعفة الدخل القومى لا يتطلب أكثر من ان نزيد استثماراتنا تدريجيا خلال السنوات العشر المقبلة حتى يصبح متوسطها السنوى بين ٥٠٠ و ٦٠٠ مليون جنيه • وهذا لا يعنى اكثر من ان نرفع نسبة الاستثمار الى الدخل القومى من وضعها الحالى وهو ١٣ فى المائة الى ٢٠ فى المائة فى المتوسط وليس فى ذلك أدنى غلو فكل الدول التى اجتازت مرحلة التنمية بنجاح فى وقت قصير جدا مثل الاتحاد السوفيتى واليابان ، استثمرت اكثر من ذلك • ان كل استثمار يخلق فائضا انتاجيا ، يجب ان يذهب جزء هام منه الى الاستثمار من جديد ، ان التنمية تمول نفسها اذا احسنت تعبئة الموارد القومية • لقد زاد اجمالى الانتاج فى عشر سنوات وبأسعار ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ من ٢٨٢٠ مليونا سنة ٥٩ ـ ١٩٦٠ الى ٣٨٦٣ مليونا سنة ٦٤ ـ ٦٥ والى ٤٥٤٠ مليونا سنة ٦٩ ـ ١٩٧٠ وذلك رغم كل المصاعب والاخطاء وبالرغم مما تحملناه من اعباء بسبب حرب اليمن وعدوان ١٩٥٦ ، وما نبذله دعما للمجهود الحربى من اجل تحرير الوطن ، أن فى وسعنا ان نحقق فى العشر السنوات المقبلة معدلات زيادة أعلى من ذلك ، ان مانطلبه من زيادة فى الاستثمار الى ٢٠ فى المائة من الدخل القومى لا يعنى اكثر من أن نخصص للاستثمار ٩ر٠ فى المائة من الزيادة فى متوسط دخل الفرد المقدر لها ان تكون حوالى ٥ر٤ فى المائة سنويا •

ومن الناحية العملية يمكن ان توفر الزيادة المطلوبة فى الاستثمار اذا نجحنا فى اتخاذ الاجراءات الاتية :

● زيادة الفائض الذى يحققه القطاع العام بترشيد تنظيمه ورفع الكفاية الانتاجية ، واستخدام الطاقات الانتاجية المتاحة بالكامل • وأن ما حققه القطاع العام من نجاح ضخم فى اقامة القاعدة الاقتصادية ليجعلنا على ثقة من قدرته على بذل المزيد من الجهد •

● زيادة انتاجية العمل على المستوى القومى بسحب مزيد من العمالة من الزراعة وتوجيهها نحو الصناعة والتشييد

● تخطيط الاستهلاك الجماهى والعائلى للتخلص من الاسراف والتبديد ، وتجنب الاستهلاك الترفى ، وفى هذا الاطار يلعب تنظيم الاسرة دورا بالغ الاهمية ، ان كل مولود جديد يظل الى مالا يقل عن خمسة عشر عاما مستهلكا لا يضيف للانتاج شيئا • ويكمل هذا التخطيط ، تخطيط مالى سليم يعبىء المدخرات أولا بأول ويوجهها للتنمية •

● الاهتمام بتطوير سريع للخدمات الدولية التى من شانها ان تدر عائدا سريعا وكبيرا ، فى مقدمتها ، السياحة ، ومشروعات نقل البترول والنقل البحرى •

● التوسع فى الاعتماد على الجهود الذاتية للجماهير ولا سيما فى قطاع الخدمات • ان وعى الجماهير باهمية التنمية ، واحساسها بعائدها المباشر عليها يمكن أن يحملها على الاسهام فى مشروعاتها ليس بالمال وحده ولكن بالعمل • وأن خفض التكلفة وحسن أداء الخدمة للجماهير يلعبان دورا حيويا فى هذا المجال •

دور الصناعة

ان تحقيق هدف مضاعفة الدخل القومى فى عشر سنوات تقع مسئوليته على الصناعة والزراعة وما من شك فى ان الصناعة تتحمل العبء الاساسى وبدراسة امكانيات النمو فى الصناعة خلال العشر سنوات القادمة تبين أن الانتاج الصناعى الذى يبلغ عام ٦٩ ـ ٧٠ ـ ٢١٢٣ مليون جنيه يجب أن يبلغ فى ٧٩ ـ ٨٠ ـ ٤٦٦٢ مليون جنيه اى زيادة بنسبة قدرها ١٢٫٠ فى المائة ومن أجل ان تتمكن الصناعة من ان توفر بناء الدولة الجديدة احتياجاتها من مواد البناء فيجب ان تتحقق الاهداف التالية فى المنتجات الرئيسية :

الصلب من ٠٠٠ر٤٥٠ طن عام ٦٩ ـ ٧٠ الى ٢ مليون طن فى ٧٩ ـ ٨٠ •

الاسمنت من ٠٠٠ر٦٠٠ر٣ طن عام ٦٩ ـ ٧٠ الى ٦ ملايين طن فى ٧٩ـ٨٠ •

البترول الخام من ٠٠٠ر١٠٠ر١٥ طن عام ٦٩ ـ ٧٠ الى ٦٠ مليون طن فى ٧٩ ـ ٨٠ •

المنتجات البترولية من ٠٠ر٤٩٤ر٢ طن عام ٦٩ ـ ٧٠ الى ١٦ مليون طن فى ٧٩ ـ ٨٠ •

الكهرباء من ٧٠٠٠ مليون كيلو وات ساعة ٦٩ ـ ٧٠ الى ١٩٠٠٠ مليون كيلو وات ـ ساعة عام ٧٩ ـ ٨٠ •

الاسمدة الازوتية من ٠٠٠ر٠٣٢ر١ طن عام ٦٩ ـ ٧٠ الى ٥ر٣ مليون طن فى ٧٩ ـ ٨٠ •

الاسمدة الفوسفاتية من ٦٠٠ الف طن عام ٦٩ ـ ٧٠ الى ٠٠٠ر٢٠٠ر١ طن فى ٧٩ ـ ٨٠ •

هذا الى جانب النمو المستمر فى كافة قطاعات الانتاج الصناعى بما يحقق سد الاحتياجات المتنوعة والمتزايدة للمواطنين من السلع الاستهلاكية •

وبالاضافة الى هذا كله ، بدأ تنفيذ مصنع الالومنيوم ، ومجمع الحديد والصلب، ومجمع البتروكيماويات لتكون احدى الدعائم الاساسية للتنمية الصناعية فى المستقبل .

ويقتضينا الانصاف هنا ان نشير بالشكر العميق الى دور الاتحاد السوفيتي الصديق الكبير ، لنا ولكل الشعب العربي ، فان معاونته الصادقة لنا غير المشروطة باى شرط فى تطوير اقتصادنا القومى فى مختلف مجالاته وبوجه خاص على سبيل المثال لا الحصر اتفاقية التصنيع الاخيرة ، لتمثل سندا رئيسيا لنا فى تحقيق اهدافنا وبناء دولتنا الجديدة . واسمحوا لى ان أتقدم باسمكم كممثلى الشعب بالشكر والعرفان الى الاتحاد السوفيتي شعبا وحزبا وحكومة متمنين له دوام الرقى والتقدم .

دور الزراعـة

اذا كان انطلاق الانتاج الصناعى الى هذه الافاق الجديدة هو السبيل الاساسى لتحقيق أملنا فى بناء مجتمعنا الحديث والمتطور ، فان على الانتاج الزراعى أن يقوم هو ايضا بدوره فى مجال مضاعفة الدخل القومى .فقبلغ انتاجنا الزراعى عام ٦٩ - ٧٠ - ١٠٧٥ر١ مليون جنيه وعليه ان يبلغ فى عام ٧٩ - ٨٠ - ١٦٠٠ مليون بنسبة زيادة حوالى ٥٠ فى المائة .. ولا شك ان تحقيق هذه الزيادة ممكن بالوسائل التالية :

١ - الاستفادة الكاملة بمياه السد العالي من اجل استكمال استصلاح الاراضى واستزراعها .

٢ - تطوير الزراعة بادخال الميكنة ووسائل الزراعة الحديثة .

٣ - تحسين التربة ، واستخدام أحدث وسائل الرى والصرف والتسميد .

٤ - اعادة النظر فى التركيب المحصولى ، فان ضيق مساحة الارض وارتفاع تكاليف الاستصلاح والاستزراع يحتمان زراعة محاصيل تعطى أعلى عائد ممكن .

القطـاع العـام

ان القطاع العام هو قلعة التنمية الاشتراكية فى بلادنا ، انه القطاع القائد . ولقد أثبتت التجربة المصرية اننا لاتنقصنا الكفاءات الادارية أو الفنية فلقد قام القطاع العام منذ أول يوم من انشائه على اكتاف مجموعة من العناصر الوطنية الممتازة واصلت العمل بكفاءة واستطاعت ان تشيد صرح الاقتصاد القومى وأن تنقل بلادنا لاول مرة فى تاريخها من بلد زراعى الى بلد صناعى فقضت على الخرافة التى ظل الاستعمار يروج لها سنوات طويلة من اننا بلد لا مكان للصناعة على ارضه . غير أن المسالة الرئيسية هى ايجاد الجو الملائم الذى يجب ان تعمل فى ظله الادارة بحيث تستطيع أن تستغل الموارد المتاحة والمحتملة استغلالا رشيدا تتحقق معه تنمية القدرات الانتاجية للمجتمع وبحيث ترتفع بالعمل البشرى الى مستوى العمل السياسى الواعى بالاهداف التى تتطلع اليها جماهير الشعب .

ان اساس الادارة الرشيدة ، هو الحرية والمسئولية ، الحرية فى اتخاذ القرارات ، والمسئولية عن تحقيق الاهداف المحددة تحديدا واضحا ، ولا يجوز ان تتعدى وظيفة الاجهزة الاشرافية الحكومية دور المتابعة والمساعدة على حل المشاكل وذلك دون تدخل فى القرارات والاجراءات التى تتخذها الادارة . ان هذا هو السبيل لان يسير القطاع العام على عملية من الحسابات الاقتصادية بعيدا عن البيروقراطية والقيود الادارية المتخلفة .

ان اشراك العاملين فى الادارة أمر على أقصى درجة من الاهمية ، انه أولا تطبيق عملى للديمقراطية ، ثم هو ثانيا من الضمانات المهمة لزيادة الانتاج ومتابعة تنفيذ الخطة . ان اشراك العاملين فى الادارة يصبح مجرد شعار ان لم يشتركوا فى مناقشة خطة وحدتهم واقرارها وان لم يلعبوا دورهم فى المتابعة أثناء التنفيذ وبعد انتهاء فترة الخطة . انهم يستطيعون من هذا الطريق ، لو اتيحت لهم الفرص ، أن يتقدموا بكثير من المقترحات المفيدة وبعديد من الحلول الذاتية لمشاكل الانتاج ، ان اشتراكهم فى التخطيط يساعد على واقعية الخطة من ناحية ، وعلى سلامة تنفيذها من ناحية أخرى .

ان هذا الاسلوب فى الادارة ، الذى يجب أن توضع له الاشكال التنظيمية المناسبة ، يزيد دون شك من حماسة العاملين ويكسبهم الثقة بوحداتهم وقياداتها ويشعرهم بأن عملهم نافع ومثمر ، وأنهم ملاك حقيقيون لوسائل الانتاج ومنفذون لاهداف الشعب فى نفس الوقت . ولقد قدمت تجربة لجان الانتاج فى شركات القطاع العام الدليل العملى على ما يمكن أن يؤديه اشراك العاملين من خلال تنظيماتهم فى ادارة الانتاج من نتائج ايجابية مهمة .

واذا كان القطاع العام هو القاعدة الاساسية لنظامنا الاشتراكي فاننا يجب ان نكون واضحين أيضا ازاء القطاع التعاوني والقطاع الخاص .

ان الملكية التعاونية لابد أن تقوم على مضمون اشتراكى ، انها ليست مجرد تجميع لعدد من الافراد من أجل حل مشاكلهم فيما يتصل بالاستهلاك أو الحصول على الخامات او تسويق ما ينتجون . أن هذه الامور على أهميتها لا يجوز أن تقتصر عليها وظيفة التعاون ، بل لابد وأن تتطور وظيفته بحيث يصبح تعاونا انتاجيا سواء فى الصناعة أو الزراعة . ان هذا هو الطريق الى اقامة علاقات انتاجية متقدمة تدفع بالانتاج الى الامام وتنمى قيما اجتماعية جديدة . وأساس التعاون هو حرية الانضمام وانتخاب مجالس الادارة انتخابا حرا مباشرا .

ولقد حدد الميثاق بوضوح دور القطاع الخاص ومجالات نشاطه ، ويبقى أن نوفر له ، دون تردد أو خوف ، الضمانات اللازمة لكى يقوم بدوره المحدد فى خطة التنمية وتحت الرقابة الشعبية . ان موقفنا النظرى من القطاع الخاص قائم على أساس دوره اللازم لعملية التنمية فلابد وأن نيسر له عمليا القيام بمهمته وأن نرسم له بوضوح خط سيره .

جهـاز الدولة

ان لجهاز الدولة دورا مهما فى عملية التنمية ، والدولة الجديدة تعنى جهازا يكون جميع اجهزته التنفيذية فى خدمة الجماهير لا سيدا لها . وفى بلاد كبلادنا نشأ فيها جهاز الدولة منذ آلاف السنين ، وتربى فى ظل علاقات طبقية وتبعية لمختلف الوان الاستعمار ، لايمكن أن يترك تحقيق هذا الهدف السامى للنوايا الحسنة أو لمجرد تغيير فى القيادات ، بل لابد من عمل ثورى منظم ومحدد يتناول الظاهرة من جذورها فيعيد تنظيم الادارة الحكومية كلها ويحدد المسئوليات بحيث لا تتضارب ، ويرسم طرق الاتصال بين مختلف الاجهزة بحيث لا يتوه العمل بين سراديب الروتين ، ويضع مواصفات الوظائف الاشرافية والقدرات اللازم توفرها فى شاغليها ونظاما للجزاء والثواب . ويحدد بشكل قاطع وواضح نوع العلاقة بين الاجهزة المركزية والاجهزة المحلية .

ان وضع اجهزة الدولة فى خدمة الشعب لا يمكن أن يتحقق بدون تأكيد رقابة الجماهير عليها ومنح المواطنين من خلال تنظيماتهم الحق فى أن يلجأوا الى المدعى العام عندما يرون انحرافا عن القانون او سوء استخدام للسلطة ، ولابد وأن تفتح الابواب الى تولى المناصب القيادية أمام العناصر الشابة المثقفة وبوجه خاص من ابناء العمال والفلاحين .

ان المجالس الشعبية تستطيع أن تلعب دورا مهما فى تطوير جهاز الدولة فهى - كما قال الميثاق - أقدر على الاحساس

انظر مقال : القطاع العام وديمقراطية الانتاج ص ٧٤

بمشاكل الشعب وأقدر على حلها ، ولقد آن الاوان لكى تتكون هذه المجالس بالانتخاب الحر المباشر . كما لابد أيضا من تكوين المجالس القومية المتخصصة كهيئات علمية استشارية وبحيث ترتبط بمراكز البحث العلمي ومعاهده .

هذا هو تصورنا لاملنا وأمل نضال الشعب المصرى منذ بدء النضال وذلك هو تخطيطنا للمهام اللازمة للسير على طريق تحقيقه . غير اننى اصارحكم القول أن المهمة على سموها ليست بالمهمة السهلة ، ليست من المهام التى تتحقق بالتمنى ، وانما هى مهمة لا طريق لها الا بذل الجهد والعرق ليل نهار ، ولربما كان فى التعب من أجلها ناحية من نواحى سموها .

أن علينا جميعا ، فردا فردا ، ومؤسسة مؤسسة ، الدولة والاتحاد الاشتراكى والتنظيمات النقابية العمالية والمهنية ، وكل التنظيمات الشعبية ، أن علينا جميعا أن نبذل كل ما فى طاقاتنا من جهد ، لا مكان بيننا للكسول أو السلبى أو الطفيلى أو المتعالى ، واننا لكى تؤتى جهودنا ثمارها لابد وأن تنظمها برامج تنفيذية مفصلة موزعة على فترات زمنية محددة ، على ان يضمها جميعا خطتان مدة كل منهما خمس سنوات ، وعلى الحكومة أن تشرع على الفور فى اعداد الخطة القومية الشاملة متضمنة الاهداف والمهام والوسائل التى اشرت اليها ، على أن تنتهى من الاعداد التفصيلى لمرحلة الخمس السنوات الاولى فى بحر ستة شهور على الاكثر بحيث يعرض مشروع الخطة على اللجنة المركزية لمناقشته واقراره فى شهر فبراير المقبل ليتم ادراج الاعتمادات اللازمة فى ميزانية ٧٢ - ١٩٧٣ .

الاتحاد الاشتراكي العربي

ان الاتحاد الاشتراكى العربى قد تم بناؤه لاول مرة فى تاريخه عن طريق انتخابات حرة بعيدة كل البعد عن أى تدخل من جانب السلطة وهو ما يحق لنا جميعا أن نفخر به . ان هذا فى حد ذاته خطوة بالغة الاهمية ، اذ هيأت للجماهير فرصة اختيار قياداتها بنفسها ، غير أن هذه الخطوة على اهميتها لا تكفى وحدها ضمانا لان يكون الاتحاد الاشتراكى التنظيم الذى نريده ، التنظيم الذى يقود نضال تحالف الشعب فى المعركة المصيرية ضد العدو ومن أجل البناء . ان الضمان الحقيقى هو أن يرتبط العمل السياسى ارتباطا كاملا بالعمل على تنفيذ الخطة والتزام كل وحدة أساسية وكل مستوى من مستويات التنظيم بتحقيق أهداف محددة فى فترات زمنية محددة ويجب أن يكون هذا هو أساس تقييم الافراد واللجان والمستويات ، الامر الذى يفتح طريقا طبيعيا وثوريا لبروز العناصر القيادية على أساس من الاستحقاق والجدارة وثقة الجماهير . بهذا الاسلوب للعمل السياسى وبالسلوك الاشتراكى الصحيح ، يصبح التنظيم بحق تنظيم الجماهير الخادم لها لا المتسلط عليها .

ان العمل السياسى ليس شعارات ترفع فى تشنج ، وليس اصطلاحات وتعبيرات تردد عن ظهر قلب دون فهم أو وعى ، وليس حشدا للناس فى اجتماعات يتبارى فيها الخطباء بالكلمات ثم ينفض الناس فلا هم تكلموا ولا هم استمعوا الى من تكلم .

ان العمل السياسى عمل ، ولكل عمل برنامج ، ولكل برنامج اهداف ووسائل ، والاهداف لابد أن تكون أهداف الجماهير ، والجماهير هم وسائل تنفيذها ، فان لم نتكلم لغتهم وان لم نعرف اهدافهم ، وان لم نحس آمالهم وآلامهم كنا كالخشب المسندة . ولن نعرف ولن نحس الا اذا عشنا بينهم وآمنا بقدراتهم .

ان سيادة هذا الاسلوب للعمل السياسى تتطلب تحقيق الاسس التالية التى اتفقنا عليها والتى جرت على أساسها الانتخابات :

١ - الوضوح الفكرى الكامل لطبيعة المرحلة التى نمر بها وما تفرضه من مهام وواجبات وما يسودها - بحكم طبيعتها - من عوامل مساعدة ومضادة وكيفية التصرف ازاءها .

وباختصار يجب أن يكون الخط السياسى استراتيجيا وتكتيكيا ، واضحا وضوحا كاملا أمام المستويات القاعدية والقيادية على حد سواء .

٢ - اقامة البناء الداخلى للتنظيم بحيث يخدم الخط السياسى ويضمن الوحدة التنظيمية والتسلسل الطبيعى للمستويات القيادية والاتصال الدائم والفورى بين المستويات المختلفة ، وبين التنظيم والجماهير ، وتكوين مكاتب فنية متخصصة فى مختلف أوجه النشاط تمد الاجهزة السياسية بالمعلومات والدراسات اللازمة التى تعاون على اتخاذ القرارات .

٣ - سيادة مبدأ الديمقراطية فى الحياة الداخلية للتنظيم . ان أسلوب الحياة والعلاقات داخل أى تنظيم سياسى هو الذى يحدد بالتبعية أسلوب تعامله وعلاقته بالجماهير . ان تنظيما يقوم على الديكتاتورية والغرض واصدار الاوامر دون مناقشة ، لا يمكن بحال من الاحوال أن يكسب الجماهير ، ولا يمكن الا أن يتعالى عليها ولن تقبل الجماهير هذا التعالى منه بطبيعة الحال فتنفض من حوله . ان التنظيم السياسى بالنسبة للجماهير كالنبات بالنسبة للارض الطيبة ان اجتث منها ذبل ومات كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار .

ان الديمقراطية تعنى حرية الرأى والتعبير لكل عضو ولكل مستوى ولكل قوة من قوى التحالف ، وايجاد الظروف الملائمة لممارسة هذه الحرية ، كما تعنى حق النقد وممارسة النقد الذاتى .

ان الديمقراطية هى الضمان الوحيد ضد ظهور مراكز القوى وضد الشللية وضد الولاء لفرد أو مجموعة من الافراد .

ان الديمقراطيةهى الطريق الى جماعية القيادة ، فليست جماعية القيادة فى جوهرها سوى اتخاذ القرار على أساس من الخبرة الجماعية للاعضاء ولا سبيل الى هذا الا بفتح باب الحوار حرا حول القضايا المثارة أمام جميع المستويات .

ان الديمقراطية هى المناخ الذى تتربى فيه العناصر القيادية الجديدة .. انها باختصار جسد التنظيم وروحه .

٤ - وضع نظام ثورى للرقابة والمحاسبة يحدد الحقوق والواجبات لكل عضو وكل مستوى ، ويحدد طرق الثواب والجزاء ويتيح الفرص كاملة للدفاع عن النفس بحيث لا يؤخذ العضو بالشبهات والشائعات أو بمدى قربه من هذا المسئول أو بعده عن ذلك .

٥ - وضع خطة لتثقيف الاعضاء وتربيتهم سياسيا وتنظيميا وفكريا وخلقيا . والاساس الفلسفى للتثقيف هو الانتماء الكامل للجماهير والتوحد معها الامر الذى لا يمكن أن يتحقق الا اذا ارتبط التثقيف بالواقع ، بالمشاكل البعيدة والمشاكل اليومية ، وبالظروف التى يعيشها الناس ويتحركون فى ظلها ويتصرفون بتأثير منها .

ان مهمة التثقيف هى تزويد العضو بمنهاج نظرى يستخدمه فى حل مشاكل محددة ويعاونه على حسن التصرف ازاء القضايا الطارئة . وما كان التثقيف الثورى فى يوم من الايام حفظا لنصوص صماء أو ترديدا أعمى لعبارات مأثورة ثم تظل المشاكل قائمة ويتصرف ازاءها الناس بوعى من فطرتهم أو خبرتهم فاذا أخطأوا التصرف عبناهم والعيب فينا .

٦ - قيام تنظيم طليعى - كما نص الميثاق - داخل الاتحاد الاشتراكى يجمع العناصر القيادية التى ظهرت أثناء العمل بين الجماهير من أجل تنفيذ مهام البرنامج فى اخلاص وتفان وانكار للذات وبغير تطلع الى جزاء أو جاه أو منصب ، فتثق به الجماهير وتلتف من حوله ، **ويجب أن يكون جهازا علنيا .**

انه جهاز علنى لان الاشتراكية لا تبنى سرا والحرية لا تتحقق من وراء ستار . ان سرية الاختيار تعنى فى النهاية ولاء المختار لمن اختاره لا للقضية ، تعنى انعزال المختار عن الجماهير وتعاليه عليها فليست هى التى دفعت به الى القيادة ، تعنى البيروقراطية والفساد الخلقى والتآمر . ثم لماذا السرية ؟ فيم الخوف وممن اذا كان العمل حقا من أجل دعم الحرية وبناء الاشتراكية وحل مشاكل الجماهير ؟ ..

ان الجهاز الطليعى كما اراده الميثاق جهاز ينشر الفكر الاشتراكى بالقول والعمل والمسلك ، يؤمن بالجماهير وقدراتها ، يعيش بينها يتعلم منها ويعلمها ، ينظمها ويرتفع بوعيها ويعبىء طاقاتها من اجل التحرر ومن أجل البناء .. فكيف يمكن أن يكون سريا ؟ ..

انظر مقال : التنظيم الطليعى ضرورة بعد بناءالإتحادالاشتراكى ص ٣٩

المهام الرئيسية للاتحاد الاشتراكي العربي

بهذا الفهم للبناء التنظيمي للاتحاد الاشتراكي ولاسلوب عمله ولدوره أضع أمامكم تصورى للمهام الاساسية التى يجب أن يركز عليها اهتمامه وأبدأ بمهمتين محددتين لما لهما من أهمية بالغة وأثر مباشر على تطوير اقتصادنا القومى ، وهما مهمتان لا يمكن أن تتولاهما أجهزة الدولة وحدها ، ولا يمكن أيضا أن تتركهما للمجهود الفردى للجماهير ، وأعنى بهما محو الامية وتنظيم الاسرة .

• محو الامية •

ان تصور بناء دولة حديثة والكلام عن تطوير البحث العلمى والارتفاع بمستوى الانتاجية فى بلد غالبية سكانه من الاميين يعد ضربا من الخيال اذا لم نبدأ على الفور حملة واسعة وجادة لا تتوقف لحظة من أجل القضاء على الامية .

ان نسبة الاميين تكاد تكون ثابتة ولكن عدد الاميين يتزايد بسبب تزايد عدد السكان . ان محو الامية واجب انسانى اذ لا حرية مع الجهل ، وهو أيضا واجب قومى وشرط من شروط تطوير الاقتصاد وزيادة الانتاج .. ان جماهير الشعب هم القوة الانتاجية الرئيسية ولا نجاح لعملهم ان لم يكن على قدر كاف من المعرفة والثقافة العامة . ان الانتاج الحديث اذ يطرح على بساط البحث قضايا الالات والتكنولوجيا يطرح فى نفس الوقت قضية العاملين الذين يصنعون الالة ويستخدمون التكنولوجيا . ان أية عملية انتاجية هى فى النهاية مهما كانت بسيطة عملية تكنيكية .

ان واجب محو الامية لا يمكن أن يكون واجب الدولة وحدها فالمهمة أضخم وأوسع من أن تقوم بها منفردة أجهزة الدولة . ان على الدولة أن تحصر أماكن تجميع الاميين وأعدادهم وأن تقدم الامكانيات ولكن صلب المهمة من صميم عمل الاتحاد الاشتراكى والنقابات العمالية وعلى الاتحاد الاشتراكى أن يضع خطة تحدد هدفا لكل سنة وتقوم على التطوع والجهود الذاتية .

ومن الممكن فى هذا الصدد ان يكون من أسس تقييم نشاط العضو الجهد الذى يبذله من أجل محو الامية ، ومن الممكن أيضا أن نفكر فى أن يكون من شروط تعيين العاملين أن يعمل كل منهم لفترة محددة فى فصول محو الامية .

انظر مقال محو الامية : مهمة لاتحتمل التأخير ص ٧٩

• تنظيم الاسرة •

ان تنظيم الاسرة فى بلادنا يفرض نفسه فرضا على رأس قائمة مهام التنظيم السياسى . ان معدل زيادة عدد السكان فى بلادنا معدل رهيب لا نملك القدرة على تحمله أو الوقوف ازاءه موقف المتفرج أو موقف اليائس . انها مشكلة صعبة ومعقدة حقا ولكن هذا لا يبرر أن نهرب منها بل على العكس يحتم علينا أن نتصدى لمواجهتها دون تأخر وبكل عزم وقوة . هذه الظاهرة لو استمرت لقضت على كل أمل للتطور والتقدم بل لهددت أيضا مجرد استمرارنا . انها قضية قومية بمعنى الكلمة ، وما من شك فى أنها مرتبطة ارتباطا سببيا بمشكلة الامية ومن هنا كان للعمل فى ميدان محو الامية اثره المفيد من أجل تنظيم الاسرة وعندما أقول ان تنظيم الاسرة مهمة أساسية من مهام التنظيم السياسى فبسبب انها قضية سياسية واجتماعية ، سياسية لانها تتصل بحاضر المجتمع ومستقبله واجتماعية لانها تخضع لعوامل وقيم اجتماعية . وعلاج مشكلة هذه طبيعتها لابد وأن يستند الى التوعية والتبصير . التوعية بأهداف العمل الوطنى والتبصير بالاضرار التى يلحقها تزايد عدد السكان بهذه الاهداف ، ولربما كان من أسباب عدم نجاحنا بالقدر الكافى فى علاج المشكلة ، اننا ركزنا أكثر مما ينبغى على جانبها الطبى مع أن دور الطب فى هذا الصدد لايتعدى الفحص الطبى للراغبين والراغبات فى تنظيم النسل واختيار أنسب الوسائل لهم وتتبع حالتهم صحيا ، بل اننا نكون قد نجحنا فعلا فى مهمتنا عندما تلجأ الناس الى مراكز تنظيم الاسرة يطلبون الوسائل . فالمهمة هى اقناع الجماهير والمقياس الوحيد للاقناع هو عدد المترددين وبانتظام على المراكز الطبية لوسائل منع الحمل ، واقناع الجماهير هو صلب عمل الاتحاد الاشتراكى وبوجه خاص اقناع جماهير الريف .

وان على اللجنة المركزية أن تولى هاتين القضيتين اهتماما خاصا فتكون لجنة خاصة لتدرس كل قضية منها دراسة واقعية وتضع خطة من برامج زمنية لمعالجتها .

ان على الاتحاد الاشتراكى الى جانب هاتين المهمتين ثلاث مهام اساسية اخرى :

• أولا : التوعية بخصائص المرحلة الحالية ■

ان المرحلة الحالية من مراحل نضالنا مرحلة جديدة ولكنها غير مقطوعة الصلة بالمراحل السابقة بل هى نتيجة طبيعية لما تم خلال التسعة عشر عاما الماضية من تطورات سياسية واقتصادية واجتماعية الايجابى منها والسلبى على حد سواء ، غير انها فى نفس الوقت ليست مجرد امتداد عادى لها .

اننا مواجهون اليوم باعباء جديدة يفرضها تطلع جماهيرنا الشروع الى التحرر والى تحقيق آمال جديدة كما وكيفا ، ثم نحن محاطون بظروف لم تكن سائدة فى المرحلة السابقة وان كانت نتيجة لها .

١ ـ ان أول ظرف يشغل العقل والقلب والوجدان من كل مواطن هو العدوان الصهيونى على اراضينا ، ذلك المخطط الصهيونى الامبريالى من أجل ضرب ثورتنا . ان الامبريالية على الرغم من اتساع وتعاظم حركة التحرر العالمية لم تضع السلاح بل انها لتزداد شراسة وضراوة ، تريد أن تبقى على استغلالها للشعوب وأن تضرب النظم التقدمية الحديثة وأن تبقى على الرأسمالية مصدر ثرائها ونفوذها ، وانها لتلجأ فى سبيل تحقيق أهدافها الى كل الوسائل ، الى الحرب الى الضغط الاقتصادى الى المخادعة ، الى التخريب من الداخل ، ان هذا الوضع يفرض علينا واجبا قوميا ومصيريا هو الدعم المستمر لقواتنا المسلحة الباسلة التى تقع عليها المسئولية الاولى فى تحرير أراضينا والدفاع الدائم اليقظ عن حدودنا ونظامنا الاجتماعى .

ان هذا الوضع يحدد لنا على الفور وبوضوح تام من العدو ومن الصديق ، ان تصميم الولايات المتحدة على استمرار دعم اسرائيل ، عسكريا وماديا وجعلها كما سبق أن قلت مشتركة فى احتلال اراضينا والعدوان على سيادة اوطاننا يبين أنها بذلك تضع نفسها فى موقع العداء للامة العربية كلها ، وعليها وحدها تبعة ما يمكن أن يحدث عن هذا الوضع من نتائج .

اننا اليوم نقف وجها لوجه أمام المعركة ولن ننتظر اطول مما انتظرنا . ولن يموت حق وراءه مقاتل ، واذا كان بذل الحياة هو سبيلنا الى الحياة فلن نبخل ببذل الحياة .. ان أرواح شهدائنا فى سبيل الحياة منذ فجر تاريخنا لتنادينا ولن يمضى وقت طويل الا ونلبى النداء

لن تخدعنا مناورات أمريكا ولن ينال من عزمنا تجوال مندوبيها فى الدول العربية وغير العربية . ان العالم كله يعلم حق العلم أننا لم نبخل بجهد ولم نضن بوقت من أجل الوصول الى حل سلمى على أساس تنفيذ قرار مجلس الامن الذى ينص على الانسحاب الكامل من جميع الاراضى العربية المحتلة ، وعودة المعتدين الى خطوط ما قبل ٥ يونيو والاعتراف بحق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره بارادته الحرة ، غير أن الحل السلمى فى مفهومنا يجب أن يكون حلا عربيا نصوغه نحن ، وليس حلا ترسم خطوطه امريكا واسرائيل . اننا نحن اصحاب الارض المحتلة . اننا نحن المعتدى عليهم ، بل اننا فوق هذا كله نؤمن بأن علينا مسئولية تاريخية أمام شعوب العالم المتمدين هى أن نلعب دورا أساسيا فى القضاء على أسلوب استخدام القوة لضم الاراضى والتوسع العدوانى ، وفى وقف حملات الهمجية والبربرية فى تحد

أسلوب المناورة والخداع فى السياسة الدولية ٠

تلك هى رسالتنا التاريخية بالنسبة لارضنا وأولادنا وذلك هو دورنا كشعب عريق أسهم طوال حياته فى بناء الحضارة الانسانية ٠

٢ ـ اننا اذا كنا قد قضينا على تحالف الاقطاع والرجعية وتحكم رأس المال الا ان من طبيعة القوى الداخلية المعادية للتقدم والاشتراكية انها لاتفقد الامل بسهولة، وقد تنشط بعد هدوء اذا وجدت ظرفا مواتيا معتمدة على أن تكسب تأييد القوى الخارجية المعادية والتى هى على استعداد دائم للوقوف معها ٠ من هنا يجب أن تكون دائما على حذر إزاء تحرك القوى المعادية فى الداخل وأن تفضح على الفور ما تبثه من سموم بيننا وأن نحمى بحبات عيوننا وحدتنا الوطنية ٠

ان محاولات الرجعية للعودة بالبلاد الى سابق وضعها امر محكوم عليه تاريخيا بالخيبة ولكن هذا لا يعنى أن نركن الى هدوء البال بل لابد من اليقظة والنضال ٠

● ثانيا : التوعيــــة بالتنمية والمشاركة فيها ●

ان نجاح التنمية رهن بايمان الجماهير بها وحماسهم لها ، والايمان والحماسة لا طريق لهما سوى الفهم العلمى لمهام الاقتصاد ، والوعى باعباء المرحلة ٠

اننا نتطلع الى الوقت الذى تصبح فيه قضايا التنمية هى الشغل الشاغل لجميع العاملين ٠ وتلك قضية لابد ان تحتل مكان الصدارة من اهتمام الاتحاد الاشتراكى والحكومة على حد سواء ، فاذا كان التنظيم السياسى هو المدرسة النظرية التى يتعلم فيها الشعب السياسة الاشتراكية فان القطاع العام هو الميدان الذى يضع فيه النظرية موضع التطبيق ٠ ان لجان الانتاج ومؤتمرات الاتحاد الاشتراكى للقطاع العام لابد أن تتحول الى مدارس يتعلم فيها العاملون عمليات التنمية الاقتصادية ، والى أجهزة لمتابعة التنفيذ فى نفس الوقت ٠ ذلك هو الطريق الوحيد لكى يتطور مجتمعنا بنجاح نحو الاشتراكية ولكى نتاكد دورنا على الصعيد الدولى ٠ بل هو نفس الطريق لمواجهة التحدى الصهيونى ٠

ان الاتحاد الاشتراكى مطالب بأن يضرب أعضاؤه المثل فى المشاركة فى تنفيذ مهام التنمية ٠ ان بناء القرى الجديدة يضع على أكتاف اللجان الاساسية بالريف واجب المشاركة عن طريق التطوع فى تنفيذ هذه المهمة الثورية الى جانب باقى المهام ٠ ان عليها ان تجند الجهود الذاتية ، وأن تثير حماس سكان القرى ليسهموا بالفعل التطورى فى اعادة صياغة حياتهم ٠ ان على أعضاء اللجان ان يكونوا قدوة يحتذى بها الباقون ٠

ان اللجان الاساسية فى احياء المدن تستطيع أن تفعل الكثير من أجل الجماهير تستطيع ان تجعل من مهامها تجميل الشوارع والميادين والعمل على نظافتها ٠ وفتح فصول مجانية لمحو الامية ومساعدة العجزة وغير القادرين على قضاء حاجياتهم ٠ ومعاونة أجهزة الخدمات المحلية على أداء رسالتها وبوجه خاص فى مجالات الصحة والتموين والتعليم ٠

اما لجان الوحدات الانتاجية فالمهام أمامها متعددة ٠ ان عليها أولا بمعاونة اللجنة النقابية محو أمية العاملين ٠ ان اية وحدة انتاجية يبقى فيها أمى واحد بعد فترة ولتكن سنة منذ بدء اللجنة نشاطها يجب أن تحل لجنتها الاساسية

ان على لجنة الوحدة الانتاجية أيضا ان تنظم مع اللجنة النقابية والادارة دورات تدريبية للارتفاع بالمستوى الثقافى والفنى للعاملين ٠ أن الهدف من هذه الدورات هو الارتفاع بمستوى الاداء وبالتالى زيادة الانتاج ومن هنا كان لابد وأن تنظم بحيث لا تعطل الانتاج ٠

ان اعضاء لجان الوحدات الانتاجية لابد وأن يكونوا المثل فى الانضباط والتفانى فى العمل وزيادة الانتاج ٠ انهم يستطيعون أن يكونوا مع الادارة واللجنة النقابية فريقا واحدا متحدا من أجل هدف يكونوا مع الادارة واللجنة النقابية فريقا واحدا متحدا من أجل هدف واحد هو زيادة الانتاج ٠

اننى اعود فاكرر الا سبيل امامنا للنصر والتقدم سوى زيادة الانتاج أولا ، وزيادة الانتاج ثانيا ، وزيادة الانتاج اخيرا ٠

● ثالثا : بنـــاء الانسان الجديد ●

ان بناء الدولة الجديدة لا يمكن ان ينجح بدون بناء الانسان الجديد ، الامر الذى يحتاج الى عمل تربوى مستمر من قبل الاتحاد الاشتراكى بكافة مستوياته وتنظيماته المعاونة ، وانها لمهمة صعبة تتطلب عدة سنوات من العمل الجاد المثابر ، الا انها مهمة نبيلة تستحق ان تكرس لها الجهود ٠

ان تكوين الانسان الجديد لا يمكن ان يتم بمجرد الوعظ والارشاد وخاصة اذا كان الواعظ بعيدا عما يعظ به ، وانما يتم من خلال القدوة ومن خلال التمسك بقيمنا الروحية النبيلة ومن خلال الصراع الدائم ضد القيم البالية التى فرضتها على حياتنا العلاقات الاقطاعية والراسمالية ومن خلال العمل من اجل حل مشاكل الجماهير والاشتراك فى تنفيذ أهداف الخطة ٠

انظر مقال : بناء الانسان الجديد ص ١١٩

ان الاستعمار ، علما منه بما للقيم الثورية من اثر ، يشن ضدنا وضد قيمنا حربا فكرية يستخدم فيها احدث الوسائل ، وان علينا أن نواجه هذه الحرب ٠

ان تقديس العمل واحترامه لابد ان يكون القيمة الاولى فى حياتنا وليكن لنا أسوة بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ يقول لبناته « لا يأتينى الناس باعمالهم وتأتونى بانسبابكن ، ان أشرف نسب لا يغنى عن العمل ٠

ان القيمة الثانية هى حب الوطن ، الوطن بأرضه ونيله ، وبشعبه وما بناه ، بحاضره وماضيه ومستقبله ٠ ان على الاتحاد الاشتراكى ومنظمة الشباب بوجه خاص ان تنظم المسيرات والزيارات لاماكن المنجزات التى حققها اجدادنا والتى بناها ويبنيها جيلنا ٠ ان ارتباط الانسان ببلده وتعرفه على تاريخها وحضارتها يفجر فيه طاقات العمل وحب الغير ٠

اننا يجب أن نقف بشدة ضد الجشع والرشوة والطفيلية والوشاية والكذب ، ضد السلبية والتملق والتشهير بالناس والادعاء عليهم بما لم يقولوه أو يفعلوه ٠

اننا يجب ان نربى فى انفسنا حب الناس والثقة بهم ، والايثار والتشدد مع النفس والوقوف مع الحق ، وحسن الاستماع الى الغير ، والثقة بالنفس بغير غرور ، وتحمل المسئولية ٠

ان للادب والفن ووسائل الاعلام دورها الكبير فى هذه القضية ، قضية تكوين الانسان الجديد فى مواجهة حرب الدعاية التى تشنها ضدنا قوى الامبريالية والصهيونية ٠ ان هذا الدور يفرض التصدى لقضايا مجتمعنا من وجهة نظر الجماهير ، من وجهة نظر التقدم من وجهة نظر الانسان الشريف الكادح الذى يبنى الحياة ٠ ان أدباءنا وفنانينا وكتابنا والعاملين فى أجهزة الاعلام مطالبون بان يقفوا هذا الموقف الثورى وبوجه خاص فى هذه المرحلة المصيرية من حياتنا ، وعلى الاتحاد الاشتراكى وأجهزة الدولة المختصة ان تقدم لهم كل عون وان تيسر لهم ظروف الابداع دون ما تدخل فى حرية تفكيرهم ودون ما فرض لاسلوب معين لعملهم ، اننا نريد أدبا وفنا ، والادب والفن ابداع بلا حرية ، ولكن لا حرية بدون الالتحام مع الجماهير ٠

ولعله يكون من المناسب أن يتبنى الاتحاد الاشتراكى فكرة انشاء اتحاد عام

الكتاب يضم الادباء وكتاب السياسة والقانون والاقتصاد واتحاد للفنانين بتخصصاتهم المختلفة .

● التنظيم الشبابى ●

ان الشباب هو الغد والمستقبل ، واذا لم يلعب دوره كاملا فى بناء الحاضر ضاع منا الحاضر والمستقبل ، ولقد حرص الاتحاد الاشتراكى فى الانتخابات الاخيرة على ان يتيح اوسع الفرص امام الشباب لكى يشارك فى اعادة بنائه . غير ان القضية اعمق من هذا بكثير . ان املنا الحقيقى هو فى استمرار النضال ، ويتاكد الاستمرار كما قال الزعيم جمال حين يكون هناك فى كل وقت جيل جديد على اتم استعداد للقيادة ، ولحمل الامانة ، ولمواصلة التقدم بها . اكثر وعيا من جيل سبق .. اكثر صلابة من جيل سبق .. اكثر طموحا من جيل سبق ..

ان السبيل الوحيد نحو تحقيق هذا الهدف هو اقامة منظمة للشباب تتولى تعبئة الشباب سياسيا وفكريا حول خطة التنمية وتحفزهم على الاسهام فى تنفيذها ، كما تتولى غرس القيم الاشتراكية فيهم ، وتزويدهم بمنهج ثورى وعلمى يساعدهم على التفكير فى قضايا الجماهير وحل مشاكلهم وتكوين مدرسة تتدرب فيها العناصر القيادية من اجل تزويد الاتحاد الاشتراكى وجهازه الطليعى بالدم الجديد .

ان على اللجنة المركزية ان تولى اهتماما سياسيا خاصا بهذه القضية وان تشرع على الفور فى تكوين المنظمة مستعينة فى ذلك بالعناصر الشابة فهم اقدر من غيرهم على فهم قضايا الشباب والتعرف على طاقاته وكسب ثقته .

● التنظيم النسائى ●

واذا كنا قد ذكرنا الشباب فان المراة لابد ايضا ان تلعب دورها السياسى وما من شك فى ان ثورة يوليو قد فتحت امام المراة فرصا ظلت مغلقة امامها سنوات ، وكان لسياسة التصنيع والتعليم فضل فى ان يبرز فى مجال العمل الوطنى نموذج المراة العاملة المناضلة غير ان الحركة النسائية لاتزال تختزن قدرا ثمينا من الطاقات لابد وان يؤدى رسالته كاملة فى العمل الوطنى ولاسبيل الى ذلك الا باقامة تنظيم نسائى ، فاذا كانت الحركة النسائية فى بلادنا لم تحقق النجاح المرجو لها فان هذا يرجع اساسا الى غياب التنظيم الذى يستوعب نشاط المراة ، ولابد ان يقام هذا التنظيم مستندا الى واقع المراة فى بلادنا وعلى اسس فكرية وتنظيمية تعكس طبيعة ثورتنا واهداف نضالنا .

ان حجر الزاوية فى اقامة منظمة الشباب والتنظيم النسائى ان يكونان تنظيمين مستقلين يعملان فى توازن وترابط مع الاتحاد الاشتراكى .

● النقابات المهنيـة ●

اننا ونحن نتكلم عن تنظيم الشباب والنساء لابد وان نتناول ايضا دور النقابات بوصفها من التنظيمات الشعبية المعاونة للاتحاد الاشتراكى . ان النقابات العمالية وقد اعيد تشكيلها بالارادة الحرة للعمال بعد ان تحجرت اوضاعها واحتكر مراكزها القيادية بعدة سنوات عناصراقل ما توصف به انها كانت تخشى الجماهير خشية الخفافيش من النور ، واصبحت اليوم فى وضع يمكنها من قيادة الحركة العمالية قيادة سليمة من اجل الدفاع عن مكاسبهاوحمايتها ودعمها، ومن اجلحشد طاقاتها لتحقيق اهداف خطة التنمية . لم تعد القضية الرئيسية للنشاط النقابى هى الوقف ازاء اصحاب رءوس الاموال انما اصبحت المحافظة على حقوق العمال وتعبئتهم ضد اى عدوان على مجتمعهم الذى يبنونه لانفسهم ولاولادهم ، وتنمية قدراتهم والارتفاع بمستوى ادائهم وصولا الى زيادة الانتاج وبالتالى زيادة الدخل والاجور ، متعاونين فى ذلك تعاوناكاملا مع لجان الاتحاد الاشتراكى ، اما النقابات المهنية التى اعيد تشكيلها هى الاخرى بالانتخاب الحر المباشر فقد آن الاوان ان تعيد التفكير بجد فى رسالتها . يجب ان تتخلى عن فكرة التميز الطائفى او الفئوى وعن فكرة انها تجمع النخبة الممتازة . ان اى تنظيم فى بلادنا ان لم يضع نفسه اساسافى خدمة قضية المجتمع يفقد شرعيتبقائه .وان خدمة المهنة لايمكن ان تتم بمعزل عن خدمة الجماهير او على حسابها . ان النقابات المهنية تضم ذخيرة ثمينة من رجال العلم والفكر والفن وقد اديا ويؤدون خدمات مهمة لبلادهم ويجب على النقابات ان تجد الاسلوب اللائق لازدياد نشاطها ، والتنسيق بينهـا وربطها بشكل اعمق بقضايا التنمية ، انها من الممكن ان تكون هيئات استشارية نافعة للاتحاد الاشتراكى فيما يتصل بحل كثير من مشاكل الانتاج والخدمات .

انظر مقال « السؤال الذى يطرحه البرنامج على النقابات المهنية ص ٥٠

● لجان المعركة ●

ان المعركة القائمة حركة شاملة . فلن تقتصر - كما سبق ان قلت - على خطوط الجبهة ، بل ستمتد الى كل شبر من اراضينا ولن يتردد العدو فى ان يعيد محاولة تحطيم صمود الجبهة الداخلية عن طريق مد غاراته الى العمق ، وضرب المدنيين لا يفرق بين تلاميذ فى مدرسة او عمال فى مصنع او فلاحين فى حقل ، غير ان شعبنا لم يعرف الخوف ولا الجبن طول حياته ..

ان كل شبر من ارضنا الطيبة ، وكل قرية وكل مدينة تشهد على بطولة هذا الشعب الذى قاوم عبر عصور التاريخ المختلفة ، كل انواع الغزاة .

ان ضراوة المعركة تفرض علينا واجب حشد قوى الشعب كله تجميعا لطاقاته وتنظيما لامكانياته وبحيث يتحول كل فرد الى طاقة قتال ، بحيث يعرف موقعه من المعركة ودوره فيها ، وبحيث تتوفر فى كل موقع من ريفنا وفى كل مرفق ومصنع قوة قادرة تذود عنه .

من اجل هذا الهدف قامت لجـان المواطنين من اجل المعركة واسرع الشعب الى التطوع فيها ، غير انها لم تقو على الانطلاق نحو تحقيق رسـالتها ومهامها بكامل قدراتها فكانت حركتها بسبب ما اعترضها من تناقضات وما قابلها من صعوبات ابطا من حركة الجماهير ، وان واجبنا هو ان نزيل ملابس عملها من تناقضات وان نرفع من طريقها العقبات وان نعيد تنظيمها بما يكفل تحقيق الهدف من تنظيم وحشد وتدريب وتعبئة من اجل تحرير الارض والدفاع عن الوطن على ان تكون اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى هى المسئولة مسئولية كاملة عن كل ما يتصل بالمعركة فى الجبهة الداخلية ، لتجعل منها جيشا قويا خلف قواتنا المسلحة الباسلة يحمى ظهرها ويدعم امكانياتها .

ايها الاخوة والاخوات اعضاء المؤتمر القومى العام : ليس امـامنا الا ان ننتصر ، وان لدينا كل ما هو ضرورى للنصر ، القوة العسكرية ، والبنيـان الاقتصادى ، ووحدة الشعب ونضـاله الثورى . ثم ان معنا الحق ولا ينقصنا الايمان . وثقنا الله ولعزنا بنصر من عنده ..

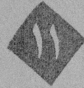
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مطابع الأهـــرام التجارية

الثمن ١٠ قروش

الطليعة

طريق المناضلين الى الفكر الثورى المعاصر



السنة السابعة ـ نوفمبر ١٩٧١

- الصهيونية: التاريخ - الحركة - الأفكار - المصالح

التطور غير الرأسمالى فى آسيا وأفريقيا

- الحسم .. والمطلوب حسمه

- ملف خاص: الشيخ على عبد الرازق
معركة فكرية



- الوثائق: النص الكامل لكتاب
الاسلام وأصول الحكم



العدد الحادى عشر ـ السنة السابعة ـ نوفمبر ١٩٧١ م



طريق المناضلين الى
الفكر الثورى المعاصر

مجلة شهرية
تصدر اول كل شهر

رئيس التحرير :
لطفى الخولى

مستشارو التحرير :
د. ابراهيم سعد الدين
ابو سيف يوسف
د. اسماعيل صبرى عبدالله
د. جمال العطيفى
د. رشدى سعيد
د. عبد الرازق حسن
د. لطيفة الزيات
د. محمد الخفيف
محمد سيد احمد

سكرتير التحرير :
ميشيل كامل
■

عنوان المراسلات :
مبنى مؤسسة الاهرام شارع الجلاء
القاهرة تليفون : ٤٦٤٦٤ ـ ٩٥٠١٠
ـ ٥٩٥٦٠

الاشتراكات :
لسنة بالبريد العادى ج.ع.م. دول اتحاد البريد العربى ودول الدار البيضاء ١٢٠ قرشا .

ان « الطليعة » ميدان مفتوح لكل رأى حر ، وفى أعتقادنا ان تفاعل الاراء الحرة على اختلافها هو وحده الذى يستطيع أن يبلور ويستخلص وحدة فكـــرية اصـيلة ٠

من هـذا المفهـوم تفتح « الطليعة صفحاتها لكل رأى لديه كلمة يقولها ـ مؤمنة بشعار الحرية المجيد الذى اطلقه فولتير فى القرن الثامن عشر « قد اختلف معك فى الـرأى ولكنى على استعداد لان ادفع حيـــاتى ثمنا لحقك فى الدفاع عن رأيك » ٠٠٠



الحسـم .. والمطلوب حسمه

يصاحب حركة خروج « عام ١٩٧١ » مندائرة الحاضر الى دائرة الماضى ، سؤال محدد : **ماهو المقصود بشعار حسم القضية الذى رفعه « السادات » ، ترجمة للارادة الشعبية التى ضاقت — الى اقصى حد — بالاحتلال الاسرائيلى لاراضيها ؟ ثمة اتجاهات** — عربية واجنبية — تصورتاو تعمدت أن تصور الاجابة على هذا السؤال، بصورة حرب شاملة ، تندلع فور بزوغ رأس السنة الجديدة .

من ناحية أولى : هل هذه الاجابة صحيحة ؟

الحق انه لو صحت هذه الاجابة ، فاننا نكون قد تطوعنا بكشف أوراقنا ، مسبقا ، للعدو الذى أجاد معنا اكثر من مرة أسلوب المفاجأة العسكرية . فكأننا — بذلك — ندعوه الى مباراة رياضية محددة الزمان والمكان . وليس لهذا من معنى الا أننا نلهو بمصائرنا . واذا كان مثل هذا اللهو — بنحو او بآخر — قد وقع فى الماضى — **خلال** موجات الحماس العاطفى غير المدروس وغير المنظبط — فهل يمكن لمن لدغ منجحر هزيمة ١٩٦٧ مرة ، أن يلدغ مرة اخرى ، باختياره ، وبعد أربعة اعوام ونصف العام من تجربة اليمة وصبورة ؟ لا أعتقد والا كنا — ببساطة — **أعداء أنفسنا** ..

من ناحية اخرى : هل هذه الاجابة ممكنة ؟

ان حساب الامكانيات هنا ، لا يتعلق ببلدعربى واحد ، أيا كانت القوة العسكرية النسبية لهذا البلد . وانما هو يتعلق — بحكم التجربة التاريخية وموازين القوى وطبيعة الحركة التكتيكية والاستراتيجية — بمجموع القدرة العسكرية العربية التى تتالف من كل البلاد العربية ، وعلى الاخص تلك التى تواجه اسرائيلبصورة مباشرة . وطبقا لتقديرات مراكز الابحاث الدولية للاستراتيجية العسكرية ، فأن القوة العسكرية الاسرائيلية تتعادل — من حيث النوع والقدرة القتالية على الاقل — مع مجموع القوى العسكرية العربية فى المنطقة . والحرب الشاملة تستلزم حسابا شاملا لكل القوى .

وفضلا عن ذلك ، هنـاك عـامل الاردن ،والنظام الحاكم فيه ، قد نأى — عمليا —

بقوته العسكرية المحترفة وموقعه الاستراتيجي عن الساحة العربيـــة ، والحقهما — موضوعيا — بالساحة الاسرائيلية الامبريالية . فالاردن — فى ظروفنا الراهنة — لم يعد يشكل ميزة عربية ، بل عنصرا محسوبا لصالح العدو . وذلك على الرغم من ارادة شعبه العربى . واذا ما عزلنا الاردن بهذا المعيار ، من حساب القوى العربية فى حالة حرب شاملة ، فاننا بمعايير أخرى مختلفة ، لابد وأن نستبعد من مجموع القوى العسكرية العربية القادرةاو المؤهلة ، أو الراغبة فى الحركة ، عددا لا يستهان به من الدول العربية .

ومن هنا يطل علينا — فى حالة تصور الحرب الشاملة — شـبح المغـامرة العسكرية . والاحساس بالمسئولية المصيرية ، يعنى أول ما يعنى التحصن ضد مرض المغامرة .

من ناحية ثالثة : هل هذه الاجـابة مفيدة ؟

ونعنى بالفـائدة ، تحقيق الهدف الذى من اجله نخوض الحرب الشـاملة ، عسكريا وسياسيا . وهذا التحقيق لا يتم بطريقة تجريدية . وانما خلال عالم انسانى تحكمه علاقات قوى دولية متصارعة ، ورغبة عارمة فى الوقوف بحزم ضد كل تفجر عسكرى من شأنه أن يودى بالبشرية الى أتون حرب عالمية .

وبالتالى فان الاعلان عن حرب شـاملة ، فى الشرق الاوسط ، يعنى اول ما يعنى ، خسارة الرأى العام العالمى الذى سوف يتحرك من موقعه الراهن فى ادانة العدوان الاسرائيلى الى موقع مضاد لنا . وفى مثل هذه الظروف فان أى انتصارات عسكرية قد نسجلها ، لن تجدى فى تحقيق هدفنا السياسى .. وهو الاساس ونهاية مطاف اى تحرك عسكرى .

والآن .. اذا كانت الحرب الشـاملة ليست جوابا صحيحا على سؤال حسم القضية ، لانها — على الاقل — غير ممكنة وغير مفيدة .. فما هو اذن الجواب الصحيح ، الممكن والمفيد فى آن واحد ؟

لكى نستطيع الامساك بالاجابة الصحيحة ، يجب أن نحدد بدقة ، حجم وطبيعة وظروف هذا « المطلوب حسمه » .

لا يكفى ان نقول ، فى عبـارة عامة ومجهلة ، ان المطلوب حسمه هو هزيمة ١٩٦٧ . فالحسم الحقيقى والجذرى لهذه الهزيمة بكل ابعادها ، القومية والسياسية والاجتماعية ، ما برح اكبر من قدراتنا الحالية ، كما ونوعا ، ولهذا يجب ان نكون اكثر تحديدا فى تعيين المطلوب . وبصراحة — مؤلمة ولكنها واقعية بالمعنى الثورى — اكثر تواضعا . وهو تواضع تمليه الظروف الخاصة بالمرحلة الراهنة فى حياة الوطن العربى والصراع الدولى من ناحية ، واقصى قدر من الامكانيات المادية والمعنوية المتوافرة لدينا فى حالة قدرة على الحركة ، من ناحية ثانية .

وفى هذا الضـوء ، يمكن ان نحدد « المطلوب حسمه » فى خطين جوهريين :

اولا : تحرير كل الاراضى العربية التى احتلت بعد هزيمة ١٩٦٧ .

ثانيا : تجسيد مادى للحقوق القومية للشعب الفلسطينى التى تعبر عنها ثورته الفدائية .

وهذا التحديد « للمطلوب حسمه » ، ناضج فعلا للحسم . بمعنى انه يستقطب ، محليا وقوميا وعالميا ، غالبية الرأى العام الدولى سواء بمستواه الشعبى ، أو بمسـتواه الرسمى .

فخط التحرير للارض العربية المحتلة ، يتفاعل من ناحية مع قاعدة بدهية من قواعد القانون الدولى المعاصر ، ويلبى من ناحية اخرى — على الرغم من كل اختـلافات قائمة او محتملة — الارادة الاجماعية للشعوب العربية . ثم هو — من ناحية ثالثة — لا يحرج دوليا ، تحرك حلفاء العرب وفى مقدمتهم الاتحاد السوفيتى لمساندة عملية التحرير ماديا ومعنويا .

وخط التجسـيد المـادى للحقـوق القـومية للشعب الفلسطينى ، هو اقرار ، لقنـاعـة

موضوعية دولية ، أفرزها النضال الشعبى الفلسطينى المسلح . واكتسبت هذه القناعة وزنا مؤثرا . بحيث أصبح من غير المنصور حل ما يسمى بأزمة الشرق الاوسط ، دون وضع هذا التجسيد موضع الاعتبار . صحيح ، حول ابعاد هذا التجسيد ، تختلف وتتمايز المقترحات المقدمة . لكن الشي الهام ، اليوم ، فى هده المرحلة من كفاح الشعب الفلسطينى ، هو اكتسابه لكيان مادى ما .. مادى ، بمعنى ارض وسلطة فلسطينية مستقلة وثورية فوق هذه الارض .

ويمكن القول ان كل الجهود السياسيةوالدبلوماسية التى بذلت من جهات عديدة فى الحقل الدولى من أجل الوصول الى حل سلمى لازمة الشرق الاوسط منذ يونيو ١٩٦٧ حتى اليوم ، كانت تراعي ضمن ما تراعيه من خطوط ، هذين الخطين الجوهرين : تحرير الارض وتجسيد الحقوق القومية للشعب الفلسطينى .

ويمكن القول ايضا ، ان هذه الجهود تداصابها الفشل نتيجة عدم قبول القوى الصهيونية ــ الاسرائيلية ــ الامبريالية ، لهذين الخطين الاساسيين . واصرارها على استمرار الاحتلال ومصادرة حقوق شعب فلسطين .

وبات المجتمع الدولي كله ــ من زوايامتعددة ــ يبحث عن « وسيلة فعالة » للضغط على اسرائيل لقبول حل سلمى على اساس هذين الخطين . ولكن دون جدوى .

وهكذا ، بعد اربعة اعوام ونصف العام من الاحتلال واكثر من عشرين عاما على مصادرة حقوق شعب فلسطين ، نواجه مع العالمطريقا مسدودا . بحيث بدت اسرائيل بمساندة الولايات المتحدة الامريكية ، فى موقف التحدى من بقية العالم كله تقريبا .

فلاول مرة ــ فى تاريخ ــ الصراع العربىالاسرائيلى ــ تنحاز اغلبية الراى العام الدولى الى الجانب العربى ، وتشكل بذلك قوة ضغط سياسية على اسرائيل . ومع ذلك فان هذا الضغط لم يسفر عن ايةنتيجة ايجابية للوصول الى ما سمى بالحل السلمى للازمة .

وثمة ضغط آخر ، توالد على مر الايامنذ يونيو ١٩٦٧ ، من جانب معظم الدول الراسمالية الغربية ــ باستثناء امريكا ــ لتحويل اسرائيل ــ ولوكميا ــ عن موقفها العدوانى التوسعى . ولكن انتهى هذا الضغط ايضا الى لا شيء .

وبجانب هذا كله ، هناك ضغوط متواليةمن جانبالمعسكر الاشتراكى ، بزعامة الاتحاد السوفيتى .. بل والعالم الاشتراكى كله ، فضلا عن حركات التحرر الوطنى وغالبية دول العالم الثالث فى آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية . ولكن رغم ما احدثه هذا الضغط من عزل سياسى لاسرائيل ، الا انه لم يستطع ان يحقق هدفه فى حل الازمة حلا سلميا عادلا .

وما تزال اسرائيل متحصنة ، فى مواقعهاالمحتلة وفى تحالفها السياسي والعسكرى مع الولايات المتحدة ، قادرة فعليا علىالصمود لكل هذه الضغوط السياسية من الاسرة الدولية .

ولم يعد فى امكان الانسانية بكل شعوبهاودولها ومنظماتها ــ وعلى راسها الامم المتحدة ــ القدرة على جعل اسرائيل تذعن لضغوطها ، والتى بلغت بالفعل اقصى درجة يمكن ان يصله ضغط دولى سياسى .

ومن هنا ، لا مفر من البحث عن نوع خاصمن الضغط يمكن بممارسته ــ خلال استمرار الضغط السياسى ــ ان يغير تغييرا كيفيا من الظروف القائمة التى ما برحت اسرائيل فيها قادرة على الاستمرار العدوانى التوسعى .

وهذا النوع من الضغط الخاص ، يستهدفبالدقة امرين :

الاول : أمن الاحتلال الاسرائيلى واستمراره .

الثانى : المصالح الامريكية فى المنطقة ، باعتبار ان هذه المصالح تمثل ثقلا خاصا فى استراتيجية الحليف الاساسى للعدو .

ومن الطبيعى ، أنه لا يوجد مصدر خارجى ، يمكن أن ينبع منه هذا النوع من الضغط الخاص . فأقصى ما يمكن الحصول عليه من ضغوط عن مصادر خارجية ، متوافرة بالفعل . ولهذا فالمصدر الوحيد المتاح لهذا الضغط الخاص هو الامة العربية نفسها . وبالذات قدراتها الاقتصادية والعسكرية والجغرافية والبشرية .

ماذا يعنى هذا ؟

يعنى بالتحديد انهاء الفصل الميكانيكى بين العمل السياسى والعمل العسكرى فى مواجهة الاحتلال الاسرائيلى والعدوان الصهيونى ، والجام الولايات المتحدة — الى اقصى حد ممكن — عن التحرك المساند لاسرائيل وذلك بممارسة تهديد متصاعد ضد مصالحها فى المنطقة .

وانهاء الفصل الميكانيكى بين العمل السياسى والعمل العسكرى يستلزم السير ، بخطوات ثابتة وبنفس طويل ، على طريق النضال الثورى الذى يستند الى تعبئة جماهيرية منظمة وواعية ، ملتحمة التحاما عضويا مع قواتها المسلحة .

وطريق النضال الثورى ، يوجب ، القيام بعمليات جذرية فى المجتمع ، تؤهله اقتصاديا وفكريا ونفسيا وتنظيميا ، لتسديد الضربات ضد العدو ، واستيعاب الضربات المضادة

والضربات ضد العدو ، تعنى القيام بعمليات عسكرية غير تقليدية ، تنزل به خسائر استراتيجية تفوق قدرته على تحملها . أو بالاقل ، على استمراره فى تحملها . بحيث يضطر — مع توالى الضربات — أن يجرى حسابات جديدة للموقف ، يخرج منها بنتيجة أن استمراره فى الاحتلال والعدوان يقتضيه ثمنا فادحا . لا يملك — ذاتيا او بمعونة امريكا — أن يتحمله .

وفى نفس الوقت ، فان علينا أن نعيد صياغة حياتنا اليومية ، بجدية مسئولة . بحيث نستطيع الصمود لضربات العدو المضادة ، وتحديد آثارها المادية والمعنوية ، فى أضيق نطاق ممكن . باختصار أن نعيش حياة وطن فى حالة معركة مصيرية ، دون انفصام شبكى بين الشعب وبين قواته المسلحة ، أو بين الطبقات الاجتماعية التى تكون التحالف الوطنى ، بعضها وبعض .

ويتطلب ، هذا كله ، بالتحديد :

- الانهاء الفعلى لوقف اطلاق النار .
- تعبئة الموارد والطاقات على اساس اقتصاد الحرب .
- اطلاق المبادرات الجماهيرية لخدمة المعركة .
- تحديد دقيق فى المزج الفعال بين العمل السياسى والعمل العسكرى على المستوى المحلى والقومى والدولى .
- التنسيق بين استراتيجية عمليات التحرير غير التقليدية للقوات العسكرية العربية ، وبين استراتيجية المقاومة الفلسطينية .
- توحيد القوى الوطنية والتقدمية فى الوطن العربى من حول اهداف عمليات التحرير غير التقليدية وتجميد اية تناقضات فرعية او جانبية بين هذه القوى بعضها وبعض .
- تعميق أقوى الصلات مع جميع حلفاء القضية العربية ، وخاصة الاتحاد السوفيتى . ولعل زيارة السادات الاخيرة لموسكو قد اكدت — نظريا وعمليا — هذه الضرورة الاساسية .
- افشال أى رد فعل من العدو يستهدف شن حرب خاطفة كعادته ، والعمل على انهاكه من خلال تخطيط محكم فى عمليات مكثفة من حيث اهدافها الاستراتيجية وتتميز بالنفس الطويل الذى لا ينقطع او يضعف .

والحق ان ممارستنا لهذا الاسلوب النضـــالى الثورى ، يعيد للقضية وزنها الدولى الساخن، جنبا الى جنب مع اهتمامات الراى العام العالمى التى راحت تتجانبه ، اليوم ، قضايا التقارب الامريكى من الصين ، وأزمة الدولار ومضـــاعفاتهـــا النقدية والاقتصـــادية الدولية ، وتسويات برلين . فاستمرار الامن الواقع الراهن فى الشرق الاوسط ، على ما هو عليه من جمود ، يحمل فى طياته مخاطر لا حد لها بالنسبة لمستقبل حركة التحرر العربى عامة ومصر بصفة خاصة .

واذا كانت كل قـــوى الضغط الســـياسية النابعة من مصادر دوليـــة ، لم تنجح مع اسرائيل ، فهذا ناتج من ان المجتمع الدولى لم يضمن ضغطه السياسى قدرة مادية عقابية . وبسبب العراقيل الامبريالية ــ وبالذات الامريكيـــة ــ لم تتمكن الاسرة الدوليـــة ــ خلال الامم المتحدة ــ على فرض العقوبات الشرعية الواجبة التى يقررها ميثاق الامم المتحدة بالنسبة لمن يخالف قراراته .

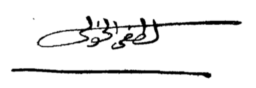
ولقد صبرت مصر والامة العربية كلها طيـــلة أربعـــة أعوام ونصف العام ، بأمل أن تتمكن الاسرة الدولية من أن تمارس مسئوليتها نحو تنفيذ قانونها . والصبر بعد كل هذه المدة ، يصبح نوعا من الاستسلام . ومن هنا فالامة العربية تغدو ، مطالبة امام نفسها وأمام الشريعة الدولية نفسها ، وأمام القيم الحضارية للانسانية ، ان شحن الضغط السياسى العالمى ، بقوة مادية نابعة عن ارادتها . وحقها فى تحرير اراضيها . وليس هناك مدلول لهذه القوة المادية ، غير ربط العمل السياسى بالعمل العسكرى فى وحدة استراتيجية قادرة على الحركة والتأ ثير النوعى على العدو .

بهذا المفهوم ، نستطيع ان نمارس واقعيا ،شعار حسم القضيـــة . ومن خـــلال هذه الممارسة ، نزيح عن كاهلنا الصدا السياسى والاجتماعى والعسكرى الذى اثلم قدراتنا ، ونكتشف حقيقة الطاقات البناءة المختزنة فى شعبنا . ونكسب قضـــيتنا المشروعة . ولكن قبل هذا كله نكسب احترامنا لانفسنا واحترام العالم لنا .

صحيح ، انه مهما احترزنا فى حركتنا ، فان مخاطر الصدام الدولى فى المنطقة ، كامنة ومحتملة . بيد أننا ضحينا ــ على الاقل ــ من اجل السلام العالمى بأربعة أعـــوام ونصف العام اقتطعناها من كرامتنا الوطنية ومن مسيرة الحيـــاة لنمونا وتطورنا الاقتصادى والاجتماعى . وبالتالى فليس علينا نحن ، يقع اللوم ، وتعلق المسئولية . فالوطن ، ليس مسيحا ، يدير خده الايسر لمن يصفعه على خده الايمن ، انما الوطن ، فى كل الظروف ورغم كل المحن ، وطن رجال يستحقونه .

واليوم .. ليس امامنـــا من بديل ، الا ان نكون رجالا .

واذا لم نثبت استحقـــاقنا لهـــذا الـــوطن ، فغيرنا احق بـه . حتى ولو كان هذا الغير هو الصهيونية . وبالتالى فجوهر المطلوب حسمه ، هو بالدقة ، استحقاقنا او عدم استحقاقنا لوطن الاباء والاجداد .



الصهيونية

اعـد **هذه الدراسـة** فريق من الباحثين، وكانوا قدبدأوا باعدادها غداة ٥ يونيو، فى نطاق دراسة موسعة وشاملة للقضايا الرئيسية المرتبطـة بالصراع العربى الاسـرائيلى .

ولقد تمت هذه الدراسة تحت تأثير اعتبارين :

الاول : هو الحاجة الى دراسة معمقة للصهيونية من وجهـة نظـر الاشتراكية العلمية .

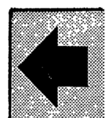
الثانى : هو أن ٥ يونيو قد كشف فيما كشف عن عدم معرفة اقسام واسعة من الرأى العام الغربى ، بما فى ذلك اقسام من الراى العام اليسارى بحقيقة اسرائيل وطبيعة الحـركة الصهيونية أى بالعناصر الجوهرية ، والقضايا المحورية التى تشكل ما يسمى بأزمة الشرق الاوسط .

وانطلاقا من هذين الاعتبارين بدأت ــ غداة الهزيمـة ــ دراسة ابعـاد النزاع العربى الاسرائيلى . وربما كان أهم ما يذكر فى هذا الصدد أن الباحثين الذين كتبوها ينتمون الى أصـول اسـلامية ومسيحية ويهودية ، ولكن منهج الاشتراكية العلمية قد ساعدهم على أن يصلوا الى نظـرة متكاملة وموحدة .

لقد اشترك فى كتابة الدراسة : **أحمد صادق ، ومحمود حمدى عبد الجـواد ، ووديع وهيب ، وشكرى عازر .**

وكانت هذه المجموعة من الباحثين قـد تشكلت تحت اشراف **د. اسماعيل صبرى عبد الله .** وقد ساهم مع **أبو سيف يوسف** فى وضع تخطيط الدراسـة ، ومتابعتها ومناقشة فصولها مع الباحثين أولا بأول .

واذا كان المثقفون العرب قد نشطوا بعد ٥ يونيو الى اثراء المكتبة العربيـة فقدموا الكثير من البحـوث والدراسات القيمة عن قضية فلسطين وعن اسرائيل والصهيونية ، فان المجال مع ذلك لا يزال مفتوحا لمزيد من الاجتهاد ، من أجل فهم علمى وصحيح لقضايانا ومشاكلنا .



التاريخ - الحركة
الأفكار - المصالح

اذا صح أن مخطط الهجرة اليهودية الى فلسطين ، كان فى الاصل مخططا انجليزيا يعود الى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، فان هذا لا ينفى أن للحركة الصهيونية العالمية واقعها وخصائصها المميزة التى لابد من ادراك كنهها • وهذا ضرورى لفهم التناقضات التى تفجرت فى بعض فترات تاريخ الحركة الصهيونية الحديثة بين الصهيونية وبين بعض القوى الامبريالية ، وحتى يتجنب المرء التخبط فى فهم بعض مواقف الدول الغربية وبعض القادة السياسيين تجاه عدد من مطالب الصهيونية ومخططاتها واشاعة فهم متفائل وسطحى من موقفهم بازاء القضية العربية •

تكتيك الدعاية الصهيونية

من الامور الهامة التى لفتت أنظار المراقبين قبيل وفى اعقاب احداث يونيو ١٩٦٧ ، ذلك التعاطف الكبير من أقسام واسعة من الرأى العام الاوروبى مع العدوان الاسرائيلى ونتائجه •

ففى فرنسا مثلا :

« بلغت نسبة الذين تمنوا انتصار اسرائيل ٧٣ فى المائة من ناخبى الوسط الديمقراطى و ٦٤ فى المائة من ناخبى الجمهورية الخامسة و ٦٣ فى المائة من المناصرين للاتحاد و ٣٧ فى المائة من الناخبين الشيوعيين » (١) •

وكتبت « مجلة الاحداث » الفرنسية فى عددها الصادر فى يوليو ١٩٦٧ تقول : « عندما نرى جاك سوستيل وكسانيه فالا - القومسيير السابق للشئون اليهودية فى حكومة فيشى - يعلنان تأييدهما لاسرائيل • فمن حقنا أن نتساءل اذا لم تكن كراهيتها للعرب ولعبد الناصر خاصة هى أساس موقفهما ، وهو شك يقويه اتفاق جميع حركات العائدين من الجزائر معها فى هذا الوقت » •

الا ان هناك شخصيات يسارية أيضا ناصرت اسرائيل بقوة،فهذا « روبير مزراحى » الذى يشترك فى تحرير مجلة الازمنة الحديثة قد اصدر نشرة خصيصا لهذه المناسبة تحت عنوان « حرب سيناء » يتحدث فيها عن مصر باعتبارها بلدا فاشيا •

أما جى موليه وكريستيان بينو فيريان أن الحوادث برهنت على صحة موقفها السابق ، وبررت حملة السويس بعد انتهائها •

وفرنسوا ميتران - الذى كان مرشحا للرئاسة ضد الجنرال ديجول فى آخر انتخابات رئاسية خاضها ديجول - يدين البلاد العربية وان تميزت ادانته بظلال متنوعة ورقة اكبر •

كان هذا هو الموقف العام فى فرنسا رغم موقف « الحياد » الذى اعلنته حكومة الجنرال ديجول • ومن الطبيعى ان الامر كان اخطر من ذلك فى بقية بلدان اوربا الغربية ، ولذلك نرى « ديميرون » يقول :

« فى فرنسا وغيرها من البلدان - عندما يتعلق الامر باسرائيل ، لا يتحرك الناس بموازين العقل

(1) P. Déméron: Contre Israël, Paris — 1968, p. 83.

بل يدخلون فى نوبات هستيرية ، فيرفضون التأمل فى الحوادث ويفضلون الحكم على النيات ، ويحل الامتتكار محل المنافسة » (٢) •

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا هو : من اين أتت الحركة الصهيونية بهذا القدر الهائل من التأثير فى الرأى العام ؟

قد تكون بعض **الاخطاء الجسيمة التى وقع فيها الاعلام العربى** ، والاستغلال الواسع من الصهيونية لهذه الاخطاء ، قد ساهما جزئيا فى خلق الارضية المواتية لتعاظم هذا التأثير • **وقد يكون للمبالغ الكبيرة التى تقدمها بيوتات المال الكبرى على الدعاية الصهيونية** دخل كبير • الا أن هذا الوضع الذى — لم يكن وليد هذه الفترة بالتحديد — كان قد تكون خلال فترة طويلة بوساطة « **تكنيك اعلامى** » مخطط قدمت به الصهيونية نفسها الى الرأى العام العالمى • **تكنيك يقوم على طرح « حجج للاختيار » ويتسم بالوصولية وبمحاولة واعية لجذب جميع الاتجاهات والميول السياسية** ، حتى وان اضطر فى هذا السبيل الى الاعتماد على حجج متناقضة • **واذا كان من العسير تتبع كل دعاوى الصهيونية وحججها الا انه من الممكن — بشكل اولى — تقسيمها الى حجج تخاطب اليهود ، حجج ذات طابع « انسانى » عام ، وحجج تخاطب اليسار ، وحجج تخاطب اليمين •**

حجج تخاطب اليهود المتدينين

لقد اتخذت الصهيونية مما جاء فى التوراة من « وعد الهى » لابراهيم منذ اربعة الاف سنة ، « **لقد أعطيتك هذه الارض ولذريتك من بعدك** » **سندا دينيا لها نسجت حوله التفسيرات والاساطير الواسعة لتجنيد جماهير اليهود فى تحقيق مخططاتها السياسية** ، مدعية — فى مواجهة كل حقائق التاريخ — أن تعبير « ذرية ابراهيم » ، انما يعود الى الذين يعتنقون اليوم الديانة « اليهودية » دون سواهم •

واذا كان « هرتزل » يخاطب الامبراطور الالمانى غليوم الثانى قائلا :

« نحن لا تربطنا بهذه التربة المقدسة اية حقوق ملكية صحيحة ، فلقد مرت أجيال عديدة منذ كانت هذه الارض يهودية . واذا تحدثنا نتحدث فقط مثلما يتحدث المرء عن حلم من الزمن العريق فى القدم • لكن الحلم لا يزال حيا فى مئات الالوف من القلوب » (٣) •

نقول اذاكان هذا هو رأى « **هرتزل** » فاننا نرى « **وايزمان** » — فى شهادته اثناء مناقشة القضية الفلسطينية أمام لجنة التحقيق البريطانية عام ١٩٤٦ — يؤكد ان الميثاق الحقيقى الذى يتمسك به الشعب اليهودى هو الوعد الالهى له بارض اسرائيل •

بينما يعلن **بن جوريون** « لم يكن هذا البلد ابدا ملكا خاصا لاى شعب آخر غير الشعب اليهودى » (٤) •

واذا كانت الاسطورة الصهيونية هدفنا الى البحث عن « راية مقدسة » تجند تحتها جماهير اليهود فى حربها التى اعلنتها على شعب فلسطين العربى ، فلقد توجهت الصهيونية باسطورتها أيضا الى البيئات المسيحية البروتستانتية مستغلة تعلقها الدينى بالعهد القديم •

ويذكر « **مكسيم رودنسون** » : **يقرأ العهد القديم** (فى اسرائيل) ويهاب ويدرس بتأمل ويعلم ، الامر الذى له نتائج ضارة ، فالذى يستوعب منه فى الاذهان فى الوضع الذى وصلت اليه اسرائيل اليوم ، وخاصة فى اذهان الاطفال ، هو ما يتعلق بمعارك الامة القديمة ضد جيرانها المؤابيين والكنعانيين والفلسطينيين وغيرهم ، وتمجيد المذابح والابادة التى يريدها الرب ، والقيمة العليا التى تعطيها للامة (٥) •

فاذا أصطدمت الاعمال المنافية لكل قيم انسانية والتى يرتكبها القادة الصهاينة ضد السكان العرب مع قيم بعض اليهود وتراثهم الذى كونوه فى نضالهم من أجل المساواة والعدالة ، يستخرج القادة الصهيونيون — ومعظمهم لا دينيون — من نصوص التوراة ما يبررون به هذه الجرائم ، فاقامة دولة اسرائيل على ارض الغير وانتزاعها من أصحابها ، ليس أمرا مشروعا فحسب ، بل انه استجابة لمشيئة الرب ، فلقد وعد يهود بنى اسرائيل بأرض كنعان أى بأرض مملوكة

---

(٢) بيير ديبيرون : المرجع السابق ص ٥٤ •

(٣) يوميات هرتزل ، ترجمة مركز الابحاث — لبنان : بيروت — ١٩٦٨ المجلد الاول ص ١٩٦ من النسخة الانجليزية الصادرة عن مطبعة هرتزل وتوماس يوسلون بالولايات المتحدة بعنوان (اليوميات الكاملة لتيودور هرتزل) «١٩٦٠ — (ارقام الصفحات التى سنذكرها هى ارقام الصفحات فى النسخة الانجليزية .»

لغيرهم وقادهم « الى مدن عظيمة لم تبنها ، وبيوت مملوءة بالخير لم تملاها ، وآبار محفورة لم تحفرها وكروم وزيتون لم تغرسها – وأكلت وشبعت » .

(العهد القديم – سفر التثنية – اصحاح ٦ ، الاية ١١)

وحين يطردون العرب من أرضهم يبررونه بما جاء فى سفر « الخروج » انى أدفع اليكم سكان الارض فتطردهم من أمامك ، لاتقطع معهم ولا مع آلهتهم عهدا .. لايسكنون فى أرضك لئلا يجعلوك تخطىء » .

(سفر الخروج ، اصحاح ٢٣ ، الاية ٢٢ و ٢٣)

أما المطامع التوسعية فيبررها « لنسلك اعطى هذه الارض نهر مصر الى النهر الكبير ، نهر الفرات »

(سفر التكوين ، اصحاح ١٥ الاية ١٨)

لقد كان هناك دائما يهود ربطوا دينهم عبر العصور بالعمل من أجل السلام وبالمثل الانسانية وأرجعوا كل ما حل باليهود من كوارث الى ما ارتكبوه من أعمال عنف . وفى هذا يقول الحاخام « ماغنس » عميد الجامعة العبرية فى ١٩٤٨ :

« سينزل بنا عقاب من الرب . اننا نعبد الذهب اذ نحن ننشر الدعايات المأجورة ونعبد الدم اذ نحن نبث الرعب بين الناس . وهذا لدى الرب حرام .. شعائرنا شاهدة على اننا كنا نلقى العقاب فى كل مرة فعلنا مثله » .

ولكن الصهيونية كان لابد ان تعتمد التفسير الذى يخدم أغراضها .

ويتحمل معظم رجال الدين اليهود فى اسرائيل مسئولية كبرى بسماحهم بل ومشاركتهم فى هذا الاستغلال البشع للدين اليهودى .

يقول « ناتان هرفش » فى صحيفة « نير » الاسرائيلية :

« ان رجال الدين قد ادارو ظهورهم لكل تحذيرات الانبياء والحكماء ضد القوة ، وأصبحوا أكثر الناس حماسا واعجابا بالجيش وبالروح العسكرية وبالاساليب المسلحة العنيفة ، أنهم بهذا يعطون الجيش الاسرائيلى شهادة الاثبات بأنه ينفذ تعاليم الدين اليهودى » (٦)

ولقد قام الحاخام الاكبر فى اسرائيل فى عام ١٩٥٦ بتسليم قائد العدوان على سيناء نسخة من التوراة قائلا للجنود : « انكم ستدخلون ترابا مقدسا .. لانه فى هذه الارض استلم معلمنا موسى الكتاب » (٧) .

ولقد أقام الحاخام الاكبر فى اسرائيل فى عام عن عدوان ١٩٦٧ عنوانا له من التوراة ، وهو « اضرب يا صهيون »

حجج تخاطب الضمير الانسانى

فى مقابل المشاعر الدموية التى يستثيرها الاعلام الصهيونى بين المتدينين من جماهير اليهود فى العالم ، بضرب الاعلام الصهيونى على الاوتار الانسانية للعالم المتحضر . وهنا تكون السلعة الاكثر رواجا للأعلام الصهيونى هى آلام جماهير اليهود ، خلال حركات الاضطهاد الدينى والعنصرى فى اوربا – وفى معسكرات الاعتقال النازية . وتقديم مخطط الاستيلاء على فلسطين بوصفه الوسيلة الوحيدة لرد كرامة هؤلاء المضطهدين وحماية ما يحملون من تراث هو جزء لا يتجزأ من التراث الحضارى للانسانية .

يقول « ناحوم جولدمان » رئيس المنظمة الصهيونية العالمية :

« والى تلك الاهداف الواقعية – التى تتلخص فى انقاذ اليهود المضطهدين وتمكينهم من الحياة الجديدة فى بلد يملكونه – أضيف دافعا أكثر رفعة ، حرك أيضا أفرادا آخرين اشتركوا فى تأسيس الحركة ، وذلك الدافع هو الخوف من أن يتعرض النصيب اليهودى فى الحضارة البشرية – وأن تعجز العبقرية اليهودية الخاصة – بعد أن قدمت الكثير للانسانية – ان تعجز عن التعبير عن نفسها بأعمال خلاقة أصيلة ، وذلك بسبب بعثرة اليهود ومركزهم فى الاقلية واستيعاب جزء من الطوائف اليهودية » (٨) .

ويقول ماير يعارى :

« فى هذا الوقت (١٩٣٦) كان التهديد النازى للجماهير اليهودية فى اوربا يتخذ شكلا يزداد

---

(٦) ناتان هرفش « الحاخاميون » والجيش » جريدة « نير » يناير ١٩٥٦

(٧) نيويورك تايمز الامريكية ١٩٥٦/١١/٤ .

(٨) مجلة الازمة الحديثة : العدد الخاص ص ٦٩٥

خطورة على مرور الايام . واصبح من الواجب انقاذ هؤلاء اليهود المضطهدين انقاذا سريعا ، وتمكينهم من اعادة تجميعهم فـى وطنهـم التاريخى » (٩)

وعلى نفس المنوال يقدم الاعـلام الصهيونى النزاع العربى ـ الاسرائيلى باعتباره نزاعا بين عنصريـن يحـاول فيـه « العنصر العـربى » ابادة « العنصر اليهودى » يقول **شيمون بيريز** :

« ان الامر بالنسبة لهذه البلاد (البلاد العربية) لا يتعلق بالبحث عن الاستفادة بمزايا سياسية او اقتصادية مثل الحصول على قطعة من اقليم او على حقوق على جزء من نهر ، او تحويل نظام سياسى او اتجاه سياسى . بل يتعلق الامر بعملية جذرية هى القضاء النهائى على شعب ودولة . ومثل هذا الموقف الذى تقفه البلدان العربية يؤدى الى تحويل النزاع السياسى العربى الاسرائيلى الى نزاع يكاد ان يكون من النوع البيولوجى » (١٠) .

كما يسرف الاعلام الصهيونى فى سرد العلاقات التاريخية لليهود بأرض فلسطين وتعلقهم بها ، بينما لا يتوقفون لحظة لمناقشة علاقات شـعب فلسطين العربى بها .

فتارة هم يعلنون :

« لم يكن ابـدا كيـان تـاريخى بـاسم فلسطين (١١) .

وتارة يصورون شعب فلسطين كمجموعة من القبائل النازيـة لفلسطين والوافـدة من البـلاد العربية المجاورة بحثا عن مجال ، فيقول بـن جوريون : « هل يفتقر العرب الى مجالات ؟ هل تنقصهم الاراضى التى تمكنهم من اسـتيعاب اللاجئين؟ » (١٢) .

وبذلك تقدم الصهيونية نفسها الى الرأى العام العالمى كحركة تحرير لارض مغتصبة . فاعلان قيام الدولة الصهيونية هو « اعـلان الاستقـلال » . وعدوان ١٩٤٨ هو « حرب الاستقلال » . وحرب السويس عام ١٩٥٦ هى « تحرير للمنـاطق المحصورة بين سيناء الجنوبية وقمة البحـر الاحمر » (١٣) ، **كمـا تصـاغ اخطـر النـوايا التوسعية تحت شعارات** « اسرائيل التـاريخية » و « **التعامل** بين الشعب والارض . واستغلال كل ما **يثيره التطور** العالمى من قضايا . من ذلـك قول « **ناحوم جولدمان» مبررا الاطماع الصهيونية فى الارض العربية** :

« **انه** لامر سىء من الناحية الاخلاقية كما انه من الناحية التاريخية مصدر للاضطرابات والصدام ان تمتلك بعض الدول اراض شاسعة غير مأهولة ، فى حين أن دولا أخرى مغلقة فى مساحات صغيرة كثيفة بالسكان ، تعجزها عن أن تضمن لهم حياة لائقة . ونحن نجد نفس الوضع فيما يتعلق بالنزاع اليهودى العربى فى فلسطين » (١٤) .

حجج تخاطب اليسار

لما كان من المعروف أن اليسار يعـارض الاضـطهاد العنصرى ، ويناضل مـن اجـل الديمقراطية ، ويناصر الحركة العمالية والدول الاشتراكية ، ويحارب التخلف والنظم الرجعية ، تتقدم اليه الصهيونية ودولتها بالثوب الذى يماثل الميول اليسارية جميعا .

فالصهيـونية تقـوم على انهـا هـى الحـل لمشكلة « اللاسـامية » . يقول هركابى : « لقـد أسهمت الصهيونية بنصيب أساسى فى حل المشكلة النازية للاسامية ، تلك المشكلة التى سوف تستمر قائمة طالما أن اليهود يشكلون أقلية بيـن الامم » (١٥) .

وباسم انتصار الديمقراطية على الفـاشية تفرض الصهيونيـة لنفسها الحـق فى فلسطين ، فتقول **جولدا مائير** فى خطبة لها فى اجتمـاع الاتحاد العام للعمال اليهود فى ١٢ من سبتمبر عام ١٩٤٦ موجهة الحديث الى حكومة العمـال البريطانية : « ليس هذا الذى نطلبه بكثير عليكم . ان الشعب اليهودى يطالب بأن يكون لنا الحق فى

---

(٩) مجلة الازمنة الحديثة : العدد الخاص ص ٦٧١
(١٠) مجلة الازمنة الحديثة : العدد الخاص ص ٥٠٧
(١١) ايجال آلون ـ جريدة الاتحاد الأسرائيلية ١٩٦٧/٢/١٧ .
(١٢) مجلة الازمنة الحديثة : العدد الخاص ص ٥٢١
(١٣) بن جوريون فى خطاب اعلان الهجوم الاسرائيلى على مصر عـام ١٩٥٦ ـ جريدة نيويورك تايمز الامريكية ١٩٥٦/١١/٨ .
(١٤) مجلة الازمنة الحديثة : العدد الخاص ص ٢٩٦
(١٥) مجلة الازمنة الحديثة : العدد الخاص ، ص ٤٧٦

وطن • فى مكان خاص بنا ، كنتيجة لهذه الحرب ولانتصار الديمقراطية على الفاشية والنازية • اننا لا نطالب بالاحسان ولا بالاشفاق » (١٦) •

ولهذا الهدف كان لابد من ابراز العرب كانصار للفاشية ، فتقول مجلة « أقلية الفرد The Minority of One الامريكية فى عددها الصادر فى أكتوبر ١٩٦٧ : « ولكن أحدا لا يستطيع أن يقلب السجل العربى الخاص بالتعاون مع النازيين مقابل سجل يهود فلسطين فى النضال البطولى ضد النازية » •

وتتكلم الصهيونية باعتبارها « حركة عمالية » • تقول جولدا مائير فى مجلة « دافار هابوبليت » بتاريخ ٣ مايو عام ١٩٢٩ : « ان الحركة العمالية فى هذا البلد ، بل والطائفة اليهودية كلها فى هذا البلد لتعلم تماما انه لا يوجد سوى طريق واحد نضمن به للامهات اليهوديات مستقبل أولادهن وهو أن ننقذهن من جهنم التشتت ونأتى بهن هنا الى هذا البلد » (١٧)

وفى شهادتها باسم الحركة العمالية اليهودية أمام لجنة التحقيق الانجلو أمريكية فى ٢٥ مارس ١٩٤٦ ، قالت : « تم التصريح لى باسم ما يقرب من ١٦٠٫٠٠٠ عضو لاتحادنا بأن أقول ، فى أوضح ألفاظ ممكنة ، بأنه لا يوجد شىء ليست الحركة العمالية مستعدة للقيام به حتى نقبل جماهير واسعة من المهاجرين اليهود فى هذه البلاد دون قيود ، ودون أية شروط مهما كانت » (١٨)

وفى تجاهل كامل لكل التطورات التى طرأت على موقف الدول الاشتراكية من الصهيونية ومخططاتها ، تتذرع الصهيونية ـ فى تقديم نفسها لليسار ـ بأن الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتى ، قد أيدوا مطالبتهم باقامة دولة لهم فى فلسطين •

واسرائيل ، من جانب آخر ، هى « واحة الاشتراكية والديمقراطية والتقدم » وسط صحراء من النظم الرجعية والدكتاتورية والتخلف • تقول جولدا مائير فى خطبة لها بنادى الصحافة القومية الامريكى فى ١١ ديسمبر ١٩٥٦ ، أى بعد العدوان الثلاثى (حرب السويس) مباشرة : « لقد كانت القاعدة السائدة فى هذه المنطقة هى وجود الدكتاتورية والاضطهاد والنظم الاقطاعية ، ولم تزدهر الديمقراطية فيها أبدا ، ووسط الثروة البترولية الواسعة تعيش الجماهير العريضة للشعب فى حالة كاملة من البؤس والفقر • هنا حدث أن ولدت اسرائيل مرة أخرى ، منذ ثمانى سنوات فى وطنها القديم ، أمة قدمت نفسها كلها للديمقراطية والسلام والتقدم » (١٩)

يتساءل « دوف بارينز » : « ماهى اذن الخدمة التى قدمناها للاستعمار سوى طرده من هذه القطعة من الارض ، وهو طرد يطابق ـ على أية حال ـ أفوله فى البلاد العربية المحيطة ؟ » (٢٠)

اما السلام والتعايش السلمى فهو المزمور الذى لايمل الاعلام الصهيونى من ترديده • ودعاوى القوم فى هذا الشأن هى نموذج « للسلام الرومانى » القائم على فرض الامر الواقع مهما كان ظالما أو جائرا •

حجج تخاطب اليمين

وتزخر ترسانة الدعاية الصهيونية ، فى نفس الوقت ، بحجج هامة لمخاطبة اليمين •

يقول بن جوريون : « عندما يفكر أحد رجال الدولة ، أو السياسة فى الصهيونية اليوم فهو لا يفكر بطريقة الانبياء والمبشرين والمثاليين والشعراء ، وانما يفكر بالارتباط بعناصر مادية جدا هى البترول والدولة اليهودية فى فلسطين ، والشرق الاوسط وروسيا وأمريكا » (٢١)

واذا كان « هرتزل » قد قدم مخططه الصهيونى لاوربا ، قائلا : « بالنسبة لاوربا سنكون هناك (فى فلسطين) حصنا من الحصون الامامية ضد آسيا ، ويمكننا أن نشكل الديدبان الطليعى للحضارة ضد البربرية » •• فان الاعلام الصهيونى لايألو جهدا فى تقديم اسرائيل كجزء لا يتجزأ من الغرب ومصالحه •

كتبت مجلة « هاتسوفيه » : « يمكن للمرء أن يلاحظ أن ثمة تباينا بين نيكسون وجونسون • لقد

---

(١٦) Golda Maeir: This is Our Strength, New-York, 1962, p. 26.
(١٧) جولدامائير : المرجع السابق ص ٧
(١٨) جولدامائير : المرجع السابق ص ٨١
(١٩) جولدامائير : المرجع السابق ص ٧٨
(٢٠) مجلة الازمنة الحديثة ، العدد الخاص ، ص ٤٤٤
(٢١) ب • واستريا : من السويس الى العقبة (بالفرنسية) ـ كورياس ـ باريس ـ ص ٤

أصر جونسون على مقترحاته الخمسة الواضحة لانه كان يعرف أن الجيش الاسرائيلى لا يدافع عن اسرائيل وحدها ، بل يدافع كذلك عن مصالح العالم العربى » (٢٢)

ويستقى « اليزير يعارى » من الترسانة الفكرية للامبريالية احدى مقولاتها المبتذلة ، داعيا المعسكر الاستعمارى الى التدخل السريع والكامل الى جانب اسرائيل معلنا :

« أن الاتحاد السوفيتى يستغل النزاع اليهودى - العربى لتقوية هيبته فى البلدان العربية » (٢٣)

كما تنشر جريدة « هايوم » الاسرائيلية خطابا لرئيس ادارة حزب الاحرار وعضو الكنيست (البرلمان الاسرائيلى) يقول فيه : « علينا أن نشرح للرأى العام العالمى فى الغرب، وفى أمريكا أن القضية ليست قضية خلاف بين اليهود والعرب · وانما هى محاولة سيطرة روسية على المنطقة بأسرها ، وأنه لا يمنع هذه السيطرة سوى وقوف اسرائيل قوية وسدا فى وجهها » (٢٤)

واذ قضى على الثورة الاساسية للاسامية بهزيمة النازية الالمانية يلح دعاة الصهيونية على ابراز البلاد الاشتراكية باعتبارها موطنا لاضطهاد **اليهود** حتى يمزجوا بين العطف عليهم وبين **كراهية** الاشتراكية · من ذلك تنظيم الحركة **الصهيونية** لـ « أسبوع يهود الاتحاد السوفيتى » **وتنظيم** حملة فى المدارس عن « تاريخ اليهود فى **روسيا** بعد ثورة ١٩١٧ » ·

واذا كانت صرخة « **دوف بارنير** » التالية تهدف الى استثارة التعصب القومى لدى اليمينيين : « هذا حقى فى الارض ، وحقى فى طبقة فلاحية وأخرى عمالية تكونان لى ، حقى فى الاتزان العقلى ، حقى فى الوطن ، بروح انسانية وعالمية » (٢٥) ، فان التباهى بالقوة والانتصارات العسكرية يتحول الى حجة جديدة وقوية فى يد الاعلام الصهيونى فى مخاطبة اليمين · ان حجة « **ليفى أشكول** » فى كسب المساندة الامريكية هى ان اسرائيل أقوى دولة فى المنطقة لم تكن وليدة الزهو بانتصار ٦٧ فحسب - بل لقد سبق أن كتب « **مجدلانى** » فى الازمنة الحديثة قائلا :

> **● وسيز مندلسون ●**
> [١٧٢٩ - ١٧٨٦]
> فيلسوف المانى ، مترجم العهد القديم من العبرية الى الالمانية ومفسر له . وبذلك بدأ مرحلة جديدة فى تاريخ اليهودية . وكان من اوائل الذين طالبوا بتحرير اليهود .
> كان مندلسون يجمع فى وقت واحد الانتماء الى اليهودية والى الامة الالمانية . وكان يجهد لتعليم ابناء دينه اللغة الالمانية وبذلك يعدهم لتقبل الثقافة الجرمانية . ولقد بدأ يترجم التوراة الى الالمانية من أجل ابنائه خاصة ، ثم قرر ان ينشرها باسمه وعلى نفقته .
> ولقد كان لهذه الترجمة اثر فعال فى جعل اليهود يشاركون فى حركة التقدم المعاصرة ، وولدت فيهم الرغبة القوية لتبنى القومية والثقافة الالمانيتين وبدأت معهم عهدا جديدا فى مجال تعليم الصغار ونظام المدارس اليهودية . ■

« اذا كان هذا النصر (يقصد عدوان ١٩٤٨) لم يبرهن على أحقية اسرائيل فى هذه الارض ، فانه قد تمكن من أن يقدم البرهان فعلا على أن اسرائيل مستعدة للقتال والموت من أجل ما تعلم بأنه المركز الحالى لتاريخها » (٢٦)

وبعد ، فماهذه سوى عينات من دعاوى الصهيونية . ولما كانت معظم هذه الدعاوى تعتمد على مغالطات تاريخية واجتماعية وسياسية ، سواء بالنسبة لتاريخ اليهود أو لتاريخ شعب فلسطين ، فلابد - والحال كذلك - من أن نجلو بعض هذه الدعاوى قبل أن نكشف عن حقيقة الصهيونية .

الصهيونية ردة فى حركة الاصلاح الدينى اليهودى

كما شهدت المسيحية حركة **الاصلاح الدينى اللوثرى** ، وكما شهد الاسلام حركة الاصلاح الدينى على يد **الحركة الوهابية وجمال الدين الافغانى فى المشرق ، وعلى يد عبد الحميد بن باديس فى المغرب العربى** ، وغيرهم ، بغرض تخليص العقيدة الدينية من الجمود الذى سيطر

---

(٢٢) الاهرام القاهرية - ١٩٦٩/٢/٢٨ .
(٢٣) مجلة الازمنة الحديثة ، العدد الخاص ، ص ٨٧٠
(٢٤) هايوم الاسرائيلية - ١٩٦٨/١٢/٤
[٢٥] مجلة الازمنة الحديثة ، العدد الخاص ، ص ٤١٤
[٢٦] مجلة الازمنة الحديثة ، العدد الخاص ، ص ٢٨١

عليها فى عصور الاقطاع المظلمة ، كذلك شهدت اليهودية ، منذ النصف الاول من القرن التاسع عشر ، بدايات حركة اصلاح دينى شامل كانت تتناول — بالتحديد — تلك الاساطير التى اعتمدت عليها الصهيونية لتبرير حركتها ، خاصة أسطورة أرض الميعاد فى فلسطين .

ولقد أوردت « **الانسيكلوبيديا اليهودية**» المطبوعة فى بدايات هذا القرن ، عددا هاما من الوقائع ، تكشف تلك الحقيقة التى يبذل الصهيونيون قصارى جهدهم لاخفائها . وسوف نكتفى هنا بتسجيل نص ماأوردته الانسيكلوبيديا اليهودية عن مؤتمرات الحاخاميين ، وحركة مندلسون ، وغيرهم من الاصلاحيين . وعن علاقة الصهيونية بالدين اليهودى وحركة الاصلاح فيه .

مؤتمرات الحاخاميين

كان الدافع الى عقد مؤتمر الحاخامات الاول هو ظروف حياة اليهود التى اصابها التغيير فى أوائل القرن التاسع عشر نتيجة تحررهم من قوانين الاقطاع وما لازم ذلك من المصالحة والتوفيق بين العقائد الدينية وطقوسها من جهة ، وبين مطالب الواقع الجديد الذى كانوا قد ولجوه .

ولقد انعقدت خمسة مؤتمرات ذات وزن ، خلال المرحلة الممتدة من عام ١٨٤٤ حتى عام ١٨٨٥ ، حضرها كلها معظم حاخامات الاصلاح البارزين حينئذ فى المانيا وامريكا . وفتحت مداولات تلك المؤتمرات ، والقرارات التى تمخضت عنها ، فصلا هاما من فصول تطور العقيدة اليهودية .

كان الهدف من **المؤتمر الاول** (المنعقد خلال الفترة من ١٢ — ١٩ يونية ١٨٤٤) دراسة وسائل وسبل الحفاظ على اليهودية وبعث الروح الدينية .

بينما اثار **المؤتمر الثانى** التساؤل عما اذا كان يجب حذف الصلوات من أجل رجوع اليهود الى أرض آبائهم ، ومن أجل اعادة الدولة اليهودية من طقوسهم الدينية .

اما المؤتمر الثالث (من ١٣ — ٢٤ يوليو ١٨٤٦) فقد اتخذ عددا من القرارات الهامة بالنسبة لمواضيع مثل السبت والاجازات والختان وتقاليد الحداد .

ولقد وافق **المؤتمر الرابع** (الذى عقد فى فيلادلفيا من ٣ — ٦ — ١١ — ١٨٦٩) على الصياغة التالية للمبادىء :(٢٧)

① لم يكن قصد اسرائيل اعادة اقامة الدوله اليهودية القديمة على يد احد خلفاء داوود ، الشيء الذى يستلزم انفصالا عن أمم العالم ، بل كانت الغاية التى تهدف اليها أن يتحد جميع أبناء الله فى الاعتراف بوحدة الله لكى تتحقق وحدة جميع المخلوقات العاقلة ، ودعوتهم الى التطهر الخلقى .

② نحن نصبو الى اجتثاث الكمنولث اليهودى الثانى ، ليس كعقاب لخطيئة اسرائيل بل كتحقيق للمشيئة الالهية التى تكشفت لابراهيم ، وهى المشيئة التى تتجسد فى تشتت اليهود فى جميع أرجاء العالم لكى يحققوا رسالتهم التبشيرية العظمى وليقودوا الامم الى معرفة الله وعبادته بطريقة صحيحة وسليمة .

③ ان التبشير والديانة الموسوية ليستا سوى خطوات أولية وتمهيدية لتوصيلها الى جميع افراد الشعب ، وهو ما بدأ تحققه بتشتت اليهود ، واحتمال التضحيات فى سبيل تكريس الحياة وتطهير النفس . هذان الشيئان ، وحدهما ، هما اللذان يدخلان السرور الى قلب الله العلى ، وهما وحدهما اللذان يحوزان قبوله . ولقد كانت هذه التقاليد التى تفتح الطريق لحياة التقوى ترتبط بالماضى ثم انتهى عهدها بتخريب المعبد الثانى . وبهذا المعنى فقط ، أى باعتبارها عوامل تربوية ترتبط بالماضى — يتحتم أن نذكرها فى صلواتنا .

④ ان اختيار اسرائيل كشعب عقيدة ، وكحامل للفكرة العليا للانسانية ، يجب أن يستمر التأكيد عليه .

وفيما يلى بعض القرارات التى اتخذها المؤتمر الخامس (المنعقد فى بنسبرج « لينتجراد حاليا » من ١٦ الى ١٨ نوفمبر عام ١٨٨٥) :

---

(٢٧) راجع الوثيقة التى طبعها المجلس القومى للسلام فى مصر نقلا من Jewish Encyclopedia, t IV, 1906, p. 211, ff.

(١) نحن ندرك أنه فى كل جهد يبذل لمعرفة الروح المطلق وانه فى كل أسلوب ومصدر أو نظرة للوحى ، نؤمن بقدسية اى دين ، وعيا بحلول الله فى الانسان ...

(٢) كما ندرك أن التشريع الموسوى نظام لتدريب الشعب اليهودى على رسالته أثناء حياته القومية فىفلسطين . ونحن لا نقبل اليوم من هذه الشريعة الا قوانينها الاخلاقية، ولا نحافظ الا على الطقوس التى ترتفع بحياتنا وتطهرها ، ونرفض كل ما لا يتمشى مع الاراء والعادات التى تحملها الحضارة العصرية .

(٣) ونعتقد أن جميع القوانين الموسوية التى تنظم الغذاء والنقاء الكهنوتى قد انبثقت خلال العصور وتحت تأثير أفكار غريبة تماما عن حالتنا الفكرية والروحية الحالية . وهى لا تستطيع أن تمد اليهودى المعاصر بنفحة من النقاء . ولذا فان تنفيذها ، والسير بمقتضاها ، من شأنه أنيعوق أكثر مما يعزز القيم الروحية .

(٤) ونحن نرى فى عصرنا الحالى — عصر الثقافة العالمية للعقول والقلوب ، اقترابا من تحقيق أمل اسرائيل الاكبر فى اقامة مملكة الحق والعدل والسلام بينجميع الناس . ولا نعتبر أنفسنا بعد الانأمة أو دولة وانما مجتمعا دينيا . ولهذا لا نقبل الرجوع الى فلسطين ولا العودة الى اىقانون منالقوانين التى تتعلق بالدولة اليهودية .

(٥) نحن نرى فى اليهودية دينا تقدميا يعمل جاهدا لكي يساير بدهيات العقل . ونحن نرى أن الحفاظ على شخصيتنا، التى كنا نتميز بها فى ماضينا العظيم ، من الزم الضروريات ، كما أننا نقدر الرسالة الالهية للمسيحية والاسلام — وهما أبنان لليهودية — لنشر عقيدة التوحيد . ونعترف بأن روح الانسانية المترامية الاطراف فى عصرنا هذا ، تقفالى جوارنا فىتحقيق رسالتنا ولهذا نمد ايدينا لكل من يعمل معنا فى اقامةدين الحق والعدل بين الناس ».

(٦) مع التسليم التام بروح الشريعة الموسوية التى تجاهد فى سبيل تنظيم العلاقة بين الاغنياء والفقراء، نعتبر أن منواجبنا أن نشارك فى العمل الكبير الذى يجرى فى وقتنا الحالى لايجاد حلول تستند الى الحق والعدل للمشاكل التى تطرحها تناقضات وشرور التكوين الحالى للمجتمع الانسانى (٢٨) .

اليهودية الاصلاحية

نعنى باليهودية الاصلاحية تلك المرحلة من الفكر اليهودى الدينى التى وجدت تعبيرها الاول فى المذهب والنظام الدينى اللذين وجدا فى بعض المعابد الالمانية . ولقد انتقلت تلك الاصلاحية الى الولايات المتحدة الامريكية حيث جرت عليها سنة التطور . وتم هذا عشية رحلة « مندلسون » وكنتيجة للجهود التى بذلت أثناء الخمسينات من القرن التاسع عشر لتحقيق التحرر المدنى والسياسى .

● نبذة تاريخية ●

رغم انالحركة الاصلاحية اليهودية ترجع الى بدايات القرن التاسع عشر ، فلابد من تتبع بداياتها الى التغييرات الجذرية التى طرأتعلى حياة اليهود خلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر .فلقد انعكس أثر جهود الاعتاق السياسى والثقافى والاجتماعى والدينى أكثر ما انعكس على اليهود الذين كانوا منقطعين تماما عن العالم فى احيائهم « الجيتو » التى اضطروا الى الانزواء فيها لقرون عديدة .

لقد تضافرت عدة عوامل على اخراج اليهود من هذا الواقع ، فى مقدمتها الثورتان الامريكية والفرنسية اللتان نبهتا اليهود الى حقوقهم السياسية . وكان من أثر التعاليم التى انبثقت عن هذه الصراعات أن زال بالتدريج عجز اليهود السياسى ، وعلى وجه الخصوص فى فرنسا وبريطانيا وألمانيا وايطاليا .

ولقد اوجد مجهود « مندلسون » فى المجال التربوى الحافز على مجاراة اليهود للحياة الثقافية ، وفتحت ترجمته الكاملة لاسفار موسى الخمسة الى الالمانية ، الابواب التى قادت اليهود الى كنوز الثقافة العالمية .

وفيما يتعلق بهذا لا يمكن التغاضى عن الاثر الذى أوجده تأسيس المدارس التى كان يتلقى فيها ابناء اليهودية التعاليم الدنيوية ».

(٢٨) المصدر السابق ، الموسوعةاليهودية الجزء السادس »

يرتكز التناقض بين اليهودية الاصلاحية وبين اليهودية المحافظة على **مفهوم دور اسرائيل** ان النظرة اليهودية الارثوذكسية لا ترى فى فلسطين مجرد المهد . وانما المآل النهائى لليهودية ، اذ يرتبط الاستيلاء عليها بامكانية تطبيق الناموس بعد تعطيل اجزاء الشرعية المقدسة المشروطة بوجود المعبد واحتلال الارض المقدسة . فلا يعتبر من يخالفون تلك الاجزاء منتهكين لارادة الله طالما هم بعيدون عن فلسطين . لقد انزل الله الناموس وحكم على اليهود بالتشتت ، وللتوفيق بين التناقض بين اوامر الناموس وبين الواقع التاريخى ، تعتبر الفلسفة الارثوذكسية استحالة تطبيق الناموس عقابا آلهيا لاسرائيل على خطاياها . فاسرائيل الآن فى المنفى : لقد طردت من أرضها . فالمرحلة الحالية اذن مرحلة اختبار لا يعرف مداها الا الله . وعلى اسرائيل أن تنتظر ، فى صبر ، على حالة النفى ، وأن تقيم الصلوات ، وأن تأمل فى مجىء المسيح الذى سوف يجمع شتاتها ويجمعه فى فلسطين ، حيث يعاد بناء الهيكل ، وحيث تعود الحياة الى النظام الكنسى ، وتصبح اسرائيل — مرة أخرى — دولة مستقلة تحافظ على نصوص ناموس الرب كما ورد فى أسفاره الخمسة ، بينما يقوم السلام والعدل بين سكان الارض مع توبة اسرائيل ، وتتحقق نبوءات الانبياء فى أبهى مجدها .

ولابد أن تكون اسرائيل ، فى وقتنا هذا، على أهبة الاستعداد ، اذ أن التوبة ستتم بطريقة معجزة . ولكى تبقى اسرائيل على شخصيتها مصونة ، يجب عليها أن تحافظ على الاسوار التى أقامها الناموس حولها ليميزها وليعزلها عن الامم — بل اكثر من ذلك عليها ان تعزز تلك الاسوار ، كما يجب تقوية الحنين الى فلسطين باسترجاع الذكريات عنها ، كذلك لابد من حماية الناموس نفسه باحاطته بسياج متين .«

● العلاقة بالقومية ●

أما الاصلاحية فلا تربط بين رسالة اسرائيل وقدرها وبين العودة الى فلسطين واستعادة الكيان القومى والسياسى تحت حكم ملك واعادة بناء الهيكل والعودة الى ممارسة طقوس تقديم القرابين . صحيح أن كثيرا من تعاليم التوراة يستحيل على اسرائيل تطبيقه اذ لم توجد على أرض فلسطين ، الا أن استحالة اطاعة الناموس لا تقع تبعتها على اسرائيل . فهى ليست فى المنفى ،وتشتتها كان تجربةضرورية لتحقيق وتطبيق مهمة الخلاص الملقاة على عاتقها .وليس مفروضا عليها أن تنتظر تحقق معجزة مجىء المسيح ؟ فاسرائيل نفسها هى شعب المسيح الذى فرض عليه أن ينشر — بصموده واخلاصه — العقيدة التوحيدية فى كافة أرجاء الارض ، وأن يكون مثالا للاستقامة أمام الجميع . وليست القرابين والكهانة المرتبطة بالمفهوم القومى السياسى لمهمة اسرائيل عناصر لازمة للديانة اليهودية . بل على العكس ، فلقد زالت مع كل امتيازات الكهنة والتزاماتهم ، فكل يهودى كاهن ، فرد من الشعب المقدس ، ومن مجتمع الكهنة الموكولة اليه مهمة الخدمة فى مذبح الانسانية المثالى . وهدف تاريخ اليهودية ليس دولة دينية فى فلسطين ، وانما الهدف تحقيق مبادىء الحق فى المجتمع والدولة ، تلك المبادىء التى أرساها الانبياء والحكماء القدامى .

لهذا تخلت اليهودية الاصلاحية عن الاعتقاد فى مسيح انسان ، وأحلت محله عقيدة رسالة اسرائيل التى ستتحقق فى عهد العدل والسلام العالميين . وتتغاضى اليهودية الاصلاحية عن وعى — وليس فقط أضطرارا — عن قوانين أسفار موسى الخمسة التى تشير الى القرابين والكهنوت أو الى فلسطين — وهى تزيل من كتاب الصلوات كل اشارة الى المسيح والعودة الى فلسطين ، وتجديد النظام القومى الكهنوتى ، وتكف عن اعلان أنها فى المنفى ، اذ ليس هناك سبب يدعو اليهودى المعاصر فى أمريكا أو انجلترا أو فرنسا أو ألمانيا أو ايطاليا الى الشعور بأن البلد الذى يقيم فيه أرض غريبة عنه . فبعد أن يصبح اليهودى امريكيا أو ألمانيا .. الخ لا يصبح فى مقدوره ان يدعو لنفسه ولابنائه أن يصبحوا بالنعمة الالهية مواطنى دولة أخرى وأرض أخرى هى اسرائيل المقامة فى فلسطين .

ولقد ولدت حركة الاصلاح الدينى الكثير من المفكرين اليهود الذين عارضوا العودة الى فلسطين نذكر منهم على سبيل المثال «هيرش» وهولدهيم .

○ أفكار صموئيل هيرش الرمزية ● (١٨١٥ — ١٨٨٩) :

عالج القضية من زاوية رمزية . فهو — كأستاذه هيجل — يعتبر التاريخ عملية وحى آلهى . لكنه عاد فعارض كلا من « باول » و « هيجل » و « كانت » كما عارض أغلبية حاخامات الاصلاح — فأكد أن اليهودية ليست ناموسا وانما هى مجموعة من الحقائق تجد تعبيرها فى اسرائيل من خلال عبقرية انبيائها ، كما يقع على اسرائيل عبء تطبيق هذه الحقائق ، وضرب المثال أمام جميع العالم . وينحدر هذا الالزام وهذه الوظيفة من الاب الى الابن ويتم فرضهما منذ الولادة .

فالشرائع ـ عند هيرش ـ رموز تستهدف توضيح الحقائق التى تؤتمن اسرائيل على صيانتها ، وهى عوامل تساعد على ابقاء الوعى اليهودى يقظا · وطالما بقيت الرموز حية وغير متحجرة ، فلن يجرى عليها الاهمال ، فهى تفقد قيمتها،وتفقد الحاجة الى الابقاء عليها عندما تذهب الى زوايا النسيان · اذ أن الحياة والتطبيق العملى ، وليس الناموس أو التعود على الافعال ، هما اللذان يحددان أيا من الطقوس تجب ممارسته، فلا مناص من ايجاد التوافق التام بين النظرية وبين الواقع ·

ومع هذا كانت بعض الرموز تعبر عن وحدة اسرائيل · ولابد أن تحظى مثل هذه الرموز (الايام المقدسة ـ السبت) بعناية فائقة وباهتمام عميق فى برنامج المعبد اليهودى

ويرتكز الاصلاح عند « هيرش » على أساس أن الطقوس ليست غاية فى ذاتها يؤدى القيام بها الى الثواب عليها ـ وأنما هى تعبير عن التعاليم الدينية · وكل الطقوس والامال التى تشير الى فلسطين كوطن قومى تتعارض مع مشاعر وآمال اليهود الذين تحرروا سياسيا ، فالذبائح الدموية كريهة بالنسبة للاراء الدينية الحديثة · ومن هنا فلا مكان لهذه الرموز القومية بعد الان فى ديانة اليهود المعاصرين ·

● أفكار صموئيل هولدهيم ● (١٨٠٦ ـ ١٨٦٠) :

وهولدهيم ، حاخام وكاتب المانى · كان قائدا للجناح المتطرف فى حركة الاصلاح · شارك فى مؤتمر الحاخامات فى برنسويك (١٨٤٤) وفرانكفورت (١٨٤٥) وبرسلو (١٨٤٦) حيث عرض آراءه التى تتلخص فى الفصل التام بين المؤسسات الدينية اليهودية وبين المؤسسات القومية اليهودية · وكان يرى أيضا أن القوانين فى الامم الحديثة لا تتعارض مع مبادىء الديانة اليهودية ، ولهذا فلابد أن تنظم هذه القوانين الزواج والطلاق بين اليهود ، والا تقوم بهذه المهمة قوانين اليهود القومية القديمة ·

ولقد رأى كثير من المجتمعات اليهودية الالمانية فى هذا الموقف حلا لقضية الجمع بين الولاء لليهودية وبين الولاء لجنسيتهم الالمانية · والموسوية ـ كما جاءت فى التوراة ـ هى الديانة المستمرة لليهودية · ويوضح هولدهيم تهافت المتمسكين بحرفية التلمود · فبينما هم يتمسكون ببعض التعاليم ، نراهم يسلمون بامكان تعطيل بعضها ، ان الطقوس تفقد معناها وتصبح ميتة بمجرد أن تكف اسرائيل عن أن تكون فى حاجة الى حماية خاصة لما تتميز به من عقيدة التوحيد · وبمجرد أن يصبح جميع الناس توحيديين اخلاقيا لا تعود اسرائيل فى أى مكان معرضة للخطر من فقدان وحدانيتها الخاصة وتتوقف الحاجة الى تمايزها ·

لقد الح هولدهيم على التمييز بين العناصر القومية وبين العناصر الدينية أو العالمية ، فمضمون الوحى كان ذا شقين ، شق قومى وشق عالمى · والاول كان التزاما وقتيا · ولكن هذه الصفة الالزامية انتفت باختفاء الدولة والامة · اما العناصر الدينية العالمية فهى ملزمة لاسرائيل ·

الصهيونية

تعرف الانسيكلوبيديا اليهودية الصهيونية بقولها :

الصهيونية حركة تصبو الى تجميع الشعب اليهودى على أساس قومى فى وطن خاص بهم ، وهى ـ على التخصيص ـ الشكل المعاصر للحركة التى تبحث لليهود عن « وطن لهم فى فلسطين مؤمن قانونيا وجماهيريا » · وقد انشأ هذه الحركة « تيودور هرتزل » عام ١٨٩٦ ، ومنذ هذا التاريخ وهذه الحركة لها السيطرة على التاريخ اليهودى ·

الصهيونية مرفوضة

من اليهودية الاصلاحية

يرفض الجناح الاصلاحى هذه العقيدة فقد قرر مؤتمر الحاخامات فى فرانكفورت (٥ ـ ٢٨ يوليو ١٨٤٥) ان يرفع من الطقوس « الصلوات من أجل العودة الى أرض الاباء ومن أجل استعادة الدولة اليهودية » · وأقر مؤتمر فيلادلفيا (٣ ـ ٦ نوفمبر ١٨٦٩) أن « الهدف الالهى لاسرائيل ليس هو استعادة الدولة اليهودية القديمة تحت حكم احد خلفاء داود ، وهو ما يستلزم أن ينفصل اليهود للمرة الثانية عن أمم الارض ، وانما الهدف هو اتحاد جميع أبناء الله فى الاعتراف بوحدة الله بما يحقق وحدة جميع المخلوقات العاقلة ودعوتهم الى القداسة الروحية ·

ولقد أكد ذلك مؤتمر لنسبرج (١٦ ـ ١٨ نوفمبر ١٨٨٥) فيما يلى : « نحن لا نعتبر أنفسنا منذ الان أمة ، وأنما نحن مجتمع دينى،ولهذا لا نقبل العودة الى فلسطين ولاالتعبد بالقرابين وراءأبناء هارون، ولا استعاده اى من القوانين الخاصة بالدولة اليهودية » ·

المعـــارضـــة

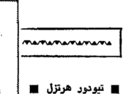
برزت المعارضة للصهيونية من عدة جهات • وكما كانت الصهيونية تضم بين صفوفها يهودا ذوى عقائد متباينة ، كذلك أتت المعارضة من عدة مصـادر • ولقـد بقيت **اليهودية الارثوذكسية** فى أوربا فى البداية بعيدة عن الصراع لاعتقادها أنه بسبب عدم تطبيق بعض القادة للطقوس اليهودية ، كانت الحركة الصهيونية تقوم بعيدا عن اليهودية الايجابية • وكان الرأى أنها مفروضة على العناية الالهية ومعارضة للتعاليم الايجابية لليهـودية الارثوذكسية بالنسبة لمجىء المسيح • وفى روسيا لم يكتف الجناح المتطرف من الكنيست الارثوذكسى بمجرد الاحتجاج » بل نظم معارضة نشيطة كانت لها جريدة خاصة فى ولنا ، مما اضطر احـدى المكتبات التى افتتحها الصهاينة فى ١٤ ابريل عام ١٩٠٢ الى أن تغلق أبوابها لبعض الوقت ، وكان يطلق على هذه المعارضة « **الغرفة المظلمة** » •

ولقد أضفى بعض حاخامات أوربا علـى المعارضة جانبا أكثر اخلاقية • فيقول **الدكتور جدمان** ، ان اسرائيل منذ التيه أصبحت مجتمعا دينيا صرفا وقائدة للشعوب ، وان مهمتها التاريخية تكونت من معارضتها فكرة القومية وأنه اذا قامت اليهودية ببعث المحاولة لكى تصبح أمة للمرة الثانية ، فانها تكون فى طريقها الى الانتحار •

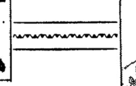
وفى رأى **جدمان** أن وظيفة اسرائيل تقوم على الطابع الذى استطاعت أن تضفيه على الانسانية • وهو يرى أن اليهودية قد تأقلمت فى كل مكان ، وأن صهيون ليس الا رمزا لمستقبلها ولمستقبل الجنس البشرى • وبهذا المعنى تستخدم الكلمة فى كتاب الصلوات • وأن الصهيونية الحقيقيـة لا يمكن فصلها عن مستقبل البشرية •

وبنفس الـــروح يصـوغ » ك • كوهـر ، معارضتـــه للصهيونيـــة فـلا يسمى نفســه عـــدوا للصهيـونيـــة وانمـــا هـــو يعتقــد أن لليهودية مستقبلا آخر يمكن ان تحققه بطريقة ايجابية • فاليهودية بالنسبة له حقيقة دينية وكلت الى أمة كتب عليها أن تصل بين جميع الامم والنحل والفرق والاجناس البشرية • وواجبها أن تكون عاملا عالميا للبشرية ترتكز على نص الكتاب المقدس الذى يقول « ستكون لى منك مملكة من الكهنة وأمة مقدسة » •

ويقول » كوهر «أن رسالة اليهودى ليست



■ تيودور هرتزل ■
(١٨٦٠ — ١٩٠٤)



ولد فى بودابست . وعاش فى بيئة وعصر كان اليهود فيهما يمارسون حقوقهم السياسية والمدنية فى ظل حركة الاندماج التى بدأتها الثورة الفرنسية . ثقافتــه علمانية •• تخرج فى كلية الحقوق ، بدأ بممارسة الكتابة الادبية ثم عمل صحفيا ، ومؤرخو حياته يجمعون على ان محاكمة دريفوس الضابط اليهودى الفرنسى عام ١٨٩١ كان لها الاثر الحاسم فى توجيه اهتماماته للمشكلة اليهودية — لقـد استشعر ان هذا الضابط اصطنعت ضده الادلة ظلما وادين بغير وجه حق لانه يهودى .

الكتاب الرئيسى الذى كتبه هو «الدولة اليهودية » او » دولة اليهود » . الفكرة الرئيسية فيه ان معاداة اليهودية ابدية وان الحل الوحيد هو تجميع اليهود فى بلد واحد يعيشون فيه وحدهم . وفى الكتاب يخطط لتحقيق المشروع عمليا .

ركز هرتزل نشاطه لاقناع حـــكام الدول بفائدة مشروعـــه • وهــكذا قام باتصالات عديدة لدى سلطان تركيا وقيصر روسيا وقيصر المانيا ووزراء انجلترا .

وفى كل هذه الاتصالات كان يعـرض خدمات دولته المقبلة لاى من هـــذه القوى . على ان حجة واحدة كانت تتردد على لسانه وهو يتفاوض مع هذه القوى الرجعية جميعا : ان مشروعـــه سيخلص الدولة التى يتباحث معهـــا من اليهود النشطين فى الحركات التقدمية الثورية . كان يقول انه يقدم فــكرة قومية اخلاقية كبديل للمبادىء الاشتراكية الثورية .

راس المؤتمر الصهيونى الاول الذى عقد فى مدينة بال بسويسرا عام ١٨٩٧ ، الذى وضع برنامج الحركة الصـــهيونية وبدا انشاء مؤسساتها . وظل هرتزل على راس الحركة الصهيونية الى ان توفى .

ويقدم هرتزل مثلا نموذجا يجســـد الايديولوجية الصهيونية ، فهو مثقف يعبر عن مصالح الطبقة الراسمالية ويعـــادى التغيير الاجتماعى الثورى . وهو يخدم هذه الطبقة خدمة مزدوجة : يضع دولته المقبلة فى خدمة الدول الراسمالية لتواصل نشاطها على الصـــعيد العالمى ، وفى نفس الوقت يعمل على ضرب الحـــركة الثورية بسحب احدى فصائلها النشيطة

ومازالت الدولة التى تأسست بعـــد ٥٠ عاما من المؤتمر الصهيونى الاول أمينة على الخط الذى رسمه لها مفكرها الاول •

روحية أو دينية فحسب وانما هي ـ بالاضافة الى ذلك ـ رسالة اجتماعية وفكرية ، والصهيونية الحقيقية تطلب من اليهود أن يكونوا شهداء في سبيل الحق والعدل والسلام الى أن يصبح السيد واحدا والعالم واحدا • وهو يرفض الفكرة القائلة بأن أرض اليهودية هي وطن اليهودي ، وهي الفكرة التي تجعل اليهودي في كافة أرجاء الارض بلا وطن ، وتضفي على كل الدعاية حلما طوباويا ، اذ أنه حتى لو أرادت تركيا فلن تسلم أية قوة من القوى المسيحية ، الارض المقدسة لليهود ، وان لفلسطين أملا ضعيفا في أن تصبح في أى وقت دولة قائدة ، وفي أن تجتذب رأس المال اليهودي ، وأن العناصر المتنافرة التي ستتكون منها دولة يهودية ستعمل ضد الاندماج المنسجم في كمنولث كبير ، وأن مثل هذا الكمنولث لن يكون قادرا على الاستجابة الناجحة حيال القوى المعادية لها والمنظمة •

ولقد أعلن « **كلود مونتفوار** » أنه معاد تماما للخطة على أساس أن الصهيونية ستولد الشعور بالعداء للسامية وتزيده احتداما ، خاصة اذا نظر اليها على أنها هدف مجيد بدلا من اعتبارها ضرورة محزنة . وهو يعتقد أن على اليهود أن يخوضوا حربا شريفة والا ييأسوا ، بل ان يمارسوا التطهير النفسي والمعاناة ومقابلة الصعاب بشجاعة في انتظار الوقت المناسب الذى ستجيء به الحضارة قريبا حين يعلن أخوتهم في الوطن أنهم مثلهم .

ولقد انتشرت اتهامات كثيرة للصهيونية وخاصة في ألمانيا • ولقد وصفت احدى المجلات ظهور جريدة الحزب (العالم) بأنه كان كارثة ، ووصل « **ج كاريلز** » الى حد القول بأن اليهودية لم تكن ديانة ، وانما هي « فكرة اخلاقية عن العالم وحقيقة تاريخية » (**العالم : نوفمبر ١٩٠٥**)

كذلك أصدر « **مايبوم** » (برلين) « **وفوجلشتين** » باسم اتحاد حاخامات اليهود في ألمانيا احتجاجا على الصهاينة الذين وصفوا بأنهم « متعصبون أتوا من روسيا ، وطلبة صغار متهورون » . ولقد وضع المعارضون في رسالة تمهيدية المبادىء التالية : ان اليهود لا يعدون أن يكونوا هيئة دينية ـ وان اليهود في ألمانيا ألمان قوميون على الرغم من أنهم بهذه الصفة يكونون موالين لديانة سيناء ، وطالبوا بأن تتضافر جميع الطوائف الالمانية في الاحتجاج على الصهيونية السياسية والاثارة ضد دعاياتها ـ واصدار بيان جماهيرى من كل جمعيات الحاخامات والمعلمين ضد الحركة • ولقد انضم **الدكتور لدورفر (من هامبورج)** الى هذا الاحتجاج ، بينما عرض الدكتور **مير** (وهو محام من هانوفر) بالاضافة الى ذلك عقد اجتماع مناهض للصهيونية في برلين يعلن فيه اليهود مشاعرهم الوطنية تجاه ألمانيا • وبهذا تسحب الارض من تحت أقدام الصهاينة • على أنه يبدو أنه لم يتم أى عمل مثل هذا على الرغم من أن الحاخام الاكبر في انجلترا قد قام بمنع عدة حاخامات من التبشير بالصهيونية ، كما منع احد حاخامات الطائفتين الاسبانية والبرتغالية حاخاما آخر من الكلام عن موضوع الصهيونية بصفته الرسمية (١٨٩٩) •

احتجاج حاخامات ألمانيا

ظهر الاحتجاج الرسمي في « الجريدة الالمانية لليهود في ١٦ يوليو عام ١٨٩٧ ممهورا بامضاء مجلس الحاخامات • وجاء فيها :

أولا : ان محاولات الصهاينة لارساء أساس دولة قومية يهودية في فلسطين تتعارض مع الدعوة اليهودية كما وردت في الكتاب المقدس ، وفي الوثائق الدينية بعد ذلك .

ثانيا : ان اليهودية تطالب متقفيها بأن يحترموا الدولة التي يعيشون فيها ، وان يعملوا بكل وسيلة على تعزيز تأثيرها في المجال الدولي .

ثالثا : لا توجد أية معارضة في مشروع توطين مزارعين يهود في فلسطين لان هذا المشروع لا علاقة له بتأسيس دولة قومية ، وبنفس الروح اعلن مؤتمر الحاخامات الامريكيين (المنعقد في ريشموند في آخر ديسمبر ١٨٩٨) معارضتهم الحركة الصهيونية كلها على أساس « ان امريكا كانت القدس ، وان واشنجطون كانت صهيون بالنسبة لليهود (كما جاء في قول أحد الاعضاء)

● **لوسين وولف** ● ، ● **ولورى ماجنس** ●

ومثل هذا الموقف غير المتهاون من الصهيونية اتخذه في انجلترا « **لوسين وولف** » الذى لم يقف عند حد القول بأن البرنامج الذى وصفه هرتزل غير عملى ، وانما أضاف الى ذلك قوله : ان الدفاع عن المقومات التي بنى عليها هذا البرنامج متعذر ويرى لوسين أن اليهود من أصل آرى وأنهم ليسوا جنسا متفردا وان هناك خطرا من الصهيونية في أنها الحليف الطبيعي والدائم للعداء للسامية ، كما أنها المبرر القومي لذلك العداء . ويرى أن الصهيونية محاولة لارجاع تاريخ اليهودية المعاصر الى

الوراء ، وانها « نظرة جاهلة وضيقة » الى قضية كبيرة ٠

نظرة **جاهلة** : لانها لا تأخذ بعين الاعتبار العنصر الحاسم للتقدم فى التاريخ .

وهى **نظرة ضيقة الافق** لانها تخلط بين ذكرى سياسية ومثل أعلى دينى »

ويقول وولف : ان رسالة اليهودى رسالة مندلسونية (نسبة الى مندلسون) ، وهى أن يضرب المثل للامم وأن يتخذ موقفه على أساس من التسامح النبيل والعالمية الحقيقية ٠

كذلك انتقد لورى ماجنس بعنف الصهيونية من ناحية تأثيرها على وضع اليهود فى أوربا الغربية وامريكا ٠ ويتلخص هذا النقد فيما يلى : ان الدكتور هرتزل ومن يقفون الى جانبه خونة للتاريخ اليهودى الذى قرأوه وفهموه بطريقة خاطئة وهم أنفسهم جزء من صانعى سياسة العداء للسامية التى يعترفون بأنهم يذبحونها ، اذ كيف تستطيع البلاد الاوربية التى يعتزم اليهود تركها أن تبرر استبقاء اليهود ؟ ولماذا بذل اليهود مجهودات شاقة لكيب المساواة المدنية اذا كانوا هم أنفسهم أول من سيتخلون عن مكانهم ، ويكتفون بكرم الضيافة (أراء حول القضايا اليهودية ص ٨ لندن ١٩٠٢)

واليهودى الالمانى صاحب الاثر على الادب الالمانى يجب أن ينظر الى المانيا ـ كما تعود أن يفعل طوال نصف القرن الماضى ـ على أنها وطنه الام ، والى اللغة الالمانية على أنها لغته الاصلية ، وأن يضع آماله فى مستقبل تلك الامة ٠ وكل رغبة فى أن يكون هو ومن يشابهونه فى الدين شعبا خارج نطاق المانيا هى ـ بغض النظر عن عدم امكانية تنفيذها عمليا ـ نكران تام لجميل الدولة التى يعيش فيها ، وهو حلم لا سبيل الى تحقيقه ، اذان اليهودى الالمانى المانى بكل خصائصه القومية وليست صهيون بالنسبة له سوى أرض الماضى لا أرض المستقبل ٠

ولم يجرؤ احد من معارضى الصهيونية على ترديد ما قاله ييجر : « ان سحب الحقوق المدنية يبدو أنه الموقف الضرورى الذى يلزم أن يتخذه التشريع الالمانى ضد الصهيونية والرد الوحيد الذى يمكن أن يصدر عن الضمير القومى الالمانى » (صوت الحق ـ برلين ١٩٠٥ ، ص ١٦٥ وما بعدها) .

اعتراضات ثانوية

وبينما كانت مثل هذه الاشكال من النقد تلمس المبادىء الاساسية للصهيونية، كان هناك شكل آخر من النقد يعالج التهم التى يشهد عليها الشعور العارم الذى اججه من كل جانب التقدم المتتالى للحركة الصهيونية ٠ ولقد لخصت جريدة « **العالم الاسرائيلى** » المسألة فقالت :

« **الحقيقة الاساسية فى المسألة هى أن الصهيونيين والمعادين للسامية هما نفس الشىء**»

وتحدثت عن « أعداء السامية ـ أصدقاء هرتزل » (١٢ مارس ١٨٩٨) ٠

وكان الرحالة **ادوارد جلازر** يرى أن الحكومة البريطانية قد ساندت الصهيونية لتحطم تركيا ، ولتكون دولة عازلة .

كذلك قطعت المعارضة فى الولايات المتحدة شوطا بعيدا ، فقد كان **اسحق م٠ ويز** عميد كلية الاتحاد العبرية يرى أن الصهاينة كانوا » خونة ومنافقين ، أو أغبياء خياليين تتعارض أفكارهم مع مشاعرهم وأفعالهم على طول الخط (جريدة الاتحاد العبرى ديسمبر ١٨٩٩ ص ٢٧) بينما **كتب الحاخام سامفيلد** فى « جويش سيكتاتور » يقول أن الصهيونية انفجار شاذ لعاطفة منحرفة . أما الاستاذ **لويس جروسمان** فكان يرى أن الاثارة التى يقوم بها الصهاينة تتعارض مع كل خصائص اليهود واليهودية وأن الحركة الصهيونية علامة من علامات عدم الاصالة ، وانها لا تنبع من قلب اليهودية وداخلها سواء فى الماضى البعيد أو فى عصرنا الحالى » (جريدة كلية الاتحاد العبرى ـ ديسمبر ١٨٩٩ ص ٧٢)

هنا يثور تساؤل هام : ماذا كان مستقبل هذه الحركة الاصلاحية ؟ .

لقد تضافرت عدة عوامل على اجهاض هذه الحركة وبالتالى على انجاح الحركة المعارضة لها منها(٢٩) .

١ ـ فمثلا ، لم توافق حكومة بافاريا على انتخاب دافيد بنهورن أحد الاصلاحيين ـ حاخاما من مجمع **فيلهاوسين** عام ١٨٣٨ بسبب آرائه المتحررة، فقبل منصب حاخام فى المجمع الاصلاحى فى بودابست فى أكتوبر عام ١٨٥٢ ولكن حتى حكومة النمسا عارضت حركة الاصلاح ، ورغم معارضة آينهورن وطلباته الشخصية ، فقد أغلق المعبد بعد فترة وجيزة وتوجه الى الولايات المتحدة حيث حضر مؤتمر الحاخامات عام ١٨٦٩ .

(٢٩) راجع النشرة التى أصدرها المجلس القومى للسلام فى ج٠ع٠م ص٧

٢ ـ أما العامل الثانى فهو خطط الاستعمار ،

ففى عام ١٨٥٢ طالب هولنجورت الانجليزى بانشاء دولة يهودية للمحافظة على الطريق البرى الى الهند (الموسوعة اليهودية ج ١٢ ص ٦٦٨). **ويعتقد ادوارد جلازر أن الحكومة الانجليزية قد أيدت الصهيونية فى سبيل تكوين دولة عازلة** (الموسوعة اليهودية ص ١٢ ٦٧٤) .

٣ ـ وعامل ثالث هو **افتقار الحركة الاصلاحية الى التنظيم** . وما حدث فى أواخر العشرينات وبداية الثلاثينات من هذا القرن ، يوضح هذا العامل (جون دافيز : السلام المراوغ ، لندن ، ١٩٦٨ ، ص ٢٥ ـ ٢٧)

ولقد نصت المادة ٤ من قانون الانتداب على أنه يجب ايجاد « **وكالة يهودية** » توجه هيئة ادارة فلسطين وتتعاون معها . ولقد قامت المنظمة الصهيونية العالمية بهذه المهمة بين عامى ١٩٢٢ ، ١٩٢٩ ، وفى عام ١٩٢٩ وافق المؤتمر الذى انعقد بين المنظمة الصهيونية وبين المجموعة غير الصهيونية على تكوين هيئة أخرى سميت الوكالة اليهودية من أجل فلسطين ، وبمجرد ان بدأت الوكالة عملها رشحت المنظمة الصهيونية العالمية ممثليها فى الاجهزة الحكومية من أعضاء أجهزتها الادارية أو التشريعية ، بينما لم يكن لليهود غير الصهيونيين أى تنظيم عالمى ، مما دعاهم الى ترشيح الاشخاص بعد مشاورات ، وهو الامر الذى حال دون شغل جميع المناصب المطلوب شغلها ، وبالاضافة الى ذلك ، لم يكن أمام مرشحى اليهود غير الصهيونيين سوى أن يكونوا مجرد متحدثين عن مجموعات غير صهيونية متفرقة لم تنسق سياستها فيما بينها ، وان يتصرفوا على أساس أحكامهم الشخصية .

ونتج عن ذلك أن الصهاينة الذين كانوا يعرفون ما يريدون ويحاربون بقوة لتحقيق ما يريدون كانت لهم اليد الطولى فى الوكالة منذ تكوينها الاول : وهكذا تقلص بالتدريج ـ دور العناصر غير الصهيونية ومع مرور الوقت أصبح أعضاء الادارات المنفذة كلهم من الصهاينة ، يضاف الى ذلك أن تكوين أجهزة الوكالة أصبح مع مرور الوقت مطابقا تماما للمنظمة الصهيونية ، الامر الذى جعلها جزءين فى تركيب تنظيمى واحد .

الصهيونية والمشكلة اليهودية

عرفت البشرية فى تاريخها الحديث كثيرا من الدعاوى العنصرية التى قامت على أساس اللون أو الجنس ، ولكن الصهيونية قدمت نوعا من العنصرية يقوم على تعصب عرقى «فريد فى بابه» يزعم أن كل اليهود فى مختلف أرجاء المعمورة من نسل رجل واحد هو ابراهيم عليه السلام ، وترفض كل حقائق العلم والتاريخ هذه الفكرة المحورية للصهيونية .

لقد تعرضت اليهودية ـ كأى دين ـ لظاهرة تغيير دينى مزدوجة : فاعتنق كثير من اليهود الاسلام او المسيحية .. ومن المقطوع به ان جدود يهود فلسطين الاصليين قد تحول عدد كبير منهم الى المسيحية وعدد أكبر الى الاسلام . وكان اعتناق المسيحية ظاهرة عادية ومتكررة بين اليهود فى اوربا ، كما اعتنق كثير من غير العبرانيين الديانة اليهودية . وقد أشار جوفينال فى القرن الثانى الميلادى ، ودون باسيموس فى القرن الثالث ، الى العدد الكبير من الروم الذين تهودوا وختنوا أولادهم .

.. وفى محاضرة ألقاها عام ١٨٨٣ لاحظ المفكر **الفرنسى رينان** حادثة الخزر «ذلك الشعب الاسيوى الذى أتى على الاغلب من الاحراش المغولية وكان يقطن جنوبى روسيا » فى عهد شارلمان . وفى عام ٧٤٠ تهود بولان ملك هذا الشعب وحول معه عددا كبيرا من رعاياه وأتباعه الى دينه الجديد طبقا لعادة انتشرت فى تلك الازمنة .. وقد استغل اليهود » انفسهم هذا الحادث فى الثلاثينات خلال مناقضتهم العلمية للعنصرية النازية (٣٠)

ويلاحظ مكسيم رودنسون :

« يكفينا ـ من الناحية التاريخية ـ أن نذكر الدولة اليهودية فى جنوب الجزيرة العربية فى القرن السادس والتى تكونت من **عرب** جنوبيين تهودوا ، والدولة اليهودية **التركية** لشعب الخزر فى روسيا الجنوبية الشرقية فى القرن الثامن ، **ويهود الصين الذين لم يكونوا يفترقون عن** الصينيين فى شىء ، واليهود السود لمنطقة كويشن (الهند) واليهود الفلاشة بالحبشة (٣١)

ومنذ عصر السبى فى بابل ، وابان انتشار اليهود فى مختلف البلاد ، عبر مختلف العصور

---

(٣٠) A. Fayez: Prélude à Israël, Cujas. p. 16.

(٣١) مجلة الازمنة الحديثة ، العدد الخاص ، ص ٧٠

كثرت حالات زواج من غير يهودية ، الامر الذى تجيزه الشريعة الموسوية .

وكانت كثرة الترحال بين أرض العراق وفلسطين ومصر مصدرا آخر لذلك التمازج البشرى الذى ينفى الفكرة العنصرية ، ذلك أن العبرانيين «كانوا خليطا من الشعوب تتمايز أقسامه المختلفة منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام • والدليل على ذلك أن العبرانيين الذين نراهم على النقوش المصرية يختلفون عن العبرانيين الذين تصورهم الاثار البابلية المعاصرة (٣٢)

ويشهد رافاييل باثاى مدير « معهد هرتزل » بمدينة نيويورك » ان ما وصل اليه علم الانثروبولوجيا الطبيعية يبين انه — بعكس المعتقد الشائع — لا يوجد عنصر يهودى »

ومن جانب آخر فان اليهود كمجموعة لم تعش فوق أرض واحدة فترات طويلة ، بل هاجروا الى أرجاء المعمورة المختلفة منذ وقت مبكر جدا يرجع الى بدايات التاريخ الميلادى .

يقول رودنسون :

« ان آخر دولة يهودية مستقلة حقيقية فى فلسطين قضى عليها عام ٦٣ قبل الميلاد عندما استولى بومبيوس على القدس ، وكذلك نجد ان الاعمال الاخيرة للامة اليهودية فى فلسطين ترجع الى تاريخ ثورة باكوشباه عام ١٣٥ بعد الميلاد (٣٣) •

ومن عام ١٣٥ حتى عام ١٩٤٨ لم يكن هناك شىء اسمه الامة اليهودية فى فلسطين • ومع أن هجرة اليهود كانت — فى فترات معينة — تعود الى الاضطهاد العنصرى أو الدينى الذى لاقوه — الا انهم مارسوها فى أغلب الاحوال لطبيعة صفاتهم التجارية التجوالة مثلهم فى ذلك مثل الكثير من شعوب الشرق •

يقول رودنسون :

« علينا الا ننسى أن أغلبية اليهود اختارت المهجر (دياسبوراه) طواعية ، واليوم كما كان منذ العهد الرومانى بل وقبل ذلك فى عهود الفرس • ومنذ زمن طويل يوجد من اليهود فى مدينة نيويورك وحدها اكثر مما يقطن منهم فى دولة اسرائيل ، ولقد اختارت اغلبية اليهود التاركين الجزائر فرنسا كمكان لهم لا اسرائيل (٣٤) • ولقد تكونت الجالية اليهودية الامريكية مثلا بالهجرة من اوربا الشرقية •

يقول دوف بارنير :

« وقد جرى حينئذ أوسع تنقل للسكان شهده التاريخ ، اذ عبر اربعة ملايين من اليهود المحيط الاطلنطى خلال جيل واحد (أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين) (٣٥) •

ومع هذه الهجرات الى المناطق المتفرقة بدأ اليهود يفقدون ارتباطهم باللغة العبرية » حتى ان بطليموس ملك مصر فى القرن الثانى الميلادى قام بتكليف عدد من الاحبار بترجمة التوراة الى اليونانية (الترجمة السبعينية) حيث كان يهود مصر عاجزين عن قراءة التوراة » (٣٦) فتحدثوا فى غالبية الحالات لغات البلاد التى رحلوا اليها ، وعاشوا على أرضها •

اذن هل اختلقت الصهيونية ما يسمى بالمشكلة اليهودية اختلاقا ؟ الواقع انه رغم تفرق اليهود — وبسبب هذا التفرق — فأنهم احتلوا فى البلاد المختلفة التى عاشوا فيها مركز الاقليات الدينية مما جعل هناك تمايزا اختصوا به فى عديد من البلدان وخلال فترات كثيرة •

ذلك أن الميول التجارية والمالية المتوارثة جيلا بعد جيل لدى اليهود — والتى يغذيها فى الاصل كونهم رحلا ، ويبلورها العديد من مبادئهم الدينية وطقوسهم — رسمت لنشاطهم الاقتصادى فى العصور الوسطى خطا ممهدا ، وكذلك فالتقاليد الاقطاعية فى العديد من البلاد الاوروبية خلال العصور الوسطى ، تلك التقاليد التى كانت تمنع غير المسيحيين من امتلاك الارض وممارسة الانشطة الاقتصادية » النبيلة » حصرت اليهود فى ميدان التجارة والمال والحرف الصغيرة والباعة الجائلين — وهى الحرف التى يمارسها أيضا

---

(٣٢) اسماعيل صبرى عبد الله — فى مواجهة اسرائيل ص ٤١
(٣٣) المرجع السابق ص ٧٠
(٣٤) المرجع السابق ص ٧٦
(٣٥) مجلة الأزمنة الحديثة العدد الخاص ، ص ٤٣٤
(٣٦) اسماعيل صبرى عبد الله : المرجع السابق ص ١٢

العديد من الافراد فى المشرق حتى الان (اللبنانيون — اليونانيون .. الخ) .

وهكذا استمر تمايز اليهود فى المجتمع الاوروبى لان الاقطاع الاوربىميزهم .

ولقد كان ممكنا أن يصبح استيعاب اليهود فى الحياة الاقتصادية خلال الالفى سنة التى مضت أمرا منتهيا لو لم يتخل غير اليهود تدخلا سياسيا اذ كانوا يقومون من وقت الى آخر — بمنعهم من الانصهار فى الاقتصاد العام ويبعدونهم جانبا (٣٧)

ويلاحظ أن مذابح اليهود الجماعية فىاوربا بدات فىالثلث الثالث للعصر الوسيطاى فىالفترة التى بدأت فيها النظم الاقطاعية تتزعزع تحت ضربات الحركات الثورية البورجوازية مما جعل الحكام يبحثون عن كبش فداء يوجهون اليه غضب الجماهير ،وكان اليهود كبش الفداء هذا ».

يقول احمد فايز :

« وقعت المذبحة الاولى — مذبحة كييف بروسيا — فى عام ١١١٣ لا قبل ذلك . وحدثت الابادة الجماعية لليهود فى انجلترا عام ١١٨٩ وفى أسبانيا عام ١٨٤٨ وفى المانيا بين عامى ١٣٣٠ و ١٣٣٨ ، وبدأت عمليات نفى اليهود وطردهم فى فرنسا عام ١١٨٢ وفى انجلترا عام ١٢٩٠،وفى عام١٢١٥ ابتكرالبابا اتوسانالثالث علامة « الرونيل » لتمييز اليهود (وهى الصورة السابقة للنجم الاصفر الذى ميز به هتلر اليهود »(٣٨) .

وقد استمر تمايز اليهود فى المجتمعات الاوربية بقدر ما استمرت نظم التفرقة الدينية الاقطاعية ، بما يصاحبها من تمييز اقتصادى وقمع مسلح او بغير مسلح .

أما فى المجتمعات الاخرى التى كانت « مفتوحة » بالنسبة لهم ، فقد فقدوا الصفات المميزة وتم استيعابهم فيها ، وأبرز مثال لذلك الطائفة اليهودية فى الصين التى تم اندماجها واستيعابها تماما فى المجتمع الصينى فى نهاية القرن الثامن عشر .

اليهود فى العالم العربى

ورغم ظلمات الحكم العثمانى على البلاد العربية فان تاريخ البلاد العربية عامة — وقد عاشت فيها جاليات يهودية كبيرة — لا يضم وقائع تذكر لصدامات دينية او عنصرية ضد من يعتنقون الموسوية ، فالجميع « ساميون » — الجميع يعتقدون كونهم من نسل اسحق واسماعيل ولدى ابراهيم .

لقد عانى يهود البلاد العربية مما كان يعانيه المجتمع عامة من تخلف وطائفية واستبداد وتمتعوا بما كان يصيبه من تقدم ضئيل .

بل وكان المفهوم الاسلامى الشائع عن تاريخ السيد المسيح ، والقائل بأنهم « ما صلبوه وما قتلوه ولكن شبه لهم » صك تبرئة مبكر لليهود من دم السيد المسيح حماهم من السلاح الدينى الذى كان ركيزة للمذابح الدينية ضدهم فى أوربا طوال القرون الوسطى .

وقبل ظهور الاسلام اعتنق فريق كبير من عرب اليمن شريعة موسى ، وحين طرد الامبراطور الرومانى «طيطس»اليهود من بيتالمقدسلجأ عدد كبير منهم الى مصر والى الجزيرة العربية ثم عادوا الى القدس بعد ذلك بحوالى ستة قرون حين حررها العرب من حكم بيزنطة .

وحين احتل الصليبيون المدينة المقدسة أعملوا التذبيح فى المسلمين والمسيحيين، وطردوا منها اليهود . ولما حررها صلاح الدين عاد أهلها من اليهود اليها خلف جيش البطل العربى الكبير .

وفى الوقت الذى كانت فيه أوربا فى العصور الوسطى تحاصر اليهود فى أحياء لا يخرجون منها تسمى « جيتو » وتفرض عليهم صنوفا من الاضطهاد ، كان الفكر اليهودى يزدهر فى بلاد العرب ، وتنمو الفلسفة اليهودية مقتفية أثر الفلسفة الاسلامية على منهج المتكلمين اولا ثم متأثرة بفلاسفة الاسلام الكبار . واكبر الاسماءفى تاريخ الفلسفة اليهودية حتى العصر الحديث كانت بلا شك اسماء موسى بن ميمون تلميذ ابن رشد وطبيب صلاح الدين ، ويوسف بن سعيد الفيومى المشهور عند اليهود باسم سعديا .

وكانت المدارس الدينية فى الاقطار العربية وفى مقدمتها مدرسة « سورا » فى العراق منارات للفكر اليهودى ،وكان معلموها يولفونبالعربية والعبرية على حد سواء .

وحين قرر ملوك اسبانيا والبرتغال طرد اليهود

(٣٧) مجلة الازمنة الحديثة ، العدد الخاص ، ص ٤٣٠
(٣٨) أحمد فايز ، نفس المرجع .

من شبه الجزيرة الايبرية بعد ان طردوا العرب المرجنين والمستنصرين منها لجأ غالبية اليهود الى الاقطار العربية فى شمال افريقيا حيث كان التسامح الاسلامى ، فى الوقت الذى كانت محاكم التفتيش فيه ترهب كل أوربا .

وإذا كانت اللغة دائما شاهدا حضاريا لا يكذب ، فلقد تكلم يهود البلاد العربية لغة العرب ، فى حين أن الاضطهاد حملهم فى أوربا على أن يستخدموا مؤلفات خاصة بهم .. وهكذا نشأت « اليديش » و« اللادينو » — الاولى مشتقة من الالمانية والثانية مشتقة من الاسبانية .

بل لقد برز الكثيرون من اليهود فى علوم اللغة العربية . وكان حاخام يهود مصر دافيد ناحوم عضوا بالمجمع اللغوى العربى فى مصر حتى وفاته عام ١٩٥٠ .

وبينما كانت قضية الاضطهاد الواقع على الضابط اليهودى دريفوس تهز فرنسا كان الكاتب والمفكر والفنان البارع اليهودى يعقوب بن **صنوع (ابو نظارة)** يصدر جريدته « التنكيت والتبكيت » مساهما بدور لا ينكر فى انهاض الحركة القومية فى مجال الفكر والثقافة ، واجدا كل ترحيب وتقدير من الوطنيين المصريين .

وفى مصر بالذات ، حيث كان التقدم الرأسمالى مبكرا عن غيره فى البلاد العربية ، يورد كتاب اليهود والحركة الصهيونية فى مصر ١٨٩٧ — ١٩٤٧ (٣٩) عددا ضخما من الوقائع التى تؤكد **روح التسامح التى تمتعت بها الطائفة اليهودية فى مصر** . لقد أسسوا ستة محافل طائفية فى القاهرة والاسكندرية والمنصورة وطنطا وبورسعيد . وأقاموا على أرض غالبا ما كانت تمنح لهم بالمجان من الحكومة المصرية ٢٩ معبدا فى القاهرة ، وعشرين معبدا فى الاسكندرية،واثنى عشر معبدا آخر فى مختلف مدن القطر . وانشأوا عددا كبيرا من المدارس ومراكز التدريب المهنى ، كانت اولاها مدرسة بن ميمون ، ومركز التدريب الذى أوصى بانشائه سالمون شيكوريل عام ١٩١٩ . كما اقامت الطائفة اليهودية عددا كبيرا من الجمعيات الثقافية والفنية والاجتماعية والرياضية وتمتعوا بحرية كاملة فى التعبير ، وكان لهم صحفهم ومجلاتهم الخاصة الى جانب اشتراك كثير منهم فى تحرير الصحف المصرية .

لقد عرفت مصر فى عام ١٩٢٤ وزيرا يهوديا للمالية هو يوسف قطاوى باشا — كما وصل عدد كبير من كبار الرأسماليين اليهود الى مقاعد مجلس النواب والشيوخ .

وبينما كانت موجة المعاداة للسامية قد بلغت ذروتها فى أوربا فى عام ١٩٤٢ ، ولاقى اليهود تحت نير الارهاب النازى كل صنوف التعذيب والاستعباد والتجريد ، كان الرأسماليون اليهود فى مصر يتمتعون بحرية تكوين الثروات واستغلال موارد البلاد الاقتصادية وتوجيهها من أجل الحصول على اقصى حد من الربح . وهكذا كانوا يساهمون فى انشاء وادارة وتوجيه اثنى عشر بنكا وشركة مالية وائتمانية كانت تقف على رأس النشاط المالى فى البلاد ، وسبع شركات من شركات الاستغلال الزراعى واربع عشرة شركة من شركات استغلال اراضى البناء وتسع من شركات النقل البرى والبحرى وأربع من شركات الصناعات الزراعية الحيوية مثل حلج القطن وكبسه وتصنيع السكر ، وست من شركات صناعة مواد البناء ، وخمس وأربعون شركة فى مجالات الصناعة الاخرى . وكانت فى مجموعها تمثل — فى حقيقة الامر — عصب الاقتصاد المصرى . هذا على الرغم من أن نسبة كبيرة من اليهود فى مصر كانوا يتجنسون بالجنسيات الاجنبية، ولعبوا فى تاريخها دور الكومبرادور الوسطاء للرأسمال الاجنبى الاستعمارى ، مما جعلهم يغادرونها عندما استرد المصريون حقوق السيادة على أمورهم الداخلية منذ عام ١٩٥٢ بشكل خاص .

ولا يختلف الوضع العام فى البلاد العربية الاخرى ، خاصة تلك التى نمت فيها الحركة القومية ، عما كان عليه الوضع فى مصر ، مع استثناءات قليلة منذ عام ١٩٢٠ لجأت اليها السلطات العثمانية واثارتها المطامع الصهيونية التى بدأت تسفر عن وجهها فى فلسطين . ويشهد **دون جوزيف** الذى ظل حقبة طويلة حاكما عسكريا اسرائيليا للقسم المحتل من مدينة القدس (قبل عدوان ١٩٦٧) بقوله :

« اننى بعد اربعين سنة عشتهافى فلسطين على قناعة بأن بين اليهود والعرب كثيرا من السمات المشتركة وبأنهم يستطيعون العيش معا فى سلام ، وانا لم اشهد قط لدى المسلمين الذين يؤلفون اكثرية عرب فلسطين اى شعور بالعداء نحو اليهود يمكن أن نصفه باللا سامية .

ومع التطور الرأسمالى لدول اوروبا الغربية

(٣٩) احمد محمد غنيم واحمد ابو كف : « اليهود والحركة الصهيونيةفى مصر ١٨٩٧ — ١٩٤٧ — القاهرة دار الهلال — انظر الفصل الاول كله .

والولايات المتحدة الامريكية الذى آتى معه بالغاء اسباب التمييز بين الناس عدا الاساس المالى ، اخذ تمايز اليهود فى غرب اوروبا وامريكا فى الاختفاء . **وهنا يقول مجدلانى :**

« ان الظرف الاصيل فى حداثته الذى خلقته التجربة اليهودية فى اوروبا (وبنسبة اقل ذلك التقدم الذى تم احرازه فى بعض بلدان اوربا الغربية) ، ذلك الظرف يواجه اليهودى المعاصر بضرورة القيام بتصحيحات فكرية لا تستطيع جميع الاوساطاليهودية تحقيقها بنفس السهولة»(٤٠).

ولكن البقايا الاقطاعية الشديدة التى تـأخر زوالها فى أوربا الوسطى والشرقية قوية الجذور وقد اختلفت الحملات المعادية للسامية بهدف صرف الانظار وايجاد كبش فداء . وكان أول من قام بهذا فى تاريخ أوربا الحديث هو الجنرال بسمارك لمحاربة الاتجاهات الليبرالية والاشتراكية التى عادة ما تقدم لها الاقليـات نسـبة مرتفعة من أبنائها .

ان تأخر دول أوربا الشرقية فى حركة التطور الراسمالى ،ابقى على تمايز اليهود وانعزالهم بشكل واضح ، وأعطاهم بعض الصفات الخاصة ، منها التحدث بلغة خاصة بهم هى لغة البيديش ، وهى خليط من الالمانية المحرفة والعبرية ، كما أن اليهود الذين هاجروا من اسبانيا بسبب حملات التفتيش فى القرن الخامس عشر الى تركيا ، ظلوا منعزلين أيضا وكونوا لانفسهم لغة خاصة عرفت باسم اللادينو ، وهى خليط من الاسبانية المحـرفة والعبرية .

فالنظرة العلمية والتاريخية تشير الى أن حل « المشكلة اليهودية » فى أوربا كان يسير فى اتجاهين :

الاول : هو استيعاب الجاليات اليهـودية الموجودة فى بلدان غرب أوربا ، وهو حل مهد له شيوع الحياة الديمقراطية والقضاء على التفرقة على أسس دينية فى تلك المجتمعات ، وحـركة الاصلاح الدينى بين اليهود .

والثانى : هو الاتجاه الى تكوين مجموعات محلية ذات سمات قومية فى بعض من بلدان اوربا الشرقية متمايزة بلغاتها وأرضها وتكوينها النفسى عما عداها من قوميات ، وعن معتنقى الديـانة اليهودية المنتشرين فى البلدان المختلفة . وكلا الاتجاهين كان يقدم مضمونا اجتماعيا لتحرر جماهير اليهود يقوم على الصراع ضد القوى الاقطاعية والرجعية فى تلك البلدان .

وكان ظهور الصهيونية فى هذه الظـروف بأفكارها شبه الكوزموبوليتية عن « شعب يهودى عالمى » وأمة واحدة ليهود العالم أجمـع كان عامل عرقلة حاسم لهذا الحل .

فالصهيونية ، وقد تقدمت كحركة تفـرض لنفسها سلطة عالية تمثل جميع اليهود فى العالم وتعمل على فصلهم من مجتمعاتهم ثم الانقضاض بهم على فلسطين ، كان لا بد لها وأن تجند كل قواها لمحاربة فكرة واتجاهات الاستيعاب ، وفكرة استقرار أى يهودى فى الوطن الذى ولد وعاش فيه .

يقول ارثر هيرزبرج : «بالنسبة لهرتزل فان الظلم والاضطهاد أكثر فائدة للحركة الصهيونية لانهما لا يخلقان الجـو المناسب والمساعد على الاندماج فى المجتمعات الاوربية » (٤١)

وبهذا تصبح الصهيونية هى :

« العدو اللدود للحركات الاصـلاحية والمحاولات الاندماجية التى كانت ستؤتى ثمارها لو اتيح لها الاستمرار والفعل فى حيـاة المجتمعات الاوربية حينذاك »(٤٢)

ورغم أن الحركة الصهيونية بشرت بتكوينها ، منذ هرتزل ، على اساس استحالة الاستيعاب، مستغلة حادثة دريفوس فى فرنسا ،فانها سرعان ماتحولت لتكون الاداة الرئيسية فى عرقلة هذا الاستيعاب بل والحرب ضده بمـا تنشره من مفهومات وما تمارسه من أعمال .

نشرت جريدة « **جيروزاليم بوست** » الاسرائيلية فى ١٢ ــ ١ ــ ١٩٦٦ ما جرى فى مؤتمر المجلس الصهيونى العام فى ١١ يناير ١٩٦٦ فقالت :

« أعطى ايبان تفسير الحكومة الاسرائيلية لنوعية العلاقة بين اسرائيل وبين يهود العالم ، فحدد هذه العلاقة على الشكل التالى : اننا ننظر الى انفسنا كمحور أو كقلعة لشعب عالمى ، وليس فقط كدولة صغرى محدودة بحدودها الجغرافية .

---

(٤٠) مجلة الازمنة الحديثة ، العدد الخاص ، مقال مجدلانى ص ٣٨٢

(٤١) هيرزبرج : آرثـر « الفكرة الصهيونية : تحليل تاريخى ومختارات ــ ١٩٥٩ ص ٤٣

(٤٢) أسعد مرزوق ــ نظرة فى أحزاب اسرائيل ــ بيروت ــ ١٩٦٦ ــ ص ٤٩

ان الصهيونية جـزء لا يتجـزأ من مسئوليتنـا المشتركة ، ولسوف تتابع اسرائيل بترقب كبير مناقشاتكم » .

وقد تقدم **ناحوم جولدمان** بالبرنامج الجديد لنشاط الحركة الصهيونية فى المؤتمر السادس والعشرين الذى انعقد بالقدس بين ٣٠–١٢ — ١٩٦٤ و ١١ — ١ — ١٩٦٥ ، ونص بوضوح على ان الجانب الرئيسى لهذا النشاط هو تأكيد الطابع القومى المميز لجميع اليهود المنتشرين فى العالم وضمان بقائهم الدائم كأمة منفصلة .

وفى أثناء المناقشات التى جرت فى الاجتماع الشامل الخامس للمؤتمر اليهودى العالمى فـى ديسمبر ١٩٦٤ القى جولدمـان خـطابا بعنوان « الشعب اليهودى فى القرن العشرين » قال فيه : « ان وجهتنا الرئيسية اليوم هى الداخلية ولم تعد الخارجية ، وهذا أكثر من أى يوم مضى . فالخطر الذى يتهدد بقاءنا هو الاستيعاب والتفكك وان عملية الاستيعاب والاندماج لا تخص اليوم الافراد فقط ، بل تتعلق بحياتنا الجماعية كيهود، وصفتنا كوحدة جماعية متميزة » .

وفى مؤتمر المجلس الصهيونى العام بالقدس فى ١١ — ١ — ١٩٦٦ بدأ ناحوم جولدمان كلمته بسرد مخاوف الحركة من « الانقراض الدينى » لليهود ، واعتبر أن الاندماج لليهود يشكل اليوم خطرا أكبر بالنسبة لليهود من خطر اللاسامية . وقال انه اذا لم يتغير تكوين الحياة اليهودية وصـورتها ، فستصبح يهودية جزء كبير من الاجيال اليهودية القادمة مشكوكا فيها . وقال انه يجب العودة الى « صهيونية مقاتلة » والعمل على تقوية مبدأ وحدة الشعب اليهودى واعتبار اسرائيل محوره .

وهكذا مثلت الصهيونية ، منذ نشأتها ، حركة مضادة للاتجاه التقدمى فى حل مشكلة اليهود فى الاتجاه الصحيح .

ومن جانب آخر وجدت رجعيات شرق أوربا فى الصـهيونية فـرصتها للتخلص مـن « اليهود المشاغبين » فى بلدانها . وكانت حكومات ألمانيا وروسيا القيصرية أكثر المتحمسين للحـركة الصهيونية ، واليها بدأ هرتزل مسيرته ليعرض عليهما « الاثار المفيدة » للحركة الصهيونية فـى اجهاض الحركة الديمقراطية فى بلدانهما (أنظر رسائل هرتزل الى امبراطور المانيا وقيصر روسيا فيما بعد) .

وهكذا ، بدلا من المضمون التقـدمى لـكلا الاتجاهين السابقين فى حل المشكلة اليهودية فى أوربا ، مضمون الصراع ضد القوى الاقطاعية والرجعية هناك ، قدمت الصهيونية مضمونا لحل المشكلة اليهودية وتحرير اليهود يقوم على توجيه الصراع ضد شعب فلسطين والعمل على طرده من وطنه وأرضه ، فى تحالف مع كل القوى الرجعية والاستعمارية الاوربية .

وهذا النوع من التفكير الكوزموبوليتى ما كان له أن يخلق أمة لا من يهود العالم اجمع ، ولا حتى من اليهود الذين نجح فى استجلابهم الى أرض فلسطين ، ذلك أن :

« العقبة الرئيسية فى سبيل تكوين أمة متميزة فى اسرائيل هى الرابطة الصهيونية ، فاسرائيل لا يمكن أن تصبح أمة الا اذا تخلت نهائيا عن اعتبار نفسها وطنا لكل يهود العالم . ان فكرة القومية الاسرائيلية نفى بالضرورة للقومية اليهودية . وهى لا يمكن أن تتبلور وتتأكد الا فى الحدود التى تضمحل فيها وتتلاشى فكرة أن اليهود فى العالم كله شعب واحد . ان اصرار الاسرائيليين على البقاء جزءا من كل مشتت يقتل عناصر التمييز ويحول دون ابراز شخصية قوميتهم ، والواقع انهم لا يعتبرون أنفسهم أمة متميزة ولا يفكرون بهذه العقلية . ومن المسلم به أن من عناصر القومية هذا الاحساس العميق بالشخصية المستقلة » (٤٣) .

الصهيونية وضحايا
النـازية الهتلـرية

استغلت الصهيونية مأساة يهود المانيا فى عهد النازية لخدمة أغراضها السياسية ، وتم ذلـك بكيفية أثارت اعتراض الكثيرين من المفكرين . كتب **بيير ديميرون** « ان هذا الاستغلال ، دون حياء لموتى معسـكرات دخاوو أشـفتز وتريبنكا من جانب الذين ما زالوا على قيد الحياة ليس الا نصبا معنويا ، لم يكتف فيه بتعذيب ضحايا البربرية النازية وهم أحياء ، بل اغتصب ذكراهم أيضا . لقد كان النازيون يستخرجون من جثث الضحايا المواد اللازمة لصناعة الصابون ، أما الصهيونيون فانهم يسـتمدون منها المبـررات (لسياستهم الاجرامية) (٤٤)

ورغم كل دموع الاسى التى لا تنفك تزرفها

(٤٣) اسماعيل صبرى عبد الله: فى مواجهة اسرائيل — المرجع السابق ص ٥١
(٤٤) ب . ديميرون : نفس المرجع ص ٥٢

الصهيونية على هؤلاء الضحايا من جماهير اليهود ، فالواقع أن الحركة الصهيونية باحزابها **المختلفة قد ارتكبت موضوعيا من الجرائم فى حق هذه الجماهير ما يضعها بكلتا قدميها فى معسكر القوى المعادية لها .**

لقد ناصرت الحركة الصهيونية القوات المضادة لثورة اكتوبر الاشتراكية فى روسيا عام ١٩١٧ - رغم ما عرف عن هذه القوات من عداء مشهور للسامية .

وقبيل الحرب العالمية الثانية ، وفى أثنائها ، رفض القادة الصهاينة باصرار كل المشروعات التى ترمى الى انقاذ أرواح الضحايا اليهود من الطغيان النازى ما لم تكن هذه المشروعات تخدم اطماعهم السياسية فى اقامة الدولة الصهيونية فى فلسطين . وفى هذا الصدد يقول المعلق والمؤرخ الامريكى **ليلنتال** - وهو يهودى - ان وزارة الداخلية الامريكية لقيت معارضة قوية من جانب الحركة الصهيونية لمشروع توطين اليهود فى الاسكا ، وهم هؤلاء اليهود الذين لجأوا الى الولايات المتحدة فرارا من الاضطهاد النازى فى الثلاثينات .

ويشير **موريس ارنست** ، وهو شخصية سياسية امريكية بارزة ، الى « جهود الصهيونية التخريبية » لمشروع الرئيس روزفلت الداعى الى انقاذ حياة ٥٠٠ الف انسان كانوا فى قبضة هتلر ، وذلك باعطائهم حق اللجوء السياسى الى الولايات المتحدة ، فلقد عارض الصهيونيون هذا المشروع ، لانه كان يفتح امام اليهود أبوابا للهجرة غير أبواب فلسطين . ويشير موريس ارنست فى مذكراته الى حديث جرى بينه وبين الرئيس الامريكى روزفلت أبدى فيه الاخير أسفه لانه لم يتمكن من تنفيذ مشروعه **بسبب الضغط الشديد الذى مارسه عليه قادة المنظمات اليهودية فى الولايات المتحدة .** وقال روزفلت بهذا الصدد ان الحركة الصهيونية تدرك ان فكرة انشاء دولة يهودية فى فلسطين تدر عليها تبرعات طائلة .. أما اذا منح حق اللجوء السياسى لاى انسان بصرف النظر عن الجنسية والدين واللون ، فان الصهيونية لن تحصل على هذه الاموال . كما مارست الحركة الصهيونية ضغطا شديدا على الحكومة الاسترالية لكى تمتنع عن توطين اللاجئين اليهود فى غرب استراليا طبقا لمشروع كمبرلى .

ويورد كتاب « **اطلاق الحمامة** » عددا من الحقائق الهامة عن حقيقة العلاقات الخفية بين الحركة الصهيونية وبين النازية الهتلرية استنادا الى مصادر صهيونية ننقل منها :

فى كتاب مبكر اسمه « العثر » بقلم بن هيكيت مبنى على وثائق ومستندات تاريخية - يروى المؤلف تفاصيل عما دار فى المحاكمة التى هزت اسرائيل عام ١٩٥٦ وأدت الى سقوط الوزارة فى تل أبيب . ففى أثناء المحاكمة وجه الادعاء الى موظف اسرائيلى كبير يدعى رودلف كاستنر اتهاما بالتعاون مع الجستابو عام ١٩٤٤ ، وظهرت حقائق دامغة تدين قادة الصهيونية بأنهم كانوا فى سبيل اغراضهم السياسية القذرة على استعداد لتسليم مئات الالاف من اليهود الى الجستابو ، بل لم يكن هذا مجرد استعداد انما هو قد حدث فعلا فى المانيا وأوربا الشرقية . فالقادة الصهيونيون لم يكن يعنيهم فى شىء مصير آلاف اليهود التعساء ، وانما كان كل ما يعنيهم هو الاتفاق مع حكام المانيا على التعاون معهم من أجل اقامة « وطن قومى لليهود فى فلسطين » ومؤلف كتاب **العثر الصهيونى** ، هو الاخر ورغم ذلك وصل آخر المطاف الى الاستنتاج بأن « القادة الصهاينة فى أمريكا واوربا قد سهلوا ابادة ملايين من مواطنيهم » .

ويشير بن هيكيت الى أن الزعيم الصهيونى كاستنر علم من الجستابو بما يدبر للمعتقلين اليهود ، ولكنه ظل يثرثر بكلمات محذرة ، على حين كان يجرى مع الجستابو مفاوضات لانقاذ عدد محدود من اليهود الاثرياء الموموقين ، وقد حقق كاستنر ما أراده عن طريق اتفاق بينه وبين الجلاد النازى ايخمان ، على أن يطلق الجستابو سراح هذه النخبة المختارة لقاء تسليم كمية من معدات وسيارات النقل التى تحتاج اليها القوات النازية فى عملياتها العسكرية . أما اليهود الفقراء فقد تم ترحيلهم الى أفران الحريق وحجرات الغازات السامة .

ويؤكد بن هيكيت انه بالاضافة الى رئيس جمهورية اسرائيل وايزمان الذى كان على علم بالاتفاق الذى عقد بين كاستنر وايخمان ، فان **مسئولية ابادة هؤلاء اليهود تقع أيضا على كاهل موسى شاريت ودافيد بن جوريون وعدد من كبار المسئولين اليوم فى اسرائيل .**

ويواصل مؤلفو كتاب « **اطلاق الحمامة** » حديثهم قائلين :

« كذلك فان الصلات بين ايخمان وبين القادة الصهاينة تنكشف فى كتاب آخر اسمه « **ايخمان فى أورشليم** » وجاء بالكتاب انه نتيجة لهذه الصلات تمت عمليات تبادل « حفنة من الصهاينة نظير الموافقة على ابادة مئات الالاف من اليهود العاديين » .

ويكشف الكتاب المذكور عن العلاقات الاكثر شيوعا بين **قادة الحركة الصهيونية العالمية** ، **وبين النظام الهتلرى** . وكان القادة الصهاينة يرون فى السياسة الفاشية دافعا الى ازدياد الهجرة اليهودية الى فلسطين . ومن هنا فقد تم الاتفاق بين الوكالة اليهودية وبين السلطات النازية فى

المانيا . وبموجب هذا الاتفاق تعهد الفاشست بتسهيل الهجرة السرية الى فلسطين لدرجة ان الجستابو نفسه « كان يساعد فى هذه المأمورية (٤٥) ولعل هذا هو السبب فى اهتمام قادة الحركة الصهيونية بالبحث عن ايخمان وخطفه ومحاكمته واعدامه فى اسرائيل لكونه همزة الوصل بين الحركة الصهيونية وبين السلطات النازية،وفى نفس الوقت يتعاونون ايضا مع مئات النازيين السابقين فى المانيا الغربية ».

الصهيونية حركة أوربية رجعية

لم يجرؤ أحد من مفكرى الصهيونية حتى اليوم — على حد علمنا — على الزعم بأن الحركة الصهيونية التى فجرت كل تلك التطاحنات الدامية فى الشرق العربى ، طوال أكثر من نصف قرن ، كانت نابعة من تطور داخلى فى فلسطين أو فى البلاد العربية ، او ان الفكرية الصهيونية الحديثة كانت تعبيرا عن احتياجات طبيعية للطائفة اليهودية فى هذه البلاد ، أو استجابة خاصة لاوضاعهم، بل يجمع كل المؤرخين على أن الفكرية الصهيونية كانت نبتا أوربيا خالصا انبثق من تربتها الملغمة بالتطاحنات القاسية فى أواخر القرن التاسع عشر ، ونما متسلقا جذوعها الرئيسية يمد حراب أشواكه الى جسد الشرق العربى ويسقط عليه كل ثمار المرة .

لقد عاصرت ولادة الفكرية الصهيونية الحديثة نهضة حركة القوميات المضطهدة فى النمسا والمجر وروسيا القيصرية . وكان ظهور الصهيونية لا كجزء متمم للمذاهب الموجهة لتلك القوميات المناضلة من أجل الحرية ، بل كنقيض لها ، وكان هذا دورها الاصيل الذى ختمها به التاريخ . وفى ذلك الوقت وفى الممالك المنهارة فى اوربا الشرقية كان يسود تنظيم الرعايا ، وتقسيمهم على أساس العوامل الاقطاعية المنبثقة عن التفرقة الدينية والطائفية والعرقية والطبقية .. الخ . ومن واقع ذلك الوجود الاجتماعى انبثقت فكريتان مختلفتان:

الاولى : فكرية القوميات المطالبة بالاعتراف بحقوق الجميع ، باعتبارهم مواطنين دون تمييز عنصرى ، أو دينى ، وعلى أساس واحد ، هو انتماؤهم للامة المناضلة من أجل وجودها .

الثانية : فكرية صادرة عن القوى الرجعية المختلفة ،ومنها الصهيونية ، هذه القوى التى كانت تقف الى جانب تقسيم البشر على اسس اقطاعية بل وقبلية ، والبقايا المتبقية للتنظيمات الطائفية المنحدرة من العصر الوسيط ، أى على أسس الدين والعرق .

فى نفس الوقت كان غرب أوربا يئن بتناقضات النمو الراسمالى الى مرحلة الاحتكار ، وما سببه من سحق لصغار المنتجين والحرفيين . وبينما نادت الحركة العمالية الناشئة بحل هذه التناقضات عن طريق تجمع كل الكادحين والمضطهدين للهجوم على رأس المال ، كان المفكرون البورجوازيون والرجعيون يبحثون عن حل لمشاكل أوربا على حساب المستعمرات فى الشرق . وكان رودس هو نموذج البطل البورجوازى فى تلك الفترة .

من هذين التيارين : **تيار الفكرة القومية الشوفينية** التى اعتنقتها البورجوازية الصغيرة والقائمة على التجمع على أساس الدين والعرق وأسطورة العودة الى جبل صهيون التى دافع عنها أساسا يهود شرق أوروبا ، **وتيار الفكرة الإستعمارية الاستيطانية المغامرة لحل مشاكل آوربا على حساب المستعمرات والهجرة لاقامة « دولة لليهود »** فى أى من المستعمرات (والتى دافع عنها هرتزل ويهود غرب أوربا أساسا) ، نقول من هذين التيارين **تبلورت الفكرة الصهيونية الحديثة** بشكلها النهائى تقريبا فى المؤتمر الصهيونى الاول ، ولتكون أساسا ايديولوجيا لحركة استعمار استيطانية .. وفى فلسطين ، ولتكون — فى النهاية — **تعبيرا مركزا عن مصالح البورجوازية الكبيرة اليهودية فى غرب أوربا والتى كانت قد بدأت بالفعل فى تصدير بعض رؤوس أموالها الى الشرق العربى .**

قبل هرتزل ظهر الروسى **ليون بنسكر** الذى ألف سنة ١٨٨٢ كتابا أسماه « **التحرر الذاتى** » أكد فيه أن اليهود يضيعون الوقت سدى اذا كانوا يأملون من تقدم البشرية خيرا . وأضاف أن عليهم أن يرفضوا اتباع هذا الطريق الى الحرية ، وان يتصرفوا أولا كيهود فيحررون أنفسهم معتمدين على النشاط الطائفى .

وبعد ذلك بسنوات قليلة زاد هرتزل الفكرة وضوحا وكتب فى كتابه « **الدولة اليهودية** » قائلا : « ان العالم موجود فى حالة ستستمر على الاغلب مدة لانهائية فيها للقوة أولوية على الحق . ولن يفيد أن يظل الناس وطنيين مخلصين مثلما كان الهيجينيون (طائفة البروتستانت الفرنسيين الذين هجروا فرنسا الى أمريكا فى القرن السابع عشر) الذين اضطروا الى الهجرة » .

لقد ظهرت بين اليهود ، فى نفس الوقت، تلك الحركة التى نادت بالتحرر من الجمود الدينى القديم ، وبالاندماج والانصهار فى التيارات الفكرية

---

(٤٥) بيلبايف وآخرون — اطلاق الحمامة — المرجع السابق ص ٦٠ وما بعدها

والاجتماعية العالمية ، وبشرت بعهد قريب يسود فيه الاخاء الانساني الشامل .واندفعت الحركة بقوة ــ خاصة فى الولايات المتحدة الامريكية ــ تحت تأثير الحقوق الدستورية المتساوية التى حصل عليها الجميع بعد الحرب الاهلية · وانعقد سنة ١٨٨٥ ـ بمدينة بتسبرج ـ مؤتمر لاصلاح الدين اليهودى وجاء عقد هذا المؤتمر كتصور طبيعى لما حققته الحرية والمساواة البورجوازيتان · ولما كان الهدف الاصيل لهذه الحركة هو العمل على الاستيعاب الكامل ، كان من الطبيعى أن تختفى معالمها ، كحركة ، بمجرد تحقيق أغراضها ، لتخلى الارض للحركة الصهيونيــة التى حاربت الاتجــاهات الاصلاحية والاندماجية اليهودية بكل قوة ، ورفعت فى مواجهتها مفاهيمها شبه الاقطاعية ، شــبه الاستعمارية للدولة اليهودية ، واستنكر الصهاينة المثل العليا التى تنادى بالتحرر الوطنى العام والتقدم الاجتماعى . ولم يكن من الغريب أن تقف احدى التنظيمات الصهيونية « البوند » الروسى كقوة معارضة لثورة أكتوبر الاشتراكية . هذا « فى حين كان رولا يهتف « انى أتهم » وكانت الحركة الديمقراطية الفرنسية ترد على المحاولات الرجعية بهبة طبعت تاريخ فرنسا الحديث كله بطابعها ، قام هرتزل من جانبه باصدار كتابه « الدولة اليهودية » (٤٦) ·

كانت الحركات التحررية التى ظهــرت فــى العالم ، منذ أوائل القرن التاسع عشر ، تعبيرا عن أهداف قوميات مكونة تكوينا على أرض محددة ، وباقتصاد ، وتاريخ ، وثقافة متبلورة · أما الحركة الصهيونية فعلى نقيض ذلك نراها تــدعو الى استعمار أرض بعيدة عن جميع أفرادها باعتبارها وسيلة لبناء أمة غير موجودة ·

يقول **فايز صايغ** : « ان الصهيونية وما يتبعها من حركة استيطانية هى فى نظرهم اذن اداة لانشاء احدى الامم،وليست التعبير عن قومية سبق تكوينها (٤٧) ·

وفى حين أن أعداء الصهيونيــة يحــاربونها تمسكا بمبادىء الحرية والديمقراطية والتقدم ، نرى هرتزل يقول :

« ان الامم ليست فى حقيقتها مســتعدة للديمقراطية التى لا حدود لها فى الوقت الحاضر ، وسيقل استعدادها لها يوما بعد يوم فــى المستقبل » (٤٨) ·

ولقد جردت الفكرية الصهيونيــة « المشــكلة اليهودية » من أساسها الاجتماعى ، مقدمة اياها كمجرد كراهية عنصرية · وتتصدى جريدة الاتحاد الصادرة باللغة العربية فى اسرائيل لهذا المفهوم قائلة :

« تعرض الصهيونية قضايا اليهود كقضايا فوق طبقية ، كأنها تنبع بشكل حتمى من وجود يهود فى وسط شعوب أخرى ·· وتدعى الايــديولوجية الصهيونية أن سبب اللاسامية هو مجرد كراهية اليهود ·· دون علاقة بالنضالات التى تجرى فى المجتمع · ومع ذلك فان النضال ضد اللاسامية ليس أمرا يهوديا فقط · ان هذا الامر يخص كل القوى الديمقراطية والتقدمية ، وجزء لا يتجزأ من النضال العام ضد العنصرية والتمييز القومى ومن أجل الديمقراطية والاشتراكية (٤٩) ·

وفى المــؤتمر الذى عقده الحــزب الشيــوعى الاسرائيلى تلى تقرير رئيسى يقول :

« منذ أن صاغ هرتزل ، وغيره من الزعماء الصهيونيين ، الصهيونية كحركة سياسية ، **قامت السياسة الصهيونية كسياسة تعاون مع القوى الرجعية ومع الدول الاستعمارية ضد الحــركة الاشتراكية الثورية وضد حركة التحرر الوطنى · ولا توجد دولة استعمارية لم تمنحها الصهيونية خدماتها ، ولا توجد دولة استعمارية لم تحاول بهذا الشكل أو ذاك اســتغلال الصــهيونية لاغراضها ، ولاسيما لفرض سيطرتها على الشرق الاوسط** · وبعد احتلال البريطانيين لفلسطين كان طريق الزعامة الصهيونية هو فى التعاون مع سلطات الانتداب البريطانى · وكان هذا تعاونا ومساعدة متبــادلة ضــد الشــعب العــربى الفلسطينى · ان الجديد الان هو أن الصهيونية تقوم بدور هام فى السياسة العالمية للاستعمار وضد البلدان الاشتراكية · وكذلك فى تنفيذ سياسة الاستعمار الجديد · وأنها ـ فى أيامنا ، هــى الايديولوجية والسياسة المسيطرة فى اسرائيل ، وهى القاسم المشترك لكل أحزاب الائتــلاف الحكومى من الحيروت حتى المابام · وهــذه الاحزاب تجلس الان « سوية فى حكومة التكتل القومى على أساس حرب يونيو ١٩٦٧ وعلى أساس الاهداف الصهيونيــة للتوســع الامــريكى وخدمة الاستعمار الامريكى » (٥٠) ·

ولم تكن الحركة الصهيونية حركة أوربيــة بفكرتها فحسب ، بل بتكوينها العنصرى أيضا.

---

(٤٦) احمد فايز : نفس المرجع ص ٣٢

(٤٧) F.A Sayegh: Le Colonialisme Sianiste en Palestine Cujas. Paris, p. 8.

(٤٨)صادق سعد ــ فلسطين بين مخالب الاستعمار ــ القاهرة ــ ١٩٤٧ــ ص ١٧

(٤٩) جريدة «الاتحاد» الاسرائيلية ــ ١٩٦٨/١٢/١٣.

والواقع أن اندفاع الصهيونية الى فلسطين لم يعبر ، فى يوم من الأيام ، عن حقيقة اتجاه غالبية الهجرة اليهودية فى العالم ، حتى تلك التى حدثت من المانيا أثناء الحكم النازى حين هاجر مايربو على ١٢٠ر٠٠٠ يهودى (من بين ٥٠٠ر٠٠٠ من اليهود الالمان فى عام ١٩٣٦) لم يتجه منهم الى فلسطين ــ ورغم كل الجهود الصهيونية ــ سوى ٢٥ر٠٠٠ يهودى (٥١)

بل وحتى كبار الصهيونيين مثل : « لويس نامبير » الرجل الذى بث الروح فى الصهيونية البريطانية والذى صاغ تصريح بلفور فى الحقيقة ، رفض فى صراحة أن يذهب الى فلسطين الصهيونية تلك ليقيم فيها رغم أنه ساهم بكل قواه فى اختلاقهامن لاشيء .. وقد اجاب على الملحين عليه بالصيغة الغريبة التالية : « لو أشعر أبدا هناك أننى فى بيتى .. فسوف يكون لكل شيء طبيعة التركيب العابر ، دون تماسك عنصرى ، وكل شيء ذو صفة مؤقتة أكثر مما يحتمل (٥٢)

ومع ذلك فان « جيش الرجال اليائسين الذين هم أفضل الغزاة » على حد تعبير تيودور هرتزل نفسه ، والذى قام بانشاء الدولة الصهيونية فى فلسطين ، كانت غالبيته العظمى من المهاجرين الاوربيين ، فطبقا للاحصاءات الاسرائيلية نفسها كان توزيع المهاجرين بموجب قارة المولد (بالنسبة المئوية) هو :

الفترة	اوربا / امريكا	اسيا / افريقيا	المجموع
١٩١٩ ــ ١٩٤٨	٨٩ر٦	١٠ر٤	١٠٠ (٥٣)

وبالاعداد المطلقة ٣٨٥ر٠٦٦ مهاجرا من أوربا وأمريكا و٤٤ر٨٠٩ مهاجر من آسيا وافريقيا . ولا يجدى فى تغير تلك الارقام بالغة الدلالة الاحتجاج بأن عظم الهجرة من أوربا انما يرجع الى أنها كانت موطن العداء التقليدى للسامية ، فالسطر الثانى من الجدول التالى يبين أن الامر كان أمر مخطط صهيونى أوربى واضح ، كما يرد سطره الثالث على ماقديقال منأن السبب هو ارتفاع وعى يهود أوربا عن يهود أفريقيا وآسيا . فبعد أن أقام« السادة » الاوربيون دولتهم على أرض فلسطين وسيطروا على كل نواحى الحياة فيها ، اخذوا يستوردون البروليتاريا الكادحة التى كانوا يحلمون بها من الشرق بأعداد كبيرة ، وتحولوا هم شيئا فشيئا الى أقلية مسيطرة .

ويلاحظ أن ارقام فترة عدوان ١٩٤٨ من ١٥ ــ ٥ ــ ١٩٤٨ الى ٣١ ــ ١٢ ــ ٤٨ ، والتى تدل على هجرة تربو عن ١٠٢ الف مهاجر فى مدة لا تزيد عن سبعة أشهر ونصف الشهر تزيد عن مجموع الهجرة التى تمت فى جميع سنوات الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ــ ١٩٤٥) والتى بلغت ٩٢ الف مهاجر (٥٥) .

٣ ــ وكما سبق أن أوضحنا ، لقد استقبل الرجعيون والاستعماريون الاوربيون ، حتى أولئك المعادين للسامية منهم ، الفكرية والحركة الصهيونية بترحاب شديد،بينما اخذ قادة الحركة الثورية فى أوربا يدركون ، بكيفية متزايدة ، الطبيعة الرجعية والاستعمارية للحركة الصهيونية .

فمنذ وقت مبكر كان **كارل ماركس** يكتب فى مقال « حول المسألة اليهودية » قائلا : « ان القومية الوهمية لليهودى هى قومية التاجر ورجل المال

الهجرة اليهودية بموجب قارة المولد
١٩١٩ ــ ١٩٦٠
(الاعداد المطلقة والنسبة المئوية (٥٤)

الفترة	الاعداد المطلقة: آسيا وافريقيا	الاعداد المطلقة: اوروبا وامريكا	الاعداد المطلقة: المجموع	النسبة المئوية: آسيا وافريقيا	النسبة المئوية: اوروبا وامريكا	النسبة المئوية: المجموع
١٩١٩ ــ ١٩٤٨/٥/١٤	٤٤ر٨٠٩	٣٨٥ر٠٦٦	٤٥٢ر١٥٨	١٠ر٤	٨٩ر٦	١٠٠
٤٨/٥/١٥ ــ ٤٨/١٢/٣١	١٢ر٩٣١	٧٧ر٠٣٢	١٠١ر٨١٩	١٣ر٤	٨٦ر٦	١٠٠
٤٨/٥/١٥ ــ ٦٠/١٢/٣١	٥٠٧ر٠٧٤	٤٤٢ر٢٤٨	٩٦٨ر٧٤٨	٥٣ر٤	٤٦ر٦	١٠٠

(٥٠)جريدة الاهرام ــ القاهرة ــ ١٩٦٩/٢/٦
(٥١) صادق سعد ــ فلسطين بين مخالب الاستعمار ــ المرجع السابق ــص ١٦
(٥٢) ب . داستريا ، المرجع السابق ص ٥٣
(٥٣) Statistical Abstract of Israel, 1965, p. 96.
(٥٤) Statistical Abstract of Israel, 1961, p. 86.
(٥٥) يوسف صايغ « الاقتصاد الاسرائيلى » ــ مركز الابحاث (منظمة تحرير فلسطين) بيروت ص ٦٤

بصورة عامة»(٥٦) . ويعود ليقول : « **تصل اليهودية الى ذروتها عند اكتمال المجتمع البورجوازى** » بينما يواجه **فلاديمير لينين** الحركة الصهيونية فيكتب فى عام ١٩٠٣ : « قد تبدو الصـــهيونيــة للوهلة الاولى حركة ذات هدف سلمى انسانى ·· وجمع اليهود عند جبل صهيون فى أرض الميعاد ـ التى لن تعرف ـ كما تقول شريعة الديانة اليهودية القديمة ·· الظلم الاجتماعى أو السياسى ·· ان الفكرة الصهيونية التى أخفيت بمهارة قد تبدو جذابة فى ظاهرها . ولكن نظرة أعمق تكشف عن جوهرها الحقيقى كأداة لتبرير المطالب الاستعمارية والاقليمية للبورجوازية اليهودية ، وللتبشيــر بالسلام الطبقى الخيـــالى بين اليهود العـــاملين وتوحيدهم على أساس القومية والشوفينية فى البلدان المختلفة وعلى الصعيد الدولى · ولقد اتخذت الصهيونية الدولية ، منذ ظهورها ، موقفا عدائيا متشددا ضد حرية واستقلال الشعوب ، وتكشفت أمام العالم كحليف للامبريالية .

ويعود فى عام ١٩٠٣ أيضا فيقول :

« ان الفكرة الصهيونية كاذبة تماما ورجعية فى جوهرها كمحاولة من جانب البورجوازية اليهودية الموالية للامبريالية للسيطرة على جماهير الشعب العامل اليهودى وتعطيل استيعابهم فى الشعوب الاخرى » (٥٨)

وفى مناقشاته مع قيادة حركة البوند ـ الاتحاد العام للعمال اليهود ـ الذى كان يتبنى بعض أفكار الصهيونية **يؤكد لينين :**

« لكن حجة البوند الثالثة التى تتذرع بفكرة الامة اليهودية لها بلا ريب ضيقة المبدأ ، ولكن لسوء الحظ أن هذه الفكرة الصهيونية خاطئة خطأ مطلقا ورجعية من حيث جوهرها » (٥٩) .

ويعود ليؤكد :

« ان الفكرة القائلة بأن اليهود يشكلون أمـــة منفصلة عن غيرها هى غير ثابتة من الناحية العلمية على الاطلاق عدا كونها فكرة رجعية من الناحية السياسية . وتعطينا الوقائع المدونة للتاريخ الحديث والحقائق السياسية المعاصرة بـــرهانا عمليا لا يمكن دحضه على ذلك ، ففى جميع انحاء أوربا رافق انهيار العصور الوسطى وتقدم الحرية السياسية التحرر السياسى اليهودى وتـــركهم لليديش واستعمالهم لغة الشعوب التى يعيشون بينها ، وبوجه عام اندماجهم شيئا فشيئا مـــع السكان المحيطين بهم · هل بامكاننا أن نعزو الى الصدفة أن تكون القوى الرجعية فى جميع انحاء أوربا ولاسيما فى روسيا هى التى تعارض اندماج اليهود وتسعى الى ادانة عزلتهم ؟

« **ان المشكلة اليهودية على وجه الدقة هى : الاندماج أو الانعزال · وان فكرة القومية اليهودية**

● دافيد بن جوريون ●

كان اسمه دافيد جرين ، وولد فى بولندا . ونشط منذ صغره فى الحركة الصهيونبة اذ كان أحد مؤسسى مجموعة صهيونية عمالية تســمى بوعالى صهيون [عمال صهيون] وهاجر الى فلسطين ، مثل الهتدروت ، ومنظمة الحالوتس وقام بدور كبير فى اقامة المنظمات الصهيونية فى فلسطين ، مثل الهستدروت ، ومنظمة الحالوتس اى الرائد والهاجاناه وفى ١٩١٨ انضم الى الفيلق اليهودى فى الجيش البريطانى .

ومنذ عام ١٩٣٧ ـ ١٩٤٨ كان بنجوريون يشغل منصب رئيس الوكالة اليهودية . ومنذ انشاء الدولة كان رئيس وزرائها ووزير الدفاع والقائد الفعلى لحزب مابای الى أن انشق عنه واسس مع موشى دايان حزب رافى .

وبن جوريون صهيونى متطرف ـ يعادى الوجود العربى فى فلسطين عداء مطلقا . ومنذ ان وطات قدماه هذه الارض كرس جهوده لاستبعاد العامل او الفلاح العربى من المناطق التى يسيطر عليها اليهود .

وهو يحرص حرصا شديدا على أن يكون اليهود فى مختلف دول العالم مرتبطين باسرائيل ، عازمين على الهجرة اليها . وهو بهذا الاسلوب يمارس ابتزازا عالميا منقطع النظير . ويثير قضية الولاء المزدوج .

والعنف والردع هما الوسيلة الناجعة لضمان أمن اسرائيل . ولهذا ارتبط اسم بن جوريون طوال حياته السياسية بعمليات التوسع والعدوان المتوالية ومن بينها عدوان ١٩٥٦ الثلاثى · ■

---

(٥٦) كارل ماركس «حول المسألة اليهودية » مقالات مختارة ـ الناشرون الدوليون ـ ١٩٢٦ ـ ص ٩٣ »
(٥٧) المرجع نفســه .
(٥٨) مجلة الشباب السوفيتى فى ١٩٦٧/٤/١٢ تحت عنوان « لينين والحركة الصهيونية »
(٥٩) ف ا لينين « وضع البوند فى الحزب » ـ المؤلفات الكاملة ـ المجلد السابع ص ٩٩.

هى ، بلا ريب ، فكرة رجعية ليست فقط عندما ينادى بها المنادون بصورة دائمة (وهم الصهيونيون) ، ولكن ايضا عند أولئك الذين يحاولون أن يجمعوا بينها وبين أفكار الاشتراكية الديمقراطية (البوند) (٦٠) .

وفى شعارات المؤتمر الثانى للكومنتيرن الخاصة بالمسألة القومية والمستعمرات أدينت الصهيونية واعتبرت أداة للامبريالية ، وينص البند الحادى عشر على وجه التحديد :

« ان المؤسسة الفلسطينية للصهاينة — والصهيونية عموما ،لهى مثال صريح على الجهود المتضافرة التى تبذلها الامبريالية العالمية والبورجوازية لخداع الجماهير الكادحة » (٦١) .

الصهيونية فصيلة خاصة من فصائل الامبريالية الدولية

لقد وجد كبار الرأسماليين اليهود من أمثال روتشيلد وكون ليب ومونتيفورى وموردخاى فى الدعوة الصهيونية فرصتهم لتجنيد حرس لرؤوس أموالهم المصدرة والمستثمرة فى مواطن مختلفة .

فدعا **مونتيفورى** اليهود الروس والبولنديين والرومانيين الى الاقامة فى الارجنتين ، **ودعا آل روتشيلد** يهودا آخرين الى أن يصبحوا زراعا وحرفيين فى فلسطين — واشترى موردخاى الجزيرة الكبيرة فى نهر النيجر ، ودعا اليهود الى الذهاب اليها ·

وفى الايام الاولى لقيادة هرتزل لم يكن الموطن المختار قد تكون بعد :

«وقد وضح عدم تمسك هرتزل بفلسطين كوطن قومى لليهود فى قوله : **وهل لنا أن نختار فلسطين أم الارجنتين** ؟ نحن سوف نأخذ ما يعطى لنا ،وما سيختاره الشعب اليهودى · ان الارجنتين من أخصب بقاع الارض ورقعتها كبيرة الاتساع وتستطيع أن تستوعب سكانا جددا · أما فلسطين فهى الوطن التذكارى · وان مجرد اسم فلسطين يجتذب اليها قلوب اليهود بشدة · فاذا فرضنا أن السلطان سوف يعطينا فلسطين فاننا نتعهد فى مقابل ذلك بتنفيذ وتنظيم مالية تركيا · ويجب علينا هناك — فى فلسطين — أن نقيم استحكاما لاوربا ضد آسيا لتكون نقطة أمامية للمدنية ضد البربرية » (٦٢) .

كما يستخرج أحمد فايز من مذكرات هرتزل قوله :

« **لقد وضعت أمس واليوم النقط النهائية لمشروعى الجديد ، فانطلاقا من اقتراح تشمبرلين بخصوص أوغندا — سأطرق باب الموزمبيق،وسأحاول الحصول على هذا الاقليم غير المستعمل من البرتغال التى تحتاج الى المال ·· غير اننى لا أريد الموزمبيق الا لكى أستخدمه كوسيلة تبادل لاحصل من الحكومة البريطانية على سيناء كلها يرويها ماء النيل صيفا وشتاء ، وقد أحصل ايضا على غيرها ·· وهذا كله بلا ثمن** » (٦٣) .

هنا يلاحظ أن ذكر هرتزل **للارجنتين (ولبلاد غير فلسطين — المحرر)** كوطن قومى دليل قاطع على أن الحركة ظهرت لاسباب سياسية · أما فكرة العودة الخيالية فقد أقحمت — كما يقول آلان **تايلور** فى كتابه تاريخ الصهيونية — على الحركة اقحاما لجاذبية الفكرة العاطفية (٦٤) .

لم تكن **القضية** فى المحل الاول اذن « **ايمانا بالوعد الالهى فى أرض كنعان وانما كانت رغبة كبار الرأسماليين اليهود كقوة متميزة ، فى المشاركة بنصيب خاص فى الحركة** · لقد نجح كبار الرأسماليين اليهود فى أوربا فى احتلال مكانة مرموقة فى المجتمع الرأسمالى ، وتمتعوا بكل ما تضفيه **الثورة** من مزايا فى ذلك المجتمع ، وتولوا مناصب الحكم وحصلوا على الألقاب الشرف · ولكن ذكريات الازدراء الماضى ومظاهر الاضطهاد فى شرقى أوربا كانت تحملهم على

---

(٦٠) ق ١ لينين — « هل تحتاج البروليتاريا اليهودية الى حزب سياسى مستقل » — المؤلفات الكاملة — المجلد السابع — ص ٣٣٠
(٦١) مجموعة وثائق المؤتمر الثانى للكومنتيرن — طبعة بتروجراد — ١٩٢١ — ص ١٤٠ — ١٤١ ·
(٦٢) حاتم صادق « نظرة على الخط — دراسة فى الاستراتيجية الاسرائيلية» القاهرة — دار المعارف — ١٩٦٨ — ص ١٩ ·
(٦٣) A. Fayez : ibid. P. 34
(٦٤) أسامة المرزوقى : وعد بلفور صورة للترابط بين الصهيونية والاستعمار — مجلة آفاق عربية — السنة الاولى العدد السادس — نوفمبر ١٩٦٩

التفكير فى اقامة دولة تكون خالصة لهم وركيزة لامبراطورية واسعة .

الا ان تركة الرجل المريض (الامبراطورية العثمانية) كانت أكثر اغراء ، وهى التى كانت مطروحة على مائدة القوى الاستعمارية الكبرى فى ذلك الوقت . ولم تستقر نهائيا فى بداية واحدة أو مجموعة منها . وليس مثل فلسطين بلد يمكن أن تعبأ جماهير اليهود للاندفاع اليها بدوافع مختلفة ـ سواء كانت الدوافع دينية عند البعض أو رفض حضارة أوربا الراسمالية عند البعض الاخر ، وخاصة عند يهود شرق أوربا ، من صغار الحرفيين والعمال.ومنذ المؤتمر الصهيونى الاول فى اغسطس عام ١٨٩٧ ـ ركزت الحركة الصهيونية ، ومن ورائها الراسمالية اليهودية الكبيرة كل قواها فى غمرة السباق الامبريالى المحموم حول اشلاء أمبراطورية آل عثمان لتقتطع لنفسها نصيبا من هذه التركة ، وكانت فلسطين هى الهدف .

وفيما يلى نماذج لبعض أقطاب الراسمالية اليهودية الكبيرة الذين كان لهم القدح المعلى فى تعضيد وتمويل الحركة الصهيونية ، وحقيقة المصالح التى يدافعون عنها .

أسرة روتشيلد

أغنى عائلات أوربا ـ وأقدم الاسر اليهودية العنصرية التى تبنت الفكرة الصهيونية ، ودعت لها وزودتها بالاموال . وقد اشترك أفرادها فى المؤتمر الصهيونى الاول فى بال ، وكان يرأس هذه الاسرة فى سنة ١٧٤٣ مايرانسلم روتشيلد . وانتشر أبناؤه بين لندن وباريس ونابولى وفيينا وفرانكفورت ونيويورك وكانت لها مساهماتها فى الشركة العالمية لقناة السويس . وكان بنك روتشيلد فى أنجلترا هو الذى مول صفقة شراء انجلترا لنصيب الحكومة المصرية من أسهم القناة فى أواخر القرن الماضى .

« ومن المعروف أن هذه العائلة تملك أسهما فى شركة شل ، وشركة الخليج أويل كوربوريشن ، وشركة البترول الفرنسية ، وكلها من كبار شركات البترول العاملة فى الدول العربية » (٦٥) .

ويذكر جان بونيه ـ أستاذ التاريخ فى جامعة ليل الفرنسية ، فى كتابه عن عائلة روتشيلد ، ان شراء هذه العائلة لاسهم الشركات البترولية العاملة فى البلاد العربية يتم أحيانا بصورة مباشرة ، وأحيانا بصورة مستترة عن طريق شركات التمويل التى تسيطر عليها العائلة وفى طليعتها « الشركة الفرنسية للتمويلات البترولية » و « شركة استثمارات الشمال » .

وعندما طرحت شركة الخليج أويل كوربوريشن التى تملك ٥٠ فى المائة من أسهم شركات بترول الكويت مؤخرا فى الاسواق المالية العالمية قرضا بمبلغ ٤٠ مليون دولار ، وبفائدة ٧ فى المائة ، كانت عائلة روتشيلد من بين الذين سارعوا الى الاكتتاب فى هذا القرض .

لقد كان لينوبل وولتر ـ حفيد روتشيلد ـ فى بريطانيا ، هو الذى قصد مع هربرت صموئيل الى لورد بلفور يطالبانه باصدار الوعد باقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين ، وصدر الوعد فى صورة **رسالة موجهة من بلفور الى لورد روتشيلد بوصفه رئيسا للاتحاد الصهيونى فى بريطانيا** .

وكان البارون ادموند دى روتشيلد ، فى فرنسا ، فى مقدمة أعضاء أسرته فى تمويل الجمعيات الصهيونية ، وخاصة تلك التى كانت تتولى شراء الاراضى واقامة المستعمرات فى فلسطين . وساهم بنصيب كبير فى اقامة مستعمرة بتاح تكفا سنة ١٨٨٢، وهى أول مستعمرة ينجح الصهاينة فى انشائها فى فلسطين ، وفى سنة ١٩٢٥أنشأ جمعية الاستعمار الفلسطينىاليهودى لتشرف على المستعمرات .

وساهمت أسرة روتشيلد بعد ذلك فى مشروع روتنبرج الذى أقامه سنة ١٩٢٦ لتوليد الكهرباء بغرض ايجاد اساس اقتصادى للاستيطان .

وبعد انشاء اسرائيل أصبحت أسرة روتشيلد تسيطر على ٧٠ فى المائة من البنوك الاسرائيلية، و٦٠ فى المائة من صناعة السياحة ،و٥٠ فىالمائة من مزارع الكروم . وظلت الاسرة قاسما مشتركا أعظم فى تمويل كل المشاريع الاسرائيلية الكبرى .

وقبل وخلال وبعد عدوان يونيو ١٩٦٧ برز نشاط آل روتشيلد بشكل واضح ،وخصوصا فى فرنسا وانجلترا ، حيث ترأسو لجان التبرعات

---

(٦٥) نيقولا سركيس : البترول فى ميزان القوى بين العرب واسرائيل ـ مجلة مصر المعاصرة ـ القاهرة . يوليو ١٩٦٩ ـ ص ٨١ .

لاسرائيل ووجهوا الحملات الدعائية الواسعة التى شنتها الصحف وسائر وسائل الاعلام الغربية ضد العرب • كما قام أدموند روتشيلد بعد العدوان بزيارة اسرائيل ، ووجه بعد عودته الى فرنسا نداء الى يهود العالم دعا فيه كل واحد منهم الى المساهمة «بمرتب شهر » أو بنصيب من دخله ،أو بجزء من رأسماله لمعاضدة اسرائيل » واشترك، وباقى أفراد أسرته ، فى المؤتمر الذى عقد فى تل أبيب فى أغسطس سنة ١٩٦٧ وضم عددا من اثرياء اليهود لبحث امكانية توظيف مبلغ مليار جنيه استرلينى جديد فى اسرائيل •

المليونير الامريكى برنــارد باروخ

وهو مليونير يهودى يطلق عليه اسـم « **أبو اسرائيل** » رغم أنه ظل يحاول اخفاء نزعتــه الصهيونية • **وكان مستشارا للبيت الابيض بشكل دائم ، خاصة فى عهدى ترومان وايزنهاور:** لنفوذه الواسع منذ أن جمع مئات الملايين من الدولارات عن طريق احتكار عدد من السلع الاستهلاكية والمضاربة فى البورصة ، وأن كان يستمد نفـوذه الحقيقى من الدور الذى قام به فى الصناعات الحربية منذ الحرب العالمية الاولى • ولقد ساهم فى انشاء الجمعيات الصهيونية فى الولايـات المتحدة ، وكان أول من دعـــا الى انشـــاء جمعية « سفيرات اسرائيل » وكان همزة الوصل بين الحكومة الامريكية وبيــن الشـخصيات الصهيونية . وقد صرح مرة أنه حاول « أنيشترى من العرب الصلح لاسرائيل » •

شركة فلسطين الاقتصــادية

أسستهــا سنــة ١٩٢٩ مجموعة من المصرفيين الامريكيين وخاصــة كون ليب وشركاه واخــوان ليمان • ويرأس مجلس ادارتها القاضى براندس وتحت ادارة الادميرال لويس شتراوس • وهناك مدير آخر لها ـــ هو ضموئيل زيوراى ، وهو فى نفس الوقت عضو مجلس ادارة بشركة الفواكه المتحدة . (ولعل هذا يفسر كثيرا من تصويتات بعض بلدان امريكا اللاتينية بجانب اسرائيل فى الامم المتحدة) • ومن بين كبار المساهمين فى شركة فلسطين الاقتصادية نجد فيلكس وأربورج الرئيس الاول للوكالة اليهودية وقد بدأت هذه الشركة برأس مال قدره ستة ملايين من الدولارات وجمعت فى سنتى ١٩٤٨ و ١٩٤٩ ربحا صافيا بلغ ثلاثة ملايين دولار تقريبا •

لقد قدمت الصهيونية الحديثة خدمات جليلة لكل فصائل الامبريالية العالمية ، وتعاونت مع كل القوى الرجعية والامبريالية حتى ليصعب التمييز فى بعض الحالات بين القوتين • ولكنها ظلت دائما تعبيرا مركزا عن مصالح الراسمالية اليهودية الكبيرة الطامحة الى اقامة امبراطورية خاصة بها • وقد يتحدث زعماء الصهيونية مع تركيا عن اصلاح مالية الامبراطورية(٦٦) ومع قيصر ألمانيا عن محمية المانيا فى الشرق (٦٧) ومع زعمـــاء انجلترا عن « نقطة تركيز لمصالح انجلترا فى شرق افريقيا (٦٨) ،وعن الطريق الى الهند (٦٩) ،ومع قيصر روسيا عن « أبعاد الطلاب والعمال اليهود عن الاشتراكية والفوضوية » (٧٠) ، الا أنهرتزل كان يدرك أنه يعمل لحساب قوة أخرى • رغم أن نجاح خطته كان يتوقف على عدم وعى الجميع بحقيقة ما يقوم به•• وقد كتب فى ٥ ــ ١١ ــ ١٨٩٨ فى مذكراته •

« فى فلسطين تأزمت الامور معى • ولو كان رجال الحكومة التركية على شىء من بعد النظر السياسى لكانوا وضعوا نهـاية لاعمـالى • « وتضيف » على أن عدم تفهم الناس لقضيتى ليس سببا فى ايذائى فحسب ، وانما كثيرا ما يكون لصالحى • ان خطتى غير مفهومة ولهذا فانها ماتزال « مسموحــا بها ، لا يقف فى وجههــا أحد » (٧١) •

مشروع استعمارى استيطانى قــائـم على التــوســـع

قد يستخدم رجال الدعاية والاعلام الصهاينة اليوم كلمات «التحرر» و«حرب الاستقلال » . الخ لوصف المخـطط الصهيـــونى بازاء فلسطين والشرق العربى باعتبارها المصطلحات التـى أصبحت تستحـوز علـى عطف الـرأى العـام واهتمامه ، ولكن فى القرن التاسع عشر ، وعندما لم تكن المشروعات الاستعمارية قد اكتسبت سمعتها السيئة والحقيقية ، كان زعماء الصهيونية يعبرون بصراحة عن طبيعة مشروعاتهم •

يتحدث هرتزل فى رسالته الى دوق بادن الكبير فى ٩ــ١١ــ١٨٩٨ بصراحة عن مشروعه الابتدائى كواحد من المشروعات الاستعمارية الشهيرة فى ذلك الوقت فيقول :

(٦٦ ــ ٧٠) راجع يوميات تيودور هرتزل ــ المرجع السابق ــ صفحات ٥٠٠ ، ٧٨٣ ، ٩٠٩ ، ١٥٥٨ •

(٧١) يوميات هرتزل ــ المرجع السابق ــ ص ٧٦٠ •

« ان تأسيس شركة للاراضى على نمط « الشركة القانونية » أو شركة « الهند الشرقية » كان يبدو أنه الشيء الذى يمكن الحصول عليه بدون اثارة أى شعور بالاستياء عند سائر القوى (٧٢) .

وقبل خمسين سنة بالضبط من صدور قرار الامم المتحدة بتقسيم فلسطين واقامة دولة اسرائيل ، أى فى ٢٩ـ١١ـ١٨٩٧ كان يكتب لاحد أنصاره فى باريس قائلا : « ان جمعية الاستعمار اليهودى (صندوق توفير هيرش) ستجتمع فى باريس خلال بضعة أيام ، وسيكون الجميع موجودين . وانا اطلب منك ان تقدم اقتراحاتى التالية لصادوق خان ، فهو الوسيط الملائم حسب ما أعتقد ، وهو عضو من أعضاء جمعية الاستعمار اليهودى المهمين . ستقوم الجمعية بالمهمة كما يلى : تؤسس بنك الاستعمار اليهودى حالا بمليون جنيه استرلينى . . هيئة الادارة . . أعضاء جمعية الاستعمار اليهودى . أما الاسهم فيمكن تقديرها بسهولة ، واظن اننى أستطيع أن أفعل هذا بالجهاز الحاضر عندى الان اذا كانت الجمعية هى السند فكل ما يبقى هو سهم .

وبعد هذا يستطيع البنك أن يقوم بتقديم القرض الذى ذكرته لى بخصوص الحكومة التركية ستشترك الجمعية بهذا بصورة تعين فيما بعد . وستأخذ ضمانة عن القرض الذى تقدمه للبنك عبارة عن الاراضى التى ستأخذها من الحكومة التركية . هذا باختصار هو هيكل العمل » (٧٣).

وتذكر ، ب . ديستريا فى كتابه « من السويس الى العقبة » ان الحكومة الالمانية وتئذ تدخلت لدى مصر فيها حتى يفتحوا اعتمادات واسعة للمكاتب الصهيونية التى أصبحت برلين مركزها السياسى والمالى . وقد جر بنك هيرش معه فى هذه العملية اثنين من السادة القوميين فى ميدان المال بالعاصمة الالمانية هما بلاسهورير و منير لسون .

ولما كان سيسيل رودس رجل المستوطنات الاستعمارية هو البطل البورجوازى فى ذلك الوقت فان هرتزل يتجه اليه بخطابه قائلا :

« كيف حدث اذن أن اتجهت نحوك ، مادام الامر خارج طريقك ؟ . . ذلك لان الامر يتعلق بمشروع استعمارى ، يقوم على فكرة تنمية لمدة عشرين او ثلاثين عاما . أن هناك خياليين ينظرون عبر ابعاد

● شيمون بيرز ●
هو الان أحد الوزراء فى الحكومة الاسرائيلية من الشباب الذين التفوا حول بن جوريون الذى رعاه كما رعى موشى ديان .
كان له اليد الكبرى ابتداء من ١٩٥٤ عندما كان مديرا بوزارة الدفاع الاسرائيلية فى توطيد العلاقات بين الدوائر العسكرية والمخابرات فى كل من فرنسا واسرائيل . وبلغت هذه العلاقة من الالتحام والتوطد الى حد انه استطاع ان يحصل على اسلحة فرنسية دون ان تعلم بذلك الحكومة الفرنسية ككل ، مستغلا فى ذلك بمهارة فائقة التناقض القائم فى فرنسا منذ ١٩٥٤ الى ١٩٦٥ بين الدوائر العسكرية وبين وزارة الخارجية .
وهو يؤيد احتفاظ اسرائيل بالاراضى المحتلة ■

طويلة من الوقت لكن ينقصهم الوعى العملى . وهناك عمليون لا يتمتعون بخيال سياسى . لكنك أنت ـ يا سيد ردوس ـ سياسى خيالى أوخيالى عملى . وقد برهنت على هذا ، وما اريده منك ليس ان تعطينى أن تقرضنى قبضة من الجنيهات ، بل أن تصدق على المخطط الصهيونى ، وان تعلن التصريح التالى أمام عدد من الناس : « أنا رودس ، قمت بفحص هذا المخطط ووجدته صحيحا وعمليا ، انه مخطط مملوء بالحضارة ، ممتاز بالنسبة للشعب الذى يتوجه المخطط نحوه . انه لا يعوق تقدم البشرية العام ، وهو مفيد جدا لانجلترا ولبريطانيا العظمى .

« أما اذا قدمت أنت وزملاؤك العون المالى المطلوب لهذا المخطط فانك ستحظى ـ بالاضافة الى الرضى الذاتى العام ـ بالربح الجيد ، فالمال هو المطلوب . فما هو المخطط ؟ انه اسكان فلسطين بالشعب اليهودى العائد (٧٤) .

ولم يخيب رودس رجاء هرتزل . فيذكر كتاب « اطلاق الحمامة » :

---

[٧٢] يوميات هرتزل ـ المرجع السابق ـ ص ٧٦٨
(٧٣) يوميات هرتزل ـ المرجع السابق ص ١٠٢
(٧٤) تيودور هرتزل ـ المرجع السابق ـ ص ١١٩٤

« وجدير بالذكر ان رودس الشهير – وهو الاستعمارى البريطانى الذى سميت روديسيا باسمه. يرى مثل روتشيلد أن الصهيونية هي أفضل أشكال التنظيمات التى يمكن أن توضع فى خدمة المصالح الامبريالية العديمة • وهذا هو الدور الوحيد الذى كان على الصهيونية ان تؤديه • ولا مجال بالمرة للزعم برعاية المصالح الحقيقيــة لجماهير اليهود فى أوربا وامريكا (٧٥) .

ويكتب هرتزل لدوق بادن الكبير :

« سيكون موضوع الميثاق الذى ساقدمه فى القسطنطينية ، بعد التأكد من موافقة سموكم وجلالة القيصر الالمانى على كل بندقية ، هـو استعمار فلسطين وادارة المنطقة المستعمرة • وانى فى وضع يمكننى من تأمين منافع مالية لتركيا مقابل ذلك •

« ولن يكتشف احد ان المسألة كلها تحت اشراف **المانيا وحمايتها ، الى أن يقرر جـلالة القيصر الالمانى** أن اللحظة قد حانت لذلك » .

يمكن ايجاد محمية المانية بدون تضحية وبدون أية مخاطرة .. آسـيا الصغـرى تحت النفوذ الالمانى (٧٦) .

وككل مشروعات الاسـتعمار الاسـتيطانى الاوروبى ، كان لابد ان تفوح منه **رائحة التعصب والتبشير بالتفوق الاوربى** ، وتميـز الجنس الابيض ، فيقول هرتزل فى عام ١٩٠٨ :

« **ان دولة يهودية فىفلسطين أوسوريا ستكون امتدادا للحضارة الغربية ، وساترا ضد الهمجية الشرقية** (٧٧) .

ويكتب عـن مقـابلته لتشـمبرلين فـى ٢٢–١٠–١٩٠٢ فيقول :

« فى الحقيقة لو تمكنت ان ادله على بقعة فى الممتلكات الانجليزية لايقطنها بعد اناس بيـض لتمكنا من التحدث فى ذلك (٧٨) •

ويعى من تبــع هرتزل من زعماء الصهيونية حقيقة مخططهم كعملية غزو واسـتيطان • ولا ينفكون يرددون حتى فى ظروف عالم اليوم ، الاقاويل عن « حق الغزو » و « ثمن العدوان » • فماذا عن الشعب الاصلى فى هذه البلاد ؟

كتب هرتزل فى ١٢ –٦–١٨٩٥ :

« **عندما نحتل البلاد سنعمل سريعا على افادة الدولة التى ستأخذنا** ، بهذا الصدد يصفدافيد بن جوريون وضع المهاجرين اليهود الى فلسطين فى مراسلاته عام ١٩١٧ بقوله :

« لم نكن نكتفى بالعمل فقط •• بل كنا بسبيل فتح ارض • كنا شلة من الغزاة » بينما يقول موشى ديان وزير الدفاع الاسرائيلى فى اثناء عدوان ١٩٦٧ :

« من نحن كى نأخذ عليهم (على العـرب) الكراهيـة التـى يبـدونها ازاءنـا ؟ اننـا مستعمرون (استيطانيون) يحولون الى وطـن يهودى ارضا أقاموا فيها منذ أجيـال .. فبدون الخوذة المصنوعة من الصلب والمدفع ما كان بوسعنا أننزرع شجرة اونبنى بيتا » (أوردهاريك رولو فى مقالاته بجريدة لوموند الفرنسية بتاريخ ٤–٧–٦٩ تحت عنوان «اسـرائيل جيتو المنتصرين ما العمل بالفلسطينيين) •

يجب أن نستخلص ملكية الارض التى ستعطى لنا ، ولكن باللطف والتسريح • وسـنحاول أن نشجع الفقراء من السكان على النزوح الى البلدان المجاورة وذلك بتأمين أشغال لهم هناك ورفض اعطائهم أى عمل فى بلدنا » .

أما أصحاب الاملاك فسيكونون بجانبنا ، مع انـنـا يجب ان نقــوم بكلتــا العمليتيــن : الارض وابعاد الفقراء بتعقل وحذر • يجب أن نعمل على ايهام أصحاب الاملاك التى لا تنقل على انهم يخدعوننا ببيعهم الاشياء لنـا بأكثر ممـا تساوى . وأما نحن فلن نبيعهم شيئا . سيكون استخلاص الاملاك عن طيب خاطر مهمة عملائنا السريين ، ستدفع الشركة اثمانا باهظة ، عندما سنبيع لليهود فقط • وستكون المتاجرة بالعقارات بين اليهود فقط • طبعا لن نستطيع أن نصرح بهذا ونعلن بأن أى بيع آخر ليس قانونيا • وحتى لو كان هذا العمل مشروعا لدى الرأى العام العالمى فلن نكون قادرين على فرضه » •

---

(٧٥) بيلبايف وآخرون – المرجع السابق – ص ٥٤
(٧٦) يوميات هرتزل – المرجع السابق – ص ١٠٩
(٧٧) اسماعيل صبرى عبد الله فىمواجهة اسرائيل – المرجع السابق – ص ٢٠
(٧٨) يوميات هرتزل – المرجع السابق – ص ١٣٦٠
(٧٩) يوميات هرتزل – المرجع السابق – ص ٨٨ – ٨٩

« لذلك يجب أن نحافظ على كلّ ما يباع من ممتلكات عن طريق فتح مجال للشركة لان تشتريه ثانية ،أى انه اذا أراد المالك أن يبيع ما يملك يكون لنا حق شرائه بالثمن الاول الذى وضعناه له ٠

« ان هذا الاستخلاص الذى هو عن طيب خاطر يجب أن يتم على أيدى موظفين لا يعرفون أن استخدامهم هذا هو من قبيل عميل سرى يأخذ هو بدوره الاوامر من الوكالة المركزية لشراء الممتلكات (٧٩) .

ولقد نفذت تعاليم هرتزل بنصها لمحاولة استخلاص الارض من الشعب الفلسطينى ٠ الا انها فشلت فى أن تستخلص سوى ٨ر٣ فى المائة من أراضى فلسطين حتى عام ١٩٤٨ نظرا لتعلق الفلاح الفلسطينى بأرضه ٠ وكان لابد ان تطور الصهيونية وسائلها من الاستخلاص التدريجى للارض الى الاستيلاء الجبرى والاخلاء البشرى بالارهاب والقمع ٠ وعلى كل حال فقد استمر الهدف واحدا ، وسار قادة الصهيونية على الدرب.

تجدر الاشارة هنا الى ما جاء فى **دستور الوكالة اليهودية ، لدى توسيعها ، والموقع فى زيورخ فى ١٤ أغسطس ١٩٢٩** ٠ نص الدستور على ما يلى : « تمتلك الاراضى ، كملك للشعب اليهودى ، طبقا لاحكام المادة العاشرة من هذا العقد ، وتسجل الاراضى المشتراة على اسم الصندوق القومى اليهودى ، وتبقى مسجلة باسمه الى الابد ، كى تظل هذه الاملاك ملكا للامة اليهودية غير قابلة للانتقال »

كما جاء فى الدستور ذاته : « تشجع الوكالة الاستعمار الزراعى بوساطة العامل اليهودى ، والمبدأ العام « الذى يتبع فى جميع الاشغال أو المشاريع التى تقوم بها الوكالة أو تشجعها هو استخدام العمال اليهود » ٠ كذلك كانت عقود ايجار الكيرن كايميت تنص عادة على ما يلى :

« يتعهد المستأجر أن يجرى جميع الاشغال المختصة بفلاحة الارض وزراعتها بوساطة عمال من اليهود فقط واذا خالف المستأجر هذا الشرط بأن استخدم عمالا من غير اليهود فانه يدفع عشرة جنيهات عن كل مخالفة ٠ ويعتبر استخدام عمال من غير اليهود دليلا قاطعا على الاخلال بهذا العقد ، وعلى قيمة التعويضات الواجب دفعها للصندوق القومى اليهودى ، دون حاجة الى اخطار المستأجر بوساطة كاتب العدل أو تبليغه اى اخطار خلاف ذلك ٠ واذا خالف المستأجر أحكام هذه المادة ثلاث مرات فيحق للصندوق القومى اليهودى أن يسترد الملك المؤجر دون أن يدفع للمستأجر اى تعويض ٠

« و ٠٠ ينبغى الا يستلم الارض أحد من غير اليهود ٠ فاذا توفى المستأجر اليهودى ولم يكن وريثه يهوديا فيحق للصندوق أن يسترد الارض بشرط أن يعطى الوارث مهلة ثلاثة أشهر قبل الاسترداد ويشترط على الوارث خلال هذه المدة أن ينقل حقوقه الى يهودى ، والا فيسترد الصندوق الارض دون أن يكون للوارث أى حق فى الاعتراض » (هوت ــ سميسون ص ٧٩ نقلها عنه د ٠ يوسف عبد الله الصايغ فى كتابه « الاقتصاد الاسرائيلى ») ٠

كتب أوسيشيكين رئيس الكارن كايميت فى جريدة دافار هايوم بتاريخ ٢٨ــ٤ــ١٩٣٩ :

«كان علينا أن نصرح باننا نريد أن نسترجع بلادنا فاذا كانت خالية فحسنا ، واذا كان فيها وطنيون وجب أن ينقلوا الى مكان آخر ٠ فان لدينا مثلا عليا يجب أن ندافع عنها وهى مثل تفوق بكثير آلاف الفلاحين الذين يحتلون فلسطين اليوم » (٨٠) .

ويذكر « **بارزوهار** » عن « **بن جوريون** » :

« لقد كان بن جوريون أيضا مشغول الفكر بسبب وجود مئات الالاف من العرب فى الاراضى التى يجب فتحها ولم يكن هذا الانشغال يرجع الى انه يعطف على هؤلاء العرب بل كان يأمر بدون أى تأنيب للضمير بتدمير قراهم،وبأن يوقف بأى شكل ذلك الموكب الصغير من المهاجرين الذين يحاولون العودة الى وطنهم السابق بعد انتهاء المعارك » (٨١) .

بهذه الملامح وعلى أساس هذه الخطط نسقت الصهيونية خطواتها مع خطوات الاستعمار البريطانى الزاحف على الشرق العربى مندفعة فى تحقيق مخططاتها فى « أرض الميعاد » .

---

(٨٠) أوسيشكين ــ دافارهايوم ــ٢٨/٤/١٩٣٩

(٨١) بارزوهار ــ النبى المسلح ــ قصة حياة بن جوريون ــ المرجع السابق

قوة الرأى العـام

كبديل شرعى لمراكز القوى

موفـق أبوشـنيف

اذا كانت الحركة التى قادها الرئيس **انور السادات** ، خلال النصف الاولمن شهر مـايو المـاضى ، لتصفية مراكز القوى ، تصحيحا لمسار ثورة ٢٣ يوليوسنة ١٩٥٢ ،قدحققتنجاحارائعا - فانه يتحتم علينا - بعد أن أعلنت جماهير الشعب تأييدها لتلك الحركة ، أن نعكف علـى دراسة الاسباب الموضوعية ، التى ادت الى نشوء مراكز القوى غير مرة فى السنوات الاخيرة . تمهيدا لتحديد الضمانات التى يمكن أن تحول دون ظهورها فى المستقبل .

ومما يضفى على هذه الدراسة أهمية قصوى ، ان مراكز القوى لم تعمد فقط الى القضاء على حرية المواطن ، وانما تسببت فى تهديد حرية الوطن ذاته ، فالاثار الوخيمة التى استشرت فى الحياة السياسية فى السنوات الاخيرة - بفعل هذه المراكز - مما نضح على كافة ميادين العمل المـدنى والعسكرى ، كانت - بلا ادنى شك - من الاسباب الرئيسية المباشرة لهزيمة ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ، التى لا زالت ظلالها الحزينة - منذ غروب شمس ذلك اليوم الاسود - تخيم على أرجاء الوطن العربى كله .

والادهى من ذلك ما تكشف أخيرا ، من أن رؤوس هذه المراكز كانت قد علقت الخطة العسكرية لمعركتنا القادمة مع العدو الاسرائيلى - تسانده الولايات المتحدة الامريكية ذاتها - وتوقيت هذه المعركة الفاصلة ، على « تصديق » او « اعتماد » من قوى غيبية ، فكأنها سلمت بذلك بعض سلطات القيادة السياسية للشعب المصرى - طليعة النضال العربى - بل وسلطات القيادة العسكرية الفعلية لقواتنا المسلحة - فى زمن الحرب - الى كائنات غير مرئية · لتزج بمستقبل الشعب المصرى - ومن خلفه المصير العربى كله - فى معركة عينت لها هيئة اركان الحرب ، من الارواح والاشباح ·

ويمكن القول - عموما وفى ايجاز - بأنه طالما يوجد رأى عام قوى ، تدرك أجهزة الحكم أنه قادر على تحريك المؤسسات الدستورية المختلفـة ، ليباشر كل منها او غالبيتها ، رقابة فعالة ضد اى خطأ او انحراف مهما كان ضئيلا فى بدايته ، فانه يعتبر ضربا من المستحيل - فى مثل هذا المناخ السياسى - نشوء اى مركز من مراكز القوى ·

ولكن ، هل يرجى ان يخرج الى النور - من تلقاء ذاته - ثمة رأى عام قوى وقادر ، يقف سدا

منيعا فى مواجهة احتمال نشوء مركز او مراكز قوى فى المستقبل، لمجرد القضاء على مراكز القوى البائدة ؟ أو لمجرد صدور الدستور الجديد، متضمنا — شأنه فى ذلك شأن الدساتير السابقة جميعها — النص على كفالة الحقوق الفردية والحريات العامة ؟

الواقع انه من المستحيل ان ينبت ثمة راى عام اصلا — فى اية دولة من الدول — الا اذا تهيأت له التربة السياسية، وهو مايتمثل — أساسا — فى التطبيق العملى لمبدأ استقلال السلطات، اما قوة هذا الرأى العام — بعد ميلاده — فتتوقف على ديمقراطية العمل السياسى، ومـا تقتضيه من السماح بتصارع الاتجاهات السياسية، بطريقة علنية منظمة، من خلال هياكل التنظيم الشعبى، مع اتاحة الفرصة لهذه الاتجاهات السياسية العلنية المنظمة، لممارسة اقوى صور حرية التعبير فى الدولة المعاصرة، وهى وسائل الاعلام، وفى مقدمتها الصحافة، مما يحقق للقوى الشعبية سيطرة فعلية عليها .

أولا — الاستقلال الحقيقى للسلطات

ان التربة السياسية الصالحة لغرس نواة راى عام، هى اولا وقبل كل شىء، الاطمئنان العام للافراد، ولاية مجموعة منهم ذات مبادىء واحدة او متقاربة، على الحياة والحرية ولقمة العيش، اذا ما اعلنوا آراءهم السياسية، فى شأن اية مشكلة من مشاكل مجتمعهم، ولو كانت هذه الاراء على خلاف رأى الحكومة، او الهيئة التشريعية، او الرأى الغالب فى التنظيم الشعبى السائد، طالما أن هذه الاراء لا تتعارض واسس النظام الاجتماعى القائم، وهو ما عبر عنه الرئيس السادات فى خطابه يوم ٢٣ يوليو الماضى بقوله : الامن كل الامن للشعب .. والطمأنينة كل الطمأنينة للشعب .. ان جو الحوار المفتوح والديمقراطية داخل وحداتنا، لابد من أن يكون كاملا، لانه الضمان الوحيد ضد الانحراف .. لكل انسان ان يعبر عن رأيه بصراحة فى اية مشكلة تعرض .. ولا يستطيع احد أن يحجب راى آخر .. هيه مراكز القوة كانت بتنشأ ليه !!!! » .

كل ذلك .. الحرية والامن والطمأنينة العامة، لا يمكن أن تتحقق، الا بكفالة الاستقلال الفعلى للسلطات، حتى اذا ماشرعت احداها فى اساءة استعمال اختصاصاتها، وقفت فى وجهها السلطتين الاخريتين — بحكم ما تتمتع به كل منهما من استقلال — بالوسائل السلمية المتاحة دستوريا، دفاعا عن الحريات العامة .

ولكن ليس المقصود باستقلال كل سلطة من سلطات الدولة الثلاث، التشريعية والتنفيذية والقضائية، الاستقلال الكامل لكل منها فى ممارسة اختصاصاتها، والا لتحول الانفصال بينها الى انفصام، لابد مفض الى صدام، ومن ثم فلابد من ايجاد علاقات تعاون ورقابة متبادلة بينها، لا يجوز أن تصل — بداهة — الى حد الاندماج او شبه الاندماج فيما بينها، او فيما بين اثنتين منها، مما يقضى على القدر اللازم من الاستقلال لكل منها، الامر الذى يؤدى الى استحواذ فرد او هيئة او اكثر على سلطات مطلقة أو شبه مطلقة، وهو ما نعبر عنه اصطلاحا بمراكز القوى، مما يترتب عليه — ولا محالة — اهدار حريات الافراد .

وقد فطنت الانسانية منذ القدم الى ما يؤدى اليه جمع السلطات فى يد واحدة من القضاء على الحرية والتقدم. فمن المسلم به فى الفكر السياسى منذ عهد الاغريق، ان الحكومة الصالحة، هى تلك التى تقوم على مبدأ توزيع السلطة، لما فى تركيزها فى يد فرد او هيئة، من امتلاك سلطان مطلق او شبه مطلق — من شأنه — بالضرورة — الافتئات على الحريات .

وقد بلور الفيلسوف الفرنسى منتسكيو — قبيل اندلاع الثورة الفرنسية الكبرى سنة ١٧٨٩ — الافكار الخاصة بتوزيع السلطة — وصاغها فى نظرية قانونية متكاملة، هى نظرية فصل السلطات، التى اودعها كتابه الشهير « روح الشرائع »، الذى اعتبره رجال الثورة الفرنسية — بحق — انجيل الثورة، والذى يقول فيه : « لاقيمة للقواعد الدستورية او للقوانين، ان لم تكن السلطات المذكورة — التشريعية والتنفيذية والقضائية — التى هى من خصائص السيادة الشعبية — فى أيدى حفظة مستقلين، كل منهم حريص على استعمالها للصالح العام لا للصالح الشخصى، فاذا كانت السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية فى يد شخص او هيئة واحدة انعدمت الحرية، اذ يخشى ان يسن هذا الشخص او تلك الهيئة قوانين جائرة لتنفذ بطريقة ظالمة، كما تنعدم الحرية اذا لم تكن سلطة القضاء منفصلة عن سلطة التشريع، لان حرية ابناء الوطن وحياتهم تصبحان تحت رحمتها ما دام القاضى هو المشرع، واذا كانت السلطة القضائية متحدة مع السلطة التنفيذية، فان القاضى سيكون طاغيا » .

وبالرغم من أن دستور سنة ١٩٦٤، قد أخذ فى تنظيمه لسلطات الدولة الثلاث بفكرة استقلال السلطات — التى تأخذ بها الدساتير فى سائر الدول — رأسمالية كانت او اشتراكية — الا انه — ومن خلال الدور الذى لعبه الاتحاد الاشتراكى فى النظام السياسى، بل والدستورى — وقع اندماج

كامل بين السلطتين التنفيذية والتشريعية ، انتهى باندماج شبه كامل ـ عند القمة ـ بين السلطتين التنفيذية والقضائية :

١ ـ الاندماج الكامل بين السلطتين التنفيذية والتشريعية :

نصت المادة الثالثة من دستور سنة ١٩٦٤ ، على اعتبار الاتحاد الاشتراكى السلطة الممثلة للشعب ، رغم انه كتنظيم شعبى ، لا يمثل سوى أعضائه من أفراد قوى الشعب العامل ، بل وليس بالضرورة جميع أفراد هذه القوى ، لما هو مسلم به من أن أى تنظيم سياسى ، انما يستقل بوضع شروط عضويته ، وتقرير قبول أو رفض الانضمام اليه ، والفصل من العضوية بعد منحها ، دون أن يحدد الدستور اختصاصاته تحديدا دقيقا ، أو يبرز ـ بشكل واضح ـ معالم علاقته بأجهزة الحكم .

وقد انتقل هذا التصور غير المحدد المعالم ، لدور الاتحاد الاشتراكى فى النظام الدستورى ، الى القانون الاساسى للاتحاد ، الذى اعتبره السلطة الشعبية ، وعهد اليه بالعمل القيادى والتوجيهى وبالرقابة ، بينما عهد الى مجلس الامة بتنفيذ السياسة التى يرسمها الاتحاد ، رغم ان مجلس الامة هو السلطة الممثلة لهيئة الناخبين جميعها ، والذى يجب ان يكون دوره فى النظام الدستورى ، هو رسم السياسة العامة للدولة لا تنفيذها ، اذ التنفيذ ـ بداهة ـ منوط بالسلطة التنفيذية ،بحيث يتحدد دور الاتحاد الاشتراكى ـ كتنظيم سياسى ـ فى القيام بدور لا يقل عن ذلك اهمية ، هو التاثر والتاثير فى الجماهير ، وبلورة مبادئها وأهدافها ، فيعظم نفوذه بينها ، بقدر تلاحمه وتجاوبه معها ، وتعليمه وتثقيفه ونوعيته وتوعيته اياها،علميا وفكريا وسياسيا ، فيتوصل بذلك الى مباشرة نفوذ سياسى ـ وليس ادارى ـ على اعضاء السلطتين التشريعية والتنفيذية، بل ويدفع ـ بناء على ثقة الجماهير بمبادئه وأهدافه باعضائه الاكفاء المخلصين ، الى مقاعد مجلس الامة ، والمراكز السياسية التنفيذية .

هذا الخلط بين الدور الذى كان يجب أن يلعبه كل من الاتحاد الاشتراكى ومجلس الامة فى النظام الدستورى ، كان من الطبيعى أن يحسم ـ بحكم موجة التفاؤل العاطفى الجارف التى اقترنت بانشاء الاتحاد الاشتراكى ـ لصالح التنظيم الشعبى الوليد ، رغم انه لا يمثل سوى أعضائه من المنتمين الى قوى الشعب العامل ، على حساب مجلس الامة ، الذى يمثل ـ حقا وشرعا ـ الشعب المصرى كله .

وصدورا عن فكرة الدور القيادى للاتحاد الاشتراكى فى النظام الدستورى باكمله ، اعتبرت العضوية العاملة فى الاتحاد ، شرطا للترشيح لعضوية مجلس الامة ، فأصبح أعضاء الهيئة التشريعية ، وكأنهم معينون من قبل قادة التنظيم السياسى ـ وهم فى ذات الوقت من كبار رجال السلطة التنفيذية ـ بحكم تمتعهم بسلطة مطلقة فى منح العضوية ومنعها ، فضلا عن انه زاد من غلواء هذه السلطة ، غلبة المركزية على الديمقراطية فى الحياة الداخلية للتنظيم،فغدا مجلس الامة ـ بكامل اعضائه ـ الهيئة البرلمانية للاتحاد الاشتراكى ،التى تاتمر بالطبع باوامر قادة التنظيم من كبار رجال السلطة التنفيذية ، مما أدى الى اندماج شبه كامل بين السلطتين التنفيذية والتشريعية ، أدى الى استحواذ بعض كبار رجال الحكومة من قادة الاتحاد الاشتراكى ـ خاصة من كان منهم على راس الاجهزة العسكرية أو أجهزة الامن ـ على سلطات شبه مطلقة ، وهكذا .. بدأت مراكز القوة تطل برؤوسها على الحياة السياسية والدستورية ، لتمارس دورها « التاريخى » فى اهدار حقوق وحريات المواطنين .

وقد فطن الرئيس الراحل ـ رحمه الله ـ بفكره الثاقب الى السبب الاساسى لهذه الافة ، فاقترح فى بيان ٣٠ مارس ، « ان ينص الدستور على تحديد واضح لمؤسسات الدولة واختصاصاتها ، بما فى ذلك رئيس الدولة والهيئة التشريعية والهيئة التنفيذية ، ومن المرغوب فيه ان تتأكد سلطة مجلس الامة ، باعتباره الهيئة التى تتولى الوظيفة التشريعية ، والرقابة على أعمال الحكومة ، والمشاركة فى وضع ومتابعة الخطة العامة للبناء السياسى ، وكذلك من المرغوب فيه افساح الفرصة لوسائل الرقابة البرلمانية والشعبية ، لتحقيق حسن الاداء وكفالة أمانته » .

ورغم موافقة الشعب فى الاستفتاء على ما جاء ببيان ٣٠ مارس باغلبية ساحقة ترقى الى حد الاجماع ، وقفت مراكز القوى فى وجه ارادة الامة ، فلم يتم وضع ما ورد فى هذا البيان ، ـ عموما ـ موضع التنفيذ .

ثم صدر اعلان دستورى فى ٧ من يناير سنة ١٩٦٩ ، نص على ان فقدان العضوية العاملة فى الاتحاد الاشتراكى تعتبر سببا لانقضاء عضوية مجلس الامة ، فأصبح بذلك لمراكز القوى ـ بحكم تربعها على المراكز الكبرى فى التنظيم السياسى ـ الكلمة العليا فى فصل أعضاء مجلس الامة ـ عملا ـ من عضوية المجلس ، عن طريق اسقاط عضويتهم فى الاتحاد ، الامر الذى استكملت معه مراكز القوى سيطرتها الكاملة على الهيئة التشريعية ـ عضويا وموضوعيا ـ فادمج التشريع فى التنفيذ فى الرقابة على التنفيذ ـ تحت

التسلط الشامل لمراكز القوى — مما أدى فى النهاية الى اهدار سيادة القانون ، وانتهاك حريات المواطنين .

وليس ببعيد عن الاذهان ، اذا كان لنا أن نضرب مثلا على اهدار سيادة القانون وحريات الافراد جهارا كنتيجة حتمية لاندماج السلطتين التنفيذية والتشريعية ، تلك الحملة الارهابية التى قادها محافظ القاهرة الاسبق — واحد رؤوس مراكز القوى — سنة ١٩٦٥ ؛ بدعوى « محاربة خلو الرجل » ، واعلن فى غضون قيادته لهذه « التجريدة » ان « القانون فى أجازة » ، الامر الذى دفع الرئيس الراحل الى أن يتدخل بنفسه ، ليعلن من فوق منبر مجلس الامة ، انه يجب أن « يعلو القانون على كل مراكز القوى وارادات الافراد » .

وليس معنى ذلك أننا نعارض العمل على القضاء على « خلو الرجل » فى ذاته ، ذلك أن تصفية الاستغلال — فى كافة صوره — هو الطريق الوحيد الى الاشتراكية ، ولكن ما نعترض عليه — وبكل قوة — هو الوسيلة التى خاض بها هذا المحافظ مثل تلك المعركة ، .. وسيلة القهر الادارى والبوليسى ، دون أية قواعدعامة موضوعة سلفا، ودون أى ضمان قضائى ، أو حتى شبه قضائى ، ضد احتمالات التعسف أو الخطأ .

وهكذا ، لم تقتصر الاثار الوخيمة لمراكز القوى ، على اهدار سيادة القانون وحقوق المواطنين،بل وتهديدحرية واستقلال الوطن ،وانما تعدت ذلك الى الاساءة الى قضية الاشتراكية — فى مصر والوطن العربى كله — ايما اساءة ، باظهار الاشتراكية فى حالة تناقض مفتعل مع الديمقراطية ، وهو ما عبر عنه الرئيس السادات فى برنامجه للعمل الوطنى قائلا « ان أخطر ما واجهنا فكريا خلال السنوات الماضية ، هو ذلك التناقض المصطنع بين الاشتراكية والحرية ، والذى افتعله أعداء الحرية والاشتراكية على حد سواء .. ان مراكز القوى التى لايمكن ان تعيش فى جو الحرية والديمقراطية ، اتخذت من الاشتراكية ودعوى حمايتها ، حجة لتكمم الافواه ، ولتسكت كل صاحب فكر ، ولتفرغ مؤسسات الشعب من مضمونها الثورى » .

ويبين من كل ذلك ، انه لابد من تلافى احتمال الاندماج بين السلطتين التنفيذية والتشريعية فى المستقبل ، حتى يتحقق لهذه الاخيرة القدر اللازم من الاستقلال فى أداء واجباتها الدستورية من تشريع ورقابة على التنفيذ ، مما يقتضى ما يأتى :

١ — النظر الى الدور الذى يمكن أن يلعبه الاتحاد الاشتراكى فى الحياة السياسية — وهو دور هام للغاية — على ضوء العبارة التى أوجز بها الرئيس السادات تصوره لمهمة الاتحاد فى خطابه يوم ٢٣ يوليو الماضى بقوله « يجب أن نعلم أن الاتحاد الاشتراكى يخدم ولا يحكم » ، مفصلا هذه المهمة فى برنامج العمل الوطنى كالاتى : ١ — محو الامية ٢ — تنظيم الاسرة ٣ — التوعية بخصائص المرحلة الحالية ٤ — التوعية بالتنمية والمشاركة فيها ٥ — بناء الانسان الجديد .

وقد صدر الدستور الجديد ، معبرا عن هذه الفكرة ، فجاءت المادة الخامسة منه ، التى تتعلق بالاتحاد الاشتراكى — وعلى خلاف نص المادة الثالثة من دستور سنة ١٩٦١ — خلوا من اية اشارة ، الى الاتحاد ، باعتباره السلطة الممثلة للشعب ، مؤكدة طبيعته كتنظيم سياسى ، مرسوم له مهام سياسية بحتة ، وسيلته فى تحقيقها ، هى العمل السياسى وحده ، مما يفسح المجال لممارسة مجلس الشعب لاختصاصاته الدستورية الاصيلة ، دون تدخل — رسمى — من الاتحاد الاشتراكى ، انصياعا لما ورد ببيان ٣٠ مارس فى هذا الشأن منجهة ، وتمشيا مع مهمة الاتحاد كما حددها الرئيس السادات ، من جهة أخرى ، الامر الذى يقتضى تعديل القانون الاساسىللاتحاد الاشتراكى ، بما يتفق والافكار السابق شرحها .

٢ — عدم جواز اعتبار العضوية العاملة فى الاتحاد ، شرطا للترشيح لعضوية مجلس الشعب ، اذ ان حق الترشيح لعضوية المجالس النيابية حق سياسى من حقوق المواطن بصفته مصريا (مادة ٦٢ من الدستور) فضلا عن الحيلولة دون احتمال تسلط قادة التنظيم السياسى فى المستقبل ، على منح العضوية او الفصل منها ، كمحاولة للسيطرة على الهيئة التشريعية ، وبالمثل لايجوز ان يترتب على انقضاء العضوية العاملة فى الاتحاد ، انقضاء عضوية مجلس الشعب ، وهو ما يمثل سيطرة كاملة من قادة التنظيم — ومنهم بعض كبار رجال السلطة التنفيذية — على مهمة أعضاء المجلس فى التشريع والرقابة على التنفيذ .

واذا كان الدستور الجديد قد جاء خلوا من أى نص ، يقابل نص الاعلان الدستورى الصادر فى ٧ من يناير سنة ١٩٦٩ ، الذى كان يقضى بسقوط عضوية مجلس الشعب ،بانتفاء العضوية العاملة فى الاتحاد ، فنرجو الا يتضمن قانون الانتخاب أو اى قانون آخر مثل هذا النص .

٣ — عدمجواز شغل عضومجلس الشعبلاية وظيفة فى الحكومة او الهيئات المحلية ، أو

الهيئات والمؤسسات العامة أو وحدات القطاع العام ، خلال فترة عضويته للمجلس ، حتى لا يقع أعضاء المجلس تحت تأثير السلطة التنفيذية ، التى يتولون الرقابة عليها ، باعتبارهم مرؤوسين لكبار المسئولين فيها ، مما تفقد معه رقابة الهيئة التشريعية على السلطة التنفيذية كل فاعلية ، الامر الذى يقتضى — حتى لا يحجم العاملون المدنيون بالدولة والقطاع العام ، من المثقفين والثوريين والكفاءات عن ترك وظائفهم والترشيح لعضوية المجلس لفترة محدودة — ضمان وظائف معادلة لوظائفهم السابقة — يعينون فيها عند انقضاء عضويتهم بالمجلس ، اذ أن ذلك ولا شك أمر ضرورى ، فى بلد سار وسيسير دائما فى طريق الاشتراكية ، مما قلل وسيقلل على مر الزمن ، من فرص العمل الخاص .

وقد حقق الدستور الجديد هذه الفكرة الى حد كبير ، بالنص فى المادة ٨٩ ، على أنه « يجوز للعاملين فى الحكومة وفى القطاع العام ، ان يرشحوا أنفسهم لعضوية مجلس الشعب . **وفيما عدا الحالات التى يحددها القانون** ، يتفرغ عضو مجلس الشعب لعضوية المجلس ، ويحتفظ له بوظيفته او عمله ، وفقا لاحكام القانون » .

٢ — الاندماج شبه الكامل — عند القمة — بين السلطتين التنفيذية والقضائية :

بعد أن تحققت لمراكز القوى سيطرة كاملة على السلطة التشريعية — فأمنت جانبها — تحولت الى السلطة القضائية ، والهيئات القضائية (مجلس الدولة) ، وشبه القضائية (ادارة قضايا الحكومة والنيابة الادارية) ، فى محاولة لاخضاعها لسيطرتها .

وقد كانت الخطوة الاولى فى ٩ من يونيو سنة ١٩٦٨ ، عندما استصدرت مراكز القوى قانونى الحاق مجلس الدولة — الرقيب القضائى الاعلى على شرعية أعمال السلطة التنفيذية — والنيابة الادارية — التى تختص بالتحقيق مع العاملين بالدولة ، ومنهم كبارهم من مراكز القوى وأذنابهم ، فيما هو منسوب اليهم من مخالفات ادارية ومالية — بأحد رجال السلطة التنفيذية ، وهو وزير العدل .

ثم كانت الخطوة الثانية ، فى ٣١ من أغسطس سنة ١٩٦٩ ، عندما استصدرت مراكز القوى ما اصطلح على تسميته بقوانين الاصلاح القضائى ، التى تضمنت ثلاثة أمور :

① حل الهيئات القضائية وشبه القضائية واعادة تشكيلها ، مع استبعاد عدد غير ضئيل من الاعضاء ، فى قرارات اعادة التشكيل ، دون صدور قرارات تأديبية ضدهم من اللجان المختصة ، بعد تمكينهم من الدفاع عن أنفسهم وفقا لقوانين الهيئات المذكورة .

ولما كان حل الهيئات القضائية — القضاء والنيابة العامة ومجلس الدولة — واعادة تشكيلها على الصورة سالفة الذكر ، انما يشكل مساسا باستقلال القضاء ، باهدار ضمانة عدم قابلية القضاة للعزل . وذلك بفصلهم — عملا — من خلال عملية الحل واعادة التشكيل — بغير اتخاذ الاجراءات القانونية المقررة أمام اللجان القضائية المختصة وأهمها تمكين القضاة من استعمال الحق الطبيعى المقرر لكل انسان ، فى الدفاع عن نفسه فيما ينسب اليه ، قبل تقرير ادانته ، فان ذلك ولا شك انما يشكل نوعا من الاندماج بين السلطة التنفيذية — التى تتولى عملية اعادة التشكيل بالفعل — والسلطة القضائية .

واذا كان الدستور الجديد ، لم ينص صراحة على حظر حل الهيئات القضائية واعادة تشكيلها ، فان ما نصت عليه المادة ٦٥ منه انه « واستقلال القضاء وحصانته ضمانان أساسيان لحماية الحقوق والحريات » انما يؤدى الى عدم دستورية أى اجراء يتضمن حلا أو اعادة للتشكيل ، بالنسبة الى أعضاء السلطة القضائية ومجلس الدولة — ولو اتخذ هذا الاجراء شكل قانون ، اذ أن مثل هذا القانون ، انما يعتبر — بحكم كونه وسيلة لسلب اللجان التأديبية المختصة ، اختصاصها فى تأديب أو فصل الاعضاء على خلاف مبدأ استقلال القضاء وحصانته — مشوبا بالانحراف فى استعمال السلطة التشريعية ، ومن ثم مخالفا للدستور . ولا شك أن استقرار هذا المبدأ انما يؤدى الى التسوية فى الحكم — على الاقل — بين العاملين بالدولة والقضاة ، من حيث عدم جواز فصلهم الا بعد مواجهتهم بما هو منسوب اليهم وتمكينهم من الدفاع عن أنفسهم أمام هيئات قضائية . فضمان العدالة للقضاة هو أول ضمانات العدالة للمتقاضين ، **اذ كيف يمكن أن ينشر العدالة بين الجماهير ، من لا يطمئن الى العدل فى أمر نفسه ، وكيف يكفل الامن للناس ، من كان يشعر ان لا أمن له .**

② انشاء مجلس أعلى للهيئات القضائية ، يتولى الاشراف على الهيئات القضائية وشبه القضائية ، يشكل برئاسة رئيس الجمهورية ، وعضوية وزير العدل نائبا لرئيس المجلس ، ورئيس المحكمة العليا . ورئيس محكمة النقض ، ورئيس مجلس الدولة ، واقدم نوابه ، ورئيس محكمة استئناف القاهرة ، ورئيس محكمة القاهرة

الابتدائية ، والنائب العام ، ورئيس ادارة قضايا الحكومة ، ومدير النيابة الادارية ، وعضوين سابقين بالهيئات القضائية ، يعينان بقرار من رئيس الجمهورية لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد •

ويختص المجلس بالاشراف على الهيئات القضائية وشبه القضائية ، واصدار القرارات الخاصة بشئون أعضائها من تعيين وترقية ونقل واعارة وندب الخ •• عدا التأديب •

وواضح أن تشكيل المجلس الاعلى بهذه الصورة ، من شأنه ما يأتى :

١ — أنه يغلب على تشكيل المجلس ، العنصر السياسى — رئيس السلطة التنفيذية ووزير العدل — والعنصر غير القضائى القابل للعزل ، من قبل السلطة التنفيذية ، والذى يعتبر اقرب الى رجال السلطة التنفيذية منه الى رجال السلطة القضائية — رئيس ادارة قضايا الحكومة ، والنائب العام ومدير النيابة الادارية ، والعنصر غير القضائى من رجال الهيئات القضائية أو شبه القضائية السابقين ، وهما العنصران المعينان من قبل السلطة التنفيذية لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد • مما يجعل الكلمة الاخيرة فى شئون الهيئات القضائية — القضاء والنيابة العامة ومجلس الدولة — ورجال هذه الهيئات لغير رجال القضاء ، من الساسة وكبار رجال الهيئات شبه القضائية والعضوين السابقين ، وجميعهم قابلون للعزل ، من قبل السلطة التنفيذية • مما يمثل ثقلا سياسيا وتنفيذيا واضحا ، على شئون القضاء ورجاله •

٢ — أنه لا يمثل كل هيئة قضائية سوى أقلية عددية فى المجلس الاعلى — فيمثل السلطة القضائية اربعة اعضاء منهم النائب العام وهو لا يتمتع بالحصانة القضائية ، ويمثل مجلس الدولة عضوان ، من مجموع عدد اعضاء المجلس البالغ ثلاثة عشر عضوا — مما يجعل للسلطة التنفيذية — اعضاؤها ومن يميلون الى تأييدها عادة من الاعضاء القابلين للعزل او التجديد — الرأى النهائى فى شئون القضاء ورجاله ، خاصة وان اغلب رجال الهيئات القضائية ، وشبه القضائية من أعضاء المجلس الاعلى يكونون عادة — وقت عرض القرارات الخاصة بهيئة معينة — أقل دراية بظروف العمل القائمة فعلا ، وبرجال هذه الهيئة ، من الاقلية التى تمثلها الهيئة المعينة فى المجلس ، مما ينأى بغالبية اعضاء المجلس طبقا للمجرى الطبيعى للامور عن المشاركة الفعلية فى مناقشة القرارات المقترحة على اساس من مشاكل العمل اليومى على الاقل ، الامر الذى يؤدى — فى الاغلب الاعم — الى صدور القرارات — من الناحية العملية — على أساس من رأى الاقلية ، أو رأى وزير العدل مستندا الى أغلبية من ممثلى الهيئات غير المعينة ، بل ومن الممكن ان نتصور عرقلة المجلس لقرارات تراها هيئة من الهيئات محققة لصالح العمل ، بسبب عدم كفاية دراية اغلبية الاعضاء بالظروف المعاصرة للعمل فى هذه الهيئة •

واذا كانت المادة ١٧٣ من الدستور قد نصت على أن يقوم على شئون الهيئات القضائية مجلس أعلى يرأسه رئيس الجمهورية ، ويبين القانون طريقة تشكيله واختصاصاته وقواعد سير العمل فيه ، ويؤخذ رأيه فى مشروعات القوانين التى تنظم شئون الهيئات القضائية » فان هذا النص ، انما يسمح — مع حسن تطبيقه — بقدر كاف من الاستقلال للقضاء ، اذ أنه يمكن فى اطاره تحقيق أمرين :

١ — لما كان مجلس الدولة هو الرقيب القضائى — وان لم يكن فرعا من السلطة القضائية — على شرعية اعمال الحكومة . وكانت النيابة الادارية هى رقيب — من بعض الوجوه — على افعال الموظفين — بتوليها سلطة التحقيق معهم فى المخالفات المالية والادارية — فيكون من الاوفق الحاقهما برئاسة الجمهورية ، باعتبار ان الرئيس هو المسئول الاول عن سلامة العمل الحكومى كله ، فى مجالى الملاءمة والشرعية على حد سواء مما يستلزم علاقة مباشرة — بلا حجاب أو واسطة — بينه وبين هاتين الهيئتين ، مع استمرار عضوية هاتين الهيئتين فى المجلس الاعلى للهيئات القضائية .

٢ — تشكيل المجلس الاعلى للهيئات القضائية برئاسة رئيس الجمهورية — طبقا للدستور — على أن يراعى غلبة العنصر القضائى غير القابل للعزل ، على تشكيل المجلس ، فى القانون الخاص به .

٣ — استقلال كل هيئة قضائية بواسطة مجلس من كبار قضاتها ، بالاشراف على حسن سير العمل واصدار القرارات فى شئون الاعضاء بصفة عامة على أن يقتصر اختصاص المجلس الاعلى فى هذا الشأن — فضلا عن أخذ رأيه فى مشروعات القوانين التى تنظم الهيئات القضائية — على المسائل الهامة التى تتعلق بحسن سير العمل القضائى ، والموافقة أو ابداء الرأى وتعيين كبار رجال القضاء — والاعتراض على بعض

انواع القرارات الخاصة بشئون الاعضاء وفقا لقواعد محددة .

③ انشاء محكمة عليا ، تعتبر بحكم قانون انشائها ، الهيئة القضائية العليا بالجمهورية ، تختص بالفصل فى كافة الدفوع بعدم دستورية القوانين ، التى تثار أمام جميع انواع المحاكم — فضلا عن بعض الاختصاصات الاخرى الامر الذى يجعلها مسئولة على اعلى مستوى عن كفالة سيادة القانون وحماية حقوق وحريات الافراد ، فى أخطر قضاياها .

ومع ذلك نص قانون انشاء المحكمة على تشكيلها من رئيس وعدد كاف من المستشارين يعينون بقرار من رئيس الجمهورية لمدة ثلاث سنوات — فقط — قابلة للتجديد ، مما يترتب عليه — فى الغالب — ان يتراءى لكل قاض من قضاة المحكمة أثناء المداولة فى القضايا ، وعند اصدار الاحكام ، فى أخطر قضايا الحريات وسيادة القانون شبح يوم التجديد الثلاثى ، بما يحمله من آثار خطيرة على مستقبله ومستقبل اسرته ، مما يحتمل معه — وهو احتمال جد كبير — وقوع قضاء المحكمة ، تحت تأثير السلطة التنفيذية التى تملك دون غيرها — التجديد كل ثلاث سنوات لرئيس ومستشارى المحكمة، مما يمثل شبه اندماج بين السلطة التنفيذية والمحكمة العليا .

واذا كان التشكيل الاول — والحالى — للمحكمة العليا ، قد ضم نخبة من رجال القضاء ومجلس الدولة ، فانه لايصح — ونحن بسبيل وضع نظام دائم لمحكمتنا الدستورية العليا، التى نصت عليها المادة ١٧٤ من الدستور الجديد — ان نفترض فى القضاء — مهما كانت دقة قواعد اختيارهم — صفات الرسل ، بعد أن ولى — منذ ترابة اربعة عشر قرنا خلت — عصر الانبياء .

لذلك لابد من أن يقوم نظام المحكمة الدستورية العليا ، على أساس من ضمان استقلال قضاء المحكمة ، عن طريق كفالة قدر كاف من الدوام والاستقرار لوظائف رئيسها ومستشاريها نأيا بهم — وبالتالى بقضائهم — عن أى ثقل — مركز — للسلطة التنفيذية ، ودون استبعاد دور هذه السلطة فى المشاركة فى اختيار رئيس وقضاة المحكمة ، على نحو لا يهدد استقلالها بالكامل .

لذلك نقترح ان يتضمن القانون الجديد للمحكمة الدستورية العليا ما يأتى :

١ — أن يكون لكل من السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية والقضاء ، ممثلا والجمعية العمومية لمستشارى محكمة النقض والجمعية العمومية لمجلس الدولة — مثالثة بينهم — اختيار أعضاء المحكمة العليا .

ولا مانع من أن تختار كل من الجمعية العمومية لمستشارى محكمة النقض والجمعية العمومية لمجلس الدولة ضعف العدد المقرر لها اختياره بحيث تعين السلطة التنفيذية من بينهم العدد المطلوب ، أى أن تشترك السلطة التنفيذية مع رجال القضاء فى اختيار الثلث الثانى من أعضاء المحكمة .

٢ — أن يعين رئيس واعضاء المحكمة لمدة غير قصيرة — كسبع سنوات على الاقل — على أن يعين كل منهم — أن لم يتجدد اختياره — فى وظيفة ذات راتب مساو لراتبه ، أو يمنح معاشا مساويا لذلك الراتب ، حتى لا يكون لمسألة التجديد اثر فى قضائه .

● وخلاصة كل ما سبق ، انه بغير الغاء مظاهر اندماج السلطات — التى فصلناها آنفا — لا يمكن أن يتحقق انفصال فعلى بين السلطات بالقدر اللازم لقيام كل منها بمباشرة واجباتها الدستورية على الوجه الاكمل ، وخاصة الدفاع عن الحريات العامة وسيادة القانون ، الامر الذى يمثل التربة الصالحة لظهور رأى عام فى مصر .

ثانيا — ديموقراطية العمل السياسى وإباحة تصارع الاتجاهات السياسية

لا يقصد بالرأى العام — بداهة — رأى غالبية الافراد فى المجتمع ، بصدد مشكلة معينة ، اذا كان كل منهم أو بعضهم ، يبدى رأيه بمعزل عن غيره من الافراد ، اذ أن الاراء الفردية — مهما كانت ضخامة عددها — لا يمكن أن يكون لها اثر سياسى ذا وزن فى حياة أى مجتمع ، وانما يقصد بالرأى العام الاتجاه الغالب للجماعات المنظمة فى شأن مسألة معينة ، اذا حاز هذا الاتجاه تأييد غالبية المواطنين .

ويؤدى الرأى العام — بالتعبير عن نفسه علنا — دورا هاما فى تحقيق الاستقرار السياسى فى المجتمع ، ذلك انه بتعرف الاجهزة الحاكمة على اتجاهات الرأى العام ، تحاول جهدها تعديل سياساتها بما يتفق او يقترب من مؤشراته ، الامر الذى يحمى النظام السياسى مما يمكن أن يعتريه

من هزات ، بفعل نتيجة انتخاب او استفتاء مثلا ، لم يكن من الممكن توقعها ، لعدم ادراك سلطات الحكم لاتجاهات الرأى العام ، الذى لم تتح له فرصة التعبير عن نفسه سلفا .

وفى مصر — بعد أن تعاقبت عليها مراكز القوى غير مرة — تكون تهيئة المناخ السياسى اللازم لظهور رأى عام قوى ، يمكن أن يقف حائلا دون نشوء مركز او مراكز قوى فى المستقبل ، امرا حيويا بالغ الاهمية .

واذا كانت الجماعات المنظمة التى تحرك الرأى العام فى المجتمعات التى تبيح حرية تكوين الجمعيات السياسية هى الاحزاب ، فانه فى مجتمعنا — الذى ارتضى التنظيم الشعبى الواحد ، أساسا للعمل السياسى — لابد لنا من أن نهيىء فرصة ظهور رأى عام قوى ، من خلال تنظيمات الاتحاد الاشتراكى .

ولما كان عدد اعضاء الاتحاد الاشتراكى يزيد على الخمسة ملايين عضو — وهو مايقرب من عدد الناخبين المقيدين بجداول الانتخاب — فانه يترتب على ذلك — حتما — النتائج الاتية :

١ — ان الاراء الفردية — مهما كانت درجة سلامتها — لا يمكن أن يكون لها وزن سياسى الا لماما .

٢ — انه اذا كانت جماهير الاتحاد الاشتراكى على كافة المستويات تؤمن بالعموميات السياسية فانه لا يتصور ان تتفق فى خصوصياتها ، واذا كانت تجمع على الكليات ، فلا يعقل أن تتطابق أراؤها فى التفصيلات .

٣ — انه لما يؤكد ذلك ، ان القوى العاملة المتحالفة فى اطار الاتحاد الاشتراكى — وهى العمال والفلاحين والرأسمالية الوطنية والمثقفين والجنود — وان كانت قد قبلت — نزولا على اعتبارات الوحدة الوطنية — تنظيما سياسيا واحدا يجمعها ، على اساس من الميثاق وبيان ٣٠ مارس ، فليس معنى هذا ان ايا من هذه القوى قد انفصلت — بالكامل — عن مصالحها الطبقية أو الفئوية ، الامر الذى لا مناص معه من التسليم بتمايزها مصلحةوفكرا ، مما يؤدى — بالضرورة — الى اختلاف الرأى فيما بينها ، بالنسبة الى المشاكل المختلفة — تحليلا وحلا — فى اطار الاسس الجوهرية لتحالف قوى الشعب العامل .

وفى هذا المعنى ، تضمن برنامج العمل الوطنى المقدم من الرئيس السادات الى المؤتمر القومى « أن الديمقراطية تعنى حرية الرأى والتعبير لكل عضو ولكل مستوى ولكل قوة من قوى التحالف ، وايجاد الظروف الملائمة لممارسة هذه الحرية » .

ولا شك فى نظرى أن الظروف الملائمة لممارسة حرية الرأى والتعبير لكل عضو ولكل مستوى ولكل قوة من قوى التحالف ، تتمثل أولا وقبل كل شيء فى اتاحة الفرصة للاتجاهات السياسية المختلفة ، للتعبير عن نفسها بحرية كاملة من فوق المنابر العلنية للاتحاد ، فى شكل تكتلات أو مجموعات سياسية منظمة ، تستمد شرعيتها من اقرار الاتحاد الاشتراكى ذاته لتكتلها او تجمعها ، وفقا لما ينص عليه فى نظامه الاساسى .

وتنادى بعض الاراء التقدمية (١) منذ فترة غير قصيرة ، بضرورة السماح بنوع من التكتلات السياسية داخل الاتحاد الاشتراكى ، فى شكل أمانات نوعية — أو ما شابهها — كأمانة للعمال وأخرى للفلاحين . وثالثة للمثقفين ، وهكذا

الا أننى أعتقد أنه من المتصور — وهو فى ذات الوقت أمر منطقى للغاية — أن تغلب كل قوة من قوى التحالف ، فى صياغتها لفكرها السياسى ، حلولا لمشاكل المجتمع ، تحقق اكثر من غيرها مصالحها الطبقية أو الفئوية على حساب الحلول الاكثر تحقيقا لمصالح المجتمع ككل ، فى بلد متخلف يتطلع الى التقدم ، الذى لابد وان يعرقل سبيله ، عدم الالتزام فى حل مختلف المشاكل ، بتخطيط علمى شامل فى جميع المجالات — بناء على دراسة علمية واسعة — يضع نصب عينيه فى المقام الاول ، ضرورات اللحاق — ثوريا — بموكب التقدم .

ومن ناحية أخرى ، فان التكتل أو التجمع على أساس طبقى او فئوى ، انما يؤدى الى انعزال المثقفين فى تكتل أو تجمع ينغلق عليهم ، فتفقد بانعزالهم باقى قوى التحالف جميعا ، ثروة فكرية وقدرة قيادية يمكن أن تؤدى بانفتاحها على فكر وقيادات باقى العناصر المتحالفة ، خدمات جليلة للعمل السياسى فى طريق الاشتراكية .

---

[١] مقال الاستاذ احمد عباس صالح — الكاتب — عدديونيو سنة ١٩٧١ ، والتنظيم السياسى لتحالف قوى الشعب العامل — د. عبد الكريم أحمد — الكاتب — عدد يوليو سنة ١٩٧١ ، وبناء الاتحاد الاشتراكى بالديمقراطية — الطليعة — عدد يوليو سنة ١٩٧١ .

لذلك ، نرى طرح شكل الامانات النوعية ــ وغيرها من الاشكال المماثلة ــ كهيكل تنظيمى داخل الاتحاد الاشتراكى ،تمارس من خلاله قوى الشعب العامل حرية التعبير كمجموعات منظمة، ونؤثر عليها فكرة تكتل أو تجمع أعضاء الاتحادفى العامل حرية التعبير كمجموعات منظمة ، ونؤثر عليها فكرة تكتل أو تجمع اعضاء الاتحاد فى تكتلات أو مجموعات سياسية ، لا يعتبر الانتماء الى طبقة أو فئة اجتماعية معينة ، شرطا للانضمام الى أى منها ، بحيث يسمح لكل مجموعة من الاعضاء يتكشف لها من خلال الحوار المفتوح • اتفاقا او تقاربا بينها بشأن حلول القضايا السياسية الهامة ، فى اطار مبادىء الوثائق الشعبية الكبرى ــ الميثاق وبيان ٣٠ مارس ،وبيان ١٠ يونيو الماضى وبرنامج العمل الذى اقره المؤتمر العام للاتحاد الاشتراكى ــ ان تأتلف فى مجموعة ذات برنامج سياسى محدد ، يسجل لدى احدى هيئات الاتحاد ــ بعد اقراره من هيئات معينة • بناء على توافر شروط موضوعة سلفا ــ تمهيدا لاعلانه فى جميع الوحدات الاساسية •

ولما كانت المادة ٥٥ من الدستور قد نصت على أن « للمواطنين حق تكوين الجمعيات على الوجه المبين فى القانون ، ويحظر انشاء جمعيات يكون نشاطها معاديا لنظام المجتمع أو سريا أو ذا طابع عسكرى » ، فان فكرة انشاء المجموعات أو التكتلات ذات البرامج ، لا تتعارض مع النص المذكور ،بما دامت مثل هذه المجموعات غير معادية ــ بالطبع ــ لنظام المجتمع ، وليست سرية بل علنية ، وليس لها أى طابع عسكرى .

ويمكن أننتصور ــ على سبيل المثال ــ ان يكون من بين شروط التكتل فى مجموعة سياسية ، ان يكون من بين طالبى تكوينها عدد أو نسبة معينة من اعضاء اللجنة المركزية أو المؤتمر القومى العام •

ونعتقد ان الصيغة التنظيمية للتكتل او التجمع على النحو السابق ، انما تحقق ــ على خلاف التجمع على اساس طبقى أو فئوى ــ النتائج التالية :

١ ــ تحقيق قدر لا يستهان به من الامتزاج العضوى بين قوى التحالف ، الامر الذى يحقق بدوره تقاربا فكريا فيما بينها ، من شأنه ان يؤدى ــ عند صياغة البرامج السياسية للمجموعات المختلفة ــ الى ترجيح الحلول التى تتفق ومصالح العناصر المتحالفة ككل ، ومصلحة المجتمع المصرى بأسره ، مما يحقق ــ عمليا ــ ما أعلنه الرئيس الساداتفى كلمتهامام ممثلى القياداتالعماليةيوم ٧ من أغسطس الماضى ، قائلا « ان كل مشكلة يجب ان يدرسها تحالف قوى الشعب على اساس قومى ، وليس على اساس فئوى ، وانما تكون الدراسة على اساس مصلحة مصر ، •• فمصلحة مصر فوق كل فئة وكل فرد وكل مصلحة شخصية » •

٢ ــ المساهمة ــ عمليا ــ فى اذابة الفوارق بين الطبقات باتجاه كل مجموعة ــ للحصول على اكبر تأييد ممكن لبرنامجها ــ الى ترجيح الحلول التى تتفق ومصلحة جميع قوى التحالف ، ولاشك ان هذه الحلول ، لابد وان تميل الى اذابة الفوارق بين الطبقات ، للحصول على تأييد اكبر فئات التحالف ــ عدديا ــ وهم الفلاحون والعمال •

٣ ــ تأكيد الوحدة الوطنية ، عن طريق امتزاج المثقفين بمختلف قوى التحالف ، وكذا امتزاج الجنود بهم ــ وهم جميعا مثقفين وجنود من اصل طبقى يرجع الى احدى القوى المتحالفة الاخرى ــ مما يحقق ايضا ما نص عليه بيان ٣٠ مارس من ضرورة التلاحم بين الشعب والقوات المسلحة •

٤ ــ الحد من الاثر السياسى للجماعات الضاغطة ــ كالنقابات والاتحادات الفئوية ، التى تكاد تنفرد بميدان العمل السياسى المنظم • فى غياب المجموعات السياسية المنظمة ، رغم انها ــ أى الجماعات الضاغطة ــ تقوم على المصالح الشخصية لاعضائها ــ فى الاغلب الاعم ــ وليس على أساس من مصالح المجتمع ككل •

٥ ــ وجود برامج سياسية ، يخوض على أساسها المرشحون انتخابات الاتحاد الاشتراكى والمجالس النيابية والشعبية ، يؤدى الى تمثيل هذه المؤسسات ــ تمثيلااكثردقة وواقعية ــلاتجاهات الشعب بالنسبة الى مختلف قضايا المجتمع ، على خلاف الحال فى انتخابات لا يلتزم فيها المرشحون بأى برنامج محدد ومفصل • مما يفسح المجال لاختيار المرشحين على أساس شخصى أو عائلى ــ كما هو الحال فى الريف عموما ــ أو عشوائيا بلا

أى أساس خاصة فى المجالات التى يلتزم فيها الناخب باختيار عدد معين من المرشحين – كبير نسبيا – دون أن يعرف الا قلة منهم ·

٦ – التنافس بين المجموعات للحصول على تأييد جماهيرى واسع لبرامجها ، انما يؤدى بالضرورة الى تنشيط العمل السياسى بسبب الاحساس بالمشاركة الفعالة فى اتخاذ القرارات السياسية ، مما يقضى على تراكم السلبيات فى وجدان الجماهير فى مجال العمل العام ، وظهور القيادات ذات الوعى والكفاءة والخبرة السياسية

٧ – ممارسة الشعب الفعلية لحرية التعبير ، ذلك أن الفرد عادة انما يقدم على ابداء رأيه بجرأة أكثر ، من خلال مجموعة كبيرة من الافراد تشاركه الرأى ،خاصة ونحن أحوج فىمصر الان – احوج ما نكون الى تهيئة مناخ الطمأنينة الملائم ، لاتاحة الفرصة للمواطنين للتعبير عن آرائهم فى صراحة وشجاعة ، بعد طول سنوات القهر الذى مارسته مراكز القوى المتعاقبة على مصر .

٨– التطبيق الفعلى لحرية الاجتماعات العامة والمواكب والتجمعات التى كفلتها المادة ٥٤ من الدستور فى فقرتها الثانية ، وذلك فى جانبها السياسى ، باجتماع أعضاء مختلف المجموعات السياسية للمؤتمر أو الدعوة لبرامجها ، داخل أوخارج مقار الاتحاد . فى حدود القانون .

٩ –تحقيق التطبيقالعملى، لما تضمنه برنامج العمل الوطنى ، من ان « الديموقراطية هىالضمان الوحيد ضد ظهور مراكز القوى ، ضد الشللية،ضد الولاء للفرد او مجموعة من الافراد ، اذ انه باقناع الاعضاء ببرنامج سياسى محدد يمتنع اى ولاء لفرد أو مجموعة من الافراد أو « شلة » فلا يتصور ان ينشأ مركز قوة جديد ، بل ان مثل هذا المركز – حتى لو بدا فى الظهور – فسرعان ما تخبو جذوته ، اذ أنه لو أمكنه التأثير على مجموعة فلن يستطيع التأثير فى غيرها ، بل أن المجموعة والمجموعات الاخرى ، لابد وأن تهب – فى هذه الحالة – للدفاع عن الحرية والديمقراطية باعتباره – فى ذات الوقت – دفاع عن حريتها فى العمل من أجل مبادئها وأهدافها ·

١٠ –أنه فىرحابفكرة المجموعاتالمنظمةذات البرامج ، فى اطار الاتحاد الاشتراكى ينبثق حل مناسب لمشكلة الصحافة فى مصر ، مما نعرضه بعد قليل ·

ويبين من كل ماسبق ، أن اباحة تكوين مجموعات سياسية ذات برامج تفصيلية – فى اطار الوثائق الشعبية الكبرى – داخل الاتحاد الاشتراكى ، شرط ضرورى لظهور رأى عام قوى ، يقف حائلا دون ظهور مراكز قوى جديدة فى المستقبل ·

ثالثا – ممارسة الشعب لحرية التعبير من خلال وسائل الاعلام

يقول الميثاق « **ان الكلمة الحرة ضوء كشاف أمام الديمقراطية السليمة** ، وبنفس المقدار ، فان القضاء الحر ، ضمان نهائى وحاسم لحدودها ·
ان حرية الكلمة هى المقدمة الاولى للديمقراطية ، وسيادة القانون هى الضمان الاخير لها »

واذا كانت ممارسة حرية الكلمة – باعتبارها المقدمة الاولى للديمقراطية – تقتضى حق استعمال قوى الشعب العاملة لاقوى وسائل التعبير فى الدولة الحديثة ، وهى فى ذات الوقت أقوى وسائل التاثير فى الرأى العام ، وهى الكلمة المسموعة (الراديو) ، والكلمة المرئية (التليفزيون) والكلمة المقروءة (وسائل النشر) وفى مقدمتها الصحافة ، فقد خص الميثاق الصحافة بالذات – لمالها من تاثير عظيم على الجماهير – بفقراتترسمدورهافىالمجتمع،تضمنت أن الصحافة بملكية الاتحاد الاشتراكى العربى لها ، هذا الاتحاد الممثل لقوى الشعب العاملة قد خلصت من تاثير الطبقة الواحدة الحاكمة ، كذلك خلصت منتحكم رأس المال فيها، ومن الرقابة غير المنظورة ، التى كان يفرضها عليها بقوة تحكمه فى مواردها . **ان الضمان المحقق لحرية الصحافة هو** أن تكون الصحافة ملكا للشعب لتكون حريتها **بدورها امتدادا لحرية الشعب** : وتأكيدا لذلك ، جاء فى بيان ٣٠ مارس انه **لابد وان تتوفر ايضا كل الضمانات لحرية التفكير والتعبير والنشر** والرأى والبحث العلمى والصحافة .

ولا يمكن أن نكون صادقين مع أنفسنا ، الا اذا اعترفنا – فى شجاعة – بأن وسائل الاعلام ، وفى

مقدمتها الصحافة ـ خاصة الصحافة اليومية والاسبوعية ـ لم تكن ـ في السنوات الماضية ـ تعبيرا صادقا عن اتجاهات الجماهير وافكارها ، وتصورها لنواحي النقص والخطأ والانحراف التي تفشت خلال تسلط مراكز القوى على البلاد ، فلم تكن هذه الوسائل ـ الا نادرا ـ الا تعبيرا عما تمليه عليها هذه المراكز بحكم سيطرتها على السلطة التنفيذية والتنظيم السياسي

واذا كان لوسائل الاعلام عذرها في ذلك الوقت بسبب وجود مراكز قوى عاتية، تملك وسائل القهر والبطش ، فلابد لنا الان ، من أن نعمد الى دراسة الحلول العملية التي يمكن أن تحول دون عودة وسائل الاعلام الى الانفصال في المستقبل ـ عن قوى الشعب العاملة ، والائتمار بأوامر السلطة التنفيذية ، أو قيادة الاتحاد الاشتراكي ـ مما يؤدي ـ ولو لم يكن هناك ثمة مراكز قوى ـ الى عدم قيامها بدورها الخطير في التعبير عن اتجاهات الشعب وكشف أوجه الخطأ والنقص والانحراف في جميع المجالات ، وحتى لا تتحول جميعا الى صور باهتة متكررة من آراء متماثلة ، يجرى التعبير عنها ـ في الظاهر ـ بأساليب مختلفة .

ولقد أشارت اللجنة المختصة بالمؤتمر القومي العام للاتحاد الاشتراكي سنة ١٩٦٨ الى هذه المشكلة ، فتضمن تقريرها في هذا الشأن أن «الصحافة ملك الشعب ، ولكن آثار هذه الملكية من حيث الواقع ليست قوية أو واضحة ، **ولذلك فان الصحافة يجب أن يعاد تنظيمها لتكون فعلا ملكا للشعب** ، وأداة من أقوى أدوات الاعلام في خدمة المجتمع الاشتراكي .. **الصحافة ليست ملكا للعاملين فيها** .. وانما ملكا للشعب كله .. واذا كانت الصحافة في المجتمع الاشتراكي وسيلة قوية لابراز الفكرة الجادة والرأى الجاد والقيادات الجادة **فانها كذلك باعتبارها منبرا للجميع** ، يجب **أن تسمح لوجهات النظر المتباينة بأن تتمتع بفرصة متكافئة** ، ومن هنا فان عناية خاصة يجب أن تعطى لحق الرد (٢) .

ونعتقد أن وجود مجموعات سياسية ذات برامج مختلفة يمكن أن تقدم ـ من خلال تنظيمات الاتحاد الاشتراكي حلا مناسبا في هذا الصدد ـ خاصة بالنسبة الى الصحافة اليومية والاسبوعية عن طريق **تخصيص صحيفة أو مجلة : لكل مجموعة سياسية** ، تعرض على صفحاتها آراءها ، الامر الذي يؤدي من جهة ، الى تمكين كل مجموعة سياسية من التعبير عن نفسها علنا من ناحية ويحقق من **السيطرة الفعلية للشعب** ، **على الصحافة التي يملكها قانونا من ناحية اخرى** (٣) .

وتحقيقا لهذه الفكرة عمليا ـ يجب أن يشترك **في مجلس ادارة كل مؤسسة صحفية : عضو أو أكثر ، يمثل احدى المجموعات السياسية : التي** خصصت لها احدى الصحف أو المجلات التي تصدرها المؤسسة ،

وبالنسبة الى باقي وسائل الاعلام ـ كالراديو والتليفزيون يمكن السماح للمجموعات السياسية بالتعبير عن آرائها في مختلف المشاكل من خلالها وفقا لنظام محدد يكفل **حيدة الحكومة** حيالها ، **في تنافسها على الدعوة لبرامجها** .

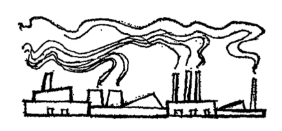
وقد نصت المادة ٤٨ من الدستور على حرية الصحافة والطباعة والنشر ، وان وسائل الاعلام مكفولة ، والرقابة على الصحف محظورة ، وانذارها أو وقفها أو الغاؤها بالطريق الاداري محظور ، وانه يجوز استثناء في حالة اعلان الطوارىء أو زمن الحرب أن تفرض عليها جميعا رقابة محددة في الامور التي تتصل بالسلامة العامة أو اغراض الامن القومي ، وفقا للقانون ، ومن ثم فانه بالنسبة الى الرقابة على وسائل النشر المختلفة ـ وكذلك بالنسبة للافلام السينمائية والمسرحيات ـ لابد من قصر هذه الرقابة على المعلومات أو الافكار الضارة بأمن الدولة الخارجي أو الداخلي في زمن الحرب وفترة اعلان حالة الطوارىء ـ وفقا هو الضمان الاخير الحاسم على أساس من سيادة للقانون ـ بحيث يكون القضاء ـ في النهاية ـ القانون والشرعية الاشتراكية لحدود ممارسة الصور المختلفة لحرية التعبير ، كما يؤكد الميثاق ،

---

[٢] تقرير لجنة التعبئة الداخلية بالمؤتمر القومي العام ، صفحة ٢٩ و٣٠ ، منشور بمجلة الكاتب ـ مقال جمال الشرقاوي المؤتمر العام ، مؤتمر للمعركة ـ عدد اكتوبر سنة ١٩٦٨

[٣] انظر في ضرورة تعدد المنابر الصحفية ، دوسيه المؤتمر القومي ـ القسم الثاني ـ صفحة ١٨ وما بعدها ـ من أجل ممارسة حقيقية للديمقراطية ـ الطليعة ـ عدد يوليو سنة ١٩٦٨.

مشـــكلة التنميــة الاقتصـــادية في الســـــودان



د.عبدالرازق حسن

لا يختلف الاطار العام لمشاكل التنمية فى السودان عنـــه فى البلدان النامية بوجه عام والافريقية بوجه خاص . وان كانت أبعـــاد هـــذا الاطار تتميز بالظروف الخاصة التى يعيشـــــها السودان .

والسودان أكبر دولة افريقية مســـاحة ، اذ تبلغ مساحته حوالى ٢٫٥ مليون كيلو متر مربع، ولا يقاربه فى المساحة فى الدول الافريقيـــة الا الكونغو ، ويمتد مسافة ٨٧٠٠ كيلو متـــر فى افريقيا، ويشغل موقعا استراتيجيا هاما من القارة، فعلى حدوده الشمالية توجد مصر وليبيا ، ويحيط به فى شكل قوس من الجنوب الشرقى والجنوب اثيوبيا واوغندا ، والكونجو وافريقيا الوسطى وتشاد . ويؤثر هذا الموقع فى التيارات القومية والحضارية المختلفة التى تتجاذب السودان .

والسودان من اخف المناطق الافريقية كثافة ، فبينما تصل مساحته الى حوالى ٨٪ من مساحة افريقيا ، الا أن نسبة سكانه لا تتعدى ٥٪ من سكان القارة . ويقدر عـــدد السكان فى الكيلو متر المربع بحوالى ٨ نسمة مقابل ٣٥ فى مصر ، ولا يماثله من ناحية انخفاض الكثافة السكانية فى افريقيا غير الجزائر والصومال وزامبيا ، وتشاد وداهومى ومالى .

ولا يزيد عمر السودان بحدوده الحالية على ١٠٠ سنة ، واذا استثنينا فترة الفوضى المهدية التى امتدت لمدة ١٧ سنة فى آخر القرن الماضى، فان السودان لم يكن حرا فى ادارة اموره الا منذ ١٦ ســـنة فقط . حينما تركته بريطــــانيا مهلهلا متناثر الاجـــزاء ، مقطـــع الاوصـــال ، مشتت الاهداف .

وتتضح المشكلة المادية للســـودان لو ادركنا أن متوسط **دخل الفرد يتراوح بين ٣٥، ٤٠ جنيها مصريا فى العام** . ولا يتعدى نصيب الفـــرد فى الغذاء ما يعطى ٢٠٩٠ سعرا حراريا ، ولا تزيد حصته من البروتين على ٥٨ جـــراما فى اليوم

[بالرغم من توفر اللحوم] ، وهذه المعدلات تقل عنها فى مصر بحوالى الثلث . ولا يتعدى نصيب الفرد فى السودان من الطاقة الحرارية ما يعادل ١٠٠ كيلو جرام من الفحم فى السنة، وهذا القدر يعادل ٤٥٪ من متوسط المعدل فى مصر ، ووفقا لاحصاءات سنة ١٩٦٩ هناك فى السودان جهازى راديو لكل ١٠٠٠ من السكان مقابل ١٣٥ فى مصر ، وهى معدلات متواضعة اذا قيست بدول العالم المتقدمة .. وبالرغم من ضخامة رقعة السودان ، واتصاله بعديد من الدول الافريقية ، الا أن السكة الحديدية فيه ، وهى الشريان الطبيعى للنقل والمواصلات ، لايزيد طولها على ٦٨٠٠ كيلو متر ، ولا تتصل فى امتدادها بأى من البلدان المجاورة ، وهى كمثيلاتها فى تنظيم بريطانيا لمستعمراتها كان الهدف منها اما استراتيجيا ، أو لصالح التجارة الخارجية .

ويعكس الوضع الخاص بالسودان مشاكل التنمية فيه ، التى تترابط فيها وتتشابك ما يتصل منها بالاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . وسنحاول فى هذه الدراسة القصيرة أن نعطى صورة سريعة لطبيعة هذه المشاكل من الزاوية الاقتصادية مرجئين بحث الزاويتين الاخرتين لدراسة أخرى .

وتتلخص المشاكل الاقتصادية للتنمية فى :

① نقص أموال الاستثمار .
② العجز المزمن فى ميزان المدفوعات .
③ نقص الموارد المستغلة وتركيزها فى مجالات محدودة .
④ نقص الايدى العاملة الفنية وارتفاع تكاليف الانتاج .

ونعطى فكرة سريعة عن كل عنصر من تلك العناصر :

نقص أموال الاستثمار :

تنخفض معدلات الاستثمار بشكل واضح فى السودان ، ويرجع ذلك لاسباب كثيرة منها انخفاض مستوى الدخل العام ، وانخفاض الميل للادخار ، وضعف الرغبة فى الاستثمار .

ولا تزيد نسبة تكوين راس المال الثابت وفقا لاحصاءات الدخل القومى على ١٢٪ واذا استبعدنا منها ما يقابل استهلاك رأس المال الثابت لانخفضت النسبة الى النصف أو ٦٪ ، وهو معدل لايساعد على مواجهة أعباء التنمية، ومقابلة التزايد الكبير فى السكان .

والملاحظ أن الافراد يفضلون الاحتفاظ بالقدر الاكبر من اموالهم فى شكل نقدى وخارج الجهاز المصرفى ويبدو أن ذلك يرجع الى ظروف اجتماعية وان كانت العوامل السياسية قد لعبت دورا له أثره فى تعميق هذا الاتجاه فى السنوات الاخيرة، فتبلغ نسبة ما يحتفظ به الافراد من نقد سائل الى النقد المصدر فى ديسمبر سنة ١٩٧٠ حوالى ٤ر٢٪ وكانت هذه النسبة ٣ فى المائة فى ديسمبر سنة ١٩٦٠ .

ونتيجة لاوضاع البنوك التى كانت تتحكم فيها عناصر أجنبية حتى ٢٥ مايو سنة ١٩٧٠ فان الائتمان الذى كانت تمنحه كان يتركز فى القروض التجارية التى تتميز بقصر الاجل . ولم تزد نسبة الاستثمارات الرأسمالية الممنوحة على ٧ر٣٪ من مجموع قروض البنوك فى ديسمبر سنة ١٩٧٠ واذا ادخل فى ذلك مختلف القروض متوسطة وطويلة الاجل (التى تزيد مدتها على ١٢ شهرا) فان النسبة لم تتعد ١٣٪ . ومع ذلك فالملاحظ أن الحجم الكلى لهذه المبالغ يقل كثيرا عن حسابات الادخار التى احتفظ بها الافراد فى البنوك فى هذا التاريخ .

وفى الحالات التى تطلب فيها قروضا لتمويل عمليات تنمية ، كانت المشكلة ارتفاع أسعار الفائدة الى ما يزيد على ١٠٪ ، وهى نسبة لا تترك فائضا يذكر بعد خصم التكاليف العالية ومواجهة مخاطر الاستثمارات الكبيرة .

وكان يمكن أن نعالج مشكلة عجز الاموال المخصصة للاستثمار عن طريق ايجاد فائض فى ميزانية الدولة ، غير أن الملاحظ أنه بالرغم من ارتفاع معدلات الضرائب (تبلغ نسبة ايرادات الدولة ما يتراوح بين ٢٥٪ ، ٢٨٪ من الدخل القومى) فان مخصصات الاجور تمتص ٤٠٪ من ايرادات الميزانية ، وينفق ٥٤٪ على المصروفات الجارية ، ولا يتبقى بعد ذلك أكثر من ٦٪ لا تكفى لمواجهة المشروعات الجديدة فحسب ، وانما لتعويض الانشاءات المستهلكة ، وقد كان يمكن قبول زيادة تكاليف ادارة جهاز الدولة لو أنه كان موجها لمشروعات الخدمات التى تخفف من الاعباء العامة للشعب ، غير أن الامر لم يكن كذلك ، فقد كانت تستخدم موارد الميزانية للتوسع الادارى ، وزيادة المرتبات والمخصصات ، وقد وجد مثلا أن النقل الميكانيكى قد كلف الدولة فى العام الماضى حوالى ١٧ مليون جنيه مصرى ما بين مرتبات سائقين واستهلاك سيارات ووقود وهو يعادل حوالى ٧٥٪ من تقديرات ضريبة الدخل فى تلك السنة .

ويشير التقرير الخاص بتنظيم الجامعة الى أن متوسط تكلفة الطالب بلغت فى سنة ٦٩ — ٧٠ حوالى ٢ر١٣٦ جنيها مصريا ، أو أكثر من اربعة أضعاف ونصف تكلفة الطالب الجامعى فى مصر ، وذلك بغض النظر عن ارتفاع مستوى خريج الجامعة فى مصر عن زميله فى السودان.

وقد أدى عجز التمويل الى اتجاه الحكومة لمواجهة مطالب الميزانية الاستثمارية عن طريق السحب من بنك السودان (البنك المركزى) وان كان المفروض أن مثل هذه المسحوبات تكون لمواجهة مصروفات طارئة ، ولها ما يقابلها فى الايرادات المنتظرة ، وقد بلغ رصيد الحكومة المدين فىديسمبر سنة ١٩٧٠ مبلغ ٢ر٤٤ مليون جنيه مصرى ، وذلك بالاضافة الى ما يعادل ٢ر٣١ مليون جنيه عبارة عن قروض ممنوحة للهيئات المحلية والاجهزة شبه الحكومية بضمانة الحكومة ، وهذان البندان يمثلان ٥٥٪ من مجموع أصول البنك ، وبالمقارنة لم تكن مديونية الحكومة والقطاع شبه الحكومى تزيد على مليونجنيه مصرى فىديسمبر سنة١٩٦٤ . وقد أدى هذا الوضع الى اندفاع الاسعار الى أعلى ، فأثار موجة تضخمية ذات آثار اقتصادية واجتماعية ، تكشفها حالة التوتر القائمة فى البلاد .

وقد ساعدت حالة التضخم الى ارتفاع الاسعار ، واستمرار العجز فى ميزان المدفوعات ، فامتصت الاحتياطيات النقدية التى كانت تحتفظ بها الدولة ، التى تولدت نتيجة تراكم فائض الميزان فى الماضى ، والتعويضات التى دفعتها الحكومة المصرية حينما تم الانفصال النقدى بين مصر والسودان ، وحينما اتفق على اقامة السد العالى . واتجهت الحكومة الى الحصول علىمعونات وقروض منالخارج ، وبلغ رصيد هذه القروض حتى ديسمبر سنة ١٩٧٠ ما يعادل ١٣٨ جنيها مصريا ، ولا يدخل فى الحسبان المعونات العسكرية الضخمة التى قدمها الاتحاد السوفيتى . وتشكل القروض الاجنبية عبئا على الاقتصاد القومى ، اذ تبلغ الفوائد السنوية الواجبة الدفع وذلك عدا الاقساط ما يعادل ٣ر٣ مليون جنيه مصرى فى العام . وبلغ متوسط خدمة الدين (أصل وفوائد) فى السنوات الخمس الماضية حوالى ٥ر١١ مليون جنيه مصرى .

وكان يمكن أن يزول أثر القروض الاجنبية لو انها كانت موجهة لمشروعات تدر عائدا يغطى خدمتها ، والواقع غير ذلك ، اذ تبين أن مجموعة المشروعات الصناعية التى اقيمت عن طريق قروض اجنبية وتكلفت حوالى ٥٠ مليون جنيه لا تحقق كسبا ، وانما تسبب خسارة تصل فى العام الى حوالى ٧٠٠ر٠٠٠ جنيه مصرى .

عجز ميزان المدفوعات

يؤدى العجز المزمن فى ميزان المدفوعات السودانى الى الالتجاء الىالاقتراض من الخارج الذى أصبحت شروطه بالغة الصعوبة فى السنوات الاخيرة ، كنتيجة طبيعية للقلقلة التى تسود سوق النقد العالمية . **وقد بلغ عجز ميزان المدفوعات فى السنوات الخمس الاخيرة مبلغ ١٠٢ مليون جنيه مصرى بمتوسط قدره ٤ر٢٠ مليون جنيه فى العام .**

ويرجع الجزء الاكبر من عجز الميزان الى **الخدمات غير المتطورة كالنقل والتأمين والفوائد المدفوعة للخارج ، وأجور الخبراء والعمال الوافدين من الخارج** . وبالرغم من أن البنوك قد أممت ، وصودرت أموال مجموعة ضخمة من الاجانب والمتسودنين ، وحصرت عملياتالتأمين فى الشركات السودانية ، الا أن المدفوعات للخارج لم تنخفض ، ولا ينتظر أن تنخفض فى القريب وذلك لارتفاع رسوم النقل ، وزيادة قيمة التحويلاتالنقدية التى يقوم العاملون الاجانب بها نتيجة لتضييق حريتهم فى الشراء من الداخل ، واشتراط اوضاع معينة لتصدير السلعالمشتراة بمعرفتهم. وقد بلغالعجزفىميزان الخدمات فىسنة ١٩٧٠ وحدها حوالى١٦مليون جنيه مصرى أو بنسبة ٨٢٪ من مجموع العجز، وقد بلغت نسبة هذا العجز فى السنوات الخمس الى عجز الميزان الجارى حوالى ٧٢٪

والملاحظ ان التجارة الخارجية السودانية تنمو ببطء كبير ، لعدم زيادة الصادرات ، الذى يحدد بدوره حجم الواردات . فاذا استثنينا القطن الذى ارتفعت أسعاره نسبيا فى السنوات الثلاث الاخيرة نجد أن قيمة المحاصيل المصدرة الاخرى كانت نسبة متجمدة ، اذا تراوحت بين ٦ر٥٢ مليون جنيه مصرى ، ٥ر٥٣ مليون جنيه مصرى .

وتنحصر صادرات السودان فى سلع قليلة محدودة ، هى القطن وتوابعه من بذرة وكسب وزيت ، والفول السودانى والسمسم ، والصمغ والحيوانات الحية . ويؤدى تصدير السلع فى أغلبها فى شكل خام الى نقص العائد الذى كان يمكن أن يؤول للمجتمع لو كانت قد صدرت

مصنعة بشكل كلى أو جزئى . فضلا عن أن نقص المواصلات من مراكز الانتاج الى ميناء التصدير تؤدى الى زيادة الضغط عليها وعدم قدرتها على مواجهة زيادة التصدير حتى لو زاد الانتاج .

نقص الموارد المستغلة

بالرغم من ضخامة مساحة السودان ، الا ان **الجزء الصالح للزراعة فيها لا يتعدى ٣٪** ، وتشكل المراعى والغابات مساحة تبلغ حوالى ٤٥٪ ، وأكثر من نصف مساحة السودان مناطق جبلية أو صحراوية غير صالحة للزراعة .

ويمتد السودان فى منطقة بين خطى عرض ٨ ، ١٦ درجة شمالا ، وهى منطقة تتدرج من الصحراوية شمالا الى الحشائش فى الوسط والغرب (استبس) الى الغابات فى الجنوب . ويسقط المطر بمعدلات ليست صغيرة ، اذ تصل الى ١٠ بوصات فى المناطق الوسطى ، وترتفع الى ٦٠ بوصة فى المناطق الجنوبية . غير أن اشتداد درجة الحرارة وتركيب التربة يؤدى الى ضياع قدر كبير من الماء . وفى المناطق الجنوبية القريبة من منابع النيل يضيع الجزء الاكبر من الماء بين أعشاب النيل (ورد النيل) وبين البخر بالحرارة . وباستثناء المديريات الجنوبية ، أو بعض أماكن فيها اذا أردنا الدقة ، فان الامطار تسقط بشكل غير منتظم على الارض ، الامر الذى يجعل الزراعة الدائمة على المطر تكتنفها الكثير من الصعوبات ويجد الرعاة أنفسهم مضطرون الى الانتقال من مكان الى آخر وراء العشب ، ليس معنى ذلك أن امكانيات الزراعة محدودة ، فالعكس صحيح، فما زالت الدراسات التى اعدت منذ أوائل القرن للرى صالحة ، وما زال من المكن السيطرة على قدر كبير من الماء الذى يضيع هباء بعد خروجه من منطقة البحيرات ، سواء عن طريق النباتات المائية ، أو ينساب بلا ضابط فى مناطق الاعشاب .

وبالرغم من القلة النسبية للمساحة المزروعة من أرض السودان ، الا أنها مساحة كبيرة اذا قورنت ببلاد أخرى كمصر مثلا ، ومع ذلك فان المحاصيل المنتجة محدودة النطاق ، ولا يلمس الانسان تقدما يذكر فى تغيير نوعية المحاصيل ، منذ نصف قرن ، والتى لا تخرج عن القطن والحبوب الزيتية (السمسم والفول السودانى) والحبوب الغذائية (الذرة ، والدخن ، والقمح) والانتاجية الزراعية بشكل عام تنخفض كثيرا عنها فى البلدان المتقدمة فى الزراعة ، لقلة استخدام السماد من ناحية ، ونقص الادوات الحديثة ، وعدم الاهتمام السكانى بالبذور المحسنة ، وانتشار الافات الزراعية وانخفاض الكفاية الانتاجية للعاملين فى الزراعة . فنجد مثلا أن نصيب الفرد فى الانتاج الزراعى والثروة السمكية والحيوانية لا يتعدى ١٣ جنيها فى العام وذلك مقابل ٢٠ جنيها فى مصر . وتزيد انتاجية القطن وحده فى مصر عن ضعفه فى السودان ، وهو اهم محاصيل البلاد ، وينال من العناية ما لا يماثله محصول آخر .

وبالرغم من أن نسبة الماشية فى مصر مثلا لا تتعدى ١٣٪ من حجم الماشية فى السودان ، وتبلغ نسبة الاغنام حوالى ١٧٪ من عددها فى السودان ، فان انتاج الالبان فى السودان لايزيد عن مثيله فى مصر الا بنسبة تقل عن ٢٣٪

ونحن نلمس فى مصر ، انخفاض أسعار اللحوم السودانية ، وضعف الطلب عليها ، لنقص جودتها .وليس هناك ما يمنع من تحسين اللحوم ، بانتقاء السلالات ، والعناية بتربية المواشى والاغنام . وهناك مشروع قرب العاصمة لذلك ، ولكنه محدود النطاق لايستطيع مواجهة الطلب المحلى على انخفاضه .

وكان من المتصور أن تنتشر الجرارات والوسائل الالية نتيجة للظروف العامة والطبيعية فى السودان ، غير أنها بالعكس محدودة الاستعمال ، ولا يزيد عدد الجرارات الميكانيكية على ٣٤٠٠ جرار .

أما عن الانتاج المعدنى فهو ضئيل جدا ، ولا تزيد قيمة المنتج ما يعادل ٣ مليون جنيه مصرى فى العام من المنجنيز ، والكروم والجنزيت والملح . ولا يستخرج من البلاد أى شىء من البترول أو الغازات الطبيعية . وليس معنى ذلك أن البلاد تفتقر الى المعادن ، ولا يتصور أن هذه المساحة الضخمة تشذ عن البلدان الافريقية المجاورة وتفتقر الى المعادن ، ولعل السبب يرجع الى عجز امكانيات الاستغلال ، وعدم الاهتمام باجراء مسح جيوفيزيقى للبلاد .

وتتجه البلاد الى تصدير منتجاتها الزراعية غير مصنعة كالقطن والحبوب الزيتية ، ولعل تصنيعها يرفع من قيمتها ، ويزيد من الدخل القومى ، غير ان المشكلة التى تحول دون ذلك هى انخفاض الكفاية الانتاجية ، وارتفاع تكاليف الانتاج بالتالى ، هذا ولا يزيد ماتصنعه السودان فعلا من انتاجه على ٨٪ من القطن فى الوقت الذى تستورد البلاد قدرا كبيرا من المنسوجات

تصل قيمتها فى متوسط السنوات الخمس الماضية أكثر من ٢١ مليون جنيه مصرى .

ومن المنتجات التى تستورد ويمكن انتاجها محليا ، الشاى والبن والسكر والمواد الغدائية الاخرى . ويقدر متوسط قيمة ما استورد منها فى السنوات الخمس الماضية بحوالى ٢٢٫٥ مليون جنيه مصرى .

ولا تزيد قيمة الانتاج الصناعى فى مجموعه عن ١٠ ٪ من الانتاج القومى ، والمنتج فى مجموعه لا يتعدى السلع الاستهلاكية ، ومواد البناء ، وتجميع بعض السلع المعمرة . مثل الصابون والسجاير والبسكويت والكبريت ، والمنسوجات والسكر ، والمعلبات ، والاحذية ، والاسمنت ، والاثاث الحديدى ..

انخفاض الكفاية الفنية وارتفاع تكاليف الانتاج

ترتفع تكاليف الانتاج بشكل ملحوظ فى السودان ، واذا اخذنا الارقام الرسمية عن الانتاج القومى لوجدنا أن انتاجية العامل لاتتعدى ١٠٠ جنيه مصرى فى العام ، هذا فى الوقت الذى تتراوح فيه قيمة أجور الفنيين بين ١٧٥ قرشا ، ٢٥٠ قرشا فى اليوم ، وأجور العمال غير المهرة بين ٣٥ قرشا ، ٥٠ قرشا .

والجدير بالملاحظة أن السودانيين لا يقبلون على بعض الاعمال التى يتصورون أنها مهنة لا يقوم بها الا الفئات الدنيا فى المجتمع ، فنجد « الفلاتة » مثلا وهم الوافدون من نيجيريا يقومون بجمع القطن ويصل عددهم فى الموسم الى حوالى نصف مليون عامل ، ويقوم بعضهم بأعمال صغيرة فى العاصمة ، وبعض القبائل السودانية تحتقر العمل اليدوى وتفضل الرعى ، وبعضها يأنف من الزراعة ويعتبرها حرفة النساء وهكذا ..

وفى الوقت الذى تحتاج فيه البلاد للخبرات والكفايات نجد أن نظام التوظف فى الدولة يقوم على احالة العاملين على المعاش فى سن ٥٥ ،

وتؤدى الصراعات السياسية أيضا الى استبعاد بعض العناصر ذات الكفاية باعتبارها عناصر غير موالية ، أو بهدف اعطاء فرصة للمؤيدين والانصار . وقد خلقت القلقلات السياسية والاجتماعية منذ الاستقلال حالة من عدم الاستقرار فى جهاز الدولة الوظيفى مما أدى ليس الى انخفاض الكفاية فيه فحسب، وانما الى انتهاز من يعمل فيه للفرصة لزيادة كسبه بكل الطرق ليس هنا مجال الحديث فيها .

وقد أدت الظروف السياسية التى مرت بها السودان فى السنوات الاخيرة ، الى ايجاد حالة من القلق وعدم الاطمئنان من الاجانب والمتسودنين ، لما يلمسوه من تفرقة فى المعاملة مما أدى الى نزوح الكثير من الخبرات والكفايات التى لم يتم احلالها .

وقد قامت محاولات فى السنوات الاخيرة ، لتوسيع قاعدة التعليم الجامعى ، واقامة العديد من المعاهد الفنية العالية ، غير أن العقلية المسيطرة على هذه الاجهزة ، ومحاولتها التمسك باهداب النظم الانجليزية ، مع الاختلاف الكبير بينها وبين ما هو مناسب لظروف السودان ، أدى الى انخفاض المستوى وعدم امكانية البلاد مواجهة مشاكل التنمية .

ويطالب رجال الاعمال السودانيين ، ورأس المال الاجنبى الذى تعمل الحكومة على تشجيع دخوله فى الفترة الاخيرة الى المطالبة بامتيازات خاصة بالمعاملة الضريبية، وطريقة تحويل الارباح للخارج، والحد من الاستيراد ، كلها بهدف ضمان عدم منافسة المنتجات الاجنبية حتى لو ارتفعت الاسعار فى الداخل ، وتحمل العبء المستهلك المحلى ، واذا كان الامر كذلك فان الانسان يتساءل لماذا لا تتولى الدولة مثل هذه المشروعات. وهنا نجد انفسنا مواجهين بالصراع الكبير الدائر الان بين المنادين بالتنمية بالاسلوب غير الرأسمالى ، واولئك الذين يعملون على دفع المجتمع للعودة للاسلوب الرأسمالى التقليدى بالرغم من فشل الاخذ به ، وعدم صلاحيته للدول النامية ، وبالذات تلك التى تهتم بالتنمية المتوازنة التى تحد من التناقضات الاقتصادية والاجتماعية

التطور غير الرأسمالى

فى آسـيا

وأفريقيـا

ماله وما عليه .. مشاكله .. وأبعاده

لوثر راثمان

هارتموث شيلنج

الدراسة التى يقدمها البروفسـور لوثر راثمان عميد معهد الاستشراق بجامعة كارل ماركس بلييزج ـ المانيا الديمقراطية ـ ، والدكتور هارتموث شيلنج أحد المستشرقين الالمـان ، تمثل رؤية جديدة لاثنين من أكثر علماء المـانيا الديمقراطية شهرة وتعمقا فى فهم واقع وتطورات دول العالم الثالث .

وقد تكون هناك وجهات نظر متباينة حول قضية التطور غير الراسمالى ، الا انه برغم كل ما كتب حولها لازالت بحاجة الى كثير من الدراسات والابحاث النظرية ، ونحن نعتقد أن هذه الدراسات تمثل اسـهاما جادا فى هذا الصدد .

تتميز المرحـلة الحـالية من العمليـة الثورية العالميـة بتبلور جبهـة قوية وجبارة من القوى الاجتماعية فى اطـار النضـال المعـادى للامبريالية الذى تشنه مختلف الامم ، بصورة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ النضال الثورى ضد الرأسمالية . لقـد أصبح النظـام الاشتراكى العالمى ، باعتباره العامل الحاسم فى التطور العالمى ، « معجلا هائلا للتقدم الاجتماعى » على نطاق العالم .

والشىء الدال على تغير الظـروف لصـالح القوى المناضلة من أجل التقدم الاجتماعى : هو أنه فى الوقت الحاضر ، وحتى فى هذه البلدان التى لا تتوافر فيها الظروف الموضوعية والذاتية لانتقال مباشر الى الثورة الاشتراكية ، « بـدا النضال من اجل التحرر الوطنى الذى سيتطور فى الواقع الى نضال ضد كل من الاسـتغلال الاقطاعى والراسمالى » ، كما جاء فى مقررات المؤتمر الرابـع والعشرين للحـزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى .

وتتمثل احدى السمات الهامة للغاية لهـذه العملية فى قـرار عـدد من البلدان التى كان يقهرها الاستعمار من قبل فى آسـيا وأفريقيا بالسير فى طريق التطـور غير الراسـمالى ، ويعتبر الاتجاه الاشتراكى لهذه البلدان تعبيرا عن نوع جديد من النضال المعادى للامبريالية الذى تشنه شعوب آسيا وافريقيا بعد القضاء على الحكم الاستعمارى الامبريالى المكشوف ،

وخطوة هامة نحو توسيع تطور العملية الثورية العالمية نحو الاشتراكية ، وتعبير واضح عن ازدياد عمق الازمة العامة للنظام الرأسمالى وعن تصدع نظام استغلالها العالمى . ويرتبط ذلك ارتباطا وثيقا بسيطرة الطبقة العاملة على السلطة فى البلدان الاشتراكية بالاضافة الى تغير ميزان القوى فى العالم لصالح الاشتراكية والقوى المعادية للامبريالية بفضل النمو الثابت لقوة الاتحاد السوفيتى ، وازدياد المكانة الدولية لمجموعة البلدان الاشتراكية قوة .

ان التطور غير الرأسمالى فى آسيا وافريقيا يكتسب ،من وجهة نظر الصراع الطبقى بين الاشتراكية والامبريالية فى العالم : أهمية سياسية وعملية متزايدة بالنسبة لابعاد العملية الثورية العالمية ، وبالاضافة الى ذلك فانه يطرح عددا من المشاكل النظرية والعلمية . وقد أوضح ذلك تماما المؤتمر الرابع والعشرون للحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى ، أكثر الاحزاب نضجا وتجربة فى الحركة الشيوعية الدولية ، فى تعميمه للتجارب التى اكتسبتها القوى الثورية فى انتهاج طريق التطور غير الرأسمالى وفى نضالها المعادى للامبريالية من أجل تغييرات اجتماعية تقدمية فى بلدان أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، وفى تأكيده الواضح على ما هو جديد وأساسى فى هذه العمليات . وكان مما له أهمية خاصة ماجاء فى مقررات المؤتمر من أن بلدان آسيا وأفريقيا ذات الاتجاه الاشتراكى « تعتبر بين طلائع حركة التحرر الوطنى المعاصرة » . وهذا التقرير يجد تبريرا كاملا له فى النجاحات التى حققتها قوى التحرر الوطنى والاجتماعى فى هذه البلدان فى هجومها على الحكم الامبريالى ، وفى حقيقة أن التغيرات الاجتماعية التقدمية التى تحققت فى تلك البلدان متقدمة للغاية بالمقارنة مع البلدان المستعمرة والتابعة السابقة الاخرى .

[١]

بعض نتائج التطور غير الرأسمالى اليوم

يمكننا أن نشير هنا الى عديد من حقائق ونتائج التطور خلال السنوات القليلة الماضية . أن أكثر من ربع سكان البلدان المستقلة حديثا فى أفريقيا ، وحوالى ٦٠٪ من سكان البلدان العربية يعيشون الان فى دول ذات اتجاه اشتراكى . وقد نجحوا فى تدعيم استقلالهم الوطنى ، واجراء تغييرات اجتماعية هامة فى البناء الاقتصادى لصالح الجماهير ، وتحقيق تقدم هام فى تغيير الابنية السياسية والايديولوجية التى ورثوها عن الماضى الاستعمارى . لقد تغيرت الظروف الاقتصادية والاجتماعية تماما ، نتيجة لتأميم المشروعات الصناعية للاحتكارات الاجنبية ، ولرأس المال الوطنى كذلك فى بعض الاحيان ، ونتيجة الاصلاحات الزراعية التى جرى تنفيذها . وعلى الرغم من الصعوبات الضخمة التى ترجع الى التخلف الاستعمارى الكبير للاقتصاد ، والى الاعمال المعادية للثورة من جانب الامبريالية ، صاحبة التغييرات الاقتصادية الاجتماعية فى البلاد ذات الاتجاه الاشتراكى اندفاع سريع فى قواها الانتاجية . ولا يمكننا أن نتغاضى عن أن الانظمة السياسية التقدمية فى بلدان آسيا وأفريقيا قد نجحت فى زيادة استقرار قوتها خلال السنوات القليلة الماضية ، وتمكنت بلدان مثل الجمهورية العربية المتحدة ، والجمهورية العربية السورية ، وجمهورية غينيا ، حتى من التصدى للعدوان المباشر الذى شنته عليها الامبريالية العالمية ووكلائها الرئيسيين ، أو أن بلدانا مثل جمهورية الكونغو الشعبية قد أحبطت الاعمال التخريبية للامبريالية والموجهة ضد البلاد . وتحت تأثير « الاشتراكية العلمية » وتمشيا مع منطق الصراع الطبقى حدثت تغييرات تقدمية أبعد مدى فى المفهومات السياسية والايديولوجية للقادة الديموقراطيين الثوريين . ويجب أن يوضع فى الاعتبار بين منجزات البلدان التى تسير فى الطريق غير الرأسمالى ، بالاضافة الى ماسبق ، بدء عملية بعيدة المدى لثورة ثقافية ، والاتجاه الى نظام اجتماعى للتعليم القومى ، وتطوير الوعى القومى الذاتى للجماهير والفن والادب القومى الحديث على أساس ديموقراطى .

واذا ما تفحصنا الامور بعناية ، يجب التأكيد

بشكل خاص على عاملين فقط ؛ لهما اهمية أساسية من وجهة نظرنا :

❶ أن تطور البلدان ذات الاتجاه الاشتراكي فى أفريقيا وآسيا أدى فى السنوات الاخيرة — رغم الصعوبات الضخمة والانتكاسات العديدة — الى :

● **التأكيد بوضوح على النطاق العالمى لفعل قوانين الانتقال الى الاشتراكية فى عصرنا .**

● البرهنة مرة أخرى على **صحة تقديرات لينين حول تنوع وتعدد أشكال الانتقال مع سريان فعل قوانينها الاساسية .**

● البرهنة بشكل عملى لا يتطرق اليه الشك على صحة وحيوية مفهوم لينين عن **التطور الراسمالى فى ظل الظروف المعقدة للتخلف الاستعمارى والهجمات العنيفة للغاية التى تشنها الامبريالية على شعوب البلدان الناشئة** فى آسيا وافريقيا التى تسعى الى الحرية والتقدم واثراء هذا المفهوم بتجارب جديدة — وذلك لاول مرة خارج حدود العالم الاشتراكى .

وفى رأينا ، أنه يجب اعطاء أهمية كبرى للعبارة الاخيرة ، اذ أنه قد أصبح من الواضح أكثر وأكثر أن **الامبريالية عاجزة عن أن تقدم مفهوما اجتماعيا يفتح أمام شعوب افريقيا وآسيا طريقا عمليا لحل مشاكلهم الخاصة .**

ان المدافعين عن طريق التطور الرأسمالى المشين ، يلجأون لذلك وبشكل متزايد الى طرق منحرفة ، **الى البراجماتية المكشوفة والتجريبية ، بينما تتزايد جاذبية ونفوذ الماركسية اللينينية ومفهومها باطراد فى آسيا وافريقيا .** والانتكاسات المؤقتة التى عانت منها الحركة المعادية للامبريالية فى بعض المناطق فى الخطوط الامامية لا تقلل بأى حال من اهمية هذا التقدير . انها تؤكد بالاحرى أن التطور غير الرأسمالى سيتوطد فحسب خلال صراع طبقى عنيف ضد الاستعمار الجديد والقوى المعادية للثورة فى الداخل . وتوضح النجاحات التى حققتها الشعوب التى تسير فى طريق تطور غير راسمالى ، بما فيه الكفاية ، أن القوانين العامة لعصرنا تصبح أكثر فعالية فى آسيا وأفريقيا كذلك .

❷ عند التقييم الدقيق للتطور غير الرأسمالى اليوم يجب أن نؤكد قبل كل شىء على أن **التحالف مع الاتحاد السوفييتى ودول المعسكر الاشتراكى الاخرى قد ازداد قوة** . وقد أشار ليونيد بريجينيف فى المؤتمر الثانى لحزب الوحدة الاشتراكى الى « **أن التحالف العظيم بين البلدان الاشتراكية والدول القومية الفتية التقدمية يعتبر واحدا من أبرز القسمات التى تميز عصرنا** » كما يتضح أكثر فأكثر فى الواقع العملى أن وجود الاشتراكية العالمية وتأثيرها المتزايد على الاحداث الدولية ، ومساعداتها السياسية النشطة ، بل والعسكرية كذلك فى بعض المناطق ، للانظمة التقدمية فى آسيا وأفريقيا ، وتوسيع التعاون معها فى كل مجالات الحياة الاجتماعية ، قد أصبح شرطا ضروريا ليس فقط لانتقال تلك الشعوب الى طريق التطور غير الرأسمالى ، وانما كذلك لتحقيق مثل هذا التطور ونجاحه الى مدى أبعد . وهذا النوع الجديد من التحالف قد أكدته بوضوح معاهدة الصداقة والتعاون التى وقعت أخيرا بين اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية والجمهورية العربية المتحدة .

وفى رأينا ، فان التقييم الدقيق للتطور غير الرأسمالى اليوم لا يمكن أن يتجاهل القاعدة التى تقول **بان التطور غير الرأسمالى : قد أثبت ، من حيث المبدأ : تفوقه التاريخى على طريق التطور الرأسمالى فى كل من آسيا وافريقيا** ، رغم أنه ما زال هناك كثير من الجوانب العملية التى يجب انجازها بالتفصيل فى المستقبل . ولا يجب بالتأكيد أن نتغاضى عن أن التطور غير الرأسمالى ما زال حديثا للغاية ، ويمثل تاريخيا اتجاها جديدا تماما خارج العالم الاشتراكى . كما لا يجب أن نسقط من اعتبارنا أن دافع البلدان الافريقية الاسيوية للسير فى طريق التطور الرأسمالى تحكمه قوى قديمة للامبريالية العالمية لديها خبرة فى استغلال الشعوب الاخرى والتعامل معها سياسيا وثقافيا . وهم يقومون بمجرد تحسين التطبيقات الناجحة للحكم الرأسمالى كى يدعموا الاتجاهات التلقائية نحو

التطور الرأسمالي في هذه البلدان ويخلقون بذلك انظمة رأسمالية تعتمد عليهم اعتمادا كاملا . وبالاضافة الى ذلك ، فالبرجوازية القومية في هذه البلدان غالبا ما تكون اكثر خبرة من الناحية السياسية واكثر تنظيما من الجماهير العاملة . ان التطور غير الرأسمالي يخلق اسسا وابنية جديدة في كل من الاقتصاد والمجتمع ، لا تجد مساندة او مساعدة من جانب اى عمليات تلقائية . والتغيرات التي تحققت داخل اطار التطور غير الرأسمالي تؤدى الى ظروف سياسية واجتماعية تعيد بالفعل الحيوية والحياة الى الكيان الاجتماعي للمستعمرات السابقة وترمى الى تحقيق نجاحات طويلة المدى ، كما انها تضمن فعالية اجتماعية طويلة الامد ومنجزات دائمة للجماهير العاملة . ويتيح التطور الرأسمالي في بعض الاحيان فرصة تحقيق نجاحات قصيرة الامد في معدلات النمو وغيرها من المعطيات الاقتصادية ، والتي لا تمثل مع ذلك شيئا طارئا بالنسبة للتغيرات الرئيسية في الابنية الاقتصادية القومية والاجتماعية ، والتي تتحمل عبأها ، في التحليل الاخير ، الجماهير العاملة . وغالبا ما وجدت البلدان ذات الاتجاه الاشتراكي ظروف بداية غير مواتية فيما يتعلق بمواردها القومية ، وتطور كادرها ، والبناء التحتي ، والموقع الجغرافي ، ومستوى التطور ، في أفريقيا جنوب الصحراء قبل غيرها . ولذلك كانت المشاكل في تلك البلدان أكثر تعقيدا ، وكانت الراديكالية السياسية اكثر وضوحا ، كما كانت المواقف المعادية للرأسمالية اكثر ثباتا . ومن الناحية الاخرى فقد سارت في طريق التطور الرأسمالي في المحل الاول تلك البلدان الاكثر تطورا من الناحية الاقتصادية والاجتماعية في آسيا وافريقيا ، والتي تحتفظ فيها الامبريالية بمصالح اقتصادية خاصة ، ولذلك عملت على تأمين مراكزها بعناية عندما بدأ الحكم الاستعماري المكشوف في الانهيار . **ان التطور غير الرأسمالي لا بد وأن يتعرض على الدوام لهجمات عنيفة من جانب الامبريالية العالمية** ، ولعدوانها وانحرافاتها التي اذا لم تؤد الى النتائج المطلوبة، فانها تؤدى على الاقل الى خسائر اقتصادية واضطرابات في النمو ، والاحتفاظ باجراءات أمن وحماية مكلفة . وتركز الامبريالية جزءا كبيرا من امكانياتها الهائلة للمساعدة التي تقدمها للبلدان الرأسمالية التابعة الداخلة في نطاق نظامها لتقسيم العمل الدولي والتي تفتح بابا للاستغلال الاستعماري الجديد لبلدان آسيا وافريقيا . ورغم ذلك ، فان طريق التطور الرأسمالي ليست أمامه تاريخيا فرصة للنجاح في المستقبل في آسيا وافريقيا **فالتقدم الاجتماعي يمكن تحقيقه في عصرنا فحسب من خلال النضال ضد الامبريالية وقوى الرجعية الداخلية** ، التي تتصرف كأتباع مخلصين للامبريالية ، كما يمكن تحقيقه في التحليل النهائي بالاتجاه الاشتراكي . ورغم بعض التقدم الذي أمكن تحقيقه في تطور القوى المنتجة ، وفي التغلب على الظروف السابقة على الرأسمالية ، تلك النجاحات التي ربما يحققها طريق التطور الرأسمالي ، في المحل الاول ، تحت الضغط الذي تمارسه العناصر التقدمية والصراع الطبقي الذي يشنه الشعب العامل ، فقد ثبت عجزها عن القضاء على التناقضات بين الاستغلال السياسي والتبعية الاقتصادية للامبريالية ، وعن وقف عملية افقار الجماهير ، وعن حماية المصالح القومية للشعوب .

[٢]

العلاقة بين العام والخاص في التطور غير الرأسمالي

ان **الوظيفة التاريخية** للتطور غير الرأسمالي تنبع من المكان الذي يحتله هذا التطور في مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية . وهناك اتفاق عام اليوم بين علماء الاجتماع الذين يقفون في صف الماركسية اللينينية على أن **نواة التطور غير الرأسمالي تكمن في توفير الشروط المادية والتكنيكية ، الاقتصادية والاجتماعية ، والسياسية ، والايديولوجية ، الثقافية اللازمة للانتقال الى الاشتراكية من خلال تغييرات اساسية للظروف الاجتماعية المتخلفة دون المرور**

بشكل كامل خلال نظـــام اجتماعي ذو اتجـــاه رأسمالي . ان التطــور غير الرأسمالي يتيـــح فرصة للوصول الى الاشتراكية لا من خلال مرحلة الرأسمالية الناضجة وما يرتبط بها من اشكال متطورة للعلاقات الطبقيـــة العدائية ، وانمـــا بتجنب التتابع المعـــروف من الاقطـــاع ، الى الرأسمالية المتطورة الى الاشتراكية .

ان الفكرة الشائعة في دوائر حركة التحرر الوطني عن أن التطـــور غير الرأسمالي وبنـــاء الاشـــتراكية شيء واحـــد لا تتفق مع الظروف الواقعية الموضوعية والذاتية التي يبداون منها . وقد اشـار **ف.أ.لينين** بتأكيد كبير الى انه « **في بلد يتكون غالبية سكانه من ملاك صـــــغار او مزارعين صغار يمكن تحقيق ثورة اشتراكية فقط خلال عدد من الاجراءات الانتقالية الخاصة** » .

ويتلخص الهدف الرئيسيللتطور غيرالرأسمالي في القضاء التام على النفوذ الامبريالي في كل المجالات الاجتماعية . وهذا يحدد كذلك الحكمة الطبقية لنقطة الانطلاق ، ووضع هذا التطـــور في مرتبةالثوراتالديموقراطية المعاديةللامبريالية في مرحلة الانتقال منالرأسمالية الىالاشتراكية .

ان تصنيف التطور غير الرأسمالي باعتباره ثورة ديموقراطية معادية للامبريالية ذات اتجـــاه اشتراكي يتضمن أن مهامه الموضوعية تتخطى نطاق الديموقراطية البرجـــوازية . **ولا يمثل التطور غير الرأسمالي نوعا « ثالثا » من الثورات تتخذ طريقا بين الرأسمالية والاشتراكية** ،أي لكي تخلقالشروط لتكويناقتصاديواجتماعي «ثالث». انه يؤدي بالاحرى الى ظروف انتقالية في كل المجالات الرئيسية للحياة الاجتماعية ، ستوجه لا محالة ، ضد الرأسمالية وتفتح الطريق لثورة اشـــــتراكية ، وذلك اذا ما حلت المشـــاكل الديموقراطية والمعادية للامبريالية بشكل ثابت .

ان تعاليم لينين من الانتقال التدريجي للثورة الديموقراطية المعادية للامبريالية الى الثـــورة الاشتراكية تستوعب العلاقة الجدلية بين النضال من اجل حل القضايا الديموقراطية والمعـــادية للامبريالية والتحقيق التدريجي للقانون الاساسي لعصرنا ، للانتقال الى الاشتراكية . ولذلك فان التطور غير الرأسمالي يتضمن تحقيق القوانين العامة للتقدم التاريخي نحو الاشتراكية في ظل الظروف الخاصة للتخلف الاقتصادي والاجتماعي في المستعمرات السابقة ونمو تأثير الاشـــتراكية العالمية على التطور الدولي .

وفي تلك الحالات التي يحافظ فيهـــا القادة التقدميون على التصميم الثوري سيؤدي مجرى التطور غير الرأسمالي الى :

- تحطيم جهاز الدولة الاستعماري أو المحلي القديم الفاسد واقامة دكتاتورية ديموقراطيـــة ثورية للعمال والفلاحين من خلال وصول الطبقة العاملة الى السلطة .

- اقامة تحالف قوي بين الطبقـــة العاملة والفلاحين وتوحيد الجماهير الفلاحية في النضال ضد الامبريالية .

- توحيد كل القوى التقدميـــة والوطنية فـــي جبهة واحدة متحدة معادية للامبريالية .

- انشاء وتدعيم الاحزاب الثورية وتوجيهها نحو الاشتراكية العلمية .

- الاستعاضة عن الاشكال القديمة الباليـــة بقطاعات اساسية جديدة وذات اتجاه اشتراكي وخلقالشروط المادية والتكنيكية والطبقيةللانتقال الى الثورة الاشتراكية .

- القضـــــاء على ظـــاهرة الديموقراطيـــة البرجوازية وتحقيقديموقراطية ثوريةموجهة ضد الامبريالية وحلفائها.ويؤيدها الشعب ، وتتضمن اتجاها نحو مزيد من التطور ، نحو الديموقراطية الاشتراكية .

- رفع مستوى المعيشة والمستوى الثقافي والتعليمي للجماهير بانتظام .

- الاتجاه بحسم في السياسة الخارجية نحو النضال النشط المعادي للامبريالية .

- بناء تحالف قوي مع الاشتراكية العالميـــة وحركة الطبقة العاملة الدولية .

وتؤدي الطبيعة المتباينة للغاية للظروف التي

يبدأ منها طريق التطور الرأسمالى الى **ظهور اشكال متميزة فى كل بلد** بعينه وفى مجموعات من البلدان بالاضافة الى الخصائص العامة والسائدة فى كل البلدان . وفى رأينا فان المقياس الرئيسى للمجرى المتباين للتطور غير الرأسمالى يكمن فى درجة وجود ظروف الاستغلال الرأسمالى ومجموعات السلطة السياسية المترتبة عليه .

ومن هذه الزاوية يمكن فى رأينا **تمييز ثلاث مجموعات من البلدان :**

ففى مجموعة البلدان التى يكون التمايز الطبقى غير هام نسبيا والتى لا يوجد فيها بالتالى طبقة رأسمالية فى شكل قوة اجتماعية تحدد مجرى التطور ، وبشكل خاص فى افريقيا جنوب الصحراء ، يتمثل التطور غير الرأسمالى فى تخطى كل المرحلة الرأسمالية للتطور الاجتماعى .

وفى مجموعة ثانية من البلدان — ونحن نعنى هنا الدول العربية ذات الاتجاه الاشتراكى وكذلك بورما — كان هناك بالفعل بدايات هامة للتطور الرأسمالى ، وكانت هناك طبقة رأسمالية ، لم تتحول بعد ، رغم ذلك ، الى قوة اجتماعية أوتوقراطية فى هذه البلدان تنجز الثورة مهامها بوقف عملية النمو الرأسمالى .

ويمكن للمرء ، بالطبع ، أن يتصور الثورة كذلك وهى تحل قضاياها الموضوعية بالتغلب على الرأسمالية بالطريق غير الرأسمالى ، رغم أن مثل هذه الحالة لم يبرهن عليها بعد أى نموذج . وينطبق ذلك على تلك البلدان التى أصبح للرأسمالية فيها جذور عميقة فى البناء الاجتماعى والتى وصلت بالفعل الى مرحلة الرأسمالية الصناعية الحديثة ، وحيث الاحتكارات فى دور التكوين ، أو حيث يوجد بالفعل رأسمال احتكارى متطور ، ولكن يوجد من الناحية الاخرى ظروف سابقة على الرأسمالية هنا وهناك . ان هذا الشكل المتميز للتطور غير الرأسمالى سيظل فى رأينا حالة شاذة . وبينما يكون من المناسب تماما أن نقول ان طريق الاشتراكية بالنسبة لعدد كبير من بلدان آسيا وافريقيا سيتم عبر تطور غير رأسمالى ، فانه من المنافى للجدل أن ترتب على ذلك خطة يمكن تطبيقها على كل البلدان . ومن الارجح والاكثر احتمالا أن عددا من بلدان آسيا وافريقيا ستبدأ عملية الانتقال الى الاشتراكية فى ظل ظروف قريبة من ظروف الثورة الديموقراطية المعادية للامبريالية فى البلدان الرأسمالية المتطورة أو ظروف الثورة التى تهدف الى اقامة ديموقراطية شعبية ، وذلك بعد فترة طويلة من التطور الرأسمالى وبعد استيلاء البروليتاريا وحزبها الثورى على السلطة السياسية .

وبغض النظر عن الاشكال المتميزة للتطور غير الرأسمالى وما يترتب على ذلك من نتائج فى التطبيق الاجتماعى ، فانه من الضرورى ، من **وجهة نظرنا** ، أن تسود ، فى كل البلدان التى **تسير فى هذا** الطريق للتطور ، اجراءات ذات **طبيعة ديموقراطية** تماما ، وذلك فى المرحلة الاولى المتعددة من الاتجاه الاشتراكى . اما فى المرحلة الثانية ، التى تنتهى الى الانتقال الى الثورة الاشتراكية عندما يتم التمسك تماما بالثبات الثورى ، تستخدم السلطة بشكل متزايد لتنفيذ اصلاحات معادية للرأسمالية وقريبة من الاشتراكية فى كل من القاعدة والبناء العلوى وفى هذه المرحلة الثانية من التطور غير الرأسمالى ، التى تزداد فيها اهمية القضايا الانشائية التى ترتبط بالتحضير للثورة الاشتراكية سوف تتخذ الاصلاحات اهمية ثورية خاصة عندما تؤدى الى تراكم تدريجى وسيادة كاملة لعناصر من نوع جديد .

ومع ذلك ، فان الشرط الرئيسى لحل مرض للقضايا الموضوعية المرتبطة بالتطور غير الرأسمالى وبالتغلب على الحدود الديموقراطية البرجوازية هو دائما ، وسيظل احداث تغيير أساسى فى بناء السلطة السياسية . وهذا يفضى بنا الى قضية أخرى ، هى قضية السلطة .

[٣]

قضية السلطة السياسية

فى التطور غير الرأسمالى

ان الثورات هى النتاج الطبيعى للتطور الاجتماعى . ومع ذلك ، تصبح الثورة امكانية واقعية فقط عندما ينشأ وضع ثورى نتيجة لتطور تناقضات الحياة الاجتماعية . وفى رأينا تنطبق هذه الفرضية الماركسية اللينينية على الثورة ، كذلك تمام الانطباق على التطور غير الرأسمالى الانتقالى . ونحن نرى أن تحديد العوامل التى تميز الوضع الثورى فى ظروف الانتقال الى التطور غير الرأسمالى يشكل احد القضايا المطروحة أمامنا جميعا ، والتى تحتاج لجهد مشترك وتنتظر حلا علميا . **اننا نوافق بالطبع على أن العوامل التالية تفرض التغيرات الثورية :**

● التدهور المستمر للاوضاع فى بلدان آسيا وأفريقيا التى تقع داخل الاقتصاد الرأسمالى

العالمى ؟ وذلك بفعل قانون التطور غير المتكافىء للرأسمالية .

● ازدياد عمق ازمة كل نظام العلاقات بينها وبين الدول الامبريالية .

● ازدياد حدة التناقضات بين مصالح بلدان آسيا وافريقيا فى اكمال ثورة التحرر الوطنى وبين السياسة الامبريالية والاستعمارية الجديدة للقهر والاستغلال .

● الازمة داخل القوى الاجتماعية التى تقف الى جانب الامبريالية .

● تدهور مستوى معيشة الجماهير على الدوام .

● تزايد النشاط السياسى للجماهير .

لكن هل تكفى تلك العوامل الموضوعية ؟ اليس من الضرورى أن تدرس بدقة تلك العوامل الموضوعية التى تنشأ من التأثير المباشر وغير المباشر للاشتراكية العالمية والتى تجعل التحول نحو الاتجاه الاشتراكى فى آسيا وافريقيا حقيقة واقعة ، تسهل من هذا الاتجاه وتوسعه ؟

ان العلاقات بين العوامل الدولية والقومية اكثر وثوقا اليوم نتيجة للطابع الدولى المتزايد للصراع الطبقى . والتناقض الرئيسى فى عصرنا تخضع له بشكل متزايد كل التناقضات الاخرى ، وعمليات التطور القومى فى بلدان آسيا وافريقيا تتأثر بدرجة متزايدة وهامة بتوازن القوى الدولى وبالنجاحات التى حققتها الاشتراكية العالمية . **ان اتخاذ التغيرات الموضوعية التى طرأت على الحالة القائمة حلا لشكل التطور الرأسمالى يتوقف لدرجة كبيرة على العامل الذاتى للتطور الاجتماعى ، وعلى النضوج السياسى والتنظيمى والايديولوجى للقوى الثورية** ، والظروف الداخلية التى قد تفرض تحولا يبتعد عن الرأسمالية لن تنشأ حتى تستفيد القوى التقدمية التى تتزعم حركة التحرر الوطنى بشكل كامل من الظروف الموضوعية المواتية للاستيلاء على السلطة ، وبالتالى تتخذ بثبات اجراءات نضالية ذات اتجاه اشتراكى ديموقراطية معادية للامبريالية . وبالتالى تكون المسألة الرئيسية لطريق التطور الرأسمالى هى مسألة السلطة ، كما هو واضح تماما من الادب الماركسى اللينينى . **فاستيلاء القوى ذات المصلحة فى التطور غير الرأسمالى على السلطة والاحتفاظ بها واستخدام وسائل السلطة لتحقيق تغييرات ثورية ، تمثل شرطا اوليا للتغلب على التخلف والتعجيل بالتقدم الاجتماعى .**

وتجد خصائص التطور الرأسمالى فى هذا الخصوص تعبيرا عنها فى حقيقة أنه فى البلاد التى برهنت البرجوازية المحلية او القوى الطبقية المرتبطة بها على عجزها عن تحقيق برنامج ديموقراطى عام ، وحيث لم تصل الطبقة العاملة بعد الى وضع يسمح لها بأن تكون مسئولة عن الثورة ، وتحت تأثير الاشتراكية العالمية ، يستولى ممثلو دوائر البرجوازية الصغيرة ، وعلى الاخص ، القوى الديموقراطية الثورية من بين المثقفين ، على السلطة ويجرون تغييرات قد تؤدى فى النهاية الى الاشتراكية . وقد أطلق لينين على تلك الظاهرة الخاصة اسم « الطريق من جمهورية برجوازية صغيرة الى الاشتراكية » ، كما أنها تؤكد قوله الذى اعتمد على فردريك انجلز من أن الديموقراطية الثابتة ، فى مرحلة معينة من تطورها ، ستتحول من ناحية الى الاشتراكية ، وستحتاج من ناحية اخرى الى الاشتراكية .

ان استيلاء قوى طبقية غير بروليتارية .. القوى الديموقراطية الثورية على السلطة يطرح قضايا هامة من زاوية النظرية العلمية ومن جانب السياسة العملية .

ويترتب على الطبيعة الانتقالية للظروف الاجتماعية أن مشكلة السلطة لا تحل عن طريق تغيير نوعى واحد فى عملية الحكم السياسى ، كما هى الحال فى الثورة الديموقراطية المعادية للامبريالية فى البلدان الرأسمالية المتطورة التى تمارس فيها الطبقة العاملة وأحزابها الماركسية اللينينية عادة النفوذ السائد . ان القضاء على احتكار السلطة من قبل البرجوازية والمجموعات الطبقية المرتبطة بها واستيلاء الديموقراطية الثورية غير البروليتارية على السلطة لهو تعبير عن أول تغيير نوعى فى توازن القوى الداخلية لصالح الطبقات والفئات ذات المصلحة فى التطور غير الرأسمالى . ويشكل التحالف العريض الذى تقوده القوى الطبقية البرجوازية الصغيرة غير البروليتارية الاساس السياسى للسلطة الجديدة أى انه لا يوجد اساس طبقى متماثل بالمقارنة مع دولة برجوازية او بروليتارية . ان السلطة يشارك فيها بشكل عام — وعلى الاقل فى المراحل الاولى للتطور غير الرأسمالى — مجموعات مختلفة من القادة البرجوازيين الصغار الذين يتصارعون على النفوذ . ويوضح تحليل مسألة السيادة فى مجرى التطور غير الرأسمالى حتى اليوم ، أنه فى بعض البلدان تحاول القوى ذات النفوذ فى قيادة البرجوازية الصغيرة جاهدة أن تستبدل احتكار السلطة البرجوازى المنهار أو القوى المحافظة والاصلاحية ، باحتكارها الخاص للسلطة . وهذا التناقض لن ينهى الثورة طالما ان السلطة العليا تتصرف بالفعل لصالح كل

الطبقات والفئات الاجتماعية ذات المصلحة فى استمرار التحول الثورى .

ان التناقض المتطور للسلطة الديموقراطية الثورية بين أساسها الطبقى العريض ، من ناحية ، وبين الاتجاه نحو احتكار ممارسة السلطة من جانب قادة برجوازيين صغار ، من ناحية اخرى يمكن أن يؤدى فى بلدان معينة الى تعارض حرج بين العمليات القاعدية والفوقية ، كما يمكن أن يضع عراقيل خطيرة امام تطور السلطة بشكل ثورى وفعال . ويجدر الاشارة فى هذا الخصوص الى جانبين هامين :

هناك حقيقة مسلم بها وهى الحاجة الملحة الى تحطيم جهاز الدولة القديم بشكل كامل ، تلك الحقيقة التى صاغها **ماركس وانجلز** لسيادة سلطة البروليتاريا ، وكان **لينين** كذلك يريد تطبيقها على الدكتاتورية الديموقراطية الثورية للعمال والفلاحين ، وقد تحققت جزئيا فحسب فى بعض البلدان . ويشكل استمرار وجود عناصر من جهاز الدولة القديم تهديدا رئيسيا لاستكمال الثورة ، وهو يتيح للامبريالية فرصة لمواصلة نشاطها التخريبى والمعادى للثورة . ويتحول هذا الاتجاه الى خطر ماحق ، خاصة وأن تربية الجيل الشاب المخلص للثورة لا يساير احتياجات التطور بسبب الحرية النسبية لنشاط الدعاية البرجوازية والتحول المحدود فى وسائل الاعلام الجماهيرى وفى نظام التعليم . ودون أن نتجاهل التقدم الذى احرزته بعض البلدان ، يجب أن نشير الى **الخطر الذى يترتب على الفشل** فى اتخاذ اجراءات شاملة للمقرطة الحقيقية ، وعلى المشاركة التى لا تزال محدودة للجماهير العاملة فى ممارسة سلطة الدولة . أن وضع أسس مستقرة لممارسة السلطة فى خلال زيادة نفوذ الطبقات العاملة يصبح ضرورة موضوعية اكثر الحاحا للثورة . وهذه العملية المعقدة ، قد تبدأ فى نقاط مختلفة فى نفس الوقت ، على المستويات المختلفة لممارسة سلطة الدولة ، ولكنها يجب أن تؤدى بشكل كامل الى تكامل كل اجزاء جهاز السلطة فى عملية متناسقة للتحول الثورى . ويعتبر ذلك أحد القضايا الرئيسية للتطور غير الرأسمالى فى المراحل التالية .

ان الطبقة العاملة هى أكثر القوى نشاطا وتقدمية فى النضال من أجل تحقيق التقدم الاجتماعى . والطبقة العاملة هى التى تدفع سواء تلقائيا أو بدرجة تتزايد من الوعى ، خاصة حيث يتوافر لديها حزب ماركسى لينينى ، نحو المحافظة على الاتجاه المعادى للرأسمالية فى نظرية وتطبيق القيادة الديموقراطية الثورية وتعميقه ، وتناضل بشكل بناء ضد توافه البرجوازية الصغيرة وأوهامها . ان حقيقة أن البروليتاريا تفاضل بشكل متزايد من أجل الاعتراف بها كطبقة ، وأنها قد أصبحت فى بعض البلدان بالفعل عاملا هاما من خلال الاعمال النشطة التى تقوم بها بهدف حماية السلطة التقدمية ضد المؤامرات التى يشنها المعادون للثورة ، برهان لا يدحض على تزايد الدور الاجتماعى ونحو الاهمية السياسية للطبقة العاملة . وهذا الاتجاه الحاسم فى تطور القوى الطبقية ، الذى يظهر فى كل دولة بدرجات متفاوتة ، لابد من وضعه فى الاعتبار بشكل متزايد فى الاستراتيجية الاجتماعية لقيادة القوى الديموقراطية الثورية .

ولنعدد كذلك بعض الملاحظات **عن طبقة الفلاحين** التى يشكل اندماجها النشط فى عملية التحول الثورى أهمية حيوية ، كما اكد ليونيد **بريجنيف** خلال المداولات الدولية للاحزاب الشيوعية والعمالية عام ١٩٦٩ . وتعتبر القضايا التالية ذات صلة وثيقة بالموضوع :

❶ رغم المصالح المختلفة والمتعارضة جزئيا ترتبط فئات طبقة الفلاحين بمصالح مشتركة موضوعية ، مصالح الريف عامة ، وهى النضال ضد كل بقايا الاستغلال والقهر السابق على الرأسمالية وخاصة ضد كبار ملاك الارض الاقطاعيين وشبه الاقطاعيين وكذلك ضد المراكز التى تحتلها الدول الامبريالية الكبرى فى اقتصاد البلاد .

❷ ومع ذلك ، يجب الانتفاض عن أن طبقة الفلاحين تمثل أساسا قوة ثورية محتملة . ويرجع ذلك فى الاساس الى أسباب ذاتية وموضوعية . فوجود طبقات ومجموعات طبقية لتكوينات اجتماعية سابقة على الرأسمالية ولطبقات رأسمالية فى الزراعة فى دور التكوين هو السبب فى المصالح الاجتماعية ، ونماذج السلوك المختلفة ، التى يمكن أن تمارس تأثيرا كابحا على الحركة الثورية للطبقة الفلاحية . ان الطبقة الفلاحية كطبقة اجتماعية تأثرت لدرجة كبيرة بظروف سابقة على الرأسمالية ، تعمل بداخلها ــ حتى لفترة طويلة من التطور غير الرأسمالى ــ تناقضات تحركها القبلية أو المقاطعة أو الطائفة أو العرق أو الدين . وقد تتطور الى قبلية ، وتمايز وانفصالية ما لم تحل هذه المشاكل خطوة خطوة .

❸ من الصحيح أن التطور الرأسمالى قد يخلق الظروف الضرورية للقضاء على التناقضات الناتجة عن وجود تكوينات سابقة على الرأسمالية ،

ولكن تظهر فى نفس الوقتتناقضات جديدة كامنة فى التطور الراسمالى بسبب التبـاين الطبقى والتفاوت فى الملكية الذى يتم . وهكذا ، ففى تلك المجموعة من البلـدان التى يتم فيها الاتجـاه الاشتراكى مع توقف التطور الراسمالى فىنفس الوقت، تطورتبالفعل **برجوازية قروية** ، ضعيفة نسبيا من الناحية العددية بشكل عام ، ولـكنها تتمتع بنفوذ سياسى كبير ، كما انها قوية من الناحية الاقتصادية . ان موقفا انقساميا غير مترو تجاه أقسام معينة من البرجوازية القروية والفئات المتيسرة فى القرية يعنى سـوء تقدير لامكانيات التحـالف المؤقت معهـا ولـكفاءتها الاقتصادية . وقد يكون ذلك بالنسبة للثورة فى مثل خطر السماح بتطور غير محكوم ، وسوء تقدير لامكانية انتقال بعض الاقسام الىالمعسكر المعادى للثورة .

❹ ومن الممكن ملاحظة التفاوت والاستقطاب السريع داخل طبقة الفلاحين نتيجـة لتنفيـذ الاصلاحات الزراعية . وفى هذا المجال يمكن ان نجد القوى الثورية الاكثر ثباتا واقداما فى القرية بين الفئـات البروليتـارية وشبه البروليتـارية للسـكان فى الريف . انهم يشكلون الغالبيـة المطلقة لسكان الريف والشريك الرئيسى المحتمل فى التحالف مع الطبقة العاملة ، ومع تطـور التعاون فى الزراعة تتشكل من هذه الجماهير فئة اجتماعية جديدة ، هى فئة الفلاحين الذين يمارسون التعاون الاقتصادى . وعلى الرغم من انها لاتزال فى دور التكوين ، فانها تحمل جنين قوة اجتماعيـة جـديدة . ان الاندماج النشط للجماهير العاملة الفلاحية فى عمليـة التحـول الثورى ، يمكن ان يتحقق بصعوبة بدون تنظيمات مستقلة وتأسيس نقابات لعمال الزراعة ، كما بينت التجربة بوضوح تام .

❺ **فيما يتعلق بدور الفلاحين** تواجه الحركة الثورية على الدوام فى البلـدان ذات الاتجـاه الاشتراكى مفهومات زائفة تماما .

ويتمثل احد تلك المفهومات فى اساءة تقدير الحركات الفلاحية ، وفى الحط من طبقة الفلاحين الى طبقة لا مبالية اجتماعيا ، وغير ثورية فى الاساس ، أو الاكتفاء بمجرد اعـلان وحدة كل القوىالديموقراطية الثورية ، دونالسماح لحركة الجماهير الفلاحية بالتعاون بوعى فى عمليـة التحول . **اما المفهوم المقابل** فيتمثل فى المبالغة فى دور الحركة الفلاحية باعلان انها القـوة الثورية الوحيدة حقا،ودفع الفلاحينلمركز التحكم فى العملية الثورية . **وهذا المفهوم ينكر الـدور التاريخى للطبقة العاملة فى النضال من أجـل القضاء على ظروف الاستغلال** ، كما أنه ينـكر **الحاجة الى تحالف بين الطبقة العاملة والطبقات الفلاحية .**

والفكرة الاخيرة تلمس مسالة **الجبهة المتحدة المعادية للامبريالية** ، التى تعتبر مهمة للغـاية للتطور غير الراسمالى ، كما تعتبر على درجة كبيرة من الاهمية فى الوقت الحاضر . ويعتبر تطور تلك الجبهة عملية لم تستكمل بعد . **ان ما يعقد تلك العملية عدم التماثل الاجتماعى لتلك الجبهة بشكل خاص** ، والمراكز الطبقية غيـر البروليتارية للقادة ، والمشاعر المعادية للشيوعية التى لاتزال قـائمة . وتدرك الامبرياليـة تماما الخطر الناجم عن الجبهة المتحدة المناضلة للقوى الثورية .. ولذلك تهدف استراتيجيتها السياسية الى تقسيم قوى معسكر التقدم بتغذية الخلافات فيما بينها .

وانطلاقا من التجارب الماركسية اللينينية فـى سياسة التحالفات ، يجب التأكيد هنا على هذين المبداين الاساسيين ، الذى يعتبر وضعهما فى اعتبـار القادة ذو اهمية خاصة لنجاح الثورة .

ان التطور غير الراسـمالى يتطلب اعترافـا بحتمية وحدة العملبين الطبقة العاملة والفلاحين باعتبارهما نواة الجبهة المعادية للامبريالية ، وفى غالبية البلدان مازال هناك جهد كبير يجب أن يبذل كى يصبح التغير فى توازن القوى داخل الجبهة لصالح الجماهير العاملة يصـبح حقيقة سياسية ، ونحن نتفق مع العلماء الماركسـيين اللينينيين الذين أشاروا الى وجود علاقة جدلية من الوحدة والصراع بين التيارات الثورية فى التحالف، تدافععنها طبقتيا البروليتاريا والفلاحون الكادحون من ناحية ، والبورجوازية الصـغيرة والمثقفون الديموقراطيون ، من ناحيـة اخرى ، وان نجاح الاتجاه الاشتراكى يتطلب سيادةمواقع الوحدة فى النضال المعادى للامبريالية . وكما أوضحت الاحداث بجلاء مرة اخرى ، فان اى محاولة لزيادة الخلافات بين التيارين الثوريين انما يعنى خدمة للامبريالية .

ان التطور غير الراسمالى يتطلب ان تضـم الجبهة تلك الفئاتمن البرجوازية التيلها مصلحة موضوعية فى اهداف الثورة ، حتى وان كانت تعارض تلك الاساليب الثورية . ويعتبر النضال من اجل كسب تأييد تلك القوى الطبقية شرطا لازما للثورة ، وكذلك **تحييد تلك العنـاصر التى تلعب دور « الطابور الخامس » للامبرياليةداخل التحالف او القضاء عليها .**

ان زيادة حدة التناقض العدائى ضد الامبريالية والرجعية الداخلية المرتبطة بها يضمن للتطور غير الرأسمالى أساسا طبقيا عريضا ويتيح امكانية لجبهة نضالية واسعة .

[٤]

دور الحزب السياسى في التطور غير الرأسمالي

ان حل المهام الضخمة التى يطرحها طريق التطور غير الرأسمالى يصبح ممكنا فقط منخلال **حزب ثورى مسلح بأساليب الاستراتيجية والتكتيك العلمى** . وقد نشرت أخيرا فىالاتحاد السوفيتى دراسة ضخمة تتناول المسألةالرئيسية فى التطور غير الرأسمالى . وبالاضافة الى ذلك سيصدر عن قريب مجلد ضخم يعده مؤلفون من الاتحاد السوفيتىوجمهورية المانيا الديموقراطية. **ولذلك فسنتعرض فيما يلى لبعض جوانبالعملية المعقدة لتكوين الاحزاب الثورية ومايرتبط بها من قضايا أساسية للصراع الطبقى الايديولوجى** ، فتحت تأثير الاشتراكية العلمية ومنطق الصراع الطبقى زادت الاحزاب الديموقراطية الثورية من دورها فى المجتمع ، وعمقت من تعاونها مع الحركة الشيوعية الدولية ، وان الاعترافبوجود تناقضات اجتماعية موضوعية فى المجتمع ، وبضرورة الصراع الطبقى لحلها ، وكذلك الاقتناع بان التغير فى ظروف الملكية يمكن أن يكون وحده نقطة البدء فىاقامةمجتمع اشتراكى ، تعتبر من اهم النتائج التى تم التوصل اليها فى عملية تحديد المفهومات الايديولوجية لاكثر القادة تقدما، والتى تنسب لتأثير الاشتراكية العلمية . ومع ذلك فان انتقال القوى التقدمية للديموقراطية الثورية الى مواقع الاشتراكية العلمية ، هوعملية طبيعية كذلك وقسمة بارزة فى تحديد ملامحهم الايديولوجية . ولابد من التأكيد على أن الاتجاه نحو الكيف الايديولوجى الجديد يحدث فى ظروف معقدة لتخلف اقتصادى يصعب تخطيه ، ولبناء اجتماعى مايزال غير ناضج ، وخاصة وجود غالبية عددية من الفلاحين وضعف البروليتاريا حتى الآن ، بالاضافة الى وجود اشكال تقليدية وعنيدة من الوعى تحت تأثير حياة ثقافية شوهها الاستعمار ، وفوقكلشىء لنضال ضد الانحرافات الايديولوجية التى يشجعها الامبرياليون ، والتى ستتركز خلال السنوات القادمة بشكل متزايد على منبع عملية تشكيل ملامح الديموقراطيين الثوريين فىاتجاه الاشتراكية العلمية . **انالتأثير القوى لايديولوجيات البرجوازية والبرجوازية الصغيرة على مفهومات بعض الديموقراطيين الثوريين يتضح بشكل خاص فى :**

● **التقييم المتناقض** لطبيعة المرحلة التى نعيشها وللدور الذى تلعبه القوى الاساسية فى العملية الثورية العالمية .

● **التحديد غير الكامل** لطبيعة ودور الطبقات والفئات المختلفة فى النضال الثورى ، وخاصة الدور التاريخى الذى ستلعبه الطبقة العاملة كقائد للثورة الاشتراكية .

● **المبالغة فى التأكيد** على خصائص التطور الاجتماعى فى الدول التى تحررت من الامبريالية والانكار العام للقوانين العامة ذات الاثر فى الانتقال الى الاشتراكية على نطاق العالم .

● **المشاعر والتصرفات المعادية للشيوعية** ، التى تنعكس سياسيا فى اجراءات تحريم نشاط الاحزاب الشيوعية او الحد من هذا النشاط ، وانكار ضرورة استقلال الحركة البروليتارية ، والتحفظات فيما يختص بالتعاون مع الشيوعيين

● **الاستعداد المحدود للسماح** للشعب العامل بالمشاركة النشطة فى ادارة الدولة والاقتصاد ، فى نفس الوقت الذى يتخذ فيه موقف متسامح من القوى الرجعية حتى داخل الحزب .

وبسبب هذه الاوضاع تفتقر بعض الاحزاب الديموقراطية الثورية الى الوحدة الايديولوجية والسياسية فى المستويات القيادية والقاعدية ، حيث عدد ممثلى البروليتاريا محدود نسبيا . وغالبا ما ينتكسالتقدم الذى حققتهبعضالاحزاب فى بنائها التنظيمى نتيجة للعراقيل التى توضع فى وجه تحقيق المركزية الديموقراطية .

وفى هذه الظروف ، فان عملية تراكم مراحل جديدة كيفيا فى الاسس الاستراتيجية والتكتيكية لتلك الاحزاب ، مما يساعدها على اعداد نفسها كقوة سياسية قائدة للمجتمع ، سوف تتخذ طريقا معقدا متناقضا وطويلا بدون شك . انها تتأثر لدرجة كبيرة بالصراع الطبقى الدولى بين الاشتراكية والامبريالية ، وكذلك بعملية التمايز والاستقطاب داخل قوى البرجوازية الصغيرة الطبقية . ويمكن لهذه الاحزاب ان يكون لها ابعاد ثورية فحسب عندما ترتبط بعلاقات وثيقة مع الجماهير ، وتساعدها على المشاركة بوعى فى الحياة الاجتماعية . ان تدعيم العنصر البروليتارى فى تلك الاحزاب هو وحده الذى يمكن ان يكون معيارا حاسما لامكانية ارتباطها بشكل دائم بالاشتراكية العلمية .

[٥]
التناقضات والمشاكل
فى المجال الاقتصادى

عادة ما يواجه التطورغير الراسمالى بمشاكل صعبة ومعقدة فى المجال الاقتصادى . ان التراث الاستعمارى فى شكل مستوى منخفض من التطور الاقتصادى ، والهيكل المشوه للقوى المنتجة ، ونظام العلاقات الاجتماعية المتخلف والاعمال المضادة الدائمة من جانب الامبريالية ، والتناقضات العديدة الكامنة موضوعيا فى التطور غير الراسمالى تفرض متطلبات ضخمة على القيادة السياسية للقوى الديموقراطية الثورية وعلى قدرتها على صياغة وتحقيق استراتيجية ثورية للتطور الاقتصادى ، تتناسب تماما مع درجة تعقيد واهمية المشاكل التى تتطلب الحل .

ولا يمكن تحقيق التقدم الاقتصادى وتأمينه فى التطور غير الراسمالى فى استقلال وانفصال عن المجالات الاخرى للحياة الاجتماعية . وعلى العكس ، فان التغيرات الاقتصادية الاجتماعية، أى ، التغيرات الثورية فى ظروف الانتاج ، والتى تساعد على الانتقال اللاحق الى الاشتراكية ، والتأثير النشط للبناء العلوى الاجتماعى ، وعلى الاخص ، للسلطة العليا الديموقراطية الثورية ، تشكل الشرط الاساسى اللازم لتحقيق الاهداف الاقتصادية للتطور غير الراسمالى : **القضاء على التبعية الاقتصادية للامبريالية ، والتغلب على التخلف الاقتصادى من خلال بناء قاعدة قوية للانتاج القومى** ، تتميز بهيكل متوازن وانتاجية عمل عالية فى اهم فروعها ، **وبذلك يتم خلق الظروف لاعادة الانتاج المتزايد باستمرار ، وضمان نمو اقتصادى سريع ورفع مستوى معيشة الجماهير** .

ان التطور غير الراسمالى بحله للمشاكل الاقتصادية ينجزجزءاحاسما من مهمته التاريخية . وعن طريق تأمين اقصى انطلاق للقوى الانتاجية، ومعدل عال للنمو الاقتصادى على اساس تغييرات اقتصادية اجتماعية تقدمية يخلق التطور غير الراسمالى الشروط التكنيكية والمادية للاشتراكية ويساعد التطور الكمى والكيفى للطبقة العاملة ، خالقا بذلك الشروط الطبقية الحاسمة للانتقال الى الاشتراكية ، ومؤثرا على الشروط السياسية والايديولوجية والثقافية اللازمة للاشتراكية . ونحن نعتقد بأن الاهمية المرتبطة بحل المشاكل الاقتصادية تمثل اهمية سياسية رئيسية كذلك للاستراتيجية الاقتصادية المستخدمة فى التطور غير الراسمالى :

ان ما يهم ليس النمو الاقتصادى وتطور القوى المنتجة بأى ثمن ، وبشكل يتجاهل اوحتى ينشط الاتجاهات الكامنة لامتداد تلقائى للظروف الراسمالية ، **وانما تطوراقتصادى لا يضع عراقيل جديدة فى طريق الاشتراكية ، ويزيد من الشروط اللازمة للاشتراكية ويوسع من الابعاد الاجتماعية للانتقال الى الاشتراكية** .

وعلى ذلك فان ادراكا حسنا وتمكنا سليما من العلاقة بين الاقتصاد والسياسة يعتبر واحدا من اهم مشاكل التطور غير الرأسمالى . ويتضح ذلك على وجه الخصوص عندما يتصور المرء بعض التناقضات التى تلاحظ فى التطور غير الراسمالى بدرجات متفاوتة الحدة لا فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية وفى مجال السياسة الاقتصادية فحسب ، وانما تلاحظ كذلك فى علاقة التطور الاقتصادى بالاحتياجات السياسية والاجتماعية للاتجاه الاشتراكى . وسنشير الى بعض هذه التناقضات فيما بعد كما اننا نعتبر انه فى كثير من الحالات لايزال من الضرورى تحديد وعرض المشاكل المختلفة بدقة ، وايجاد وسائل وطرق محددة لحلها فى التطبيق ، او التسامح بوعى مع الاتجاهات المتناقضة والتحكم فى تطورها لفترة محددة من الوقت .

ان عددا من التناقضات الموضوعية يرجع الى عدم تماثل القاعدة الاقتصادية الاجتماعية فى البلدان ذات الاتجاه الاشتراكى ، واحد هذه التناقضات يتمثل فى التناقض الواضح بين السيادة الكمية لظروف الانتاج السابقة على الراسمالية ، من ناحية والتى تمارس تأثيرات معرقلة ، ومعطلة ، ومشجعة للركود ، وبين قطاع اقتصادى تسيطر عليه الدولة ، من ناحية اخرى ، ويمثل بالفعل ، باعتباره القاعدة الاقتصادية للسلطة الديموقراطية الثورية وبطابعه الانتقالى ، مستوى عال نسبيا للتنظيم الاقتصادى الاجتماعى للمجتمع . ولا يقل اهمية عن ذلك **التناقض بين ارتباط البلدان ذات الاتجاه الاشتراكى بالنظام الرأسمالى العالمى** ، الذى يرتبط بتبعية متفاوتة للاسواق الرأسمالية والاعتماد على واردات معينة من البلدان الامبريالية ، وبتأثير الازمات النقدية فى البلدان الراسمالية ، الخ ، وبين الاساس الاقتصادى الاجتماعى الذى هو فى عملية تطور فى هذه البلدان والذى يكشف بالفعل عن عناصر ذات طابع معاد للامبريالية . **وعلى سبيل المثال** ، فان المشاكل المرتبطة بهذا التناقض ، ربما تحل فى المدى الطويل فحسب ، بتغيير اتجاه علاقات التجارة الخارجية للبلدان التى تسير فى طريق النمو غير الرأسمالى نحو السوق الاشتراكى العالمى .

ومما له أهمية خاصة فيما يتعلق بالسياسة الاقتصادية تلك التناقضات الناشئة من الحاجة الى زيادة معدل النمو الاقتصادى للتغلب على تفاوت المستوى بالمقارنة مع البلدان الرأسمالية، بهدف القضاء على التبعية الاقتصادية واستمرار الاستغلال من خلال ميكانيكية السوق الرأسمالى العالمى ، وبهدف تدعيم الاسس الاقتصادية للسلطة الديموقراطية الثورية ، لاسباب سياسية واقتصادية ، وبهدف رفع مستوى معيشة الجماهير . **وهذه الحاجة تتعارض مع اتجاهات اخرى تنشأ من البنية المحافظة السابقة على الرأسمالية .** ولذلك فأن امكانيات التحقيق محكومة بالتراكم المتوفر بالفعل فى حوزة السلطة الديموقراطية الثورية ، كما أن مواردها محكومة بدورها بالاستغلال الامبريالى ، وبهيكل اجتماعى متخلف ، وبطفيلية الطبقات الاستغلالية المحلية. ان الحاجة الى معدل عال للنمو الاقتصادى يتفق وضيق السوق المحلية ، التى هى نتيجة لثقل قطاعات اقتصاد الاكتفاء الذاتى ، والتشويه الاستعمارى لبناء فروع الاقتصاد ، والمستوى المنخفض لمعيشة الجماهير ، وهذا يؤثر بدوره على كفاءة وربحية القطاع الذى تسيطر عليه الدولة ، والذى لايستطيع لذلك فى جميع الحالات ان يراكم الوسائل اللازمة للنمو والتطور السريع . .

ويرتبط تمام الارتباط بذلك التناقض الناتج من حقيقة أن التقدم الذى تحقق بالسير فى الطريق غير الرأسمالى ، والجهود الذى له ما يبررها موضوعيا نحو الاستقلال الاقتصادى ، والحاجة الى توطيد السلطة الديموقراطية الثورية تتطلب الحد من رأس المال الاجنبى والتخلص منه فى النهاية وكذلك من النفوذ الرأسمالى الذى يمارس من خلال الائتمان والمعونة التكنيكية والمستشارين الخ ، ومن ناحية اخرى ، من أن الاهداف السياسية تتطلب معدلا عاليا من النمو فى الاقتصاد القومى بالاضافة الى اتاحة موارد خارجية للتراكم ، مما يستلزم احيانا كذلك ، وفقا لطبيعة الامور ، استخدام المعونة الائتمانية الامبريالية ، وحتى تدفق رأس المال الاجنبى فى بعض الحالات . ومع ذلك ، فان هذا التناقض سوف تزداد حدته لأنه ، كما سبق ان ذكرنا ، احيانا ما يتطلب معدل النمو العالى توظيف استثمارات تقدمها البلدان الامبريالية ، ومثل هذه الاستثمارات ستزيد دون شك من حدة الاستغلال ، وتزيد من فقدان الثروة الاقتصادية الذى تعانى منه البلدان التى تتلقى « المعونة » . وهناك مشاكل مماثلة من حيث المبدأ ، تطرحها حقيقة أن الاهداف الاقتصادية الاجتماعية للتطور غير الرأسمالى ترتبط بالضرورة بفرض قيود على الرأسمالية المحلية الى اكبر درجة ممكنة ، لكن هذا التطور الاقتصادى يجعل من الضرورى كذلك الاستفادة الكاملة من امكانيات رأس المال الخاص للتعجيل بنمو وتطور الاقتصاد القومى ، وعلى سبيل المثال ، فى تجارة التجزئة حيث يكون من المهم تجنب الاخلال بنظام التموين الذى يمكن أن يؤدى الى عدم استقرار سياسى .

ويوضح ذلك تماما ان حل المشاكل المرتبطة بمثل هذه التناقضات ممكن فقط عن طريق نشاط واسع من جانب اجهزة السلطة السياسية ، وعن طريق سياسة صبورة وحكيمة من قبل الدولة ، سياسة تضع فى اعتبارها ضرورة تجنب المشاريع الجريئة ، وايجاد الاشكال والوسائل السياسية المناسبة كى يتم الاحتفاظ بالاتجاهات الرأسمالية المسموح بها عن قصد تحت الرقابة، والاستفادة منها لتدعيم الاتجاه الاشتراكى .

ويمكن تبين تناقضات متميزة كذلك **بتحليل وضع قوة العمل فى البلاد ذات التطور غير الرأسمالى .** فمن ناحية ، يتطلب الاتجاه نحو معدل عال للنمو الاقتصادى استخدام الانتاج العالى الحديث ، وبالتالى ، اساليب تكثيف رأس المال والزيادة المستمرة فى انتاجية العمل باعتبارها شرطا لازما للتغلب على التفاوت فى المستوى الاقتصادى بين البلدان الاقل تطورا والبلدان الرأسمالية العالية التصنيع بالاستفادة الى اقصى حد من قانون التطور غير المتكافىء فى المجال الاقتصادى والتكنيكى كذلك . ومع ذلك ، فمن الضرورى ، من ناحية اخرى ، **امتصاص فائض العمل القائم او المحتمل على الاقل ، وتزايد السكان البطىء او السريع ، عن طريق اساليب وتكنيكات مكثفة للعمل ، وبالتالى اقل انتاجية .**

وبالاضافة الى ذلك ، فان الاتجاه نحو المستويات التكنولوجية الحديثة مازال يحول دونه نقص الاشخاص المؤهلين فى متناول الاقتصاد القومى . وتكشف هذه التناقضات بوضوح تام عن الاهمية السياسية والاقتصادية المباشرة للثورة الثقافية والتعليمية فى التطور غير الرأسمالى .

ومما له ظروف مماثلة كذلك التناقض ، من ناحية ، بين حقيقة أن غالبية السكان فى هذه البلدان مازالوا يعيشون فى ظروف اجتماعية متخلفة ، مما يعرضهم لتأثير النماذج التقليدية للتفكير والسلوك ، تتسم بابنية تعتمد على الاكتفاء الذاتى ، وتخضع لتأثيرات مفسدة للمعنويات للغاية بسبب اقامتهم فى الاحياء الفقيرة للمدن فى ظروف فى منتهى السوء ، وبين حقيقة ان اتساع الاساس الاقتصادى للتطور غير الرأسمالى يتطلب عملا منضبطا ومتفانا وخلاقا من جانب الناس فى الانتاج ، وتحرير

كل طاقات العمل وابداعه . وهنا أيضا تعتمد الامور على التغيرات فى الظروف الاقتصادية والاجتماعية ، كما ترتبط بفعالية المجال الايديولوجي الذى يجب تقييم اهميته فى التطور غير الرأسمالى من زاوية رد فعله المباشر على الاقتصاد . ويلعب دورا هاما فى هذا الخصوص الاثر التعبوى للفكرة القومية المرتكزة على العداء للامبريالية ، والتى يمكن أن تكون لها فعالية كاملة فحسب حينما لا تستخدم فى اخفاء الاستغلال المتواصل وحينما تحل المشاكل العرقية ، الحرجة للغاية فى عديد من البلدان ، بوسائل ديمقراطية .

ومما له اهمية كبيرة كذلك التناقض القائم بين الحاجة الى تحسين ملموس وسريع فى ظروف معيشة الجماهير العاملة ، وهو ما يجب ان تضمنه القيادة الديموقراطية الثورية ، لا لأسباب اجتماعية فحسب ، وانما لاسباب سياسية كذلك ، وبين الحاجة الى زيادة التراكم والاستثمارات بهدف تحقيق الاهداف الاساسية للسياسة الاقتصادية ، مما يتضمن وضع قيود على الاستهلاك ويتطلب تضحيات لابد منها . ان الطريقة التى سيحل بها هذا التناقض ستعكس الطابع الطبقى للسلطة غير الرأسمالية . فسوف تنجز مهامها الموضوعية التاريخية فى هذا الخصوص بالاتجاه نحو القضاء على الطفيلية والفساد ، وتخفيض النفقات غير الانتاجية الى اقصى درجة ممكنة ، ووضع العبء فى المحل الاول على الفئات العليا من السكان ، والوقوف من التنمية التضخمية التى سيكون عبؤها أقسى على الجماهير .

ونحن نعتقد ان الاعتبارات السابقة تؤكد بما لايتطرق اليه الشك أن السلطة العليا هى الاداة الرئيسية لحل المشاكل الاقتصادية فى التطور غير الرأسمالى ، وانه انطلاقا من هذه الفرضية ، يمكن كذلك تحديد علاقة السياسة بالاقتصاد فى التطور غير الرأسمالى . ولكى يكون فى مقدورها حل المشاكل الاقتصادية ، يجب على القيادة الديموقراطية الثورية أن تنهج سياسة حكيمة ، لا تنطلق من التلقائية ، وانما تبدأ من الواقع بتناقضاته . ان ما نحتاج اليه بالضرورة هو الصبر والعمل البناء ، بدلا من «القفزات الكبرى» والمشروعات الجريئة . ولا يمكن حل المشاكل المعقدة ببساطة باصدار المراسيم او باتخاذ اجراءات غير مرسومة بعناية ، يمكن التنبؤ بنتائجها الاقتصادية والاجتماعية مقدما . واخيرا ، لايجب تجاهل ان أسس التحالف الطبقى العريض ستخلق ، وسيتدعم الاستقرار السياسى للسلطة الديموقراطية الثورية ، ويتزايد نطاق تأثيرها داخل البلاد وفى النضال ضد الامبريالية ، وتنضج الشروط الضرورية لسيادة البروليتاريا فى الثورة ، بقدر ما تعمل الدولة على حل المشاكل الاقتصادية المرتبطة بالتطور غير الرأسمالى .

[٦]
الصراع الذى تشنه الامبريالية ضد التطور غير الرأسمالى

وفى الختام ، لابد من ابداء بعض الملاحظات عن الاستراتيجية التى يستخدمها الاستعمار الجديد لوقف التطور غير الرأسمالى . هناك اتفاق عام فى الادب الماركسى اللينينى أن الاتجاه الاشتراكى عملية ستنتصر فى صراع حاد على المستويين القومى والدولى . فالشعوب التى تسير فى طريق التطور غير الرأسمالى يجب أن تناضل ضد مصاعب ضخمة ناتجة فى الاساس عن التخلف الاجتماعى والاقتصادى والروابط التى لاتزال قائمة على النظام الرأسمالى العالمى ، والتناقضات الداخلية القائمة والنابعة من مجريات الامور ، والمقاومة التى يبديها الرجعيون فى الداخل ، الذين يتكون ممثلوهم الحقيقيون من العناصر الطفيلية والبيروقراطية فى جهاز الدولة والحزب ، وبعض القوى الرأسمالية الخاصة ، وبقايا الطبقات الاستغلالية السابقة على الرأسمالية ، والاصل البرجوازى الصغير للسلطة وعدم نضوج بعض العوامل الذاتية . **ومع ذلك تواجه الشعوب قبل اى شىء آخر هجمات لا تنقطع تشنها الامبريالية العالمية وتستهدف منع أو تصفية التطور غير الرأسمالى ، ويصبح ذلك هدفا اساسيا لاستراتيجيتها الاستعمارية الجديدة . وفى أفريقيا وآسيا ، تركز الامبريالية كل عدوانها على البلدان ذات الاتجاه الاشتراكى** التى تستخدم ضدها كل ترسانتها الاستعمارية الجديدة ، وكما اكدت مقررات المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى . **« فليس هناك من جرائم يخجل الامبرياليون من ارتكابها كى يحتفظوا بسيطرتهم أو يستعيدوها على شعوب المستعمرات السابقة او البلدان الاخرى التى نفضت عن كاهلها قيود الاستغلال الرأسمالى » .**

وكل اعمال العدوان والتدخل والعنف العسكرى التى شنتها الدول الامبريالية الكبرى خلال السنوات القليلة الماضية ، وخاصة الولايات المتحدة الامريكية ، وجمهورية المانيا الفدرالية ، أو شنها عملاؤهم فى آسيا وافريقيا ، كانت موجهة ضد تلك البلدان التى تسير او على وشك أن تسير فى طريق التطور غير الرأسمالى . **والدليل الكافى على ذلك** هو توسيع العدوان الامريكى فى فيتنام الى لاوس وكمبوديا ، والحرب التى شنتها اسرائيل خدمة للامبريالية العالمية ضد الدول العربية التقدمية ، ومهاجمة البرتغال

لجمهورية غينيا ، والانقلابات الرجعية في حكومات غانا ومالي واندونيسيا واوغندا ، ومحاولات الانقلاب الرجعي في جمهورية الكونغو الشعبية وسيراليون وسيلان وكذلك الحركة الانفصالية في السودان . أن استراتيجية الامبريالية للنضال ضد التطور غير الراسمالي لا تقف بالطبع عند حد استخدام القوة المباشرة ، لان الاخطار التي تتهدد الامبريالية نتيجة لانفصال البلدان التابعة والمستعمرة السابقة عن النظام الراسمالي العالمي ذات اهمية كبيرة من وجهة نظر السلطة والسياسة والاقتصاد ، وفي نفس الوقت فان الانتصارات الحاسمة التي تسجلها الشعوب ضد المعتدين الامبرياليين ، بالتعاون الوثيق مع الاتحاد السوفيتي والبلدان الاشتراكية الاخرى ترتبط بنتائج خطيرة . ان الامبريالية دون أن تتخلى عن سياسة التدخل ، تستخدم كل وسائلها الاستعمارية الجديدة كي تخرب . وتقضي على ، وتصفي التطور غير الراسمالي . ويتضح اكثر فأكثر أن الامبريالية ، كما اكد المؤتمر الرابع والعشرون للحزب الشيوعي للاتحاد السوفيتي ، **تحاول المرة بعد الاخرى أن تتكيف مع الوضع العالمي المتغير ، كي تجعل الصراع ضد الاشتراكية اكثر فعالية .** فعن طريق الاستعداد الواضح والمؤقت للتهادن ، وعن طريق الاتفاقات الاقتصادية والسياسية الجزئية ، وعن طريق الوسائل الايديولوجية ، تحاول الامبريالية أن تقترب من قادة البلدان ذات الاتجاه الاشتراكي ، وان تكسب الى جانبها مجموعاتهم الاصاحية والبرجوازية الصغيرة **عن طريق عملية الافساد السياسي والمادي** ، كي تحطم التحالف المعادي للامبريالية نهائيا ، وتخرب القيادة الديموقراطية الثورية ، لتطيح بها في النهاية . ان المراجعة والديموقراطية الاجتماعية بشكل خاص ، تعتبر من وجهة نظر البرجوازية الامبريالية أنسب وسيلة لتحقيق اغراضها . **ولتثبيت مواقعهم الايديولوجية فانهم يستفيدون من المواقف القومية والمشاعر المعادية للشيوعية في سياسة وايديولوجية الديموقراطيين الثوريين، محاولين أن يقدموا للقادة في التطور غير الراسمالي امكانية « طريق ثالث » بين الراسمالية والاشتراكية** [طريق يرتبط بفكرة « المجتمع الصناعي » وبنظرية التقارب] ، وحتى « فوق الراسمالية والاشتراكية » . وكل ذلك بهدف منع القوى الديموقراطية الثورية من الاقتراب من الاشتراكية العلمية ، وكي تحرم هذه القوى من وسائل الدفاع الايديولوجي ضد الاعمال السياسية التخريبية ، بل والاعمال المعادية للثورة بشكل مكشوف في النهاية .

ويؤكد ذلك مرة اخرى الحاجة الى فهم كامل للعوامل التي قد تجسد أبعاد التطور غير الرأسمالي وسيكون في مقدور القادة الديموقراطيين الثوريين في النهاية ، حل المشاكل المرتبطة بالتطور غير الراسمالي فحسب اذا ما دخلوا في تحالفات اوثق مع النظام الاشتراكي العالمي وحركة الطبقة العاملة العالمية على اساس فهم سليم لهذه المرحلة وعلى اساس استراتيجية وتكتيكات مناسبة مبنية على ذلك ، واذا ما واصلوا نضالهم ضد الامبريالية بثبات ، واذا ما اتفق نضالهم الدولي لتمهيد الطريق للاشتراكية مع الظروف الداخلية الموضوعية والمتطلبات الذاتية .

ننشر في العدد القادم

مقالا حول نفس الموضوع .

بقلم المفكر السوفيتي أوليا نو فسكي

« تلقت الطليعة هذا الخطاب من الاستاذ عبد الرحمن الشرقاوى يعبـر فيـه عن وجهـة نظره الخاصـة والطليعة تنشره ايمـانا منهـا بمبـدأ حرية الراى »

عزيزى الاستاذ لطفى الخـولى رئيس تحرير مجلة الطليعة ..

تحية طيبة ...

كتبت هذا المقـال منـذ حين ، ورفض مجلس ادارة المؤسسـة الصحفية التى أعمل بها أن أنشره ، واحتجز أصله الخطى .. واذ كنت قد حصلت على هذا الاصل بعد الاستعانة بنقابة الصحفيين .. فانى أرجو نشره فى مجلة الطليعـة التى عرفناها منبرا للاراء الثورية الحرة .

ولك فى الختام خالص شكرى واطيب تمنياتى .

عبد الرحمن الشرقاوى

طـريق واحـد

تضامن القوى الثورية هو الطريق الوحيد للنصر

عبد الرحمن الشرقاوى

منـذ أيام فرغنـا من اعـادة البنـاء السياسى ، ومـا زالت أمامنـا خطوات يسـيرة ليتم التشـكيل النهائى لكل المؤسسات السياسية أوشكنا أن نفرغ من ترتيب البيت ، لنوجه بعد ذلك كل ما نملك من جهد للقضية الكبرى .. تحرير الارض العربية من قوات الاحتلال والقـواعد العسكرية الاجنبية .. وحماية حق الشـعب الفلسطينى ، وتمكين المقاومة من تحقيق أهدافها وتطوير الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والروحية ، ليكون هذا الوطن بحق ، هو أرض الخير والجمال والابداع ، فيقدم ثمراته لابنائه على السواء .. ويشارك بدوره التاريخى فى التقدم الحضارى ، ويحول الحياة الى جنة يحقق العلم فيها رفاهية الانسان ، وتشيع النضارة بها روعة الايمان ، فيشعر كل مواطن بزهو الانتمـاء ، وبالقدرة على البذل والمتاع والعطاء ..

وربمـا كانت بعض الاخطـاء قد حـدثت ونحن نرتب البيت على عجل لنـواجه التحـديات المتربصة .

وربما اصيب هذا أو ذاك اثناء عمليـات البناء .. وحرم هذا أو ذاك من شرف العمل ..

على أن كل هذه الاخطاء ، مهما يكن من أمرها .. اخطاء قابلة للاصلاح .. وقد صرح السيد الرئيس أنور السادات أمام المؤتمر القومي بأن هذه الاخطاء التى حدثت لابد أن تصلح .. وهكذا أصبح من واجب كل من يرى خطأ ان يصلحه بنفسه أن استطاع ، فان لم يستطع فليعمل على اصلاحه من خلال المؤسسات الشعبية ، وفى حدود ما يكفله له القانون والنظام الثورى من حقوق وضمانات ، وما يحتمه عليه من مسئوليات ، لان الثورة ملك لابنائها جميعا بلا استثناء ، **وكل مواطن فى مصر مطالب بان يتحمل نصيبه من المسئولية .. وحرية الفكر .. وحرية الحركة .. وحريه الرأى والنقد .. ليست حقوقا فحسب ـ ولكنها واجبات ومسئوليات يحتمها الوضع الثورى الجديد الذى انبثق منذ ١٥ مايو .**

ولا ريب أن دعم البناء السياسى وتطهيره مما عسى أن يكون قد حدث فيه من أخطاء .. لا ريب أن هذا كله واجب كل مواطن .. فان قصر فيه ، فهو مقصر فى حق نفسه ، وفى حق الوطن ..

لان الخلل اذا ترك فى البناء ، فربما أحدث صدعا ، واذا تصدع البناء فسينهار على الجميع .. فهى اذن مسئولية الجميع على السواء .. أن يصلحوا الاخطاء .. وهى مسئولية تنبع من المصير الواحد !.

ان **الهدف** من اعادة تنظيم البيت ، هو ان يكون أكثر راحة ليكون انتاج اهله أشد وفرة .. فاذا لاحظ أحد أن شيئا فى غير مكانه ، وانه قد يضايق سكان البيت ، ويعوق حركتهم ، أو يعطل انتاجهم ، فمن واجبه أن يعمل على التغيير السريع لتنطلق كل الطاقات فى طمأنينة واحساس بالراحة ..

نحن فى ثورة .. والثورة التى انفجرت فى مايو .. قد أضافت جديدا الى الحياة المصرية والعربية والدولية ، وهى ثورة تهدف الى التغيير الكامل .. ولكن بعض الناس يحرصون على تجميد الاوضاع ، وعلى الردة الى الوراء ، والعبرة حين نحكم ليس بما يقول الرجل ، بل بما يصنعه .. فالسلوك لا الكلمات هى التى تحدد مواقع الرجال من هذه الثورة ومن حركة التقدم كلها .. وما قامت الثورة الا لتجعل الكلمة هى الفعل والا لكى تقضى على الفاصل بين الشعار ومضمون الشعار .. بين السلوك والقول .

ان ثورة مايو تستهدف الوحدة الوطنية داخل هذه الارض ، وتستهدف تحقيق جبهة عربية مناضلة ضد الاستعمار والامبريالية والصهيونية والتخلف ، جبهة تعتمد على جبهة عريضة من قوى التقدم المعادية للامبريالية والصهيونية ، والمناضلة فى سبيل العدالة الدولية والسلام العالمى ، وتحرر الانسان ..

واذن فالوحدة الوطنيه فى الداخل ترتبط بالجبهه العربية ، وكلاهما مرتبط بالجبهه العالمية المعادية للاستعمار والصهيونية . وارتباط هذه الجبهات الثلاث ارتباطا ثوريا صادقا هو ضمان هذا الوطن لتحقيق أهدافه الكاملة فى التحرير والتقدم ، وبناء الانسان الجديد ، والمجتمع الجديد .. حيث لا خوف بعد ولا تهديد ، وحيث لا اذعان بعد ولا استغلال،وحيث المنافسه الشريفة بدلا من الاحقاد الرخيصة المبتذلة هى ما يملأ دنيانا رخاء ، وحيث تغنى الحرية وجدان الانسان ، ويحمى القانون مصير الانسان ، وحيث الثقة بالعدل تشيع الطمأنينة ، فتضىء الاعماق بالامل وحب العمل .. وحيث الشعور بالكبرياء يفجر طاقات الابداع ، وحيث لا ينبض العقل الا بالحب .. فلا مكان للكراهية او الحقد فيه ، وحيث يشرق العقل بالثقافة ووهج العلم ، فلا ينال التخلف منه و لايطبق الجهل عليه .. وما أبشع ما صنع بنا التخلف والجهل جميعا .. !

ان هذا المجتمع الذى ننشده ونبنيه لا بديل عندنا له ، ولا غنى عنه .. والطريق الوحيد لتحقيق هذا المجتمع وللانتصار على ما يواجهنا من تحديات هو الوحدة الوطنية المصرية ، التى هى أساس الجبهة العربية الثورية ، المتحالفة مع الجبهة العالمية المعادية للاستعمار والامبريالية والصهيونية والمناضلة فى سبيل التقدم .. ان ارتباط هذه القوى الثلاث وتحركها معا .. انما هى عناصر انتصارنا ، وهى عناصر متلاحمة مترابطة ارتباطا عضويا بحيث لا يمكن فصل عنصر عن أخيه ..

فالذين يشكلون الوحدة الوطنية داخل هذا الوطن ، يجب أن يكونوا مؤمنين بانهم جزء لا يتجزأ من معركة النضال الثورى العربى ، وان هذه المعركة جزء لا يتجزأ من المعركة العالمية ضد الصهيونية والامبريالية والتخلف وكل أشكال القهر والاستغلال .

واذن فاى عنصر من عناصر الوحدة الوطنية لا يؤمن بهذا ، لا يمكن الا أن يكون عدوا للوحدة الوطنية .. ومن واجب التحالف الثورى الذى يمثل قوى الشعب العاملة ، والذى يقود الوحدة الوطنية .. من واجب قيادة الوحدة الوطنية ان تنحى مثل هذه العناصر .. فان كانت قد تسربت الى مواقع المسئولية أثناء العجلة فى عملية البناء .. ان كانت قد وضعت فى اماكن حساسة فى البيت أثناء اعادة ترتيبه ، فمن الواجب استبعادها لانها فى الحق تعوق حرية الحركة ،

وتعطل طاقة الانتاج ، وهى تمثل خللا خطيرا فى البناء يهدد بالانهيار الكامل ·· وهذا هو بالتحديد ما يخطط له الاعداء ·· انه مهما تكن الشعارات التى تختفى وراءها هذه العناصر فهى عناصر مخربة ·· والعبرة بالسلوك والعمل لا بالشعارات والكلمات ··

فمن المعروف ان مثل هذه العناصر المخربة التى تقف موضوعيا مع أعداء الوحدة الوطنية والجبهة العربية الثورية ، والجبهة العالمية المناضلة ضد الصهيونية والامبريالية ·· من المعروف أن هذه العناصر مهما تحسن الحديث وتتقن الشعارات ، تعطل بسلوكها حركة الطلائع الثورية ، وتهددها أحيانا بوهم الاتصال بالسلطات فتخلق حالة من عدم الثقة بين الشعب والسلطة ، وتستعمل وسائل رخيصة لخلق حالة من السخط او الحرج ·· وهذه كلها معوقات ·· ثم ان هذه العناصر فى اللحظات الحاسمة من معاركنا تكشف عن وجهها تماما لتكون أداة مباشرة فى أيدى الاعداء ·· وعلى أية حال فسلوكها كله فى جميع المراحل لا يخدم الا الاعداء ··

اذن فلنتخلص من هذه السلبيات منذ اليوم ، ولنتحرك بمنطق ثورة مايو .. ثورة التغيير والتطهير والتحرر ·· الثورة ضد الخوف والتهديد والقمع والاستغلال والفساد .. فلنتحرك بمنطق هذه الثورة ، لا بمنطق المصالحة وتجميد الاوضاع على الاخطاء ، وترك الجراحات تندمل على الصديد ·

وما يقال عن الوحدة الوطنية وعناصر التحالف داخلها ، يقال عن الجبهة العربية المناضلة ضد الصهيونية والامبريالية ·· وعناصر التحالف فيها ·· فكل عنصر فى هذه الجبهة يقترف من التصرفات ما يسىء الى التحالف الثورى بين الجبهة العربية والجبهة العالمية الثورية · كل عنصر يؤذى هذا التحالف أو يحاول تمزيقه ، انما يخدم فى الحق أعداء العرب : الصهيونية والامبريالية والاستعمار ··

ان الجبهة العالمية المعادية للاستعمار والامبريالية والصهيونية تمثل طاقات هائلة وحاسمة فى العالم ·· وهى جبهة تتسع لتضم الرأى العالمى للعدل والسلام ، وكل قوى الدول الاشتراكية بمافيها الصين الشعبية ،وعلى رأس هذه الجبهة يقف الاتحاد السوفيتى العظيم صديقنا العزيز فى السراء والضراء ·· وحين البأس ·· وسندنا الضخم من الناحية العسكرية والسياسية ، وفى كل مراحل الانشاء وتطوير المجتمع ··

ان الصداقة التى تربطنا بهذه الجبهة بقيادة الاتحاد السوفيتى قلعة الاشتراكية وحامى التحرر الوطنى والتقدم الانسانى ·· هذه الصداقة ليست صداقة مرحلية يمكن ان تتحول غدا او بعد غد الى شىء آخر .. انها ليست صداقة المحتاج فى ظروف بعينها ·· والا وصمنا انفسنا بالانتهازية ·· ولكنها ضرورة وطنية وانسانية ، وهى ضرورة دائمة ·· هى اذن صداقة لا بديل لها ولا غنى عنها لانها تنبع من الايمان المشترك بالحق ... والحرية ·· والسلام ·· وبالعمل المشترك لتحرير الانسان ، وللتقدم البشرى ولتطور الحياة وحمايتها تنبع من المصالح المشتركة فى دحر الصهيونية والاستعمار والامبريالية · انها تنبع من اهداف مشتركة ، ومصالح مشتركة .. مصالح لا يمكن أن تتناقض ، وأهداف لا يمكن أن تتعارض ·· هذه الصداقة لا يمكن أن تكون مؤقتة ··

فماذا نريد نحن ؟ ! ·· وماذا تريد الجبهة العالمية الثورية بقيادة الاتحاد السوفيتى صديقنا العزيز الشريف ؟!·

كلانا يريد ويعمل ليحقق المجتمع الذى لا يستغل فيه الانسان أخاه الانسان ·· والذى يتحرر فيه الانسان من القهر ·· والذى يشبع فيه الانسان كل احتياجاته المادية والثقافية والروحية ·· والذى يسود فيه المجتمع الدولى سلام دائم وعدل دائم نحن اصدقاء الى أن نصنع معا هذا المستقبل ·· وحين يأتى ذلك الزمن الذى نعمل نحن متضامنين جميعا لكى يشرق على عالمنا ·· لا يمكن أن يكون بيننا وبين الاتحاد والجبهة الثورية العالمية الا الود والصداقة ايضا .. وكل ما هو رائع وجميل فى مشاعر الانسان . .

فاذا تصور بعض الناس فى مصر ، وفى غيرها من الدول العربية ·· ان الصداقة مع السوفييت هى صداقة مؤقتة او مرحلية ·· فهم فى الحق يخدمون أهداف الاعداء ·

واذا حسب بعض الناس انهم يستطيعون أن يحققوا اى انتصار بغير هذا التحالف مع الجبهة العالمية الثورية بقيادة الاتحاد السوفيتى .. فهم فى الحق يخدعون الناس ·· وينفذون مخططات الاعداء ·· لانهم سيجدون انفسهم آخر الامر فى معسكر الاعداء ·· سواء أكانوا واعين بهذا الامر ، أم انهم عنه غافلون ·· والذين يرفعون الشعارات الاشتراكية .. وفى أعماقهم وفى سلوكهم ، عداء للاتحاد السوفيتى وما يمثله

•• انما هم فى الحق أعداء الاشتراكية لبلادهم ... فكيف يقوم الاشتراكية على اساس العداء للفكر الاشتراكى ، وللتجارب الاشتراكية وللقوى الاشتراكية الاصلية ؟ !! •

كل هذه العناصر التي يحركها الحقد الاصيل للفكر الاشتراكى •• وللتغيير الثورى ، هى فى الحق سلبيات يجب أن تتخلص منها •• بل انها لاكثر من سلبيات •• انها قوى فعالة معوقة ومخربة •• انها تمزق الوحدة الوطنية التى يجب أن تتوقف وتقوى ليحقق الوطن ما يريد من تقدم ولئن كانت قد وصلت الى مواقع المسئولية خلال العجلة فى عملية اعادة البناء والترتيب •• فمسئولية المواطنين الشرفاء هى عزل هذه العناصر والمطالبة بتغييرها •• وهذه هى مسئولية القيادة الثورية أيضا ••

ومثل هذه العناصر المعادية للفكر الاشتراكي تسلك فى الجبهة العربية المعادية للصهيونية والاستعمار سلوكا سيصبح منشأنه انلم يغادر على الفور بالقضاء عليه أن يحرمنا فى المجال الدولى من أقوى الاصدقاء ، ويعزلنا عن كل الحلفاء ، ويجردنا من أخطر القوى التى نعتمد عليها فى معارك التحرر العربى والتطور العربى •• وهى المعونة الشريفة التى تقدمها الجبهة الثورية العالمية بكل اجزائها •• الرأى العام العالمى .. والدول الاشتراكية بما فيها الصين الشعبية والاتحاد السوفيتى العظيم •

ان معارك المصير التى تواجهنا فى الداخل والخارج لاعظم خطرا من أن نسمح فيها بوجود عوامل تؤثر فى قوانا الضاربة ، أو تعترض تيار التقدم الذى ندفعه بكل ما نملك من طاقات •• ان الطريق الى الحقيقة واحد •• وأمامنا طريق واحد للنصر •• لا طريق غيره •

ان ندعم الوحدة الوطنية بكل عناصر التحالف الشعبى بلا امتياز ولا تعقيدات ، لكل عنصر فى هذا التحالف مكانه الحقيقى •• وبقدر حجمه الحقيقى .. وبقدر تعبيره عن المصالح النهائية للشعب •• وعلى هذا الاساس ليتحمل كل نصيبه من المسئولية •• ويتخذ كل موقعه فى المعركة ••

دعم الوحدة الوطنية على هذا الاساس ،وعلى اساس اصلاح ما يشكل خللا فى البناء واستبعاد من لا يرتفع وعيهم وفكرهم وسلوكهم الى مستوى الموقف •• هذا هو الطريق الواحد •• ولا طريق غيره •• وهكذا يتسق ارتباط الوحدة الوطنية بالجبهة العربية الشريفة المناضلة ضد الامبريالية والصهيونية والاستعمار .. وعلى هذه الجبهة العربية ان تضم كل ممثلى التحالف الشعبى فى كل وطنعربى ..وكل الذين تربطهم المصلحة العربية المشتركة مهما تختلف دياناتهم ومذاهبهم وفلسفاتهم • والمصلحة العربية المشتركة واضحة لا لبس فيها •• وهى تحرير الارض العربية المحتلة •• وتحقيق اهداف المقاومة الفلسطينية ، وتحرير الوطن العربى كله من الاستعمار والصهيونية والامبريالية •• وتحرير الانسان العربى من قيود الاستغلال والتخلف ليعيش عصرنا ويصنع مستقبله بيديه •

وهذه الجبهة العربية المناضلة لا غنى لها عن الارتباط الوثيق بالجبهة العالمية الثورية التى تضم كل قوى التقدم فى العالم وكل الدول الاشتراكية بقيادة الاتحاد السوفيتى الصديق الشريف العزيز •

ان تضامن كل القوى المعادية للامبريالية والصهيونية والاستعمار لم يعد خطة مؤقتة من خطط المرحلة الراهنة •• ولكنه ضرورة من ضرورات النصر •• بل انه هو الضرورة التى تخلقها حاجة هذه القوى جميعا الى دحر جبهة الاعداء •• والى التحرر من الاحتلال والتهديد الدائم •• انه هو الطريق الوحيد الى النصر •• والتقدم ! ••

ان القوى الثورية هى طلائع هذه الجبهات الثلاث المتلاحمة •• الجبهة الداخلية •• والجبهة العربية •• والجبهة العالمية •• والقوى الثورية فى قيادتها لهذه الجبهات تعتمد على المؤمنين بالاهداف المشتركة •• وقد تحدث اخطاء ولكن المهم هو ان نملك القدرة على اصلاحها •• والمؤمنون بعضهم اولى ببعض •

فمن اخطا غير عامد ولا متعمد •• فطريق التوبة مفتوح أمامه .. وليس عليكم جناح فيما اخطأتم به ولكن فيما تعمدت قلوبكم •

أما اذا اختارت بعض عناصر الجبهة أنتضرب عناصر أخرى فى الجبهة نفسها ، فانها فى الحق تختار الوقوف فى معسكر العدو •• لانك حين تضرب الصديق لا تفيد غير العدو .

فلنفتح القلوب لتوبة من اخطا غير متعمد ما داموا على ايمان صادق بالاهداف المشتركة •• وبالطريق الواحد •• اما غير المؤمن فلا مكان له فى الصف •• لانه قد يحرفنا عن الطريق أو يقطع علينا هذا الطريق •انه اذن يفسق عن أمر الوطن •• افمن كانمؤمنا كمن كان فاسقا •• لايستوون •

٨٠ شهرا من حياة الطليعة

تقدم « الطليعة » فى عددها هذا عرضا للدراسات والمقالات التى عالجت فيها — على مدى ٨٠ شهرا — الفكرة الصهيونية : نشأتها وحقيقتها وتطورها ووجهات النظر المختلفة التى اهتمت بتقييمها .

وهذا القسم من دراسات الطليعة ومقالاتها ، يتكامل فى الواقع مع « القضية الفلسطينية » والتى نشرت فى عدد اكتوبر الماضى تحت عنوان « ٨٠ شهرا من حياة الطليعة » .

وتهدف الطليعة من وراء تقديم مواقفها بازاء القضايا الحيوية والرئيسية الى وضع هذه المواقف موضع النقد العلمى واشراك أوسع دائرة من القراء والاصدقاء فى هذه العملية التى تؤدى الى اثراء، وتعميق الفكر العربى فى مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية .



الفكرة الصهيونية

عرض : د · وليم سليمان

اهتمت الطليعة اهتماما خاصا بدراسة « الفكرة الصهيونية لابراز حقيقتها ، ولتصفية ما تراكم حولها من أفكار خاطئة · سواء بفعل الصهيونيين أنفسهم ، او بسبب الاخطاء الفكرية فى مواجهة الفكرة ذاتها ·

ولقد تعددت الوسائل التى عمدت اليها الطليعة لتحقيق هذا الهدف · وأول ما يرد الى التصور هنا هو كتابة الدراسات والمقالات بواسطة المفكرين العرب أنفسهم لعرض وجهات نظرهم ، أو عرض الكتب التى خصصوها لدراسة مختلف نواحى الفكرة ·

ولكن الطليعة لم تكتف بذلك ، بل كانت تعرض وجهات نظر المفكرين غير العرب .. على الرغم من التحفظات التى تكون لها على بعض ما تتضمنه كتاباتهم ·

وهى بعملها هذا كانت تهدف الى فتح آفاق الذهن العربى ليسهم فى تيار الفكر العالمى كى يستطيع أن يؤثر فيه ، ويقنعه بعدالة قضيته · ولقد عبرت الطليعة عن وجهة نظرها هذه وهى تقدم مقال المفكر الفرنسى مكسيم رودنسون : عالم الصهيونية (١) ·

قالت الطليعة :

« كاتب هذا المقال هو المفكر الفرنسى الاشتراكى **مكسيم رودنسون** الاستاذ بكلية الدراسات العليا العملية بجامعة السوربون،ويقود رودنسون وهو من أصل يهودى مع زملائه الاساتذة **جاك بيرك وشارل بتلهايم وهنرى لوفيفر** وغيرهم حملة تنوير شجاعة وموضوعية فى أوساط الرأى العام الاوربى للقضية الفلسطينية وخطر الصهيونية كحركة مرتبطة بالاستعمار العالمى ضد الشعوب العربية وضد قضية اليهود فى العالم فى نفس الوقت ·

« والطليعة رغم ما هناك من اختلافات فى وجهات النظر فانها تنشر المقال لهدفين اساسيين : اولهما : تعريف الرأى العام العربى بمواقف واتجاهات ورؤية اصدقاء حركة التحرر العربى فى الخارج لقضية الصراع العربى الاسرائيلى وثانيهما : ان هذا التعريف هو الخطوة التمهيدية الضرورية لتحديد اسلوب عربى جديد وفعال لمواجهة الدعاية الاستعمارية الصهيونية فى مجال الاعلام » ·

ولقد قدمت الطليعة ابتداء من عدد يوليو ١٩٦٨ « **كراسة تيموايناج كريتيان** » (**شهادات مسيحية**) وقالت :

« هذا الكراس الذى نشرته المجلة المسيحية الفرنسية ذات الميول الديمقراطية « تيموايناج كريتيان » فى عدد خاص هو عبارة عن مجموعة دراسات ومقالات حول أزمة الشرق الاوسط وقضية فلسطين ، اشترك فى كتابتها لفيف من الكتاب والمفكرين الفرنسيين عقب حرب يونيو ·

« وأرضية هؤلاء المفكرين والكتاب تختلف بالحتم عن ارضيتنا · وهى محكومة فى نهاية الامر بالموقع الذى منه ينطلقون ، وبنظرة اوربية · الا أنه جهد تميز بالحيلولة دون الانجراف وراء موجة الدعاية الصهيونية التى اجتاحت اوربا وقتذاك ، وجهد حاول جديا أن يحتفظ بتوازنه ، ووضوح الرؤية فى وقت كانت الظروف كلها تلتقى لطمس الحقيقة وتشويه الصورة ·

وكانت الخطوة التالية بعد ذلك هى اجراء حوار حى بين المفكرين ـ عربا وغير عرب · وقد تم هذا فى عدة مناسبات ـ خص الفكرة الصهيونية بالذات منها لقاءين مع المفكر الفرنسى مكسيم رودنسون فى اولهما القى محاضرة عن « المشكلة اليهودية عبر التاريخ » (٢) . وكان اللقاء الثانى فرصة للحوار الحى حول ما جاء فى هذه المحاضرة (٣) ، كما كان هذا الموضوع أحد عناصر الحوار مع المقاومة الفلسطينية (٤) .

كما قامت الطليعة بمناسبة زيارة بعثة راسل فى اواخر عام ١٩٦٧ لتقصى الحقائق حول جرائم الحرب باعداد دراسة عن الحركة الصهيونية وقضية الصراع العربى الاسرائيلى لمواجهة الدعايات الاستعمارية المضللة التى تروجها الدوائر الصهيونية (٥) ·

---

(١) صفحة ١٢ ـ اغسطس ١٩٦٧ [٢] صفحة ٦٧ عدد يونيو ١٩٧٠
(٣) صفحة ٦٧ عدد يونيو ١٩٧٠ (٤) صفحة ٥١ عدد يونيو ١٩٦٩
(٥) بين اجيال السلام والتقدم فى الصهيونية أم الحركة الوطنية العربية صفحة ٤٢ عدد اكتوبر ١٩٦٧ ·

نقطة البداية

ولقد برزت من مختلف هذه الاساليب نقطة البداية الصحيحة وهى **التفرقة الرئيسية بين اليهوديه والصهيونية** . وكانت هذه التفرقة هى المنطلق الذى وضحت من خلاله حقيقة الصهيونية ، فى نفس الوقت الذى تدان فيه النظريات العنصرية المعادية للسامية .

كتب خيرى حماد فى العدد الخامس من السنة الاولى (٦) :

« تتميز المرحلة المعاصرة للقضية الفلسطينية بظاهرة واضحة كل الوضوح وهى الانقلاب الجدرى فى المفاهيم الاساسيه للمشكلة ، وطريقة معالجتها المعالجه الصحيحة الواضحة . فلقد تمكن الاستعمار فى الماضى بما اشتهر به من أساليب التضليل والتمويه،وبما تميزت بهالقيادات الوطنية القديمة من سذاجه وسلامة نية من تصوير المشكله على انها قضية نزاع طائفى او عنصرى بين العرب واليهود ، وأن الاستعمار الممثل فى صورة الانتداب البريطانى السابق على فلسطين يؤدى دور الحكم المحايد الذى لا مصلحة له الا احلال السلام فى البلاد . وهكذا وقعت الخطيئة الاولى فى معالجة القضية على أساس هذا المفهوم الخاطىء وكانت سببا من أهم الاسباب فى ضياع فلسطين .

« أما اليوم فقد باتت المشكلة فى صورتها الحقيقية الاصيلة ، وهى أن الصراع فيها كان ولا يزال ويجب أن يستمر مع الاستعمار والامبريالية العالميه التى تؤلف الصهيونية عن طريق وجودها وتكوينها وعلاقاتها بالرأسمالية الدولية جزءا لا يتجزأ منها . وظهر فى الصورة الصحيحة للمشكلة أمام الشعب العربى فى كل مكان ان العدو الاول والاخير فى مشكلة فلسطين هو الاستعمار العالمى الذى لولاه لماتت اسرائيل ولما بقيت حتى يومنا هذا بالرغم من خلقها الزائف المصطنع . وان الصراع يجب أن يتركز ضد الاستعمار باعتبار أن مشكلة فلسطين تؤلف جزءا لا يتجزأ فى معركة التحرر العالمية ضد الاستعمار » .

وكانت الطليعة قد خصصت الدراسة الرئيسية فى عددها الخامس من سنتها الثانية (مايو ١٩٦٦) للصراع العربى الاسرائيلى . وكان لابد لكتاب العدد أن يتعرضوا للفكرة الصهيونية . وأبرزوا من مختلف الزوايا التفرقة بين اليهودية والصهيونية .

وقد واجه **لطفى الخولى**(٧) السؤال الاتى: **هل نحن العرب فى تناقضنا مع اسرائيل نصدر عن موقف عنصرى ؟**

ونقطة البداية فى الاجابة كانت ان « **التشكيل الدينى للعرب** » ليس مرادفا للاسلام . « فالعربى هو نبت انسانى لارض معينة من العالم ونتيجة تفاعل أصول عديدة تكون اجتماعيا ونفسيا واقتصاديا خلال التطور التاريخى . وقد أسهمت جميع الاديان دون استثناء فى عملية التكوين هذه وخاصة من ناحية التراث والمزاج الثقافى والنفسى » وانتهى الكاتب الى أن « **الدين** » ليس هو « **المعيار** » الذى نميز به «**العربى** » عن غيره (٨) .

وفى هذا المجال يستند الدارسون الذين عرضوا لهذا الموضوع الى تراث انسانى قديم فى المنطقة - ان « لم يعرف عن الشعوب العربية فى يوم من الايام انها اضطهدت اليهود او عادت السامية أو تعصبت ضدهم كأقلية دينية . بل على العكس من ذلك تماما كان هؤلاء يعيشون بيننا دون تفرقة أو تميز ، يستمتعون بجميع حقوق المواطن العادى » (٩) .

وكما يقول رودنسون حين يقارن بين ما كان يحدث فى الغرب ، وبين الوضع فى العالم العربى : « ان الموقف المعادى للسامية لم يكن له ما يبرره (فى الغرب) لانه لم يكن من صنع اليهود بل من صنع المجتمع الاوربى المتحرك ضد اليهود . ولم يكن من الممكن ايجاد العلاج لهذا الوضع بالكفاح ضد اليهود عامة او ضد جماعات معينة من اليهود .

« أما موقف العرب فهو ناجم على العكس من ذلك تماما من وضع خلقه اليهود أنفسهم . وهذا ما تجبرنا الحقائق التاريخية على الاعتراف به .. ولذا فالعلاج يتمثل فى وضع نهاية لهذا الوضع ولو بالكفاح ضد جماعات اليهود التى تعارض فى تغييره » (١٠) .

ولقد ذكر **جاك بيرك** ان العرب لم يشتركوا فى جريمة اضطهاد اليهود لا من قريب ولا من بعيد (١١)

وهكذا فانه منذ البداية ، فرقت الطليعة « بين اليهودى والصهيونى .. بين اليهودية كدين والصهيونية كمخطط وسلاح استعمارى » .

ان المعركة مع اسرائيل هى جزء من المعركة ضد

---

(٦) فلسطين منذ زيارةولفنسون١٨٤٩ حتى حركة التحرير الفلسطينية١٩٦٥
(٧) جذور وابعاد الصراع العربىالاسرائيلى صفحة ١٩ عدد مايو ١٩٦٦
(٨) مكسيم رودنسون فى محاضرته .
(٩) ميشيل كامل ، الجذور التاريخيةالعنصرية شعب الله المختار صفحة ٣٥عدد مايو ١٩٦٦
(١٠) مقال لطفى الخولى المشار اليهصفحة ١٥٢ - ١٦٠ عدد يوليو ١٩٦٨
(١١) صفحة ٦٧ عدد يونيو ١٩٧٠

الاستعمار والتفرقة العنصرية وليست حربا موجهة ضد السامية أو اليهودية وبحن نقف هنا على نفس الارض التى ننطلق منها فى مساندة شعب زمبابوى ضد الاقلية البيضاء الفاشية فى روديسيا . وشعب جنوب أفريقيا ضد الحكم الارهابى الفاشى للأقلية البيضاء .

وظل هذا الخط هو محور تفكير الطليعة . ففى تقديم رئيس التحرير للحوار مع رودنسون قال :

« اننا فى النضال الذى نخوضه الان فى مواجهة الصهيونيه واسرائيل لا نصدر عن موقف عنصرى أو موقف دينى . وانما نصدر كجزء من حركه التحرر العربى التى هى جزء من حركه التحرر العالمى ضد الامبريالية والاستعمار القديم والجديد وضد العنصرية . واننا فى هذا نميز تمييزا واضحا ودقيقا وسنظل على هذا التمييز باستمرار بين اليهودية بمختلف مشتقاتها وبين الصهيونية كحركة عنصرية رجعية مرتبطة بالامبريالية .

ويفرق د . **اسماعيل صبرى** فى كتابه « فى مواجهه اسرائيل » الذى قدمته الطليعة تفرقة حازمه بين اليهودى كصاحب عقيدة دينية وبين الصهيونى كسياسى يتستر وراء الدن بل ويستغله لتنفيذ مآرب سياسية استعمارية (١٢) .

ولقد اثبت الحوار الذى أجرته الطليعة مع منظمات المقاومة أن هذه التفرقة تمثل خطا رئيسيا فى استراتيجيتها :

« ان استراتيجيه المقاومة الفلسطينية تميز بدقة بين اليهودية والصهيونية. فالصهيونيةوحدها هى المرفوضة كحركة عنصرية رجعيه تخدم المصالح الامبريالية فى المنطقة .بل ان الواقع الجديد يجب أن ينفتح حتى لمن يعلن ويؤكد بالتجربة العملية انفصاله عن الصهيونية وتطهره منها » (١٣)

وقد عبر عن ذلك ممثل فتح وكذا ممثل الجبهه الديمقراطية فى الحوار الذى أجرته الطليعة مع كل منهما (١٤) .

اليهـــــــودية

أ ـ كمعتقد :

حرص كتاب الطليعة فى تناولهم للفكرة

الصهيونية على أن يحفظوا للدين كرامته فلا يصبح أداة لتحقيق الاطماع القوميه . وحين طبقوا هذا المبدأ على اليهودية وجدوا الامرين معا : التراث الروحى الذى يحرك فى نفس المؤمن المشاعر الانسانية السامية،والاستغلال الردىء الذىيولد التعصب والعدوان . ومن خلال النظرة التاريخية العلمية ، وجدوا أن ما تصنعه الصهيونية بالدين اليهودى هو نفس ما حدث فى القرن الحادى عشر حين استخدمت قوى المغامرة والغزو والتوسع الاستغلالية الاوربية الدين المسيحى فى حملاتها الصليبية ضد العرب والشرق ـ ساقت بهذا الاستغلال الالاف من الاوربيين المضللين الى مجازر الحرب لتحقيق آمال أرباب المال والتجارة والاقطاعيين وسادة الكهنوت فى كنوزالشرق (١٥)

أما اليهودية كدين ـ فى أسفارها المكتوبة وفى منطق وجودها ذاته ـ تدين الصهيونية وترفض تماما تأسيس مجتمع دينى لليهود يتخذ شكلا سياسيا فى صورة دولة دائمة . ويظل الهدف الاساسى هو « الجماعة الانسانية الشاملة » (١٦)

ولقد ابرز **مكسيم رودنسون** الدور الذى قام به انبياء العهد القديم فى القرن السابع او السادس قبل الميلاد . «لقد دعوا الى رؤية عالمية فياهوه ليس رب اسرائيل وحدها ولكنه اله كل الشعوب . بل انه جاء على لسان بعضهم عتاب لاسرائيل لانه يعتقد انه الوحيد الذى اختصه يهوه بحبه » (١٧)

ولقد أبرز هذا المفكر ان « هناك مواجهة قوية بين الصهيونية واليهودية الدينية فقد كان رجال الدين فى البداية ألد أعداء الصهيونية وفى مستهل الحركة الصهيونية كان هناك صراع دام بين هذه الحركة واليهود الدينيين فى بولونيا وروسيا . ودام هذا الصراع مدة طويلة . وقد رفض اليهود الدينيون أن يعترفوا بدولة اسرائيل وقت أن كانت فلسطين تحت الوصاية لانهم كانوا يعتبرونها دولة غير يهودية ، وقد قيل لى أنهم رفضوا حتى حفر الخنادق ولم يطلب منهم الاشتراك فى القتال ضد العرب فى هذه الفترة . وانما فقط أن يحفروا الخنادق . فرفضوا . وهم يقولون ان هذه الحرب لا تهمنا . انها بين دولتين لا يهوديتين . ونحن هنا لكى نتعبد فقط ، انها البلدة الاكثر قربا من الله » (١٨)

قبل الحرب العالمية الثانية كان الصهاينة

---

[١٢] عرضه وديع وهبه صفحه ١١٨ عدد يوليو ١٩٦٩

(١٣) لطفى الخولى ، جبهة عربيةيهودية عالمية ضدالامبريالية والعنصريةصفحة ٥ عدد ابريل ١٩٦٩

(١٤) عددى يونيو ونوفمبر ١٩٦٦

(١٥) لطفى الخولى جذور وأبعادالصراع العربى الاسرائيلى ، صفحة ٢٠ عدد مايو ١٩٦٦

(١٦) وليم سليمان ، اسرائيل بؤرةحرب وليست أمة صفحة ٣٠ عدد يوليو١٩٦٧

(١٧) المشكلة اليهودية عبر التاريخصفحة ١١١ عدد مايو ١٩٧٠

(١٨) الصهيونية بين الاستقلاليةوالتبعية عدد ... ١٩٧ بل ان يهود اسرائيل انفسهم لا يمثلون اساسا مجموعة دينية . ولكنهم مجبرون على التمسك بالفكرة من اجل تعريف كلمة « يهودى » التى هى أساس فكرهم .

يشكلون حركة لا تمثل سوى الاقلية فى عالم اليهود . وكان الذين لا ينتسبون الى الصهيونية وحتى المعادين للصهيونية هم الاكثرية بشكل واضح (١٩) .

فى سنة ١٨٧٨ اعلن **هرمان أدلر** الحاخام الاكبر لانجلترا : « **اننا** كيهود ننتمى سياسيا للبلاد التى نعيش فيها ، اننا بكل بساطة انجليز او فرنسيون او المان . اننا نمارس بالضرورة بعض العقائد الدينية الخاصة بنا — ولكننا لا نختلف فى هذا الشأن مع المواطنين الذين يعتنقون اى دين آخر ، كما اننا نشاركهم فى المساهمة فى رفاهية الوطن ونطالب بحقوق وواجبات المواطنين »(٢٠)

ونفس هذا الموقف أعلنه **حاييم ناحوم** الحاخام المصرى الذى أصدر بيانا بعد انشاء اسرائيل قال فيه : ان اليهود المصريين جزء لا يتجزأ من الامة المصرية وانهم يتمتعون بكل ما يتمتع به المواطن المصرى الصالح . وعلى ذلك فليس لاى دولة أجنبية سواء كانت هذه الدولة اسرائيل أو غيرها أية صفة للتحدث باسمهم(٢١) .

ماذا صنعت الصهيونية بهذا التراث العميق ؟

وكيف نفذت الى هذه الجماعات المعارضة لها ... تلك احدى قصص الابتزاز التاريخية . سنعرض لها فى صفحات قادمة .

على انه ما زال هناك شهود شرفاء . يهودا وغير يهود ، يحافظون على الجوهر النقى للدين .

ولقد أوردت الطليعة ضمن كراسة مجلة تيموايناج كريتيان شهادة الحاخام الفرنسى المعاصر **ايمانويل ليفين** — اذ يقول :

« **لا يمكن أن أظل فى الجوهر يهوديا حقا ما لم أقف بجانب أكثر الناس بؤسا وأكثرهم تعرضا للاذلال والمهانة وما لم أجسد كل شدائد الانسانية أو أشارك فيها وأحسها .**

« .. **وهكذا يتأكد ويتكامل كيانى اليهودى — بل ان كيانى يزدهى ويتضح بتعاطفى وتضامنى مع** عرب فلسطين، وبمعارضتى الكاملة والمطلقة لدولة اسرائيل والصهيونية التى تحمل فى مبادئها المظالم والجرائم التى نعيشها كشهود عاجزين . وما كانت دولة اسرائيل تستطيع أن تقوم دون ارتكاب هذه الجرائم »(٢٢) .

وضمن هذه الوثائق نفسها أثبتت الطليعة ما كتبه المفكر الفرنسى بخصوص احدى العقائد التى تستغلها الصهيونية استغلالا شائنا ، نعنى بها فكرة أرض الميعاد ، يقول **بيرك** : « **هل يمكننا أن نتكلم فى قلب القرن العشرين عن أراض تمتاز عن غيرها بأنها « مقدسة » أو بأنها ارض «الميعاد» السنا بصدد كوكب متحرر تقاسم من أجل قيامه شجاعة الانسان وتتوقع المكافأة من تحقيقه ؟ ومن هنا فان قضية عرب ويهود فلسطين تندرج تحت قضية أكثر الحاحا — أيا كان الطابع الخاص** لقضية كل منهما — واعنى بذلك قضية تحرير العالم من الاستعمار ... **هل من الممكن أن تكون هناك الان أعمال غزو مشروعة وعمليات استعمار طيبة واجراءات ضم مقدسة تماما كما توجد حاليا فى أماكن أخرى عمليات ضرب بالقنابل** ديمقراطية ؟ »(٢٣) .

ب — اليهود كبشر :

التزمت الطليعة المنهج العلمى فى مواجهة محاولات الصهيونية تعبئة الجماهير اليهودية لتأييدها . ورفضت أن يكون رد الفعل العربى تطرفا عنصريا من نفس النوع الصهيونى . ولكنها فى نفس الوقت والتزاما بأصول المنهج العلمى رفضت أن تسلم باعتبار الجماهير اليهودية تكون شعبا واحدا أو أمة أو قومية .

يقول **بن جوريون** فى محاضرة مطبوعة له : « **أولئك اليهود الذين يعتبرون أنفسهم جزءا من الشعب الامريكى أو الانجليزى أو الفرنسى — أولئك اليهود الذين لا يشعرون أنهم فى منفى .. هؤلاء اليهود جميعا .. خطر على مستقبل** اليهودية »(٢٤) .

فى مواجهة هذا الموقف العنصرى الذى يهدف

---

(١٩) عالم الصهيونية ، صفحة ١٥ عدد أغسطس ١٩٦٧
(٢٠) وليم سليمان ، اسرائيل بؤرة حرب وليست أمة صفحة ٣٠ عدد يوليو ١٩٦٧
(٢١) لطفى الخولى ، جذور وابعاد الصراع العربى الاسرائيلى ، صفحة ٢٠ عدد مايو ١٩٦٦
(٢٢) صفحة ١٧٧ عدد سبتمبر ١٩٦٨
(٢٣) صفحة ١٥٤ عدد يوليو ١٩٦٨
(٢٤) وليم سليمان ، اسرائيل بؤرة حرب وليست دولة ، صفحة ٣٠ عدد يوليو ١٩٦٧ .

الى التوسع والعدوان ، ويهدد اليهودية كمعتقد والجماهير اليهودية كبشر ـ كتب المفكر اليهودى الفرنسى رودنسون يقول :

« هل مجموع الاشخاص الذين يمكن أن نسميهم يهودا بدرجات متفاوتة ـ هل يمكن أن يكونوا شعبا ؟ لا شك أنهم سيكونون شعبا غريبا حقا، شعبا غير طبيعى لا وطن له ويرتبط بأوطان مختلفة .

ومن خلال وثائق تيموايناج كريتيان ، أثبتت الطليعة ما تقوله فانى شابيرا « ان عددا كبيرا من اليهود حاربوا عن حق ضد فكرة « الجنس اليهودى » بل انه لا توجد حتى « جماعة اثنوجرافية يهودية » فكل الدراسات المتقدمة فى علم الانثروبولوجيا وبالاخص فى علم الاحياء تؤكد ما تشهد عليه مجرد الملاحظة البسيطة وهو أن ما يسمى « الشعب اليهودى » يتميز بافتقاره الشديد للتجانس »(٢٥) .

وما قالته جاهلين هادامار وهى تواجه نداء المليونير الفرنسى ادمون دى روتشيلد من أجل التضامن اليهودى . تقول :

« أنا من سلالة العائلات اليهودية التى تركت مقاطعة اللورين بالاجماع عام ١٨٧٠ لكى تحافظ على قوميتها الفرنسية وحفيدة مدير المعهد الدينى الاسرائيلى فى باريس وابنة جاك هادامار أحد مؤسسى رابطة الدفاع عن حقوق الانسان وقد نشأت فى جو معركة دريفوس أى فى جو الكفاح ضد الظلم وضد التعصب العنصرى ...

« وانا أرفع صوتى اليوم لانى متشبعة بهذه الروح ..

« ان السيد دى روتشيلد يدعونا الى الشعور « بفخر عظيم » من أجل .. الانتصار العسكرى الذى لا يدل الا على قهر القوة ولا يقدم باعترافه هو أى حل للمشكلة .

« واننى لاعلن أيضا بطلان عدد من دعاويه . انه يتكلم عن « الشعب اليهودى » الذى لا وجود له . فهناك أفراد يدينون باليهودية فى عدد كبير من بلاد العالم . وهذا هو العنصر الوحيد المشترك بينهم ..

« لا ... انالاأنتمى الىالشعباليهودى .. وغير مدينة بأى ضريبة أدفعها ثمنا لتضامنى ..

« اننى لاتوجه الى المواطنين اليهود معلنة احتجاجى وأدعوهم الى رفض الاستجابة الى هذا النداء والى اعلان تمسكهم بأنهم فرنسيون وليسوا يهودا من فرنسا على حد قوله » (٢٦) .

جـ ــ المشكلة اليهودية :

وكان لابد للطليعة أن تواجه ماسمى بالمشكلة اليهودية ، فهذه كانت السند الذى عليه قام التبرير العملى للفكر الصهيونى . وهذه المشكلة لها مرادف آخر .. هو معاداة السامية .

فما هو معنى هذه العبارة ؟

أجاب عن ذلك مكسيم رودنسون فى محاضرته :

« اصطلاح معاداة السامية اختراع ألمانى من القرن التاسع عشر فى وقت كان لا يعرف الالمان فيه سوى اليهود كقوم يمكن ربطهم باللغة السامية . ومن هنا فان كلمة معاد للسامية الشائعة الاستعمال فى أوربا لها معنى معين ، فالبعض يرى أن اليهود فاسدون أو أشرار أو شيطانيون فى جوهرهم » وتهدف الى السيطرة على العالم لاسباب دينية فقط (٢٧) .

ولماذا ظهرت معاداة السامية فى القرن التاسع عشر ؟

لان اليهود يكونون عنصرا خارجا على الهياكل الاقطاعية القديمة يتوغل الى أقصى درجة فى الاقتصاد الرأسمالى الجديد .

وبالنسبة للايديولوجيات الليبرالية والاشتراكية كان اليهود فى أغلب الاحوال أجانب بسبب الهجرة ولذا فانهم يصبحون كبش فداء سهل المنال بالنسبة للمتمسكين بالانماط الاجتماعية القديمة ، وبالارستقراطية ، وبالاقتصاد الزراعى .

ولقد عرضت الطليعة لاهم الكتابات النظرية التى عالجت موضوع معاداة السامية ، ابتداء من برونوباور ، فكارل ماركس ، ثم ابراهام ليون . وكانت محاضرة مكسيم رودنسون فرصة أوضح فيها هذا المفكر الفرنسى رأيه فى الموضوع .

والواقع أن مطالبة الاقليات اليهودية فى أوربا بوطن قومى خاص بهم فى النصف الاول من القرن التاسع عشر بدأت بمطالبة اليهود الالمان بالتحرر باعتبارهم جزءا متميزا من الشعب الالمانى ، مما جعل برونو بوير يتصدى لهم منتقدا موقفهم الانعزالى بقوله«فى المانيا ليس ثمةانسان متحرر سياسيا ، ونحن أنفسنا لسنا أحرارا ، فكيف نستطيع تحريركم وانكم معشر اليهود لانانيون حين تطالبون لانفسكم بتحرر خاص بكم . فعليكم أن تعملوا ـ بوصفكم ألمان ـ على

---

(٢٥) صفحة ١٥٩ عدد اكتوبر ١٩٦٨
(٢٦) صفحة ١٦٠ عدد اكتوبر ١٩٦٨
(٢٧) صفحة ١٠٦ عدد مايو ١٩٧٠

التحـــرر السيـــاسى لالمـــانيا ، وبوصفكم بشرا على التحرر البشرى (٢٨) .

أماكارل ماركس ،فيرى أن فصل الدين عن الدولة يهيىء لهم حرية العقيـــدة وممارستها . فالتحرر السياسى لا يلغى ولا يحاول أن يقضى على التدين الواقعى عند الناس .كما ان اعلان حقوق الانسان سنة ١٧٩٣ الذى ينص على حرية ممـارسة العبادات يمنح الانســان الحـق فى أن يكـــون متدينا وأن يكون ذلك بمطلق مشيئته وأن يمارس فروض دينه الخاص بحرية . وهى ضمانات كافية لحرية أقلية ، دينية فى ممارسة ما تمليه عليـــها عقيدتها الخاصة .

ولكن ماركس لم يقتصر على الاشــارة الى الحرية الدينية فى ظل نظام فصل الدولة عن الدين - بل غاص الى أعماق المشكلة باعطائها المضمون الاجتماعى ، وارجاعها الى الجـــذور الاقتصادية اذ يوجه الانظار الى أنه « لا يجب أن نبحث عن سر اليهودى فى دينه بل لنبحث عن سر الدين فى اليهودى الواقعى » أى الوضـــع الاقتصادى للاقلية اليهودية ومن ثم الدور الذى تلعبه اجتماعيا . ولذلك يشير الى أن « التناقض القائم بين قوة اليهودى السياسية الواقعية وحقوقه السياسية انما هو التناقض القائم بين السياسة وقوة المال . فالسياسة هى نظريا فوق المال ، ولكنها عمليا قد اصبحت سجينتــه النموذجيـــة . وأن اليهودى تحرر على الطريقة اليهودية ليس فقط بأن أصبح سيد السوق المالية وانما لأن المال أصبح بواسطته وبفضله قوة عالمية .

فماركس يربط بين وضع الاقليات اليهـــودية الاجتماعى وبين اتجاهاتهم الانعزالية والانعزالية ربطـــا عضويـــا يتمثـــل فى قولــه « ان قوميــــة اليهودى الوهمية هى قومية التاجر ، قومية رجل المال » (٢٩) .

هكذا وضع ماركس نظرية حول بقاء اليهودية - تقول ان اليهود ظلوا باقين لان الاقتصاد الاوربى كان فى حاجة اليهم ، اذ أنهم تخصصوا فى وظيفة معينة وهى تجارة المال فى مرحلتى اقتصاد القرون الوسطى وبداية الاقتصاد الراسمالى . فقد كانت هناك حاجة الى اناس متخصصين فى هذا المجال بينما كانت الايديولوجية المسيحية تحرم الربا .

وفى رأى رودنسون أن سر بقاء اليهود يتمثل بكل بساطة فى أنه لم يبذل أى مجهود منظم ومدروس فى أى من أنحاء العالم التى تواجد فيها اليهود من أجل انهاء تميزهم .

ما هى ردود فعل اليهود ازاء ذلك ؟

أولا - هناك ردود الفعل الفردية بأن يعتنق الشخص دينا آخر . واذا لم يكف ذلك فانه يندمج تماما ،بل ويتخذ لنفسه اسما آخر لكى يمحو تماما أى أثر لاصله اليهودى .

ثانيا - المشاركة فى الحركات الليبرالية او الاشتراكية لتغيير المجتمع . على أساس أن ذلك التغيير سيحقق الخلاص من معاداة السامية .

الحل الثالث هو القومية الاقليمية ، ومثال ذلك اليهود المتكلمون بلغة اليديش فى أوربا الشرقية الذين كانوا يطالبون مثلا بالاستقلال الثقافى .

رابعا - ظهرت القومية الشاملة التى تجمع كل اليهود بهدف خلق قومية يهودية لها أرضـها الخاصة وهذا ما يسمى بالصهيونية (٣٠) .

الصهيـــــونيـــة

أ - كايديولوجـــية :

خاطبت الطليعة بعثة راسل لتقصى الحقائق حول جرائم الحرب : « انهم يطالبوننا بقبول الفكرة القائلة بأن الصهيونية أيديولوجية حركة وطنية كانت بمثابة اختيار « الشعب اليهودى » لها عن طريق تحرره ضد معاداة السامية - التى تعد بحق سمة مميزة وبارزة لاكثر النظم رجعية فى أوربا وبأن اسرائيل تبعا لذلك ثمرة كفاح حركة وطنية تقدمية اكثر من غيرها اذ شقت طريق وجودها ضد أكثر النظم رجعية فى أوربا ابتداء من أوتوقراطية الاقطاع فى روسيا القيصرية لتنجح فى النهاية فى التغلب على ظلمات النازية الحالكة متحملة فى سبيل ذلك ملايين الضحايا » (٣١) .

ثم ناقشت الدعاوى التى تستند اليها الصهيونية ليكون لها محل وسط الايديولوجيات المعاصرة لهـــا (٣٢) .

١ - **مع الفكرة القومية :** سعت الصهيونية دائما الى أن تفرق بين مولدها ومولد الحركات القومية فى أوربا الشرقية والوسطى وذلك لتوافق الظاهرتين الزمنى . ولكن الحقيقة هى أن الفكرة الصهيونية قد ولدت فى أواخر القرن التاسع عشر مع ازدهار حركات تحرر القوميات المضطهدة فى الامبراطوريتين النمسوية المجرية والروسيــــة القيصرية ، وذلك لا كجزء من نظرية وايديولوجية هذه الحركات ولكن كنظرية وفكرية مقابلة . ففى الوقت الذى امتد فيه تنظيم رعايا ملكيـات

---

[٢٨] ميشيل كامل ، الجذور التاريخية والطبقية لعنصرية شعب الله المختار ،صفحة ٣٥ عدد مايو ١٩٦٦،

(٢٩) ميشيل كامل صفحة ٣٦ عددمايو ١٩٦٦

(٣٠) صفحة ١١٥ عدد مايو ١٩٧٠

(٣١) الصهيونية أم الحركة الوطنية العربية صفحة ٤٢ عدد اكتوبر ١٩٦٧

(٣٢) أوردت الطليعة العرض التاريخى المختصر الذى تضمنته كراسة تيمو ايناچ كريتيان عن التاريخ اليهودى منذ ما قبل الميلاد حتى القرن العشرين

الامبراطوريتين بمعايير ومعطيات العصور الوسطى والنظام الاقطاعى فى تصنيف الناس على أساس دينى ومهنى وعنصرى كانت هناك ايديولوجيتان تتصارعان : الاولى وهى ايديولوجية حركة القوميات المناضلة من أجل الاعتراف بحقوق الانسان الفرد كمواطن بدون تمييز عنصرى أو دينى وعلى أساس تبعيته القومية المناضلة من أجل وجودها • والثانية : وهى ايديولوجية مختلف القوى الرجعية ـ ومنها الصهيونية ـ التى كانت تدافع كرد فعل رجعى للفكرية الايديولوجية الاولى عن الابقاء على تصنيف الناس بمقتضى معايير العصور الوسطى بل بمقتضى معايير قبلية ودينية تعد من نظريات تنظيم دويلات الاقطاع(٣٣) •

وهنا كان لابد للتعرض للمصير الذى أوصلت الصهيونية اليه الحركة الاصلاحية اليهودية التى كانت تريد ادماج اليهود فى التيارات القومية •

يقول الصهيونيون لمعارضيهم من المواطنين أصحاب العقيدة اليهودية المعادين للصهيونية ـ ان التيار الاصلاحى اليهودى الذى كان يهدف الى أن يكون لليهود مكانة المواطن فى أى وطن فى العالم ، والذى كان يريد أن يطهر تراث الانبياء اليهود من كل فكرة قومية ، والذى أعلن انصاره انهم على استعداد لان يتساموا ويرتفعوا الى دين مبادىء الانسانية جمعاء ـ يقول الصهيونيون لمعارضيهم اليهود انهم تنبهوا الى الخطأ الذى وقع فيه الاصلاحيون الاوائل(٣٤) •

٢ ـ **مع الفكرة الاشتراكية** :ان السعى لخلق تداع فكرى بين تاريخ الصهيونية وتاريخ الاشتراكية هو تزوير بشع للتاريخ • وفى حين أن الاشتراكيين الديمقراطيين يشكلون جزءا من العناصر المكونة للحالة السياسية والاجتماعية فى كل بلد فان الصهيونية لا تلتقى معهم الا فى نقطة واحدة وهى نقطة معاداة السامية ، ومع هذا لا تقوم الصهيونية بمقاومة معاداة السامية، بل ولا تدعى مجرد الادعاء أن هذه هى مهمتها ، ولكن مهمتها فيما يخص معاداة السامية تنحصر فى الاستفادة منها واتخاذها منبعا ووقودا جديدا لقوتها(٣٥) •

بينما كان جوهر الاشتراكيين والاحرار فى مواجهة معاداة السامية هو استنكارها والمناداة بالحقوق المدنية للجميع وبالحريات العامة والكفاح السياسى من أجل تحقيق هذه الشعارات ، فان موقف الصهيونيين من المشكلة وان كان بالضرورة استنكار معاداة السامية أيضا الا أنهم يفسرونها أساسا على أنها ظاهرة حتمية ـ بل ظاهرة تؤكد نظريتهم التى تقول أن معاداة السامية لن تختفى الا بتجميع يهود العالم فى دولة يهودية(٣٦) •

وفى العدد الذى خصصته الطليعة للينين،كانت ثمة فرصة لابراز فكره فى الصهيونية •فكتب وديع وهيب : انه كان من الطبيعى أن تصطدم اللينينية وهى تؤسس نظرتها للمشكلة القومية على أساس تاريخى اجتماعى جوهرها النضال ضد الاقطاعية والامبريالية بمفهومات الحركة الصهيونية التى تعرض قضايا اليهود كقضايا فوق طبقية ، كأنها تنبع بشكل حتمى من مجرد وجود يهود فى وسط شعوب اخرى وتدعى أن سبب اللاسامية هو مجرد كراهية اليهود •• دون علاقة بالنضالات التى تجرى فى المجتمع •

وكانت المفهومات الصهيونية قد تسربت الى الحركة العمالية عن طريق تنظيم البوند خاصة • وضد مفهومات هذا التنظيم سلط لينين نيرانه ، وفى مناقشاته مع قيادة حركة البوند نراه يؤكد :

« ان حجة البند الثالثة التى تتذرع بفكرة الامة اليهودية لها بلا ريب طبيعة المبدأ • ولكن لسوء الحظ ان هذه الفكرة الصهيونية خاطئة خطأ مطلقا ورجعية من حيث الجوهر •

ثم يعود لينين ليؤكد :

« ان الفكرة القائلة بأن اليهود يشكلون أمة منفصلة عن غيرها ، هى غير ثابتة من الناحية العلمية على الاطلاق • عدا كونها فكرة رجعية من الناحية السياسية • وتعطينا الوقائع المدونة للتاريخ الحديث ، وللحقائق السياسية المعاصرة برهانا عمليا لا يمكن دحضه على ذلك » ففى جميع أنحاء أوربا رافق انهيار العصور الوسطى وتقدم الحرية السياسية التحرر السياسى اليهودى واستعمالهم لغة الشعوب التى يعيشون بينها ، وبوجه عام اندماجهم شيئا فشيئا مع السكان المحيطين بهم، هل بامكاننا ان نعزو الى الصدفة أن تكون القوى الرجعية فى جميع أنحاء أوربا ولا سيما روسيا هى التى تعارض اندماج اليهود وتسعى الى ادامة عزلتهم • ان المشكلة اليهودية على وجه الدقة هى الاندماج أو الانعزال ، وأن فكرة القومية اليهودية هى بلا ريب فكرة رجعية ليست فقط عندما ينادى بها المنادون بصورة سافرة (وهم الصهيونيون) ولكن أيضا عند أولئك الذين يحاولون أن يجمعوا بينها وبين أفكار الاشتراكية الديمقراطية (البوند) •

وفى شعارات المؤتمر الثانى للكومنترن الخاص بالمسألة القومية ومسألة المستعمرات الذى حضره

---

(٣٣) صفحة ٤٤ عدد اكتوبر ١٩٦٧
(٣٤) نفس المصدر
(٣٥) نفس المصدر
(٣٦) نفس المصدر

لينين وصاغ قراراته رفع المؤتمر شعار : « ان المؤسسة الفلسطينيةللصهاينة والصهيونيةعموما لهى مثال صريح على الجهود المتضافرة التى تبذلها الامبريالية العالمية والبورجوازية لخداع الجماهير الكادحة(٣٧) .

وتمثل الصهيونية فى رأى الكاتبة السوفيتية **جالينا نيكتينا** « خليطا من الافكار الغامضة والعناصر القومية اليهودية المحددة ، وهى تعتبر رد فعل محدد الفظاعة جيتو العصور الوسطى اليهودى » وهى تنكر منذ بدايتها امكانية حل المشكلة اليهودية فى اطار النضال الطبقى للبروليتاريا » وهى فى نهاية الامر «تيار بورجوازى بكل جوهره وأهدافه » .

وقد اعتمد زعماء الصهيونية فى تحقيق أغراضهم على مساعدة « الحكومات القومية » وهكذا ظهر أساس الرباط الوثيق بين الصهيونية والاستعمار » وهذا هرتزل يعد الامبراطور الالمانى فى خطاب وجهه له انه « مع قدوم اليهود ينتشر نفوذ المانيا فى الشرق ، ثم عاد الصهيونيون وارتبطوا بانجلترا ، بمجرد ظهور بوادر انعقاد النصر لها فى الحرب العالمية الاولى .

وأبرزت الطليعة لبعثة راسل انه اذا كانت الصهيونية قد استطاعت فى سنة ١٩٤٨ ان تزعم انها كانت الالهام الثورى لحرب « التحرير الوطنى » التى شنها يهود فلسطين ضد المحتل البريطانى فان هذه العملية ذاتها هى التى أخرجت أكثر من مليون مواطن عربى من ديارهم .

واذا كانت لها الفرصة فى ظل أوضاع المشرق العربى وحماية الاحتلال للنظم الرجعية كى تتقمص ثوب الحركة التقدمية القادر على ابهار هواة اليسارية ، فان هؤلاء بموقفهم هذا قد قبلوا أن يتجاهلوا ما كان يحدث للشعب العربى وطبيعة الصهيونية العنصرية والكهنوتية والرجعية فى أساسها . كما أنهم تجاهلوا اتجاه دولة اسرائيل التوسعى وحتمية تحالفها مع الامبريالية(٣٨) .

وماذا كانت النتيجة :

ولان الصهيونية رد فعل رجعى لمفاهيم الحركات القومية ولكونها فى أحسن الاحوال على هامش مختلف التيارات التحررية والاشتراكية بل فى الواقع معادية لهما وتدعم أسباب وجودها بالتقائها مع كل موجة من موجات معاداة السامية فلم يكن فى مقدورها أن تحقق الدولة اليهودية اعتمادا على جماهير أى بلد فى العالم ولا على جماهيرها المبعثرة فى مختلف انحاء العالم والمحددة العدد .

وحيث انها لم تكن تشكل تيارا نابعا من ضرورة أملاها التاريخ فلم يكن فى مقدورها أن تحقق أهدافها الا بأن تقطر نفسها وراء المصالح الرجعية للدول الكبرى التى تملك روافع الامر والنهى وتملك الوسائل التنفيذية القوية التى تستطيع بها أن تساعد على استقرار الصهيونية بشرط أن تضعها فى خدمتها(٣٩) .

ب ــ وسائل تحقيقها :

أ ــ الارتباط بالقوى الاستعمارية :

ان منطق البرنامج الذى طرحه **هرتزل** فى أول مؤتمر صهيونى عقد فى مدينة بال عام ١٨٩٧ يكشف عن مخطط لايمكن تنفيذه الا بمساندةالقوة الاقتصادية التى تستطيع تمويل الهجرة واستعمار فلسطين والقوة السياسية العسكرية التى تفرض هذه الهجرة وتمنح الحق « الشرعى » (!) فى هذا الاستعمار . ومن هنا جاء ارتباط الصهيونية بالقوى الاستعمارية العالمية فى مختلف مراحل نشاطها . ومازال هذا الطابع الطفيلى العدوانى هو نقطة البداية لفهم اسرائيل الدولة سواء فى نشاطها الداخلى أو فى علاقاتها الخارجية(٤٠)

على أن الطليعة كانت حريصة على مناقشة المفهوم الدارج عن اسرائيل كمجرد اداة للاستعمار مبرزا ان هذه النظرة وان كان لها ولا شك فضل القاء الاضواء على دور الاستعمار فى انشاء اسرائيل ودعمها وعلى دور اسرائيل فى خدمة الاستعمار ، ولكنها تهمل دور الصهيونية كحركة استعمارية لهامكانها المتميزداخل اطار الاستعمار العالمى » ثم ليخلص من المناقشة الى تأكيد أنه الى جانب دور اسرائيل كأداة للاستعمار توجد اسرائيل كدولة استعمارية ، بل انها بقدر نجاحها فى دورها فى خدمة المصالح الاستعمارية للدول الكبرى تؤكد وجودها المستقل وتفرض مطالبها الخاصة »(٤١)

٢ ــ طرد الفلاحين العرب من أراضيهم :

كان **تيودور هرتزل** مؤسس الحركة الصهيونية قد شدد فى مذكراته على أهمية طرد الفلاحين العرب من اراضيهم . وقد كتب احد قادة التكتلات العمالية فى الارض المحتلة يشرح كيف تم تنفيذ هذا المخطط قال : لقد تم شراء الارض التى اقيمت عليها مستعمرات (كيبوتزات) الهستدروت من

---

(٣٧) وديع وهيب « خطوط اساسية فى مفهوم لينين عن القومية » صفحة١٠٩ عدد ابريل ١٩٧٠ .
(٣٨) صفحة ٤٨ عدد اكتوبر ١٩٦٧
(٣٩) صفحة ٤٦ عدد اكتوبر ١٩٦٧
(٤٠) صفحة ٣٢ عدد يوليه ١٩٦٧
(٤١) د٠ اسماعيل صبرى « فى مواجهة اسرائيل عرض وديع وهيبصفحة ١١٨ عدد يولية ١٩٧٠

الاقطاعيين غير المقيمين (فى أراضيهم) وجرى ابعاد الفلاحين العرب الذين كانوا يعملون عليها لقاء تعويضات ضئيلة او بدون تعويضات على الاطلاق · وكثيرا ما تعرض الفلاح العربى وعائلته الى الاجلاء التسرى لرفضه النزوح عن الارض . وكان شبان الكيبوتز يسارعون الى طرد الفلاح العربى بالقوة ويستعينون بالشرطة أحيانا وكثيرا ما كانت عودة النظام تعنى اراقة دم الفلاح العربى ·

وكانت الصياغة النظرية لهذا العدوان عملا بالغ المهارة · وخلال سنوات طويلة من التخطيط والجهد كان الكيان اليهودى فى « الارض » يثبت اقامته على اسس عقائدية عدوانية وضعت التنظيم العملى المناسب لتتحول الى واقع تحتشد حوله جموع المتعصبين المستنفرين ، وهكذا نشأ ارتباط وثيق نادر المثال بين الاساس الفكرى للصهيونية من جهة والتخطيط الصهيونى وشكل تنفيذه من جهة اخرى ·

تقول الصهيونية ان كل علاقة بين اليهودى وأرض اخرى هى علاقة عابرة · ثم ان العودة الى الارض يجب ان ترافقها الاقامة على الارض الزراعية والكد والعمل فى الزراعة تطهيرا للنفس اليهودية مما الم بها من درن المادة اثناء الانغماس الطويل فى نشاطات اقتصادية غير منتجة مثل الاعمال المصرفية والتجارة والخدمات الاخرى فى المجتمعات التى تستقر أمنها .

وقام النشاط الصهيونى على أساس اغتصاب الاراضى الزراعية فى فلسطين وتسجيلها ملكا للامة اليهودية · فعلى هذا نص دستور الوكالة اليهودية · ووضع المخطط على اساس قطع صلة العربى نهائيا بأرضه سواء كان هذا العربى فى الاصل مالكا لهذه الارض او مستأجرا أو مزارعا بالحصة او حتى عاملا زراعيا بالأجرة · ونص فى دستور الوكالة اليهودية وفى اتفاقيات القروض التى تقدم الى المستوطنين فى المستعمرات اليهودية وفى عقود ايجار الصندوق القومى اليهودى، على أن يقوم بجميع أعمال الفلاحة على الارض عمال من اليهود فقط · كما حرم انتقال الارض بأى طريق ـ سواء بالبيع أو بالميراث الى غير يهودى(٤٢) .

٣ ـ ابتزاز ولاء اليهود فى الخارج :

ويتم هذا عن طريق التنظيم الصهيونى العالمى من ناحية ـ ومن خلال النظم التى تضعها اسرائيل لاحكام وثاق صلتها بيهود الخارج من ناحية أخرى ·

ولقد اوضحت الطليعة أن مصدر القوة الاسرائيلية لا يقتصر على الامكانات الموجودة فى اسرائيل نفسها بل يتعداها الى قوى الصهيونية العالمية اينما وجدت · وللصهيونية العالمية تنظيمها الخاص · ويمارس هذا التنظيم كثيرا من الاعمال والواجبات التى تمارسها الحكومة وهو يضع كامل امكانياته وقدراته فى خدمة اسرائيل لتكون فى نهاية الامر تجسيدا لحلمه اى دولة تضم اليهود جلهم أو كلهم وتقوم على رقعة متسعة من الارض تمتد من الضفة الشرقية للسويس حتى الضفة الغربية من الفرات ·

اسلوب العمل الصهيونى ـ تركيز الجهد على مراكز السياسة والسلطة فى العالم ·

وفى داخل اسرائيل فان قانون الجنسية فى دولة اسرائيل فريد فى نوعه بالنسبة لقوانين الجنسية فى العالم أجمع . فالدولة الاسرائيلية تعتبر الشخص اسرائيليا مهما كانت جنسيته واينما كان مولده مادامت أمه يهودية .

وتطالب اسرائيل المواطنين اليهود فى الدول الاخرى بالولاء لها واعطاء ظهورهم لاوطانهم · وهى اذ تدعوهم للهجره فانها تكشف عن الاهداف التوسعية المبيتة لاسرائيل ومد حدودها كى تمتص الجزء الاكبر من الشعب اليهودى الذى يوجد فى الخارج ويقدر باكثر من عشرة ملايين ·

وقد كشفت السنوات الاخيرة عن مواقف متزايدة الصلابة لمنظمات يهودية وأفراد من اليهود فى الدول الغربية ذاتها يرفضون باستنكار ان تتحدث الصهيونية باسمهم ، أو أن تفرض الصهيونية عليهم أى التزام نحو اسرائيل(٤٣) .

جـ ـ من مظاهر التناقض داخل الصهيونية :

ولقد خصصت الطليعة دراستها الرئيسية فى أغسطس ١٩٧٠ للظاهرة التى طفت على سطح الصهيونية العالمية : **ناحوم جولدمان** · فهذه الظاهرة كما قالت الطليعة « تستحق من المفكرين العرب الاهتمام وتلزمهم باليقظة كل اليقظة » ·

نشرت الطليعة مقال جولدمان : مستقبل اسرائيل · الذى نشر فى مجلة الشئون الخارجية

---

(٤٢) عدد اغسطس ١٩٦٧ ·
(٤٣) صفحة ٥١ عدد اكتوبر ١٩٦٧

الامريكية . وقدمت عليه تعليقات من المفكرين والكتاب .

فكتب **محمد سيد أحمد** عن « ظاهرة جولدمان ماذا تعنى » وكتب **اسماعيل صبرى عبد الله** عن « جولدمان والصهيونية الجديدة » .

وكتب **جمال العطيفى** عن « التحديد والعدوان .. القانون الدولى لا يعرف حيادا لدعوة عدوانية » .

وكتب **وليم سليمان** عن ارتباط دعوة جولدمان الى تحويل اسرائيل الى مركز روحى وثقافى بدعوات مماثلة بشربها بعض مفكرى الصهيونية فى القرن الماضى . وأوضح دلالات هذه الدعوة فى هذه الايام . بعنوان : رؤية قديمة فى ثوب عصرى » .

وتعتبر هذه الدراسة احدى المساهمات الجادة والعلمية فى مناقشة الصهيونية وهى تتحرك وتتكيف ، مع الاحتفاظ بجوهرها .

قالت الطليعة : « ونحن اذ ننشر مقال جولدمان نفعل ذلك من باب معرفة رأى العدو ومن زاوية تفنيد آرائه وتحصين الرأى العام العربى ضدها .

« وليس هذا كل شىء — فثمة زاوية هامة ايضا هى أن معرفة التناقضات فى جبهة العدو وحساب حركتها على أساس علمى ، يتيح للقيادات الوطنية والثورية مجالا أوسع لحرية الحركة ، ولانتزاع المبادرة من أيدى الاعداء . وبل ويمكن هذه القيادات فى ظروف معينة من أن تستفيد من الاتجاهات المتحفظة والمعارضة للسياسات الصهيونية ، هذه الاتجاهات التى بدات تتحرك ، ولو بشكل ضعيف ، وفى نطاق محدود للغاية ، داخل اسرائيل ذاتها » .

مواجهة الفكرة الصهيونية

كانت الطليعة وهى تجهد للاحاطة بالمفاهيم النظرية والاساليب العملية للصهيونية ، تضع أمامها دائما هذا السؤال : كيف يمكن مواجهة هذا البناء من خلال فكر عربى هو نقيض التعصب والعدوان ، وبخطة علمية مقنعة ...

من خلال الشهور الثمانين الماضية ، يمكن استخلاص ذلك البناء وهذه السياسة فى النقاط الخمسة التالية :

أولا : المواجهة هى فى المحل الاول مواجهة حضارية :

فمواجهة اسرائيل هى فى المحل الاول من خلال بناء المجتمع المصرى والعربى السليم العصرى المتحضر — ليكون هذا المجتمع هو التحدى الحقيقى للعنصرية والتعصب والعدوان الاسرائيلى(٤٤) .

وتعلم الصهيونية أن نقطة الضعف الرئيسية فيها هى ارتباطها بمفهوم متخلف وعنصرى للدين . ومن هنا فان مفكريها يجهدون لتعميم هذا المفهوم وتصويره على أنه شىء عادى وعام فى المنطقة كلها .

ولقد أشار وليم سليمان الى هذا الاتجاه ، وألمح الى خطئه تاريخيا وواقعيا . كتب :

ثالثا : ضد الاستغلال الرجعى للدين

واذا كنا قد تابعنا الاستغلال الرجعى لليهودية بواسطة الصهيونية ، فان المواجهة الناجعة لهذا الاستغلال تكون بتبنى مفهوم انسانى تقدمى للدين يرد له كرامته ، ويحميه من أى استغلال ويجعل رسالته هى الاخاء بين البشر لا التفرقة ، والسلام القائم على العدل .

ولقد تنبهت الطليعة الى أن الحركة الصهيونية منذ بدايتها كانت تجد فى بعض الجماعات غير اليهودية احتياطيا هاما لها — خصوصا وأن العهد القديم يعتبر لدى هذه الجماعات كتابا مقدسا . ولهذا فان الحركة الصهيونية استغلت التفسيرات الزمنية الحرفية لما جاء فى هذا الكتاب لتضمن تأييد هذه الجماعات .

وفى كتاب « الصهيونية وحقوق الانسان العربى » الذى عرضته الطليعة ، نجد فى الجزء الاول منه عرضا مسهبا للجذور الاوربية للصهيونية .

كما أن تقرير الطليعة لبعثة راسل أوضح كيف ان التعاليم التوراتية الغائرة فى أعماق الوجدان الانجلوسكسونى دعمت المخططات الصهيونية البريطانية لاستعمار فلسطين(٤٥) .

ومن هنا كانت مواجهة الطليعة للصور المعاصرة لاستغلال الدين — على النطاق العالمى .. كتب وليم **سليمان** فى تعليقه على « المواجهة الحضارية بين مصر واسرائيل »(٤٦) .

« يقيم الغرب المنظمات التى تتجه الى شعوب العالم الثالث لتبشر فيه بضرورة استغلال الدين فى الفكر والعمل السياسيين والنشاط الاقتصادى وتصاغ النظريات على هذا المنهج لتصبح نشوبها أكيدا للدين لا يخدم فى النهاية الا التخلف الراهن والنفوذ الاجنبى .

---

(٤٤) وليم سليمان ، نقطة البدء فى مواجهة الصهيونية ، صفحة ٣٢ عدد اغسطس ١٩٦٧
(٤٥) صفحة ١٤ — عدد اغسطس ١٩٦٧
(٤٦) صفحة ١١٢ عدد سبتمبر ١٩٦٨

أما اذا ثبت أن الواقع العلمى ينكر هذه « الصهيونية الجديدة » انهارت فى نفس الوقت حجة الصهيونية التقليدية وظهر دور الامبريالية فى تأكيد الجيتو اليهودى وتقوية الحركة الصهيونية ومساندتها فى كل مراحلها » .

وفى عبارات مكسيم رودنسون :

« لست ضد الدين . ولست ضد القوميات . ولكننى أعتقد أن الاناس الدينيين حقا يجب عليهم أن يرفضوا التعبيرات الدينية التى تحدث بدافع قومى » .

ومن أجل تأكيد المفهوم الانسانى التقدمى للدين قدمت الطليعة خلال الثمانين شهرا دراسات هامة ، على أن هذا المجال مازال يحتاج الى الجهد ، والتعمق .

رابعا : داخل اسرائيل وبين يهود العالم

قدمت الطليعة فى هذا المجال ما يراه العديد من المفكرين الاحرار والتقدميين . ولقد عرض كثير من هؤلاء آراءهم فى كراس تيموانياج كريتيان .

قالت فانى شابيرا(٤٧) : « أريد أن أتكلم بالاخص عن التغيير المطلوب فى دولة اسرائيل ... يجب أن نطالب بما يمكن أن نسميه « نزع الطابع الصهيونى » لدولة اسرائيل ... وبالغاء « قانون العودة » أساسا . الذى يتنافى منطقيا مع العلم — ليس من وحدة جنسية بين اليهود — ويؤدى الى التوسع، ويخلق نوعا من الازدواج المضر باليهود المقيمين فى مختلف دول العالم » .

وقال أ . ب . لاتيان(٤٨) : « من المهم أن تكون اسرائيل على قدر كاف من الشجاعة فتعلن .. انها تتخلى عن ارتباطها العضوى بالصهيونية المحتضرة .. » ، وعندئذ وعندئذ فقط يكون قد تم تخطى المضمون الاستعمارى الذى أتاح تأسيس دولة اسرائيل لتنشأ دولة جديدة تستطيع أن تتعايش سلميا مع دولة فلسطينية عربية تقوم بجوارها » .

وكتب اندريه فيليب(٤٩) : « لن يتم اعتراف العرب بدولة اسرائيل ، ما لم تتخل عن الحلم الصهيونى ،وعن الطابع الدينى والعنصرى لنظمها التشريعية . فطالما ادعت اسرائيل لنفسها الحق فى فرض وصايتها على يهود العالم أجمع وواصلت سعيها الى جمعهم على أرضها عن طريق قانون العودة فانه يتحتم عليها أن توسع رقعتها وأن تشكل تهديدا مستمرا بالعدوان على جيرانها » .

ومنذ عام ١٩٦٧ نشرت الطليعة لمكسيم رودنسون مقاله الذى قال فيه ان الحل الوحيد للمشكلة هو تجريد اسرائيل من الصهيونية(٥٠).

وقد كان حرص الطليعة واضحا فى المناسبات التى أجرت خلالها حوارا مع بعض ممثلى الرأى العام العالمى ، على أن توضح الالتزامات التى تقع على عاتق اليهود الذين يعارضون الصهيونية، وعلى عاتق الذين ينهضون للدفاع عن اليهود بصرف النظر عن مواقفهم .

- قالت الطليعة : « ولكن الدفاع عن اليهود بمقتضى مبدأ الدفاع عن أية مجموعة مهددة شىء ، والدفاع عنهم لا لشىء الا لانهم يهود هو العنصرية بعينها حتى اذا كان ذلك يمارس باسم الكفاح ضد معاداة السامية . واذا كان مبدأ لا أخلاقيا أن يضطهد انسان لاصوله الدينية ، فانه أيضا ليس بأخلاقى أن يمنح انسان امتيازا وحصانة وأن تبارك أعماله لا لشىء الا لانه من أصل معين»(٥١).

وأوردت الطليعة الدعوة التى وجهها المفكر اليهودى مكسيم رودنسون ضمن كراسة تيموانياج كريتيان :

« يجب على الاسرائيليين وعلى اليهود غير الاسرائيليين المنتمين الى تفكيرهم فى السياسة الدولية أن يكفوا عن تقديم المطالب والاصرار عليها بالتلويح بالتشهير وبالاتهام بالخيانة ومعاداة السامية لكى يفرضوا على غيرهم من اليهود الانضمام اليهم(٥٢) .

وذلك بعد أن كان هذا المفكر قد كتب فى الطليعة :

« ان اليهود فى العالم كله جميعا موضع التورط ازاء الاختيارات والقرارات السياسية لاسرائيل على الرغم من انهم لا يملكون من الامر شيئا فى الاشراف أو الرقابة على هذه الاختيارات وتلك القرارات »(٥٣) .

---

(٤٧) صفحة ١٥٩ عدد اكتوبر ١٩٦٨ (٤٨) صفحة ١٩٣ عدد فبراير ١٩٦٩ (٤٩) صفحة ١٩٢ عدد فبراير ١٩٦٩
(٥٠) صفحة ١٦ عدد اغسطس ١٩٦٧ (٥١) صفحة ٥١ عدد اكتوبر ١٩٦٧
(٥٢) انظر مشروع البيان الذى كتبه ليوتمه اليهود غير الصهيونيين صفحة ٦١ عدد اكتوبر ١٩٦٨.
(٥٣) صفحة ١٦ عدد اغسطس ١٩٦٧.

رابعا : مواصلة الكفاح

عرض مكسيم رودنسون لتطور الرأى العام الفرنسى على الخصوص . عندما قال « هناك ظاهرة جديدة لاحظتها منذ عدة أشهر لا بالنسبة لليهود الدينيين فحسب بل بالنسبة لليهود الاخرين فقد كانوا فى البداية يؤيدون قضيتهم تأييدا مطلقا . وقد دهشت كل الدهشة عندما وجدت نفسى فى مواجهة بعض منهم وهم يحدثوننى بلا انقطاع عن الحقوق التى لا يمكن التغاضى عنها لشعب فلسطين . ما الذى انتابهم ـ فمنذ بضعة أشهر لم يكونوا يتحدثون هكذا .

واعتقد أن السبب الرئيسى لهذا التحول هو الوضع الراهن لاسرائيل بعد انتصارها فى يونية ١٩٦٧ ، والنتائج التى تبعت ذلك النصر ، وفى مقدمتها المقاومة الفلسطينية التى تظهر رغم كل شىء فى أكبر الصحف الموالية لاسرائيل . كان الفرنسيون يعتقدون أن فلسطين قبل الاحتلال كانت بلدة مقفرة .. وأن الاسرائيليين حولوا الصحراء الى أرض منتجة مغلة .. الحق العربى فى هذه القضية لم يظهر الا فى اضيق الحدود . أما الان فيبدو لى أن الرأى العام عرف أن هناك جانبين ـ وسواء أكان لاحدهما الحق وللاخر غير ذلك فعلى الاقل أدرك أن هناك طرفين . بينما لم يكن هناك غير حقيقة واحدة من قبل أهمل فيها الجانب العربى كل الاهمال(٥٤) .

واذن فمع ظهور عناصر النضال العربى ، بدأ الرأى العام العالمى يلتفت الى القضية ويغير من موقفه ازاءها .

ولقد ظهر من خلال ما قدمته الطليعة من دراسات وحوار فى هذا الموضوع أن امكانيات التغيير واردة . بل ان التغيير يحدث فعلا . « انتم على أى حال فى موقف أفضل اذ أن الروابط التى تربط فيما بينكم أكثر من الروابط التى تربط بين اليهودى اليمنى واليهودى الامريكى حتى لو فرض أن بلادكم منفصلة(٥٥) .

نعم ، ان « السيطرة الصهيونية فائقة الان . ولكن يمكن أن تتغير فيما بعد . لقد كان رجال الدين اليهود من المناهضين الاساسيين للصهيونية . ويجب أن نضيف اليهم أيضا اليهود الاغنياء . فنرى أن أكثر أعداء وايزمان كانوا من أثرياء بريطانيا اذ كان يصارع ضدهم وانتصر عليهم . وهذا التيار قد ضعف فى فترة ما واتجه اليهود الكبار الى دعم الخط الاسرائيلى فى الفترة الاخيرة .. لكن اسرائيل كانت تعرضهم للخطر فى بعض القضايا ، فهم يريدون علاقات مع الدول العربية وفتح أسواق فيها فان لهم فى ذلك مصالح ـ ونشعر حتى عند هؤلاء الناس بالتطور أو التحول . وقال أحدهم لى أن أحد وزراء اسرائيل حضر اجتماعا فى باريس مع بعض اليهود الكبار وبعد الاجتماع خرج ثائرا على موقف هؤلاء الاشخاص . وعندى بعض المؤشرات التى تجعلنى أعتقد فى أنهم لن يظلوا متأثرين بالقضية الصهيونية الى الابد(٥٦) .

وقد سجلت الطليعة فى المقالات والتقارير التى قدمتها تطور الرأى العام العالمى والجهود التى بذلت فى هذا السبيل ـ فى المؤتمرات ، واللقاءات العديدة التى أجرتها الهيئات الرسمية والشعبية(٥٧) .

---

(٥٤) صفحة ٧٣ و ٦٨ عدد يونيو١٩٦٩

(٥٥) مكسيم رودنسون فى حواره ،عدد يونيو ١٩٦٩

(٥٦) صفحه ٧٨ عدد يونيو ١٩٦٩ .

(٥٧) ندوة فلسطين العالمية ـ تقريرصفحة ١١٠ عدد مايو ١٩٧٠

خالد محيى الدين ، تقرير عن الوضع فى الشرق الاوسط صفحة ٧٦ عدد ديسمبر ١٩٦٧

مجلس السلام العالمى يطالب بالقضاء النهائى على العدوان فى الشرق الاوسط تقرير صفحة ١٢٨ عدد يوليو ١٩٦٨

يحيى ابو بكر ، المضمون الانسانى لقضية فلسطين والرأى العام العالمى صفحة ٤٨ عدد يناير ١٩٦٩ .

خالد محيى الدين ،مؤتمر نصرة الشعوب العربية نتائجه وآفاقه صفحة ٧٧ عدد مارس ١٩٦٩

عبد الهادى ناصف ـ مبادرة عربية نحو فهم عالمى اكثر عمقا للصراع العربى الاسرائيلى صفحة ١١٤ عدد ديسمبر ١٩٦٩

يحيى ابو بكر ـ الدعاية الصهيونية ..سلاح اسرائيل الاول صفحة ٢٨ عدد يوليو ١٩٦٩

خالد محيى الدين ـ معركة كسب الرأى العام العالمى .. واجبات ومهام جديدة صفحة ٥٤ عدد نوفمبر ١٩٦٩

المؤتمر الثانى لنصرة الشعوب العربية تقرير صفحة ١٣٧ عدد فبراير ١٩٦٩

المؤتمر الثالث للاتحاد الدولى لنقابات العمال العرب صفحه ١٢٥ عدد مارس ١٩٦٩

مصطفى النجار ـ الدبلوماسية الشعبية والعمل السياسى صفحة ١٢٠ عدد سبتمبر ١٩٧٠

عبد الهادى ناصف ـ المؤتمر الدولى للبرلمانيين حول الشرق الاوسط صفحه ١١٩ عدد مارس ١٩٧٠

ضد الابتزاز الصهيونى للرأى العام المسيحى صفحة ١٠٩ عدد يونيو ١٩٧٠



رد على الدكتور بطرس بطرس غالى

حسين شعلان

■■■ تفضل الدكتور بطرس بطرس غالى ، أستاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة ورئيس تحرير مجلتى «السياسة الدولية» و«الاهرام الاقتصادى » ، وأبدى رأيه — الذى نشر فى عدد الطليعة الماضى — فى مجموعة الدراسات والتقارير التى نشرتها الطليعة على مدى ثمانين شهرا من حياتها حول موضوع «« حركة التحرر الوطنى » .

وانصب النقد الرئيسى للدكتور غالى ، على أن الطليعة تحصر فكرها « على مذهب واحد لا تتعداه هو الماركسية » . وهو تشخيص صحيح . ثم يستطرد من ذلك مشيرا الى « الانحياز العقائدى » . وهذا طبيعى لان «الانحياز» لا يرد الا فى مجال الفكر وهو وارد بوضوح ملموس فى فكر الدكتور من زاوية أخرى معاكسة .

يقول الدكتور غالى انه « ناقد لمجموعة من الدراسات اللاهوتية الكاثوليكية كتبها مجموعة من اليسوعيين ، فى حين أن هذا الناقد متشبع بلاهوتية غير كاثوليكية » . والحق أننا — فكريا وسياسيا — أبناء « ديانتين فكريتين » مختلفتين تمام الاختلاف .

وقد استطرد الدكتور غالى من نقده الرئيسى — الذى نعترف به — الى فروع أربعة من النقد ، نقول بشأنها :

أولا : حديثه عن العمالقة والامبريالية .

● ان مقولة سيطرة الدول العملاقة وتقسيم العالم فيما بين « العمالقة الكبار » ، تقودنا الى «الفخ» الذى نصبته أدبيات الفكر السياسى المحافظ المعروف ، بهدف اغراقنا فى تعريفات مجردة — عامة وبراقة — نفقد معها وضوح الرؤية والاتجاه لنصل الى موقف محير لا نستطيع أن نحدد معه : أين الاصدقاء ؟ وأين الاعداء ؟ ومن معنا ؟ ومن ضدنا ؟ والقضية هنا فى : **طبيعة وتكوين « العملاق » وأهدافه** .

وفى رأيى أن العالم لا ينقسم الى «دول عملاقة » ، وانما الى «تيارات» عملاقة هى :

تيار الاشتراكية وتيار التحرر الوطني وتيار القوى الديموقراطية المؤيدة لتحرير الشعوب والمحبة للسلام .. ثم تيار استعماري معادي لحرية الشعوب وتقدمها . وتحت هذه العناوين العامة ، نستطيع أن نسجل «موقع» كل دولة: عملاقة أو غير عملاقة ».

● أما تعريف الدكتور للامبريالية ، فهو تعريف « للكولنيالية » فحسب .. وقد عالجته الطليعة في كتاباتها حول علاقات أمريكا بحلفائها داخل المعسكر الراسمالي . أما الامبريالية — تصدير رأس المال — فقد عالجته الطليعة أيضا في كتاباتها عن الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والمانيا الغربية .. الخ أما اذا كان يقصد في نقده القائل بأن العلاقة الاستعمارية يمكن ان تنشأ «بين دول متجاورة أو متصادقة» ، العلاقة بين الاتحاد السوفيتي وأوربا الشرقية (متجاورة) أو بين الاتحاد السوفيتي ودول التحرر الوطني (متصادقة) ، فنحن لا نرى في هذه العلاقة — بكل وضوح — استعمار من أي نوع .. أما لماذا ؟ فتلك قضية أخرى .

القضية هنا في : نوع العلاقة ، وهل تقوم على أساس القهر القومي السياسي والاقتصادي والثقافي وعلى الاستغلال والنهب أم لا ؟

ثانيا : قول الدكتور غالي أن الطليعة اهملت معالجة الاسباب الداخلية لقابلية وقوع دول العالم الثالث في براثن الاستعمار الجديد . واستأذن الدكتور أن يعود الى عرض الطليعة [الذي تناوله بالنقد] في عدد سبتمبر ١٩٧١ من ص ١٠٧ الى ص ١١٧ . فسيجد في ص ١٠٨ « وبالاضافة الى عدوانية الامبريالية وشراستها .. » هناك العامل الداخلي : فيتمثل في هذه الظاهرة وهي أن الدول الثورية قد امكنها أن تحل بنجاح قضايا مرحلة التحول السياسي ولكنها عندما انتقلت الى حل قضايا مرحلة التحول الاجتماعي واجهتها صعوبات خطيرة ... ولم تتوصل هذه الدول حتى الان الى الكشف عن أفضل الحلول للمشكلات التي تطرحها التنمية .. وعلينا أن نضيف أنها أيضا لم تكتشف أفضل الحلول لقضية الديمقراطية : قضية تمكين الطبقات الثورية من السلطة . وتحت تأثير هذه العوامل وغيرها كان التطور يتم ببطء شديد ، الامر الذي يفسر ضعف البناء الداخلي لهذه الدول ويجعلها هدفا مغريا ... »

وفضلا عن أن العرض اشار الى المقالات التي تناولت هذه القضايا بالتفصيل ، الا أنه ذكر بتفصيل اكبر وتحت عنوان عريض « أسباب نجاح الهجوم الاستعماري » [ص ١١٠] وعلى امتداد صفحتين كاملتين ، عرضا مركزا لكل الزوايا التي أشار اليها النقد .

القضية اذن أن الدكتور غالي ربما يرى أسبابا أخرى داخلية — ربما تتعلق باختيار هذه النظم للطريق السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي تسلكه — سببا لهذه القابلية ، أو ربما أسبابا اخرى مغايرة تماما وبشكل جذري .

ثالثا : حديث الدكتور غالي عن عدم الانحياز ونقده لمفهوم الطليعة في مطالبتها لقيام « جبهة عالمية معادية للاستعمار » . ان شعار الطليعة — في هذا المجال — يقوم على أساس مفهوم « نصادق من يصادقنا ونعادي من يعادينا » . والجبهة العالمية المعادية للاستعمار ، تتسع لتضم كل القوى المؤيدة لحريات الشعوب واستقلالها والمعادية للحرب والقواعد العدوانية وهي قوى متعددة تتباين في انتماءاتها الفكرية والسياسية والاجتماعية ولكنها تتفق في العداء للاستعمار .. أما شعار الدكتور غالي في هذا المجال ، فيقوم على أساس شعار « لا شرقية ولا غربية ».. وهو مفهوم يسعى — أيضا — الى عدم التفرقة بين الاصدقاء والاعداء ، بل يضعهم جميعا في سلة واحدة .

رابعا : اتفاق الدكتور غالي مع كتابات الطليعة حول « الثورة العلمية والتقدم » . وهو اتفاق ظاهري — في رأيي — بناء على معطياته واستنتاجاته السابقة كلها .. فالطليعة تنظر الى هذه الثورة العلمية دون أن تعزلها عن النظام الاجتماعي والثورة الاجتماعية . أما معطيات نقد الدكتور غالي فتقود الى القول بأن الثورة العلمية والتكنولوجية بديل للثورة الاجتماعية كحل لمشاكل التخلف .

واخيرا ، اننا بالفعل ابناء « فكرين » مختلفين تماما .. ولكن تجمعنا — بالتاكيد — ارض واحدة وعريضة هي : أرض مصر العربية المستقلة كجزء من تيار حركة التحرر الوطني العالمية .

الشيخ على عبد الرازق

معـــــركة فكـــــرية

أعداد : محمد عمارة

ملف خاص

ربما لم يتح للجيل المعاصر من شبابنا أن يتعـرف جيـدا على الشـيخ على عبد الرازق ، التى تمر على وفاته — فى هذه الايام — خمس سنوات . فقد ودع الرجل الحياة فى ٢٣ سـبتمبر ١٩٦٦ . وذلك بعـد أن أقام المجتمـع المصرى — العربى وأقعده ، وأشـعل نار المعـارك الخصبة ، فكريا وسياسيا فى مصر والعالمين العـربى والاسـلامى فى عام ١٩٢٥ . وظلت تـلك المعـركة التى أثارها بكتابه الصغير الخطير عن « الاسلام وأصـول الحكم » ، علامة طريق فى حركتنا الفكرية المعاصرة ، ونموذجا فذا للشجاعة الادبية التى واجهت ظلمات الجـهالة واسـتبداد القصر الملكى وعرش الملك فؤاد .

ومعركة الشيخ على عبد الرازق مدرسة فكريـة — نضاليـة تعلم من خلالهـا مفكرو عالمنا العربى ومثقفوه الشىء الكثير .

ومن هنا كان حرص « الطليعة » على تناول هـذه المعركة الفكرية التى أثارها « كتاب الاسلام وأصول الحكم » للشيخ على عبد الرازق من خـلال هذا الملف الخاص .

منذ أن عرفت الطباعة طريقها الى بلادنا لم يحدث أن أخرجت المطبعة كتابا أثار من الضجة واللغط والمعارك والصراعات مثلما أثار كتاب « **الاسلام وأصول الحكم** »، على أن المرجع فى كل ذلك لم يكن مجرد القضية الفكرية التى دار من حولها البحث، ولا الجرأة التى تناول بها مؤلفه الموضوع، وانما كان مرد الكثير من النقع الذى أثير والصخب الذى أشتد الى مجىء هذا الكتاب سهما نافذا وجهه « **الشيخ على عبد الرازق** » الى الرجل الجالس على عرش مصر يومئذ: **الملك أحمد فؤاد**. ومن ثم نشوء مجموعة من الظروف والملابسات السياسية والاجتماعية التى تصاعدت بالاثار التى ترتبت على ظهوره وصدوره، الى الحد الذى جعل منها معركة لم يسبق أن دار مثلها حول كتاب من الكتب فى بلادنا، منذ أن عرفت عصرها الحديث.

وفى أغلب الدراسات التى كتبت حول هذا الكتاب، فى ظل قيام حكم أسرة محمد على بمصر، أى فيما قبل يوليو سنة ١٩٥٢ م، لم يستطع الكثيرون التخلص من عيوب النظرة الوحيدة الجانب فى الدراسة والتقييم للكتاب. فهم أما معه دون تحفظ، واما ضده دون ما روية أو تعقل أو حساب. حتى بعض الدراسات الجادة التى تناولت بعض جوانبه بالنقد الموضوعى لم تسلم من شائبة مجيئها فى موكب الدفاع عن النظام الملكى فى مصر، و « الذات المصونة » الجالسة على عرش البلاد فى ذلك الحين(1). وهكذا فان تقديم الشيخ على عبد الرازق فى ذكراه الخامسة، الى المثقف العربى، وخاصة من خلال كتابه (الاسلام وأصول الحكم)، والمعركة الفكرية والسياسية التى أثارها.. ان هذا التقديم، فى ظروفنا الراهنة، هو الجدير بأن تعرض فيه هذه الصفحة من حياتنا الفكرية والثقافية دون ما وقوع تحت ضغط الظروف والسلبيات التى عاشتها مصر قبل سنة ١٩٥٢. فالتخلص من حكم أسرة محمد على، وتطور عقلية مجتمعنا عما كانت عليه منذ نحو نصف قرن، وتجاوزنا لطبيعة العلاقات التى كانت تحكم مجتمع الامس الى علاقات من نوع جديد، وانحسار الحساسيات السياسية التى اصطدم بها هذا الكتاب، والتى صدمت مؤلفه.. كل هذه الظروف الجديدة تساعد على أن تأتى دراسة اليوم اقرب ما تكون الى التقييم الموضوعى لهذا المفكر وعمله الفكرى، والتحديد الدقيق لمكانة هذا العمل فى موكب الفكر المصرى والعربى والاسلامى الحديث، ومنزلته ومنزلة صاحبه من حركة الاصلاح والتجديد لفكر أمتنا العربية وشعوبنا الاسلامية. ومن ثم فان هذه الدراسة — التى تأتى بعد ما يقرب من نصف قرن على صدور الكتاب — هى ضرورة أبصرها الذين عاصروا صدور هذا الكتاب، وعاشوا معركة الشيخ على عبد الرازق الفكرية الكبرى، وادركوا يومها أن التقييم الموضوعى لهذا العمل الفكرى هو أمر مستحيل فى ظل الظروف والعوامل التى كانت قائمة فى ذلك الحين، فكتبوا يومها يقولون: انه « **ما من كتاب ظهر للناس فى هذا العهد كانت له آثار كتاب (الاسلام وأصول الحكم). فهو ولاشك مما يجدر الاطلاع عليه بعد انقضاء هذه العاصفة، وتدبره بفكر بعيد**

---

(1) اهم هذه الدراسات كتاب الشيخ محمد الخضر حسين [نقض كتاب الاسلام واصول الحكم] طبعة المطبعة السلفية سنة ١٣٤٤ هـ.

عن الغايات وعن العوامل التي اثارت هــــذه العاصفة الهوجاء » (٢) .

الملابسات السياسية لصدور الكتاب

أما الظروف السياسية ، والملابسات الدولية، والعوامل الخاصة بالمجتمع المصرى والمجتمعات الاسلامية يومئذ ، تلك التى جعلت لهذا الكتاب كل هذا الخطر الذى كان له ، وتلك الضجة التى أحدثها ، فانها تكمن — فى تقديرنا — فى عــدة عوامل ، على رأسها عاملان أساسيان :

العامل الاول : ان الكتاب قد تنــاول مبحث الخلافة والامامة فى الفكر والتاريخ الاسلامى . . ثم خلص الى نتيجة مؤداها أن هذا النظام غريب عن الاسلام كدين ، ولا أساس له فى المصادر والاصول المعتمدة للدين عند المسلمين ، مــن كتاب وسنة واجماع ، وقدم لهذا النمط من انماط الحكم فى التاريخ الاسلامى صورة تنفر منــه المواطن العصرى ، فضلا عن المفكر الحر المستنير .

ولو أن هذا البحث قد جاء فى ظــرف غير الذى جاء فيه، لما أثار ما أثار من جدل وعراك، ولكن الذى حدث ، بل وأهمية هذا الذى حدث ، أن هذا البحث قد كتب ، ودفعت به المطبعة المصرية الى المجتمــع المصرى والمجتمعــات العربيــة والاسلامية فى وقت كانت فيه قضية الخــلافة الاسلامية مثارة ، بل وكانت هى قضية القضايا واهم أحداث الساعة لدى عــديد مــن الدوائر والاوســاط .

ففى « **أنقره** » كان النظام التركى القــومى **الجديد** ، بقيادة **مصطفى كمال** ، « **اتاتورك** » ، **قد الغى** نهائيا نظام الخلافة العثمانية فى ٣ مارس سنة ١٩٢٤ ، وذهب بآخر صورها التى استمرت أكثر من أربعة قرون . وخلا العالم الاسلامى السنى — للمرة الاولى فى تاريخه — ممن يحمل لقب الخليفــة ، أو حتى لقب سلطــان المسلميــن . وتطلعت لتجديد هذه الخلافة — فى مختلف انحاء العالم الاسلامى — دوائر واوســـاط متعــددة الاتجاهات ، ومتمايزة فى الاهداف . يرى بعضها أنها واجهة يقف خلفها المسلمون فى معركتهم ضد زحف الغرب الاستعمارى . ويراها آخرون اثرا عزيزا من آثار تراث عزيز ، تستحق العمل لد اجلها والاحتفاظ بها للاسلام والمسلمين . ويراها البعض واجبا دينيا وأصلا من أصول الاسلام ، يأثم المسلمون جميعا بتركهــا فريســة للموت والفناء . كما تطلعت لملء هذا المنصب المهيب عروش وأمراء ، كان فى مقدمتهم يومئذ الملك أحمد فؤاد . ومن ثم **فان كتاب (الاسلام وأصول الحكم) لم يكن بحثا أكاديميا من أبحاث السياسة أو « علم الكلام » عند المفكرين والمثقفين المسلمين، وانما كان — بالدرجة الاولى وقبل كل شيء — جهدا سياسيا فى معركة سياسية حامية ، بل وضارية ، وقائمة على قدم وساق . كمــا كــان تحديا لعرش وملك ، بكل مــا وراءهما من قوى وامكانيات ، كما كان مناوأة لقطاعات عريضة محافظة فى مختلف أنحاء العـــالم الاسلامى . وفوق كل ذلك كان أحد العوامل التى أفسدت على الاستعمار البريطــانى فى مصر والشرق الاسلامى النجاح والاستفادة مــن « لعبــة » الخلافة هــذه .**

ولذلك لم يكن بالامر المستغرب أن يثير هذا الكتاب ما أثار من المعارك والصراعات ، وان تترب عليه من الاثار والنتائج ما هو أكبر مــن الحجم الملائم والمتلائم مع قضاياه الفكرية ، اذا أخذت مجردة ، أو اغفل القارىء له هذه الظروف والملابسات. ومن هنا كان من الضرورى تقديم بعض رؤوس الموضــوعات ، والنقـــاط التى تبرز وتجسد هذه الملابسات التى تعلقت بهذا

---

[٢] احمد شفيق باشا [حوليات مصر السياسية] الحولية الثانية سنة ١٩٢٥ ص ٧٩٦ ، ٧٩٧ . طبعة القاهرة الاولى سنة ١٩٢٨ م .

العامل الاول من عوامل الضجة الكبرى التى احدثها هذا الكتاب .

● فمن الاحداث المعروفة والشهيرة بمصر فى ذلك التاريخ ذلك المؤتمر الدائم الذى اقيم باسم (المؤتمر الاسلامى العام للخلافة)، والذى اصدر مجلة تدعو لدعوته الرامية الى مبايعة أحد الملوك والامراء بخلافة المسلمين ، وكما تدل عليه الكثير من الحقائق والوقائع ـ التى ستاتى الاشارة الى بعضها ـ فلقد كان العرش المصرى، والملك فؤاد ، واقفا خلف اغلب هذا النشاط .

● وغير نشاط مؤتمر الخلافة ومجلته ، اخذت الكثير من الاوساط والعديد من المجلات فى التركيز على الابحاث الدينية الخاصة بالخلافة والامامة فى الاسلام . وبلغ ذلك الى حد اصدار الفتاوى التى توحى ، بل تقطع ، بأن صفة الاسلام قد زالت عن المجتمعات الاسلامية وشعوبها بالغاء « اتاتورك » لمنصب الخلافة العثمانية ، وأن كل المسلمين آثمون حتى يبايعوا خليفة آخر ، وان آثار هذا الاثم ستحل بهم عقابا فى الدنيا ، وذلك فضلا عن عقاب الله لهم يوم القيامة . وانهم قد عادوا ، بسبب الغاء منصب الخلافة ، أمة « جاهلية » ، من مات منها مات ميتة « جاهلية » !! . وتنشر العديد من المجلات المقالات والفتاوى فى هذه المعانى ، وبهذه الالفاظ ، وتتحدث عن أن « نصب الامام واجب فى الملة ، وفى هذا الزمان، كغيره ، وجميع المسلمين آثمون بعدم نصب امام تجتمع كلمتهم عليه بقدر طاقتهم ، ومعاقبون عليه فى الدنيا بما يعلمه أهل البصيرة منهم ، وسيعاقبون فى الاخرة بما يعلمه الله تعالى وحده ... **ان الجماعة التى امرنا باتباعها لا تسمى جماعة المسلمين الا اذا كان لها امام بايعته باختيارها ...** »(٣) .

وفى مواجهة هذا النشاط الواسع ، الذى تكونت له لجان فى المدن والمراكز والقرى والكفور المصرية ، أدخل فى عضويتها أئمة المساجد

د. محمد حسين هيكل
[١٨٨٨ — ١٩٥٦ م]



■ اديب وسياسى وصحفى اسهم فى الحياة العامة لاكثر من اربعين عاما وتعتبر جريدة [السياسة] فى المدة التى رأس فيها تحريرها سجلا للحركة الفكرية المصريه الخصبه ، ونافذة على فكر البرجوازيه الاوربية المستنير . وتعد روايته [زينب] اول عمل روائى فى ادبنا العربى الحديث . ومن مؤلفاته [جان جاك رسو] و [فى اوقات الفراغ] و [عشرة ايام فى السودان] و [تراجم شرقية وغربية] و [ولدى] و [ثورة فى الادب] و [فى منزل الوحى] و [الفاروق عمر] و [حياة محمد] و [مذكرات فى السياسة المصرية] و [هكذا خلقت] .

وبقدر ما كان الرجل شجاعا فى مناصرته للفكر الحر المستنير ، عندما يتعلق الامر بحرية المثقف الفرد ، كان احد رجالات احزاب الاقليه التى اعتمد عليها القصر الملكى فى عرقلة التطور الديمقراطى لمصر وتقييد الحريات التى كفلها للجماهير دستور سنة ١٩٢٣ م . ■

ومؤذنوها ، و « المأذون » و « القبانى » وكل « فصحاء القرية » .. كما تكونت له لجان فى عديد من البلاد الاسلامية ... فى مواجهة كل هذا النشاط ، وذلك اللون من الوان التفكير، اصدر الشيخ على عبد الرازق كتابه متحديا هذه القوى وذلك التيار .

والعامل الثانى : الذى جعل حجم المعركة التى اثارها هذا الكتاب اكبر من حجم القضايا الفكرية

---

[٣] الشيخ رشيد رضا [المنار] مجلد ٢٦ ص ٣١ عدد ٢٢ ابريل سنة ١٩٢٥ م [رمضان سنة ١٣٤٣ هـ]

التى أثارها ــ قيمًا لو أخذت مجردة ــ هو أنه قد جاء سهما مصوبا ضد العرش المصرى ، والملك فؤاد على وجه الخصوص ، وذلك فى وقت كان فيه هذا الملك يجرب طغيان العرش وجبروت النظام الملكى وفردية الاستئثار بالسلطة ضد دستور سنة ١٩٢٣ ، وضد حزب الوفد وزعيمه سعد زغلول ، وضد مجلس النواب الذى انتخب فى ٢٤ فبراير سنة ١٩٢٥ وفاز فيه الوفد بأغلبية ساحقة رغم الضغط والتزوير ، فأصدر الملك فؤاد قرارا بحله فى ٦ مارس سنة ١٩٢٥ ، أى فى نفس اليوم الذى افتتحه فيه .

أما الادلة على أن هذا الكتاب انما كان موقفا ضد الجالس على عرش مصر فى ذلك الحين فهى كثيرة جدا ، ولا يمكن لمحاولات المؤلف فى بعض المقالات التى كتبها حول الموضوع ، والتى نفى فيها هذه « التهمة » ، لا يمكن لهذه المحاولات الا أن تلقى المزيد من الاضواء على هذه الادلة ، التى نقدم أبرزها فى ايجاز :

١ ــ فالمؤلف فى أول الكلمات التى يفتتح بها تقديمه لكتابه يتحدث حديث من يتوقع غضب الملك عليه ومحاربته له بسبب هذا الكتاب ، وينبه فى ايحاء الى أن ما يتوقع وينتظر لن يزيده الا مضيا فى هذا السبيل ، فيقول ، «أشهد أن لا اله الا الله ، ولا أعبد الا اياه ، **ولا أخشى أحدا سواه ، له القوة والعزة ، وما سواه ضعيف ذليل** » وهى **كلمات لها** ــ فى هذه الملابسات وتلك المواقف ــ دلالات تفوق المعانى التى تحملها السطور .

٢ ــ وهو قد عقد كتابه لبحث الخلافة والحكومة فى الاسلام ، ولو كان شأنه شأن الابحاث النظرية البعيدة عن السياسة اليومية ومعركتها التى كانت قائمة يومئذ ، لتركز البحث حول مبحث « **الامامة** » و « **الامام** » ، وهو المصطلح الذى غلب فى الفكر الاسلامى على هذه الابحاث ، ولكننا لا نجده يستخدم مصطلحات « الامامة » و«الامام» فى كل الكتاب أكثر من تسعة وأربعين مرة ؛ على حين يستخدم مصطلح « **الخليفة** » ومشتقاته ــ وكانت المعركة يومئذ دائرة من حوله ــ أكثر من مائتى مرة ، بل ونجده يستخدم كلمة « **الملك** » و « **السلطان** » ومشتقاتهما نحوا من مائة وخمسين مرة فى صفحات الكتاب .. وهى أمور ذات دلالات لا تنكر فى هذا الباب .

٣ ــ وأكثر من ذلك ؛ نجد أحاديثه التى ذكر فيها « الخلافة » و « الامامة » تحت اسم «الملكية» واسم « الملك » ، والتى حاول فيها أن يبدو فى صورة المتحدث عن التاريخ ، قد جاءت حديثا مباشرا عن العرش المصرى وطغيانه ، وطغيان النظام الملكى وسلبياته فى كل زمان ومكان .. فهو يقول مثلا : « ولولا أن نرتكب شططا فى القول لعرضنا على القارىء سلسلة **الخلافة** الى وقتنا هذا ، **ليرى** على كل حلقة من حلقاتها طابع القهر والغلبة ، **وليتبين** أن ذلك الذى يسمى **عرشا لايرتفع** الا على رءوس البشر ، **ولايستقر** الا فوق أعناقهم ، وأن ذلك الذى يسمى **تاجا** لا حياة له الا بما **يأخذ** من حياة البشر ، ولا قوة الا بما **يغتال** من قوتهم ، ولا عظمة له ولا كرامة الا بما يسلب من عظمتهم وكرامتهم .

كالليل ان طال غال الصبح بالقصر

وأن بريقه انما هو من بريق السيوف، ولهيب الحروب ... »(٤) .

ونحن نلفت النظر فى هذا النص الى ما هو اكثر من اللغة الثورية السائدة فيه، اذ هو يبدأ بالحديث عن الخلافة ، ثم لا يلبث أن يدخل بنا الى ميدان هو غريب تماما عن مباحثها ومراسمها وقسماتها ، فيتحدث عن « العرش » و « التاج » ، ويستخدم « أفعال المضارعة » التى تجعل المعنى اكثر انصرافا الى الحال والمستقبل لا الى التاريخ الاسلامى القديم .

ثم يتقدم خطوة أبعد من مجرد تصوير طغيان العرش وتناقضه الدائم مع القيم التى يعشقها الانسان ، فيقرر أنه لا خيار أمام الانسان الحر ، وأن لا بد له من رفض الخضوع للنظام الملكى طالما كان فى استطاعته وامكانه ازاحة نير القوة الغاشمة وزحزحة السيف القاهر عن الرقاب ، فيقول : انه « من الطبيعى فى أولئك المسلمين الذين يدينون بالحرية رأيا ، ويسلكون مذاهبها عملا ، ويأنفون الخضوع الا لله رب العالمين ، ويناجون ربهم بذلك الاعتقاد فى كل يوم سبع عشرة مرة على الاقل فى الاوقات الخمسة للصلاة **من الطبيعى فى أولئك الاباة الاحرار أن يأنفوا الخضوع لرجل منهم أو من غيرهم ، ذلك الخضوع**

---

(٤) الكتاب الاول ، الباب الثالث ، الفقرة السابعة .

الذى يطالب به الملوك رعيتهم ، الا خضوعا للقوة، ونزولا على حكم السيف القاهر »(٥) .

وكأنما كان الرجل يقرأ صفحة الغيب التى سجلت استقبال الملك فؤاد وأنصاره لكتابه هذا، فكتب فى صلبه يقول : ان « الغيرة على الملك تحمل الملك على أن يصون عرشه من كل شىء قد يزلزل أركانه، أو ينقص من حرمته، أو يقلل من تدسيته ، لذلك كان طبيعيا أن يستحيل الملك وحشا سفاحا ، وشيطانا ماردا ، اذا ظفرت يداه بمن يحاول الخروج عن طاعته ، وتقويض كرسيه . وانه لطبيعى كذلك فى الملك أن يكون عدوا لدودا لكل بحث ، ولو كان علميا ، يتخيل انه قد يمس قواعد ملكه ، ويريح من تلقائه ريح الخطر ، ولو كان بعيدا (٦) . ومن هنا نشأ الضغط الملوكى على حرية العلم ، واستبداد الملوك بمعاهد التعليم كلما وجدوا الى ذلك سبيلا . ولا شك أن علم السياسة هو من أخطر العلوم على الملك ، بما يكشف من أنواع الحكم وخصائصه وأنظمته ، الى آخره ، لذلك كان حتما على الملوك أن يعادوه وأن يسدوا سبيله على الناس. » (٧)

فالكلام هنا عن الملك فؤاد، وعرشه، وطغيانه، وليس عن أى شىء آخر .. مهما تناثرت فى الكتاب بعض اصطلاحات « الامامة » و « الامام » وبعض العبارات التى يوهم ظاهرها أن الحديث انما هو عن التاريخ والماضى وليس عن قضايا الساعة التى كان يعيشها المجتمع المصرى فى ذلك الحين .

٤ — ولقد أبصر هذا الجانب « الثورى » من الكتاب أغلب الذين كتبوا عنه فى ذلك الحين ، وتناول كل واحد منهم هذا الجانب من موقعه ، وبمنطقه ، وفى اطار المصالح السياسية والاجتماعية والحزبية التى يرتبط بها ويدافع عنها .

ولقد وضع بعض الناقدين المؤلف أحيانا فى وضع الذى يحارب وظهره الى الحائط . وذلك عندما حاول هذا البعض من الخصوم الفكريين والسياسيين للشيخ على عبد الرازق أن يمسكوا بتلابيبه متلبسا بالهجوم على العرش وذات الجالس عليه ، فحاول الرجل الدفاع عن نفسه ، وتبرئتها من هذه « التهمة » ، دون أن ينكر شيئا من كتابه. ومن ثم فان دفاعه لم يتعد حدود النفى لهذا

منصور فهمى باشا
[١٨٨٦ — ١٩٥٩ م]

■ احد الباحثين والفلاسفة من جيل الرواد المصريين ، درس الحقوق ، وحصل على الدكتوراه من السربون سنة ١٩١٣ م ، وعقب عودته من فرنسا شغل منصب السكرتير لجمعية الهلال الاحمر المصرية . ثم اشتغل بالجامعة مدرسا سنة ١٩٢٠ م ، ثم عميدا لكلية الاداب [١٩٣٣ — ١٩٣٦] ، ثم مديرا لجامعة الاسكندرية [١٩٤٥ — ١٩٤٦] ، وعمل مديرا لدار الكتب سنة ١٩٣٦ م . وانضم الى عضوية مجمع اللغة العربية ، ثم اصبح امينا لسره .

وتعتبر كتاباته فى جريدة [السياسة] الى جانب محاضراته وابحاثه وكتبه من الجهود الفكرية والفلسفية البارزة التى خلفها لنا جيل الرواد . ■

« الاتهام » ، بواسطة العبارات العامة والجمل التى لا تضيف جديدا الى الموضوع .

● فعندما يحاول البعض من أعضاء حزب الوفد استغلال هذا الموقف لصالح « المعارضة » ضد حزب الاحرار الدستوريين الذى كان يشارك فى الحكومة مؤتلفا مع حزب الاتحاد — وكانت علاقة على عبد الرازق بالاحرار أشهر وأوثق من مجرد عضوية الحزب — عندما يحاول بعض الوفديين استغلال ذلك فيكتب فى (كوكب الشرق) مقالا — بتوقيع « منتقد سياسى » — يقول فيه : ان المقصود بهذا الكتاب انما هو العرش المصرى ، والتاج المصرى ، وذات الملك فؤاد ، يبادر على عبد الرازق الى البراءة من

---

[٥] الكتاب الاول ، الباب الثالث ، الفقرة الثانية
[٦] يريح ، بفتح الياء وكسر الراء ، أى : يأتى .
[٧] الكتاب الاول ، الباب الثالث ، الفقرة الحادية عشرة .

هذا « الاتهام » ؟ ويعلن أن مراده انما هم الملوك الآخرون .. فيكتب فى مقال عنوانه : [الاسلام وأصول الحكم . عرش وتاج وذات ملكيــة] : « أولئك ملوك لم يراعوا للعلم حرمة ، ولا عرفوا للحرية قدرا ، وملك مصر — أعز الله دولتــه — **وما يضيره الا يكون خليفة** ، هو أول ملك عرفــه الاسلام فى مصر ملكا دستوريا ، ينصر العــلم والعلماء ، ويؤيد فى بلده مبادىء الحرية » (٨) فيدفع الاتهام الذى يعاقب عليه القانون ، ويقف صامدا ضد أن يتولى الملك فؤاد منصب «الخلافة» على المسلمين .

● وعندما يكتب الشيخ محمد شاكر ، الوكيل السابق للأزهر ، مقالا « يتهم » فيه صــاحب [الاسلام وأصول الحكم] بأنه يحبذ أن تقوم فى مصر « جمهورية لادينية » [أىجمهورية علمانية]، وبأنه « ثائر على الحكومة وخارج على نظمها الثابتة » ، يبادر المؤلف الى نفى هذه التهم التى يعاقب عليها القانون ، وذلك دون أن يتخلى عن شىء من الصفحات التى تضمنها كتابه ضد النظام الملكى ، وضد محاولات اضافة « صفة الخــلافة وصبغة الامامة » الى ذات الجالس على عرش مصر فى ذلك الحين (٩) .

● بل ان تقييم كتاب على عبد الــرازق كعمل موجه ضد العرش المصرى وذات الجالس عليه ، لم يكن يومئذ أمرا مقصورا على محاولات أعدائه الفكريين وخصومه السياسيين ، ولم يكن مجرد مناورات حزبية صنعتها الصراعات الســياسية على الحــكم فى ذلك الحين ، فلقد أبصر هــذا الجانب من الكتاب ، وقيمه هذا التقييم كتـــاب ومفكرون من أكثر الناس اخلاصا للكتاب ومؤلفه، وكتبوا فى ذلك الكثير .

فعندما اعتزمت « **هيئة كبار العلماء** » بالازهر « محاكمة » الشيخ على عبد الرازق على كتــابه هذا كتب **الدكتور محمد حسين هيكل** مقالا شديد السخرية منهذه المحاكمة، يدافعفيه عن الكتاب ومؤلفه ، جاء فيه : « .... وماذا تقول فى عالم من علماء الاسلام يريد ألا يكون للمسلمين خليفة **فى وقت يطمع فيه كل ملك من ملوك المســلمين وكل أمير من أمرائهم فى أن يكون خليفــة** ؟ . ثم ماذا تقول فى عالم مسلم مصرى يقول بوجوب ارتباط مصر وانكلترا برباط الصداقة ، ويذهب فى ذلك مذهب المتطرفين ، ثم يقف فى وجه اقامة خليفة ، بينما تريد انكلترا أن يكون خليفــة ، **وأن يكون هذا الخليفة واحدا من الملوك أو الامراء الواقعين تحت نفوذها** ؟ ! أو لم يكن الاولى له والاجدر به أن يترك الخلق للخالق حتى يقــام الخليفة فيرضى أمير، وان غضب أمراء ؟! وترضى انكلترا ، وقد يكون فى رضاها ما يقرب المســائل المعلقة بيننا وبينها ؟! . ما اظن واحدا من أصدقاء الشيخ على عبد الرازق ، بل ما اظن الشــيخ نفسه الا يرى ، أمام هذه الاعتبارات ، أن الشيخ اخطأ خطأ بينا يستحق عليه المحاكمة ؟! (١٠)

والكاتب هنا — وهو عليم ببواطن الامور — يلقى أضواء بالغة الاهمية على وقوف انجلــترا خلف العرش المصرى وذات الجالس عليه فى هذه المعركة، من أجل اقامته خليفة علىالمسلمين، أو على الاقل التلــويح له بهــذا « الشرف » كى تحكم قبضتها عليه وعلى البلاد ، وحتى يســير معها الى ابعد مدى فى مناواة الوفد وســـعد زغلول .

وجريدة « التيمز » الانجليزية تحدد مكان الملك فؤاد من هذه المعركة بوضوح حاسم ، وتشــير الى دور انجلترا ، وكيف أن فى يدها الاتيان بتأييد العلماء المسلمين السنيين لخلافته من البلاد التى تستعمرها ، غير مصر ، وذلك عندما تتحدث عن الموضوعمن جوانبه المتعددة ، فتقول : أنه «بعد أن اقصى الخليفة الاخير من تركيا ، اقترح عقــد مؤتمر فى القاهرة من زعماء الســـنيين لتعيين خليفة . ولاسباب عديدة تعذر عقــد المؤتمر فى سنة ١٩٢٥ (١١) . ولكن ترجو السكرتارية التى تالفت فى الازهر أن يعقــد المــؤتمر فى الربيع القادم ، **والمعتقد أن علماء الدين فى مصر يحبذون ترشيح الملك فؤاد للخلافة . وليس ثمة مايدعو الى القــول بأن الملك فؤاد يرفض شرفا عظيما كهذا ، وما ينطوى عليه من تقدير ظاهر لتمسكه بالمبادىء الدينية الصحيحة ، على أن عرض هذا المنصب على جلالته يتوقف على رضى علماء بلدان أخرى هى أشد محافظــة على التقــاليد من مصر** » (١٢)

---

[٨] جريدة [السياسة] اليومية . عدد ٢٣ يوليو سنة ١٩٢٥ م
[٩] جريدة [السياسة] اليومية . عدد ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٥ .
[١٠] جريدة [السياسة] اليومية . عدد ٢٢ يوليو سنة ١٩٢٥ .
[١١] كان مقررا لهذا المؤتمر ان ينعقدفى مارس سنة ١٩٢٥ .
[١٢] الاهرام فى ١٤ سبتمبر سنة١٩٢٥.

وصاحب [حوليات مصر السياسية] ــ وعلاقته بالقصر الملكى وثيقة وشهيرة ــ يتحدث كيف « كانت مسألة الخلافة فى هذا الحين محل اهتمام الشعوب الاسلامية ، ومطمح أنظار بعض الملوك والسلاطين الراغبين فى توسيع نفوذهم، ولو كان هذا الاتساع وهميا بحتا .. » ثم لايلبث ان يحدد ــ دون تصريح ــ أن العرش المصرى كان وراء كل الحرب التى شنت على كتاب على عبد الرازق ، عندما يقول : لقد « اخذت مسألة كتاب [الاسلام واصول الحكم] تحور ، **إلى أن اوحى الى هيئة كبار العلماء ان تبحث الكتاب » (١٣)** .

واهمية هذا التحديد لطبيعة الدور الذى قام به هذا الكتاب ضد العرش المصرى وذات الجالس عليه ، وطبيعة الدور الذى لعبهصاحب هذا العرش ضد الكتاب ، وحجم هذا الدور .. اهمية كل ذلك تتعدى هذه الجزئية الى القاء المزيد من الاضواء على مواقف الاوساط والدوائر والقوى التى انتظمها الركب الذى تحرك ضد هذا الكتاب ، وعلاقة هذه القوى بالقصر ، والمصالح المتشابكة التى ربطتهم جميعا ضد الفكر الناهض لمطامع الملك فؤاد فى خلافة المسلمين فى ذلك الحين .

حزب الاتحاد

ففى مقدمة القوى التى تحركت ضد هذا الكتاب ، مناصرة للملك والملكية فى هذه المعركة ؟ حزب [الاتحاد] الذى صنعه القصر يومئذ كى يضم فى صفوفه ، ويستند الى القوى الاجتماعية المصرية التى نستطيع أن نصفها بانها **التيار غير المستنير فى صفوف الاقطاعيين المصريين وكبار الملاك** . ذلك لان الاحرار الدستوريين كانوا يمثلون هم كذلك ابناء البيوتات الريفيةوالعائلات الاقطاعية وكبار الملاك ، ولكنهم كانوا تيارا فكريا وثقافيا مستنيرا ، ومن ثم متميزا ، كما سيأتى عند حديثنا عن الجوانب المتعددة لتكوينهم وطبيعتهم ، ومن ثم موقفهم ، بعد قليل .

ولقد كان هذا التجمع الاقطاعى غير المستنير الذى « لمته » السراى والاستعمار يومئذ قد اقيم اساسا لمناوأة الوفد ، الذى كانت ترى فيه انجلترا حزبا « يشبه جمعية ثورية » (١٤) . وللوقوف ضد زعامة سعد زغلول باشا ، الذى اعتقدوا انه « يرمى الى استبدال الملكية بالجمهورية » (١٥) .

ولم يكن تحالف [الاتحاديين] مع [الاحرار الدستوريين] ، وائتلافهم معا فى وزارة « أحمد زيور باشا » ، وتعاونهما ضد الوفد يعنى التقاء فكريا ، وبالذات عندما يتعلق الامر بعديد من المسائل الخاصة بالتحرر الفكرى والاستنارة والاصلاح ، بالمعنى الذى رسخته مدرسةالاحرار الدستوريين فى المجتمع المصرى ، منذ ظهور مدرسة **الشيخ محمد عبده** الفكرية فى هذا

الحركة الوهابية
« منتصف القرن الثامن عشر »

■ اسمها الحقيقى حركة [الموحدين] لدعوتهالتوحيد الله ، ورفض الوسطاء بينه وبين الناس . وسميتالوهابية نسبة الىمؤسسها محمد بن عبدالوهاب [المتوفى سنة ١٧٩٢ م] ، وهو من اهل «العيينة» بنجد فى شبه الجزيرة العربية .
وجوهر هذه الحركة هو الدعوة الى « السلفية » ،واستلهام عقائد الاسلام من القرآن والسنة كما فسرهما الامام احمد بن حنبل [٨٥٥ م] وابن تيمية [١٢٦٣ ــ ١٣٢٨ م] وهو تفسير محافظ يلائم بساطة الحياة البدوية ويغض من شأن العقل ومعطياته ، خصوصاما تعلق منها بالفلسفة .
ورغم الطابع الفكرى المحافظ للحركة الوهابية فلقدصارت احدى حركات الاصلاح الدينى التى لعبت دورا فى النضال ضد سيطرة الاتراك العثمانيين على مقدرات العالم العربى . ولقد تكونت الدولة السعودية كثمرة لجهود هذه الحركة الدينية ، وبدا ذلك بالمصاهرةوالتعاون بين ابن عبد الوهاب وبين جد الاسرة السعودية محمد بن سعود [المتوفى سنة ١٧٦٥ م] ■

[١٣] احمدشفيقباشا ــ حولياتمصر السياسية . الحولية الثانية [سنة١٩٢٥] ص ٧٢٥
[١٤] التيمز اللندنية . والنقل عنبرقيات [الاهرام]. السياسية فى ١٦سبتمبر سنة ١٩٢٥ .
[١٥] نفس المصدر السابق ، ونفسالتاريخ .

المجتمع ، وامتدادها الى الاحرار الدستوريين عبر [حزب الامة] **ولطفى السيد باشا** .. ومن بين هذه المسائل الفكرية « **مدنية السلطة والحكومة** » ، ومعارضة المحاولات الراميةلاقامة « حكومة دينية » ، ومن ثم احياء « الخلافة » فيمصر بعد الغائها فى تركيا على يد الكماليين.

وكما تقول « التيمز » الانجليزية : « ان أصحاب الاراضى من الفلاحين — [الاقطاعيين وكبار الملاك] — وهم الذين يعتمد الاتحاديون عليهم ، لايعطفون على الآراء التركية الدينية الحديثة ، كما انهم لم يكونوا يعطفون علىالطرق التركية الادارية العتيقة . ولما كان **الاتحاديون** ، **الذين يؤيدهم المحافظون من أصحاب الاملاك** ، على اتصال وثيق بالسراى فلايبعد أن تكون غيرتهم على الملكية ، ورغبتهم فى الا يمتد الى العرش اقل ريبة من حيث الآراء التى تتفق مع قواعد الدين الصحيحة. مما أوحى باقالة **عبد العزيز فهمى باشا** » (١٦) من منصب وزير الحقانية ، ومن ثم فض الائتلاف الوزارى بسبب اعتراض الاحرار الدستوريين ووزرائهم على تنفيذ حكم هيئة كبار العلماء ضد صاحب [الاسلام وأصول الحكم] .

وهكذا ضحى الاتحاديون بالائتلاف الوزارى ، وانفردوا بمقاعد الوزارة ، وحملت جريدتهم [الاتحاد] لواء الهجوم على جريدة [السياسة] وحزب الاحرار الدستوريين ، رغم ما فى ذلك من تدعيم لصفوف المعارضة ، ومكاسب لحزب الوفد وزعيمه سعد زغلول . حدث كل ذلكدفاعا عن العرش وذات الجالس عليه ، فى المعركة التى قامت بسبب ظهور هذا الكتاب .

هيئة كبار العلماء

وعلى المستوى الشعبى استطاع القصر ان يحرك بعض القوى والاوساط ضدالكتاب وماجاء فيه من افكار . ولم تستطع هذهالقوى والاوساط أن تخفى الخيوط التى ربطت تحركاتها بالجالس على العرش وأطماعه فى منصب « خليفة المسلمين » .

والشيخ محمد رشيد رضا ، صاحب مجلة [المنار] يسهم بنشاط فى هذه المعركة ، وتوضح مقالاته صلة الدعوة الى احياء الخلافة فى مصر بهذا الصراع الذى فجره كتاب على عبدالرازق ، فيكتب ناعيا على الامة الاسلامية الانتصارات التى احرزها خصوم الاسلام فى « هذه الحرب السياسية العلمية » التى هى « أضر وأنكى من الحروب الصليبية » .. وكيف « كان آخر فوز لهذه الحرب على المسلمين محو اسم السلطنة العثمانية الاسلامية من لوح الوجود ، وإلغاء الترك لمنصب الخلافة من دولتهم الصغيرة التى أمكنهم استبقاؤها من تلك السلطة العظيمة ، وتأليفهم حكومة جمهورية غير مقيدة بالشرع الاسلامى فى أصول احكامه ولا فروعها ، وتصريحهم بالفصل التام بين الدولة والدين » . وكيف رفع انصار مدنية السلطة والحكومة وعلمانية الدولة « عقائرهم فى مصر ، هاتفين لعمل الترك ، فهزىء العالم الاسلامى بدعوتهم ، وسخر منهم ، **وراجت فى مقابلتها الدعوة الى عقد مؤتمر اسلامى عام ، لاحياء منصب الخلافة بقدر ما تستطيعه قوى الاسلام فى هذا الزمان** » . (١٧)

فهو هنا يؤكد صلة كتاب على عبد الرازق بموضوع مؤتمر الخلافة ، ودور مصر — مصر العرش اولا وأساسا — فى هذا الموضوع . وذلك بدليل أن حديثه هذا قد جاء فى مقال عنوانه : (الاسلام واصول الحكم . بحث فى الخلافة والحكومة فى الاسلام . بل دعوة جديدة الى نسف بنائها وتضليل أبنائها) .

ولم يقفصاحب (المنار) عند هذا الحد ، بل اخذ يمهدالارض لمحاكمةالشيخعلى عبد الرازق ، بواسطة [هيئة كبار العلماء] ، فكتب : انه لا يجوز لمشيخة الازهر أن تسكت عنه . فانهذا المؤلف ، رجل منهم ، فيجب عليهم أن يعلنواحكم الاسلام فى كتابه . لئلا يقول هو وانصاره : ان سكوتهم عنه اجازة له ، أو عجز عن الرد عليه . » (١٨) . ولقد دار لغط كثير يومئذ حول دوافع صاحب [المنار] لهذا الموقف ، والاسباب التى أذكت حماسه فى هذا الموضوع .

أما موقف الازهر من الكتاب وصاحبه ، فهو موضوع أكثر تعقيدا من موقف صاحب [المنار] وغيره من الكتاب . ذلك **اننا لا نستطيع أن نقول ان كل رجال الازهر الذين عارضوا الكتاب قد حركتهم للمعارضة أصابع السراى ، ففى هؤلاء كثير من العلماء الأجلاء والرجال الشجعان ،**

---

[١٦] نفس المصدر السابق ، عدد١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٥
[١٧] المنار . مجلد ٢٦ جـ ٢ ص١٠٠ فى ٢١ يونيو سنة ١٩٢٥ م [٢٩ذى القعدة سنة ١٣٤٣ هـ]
[١٨] المصدر السابق ، نفس التاريخ ص ١٠٤.

كما أن بعض الآراء التى وردت فى الكتاب من البديهى الا يوافق عليها ، ولا يرضى بها كثيرون من علماء الدين الاسلامى ، وذلك دون أن يكونوا مدفوعين من جهة ما الى هذا الموقف المعارض .

ويزيد من ذلك مجىء الكتاب على درجة كبيرة من الايجاز ، واستخدامه لألفاظ حادة التعبير ، مثل وصفه حكومة أبى بكر الصديق والخلفاء الراشدين بأنها « حكومة لا دينية » بدلا من وصفها بأنها « سياسيةمدنية » أو « علمانية » ، وذلك فى وقت كانتتعنى فيه كلمة « لا دينية » ، عند البعض ، مايرادف « الزندقة والالحاد » .. كل ذلك وأمثاله يجعل وقوف بعض رجال الازهر ضد الكتاب أمرا بديهيا ، والاعتراض عليه من قبلهم امرا طبيعيا .

لكن الذى حدث لم يكن هو الهجوم الفكرى والنقاش النظرى ، وصراع الرأىبالرأى والحجة بالحجة فقط..وهو مامارسه ووقفعند حده عدد من العلماء الاجلاء — وانما الذى حدث ، زيادة على ذلك ، والذى نقول عنه : **انه فعل العرش** وذات الجالس عليه ، هو **تخطى الصراع الفكرى ، بل واهماله ، والنظر الى الكتاب وصاحبه ، لا كمحاولة فكرية ، واجتهاد نظرى يجوز عليه الخطأ والصواب وانما « كعمل مشين » يوجب المحاكمة الدينية** والحكم على صاحبه « بالحرمان » من الانتساب الى الازهر ، بل وتجريده من بعض حقوق المواطن المصرى التى كفلها الدستور للمواطنين . فالقصر هو المسئول الاول عن اخراج المعركة من اطارها الفكرى الطبيعى ، وعن دفع بعض رجالات الازهر الى منزلق غريب عليهم وعلى الاسلام ، بدليل أن ما صنعوه مع الشيخ على عبد الرازق لم يتكرر مرة أخرى ، ولم يحدث له مثيل من قبل ولا من بعد ، بل ورجع عنه الازهر بعد ذلك بسنوات ، عندما أعاد الى الرجل مؤهله العلمى وأدخله ثانية فى زمرة العلماء ، حينما أرادالقصر ادخاله فى وزارة النقراشى باشا عقب الحرب العالمية الثانية ؟ !

ونحن نقول : ان الذين استجابوا لرغبة السراى هم بعض رجال الازهر ، لا كلهم .. اذ انكثيرين منهم قد عارضوا هذا المسلك ، حينا معارضة ايجابية (١٩) ، وفى كثير من الاحيان معارضة سلبية ، عن طريق « اعتزال » هذه « الفتنة » التى اشتعلت ضد هذا الكتاب .

الشيخ محمد الخضر حسين
[١٨٧٧ — ١٩٥٨ م]

■ **احد الفقهاء واللغويين ، ولد بتونس ، وتخرج من [جامع الزيتونة] ، واصبر اول مجلة بالمغرب العربى [السعادة العظمى] . ثم رحل الى دمشق ، واشتغل بالتدريس فى المدرسة السلطانية . ثم ذهب الى الاستانة محررا للقسم العربى بوزارة الحربية العثمانية. ثم فر الى المانيا عقب احتلال الحلفاء للاستانة. ومن المانيا جاء الى مصر سنة ١٩١٩ م فقضى بها بقية عمره كاتبا ، ومدرسا بالازهر ، ثم شيخا للازهر سنة ١٩٥٢ م . وفى مصر رأس تحرير مجلة [الهداية الاسلامية] ثم مجلة [لواء الاسلام] ، واشترك فى تأسيس [جمعية الشبان المسلمين] ، وعين عضوا بالمجمع اللغوى منذ انشائه سنة ١٩٣٢ م** ■

بل ان هذا الفريق الذى حركته السراى طالبا محاكمة الشيخ على عبد الرازق ، فكتب العرائض التى تطلب ذلك ، لم يستطع حتى فى عرائضه تلك أن يخفى أن تحركه هذا يهدف ، ضمن ما يهدف ، الى ارضاء الملك فؤاد .. ففى العريضة التى رفعها اثنان وستون من رجال الازهر الى شيخه « **والى بعض المقامات العالية** » فى ٢٣ يونيو سنة ١٩٢٥ (غرة ذى الحجة سنة ١٣٤٣ هـ) يصورون مسعاهم فى صورة الارضاء للملك ، وذلك وفاء بحق انعاماته المالية على الازهر ورجاله ، فيستنكرون جواز السكوت على هذا الامر ، خصوصا « **ونحن فى عهد يوالى حضرة صاحب الجلالة الملك الازهر وعلماءه بما يتفق وكرامتهم ، ويغنيهم عن الشغل بوسائل العيش ، لأجل أن ينقطعوا لواجبهم العلمى الدينى .. فما هو العذر لنا فى ذلك أمام المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها ، وأمام حضرة صاحب الجلالة الملك الذى يوالى دائما ايقاظنا بجميع صنوف الرعاية** » ؟ ! (٢٠) ..

---

[١٩] وكان بعض علماء الازهر يرونفى محاكمة الشيخ على عبد الرازق ارهابافكريا لمؤتمر الخلافة المنتظر عقده ... فطلبوا تأجيل المحاكمة حتى يجتهدالمجتمعون بحرية فى قضية الخلافة التىهى موضوع الكتاب . انظر اقتراح الشيخ عبد الهادى زيان ، احد علماءالازهر . [السياسة] اليومية عدد ١اغسطس سنة ١٩٢٥ م . وفى يناير سنة ١٩٢٦ حققت النيابة مع اربعين منعلماء الازهر لتوقيعهم عريضة يقولونفيها : « ان مصر لا تصلح فى الوقت الحاضر دارا للخلافة » . حوليات مصرالسياسية سنة ١٩٢٦ م ص ٤٠ طبعةسنة ١٩٢٩ م .

[٢٠] المنار — مجلد ٢٦ جـ ٣ ص٢١٢ — ٢١٧ فى ٢١ يوليو سنة١٩٢٥م [٣٠ ذى الحجة سنة ١٣٤٣ هـ]

فهؤلاء الذين نظروا الى المرتبات الضئيلة التى كانت تعطى لهم « كنعم » من الجالس على العرش تستوجب ارضاءه بمحاكمة على عبد الرازق ، فكتبوا هذه العريضة وغيرها من العرائض التى استندت اليها [هيئة كبار العلماء] فى عقد المحاكمة .. هؤلاء لم يكونوا كل رجال الازهر ، بل ولا غالبية من فيه من العلماء الاجلاء .

وحتى الدراسة الجيدة التى كتبها **المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين** ردا على الشيخ على عبد الرازق بعنوان [**نقض كتاب الاسلام واصول الحكم**) ، حتى هذه الدراسة لم تبرأ من شائبة مجيئها فى الموكب الملكى ، مما جعل منها جهدا مكرسا لخدمة الملكية فى مصر ، والملك فؤاد بالذات .. وذلك بدليل ذلك الاهداء المطبوع فى صدرها « بماء الذهب » — [اهداء الكتاب الى خزانة حضرة صاحب الجلالة فؤاد الاول ملك مصر المعظم] — وما فى هذا الاهداء من وصف الملك بانه صاحب « غيرة على دين الحق ، وعناية برفع شأن المعاهد العلمية الاسلامية » و « حماية للدين الحنيف » .. الخ .. الخ .. من الاوصاف التى لم يكن يعرف الملك فؤاد حتى معناها ، بل ولا يجيد قراءة كلماتها .. فضلا عن التخلق بها ؟ ! .. (٢١)

واخيرا نجحت الجهود الملكية فى اقناع مشيخة الازهر بالنظر الى عمل الشيخ على عبد الرازق وآرائه « كعمل مشين » يستوجب المحاكمة التأديبية ، بدلا من ان يغامل فى اطار المحاولات الاجتهادية الفكرية التى يجوز عليها الخطأ والصواب .. فانعقدت هيئة كبار العلماء لتحاكمه بموجب المادة (١٠١) من قانون الازهر رقم (١٠) الذى أصدره الخديو عباس حلمى سنة ١٩١١ م ، وهو القانون الذى أصدره ليخضع بواسطته تمرد الازهريين وثورتهم على استسلامه لسلطات الاحتلال!!..
ووجهت الهيئة الى الشيخ على عبد الرازق سبع « تهم » هى :

❶ جعل الشريعة الاسلامية شريعة روحية محضة لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ فى أمور الدنيا .

❷ وان الدين لا يمنع من أن جهاد النبى صلى الله عليه وسلم ، كان فى سبيل الملك لا فى سبيل الدين ؟ ولا لابلاغ الدعوة الى العالمين .

❸ وأن نظام الحكم فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، كان موضوع غموض أو ابهام او اضطراب او نقص ، وموجبا للحيرة .

❹ وان مهمة النبى صلى الله عليه وسلم ، كانت بلاغا للشريعة مجردا عن الحكم والتنفيذ.

❺ وانكار اجماع الصحابة على وجوب نصب الامام ، وعلى أنه لا بد للامة ممن يقوم بأمرها فى الدين والدنيا .

❻ وانكار أن القضاء وظيفة شرعية .

❼ وان حكومة أبى بكر والخلفاء الراشدين من بعده كانت لا دينية ..(٢٢)

واعلنت الهيئة الشيخ على عبد الرازق بهذه « الاتهامات » فى ٢٩ يوليو سنة ١٩٢٥ م ، وبانها ستنعقد فى صورة « هيئة تأديبية » لمحاكمته فى ٥ اغسطس سنة ١٩٢٥م ، فطلب الرجل التأجيل لاعداد دفاعه .. وبعد أسبوع من الموعد الاول انعقدت الهيئة فى ١٢ اغسطس سنة ١٩٢٥م (٢٢ محرم سنة ١٣٤٤هـ) برئاسة الشيخ محمد أبو الفضل ، شيخ الجامع الازهر، وحضور أربعة وعشرين من أعضائها..
وحضر الشيخ على عبد الرازق ، وعندما دخل القاعة والقى عليهم السلام لم يجبه أحد منهم؟!.. وفى بداية الجلسة قدم دفعا فرعيا مفاده « أنه لا يعتبر نفسه أمام هيئة تاديبية ، وطلب الا تعتبر الهيئة حضوره أمامها اعترافا منه بأن لها حقا قانونيا » فى محاكمته ، لانه انما حضر وفاء بحق الاستاذية الذى لكثير من أعضائها عليه ، وحتى يقدم اليهم مذكرته المكتوبة جوابا على « التهم » ولكى يسهم فى الاجابة على بعض الاسئلة التى ربما ود أن يوجهها اليه بعض الاعضاء ...

وبعد أن رفضت الهيئة هذا الدفع الفرعى ، سارت اجراءات المحاكمة ، ثم أصدرت حكمها الذى يقول ، « ... ومن حيث أنه تبين مما تقدم أن التهم الموجهة ضد الشيخ على عبد الرازق ثابتة عليه ، وهى مما لا يناسب وصف العالمية وفقا للمادة (١٠١) من القانون رقم (١٠) لسنة ١٩١١م ، ونصها : « اذا وقع من أحد العلماء أيا كانت وظيفته أو مهنته ما لا يناسب وصف العالمية ، يحكم عليه من

---

[٢١] راجع كتاب الشيخ الخضر .طبعة المطبعة السلفية . القاهرة سنة١٣٤٤ هـ .
[٢٢] جريدة [السياسة] اليوميةفى ١٣ اغسطس سنة ١٩٢٥ م .

شيخ الجامع الأزهر باجماع تسعة عشر عالما معه من هيئة كبار العلماء المنصوص عليها فى الباب السابع من هذا القانون باخراجه من زمرة العلماء ، ولا يقبل الطعن فى هذا الحكم ويترتب على الحكم المذكور **محو اسم المحكوم عليه من سجلات الجامع الازهر والمعاهد الاخرى ، وطرده من كل وظيفة ، وقطع مرتباته فى أى جهة كانت ، وعدم أهليته للقيام باى وظيفة عمومية دينية كانت أو غير دينية »** .

فبناء على هذه الاسباب :

حكمنا نحن شيخ الجامع الازهر باجماع اربعة وعشرين عالما معنا من هيئة كبار العلماء باخراج الشيخ على عبد الرازق ، أحد علماء الجامع الازهر والقاضى الشرعى بمحكمة المنصورة الابتدائية الشرعية ومؤلف كتاب (الاسلام وأصول الحكم) من زمرة العلماء ».

وهكذا استطاع الملك فؤاد أن يستصدر من هيئة كبار العلماء حكما لم يسبق لهيئة علمية اسلامية أن أصدرت مثله ، على الاقل فى تاريخنا الحديث .. وأن يضع هذا الحكم فى يد وزراء (حزب الاتحاد) الذين نفذوه على أشلاء الائتلاف الوزارى ، وذلك عندما انعقد (المجلس المخصوص) بوزارة الحقانية برئاسة على ماهر باشا ، وزير الحقانية بالنيابة فى ١٧ سبتمبر سنة ١٩٢٥م ، وقرر تنفيذ حكم هيئة كبار العلماء الذى « ليس لاية سلطة قضائية أن تلغيه أو تبحث عن صحته .. وبما أنه على فرض وقوع خطأ فى التطبيق القانونى ، فليس من اختصاص اى سلطة أخرى ان تنظر فيه .... قرر المجلس باجماع الاراء اثبات فصل الشيخ على عبد الرازق المذكور من وظيفته اعتبارا من يوم ٢٢ محرم سنة ١٣٤٤هـ (١٢ أغسطس سنة ١٩٢٥م) مع مراعاة عدم حرمانه من حقه فى المكافأة » (٢٣)

المفكرون الليبراليون

غير أن هذا الحكم وتنفيذه لم يكن نهاية المطاف فى هذه المعركة الكبرى ، لان المجتمع المصرى كان يزخر يومئذ بقوى وتيارات فكرية وسياسية أخرى ، تقف موقف العداء أو الرفض أو التناقض مع هؤلاء الذين ناصروا العرش وذات الجالس عليه فى هذا الموضوع .

فكان هناك الكتاب غير المرتبطين بحزب من الاحزاب السياسية الكبرى ، والذين كانوا يحامون عن الحرية ، حرية البحث والرأى ، وحق المفكر فى أن ينشر ما يعتقد من آراء ، ويتبنون من مذاهب الحرية مذهب «الليبراليين» الاوربيين ..وهؤلاء وقفوا جميعا فى جانب الشيخ على عبد الرازق وحقه فى البحث والاجتهاد ، بصرف النظر عن مدى الصواب أو الخطأ الذى فى الكتاب .

ففى شهر يوليو سنة ١٩٢٥م عرضت مجلة (الهلال) للكتاب بكلمة موجزة ، وصفت فيها المؤلف بأنه « من علماء الازهر المبرزين » « الذين يسلكون سبيل « الاجتهاد والاستنباط » » ووصفت فيها الكتاب بأنه « مؤلف فريد ... جاء خير أنموذج يحتذى فى الاستدلال والاستشهاد والاستنتاج » .. ثم تحدثت عن

على ماهر باشا
[١٨٨٢ — ١٩٦١ م]



■ احد الساسة المستقلين الذين لعبوا ادوارا كبرى فى الحياة السياسية المصرية منذ سنة ١٩٢٤ حتى سنة ١٩٥٢ م . وقبل توليه وزارة المعارف سنة ١٩٢٤ عمل بالمحاماة، والقضاء ، وتولى نظارة مدرسة الحقوق ، ثم اصبح وكيلا لوزارة المعارف . وظل يشغل منصب الوزارة او منصب رئيس الديوان الملكى او منصب رئيس الوزراء فى فترات عدة وخلال عديد من الازمات التى مرت بها الحياة الدستورية والسياسية فى مصر . واهم الازمات التى رأس فيها الوزارة : سنة ١٩٣٦ حيث تكونت الجبهة الوطنية التى وقعت مع انجلترا معاهدة سنة ١٩٣٦ م . وفى سنة ١٩٣٩ حيث شكل الوزارة وخطر الحرب العالمية الثانية يطرق الابواب . وفى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ الف وزارته الاخيرة ، وكان رسول الثورة الى الملك الفاروق كى يتنازل عن العرش ويغادر البلاد ، ثم استقال فى ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٢ لمعارضته اصدار قانون الاصلاح الزراعى الذى صدر بعد استقالته بيومين ؟ ! ■

---

(٢٣) المنار . مجلد ٢٦ جـ ٥ فى ١٨ سبتمبر سنة ١٩٢٥م . ٣٠ صفر سنة ١٣٤٤ هـ .

القضية الاساسية التى طرحها الكتاب ؟ فوافقت المؤلف عليها ، دون دخول فى التفاصيل ، وقالت ان المؤلف قد استنتج « ان الخلافة لا أصل لها فى الدين ، وان الخليفة حاكم ، لا دخل للدين فى وجوده ، او فى عدمه ، فهو — (المؤلف) . بذلك يوافق نظرية الاتراك الحديثة فى فصل الخلافة عن الحكم ، ويرى ان كل امة اسلامية حرة فى انتخاب من تريده حاكما عليها وسواء اكان الاستاذ على عبدالرازق قد وفق الى ان يسند نظريته هذه الى الدين — كما نعتقد — أم لم يوفق ، فان هذه النظرية تتفق واصول الحكم فى القرن العشرين ، الذى جعل السيادة للامة دون سواها من الافراد مهما كانت ولادتهم او ميزاتهم الاخرى ! (٢٣)،(٢٤)

اما مجلة (المقتطف) فانها قدمت عن الكتاب حديثا موجزا ، ركزت فيه على اثر جراة هذا المفكر وأمثاله فى انهاض الامم، وذكرت الناس بالجدل والمعارك التى اثارتها آراء كل من « لوثر » فى الغرب و « محمد عبده » فى الشرق ، ووصفت الشيخ على عبد الرازق بأن له من العلم والفضل ما يخوله « الكلام فى موضوع قلما يحق لغير امثاله البحث فيه .. ثم عبرت عن الزاوية التى منها يؤيد « الليبراليون » الكتاب وصاحبه بقولها : « .. ونظن أنه سوف يترتب على ما كتبه القاضى على عبد الرازق فى كتابه هذا أو ما كتبه قبله منتقد الغزالى وامثالهما ، ما ترتب على ما كتبه « لوثيروس » وانصاره فى البلدان المسيحية ؟ لا لان « لوثيروس » وأنصاره كانوا مصيبين فى كل ما قالوه وفعلوه ، ولا لاننا نعتقد أن كل ما قاله حضرة القاضى على عبد الرازق وأمثاله قرين الصواب وخال من الخطأ ؟ بل لان قيام بعض المفكرين ووقوفهم موقف الانتقاد والشك يشحذ الهمم ويغرى بالبحث والتنقيب : فتزول الغواشى ويصرح الحق . ولم ننس كيف قامت القيامة على المرحوم الشيخ محمد عبده : ثم خمدت رويدا رويدا ؟ الى أن صار يلقب بالامام الذى يقتدى به وينسج على منواله » . ! (٢٥)

وبعد صدور حكم « هيئة كبار العلماء » كتب سلامه موسى مقالا عنوانه (الدين والتطور ... وحرية الفكر بينهما) قال فيه : انه قد حدث فى الشهر الماضى حادثان عظيمان يجب أن يبالى بهما كل مفكر ، سواء فى الغرب أو فى الشرق . أولهما : أن المدرس « سكوبس » أخبر تلاميذه أن قصة آدم وحواء فى أصل البشر ، كما روتها التوراة ، غير صحيحة بحرفها ، وأن الصحيح أن الانسان والقرد من أصل واحد . وقد حكمت عليه محكمة ولايته (احدى الولايات المتحدة) بغرامة قدرها عشرون جنيها لمخالفته تعاليم التوراة .

وحدث فى مصر حادث شبيه بهذا ، فان الاستاذ على عبدالرازق وضع كتابا قال فيه: ان الخلافة ليست أصلا من أصول الاسلام ، فحكم عليه العلماء باخراجه من زمرتهم .

والحادثان يتعلقان ، كما يرى القارىء ، بأثمن شىء عرف فى هذا العالم وهو حرية الفكر والرأى . وليست المسألة صحة نظرية التطور أو فسادها ، ولا هى صوابية القول بأن الخلافة مبدأ دينى أو مبدأ مدنى ، ... ولكن المسألة الحقيقية فى هذا النزاع هى ان كلا من المستر « سكوبس » والاستاذ على عبد الرازق له الحق فى أن يكون حرا يرتاى ما يشاء من الاراء دون أن يقيد بأى قيد سوى الاخلاص » (٢٦) .

ولم يكن هذا الموقف المناصر للحرية فى البحث والتعبير وقفا على هذا التيار بمصر ، بل شاركه نفس الموقف انصاره فى البلاد العربية والاسلامية، التى امتدت اليها المعركة، فكتبت جريدة (الصواب) التونسية تقول : « ... أما سر هذه المصاولة والمقاومة العنيفة ، والتحامل من مشايخ الازهر — على ما يشاع — فانما هو نيل رضى نواح معينة ذات مطامع فى تبوء منصب الخلافة .. ان مصر قد سارت الى الوراء ، ليس فى الحرية السياسية فقط ، بل حتى فى حرية القول فى الشئون الدينية التى هى ملك مشاع بين المسلمين بشرط ان يكون ذلك ضمن دائرة المعقول وبمقتضى منطوق ومفهوم النصوص الواردة على لسان صاحب الشرع صلوات الله عليه »(٢٧) .

وهكذا وجد تيار « ليبرالى » كامل على امتداد العالمين العربى والاسلامى ، يؤيد حق المؤلف فى الاجتهاد وحريته فى التعبير ، بصرف النظر عن مدى الصواب والخطأ فى هذا الاجتهاد الذى

---

[٢٤] الهلال . عدد يوليو سنة ١٩٢٥م ص ١١١٨ .
[٢٥] المقتطف . عدد اغسطس سنة ١٩٢٥ م ص ٣٣٢ ، ٣٣٣
[٢٦] الهلال . عدد اكتوبر سنة ١٩٢٥م ص ١٣
[٢٧] المنار . مجلد ٢٦ جـ ٧ فى ١٤ يناير سنة ١٩٢٦ م [٢٩ جمادى الاخر سنة ١٣٤٤ هـ]

تدمه الكتاب ... بل لقد كان هـذا الكتاب ، وما دار حوله من صراع ، احد العوامل البارزة فى بلوره هذا التيار الفكرى الليبرالى فى بلادنا ، دعم من صفوفه ، واكتسب لاصحابه مواقـع جديدة ، وشحذ اليقظة والانتباه عند كثيرين من الذين تبنوا هذا المذهب من مذاهب حرية الانسان فى التفكير والتعبير .

حـزب الوفـد

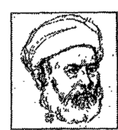
أما حزب الوفد فلقد قدمت قطاعات اساسية منه ، وخاصة مثقفوه ومفكروه ، بصدد هـذه المعركة ، صفحـة مشرقة فى تاريـخ حركتنا الثقافية والسياسية فى ذلك التاريخ ... فرغم العداء الشديد والصراع الحزبى الذى كان بين الوفد وبين الاحرار الدسـتوريين ، الذى ينتمى لهم ويحسب عليهم على عبد الرازق ، بل ورغم موقف سعد زغلول المعادى للكتاب .. (٢٨) الا أن أغلب الاصوات التى ارتفعت فى صحافة الوفد يومئذ قد وقفت الى جوار الانتصار لحرية الراى وحق على عبد الرازق فى التفكير والتعبير .. ولقد رأوا فى محاكمته والحكم عليه **مسـألة سياسية** نسجت خيوطها اصابع الـراى التى تعبث بالدستور، **لا مسألة دينية** ، كما حاول ان يصورها الذين أيدوا المحاكمة وما ترتب عليها من اجراءات .

ولقد ميز الوفديون يومئذ بين أمرين :

أولهما : الانتصار لحرية التفكير والتعبير ، والجهاد من أجل سيادة احكام الدستور ... وبصدد هذا الأمر وقفوا الى جـوار الـكتاب وصاحبه ، ودعوا الى قيام تحالف وتعاون على هذا الاساس ، وفى ذلك الاطار .

وثانيهما : التصدع الذى حدث فى الائتلاف الوزارى ، وادى الى خروج الأحرار الدستوريين من الوزارة ، وهنا فرح الوفديون ، و «شمتوا» شماتة كبرى فى **الدستوريين** . وهكذا لم تطغ المناورات الحزبية والصراعات السياسية على المواقف والعوامل الموضوعية الخاصة بحـق المفكر فى التفكير والتعبير ، وانما حدث تمييز واع ، عند الكثيرين ، بين هذين الميدانين .

الاستاذ الامام محمد عبده
[١٨٤٩ — ١٩٠٥ م]



■ اهم مفكر فى عصرنا الحديث تكونت من حوله مدرسة فكرية ، ولونت بصمات فكره العديد من مناحى حياتنا فى مصر والعالم الاسلامى . تتلمذ على يد الافغانى ، ثم ركز جهوده للاصلاح الفكرى والدينى واللغوى ، وعدل عن اسلوب استاذه فى استخدام الثورة لتحقيق النهضة والحرية للشرق والشرقيين ، وبالذات بعد فشل ثورة العرابيين التى شارك فيها . قدم فى كتاباته ودروسه النظرة العقلانية العصرية المستنيرة للعقـائد والقيم الجـوهـرية فى الاسلام ، ولقد لازمته فى كل مواقفه روح التجديد واستلهام العقل واحترام العلوم ، كما تميز بالشجاعة فى مواجهة الخصوم من انصار المحافظة والجمود ، وكان تجسـيدا للفلاح المصرى الضارب بجذوره فى أعمـاق وطنه والمستشرف بعقله ابعد الآفاق . وتعتبر اراؤه المنطلق الذى انطلق منه جيل الرواد فى مصر من قاسم أمين حتى طـه حسـين والعقاد ، مرورا بلطفى السيد وسعد زغلول وعلى عبد الرازق ود. حسين هيكل ، وغيرهم من الاعلام . وفى هذه الاراء ابرز معالم فكرنا الحديث ، سواء منها ما هو ايجابى او ما يعتبره البعض فى عداد السلبيات . ■

وتعبيرا عن هذا التمييز الواعى نشرت **(كوكب الشرق)** مقالا لرئيس تحريرها « **أحمـد حافظ عوض بك** » جاء فيه : « كنا نستطيع أن نستغل ذلك الحادث كسعديين(٢٩) مخالفين لهم — هذا عدا ما فى ذلك الاستغلال من الضرب على وتر الدين الحساس ، وتنفير الأزهر وعلماء الأزهر من الاحرار الدستوريين — كنا نستطيع أن نستغل ذلك حزبيا ، ولكن ضمائرنا ابت هذا الاستغلال ، ونفوسنا استنكرته ، ووطنيتنا تسامت عن مثل هذه الاعتبارات الحزبية . **ومن اجل هذا رجونا**

---

[٢٨] انظر كتاب [سعد زغلول ، ذكريات تاريخية طريفة] بقلم سكرتيره : محمد ابراهيم الجزيرى ص ٩١ — ٩٢ طبعة « كتاب اليوم » ، بالقاهرة .

[٢٩] أى انصارا لسعد زغلول ، وكان لفظ « السـعديين » يعنى يومئذ الوفديين ، اذ لم يكن قد حدث بعـد انشقاق ماهر والنقراشى وتكوين «الهيئة السعدية » .

فى العقد الماضى من (الكواكب) الادباء والمفكرين أن يتخذوا من هذا الحادث موعظة يتعلمون منها أن الاحرار من كل الاحزاب فى حاجة الى التآزر أمام الافكار الرجعية مما يمس الدستور وما كفل من الحريات العامة . ويسرنا أن يكون لهـذه الكلمة صدىً فى نفوس الذين عنيناهم ... ليس أتعس من أن تعيش الامم عيش نفاق وتضليل.. **نريد أن نعرف ، ونريد أن يعرف العالم : هـل لمصر نظام هو الدستور ؟ تحكم على موجبه ؟ أم لهـا غير الدستور نظاما خفيا تمتد خلال ظلماته أيد تفتك بما قرر الدستور من حقوق ، ثم يكون لهذا الفتك مقامه واحترامه ... فاهلا وسهلا بهذه الصراحة ، وأهلا وسهلا بالظروف ـ مهما ساءت ـ تخرج الرجال الاحرار من دائرة الفناء فى الحزبية . لقد وجدنا الارض المشتركة التى نلتقى فيها كرماء شرفاء ، سعديين وغير سعديين، وشـعرنا بالخطر الـذى يلتئم الصـفوف عنـد ظهوره ...** »(٣٠) .

بل لقـد كتب بعض الوفـديين فى **جـريدة (السياسة)** ، لسـان حال حـزب الاحـرار الدستوريين ، كتب كلمة بتوقيع «سعدى» أثنى فيها على موقف (السياسة) من القضـية ، ورفعها لواء الدفاع عن الـكتاب وصـاحبه ، واصرارها على أن **القضية سياسية دستورية ، لا قضية دين وروحانيات** ، ثم قال : « **ان ذلك موقف يجب أن تتكاتف الاحزاب المختلفـة على الظهور فيه ، رغم ما يكون بين تلك الاحزاب من اختلاف جوهرى أو عرضى . ولقد تقدم فريق من السعديين ينصرون الحرية والدستور لمناسـبة تلك القضية ، وكان شعار هذا الفريق تلك الكلمة الحكيمة : « عند الخطر تلتئم الصفوف»** ...(٣١)

وهكذا انخرط التيار الاساسى فى الوفـد ، وبالذات فى صفوف مفكريه ومثقفيه ، الى جانب المناضـلين دفاعا عن حق المثقف فى الاجتهاد والتفكير والتعبير ، ومن ثم الى جانب المدافعين عن المؤلف وكتابه ضد الملك فؤاد والجبهة المناصرة للسراى .

الاحرار الدستوريون

على أن التيار الاساسى الذى حمل أغلب الثقل فى هذه المعركة ، دعوة وتأييدا ومحاماة عن الكتاب وصاحبه،كان هو **تيار الاحرار الدستوريين الفكرى، وحزبهم السياسى،وجريدتهم(السياسة اليومية ، المعبرة رسميا عن هذا التيار** .

وهناك نقطتان فى حاجة الى جلاء حول موقف هذا الحزب ، الذى كان يشارك فى حكم الاقلية ضد الاغلبية ، والذى كان يمثل أبناء العـائلات الريفيـة الغنية والاقطـاعية وكبار الملاك .. موقفه من هذه المعركة .. ولماذا خرج فيهـا على الدوائر العليا التى كانت تحتضن أحزاب الاقلية ؟ ولماذا وقف ضد الذين يمثلون فى مصر مصالح الاقطـاع والاقطاعيين ، مثـل السراى والاتحاديين ، ولـماذا وقف فى الجبهة المقـابلة لتلك التى وقف فيها الانجليز ، رغم صـلاته الوثيقة وغير المنكورة بالانجليز ؟! ثم لماذا انتصر هذا الانتصار الكبير لحرية التفكير والتعبير فى الوقت الذى كان يشارك فيه (حزب الاتحاد) فى وزارة زيور باشـا التى جعلت من أولى مهامها محاربة الحرية والاعتداء عليها ومطاردة الاحرار ؟ ! .

ان موقف هذا الحزب وذلك التيار الفكرى ، من هذه المعركة ، نموذج لمواقف عديدة اتخذها فى أزمات فكرية مماثلة ، والحديث عنه هنـا فرصة لجلاء أسرار تلك الازدواجية التى تطالعنا فى مواقفه فى مثل هذه الامور .

ففى شهر ابريل سنة ١٩٢٥ م الذى صدرت فيه الطبعة الاولى من **(الاسلام وأصول الحكم)**، وأخذ فيه الاحرار الدستوريون يناصرون حرية المفكر فى التفكير والتعبير .. فى نفس هـذا الشهر كان نفس هـذا الحزب يشترك مـع (الاتحاديين) ، عن طريق الوزارة الائتلافية ، فى الاعتداء على حريات الشعب والانتقاص من القدر الذىكان متاحا لابنائه فىالتفكير والحركة والتعبير .. فأصـدرت الـوزارة فى ٣ ابريل قانون تحريم اشـتغال الموظفين بالسياسـة ، ومنعهم «من كل قول أو عمل يشف» عن نشاط غير النشـاط الوظيفى الادارى فى المصـالح والدواوين ؟ ! (٣٢) .

وفى ٥ يوليو سنة ١٩٢٥م تنشر (السياسة) فى افتتاحيتها مقالا ممتازا **لمنصور فهمى** ، ينتصر فيه للحرية ، مدافعا عن حرية على عبد الرازق التى اعتدت عليها **هيئة كبار العلماء .. وبعـد أربعة أيام** تنشر نفس الجريدة ما تدافع به عن تقييد حرية الصحافة ، بالتشريع الذى كانت تعده الوزارة التى يشارك فيها الاحرار الدستوريون؟! وتخرج فى هذا الموقف عن كل القوى السياسية، فيما عدا (حزب الاتحاد) ؟! ..

---

(٣٠) كوكب الشرق فى ١٧ اغسطس سنة ١٩٢٥ م .
(٣١) السياسة فى ١٦ اغسطس سنة ١٩٢٥ م .
(٣٢) جريدة السياسة اليومية فى ٣ ابريل سنة ١٩٢٥ م .

ونحن نعتقد أن سر هـذه الازدواجـية التى صاحبت الكثير من مواقف هذا التيار الفكرى ، كامن فى نشأته وطبيعة تكوينه ، والمصالح التى كان يمثلها منذ ان تبلور فى (حزب الامة) على يد لطفى السيد فى مطلع هذا القرن ، كمدرسة فى التفكير واسلوب فى العمل حملت الكثير فى البصمات الفكرية والاساليب الاصلاحـية التى بذرها الشيخ محمد عبده فى هذا الميدان ، وذلك بعد مزج هذه البذور وتلقيحها بتراث الليبرالية فى أوربا ..

فالاحرار الدستوريون كانوا يمثـلون ابنـاء البيوت الكبيرة، وعددا من كبار الملاك والاقطاعيين المصريين ، ولكنهم كانوا يمثـلون ذلك القطاع المستنير من هذه القوى الاجتماعية ، أو اذا شئنا الدقة كانوا هم التيار المستنير الذى يبصر المصالح البعيدة لهذه القوى الاجتماعية ، تلك المصالح التى من الممكن ان تستفيد كثيرا من الاستنارة والاصلاح والانفتاح على الفكر العصرى الاوربى ، والتى كان بامكان هذا الاصـلاح وتلك الاستنارة أن يؤهلاها كى ترث مقدرات هذا الوطن ، بدلا من الوفد الذى يمثل الجماهير والعامة ، وأن تكون لها المشاركة بنصيب الاسد مع السراى التى لم يكن لامرائها فى بطن التربة المصرية الاصالة والعراقة التى لهذه العائلات التى تكون هذا الحزب وذلك التيار .. فهم كانوا يرون فى أنفسهم « أصحاب المصالح الحقيقية » ، لانهم « سراة البلاد وأعيانها » ، وأن الاستنارة ، والتعليم والثقافة ، وتكوين قطاع كبير من « الصفوة والنخبة » هو السبيل لاحلال هذه العناصر محل الاجنبى ... **ومـن ثم كان مواقف هذا الحزب وذلك التيار كانت دائما الى جانب حرية التفكير والتعبير اذا كان الامر خاصا « بالمفكرين » و « الصفوة والنخـبة » ، وعلى العكس من ذلك تماما اذا كان الامر خاصا بالشعب والعامة والجماهير** ... ولذلك وقفوا بصـلابة وبطولة تستحق الاعجاب والتقدير الى جانب على عبد الرازق وحقه فى التفكير والتعبير ، فى نفس الوقت الذى شـاركوا فيـه السراى والاتحاديين فى العدوان على حرية الموظفين فى الاشتغال بالسياسـة ، وحـرية الصحـافة والصحفيين ــ والمقصود هـنا انصار سـعد والوفد ــ فى التفكير والتعبير ؟! .

وهذه الصلات التى تربط هذا الحزب وذلك التيار الفكرى ، وتشد هذا المنهج فى التفكير الى مدرسة محمد عبده ، كانت تبدو فى هذه المعركة على جانب كبير من الوضوح والجلاء ..

عبد الحميـد بن باديس
[١٨٨٩ — ١٩٤٠ م]

■ **الاب الروحى للـثورة الجـزائر ، والمهندس لمسيرتها نحو عروبتها من جديد . حيث انتصرت على جهود الاستعمار الفرنسى فى تحويلها الى الامتداد اللاتينى عبر البحر المتوسط فى افريقيا . ولقد انشا ابن باديس لهذا الغـرض [جمعيـة العلماء المسلمين الجزائريين] سنة ١٩٣١ م بعد ان ربى رجالها خلال عمل استمر ثمانية عشر عاما بداه سنة ١٩١٣ م عقب عودته من الحجاز ، ورفضه الاقامة بالخارج قائلا : « نحن لا نهاجر . نحن حراس الاسلام والعربية والقومية فى هذا الوطن » .**

ويعد ابن باديس من علماء الاسلام السلفيين المستنيرين ، فهو الامتداد الجزائرى لمدرسة الافغانى ومحمد عبده والكواكبى مجتمعين . ولقد راى فى الاسلام ــ كما يتمثل فى منابعه النقية الاولى ــ طوق النجاة للجزائر من الشعوذة التى صارت عقيدة الطرق الصوفية ورجال الدين الرسميين الذين اصبحوا خدما للاسـتعمار الفرنسى هنـاك ، كما راى فى العروبة والتحرر الوطنى الوجه الاخر للعملة التى تتمثل فى دين الاسلام .

اشتغل بالصحافة ، واصدر نحوا من ست مجلات تعرضت للمصادرة والتعطيل . وآثاره الفكرية محصورة فى مقالاته ودروسه ، فلم يشتغل بالتاليف ، وكان يقول : « اننى لا اؤلف الكتب ، وانما اريد صنع الرجال » ! ! ■

فلم يكن على عبد الرازق سوى امتداد متطور للشيخ محمد عبده فى الاصلاح الدينى ، بل ان آراءه فيما يتعلق بالاسلام وأصول الحكم قـد كانت فى جوهرها تفصيلا وبلورة وتطويرا لاراء الاستاذ الامام فى هذا الموضوع ... وجريدة (التيمز) اللندنية تشير الى هذه الحقيقة فتقول : « ... اما الشيخ على عبد الرازق فهو خلف الشيخ محمد عبده وقاسم بك امين فى آرائهما الفكرية »(٣٣) ، وهى بذلك تحدد مكان كتاب (الاسلام واصول الحكم) من حركة الاصلاح الدينى التى بداها الاستاذ الامام .

---

(٣٣) الاهرام فى ١٦ سبتمبر سنة ١٩٢٥ م .

وعندما يشتد الجدل فى الصحافة حول أفكار الشيخ على عبد الرازق تنشر (السياسة) مقالا كبيرا عنوانه (**الخلافة والسلطة الدينية فى رأى الشيخ محمد عبده**) تفتتحه بكلمات تقول فيها : « بمناسبة ما يجرى فى الصحف من حديث عن الخلافة وأصول الحكم الاسلامية ، بدا لنا أنه قد يكون من المفيد للبحث أن نضع بين يدى القراء صورة من مذهب المرحوم الاستاذ الشيخ محمد عبده فى الموضوع ، وجدير بأقوال الاستاذ الامام أن تكون تنبيها للغافلين وذكرى للذاكرين » ... ثم تفسح (السياسة) المكان لنصوص مقتبسة من كتابات الشيخ محمد عبده ، تعالج أهم النقاط التى عالجها كتاب (الاسلام واصول الحكم) ، فاذا بما قاله على عبد الرازق مفصلا فى عديد من هذه النقاط قد سبقه الى ايجازه — بنفس المنطق ومن نفس الموقع — الاستاذ الامام(٣٤) .

وعلى كل حال ، فلقدرمى الاحرار الدستوريون بكل ثقلهم الفكرى — وكان رائعا وعظيما يومئذ — خلف الكتاب وصاحبه ، ومثلت مقالات (السياسة) فى هذا الموضوع صفحة مشرقة للفكر المصرى ، تستحق دراسة خاصة ومستقلة .. ولعل من أروع مقالاتها تلك التى نشرتها بعد صدور الحكم على الشيخ على عبد الرازق ، بعنوان (بعد قرار العلماء) .. والمقال غير موقع ، ولكن أسلوبه يشير الى قلم الدكتور هيكل ، ونحن نقرأ فيه صفحة من الادب السياسى الجميل ، يقول فيها مخاطبا على عبد الرازق ، فى أسلوب ساخر : « ... تعال نضحك ... فقد كان كتابك مصدرا لتغير الارثوذكسية فى الاسلام(٣٥) ، ولست أنت الذى غيرها أيها الطريد المسكين ، وانما غيرها الذين طردوك وأخرجوك من الازهر . نعم .. كان أهل السنة ومازالوا يرون أن الخلافة ليست ركنا من أركان الدين ، وان الشيعة فسقوا حين عدوها كذلك ، فلما قلت للناس فى كتابك ما أجمع عليه أهل السنة، غضب عليك أهل الازهر ، ورموك بالابتداع والالحاد ، وأخذوا يقولون : ان الخلافة أصل من أصول الدين . وقد كنا نعلم أن القاهرة مركز أهل السنة وموطن الاشاعرة ومستقر الارثوذكسية الاسلامية ، فسبحانه مغير ولايتغير ! أصبحت « القاهرة » « كطهران » مركز الشيعة ، وانهار بناء صلاح الدين ؟! ولم لا ؟! .. الشيعة هم الذين بنوا القاهرة ، وهم الذين بنوا الازهر وشيدوه . أليس الفاطميون هم الذين انشأوا المدينة ومسجدها الجامع ؟! فأى عجب ان تعود مدينة القاهرة شيعية كما كانت يوم أسسها الفاطميون ؟! وأى عجب فى أن يعود الازهر شيعيا كما كان يوم بناه الفاطميون ؟! »(٣٦) ..

ثم يتعدى الامر نطاق الصراع الفكرى والمساجلات الصحفية ، فيقف رئيس الحزب **عبد العزيز فهمى باشا** ، وكان وزيرا للحقانية ، موقف المعرقل لتنفيذ حكم هيئة كبار العلماء ، ويغتنمها الاتحاديون فرصة ، فيرفع رئيسهم **يحيى باشا ابراهيم** — وكان نائبا لرئيس الوزراء المتغيب فى أوربا — الامر الى الملك فؤاد ، فيعزل وزير الحقانية ، فيستقيل احتجاجا على ذلك الوزراء الدستوريون ، ويلحق بهم اسماعيل صدقى باشا ، وينهار الائتلاف الوزارى الذى كان قائما فى مواجهة سعد زغلول والوفديين ..

موقف الانجليز

أما موقف الاحتلال الانجليزى — الذى كان يمسك يومئذ بخيوط السياسة المصرية — من هذه المعركة ، فهو صفحة هامة تستحق التأمل والتفكير .. ذلك أن علاقات سلطات الاحتلال الانجليزى بالاحرار الدستوريين كانت وثيقة وغير خافية منذ نشأة هذا التيار .. وفى تاريخ هذا التيار الفكرى مواقف كثيرة أنصفه فيها الانجليز وانتصفوا له من العرش والقوى الاخرى التى تعرضت له بالمناهضة أو العداء .. سلك الانجليز ذلك منذ المواقف الشهيرة لكرومر بجانب الشيخ محمد عبده تجاه الخديو عباس حلمى ..

ولكن الذى حدث فى معركة كتاب (**الاسلام واصول الحكم**) هو العكس من ذلك الموقف التقليدى تماما ، اذ ترك الانجليز أصدقاءهم فريسة ينهشها القصر الملكى والقوى التى ناصرته ، ولم تتحرك دار المندوب السامى البريطانى لمناصرة الشيخ على عبد الرازق والاحرار الدستوريين ، وذلك رغم المضاعفات الخطيرة الضارة بهم ، والتى ترتبت على هذه المعركة الفكرية والسياسية ، عندما أدت الى تصدع الائتلاف الوزارى الذى شارك الانجليز فى اقامته كى يقف فى وجه الوفد وسعد زغلول .. وجريدة (التيمز) اللندنية

---

[٣٤] جريدة [السياسة] اليومية فى ٦ يونيو سنة ١٩٢٥ م . وفى تقديمنا للاعمال الكاملة للاستاذ الامام كتبنا فصلا عن موقفه من هذه القضية ، طبيعة السلطة ، تحت عنوان [الجامعة الاسلامية] ، فوجدنا نصوصا جديدة لم تنشرها [السياسة] تدعم ما ذهبت اليه

[٣٥] المقصود : « المذهب السنى » المحافظ ، وهو المقابل ، فى نظر الكاتب، للارثوذكسية فى المسيحية .

[٣٦] جريدة [السياسة] اليومية فى ١٤ اغسطس سنة ١٩٢٥ م .

تشير الى مخاطر انهيار هذا الائتلاف على مصالح الانجليز ، عندما تقول : « ... ففى الحكم على الشيخ على عبد الرازق نجد جميع المواد التى تشعل الان نار النزاع الحزبى **المملوء بالكوارث. ويلوح لنا من أول وهلة أن سعد زغلول باشا وأنصاره هم الذين سيربحون على الارجح فى هذا النزاع** » .. ثم تتحدث عن مكان على عبد الرازق وكتابه من حركة الاصلاح التى حظيت تاريخيا بعطف الانجليز ومناصرتهم ، فتقول : انه « قد تملكت من مصر أخيرا الحركة الحديثة فى الاسلام ، مع ما جاءت به من زيادة الحرية الاجتماعية للنساء ، ورقى الحضارة ، واصلاح التعليم ، ورقى الحكم الدينى الاسلامى . **أما الشيخ على عبد الرازق فهو خلف الشيخ محمد عبده وقاسم بك أمين فى آرائهما الفكرية السامية. وقد استطاع الشيخ محمد عبده ، بفضل نفوذ اللورد كرومر ، أن ينجو من المطاعن الكثيرة ومن عداء السراى ، ولم ينل المصلحون الاخرون انصارا ...** »(٣٧)

فلما تخلى الانجليز عن الاحرار الدستوريين فى هذا الموقف ؟ ولماذا لم تقف دار المندوب السامى البريطانى الى جوار على عبد الرازق ضد الملك فؤاد وقفة كرومر الى جوار محمد عبده تجاه الخديو عباس ؟!

اننا نعتقد أن هناك أسبابا عدة لهذا الموقف الانجليزى « المؤقت والعارض » ، فى مقدمتها :

❶ أن انجلترا كانت تريد أن تلعب بلعبة « الخلافة الاسلامية » ، وتستفيد من شعارها الى أبعد الحدود ، وهى فى مصر كانت تمد حبال الامال لدى العرش المصرى والملك فؤاد فى تبوء هذا المنصب الشريف ، لتجنى من وراء ذلك المزيد من أحكام القبضة على العرش ، ولتجمع من حوله كل القوى المحافظة التى يغريها بريق هذا الشعار ، وهى بذلك انما تدعم نفوذ القوى المناهضة للوفد وقيادة سعد زغلول ، هذه المناهضة التى كانت بمثابة التصفية النهائية والمحمومة لبقايا ثورة سنة ١٩١٩ م .. ومن هنا غضت انجلترا الطرف عن تحرك القصر ضد على عبد الرازق ، حتى عندما وصل هذا التحرك الى حد فض الائتلاف الوزارى ، رغم ما فى ذلك من مخاطر أنذرت باستفادة الزغلوليين .

الشيخ محمد رشيد رضا
[١٨٦٥ — ١٩٣٥ م]

■ **مهاجر من « طرابلس » الشام جاء الى القاهرة ولازم الاستاذ الامام محمد عبده ، واصبح اللسان المعبر عن فكره فى الاصلاح الدينى بمجلته [المنار] ، وهى ابرز اعماله على الاطلاق ، فلقد ظل يصدرها بانتظام من سنة ١٨٩٨ حتى سنة ١٩٣٥ ، فترك منها ٣٦ مجلدا بلغت صفحاتها ٢٧٢٠٠ صفحة .**

وكان رشيد رضا « سلفيا » يميل الى النقل اكثر مما يميل الى العقل ، على عكس محمد عبده ، واثناء صحبتهما تخلى عن موقفه هذا فى احيان كثيرة ، ثم عاد سلفيا نقليا بعد وفاة الاستاذ الامام ، والفرق بينهما يتضح من مقارنة تفسير كل منهما لما فسر من أجزاء القرآن . ويتجلى تأثير الامام على رشيد رضا فى دفاع الاخير عن كتاب [تحرير المرأة] لقاسم امين، فى حياة الامام ، على حين هاجم بعنف كتاب [الاسلام واصول الحكم] بعد وفاة الامام .. مع ان هذه الاثار الفكرية جميعا هى بلورة وتفصيل لبعض آراء الاستاذ الامام ! ! . ■

وعن موقف انجلترا هذا يتحدث **الدكتور محمد حسين هيكل** فى مزيج من المرارة والسخرية مخاطبا على عبد الرازق فيقول : « ... ثم ماذا تقول فى عالم مسلم مصرى يقول بوجوب ارتباط مصر وانكلترا برابطة الصداقة ، ويذهب فى ذلك مذهب المتطرفين ، ثم يقف فى وجه اقامة خليفة ، **بينما تريد انجلترا أن يكون خليفة ، وأن يكون هذا الخليفة واحدا من الملوك أو الامراء الواقعين تحت نفوذها ؟! أو لم يكن الاولى والاجدر به ان يترك الخلق للخالق ، حتى يقام الخليفة ، فيرضى أمير وان غضب أمراء ؟ وترضى انكلترا ؟ وقد يكون فى رضاها ما يقرب حل المسائل المعلقة بيننا وبينها ؟!** »(٣٨) .

❷ أن انجلترا كانت تريد أن تكسب نفوذا

---

[٣٧] نقلا عن برقيات [الاهرام] السياسية . فى ١٦ سبتمبر سنة ١٩٢٥م
[٣٨] جريدة [السياسة] اليومية . فى ٢٢ يوليو سنة ١٩٢٥ م

ادبيا لـدى المواطنين المسلمين فى مستعمراتها الاخرى ، وبخاصة فى شبه القـارة الهندية ، حيث كانت لفكرة الخلافة الاسلامية لدى ملايين المسلمين هناك سمعة طيبة جـدا .. فوقوفها ضد الحركات الفكرية المناهضة لاحياء الخلافة، أو على الاقل عـدم مناصرتها وحمايتها لهـذه الحركات ، يفتح لها قلوب الجماهير المسـلمة هناك ، وتعدادها يفوق تعداد المسلمين فى العالم العربى ، ومن ثم يباعد بين هذه الجماهير المسلمة وبين الانخراط مع « الهندوس » فى الحـركة الوطنية الهندية التى كانت آخذة فى التبلور ، واقتفاء أثر ثورة سنة ١٩١٩ م المصرية فى ذلك الحـين .

❸ أن الانجليز قد اخذتهم مضاعفات المعركة عندما انخرطت الى جوار الدفاع عن الكتاب وصاحبه قوى عديدة أظلتها جميعا شـعارات الدفاع عن حرية التفكير والتعبير ، فأبصروا فى تلك الحركة التى ماجت بها يومئذ احشاء المجتمع المصرى نذير تمرد شعبى على العـرش وذات الجالس عليه ، ومن ثم **اضعافا لشأن المؤسسات** الوهمية التى أرادت عنطريقها تكريس وجودها، ومواجهة «ثورية» حزب الوفد والقوى**الاجتماعية الجديدة** .. فاعتبر الانجليز أن مسألة الشيخ على عبد الرازق برمتها هى مسألة « عارضة » لايجب أن يؤدى التوقف عندها الى اغفال الافاق الخطرة المرتقبة بسببها ، ودعت أصوات انجليزية كثيرة للانتباه الى «أنالازمة الحالية رمز للاشارة الاولى التى تشير الى انقلاب الشـعور ضد نفـوذ عال ... ؟! »(٣٩) ومن ثم فان الموقف الانجليزى **الاساسى والاصيل** يجب أن يكون الى جانب هذا « النفوذ العالى » (العرش) ، ولا بأس مـن موقف « عارض ومؤقت » ضدالاصدقاء التقليديين من الاحرار الدسـتوريين .

❹ وسبب ثانوى وساعد حـرم الاحـرار الدستوريين من مناصرة دار المندوب السـامى البريطانى فىهذه المعركة ، تحدثت عنه الجريدة الوفدية (كوكب الشرق) عنـدما شـمتت فى تصدع الائتلاف الوزارى ، وذكرت أن حدوث هذه الازمـة فى غياب اللورد « اللنبى » ، الـذى كان قد استقال من منصب المندوب السامى فى مصر ، وقبل مجىء خلفه السير « جورج لويد » ، وفى الوقت الذى كانت سلطات الانجليز مخولة الى « عميـد انجلترا بالنيابة ، مسـتر نيفـل هندرسون » ... ان ذلك قد حـرم الاحـرار الدستوريين من نصيرهم العظيم ، اللورد اللنبى، فوحدهم (الاتحاديون) لقمة سـائغـة تغـرى بالالتهام ... وفى ذلك تقول (كوكب الشرق) : « ... **ومازال الاتحاديون فى حاجة الى حلفائهم الاحرار الدستوريين مادام اللورد اللنبى فى مركز المندوب السامى فىمصر ، ليستنصائعه ويمدهم بالعون والقوة ، حتى اذا استقال اللورد ، وصار الاحرار الدستوريون بلا عون من الانكليز ولاعون من الامة ، احس الاتحاديون أن حلفاءهم عبء ثقيل عليهم ، يستفيدون ولا يفيدون ، فحرموهم كل نفوذ فى الوزارة وجعلوهم تابعـين لهـم لا زملاء** »(٤٠) ثم فجـروا الموقف الذى فض الائتلاف .

ولقد كان لابد للانجليز ، كى يبرروا موقفهم هذا الذى تخلوا فيه عن أصدقائهم التقليديين ، من أسباب يعلنونها ، تظهرهم بمظهر الصديق الذى لم يتخل نهائيا عن هذه الصداقة ، وانما هو بازاء موقف عارض وأسباب تشل يده عن حرية الحركة فى صالح هؤلاء الاصـدقاء ... فتبنوا النظرية التى اطلقها أنصار القصر ، والتى تقول : ان هذه القضية **قضية دينية** ، **وليست** دستورية ، ولا سياسية . . ومن ثم فان الاختصاص فيها هو من حق « هيئة كبار العلماء » فى الازهر وحدها ، ولا يجوز التدخل فيها من أى طرف من الاطراف بأى حال من الاحوال ؟! .

وجدير بالذكر ان هذا التشخيص للقضـيـة لم يكن مقنعا حتى للذين قالوا به وروجوا له ، وذلك بدليل لايقبل النقض أو الجدال ، وهو أن الازهر نفسه قد عاد بعد سنوات فألغى موقفه السابق من على عبد الرازق ، وأعاده الى زمرة العلماء ، وذلك عندما زالت الظروف السياسية التى دفعت الى اتخاذ الموقف الاول ، ولو كانت المسألة دينية لما حدث ذلك ، اذ أن الاسلام هـو الاسلام ، والدين هو الدين ، ولافرق بينـه فى عهد الملك فؤاد وبينه فى عهد الملك فاروق ؟! ..

ولكن الانجليز — على كل حال — قد وجدوا فى هذه الحجة مخـرجا لهم من الحـرج الذى اصابهم أمام أصدقائهم من الاحرار الدستوريين ، وعندما بلغ الامر حد تصـدع الائتلاف الـوزارى صرح المستر « نيفل هندرسون » ، عميد انجلترا بالنيابة الى « مندوب شركة روتر التلغرافية فى شأن الازمة الوزارية المصرية » ، فقال : انه علم

---

[٣٩] [المورننج بوتست] اللندنيفى ١٧ سبتمبر سنة ١٩٢٥ م [والنقلءن اهرام ١٨ سبتمبر سنة ١٩٢٥ م] .
[٤٠] [كوكب الشرق] فى ٨ سبتمبرسنة ١٩٢٥ م .

بالأمر ؟ اذ حضر اليه أمين تولة يحيى باشا ؟ واخبره الخبر الذى أسف له . وأضاف : ان دار المعتمد البريطانى نظرا لوصف المسألة بانها دينية لم تتدخل ، عملا بالتقاليد التى جرت عليها من قبل فى مثل هذه الاحوال . » (٤١)

ثم انطلقت لترويج وجهة النظر هذه كل المنابر الاعلامية التى كانت قائمة فى خدمة الانجليز ، فكتبت [المقطم] فى ٨ سبتمبر سنة ١٩٢٥ م مهاجمة موقف عبد العزيز فهمى باشا الذى اراد استفتاء [قلم قضايا الحكومة] فى تنفيذ حكم « هيئة كبار العلماء » ، وحجة [المقطم] أن فى « قلم قضايا الحكومة » أعضاء مسيحيين ؟! .. كتبت [المقطم] تقول : « ... ان عمل وزير الحقانية اذا لاق أن يأتيه غير القانونى فلا يليق ان يأتيه رجل عرف بشدة تعمقه فى القانون ، ولا سيما أن ارسال قرار هيئة كبار العلماء فى مسألة اسلامية بحته الى قلم قضايا الحكومة ، وفيه كثيرون من غير المسلمين ، لا يعد معقولا . وهو يشبه ارسال قرار من هيئة مسيحية أو اسرائيلية فى مسائل تتعلق بالمسيحية او الاسرائيلية ، الى لجنة ليست مسيحية أو اسرائيلية ، فلا يكون افتاؤها مقبولا . وخصوصا بعد أن اثبتت حيثيات الحكم الصادر من الجامع الازهر أن المسألة دينية بحتة ... انه لايصح ان يتهم قاض شرعى دينى — أحكامه على قواعد الدين الاسلامى — بخروجه على هذا الدين ، ثم يستمر فى منصبه » (٤٢)

وهكذا التقت [المقطم] مع [المنار] ؟ !! .. رغم أن تيار [المقطم] الفكرى قد ناصر الكتاب وصاحبه فى « المقتطف » فى بدء المعركة ، وقيل أن ينحاز الانجليز ضد على عبد الرازق وكتابه كما التقى رأى المندوب السامى المستر « نيفل هندرسون » برأى هيئة كبار العلماء على اعتبار الموقف ضد على عبد الرازق وكتابه « مسألة دينية بحتة » ... كل ذلك كى تبرز انجلترا أمام أصدقائها التقليديين من الاحرار الدستوريين وقوفها الى جانب « العرش وذات الجالس عليه » ، وتغاضيها عن الاجراءات التى اتخذت ضد هؤلاء الاصدقاء .

ويخطىء الذين يظنون أن الانجليز بموقفهم هذا انما كانوا يتقربون الى الرأى العام المصرى ، أو يراعون مشاعره الدينية، لان الصحافة الانجليزية نفسها كانت تقدر أن موقف الرأى العام فى مصر هو ضد الاجراءات التى اتخذت ضد على عبد الرازق ، وأن « الرأى العام المصرى لايؤيد تحفزا الارثوذكسية الاسلامية للشجار » على حد تعبير جريدة [ليفربول بوست] البريطانية (٤٣) ... ومن ثم فان هذا الموقف الانجليزى انما كان الى جانب فريق من الاصدقاء ضد فريق آخر من الاصدقاء ، ولم يكن بحال من الاحوال احتراما للمشاعر الدينية والروحية لجماهير المصريين المسلمين .

آثار الكتاب والمعركة

واذا كانت هذه هى أبرز المعالم للحركة الفكرية والسياسية التى أثارها كتاب [الاسلام واصول الحكم] فى صفوف القوى الاجتماعية والسياسية بمصر غداة صدوره فى ابريل سنة ١٩٢٥ م ، بطبعاته الثلاث التى صدرت تباعا فى أسابيع ؟ ! .. واهم الخيوط التى حكمت الصراعات التى فجرها على عبد الرازق باصداره لهذا الكتاب ، فان الآثار التى تداعت على مسرح الاحداث السياسية والاجتماعية والفكرية بمصر فيما بعد ذلك ، بسبب هذا الكتاب ، لاتقل اهمية وخطورة عن الاحداث التى سبقت اشارتنا اليها فيما تقدم من صفحات .. ويكفى أن نجمل الاشارة الى بعض عناوين هذه الآثار والنتائج فى هذه النقاط :

١ — أن تصدع الائتلاف الوزارى الذى كان يجمع الاحرار الدستوريين الى الاتحاديين ، قد جعل الدستوريين وجريدتهم (السياسة) يعودون الى صفوف المعارضة ، ولقد استفاد الوفد من ذلك ، واقام الموقف الموضوعى والمبدئى

---

[٤١] جريدة [الاخبار] فى ٧ سبتمبر سنة ١٩٢٥ م
[٤٢] [المقطم] فى ٨ سبتمبر سنة ١٩٢٥ م .
[٤٣] برقيات جريدة [السياسة] اليومية . فى ١٥ اغسطس سنة ١٩٢٥م

الذى اتخذه مثقفو الوفد الى جانب على عبد الرازق وكتابه — دفاعا عن حرية التفكير والتعبير — اقام هذا الموقف جسورا لعودة الاحرار الدستوريين الى الوقوف مع الوفد فى ساحة المعارضة ، والعمل من أجل حماية مبادىء دستور سنة ١٩٢٣ م ... ولقد وصلت مضاعفات هذا الموقف الى الحد الذى جعل بالامكان عقد مصالحة حزبية جمعت العديد من الاحزاب والتيارات فى مواجهة السراى والاتحاديين ، ولقد تجسدت هذه المصالحة فى ذلك الاجتماع « الثورى » لمجلس النواب الذى كان الدستوريون قد اشتركوا فى استصدار مرسوم حله فى مارس سنة ١٩٢٥ م ؟! اجتمع هذا المجلس ، رغم مرسوم حله ، ورغم القصر والانجليز . « بالكونتننتال » فى ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ م ، وهو الاجتماع الذى توج بحضور سعد زغلول له ، حيث ظهر من جديد ومن خلفه قوى عديدة منها الاحرار الدستوريون (٤٤) .

٢ — ان صدور هذا الكتاب ، والمعركة الفكرية الكبرى التى دارت من حوله — ورغم الاجراءات التى اتخذت ضد صاحبه — قد قبرت الى الابد حلم الملك فؤاد فى تولى منصب الخلافة على المسلمين . ولقد تداعت بعد ذلك الاحداث التى ذهبت بمؤتمر الخلافة فى مصر ، وجريدته ، وخفتت الاصوات التى علت بمصر لعدة سنوات منادية باحياء هذا المنصب فى مصر بواسطة الملك فؤاد ... وحتى عندما راودت هذه الفكرة أحلام الملك فاروق فيما بعد، فانها لم تتعد حدود النزوة ، ولم تصل أبدا الى بعض ما كانت عليه فى السنوات التى سبقت أو صاحبت صدور هذا الكتاب . ومن هنا نستطيع أن نقول ان هذا الكتاب ، فيما يتعلق بهذه القضية السياسية ، قد كان شديد الفعالية، كما كان صاحبه حاد البصيرة فى رؤية حركة التاريخ ، تلك الحركة التى جاءت مصداقا لما أراد ، رغم ما وجه اليه ووجه به من اتهامات وعقبات ..

٣ — ان الذين وقفوا الى جانب القصر ضد هذا الكتاب ، قد جعلتهم حركة التاريخ هذه يسلكون أحد موقفين : اما الاعتصام بالصمت وسحب أذيال النسيان على مواقفهم المناصرة لتنصيب الملك فؤاد خليفة على المسلمين ، واما القيام بتصحيح موقفهم من هذا الكتاب ، أو من صاحبه على الاقل ، وهو موقف شجاع يحمد لهم على أى حال .. ومن المؤسسات التى قامت بتصحيح موقفها من هذه القضية [الازهر] ، عندما أعاد الى الشيخ على عبد الرازق مؤهله العلمى ، ورد اليه شرف الانتساب الى زمرة العلماء فى أعقاب الحرب العالمية الثانية .

٤ — واذا كانت الحركة الفكرية والسياسية قد جنت الكثير من الثمار الإيجابية من وراء صدور هذا الكتاب ، وبسبب المعركة الفكرية الخصبة التى دارت حول أفكاره وقضاياه ، فان هذه المعركة وما صاحبها من اتهامات ضد المؤلف ، وبالذات ما اتخذ ضده من اجراءات ، قد أثمرت اثرا سلبيا مؤسفا ومحزنا اصاب الشيخ على عبد الرازق كمفكر مجتهد ، وكاتب دخل ميدان الحركة الفكرية بهذا الكتاب الصغير ذى الاثر الكبير والخطير .. ذلك أن نظرة فاحصة ومتأنية فى صفحات هذا الكتاب تنبىء بأن لدى صاحبه امكانيات غنية وأشياء كثيرة يستطيع أن يقدمها للمثقفين العرب والمفكرين المسلمين ، بصرف النظر عن مدى الاتفاق أو الاختلاف معه فى الآراء ، ونحن عندما نعقد المقارنة بين ما كان ينبىء عنه هذا الكتاب من امكانيات صاحبه وقدراته ، وبين سنوات حياته التى إمتدت بعد صدوره أكثر من أربعين عاما خالية من أى اثر فكرى يمكن أن يدانى هذا الكتاب ... ان هذه المقارنة تضع يدنا على ذلك الاثر السلبى الذى خلفته هذه المعركة على وجدان الشيخ على عبد الرازق ، وفعل المرارة التى احس بها الرجل مما اتخذ ضده من اجراءات .. بل انه باستثناء بعض المقالات فى جريدة [السياسة] وبعض المحاضرات التى القاها بعد ذلك فى كليتى الحقوق والآداب ومعهد الدراسات العربية ، لا نجد له أثرا فكريا يستحق هذه التسمية بعد صدور هذا الكتاب ... ومن ثم فان باستطاعتنا ان نقول : ان الارهاب الفكرى والسياسى والادارى الذى قاده القصر الملكى والملك فؤاد ضد الشيخ

---

[٤٤] حوليات مصر السياسية سنة ١٩٢٥ م .

[٤٥] لنا على الفكر الذى تضمنه كتاب [الاسلام واصول الحكم] عدة انتقادات تتعلق بما فى بعض احكامه من تناقض ، وبما كان لنظرة مؤلفه المحافظة فيما يتعلق بتقييمه لمدارس الفكر الاسلامى من اثر جعله لا يرى سوى الجوانب السلبية من هذا الفكر وتاريخ اصحابه فى بعض الاحيان .. الخ .. الخ ... ولكننا لم نورد هذه الملاحظات هنا لأن دراستنا هذه انما هى عن المعركة الفكرية والسياسية التى اثارها الكتاب اكثر مما هى دراسة عن مادة هذا الكتاب .

على عبد الرازق وكتابه هذا ، قد حرم الحركة الفكرية المصرية والعربية من امكانية كبيرة وغنية، كان من الممكن أن تقدم لفكرنا وثقافتنا العديدمن الاعمال الهامة لو لم يصبها بالانتكاس ويدفع بها الى زاوية اليأس والقنوط ذلك الارهاب وتلك المحاربات (٤٥) .

حياته في سطور

★ ولد الشيخ على عبد الرازق فى قرية « أبو جرج » ، احدى قرى محافظة المنيا فى سنة ١٨٨٨ .

★ أتم تعليمه بالازهر ، وبعد حصوله على العالمية سافر الى لندن سنة ١٩١٢ . ومكث بها حتى ١٩١٥ .

★ عمل بالقضاء الشرعى بعد عودته من لندن سنة ١٩١٥ وظل فيه حتى فصل منه بسبب كتابه (الاسلام وأصول الحكم) فى اغسطس سنة ١٩٢٥ م وكان يومئذ قاضيا بمحكمة المنصورة الشرعية الابتدائية .

★ بعد فصله من القضاء ، سافر الى الخارج، وفى لندن درس الاقتصاد فى جامعة اكسفورد .

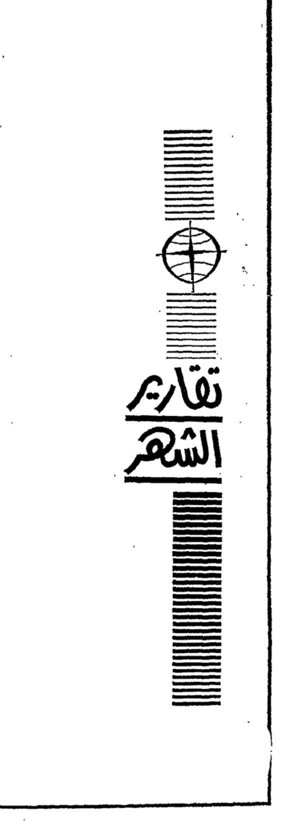
★ زار بلاد شمالى أفريقيا ، وكتب فى وصفها عدة مقالات فى مجلة [السياسة] ..

★ تولى وزارة الاوقاف مرتين ، الاولى فى وزارة النقراشى ، ثم عقب اغتياله ، فى وزارة ابراهيم عبد الهادى سنة ١٩٤٧ .

★ القى على طلبة كلية الحقوق بجامعة القاهرة عدة محاضرات جمعت فى كتاب عنوانه [الاجماع فى الشريعة الاسلامية] ، حاول فيها أن يفصل الفكرة التى تناولها فى [الاسلام وأصول الحكم] والتى تبع فيها بعض أئمة المعتزلة الذين ينكرون وجود الاجماع .. وهى فكرة هامة جدا فى تأكيد شرعية الاختلاف فى الراى، وايجاد أسس للفكر الليبرالى فى الحرية عند مفكرى المسلمين وفى مجتمعاتهم .. كما ألقى على طلبة كلية الآداب بجامعة القاهرة عدة محاضرات فى « علم البيان وتاريخه » جمعت فى كتاب عنوانه [أمالى على عبد الرازق] ... والقى كذلك عدة محاضرات على طلبة المعهد العالى للدراسات العربية عن الشيخ محمد عبده ، تحدث فيها عن الصلات الفكرية بين كتابه [الاسلام وأصول الحكم) وبين فكر الاستاذ الامام فى هذا الموضوع .

★ جمع بعضا من آثار اخيه الشيخ مصطفى عبد الرازق ، ونشرها بعنوان [من آثار الشيخ مصطفى عبد الرازق] بتقديم الدكتور طه حسين.

★ توفى فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٦٦ (*)



تقرير خاص

جـــــون برنـــــار
فيلسوف العـلم والسـلام

■ ■

• جمهورية مصر العربية •

خطـــوات مشــــتركــة
لازالة العدوان الاسرائيلي

• صـــوفيا •

٧٠ منظمــة عمالية
تـدين اسرائيـــل

• موســكو •

التحـرك السوفيتى الخارجي
على مستوى القيادة الثلاثية

• سنتياجو •

الضـــربة الاخـــيرة
للاحتــكارات الامريكية

تقرير خاص

جون برنال
فيلسوف العلم والسلام

رحل عن هذا العالم في ١٥ سبتمبر الماضي واحد من أبرز علماء العصر وأصلب المناضلين من أجل الاشتراكية والسلام والتقدم الانساني ، وهو عالم الطبيعة البريطاني **جون ديزموند برنال** ، الذي يمكن أن نصفه بأنه أعظم العلماء الماركسيين قاطبة خارج العالم الاشتراكي . وهو في الوقت نفسه واحد من أعظم من أسهموا بلا كلل زهاء نصف قرن في حركة السلام العالمية .

واذا كان اسم جون برنال يبدو - رغم هذا كله - غريبا على أسماع جماهيرنا المصرية والعربية عامة - حتى أن صحيفة واحدة من صحفنا لم تعن بنشر نبأ وفاته - فان اسم جون برنال سيظل في التاريخ علما من أعلام النضال الفكرى والسياسى والاجتماعى معروفا في أوساط العلماء الانسانيين وفي أوساط المناضلين من أجل السلام . ولهذا فان موته يمثل خسارة جسيمة حقيقية لكل القوى التقدمية في العالم بقدر ما هى خسارة للعلم والتقدم العلمى .

لقد كان برنال نموذجا للفيلسوف العالم الانسانى الذى لا ينفصل عنده العلم والفلسفة عن النضال السياسى والاجتماعى . فلم يكل لحظة عن مواصلة مشقة البحث العلمى الى جانب مشاق وتضحيات العمل السياسى والنضال ضد كل أشكال القهر والاستغلال السياسى والاقتصادى والاجتماعى . ولعل أفضل ما يوصف به برنال أنه كرس حياته لتحقيق المفهوم الماركسى للفلسفة وهو أن تكون مهمتها تغيير العالم وليس مجرد دراسة . ومن أجل تحقيق ذلك الهدف العظيم كانت حياة برنال كلها

ولعل أفضل ما يمكن أن نقدمه في ذكرى هذا المناضل العظيم هو محاولة تعريف جماهيرنا بنضاله العلمى والسياسى من أجل تطوير العلوم في عديد من مجالاتها الطبيعية والانسانية من ناحية ، ومن أجل القضاء على الحروب ومناصرة نضال التحرر الوطنى في العالم وضد أشكال الاستعمار والامبريالية والاستغلال الطبقى ، من ناحية أخرى .

ولد جون برنال في ١٠ مايو عام ١٩٠١ لاسرة من المزارعين في ايرلندا ، وتلقى علومه في جامعة كيمبردج بمنحة دراسية نظرا لتفوقه . وفي الجامعة أذهل الحقل الاكاديمى كله باتساع مجالات المعرفة التى كان يحرص على القراءة والدرس فيها ، فكان واسع المعرفة الى حد التخصص في مجالات مثل التاريخ والفنون الشرقية القديمة والاثار الى جانب نبوغه في العلوم الطبيعية . وقد تخصص برنال في حياته الاكاديمية في فرع من أدق فروع العلم الطبيعى هو علم « التكوين البلورى » . ومن خلاله أسهم بدور كبير في وضع أسس علم « بيولوجيا الجزئيات » وتركيب جسيمات المادة والمركبات الكهربية والبيولوجية . وبرغم أن برنال كان رائدا في هذه المجالات العديدة من فروع العلم الطبيعى الا أنه يعد من أعظم مؤرخى العلم في العصر الحديث . وقد مكنه المامه بالمنهج المادى الجدلى وسيطرته القديرة عليه من أن يقدم أفضل الدراسات المعروفة في العالم الغربى على الاطلاق لصلة العلم بالمجتمع . وقد كرس برنال جانبا كبيرا من اهتماماته لهذا الموضوع الحيوى في وقت كانت تسيطر فيه في العالم الرأسمالى نزعة تفصل كلية بين العلم واهدافه الاجتماعية ، وتنكر تأثر العلم بالاتجاهات والصراعات الاجتماعية .

وكان قد ظهر منذ أوائل الثلاثينات اتجاهه الواضح لتبنى الفلسفة الماركسية أساسا عقائديا لفكره وأبحاثه العلمية والاجتماعية ، وتبنى المنهج الديالكتيكى سلاحا لتحقيق التقدم العلمى والمنهج المادى التاريخى سلاحا للنضال السياسى . ومما يدل على مكانة برنال العلمية العالمية أنه شغل أعلى المناصب العلمية في وطنه بريطانيا رغم ماركسيته التى كانت كفيلة بأن تجر عليه عداء معظم الاوساط العلمية ورؤساء النفوذ فيها . فرغم أنه قد عرف بأنه « شيوعى صلب » منذ ذلك الوقت الا أن نضاله ضد النازية منذ الثلاثينات قد هيأ له أن يشغل - مع بداية الحرب العالمية الثانية منصب المستشار العلمى لرئاسة اركان حرب العمليات الحربية المشتركة . ووقتها أعلن وزير داخلية بريطانيا (سير جون اندرسون) ردا على منتقدى تعيين العالم الماركسى في هذا المنصب أن برنال

سيعين » حتى وان كان احمر فى لون نيران الجحيم » !

ولعب برنال دورا مرموقا فى الاعداد لخطة انزال الحلفاء فى نورماندى عام ١٩٤٤ حيث أعد بنفسه خرائط منطقة الهبوط على الشاطىء الفرنسى وقدم نصائح فيما يتعلق بتوقيت انزال قوات الحلفاء بدونها كان مقدرا للعملية أن تفشل .

ورغم اعتراضات المعادين للماركسية فى بريطانيا ـ مرة أخرى ـ انتخب زميلا فى الجمعية العلمية الملكية وهو فى السادسة والثلاثين وكان ذلك فى سن لا يحلم فيه احد بهذه الزمالة اطلاقا

وقد دخل برنال الحياة السياسية من أبواب النضال الواسعة منذ صعود هتلر الى السلطة وامضى آلاف الساعات فى خدمة اللجان المناهضة للنازية الى حد أنه كان يجمع بين عضوية حوالى ٤٠ لجنة منها . والغريب فى طاقة هذا الرجل على العمل أن هذا النضال السياسى الدؤوب لم يؤثر اطلاقا على نشاطه العلمى وأبحاثه التى واصل فيها اكتشافاته التى تراوحت بين فروع جزئيات الخلايا والتكوين الذرى حتى النظام الشمسى وأصل الحياة . وظل برنال يواصل نشاطه بكل حيوية كأستاذ جامعى فى كلية بيربيك بلندن من عام ١٩٣٧ حتى عام ١٩٦٨ . وفى تلك الاثناء حصل على عضوية معظم أكاديميات العلوم فى الدول الاشتراكية . وحصل على عضوية أكاديمية العلوم السوفيتية عام ١٩٥٨ . لقد زار الاتحاد السوفيتى مرات عديدة وكان قد حصل على جائزة لينين للسلام عام ١٩٥٣ .

ومرة أخرى ـ برغم اعتراضات اعداء الماركسية الجنونية ضده ـ منح الوسام الملكى للجمعية العلمية الملكية ، وانتخب رئيسا لاتحاد المشتغلين بالعلوم فى بريطانيا . وفى عام ١٩٦٨ تقاعد عن وظيفته كأستاذ للطبيعة فى كلية بيربيك وبعد عام واحد أصيب بسلسلة متتالية من الازمات الصحية كان آخرها شلل فى المخ حرمه فى النهاية من الكلام والحركة حتى وفاته .

ولبرنال مجموعة هامة من المؤلفات ـ فضلا عن أبحاثه العلمية الرائدة ـ نذكر أكثرها أهمية :

- **رسالة العلم الاجتماعية** (١٩٣٩) ، وقد ترجم هذا الكتاب الهام الى العربية عام ١٩٤٩ (ترجمه الدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن) .
- **حرية الضرورة** (١٩٤٩) .
- **الاساس الفيزيقى للحياة** (١٩٥١) .
- **ماركس والعلم** (١٩٥٢) .
- **العلم والصناعة فى القرن التاسع عشر** (١٩٥٣) .
- **العلم فى التاريخ** (فى ٤ مجلدات ١٩٥٤) .
- **عالم بلا حرب** (١٩٥٨) .
- **أصل الحياة** (١٩٦٧) .

وقد بذل برنال جهدا هائلا فى هذه الكتب لتأكيد الطبيعة الاجتماعية للعلم ، وكشف تعويق النظام الرأسمالى للتقدم العلمى ، وفضح الطبيعة العدوانية للعلم الذى يخلقه المجتمع الرأسمالى . وفى ذلك قال **« ان توجيه العلم فى البلاد الرأسمالية فى أيدى أولئك الذين يكرهون السلام ، أولئك الذين ينحصر هدفهم فى نهب الشعب وتعذيبه حتى يؤمنوا لانفسهم أرباحهم لسنوات أخرى »** .

ولقد كانت مثل هذه العبارات تثير غضب زملائه فى الاوساط الجامعية ممن وضعوا أنفسهم فى خدمة النظام الرأسمالى وفى خدمة سياسة الحرب ، ولكن مكانة برنال العلمية وتفوقه الفكرى كان كفيلا باحباط كل انتقاداتهم ضده .

ويعد كتابه « العلم فى التاريخ » ـ وهو عمل موسوعى ضخم ـ من أهم أعماله الفكرية حيث **يعرض فيه للعلاقة بين العلم والمجتمع خلال حركة التاريخ ابتداء من اختراع الانسان للفأس حتى انتاجه للقنبلة الهيدروجينية . وهو يعد أول مؤلف تاريخى شامل فى تحليل العلاقة المتبادلة بين العلم والمجتمع . ويكشف برنال فيه كيفية تأثر العلم بالانظمة الاجتماعية المختلفة من المجتمع المشاعى البدائى والمجتمع الاقطاعى ثم المجتمع الرأسمالى حتى المجتمع الاشتراكى ، وتأثير العلم بدوره فى المعتقدات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية** .

وقد كرس برنال المجلد الاخير من هذا الكتاب الهام لمشكلة العلوم الاجتماعية **ويقدم فيه تفسيرا ماركسيا واضحا لتاريخ هذه العلوم والتيارات السياسية والاجتماعية فى الازمنة الحديثة** ، ويبقى فى النهاية نظرة عالم ديالكتيكى الى مستقبل العلم ودوره فى التاريخ . ويقول « أن هناك الكثير ما لا يزال يحتاج الى تنفيذ . وأول وأشق خطوة أن نستخدم معرفتنا الراهنة لازالة كل الشرور المعروفة لنا . والخطوة الثانية أن نستخدم البحث لايجاد وسائل جديدة لازالة الشرور التى لا نستطيع الان أن نتحاشاها ، ولنعالج الامراض ولنحافظ على الحياة والسعادة للجميع . ولكن وراء هذا تكمن مهام أخرى أيضا ، مهام مواصلة البحث وتوسيع نطاقه لاكتشاف الشرور التى ينبغى أن نحاربها وندمرها . وبعبارة أكثر ايجابية اننا بحاجة لان نكتشف اشياء طبية جديدة ومواد جديدة وعمليات جديدة ، وأن نكتشف فوق كل شىء أسسا جديدة وفعالة لتنظيم العمل الاجتماعى . والذى يعنيه هذا فى الحقيقة **أن مهمة الفكر الانسانى لا تبدأ الا فى المعرفة . والمعرفة ينبغى أن تسفر عن تغيير بناء قبل أن تستطيع تجديد نفسها »** .

ويؤكد برنال أنه « بالعلم ـ وبالعلم وحده ـ يمكن ان يتحقق تحويل المجتمع الى مجتمع متحرر من الإستغلال » .

ولقد كتب برنال ـ فى مقدمة خاصة للترجمة

العربية لكتابه الهام الاخـر «رسالة العلـم الاجتماعية» ـ «أن علاقات العلم بالمجتمع قد اجتازت مرحلة حرجة، وأصبح الحكم على حالة أى جزء من العالم وعلى درجة تقدمه رهن بمبلغ استعانته بالعلم .. وبذلك أصبح نشر المعـرفة العلمية الفعالة وامتدادها الى المناطق التى كانت تفتقر اليها واجبا عاجلا بالغ الاهمية والخطر، ولهذا السبب خاصة أرحب بترجمة كتابى الى اللغة العربيه .. ويلزم حتما أن يتم ادخال العلم بواسطة سكان البلاد انفسهم . كما يلزم حتما أن يكون نمو العلم وتقدمه فى كل دولة مرتبطا ارتباطا وثيقا بحاجاتها الاجتماعية والاقتصادية، أى أن العلم لا يمكن تصديره : بل يجب أن ينمو نموا طبيعيا فى التربة التى سيغنيها .. فلنأمل اذن أن الامة العربية عندما تقوم مره أخرى بأداء نصيبها كاملا فى التقدم العلمى . أن يكون ذلك بنفس الروح التى كانت تميز العلم العربى ابـان ازدهاره» . (برنال : ٢ مارس ١٩٤٨) .

لقد كان جون برنال حقا نموذجا عظيما للنضال الانسانى من أجل التقدم والسلام، أعطى كل طاقاته للعمل من أجل أن يكون العلم فى خدمة الانسانية وفى خدمة السلام ومن أجل خلق «عالم بلا حرب» .

سمير كرم

● ● ●

● جمهورية مصر العربية ●

خطوات مشتركة لازالة العـدوان الاسرائيـلى

فى الشهور الاخيرة ومع اعلان القيادة المصرية العربية أن عام ١٩٧١ هو العام الحاسم ان سلما أو حربا لانهاء الوضع الخطر فى الشرق الاوسط، هبت رياح غريبـة وخبيثة مـن قبـل الدوائر الامبرياليـة والصهيونية والرجعـية مسـتهدفة أحداث انقسام فى الجبهة المعادية للامبرياليـة والرجعية . حيث أثارت هـذه الدوائر حمـلة للتشكيك فى العلاقات السوفيتية العربية، وحيث نظمت وشجعت هجوما على الشيوعية والاتحاد السوفيتى . كما روجت هذه الدوائر لوجـود ما يسمى بالحل المصرى ـ الامريكى وان هناك اتفاقا معدا للتوقيع، وان الثورة العربية بعـد عبد الناصر قد غيرت من مسارها . واصطبغ الافق «بسحابة صيف» محملة بتيارات تسىء الى العلاقات التى توطدت خلال الكفاح المشترك ضد الامبريالية والصهيونية بين الثورة العربية وبين المعسـكر الاشتراكى وعلى رأسه الاتحاد السوفيتى .

ووسط هذا الجو الملبد قررت القيادتان المصرية والسوفيتية **ضرورة اللقاء** لمواجهة الوضع الخطير فى الشرق الاوسط .

وتم اللقاء فى موسكو، وعلى مأدبة الغداء التى أقامها القـادة السوفييت قـال الرئيس **السادات** : «ان طريق المبادىء التى تجمعنا معا والتى نعمل من اجلها معا طريق شاق وطويل، تحف به المصاعب والعقبات، وكلنا نؤمن معـا أن الامال الكبيرة لا تتحقق الا بالتضحيات الكبيرة . وقد اعطت شعوبكم العظيمة المثل عندما قدمت الملايين من أبنائها عطاء للمبادىء، وأعطيتم بغير قيد أو شرط تأييدكم الكامل ومساندتكم الكاملة لحركات التحرر الوطنى والتقدم الاجتماعى فى العالم كله» . وأكد الرئيس **السادات** فى كلمته ان الشعب المصرى، «سيظـل يذكر بالوفاء والتقدير الدور الكبير للاتحـاد السوفيتى فى مساندة حركة التحرر الوطنى والتقدم الاجتماعى على أرض مصر، القاعدة والمنطلق لحركة الثورة العربية التحررية كلها .. وان شعبنا الذى قطع الطريق شاقا وطويلا مصمم على أن يكمل مسيرته وان يتحمل تضحيات الطريق ومسئولياته» . واكد الرئيس السادات أن العدو الصهيونى لازال فى اصراره على احتلال الارض منذ أربع سنوات، وأن الولايات المتحدة الامريكية تساند هذا العدوان وتؤيده بكل الوسائل .

واكد **بودجورنى** : «انه مـادام العـدوان الاسرائيلى ضد الدول العربية مستمرا، ومادامت آثاره لم يتم تصفيتها بعد فاننا سنحشد ـ كما فعلنا من قبل ـ جهودا كبيرة فى اتجاه تحقيق تسوية سياسية للصراع، مع اتخاذ اجراءات فعالة لمساعدة مصر والدول العربية الصديقة الاخرى فى زيادة دعم دفاعها» . وقال ان زيارة الرئيس السادات : «خطوة هامة جديدة لزيادة دعم العلاقات بين بلادنا، وأن العلاقات تزداد عمقا وثراء فى محتواها والدليل القاطع على ذلك هو معاهدة الصداقة والتعاون بين البلدين» .

وكان قد سبق الرئيس انور السـادات وفدان، احدهما عسكرى برئاسة الفريق **محمد أحمد صادق** والاخر يمثل اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى . وقد قام الوفدان بمحادثات تمهيدية كانت على جانب كبير من الاهمية . وقد اجتمع وفد الاتحاد الاشتراكى مع الطلبة المصريين حيث

أدار معهم حوارا مفتوحا صريحا حول العديد من القضايا .

وحول مائدة المباحثات السوفيتية ـ المصرية كان الجو مفعما بالصراحة الشاملة . وتحدث كل طرف من واقع مسئوليته ازاء شعبه وازاء العلاقات بين الشعبين ومن أرضية التحالف المتين بين القوى الاشتراكية بزعامة الاتحاد السوفيتي وحركة التحرر الوطني . وفي بداية المحادثات قال الرئيس السادات : « **ان العلاقة بين البلدين ليست مرحلية وليست مرهونة بظرف طارىء هو مواجهة عدوان اسرائيلي تسنده الولايات المتحدة الامريكية** » . وجاء البيان المشترك الذي صدر عن المحادثات « **ليؤكد الجانبان أن المباحثات التي تمت في موسكو خلال زيارة الرئيس انور السادات انما هي مرحلة جديدة وهامة من أجل توسيع وتعميق علاقات الصداقة بين الاتحاد السوفيتي وجمهورية مصر العربية ، وبين الحزب الشيوعي السوفيتي والاتحاد الاشتراكي العربي ـ وهي تلك العلاقات التي تتفق والمصالح الاساسية لشعبي البلدين والتي تنطلق من وحدة الهدف في النضال ضد الامبريالية من اجل السلام والتقدم الاجتماعي والتي تعتمد على الاسس المتفق عليها والقوية والتي تتسم بالثقة والاحترام** ! » .

وناقش الجانبان بصراحة ، موقع ووزن قضية الشرق الاوسط فيما يتعلق بجلاء المحتلين الاسرائيليين وضمان حقوق شعب فلسطين . والعلاقة بين الاستراتيجية السوفيتية تجاه مشاكل العالم والاستراتيجية المصرية لتحرير الارض ، ومدى الدعم السياسي والعسكري السوفيتي لحركة التحرير المصرية الوطنية في مواجهة الدعم الامريكي لاسرائيل والصهيونية ، والالتقاء بين التزامات الاتحاد السوفيتي ومصر نحو السلام العالمي ، وبين الارادة المشروعة للشعب المصري والشعوب العربية في تحرير أراضيها المحتلة ، والاساليب العملية لتنفيذ معاهدة الصداقة والتعاون بحيث تؤتي ثمارها على اكمل وجه في جميع المجالات . وانتهت المحادثات الى التنسيق الكامل بين الاستراتيجية السوفيتية والاستراتيجية المصرية . واكد الرئيس السادات في البيان المشترك على الصداقة السوفيتية المصرية باعتبارها « **من أهم العوامل لتعزيز موقف جمهورية مصر العربية في نضالها ضد الاستعمار والصهيونية من أجل استمرار مصر في طريقها نحو التقدم الاجتماعي** » . وقد أكد الجانبان اتفاقهما على تقييم الوضع المتوتر في الشرق الاوسط واعتبرا أن « **السبب الرئيسي لاستمرار خطورته هو سياسة اسرائيل التوسعية والتي تدعمها الولايات المتحدة الامريكية بتقديم جميع أنواع المساعدات اليها** » .

واكد البيان المشترك ان « الاتحاد السوفيتي سيستمر في تقديم كل المساعدات والتأييد لمصر والدول العربية الاخرى في نضالها العادل ضد العدوان الاسرائيلي الاستعماري . **وتبادل الجانبان الاراء حول اتخاذ خطوات مشتركة في المستقبل من أجل ازالة العدوان الاسرائيلي وتأمين السلام العالمي وتحقيق الامن في الشرق الاوسط .. وقد تم الاتفاق بصفة خاصة على الاجراءات الرامية الى استمرار تدعيم قدرة مصر العسكرية** ! » .

وانتهت المحادثات الى تأكيد أن مصر بقيادة **السادات** مستمرة في مسيرتها الثورية بكل آفاقها التقدمية اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا . وتحدث في البيان المشترك بتقدير : « **عن جهود شعب مصر وحكومتها الرامية الى بناء حياة جديدة على الاسس الاشتراكية في المجتمع ، والى أن مصر ستسعى في تحقيق هذا الهدف والاستفادة من التجارب الغنية التي مربها الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية الاخرى . وانها من أجل ذلك ستعتمد على مساعدتها وتأييدها** » . ومن ناحية أخرى عبر الجانب السوفيتي عن : « **تقديره الكبير لتصميم قادة وشعب مصر على مواصلة النضال المعادي للامبريالية وتدعيم الاستقلال الوطني والتقدم الاجتماعي الذي اختاره الرئيس الراحل جمال عبد الناصر والذي يمثله برنامج العمل الوطني الذي أقره المؤتمر القومي العام للاتحاد الاشتراكي العربي حول المهام الاساسية التي تواجهها مصر حكومة وشعبا في هذه المرحلة من مراحل الثورة الوطنية الديمقراطية** » .

وفي هذا اللقاء أكد الجانبان ان توحيد جهود الدول العربية وشعوبها وتعبئة امكانياتها ضد القوى العدوانية الامبريالية وعملائها بالغ الاهمية في الوقت الحاضر من أجل تقوية نضالها المشترك ضد الامبريالية والصهيونية ومن أجل التحرر الوطني والاجتماعي . واكدا على أهمية موقف اتحاد الجمهوريات العربية من حركة التحرر الوطني العربية بآفاقها التقدمية اجتماعيا وسياسيا وبقصد الوحدة العربية . وقد أشاد الرئيس السادات بالمساعدات القيمة التي يقدمها الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية الاخرى للشعوب العربية .

وأدان الجانبان الحملات المسعورة المعادية

الشيوعية وللاتحاد السوفيتي باعتبار : ١ ــ أن هذه الحملات لا تستهدف سوى بث الشـــقاق في صفوف المناضلين العرب الثوريين. ٢ ــ لانها ترمى الى نسف التضامن والتعاون بين الشعوب العربية والدول الاشتراكية، أصدقاؤها الحقيقيون. ٣ ــ لان هذه الحملات تضر بآمال الشـــعوب التحررية ومصالحها الوطنية ولا تخدم ســـوى مصالح القوى الامبريالية الدولية .

واتفقت وجهة نظر الجانبين على أهم القضايا الدولية وفي مقدمتها اهمية نضال القوى المحبة للسلام من أجل تعزيز الامن الدولي ونزع السلاح وكذلك عن أهمية عقد المؤتمر الاوروبي العـــام حول مشاكل الامن والتعاون الاوروبي وتدعيم دور الامم المتحدة كأداة لتحقيق السلام العالمي .

واعتبر الجانبـــان أن الاسراع بالتصـــديق على المعاهدات المعقـــودة بـــين الاتحـــاد السوفيتي وجمهورية المـــانيا الاتحـــادية وبين جمـــهورية بولندا الشعبية وجمهورية المانيا الاتحادية يدعم الاوضاع الاوروبية بما يحقق مصالح السلام في العالم . وطالب الجانبان بالانسحاب الفـــوري وغير المشروط لقوات الولايات المتحدة المسلحة وحلفائها من الهند الصـــينية ، وكما أيد تأييدا شاملا الاقتراحات المقدمة من حكومة فيتنام الثورية المؤقتة ، واستنكر الجانبان كذلك استفزازات الامبرياليين المستمرة ضد جمهورية كوريا الشعبية وكما اتفق قادة جمهورية مصر العربية وقـــادة الاتحاد السوفيتي للعمل من أجل تصفية الاستعمار القديم والحديث تصفية تامة ونهائية ، واستنكروا بشدة سياســـة التمييز العنصري التي ينتهجها دعاة التفرقـــة العنصرية في جـــنوب افريقيـــا وروديسيا .

وعندما عاد الرئيس **السادات** مـــن موسكو أعلن أمام اللجنة المركزية ، أنه يعود من رحلته وهو مطمئن على أن علاقاتنا الآن مع الاتحـــاد السوفيتي أقوى ما تكون ، وان الاتحاد السوفيتي على فهم كامل بحقيقة الوضع الحالي ومقتضياته، وعلى تقدير كامل لكفاحنا في المرحلة الحـــالية والمقبلة وعلى فهم واضح وسليم لمعركتنا . وأكد الرئيس أن صداقتنا مع الاتحاد السوفيتي ليست صداقة مرحلية ، ولكنها صداقة دائمة وثابتة ، وان هذه الصداقة تمثل عاملا حاسما في المعركة وفي عملية بناء المجتمع الجديد .

وأمام اللجنة المركزية كشف الرئيس حقيقة موقف الولايات المتحدة الامريكية ومحاولتها ايهام العالم بأن هناك تفاؤلا ، أو أن هناك اتفاقا حول قناة السويس ، وقال ان الولايات المتحـــدة الامريكية واسرائيل يحاولان صرف العـــالم عن قضية العدوان والاحتلال الى قضية فتح قنـــاة السويس ، وأكد أن موقف مصر ثابت ، وأن أي خطوة مرحلية يجب أن ترتبط بالحل الشامل ، ويجب أن تعبر قواتنا الضفة الشرقية للقناة لتؤدي واجبها الوطني في تحـــرير الارض اذا لم يتم الوصول الى الحل الشامل » .

وقد اتخذت اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي قرارا حول زيارة الرئيس **السادات** للاتحاد السوفيتي أعلنت فيه : **أولا** : تعبر اللجنة المركزية عن تقديرها للدور الكبير الذي قام به الرئيس في دعم وتنمية الصداقة والتعاون والتفاهم المشترك بين جمهورية مصر العربية واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ، وتعبر في الوقت ذاته عن تقديرها العميق للقادة السوفييت على التفهم الكامل لحقيقة الوضع في المنطقـــة ولطبيعـــة التحديات التي يواجهها الشعب العربي ولابعاد هذه التحديات واحتياجات ومقتضيات مواجهتها في الحاضر والمستقبل . **ثانيا** : تعبر اللجنـــة المركزية عن ترحيبها وتقديرها للنتائج الهـــامة التي تم التوصل اليها والتي تمثل اضافة جديدة الى المواقف المبدئية الشريفة التي يقفها الاتحاد السوفيتي من قضايا التحرر الوطني والتحول الاجتماعي ومن أجل السلام القائم على العدل . **ثالثا** : وتؤكد اللجنة المركزية من جديد أن الصداقة التي تربط شعب جمهورية مصر العربية وشعوب الاتحاد السوفييتي ليست صداقة مرحلية ولكنها صداقة ثابتة دائمة يقويها ويدعمها الايمان بالاهداف النبيلة المشتركة والعمل المشترك من أجلهـــا . **رابعا** : تعبر اللجنة المركزية عن تقديرها الاقوى وشكرها العميق للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي وللقادة السوفييت وللجنة رئاســـة مجلس السوفييت الاعلى وللحكومة السوفييتية ولشعوب الاتحاد السوفييتي العظيم على التأييد والمساندة الكبرى المتعددة الجوانب التي يلقاها نضال الشعب المصري والشعوب العربية مـــن أجل تحرير الارض العربية من العدوان ومن أجل بنـــاء المجتمع العربي القوي القادر على مواجهة تحديات العصر .

■ جمهورية مصر العربية

٢٥ بحثا حول دور عبد الناصر

عقدت فى القاهرة فى ٢٩ – ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٧١ ندوة عالمية لاحياء ذكرى الزعيم الراحل **جمال عبد الناصر** .

وقد حضر الندوة ما يزيد على الخمسين وفدا من ممثلى المنظمات الدولية والاقليمية والعربية المناهضة للامبريالية وممثلى حركات السلام ، ولجان التضامن الاسيوى الافريقى والشخصيات السياسية والاكاديمية البارزة فى عديد من البلدان .

وقد وجه **الرئيس أنور السادات** رسالة الى الندوة جاء فيها « وما من شك فى أن جمال عبد الناصر قد أسهم أكبر اسهام فى تغيير وجه التاريخ وتحويل مسيرته لصالح شعبه ، شعبه فى مصر ولصالح شعوب القارتين الافريقية والاسيوية وشعوب العالم أجمع . وهو عندما رحل عنا فى مثل هذه الأيام من العام الماضى ، كان قد اختط لنا الطريق الذى علينا أن نسير فيه وأضاء لنا معالمه ، ووضع لنا نبراسا من مبادئه وايمانه وصلابته فى الدفاع عن الحرية والاستمساك بالحق واعلاء راية العدالة » .

وقال **الرئيس السادات** فى رسالته أيضا « لقد كانت حياة عبد الناصر كلها معركة طويلة متصلة الحلقات قاتل فيها ببسالة وفى كل لحظة قتالا صلبا فى سبيل المبادىء النبيلة التى آمن بها وأرسى أسسها فأصبحت اليوم تراثا ، ومنهاج عمل ، وطريق نضال ، لشعبنا وللشعوب المقاتلة فى سبيل حقوقها » .

كما وجه **نيقولاى بودجورنى** رئيس هيئة رئاسة مجلس السوفييت الاعلى للاتحاد السوفيتى رسالة الى الندوة جاء فيها « ان اجتماعكم الذى تحركه رغبة نبيلة فى تكريم ذكرى جمال عبد الناصر الابن العظيم للشعب المصرى ، والزعيم البارز لحركة التحرر الوطنى تثير ارتياحا المخلص ، لان حياة واعمال هذا الانسان قد تركت انطباعا عميقا فى قلوب كل أولئك الذين يعتزون بقضية السلام والتقدم ، فطيلة ما يقرب من عقدين قاد الرئيس عبد الناصر نضال الشعب العامل فى مصر ضد الامبريالية والرجعية ومن أجل الاستقلال الوطنى واجراء الاصلاحات التقدمية الاجتماعية والاقتصادية .

وقد تطورت مصر من بلد متخلف تابع الى دولة زراعية وصناعية مستقلة تسير فى طريق التقدم .. ان أعمال عبد الناصر كانت تتسم بالثقة فى الروابط بين كفاح التحرر الوطنى والنضال من أجل بناء مجتمع خال من استغلال الانسان للانسان » .

أما **انديرا غاندى** فقد قالت فى رسالتها « سيسجل التاريخ للرئيس جمال عبد الناصر مدى الجهود الفذة التى قدمها بعثا وكفاحا من أجل تحرير العالم العربى وكل الامم الناشئة . وحينما يكافح شعب من أجل الحرية فانه يذكر جمال عبد الناصر كقائد بطل عرف بالشجاعة النادرة والحكمة الراجحة .

ولقد احتل خارج مصر مكانا مرموقا كسياسى عمل من أجل الصداقة والسلام فى العالم . وكان مخططا لا يبارى لعدم الانحياز وصديقا عظيما للهند » .

وقالت **السيدة باندرانيكة** رئيسة وزراء سيلان « لقد كان ناصر قائدا وبطلا لا يلين من أبطال عدم الانحياز وكفاح الشعوب الفتية ضد الاستعمار والعنصرية وأشكال الاضطهاد الاخرى . لقد كان أحد أبطال التاريخ . ان اسمه رمزا لرغبة الانسان العارمة فى كل الاوقات وفى جميع المواقف تطلعا الى الحرية والمساواة والعدل . وقد لعب الرئيس الراحل دورا عظيما فى جمع شمل وحدة الشعوب الاسيوية والافريقية والعربية وسنظل نذكره ما تعاقبت الاجيال »

كذلك تلقت الندوة سيلا من الرسائل من العديد من رؤساء الدول والحكومات والشخصيات البارزة فى العالم من بينها **الاسقف مكاريوس** و **كينيث كاوندا** و **نوردوم سيهانوك** ... الخ

وقد استمعت الندوة الى ٢٥ بحثا ودراسة تركزت حول موضوعات أساسية ثلاث هى « عبد الناصر والنضال ضد الامبريالية » و « عبد الناصر والتعاون الاقتصادى والسلام » و « عبد الناصر والتحولات التقدمية فى مصر وفى العالم العربى » .

من بينها تقرير « عبد الناصر ونضاله ضد الاستعمار **للدكتور أحمد سويلم العمرى** ، « بعض الملاحظات عن ناصر وعدم الانحياز » للدكتور **فاسوس ليساريدس (قبرص)** ، «عبد الناصر وطرق التطور غير **الرأسمالى** ! **لحسين فهمى** ، «دور عبدالناصر القومى ونضاله

في سبيل الوحدة العربية» **للدكتور سيد نوفل**؛ « جمال عبد الناصر والفكر الفلسفي العربي المعاصر »، **للبروفسير كاريل بتراشيل (تشيكوسلوفاكيا)** « جمال عبد الناصر والسلام العالمي »، **أرماندو سالاتي (المجلس العالمي للسلام)** ، «دور عبد الناصر والتضامن الاسيوى الافريقى » **للبروفسير مؤنس رازا (الهند)** .

وبعد مناقشات مستفيضة أسهم فيها جميع الحاضرين أصدرت الندوة بيانا جاء فيه :

« لقد أقرت الندوة أن نجاح الثورة المصرية بكل ما قوضته من أساليب الحكم الفاسد ، وبكل ما حققته من انتصار على الاستعمار التقليدي ، وبكل ما حطمته من أشكال النفوذ السياسي والاقتصادي للاستعمار في مصر وبتحرير ارادتها من الضغوط الخارجية ، كان اشارة انطلاق لكثير من حركات التحرر الثورية في العالم الثالث كله. ان القائد جمال عبدالناصر وضع الخطوط العميقة الكبيرة لتغيير ملامح المجتمع المصرى ، ببناء السد العالى والتصنيع، ووضع أسس العدالة الاجتماعية ، وان التطور الحتمى الناتج عن التغيير العميق الذى احدثه عبد الناصر في الشعب المصرى وفي روحه لا بد أن يحقق الصورة المنشودة لامانيه وأن يؤدي الى التغييرات التقدمية العميقة للمجتمع على أساس الاشتراكية والعدالة .

وقد ترك جمال عبد الناصر ميراثا يعتز به الشعب المصرى كما تقدره شعوب العالم الثالث ، والقوى الاشتراكية والتقدمية أكبر تقدير ، ويتمثل في الاسس الصلبة للاتجاه الذى يسير نحو تحقيق الاشتراكية والقضاء على الاستغلال في نفس الوقت الذي يتقدم في طريق مناهضة الامبريالية ودعم حركة التحرر الوطنى العالمي ، كما يتمثل في نجاح جمال عبد الناصر في التنسيق بين المصالح القومية لشعبه في مصر وللشعب العربى عامة وبين مصلحة المجتمع الدولى كله » .

ويمضي البيان قائلا « وكان للدور العظيم الذى نهض به جمال عبد الناصر في تدعيم التحالف بين قوى حركة التحرر الوطنى بصفة عامة والثورة المصرية والمد التحررى العربى بصفة خاصة من ناحية ، وبين البلاد الاشتراكية وفي مقدمتها الاتحاد السوفييتى اثر عميق في زيادة فعالية النضال ضد الامبريالية والعنصرية.

الجواهرى فى القاهرة

بالرغم من الاعوام العشرين التى لم تطأ فيها قدما الجواهرى ـ أكبر الشعراء العرب المعاصرين ـ ارض مصر ، الا ان صوته المجلجل ، الهاتف أبدا للثورة ، لم يغب قط من مخيلة واسماع المناضلين في بلادنا ، وانما ظل دائما سلاحا في أيديهم وعيونهم ووجدانهم يدفعون به غائلة اليأس ويقلبون به وحشة الطريق .

ومحمد مهدى الجواهرى الذى بدأ حياته الباكرة في بلاط فيصل الاول ملك العراق ، لم يلبث أن تطور تطورا خطيرا قلب حياته راسا على عقب منذ أواخر العشرينات من هذا القرن .. فاستقال من عمله بالتشريفات الملكية وهجر العمل بالتدريس بعد شهور قليلة ورفض « البعثة » التى اقترحها العرش ليترك العراق الى فرنسا ، وآثر العمل بالصحافة والسياسة ، وانضم نهائيا الى صفوف المعارضة الوطنية الديموقراطية . وكانت جريدته « الرأى العام » طيلة السنوات العشر المتقطعة التى عاشتها في ظل الارهاب والمصادرة والديون منبرا حرا للفكر الثورى بكل اتجاهاته الوطنية والاجتماعية .

واصبح الجواهرى ، داخل البرلمان وخارجه ، بين حشود الجماهير وداخل السجون ، على صفحات الجرائد وفي المنافى البعيدة مناضلا وطنيا وتقدميا بارزا ، جنبا الى جنب مع صعود نجمه الفنى في سماء الشعر العربى حتى أضحى واحدا من أعمدة هذا التراث العظيم على مر التاريخ .

ومنذ ثورة ١٤ تموز المجيدة في العراق ، وقف الجواهرى بصلابة الثوار الى جانب الشعب ، حتى اذا بدأت موازين السلطة تميل هذه الناحية أو تلك لم يغير الشاعر والمناضل الكبير موقعه من قضايا الحرية والاشتراكية . ولكن سير الحوادث اضطره في نهاية الامر الى الرحيل عن « بغداد » واتخاذ « براج » مستقرا دائما له . على ان وجوده في تشيكوسلوفاكيا لم ينف حضوره في كل أرجاء الوطن العربى ، اذ كانت قصائده الوفية للوطن والشعب والمعادية لكل صور الطغيان تلهب حماس الثوار من الخليج الى المحيط .

وليس من شك في ان الجواهرى عبر حياته العاصفة هذه قد اتخذ من المواقف ما قد لا يتفق معه فيها البعض ، وما قد لا يتسق مع خط سيره النضالى .. ولكن لحظات الضعف عند عظماء الضمير البشرى ، ليست اكثر من « هوامش » تفسر حياتهم الفنية بالتناقضات وحياة زمانهم البالغة التعقيد . ويبقى بعد كل شيء هذا التراث المركب من القوة والضعف شاهدا لا يرقى اليه الشك على العصر .

ولقد كان الجواهرى ولا يزال شاهدا امينا على تاريخنا العربى الحديث لكل ما فيه من تمزقات وآلام وما فيه من طموحات وأحلام . وهو اذا كان قد بلغ بشعره اعلى الذرى الكلاسيكية ، فان ذلك لا يرجع الى عبقريته الفنية وحدها ، وانما يرجع الى ارتباطه الوثيق بضمير أمته وعصره ، ويرجع الى انشغاله المتصل بنضال الجماهير العربية من اجل الحرية والتقدم والسلام .

وهو حين يختار « القاهرة » هذه الايام ، مقرا له فان هذا الاختيار يصادف في نفوس قرائه وشعبه شعورا عميقا بالارتياح والفرح .

اهلا بالجواهرى في وطنه ، اهلا به مناضلا ثوريا وشاعرا عظيما .

« الطليعة »

● المقاومة الفلسطينية ●

المهمة المطروحة أمام المقاومة الآن

مساء الأربعاء السادس من أكتوبر الماضى ، تعرض **ياسر عرفات** لمحاولة لاغتياله . وقد وقعت المحاولة فى أحدى القواعد العسكرية لفتح القريبة من الحدود الاردنية - حيث تبين ان قائد القاعدة ، ويدعى **حسين هيبة** ، قد استولى على سيارتى تموين كانتا متجهتين من الكويت الى مركز فتح بدمشق (•) مما دعا بعض قادة فتح الى التوجه للقاعدة ومعهم **ياسر عرفات** ، قائد منظمة فتح ، ورئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية . ويبدو أن هيبة كان قد أعد لكل شيء عدته ، فنصب سلفا كمينين لمجموعة سيارات القادة الوافدين من دمشق ، بعد أن وضع فى روع رجال الكمينين أن سيارات معادية آتية الى القاعدة وأن عليهم الاجهاز على من فيها . وما أن ظهرت السيارات حتى فتحت الكمائن عليها النار ، وتركزت النيران بصفة خاصة على السيارة البيضاء الخاصة بياسر عرفات ، والتى كانت تتقدم مجموعة السيارات ، مما أدى الى انقلابها فى الوادى ووفاة قائدها ، أما ياسر عرفات فقد كان يستقل السيارة الاخيرة . وعندما تبين لرجال الكمين أن السيارات لم تكن لقوى معادية ، اشتبكوا مع بعضهم البعض وسقط معظمهم جرحى ، ومن ضمنهم حسين هيبة نفسه .

وتشير القرائن الى انه ربما كان للسلطات الاردنية يد فى الحادث . وكانت تلك السلطات قد أشاعت — عن طريق اذاعتها وصحفها — أن منظمة فتح قد اعتقلت **صلاح خلف (أبو اياد)** ، الرجل الثانى فى فتح ورأس الجناح التقدمى فيها . وكان الهدف من أشاعة هذا النبأ زرع البلبلة فى صفوف فتح والمقاومة والجماهير الفلسطينية عموما ، مع أعطاء انطباع للجماهير بأن محاولة الاغتيال — التى وقعت بعد يومين — قد تمت من قبل جناح أبو أياد . إلا أن قيادة فتح ، وقد تنبهت لخطر هذه الاشاعة ، نفتها منذ اللحظة الاولى ، حيث أصدر مكتب اعلام فتح فى بيروت بيانا ضمنه هذا النفى .

وفى الثامن من أكتوبر أصدرت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية قرارا بطرد **العقيد عثمان حداد** الرئيس السابق لاركان جيش التحرير الفلسطينى ، كما أعفت **العقيد عبد الرزاق اليحيى** من وظيفته كقائد لجيش



التحرير مع تعيينه فى اللجنة العسكرية لمنظمة التحرير . وعينت **العقيد مصباح البديرى** قائدا للجيش ورئيسا للاركان فى نفس الوقت .

ومن المعروف أن قرار طرد **عثمان حداد** هو الثالث فى مدى عام واحد ، وان كان القرارين السابقين لم ينفذا ، نظرا لتمتع حداد بحماية بعض الاوساط الرسمية العربية وقد عجزت هذه الاوساط عن حمايته فى المرة الثالثة ، بعد أن كان قد أدين بقتل أحد مساعدى اليحيى اثناء تعذيبه ، وقتل أحد الموظفين المدنيين فى **قوات التحرير الشعبية** فى لبنان ، ويدعى **عبد الرحمن البرادعى** . وقد بينت منشورات منظمات المقاومة ان قتل البرادعى « كان يستهدف اليسار الفلسطينى » . وثارت قطاعات من الجماهير الفلسطينية وأوفدت من يمثلها الى لبنان ، حيث حولهم **ياسر عرفات** الى **سامى عطارى** ، عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير ، والقائد العام للصاعقة ، ومسئول مكتب العمل الفدائى فى القيادة القومية لحزب البعث . وذهب **عطارى** لمقابلة **الفريق حافظ أسد** ، حيث الح عليه بضرورة ابعاد حداد ، ونجح عطارى فى مهمته ، وجرى ابعاد حداد هذه المرة ، وجرى تعيينه ، فى الجيش السورى مع ترقيته .

وكان **حداد** قد صرح قبل ذلك أنه **سيطهر الجيش من الشيوعيين** ! وشكل لجنة ضباط ، أصدرت العديد من قرارات التسريح التعسفية بحق بعض الضباط ، دون أن تعطيهم اللجنة حق الدفاع عن أنفسهم . ووصل الامر بحداد اصدار قرار باعفاء رئيسه ، قائد جيش التحرير **العميد عبد الرزاق اليحيى** ، كما أنه أصدر تعليماته وأوامره هذه بينما هو فى حكم المطرود من جيش التحرير منذ أكثر من سنة .

وكان أحد أعوانه ، وهو **النقيب احمد محمد حنفى** ، قد طلب الى السلطات اللبنانية ، فى

كتاب خاص « المساعدة فى القاء القبض على بعض الشيوعيين من أفراد وضباط الجيش الفلسطيني » ويعترف حنفى لمجلة الصياد فى أواخر سبتمبر (أيلول) الماضى ، اننى « طالبت السلطات اللبنانية بالقاء القبض عليهم وأبلغتها استعدادى للكشف عن مخابئهم .. » !!

وبالرغم من تأكيد التقرير الطبى على أن البرادعى قد مات متأثرا بضربة قاتلة ٪ الا أن العقيد حداد أصدر بيانا زعم فيه أن البرادعى مات لاصابته بنوبة قلبية ، وحذر حداد فى ختام بيانه « كل من تسول له نفسه استغلال هذا الحادث » !

ويتساءل المراقبون عما اذا كان تسريح ۳۹ ضابطا ، يمكن أن ينهى أزمة جيش التحرير ، التى استفحلت ، فتعود لهذا الجيش وحدته ٪ وهيبته ، وانضباطه ؟

ورغم فشل مفاوضات المصالحة فى جدة ، بين المقاومة والسلطة الاردنية ، وعودة وفدى الطرفين من **جدة** . الا أن بعض الصحف العربية كانت تنشر أخبارا عن استمرار جهودالمصالحة . وواضح أن هناك دوائر عربية تحرص على أن تبدو المصالحة ، كمالوكانت « عرضامستمرا » .

هذا فى حين تـرى اوساط المقاومة أن المهمة المطروحة أمامها الان ، هى ايجاد مخرج من المأزق الذى رقعت فيه . وتضع هذه الاوساط فى اعتبارها مختلف أنواع الضغوط التىتمارسها بعض الدول العربية على المقاومة ، بدءا بالتهديد بطرد قوات المقاومة من أراضى دولة عربية ، الى وقف المعونات التى تقدم لها .

●

● **الاتحاد السوفيتي** ●

التحرك السوفيتي الخارجي على مستوى القيادة الثلاثية

على مدى أكثر من شهرين ـــ سبتمبر وأكتوبر ـــ قامت القيادة الجماعية السوفيتية ، ممثلة فى بريجنيف السكرتير العام للحزب الشيوعى ، وبودجورنى رئيس هيئة رئاسة مجلس السوفيت الاعلى وكوسيجين رئيس الوزراء باوسع واكثف جولة للتحرك الدبلوماسى خارج الاتحاد السوفيتى منذ سنوات طويلة . وقد شملت هذه الجولة بعض الدول الاشتراكية (فيتنام الديمقراطية وبلغاريا والمجر وكوبا ويوجوسلافيا) وبعض دول الغرب (فرنسا وكندا والنرويج والدنمرك) وبعض دول العالم الثالث (بورما والجزائر والمغرب).

وعلىالرغم من أن توقيت الجولةالدبلوماسية للزعماء السوفيت قد أغرى الكثيرين من المراقبين السياسيين فى الغرب بتفسيرها على خلفية من رحلة الرئيس الامريكى نيكسون القادمة باعتبارها ذروة التقرب الامريكى الى الصين ٪ الا أن شمول الجولة هذا العدد من الدول ذات الانظمة السياسية والاجتماعية المختلفة يدعوا لنظرة أشمل من ذلك . فانه حتى مع التسليم بضرورة تحرك الاتحاد السوفيتى لمواجهة المناورة الأمريكية الجديدة من وراء التقرب على هذا النحو الى الصين ٪ فان هناك دواع أخرى هامة على المسرحالدولى استوجبت هذا التحرك الدبلوماسى ».

فان **تعرض الاتحاد السوفيتى لحملة عداء واسعة النطاق فى العالم الغربى وداخل عدد من الدول الصغرى التى يستطيع النفوذ الامبريالى أن يتسرب اليها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة** ٪ انما تؤكد بالفعل أهمية وضرورة قيام القادة السوفيت بهذا الجهد المضاعف لمواجهة هذه الحملة التى أعادت الى الاذهان كثيرا من ملامح فترة الحرب الباردة فى ذروتها فى الخمسينات وأوائل الستينات ». وقد تمثلت هذه الحملة أولا فى افتعال **بريطانيا** لما سمى **بازمة الجواسيس** ٪ التى قامت فيها بريطانيا فى اجراء لم يسبق له مثيل فى مداه بطرد ١٠٥ من الدبلوماسيين والموظفين السوفيت من البلاد . وبعدها شاركت بلجيكا ـــ التى يوجد فى عاصمتها **المقر الرئيسى لمنظمة حلف الاطلنطى ومقر قيادته العسكرية** ، بدور مكمل فى حملة « الجواسيس » على نطاق أضيق». **ولعل الحادث الذى تعرض له كوسيجين فى كندا حيث حاول الاعتداء عليه مجرى فار من وطنه** يؤكد اتساع وتنسيق حملة العداء ضد السوفيت من جانب مخابرات الغرب ».

والملاحظ أن هذه الحملة تأتى فى وقت تبذل فيه **الدبلوماسية السوفيتية** جهودا هائلة منأجل تحقيق اتفاقات أساسية تتعلق بأهمقضايا السلام فى العالم والعلاقات بين الشرق والغرب، سواء المتعلق منها بالامن الاوروبى أو الحد منالاسلحة الاستراتيجية .

وقد تلقت الجهود الغربيةلتشويه وجهالتحرك السلامى السوفيتى ضربة قاسية فى « **بيان بلجراد الجديد** » الذى صدر فى ختام زيارة بريجينيف ليوجوسلافيا ، وبالتحديد فى ۲٥

سبتمبر الماضى . وهو البيان الذى أكد مبادىء السياسة السوفيتية الاساسية تجاه الدول الاشتراكية الاخرى واستقلالية تجاربها فى اطار المبادىء الماركسية اللينية والظروف الوطنية لكل منها . فلقد سبقت هذا البيان وسبقت زيارة بريجينيف بلجراد ومحادثاته مع الرئيس تيتو أمواج متلاحقة من الدعاية الغربية عن قرب حدوث تدخل سوفيتى فى رومانيا أو فى يوجوسلافيا ، وعن تعرض تيتو « لضغوط » من الاتحاد السوفيتى فيما يتعلق بسياسة بلاده فى التطبيق الاشتراكى أو سياستها الخارجية . ثم جاء بيان بلجراد الجديد ليؤكد **أن الاتحاد السوفيتى لم يتخل عن مبادئه الاساسية فى علاقات التعاون مع الدول الاشتراكية ويوجه ضربة قاضية للفكرة الغربية البرلمانية التى حملت اسم « مبدأ بريجنيف » أو « مبدأ السيادة المحدودة » للدول الاشتراكية .**

ولا يمكن للمراقب السياسى أن يغفل عاملا آخر فى توقيت حملة الغرب الواسعة ضد الاتحاد السوفيتى وضد الاشتراكية وضد جهود العالم الاشتراكى كله من أجل التقدم والسلام . وهذا العامل هو أن الحملة وافقت بدء الدورة الجديدة [**السادسة والعشرين] للجمعية العامة للامم المتحدة** . وهى دورة مشحونة بعدد من القضايا الحيوية التى يقوم الاتحاد السوفيتى بدور ايجابى وأساسى فى الجهود للتوصل الى حلول سلمية وعادلة ــ وفى مقدمتها **قضية الشرق الاوسط** ــ ويهم الغرب أن يثير الغبار حول مواقف الاتحاد السوفيتى وسياسته للتأثير بعد ذلك على سير المناقشات بالنسبة لهذه القضايا فى الامم المتحدة .

ان **الكسى كوسيجين** عندما وقف منذ أيام فى أوتاوا يعلن « **ان الاتحاد السوفيتى يقدم يد التعاون لكل البلاد من أجل حل المشكلات الدولية التى تسبب توترا فى العالم وتشتت انتباه الشعوب عن البناء السلمى** » ، انما كان يرد بالفعل ــ بطريقة ايجابية وواضحة ــ على حملات التشهير المعادية للاتحاد السوفيتى وسياسته السلمية والمعادية للاشتراكية والسلام فى الاساس .

ان شيئا لايهم الغرب قدر محاصرة الاتحاد السوفيتى وضرب محاولاته للتنسيق بين كل القوى التى يمكن أن تقوم بدور مناهض للامبريالية ولسياسة القوة والعدوان . ومن أجل احباط محاولات الحصار هذه كانت كل التحركات التى قام ويقوم بها فى الفترة الاخيرة زعماء الاتحاد السوفيتى بأنفسهم على أعلى مستوى .

● **الصين الشعبية** ●

كسر طوق الحصار الامريكى

وأخيرا نجحت الصين الشعبية فى كسر طوق الحصار الامبريالى الامريكى الذى فرض حولها لمدة ٢٢ عاما ابتغاء عزلها عن المجتمع الدولى اذ اتخذت الجمعية العامة للامم المتحدة قرارا تاريخيا فى ٢٦ أكتوبر الماضى بالموافقة على المشروع الالبانى الذى يقضى بدخول الصين الامم المتحدة ، وطرد فورموزا بأغلبية ٧٦ صوتا ضد ٣٥ ، وامتناع ١٧ دولة عن التصويت .

وقد لقى قرار قبول الصين فى المنظمة الدولية ترحيبا كبيرا فى أغلب دول العالم وفى أوساط الرأى العام العالمى باستثناء الولايات المتحدة وبعض الدول التى تدور فى فلكها ، فقد صرح **شاو شوكاى** وزير خارجية فورموزا عقب التصويت بأن « مجلس الامن قد وقع وثيقة اعدام بدعوته للقاتل للجلوس فى مقعد القاضى » وتنبأ بان « الامم المتحدة ستصبح أداة تخريب دولية تحت تأثير ماوتسى تونج » ، وأكد الوزير « أن حكومته ستواصل الكفاح حتى يتم الاطاحة بالحكم الشيوعى فى الصين » وأكد نائب رئيس جمهورية فورموزا أنهم قادرون على اعادة غزو القارة الصينية .

وفى الولايات المتحدة اشترك اكثر من ٣٠٠ من أعضاء مجلس النواب البالغ عددهم ٤٣٥ عضوا فى توقيع مذكرة تقضى بتخفيض حصة الولايات المتحدة فى ميزانية الامم المتحدة عند طرد فورموزا من عضوية المنظمة الدولية . وأعرب **وليم روجرز** وزير الخارجية الامريكية عن أسفه « للخطأ المحزن » الذى ارتكبه أعضاء الجمعية العامة باتخاذ قرار طرد تايوان من الامم المتحدة » وقال « ان هذا لن يغير شيئا فى العلاقات القائمة بين هذا البلد والولايات المتحدة ويرى عديد من المراقبين السياسيين أن رحلة **كيسنجر** مستشار الرئيس **نيكسون** الى بكين قد أضعفت المعركة العنيفة التى خاضتها الولايات المتحدة من أجل المحافظة على مقعد فورموزا ، لانها انتزعت الكثير من الثقة فى الموقف الامريكى .

أما فى **الصين الشعبية** .فقد أكدت وكالة أنباء الصين الجديدة **أن « رياح التغيير » فى الامم المتحدة قد اتجهت فى غير صالح النفوذ الامريكى .** وصرح وزير الخارجية الصينى بالنيابة بأن « فوز الاقتراح الالبانى يعد **انتصارا لجميع شعوب العالم ، كما يدل على الافلاس التام للسياسة التى انتهجتها الامبريالية الامريكية** » . ووجه فى حديث أدلى به للصحفيين « أخلص » الشكر باسم حكومة وشعب الصين الى جميع

حكومات الدول الصديقة التى دافعت عن العدل فى هذه المعركة .

وفى **الامم المتحدة** أعرب **يوثانت** سكرتيرها العام عن اقتناعه « بان وجود جمهورية الصين الشعبية فى الامم المتحدة انما هو **دليل على تحسن هائل فى العلاقات الدولية** ، ومن الضرورى أن تعكس منظمتنا التغييرات التى تحدث على المسرح الدولى » .

أما الاتحاد السوفيتى فقد أعلن على لسان وكالة « تاس » : « أن القرار الذى وافقت عليه الجمعية العامة **يعيد الحقوق الشرعية لجمهورية الصين الشعبية** وأن الولايات المتحدة كانت تعارض على القرار وتصر على احتفاظ شيانج كاى شيك بمقعده » . وفى وارسو أوضح المراقبون « أن العدالة قد تحققت فى النهاية للصين » .

ووصف راديو تشيكوسلوفاكيا قبول الصين بانه يعد « فشلا تاما للسياسة الامريكية التى تنادى بوجود دولتين صينيتين » فى حين أعلنت وكالة الانباء الالبانية « أن الامريكيين لم يتخلوا حتى اللحظة الاخيرة عن جهودهم لتجنب طرد عصابة تايوان » .

أما فى أوساط الدول الغربية فقد أعربت **بريطانيا** عن اغتباطها بقرار الجمعية العامة . وفى **فرنسا** اعتبرت الدوائر الرسمية هذا القرار **حكيما وواقعيا وأن فرنسا كانت تتمناه منذ أمد بعيد** . وأعرب مراسل وكالة الانباء الفرنسية فى الامم المتحدة عن اعتقاده بان الهزيمة التى لحقت بالولايات المتحدة « **تجاوزت أبعادها أكثر تنبؤات أصدقاء بكين ثقة** » « ويزيد من قسوتها أن الولايات المتحدة كانت تخوض المعركة بكل ثقلها » . وأوضحت حكومة بون من ناحيتها ، أن فتح أبواب الامم المتحدة للصين الشعبية يعتبر **استجابة للواقع السياسى ولعلاقات القوى الدولية** ، علما بأن جمهورية ألمانيا الاتحادية لم تحدد بعد موقفها رسميا ـــ حتى كتابة هذا التقرير ـــ من طرد الصين الوطنية من الامم المتحدة .

وفيما يتعلق بالشرق الاقصى ، يبدو فى نظر عديد من المراقبين السياسيين أن الحكومة **اليابانية من أكثر الحكومات تعرضا للخسارة فى القريب العاجل بسبب قرار الامم المتحدة** . لان وضع **ايزاكو ساتو** رئيس وزراء اليابان المهدد فى الجبهة الداخلية قد يزداد ضعفا . فلقد كانت حكومته ـــ التى لم يؤخذ رأيها بل ولم تخطر عندما قرر نيكسون القيام برحلته الى بكين ـــ هى الحكومة الوحيدة فى الشرق الاقصى ، بالاضافة الى الفلبين وحكومة الجنرال لون نول فى كمبوديا ، هى التى أيدت الولايات المتحدة فى معارضتها لطرد فورموزا .

ويعتقد عدد متزايد من المراقبين أن الهجوم الشامل الذى شنه « شواين لاى » رئيس وزراء الصين الشعبية على ساتو مؤخرا قد يفتح الباب أمام حملة منظمة ضد الحكومة اليابانية الحالية ، قد لا تشترك فيها دوائر اليسار وبعض العناصر المنتمية الى الحزب الحاكم نفسه فحسب ، وانما قد تضم أيضا **دوائر رجال الاعمال الذين يثير قلقهم أن يروا منافسين أمريكيين أو أوربيين لهم فى السوق الصينية** .

وقد طالبت أحزاب المعارضة الرئيسية فى اليابان باستقالة حكومة ساتو فورا . وأوضح الاشتراكيون ، وهم أكبر أحزاب المعارضة أن الاقتراع الى جانب ضم الصين للامم المتحدة ـــ الذى يأتى بعد النكسات التى أصيبت بها اليابان فى علاقاتها الاقتصادية بالولايات المتحدة ، يعنى **الفشل الكامل للسياسة اليابانية ـــ الامريكية** . ويرى الحزب الاشتراكى أن حكومة ساتو يجب أن تتحمل مسئولياتها وتقدم استقالتها .

وفيما يتعلق بالامم المتحدة هناك عدة **آثار فورية مباشرة** سوف تترتب على الموافقة على دخول الصين الهيئة الدولية اذ **ستتوقف كل المشاورات من أجل اختيار خليفة ليوثانت** السكرتير العام للامم المتحدة ، انتظارا لوصول وفد الصين الشعبية ، لان لهذا الوفد حق استخدام الفيتو فى مجلس الامن الذى سيقوم أولا باختيار السكرتير العام . كما **ستتوقف كذلك اجتماعات مجلس الامن** ، اذ لا يمكن اتخاذ أى قرار قبل وصول الصينيين لانهم سيستطيعون فيما بعد اعتبار مثل هذا القرار غير مشروع وينطبق **هذا على المناقشات الجارية بشأن ناميبا والتى** كان مفروضا أن تنتهى بالتصويت فى الايام القليلة المقبلة . كذلك ضمن هذه الاثار المباشرة أن **المناقشات حول اشتراك كل الدول الاعضاء أو غير الاعضاء فى الامم المتحدة ، فى المؤتمر العالمى لنزع السلاح ، أصبحت تدور الان حول اشتراك الدولتين الالمانيتين فحسب ، لان** اشتراك الصين الشعبية أصبح مقررا باعتبارها عضوا فى المنظمة .

أما فيما يتعلق **بالشرق الاوسط** فقد أوضح عديد من المراقبين السياسيين **أن دخول الصين الامم المتحدة سيكون عاملا مواتيا للعرب** ، لان وجود ممثل لبكين فى مجلس الامن من شأنه زيادة الاتجاه المناصر للعرب فى مناقشات هذا المجلس . وعلى أية حال فمما لا شك فيه أن دخول الصين الامم المتحدة سوف يزيد الى حد كبير من ثقل مجموعة الدول المتحررة والنامية ، كما يضيف

صوتا جديدا الى أصوات دول المجموعة الاشتراكية التى تقف مع حركات التحرر الوطنى والدول المستقلة النامية الساعية الى التقدم الاجتماعى والتحرر من سيطرة الامبريالية .

ومن الجدير بالذكر أن حجم تجارة الصين الخارجية طبقا لبعض التقديرات الغربية الخاصة بعام ١٩٧٠ يبلغ حوالى ٤ مليارات من الدولارات . ويبلغ طول شبكة السكك الحديدية بالصين حوالى ٣٦ الفا و ٥٠٠ كيلو متر . وتضم الصين الشعبية ٩٠ مليون تلميذا فى التعليم الابتدائى و ١٠ ملايين و ٩٠٠ الف تلميذ فى التعليم الثانوى و ٨١٠ الف طالب جامعى (فى سنة ١٩٥٩) ، وتتجه الصين نحو تنمية اقتصادية ضخمة **وقد استطاعت الانطلاق بخطوات كبيرة للغاية فى بعض القطاعات الهامة مثل الطاقة الذرية والاقمار الصناعية . كذلك فقد حققت الصناعة الالكترونية وصناعة الاجهزة الكهربائية الدقيقة تقدما كبيرا** ، وبدأت توضع فى خدمة الذرة والابحاث المتعلقة بصناعة الطائرات والفضاء .

●

● شيلى ●

الضربة الاخيرة للاحتكارات الامريكية

منذ اللحظة التى اتخذ فيها برلمان شيلى ــ فى شهر سبتمبر الماضى ــ قراره بالموافقة على التعديلات الدستورية ، التى تسمح للحكومة الاشتراكية ، برئاسة دكتور **سلفادور الليندى** بتأميم شركات النحاس الامريكية فى شيلى ، تتعرض حكومة الليندى لدفعات متوالية من التهديدات المباشرة وغير المباشرة من جانب الولايات المتحدة . وقد اتضح ــ بشكل لا يدع مجالا للشك ــ أن حملة التهديدات الامريكية « بانتهاج سياسة متشددة تجاه شيلى وكل الدول التى تقدم على تأميم المصالح الامريكية » ، ان الغرض الاساسى منها هو انقاذ ما يمكن انقاذه من « الممتلكات » التى أممتها شيلى ، مستخدمة حقها كدولة ذات سيادة ، تنهج الطريق الاشتراكى الى التنمية الوطنية المستقلة . والذى كانت الولايات المتحدة تريد انقاذه بعد أن أصبح التأميم حقيقة واقعة لا رجعة فيها ، هو « التعويضات » .

فقد كانت الشركات الاحتكارية الامريكية التى دأبت على الحصول سنويا على مئات الملايين من الدولارات ، فى صورة أرباح تخرج من شيلى الى الولايات المتحدة ، تريد أن تخرج بآخر غنيمة ممكنة ، فى صورة ما وصفته الحكومة الامريكية بأنه « تعويضات عادلة » من مناجم النحاس المؤممة . وعندما لمحت الدوائر الامريكية بوادر تصميم شيلى على الرد على صفعات الاستغلال التى تعرضت لها ثروتها الاساسية ــ النحاس ــ طوال السنوات الخمسين الماضية ، تحركت دوائر المصالح المالية داخل الكونجرس ، لاستصدار قوانين ترمى الى الضغط الاقتصادى على شيلى ، وأى دولة أخرى تؤمم « الممتلكات » الامريكية ، دون تعويضات ، تعتبرها الشركات نفسها تعويضات عادلة .

والواقع أن تحرك الدوائر الامريكية وتهديدها باتخاذ اجراءات صارمة ضد شيلى والدول الاخرى التى تتصادم مصالح التنمية فيها مع مصالح الرأسمالية الاحتكارية الامريكية ، لم يقتصر على مشروعات القوانين فى الكونجرس ، ولم يقتصر بالمثل على حملات التهديد فى صحف أمريكا ونشراتها الرسمية ، وانما تشير دلائل كثيرة الى أن توقيت الانقلاب العسكرى اليمينى الذى قلب حكومة اليسار فى **بوليفيا** برئاسة **جنرال جوان توريز** ، فى شهر اغسطس الماضى ، انما كان يرمى ــ الى جانب اجهاض الاتجاه الاشتراكى فى بوليفيا نفسها ــ الى بث الذعر فى نفوس القيادات الوطنية اليسارية الحاكمة فى بعض دول أمريكا اللاتينية الاخرى ، مثل بيرو ، وشيلى ، واجهاض حركة التحرر الوطنى والاجتماعى فى دول القارة الاخرى ، التى لم يصعد فيها اليسار الى السلطة بعد . وبمعنى مباشر ، فان انقلاب بوليفيا كان بمثابة أخطر تهديد وجهته الولايات المتحدة لباقى دول أمريكا اللاتينية تحذيرا من السياسة الاشتراكية التى توجه اللطمات الى المصالح الامريكية بالدرجة الاولى .

واذا كان هناك ما شل يد الولايات المتحدة عن التدخل المباشر حتى الان فى شيلى ، فهو صفة الشرعية البرلمانية لصعود الرئيس الماركسى الليندى الى السلطة ، والشرعية البرلمانية لكل الاجراءات الاقتصادية والاجتماعية التى اتخذها .

وفى الوقت نفسه ، فان الولايات المتحدة فوجئت ــ فيما يبدو ــ بانفتاح عدد كبير من دول أمريكا اللاتينية ، حتى تلك التى لا تتولى الحكم فيها قيادات يسارية ، على العالم الاشتراكى ، على نطاق لم يسبق له مثيل فى تاريخ أمريكا اللاتينية . فخلال الاشهر الاخيرة عقدت عدة اتفاقيات للتعاون الاقتصادى والفنى والعلمى بين الاتحاد السوفيتى ــ وغيره من الدول الاشتراكية ــ وبعض دول أمريكا اللاتينية ، وخاصة **بيرو واكوادور والمكسيك** . وبطبيعة الحال ، فانه ليس مما يريح الولايات المتحدة أن تنفتح دول أمريكا اللاتينية على العالم الاشتراكى ، وعلى نمط جديد من علاقات التعاون مع دوله ، يختلف تماما عن نمط علاقات الاستغلال الذى

عرفته دول القارة دائما فى تعاملها مع الولايات المتحدة .

وبوجه عام ، فان الاشهر الاخيرة قد حملت الى الولايات المتحدة عددا من التطورات غير الملائمة من جانب أمريكا اللاتينية ، الى حد أن صرح **جون كونالى** وزير الخزانة الامريكى بأنه لم يعد للولايات المتحدة أصدقاء فى امريكا اللاتينية ! .. ولان هذا التصريح جاء من وزير الخزانة بالذات ، فانه يحمل أكثر من معنى .. معنى التهديد بالمقاطعة الاقتصادية ـ الذى يتخذ عادة صورة التهديد بوقف المساعدات ـ وهو يعنى فى الحقيقة فرض نوع من المقاطعة أو الحصار الاقتصادى ..

تعليق

الحاجة الى الوضوح والتحديد فى العلاقات الفلسطينية السوفيتية

عندما كان ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية على رأس القوات الفدائية التى حاصرها الجيش الاردنى فى منطقة جرش ، وعندما كانت هذه القوات تواجه وضعا فى غاية الصعوبة بعد ان قام الجيش الاردنى بقطع الماء والتموين والامدادات عنها ، فوجىء المتتبعون للموقف بالزيارة غير المتوقعة التى قام بها السفير السوفيتى فى عمان لمقر قيادة عرفات الواقعة تحت الحصار .

وفى تلك الزيارة التى حملت اكثر من مغزى ، دار بين الرجلين حديث ، لم ينشر تفاصيله الى الان ، وان كان ياسر عرفات لا يمل من ترديد بعض فقرات هذا الحديث لاهميته وخطورة دلالته . وقد أصبح مفهوما ان السفير السوفيتى قد حمل قائد الفدائيين رغبة حكومته فى معرفة مطالب القائمين على العمل الفلسطينى فى هذه المرحلة : ما الذى يريدونه بالضبط على ضوء الظروف الواقعية . وما الذى يطلبونه من الاتحاد السوفيتى ؟

وهذا السؤال الذى طرح انذاك ما يزال قائما . واذا كان الاتحاد السوفيتى ليس هو الطرف الوحيد الذى يطرح هذا السؤال ، فانه ، دون شك ، بين الاطراف الهامة ، والفعالة ، التى تحتاج لاجابة محددة وصريحة عليه ، لانه كما هو مفهوم تماما ، واحد من الاطراف القادرة على الاسهام فى تحقيق مطالب الفلسطينيين الوطنية ، وعلى تقديم العون الواسع لنضال شعب فلسطين من أجل تحقيق هذه المطالب .

والسؤال ذاته قائم داخل العمل الفلسطينى ، بصرف النظر عما اذا كان الاتحاد السوفيتى بحاجة الى اجابة عليه أم لا .

والان وقد توجه وفد فلسطينى بزيارة أخرى لموسكو . يبدو أن هذا الوفد سيحمل معه اجابة محددة على السؤال ، أو انه على الاقل سيكون مطالبا من قبل السوفيات بمثل هذه الاجابة .

وقد حددت موسكو موقفها بالنسبة للشرق الاوسط : العمل من أجل انجاح تسوية سياسية على ضوء قرار مجلس الامن الدولى رقم ٢٤٢ . مع ضمان الحقوق الوطنية المشروعة لشعب فلسطين العربى . ووجهة نظر موسكو فيما يخص هذه الحقوق تتماثل أو تتطابق مع وجهة نظر دول عربية صديقة لموسكو ، وان كانت لا تتماثل ، أو لا تتطابق ، مع وجهة النظر الفلسطينية المعلنة .

وقد كان عدم التطابق هذا ، حتى الان سببا لجعل العلاقات السياسية بين منظمات العمل الفلسطينى وموسكو أدنى من الحد المطلوب ، وأدنى حتى من الامكانيات الواقعية المتوفرة .

وكان عدم التطابق هذا ذريعة استندت اليها القوى الفلسطينية وغير الفلسطينية التى لا تريد للتحالف الفلسطينى مع السوفيت أن يبلغ المدى الذى تحتمه طبيعة الصراع الذى يخوضه الشعب الفلسطينى ضد الصهيونية ومسانديها . وعملت هذه القوى من خلال تسليط الضوء على نقاط الخلاف وحدها ، ومن خلال التجاهل المتعمد للدعم المباشر وغير المباشر الذى تقدمه موسكو لكفاح شعب فلسطين ، عملت من اجل عرقلة التطور والنمو المطلوبين فى العلاقات بين موسكو وبين منظمات العمل الفلسطينى .

وفى أوقات سابقة لقيت شعارات المزايدين فى هذا المجال بعض الصدى ، الا أن انحسار سياسة المزايدة ، وفشلها عموما ، قد أتاح المجال مرة أخرى لوجهات النظر السديدة كى تجد طريقها الى اهتمامات قيادة العمل الفلسطينى واوجب العودة الى التفكير الجاد باهمية اقامة علاقات وطيدة ومطردة النمو مع موسكو .

ومثل هذه العلاقات يمكن أن تستند الى عوامل موضوعية لاعلاقة للاهواء أو النزوات أو الاراء التحريفية بها .

أول هذه العوامل : أن الاتحاد السوفيتى هو الحليف الدولى الاول والاقوى للشعوب العربية فى كفاحها ضد الصهيونية والاستعمار ، ولا يمكن للشعب الفلسطينى المطالب بان يكون كفاحه طليعة لكفاح اشقائه ، أن يهمل هذا الحليف او يتجاهل تاثيره الايجابى .

وثانى هذه العوامل ان العمل الفلسطينى الوطنى المعادى للصهيونية والاستعمار هو عمل تقدمى بالضرورة . أو هو كذلك اذا اريد له أن يكون مغالا ومقتدرا . وهو بهذه الصفة أيضا ، بحاجة الى دعم السوفيت والى مساندتهم السياسية والمادية ، وكل اهمال فى هذا المجال لن يكون من شأنه سوى انقاص مقررات العمل الفلسطينى على مجابهة التحالف الواسع لاعدائه مجتمعين .

وثالث هذه العوامل ان نقاط الالتقاء بين وجهة النظر السوفيتية ووجهة النظر الفلسطينية فيما يخص الاهداف القصوى للعمل الفلسطينى اكثر وأوسع من نقاط الاختلاف . وقد اثبت واقع الحياة ذاته ، هنا وهناك ، أن نقاط الالتقاء هى التى تتزايد . وكل لقاء فلسطينى ـ سوفيتى يوجهه حسن النية سوف يسهم دون شك فى مزيد من التقارب بين وجهتى النظر .

ورابع هذه العوامل ، أن اندحار سياسة المزايدة وسقوطها داخل العمل الفلسطينى . يعنى ، وهو قد عنى بالفعل ، مزيدا من التماثل بين اهداف كافة القوى التى تعمل فى هذه المرحلة من أجل ازالة العدوان ، وكسر شوكة اسرائيل العدوانية ، والسوفيات ، وكذلك شعب فلسطين ، بين القوى المعنية فى هذا المجال .

فيصل حورانى

وهناك أيضا معنى احساس الدوائر المالية الامريكية بأن القارة لم تعد كما كانت دائما فى وضع الاستسلام للاستغلال الاقتصادى الامريكى .

وفى ظل هذا الجو العام ، من المد التحررى والسياسى والاجتماعى فى أمريكا اللاتينية ، بانعكاساته على السياسة الداخلية والخارجية لعدد كبير من دول القارة وحركاتها التحررية ـــ والجذر الاستعمارى ـــ السياسي والاقتصادى بانعكاساته على المصالح الامريكية الاحتكارية ، وتقلص النفوذ السياسى الامريكى تبعا لذلك ... فى ظل هذا الجو العام ، اتخذت حكومة شيلى الاشتراكية قرارها بعدم استحقاق شركات النحاس الامريكية المؤممة فى التعويض . فقد أصدرت بيانا رسميا ـــ عن **هكتور هوميريس** المراقب المالى العام للجمهورية ـــ يتضمن قرارا بأن اكبر شركتين أمريكيتين للنحاس فى شيلى ، هما : [**اناكوندا و كنيكوت**] ، مدينتان لدولة شيلى بمبلغ يربو على ٣٨٨ مليون دولار . وقد كان هذا القرار ـــ فى يوم ١٢ اكتوبر الماضى ـــ بمثابة الضربة القاضية لآمال « التعويض » التى كانت تراود احلام الدوائر المالية الامريكية . وقد وصف القرار فى واشنطن بأنه « مخاطرة من الرئيس اللبندى باثارة غضب الولايات المتحدة » .

وكانت شركات النحاس الامريكية فى شيلى ، بعد صدور قرار البرلمان الشيلى بتأميمها ، قد قدرت قيمة ممتلكاتها بحوالى **٨٠٠ مليون دولار** ، ثم أعلنت حكومة الرئيس الماركسى اللبندى ، فى الأسبوع الاول من شهر اكتوبر ، ان هذا التقدير سيخفض بمقدار ٧٧٤ مليون دولار ، هى قيمة « أرباح زائدة » حصلتها شركات النحاس من ثروات شيلى بغير وجه حق خلال السنوات من ١٩٥٥ الى ١٩٧٠ . وقد اعتبرت الشركات الامريكية هذا القرار « مناورة لحرمانها من التعويض » . وسواء كان قرار حكومة اللبندى مناورة أو غير ذلك ، فمن المؤكد ان هذه الشركات قد حققت طوال السنوات الماضية ارباحا طائلة تتجاوز بكثير حجم رؤوس أموالها التى استثمرتها فى شيلى . وكل الفرق بين الماضى والحاضر ، هو أن «حسابات» هذه الشركات كانت فى أيديها هى تعبث بها كما تشاء ، أما الان فان حسابات هذه الشركات ـــ باستثماراتها وأرباحها ـــ قد انتقلت الى أيدى الادارة الوطنية بعد التأميم ، واصبح من الممكن كشف الطبيعة الاستغلالية لعملياتها ، حتى لقد اتضح ان شركة واحدة منها ، هى شركة « كينكوت » مدينة لشيلى بما يتجاوز ٣١٠ ملايين دولار .

وليس أدلّ على انصاف قرارات حكومة شيلى ـــ برغم كلّ أحقيتها فى الرد على السنين الطويلة من استغلال ثروات النحاس فى بلادها ـــ انها قررت بالفعل دفع تعويضات معقولة ـــ بالنسبة لامكانيات شيلى الاقتصادية ومتطلبات التنمية فيها ـــ لعدد من الشركات كانت قد بدأت عملياتها فى شيلى حديثا جدا ، ومنها شركة « سيرو كوربوريشن » التى تقرر دفع تعويض قيمته ١٨ مليون دولار لها ، بعد ان تبين انها غير مدينة لدولة شيلى .

ولا شك ان المعركة بين شيلى والولايات المتحدة لم تنته عند هذا الحد ، فالدلائل كلها تشير الى أن الحكومة الامريكية قد بدأ ينهار هدوءها المصطنع الذى وضعته قناعا على تصرفاتها تجاه شيلى منذ عام كامل ، أى منذ انتخاب الرئيس الماركسى اللبندى رئيسا للجمهورية . وبدات الملامح البشعة للسياسة الامريكية تتكشف ـــ كما سبق ان اوضحنا ـــ فى التهديدات المتتالية وفى عبارات الغضب ، واكثر من ذلك فى محاولات تحريك عناصر المعارضة اليمينية داخل شيلى ، فى محاولة لاحراج حكومة اللبندى ، وهى محاولة لم تفلح حتى الان الا فى احراج المعارضة نفسها ، وكشف وجهها أمام جماهير الشعب التى رات خلال السنة الماضية اتجاه حكومة اللبندى بغير تردد الى حماية مصالحها الوطنية ودعم الثورة الاجتماعية بخطوات حاسمة ودؤوبة . لقد ادت محاولة الدوائر الامريكية لاستخدام عناصر المعارضة فى شيلى ـــ آخر ما ادت ـــ الى أحداث انشقاق فى صفوف الحزب الديموقراطى المسيحى حيث أعلن **لويز باويا** زعيم جناح الشباب فيه ان الحزب يعانى من حالة « شيزوفرانيا » [فصام] بسبب ادعائه اليسارية ، بينما هو يتصرف كحزب يمينى .

والواقع ان هزيمة الحزب الديموقراطى المسيحى ـــ وهو اكبر الاحزاب التقليدية الاصلاحية فى شيلى ـــ فى انتخابات الرئاسة فى شهر سبتمبر من العام الماضى ، امام الجبهة الشعبية بزعامة اللبندى ، قد أدت الى نتيجتين متناقضتين :

الاولى : بروز جناح يسارى مناهض للزعامة اليمينية والسياسة اليمينية المسيطرة على هذا الحزب ضد مصالح التغيير الاجتماعى .

والثانية : اندفاع كتل الحزب التقليدية نحو المعارضة المستميتة على طول الخط ضد السياسة الاشتراكية لحكومة الرئيس الماركسى اللبندى . وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الانقسام فى اكبر الاحزاب المعارضة فى شيلى ، ازدياد قوة الجبهة الشعبية وحكومة اللبندى ، على حين كان أمل اليمين فى شيلى معلقا على ضآلة الاغلبية التى فازت بها فى الانتخابات عام ١٩٧٠ .

وقد اكدت معركة تأميم النحـاس فى شيلى أن حكومة الليندى تتمتع بتأييد وتفويض جمـاهيرى واسـع وقوى ، لا يقاس اطلاقا بأغلبيتهـا فى البرلمـان ، وانما يقاس بالتفاف جمـاهير عمال المناجم والفلاحين والمثقفين الثوريين حولها فى نضالها السياسى من أجل الثورة الاجتماعية التى تعد المعركة ضد الاحتكارات الامريكية معركتها الاساسية والفاصلة .



يكتب هذه الرسالة من موسكو الكاتب السورى التقدمى . سعيد حورانية ، وقد عرفه قراء الادب العربى الحديث واحدا من كتاب القصة السورية القصيرة المجيدين منذ صدرت مجموعته الاولى «وفى الناس المسرة»

١٥٠ عـاما على ميـلاد دوسـتويفسـكى

بعد كثير من الاهمـال والصـمت فى العهـد الستالينى حول كل ما يتعلق **بدوستويفسكى** حتى كان الحصول على رواية من رواياته مهمة صعبة تكسر الجليد عن اهتمام واسع بتراثه على نطاق الادب والمسرح والفنون ووسائل الاعلام جميعا .

فبعد « **الابله** » وهى الرواية التى أعدها دراميا مسرح فاختانجوف ، والتى ظلت الرواية الوحيدة طوال سنوات طويلة على مسرح سوفيتى ، اخرجت له فى السنة الماضية أربعة اعمال اخرى دفعة واحدة فى مسارح العاصمة ومئات غيرها فى انحاء الاتحاد السوفيتى . فقد أخرج احد كبار مخرجى الاتحاد السوفيتى **زادفادسكى** « **الجريمة والعقاب** » على مسرح موسفييت ، وقدم المسرح الاكاديمى الفنى « **مخات** » « **قرية ستيبا نشيكوفو** » و « **الاخـوة كـارامـازوف** » ، ومسرح **ستانسلافسكى** « **المراهق** » .

وبعد بيرييف الذى أخرج للسينما « الابله » و « الاخـوة كارامـازوف » ، أخـرج **كوليجانوف** « الجريمة والعقاب » ذلك عدا عشرات الاعمال التليفزيونية والاذاعية . ويلقى الان كبار نقاد الادب فى الاتحاد السوفيتى فى الدار المركزية للفنانين محاضرات دورية عن دستويفسكى الكاتب الذى أبحر فى روح الانسان وطرح اكبر الاسئلة الميتافيزيقية والاجتماعية التى كانت تقلق البشرية فى القرن التاسع عشر .

وتخصص المجلات الادبية كالليتيراتور نـايـا **غازيتا** (**الجـريدة الادبيـة**) **وليتيراتور نـا يـا** داسيا (روسيا الادبيـة) وسـوفييتسكايا ليتراتورا (الادب السوفيتى) وغيرها الى جانب الملاحق الادبية للبرافدا والازفستيا دراسـات اسبوعية تتناول جوانب من حياة وأعمـال دوستويفسكى .

وقد عقدت الهيئة الادارية لاتحاد الكتـاب السوفيت اجتماعا مكرسا لذكرى مرور ١٥٠ عاما على ميلاد دوستويفسكى الذى يحتفل به هذا الشهر وكانت قد شكلت لجنة اعداد لليوبيل برئاسة **كونستانتين فيدين** صاحب « المدن والاعـوام » ورئيس الهيئة الادارية لاتحاد الكتاب السوفييت . وتم فى الاجتماع بحث القضايا المرتبطة باصدار طبعة اكاديمية لمؤلفات دوستويفسكى (.سيصدر الجزء الاول فى العام الحالى) وباصدار كتب اخرى عنه .

كما تـم فى الاجتمـاع بحث التدابير الكفيلـة بصيانة الامـاكن الاثـرية المـرتبطة بـاسم دوستويفسكى واعادة تنظيم متحفه فى موسكو وانشاء متحف له فى لينتجراد . وبحثت كذلك قضية نشر مؤلفات دوستويفسكى وايصالها الى الجماهير الواسعة بواسطة السينمـا والمسرح والاذاعة والتليفزيون والصحافة .

وفى لينتجراد تجرى الاستعدادات لاصدار أكمل مجموعة لمؤلفات دوستويفسكى وستتألف هـذه المجموعة من ٣٠ مجلدا ويقوم باعدادها باحثو معهـد الادب الروسى لاكاديميـة العلـوم السوفيتية (دار بوشكين) . وقد قدم المعهـد المجلدات العشرة الاولى من المجموعة الى قسم دار النشر ناؤوك (العلم) .

لقد كانت كل المجموعات الصادرة سابقا تستند الى المراجع المنشورة أى مؤلفات الكاتب التى نشرت أثناء حياته دون مقابلتها مع المخطوطات الاصلية ، ومع أن تلك المجموعات تضمنت كل روايات دوستويفسكى الكبرى فانها لا تعـطى القارىء فكرة كاملة عن انتاج الكاتب العبقرى فى تنوعه وألوانه المتعددة . ولا شك أن من المهم جدا مراجعة مخطوطات دوستويفسكى ومسـودات مؤلفاته ، ولذلك لا تستند المجموعة الجديدة الى البحث الدؤوب فى الارشيف ومعالجة مخطوطات الكاتب .

وسوف تخصص المجموعة ستة مجلدات لنشر

رسائله التى تعد وثيقة ادبية مهمة للتعرف على أبعاد شخصيته وآرائه وتطوره ووسيلة لفهم روايات دوستويفسكى نفسها تلقى مزيدا من الضوء على الاجواء المعقدة التى تسبح فيها شخصيات رواياته • وستنشر مذكرات الكاتب فى أربعة مجلدات • وسيحتوى مجلدان آخران على مقالاته واستعراضاته وملاحظاته السريعة ، وخصص مجلد واحد للمشروعات التى لم يحققها الكاتب ، وما أعده لمعالجة المواضيع التى كان فى نيته تناولها ومع ان اعداد المجموعة لم ينته بعد ، فقد لقيت اهتماما كبيرا فى العالم كله ، فقد تلقت دار « بوشكين » فى لينتجراد رسالة من الولايات المتحدة الامريكية يقترح فيها عدد من الجامعات الادبية اصدار مجموعة مؤلفات فيودور دوستويفسكى فى امريكا باللغة الانجليزية فى نفس وقت صدورها فى الاتحاد السوفيتى • ووصلت نفس الاقتراحات من اليابان والمانيا الاتحادية وغيرها من البلدان •

ان الجهد الكبير الذى يقوم به الاستاذ سامى الدروبى الذى قطع شوطا بعيدا فى ترجمة الاثار الكاملة لفيدور دوستويفسكى عن الطبعة الفرنسية لجدير بأن يغتنى بالمجلدات الجديدة التى لم يسبق نشرها فى العالم والتى تتناول كما اسلفنا مذكراته وتعليقاته ومشروعاته التى لم يتح له أن ينجزها .

سعيد حورانية



سينما تولد من خلال المقاومة

ارتبط مولد السينما فى عديد من دول شرق أوربا بالمقاومة الشعبية ضد النازية ، وكذلك ارتبط مولدها فى الجزائر بحرب التحرير الكبرى هناك ، ولعل السينما العربية الوحيدة التى تولد من خلال المقاومة الفلسطينية هى السينما السورية التى بدأت مرحلة جديدة منذ عام ١٩٦٩ فى ظل المؤسسة العامة للسينما .

فى ذلك العام عاد الى سوريا عدد كبير من المبعوثين لدراسة السينمافىمعاهد اوربا المختلفة وصدر قرار بقصر استيراد الفيلم الاجنبى على المؤسسة فارتفعت ميزانية المؤسسة وأصبحت تملك من القوى البشرية ما يجعلها تقدم على تخطيط لعله الوحيد من نوعه فى الدول العربية كلها •

جعلت مؤسسة السينما السورية من الفيلم القصير مدرسة المخرجين الجدد من الشباب ، تركت لهم الحرية كاملة فى اختيار الوقت المناسب وفى اختيار الشكل المناسب للتعبير عن رؤية كل منهم حتى لو كان هذا الشكل شكلا تجريبيا ، كما تركت لهم الحرية كاملة فى اختيار الوقت المناسب للاقدام على اخراج الافلام الروائية بعد الافلام القصيرة •

ومع نبيل المالح ومروان مؤذن وقيس الزبيدى وقاسم حول وهم من جيل الشباب يعمل محمد شاهين وخالد حمادة من الجيل السابق الذى كان يعمل فى السينما قبل انشاء المؤسسة عام ١٩٦٣

وسوف اقتصر فى هذه الرسالة على الحديث عن هؤلاء المخرجين من كلا الجيلين ، فهم الذين أخرجوا أهم افلام السينما السورية الناشئةحتى الان ، ومن ناحية أخرى فكلهم تناول المقاومة الفلسطينية والعدوان الاسرائيلى على الوطن العربى •

الافلام القصيرة :

وتنقسم الافلام القصيرة التى قدمها هؤلاء المخرجون الى نوعين : افلام تسجيلية قصيرة « **بعيدا عن الوطن** » لقيس الزبيدى ١٩٦٩ و « **شجرة عيد الميلاد** » لمروان مؤذن ١٩٧٠ ، وافلام روائية قصيرة « **اكليل الشوك** » ١٩٦٩ و « **نابالم** » ١٩٧٠ لنبيل المالح و « **الزيارة** » لقيس الزبيدى ١٩٧٠ و « **اليد** » ١٩٧١ لقاسم حول الى جانب الافلام الثلاثة القصيرة التى يضمها الفيلم الطويل « رجال تحت الشمس » ١٩٧٠ ، وهى« **المخاض** » لنبيل المالح و « **اللقاء** » لمروان مؤذن و«**الميلاد**» لمحمد شاهين ،وقد فاز هذا الفيلم بالجائزة الثانية فى مهرجان قرطاج الدولى بتونس عام ١٩٧٠ •

اما الفيلم الروائى الوحيد فهو « **السكين** » الذى أخرجه خالد حمادة عن قصة « **ما تبقى لكم** » لغسان كنفانى والذى مثل سوريا فى مهرجان موسكو الدولى فى أغسطس الماضى • وفى تقديرى أن فيلم « **بعيدا عن الوطن** » الذى أنتجه التليفزيون السورى واخرجه قيس الزبيدى هو أفضل الافلام القصيرة المذكورة ، فيه يجرى المخرج مجموعة من الاحاديث مع بعض الاطفال الذين يعيشون فى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين ، ومن خلال هذه الاحاديث يكشف الزبيدى ببساطة وعمق وجمال

عن أبعاد المأساة ،كما يكشف فى نفس الوقت عن رغبتهم العميقة فى السلام • أو بالاحرى فى الحياة ، فعندما يسألهم ماذا تريدون تجيب الغالبية : نريد قلما ، وعندما يسألهم أى عمل تفضلون عندما تكبرون تكاد تنحصر اجاباتهم بين مدرس وطبيب !

لقد هاجم بعض النقاد هذا الفيلم واعتبروه فيلما « انهزاميا » اذ لا نرى طفلا واحدا يقول أريد ان أصبح فدائيا ، ولا نرى طفلا واحدا يقول أريد مدفعا ،ولكن اجابات الاطفال هى بالفعل اجاباتهم كما أدلوا بها فى الواقع ، ومن ناحية أخرى فان هذه الاجابات تعبر عن أصالة الشعب الفلسطينى الذى يريد السلام ويختار الحياة على العكس من الشعب « المفبرك » فى اسرائيل الذى يكون أفراده أرقاما فى مؤسسة عسكرية امبريالية تابعة للولايات المتحدة الامريكة •

وفى « **الزيارة** » لقيس الزبيدى أيضا يستخدم الفنان أشعار **محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد** بكتابتها على صور ثابتة فى اطار رؤية سينمائية شعرية لرجل يسلم نفسه الى الاعداء على الحدود حتى يرى ابنته التى قتلت برصاصهم وزوجته الملتاعة فوق جثمان الصغيرة ، وقد كان **الزبيدى** بارعا فى كتابة الشعر على الشاشة ليجعلنا نقرأه بدلا من أن نسمعه كما فى الافلام الكلاسيكية التى تفرض علينا أسلوب هذا الممثل أو ذاك فى الالقاء ، الى جانب أن كتابة الشعر جعلت منه جزءا من شريط الصورة .

أما « **أكليل الشوك** » لنبيل المالح الذى يدور حول حياة فتاة فلسطينية من سكان المخيمات فهو فيلم ردىء يلجأ الى التعقيد الشكلى ليخفى ضحالته الفكرية والفنية ، وعلى النقيض منه نجد « **نابالم** » الذى يستخدم أسلوب افلام الاعلانات بالصور الثابتة : نابالم المبيد البشرى الرائع للأطفال • للنساء • للشيوخ ـ الرجل العصرى يستعمل نابالم ـ وفى النهاية : نابالم صنع الولايات المتحدة الامريكية !

وأحدث الافلام السورية القصيرة « **اليد** » لقاسم حول ـ وهو فنان عراقى مثل الزبيدى ـ وفيه يعبر عن احساس الشباب العربى بالاثم تجاه أحداث سبتمبر ١٩٧٠ من خلال التعبير عن العالم الداخلى لشاب أردنى عثر أثناء معارك عمان على ذراع مقطوعة فى الطريق ، فطوال الفيلم نرى هذه الذراع تطارده ليله ونهاره ، فى يقظته ومنامه ، وفى النهاية يقرر أن يحمل السلاح مع الفدائيين •
ان « اليد » رؤية سينمائية ناضجة وان شابها بعض الافتعال ، ومن الواضح أن مخرجها يميل الى السيريالية ويتأثر بأفلام بونويل الاولى • ولعله المخرج العربى الوحيد الذى ينزع الى هذا المذهب **فى التعبير** .

ان « **رجال تحت الشمس** » هو بلاشك افضل فيلم طويل تناول القضية الفلسطينية حتى الان • انه لا يقارن بسلسلة الافلام السورية واللبنانية الروائية التى جعلت من المقاومة الفلسطينية امتدادا لافلام جيمس بوند ، وشوهت العمل الفدائى بالسطحية والغباء والجهل ••
فى « **المخاض** » يقدم **نبيل المالح** أفضل أفلامه • وكذلك مروان مؤذن فى « اللقاء » ومحمد شاهين فى « الميلاد » • فى فيلم نبيل المالح يعبر الفنان عن الميلاد الجديد للانسان الفلسطينى من خلال المقاومة عن طريق مطاردة طويلة بين رجل وزوجته الحامل وبين مجموعة من الجنود الاسرائيليين **تنتهى بمولد الطفل فى الظلام وموت أمه** ، ويواصل **الاب مسيرته الشاقة حاملا طفله حتى تنقذه مجموعة من الفدائيين فى مشهد لايخلو من الخطابية وان لم يفسد شاعرية الفيلم العالية • ان نبيل المالح الذى يقوم الان بمونتاج فيلمه الروائى الاول** « **الفهد** » يثبت فى « المخاض » انه فنان سينمائى موهوب مستقبله اعظم من ماضيه •

وفى « **اللقاء** » يدير **مروان مؤذن** حوارا مع أوربا من خلال لقاء يتم بالصدفة بين فدائى وفتاة نرويجية فى الطريق الى زيارة والدها فى اسرائيل • لقد اختبأ الفدائى فى السيارة التى تستقلها الفتاة واضطر الى قتل سائق السيارة بعد أن اكتشف وجوده وأطلق عليه النار وأصابه ، وأثناء مطاردة الفدائى الذى احتجز الفتاة معه يدور الحوار ، وينتهى الفيلم بلقطة ثابتة للفتاة وهى تشاهد القوات الاسرائيلية تدمر القرية التى لجا اليها الفدائى •

أما فى « **الميلاد** » فيعبر **محمد شاهين** عن العالم البورجوازى الصغير فى البلاد العربية المحتلة وتمزقه بين الحياة البورجوازية التى يحلم بها وبين المشاركة فى مقاومة الاحتلال ، ومن أروع المشاهد فى هذا الفيلم المشهد الذى نرى فيه بطلنا جالسا فى احدى المقاهى يتابع لعب « **الطاولة** » ويفكر فى الفدائيين وفى خلفية شريط الصوت يذيع الراديو احدى أغانى أم كلثوم •

أما الفيلم الروائى « **السكين** » **لخالد حمادة** فهو أقل الافلام التى انتجتها المؤسسة السورية شأنا رغم انه مأخوذ عن قصة جيدة **لغسان كنفانى** ، ولعل « **الفهد** » اول افلام نبيل المالح يعوضنا عنه خيرا •

ان ميلاد سينما سورية جديدة من خلال المقاومة الفلسطينية هو بلا شك أهم حدث شهدته السينما العربية فى السنوات الخمس الاخيرة • ولكن هذه السينما أشبه بطفل يحتاج الى الرعاية حتى ينمو ويتفتح ، فبدون هذه الرعاية يذبل سريعا ثم يموت .

سمير فريد



ليبيا قبيل الاحتلال الايطالى
(١٨٨٢ - ١٩١١)
«أو» طرابلس الغرب فى آخر العهد العثمانى

تاليف :

الدكتور أحمد صدقى الدجانى

عرض :

مصطفى سامى

الناشر :

المطبعة الفنية الحديثة
القاهرة ـ ١٩٧١

ـ ١٣٠ ـ

يتناول هذا الكتاب فترة هامة من تاريخ ليبيا الحديث ، تمتد على مدى ثلاثين عاما قبل الغزو الايطالى للبلاد عام ١٩١١ ، وكانت ليبيا فى هذه الفترة ولاية عثمانية تعرف باسم ولاية طرابلس الغرب .. وتبدأ هذه الفترة الهامة حين أصبحت طرابلس الغرب هى الولاية الوحيدة الباقية للدولة العثمانية فى شمال أفريقيا بعد أن احتلت فرنسا تونس عام ١٨٨١ واحتلت بريطانيا مصر عام ١٨٨٢ .

وقد عاشت طرابلس الغرب هذه الفترة كجزء من منطقة الوطن العربى فى صراعه بين قوى ثلاث . وكانت هناك أول **قوة الدولة العثمانية** وهى فى صحوة الموت ، وكان يحكمها السلطان **عبد الحميد الثانى** أحد سلاطين فترة التنظيمات ، وكانت هناك **قوة اليقظة العربية الصاعدة** التى ظهرت بوادرها فى أكثر من جزء من الوطن العربى فى مواجهة الحكم العثمانى من جهة والخطر الاوربى الجديد الذى يهددها من جهة أخرى . وكانت هناك ثالثا **قوة الاستعمار الاوربى** الذى تطلع وسعى الى السيطرة على الوطن العربى . وقد زادت حدة الصراع فى طرابلس بين هذه القوى الثلاث »

ومن هنا جاءت أهمية تلك الفترة فى **انها تعتبر الخلفية لتاريخ ليبيا الحديث فى الستين عاما الاخيرة** ، نجد فيها أصول أحداثه وجذورها بالنسبة للقوى الثلاث ، فقد دخلت ليبيا منذ عام ١٩١١ مرحلة الجهاد ضد الغزو والاحتلال الايطالى، وواجه الشعب الغزو الجديد وتبلورت النتائج التى ظهرت ملامحها فى هذه الفترة .

والقارىء يخرج فى النهاية بثلاث نتائج محددة :

١ — ان الدولة العثمانية حاولت الوقوف فى وجه الخطر الاوربى ، ولكنها نتيجة لانهيارها كانت عاجزة تماما عن صده، فتناقضت محاولات الاصلاح التى قامت بها مع الخلل والفساد فى جهاز الحكم ، وهكذا ازداد التغلغل الاستعمارى خلال تلك الفترة ، وتحملت الدولة العثمانية مسئولية ذلك ومسئولية عدم تهيئة البلاد كما ينبغى لمواجهة الغزو المحتمل .

٢ — ان الخطر الاوربى فى تزايده كان سيصل الى الذروة بالغزو والاحتلال والاستعمار المباشر للبلاد ، وان التنافس الاستعمارى سيحسم لصالح احدى الدول الاوربية على ضوء الظروف المحيطة ، وقد كان الحسم فى النهاية لصالح ايطاليا .

٣ — ان النضال الشعبى دخل مرحلةجديدة فى هذه الفترة وبرز فيها كرد فعل لتحدى الخطر الاوربى ، وتحدى فساد الحكم العثمانى وعجزه ، وكان متوقعا أن يتعاظم هذا النضال حين يتوجه لصراع الاستعمار الاوربى الغازى .

قسم المؤلف كتابه — الذى جاء فى ٤٥٠ صفحة من الحجم الكبير — الى تسعة فصول، خصص الاول منها لالقاء نظرة على جغرافية وتاريخ طرابلس الغرب ، والقوى الثلاث التى تتصارع فى أرضها ، وانتقل فى الفصل الثانى الى حكم الوالى **احمد راسم** الذى امتد طوال النصف الاول من الفترة والذى حفل بأحداث هامة ، وكان ظاهرة فريدة فى حكم الولاة ،وقد أوضح أسلوب الحكم العثمانىفى فترةالتنظيمات وفى عهد السلطان عبد الحميد بما فيه من استبداد وجنوح الى المركزية الشديدة ؟ وبما تضمنه من استجابات للتحدى الغربى ومحاولات للاصلاح .

وتناول الفصل الثالث حكم الولاة العثمانيين الذين جاءوا بعد احمد راسم وحتى عام١٩١١ ، وتحدث عن عهد كل منهم بالتفصيل وخاصة **المشير رجب باشا** الذى ترك آثارا طيبة بين الناس فى الولاية ، ووقف فى وجه الاطماع الايطالية . وأعقب هذا الفصل بأربعة فصول لدراسة أوضاع الولاية الادارية والاجتماعية والاقتصادية وحياتها الثقافية . أما الفصل الثامن ، فقد تناول الخطر الاوربى والاطماع الاستعمارية فى طرابلس ، وبدأ بعرض للكشف الجغرافى الاوربى لليبيا ومكان هذا الكشف من حركة الاستعمار . ثم شرح سياسات الدول الاوربية والاستعمارية ومساعيها فى طرابلس. بريطانيا منذ أيام ورانجتون وتركيزها على برقة لجوارها لمصر وبعثة الصهيونية لبرقة .وفرنسا وتواجدها فى تونس والجزائر ووسط أفريقيا وسعيها للتوسع شرقا وشمالا ، وايطاليا وقد تتبع نشأة التفكير الاستعمارى فيها ، واهتمامها بطرابلس بعد احتلال فرنسا لتونس، وسياستها فى التفاوض والتفاهم مع الدول الاوربية ثم تحركها الاستعمارى فى طرابلس .

أما الفصل التاسع والاخير ، **فقد تناول اليقظة والنضال الشعبى فى طرابلس** ، فابرز صور النضال قبل هذه الفترة ثم قام بعرض للتجربة التنظيمية الاولى فىالبلاد ، وتاريخحركة **الشريف حميد** ومعارضة الاعيان للوالى احمد راسم فى طرابلس وللشيخ **سليمان البارونى** فى مرحلة نضاله الاول التى أهلته للقيام بدوره النضالى الكبير بعد الغزو الايطالى ، **وقد توصل فى هذا الفصل الى نتيجة محددة وهى أن براعم اليقظة فى ليبيا ظهرت آنذاك ووافقت زمنيا ظهور براعم اليقظة فى أجزاء أخرى من الوطن العربى وخاصة فى الشام ومصر تأكيدا لمعنى الوجود الواحد للامة العربية الواحدة** *

الواقعية فى الفن

تأليف : سدنى فنكلشتين

عرض : سمير كرم

الناشر : المؤسسة المصرية للتأليف والنشر القاهرة ١٩٧١

كتاب سدنى فنكلشتين ـ الماركسى الامريكى البارز — « **الواقعية فى الفن** » — **واحد من أهم المؤلفات الماركسية فى هذا الفرع من العلوم الفلسفية ، ويمكن اعتبارا امتدادا وتطويرا لبعض الكتب الكلاسيكية فى هذا المجال** مثل « **علاقة الفن بالواقع** » **للكاتب** السوفيتى **نيدوشيفين** ، وقبله كتاب **بليخانوف** « **الفن والحياة الاجتماعية** » ورسالة **بيلينسكى** « **فكرة الفن** » ورسالة **تشيرنيشنسكى** فى « **العلاقة الجمالية بين الفن والواقع** » *

والذي يقدمه **فنكلشتين** في كتابه هــذا هو رؤية ماركسية في منتصف الخمسينات ومــن داخل المجتمع الامريكي للعلاقة بين الفن والحياة الاجتماعية بالتعبير الشامل لهذه الحياة من ناحية ومع التطبيق التفصيلي على المجتمع الامريكي من ناحية أخص .

والكتاب **نشر في نيويورك عام ١٩٥٤** ونشر في القاهرة في الشهر الماضي فقط . وقد نقول ان تأخر نشره الى هذا الوقت بالعربية لا يؤثر على القيمة العلمية للـكتاب ، ولكننا ينبغي ان نقول انه قد سبقه الى النشر في الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر (التي أصـدرت الترجمة) كتب عديدة في نفس الفرع من العلوم الانسانية اقل قيمة بكثير..ان لم تقل عديمة الفائدة على الاطلاق . خاصة اذا أخـذنا في اعتبارنا ذلك المعنى الواضح الـذي حدده مترجمه مجاهـد **عبد المنعم مجاهد** (في مقدمـة الترجمة) في قوله « **ان المترجم الاشتراكي الديمقراطي الحق في بلادنا مطالب بأن يترجم للناس كتبا من خلال هذين المفهومين : الاشتراكية والديمقراطية .. بمعنى أن يكون الكتاب المترجم أداة لدفع المجتمع وتطوره وترقيه ، مع تفتيح الذهن على الفكر الانساني لكي تكون لدينا ارضية كبيرة تصـلح لنـا منطلقا بعد هذا ...** »

وفصول الكتاب تعطينا فكرة واضـحة ليس عن الاتجاه الفكري للمؤلف فنكلشتين فحسب ، بل عن منهجه العلمي في تناول **مشـكلة علاقة الفن بالمجتمع** . انه يبدأ بفصل عن « ديناميـات العمل وعلاقتها بالجمال » . وفي هذا الفصـل يعطي تفصيلا المعنى الذي قصـده **ماركس** في قوله « **ان العمل ــ من حيث هو عملية ــ هـو الطبيعة الدائمة والظرف الاشتراطي الذي يفرض نفسه على الوجود الانساني** » . ومع تفصيل هذا المعنى يفتح المؤلف امامنا معنى المنطق من خلال العمل . أي معنى الابداع الفني كعمل . وبايجاز فان هذا الفصل يقدم النظرة « المادية التاريخية» لاصل الفن. ومن أهم ما يتعرض له قضية **علاقة الفن بالحرية**..والحرية هنا مفهومة بمعناها العلمي الذي حددته الماركسية بأنه «**ليس الاستقلال عن القوانين الطبيعية ، وانما هـو معرفة هـذه القوانين والامكانية التي تقـدمها لتجعلها تعمل بطريقة منسقة من أجـل غايات محددة** » .

ويتناول الفصل التالي في هذا الكتـاب « بزوغ **العنصر الانساني** » ويقفنـا في هذا الفصـل الى انعكاسات الصراعات الطبقية ــ بعد ظهـور المجتمع الطبقي بأشكاله المختلفة ــ على الفن ، على عمليتي الخلق والتذوق ، وعلى دور الفن الاجتمـاعي . ذلك انه كما يقـول فنكلشتين « **ان كل مجتمع قائم على التطاحنات الطبقية يولد بناء فوقيا من الافكار، أي تكون له أيديولوجيا من خلالها تؤكد الطبقة الحاكمة حكمها وتدعمه** ». ويفرد المؤلف في هذا الفصـل مكانا واسـعا ومعالجـة تفصـيلية للمدلولات الاجتماعية للفن المصري القديم .

وامتـدادا لهـذه المعـالم ، يتناول في الفصـل التالي (الرابع) مشكلة علاقة « **الفن والدين والصراعات الطبقية** » . ويعـد هذا الفصـل دراسة فريدة في الكتابات المـاركسية لفنون العصور الوسطى وعلاقة الفن خلال تلك الحقبة التاريخية الطويلة بالواقع الاجتماعي فيهـا . وينبه فنكلشتين في بداية هذا الفصل الى ضيق أفق الثقافة الغربية حين تطلق على العصـور الوسطى تعبير « العصور المظلمة » لانهـا في هذا تغفل حضارات شـعوب الشرق ــ مصر وافريقيا والصين والدول الاسلامية . «**لقد كان العالم البيزنطي والاسلامي هو الذي حافظ على الفن والعلم والفلسفة الاغريقية القديمة عندما خيم الظلام على أوروبا** » .

ويعالج فنكلشتين تفصـيلا تأثير سـيطرة الايديولوجية الدينية على المجتمع الاوروبي في تلك الحقبـة على الفن لا من خلال العـلاقة التجـريدية بين الـدين والفـن باعتبـارهما من مكونات البنـاء الفوقي ، بل في علاقتهما الديالكتيكية بالواقـع التاريخي والاجتماعي .. من خلال حركة الصراع الطبقي في ظل النظام الاقطاعي .

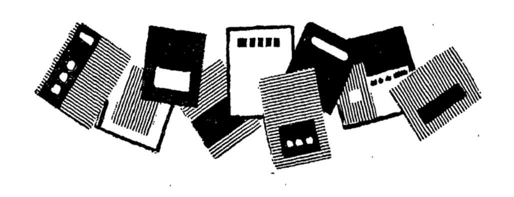
وينتقل بعد ذلك في فصل « الحياة الواقعية تصور نفسها » الى فن عصر النهضة ، ويقدم في هذه المعالجة تقييما ماركسيا واضحا لمجموعة من اعظـم فناني عصر النهضة الـذي يعتبره « أعظم فتـرات فن الرسـم في تاريخ الفن الغـربي » ، جيوتو ومايكلانجلو وفـان آيك وماساتشيو وليوناردو دافنشي .

ويخـرج من عصر النهضة الى معالجة فترة «ظهور الامة » ــ في الفصل السـادس ــ وهي

فترة بداية سيطرة النظـام الرأسمالى ؟ وهى فترة ــ من الناحية الفنية ــ شهدت أعمـال بروغل والجريكو وفيلاسكيز وروبنز ورامبرانت. ولعل اهمية هذا الفصل ترجع الى أن الـكتب التقليدية فى تاريخ الفن ، أو حتى فى التاريخ الاجتماعى للفن ــ لا تعنى عـادة بها ، أو هى لا تعترف بتميزها كفترة ذات سمات تاريخية واجتماعية معينة، وبالتالى كفترة فى تاريخ الفن لها ملامحها الخاصة . بينما تتفسح أستاذية فنكلشتين فى عرضه لتأثيرات بزوغ ونمو النظام الرأسمالى فى أوروبا على المجتمع وفنونه حيث تظهر قيم جديدة تماما اقتصادية واجتماعية وفنية تترك آثارها على أجيال عديدة بعد ذلك وحتى الان . وأهم ما يتناوله هذا الفصل على وجه التحديد مشكلة القـومية فى الفن فى بداياتها الاولى . وهو يصل بنا الى نتيجة محددة « **فى كل بلد فى القرن التاسع عشر نجـد أن محل عظمة الفنان الفرد والكيان الفنى يصبح التصوير الواقعى للحياة القومية** » .

وفى الفصل قبل الاخيـر بعنوان « التمرد والتمرد الزائف يتناول فنكلشتين تأثيرات الثورة الفرنسية ويركز تركيزا خاصا على أعمال الفنان الاسبانى العظيم **جويا باعتباره المعبر عن روح هذه الثورة** . وفى هذا الفصل نجـد المعالجة الماركسـية للاتجاهين الكلاسيكى والرومانتيكى فى الفن كانعكاس لظروف العصر الاقتصـادية وصراعاته الاجتماعية . وفيه يتعرض لاساتذة الفن فى تلك الفترة **سيزان وجوجان وفان جوخ ولوتريك ، ويصل الى بول كلى وبيكاسو** .

ولا شك أن الفصل الاخير فى كتاب فنكلشتين بعنوان « **الواقعية والصراعات الديمقراطية فى الفن الامريكى** » هو **أهم فصول الكتاب ، بل هو** القصد النهائى منه . انه يتعرض للسمات المميزة للثقـافة الامريكية والفن الامـريكى والتيارات المتصارعة فيها . ويكتسب هذا الفصل أهميـة اضافية للقارىء العربى لانه يتعرض بالدراسـة المنهجية الواضحة لعـدد كبيـر من الفنانين المجهولين لنا والذين أسـهموا بدور كبير فى **النضال ضد أسوأ ظواهر أفرختها الرأسمالية الامريكية مثل الاضطهاض العنصرى ضد الزنوج وانعدام الديمقراطية الحقيقية مع سيطرة رأس المال الاحتكارى** بصورة لم يسبق لها مثيل على أقدار الانسان الامريكى . وهو فى النهاية يؤكد ايمان فيلسوف الجمال الماركسى **بأن الفن** ــ رغم كل الظروف ــ « **يستطيع أن يقـوم بأكبر دور فعـال فى تغيير العالم وباحلال السـلام على الارض وتطوير الشعب تطويرا لا حـدود له ، ذلك التطوير الذى سيجعل السلام ممكنا** ».





مناقشة الموجة الجديدة في الرواية المصرية

تعليقا على دراسة صبرى حافظ «الموجة الجديدة فى الرواية المصرية» ، كتب مصطفى فودة يقول :

تعرض صبرى حافظ لاعمالى الروائية بالنقد فى عدد أغسطس سنة ١٩٧١ من مجلة الطليعة . وكان منهجا جديدا فى النقد .

فلقد عرفنا النقد حديثا — عرضا وتعريفا بالعمل الفنى . وعرفناه قديما ابراز محاسن العمل الفنى ومساوئه مع اقامة الدليل على ذلك .

أما ما أتى به الناقد من منهج فلم نسمع به نقدا من قبل ولا من بعد . وان كان يندرج تحت شيء ، فهو بالنسبة لى على الاقل — باب التجريح .

ومن شاء فلينظر الى [ما] التى اعادها الناقد على اسمى [ص ٣٢ عدد اغسطس ١٩٧١ الطليعة] فنقلنى بقدرة قادر من جنس العقلاء الى جنس غير العقلاء ثم، وكان الله يحب الناقدين غير ان هناك اساتذة أجلاء راونى من سنوات بعيدة قبل أن يكون الناقد — من خلال رواياتى طبعا — من جنس العقلاء وتعرضوا بالنقد البناء لما كتبت، ومنهم الاستاذة الدكتورة سهير القلماوى التى كتبت تقديما لروايتى [شمس ووحل] .

ولهذا حين أرد على الناقد الجديد لن انهج نهجه فاسلكه انا أيضا فى عداد غير العاقلين ولن أذهب لاعدد ما فى اعمالى من حسن أو سوء أو اروح فأعرضها واعرف بها . لانى والعمل عملى متهم عند الناقد الجديد على الاقل .

ولكنى أدع الحديث بالنسبة لروايتى الاولى لتقديم الاستاذة الدكتورة سهير القلماوى اقتبس منه لامالى فقط ولكن ما على أيضا حيث تقول :

[**والرواية تمتاز بوصف** للحياة فى الريف وفيها ولا شك مواطن تتجلى فيها ملكة القصاص التى تبشر بكثير فى هذا الميدان] . وتقول أيضا : [وتمتزج أحداث القصة فى تناسق طبيعى واقعى يقحم فيه المؤلف الشرح الصريح احيانا ، ولكنه فى جملته طبيعى متناسق لايحتاج الى شرح من سهولته ويسر تتابعه وان تكن الاحداث غير مدبرة الهدف فأنها فى مجموعها واضحة الاثر تسير دون تعرجات نحو غاية مرسومة . أما الشخصيات فأنها ايضا واقعية قد رسمت بخطوطها التقريرية الرئيسية ليس غير ولكن فيها لمحات طيبة فنية تظهر من حين لآخر .

واسلوب القصة قد التزم الفصحى حتى فى الحوار وبدا طبيعيا رغم ذلك لان المؤلف حرص على أمانة اصله قدر المستطاع، مما جعل الحوار لايفتقد حيويته . والرواية موفقة فى رسم نمط مثالى من الحياة للبطل قد لانوافق المؤلف على تفصيلاتها كلها او حتى على بعض مظاهرها ولكننا لانملك الا أن نحس امانته وصدقه واخلاصه فى سبيل أن تغلغل الثورة ومبادئها فى الريف لتغير من وجه الحياة فى سبيل ان يسعد الريف وتشرق الشمس على الوحل .

والرواية [الفت سنة ١٩٥٩] قد صورت بعض ما جاءت قوانين يوليه سنة ١٩٦١ لاصلاحه بل ماجاء أيضا مكملا لهذه القوانين كمع الاجانب حق ملكية الارض الطيبة التى لاتكفى أهلها والتى

يحبها اهلها . كما لايمكن ان يحب انسان أرضه في اى بلد من بلاد الدنيا .

انها الارض الطيبة التى عليها يعيش ثلاثة أرباع سكان الجمهورية . وهى هى الارض الطيبة التى صنعت تاريخنا وحفزت انطلاقنا وباركت صناعتنا وتعاونت معنا ولنا فى كل خير يصيبنا] .. ذلك هو رأى الاستاذة الدكتورة سهير القلماوى فى روايتى الاولى . واين الناقد الجديد صبرى من الاستاذة الدكتورة ! اما عن روايتى الاخرى [مائة ساعة فى القمة] فأكتفى بتوضيح بعض الامور من حولها . ذلك :

١ ـ انها الرواية اليتيمة التى دافعت عن انسان معركة عام ١٩٥٦ المصرى .

٢ ـ انها كانت ثانى قصة على عشر قصص فائزة فى مسابقة القصة السينمائية عام ١٩٦٤ تحت اشراف رائد القصة العربية استاذنا نجيب محفوظ . حقيقة ان اولاد الحلال الذين لا يريدون فى حقل السينما الاهم [والاضيشهم] لحسوا ما فرضوه على انفسهم وما قالوا به من تشجيع الى غير ذلك ولم يمنحوا الجائزة المادية الا للاول والاول مكرر . الا ان هذا لا يغير من حقيقة كون روايتى كانت الثانية .

٣ ـ **ولا يستطيع احد** أن يشك للحظة فى نتيجة المسابقة التى فازت فيها روايتى لامرين :

أولهما : ان المسابقة كانت سرية بمعنى ان النسخ التى قدمت للمسابقة لم يذكر عليها اسماء المؤلفين .

وثانيهما : أن لجنة التحكيم كانت تضم ضمن من ضمت من نقاد كبار : اثنان من الدكاترة وشاعر اقل ما يقال : ان مابينى وبينهم لم يكن عامرا . لما كن اتعرض بالنقد لما يكتبون ابان عضويتى لتحرير مجلتى الثقافة والرسالة .

■ ■

الحرفيون والمصانع الصغيرة لتشغيل المعادن والسوق السوداء

ارسل عدد من اصحاب المصانع الصغيرة يشكون من الصعوبات التى تواجههم بسبب تحكم الوسطاء فى توزيع المواد الاولية ، وتحديد اسعارها .

وجاء فى شكواهم :

هذه المحلات والورش والمصانع الصغيرة عددها يقدر بالالاف وهى تستوعب عشرات الالاف من العمال . وتساهم هذه الورش بقدر كبير فى الانتاج القومى ولها دور فعال تستهلك الكثير من الخامات وتلعب دورا انتاجيا فى عمليات التصنيع وتنتج الكثير من السلع الناجحة ، فضلا عن استيعابها لعشرات الالاف من العمال واشتراكهم فى التأمينات الاجتماعية والتزامهم بدورهم فى كل التزام وطنى فضلا عن أنهم يكونون فى قطاع صناعاتهم دورا كبيرا فعالا . وقد أسهموا فى رفع مستوى الدخل القومى وقاموا بالتصدير وكافحوا وناضلوا من أجل النصر وذلك أيمانهم وإيمانا منهم بوطنيتهم وإيمانا منهم بمعركة التحرر الوطنى ، الا انه مع الاسف الشديد ، تعثرت هذه الورش والمصانع والحرفيون وتعرضوا الى هزات عنيفة بل نقول الى نكسات .

وزحف عليهم عدو لا يرحم عدو أشد ضراوة من العدو الخارجى ـ هذا العدو الداخلى هو (السوق السوداء) هذا العدو المستغل الذى استغل دماء الجميع وامتصها .. وتحول الى أشد أنواع الاستغلال واستشرى هذا العدو وزاد ضراوة وزاد انصار السوق السوداء فكل مستغل او نهاز فرص ـ أو انسان انتهازى يتحول الى السوق السوداء ويتسلل مع الاسف مرة أخرى يستطيع بماله من أموال أن يتسلل ويتمكن ويتحايل ويتلاعب ومرة أخرى يتحايلون على القوانين حتى دانت لهم ـ واصبحت السوق السوداء سوقا رهيبة مقامة علنا فى كل انحاء القاهرة ، فأصبحت الالمنيوم تباع فى السوق السوداء والنحاس فى السوق السوداء وكل شىء فى السوق السوداء ، ويكفى اصحاب السوق السوداء ان يشتغل سنة او سنتين ويصبح من اغنى الاغنياء وهكذا هى السوق السوداء واصبح سعر الالمنيوم يتراوح من ٦٠٠ جنيه الى ٨٠٠ جنيه للطن وسعر طن المواسير النحاس ١٦٠٠ جنيه للطن . ومع الاسف تعرضت هذه الورش والمصانع الصغيرة والحرفيين الى الانقراض فتوقف حاليا من توقف ـ والباقى فى الطريق الى التوقف والباقى يقاوم .. ومع الاسف بدأنا نصيح ونشكو ونرسل صوتنا ونطالب ونكافح .. فكان جزاؤنا اختفاء الخام وتعرضنا الى التوقف ..

ونحن نقول الى متى هذا .. ؟ ان شبح البطالة والفاقة اصبح يهددنا جميعا .. ان الثورة قامت من أجلنا نحن لتحمينا من سيطرة رأس المال ولكن رأس المال المستغل تسلل وبدأ يعود مرة اخرى .. اننا رغم حاجتنا ورغم بطالتنا ورغم عدم حصولنا على المواد الخام لم نتخل مطلقا عن اى التزام نحو وطننا ..

فنقوم رغم ذلك بدفع اجور العمال ومحاولة تشغيلهم وسداد التأمينات الاجتماعات وسداد ما

علينا من الضرائب ولكن الى متى ونحن نئن ونتوجع ونلهث ان من حقنا ان نطالبكم فورا بعمل ندوة عامة لصناع هذه المهن واجتماع المسئولين بهم للوصول الى حل شريف عادل ورفع الظلم عنهم .

ان التوزيع الذى يتم اليوم نريده توزيعا عادلا ان الخامات المفروض أنها للمصانع وليست للوسطاء وتقضى بذلك الغاء جميع الحصص

واعادة تقييمها من جديد على أساس تخطيط عادل على اساس علمى مدروس وعلى أن يشترك فى هذه اللجان عضوان عن هذه المصانع لنضمن الرقابة حتى تحد من تسلل او تلاعب الانتهازيين ..

كما يجب حتى نحد من التلاعب تسعير كل الخامات تسعيرا جبريا ، واذا كان هناك نسبة ربح فالتسعير الجبرى يجرى عملية تهذيب للربح وللحد من المتلاعبين .

■ ■ ■

حول « لكم دينكم ولى دين »

■ ■ ■ ثار انتباهى نقد الدكتور بطرس بطرس غالى لمواقف واتجاهات « الطليعة » حول حركة التحرر الوطنى ، وعلى وجه التحديد تناوله لجانب « الامبريالية » الذى قال فيه سيادته « ... نستطيع أن نتصور علاقة استعمارية داخل أى معسكر من المعسكرات الدولية » .

وأود فى البداية أن اوضح بأنى لست ماركسيا وانى لا أنتمى الا « للناصرية » فكرا ومبدأ ، أقول هذا حتى لا يظن الدكتور انى أدافع عن الطليعة ، وانما أناقش رأيا :

يقول الدكتور اننا « نستطيع أن نتصور علاقة استعمارية داخل أى معسكر » والذى أعرفه جيدا أن « الامبريالية » هى مرحلة الاحتكار بل انها المرحلة النهائية من نمو الرأسمالية ، وهى بذلك لا توجد الا فى المعسكر الرأسمالى بقيادة الولايات المتحدة الامريكية وهى لها سماتها الخاصة التى تؤدى فى النهاية الى وجود العلاقات الاستعمارية — الاستغلال الاقتصادى — اساسا — فيما بين الدول الرأسمالية نفسها وفيما بينها ككل وبين دول العالم الثالث ، الدول المستعمرة ، النامية وهذا يؤدى بنا الى أن نقول أن العلاقات الاستعمارية لاتوجد الا فى المعسكر الرأسمالى لانها مقومة الاساس .

ثانيا : لم يحدث أن رأينا علاقة استعمارية — استغلالية — بين دول المعسكر الاشتراكى وحركة التحرر الوطنى ، أو مجموعة دول عدم الانحياز .

ثالثا : أن علاقة المعسكر الاشتراكى بالدول النامية أو حركة التحرر الوطنى وان كان ينطبق عليها قول الدكتور بطرس فى تعريفه للاستعمار « .... علاقة غير متكافئة بين دولتين غير متساويتين فى القوة » الا أنها ليست علاقة استعمارية كما يوحى تحليل د. بطرس للامبريالية ، ولعل أصدق مثل على ذلك هو علاقة مصر بالاتحاد السوفيتى ، فرغم أن قوة كل من الدولتين غير متكافئة الا أنه ليست هناك علاقة استعمارية ولعلنا نذكر ما حدث من خلاف من مصر والاتحاد السوفيتى سنة ١٩٥٩ وما ادى اليه من عداء ، الا أن الاتحاد السوفيتى استمر يفى بالتزاماته نحو السد العالى ، كما أننا لا يمكن بحال من الاحوال أن نتصور أن معاهدة الصداقة المصرية السوفيتية تعادل فى النتائج معاهدة سنة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا .

أردت فى النهاية أن أناقش تلك النقطة من تعليق د . بطرس حتى لا تكون هناك فرصة لبعض الاتجاهات لتأخذها سندا لها فى دعاياتها لتشويه العلاقة بيننا وبين الاتحاد السوفيتى والمعسكر الاشتراكى عامة ، وترديدهم أننا خرجنا من تحت سيطرة استعمارية لنقع تحت سيطرة استعمارية أخرى .

وأخيرا معذرة الى الدكتور بطرس بطرس غالى والى الطليعة من قارىء تجاوز قدره باقحام نفسه فى مناقشة وحوار بينهما .

حسام الدين بهى الدين ريشو
مدرس بمدرسة كفر السودان الابتدائية

وثائق



الاسلام وأصول الحكم

بحث فى الخلافة والحكومة فى الاسلام

تأليف

على عبد الرازق

من علماء الجامع الأزهر وقضاة المحاكم الشرعية

« الطبعة الأولى »

سنة ١٣٤٣ هـ — سنة ١٩٢٥ م

« حقوق الطبع محفوظة »

مطبعة مصر — شركة مساهمة مصرية



النص الكامل لكتاب
الشيخ على عبد الرازق

الاسلام وأصول الحكم
بحث فى الخلافة والحكومة فى الاسلام

تنشر الطليعة النص الكامل لكتاب الشيخ على عبد الرازق عن « الاسلام وأصول الحكم » وهو الكتاب الذى اثار معركة فكرية ما تزال اصداؤها تتردد حتى اليوم فى جنبات مجتمعاتنا العربية . وذلك منذ صدوره عام ١٩٢٥

وكانت نفس الشيخ على عبد الرازق تهفو فى اخريات حياته التى انتهت عام ١٩٦٦ ، الى اعادة طبع هذا الكتاب ، بعد ان نفذت طبعاته الثلاث فى أسابيع قليلة عام ١٩٢٥ . وكان هذا المفكر الاسلامى الكبير يريد ان يمهد للطبعة الجديدة بدراسة عن ملابسات وظروف صدور الكتاب عام ١٩٢٥ . وذلك حتى يبصر خصومه بدوره الثورى — وقتذاك — ضد القصر الملكى واستبداد الملك فؤاد بالذات .. وحتى يستطيع القارىء ان يقف على طبيعة القضايا الفكرية التى تضمنها على ضوء احداث المعركة التى خاضها المفكرون المسلمون المستنيرون ضد الاستبداد الذى يتستر بالدين والدين منه براء . ولقد شرع الرجل بالفعل في كتابة هذا التمهيد وسطر منه عدة صفحات. بيد أن المنية وافته قبل ان يتمه . بل لقد ضاعت — على حد رواية ابنه محمد على عبدالرازق — الصفحات الاربع التى كان قد سطرها فى هذا المجال .

ويتكون الكتاب ، بعد مقدمة موجزة ، من ثلاثة أقسام عنون كل منها بكلمة « كتاب » .

فالكتاب الاول يعالج موضوع الخلافة والاسلام . ويضم ثلاثة أبواب .

الاول : الخلافة وطبيعتها . والثانى : حكم الخلافة . والثالث : الخلافة من الوجهة الاجتماعية.

والكتاب الثانى يناقش قضية الحكم والاسلام . وذلك فى ثلاثة ابواب .

الاول : نظام الحكم فى عصر النبوة . الثانى : الرسالة والحكم . والثالث : رسالة لا حكم ، ودين لا دولة .

أما الكتاب الثالث فيتعرض لمسألة الخلافة والحكومة فى التاريخ ، وذلك من خلال ثلاثة ابواب :

الاول : الوحدة الدينية والعرب . الثانى : الدولة العربية . الثالث : الخلافة الاسلامية .

اشهد أنّ لا اله الا الله ، ولا اعبد الا اياه ، ولا أخشى احدا سواه . له القوة والعزة ، وما سواه ضعيف ذليل ، وله الحمد فى الاولى والاخرة ، وهو حسبى ونعم الوكيل . واشهد أن محمدا رسول الله ، ارسله شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ، صلى الله وملائكته عليه وسلموا تسليما كثيرا .

وليت القضاء بمحاكم مصر الشرعية ، منذ ثلاث وثلاثين وثلثمائة والف هجرية (١٩١٥ م) فحفزنى ذلك الى البحث عن تاريخ القضاء الشرعى والقضاء بجميع انواعه فرع من فروع الحكومة ، وتاريخه يتصل بتاريخها اتصالا كبيرا ، وكذلك القضاء الشرعى ركن من اركان الحكومة الاسلامية وشعبة من شعبها ، فلا بد حينئذ لمن يدرس تاريخ ذلك القضاء ان يبدأ بدراسة ركنه الاول ، اعنى الحكومة فى الاسلام . واساس كل حكم فى الاسلام هو الخلافة والامامة العظمى — على ما يقولون — فكان لا بد من بحثها . شرعت فى بحث ذلك كله منذ بضع سنين ، ولا أزال بعد عند مراحل البحث الاولى ، ولم اظفر بعد الجهد الا بهذه الورقات ، اقدمها على استحياء ، الى من يعنيهم ذلك الموضوع . جعلتها تمهيدا للبحث فى تاريخ القضاء . وضمنتها جملة ما اهتديت اليه فى شأن الخلافة ونظرية الحكم فى الاسلام . وما ادعى اننى قد احطت فيها بجوانب ذلك البحث ، ولا اننى استطعت أن اتحامى شيئا من الاجمال فى كثير من المواضع بل قد أكون اكتفيت احيانا باشارات ربما خفيت على صنف من القارئين جهتها ، وبتلويحات قد تفوتهم دلالتها ، وبكنايات توشك أن تصير عليهم الغازا ، وبمجاز ربما حسبوه حقيقة ، وبحقيقة ربما حسبوها مجازا . وانى لارجو — ان أراد الله لى مواصلة ذلك البحث — أن اتدارك ما أعرف فى هذه الورقات من نقص . والا فقد تركت بها بين يدى الباحثين اثرا عسى أن يجدوا فيه شيئا من جدة الرأى ، فى صراحة لا تشوبها مماراة . وعسى أن يجدوا فيه أيضا اساسا صالحا لمن يريد البناء ، وأعلاما واضحة ربما اهتدى بها السارى الى مواطن الحق .

أما بعد . فان تلك الورقات هى ثمرة عمل بذلت له اقصى ما املك من جهد ، وانفقت فيه سنين كثيرة العدد ، كانت سنين متواصلة الشدائد ، متعاقبة الشواغل ، مشوبة بانواع الهم ، مترعة كأسها بالالم . أستطيع العمل فيها يوما ثم تصرفنى الحوادث أياما : وأعود اليه شهرا ثم انقطع أعواما ، فلا غرو أن جاء عملا دون ما اردت له من كمال ، وما ينبغى له من اتقان ، بيد انه على كل حال هو اقصى ما وصل اليه بحثى ، وغاية ما وسعت نفسى (لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت . ربنا لاتؤاخذنا أن نسينا أو أخطانا ، ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا . أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) .

على عبد الرازق

المنصورة : فى يوم الاربعاء الموافق ٧ رمضان سنة ١٣٤٣ هـ — أول ابريل سنة ١٩٢٥ م .

الكتاب الاول

الخــــلافة والاســــــلام

الباب الاول

الخلافة وطبيعتها

(١) الخلافة لغة : مصدر تخلف فلان فلانا اذا تأخر عنه ، واذا جاء خلف آخر ، واذا قام مقامه . ويقال خلف فلان فلانا اذا قام بالامر عنه ، اما معه واما بعده « قال تعالى (ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الارض يخلفون) . والخلافة النيابة عن الغير ، اما لغيبة المنوب عنه واما لموته واما لعجزه الخ والخلائف جمع خليفة ، وخلفاء جمع خليف (١) ، والخليفة السلطان الاعظم(٢)

(٢) والخلافة فى لسان المسلمين ، وترادفها الامامة ، هى « رياسة عامه فى أمور الدين والدنيا نيابة عن النبى [صلعم] » (٣) ، ويقرب من ذلك قول البيضاوى (٤) « الامامة عبارة عن خلافة شخص من الاشخاص للرسول عليه السلام فى اقامة القوانين الشرعية وحفظ حوزة الملة ، على وجه يجب اتباعه على كافة الامة » (٥) . وتوضيح ذلك ما قاله ابن خلدون : « والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى ، فى مصالحهم الاخروية ، والدنيوية الراجعة اليها اذ احوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع الى اعتبارها بمصالح الاخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به » (٦) .

(٣) وبيان ذلك أن الخليفة عندهم يقوم فى منصبه مقام الرسول [صلعم] : وقد كان [صلعم] فى حياته يقوم على أمر ذلك الدين ، الذى تلقاه من جانب القدس الاعلى ، ويتولى تنفيذه والدفاع عنه ، كما تولى ابلاغه عن الله تعالى ، ودعوة الناس اليه . وعندهم أن الله جل شأنه كما اختار محمدا [صلعم] لدعوة الحق ، وابلاغ شريعته المقدسة الى الخلق ، قد اختاره أيضا لحفظ ذلك الدين ، وسياسة الدنيا به (٧) ، فلما لحق (صلعم) بالرفيق الاعلى قام الخلفاء من بعده مقامه فى حفظ الدين وسياسة الدنيا به .

---

[١] راجع المفردات فى غريب القرآن للاصفهانى
[٢] القاموس والصحاح وغيرهما
[٣] عبد السلام فى حاشيته على الجوهرة ص ٢٤٢
[٤] ناصر الدين ابو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازى البيضاوى توفى سنة ٧٩١ هـ .
[٥] مطالع الانظار على طوالع الانوار
[٦] مقدمة ابن خلدون ص ١٨٠
[٧] مقدمة ابن خلدون . ص ١٨١

(٤) وسمى القائم بذلك « خليفة واماما » ، فأما تسميته اماما فتشبيها بامام الصلاة ، فى اتباعه والاقتداء به ، وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبى فى أمته فيقال خليفة باطلاق ، وخليفة رسول الله ، واختلف فى تسميته خليفة الله فأجازه بعضهم ... ومنع الجمهور منه ... وقد نهى ابو بكر عنه لما دعى به ، وقال لست خليفة الله ولكنى خليفة رسول الله [صلعم] » (٨) .

(٥) فالخليفة عندهم ينزل من امته بمنزلة الرسول [صلعم] من المؤمنين، لـه عليهم الولاية العامة ، والطاعة التامة ، والسلطان الشامل ، وله حق القيام على دينهم ، فيقيم فيهم حدوده ، وينفذ شرائعه ، وله بالاولى حق القيام على شئون دنياهم أيضا . وعليهم أن يحبوه بالكرامة كلها لانه نائب رسول الله [صلعم] ، وليس عند المسلمين مقام أشرف من مقام رسول الله [صلعم] ، فمن سما الى مقامه فقد بلغ الغاية التى لا مجال فوقها لمخلوق من البشر . عليهم أن يحترموه لاضافته الى رسول الله ، ولانه القائم على دين الله ، والمهيمن عليه ، والامين على حفظه . والدين عند المسلمين هو اعز ما يعرفون فى هذا الكون ، فمن ولى أمره فقد ولى أعز شىء فى الحياة وأشرفه . عليهم أن يسمعوا له ويطيعوا « ظاهرا وباطنا » (٩) ، لان طاعة الائمة من طاعة الله ، وعصيانهم من عصيان الله (١٠) . فنصح الامام ولزوم طاعته فرضٌ واجب ، وأمر لازم، ولا يتم ايمان الا به ، ولا يثبت اسلام الا عليه (١١) . وجملة القول ان السلطان خليفة رسول الله [صلعم] ، وهو أيضا حمى (١٢) الله فى بلاده ، وظله الممدود على عباده ، ومن كان ظل الله فى أرضه وخليفة رسول الله [صلعم] فولايته عامة ومطلقة ، كولاية الله تعالى وولاية رسوله الكريم ، ولا غرو حينئذ أن يكون له حق التصرف « فى رقاب الناس وأموالهم وأبضاعهم » (١٣) ، وان يكون له وحده الامر والنهى ، وبيده وحده زمام الامة ، وتدبير ما جلّ من شئونها وما صغر ، كل ولاية دونه فهى مستمدة منه ، وكل وظيفة تحته فهى مندرجة فى سلطانه ، وكل خطة دينية أو دنيوية فهى متفرعة عن منصبه «لاشتمال منصب الخلافة على الدين والدنيا » (١٤) فكأنها الامام الكبير ، والاصل الجامع ، وهذه كلها متفرعة عنها ، وداخلة فيها ، لعموم نظر الخلافة ، وتصرفها فى سائر احوال الملة الدينية والدنيوية ، وتنفيذ احكام الشرع فيها على العموم » (١٥) . وليس للخليفة شريك فى ولايته ، ولا لغيره ولاية على المسلمين ، الا ولاية مستمدة من مقام الخلافة ، وبطريق الوكالة عن الخليفة ، فعمال الدولة الاسلامية وكل من يلى شيئا من أمر المسلمين فى دينهم أو دنياهم من وزير أو قاض أو وال أو محتسب أو غيرهم ، كل اولئك وكلاء للسلطان ونواب عنه . وهو وحده صاحب الرأى فى اختيارهم وعزلهم ، وفى افاضة الولاية عليهم ، واعطائهم من السلطة بالقدر الذى يرى ، وفى الحد الذى يختار .

(٦) قد يظهر من تعريفهم للخلافة ومن مباحثهم فيها أنهم يعتبرون **الخليفة مقيدا فى سلطانه بحدود الشرع لا يتخطاها** وانه مطالب حتما بأن يسلك بالمسلمين سبيلا واحدة معينة من بين شتى السبل . هى سبيل واضحة من غير لبس ، ومستقيمة من غير عوج . قد كشف الشرع الشريف عن مبادئها وغاياتها ، واقام فيهما اماراتها ، ومهد مدارجها ، وانار فجاجها ، ووضع فيها منازل للسالكين ، وحد الخطى للسائرين ، فما كان لاحد ان يضل فيها ولا يشقى ، وما كان لخليفة أن يفرط فيها ولا أن يطغى . هى سبيل الدين الاسلامى الذى اقام محمد [صلعم] يوضحها للناس حقبة من الدهر طويلة . هى السبيل التى حددها كتاب الله الكريم وسنة محمد واجماع المسلمين . نعم هم يعتبرون الخليفة مقيدا بقيود الشرع، ويرون ذلك كافيا فى ضبطه يوما ان أراد أن يجمح ، وفى تقويم ميله اذا خيف أن يجنح . وقد ذهب قوم منهم الى ان الخليفة اذا جار أو فجر انعزل عن الخلافة .

(٧) وقد فرقوا من اجل ذلك بين الخلافة والملك ، بأن « الملك الطبيعى هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة ، والسياسى هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار ، والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى الخ » (١٦) ، ولذلك يقرر ابن خلدون أن الخلافة الخالصة كانت فى الصدر الاول الى آخر عهد على « ثم صار الامر الى الملك ، وبقيت معانى الخلافة من تحرى الدين ومذاهبه ، والجرى على منهاج الحق ، ولم يظهر التغير الا فى الوازع الذى كان دينا ثم انقلب عصبية وسيفا وهكذا كان الامر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك ، والصدر الاول من خلفاء بنى العباس ، الى الرشيد وبعض ولده ، ثم ذهبت معانى الخلافة ولم يبق الا اسمها ، وصار الامر ملكا بحتا وجرت طبيعة التغلب على غايتها ، واستعملت فى أغراضها ، من التهور والتقلب فى الشهوات والملاذ ، وهكذا كان الامر لولد عبد الملك ، ولمن جاء بعد الرشيد من بنى العباس ، واسم الخلافة باقيا فيهم لبقاء عصبية العرب ، والخلافة والملك فى الطورين ملتبس بعضهما ببعض ، ثم ذهب رسم الخلافة واثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم ، وتلاشى احوالهم ، وبقى الامر ملكا بحتا كما كان الشأن فى ملوك العجم بالمشرق ، يدينون بطاعة الخليفة تبركا ، والملك بجميع القابه ومناحيه لهم وليس للخليفة منه شىء الخ » (١٧) .

(٨) قد كان واجبا عليهم ، اذ افاضوا على الخليفة كل تلك القوة ، ورفعوه الى ذلك المقام ، وخصوه بكل هذا السلطان، ان يذكروا لنا مصدر تلك القوة التى زعموها للخليفة ، **انى جاءته ؟ ومن الذى حباه بها ، وافاضها عليه ؟ .. لكنهم اهملوا ذلك البحث ، شأنهم فى** امثاله من مباحث **السياسة الاخرى .**

---

[٨] مقدمة ابن خلدون ص ١٨١
[٩] حاشية الباجورى على الجوهرة
[١٠] روى ذلك عن ابى هريرة رضى الله عنه ، راجع العقد الفريد لابن عبدربه جـ ١ ص ٥ طبع مطبعة الشيخ عثمان عبد الرازق بمصر سنة ١٣٠٢ هـ
[١١] منه ايضا .
[١٢] وفى خطبة للمنصور بمكة قال : ايها الناس انما انا سلطان الله فى ارضه ، اسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده ، وحارسه على ماله ، اعمل فيه بمشيئته وارادته واعطيه باذنه ، فقد جعلنى الله عليه قفلا ان شاء ان يفتحنى فتحنى لاعطائكم وقسم ارزاقكم وان شاء ان يقفلنى عليه قفلنى الخ . راجع العقد الفريد جـ ٢ ص ١٧٩ .
[١٣] طوالع الانوار وشرحه مطالع الانظار ص ٤٧٠ .
[١٤] ابن خلدون ص ٢٢٣ .
[١٥] ابن خلدون ص ٢٠٧
[١٦] مقدمة ابن خلدون ص ١٨٠ .
[١٧] راجع [فصل فى انقلاب الخلافة الى الملك] ص ١٩١ وما بعدها من مقدمة ابن خلدون .

التى قد يكون فيها شبه تعرض لمقام الخلافة ومحاولة البحث فيه والمناقشة . على ان الذى يستقرىء عبارات القوم المتصله بهذا الموضوع يستطيع ان يأخذ منهـا بطريق الاستنتاج ان للمسلمين فى ذلك مذهبين :

(٩) **المذهب الاول** أن الخليفة يستمد سلطانه من سلطان الله تعالى وقوته من قوته . ذلك رأى تجد روحه سارية بين عامة العلماء وعامة المسلمين ايضا وكل كلماتهم عن الخلافة ومباحثهم فيهـا تنحو هذا النحو ، وتشير الى هـذه العقيدة . وقد رأيت فيما نقلنا لك آنفا انهم جعلوا الخليفة ظل اللـه تعـالى ، وأن ابا جعفر المنصور زعم انـه انما هو سلطان الله فى أرضه . وكـذلك شاع هـذا الرأى وتحـدث به العلماء والشعراء منذ القرون الاولى . فتراهم يذهبون دائما الى أن الله جل شـأنه هو الذى يختار الخليفة ويسوق اليه الخلافة، على نحو ما ترى فى قوله :

جـاء الخلافـة او كانت له قدرا
كمـا أتى ربه موسى على قـدر

وقول الاخر :

ولقـد اراد اللـه اذ ولاكهـا
من امـة اصـلاحها ورشـادها

وقال الفرزدق (١٨) :

هشام (١٩) خيار الله للناس والذى
به ينجلى من كل ارض ظـلامها
وانت لهـذا النـاس بعـد نبيهم
سـماء يرجى للمحـول غمامهـا

ولقد كان شيوع هذا الرأى وجريانه على الالسنه مما سهل على الشعراء ان يصلوا فى مبالغتهم الى وضع الخلفاء فى مواضع العزة القدسية أو قريبـا منها حتى قال قائلهم :

ما شئت لا ما شـاءت الاقـدار
فاحـكم فانت الواحـد القهـار

وقال طريح (٢٠) يمدح الوليـد بن يزيد (٢١) :

انت ابن مسلنطح البطـاح ولـم
تطـرق عليـك الحنـى والولـج
طوبى لفرعيـك من هنـا وهنـا
طـوبى لاعراقـك التى تشـج
لو قلت للسـيل دع طريقك والمـو
ج عليـه كالهضـب يعتلـج
لسـاخ وارتـد أو لـكان لـه
فى سائر الارض عنك منعرج (٢٢)

واذا انت رجعت الى كثير مما الف العلماء ، خصوصا بعد القرن الخامس الهجرى . وجدتهم اذا ذكروا فى أول كتبهم احد الملوك او السلاطين رفعـوه فوق صف البشر ، ووضعوه غير بعيـد من مقام العزة الالهية . ودونك مثالا لذلك ما جاء فى خطبـة **نجم الـدين القـزوينى** (٢٣) فى أول « **الرسـالة الشمسية فى القواعد المنطقية** » حيث قال : « فاشار الى من سـعد بلطف الحق ، وامتاز بتاييده من بين كافـة الخلق ، ومال الى جنابه الدانى والقاصى، وافلح بمتابعته المطيع والعاصى الخ » . وقال شارح تلك الرسالة **قطب الـدين الرازى** (٢٤) فى خطبـة شرحـه : « وخدمت به مالى حضرة من خصه الله تعالى بالنفس القدسية ، والرياسـة الانسية ... اللائح من غرته الغراء لوائح السعادة الابدية ، الفائح من همته العلياء روائح العناية السرمدية ... شرف الحق والدولة والدين . رشـيد الاسلام ومرشد المسلمين الخ » . ويقول **عبد الحكيم السـيالكوتى** (٢٥) فى حاشيته على الشرح المذكور : « جعلته عراضة لحضرة من خصه الله تعـالى بالسلطة الابدية ، وايـده بالـدولة السرمدية ... مروج الملـة الحنيفيـة البيضـاء ، مؤسس قواعد الشريعة الغراء ، ظل الله فى الارضين ، غياث الاسلام والمسلمين ، عامر بلاد الله ، خليفة رسول الله ، المؤيد بالتأييد والنصر الربانى الخ » (٢٦) . وجملة القـول أن استمداد الخليفة لسلطانه من اللـه تعالى مذهب جار على الالسنة ، فاش بين المسلمين .

(١٠) **وهنـاك مذهب ثان** قد نـزع اليه بعض العلماء وتحدثوا به ، ذلك هو ان الخليفة **انما يستمد سلطانه من الامة** . فهى مصدر قوته ، وهى التى تختاره لهذا المقام . ولعل الحطيئة (٢٧) قد نزع ذلك المنزع حين يقول لعمـر بن الخطـاب :

انت الامام الذى من بعد صاحبه
القى اليـك مقاليـد النهى البشر
لم يؤثروك بهـا اذ قدموك لهـا
لـكن لانفسـهم كانت بك الاثـر

وقد وجدنا ذلك المذهب صريحا فى كلام **العلامة الكاسانى** (٢٨) فى كتابه **البدائع**. قال (٢٩) : « وكل ما يخرج به الوكيل

---

[١٨] ابو فراس همام بن غالب بن صعصعة ، قيل انه تجاوز المائة من سنى عمره وتوفى بالبصرة سنة ١١٠ وقيل سنة ١١٢ وقيل سنة ١١٤ راجع ديوان الفرزدق طبع المكتبة الاهلية ببيروت

[١٩] هشـام بن عبد الملك عاشر الخلفاء الامويين توفى سنة ١٢٥ بالرصافة وكان عمره خمسا وخمسين سنة ، راجع تاريخ ابى الفدا جـ ١ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ الطبعة الاولى بالمطبعة الحسينية بمصر .

[٢٠] طريح بن اسماعيل الثقفى مدح الوليد بن يزيد ، ثم مدح ابا جعفـر المنصور ، راجع الاغانى جـ ٤ ص ٧٤ وما بعدها طبع مطبعة التقدم بمصر .

[٢١] هو حادى عشر خلفاء بنى أمية قتل سنة ١٢٦ هـ راجع ابا الفـداء جـ ١ ص ٢٠٥

[٢٢] المسلنطح من البطاح ـ اتسع واستوى سطحه ، وتطرق عليك : تطبق عليك وتغطك وتضيق مكانك ، يقـال طرقت الحادثة بكذا وكذا اذا اتت بامر وضيق معضل ، والحنى كالعصى جمع حنا كعصا ، ما انخفض من الارض . والولج كل متسع فى الوادى ، الواحد ولجة ، ويقال الولجات بين الجبال مثل الرحبات ، اى لم تكن بين الحنى والولج فيخفى مكانك ، اى لست فى موضع خفى من الحسب ، والوشيج اصـول النبت ، يقال اعراقك واشجه فى الكرم، اى ثابتة فيه ، يعنى انه كريم الابوين من قريش وثقيف . الاغانى جـ ٤ ص ٨١ مع تصرف .

[٢٣] نجم الدين عمر بن على القزوينى المعروف بالكاتبى ، توفى سنة ٤٩٣ هـ

[٢٤] قطب الدين محمود بن محمد الرازى ، توفى سنة ٧٦٦ هـ .

[٢٥] القاضى عبد الحكيم السيالكوتى المتوفى سـنة ١٠٦٧ هـ المدفون بسيالكوت ا هـ من كتاب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع .

[٢٦] راجع فى ذلك كله المجموعة التى طبعها الشيخ فرج الله زكى الكردى بالمطبعـة الاميريه سـنة ١٣٢٣ هـ وسنة ١٩٠٥ م

[٢٧] جرول بن اوس بن مالك ، توفى فى حدود الثلاثين للهجرة . ا هـ من فوات الوفيات جـ ١ ص ١٢٦ وما بعدها

[٢٨] ابو بكر بن مسعود بن احمد علاء الدين ملك العلماء الكاسانى ، مات سنة ٥٨٧ ودفن بظاهر حلب ا هـ من الفوائد البهية فى تراجم الحنفية .

[٢٩] بدائع جـ ٧ ص ١٦.

من الوكالة يخرج به القاضى من القضاء. «... لا يختلفان الا فى شىء واحد ، وهو أن الموكل اذا مات أو خلع ينعزل الوكيل ، والخليفة اذا مات أو خلع لا تنعزل قضاته وولاته . ووجه الفرق أن الوكيل يعمل بولاية الموكل وفى خالص حقه أيضا ، وقد بطلت أهلية الولاية فينعزل الوكيل . والقاضى لا يعمل بولاية الخليفة وفى حقه ، بل بولاية المسلمين وفى حقوقهم ، وانما الخليفة بمنزلة الرسول عنهم ، لهذا لم تلحقه العهدة كالرسول فى سائر العقود ، والوكيل فى النكاح . واذا كان رسولا كان فعله بمنزلة فعل عامة المسلمين ، وولايتهم بعد موت الخليفة باقية ، فيبقى القاضى على ولايته . وهذا بخلاف العزل، فان الخليفة اذا عزل القاضى أو الوالى ينعزل بعزله ، ولا ينعزل بموته ، لانه لا ينعزل بعزل الخليفة أيضا حقيقية بل يعزل العامة لما ذكرنا أن توليته بتولية العامة . والعامة ولوه الاستبدال دلالة ، لتعلق مصلحتهم بذلك فكانت ولايته منهم معنى فى العزل أيضا . فهو الفرق بين العزل والموت » . ومن أوفى ما وجدنا فى بيان هذا المذهب والانتصار له رسالة الخلافة وسلطة الامة التى نشرتها حكومة المجلس الكبير الوطنى بأنقره ونقلها من التركية الى العربية عبد الغنى سنى بك وطبعها بمطبعة الهلال بمصر سنة ١٣٤٢ هـ سنة ١٩٢٤ م .

[١١] **مثل هذا الخلاف بين المسلمين فى مصدر سلطان الخليفة قد ظهر بين الاوروبيين** وكان له أثر فعلى كبير فى تطور التاريخ الاوروبى . ويكاد المذهب الاول يكون موافقا لما اشتهر به الفيلسوف « هبز » (٣٠) من أن سلطان الملوك مقدس وحقهم سماوى . وأما المذهب الثانى فهو يشبه أن يكون نفس المذهب الذى اشتهر به الفيلسوف « لك » (٣١). نرجو أن يكون ما سبق كافيا لك فى بيان معنى الخلافة عند علماء المسلين ، ومعنى قولهم : (٣٢) « انها رياسة عامة فى الدين والدنيا خلافة عن النبى [صلعم] ».

الباب الثانى :

حكم الخلافة

(١) نصب الخليفة عندهم واجب اذا تركه المسلمون أثموا كلهم أجمعون . يختلفون بينهم فى أن ذلك الوجوب عقلى أو شرعى ، وذلك خلاف لا شأن لنا به هنا ، ولكنهم لا يختلفون فى أنه واجب على كل حال حتى زعم ابن خلدون أن ذلك مما انعقد عليه الاجماع قال : (٣٣)

(٢) « وقد شذ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا النصب رأسا لا بالعقل ولا بالشرع منهم الاصم (٣٤) من المعتزلة وبعض الخوارج (٣٥) وغيرهم . والواجب عند هؤلاء انما هو امضاء أحكام الشرع فاذا تواطأت الامة على العدل وتنفيذ احكام الله تعالى لم يحتج الى امام ولا يجب نصبه ، وهؤلاء محجوجون بالاجماع » .

(٣) ودليلهم على ذلك الوجوب : اولا : اجماع الصحابة والتابعين ، لان أصحاب رسول الله [صلعم] عند وفاته بادروا الى بيعة ابى بكر رضى الله عنه وتسليم النظر اليه فى أمورهم ، وكذا فى كل عصر من بعد ذلك ، ولم تترك الناس فوضى فى عصر من الاعصار ، واستقر ذلك اجماعا دالا على وجوب نصب الامام » . (٣٦) ثانيا : أن نصب الامام « يتوقف عليه اظهار الشعائر الدينية ، وصلاح الرعية ، وذلك كالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، اللذين هما فرضان بلا شك ... وبدون نصب الامام لا يمكن القيام بهما . واذا لم يقم بهما أحد لا تنتظم أمور الرعية ، بل يقوم التناهب فيما بينهم مقام التواهب ، ويكثر الظلم ، وتعم الفوضى ، ولاتنفصل الخصومات التى هى من ضروريات المجتمع الانسانى ، ولا شك أن ما يتوقف عليه الفرض فرض ، فكان نصب الامام فرضا كذلك .... ومثل الامر والنهى فى التوقف على نصب الامام الكليات الست التى تجب المحافظة عليها بالزواجر والحدود التى بينها الشارع لا بغير ذلك . والكليات الست هى حفظ الدين ... وحفظ النفس ... وحفظ العقل .. وحفظ النسب .. وحفظ المال ... وحفظ العرض» (٣٧) ا هـ

(٤) لم نجد فيما مر بنا من مباحث العلماء الذين زعموا أن اقامة الامام فرض من حاول أن يقيم الدليل على فرضيته بآية من كتاب الله الكريم . ولعمرى لو كان فى الكتاب دليل واحد لما تردد العلماء فى التنويه والاشادة به ، أو لو كان فى الكتاب الكريم مايشبه أن يكون دليلا على وجوب الامامة لوجد **من أنصار الخلافة المتكلفين، وانهم لكثير،** من يحاول أن يتخذ من شبه الدليل دليلا، ولكن المنصفين من العلماء والمتكلفين منهم قد أعجزهم أن يجدوا فى كتاب الله تعالى حجة لرأيهم فانصرفوا عنه الى ما رأيت ، من دعوى الاجماع تارة ، ومن الالتجاء الى أقيسة المنطق وأحكام العقل تارة أخرى .

(٥) هنالك بعض آيات من القرآن كنا نحسب من الحق علينا أن نبين لك حقيقة معناها ، حتى لا يخيل اليك انها تتصل بشىء من أمر الامامة مثل قوله تعالى : (٤ : ٦٢ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم) وقوله تعالى (٤ : ٨٥ ولو ردوه الى الرسول والى أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) الخ . ولكنا لم نجد من يزعم أن يجد فى شىء من تلك الايات دليلا ، ولا من يحاول أن يتمسك بها ، لذلك لا نريد أن نطيل القول فيها ، تجنبا للغو البحث ، والجهاد مع غير خصم . واعلم ، على كل حال ، ان أولى الامر قد حملهم المفسرون فى الاية الاولى على (٣٨) « أمراء المسلمين فى عهد الرسول [صلعم] وبعده ويندرج فيهم الخلفاء والقضاه وأمراء السرية .. وقيل علماء الشرع ، لقوله تعالى : ولو ردوه الى الرسول والى أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » . واما أولو الامر فى الاية الثانية فهم « كبراء الصحابة البصراء بالامور، أو الذين كانوا يؤمرون منهم » (٣٩) . وكيفما

---

[٣٠] تومس هبز [.Thomes Hobbes ولد سنة ١٥٨٨ م راجع كتاب A Student's History of Philosophy; by Arther Kenyon Roger; p. 242.

[٣١] جن لك [John Locke ولد سنة ١٦٣٢ The same book p. 322—346

[٣٢] مقاصد الطالبين لسعد الدين التفتازانى

[٣٣] مقدمة ابن خلدون ص ١٩١

[٣٤] حاتم الاصم الزاهد المشهور البلخى توفى سنة ٢٣٧ هـ ابو الفداء جـ ٢ ص ٣٨

[٣٥] واعلم ان الخوارج لم يوجبوا نصب الامام لكن طائفة منهم اوجبته عند الفتنة وطائفة اخرى عند الامن . ا هـ حاشية الكستلانى على العقائد النسفية

[٣٦] مقدمة ابن خلدون ص ١٩١

[٣٧] القول المفيد على الرسالة المسماة وسيلة العبيد فى علم التوحيد للشيخ محمد بخيت ص ١٠٠.

[٣٨] شرح البيضاوى [٣٩] الكشاف للزمخشرى

كان الامر فالايتان لا شيء فيهما يصلح دليلا على الخلافة التى يتكلمون فيها . وغاية ما قد يمكن ارهاق الايتين به أن يقال انهما تدلان على أن للمسلمين قوما منهم ترجع اليهم الامور . وذلك معنى أوسع كثيرا وأعم من تلك الخلافة بالمعنى الذى يذكرون ، بل ذلك معنى يغاير الاخر ولا يكاد يتصل به . واذا أردت مزيدا فى هذا البحث فارجع الى [كتاب الخلافة] للعلامه السيرتومس أرنلد (٤٠) . ففى الباب الثانى والثالث منه بيان مقنع . وقد يكون مما يؤنسك فى هذا المقام كلمة ذكرها صاحب المواقف بعد أن استدل على وجوب نصب الامام باجماع المسلمين ، قال « فان قيل لابد للاجماع من مستند ، ولو كان لنقل نقلا متواترا لتوفر الدواعي اليه ، قلنا استغنى من نقله بالاجماع فلا توفر للدواعى ، أو نقول كان مستنده من قبل ما لا يمكن نقله من قرائن الاحوال التى لا يمكن معرفتها الا بالمشاهدة والعيان ، لمن كان فى زمنه عليه السلام » (٤١). فهو كما ترى يقول انذلك الاجماع لايعرف له مستند . وما كان صاحب المواقف ليلجأ الى هذه القولة لو وجد فى كتاب الله تعالى ما يصلح له مستندا ».

انه لعجيب عجيب ان تأخذ بيدك كتاب الله الكريم ، وتراجع النظر فيما بين فاتحته وسورة الناس ، فترى فيه تصريف كل مثل ، وتفصيل كل شيء من أمر هذا الدين (ما فرطنا فى الكتاب من شيء) ثم لا تجد فيه ذكرا لتلك الامامة العامة أو الخيلافة . ان فى ذلك لمجالا للمقال .

(٦) ليس القرآن وحده هو الذى اهمل تلك الخلافة ولم يتصد لها ، بل السنة كالقرآن إيضا . قد تركتها ولم تتعرض لها . يدلك على هذا ان العلماء لم يستطيعوا أن يستدلوا فى هذا الباب بشيء من الحديث ، ولو وجدوا لهم فى الحديث دليلا لقدموه فى الاستدلال على الاجماع ، ولما قال صاحب المواقف ان هذا الاجماع مما لم ينقل له سند .

(٧) يريد السيد محمد رشيد رضا ان يجد فى السنة دليلا على وجوب الخلافة فانه نقل عن سعد الدين التفتازانى (٤٢) فى المقاصد ما استدل به على وجوب الامامة ، ولم يكن من بين تلك الادلة بالضرورة شيء من كتاب الله ولا من سنة رسول الله [صلعم] . فقام السيد رشيد يعترض على السعد ، بأنه « قد غفل هو وأمثاله عن الاستدلال على نصب الامام بالاحاديث الصحيحة الواردة فى التزام جماعة المسلمين امامهم ، وفى بعضها التصريح بأن من مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » وسيأتى حديث حذيفة المتفق عليه ، وفيه قوله (ص) له « تلزم جماعة المسلمين وامامهم » (٤٣) . قبل أن نحدثك فى ذلك الاعتراض نلفتك الى انه يتضمن تأييد ما قلناه لك ، من أن العلماء لم يستدلوا فى هذا الباب بشيء من الحديث . وليس السيد رشيد بدعا فيما يريد أن يحتج به ، فقد سبقه الى ذلك ابن حزم (٤٤) الظاهرى ، بل قد زعم هذا : أن القرآن والسنة قد وردا بايجاب الامام من ذلك قوله تعالى (٤ — ٦٢ أطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم) مع أحاديث كثيرة صحاح فى طاعة الائمة وايجاب الامامة (٤٥) . وانت اذا تتبعت كل ما يريدون الرجوع اليه من أحاديث الرسول [صلعم] لم تجد فيها شيئا أكثر من أنها ذكرت الائمة أو البيعة أو الجماعة الخ مثل ما روى « الائمة من قريش » « تلزم جماعة المسلمين » « من مات وليس فى عنقه بيعة فقد مات ميتة جاهلية » « من بايع أماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ان استطاع فان جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الاخر » (٤٦) « اقتدوا بالذين من بعدى أبى بكر وعمر الخ .. الخ » (٤٧) ، وليس فى شيء من ذلك كله ما يصلح دليلا على ما زعموه ، من أن الشريعة اعترفت بوجود الخلافة أو الامامة العظمى بمعنى النيابة عن النبى [صلعم] والقيام مقامه من المسلمين . لا نريد أن نناقشهم فى صحة الاحاديث التى يسوقونها فى هذا الباب ، وقد كان لنا فى مناقشتهم فى ذلك مجال فسيح ، ولكننا نتنزل جدلا الى افتراض صحتها كلها . ثم نناقشهم فى المعنى الذى يريده الشارع من كلمات : امامة وبيعة وجماعة الخ . وقد كانت تحسن مناقشتهم فى ذلك ، ليعرفوا أن تلك العبارات وامثالها فى لسان الشرع ، لا ترمى الى شيء من المعانى التى استحدثوها بعد ، ثم زعموا أن يحملوا عليها لغة الاسلام . نتجاوز لهم عن كل تلك الابواب من الجدل ، نقول ان الاحاديث كلها صحيحة ، نقول ان الائمة واولى الامر ونحوهما اذا وردت فى لسان الشرع فالمراد به اهل الخلافة ، واصحاب الامامة العظمى . وان البيعة معناها بيعة الخليفة ، وأن جماعة المسلمين معناها حكومة الخلافة الاسلامية الخ . نفترض ذلك كله ، ونتنزل كل ذلك التنزل ، ثم لا نجد فى تلك الاحاديث بعد كل ذلك ، ما ينهض دليلا لاولئك الذين يتخذون الخلافة عقيدة شرعية ، وحكما من احكام الدين . تكلم عيسى ابن مريم عليه السلام عن حكومة القياصرة وأمر بأن يعطى ما لقيصر لقيصر ، فما كان هذا اعترافا من عيسى بان الحكومة القيصرية من شريعة الله تعالى ، ولا مما يعترف به دين المسيحية ، وما كان لاحد ممن يفهم لغة البشر فى تخاطبهم أن يتخذ من كلمة عيسى حجة له على ذلك . وكل ما جرى فى أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام من ذكر الامامة والخلافة والبيعة الخ لا يدل على شيء أكثر مما دل عليه المسيح حينما ذكر بعض الاحكام الشرعية من حكومة قيصر . واذا كان صحيحا أن النبى [صلعم] قد أمرنا أن نطيع اماما بايعناه . فقد امرنا الله تعالى كذلك أن نفى بعهدنا لمشرك عاهدناه ، وأن نستقيم له ما استقام لنا ، فما كان ذلك دليلا على أن الله تعالى رضى الشرك ، ولا كان أمره تعالى بالوفاء للمشركين مستلزما لاقرارهم على شركهم . أو لسنا مأمورين شرعا بطاعة البغاة والعاصين ، وتنفيذ أمرهم اذا تغلبوا علينا وكان فى مخالفتهم فتنة تخشى ، من غير ان يكون ذلك مستلزما لمشروعية البغى ، ولا لجواز الخروج على الحكومة . أو لسنا قد أمرنا شرعا باكرام السائلين ، واحترام الفقراء ، والإحسان اليهم ، والرحمة بهم ، فهل يستطيع ذو عقل أن يقول ان ذلك يوجب علينا شرعا ان نوجد

---

[٤٠] The caliphate; by Sir Thomas W. Arnold at the Claredon Press Oxford; 1924.

[٤١] المواقف ٢ ص ٤٦٤

[٤٢] سعد الدين التفتازانى اسمه مسعود بن عمر ، وقيل عمر بن مسعود، ولد فى تفتازان بلدة بخراسان سنة ٧٢٢ هـ وتوفى سنة ٧٩٢ بسمرقند . ثم نقل الى سرخس ا هـ راجع الفوائد البهية فى تراجم الحنفية ص ١٣٥ وما بعدها

[٤٣] الخلافة او الامامة العظمى للسيد محمد رشيد رضا ص ١١

[٤٤] ابو محمد على بن احمد بن سعيد ، ولد بقرطبة سنة ٣٨٤ وتوفى سنة ٤٥٦ هـ نقلا عن ديباجة كتاب الفصل .

[٤٥] الفصل فى الملل والاهواء والنحل جـ ٤ ص ٨٧

[٤٦] قال ابن حزم ان هذا الحديث لم يصح ، ويعيذنا الله من الاحتجاج بما لا يصح . الفصل جـ ٤ ص ١٠٨

[٤٧] ذكرت كل هذه الاحاديث مفرقة فى رسالة الخلافة او الامامة العظمى للسيد محمد رشيد رضا ، وغالبها مخرج

بيننا فقراء ومساكين . ولقد حدثنا الله تعالى عن الرق ، وأمرنا ان نفك رقاب الارقاء ، وامرنا أن نعاملهم بالحسنى ، وامرنا بكثير غير ذلك فى شأن الارقاء ، فما دل ذلك على أن الرق مأمور به فى الدين ، ولا على أنه مرغوب فيه وكثيرا ما ذكر الله تعالى الطلاق ، والاستدانة ، والبيع والرهن ، وغيرها؛ وشرع لها أحكاما فما دل ذلك بمجرده على أن شيئا منها واجب فى الدين ، ولا على ان لها عند الله شأنا خاصا . فاذا كان النبى [صلعم] قد ذكر البيعة والحكم والحكومة وتكلم عن طاعة الامراء وشرع لنا الاحكام فى ذلك فوجه ذلك ما قد عرفت وفهمت . اما بعد فسان دعوى الوجوب الشرعى دعوى كبيرة ، وليس كل حديث وان صح بصالح لموازنة تلك الدعوى .

الباب الثالث :

الخلافة من الوجهة الاجتماعية

(١) زعموا وقد فاتهم كتاب الله تعالى وسنة رسوله [صلعم] ، «أنه تواتر اجماع المسلمين فى الصدر الاول، بعد وفاة النبى [صلعم] ، على امتناع خلو الوقت عن امام ، حتى قال أبو بكر رضى الله عنه فى خطبته المشهورة حين وفاته عليه السلام ، الا ان محمدا قد مات ، ولا بد لهذا الدين ممن يقوم به ، فبادر الكل الى قبوله ، وتركوا له اهم الاشياء ، وهو دفن رسول الله [صلعم] ، ولم يزل الناس علـى ذلك، فى كل عصر الى زماننا هذا ، من نصب امام متبع فى كل عصر » (٤٨) ا هـ . نسلم ان الاجماع حجة شرعية ، ولانثير خلافا فى ذلك مع المخالفين (٤٩) ، ثم نسلم ان الاجماع فى ذاته ممكن (٥٠) الوقوع والثبوت ، ولا نقول مع القائل (٥١) ، ان من ادعى الاجماع فهو كاذب . اما دعوى الاجماع فى هذه المسألة فلا نجد مساغا لقبولها على أى حال .

ومحال اذا طالبناهم بالدليل أن يظفروا بدليل ، على أننا مثبتون لك فيما يلى أن دعوى الاجماع هنا غير صحيحة ولا مسموعة ، سواء ارادوا بها اجماع الصحابة وحدهم،أم الصحابة والتابعين، ام علماء المسلمين ، ام المسلمين كلهم ، بعد أن نمهد لهذا تمهيدا .

(٢) من الملاحظ البين فى تاريخ الحركة العلمية عند المسلمين ان حظ العلوم السياسية فيهم كان بالنسبة لغيرها من العلوم الاخرى أسوأ حظا ، وأن وجودها بينهم كان أضعف وجود ، فلسنا نعرف لهم مؤلفا فى السياسة ولا مترجما ، ولا نعرف لهم بحثا فى شيء من انظمة الحكم ولا اصول السياسة ، اللهم الا قليلا لا يقام له وزن ازاء حركتهم العلمية فى غير السياسة من الفنون . ذلك وقد توافرت عندهم الدواعى التى تدفعهم الى البحث الدقيق فى علوم السياسة ، وتظاهرت لديهم الاسباب التى تعدهم للتعمق فيها .

(٤) واقل تلك الاسباب أنهم مع ذكائهم الفطرى ، ونشاطهم العلمى ، كانوا مولعين بما عند اليونان من فلسفة وعلم، وقد كانت كتب اليونان التى انكبوا على ترجمتها ودرسها كافية فى أن تغريهم بعلم السياسة وتحببه اليهم ، فان ذلك العلم قديم ، وقد شغل كثيرا من قدماء الفلاسفة اليونانيين وكان له فى فلسفة اليونان ، بل فى حياتهم ، شأن خطير .

(٥) وهناك سبب آخر اهم ، ذلك أن مقام الخلافة الاسلامية كان منذ الخليفة الاول ، أبى بكر الصديق ، رضى الله تعالى عنه ، الى يومنا هذا ، عرضة للخارجين عليه المنكرين له ، ولا يكاد التاريخ الاسلامى يعرف خليفة الا عليه خارج ، ولا جيلا من الاجيال مضى دون أن يشاهد مصرعا من مصارع الخلفاء . نعم وربما كان ذلك غالبا شأن الملوك فى كل أمة وكل ملة وجيل ، ولكن لانظن أن أمة من الامم تضارع المسلمين فى ذلك ، فان معارضتهم للخلافة نشأت اذ نشأت الخلافة نفسها ، وبقيت ببقائها ولحركة المعارضة هذه تاريخ كبير جدير بالاعتبار . وقد كانت المعارضة أحيانا تتخذ لها شكل قوة كبيرة ، ذات نظام بين كما فعل الخوارج فى زمن على بن ابى طالب ، وكانت حينا تسير تحت ستار الانظمة الباطنية ، كما كان لجماعة الاتحاد والترقى مثلا ، وكانت تضعف احيانا حتى لا يكاد يحس لها وجود ، وتقوى أحيانا حتى **تزلزل عروش الملوك**، وكانت ربما سلكت طريق العمل متى استطاعت ، وربما سارت على طريقة الدعوة العلمية أو الدينية على حسب ظروفها واحوالها . مثل هذه الحركة كان من شأنها ان تدفع القائمين بها الى البحث فى الحكم ، وتحليل مصادره ومذاهبه ، ودرس الحكومات وكل مايتصل بها . ونقد الخلافة وما تقوم عليه ، الى آخر ما تتكون منه علوم السياسة. لا جرم أن العرب قد كانوا أحق بهذا العلم ، وأولى من يواليه .

(٦) فما لهم قد وقفوا حيارى أمام ذلك العلم ، وارتدوا دون مباحثه حسيرين ؟ ما لهم اهملوا النظر فى كتاب الجمهورية Republic لافلاطون ، وكتاب السياسة Politics لارسطو، وهم الذين بلغ من اعجابهم بارسطو، ان لقبوه المعلم الاول ؟ وما لهم رضوا ان يتركوا المسلمين فى جهالة مطبقة بمبادىء السياسة وانواع الحكومات عند اليونان ، وهم الذين ارتضوا أن ينهجوا بالمسلمين مناهج السريان فى علم النحو ، وأن يروضوهم برياضة بيدبا الهندى فى كتاب كليلة ودمنة ، بل رضوا بأن يمزجوا لهم علوم دينهم بما فى فلسفة اليونان من خير وشر ، وايمان وكفر ؟ . لم يترك علماؤنا أن يهتموا بعلوم السياسة اهتمامهم بغيرها غفلة منهم عن تلك العلوم ، ولا جهلا بخطرها، ولكن السبب فى ذلك هو ما نقصه عليك .

(٧) الاصل فى الخلافة عند المسلمين ان تكون « راجعة الى اختيار اهل العقد والحل » (٥٢) اذ « الامامة عقد

---

[٤٨] المواقف وشرحه

[٤٩] الاجماع حجة مقطوع بها عندعامة المسلمين ، ومن أهل الاهواء من لميجعله حجة مثل ابراهيم النظام والقاشانى من المعتزلة والخوارج واكثر الروافضالخ . كشف الاسرار

[٥٠] انكر بعض الروافض والنظاممن المعتزلة تصور انعقاد الاجماع علىامر غير ضرورى .. وذهب داود وشيعته من اهل الظاهر واحمد بن حنبل فىاحدى الروايتين عنه الى انه لا اجماع الاللصحابة .. وقال الزيدية والامامية من الروافض لا يصح الاجماع الا من عترةالرسول عليه السلام أى قرابته ،ونقل عن مالك رحمهالله انه قال لا اجماع الا لاهل المدينة ١هـ راجع كتاب كشفالاسرار لعبد العزيز البخارى على اصول الامامة لفخر الاسلام ابى الحسين على بن محمد بن حسينالبزدوى طبع دار الخلافةسنة ١٣٠٧ هـ جـ ٣ ص ٩٤٦ ومابعدها .

[٥١] روى ذلك الامام احمد بن حنبل.راجع تاريخ التشريع الاسلامى لمؤلفهمحمد الخضرى ص ٢٠٦

[٥٢] مقدمة ابن خلدون

يحصل بالمبايعة من أهل الحل والعقد لمن اختاروه اماما للامة بعد التشاور بينهم » (٥٣) . قد يكون معنى ذلك أن الخلافة تقوم عند المسلمين على أساس البيعة الاختيارية ، وترتكز على رغبة أهل العقد والحل من المسلمين ورضاهم ، وقد يكون من المعقول أن توجد فى الدنيا خلافة على الحد الذى ذكروا ، غير اننا اذا رجعنا الى الواقع ونفس الامر وجدنا أن الخلافة فى الاسلام لم ترتكز الا على أساس القوة الرهيبة ، وأن تلك القوة كانت ، الا فى النادر ، قوة مادية مسلحة . فلم يكن للخليفة مايحوط مقامه الا الرماح والسيوف ، والجيش المدجج والبأس الشديد ، فبتلك دون غيرها يطمئن مركزه ويتم أمره . قد يسهل التردد فى أن الثلاثة الاول من الخلفاء الراشدين مثلا شادوا مقامهم على أساس القوة المادية ، وبنوه على قواعد الغلبة والقهر ، ولكن أيسهل الشك فى أن عليا ومعاوية رضى الله تعالى عنهما لم يتبوءا عرش الخلافة الا تحت ظلال السيف ، وعلى أسنة الرمح ، وكذلك الخلفاء من بعد الى يومنا هذا . وما [٥٤] كان لامير المؤمنين محمد الخامس سلطان تركيا ، أن يسكن اليوم « يلدز » لولا تلك الجيوش التى تحرس قصره ، وتحمى عرشه ، وتغنى دون الدفاع عنه . لانشك مطلقا فى أن الغلبة كانت دائما عماد الخلافة ، ولا يذكر التاريخ لنا خليفة الا اقترن فى أذهاننا بتلك الرهبة المسلحة التى تحوطه ، والقوة القاهرة التى تظله ، والسيوف المصلتة التى تذود عنه . ولولا أن نرتكب شططا فى القول لعرضنا على القارىء سلسلة الخلافة الى وقتنا هذا ليرى على كل حلقة من حلقاتها طابع القهر والغلبة ، وليتبين ان ذلك الذى يسمى عرشا لايرتفع الا على رؤوس البشر ، ولا يستقر الا فوق اعناقهم . وأن ذلك الذى يسمى تاجا لا حياة له الا بما يأخذ من حياة البشر ، ولا قوة الا بما يغتال من قوتهم ، ولا عظمة له ولا كرامة الا بما يسلب من عظمتهم وكرامتهم .. كالليل ان طال غال الصبح بالقصر وأن بريقه انما هو من بريق السيوف ، ولهيب الحروب ، قد يلاحظ فى بعض سنى التاريخ أن تلك القوة المسلحة التى هى دعامة الخلافة ، لا تكون ظاهرة الوجود ، محسوسة للعامة ، فلا تحسبن ذلك شذوذا عما قررنا ، فان القوة موجودة حتما ، وعليها يرتكز مقام الخليفة ، غير أنه قد يمر زمن لا تستعمل فيه تلك القوة ، لعدم الحاجة الى استعمالها ، فاذا طال اختفاؤها عن الناس غفلوا عنها ، وربما حسب بعضهم انها لم تكن موجودة . ولو كانت غير موجودة حقيقة لما كان للخليفة بعدها وجود « **وما الملك الا التغلب والحكم بالقهر** » كما قال ابن خلدون (٥٥) . « ومن كلام أنو شروان فى هذا المعنى بعينه ، **الملك بالجند** ، وينسب الى أرسطو ، **الملك نظام يعضده الجند** » (٥٦) .

(٨) **طبيعى أن الملك فى كل أمة لايقوم الا على الغلب والقهر** . « فان الملك منصب شريف ملذوذ ، يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية ، والشهوات البدنية ، والملاذ النفسانية ، فيقع فيه التنافس غالبا ، وقل أن يسلمه أحد لصاحبه الا اذا غلب عليه » (٥٧) ، **وطبيعى فى الامم الاسلامية بنوع خاص أن لا يقوم فيهم ملك ، الا بحكم الغلب والقهر أيضا.** فان الاسلام هو الدين الذى لم يكتف بتعليم اتباعه فكرة الاخاء والمساواة ، وتلقينهم مذهب أن الناس سواسية كأسنان المشط وأن عبيدكم الذين هم ملك يمينكم اخوانكم فى الدين ، وأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض . لم يكتف الاسلام بتعليم اتباعه ذلك المذهب تعليما نظريا مجردا ، ولكنه أخذ المسلمين به أخذا عمليا ، وأدبهم به تأديبا ، ومرنهم عليه تمرينا ، وشرع لهم الاحكام قائمة على الاخوة والمساواة وأجرى عليهم الواقعات ، وأراهم الحادثات ، فأحسوا بالاخوة احساسا ، ولمسوا المساواة لمسا ، ولم يتركهم رسولهم الامين [صلعم] الا من بعد ما طبع قلوبهم على ذلك الدين وأشربها ذلك المذهب ، ولم تقم دولتهم الا حين كان ينادى أحدهم خليفته فوق المنبر ، لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا من الطبيعى فى أولئك المسلمين الذين يدينون بالحرية رأيا ، ويسلكون مذاهبها عملا . ويأنفون الخضوع الا لله رب العالمين ، ويناجون ربهم بذلك الاعتقاد فى كل يوم سبع عشرة مرة على الاقل ، فى خمسة أوقاتهم للصلاة . **من الطبيعى فى أولئك الاباة الاحرار أن يأنفوا الخضوع لرجل منهم أو من غيرهم ذلك الخضوع الذى يطالب به الملوك رعيتهم: الا خضوعا للقوة ، ونزولا على حكم السيف القاهر** . فذلك ما ذكرنا من ان الخلافة فى الاسلام لم ترتكز الا على اساس القوة الرهيبة ، وأن تلك القوة كانت الا فى النادر قوة مادية مسلحة .. انه لا يعنينا كثيرا ان نعرف السر كله فى ذلك . وقد يكون السر هو ما ذكرنا ، وربما كانت ثمة اسباب أخرى غير ما ذكرنا ، وانما الذى يعنينا فى هذا المقام هو أن نقرر لك **أن ارتكاز الخلافة على القوة حقيقة واقعة لا ريب فيها** . وسيان عندنا بعد ذلك أن يكون هذا الواقع المحسوس جاريا على نواميس العقل أم لا ، وموافقا لاحكام الدين أم لا . لا معنى لقيام الخلافة على القوة والقهر الا ارصادهما لمن يخرج على مقام الخلافة ، أو يعتدى عليه ، واعداد السيف لمن يمس بسوء ذلك العرش ، ويعمل على زلزلة قوائمه ، وانت تستطيع أن تدرك مثلا لذلك فى قصة البيعة ليزيد ، حين قام أحد (٥٨) الدعاة الى تلك البيعة خطيبا فى الحفل ، فأوجز البيان فى بضع كلمات لم تدع لذى اربة فى القول جدا ولا هزلا ، قال : « أمير المؤمنين هذا » ــ وأشار الى معاوية ــ « فان هلك فهذا » ــ وأشار الى يزيد ــ « فمن أبى فهذا » ــ وأشار الى سيفه .

(٩) كل شىء يؤخذ بحد السيف ويحمى بحده يكون عزيزا على النفس ، لا يهون التسامح فيه ، ولا التنازل عن شىء منه . وناهيك بمقام السيادة والسلطان فهو عزيز على النفس ، حتى ولو جاء من غير عمل السيف ، فاذا جاء من طريق القوة والغلب كانت النفس به أشد تعلقا ، وفى الدفاع عنه أشد تفانيا ،

---

[٥٣] الخلافة للسيد محمد رشيد رضا ص ٢٤ ــ ٢٥

[٥٤] كتبنا ذلك يوم كانت الخلافة فى تركيا . وكان الخليفة محمد الخامس ، وقد ذهبت بعد ذلك الخلافة من تركيا ، وذهب محمد الخامس وغير محمد الخامس من الخلفاء ، لما ذهبت تلك القوة التى قلنا انها اساس الخلافة .

[٥٥] المقدمة ص ١٣٢

[٥٦] مقدمة ابن خلدون ص ٣٨

[٥٧] مقدمة ابن خلدون ص ١٤٦

[٥٨] فى الجزء الثانى من العقد الفريد لابن عبد ربه ص ٣٠٧ ان معاوية بن ابى سفيان ، لما اراد اخذ البيعة ليزيد ، كتب فى سنة خمس وخمسين الى سائر الامصار ان يفدوا عليه ، فوفد عليه من كل مصر قوم ، فجلس فى اصحابه واذن للوفود ، فدخلوا عليه ، وقد تقدم الى اصحابه ان يقولوا فى يزيد ، فتكلم جماعة منهم ، ثم قام يزيد بن المقفع فقال : « امير المؤمنين هذا » الى آخر الجملة المذكورة فوق ، فقال معاوية : « اجلس فانك سيد الخطباء » ا . هـ ملخصا .

وكانت غيرتها عليه أكثر من الغيرة على المال والحرم ، وولعهما به فوق الولع بكل ما في الدنيا من خيرات ونعم.

(١٠) واذا كان في هذه الحياة الدنيا شيء يدفع المرء الى الاستبداد والظلم ، ويسهل عليه العدوان والبغي ، فذلك هو مقام الخلافة ، وقد رأيت أنه اشهى ماتتعلق به النفوس ، واهم ما تغار عليه .. واذا اجتمع الحب البالغ والغيرة الشديدة ، وامدتهما القوة الغالبة ، فلا شيء الا العسف ، ولا حكم الا السيف دع عنك كل ذلك الحديث الذى نسوقه اليك قواعد عامة ، ونظريات مجردة ، ودونك وقائع التاريخ ثابتة في لوح محفوظ . أفهل غير حب الخلافة والغيرة عليها ، ووفرة القوة ، دفعت يزيد ابن معاوية الى استباحة ذلك الدم الذكى الشريف ، دم الحسين بن فاطمة بنت رسول الله [صلعم] . وهل غير تلك العوامل سلطت يزيد بن معاوية على عاصمة الخلافة الاولى ، ينتهك حرمتها، وهى مدينة الرسول [صلعم] . وهل استحل عبد الملك بن مروان بيت الله الحرام ووطىء حماه ، الا حبا في الخلافة وغيرة عليها ، مع توافر القوة له . وهل بغير تلك الاسباب صار أبو العباس عبد الله بن محمد بن على ابن عبد الله بن العباس ، سفاحا ، وما كانت الا دماء المسلمين ، وما كان بنو أمية الا من قومه . كذلك تناحر بنو العباس أيضا ، وبغى بعضهم على بعض ، وفعل بنو سبكتكين مثل ذلك ، وحارب الصالح نجم الدين الايوبى أخاه العادل ابا بكر بن الكامل ، فخلعه وسجنه، وامتلات دولتا المماليك والجراكسة بخلع الملوك وقتلهم . كل ذلك لم يكن الا أثرا من آثار حب الخلافة والغيرة عليها ، ومن وراء الحب والغيرة قوة قاهرة ، وكذلك القول في دولة آل عثمان (٥٩) .

(١١) الغيرة على الملك تحمل الملك على أن يصون عرشه من كل شيء قد يزلزل أركانه ، او ينقص من حرمته ، أو يقلل من تدسيته ، **لذلك كان طبيعيا أن يستحيل الملك وحشا سفاحا ، وشيطانا ماردا ، اذا ظافرت بداه بمن يحاول الخروج عن طاعته ، وتقويض كرسيه . وانه لطبيعى كذلك في الملك أن يكون عدوا لدودا لكل بحث ولو كان علميا بتخيل انه قد يمس قواعد ملكه أو يريح من تلقائه ريح الخطر ، ولو كان بعيدا . من هنا نشأ الضغط الملوكى على حرية العلم ، واستبداد الملوك بمعاهد التعليم ، كلما وجدوا الى ذلك سبيلا ، ولا شك ان علم السياسة هو من اخطر العلوم على الملك ، بمايكشف من أنواع الحكم وخصائصه وانظمته الى آخره . لذلك كان حتما على الملوك أن يعادوه وأن يسدوا سبيله على الناس.**
ذلك تأويل ما يلاحظ من قصور النهضة الاسلامية في فروع السياسة ، وخلو حركة المسلمين العلمية من مباحثها ، ونكوص العلماء عن التعرض لها ، على النحو الذى يليق بذكائهم ، وعلى النحو الذى تعرضوا به لبقية العلوم .

(١٢) لسنا نعجب والامر ما قد عرفت، من ضعف الحركة العلمية السياسية عند المسلمين ، ولا من انحطاط شأن السياسة عندهم ، ولكن العجب هو أن لا يموت بينهم ذلك العلم ، وأن لا يقضى عليه القضاء كله . العجب العجيب هو أن يتسرب من خلال ذلك الضغط الخانق ، والقوة المترصدة ، والبأس المحيط ، بعض مباحث السياسة في مجالس العلم، وان يعرف لبعض قليل من العلماء ، رأى في مسألة سياسية على غير ما يهوى الخلفاء . لو وضعنا هذا الكتاب كله في بيان الضغط الملوكى الاسلامى على كل علم سياسي ، وكل حركة سياسية ، أو نزعة سياسية ، لضاق هذا الكتاب واضعافه عن استيعاب القول في ذلك ، ثم لعجزنا من بيانه على وجه كامل ، فحسبنا الان تلك الاشارة المجملة ، وعسى ان يمر بك قريبا بعض مايتصل بهذا البحث ، ونعود بك الان الى حيث كنا عند قولهم « ان الامة قد اجمعت على نصب الامام فكان ذلك اجماعا دالا على وجوبه » . [وثبت عندنا أن الامة بجملتها وتفصيلها قد اشتركت بالفعل في كل عصر في بيعة الامامة واعترفت بها ، فكان ذلك اجماعا صريحا، لو نقل الينا ذلك لانكرنا أن يكون اجماعا حقيقيا، ولرفضنا أن نستخلص منه حكما شرعيا ، وان نتخذه حجة في الدين . وقد عرفت من قصة يزيد كيف كانت تؤخذ البيعة ، ويغتصب الاقرار . وانتظر قليلا فلدينا مزيد . تذكرنا قصة يزيد ابن معاوية بقصة فيصل ابن حسين ابن على ، كان أبوه حسين بن على أحد امراء العرب ، الذين انحازوا في الحرب العظمى الى جانب الحلفاء ، خروجا على الترك ، وعلى سلطان الترك خليفة المسلمين ، فقام أولاده في بلاد العرب وفي حوانيها ينصرون جيوش الحلفاء نصرا مبينا ، ويخذلون اعداءهم من الترك والالمان وغيرهم ، وامتاز فيصل ، أحد أولئك الاولاد ، بالزلفى من الانجليز لحسن بلائه في مساعدتهم ، واخلاصه في خدمتهم ، فعينوه ملكا على الشام . ولم يكد يستقر بها حتى هاجمت ملكه جيوش الفرنسيين ، فولى فيصل هاربا، تاركا مملكته وعرشه وغيرهما ، حتى وصل الى انجلترا ، ومن هناك حمله الانجليز الى بلاد العراق ، ونصبوه عليها ملكا ، وقد زعم الانجليز ان أهل الحل والعقد من أمة العراق انتخبوا فيصلا ليكون ملكا عليهم بالاجماع ، اللهم الا ان يكون قد خالف في ذلك نفر قليل لا يعتد بهم ، كأولئك الذين دعاهم ابن خلدون من قبل بالشواذ . ولعمرك ما كذب الانجليز ، فانهم قد عملوا انتخابا ، له كل مظاهر الانتخاب الحر القانونى ، وأخذوا يومئذ رأى الكثيرين من أهل الزعامة في العراق ، فكان رأيهم أن ينتخبوا فيصلا ملكا عليهم . ولكن مما لا شك عندك فيه أن « هذا » الذى أخذ به خطيب معاوية البيعة ليزيد، هو عينه « هذا » الذى أخذ به الانجليز اجماع العراقيين لامامة فيصل. أفهل تسمى ذلك اجماعا ! . لو ثبت الاجماع الذى زعموا لما كان اجماعا يعتد به ، فكيف وقد قالت الخوارج لا يجب نصب الامام أصلا (٦٠) ، وكذلك قال الاصم من المعتزلة ، وقال غيرهم أيضا ، كما سبقت الاشارة اليه . وحسبنا في هذا المقام نقضا لدعوى الاجماع ان يثبت عندنا خلاف الاصم والخوارج وغيرهم ، وان قال ابن خلدون انهم شواذ .

(١٣) عرفت أن الكتاب الكريم قد تنزه عن ذكر الخلافة والاشارة اليها ، وكذلك السنة النبوية قد أهملتها ، وأن الاجماع لم ينعقد عليها ، أفهل بقى لهم من دليل في الدين غير الكتاب أو السنة أو الاجماع؟ نعم بقى لهم دليل آخر لا نعرف غيره ، هو آخر ما يلجأون اليه ، وهو أهون ادلتهم وأضعفها .

قالوا أن الخلافة تتوقف عليها اقامة الشعائر الدينية وصلاح الرعية الخ .

(١٤) المعروف الذى ارتضاه علماء السياسة أنه لا بد لاستقامة الامر في امة متمدينة ، سواء أكانت ذات دين أم لا دين لها ، وسواء أكانت مسلمة أم مسيحية أم يهودية أم مختلطة الاديان، لابد لامة منظمة مهما كان معتقدها ، ومهما كان جنسها ولونها ولسانها ، من حكومة تباشر شئونها ، وتقوم بضبط الامر فيها ، قد تختلف اشكال الحكومة وأوصافها بين دستورية واستبدادية ، وبين جمهورية وبولشيفية

---

[٥٩] راجع في هذا البحث ايضا كتاب الخلافة للسير اربولد .
[٦٠] المواقف ص ٤٦٣

وغير ذلك . قد يتنازع علماء السياسة في تفضيل نوع من الحكومة على نوع آخر . ولكنا لانعرف لاحد منهم ولا من غيرهم نزاعا في أن أمة من الامم لا بد لها من نوع ما من أنواع الحكم . ولهم على ذلك أدلة ليس من غرضنا هنا أن نعرض لها ، فليس ذلك بموضعها ، على أننا لا نشك في أن ذلك الرأى في جملته صحيح ، وأن الناس لا يصلحون فوضى لاسراة لهم ، ولعل أبا بكر رضى الله تعالى عنه . انما كان يشير الى ذلك الرأى حينما قال في خطبته التى سبقت الاشارة اليها « لا بد لهذا الدين ممن يقوم به » ولعل الكتاب الكريم ينحو ذلك المذهب أحيانا ، قال تعالى في سورة الزخرف (أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون) . وقال تعالى في سورة المائدة (وليحكم أهل الانجيل مما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون. وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات ، الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك ، فان تولوا فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وان كثيرا من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون . يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين . الخ) .

(١٥) يمكن حينئذ أن يقال بحق ان المسلمين، اذا اعتبرناهم جماعة منفصلين وحدهم ، كانوا كغيرهم من أمم العالم كله ، محتاجين الى حكومة تضبط أمورهم، وترعى شئونهم . ان يكن الفقهاء أرادوا بالامامة والخلافة ذلك الذى يريده علماء السياسة بالحكومة كان صحيحا مايقولون من أن اقامة الشعائر الدينية ، وصلاح الرعية ، يتوقفان على الخلافة ، بمعنى الحكومة ، في أى صورة كانت الحكومة، ومن أى نوع ، مطلقة أو مقيدة ، فردية أو جمهورية ، استبدادية أو دستورية أو شورية ، ديمقراطية أو اشتراكية أو بلشفية . لا ينتج لهم الدليل أبعد من ذلك . أما ان أرادوا بالخلافة ذلك النوع الخاص من الحكم الذى يعرفون فدليلهم أقصر من دعواهم ، وحجتهم غير ناهضة .

(١٦) الواقع المحسوس الذى يؤيده العقل ، ويشهد به التاريخ قديما وحديثا أن شعائر الله تعالى ومظاهر دينه الكريم لا تتوقف على ذلك النوع من الحكومة الذى يسميه الفقهاء خلافة . ولا على أولئك الذين يلقبهم الناس خلفاء . والواقع أيضا أن صلاح المسلمين في دنياهم لا يتوقف على شيء من ذلك. **فليس بنا من حاجة الى تلك الخلافة لامور ديننا ولا لامور دنيانا** . ولو شئنا لقلنا أكثر من ذلك . فانما كانت الخلافة ولم تزل نكبة على الاسلام وعلى المسلمين وينبوع شر وفساد ، وربما بسطنا لك ذلك بعد ، أما الان فحسبنا أن نكشف لك من الواقع المحسوس لتؤمن بأن ديننا غنى عن تلك الخلافة الفقهية ، ودنيانا كذلك .

(١٧) علمت مما نقلنا لك من ابن خلدون « أنه قد ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب ، وفناء جيلهم ، وتلاشى أحوالهم ، وبقى الامر ملكا بحتا ... وليس للخليفة منه شيء » أفهل علمت أن شيئا من ذلك قد صدع أركان الدين ، وأضاع مصلحة المسلمين، على وجه كان يمكن للخلافة أن تتلافاه لو وجدت . منذ منتصف القرن الثالث الهجرى أخذت الخلافة الاسلامية تنقص من أطرافها ، حتى لم تعد تتجاوز ما بين لابتى دائرة ضيقة حول بغداد « وصارت (٦١) خراسان وما وراء النهر لابن سامان وذريته من بعده ، وبلاد البحرين للقرامطة ، واليمن لابن طباطبا، وأصفهان وفارس لبنى بويه ، والبحرين وعمان لفرع من عائلة القرامطة ، قد أسس فيها دولة مستقلة ... والاهواز وواسط لمعز الدولة ، وحلب لسيف الدولة ، ومصر لاحمد بن طولون ، ومن بعده للملوك الذين تغلبوا عليها وامتلكوها واستقلوا بأحكامها ، كالاخشيديين والفاطميين والايوبيين والمماليك وغيرهم» حصل ذلك فما كان الدين أيامئذ في بغداد مقر الخلافة خيرا منه في غيرها من البلاد التى انسلخت من الخلافة ، ولا كانت شعائره أظهر ، ولا كان شأنه أكبر ، ولا كانت الدنيا في بغداد أحسن ، ولا شأن الرعية أصلح .

(١٨) هوت الخلافة عن بغداد ، في منتصف القرن السابع الهجرى ، حين هاجمها التتر ، وقتلوا الخليفة العباسى المستعصم بالله ، وقتلوا معه أهله وأكابر دولته « وبقى (٦٢) الاسلام ثلاث سنوات بدون خليفة » .

(١٩) وكان الملك في مصر يومئذ للظاهر بيبرس ، ولامر ما أخذ ذلك الداهية ينبش بين مصارع العباسيين ، حتى أعثره الحظ برجل ، زعموا أنه من فلول الخلافة العباسية ، ومن أنقاض بيتها ، أوكذلك أراده الظاهر أن يكون ، فأنشأ منه بيتا للخلافة في مصر ، يأخذ الظاهر بجميع مفاتيحه واغلاقه ، واتخذ هياكل سماها خلفاء المسلمين ، وحمل المسلمين على أن يدينوا لجلالتهم ، وفى يديه وحده أزمة تلك الهياكل ، وتصريف حركاتهم وسكناتهم ، وأطراف ألسنتهم ، ثم كانت تلك سنة الملوك الجراكسة في مصر بعد الظاهر ، الى أن أخذ الخلافة الملوك العثمانيون سنة ٩٢٣ هـ . هل كان في شيء من مصلحة المسلمين لدينهم أو دنياهم تلك التماثيل الشلاء ، التى كان يقيمها ملوك مصر ويلقبونها خلفاء ، بل تلك الاصنام يحركونها ، والحيوانات يسخرونها ؟ ثم ما بال تلك البلاد الاسلامية الواسعة غير مصر التى نزعت عنها ربقة الخلافة ، وأنكرت سلطانها ، وعاشت وما زال يعيش كثير منها بعيدا عن ظل الخلفاء ، ومن الخضوع الوثنى لجلالهم الدينى المزعوم؟ أرأيت شعائر الدين فيها دون غيرها أهملت ، وشئون الرعية عطلت ، أم هل أظلمت دنياهم لما سقط عنها كوكب الخلافة، وهل جفتهم رحمة الارض والسماء لما بان منهم الخلفاء ؟ كلا .

باتوا فما بكت الدنيا لصرعهم
ولا تعطلت الاعياد والجمع

(٢٠) معاذ الله ، لا يريد الله جل شأنه لهذا الدين ، الذى كفل له البقاء أن يجعل عزه وذله منوطين بنوع من الحكومة ، ولا بصنف من الامراء . ولا يريد الله جل شأنه لعباده المسلمين أن يكون صلاحهم وفسادهم رهن الخلافة، ولا تحت رحمة الخلفاء . الله جل شأنه أحفظ لدينه ، وأرحم بعباده .

عسى أن يكون فيما أسلفنا مقنع لك بأن تلك التى دعوها الخلافة أو الامامة العظمى لم تكن شيئا قام على أساس من الدين القويم ، أو العقل السليم ، وبأن ما زعموا أن يكون برهانا لها هو اذا نظرت وجدته غير برهان . ولعل من حقك علينا أن تسأل الان عن رأينا الخاص في الخلافة وفى منشئها . وان علينا أن نأخذ بك في بيان ذلك مستمدين من الله جل شأنه حسن المعونة والهدى والتوفيق .

---

[٦١] تاريخ الخلفاء ، ترجم من اللغة الفرنساوية بقلم نخله بك صالح شفوات ص ٦٤ وما بعدها .
[٦٢] تاريخ الخلفاء ص ٧٧ .

الكتاب الثانى

الحكـــــومة والاســـــلام

الباب الاولَ

نظام الحكم فى عصر النبوة

[١] لاحظنا اذ كنا نبحث عن تاريخ القضاء زمن النبى (صلعم) ، أن حال القضاء فى ذلك الوقت لا يخلو من غموض وابهام يصعب معهما البحث ، ولا يكاد يتيسر معهما الوصول الى رأى ناضج ، يتره العلم ، وتطيب به نفس الباحث .

لا شك فى أن القضاء بمعنى الحكم فى المنازعات وفضها ، كان موجودا فى زمن النبى [صلعم] ، كما كان موجودا عند العرب وغيرهم ، قبل أن يجىء الاســلام . وقد رفعت الى النبى [صلعم] خصومات فقضى فيها . وقال (صلعم) (٦٣) « أنكم تختصمون الى ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ، فمن قضيت له بحق أخيه شيئا بقوله ، فانما أقطع له قطعة من النار ، فلا يأخذها » . وفى التاريخ الصحيح شىء من قضائه عليه السلام فيما كان يرفع اليه ، ولكنا اذا اردنا أن نستنبط شيئا من نظامه [صلعم] فى القضاء نجد أن استنباط شىء من ذلك غير يسير ، بل غير ممكن ، لان الذى نقل الينا من أحاديث القضاء النبوى لا يبلغ أن يعطيك صورة بينة لذلك القضاء ولا لما كان له من نظام ، ان كان له نظام .

[٢] لاحظنا ان حال القضاء زمن النبى [صلعم] غامضة مبهمة من كل جانب ، حتى لم يكن من السهل على الباحث أن يعرف هل ولى [صلعم] . أحدا غيره القضاء أم لا . هنالك ثلاثة من الصحابة يعدهم جمهور العلماء ممن ولى القضاء فى زمن رسول الله [صلعم]. قال بعضهم (٦٤) : « وقد قلد رسول الله [صلعم] القضاء لعمر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب ، ومعاذ بن جبل رضى الله عنهم » ا هـ . وينبغى أن يضاف اليهم أبو موسى الاشعرى رضى الله عنه ، فقد كان فى عمله ، على ما يظهر ، نظيرا لمعاذ بن جبل سواء بسواء .

(٣) أما ان عمر رضى الله عنه تقلد القضاء فى زمن النبى [صلعم] ، فرواية غريبة من الجهة التاريخية ، ويظهر أنها انما أخذت بطريق الاستنتاج (٦٥) ، ففى سنن الترمذى : أن عثمان قال لعبد الله بن عمر : اذهب فاقض بين الناس . قال : أو تعافينى يا أمير المؤمنين ، قال : وما تكره من ذلك وقد كان أبوك يقضى ؟ قال : ان أبى كان يقضى فان أشكل عليه شىء سأل رسول الله [صلعم] ، فان أشكل على رسول الله [صلعم] سأل جبريل. وانى لا أجد من أسأله . الخ » .

(٤) وأما على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، فقد بعثه رسول الله [صلعم] ، الى اليمن ، وهو شاب ، ليقضى بينهم ... وروى أبو داود ، رحمه الله تعالى ، عن على بن أبى طالب ، رضى الله تعالى عنه ، قال بعثنى رسول الله [صلعم] ، الى اليمن قاضيا ، وأنا حديث السن ، ولا علم لى بالقضاء وقال : أن الله سيهدى قلبك ، ويثبت لسانك ، فاذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الاخر ، كما سمعت من الاول ، فانه أحرى أن يتبين لك القضاء . قال : فما زلت قاضيا ، وما شككت فى قضاء بعد . كذا ذكره أبو عمرو بن عبدالبر فى الاستيعاب . وقال أيضا : قال رسول الله [صلعم] فى أصحابه : « اقضاهم على بن أبى طالب » أهـ. والذى فى البخارى [٦٦] فيما يتصل بهذا الموضوع ، أن رسول الله [صلعم] بعث خالد بن الوليد الى اليمن قبل حجة الوداع ، مع جماعة من الصحابة ، وبعث عليا بعد ذلك مكانه ليقبض الخمس وقدم على من اليمن بسعايته الى مكة، والنبى (صلعم) بها . ونقل على ابن برهان الدين الحلبى (٦٧) أن رسول الله [صلعم] ، بعث عليا كرم الله وجهه فى سرية الى اليمن ، فأسلمت همدان كلها فى يوم واحد ، فكتب بذلك الى رسول الله [صلعم] ، فلما رأى كتابه خر ساجدا ، ثم جلس ، فقال : السلام على همدان ، وتتابع أهل اليمن الى الاسلام . وهذه هى السرية الاولى : والسرية الثانية بعث فيها رسول الله [صلعم] عليا ، كرم الله وجهه الى بلاد مذحج من أرض اليمن فى ثلاثمائة فارس ، فغزاهم .. وجمع الغنائم .. ثم رجع على كرم الله وجهه ، فوافى النبى [صلعم] بمكة ، قدمها لحجة الوداع . الخ ..

[٥] « وأما معاذ بن جبل [٦٨] فقد بعثه رسول الله [صلعم] قاضيا الى الجند من اليمن ، يعلم الناس القرآن ، وشرائع الاسلام ، ويقضى بينهم ، وجعل له قبض الصدقات من العمال ، الذين باليمن ، وذلك عام فتح مكة فى السنة الثامنة من الهجرة ، والجند ، بفتح الجيم والنون معا ، بلدة باليمن » . وقال البخارى [٦٩] فى هذا الموضوع : بعث رسول الله [صلعم] أبا موسى ومعاذ بن جبل الى اليمن ، قال وبعث كل واحد منهما على مخلاف ، واليمن مخلافان ، ثم قال : يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا . وفى حديث آخر للبخارى ، أنه قال لمعاذ بن جبل : انك ستأتى قوما من أهل الكتاب ، فاذا جئتهم فادعهم الى ان يشهدوا أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فان هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم ان الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، فان هم أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله

---

(٦٣) البخارى فى كتاب الشهادات ص ١٧٠ جـ ٣ .

[٦٤] هو رفاعه بك رافع فى كتابه نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز ص ٤٢٩ نقلا عن كتاب تخريج الدلالات السمعية

(٦٥) نهاية الايجاز ص ٤٢٩ .

(٦٦) راجع الجزء الخامس ص ١٦٣ـ ١٦٤ بعث على بن ابى طالب عليه السلام وخالد بن الوليد رضى الله عنه الى اليمن قبل حجة الوداع ـ صحيح البخارى .

(٦٧) راجع السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨

(٦٨) نهاية الايجاز

(٦٩) صحيح البخارى جـ ٥ ص ١٦١ـ ١٦٣ .

قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فان هم أطاعوا لك بذلك فاياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب . ويقرب من هذا رواية السيد أحمد زيني دحلان في السيرة النبوية (٧٠) قال : « بعث صلى الله عليه وسلم أبا موسى الاشعرى ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما الى اليمن قبل حجة الوداع ، في السنة العاشرة ، وقيل في التاسعة .. وقيل عام الفتح سنة ثمان ، وكل واحد منهما على مخلاف ، وكان جهة معاذ العليا صوب عدن ، وكان من عمله الجند . وكانت جهة أبي موسى السفلى » اهـ [٧١] وأخرج أحمد وأبو داود والترمذى وغيرهم ، من حديث الحارس بن عمرو ، ابن أخى المغيرة بن شعبة ، قال حدثنا ناس من أصحاب معاذ عن معاذ ، قال لما بعثه النبى [صلعم] الى اليمن قال : كيف تقضى اذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بكتاب الله ، قال : فان لم تجد في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ، قال : فان لم تجد في سنة رسول الله ولا في كتاب الله ؟ قال : اجتهد رأيي ولا آلو . قال : فضرب رسول الله [صلعم] صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضاه رسول الله » اهـ .

[٦] تلك الروايات المختلفة التى قصصنا عليك نموذجا منها ، تريك كيف يسوغ لنا أن نستنتج ماقلناه لك قبل ، من أنه لاتتيسر الاحاطة بشيء كثير من أحوال القضاء في زمن النبى [صلعم] وها أنت ذا قد رأيت كيف اختلفت الروايات عن حادثة واحدة بعينها . فبعث على الى اليمن يرويه أحدهم انه تولية للقضاء ، ويروى الاخر أنه كان لقبض الخمس من الزكاة ، ومعاذ ابن جبل كذلك ، ذهب الى اليمن قاضيا في رأى ، وغازيا في رأى ، ومعلما في رأى . ونقل صاحب السيرة النبوية [٧٢] خلافا في ان معاذا كان واليا أو قاضيا « فقال ابن عبد البر انه كان قاضيا ، وقال الغسانى انه كان أميرا على المال ، وحديث ابن ميمون فيه التصريح بأنه كان أميرا على الصلاة . وهذا يرجح انه كان واليا . » اهـ .

[٧] وأن البحث العميق فيما كان عليه القضاء زمن النبى [صلعم] ، واطالة التفكير في ذلك ، وحسن التفهم لما وصل الينا متصلا بهذا الموضوع من الاحاديث والاخبار ، كل أولئك يدفعنا الى البحث بوجه عام في نظام الحكومة الاسلامية ، أيام النبى [صلعم] ، وفي كيفية تدبير ذلك الملك الاسلامى ، ان ساغ لنا بحق أن نسمى مافتح الله لنبيه من البلاد دولة وملكا . ذلك بأننا وجدنا عند البحث في نظام القضاء في عصر النبوة أن غير القضاء أيضا من أعمال الحكومات ووظائفها الاساسية لم يكن في أيام الرسالة موجودا على وجه واضح لا لبس فيه ، حتى يستطيع باحث منصف أن يذهب الى ان النبى [صلعم] لم يعين في البلاد التى فتحها الله له ولاة مثلا لادارة شئونها ، وتدبير أحوالها وضبط الامر فيها . وما يروى من ذلك فكله عبارة عن توليته أميرا على الجيش ، أو عاملا على المال ، أو اماما للصلاة ، أو معلما للقرآن ، أو داعيا الى كلمة الاسلام ، ولم يكن شيء من ذلك مطردا ، وانما كان يحصل لوقت محدود ، كما ترى فيمن كان يستعملهم [صلعم] على البعوث والسرايا ، أو يستخلفهم على المدينة اذا خرج للغزو . اذا نحن تجاوزنا عمل القضاء والولاية الى غيرهما من الاعمال ، التى لايكمل معنى الدولة الا بها ، كالعمالات التى تتصل بالاموال ومصارفها « المالية » وحراسة الانفس والاموال « البوليس » وغير ذلك مما لاتقوم بدونه أقل الحكومات وأعرقها في البساطة ، فمن المؤكد اننا لانجد فيما وصل الينا من ذلك عن زمن الرسالة شيئا واضحا يمكننا ونحن مقتنعون ومطمئنون ، أن نقول انه كان نظام الحكومة النبوية .

[٨] ومما قد يستأنس به في هذا الموضوع ، اننا لاحظنا أن عامة المؤلفين ، من رواة الاخبار يعنون في الغالب ، اذا ترجموا لخليفة من الخلفاء أو ملك من الملوك ، بذكر عماله من ولاة وقواد وقضاة الخ ويفردون لهم بحثا خاصا ، يدل على أنهم عرفوا تمام قيمة ذلك البحث من الجهة العلمية ، فصرفوا من الجهد فيه والعناية به مايناسبه ، ولكنهم في تاريخ النبى [صلعم] ، أن عالجوا ذلك بالبحث رأيتهم يزجون الحديث فيه مبعثرا غير متسق ، ويخوضون غمار ذلك البحث على نسق لا يماثل طريقتهم في بحث بقية العصور . مارأينا مؤرخا شذ من ذلك ، اللهم الا مانقله الكبعدمن رفاعه بك رافع الطهطاوى [٧٣] في كتابه نهاية الايجاز في سيرة ساكن الحجاز ، نقلا عن صاحب كتاب تخريج الدلالات السمعية .

[٩] كلما أمعنا تفكيرا في حال القضاء زمن النبى [صلعم] وفي حال غير القضاء أيضا ، من أعمال الحكم ، وأنواع الولاية ، وجدنا ابهاما في البحث يتزايد ، وخفاء في الامر يشتد . ثم لاتزال حيرة الفكر تنقلنا من لبس الى لبس ، وتردنا من بحث الى بحث ، الى أن ينتهى النظر بنا الى غاية ذلك المجال المشتبه الحائر . واذا نحن ازاء عويصة أخرى هي كبرى تلكم المعضلات ، وهى منشأ مالقينا من حيرة واضطراب هي الاصل وما عداها فروع ، وهى الام وما عداها تبع . تلك مشكلة اذا وفق العقل لحلها فقد هانت من بعدها المشاكل ، وانجلى كل لبس وابهام . اننا لنقترب بك الى هذه المشكلة ونحن نقدم رجلا ونؤخر أخرى ، أما أولا : فلان حلها عسير ، ومزالق الفكر فيها كثيرة . وما لم يكن عون من الله تعالى أى عون فلا أمل في الوصول الى وجه الصواب فيها . وأما ثانيا : فلان المغامرة في بحث هذا الموضوع قد تكون مثارا لغارة يشب نارها أولئك الذين لايعرفون الدين الا صورة جامدة ، ليس للعقل ان يحوم حولها ، ولا للرأى ان يتناولها . ولكنا نستعين بالله تعالى ونرجو منه جل شأنه حسن التوفيق ، عسى أن نكشف لك ما غمض ، ونفتح عليك ما استغلق ، ونصل بك الى الحق أبلج الوجه ، واضح الغرة ، ان شاء الله ، فاعلم ان المسألة الان هى أن النبى [صلعم] كان صاحب دولة سياسية ورئيس حكومة كما كان رسول دعوة دينية وزعيم وحدة دينية أم لا ؟

الباب الثاني :

الرسالة والحكم

١ — لايهولنك البحث في ان الرسول « صلعم » كان ملكا أم لا ، ولا تحسبن

---

(٧٠) المطبوعة على هامش السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٣٦٧ — ٣٦٨

(٧١) منقول من « كتاب ارشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الاصول للشوكاني ص ١٨٨ . وقال المؤلف (محمد ابن على محمد الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٥ هـ) عن هذا الحديث : ان الكلام في اسناده يطول . وقد قيل انه مما تلقى بالقبول .

(٧٢) راجع السيرة النبوية لدحلان المطبوعة على هامش السيرة الحلبية ص ٣٦٨ جـ ٣ .

(٧٣) رفاعه بن بدوى بن على بن محمد بن رافع . ويتصل نسبه بمحمد الباقر بن على زين العابدين . توفى سنة ١٢٩٠ هـ — من كتاب اكتفاء القنوع .

أن ذلك البحث ذو خطر فى الدين قد يخشى شره على ايمان الباحث ، فالامر ، ان فطنت اليه ، أهون من أن يخرج مؤمنا من حظيرة الايمان ، بل هو أهون من أن يزحزح المتقى عن حظيرة التقوى ». وانما قد يبدو لك الامر خطيرا لانه يتصل بمقام النبوة ، ويرتبط بمركز الرسول « صلعم » ، ولكنه على ذلك لايمس فى الحقيقة شيئا من جوهر الدين، ولا أركان الاسلام ، وربما كان ذلك البحث جديدا فى الاسلام لم يتناوله المسلمون من قبل على وجه صريح ، ولم يستقر للعلماء فيه رأى واضح ، واذا فليس بدعا فى الدين ، ولاشذوذا عن مذاهب المسلمين ، أن يذهب باحث الى أن النبى « صلعم » كان رسولا وملكا ، وليس بدعا ولا شذوذا أن يخالف فى ذلك مخالف ، فذلك بحث خارج عن دائرة العقائد الدينية التى تعارف العلماء بحثها ، واستقر لهم فيها مذهب، وهو أدخل فى باب البحث العلمى منه فى باب الدين ، فاقدم ولا تخف ، انك من الامنين .

٢ — انت تعلم أن الرسالة غير الملك ، وانه ليس بينهما شىء من التلازم بوجه من الوجوه ، وان الرسالة مقام والملك مقام آخر ، فكم من ملك ليس نبيا ولا رسولا ، وكم لله جل شأنه من رسل لم يكونوا ملوكا ». بل ان أكثر من عرفنا من الرسل انما كانوا رسلا فحسب ، ولقد كان عيسى بن مريم عليه السلام رسول الدعوة المسيحية ، وزعيم المسيحيين ، وكان مع هذا يدعو الى الاذعان لقيصر ، ويؤمن بسلطانه ». وهو الذى أرسل بين أتباعه تلك الكلمة البالغة [٧٤] « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » . وكان يوسف بن يعقوب عليه السلام ، عاملا من العمال ، فى دولة الريان بن الوليد ، فرعون مصر ، ومن بعده كان عاملا لقابوس بن مصعب [٧٥] . ولا نعرف فى تاريخ الرسل من جمع الله له بين الرسالة والملك الا قليلا ». فهل كان محمد [صلعم] ممن جمع الله له بين الرسالة والملك، أم كان رسولا غير ملك ؟

٣ — لانعرف لاحد من العلماء رأيا صريحا فى ذلك البحث، ولانجد من تعرض للكلام فيه ، بحسب ما أتيح لنا . ولكنا قد نستطيع بطريق الاستنتاج أن نقول ان المسلم العامى يجنح غالبا الى اعتقاد أن النبى « صلعم » كان ملكا رسولا ، وأنه أسس بالاسلام دولة سياسية مدنية ، كان هو ملكها وسيدها ». لعل ذلك هو الرأى الذى يتلاءم مع ذوق المسلمين العام ، ومع ما يتبادر من أحوالهم فى الجملة ، ولعله أيضا هو رأى جمهور العلماء من المسلمين ، فانك تراهم ، اذا عرض لهم الكلام فى شىء يتصل بذلك الموضوع يميلون الى اعتبار الاسلام وحدة سياسية ، ودولة أسسها النبى « صلعم » وكلام ابن خلدون فى مقدمته ينحو هذا المنحى ، فقد جعل الخلافة التى هى نيابة عن صاحب الشرع فى حفظ الدين وسياسة الدنيا ، شاملة للملك ، والملك مندرجا تحتها [٧٦] ... الخ ».

٤ — وقد نقل المرحوم رفاعة بك رافع من كتاب تخريج الدلالات السمعية ما يشبه أن يكون صريحا فى ذلك الرأى، بل الواقع أنه صريح ، قال ما ملخصه [٧٧]: « ان من لم ترسخ فى المعارف قدمه ، وليس لديه من أدوات الطالب الا يداه وقلمه ، يحسب كثيرا من الاعمال السلطانية مبتدعا لا متبعا ، وان العامل على خطة دنيوية ، ليس عاملا فى عمالة سنية ، ويظن أن عمالته دنية . فلهذا جمعت ما علمته من تلك العمالات فى كتاب يوضح نشرها [٧٨] ، ويبين الامر لمن جهل أمرها ، فذكرت فى كل عمالة من ولاه عليها الرسول من الصحابة ، ليعلم ذلك من يليها الان ، فيشكر الله على أن استعمله فى عمل شرعى ، كان يتولاه من اصحاب رسول الله « صلعم » من صلح له ، وأقامه المولى فى ذلك مقامه » اهـ. ثم لخص رفاعه بك الكلام فى الوظائف والعمالات البلدية ، خصوصية وعمومية ، أهلية داخلية وجهادية التى هى عبارة عن نظام السلطنة الاسلامية وما يتعلق بها من الحرف والصنائع، والعمالات الشرعية على ما كان فى عهد رسول الله «صلعم» وما يضاف الى الامامة العظمى من الاعمال الاولية كالوزارة والحجابة وولاية البدن [٧٩] والسقاية [٨٠] والكتابة وما يضاف الى العمالات الفقهية من معلم القرآن ومعلم الكتابة ومعلم الفقه، والمفتى وامام الصلاة والمؤذن ». ... ثم ذكر التراجمة وكتاب الجيش والعطاء والديوان والزمام ، وبين أن للديوان أصلا فى عهد رسول الله « صلعم »، ثم ذكر العمالات المتعلقة بالاحكام كالامارة العامة على النواحى ، والقضاء وما يتعلق به من اشهاد الشهود وكتابة الشروط والعقود والمواريث والنفقات ، والقسام وناظر البناء للتحديد ، وذكر المحتسب والمنادى ، ومتولى حراسة المدينة ، والجاسوس لاهل المدينة ، والسجان ومقيمى الحدود ، ثم ذهب يعدد الاعمال الحكومية واحدا بعد واحد ، حتى لم يكد يدع شيئا ، وحتى قال رفاعه بك ان ذلك شىء لم يف به غالب مؤلفى كتب السير بل جميعهم .

٥ — لاشك فى أن الحكومة النبوية كان فيها بعض ما يشبه أن يكون من مظاهر الحكومة السياسية وآثار السلطنة والملك ».

٦ — أول ما يخطر بالبال مثلا من أمثلة الشئون الملكية ، التى ظهرت أيام النبى « صلعم » مسألة الجهاد ، فقد غزا « صلعم » المخالفين لدينه من قومه العرب ، وفتح بلادهم ، وغنم أموالهم، وسبى رجالهم ونساءهم ». ولا شك فى أنه « صلعم » قد امتد بصره الى ما وراء جزيرة العرب ، واستعد للانسياب بجيشه فى أقطار الارض ، وبدأ فعلا [٨١] يصارع دولة الرومان فى الغرب ، ويدعو الى الانقياد لدينه كسرى الفرس فى الشرق ، ونجاشى الحبشة ومقوقس مصر الخ .. وظاهر أول وهلة ان الجهاد لايكون لمجرد الدعوة الى الدين ، ولا لحمل الناس على الايمان بالله ورسوله، وانما يكون الجهاد لتثبيت السلطان ، وتوسيع الملك ». دعوة الدين دعوة الى الله تعالى ، وقوام تلك الدعوة لايكون الا بالبيان ، وتحريك القلوب بوسائل التأثير والاقناع . فأما القوة والاكراه فلا يناسبان دعوة يكون الغرض منها

---

(٧٤) انجيل متى من الاصحاح الثانى والعشرين آية « ٢١ » .
(٧٥) راجع تاريخ ابى الفداء جـ ١ ص ١٨ .
(٧٦) راجع المقدمة : فصل فى الخطط الدينية الخلافية ص ٢٠٦ وغيره
(٧٧) نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز ص ٣٥٠ طبع بمطبعة المعارف الملكية تحت نظارة قلم الروضية والمطبوعات سنة ١٢٩١ هـ .
(٧٨) النشر : الريح الطيبة .
(٧٩) البدن واحدتها بدنه ، وهى ناقة او بقر تنحر بمكة ١ هـ منه
(٨٠) سقاية الحاج .
(٨١) اشارة الى غزوة مؤتة وسرية اسامة بن زيد الى أبنى .

هداية القلوب ، وتطهير العقائد . وما عرفنا فى تاريخ الرسل رجلا حمل الناس على الايمان بالله بحد السيف ، ولا غزا قوما فى سبيل الاقناع بدينه ، وذلك هو نفس المبدأ الذى يقرره النبى « صلعم » فيما كان يبلغ من كتاب الله قال تعالى [٨٢] « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » وقال [٨٣] « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » وقال [٨٤] « فذكر انما انت مذكر لست عليهم بمسيطر » [٨٥] « فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعنى ، وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم ، فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد » [٨٦] « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » . تلك مبادىء صريحة فى أن رسالة النبى « صلعم » ، كرسالة اخوانه من قبل ، انما تعتمد على الاقناع والوعظ ، وما كان لها أن تعتمد على القوة والبطش ، واذا كان « صلعم » قد لجأ الى القوة والرهبة ، فذلك لايكون فى سبيل الدعوة الى الدين ، وابلاغ رسالته الى العالمين ، وما يكون لنا أن نفهم الا أنه كان فى سبيل الملك ، ولتكوين الحكومة الاسلامية ، ولا تقوم حكومة الا على السيف ، وبحكم القهر والغلبة ، فذلك عندهم هو سر الجهاد النبوى ومعناه .

٧ — قلنا أن الجهاد كان آية من آيات الدولة الاسلامية ، ومثالا من أمثلة الشئون الملكية ، واليك مثلا آخر : كان فى زمن النبى « صلعم » عمل كبير متعلق بالشئون المالية ، من حيث الايرادات والمصروفات ، ومن حيث جمع المال من جهاته العديدة « الزكاة والجزية والغنائم ... الخ » ومن حيث توزيع ذلك كله بين مصارفه ، وكان له « صلعم » سعاة وجباة ، يتولون ذلك له ، ولا شك أن تدبير المال عمل ملكى ، بل هو أهم مقومات الحكومات على انه خارج عن وظيفة الرسالة من حيث هى ، وبعيد عن عمل الرسل باعتبارهم رسلا فحسب .

٨ — وقد يكون من أقوى الامثلة فى هذا الباب ماروى الطبرى باسناده ، أن النبى « صلعم » وجه امارة اليمن وفرقها بين رجاله ، وأفرد كل رجل بحيزه واستعمل عمرو بن حزم على نجران ، وخالد بن سعيد بن العاص على ما بين نجران ورمع وزبيد ، وعامر ابن شهر على همدان ، وعلى صنعاء ابن باذام ، وعلى عك والاشعرين الطاهر بن أبى هالة ، وعلى مأرب ابا موسى الاشعرى ، وعلى الجند يعلى بن ابى أمية ، وكان معاذ معلما يتنقل فى عمالة كل عامل باليمن وحضرموت [٨٧] الخ هنالك كثير غير ماذكرنا قد وجد فى العصر النبوى ، مما يمكن اعتباره اثرا من آثار الدولة ، ومظهرا من مظاهر الحكومة ، ومخايل السلطنة ، فمن نظر الى ذلك من هذه الجهة . ساغ له القول بأن النبى « صلعم » كان رسول الله تعالى ، وكان ملكا سياسيا أيضا .

٩ — اذا ترجح عند بعض الناظرين اعتبار تلك الامثلة ، واطمأن الى الحكم بأنه « صلعم » كان رسولا وملكا ، فسوف يعترضه حينئذ بحث آخر جدير بالتفكير . فهل كان تأسيسه «صلعم» للمملكة الاسلامية ، وتصرفه فى ذلك الجانب شيئا خارجا عن حدود رسالته « صلعم » ، أم كان جزءا مما بعثه الله له وأوحى به اليه ؟ .. فأما ان المملكة النبوية عمل منفصل عن دعوة الاسلام ، وخارج عن حدود الرسالة ، فذلك رأى لانعرف فى مذاهب المسلمين مايشاكله ، ولا نذكر فى كلامهم مايدل عليه ، وهو على ذلك رأى صالح لان يذهب اليه ، ولا نرى القول به يكون كفرا ولا الحادا ، وربما كان محمولا على هذا المذهب مايراه بعض الفرق الاسلامية من انكار الخلافة فى الاسلام مرة واحدة . ولا يهولنك أن تسمع ان للنبى « صلعم » عملا كهذا خارجا عن وظيفة الرسالة ، وأن ملكه الذى شيده هو من قبيل ذلك العمل الدنيوى الذى لاعلاقة له بالرسالة ، فذلك قول ان انكرته الاذن لان التشدق به غير مألوف فى لغة المسلمين ، فقواعد الاسلام ، ومعنى الرسالة ، وروح التشريع ، وتاريخ النبى « صلعم » كل ذلك لايصادم رأيا كهذا ولا يستفظعه . بل ربما وجد مايصلح له دعامة وسندا ، ولكنه على كل حال راى نراه بعيدا .

١٠ — وأما أن المملكة النبوية جزء من عمل الرسالة متمم لها ، وداخل فيها ، فذلك هو الرأى الذى تتلقاه نفوس المسلمين فيما يظهر بالرضا ، وهو الذى تشير اليه أساليبهم ، وتؤيده مبادئهم ومذاهبهم ، ومن البين أن ذلك الرأى لايمكن تعقله الا اذا ثبت أن من عمل الرسالة أن يقوم الرسول ، بعد تبليغ الدعوة الالهية بتنفيذها على وجه عملى ، أى أن الرسول يكون مبلغا ومنفذا معا .

١١ — غير أن الذين بحثوا فى معنى الرسالة ، ووقفنا على مباحثهم ، أغفلوا دائما أن يعتبروا التنفيذ جزءا من حقيقة الرسالة ، الا ابن خلدون ، فقد جاء فى كلامه مايشير الى أن الاسلام دون غيره من الملل الاخرى قد اختص بأن جمع بين الدعوة الدينية وتنفيذها بالفعل ، وذلك المعنى ظاهر فى عدة مواضع من مقدمته التاريخية ، وقد بينه بنوع من البيان فى الفصل الذى شرح فيه اسم البابا والبطرك فى الملة النصرانية ، واسم الكوهن عند اليهود ، فقال : « اعلم ان الملة لابد لها من قائم عند غيبة النبى ، يحملها على أحكامها وشرائعها ، ويكون كالخليفة فيهم للنبى فيما جاء به من التكاليف . والنوع الانسانى أيضا ، بما تقدم من ضرورة السياسة فيهم للاجتماع البشرى ، لابد لهم من شخص يحملهم على مصالحهم ، ويزعهم عن مفاسدهم بالقهر ، وهو المسمى بالملك ، والملة الاسلامية لما كان الجهاد فيها مشروعا ، لعموم الدعوة وحمل الكافة على دين الاسلام طوعا أو كرها ، اتحدت فيها الخلافة بالملك ، لتوجه الشوكة من القائمين بها اليهما معا ، وأما ماسوى الملة الاسلامية فلم تكن دعوتهم عامة ، ولا الجهاد عندهم مشروعا ، الا فى المدافعة فقط ، فصار القائم بأمر الدين فيها لايعنيه شىء من سياسة الملك ، لانهم غير مكلفين بالتغلب على الامم الاخرى ، وانما هم مطلوبون باقامة دينهم فى خاصة أنفسهم » الخ . فهو كما ترى يقول ، ان الاسلام شرعى بتبليغى وتطبيقى ، وان السلطة الدينية اجتمعت فيه والسلطة السياسية ، دون سائر الاديان .

١٢ — لانرى لذلك القول دعامة ، ولا نجد له سندا ، وهو على ذلك ينافى معنى الرسالة ، ولا يتلاءم مع ماتقضى به طبيعة الدعوة الدينية كما عرفت ، وليكن ذلك القول صحيحا ، فقد بقى مشكل آخر عليهم ان يجدوا له جوابا ، وأن يلتمسوا منه مخرجا ، ذلك هو المشكل الذى بدانا عنده هذا البحث فدفعنا الى بحث آخر . اذا كان رسول الله « صلعم » قد أسس دولة سياسية او شرع فى تأسيسها ، فلماذا خلت

---

(٨٢) سورة البقرة .
(٨٣) سورة النحل .
(٨٤) سورة الغاشية .
(٨٥) سورة آل عمران .
(٨٦) سورة يونس .
(٨٧) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢١٤ .

دولته اذن من كثير من أركان الدولة ودعائم الحكم ؟ ولماذا لم يعرف نظامه فى تعيين القضاة والولاة ؟ ولمـاذا لم يتحدث الى رعيته فى نظام الملك وفى قواعد الشورى ؟ ولماذا ترك العلمـاء فى حيرة واضطراب من أمر النظـام الحكومى فى زمنه ؟ ولماذا ولمـاذا ! نريد أن نعرف منشأ ذلك الذى يبـدو للناظر كأنه ابهام أو اضطراب أونقص، او ماتشئت فسمه ، فى بنـاء الحكومة أيام النبى « صلعم » ، وكيف كان ذلك؟ وما سره ؟.. لعل أولئك الذين يصرون على اعتقادهم أن محمدا « صلعم » قام بدعوة الى دين جديد ، والى تأسيس دولة جديدة ، ويصرون على أن الدولة التى أنشأها النبى « صـلعم » كانت توضع أسسها ، وتدار شئونها ، وتنظم أمورها ، بوحى الله تعـالى أحكم الحاكمين ، ثم يضطرهم ذلك الى اعتقاد ان نظام الدولة زمن النبى « صلعم » بلغ غاية الكمال التى تعجز منها عقول البشر ، وترتد دونها أفـكارهم ، لعل أولئك اذا سئلوا عن سر هـذا الذى يبدو نقصا فى أنظمة الحكم ، وابهاما فى قواعده : قد يلتمسون للجواب احدى تلك الخطط التى سنأخذ الان فى بيانها.

١٣ ــ أما صاحب كتـاب تخـريج الدلائل السمعية ــ ويوافقـه رفاعة بك ــ فقد وجد له من ذلك المـأزق مخلصا سهلا ، فزعم أن الحكومة كانت تشتمل فى زمن النبى « صلعم » على كل مايلزم للدولة من عمال وأعمال ، وأنظمة مضبوطة ، وقواعد محدودة ، وسنن مفصلة تفصيلا ، لا مجال بعده لجديد ، ولا زيادة لمستزيد . وعسى أن لايكون بك حاجة الى اعادة هذا القول عليك بعدما سبق .

١٤ ــ قد يقول قائل يريد أن يؤيد ذلك المذهب بنوع من التأييد ، على طريقة أخرى : انه لا شىء يمنعنا من أن نعتقد أن نظام الدولة زمن النبى [صلعم] كان متينا ومحكما ، وكان مشتملا على جميع أوجه الكمال ، التى تلزم لدولة يدبرها رسول من الله ، ويؤيده الوحى وتؤازره ملائكة الله ، غير أننا لم نصل الى علم التفاصيل الحقيقية ، ودقـائق ما كانت عليه الحكومة النبوية ، من نظام بالغ ؟ وأحكام سابغ ؟ لأن الرواة قد تركوا نقل ذلك الينا ، أو أنهم نقلوه، ولكن غاب علمه عنا ، أو لسبب آخر [٨٨] « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

١٥ ــ تلك خطة لا ينبغى أن يرفضها لأول وهلة عقل العلماء ، فانه لا حرج على نفوسنا أن يخالطها الشك فى أننا نجهل كثيرا من شئون التاريخ النبوى ، بل الواقع أننا نجهل منه ومن غيره أكثر مما نعرف ، على أهل العلم أن يؤمنوا دائما بأن كثيرا من الحقائق محجوب عنهم ، وعليهم أن يدأبوا أبدا فى كشف مغيبها ، واستنباط الجديد منها ، ففى ذلك حياة العلم ونماؤه ، غير أن احتمال جهلنا ببعض الحقائق لا ينبغى أن يمنعنا من الوثوق بما علمنا منها ، واعتبارها حقائق علمية ، تبنى عليها الاحكام ، وتقيم المذاهب ، ونبين لها الاسباب ، ونستخلص منها النتائج ، حتى يظهر لنا ما يخالفها ويثبت ثبوتا علميا . لذلك نقول انه من المحتمل حقيقة أن يكون نظام الحكومة النبوية قد خفى علينا خبره وقد تكشف لنا الايام أنه كان المثل الاعلى فى الحكم ، ولكن ذلك الاحتمال لايمنعنا أن نعود ــ ولما ينكشف لنا بالفعل ما يخالف معلومنا ــ فنسأل من جديد عن منشأ ذلك الذى عرفنا الى الان من الابهام والاضطراب فى نظام الحكومة النبوية ، وعن سره ومعناه .

١٦ ــ هنالك خطة أخرى للجواب عن ذلك السؤال : ذلك أن كثيرا مما نسميه اليوم أركان الحكومة ، وأنظمة الدولة ، وأساس الحكم ، انما هى اصطلاحات عارضة ، وأوضاع مصنوعة ليست هى فى الواقع ضرورية لنظام دولة تريد أن تكون دولة البسـاطة ، وحكومة الفطرة ، التى ترفض كل تكلف ، وكل ما يمكن ملاحظته على الدولة النبوية يرجع عند التأمل الى معنى واحد ، ذلك هو خلوها من تلك المظاهر التى صارت اليوم عند علماء السياسة من أركان الحكومة المدنية ، وهى فى حقيقة الامر غير واجبة ، ولا يكون الاخلال بها حتما نقصا فى الحكم ، ولا مظهرا من مظاهر الفوضى والاختلال ، فذلك تأويل ما يلاحظ على الدولة النبوية مما قد يعد اضطرابا .

١٧ ــ كان محمد [صلعم] يحب البسـاطة ، ويكره التـكلف ، وعلى البساطة الخالصة التى لا شائبة فيها قامت حياته الخاصة والعامة ، كان يدعو الى البساطة فى القول والعمل ، كما فى حديثه مع جرير بن عبد الله البجلى [٨٩] « يا جرير اذا قلت فأوجز ، واذا بلغت حاجتك فلا تتكلف » كان يعاشر الناس من غير تكلف ، ويجرى معهم على منهج البساطة ، وقد « روى [٩٠] انه [صـلعم] كان يمـازح أصحابه » وعن ابن عباس رضى الله عنهما : كانت فى النبى [صـلعم] دعابة » وكان يقول لأصحابه : [٩١] « انى أكره أن أتميز عليكم ، فان الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه » . وروى أنه [صلعم] [٩٢] « ما خير بين أمرين الا اختار أيسرهما ما لم يكن اثما » ، وفى حديثه لأبى موسى الاشعرى ومعاذ ، وسبقت روايته « يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا » كان [صلعم] يكره الرياء والتكلف ، ويقول فى حجة الوداع [٩٣] « اللهم اجعله حجا مبرورا ، لا رياء فيه ولا سمعة » وقال الله تعالى مخاطبا له عليه السلام [٩٤] « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين » وكان فيما يبلغ من شريعة الله تعالى يأمر الناس بالقواعد البسيطة ، وينهاهم عن التكلف ، ويناديهم : « اذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » و « ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق » ، « وما جعل عليكم فى الدين من حرج [٩٥] » ، ولا تجد فيما جاء به من الشرائع حكما يرجع الا الى المبادىء الأمية الساذجة ، فلم يكلفهم فى أوقات الصلاة أن يحسبوا درج الشمس ، ولا مطالع النجوم ، بل جعل مناط ذلك ما يحس به كل انسان من حركة الشمس المشاهدة فى السماء ، وجعل الصوم والحج ومناسك العبادة متصلة بحـركة القمر ، وحركة القمر محسوسة لا تحتاج الى حساب ولا رصد ولم يكلفنا فى الصوم أن نحسب لهلال رمضان ، بل جعل ذلك منوطا برؤية الهلال رؤية بسيطة لا تكلف فيها ،

---

(٨٨) سورة الاسراء .
(٨٩) الكامل للمبرد جـ ١ ص ٤ المطبعة العالمية .
(٩٠) السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٣٦٢.
(٩١) السيرة النبوية ، على هامش السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٣٦٠ .
(٩٢) فيه ص ٣٧٢ .
(٩٣) السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٢٨٤ .
(٩٤) سورة ص .
(٩٥) سورة الحج .

وجاء في تلك الحديث [٩٦] « نحن أمة أمية الخ . » وحديث صوموا لرؤيته الخ . [٩٧] ، ولم يكلفنا حســـاب اليـــوم بالساعات والدقائق ، بل ربطه كذلك بالشيء المحسوس ، الذى لا خفاء فيه [٩٨] « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر ثم أتموا الصيام الى الليل » ، كان [صلعم] أميا ورسولا الى الاميين فما كان يخرج فى شيء من حياته الخاصة والعــامة ولا فى شريعتــه عن اصــول الامية ، ولا من مقتضيات الســذاجة والفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها ، فلعل تلك الذى رأينا فى نظام الحكم أيام النبى [صلعم] هو النظام الذى تقضى به البســـاطة الفطرية ،

ولا ريب فى ان كثيرا من نظم الحكم فى الوقت الحاضر ، انما هى أوضاع وتكلفات ، وزخارف طال بنا عهدها فالفناها ، حتى تخيلناها من أركان الحكم وأصول النظام وهى اذا تأملت ليست من ذلك فى شيء . ان هذا الذى يبدو لنا ابهاما او اضطرابا او نقصا فى نظام الحكومة النبوية لم يكن الا البساطة بعينها ، والفطرة التى لا عيب فيها »

١٨ — لو كنا نريد أن نختــار لنا طريقا من بين تلك الطرق التى قصصنا عليك ، لكان ذلك الرأى ادنى الى اختيارنا فانه بالدين أشبه ، لكننا لا نستطيع ان نتخذه لنا رأيا ، لانك ان تأملت وجدته غير وجيه ولا صحيح . حق ان كثيرا من انظمة الحكومة الحديثة أوضـــاع وتكلفات ، وان فيها مالا يدعو اليه طبع سليم ، ولا ترضاه فطرة صحيحة ، ولكن من الاكيد الذى لا يقبل شكا أيضا أن فى كثير مما استحدث فى أنظمــة الحكم ما ليس متكلفا ولا مصنوعا ، ولا هو مما ينافى الذوق الفطرى البسيط وهو مع ذلك ضرورى ونافع ، ولا ينبغى لحكومة ذات مدنية وعمران أن تهمل الاخذ به ، وهل من ســلامة الفطرة وبساطة الطبع مثلا أن لا يكون لدولة من الدول ميزانية تقيد ايرادها ومصروفاتها أو أن لا يكون لها دواوين تضبط مختلف شئونها الداخلية والخارجية ، الى غير ذلك — وانه لكثير ، مما لم يوجد منه شيء فى أيام النبوة ، ولا أشار اليه النبى [صلعم] انه ليكون تعسفا غير مقبول أن يعلل ذلك الذى يبدو من نقص المظاهر الحكومية ، زمن النبى [صلعم] بأن منشأه سلامة الفطرة ، ومجــانبة التكلف فنلتمس وجها آخر لحل ذلك الاشكال .

الباب الثالث :

رســالة لا حكم ودين لا دولة

١ — رأيت اذن أن هناك عقبات لا يسهل أن يتخطاها أولئك الذين يريدون أن يذهب بهم الرأى الى اعتقاد أن النبى [صلعم] كان يجمع الى صفة الرسالة انه كان ملكا سياسيا ، ومؤسسا لدولة سياسية رأيت أنهم كلما حاولوا أن يقوموا من عثرة لقيتهم عثرات ، وكلمــا أرادوا الخلاص من ذلك المشكل عاد ذلك المشكل عليهم جذعا ، لم يبق أمامك ، بعد الذى سبق ، الا مذهب واحد ، وعسى أن تجده منهجا واضحــا ، لا تخشى فيه عثرات ، ولا تلقى عقبات ، ولا تضل بك شعابه ، ولا يغمرك ترابه ، مأمون الغوائل ، خاليا من المشاكل ، ذلك هو القول بأن محمدا [صلعم] ما كان الا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين ، لا تشوبها نزعة ملك ، ولا دعوة لدولة ، وانه لم يكن للنبى [صلعم] ملك ولا حــكومــة ، وانه [صلعم] لم يقــم بتأسيس مملكة ، بالمعنى الذى يفهم سياسة من هذه الكلمات ومرادفاتها ، ما كان الا رسولا كاخوانه الخالين من الرسل ، وماكان ملكا ولا مؤسس دولة ولا داعيا الى ملك . قول غير معروف ، وربما استكرهه سمع المسلم ، بيد أن له حظا كبيرا من النظر وقوة الدليل .

٢ — وقبل أن نأخذ بك فى بيان ذلك ، يجب أن نحذرك من خطأ قد يتعرض له الناظر اذا هو لم يحسن النظر ، ولم يكن من أمره على حذر ، ذلك أن الرسالة لذاتها تستلزم للرسول نوعا من زعامة الملوك وسلطانهم على رعيتهم ، فــلا تخلط بين زعامة الرسالة وزعامة الملك ولاحظ أن بينهما خلافا يوشك أن يكون تباينا ، وقد رأيت أن زعامة موسى وعيسى فى اتباعهما لم تكن زعامة ملوكية ولا كانت كذلك زعامة أكثر المرسلين .

٣ — ان طبيعة الدعوة الدينية الصادقة تستلزم لصاحبها نوعا من الكمال الحسى أولا ، فلا يكون فى تركيب جسمه ولا فى حواسه ومشاعره نقص ، ولا شيء يدعو الى النفور ، ولا بد له — لانه زعيم — من هيبة تملأ النفوس من خشيته وجاذبية تعطف الرجال والنســاء الى محبته ، ثم لابد له أيضا من الكمال الروحى ، لذلك ، ولما يفيض عليه ، ضرورة اتصاله بالملأ الاعلى .. والرســـالة تستلزم لصاحبها شيئا كثيرا من التميز الاجتماعى بين قومه ، كما ورد [٩٩] : انه لا يبعث الله نبيا الا فى عز من قومه ، ومنعة من عشيرته . والرسالة تستلزم لصاحبها نوعا من القوة التى تعده لان يكون نافذ القول ، مجــاب الدعوة ، فان الله جل شأنه لا يتخذ الرسالة عبثا ، ولا يبعث بالحق رسولا الا وقد أراد لدعوته أن تتم ، وأن ترسخ أصولها فى لوح العالم المحفوظ ، وأن تمتزج بحقائق هذا العالم امتزاجا (١٠٠) (وما أرسلنــا من رسول الا ليطاع باذن الله] وحاش لله ، لا يرسل الله دعوة الحق لتضيع ، ولا يبعث رسولا من عنده ليرتد مخزيا [١٠١] [ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ماكانوا به يستهزئون قل سيروا فى الارض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين] [ويريد الله [١٠٢] أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل البــاطل ولو كره المجرمون] [١٠٣] [ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون] [١٠٤] [انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الاشهاد ، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار] . ان مقام الرسالة يقتضى لصاحبه سلطانا أوسع مما يكون بين الحاكم والمحكومين ، بل وأوســع مما يكون بين الاب وأبنائه . قد يتناول الرسول من سياسة الامة مثل ما يتناول الملوك ، ولكن للرسول وحده وظيفة لا شريك له فيها ، من وظيفته ايضــا

---

[٩٦] فتح البارى ج ٤ ص ٨٩ المطبعة الخيرية ، برواية انا ، بدل نحن .
(٩٧) شرح العسقلانى للبخارى ج ٤ ص ٨٨ المطبعة الخيرية .
(٩٨) سورة البقرة .
(٩٩) رواه الشيخان بلفظ : كذلك الرسل تبعث فى أحساب قومها .. من حديث طويل . راجع تيسير الوصول الى جامع الاصول ج ٣ ص ٣٢٠ .
(١٠٠) سورة النساء .
(١٠١) سورة الانعام .
(١٠٢) سورة الانفال .
(١٠٣) سورة الصافات .
(١٠٤) سورة المؤمن .

ان يتصل بالارواح التى فى الاجساد ؟ وينزع الحجب ليطلع على القلوب التى فى الصدور . له بل عليه أن يشق من قلوب أتباعه ، ليصل الى مجامع الحب والضغينة ، ومنابت الحسنة والسيئة ، ومجارى الخواطر ، ومكامن الوساوس ، ومنابع النيات ، ومستودع الاخلاق ، له عمل ظاهرى فى سياسة العامة ، وله أيضا عمل خفى فى تدبير الصلة التى تجمع بين الشريك والشريك ، والحليف والحليف ، والمولى وعبده ، والوالد وولده ، وفى تدبير تلك الروابط التى لا يطلع عليها الا الحليل وحليلته . له رعاية الظاهر والباطن ، وتدبير أمور الجسم والروح ، وعلاقاتنا الارضية والسماوية . له سياسة الدنيا والاخرة . الرسالة تقتضى لصاحبها ، وهى كما ترى وفوق ما ترى ، حق الاتصال بكل نفس اتصال رعاية وتدبير ، وحق التصريف لكل قلب تصريفا غير محدود .

٤ ــ كذلك ، ولاحظ أيضا ان النبى [صلعم] قد اختصت رسالته بكثير مما لم يكن لغيره من المرسلين ، فقد جاء [صلعم] بدعوة اختاره الله تعالى لان يدعو اليها الناس كلهم أجمعين ، وقدر له أن يبلغها كاملة ، وأن يقوم عليها حتى يكمل الدين ، وتتم النعمة ، وحتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ، تلك الرسالة توجب لصاحبها من الكمال أقصى ما تسمو اليه الطبيعة البشرية ، ومن القوة النفسية منتهى ما قدر الله لرسله المصطفين الاخيار ، ومن تأييد الله ما يتناسب مع تلك الدعوة الكبيرة العامة . كذلك قوله تعالى [١٠٥] [وكان فضل الله عليك عظيما] وقوله تعالى [١٠٦] [فانك بأعيننا] [١٠٧] « والله لا يخزيك الله أبدا » [١٠٨] « أنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر » ، من أجل ذلك كان سلطان النبى [صلعم] بمقتضى رسالته سلطانا عاما ، وأمره فى المسلمين مطاعا ، وحكمه شاملا ، فلا شىء ، مما تمتد اليه يد الحكم الا وقد شمله سلطان النبى [صلعم] ، ولا نوع مما يتصور من الرياسة والسلطان الا وهو داخل تحت ولاية النبى [صلعم] على المؤمنين . واذا كان العقل يجوز أن تتفاوت درجات السلطان الذى يكون للرسول على امته ، فقد رأيت ان محمدا [صلعم] أحق الرسل عليهم السلام بأن يكون له على أمته أقصى ما يمكن من السلطان ونفوذ القول ، قوة النبوة وسلطان الرسالة ؟ ونفوذ الدعوة الصادقة قدر الله تعالى أن تعلو على دعوة الباطل ، وأن تمكث فى الارض ، ذلك سلطان ترسله السماء من عند الله تعالى على من تنزل عليه ملائكة السماء بوحى الله تعالى . تلك قوة قدسية يختص بها عباد الله المرسلون ، ليست فى شىء من معنى الملوكية ، ولا تشابهها قوة الملوك ، ولا يدانيها سلطان السلاطين . تلك زعامة الدعوة الصادقة الى الله وابلاغ رسالته ، لا زعامة الملك ، انها رسالة ودين ، وحكم النبوة لا حكم السلاطين . ونعود ثانيا فنحذرك من أن تخلط بين الحكمين ، وأن يلتبس عليك أمر الولايتين ، ولاية الرسول من حيث هو رسول ، وولاية الملوك والامراء . ولاية الرسول على قومه ولاية روحية ، منشؤها ايمان القلب ، وخضوعه خضوعا صادقا تاما يتبعه خضوع الجسم ، وولاية الحاكم ولاية مادية ، تعتمد اخضاع الجسم من غير أن يكون لها بالقلوب اتصال ، تلك ولاية هداية الى الله وارشاد اليه ، وهذه ولاية تدبير لمصالح الحياة وعمارة الارض . تلك للدين ، وهذه للدنيا ، تلك لله ، وهذه للناس ، تلك زعامة دينية ، وهذه زعامة سياسية ، ويابعد مابين السياسة والدين .

٥ ــ نريد بعد ذلك أن نلفتك الى شىء آخر . فان ثمة كلمات تستعمل أحيانا استعمال المترادفات ، وتستعمل أحيانا استعمال المتغايرات ، ينشأ من ذلك فى بعض الاحوال مشاحة واختلاف فى النظر ، واضطراب فى الحكم ، فمن ذلك كلمات : ملك . وسلطان ، وحاكم ، وأمير ، وخليفة ، ودولة ، ومملكة ، وحكومة ، وخلافة ، الخ .. ونحن هنا اذا سألنا : هل كان النبى [صلعم] ملكا أم لا ، فاننا نريد أن نسأل : هل كان له [صلعم] صفة غير صفة الرسالة ، بها يصح أن يقال انه أسس فعلا ، أو شرع فى تأسيس وحدة سياسية أم لا ؟ فالملك فى استعمالنا هنا ، ولا حرج أن سميته خليفة أو سلطانا أو أميرا ، أو ما شئت فسمه ، معناه الحاكم على أمة ذات وحدة سياسية ومدنية ، ونريد بالحكومة والدولة والسلطنة والمملكة ما يريد علماء السياسة بكلمات : Kingdom أو state أو government أو ما أشبه ذلك .

نحن لا نشك فى أن الاسلام وحدة دينية ، والمسلمون من حيث هم ، جماعة واحدة ، والنبى [صلعم] دعا الى تلك الوحدة ، وأتمها بالفعل قبل وفاته ، وانه [صلعم] كان على رأس هذه الوحدة الدينية ، امامها الاوحد ، ومدبرها الفذ ، وسيدها الذى لا يراجع له أمر ، ولا يخالف له قول . وفى سبيل هذه الوحدة الاسلامية ناضل عليه السلام بلسانه وسنانه ، وجاءه نصر الله والفتح ، وأيدته ملائكة الله وقوته ، حتى بلغ رسالته ، وأدى أمانته وكان له [صلعم] من السلطان على أمته ما لم يكن لملك قبله ولا بعده [١٠٩] [النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم] [١١٠] [وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا .] . من كان يريد أن يسمى تلك الوحدة الدينية دولة ، ويدعو سلطان النبى [صلعم] ذلك السلطان النبوى المطلق ، ملكا أو خلافة ، والنبى عليه السلام ملكا أو خليفة أو سلطانا الخ فهو فى حل من أن يفعل ، فان هى الا أسماء ، لاينبغى الوقوف عندها ، وانما المهم كما قلنا هو المعنى ، وقد حددناه لك تحديدا . المهم هو أن نعرف هل كانت زعامة النبى (صلعم) فى قومه زعامة رسالة ، أم زعامة ملك ؟ وهل كانت مظاهر الولاية التى نراها احيانا فى سيرة النبى عليه السلام مظاهر دولة سياسية ، أم مظاهر رياسة دينية ؟ وهل كانت تلك الوحدة التى قام على رأسها النبى عليه السلام وحدة حكومة ودولة ، أم وحدة دينية صرفة لاسياسية ؟ وأخيرا هل كان [صلعم] رسولا فقط أم ملكا ورسولا ؟

٦ ــ ظواهر القرآن المجيد تؤيد القول بأن النبى « صلعم » لم يكن له شأن فى الملك السياسى ، وآياته متضافرة على أن عمله السماوى لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معانى السلطان « من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا » (١١١) «وكذب به قومك وهو الحق ، قل لست عليكم بوكيل ، لكل

---

(١٠٥) سورة النساء

(١٠٦) سورة الطور .

(١٠٧) من حديث عائشة رضى الله عنها فى بدء الوحى . أخرجه الشيخان

(١٠٨) من حديث لانس رواه الترمذى.

(١٠٩) سورة الاحزاب .

(١١٠) سورة الاحزاب

(١١١) سورة النساء .

نبأ مستقروسوفتعلمون » (١١٢) «اتبع ماأوحى اليك من ربك ، لا اله الا هو وأعرض عن المشركين ، ولو شاء الله ماأشركوا ، وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل » [١١٣] « ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهمجميعا افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » [١١٤] « قل ياأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، وما أنت عليهم بوكيل » [١١٥] « وما أرسلناك عليهم وكيلا » [١١٦] « أفرأيت من اتخذ الهه هواه ، افأنت تكونعليهم وكيلا » [١١٧] « انا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليهاوما أنت عليهمبوكيل » [١١٨] « فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ، ان عليك الا البلاغ » [١١٩] « نحن أعلم بما يقولون وما انت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » [١٢٠] « فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر الا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الاكبر » [١٢١] القرآن كما ترى يمنع صريحا أن يكون النبى « صلعم » حفيظا على الناس ، ولاوكيلا ، ولا جبارا ولا مسيطرا (١٢٢) وأن يكون له حق اكراه الناس حتى يكونوا مؤمنين . ومن لم يكن حفيظا ولا مسيطرا فليس بملك ، لأن من لوازم الملكالسيطرة العامةوالجبروت ،سلطانا غير محدود . ومن لم يكن وكيلا على الامة فليس بملك أيضا . وقال تعالى « ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما » [١٢٣] . القرآن صريحفى ان محمدا « صلعم » لم يكن له من الحق على أمته غير حق الرسالة . ولو كان « صلعم » ملكا لكان له على أمته حق الملك أيضا . وان للملكحقا غير حق الرسالة ، وفضلا غير فضلها، وأثر غير أثرها « قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ماشاء الله . ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرتمن الخير ومامسنى السوء ان انا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون » [١٢٤] « فلعلك تارك بعض مايوحى اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا انزل عليه كنز أو جاء معه ملك انما أنت نذير والله على كل شىء وكيل » [١٢٥] « انما أنت منذر ولكل قوم هاد » [١٢٦] « قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربهفليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » [١٢٧] « قل ياأيها الناس انما أنا لكم نذير مبين » [١٢٨] « ان يوحى الى الا انما انا نذير مبين » [١٢٩] « قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد » [١٣٠] .

القرآن كما رايت صريح فى ان محمدا « صلعم » لم يكن الا رسولا قد خلت من قبله الرسل ، ثم هوبعد ذلكصريح فى أنه عليه الصلاة والسلام لميكن من عمله شىء غير ابلاغ رسالة الله تعالى الى الناس ، وانه لم يكلف شيئا غير ذلك البلاغ ، وليس عليه ان يأخذالناس بما جاءهم به ، ولا ان يحملهم عليه « فان توليتم فاعلموا انما علىرسولنا البلاغ المبين » [١٣١] « ما على الرسول الا البلاغ ، والله يعلم ماتبدون وما تكتمون » [١٣٢] « أولم يتفكروا مابصاحبهم من جنة ، ان هو الا نذير مبين » [١٣٣] «أكان للناس عجبا ان أوحينا الى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم » [١٣٤] « وان مانرينكبعض الذى نعدهم أو نتوفينك فانما عليكالبلاغ وعلينا الحساب» (١٣٥) «فهلعلىالرسل الا البلاغ المبين » [١٣٦] « وما انزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذىاختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوميؤمنون » [١٣٧] « فان تولوا فانما عليك البلاغ المبين » [١٣٨] « وما ارسلناك الا مبشرا ونذيرا » [١٣٩] « فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا » [١٤٠] « طه . ما انزلنا عليك القرآن لتشقى ، الا تذكرة لمن يخشى » [١٤١] « وما على الرسول الا البلاغالمبين » [١٤٢] « وما ارسلناك الامبشرا ونذيرا» (١٤٣) «انما أمرتأن اعبد رب هذه البلدة التى حرمها وله كل شىء وأمرت أن اكون من المسلمين، وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فانمايهتدى لنفسه ، ومن ضل فقل انما انا من المنذرين » [١٤٤] « وان يكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول الا البلاغ المبين » [١٤٥] « يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشراونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا » [١٤٦] « وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن اكثر الناس لايعلمون » [١٤٧] « مابصاحبكم

---

(١١٢) سورة الانعام .
(١١٣) سورة الانعام .
(١١٤) سورة يونس .
(١١٥) سورة يونس .
(١١٦) سورة الاسراء
(١١٧) سورة الفرقان .
(١١٨) سورة الزمر
(١١٩) سورة الشورى .
(١٢٠) سورة ق .
(١٢١) سورة الغاشية
(١٢٢) يخيل الى اننى قرات فى كتاب لم أستطع الان ان اتذكره ، ان الجبار اسم للملك عند بعض العرب . وعليه قوله تعالى (وما انت عليهم بجبار) ولكن الذى وجدته فيما بين يدى من كتب اللغة ان الملك يسمى جبرا ، وقالوا طلع الجبار ، وهو الجوزاء ، لانها على صورة ملك متوج على كرسى . وقالوا هو كذا ذراعا بذراع الجبار ، اى بذراع الملك . والله اعلم .
(١٢٣) سورة الاحزاب .
(١٢٤) سورة الاعراف .
(١٢٥) سورة هود .
(١٢٦) سورة الرعد .
(١٢٧) سورة الكهف .
(١٢٨) سورة الحج
(١٢٩) سورة ص .
(١٣٠) سورة حم السجدة او فصلت
(١٣١) سورة المائدة
(١٣٢) سورة المائدة .
(١٣٣) سورة الاعراف .
(١٣٤) سورة يونس .
(١٣٥) سورة الرعد .
(١٣٦) سورة النحل .
(١٣٧) سورة النحل
(١٣٨) النحل .
(١٣٩) سورة الاسراء .
(١٤٠) سورة مريم .
(١٤١) سورة طه .
(١٤٢) سورة النور .
(١٤٣) سورة الفرقان .
(١٤٤) سورة النمل .
(١٤٥) سورة العنكبوت .
(١٤٦) سورة الاحزاب
(١٤٧) سورة سبا

من جنة ان هو الا نذير لكم بين يدى مذاب شديد » [١٤٨] « ان انت الا نذير ، انا ارسلناك بالحق بشيراونذيرا وان من امة الا خلا فيها نذير » [١٤٩] « وما علينا الا البلاغ المبين » [١٥٠] « قل انما انا منذر وما من اله الا الله الواحد القهار » [١٥١] « قلماكنت بدعا من الرسل وما أدرى مايفعل بى ولا بكم ان اتبع الا مايوحى الى ،وما أنا الا نذيرمبين » [١٥٢] « انا أرسلناك شــاهدا ومبشرا ونــذيرا » [١٥٣] « واطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان توليتم فانمــا على رسـولنا البــلاغ المبين » [١٥٤] « قل انما العلم عند الله وانما انا نذير مبين [١٥٥] « قل انما أدعو ربى ولا اشرك به أحدا ». قل انى لا املك لــكم ضرا ولا رشدا، قل انى لا املك لكم ضرا ولا رشدا ، أجد من دونه ملتحدا الا بلاغا من الله ورسالاته » [١٥٦] .

٧ ــ اذا نحن تجاوزنا كتاب الله تعالى الى سنة النبى « صلعم » وجدنا الامر فيها أصرح ، والحجة اقطع . روى صاحب السيرة النبوية [١٥٧] أن رجلا جاء الى النبى « صلعم » ،لحاجة يذكرها ، فقام بين يديه فأخذته رعدة شديدة ومهابة ، فقال له « صلعم »: هون عليك فانى لست بملك ولا جبار ، وانما انا ابن امرأة من قريش تأكل القديد بمكة .. وقد جاء فى الحديث انه لمــا خير على لسان اسرافيل بين أن يكون نبيا ملكا ، أو نبيا عبدا ، نظر عليه الصلاة والسلام الى جبريل ، عليــه السلام ، كالمستشير له ، فنظر جبريل الى الارض ، يشير الى التواضع ، وفى روايةفأشار اليه جبريل انتواضع، فقلت نبيا عبدا ٠ ١ هـ ٠ فذلك صريح أيضا فى أنه « صلعم » لم يكن ملكا، ولم يطلب الملك ، ولا توجهت نفسه عليه السلام اليه .

التمس بين دفتى المصـحف الـكريم اثرا ظاهرا أو خفيا لمــا يريدون أن يعتقدوا من صـــفة سياسـية للدين الاسلامى ، ثم التمس ذلك الاثر مبلغ جهدك بين أحاديث النبى « صلعم » . تلك منابع الدين الصافية متناول يديك، وعلى كثب منك ، فالتمس منها دليــلا أو شبه دليل ، فانك لن تجد عليهمــا برهانا ، الا ظنــا ، وان الظن لايغنى من الحق شيئا .

٨ ــ الاسلام دعوة دينية الى الله تعالى ، ومذهب من مذاهب الاصـلاح لهذا النوع البشرى وهدايته الى ما يدنيه من الله جل شانه ، ويفتح له سـبيل السعادة الابدية التى أعدها الله لعباده الصالحين . هو وحدة دينية اراد الله جل شانه أن يربط بها البشر اجمعين، وأن يحيط بها أقطار الارض كلهــا . تلك دعوة قدسية طاهرة لهذا العالم ، احمره وأسوده ، أن يعتصموا بحبل الله الواحد ، وأن يكونوا أمة واحدة، يعبدون الها واحدا، ويكونون فىعبادته اخوانا . تلك دعوة الى المثل الاعلى لسلام هذا العالم ، واخذه الى مايليق به من الكمال ، والى ماأعــد له من السعادة ، تلك رحمة السماء بالارض ، وفضل الله على العالمين . دعوة العالم كله الى التآخى فى الدين دعوة معقولة وفى طبيعة البشر استعداد لتحقيقها . بلى . ولقد وعد الله جل شأنه لهذه الدعوة أن تتم ، فلا تحسبن اللهمخلف وعده [١٥٨] « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فىالارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننلهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم منبعد خوفهم امنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا ومن كفر بعــد ذلك فأولئـــك هم الفاسقون » [١٥٩] « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا » [١٦٠] « ومن أظلم ممن افترى على اللهالكذب وهو يدعى الى الاسلام ، والله لايهدى القوم الظالمين . يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون .، هو الذى أرسل رسـوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » [١٦١] .معقول أن يؤخذ العالم كله بدين واحد ، وأن تنتظم البشرية كلها وحدة دينية ، فأما اخذ العالم كله بحكومة واحدة ، وجمعه تحت وحدة سياسية مشتركة ، فذلك مما يوشك ان يكون خارجا من الطبيعة البشرية ، ولا تتعلق به ارادة الله ، على أن ذلك انما هوغرض من الاغراض الدنيوية ، التىخلى الله سبحانهوتعالى بينها وبين عقولنا ،وترك الناس أحرارا فى تدبيرها على ماتهديهم اليه عقولهم، وعلومهم ، ومصالحهم ، وأهواؤهم ، ونزعاتهم . حكمة الله فى ذلك بالغـة ليبقى الناس مختلفين « ولو شاء ربك لجعل الناسأمة واحدة ولايزالونمختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم » (١٦٢)، وليبقى بين الناس ذلكالتدافع الذىأراده الله ليتم العمــران « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارضولكن الله ذو فضل على العالمين » [١٦٣] ، وحتى يبلغ الكتاب أجله ويتم أمر الله، ذلك من الاغراض الدنيوية التى انــكر النبى « صلعم » أن يكون له فيها حكم أو تدبير ، فقال عليه الســلام : أنتم أعلم بشئون دنياكم . ذلك من اغراض الدنيا ، والدنيا من اولها الى آخرها، وجميع مافيهــا من اغراض وغايات ، أهون عند الله تعالى من أن يقيم على تدبيرها غير ماركب فينــا من عقول ، وحبانا من عواطف وشهوات ، وعلمنا من اسماء ومسميات ، هى أهون عليه تعالى من ان يبعث لها رسولا ، وأهون عند رسل الله تعالى من أن يشغلوا بها وينصبوا لتدبيرها ».

٩ ــ لايريبنك هذا الذى ترى احيانا فى سيرة النبى « صلعم » ، فيبدو لك كأنه عمل حكومى،ومظهر للملكوالدولة، فانك اذا تأملت لم تجده كذلك بل هو، لم يكن الا وسيلة من الوسائل التىكان عليه « صلعم » ان يلجأ اليها ، تثبيتا للدين ، وتأييدا للدعوة . وليس عجيبا ان يكون الجهاد وسيلة منتلكم الوسائل، هو وسيلة عنيفة وقاسـية ، ولـكن مايدريك ، فلعل الشر ضرورى للخير فى بعض الاحيان ، وربما وجب التخريب ليتم العمران ». « قالوا : كان لايخلو، من قلبه « بالتحريك » ، قلنا : تلك سنة الله فى الخلق ، لاتزال المصارعة بين الحق والباطل ، والرشد والغى ، قائمة فى هذا العالم الى أن يقضى الله بقضائه فيه ». اذا ساق الله ربيعا الى أرض جدبة ، ليحيى ميتها ، وينقع من غلتها ، وينمى الخصب فيها ، أفينتقص من قدره أن أتى فى طريقه على عتبة نعــلاها ، أو بيت رفيع العماد فهوى به ». » [١٦٤] »

---

(١٤٨) سورة سبا .
(١٤٩) سورة فاطر .
(١٥٠) سورة يس .
(١٥١) سورة ص .
(١٥٢) سورة الاحقاف .
(١٥٣) سورة الفتح .
(١٥٤) سورة المــائدة
(١٥٥) سورة الملك
(١٥٦) سورة الجن .
(١٥٧) السيرة النبوية ، لاحمد بنزينىدحلان المتوفى سنة ١٣٠٤ هـ من كتاب اكتفاء القنوع
(١٥٨) سورة ابراهيم
(١٥٩) سورة النور .
(١٦٠) سورة الفتح .
(١٦١) سورة الصف .
(١٦٢) سورة هود .
(١٦٣) سورة البقرة .
(١٦٤) رسالة التوحيد للشيخ محمدعبده ص ١٢٢ ــ ١٢٣ .

قالوا غزوت ؟ ورسل الله مابعثت
لقتل نفس ولا جاءت لسفك دم
جهل وتضليل احلام وسفسطة
فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما اتى لك عفوا كل ذى حسب
تكفل السيف بالجهال والعمم
والشر ان تلقه بالخير ضقت به
ذرعا وان تلقه بالشر ينحسم
علمتهم كل شيء يجهلون به
حتى القتال ومافيه من الذمم [١٦٥]

١٠ — ترى من هذا انه ليس القرآن وحده الذى يمنعنا من اعتقاد ان النبى « صلعم » كان يدعو مع رسالته الدينية الى دولة سياسية . وليست السنة هى وحدها التى تمنعنا من ذلك ، ولكن مع الكتاب والسنة حكم العقل وما يقضى به معنى الرسالة وطبيعتها . انما كانت ولاية محمد « صلعم » على المؤمنين ولاية الرسالة غير مشوبة بشيء من الحكم . هيهات هيهات ، لم يكن هناك حكومة ، ولا دولة ، ولا شيء من نزعات السياسة ، ولا اغراض الملوك والامراء . لعلك الان قد اهتديت الى ماكنت تسأل عنه قبلا ، من خلو العصر النبوى من مظاهر الحكم واغراض الدولة وعرفت كيف لم يكن هنالك ترتيب حكومى ، ولم يكن هناك ولاة ولا قضاة ولا ديوان الخ .. ولعل ظلام تلك الحيرة التى صادفتك قد استحال نورا . وصارت النار عليك بردا وسلاما .

الكتاب الثالث

الخلافة والحكومة فى التاريخ

الباب الاول :

الوحدة الدينية والعرب

١ — الاسلام كما عرفت دعوة سامية ، ارسلها الله لخير هذا العالم كله ، شرقية وغربية ، عربية واعجمية رجاله ونسائه ، أغنيائه وفقرائه ، عالميه وجهلائه ، هو وحدة دينية أراد الله ان يربط بها البشر ، وأن تشمل اقطار الارض كلها ، وما كان الاسلام دعوة عربية ، ولا وحدة عربية ، ولا دينا عربيا ، وما كان الاسلام ليعرف فضلا لامة على امة ، ولا للغة على لغة ، ولا لقطر على قطر ، ولا لزمن على زمن ، ولا لجيل على جيل ، الا بالتقوى . ذلك على رغم ماترى من أن النبى عليه السلام كان عربيا ، وكان يحب العرب بالطبع ، ويثنى عليهم ، وكان كتاب الله عربيا مبينا .

٢ — كان لابد لدعوة الاسلام ان تخرج الى هذا الوجود ، وأن تبرز حقيقة ثابتة بين حقائق الكون ، وأن يحملها من جانب القدس الاعلى رسول يختاره الله تعالى ، ليبلغها الى الناس . ولقد رضى الله جل شأنه ، وتعالى حكمه ، أن يختار رسوله لتلك الدعوة من بين القبائل العربية دون غيرها ، وأن يختاره فى العرب من بين ولد اسماعيل ، وأن يختاره من بين ولد اسماعيل فى كنانة ، وأن يختاره فى كنانة من قريش ، وأن يختاره فى قريش من بنى هاشم ، وأن يختار من بنى هاشم محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم . لله جل شأنه حكمة فى ذلك بالغة ، قد نعرفها وقد لانعرفها « وربك يخلق مايشاء ويختار ، ماكان لهم الخيرة ، سبحان الله وتعالى عما يشركون ، وربك يعلم ماتكن صدورهم وما يعلنون » [١٦٦] . كتاب عربى ، ورسول عربى ، فلا مناص بالطبع من أن تبدأ دعوة الاسلام بين العرب ، قبل أن تصل الى غيرهم ، ولا مناص بالطبع من أن يكون العرب أول من تتشق آذانهم دعوة ذلك البشير النذير ، وأول من يهيب بهم ذلك الداعى الى الله ، وأول من يحاول ان يجمعهم على الهدى وكذلك بدأ رسول الله « صلعم » الدعوة بين عشيرته الاقربين ، ثم بين قومه العرب ، وما زال بهم ، يؤيده نصر الله ، حتى أتوا لدعوته خاضعين . وكانوا تحت زعامة ذلك الرسول الامين ، أول داخل فى وحدة الدين .

٣ — البلاد العربية ، كما تعرف كانت تحوى أصنافا من العرب مختلفة الشعوب والقبائل ، متباينة اللهجات ، متنائية الجهات ، وكانت مختلفة ايضا فى الوحدات السياسية ، فمنها ماكان خاضعا للدولة الرومية ومنها ماكان قائما بذاته مستقلا . كل ذلك يستتبع ، بالضرورة ، تباينا كبيرا بين تلك الامم العربية ، فى مناهج الحكم ، واساليب الادارة ، وفى الاداب والعادات ، وفى كثير من مرافق الحياة الاقتصادية والمادية . هذه الامم المتنافرة قد اجتمعت كلها فى زمن النبى « صلعم » ، حول دعوة الاسلام ، وتحت لوائه ، فأصبحوا بنعمة الله اخوانا ، تربطهم وشيجة واحدة من الدين ، ويضمهم سياج واحد ، من زعامة النبى « صلعم » ، ومن عطفه ورحمته ، وصاروا أمة واحدة ، ذات زعيم واحد ، هو النبى عليه السلام . تلك الوحدة العربية التى وجدت زمن النبى عليه السلام لم تكن وحدة سياسية بأى وجه من الوجوه ، ولا كان فيها معنى من معانى الدولة والحكومة ، بل لم تعد أبدا أن تكون وحدة دينية خالصة من شوائب السياسة . وحدة الايمان والمذهب الدينى ، لا وحدة الدولة ومذاهب الملك .

٤ — يدلك على هذا سيرة النبى « صلعم » ، فما عرفنا انه تعرض لشيء من سياسة تلك الامم الشتيتة ، ولا غير شيئا من أساليب الحكم عندهم ، ولا مما كان لكل قبيلة منهم من نظام ادارى او قضائى ، ولا حاول ان يمس ماكان بين تلك الامم بعضها مع بعض ، ولا ما كان بينها وبين غيرها من صلات اجتماعية أو اقتصادية ، ولا سمعنا أنه عزل واليا ، ولا عين قاضيا ، ولا نظم فيها عسسا ، ولا وضع قواعد لتجاراتهم ولا لزراعاتهم ولا لصناعاتهم . بل ترك لهم عليه السلام كل الشئون ، وقال لهم أنتم أعلم بها ، فكانت كل امة وما لها من وحدة مدنية وسياسية ، وما فيها من فوضى او نظام ، لا يربطهم الا ماقلناه ، من وحدة الاسلام وقواعده وآدابه .

ربما أمكن ان يقال : ان تلك القواعد والاداب والشرائع التى جاء بها النبى عليه السلام ، للامم العربية ولغير الامم العربية ايضا ، كانت كثيرة ، وكان فيها مايمس الى حد كبير اكثر مظاهر الحياة فى الامم ، فكان فيها بعض انظمة للعقوبات ، وللجيش ، والجهاد ، وللبيع والمداينة والرهن ، ولاداب الجلوس والمشى والحديث ، وكثير غير ذلك . فمن جمع العرب على تلك القواعد الكثيرة ، ووحد بين مرافقهم وآدابهم وشرائعهم الى ذلك الحد الواسع الذى جاء به الاسلام ، فقد وحد أنظمتهم المدنية وجعلهم بالضرورة وحدة سياسية فقد كانوا اذن دولة واحدة ، وكان النبى عليه السلام زعيمها وحاكمها . ولكنك

---

(١٦٥) لاحمد شوقى .

(١٦٦) سورة القصص .

اذا تأملت ، وجدت أن كل ما شرعه الاسلام واخذ به النبى المسلمين ، من انظمة وقواعد وآداب لم يكن فى شىء كثير ولا قليل من اساليب الحكم السياسى ، ولا من انظمة الدولة المدنية ، وهو بعد اذا جمعته لم يبلغ أن يكون جزءا يسيرا مما يلزم لدولة مدنية من أصول سياسية وقوانين . ان كل ماجاء به الاسلام من عقائد ومعاملات ، وآداب وعقوبات فانما هو شرع دينى خالص لله تعالى ، ولمصلحة البشر الدينية لاغير . وسيان بعد ذلك ان تتضح لنا تلك المصالح الدينية، أم تخفى علينا ، وسيان أن يكون منها للبشر مصلحة مدنية أم لا ، فذلك مالا ينظر الشرع السماوى اليه ، ولا ينظر اليه الرسول . والعرب وان جمعتهم شريعة الاسلام لم يزالوا يومئذ على ماعرفت من تباين فى السياسة وفى غيرها من مظاهر الحياة المدنية والاجتماعية والاقتصادية ، ويساوى ذلك أن تقول : انهم كانوا دولا شتى ، على قدر ماتسمح به حياة العرب يومئذ من معنى الدولة والحكومة . تلك حال العرب يوم لحق عليه السلام بالرفيق الاعلى ، وحدة دينية عامة من تحتها دول تامة التباين الا قليلا . ذلك الحق لاريب فيه .

٥ — قد نخاف أن يخفى عليك أمر ذلك التباين الذى نقول انه كان بين أمم العرب زمن النبى عليه السلام ، وأن تخدعك تلك الصورة المنسجمة التى يحاول المؤرخون أن يضعوها لذلك العصر فاعلم أولا : ان فى فن التاريخ خطأ كثيرا ، وكم يخطىء التاريخ وكم يكون ضلالا كبيرا . واعلم ثانيا : أنه فى الحق أن كثيرا من تنافر العرب وتباينهم قد تلاشت آثاره ، بما ربط الاسلام بين قلوبهم ، وما جمعهم عليه من دين واحد ، ومن أنظمة وآداب مشتركة ، واذكر ثالثا : ما أسلفنا لك الاشارة اليه من أثر الزعامة الدينية التى كانت للرسول عليه السلام . فلا عجب اذن ان يكون تباين الامم العربية قد وهت آثاره ، وخفيت مظاهره ، وخفت حدته ، وذهبت شدته « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » [١٦٧] . ولكن العرب على ذلك مابرحوا أمما متباينة، ودولا شتى . كان ذلك طبيعيا ، وما كان طبيعيا فقد يمكن أن تخفف حدته، وتقل آثاره ، ولكن لايمكن التخلص منه بوجه من الوجوه . لم يكد عليه السلام يلحق بالرفيق الاعلى حتى أخذت تبدو جلية واضحة أسباب ذلك التباين بين أمم العرب ، وعادت كل أمة منهم تشعر بشخصيتها المتميزة ، ووجودها المستقل من غيره ، وأوشكت ان تنتقض تلك الوحدة العربية التى تمت فى حياة الرسول « صلعم » ، « وارتد أكثر العرب ، الا أهل المدينة ومكة والطائف، فانه لم يدخلها الردة » [١٦٨] .

٦ — كانت وحدة العرب كما عرفت وحدة اسلامية لاسياسية ، وكانت زعامة الرسول فيهم زعامة دينية لامدنية، وكان خضوعهم له خضوع عقيدة وايمان ، لاخضوع حكومة وسلطان، وكان اجتماعهم حوله اجتماعا خالصا لله تعالى ، يتلقون فيه خطرات الوحى ، ونفحات السماء، وأوامر الله تعالى ونواهيه « ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » . تلك زعامة كانت لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمى القرشى ، ليست لشخصيته ولا لنسبه ولكن لانه رسول الله « وما ينطق عن الهوى » [١٦٩] بل من الله تعالى وبواسطة ملائكته المكرمين . فاذا مالحق عليه السلام بالملا الاعلى لم يكن لاحد أن يقوم من بعده ذلك المقام الدينى ، لانه كان عليه السلام « خاتم الانبياء » [١٧٠] . وما كانت رسالة الله تعالى لتورث عن الرسول ، ولا لتؤخذ منه عطاء ولا توكيلا .

٧ — وقد لحق صلى الله عليه وسلم بالرفيق الاعلى من غير أن يسمى أحدا يخلفه من بعده ، ولا أن يشير الى من يقوم فى أمته مقامه . بل لم يشر عليه السلام طول حياته الى شىء يسمى دولة اسلامية أو دولة عربية . وحاشا لله ، مالحق « صلعم » بالرفيق الاعلى الا بعد أن أدى من الله تعالى رسالته كاملة ، وبين لامته قواعد الدين كله، لا لبس فيها ولا ابهام ، فكيف — اذا كان من عمله أن ينشىء دولة — يترك أمر تلك الدولة مبهما على المسلمين ، ليرجعوا سريعا من بعده حيارى يضرب بعضهم رقاب بعض ، وكيف لايتعرض لامر من يقوم بالدولة من بعده ، وذلك أول ما ينبغى أن يتعرض له بناة الدول قديما وحديثا ، كيف لايترك للمسلمين مايهديهم فى ذلك ! وكيف يتركهم عرضة لتلك الحيرة القاتمة السوداء التى غشيتهم وكادوا فى غسقها يتناحرون ، وجسد النبى بينهم لما يتم تجهيزه ودفنه .

٨ — واعلم أن الشيعة جميعا متفقون على أن رسول الله « صلعم » قد عين عليا رضى الله تعالى عنه للخلافة على المسلمين من بعده . ولا نريد أن نقف بك عند مناقشة ذلك الرأى ، فان حظه من النظر العلمى قليل لاينبغى أن يلتفت اليه . قال ابن خلدون : ان النصوص التى « ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم لايعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة ، بل أكثرها موضوع أو مطعون فى طريقه ، أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة » [١٧١] .

٩ — وقد ذهب الامام ابن حزم الظاهرى الى رأى طائفة قالت ان رسول الله نص على استخلافة أبى بكر بعده على أمور الناس نصا جليا ، لاجماع المهاجرين والانصار على أن سموه خليفة رسول الله « صلعم » ، ومعنى الخليفة فى اللغة هو الذى يستخلفه ، لا الذى يخلفه دون أن يستخلفه هو ، لايجوز غير هذا البتة فى اللغة بلا خلاف [١٧٢] .. الخ .. وقد أطال فى ذلك . والذهاب مع هذا الرأى تعسف لانرى له وجها صحيحا ولقد راجعنا ماتيسر لنا من كتب اللغة فما وجدنا فيها مايعضد كلام الامام ابن حزم ، ثم وجدنا اجماع الرواة على اختلاف الصحابة فى بيعة أبى بكر ، وامتناع اجلة منهم عنها ، وقول عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه معتذرا عما قاله (١٧٣) يوم قبض رسول الله « صلعم » « أيها الناس ، انى كنت قلت لكم بالامس مقالة ما كانت الا من رأيى ، وما وجدتها فى كتاب الله ، ولا كانت عهدا عهده الى رسول الله « صلعم » .

---

(١٦٧) سورة آل عمران .
(١٦٨) ابو الفداء ج ١ ص ١٥٢ .
(١٦٩) سورة النجم .
(١٧٠) سورة الاحزاب .
(١٧١) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٦ .
(١٧٢) الفصل فى الملل والاهواء والنحل ج ٤ ص ١٠٧ وما بعدها .
(١٧٣) لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم قام عمر ابن الخطاب فقال « ان رجالا من المنافقين يزعمون ان رسول الله توفى ، وان رسول الله والله ما مات ، ولكنه ذهب الى ربه ، كما ذهب موسى بن عمران فغاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع بعد ان قيل قد مات . والله ليرجعن رسول الله فليقطعن ايدى رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله مات » ا هـ تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٩٧ .

ولكني قد كنت ارى ان رسول الله سيدبر امرنا حتى يكون آخرنا . وان الله قد ابقى فيكم كتابه الذى هدى به رسول الله ، فان اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له ، وان الله قد جمع أمركم على خيركم ، صاحب رسول الله ، وثاني اثنين اذ هما في الغار ، فقوموا فبايعوه » [١٧٤] »

وجدنا ذلك ووجدنا كثيرا غيره فعلمنا أن الذهاب الى أن النبي « صلعم » قد بين أمر الخلافة من بعده رأى فيروجيه ، بل الحق أنه « صلعم » ماتعرض لشيء من أمر الحكومة بعده ، ولا جاء للمسلمين فيها بشرع يرجعون اليه » وما لحق عليه السلام بالرفيق الاعلى الا من بعد ماكمل الدين ، وتمت النعمة ورسخت في حقيقة الوجود دعوة الاسلام ، وانتهت رسالته ، وانقطعت تلك الصلة الخاصة التي كانت بين السماء والارض في شخصه الكريم عليه السلام »

الباب الثاني :
الدولة العربية

١ ـ زعامة النبي عليه السلام كانت ، كما قلنا زعامة دينية ، جاءت من طريق الرسالة لا غير . وقد انتهت الرسالة بموته « صلعم » فانتهت الزعامة أيضا ، وما كان لاحد أن يخلفه في زعامته ، كما أنه لم يكن لاحد ان يخلفه في رسالته » فان كان ولابد من زعامة بين اتباع النبي عليه السلام بعد وفاته ، فانما تلك زعامة جديدة غير التي عرفناها لرسول الله « صلعم » . طبيعي ومعقول الى درجة البداهة ان لاتوجد بعد النبي زعامة دينية ، واما الذى يمكن ان يتصور وجوده بعد ذلك فانما هو نوع من الزعامة جديد ، ليس متصلا بالرسالة ولا قائما على الدين ، هو اذن نوع لاديني . واذا كانت الزعامة لادينية فهي ليست شيئا أقل ولا أكثر من الزعامة المدنية او السياسية ، زعامة الحكومة والسلطان لا زعامة الدين » وهذا الذى قد كان .

٢ ـ رفعت الدعوة الاسلامية شأن الشعوب العربية من جهات شتى ، ولم يكن الا ريثما أهاب بهم الداعي الى الاسلام ، حتى استحالوا أمة واحدة من خير الامم في زمانهم ، واستعدوا بمثل ماتستعد به شعوب البشر لان يكونوا سادة ومستعمرين . عقيدة صافية من دنس الشرك ، وايمان راسخ في أعماق النفس ، وأخلاق هذبها رسول الله ، وذكاء أنمته الفطرة السليمة ، ونشاط أمدتهم به الطبيعة ، ووحدة من الله قاربت منهم ماتباعد ، ولاءمت ماتباين ، وجعلتهم في دين الله اخوانا . ذلك شأن العرب يوم مات رسول الله « صلعم » شعب ناهض كالعرب يومئذ لايمكن اذا انحلت عنه زعامة النبوة أن يعود راضيا ، كما كان ، أمما جاهلية ، وشعوبا همجية ، وقبائل متعادية ، ووحدات مستضعفة . اذا هيأ الله لامة أسباب القوة والغلبة فلابد ان تقوى ولابد أن تأخذ حظها من الوجود كاملا غير منقوص ، فلابد اذن أن تقوم دولة العرب ، كما قامت من قبلها دول وقامت من بعدها دول » .

٣ ـ لم يكن خافيا على العرب أن الله تعالى قد هيأ لهم أسباب الدولة ومهد لهم مقدماتها ، بل ربما كانوا قد أحسوا بذلك من قبل أن يفارقهم الرسول « صلعم » ، ولكنهم حين قبض رسول الله « صلعم » أخذوا من غير شك يتشاورون في أمر تلك الدولة السياسية التي لم يكن لهم مناص من أن يبنوها على أساس وحدتهم الدينية التي خلفها فيهم النبي عليه السلام « وما كانت نبوة إلا تناسخها ملوك جبرية » [١٧٥] كانوا يومئذ انما يتشاورون في أمر مملكة تقام ، ودولة تشاد ، وحكومة تنشأ انشاء ، ولذلك جرى على لسانهم يومئذ ذكر الامارة والامراء ، والوزارة والوزراء ، وتذاكروا القوة والسيف ، والعز والثروة ، والعدد والمنعة ، والبأس والنجدة ، وما كان كل ذلك الا خوضا في الملك ، وقياما بالدولة . وكان من أثر ذلك ماكان من تنافس المهاجرين والانصار وكبار الصحابة بعضهم مع بعض ، حتى تمت البيعة لابي بكر ، فكان هو أول ملك في الاسلام ، واذا أنت رأيت كيف تمت البيعة لابي بكر ، واستقام له الامر ، تبين لك انها كانت بيعة سياسية ملكية ، عليها كل طوابع الدولة المحدثة ، وانها انما قامت كما تقوم الحكومات ، على أساس القوة والسيف تلك دولة جديدة أنشأها العرب ، فهي دولة عربية وحكم عربي ، ولكن الاسلام ، كما عرفت ، دين البشرية كلها ، لا هو عربي ولا هو أعجمي » كانت دولة عربية قامت على أساس دعوة دينية . وكان شعارها حماية تلك الدعوة والقيام عليها . أجل ، ولعلها كانت في الواقع ذات أثر كبير في أمر تلك الدعوة . وكان لها عمل غير منكور في تحول الاسلام وتطوره . ولكنها على ذلك لاتخرج عن أن تكون دولة عربية ، أيدت سلطان العرب ، وروجت مصالح العرب ، ومكنت لهم في أقطار الارض ، فاستعمروها استعمارا ، واستغلوا خيرها استغلالا ، شأن الامم القوية التي تتمكن من الفتح والاستعمار . .

٤ ـ كان ذلك الامر مفهوما للمسلمين حينما كانوا يتآمرون في السقيفة عمن يولونه أمرهم . وحين قال الانصار للمهاجرين « منا أمير ومنكم أمير » ، وحين يجيبهم الصديق رضي الله عنه « منا الامراء ومنكم الوزراء » [١٧٦] ، وحين ينادي أبو سفيان « والله اني لارى عجاجة لايطفئها الا الدم . يا آل عبد مناف ، فيم أبو بكر من اموركم ؟ اين المستضعفان ! أين الاذلان ! علي والعباس ! وقال : يا أبا الحسن ، ابسط يدك حتى أبايعك . فأبى علي عليه » فجعل يتمثل بشعر المتلمس :

« ولن يقيم على ضيم يراد به
الا الاذلان عير الحي والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته
واذا يشج فلا يرثي له أحد » [١٧٧]

وحين سعد بن عبادة رضي الله عنه يرفض البيعة لابي بكر وهو يقول : والله حتى أرميكم بما في كنانتي من نبلي ، وأخضب سنان رمحي ، وأضربكم بسيفي ماملكته يدي ، وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني من قومي ، فلا أفعل ، وايم الحق ، لو أن الجن اجتمعت لكم مع الانس مابايعتكم حتى أعرض على ربي وأعلم ماحسابي . فكان سعد لايصلي بصلاتهم ولا يجمع معهم ، ويحج ولايفيض معهم بافاضتهم ، فلم يزل كذلك حتى هلك أبو بكر رحمه الله » [١٧٨] . كان معروفا للمسلمين يومئذ أنهم انما يقدمون على اقامة حكومة مدنية دنيوية ، لذلك استحلوا الخروج عليها ، والخلاف لها ، وهم يعلمون أنهم انما يختلفون في أمر من امور الدنيا ، لا من امور الدين ، وأنهم انما يتنازعون في شأن سياسي ، لايمس دينهم ، ولا يزعزع

---

(١٧٤) تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٢٠٢ .
(١٧٥) اى الا تجبر الملوك بعدها . اهاساس البلاغة .
(١٧٦) تاريخ الطبري جـ ٣ ص ١٩٧
(١٧٧) منه ص ٢٠٣ وما بعدها .
(١٧٨) منه ص ٢١٠ .

ايمانهم . وما زعم ابو بكر ولا غيره من خاصة القوم ان امارة المسلمين كانت مقاما دينيا ، ولا أن الخروج عليها خروج على الدين ، وانما كان يقول ابو بكر « يأيها الناس ، انما انا مثلكم ، واني لا أدرى ، لعلكم ستكلفوني ماكان رسول الله « صلعم » يطيق . ان الله اصطفى محمدا على العالمين ، وعصمه من الآفات ، وانما انا متبع ولست مبتدعا » (١٧٩) . ولكن اسبابا كثيرة وجدت يومئذ قد القت على ابى بكر شيئا من الصبغة الدينية ، وخيلت لبعض الناس انه يقوم مقاما دينيا ، ينوب فيه عن رسول الله « صلعم » . وكذلك وجد الزعم بأن ألامارة على المسلمين مركز دينى ، ونيابة من رسول الله «صلعم» وان من اهم تلك الاسباب التى نشأ عنها ذلك الزعم بين المسلمين مالقب به ابو بكر من انه [خليفة رسول الله] .

الباب الثالث :

الخلافة الاسلامية

١ ـ لم نستطع ان نعرف على وجه اكيد ذلك الذى اخترع لابى بكر رضى الله عنه لقب خليفة رسول الله ، ولكنا عرفنا ان ابا بكر قد اجازه وارتضاه . ووجدنا أنه استهل به كتبه الى قبائل العرب المرتدة ، وعهوده الى أمراء الجنود ، ولعلها أول ماكتب أبو بكر ، ولعلها أول ماوصل الينا محتويا على ذلك اللقب [١٨٠] .

٢ ـ لاشك فى ان رسول الله « صلعم » كان زعيما للعرب ومناط وحدتهم ، على الوجه الذى شرحنا من قبل . فاذا قام أبو بكر من بعده ملكا على العرب ، جماعا لوحدتهم ، على الوجه السياسى الحديث ، فقد ساغ فى لغة العرب ان يقال انه بهذا الاعتبار ، خليفة رسول الله ، كما يسوغ أن يسمى خليفة باطلاق ، لما عرفت من معنى الخلافة ، فأبو بكر كان اذن ، بهذا المعنى ، خليفة رسول الله ، لا معنى لخلافته غير ذلك .

٣ ـ ولهذا اللقب روعة ، وفيه قوة ، وعليه جاذبية ، فلا غرو أن يختاره الصديق ، وهو ناهض بدولة حادثة ، يريد أن يضم اطرافها بين اعاصير من الفتن ، وزوابع من الاهواء العاصفة المتناقضة ، وبين قوم حديثى العهد بجاهلية ، وفيهم كثير من بقايا العصبية ، وشدة البداوة ، وصعوبة المراس ، ولكنهم كانوا حديثى عهد برسول الله « صلعم » ، والخضوع له ، والانقياد التام لكلمته ، فهذا اللقب جدير بأن يكبح من جماحهم ، ويلين بعض مااستعصى من قيادهم . ولعله قد فعل . ولقد حسب نفر منهم أن خلافة ابى بكر للرسول « صلعم » ، خلافة حقيقية ، بكل معناها ، فقالوا ان ابا بكر خليفة محمد ، وكان محمد خليفة الله ، فذهبوا يدعون أبا بكر خليفة الله ، وما كانوا يكونون مخطئين فى ذلك لو أن خلافة الصديق النبى عليه السلام كانت على المعنى الذى فهموه ولا يزال يفهمه كثير غيرهم الى الآن . ولكن ابا بكر غضب لهذا اللقب ، وقال « لست خليفة الله ، ولكنى خليفة رسول الله » [١٨١] .

٤ ـ حمل ذلك اللقب جماعة من العرب والمسلمين على أن ينقادوا لامارة أبى بكر انقيادا دينيا ، كانقيادهم لرسول الله « صلعم » ، وأن يرعوا مقامه الملوكى بما يجب أن يرعوا به كل مايمس دينهم . ولذلك كان الخروج على أبى بكر فى رأيهم خروجا على الدين ، وارتدادا عن الاسلام . والراجح عندنا أن ذلك هو منشأ قولهم ان الذين رفضوا اطاعة ابى بكر كانوا مرتدين ، وتسميتهم حروب أبى بكر معهم حروب الردة .

٥ ـ ولعل جميعهم لم يكونوا فى الواقع مرتدين ، كفروا بالله ورسوله ، بل كان فيهم من بقى على اسلامه ، ولكنه رفض ن ينضم الى وحدة أبى بكر ، لسبب ما ، من غير أن يرى فى ذلك حرجا عليه ، ولا غضاضة فى دينه ، وما كان هؤلاء من غير شك مرتدين ، وما كانت محاربتهم لتكون باسم الدين . فان كان ولابد من حربهم فانما هى السياسة ، والدفاع عن وحدة العرب ، والذود عن دولتهم . وقد وجدنا ان بعض من رفض بيعة ابى بكر ، بعد أن تمت له البيعة من المسلمين كعلى بن أبى طالب ، وسعد بن عبادة ، لم يعاملوا معاملة المرتدين ، ولا قيل ذلك عنهم .

٦ ـ ولعل بعض أولئك الذين حاربهم أبو بكر لانهم رفضوا أن يؤدوا اليه الزكاة ، لم يكونوا يريدون بذلك أن يرفضوا الدين ، وأن يكفروا به ، ولكنهم لاغير رفضوا الاذعان لحكومة أبى بكر ، كما رفض غيرهم من أجلة المسلمين ، فكان بديهيا أن يمنعوا الزكاة عنه ، لانهم لايعترفون به ، ولا يخضعون لسلطانه وحكومته . كم نشعر بظلمة التاريخ وظلمه ، كلما حاولنا أن نبحث جيدا فيما رواه لنا التاريخ من أولئك الذين خرجوا على أبى بكر ، فلقبوا بالمرتدين ، ومن حروبهم تلك التى لقبوها حروب الردة . ولكن قبسا من نور الحقيقة لا يزال ينبعث من بين ظلمات التاريخ ، وسيتجه العلماء يوما نحو ذلك القبس ، وعسى أن يجدوا على تلك النار هدى .. دونك حوار خالد بن الوليد مع مالك بن نويرة ، احد أولئك الذين سموهم مرتدين ، وهو الذى أمر خالد فضربت عنقه ، ثم أخذت رأسه بعد ذلك فجعلت أثفية [١٨٢] لقدر . يعلن مالك ، فى صراحة واضحة الى خالد انه لايزال على الاسلام ، ولكنه لايؤدى الزكاة الى صاحب خالد « أبى بكر » .. كان ذلك اذن نزاعا غير دينى ، كان نزاعا بين مالك ، المسلم الثابت على دينه ، ولكنه من تميم ، وبين أبى بكر القرشى ، الناهض بدولة عربية أئمتها من قريش . كان نزاعا فى ملوكية ملك ، لا فى قواعد دين ، ولا فى أصول ايمان . ليس مالك هو وحده الذى يشهد لنفسه بالاسلام ، بل يشهد له به أيضا عمر ابن الخطاب ، اذ يقول لابى بكر « ان خالدا قتل مسلما فاقتله » ، بل يشهد له بالاسلام أيضا أبو بكر اذ يجيب « ماكنت أقتله ، فانه تأول فأخطأ » [١٨٣] .. ودونك مثالا آخر ، قول شاعر منهم [١٨٤] .

اطعنا رسول الله ما كان بيننا
فيا لعباد الله ما لابى بكر

(١٧٩) تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٢١١
(١٨٠) راجع تاريخ الطبرى جـ ٣ ص٢٢٦ ـ ٢٢٧ .
[١٨١] مقدمة ابن خلدون ص ١٨١ .
[١٨٢] توضع القدر عندما توقد عليها النار للطبخ . فوق حجرين متقابلين ، ومن خلفهما حجر ثالث . فاذا لم يجدوا حجرا ثالثا اسندوا القدر الى الجبل . والاثفية بضم الهمزة وكسرها وكسر الفاء ، الحجر توضع عليها القدر ، والجمع الاثافى واثاف . ورماه الله بثالثة الاثافى ، أى بالجبل
[١٨٥] البخارى جـ ٢ ص ١٠٥
[١٨٣] راجع ذلك الحديث فى الجزء الاول من تاريخ ابى الفداء ص ١٥٨٢١٥٧
[١٨٤] هو الخطيل بن اوس اخو الحصين بن اوس . تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٢٢٣

أيورثنا بكراً اذا مات بعده
وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

فأنت لاتجد في هذا الا رجلا ثائرا على أبي بكر ، منكرا لولايته ، رافضا لطاعته ، آبيا لبيعته ، ولكنه في الوقت نفسه يؤمن برسول الله «صلعم» ولا يعلن اباءه لشيء من الاسلام . ثم انسنا نقرأ في التاريخ أيضا ، أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قد أنكر على أبي بكر قتاله المرتدين ، وقال : «كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله «صلعم» : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله الا الله ، فمن قالها عصم مني ماله ونفسه الا بحقه ، وحسابه على الله» [185] . ذلك قليل مما بقي في الاخبار من صدق كاد يعفي التاريخ على أثره ، ومن حق كاد يذهب بخبره . وابحث فثم مزيد .

٧ — لسنا نتردد لحظة في القطع بأن كثيرا مما وسموه حرب المرتدين في الايام الاولى من خلافة أبي بكر لم يكن حربا دينية ، وانما كان حربا سياسية صرفة ، حسبها العامة دينا ، وماكانت كلها للدين . ليس من عملنا في هذا المقام أن نبين لك تلك الاسباب الحقيقية ، التي كانت في الواقع مثارا لكثير من حرب الردة ، ولا نستطيع ان ندعي اضطلاعنا بهذا البحث ، ان نحن حاولناه ولكن يخيل الينا انك قد تظفر ببعض الاسباب الاساسية المهمة اذا انت دققت النظر في انساب وقبائل الثائرين على أبي بكر ، وعرفت صلتهم من قريش ، جد البيت القائم بالملك ، وكنت مع ذلك بصيرا بطبائع العرب وآدابهم ، ثم رزقت التوفيق .

٨ — نحن نميل الى الاعتقاد بأنه قد ارتد بالفعل جماعة من المسلمين بعد رسول الله «صلعم» . فذلك شيء تكاد تقضي به سنن الطبيعة وأنظمتها التي عرفنا ، وأسهل من ذلك أن نعتقد بأنه قد ادعى النبوة ، في حياة محمد «صلعم» وبعد وفاته ، متنبئون كذابون . وقد نرى في مشاهداتنا أن دعوى النبوة ليست بعيدة من ذهن المضلل الغوي ، اذا هو لاقى من العامة انجذابا ، وأغوى منهم صحابا وأحبابا ، ولا شيء أسهل عند العامة من الايمان بنبوة ذلك المضلل الغوي ، اذا هو عرف كيف يغريهم بالضلال ، ويمدهم في الغي ، لذلك نرجح أنه قد وجد بالفعل ، في أول عهد أبي بكر ، جماعة ارتدوا عن الاسلام ، بوفاة النبي عليه السلام ، كما وجد من ادعى النبوة في قبائل العرب ، وقد كان من أول ما عمل ابو بكر نهوضه لحرب أولئك المرتدين الحقيقيين ، والمتنبئين الكذابين ، حتى غلب عليهم وقضى على باطلهم . لانريد البحث فيما اذا كان لابي بكر صفة دينية صرفة جعلته مسئولا عن أمر من يرتد من الاسلام أم لا ، ولا نريد البحث فيما اذا كان ثمة أسباب غير دينية حفزت لتلك الحرب عزيمة أبي بكر أم لا . ومهما يكن الامر فلا شك أن أبا بكر قد بدأ عمله في الدولة الجديدة بحرب أولئك المرتدين ، وهنا نشأ لقب المرتدين ، نشأ لقبا حقيقيا ، لمرتدين حقيقيين ، ثم بقي لقبا لكل من حاربهم ابو بكر من العرب بعد ذلك ، سواء أكانوا خصوما دينيين ومرتدين حقيقة ، أم كانوا خصوما سياسيين غير مرتدين ومن أجل ذلك انطبعت حروب أبي بكر في جملتها بطابع الدين ، ودخلت تحت اسم الاسلام وشعاره ، وكان الانضمام الى أبي بكر دخولا تحت لواء الاسلام ، والخروج عليه ردة وفسوقا .

٩ — ربما كانت ثمة ظروف أخرى خاصة بأبي بكر ، قد ساعدت على خطأ العامة ، وسهلت عليهم ان يشربوا امارة أبي بكر معنى دينيا . فقد كان للصديق رضي الله عنه منزلة رفيعة ممتازة عند رسول الله «صلعم» ، وذكر في الدعوة الدينية ممتاز ، وكذلك كانت منزلته عند المسلمين . وقد كان الصديق مع هذا يحذو حذو الرسول ، ويمشي على قدمه ، في خاصة نفسه ، وفي عامة أموره ، ولا شك في ان ذلك كان شأنه أيضا في سياسة أمر الدولة ، فقد سار بها ، مبلغ جهده ، في طريق ديني ، ونهج بها ، على القدر الممكن ، منهج رسول الله ، فلا غرو أن أفاض أبو بكر على مركزه في الدولة الجديدة ، التي كان هو أول ملك عليها ، كل مايمكن من مظاهر الدين .

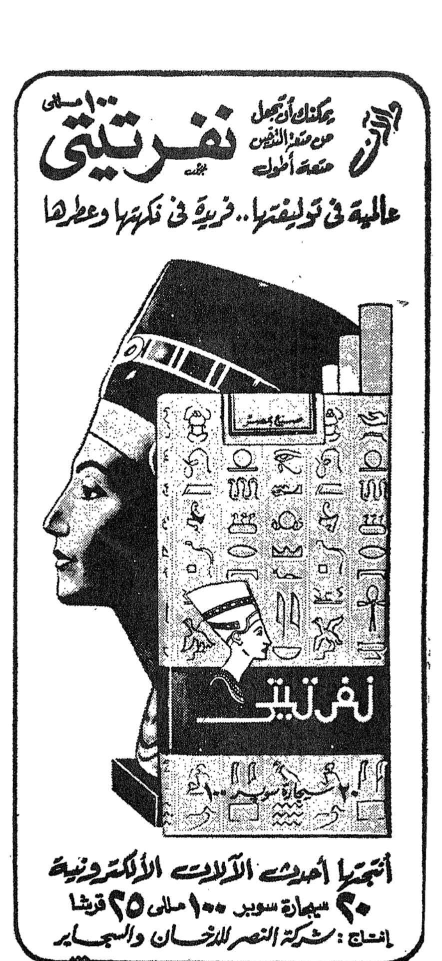
١٠ — تبين لك من هذا ان ذلك اللقب «خليفة رسول الله» مع ماأحاط به من الاعتبارات التي أشرنا الى بعضها ولم نشر الى باقيها ، كان سببا من أسباب الخطأ الذي تسرب الى عامة المسلمين ، فخيل اليهم ان الخلافة مركز ديني ، وأن من ولي أمر المسلمين فقد حل منهم في المقام الذي كان يحله رسول الله «صلعم» . وكذلك نشأ بين المسلمين منذ الصدر الاول ، الزعم بأن الخلافة مقام ديني ، ونيابة عن صاحب الشريعة عليه السلام .

١١ — كان من مصلحة السلاطين أن يروجوا ذلك الخطأ بين الناس ، حتى يتخذوا من الدين دروعا تحمي عروشهم ، وتذود الخارجين عليهم ، وما زالوا يعملون على ذلك ، من طرق شتى — وما اكثر تلك الطرق لو تنبه لها الباحثون — حتى أفهموا الناس أن طاعة الائمة من طاعة الله ، وعصيانهم من عصيان الله ، ثم ماكان الخلفاء ليكتفوا بذلك ، ولا ليرضوا بما رضي أبو بكر ، ولا ليغضبوا مما غضب منه بل جعلوا السلطان خليفة الله في أرضه ، وظله الممدود على عباده ، سبحان الله وتعالى عما يشركون . ثم اذا الخلافة قد أصبحت تلصق بالمباحث الدينية ، وصارت جزءا من عقائد التوحيد ، يدرسه المسلم مع صفات الله تعالى وصفات رسله الكرام ، ويلقنه كما يلقن شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله . **تلك جناية الملوك واستبدادهم بالمسلمين ، أضلوهم عن الهدى وعموا عليهم وجوه الحق ، وحجبوا عنهم مسالك النور باسم الدين ، وباسم الدين أيضا استبدوا بهم ، وأذلوهم ، وحرموا عليهم النظر في علوم السياسة ، وباسم الدين خدعوهم وضيقوا على عقولهم ، فصاروا لايرون لهم وراء ذلك الدين مرجعا ، حتى في مسائل الادارة الصرفة ، والسياسة الخالصة .** ذلك وقد ضيقوا عليهم أيضا في فهم الدين ، وحجروا عليهم في دوائر عينوها لهم ، ثم حرموا عليهم كل أبواب العلم التي تمس حظائر الخلافة كل ذلك انتهى بموت قوى البحث ، ونشاط الفكر ، بين المسلمين ، فأصيبوا بشلل في التفكير السياسي والنظر في كل مايتصل بشأن الخلافة والخلفاء .

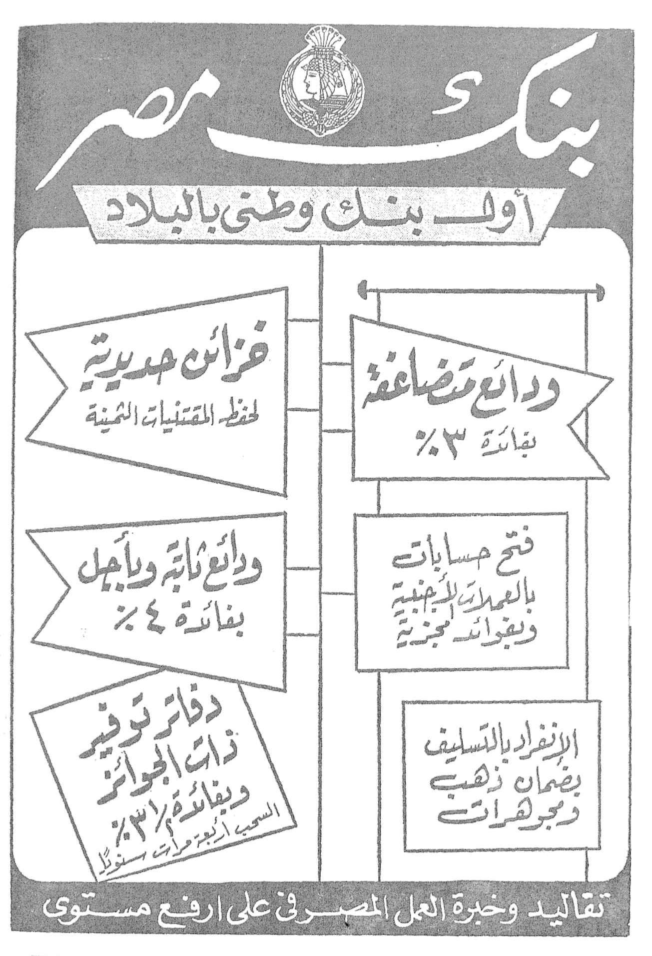
١٢ — والحق أن الدين الاسلامي بريء من تلك الخلافة التي يتعارفها المسلمون ، وبريء من كل ماهيأوا حولها من رغبة ورهبة ، ومن عز وقوة والخلافة ليست في شيء من الخطط الدينية ، كلا ولا القضاء ولا غيرهما من وظائف الحكم ومراكز الدولة . وانما تلك كلها خطط سياسية صرفة ، لاشأن للدين بها ، فهو لم يعرفها ولم ينكرها ولا أمر بها ولا نهى عنها ، وانما تركها لنا لنرجع فيها الى أحكام العقل ، وتجارب الامم وقواعد السياسة . كما أن تدبير الجيوش الاسلامية ، وعمارة المدن والثغور ، ونظام الدواوين لاشأن للدين بها ، وانما يرجع الامر فيها الى العقل والتجريب ، أو الى قواعد الحروب ، أو هندسة المباني وآراء العارفين . لاشيء في الدين يمنع المسلمين أن يسابقوا الامم الاخرى في علوم الاجتماع والسياسة كلها ، وأن يهدموا ذلك النظام العتيق الذي ذلوا له واستكانوا اليه ، وأن يبنوا قواعد ملكهم ونظام حكومتهم على احدث ما انتجت العقول البشرية ، وأمتن مادلت تجارب الامم على أنه خير أصول الحكم ، والحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه ومن والاه .

---

[185] البخاري ج ٢ ص ١٠٥



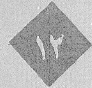
يمكنك أن تجعل
من متعة التدخين
متعة أطول
نفرتيتي
١٠٠ مللي
عالمية فى توليفتها.. فريدة فى نكهتها وعطرها
نفرتيتي
٢٠ سيجارة سوبر ١٠٠
أنتجتها أحدث الآلات الألكترونية
٢٠ سيجارة سوبر ١٠٠ مللى ٢٥ قرشا
إنتاج: شركة النصر للدخان والسجاير



بنك مصر
أول بنك وطني بالبلاد
ودائع متضاعفة
بفائدة ٣٪
خزائن حديدية
لحفظ المقتنيات الثمينة
فتح حسابات
بالعملات الأجنبية
وبفوائد مجزية
ودائع ثابتة وبأجل
بفائدة ٤٪
الإنفراد بالتسليف
بضمان ذهب
ومجوهرات
دفاتر توفير
ذات الجوائز
وبفائدة ٢/١ ٣٪
السحب أربعة مرات سنويًا
تقاليد وخبرة العمل المصرفى على ارفع مستوى

الطليعة

طريق المناضلين الى الفكر الثورى المعاصر



السنة السابعة ـ ديسمبر ١٩٧١

- اسرائيل: الكيان ـ الأيديولوجية ـ الاستراتيجية
- الماركسيون والاشتراكية غير الماركسية
- الحل الواقعى : معركة تحرير وطنية
- اعادة بناء القرية : القضية والخطة
- ملف خاص : عبد الرحمن الرافعى : مؤرخا وسياسا



طريق المناضلين الى

الفكر الثورى المعاصر

مجلة شـــهرية
تصدر أول كل شهر

رئيس التحرير :

لطفى الخولى

مستشارو التحرير :

د. ابراهيم سـعد الدين
ابو سـيف يوسـف
د. اسماعيل صبرى عبدالله
د. جمـال العطيفى
د. رشـدى سـعيد
د. عبـد الرازق حسـن
د. لطيفـة الزيـات
د. محمـد الخفيف

مدير التحرير :

ميشيل كامل

■

عنوان المراسلات :

مبنى مؤسسة الاهرام شـارع الجـلاء القاهرة تليفون : ٤٦٤٦٤ — ٩٥٠١٠ — ٥٩٥٦٠

الاشتراكات :

لسـنة بالبريد العـادى ج.ع.م دول اتحـاد البريد العـربى ودول الـدار البيضاء ١٢٠ قرشا.

الفهـــرس

العدد الثانى عشر — السـنة السـابعة — ديسـمبر ١٩٧١ م

ان « الطليعة » ميدان مفتوح لكل رأى حر ، وفى اعتقادنا ان تفاعل الاراء الحرة على اختلافها هو وحده الذى يستطيع أن يبلور ويستخلص وحدة فكـــرية اصـــيلة .

من هـــذا المفهـــوم تفتح « الطليعة صفحاتها لكل رأى لديه كلمة يقولها ـ مؤمنة بشعار الحرية المجيد الذى اطلقه فولتير فى القرن الثامن عشر « قد اختلف معك فى الـــرأى ولكنى على استعداد لان ادفع حيـــاتى ثمنا لحقك فى الدفاع عن رأيك » .



الحل الواقعى :
معركة تحرير وطنية

اليوم ، نجد أنفسنا وجها لوجه مع الحقيقة عارية .

والحقيقة ، تنعى بقوة ، جميع الجهود السياسية والدبلوماسية التى شملت العالم كله ، خلال أربعة أعوام ونصف العام . وذلك من أجل الوصول الى ما سمى « بالحل السلمى » لأزمة الشرق الاوسط .

ماذا يعنى هذا ؟

المعنى الواضح ان هذا الحل السلمى ليس بالحل الواقعى لقضية واقعية : الاحتلال الصهيونى للارض العربية القائم بقوة الغزو والسلاح .

والانسان مطالب فى مواجهة كل قضية ان يبحث عن حل واقعى لها . وفى الحق ، فان لكل قضية مهما تعقدت ، حلا واقعيا . والحل الواقعى هو الحل العادل والممكن فى آن واحد . ولكى يتوافر العدل والامكان فى الحل ، يستوجب الامر أن يوضع فى الاعتبار مجموع الظروف التاريخية الخاصة بطبيعة القضية .

من هنا تصبح المسألة التى تلح على الانسان العربى اليوم ، بعد ما ثبت من عدم واقعية ما سمى بالحل السلمى ، البحث عن حل واقعى آخر ، وأن يتحمل مسئولية تنفيذه مهما كانت الصعاب والتضحيات .
هناك من يبسط الامور تبسيطا مخلا فيضع الحل العسكرى — ميكانيكيا — فى مقابل الحل السلمى . وطالما ان الحل السلمى قد فشل فليذهب السلام الى الجحيم ، وهيا الى الحرب بأسلوب البداوة المتخلفة فى قرن الثورة الاجتماعية والتكنولوجيا العالمية .

الحياة ، اعقد كثيرا من مجرد ذلك الخيار البدائى بين حل سلمى مجرد أو حل عسكرى مجرد . بل أن طرح القضية على أساس سلم فقط أو حرب فقط ، طرح مغلوط ، يقودنا اليه الحماس العاطفى مرة ، أو العجز عن التحرك مرة اخرى ، أو اليأس الانتحارى مرة ثالثة . وبتعبير آخر فان هذا الطرح المغلوط للقضية يأتى نتيجة تجسيد وقتى غير مدروس لردود أفعال ننساق وراء أذيالها . بحيث نصبح

أسرى الحوادث التى يفعلها الغير مما يفقدنا ـ نظريا وعمليا ـ القدرة على صنع الاحداث والتحكم فى مسارها .

ليس بردود الفعل التلقائية أو الحماسية، يمكن أن ننجح فى معالجة قضايا المصير . فقط بالفعل المدروس والمحسوب ، نستطيع أن نقلب الصورة . وندفع بالعدو الى موقف رد الفعل ـ وهو دائما اضعف من موقف الفعل ـ ونقود الاحداث نحو هدفنا الجوهرى من القضية .

والحماسة العاطفية ، ليست شيئا ضارا فى حد ذاتها . بل هى مفيدة ؛ اذا امكن ان نجعلها وقودا دائم الاشتعال لتسخين القلب . وابعدناها عن التاثير فى العقل الذى يجب ان نحتفظ به باردا ؛ لنحسن الرؤية والتحليل والتفكير والتقرير .

وبالقلب الساخن والعقل البارد ـ مجتمعين ـ نستطيع ان نستبدل الطرح المغلوط للقضية ـ سلما مجردا او حربا مجردة . بطرح صحيح .

والطرح الصحيح هو الطرح الموضوعى . فالمطلوب اذن هو حل موضوعى ، لاحلا سلميا أو حلا عسكريا . والموضوعية تنبثق اول ماتنبثق من طبيعة القضية الخاصة ، والظروف الخارجية المحيطة بها ، وتقدير دقيق لكل من امكانياتنا وامكانيات العدو .

وطبيعة القضية الاساسية ، تتحدد فى ان هناك احتلالا مستمرا لارض عربية منذ هزيمة ١٩٦٧ ، يصاحبه عدوان توسعى دائم على الشعب الفلسطينى وبقية الشعوب العربية . ويستند هذا الاحتلال المستمر والعدوان التوسعى الى المصالح الخاصة بالحركة الصهيونية العنصرية المسيطرة فى اسرائيل . وتتوافق هذه المصالح الخاصة مع المصالح العامة للامبريالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة الامريكية، فى تخريب حركة التحرر الوطنى العربية التى تهدد استراتيجيتها القواعد الامريكية السياسية والاقتصادية والعسكرية فى منطقة الشرق الاوسط .

وقد نجحت حركة التحرر الوطنى العربى خلال أوج فترة المد الثورى، من الخمسينيات الى أوائل الستينات ، فى تصفية معظم القواعد العسكرية الامبريالية التقليدية فى المنطقة ، والتى كانت وسيلتها المباشرة لضرب حركة التحرر . ومن هنا ركزت على تقوية اسرائيل لتكون الوسيلة الامبريالية البديلة وذلك بتحويلها الى «قاعدة عسكرية فى شكل دولة » .

وبالتالى فان مواجهتنا للعدوان الاسرائيلى هى فى نفس الوقت مواجهة للامبريالية ، التى تعانى ـ موضوعيا ـ من أزدياد قوة العالم الاشتراكى من ناحية . والنضج الثورى السياسى الاجتماعى لحركات التحرر الوطنى من ناحية أخرى . فتعمد بأسلوب الدفاع الهجومى أو الحرب الوقائية ـ على حد التعبير الاسرائيلى ـ الى التحرش والاستفزاز وتفجير حروب محلية محدودة لاستنزاف القوى اما بطريق مباشر، كما هو الحال فى فيتنام وكمبوديا . أو بطريق غير مباشر بواسطة اداة معدة اعدادا خاصا ، كما هو الحال فى الشرق الاوسط .

وحول هذه الطبيعة الاساسية للقضية تتراكم مجموعة من الظروف الخاصة المعقدة . حتى انه فى بعض الاحيان ، تبدو كما لو كان بعضها يتناقض مع البعض الآخر .

ويمكن أن نلخص أهم هذه الظروف الخاصة فيما يلى :

● هزيمة ١٩٦٧ هى ثالث هزيمة تلحقها الصهيونية الاسرائيلية بالعرب خلال عشرين عاما . ويحاول الاستراتيجيون الاسرائيليون استثمار هذا الواقع فى ثلاثة اتجاهات :

الاتجاه الاول ، **داخلى** . بمعنى زرع قيم التفوق النوعى فى نفسية الاسرائيلى الصهيونى ازاء المواطن العربى . والعزف على نغمة أن استمرار ونمو هذا الشعور بالتفوق هو ضمان لاستمرار النصر الاسرائيلى وايقاع الهزيمة بالعرب . والصهيونيون فى ذلك منطقيون مع طبيعتهم العنصرية العدوانية . بيد أن هذه القيمة ـ واقعيا ـ وان كانت مصدر قوة للعقيدة الصهيونية العنصرية الا انها فى نفس

الوقت مصدر ضعف من حيث انها نربي الاسرائيلي نفسيا على الاستهانة بالقدرة العربية وتطورهـا ونموها بفعل تحدى الهزيمة والتخلف والزمن معا .
والاتجاه الثاني ، **عربي** . وذلك بدس فكرة الاستسلام المدثر بأردية التعقل فى نفوس العرب ، وصـولا الى هدم روحهم المعنوية فى اسـتمرار مجـابهة القـوة العسـكرية الاسرائيليـة التى لا تغلب . وتهمس الفكرة الصـهيونية فى الوجدان العربي متسـائلة : « هل مازلتم فى حاجة الى هزيمة رابعة حتى تثوبوا الى رشدكم أيها العرب وتكفوا عن مناطحة اسرائيل ؟ »
والاتجاه الثالث ، **دولي** . أو اذا شئنا الدقة **استعماري** . وفى هذا المجال تتجه اسرائيل الى القوى الامبريالية فى العالم على اساس انها جزء منها مزروع فى الشرق الاوسط ، وفى قلب الوطن العربي . ممثلة أمينة لمصالح هذه القوى ، ويدا ضـاربة باسمها ، أثبتت قدرتها على الضرب ثلاث مرات متوالية . وبالتالى فهى اداة مفيدة ومؤثرة . ولكنها مع ذلك مابرحت غير مؤمنة التأمين الكافى لمواصـلة دورهـا المزدوج ، لصالح حركتها الصـهيونية من ناحية ولصالح الامبريالية من ناحية اخرى . ومن هنا يحق لها أن تطلب أقصى قدر من الامن والعون والمسـاعدة من حلفائهـا الامبرياليين وخاصة الامريكيين . ذلك أن تهديد امنها يعنى امكان هزيمتها . وهزيمة واحدة تلحق باسرائيل كفيلة بان تكنس الغرب الاستعمارى كله من المنطقة .

● صـمود العرب وعدم استسـلامهم لشروط اسرائيل ومطالب الامبريالية رغـم فداحة هزيمة ١٩٦٧ ومرور أربعة اعوام ونصف العام على الهزيمة ، حفلت بأحداث جسام صحية وغير صحية . بيد أن هذا الصـمود ، وان نجح فى اقامة خط دفاع عربى سياسي — عسـكرى ، الا انه ظل على هذا الموقف السلبى ولم يتحرك بعد ، بايجابية فعالة ومؤثرة فى ميزان القـوى بالمنطقة .
والصراع العربى الاسرائيلي يتحدد فى هذه المرحلة الراهنة مـن القضـية حول استمرار الصمود بمعناه السلبى من ناحية اسرائيل ، وتطور الصـمود الى حـركة ايجابية من ناحية العرب .

● فى الوقت الـذى يتحقق فيه عمليا اقصى قدر من الاتفاق حول الخط السياسى الصهيونى العدوانى فى اسرائيل ، بالرغم من صعاب كثيرة ، فى مواجهة العرب . فان العرب على العكس . فتفجر الصراع الاجتماعى على مستوى الوطن العربى ، رغم ظاهرته الصحية والحيوية ، قد أسهم مع تفاوت درجات النضج فى بعثرة الوحدة الوطنية العربية اللازمة لمواجهة حادة مع اسرائيل .
واذا كانت بعض القوى الرجعية العربية متحالفة فى ذلك مع المخطط الامبريالى — الاسرائيلى قد استغلت هذا الموقف الى أقصى حد . الا ان القوى التقدمية نفسها لم تتوصل بعد الى موقف عملى موحد من القضية فى مرحلتها الراهنة من ناحية ، ولم توفق بعد فى ايجاد صـيغة للتحالف الوطنى القوى الشـامل يوظف الصراع الاجتماعى فى خدمة القضية الوطنية الكلية ازاء الاحتلال الصهيونى الامبريالى .

● عمد الامريكيون منذ أواسط عام ١٩٦٩ الى القيـام بجـهد دبلوماسى مكثف ، ظاهره السـعى الى حـل سـلمى للقضـية ، وباطنـه الحقيقى دعـم العدوان الاسرائيلى . واستهدفت المحاولة الامريكية عدة أهداف فى وقت واحد :
أولا : الخـروج بالموقف الامريكى ـ الاسرائيلي من العزلة السياسية الدولية التى جاءت نتيجة تفاعل السياسات المصرية — والسوفيتية — والفرنسية خاصة والقوى المحبة للحرية والسلام فى العالم بصـفة عامة .
ثانيا : السعى الى تخريب الصـداقة العربية السوفيتية . والعمل على ايهام الرأى العام العربى بأن هذه الصـداقة لا تجدى شيئا فى حل القضية وأن أمريكا هى الدولة الوحيدة القادرة على الحـل وذلك عن طريق استخدام امكانياتها فى الضغط على اسرائيل ، بيد ان الاحداث أكدت ، حتى للقوى العربيـة التى ظلت تحسن الظن بأمريكا بعد هزيمة ١٩٦٧ ، أن أمريكا تمـارس ضغطها فى الاتجـاه المعاكس ، ضد العرب ، لصالح الاحتلال الاسرائيلى .

ثالثا : العمل على اغراق العرب،ومصر بالذات ، فى دائرة مفرغة من المكاتبات والمشروعات الجزئية الاستسلامية بغرض عزل مصر عن الوطن العربى أو على الاقل اضعاف وزنها العربى عن طريق امتصاص حركتها الثورية .

وفى سبيل ذلك أشاعت فى الوطن العربى وفى العالم كله ، مناخا كاذبا عن قرب الوصول الى حل أمريكى — مصرى . يجرى طبخه على نار الدبلوماسية الهادئة فى مطبخ سرى . وكان يمكن أن تستمر هذه اللعبة الامريكية فى الخداع ، لولا أن تصدى لها « **الرئيس السادات** » بحسم وقوة ، كشف عن حقيقتها الامبريالية بحيث اضطرت وزارة الخارجية الامريكية الى الاعلان الصريح — مؤخرا — عن قطع « السادات » لكل اتصال مع الامريكيين حول ما يسمى بالحل السلمى .

● التحولات التى طرأت على غالبية الرأى العام العالمى ، خلال الاربعة أعوام ونصف العام ، وأدت الى انحساره عن التأييد التقليدى الاعمى لاسرائيل « الحمل الوديع المحاصر بقطيع الذئاب العربية » ، واذا كانت نتائج هذا الانحسار لم تنقلب كلها — ميكانيكيا — الى تأييد للحق العربى، الا أنه من الواضح أن الرأى العام العالمى بات يتفهم بدرجة أكثر موضوعية القضية والحق العربى الذى كان مطموسا تحت أنقاضها . يضاف الى ذلك انتصار الشرعية الدولية ممثلة فى الامم المتحدة ، بدرجات متفاوته ، للحق العربى فى القضية . بيد أن هذا كله ، على الرغم من آثاره السياسية الايجابية ، ظل عاجزا عن انفاذ ارادته ضد العدوان الصهيونى والاحتلال الاسرائيلى .

فى ضوء هذه الطبيعة الاساسية للقضية ، ومجموعة الظروف الخاصة المعقدة المتراكمة حولها . وباستقراء واع لحركة التاريخ الانسانى وتجاربه ضد العدوان والاحتلال ، يصبح الحل الواقعى الوحيد هو ممارسة معركة تحرير حقيقية ، ذات نفس طويل .

وككل معركة تحرير فانها تستلزم :

أولا : هدف واضح محدد . والهدف محدد فى وأد العدوان الصهيونى — الامبريالى ، وتحرير الارض العربية من الاحتلال الاسرائيلى .

ثانيا : شعب متوحد من حول الهدف ،رتب حياته على خوض المعركة بكل طاقته على العطاء والتضحية . ولم يكن الشعب حاضرا بوحدته حول الهدف فى أى وقت مضى مثل ما هو اليوم .

ثالثا : جيش وطنى ، يثق فى قدراته المعنوية والمادية والتسليحية وتفاعل الشعب معه .

والجيش الوطنى الواثق من قدراته قد أثبت عمليا وجوده الواعى أكثر من مرة .

رابعا : قيادة وطنية مجربه معادية للمساومة على استقلال الوطن وتقدمه ، تمارس مسئولياتها بشجاعة من خلال حركة الجماهير . ومثل هذه القيادة أيضا — أثبتت قدرتها ووجودها الواعى تاريخيا .

خامسا : مناخ دولى موات للمعركة ومتعاطف معها ويمكن القول — باطمئنان — أن الحد الادنى من هذا المناخ متوافر بالفعل ويتجسد أساسا فى ظاهرة العزلة السياسية الدولية المفروضة على اسرائيل

ولست أريد أن أدخل — هنا — فى مناقشات نظرية حول ما اذا كان ممكنا انتهاج هذا الحل من عدمه قبل أربعة أعوام . فمادام الطريق قد أصبح مفتوحا — عمليا — لمعركة التحرير ذات النفس الطويل ، فالواجب الوطنى والثورى معا ، يحتمان تركيز كل الجهد حول معركة اليوم وتوجيهها : سياسيا وعسكريا نحو الهدف. واقامة منابر للحساب النظرى حول الماضى فى هذه الظروف هو أضعاف موضوعى للمعركة فى الممارسة .

وعلى الرغم من سلبيات الاعوام الاربعة الماضية ، الا أنها أفرخت — فى المقابل — ايجابيات لها وزنها فى التحضير لمعركة التحرير .

من **ناحية أولى** : أتاحت المساحة الزمنية اللازمة لاعادة بناء القوات المسلحة .

من ناحية ثانية : سمحت باجراء بعض التغييرات اللازمة ، لاعادة بناء البيت من الداخل وتصفية عدد من أسباب الهزيمة . ولا شك أن التغييرات الجذرية سوف تستكمل وبمعدل أسرع ومفعول أقوى خلال المعركة .

ومن ناحية ثالثة : تعرية الوجه الاساسي المعادى فى القضية ، ونعنى به الوجه الامريكى على أوسع نطاق فى العالم العربى .

ومن ناحية رابعة : تحول الراى العالم العالمى بالتدريج عن مساندته التقليدية لاسرائيل .

ومن ناحية خامسة : فجرت عددا من التناقضات العنصرية والاجتماعية داخل المجتمع الاسرائيلى بحيث ثبت للاسرائيلى العادى أن العدوان لا يحقق له شيئا من السلام الموعود أو الرفاهية التى دق الصهاينة طبول الوهم من حولها منذ يونيو ١٩٦٧ .

ومن ناحية سادسة : اغنت القوى العربية الوطنية والتقدمية بزاد ثمين من التجارب الفادحة الثمن ، لابد وان ينعكس على حركتها الراهنة .

امام هذا كله ، تغدو معركة التحرير الوطنية هى جوهر الحل الموضوعى . والحل الواقعى اذا تبنته الجماهير الشعبية صار بالضرورة حلا ثوريا . والحل الثورى ليس حلا مبتسرا أو جزئيا ينتقل بخطوات حجلى ، بين السياسة المجردة وبين الحرب المجردة . وانما هو طريق نستخدم فيه جميع الوسائل والطاقات : السياسية ، والعسكرية التقليدية وغير التقليدية ، والاقتصادية والاجتماعية ، على الصعيد الوطنى والقومى والعالمى فى وقت واحد . وذلك من خلال استراتيجية شاملة تعى كيف تتصاعد بمراحلها التكتيكية .

وهذه الاستراتيجية ، لكى تحقق هدفها من خلال معركة التحرير ، يجب أن تراعى الخطوت الاساسية الستة التالية :

اولا : العدو ليس اسرائيل الصهيونية وحدها . هذا احد وجهيه أما الوجه الاخر فهو الامبريالية العالمية وبالذات الامريكية .

ثانيا : خوض المعركة ضد الاحتلال هو فى نفس الوقت دفاع عن السلام العالمى فى المنطقة وعن تقدمها الاقتصادى والاجتماعى .

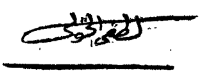
ثالثا : تأمين الحقوق القومية للشعب الفلسطينى وتنسيق خطوات المعركة مع المقاومة الفلسطينية .

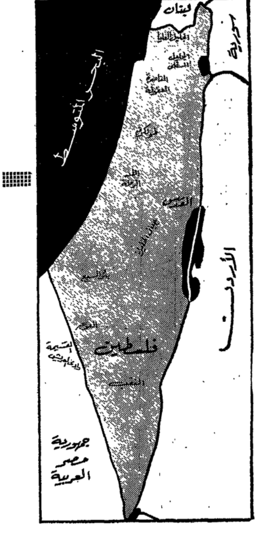
رابعا : شجب الصهيونية بنفس القوة التى نشجب بها أية حركة عنصرية أو معادية لليهود فى البلاد العربية والعالم كله .

خامسا : عدم فتح أى معارك جانبية فى الوطن العربى مهما بلغت درجة الاستفزاز . وعدم استلزام دخول كل القوى العربية فى المعركة لبدئها . لنبدأ وبعد خطوة البداية سيأتى حتما المد الجماهيرى العربى بكل الطاقات مختارة أو مرغمة .

سادسا : التطهر من غيبيات الوقوع فى دوامات التهويل من قوة العدو أو الاستهانة بها فى نفس الوقت . وبالضبط فان قوة العدو هى التحدى الموضوعى الذى علينا أن نتصدى له مثلما تصدت ، وماتزال تتصدى ، شعوب مثلنا لقوى عدوانية أشرس واعتى من العسكرية الصهيونية .

نعم .. وباختصار . معركة التحرير الوطنية هى الحل الذى يمليه الواقع الراهن بعد أربعة أعوام ونصف العام من الصمود السلبى .





اســـرائيل

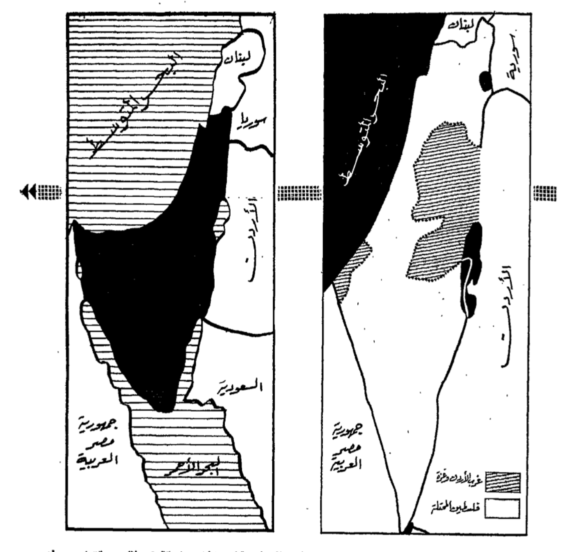
الكيـــــان
الأيديولوجية
الاستراتيجية

حقيقة اسرائيل ...

هذا هو مضمون دراسة الطليعة لهذا العدد الذى تختتم به عام ١٩٧١ .
وفى الواقع ، فان اختيار الطليعة لهذه الدراسة انما يرتبط بمجمل التطورات التى انتهى اليهـا الصراع العربى الاسرائيلى .

وكما أوضح « الرئيس السادات » فى خطابه الذى ألقاه فى مجلس الشـعب (١١ نوفمبر) فان اسرائيل قد أثبتت ، وتثبت كل يوم ـ بالأفعـال والاقوال ـ انها لا تريد الا التوسع فى الارض العربية ، وان الولايات المتحدة لم تقم بأى مسعى جدى وعملى فى اتجاه الضغط على اسرائيل . بل على العكس لقد أمدت الولايات المتحدة اسرائيل بكل صور الدعم العسكرى والاقتصادى والسياسى الامر الذى جعل من الولايات المتحـدة شريكة لاسرائيل بالعدوان .

وهذه الدراسة تدخل ، بعد ذلك ، فى نطاق المهمة الرئيسية التى يفرضها العدوان الصهيونى: التعريف بالعدو : أهدافه الحقيقية ، ووسائله ، وتكنيك دعايته . وتؤمـن الطليعة بأن التوعية



■ ثلاث من مراحل تطور الحلم الصهيونى . ارض فلسطين قبل ١٩٤٨ حيث كانوا يطالبون بانشاء « وطن قومى لهم » ، ثم حدود « دولة » اسرائيل كما وقفت عليها القوات الصهيونية اثر معارك ١٩٤٨ ، ثم اسرائيل بعد ١٩٦٧ ... ووراء كل خطوة كانت الايديولوجية الصهيونية خطة ودافعا نحو المزيد من الاحتلال .

المستمرة بهذه الموضوعات يجب ان تكون عملنا اليومي الذى لا يتوقف ، لأن التعبئة ، أى تعبئة ، لاتقف عند مجرد اثارة الكراهية الطائفية ضد العدو ، بل لابد وأن تقدم هذه الكراهية على أسس عقلانية ترسب فى وجدان الشعب حجم الخطر الذى يمثله المخطط الصهيونى التوسعى .

وأخيرا ، فان هذه الدراسة ، من حيث المضمون ، يمكن ان تعتبر امتدادا للدراسة التى نشرت فى نوفمبر وتناولت بالتحليل « حقيقة الصهيونية » . وكلا الدراستين تشكلان جزءا من الدراسة التى قام بها فريق من الباحثين هم :

— محمود حمدى عبد الجواد .
— أحمد صادق .
— وديع وهيب .
— شكرى نازر .

وقد أشرف على هذه الدراسة د . اسماعيل صبرى عبد الله ، واشترك معه فى مناقشتها والاشراف عليها أبو سيف يوسف .

[١] حقيقـــة اســـــرائيل

مخطط الهجرة والكيان الاقتصادى

فوق أرض فلسطين العربية،اقامت الصهيونية دولتها اسرائيل ، وكان جواز مرور اسرائيل لدى قسم كبير من الراى الاوربى العام (بما فى ذلك اقسام هامة من اليسار الاوربى) هو ما أملوه من ان دولة اليهود المضطهدين (الذين تميز تاريخ طوائفهم — عبر قرون طويلة — بالانحياز الى الدعوة الى المساواة بين الاديان والاجناس) .. هذه الدولة ستكون «مركزا» للتحرر والديموقراطية فى الشرق ، يمهد الطـريق الى حـل المشكلة الفلسطينية برمتها ، مـن جانب ، كما يسحب الارض ، من جانب آخر — مـن تحت اقـدام الصهيونية ، فتنزوى بمخططاتهـا الاستعمارية الواسعة .

ولكن رددت بعض الصحف الاوربية شـعار « **أن الصهيونية قد ماتت ميتـة طبيعية بقيـام اسرائيل** » ولكم استغلت الدعايات الصهيونيـة هذه الامال لتمرير مخططاتها ، لكن النوايا الطيبة شىء ، وحقائق الحياة شىء آخر .

فلقد أوضح تطور الاحـداث ، منذ قيـام اسرائيل ، نمو وتضخم الاتجـاه التوسـعى والعدوانى للدولة الوليدة كرأس جسد لمخطط صهيونى واسع ، بشكل خاص ، وكقاعدة للقوى الاستعمارية ، بشكل عام . كما اكد أن هـذا الاتجاه لا يمكن الا ان يكون وثيق الترابط ببنيان اسرائيل الاقتصادى والسياسى والاجتماعى .

مخطط الهجرة والاقتصاديات الاسرائيليـة

كانت الهجرة والاستيطان هى الشغل الشاغل للحركة الصهيونية طيلة النصف قرن الذى سبق قيام اسرائيل ، ولقد التزمت الدولة الاسرائيلية فى بيان « استقلالها » بمخطط الحركة الصهيونية لتهجير اليهود من كل بلاد العالم الى «أراضيها» وينص « بيان الاستقلال » على أن دولةاسرائيل :

« ستكون مفتوحة لهجـرة الاتين من جميع البلاد المشتتين فيها » .

ويقول بن جوريون :

« تتبع الحكومة بالنسبة للهجرة سياسة ليس لها مواز فى التاريخ ، مما يدعو بعض المراقبين فى الخارج والداخل الى الاعراب عن اعتقادهم بأن هذه السياسة تجلب الخطر والكارثة على الدولة ... ولكن هناك سببا هاما لهذه السياسة الجريئة ، وحتى الخطرة ، الا وهو احتياجات الامن القومى . فلو كان جيشنا قبل سنتين يمثل قـوة جيشنا الان (التى زادت بمقدار الضعفين) لكنا نتصور ماذا تعنيه هذه السياسة »(١) .

ويعلن الـكتاب السنوى لحـكومة اسرائيل لعام ١٩٥١ :

جـدول رقـم (١)

السنة	مجموع السكان بنهاية السنة	يهـــود	عرب وخلافهم	مجموع المهـاجرين لاسرائيل	مجمـوع المهاجرين للخـارج	الهجرة الصـافية لاسرائيـل
١٩٤٨	٩٢٠ر٠٠٠	٧٦٥ر٠٠٠	١٥٠ر٠٠٠	١٠١ر٨٣٧	١ر١٥٤	١٠٠ر٦٨٣
١٩٤٩	١ر١٧٣ر٩٠٠	١ر٠١٣ر٩٠٠	١٦٠ر٠٠٠	٢٢٩ر٩٥٤	٧ر٤٠٧	٢٢٢ر٥٤٧
١٩٥٠	١ر٣٧٠ر١٠٠	١ر٢٠٢ر١٠٠	١٦٧ر٠٠٠	١٦٩ر٧٢٠	٩ر٩٦٦	١٥٩ر٧٥٤
١٩٥١	١ر٥٧٧ر٨٠٠	١ر٤٠٤ر٤٠٠	١٧٣ر٠٠٠	١٧٤ر٠١٤	١٠ر٢٧٦	١٦٣ر٥٣٨
١٩٥٢	١ر٦٢٩ر٥٠٠	١ر٤٥٠ر٢٠٠	١٧٩ر٣٠٠	١٣ر٥٠٠	٢٣ر٤٠٨	٩ر٩٠٨
١٩٥٣	١ر٦٦٩ر٤٠٠	١ر٤٨٣ر٦٠٠	١٨٥ر٨٠٠	١٠ر٣٨٨	١٣ر٠٠٠	٢ر٦١٢
١٩٥٤	١ر٧١٧ر٨٠٠	١ر٥٢٦ر٠٠٠	١٩١ر٨٠٠	١٧ر٤٨٥	٧ر٥٠٠	٩ر٩٨٥
١٩٥٥	١ر٧٨٩ر١٠٠	١ر٥٩٠ر٥٠٠	١٩٨ر٦٠٠	٣٦ر٣٢٧	٦ر٤٠٠	٢٩ر٩٢٧
١٩٥٦	١ر٨٧٢ر٤٠٠	١ر٦٦٧ر٥٠٠	٢٠٤ر٩٠٠	٥٤ر٩٩٦	١١ر٤٠٠	٤٣ر٥٩٦
١٩٥٧	١ر٩٧٦ر٠٠٠	١ر٧٦٢ر٧٠٠	٢١٣ر٣٠٠	٧١ر١٠٠	١١ر٤٠٠	٥٩ر٧٠٠
١٩٥٨	٢ر٠٣١ر٧٠٠	١ر٨١٠ر١٠٠	٢٢١ر٦٠٠	٢٦ر٠٩٢	١١ر٧٠٠	١٤ر٣٩٣
١٩٥٩	٢ر٠٨٨ر٧٠٠	١ر٨٥٨ر٨٠٠	٢٢٩ر٩٠٠	٢٣ر٠٤٥	٩ر٧٥٠	١٣ر٢٩٥
١٩٦٠	٢ر١٥٠ر٤٠٠	١ر٩١١ر٢٠٠	٢٣٩ر٢٠٠	٢٣ر٦٤٤	٨ر٨٠٠	١٤ر٨٤٤
١٩٦١	٢ر٢٣٣ر٦٠٠	١ر٩٨٥ر٥٠٠	٢٤٨ر١٠٠	(جـ) ..	..	٠٠٠ر٠٠٠
١٩٦٢	٢ر٣٣٥ر٠٠٠	٢ر٠٧٦ر٠٠٠	٢٥٩ر٠٠٠	٠٠٠ر٠٠٠	..	٥٠ر٠٠٠

المصدر : يوسف عبد الله الصايغ : « الاقتصاد الإسرائيلى » ص ١٥٨

[١] بن جوريون : « بعث اسرائيل ومصيرها » ص ٣٨٧

« ان أكثر العوامل حسما واهمية فى أمننا هو الهجرة الجماعية وبأعداد كبيرة » كما يؤكد :

« انه ينبغى على الجميع ان يفكرو بمنطق (التمركز الاسرائيلى) لليهود فى العالم اليوم»(٢).

ويعطى الجدول (١) الارقام الخاصة بالسكان فى اسرائيل والهجرة اليها منذ عام ١٩٤٨ :

وتقدر بعض المصادر الاسرائيلية أن صافى الهجرة فى السنوات ١٩٦٣ ــ ١٩٦٦ بحوالى ٢٠٠ر٠٠٠ مهاجر جديد .

ويبين الجدول أن عدد المهاجرين لاسرائيل فى عشر سنوات (١٩٤٨ ــ ١٩٥٧) قد بلغ ٨٠٦ر٢٤٦ شخصا ، أى أكثر من جميع سكان اسرائيل من اليهود فى عام ١٩٤٨ بـ ٤١ر٢٤٦ نسمة .

كما يلاحظ أن انخفاض الهجرة فى السنوات ٥٨ و٥٩ و٦٠ و٦١ كان يرجع الى أسباب خارجة عن رغبة القادة الاسرائيليين ، وانهم كانوا دائمى الشكوى منها .

ولما كانت مساحة اسرائيل حسب قرار التقسيم هى ١٦ر٥٠٠ كم٢ ، ثم توسعت فى حدود هدنة ١٩٤٩ الى حوالى ٢١ر٠٠٠ كم٢. وبلغ عدد السكان فى ١٩٦٧ قرابة ٢ر٥٠٠ر٠٠٠ نسمة ، فان كثافة السكان بالنسبة للكيلو متر المربع الواحد تصل الى ١١٩ فردا ، وهى كثافة سكانية عالية ، حتى لو توقفت الهجرة ، وحتى لو كانت كل تلك المساحة قابلة للاسكان .

ولما كانت صحراء النقب تشكل ٤٥٪ من تلك المساحة وترتفع باقى المناطق الصحراوية بهذه النسبة الى حوالى ٦٠٪ من المساحة الكلية ، فليس غريبا أن نجد تلك الاوضاع الشاذة عند دراسة الوضع السكانى فى اسرائيل مثل احتشاد ٦٠٪ من السكان فى مثلث الرملة ــ تل أبيب ــ حيفا ، وتمركز ٣٠٪ من سكان اسرائيل فى العاصمة تل أبيب .

ويعطى الجدول (٢) توزيع السكان من حيث المناطق ونوع مراكز الاقامة فى عام ١٩٦٠ :

ولكن مشكلة الهجرة ليست مشكلة سكانية فحسب ، بل هى أيضا ، وفى الاساس مشكلة اقتصادية .

جدول رقم (٢)

نوع مراكز الاقامة	اعداد السكان			النسبة المئوية		
	المجموع	يهود	عرب	المجموع	يهود	عرب
جملة البلاد	٢ر١٧٠ر٠٨٢	١ر٩٣٢ر٥٣٦	٢٣٧ر٥٤٦	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠
مكان المدن والحواضر	١ر٦٧٤ر٦٧٩	١ر٦٢٠ر٠٠١	٥٤ر٦٧٨	٧٧ر٢	٨٣ر٨	٢٣ر٠
المدن	١ر٤٠١ر٢٣٧	١ر٣٤٦ر٥٠٩	٥٤ر٦٧٨	٦٤ر٦	٦٩ر٧	٢٣ر٠
الحواضر	٢٧٣ر٤٤٢	٢٧٣ر٤٤٢	٠٠٠ر٠٠٠	١٢ر٦	١٤ر١	٠ر٠
سكان الريف	٤٩٥ر٤٠٣	٣١٢ر٥٣٥	١٨٢ر٨٦٨	٢٢ر٨	١٦ر٢	٧٧ر٠
قرى كبيرة	١٥٤ر٥٠٠	٦٠ر٩٠٢	٩٣ر٥٩٨	٧ر١	٣ر١	٣٩ر٤
قرى صغيرة	١٠٠ر٥٧٤	٤٠ر١٧٢	٦٠ر٤٠٢	٤ر٦	٢ر١	٢٥ر٤
قرى موشافيم ــ فردية	١٢٠ر٠٤٦	١٢٠ر٠٤٦	٠٠٠ر٠٠٠	٥ر٥	٦ر٢	٠ر٠
قرى موشافيم ــ مجموعيه	٣ر٩٠٩	٣ر٩٠٩	٠٠٠ر٠٠٠	٠ر٢	٠ر٢	٠ر٠
قرى كعونسيم ــ متنوعة	٧٧ر٢٠٩	٧٧ر٢٠٩	٠٠٠ر٠٠٠	٢ر٦	٤ر٠	٠ر٠
مستعمرات مؤقتة	٢ر٠٠٧	٢ر٠٠٧	٠٠٠ر٠٠٠	٠ر١	٠ر١	٠ر٠
قبائل بدوية	٢٦ر٩٨٤	٠٠٠ر٠٠٠	٢٦ر٩٨٤	١ر٢	٠ر٠	١١ر٤
مزارع متفرقة ومدارس الخ	٦ر٦٦٤	٦ر٥٦٤	١٠٠ر	٠ر٣	٠ر٤	٠ر٠
خارج المستعمرات	٣ر٥١٠	١ر٧٢٦	١ر٧٨٤	٠ر٢	٠ر١	٠ر٨

المصدر : مقال بعنوان « العرب فى اسرائيل » فى مجلة New Outlook الاسرائيلية عدد مارس ــ ابريل سنة ١٩٦٢ ص ٦

[٢] حكومة اسرائيل : ، الكتاب السنوى ، تل ابيب ــ نوفمبر ١٩٥١ ص ٤٠٤

[٣] M. Michaeli, Riv: a «Lekhal Kola» June 1961.

ان أثرياء اليهود لا يهاجرون ــ بشكل عام ــ الى اسرائيل • ومن ثم لا تمثل الهجرة زيادة فى راس المال وذلك كما يدل بوضوح السطر الاخير من الجدول التالى :

مصادر استيراد رأس المال فى سنوات ١٩٤٩ ــ ١٩٥٩(٣)

	مليون دولار	النسبة٪
المنظمات الصهيونية العالمية	١٤٦٩	٤٧ر٨٪
حكومة الولايات المتحدة الامريكية	٥٥٢	١٧ر٨٪
حكومة المانيا الغربية	٧٢٣	٢٣ر٣٪
آخرون، وتشمل تحويلات المهاجرين وفوائد بعض موازين المدفوعات الخارجية	٣٦٣	١١ر٦٪

ومن زاوية أخرى فان الهجرة العكسية الى خارج اسرائيل تتكون من « عدد غير قليل من الشباب المثقف ومن الفنيين الممتازين »(٤) •

وعليه فان عددا غير قليل من المهاجرين الى اسرائيل (ان لم يكن غالبيتهم) هم عناصر تحتم على دولة اسرائيل أن تجد لهم المأوى وتوفر لهم على الاقل ــ نفس مستوى المعيشة الذى كان متاحا لهم فى بلادهم الاصلية •

ولا يخفى قادة اسرائيل ارتباط مخططهم للهجرة بمخططهم للتوسع ، **يقول بن جوريون :**

« ان اسرائيل لا يمكن أن تضمن أمنها بدون هجرة ..والامن يعنى المستعمرات ، واسكان المناطق غير المأهولة فى الشمال وفى الجنوب.. ويعنى القوات المسلحة »(٥) •

وعلى أثر عدوان يونيو ١٩٦٧ ، واحتلال اسرائيل للمساحات الشاسعة من الارض العربية وجه ليفى اشكول رسالة الى « اليهود المتفرقين فى أنحاء العالم » :

« انى فى هذه الساعة الفاصلة أجدد ندائى الى الامة اليهودية المشتتة فى المهجر حتى

يورى افنيرى

عضو فى البرلمان الاسرائيلى منذ ١٩٦٥ • رئيس حزب « هولام هزه ــ قوة جديدة » ورئيس تحرير مجلة اسبوعية « هولام هزه » [أى ــ هذا العالم] التى تصدر فى تل ابيب• ولد فى المانيا عام ١٩٢٣ وهاجر مع عائلته الى فلسطين سنة ١٩٣٣ •انضم الى منظمة الارجون عام ١٩٣٨ ثم انفصل عنها • وكتب يقول انه حدث له تحول جذرى ــ فى رأيه ، وانقلب ضد السياسة الصهيونية المتبعة واصبح داعيه تفاهم مع الحرب على اساس ان أمة جديدة ظهرت فى فلسطين ، وانها يجب ان تكون جزءا من جبهة سامية منسقة مع حركة القومية العربية • يقيم مقارنة بين الصليبيين والدولة الصهيونية ــ وينطلق تفكيره من تخوف على هذه الدولة من ان يكون لها مصير الامارات الصليبية • وخصص فصلا فى كتابه « اسرائيل دولة صهيونية » لعمل هذه المقارنة • ولهذا فانه يرى ان وسيلة النجاة امام اسرائيل هى الا يكون اعتمادها الوحيد فى البقاء استخدام العنف • ليبرالى الفكر فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى • وتثير افكاره نقاشا حادا نظرا لانها تتضمن مفاهيم متناقضة حتى على صعيد الفكرة القومية •

تنهض وتنضم الينا لبناء وطن آبائنا »(٦) •

ويعلن **أريح ل • والزن** العضو التنفيذى فى الدولة اليهودية ورئيس ادارة الهجرة والاستيطان بالقدس :

« ان اسرائيل تحتاج ، بالدرجة الاولى ، الى سكان يهود جدد ، والى مهاجرين قادرين على جعل اقتصاد الوطن اقتصادا متكاملا • وبالتالى يصبحون قادرين على تطويره وتوسيعه »(٧) •

وتحت عنوان (الصهيونية الحرة ، أو الصهيونية الغربية ، التى هى (صهيونية الرجال الاحرار) يكتب **الكسندر رايتر** مدير ادارة العلاقات الخارجية والاعلام بالمنظمة الصهيونية العالمية:

---

[٤] جريدة هاآرتس الاسرائيلية ــ ٢٢ ــ ١١ ــ ١٩٦٨

[٥] بن جوريون « اسرائيل سنوات التحدى » ــ نيويورك ــ هولت ،راينهارت ، روستون ــ ١٩٦٣ ص ٦٠ ــ ٦٢

[٦] مجلة حياة اسرائيل الاقتصادية ــ القسم الاقتصادى لادارة الهجرة والاستيطان التابع للوكالة اليهودية فرع باريس ــ عدد ابريل ١٩٦٨ •

[٧] أ•ل والزن : مجلة حياة اسرائيل الاقتصادية ــ المرجع السابق ــ ص١٣.

« ان مهمتنا هى مضاعفة سكان الدولة من اليهود وتثبيت اقتصادها تثبيتا راسخا . وهنا ... قد فتح الان طريقان للمشاركة بجد ونشاط فى انشاء **الدولة الاسرائيلية العظمى** : اولهما الهجرة وثانيهما الاستثمارات ، او الاثنان معا فى نفس الوقت » .

« ونداؤنا بخصوص الهجرة موجه أولا الى الشباب الذى يهوى اتخاذ القرارات القوية السريعة ويتعهد بالسير على طريق تحقيق الصهيونية المتكاملة »..

« ومهما يكن من أمر هؤلاء الذين لا يمكنهم ربط أشخاصهم باسرائيل فى المستقبل لاسباب مختلفة . فهؤلاء يمكنهم المساهمة بطريقة ما فى تطوير الدولة الاسرائيلية وتقدمها ؛ وذلك عن طريق المشاركة فى اقامة الشركات الاسرائيلية أو توسيعها ، وهنا تجد الصهيونية فى العالم الحر مجالا مناسبا للنشاط »(٨) .

وكان الكونت **فولك برنادوت** قد تنبه الى هذا المخطط وآثاره الخطرة المقبلة ، فكتب فى عام ١٩٤٨ فى تقريره الى الامم المتحدة :

« ان على اليهود ، اذا رغبوا فى الارتباط مع جيرانهم العرب بعلاقات ودية ، أن يحددوا سياستهم فيما يتعلق بالهجرة ، وان يقيموا وزنا كبيرا لوجهة النظر العربية »(٩) .

فما هى الركائز الاقتصادية داخل اسرائيل التى يعتمد عليها مخططو الهجرة من الصهيونيين؟

الزراعة

تتميز الاراضى التى قامت عليها اسرائيل بالفقر الشديد فى المناطق الكلية القابلة للزراعة فليس بها دلتا ولا تربة غنية . ولقد بذلت السلطات الاسرائيلية جهدا غير عادى للتنمية الزراعية ونجحت ، بالفعل ، فى مضاعفة الانتاج الزراعى بين ١٩٤٨ـ١٩٦٠ ثلاث مرات ونصف المرة . وزادت المساحة المروية الى ضعفى ما كانت عليه عام ١٩٤٨ . الا أن ضيق المساحة القابلة للزراعة وقلة الموارد المائية المتاحة وقفت عائقا لافكاك منه أمام كل توسع جديد . ذلك ان مشاريع التوسع الزراعى ـ سواء أفقية أو رأسية ـ كانت فى الاصل باهظة التكاليف ، القت على الاقتصاد الاسرائيلى ككل أعباء فادحة .

لقد ارتفع نصيب الزراعة فى الاستثمارات الاجمالية من ٦ر١٦٪ فى عام ١٩٤٩ الى اكثر من ٢٥٪ فى عام ١٩٦٠ . ومع ذلك لم يزد نصيب الانتاج الزراعى فى الدخل القومى الا من ٩ر٩٪ سنة ١٩٤٩ الى ٥ر١٢٪ سنة ١٩٦٠. وهاتان الزيادتان تشكلان نسبة تافهة . وبالرغم من الدعاية الطنانة حول « تحويل صحراء النقب الى جنات » لم تجرؤ حكومة اسرائيل على أن تنشر اى أرقام عن الاستثمارات التى استخدمت فى النقب والنتائج التى ادت اليها . فالواقع ان هذه المزارع ، مثل غيرها من مستعمرات الحدود ، كانت قد أنشئت فى الاساس لاغراض عسكرية ، ولكى تستخدم كمواقع أمامية محصنة ، وهى تابعة لوزارة الدفاع . ولذا فلم تراع فيها اسس اقتصادية .

اما بالنسبة لموارد المياه المتاحة ؛ فلقد قدرت شركة المياه التابعة للوكالة اليهودية «مكوروت» فى عام ١٩٤٤ ، اجمالى المياه الممكن السيطرة عليها فى تلك المساحة والتى تقوم عليها اسرائيل اليوم ، بثلاثة ملايين ونصف متر مكعب (عندما كان من مصلحة القادة الصهاينة المبالغة فى التقديرات لتقرير مطالبهم بالهجرة) . أما بعد ١٩٤٨ فان الدراسات التى قام بها « هيز » و « هيزركوتون » هبطت بالرقم الى مليون وثمانمائة الف متر مكعب . وهذا هو التقدير المعتمد حاليا كتقدير رسمى(١٠) .

وحتى عام ١٩٦١ كانت قد تمت الاستفادة بالجزء الاكبر من الموارد المتاحة بالفعل حيث استخدم ٢٥٨ر١ مليون م ٣ منها ٨٣٥ الف م ٣ مياه جوفية و ٤١٣ م ٣ من الجداول السطحية والانهار .

ونظرا لتخوف السلطات الاسرائيلية منحقيقة تعدى عمليات الضخ لنقطة الامان بحيث صارت تهدد بتسرب الملوحة الى المستوى الارتوازىفقد قامت بتطبيق « قانون استعمال المياه » بمنتهى الشدة . وبتقنين المياه فى الوسط والجنوب والجليل الغربى ، وبالتشديدعلى وجوبالحصول على الرخص قبل ضخ المياه من الآبار ، والتقيد بالكميات التى يسمح بها « المركز المشترك للتخطيط الزراعى » لشتى الاستعمالات .

وكانت تكاليف مشروعات الرى التى تمت باهظة بشكلفاحش ، حتى ان كاتبا اسرائيليا هو

---

[٨] الكسندر رايتر : مجلة حياةاسرائيل الاقتصادية
[٩] جريدة الاهرام ـ ملحق عنالقضية الفلسطينية ١٧ ـ ٥ ـ ١٩٦٩
[١٠] الكتاب السنوى لحكومةاسرائيلفى سنوات ٦١ ـ ٦٢ وايضا ٦٢ ـ ٦٣

ه . جنياتي كتب تحت عنوان « الانتاج الزراعي في السنوات المقبلة » « المجلة الاقتصادية العبرية . في يناير سنة ١٩٥٤ »يعلق على نسبة ما يكلفه ري الدونم الواحد قائلا «ان هذه النسبة تبلغ اربعة أضعاف مثيلتها في مناطق الري في ولاية كاليفورنيا بالولايات المتحدة الامريكية حيث تكاليف الري في غاية الارتفاع »(١١)) .

ونظرا لارتفاع كلفة انتاج المياه فان الحكومة الاسرائيلية مجبرة على بيعها للمزارعين بأقل من ثمن تكلفتها بكثير ، مما اضاف أعباء أكثر على الاقتصاديات الاسرائيلية .

وعند ذلك يجهر القادة الاسرائيليون بمطامعهم في الاستيلاء على المياه العربية وفي الاراضي العربية . قال أبا ايبان :
« أننا نولي نهر الاردن ومنابعه كل اهتمامنا » (١٣) .
ويخرج مشروع نهر الاردن الاسرائيلي الى حيز الوجود . بل وفي مطلع عام ١٩٥٤ خرج القادة الاسرائيليون بمشروع آخر وضعه المهندس كوتن ويشمل - استعمال مياه نهر الليطاني (مع أن النهر ينبع كلية من لبنان) بالاضافة الى استعمال نهر اليرموك والاردن وروافدهما ، وقد نص المشروع على تحويل روافد الاردن العليا الى سهل البطون ، وتحويل نصف مياه نهر الليطاني ايضا الى البطون ، ومن ثم نقل المياه من البطون الى الجنوب الغربي ، وعلى تحويل اليرموك الى بحيرة طبرية ، ثم ري اراضي جزء وادي الاردن الذي تسيطر عليه اسرائيل من مياه طبرية .

الثروة البترولية والمعدنية

وبالنسبة للبترول لا تذهب أكثر المصادر تفاؤلا في تقدير الاحتياطي الثابت وجوده بأكثر من خمسة ملايين أطنان . بينما بلغ استهلاك اسرائيل من البترول في عام ١٩٦٧ حوالي ٣ر٣ مليون طن ، أي أن كل الاحتياطي لا يكفي اسرائيل لعامين . والواقع أن انتاج اسرائيل المحلي من البترول الخام عام ١٩٦٧ لم يبلغ سوى ٢٠١ الف طن .

أما المعادن الاخرى فقليلة القيمة مثل الفوسفات والبوتاس بحيث لم يبلغ اجمالي قيمة المصدر منها في عام ١٩٦١ سوى ٩ر٧ مليون دولار من مجموع الصادرات البالغ ٨ر٢٣٧ مليون دولار .

ولا توجد مصادر مائية معقولة لتوليد الطاقة الكهربائية . وكل ما ينتج منها يتم عن طريق المحطات الحرارية المعروف كونها اكثر محطات الطاقة الكهربائية ارتفاعا في التكلفة وعلى الاخص في بلد فقير في موارده البترولية .

الصناعة

أما بالنسبة للصناعة ، فلقد حققت اسرائيل نموا ضخما على الرغم من ضيق السوق المحلية والمقاطعة الاقتصادية العربية وارتفاع كلفة الانتاج الصناعي بشكل كبير . ويبين الجدول التالي بعض المقارنات التي توضح مدى نمو الانتاج الصناعي في اسرائيل خلال ست أو سبع سنوات ما بين ١٩٥٣ - ١٩٦٠ :

الهاجاناه

المنظمة الصهيونية العسكرية التي ظهرت الى الوجود في فلسطين بعد صدور وعد بلفور عام ١٩١٧ . فلقد كان الاعتماد في الدفاع عن المستعمرات اليهودية منذ اواخر القرن التاسع عشر على الطليعة المسلحة التي ضمتها منظمة « هاشومير » منذ عام ١٩٠٧ ولكن مع صدور وعد بلفور وتدفق اليهود الى فلسطين وبدء مرحلة جديدة من الغزو الاستيطاني لم تعد هذه المنظمة كافية للقيام بمهامها العسكرية . وظهرت فكرة « المجتمع المسلح » في اطار « الهاجاناه » . التي اتخذت شعارا لها « فلسطين لليهود » . واحتاج الامر الى جهود طويلة مستمرة في التدريب والتسليح . وكانت سلطات الانتداب البريطانية تغض النظر عن ذلك واعترفت عام ١٩٣٦ بالهاجاناه كمنظمة للدفاع عن المستعمرات وانخرط رجالها في صفوف قوات الحلفاء اثناء الحرب العالمية الثانية وحصلوا على خبرة قتالية استفادوا منها في اعادة تشكيل قواتهم المسلحة بعد انتهاء الحرب . ومن خلال ذلك كله تشكلت من الهاجاناه قوة مسلحة يهودية تعرف باسم « البالماخ » وهي قوة ضاربة تدربت على اعمال التخريب وحرب العصابات بقيادة ايجال آلون ، وتحولت الهاجاناه قبل قيام اسرائيل الى جيش غير قانوني يخدم فيها كل يهودي مقيم في اسرائيل خدمة الزامية دائمة .

---

[١١] يوسف عبد الله الصايغ : الاقتصاد الاسرائيلي ص ١٣٠ .
[١٣] ابا ايبان - جوزاليم بوست - ٢ - ٥ - ١٩٥٩

السلع والوحدات	١٩٥٣	١٩٦٠	ملاحظات
١ ـ الكهرباء [ملايين ك' و' ساعة]	٩١٤	٢ر٣١٢	انتاج مؤسستين
٢ ـ الاسمدة [الاف الاطنان]			
الفوسفات	٢٣	٢٠٥	سنة ١٩٥٣ او ١٩٥٩
السوبر فوسفات	٢٣	٨٢	
الاسمدة النيروجينية	ـــــ	ـــــ	
الاسيد السلفوريك	١٦	١٢١	
٢ ـ الاسمنت [الوف الاطنان]	٤٦٥	٨٠٦	
٤ ـ السكر [الوف الاطنان]	ـــــ	٢٤	
٥ ـ البيرة [ألوف الهكتولترات]	١٤٠	٢٠٨	
٦ ـ النبيذ [الوف الهكتولترات]	٢٥	١٥٨	
٧ ـ السجاير [الملايين]	٢٠ر٠٢٠	٢ر٥٦٥	
٨ ـ التبغ [اطنان]	٦٤	٨٤	
٩ ـ خيوط القطن [الوف الاطنان]	٦	١٠	لسنة ١٩٥٦ او ١٩٦٠
١٠ ـ منسوجات القطن [آلاف الاطنان]	٤	٧	
١١ ـ الورق والكرتون [الوف الاطنان]	ـــــ	٣١	
١٢ ـ اطارات المطاط [الالوف]	١١٨	٤٠٧	

المصدر : هيئة الامم
Economic Developments in the Middle East.

الا انه يجدر بنا أن نذكر أن عددا من الصناعات الهامة تقوم على أسس غير اسرائيلية مثل صناعة الماس (التى تشكل ٣٠ ٪ من صادرات اسرائيل) التى تعتمد تماما على استيراد الخام من جنوب افريقيا . والصناعة البتروكيمائية التى تعتمد على استيراد الخام من ايران .

ويبرز الضعف الاساسى فى الصناعة الاسرائيلية من ارتفاع التكلفة فى منتجاتها مما يضعف من قدرتها على مجابهة مثيلاتها من المنتجات المصنوعة فى البلاد الصناعية ؛ الامر الذى أوجب على الحكومة الاسرائيلية التقدم بشتى انواع المعونة للصناعة ، خاصة للصادرات الصناعية ، فمنذ ١٩٤٩ ـ وبشكل مستمر بعد ذلك ـ لجأت الحكومة الى عدد من الاجراءات لتمكين الصناعة من بيع منتجاتها . ومن هذه الاجراءات عمليات المقاصة والمقايضة على أساس تخفيض سعر بيع المنتجات وتعويض الصناعيين عن الفرق بين سعر البيع الفعلى وبين السعر الذى يحتمه ارتفاع الكلفة .

لكن هذا ليس كل شىء .

نعم لقد امكن لاسرائيل ان تحقق معدل نمو اقتصادى يدور حول ١١ ٪ سنويا وهو معدل عال بلا شك . ولعله احد أبرز دعامات الدعاية الصهيونية التى تروج لها فى انحاء العالم لخدمة مشروعها الاستيطانى .

لكن تحقيق ذلك المعدل من النمو استلزم توظيف مبالغ طائلة من المال لو قورنت بالدخل القومى لكانت نسبتها السنوية حوالى ٣٩ ٪ وهو رقم يستحيل تحقيقه اقتصاديا حتى بالنسبة لدولة متقدمة صناعيا من الدرجة الاولى ، ناهيك عن دولة ناشئة .

فاذا علمنا أن مستوى الاستهلاك الخاص والعام كان فى ارتفاع مستمر فى هذه السنوات (من ٥ الى ٦ ٪) ، وأن المستوى العام والمدخرات كان فى هبوط بمعدل ٢ر ٪ من الانتاج القومى سنويا ، وأن اسرائيل تأتى فى مقدمة دول العالم فى نسبة ما تخصصه للمصروفات العسكرية الى دخلها القومى كما يوضح الجدول التالى ، لادركنا حقيقة تلك الازمة الكامنة فى الاقتصاد الاسرائيلى ، والنابعة من تناقضه مع الاسس الاقتصادية ، والتى اشار اليها **لوس آثير** المحرر الاقتصادى لصحيفة جيروزاليم بوست الاسرائيلية شبه الرسمية بقوله : ((**اننا مقبلون على السبعينات على متن موجة اخرى من موجات الرخاء الكاذب الذى لا نمو له بكدنا وتجارتنا وانما تموله القروض وتبرعات الهيئات الاجنبية**))(١٤)

(١٤) يوسف عبد الله الصايغ : الاقتصاد الاسرائيلى ، ص ٢٢٨

لقد كان من المستحيل على اسرائيل ان تحقق ما حققته من تنمية ، كانت ضرورية لمواجهة موجات الهجرة والمستلزمات العسكرية ، دون تلاحم كامل مع الصهيونية العالمية ومع أشد القوى عدوانية فى الامبريالية العالمية وخاصة الولايات المتحدة الامريكية والمانيا الغربية ، والمشاركة فى مخططاتهم العدوانية على النطاق العربى والعالمى . لكن هذه المشاركة كانت تزيد بدورها من الاعباء الواقعة على عاتق الاقتصاد الاسرائيلى فتعمق من أزمته الكامنة وتجعله يدور فى حلقة مفرغة .

هكذا قدمت الحركة الصهيونية لاسرائيل مابين ١٩٥٠ حتى عام ١٩٦٤ ١٫٥٣٥ر مليون دولار . تحت بند التبرعات .

وقدمت لها المانيا الغربية ١٦١١ر١ مليون دولار كهبة تحت اسم التعويضات

وقدمت لها الولايات المتحدة الامريكية ٢٩٤ مليون دولار كهبة خالصة ، ١٢٢٦ مليون دولار فى شكل قروض طويلة الاجل ، واكتتاب فى السندات التى تصدرها اسرائيل ، واستثمارات خاصة (بلغت ٧٧٩ مليون دولار سنة ١٩٦٤) قامت بها احتكارات **فورد وكيزر فريزر وكوكاكولا** وغيرها(١٥) .

ويبين الجدول التالى استئثار اسرائيل ذات المليونين من السكان بنصف المعونات الامريكية للشرق الاوسط الذى يزيد تعداده على المائة مليون نسمة .

ويشتد التلاحم بين الاقتصاد الاسرائيلى وبين الامبريالية الامريكية بتزايد نسبة مساهمة رأس المال الامريكى فى الشركات الاسرائيلية من ٣٢ر٨ ٪ بعد الحرب العالمية الثانية الى ٥٦ ٪ عام ١٩٥٠ ، الى ٧٣ ٪ سنة ١٩٥٧ . كما باعت الحكومة الاسرائيلية فى عام ١٩٥٨ اثنى عشر من المشروعات الاستثمارية المملوكة للدولة الى الاحتكارات الامريكية ، من بينها نصيب الحكومة الاسرائيلية فى شركة **ويشوفن بلاكلود زيم** . كما باعت فى عام ١٩٦٠ — ثلاثة مصانع لقطع الماس الى الاحتكارات الامريكية . وفى عام ١٩٦١ منحت للاحتكارات الامريكية حق استثمار الاملاح المعدنية فى البحر الميت حتى عام ١٩٩٩ . كما حصلت شركة الالمنيوم الامريكية على حق استثمار الفوسفات فى صحراء النقب ، بينما اشترت مجموعة امريكية أخرى أكبر مصانع الكيماويات فى حيفا(١٦) .

مصروفات الدفاع والدخل القومى فى بعض الاقطار لعام ١٩٦٧

البلد	مصروفات الدفاع مليار فرنك سويسرى	الدخل القومى مليار فرنك سويسرى	نسبة مصروفات الدفاع الى الدخل القومى ٪	مصروفات الدفاع للفرد فرنك سويسرى
اسرائيل ٣	٣ر٦	١٥ر٠	٢٤ر٠	١٣٤٨
الاتحاد السوفييتى ٣	٢١٥ر٠	٩٩٧ر٣	٢١ر٦	٩٢٣
الولايات المتحدة ٣	٢٧٤ر٠	٢٦٦٩ر٤	١٠ر٣	١٣٩١
فرنسا	٢٤ر٨	٣٥٨ر٧	٦ر٩	٤٩٧
المانيا الغربية	٢٤ر٠	٣٩٠ر٠	٦ر٢	٤١٦
النرويج	١ر٣	٢٧ر٢	٤ر٨	٣٤٤
هولندا	٣ر٨	٨٠ر٧	٤ر٧	٣٠٢
السويد	٣ر٩	٨٧ر٠	٤ر٥	٤٩٦
ايطاليا	٩ر٥	٢٣٣ر٤	٤ر١	١٨١
بلجيكا	٢ر٤	٦٧ر٠	٣ر٦	٢٥١
المجر ٤	٢ر٣	٧٠ر٠	٣ر٣	٢٢٥
الدنمارك	١ر٢	٣٨ر٠	٣ر٢	٢٤٨
سويسرا	١ر٧	٥٧ر٦	٣ر٠	٢٨٠
النمسا	٠ر٦	٢٥ر٠	١ر٧	٨٢

١ — المصروفات العسكرية الرسمية   المصدر : النشرة الشهرية الصادرة عن
٢ — ميزانية ١٩٦٩   Union Bank Switzerland.
٣ — ميزانية ١٩٦٦   ٤ — ميزانية ١٩٦٨   عدد فبراير ١٩٦٩

[١٥] انظر مقال خالد محيى الدين « تقرير عن الوضع فى الشرق الاوسط » ، مجلة الطليعة القاهرية ، عدد ديسمبر ١٩٦٧

[١٦] انظر المرجع السابق .

جدول توزيع المعونات الامريكية على دول الشرق الادنى
١٩٦٠ ـ ١٩٦٤ بملايين الدولارات

مجموعة المعونة لبلدان الشرق	١٩٦٠	١٩٦١	١٩٦٢	١٩٦٣	١٩٦٤
الادنى بما فى ذلك اسرائيل	٢٥٥	٣٤٧	٢٥٦	٢٢٨	١٩٣
اسرائيل وحدها	١٠٥	١٠٧	١٠٧	١١٥	٩٦
النسبة المئوية	٪ ٤٠	٪ ٣٠	٪ ٤٠	٪ ٥٠	٪ ٥٠

وهذا الاتجاه انما يدعم المفهوم السائد بين قادة اسرائيل والقائل بانه من مصلحة اسرائيل زيادة ما تملكه أمريكا من المشروعات الاقتصادية فيها ، فزيادة هذه المصالح تعنى مزيدا من الحماية والدعم الأمريكى للدولة الصهيونية .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التلاحم هى ازدياد الاتجاهات العدوانية للدولة الصهيونية ، حيث لم يعد لزاما عليها الدفاع عن مصالحها الخاصة أو تحقيق اهداف الحركة الصهيونية فحسب : بل وأن تلعب دور الانكشارية الجديد للمصالح الامبريالية لدول الدعم فى المنطقة مما يمثل بدوره كما ذكرنا ، عبئا اضافيا على تطور الاقتصاد الاسرائيلى .

ولذلك فانه على الرغم من هذا التدفق الهائل فى المعونات من دول الغرب والتى تقدر بسبعة آلاف مليون دولار فى أربعة عشر عاما أى ما يساوى ثلاثة آلاف دولار لكل اسرائيلى ، فلقد أبدى الاقتصاد الاسرائيلى كل الظواهر الدالة على ضعف أسسه . لقد زاد التضخم ، وابدى ميزان المدفوعات عجزا متفاقما ، وتزايدت البطالة وفوضى الاسعار . ثم أزمة التنمية الخطيرة فى سنوات ٦٦ـ٦٧ والتى كانت من الاسباب الرئيسية لعدوان ١٩٦٧ .

وفى دراسة اجراها د. يوسف عبد الله الصايغ فى كتابه للارقام الخاصة بتطورات الاقتصاد الاسرائيلى (١٧) انتهى الى القول بأن الاقتصاد الاسرائيلى لم يستطع ، طيلة حياته « أن يؤمن من « جهده وموارده (أى عن طريق الناتج القومى) كافة لوازم الاستهلاك الحكومى المعلن عنه واستهلاك الرساميل . ويضيف : « ففى الاعوام ١٩٥٠ـ١٩٦٠ المتوفرة لدينا عنها التفاصيل اللازمة ، بلغ متوسط نسبة الناتج القومى للوازم المشار اليها ٩٨٪ . ولو توفرت لدينا الارقام السرية للاستهلاك الحكومى غير المعلن عنه ، لاثبتنا أن النسبة هى دون ذلك » .

ثم يضيف ، « ولئن قيل أن استمرار العجز الضخم فى ميزان المدفوعات أمر لا غنى عنه ، بسبب الاصرار على النمو السريع فى سبيل خدمة أغراض الاقتصاد والمجتمع الاسرائيلى فان الجواب : ان درجة الاعتماد على الخارج لا تبدى ميلا ثابتا نحو التناقص . بل أن هناك بعض الدلائل التى تشير الى أن الاقتصاد الاسرائيلى بتركيبه الحاضر ، ومن ضمن اهدافه ومعطياته ، لا يقدم الدليل على اقترابه من الاستقلال »(١٨) .

ولقد قدمت التطورات اللاحقة الدليل على صدق هذا التوقع على ما يبين فى الجدول التالى :

تطورات العجز فى ميزان المدفوعات ومعدلات التنمية فى اسرائيل
فى سنوات ٦٤ ـ ١٩٦٩ (١٩) (بملايين الجنيهات الاسرائيلية)

	٦٤/٦٥	٦٥/٦٦	٦٦/٦٧	٦٧/٦٨	٦٨/٦٩
العجز فى ميزان المدفوعات	٤٦٣	٤٧١	٤٩٠	٥٧٠	٥٢٠
معدل التنمية	٪ ١٠	٪ ٧	٪ ١ر٢	٪ ٢ر٢	غير متوفر

[١٧] يوسف عبد الله الصايغ ، المرجع السابق ، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٥
[١٨] يوسف عبد الله الصايغ : المرجع السابق ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥
[١٩] جريدة الاهرام : الارقام التى نشرتها السلطات الاسرائيلية عام ١٩٦٩ـ ١٩٦٩/٦/٥ .

ولقد كتبت مجلة ميدل ايستت جورنال الامريكية تقول :

« تعيش اسرائيل حياة شديدة القلقلة والخطر فوارداتها تقرب من ضعفي ونصف ضعف أو ثلاثة أضعاف صادراتها . ولا يمكن موازنة الفرق بناتج الخدمات. وقد بلغت الواردات للفرد الواحد ٢٣٤ دولارا فى ١٩٦٠ ، مقابل ٩٩ دولارا للصادرات » [١٩ م]

ولقد كان من الطبيعي أن يتميز بظاهرة تضخم متفاقمة حيث بلغ التضخم ١٣٫٦ مرة بين ١٩٤٩ و ١٩٦٤(٢٠) .

ولقد كانت الفروقات بين الاسعار المحددة وأسعار السوق السوداء ضخمة جدا ، اذ بلغت النسبة بين ثمن السوق السوداء الى الثمن المحدد بين سبتمبر ١٩٥١ واغسطس ١٩٥٢ (وهى فترة التضخم الاعلى ٦ مرات للاسمنت و ٢٫٥ للبرادات ، ٤٫٧ لخشب البناء ، ٤ لقضبان الحديد ، ٢٫٢٢ للسكر، ١٫٧٥ للارز ... الخ(٢١)

وخلاصة القول عن أوضاع الاقتصاد الاسرائيلي بعد هذه النظرة السريعة :

١ — ان الارض التى قامت عليها اسرائيل كانت عاجزة من زاوية مواردها الطبيعية عن تبرير مخططات القادة الصهاينة للهجرة وكان لابد أن ترتبط الدعوة للهجرة بالدعوة الى «توسيع حدود الدولة » ، والسيطرة على الموارد الطبيعية العربية المجاورة .

٢ — ان اسرائيل استطاعت أن تواجه موجات الهجرة وأن تستوعبها عن طريق تنمية سريعة وعالية للزراعة والصناعة . ولكن هذا قد تم على حساب الاستنفاد السريع لكل الموارد الطبيعية ، ومن خلال التلاحم الاشد مع الصهيونية المالية ، والقوى الاشد عدوانية فى الامبريالية الدولية ، مما ضاعف من حدة الاتجاه العدوانى للدولة الاسرائيلية ، هذا الاتجاه الذى أصبح هو بدوره عبئا اضافيا على الاقتصاد الاسرائيلي يزيد من أزمته الكائنة .

٣ — ان الاقتصاد الاسرائيلي قد أبدى بسرعة — وخاصة فى السنوات الاخيرة — بوادر وهن فى أكثر من اتجاه ، وعبرت هذه البوادر عن الاسس المصطنعة التي يقوم عليها . ولقد كانت اللعبة المفضلة للقادة الاسرائيليين لمواجهة هذه الازمات ومن أجل استجلاب المزيد من المعونات والتبرعات هى اشاعة التوتر والمغامرات العسكرية المتتالية .

الامن والمؤسسة العسكرية

اذا كانت الارض التى قامت عليها دولة اسرائيل لم تكن لتوفى بالاحتياجات الاقتصادية لمخططها ، فلعل هذه الارض ، من الناحية الاستراتيجية ، لاتقل — ان لم تكن تزيد — عن ذلك سوءا فى تحقيق أمن الدولة من وجهة النظر الصهيونية . فمن حيث الجغرافية العسكرية كانت اسرائيل حتى بعد هدنة ١٩٤٩ تشكل شريطا طويلا يبلغ طوله من مرتفعات الجليل الى ايلات ٤٢٠ كم ، ويبلغ عرضه الاقصى ١١٥ كم جنوب بئر سبع ، والادنى ١٤ كم شمال ايلات ، ومساحته الكلية حوالى ٢١٫٠٠٠ كم ٢ . وتبلغ حدودها البرية مع الدول العربية المجاورة ٩٥١ كم منها ٧٩ كم حدود مشتركة مع لبنان و ٥٣١ كم مع الاردن ، و ٢٦٥ كم مع ج.ع.م و ٧٦ كم مع سوريا . بينما تبلغ حدودها البحرية ٢٥٤ كم منها ١٨٨ كم على البحر الابيض المتوسط و ٥٦ كم على البحر الميت .

ولا تضم تلك الحدود البرية الطويلة أى عوائق طبيعية استراتيجية تذكر ، كما زاد تكدس السكان والمنشئات الاقتصادية الحيوية فى مثلث « حيفا — الرمل — تل أبيب» من تعقيد المشكلة الاستراتيجية وهذا ما يدركه القادة الاسرائيليون .

يقول موشى ديان :

« تواجه اسرائيل مشكلة أمن معقدة تعقيدا غير عادى.. ان مساحة البلاد لاتتجاوز ٩١٠٠ ميل مربع، ويبلغ طول حدودها ٤٠٠ ميل ، ويعيش ثلاثة أرباع سكان اسرائيل فى السهل الساحلي الممتد من شمال حيفا الى جنوب تل أبيب . ان معدل عرض هذه المنطقة المكتظة بالسكان لا يتجاوز ١٢ ميل بين البحر المتوسط وحدود الاردن ، وبالامكان رؤية

[١٩م] ميدل ايست جورنال — فى عددها الصادر فى صيف ١٩٦٤

[٢٠] يوسف عبد الله الصايغ :المرجع السابق — جداول تطورات الكتلة النقدية والتعليق عليها ص ٣٤٧

[٢١] المرجع السابق ص ٢٥٥

الجنود الاردنيين على بعد مئات الامتار من مبنى البرلمان الاسرائيلى فى القدس ، كما أنه بالامكان رؤية مقر رئاسة الاركان الاسرائيلية الواقعة فى السهل الساحلى وذلك من التلال الواقعة على الحدود الاردنية . ان الطرق الرئيسية للسكك الحديدية معرضة للغزو السريع السهل ، ويكاد لا يوجد مكان فى اسرائيل لا تطيله نيران العدو باستثناء صحراء النقب »(٢٢) .

ويؤكد العميد حاييم هرتزوج ، المدير السابق للمخابرات الاسرائيلية ، فى حديثه عن الرقابة العسكرية فى اسرائيل هذا المعنى بقوله :

« انكم الان تجلسون (فى تل ابيب) على مرمى المدفعية لجيش تعلن حكومته (الاردن) انها فى حالة حرب مع اسرائيل . . وحتى لو كنتم قد عقدتم اجتماعكم ، كما كان مقررا فى هتزليا على بعد أميال قليلة الى الشمال ، لكنتم فى نطاق مدفعية الميدان لنفس الجيش . وعندما تزورون الكنيست فى القدس فسترون انه يقع فى مدى مدفعية الهاون الاردنية . كما يمكن اصابة الاشخاص فى بعض المبانى الحكومية برصاص المسدسات » .

لقد كان حريابدولة هذهأوضاعها الاستراتيجية أن تنحو للسلم كل منحى ، خاصة لتسوية المشاكل التى خلقها وجودها القسرى . ولكن القادة الاسرائيليون تبنوا ، بحكم ارتباطهم بالمخطط الصهيونى ، سياسة « ولا لاجىء واحد ، ولا شبر من أرض » ، وهذا يعنى انهم — هم فى الواقع — الذين يبنون سياستهم على أساس المراهنة على وجود اسرائيل ذاته .

يقول الكتاب السنوى لاسرائيل لعام ١٩٥٠ :

« ان اسرائيل لا يمكن أن توافق على اعادة اى جزء من فلسطين للعرب . فالمشكلة الفلسطينية لا يمكن أن تحل الا بالحرب . وخلال الحرب سيتقرر مصير اسرائيل كدولة . فأما أن تزول واما أن تبقى . ولكى ننتصر فى الحرب يجب أن نتفوق على البلاد العربية تفوقا عسكريا ساحقا »(٢٣) .

وقادة اسرائيل لا يبحثون عن الامن داخل حدود اسرائيل ، بل هم يقدمون مفهوما توسعيا خطرا لما يسمونه بمشكلة الامن ؟ عبرعنه اسحق بن زخى رئيس جمهورية اسرائيل بقوله « ان الامن ليس هدفا فى حد ذاته ، وانما هو وسيلة لتحرير ارض الوطن وهو هدف مازال بعيدا » .

ويشهد **مورجيب مراسل نوفيل أوبزر فاتير :**

« باختصار ، بالامس كان منبع اضطراب الامن يكمن فى سيناء والمرتفعات « السورية وغرب الاردن » أما اليوم فان هذا المنبع يقع فى وسط سوريا ، وعلى الضفة الاخرى للقناة وشرق النهر . المهم أن هذا المنبع مازال قائما ، وغدا اين سيكمن اذن ذلك المنبع الذىيبتعد كلما اقترب المرء منه ؟ . . أفى بنى غازى وبغداد والخرطوم ؟ . .

« واذا قلت للاسرائيليين اننى أراهم يبالغون قليلا ردوا على بأننى ضحية الدعاية الشيوعية ، واننى أقف ضد الوجود الاسرائيلى ، بل اخيرا اننى يهودى يخجل من يهوديته »(٢٤) .

ويقرر د . **جون ديفز** المفوض العام لشئون اللاجئين فى كتاب « **السلام المراوغ** » :

« ان اسرائيل أعطت دلائل كثيرة على عدوانية مخيفة نحو الشعب العربى مما زاد ماديا من حجم الصراع »(٢٥) .

وبالفعل ، فماذا كانت السنوات العشرون الماضية منذ هدنة ١٩٤٩ لم تشهد جيشا عربيا من اى بلد عربى يحتل اى جزء من اسرائيل ويبقى فيه لساعات ، فان هذه السنوات قد شهدت :

- احتلال اسرائيل لمساحة ٥٠٠ر٤ كم ٢ من أراضى الدولة العربية الفلسطينية المقترحة فى قرار التقسيم منذ ١٩٤٨ حتى اليوم .
- احتلال اسرائيل و ٦٠ ألف كم ٢ من أراضى مصر فى سيناء والعرب فى ١٩٥٦ دام أكثر من عام .
- احتلال اسرائيل لاراضى ثلاث دول عربية هى مصر والاردن وسوريا بعد عدوان ١٩٦٧ استمر حتى اليوم أكثر من ٣ سنوات .

---

[٢٢] موشى ديان — مجلة فورين افيرز — ١٥ يناير سنة ١٩٥٥ — ص ٢٥٠
[٢٣] حكومة اسرائيل : « الكتاب السنوى » — تل ابيب — ١٩٥٠ — المقدمة
[٢٤] « حكومة اسرائيل » — نوفيل اوبزرفاتير — ١٨ — ١٠ — ١٩٦٧
[٢٥] كلوفيس مقصود — « الارهاب الامريكى لم يسكت هذا الصوت » — الاهرام القاهرية — ١٩٦٨/١١/٢١ .

ولقد ظل مفهوم الامن عند اسرائيل هو حدود جديدة ، « حدود آمنة » على حد تعبير المسئولين الاسرائيليين . لكن اسرائيل — قد دللت فى الواقع — منذ نشأتها على رغبتها فى الابقاء على توتر الحدود بينها وبين الدول المجاورة لها لاسباب شتى ليس أقلها أهمية :

« ان أى قرار تتخذه اسرائيل بالهجوم على مصر (مثلا) يتطلب — بالتقرير العسكرى والسياسى — حدودا ساخنة الى درجة الغليان »(٢٦) .

والواقع أيضا ، هو أن اسرائيل كانت هى دائما التى رفضت اى اجراء دولى يهدف الى تخفيف التوتر .

« فالصهيونية لا تقبل ، فى الواقع ، ولا تتحمل ، اى ضمان دولى لحدودبينها وبين العرب »(٢٧) .

ولقد كانت ظـروف اسرائيـل الاستراتيجية ، واصرار القادة الاسرائيليين على اتباع تلك السياسة الهجومية ، هى التى حددت منذ البداية طبيعـة المجتمع الاسرائيلى وطبيعة القوى التى لابد ان تندفع الى المقـدمة فيـه . ونعنى بهذه القـوى المؤسسة العسكرية الاسرائيلية التى يتزعمها بن جوريون وموشى ديان وشيمون بيرنز وايجال آلون ومناحم بيجين ... وغيرهم :

يقول أ . هـ . هتشنسون :

« ان كل زائر لاسرائيل يخرج بانطباع لابد منه ، وهو ان الاشياء العسكرية لها الافضلية على كل شىء : منظمات الشباب ، والجنـود النظاميـون والبحارة والطيارون ، والقوات الاحتياطية الضخمة الجهزة المدربة والمستترة خلف أسوار ما يسمى بالمستعمرات الزراعية ، والرجال على الحدود وقوات الشرطة . كل شىء يشير الى أن اسرائيل تبرز أهمية أجهزة الحرب ومعداتها » (٢٨) .

ويقول جنرال بيرنز :

« عاش الجيل الجديد فى اسرائيل حياته فى جو يعطى للقيم العسكرية ، وعلى رأسها النزعة العدوانية ، المكان الاول ، وفى جو ينظر فيـه الى العربى باعتباره العدو اللدود »(٢٩) .

الارجـــون

منظمة عسكرية اسـمها الكامل بالعبرية الارغون زفاى ليومى اى « المنظمة العسكرية لشعب اسرائيل » اسسها الارهابى الصهيونى فلاديمير جابوتنسكى عام ١٩٣٧ وساعده فى ذلك الارهابى ابراهام شتيرن . اقتصر عملها فى البداية على تهريب اليهود . وكان المنتسبون اليها يدربون تدريبا عسكريا لمدة ستة شهور . وتضم غلاة المتطرفين من الصـهيونيين الذين كانوا يعارضون وايزمن ، الذى كان يدعو لاستخدام اساليب اقل تطرفا من أجل تحقيق الهدف الصهيونى . وبعد مقتل جابوتنسكى راس المنظمة مناحم بيجين . وهذه المنظمـة هى المسئولة عن نسف فندق الملك داود عام ١٩٤٦ ومجزرة دير ياسين فى ابريل ١٩٤٨ وقـد ظهرت هذه المنظمـة فى مسرح السيـاسـة الاسرائيلية منذ عام ١٩٤٩ باسم حزب حيروت بزعامة مناحم بيجين احد الوزراء الحاليين فى اسرائيل .

★

شـــــتيرن

اسم منظمة ارهابية اسسها ابراهام شتيرن — احد قادة الارجون ، التى انفصل عنهـا لرفضه قرارها بضرورة عقد اتفاق ودى وهدنة مع السلطات البريطانية مادامت الحرب قائمة ضد المانيا النازية . كان شرط شتيرن لقبول هذه الهدنة ان تفتح بريطانيا طيلة الحرب ابواب فلسطين للهجرة اليهودية بلا قيد او شرط فلما رفض زعماء الارجون هذا الشرط انفصل عنها شتيرن واعوانه . وهذه المنظمة هى التى قامت باغتيال الكونت فولك برنادوت الوسيط الدولى .

وتكتب **الرسالة الاخبارية اليهودية فى ١٢ مارس ١٩٥٦ :**

« أى انسان يتوفر عنده احساس بسيط ويقضى اياما قليلة فى اسرائيل يستطيع أن يشعر بالحرب ، يشـعر بها فى الاعصاب المشدودة والمتوترة لركاب الاتوبيس ما أن يتركوا المدينة . وفى التوتر المكبوت بين الناس ، وفى الشوفينية العدوانيـة ، وتأليه

---

(٢٦) بن جوريون : « اسرائيل — سنوات التحدى » المرجع السابق — ص ٨٩ ، ٩١ .
(٢٧) السجل الرسمى لمجلس الامن — ٣٦٥٩ ، ١٩٥٦
(٢٨) هتشنسون : «الهدنة العنيفة» — المرجع السابق — ص ١٦٩
(٢٩) جنرال بيرنز : « بين العرب والاسرائيليين » لندن — ١٩٦٢ — ص ٦٨

الذات التى تجعل الاسرائيلى العادى أعمى.يشعر بها فى ارتفاع حمى الحرب وفى الاستعداد العسكرى الفعال الواضح فى كل المجالات »(٣٠) .

ويكتب جال دومال ومارى لورا :

« منذ الطفولة يتلقى الصبيان والبنات تعليما عسكريا اكثر صرامة بمراحل ، واكثر تكلفة ، مما كانت عليه فرق موسولينى ، أو الجحافل الروسية الفرنسية فى بداية القرن . ومن الرابعة عشرة وحتى التاسعة عشرة تصبح مهمة تربية الفتيات والفتيان من شأن منظمات شبه عسكرية بالغة القـوة ، الرئيسيتان منهـا هى « الناحـال » و « **الجارنا** »(٣١)

وقد انتقد كاتب اسرائيلى ذلك الاتجاه العسكرى أمام المحكمة فقال :

« ... انى وجدت العناية منصرفة فى هـذا البلد لخلق شباب متعصـب الى أقصى حـدود التعصب ، فهو يربى تربية عسكرية ويوجه توجيها حربيا الى أهداف احتلالية . ويتلقى تعليما تعصبيا من النوع الضيق جـدا كالذى يطبق فى الدول العسكرية . انهم جعلوا الجيش هنا قبلة للشباب ، ومنحوه مركزا متميزا ، كما كان النازيون واليابانيون يؤلهون جيوشهم . انهم فى هذا البلد ينشئون الاطفال هذه التنشئة العسكرية ، ويستعينون على هذا بجميع الوسائل التى تملكها الدولة . انهم يطبعـون كل شىء فى الدولة بطـابع الروح العسكرية ، طابع الغزو والاستعمار »(٣٢) .

ويؤكد **ليفى أشكول** كلمـات هـذا الـكاتب الاسرائيلى عندما يقول :

« ان مواطنى اسرائيل ويهود العالم يستمدون الثقة والعزة من هذا البناء الرائع الذى يسمى جيش الدفاع الاسرائيلى »(٣٣) .

وبهذه الروح العسكرية استطاعت اسرائيل فى حرب يونيو ١٩٦٧ استدعاء ١١٪ من سكانها والحاقهم بالخـدمة العسـكرية ويؤكد معهـد الدراسات الاستراتيجية فى لنـدن أن اسرائيل كانت عام ١٩٦٦ ، وقبل ذلك بسنوات عـديدة من بين كل دول العالم دون اسـتثناء ، الدولة التى تخص الاسلحة والحرب بالشطر الاكبر من دخلها القومى ، أما الان ، ومع بداية ١٩٦٨ فقد تضاعفت ميزانية الحرب أربع مرات .

البداية

وتبدأ قصة العسكريين فى اسرائيل أساسا منذ أوائل الحرب العالمية الاولى ، حين تكونت كتيبة يهودية لخدمة الحـرب مـع الحلفاء فى الشرق الاوسط ، وقد تكونت مـن يهود مـن فلسطين والولايات المتحدة وبريطانيا . وتمكن اعضاء هذه الكتيبة من الحصول على مستوى عال من التدريب وعلى قدر من الاسلحة الخفيفة التى احتفظوا بها لمخططات ما بعد الحرب حيث تكونت الهاجاناه .

وفى الفترة ما بين الحربين انشقت الهاجاناه وظهرت المنظمة العسكرية القومية « ارجـون تزفاى لئـومى » ، ثـم فى ١٩٤٠ انشقت عن هـذه الاخيرة منظمة «المحاربون من أجل حرية اسرائيل» (لحماى حيروت احرابيل) التى عرفت باسـم جماعة شتيرن .

وخلال الحرب العالمية الثانية كونت الهاجاناه قوة ضاربة فى غزو سوريا ولبنان ، وكانتا اذ ذاك تحت حكام فرنسيين موالين لحكومة فيشى . وكانت هذه الفترة من اهم الفترات التى شارك فيها العسكريون اليهود فى الحرب فى صفوف جيش حديث التنظيم والتسـليح ، وضد جيش حديث التنظيم والتسـليح ، فاكتسبوه خـبرة ضخمة فى التخطيط والتنظيم وتدريبا عاليا على أحدث الاسلحة .

وفى اكتوبر ١٩٤٧ امكن **ابن جوريون** وضع قوات الهاجاناه والبالمـاح تحت قيـادة مركزية انضـمت تحت لوائها قـوات الارجون فى يونيو ١٩٤٨ .

وهكذا ، نشـأ وتربى القـادة العسـكريون لاسرائيـل فى أحضـان جيش الامبراطـورية البريطانية . ثم انتقلوا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وخاصة منذ انشاء دولة اسرائيل ليصبحوا وكأنهم جزء من ضباط القوات الامريكية المسلحة وقوات حلف الاطلنطى . وتذكر جريدة **ديرسبيجل**

---

(٣٠) نشرة الرسالة الاخبارية اليهودية ــ المجلد ١٢ العدد ٦ ١٢ ــ ٣ ــ ١٩٥٦

(٣١) جاك دومال ومارى لورا : « التحدى الصهيونى » ، المرجع السابق

(٣٢) ذكره لواء محمود شت خطاب فى كتابه « حقيقة اسرائيل » ــ مركز الدراسات والبحوث العربية ــ القاهرة ــ ١٩٦٨

(٣٣) بيان ليفى اشكول فى الكنيست فى ٢٩ ــ ٥ ــ ١٩٦٧ .

الالمانية أن الضباط الاسرائيليين يشتركون فى المناورات التى يجريها حلف الاطلنطى فى أوروبا، بل وأن خطة عدوان ١٩٦٧ روجعت قبل تطبيقها من قبل قيادة حلف الاطلنطى فى أوروبا . وكان **موشى ديان** قد ذهب فى عام ١٩٦٧ الى فيتنام لدراسة أساليب الصراع ضد حرب العصابات كما تطبقها القوات الامريكية هناك .

ولقد تحولت دولة اسرائيل ، الفقيرة الموارد الطبيعية ، الى ترسانة مدججة بالسلاح ، تمتلك من أدوات الحرب الحديثة ما يفوق قدرة الكثير من البلدان الاقوى منها عدديا واقتصاديا . ولم يكن باستطاعة اسرائيل أن تحقق هذا الا من خلال التلاحم الالصق بالصهيونية العالمية وأشد القوى عدوانية فى الامبريالية الدولية .

وبخلاف ماحصلت عليه اسرائيل من سلاح خلال حرب ١٩٤٨ فقد جرى تسليحها بالشكل التالى :

— فى ١٩٥٢ وعلى اثر اعلان شاريت فى الكنيست الاسرائيلى فى ٤— ١١ — ١٩٥١ ان حكومة اسرائيل توافق على الاسهام بنصيبها فى الدفاع عن منطقة الشرق الاوسط بدأت المعونات العسكرية الامريكية تتدفق على اسرائيل .

— وفى سنة ١٩٥٦ حصلت اسرائيل على أول صفقة من طائرات مستير الفرنسية ، وأعلن جى موليه ، رئيس وزراء فرنسا فى ذلك الوقت ، أن الصفقة قد تمت بناء على طلب وزير الخارجية الامريكية جون فوستر دالاس . وقبل حرب السويس زودت فرنسا اسرائيل بمختلف أنواع الاسلحة الثقيلة .

وفى ١٩٦٠ عقدت صفقة الاسلحة الالمانية المشهورة التى قدمت هدية من حكومة المانيا الغربية تحت ستار « التعويضات » وقد شملت طائرات مواصلات وهليوكوبتر ودبابات ليوبارد ومدافع وصواريخ مضادة للدبابات ، غير الاسلحة التى لم يعلن عنها واعتبرت سرا . وكان قد تم الاتفاق عليها مع مستشار المانيا اديناور أثناء زيارته لواشنطن .

— ومنذ ١٩٦٢ تقوم الولايات المتحدة الامريكية بتقديم السلاح مباشرة الى اسرائيل . ففى ١٦ سبتمبر ١٩٦٢ ، ٢٨ يونيو ١٩٦٣ قدمت أمريكا الى اسرائيل صفقة صواريخ هوك المضادة للطائرات . وفى ٥ فبراير سنة ١٩٦٦ قدمت لها صفقة دبابات باتون ، وفى ٢٠ مايو سنة ١٩٦٦ قدمت لها صفقة طائرات سكاى هوك .

— وفى شهر يونيو ١٩٦٧ حصلت اسرائيل على ١٢٠ طائرة ميراج كانت هولندا قد اشترتها من فرنسا . كما حصلت من استراليا على مابين ٥٠ — ٧٠ طائرة ميراج أخرى كانت قد اشترتها هى الاخرى من فرنسا فى ١٤ يونيو سنة ١٩٦٥ .

— وقد عقدت اسرائيل مع شركة تريوميكا الفرنسية لصناعة الطائرات اتفاقية لانشاء فرع لها فى اسرائيل لصنع قطع غيار للطائرات المطاردة النفاثة . كما عقدت فى يوليو ١٩٦٧ اتفاقية مع احدى الشركات الامريكية لفتح فرع لها فى اسرائيل لانتاج الطائرات .

— وفى ديسمبر ١٩٦٨ تم عقد صفقة طائرات الفانتوم الخمسين مع الولايات المتحدة الامريكية، وجاءت الانباء بزيادة عددها أثناء زيارة **جولدامائير** وزيرة خارجية اسرائيل لواشنطن فى أكتوبر ١٩٦٩ .

وتقدر **التايمز اللندنية** أن اسرائيل تمتلك من عام ١٩٦٩ ما بين ٨٠٠ — ٨٥٠ دبابة ، ٢٩٥ طائرة مقاتلة بخلاف طائرات الفانتوم .

— ولقد تكفلت المنظمات الصهيونية وحكومات الولايات المتحدة والمانيا الغربية بتغطية الجزء الاعظم من اثمان هذه الصفقات العسكرية فى شكل تبرعات أو ما يسمى بتعويضات أو فى شكل قروض طويلة الاجل .

المؤسسة العسكرية تتدعم

ومن خلال كل الظروف السابقة تبلورت المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ، وتدعم نفوذها على المجتمع الاسرائيلى ككل ، ولم يعد أفراد المؤسسة يشاركون فى وضع القرارات السياسية الخاصة بكل المجالات فحسب بل أصبحوا قادرين على فرض هذه القرارات سواء كانوا فى مناصب رسمية أو خارجها .

ينقل مؤلفا كتاب « **انطلاق الحمامة** » عن **راندولف تشرشل** فى كتابه « حرب الايام الستة » ما ذكره عن نفوذ **موشى ديان** قائلا :

« كان ديان قبل مدة طويلة من تسلمه منصب وزير الدفاع يقدم نصائحه لعدد من القواد، ورغم أنه كان من الناحية الرسمية مجرد شخصية مدنية فان أحدا من القادة العسكريين لم يعترض على تدخله فى امور الجيش . وعلى سبيل المثال ففى يوم الاربعاء ٣١ مايو أى قبل يوم من تعيينه وزيرا للدفاع ، التقى ديان بقائد المنطقة الوسطى وناقشا معا فى القدس الخطط العسكرية ، ثم انتقلا الى مواقع للمراقبة ، وهناك ناقشا التفاصيل على الطبيعة »(٣٤) .

ومنذ نشأة اسرائيل يلعب العسكريون الاسرائيليون دورا بارزا فى كل مجالات الحياة فى اسرائيل :

● ففى مجال التعليم : أقام الجيش الاسرائيلى مدارس خاصة به ومدارس لتعليم اللغة العبرية للوافدين الجدد من المهاجرين .

● وفى مجال الزراعة : يتولى الجيش توزيع الشباب من أعضاء تنظيم « الناحال » العسكرى على المستعمرات الزراعية على الحدود التى يتم اختيار مواقعها والاشراف عليها تماما بواسطة السلطات العسكرية .

● وفى تدريب الشباب : تتولى منظمات الشباب العسكرية « الجدناع » الخاضعة لاشراف الجيش تجنيد الشباب ابتداء من سن ١٢ سنة لتنمية اهتماماتهم بالنواحى العسكرية وتدريبهم عقائديا وجسمانيا .

● وفى مجال الصحافة : تتولى السلطات العسكرية تنفيذ قانون حرية النشر والرقابة على الصحف ويمارس العسكريون سلطات مطلقة عن طرق الرقابة العسكرية .

● وفى مجال الصناعة : تقوم المنظمة العسكرية « الناحال » بتكوين ناحال صناعى على غرار الناحال الزراعى . وتقتصر التعيينات فى المناصب القيادية للمؤسسات الصناعية ذات الاهمية الاستراتيجية الخاصة على العسكريين .

العدوان المستمر

وثمة طائفة من الاحداث التى وقعت فى اسرائيل تبرز مدى النفوذ الذى تمارسه المؤسسة العسكرية وأفرادها سواء كانوا داخل الحكم وخارجه ومنها:

حادثة العدوان على قرية قبية الاردنية فى ١٥ - ١٠ - ١٩٥٣ . قامت كتيبة مشاة اسرائيلية تعاونها بطارية وفصيلة مهندسين بتطويق قرية قبية الاردنية فى السابعة والنصف مساء ، وقصفت المدفعية بيوت القرية ثم دخلها المشاة وفصيلة المهندسين للقيام بعملية النسف ، واسفرت العملية عن نسف ٣١ بيتا وقتل ٤٢ شخصا وجرح ١٥ شخصا بالاضافة الى تدمير خزان مياه القرية ، وقتل محلاتها . وهو العدوان الذى صدر قرار مجلس الامن رقم س - ٣١٣٩ بتاريخ ٢٤ - ١١ - ١٩٥٣ - بادانته .

وتوضح تفاصيل الاعتداء لهذا العدوان أن المؤسسة العسكرية قد فرضته حتى على رئيس الوزراء بالنيابة ووزير الخارجية فى ذلك الوقت وهو موشى شاريت .

لقد ادعت المؤسسة قبل الحادث أن الاردن مسئول عن قتل امراة يهودية وطفليها على يد بعض المتسللين الفلسطينيين ، وطالبت بتدبير حملة انتقامية . ويذكر بن موسى شاريت فى عام ١٩٦٥ على لسان والده أن شاريت « لم يكن مقتنعا بأن الاردن مسئول عن مقتل المراة والطفل وبأن هذا الحادث لم يكن هو سبب العدوان (٣٥) .

وحاول شاريت أن يثنى المؤسسة العسكرية عن القيام بحملتها « الانتقامية » خشية أن يتبعه مزيد من الرد من الطرف الاخر فضلا عن احتمالات أن يتخذ مجلس الامن موقفا ضد اسرائيل . ولكن المؤسسة نفذت عدوانها ، ويصف شاريت الامر فى مذكراته بقوله :

« معنى ذلك أن تفرض بعض الحقائق المؤلمة فى مجال السياسة الخارجية، وأكون مسئولا عنها وعن نتائجها ، بينما أنا نفسى أعرضها » (٣٦) .

قضية لافون

فى عام ١٩٥٤ دبرت المخابرات الاسرائيلية عملية تخريب لبعض المنشئات الامريكية فى القاهرة والاسكندرية بالقيام بعمليات تفجير فيها ، وبعد فشل العملية الذى أدى الى انهيار أكبر شبكة تجسس اسرائيلية فى البلاد العربية ، اتضح من التحقيق الذى أجرى فى اسرائيل حولها ، أن العملية كانت من تنفيذ المؤسسة العسكرية ، وعلى رأسها **بن جوريون وموشى ديان وشيمون بيريز** على الرغم من أن بن

---

[٣٤] اورده مؤلفا كتاب « اطلاق الصاعقة » المرجع السابق - ص ٤٩

[٣٥] ايونيدس ميشيل « فرق تخسر، ثورة العرب فى ١٩٥٥ - ١٩٥٨ » لندن - جوفرى اخوان - ١٩٦٠ ص ١٥٧

[٣٦] صحيفة معاريف الاسرائيلية - ٢٩ - ١٠ - ١٩٦٥

جوريون كان وقتئذ خارج الوزارة . وان العملية قد دبرت دون علم وزير الدفاع بنحاس لافون ، بل أن العملية كانت تهدف الى تحقيق هدفين اولهما هو التخلص من بنحاس لافون لخلافات شخصية وخلافات فى منهج العمل بينه وبين المؤسسة العسكرية وثانيهما هو تحريض الولايات المتحدة الامريكية ضد نظام الحكم فى القاهرة .

ومع ان اللجنة الوزارية التى تشكلت للتحقيق ، ولجنة تحقيق أخرى من أساتذة الجامعات لم تدن لافون عن مسئوليته ازاء العملية ، واثبتتا تزوير مخابرات الجيش، فان المؤسسة العسكرية استطاعت فرض ارادتها واخراج لافون من الوزارة ثم اقصاؤه عن منصبه كسكرتير عام للهستدروت ، مما أكد الدور الذى يلعبه العسكريون فى اسرائيل وممارستهم لعمليات تتعلق بالسياسة الداخلية والسياسة الخارجية بتوجيه من بن جوريون فى فترة كان فيها خارج الحكم ، وقدرتهم على التخلص من معارضيهم فى الاتجاه والرأى مهما كان ثقل الشخصية المعارضة لهم فى الدولة .

وهكذا توضح دراسة هذه الاوضاع العسكرية الاسرائيلية انه :

اولا : لقد نجحت اسرائيل فى بناء جيش حديث حسن التدريب ومزود بأحدث الاسلحة، الا ان هذا قد تم من خلال التلاحم الالصق مع الصهيونية العالمية والامبريالية الدولية خاصة مع أشد دولها عدوانية، الامر الذى فاقم من اتجاهات اسرائيل العدوانية بعد أن أنيط بها - الى جانب رعاية « أمنها » وكونها قاعدة لتحقق الاحلام الصهيونية فى المنطقة - أن تلعب دور الانكشارية الجديدة رعاية للمصالح الاستعمارية عامة فى المنطقة .

ثانيا : لقد تبلور دور المؤسسة العسكرية فى اسرائيل واخذ نفوذها يتزايد بكيفية مضطردة . والمهم فى الامر هنا ، أن أفراد هذه المؤسسة الذين تربوا فى أحضان الجيوش الاستعمارية، يجدون أن مصالحهم ونفوذهم تبيح لهم الابقاء على حالة التوتر الدائم على حدود اسرائيل ، كما يجدون أن تألقهم مرتبط بتصعيد هذا التوتر، ولا تخفى الصحافة الاسرائيلية بمختلف اتجاهاتها هذا الامر .

تقول مجلة هاعولام هازه :

« ان ديان يدرك جيدا انه لا يستطيع أن يتغلب على خصومه الا فى حالة توتر عسكرى جاد كما كان الامر فى مايو ١٩٦٧ . ففى هذه الظروف فقط يتحول الرأى العام اليه ، ولذلك فهو لا يألوا جهدا فى نشر الذعر بين المواطنين » (٣٧) .

وتكتب هاآرتس (يمينية) :

« ان الاقتراح الذى يقضى بترشيح ديان لرياسة الحكومة منافسا لاشكول يبدو غير واقعى ، بعد ان قرر مركز حزب العمل ان الوقت غير مناسب لاجراء انتخابات داخلية للمواجهة ... والانتظار للوقت المناسب يعنى الانتظار حتى يسود جو شبيه بالجو الذى ساد فى شهر يونيو ١٩٦٧ ، عندما املى ضغط الرأى العام التغيير فى المناصب العليا .

« ان هذا الوقت المناسب لن يأتى الا وقت الحرب » (٣٨)

تصلب الايديولوجية العنصرية

لقد امل الكثيرون فى أن المهاجرين اليهود الذين كانوا ضحايا العنصرية النازية وناضلوا ضدها ، والذين تميز تاريخ طوائفهم عبر قرون طويلة وفى كافة البلدان بالانحياز الى الدعوة للمساواة بين الاديان والاجناس ، سوف يكونون رسل ديمقراطية وتفاهم بين الشعوب .

وكم كتب البعض من اليساريين الاوربيين بأمل ان تكون اسرائيل هى واحة الديمقراطية فى الشرق العربى ، وكم استغلت الدعاية الصهيونية هذه « الامال » لتمرير مخططاتها .

والواقع أن الوهم الذى وقع فيه كل هؤلاء قد نتج عن تجاهلهم لحقيقة أن قيام أسرائيل فوق ارض فلسطين بالذات كان تجسيدا للفكرة العنصرية الصهيونية المرتكزة على أساطير غلاة المتعصبين وشعارهم فى العودة الى ارض الميعاد . مما دفع بالفكر الصهيونى الى الاستشراء والسيطرة شبه الكاملة على المجتمع الاسرائيلى . والحقيقة انه ليس من عامل يدفع بفكرة الى التفشى والسيطرة مثل أن تتجسد كواقع مادى ولو كان مؤقتا . ولذا لم يكن غريبا أن تكون أفكار العنصرية ، والتعصب الدينى وتمجيد العنف ، والتفوق الاوربى ، هى مكونات الايديولوجية المسيطرة على المجتمع الاسرائيلى ،

---

(٣٧) هاعولام هازه : « ديان يقول الحرب قدر علينا » - ٨ - ٧ - ١٩٦٨.
(٣٨) هاآرتس « كيف يتخلصون من اشكول » ١٣ - ١٠ - ١٩٦٨.

وطن قومى لليهود .. دولة يهودية .. وطن لليهـود التاريخى . . محور يهود العالم ...

أن هذا المفهوم الرجعى من أساسه ادى عند تجسيده فى دولة اسرائيل الى وضع شاذ شديد الشذوذ ، يناقض العصر وحركة التاريخ .

(أ) **دولة دينية** : فيها الدين اليهودى أساس التشريع الذى يحكم بين المواطنين . والعهـد القديم مبدأ التعليم فى المدارس . ترتب عليه - مثلا - أن زواجا مختلطا بين اليهود وغير اليهود شىء مستحيل داخل اسرائيل ، ولا يمـكن أن يعقد الا فى خارجهـا ، ولا يعترف بذريتـه الا بتعقيدات عجيبة . وقد نشرت جريدة « **هاعولام هازيه** » الاسرائيلية فى ٢٧ - ١١ - ٦٨ الخبـر التالى ، « رفع الرائد **بنى شـلط** » ٣٢ سـنة من السلاح البحرى دعوى أمام محكمة العدل العليا ضد وزير الداخلية وموظف تسجيل الانفس فى حيفا لرفضهما تسجيل ابنه كيهودى حسب قوميته (**كذا**) حيث ان زوجته مسيحيـة من انجلترا » .

كما أدى ذلك الاسـاس المتعصب الى تصرفـات للحكومة الاسرائيلية - عند احتلالها القدس والخليل - أثارت امتعاض لا العرب فقط بل والمسيحيين فى العالم أجمع . وقد حاول البابا الوصول الى أوضاع تحترم فيها المقدسات المسيحية فى مدينة القدس - عندما أرسل مندوب المونسينيور **انجيلو فلتش** الى اسرائيل - ولكن دون نتيجة .

(ب) **دولة عنصريـة** : لان اليهوديـة فى نظـر الصهيونيين والدوائر الاسرائيلية الحاكمة تعطى حقوقا تاريخيـة خاصة ، لاناس من نـوع خاص ، ومن سلالة معينة ، على أرض فلسطين بصرف النظر عن سكانها العرب .

ففى اجتماع اللجنة التنفيذية الصهيونية الذى عقد بالقدس من ١٦ - ٢٣ مارس ١٩٦٤ قال الدكتور ن « **جولدمان** » رئيس المنظمة الصهيونية المالية :

« يشكل الشعب اليهودى شخصية تاريخية فريدة من نوعها انه شعب ، وديانة، وعرق ، وحامل مدنية خاصة . ولا يستطيع أى تعريف ، من التعاريف غير اليهودية للشعب وللامـة وللديانة، أن يحدد بدقة هذه الظاهرة الخاصة التى تسمى الشعب اليهودى فى التاريخ ... وتميزه على أسس : **كونه شعبا عالميا**، كونه مرتبطا بأرض فلسطين ، وكونه - من ناحية تاريخية عامة - أشد الفرق فى عدم تماثلها فى تاريخ العالم ، علينا أن نحارب العالم غير اليهودى وجها لوجه .. وحتى فى الطائفة اليهودية ذاتها من أجل حقنا فى العيش كأقلية سميزة كأقلية غير متماثلة مع أى نظام وفى أى قطر . علينـا أن نوجـه الشعب اليهودى فى جهودنا ونضالنا من أجل حقنا النوعى لنبقى ذلـك الشعب اليهـودى كما كـنا خـلال آلاف السنيـن ، كشعب موحد حول مركزنا المبـدع فى اسرائيل » (٣٩) ...

وتستهدف الحركة الصهيونية جمـع هؤلاء الناس فى مكان واحد وهم ليسوا مواطنين من جنسية معينة أو قومية معينة لانهم مقيمون فى هذا المكان ، بل لانهم سيقيمون فيه ، لانهم من سلالة ما ، ومن عرق ما ، ومن أصول تاريخية ما .

وفى أغسطس ١٩٤٩ صرح **بن جوريون** لوفد من الصهيونيين الامريكان :

« على رغم أننا حققنا حلمنـا باقامة دولة يهودية .. فلسنا سوى فى بداية الطريق فلا يوجد اليوم غير ٩٠٠٠٠٠ يهودى فى اسرائيل ، فى حين أن الجانب الاكبر من الشعب اليهودى ما زال فى الخارج .. وأن مهمتنا القادمة لن تـكون أسهل من خلق الدولة اليهودية .. فهذه المهمة عبارة عن جلب جميع اليهود الى اسرائيل . وتعلمون كم كان صعبا أن نأتى الى هنا بـ ٢٠٠٠٠٠ مهاجر ونستوعبهم . ونحن مصممون على الاتيان بملايين أخرى منهم ، وأنا متأكد من أننا سنأتى بهـم » .

وقد نشر فى فرنسا كتاب لمؤلفه ر . **أرون** بعنوان « **ديجول واليهود واسرائيل** » نقتطف منه العبارات الاتيـة التى أوردتها جـريدة ليموند الفرنسية بتاريخ ١٢ - ٤ - ١٩٦٨ :

« ان اليهودى الذى فقـد ايمانه (الدينى) يظل يهوديا ، غير أنه يتساءل عن معنى هـذا اللفظ .. واليهودى لا يستطيع أن يكون غير مبال بمصير اسرائيل حتى ان فقد ايمانه (باليهودية) . وأن اليهودى الذى يشعر بالولاء السياسى ازاء اسرائيل ينبغى أن يتطابق تصرفه مع مشاعره ، أى أن يهاجر الى الارض المقدسة » .

وكتب **مجدلانى** :

« اذا لم يكن اليهود مجموعـة مـن الافراد

---

(٣٩) جريدة الاتحاد الاسرائيلية - ١٣ - ١٢ - ١٩٦٨ .

يشتركون فى نفس الاعتقادات اللاهوتية فقط ؟ بل شعبا ذا وعى تاريخى خاص — وهذا ما يعتقدونه عن انفسهم — فحينئذ يصبح الارتباط بالارض (اسرائيل) جزءا من المعطيات المباشرة لوعيهم التاريخى ولذاتيتهم الدينية والقومية» (٤٠).

ورغم أن كل حقائق العلم والتاريخ أكدت أنه لايوجد مايسمى «بالعنصر اليهودى» ، فلقد قامت اسرائيل — باعتبارها دولة لليهود . وينص قانون العودة الذى يحمل رقم ٥٧١٠ لسنة ١٩٥٠ على استعداد اسرائيل الفورى لقبول القادمين اليها من اليهود ، فى جنسية اسرائيل ، فى نفس اللحظة التى تطأ فيها اقدامهم أرضها .

« ويتضمن هذا القانون حكمين أساسيين أولهما: أن كل يهودى أيا كانت سنه له حق العودة الى اسرائيل كمهاجر ويسمونه بالعبرية OL - EH

وثانيهما : ان كل يهودى يكون قد هاجر الى اسرائيل قبل العمل بهذا القانون ، وكل يهودى يولد فيها ، سواء قبل العمل بهذا القانون أو بعده ، يكون شأنه شأن القادم مستقبلا من المهاجرين . والجديد الذى لا نظير له فى أى قانون للجنسية فى العالم أن منح الجنسية الاسرائيلية لليهودى الذى يهاجر الى اسرائيل مقرر له فى أى وقت ، وغير محدد بأى قيد زمنى فى المستقبل » (٤١) .

ويرتبط بالعنصرية توأمها وهو التمييز ، وعلى سبيل المثال ، فعلى النقيض من نصوص « الترحيب » التى يتميز بها « قانون العودة » بازاء اليهود ، يختلف الموقف تماما بازاء غير اليهود من الرعايا الفلسطينيين ، وهم اصحاب البلاد الحقيقيين .

فيتطلب قانون الجنسية الاسرائيلى من أى عربى مقيم فى اسرائيل لكى يتمتع بالجنسية الاسرائيلية شروطا ثلاثة :

« أن يكون فى أول مارس ١٩٥٢ مسجلا كمقيم طبقا لقانون تسجيل السكان الصادر عام ١٩٤٩ ، وأن يكون مقيما فى ١٤ يوليو ١٩٥٢ تاريخ بدء العمل بقانون الجنسية ، وأن يثبت فوق كل ذلك اقامته خلال المدة من ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ، الى ١٤ يوليو ١٩٥٢ » (٤٢) .

وموقف الصهيونية ودولتها من العرب لا يفسره فقط وجود علاقات عدائية مؤقتة ، بل يعود أساسا الى نظرة خاصة للمنظمات الصهيونية ، وقاتها ازاء العرب نظرة استعلاء وكراهية عرقية .

— يكتب **موسى أبو سليمان** مؤرخ حياة **بن جوريون** عن ثورة بن جوريون على تشغيل اليهود للعمال العرب فيقول :

« وقد رأى بن جوريون فورا **خطر هذا على الفكر القومى** . وكتب يقول : « ان افندية بتاح تكفاه اليهود يهربون الفلاحين (**العرب**) الى المستعمرات الجديدة » . فانذر ضد هذه السياسة ، منذ الايام الاولى لسيرته ، واصر على أن المستعمرات سوف تزدحم بالعمال العرب المستغلين اذا لم تتمكن الحركة العمالية اليهودية من تأكيد حقوق المهاجرين اليهود فى العمل بالمستعمرات مقابل أجور عادلة » (٤٣) .

ويشهد **مجدلانى** :

« حيث أن اسرائيل تقدم توسعها لا كعملية استيلاء ، بل باعتباره عودة بسيطة لسكان الى منازلهم ، فانها تجعل العربى بطبيعة الحال محتلا يجب طرده ، وتحول الاستيلاء على ممتلكاته الى عملية تحرير » . (٤٤)

بينما يقول **بيير ديستريا** :

« .. ان مصالحهم اى (الاسرائيليين) بالنسبة للسويس كانت تمنعهم من رؤية تاريخ الشعوب العربية وتطورها ومشاعرها .. ففى ذهنهم لم يكن العرب الا « سكانا » ، اى نوعا من الغوغاء دون تماسك ، طابعها الامية ومصيرها التسول » . وعلينا ان نعترف أن كل الناس فى الغرب كانوا يتصورون الامر بنفس الصورة ، كمولد كبير أو أصوات ريح « انه كاريكاتير الشرق ، لاحقيقته » (٤٥) .

وفى تقريره المسمى « الحقيقة عن فلسطين » كتب **آحاد هاعام** منذ ١٨٩٨ :

---

[٤٠] Majdalanx: «Israél et les Socialistes Arabes,
[٤١] جمال العطيفى — « قانون العودة .... » مقال فى جريدة الاهرام — ٢١ يو ٤ — ١٩٦٩.
[٤٢] المرجع السابق
[٤٣] نفس المرجع السابق
[٤٤] مجلة « الازمنة الحديثة » — المرجع السابق — ص ٣٩٠
[٤٥] بيير ديستريا « من السويس الى العقبة » — المرجع السابق — ص ١٥٣.

« اننا نعتقد أن العرب جميعاً متوحشون يعيشون مثل الحيوانات ولا يفهمون ما يجرى فى العالم . غير أن هذا خطأ كبيرا » .

على أساس من هذه المفهومات ارتكب الصهاينة كل جرائمهم ضد السكان العرب التى سنعرض بالتفصيل لها فى الباب الاخير من الملف .

وعلى أساس هذه المفهومات اصبحت قوانين الطوارىء ، التى وضعتها سلطة الانتداب ، وصب عليها المحامون اليهود جام غضبهم حينئذ : فوصفها **مناحم دونكيلوم** فى مؤتمر نقابة المحامين فى ١٩٤٦/٢/٧ (والذى اصبح فيما بعد رئيسا لمحكمة العدل العليا فى اسرائيل) بأنها « انتهاك للقانون والعدل والقضاء » ، ووصفها **ده دوف يوسف** (وزير القضاء فيما بعد) بأنها « ارهاب ذو ختم رسمى » ، ووصفها **شمشون شبيرا** بأن « الحكم الذى اقيم مع نشر هذه الانظمة لا مثيل له فى أى بلد متحضر ، حتى المانيا النازية لا توجد فيها مثل هذه القوانين » ، واتخذ المؤتمر بازائها قرارا يقضى بأن هذه « الانظمة تقوض أسس القانون والقضاء ، وتشكل خطرا شديدا على حرية الفرد وحياته » .. نقول أن هذه القوانين ، التى كانت حراما ، سرعان ما تحولت الى حلال تتبعها دولة اسرائيل ، وتخص بها المواطنين العرب الذين بقوا داخلها .

« وفى هذه المرة التزم جمهور المحامين الصمت عندما بقيت هذه الانظمة جزءا من القانون الاسرائيلى . ولم ينبس انسان ببنت شفة عندما استخدمت هذه الانظمة للمساس بحقوق عرب اسرائيل الاساسية » (٤٦) .

وتذكر مجلة [**نيو آوت لوك**] الاسرائيلية فى عدد يناير ١٩٦٦ أنه :

« فى دراسة اجراها احد اساتذة علم الاجتماع فى اسرائيل على طلاب الدراسة الابتدائية خرج منها بالنتيجة التى تقول أن ٦٠ ٪ من بين ١٠٦٦ طالبا قابلهم تتراوح أعمارهم بين ٩ ــ ١٤ سنة أيدوا الافناء الكلى للسكان العرب المدنيين المقيمين فى اسرائيل فى حالة نشوب صراع مسلح مع الدول العربية . »

كما ينعكس المفهوم الصهيونى المتعالى بازاء الشعوب العربية على السياسة الخارجية الاسرائيلية تجاه الدول العربية . فيذكر ايديلمان أن **بن جوريون** كان يعتقد أن الدول العربية سوف تحترم سيادة اسرائيل اذا كانت هذه الدولة **نفسها تجبر على الاحترام** .

وتذكر جريدة **التايمز** اللندنية « أن اسرائيل تريد استخدام القنبلة النووية كحجة قوية فى الحديث مع البلدان العربية » (٤٧) .

وعلى أساس من هذا المفهوم ، ترسم وتطبق السياسات الاسرائيلية عن « الردع » و « الانتقام القومى » و « اجبار العرب على التفاوض بالقوة » ... الخ من مصطلحات السياسة الاسرائيلية اليومية .

الدعوة للحرب وتمجيد العنف

ويرتبط بالعنصرية واستغلال الدين تمجيد العنف والدعوة للحرب كطريق لحل المشاكل وتبشير القادة الصهاينة بالحرب كحتمية لا مفر منها . يقول **جابوتنسكى** :

« عليكم أن تحتفظوا بالسيف لان القتال **بالسيف ليس ابتكارا المانيا بل انه ملك لأجدادنا الاوائل . ان التوراة والسيف انزلا علينا من السماء** »(٤٨) .

ويقول **مناحيم بيجن** :

« **أنا أحارب اذن أنا موجود** »(٤٩) :

« **كن أخي والا سأقتلك** »(٥٠) .

ويقول **بن جوريون** :

« ان الوضع فى فلسطين لا يمكن أن يسوى الا بالقوة العسكرية ، الحرب حرب . وبالتالى فان عودة العرب الى يافا ليس ظلما وانما خطيئة كبرى »(٥١) .

---

[٤٦] امنون روبنشتاين ــ جريدة هاآرتس ــ ١٧ ــ ٣ ــ ١٩٦٧
[٤٧] تايمز ــ ٣ مايو ١٩٦٧
[٤٨] شختمان ، جوزيف : " مقاتل ونبى فسنفلاديمير جابوتنسكى ، السنوات الاخيرة »
[٤٩] نيويورك ١٠س بارنى وشركاه ١٩٦١ ــ ص ٢٨٢
[٥٠] سايكس كريستوفر ــ المرجع السابق ــ ص ٢٩٢ ، ص ٢٩٨
[٥١] المرجع نفسه ص ٢٩٢

ثم يؤكد :

« ان اسرائيل لا يمكن ان تعيش الا بالقوة والسلاح »(٥٢) .

ومرة أخرى :

« **لقد اقتنعت بأن الحرب مع العرب حتمية** وقد عبرت عن وجهة النظر هذه باسم أعضاء الحكومة الى **الكنيست** فى أوائل يناير ١٩٥٦ وقلت بأن علينا أن نوجه نداء الى الامة ندعوها فيه الى اتخاذ جهد تطوعى مركز لتقوية قدرتنا العسكرية ورفع الروح المعنوية لتحصيناتنا على الحدود ولضبط اقتصادنا »(٥٣) .

أما **موشى ديان** الذى تباهى مرة بأن الحرب هى أفضل وامتع خبرة يكتسبها الانسان فى حياته، فيصرح لصحيفة **هاآرتس** الاسرائيلية فى عام ١٩٥٥ :

« **يجب الا نضيع دقيقة واحدة من الوقت .. يجب أن نستعد لهجوم خاطف نشنه على أعدائنا وعلينا أن نتأهب لأن هذه المعركة قادمة حتما** »(٥٤) .

واذا كان هذا هو صوت من يسمونه « بالصقور » فى اسرائيل فان حمائمها لا تقل شراسة .

يقول **موسى شاريت** فى اجتماع حزب **الماباى** فى سنة ١٩٥٥ :

« اننى انصح الحكومة ان تعلن الحرب على العرب لأن هذه الفرصة هى أكبر فرصة مناسبة لتحقيق حلم طالما راودنا . والا فانه يصبح من الصعب مع مرور الوقت سحق قوة العرب »(٥٥) .

اما **أبا ايبان** فهو يعلن :

« أن سياسة المواجهة المباشرة لجيراننا العرب هى افضل ما تتبناه اسرائيل لضمان حدودها »(٥٦) .

ويدافع عن العدوان الاسرائيلى على قرية السموع الاردنية قائلا :

« ان اسرائيل قد لجأت الى القوة فى السموع بصورة مبررة »(٥٧) .

وفى ٩ يونيو ١٩٦٦ كان **الكنيست** الاسرائيلى، السلطة التشريعية العليا ، يسدل الستار على مسرحية عروض السلام التى تزعمها ابا ايبان عندما رفض باغلبية ٤٣ صوتا ضد ٥ اصوات وامتناع ٣٢ عن التصويت مشروع قرار يقول : « أن الكنيست يؤمن بالسلام كحل وحيد للنزاع العربى الاسرائيلى ويناشد الحكومة أن تعمل بهذه الروح »(٥٨) .

تحدى المجتمع الدولى

ويقترن بالدعوة الى الحرب وتمجيد العنف ازدراء لا مزيد عليه ، فكرى وعملى ، للمجتمع الدولى ولهيئاته ، وعلى رأسها الامم المتحدة ، وثقة بالقدرة على استغفاله والمناورة عليه .

ولقد ظل الموقف الصهيونى العام تجاه المجتمع الدولى والامم المتحدة ينطلق من مفهوم **بن جوريون** الذى أورده **موريس ايديلمان** مؤرخ حياته حيث يقول :

« كان **بن جوريون** يشعر أن النية الدولية الطيبة لا يمكن أن تتحقق الا بأن تبرهن اسرائيل بأن لديها القوة والتصميم على ضمان بقائها »(٥٩) .

وتزيد **جولدا مائير** الامر جلاءا عندما تعلن :

« ماذا لقرار لا يناصرنا ؟ الواقع ان القرار ليس مدرعة تقدر على أن تطلق النار علينا . فنحن نحتل موقع قوة »(٦٠) .

---

[٥٢] المرجع نفسه ص ١٢١
[٥٣] بن جوريون : « اسرائيل سنوات التحدى » ـ المرجع السابق ص ٢١١
[٥٤] هاآرتس ـ ١٠ ـ ٧ ـ ١٩٥٥
[٥٥] جيروزاليم بوست ـ ١٩٥٠ .
[٥٦] صحيفة جيروزاليم بوست ١٥ ـ ١٢ ـ ١٩٦٦
[٥٧] صحيفة جيروزاليم بوست ٨ ـ ١٢ ـ ١٩٦٦
[٥٨] جريدة هاعولام هازيه ـ تل ابيب ـ ١٠ ـ ٦ ـ ١٩٦٦
[٥٩] موريس ايديلمان : « بن جوريون » ـ المرجع السابق ـ ص ٤٠
[٦٠] جولدا مائير بعد عودتها من الدورة غير العادية لجمعية الامم المتحدة سنة ١٩٦٧

ولقد كتب **برنارد لويس** فى تعليقه على نتائج حرب يونيو :

« ان خبرة السنوات العشرين الماضية قد علمت اسرائيل أن بقاء اسرائيل يعتمد علىكفاءتها الحربية ، وأن على اسرائيل الا تعتمد على الامم المتحدة »(٦١) .

ولقد درج قادة اسرائيل على ابداء استهانتهم الدائمة بأى قرار للامم المتحدة لا يكون فى مصلحتهم . فعلى اثر صدور قرار مجلس الامن بادانة اسرائيل فى ٩ ابريل ١٩٦٢ « بسبب عدوانها على سوريا» اجتمع الكنيست الاسرائيلى فى اليوم الثانى ، وأصدر قرارا استنكر فيه قرار مجلس الامن ، ورفضه جملة وتفصيلا ، وأعتبره ظلما ومشجعا للعدوان فى الشرق الاوسط ، وايد موقف الحكومة الاسرائيلية وسياستها القائمة على « الرد المتبادل » أو « الرد بالمثل »(٦٢) .

وفى ٦٧/٦/١٨ صرح **أبا ايبان** لجريدة الاوبزرفر البريطانية أنه حتى لو تم التصويت فى الجمعية العامة للامم المتحدة باغلبية ١٢ صوتا ضد صوتواحدلتأييدانسحاب القواتالاسرائيلية الى ما وراء خطوط الهدنة فان اسرائيل لن تلتزم بهذا القرار .

وفى ١٩٦٧/٧/٣ ادلى **اسرائيل جليلى** وزير الاستعلامات بتصريحيقول فيهان أى قرارتصدره الجمعية العامة « يتجاهل أمن اسرائيل » سوف يكون قرارا غير أخلاقى ولن تلتزم به اسرائيل ، وان اسرائيل لن تنسحب بدون مفاوضات صلح .

والواقع أن الدولة الصهيونية قد ظلت منذ انشائها فى شبه حرب دائمة ضد المنظمة الدولية وقراراتها منذ انشائها حتى اليوم . فبالاضافة الى قرارات ادانة اسرائيل بعدعدوان ١٩٦٧ اصدرت الامم المتحدة مابين عام ١٩٤٨ حتى ٢٥ — ١١ — ١٩٦٦ سبعة عشرقرارا بادانة اسرائيل بالعدوان على الدول العربية .

وفى كل مرة ، كان الرد الاسرائيلى ، عمليا ، هو المزيد من الاعتداءات ، وفكريا ، هو ما عبر عنه المتحدث الاسرائيلى تعليقا على قرار مجلس الامن بادانة العدوان الاسرائيلى على مطار بيروت اللبنانى بقوله :

« **ان التنديد بهذا العمل لم يكن مفاجأة لاسرائيل ، اننا نفضل أن يوجه الينا اللوم على أن يقدم لنا العزاء** »(٦٣)

ويتبلور الموقف الاسرائيلى من الامم المتحدة وقراراتها فى قضيتى اللاجئين والقدس :

فبالنسبة للاجئين : فى ١١ ديسمبر ١٩٤٨ أصدرت الامم المتحدة قرارها رقم ١٩٤ بشأن عودة اللاجئين العرب الى ديارهم والذى ينص على « المادة ١١ : .. السماح للاجئين الذين يرغبون فى العودة الى ديارهم بالرجوع اليها فى أقرب وقت ودفع تعويضات فى مقابل أملاك الذين قرروا عدم العودة » . وقد اعادت الامم المتحدة التأكيد على هذا القرار خمسة عشر مرة .

وكان الرد الرسمى لوزارة الخارجية الاسرائيلية فى ٢٨ يوليو ١٩٤٩ والذى ظلت عليه هو « **ان الساعة لا يمكن ان تعاد الى الوراء .. ان عودة اى لاجىء عربى الى مكان اقامته الاصلية هى شىء مستحيل** »(٦٤)

وبالنسبة للقدس : فلها قصة اخرى ، تظهر تحدى الصهيونية للمجتمع الدولى من ناحية ، ومحاولاتها المتكررة للمناورة عليه من ناحية أخرى .

فى البداية كان **هرتزل** يكتب فى ٧—٥—١٨٩٦ :

« جاء **نيولنسكر** ليزورنى وكنت قد اتصلت به تليفونيا واطلعته باختصار على تطورات القضية ، اخبرنى أنه قرأ كراستى قبل ذهابه الى القسطنطينية وتحدث عنها مع **السلطان** . وان السلطان قال أنه لن يتخلى أبدا عن القدس ..

« يجب أن يبقى جامع **عمرو** بين المسلمين دائما ، قلت له : سندبر هذا الامر .. سنجعل القدس خارج حدود الدولة . وبهذا لا تكون لاحد وحده وتكون للجميع فى الوقت نفسه — المكان

---

[٦١] برنارد لويس : مجلة الشئون الدولية الامريكية — يناير ١٩٦٨
[٦٢] جيروزاليم بوست — تل أبيب ١٠ — ٤ — ١٩٦٢
[٦٣] جريدة الجمهورية — القاهرة — ٢٩ — ١٢ — ١٩٦٨ .
[٦٤] الجمعية العامة للامم المتحدة ، وثيقة رقم ١٣٦٧ — الملحق الرابع — الفصل الثالث القسم هـ ، الفقرة الاولى

المقدس الذى يمتلكه كلّ المؤمنين ، بلد الثقافة والاخلاق المشتركة » (٦٥) .

وفى أول اتصال رسمى له مع المندوبين الأتراك ، وكان مع **جاويد بك** الصدر الاعظم كتب يقول :

كانت معارضاته ما يلى ، مصير الاماكن المقدسة . قال : ان القدس يجب أن تظل تحت الادارة التركية ، لان أى تغيير فى ذلك سيسيء الى مشاعر الناس الدينية . فوعدته أن تبقى القدس خارج حدود الدولة لان الاماكن المقدسة التى تخص العالم المتمدن يجب أن تكون للجميع وليس لاحد بالذات . وفى النهاية لابد أن نقدر على ابقاء القدس على حالتها الراهنة »(٦٦)

ولكن .. مع تطور مركز القوة الذى كان يحتله الصهيونيون ، وفى مواجهة سبع قرارات لهيئة الامم ومجلس الامن بخصوص المدينة المقدسة كان المطمع الصهيونى يظهر على حقيقته ويسفر عن وجهه شيئا فشيئا .

فى البداية أنشأ المهاجرون اليهود مدينة « القدس الجديدة » لصق المدينة المقدسة .

وعند صدور قرار الامم المتحدة فى ١٩٤٧/١١/١٩ بتدويل منطقة القدس ، وعلى الرغم من اعلان القادة الصهاينة عن موافقتهم الظاهرية على القرار ، سارعوا الى احتلال المواقع الاستراتيجية من المدينة وخاصة تلة القسطلة .

وفى ١٩٤٩/١٢/١٣ قاموا بنقل بعض الوزارات الى القدس المحتلة واعلنوا اتخاذها عاصمة لهم .

وفى ١٩٦١/٣/١٧ قاموا بادخال أسلحةثقيلة الى القدس ، وفى ١٩٦٥/٥/٣١ دخل الجنود الاسرائيليون المنطقة المجردة من السلاح فى القدس . وفى ١٩٦٦ قامت اسرائيل بعرضها العسكرى الكبير فى المدينة المقدسة ، وفى كل مرة كان مجلس الامن يصدر قراراته بادانة اسرائيل دون جدوى .

أما عندما استطاع الصهاينة بعد حرب يونيو ١٩٦٧ الاستيلاء على المدينة المقدسة بأكملها فقد أصبح السفور الصهيونى على أوضحه .

وعند حائط المبكى بالقدس القديمة عقد **ديان** مؤتمرا صحفيا أعلن فيه :

« لقد عدنا الى أورشليم ولن نغادرها أبدا بعد اليوم »(٦٧) .

وأعلن **ليفى اشكول** :

« لن نتخلى عن سيادتنا على عاصمتنا !(٦٨)

وصرح دافيد بن جوريون لمجلة اسيرسو الايطالية :

الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩

صدر هذا الكتاب ، فى ١٧ مايو [آيار] ١٩٣٩ . حاملا عنوان [بلاغ رسمى رقم ٢ — ٣٩] . وقد اصدرته الحكومة البريطانية عقب فشل المحادثات التى اجرتها فى مطلع عام ١٩٣٩ مع وفود الحكومات العربية ووفد شعب فلسطين من جهة ، ووفد الوكالة اليهودية من جهة اخرى .

وقد تضمن الكتاب المذكور وعدا من الحكومة البريطانية بتشكيل حكومة فلسطينية مستقلة ، خلال عشر سنوات ترتبط بمعاهدة مع بريطانيا. وان يشترك العرب واليهود فى تلك الحكومة بنسبة عدد السكان من كل من الفريقين .

وسمح الكتاب الابيض بهجرة يهودية الى فلسطين بما تسمح به قدرة الاستيعاب الاقتصادية للبلاد ، وبحيث لا تزيد نسبة اليهود عن ثلث سكان فلسطين ، فيدخل — بذلك — الى البلاد كل عام — ولمدة خمس سنوات فقط — ١٠ر٠٠٠ لاجيء يهودى . وبعد انقضاء فترة السنوات الخمس تمنع الهجرة اليهودية منعا باتا . مع تقييد انتقال الاراضى لليهود .

ومن المعروف ان انجلترا اقدمت على اصدار هذا الكتاب فى محاولة منها لوقف الثورة المسلحة التى كانت قد نشبت فى فلسطين واستمرت من ١٩٣٦ — ١٩٤٠ . وحتى تتمكن انجلترا من التفرغ للنازى ، بعد ان اخذت نذر الحرب العالمية الثانية فى التجمع فى سماء اوروبا آنذاك .

---

[٦٥] يوميات هرتزل ، المرجع السابق ــ ص ٣٤٥ ، ص ٣٧١
[٦٦] نفس المصدر السابق
[٦٧] جريدة واشنطن بوست ــ ٨ ــ ٦ ــ ١٩٦٧.
[٦٨] جريدة الاهرام ــ ٢٣ ــ ٦ ــ ١٩٦٨.

« ان اسرائيل مستعدة لأن تترك كل قطعة من الاراضى التى احتلتها ما عدا القدس وغزة »(٦٩).

ويحكى **دافيد برايس جون** مراسل جريدة « **اسبكستاتور** » البريطانية ماحدث « بمدينة الثقافة والاخلاق المشتركة » فيقول :

« أما فى بيت المقدس فقد ارتكبت فظائع بسبب اخلاء المنازل فى الحى اليهودى وهدم البيوت لتوسيع الطريق القروى الى حائط المبكى » (٧٠) .

ويؤكد تقرير جامعة الدول العربية المقدم الى لجنة التحقيق الدولية لحقوق الانسان أن اسرائيل صادرت ١٠٢٣ منزلا و ٤٣٧ متجرا فى القدس وحدها .

وفى ٢١/٩/١٩٦٩ اقترف الاسرائيليون جريمتهم البشعة باحراق المسجد الاقصى خطتهم لتهويد المدينة المقدسة .

واذا كان هذا هو موقف الدولة الصهيونية من قرارات الامم المتحدة فان رجالات الهيئة الدولية ينجوا من ارهاب المنظمات الصهيونية والدولة الاسرائيلية نفسها .

ففى ١٧ سبتمبر ١٩٤٨ قتلت عصابة شترن الكونت **فولك برنادوت** الذى كان اول شهيد للامم المتحدة منذ انشائها ، وذلك على اثر تقريره الذى قدمه الى الجمعية العامة عن مهمته فى فلسطين وذكر فيه « أن العرب يعدون اليهود معتدين ، ويقولون أن اغلبية سكان فلسطين من العرب ، وأن فلسطين عربية منذ عدة قرون . وما دامت هذه هى وجهة النظر العربية فلا يمكن اقامة أية تسوية على أسس قوية الا اذا ادركت الامم المتحدة والدولة اليهودية هذه الحقائق »(٧١)

ولقد أعلن الزعماء الصهاينة فى اسرائيل أنهم قبضوا على الجناة وأنهم تحت الحراسة المشددة . ولكن لم يمض اسبوعان حتى أذيع تارة أنهم «هربوا» وأخرى أنهم قد أفرج عنهم بحجة كونهم غير متمتعين بقواهم العقلية ، مما جعل مجلس الامن يدين اسرائيل « لعدم التحقيق فى حادث الاغتيال » فى ١٩ ــ ١٠ ــ ١٩٤٨

وفى عام ١٩٦٧ وبينما طائرة الجنرال **ريكى** قائد قوة الطوارىء الدولية البيضاء اللون والمميزة بعلامة الامم المتحدة تطير فى طريقها من العريش الى غزة ، قامت طائرتان حربيتان اسرائيليتان بمطاردتها غرب خط الهدنة . وحاولتا اجبار طائرة الامم المتحدة على الهبوط على شرق خط الهدنة ، فى الجانب الاسرائيلى : مطلقتين عليها النار « للتحذير » . الا ان الطيار بناء على تعليمات مندوب الامم المتحدة استطاع الافلات والانطلاق بطائرته الى غزة .

وقد قدمت الامم المتحدة احتجاجا لاسرائيل على هذا العمل العدوانى ، وفى نفس العام اطلقت القوات الاسرائيلية نيرانها على قوات الطوارىء الدولية ، وقتلت عددا من جنود الفرقة الهندية وقادتها . وقدمت الامم المتحدة وحكومة الهند احتجاجا عنيفا لدى حكومة اسرائيل تطالب فيها بالتحقيق ومعاقبة المسئولين ودفع التعويضات المناسبة ، ولكن دون جدوى . وبشكل دائم ، اتخذت السلطات الاسرائيلية موقفا عدائيا بازاء هيئة الرقابة الدولية التابعة للامم المتحدة والمكلفين بالاشراف على تنفيذ هدنة ١٩٤٩ .

لقد « كانت ترفض السماح للمراقبين الدوليين بالكشف عن بعض المواقع التى انطلق منها عدوان اسرائيلى معين »(٧٢) . و « كانت تمنعهم من التجول بحرية فى المنطقة المجردة » (٧٣) . و « فى المناطق التى تحتلها القوات الاسرائيلية »(٧٤) . و « كانت تتجسس على هيئة الرقابة الدولية فى فلسطين ، وتطلع على ملفاتها وبرقياتها السرية مستعملة من اجل ذلك وسائل وأساليب غير مشروعة »(٧٥)

ويخصص الكوماندور **هتشنسون** رئيس لجنة الهدنة الاردنية الاسرائيلية المشتركة ، منذ صيف ١٩٥٣ حتى نوفمبر ١٩٥٤ ، الفصل الثانى عشر من كتابه « الهدنة الدامية » تحت عنوان « اسرائيل ضد الامم المتحدة » ، لعرض موقف السلطات الاسرائيلية من مراقب الامم المتحدة والحملات المسعورة التى شنتها ضدهم لرفضهم الانحياز لها والتصديق على دعاويها .

---

[٦٩] جريدة واشنطن بوست ــ ٨ ــ ٦ ــ ١٩٦٧
[٧٠] جريدة الاهرام ــ ٢٣ ــ ٦ ــ ١٩٦٨
[٧١] جريدة الاهرام ــ ملحق العدد الصادر فى ١٧ ــ ٥ ــ ١٩٦٩
[٧٢] بيرنز ، جنرال ى٠ل٠م « بين العرب والاسرائيليين » لندن ــ جورج هاراب وشركاه ــ ١٩٦٢ ــ ص ٥٥
[٧٣] هتشنسون ، أ٠هـ « الهدنة الدامية » ص ٧٩
[٧٤] وقد ورد نفس الامر فى تقرير كولونيل ليرى رئيس منظمة لجنة الهدنة السورية الاسرائيلية المشتركة ونشر فى يوليو ١٩٦٦ . بيرنز ــ المصدر السابق ــ ص ٥٥
[٧٥] انظر الفصلين الثامن والتاسع من كتاب جنرال كارل فون هورن « مهمة عسكرية من اجل السلام » للوصف التفصيلى لعمليات التجسس

ايديولوجية التفوق الاوروبى

وأخيرا وليس آخرا ـ فان اسرائيل وقد قامت على يد غزاة من يهود أوروبا أساسا كان لا بد وأن تكون مرتعا للسلاح الايديولوجى التقليدى للاستعمار ، الا وهو «التفوق الاوروبى» و « الرسالة التاريخية لاوروبا فى تحضير البشرية » .

ان بن جوريون يطالب بالمحافظة على التقاليد التى تطورت فى المهجر . وديان يعلن أن اسرائيل ستظل جزءا من العالم اليهودى ، بينما سيظل العرب جزءا من العالم الغربى .

وترجع جريدة لوموند الفرنسية « التذكير بالخطر الذى يتكرر فى خطب السياسيين ومحاضرات الاساتذة والمقالات الصحفية » الى الرغبة فى « اجتثاث خطر الاتجاه نحو الحضارة الشرقية الذى سيزداد حتما فيما لو خف التوتر على الحدود »[٧٦] .

والى جانبما تثيره هذه الايديولوجية فى مظاهر التفرقة غير الخافية بين اليهود أنفسهم داخل اسرائيل فان الصهيونية تقدم اسرائيل للغرب على أنها جزء منه تتجسد فيها حضارته فى مواجهة العرب . ولذا فليس غريبا أن نجد ذلك الالتفاف الواسع للقوى اليمينية المتطرفة وأصحاب الاتجاهات الفاشية وحتى ممن كانوا منهم ذوى اتجاهات أصيلة معادية للسامية يتبنون قضية اسرائيل ويقفون الى جوارها ضد العرب .

هكذا ، فان الرأى العام الاسرائيلى قد سممته الدعاية الصهيونية تماما ، مستغلة دعاواها العرقية وتفسيراتها الدينية ، ومستغلة ايضا وبشكل واسع ومبالغ فيه، التصريحات الشوفينية لبعض القادة العرب ، خاصة الرجعيون منهم . ولكن مستغلة أساسا ما حققته من انتصارات عسكرية ، فباستثناء الحزب الشيوعى الاسرائيلى فى موقفه العام ، تجد كافة الاحزاب والمنظمات الاسرائيلية الفكرة الصهيونية ، وتقف متكاتفة بشكل أو بآخر وراء أعمال التوسع والعدوان . وهكذا توضح الارقام التالية لنتائج انتخابات الكنيست (١٩٤٩ ـ ١٩٦١) السيطرة شبه الكاملة للاحزاب الصهيونية على الناخب الاسرائيلى :

نسبة الاصوات التى حصل عليها فى الانتخابات المختلفة (٧٧)

الحزب	الكنيست الاول	الثانى	الثالث	الرابع	الخامس
المابای	٣٥ر٧ ٪	٣٧ر٣٪	٣٢ر٢ ٪	٣٨ر٢ ٪	٠ر٣
مزراحى وعماله	١٢ر٢ ٪	٨ر٣	٩ر١	٩ر٩	٣٤ر٢ ٪
اغودات ازابيل وعماله		٣ر٦	٤ر٧	٤ر٧	٥ر٦
قوائم دينية أخرى	١ر٧	٠ر٦	٠ر٣	٠٠ر٠	١٣ر٨
حيروت	١١ر٥	٦ر٦	١٢ر٦	١٣ر٥	١٣ر٦
المابام	١٤ر٧	١٢ر٥	٧ر٣	٧ر٢	٧ر٥
أحودات هانورا	متضمنة فى المابام		٨ر٢	٦	
التقدميون	٤ر١	٣ر٢	٤ر٤	٤ر٦	٩ر٨
الصهيونيون العموميون	٥ر٢	١٦ر٢	١٠ر٢	٦ر٢	٠٠ر٠
الشيوعيون	٣ر٥	٠ر٤	٤ر٥	٢ر٨	٤ر٢
قوائم الاقليات	ـ	٤ر٧	١ر٩	٤ر٧	٣ر٩
قوائم اخرى	٨ر٤	٠ر٣	١ر٦	٢ر٢	٣

ولا تختلف نتائج انتخابات الكنيست السادس ١٩٦٥ عن الصورة السابقة فى عمومياتها . فطبقا لاحصاء غير رسمى أجرته جريدة جيروزاليم بوست فى عددها الصادر بتاريخ ٤ ـ ١١ ـ ١٩٦٥ نجد الارقام التالية :

---

[٧٦] لوموند : ١٢ مارس سنة ٩٦٦

[٧٧] المصدر : Statistical Abstracts of Israel, 1965, No. 6.

الحـــــــزب	نسبة من الاصوات	ملاحظـــــــات
التحالف بزعامة الماباى	٢٥ر٩ ٪	
رافى [بن جوريون]	٨ر٢ ٪	
المـــابام	٧ر١ ٪	
جاحال [حيروت والاحرار]	١٩ر٥ ٪	
المستقلون الاحرار	٣ر٦	
الدينيون القوميون	٩ر٦	
أغودات ازرائيل	٣ر٣	
بوهال اغزرات	١ر٩	
الشيوعيون [ميكونيس]	٠ر٩	صهيونى
الشيوعيون الجدد [راكاح]	٢ر٩	يضم عددا كبيرا من العرب

وبالمثل لم تختلف انتخابات ١٩٦٩ عن سابقاتها فى سيطرة الاتجاهات الاشد تعصبا وعدوانية .

وأخيرا ، لقد كان الغرض من هـذا العرض المفصل لبعض القسـمات الرئيسـية للدولـة الاسرائيلية هو اثبات أن قيام هذه الدولة قـد فاقم ظاهـرة الاندفاع اكثر فأكثر نحـو تنفيـذ المخططات الصهيونية والامبرياليـة ، وذلك على الوجه التالى :

١ — ان التزام الدولة الاسرائيلية بمخـطط الهجرة كان لابد وأن يؤكد اتجاهاتها نحو البحث عن مناطق استيطان جديدة للتوسع على حساب الدول العربية المجاورة .

٢ — ان فقر الموارد الطبيعية ، وضرورة القيام بتنمية سريعة لاستيعاب موجات الهجرة ، دفعا الى العمل على السيطرة على الموارد الطبيعية للبلاد العربية ، والى التلاحم الالصق بالحركة الصهيونية العالمية والقوى الاشد عـدوانية فى الامبريالية الدولية ، الامر الذى فاقم من الاتجاهات العدوانية للدولة الاسرائيلية الصهيونية .

٣ — ان أوضاع اسرائيـل الاستراتيجـية ، والمفهوم الصهيونى عن الامن ، ونشأة العسكريين الاسرائيليين فى أحضان الجيوش الاستعمارية ، وتفشى الروح العسكرية فى المجتمع ، وتحـول اسرائيل الى ترسانة للاسلحة التى مونتها بها الدول الاستعمارية الكبرى قدبلور وجود المؤسسة العسكرية الاسرائيلية باتجاهاتها العـدوانية ، وزاد من عدوانية الدولة الاسرائيلية ، ومـن قيامها بدور الانكشارية (دفاعا عـن المصـالح الامبريالية ككل) .

٤ — ان قيام الدولة الاسرائيلية بما تمثله من تجسيد لاساطير غلاة المتعصبين اليهود قد مكن الايديولوجية العنصرية الصهيونية من السيطرة على الرأى العام الاسرائيلى واقتياده بسـهولة الى مغامرات الصهيونية العسكرية والعدوانية .

ولقد انعكست كل هذه الاوضاع على الفكر الصهيونى لتستنفر الهمم نحو التوسع والعدوان .

[٢] بؤرة الحرب فى الشـرق الأوسـط

اصرار على التوسع

فتح نجاح الصهيونية فى فرض دولتها اسرائيل فوق جزء من الارض التى حلمت بها شهية قادة اسرائيل لمزيد مـن الارض ، وتدفقت تصريحات القادة الصهاينة ، على اختلاف اتجاهاتهم ، معبرة عن مطامعهم . ونشير بوجـه خاص الى تلك الطائفة من التصريحات التى صدرت فى أعوام ٤٨ ، ٥٦ ، ٦٧ .

ففى مباحثات مـع الكونت ف . **برنادوت** ، أعلن **موشى شاريت** رئيس الحكومة المؤقتة لاسرائيل :

« ان رقعة اسرائيل يجب أن تتسع بعد قيام الدولة »(٧٨) .

أما **أبا ايبان** ، فيغلف الامر بلغته الدبلوماسية الشفافة فى خطاب له فى ١٩٥٢ ، وكان وقتذاك سـفيرا لاسرائيـل فى أمريكا ، وممثلها لدى هيئة الامم :

« ان السياسة الخارجية لامة من الامم لاتتكون من مجموعة أبحاث ومناظرات مدرسية . وانما هى تنجم عن ضغط الواقع والحاح المقاصـد الاساسية لتلك الامة . . ولو استطعنا تحويل

[٧٨] برنادوت : « الى القدس » ، ص ٢١١.

اسرائيل من « وتد » الى « رأس جسر » لسكان هذا التحويل نعمة كبرى علينا وعلى الشرق الاوسط والعلم كله »(٧٩) .

ويقول **ليفي أشكول** :

« هل توجد حدود أكثر طبيعية من قناة السويس »(٨٠) .

ويصرح **ايجال آلون** :

« اذا رجعنا الى التوراة — فالجولان ليس اسرائيليا أقل من حبرون ونابلس »(٨١) .

ولقد قدمنا بتصريحات شاريت وابا ايبان واشكول وآلون لما يشاع عنهم من « اعتدال » مزعوم . أما « الصقور » فان تصريحاتهم العادية لا تنفذ . نقتطف منها :

يقول بن جوريون :

« ان علينا أن نناضل بحماس ، بأسلوب الغزو وبالطرق الدبلوماسية ، من اجل خلق أمبراطورية اسرائيلية تمتد من النيل الى الفرات »(٨٢) .

ويقول الحاخام **يهودا** فى خطابه — نيابة عن حكومة اسرائيل — للمؤتمر الصهيوني سنة ١٩٥١ :

« مازال أمام مؤتمركم أعمال عظيمة ... أن دولة اسرائيل كلها أمامكم وأن حدود تلك الدولة هى من الفرات الى النيل »(٨٣) .

ويصرح **بن جوريون** فى اكتوبر ١٩٥١ :

« ان الحفاظ على الوضع الراهن لا يعتبر مجديا ، لقد أتمنا دولة ديناميكية تقوم على التوسع .. ونحن الان قد وصلنا الى بداية الاستقلال فى جزء فقط من بلدنا الصغير »(٨٤) .

ويعلن الكتاب السنوى لحكومة اسرائيل ١٩٥٢ — على لسان **بن جوريون** :

« كل دولة تتكون من ارض وشعب .. وليست اسرائيل باستثناء من هذه القاعدة ، غير أن دولة اسرائيل **لا تطابق** أراضيها ولا شعبها .. وعلينا أن نوضح أن هذه الدولة لم تبن سوى على جزء من أرض اسرائيل »(٨٥) .

ويقول :

« ان دولة اسرائيل قد قامت فى الجزء الغربى من الارض »(٨٦) .

وفى أواخر عام ١٩٥٢ اعلن بن جوريون فى اجتماع عقد لحزب المابام فى بئر سبع :

« اننى اقبل تشكيل الحكومة الجديدة تحت شرط واحد ، وهو أن نستخدم كل امكانياتنا من اجل أن نتوسع باتجاه الجنوب »(٨٧) .

وينص الكتاب السنوى لحكومة اسرائيل لعام ١٩٥٥ :

« أن قيام الدولة الجديدة لا ينتقص بأى حال من الاحوال من أفق الارض اسرائيل التاريخية »(٨٨) .

أما موشي ديان فيعلن فى خطاب له فى ١٢ — ٢ — ١٩٥٢ :

« ان الشعب يجب ان يستعد للحرب . ولكنها مسئولية الجيش الاسرائيلى أن يقاتل من أجل تحقيق الهدف الرئيسى لسياستنا فى اقامة أمبراطورية اسرائيل »(٨٩) .

أما مناحم بيجين فلقد صرح عام ١٩٤٩ أن :

« الهدف هو توسيع حدود الدولة اليهودية عبر الاردن حتى دمشق وعمان » .

كما صرح فى ٧ — ٤ — ١٩٥٠ بقوله : أنه لن يكون سلام لشعب اسرائيل ولا لارض اسرائيل حتى ولا للعرب مادام لم يحرر الوطن بأجمعه ..

بينما ادلى ببيان **أمام الكنيست** فى ٢ — ١٠ — ١٩٥٥ أعلن فيه بالحرف الواحد :

« انى مؤمن ايمانا عميقا بضرورة شن حرب وقائية ضد الدول العربية دون المزيد من التردد . بهذا نحقق هدفين : **الاول** : القضاء على القوة العربية ، **والثانى** : توسيع أقاليمنا »(٩٠) .

وتسجل الدعوات المحمومة للحرب والتوسع فى برامج الاحزاب الاسرائيلية فيدعو برنامج **حزب حيروت** (مناحم بيجين) الى :

---

[٧٩] جريدة دافار — تل ابيب —١٢ — ١ — ١٩٥٢
[٨٠] جريدة لوموند الفرنسية فى عددها الصادر فى ٨ — ٩ — ١٩٦٧
[٨١] جريدة لوموند الفرنسية فى عددها الصادر فى ١٧ — ٨ — ١٩٦٧
[٨٢] من خطاب لبن جوريون فى طلبة الجامعة العبرية ١٩٥٠
(٨٣) خطاب الحاخام اليهودى يهودا فى المؤتمر الصهيوني فى ١٩٥١/٨/٨
[٨٤] ارليت تيسيير — نقلا عن الكتاب السنوى لحكومة اسرائيل ١٩٥١ ص٦٥
[٨٥] حكومة اسرائيل — الكتاب السنوى — تل ابيب — ١٩٥٢ — ٦٣ —
[٨٦] نفس المرجع ص ١٣
(٨٧) جيروزاليم بوست — تل ابيب — ١٩٥٢
[٨٨] راديو اسرائيل — القسم العربى — ١٢ — ٢ — ١٩٥٢
(٨٩) كتاب « اطلاق الحمامة » ص٦٧
(٩٠) جيروزاليم بوست — تل ابيب — ١٣ — ١٠ — ١٩٥٥

« الوحدة الاقليمية لارض اسرائيل ضمن حدودها التاريخية على جانبى نهر الاردن » .

كما يدعو برنامج حزب **أحدوت هاعفودا** الى : « اقامة دولة اسرائيل اشتراكية فى كل أرض الميعاد » .

بينما يقول حزب **الصهيونيين العموميين** :

« ان دولة اسرائيل لا توجد كفاية فى حد ذاتها بل كأداة لتنفيذ الحلم الصهيونى »(٩١) .

ولم تكن هذه التصريحات والنوايا مجرد كلام للاستهلاك المحلى ، بل كانت سياسة عملية تطبق وتنفذ خطوة بعد أخرى . ففى حين أن قرار هيئة الامم بالتقسيم كان يعطى ٥٦٪ من أرض فلسطين للدولة اليهودية أصبحت اسرائيل تحتل بالحرب والارهاب ٧٧٪ من أرض فلسطين فى نهاية ١٩٤٨ .

وفى فبراير ١٩٤٩ ، بعد أن وصل المندوبون الاردنيون الى جزيرة **رودس** للتوقيع على الهدنة، قامت ثلة من الجنود الاسرائيليين بخرق ايقاف النار وهاجمت القوات الاردنية فى ١٣ فبراير واحتلت القرية الساحلية العربية المسماة **بام شرش** التى أنشأوا مكانها **ميناء ايلات** فيما بعد .

وقد سجلت **لجنة التوفيق** المنبثقة منهيئةالامم المتحدة فى محاضرها ان الوفد الاسرائيلى **لمؤتمر لوزان** قدم وثيقة يثبت فيها مطالبه الاقليمية فحددها بفلسطين كما كانت فى ظل الانتداب . وعند ما ووجه الوفد الاسرائيلى بالبروتوكول الذى وقعته اسرائيل فى ١٢ مايو ١٩٤٩ عند اعلان الهدنة والذى تعترف فيه بخطوط وقف اطلاق النار ، رد قائلا « انه لا يستطيع أن يقبل ذلك التقسيم الاقليمى مقياسا لتصفية الامور فى الظروف الحاضرة .. »

. وقد نشرت جريدة « **نيويورك تايمز** » الامريكية فى عددها الصادر بتاريخ ٨ — ١١ — ١٩٥٦ **أن بن جوريون** أعلن الهجوم الاسرائيلى على مصر فى البرلمان بخطاب قال فيه :

« لا يبحث الجيش على الاطلاق احتلال منطقة معادية من أقاليم مصر ذاتها .. انه يحدد عملياته فى تحرير المناطق المحصورة بين سيناء الجنوبية وقمة البحر الاحمر » . ثم أشار الى احتلال جزيرة **تيران** جنوبى خليج العقبة فتكلم عن جزيرة « **يوتفات** » جنوبى خليج ايلات التى حررها الجيش الاسرائيلى » ..

وبعد توقف العمليات الحربية صرح **بن جوريون** أثناء مناقشة دارت فى **الكنيست** يوم ٩ — ١٢ — ١٩٥٦ :

« لن توافق اسرائيل أبدا ولاى مبرر على عودة الغازى المصرى الى غزة » .

وقد نشرت جريدة **ها آرتس** الاسرائيلية فى ٢٠ — ١٠ — ١٩٦٧ مقالا قالت فيه » :

« لقد اضطرت اسرائيل للانسحاب من سيناء عندما رفض المجتمع الدولى التوسع الاسرائيلى».

الا أن اسرائيل ، ومن ورائها الصهيونية العالمية ، ظلت تستعد وتتحين الفرص من أجل تحقيق أهدافها التوسعية . فعاودت عدوانها على الدول العربية فى الخامس من يونيو ١٩٦٧ من أجل ضم المزيد من الاراضى .

وتسجل مذكرة وزارة خارجية ج.ع.م المقدمة الى السفير جونار يارنج فى ٨ — ١٢ — ١٩٦٨ العديد من التصريحات التوسعية الصريحة نثبت منها هنا :

صرح **موشى ديان** فى ١٩٦٧/٦/١١ :

« أن قواتى ينبغى أن تبقى فى سيناء ، وأن القدس ينبغى أن تظل عاصمة اسرائيل تحت سيادتها ، ان اسرائيل يجب الا تتنازل عن قطاع غزة والضفة الغربية من الاردن » .

وصرح **ديان** فى ١٩٦٧/٨/١٠ :

« ان اسرائيل ترفض العودة الى حدود عام ١٩٤٩ القديمة وأن على اسرائيل الا تسمح لدول أخرى تعمل لمصلحتها الخاصة ان تجبرها على العودة الى الاوضاع القديمة » .

« اسرائيل لن تعود الى اتفاقيات الهدنة ، أو لتلك الحدود التى أقرتها هذه الاتفاقيات » .

« ان اسرائيل يجب أن تحتفظ بجزء من سيناء بما فيها شرم الشيخ . ان حدود اسرائيل يجب أن تمتد من نهر الاردن الى البحر الابيض وأن المرتفعات غرب الاردن يجب أن تكون قاعدة دفاع عن حدود اسرائيل » .

كما صرح **ديان** يوم ١٧ أكتوبر ١٩٦٨ بمايلى : « يجب أن نقيم المستعمرات فى مرتفعات

---

[٩١] كل مقتطفات برامج الاحزاب وردت فى كتاب كوماندور هتشنسون : « الهدنة العنيفة » السابق الاشارة اليه فى الفصل الخامس عشر

جولان ؟ وأن نحصن سيناء وأن ندمج الضفة الغربية وغزة اقتصاديا واداريا فى اسرائيل » .

وذكر رئيس وزراء اسرائيل فى **الكنيست** يوم ٥ نوفمبر ١٩٦٨ :

« اننا عندما نقول أن نهر الاردن يعتبر حدودا آمنة بالنسبة لاسرائيل ، فاننا نعنى بذلك : انه بمجرد عقد اتفاقية سلام لن نسمح لاى قوات أجنبية بأن تعبر تلك الحدود .. حتى بعد توقيع اتفاقية صلح .. وان اسرائيل لن توافق على بقاء قوات أردنية أو عربية أخرى فى الضفة الغربية للاردن فى أية تسوية نهائية ... »

كما صرح أيضا **فى الكنيست** فى ١١ نوفمبر ١٩٦٨ :

« ان اسرائيل سوف تتمسك بمضايق تيران كجزء من أية تسوية لمشكلة الشرق الاوسط » .

وهكذا تتضح خطة اسرائيل التوسعية من عدوانها على ثلاث دول عربية فى الخامس من يونيو ١٩٦٧ فهى من واقع تصريحات المسئولين تهدف الى :

١ ــ ضم القدس

٢ ــ وجود قوات اسرائيلية فى سيناء والضفة الغربية ومرتفعات جولان فى سوريا .

٣ ــ انشاء مستعمرات اسرائيلية فى الضفة الغربية وجولان فى سوريا .

٤ ــ ادماج الضفة الغربية وغزة اقتصاديا فى اسرائيل .

٥ ــ نزع سلاح كافة المناطق العربية التى تحتلها اسرائيل بمعنى عدم وجود قوات عربية بها مع تواجد قوات عسكرية اسرائيلية ، وانشاء مستعمرات اسرائيلية فيها(٩٢) .

ونشرت جريدة **نوفيل ابزرفاتير** الفرنسية بتاريخ ١٥ ــ ١٠ ــ ١٩٦٧ أن وكيل الكنيست الاسرائيلى **بن اليئزير** نقد بشدة النائب **شيمتوب** المنتمى الى حزب **الماباى** « لوطنيته الناقصة » وذلك لان هذا النائب كان يجرؤ على التفكير فى الانسحاب ــ ولو الجزئى ــ من الاراضى المحتلة، فى نطاق معاهدة سلام . وقد أشار **ليفى أشكول** فى خطابه السياسى الى ضرورة تسكين اسرائيل الكبرى باليهود والى استحالة العودة الى الحدود القائمة قبل ٥ يونيو .

وأضافت الجريدة أن حركة تكونت باسم « **من أجل اسرائيل الكاملة** » ، وعقدت مؤتمرا كبيرا فى تل أبيب « يؤيد رئيس الوزراء على موقفه المدافع عن «الحدود التى رسمتها التوراة» فجمعت عددا من الحاخامات ، والقادة العسكريين المحدين ، والجنرالات ، والكتاب الكبار ، من جميع الاتجاهات . واننا نجد جانبا من هذا الموقف التوسعى الجاد فى أن شركة تكونت فى اسرائيل تستهدف استغلال سواحل سيناء من الناحية السياحية » . وخطتها اقامة معسكرات لقضاء الاجازات والمطاعم والفنادق ، مؤكدة أن شواطىء سيناء يمكن أن تحول الى ما ينافس الشاطىء الازرق « فى فرنسا وايطاليا » .

ويعلن وزير العمل **ايجال آلون** أمام المستوطنين اليهود الجدد فى **الخليل** « انه لايحق لاحدان يمنع اليهود من العودة الى مدينة « اسلافهم » .

وفى ٧ ــ ٧ ــ ١٩٦٨ خطب الجنرال **موشى ديان** فى جمع من اعضاء المستعمرات الجديدة فى جولان (المرتفعات السورية) فأشار الى ضرورة الاستمرار فى توطين اليهود فى « أرض اسرائيل » واضاف :

« **ان الكفاح الذى تخوضه الامة هو الكفاح من أجل اعادة انشاء اسرائيل التاريخية** » .

ان تصريحات القادة الاسرائيليين التى لا تنفذ ليست تطوعا منهم لفضح نوايا اسرائيل ، فهى فى الواقع تعبر عن حقيقة كل الاطماع التوسعية للصهيونية التى تخفى بقدر الامكان . وهم فى الحقيقة مضطرون اليها اضطرارا حتى يضمنوا ابقاء المجتمع الاسرائيلى فى حالة تعبئة دائمة تستلزمها بالضرورة المضى قدما فى تنفيذ المخطط الصهيونى . انها التصريحات العامة للقائد لكى يحافظ على درجة الاستعداد لدى جنوده فى الوقت الذى يظل فيه محتفظا بخططه الحقيقية والتفصيلية فى مكامنها السرية .

السلام المراوغ .. والعدوان المتصل

لا يفتأ قادة اسرائيل ، فى كل مناسبة ، أن يرددوا على مسامع العالم نداءاتهم «للتفاوض» ، على زعم أن اسرائيل ، وهى « الدولة الصغيرة المسالمة ، تجد نفسها بازاء تهديد دائم من قبل الفدائيين الفلسطينيين ، ومن « عنصرية الدول العربية » التى تختلف فى تكوينها الاجتماعى ، وفى عقائدها السياسية ، ولكن تتحد فى العداء

(٩٢) مذكرة وزارة الخارجية للجمهورية العربية المتحدة فى ٨ ــ ١٢ ــ ١٩٦٧ الى السفير جونار يارنج

لاسرائيل ، والاستعداد لشن حرب عليها لافنائها .

وحقيقة أن شعب فلسطين ، الذى انتزعت منه أرضه ووطنه وممتلكاته ، لا تستطيع أى قوة أن تنتزع منه الامل فى أن يعود يوما الى أرضه ووطنه . كما أن نضال الفلسطينيين لم يبدأ فى ١٩٦٦ فقط ، ولا فى ١٩٥٥ فقط حيث تعالت صيحات قادة تل أبيب لتبرير اعتداءاتهم المبيت بدعوى أن الفدائيين يتسللون اليهم من الدول العربية .

بل ان الواقع يقول انه منذ ١٩٤٩ ، لم يكف افراد الشعب الفلسطينى والذين يحيط باسرائيل من كل جانب عن « التسلل » عبر خطوط الهدنة. ولا يستطيع أحد أن يلوم هذا الشعب على انه قد طور نضاله الى نضال منظم ومسلح . كما لا يستطيع أحد أن يلوم الدول العربية التقدمية اذا ما أبدت تضامنها مع هذا الشعب العربى فى محنته ونضاله وقدمت له كل مساعدة سياسية ومادية ممكنة .

أما أن الدول العربية أو اى واحدة منها قد زحفت فى أى يوم ، طيلة السنوات العشرين الماضية ، لشن حرب على دولة اسرائيل فهو محض افتراء تكذبه كل الشواهد السياسية والعسكرية التى عاشتها المنطقة فى هذه الفترة بل على العكس من ذلك :

لقد حاول الملك **عبد الله** ملك الاردن السابق وحاولت بعده كثير من الحكومات الاردنية تخفيف التوتر على الحدود بين الاردن واسرائيل حتى لوكان ذلك على حساب اضطهاد اللاجئين الفلسطينيين فوضعت القوانين لتجريمهم . وهكذا بين عامى ٥٤ ، ٥٥ ، أصدرت المحاكم الاردنية أحكاما بالسجن على ٩٩٧ متسللا ، وحكمت مع ايقاف التنفيذ على عدد كبير اتهموا بعبور خط الهدنة ، من بينهم أطفال تقل أعمارهم عن ستة عشر عاما . ومنهم مختارون للقرى طردوا من وظائفهم وعوقبوا لانهم امتنعوا عن التعاون على الادلاء بمعلومات عن المشتبه فيهم . وانشئت دوريات لمنع التسلل ، وهى تعمل بالليل فى الطرق التى يحدث فيها التسلل» كما انشئت فرق الحراسة الاردنية لحراسة خطوط الهدنة الاسرائيلية الاردنية

« وتكمل جهود اعضاء الحرس الوطنى الاردنى الذين يرابطون فى القرى الواقعة على الحدود وبالقرب منها الجهود التى يبذلها الفيلق العربى لمنع التسلل »(٩٣) .

دينيكـــين

هو أحد جنرالات الجيش القيصرى . وبعد ثورة اكتوبر ١٩١٧ الاشتراكية فى روسيا . اقام دينيكين دولة فى جنوب روسيا وفى اوكرانيا ، لصالح البورجوازيين وكبار الملاك الروس ، وبمساندة الامبرياليين الانجليز والامريكيين والفرنسيين .

وفى النصف الثانى من عام ١٩١٩ ، قاد دينيكين حملة عسكرية من الحرس الابيض وهاجم بها موسكو . الا ان الجيش الاحمر تمكن من هزيمته فى بداية ١٩٢٠ .

★

غليوم الثانى

هو امبراطور المانيا وملك بروسيا . فيما بين ١٨٨٨ ــ ١٩١٨ . وقد طرق هرتزل ابوابه طالبا معاونته فى انتزاع قانون من السلطان العثمانى يسمح لليهود بالاقامة وتملك الاراضى فى فلسطين . وحاول غليوم ذلك الا انه امام رفض السلطان كف عن مطالبته بذلك .

وفى فبراير ١٩٥٢ وقعت حكومة الاردن مع اسرائيل ، تحت اشراف هيئة الرقابة الدولية ، اتفاقية القادة المحليين للتعاون فى مقاومة المتسللين ، واتفاقية أخرى فى مايو ١٩٥٢ للحفاظ على اتفاقية الهدنة . وبعد أن خرقت اسرائيل الاتفاقيتين ، وقامت القوات الاسرائيلية فى سبتمبر من نفس العام بطرد حوالى الف عربى من قبائل الاسانى من أراضيهم الى الاراضى الاردنية ، كما قبض على عدد من الجنود الاسرائيليين وهم يتسللون الى جبل سكوبس . وفى ديسمبر من نفس العام ، وقعت اتفاقية ثالثة من نفس النوع فى ٢٩ ديسمبر ١٩٥٢ . ولكن لم يأت الثامن من يناير ١٩٥٣ حتى أعلنت الحكومة الاسرائيلية أن « اتفاقية القادة المحليين غير مقبولة جملة وتفصيلا »(٩٤) .

---

[٩٣] مراسل النيويورك تايمز من الاردن ، نقلها الفريد ليلينتال : «هكذا ضاع الشرق الاوسط » .

[٩٤] برادفورد ، وليام . ج : « الاستراتيجية العسكرية ــ حوادث العنف على حدود فلسطين ١٩٤٨ ــ ١٩٦٢ » ، مخطوط مقدم لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة ستانفورد بالولايات المتحدة الامريكية ص ٦١ ونفس المعلومات واردة فى كتاب أ . هـ هتشنسون « الهدنة العنيفة » .

وكانت نتيجة هذه المحاولات من جانب حكومات الاردن أن فازت هذه الدولة بالذات بنصيب الاسد من الاعتداءات الاسرائيلية ، فمن بين اثنتى عشرة ادانة لاسرائيل من الامم المتحدة (فى الفترة مابين ١٩٤٨ — ١٣ — ١١ — ١٩٦٦ لاعتداءات ارتكبتها ضد الاربع دول العربية المجاورة لها) كان نصيب الاردن خمس اعتداءات (أنظر فى باب الوثائق جدول قرارات ادانة اسرائيل فى الامم المتحدة) .

ومن بين ٦١ ادانة لاسرائيل من قبل لجان الهدنة التى تشرف عليها الامم المتحدة فى الفترة مابين ١٥ — ٣ — ١٩٥٠ حتى ١٣ — ١١ — ١٩٦٦ لاعتداءات ارتكبتها كان نصيب الاردن وحدها ٢٧ اعتداء (أنظر الوثائق أيضا) .

وفيما يتعلق بالجمهورية العربية المتحدة ، يذكر توفيق طوبى فى جريدة الاتحاد الاسرائيلية أنه :

« فى تطور الثورة المصرية ضد الاقطاع والاستعمار بعد سنة ١٩٥٢ ظهرت فى مراحل مختلفة مواقف من قادة الثورة ، والسنتها تنم عن استعداد للوصول الى تسوية سلمية مع اسرائيل ، على أساس الاعتراف بحقوق الشعب العربى الفلسطينى ، اذا ما امتنعت اسرائيل عن تأييد الاستعمار ضد حركة التحرر الوطنى العربية ، كان ذلك أيام المعركة لاجلاء القوات البريطانية من القنال وأيام معركة القناة »(٩٥).

وفى ١١ — ١١ — ١٩٥٤ تقدم الجنرال **بيرنز** كبير المراقبين الدوليين آنذاك باقتراح بانشاء سياج من الشريط عند المناطق التى كثرت فيها حوادث التسلل التى أثارتها اسرائيل بحدة ، وقبلت مصر الاقتراح ولكن اسرائيل رفضته(٩٦).

وفى أبريل ١٩٥٥ تقدم الوفد المصرى برئاسة **جمال عبد الناصر** بمبادرة فى **مؤتمر باندونج** للدول الافرو آسيوية ، باقتراح وافقت عليه الدول العربية مجتمعة ، يدعو للحل السلمى للقضية الفلسطينية على أساس قرارات منظمة الامم المتحدة . وتردد هذا الموقف ، الداعى الى الحل السلمى للقضية الفلسطينية **على أساس قرارات منظمة الامم المتحدة** فى البيان المشترك للقاء — **ناصر — القوتلى — سعود » فى ١٣ مارس** سنة ١٩٥٦ ? وفى البيان المشترك للقاء **ناصر — نهرو — تيتو** — فى يونيو ١٩٥٦ .

وكان رد اسرائيل هو تنفيذ مؤامرة «**سيفر**» مع بريطانيا وفرنسا وغزوها الشهير للاراضى المصرية فى أكتوبر سنة ١٩٥٦ .

وعندما قررت الامم المتحدة ، عام ١٩٥٧ ، وضع قوات الطوارىء الدولية على الحدود بين مصر واسرائيل ، لتجنب حوادث الحدود بين البلدين ، قبلت مصر تنفيذ القرار ووضع هذه القوات على أراضيها . ويشهد السكرتير العام للامم المتحدة بأن مصر قد تعاونت مع الامم المتحدة بهذا الصدد الى ابعد الحدود ، بينما رفضت اسرائيل تنفيذ القرار الذى كان يقضى بوضع هذه القوات على الجانب الاخر من الهدنة أيضا .

ويشهد **روبرت شيرفى** جريدة **رامبارت** الامريكية فى نوفمبر ١٩٦٧ أنه :

« منذ حرب السويس والسياسة المصرية حيال اسرائيل متحفظة للغاية . ولقد كان **عبد الناصر** يعطى الاهتمام الاكبر للتغيرات الداخلية ولمشاكل التنمية فى البلدان العربية وبلدان العالم الثالث . ويذكرنا **ايجال آلون** وزير العمل الاسرائيلى بذلك فى مقال نشره فى ١٢ — ٢ — ١٩٦٧ حول مشاكل أمن اسرائيل ، حين يقول : « وبرغم أن مصر تساهم أكثر من أى دولة أخرى فى تمويل جيش التحرير الفلسطينى وتسمح له بتجنيد أفراده من قطاع غزة ، وبأن يقيم مكتب الرئيسى فى القاهرة فانها لم تسمح بأى نشاط معاد لاسرائيل عبر حدود غزة منذ حملة سيناء » .

ثم كانت مصر — طبقا للاستراتيجية الاسرائيلية هى التى تلقت الضربة الاولى فى عدوان ١٩٦٧ ».

فاذا تجمعت الدول العربية ضد اسرائيل ، واذا تم هذا التجمع رغم اختلاف نظمها وعقائدها السياسية ، فان فى مقدمة الاسباب التى تحفزها على هذا التجمع ، العدوانية الخيفة التى تبديها اسرائيل ، ومطامعها الواضحة ، ومع ذلك فلم تشهد السنوات العشرين الماضية منذ هدنة ١٩٤٩ على ما ذكرنا سابقا — جيشا عربيا يحتل أى جزء من اسرائيل ، بينما شهدت أكثر من احتلال اسرائيلى لاراضى أكثر من دولة عربية ».

---

[٩٥] توفيق طوبى — جريدة الاتحاد — تل ابيب — ١٩ — ٥ — ١٩٦٧
(٩٦) جنرال بيرنز : « بين العرب والاسرائيليين » — المرجع السابق ص٦٨

سجل اعتداءات لا تتوقف

تسجل مصادر جامعة الدول العربية ٦٣ر١٦١ اعتداء اسرائيليا على الدول العربيـــة ما بـين ١٩٤٩ — ١٩٦٤ . وصرح رئيس الجانب الاردنى فى لجنة الهدنة المشـتركة أن عـدد الاعتداءات الاسرائيلية على الاردن ، باستثناء عدد الضحايا والتحرشـات البسيطة بلغ عام ١٩٦٥ وحده ٦٥٢٨ حادثا : منها ١٣٧٥ حادث اطلاق نار عبر خـط الهدنة ، ١٧٢ حادث اجتياز خط الهدنة، ٧٤ حادث حشود على الحدود، ٧٧ حادث طرد للسكان العرب من أراضيهم فى اسرائيل ، ٥٣١ اعتـداء على القدس ، ٤٢٩٩ اعتداء جويا .

ويسجل الرئيس (الامريكى) للجنة الهـدنة الاسـرائيلية المشتركة عن الفترة من نوفمبر ١٩٥١ حتى نوفمبر ١٩٥٤ — ٢٩٦٠ شكوى من الجانبين تتضمن اتهاما متبادلا نجـد فى نصـوص الهدنة تفصيلها كما يلى (بعد اعادة ترتيبها) :

حوادث ذات طابع عسكرى «نظامى فى غالبيتها»

	اسرائيل	الاردن
وحدات عسكرية نظامية تعبر الحدود	٣٥٧	١٤٦
اطلاق نار عبر الحـــدود	٤٩٥	١٥
تحليق طائرات بانواعها المختلفة	٣٤٠	٤٨
	١١٩٢	٥٠٩

حوادث ذات طابع فردى

أفراد أو مجموعات غير عسكرية [مسلحين أو غير مسـلحين]		
تعـبر الحـدود	٤٠	٩٩١
قـذف حجارة وحـرق أراضى	٥٥	١١٢
	٩٥	١١٠٣

طرد السكان والاستيلاء على أملاكهم ٦١ — تم فيها ابعاد ٥٤٩١ عربيا من أراضـيهم داخل اسرائيـل واستولى على أملاكهـم . كما اذت الحوادث الخطيرة التى بحثتها لجنة الهدنة بين هذا العدد الكبير الى مقتل ١٢٧ عربيا وجرح ١١٨ والى مقتل ٣٤ اسرائيليا وجرح ٤٧ منهم .

ورغم ما تحمله الارقام السابقة مـن دلالات لا تخطىء على حقيقة مصدر العدوان ، الا أنها ستتضمن أبعادا شاسعة عن الحقيقة لو أخذت بالنسبة للاردن كاعداد مجردة حتى باعتبار أنها أعمال دفاعية أو رد فعل للاعتداءات الاسرائيلية . فالواقع أن الارقام المسجلة تحت اسـم الاردن ترجع فى غالبيتها الى العادة التقليدية الاسرائيلية بالمبادرة بتقديم الشكاوى الى لجنة الهدنة ، بعد أن تقوم هى بالعدوان ، أو عندما تكون بسبيلها لتبرير عدوان معين .

أن لجنة الهدنة لم تناقش سوى عـدد قليل من الشكاوى هى التى قررت خطورتها ، وقـد ادانت اسرائيل فى ٩٥ حادثا ، كانت فى غالبيتها العظمى من الحوادث ذات الطابع العسـكرى النظامى .. بينما صدرت ضد الاردن ٦٠ ادانة عن احداث « تسلل » للاجئين الفلسطينيين » . ولم يخرج نص الادانة فى أية حالة عن مطالبة المسئولين الاردنيين بالبحث عن الجناة ومعاقبتهم، حيث درجت هذه اللجـان على اعتبـار الاردن مسئولة عن اى عمل يقـوم به اللاجـئون الفلسطينيون ، بينما يشهد رئيس لجنة الهدنة الاسرائيلية الاردنية المشتركة قائلا :

« كانت القصة التى بلغت مسامع معظم الناس فى انحاء العالم هى التهمـة الاسرائيليـة بأن التسلل كان يجرى فى كثير من الحـالات تحت سمع حكومة الاردن وبصرها ، ولم يقم قط دليل على صحة هذا الادعاء بينما تتوافر الادلة على عكسه »(٩٧) .

اما بالنسبة للحوادث الخطيرة ، التى رفعت الى مجلس الامن أو مجلس الوصاية أو الجمعية العامة ، فلم يصدر فيها قرار واحد بادانة الاردن أو أية دولة عربية اخرى فى أى حادثة من الحوادث منذ ١٩٤٩ حتى اليوم .

الهـدف من الاعتداءات

والواقع أن الهدف الرئيسى مـن الاعتداءات الاسرائيلية المتكررة على المنطقة منذ ١٩٤٩ كان الاستيلاء على المناطق المجـردة مـن السـلاح للسيطرة على مراكز استراتيجية لاستخـدامها فيما بعد فى خطط التوسع الكبرى . وكل ماهنالك أن اسرائيل تتحين الفرص المناسبة التى تستطيع أن تصل فيها الى اتفاقيات محددة مع بعض دوائر الامبريالية العالمية ، الى جـانب أن الاحتفـاظ « بالحدود ساخنة » هو ، على الدوام ، ضرورة لتبرير هذه الخطط من ناحية ، واستمرار حالة التعبئة الداخلية من ناحية أخرى .

ولقد تصرفت اسرائيل منذ ١٩٤٩ على اعتبار تلك المناطق المجردة من السلاح جزءا لا يتجزأ من اسرائيل ، لجأت لتنفيذ ذلك الى مجموعـة من الحيل : كاقامـة المستعمـرات الزراعيـة

---

[٩٧] هتشنسون ، ١٠٥ : « الهدنة العنيفة » — المرجع السابق — ص ١٣٩

العسكرية فيها ؟ أو الاحتلال العسكرى المباشر. وهذه بعض الامثلة :

تقول التايمز اللندنية :

« منذ انشاء مستعمرة « الماغور » شبه العسكرية المطلة على وادي الاردن عام ١٩٦١ ، لاتزال اسرائيل تستولى بالتدريج على أرض لم تتمكن من ابقائها تحت سيطرتها قبلا ، وهى الارض التى كان الفلاحون العرب يقومون بزراعتها »(٩٨) .

وفى اثناء مفاوضات الهدنة قامت :

« باحتلال مثلث النقب الجنوبى وطردت السكان العرب وأعلنت ضم هذا الجزء الى أراضيها وبهذا وسعت حدودها »(٩٩) .

وفى مارس ١٩٥٠ **احتلت بئر قطار** فى مثلث العوجة ، وتقدمت مصر بشكوى الى لجنة الهدنة المشتركة التى اعتبرت هذا الاحتلال خرقا للاتفاقية الهدنة ، وهكذا أيضا قرر مجلس الامن فى ١٧ نوفمبر ١٩٥٠ ، ولكنها عادت فى ٢٨ سبتمبر ١٩٥٣ الى احتلال المنطقة ، رغم كل احتجاجات الامم المتحدة ولجان الهدنة »(١٠٠) .

وكان مثلث العوجة هذا هو نقطة انطلاق القوات للعدوان الاسرائيلى الى سيناء أثناء العدوان الثلاثى على مصر ١٩٥٦ . وفى هذا الوقت **كان بن جوريون** قد اعلن أن :

« اتفاقية الهدنة مع مصر قد ماتت وقيدت ولن تبعث بعد الان » (١٠١) .

وهكذا ، على الجانب السورى . ففى ٢٧ مارس ١٩٥١ قامت قوات اسرائيلية بالتركز فى القطاع الجنوبى من المنطقة المجردة من السلاح . فطلب مراقبو الامم المتحدة الى رئيس أركان الجيش الاسرائيلى أن يسحب قواته ؟ فكان جوابه أن قامت القوات الاسرائيلية فى ليل ٣٠ — ٣١ مارس سنة ١٩٥١ بطرد ٧٨٥ عربيا مدنيا من القطاع الاوسط من المنطقة المجردة »(١٠٢)

وفى ١٢ ديسمبر ١٩٥٤ أصدرت لجنة الهدنة السورية الاسرائيلية بيانا دعت فيه السلطات الاسرائيلية الى اتخاذ الاجراءات الفورية لوقف جميع أعمال الاستفزاز والعدوان ضد المدنيين وسحب مراكز البوليس الاسرائيلى من المنطقة المجردة الجنوبية . ولم تستجب اسرائيل للقرار ، بل لجأت لاقامة تحصينات فطلب كبير المراقبين فى ٢٩ يونيو ١٩٥٦ ازالة هذه التحصينات ، فأجاب **بن جوريون** رئيس الوزراء فى ١٩٥٦/٩/٣ :

« ان اسرائيل لا تستطيع الاستجابة لطلب كبير المراقبين » (١٠٣) .

لقد كانت بعض الاعتداءات الاسرائيلية موقوتة بأزمات سياسية معينة بين الدول العربية وبين الدول الاستعمارية الكبرى (صفقة الاسلحة التشيكية ، معارضة حلف بغداد .. الخ) . وكان بعضها موجها للتدخل فى الشئون الداخلية لبعض الدول العربية لمناصرة القوى الرجعية . وكان بعضها الثالث ينبع من أوضاع داخلية فى اسرائيل خاصة ، عندما تجد المؤسسة العسكرية أن مركزها يحتاج الى تدعيم ، بتصعيد التوتر . ولكن الخط العام الذى حكم معظمها بالفعل لم يكن مجرد « الانتقام » أو حتى « اجبار العرب على التفاوض » — بل كان كما ذكرنا الاستيلاء على المناطق المجردة واقامة التحصينات الاستراتيجية فيها استعدادا للاعتداءات الكبرى ، الهادفة الى تحقيق المخطط الصهيونى للسيطرة على الشرق العربى .

[٣] اسرائيل والاستراتيجية الدولية للامبريالية

الولاء للدولة الامبريالية الاقوى

فى الدراسة التى قدمها **يورى افنيرى** الى العدد الخاص من مجلة **الازمنة الحديثة** يقرر أن « الصهيونية تشكل حركة أصيلة ، غير أن الظروف التى أحاطت بمولدها قد وجهتها الى الاشتراك فى الجبهة الاستعمارية التى تكونت فى أوائل

---

[٩٨] التايمز — ١٠ — ٣ — ١٩٦٥

[٩٩] مجلس الامن : « السجل الرسمى » : س — ٢٠٦٧ الفقرة السادسة — ٢٧ — ٣ — ٥١ ص ٢٣ — ٢٤

[١٠٠] انظر مجلس الامن س — ٣١٠٣ وس — ٣٥٩٦ القسم الخامس ١٩٥٦ ، س — ٣٦٥٩ ملحق القسم الاول الفقرة الاولى ١٩٥٦

[١٠١] الاوبزرفر — ١٦ — ١١ — ١٩٥٦

[١٠٢] انظر مجلس الامن — س — ٢٠٨٤ و١٩٥٣ ، س — النص الكامل للخطابات — ٦٣٥ ملحق ص ٢٧ — ٢٨ — ١٩٥٣

[١٠٣] لكل تفصيلات الاحداث انظر مجلس الامن س — ٣٣٤٣ — ١٩٥٥

القرن العشرين »(١٠٤) ويشرح أفنيرى هذا الراى بقوله : أن الصهيونية تنقلت بولائها من سلطان تركيا ، الى قيصر المانيا ، الى بريطانيا (حتى ظهور الكتاب الابيض عام ١٩٣٢) ، ثم الى امريكا (قبل قيام اسرائيل وبعده) ، والى فرنسا (اثناء حرب الجزائر) . ثم يضيف « وهكذا وضعت الاسس للسياسة الخارجية للصهيونية ، ثم لدولة اسرائيل ، وهى الاستناد على الدول الغربية الكبرى »(١٠٥) ، وربما كان من الاصح أن يقال : ليس الاستناد الى احدى الدول الغربية الكبرى فحسب بل — وبالتحديد — الارتباط « بالدولة الامبريالية » ذات النفوذ الاكبر فى المنطقة ، وذات الاتجاه الاشد عدوانية تجاه شعوب المنطقة .

واذا كانت كتب التاريخ تحفل بتفاصيل ووقائع مثيرة عن ارتباط مؤسسى الحركة الصهيونية بكل القوى الامبريالية والرجعية ، فان دواعى الايجاز تتطلب منا أن نركز فى هذا المقام ، وبشكل خاص ، على ارتباط الصهيونية ودولة اسرائيل بالدولتين الامبرياليتين : **بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية** .

وعند الحديث عن الدور الذى لعبته الامبريالية البريطانية فى انشاء الوطن القومى لليهود يكفى أن نشير بسرعة الى بعض الوقائع :

● كان وعد **بلفور** فى نوفمبر ١٩١٧ اعلانا رسميا بموافقة بريطانيا على السير يدا بيد مع الحركة الصهيونية العالمية من اجل استعمار فلسطين . وكان لبريطانيا — بهذا — فضل السبق فى اكتشاف الحل الصهيونى الذى كان يرمى الى منع قيام دولة عربية موحدة وقوية فى المنطقة »(١٠٦) .

● عملت بريطانيا ، بعد ذلك ، على تدويل وعدها للحركة الصهيونية بأن ضمنته صك انتدابها على فلسطين ، فقد جاء فيه أن الانتداب « يعترف بوكالة يهودية ملائمة كهيئة عمومية لاسداء المشورة الى ادارة فلسطين وتتعاون معها فى الشئون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك من الشئون التى قد تؤثر فى انشاء الوطن القومى اليهودى لصالح السكان اليهود فى فلسطين » .

● كان هذا التحالف مع بريطانيا يهدف الى تحقيق الهجرة الكثيفة الى فلسطين . ولم تكن هذه الهجرة ممكنة الا بفضل الحماية البريطانية . وفى الثلاثين سنة التى تلت الحرب العالمية الاولى مكنت بريطانيا اليهود المهاجرين من اقامة المدارس الخاصة ، والابقاء على منظمة عسكرية يهودية والهاجاناه ، . وكذلك دربت بريطانيا مجموعات الهجوم السريع « بلماخ » واغمضت عينيها عن وجود التنظيمات السرية الارهابية « اشتيرن وأرجون » (١٠٧) .

غير أنه فى الفترة الاخيرة لعهد الانتداب البريطانى ، بدأت لندن تقدر أن تأييدها للصهيونية يقوى من كراهية العرب لها ، ومن ميولهم الى الجبهة المعادية فى الحرب العالمية الثانية التى كانت وشيكة الاندلاع . **هنا بدأت الخلافات تشتد بين الصهيونية وبين الاستعمار** البريطانى . يقول **مكسيم رودينسون** :

« لقد اظهرت بريطانيا العظمى فى السنوات العشرين السابقة حساسية متزايدة للعداء العربى نحو المشروع الصهيونى ، وبعد أن درست احتمالات الحلول المبنية على التقسيم مما يتضمن خلق دولة يهودية فى جزء من فلسطين ، أصدرت الكتاب الابيض فى ١٧ مايو ١٩٣٩ الذى أعلنت فيه صراحة اعتراضها على أى حل من هذا النوع ، ومن باب أولى ، على دولة يهودية تغطى فلسطين تحت الانتداب كلها . ورسمت خطة تتضمن أن تقام بعد عشر سنوات دولة فلسطينية مستقلة لن يكون اليهود فيها أكثر من ثلث السكان ، ولذلك قررت تحديد الهجرة ، وبيع الاراضى »(١٠٨) .

---

[١٠٤] V.A. Avenery: Une guerre fratricide — Les Temps Modernes. p. 708 (1)

(١٠٥) افنيرى : المصدر السابق ص ٧٠٩

[١٠٦] فيما يتعلق بتوقيت وعد بلفور ، من الجدير بالذكر مالاحظه بعض المفكرين الاوربيين مثل م . رودنسون من ان تصريح بلفور قد سبق تاريخ ٧ نوفمبر [تاريخ قيام الثورة الاشتراكية فى روسيا] بخمسة ايام فقط مما يدل على ان « احد اهداف التصريح كان تاييد كيرنسكى » . ويشارك كريستوفرسايكس رودنسون هذا الراى فيقول : « فى عشية شهر نوفمبر ١٩١٧ ، كان الاعتقاد السائد ان تاييد بريطانيا العظمى للصهيونية تاييدا علنيا سوف يبعد اليهود الروس عن الحزب البلشفى ، ويضمن بقاء الثورة الروسية لا فى طريق معتدل فحسب ، بل الى جانب الحلفاء فى الحرب » [راجع كتاب احمد فايز [المرجع السابق ص ٤٥] .

[١٠٧] فايز صايغ : « الاستعمار الصهيونى فى فلسطين » [بالفرنسية ، مويا ، باريس : ص ١٥ — ٢١

[١٠٨] رودنســون : مجلة الازمنة الحديثة — ص ٤٨

ومع أن الصراع بين الحركة الصهيونية وبين الحكومة البريطانية حول **الكتاب الابيض** وصل الى حد الصراعات المسلحة فان اشكال التعاون والتأييد المتبادل بين القوتين ضد شعب فلسطين العربى استمر حتى آخر لحظات الاستعمار البريطانى فى فلسطين .

وبانتهاء الحرب العالمية الثانية ، وافول القوة الاستعمارية لبريطانيا العظمى ، وصعود الولايات المتحدة الامريكية بديلا لهما ، كانت الصهيونية تشد رحالها من جديد الى غرب الاطلنطى ، نحو **واشنطن** بصورة رئيسية .

يقول **بن جوريون** :

« لم أعد أشك أن مركز الثقل لعملنا السياسى فى الميدان الدولى قد انتقل من بريطانيا الى الولايات المتحدة التى تزعمت العالم ، وتحتوى على مجموعة كبيرة من اليهود . ان اوروبا أصبحت فى قبضة النازيين ، وهى حتى بعد ان تتغلب على المانيا ستكون منهوكة القوى ، وستكون معتمدة اقتصاديا على أمريكا لسنوات عديدة بعد التحرر ، وحتى المسائل السياسية ستكون تحت التأثير الامريكى »(١٠٩) .

وفى ١٩٤٢ قام **بن جوريون وايزمان** بزيارة الولايات المتحدة حيث عقدا مؤتمرا صهيونيا فى نيويورك اعتمد فى ١١ مايو ماسمى فيما بعد **(ببرنامج بلتيمور)** الذى دعا الى « تطوير فلسطين بعد الحرب الى كومنولث يهودى ضمن ديمقراطيات العالم »(١١٠) .

ولقد أصدر الكونجرس الامريكى قرارارسميا فى عام ١٩٤٣ بتأييد مطالب الحركة الصهيونية كما وردت فى برنامج بلتيمور .

لقد ارتبط تحول الحركة الصهيونية الى واشنطن ، والدعم الامريكى لاهداف الحركة الصهيونية بصراع وصل الى الذروة فى مؤتمر **بازل** (ديسمبر ١٩٤٦) حيث هزمت سياسة حاييم وايزمان رجل فترة الارتباط بالامبراطورية البريطانية وكسب الحاخام **هليل سيلفر** الذى وعد بالتأييد الامريكى معظم الاصوات .

نشأة الجيش الاسرائيلى

. بعد صدور قرار التقسيم بدات المنظمات العسكرية اليهودية العاملة فى فلسطين تتقارب، لازالة الخلاف فيما بينهـا وتحقيق الاندماج لتشكيل نواة جيش الدولة الجديدة . وتم اعلان تشكيل الجيش يوم اعلان قيام اسرائيل فى ١٥ مايو ١٩٤٨ وتألف الجيش فى ايامه الاولى من : القوات النظامية وهى الهاجاناه ، والبالماخ ، والقوات شبهالنظامية وهى الارجون وشتيرن .

كما ارتبطت هذه المرحلة الجديدة بتبلور اتجاهين بارزين فى مسيرة الحركة الصهيونية :

أولهما : الاقرار الاستعمارى دوليا ، بشكل واضح ، بانشاء دولة يهودية فى فلسطين ، وليس مجرد « وطن قومى » .

وثانيهما : المجاهرة العلنية من جانب الحركة الصهيونية بلجوئها الى القوة المسلحة لخلق هذه الدولة وممارستها لهذهالسياسة باعتبارها الوجه الاساسى لنشاطها .

هكذا ، ومنذ أواخر الحرب العالمية الثانية تلعب واشنطن الدور الاول فى دعم الحركة الصهيونية .

لقد كانت الولايات المتحدة هى مصدر السلاح الرئيسى للعصابات الصهيونية فى فلسطين بعد الحرب العالمية الثانية .

« كانتأمريكا تريد التخلص منالاسلحة الكثيرة بعد الحرب ولذلك كانت تبيعها بأسعار رخيصة وتم جمع الاموال اللازمة من اليهود الامريكيين . وتكونت جمعيات سرية لشراء الاسلحة وكان اليهود يفككون الاسلحة ويرسلونها الى فلسطين على أساس أنها آلات صناعية »(١١١) .

ووجدت الصهيونية **فى ترومان** نصيرا ثانيا لها . ففى ٣١ اغسطس ١٩٤٥ كتب **ترومان** الى رئيس الوزراء الانجليزى اتلى يقترح عليه نقل ١٠٠,٠٠٠ يهودى الى فلسطين فورا . وكتب

---

[١٠٩] Ben Gurion: Israel, Years of Challenge — New York — Molt. Pinehart & Winston 1963 p. 17.

(١١٠) بارزوهار : « النبى المسلح — قصة حياة بن جوريون » — المصدر السابق — ص ٦٨

(١١١) سيمون دوسوسنر : « بن جوريون ينظر الى الوراء » — نيويورك— ١٩٦٥ ص ١٤٠

فى أكتوبر من نفس السنة بيانا يردد فيه دعوته لقبول المائة الف يهودى فى فلسطين ويؤيد الاقتراح الذى قدمته **الوكالة اليهودية** الخاص « بانشاء دولة يهودية قادرة على الحياة فى منطقة مناسبة من فلسطين ، وتمسك بزمام هجرتها وسياستها الاقتصادية »

ويقول واستريا :

« **ولكى تجبر الولايات المتحدة اليهود النازحين من المعسكرات الالمانية على التوجه الى فلسطين اخذت أمريكا فى تضييق الهجرة اليهودية اليها ، رغم ما كانت تبديه ظاهريا من موقف الدفاع عن المظلومين وخاصة الاقليات اليهودية فى أوروبا** » (١١٢) .

لقد كان التحالف الوثيق بين الصهيونية والاستعمار الامريكى هو الشرط الذى لابد منه ، والخطوة الاساسية فى تلك الظروف ، للتحول الكيفى من المستعمرات المتناثرة الى اسرائيل الدولة .

لقد لعبت الولايات المتحدة دورها الشهير فى اصدار قرار تقسيم فلسطين وانشاء الدولة الصهيونية من الامم المتحدة فى نوفمبر ١٩٤٧ ، وبعد ١١ دقيقة من صدور بيان الوكالة اليهودية فى تل أبيب باعلان قيام دولة اسرائيل فى ليلة ١٤ مايو ١٩٤٨ ، كانت الولايات المتحدة تعلن اعترافها بها .

وفى عام ١٩٥٠ تزعمت الولايات المتحدة كل من بريطانيا وفرنسا فى اصدار التصريح الثلاثى وعلى الرغم من ان التصريح ينص على حماية حدود دول منطقة الشرق الاوسط جميعها ، فقد دللت تصرفات **الحلف الثلاثى** ، كما دلل مجرى الاحداث فى المنطقة على أن المقصود بالبيان كان بالتحديد : حماية اسرائيل من أى جهود محتملة تستهدف اجبارها على تنفيذ قرارات الامم المتحدة .

على أية حال ، يضيق بنا المقام لو حاولنا ان نرصد تفصيلا جميع انواع المساعدات المادية والمعنوية التى قدمتها الولايات المتحدة الى اسرائيل . يكفى فى هذا المجال أن نذكر على سبيل المثال :

● المعاهدة السرية العسكرية التى عقدتها الولايات المتحدة مع اسرائيل عام ١٩٥٢ .

● قدر الدبلوماسى الامريكى **دافيد نيس** ، ان ما دفعته الولايات المتحدة ، لاسرائيل يزيد عن ٤ بلايين دولار ، كما ان معدل مساعداتها السنوية لها حتى اليوم هو نصف بليون دولار سنويا ، وذلك عدا اتفاقية التعويضات الالمانية وغيرها ، مما سهلت أمريكا لاسرائيل الحصول عليه وهوفى مجموعه يوازى نفس هذا المبلغ . اى ان اسرائيل ، تكون قد حصلت بهذا الشكل على ثمانية بلايين دولار منذ انشائها حتى اليوم .

● ولم تكتف الولايات المتحدة بمد اسرائيل ، بشكل مباشر أو غير مباشر بكافة الاسلحة الحديثة ، وتدريب جيشها وتزويده بأحدث الخبرات والمعدات ، ومعلومات اجهزة التجسس الامريكية على البلاد العربية ، بل لقد صرح **ليفى أشكول** رئيس وزراء اسرائيل ، فى منتصف ابريل ١٩٦٧ ، وفى ابان التحضير لعدوان ١٩٦٧ ، لمجلة **« نيوز أوف ذى ورلد »** الامريكية بقوله :

« ان المسئولين الامريكيين أبلغونى أكثر من مرة أن الاسطول السادس موجود فى البحر الابيض المتوسط لحماية اسرائيل بالدرجة الاولى » (١١٣)

هذا ، بينما كان **هـ . همفرى** نائب رئيس الولايات المتحدة يبعث برسالة الى الموكب الذى نظمته « المنظمة الصهيونية الامريكية » فى ٢٨/٥/٦٧ يقول فيها :

« ان اسرائيل هى شقيقة أمريكا ، وشريكتنا وصديقتنا الذى نحرص عليه .. انها منارة لجميع الشعوب فى الشرق الاوسط ، وضوؤها هو رسالة الانبياء » (١١٤) .

ضد الحركة الثورية فى العالم

كان جواز المرور للحركة الصهيونية لاقامة تنظيماتها فى بلدان أوروبا المختلفة هو ابراز قادتها لها باعتبارها حربا على التنظيمات الثورية فى تلك البلدان ، ولقد كانت بالفعل اداة تفتيت للحركة العمالية ، واداة تضليل لجماهير اليهود الثورية وصرفها عن المعارك الا بما يخدم اهداف الصهيونية .

يقول هرتزل فى رسالته الى قيصر المانيا فى ١٧–١٠–١٨٩٧ : « ان على حركتنا التى انتشرت انتشارا واسعا فى كل مكان أن تخوض حربا ضارية مع الاحزاب الثورية التى تجد فى حركتنا ،

---

[١١٢] واستريا « ب – د » من السويس الى العقبة » – المرجع السابق – ص ٧٢
[١١٣] مجلة « الحرية » اللبنانية – عدد ٣٥٩ – ٢٤ – ٤ – ١٩٦٧
[١١٤] نشر بجريدة الاهرام القاهرية فى ٢٩ – ٥ – ١٩٦٧ واوردته وكالات الانباء

ولها الحق بذلك ؟ خصصنا لها » . (يوميات هرتزل — ص ٥٩٦)

ويعود الى تأكيد ذلك بقوله :

اعتقد انى قد اشير الى اثر مفيد لنشاطى .. لقد اثنيت الكثيرين عن مبادىء الثورة الاشتراكية المزيفة ، وحولتهم الى حملة مثل عليا (١١٥) .

وفى غمار العمل شاركت الحركة الصهيونية بنشاط فى الثورة المضادة لثورة أكتوبر الاشتراكية فى روسيا .

« لقد اشترك الصهيونيون فى « حكومات » دينكين ، والقائد سكوربا وسكى وبيتليورا المزعومة من حكومات الحرس الابيض وقوات التدخل ضد ثورة أكتوبر وقاموا باعمال نشطة لخلق الفصائل العسكرية الصهيونية التى شهرت السلاح فى وجه الحكم السوفيتى الوليد . وفى المؤخرة لم تكن اعمال الصهاينة أقل نشاطا ، فبالاضافة الى التخريب ، أعاروا اهتماما جديا لما يسمى « بالاشكال العلنية » للنضال ضد الدولة السوفيتية ، منظمين عددا كبيرا من الجمعيات والاتحادات ، التى أصبحت مركز نشاط معاد للسوفيت » (١١٦) .

وتلعب الصهيونية دورها كاملا فى الحرب الباردة وتغذية الحملة المعادية للاتحاد السوفيتى والمعسكر الاشتراكى .

ويحلو لبعض قادة اسرائيل ترديد دعاوى أشد فئات الامبريالية عدوانية وضراوة لتشويه موقف الاتحاد السوفيتى من النزاع العربى الاسرائيلى عندما يعلن بعضهم :

« علينا أن نشرح للرأى العام العالمى فى الغرب وفى أمريكا أن القضية ليست قضية خلاف بين اليهود والعرب . وانما هى محاولة سيطرة روسيا على المنطقة بأسرها . وأنه لا تمنع هذه السيطرة سوى وقوف اسرائيل قوية وسدا فى وجهها »(١١٧) .

وتشكل حملات التحريض ضد الاتحاد السوفيتى تحت شعار الدفاع عن اليهود المضطهدين هناك جزءا أساسيا من حملة الكراهية التى تشنها الدوائر الرسمية الصهيونية ودوائر حكومة تل أبيب . كما يلاحظ أن هذه الحملات تقترن شدتها دائما بالتحضيرات الاسرائيلية الصهيونية للاعمال العدوانية على بلدان الشرق العربى .

وتذكر جريدة **الاتحاد** الاسرائيلية أن المؤتمر الصهيونى السادس عشر الذى عقد فى القدس فى سنة ١٩٦٥ خصص جزءا كبيرا من اجتماعاته للهجوم على الاتحاد السوفيتى (١١٨) .

وقبل المؤتمر تألفت فى اسرائيل لجنة ضمت عددا واسعا من العناصر الصهيونية البارزة باسم « **اللجنة العامة لشئون اليهود فى الاتحاد السوفيتى** » ، وظلت لا تكف عن نشر البيانات الاستفزازية ضد الاتحاد السوفيتى والمعسكر الاشتراكى .

وفى فبراير ١٩٦٧ نظمت حكومة أشكول بالاشتراك مع المؤتمر الصهيونى العالمى حملة تحريض مركزة ومنظمة ضد الاتحاد السوفيتى داخل اسرائيل وعلى نطاق عالمى عن طريق ما أسموه « بأسبوع يهود الاتحاد السوفيتى » حيث عقدت الاجتماعات الجماهيرية التى ترأسها المولون الاسرائيليون فى تل أبيب والقدس وحيفا ونظمت المعارض ولفقت الاكاذيب ، وقررت وزارة التربية والتعليم الاسرائيلية تنظم حملة فى المدارس الابتدائية والثانوية بعنوان « تاريخ يهود الاتحاد السوفيتى **منذ ثورة أكتوبر** » ولقد كتبت صحيفة « زوهديرخ » اليسارية تقول :

« ان هدف الحملة هو المساهمة فى الحرب الباردة التى يديرها الاستعمار الامريكى والمانيا الغربية ودول أخرى ضد الاتحاد السوفيتى تحت شعار « معاداة اللاسامية » و « انقاذ يهود الاتحاد السوفيتى »(١١٩) .

ولقد كشفت بعض الاحداث التى وقعت غداة ٥ يونيو فى المجر وبولندا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا عن دور الصهيونية فى مخطط الامبريالية العالمية الجديد للانقضاض على المعسكر الاشتراكى من الداخل . وتذكر قرارات المؤتمر الخامس لحزب العمال البولندى الموحد أن بولندا قد اضطرت منذ ١٩٦٧ أن تدخل ؟!

---

[١١٥] يوميات هرتزل — ص ٨٨١
[١١٦] يورى ايفانوف — احذروا الصهيونية — الترجمة العربية — القاهرة — ١٩٦٩ — ص ٧٧ ، ٧٨
[١١٧] جريدة هايوم الاسرائيلية — ٤ — ١٢ — ١٩٦٨
[١١٨] جريدة الاتحاد الاسرائيلية ١٧ — ٢ — ١٩٤٧
[١١٩] جريدة الاتحاد الاسرائيلية عدد ١٧ — ٢ — ١٩٦٧

« معركة طبقية ضد المؤسسة الصهيونية للامبريالية العالمية »(١٢٠) .

يد بيد مع كل القوى العدوانية

أن نقل الصهيونية لمحاور تحالفاتها من المانيا وفرنسا الى انجلترا الى امريكا فى فترات متلاحقة من التاريخ لا ينفى استمرار ارتباطها بالجبهة الاستعمارية ككل ، وتنفيذها للمخططات الاستراتيجية للامبريالية الدولية ، فارتباط الصهيونية ودولتها اسرائيل فى الوقت الحالى مثلا بالولايات المتحدة الامريكية اساسا لا ينفى علاقاتها الوثيقة بدوائر الاحتكارات المالية فى جميع البلدان الاستعمارية . فحكومة المانيا الغربية خاصة على عهد **الديمقراطيين المسيحيين** لعبت دور السند الاوربى الرئيسى للدولة الصهيونية . وقدمت حكومة المانيا من المال والسلاح لاسرائيل بالمجان مالم تقدمه اى دولة اخرى ، ولقد تجاوزت « التعويضات » الالمانية الغربية لاسرائيل — وهى فى حقيقتها لا تعدو أن تكون هبات دعم مباشرة — مبلغ ٦١١ر١ مليون دولار . وتقيم حكومة **بون** مع تل أبيب تعاونا وثيقا فى مجال الابحاث الذرية والاسلحة الكيماوية والبكتريولوجية . ويوجد بالمانيا الغربية المقر الرئيسى لنشاط شبكات التجسس الاسرائيلى على البلاد العربية ،وتنشط الجاسوسية الاسرائيلية من خلال الشركات الالمانية العاملة فى البلاد العربية ، فضلا عما تقدمه المخابرات الالمانية من خدمات الى المخابرات الاسرائيلية . ولقد اعلنت جميع الاحزاب الالمانية الممثلة فى **البوند ستاج** تأييدها لاسرائيل على اثر عدوان ١٩٦٧ واستخدمت الصحافة والاذاعة والتليفزيون وجميع وسائل الاعلام الاخرى فى الدعاية لاسرائيل . ولم يخف المسئولون عنها ارتياحهم بنجاح العدوان الاسرائيلى المسلح ضد البلدان العربية .. وكتبت صحيفة **بلدتسا تيونج** الالمانية الغربية فى ١٠ يونيو ١٩٦٧ تقول بصراحة :

« ان الاسلحة التى سهلت انتصار اسرائيل العسكرى هى أسلحة قدمتها اليها المانيا الغربية بمقتضى اتفاقية التعويضات »(١٢١) .

وفى فرنسا التى استطاعت حكومتها برئاسة **الجنرال ديجول** ؛ وبعد أن تخلصت من « عقدة الجزائر » ، أن تختط لنفسها موقفا مستقلا يشجب العدوان الاسرائيلى ، وجدت الصهيونية التأييد والمساندة من الاحتكارات الفرنسية الاشد عدوانية ورجعية وممثليها مثل **منظمة الجيش السرى الفرنسى** التى كتبت جريدتها تقول :

« بالنسبة لنا ، فللاسرائيليين ، مثل فرنسيى الجزائر الحق فى البقاء ، فى بلد فنحوه بعملهم وصنعوه جزءا جزءا .. وهو ملك لهم بلا زيادة ولا نقصان .. وأمام هذه الحقائق لم يعد ممكنا ان نغذى أنفسنا بالاوهام . فأمامنا احتمال واحد اما الاستيلاء على افريقيا كلها مرة أخرى ، أو أن نقبل اختفاء دولة اسرائيل فى يوم من الايام . ونحن المقاتلين فى الجيش السرى نحيى جنود اسرائيل تحية اخوية ، لانهم الوحيدون الذين يدافعون معنا منذ سنوات طويلة عن حضارة نحن شركاء فيها »(١٢٢) .

ان الصهيونية كفصيلة خاصة من فصائل الامبريالية الدولية تتبنى فكرا عنصريا واتجاهات توسعية عدوانية ، تجد مكانها الطبيعى بين اشد فصائل الامبريالية عدوانية ، ومنذ نشأتها وهى تقف فى هذه الجبهة بكلتا قدميها .

اسرائيل والروح « الصليبية » الاوروبية ضد العرب

منذ البدايات الاولى ، كانت نقطة الانطلاق الاساسية فى نشاط الحركة الصهيونية هو استنفار حكام أوربا لحرب جديدة ضد العرب تكون — فى الظروف الجديدة — بديلا للغزوة الصليبية المعروفة .

وعندما تم زرع اسرائيل باعتبارها « جسدا أوربيا » فى قلب الارض العربية فقد كان احد الاهداف الرئيسية من وراء ذلك ايجاد فاصل مادى بين المشرق العربى وبين المغرب العربى . ويكمن وراء اختيار الامبريالية لسيناء أو فلسطين لتكون موقع زرع هذا الحاجز البشرى : ادراك الامبريالية للدور القيادى الذى يمكن أن تلعبه مصر فى عملية الوحدة العربية .

(١٢٠) مجلة الطليعة القاهرية — عدد سبتمبر ١٩٦٩
(١٢١) بلدتساتيونج — المانيا الغربية — ١٠ — ٦ — ١٩٦٧
(١٢٢) نشرة فرانس بريس اكسيون نقلا عن بيير داميرون — فى مواجهة اسرائيل — باريس — ١٩٦٨

لكن دور اسرائيل ؟ بعد قيامها ؟ لم يقتصر على مجرد كونها الحاجز البشرى والجغرافى بين شعوب واراضى الامة العربية . بل يعتبر قادة اسرائيل أنفسهم فى « حرب مقدسة » ضد اى شكل من أشكال الوحدة أو التعاون العربى .
وفى هذا يذكر **بار زوهار** ، انه على اثر قيام الوحدة المصرية السورية عام ١٩٥٨ ، واتحاد العراق والاردن ، اتجه **بن جوريون** الى تركيا التى انزعجت — فى ذلك الوقت — من قيام **الجمهورية العربية المتحدة** على حدودها . واتجه الى ايران التى كانت تخاف من العراق ثم الى الحبشة .

واستطاع بن جوريون أن يعقد اتفاقا مع هذه الدول الثلاث . وبعث يستشير أمريكا وفرنسا ، فوافقت الدولتان . وهكذا نشأ « الحلف المحيط Peripheral Alliance » ، ولكن هذا الحلف لم يكن رسميا لانه لم يوقع(١٢٣) .

الانكشارية الجديدة فى مواجهة الثورة العربية

ولكن الوجود الاسرائيلى قد اثبت أنه قادر على أداء خدمات جليلة للاستعمار تفوق مجرد السيطرة على جزء من الوطن العربى ، تعزل مصر عن أقطار الشام والعراق ، وتقطع الطريق البرى الى شبه الجزيرة العربية . « فالكفاءة العسكرية الاسرائيلية أضفت بعدا جديدا على دورها فى المنطقة . بعدا يستحق من الاستعمار كل تقدير وتحصل مقابلة الدولة الصهيونية على المزيد من المساندة الاستعمارية . لقد رشحتها تلك الكفاءة لان تكون كلب الحراسة الشرس الذى يحمى مصالح الاستعمار . ففى كل فترة من الحركة الثورية العربية كانت اسرائيل تتحرك لتضرب جاراتها العربية محاولة تعطيل التقدم »(١٢٤) .

ويتطابق ذلك بدقة مع مخططات الامبريالية الامريكية المتعلقة باستراتيجية ما يسمى بالحرب الخاصة . فيقول جيمس فيردن مراسل النيويورك تايمز فى القدس مشيرا الى دور اسرائيل فى المخطط الامريكى :

« لقد وصلت الولايات المتحدة الى نتيجة ، وهى أنه لم يعد فى امكانها أن ترد على كل حدث تواجهه ؟ ولهذا فعليها أن تعتمد على القوة الرادعة التى تملكها دولة صديقة فى المنطقة كخط أمامى يمكن ان يجنب أمريكا التدخل المباشر »(١٢٥) .

ولقد اكدت اسرائيل دورها هذا طوال العشرين عاما من وجودها :

● تأكد هذا فى مستهل عام ١٩٥٥ حين تقدم الجيش الاسرائيلى واحتل المنطقة المنزوعة السلاح على طول الحدود المصرية الاسرائيلية واعتدى على تلك الحدود ، بعد أن رفضت حكومة مصر مشروع **حلف بغداد** وأخذت تقاومه على المستوى العربى .

● وتأكد فى نوفمبر عام ١٩٥٥ حين قامت اسرائيل بعدوان جديد على الحدود المصرية ، حينما شاركت مصر بدورها البارز فى مؤتمر باندونج ، وحطمت احتكار السلاح بعقد صفقة الاسلحة التشيكية لتدعيم دفاعها .

● وحين هب الشعب الاردنى ليحبط محاولة ضم الاردن الى حلف بغداد ، أعلنت **جولدا مائير** وزيرة خارجية اسرائيل آنذاك أن اسرائيل تعتبر اى تغيير سياسى فى الاردن سببا يبرر الحرب .

● وحين اقدمت مصر على تاميم قناة السويس فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ تقدمت حكومة بن جوريون تعرض خدماتها على بريطانيا وفرنسا ليلتقوا فى مؤامرة سيفر وينفذوا حملتهم التعسة ضد مصر وشعبها فى أكتوبر — نوفمبر سنة ١٩٥٦ .

● وفى ١٩٦٧ ومع تصاعد مد الحركة الثورية العربية فى ج.ع.م وسوريا والجنوب العربى .. الخ كان عدوان يونيو ١٩٦٧ .

اداة الاستعمار الجديد فى آسيا وافريقيا

عبرت الدولة الصهيونية بعد انشائها عن نفسها ، بشكل متسق ، كجزء من معسكر الرجعية والاستعمار على النطاق العالمى وذلك فى مواجهة حركة التحرر الوطنى .

لقد ساندت اسرائيل الحركة الاستعمارية

---

[١٢٣] بارزوهار : « النبى المسلح » ص ٢٦٣
[١٢٤] اسماعيل صبرى عبد الله — فى مواجهة اسرائيل ص ٦٥
[١٢٥] نيويورك تايمز — ١٧ — ١ — ١٩٦٧

المضـادة للزعيم الافريقى باتريس لومومبا فى الكونغو ، وعضدت الحركة الرجعية الاستعمارية مويس تشومبى . ولقد ساندت الصهيونية ودولتها اعمال القمع البرتغالية فى المستعمرات ومدت السلطات البرتغالية بالاسلحة والمعدات الاسرائيلية . ووقفت ضد كل محاولات ادانة النظام العنصرى الاستعمارى فى جنوب افريقيا محتفظة معه بأقوى العلاقات السياسية والاقتصادية ، وأمدت الحركة الانفصالية فى بيافرا بالمال والسلاح والخبراء ، كما ساندت وتساند الحرب العدوانية البشعة للولايات المتحدة ضد شعب فيتنام .

ومع ذلك ، ففى السنوات الاخيرة ، وخاصة منذ ١٩٥٧ ، ومع التطورات العالمية الاخيرة برز دور جديد وخطير تؤديه اسرائيل فى خدمة الاهداف الاستراتيجية للامبريالية العالمية . وهو تحولها الى رأس جسر للغزو الاقتصادى والفكرى المنظم الذى يقوم به الاستعمار الجديد لدول آسيا وافريقيا للاستمرار فى نهب شعوب القارتين .

ان اسرائيل ، ذات البناء الاقتصادى المصطنع ، والتى تعيش على المعونات والقروض الاجنبية ، ما كان بامكانها بالطبع أن تستثمر أموالها فى الخارج . ولكن من خلال الاحتكارات الاجنبية الموجودة فى اسرائيل والاموال المقدمة بسخاء من جانب الولايات المتحدة والمانيا الغربية .

« بلغ مجموع ما استثمرته خلال خمسة اعوام فى أفريقيا ١٥٠ مليون دولار ، حققت منها أرباحا على حساب شعوب القارة لا تقل عن ٥٠ مليون دولار »(١٢٦) .

وفى منتصف ١٩٦٣ كان فى أفريقيا ٤٨ شركة برساميل اسرائيلية وأفريقية مشتركة لا تشذ فى اتجاهاتها عن اتجاهات الاستثمار الاستعمارى عادة ، فتركز أساسا على شركات الاستغلال الزراعى والصناعات الغذائية وشركات استغلال الثروة الحيوانية وشركات الانشاءات والنقل . هذا الى جانب علاقاتها التجارية الوثيقة بجنوب أفريقيا حيث تستورد منها الماس الخام الذى تمثل صناعته جانبا رئيسيا فى الاقتصاد الاسرائيلى (ثلث صادراتها السلعية) .

وقد بلغ عدد الخبراء الاسرائيليين فى الدول الافريقية ما لا يقل عن الف خبير يعملون فى جميع الحقول العلمية والفنية والتدريس فى الجامعات(١٢٧) .

وتحت لافتة ما يسمى « بالبرنامج الاسرائيلى للتعاون الدولى » تعمل اسرائيل على استجلاب شباب افريقيا الى المعاهد والمؤسسات الاسرائيلية الخاصة . وقد أفصحت عن هدفها من ذلك فى ملحق صحيفة جيروزاليم بوست شبه الرسمية بمناسبة ذكرى تأسيس المعهد الافرو آسيوى فى تل ابيب بقولها :

ان طلبة المعهد هم نخبة بلادهم ، وسيصبحون بعد عودتهم الى بلادهم الاساتذة والقادة بحيث ينتقل نفوذ اسرائيل عبر الاجيال الافريقية ، ممن زارها اوتدرب اوتعلم فيها، الى من لم يزرها(١٢٨)

كما تبدى اسرائيل عناية متزايدة بتدريب رقباء وأفراد الجيوش الافريقية . ومن ذلك تدريب عدد من الطيارين الكينيين وتدريب ٢٥٠ مظليا كونغوليا ، كذلك بارسال الخبراء العسكريين الى الجيوش النظامية الافريقية .

وتبدى الدوائر الاستعمارية الغربية اهتمامها البالغ بهذا النشاط الاسرائيلى فيقول مكتب استعلامات افريقيا فى المانيا الغربية فى تعليقه على هذا النشاط :

« ان كل هذا أمر يدعو للاغتباط الى اقصى حد حيث ان النفوذ الاسرائيلى فى أفريقيا يخدم قضية الغرب بشكل مباشر أوغيرمباشر »(١٢٩) .

ولقد دعت **جمعية أفريقيا** بألمانيا الغربية القوى الامبريالية الاخرى الى :

« استخدام اسرائيل كمحطة فى الوصول الى افريقيا وعدد من بلدان آسيا ، أى بأن تدعم جهودها بشكل أو بآخر ، ولكن ماليا بالدرجة

---

[١٢٦] L'Aide Israélienne aux pays en voie de developpement — L'économie No. 929 — 1964. p. 9.

[١٢٧] L'Observation du Moyen-Orient et de l'Afrique — Juillet — Amox Ben Vered — p. 8.

(١٢٨) جيروزاليم بوست الاسرائيلية — ملحق العدد الصادر فى ٣ — ١ — ١٩٦٦

[١٢٩] نشرة مكتب استعلامات افريقيا — المانيا الغربية — ١ — ٩ — ١٩٦٢

الاولى ، نظرا للمشاكل النامية للقارة السوداء »(١٣٠) .

ويذكر **نيكولاى برمولوف** فى كتابه « حصان طروادة للاستعمار الجديد » انه :

« تأسس فى تل ابيب معهد خاص لتدريب الهيئات التنفيذية لاتحادات النقابات والتعاونيات والمصالح الحكومية لتطوير دول أفريقيا وآسيا . وهناك كل الاسباب التى تجعل هذا المعهد مركزا دوليا للتدخل الامبريالى فى أفريقيا . فللولايات المتحدة وبريطانيا اشراف مباشر على نشاطه . ولقد قدمت اسرائيل انشاءاته الاولية ولكن ميزانياته الجارية تغطيها الاتحادات النقابية فى الولايات المتحدة وبريطانيا وبعض الدول الاخرى.

« ولا تستمر الدراسة فى هذا المعهد سوى ثلاثة أشهر ونصف فقط . ورسميا يعمل المعهد تحت ادارة الاتحاد العام الاسرائيلى للعمل،ولكنه فى الواقع تحت اشراف وزارة الخارجية الاسرائيلية ، ومن بين القائمين بالقاء المحاضرات فيه **جولدا مائير** (رئيسة الوزراء الاسرائيلية) . ومهمة المعهد الايديولوجية هى تسميم قادة الحركة النقابية والتعاونية الافريقية والاسيوية »(١٣١).

ان قيام اسرائيل بتنفيذ المخططات الاستراتيجية والتكيكية للامبريالية العالمية لا يعنى انها ليست سوى أداة للاستعمار العالمى.فالواقع أن اسرائيل كتجسيد مركز للحركة الصهيونية العالمية انما تلعب دورها المتميز كدولة استعمارية لها مطامعها وأهدافها الخاصة فى اطار الجبهة العامة للامبريالية الدولية . ولا يضير من تلك الحقيقة ضيق مساحة أراضيها أو قلة عدد سكانها ، فان ما يحدد قيام كيان ما بدور استعمارى ذاتى انما يحدده حجم ونوع القوى المالية التى تخطط له سياسته الخاصة وأمثلة هولندا والبرتغال بل وانجلترا حاسمة الدلالة فى هذا الشأن .

ان صراعات الصهيونية الحديثة ضد حلفائها من الامبرياليين كانت صراعات فى سبيل تأكيد مطالبها الخاصة ، والوصول الى أفضل اتفاقيات تقسيم العمل الملائم لمصالحها . بينما كانت صراعاتها ضد الشعوب العربية صراعات قوة استعمارية عدوانية تتحالف فيها مع شتى القوى الرجعية والاستعمارية فى مواجهة حركة تحرر عربية نامية تهدف الى تقويض مراكز الامبريالية والاستعمار بكافة اشكالها وعلى نطاق المنطقة العربية بأسرها .



[١٣٠] المصدر السابق

[١٣١] نيكولاى برمولون ـ « حصان طروادة للاستعمار الجديد » ـ موسكو ـ دار التقدم للنشر ـ ص ٤١

اعادة بنـاء القـرية

القضـية والخطـة



د . جمال حمدان

ستظل قضـية القـرية معـنا سنين عددا . فالتخطيط والاعداد لاعادة بنائها سيتم على الاقل فى بضع سنين ، بينما تحدد برنامج العملية كلها من تخطيط وتنفيذ بعشرين عاما . والآن وقد قررت الدولة رسميا اعادة بناء القرية ، واقامت المجلس القومى للخدمات ، فقد تحولت القضية الى حركة ، والحركة الى خطة .

ومن تحصيل الحاصل او الاجترار وحده ان نقول ان اعادة بناء القرية تعد من اضخم وأخطر مشروعات مصر المعاصرة ، وركن اســاسى من أركان بناء الدولة العصرية فيها . « **فالثورة على النيل** » ، كما سماها الرئيس ، والتى بدأت منذ نحو العقدين ووصـلت الى قمتها فى الســد العالى ، لن تكمل قواعدها الراسخة الا بفرشة عريضة وغامرة تغطى جسم مصر الحقيقى وهو الريف الواســع ، تماما بمثل ما أن وجه مصر الحقيقى لن يتغير الا بتغير وجه القرية بالذات . بل اننا لنقول ان هــذا المشروع هــو المعادل الموضوعى لمشروع السد العالى نفسه .

ولا جدال بعد هذا فى فداحة المشكلة . فنحن هنا بازاء وقر ماض ساحق وسحيق حقا ، وتراكم تاريخ الغى هو من أسف عتيق بقدر ما فيه من عراقة واصــالة . ولعلها لم تكن مجرد مبالغة لفظية حين قال البعض ان ثقل المشكلة يعادل محصلة أكثر من ٤٠٠٠ قرية مضروبة فى أكثر من ٤٠٠٠ سنة .

والمشكلة هى الى ذلك محصلة تطورنا الحديث غير المتكافىء خـلال القرن او القرن ونصـف القرن الاخير . فبينما تطورت مدننا وحياة المدن عندنا تطورا نسبيا أو معقولا ، ظل الريف على

تخلفه وتصوره الشديد . وسرد ذلك أن الايديولوجية الاقطاعية والاستعمارية انما حاولت أن تجعل العاصمة أو العاصمتين ، لا مصر فى الحقيقة ، « قطعة من اوربا » ، **بينما بقى الريف قطعة من أعمق أعماق العالم الثالث .**

من هذا كله يصبح الموقف بالتقريب أشبه بمن يحاول أن يرفع نفسه من رباط حذائه كما يقال . كما يصبح من الواضح تماما أن الريف والقرية هما التحدى الاكبر الذى يواجه الانسان المصرى فى الداخل ، ونجاحه فى مجابهته هو جواز مروره الى المستقبل الجديد . ولكى ينجح ، وهذا ممكن كما هو ضرورى ، فان على مصر جميعا ان تحتشد له بكل طاقة الفكر والفعل والمال .

وليس فى شىء من هذا كله تضخيم مفتعل للمشكلة أو تهويل مثبط فى حجمها ، وانما هو يضعها فى أبعادها الحقيقية بما يكفل معالجتها معالجة جادة ومسئولة بلا استخفاف أو تهاون .

ولقد قررت الدولة بالفعل أن ترصد وتكرس للمشروع ٢٠٠٠ مليون جنيه موزعة على مدى العشرين عاما المحددة ، أى بمعدل ١٠٠ مليون لكل عام ، أو نصف مليون لكل قرية فى المتوسط . اعلن بعد هذا أن ٢٠٠ الف مسكن تروى تتكلف ٥٠ مليون جنيه سيتم بناؤها كل عام ، وذلك على مدى ١٠ سنوات . وهذه ميزانية سخيفة بكل المقاييس ، لا سيما فى ظروف المعركة التى هى فوق الجميع وتأتى أولا وقبل كل شىء . ولكن المبلغ هو أقل ما يتناسب وحجم المشكلة ، كما انه ليس بالكثير على الريف الذى طال حرمانه واهماله .

وللمقارنة وعلى سبيل المثال ، فاذا كانت القرية الواحدة سيخصها المشروع بنصف المليون من الجنيهات ، فلنذكر أن كثيرا من عماراتنا السكنية فى المدن الكبرى تتكلف ربع أو نصف المليون ، وذلك حتى دون أن نذكر تلك العمارات « المليونية » (أو المليونيرة!) الاسعد حظا بكثير ..

والواقع أن الريف هو الذى بنى مصر المدن والعمران . فالثابت تاريخيا أن الزراعة المصرية هى التى مولت عملية تحضيرنا الحديثة وقدمت التكاليف الابتدائية والانشائية لكل الهياكل التحتية والفوقية لاقتصادنا وخدماتنا الشبكية العصرية من مواصلات وصناعات .. الخ .. بالاختصار ، القرية بذرة ونواة مصر ، وهى أيضا أم المدينة . ولذلك فقد آن الاوان حقيقة لكى ترد المدينة دينها للريف ، وأن توجه من مكاسبها وفائض القيمة فيها ما يرفعه قرب مستواها ويضيق الهوة الحضارية الشاسعة بينهما .

من أين نبدأ ؟

من الناحية الاجرائية والتنظيمية البحتة ، يقتضى المشروع استكمال ما يساوى ٢٠٠ قرية كل عام . ولا يعنى هذا بالطبع استكمال تنفيذها النهائى ، الذى قد يمتد لعدة سنوات وربما كل السنوات العشرين ، ولكنه يحدد المتوسط السنوى لمستوى الاداء التنفيذى المطلوب على امتداد المدة كلها ، اذا ما أريد للخطة كلها أن تتم فى موعدها المقرر .

ولعل نقطة البداية العملية هنا أن يوضع أساس انتخابى لاختيار القرى حسب جدول زمنى محدد . وفى مثل هذا الاطار ، فليس من السليم أو الممكن فنيا ، ولا هو من العدالة اجتماعيا ، أن يتقدم العمل على أساس البدء مثلا بمحافظة والانتهاء منها جميعا ، ثم الانتقال الى محافظة أخرى ، وهكذا . وانما المبدأ الصحيح أن تنتشر عملية اعادة البناء فى شبكة واسعة على مستوى الجمهورية كلها . فهذا ، الى جانب روح الاهتمام والتطلع التى يثيرها والمنافسة الصحية التى يذكيها بين الجميع ، فضلا عن المساواة الاقليمية التى يحققها لهم ، جدير بأن ينوع بيئات العمل ويثرى الخبرات والمهارات المتراكمة التى يمكن أن تكتسبها الاجهزة المنفذة اثناء العملية وتنمى من قدراتها على حل المشاكل المماثلة أو المغايرة التى قد تواجهها .. الخ ..

ولما كان لدينا نحو العشرين محافظة ، فان هذا يعنى تناول ١٠ قرى فى كل محافظة كل عام (نكرر ، فى المتوسط) ، يمكن أن توزع بعدالة على مراكزها المختلفة بحسب قواعد معينة . أو قد يرى أن يتم تناول القرى ، نظرا لاختلاف اعدادها الاجمالية بين المحافظات المختلفة ، على أساس ٥ ٪ من عدد قرى كل محافظة منها ، وبذلك نضمن دقة تنفيذ البرنامج الزمنى العشرينى .

أما فى داخل كل محافظة ومركز ، فيمكن أن توضع أولويات لاختيار القرى على أسس محددة . فقد نبدأ بأشدها سوءا من الناحية العمرانية أو أكثرها نضجا للهدم ، ثم بتلك التى تساهم أكثر فى توفير الارض الجديدة المطلوبة لاعادة البناء ، أو تلك التى على استعداد لأن تسهم بحصة أكبر فى تكاليف اعادة التعمير أو توفير الايدى العاملة .. الخ ..

غير انه بعد هذا كله ، وحين يستقر الرأى

على خطة وخطوات العمل ، لابد من وضع « خطة ارشادية أو موجهة Pilot Scheme » ، تكون بمثابة اختبار أو تجربة عملية قبل تدشين المشروع كله . فمشروع بمثل هذا المقياس والخطر ، وبكل هذه النتائج والتبعات ، لا يمكن أن يوضع موضع التنفيذ مباشرة دون أن يسبقه نموذج أو عينة حقلية مصغرة . **ولهذا الغرض يصح أن نختار عدة قرى من بيئات وظروف مختلفة تتخذ كمعمل تجارب حى تطبق فيه الخطة ، اختبارا لمبادئها وبنودها وتصحيحا لنواحى الضعف او القصور التى قد تتبدى فيها .**

مبادىء تخطيطية حاكمة

كل تخطيط عمرانى ، فهو تخطيط اجتماعى فى التحليل الاخير . فالمسكن انما يخطط للناس ، للمجتمع ، للحياة . وخطة اعادة بناء قرانا ليست عملية اسكان عظمى تبنى آلاف أو مئات آلاف المساكن المنفردة ، بل هى اساسا تبنى « مجتمعات مساكن » « ومساكن مجتمعات » . ولهذا يصبح **التخطيط** على الفور قضية سياسية ، لا يمكن ان تتجاوز عن الفنى ولكنها لابد بالضرورة أن تتجاوزه . **فلقد** يحتكر الفنى الخبرة ، ولكن الحكمة ملك مشاع للجميع .

ومن هنا بالدقة جاءت فكرة **ديمقراطية التخطيط** . فليس التخطيط « عصا غليظة » تفرض على الجماهير ، ولا المخطط هو ديكتاتور مستبد حتى وان يكن مستنيرا . فانما وجد التخطيط للمخطط له ، لا للمخطط ، والعملية كلها تتم من خلال حوار واسع بناء وعميق بين الطرفين ، يحتاج فيه الفنى — من بين مايحتاج — الى فهم وتفهم الجماهير والى كل تعاطفها ، فضلا عن أكبر حزمة ضوء من وسائل الاعلام والدعاية . وذلك فى جملته مايسمى « بالتخطيط بالاقناع «Persuasive planning» » .
ولهذا يرحب المخطط الواعى بكل رأى مفيد ، وكل صاحب رأى مدعو لان يشارك بفكره ووجهة نظره .

والمشكلة الاولى والاولية فى التخطيط هى دائما **تحديد الاهداف والمثل** ، يعنى تحديد المستويات التخطيطية المبتغاة ، وذلك فى ضوء الموارد المتاحة والسبل والوسائل الممكنة أو الميسورة . وتلك المثل والمستويات المستهدفة لا يمكن للمخطط ان يقررها وحده ، وانما برأى الامة وباجماع الآراء تقرر .

وبعبارة أخرى ، فان هناك سؤالا ينبغى للامة ، ممثلة فى قياداتها السياسية والشعبية لا أن تقدم الاجابة عليه قبل أن تعطى اشارة الضوء الاخضر للاخصائى الفنى لكى يضع خطته وليبحث عن استراتيجيتها . **هذا السؤال هو : أى نوع من القرية نتصور ونريد ؟ وما المستوى الحضارى ، الهندسى والمعمارى : المطلوب ؟ والى أى حد يبتعد أو يقترب من الصورة الراهنة ؟**

أما الاجابة ، التى لا يملك أحد أن ينفرد بها وحده ، فيمكن أن تختلف كثيرا بحسب وجهات النظر المختلفة ما بين اقصى تطبى المثالية والواقعية . ولكن هناك على الاقل عدة ضوابط ، عدة مبادىء لا تخطيطية حاكمة لابد من اعتبارها فى كل الاحوال . وهذه مبادىء مقررة الآن ، نمت مبكرا ، على الاقل منذ تقارير سكوت وأثوات الرائدة فى التخطيط الاقليمى ببريطانيا ، ونضجت وتبلورت فى آخر المراجع التخطيطية الحديثة **كتوماس شارب وجاستون بارديه ورؤبير أوزيل ولورد لويلين ديفيز ودوكسياريس .. الخ ..**

فأولا ، لايفترض التخطيط مسبقا انه سيمحو أو يزيل كل ما هو قائم ، أو أن كل ما هو قائم غير سليم ، ولا الماضى هو كله خطأ بالضرورة . بل انه ليحترم الوضع الراهن وان يكن بتحفظ ، ولا يسخر منه بل يسخره لاغراضه . أكثر من هذا ، كما يذكرنا الاستاذ **ددلى ستامب** ، قد تنتهى الدراسة التخطيطية الى اقرار الواقع — أو جزء منه — وتثبيته وتأكيده ، أى تزكيته وتبنيه . ذلك أن فى الواقع دائما شيئا من التخطيط التلقائى ، بدائيا ساذجا حقا ، ولكنه جرثومة التخطيط الطبيعى . وما التخطيط العلمى فى كثير من جوانبه الا ترشيد وتحسين مقنن لعمليات تتم بطبيعتها تلقائيا ولكن بطريقة قاصرة فجة . والتخطيط الانسانى الواعى ليس أحيانا أكثر من يد قوية مفكرة تمتد لتأخذ بيد الطبيعة المهزوزة .

ثانيا ، ينبغى للتخطيط أن يكون واقعيا لكن دون عجز أو تبلد ، ومثاليا دون جموح أو تطرف خيالى . ومقتل أى تخطيط يكمن فى انزلاقه وترديه فى أحد النقيضين ، كما أن الحد الامثل الذى يحفظ نسبة دقيقة رشيدة متزنة بينهما هو مناط نجاحه اقتصاديا وهندسيا . والا فهو فى الحالة الاولى عقيم مجهض أو على أحسن تقدير فطير لا يغير شيئا ، وفى الحالة الثانية يمكن للاهداف المسرفة أن تنتكس تماما وتنتهى الى لاشىء . (وكما قيل ، فانك تستطيع تكنولوجيا أن تبنى مدينة كبرى تحت القطب ، ولكن السؤال لمصلحة من ، ولحساب من ، ومن ذا الذى

يدفع ؟) والمطلوب لقرانا اذن طموح مشروع معقول بلا غرور ، دون أن يتدهور التواضع الى ضعة مع ذلك .

ثالثا ، للتخطيط ان يفيد من كل خبرات الدول والاقاليم الاخرى ، ولكن عليه أولا وقبل كل شيء **ان يراعي ظروف بيئته المحلية وطبيعة اقليمه بمعطياته المادية والحضارية** . والتخطيط الذى يعارض البيئة عمدا أو يتجاهلها يدفع الثمن باهظا فى صورة خطة غير اقتصادية ، ان لم تكن فاشلة تماما .. ان التخطيط السليم ليس مبارزة ، ولكنه مؤازرة ، للطبيعة ، ليس تحديا للبيئة ، ولكنه اتحاد معها .. وبهذا وحده يستطيع أن يطوعها ويضمها الى صفه .

من هنا فلا محل لاهداف تخطيطية مستوردة ، ولا يمكن ان نفرض على قريتنا المصرية مثل الخارج بلا تمييز أو تعديل .. وعلى سبيل المثال ، فليس من المعقول أن ما يصلح لدولة — قارة كالولايات المتحدة ، يصلح لدولة — واحة لاتزيد مساحتها الفعالة عن مساحة ولاية مثل فيرمونت ، وهي من صغرى الولايات المتحدة . وما يصلح لاوربا الباردة المطيرة ، لا يصلح لمناخنا الحار الجاف . وهكذا .

رابعا ، الاصل فى التخطيط الاقليمي — وهو الذى تدخل فى بابه اعادة بناء قرانا — انه ذلك بالدقة : اعنى انه تخطيط أولا ، واقليمى بالدرجة نفسها : أى عملية تلاؤم مفكر واع مرن مع الاطار المحلى المعطى ومع معطيات البيئة بكل تفاصيلها وخصائصها الموضعية . ولهذا فلا مجال لصياغة بضعة مواصفات وانماط عامة تطبق بحذافيرها كالاقفاص الحديدية على كل قرية من قرانا .

قرية الصيد البحيرية ، مثلا ، غير قرية الزراعة النهرية .. والقرى الخطية على الترع غير القرى الدائرية البعيدة عنها . وقرى اطراف الصعيد التلية اوشبه التلية تختلف عن قرى أطراف الصحراء فى الدلتا ، وهذه عن القرى القريبة من المدن الكبرى التى قد تلتحم بها او تبتلع فيها .. بل ان لكل قرية على حدة ، رغم الفئات المتشابهة التى يمكن التعرف عليها تصنيفيا ، نمطها الخاص المنفرد ..

لهذا كله فلابد من دراسة أوضاع كل قرية على حدة دراسة تفصيلية ، وتحليلها تحليلا مستفيضا ، ثم تشكيل خطة اعادة بنائها على هذا الاساس . ومن هنا فان المسح الموضوعى ، المسح الجغرافى الشامل ، يجب أن يسبق الخطة ، وهو أولى الاولويات فى كل تخطيط .

أبعاد المشكلة

على انه أيا كانت أو ستكون الاهداف والمستويات التخطيطية التى قد تتبناها الخطة ، فلا مفر اولا من حصر المشكلة الراهنة وتحديد ابعادها الواقعية . هل نحن بصدد عملية ولادة مطلقة ، أم جراحة تحسين وتجميل ؟ هل المطلوب او المحتم ازالة القرية الحالية من جذورها وتشييد صرح جديد تماما بدلا منها سواء بجوارها أو محلها ، أم يمكن ويكفى تعديل البناء القائم بالتوسيع أو الخلخلة أو التقويم والتصحيح والتهذيب .. الخ ، بما فى ذلك هدم بعض المبانى المنفردة وبناء أخرى مكانها وعلى نفس رقعتها ؟

الرد يتوقف جزئيا على مستوى الاهداف التى ستتقرر ، ولكن ثمة على الاقل **حقيقتان موضوعيتان** لابد من وضعهما موضع الاعتبار. **فأولا** ، لنسجل أننا فى حالتنا لا نبدأ من نقطة الصفر ولا نخطط فى فراغ أوعلى صفحة بيضاء ، وانما من قرانا القائمة بالفعل ، وفيها كثير من المبانى الصالحة التى يجب الابقاء عليها ، جنبا الى جنب مع المبانى المتهالكة والآيلة التى لابد من تصفيتها . كذلك فان فى تركيبها وهندستها وتراثها الاجتماعى نقاط القوة الاصيلة التى ينبغى أن نفيد منها ونبقى عليها أو نحسنها ، كما أن فيها نقاط الضعف الموروثة أو المكتسبة التى لابد من ازالتها .

وباختصار ، فنحن ازاء **عملية اعادة بناء وتعمير** ، وليس عملية بناء بكر تماما . وهذه نقطة حيوية للغاية . ولئن خفف هذا من العبء الكلى ، فانه أيضا يحد من حرية الحركة ومدى المرونة للمخطط والمنفذ .

ولنسجل ، **ثانيا** ، اننا من الناحية الاخرى لن نخطط قرانا كل يوم او حتى كل جيل . والتخطيط — مثاليا — عملية خلق مستمر . ولكن الخطة التى نحن مقبلون عليها هى ، بكل تكاليفها الباهظة وصعوباتها البالغة ، فرصة ثمينة نادرة لن تتكرر او تتاح بسهولة مرة أخرى قبل وقت طويل .. انها نكاد نقول فرصة العمر ، ولا نقول خطة العمر .

ولهذا ينبغى أن ننتهزها لاحداث تغيير حقيقى وانطلاقة جذرية تتناغم مع العصر ، قابلة للنمو ، وتتسع لتلقى واستيعاب تطورات المستقبل غير المرئى . وعلى الاقل ، فلابد أن تأخذ فى اعتبارها خطة كهربة الريف التى بدأت بالفعل .. ومن

الضرورى كذلك أن نتصور يوما قريبا أو بعيدا قد تمتد فيه الخدمات الشبكية الاولية — المياه والمجارى ، فضلا عن الكهرباء — الى الجزء الاكبر من الريف .

ولا شك أنه قد اتضح الآن ان هناك تعارضا ما بين هاتين الحقيقتين . وفى هذا التعارض ستكمن حيرة المخطط طويلا . فاذا كان بالقرية مبان صالحة يجب الابقاء عليها ، فان الغالبية العظمى هى من أسف غير جديرة بالبقاء . وقد اجريت ابحاث واحصاءات كثيرة على عينات من قرانا ، فاتضح أن نحو ثلثى مساكن القرية المتوسطة على الاقل ، ونحو ثلاثة ارباعها على الاغلب ، وربما تسعة اعشارها احيانا ، متداعية رثة لا تصلح للاستعمال البشرى او هى آيلة للسقوط . كذلك فاذا رئى تخطيطيا التخلى عن اللبن كمادة بناء ، فمعنى ذلك على الفور التخلى عن كل مبانى القرية الراهنة تقريبا ، والبدء تماما من جديد ...

وفى وجه هذه الاختيارات والمتناقضات ، ظهرت منذ وقت مبكر فكرة تخطيطية ترى تخصيص مساحة من الارض تلاصق مباشرةكتلة القرية المبنية الحالية ، لتكون هى موضع القرية الجديدة ، ثم « تغلق » القرية القديمة عمرانيا ، أى يمنع اقامة مبان جديدة بها . وبدلا من كل منزل متداع وناضج للهدم فى القرية القديمة ، يبنى مسكن جديد فى القرية الجديدة . وهكذا ، حتى تتم عملية الاحلال والابدال كاملة ، فتكون قد اكتملت دورة سكنية نقلتنا بالتدريج بيتا بيتا من قرية قديمة الى أخرى جديدة ، دون أن تظهر فى المرحلة الانتقالية مشكلة اسكان العائلات التى صفيت مساكنها القديمة .

ولا شك أن فى الفكرة عناصر بناءة وايجابية جديرة بالاهتمام . بل لا شك أنها ستفرض نفسها كتكنيك أو كتكتيك تخطيطى فى بعض أو كثير من الحالات على الاقل . ولكن من المشكوك فيه أنها تقدم الحل الوحيد لقضية اعادة تخطيط قرانا بالافها العديدة .

واهم ما قد يؤخذ على هذه الخطة أنها بطيئة قد تمضى عقود قبل أن تتحقق ، كما أنها فى الاثناء قد « تعقم » الارض الزراعية المخصصة جانبا للقرية الجديدة ، فيظل بعضها بلا زراعة وبلا بناء فى الوقت نفسه . واخيرا فانها ، بما تحد من حرية الحركة ، قد تفوت علينا فرص التصحيح والتغيير الواسع المدى فى موقع القرية نفسه ، كنقلها مثلا الى مكان افضل داخل الزمام او الى رقعة من البور او التربة الرديئة ... الخ .

تشريح القرية المصرية

وعند هذا الحد من المناقشة ، فان من المفيد أن نرسم صورة تقريبية لتركيب القرية المصرية المتوسطة ، نتعرف من خلالها على قسماتها وملامحها السائدة ، تلك التى سوف يتعين على التخطيط ان يتناولها بالتغيير أو بالتعديل . وكما قلنا ، فان لكل قرية تقريبا وضعها الخاص وتفاصيلها ، ومع ذلك فمن المكن أن نحصر أو نستخرج القاسم المشترك الاعظم — أو الاصغر — بين قرانا ، وأن نشرح هيكلها العام ونحدد الضوابط الطبيعية الكامنة خلفه .

ولقد لوحظ فى كثير من البلاد أن هناك — ابتداء — وحدة عريضة فى التركيب المورفولوجى بين القرى والمدن ، بمعنى أن القرية والمدينة تميلان فى البلد الواحد الى أن تتشابها نسبيا فى الملامح والخطوط العريضة ، الا أن القرية اكثر بساطة وربما سذاجة ، حيث المدينة أكثر تركيبا وتعقيدا .

وليست مصر فى هذا باستثناء . ففيما عدا الحجم ومادة البناء ثم درجة التعقيد والتطور ، فان القرية المصرية العادية تكاد تبدى الصفات والسمات الاساسية التى نجدها فى المدينة المصرية المتوسطة — البندر التقليدى — سواء ذلك فى الموضوع أو الخطة أو الشكل بل وأحيانا فى بعض ملامح التركيب الوظيفى نفسه .

تكاد القرية المصرية كما وصفها البعض تمثل امتدادا راسيا تشكيليا للارض السوداء الافقية . فجسمها وارضيتها من تربة مصر مباشرة ، والكل مرتبط تماما بالبيئة النيلية الام ، ويستمد تجانسه من تجانسها . فالقرية التقليدية تقوم دائما على ربوة مرتفعة ، ان لم تكن طبيعية أحيانا «كالتل» او « الكوم » ، فانها غالبا صناعية مرفوعة ، محدبة كالصحن المقلوب . وتزداد الربوة علوا وارتفاعا عبر الزمن وعلى تعاقب الاجيال مع اندثار المساكن القديمة وبناء المساكن الجديدة فوق ركامها ورديمها . ويستطيع المرء عادة أن يحس بتحدب السطح ، ان لم يره بالعين ، وهو يصعد طرق القرية ودروبها فى اتجاه ويهبط عليها فى الاتجاه المضاد .

وترجع ضرورة الربوة الحتمية تلك الى طبيعة مصر الفيضية ، حيث كان الفيضان يغرق حياض الوادى كله شهورا ، لا تبرز منها الا المدن والقرى والحلات السكنية على قمم الاكوام كأنها

الجزر الارخبيلية . ولنفس السبب كانت القرية المصرية اساسا من الحـلات « النووية المجمعة NUCLEATED» » ، اى تلك التى تكون المساكن والمبانى فيها ملمومة فى كتلة واحدة متلاحمة .

والى حد بعيد ، حددت تلك القاعدة الارضية أيضا شكل القرية ، وربما خطتها كذلك ، فهى عادة أميل الى الشكل الدائرى التقريبى ، رغم الزوائد والاطراف المتمددة هنا وهناك احيانا .

ولا يستثنى من ذلك الا قرى الصيد البحرية والبحيرية فى شمال الدلتا ، ثم قرى النوبة النهرية (سابقا) ، الى جانب القرى التى تلتصق بالترع ، فهذه غالبا تجنح الى الاستطالة وقد تبدو كالشريط .

اما كتلة المبانى نفسها فمسطحة من طابق واحد ، قد ينقطها رشاش من البيوت ذات الطابقين على الاكثر ، ولكن تظل الافقية المطلقة أخص خصائصها وأبرز معالمها . أما مادة البناء الاساسية فهى الطوب الاخضر او النيىء بطبيعة الحال . وهو نبت البيئة مباشرة وقديم قدم تاريخنا ، حتى لقد غزت كلمة الطوب — وهى فرعونية الاصل — معظم اللغات الهامة ، فوصلت الى الانجليزية ((adobe)) عن طريق الاسبانية عن طريق العربية !

أما عن الخطة ، فلئن بدت القرية المصرية المتوسطة للنظرة العابرة ركاما عشوائيا لاشكل له ، فان لها فى الحقيقة خطتها التقليدية ، خطة بلا تخطيط كما قد نقول . فمن « داير الناحية » الحتمى الذى يلف بمحيط السكن ، تزحف طرق القرية من أطراف الحلة صاعدة الربوة الصناعية فى التواء معقد ومربك ، ولكن فى اتجاه واع نحو وسطها ، لا لتتصل عنده ولكن لتنتهى قبله فى نهايات مسدودة وازقة مغلقة تترك قلب القرية كتلة مبنية مصمتة . والنمط كله على التأكيد يرسم هيكل خطة مشعة دائرية radio-concentric وان كانت شديدة التميع والبدائية .

والكل بعد هذا جسم مضغوط متحوصل كانه تل النمل ، تختنق فيه الطرق اختناقا بعامل اقتصاد المكان ولكن أيضا طلبا للظل . وعلى أطراف الوادى الرملية قد يتراخى ضغط الارض فتنفسح رقعة القرية وتتسع طرقها ، وقد تستبدل الحجر خاما بدلا من الطين ، ولكنها تظل تحتفظ بأنماطها التقليدية .

ولقد كانت قرانا تنمو عادة الى الاحجام والاقطار التى بعدها يتحتم التكاثر بالانشطار ، فتنفصل عنها نويات جديدة تبدأ كبراعم فى مواضع مجاورة تحت أسماء مختلفة كالكفر والمنية والمبت او النزلة والنجع ... الخ ، ولكنها كانت دائما نسخا مصغرة من الخلية الام .

الا ان انقلابا تاريخيا جذريا فى نمط السكنى بدأ مع انقلاب الرى من الحوضى الى الدائم ، وغير كثيرا من تفاصيل الصورة . فمع الرى الدائم وضبط النهر ، انتهت ظاهرة غمر الحياض ، وبذلك تحررت القرية المصرية من عامل الحماية ضد الفيضان . فتخلصت أولا من اسار الكوم الصناعى وأصبح من الممكن أن تقوم افقيا على الارض المسطحة المستوية ، التى مكنت بدورها لظهور الاشكال المستطيلة وخطة الشوارع المستقيمة المنتظمة .

كذلك أمكن لها ان تظهر بأحجام صغيرة ، بحيث اقترب السكن بصورة أو بأخرى من النوع « المبعثر DISPERSED » . وهنا ولدت العزبة ، التى هى بنت المائة سنة الاخيرة أو المائة ونيف على الاكثر ، والتى انتشرت فى العقود الاخيرة بوجه خاص انتشارا هائلا لتصبح معلما من أبرز معالم اللاندسكيب الريفى . كما ترتب على ذلك أن تغير هرم أحجام القرى والحلات فى مصر .

فالى جانب نحو ٤٠٠٠ قرية ، هناك الان نحو ٢٨ الف حلة صغيرة مبعثرة أغلبها من العزب . ولما كان عدد سكان الريف نحو ١٩ مليونا ، فان متوسط حجم القرية يتراوح بذلك بين ٤٠٠٠ ، ٥٠٠٠ نسمة . واذا كانت هناك قرى تصل اليوم الى ٢٠ الفا بل والى ٣٠ الفا (سرس الليان مثلا) ، فالواقع أن حوالى ٦٥٪ من قرانا يتراوح فعلا بين ٢٠٠٠ ، ٥٠٠٠ فى المتوسط . وعلى الجانب الاخر فان كثيرا من العزب والحلات المبعثرة لا تزيد على مائة أو بضع مئات ، ولكل فئة من فئات الحجم هذه مشاكلها التخطيطية المعقدة كما سنرى .

عناصر اعادة البناء

لعلنا الان بحيث نستطيع أن نقرب عدستنا اكثر الى المشكلة ، حتى نقترب من دقائقها وتفاصيلها . ويمكن ، بقصد تفتيت المشكلة ، أن نحللها الى عواملها الاولية التى سيكون على المخطط ان يتخذ سياسة محددة بشأنها . وهذه تنحصر اساسا فى العناصر الخمسة الاتية :

المادة الخام : من الطين الى الرمل

بالاخيرة ، المادة الخام ، نبدأ . فرغم أنها منطقيا تأتي في النهاية ، الا انها في حالتنا بالذات ستحدد وتحسم كثيرا من الخطوط التي ستتبعها العناصر الاخرى ، بل وربما جوهر الخطة جميعا . ذلك انه اذا ما اريد استبعاد الطوب النيىء نهائيا كخامة بناء ، فسنكون بازاء عملية ولادة جديدة كاملة للقرية بأكملها ، ومن ثم للريف بأسره . أما اذا رؤى الابقاء عليه ، فستلتزم الخطة بالحلات الراهنة مع اعادة تخطيطها وتشكيلها أو ترقيعها ... الخ .

وللطوب الاخضر — مازال — أنصاره والمدافعون عنه . فهو خامة تشكيلية (بلاستيك) سهلة الصب والتناول ، ولكن ميزته الكبرى انه — على النقيض تماما من الاسمنت — المادة العازلة بامتياز ، أداة تكييف طبيعية للحر والبرد على السواء . على أن نقطة ضعفه الخطيرة انه بلا مواربة مادة غير حضارية على الاطلاق . ومهما غلف بالطلاء الابيض أو غير ذلك ، فليس هناك أى مناقشة فنية أو غير ذلك يمكن أن تقنعنا به بيئة للسكن الانسانى الكريم فى الثلث الاخير من القرن العشرين . بل لعله أن يكون نقطة الضعف الكبرى ، ولا نقول النقطة السوداء ، فى القرية المصرية جميعا ، تلك التى جعلت أحد الكتاب يصف الفلاح قبل الثورة بأنه يعمل فى الطين ، ويعيش فى الطين ويشرب من الطين .

والواقع انه فيما عدا الوظيفة فان الفارق اللاندسكيبى الجوهرى بين صغار المدن الاقليمية وكبار القرى كاد أن ينحصر فى مادة البناء : الاولى تلبس عمارة من الطوب الاحمر ، والثانية عمارة من الطوب الاخضر . حتى ليوشك رفع القرية الى مستوى المدينة أن ينحصر أساسا فى تغيير مادة بناء الاولى ، أكاد أقول — مجازا ! — فى « حرقها » داخل قمائن هائلة ... ومن الناحية الاخرى ، فمهما خططت فى كيان القرية ثم احتفظت بطوبها النيىء ، فانت انما تستبدل رثاثة أو بؤسا منظما مهندسا برثاثة أو بؤس فوضوى مرتجل .

وعلى اية حال ، ولحسن حظ الجميع او غير ذلك ، فلقد حسم السد العالى الموقف ، ولم تعد المشكلة هى التخلص من الطين ، وانما الحصول عليه فحتى الطوب الاحمر أصبح فى أزمة ، وحتى المدينة أصبحت فى أزمة منه ، لقد انتهى — باختصار — عصر الطوب النيلى ؟ وبدأ بالضرورة عصر الطوب الرملى ، سواء ذلك بالنسبة القرية أو المدينة . ولعل مفتاح اعادة بناء القرية يكمن الان فى هذه الخامة . والمطلوب فقط هو العثور على صيغة اقتصادية لانتاج واستخدام الطوب الرملى على مستوى البلد ريفا وحضرا . كذلك يمكن فى الاثناء وفى الاطراف استخدام الحجر مادة بناء ، لاسيما فى قرى اطراف الصعيد حيث تتوفر المحاجر .

على أن التحول من الطين الى الرمل يثير ، ان تم ، بعض التساؤلات عما يمكن لنا أن نفعل بمخلفات ازالة القرى القديمة اثناء المشروع . أمن الممكن فنيا اعادة تكسيرها وخلطها ثم تشكيلها طوبا احمر للافادة منه فى مراحل المشروع التالية ؟ ومخلفات ربوة القرية الصناعية ، التى ستلغى الحاجة اليها ، أتصلح هى الاخرى لاعادة استخدامها فى نفس الغرض ، أو — حكم الكفرى — فى اغراض الزراعة ، أو للارض والطرق الزراعية أو ردم البرك ؟ تلك وامثالها اسئلة واردة ومطروحة ، ولكنها متروكة للفنيين .

الشكل : التجمع ضد التبعثر

اما العنصر التالى فى اعادة بناء القرية فهو الشكل . واذا كانت القرية المصرية تمثل نمط التجمع النووى خير تمثيل ، فان العزبة نمط انتقالى متوسط بينه وبين نقيضه وهو التبعثر السديمى المطلق الذى ينتثر فيه السكن انتثارا كاملا فيقع كل مسكن وسط حقله أو مزرعته . ويوجد هذا النظام المبعثر فى كثير من الاقاليم ، خاصة البلاد الجديدة مثل كندا والولايات المتحدة (homestead) وفى قطاعات من أوربا ... الخ .

وفى مصر نادى كتاب ومخططون منذ بعض الوقت بتبنى الشكل المبعثر فى تعمير الاراضى الجديدة المستصلحة فى برارى شمال الدلتا ، وطبقت بصورة ما فعلا فى بعض « اقطاعيات » الخريجين الزراعيين ، كما اثيرت اخيرا بمناسبة مشروع اعادة بناء القرية .

وجدير بالذكر أن لكل من التجمع والتبعثر مزاياه وعيوبه . **فالتجمع** يسمح بقيام حياة اجتماعية حميمة ، غنية بالخدمات المركزية الاجتماعية والتعاونية ، كالتجارة والتسويق والتعليم والعبادة والتعاونيات ، فضلا عن الامن والادارة ... الخ . ولكن **يعيب التجمع** من الناحية الاخرى الفصل بين مكان السكن ومكان العمل ، مما يحتم رحلة الصباح والمساء ذهابا

وايابا بين القرية والحقول . وتزداد الرحلةطولا ومشقة كلما تضخمت القرية واتسع قطرها وكلما ترامت مساحة زمامها . وهذا قد لا يتيح للفلاح العناية الكاملة والتواجد الدائم بزراعته ، وقد يحول دونه وانواعا ثمينة بعينها من الزراعات ، كالمحاصيل البستانية والخضروات التى تتطلب رعاية خاصة .

على العكس من هذا التبعثر ، يلغى الفصل بين السكن والعمل ، ويختزل الرحلة اليومية الى الحقل ، ويتيح للفلاح حرية الحركة والاختيار محصوليا ... الخ . الا أنه من الناحية الاخرى يتركه فى عزلة قاسية وحياة فردية قاحلة بلا تعاون ، فقيرة فى الخدمات المركزية ، تحتم عليه كثرة الانتقال الى اقرب الحلات المركزية للتسويق او التعليم أو .. أو .... الخ . وقديما قيل « ساكنو الكفور ، ساكنو القبور » ، اشارة الى حياة العزلة والوحدة الموحشة .

واضح اذن ان هناك دائما وبالضرورة قدرا ما من التعارض بين متطلبات العمل الزراعى نفسه ، وبين حاجات الحياة الاجتماعية ، بين الانتاج وبين الخدمات . وواضح كذلك أن التجمع أصلح للاخيرة ، والتبعثر أصلح لاغراض الاولى . وواضح أخيرا أن التجمع أنسب للمجتمعات الزراعية المتخلفة الكثيفة السكان ، حيث مساحة الارض محدودة والملكيات صغيرة والميكنةضئيلة، بينما أن التبعثر ملائم جدا للمجتمعات المتقدمة خاصة البلاد الجديدة الشاسعة المساحة حيث الملكيات بالاف الافدنة والمزارع كالمستعمرات (الابعاديات) والميكنة على أشدها .

وفى مصر ، فان التجربة الواقعية قد أثبتت عدم نجاح التبعثر كشكل للسكنى ، لافتقاره الى الخدمات المركزية والتعاونية ، وأكثر منها الى الخدمات الشبكية بالذات ، كالكهرباء والمياه والمجارى والمواصلات التى تصبح تكاليف مدها باهظة وغير اقتصادية على الاطلاق .

وقد لوحظ أن المساكن المنفردة التى بنيت للخريجين الزراعيين وسط « اقطاعياتهم » فى شمال الدلتا لم تلبث أن هجروها وتجمعوا تلقائيا فى نواة مركزية ملمومة بقوة هذا العامل وحده . والدرس نفسه كررته تجارب الاراضى المستصلحة اخيرا فى عهد الثورة بشمال الدلتا .

وعلى مستوى العالم ، فان الاتجاه الحديث هو أيضا الى ترجيح السكنى المجمعة ، حيث لا مكان الان للعزلة . ولهذا فنحن نخلص الى تفضيل السكنى المجمعة ، ولا نرى مكانا فى خطة اعادة بناء القرية للسكنى السديمية المشتتة .

الحجم : بين الخف والضم

وهذا ما ينقلنا تلقائيا الى عنصر الحجم فى الخطة . والمشكلة عندنا ليست الحجم الكبير ، فيما عدا أن القرى الضخمة تحتاج الى مزيد من الخدمات الحديثة والمرافق والتسهيلات (ولا نقول المرفهات) الحضارية . الاحجام الصغيرة هى المشكلة الحقيقية ، وهذه كما رأينا تكاد ترادف العزب والحلات القزمية . فهذه التجمعات الضئيلة ، التى نشأت عادة فى ظل الاقطاع ولخدمة أبعادياته وملكياته الواسعة ، محرومة من أبسط الخدمات العادية ، فضلا عن الخدمات المركزية ، وتعيش فى عزلة كئيبة خاصة فى وحل شتاء الشمال .

وقد اثبتت الابحاث التخطيطية أن هناك حدا أدنى من الحجم ، أسفله يعجز كثير من الخدمات المركزية عن الظهور ، لان عدد السكان وحاجاتهم وامكانياتهم لا تمكن لها . فالمدرسة الابتدائية أو الاعدادية تحتاج على الاقل الى بضع مئات من التلاميذ ، وبالتالى بضعة آلاف من السكان ، حتى تقوم .. وهكذا قل عن المستشفى ، عن عيادة الطبيب ، حتى عن بعض أنواع المتاجر .. الخ . وكلما ارتفع المستوى النوعى للخدمات ، كلما تحتم زيادة حجم السوق ، أى الرواد ، أى السكان .

على أن التعليم بالذات يعد مقياسا حساسا فى هذا الصدد . وقد وجد أن ٥٠٠ نسمة هو بصفة تقريبية الحد الادنى الذى يكفل مدرسة أولية (ابتدائية) بصورة معقولة . ولهذا نجد كثيرا من أطفال تلك العزب والحلات الصغيرة يتكبدون مشاق رحلات طويلة وخطرة ومكلفة الى أقرب القرى الكبيرة للتعليم — أو قد « يتسربون » .

وفى مجال آخر لا يقل اهمية ودلالة ، اذا كانت الوحدات الصحية المجمعة ، التى تخدم كل واحدة منها عددا من القرى والعزب فى دائرة واحدة ، قد حلت بعض صعوبات هذه التجمعات، فان المشكلة الاساسية تظل قائمة .

لهذا يجمع الكثيرون على ضرورة اخضاع وحدات ريفنا لعملية خف (كخف الذرة) من ناحية ، وعملية ضم (كضم القمح) من ناحية اخرى . وكما حدثت عملية تجميع الملكيات الزراعية remembrement **، يحتاج السكن الى عملية تجميع مماثلة . وهناك من هذه الزاوية آلاف الحلات تنتظر مشروع اعادة بناء القرية .**

ومن الممكن فى هذا الصدد أن ننتهز الفرصة لنضع خطة طويلة المدى لاعادة توزيع أحجام قرانا ومدننا فى نظام تركيبى متماسك ، تخدم فيه كل مدينة اقليمية هرما عنقوديا أو شجريا متدرج الطبقات من المدن الصغرى والقرى . ونظام كريستالر CHRISTALLER السداسى الشهير » هو هنا أنسب الانماط وأكثرها كفاءة ، وقد طبق بنجاح وفاعلية فى التخطيط الاقليمى فى أجزاء كثيرة من أوربا .

الخطة والكثافة

فى خطة القرية المصرية السائدة عناصر ثمينة ينبغى الاحتفاظ بها والحفاظ عليها ، مع شىء من تهذيب أو تطوير . فالخطة الدائرية المشعة هى أنسب خطة للحركة وللتكامل ، تحقق المركزية وتمنح القرية . وفى حالة القرى الجديدة ، سيكون من المغرى جدا فرض الخطة الهندسية المنتظمة ذات الشوارع المستقيمة والزوايا القوائم . ولكن هذه البساطة والسهولة لها عيوبها الكثيرة ، كما أثبتت التجربة الامريكية خاصة .

وكل المطلوب فى قرانا هو تقويم الشوارع والدروب وتهذيبها ثم فتحها فى وسط القرية . أما الازقة المغلقة ، تلك التى طالما افترى عليها ، فلقد أعاد التخطيط الحديث فيما يلوح كشف قيمتها ، اذ ليس من الضرورى أن تكون كل الشوارع السكنية مفتوحة نافذة ، ويكفى أن توفر الخروج لكل مسكن يطل عليها ، ليتوفر له بعد ذلك الهدوء والبعد عن حركة المرور .

على أن القضية الكبرى انما تكمن فى مسألة الكثافة ، كثافة البناء والمبانى . ولا جدال أن قرانا تحتاج الى خلخلة كبيرة ، وطرقها تحتاج الى توسيع محسوس . لكن الخطر الاكبر هو الافراط . وفى بعض قرى الاستصلاح الحديثة النشأة اسراف واضح ، لا مبرر له باجماع النقاد والاراء ، فى سعة الشوارع . فأولا ، لنتذكر أن الضيق ــ أو بالاصح الاتساع ــ المعقول انسب فى المناطق الحارة لأنه يوفر الظل (قارن مناطق البحر المتوسط مثلا ، من اسبانيا حتى اليونان) . وثانيا ، وهو الاهم ، فان أرض مصر ، الضيقة المحصورة ، اثمن جدا من أن تبدد فى البناء والطرق المسرفة .

ان عامل اقتصاد المكان ، نحن نلح ، يجب أن يسود ويسود دائما . ويكفى أن الاستعمالات غير الزراعية (المدن + القرى + الطرق + الترع) تبتلع الان نحو المليون فدان من كل رقعة مصر المعمورة . ولا محل لدينا بالتأكيد للمثل والمستويات الامريكية أو حتى الاوربية (يخص كل فرد فى أمريكا من مساحة الارض ١٤ فدانا ، مقابل خمس فدان فى مصر ، أى واحدا على سبعين من المعدل الامريكى !) .

كذلك فلا مبرر حقيقى فى قرانا المجددة لفكرة المساحات الخضراء فى القلب أو وسط السكن . فقطر القرية برمته متواضع ، والريف المكشوف حولها هو « نطاق أخضر » طبيعى ، وهى وسطه جزيرة بالغة الضآلة ونظرية النطاق أو الاسفين الاخضر انما جعلت للمدن بأقطارها المترامية .

على أن الاهم من الجميع هو التوسع الرأسى فى كثافة البناء . فمن الواجب حقيقة على التخطيط القادم أن ينظر بجدية فى مبدأ مضاعفة طوابق المسكن القروى بدلا من انسياحه الافقى المفلطح فى طابق وحيد كسيح . فبضربة واحدة يمكن اكتساب نصف الارض المبنية واستنقاذها للزراعة ، على الاقل لتعوض عن الارض التى ستحتاج اليها التوسيعات الجديدة فى عرض الشوارع ومسطحات المساكن ... الخ . ولا يقال فى هذا ان تقاليد الفلاح من الاحتفاظ بماشيته بجواره وتحت سقف واحد هى العقبة ، اذ لا يجوز أن يكون الحيوان هو الذى يحدد ــ يخطط ! ــ للانسان شكل المسكن .

وبعد ، فان « القرية السعيدة » ، مطلب مصر ، هى تلك التى تتوازن فيها عناصر الحياة ويتحقق لها التوازن الايكولوجى بين البيئة والانسان . هى مجتمع المساكن الذى يقدم أنسب بيئة وبيت لمجتمع السكان . وهى أخيرا تلك التى تأخذ من تراث الماضى بقدر ما يصلح للحياة فى المستقبل ، ومن المستقبل بقدر ما يطيق الحاضر . وفى جميع الحالات ، فان التخطيط هو المفتاح وكلمة السر .

حصار امبريالى صهيونى حول حصن الثورة فى عدن

د. محمد على الشهارى

أصبحت المكانة البارزة التى تحتلها اليمن الديمقراطية فى صف قوى الثورة العربيـة كافية لاستثارة قـوى الامبريالية وعملائها فى المنطقة ، وجعلهم يلجأون إلى العمل من خـلال العـدو الصهيونى نفسه ، وتهيئة الظروف له ، واطلاق يده ضد عدن وتشجيعه على بسطها على المدخل الجنوبى للبحر الاحمرحتى تكتمل له السيطرة على هذا البحر من شماله الى جنوبه ، وحتى يعمم عدوان ١٩٦٧ آخر نقطة فى الوطن العربى من جهة الجنوب .

ولهذا الغرض قامت الامبريالية الامريكية — كما ذكرت مصادر عدنية مطلعة — بتأجيرجزيرتى جبل الطير وحنش الواقعتين فى جنوب البحر الاحمر الى اسرائيل ، وهما الجزيرتان اليمنيتان اللتان سلمتهما بريطانيا الاستعمارية الى اثيوبيا عام ١٩٦٥ بدعوى تبعيتهما لاريتريا ، واجرتهما الحبشةلامريكا ، مما استدعى مجلة روزاليوسف فى ٢٨ — ٦ — ١٩٧١ ، ص ٥٣ الى التنبيـه الى هـذه المخاطر النـاجمـة من « استئجار اسرائيل لجزيرتين تطلان على باب المندب الذى يشكل عنق الزجاجة الجنوبى للبحـر الاحمر ، وبنائها لقواعـد الرادار ، والتوجيه الجـوى ، والمفاوضات الاسرائيلية التى تدور حول بنـاء مستعمرات اسرائيليـة على الحدود الشرقيـة للسودان » .

ولقد كانت الاستراتيجية العسكرية والاقتصادية الاسرائيليـة تقوم — منـذ اسـتقلال اليمـن الديمقراطية — على أنه « طالـما أن المدخـل الجنوبى الشرقى للبحر تسيطر عليه دولة عربية فلابد لاسرائيل من الاحتفاظ دائما بحكومة صديقة على الجانب الغربى لهذا المدخل » ، تساعدها

وتمكنها من كسر حلقة الحصار العربى المضروب عليها ، وتكون لها رقبة جسر للانطلاق نحو العالم الاسيوى — الافريقى ، ذلك « ان موقع اسرائيل الجغرافى يجعل شواطىء أفريقيا الشرقية اقرب شواطىء العالم الثالث اليها ، ومنها تستطيع أن تصل الى غيرها من الدول الافريقية — الاسيوية » من حيث يتأتى لها التغلغل ، ومدنفوذها الصهيونى،ونفوذالاستعمار الجديد معها — عن طريق تقديم المساعدات العسكرية — الى دول القارة ، وتثبيت اقدامها بصورة خاصة فى أثيوبيا ، وأوغندا ، والكونغو كنشاسا ، والعمل على قلب الحكومات الوطنية فى المنطقة ، وتدبير الحركات الانفصالية فيها ، كما صنعت فى أوغندا حيث اكد الرئيس الوطنى السابق ميلتون أوبوتى أن اسرائيل كانت وراء الاطاحة به من السلطة ، وكما اكدت ذلك جريدة التايم فى ٣١ — ٥ —١٩٧١ من أن « انقلاب أوغندا الاخير تم بمعرفة المستشارين العسكريين الاسرائيليين ، كما أن عملاء اسرائيل المتحركين فى جنوب غرب أثيوبيا يديرون حركة الانفصال فى جنوب السودان(١) .

من ذلك يتضح أنه فى الوقت الذى يرتب فيه الاستعمار أوضاعه من جديد فى الخليج العربى وعمان ، ويطوق على هذا النحو قاعدة الثورة فى عدن بحزام معاد من جهة الشرق والشمال فانه يقوم بهجوم مركز — بالتعاون التام مع حليفته وأداته اسرائيل — فى منطقة شرق أفريقيا ، بغية الاحاطة بالثورة الوطنية فى اليمن الديمقراطية ، وخنقها ، وخنق الحكومات الاخرى المجاورة لها ، والمناوئة للاستعمار ، فى تنزانيا والصومال ، وذلك هو ما حذرت منه ، ونبهت اليه بقوة صحيفة (ديلى نيشن) النيروبية — كما اقتبست منها الجمهورية القاهرية فى ١٢ — ٧ — ١٩٧١ — عندما كتبت : « أن مجتمع شرق أفريقيا فى خطر من أن يكتسحه التيار المعادى الذى بدأ منذ الاطاحة بميلتون أوبوتى » وذلك ما نبهت اليه وسائل الاعلام فى تنزانيا حيث أصدرت « الصحافة التنزانية سلسلة من المقالات الرصينة توضح فيها حقائق الاخطبوط الاسرائيلى ، كما أن الاذاعة نظمت بدورها سلسلة من الندوات التى تتحدث عن هذا الاخطبوط » وحيث غدا واضحا للعيان أن النشاط الامبريالى الصهيونى فى شرق أفريقيا لا يستهدف فقط محاصرة واسقاط الانظمة التقدمية هناك كجزء من المخطط التوسعى فى داخل القارة ، ولا يطمح فقط الى الالتفاف حول المدخل الجنوبى للبحر الاحمر ، وتطويق المواقع الثورية المطلة عليه ، والتآمر عليها ، وعلى رأسها حصن الثورة اليمنية فى عدن ، وانما يهدف فوق ذلك كله الى استكمال ضرب الحصار على قوى الثورة العربية المرابطة فى جبهات القتال فى شمال الوطن العربى ، حتى غدا من اللازم القول بأنه اذا كانت هناك اهمية للجبهة الشرقية على خط القتال ، واذا كانت هناك اهمية للجبهة الغربية الممتدة اليوم على خط القناة فالجبهة الثالثة التى لا تقل عنهما شأنا هى الجبهة الافريقية التى يحاول العدوان يطوقنا بها ليطعننا عن طريقها من الخلف »(٢) وضمن هذا الاطار من عملية التآمر الامبريالى — الصهيونى الواسعة على مؤخرة ومقدمة الثورة العربية يمكن وضع الزيارة التى قام بها رئيس أوغندا عيدى أمين ، والتى لم تجد صحيفة « معاريف » الاسرائيلية حرجا من أن تصفها بصراحة بأنها كانت فرصة هامة « لتنظيم سياسة اسرائيل الخارجية(٣) ».

مد الذراع العدوانية من شمال البحر الاحمر الى جنوبه

ومنذ عدوان يونو ١٩٦٧ على شمال الوطن العربى ، واسرائيل — حسب تخطيط أمبريالى — صهيونى مشترك — تعمل جاهدة من اجل التحضير لمشاريعها التوسعية فى جنوبه ، حتى يتسنى لها اتمام حلقة التطويق الشاملة التى تسقط بها وفى دائرتها المشرق العربى كله ، وتتحكم فيه ، تمهيدا للتحكم فى منطقة الشرق الاوسط جميعها .

ومن هنا اهتمام الصهيونية والامبريالية المبكر بأن يكون لاسرائيل وجود حقيقى على ساحل أريتريا ، ليكون بمثابة « امتداد عسكرى للسيطرة على مدخل البحرالاحمر منجهة ومراقبة تحركات جمهورية اليمن الشعبية والصومال من جهة ، وجمهورية السودان من جهة ثانية ، وتطويق الجمهورية العربية المتحدة آخر الامر » . ولذلك تجهد اسرائيل بدعم من واشنطن من أجل « السيطرة على جميع الجزر من ايلات الى باب المندب لتؤمن الطريق لتجارتها الواقعة هناك ،

---

[١] الاهرام ١٩٧١/٦/١٨
[٢] الاهرام ١٩٧١/٧/١٩ ، الوجودالاسرائيلى فى طريق العودة الى تنزانيا — د. بطرس بطرس غالى
[٣] الجمهورية ١٩٧١/٧/٢١

ومن شرم الشيخ الى باب المندب هناك خمس عشرة « جزيرة ورأسا ومضيقا تعمل اسرائيل بكل طاقتها للاستيلاء عليها ، والهدف السياسي من هذه العملية ان أية دولة تريد الاستيلاء على ما كان يسمى قديما امبراطورية السويس البريطانية عليها أن تسيطر على حدودها كاملة، لكى لا تفلت القناة من يدها » .

وبذلك اتسعت ساحة الصراع من شمال البحر الاحمر الى جنوبه ، وامتد النزاع العربى مع المطامع التوسعية الصهيونية — الامبريالية من قناة السويس وخليج العقبة الى مضيق باب المندب وخليج عدن ، ولا سيما بعد أن « اصبحت قناة « مصوع » القاعدة الاساسية للقوات الامريكية الاسرائيلية » حيث يوجد « خط حديدى خاص يصل ميناء « مصوع » بقاعدة أسمرة الضخمة المتصلة بعدد من الرادارات الصغيرة موزعة على الجزر ، ويشرف عليها ضباط اسرائيليون،وتقوم هيئة أركان الحرب الاسرائيلية برحلات تفتيش بحرية وجوية وبرية فى منطقة تمتد بين « شارن » و « عصب » وقد درست احتمال القيام بعملية حربية ضد ميناء عدن ، وأعد سباحون مقاتلون ، لكى يعملوا فى الوقت المناسب على تأمين وصول ناقلات النفط الى ايلات » (٤) .

لقد غدا الساحل الاريترى قاعدة عسكرية بعدة رءوس موجهة الى عدن والى اكثر من قطر عربى ، ولم يعد « خافيا ان عددا من الجنرالات الاسرائيليين يتولون تدريب القوات المكلفة بمطاردة ثوار أريتريا ، كما يشرفون بأنفسهم على تزويد المتمردين فى جنوب السودان بالمؤن والعتاد والسلاح من الجو » (٥) وذلك هو ما اكده رئيس هيئة الادعاء السودانى أثناء محاكمة المرتزق الالمانى العربى شتاينر بقوله : « كان العسكريون الاسرائيليون يقومون بزيارات لم تنقطع لمعسكرات المتمردين فى جنوب السودان وكانوا يلقون الاسلحة والعتاد الحربى والاطعمة من خلال الطائرات التى تخرج من قواعد احدى الدول المجاورة» . وهو ما اعترف به شتاينر نفسه من ان هذه القواعد العسكرية الاسرائيلية تنشط من أثيوبيا (٦) وتتمثل القواعد الثابتة الاسرائيلية على الساحل الاريترى المهددة لمضيق باب المندب فى « أرخبيل دهلك » و « شبير » حيث توجد منشئات للتدريب تحت الماء » — فى خليج عصب ، وحيث « تسيطر القوات الاسرائيلية على جزيرتى « حالب » و « فاطمة » ، وقد رممت الميناء الايطالى القديم ، وانشأت مطارا عسكريا تستطيع بوساطته اغلاق المدخل الجنوبى للبحر الاحمر .

مضيق باب المندب بعد السويس

ومنذ اغلاق قناة السويس ، واسرائيل تفكر فى مضيق باب المندب ، وكيفية وضع يدها عليه، ولا سيما بعد أن انشأت خط انابيب ايلات — عسقلان — كبديل لقناة السويس — لتدفع عن طريقه بترول الخليج العربى الى أوربا الغربية ، تحقيقا لحلمها فى أن تصبح « احدى الدول الكبرى فى العالم في مجال نقل البترول وتسويقه » كما قالت صحيفة « دافار » فى ٢٤ كانون الاول ١٩٦٦ » (٧) .

وفى ضوء هذه الحقائق الخطيرة والدامغة تتكشف مرة واحدة مخططات اسرائيل التوسعية والعدوانية — المعززة من الامبريالية الامريكية — تجاه ساحل عدن الاستراتيجي المسيطر على الطريق الى الخليج العربى ، والمحيط الهندى ، وتجاه حكومة عدن الثورية نفسها .

وكعادتها فى جمع الذرائع المفتعلة ، والحجج المصطنعة التى تبرر بها أعمالها العدوانية فان اسرائيل قد بدأت منذ حين فى شن الحملات الدعائية ضد حكومة اليمن الديمقراطية،مستغلة حادث ضرب ناقلة النفط «كورال سى» التى كانت ترفع علم ليبريا ، وتحمل شحنة نفط من الخليج العربى — فى ١١ — ٦ — ١٩٧١ أثناء عبورها مضيق باب المندب ، من قبل زورق مسلح تابع للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، حيث أعلنت جولدا مائير أن ذلك « عمل خطير جدا » و « أن اسرائيل ستتخذ الاجراءات الضرورية لتأمين حرية الملاحة الى موانيها » ، وحيث أعلن مجلس الوزراء الاسرائيلى — عقب اجتماع خصص لبحث دلالة هذا الحادث — أن اسرائيل تنظر نظرة خطيرة اليه ، وأنها — كما صرح وزير الدفاع موشى ديان — ستنفذ كافة « الاجراءات الضرورية » لضمان وصول الناقلات التى تحمل البترول الى اسرائيل خلال البحر الاحمر دون اعاقة ، نظرا لان هذا العمل — كما صور المعلقون العسكريون فى اسرائيل — يعد أخطر ضربة تعرضت لها الملاحة الاسرائيلية مؤخرا ، وأنه يرقى الى مستوى قرار الرئيس جمال عبد الناصر فى يونية

---

[٤] الصياد ، بيروت ، ١٩٧١/٥/٢٠نقلا من كتاب بياروسى ،« مفاتيح الحرب فى الشرق الاوسط » .
[٥] الجمهورية ١٩٧١/٧/١٥
[٦] الاهرام ١٩٧١/٨/٦،١٩٧١/٨/١١
[٧] الصياد ١٩٧١/٥/٢٠ ، ١٩٧١/٦/٢٤.

١٩٦٧ باغلاق مضايق تيران والذى أعقبه العدوان الاسرائيلى .

وفى تحديد المسئولية عن هـذا الهجـوم لم تقف اسرائيل عند بلاغ الجبهـة الشعبية التى اعلنت مسئوليتها عنه ، وأنما وجهت الاتهـام مباشرة الى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية بحجة وجود علاقة لها بالجبهة الشعبية ، ولان الهجوم وقع قرب جزيرة بريم (ميون) التابعة لها . ولذلك أخذ المسئولون يطلقون سيلا مـن التهديدات ضد حكومة اليمن الثورية ، عبر عنها وزير الخارجية ابا ايبان بقوله : « ان الذين يحمون مرتكب هذه الاعمال يتحملون مسئولية النتائج المترتبة عليها» وأفصحت عنها المصادر الاسرائيلية الاخرى باعلانها ان « حكومة اسرائيل التى تعتبر جمهورية اليمن الديمقراطية « مسئولة » عـن الحادث قد بعثت انذارا عن طريق حكومة ليبريا وعدد من المنظمات الدولية » ، وكررتها صحيفة « بديعوت أحرونوت » عندما كتبت « ان الذين قاموا بالهجوم لم يكونوا يستطيعون ذلك دون رضاء اليمن الديمقراطية الشعبية ، ومن هنا مسئولية حكومة عدن عن الحادث »(٨) وصحيفة « معاريف » عندما أشارت الى أن هذه العملية لا يمكن تنفيذها فى سرية « ولن تستطيع سلطات اليمن الجنوبيـة التهرب مـن مسئوليتهـا ، وباستطاعة الجيش الاسرائيلى الوصول الى مكان الشغب ، وسيصل اليه اذا ما تعرضت ملاحتنا الحـرة « للخطـر »(٩) وهى التهـديدات التى توجهـا مصـدر اسرائيلى ــ وصـفته وكالة اسوشيتدبرس بانه مسئول كبير ــ بتصريح قال فيه أن اسرائيل « لن تتسامح تجـاه هذا العمل ، وان طائرات الفانتوم التى تملكها اسرائيل يمكنها أن تطير الى جزيرة بريم ، وتعود الى اسرائيل مع تزويدها بالوقود فى منتصف المسافة(١٠) .

واتضح أن المطامع الصهيونية والامبريالية قد بلغت حدا من الشطط بدا معه أنها ترى أن السيطرة على قناة السويس لا تكتمل ، ولا تبلغ مداهـا اللازم بدون السيطرة على مضيق باب المندب ، وخنق حكومة عدن الثورية .

وقد كشفت صحيفة « معاريف » النقاب عـن « مخزون » السخط الجارف الذى يتملك الدوائر الصهيونية والامبريالية ازاء جمهورية اليمـن الديمقراطية المناوئة للاستعمار والنازية الحديثة والذى يكمن وراء وضع خطط التربص بهـذه الجمهورية الفتيـة عنـدما كتبت بأن « اليمن الديمقراطية دولة « متطرفة » بل « وخاضعة للنفوذ الصينى »(١١) ولم تـكن زيارة بارليف الاخيرة الى اثيوبيا ــ بعد أوغندا ــ الا لرسم الخطط العدوانية ضد عـدن والدول الثوريـة المحيطة .

ان ابعاد المخطط الامبريالى ــ الصهيونى ــ الرجعى غير خافية على قادة الثورة اليمنية ، فبلهجة التحذير والتنبيه الى النذر الاولى لهذا المخطط يشير رئيس حكومة اليمن الشعبية على ناصر محمد ، مؤكدا أن اليمن الديمقراطية «معرضة لعملية غزو على غرار عملية خليج الخنازير التى دبرتها المخابرات الامريكية ضد كوبا عام ١٩٦٣» وأن « هناك تحركات أمريكية واسرائيلية مريبـة تثير الشكوك فى البحر الاحمر ، والمحيط الهندى ، بدعوى تأمين مرور السفن الاسرائيلية عبر مضيق باب المندب وان « آلافا مـن المرتزقـة » الذين يحمـلون « أحـدث أنواع الاسـلحة الامريكية والبريطانية » يتخـذون « مواقع انطلاق لهم فى شمال اليمن » (نشرة أسبوعية تصدرها سفارة جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية فى القاهرة فى ٢ ــ ١١ ــ ١٩٧١ .

ومن ذلك كله يبدو جليا أن المخطط الامبريالى ــ الصهيونى يتهيأ بالفعل لمد أذرعته الاخطبوطية من شمال الوطن العربى الى جنوبه ، ولتسديد ضرباته ضد جبهة الثورة العربية من المقـدمة الى المؤخرة ، ومن قناة السويس الى مضيق باب المندب ، ومن خط المواجهة والالتحام فى سيناء والجولان الى اقصى نقاط العمق فى عدن ، « ان ذلك كله يشير الى اقتراب مرحلة جديدة مـن المواجهة بين الامبريالية والحـركة الثورية فى العالم العربى ، وهذا سوف ينعكس ولاشك على الوضع فى اليمن الديمقراطية ، ومنطقـة الخليج على شكل المزيد مـن التآمر والتخطيط لسلب مكاسب الشعب ، وضرب انتصاراته ، الامر الذى يستلزم الارتفاع بمستوى المواجهة من قبل السلطة والقـوى الثـورية فى اليمن الديمقراطية خاصة الى مستوى نوعى جديد »(١٢)

وليس على أحد ــ بعد أخذ الحيطة الكاملة ، والاهمية التامة ، والاستعداد اللازم لمجابهـة الاخطار الصهيونية ، والتحدى الامبريالى ــ أن يستشعر القلق أو الجزع من ارتفاع القبضـة الاستعمارية ــ الاسرائيليـة فى وجـه النظام التحررى فى اليمن الديمقراطية ■

---

[٨] [illegible]
[٩] الصياد ١٩٧١/٦/٢٤
[١٠] الاخبار القاهرية ١٩٧١/٦/١٥
[١١] وكالة انباء عدن ١٩٧١/٦/١٤
[١٢] الثورى ١٩٧١/٧/٦ قضايا للنقاش ــ ماجد عبد الرضا

واذا كانت ثورة ١٤ اكتوبر قد امتصت كل الضربات التي وجهت اليها حتى الان ، واحبطت كل مشاريع الغزو والتوسع التي دبرتها ونفذتها الامبريالية الامريكية فان بامكانها هذه المرة — استمرارا لانتصاراتها السابقة — تجنيد كافة قواها ، وتعبئة كل طاقاتها ، واستثمار جميع مصادر الدعم والتأييد المتاحة لها من القوى الحليفة والصديقة لملاقاة التحدي المصيري الذي يجابه الثورة العربية كلها ، والذي غدت طرفا أصيلا فيه ، والاضطلاع بدورها فيه بجدارة ، وثبات ، ونجاح .

ضرورة التحالف مع درع وطليعة الثورة العالمية

ولكي تتمكن حكومة الثورة في عدن من النهوض بجميع الاعباء الجليلة والثقيلة الملقاة على عاتقها ، والاستمرار في المسيرة التقدمية المهيبة التي قطعت أشواطا حاسمة منها ، ومواجهة المهام الداخلية والخارجية التي تقف أمامها ، وتذليل العقبات الكأداء التي تعترض طريقها ، ولكي تتمكن من المضي بنجاح في اتجاه تعميق التلاحم الوطني والشعبي ، وترسيخ العلاقات الجبهوية والديمقراطية بين الفصائل الثورية والتقدمية ، وضمان أقوى وأمتن وحدة جماهيرية ، ووطنية ، وثورية ، واطلاق أوسع حركة ديمقراطية وشعبية وبلورة أنصع وأنضج تنظيم سياسي طليعي ، اشتراكي ديمقراطي من بين قوى التحالف الوطني الديمقراطي على النطاق اليمني ، وحتى تتاح للعملية التاريخية الثورية الدائرة بعنفوان وقوة — عملية التحول الاقتصادية والاجتماعية فرصة الاكتمال ، وتتوافر الشروط اللازمة ، الموضوعية والذاتية ، السياسية والتنظيمية ، الداخلية والخارجية الكفيلة بتحقيق وحدة اليمن السياسية على أنقاض الاوضاع العشائرية والاقطاعية ، والكومبرادورية ، وعلى أسس وطنية ديمقراطية ، ولكي تعزز هيبة ومكانة الثورة اليمنية بين ثورات التحرر الوطنية العربية ، وتؤكد موقعها الطبيعي والفعال في جبهة حلفائها الثوريين في العالم ، وتمتلك القدرة الضرورية والحاسمة لصد المؤامرات الواسعة الامبريالية ، والصهيونية ، والرجعية ، وامتصاص ورد أية ضربة غادرة يوجهها العدو الاسرائيلي الى الجمهورية الفتية ، وحتى تستطيع الاسهام بدور ايجابي ومؤثر في احباط المشاريع العدوانية والاستعمارية الرامية الى جعل الجزيرة العربية كلها من خليجها العربي الى البحر الاحمر ، بل ومن ايران الى اثيوبيا وأوغندا منطقة نفوذ خالصة للحلف الاستعماري — الصهيوني — الرجعي ، وتحويلها الى حزام امبريالي مكمل لطوق الحصار المضروب حول القلعتين الثوريتين الصامدتين في مصر وسوريا ، والانحطاط بالشرق الاوسط الى مجرد ركن أساسي في الجناح الجنوبي لحلف الاطلسي ، والى تابع صغير في الامبراطورية العالمية الاستعمارية — الصهيونية .

حتى تتمكن الحكومة الثورية في عدن من الاسهام النشيط ، في مواجهة هذا كله ، وتتحمل مسئوليتها كلها — مع أمتها العربية — فانها مطالبة — تعبيرا وترجمة لهوية وروح الثورة ، وانسجاما مع اتجاهها التقدمي ، وتثبيتا لموقعها النضالي ، وتأكيدا لانتمائها التاريخي الى ثورة العصر الانسانية الشاملة — الى جانب تعميق وتوسيع تعاونها النضالي مع الدول العربية المتحررة ، وفي مقدمتها ج.م.ع ، ومع حركة التحرر الوطنية العربية — مطالبة بالاسراع في بحث مدى ضرورة واهمية وفائدة عقد معاهدة « صداقة وتعاون » مع الاتحاد السوفيتي شبيهة بتلك المعاهدة التي عقدتها كل من مصر والهند معه ، تعكس وتعمق التحالف الثوري ، والتضامن الاممي — ولا سيما في هذا الظرف الخطير — وتؤكد وتوثق — عن طريق ضرب المثل — الروابط الوشيجة والحميمة بين حركات التحرر الديمقراطية والثورة الاشتراكية العالمية .

ان اقدام اليمن الديمقراطية على خطوة هامة كهذه — نتيجة وفي ضوء تقدير كامل ودراسة شاملة للموقف الوطني والقومي ، والتحديات والمخاطر المحيطة — سيبرهن مرة أخرى على أن الثوريين اليمنيين لا يتخلفون عن مواكبة الخطوات الرائدة والجسورة ، ولا يتراجعون أو يترددون في الاقدام على المبادرات الثورية الخلاقة والحاسمة ، وانما يسيرون عدوا — شأن مواقفهم حتى الان — في صنع الاعمال التاريخية التي تتطلبها ضرورات النضال ضد الاستعمار وأدواته ، وشروط النصر فيه ، حتى يفوتوا على المخططات التوسعية فرصة التحقيق ، ويباغتوا العدو من حيث لايحتسب ، وينتقلوا من مركز الدفاع الذي أراد لهم البقاء فيه الي موقع الهجوم المتحرك ضمن جبهة مواجهة ثورية أشمل وأعم ، وحتى يتمكنوا على هذا النحو ليس فقط من الحفاظ على نظامهم الثوري ، وجعل طريق المستقبل مفتوحا أمامه بدون قيود أو حدود ، بل ومن تحمل نصيبهم الوطني والقومي في الدفاع عن الثورة اليمنية والعربية معا ، وفي صد العدوان الاستعماري الصهيوني ، الواقع على الوطن العربي ، والزاحف في اتجاه كل أرض عربية متحررة ،

وحتى يتاح لهم — قبل كل شيء — توفير الحماية اللازمة لباب المندب ذاته من أن تمتد اليه مخالب الاطماع الصهيونية — الاستعمارية — كما امتدت قبل ذلك الى قناة السويس على الناحية الاخرى منه — ولا سيما وقد غدا هذا المضيق الاستراتيجى الهام جزءا اكيدا من خطط الصهيونية العدوانية المعززة والمنسقة مع قوى الاستعمار والرجعية فى منطقة البحر الاحمر التى ترابط فيها اخطر القواعد الامريكية والاسرائيلية ، الظاهرة والخفية ، ولا سيما أن عدن نفسها — حصن الثورة اليمنية — قد غدت واقعة ضمن مدى التطلعات والمطامع التوسعية الرعناء للامبريالية الامريكية والصهيونية العالمية ، وهدفا ثابتا ومستمرا من اهدافها العدوانية المنكرة ، وجزءا لا يتجزأ من خططها الاستعمارية والرجعية المقيتة .

عدن : واتحاد الجمهوريات العربية

واذن فلقد أصبح الامر واضحا لكل ذى عينين ان اى مخطط عربى لمواجهة اسرائيل والاستعمار يسقط من حسابه وجود جمهورية اليمن الديمقراطية بكل ما تمثله استراتيجيا ونضاليا فى الصراع العام مع قوى الصهيونية والاستعمار هو مخطط ناقص لا يرى صورة الموقف السياسى كلها ، ولا ساحة المعركة القتالية من جميع جوانبها ، وفى مختلف ابعادها واعماقها .

وكما أن من مسئولية اليمن الثورية أن تبحث — شأن غيرها — عن أقوى واضمن أشكال التعاون والتحالف مع جبهة النضال العالمية المناهضة للامبريالية والصهيونية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتى فانه يتحتم عليها — الى حد البداهة — البحث عن انسب صيغة للتلاحم الثورى ، والتظافر الكفاحى مع الدول الثورية العربية الداخلة فى اتحاد الجمهوريات العربية ، التى تشكل طرفا رئيسيا فى هذه الجبهة العالمية ، بل ومحورا أساسيا من محاور الصراع الانسانى العام ضد مخططات الاستعمار وأداته وحليفته الصهيونية .

ومن مسئولية وواجب هذه الدول العربية المتحررة — كذلك — التى تجابه وجها لوجه وتتحمل مباشرة مهام التصدى لاخطار العدوان القائم والطامح الى مزيد من التوسع والسيطرة الا تغفل عند وضع استراتيجيتها القومية العليا مكان ، واهمية ، ودور عدن فى هذه الاستراتيجية ، وضرورة وحتمية الاتفاق معها على صورة من صور التنسيق والتعاون ، بحكم ارتباط عدن واقعا وفعلا ، نضالا ومآلا بميدان الصراع ، وبحكم تشكيلها — بحق وعن جدارة — أحد خنادقه الثورية الامينة والمناضلة ، واحد امتداداته الطبيعية والاكيدة .

وذلك هو ما تنبه اليه — عن تقدير سليم — الاستاذ محمد حسنين هيكل فى مقاله الاسبوعى « حول الاتحاد والمعركة » حين شدد وبقوة — « استكمالا لتصور استراتيجى كامل وشامل لناحيتنا من الصراع » — على ضرورة وضع جمهورية اليمن الديمقراطية فى الحسبان ، ذلك « اننا احيانا ننظر الى اليمن الديمقراطية الشعبية ، وكأنها دولة صغيرة مشاغبة ، لا تستطيع ان تؤثر ايجابيا فى الصراع ، ومع ذلك فان « عدن » بوابة البحر الاحمر — وهو من اهم مسارح الصراع — هى عاصمة اليمن الديمقراطية الشعبية .

والسؤال الذى يترتب على ذلك هو : هل يمكن على اى نحو ان يكون لليمن الديمقراطية الشعبية — وبترتيب خاص — دور فى التصور الاستراتيجى الجديد للصراع .(١٣)

بل ان خبير البترول العربى الشهير عبد الله الطريقى بعد ان ينبه الى أن من مخططات اسرائيل « الاستيلاء على كل أجزاء الجزيرة العربية » ويشير الى « ان على الاخوة العرب من القادة ان يتفهموا موقف اليمن الشعبية ، وان يدركوا أن اليمن الديمقراطية الشعبية مهددة بغزو صهيونى امبريالى » والى أن من « الواجب عليهم مدها بالدعم اللازم لمقاومة الغزو ، ولبناء الوطن » وأن « زيارة الاشقاء العرب من القادة الى الحصن العسكرى والاقتصادى للامة العربية عدن .. ستبدد كل المخاوف التى يثيرها الاستعمار والرجعية فى بلدان من الوطن العربى ضد اليمن الشعبية،والمراد منها وضع حصار اقتصادى وسياسى على اليمن الشعبية » — أقول بعد أن يشير الى ذلك كله يخطو خطوة أكثر مما ندعوله نحن من ضرورة البحث عن صيغة مناسبة للتعاون الثورى المنظم ، والتنسيق النضالى المحدد مع اتحاد الجمهوريات العربية «كأجراء عاجل ومؤقت» تفرضه خطورة الاوضاع الراهنة ، ريثما تتحقق وحدة اليمن السياسية على أسس وطنية ديمقراطية ، يتم بعدها انضمام جمهورية اليمن الموحدة التقدمية الى الاتحاد ، حيث يبادر من جانبه بالدعوة « الى دخول اليمن الشعبية الى اتحاد الجمهوريات العربية ، لان انضمامها الى الاتحاد سيعزز من قوة العرب كما أن موقعها الاستراتيجى الهام سيقوى من هذا الاتحاد خاصة وأن اسرائيل قد بدأت تستأجر بعض الجزر على السواحل الافريقية »(١٤) .

(١٣)الأهرام ١٩٧١/٨/٢٠] بصراحة

[١٤]، الاهرام اكتوبر ١٩٧١/١٠/٢٩] .

الماركسيون والاشتراكية غير الماركسية

ر . أوليانوفسكى

تثير الأبحاث التى تنشر عن الاتجاهات الاشتراكية غير الماركسية اهتماما له ما يبرره. ففهم هذه الاتجاهات سياسيا وعلميا فهما سليما شرط لحل القضية ذات الاهمية الكبرى المتعلقة بموقف طليعة الشعب العمل التى تقودها ايديولوجية اشتراكية علمية حيال قطاعات كبيرة من الشعب ماتزال متأثرة ــ الى حد كبير ــ ببرامج ونظريات سياسية غير ماركسية .

وكان من الطبيعى ان تحمل هذه الابحاث شروحات نقدية للاشتراكية غير الماركسية ، عن الاتجاهات الاشتراكية فى البلدان الاسيوية والافريقية ، حيث تنتشر هذه الاتجاهات وتلعب دورا حاسما فى رسم سياسة بعض البلدان ، كما تقوم ــ بوجه عام ــ بدور تقدمى ومعاد للامبريالية وثورى، يضع ديموقراطية البورجوازية الصغيرة فى آسيا وافريقيا بعيدا عن الديموقراطية السائدة فى العالمين القديم والجديد .

وبالنسبة للبلاد النامية ــ وهى حتى من هذه الناحية تختلف عن بلاد اوربا وامريكا الراسمالية ــ فان التأثير القوى للاتجاهات الاشتراكية غير الماركسية ــ وهى فى الاساس معادية للامبريالية وديموقراطية ولكنها تجنح بدرجات متفاوتة الى قبول الافكار البورجوازية الصغيرة أو الافكار الاشتراكية ــ هذا التأثير هو ظاهرة موضوعية حتمية فى هذه المرحلة .

ومن الناحية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية ، تمثل البلدان الافريقية والاسيوية ــ بما فيها البلدان الاكثر تقدما ــ محيطا من النزعات البورجوازية الصغيرة .. ويرجع هذا الى التفوق العددى الهائل للفلاحين الذين تجرى بينهم عملية استقطاب طبقى وللبورجوازية الصغيرة فى المدن ، هاتان الطبقتان اللتان تكونان من ثمانين الى تسعين فى المائة من تعداد السكان . وتأخذ تلقائية البورجوازية الصغيرة فى هذه البلدان شكلا

لا تحدده اية حدود . وتغلب ايديولوجية البورجوازية الصغيرة ، التي تتسم بالوطنية وبالعداء للامبريالية وبالتدين، في تفكير الجماهير بشكل أو آخر . ومن الواضح انها ستستمر هكذا الى وقت طويل . فللفلاحين والبورجوازية الصغيرة في المدن مجال واسع من النشاط . وكثير من البلاد الاسيوية والافريقية تفتقر الى القوى التي وصلت من النضج الى درجة تؤهلها لقيادة هذه الفئات الاجتماعية . ولايزال على البورجوازية والطبقة العاملة ان تنفصلا تماما عن البيئة البورجوازية الصغيرة وما تزالان ضعيفتين وغير مؤهلتين للقيادة . تلك هي السمة الاجتماعية التي تميز البلدان التي لم تبلغ بعد مرحلة الرأسمالية ، وهي تضم مجموعة من البلدان تهاجم البورجوازية الصغيرة فيها رأس المال وترفض الرأسمالية ..

● بالنسبة للماركسيين ليس هناك قضية تفضيل بين الاشتراكية الماركسية والاشتراكية غير الماركسية ، أي بين ما يرتكز على الاوهام وبين ما يمثل مستقبل البشرية . ان واضعي كتاب « **المفاهيم الاسيوية والافريقية للاشتراكية** » لا يختلفون معنا على هذه النقطة الا اننا مع هذا لا نرى أن النقاش يجب أن ينتهي عند هذه النقطة

فما هو الدور الذي تقوم به الاتجاهات المتعددة ــ المتباينة فيما بينها ــ للاشتراكية غير الماركسية في العملية الثورية التي تجرى اليوم؟ وكيف يتحتم على الماركسيين اللينيين أن يعالجوها .

نحن نعتقد أن هذه القضية على اكبر جانب من الاهمية ، خاصة وأن الكثير من هذه الافكار الاشتراكية المتباينة قد انتشرت في البلدان النامية . ولمعالجة هذه القضية من المهم ان نتفهم السمة الاجتماعية والسياسية للمرحلة التي تمر فيها البلدان التي تحررت من التبعية الاستعمارية وما يستشرفه تقدمها من آمال .

ومن سوء الحظ أن المقال المشار اليه لم ينجح في اضفاء الاهتمام اللازم لهذه القضية ، واهمل قضية النمو غير الرأسمالي في البلاد الاسيوية والافريقية . ومن الصعب تبرير محاولة تحليل قضية الاشتراكية غير الماركسية في هذه القارات بمعزل عن امكانيات النموغير الرأسمالي . ونحن نحب أن ندلى برأينا في هذا الموضوع .

يرى كاتبو المقال ان « ثورات التحرير الوطني اصبحت جزءا لا يتجزأ من الثورة البروليتارية العالمية » واذا توخينا الدقة قلنا ان هذا القول خطأ . فقد تحدث **لينين** بهذا الخصوص عن ثورة **اشتراكية وليس ثورة بروليتارية ؟ فهو يميز بين** الاثنتين تمييزا حاسما . فكل ثورة **بروليتارية** هي ثورة اشتراكية ولكن ليست كل ثورة اشتراكية ثورة بروليتارية . ويرى البعض أن نضال الشعوب المستعمرة في سبيل الاستقلال الوطني كان ــ في رأى لينين ــ جزءا من العملية الثورية العالمية وعاملا هاما في تحول العالم ، **ولكن هذا الكفاح لم يكن جزءا من الثورة البروليتارية العالمية .** ان الثورة الاشتراكية وحركة التحرر الوطني تياران ثوريان لا مفر لهما موضوعيا من التحالف، ولهما عدو مشترك واحد ــ هو الامبريالية ــ ومصالح مشتركة ، كما أن لديها امكانيات غير محدودة للعمل المشترك واحراز نجاحات جديدة، **اذ أن حركة التحرر الوطني ، كما تنبأ لينين ، بعد أن تكون قد بدأت في الكفاح من أجل الاستقلال السياسي ، تستدير ــ اذا كانت ثورية وغير مترددة ــ لتعادى الامبريالية عموما ، ثم لتقف موقفا معاديا للرأسمالية كذلك .** ولقد دفع هذا لينين الى الدعوة الى « الجمع بين » التيارين الثوريين وتوحيدهما . ولكن ما يلجأ اليه البعض من وصف حركة التحرير الوطني بأنها جزء من الثورة البروليتارية لا يعنى ــ مع ذلك ــ الجمع بين التيارين كشيء واحد ، بل مطابقتهما سويا بالتغاضي عن المهام التي تواجه كلا منهما .

ويتحدد الموقف من الاشتراكية غير الماركسية في آسيا وأفريقيا بادراك هذه الصلة بين حركة التحرير الوطني والثورة البروليتارية . فلو ان الاولى كانت جزءا من الثانية لاصبحت الاشتراكية غير الماركسية غير مقبولة من حيث المبدأ ولتحتم رفضها ، اذ ــ في هذه الحالة ــ تكون الحركة الاشتراكية البروليتارية ستصل الى حد أن تتسرب اليها افكارغريبة عن الاشتراكية الاصيلة، أو العلمية، **بينما اذا كانت حركة التحرير الوطني** ، كأحد تياري الثورة الاجتماعية ــ تتسم بصفة ديمقراطية عامة وكانت تعبر عن حركة الجماهير ضد الامبريالية والاقطاع والاحتكار والرجعية ، عندئذ يكون **وجود اتجاهات اشتراكية غير ماركسية منطقيا تماما** ، وبعض هذه الاتجاهات ــ الاتجاهات الديمقراطية الثورية المنبثقة من الامال الذاتية للجماهير البروليتارية وغير البروليتارية وقياداتها ــ ذات تأثير في الوقت الحالي وسوف يكون هذا التأثير في المستقبل في بعض الاجيال تأثيرا حاسما على أنصار التقدم الاجتماعي والثورة .

من هنا فان اى تقييم للاتجاهات الاشتراكية غير الماركسية فى البلاد النامية يجب ان يبدأ من التقييم النوعى للحظة التطور التاريخى ، وبالتالى للهدف الاستراتيجى للحركة . هذا هو اساس كل الانحرافات المحتملة فى تفهم قضية الاشتراكية غير الماركسية وحركة التحرر الوطنى ككل . وهو الحد الفاصل بين السياسة اللينينية فى التعاون مع كل القوى المعادية للامبريالية والثورية ، والخط الذى يقود — موضوعيا — الى عزل الطليعة البروليتارية فى الممارسة .

وهذه هى القضية التى اوجدت اللينينية لها حلا عن طريق المفهوم الماركسى الحديث للطريق غير الرأسمالى الذى يعنى أن القوى السياسية فى البلدان التى اختارت الطريق غير الرأسمالى تتجه الى الاشتراكية ولكنها لاتبنيها فى الوقت الحالى لان المتطلبات السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية الذاتية والموضوعيةفى تلك البلدان مازالت مفتقدة . **ويعنى السير فى الطريق غير الراسمالى فى هذه المرحلة اجراء تغييرات ديموقراطية عميقة بأسلوب ثورى يضع أمامه الاشتراكية كهدف بعيد . والتطور عبر هذا الخط لايضع العراقيل أمام التحول التالى الى المرحلة الاشتراكية بل على العكس يمهد لهذه المرحلة .** والقيادة التى تجرى التغييرات غير الرأسمالية تضم بين صفوفها الديموقراطيين الثوريين الذين يأتون غالبا من أصل بورجوازى صغير تقليدى، فهم لايطبقون ايديولوجيةماركسية لينينية متكاملة حتى لو استعاروا من هذه الإيديولوجية ونقلوا منها الكثير ، وأهم شىء هو أن كثيرين من أولئك القادة يبدون استعدادا — تحت ضغط التطور التاريخى — للتعلم والاستمرار فى الاقتراب أكثر فأكثر من الاشتراكية العلمية .

وليس التطور غير الرأسمالى شاملا ولا حتميا لجميع البلدان الاسيوية والافريقية ، ولكن طالما أن هذه المرحلة الانتقالية أصبحت حقيقة تاريخية فى بعض هذه البلدان تمثل الاتجاه الرئيسى للتطور الاجتماعى هناك ، فمن المحتم تاريخيا أن تلعب الايديولوجية الديموقراطية الوطنية — بشكل أو آخر ولمدى طويل — دورا حاسما وتقدميا .

ويستطرد كاتبو المقال من افتراض ان الاشتراكية غير الماركسيةنتاج لخداع النفس، أو الخداع المتعمد، ولذلك فهم يعتبرون أنها لابد أن تنهزم وبالسرعة التى تتناسب مع تصاعد التطور التاريخى . وهم يعزون دورا حاسما للقضاء على المفاهيم غير العلمية للاشتراكيةوتقدم آسيا وافريقياعموما الى توحيد حركة الطبقة العاملة مع الاشتراكية وليس هناك شك فى أن الاشتراكية فى هذه القارات سوف تبنى على أساس توحيد النظرية العلمية مع حركة الطبقة العاملة ، ولكن اى شخص يتوقف قليلا لكى يفكر فى الخطوات التى يمكن أن تتخذها البلدان الاسيوية والافريقية فى اتجاه الاشتراكية فى الوقت الحالى سوف يلمس الحاجة الماسة الى تخطى المبدأ المسلم به وهو توحيد الاشتراكية العلمية مع حركة الطبقة العاملة بالرغم من أن هذه المهمة ذات أهمية هائلة وحاسمة . **فحركة الطبقة العاملة فى غالبية الاقطار الاسيوية والافريقية فى غاية الضعف وتفتقر بدرجة كبيرة الى التنظيم — كما أنها مرتبطة أشد الارتباط ببيئتها البورجوازية الصغيرة ، بينما مواقع الاشتراكية العلمية ليست من القوة بحيث يمكن الاعتماد عليها وحدها .**

ان فهما واقعيا وثوريا للموضوع يبين أنه فى حالات كثيرة يجب أن تبنى الاشتراكية ليس على اساس الوضع المثالى الذى يمكن ان تكون عليه طبقة عاملة متقدمة فحسب ، **وانما على أساس الوضع الضعيف الذى تقدمه الحقيقة الموضوعية وتضعه بين ايدى الثوريين :** وبالنسبة لغالبية البلدان الاسيوية والافريقية يعنى هذا ان أولى الخطوات المحددة فى اتجاه الاشتراكية يمكن اتخاذها بتأييد الجماهير غير البروليتارية والفلاحين والبروليتاريا وأنصاف البروليتاريا ولا تستطيع هذه الجماهير موضوعيا — فى الوقت الحاضر — أن تتفهم الاشتراكية العلمية كأيديولوجية متكاملة ، ولكن طالما أن هذه الجماهير تتجه تلقائيا نحو الاشتراكية وتعارض فى الواقع الرأسمالية، فان هذا يقودها بالتدريج الى فهم الاشتراكية العلمية . ان الماركسيين يظهرون ويرعون براعم الاشتراكية الاصيلة فى مفاهيم البورجوازية الصغيرة ، تلك المفاهيم التى من المحتمل أن تستمر فى البلدان الاسيوية والافريقية لمدى سنوات . اننا نعتقد ان هذا هو الخط الذى يجب السير عليه . انه ينطلق من فكرة أن الاحزاب الديموقراطية الوطنية — وبالاخص مجموعاتها اليسارية — تستطيع — بعد أن تبدأ من الاشتراكية الوطنية غير الماركسية — أن تتقدم نحو الاشتراكية العلمية وأن تتبناها فى النهاية من خلال الكفاح والتغلب على التناقضات .

ان هذا الاحتمال ، احتمال الانتقال من الاتجاهات الاشتراكية الوطنية اليسارية الى الاشتراكية العلمية لايجب مطلقا الاقلال من قدره ــ كما يحدث عندما توصف الاتجاهات الاشتراكية غير البروليتارية فى البلدان الاسيوية والافريقية بأنها تسعى الى طريق « ثالث » أو « وسط » بين الاشتراكية والراسمالية .

● ولكى نكون صورة واضحة للاتجاهات السياسية والفكرية العديدة فى البلدان الاسيوية والافريقية التى ترفع الشعارات الاشتراكية يلزم أن نصنفها تصنيفا علميا ، ويشير البعض الى امكانية تحول منبر وطنى ثورى الى منبر ديموقراطى ثورى أو الى منبر بيروقراطى رجعى ، ويقدمون شرحا مقنعا للتطور السياسى فى عدد من البلدان ، وعلى وجه الخصوص **اندونيسيا** ومع هذا فنحن نعتبر مثل هذا التصنيف مبتسرا والى حد ما غير دقيق ولا يدخل فى اعتباره المعنى الطبقى للظاهرة التى يناقشها . فهو يصف ــ مثلا ــ الاتجاه « البيروقراطى الرجعى » لسبب ما على أنه نظرية بورجوازية صغيرة وليس على أنه نظرية بورجوازية . ان المدى الجغرافى والتاريخى [الزمنى] الواسع للاتجاهات السياسية والفكرية ، وكذلك الاتجاهات الحديثة ، وتلك الاتجاهات التى كانت أساسا لها ولكنها أصبحت من مخلفات الماضى ــ هذا المدى جعل من الصعب ترتيبها ترتيبا منهجيا . ونحن يساورنا شعور أن هذا المجهود الذى بذل فى التصنيف لايأخذ فى الاعتبار ــ كما يجب ــ ماقام به فعلا الكتاب الماركسيون .

فمعيار التصنيف العلمى للنظريات الاشتراكية هو ــ وهذا شىء معروف ــ هو معناها الطبقى والان وقد انفتحت أمام العديد من البلدان فرصة حقيقية لاختيار طريق تطورها ، يبرز المعنى الطبقى للاتجاهات السياسية والفكرية عند توجيه السؤال الاساسى وهو : الى أى النظامين العالميين ــ الاشتراكية والرأسمالية ــ يقود المنبر الذى نعنيه ؟

واذا بدأنا بهذا المعيار يمكننا أن نضع الاتجاهات الثلاثة الرئيسية التالية من النظريات الاشتراكية غير البروليتارية التى توجد فى آسيا وأفريقيا .

١ ــ **الاصلاحية الوطنية** التى تعتنق أفكارا وشعارات « اشتراكية » تخفى وراءها اتجاهات بورجوازية ، وتستخدم النظريات التبريرية للبورجوازية الامريكية والاوربية جنبا الى جنب فى بعض الاحيان مع مايدعى اتجاهات « اشتراكية ديموقراطية » من الاتجاهات اليمينية . والاصلاحية الوطنية لاتعارض الراسمالية كما هى ، وانما هى تعارض رأسمالية القرن التاسع عشر فحسب ، وهى لاتفهم من الاشتراكية سوى أنها تحقق تقدما اقتصاديا من خلال توجيه الحكومة وبالاضافة الى ذلك لاتضع نفسها بصراحة ضد الاشتراكية العلمية . **ونحن نعتقد أن هذا الاتجاه** تمثله أيديولوجية عدد من الاحزاب الحاكمة مثل السنجال وكينيا وعدد من البلدان الافريقية .

٢ ــ **اشتراكية البورجوازية الصغيرة المثالية الحديثة** التى ترى العدل الاجتماعى فى تطبيق مبادىء الشيوعية البدائية على المجتمع المعاصر ، وما يميز اشتراكية الفلاحين المثالية عن الاصلاحية الوطنية هو الولاء لمثل الشعب ولمبدأ « المساواة الكاملة » وعدم قبول مظاهر الظلم الاجتماعى والنقد اللاذع للرأسمالية الحديثة من مواقع اشتراكية ذاتية ورفض الاوهام الاصلاحية البورجوازية . ومن ناحية أخرى هى أبعد ماتكون عن أن ترى الطريق الصحيح المؤدى الى العدل الاجتماعى أو فهم الدور الذى تلعبه المفاهيم العلمية . انها ترفض الاشتراكية العلمية تحت دعوى أن نظرية الصراع الطبقى والدور القيادى للبروليتاريا لايتلاءمان مع الظروف الخاصة التى تتميز بها البلدان الاسيوية والافريقية . **كما يقولون أن الصراع الطبقى غير موجود بين شعوبهم التى تستطيع لذلك أن تبنى الاشتراكية على أساس « الوحدة الوطنية » .**

واشتراكية البورجوازية الصغيرة الخيالية تحمل فى داخلها تناقضات . والولاء لمثل العدل الاجتماعى وكراهية الرأسمالية تدفعها نحو الافكار العلمية للثورة بينما تفتح مواقفها المعادية للماركسية التى تتخذها فى بعض الاحيان الطريق للارتباط بالاصلاحية الوطنية وفى كل الاحوال تصبح اليد الطولى لواحد من هذه الاتجاهات مما ينتج عنه أن تفقد اشتراكية البورجوازية الصغيرة الخيالية شخصيتها النوعية وتندمج فى الاتجاهات السياسية والفكرية الاخرى ، ومن مصلحة الماركسيين اللينينيين ان يتطور المتكلمون بها الى الاشتراكية العلمية .

ونجد مثالا لهذا التطور فى فكر الاتحاد

الوطني الافريقي التنجانيقي [**التانو**] فاعلان **أروشا** الذى أقر فى بداية عام ١٩٦٧ يعترف بوجود الصراع الطبقي فى افريقيا وبالصفة الطبقية للسلطة السياسية ، وهذا الاعلان يحدد التحولنحو الديموقراطية الثورية الوطنية .

٣ ــ **ايديولوجية الديموقراطية الثورية أو الوطنية** وهي أكثر اتجاهات الجناح اليسارى الاشتراكي الوطني تقدمية في البلدان الاسيوية والافريقية . واذا أردنا الدقة فليس صحيحا تماما أن نصف الايديولوجية الديموقراطية الثورية بأنها اشتراكية وطنية . اذ أنها اتجاه يضيق اطار مفهوماته التى كان يعتنقها ولا تحتمل المناقشة عن التميز والوحدوية في طرق التطور التاريخى الوطنى ، يضيق هذا الاطار بدرجة كبيرة ، فالديموقراطية الوطنية تقبل بعض مبادىء الاشتراكية العلمية . فهى تعترف بالصفة الشمولية للصراع الطبقي وتربط بين الاشتراكية وسلطة الشعب العامل ، ويستمر الديموقراطيون الوطنيون على عدائهم للامبريالية ويدعون الى الكفاح ضد الرجعية الداخلية والخارجية .

ويمكننا التصنيف السابق ــ فى رأينا ــ من **تحديد موقع الاتجاهات الاشتراكية غيرالماركسية المتنوعة فىالبلدان الاسيوية والافريقية من قضية طريق التطور . ان الديموقراطية الوطنية تعلن تاييدها للتطور غير الراسمالى بينما تفضل الاصلاحية الوطنية الراسمالية . أما الاشتراكية البورجوازية الصغيرة الخيالية فهى اتجاه يقف فى منتصف الطريق ويمثل القوى التى مازال عليها أن تختار وتحدد برنامجها .**

وليس هذا التصنيف ــ بالطبع ــ مطلقا : كما لاينبغى اعتبار الاتجاهات التى نحن بصددها منفصلة عن بعضها البعضبجدار لايمكن اختراقه فالواقع أنها تشترك فيما بينها فى الكثير ،وهذا مايعنى قيام احتمال حدوث تغيير سريع الى حد ما فى المواقع السياسية من اتجاه الى آخر . انها تتحد فيما بينها فى أهداف العداء للامبريالية وفى التقاليد التاريخية الوطنية وخاصة تقاليد حركة التحرير ، وجميعها تتأثر بدرجة كبيرة بمفاهيم البورجوازية الصغيرة التى يتكون منها ــ الى حد ما ــ أساسها الفكرى الذى من المحتمل أن يحكم كل بحث عن حل فكرى أو سياسى فى آسيا وأفريقيا لسنين كثيرة مقبلة .

لكل هذا تحتل الايديولوجية الديموقراطية الثورية مكانا خاصا بين سياسات البلدانالنامية

وصحيح ان استعارة آراء ماركسية كثيرة ثم فهمها بطريقة خاصة ليس شيئا جديدا فى تاريخ الفكر ولكن لم يحدث من قبل أن اتسعت هذه الظاهرة كما لم يحدث أن كانت هذه الظاهرة ذات فائدة وذات تأثير ثورى على حركة التحرر الوطنى ، كذلك لم يحدث أنها كانت تقرر اتجاهات هذه الحركة الرئيسية ــ كما يحدث الان .

وليست آراء الديموقراطيين الثوريين التماسا « **لطريق ثالث** » **فالديموقراطية الوطنية تضم** تلك القوى فى البلاد الافريقية والاسيوية التى يدافع المتحدثون بلسانها عن التطور غير الرأسمالى والتحول الاشتراكى . وهذه القوى هى التى تحكم فى الجمهورية العربية المتحدة وسوريا والصومال وغينيا وبورما وجمهورية الكونغو الشعبية ، كما أن بينها بعض الاحزاب الاخرى الحاكمة ، أو المعارضة .. والديموقراطيون الوطنيون قوة ثورية تعى أن التقدم فى وقتنا الحالى غير ممكن بدون اتخاذ خطوات محددة فى اتجاه الاشتراكية ، وهم يتخذون بشجاعة هذه الخطوات وقادرون على الفعل الثابت ليس فقط ضد الامبريالية بل وضد الرأسمالية ، ويصارعون الاتجاهات البورجوازية المتهادنة كما يقتربون من مواقع الاشتراكية العلمية فى عدد من المسائل الاساسية .

وبالنظر الى المصالح الحاضرة والمستقبلة ليس الشيء المهم هو أن الديموقراطية الوطنية مازالت اتجاها غير ماركسى ، بقدر ماتشمه فعلا من حرب ضد الامبريالية والرأسمالية كنظام اجتماعى ومجهود الديموقراطيين الثوريين لبناء مجتمع جديد ، فهذا هو مايحدد الموقف الماركسى حيال البرامج والاحزاب الديمقراطية الثورية .

ان موضوع التطور غير الرأسمالى يدفع الى المقدمة قضية اتحاد الاحزاب الشيوعية والاحزاب الديموقراطية الوطنية وتحالفها النضالى .

وبالطبع يتضمن كل تحالف تبادلا للمنافع ، ويقود الكفاح السياسى الديموقراطيين الوطنيين الى النتيجة التى تقول ان الماركسيين اللينينيين هم حليفهم الوحيد الذى يعتمد عليه بالنسبة لامالهم التقدمية ، واضعاف هذا التحالف يعنى اضعاف كل الجبهة التى تتكون من القوى

التقدمية المعادية للامبريالية . ولذلك فمن المنطقي توقع أن يعاود قادة الحركة الديموقراطية الوطنية الذين يرغبون في الحفاظ على محتوى هذه الحركة الثورى وتعزيزه موقفهم المتشكك من الاحزاب الشيوعية في بلادهم وأن يعترفوا بشرعية وجودها وتطورها كقوة سياسية مستقلة فكريا وتنظيميا ، ومع ذلك فهي حليفهم الوحيد ومن الصعب أن يستمر المرء في ولائه لافكار الديموقراطية الثورية بينما يعارض البروليتاريا الواعية بطبقتها وحزبها .

والاجراءات التي تتم في عدد من البلاد ضد الشيوعية تجعل من الصعب بلا جدال الوصول الى فهم متبادل بين الماركسيين اللينينيين والديموقراطيين الوطنيين ، اى بين القوى التقدمية عموما . وحتى في حالة ما تكون هذه الاجراءات مؤقتة ، الا انها تؤثر في تكوين الديموقراطية الوطنية بالاضافة الى تقدم ثورة التحرر الوطني، ومع هذا لاتستسلم الاحزاب البروليتارية للعاطفة وانما تواصل سيرها على هدى التحليل الطبقي .

ولقد كتب **لينين** في يوليو عام ١٩١٧ يقول : « من الخطأ الفادح الظن بأن البروليتاريا الثورية تستطيع أن « ترفض » مساندة الثوريين الاشتراكيين والمناشفة ضد المعادين للثورة كنوع من « الثأر » — اذا صح هذا التعبير — للمساعدة التي قدموها لتحطيم البلاشفة ولقتل الجنود في الجبهة وتجريد العمال من سلاحهم . فهذا الموقف — أولا — تطبيق أبله لمفاهيم الاخلاق على البروليتاريا [طالما أن البروليتاريا **في سبيل تحقيق هدف ما** ، سوف تؤيد دائما ليس فقط البورجوازية الصغيرة المذبذبة بل وحتى البورجوازية الكبيرة] . وثانيا — وهذا هو الشيء المهم — فان طمس الحقيقة السياسية للموقف باضفاء الصفات الاخلاقية عليه يكون مجهودا لاطائل تحته [عن الشعارات — الاعمال الكاملة — مجلد ٢٥ ص ١٨٦] .

ان تحالفنا نضاليا مع الحركة الديموقراطية الوطنية يستدعي مرونة من جانب الماركسيين وقدرة على تقدير الاحزاب الديموقراطية الوطنية تقديرا صحيحا على أساس أفعالها الحقيقية بالتطلع الى المستقبل وليس بالنظر الى الماضي، وقدرة على التمييز بين الاتجاهات المتباينة والتيارات المختلفة في هذه الاحزاب ، واقامة الاتصالات بها والفهم المتبادل معها على مختلف المستويات .

وفي عدد من البلاد تحتل الاحزاب الديموقراطية الوطنية مركز السلطة الحاكمة حيث تلعب الدور القيادي في حركة التحرر الوطني والتطور غير الرأسمالي . ولا تحل مسألة القيادة — وهذا ينطبق على الاحزاب الشيوعية والاحزاب الديموقراطية الوطنية على السواء — بالتساؤل عمن يقوم أو يجب ان يقوم بالدور القيادي ؟ وانما تحل هذه القضية بالموقع الحقيقي الذي تحتله الاحزاب المعنية وبقدرتها على كسب تأييد الجماهير وثقتها .

وواضح ان حلف الشيوعيين مع الديموقراطيين الوطنيين ليس اندماجا فهو لايعني فقدهم استقلالهم ولا هو بدون شروط . انه حلف ضد الامبريالية والرجعية وضد اصلاحية البورجوازية الوطنية وانتهازية البورجوازية الصغيرة — وهي الاشياء التي يستمد منها الاستعمار الجديد القوة . انه حلف يهدف الى تقوية الاتجاهات الاشتراكية الاصيلة ضمن الديموقراطية الوطنية . وبينما يستمر الشيوعيون في ولائهم للنظرية العلمية للاشتراكية يساهمون في تخليص الجماهير من الافكار الخيالية وأفكار التعالي الطبقي .

ولا يستلزم هذا الحلف عدم وجود متناقضات بين الشيوعيين والديموقراطيين الوطنيين . ومع هذا فان الكفاح ضد الامبريالية من أجل الديموقراطية يتطلب الا تدفع التناقضات القائمة الى المقدمة في هذه المرحلة . أما بالنسبة للمستقبل فقد يكون الانسب أن تتلاشى هذه التناقضات قبل أن تكون قد وصلت الى نقطة حرجة او تحولت الى تناقضات عدائية . وسوف يعتمد هذا على الجانبين وعلى التاكتيك السليم الذي يطبق في أعمال الجبهة المتحدة . وعلى خط يرتكز على المبادىء ويتسم في نفس الوقت بالمرونة من جانب الشيوعيين . وليس هذا الحلف تطورا عابرا . ولكنه هدف بعيد وجد في مرحلة الديموقراطية الشاملة من ثورة التحرير الوطنية . والاستمرار في هذا الحلف وتقويته في المرحلة الاشتراكية يتسق تماما مع مطالب التقدم الاجتماعي . وهذا — في اعتقادنا — واحد من أهم المظاهر النظرية والعلمية لقضية الفهم الماركسي اللينيني لاشتراكية الديموقراطية الثورية غير الماركسية القائمة في يومنا هذا .

نحـــو فهم أفضـــل للمـــــراهق



د. عـــزيز أحمد ريـــاض

أن اصطلاح المراهقة ينطـوى على عملية نضوج الشاب ـــ جسديا وعقليا ونفسيا ـــ والعبور من مرحلة الطفولة الى الرشـــد .

أما من الناحية الجسدية فيتم فى أول مرحلة من المراهقة اكتساب المظهر البدنى الذى يميز الانسان البالغ مع ظهور الفروق المميزة لـكل من الجنســين واكتمال النضـــج الجنسى بحيث يصبح الفتى أو الفتاة قادرا على الانســال . وتعرف هذه المرحـــلة « بالبلوغ » وتصــاحبها وتستمر بعدها لعدة سنوات مرحلة أخرى موازية لها ولكنها أبطأ منها نوعا وتشـــمل النضـــج العقــلى والنفسى بمـــا فى ذلك من جـــوانب انفعالية واجتماعية • والمراهقة تمتد من حوالى سن الثانية عشرة حتى سن العشرين تقريبا •

ولعل من المفيد ان نناقش كل جانب من تلك الجوانب (غير الجسدية) على حدة حتى نستطيع أن نصل الى صورة واضحة لنمو المراهق قبل ان نعرض للمهام والمشاكل التى تواجه المراهق •

أولا ـــ النمو العقلى : ينمو ذكاء الانسان منذ مولده حتى حوالى منتصف مرحلة المراهقة حين يصل الى اقصاه ويظل على نفس هذا المستوى مع نموه البدنى المطرد ـ ولكن ليس معنى ذلك أن النمو العقلى بأبعاده المختلفة يظل كما هو ، ولكن التوسع الذى يحدث بعد ذلك هو فى تحصيل الخبرات العملية فى الحياة والتوسع فى المعرفة مع ما يصاحب ذلك من تعمق فى فهم الامور ورجاحة الحكم على الاشياء ، وبمعنى آخر فان الانسان يزداد تحكما فى قدراته الذهنية وتزداد قدرته على استغلال هذه القدرات ، وان كانت القدرات نفسها (اى الذكاء) لا تزداد فى حد ذاتها بين منتصف سنوات المراهقة • والواقع أن عملية النضج العقلى هذه تستمر طالما كان فى مقدور الانسان التفاعل بشكل واقعى مع بيئة ، وهذه العملية تتوقف الى حد ما على الحيوية العامة للانســـان ولذلك نجد أن قدرات الانسان على التحصيل العلمى والابتكار وسرعة العمليـات الذهنية تصل الى ذروتها فى العشرينـات والثلاثينات ثم تستقر بعد ذلك وتبدأ فى الانخفاض والتدهور مع الشيخوخة •

وهناك ظاهرة اخرى نلاحظها فى نمو المراهق عقليا وهى أنه تتغير نوعية تفكيره مع اقترابه من سن الرشد ، فينتقل من التفكير الحسى «العيانى»

الى التفكير المعنوى «التجريدى» ويظهر هذا فى تحوله عن أنواع النشاط الذهنى البسيط المعتمد على الحواس والممارسة العملية البحتة الى التفكير التأملى مثل الاهتمام بالقضايا الفلسفية والسياسية والاخلاقية والدينية ، كما يتجسه الى تذوق الفنون التشكيلية والاداب والموسيقى على مستوى الشخص الراشد بدرجات تتفاوت مع الفروق الفردية لكل مراهق .

ثانيا ـ النمو الانفعالى : من الحقائق الشائعة ان سنوات المراهقة تتسم بدرجة عالية من التقلب المزاجى . فالمراهق يتقلب ما بين المرح والاقبال على الحياة أحيانا والتبرم منها والتشاؤم أحيانا اخرى . كذلك نجده شديد الحساسية لا يتحمل النقد ويثور لاتفه الاسباب وهو غالبا ما يوجه غضبه الى اقرب افراد اسرته لانه لا يزال يعتمد عليها انفعاليا فيعتبرها مسئولة عن كل ما يلحق به من اذى او احباط .

كما ان هناك صفة اخرى تميز المراهق وهى التناقض والارتباك اللذان يسودان مسلكه وفكره ومعتقداته . فهو يتخبط بين الايمان والالحاد او بين المحافظة على التقاليد والعرف السائد وبين التحرر منها والتمرد عليها ـ كما قد يسود التناقض والارتباك فكره ومسلكه فى نفس الوقت فيجاهر بنقيض ما يفعل . وفى هذه الفترة قد يتجه المراهق بشكل مندفع نحو اى مذهب فكرى او سياسى براق تحت تأثير نزوة مؤقتة ، وذلك ما يفسر لنا بعض المظاهر المتناقضة التى تسود بعض المجتمعات من انتشار مذاهب دينية متعصبة او اخرى انحلالية انتشارا سريعا بين بعض فئات الشباب المراهق . والواقع ان كل هذه الاندفاعات هى محاولات عشوائية للبحث عن الذات ، وهدفها وصول المراهق الى الاحساس بكيانه وبالاستقرار الداخلى .

هناك ظاهرة ثالثة يلحظها الاباء والتربويون على المراهقين وهى أحلام اليقظة التى تمثل فى اساسها محاولات لتعويض نواحي النقص فى حياة المراهق او جوانب الضعف فى شخصيته او لاشباع غرائزه التى لم يستطع بعد التكييف بين متطلباتها ومتطلبات المجتمع . ولذلك نجد أنها غالبا تدور حول الوصول الى الشهرة والنجاح المادى والمغامرات الجنسية . واحلام اليقظة ظاهرة طبيعية فى كل مراهق ان كانت فى الحدود المعقوله خاصة وانها تشكل فى بعض الاحيان الحوافز التى تدفع المراهق نحو المزيد من بذل الطاقة فى سبيل تحقيق اهدافه . أما اذا اصبحت هذه الاحلام هدفا فى حد ذاته بحيث يكون مضمونها بعيدا عن المعقول فانها تنذر بحالة مرضية اذ تعنى استبدال المراهق الحياة الخيالية مكان الحياة الواقعية بعد فشله فى مواجهة الواقع .

ثالثا ـ النمو الاجتماعى : تتحكم فى المراهق نزعتان أساسيتان : هما النزعة نحو الاستقلال عن السلطة الابوية والنزعة نحو الانتماء الى البيئة الاجتماعية والالتحام مع أهدافها . والواقع أن كلا من هاتين النزعتين تتداخلان وتكمل الواحدة منهما الاخرى .

ان النزعة الاستقلالية تظهر اولا فى تغير نظرة المراهق الى والديه وتوجيهه النقد لهما مع نقل اعجابه الى شخصيات خارجة عن نطاق الاسرة مثل احد المدرسين او أحد اصدقاء الاسرة او حتى احدى الشخصيات الجماهيرية (مثل احد الرياضيين او السينمائيين) .

والمراهق فى هذه الحالة يبدى نوعا من التقديس لهذه الشخصية فيحاول تقليدها فى كل النواحى المختلفة ويعتبر اى رأى يصدر عنها شيئا مقدسا لا يحتمل النقاش ، ولذا فقد جرى تسمية هذه الظاهرة « عبادة البطل » . وهذه الظاهرة تختفى تدريجيا وذلك عندما يتقمص المراهق لبعض جوانب شخصية معبوده ويدمجها مع جوانب أخرى من مختلف الشخصيات التى أثرت فى حياته ، ويتألف من كل هذا ملامح شخصيته الفردية ويصل بعد ذلك الى نوع من التكامل . وهو يخرج من هذه العملية باستنباط المثل العليا والقيم الاخلاقية الخاصة به والتى ستظل جزءا من شخصيته طوال حياته المستقبلة .

أما النزعة الاخرى التى ذكرناها وهى الاندماج فى البيئة الاجتماعية وهى التى تؤدى الى تكوين « المواطن الصالح » من وجهة نظر المجتمع فهى تتم ايضا من خلال مرحلة انتقالية وهى مرحلة الالتحاق بالجماعات . فهو يلتحق بجماعة من المراهقين قد تكونت تلقائيا مثل شلل الاصدقاء فى الشارع ، أو قد تكون منظمة التكوين مثل جماعات الكشافة والجوالة ، وباقى التنظيمات الشبابية المختلفة التى ترعاها الدولة أو المؤسسات الاجتماعية . والمراهق يبدى ولاء عميقا عادة لهذه الجماعة وتنمو لديه من خلال عملية الانتماء هذه مفاهيم اجتماعية هامة ، مثل انكار الذات والتضحية من أجل المجموع ، والاخلاص فى العمل وقيمة العمل الاجتماعية وارتباط كل ذلك بمفهوم المجتمع نفسه ووجود الفرد فيه كخلية من خلايا الكائن الحى . ومن جانب آخر فان هذه الجماعات تصبح الركيزة الاساسية التى تستند اليها عملية النضج الاجتماعى للمراهق فيتدرب على القيادة وتحمل المسئولية والانضباط التنظيمى والخضوع للمستويات العليا فى التنظيم والتعايش مع الغير حتى مع وجود الخلافات الفردية واخضاع الحرية الفردية لحرية المجموع ، والتوفيق بين حقوق الفرد وحقوق الغير الى غير ذلك من عمليات « التطبيع الاجتماعى » . وهذه المرحلة كما قلنا هى خطوة نحو الاندماج بعد ذلك فى

المجتمع الاكبر بما فيه من تزايد تعقيد التركيب وتزايد المسئوليات التى تلقى على المراهق .
بقى ان نشير الى ان هذه الجماعات وان كانت ظاهرة تدل على الحيوية والصحة فى حياة المراهق الا انها قد تصبح بؤرات لنشاط غير سوى اذا سيطرت عليها عناصر منحرفة، وقدتصبحمعادية للمجتمع بدلا من أن تأخذ دورها الطبيعى كمدارس للتطبيع الاجتماعى • والامثلة على ذلك كثيرة اكثرها شيوعا عصابات الاحداث الجانحين ، وهذه عادة ما تكون تلقائية التكوين ولكنها تنشأ امام خلفية من الظروف الاجتماعية المتخلفة والفقيرة ماديا حيث تنبت الانحرافات الخلقية والاتجاهات العدائية بالنسبة للمجتمع •

المهام الاساسية التى تواجه المراهق

سبق أن لخصنا الجوانب المختلفة لنمو المراهق — وعلينا بعد ذلك أن نفحص المهام الاساسية التى يتحتم على المراهق أن ينجح فيها قبل أن يتعدى المراهقة ويصل الى سن « الرشد » .
هناك أربع مهام أساسية تواجه المراهق ، احدى هذه المهام جذرية ويترتب عليها نجاح المهام الثلاثة الباقية :
فالمهمة الاولى — الجذرية — ذات طبيعة نفسية خالصة وهى عبارة عن التعديل الذى يجب أن يطرأ على التصور الطفلى لشخصية كل من الوالدين حتى يصير مفهوما واقعيا • ولا يعنى هذا مجرد النزعة الاستقلالية عن الوالدين ولكنه يشمل تغييرا عميقا فى نظرة المراهق الى العالم ، وخاصة نظرته الى والديه التى تتغير عنها وهو طفل • بمعنى أن الطفل يبدأ الحياة معتمدا على والديه اعتمادا مطلقا وهو لهذا يتصور انهما مخلوقين فوق البشر فهما قادرين على كل شيء ، وعندما تتسع مداركه وخبراته يجد أن الواقع ليس كذلك ، وهنا يشعر بالقلق ، فهذا الاكتشاف يهدد استقراره الداخلى. وعليه بعد ذلك اما أن يظل على عقيدته الطفلية فى القدرة الخارقة لوالديه (وهو موقف مرضى بطبيعة الحال) أو أن يعدل تصوره بما يتمشى مع الواقع (وهو ما يحدث فعلا فى الشخصية السوية) وهو يضع بذلك لنفسه أساسا جديدا لادراك العالم وقواعد جديدة للسلوك ازاء هذا الواقع فيتحول الى الاعتماد على ذاته ويستقر نفسيا •
وهذا ما يفسر لنا ظاهرة تحطيم قدسية الوالدين وعبادة البطل التى ذكرناها من قبل — فكأن هذه العبادة محاولة لايجاد بديل « للاله » المزيف الذى كفر به (أى الوالدين) ، ولكن هذه المحاولة مقضى عليها بالفشل بطبيعة الحال، لانه لايوجد الانسان الذى يملك المواصفات المطلوبة التى تفوق البشر • وعلى ذلك يجد المراهق بعد عدة محاولات وبعد تعمق ادراكه للواقع كما شرحنا انه لا بد من الاعتماد على المثل العليا (أى المعنويات) بدلا من الشخصيات المحيطة به ، وهذه المثل ينقلها من الغير ويغرسها فى نفسه وبذلك يتطور من التوجيه الخارجى لحياته ومسلكه الى التوجيه الذاتى النابع من داخله •
تلك المهمة هى فى الواقع عملية اكتشاف المراهق لذاته الحقيقية ويترتب عليها المهام الثلاث الباقية وهى :

● الحاجة الى تكوين قواعد سلوكية وأخلاقية مبنية على مفاهيم الخطأ والصواب بحيث تكون مقبولة من مجتمع الراشدين ومتمشية مع تقاليد المجتمع الذى يعيش فيه المراهق • وليست هذه بالمهمة اليسيرة كما قد يبدو لاول وهلة • فيجب على المراهق أن يجد أمامه معايير للسلوك متجانسة ومتفق عليها من الجميع حتى لا يختلط عليه الامر ، فلا يجدر أن يرى أمامه معايير متناقضة للسلوك من فئات مختلفة مثلا ولا أن يجد أن هناك تناقضا بين ما ينادى به من قيم وبين ما يتخذ فعلا من مسلك فى عالم الكبار . كذلك فان على مجتمع الراشدين أن لا يطالب المراهق الا بالمستوى الاخلاقى « المعقول » وهو الذى يكون فى حدود طاقته الفعلية ، فلا نطالبه بالمثاليات المبالغ فيها والا فسيفشل حتما فى تحقيقها وتقع فريسة للتمزق الداخلى بين رغباته الداخلية والمتطلبات الخارجية فينشأ عن ذلك القلق النابع من الاحساس بالذنب • وهذا فى الواقع هو ما يفسر لنا ظاهرة التقلب الانفعالى والتذبذب أو التناقض فى سلوك وأخلاقيات المراهق ، فهو دائما يتأرجح بين ارضاء نزعاته ومتطلبات المجتمع ، ولذلك فكلما كان هناك اعتدال فى متطلبات المجتمع وكلما بعدت هذه المتطلبات عن التزمت كان هذا أدعى الى استقرار المراهق على معايير سلوكية ثابتة ومقبولة من جميع الاطراف •

● قيام المراهق بالدور الجنسى المعد له فى المجتمع ، أى الدور المناسب لكل شاب وشابة • ولا يقتصر هذا الدور على وظائف الزوج أو الزوجة أو الاب أو الام ولكنه يمتد الى قيام المراهق بالوظيفة الاجتماعية التى ينتظرها المجتمع من الجنس الذى ينتمى اليه فى شتى المجالات من تعليم وتوجيه مهنى ، كما يمتد الى نوع السلوك المفروض فيه . كل هذه الاشياء التى يتوقعها المجتمع من المراهق تعتمد على المفاهيم والقيم السائدة فى أى مجتمع من المجتمعات ، وهو يختلف بطبيعة الحال فى المجتمعات المتحضرة عنها فى المجتمعات المتخلفة أو فى المجتمعات الغربية عنها فى الشرقية ، الخ. ونحن مازلنا (وهذا ينطبق أيضا على كثير من المجتمعات الغربية) نتطلب من الشاب القيادة وتحمل المسئولية أكثر من الشابة التى ما زال ينظر اليها على أنها مخلوق خاضع بشكل عام لمشيئة الرجل وأن عليها القيام فقط بأدوار سلبية

فى البناء الاجتماعى فتكتفى بشغل الوظائف الثانوية ، أو المهن المساعدة غير القيادية. ومع وجود هذه الاوضاع قائمة فاذا حدث تناقض فى نفس المراهق حول مدى تكيفه مع الدور الجنسى المطلوب منه فسيشعر بالقلق وسيفشل فى القيام بواجباته الاساسية فى المجتمع، اذ انه سيكون غير مقتنع بهذا الدور المطالب به • وقد يأتى هذا الخلط فى مفهوم المراهق لدوره الجنسى نتيجة الغموض أو التناقض فى نظرة والديه اليه كولد أو بنت ـ بمعنى أنه قد تكون هناك رغبة قديمة لدى الوالدين فى أن يكون الطفل على غير جنسه ، وقد يعامل على هذا الاساس ان كانت هذه الرغبة قوية فينشأ المراهق وهو غير مستقر على وضعه الجنسى لا شعوريا مما يؤدى الى عدم كفاءته فى القيام بدوره الجنسى فى المجتمع • والواقع أن هذا يؤدى أحيانا الى ظهور سلوك شاذ جنسيا لدى المراهق قد يلازمه طوال العمر •

● ان يواجه المراهق القرارات الهامة الخاصة بمستقبله المهنى • ان هذه القرارات قد تعرض المراهق لصراعات نفسية حادة بسبب تضارب الاتجاهات بشأن هذا الموضوع • فهناك نزعات شعورية ولا شعورية تدفعه للاخذ بتعليم معين أو اتجاه مهنى خاص ، وقد يكون ذلك مبنيا على تصورات ذاتية غير مطابقة للواقع بل جاءت نتيجة لرغبات أو تمنيات والديه القديمة • ثم هناك ضغوطا خارجية منجهة الوالدين أو شخصيات هامة فى الاقارب أو الاصدقاء ، كما أن هناك الضغوط الاقتصادية والحضارية مثل التقييم الذى يكونه المجتمع بالنسبة لمهنة معينة أو الهالة التى يضعها حول بعض المهن أو الفئات دون الاخرى خلال ظروف تغير المجتمع .. وأخيرا وليس آخرا فهناك القدرات الواقعية الفردية (الذكاء ـ الشخصية ... الخ) التى يتمتع بها المراهق والتى لابد أن يكون لها دور فعال فى تحديد مستقبله •

كل هذه العوامل لابد من وضعها فى الاعتبار حتى يكون تخطيط المراهق لمستقبله واقعيا وحتى نبتعد عن القرارات الانفعالية العشوائية والبعيدة كل البعد عن مصلحة المراهق الحقيقية • كما أنه يجب الا يكون تدخل الوالدين فى تقرير مستقبل المراهق أكثر من القدر الضرورى الذى يساعده على مواجهة المشكلة بأسلوب واقعى ، فلا يكون ضغطهما عليه نابعا من نزعات عاطفية من جانبهما حتى لا يؤدى ذلك الى اختلاط الامور على المراهق وفقدانه الثقة فى نفسه فى مواجهة أهم قرارات حياته •

ان التغلب على المهام الاربع السالفة الذكر يشكل التحدى الرئيسى الذى قد يتغلب عليه المراهق أو يتعثر أمامه فيؤدى به الى شتى الاضطرابات النفسية أو الانحرافات السلوكية التى كثيرا ما نصادفها فى هذه المرحلة الحرجة من حياة الانسان •

هناك أخيرا بعض القواعد العامة التى يجب الاسترشاد بها فى رعايتنا للمراهق حتى نقلل من الصعوبات والاخطار التى قد تصادفه :

١ ـ تفهم الاباء لتقلبات المراهق وعدم التزمت فى معاملته مع مراعاة معالجة الامور فى نفس الوقت بالحزم المشوب بالعطف ، والمحاولة باستمرار ان يضعوا أنفسهم فى مكانه ، والتذكر أنهم كانوا ـ فى يوم من الايام ـ من المراهقين هم أنفسهم •

٢ ـ احترام رغبة المراهق فى الاستقلال الفكرى وعدم فرض مفاهيم أو معايير اجتماعية مبنية على تفكيره ، وخاصة فيما يتعلق بالمستقبل المهنى •

٣ ـ منح المراهق الفرصة للاختلاط مع الجنس الاخر • وعلينا دائما استيعاب حقيقة هامة ،وهى أن اختلاط الجنسين فى جماعات منظمة تقوم بنشاط ثقافى أو رياضى أو ترفيهى هو من اسلم الوسائل لاتاحة الفرصة أمام كل جنس للتعرف على الجنس الاخر ، كما أن هذه الوسيلة تنفس عن جزء كبير من طاقة المراهق الجنسية ، بل أنها تهذب (تتسامى) الغريزة الجنسية وتعمل على احترام كل من الجنسين للاخر •

٤ ـ اتاحة الفرص أمام المراهق للالتحاق بجماعات منظمة من نفس الجنس لممارسة مختلف ألوان النشاط الرياضى والثقافى وما الى ذلك ، لاتاحة المجال أمام المراهق للتدرب على القيادة وتحمل المسئولية ومواجهة بعض المشاكل العملية للحياة اليومية والتغلب على المواقف الجديدة ، كما أن هذه النشاطات وخصوصا ما كان منها على شكل معسكرات أو رحلات خلوية تشبع رغبة المراهق فى الاستكشاف والمغامرة •

٥ ـ يجب الاخذ بمبدأ انشاء العيادات النفسية الخاصة بالمراهقين باعتبارهم فئة منفصلة عن الاطفال وهذا حادث فعلا فى بعض الدول المتقدمة ، على أساس أن نفسية ومشاكل المراهق تحتاج الى تخصص فى نظرة المعالجين اليها وحتى يشعر بذلك المراهق نفسه بدلا من احساسه بأنه مدرج تحت بند عريض هو « مشكلات الطفولة » • كذلك يجب التوسع فى تعيين الموجهين النفسيين بالمدارس الثانوية وأندية الشباب ، ان هذه العيادات وهؤلاء الموجهين يقومون بوظيفة حيوية فى المجتمع وهى الارشاد النفسى والعلاج الطبى النفسى وهى اجراءات تساعد المراهق فى التغلب على مشاكله النفسية قبل أن تستفحل وتصبح امراضا قائمة فعلا أو انحرافات سلوكية معادية للمجتمع ، وبذلك نكون قد اقمنا خطا دفاعيا أماميا للمجتمع ضد الامراض النفسية لدى الانسان البالغ فيما بعد •

الاتجاهات والنتائج العامة

فى محاولة من أسرة تحرير « الطليعة » ، للتعرف على اتجاهات وآراء وانتقادات ، أصدقائها وقرائها ، بعد مرور سبع سنوات على اصدارها : تقدمت من خلال عددى أغسطس وسبتمبر الماضيين « بورقة رأى » تتضمن عددا من الاسئلة .

واذا كانت «الطليعة» قد رأت أن من واجبها أن تستطلع آراء وانتقادات الاصدقاء والقراء ، فقد رأت أيضا أنه يتعين عليها ان تطلعهم على النتائج التى أمكن استخلاصها من تفريغ مجمـــوع الاوراق التى وردت اليها حتى العشرين من شهر نوفمبر ١٩٧١ . وقد زاد مجموع هذه الاوراق على ألفى ورقة .

وتقدر الطليعة تقديرا بالغا ، كل من أولى اهتمامه لورقة الرأى ، وكانت مساهمته الايجـــابية بالرد على اسئلتها زادا جـــديدا وضوءا كاشفا للطريق أمامنا .

وتعكف أسرة الطليعة على دراســـة أوجه النقد والمقترحات الجديدة لبحث امكانية التفاعل مع الاتجاه الغالب فيها ، ومن هذا المفهوم ، قررت أسرة الطليعة الاســـتجابة فورا الى ارادة أغلبية القراء والاصدقاء فى مد اهتمامها الى ميدان الادب والفن ، وابتداء من عدد يناير القادم سيصدر ملحق خاص بالادب والفن مضافا الى العدد العادى .

وننشر فيما يلى النتائج العامة « لورقة الرأى » محسوبة على أساس الـــ ٢٠٠٠ ورقة الاولى .

أولا :

طبيعة المشتركين فى ورقة الرأى

① الســـــن

٢٥ سنة فأقل	٢٦٪
من ٢٥ــ٣٥ سنه	٥١٪
أكثر من ٣٥ سنه	٢٣٪

② المستوى الثقافى :

حملة دكتوراه	١٠٪
طلبة وخريجو جامعات وما فى مستواهـــا	٤٨٪
حاصلون على الثانوية العـــامة وما فى مستواها	٣٣٪
غير حاصلين على شهادات	٩٪

③ المهنـــــة :

طلبه	١٨٪
موظفون ومهنيون	٦٠٪
عمـــال	١١٪
صحفيون وكتاب وفنانون	١١٪

④ محل الاقامة :

خارج جمهورية مصر العربية	٣٧٪
مصريون يقيمون بالقاهرة	٤١٪
مصريون يقيمون خارج القاهرة	٢٢٪

ثانيـا ـ الاجابات على الاسئلة :

① صـدرت الطليعة تحت شـعار «طريق المناضلين الى الفكر الثورى المعاصر» . هل تـرى أن الطليعة حققت هذا الشعار والى أى مدى؟

نعـم	٥٤٪
نعم مع بعض التحفظات	٣٨٪
لا	٢٪
اجابات غير محددة وغير واضحة	٦٪

② هل ترى أن تتوسع «الطليعة» فى الدراسـات ذات الطابع الفـكرى (الايديولوجى) أم تقترح التركـيز بقدر أكبر على دراسـة مشـاكل الواقع المحلى العربى ؟

التركيز على الدراسات الفكرية	٢٤٪
التركيز على دراسـة مشـاكل الواقع المحلى والعربى	٢٩٪
الاهتمام بالجانبين معا	٤٧٪

③ هل ترى أن «الطليعة» تتابع فى دراساتها وأبوابها ـ بقدر كافـ ـ القضـايا الرئيسية التى تشـغل اهتمام الرأى العـام . واذا كان هناك نقص ففى أى مجال بالدقة ؟

نعـم	٢٢٪
نعم مع بعض التحفظات	٧٧٪
لا	١٪

④ ماهى الموضوعات التى تحتاج ـ فى رأيك ـ الى مزيد من التعمق والتركيز فى معالجتها عام ١٩٧٢؟

● دراسة الواقع المحلى ومشكلات الحياة اليومية للجماهير	٢٢ ٪
● وحدة القوى الثورية فى الوطن العربى .	١٩ ٪
● مشاكل حركة التحرر الوطنى والعـالم الثالث	١٨ ٪
● الاتجاهات المعاصرة فى الفكر والفلسفة الاشتراكية .	١٠ ٪
● مشاكل الطبقة العاملة المصرية	١٠ ٪
● الصراع العربى الاسرائيلى وآفاقه	٩ ٪
● مشاكل الديمقراطية والحـرية وحقوق الانسان العربى .	٨ ٪
● البحث عن ايديولوجية للثورة المصرية .	٨ ٪

(يلاحظ أن كثيرا من الاجابات تضمن أكثر مـن اقـتراح)

⑤ ماهى فى رأيك أكثر أبواب الطليعة اهمية وفائدة ؟

التقـارير	٣٨٪
الدراسـات	٢٤٪
الملفـات	٢٣٪
الافتتاحيـة	٢٠٪
الوثائـق	١٥٪
المناقشـات	١٣٪
المكتبـة	١٤٪
التعليقـات	٦ ٪
كتابات جـديدة	٣ ٪

(يلاحظ أن كثيرا من الاجابات تضمن الاشـارة الى أكثر مـن باب)

⑥ ما هى الابواب التى تقترح حزفها؟ والابواب التى تقترح اضافتها ؟

أ ـ اقتراحات بالاضافة :

● شـهرية للثقافة والفن	١١٪
● باب للرد على رسائل القراء	٨ ٪
● قاموس الطليعـة	٧ ٪
● باب لمشاكل العلم الحديث ومنجزاته .	٧ ٪
● باب لدراسة تجارب البنـاء الاشتراكى	٧ ٪
● باب لدراسة مشاكل العمال	٦ ٪
● معنى الارقـام	٥ ٪
● باب للشباب	٥ ٪
● دراسات فى تاريخ مصر	٥ ٪
● دراسـات افريقيـة	٤ ٪
● باب خاص بافكار عبد الناصر	٤ ٪
● حركات التحرر الوطنى والاحزاب الثورية	٤ ٪
● تعليق على العدد السابق	٤ ٪
● باب عن الاشتراكية والاسلام	٣ ٪
● حوار مع شخصيات عالمية	٣ ٪

ب ـ اقتراحات بالحزف :

● حذف الدراسات العسكرية	٢ ٪
● حذف المناقشـات	٢ ٪
● حذف الوثائق	٢ ٪
● حزف الافتتاحية	١ ٪
● حذف كل ما يتعلق بالادبوالفن	½ ٪

(يلاحظ أن كثيرا من الاجابات قد تضـمنت أكثر من اقتراح) .

⑦ من هم كتاب الطليعة الذين تحوز كتاباتهم على اهتمامك ؟

أبدى القراء اعجابهم بالعديد من كتاب الطليعة فى مقدمتهم :

لطفى الخولى ـ ميشيل كامل ـ د. اسماعيل صبرى ـ د. ابراهيم سعد الدين ـ غالى شكرى ـ د. رفعت السعيد ـ د. فؤاد مرسى محمد سيد احمد ـ د. محمد الخفيف ـ د. جمال العطيفى ـ ابو سيف يوسف ـ حسين شعلان ـ عبدالمنعم الغزالى ـ محمود عزمى ـ خيرى عزيز ـ طارق البشرى ـ د. وليم سليمان ـ سمير كرم ـ مصطفى طيبة ـ د. عبد الرازق حسن .

⑧ ماهى الاعداد السابقة من الطليعة التى نالت منك اهتماما خاصا .. .. ولماذا ؟

ا ـ جميع الاعداد	١٥٪
ب ـ جميع الاعداد الخاصة	٨ ٪
جـ ـ أشخاص أبدوا اعجابهم بعدد معين	
عدد لينين	١٨٪
عدد جمال عبد الناصر	١٥٪
الاعداد الخاصة بفلسطين والصهيونية	١٥٪
عدد شباب ١٩٦٨	٨ ٪
عددى جارودى ومكسيم رودنسون	٨ ٪
عدد ثورة ١٩١٩	٦ ٪
اعداد المسرح والادباء الشبان	٦ ٪
عدد الثورة العرابية	٥ ٪
الاعداد التى تضمنت كراسات الطليعة	٤ ٪
الاعداد التى تضمنت دراسات ايديولوجية	٤ ٪
الاعداد التى تنشر الشهادات الواقعية	٤ ٪
الاعداد التى تناقش القضايا العمالية	٣ ٪
الاعداد التى تناقش القضايا الاقتصادية	٣ ٪
اعداد ندوة افريقيا	٢ ٪

(يلاحظ أن كثيرا من الاجابات أبدت اعجابا بأكثر من عدد)

⑨ هل توافق على قيام الطليعة بنشر اعمال ادبية وفنية كالقصة القصيرة والشعر والنقد.. الخ ؟

نعم	٤٧٪
نعم [مع التحفظ بضرورة الاقتصار على نشر النقد فقط او تحفظات اخرى]	١٨٪
لا	٣١٪
ممتنعون عن الاجابة	٤ ٪

⑩ مارأيك فيما يتعلق بشكل وحجم الطليعة ؟

ا ـ اجابات عامة

مناسب	٧٧٪
جيد	٢ ٪

ب ـ ملاحظات خاصة

تحسين شكل الغلاف	٨ ٪
انتقاء الشكل والاخراج	٧ ٪
يهتمون بالمضمون دون الشكل	٣ ٪
مزيد من الصور والرسوم	٣ ٪

⑪ ملاحظات عامة واقتراحات أخرى

ا ـ اجابات عامة

ليس لديهم ملاحظات او اقتراحات	٣٧٪

ب ـ ملاحظات ومقترحات محددة

ضرورة اصدار كتاب الطليعة	٦ ٪
التوسع فى نشر آراء القراء والكتاب الجدد	٦ ٪
التوسع فى دراسة مشاكل العمال والفلاحين	٥ ٪
الاهتمام بتقديم التراث الفكرى لعبد الناصر	٤ ٪
الكف عن تبرير اخطاء السلطة	٣ ٪
مزيد من الكتاب التقدميين العرب	٣ ٪
زيادة الوثائق وتنويعها	٢ ٪

كذلك طالب بعض القراء بمقترحات أخرى مثل :

تقديم تعريف لكتاب الطليعة ـ توزيع ورقة الرأى سنويا ـ اشتراك مخفض فى الطليعة للطلبة ـ اجراء مسابقات لتشجيع القراء على الاطلاع ـ أن تقدم الطليعة حوارا بين الازهر والماركسيين المصريين ـ الاستعانة بالكاريكاتير السياسى ـ تجميع الافتتاحيات فى كتاب .

(يلاحظ أن كثيرا من الاجابات تضمن أكثر من اقتراح)

٨٠ شهرا من حياة الطليعة



كان تحديد « طبيعة المرحلة الحالية من الثورة من أهم موضوعات الحوار ، ورغم ذلك لم تعالج بصفة مباشرة الا لماما ؛ وان كانت الخلفية التى يبنى عليها معظم كتاب الطليعة مواقفهم تجاه مختلف المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية تعبر عن مفهومهم عن هذه المرحلة وتعكس تصورهم لها .

وتقدم « الطليعة » فى هذا العدد عرضا لاهم الاتجاهات التى عالجت هذه القضية، على مدى ٨٠ شهرا . والطليعة بهذا تتابع تقديم مواقفها ازاء القضايا الحيوية والرئيسية بهدف وضعها موضع النقد العملى، واشراك أكبر عدد من القراء والاصدقاء فى هذه العملية . وقد سبق أن نشرنا ملخصا للآراء والاتجاهات فيما يتعلق بقضايا « حركة التحرر الوطنى »، « القضية العربية » ، القضية الفلسطينية » ، والفكرة الصهيونية .

طبيعة المرحلة الحالية من الثورة

قوى الثورة - موقعها من العملية الثورية

عرض : حمدى عبد الجواد

بالمقارنة مع القضايا المختلفة التى تناولتها الطليعة بالعرض والمناقشة طوال هذه الفترة من تاريخها لم تحظ قضية طبيعة المرحلة الحالية من الثورة وما يرتبط بذلك من مناقشة لتوزيع القوى الطبقية وعلاقاتها المتبادلة بذلك القدر من اهتمام كتاب الطليعة الذى حظيت به القضايا الاخرى . وفى معظم الاحيان كان التعرض لتلك القضية يتم فى ثنايا بعض المقالات أو من خلال مناقشة القضايا الاخرى التى قد يكون لها علاقة بالموضوع . وفى هذه الحدود تباينت الاراء حول طبيعة المرحلة الثورية وما تفرضه من واجبات . ومن الممكن تلخيص الاراء التى عرضت بالطليعة فى اتجاهات رئيسية ثلاث ، مع التباين فى التفاصيل .

وقد دافع الاتجاه الاول عن :

● أن المرحلة الحالية من الثورة هى المرحلة الوطنية الديموقراطية ، وأن الثورة المصرية لم تتعد بعد هذه المرحلة ذات الطبيعة البورجوازية رغم اتخاذ بعض الاجراءات والخطوات ذات الطابع الاشتراكى .

● انه لايوجد انفصال كامل بين المرحلة الوطنية الديموقراطية الحالية وبين المرحلة الاشتراكية التى تليها ، بل ان هناك قدرا من التداخل والتزاوج بين المرحلتين مما يجعل الظروف ممهدة لتخطى المرحلة الاولى الى الثانية بسهولة .

● ان قوى الثورة الوطنية الديموقراطية هى العمال والفلاحين والجنود والمثقفين والراسمالية الوطنية .

● ان الطبيعة البورجوازية للمرحلة الحالية من الثورة لاتستلزم قيام البورجوازية بالدور القيادى ، فقد أثبتت التجربة عجز البورجوازية أيا كان مستواها عن المضى بالثورة الديموقراطية الى النهاية ، ومن هنا تبرز أهمية دور الطبقة العاملة فى القيادة أو المشاركة بدور فعال فيها ، اذ ان الضمان لاستمرار الثورة هو أن يحتل ممثلو الطبقة العاملة المواقع القيادية الكفيلة بشل تردد البورجوازية الوطنية .

● ان تولى أى فئة من البورجوازية الوطنية لقيادة الثورة يؤدى بالضرورة الى اجهاض الثورة فى منتصف الطريق .

● ان نجاح الثورة الوطنية الديموقراطية مرهون بتوسيع الحريات الديموقراطية بمعنى زيادة مشاركة العمال والفلاحين مشاركة فعالة فى تقرير مستقبل البلاد .

أما الاتجاه الثانى فيؤمن بأن :

● الثورة تمر حاليا بمرحلة انتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، وانها تسير فى طريق تطور غير رأسمالى تضع فيه أسس بناء الاشتراكية .

● هذا التحول نحو الاشتراكية يتم رغم ضعف الطبقة العاملة سياسيا وتنظيميا ، وانها لا تلعب فيه الدور القيادى كما حدث فى عمليات التحول فى الثورات الاشتراكية التقليدية .

● الاشتراكية قد غدت موضع جذب شديد لفئات متوسطة وصغيرة من البورجوازية بالاضافة الى الطبقة العاملة •

● الثورة موجهة ضد الاستعمار والاقطاع والرأسمالية الكبيرة ، والشرائح العليا من البورجوازية الوطنية وهدفها تحررى اشتراكى وحدوى •

● قوى الثورة هى العمال والفلاحون والمثقفون والجنود والرأسمالية الوطنية (كتلتها الاساسية) •

أما الاتجاه الثالث فيعتقد أن :

● ثورتنا لم تتوقف منذ انجاز الثورة الوطنية الديمقراطية وقد دخلت منذ يوليو ١٩٦١ مرحلة الثورة الاشتراكية .. والتعبير العملي على ذلك هو اجراءات يوليو والتطبيق الاشتراكى الواسع فى تنظيم اقتصاد البلاد •

● الثورة الاشتراكية اسقطت تحالف الاقطاع ورأس المال المستغل ليحل محله تحالف عريض من قوى الشعب العامل (عمال وفلاحين وجنود ورأسمالية وطنية غير مستغلة) •

● العمال والفلاحون يتمتعون بضمانات هامة فى مسئوليات التطبيق الاشتراكى ، اهمها تمثيلهم بخمسين فى المائة على الاقل فى كافة التنظيمات الشعبية •

وفى عددى يوليو ١٩٦٥ ويونيو ١٩٦٧ عبر **لطفى الخولى** عن أحد تلك الاتجاهات فقال :

« ان الاطار العام الذى يجرى فيه صياغة العلاقات الجديدة هو اطار مرحلة التحول المادى والمعنوى للمجتمع من النظام الرأسمالى الى النظام الاشتراكى ..

والقاعدة الاجتماعية لهذا التحويل تتكون من خمس قوى اجتماعية هى الفلاحين والعمال والمثقفين والجنود والرأسمالية الوطنية تتآلف فى تحالف شعبى يمثل الفلاحين والعمال فيه مركز الثقل الاساسى • ويسترشد هذا التحالف فى حركته بميثاق وطنى يتخذ من الاشتراكية العلمية منهاجا للتطبيق الاشتراكى المتكيف مع واقع المجتمع المصرى وظروفه ... » (١)

« والخط العام للثورة العربية المعاصرة هو تحررى اشتراكى وحدوى فى وقت واحد •

ويعنى ذلك فى التطبيق :

● أن الصراع الرئيسى يدور بين القوى التحررية الاشتراكية الوحدوية وبين القوى الاستعمارية والرجعية المتجسدة فى الاقطاع والرأسمالية الكبيرة •

● ان ثمة فئات وطنية مستنيرة عن البورجوازية وخاصة الصغيرة قد تغلب فيها الطابع التقدمى على الطابع المساوم وتواكب فعليا حركة التطور نحو الاشتراكية •

● ان الفئات العليا من البورجوازية والشرائح الكبيرة من البورجوازية المتوسطة قد تحولت اليوم بالكامل الى صف قوى الثورة المضادة مكونة مع الاقطاع تحالفا رجعيا مع الاستعمار : ذلك لانها أدركت أن ثورة التحرر الوطنى لم يعد من الممكن عزلها عن التحول الى ثورة اجتماعية ذات آفاق اشتراكية •

● ان التطور نحو الاشتراكية فى عدد من البلاد العربية قد وقع رغم أن الطبقة العاملة لم تكن ناضجة بما فيه الكفاية سياسيا وتنظيميا وبقدر ما يسمح لها بأن تكون الطبقة القائدة على النحو الذى نعرفه فى الثورات الاشتراكية التقليدية . وهذا التطور يمضى حتى يومنا هذا فى البلدان الثلاثة (مصر وسوريا والجزائر) • وهذا لا ينفى أن الطبقة العاملة مع تطور الثورة مدعوة لان تلعب دورا أكثر أهمية فى تحديد مصائر الامة •

● ان الزراعة تمثل المصدر الرئيسى للدخل والتراكم فى معظم البلدان العربية • ويستلزم ذلك يقظة ثورية فى معالجة قضية الريف والفلاحين من خلال اصلاح زراعى جذرى يطلق هذه الطاقات الهائلة من قيود الاستغلال والتخلف لتندفع مع خط الثورة المعاصرة •

---

(١) الدولة والتنظيم السياسى فى التجربة المصرية — لطفى الخولى — يوليو ١٩٦٥ .

● تلعب الجيوش العربية دورا هاما متفاوت الوزن فى الحركة السياسية منذ أواخر الاربعينيات مما يوجب على القوى التقدمية أن تعمل على كسب العسكريين لصفوفها وعزل النفوذ الرجعى الاستعمارى عن الجيوش الوطنية .

● يجب أن يحتل العمال والفلاحون باعتبارهم القوى صاحبة المصلحة فى التطور البعيد المدى للثورة مكانا بارزا ومؤثرا فى وحدة قوى الثورة .

● ان الثورة العربية جزء لا يتجزأ من حركة التحرر العالمية ، وجزء لا يتجزأ من قوى الثورة الاشتراكية العالمية » (٢)

وفى وثائق الملتقى الفكرى العربى الذى عقد بالخرطوم فى مارس ١٩٧٠ لمناقشة « قضايا الثورة العربية بعد يونيو ١٩٦٧ » والذى نشرته الطليعة فى عدد مايو ١٩٦٧ كانت احدى القضايا الاساسية التى طرحت فى الملتقى وتباينت حولها الاراء هى قضية المرحلة الراهنة فى الثورة العربية وتوزيع قواها .

وحول هذه القضية عرض **فوزى الكيالى** أحد الاراء وبدأ بتعريف المرحلة الثورية بأنها « الفترة الزمنية التى تبتدىء بصمود طبقة معينة أو تحالف عدة طبقات الى السلطة لتحقيق برنامج اقتصادى اجتماعى سياسى معين يتناسب مع مصالح تلك الطبقة أو الطبقات المتحالفة ، والتى تنتهى بسقوط تلك الطبقة أو ذلك التحالف » .

وعلى ضوء هذا التعريف بدأ فى استعراض المراحل التى مرت بها الثورة العربية فقسمها الى ثلاث مراحل ثورية :

١ - مرحلة الوحدة الوطنية وقيادة البورجوازية الكبيرة ، وتمتد من بداية الثورة العربية فى العشرينيات من هذا القرن حتى قيام اسرائيل عام ١٩٤٨ . وهى الحركة الموجهة ضد الاستعمار فى سبيل التحرر الوطنى من ثورة الحسين فى الحجاز عام ١٩١٦ الى ثورة العراق عام ١٩٢٠ الى ثورة ١٩١٩ فى مصر الخ . ويرى الكيالى أن قيادة هذه المرحلة كانت لاحزاب قطرية تقف على رأسها البورجوازية الوطنية وتستند الى جماهير الشعب العامل المناهضة للاستعمار . واستطاع الاستعمار ان يقسم البورجوازية على نفسها وأن يتخذ من بينها أعوانا وحلفاء وساعده على ذلك وضع التجزئة القائم . وظلت البورجوازية الوطنية الكبيرة المتحالفة مع الاقطاع والعشائرية تلعب دورها البارز فى قيادة العمل القومى والوطنى حتى عام ١٩٤٨ حين افتضح عجزها عن تحقيق الامانى القومية والاجتماعية للشعوب العربية .

٢ - مرحلة الصمود الثورى بقيادة البورجوازية الصغيرة وتمتد تلك المرحلة من عام ١٩٤٨ حتى عدوان اسرائيل عام ١٩٦٧ . ويرى الكيالى أن التحالف خلال تلك المرحلة تشكل بين العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين والبورجوازية الصغيرة التى تسلمت زمام القيادة فى هذا التحالف . واتخذ هذا التحالف شكل اندماج طلائع الطبقات الثورية فى حزب واحد تقوده البورجوازية الصغيرة بأيديولوجيتها الوسطية بين القوى المتحالفة أو شكل منظمات عسكرية منحدرة من أصل بورجوازى صغير .

ويشير الكيالى الى أنه خلال تلك المرحلة لم تكن هناك قيادات عمالية وفلاحية جاهزة أعمق وعيا وأكثر تقدما مما سمح للقيادات البورجوازية بأن تحتل مكان القيادة .

٣ - مرحلة ما بعد هزيمة حزيران . ويرى الكيالى أنه بينما مهدت الثورة الديموقراطية فى الغرب للثورة الاشتراكية ، فان الثورة فى بلدان العالم الثالث لابد أن تكون ديموقراطية واشتراكية معا ويقول « ان حرق المراحل أو مبدأ الثورة الديموقراطية الاشتراكية هو الاستراتيجية الوحيدة الصحيحة للعمل الثورى فى البلدان المتخلفة . وهو وحده الذى يؤدى الى استمرار الثورة وهو الذى يفرض فى الوقت نفسه الا تكون الثورة من صنع طبقة ثورية واحدة .

وعبر **جمعة محمد مهدى** من ليبيا عن وجهة نظر أخرى فحدد مراحل الثورة العربية بمرحلتين :

١ - مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية حتى عام ١٩٥٢ وهى مرحلة النضال الوطنى من أجل الاستقلال ومجابهة الاستعمار والسعى لايجاد حكم وطنى وظهور بعض ملامح الدعوة القومية .

٢ - المرحلة الثانية من ١٩٥٢ حتى ١٩٦٩ فتبدأ بثورة يوليو ١٩٥٢ كرد جماهيرى على نكبة فلسطين . وقد صاغت هذه المرحلة نضال الجماهير فى غايات محددة هى الحرية والاشتراكية والوحدة .

---

(٢) أفكار وملاحظات حول بناء وحدة القوى التقدمية فى الوطن العربى - لطفى الخولى - يوليو ١٩٦٧ .

كما تحدث فى ملتقى الخرطوم **ميشيل كامل** (مصر) فعبر عن وجهة نظر ثالثة . دعا ميشيل كامل الى اهمية تحديد المرحلة التاريخية التى نجتازها بصفة عامة على النطاق العربى ، اذ يتوقف على هذا التحديد أن نتبين بوضوح حقيقة المهام السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى نتصدى لها ، ثم القوى الاساسية والحليفة أو تلك التى ينبغى علينا تحييدها عبر هذه المرحلة ، ونطاق التحالف الوطنى وقواد الحركة .

ويرى ان الشعوب العربية لم تنجز بعد مهام مرحلة الثورة الوطنية الديموقراطية ، وانتقد المحاولات التى يقوم بها بعض المفكرين العرب لطمس المعالم المميزة لمرحلتى الثورة ودمجهما تعسفا فى مرحلة واحدة تحت شعار الالتحام . فهناك اليسار المتطرف الذى يبغى تخطى حقبة تاريخية بأكملها ويتصور امكانية القفز عبر مرحلة كاملة دون استكمال مقومات تخطيها . وهناك من يريد ان يضفى على برنامجه ابعادا فضفاضة لاتتناسب مع حجمه او واقعه متصورا انه بهذا الموقف يستطيع أن يكسب شعبية واستقرارا .

ويرى ميشيل كامل ان هناك قدرا من التداخل والتزاوج بين المرحلتين يجعل الظروف ممهدة لتخطى المرحلة الاولى بسرعة اكبر وتضحيات أقل الا ان هذا الوضع لا يصل الى مرتبة دمجهما فى مرحلة واحدة .

واشار ميشيل كامل الى أهمية التعرف على مواقع القوى الاجتماعية المختلفة من العملية الثورية والتغييرات التى تطرا على موقعها على امتداد طريق الثورة الوطنية الديموقراطية ثم الثورة الاشتراكية فان الحلقة الرئيسية فى ارساء مقومات النصر للثورة هى تحديد العدو والحليف تحديدا دقيقا لا يسمح بتسرب قوى معادية الى صفوف الثورة ، وفى الوقت نفسه لايضع القيادة بين أيدى قوى مترددة تعجز عن الاستمرار وتفتقر الى الحسم حتى وان كانت هذه القوى من بين حلفاء المعركة .

واشار الى أن الطابع البورجوازى للثورة الوطنية الديموقراطية لا يفترض قيام الطبقة البورجوازية أو ممثليها بالدور القيادى . فقد أثبتت التجربة صحة النظرية القائلة بأن البورجوازية أيا كان مستواها عاجزة عن المضى بالثورة الديموقراطية الى النهاية ، فهى تتجه الى اجهاضها فى منتصف الطريق ومن هنا يبرز دور الطبقة العاملة فى القيادة أو المشاركة بدور فعال فى القيادة .. وهذا لا يعنى تجميد الحركة الثورية أو تأجيلها انتظارا لظهور ونضج الطبقة العاملة او حزبها الطليعى ، بما يؤهلها لاحتلال موقعها القيادى ، انما يعنى أن نضع نصب أعيننا أن الضمان الوحيد لاستمرار الثورة هو أن يشغل ممثلو الطبقة العاملة الموقع القيادى الكفيل بشل تردد البورجوازية الوطنية .

ولخص الموقف فى القول بأن البورجوازية الوطنية يمكن أن تفجر الثورة الوطنية وأن تقود مرحلة منها ، كما يجب اشراكها فى انجاز مهامها بالتحالف معها ، الا أن تولى أى فئة منها للقيادة يؤدى بالضرورة الى اجهاض الثورة فى منتصف الطريق ، كما رد على حجة صغر حجم العمال النسبى بتجربة الصين وفيتنام وكوريا حيث تولت أحزاب عمالية تحمل أيديولوجية الطبقة العاملة قيادة الثورة رغم أن حجم الطبقة العاملة بالنسبة لجموع العاملين كان أقل منه فى معظم البلدان العربية .

وتطرق بعد ذلك الى أهمية التعريف العلمى السليم للطبقة دون محاولة لتمييع وطمس الحدود الفاصلة المميزة بينها مما يؤدى الى « **الرشح الطبقى** » وتسرب السلطة الى أيدى فئات بعينها باسم فئات اخرى .

وتعرض للاهمية الخاصة لسيادة مناخ ديموقراطى قائلا ان الثورة الوطنية تظل نصف ثورة يصيبها العقم والتصدع ان لم تلتزم باطلاق الحريات السياسية باشراك قوى الشعب العاملة واقعيا وليس نظريا فى اتخاذ القرارات وبأطلاق المبادرات الجماهيرية الخلاقة فى صياغة السياسة العامة للبلاد والاسهام فى تطبيقها والرقابة عليها . وانتقد الاتجاه الى الوصاية على الجماهير وهاجم نظرية التخصص المطلق بين قيادة لاتخاذ القرارات وبيروقراطية لتوجيه جهاز الدولة وتكنوقراطية لادارة الانتاج وجيش للقتال . فالى جانب التخصص هناك ضرورة المشاركة الفعالة من جانب الشعب فى اتخاذ القرارات وادارة الانتاج والدفاع عن أرض الوطن .

قوى الثورة وتوزيعها

« ان المنهج العلمى لا يضع جميع الطبقات ذات المصلحة فى تحقيق اهداف مشتركة واجتياز مرحلة استراتيجية بعينها على نفس المستوى بين الثورية والفاعلية الاجتماعية ضمنها طبقات رئيسية واخرى غير رئيسية أو ثانوية طبقا للمكان الذى تشغله فى الانتاج . فالطبقات الرئيسية هى التى لا يمكن لاسلوب الانتاج الغالب اجتماعيا أن يوجد دونها ، احداها تملك ادوات الانتاج الاساسية والاخرى تمثل القطاع الذى يقع عليه العبء الرئيسى للاستغلال الاجتماعى . والعلاقة بين هذه الطبقات تظل دائمة عدائية متصادمة انتمزقها التناقضات والمصالح

المتعارضة ؟ وفى مصر كانت الرأسمالية (رأس المال المالى والصناعى والزراعى والتجارى) بحكم ملكيتها لادوات الانتاج الرئيسية وسيطرتها على السوق وسلطة الحكم طبقة رئيسية . وفى مواجهتها تقف طبقة العمال الصناعيين والزراعيين القوى المنتجة الرئيسية والتى يقع عليها العبء الاساسى من الاستغلال الراسمالى .

وهناك قوى طبقية اخرى تلعب دورا هاما فى الانتاج الا أنها هامشية او غير اساسية مثل المثقفين والرأسمالية الوطنية التى تطحنها عملية تمركز الانتاج فى ظل النظام الرأسمالى لتدفع افرادا منها الى مصاف القوة الرئيسية السائدة وتفقد غالبيتها ملكياتها ومراكزها لتنحدر الى صفوف بائعى قوة عملم فى سوق العمل » (٣) .

« إن مواقع الطبقات الاجتماعية تتحدد فى الثورة وفقا لمصالحها الاقتصادية . ولاشك أن هذه المواقع قد اختلفت بعد اجراءات يوليو وبالنسبة لفئة لعبت دورا رئيسيا فى انجاز مهام الثورة الوطنية الديموقراطية .

وقد حدد الميثاق القوى الاستراتيجية للثورة فى مرحلة التحول الاشتراكى بالعمال والفلاحين والجنود والمثقفين والرأسمالية الوطنية . كما أن القوى الرئيسية صاحبة المصلحة الحقيقية الاصيلة فى الثورة الاشتراكية هى العمال والفلاحين بمفهوم تعريفها الثورى ، الذى يستبعد من العمال العناصر الادارية البيروقراطية ،ويقصر تعريف الفلاح على من لا يملك أكثر من ٥ أفدنة » (٤) .

« ان القوى الاجتماعية للثورة اليوم تختلف اختلافا جوهريا عن القوى الاجتماعية للثورة التقليدية ذات البعد الوطنى الواحد بالامس . فلم يعد ممكنا اعتبار الطبقة الرأسمالية بجميع فئاتها – ككل – احدى القوى الاجتماعية للثورة الجديدة ذات الابعاد الثلاثة ، كما كانت فى الماضى ، بل أصبح الواقع يكشف عن عداء هذه الطبقة وخاصة فئاتها الكبيرة للثورة حتى بمفهوم البعد الواحد التقليدى » .

« هذا الموقف الجديد للثورة ذات الابعاد الثلاثة قد كشف ايضا عن ظاهرة جديدة ، وهى ان الاشتراكية قد غدت بصفة عامة موضع جذب شديد لفئات متوسطة وصغيرة من البرجوازية بالاضافة الى الطبقة العاملة . ومن هنا أصبحت مثل هذه الفئات جزءا موضوعيا من قوى الثورة فى التحول نحو الاشتراكية » (٥)

قوى الشعب العاملة والثورة

أما أمين عز الدين فيرى ان مرحلة الثورة الوطنية التى امتدت من ١٩٥٢ حتى ١٩٦١ حققت فى الواقع ، وكما رأينا ، قدرا كبير من الالتحام والتوحد بين الطليعة الثورية وجماهير العمال حول عدد من الاحداث والقضايا الاساسية .

ولكن من الحقائق التاريخية الهامة أن الطليعة الثورية فى مصر لم تتوقف عند انجاز الثورة الوطنية بل اندفعت فى الاتجاه الحتمى للتاريخ نحو اقامة مجتمع اشتراكى فى أسسه ، وفى علاقاته .

والثورة الاشتراكية تعنى ضمن الكثير من معانيها تغيير مواقع القوى الاجتماعية فى المجتمع أو تغيير الخريطة الاجتماعية ان صح هذا التعبير . فالثورة الاشتراكية فى مصر قد أسقطت تحالف الاقطاع والرأسمالية المستغلة ليحل محله تحالف عريض من قوى الشعب العاملة من فلاحين وعمال وجنود ورأسمالية وطنية (غير مستغلة) . وعلى الرغم من أن هذا التحالف الجديد قد ضم قوى الشعب العاملة فى المفهوم المصرى لهذه القوى وهو المفهوم الذى لا يضع احداها موضع الامتياز أو الغلبة ، فان العمال والفلاحين قد ظفروا بضمانات هامة من شأنها ان تنشط دورهما فى مسئوليات التطبيق الاشتراكى وفى العمل الوطنى . ولعل أهم هذه الضمانات ما قرره مؤتمر القوى الشعبية من أن يتم تمثيل الفلاحين والعمال بخمسين فى المائة على الاقل فى كافة التنظيمات الشعبية والسياسية » . (٦)

وفى تحديده لموقع الفلاحين من القوى الثورية يشير مصطفى طيبة الى انه « فى المرحلة الاولى للثورات الوطنية عندما تكون المشكلة الوطنية التحررية هى محور الحركة الثورية فى المجتمع تتواكب أوسع فئات الفلاحين فى صفوف الثورة بل وتؤازر فئاتهم العليا حزب كبار ملاك الارض بأمل

---

[٣] مفهوم وطريق تحالف قوى الشعب العاملة فى الميثاق – ميشيل كامل – يوليو ١٩٦٥ .
[٤] تدعيم سلطة قوى الشعب العاملة افتتاحية الطليعة – اكتوبر ١٩٦٥ .
[٥] افتتاحية الطليعة – لطفى الخولى – فبراير ١٩٦٧ .
[٦] ثورة يوليو والعمال – أمين عز الدين – يوليو ١٩٦٥ .

احلال سيطرتهم على مقدرات الريف محل السيطرة الاقطاعية ·

ولكن الوضع يختلف عندما تطرق هذه الثورات أبواب الاشتراكية · هنا يصبح نضال هذه الفئات الموالية لكبار الملاك من أجل تجميد الثورة هو محور حركتهم وتسعى بعناد لكسب الفلاحين الى جانبها فى هذا النضال الرجعى · ويقودها ذلك عاجلا او آجلا الى الاصطدام بالثورة فى خطها الصاعد وينتهى حتما بانتقالها الى مواقع الاعداء · ومن هنا تصبح قضية الثورة المستمرة لا تنحصر عند حدود اعتبار الفلاحين احدى قواها الاساسية ، وانما تصبح القضية الملحة تحديد من هم الفلاحون الثوريون فى هذه المرحلة بالتحديد · والواقع أن هذه النقطة بالذات تحتاج الى وعى متطور بمفهوم قوى الثورة واعدائها فى كل مرحلة لا الى تخطيط ثابت جامد ومنعزل من حركة الثورة وحركة الحياة · والذى يعنينا هنا هو تحديد أن تعبير الفلاحين انما نقصد به هذه الاقسام الواسعة التى تتفق مصالحها مع مرحلة التحول الاشتراكى وتسانده بحسم ضد أعدائه · هذا من جانب ، ومن الجانب الاخر فان مشكلة الفلاحين تحتاج دائما الى تحديد لابعادها فى كل مرحلة وتحتاج أكثر من ذلك الى وعى مستمر لطبيعة المهام التى تواجهها الثورة فى صعودها · وبالتالى معرفة القوى التى تقف معها والتى تقف ضدها والتى تجرى حائرة بين القطبين » (٧) ·

وفى الملتقى الفكرى بالخرطوم يتعرض غسان كنفانى الى « الطبيعة المترددة التى تتصف بها البورجوازية الصغيرة ، والى انها تلعب دورا له أهميته فى مرحلة التحرر الوطنى ، ولكن من الخطر الاعتماد على قيادتها · ومن الواجب ان تتمركز قيادة قوى الثورة اكثر فاكثر بين أيدى الطبقات الكادحة ذات المصلحة الحقيقية فى الثورة الوطنية الديموقراطية والاشتراكية وذات النفس الاطول والاكثر التزاما ورسوخا فى حل مهمات هذه الثورة نحو آفاقها المنتصرة . ان العلاقة بين الطبقات الكادحة وبين البرجوازية الصغيرة ترضخ لمبدأ التحالف والصراع فى آن واحد · ولعل حاجة الثورة فى جميع مستوياتها الى المزيد من المثقفين الذين يتمركزون بصورة عامة فى اطار البرجوازية الصغيرة يجعل من مثل تلك العلاقة أكثر ضرورية وحتمية ·

ويستخلص غسان كنفانى من ذلك صيغة تنظيمية لقوى الثورة العربية هى الجبهة الوطنية المتحدة التى تضم القوى الممثلة لمصلحة الثورة والقوى المحركة لها · ويشير الى الافتقار الى حزب تقدمى قوى فى معظم البلاد العربية مما يدعو اكثر نحو صيغة الجبهة الوطنية المتحدة ، ثم ينبه الى اخطار محتملة تتمثل فى تحكم « العسكر تاريا » أو هيمنة برامج ذات صفة برجوازية صغيرة تهدر الطاقات النضالية للطبقات صاحبة المصلحة والقدرة على انجاز مهام الثورة الوطنية الديموقراطية والانعزال والتكلس ثم الهروب الى صيغة الديموقراطية الليبرالية » (٨)

واجبات جديدة فرضتها نتائج هزيمة يونيو ١٩٦٧

ليس ثمة سبيل للصمود والمقاومة والانتصار الا سبيل الوحدة الوطنية ، الا تراص كل القوى والعناصر الوطنية كتفا الى كتف سدا عاليا تتحطم عليه اعتى أسلحة العدوان · ·

ولابد من التأكيد على أن دائرة القوى الوطنية أوسع من دائرة القوى الاشتراكية واقدس واجبات الاشتراكيين فى مرحلة الصراع الوطنى هوحشد كل القوى الوطنية فى جبهة عريضة تناضل من أجل تحرير الارض المحتلة · فلا أحد يملك أن يرفض مقدما لاى مصرى صفة الوطنية ولا يمكن أن يحيل الاشتراكيين بارادتهم من بعض القوى الوطنية قوى سلبية يمكن أن تلعب دور الاحتياطى للاستعمار والثورة المضادة ·

ان المحور الرئيسى للوحدة الوطنية هو وحدة القوى الاشتراكية لان عليها العبء الاكبر فى النضال والتضحية ، فاذا تنابذت القوى الاشتراكية وتبادلت الشك انعكست خلافاتها على الصف الوطنى كله ···

ان وحدة القوى الاشتراكية والوحدة الوطنية لا تتحقق بترديد الشعارات وابتداع النظريات ولكنها تتحقق بالعمل السياسى الايجابى بين الجماهير ·

وعلينا الا ننسى أن التناقض الاساسى الذى يحكم حركة الثورة فى بلادنا الان هو التناقض بين القوى الوطنية من جانب ، وبين الاستعمار والصهيونية من جانب آخر وأن ماعدا ذلك من تناقضات يأتى فى مرتبة تالية من حيث الاهمية ، ويجب ان يخضع حله لمقتضيات التناقض الرئيسى ، ولكن يجب التحذير من توهم امكان تجاهل التناقضات الثانوية ، او القدرة على الغائها (٩) ·

[٧] ثورتيوليو والفلاحون — مصطفى طيبة — يوليو ١٩٦٥ .
[٨] وثائق الملتقى الفكرى العربى بالخرطوم — الطليعة — مايو ١٩٦٧ .
[٩] عام الحسم .. عام الوحدة الوطنية — لطفى الخولى — يناير ١٩٦٩.



انها قضية العصر حتى تجد الحل الأمثل

عرض : خيرى حماد

لم تنل أية قضية من القضايا من اهتمام « الطليعة » الغراء فى الثمانين شهرا الماضية ما نالته القضية الفلسطينية فى مختلف جوانبها ، وشتى تفرعاتها واتجاهاتها ، وليس هذا بدعا ، ولا مصدرا لدهشة او استغراب ، فالقضية الفلسطينية ، كانت ومازالت وستظل حتى تجد الحل الصحيح الامثل ، قضية العصر كله ، لما تنطوى عليه من مساس بقضايا الحق والعدل ، بل وبقضايا الانسان والضمير : ولما نتناوله من جوانب لها صلة مباشرة ، بالصراع بين التقدم والرجعية ، والتحرر - والاستعمار ، والسلام والعدوان .

وبالرغم من جدود التفاوت فى الاهتمام بهذه القضية قبل عدوان الخامس من يونيو من عام ١٩٦٧ وبعده ، وأوجه الخلاف فى المعالجة والبحث والدرس والاستقصاء وانتقال المعالجة من المطلق التاريخى والدرس المذهبى الى الواقع والاحداث المعاصرة بما فيها من سياسة ، وجوانب اقتصادية وعسكرية وتقنية ، فان الواضح كل الوضوح ان الطليعة التزمت فى دراساتها وبحوثها قبل العدوان وبعده بخط ايديولوجى واحد ، هو الخط الصحيح الذى ينسجم مع واقع القضية الفلسطينية فى تاريخها وواقعها ومستقبلها . ولا اود هنا ان اكيل المديح أو الثناء على الطليعة لهذا الخط الذى اختارته دليلا لها وهديا ، وانما اود أن اسجل حقيقة ، وهى أن المنطلق التقدمى الذى استوحته كان السبيل الامثل لفهم القضية الفلسطينية فى ابعادها وجوانبها كلها ، لاسيما وقد رافق القضية نفسها فى مراحلها التاريخية ، وحتى عن طريق القيادات التى تولت الدفاع عنها فى شتى العهود ، سوء فهم اضر بالقضية نفسها وعرضها لشتى المحاذير والاخطار ، من وجهة نظر الرأى العام التقدمى فى العالم . ولست أغالى ان قلت ان سوء الفهم هذا ، سواء أكان مبعثه حسن النية أو سوءها قد قدم للعالم صورة مشوهة عن القضية الفلسطينية ، وجعلها تظهر فى مظهر تعصبى عنصرى زائف ، بينما هى تمثل فى الحقيقة والواقع ، أصفى قضايا الحق والعدل ، واكثرها بروزا وصحة وصدقا ..

وهنا يظهر الاثر الكبير لما قدمته « الطليعة » من خدمة جليلة للقضية الفلسطينية فى عرضها لها . وفى المنطلق المذهبى الذى استوحته هديا لها . فلقد وضعت حدا لتلك الصور المشوهة التى كانت تعرض للقضية الفلسطينية حتى من الكثيرين من ادعياء تأييدها ، بل وحتى من أبنائها ، وراحت تؤكد فى كل دراسة من دراساتها ، وفى معظم البحوث التى نشرتها ، ان القضية لاتصدر عن موقف عنصرى او طائفى من جانب العرب ، وانما من جانب الصهيونية ، وان العلاقة بين الصهيونية والاستعمار علاقة مصيرية لان الصهيونية نفسها حركة تسير معاكسة للتاريخ ، ولانها تنبع من الاستعمار ، وتقوم على أساسه وعلى اساس استيطان الارض بعد طرد اهلها منها ، ولانها تؤلف فى حد ذاتها جزءا لا يتجزأ من الرأسمالية العالمية التى تعتبر الامبريالية أعلى مراحلها .

وبينت الطليعة بمنتهى الوضوح الوشائج التى تربط اسرائيل بالمعسكر الامبريالى والانظمة العنصرية فى العالم ، كما حسرت النقاب عن طبيعتها الحقيقية التى كثيرا ما عملت أجهزة الاعلام الخاضعة للنفوذ الصهيونى العالمى على اخفائها عن الرأى العام العالمى ، وخرجت من ذلك كله ، الى تحديد الوسائل التى يتحتم على التقدميين العرب أن يخاطبوا الرأى العام العالمى بها ، وفى مقدمتها تجريد القضية العربية من كل شبهة عنصرية ، والتمييز بين الصهيونية كحركة سياسية عنصرية عدوانية وبين اليهودية كدين . وكان مرتكزها فى هذا ان اسرائيل التى تجسد الدعوة الصهيونية ، دولة عنصرية توسعية وعدوانية ، وانها ليست الادولة تتستر وراء الادعاءات الدينية لاخفاء حقيقة منطلقاتها السياسية .

وتركز اهتمام « الطليعة » الشديد ايضا ؟ فى الحديث عن المقاومة الفلسطينية بمختلف صورها واشكالها وفصائلها . مع العناية بوجه خاص بالمقاومة فى قطاع غزة ، على اعتبار ان المقاومة تمثل اولا صورة الانطلاقة الحقيقية لشعب فلسطين لتحرير أرضه ووطنه من الغزاة والعنصرية ، وان النضال فى قطاع غزة يجسد ثانيا المقاومة الموحدة

للجماهير المنضوية تحت لواء جبهة وطنية موحدة • ولم يقتصر اهتمام الطليعةفى كل ذلك على «العرض» والدراسة وانما تعداه ايضا الى تقديم الاقتراحات الايجابية البناءة النابعة من منطلقات صحيحة لبابها الدرس العميق للتجارب الثورية ، والخبرات الانسانية •

لكن هذا الاطراء البالغ والصادق للطليعة على معالجتها للقضية الفلسطينية لايحول بيننا وبين توجيه بعض النقد البناء النابع من الحب والدفدير لها • لما نعتقد أنه نقص فى معالجة بعض الجوانب، وتناولها بالدرس العميق والاستقصاء ••

فلقد كنا نتمنى على الطليعة أول ما نتمنى أن تتعمق فى بحث شعار الدولة الديمقراطية او المجتمع الديمقراطى فى فلسطين بعد تحريرها • وهو الشعار الذى طرحته معظم فصائل المقاومة الرئيسية وفى مقدمتها « فتح » وبناه المجلس الوطنى الفلسطينى فى دوراته المختلفة • واذا كانت بعض الجهات قد تهيبت من البحث عميقا فى هذا الشعار وفىالتحدث عن كل مضامينهومفاهيمه، وتخلصت من هذا التهيبعن طريق احالته الى لجان مختصة للبحث والدرس ، فقد كان فى وسع الطليعة ، وهى المنبر العملى الحر من منابرالراى، أن تبحث فيه بعمق لا بايجاز ، وان تقدم ببحوثها هذه العون للمقاومة وللمجالس الوطنية لبلورة الشعار فى اقتراحات عملية صحيحة نابعة من الانطلاق الديمقراطى فى تحرير الارض الفلسطينية لشعبها واهلها •

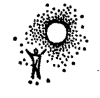
وكنا نتمنى علىالطليعة ثانيا الا تقف فىتحليلها للاتجاهات الفكرية داخل فلسطين المحتلة واسرائيل عند حدود الاراء التى تقدم بها ناحوم جولدمان عن دور اسرائيل فى المنطقة وطبيعة علاقاتها مع العرب ، ولاعند حدود نزع الاقنعة عن المذهبية الصهيونية او دورها كعميل للاستعمار داخل المنطقة ، بل كنا نريد منها ان **تواصل اليقظة فى متابعة كافة التطورات الفكرية والمذهبية داخل اسرائيل** ولاسيما مايتصل منها بالاتجاهات التقدمية الجديدة لدى بعض الفئات مهما ضؤل عدد انصارها ، لتشجيع هذه الاتجاهات •

وكنا نتمنى على الطليعة ثالثا الا تقف عند حدود عرض الاراء النظرية لفصائل المقاومة فى حوارات فكرية تقيمها مع بعض قياداتها واقطابها • بل كنا نتمنى ان تتجاوز ذلك الى **محاولة التوفيق بين الخلافات** فى اوجه النظر بين فصائلها عن طريق فتح الحوار المباشر بينهم ، وعرض الحلول البناءة لما تتطلبه المرحلة النضالية من توحيد لقوى المقاومة او اندماجها فى جبهة واحدة لها حدودها ومفاهيمها واسسها • ولاداعى هنا للقول بأن المقترحات السبعة التى قدمتها الطليعة فى شهر سبتمبر من عام ١٩٦٨ لتحويل الارهاب الثورى الى حركة تحرير وطنية ، كانت تفتقر الى تحديد النتائج الملموسة التى اسفر عنها النضال الثورى الفلسطينى وان لم تفتقر الى تحديد النتائجالمترتبة على التجارب النضالية الانسانية الاخرى •

وأود أن أقول رابعا واخيرا ، ان القارىءالمتتبع لدراسة القضية الفلسطينية يكاد يلمس فىالاونة الاخيرة ، ولاسيما فى الاشهر القليلة الماضية انصرافا ليس متعمدا فى الغالب عن الاهتمام التفصيلى بالتطورات الاخيرة للقضية الفلسطينية لاسيما بالنسبة لما تعرضت له المقاومة من محن رهيبة على ايدى الهجمات الرجعية •

ولست أظن أن التهيب عن الخوض فى هذا التفصيل يبرر مطلقا مثل هذا الانصراف •

فقضية فلسطين فى جميع تطوراتها واحداثها ، جديرة بأن تنال دائما المجال الاول من العناية والاهتمام ، دون تهيب او تردد • ولقد كانت دائما محط هذه العناية من مجلة الطليعة الغراء طيلة الثمانين شهرا الماضية ، ويجب أن تظل كذلك حتى تجد هذه القضية الحل الذى يتفق مع المبادىء التي نؤمن وننادى بها ».





عبد الرحمن الرافعى

مؤرخا وسياسيا

لعل مؤرخا معاصرا لم يحظ بمثل ما حظى به عبد الرحمن الرافعى من تقدير واهتمام .

فالرافعى استطاع بجهد متواصل وداب نادر ان يقدم للمكتبة العربية دراسة متكاملة لتاريخ مصر الحديث . بل لعلنا لانعدو الحقيقة اذا قلنا انه قد قدم الدراسة الوحيدة المتكاملة حول هذا الموضوع ومن هنا يصبح استطلاع النوازع الفكرية والسياسية للرافعى ودراسة منهجه فى دراسة التاريخ ضرورة ملحة ، ذلك ان كتاباته تمثل — بالرغم من كل شىء — احد المحاور الاساسية التى تشكل فكرة المثقف العربى عن تاريخ مصر الحديث .

وفى الذكرى الخامسة لوفاة عبدالرحمن الرافعى، تقدم ((الطليعة)) هذه الدراسة كسبيل لفهم كتابات الرافعى ودوره السياسى فهما موضوعيا .







عبد الرحمن الرافعى

أهم ما يذكر به الأستاذ عبد الرحمن الرافعى، وما سيذكر به مستقبلا ، هو تأريخه للحركة الوطنية المصرية من نهاية القرن الثامن عشر حتى نهاية الخمسينات من القرن العشرين . فقد تتبع هذه الحقبة ذات الاهمية البالغة فى مصير مصر الحاضر والمستقبل ، فى خمسة عشر مجلدا أخرجها للناس على مدى ثلاثين عاما منذ ١٩٢٩ . وليس من قارىء فى التاريخ المصرى ، وليس من مهتم به الا وللرافعى فى عقله وجود .

كان الرافعى من الجيل الذى شب فى السنوات الاولى من هذا القرن ، وصنع ثورة ١٩١٩ ، وعاش أحداثا « فى أعقاب الثورة » ، حتى استوفى العمر وأسلم الشعلة فى نهايات الاربعينات الى من يليه . وهو جيل لم يصنع ثورة ١٩١٩ فحسب ، ولكنه الجيل الذى صنعته الثورة ، ثورة « مصر للمصريين » بما يعنيه هذا الشعار من قيم وطنية وديمقراطية وبما يلقيه على عاتق حامليه من مسئوليات النهوض بالمجتمع ، وتمدينه فى كافة ميادين التطور . وقد ألقت نيران الثورة فى قلب رجاله وهجا لم تبرد حميته ، فقدم فى الادب أمثال طه حسين والعقاد وأحمد أمين وزكى مبارك ، وفى الاسلاميات أمثال الشيخين مصطفى عبدالرازق وعلى عبد الرازق ، وفى القانون أمثال ابو هيف وأحمد أمين والسنهورى وعبد الحميد بدوى ، وفى الطب أمثال على ابراهيم ونجيب محفوظ ، وفى الاقتصاد أمثال طلعت حرب ، وغير هؤلاء فى هذه الفروع وفى غيرها كثيرون ، وكان هؤلاء جميعا هم طليعة من قام باستزراع العلوم والمناهج الحديثة فى التربة المصرية ، ومن شاد — فى حدود الامكانيات التاريخية — الهيكل الحديث للمجتمع المصرى ، فكرا واقتصادا وسياسة وادارة وعلما . وللرافعى مكانته بين هؤلاء فى تاريخه لمصر الحديثة .

ولعل كتابات الرافعي التاريخية فيما تكشفه من فكر سياسي ، تعتبر أكثر ما يقرأ الان من الادب السياسي لرجال هذا الجيل . ان غالب ما يقرأ الان من كتابات هذا الجيل ، نجده في مجال الادب والفكر والمجالات المتخصصة كالقانون والفلسفة ونحوهما ، كطه حسين والعقاد وسلامه موسى والسنهوري وغيرهما . أما كتابات رجال السياسة ومفكريها ، أو الكتابات السياسية لامثال العقاد وسلامه موسى ، فلا تكاد تجد قراء لها في غير دوائر البحث والدراسة . وليس الا الرافعي تقريبا ما تشيع قراءته الان وتتصل كتاباته أوثق اتصال بالسياسة فكرا ومنهجا لرجال جيله ، وذلك بحكم الصلة الوثيقة بين التاريخ السياسي والسياسة ، وبحكم أن الرافعي كان من رجال السياسة في وقته ، وبسبب أن قسما كبيرا من أعماله التاريخية يتعلق بالفترة التي عاشها مع جيله منذ بداية هذا القرن حتى منتصفه . والرافعي في هذا يمثل نموذجا هاما من نماذج الفكر السياسي الوطني الذي كان يدور في مصر خلال النصف الاول من القرن العشرين .

وإذا كانت أجيال الحاضر المعيشي ترى في كتابات الرافعي — رغم الاقتناع بنزعته الوطنية والتقدير البالغ لهذه النزعة في جميع ما كتب — ترى فيها قدرا من « التبسيط » للمشاكل والتيارات ، ونظرة « محدودة الجوانب » في تحليل الاحداث التاريخية . فان هذه الاوصاف لا تلحق فكر الرافعي وحده ، ولكنها تشير أيضا الى اختلاف الصياغة السياسية لعقلية الاجيال الحاضرة على اختلاف تياراتها ، من الصياغة المماثلة لجيل هذا المؤرخ الكبير ، وذلك نتيجة اختلاف المشاكل وتطور الاوضاع السياسية والاجتماعية . فاذا كان الفكر السياسي للرافعي لا يزال مقروءا للان ، فتلك ميزة امتاز بها الرجل لتآليفه التاريخية ، ولكن هذه الميزة اردفت في ركابها شيئا من سوء الحظ ، اذ نظر جمهور الحاضر الى فكره كعنصر في الحياة السياسية المعيشة ، لا كفكر ينتمي الى الجيل السابق ، وتطرف كثيرون فقيموه بميزان الحاضر فطفقت كفة الرجل ظلما .

وان من افضل ما تثبته مدرسة التاريخ المصري للرافعي المؤرخ ، ان مجموعته التاريخية تكاد تكون أجمع مجموعة صدرت في عصره والى الان تغطي حقبة التاريخ المصري الحديث كاملة . كما تثبت ما قدر للرافعي من أن يضع نقطة البداية للحركة الوطنية في العصر الحديث ، وهي المقاومة الشعبية للحملة الفرنسية التي غزت مصر في نهاية القرن الثامن عشر . وكان تعيينه لهذه البداية تعيينا علميا ذكيا يشير الى حاسة سياسية تاريخية مرهفة . كما تثبت له أنه صاغ تاريخ هذه الفترة على مدى مائة وستين سنة صياغة وطنية مصرية تتسم بالاصالة رغم ما يظهر فيها من نواحي القصور .

ومن أفضل ما يثبت للرافعي المؤرخ أيضا ، هذا الداب الدؤوب والصبر الصبور الذي تميز به وعاني منه عشرات السنين رغم عدم الرواج وركود السوق . وقد بدأ اعداد المجلد الاول من مجموعته في ١٩٢٦ وتلته مجلدات ثمانية حتى ١٩٤٢ ، وبذل في ذلك جهودا مضنية وتكلف عناء كبيرا ، ولكن حتى هذا التاريخ الاخير كان اقبال المثقفين على قراءته ضعيفا وكان يطبع كتبه على نفقته ويعاني في توزيعها ، وبدأ الاقبال على كتبه من أوائل ١٩٤٣ عندما اشترت منه مكتبة النهضة المصرية مخزون كتبه كله ودفعت جملة الثمن اليه مخصوما منه ٤٠٪ فبلغ ما استلمه عن تسعة مؤلفات ٨٨٣ جنيها « وقبلت الصفقة مغتبطا » . وأدركت في هذا اليوم أن كتبي قد لاقت شيئا من الاقبال الذي كنت أنتظره منذ أكثر من خمس عشرة سنة . » وحتى بعد ذلك ظل الرافعي يجد من المثقفين من يسأله عما اذا كان كتب عن عصر محمد على في وقت كان قد وصل بتاريخه الى ثورة ١٩١٩ ، أو يسأله عما اذا كان كتب جزءا أم جزءين في وقت كان أخرج فيه اثنى عشر جزءا .(١)

وكان هذا الداب منه فضيلة اخلاقية قل من يتصف بها ، بما فيها من انكار للذات وبذل لاقصى الجهد بغير عائد أدبي عاجل ولا عائد مادي عاجل أو آجل . وهو وضع أشبه بمقام الغناء في لغة المتصوفة ، ولا يكاد يشاهد مثل بارز له الان الا ما كان من الاستاذ نجيب محفوظ في الشطر الاول والاكبر من تاريخ نشاطه الادبي . فرديعمل وينشط بغير مشجع من هيئة ما ولا انتماء الى مؤسسة بعينها ، ويكرس لهذا الجهد حياته ، رغم ما يعنيه ذلك من تضحيات مادية وأدبية فيما كان يمكن أن ينحو فيه من مسالك الحياة الاخرى ، ولا يرتكن في كل ذلك الا على ايمان بغايته العامة وثقته بملكاته الذاتية . وتبقى لديه القدرة على معالجة نفسه ومشاكل حياته بهذا الاصرار الذي

---

(١) مذكراتي ١٨٨٩ — ١٩٥١ • عبد الرحمن الرافعي ص ٧١ — ٧٧ • ذكر لي احد اقارب الرافعي ، انه كان يطبع كتبه على نفقته ثم يحملها على عربة كارو يدور بها على المكتبات يوزعها •

لا يستند الا الى هدف عام مجرد وثقة بالنفس لا يؤيدها مظهر خارجي سنين طويلة ، ويمكن أن يتصور كيف تكون أزمات النفس فيهذه الاحوال، رغم الضيق أحيانا ، والضغط والتضييق أحيانا واغراء المفاتن فى اكثر الاحايين . لقد صدق الرافعي قراءه عن نفسه عندما قال « انياجتهدت أن آخذ منالحياة التالية اقصى ماأستطيع ويمكنني أن أقول ان نصيب الانسان منها يتبع مبدئيا الوسط والبيئة التى يعيش فيها ، فالمجتمع الذى يؤمن بها يساعد بداهة على أن يحياها المواطن الصالح ، والمجتمع الذى لا يؤمن بهـا يخذلها ويباعد بين الانسان وما ينشده منها ، على أن الارادة الشخصية لهـا دخل فى توجيه المواطن اليها ، وهى على أى حال تحتاج الى ذخيرة من الصبر ، ومن الصوفيـة الوطنية ، تجعل المرء غير مكترث لمـا يلقـاه مـن العقـبات والمتاعب »(٢) . ثم يكشف عما يتصف به من « الحياء » و « العناد » ويقول انه عبثا حاول أن يعالج هذا الامر « وتساءلت لـكى اقنع نفسى بالاقلاع عنه (العناد) : كيف يتفق الحياء مع العناد ؟ فلم أجد جوابا مقنعا الا أن كليهما عيب ولكن لا سـبيل الى التخلص منهمـا »(٣) . والحقيقة أن الحياء كثيرا ما يظهر علىأنه احتجاج سلبى علىواقع بذىء،وأنه دليل على الرفضوعدم التلاؤم ، وأن العناد هو المظهر الايجابى لهـذا الاحتجاج ، وهومعاندة سلبياتالواقع ومقاومتها من دون النفس والاصرار على موقفيراه الانسان حقا ولو حاصره ما يظن انه الباطل . ويبدو انه لولا هذين « العيبين » ولولا هـذه الصوفيـة الوطنية لـما شاهدنا مجموعة الرافعى التاريخية كاملة .

واذا كان رواج مؤلفاته نسبيا ، قد بدا فى الاربعينات وعلى مشارف نهاية الحرب العالمية الثانية ، فيمكن أن يتصور كيف افاد بها شباب الاربعينات الذى ولج ميدان السياسة مع نهاية الحرب بنزوع وطنى ديمقراطى وفكر جديد وطاقة مشحونة .. وبشوق زائد لمعرفة تاريخ وطنه ، ويمكن القول بأن مؤلفات الرافعى التاريخية كانت المادة الاساسية التى تغذى بها شباب الاربعينات فى تطلعه لمعرفة أحداث بلده ، وساعدته هذه المـادة على تلقيح اتجاهاته السياسية الجديدة بتاريخ وطنه ، وان أى مطلـع على الـكتابات السـياسية لشباب الاربعينات ليدرك مقدار ما أفادت من تاريخ الرافعى فى استطلاع أحداث الحركة الوطنية المصرية والاعتبار بمسيرتها .

واذا كان المعروف عـن الرافعي لدى أجيال الماضى انه مؤرخ فحسب ، فالحقيقة أنه كان فى نظر جيله سياسيا أولا : عمل بالسياسة منـذ كان طالبا ، وكان يشتغل بالمحاماة منذ تخرجه فى الحقوق قبل أن يبلغ العشرين من عمره حتى صار نقيبا للمحامين . وكان برلمانيا فى أول مجلس نواب بعد ثورة ١٩١٩ وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره ثم فى مجلس الشيوخ على مشارف الاربعينات ولم يصدر أول كتبه التاريخية الا وهو فى الاربعين .

وقد يكون من المفيد تقديم «الرافعى السياسى» من خلال الصيغة الفكرية التى شكلته ، ومـن خـلال نشاطه العملى ، ولاشـك أن « الرافعى السياسى » هو خير من يفسر « الرافعى المؤرخ »

تكوينه السياسى

ولد عبد الرحمن الرافعى فى ٨ فبراير ١٨٨٩ بعد الاحتلال الانجليزى لمصربسبعة أعوام ونصف، وتفتحت بصيرته مع بداية القرن العشرين على صحيفة « اللواء » وخطب مصطفى كامل ونشاط الوطنيين من هذا الرعيل ، تفتحت مع تفتـح أكمام الحركة الوطنية فى مرحلتها الجـديدة ، مرحلة المقاومة للاحتلال البريطانى .

ولد لعالم مـن الازهر الشيخ عبـد اللطيف الرافعى ، الذى تولى مناصب فى القضاء الشرعى فى بعض أقاليم مصر ثم تولى الافتاء للاسكندرية وأحيل للمعاش فى ١٩٠٩، وتوفى بعدها بتسعة أعوام . وكان من أخوة عبد الرحمن أمين الرافعى الذى كان له بعده الوطنى البارز فى السياسة المصرية حتى توفى فى ١٩٢٧ . أدرك عبد الرحمن سن التمييز ووالده بالاسكندرية تلميذا بالثانوية، وكان وقتها مستغرقا فى دراسته لا يظهـر له اهتمام بغيرها ، تقع فى يده صحيفة اللواء كلما ذهب الى مقهاه المعتاد فلا يكاد يدرك للصحيفة منهجا متميزا ، فلما نال الثانوية فى ١٩٠٤ انتقل الى القاهرة ليدرس فى مدرسة الحقوق ، وفى هذه المدرسة وبين أساتذتها المصريين وطلبتها ، وفى القاهرة ، صيغ التفكير السياسى له .

كانت الحركة الوطنية تشب على يدى مصطفى

(٢) المرجع السابق ص ١٩
(٣) المرجع السابق ص ١٤٨

كامل ، وكان الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا قد انعقد سنتها كعلامة هامة على اعتراف المجتمع الدولى بالاحتلال البريطانى لمصر . وتكون نادى المدارس العليا فى السنة التالية من صفوة الشباب الوطنى ثم لم يمض عامان آخران حتى أعلن عن تكوين الحزب الوطنى . وبين كل هذه العلامات عرف نشاط الشباب الوطنى ، خطبا واجتماعات ولقاءات ، وبدأت فيها الظاهرات السياسية . وعرف الرافعى طريقه بين هؤلاء ونشط فيما نشطوا فيه من مجالات العمل السياسى . واشترك فى الجمعية التأسيسية لنادى المدارس العليا ، وانضم الى الحزب الوطنى فور الاعلان عنه ، وأدرك مصطفى كامل قبيل وفاته فى فبراير ١٩٠٨ .. ثم لازم محمد فريد من بعده ونشر أولى مقالاته السياسية باللواء بعد وفاة مصطفى كامل بشهر واحد . فلما نال أجازة الحقوق فى السنة نفسها ، تردد فترة قصيرة فى الاختيار بين احتراف المحاماة واحتراف الصحافة فى اللواء .. واستقر فى النهاية على احتراف المحاماة مع ابقاء أوثق اتصال له بصحيفة اللواء . واشتغل فى المحاماة شهرا بأسيوط مع محمد على علوبه ، ثم انتقل الى الزقازيق مع صديقه أحمد وجدى فى ١٩٠٩ ، ثم انتقل الى المنصورة وعمل فيها بمفرده منذ ١٩١٢ . وكان يمد اللواء بمقالاته السياسية . كتب عن الدستور فى أكتوبر ١٩٠٥ . ورد على تقرير جورست فى تسع عشرة مقالة فى مايو ١٩٠٩ .. وكتب عن الاوضاع الاقتصادية من يناير الى مارس ١٩٠٩ . وكان مع من تطوع للتدريس فى مدارس الشعب التى فتحها الحزب الوطنى واعتاد حضور مؤتمرات الحزب الوطنى التى كانت تعقد سنويا على عهد محمد فريد ، وانتخب فى مؤتمر ١٩١١ عضوا باللجنة الادارية للحزب ، وسافر مع فريد لحضور مؤتمر السلام الذى ازمع عقده بروما فى سبتمبر ١٩١١ . كما أعد مؤتمر بروكسل فى السنة السابقة بموضوع عن مركز الصحافة المصرية والادوار التى تعاقبت عليها منذ الاحتلال . فلما هاجر محمد فريد فى ١٩١٢ بقى الرافعى على اتصال دائم به ، واستمر عضوا نشيطا بالحزب ..

فلما نشبت الحرب العالمية الاولى ، فرضت بريطانيا الحماية على مصر وخلعت الخديو عباس وأحلت محله السلطان حسين كامل وفرضت الاحكام العرفية .. وفى ظل هذه الظروف فرضت السلطات البريطانية الوان القمع والعسف على العناصر الوطنية ، وكان فى مقدمتهم الحزب الوطنى ورجاله ، اذ ضبطت أوراق الحزب ووثائقه وأعتقل الكثير من أعضائه ، ونفى منهم جمع الى مالطة وأوربا . وكان نصيب الرافعى الاعتقال بالمنصورة فى أغسطس ١٩١٥ والترحيل الى القاهرة بسجن الاستئناف ثم بليمان طرة ، حيث مكث الى يونيه ١٩١٦ .

. . .

الحزب الوطنى والعنف

يذكر الرافعى فى « مذكراتى »(٤) « كنت سنة ١٩١٩ لازال فى الثلاثين من عمرى .. وكانت تغلب على نزعة الشباب ، وأتوق الى أن تسلك الامة سبيل العنف فى جهادها ، أما الان (١٩٥١) فانى أميل الى مبدأ عدم العنف .. » ويبدو أن سبيل العنف هذا لم يكن يتوق اليه الرافعى وحده ، ولا كان قاصرا لديه ولدى غيره على ثورة ١٩١٩ .. انما كان طريقا اتجه اليه الحزب الوطنى قبل الحرب الاولى ومنذ مقتل بطرس غالى ، واستمر فيما تلا ذلك من أعوام على أن هذه العبارة هى العبارة الوحيدة التى صرح بها الرافعى عن « سبيل العنف » .

والذى يظهر من تتبع نمو الحركة الوطنية على يدى اللواء والحزب الوطنى فى السنوات الاولى من هذا القرن ، يظهر أن الحركة الوطنية فى هذه المرحلة الجديدة ، كانت تنمو من خلال ردود الفعل الواعية لسياسة الاحتلال تجاهها اى من خلال تطور التناقض بينها وبينه . بدأت أولا معتمدة على التناقض بين المصالح البريطانية ومصالح القوى الاوروبية المتنافسة معها على مصر ، وعلى التناقض بين سلطة الاحتلال الفعلية وسلطة الخديو الشرعية ، واكتفت وقتها من الرأى العام المصرى بالتعبئة السياسية العامة من خلال صحيفة اللواء . ثم كان الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا فى ١٩٠٤ وتجردت الحركة الوطنية من حليفها الفرنسى (والاوروبى عامة) المظنون .. ثم كانت سياسة الوفاق بين الاحتلال والخديو فتجردت من حليفها المحلى المظنون منذ ١٩٠٧ . وبهذا ردت الحركة الوطنية الى منابع قوتها الذاتية الكامنة فى الشعب المصرى الذى يعانى من الاحتلال ومن استبداد الخديو ، وبدأت تتلمس طريقها الى هذه المنابع .

وقال مصطفى كامل أن الامة لا تسترد استقلالها

(٤) المرجع السابق ص ٣٠ ، ثورة ١٩١٩ ، الجزء الاول ، عبد الرحمن الرافعى ص ٢٣٥

الا بمجهوداتها . وكانت البداية تكوين نادى المدارس العليا ، ثم شجع الاحتلال بتنظيم حلفائه المصريين فتكون حزب الامة ، فأدركت الحركة الوطنية أنه لا يكفيها فى الاعتماد على منابع قوتها الذاتية أن تنشر اتجاها وطنيا ، وتكون رأيا عاما وطنيا متحمسا لقضية الاستقلال ، انما لابد لها من بناء كيان تنظيمى يجمع العناصر الفعالة لهذا الاتجاه ويربطها ارادة وفعلا ، فتكون الحزب الوطنى . وحتمت ضرورات اقامة هذا التنظيم ، انشاء روافد تغذيه على المستوى الاقتصادى والشعبى ، فنشط الحزب على يد محمد فريد فى انشاء مدارس الشعب وفى خلق الحركة التعاونية فى الريف والحركة النقابية بين العمال . اذ كان تجمع كبار ملاك الارض فى حزب الأمة ، اشارة الى وجوب تجمع غير هؤلاء فى حزب الحركة الوطنية وهم المثقفون (نادى المدارس العليا) والمزارعون (الجمعيات التعاونية) والعمال (النقابات) .

وعلى وفق هذا السياق من ردود الفعل الواعية ينبغى النظر الى تأثير حادث دنشواى فى ١٩٠٦ . والشائع ان كان لهذا الحادث أثره فى هذم سمعة « العدالة البريطانية » فى أوربا وفى اثارة سخط المصريين على الاحتلال الى أقصاه وهذا صحيح ، ويبدو أنه كان كذلك فقط بالنسبة لمصطفى كامل . ولكن يبدو أيضا ان كان له أثر اضافى فى العناصر الراديكالية بين شباب الحركة الوطنية وفى نفس محمد فريد . وقد ارتجت به روح المصريين بعنف لا بسبب الظلم وحده ، ولكن بسبب ما تكشف مما يمكن للاحتلال أن يتورط فيه من أساليب البطش والعنف. كانت سياسة كرومر التقليدية من قبل أن يحفظ الوجود البريطانى فى مصر بأقل ما يمكن من النفقة وبأقل ما يمكن من استعمال العنف ، وكان يحرص دائما على اخفاء السلاح فى طوايا سياسته الهادئة المظهر المستترة خلف حكومة « مصرية » ، وخلف القوانين واللوائح التى تمارسها هذه الحكومة . وكانت هذه حدود الرؤية أمام الجيل الناشىء الذى شب فى ظروف استتباب هذه الاوضاع ولم ير ثورة عرابى ، ورأى الانجليز مستشارين « للادارة المصرية » لا حكاما مباشرين ولا غزاة مسلحين . ثم فجأة ظهر السلاح فى يد المحتل عاريا براقا ، والمشانق فى الساحة وجثث المصريين على النطع ، وانحسرت البراقع ورفعت الستور . لاشك أن الحادث ظل يختمر فى ضمير الشباب الثورى كتجربة سياسية ونفسية كبيرة ، وخلق العقل ردود فعله فيما بعد . وليس غريبا بعد ذلك أن يقع أول حادث للاغتيال السياسى على بطرس غالى رئيس الوزراء ١٩١٠ ، وهو قاضى محكمة دنشواى ، ويقع على يد شاب وطنى اعترف أن من أسباب الاغتيال كون بطرس هو قاضى دنشواى . وتوالت بعد ذلك حوادث الاغتيال السياسى والشروع فيه كأسلوب من أساليب المقاومة الوطنية للاحتلال وحلفائه المصريين حتى ثورة ١٩١٩ .

لم يكشف التحقيق الجنائى لمقتل بطرس غالى عن صلة « جنائية » للحزب الوطنى به . ولكن كشفت الوثائق التاريخية فيما بعد عن الدور الذى قام به الحزب فى تكوين جماعات الاغتيال السياسى منذ ١٩١٠ . وقد كتب شفيق منصور الذى عرف هذه الجماعات وحكم عليه بالاعدام فى قضية مقتل السردار سنة ١٩٢٥ ، كتب اعترافات كاملة قبل اعدامه ، كشف بها عن الاجهزة السرية التى قامت فى مصر منذ ١٩٠٧ ، وعن الجمعية السرية التى تكونت سنة ١٩٠٦ ، وعن كيفية اغتيال بطرس غالى ، وعن أسماء أعضاء الجمعية التى دبرت اغتيال اللورد كيتشنر والخديو ومحمد سعيد رئيس الوزراء فى ١٩١٢ ، وعن مؤامرة اغتيال السلطان حسين كامل فى ١٩١٥(٥) .

وكتب عبد الفتاح عنايت أحد المحكوم عليهم فى قضية مقتل السردار ، فى مذكراته يقول « ان المغفور له محمد فريد كان أكبر مؤيد لحركة الفدائيين ، وكان يمدهم بكل نوع من أنواع المساعدة مادية كانت أو أدبية حتى أنه عند مروره لزيارة الفدائيين كان يوزع عليهم المسدسات داخل العلب على انها ساعات سويسرية بصفة هدايا ، وذلك تشجيعا لهم ... » وذكر أن محمود مظهر طالب الطب الذى أطلق الرصاص على الخديو عباس فى ١٩١٤ كان « أحد أعضاء الجهاز السرى الذى كان يقوده الزعيم محمد فريد ، وكان ذلك بالاستانة بعد سفر الخديو عباس اليها قبل الحرب العالمية الاولى » . وقال ان المنظمة الفدائية نشأت « فى مصر وظهرت فى هذا الوجود الذى نعيش فيه منذ بدء الحركة الوطنية المصرية عام ١٩٠٦ » ، وانها استمرت من ابراهيم الوردانى قاتل بطرس غالى حتى بعد قيام ثورة ١٩١٩ .(٦)

---

[٥] نشر ملخص التقرير فى صحيفة الاخبار فى اول سبتمبر ١٩٦٣

[٦] قصة كفاح . عبد الفتاح عنايت . ص ١٠ ــ ١٨.

ويحكى محمود طاهر العربى قصة شروعه مع امام واكد ومحمد عبد السلام فى اغتيال كيتشنر وعباس وسعيد ، وكان واكد من الحزب الوطنى، وكان محمد عبدالسلام من محررى اللواء ، وانضم اليهم عدد من الشباب المتحمس . لم يذكر أسماءهم ، وفى أحد الايام ذهب العربى مع واكد الى نادى المدارس العليا « حيث حصلت هناك من شخصية حزبية كبيرة ومحترمة على مسدس محترم أيضا (موزر) ذى عشر طلقات .»(٧)

وكان ثمة أدب سياسى يعكس هذه الفكرية فى كتابات بعض من شباب الحزب الوطنى وفى الصحف . جمع منها عبد الخالق ثروت مجموعة طيبة فى مرافعته ضد العربى وواكد سنة ١٩١٢، « هلموا أبناء البلاد الى السيف والحسام ، هلموا الى القتل والقتال ... لاهناء ولاعيش ولاسعادة الا اذا أجريت الدماء على ظبى الاسنة والرماح».

« والشعب ان رام الحياة عزيزة
خاض الغمار دما الى آمـاله »
« اذا الملك الجبار سعر خـده
مشينا اليه بالسـيوف نعاتبه »
« ولا تحسبن المجـد زقا وقينـة
فما الموت الا السيف والفتكة البكر»

وقد كتب امام واكد فى ٣١ يوليـه ١٩١٢ ، باللواء ، مقالا يذكر فيه بحادث دنشـواى وما حدث فيـه من وحشيـة ، واشـار الى الشعوب التى تخلصت من الاستعباد بالثورات الفرنسية والامريكية وثورة الآستانة ، وانتهى الى انه « لولا السيف » لما اجيب سؤلها « ولولا الدماء التى اريقت والنفـوس التى ازهقت » لظلت مستعبدة ذليلة . كما كتب الشاعر محمود رمزى نظيم يقرن السيف « بلواء » الحزب الوطنى :

فاحمل السيف واشرع الرمح واقدم
واجمع الـرأى تحت ظل [اللواء]

ويلاحظ من مطالعة مذكرات محمد فريد ، ما يبديه من عطف وحماس تعليقا على ما يبلغه بالخارج من حوادث الاغتيال السياسى فى مصر .. كتب فى ٩ ابريل ١٩١٥ عن اطلاق الرصاص على البرنس حسين الخائن « لقد سررت من هذا الحادث الذى اثبت للعالم أن الامة غير راضية عن الحماية الانجليزية ... وعلى أى حال فان هذا درس للخونة من المصريين .»

وكتب فى ٤ سبتمبر ١٩١٥ عن الشروع فى قتل الوزير ابراهيم فتحى ان سن المعتدى كان ٢٥ سنة وهذا يدل على انتشار روح التذمر وشيوع الفكرة الثورية ، وذكر انه قبض فى هذا الحادث على الكثير من رجال الحزب الوطنى واعتقلوا فى طره وارسل بفصلهم الى مالطه . (٨)

يظهر من ذلك ان استعمال العنف كان احـد أساليب الحركة الوطنية قبل الحرب العـالمية الاولى ، وان كان لحادث دنشواى ولاجـراءات القمع التى اتخذت ضد العناصر الوطنية قبـل الحرب وفى اثنائها اثره فى سلوك هذا السبيل .. وكان استعمال العنف يتم بطريقـة الاغتيـالات السياسية وتكوين الجمعيات السريـة التى تمارسه على كبـار رجال الاحتلال ورجال السـياسة المصريين المتعاونين معه . وان الحزب الوطنى ــ سيما على عهد محمد فريد ــ لم يكن بعيدا عن هذه الحركة برجاله وبتشجيعـه ، وكان مـن رجال الحزب او المتصلين به أو بنادى المدارس العليا من اعضاء هذه الجمعيات

ومن هذا تتضح الدلالة الحقيقية للاشـارة الغامضة التى سجلها الرافعى فى مذكراته والتى سبق ايرادها ، والراجح ان اقتنـاعه بالعنف كطريق للتحرير كان سابقـا لثورة ١٩١٩ منذ ان كان الحزب الوطنى يؤيد هذا الاسـلوب وكان الرافعى عضوا باللجنـة الادارية كما سـبقت الاشارة ومن ملازمى محمد فريد . كما سبقت الاشارة الى اعتقال الرافعى مع كثيرين غيره من رجال الحزب فى أغسطس ١٩١٥ . والراجح ان هذه الاعتقالات هى ما اشار اليه محمد فريد فى مذكراته عن يوم ٤ سبتمبر وقد أشار اليهـا فى سياق حوادث الشروع فى الاغتيـال السياسى . وقد سجل الرافعى فى مذكراته اشارة غامضة اخرى عن اجراء التحقيق معه وقتها ، اذ نقـل الى سجن انفرادى بالحدره بالاسكندرية مع لفيف من معتقلى المنصورة وحقق معهم فى «بلاغ كاذب» ثم ظهر بطلان هذه التهمة . (٩)

والملاحظ أن الـرافعى كان حريصـا فى كل ما

[٧] هذا المجتمع الظالم . محمودطاهر العربى . ص ٣٣
[٨] كفاح شعب مصر . محمد صبيح . ص ٤٤٣ ، ٤٧٥ ، ٤٨١
[٩] مذكراتى . المرجع السابق ص٢٩

كتب ، ان يبتعد تماما عن الاشارة الى اية صلة له او للحزب الوطنى بهذه الحوادث . والمعروف انه كان من تقاليد نشاط هذه الجمعيات السرية ان يقسم رجالها بألا يبوحوا بشىء عن نشاطها حتى الموت . ويبدو ان الرافعى ظل امينا على قسمه لا يحنث فيه . ولم يكن الامر — كما يظهر — مجرد بر بقسم ، ولكنه حرص على الا يفشى سرا يمس اشخاصا آخرين خشية ان تمتد اليهم يد الانتقام من السراى او الانجليز ؛ وقد بقى نفوذ هذين قويا ومؤثرا عشرات السنين بعد هذه الاحداث . ويلاحظ انه لم يصرح بشىء من هذه الاحداث الا من كشفت التحقيقات الجنائية والمحاكمات عن مساهمتهم فيها ، وكان كشفهم عنها فى حدود ما كشفت عنه هذه المحاكمات ، فقط وهم لم يفعلوا الا بعد مرور عشرات السنين ، ولم يحدث ان احدا منهم دل على اسم احد ممن لم يشملهم التحقيق ، الا ما كان من شفيق منصور قبل اعدامه سنة ١٩٢٥ .

وقد يكون السبب الثانى لهذا التكتم ، ان الرافعى مالبث بعد ان تقدمت به السن أن فقد ايمانه بالعنف ، وأفقده هذا المبرر والرغبة فى التصريح بما نشط فيه هو وغيره فى هذا السبيل .

والحاصل انه يكاد يكون من الاخبار الشائعة على السنة معاصرى الرافعى وعارفيه من أهل جيله فى تلك الاوقات ، انه كان على صلة باعمال العنف منذ مقتل بطرس غالى وخلال الحرب العالمية الاولى ، وان كان هذا من الاسرار الشائعة عنه بين معاصريه فيما تلا ذلك من اعوام . وذلك حسبما سمع كاتب هذا المقال من عديدين منهم .

الحزب الوطنى وثورة ١٩١٩

لما شبت ثورة ١٩١٩ ، تألف الوفد المصرى بتأييد شعبى كاسح . وكان الحزب الوطنى لايزال قائما كحزب حمل أمانة الكفاح بضع عشرة سنة الماضية ، ولكن كانت اجراءات القمع قد اضعفته ، كما اضعفته غيبة محمد فريد بالخارج عنه ، والخلافات التى نشأت بين قادته ، وسعى السراى لان تجذب فريقا منهم لجانبها ، مما يبدو واضحا من مطالعة مذكرات محمد فريد ، ومما يشير اليه الرافعى فى احد خطاباته الى زعيمه بالخارج (١١) .

وقد جهد الوفد مع الحزب الوطنى فى ان يتقاربا . ورئى ان يمثل الحزب الوطنى فى هيئة الوفد واتفق على ذلك . وكان الرافعى ممن تابلوا سعد زغلول لاتمام هذا التوفيق ، ولكن اختلف الطرفان فى تعيين من يمثل الحزب فى الوفد ، وانتهى الامر بان اختار الوفد من تلقاء نفسه مصطفى النحاس وحافظ عفيفى ليمثلا الحزب الوطنى (١٢).

وكان سعد زغلول يرغب اولا فى ضم عبد الرحمن الرافعى وامين الرافعى الى الوفد ، ووضع اسميهما فى مقدمة كشف عن « الاشخاص الذين يمكن الاعتماد عليهم » سلمه الى عبدالرحمن فهمى فى ديسمبر ١٩١٨ . ويذكر أمين يوسف (وكان قريبا لسعد) أن سعدا لما عرف صلته القديمة بالحزب الوطنى ، طلب اليه فى نهاية ١٩١٨ استخدام نفوذه لدى زميله عبد الرحمن الرافعى ولدى شقيقه أمين ليوافقا على الانضمام الى الوفد . وكان الاخوان على علاقة ودية بسعد ، وكانا نشطين نشاطا ملموسا فى الدعوة الانتخابية له عندما رشح نفسه فى الجمعية التشريعية سنة ١٩١٣ . وتم هذا المسعى وعرض على اللجنة الادارية للحزب ولكنها رفضته ، وآثر الرافعى الانصياع الى قرار حزبه . وحدث الشىء نفسه بالنسبة لعبد اللطيف الصوفانى (١٣) .

وقد كشفت اعترافات شفيق منصور سنة ١٩٢٥ ، ان كلا من عبد الرحمن الرافعى وعبد اللطيف الصوفانى ، كان عضوا بالمجلس الاعلى للاغتيالات الذى شكل فى الجهاز السرى للوفد ابان ثورة ١٩١٩ ، اذ كانت « نزعة الشباب » لاتزال تغلب على الرافعى ، كما كانت لاتزال تقتحم القلب الجسور للشيخ الكبير عبد اللطيف الصوفانى وضابط بوليس اسمه مصطفى حمدى ومحمد شراره وعبد الرحمن الرافعى ، وكان حسن كامل الشيشينى مستشارا له . وفى عهد الرافعى بالمجلس تمت محاولات اغتيال محمد سعيد رئيس الوزراء فى سبتمبر ١٩١٩ ، ويوسف وهبة رئيس الوزراء فى ديسمبر ١٩١٩ ، ا

[١٠] صحيفة الاخبار ٤ سبتمبر ١٩٦٣

[١١] مذكراتى ، المرجع السابق ص ٢٣

[١٢] ثورة ١٩١٩ ، المرجع السابق ص ١٠٣ ، تطور الحركة الوطنية فى مصر ١٩١٨ ـ ١٩٣٦ ، د. عبدالعظيم رمضان ص ٩٧

[١٣] ، [١٤] صحيفة الاخبار ٤ سبتمبر ١٩٦٣ .

واسماعيل سرى وزير الاشغال فى يناير ١٩٢٠، ومحمد شفيق وزير الاشغال فى فبراير ١٩٢٠ ، وحسين درويش وزير الاوقاف فى مايو ١٩٢٠ . وعقد المجلس عدة اجتماعات له فى منزل عبد اللطيف الصوفانى. ويذكر شفيق منصور ان كلا من اعضاء المجلس كان يشرف على فرع من فروع التنظيم ويتصل بافراد يكون كل منهم مجموعة وهكذا. وقد انقطع الرافعى والصوفانى عن اجتماعات المجلس بعد الحوادث السابق الاشارة اليها . والمعروف ان الصوفانى كان على رأس اتجاه فى الحزب الوطنى يدعو الى ان يناقش الحزب الوطنى الوفد ولا يسلم له بمبدأ تمثيله الامة ، وكان عبد الرحمن وامين الرافعى يعارضاه فى هذا المسعى. وقد ندد أمين الرافعى بموقف الصوفانى من الوفد فى مقال نشره فى صحيفة الاهالى فى ٢٠ ابريل سنة ١٩١٩ . ومالبث الصوفانى أن عدل عن فكرته (١٥) .

وقد تطورت احداث الثورة فى السنين القليلة .. فانسلخ عن الوفد جماعة المعتدلين الذين عرفوا « بالعدليين » وما لبثوا أن كونوا حزب الاحرار الدستوريين ، وصدر تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ثم صدر دستور ١٩٢٣ على ما هو معروف . ونفى سعد وجمع من أصحابه واعتقل كثيرون من الوفديين ، ثم عاد من هذه المعركة بما يزيد عن ٩٠٪ من مقاعد مجلس النواب . وشكل سعد زغلول أول وزارة دستورية فى يناير ١٩٢٤ . وخاض عبد الرحمن الرافعى المعركة الانتخابية فىدائرة مركز المنصورة وانتصر على المرشح الوفدى بصوت واحد ، وكانت لجنة الطلبة العامة بالدقهلية تزكى مرشحى الوفد فى جميع الدوائر ولكنها استثنت دائرة الرافعى فآثروه على مرشح الوفد . ولم يكن له فى الدائرة عصبية عائلية أو عزوة اقتصادية . كان مجرد عامل يعمل بالمنصورة ولكنه دخل الانتخابات بسمعته السياسية وسابق كفاحه الوطنى ونصاعة سلوكه الشخصى وفاز . واحتل مقعده فى صفوف المعارضة لحكومة سعد فى أول مجلس نيابى يقوم فى ظل دستور ١٩٢٣ .

بين الوفد والحزب الوطنى

كان الحزب الوطنى يقف من الوفد موقف المعارضة الوطنية الهادفة الى المزيد من التشدد ازاء الاحتلال . والحاصل ان الوفد ، فور قيامه، استطاع ان يمسك بزمام مصيره ومصير شعبه وان يحظى بتأييد شعبى كاسح . واستفاد فى ذلك من تجربة الحزب الوطنى السابق ومن اخطائه التاريخية ، فتخلص من اذيال فكرة الجامعة الاسلامية واتخذ موقفا قوميا مصريا محددا ، واستفاد من انقطاع روابط مصربالخلافة العثمانية منذ اعلنت الحماية فى ١٩١٤ . ومن جهة اخرى اتبع اساليب من النضال مكنته من أن يصبح مؤسسة سياسية جامعة لاوسع فئات المصريين وطبقاتهم وتياراتهم ، كما توافر له عنصر من الزعامة المصرية المستنيرة القادرة المدربة واسعة الافق واسعة الحيلة ، تمثلت فى سعد زغلول . اما الحزب الوطنى فقد خرج من الحرب ضعيفا اسقمته اجراءات القمع وفرقته الخلافات الداخلية مفتقدا الزعامة القادرة بعد هجرة محمد فريد ، وانطوى فى احسن احواله على جماعة من الشباب المتحمس المثالى ضعيف الصلة بحركة الجماهير . واضطربت به مسالك السياسة ومناوراتها . فاتصل بالوفد طورا ، واتصل بالامير عمر طوسون طورا آخر فىمحاولة هذا الامير منافسة الوفد على تمثيله الامة ، واختلف رجاله بين هذين الاتجاهين وعانى من ازمة من يستمسك بماضى جهاده وسابقة نضاله واصالته السياسية ولكنه يفتقد القدرة على تفهم حقائق الاوضاع الجديدة ووجد نفسه بين أمرين ، اما ان ينحاز الى الوفد فيستوعب فى كتلته العريضة ، واما ان يقف ضده فيستوعب فى كتلة المنافسين للوفد مثل الامير عمر طوسون وغالبهم مبغوض من الجماهير . واستطاع الوفد أن يستخلص قسما من خيرة رجاله فاضعفه هذا بالضرورة .

وقد اعترض الحزب الوطنى على صيغة التوكيل الذى وزعه الوفد ليكسب به صفة تمثيل الامة فى دعوته ، وذلك لما تضمنته من عبارة تحمل معنى الاشادة بالعدالة البريطانية ، ولخلو هذه الصفحة من الاشارة الى السودان ووحدة وادى النيل ، واستطاع بهذه المعارضة ان يعدل الصيغة فحذفت العبارة الاولى ، ولكن التوكيل جاءخاليا منموضوعالسودان.(١٦) ثمتبلورموقفه فى مبدأ أساسىواحد يتميز به ويستمسك به حتى النهاية ، وهو مبدأ « لا مفاوضة الا بعد الجلاء »

[١٥] د. عبد العظيم رمضان ، المرجع السابق ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦.
[١٦] ثورة ١٩١٩ ، المرجع السابق ، ص ١٠٢.

كان الوفد لايستبعد المفاوضة كوسيلة لتحقيق الاستقلال التام ، ويعتبرها احدى وسائل « الكفاح السلمى المشروع » حسبما ورد بصيغة التوكيل وببرنامج الوفد . ولكن الحزب الوطنى انكر اسلوب المفاوضة كوسيلة لتحقيق الاستقلال، وهذا من شأنه ان يميزه عن الوفد ، ولكنه رغم هذا الانكار لم يستطع أن يميز نفسه من جهة تحديد اساليب الكفاح . فكان الوفد متسقا مع نفسه اتساقا واضحا من جهة الهدف الذى قرره والاساليب التى رسمها لتحقيقه ، فاذا كان للاحتلال وجوده المادى بمصر ، وله ركائزه العسكرية والسياسية، وله حلفاؤه فى مؤسسات السلطة المصرية كالملك وفى القوى الاجتماعية ككبار ملاك الارض والفئة العليا من كبار موظفى الدولة وكبار أصحاب المصالح الاقتصادية والمالية من أجانب ومصريين ، اذا كان ذلك صحيحا فللوفد ان يتخذ موقف التشدد الكامل ورفض اية مساومة مع الانجليز ، وفى هذه الحالة لا يكون موقفه عمليا مأمول النجاح الا اذا نظمت الحركة الوطنية نفسها كحركة للكفاح المسلح وكانت قادرة على ذلك طبقيا وتنظيميا ، فاذا وجد انه غير قادر على اتباع هذا الاسلوب لتحقيق اهدافه النهائية بسبب الاوضاع الطبقية او الظروف الدولية او مستوى التطور التاريخى للحركة الشعبية او لهذه الاسباب مجتمة ؛ كان من المحتم عليم كتنظيم سياسى عملى ان يقرن استبعاده لهذا الاسلوب بقبول مبدأ المساومة ، وان يقبل بالمفاوضة كوسيلة لتحقيق مطالبه فى حدود الامكانيات العملية المتاحة فى اطار الظروف السياسية الدولية والموقف الداخلى . لكل هدف الاسلوب المناسب الذى يتحقق به ، وينبغى ان يقوم التلاؤم بين الامرين . وقد رسم الوفد لنفسه بحس سياسى عملى موقفا منسجما يلائم بين قدرته واهدافه . فعبر عن هدفه بالاستقلال التام ، وعن وسيلته بالكفاح السلمى المشروع ، ولم يرفض بذلك مبدأ المفاوضة واحتمال المساومة .

أما الحزب الوطنى ، فقد طرح شعاره المتشدد الذى يميزه عن الوفد ، ولكنه لم يستطع أن يميز نفسه من جهة اسلوب النضال السياسى ، ولا ان يختار اسلوبا يمكنه عمليا او يمكن للشعب به أن يحقق هذا الشعار ورد فى بيان الحزب بمناسبة مجىء لجنة ملنر انه يتمسك بشعاره المذكور ، ثم ذكر « يرى الحزب الوطنى أن تثابر الامة على المطالبة باستقلالها ، وان تصر على المطالبة به ، وان تعمل على الوصول الى هذه الغاية بجميع الوسائل المشروعة ، وان لايزيدها ما تصادفه من العقبات الا ثباتا على المبدأ الجليل ... يجب ان ترفض كل مفاوضة او مناقشة مع الغاصب ، ويجب ان لاتقبل مساومة فى الاستقلال .. » (١٧) . ثم رد الحزب على بلاغ اذاعه اللورد ملنر وقال الرد ان الحزب يتمسك باعتراف بريطانيا بالاستقلال رسميا « وايدته بجلاء الجنود الانجليزية عن وادى النيل وسميت اعلان الحماية .. » ثم اصدر بيانا يرفض فيه مشروع ملنر الذى قدمه لسعد زغلول ويقول فى النهاية « الاستمرار فى الجهاد الوطنى بجميع الوسائل المشروعة . » (١٨)

ومؤدى هذا أن الحزب الوطنى لم يكن يكتفى بالاستقلال التام ، اى باعتراف بريطانيا به ، ولكنه يطالب بأن يكون الاعتراف مصحوبا بالجلاء العسكرى عن مصر ، ولا يكفى مصر انما يجب أن يتم الجلاء عن مصر والسودان وأن تعترف بريطانيا بوحدة وادى النيل . ثم بعد أن يتم ذلك كله تجرى « المفاوضات » بين البلدين لتحديد العلاقات المستقبلة بينهما . ومن الواضح أن المفاوضة هنا تستحيل الى تصور صورى ، اذ لا تكون لها قيمة عملية بعد أن يتم كل ذلك . وقد كان من المألوف أن يسخر معارضو الحزب الوطنى منه من هذه الزاوية ويصموه بالسذاجة السياسية اذ يضع شعارا غير عملى وهوالجلاء بغير شرط ثم يوافق على المفاوضة حيث لا لزوم لها واذ يحاول « تضليل » الانجليز بوعد صورى بالمفاوضة بعد جلائهم .

على أن النقطة الجوهرية فى هذا الموقف ، ليست اصرار الحزب على رفض المفاوضة ، فهذا تشدد لا يرفضه وطنى ان أمكن تحقيقه . ولكن المشكلة كانت فى أن هذا التشدد يتطلب رفضا لاسلوب الكفاح السلمى المشروع ودعوة للكفاح غير السلمى « ولا المشروع » وهو الكفاح

[١٧] ثورة ١٩١٩ . الجزء الثانى . ص ١٠٠

[١٨] ثورة ١٩١٩ المرجع السابق . ص ١٢٥ ، ١٧٠.

المسلح . وفي هذه الناحية لم يميز الحزب نفسه عن الوفد في أسلوب الكفاح ، وهذا أساس وصمه بالسذاجة لدى الغالبية من اقسام الحركة الوطنية ، ودل شعار الحزب على نوع من التضارب وفقدان الاتجاه ، واحال هذا موقفه الى موقف من الرفض المطلق للمنطق العملي تمسكا بمثاليات مجردة .

والحاصل أن الوفد وان تبنى طريق الكفاح السلمي المشروع ، فلم يقتصر عليه ، بل استطاع أن يستوعب أسلوب العنف بالقدر الذى كان قائما وقتها ، وعلى النحو الذى عرفته مصر خلال السنوات العشر السابقة ، وهو تكوين الجمعيات السرية أو تشجيعها للاغتيال السياسى . وكان هذا بعض مهام التنظيم السرى للوفد الذى أشرف عليه عبد الرحمن فهمي وتزعمه احمد ماهر والنقراشي . واذا كان الحزب الوطنى قد شارك فى هذا النشاط كما سبقت الاشارة ، وكان هو من بدأ تجربة هذا الاسلوب منذ مقتل بطرس غالى ، فان الحزب الوطنى اكتفى فى هذا النشاط بدور المشارك للوفد ولم يعرف أنه حاول الاستقلال بنشاطه فيه ، ولا عرف أنه حاول تطوير هذا الاسلوب الى أسلوب من استخدام العنف الشامل ضد الاحتلال بغير اكتفاء بعمليات الاغتيال السياسى . ومن ثم كان نشاط الحزب الوطنى فى هذا الشأن محصورا فى نطاق النشاط الوفدى مستوعبا فيه ، غير قادر على تخطيه . وقد سبقت الاشارة الى أن الرافعي والصوفانى قاطعا مجلس الاغتيالات سنة ١٩٢٠ ، ولم يعرف لهما ولا لغيرهما من رجال الحزب نشاط مماثل بعد ذلك . ولا وجه الحزب دعوته الى اتباع طريق العنف ولا ميز نفسه عن الوفد فى هذا الشأن .

والحاصل أيضا ، أن النشاط العنيف الذى مورس فى ثورة ١٩١٩ ، لم يكن بالحجم الذى يمكن به اعتبار الكفاح المسلح طريقا وحيدا ولا طريقا أساسيا لهذه الثورة . كان نشاطا صغير الحجم نسبيا ، وكان يمثل أسلوبا مساعدا لاساليب الكفاح السلمية الاساسية . وذلك رغم أهميته غير المذكورة فى التأثير على سير الاحداث . والاغتيالات السياسية وان اعتبرت من اساليب العنف فهى بذاتها محدودة الاثر والنطاق والفاعلية ، وهى لا تصلح بطبيعتها الا أن تكون عاملا مساعدا للاساليب السلمية ، لأنها بذاتها ووحدها غير قادرة على تغيير الهيكل السياسى والاجتماعى . والاغتيالات السياسية لا تستلزم من الناحية التنظيمية الا أشكالا مبسطة وبدائية من أشكال التنظيم . والفارق واضح من هذه الناحية بين جماعات الاغتيال وبين جيوش حرب العصابات أو جيوش التحرير النظامية .

ومن ثم فهي غير قادرة على انشاء مؤسسة سياسية ثورية بديلة للمؤسسات المعادية ، وغير قادرة على تطوير الصراع السياسى الى صراع مسلح . لذلك لا يعرف ان كان لجهاز الاغتيالات فى الوفد أثر ضاغط وحاسم فى سياسة الحزب العلنى ، وبقيت اليد العليا فى تقرير السياسة للحزب العلنى ، وصفى هذا الجهاز « سلميا » بغير مقاومة تذكر عندما وجد الحزب أنه استوفى غرضه السياسى منه ، وأنه صار عبئا على سياسته بعد أن تحدد طريق كفاحه البرلمانى . وقد يكون ذلك أثار بعض سخط أعضاء الجهاز وقد يكون دفع بالبعض الى توريط حكومة الوفد سنة ١٩٢٤ بحادث مقتل السردار كما ذكر مصطفى أمين فى تحقيقاته المنشورة فى صحيفة الاخبار فى سبتمبر ١٩٦٣ . ولكن كان هذا أشبه بردود الفعل الفردية ، اذ وجدت عناصر التنظيم السرى نفسها فى جهاز غير قادر على تشكيل سياسة الوفد كله أو النفوذ الى مواطن اتخاذ القرارات فى الحزب ، وكان الغذاء السياسى الاساسى للحزب يأتيه من نشاطه الجماهيرى « المشروع » وكان وصوله الى الحكم بفضل الطريق « المشروع » أيضا وهو الانتخابات . وكانت الجماهير حول الوفد من خلال منابره العلنية فى الاساس . وكان سعد زغلول يدرك حجم هذا النشاط العنيف ويعى امكانياته السياسية المحددة . والمعروف أن جمعيات الاغتيال السياسى لا تحتاج الى روابط عضوية مستمرة بالجماهير على خلاف أشكال الكفاح المسلح الاكثر تطورا . لذلك تكون ضيقة محدودة العلاقات الجماهيرية فلا تستطيع تحريك الجماهير .

فلا يعرف أن الحزب الوطنى فى تشدد أهدافه المعلنة ، ميز نفسه بأسلوب للعنف اكثر تطورا من أسلوب الوفد ولارسم العنف طريقا أكثر شمولا ، ولا ميز نفسه فى هذا النطاق بنشاط مستقل ، ولادعا علنا الى غير الوسائل السلمية . وكان هذا هو التناقض الاساسى الذى وقعت فيه سياسة الحزب . اذ دعت الى أهداف واتبعت أساليب لا توصل الى تحقيقها . وبقى الحزب مصرا على هذا الموقف .

بين الرافعي وسعد زغلول

وفى هذا السياق يمكن النظر الى المواجهة التى تمت بين الحزب الوطنى والوفد عندما تولى الوفد الحكم . وجرت هذه المواجهة بين سعد زغلول رئيس الوزراء وبين الرافعي والصوفانى فى مجلس نواب ١٩٢٤ . وأيا كان وجه التقييم السياسى والتاريخى لهذا الموقف ، فقد اتضف

نائبا الحزب الوطنى فيه بقدر من الاصرار ومن الشجاعة الادبية كبير . قال الرافعى « قد حرصت مع اخوانى على أن نسير على مبادىء الحزب الوطنى داخل مجلس النواب . فكنا لانفتأ نتمسك بالجلاء ووحدة وادى النيل .. » وقال انهم أرسوا مبادىء المعارضة البرلمانية و « ان المثالية هى التى جعلتنى اختار المعارضةفى البرلمان الاول .. فقد شعرت أن واجبى كنائب أن اتخذ من الحياة النيابية اداة للكفاح الوطنى .. » (١٩)

كان أول هذه المواقف بعد افتتاح البرلمان باسبوعين فى ٢٩ مارس عند مناقشة المجلس خطاب العرش الذى يمثل برنامج الحكومة . ولسعد صاحب البرنامج ورئيس الوزراء وزعيم الامة أغلبية ٩٠ فى المئة من النواب وتأييد شعبى يشارف حدود الاجماع من الرأى العامالسياسى . والوفد قد صار عقيدة وطنية يصعب تحديها . وعلمت أحداث الاعوام السابقة الجماهير ورجال الوفد أن المؤامرات تحاك له من القوى المعادية للثورة ، وأكسبهم هذا طاقة حاشدة من الحذر والتوجس تجاه الدوافع الحقيقية لأى هجوم أو نقد يوجه للوفد أو زعيمه ، ظنا انه هجوم لن يفيد الا الاحتلال أو الملك حتى لو اتخذ مظهر التشدد فى المطالب الوطنية ، حذر أن يكون التشدد حقا يراد به باطلا . والجميع مشفق على الوفد فى الحكم يتمنى لهذه التجربة النجاح ويحاول أن يجنبه نطاق الأزمات .

فى هذا الجو وقف الرافعى يتكلم . سبقه عبد اللطيف الصوفانى فقوطع اكثر من مرة ، فنصح أحد الأعضاء الرافعى أن يرجع عن عزمه فى الكلام خشية ما قد يقابل من رد فعل عنيف . ولكنه قام وتحدث مبتدئا باعلان الثقة فى زعيم الامة فى الوزارة وليدة ارادة الشعب ، وقال أن هذه الثقة لا تتناقض مع معارضة الوزارةفى بعض مواقفها ولا مع معارضة الاسلوب المتهاون الذى استعمل فى خطابالعرش عند ذكرالمسألة الوطنية وسكوت الخطاب عن ابداء الراى فى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ . وفى ١٠ مايو تحدث مشيرا الى ما صرح به رئيس وزراء بريطانيا من أن المفاوضات ستجرى بين الحكومتين على أساس السياسة التى أقرها البرلمان الانجليزى فى ١٤ مارس ١٩٢٢ والتى تستند الى تصريح ٢٨ فبراير . وانتهى الى القول بأن ثقته فى حكومة الوفد لا تتنافى مع رفضه المفاوضة على هذا الاساس .

وفى ١٣ ابريل وجه سؤالا الى وزير الاشغال مرقص حنا عن مشروعات الرى التى تنفذها بريطانيا فى السودان والتى من شانها الاضرار بمصالح مصر . فرد عليه الوزير فى ٢٤ مايو وجرت المناقشه بين الاثنين ، أعلن فيها الرافعى ان المشروعات ضارة بمصر وأن على الحكومهأن تدخل لوقفها . هنا تدخل سعد وسأل كيفستدخل الحكومة ، أبجواب أم باحتجاج ؛ واذا كانت الحكومة توافق على كونها مشروعات ضارة ، فكيف تقفها ؟ ثم دفع سعد الحوار الى نقطة أساسية بقوله « ما هى الطريقة التى نحوز بها السودان دون الانجليز ، أما سياسة وخز الابر فلا اعرفها ونحن قوم عمليون .. نحن لا نفرط فى حقوق الأمة ولا نتهاون فى أمر السودان ، انما قوة الوزارة مستمدة من قوة الامة . فما هى الطريقة التى نحوز بها السودان دون منازع .. (وقال للرافعى) .. قل لنا الطريقة العملية أو تفضل نوليك الوظيفة التى تعجبك لنرى ماذا تعمل .. » ويشير الرافعى الى أن سعدا سأله متحديا « هل عندكم تجريدة » اى قوة مسلحة (وهى عبارة لم ترد بمضابط جلسة المجلس) . فرد الرافعى قائلا ان موظفى الاشغال فى السودان تابعون لوزارة الاشغال المصرية ، فللوزارة أن تعلن وقف هذه المشروعات ، فقال سعد « نحن نعرف أن مشروعات السودانمضرة ولكن قل لنا الطريقة العملية لمنعها ، واذا كنت لا تريد أن تقولها جهرا فتعالى قلها لى سرا ، نحن وزارة الشعب نريد أن نعرف الطريقة .. ونحن ليس فى امكاننا أن نمنع ما هو حاصل .. »

كرر الرافعى قوله عن تبعية عمال الاشغال هناك لمصر وقدرة مصر على منع المشروعاتوقال لسعد « أنا لا أريد وظيفة وانما اطلب من وزارة الاشغال أن تتدخل وتعمل واجبها .. » فقال سعد أن الوزارة طلبت فعلا وقف المشروعات « فاوقفت الاعمال النافعة لمصر واستمرت الاعمال الضارة بها » (كان ذلك فى عهدالوزارة السابقة) . وتوقف الحديث عند هذا المأزق . الرافعى يرى لمصر حقا فى وقف مشروعات ضارة بها ، وسعد يوافقه على ضرر المشروعات وحق مصر ، ولكنه يرى حقها حقا تعوزه القوة والقدرة العملية على التنفيذ . وسعد يدرك تماما حدود الكفاح السلمى المشروع ، ويعرف أنه وسيلة كفاح قاصرة عن تحقيق كل ما تطمح اليه الحركة الوطنية ، ويعلم أن ليس للحق قدرة سحرية تمكنه من التحقق تلقائيا لمجرد كونه

---

(١٩) مذكراتى . المرجع السابق . ص ٤٨

حقا ، انمــا القوة هى مابه يتحــول الحق الى واقع . ويناقش الرافعى من هــذه الزاويــة بالتحديد .

وفى ٢٤ يونيه ، طرحقانون تعويضاتالموظفين الأجانب . اد كان تقرر فى يولية ١٩٢٣ قبل نفاد الدستور منح تعويضات للموظفين الاجانب الذين تركوا خدمة الحكومة المصرية ، وصيغ هذاالقرار فى شــكل خطــابات متبادلة بين حكومتى مصر وبريطانيا لياخذ شــكل الاتفــاق الدولى الذى يصعب التحلل منه مستقبلا . فلما تولى الوفد الحكم عمل على تنفيذ الاتفاق وادرج له بمشروع ميزانية ٢٤ ــ ١٩٢٥ مبلغ ٣ر١ مليون جنيه . فوقف الرافعى مع المعارضين لهذا الاتفاقولادراج الاعتماد عنه بالميزانية وانكر قيام القانون وطالب بتقرير بطلانه ، وســاق الحجج القانونية التى تثبت بطلانه ، باعتبار انه صدر فى فترة تعطيل الجمعية التشريعية ولــم يعرض على البرلــان طبقا للمادة ١٦٩ من دســتور ١٩٢٣ . وانكر قول من قال انه معاهدة . لا يجوز فضــها . واتخذ الحوار بينه وبين بعض رجال الوفد طابعا قانونيا فنيا حول صحة أو بطلان القانون ، حتى قال ويصا واصف انه سليمقانونا ضارسياسيا . وكاد الامر يتوقف عند هذه الحدود ، لولا أن قــام سـعد ليرفع الموضوع الى مستواه السياسى ، وليصل به فى هذا الوضع الى قمة نقطة الخلاف فى النظرة بين سياسة الوفد وسياسة الحزب الوطنى .

قال سـعد انه ينتقد هذا القانون ويستنكره مع الناقدين المستنكرين ويعتبره « ضربة علىالخزانة ونكبة على أموال الدولة وانه سابق لأوانه ، بل أقول أيضا انه مخالف للدستور .. » وذكر انه كتب بذلك الى الحكومة الانجليزية بوصفه رئيسا للحكومة ، وانه يوافق الرافعى على انه ما كان يجب ان يعقد الاتفاق به ؛ثم اســتدرك ســعد مصرحا « فرق بين أن يستنكر الانسان شــيئا ويعتبره باطــلا وبين أن يتوقف عن تنفيذه .. مكره أخاك لابطل .. » وانه لايمكن انــهاء ما بين مصر وبريطانيا بمجرد القول بالبطلان . ثم وضـع الأمر موضعه فى المساومات السياسية متسائلا عما اذا كان من الخير دفع هذا التعويض وهو فادح ، أم اعادة الموظفين الاجــانب الى عملهم بالحكومة المصرية . « لقد اشــترينا بهذا المبلغ سعادتنا الداخليــة » وقال نحن لسنا قضــاة أو محامين فقط ولكننا سياسيون .

ومن اهم ما اشار اليه ســعد فى جداله مع الرافعى حول مشروعات رى السودان ، انه ان كان لدى الرافعى اقتراح يفيد فى اســتخلاص حقوق مصر ولا يستصوب الجهـر به ، فعليــه أن يسره الى ســعد . ولعله كان فى هده الدعوه اشارة الى الجانبالسرى من كفاحثورة ١٩١٩ ، وكان ذلك جانبا يســتحيل وقتها التصريح به ، اد كان يخرج عن نطاق المشروعية القائمــة وعن نطاق ما تعلنه الحركة الوطنيه من التزام بالكفاح « المشروع » وحده . ولاشك أن سعداوالرافعى كان كل منهما يعلم ما كان من أمر صاحبه فىهذا النشاط . ويظهر أن سـعدا بحديثه مع الرافعى كان يقصــد القــول انه ان كان الرافعى يريد الاشارة الى أفضلية استعمالالعنف ، فهويدعوه للمناقشة فى شــأنه . والواضـــح من واقع سياسة ســعد بعد ذلك انه كان يرى ان هذا الاسلوب الــذى اتبــع خــلال سنى الثــورة الاولى تقصر امكانياته عن تحقيق ما يطالب بهالرافعى .

وان موقف الرافعى والحــزب الوطنى عامة يمكن أن يبدو متســقا مع ذاته ، لو روعى فيما يطلب انه يدعو الى استخلاص المطالب الوطنية بالـعنف . وللرافعى وحزبه سابق نشاط فى هذا الكفاح يؤيد الظن بأن هذا الاسلوب كان يدور بخلده وخلد زمــلاء حزبه . ولكن هــذا الموقف لايبدو مستندا الى منهج عملى واضح لو صــح ما كان يدعو اليه الحزب فى بياناته من التزام « الوسائل المشروعة » بل يظهر انه اغراق فى المثالية . وقد يكون من الطبيعى أن يقف الرافعى فى مجلس النواب عند حدود عدم التصريح بما يميل اليه من استعمال العنف والاستمرار فيه ، استجابة لما لا يخفى من اعتبارات الامنالسياسى والحزبى والفردى ، وقــد يكــون الرافعى فى تشدده بالمجلس يقصد أن يستحث سـعدا « من تحت المائدة » على ابقاء العمل بالاسلوب العنيف بعد أن وصل الوفد الى الحكم بالاسلوبالبرلمانى السلمى ، ويقصــد القول بان نجاح الوفد فى الوصول الى الحكم بالطريق السلمى لا ينبغى ان يجعله يتغافل عن أهمية اســتمرار جــانب العنف من نشــاطه . على أن ما يضــعف هذه الفروض ، انــه لم يلحظ للـرافعى ولا للحــزب الوطنى ، ولا أفصحت الوثائق التاريخية المتاحة ، عن استمرار الحزب فى هذا الطريق بعــد ١٩٢٤ ولا ان محاولة بذلت للاستمرار فى هذا النوعمن النشاط . وقد سبقت الاشارة الى أن العنففى حدود الاغتيالات السياسية ذو فاعلية محدودة الاثر . وهنا تظهر المثالية واضحة فيما يدعو اليه الحزب الوطنى وما روج اليه من معارضة للطريق الوفدى .

وقد نظر الوفديون الى مواقف الرافعى ــ رغم ما يتمتع به من احترام وتقدير بينهم ــ كمواقف يقصــد بهــا ان تنتهى الى احــراج حكــومة سعــد

واضعافها فى نظر الشعب ، ويظهر انهم انطووا على الغيظ منه رغم سعة الصدر التى لاحظها الرافعى نفسه فى ردود فعل النواب الوفديين تجاهه . وكان هو يرد على تهمة الاحراج بقوله ان الحياة النيابية ميدان لاستمرار الكفاح ضد الاحتلال ويتعين ان يتخذ البرلمان — أكثر من الحكومة — موقف التشدد ضد المحتل . وكان الحرج يستبد بسعد زغلول أحيانا فيقول والازمات تحيط به من كل جانب والدسائس تتكاثر عليه « لاتقف موقف المعجز نقوتى منقوتك وقل لى ما يمكن تنفيذه » . وكان يقول لمعارضيه الوطنيين « لا تكشفوا عن ضعف الأمة . » (٢٠)

الرافعي خارج البرلمان

تعاقبت الاحداث حتى اغتيل السردار واستقالت وزارة الوفد وحل مجلس النواب واجريت انتخابات جديدة نجح فيها الرافعى فى دائرته نفسها على المرشح الوفدى ، ولكن المجلس حل فى أول أيام انعقاده ، ومن وقتها بقى الرافعى بعيدا عن البرلمان ثلاثةعشر عاما . ويرد الرافعى هذا الابتعاد الى وقوف الوفد ضده ، اذ قسمت الدوائر فى عهد الائتلاف بين الوفد والاحرار الدستوريين سنة ١٩٢٦ ورفض الوفد ان يترك له دائرة المنصورة بسبب سابقة معارضته لحكومة سعد كما نافس الوفد الصوفانى سنة ١٩٢٥ واحمد لطفى (من أقطاب الحزب الوطنى) سنة ١٩٢٦ واسقطهما مما ترك احساسابالمرارة الشديدةلدى الحزب الوطنى . ويذكر الرافعى أن صدمة سقوط الرجلين عجلت بوفاتهما ، وان موقف الوفد انطوى على كثير من العنت وكشف عن قصور كبير لديه فى تقبل المعارضة . (٢١)

ويمكن تصور وجهة نظر الوفد فى حرصه كحزب برلمانى على الظفر بأكبر قدر من مقاعد مجس النواب ، ولا تثريب على حزب فى ذلك ما دام يحتكم الى الجماهير احتكاما حرا غير مزيف . والواقع أن الحزب الوطنى ساهم فى تعميق الخلاف بينه وبين الوفد ، اذ اضطر فى معارضته للوفد ذى الكيان السياسى الكبير الى الوقوف حليفا للقوى والتيارات المعادية له ، وكانت كلها — سيما فى العشرينات — تنحصر فى اتجاه السراى والاحرار الدستوريين . وذلك رغم الاختلاف السياسى البين بين مبادىء الحزب الوطنى وبين هؤلاء . والظاهر ان الحزب لم يستطع ان يحدد الوضع السياسى وقواه تحديدا يمكنه من اتباع سياسه عمليه تتمشى مع اهدافه البعيدة . وقد سبقت الاشاره الى سبق وقوفه ضد الوفد حليفا لعمر طوسون فى بداية الثورة . ثم بعد ذلك ساهم مع الاحرار الدستوريين فى حملة الهجوم على الوفد فور استقاله وزارة سعد ، وذلك قبل أن ينشق الاحرار على وزارة زيور الذى خلف سعدا وحكم باسم الملك ، وكان هذا الهجوم مما ساهم فى دعم حكومة زيور فى بدايتها . ثم ما لبث الحزب ان هاجم الحكم فى ١٩٣٠ وقام بانقلابهالدستورى الذى الغى به دستور ١٩٢٣ ووضع دستور ١٩٣٠ الذى نتكس بما حققه الدستور الاول من مكاسبالشعب ، عندما تم ذلك قاطع الوفد والاحرار انتخابات صدقى ، ولكن كان غريبا أن يقرر الحزب الوطنى دخول انتخابات قاطعتها الأمة . (٢٢)

كان تفكير الحزب الوطنى فى هذا الشأن — حسبما يتضح من كتابات الرافعى عن ثورة ١٩١٩ وعن اعقاب الثورة وكتابات غيره من رجال الحزب — يصدر عن ان الوفد لا يعدو أن يكون امتدادا لحزب الأمة القديم ، وان الخلاف الذى نشأ داخل الوفد وادى الى انسلاخ من كونوا الاحرار الدستوريين ، ليس خلافاسياسيا ولا خلافا اساسيا وانما مصدره اطماع سعد زغلول فى التفرد بالزعامة ، وان محمد فريد كتب فى مذكراته بمنفاه أن الوفد بتشكيله الاول لا يتأخر عن الاتفاق مع الانجليز « لا يبقى يطالب فعلا وباخلاص حقيقى باستقلال مصر التام الا حزبنا الحزب الوطنى .. » (٢٣) وان الوفد والاحرار كلاهما يقبل مبدأ المفاوضة . ومن الطبيعى أن صدر التفكير من هذا الاساس أن ينظر الى ما يتمتع به الوفد من شعبية على انها شعبية أساسها التضليل والغوغائية ، وان ينظر اليه باعتباره أخطر على المطالب الوطنية من زملائه الاحرار .

وعلى اى حال ، فقد كان لابتعاد الرافعى عن المنبر البرلمانى أثر جد سىء فى نفسه ، واذاكان هو والحزب الوطنى قد نفضوا أيديهم من العنف كأسلوب لتحقيق المطالب الوطنية ، واذا لم يكن للحزب الوطنى علاقات واسعة وثيقةبالجماهير ،

---

[٢٠] ثوره ١٩ والسلطة السياسية ·طارق الشرى · مجلة الكاتب · اكتوبر١٩٦٧
[٢١] مذكراتى · المرجع السابق ص٥٧ — ٦٠
[٢٢] د· عبد العظيم رمضان·المرجع السابق ص ٧٤٦
[٢٣] ثورة ١٩١٩ · المرجع السابقص ٦٣ · وفى نفسالمعنى : عصر ورجال· فتحى رضوان ص ٤٥١

ولا نشــاطً يعتدّ به فى المؤسسات الجماهيرية السياسية والاقتصــادية كالتعاونيات والنقابات (على ماكان يهدف قبل الحرب) فلم يعد أمامه من أســاليب الكفاح الوطنى الا النشــاط البرلمانى والصــحفى . وجاءت سياسة الوفد هادفة الى اقصاء معارضيها من البرلمان . ووجد الرافعى السياسى أن ابعاده عن البرلمان قد أغلق من دونه أهم ميادين الكفاح . فانحصر جهده الاساسى فى الكتابة أحيانا بالصــحف تعليقا على الاحــداث الجارية وتذكيرا للرأى العام بما ينبغى أن تكون عليه المطالب الوطنية من نقاء وتشدد .

وفى هذه الفترة ، ســـعى بعض كبار رجال الحزب الوطنى ، الى البحث عن ميدان للنشاط الشعبى . والمعروف انه كان قسم من رجــــال الحــزب قبل الحــرب الاولى يميل الى الفكرة الاسلامية وتجميع الشعوب المسلمة ضد الاحتلال وبقيت عنصرا فى تفكيرهم السياسى . وبهـــذا فكرة القومية المصرية منذ ١٩١٩ على يد الوفد ، وبقيت عنصرا فى تفكيرهم السياسى . وبهـــذا ساهموا فى ١٩٢٧ فى تكوين جمعيات الشبان المسلمين لتكون مجالا لنشاط الشباب الاسلامى فى مصر والبلاد العربية ، وانشئت لها فروع فى المشرق العربى خــلال الاعوام القليلة التالية . وكان من أهم مؤســـسى هذه الجمعيات الدكتور عبد الحميد سعيد والشيخ عبد العزيز جاويش من رجال الحزب الوطنى .

على انه لا يكاد يلحظ للرافعى نشاط واضح فى هذا الخصوص . والملحوظ من مطالعة فكره وسجل حياته ، أنه كان علمانى المنزع مستجيبا لفكــرة القوميــة المصرية ممارســا لها . وتلفت الرجل يختار مجالا يمارس فيه حيويته السياسية والثقافية ، وكان منذ صباه يميل للنشاط الثقافى والكتابة وتأليف الكتب ، فقد كتب أول مقالاتــه وهــو فى التاسعــة عشرة وكــان يجنح لكتــابــة المقالات المسلسلة فى موضــوع واحد . (٢٤) وأصــدر أول كتبه فى ١٩١٢ باســـم « حقوق الشعب » شرحا للمبادىء الديمقراطية وتعميقا للدعوة لها ، وكان ذلك فى وقت اشتداد المطالبة الجماهيرية بالدستــور وقيام المظاهــرات تطــالب به وبالحريات تحيط بركب الخديو هاتفة «اللائحة يا أفندينا » ثم أصــدر كتابه الثانى من « نقابات التعاون الزراعية ؟ نظامها وتاريخها وثمراتها فى مصر وأوروبا » كأول كتاب يصدر عن مصرى فى هذا الموضوع ، ودعاه لاختيــار هذا الموضـــوع نشاط الحزب الوطنى فى تأليف التعاونيات كجزء من نشاطه للنمو بالحركة الشعبية ضد الاستغلال الرأسمالى الاستعمارى . وفى ١٩٢٢ أصــدر كتابه الثالث باســـم « الجمعيــات الوطنية ــ صحيفة من تاريخ النهضات القومية فى فرنسا وأمريكا والمانيا وبولونيا والاناضول » نشر هذا الكتاب مسلسلا فى صحيفة « الاخبار » ســنة ١٩٢١ ، وقدم فيه صورة من الجمعيات الوطنيــة والهيئات النيابية التى لعبت دورا تاريخيــا فى تنظيم جهاد الامم ووضع الدستور وتنظيم الحياة السياسية فيها ، ودعا فيه الى استمرار سياسة المقاومة الوطنية التى تعتبر سياج الامم المهضومة الحقوق ، وانها ما ينحقق به الاستقلال وما تحفظ به روح الاتحاد الوطنى . (٢٥) ويظهر الهدف السياسى المباشر لاصدار هذا الكتاب واضــحا لا يحتاج الى تفصــيل ، كما يلاحظ أنه فى فترة صــدوره كانت ظهــرت نية السراى والاحرار الدســتوريين ، فى اعداد الدســتور ــ عقب صــدور تصريح بريطانى يعتــرف بالاســتقلال الاسمى ــ بواسطة لجنة يعينها الملك (كانت هى لجنة الثلاثين المعروفة) . وكان موقف الوفــد والحزب الوطنى الدعوة لاعداد الدستور بواسطة جمعية تأسيسية منتخبة من الشعب لا معينة من الملك . وصدر هذا الكتاب مؤيدا لهذه الدعوة من خلال ما أورده من تجارب تاريخية .

فلما ابتعد الرافعى عن النشاط النيابى منذ ١٩٢٦ ، لجــأ الى نزوعه الثقافى القــديم فى التأليف « أوجد الله لى مخرجا من هذه المحنة ، فالهمنى أن أشغــل نفسى بعمــل استغرق معظم تفكيرى وجهودى ، وصرفنى وقتا طويــلا عــن الحيــاة البرلمانيــة ، وهــو تأريــخ الحــركــة القومية . » (٢٦)

بدأ تفكيره فى هذا العمل ، بمنزع ســياسى واضح ، شأنه فى ذلك شأنه فى جميع ما كتب ، وبمنزع حزبى أيضا . واختار أن يضع كتابا عن « مصطفى كامل» رائد الحركة الوطنية فى مفتتح القرن العشرين وأول زعيم للحزب الوطنى يعتمد فى نشاطه السياسى دائما الى ما يقتنع به فى نفسه من أصالة وعراقة مصدرها نشــاطه قبل الحرب وزعامة مصطفى كامل ثم محمد فريد له ،

---

[٢٤] مذكراتى . المرجع السابق ص١٦
[٢٥] الجمعيات الوطنية . عبدالرحمن الرافعى .
[٢٦] مذكراتى . المرجع السابق . ص ٦٠

وفى الكتابة عن أى من هذين ترويج للحزب الوطنى كمبادىء وكمؤسسة · والرافعى نفسه يستشعر عاطفة قوية بالوفاء لزعيميه الراحلين تدفعه الى اختيارهما كموضوع للبحث . ولكن ما ان بدأ الرافعى فصوله الاولى ، حتى فرض منطق البحث نفسه ، على الباحث ، وتكشفت امامه مسألة تاريخية هامة ، هى تحديد بداية تاريخية للموضوع ، واذا باحداث التاريخ يمسك بعضها بأهداب بعض وتتداعى امامه فى تسلسل وثيق الحلقات ، فمضى فى بحثه صعدا ليصل الى نقطة تصلح بداية لظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث ، حتى وضع يده على المقاومة الشعبية التى واجهت الحملة الفرنسية .. فارجأ كتاب مصطفى كامل . وبدأ من نقطة البداية (٢٧). وقد استغرق اعداد الجزء الاول منه ثلاث سنوات حتى صدر فى يناير ١٩٢٩ ، ثم تلاه الجزء الثانى فى ديسمبر . ثم اصدر « عصر محمد على » فى ديسمبر ١٩٣٠ ، وعصر اسماعيل فى ديسمبر ١٩٣٢ ، ثم الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى « فى فبراير ١٩٣٧ ، ثم وصل الى « مصطفى كامل » فى يناير ١٩٣٩ ، و « محمد فريد » فى يوليه ١٩٤١ ، و « مصر والسودان فى اوائل عهد الاحتلال » فى يونيه ١٩٤٢ · ثم اصدر « ثورة ١٩١٩ » فى جزءين فى ابريل ١٩٤٦ ، وتوالت الاجزاء الثلاثة من « فى اعقاب الثورة » حتى اتمها فى اكتوبر ١٩٥١ · ثم أصدر جزءيه عن مقدمات ثورة ٢٣ يولية وعن هذه الثورة فتمت المجموعة فى ١٩٥٩ .

الرافعى فى الثلاثينات

فى ديسمبر ١٩٣٢ ، صار الرافعى سكرتيرا للحزب الوطنى خلفا لمحمد زكى على الذى عين هو ومصطفى الشوربجى [من قادة الحزب] مستشارين بالقضاء فى عهد اسماعيل صدقى ، وكان الرافعى قد رفض التعيين معهما لعمله الحر فى المحاماة · وصدر أول بيان للحزب موقع عليه منه فى ٥يناير ١٩٣٣ يتضمن معارضة محاولات صدقى التفاوض مع الانجليز ، وطالبا الغاء القوانين المقيدة للحرية ، وداعيا لاحكام البناء التنظيمى للحزب بتكوين لجان فرعية له تدعو لمبادئه . كما نص البيان على « لفت نظر حضرات اعضاء الحزب الوطنى الى وجوب المحافظة على تقاليد الحزب فى خطبهم وتصريحاتهم ورسائلهم باعتباره حزب معارضة للحكم القائم .. » بما يشير الى ضعف روح الانضباط بين اعضاء الحزب وضعف روح المعارضة فيه لحكم صدقى .

ومن المعروف انه على مشارف ١٩٣٥ كانت حكومة صدقى قد سقطت ، وظهر اتجاه تكوين الجبهة الوطنية وعقد المعاهدة مع بريطانيا مع احتمال عودة الوفد ودستور ١٩٢٣ . وقد ساهم الرافعى مع حافظ رمضان رئيس الحزب الوطنى فى تقريب وجهات النظر بين الوفد وغيره من الاحزاب لتحقيق الائتلاف وتكوين الجبهة · (٢٨) ونشر الحزب بيانا موقعا عليه من رئيسه وسكرتيره عن سعيهما « **لتوحيد الكلمة وضم الصفوف** ·· » وذلك فى صحيفة الاهرام ٢٨ نوفمبر ١٩٣٥ · ثم تكونت الجبهة ممثلة للاحزاب كلها وللوفد فيها اغلبية الاعضاء ولكل حزب ممثل واحد عدا الحزب الوطنى الذى مثل برئيسه وسكرتيره اعترافا بسعيهما فى نجاح الائتلاف . وساهم الاثنان مع الجبهة فى سعيها لاعادة دستور ١٩٢٣ ، وكان الرافعى ضمن لجنة صياغة كتاب الجبهة للملك للمطالبة بعودة الدستور ثم انسحب عن اعمال الجبهة فى سعيها لتحقيق هدفها الثانى وهو ابرام المعاهدة ، اتباعا لمبدأ الحزب . (٢٩) ولم يشترك الحزب الوطنى بطبيعة الحال فى وفد المفاوضة الذى أبرم معاهدة ١٩٣٦ .

وبعد ان ابرمت معاهدة ١٩٣٦ ، عارضها الحزب الوطنى فى البرلمان وفى خارجه ، وكان رجاله بمجلس النواب هم عبد العزيز الصوفانى وفكرى اباظه ومحمد محمود جلال وعبد الحميد سعيد · اما الرافعى فلم يكن عضوا باحد مجلسى البرلمان ، اذ رفض الوفد فى الانتخابات الاخيرة ايضا ان يترك له دائرة المنصورة، واعتبر الرافعى ذلك غبنا كبيرا « حرمت طيلة حياتى من معاونة الغير لى »· وقد اوضح الرافعى رأيه فى المعاهدة بما نشر من مقالات فى الصحف ، سيما مقال كبير بالاهرام فى ٢٦ سبتمبر ١٩٣٦ طبع فى كتيب وجرى توزيعه كأحد مطبوعات الحزب . (٣٠) ثم استمر بعد ذلك على موقف المعارضة من المعاهدة ، لايمل تكرار القول واعادته ضدها .

وقد عاد الرافعى عضوا منتخبا بمجلس

[٢٧] مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية · عبد الرحمن الرافعى · ص١ ــ ٣
[٢٨] صحيفة الاهرام ١٥ ديسمبر١٩٣٥ : مذكراتى · المرجع السابق ·ص ٨٧
[٢٩] فى اعقاب الثورة · الجزءالثانى · عبد الرحمن الرافعى ص ٢٠٣··· الخ
[٣٠] مذكراتى · المرجع السابق ·ص ٩٠

الشيوخ على عهد وزارة على ماهــر فى اكتوبر ١٩٣٩ ، وبقى به حتى١٩٥١ . ومنذ دخل المجلس كان دائم الاشاره فى كل ما يقول ـــ سيما فى تعليقه على خطــابات العرش التى تفتتــح بها الحكومة كل دورة من دورات البرلــان ـــ الى فساد الاساس الذى بنيت عليه المعاهدة مادام لم يصحبها الجلاء الكامل عن مصر ووحدة وادى النيل . (٣١) ورفض تأييد وزارة حسن صبرى التى خلفت على ماهر فى ١٩٤٠ . وكان يقول انه لايتصور استقلالا بغير جلاء ولا احتلالا بغير تبعية. وان المعاهدة ليست الا صكا بالحماية(٣٢) وعارض حكومة الوفد بعد توليها الحكم فى ١٩٤٢ لان خطاب العرش الذى القاه مصطفى النحاس لم يشر الى مبدأ الجلاء ووحدة وادى النيــل . وكان دائم الاشارة الى وجوب تجنيب مصر ويلات الحــرب العــالمية الثانيـــة التى كانت دائرة وقتها .(٣٣) واعاد المعنى ذاته فى تعليقه على خطب العرش الوفدية فى السنين اللاحقة قائلا فى مرة منها « نحن نعتبر الجــلاء مبدأ لا مطلبا فحسب ، ونعتبره عقيدة لا وســيلة للمعارضـــة فحسب . » (٣٤)

ومن المعروف انه كــان من تقــاليــد الحـــزب الوطنى ، رفض الاشـــتراك فى الحكم مع اية وزارة لا يكون مبدأها لا مفاوضة الا بعد الجلاء . وظل الحزب امينا على هذا التقليد ، حتى حدث ان قبل رئيس الحزب الاشتراك فى حكومة الاحرار برئاسة محمد محمود فى ١٩٣٧ بغير قرار من اللجنة الادارية للحزب ، وسكت الحـــزب على رئيسه على مضض . ثم اشـــترك الرئيس مرة اخرى فى وزارة حسن صبرى فى ١٩٤٠ رغم مبادرة لجنة الحزب فى هذه المرة بتقرير عـــدم الاشتراك فيها قبل تشكيلها فخالف رئيس الحزب القرار ودخل الوزارة ، وحدث انقســـام بالحزب ووجدت لجنتان اداريتان ـــ أى قيادتان للحـــزب وذلك حتى نوفمبر ١٩٤٦ اذ تصالح الفريقان على على مبدأ عدم الاشتراك فى الـــوزارة اذا كان برنامجها يتعارض مع مبادىء الحزب . وكان الرافعى من المعارضين لحافظ رمضان فى هذا الانقسام . ثم اشترك الرافعى فى وزارة حسين سرى الائتلافية فى ١٩٤٩ وزيرا للتموين ، ووجد من رجال الحزب من عارضه فى قبول الاشتراك رغم سابقة رفضه الاشتراك فى حكـــومة سرى الاولى فى ١٩٤٠ ، وكان من هؤلاء محمد محمود جـــلال ومحمود العـــمرى . ورأى الرافعى فى معارضتهما تشددا لم يقتنع به . حتى استقالت وشكل رئيسها وزارة مستقلة اجرت الانتخابات ثم عاد الوفد .

الرافعى والتعاون

كان للحزب الوطنى منذ عهد محمــد فريد ، دوره الهام فى ارساء اسس الحركة التعاونية فى مصر وظهر أول داعية للتعاون فى ١٩٠٨ عمر لطفى وكيل مدرسة الحقوق ورئيس نادى المدارس العليا واحد المقربين لمصطفى كامل . فلما توفى عمر فى ١٩١١ تزعم الحركة شقيقه احمد لطفى عضو اللجنة الادارية للحزب الوطنى . (٣٦)

ومن هذا الوقت بدأ اهتمام الرافعى بالحركة التعاونية . وقد لاحظ الرافعى ان الحزب الوطنى قبل ١٩١٩ كان اكثر اهتماما بالجانب الاقتصادى للحركة الوطنية من الوفد بعد ذلك . وفى ٢٥ ديسمبر ١٩١٣ ارسل محمد فريد الى الرافعى خطابا يأسف فيه على ما لحق نشاط الحـــركة الوطنية من ضـــعف وينصــــحه قائلا « اذا كان الخوف من رجال السلطة حدا بالكثيرين الى عدم اظهار احساسهم الوطنى ، فما يمنعهم من صرف همتهم الى المشروعات الاقتصادية كالنقـــابات وشركات التعاون المنزلى والمالى ... فاستقلال مصر الاقتصادى مقدمة لاستقلالها السياسى » . وعمل الرافعى بالنصـــيحة وكتب فى صـــحيفة « الشعب » سلسلة مقـــالات عن مـــيزان مصر الاقتصادى فى سبتمبر واكتوبر ١٩١٣ كما وضع مؤلفه عن التعاون الزراعى وارســـله الى فريد الذى شجعه على ذلك وشجع احمد لطفى على انصرافه الى دعم هذه الحركة ، وقال للرافعى انه يأمل « ان كل النقابات [التعاونيات] التى تؤسس تنشأ حرة بحيث يسقط قانون الحكومة من نفسه وتضطر هى لتعديله » . (٣٧) وقد قسم كتابه بابين خص الاول بتجارب التعاون فى بلدان أوروبا ،وخص الثانى بمصر فذكر ان نظام التسليف الزراعى يضع الفلاحين تحت نير الاستغلال من التجار والمرابين الاجانب ، ودعـــوة عمر لطفى

---

[٣١] اربعة عشر عاما فى البرلمان . عبد الرحمن الرافعى ص ١١٥
[٣٢] المرجع السابق . ص ١٨١
[٣٣] المرجع السابق ص ٢٥٠
[٣٤] المرجع السابق ص ٣٥٣
[٣٥] جلسة ٥ فبراير ١٩٤٦
[٣٦] تاريخ التعاون فى مصر . طارق البشرى مجلة الطليعة . سبتمبر ١٩٦٥
[٣٧] مذكراتى . المرجع السابق ٢٤ ـــ ٢٦ ، ٣٩

والجمعيات التى نشأت فى البداية واساليب نشاطها . ثم رجه فىالنهاية اهتمامه الى مهاجمة مشروع تشريع التعاون الذى اعدته الحكومة والذى يفرض رقابة صارمة عليها فى تكوينها ونشاطها . وقارن بين هذه الرقابة وما تتمتع به شركات الاستغلال الرأسمالى التى تنشأ طبقا لقانون التجارة من حرية كبيرة فى نشاطها .(٣٨)

فلما قامت ثورة ١٩١٩ ، حاول احياء نشاط الحزب الوطنى فى هذا الشأن بعد ضعف خلال الحرب ، وأسس مع بعض زملائه فى يوليه١٩١٩ « جمعية تعميم النقابات الزراعية » بمديرية الدقهلية لنشر التعاونيات فى المديرية ، واصدروا بيانا وقع عليه كثيرون منهم محمد حسين هيكل وابراهيم الطاهرى وحسن هلال . وفى بداية ١٩٢٠ دعا لانشاء جمعيات للتعاون الخيرى مقاومة للغلاء وكتب عن ذلك فى صحيفة الاخبار وتكلم عنها فى اجتماع دعا اليه محمد أمين يوسف بدار الاوبرا لهذا الغرض . واسست جمعية من هذا النوع فى فبراير ١٩٢٠ ثم انشىء عدد آخر فى بعض المدن . على انه يظهر ان هذه الحركة لم تحظ بانتشار واسع . وقد لحقها مالحق نشاط الحزب الوطنى من انغلاق بسبب فقدانه الروابط الجماهيرية الواسعة .

وحدث عشية اعلان دستور ١٩٢٣ ، ان اصدرت وزارة يحيى ابراهيم الموالية للملك وللانجليز مجموعة من التشريعات المقيدة للحريات وللحركات الشعبية ، كقانون الاجتماعات العامة والمظاهرات وقانون الاحكام العرفية وقانون الانتخابات ، وذلك كنوع من محاصرة الدستور ولجم النشاط الجماهيرى الذى يتوقع فى ظله . وكان من هذه القوانين القانون رقم ٢٧ لسنة ١٩٢٣ « شركات التعاون الزراعى » (٣٩) . فلما اجتمع مجلس نواب ١٩٢٤ اقترح الرافعى فى ٢٥ مارس تشكيل « لجنة التعاون والشئون الاجتماعية » ضمن لجان المجلس . وقال ان التعاون ركن هام فى الحياة الاقتصادية ، وكان يسير ببطء خلال الاثنى عشر عاما الماضية بسبب عدم وجود تشريع ينظمه . وتكونت اللجنة فعلا وفيها الرافعى سكرتيرا ، وفحصت قانون ١٩٢٣ وقررت اجراء عدد من التعديلات به تنظيما لتمويل الحكومة لها وتحديدا لجوانب الاشراف على الجمعيات التى تشكل طبقا له لا الجمعيات التى يمكن تشكيلها طبقا لاحكام القانون العام . وألح الرافعى على المجلس ان ينظر هذا القانون فى دورته الجارية ؛ ولكن تقرر تأجيله لعدم استعداد الحكومة لمناقشته فنيا تم اجل لدورة تالية . ثم حل المجلس كما هو معروف . (٤٠)
وفى عهد حكومة الائتلاف سنة ١٩٢٧ صدر قانون جديد للتعاونبمبادرة فتحالله بركات وزيرالزراعة الوفدى ولم يتح للرافعى ان يساهم فيه لأبتعاده عن البرلمان وقتها .
والملاحظ ان الرافعى بقى امينا للحركة التعاونية ، كعهده طول حياته بالنسبة لنشاط الحزب الوطنى على عهد زعيميه الاولين ، وذلك طوال حياته السياسية التالية . ولكن حدث هنا ما حدث لنشاطه ولنشاط الحزب كله ، وهو الاقتصار على النشاط البرلمانى وذلك للتأثير فى سياسة الحكومات المختلفة بما يدفعها الىتشجيع التعاون ، وبغير مبادرة ذاتية او شعبية فى تكون التعاونيات . ومنذ ١٩٢٤ بدأ الرافعى يركز على أهمية الرقابة الحكومية الفنية على جمعيات التعاون وعلى أهمية مساعدة الحكومة لها تمويلا ورقابة على خلاف نزعة الانطلاق الشعبية التى كانت طابع الحزب فىهذا المجال قبل الحرب الاولى ؛ولعل من اسباب ذلك نموالعنصر الوطنى فى حكم البلاد منذ ١٩١٩ ، ولكن من اسبابه ايضا افتقاد القدرة علىالنشاط الشعبى الواسع والاقتصار على العمل من خلال البرلمان ومؤسسات الحكم . وقد اختير الرافعى عضوا باللجنة التى شكلتها وزارة على ماهر من المعينين بالحركة التعاونية فى ١٩٣٩ فوجهت عنايتها للمطالبة بانشاء بنك للتعاون مع دعم المساعدة المالية والفنية من الحكومة لها . (٤١)
ولما عاد الرافعى الى البرلمان فى ١٩٣٩ ، كان سكرتيرا للجنة العمال والشئون الاجتماعية بمجلس الشيوخ . واستمر يطالب بزيادة الاعتمادات المخصصة بالميزانية لمصلحة التعاون وتوسيع نواحى الاشراف علىالتعاونياتوتنظيمها ومراجعة أعمالها . (٤٢) وجعلُ من الحديث عن تشجيع التعاون بندا شبه ثابت فى خطاباته الدورية تعليقا على خطب العرش . (٤٣) ثمكان هو سكرتير لجنة الشئون الاجتماعية والعملالتى

---

[٣٨] نقابات التعاون الزراعية •عبد الرحمن الرافعى
[٣٩] تاريخ التعاون فى مصر •••المرجع السابق ، دستور ٢٣ بين القصروالوفد • طارق البشرى • مجلة الكاتب مايو ١٩٦٩
[٤٠] اربعة عشر عاما ••• ص ٧٣_ ٩٣
[٤١] مذكراتى • المرجع السابق •ص ١٠٥
[٤٢] اربعة عشر عاما ••• ص ١٣٨، ١٦٥ ، ١٩٠.
[٤٣] جلسة ٣ يونيه ١٩٤٢.

درست مشروع التعاون الجديد فى ١٩٤٤وأقرت ادخال عدد من التعديلات به على القانون القائم ، مع انشاء بنك للتعاون . (٤٤) كما ساهم فى اول مؤتمر للتعاون انعقد فى ٥ يونية ١٩٤٣ برئاسة فؤاد سراج الدين وزير الشئون الاجتماعية فى المنصورة . (٤٥)

وكان الرافعى سكرتيرا للجنة الشئون الاجتماعية بمجلس الشيوخ عند نظر البرلمان لاول قانون لنقابات العمال وعند نظره لقانون عقد العمل الفردى ، فى عهد وزارة الوفد وكان مقرر اللجنة الذى قدم كلا من المشروعين الى المجلس فى ٨ اغسطس ١٩٤٣ و ٢ فبراير١٩٤٤ وماتلاهما من جلسات . كما قدم للمجلس اقتراحا بقانون فى ١٢ فبراير ١٩٤٠ لحمايا الملكية الزراعية الصغيرة تعديلا لقانونى سنتى ١٩١٢ ، ١٩١٣ بما يسبغ الحماية من عدم الحجز على ملكية عشرة افدنة بدلا من خمسة وبما يمكن من التمسك بعدم جواز الحجز الى وقت التنفيذ بدلا من سقوط الحق فى التمسك به من وقت صدور الحكم . (٤٦) كما قدم فى ١٤ ابريل ١٩٤١ اقتراحا بمد مواعيد تقديم طلبات خفض الضرائب عن صغار الملاك الزراعيين حماية لهم .

ويلحظ كثير فى مناقشاته البرلمانية ، نزعته الانسانية الواضحة تجاه ما يعرض من أمور تمس مصالح الفلاحين والعمال أو « الفقراء » عامة . وقد طالب بجلسة ٢٦ مارس ١٩٤٠ بتشجيع الصناعات المنزلية مساعدة لزيادة دخل الفلاحين مع تخفيف اعباء الديون عنهم . وفى ١٧ ابريل طالب بزيادة اعتمادات الميزانية لتقوية الجيش على أن تتحمل الطبقات الغنية وحدها تكاليف هذه الزيادة لأن الفقراء « تكفيهم الاعباء المكلفون بها فى الميزانية العادية . » (٤٧) وأثار قوله هذا ضجيجا وموجة من عدم الارتياح لدى الشيوخ . وصفت صحيفة البلاغ وقع الاقتراح ورد فعله بقولها « احمر وجه الشيخ (الرافعى) وقال وهو يخترق الصفوف الى مكانه : قولوا اللى تقولوه ، لازم الاغنياء يتحملوا ، جه دورهم . » (٤٨) وتكلم كثيرا عن تنمية الصناعة ومحاربة الفقر .

وفى ديسمبر ١٩٤٨ قدم مشروعه عن منع تملك الاجانب للاراضى الزراعية والعقارات ، ووجد تأييدا من الرأى العام ، ومالبث أن ووفق عليه بالمجلس وصدر برقم ٣٧ فى مارس ١٩٥١ . وقد صدر مقتصرا على الاراضى دون المبانى ، كما انه كان .منع تملك الاجانب مستقبلا دون مساس بالملكيات القائمة ولا بالحق فى توريثها .

المثالية السياسية

هذا مجمل عن حياة الرافعى السياسية . ومن الطبيعى أن مقالا أو حتى كتابا لا يمكنه أن يحيط بشمول ودقة بحياة فرد تمتد سنين تطول أو تقصر . ولا شك أن رفع أى واقع لحادث أو بلد أو فرد ، رفعة على الورق ينطوى على قدر يقل أو يزيد من التجريد . وثمة دقائق لابد أن تسقط فى هذه العملية . وكل محاولة للتسجيل تنطوى على حذف وتثبيت — وعى المسجل أو لم يع — وعلى قدر من الاختيار للمادة ووزن للحادث وعلى اختيار للزاوية التى تعالج منه وللسياق الذى يرد فيه . وكل ذلك يجرد الواقع بدرجة ما . فحسب الكاتب فيما يكتب ، لا أن ينقل الواقع برمته ، ولكن أن ينقل منه نماذج ذات دلالة يرجو أن تكون صادقة أمينة . وحسبه لا أن يصل الى الحقائق النهائية فهى غير متناهية ، ولكن أن يدرك الطريق وان يسلكه بأطول الاشواط المستطاعة . فهو من « أهل الطريق » الذى يسمى منهجا .

ويبدو أن الطريق لفهم التاريخ ، هو استكشاف ترابط أحداثه . وليس من حدث يمكن فهمه أو يكون له أى معنى بمعزل عن غيره ، ولا من تيار يدرك بعيدا عن غيره . فلا يبدو أنه يمكن فهم الحياة السياسية لفرد الا فى خضم الاحداث والتيارات العامة ، وتبيان موقعه من الصورة العامة . وهذا وحده الخليق بأن يعطى المعنى الملموس لدوره . وهذا ما تحاوله هذه الدراسة بالنسبة للرافعى السياسى . فلم تعزله عن علاقات التناقض والتآلف ، ولكن حاولت وضعه فى قلب هذه العلاقات ، ليبدو الرافعى من خلال التاريخ الذى عاشه لا بمعزل عنه .

أما الرافعى « فى ذاته » ، فان خير تلخيص له وللتيار الاساسى فى حزبه ، هو وصفه « بالمثالية السياسية » وهو الوصف الذى اختاره لنفسه . وقد ارتبط لديه الايمان بالمبدأ كفكر سياسى نجله الاخلاص للوطن كموقف وكخلق بعاطفة الوفاء لزعيميه الاولين مصطفى وفريد .

---

[٤٤] اربعة عشر عاما ٠٠٠ ص ٣٧٩٠٠٠ الخ
[٤٥] مذكراتى . المرجع السابق ص ١٠٨
[٤٦] اربعة عشر عاما ص ١٣٠ ـ ١٣١
[٤٧] ، [٤٨] المرجع السابق ٠٠٠ ص ١٥٢ ، ٣٠٤

فامتزجت فى صدره السياسة بالاخلاق بالعواطف . وكان اختياره لزعيميه الاولين ، لا يصدر عن ادراك عملى لمقدرتهما السياسية واقتناع بمواقفهما العملية ، بقدر ما يصدر عما عبر عنه بقوله « رأيت فيهما المثل العليا للوطنية الحقة » . والوطنية عنده ليست سعيا لتحقيق مصالح الوطن انما هى تمسك « بحقوقه » ، وهى فوق ذلك تنطوى على مفاد اخلاقى ذاتى يضعه فى المقدمة وهو الاخلاص للوطن وتغليب مصالحه العليا على مصالح الانسان الشخصية . (٤٩) وهو لا يفهم من الوطنيةفقط انها نضال اجتماعى ، ولكنه يستنبط منها معنى ذاتيا ، فهى نضال فى سبيل المثل العليا يقتضى « توطين النفس على احتمال الاذى فى سبيل محبة الوطن » وهى من هذا الجانب تجربةذاتية . والمواطن الصالح هو المواطن المثالى الذى يصلح شأن نفسه فيصير قدوة لغيره ، ويصلح شأن نفسه فتكون نفسه الصالحة « لبنة فى صرح النهضة القومية . » واذا كان فلاسفة الاقتصاد الفردى يبدأون بمقولة أن ماينفع الفرد ينفع المجموع ، فالرافعى يبدأ بالفرد ايضا ،ولكن من الجانب الذاتى الاخلاقى ، ويحول المعنى المادى الواقعى الى معنى اخلاقى مثالى ، اى يبدأ بالنفس لا بالفرد . ويصنف الناس مثاليين ونفعيين وصوليين . والامم تنهض بالصنف الاول وتنخذل بالصنف الثانى . وللحرية والاستقلال معناهما الذاتى ايضا . اختار المحاماةواحب الصحافة ولكنه رفض قطعا التوظف ، لأن المهنتين الاوليين تكفلان الحرية والاستقلال . (٥٠) لامن حيث تأثيرهما ولكن من حيث انفراد العامل فيها بنفسه ، فهما نقيضا الانضباط والخضوع الوظيفى . وهذا معنى فردى قح يضع الفرد فى مواجهة المؤسسة . وينسجم مع ميله الى تحويل الصراع السياسى فى المجتمع الى صراع اخلاقى وسلوكى داخل النفس .

بهذا المزاج الذاتى ، عالج الرافعى اموره حياته العملية . يرفض التوظف حرصا على حريته . ويصدمه قول من ينصحه بالزواج من ذات مال فيلفظ النصيحة قطعا . ويختار صاحبة يقدر لها دائما انها لم ترغبه فى ان يلحق « بركب الحياة العملية كما يصفونها » . وبهذا المزاج الاخلاقى بنى بعضا من تقييماته التاريخية ، فأهم ما يصف به محمد فريد على عنوان كتابه عنه أنه « رمز التضحية والاخلاص . » وكثير من هجومه على سعد زغلول وعلى سياسة الوفد ينبنى علىحكم اخلاقى وعلى نظرة الى السلوك . وبهذا المزاج المثالى عالج السياسة ، واتخذ مواقفه . فالمثالية هى ما جعله يختار جانب المعارضة فى البرلمان ١٩٢٤ كما يقول . والوفاء لحزب زعيميه الاولين هو ما تحكم فيه دائما . وكان من وجوه نشاطه فى البرلمان والصحافة ، العمل على احياء ذكرى الزعيمين والمطالبة باقامة التماثيل لهما وبناء الاضرحة ، والتذكير بهما فى كل موقف سياسى يعرض « اعترافا بالفضل » وكان ذلك من بعض دوافعه الاولى عندما بدا له ان يكتب التاريخ اذ حاول البداية بمصطفى كامل .

وفى هذه المثالية السياسية ، ما يفسر بقاء الرافعى (وكثير من رجال حزبه) مستمسكا متشبثا بمبادىء الحزب الوطنى الاولى كمارسمها زعيماه بوجدان شبه سلفى يحتكم الى الماضى فى النظر الى مشاكل الحاضر ، ويرى فى ماضى حزبه شعاع الالهام . واختلط الوفاء بالعقيدة السياسية . على ان المثالية السياسية تعنى هنا شيئا أهم . فلم يكن الرافعى ولا الحزب الوطنى مثاليا بمعنى انه يضع اهدافا منقطعة الصلة بالواقع والتطور الواقعى ، لم يكن يقيم فى خياله مدينة فاضلة . وان استهداف جلاء المحتل عن مصر ووحدة وادى النيل ، لم يكن يمثل شططا فى التخيل السياسى . وانما هى أهداف تقع فى المجال المنظور من حركة التاريخ المستقبلة . انما كان وجه المثالية يتعلق بتناقض هذا الهدف مع وسيلة تحقيقه كما سبقت الاشارة . ولم يكن « الجلاء والوحدة » هدفا مثاليا رغم بعده البعيد عندما كان الحزب الوطنى قبل الحرب الاولى يبدأ أولى خطواته متلمسا الطريق الصحيح للوصول اليه بالنشاط التعليمى الشعبى والنشاط الاقتصادى والسياسى ، وبالخطوات الاولى فى طريق استعمال العنف . ثم صار هذا الهدف مثاليا ، رغم اقتراب مصر تاريخيا من تحقيقه بعد ثورة ١٩١٩ عما كانت قبلها — بسبب استبعاد الحزب نظرا وعملا لوسائله الاولى واقتصاره على النشاط « المشروع » الذى اتخذ شكل العمل البرلمانى وحده . فتحول الهدف الواقعى الى هدف مثالى ، واستحالت النزعة السياسية العملية الى نزعة اخلاقية تستمسك بالهدف استمساكها بالعرض وترفض المساومة عليه استكبارا لا اقتدارا ، وأنفة لا جدالا . وأدى هذا احيانا الى أن يفتقد الرافعى فيما يقترحه من اجراءات محددة ، يفتقد لغة التفاهم مع سامعيه . حدث عندما اشتدت الغارات على الاسكندرية فى يونية ١٩٤١ أن طالب الرافعى بمجلس الشيوخ جعل القاهرة والاسكندرية مدينتين مفتوحتين ، بما

---

(٤٩) ، (٥٠) مذكرانى • المرجع السابق ص ١٩ ، ٢١ .

يعنيه ذلك من اجلاء وحدات البحرية البريطانية عن مياه الاسكندريه ، وذلك رغم وجود معاهده ١٩٣٦ ورغم الوجود العسكرى الانجليزى فى مصر كلها ورغم حيوية هذا الوجود لبريطانيا سيما فى تلك الفترة مما كان يستحيل تحقيقه بمجرد قرار تصدره الحكومة ويستطيع الانجليز اخراجها من الحكم . وفوجىء اعضاء مجلس الشيوخ بالاقتراح . (٥١) اذ كان الرافعى يستهدى فيه بذاته وبعقيدته فقط لا بالواقع الحاصل .

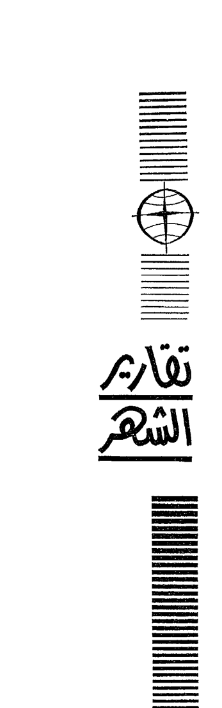
لم تكن هذه المثالية السياسة ، فى التقييم التاريخى طويل المدى ، لم تكن سلبا محضا . انما كان لها جانبها الايجابى . كانت تمثل موقف الرفض للتهاون والمساومة وانصاف الحلول ؛ وتذكر دائما بالهدف البعيد الا ينسى . وكانتتمثل طاقة للرفض ، اذا كانت غير فاعلة ، فيكفى أنها طاقة مختزنة ما دامت لا تضلل ولا ترتد فى النهاية لتدبير الواقع وتثبيته.وكانت احتجاجاعلى نثريات الحياة السياسية ان لم يكن نشيطا فهو مختزن . والتاريخ لا يصنعه فرد ولاجماعةبعينها ولا جيل واحد . وهو شركة ومشاع بين الجميع وعلى تعاقب الاجيال . وعناصر اى حدث أو موقف ما ، ليس من المحتم أن تستجمع فى يد واحدة ، فردا كان أو مؤسسة . انما تتداول بالاسهام المتبادل والتوليد المتعاقب لتتشكل بجهد مشترك ومستمر . وليس من المحتم فى التاريخ أن يكون الرافض هو الهادم والداعى هو البانى بنفسه . انما الامر يتداول ويبدأ الآخرون من حيث توقف الاول . وهى تجارب تتالى تستفيد اللاحقة من السابقة .. والموقف غير المتحقق هو فعل فى المآل على يد آخرين . وقد اختزن الحزب الوطنى من طاقة المعارضة الوطنية ومن موقف الرفض للمساومات . وتناول هذا الموقف منه جيلشباب الثلاثينات ليحاول الخطو به خطوة أوسع . ثم جيل شباب الاربعينات ليصنع المزيد على التعاقب . وحفظ الرافعى ومن ماثلهخلاصة نقية من فكرة أن الجلاء لا يتم بالمفاوضة وحدها .

روى انه عندما غزا ابرهة الكعبة بجيشه وافياله التى لا تقاوم ، ذهب اليه عبد المطلب جد النبى يطلب منه رد بعير له اخذها جنده ، وعجب ابرهة لشيخ العرب والكعبة يطلب بعيرا ولا يطلب البيت الحرام ، فقال عبد المطلب « أنا رب الابل ، وللكعبة رب يحميها . » وعند مواجهة قوة لا تقاوم يرتد المرء ويرتد ، حتى لقد يقف عند حدود نفسه يدافع عنها الا تنخذل أو تقتحم ، يدافع عن ابله . ولعل الرافعى قد فعل شيئا شبيها ، عندما احيط به وبمثاليته ، فحمل هدفه السياسى وعقيدته الوطنية فى نفسه ودافععنهما ضنينا ، واخرج منهما خمسة عشر مجلدا فى تاريخ مصر ، كانت هى ابله التى حفظها .

أما مصر فلها رب يحميها .. سيتجلى فى شعبها يوما . □

---

[٥١] اربعة عشر عاما ... ص ١٩٦... الخ



● الصين الشعبية ●

الخطأ الذى وقع فيه
المراقبون السياسيون

● شيلى ●

بابلو نيرودا ..
شاعر وطنه الحرية

■ ■

● جمهورية مصر العربية ●

رحلة وفد اللجنة المركزية
الى ايطاليا وفرنسا وبريطانيا

● بيرو ●

أخفق مؤتمر « الفقراء »
فى توحيد صفوفهم



الخطـــأ الــذى وقـــع فيـــه المراقبـــون الســـياســـيون

اكبر خطــأ وقع فيه المعلقون الســــياسيون الغربيون بوجه خاص ، وان كان تأثيرهم قد امتد الى مناطق عديدة من العالم ، والى قطاعات من المثقفين الذين يدخــلون فى ركاب الحــركات التقدمية ، هو **الطابع « المحافظ » الذى أضفوه على السياسة الصينية فجاة ، وبمجرد قبــول الصين عضوا فى هيئة الامم المتحدة** . لذا كانت دهشتهم أو صدمتهم شديدة من **الطابع « الثورى المتشدد » الذى اتسم به أول بيان لرئيس وفد الصين الشــعبية فى الامم المتحــدة** . لذلك لم يــكن معــقولا قط ، أن تتخلى الصـــين عن استراتيجيتها الثورية ، دون أى سبب أو مبرر ، الا أن الفرصة قد اتيحت لها للتعبير عن هــذه الاستراتيجية ، والعمل على تحقيقها ، من فوق منبر أكثر فعالية وعالمية كمنبر الامم المتحدة .

والاعلان عن زيارة الرئيس الامريكى نيكسون للصين ، لا يلغى بحال التناقضات الاستراتيجية فى المصالح الايديولوجية والاهداف بين الصين الشعبية والولايات المتحدة الامريكية . ذلك أن الصين قد صممت فى الماضى ، وهى مصممة الان على طرد النفوذ الامريكى من آسيا ، ومساعدة حركات التحرر فى القارة الاســيوية على طرد الاستعمار الامريكى لا بعيدا عن أبواب الصـــين فحسب وانما من القارة الاســيوية والعـــالم بأسره .

أولّ بيان فى الامم المتحدة

أن ما عبر عنه **شياو كوان هوا** فى أولّ بيان لوفد الصين فى الامم المتحدة ، يمثل الاتجاهات المعروفة من قبل للسياسة الخارجية لجمهورية الصين الشعبية . ويلخص هذا البيان أحسن تلخيص وجهات النظر الديبلوماسية التى تزمع الصين على أساسها ان تقوم بدورها فى المجتمع الدولى .

الهند الصينية

وقد جاء فى هذا البيان بشأن الهند الصينية ؟ « ان حكومة الصين وشعبها يؤيدان بحزم شعوب دول الهند الصينية الثلاث فى حربها ضد عدوان الولايات المتحدة ، كما يؤيدان بنفس الحزم ، بيان مؤتمر القمة لشــعوب الهنــد الصينية . ومقترحات الســلام المكونة من سبع نقاط والتى قدمتها الحــكومة الثورية المؤقتة فى فيتنـــام الجنوبية . **ويجب على الحــكومة الامريكية أن تسحب كل قواتها المسلحة ، والقوات المسلحة لن يتبعها فورا وبدون قيد أو شرط من دول الهند الصينية الثلاث** ، حتى يمكن لهذه الشعوب أن تحل مشكلاتها الخاصة بنفسها ، وبدون أى تدخل أجنبى . **وهذا هو مفتاح تخفيف حدة التوتر فى الشرق الاقصى** » وبالنسبة لكوريا جاء فى البيان « ان حكومة الصين وشعبها يؤيــدان البرنامج المكون من ثمانى نقاط بشأن توحيدالوطن الكورى

الذى قدمته جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية فى شهر ابريل الماضى .

الشرق الاوسط

وفيما يتعلق **بالشرق الاوسط** ، اشار البيان الى أن « **جوهر مسألة الشرق الاوسط يتمثل فى العدوان على الشعب الفلسطينى والشعوب العربية الاخرى من جانب الصهيونية الاسرائيلية وبمساندة وتواطؤ الدول الكبرى — وأن حكومة وشعب الصين ، يساندان بحزم الشعب الفلسطينى . والشعوب العربية الاخرى فى نضالها العادل ضد العدوان . ويعربان عن يقينهما بأن الفلسطينيين البواسل والشعوب العربية الاخرى تستطيع بمواصلة الكفاح والحفاظ على الوحدة استعادة أراضيها المفقودة بالتاكيد ، واعادة الحقوق القومية لشعب فلسطين اليه** ، وليس من حق أحد أن يحاول عقد « صفقات سياسية من وراء ظهر الفلسطينيين وغيرهم من العرب ، بهدف النقليل من حقهم فى الحياة ومن مصالحهم القومية » .

مشكلة التخلف

وبالنسبة لقضية **التخلف** ، جاء فى البيان : « ان تخلف دول آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية هو نتيجة للنهب الذى تقوم به الامبريالية ؛ وأن الاعتراض على هذا النهب ، والحفاظ على الموارد القومية هما من حقوق السيادة لكل دولة مستقلة ولا يمكن المساس به . **وان الصين مازالت من الناحية الاقتصادية دولة متخلفة وفى طريقها الى التنمية فى نفس الوقت ، كما أنها تنتمى الى العالم مثلها مثل معظم دول آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية** » ، وان حكومة وشعب الصين ، يساندان كفاح الدول المنتجة للبترول فى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية من أجل الدفاع عن حقوقها القومية ومقاومة النهب الاقتصادى » .

نزع السلاح

واشار بيان الصين الى أن الاسلحة النووية الصينية مازالت فى دور التجريب ، ولا تنتج الصين أسلحة نووية الا من أجل الدفاع عن نفسها ، وكسر الاحتكار النووى توصلا الى القضاء نهائيا على الاسلحة النووية والحرب النووية . كما أعلن « أن الصين لن تشترك اطلاقا فى المحادثات المزعومة لنزع السلاح بين الدول النووية الكبرى من وراء ظهر الدول غير النووية »

المساعدات الصينية

وفيما يتعلق **بالمساعدات الصينية** جاء فى اول بيان لجمهورية الصين الشعبية فى الامم المتحدة « انه لمن واجبنا الطبيعى أن نساعد شعوب الدول المتخلفة فى كفاحها الشرعى ، لقد ساعدنا بعض الدول الصديقة على تنمية اقتصادياتها القومية بطريقة مستقلة ، وعندما نقدم مساعدتنا ، فاننا نحترم دائما وبشدة ، سيادة الدول المستفيدة ، ولا نحدد اى شرط ، ولا نطالب بأية امتيازات ، اننا نقدم مساعدات عسكرية بدون مقابل لدول وشعوب تناضل ضد العدوان . ولن نصبح أبدا تجار أسلحة وذخيرة . ولكن نظرا لان اقتصاد الصين لا يزال متأخرا نسبيا ، فان المساعدات المادية التى نقدمها محدودة جدا . الذى نستطيع ان نقدمه بصفة خاصة هو التأييد السياسى والمعنوى .

موقف اليابان المقبل

وليس ثمة شك ايضا فى أن وضع الصين فى العالم وفى الشرق الاقصى بوجه خاص سيزداد قدرا وقيمة بوجودها فى مجلس الامن الذى لم تمثل فيه الدولة الاخرى ذات القدرات الاقتصادية فى الشرق الاقصى الا وهى **اليابان** حتى الان ؛ الا انه من المحتمل أن اليابان بوجه خاص ستنصرف فى الفترة المقبلة الى **اصلاح علاقاتها مع الصين** ، لانه سوف يغدو من العسير على دول مثل اليابان واستراليا ونيوزيلندا التشبث بوهم ان تاييبه وليست بكين هى قاعدة الحكومة الحقيقية التى تمثل الشعب الصينى . وفى الواقع فان **ايزاكو ساتو** الذى أيد بكل ثقله القرار الامريكى من أجل بقاء فورموزا فى الامم المتحدة لا يتعرض لضغط من جانب الرأى العام اليابانى وحسب ، بل وأيضا من جانب جزء كبير من الحزب الليبرالى الديمقراطى المحافظ ، ولذا فمن المحتمل أن يكون أحد الاهداف الاساسية للسياسة الخارجية اليابانية فى الفترة المقبلة هو التقارب مع الصين الشعبية ، خاصة وقد صرح **شواين لاى** رئيس وزراء الصين الشعبية **لهيرو جوتو** رئيس تحرير صحيفة « **أساهى** » اليابانية بأنه « يؤيد اليابان فى مطالبتها الاتحاد السوفيتى برد جزر كوريل الجنوبية — كينا شيرى وايتورفو وهابوماى وشيكوتان الى اليابان » . وعلى أية حال فان الحقيقة التى لا ينبغى أن تنسى برغم ذلك هى أن الولايات المتحدة ، والاحتكارات الرأسمالية الكبرى فى اليابان ، لن تدخر جهدها فى سبيل اعادة بعث العسكرية اليابانية ومن أجل تقدم اليابان فى كافة مجالات التسليح التقليدى

وحتى النووى لتستطيع الوقوف كقوة مقابلة ؟ للقوة العسكرية الصينية ، وكقوة تعطيل لجيوش الصين فى آسيا اذا ما نشب صراع دولى عام .

تقـدم الصين و « الانكماش » الامريكى وتيـــار « العزلة »

وفيما يتعلق ، بالعلاقات الصينية الامريكية فانه وان كان طرد فورموزا من الامم المتحـدة هزيمة للسياسـة الامريكية ، الا أنه يساعد بشكل غير مباشر على تطور العلاقات الصينية الامريكية، **لان رحيل فورموزا من الامم المتحدة يعنى أن عدد المشـكلات التى ينبغى على الولايات المتحـدة والصين مناقشتها قد نقص واحدة ، ويستتبع هذا ازدياد الفرصة للانصراف الى المشـكلات ذات الاهمية الكبرى الاخرى .**

الا ان هذا لا يعنى ان الولايات المتحدة قد تخلت نهائيا عن فورموزا وهذا ما أكدته تصريحات كبار المسئولين الامريكيين ومنهم وزير الخارجية بعد قرار ضم الصـين ، والتى اكدوا فيهـا تمسـك الولايات المتحدة بكل التزاماتها وروابطها تجـاه فورموزا ، لانه لا يمكن فى الحقيقة لرئيس امريكى ان يكون قادرا على تراجع سريـع فى مسـألة تايوان دون أن يقضى على الثقة بالسياسة الامريكية في كل مكان آخر فى آسيا .

وعلى اية حال فان نجاح الصين فى دخـول الامم المتحدة انما يعد تعبيرا عن التراجع فى مركز الولايات المتحدة الدولى من الان فصاعدا . خاصة وانه بدات تهب من الولايات المتحدة فى الاونة الاخيرة . **رياح تمثل الرغبة فى اخـلاء الطرف والانعزال** ، ســاعدت عليهـا بوادر « **الديبلوماسية الواقعية** » التى بدا نيكسون فى اتباعها بدرجة ما فى الشئون الخارجية ، وكذلك السياسـة العامة التى يتبعها نيكسون الذى يعبر عن التيار المحافظ للجمهوريين بما له من جذور قوية فى المجتمع الامريكى من اجهزة أخرى ، ويمكن القول بدرجة ما أن الامريكيين بداوا بشكل أكثر اقداما من ذى قبل **فى اعادة النظـر فى المشاركة الاوربية الامريكية** التى قام عليها أساسا أمن القارة الاوربية لما يزيد عن عشرين عاما ، خاصة وأن الدول الاوربية تميل فى اغلب الاحوال الى عدم الالتزام بدفع نفقات دفاعها ، والقائها أساسا على عاتق الحلفاء الامريكيين .

وقد ســاعد على ذلك دون ادنى شـك ، **التصويت بشأن فورموزا فى الامم المتحـدة ، والذى شعرت فيه واشنطن بعزلتها والتخلى عنها تقريبا من جانب أوربا باكملها** ، والذى كان سببا فى رفض مجلس الشـيوخ الامريكى للقـانون الخاص بالمسـاعدات الخـارجية ، صحيح أن الولايات المتحدة تراجعت عن ذلك فيما بعد، الا أن ذلك يعكس على أية حال رغبة ما داخل الولايات المتحدة **فى سحب المجداف من القارب الدولى بعد أن بدأ يسير عكس التيار الامريكى . لقـد انتهى عهد مشروع مارشال** » وذلك ما يقال فى أمريكا الان ، وتدعو تيارات اليمين المحافظ الى العزلة برفضها تقديم المساعدات العســكرية والاقتصـــادية الى الدول الحليفة وقدرها ١٤٣ مليار دولار ، **لان مصلحة « الامة الامريكية » قد عادت لتتفوق على مصلحة « الاتحاد الدولى »** التى عززت « دون جدوى » منذ أيام **ويلســون وروزفلت .**

كذلك يعكس هذا الاتجاه بدرجة أقل أهمية ، انصار **الدعوة الى خفض الاسهام الامريكى المالى فى الامم المتحدة « كرد على نتيجة الاقتراع » بقبول الصين .**

مؤامرة فورموزا المستقلة

وبالنسبة لموضوع **تايوان** اوضحت صـحيفة الشعب الصينية أخيرا فى مقالها الذى نشرته بشأن بدء العلاقات الدبلوماسية مع بلجيكا « انه **اذا كانت المحاولات الامريكية لخلق دولتين للصين قد تلقت صفعة قاسية ، الا أن ردود الفعـل الامريكية واليابانية لا تثبت قط هزيمتهم ، ولكنها تؤكد انهم سوف يواصلون مشروعاتهم الاجرامية ومن بينها ، مشروع خلق دولة فورموزا المستقلة»**

ذلك أن الامريكيين واليابانيين سيحاولان القيام بعملية التفاف ســياسية من أجل طرح مبــدأ استقلال تايوان تمهيدا لادخالها مرة أخرى الى الامم المتحدة ، كدولة مستقلة لا علاقة تربطها بالصين الام وبغض النظر عن الحقائق المؤكدة الصارخة التى تثبت تبعية تايوان للصين ، وقد أكدت الصين أنها تعارض بحزم كافة المحـاولات التى يقوم بها الاستعماريون الامريكيون واليابانيون لكى يخلقوا من فورموزا دولة مستقلة .

وعلى أية حال فهناك مشكلتان تواجهان حكم **كاى شيك** فى فورموزا وبخاصة بعد نجاح الصين فى دخول الامم المتحدة ، الاولى هى **التهـديد الصينى لفرض المقاطعة الاقتصادية** على فورموزا بعد أن أعلن **شواين لاى** لرجال الاعمال اليابانيين المتلهفين على الســوق الصينية ، أن الصــين ستقاطع اى شركات يابانية تتعامل مع تايوان ، يزيد من خطورة هذا السلاح أن **فورموزا نجحت فى الاونة الاخيرة فى زيادة صادراتها بشــكل ملموس الامر الذى يجعلهـا مكشــوفة تمامـا للمقاطعة التجارية** ، ولكن هذا السلاح لن يكون له تأثير الا اذا نجحت الصين الشعبية فى تجميع كل شركائها الدبلوماسيين فى مقاطعة اقتصادية فعالة لفورموزا .

هل يتمرد اهل تايوان ؟

وتتمثل المشكلة الثانية التى تواجه حكم كاى شيك فى فورموزا فى احتمال تحرك الســكان الاصليين فى تايوان ضد « **حكومة المهاجرين** » من الصين الام التى فرضها كاى شيك على شعب الجزيرة والتى تحتكر جميع المناصب العليا منها ذلك أن فقدان هذه الحكومة لمركزها الدولى قد يشجع أهل تايوان على التصدى لنظام الحــكم البوليسى الارهابى الذى فرضه كاى شيك عليهم لضرب ماسمى بشعورهم الانفصالى. خاصة وأن معظم الالاف العديدة من المسجونين السياسيين فى الجزيرة هم من أهل تايوان المتمردين على حكم كاى شيك ، واذا كان التمرد العنيف هو الاسلوب التقليدى للمقاومة فى هذه الجزيرة طيلة حكم « **آل مانشو** » الذى أستمر لاكثر من ٢٥٠ عاما ، واذا كانت حركات التمرد قــد أستمرت خلال العقد الاول من الحكم اليابانى للجزيرة ، كما لقيت آلاف كثيرة من أهل تايوان مصرعهم فى التمرد على حكم كاى شيك ســنة ١٩٤٧ فان احتمال مقاومة أهل تايوان لهذا الحكم اليوم بعد ضعف مركزه الدولى انما هو احتمال أكثر رجحانا عن ذى قبل ، وهناك انقسام خطير داخل القيادة العسكرية فى فورموزا الان بصدد السياسة فى المستقبل او خلافة شيانج كاى شيك الذى بلغ الرابعة والثمانين من العمر ، لذا من المتوقع أن يكون هذا الانقسام مدعاة لتمرد يقوم به فريق له وزنه من الجنود التايوانيين الذين يؤلفون ما يزيد على ٨٠٪ من صفوف المجندين فى الجيش وحــوالى ٢٠٪ من الضــباط على مستوى السرية ، ومع ذلك فان المتوقع لدى عدد كبير من المراقبين هو أن اى انتفاضة مقبلة فى فورموزا ، ستكون على الارجح فى نطــاق النظام السياسى الراهن ، وضد القمع البوليسى وعــدم المســاواة فى الضرائب ، والتفرقــة الاجتماعية كنقطة بدء أولا وقبل كل شيء .

اتفــاقان صــينى كــورى وكورى ــ فيتنامى شمالى :

هذا وقد قوبل انتصار الصين فى الامم المتحدة بترحيب حار من جــانب جيرانهــا فى **هانوى** و**بيونج يانج** اللتين مازلتا مستبعدتين من الامم المتحدة ، وتؤكد الزيارة التى قام بها فى الاسبوع الماضى **وفد كورى على مستوى عال** ، لفيتنام الشمالية ، وحــدة المصــالح التى تجمع بين البلدين باعتبارهما دولتين صغيرتين ، ثوريتين قريبتين من الصين . وقالت صحيفة « **نهان دان** » الفيتنامية فى الاسبوع الاول من نوفمبر الماضى « ان نيكسون يتحدث عن الســلام فى الوقت الذى يتجنب فيه المفاوضات الحقيقية فى باريس ومع ذلك فقد بدا يتحدث فى الوقت نفسه عن « جذب جمهورية الصين الشعبية الى عــلاقة بناءة مع المجتمع الدولى » وعن « مساهمة هذه الدولة التى تضم اكثر من ٧٠٠ مليون نسمة » .

وعقبت صحيفة « فيتنام كوريبه » على ذلك بقولها « ان نيكسون ليست لديه النية لانهاء سياسة العدوان ، وبدلا من ذلك فانه يتخذ اجراءات اقتصــادية ، ويقوم بمنــاورات دبلوماســية ويتجنب الرد على مقترحات الحكومة الثورية المؤقتة لفيتنام الجنوبية فى مؤتمر باريس ويحاول دون خجل مســاعدة نجوين فان ثيو بفرض استمرار الحرب » .

ومن المعروف أن **شوابن لاى** كان قد اكد من قبل للزوار الاجانب فى الصــين أن المطــالبة بالانسحاب التام للقوات الامريكية من الهنــد الصينية ، تأتى فى المــكان الاول من قــائمة الاولويات لدى الصين ، الا ان الفيتنــاميين الشماليين يضيفون على ذلك حسبما اكدوا فى بيان قصير صدر فى هــانوى عن نتائج زيارة الوفد الكورى الشمالى » أن الانسحاب ليس سوى احد مشكلتين رئيسيتين ، وان المشــكلة الاخرى هى أنه لابد أن تسحب الولايات المتحدة تأييدها ومساندتها لنظام حكم الرئيس **ثيو** لكى تمهد الطريق لقيام نظام جدى يكون على استعداد لاجراء حوار جدى مع الحكومة الثورية المؤقتة لفيتنام الجنوبية .

وليس ثمة شك ان هنــاك علاقات حميمة خاصة تربط الصــينيين بالكوريين والفيتناميين الذين يشكلون معا جبهة الاشتراكية فى آسيا . ويتخذون جميعا مواقع الهجــوم على مراكز الامبريالية فى الشرق الاقصى وآسيا عامة ، كما وأن مجتمعاتهم لا تقف موقفا دفاعيا ازاء الهجمــات السياسية والايديولوجية للامبريالية وعملائها فى القارة الاسيوية ، وانما هى التى تتخذ الموقف الهجومى . والحقيقة ان الصينيين يشاركون الكوريين والشماليين القلق من التهديد الناجم عن احياء العسكرية اليابانية وعن تدعيم نظام العدوان العســكرى فى كوريا الجنوبية وقد وقعت **بيونج يانج** أخيرا مع بكين : **اتفاقية للمساعدات العسكرية** التى يقدمها الصينيون « دون فوائد » .

وكان **كيم ايل سونج** رئيس وزراء كوريــا الشمالية قد تحدث فى أوائل اغسطس الماضى عن زيارة نيكسون للصين الشعبية بتأييد ظاهر وقال **أن نيكسون سوف يأتى الى بكين « رافعا علما أبيض »** ، ولدى الصينيين وفرة من التجربة فى تنفيذ التعامل مع العدو عن طريق **المفاوضات** مثلما عن طريق النضال . وكان كيم أيل سونج يقول فى الواقع ، انه ينبغى التعامل مع **نيكسون**

على انه هو الذى يحتاج الينا ، على أن كوريا الشمالية شأنها شأن فيتنام الشمالية ، استغلت مناسبة انتصار الصين فى الامم المتحده لتذكير شعبها بأن نيكسون خصم خطير للغاية ، وقالت الصحيفة الناطقة بلسان حزب العمل الكورى فى مقال افتتاحى بمناسبة انتصار الصـــين : « ان الامبرياليين الامريكيين لديهم مشروعـــات ومخططات شريرة جديدة ، فى الهند الصينية ، وهم يلجأون الى كل وســيلة ممــكنة لتجنب الانســحاب من آســيا عن طــريق حمـــل غصن زيتون فى يد وحربة فى اليد الاخرى .

وفى الوقت نفسه أكدت كوريا الشـــمالية الحاجة الى « الوحدة » والى تفاهم أفضل بين الصين وفيتنام الشمالية وكوريا الشمالية فى هذه المرحلة الهامة . وقالت صحيفة الحـــزب أخيرا « ان الموقف فى آسيا يتطلب من شعوب الدول الثورية جميعا ان تتحد بطريقة اوثق واكثر حسما » .

وكدليل عملى على الوحدة ، وصل الىهانوى قبل الاقتراع على ضم الصين الى الامم المتحدة بيومين ، وفد كورى شمالى على مستوى عال برئاسة **باك سونج شول** نائب رئيس الوزراء وعضوية نائب وزير الدفاع وتحدث الكوريون بقوة عن ضرورة التأييد « الاممى البروليتارى » للفيتناميينووقعوا **اتفاقيات جديدة بشأنالمعونات العسكرية والاقتصادية الكورية الشمالية لفيتنام [وكلاهما بدون فوائد أيضا] .**

عهد الدولتين الاشتراكيتين الاعظم

وفيما يتعلق ، بالعلاقات مع الاتحادالسوفيتى أعربت الصين فى الرسالة التى بعثت بها الى الاتحاد السوفيتى بمناسبة الاحتفال بذكرى ثورة اكتوبر ، عن رغبتها فى اعادة العـــلاقات الى طبيعتها مع الاتحاد السوفيتى ، واشادتالصين فى الرسالة بأهمية ثورة اكتوبر ، وتعاليم لينين وقالت : « **ان الحكومة الصينية ترى دائما أنه لا يجب أن تؤثر الخلافات التى بدأت بين الصين والاتحاد السوفيتى على علاقاتهما الدولية . وانه لن الافضل بالنسبة لشعبينا ومصلحة العـــالم أجمع ، ان تحل المشكلات الهامة القـــائمة فى العلاقات بين دولتينا ، وأن تقـــام بل وتتطور العلاقات الطبيعية بينالصين والاتحاد السوفيتى على أساس المبادىءالخمسة الاساسية للتعايش السلمى** » . هذا فى حين اعلنت صحيفة **برافدا السوفيتية** من ناحيتها « انه بغض النظر عن وضع العلاقات بالنسبة للقيادة الصينية ، فقد كان رأى الاتحاد السوفيتى دائما ، أن الشعب الصينى لابد وأن يمثل فى الامم المتحدة ، واتضح مرة أخرى كيف كانت ومازالت سياسة الاتحـــاد السوفيتى بعيدة النظر ؟ وايضا سياسة تلك الدول التى تحترم دائما مبادىء واهداف ميثاق الامم المتحدة » .

وعلى اية حـــال ، فان الذين ينظرون الى معسكر الاشتراكية العالمية كوحـــدة ، وبغض النظر عن الخلاف الصينى ــ السوفيتى ، انما يبتهجون لدخول الصين الامم المتحدة لانه يعنى برغم كل شىء ، انه من الان فصاعدا ، ستعبر عن مصالح الاشتراكية العـــالمية ، وحـــركات التحرر الوطنى ومقاومة الامبريالية دولتان من الدول العظمى ، واننا **انتقلنا بالنسبة للمعسكر الاشتراكى العالمى ، من عهد الدولة الاشتراكية العظمى الواحدة الى عهد الدولتين الاشتراكيتين الاعظم .**

قطب جذب للدول النامية

وليس ثمة شك فى ان الصين سوف تلعب دورا كبيرا داخل الامم المتحدة ، وبخاصة فى تجميع الدول النامية والعديد من دول العـــالم الاخرى خلف مواقفها ، لا بسبب قدرة الصـــين على أن تتفهم بشكل اكبر مشاكل العالم الثالث النامى الذى تنتمى اليه وانما من ناحية طبيعة المواقف الصينية السياسية نفسها . فليس من شك ايضا ان موقف الصـــين من قضـــية نزع السلاح النووى على سبيل المثال سيجد فىنهاية الامر استجابة واسعة بين كفة الدول الصغيرة المتوسطة ، لانه يضعها فى اطار العمل من أجل نزع السلاح النووى عالميا ، ويتيح أمامهـــا الفرصة للمشاركة فى تلك القضية الحيـــوية بالنسبة لمستقبل السلام العالمى وقد اوضـــحت الصين وجهة نظرها بالنسبة لهذه المشكلة فى احد التصريحات الحكومية التى أصدرتها من قبل على النحو التالى « **لابد وأن يكون لكل دولالعالم التى تزيد على مائة دولة ، سواء كانت كبيرة او صغيرة ، سواء مسلحة بأسلحة نووية أو غير مسلحة ، لابد أن يكون لها حق الاشتراك فى الحوار ، فكيف اذن تستطيع الدول الخمسالتى تمتلك أسلحة نووية [والصين نفسها منها] أن تسلب حق اكثر من مائة دولة فى الاشتراك فى المحادثات ، وكيف تحسم الامر بشأن هذهالمشكلة الجوهرية التى تتعلق بمصير البشرية** » .

وبخـــلاف ذلك يعتقد عـــديد من المـــراقبين السياسيين أن الصين سوف تؤيد دول غـــرب اوربا فى كافة النقاط التى تدافع عن مصالحها القومية ضد الولايات المتحدة الأمريكية ، وانها قد تستطيع فى المستقبل تشكيل مجموعة ضغط قوية عن طريق تركيزها على مبدأ الاستقلال الذى يجذب الكثير من الدول الى صفوفه . كما يعتقدون بأنها سوف تعمل فى المستقبل على ضرورة اعادة النظر فى ميثاق الامم المتحدة بهدف

اقرار المساواة بين جميع الدول بغض النظر عن أحجامها .

المؤامرات الاجرامية للقياديين الذين تحركهم « الشللية »

واذا كان يمكن فى النهاية ، أن تقال كلمة عن طبيعة النشاط الذى يجرى داخل الحزب الشيوعى الصينى ، نحب أن نلفت النظر هنا الى أن مجلة « **العلم الاحمر** » الشهرية الناطقة بلسان اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى قد أدانت فى عددها الاخير **المؤامرات الاجرامية التى يحيكها داخل الحزب بعض القياديين الذين تحركهم روح « الشللية » فكونوا مجموعات صغيرة** » وقد أكدت المجلة « **انه لابد من تصفية كل بقاء الشللية داخل الحزب ، لان التجربة أوضحت أن هذه الشلل تكون غالبا ستارا لانشطة التآمر التى تهدف الى اغتصاب السلطة السياسية ، ومعارضة الحزب الشيوعى** ، واذا لم نتخلص من اتجاهات الشللية ، فسنصل الى موقف لا يمكن معالجته . وانه من الضرورى للغاية عدم اتخاذ « موقف ليبرالى » ازاء هذا الاتجاه .

وأوضحت مجلة اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى « أن تكتيك اللعبة المزدوجة يعد من أكثر الامور التى تجلب العار . وأشار الى النهاية المشؤومة التى وصل اليها فى الماضى كل الذين حاولوا السير فى طريق الانقسام وذكرت بهذا الصدد ليس فقط اسم الرئيس السابق **ليو شاو شى** وانما ايضا **شانج كوو تاو** الذى عمل على التفريق بين الجيش الاحمر والحزب ، **وبينج تى هواى** وزير الدفاع السابق. وأضافت الصحيفة « أن التجربة التاريخية تثبت انه من اجل تطبيق هذا الخط السياسى الخاطىء مارس قادة الحزب ، فى كل مناسبة ، التشرذم التنظيمى ، وذلك بأن حاولوا ان يكسبوا الى جانبهم جزءا من الناس وابعاد جزء آخر وأن يكونوا شللا فيتحالفوا فى عصابة صغيرة » وطلب المقال من اعضاء الحزب « أن يتحدوا اتحادا وثيقا حول اللجنة المركزية التى يراسها الرئيس **ماو** ، وان يواصلوا الكفاح داخل الحزب وان « يحققوا انتصارات أكبر » . وقالت مجلة العلم الاحمر فى ختام مقالها : « ان البروليتاريا هى أعظم الطبقات اذ هى التى تقع على عاتقها مهمة تحرير الانسانية . وهى أكثر الطبقات وعيا ، وأكثرها تواضعا وأكثرها ثورية » وأوضحت « ان الرخاء والديناميكية يسودان الصين اليوم بفضل القيادة الواعية للحزب الشيوعى الصينى برئاسة الرئيس ماو ، وجيش التحرير الشعبى الذى يعد الدعامة الصلبة لديكتاتورية ثورية البروليتاريا » .

خيرى عزيز

● ● ●

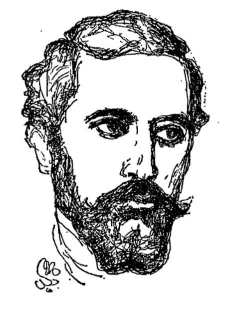
تقرير خاص

■ شيلى

بابلو نيرودا .. شاعر وطنه الحرية

لم يكن غريبا أن يفوز بابلونيرودا بجائزة نوبل هذا العام ، لان اسمه مرشح للفوز بهذه الجائزة منذ اكثر من عشر سنوات .. فمنذ أن فاز **سان جون بيرس** بالجائزة عام ١٩٦١ والاصوات تتساءل كل عام عن أسباب حجب الجائزة عن نيرودا . لكن نيرودا يفوز بالجائزة هذا العام ،

فمن هو بابلو نيرودا ؟



هو باختصار شاعر وطنه الحرية . وهب شعره للثورة والانسان فى كل مكان . واضاء كلماته فى قناديل المناضلين من أجل الحرية

والتقدم فى كل بقاع العالم . ووقف بشرف الى جانب قضايا الشعوب .. فى الصين واسبانيا وأمريكا اللاتينية . واستمد مادة شعره من الحياه اليومية ومن معرفته الحميمة بحياة ملايين البسطاء من الفلاحين والصيادين وعمال المناجم . ومن حبه الغامر لارض شيلى ولجبالها الكلسية ولنهرها العذب « بيوبيو » . ومن سفره الدائم فى العالم ، ومن ولعه بكل العلاقات الانسانية البسيطة والتى استطاع أن يهبها من طاقته الفنية ما خرج بها من محدودية التجربة الفردية الى آفاق شمولية واسعة . معبرا بذلك عن توق الانسان الى الانعتاق من كل القيود التى تعوق انطلاقته وحريته . ومحتضنا رؤية الشعب للواقع ، ليس فى شكلها الساكن المسيج بأسوار الحاضر الراهن ولكن فى تطورها الثورى المستمر . ولذلك تمكن شعره من أن يكون طاقة نور يطل من خلالها انسان أمريكا اللاتينية على العالم . فقد حمل نيرودا انسان قارته فىوجدانه وطاف به العالم ليقدم له قضيته وقضية الانسان المقهور فى كل مكان . اذ استطاع نيرودا وهو يفتح حواسنا وعقولنا على قضايا شيلى ورؤى انسان أمريكا اللاتينية أن يزيدنا بصيرة بالانسان وخبره به فى كل مكان . وأن يرهف احساسنا بأنفسنا وبقضايانا . وأن يمنحنا الرؤية ويعمق فهمنا وادراكنا لجزئياتهذاالعالم البالغالتعقيد .

ولذلك فان شعر نيرودا ظل يقرأ بنفس المتعة والعذوبة فى اغلب بقاع الارض . وظل يترجم الى معظم لغاتها ، فما يمر عام الا وتظهر ترجمة جديدة لمجموعة من أشعاره ، أو طبعة جديدة لترجمة قديمة منها . وقد ترجمت له الى اللغة العربية ومنذ خمسة عشر عاما أكثر من مجموعة شعرية ، عدا القصائد المتفرقة التى نشرت فى مختلف المجلات . فقد ترجم له أحمد سويد عام ١٩٥٥ مجموعة كبيرة من القصائد ظهرت بعنوان (منتخبات من بابلو نيرودا) وترجم له **ميشال سليمان** مقاطع من ملحمته الكبيرة (رياح آسيا) عام ١٩٥٧ . وترجم له **عبد الوهاب البياتى** عددا من القصائد فى المجموعة الشعرية **(رسالة الى ناظم حكمت)** فى نفس العام .

وحياة نيرودا ــ كالاساطير ــ بسيطة وساحرة .. ففى عام ١٩٠٣ ولد بابلو نفتالى ريز نيرودا فى احدى خيام عمال السكك الحديدية التى تناثرت على طول الارض الشيلية فى تلك الفترة . وفى عام ١٩٠٤ وفدت أسرته على مدينة صغيرة تدعى (تومكيو) بمقاطعة كوتان فى شيلى ، واستقرت الاسرة الصغيرة فى هذه المدينة التى شربت طفولة نيرودا كل دقائقالحياة فيها . وفى هذه المدينة الصغيرة التى تقع وسط غابات الصنوبر عاش نيرودا طفولة مرة مزقها الحرمان . اذ ماتت امه وهو ما يزال صغيرا . وكان أبوه كثير الترحال بحكم عمله كمهندس للسكك الحديدية . ولم يكن أمام بابلو سوى الشوارع والغابات والطبيعة ، يمتصها بكل مافى أعماقه من شراهة وانفعال . يشرب تفاصيل الوديان البرية الجمال ويحيلها الى جزء من ذاته .. من تكوينه الشعرى .

وقد عاش نيرودا فى هذه المدينة الصغيرة أعوامها الستة عشر الاولى ، وقد كان جمال الوديان والغابات والجبال الكلسية بذؤاباتها البيضاء حريا بأن يوقد فى نفس نيرودا الصبى الاحاسيس الرومانسية المشبوبة . لكن الترحال الدائم بين المدينة ومخيمات عمال السكك الحديدية والطفولة المعذبة بالحرمان من حنان الام وبالفقر معا . ومعايشة متاعب عمالالسكك الحديدية وصبواتهم . صاغت مع هذه الطبيعة الساحرة هذا المزيج الغريب المدهش الذى تفجر به شعره مع سنوات الشباب المبكرة ، وقرنه نضوجه المبكر هذا برامبو ، الشاعر الفرنسى الذى تفتق بين الخامسة عشرة والعشرين من عمره عن عبقرية شعرية تركت بصماتها بوضوح على الشعر الفرنسى من بعده . وان كان موقف كل منهما يختلف جذريا عن موقف قرينه .

وبعد أن أتم نيرودا دراسته الثانوية بتوميكو انتقل عام ١٩٢٠ الى سانتياجو ليلتحق بالجامعة .. وهناك أخذ يعب بنهم من كل معطيات الثقافة والفكر العالمى .. يقرأ أدبا وتاريخا وفلسفة وعلما ، ويفتش عن التواريخ الحقيقية لملاحم أجداده الهنود البلهانسوالمابيش فى صدهم لجحافل الغزاة من مكسيكيين وايبريين وأسبان . وفى اقتدارهم الرائع على الاحتفاظ بأصالتهم القومية برغم قرون وقرون من الغزو والاجتياح .. اخذ يقرأ بنهم رهيب للمعرفة ، دون أن يفقد حسن الدهشة أو يغير من طبيعة نظرته البدائية للاشياء . تلك النظرة الطفولية العذبة التى امتصت كل آلام الارض الشيلية واحتوت بين جنباتها تاريخها وآمالهاوصبواتها . والتى جعلت نيرودا بحق مغنى هذه الارض ولسان حالها .

وفى خلال سنوات الدراسة الجامعية انهمر الشعر العبقرى تلقائيا ، ليبشر فى صلابةبظهور ذلك الذى انتظرته الارض الشيلية أعواما طولا ليعبر بحق عن روحها ووجودها .. فكان ديوانه الاول (عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة) غناء متوقدا حارا بحب الشعب الشيلى والارض الشيلية ، بصخورها وغاباتها وجبالها ومناجم ملحها الشهيرة .

وفى عام ١٩٢٤ أنهى نيرودا دراسته الجامعية بسانتياجو . وفى عام ١٩٢٦ عين مندوبا لبلاده فى رانجون . وفى رانجون بدأ كتابة مؤلفه الهام (الاقامة على الارض) وبعد عام عين قنصلا لبلاده فى سيلان . وفى هذه الفترة كتب (محاولة الانسان اللامحدود) و (المقيم وأمله) . ومنذ عام ١٩٣٠ بدأ يطوف باعتباره مندوبا دبلوماسيا عن بلاده سنغافورة وجاوا والارجنتين وبرشلونه حتى استقر به المطاف فى مدريد عام ١٩٣٥ .. وكان أهم حصاد هذه المرحلة الى جانب الكتب السابقة التى تتضمن قصصا قصيرة وخواطر شعرية رواية نيرودا الشهيرة (كأس الدم) التى قدم فيها حياة شعبه بطريقة أكدت ارتباطه الوثيق بقضايا مجتمعه الشعبية . ووقعت به على نبع شعرى لا ينضب . هو حياة الصيادين وعمال المناجم الذين يشكلون أهم فئتين فى الشعب الشيلى .

ومنذ عام ١٩٣٥ استقر بنيرودا المطاف فى مدريد .. حيث تعرف على الشاعر الاسبانى العظيم فيديريكو غارسيا لوركا ، وربطهما حبهما العميق للانسان ، وفهمهما الواحد لقضايا الحياة برباط من الصداقة المتينة .. وجاهدا جنبا لجنب من أجل الحرية التى ذبحت فى شوارع اسبانيا علنا وعلى مشهد من الجميع اثناء الحرب الاهلية الاسبانية عام ١٩٣٦ .. تلك الحرب التى اندلعت بين أنصار الفاشية وفيالق الديمقراطية . وكان موقف نيرودا شديد الحرج باعتباره مندوبا دبلوماسيا لبلاده . غير أنه رمى وراء ظهره بكل التقاليد الدبلوماسية . وحمل البندقية وانضم الى الثوار المنافحين عن الحرية والكرامة والسلام . ومعه كل احرار العالم وشرفاؤه .. همنجواى ومالرو وكودويل وغيرهم . ولم يبال بالخطاب الصارم الذى استنكرت فيه حكومته موقفه . ولابشهادة الفصل التى اعقبته .. وحارب بكل ما لديه من قوة .. ببندقيته وقصائده ، فكانت الاشعار التى جمعها عام ١٩٣٨ فى ديوانه العظيم (أسبانيا فى القلب) .. ذلك الديوان الذى ينزف كل بيت فيه بمأساة الحرية الذبيحة فى أسبانيا وفى كل بقاع العالم والتى سالت دماؤها عقب مؤامرة الفاشية العالمية بمساعدة هتلر وموسوليني .

وبعد أن انتهت هذه المأساة بصلب الحرية فى أسبانيا وقتل مغنيها لوركا طاف نيرودا ببعض بلدان أوروبا ينشر فيها هذه المأساة الدامية ويصرخ فى كل مكان يطوف به مغنيا لــ ..

شجرة الشعب وكل الشعوب
شجرة الحرية ، شجرة النضال

وفى عام ١٩٣٩ عاد نيرودا الى بلاده بعد طول طوافه بأوروبا ، عاد ليحارب فى وطنه عن نفس القضية التى حارب عنها فى أسبانيا .. قضية الحرية .. بالشعر وبالكفاح معا .. وفى عام ١٩٤٢ توج جهاده بملحمته الشعرية العظيمة (النشيد الشامل) .. تلك الملحمة التى يرى بعض النقاد أنها اعظم عمل شعرى فى هذا العصر . والتى يقول عنها جان مرسيناك « ان كل شعر امريكا اللاتينية السابق على هذه الملحمة كان ارهاصا بمولدها . وجاء نيرودا ، لتولد على يديه اغزر منابع الشعر العبقرية وأكثرها تكثيفا للروح القومية » .. وفى نفس عام صدور هذه الملحمة العظيمة انتخب نيرودا عضوا بمجلس الشيوخ الشيلى . غير ان الفاشية دفعت فى نفس العام الى قمة المجلس بفرانكو تحت اسم جديد .. كان اسمه « جوزاليس فيتولا » وحاول فيدولا ان يوقع بنيرودا ، وأمر بمراقبته تمهيدا للقبض عليه . لكن نيرودا اختفى فى ربوع شيلى التى عشقها حتى تمكن من مغادرة البلاد . فحمل أوراقه الى باريس ..

ومن هناك انطلقت صرخاته من جديد ضد أعداء الحرية .. وفى عام ١٩٤٥ صدر فى الارجنتين ديوانه القنبلة (أغان بدائية) .. ذلك الديوان المكتوب بصبر ومعاناة نادرين ، والذى تجلت فيه كافة أبعاد رؤية نيرودا الشعرية للواقع الانسانى جملة ، للطبيعة ، للحياة . وأخذ يتغنى للبحر وللخبز ولصخور بلاده ومروجها ، بكل ما فى تلك البلاد .. بلاد البؤس والشتاء القارس البرودة والرياح .. يغنى للحياة . يغنى لها بشعر يجمع بين الغنائية والعقلانية معا ، ويتوتر البناء الشعرى فيه بطاقة درامية كبيرة .

وخلال الاعوام الممتدة من ١٩٤٥ حتى ١٩٥٢ صحب نيرودا قضيته الكبرى .. الحرية ، وطاف بها بلدان العالم .. طاف بها شوارع براغ والى جواره ظل جوليوس فينتشك الاخدى ، وطاف شوارع فرنسا وفى مخيلته أطياف لشهداء المقاومة الفرنسية الاماجد .. وايطاليا والمانيا وانجلترا والاتحاد السوفيتى والصين والهند ويوغوسلافيا والبرتغال واليونان وهولندا والمجر وغيرها من بلاد العالم .. وهزته التجربة الصينية من الاعماق فكتب عام ١٩٥١ ملحمته الكبيرة (رياح آسيا) .. كما كتب دواوين آخرين خلال فترة الطواف تلك هما (انيلوس) و (ثلاث قصائد) .. وفى كل هذه الاشعار رأى

نيرودا كل شيء من خلال احداق قصيته الاثيرة .. الحرية .

وفى عام ١٩٥٢ عاد نيرودا الى وطنه شيلى . والى منزل الحبيب فى ايللنوار والى الشعب الذى غنى له ومن أجله كل أشعاره .. عاد حيث كان فيدولا قد سقط ، فلم يكن يبعث على الخوف شيء بعد ذلك واستقبلته الجماهير كما يستقبل القادة العظام ، وانتخبته من جديد ممثلا لها .. لكنه ما لبث بعد ذلك أن عاد الى التجوال من جديد وعاش عدة سنوات فى الاتحاد السوفيتى والصين ليكون بالقرب من بنائى الحرية التى طالما دعا اليها .. وفاز بعدد كبير من الجوائز حتى استقر به المطاف اخيرا فى باريس ممثلا لبلاده بها .

وفى باريس هذا العام جاءته جائزه نوبل وما أن بدأت الستينات حتى كان نيرودا قد أنجز أعظم أعماله الشعرية التى ارتبطت بأعظم القيم الانسانية دون أن تنسى أبدا أنها أعمال شعرية قبل أى شيء آخر .. فقد قال نيرودا .

أنا لم آت لاجل مشاكل الارض
بل أتيت الى الدنيا لاغنى
فلتغن أنت معى

صبرى حافظ

■ ■ ■

■ **جمهورية مصر العربية**

الجديد .. فى المجلس النيابى الرابع

اكتسب خطاب الرئيس السادات **انور السادات** فى افتتاح مجلس الامة الجديد اهمية خاصة لانه جاء فى ذروة فترة اشتدت فيها المناورات الامريكية ــ لا يهام العالم كله أن ثمة اتفاقا على الحل السياسى قد تم أو هو على وشك أن يتم .

واحدث خطاب الرئيس السادات ردود فعل عميقة وواسعة لما تضمنه من كشف صريح لموقف الولايات المتحدة من ازمة الشرق الاوسط على أساس « **ان امريكا هى المسئول الاول عن اسرائيل ــ أداتها فى تنفيذ مصالح لنفسها تصورها فى هذه المنطقة ــ وأن اسرائيل اكبر وسائل القسر والارهاب ووقف التطور الحتمى على الارض العربية** »

وفضح الرئيس السادات فى خطابه امام مجلس الامة ــ اهداف امريكا فى المنطقة محددا بحسم رفضنا لهذه الاهداف .

« **فامريكا تريد اخراج الاتحاد السوفيتى من المنطقة ونحن نرى فى الاتحاد السوفيتى صديقا فى الحرب وصديقا فى السلام .**

وأمريكا تريد عزل مصر عن الامة العربية ونحن لا نستطيع القبول تاريخيا ومصيريا بمثل ذلك لان مصر جزء من الامة العربية قدرا ومستقبلا .

« **وأمريكا تريد ضرب التجربة الاشتراكية فى مصر ونحن نؤمن بطريقنا فى التطور ونصمم عليه الى آخر مدى** » .

وبعد ان استعرض الرئيس السادات فى خطابه المحاولات الامريكية لاستغلال المبادرة المصرية وتحويلها الى شيء لا علاقة له ــ بما استهدفته مصر من مبادرتها ــ وحديث امريكا امريكا الان عن اتفاقية بشأن قناة السويس فقط ــ واعاد الرئيس السادات القضية الى وضعها الصحيح مؤكدا ان القضية هى قضية استرداد الارض المغتصبة كاملة وحقوق شعب فلسطين ــ ومع تمسك مصر بقرار مجلس الامن وبالمبادرة المصرية فى ٤ فبراير ــ الا انه لضمان تحقيق ذلك بالمفهوم الذى تراه مصر ــ ولكى لا يكون هناك اى لبس ــ « **فان هناك الان شرطا ضروريا لايمكن الاستغناء عنه قبل اى خطوة اخرى ــ وهذا الشرط هو أن ترد اسرائيل بالايجاب على ماطلبه منها السفير يارنج بتاريخ ٨ فبراير ــ وانه بغير هذا الرد الايجابى من اسرائيل اولا وقبل كل شيء فانه لن يكون هناك مجال لاى بحث او نقاش** » .

وأعاد الرئيس فى خطابه التأكيد على **ان عام ١٩٧١ يجب أن يكون عاما حاسما ــ وان علينا ان نتخذ قرارنا فى التوقيت المناسب وفى الظرف المناسب وبالطريقة المناسبة ــ لانه قرار مصير .**

ومجلس الامة الجديد نتاج لرابع تجربة انتخابية منذ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ــ وهى انتخابات تميزت بكثرة عدد المرشحين الذين بلغوا ١٥٢٢ مرشحا ، كانوا يتنافسون فى ١٦٩ دائرة ــ ليمثل كل دائرة اثنان ــ واحد منهم على الاقل من ممثلى العمال والفلاحين .

واسفرت النتائج النهائية للانتخابات عن فوز:

١٠٩ من مرشحين لهم صفة العمال يشكلون ٣٢٫٢٪ .
٧١ من مرشحين لهم صفة الفلاحين يشكلون ٢١٪ .
١٥٨ من مرشحين الفئات يشكلون ٤٦٫٨٪ .

وجذبت المعركة الانتخابية الاخيرة لمجلس الامة ــ اهتمام عدد كبير من المراقبين السياسيين

الذين تابعوا أحداثها ومظاهرها وسجلوا عددا كبيرا من الملاحظات والاستنتاجات من أهمها :

اولا : ان الانتخابات قد خلت فى مجموعها من العمل السياسى وتركز الاهتمام فيها أساسا على مشكلات الجماهير اليومية بالرغم من ان الغالبية الساحقة من المرشحين قد وضعت شعارات الحرية والديمقراطية وسيادة القانون وبناء دولة العلم والايمان على راس منشوراتها ولافتاتها — واستثناء من هذه الظاهرة العامة طرح بعض المرشحين بشدة قضية التحول الاجتماعى والاشتراكية .

ثانيا : أدى عدم وجود تزكية من التنظيم السياسى والنقابات والتعاونيات للمرشحين الى تدفق أعداد كبيرة على الترشيح — والى اعتماد المرشحين على الاتصالات الشخصية واجتماعات المقاهى المحدودة العدد والمنشورات الصغيرة التى تحمل صورة المرشح وبضع كلمات وصفات عامة — والالتجاء الى فرق الموسيقى ومجموعات من الانصار والاطفال بالطبول .

وقد ادى خلو المعركة من العمل السياسى وكثرة عدد المرشحين الى عدم بلورة اتجاهات الناخبين فى المرحلة الاولى من الانتخابات فلم ينجح فى الجولة الانتخابية الاولى سوى ٩٣ مرشحا هم فقط الذى حصلوا على اكثر من ٥٠ ٪ من اصوات الناخبين واعيدت الانتخابات فى ١٤١ دائرة اى ما يعادل ٨٠٪ من الدوائر — وقد جرت الاعادة فى خمسين دائرة لاختيار مرشح واحد من اثنين واعيدت فى ٩١ دائرة لاختيار مرشحين اثنين من اربعة — وبسبب كثرة عدد المرشحين تمكن بعض المرشحين الحاصلين على الفى صوت من دخول الاعادة فى دائرة عدد اصواتها ٤٠ الفا .

ثالثا : لوحظ ان الناخبين بشكل عام كانوا شديدى التشكك فى الوعود الانتخابية — وان نسبة اقبال المثقفين فى المدن على الانتخابات أقل بكثير من نسبة اقبال سائر قوى الشعب العاملة — وان بعض المثقفين كان يصوت لاختيار اثنين من مرشحى الفئات .

رابعا : لوحظ فى بعض دوائر الاقاليم انخفاض فى عدد الناخبين فقد صرح اللواء **حنفى عبد الرحمن** مدير امن محافظة اسيوط ان الذين ادلوا باصواتهم فى دوائر المحافظة لم تجاوز عددهم ٥٠٪ من عدد الناخبين .

وفى بعض دوائر محافظة الجيزة غاب حوالى نصف الناخبين ففى الدقى حضر ٢٠ الفا من ٤٠ الفا وفى المنصورية حضر ٤٦ الفا من ٦٢ الفا وفى امبابة حضر ٣٥ الفا من ٥١ الفا .

خامسا : لوحظ كثرة الاصوات الباطلة ففى دائرة الدقى كان هناك الفا صوت باطلة من ١٨٫٧٥٨ وفى قصر النيل كانت الاصوات الباطلة ٣ آلاف صوت من مجموع خمسة عشر الف صوت .

سادسا : جاءت النتيجة النهائية للانتخابات لتدحض الدعاوى التى اشتدت خلال الشهور التى سبقت الانتخابات والتى كانت تدعو لالغاء ما نص عليه القانون من تخصيص ٥٠ ٪ من المقاعد لممثلى العمال والفلاحين — وقد بلغت نسبتهم فى المجلس الجديد ٥٣٫٢ ٪ .

ويؤكد المراقبون انه لولا بعض المشاكل الخارجة عن ارادة العمال والفلاحين وخاصة المشكلة المادية [حيث قدرت النفقات الطبيعية والمشروعة اللازمة لخوض المعركة بمبلغ ٧٥٠ ج] — لاستطاع العمال والفلاحون ان يدفعوا بالمزيد من ممثليهم الى مجلس الشعب .

واجرى بعض المراقبين تحليلا لنوعية الفائزين بالصفة العمالية فى مدينة القاهرة وعددهم ٢١ عضوا فتبين ان :

٨ يعملون كاعضاء مجالس ادارات او مديرين لبعض الشركات التجارية والصناعية .

٤ يعملون فى شركات او مؤسسات ولهم مناصب ادارية ؟ .

٨ موظفين ليس لهم مناصب ادارية .

٢ احدهما شيخ مسجد والثانى ملاحظ مبان ومن هنا فأن ثمة شعورا متزايدا لدى المراقبين بضرورة اعادة النظر فى تعريف العامل وجعله اكثر تحديدا بما يسمح بأن يتقدم العمال فعلا .

سابعا : بالنسبة للريف — فان هناك بعض العائلات ذات التراث الاقطاعى او ممن كان لهم نفوذ مرتبط بملكيتهم الواسعة للارض قد دفعت ببعض مرشحيها ممن تنطبق عليهم المواصفات القانونية فى دكرنس وفى أسوان وفى الفيوم — ولكن أغلبهم لم يكتب له الفوز .

ويمكن القول ان ممثلى الفلاحين قد جاءوا من الملاك المتوسطين وبعض المنتفعين بالاصلاح الزراعى والاخيرين من فقراء الفلاحين .

ولم يدخل احد من عمال التراحيل الزراعيين — حيث هزم مرشحهم فى كوم امبو فى معركة الاعادة بفارق ٢٠٠ صوت فقط .

ثامنا : بالنسبة للمراة بلغ عدد المرشحات ٢٨ مرشحه فازت منهن اثنتان فى المرحلة الاولى ودخلت سبع مرشحات مرحلة الاعادة نجح أربع منهن — واضيفت لهن عضوة معينة فأصبح المجلس يضم سبع عضوات وهذا العدد أربعة أضعاف العدد تقريبا الذى دخل اول مجلس نيابى عام ٥٧ .

وقد برز خلال المعركة حرص المراة فى الاحياء الشعبية على إعطاء صوتها .

تاسعا : من الحقائق الثابتة أن كثيرا من التجار

والمقاولين الاغنياء الذين صرفوا آلافا من الجنيهات بطريقة غير مشروعة قد سقطوا فى الانتخابات . كذلك فان البعض ممن كان يرفع لواء العداء للاشتراكية بوضوح وصراحــة قد اسقطتهــم الجماهير . ■

■

رحلــة وفــد اللجنــة المركزية الى ايطاليا وفرنسا وبريطانيا

فى الشهر الماضى سافر الى أوروبا الغربية وفد من اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى تنفيذا لقرار اللجنة المركزية بعقد أوسع اتصالات مع الاحزاب والمنظمات العالمية لتوثيق عـــلاقات التضامن العالمى . وقد تشكل الوفد من لطفى الخولى و د . محمد الخفيف ومحمد عبد السلام وأحمد كامل . واستهدفت رحلة الوفد الاتصال بالاحزاب السياسية فى ايطاليا وفرنسا وبريطانيا، وتوسيع دائرة هذه الاتصالات ، وتوضيح القضية العربية للرأى العام فى هذه البلدان وللدوائر المؤثرة فيه . وتوضيح موقف الاتحاد الاشتراكى من الاحداث الاخيرة فى العالم العربى . والقيام باتصالات تمهيدية بخصوص انعقاد المؤتمر الدولى للعدل والسلام فى الشرق الاوسط ، والاتصال باللجان الدولية فى ايطاليا وفرنسا وانجلترا .

والتقى الوفد فى **ايطاليا** بالحزب الديمقراطى المسـيحى والشـيوعى الايطالى والاشــتراكى لوحدة البروليتاريا ، كما التقى باللجنة الايطالية لمؤتمر العدل والسلام فى الشرق الاوسط بدعوة منها ، وهذه اللجنة تضم الاحــزاب الايطاليــة بمختلف اتجاهاتها والشخصيات البارزة ونقابات العمال ومنظمات النساء والشــباب والــكتاب والنقابيين والصحفيين . **وفى فرنسا** التقى الوفد كذلك بالحزب الشيوعى الفرنسى والاشتراكى والاتحاد الديمقراطى الجمهورى (الديجوليين) ، كما التقى الوفد بمجموعة من الصحفيين والكتاب يمثلون مختلف الاتجاهات المهتمة بقضية الشرق الاوسط . وفى انجلترا التقى الوفد بحزب العمال وبادارة الابحاث السياسية (حزب المحافظين) ، وبالحزب الشيوعى ، وجماعة التحرير ، وهيئة تنمية التفاهم العربى البريطانى O. A. P. O. وهيئة العفو الدولية ، وشباب حزب الاحرار ، وسكرتير المنظمة الاشتراكية الدولية (الدولية الثانية) .

وفى بريطانيا أدار الوفد حوارا حول قضية الشرق الاوسط فى مجلس العموم . واشترك فى الحوار مجموعة من نواب العمال والمحافظين ، وادير الحوار برئاسة دافيد كراوس من المحافظين وكان الداعى للحوار النائب العمالى اندرو فولوز . كما التقى الوفد فى بريطانيا مع وكيل الخارجية لشئون الشرق الاوسط ، والمسئول عن شمال افريقيا ، ومدير مكتب شئون النزاع العربى ــ الاسرائيلى .

وعقد الوفد لقاءات مع المبعوثين المصريين فى البلدان الثلاثة . وفى هذه اللقاءات أوضح الوفد موقف الاتحاد الاشتراكى الذى اعلنــه الرئيس الســادات ، والذى حــدد فيه أن عــام ١٩٧١ هو عام حاسم من حيث اتخــاذ القرار ، وأنه لم يعد من الممكن تجميد القضية الى الابد وترك المجال للمناورات الاسرائيلية والامريكية ، وأنه أصبح لزاما علينا أن نقوم بدورنا فى تحرير أرضنا العربية ، واستعادة حقوق شعب فلسطين القومية، متخذين فى ذلك جميع الوســائل السياســية والعسكرية والاقتصادية كحركة تحرير وطنية . كما وضح الوفد للمبعوثين أن الاتحاد الاشتراكى الان هو صياغة جبهوية لحركة التحرير الوطنية المصرية فى اطار العمل لخلق مناخ ديمقراطى ، كما أن الدراسات تجرى الان لانشاء تنظيم طليعى اشتراكى « معلن » داخل الاتحاد الاشتراكى وفى اطار برنامج العمل الوطنى .

وفى لقاءات الوفد مع اللجنة الايطالية الدولية لمؤتمر العدل والسلام فى الشرق الاوسط ، انتهت هذه اللقاءات الى الاتفاق على أن يعقد المؤتمر الدولى للعدل والسلام فى الشرق الاوسط فى اطار العمل على تنفيذ قرار مجلس الامن تنفيذا كاملا وتأكيد الحقوق القومية لشعب فلسطين . وقد فشلت جميع محــاولات الدوائر الصهيونية لتخريب هذا المؤتمر ، وقد كشف الوفد مناورات العناصر الصهيونية التى انتهزت فترة انقطاع الاتصالات اثر الحوادث الاخيرة فى العالم العربى واللجنة الايطالية الدولية عقد اللجنة التحضيرية لمؤتمر العدل والســلام فى الشرق الاوسط فى فبراير القادم .

وتعتبر زيارة وفد اللجنة المركــزية **لايطاليا** وفرنسا وانجلترا ــ هى أول زيارة من قبــل الاتحــاد الاشتراكى لغــرب أوربا بعــد اعادة تشكيل الاتحاد الاشتراكى فى يوليو المــاضى . ولقــد جاءت نتائجها تعميقا وتوسيعا للتضامن العالمى مع الحق العربى فى التحرير ، كما اكدت أهمية مواصلة النشاط العالمى وتوسيعه وانتظام حركته واستمرارها .

الجديد فى الجهود الدولية وزيارة عرفات لموسكو

بتقديمها مشروع **روجرز** الجديد ، تكون الولايات المتحدة قد اسقطت **مبادرة روجرز** وأهالت عليها التراب . وهى المبادرة التى كان قد تقدم بها وزير خارجية أمريكا فى صيف العام الماضى ، وتضمنت ضرورة انسحاب اسرائيل من الاراضى التى احتلتها فى حرب يونيو (حزيران) ١٩٦٧ .

أما المشروع الجديد ، فقد قدمه **روجرز** الى الجمعية العمومية للامم المتحدة ، فى الخطاب الذى القاه فى منتصف اكتوبر الماضى . وقد تضمن المشروع الامريكى الجديد ست نقاط ، ليس بينها ضرورة الانسحاب الكامل ، وهذه النقاط هى :

١ ـــ الاتفاق الجزئى يمثل خطوة نحو تسوية اشمل .

٢ ـــ اعادة فتح قناة السويس ، مع افادة اسرائيل من الملاحة فيها .

٣ ـــ تمديد وقف اطلاق النار .

٤ ـــ انسحاب أولى للقوات الاسرائيلية من منطقة القناة .

٥ ـــ تحديد نظام المراقبة لتنفيذ الاتفاق .

٦ ـــ تحديد طبيعة العناصر المصرية التى سوف تجتاز القناة .

ووصف **محمود رياض** ـــ فى خطابه امام الجمعية العمومية للامم المتحدة ـــ المقترحات الامريكية الجديدة بأنها ليست سوى مجموعة من المقترحات الغامضة ، وأنها تتناقض حتى مع مبادرة روجرز لعام ١٩٧٠ ، ومع بيان الرئيس الامريكى **نيكسون** الخاص بالسياسة الامريكية حيال الشرق الاوسط . وأضاف **رياض** ان المشروع الجديد لم يقدم أى ضمان محدد بشأن الانسحاب الكلى .

أما رد الفعل الاسرائيلى فقد جاء على لسان **جولدا مائير** ، رئيسة الوزراء ، التى انتقدت المشروع الامريكى الجديد ، وتمسكت برفضها عبور أية قوات مصرية الى الضفة الشرقية للقناة . وتبعها بعض المسئولين الاسرائيليين فصرحوا بأنه عند التسوية يجب ان تحتفظ اسرائيل بالمرتفعات السورية والقدس ، وأن ترابط قوات اسرائيلية فى شرم الشيخ لتأمين الملاحة الاسرائيلية فيه .

وبعد مرور شهر على تقديمه مشروعه الجديد ، عاد **روجرز** فاقترح أن يلتقى الطرفان العربى والاسرائيلى فى فندق بنيويورك ، بحيث يحتل كل طرف أحد الطوابق فيه ، ويقوم طرف ثالث بالاتصال بالطرفين . وقد جاء الاقتراح الامريكى الاخير لتأكيد الاشاعة التى سبق وأطلقتها أمريكا والقائلة بأن (**صيغة رودس**) قد بدأت بالفعل بين العرب واسرائيل . وهو أمر ينفيه الطرف العربى والاحداث نفسها .

● وفى أوائل نوفمبر الماضى ، وصل الى اسرائيل الرؤساء الافريقيون الاربعة : **ميجر جنرال يعقوب جاوون** (نيجيريا) **واحمدو أهيدجو** (الكاميرون) **والجنرال جوزيف موبوتو** (الكونغو كينشاسا) **وليوبولد سنجور** (السنغال) (•)

تعليق

.. حتى لا تتبدد الكلمات دخانا فى الهواء

مادام الكاتب او الفنان لا يملك سوى « الكلمة » سلاحا فى معركة الوجود ، فان اهم واجباته التى تجمع عليها كافة مذاهب الفكر والفن ان يشحن هذه الكلمة بكل امكانيات الموهبة وملكات الثقافة وتقاليد الفروسية الشجاعة الحرة . ولعل الحصاد الحقيقى لمؤتمرات الادب والفن فى العالم هو ذلك الحوار ـــ الصاخب او الهادئ ـــ الذى ينجم بالضرورة من تناقض الاتجاهات الفكرية وتعارض التيارات التى ينتهى اليها اصحابها . ومن هنا تؤدى الكلمة اذا توفر لها المناخ الديموقراطى الصحيح ، دورا بالغ الاهمية فى توجيه الحضارة الانسانية ودفعها خطوات للامام .

ولقد درج اتحاد الادباء العرب ان يعقد مؤتمرا كل عام فى احدى العواصم العربية ، يجتمع حول مائدته اعضاء الوفود ، ليلقى بعضهم ابحاثا مرتجلة غالبا ومخططة نادرا ، وليستمع الاخرون اليهم ، ثم يصدر الجميع توصيات « شديدة اللهجة » فى كافة شئون الحياة والفكر العربى ، فى الماضى والحاضر والمستقبل . وينفض المؤتمر كل عام ، ثم ينعقد فى العام الذى يليه ، دون ان يكون هناك أى معنى لانفضاضه او انعقاده سوى هذه اللقاءات الشخصية المثمرة التى تتاح لادباء الوطن العربى ، من مشارقه الى مغاربه . لذلك تكاد المؤتمرات السبعة السابقة تكون نسخا متشابهة لمؤتمر واحد مكرر ، يفرغ « كلمة » الكاتب من احتمالات تفجرها ، ويحرم مجتمعنا من امكانيات فعاليتها .

ولعل « ورقة العمل » هى البديل الموضوعى لهذه النزهات السياحية والمظاهرات السياسية التى نقوم بها كل عام .. ان ورقة عمل ـــ وليس جدول اعمال ـــ تشمل نقاطا تفصيلية محددة فى موضوع واحد كبير ، يتقدم بها سكرتير عام المؤتمر او احد الوفود ، ثم تدور من حولها المناقشات الحرة الى آخر المدى ، لهى كسب واقعى محقق . والكتاب الذى يضم هذه الورقة والمناقشات التى دارت حولها ، لهو انتصار فكرى مؤكد . اما الابحاث الطويلة المكررة والشعارات المنسوخة عن بعضها بعضا ، فانها تفتح الابواب الخلفية لاعضاء المؤتمر للخروج بحثا عن النزهة والترفيه . دعونا ـــ ونحن على ابواب المؤتمر الثامن ـــ من العناوين الكبيرة ، فأولى خطوات « العمل » هى ورقة العمل ، حتى لا تتبدد كلماتنا دخانا فى الهواء . ■

غالى شكرى

ومن المعروف ان **مؤتمر القمة الافريقى** كان قد ندد — فى الصيف الماضى — بالعدوان الاسرائيلى وطالب بانسحاب اسرائيل من الاراضى التى احتلتها . وانبثقت عن المؤتمر المذكور (**لجنة العشرة**) ، والتى اجتمعت بدورها فى كينشاسا ، عاصمة الكونغو ، فى ٢٣ أغسطس (آب) الماضى ، بهدف توحيد الجهود الافريقية عند مناقشة النزاع العربى الاسرائيلى فى الامم المتحدة . وكانت المفاجأة عندما طالب الرئيس **موبوتو** لجنة العشرة بضرورة تأليف لجنة لزيارة اسرائيل ومصر ، لجمع المزيد من حقائق النزاع . ولاينتظر لهذه الجهود الافريقية أن تحرز أى تقدم ، خاصة وأن اسرائيل تجتهد لمد فترة التداول مع الرؤساء الافريقيين الاربعة ، فى محاولة منها لاضاعة الوقت وتفويت الفرصة أمام الجهود العربية الضخمة التى بذلت لهذه الدورة للجمعية العمومية للامم المتحدة بتأجيل نظر القضية أمام الهيئة وذلك باعلان زيارة الوفد الافريقى للقاهرة يوم ٢٦ نوفمبر الماضى . ومما يؤكد هذا الاتجاه الاسرائيلى ، طلب **جولدا مائير** الى الرؤساء الاربعة جمع الطرفين — مصر واسرائيل — على مائدة المفاوضات . وهو أمر تعلم اسرائيل أنه مرفوض سلفا من قبل مصر .

وفيما بين ٢٠ — ٢٩ أكتوبر (تشرين الاول) الماضى ، قام وفد من **منظمة التحرير الفلسطينية** بزيارة الاتحاد السوفييتى بناء على دعوة من **اللجنة السوفييتية للتضامن الافرو أسيوى** . وقد ترأس **ياسر عرفات** الوفد الفلسطينى ، والذى ضم أيضا **خالد الفاهوم** رئيس المجلس الوطنى الفلسطينى .

ومن المعروف أن هذه هى المرة الثالثة التى يزور فيها **عرفات** الاتحاد السوفييتى . وكانت الاولى عندما رافق الرئيس **عبد الناصر** فى زيارته للاتحاد السوفييتى ، والتى تمت فى أوائل سبتمبر (أيلول) ١٩٦٨ . وبالرغم من أن زيارة عرفات تلك لم تكن رسمية ، الا انه نجح فى مقابلة **كوسيجين** ، رئيس الوزارة السوفيتية ، وأجرى معه محادثات هامة . أما الزيارة الثانية فقد حدثت فى ربيع عام ١٩٧٠ ، بناء على دعوة من اللجنة السوفيتية للتضامن الافرو اسيوى .

وفى الزيارة الاخيرة ، أجرى الوفد الفلسطينى مفاوضات مع اللجنة السوفيتية للتضامن الافرو آسيوى . أعرب فيها الجانب الفلسطينى عن امتنانه للاتحاد السوفيتى ، حزبا وحكومة وشعبا ، لموقفهم الحازم من حركة التحرر الوطنى العربية . فى حين شجب الوفد السوفيتى بحزم العدوان الامبريالى الاسرائيلى على الشعوب العربية . كما أعلن عن تأييده الحازم لحركة



ياسر عرفات

المقاومة الفلسطينية . واشار الى اهمية وحدة كافة القوى التقدمية العربية وضرورة مواصلة تعزيز تحالفها مع الاصدقاء الحقيقيين للشعوب العربية ، وهى البلدان الاشتراكية . ويقول البيان الذى صدر فى نهاية المحادثات انه قد « تم التأكيد على خطورة محاولات تقويض الصداقة العربية السوفيتية ، وبذر الشقاق فى صفوف الحركة العربية المناهضة للامبريالية ، وعزل هذه الحركة عن الجبهة العامة المعادية للامبريالية . »

ونشرت مجلة (**أنباء موسكو**) السوفيتية الاسبوعية ، فى عددها الصادر فى ٦ **نوفمبر** الماضى ، حديثا **لياسر عرفات** قال فيه ان القضية الفلسطينية معقدة لانها القضية العربية ذاتها . ووصف نضال الفلسطينيين بأنه فى جوهره « نضال من أجل حقه فى العيش فى أرض وطنه ... ونحن متأكدون من أن الاتحاد السوفييتى ، شعبا وحزبا وحكومة ، سيقف مع نضال شعبنا العادل . » وردا على سؤال لهيئة تحرير الصحيفة السوفييتية قال **ياسر عرفات** « اننا نحاول توحيد كافة القوى المخلصة ، وحققنا فى هذا الطريق نجاحات كثيرة . »

وقد عقدت جريدة **فتح** الناطقة بلسان منظمة التحرير الفلسطينية ، مقالا فى عددها الصادر فى ٢٧ أكتوبر الماضى ، بعنوان « **كيف نفهم زيارة وفد الثورة الى موسكو ؟** » قالت فيه ان « الثورة الفلسطينية حينما تلتقى بمختلف قوى الثورة العالمية على اختلاف مواقعها واتجاهاتها ، فانها لا تنطلق فى ذلك من نظرة ذاتية محدودة ، وانما تنطلق من ادراكها لمسئولياتها التاريخية كفصيلة طليعية للثورة العربية التحررية ، وكجزء لايتجزأ من الثورة العربية ومن القوى المناهضة للامبريالية ، والاستعمار ، والاستعمار الجديد ، والعنصرية . » وأكدت صحيفة **فتح** أن الثورة

الفلسطينية « لا تغفل من حسابها مصالح السلام العالمى » وأشارت الصحيفة الى نقاط الخلاف بين المقاومة الفلسطينية والاصدقاء السوفييت ، واكدت « أن نمو الثورة الفلسطينية العربية التحررية سيخلق ظروفا أفضل لمعاودة النقاش حول هذه المسائل . وأن انضاج التفهم المتبادل للموقف الحالى ولمقتضياته هو خطوة ايجابية هامة . » وانتهت الصحيفة الفلسطينية الى الاشادة بموقف الاتحاد السوفييتى من القضية العربية والفلسطينية .

وأيا كان الامر فان هذه الزيارة قد وضعت الاساس لصداقة متينة مع الاتحاد السوفييتى ، باعتباره حليفا استراتيجيا ، لا حليفا عارضا للثورة الفلسطينية والعربية . □

■

الجولة الثانية من مؤتمر جدة

ابتدأت محادثات الجولة الثانية لمؤتمر جدة يوم الاثنين ٨ نوفمبر ، ولكن المحادثات تعثرت وانقطعت اكثر من مرة منذ ذلك التاريخ حتى اعداد هذا التقرير .

كانت الجولة الثانية قد ابتدأت بعد أن نجحت لجنة الوساطة فى اخذ موافقة الطرفين الفلسطينى والاردنى على ما وصف بالمذكرة الايضاحية ، وهى مذكرة تفسر ورقة العمل المصرية — السعودية وتحدد المبادىء التى ستسير على ضوئها المحادثات :

- اعتبار اتفاقية القاهرة ملزمة .
- كون منظمة التحرير الفلسطينية الممثلة للوجود للمقاومة .
- حق العمل الفدائى فى العمل من قواعد داخل الارض المحتلة .
- جواز النظر فى تعديل بعض بنود اتفاقية عمان .

وفى الجلسة الاولى التى عقدت بعد ظهر يوم الاثنين تقدم الوفد الاردنى بمقترحات مكتوبة لتعديل اتفاقية عمان ، وهى مقترحات لو أخذ بها لادت بالفعل الى الغاء هذه الاتفاقية والغاء الوجود المستقل للعمل الفدائى ونسف كل ماتم الاتفاق بشأنه قبل ذلك بدءا من اتفاقية القاهرة وانتهاء بالمذكرة الايضاحية الاخيرة !

وقد تسبب تقديم هذه المقترحات فى تعطيل الجلسة على الفور بعد ان رفضها الوفد الفلسطينى جملة وتفصيلا . وكاد المؤتمر ينفض بعد ساعات من بدايته،ولكن **الملك فيصل** اجرى اتصالات عاجلة مع الرئيس **أنور السادات** من جهة ومع **الملك حسين** من جهة اخرى . واتصلت عمان بوفدها المفاوض فى جدة فوافق فى اليوم الثانى على سحب المقترحات التى سببت الأزمة .

وعقدت لجنة الوساطة ، **السقاف والخولى** ، يوم الثلاثاء جلستين منفصلتين مع كل وفد على حدة تمت خلالهما مناقشة خطة عمل تقدمت بها اللجنة ، وهى خطة عمل تؤكد بنود المذكرة الايضاحية آنفة الذكر ، وتضيف اليها استعداد لجنة الوساطة لابداء رأيها البات فى حالة وقوع خلاف بين الطرفين . ووافق وفد منظمة التحرير على خطة العمل المقترحة بغير تحفظ ، اماالوفد الاردنى فقد اجاب على سؤال اللجنة بموافقة مكتوبة ومصاغة بطريقة مراوغة لم تسمح بحسم الامور .

وجرت يومى الاربعاء والخميس محاولة لعقد جلسة مشتركة ولكن الوفد الاردنى يتهرب بحجة السفر الى المدينة المنورة وعندما عاد مساء الجمعة كان الوقت قد حان لسفر الوزيرين الخولى والسقاف ورئيس الوفد الفلسطينى الى القاهرة للاشتراك فى جلسات مؤتمر وزراء الخارجية العرب الذى ابتدأ يوم السبت ١٣/ ١٩٧١/١١ .

وعندما عادوا الى جدة يوم الاثنين ١١/١٥ فوجئوا بسفر رئيس الوفد الاردنى الى عمان بحجة اجراء مشاورات مع حكومته ، وفى عمان ادلى رئيس الوفد الاردنى بتصريحات صحفية عاود فيها الحديثعن المقترحات التى قدمها وفده والتى سببت الازمة والتى يفترض ان الوفدقد سحبها كما اعلن سابقا .

ثم جاءت عطلة عيد الفطر،وتجددت الاتصالات بين العواصم والاطراف العربية المعنية، وكان ثمة الحاح شديد على ضرورة الوصول بمؤتمر جدة الى نتيجة محددة قبل موعد انعقاد مجلس الدفاع العربى فى السابع والعشرين من نوفمبر.

وعاد الوفد الاردنى الى جدة للاجتماع ببقية الفرقاء يوم الاثنين ١١/٢٢ وسط جو لا يدع مجالا للثقة بأن الحكومة الاردنية تعتزم تبديل مسلكها المراوغ او ترك محاولاتها لتمييع عمل لجنة الوساطة ولكسب الوقت من اجل تجاوزا موعد انعقاد مجلس الدفاع العربى الذى يفترض أن يعالج الوضع فى الاردن معالجة حاسمة .

فى غضون ذلك ، وبينما المحادثات تتعثر ، والجلسات تتقطع ، توفرت معلومات تؤكد :

- ان القاهرة وكذلك الرياض ، مصرتان على الوصول الى اتفاق يلتزم به الجانبان على ضوء المذكرات والخطط التى عرضتها

لجنة الوساطة المصرية السعودية حتى الآن

- أن منظمة التحرير الفلسطينية تعتبر هذه الجولة آخر الجولات ، وأنها كما ذكر رئيس وفدها امام مؤتمر وزراء الخارجية العرب ، تحتفظ لنفسها بحق العمل السرى داخل وخارج الاردن وبالوسيلة التي تراها مناسبة لصيانة وجودها فى الاردن فى حالة فشل الوساطة .

- أن سورية رفضت بحث موضوع اعادة فتح الحدود مع الاردن قبل الوصول الى اتفاق بين المقاومة والحكومة الاردنية ، وقد ابلغ السيد عبد الحليم خدام نائب رئيس وزراء سورية ووزير خارجيتها هذا الرفض للسيد عبد الله صلاح وزير خارجية الاردن عندما التقيا خلال اجتماعات وزراء الخارجية العرب . ■

■

محادثات باريس خلاف حول تحديد الدوافع

قام **ليونيد بريجنيف السكرتير** العام للحزب الشيوعى السوفيتى بزيارة فرنسا خلال الفترة من ٢٥ الى ٣٠ أكتوبر الماضى تلبية لدعوة من الرئيس الفرنسى **جورج بومبيدو** ، وتأتى هذه الزيارة كجزء من سلسلة زيارات قام بها الزعماء السوفيت الثلاثة **بريجنيف — بودجورنى — كوسيجين** وشملت ست دول اشتراكية وأربعة دول غربية وثلاث من دول العالم الثالث وهى الزيارات التى وصفها المراقبون فى تعليقاتهم بأنها « **اكثف تحرك دبلوماسى سوفيتى جرى خلال السنوات الاخيرة** »

ومن المعروف أن زيارة بريجنيف لفرنسا هى أول زيارة يقوم بها الزعيم السوفيتى لدولة من دول المعسكر الغربى منذ أن تولى مهام منصبه قبل سبع سنوات تقريبا فى أكتوبر عام ١٩٦٤ .

واذا كان المراقبون قد أجمعوا على نجاح تلك الزيارة نجاحا وصفوه — كما نقلت وكالات الانباء الغربية نفسها .. بأنه « يندر أن يتحقق مثله فى لقاءات القمة » .. الا انهم قد اختلفوا اختلافا بينا فى تحليلهم لأسباب الزيارة وللأهداف التى كانت منوطة بها .

فهناك مثلا الرأى الذى عبرت عنه جريدة «**كوريير دى لاسيرا** » الايطالية اليمينية حينما قالت فى عددها الصادر يوم أول نوفمبر المنقضى تعليقا على الزيارة « ان السكرتير العام للحزب الشيوعى السوفيتى لم يبحث عن التفاهم والمساندة الغربية الا لانه قد أحس بالتهديد الذى يواجهه فى منطقة الشرق الاقصى هذا كما أن بومبيدو لم يكن ليوجه الدعوة الى بريجنيف لو لم يفكر فى أن أوروبا يجتاحها جو من التنافس بين الدول يجب أن تؤكد فرنسا أمامه استقلالها »

ومن الواضح ان هذا الرأى يحاول أن يصور زيارة بريجنيف لفرنسا [بل والتحرك الدبلوماسى السوفيتى الاخير بأكمله] على انه مجرد رد فعل للتقارب الامريكى مع الصين الشعبية التقت به — مصادفة — رغبة فرنسا فى التفرد داخل أوروبا الغربية . ولكن البعض يرى أن هذا الراى يتجاهل الكثير من حقائق العلاقات الفرنسية — السوفيتية كما أنه يتجاهل من ناحية أخرى جانبا كبيرا من تطورات الواقع الدولى الراهن [لمزيد من التفاصيل فى هذه النقطة انظر مجلة الطليعة — عدد نوفمبر ١٩٧١ — تقارير الشهر — صفحة ١٢١ ، ١٢٢]

وهناك رأى آخر حاول أن يفسر أسباب وأهداف تلك الزيارة على أنها جزء من خطة سوفيتية لتوسيع رقعة الخلاف بين أوروبا الغربية وبين الولايات المتحدة الامريكية . ولكن هذا الرأى يظل أيضا عاجزا عن تقديم تفسير مقنع لاسباب وأهداف زيارة بريجنيف لفرنسا . وقد يكون أمرا ذا دلالة أن نشير هنا الى أن صحيفتى «**النيويورك تايمز** » و « **الهيرالد تريبيون الدولية** » الامريكيتين كانتا أبرز المنابر التى تردد على صفحاتها هذا الرأى بشكل مكثف .

وكانت هناك آراء أخرى حاولت ان تتناول الزيارة بطريقة أكثر موضوعية. **فزيارة بريجنيف لفرنسا تعتبر — فى هذه الآراء — امتدادا وتطويرا طبيعيا للعلاقات الفرنسية — السوفيتية النامية منذ تم توقيع الاتفاق الاقتصادى الكبير بين البلدين فى ٣٠ أكتوبر عام ١٩٦٤ .**

وقد يكون صحيحا أن هذه الزيارة تتم على خلفية التقارب بين الولايات المتحدة وبين الصين الشعبية .. **وقد** يكون صحيحا انها تتم على خلفية الدور القيادى الذى تحاول فرنسا ان تلعبه بدأب فى قضية الوحدة الاوربية .. **وقد** يكون صحيحا انها تتم على خلفية الصراع الاقتصادى والسياسى بين المصالح الرأسمالية الاوربية وبين مصالح الاحتكارات الامريكية .. ولكن من الصحيح أيضا — بل ومن الصحيح جدا — أن هذه الزيارة ليست شيئا جديدا تماما فى العلاقات الفرنسية — السوفيتية .. ومن الصحيح أيضا أنها تتم على خلفية من المبدأ السوفيتى الذى ينادى بضرورة التعايش او التنافس السلمى بين البلدان ذات

الانظمة الاجتماعية المختلفة ، كما انها تتم على خلفيه من الجهود السوفيتية الرامية الى تخفيف حدة التوتر داخل أوروبا ومحاولة اقرار الامن الاوروبى على أسس ملائمة .

ومن أهم النتائج التى ترتبت على الاجتماع :

أولا : الاتفاقية الاقتصادية التى وقعت خلال الزيارة يوم ٢٧ اكتوبر لمدة عشر سنوات . وتستهدف زيادة مجالات التعاون بين البلدين ، ومضاعفة حجم التبادل التجارى بينهما خلال السنوات الثلاث القادمة · وجدير بالذكر أن هذه الاتفاقية تأتى استمرارا لتعاون اقتصادى واسع النطاق بين البلدين وضعت اسسه اتفاقية ٣٠ اكتوبر عام ١٩٦٤ وامتد ليشمل العديد من القطاعات الصناعية ابتداء من السيارات وحتى الذرة والاليكترونيات ومعدات الفضاء . وذلك فضلا عن الجوانب التجارية حيث تعتبر فرنسا خامس دولة مصدرة الى الاتحاد السوفيتى .

ثانيا : اعلان فرنسا التزامها بتأييد دعوة الاتحاد السوفيتى الى عقد مؤتمر الامن الاوربى وتعهدها بالعمل على أن يبدأ الاعداد لهذا المؤتمر « **فى أقرب وقت** » بالعاصمة الفنلندية هلسنكى بحيث يمكن أن يعقد المؤتمر نفسه خلال عام ١٩٧٢ ولقد كان تعليق المراقبين فى هذا الصدد انه اذا كانت الاتفاقية الاقتصادية هى مكسب فرنسا الاساسى من هذه الزيارة فان الاتحاد السوفيتى قد كسب موقفا فرنسيا أكثر ايجابية ازاء مؤتمر الامن الاوروبى وازاء عديد من القضايا المتفرعة عنه ، فقد وافقت فرنسا على أن يكون استكمال اقرار الاوضاع فى برلين الغربية وتصديق حكومة بون على اتفاقياتها مع كل من بولندا والاتحاد السوفيتى هى المدخل الطبيعى لاعمال مؤتمر الامن الاوروبى .. وكذلك دعت فرنسا كل من المانيا الديمقراطية والمانيا الاتحادية الى اقامة علاقات طبيعية بينهما بما يعنى انه يمكن أن تكون الخطوة التالية بعد ذلك هى اعتراف فرنسا بالمانيا الديمقراطية ومن ناحية أخرى وضعت فرنسا توقيعها على مبادىء خمسة للتعاون الفرنسى ـ السوفيتى فى أوروبا هى :

أ ـ عدم انتهاك حرمة الحدود الحالية فى اوروبا

ب ـ عدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول الاخرى

جـ ـ المساواة بين جميع الدول .

د ـ احترام استقلال وسيادة الاخرين .

هـ ـ عدم اللجوء الى القوة او التهديد باستخدامها .

وبينما تمثل كل هذه الامور مكاسب واضحة لآمال السلام التى يتبناها الجانب السوفيتى فلم ينس المراقبون أن يشيروا الى أن فرنسا لم تحدد موقفها بشكل قاطع من مسألة خفض القوات المتبادل بين حلفى وارسو والاطلنطى داخل الاراضى الاوروبية وأرجىء هذا الموضوع لمشاورات مقبلة

ثالثا : توصل الطرفان الفرنسى والسوفيتى الى « اعلان مبادىء » جديدة يحكم العلاقات فيما بينهما ويحكم نظرتهما المشتركة الى المشكلات الدولية · صحيح أن هذا الاعلان بنقاطه الثلاث عشرة له سابقة تتمثل فى بروتوكول موسكو الذى وقع اثناء زيارة الرئيس بومبيدو للاتحاد السوفيتى فى اكتوبر عام ١٩٧٠ الا أن الاعلان الجديد يعد خطوة الى الامام اكثر شمولا وتفصيلا من بروتوكول موسكو فضلا عما يعنيه من معنى الحرص المشترك على تطوير العلاقات بين الجانبين باستمرار وفى جميع المجالات .

وكان طبيعيا ـ مع المواقف المعروفة لكل من الاتحاد السوفيتى وفرنسا تجاه أزمة الشرق الاوسط ـ أن يشير البيان الرسمى الذى صدر فى نهاية الزيارة الى تطورات هذه الازمة .. وقد طالب الطرفان فى بيانهما بايجاد حل سريع للنزاع العربى ـ الاسرائيلى باستئناف مهمة المبعوث الدولى جونار يارنج من أجل تطبيق قرار مجلس الامن على اساس انسحاب اسرائيل من جميع الاراضى العربية وضمان سلامة اراضى وسيادة جميع الدول فى المنطقة .

■

قرار لمصلحة الرأسمالية الاحتكارية

اثار قرار مجلس العموم البريطانى فى الشهر الماضى ـ بأغلبية ٣٥٦ صوتا ضد ٢٤٤ صوتا ـ بالموافقة على انضمام بريطانيا للسوق الاوروبية المشتركة ، بالشروط التى قبلتها حكومة المحافظين فى مفاوضاتها مع دول السوق ، جدلا واسع النطاق ، كاد فى النهاية أن يبتعد عن قضية عضوية بريطانيا فى السوق ، وهى الاساس ، الى قضية انشقاق حزب العمال . ذلك ان هذا الانشقاق الذى أصاب « أكبر حزب اشتراكى فى العالم الغربى » ـ كما يحلو للغربيين أن يسمونه ـ هو فى الحقيقة الذى قاد بريطانيا الى قرارها الذى اتخذه مجلس العموم .

وفى الوقت نفسه ، فان القرار قد استخدم فى الدعاية لحكومة **ادوارد هيث** البريطانية المحافظة

على أساس انها الحكومة التي أتت لبريطانيا بعضوية السوق المشتركة ، بعد محاولتين سابقتين فاشلتين .. الاولى قام بها **هارولد ماكميلان** رئيس حكومة المحافظين عام ١٩٦١ .. والثانية قام بها **هارولد ويلسون** رئيس حكومة العمال السابقة عام ١٩٦٧ .

ولقد اقترع ٦٩ نائبا عماليا الى جانب حكومة المحافظين فى هذا القرار ، بينما كان عدد المنشقين على حكومتهم من النواب المحافظين ٣٩ نائبا . وضمنت حكومة هيث بذلك « فارقا مريحا » فى الاصوات . الا ان حزب العمال أعلن بوضوح عزمه على مواصلة معارضة الانضمام للسوق بالشروط التى قبلها المحافظون ، وقال **جيمس كالاجان** وزير الداخلية فى حكومة الظل العمالية ، ان ما حدث فى مجلس العموم « لم يكن أكثر من كمين أول فى الصراع » . وقد فهم من هذا ان العمال يعتزمون الاستمرار فى معارضتهم لعضوية السوق المشتركة اذا عادوا الى الحكم فى بريطانيا ، فضلا عن انه لا تزال هناك معارك مريرة تنتظر الحزبين البريطانيين الحاكم والمعارض فى مجلس العموم ، حينما يجرى استصدار التشريعات المنظمة لعلاقة بريطانيا بالسوق الاوروبية ، والتى تجعل القوانين فى بريطانيا تسير وفقا للقوانين المعمول بها فى دول السوق . لان استصدار هذه التشريعات هو الامر الذى يتوقف عليه امكان اقدام الحكومة البريطانية على توقيع معاهدة الانضمام للسوق فى الموعد المحدد له ، وهو أول يناير عام ١٩٧٣ .

والواقع ان نتيجة الاقتراع فى مجلس العموم أكدت حقيقة أساسية فى وجه الديموقراطية الغربية فى بريطانيا . فان كل عمليات استطلاع الرأى العام والاستفتاءات التى سبقت التصويت البرلمانى ، أكدت ان غالبية الشعب البريطانى تعارض « بصلابة » انضمام بريطانيا للسوق الاوروبية ، وتعتبر عضوية السوق بمثابة ذوبان للكيان الانجليزى المستقل المتفرد فى أوروبا المتحدة . وكان آخر استطلاع للرأى العام أجراه معهد « **لويس هاريس** » ، قبيل الاقتراع فى مجلس العموم ، قد دل على ان ٣٠٪ فقط من البريطانيين يؤيدون الانضمام للسوق ، بينما يعارضه ٤٩ ٪ منهم . ومعظم هؤلاء المعارضين أكدوا مخاوفهم من تدفق العمال من أوروبا ليكونوا بديلا عن عمال بريطانيا فى حالة اضرابهم ، فى الوقت الذى تعانى فيه من بطالة تبلغ نسبتها ٣ر٩ ٪ من القوى العاملة . حتى ربات البيوت الانجليزيات أعربن فى هذا الاستطلاع للرأى عن مخاوفهن من أن تؤدى الرسوم الجمركية لمجموعة دول السوق الى رفع أسعار السلع الغذائية . وصيادو الاسماك البريطانيون عارضوا عضوية السوق ، لان فتح المياه الاقليمية البريطانية لبلد واحد لسفن الصيد من ٦ دول أخرى أو أكثر ، أمر لا يمكن أن يفيد .

واذا كان هذا يعنى شيئا ، فانه يعنى ان بريطانيا ستدخل السوق المشتركة ضد رغبة غالبية جماهيرها . وانها ستحمل الى داخل السوق الاوروبية المزيد من تناقضات الاوضاع الاوروبية ، بأن تضيف اليها التناقضات الحادة « بين بريطانيا والقارة » . ومن وجهة نظر اقتصادية بحتة ، فان انضمام بريطانيا للسوق هو نتيجة جذب الطرف الاقوى اقتصاديا للطرف الاضعف . فانه خلال السنوات العشر الماضية ، زاد اجمالى الانتاج القومى لدول السوق الاوروبية بنسبة ٩٥ ٪ ، بينما زاد اجمالى الانتاج القومى لبريطانيا بنسبة ٤٢ ٪ . ففى هذا الوضع وجدت بريطانيا نفسها فى وضع يجعلها أقل قدرة على المساومة مع أوروبا . وهذا يعنى من ناحية اخرى أن رجال الصناعة البريطانيين — أصحاب رؤوس الاموال الكبرى — هم أصحاب المصلحة الاساسية فى الانضمام الى السوق . وقد جرى استطلاع للرأى فى ١٠٠٠ مؤسسة صناعية بريطانية ، فوجد ان ٩٥ ٪ من أصحابها يؤيدون الانضمام للسوق ، ويجدون فى أوروبا فرصا مفتوحة لاسواق جديدة . وقد تبين انه حتى قبل ان تطبق تخفيضات الرسوم الجمركية التى تقضى بها السوق على بريطانيا ، فان بعض المؤسسات الرأسمالية البريطانية الكبرى استطاعت ان تحقق أرباحا كبيرة فى أعمال فى القارة الاوروبية . ومن ثم فهى تنتظر ان تزيد أرباحها عن ذلك كثيرا ، بعد انضمام بريطانيا للسوق وتطبيق الاعفاءات الجمركية والتسهيلات الاخرى لاستثماراتها فى أوروبا .

وتتطلع الرأسمالية الاوروبية بدورها الى انضمام رأس المال البريطانى ، باعتبار انه يضيف عنصر « منافسة » جديد ، والمقصود طبعا انه سيفتح أمامها سوقا جديدة ، بل أسواقا جديدة ، لانه أصبح فى حكم المؤكد ان يعقب انضمام بريطانيا الى السوق الاوروبية انضمام كل من ايرلندا والنرويج والدنمرك ، لتصبح مجموعة الدول الست ، مجموعة الدول العشر . ومثل هذه المجموعة فى النهاية تشكل منافسا خطيرا للرأسمالية الامريكية . اذ يقدر اجمالى الانتاج القومى لدولها العشر بحوالى ٦٦٠ مليار دولار هذا العام ، مقابل ١٠٥٨ مليار دولار للولايات المتحدة ، كما ان نصيبها من تجارة العالم يبلغ الثلث ، أما نصيب الولايات المتحدة فيبلغ ١٤ ٪ .

وفى الوقت نفسه ، فان الدول الاوروبية الصغيرة [والمتقدمة صناعيا فى الوقت نفسه] ، مثل النمسا وسويسرا وفنلندا ، تتطلع بقلق الى

تضخم الاحتكارات الرأسمالية فى أوروبا الغربية باتساع نطاق السوق المشتركة على هذا النحو : باعتباره يشكل تهديدا لاستقلالها الاقتصادى ولنموها برأسمالها الوطنى . فان اتساع السوق المشتركة على هذا النحو يجعل الدول الصغيره فى أوروبا أقل مقدرة على المنافسة فى مواجهة التكتل الاقتصادى الاوروبى . وهو أمر يهدد بالتالى استقلالية الدول الصغيرة وحيادها ، كما هو الحال بالنسبة للنمسا وفنلندا .

والامر المؤكد انه وراء أطار اتحاد الاحتكارات الرأسمالية فى اوروبا ، واطار المنافسة بينها وبين الاحتكارات الاخرى ، سواء فى أفريقيا نفسها أو فى الولايات المتحدة ، يوجد مسعى أساسى للرأسمالية الغربية اليوم ، هو التكتل فى مواجهة العالم الاشتراكى وتنسيق استراتيجيتها فى المواجهة التاريخية بينها وبين النظام الاشتراكى . وخلال هذه المحاولات ، تتضح تناقضات العالم الرأسمالى الداخلية ـ بين دوله الكبرى ودوله الصغرى ، وبين طبقاته الرأسمالية وطبقاته العاملة ـ وتتضح فى الوقت نفسه حقيقة الاختلاف بين نظام اتحاد الاحتكارات وتنافسها فى العالم الرأسمالى ، ونظام التكامل والتعاون الاقتصادى بين الدول الاشتراكية ، باعتباره مرحلة متقدمة من تقسيم العمل الانتاجى بين دول ذات سيادة تجمعها مصلحة التقدم الاشتراكى ، وتجمع شعوبها وحدة الطبقة العاملة ومصالحها .

■

■ بيرو

أخفق مؤتمر « الفقراء » فى توحيد صفوفهم

وافق الوزراء ورؤساء الوفود الذين يمثلون ٩٥ دولة من دول العالم الثالث والذين اشتركوا فى المؤتمر الوزارى الثانى لمجموعة دول الـ ٧٧ على « **بيان ليما** » الذى يتضمن مبادىء عامة تعبر عن توصيات هذه الدول . وستكون هذه الوثيقة ـ التى تمت الموافقة عليها فى بداية الاسبوع الثانى من نوفمبر الماضى ـ هى أساس المفاوضات التى ستجريها الدول النامية مع الدول الصناعية اثناء الاجتماع القادم لمؤتمر التجارة والتنمية التابع للامم المتحدة الذى سيعقد فى **سانتياجو** عاصمة شيلى فى ابريل عام ١٩٧٢ .

وقد أوضحت اغلبية المندوبين فى المؤتمر ان بيان ليما يمثل خطوة هامة فى توحيد الدول النامية ، وثيقة اكثر « تحديدا » واكثر « واقعية » من ميثاق الجزائر الذى صدر فى عام ١٩٦٧ فى المؤتمر الوزارى الاول لمجموعة السبع والسبعين . الا أن العدد الاكبر من المراقبين السياسيين خارج المؤتمر يرون أن كثيرا من الحلول الوسط وخاصة بشأن المشكلات النقدية والمنتجات الاساسية ، والاجراءات الخاصة بالدول الاقل تقدما ، قد اضعفت المواقف التى كان ينتظر التوصل اليها فى مواجهة الدول الصناعية .

وقد دعا ممثلو الدول الافريقية والاسيوية والامريكية اللاتينية الحكومة الامريكية الى اعفاء الواردات القادمة من دول العالم الثالث من الضريبة الاضافية على **الواردات وقدرها ١٠٪** والى اعادة النظر فى قرار خفض برنامج المعونة الخارجية بنسبة ١٠٪ بحيث تستثنى جميع الدول الاعضاء فى مجموعة الـ ٧٧ من هذا القرار . وطالبوا الدول المتقدمة بالامتناع عن اتخاذ اية اجراءات من شأنها تقييد تجارة الدول النامية . وفيما يتعلق باصلاح نظام النقد الدولى طالب ممثلو هذه الدول بأكبر قدر من المشاركة فى هذه العملية حتى يضع المجتمع الدولى مصالحها فى اعتباره ، وعلى نحو محدد طالبوا بالمساهمة الكاملة للعالم الثالث فى كل مشاورة تمهيدية وفى كل قرار يهدف الى اصلاح التجارة والنظام النقدى العالمى .

وطالبت الدول النامية كذلك **باحياء وتدعيم دور وسلطة صندوق النقد الدولى** ، وكذلك **انشاء نظام مرض لاسعار التبادل** يكون داخل حدود محكمة . ووضع نظام دائم ـ **للضمانات ازاء خسائر التبادل** التى تلحق اضرارا باحتياطيات الدول النامية وطالب المؤتمر **بوضع نظام لتعويض هذه الدول عن الخسائر التى تلحق بها** دون ان يكون لها دخل فيها ، والتى تنتج عن المضاربات على بعض عملات الدول المتقدمة ، كما طالب **بزيادة حقوق التصويت بالنسبة للدول النامية داخل المنظمات الدولية** ، وذلك حتى لا تكون المشاكل النقدية الكبرى من اختصاص الدول العشر الغنية وحدها .

واقترحت الدول المشتركة فى المؤتمر كذلك **انشاء هيئة حكومية تابعة لها للعمل على توحيد مواقف دول المجموعة** بالنسبة لهذه المشكلة برمتها ، وتكون مهمة هذه المجموعة الحكومية متابعة تطور الازمة النقدية وتقديم توصيات الى حكومات الدول النامية بالمواقف المتناسقة التى يمكن اتخاذها ، حتى تقف فى جبهة موحدة فى مواجهة الدول الصناعية ، على ان تضم هذه الهيئة ١٥ عضوا على اساس ان يمثل كل قارة خمس اعضاء . وطالب المؤتمر ، الدول الصناعية **بالغاء الاجراءات التى تستهدف تشجيع سلعة وطنية ما من السلع الاساسية غير ذات العائد والتى تتنافس عليها الدول النامية** كما طالب هذه الدول **بالغاء اى اجراء يستهدف الحد من استيراد احدى السلع الاساسية الواردة من احدى**

الدول النامية ، وبعدم تشجيع انتاج المنتجات الصناعية والبديلة التى تنافس المنتجات الطبيعية لدول العالم الثالث .

وفيما يتعلق بسياسة الاسعار ، اعرب عن أمله فى الا يزداد هبوط اسعار السلع الاساسية، وفى رفعها اذا امكن ذلك .

وأوصى المؤتمر بان تقوم الجمعية العامة للامم المتحدة فى أقرب وقت ممكن **بانشاء صندوق خاص من أجل «الدول الاقل نموا» على ان يحصل على موارده مما تتبرع به الدول المتقدمة والمؤسسات الدولية ، مما** سيسمح للدول الاقل نموا باقامة صناعات للاستفادة من الموادالغذائية والمواد الاولية التى يتم انتاجها فيها وتنويع منتجاتها وتحسين طرق تسويقها . وطالب باعادة النظر فى قائمة الدول الخمس والعشرين الاقل نموا وهى ١٦ دولة افريقية و٨ اسيويةوواحدةمن امريكا اللاتينية . كما طلب من مؤتمر الامم المتحدة للتجارة والتنمية وضع مقاييس جديدة لذلك . وتمتع الدول النامية بمعاملة خاصة فى التمويل ، واعفاء الدول الفقيرة من بعض الالتزامات المالية ، والغاء او خفض الضرائب الداخلية ، والرسوم الاخرى المفروضة على استهلاك المنتجات المدارية بالنسبة لهذه الدول ، والغاء القيود المفروضة على الكميات والعقبات التى تعترض استيراد المنتجات المصنعة او نصف المصنعة لهذه الدول .

وكانت الخلافات بين المجموعات الاقليمية الثلاث آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية داخل المؤتمر حادة جدا ، وهى تعكس مختلف درجات تطور دول هذه المجموعات والمصالح المختلفة للدول الاقل نموا والاكثر نموا ، كما تعكس فى نفس الوقت الارتباطاتالاقتصاديةللدول النامية ، مع دولة متقدمة واحدة او اكثر . وقد صرح الجنرال **ادوارد ميركادو** وزير خارجية بيرو التى عقد فيها المؤتمر بان هذه الخلافات قد نشأت اساسا عن التركيب الحالى للانتاج فى دول المجموعة ، فهذا التركيب الناجم من السيطرة الاستعمارية او الامبريالية قد أجبرنا على ان نقصر اقتصادياتنا علىتصدير المنتجات الاساسية التى كثيرا ما تتنافس مع بعضها البعض » . وعلى اية حال فيما يتعلق بتباين درجات التطور بين القارات ، تبدو امريكا اللاتينية بوجه عام ، اكثر القارات تطورا حيث توجد فى اغلب دولها بدايات تصنيع . ومن الناحية المقابلة فان الدول الافريقية وبعض الدول الاسيوية تقوم أساسا بتصدير المنتجات الخام ، وبعض المنتجات الزراعية . وتوجد هذه الاختلافات الجوهرية ايضا فى مستوى الاجراءات التى تتخذها لجنة الامم المتحدة للتجارة والتنمية التى لا تهتم من الناحية العملية حتى الان سوى بالسلع المصنعة ونصف المصنعة .

وفيما يتعلق بمشكلة النقل البحرى مثلا ، توجد دول امريكا اللاتينية ضمن مجموعة الدول العاملة فى مجال النقل، بينما تعدالدول الافريقية واغلبية الدول الاسيوية من الدول التى تحتاج الى من ينقل بضائعها ، وهذا الفرق يضع تلك الدول فى المناقشات الدولية فى مواقع مختلفة. **وفيما يتعلق بالمشكلات النقدية ، تعارض الدول الافريقية والاسيوية التى تنتمى الى منطقةالفرنك او الى الاسترلينى فكرة اقامة [جبهة موحدة] لدول العالم الثالث مواجهة الدول الصناعية** حسبما تطالب بذلك دول امريكا اللاتينية . اما بالنسبة لمشكلة تصنيف الدول الاقل تقدما ، فان الافريقيين والاسيويين يقولون ان قاراتهم هى المعنية بذلك أولا ، ويرد الافريقيون والاسيويون على طلب دول امريكا اللاتينية بتوسيع قائمة الدول الاقل تقدما ، فيطرحون الفكرة الجديدة عن الدول « الفقيرة الموارد » .

وقد انقسمت الوفود فيما بينها فيما يتعلق بمواجهة المشكلة النقدية العالمية ، اذ طالب بعضها بعقد مؤتمر دولى تشترك فيه دول العالم الثالث ، وطالب البعض الاخر بالعمل من خلال المنظمات القائمة . وفيما يتعلق بالمنتجات الاساسية مثلا ، طالب الافريقيون باعادة النظر فى الاتفاقيات الدولية بشأن بعض المنتجاتمثل **البن والكاكاو** فى اطارمؤتمر الامم المتحدة للتنمية والتجارة ، بينما رفضت دول امريكا اللاتينية اعادة النظر فى هذه الاتفاقيات ، ولا سيما بسبب منافسة المنتجات الافريقية [البن فى ساحل العاج] مثلا فى أسواقها .

ومما يعكس كذلكجانبا منالخلافاتفى المؤتمر انه عندما طالبت دول امريكا اللاتينية فيما يتعلق بالمشاكل النقدية ، بانشاء مجموعة حكومية مشتركة من دول المؤتمر ، تكون مهمتها الاتصال بين هذه الدول وصندوق النقد الدولى ، **عارضت الدول الافريقية ، وبصفة خاصة التى تنتمى منها الى منطقة الفرنك ومنطقة الاسترلينى هذا المشروع ، واعلنت انها تفضل ان تمثلها فرنسا او بريطانيا فى صندوق النقد الدولى على ان تمثلها مجموعة من دول العالم الثالث .** وفيما يتعلق بتصنيع مجموعة الدول « الـ ٧٧ » ، طالبت بعض الدول الافريقية والاسيوية بافتتاح مكتب دائم خاص بالمجموعة فى جنيف ، وقد رفضت دول امريكا اللاتينية ذلك بحجة انها لا تريد للمجموعة ان تكتسب طابعا بيروقراطيا. كما حدث خلاف فى المؤتمر بشأن جعله هيئة دائمة ، بين دول افريقيا وبعض دول آسيا التى تريد انشاء جهاز دائم للدول الـ ٧٧ ، وبين دول

امريكا اللاتينية التى رفضت ذلك بدعوى انه يعطى سلطة التصرف فى مشكلات معقدة للغاية
وقد طالب مندوبو **مصر وليبيا وسوريا** باعادة فتح قنـاة السويس بشرط انسحاب القوات الاسرائيلية من الاراضى المصرية المحتلة ، واوضح **محمد عبد الله مرزبان** رئيس الوفد المصرى ، انه ينبغى ان نحدد بوضوح الوسائل اللازمة لوضع حد للاضرار التى يسببها اغلاق القنـاة « ولذا ينبغى ان نعالج أصل الداء ، اى ان ننهى تماما الاحتلال الاسرائيلى للاراضى العربيـة . وأوضح رئيس وفد ليبيا فى كلمته : « أن الوجود الاسرائيلى فى الاراضى العربية يضطر الدول العربية فى هذه المنطقة الى تخصيص جزء كبير من مواردها لميزانية الدفاع. كما تقرر أن تطرح مشكلة اغلاق قناة السويس فى الاجتماع القادم لمؤتمر التجارة والتنمية التابع للامم المتحدة . وقد أوضحت لجنة الصياغة التى كلفت ببحث مشكلة المرور فى قناة السويس ان استمرار اغـلاق القناة يرجع الى احتلال اسرائيل للاراضى العربية، واضافت تقول تعليقا على الاثار السيئة المترتبة على اغلاق القناة امام الملاحة بالنسبة لاقتصاد عدد كبير من الدول النامية ، ان انسحاب اسرائيل شرط ضرورى لاعادة فتح قناة السويس .

ومن الجدير بالذكر ان **هوشانج أنصارى** وزير الاقتصاد الايرانى دعا الدول النـامية الى ان **تحذو حذو الدول المصدرة للبترول لكى تستخلص تنازلات من الدول المتقدمة** . وأشار فى المؤتمر الى أن أهم المنجزات فى مجال المواد الخام ، هو النجاح الذى احرزته منظمة الدول المصدرة للبترول خلال مباحثاتها مع شركات البترول العالمية الرئيسية وان الدول المنتجة للبترول قد نجحت فى فرض اعـادة النظر فى اسعار البترول الخام ، وأسمعت صوتها من أجل تحديد هذه الاسعار ، ويرجع ذلك الى حد بعيد الى وحدة الدول المصدرة للبترول والانسجام الكامل فيما بينها ، ومشاركتها الفعالة فى المفاوضات، وأشاد انصارى بهذه النتيجة على أساس انها أول انتصار هام فى النضال الذى تشنه الدول النامية من أجل ايجاد حل عادل لمشكلة تصدير موادها الخام باسـعار عادلة الى الاسـواق العالمية . ■

رسالة من موسكو من بيكاسو .. الى دوستويفسكى .. الى يفتشنكو

ان تتبع الحياة الفكرية المتطورة والمتجددة ، لبلد فى حجم الاتحاد السوفيتى ، تسكنـه مائـة وسبع عشرة قومية وشعبا ولكل هؤلاء جرائدهم ومجلاتهم الادبية والفكرية ، لامر يبدو فى حدود المستحيل بالنسبة لفرد ، ولذلك نقتصر هنا على أهم الاحداث البارزة التى استرعت انتباه المهتمين بشـئون الادب والفن ، أو اثارت النقاش ، أو طرحت رأيا جديدا ، الى جانب عرض أهم الاعمال الفنية والكتب الصادرة والمسرحيات وغير ذلك من ضروب النشاط الفنى والادبى .

رأى سوفيتى فى بيكاسـو :

لا يعرف السوفييتيون شيئا كثيرا عما يسمى بالفن الحـديث ، فالمعـارض السـوفييتية — وبالأحرى المتاحف — تكاد تخلو من اية لوحة تمثل المدارس والاتجـاهات الحـديثة كالتكعيبية أو الوحشية ، أو السوريالية أو المجردة أو غيرها . ذاك انها قيمت منذ زمن بعيد على انها فن شكلى ، وانها بعيدة عن الواقعية الاشتراكية التى يبدو الآن فى السنوات الاخيرة انها تجد من يطلقها من القيود « الجدانوفية » المرهقة ويعيدها الى منابعها الصافية التى يمثلها فرسـانها الاوائل جوركى وماياكوفسـكى فى الادب وميرخـولا واخلويكوف فى المسرح ، وايزنشتاين وفيرتوف فى السينما وغيرهم ممن كانوا صدى حقيقيا لعالم جديد ، امتزجت فيه الثورة بالمعاناة ، ولم تبق نصوصا فاقدة الروح كما كان الامر فى كثير من انتاج العهد السـتالينى فى منتصف الثلاثينات وبعدها .

من الصحيح أن بعض الاهتمام قد انصب على كبار رسامى العصر اليساريين كرسامى المكسيك العظام دييجو ريفييرا وسيكيروس واوروزكو ، وعلى الايطالى كوتوزو ، وعلى الفرنسى — مع بعض التحفظ — فرنان ليجيه ، ولـكن وضـع بيكاسو كان محيراحقا ، فباستثناء بعض اللوحات التى اقتنـاهـا متحفا الارميتـاج فى لينغـراد وبوشكـين فى موسكو ، والتى تنتمى كلها الى الفترتين الزرقاء والوردية .. لم يعرف المشاهد العادى بعد ذلك عنه سـوى حمامة السـلام المعروفة ، والجرنيكا التى هى أشهر لوحة فى القرن العشرين .

ومنذ الستينات بدأت بعض الكتب تظهر عن بيكاسو ، فهو على كل حال ظاهرة لا يمكن ان

تتجاهل ، وهو أعظم فنان يسارى طرح قضايا التجدد فى الشكل والمضمون بصورة جدلية ، وحيرة الناقد السوفييتى ، الذى اعتاد على أشكال معينة تكاد تبدو فى بعض الاحيان ثابتة ، كانت حيرة حقيقية ، فالفنان ملتزم ، بل هو عضو فى الحزب الشيوعى الفرنسى ، ومواضيعه تعكس خير ما فى آمال العصر ، ولكن أشكاله الغامضة فى بعض الاحيان وغير المفهومة فى أحيان أخرى تبدو له غير مبررة ، وان كان لم يصل الى درجة ادانتها فهو قد عبر عن شكوكه حول جدواها .

وها نحن ننقل الآن باختصار بعض أفكار المقال الذى كتبه الدكتور فى الفن **تشيجودايف** بعنوان « **بيكاسو وعالمه المأساوى الوضاء** » ونشره فى الجريدة الادبية بمناسبة بلوغه التسعين وبمناسبة افراد متحف يوشكين فى موسكو معرضا يضم اعماله الموجودة فى الاتحاد السوفييتى :

« يرتبط باسم بيكاسو لدى ابناء القرن العشرين تصور عالم فنى معقد ، غنى وواسع الى حد عجيب ، يعكس فى داخله الآمال والالام والشكوك والاندفاع والمعرفة الهادئة بالحياة ، ولا يوجد فى قرننا فنان اشتهر ودرس بدقة من مختلف وجهات النظر ، وظل حتى الوقت الحاضر غامضا جدا ، قريبا وبعيدا فى آن واحد من جمهوره مثل بابلو بيكاسو .

ولم تكن جميع أعمال الفنان ترضى المشاهدين دون جدال أو كانت مفهومة ومقبولة لديهم . ولكن فى فن بيكاسو الكثير من الاكتشافات الرائعة ، والكثير من قمم فن القرن العشرين الى تساوى فى قيمتها انجازات عظماء فنانى القرون الماضية ، قمم كافية وحدها ليخلد عن المعاصرين والمقبلين .

قيل عن بيكاسو كثيرا بأنه يشبه **بروتيه** الذى يغير طابعه وصورته باستمرار ، وأنه كائن لايمكن الامساك به أو تفهمه ! . لا أعرف ما اذا كانت هناك ضرورة لاعطاء تقييم لكل خطوة يخطوها بيكاسو ، وما اذا كانت صحيحة أو خاطئة . فكل انسان يستطيع أن يختار من الخضم الهائل لاعماله المتنوعة ما هو قريب الى نفسه ، ولكن لدى بيكاسو أعمالا ابدعتها ريشته منذ بداية القرن حتى أيامنا هذه ، وجدت طريقها الى وعى المشاهدين فورا ، باعتبارها مفعمة بالسحر العظيم ومن روائع الفن المرهف الحسى والعميق والتى دخلت فورا حرم التراث الكلاسيكى للثقافة الفنية الانسانية . منها أعماله الرائعة فى « الفترة الزرقاء » و « الفترة الوردية » ومنها « المتسلسلة الاسبانية » من أعمال الليتوجرافيا ، وكذلك أعمال السيراميك ، وبعض الصور الشخصية مثل صورة سيلفيتا دافيد .

لقد عبر بيكاسو منذ بداية القرن عن قلقه العميق وألمه من أجل الناس الذين يشوه سوء البناء الاجتماعى حياتهم ، وتشف اعماله فى الثلاثينيات وسنوات ما بعد الحرب عن روح التمزق المخلص العميق .

آنذاك ظهرت « جرنيكا » التى الهبها غضبه على الرجعية الفاشستية القاسية ايام الحرب الاهلية فى أسبانيا ، وكان ايليا اهرنبورغ على حق عندما قال لى عن هذه اللوحة بأنها اهم صورة فى القرن العشرين رسمت بأسلوب غير واقعى .

لم يكن فن بيكاسو ابدا يقف فى البرج ، لقد كان فنه اشتعال الروح .. واننى أقدم له عميق الشكر .. »

دوستويفسكي وروح العصر :

عقد بمعهد جوركى للادب العالمى ، ولمدة ثلاثة أيام مؤتمر علمى لبحث أدب دوستويفسكى القيت فيه ٢٨ تقريرا وكلمة ، وقد احتشدت قاعة المؤتمر طيلة أيامه بعدد كبير من العلماء والادباء والضيوف الاجانب وطلاب الادب مما يدل على نجاحه الكبير .

وهذا النجاح الكبير الذى لقيه المؤتمر يعكس الاهتمام العميق الذى يلقاه اسم دوستويفسكى .. هذه الظاهرة الادبية الشاملة المعقدة المرتبطة دوما بحياة العصر . وقد وصفه رئيس لجنة الاحتفالات السوفييتية بيوبيل دوستويفسكى البروفيسور سوتشكوف بأنه « احدى القوى الجبارة للتطور الروحى للانسانية ، اذ انعكست فى ادبه افكار واندفاعات ذات أهمية تاريخية ومن أهداف الادب السوفييتى الرد على التفسيرات الملفقة والمغرضة لادب هذا الكاتب العظيم ، ودراسته باعتباره ظاهرة حية كما أن أعمال دوستويفسكى المبكرة لم تدرس دراسة وافية بعد ، رغم أنها فتحت صفحة جديدة فى الادب الروسى ، كما تنبغى دراسة أفكار المؤلف عموما ، وبالاخص فكرته حول « الارتباط بالارض » فى آخر أيامه » .

ومن التقارير التى قدمت الى المؤتمر «تأثيرات غريبيدوف عند دوستويفسكى » و « هرتسن فى البحوث الروحية لدوستويفسكى » ، و « دوستويفسكى وتورجنييف » و « بعض خصائص الاسلوب الفنى لدى شيدرين ودوستويفسكى » و « دوستويفسكى وليسكوف» و « الانسان فى عالمى دوستويفسكى وتشيخوف» و « دوستويفسكى كما يراه بلوك » و « ابطال

دوستويفسكي والكتاب الانجليز المعاصرون » ، و « دوستويفسكي وشكسبير » و « الرواية الاجتماعية أم الطوفان الوجودي » و « نقاشات معاصرة حول دوستويفسكي في ايطاليا » ، و «دوستويفسكي كما يراه الادباء الصينيون » ، و« دوستوييفسكي والقضية المكسيكية » و « من المختبر الادبي للجريمة والعقاب » .

والقائمة كما يرى القارىء في غاية الاهمية للمتتبع أدب دوستويفسكي ، وسنعرض في رسالة قادمة بعض ما جاء في هذه الدراسات .

يفتشنكو والنقاد :

ماهي مسئولية الناقد ؟ والى أي مدى يؤثر النقد على الحياة الادبية والفكرية في الاتحاد السوفييتي ؟ هل هناك أزمة ناقد حقيقي أم لا ؟ لمن يوجه النقد ؟ لماذا — في أكثر الاحيان — يوجه النقد الى الموضوع ويهمل نقد الشكل ؟

هذه الاسئلة وغيرها تطرح الآن في أكثر الصحف والمجلات السوفييتية انتشارا ذلك أن هناك فيما يبدو بعض التناقض بين ذوق الجمهور وذوق النقاد ، فكم من فيلم اثنى عليه النقاد فسقط جماهيريا « الحرب والسلام » « والتحرير » ، وكم من مسرحية تفنن النقاد في تبيان عظمتها ، ولكن مقاعد المتفرجين ظلت خاوية مع ذلك كمسرحيات باجودين وغيرها وهكذا الامر في عديد من النشاطات الادبية والفنية فماذا تعني هذه الظاهرة ؟

هذه الظاهرة تعني أن الاستيتيكا (علم الجمال) السوفييتية لا يؤثر فيها التأثير الحاسم النقاد السوفييتيون وانما يصنعها ويؤثر فيها الكتاب والشعراء والفنانون الموهوبون وهم يمارسون تأثيرهم الحاسم من خلال اعمالهم ، واذا استثنينا بعض النقاد المتعمقين الذين يسايرون العصر كالناقد المسرحي الكبير كوميسارجيفسكي وغيره ، نجد تخلفا واضحا لدى النقاد في التحمس للجديد وفي مسايرة التطور المذهل الذي يطرحه عصرنا المعقد عصر السوبر تيكنيك ، فحتى الان يتساهلون أمام الشكل المبتذل اذا كان الموضوع يتناول قضية سياسية أساسية ، وتفرد الصحف والمجلات صفحاتها ، ويخصص التليفزيون والاذاعة برامجها لسيل لا ينقطع من القصائد التافهة ، والقصص المعادة ، والبرامج الشاحبة التي تمليها مناسبات عظيمة وخالدة كثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى وعيد أول ايار ويوم النصر على الفاشية وغير ذلك من المناسبات . وكم من مرة ندد ماياكوفسكي بهذا الموقف ! وكم من مرة أشار جوركي وحذر من ابتذال المناسبات العظيمة واستخدامها كحصان طروادة يختبىء داخله مجموعة من عديمي الموهبة والمتسلقين !

عن هذا الموضوع بالذات كانت مقالة الشاعر يفتوشنكو في « الليتيراتورنايا جازيتا » والى القارىء بعض ما كتبه :

« عاتبت مرة أحد الشعراء الذين احترمهم لعدم صراحته وضيق رايه اللذين ظهرا في احدى مقالاته المنشورة حول الشعر ، والذي وجه فيها سهام نقده ضد العيوب الموجودة فعلا لدى اكثر الشعراء موهبة من جيلنا ، وهذا أمر لا بأس به ، فأكثر الدروس قسوة مفيد للشباب ، لكن مبعث عتابي كان يعود الى انتشار هذا الموقف في النقد .

فقد حاول بعض كاتبي المقالات أمثال كونيايف وبيرديف ولوبانوف وكوجينوف تصوير المسألة كما لو أن الخطر الاكبر على شعرنا يمثله فوزنيسينسكي واخمادولينا واكودجافا وفينوكوروف . ولا اريد القول ان شعرهم يخلو من العيوب أو أن انتقاد أصحاب المواهب من الامور المحرمة» ولكني أقول ان حق انتقاد أصحاب المواهب لا يمتلكه الا من يواصل النضال بدأب ضد عديمي الموهبة .

ويستطيع النقاد بالطبع أن يجدو تبريرا يبدو لهم مقنعا بالقول « أن الكتابة عن الشعراء الموهوبين هو الذي يبعث على الاهتمام ، أما الباقون فلا وجود لهم لانهم خارج اللغة » .

ولنحصر الحديث بالمسألة الاخلاقية البحتة ، فليس عيبا أن نحدث الاصدقاء بشرف وبصراحة عن اخطائهم ، ولكن العيب ان نقول الحقيقة للصديق فقط في الوقت الذي نهز فيه اكتافنا دون مبالاة عندما نرى انعدام الموهبة لدى الآخرين .

فالنقاد مثلا لا يبدون اي التفات للاشعار المنشورة في الجرائد ، واذا اخذنا بعين الاعتبار صعوبة الحصول على دواوين الاشعار ، فان القارىء يتعرف على الشعر عن طريق الجريدة ، التي تنشر في الغالب النتاج الرخيص . حقا ان القارىء يود في عيد أول مايو أن يقرأ اية قصيدة جيدة ذات موضوع وطني أو شاعري ، بدلا من أشعار المناسبات الجاهزة المبتذلة .

وقد حدث أيام فتوتي ان نشرت في يوم واحد خمسة اعمال شعرية متشابهة في جرائد مختلفة ، ولم يلفت أي ناقد نظري الى هذا الموقف غير الجدي من الكلمة .

انني اطلب من النقاد أن لا يقتصروا في نقدهم على معالجة معاني القصائد ، بل الا يتوانوا عن نقد القصيدة من حيث اللغة ، واقترح اصدار مجلة تنشر اعمال الشعراء الشباب والمخضرمين الى جانب مقالات نقدية صارمة جدا لا تتناول المعنى فقط وانما المبنى أيضا » .

سعيد حورانية



وحيد النقاش

فقدت « الطليعة » الشهر الماضي واحدا من ألمع الكتاب الشباب الذين شاركوا في تأسيسها منذ كانت حلما يراود محرري وكتاب « صفحة الرأي » في الاهرام مع بداية الستينات . وقد تخصص وحيد ابان تلك الفترة في الكتابة عن الفنون الشعرية والمسرح المصري ، وتميزت كتاباته بالتركيز على البعد الاجتماعي في العمل الفني دون اغفال العناصر الجمالية، الموروث منها والمأثور عن انجازات العصر.

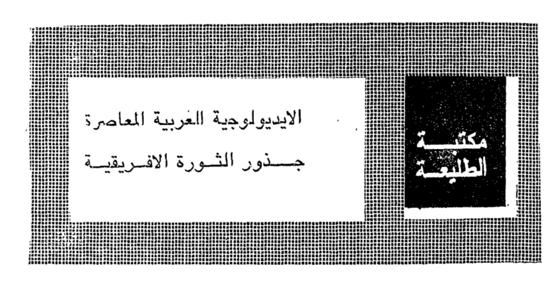
وقد اخلص وحيد النقاش للنقد المسرحي اخلاصا باعد بينه وبين المناخ غير الصحي الذي ساد بين بعض الاقلام النقدية في بلادنا ، بحيث انه استطاع أن يتقي الانزلاق في مهاوي العلاقات الشخصية ، ومغريات الوهج السريع، وان يتفرغ تماما للثقافة درسا وتحصيلا وانتاجا . وكان قراره عام ١٩٦٧ بالسفر الى باريس بهدف استكمال ادوات البحث العلمي الجاد والعميق ، تتويجا اصيلا لهذا التفكير الاخلاقي في تكوين الناقد ..

ولقد صادفت وحيد اثناء وجوده في فرنسا العديد من المشكلات المادية والصحية ، ولكنه لم يتحول ابدا عن هدفه في الحصول على الدكتوراه . وقد كان موضوعه حول « تطور الواقع الاجتماعي في مصر على خشبة المسرح » رمزا دالا على ان انقطاعه للدراسة الاكاديمية في الخارج ، لم يقطع الصلة بينه وبين وطنه ، بل على النقيض من ذلك كان هذا الانقطاع مرحلة اعداد وتدريب على أحدث الاسلحة العلمية ، ليعود الى بلاده مقاتلا ومناضلا على جبهة الثقافة العربية التقدمية .

وقد وقفت الى جانبه طيلة السنوات الاربع الماضية زوجته الفنانة **فاتن انور** ، كذلك قدمت له اسرة «الاهرام» كل ما تستطيع من أساليب العون فرسخت في حياتنا الصحفية تقليدا جديدا في رعاية الكتاب والفنانين . ولكن وحيد النقاش الذي نجح في التغلب على كثير من الازمات وحقق انتصارا علميا باهرا بانتهائه من دراسة الدكتوراه لم يشأ له الموت أن يحقق الغاية التي ناضل من أجلها طويلا وتألم في سبيلها كثيرا لذلك فان فجيعتنا فيه نحن اسرة « الطليعة » اكبر من أن تعبر عنها هذه الكلمات ، ولا يعوض خسارتنا فيه الا أن تتحقق آماله على أيدي غيره من أبناء جيله . لقد ضرب وحيد مثلا رفيعا لدرجة الاستشهاد ، وعلى زملائه الذين دفع عنهم الثمن حتى الموت ، أن يجسدوا هذا المثل الفريد في حياتهم وانتاجهم .

واخيرا ، فان من حق وحيد النقاش ومن حق قرائه ، أن تترجم رسالته وتطبع فهذا دينه في اعناقنا جميعا ، نحن الذين لاينبغي أن تغرقنا مشاعر الحزن ، فننسى الوفاء . ■

« الطليعة »



الأيديولوجيــة العــربيــة المعــاصرة

تاليــف :

عبد الله العروى

محمد عيقانى

عــرض :

عبد الحميد محمد على

الناشر :

دار الحقيقة للطبع والنشر
ـ بيروت ـ ١٩٧٠

كثرت الكتابات العربية فى الفترة الاخيرة عن مساهمة العرب فى بناء الفــكر والحضارة وعن مركزهم الفــكرى والحضــارى فى عالم اليوم ومستقبل ذلك الفكر وتلك الحضارة ، كل ذلك فى محاولة لاظهار الفكر العربى كفكر مستقل ومتميز عن غيره من منابع الفكر الاخرى وان كان يتفاعل معها تأثيرا وتأثرا .

والكتاب الذى نحن بصدده يبحث فى **مفهوم الايديولوجية العربية المعاصرة محاولا تتبع مراحل الفكر العربى ، ومحاولات تفهم الذات العربية وعــلاقة الفــكر العربى بالفــكر العــالمى ، موضحا مركز الماركسية والديالــكتيك فى الفكر العربى المعاصر وكذلك أساليب التعبير العربية .**

■ يشير المؤلف فى البداية الى ان الايديولوجية ليست فكرة مجردة أو عقيدة ولــكنها الفكر غير المطابق للواقع ، وتختلف عن محض الكذب وعن الخطأ المنطقى او النقص الطبيعى فى وســائل التخيل ، ويقتضى مفهوم الايديولوجية وضــعا اجتماعيا وتاريخيا خاصــا يعيش أثنــاءه الفرد المنتمى للجماعة ، وضعا يجعله عاجزا عن ادراك تعبير صادق تماما عن واقع حياته العــامة بما تحويه من علاقات سياسية واجتماعية وذكريات

جماعية وتطلعات للمستقبل . ويرى أنه كي يبحث العرب عن ذاتهم يلزمهم بحث التاريخ الحقيقي لفكرتهم عن الغرب ، كما يركز على دراسة علاقة العرب بماضيهم لان ذلك يدفعهم الى الامام ويعيد ثقتهم فى المستقبل ، ويضيف أنه اذا كان هناك قاسم مشترك بين جميع الناس اليوم وخاصة بين العرب والغرب فان مستقبلا مشتركا يرتسم فى الافق ويضفى النسبية على جميع المسائل المتعلقة بالذات والماضى ، وأن وضع العرب الانتقالى مفعم بالتساؤل والشك اذ كيف يكتسبون شكلا فنيا أو أدبيا قادرا على التعبير تعبيرا مطابقا للمرحلة الحاضرة ويكون ذا قيمة عالمية ؟

وفى رأيه أن فكرة الايديولوجية تستخدم فى أحد المعانى الثلاثة الاتية : ١ — بمثابة انعكاس منفصل عن الحقيقة الواقعة بسبب التحليل الذهنى المستخدم ٢ — بمعنى نظام فكرى يحجب الواقع لانه مستحيل أو صعب التحليل ٣ — بمعنى بناء نظرى مأخوذ من مجتمع آخر لا وجود له فى الواقع ولكنه فى طريق التكوين وبعبارة أخرى يستخدم بمثابة نموذج كى يحققه العمل .

■ ويتناول الدولة القومية [الاشتراكية] فيرى أنها — من الوجهة الاقتصادية — تكافح ضد الاستعمار الامبريالى لكنها لاتزيله ، ومن الوجهة السياسية والاجتماعية يرى أنها فى طريقها الى البرجوازية — مع مايستلزمه ذلك من خصائص اجتماعية وثقافية — تحت قيادة فئة اجتماعية غير البرجوازية .

ويتساءل : هل تتحدد الثقافة مباشرة بقاعدتها المادية ؟ وهل تتحدد الايديولوجية فقط بالمجتمع الذى تعمل فيه والطبقة التى تستخدمها ؟ وبأى وجه يظهر الاتصال بين ثقافتين ؟ ويضيف أنه منذ نهاية القرن التاسع عشر يتساءل العرب : من هو الغرب ؟ ومن هو أنا ؟. وقد يرى أن سر تفوق الغرب هو اهتمامه بالكتابة عن القارات الاخرى ولكن الكاتب لايوافق على ذلك وحجته فى هذا وجود رسائل عربية حقيقية مختلفة تهتم بالشعوب الاخرى كأوصاف الرحالة ، وتقارير الصحفيين ... الخ . ويميز الكاتب بين أساليب ثلاثة فى الايديولوجية العربية المعاصرة لفهم القضية الاساسية للمجتمع العربى وهى :

أ — الاسلوب الدينى : — وفقا لهذا الاسلوب يوجد تعارض بين الشرق والغرب فى اطار التعارض بين المسيحية والاسلام ، ولا يوافق علماء الاسلام على أن ضعف العرب ناتج عن التعصب والخرافات الاسلامية ، لانهم لايجدون فى تعاليم الاسلام سوى تسامح وايمان مدعم بالعقل ، كما يرفضون الادعاء بأن قوة الغرب مؤسسة على العقل والحرية ويستشهدون بالكتاب المعادين للاكليروس ، وبسجن جاليلى واهانة ديكارت ، واضطهاد روسو . وعن سر تدهور الاسلام — يجيب الشيخ محمد عبده بقوله

[ان صح الحكم على الاديان بمايشاهد من أحوال أهلها وقت الحكم ، جاز لنا أن نحكم بأنه لاعلاقة بين الدين المسيحى والمدنية الحاضرة] ، كما يرى علماء الاسلام المعاصرين ان سر ضعف العرب هو عدم اخلاصهم لرسالة الله وانه اذا توفر ذلك الاخلاص لعاد الاسلام الى سابق ازدهاره ويمثل هذا الاسلوب محمد عبده .

ب — أسلوب رجل السياسة : — وبمرور الزمن وبعد دراسة التاريخ الغربى فى حد ذاته ينتهى الامر بالاقتناع بأن العقل سواء قدم الى أوروبا من الاندلس أو من أى مكان آخر فقد وجد فيها التربة الملائمة ، ويرى رجل السياسة ان انحطاط العرب كان سببه عبودية قديمة وان الاسلام طالما كان حرا كان متسامحا منتصرا وحين لوثته الدولة العثمانية تغيرت طبيعته وانهار ، وظلت الدولة العثمانية منتصرة طالما كانت أوروبا مستعبدة ، وحين تحررت أوروبا فى عهد الاصلاح راحت تنتصر فى كل مكان ، ويمثله لطفى السيد .

جـ — أسلوب رجل التكنولوجيا : يرى أنصار هذا الاتجاه أن الحرية السياسية والمجالس النيابية لاتعطى القدرة ، وأن الغرب قد ساد لقوته المادية التى اكتسبها بالعلم والعمل ، وان اليابان قد تقدمت لانها سارت على النهج الغربى ، ويؤكد ذلك سلامه موسى ممثل هذا الاسلوب بقوله : — [ان الحضارة الان هى الصناعة وثقافة هذه الحضارة العلم] .

أما جمال الدين الافغانى فكان أول من اعتبر الشرق والغرب كائنين تاريخيين متضادين ، ومن أقواله المأثورة [لن يحيا الشرق مالم يحكمه رجل قوى عادل بموافقة سكانه ودون استبداد] ويسميه علال الفاسى [اشتراكى ماقبل سنة ١٩١٧] ، هذا ورغم التفتح الذى أبداه الكثير من العرب أمثال لطفى السيد وسلامه موسى الا أن نظرة البرجوازى الغربى للمجتمع العربى قاصرة وتتركز فى العقيدة الاسلامية فقط ، كما لا يرى من المجتمع العربى سوى وجوهه الاستبدادية أو الاقطاعية .

ويذكر الكاتب ان المغرب العربى لم يدخل حقا فى اتصال ثقافى مع المشرق العربى الا من خلال كتابات محمد عبده وتلامذته ، وقد تأثر علال الفاسى كثيرا بمحمد عبده ، ويميز الفاسى بين اسلام حقيقى متسام ، واسلام تاريخى ظاهرى يمكن فقده دون ضرر يذكر ، وقد اعتبره الغربيون رجعيا ، كما اعتبره الجيل الجديد مدافعا عن الامتيازات البرجوازية ، ولكن حقيقة الامر أن علال ليس ايديولوجى طبقة معينة ، بل يمثل مرحلة من الثقافة العصرية المغربية وعملية البناء الاجتماعى المغربى لذلك اتبع على أنه رمز أكثر منه سياسى ، الا أن الليبراليين قد تعقبوه ودفعوه الى معارضة ضمنية ودائمة بعد أن تولوا

القيادة السياسية للبلاد ، وبعد أن بهرت الانظار اصلاحاتهم فى مجالات متعددة ، وهم على اختلاف الوانهم قليلو الاهميـة اذا قورنوا بليبراليى المشرق العربى مما يضاعف من سطحيتهم ويبيح المجال لظهور نزعة رجل التكنولوجيا ، من ذلك ماذكره المهدى بن بركة فى كتاب له صدر سنة ١٩٥٨ بعنـوان « نحو مجتمع جـديد » من أن [القيـادة الشعبية القوية : ووضـع البرامج الاقتصادية والاجتماعية ، واشتراك الشعب فى صياغة وتنفيذ سياسة دولته ، تضمن النجاح للدولة] ، وهـذا الوعى الداعى للتكنولوجيـا لايهتم بعلم النفس والاجتماع ويحمل فى طيـاته ممهدات أو بذور حل عسكرى .

■ ويستطرد الكاتب فى الحديث عن الدولة القومية فيرى انهـا دولة الدعوة للتكنولوجيـا والتصنيع ، ودولة البورجوازية الصغيرة الظافرة وينقسم العالم فى نظر الداعين للتكنولوجيا الى أقوياء وضعفاء ، وتفرض هذه الدولة قيد العقل على مجتمع مازال تحت تأثير اللهـو ، وتفتح للمجتمع كله طريق المستقبل ، ويؤدى البحث عن أصالة هذه الدولة القومية من جانب السلطة، والمعارضة المثقفة الى توليد ايديولوجية الاشتراكية القومية ، ذلك أن الدولة القومية ــ كى تتصالح مع كل مجتمعها ــ ترفع راية الاشتراكية القومية متمثلة فى زيادة الانتـاج والتخطيط والتـأميم والعدالة الاجتماعية ، هذا وتحبذ النزعة الغربية المعادية للامبريالية نظرية الثقـافة القوميـة ، والديناميكية الثقافية لهذه الدولة هى ديالكتيك يتخطى ــ تدريجيا ــ التعارض بين نزعة الدعوة للتقنيه [التكنولوجيا] والثقافة القومية فى نظرية الاشتراكية القومية ، وهذا الديالكتيك ليس مقالا فى كل أجزاء المجتمع العربى لانه لايزال فى بدء تطوره . ويقول الكاتب ان حاضر المغرب هو ماض يتجدد ومستقبل مسبق ، فرجل الدين ينتقد النزعة الليبرالية التى هى حاضره والدولة القوية [الاشتراكيـة] التى هى مستقبله القريب ، ويحاول أن يستخدم لصالحه الدعوة الى الثقافة القومية ، كما ان الحاكم الليبرالى المتأثر بأفكار مونتسكيو يستند للبقاء فى الحكم الى انعـدام الوعى الدينى ، واخفاق الدولة القومية ويعتبر أن سياسته هى أفضل طريق نحو الاشتراكية، أما داعية التكنولوجيا المتسرع للوصول الى الحكم فيميل نحو التطرف ويستعيد لهب النزعة الوضعية التكنوقراطية ويسعى للوصول الى التطور النهائى وهو ماركسية مبسطة .

■ وفى تناول الـكاتب لمشكلة بحث العرب عن ماضيهم يقول ان تعريف الذات ــ بالنسبة للعرب ــ هو تجديد الاستمرار التاريخى وخاصة من نهاية عملية التطور ، اذ ليس رجل الدين ، ورجل السياسة ، ورجل التكنولوجيا فى حاجة ــ فى آن واحد ــ الى التاريخ ، فالاول يهتم به فقط حين يتحالف ــ فى الدولة القومية التى يمقتها ــ مع المتحمسين للاصالة من برجوازية مقهورة ومثقفين يائسين ، كما ان الثانى [رجل السياسة] ــ وهو فى ذروة قدرته ــ لايعبأ بالتاريخ وكذلك رجل التكنولوجيا . ويفرق الكاتب بين أنواع ثلاثة من التاريخ : ــ أ ــ التـاريخ الاعتبارى الذى يهتم بالايديولوجية وتنتقده النزعة الوضعية عربية وغربية على حد سواء . ب ــ التاريخ المقدس ويمثل انتقال المرء من الثقـة بالذات الى اليأس كلما اكتشف المجتمع العربى فشله فى محاولته الجديدة للوصول الى مستوى الغرب، وتتميز الثقافة القومية خلال فترة التاريخ المقدس بأنها خارجية عن المجتمع ،وانها ثقافة مجتمع ميت انتهى بانتهاء الاسلام ، كما انها ثقافة انتفاعية تتخذ وسيلة لكسب العيش جـ ــ التاريخ الوضعى الذى لم ينضج الا فى القـرن التاسع عشر ، ولكنه لايزال فى دور التكوين فى المجتمع العربى وهو يتطلب وثائق محايدة غير متوفرة فى معظمهـا ، وان كان العرب يستخدمون طرق التحليل الوضعية على يد كل من عبـد العزيز الدورى ، وشكرى فيصل وغيرهم .

ويخلص الكاتب الى انه وان كان من الصعب نفى وجود التاريخ المقدس والوضعى فان معظم رؤيا العرب للتاريخ اليوم هى رؤيا ايديولوجيـة تتبع المنهج الاعتبارى ،

■ ويبحث الكاتب علاقة العرب بالعقل العالمى فيقول ان البحث عن الماضي يعتبر مقدمة للتساؤل حول: ما العمل ؟ أو اية طريقة يجب استخدامها؟ وعلى ذلك يجيب رجل التكنولوجيـا بضرورة استخدام الاسلوب الذى يقـدمه العقل الفنى ، أما رائد الاصالة فيرى ضرورة اسـتخدام عقل الغريزة والشعور ، عقل لون معين للوجود . فالدولة القومية تعيش اذن منطقين : أحدهمـا للعمل والاخر للفكر وبعبـارة اخرى أحدهمـا لتغيير ذاتها والاخر لتفهم ذاتها . ويحاول الغرب ان يقدم للوعى العربى ثلاثة طرق رئيسية لدراسة ذاته وهى : ــ أ ــ الاول يطبق على الظواهر البشرية القواعد المستخدمة فى العلوم الطبيعية وتهتم بالحاضر فقط ب ــ الثانى ينطلق من الوقائع البشرية ويحددها كعمليات تطور وينظر اليهـا ــ فى آن واحد ــ من وجهة نظر الحاضر والماضى والمستقبل جـ ــ الثالث يحاول الخلط بين الاثنين

ويتساءل الـكاتب عن سر انغلاق العرب عن النزعة الوضعية الغربية حين تطبق على مجتمعهم رغم أن الاسلام الحديث يؤمن بالنزعة الوضعية المثلة فيما يقوله الشيخ محمد عبده [تفكروا فى خلق الله ولاتفكروا فى ذات الله] ويرى المؤلف ان هذا الانغلاق ليس كليا ، كما أن الغرب قد استغرق عدة قرون حتى يتكيف مع أوضـاعه الحالية ، ويضيف الى ذلك أن أحكام الشريعة الاسلامية ــ وخاصة فى مسائل الربا ــ كانت

تقف أحيانا حجر عثرة فى طريق الانفتاح على الغرب .

■ ويناقش المكانة التى تشغلها الماركسية ــ بصفتها احدى لحظات الوعى العربى ــ فى عملية تطور الايديولوجية العربية ، وبعبارة أدق يتعلق الامر برؤية كيف يستخدم الوعى العربى القطاع الفكرى الماركسى لاغراضه الايديولوجية، وهنا يميز الكاتب بين خطين أولهما اجتماعى ويسمى حقيقى أو واقعى ، وثانيهما ايديولوجى ويسمى موضوعى وتندرج تحته الماركسية ،وفى هذا الصدد يمكن القول أن رجل الدين الذىيعيد بناء تاريخ الاسلام تبعا للفقه السنى يقوم بذلك على أساس مبدأ [وحدة الطائفة] ، ويقلل من قيمة الحاضر البرجوازى للدولة البرجوازية لانقسامها الى أحزاب وجماعات ، وقد حاول بعض الغربيين المغرضين ايجاد علاقة بينمفهوم الوحدة فىالاسلام والمفهوم الفاشستىالشمولى، ويرون كذلك أن هذا الحلالفاشى لايقدمالسياسة الاقتصادية العلمية التى تتطلبها الدول العربية وتدريجيا تتحول دولة أحلامهم من فاشية الى ماركسية ، أما الليبرالى فيرى أن الماركسية هى أكثر نظريات التطور الراسمالى وضوحا، ويعتقد فيما يقوله شومبيتر عن ماركس من [القول بأن ماركس يمكن تفسير اتجاهه بأنه محافظ بعد تحريره من أسلوبه الكلاسيكى معناه امكانية أخذه مأخذ الجد] وأخيرا فان الدعوة الى التكنولوجيا تستغرق أكثر فى الماركسية خاصة حين ترغمها الدولة القومية [الاشتراكية] على مجابهة قضايا حسيةملموسة فالدعوة الىغزو الطبيعة والسيطرة عليهاوعبادة العلم التطبيقى وتحديد قيمة الانسان بعمله كل هذا يجعل الفكر التكنولوجى يتجه نحو الماركسية بشكل أو بآخر ، وهكذا فهل تكون الماركسية اذن هى الأساس المنطقى للايديولوجية العربية؟ يرى الكاتب أن ذلك ممكن ولكن أية ماركسية بالتحديد ؟ انها ــ فى نظره ــ تلك التى تدخل الفكر العربى عن طريق الاقتصاد فيما يتعلق بنشأة الرأسمالية ونظرية النمو الرأسمالى ، والاصلاح الاقتصادى المتمثل فى تأميم التجارة الخارجية والاصلاح الزراعى ، كما تدخل كذلك عن طريق علم الاجتماع ، فقد أدخلت الماركسية فى الفكر العربى مفهوم الطبقات الاجتماعيةالتى تنبعث من جديد مغيرة أشكالها ، واخيرا على الصعيد الايديولوجى تستجيبالماركسية لمتطلبات الفكر العربى بصفتها مذهب المذاهب ، ويضيف الكاتب أن الماركسية متعمقة فى الفكر العربى باعتبارها الخلاصة المنهاجية للتاريخ الغربى اجمالا دون تفصيل ، وهذه الماركسية موضوعية بمعنى انها تفرض نفسها باعتبارها النتيجة الضرورية لايديولوجيات كانت شائعة فيما مضى فى المجتمع العربى ، ويفضلها الفكر العربى لانها تشكل مذهبا اكثر تلاحماومنطقية وانتقاديةللغرب البرجوازى ، كما انها تلهم بناة الدولة القومية [الاشتراكية] وان كانوا لايعلنون تبنيها جهارا.

هـذا ويخلص الكاتب الى استنتاج مؤداه استبعاد كل معرفة موضوعية للمجتمع العربى المنهر بمستقبل براق أخذ فعلا فى التكوين ، ويبدو أنه يقلل كثيرا من شأن حاضره الذىسوف يكون ذات يوم ماضيه ، ويقبل المجتمع العربى الوضعية والماركسية فقط اذا كان بوسعهما اعطاءه فكره عما يريد أن يكون عليه المجتمع وليس عما هو كائن .

ان الديالكتيك هو الذى يستطيع أن يفسر ويتخطى التعارض الدائم بين نزعة الدعوة للتكنولوجياوالدعوة للاصالة [المشار اليهما آنفا] وفى مقدور الدولة القومية [الاشتراكية] تبنيها للديالكتيك وهو منطق التطور التاريخى نفسه أن تضع حدا لازدواجية العقل والفهم، والسؤال الان : هل اذا تحولت الوضعية والماركسية من طريقتين الى نظاميين فكريين فى الوعى العربى الا يتعرض الديالكتيك لنفس المصير ؟ أن الديالكتيك لايمكن أن يولد من لاشىء وهو قيد العمل فى الايديولوجية العربية ولكن بأشكال غير واعية ، وقد كانت هناك تجربة عربية فى القرن الثانى الهجرى حيث سار الديالكتيك فى مسيرتينمتميزتين : أ ــ عبر الصراعات الحزبية والمناقشات الجدلية التى سبقت الدولة العباسية واعقبتها . ب ــ مجادلات المعتزلة وتفكيرها فى الله حيث حاولت أن تقيم على أساس العقل المجرد اسلاما مستنتجا قادرا علىتوحيد العناصر غير المتجانسة فىالامبراطورية الاسلاميةالجديدة ولكن هذه التجربة أغرقت فى النزعةالصوفية مما أدى الى فشلها ، ويرى الكاتب أنالديالكتيك موجود فى الثقافة العربية ، غير أن رجل الدين يبرزه بشكل صوفى ، والدولة القومية تفتح الطريق لاستخدام ايديولوجى للديالكتيك بوصفها الماركسية الوضعية وجها لوجه مع الاصالة الاسلامية .

ويرفض المجتمع العربى الاعتراف بالصفة العالمية الشاملة التى يفترض فيها الغرب تاريخا موحدا ويطمع فى أن يستخدم الاخرون نفس الطريق التىأستخدمها وما زاليستخدمها لمعرفة ذاته ، بل يدعى العربى أنه قادر وحده على ادراك ذاته بفضل حدس اختص به ولكنه كى يعيد بناء ذاته يستخدم صورة مأخوذة منالغرب مما يعطيه تميزا لعالميته وشموله .

■ ويشير المؤلف الى محاولة العرب التعبير عن ذاتهم منذ أكثر من قرن بتكوين أدب يتناسب مع تراثهم المهيب ، وفعلا وصلت أعمالهمالادبية الى الغرب ، غير ان الانتاج الادبى العربى يتبع

بأمانة — منذ بدء النهضة — التطور العـام للمجتمع والثقافة وهذا عنصر سلبى لانه يشير الى ضعف فطرى فى الابتكار الفنى الذى لايتجاوز مستوى التحليل الحسى ، وبذلك لم يلعب الفن اى دور ايضاحى أو انقاذى ، وقـد مر الادب العربى بعدة مراحل منها المرحلة الكلاسيكية حيث قام ببعث أشكال التعبير الـكلاسيكية ويمثلهـا المويلحى واحمد شوقى ، ومنها المرحلة العاطفية الحالمة التى انتشرت تحت شعار الليبرالية ويمثلها طه حسين ، وأخيرا المرحلة الواقعية ويمثلهـا نجيب محفوظ ، وهذا التقسيم الزمنى التسلسلى صالح على مستوى الدول العربية كلها ، كمـا تميزت الفـترة الاخـيرة بازدهار المسرح وفن الرواية والاقصوصة .

■ ويخلص الكاتب الى القول بأن الاصـالة الوضـعية — وهى الاعتراف بالذات أو الانا — بمثابة عملية تطور ، وأن الاستمرارية التاريخية وهى دائما تجديد بناء يجب أن تخضع لقواعـد معينة لن يتم قبولها كاملة الا فى مجتمع متجدد ؛ وان معظم المصلحين العرب قد أجمعوا على أن الماركسية هى المنتهى المنطقى للفكر العربى رغم أنها [الماركسية] تكافح فى كل أجزاء العـالم العربى ؟ وان البنيان الاجتماعى يجب تحليله فى ضوء الايديولوجية وليس تحليل الاخيرة فى ضوء البنيان الاجتماعى ؛ وان الفكر العربى ببلوغه درجة عالية من الوعى الانتقادى التوحيدى سيجد نفسه عند المستوى الذى كان عليه الغرب منذ نهاية القرن الماضى ولاول مرة يمكن أن يعكس الوعيان (الغربى والعربى) بعضهمـا بعضـا ويتعاونا بل ويشرعا فى اجراء حوار حقيقى ، وان كان ذلك معناه التعرض فى كل لحظة لتفسير من جانب واحد الا أن المرء يجب ان يخاطر بفعل ذلك ، فالذى يفرط فى اجتناب الملتبس كثيرا مايفوته الحقيقى ، وأخيرا ينصح العرب بفتح باب الاجتهاد واغلاق باب التقليد كلية .

هذا هو الكتاب ، ويعتبر بداية علمية هامة لوعى الشعب العربى لذاته فـكريا وعلميـا ، ومناقشة قضايا تاريخه وذاته وحاضره ومستقبله مناقشة حرة مثمرة ، وهو من الكتب القليلة التى صدرت وتحوى كل ما احتواه من معطيات تاريخية وسياسية وفـكرية تتعلق بتاريخ العـرب وأوضاعهم .

ومما يؤخذ على الكاتب انه شديد الافراط فى التشاؤم بالنسبة لحاضر العرب وفى ذات الوقت شديد التفاؤل فيما يتعلق بمستقبلهم .•

■

جـذور الثـورة الافـريقية

■ تـاليف :

جاك ووديس

■ ترجمة وتعليق :

أحمد فؤاد بلبع

■ عرض :

اسماعيل عبد الحكم

■ الناشر :

الهيئة العامة للتاليف والنشر — القاهرة
١٩٧١ — ٦٢٠ ص

فى خلال مناقشة بين عبد الله دياللو والمؤلف قال دياللو: أن الامر الهام اليوم ، والشىء الجديد ذا الدلالة فى افريقيا ، ليس الظروف التى نمر بها ، وانما ما نفعله لتغيير هذه الظروف » . ومن خلال هذه الكلمات طرحت العديد من التساؤلات التى دفعت « جاك ووديس » الكاتب الانجليزى اليسـارى المعـروف الى تأليف ثلاثة كتب عن افريقيا « جذور الثورة الافريقية »» و « أفريقيا صحوة الاسد »؛و «افريقيا على طريق المستقبل»؛ ونظرا لاهمية الكتاب الاول فقد ترجم الى تسع لغات غير العربية وقد نقل له المترجم — أيضا — الكتاب الاخير الى العربية .

ويعالج الكتاب اسس وجذور الثورة فى القارة الافريقية من خلال دراسة تاريخية لمرحلة ماقبل استقلال القـارة ، وللمقـدمات والظـروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى أدت الى انتفاضة الشعب الافريقى ذودا عن حريته وكرامته وحقوقه ، وتحقيقا لسيادته على ارضه ، وتطلعا الى المستقبل بكل آفاقه الرحبة .

سرقنا الارض

ان المحصول الواحد هو السمة الاساسية للبلدان المتخلفة ، وهذه السمة تلاحظ بشكل مثالى وحاد فى أفريقيا ، فمناطق كاملة تخصص لمحصول واحد ، فالكاكاو فى غانا ، والقطن فى أوغندا والسودان ، والبن فى كينيا والدخان فى روديسيا الجنوبية .

كانت الارض على نطاق معظم القارة الافريقية ملك الجماعة ، أما الحقوق الخاصة فى أية قطعة صغيرة من الارض فأمر غير شائع الى حد بعيد جدا ، وكانت الزراعة تتبع النظام « المتنقل » فتقطع الاشجار وتحرق الاعشاب لزيادة خصوبة التربة ، وتزرع المحصولات على المساحات التى تم تطهيرها ، وتنتقل مواقع القرى مع انتقال الزراعة ، ومع دخول المستعمرين الاوروبيين بدأت عمليات نهب الارض الجيدة وطرد الافريقيين منها ، وخنق الزراعة الافريقية. ومحاصرة الافريقيين ، وتكديسهم فى مساحات غير كافية من الارض أصبح يطلق عليها «المعازل» فمثلا فى اتحاد جنوب افريقيا انتزع من الافريقيين ٨٩٪ من الارض ، وفى روديسيا ٤٩٪ ، حتى أصبحت الارض سلعة ثمينة ونادرة للغاية بالنسبة للافريقيين على الرغم من ضخامة مساحة البلاد ، وكانت تهدف السياسة الاوربية الخاصة بالاراضى فى افريقيا الى ضمان العمل الرخيص للمناجم والمزارع الاوربية ، فقد كان الحكام غير الافريقيين يجبرون الافريقيين على تأدية العمل لا لصالح الجماعة ، وانما لصالح الاوربيين الساعين الى الربح ، ولم تكن هذه السخرة فى الحقيقة تختلف كثيرا عن الرق المباشر ، وكان شعارهم فى هذا « لقد سرقنا أرضه ، والان فلنسرق أطرافه » وأن العمل الجبرى هو النتيجة المترتبة على احتلالنا للارض وقد كانت هذه السياسة أحد الاسباب الهامة لحركة الاحتجاج الكبيرة بكينيا فى عام ١٩٢٧ المعارضة نظام السخرة الذى كان سائدا فيها حينئذ .

فلنسرق أطرافه

يقوم اقتصاد افريقيا على « العمل المهاجر » اذ يضطر الافريقى تحت وطأة ندرة الارض والضرائب ومختلف أشكال الاجبار ، الى اداء العمل الاجير ، ويسافر الى مناطق التعدين ليعمل فيها مقابل أجر ، فثلثا عمال المناجم فى « الراند » يأتون من خارج اتحاد جنوب افريقيا وحوالى نصف قوة العمل فى روديسيا الجنوبية عمل مهاجر ، وقرابة نصف العمال غير المهرة فى غانا يتم الحصول عليهم من مناطق اخرى . وسواء عمال المناجم فى القارة — والذين يبلغ عددهم مليونا عامل مهاجرون . وقد ثبت بالاحصاء أن ٧٠٪ من الرجال ذوى البنية القوية بعيدون بصورة منتظمة عن قراهم . ويوجد سبب سياسى أيضا — بجانب الاسباب الاقتصادية — للاحتفاظ بنظام العمل المهاجر ، وهو الرغبة فى منع أو على الاقل فى تأخير تكوين طبقة عاملة دائمة ، غريبة تماما عن النظرة والافاق السياسية المحدودة لحياة القرية ، وقادرة على النضج والشمول الى بروليتاريا قوية متماسكة حديثة تعرف الى أين تسير ، وتكون على درجة كافية من القوة تمكنها من الوصول الى أهدافها ، ولا يخفى على الامبرياليين انه فى مناطق العمل الحضرية تشكل أعظم التحديات للاستغلال ، وأن الطبقة العاملة فى أفريقيا شأنها شأن الطبقة العاملة فى اى مكان آخر من العالم الرأسمالى ستكون حفارة قبر الامبريالية .

ويقدم المؤلف تفسيرا هاما للتفرقة العنصرية فيرى أن لها هدفا أكثر أهمية الى حد كبير من التفرقة اللونية نفسها ، وهو الاستغلال الاقتصادى . وأن جذور التفرقة العنصرية وثمارها هو الربح، فهى تخدم مصالح أولئك الذين يعيشون على الربح ، لانها تساعد فى الابقاء على نظام للعمل الرخيص بصورة استثنائية ، وهو الاساس لمعدل ربح عال .

الصناعة الافريقية

يستشهد المؤلف بما يؤكده تقرير اليونسكو من أن فى أفريقيا فيما عدا اتحاد جنوب افريقيا « تكون الصناعة من اى نوع ، يعنى الانتاج القائم على قوة عمل كبيرة وعلى الالات التى تحركها الطاقة ، صناعة حديثة العهد للغاية ،

ومازالت مقصورة على مراكز قليلة شديدة التشتت .. ان الاغلبية الهائلة من السلع المصنعة مازالت تستورد عبر البحار ، ومازالت الانشطة المحلية مقصورة الى حد كبير على عمليات التجميع والتوزيع بالصيانة ، والصناعة فى افريقيا المدارية فيما عدا التعدين والتجميع « تعنى اساسا بالتصنيع الاولى للمنتجات الزراعية من أجل التصدير ، وهو التصنيع الذى تتوزع المصانع الخاصة به مرة أخرى فى وحدات صغيرة نسبيا توجد فى المزارع الرأسمالية الواسعة ، أو فى الموانى ، أو مراكز السكك الحديدية بالمناطق المختلفة . ويؤكد التقرير ان السمات البارزة الرئيسية للعمل الافريقى هى اساسه الوقتى ، وأجوره المنخفضة ، والافتقار الى التدريب أو الى الخبرة المفصلة ، وقلة الثغرات التى تسمح باكتساب المهارة . ولاشك أن الصناعة فى افريقيا قد اقيمت على أساس ميكنة منخفضة نسبيا ، واستهلاك عال للعمل غير الماهر المنخفض الاجر ، وهذا الاطار ما أن اقيم حتى اكتسب تصورا ذاتيا طالما انعكس فى السياسات الاقتصادية للمشروعات، وفى المواقف الاجتماعية للاوربيين ، وفى المناطق الحضرية كان اثر ذلك بشكل عام خلق اعداد هائلة من عمال التراحيل ذوى الدخول المنخفضة ،والقليل التمايز من حيث المهارات والتعليم ، وذوى الوسائل المحدودة للغاية للتقدم المادى والاجتماعى ».

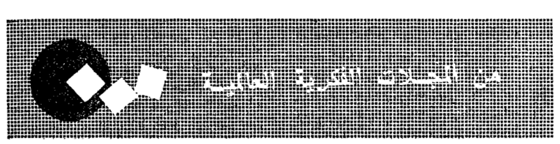
أدنى أجور وأعلى أرباح

يقدم الكتاب دراسة ممتازة ورائعة لعدد العمال الاجراء الافريقيين والحد الادنى للاجور وللقوة البشرية والعمالة فى افريقيا ، ويخرج بنتائج أن عدد العمال الافريقيين يتراوح بين عشرة ملايين واثنى عشرة اى بين ٦٪ أو ٧٪ من مجموع السكان الافريقيين جنوبى الصحراء الكبرى [وقت صدور الكتاب] . وأن ٧٠٪ من السكان يحصلون على دخل متوسطه يقل عن شلنين فى الاسبوع ، واكثر من نصف هؤلاء كان يتراوح دخلهم بين شلن واحد ولا شىء على الاطلاق . ولم يكن يحصل على اكثر من خمسة شلنات فى الاسبوع غير ٤٪ من السكان ، وتشير الاحصاءات أن أغلبية العمال الافريقيين يتقاضون أجورا تتراوح بين شلن واحد وخمسة شلنات فى اليوم ، اى يحصل العامل الافريقى مقابل عمل يوم على أقل مما يحصل عليه العامل الانجليزى مقابل ساعة عمل واحدة ، ويحتاج العامل الافريقى الى ان يعمل عاما بأكمله كى يكسب قدر ما يكسبه العامل المتوسط فى بريطانيا فى شهر واحد .

وبالكتاب العديد من الارقام عن الثروة الطبيعية الهائلة الموجودة فى افريقيا ، وعلى سبيل المثال ٩٦٪ من ناتج العالم من الماس الصناعى والطبيعى ٦٩٪ من الكوبالت ، ٦٣٪ من الذهب ، ٤٨٪ من الانتيمون ، ٣٣٪ من الكروم، ٣٧٪ من المنجنيز ، ٣٢٪ من الفوسفات ، ٢٤٪ من النحاس ..بجانب المنتجات الزراعية وبجانب الاحتياطيات الهائلة من الاخشاب ، وكذلك المساقط المائية ، وكذلك استحالة تحديد حدود الكميات الهائلة من البترول فى الصحراء الكبرى ناهيك عن الغاز الطبيعى ، وهى كميات لا تقل اهمية عن الموجود فى شبه الجزيرة العربية ويرد المؤلف على ما يتردد فى كثير من الدوائر الاستعمارية ، من ان افريقيا ليس لديها الاموال اللازمة لان تصبح قارة صناعية ، وانها يجب أن تظل معتمدة على تصدير معادنها ومنتجاتها الزراعية ، وبالكتاب فصل عن أرباح الشركات الاحتكارية التى تعمل فى افريقيا والتى تصل ارباحها الى أكثر من ١٠٠٪ من راس المال فى بعض الشركات . وتنال البورجوازية الافريقية جزءا هاما من دراسة جاكووديس، وكذلك الطبقة العاملة ، والانتلجنسيا الافريقية والمرأة ،والنظام القبلى والنظام الحزبى ، وكافة النواحى الاجتماعية الاخرى .

وبناء على طلب المترجم أضاف المؤلف مقدمة طويله خاصة بالطبعة العربية قدم فيها دراسة هامة وحديثة لظاهرة الانقلابات التى اجتاحت افريقيا منذ عام ١٩٦٤ ، وقام بتقسيمها الى ستة فئات طبقا للدور الذى يلعبه الانقلاب والقوى القائمة به والمساندة لها ، وكذلك تناول بالدراسة العلاقات بين الطبقات فى افريقيا ومواقفها المختلفة ولاسيما بعد الاستقلال ، والدور الخاص الذى يمكن أن تلعبه الجيوش الافريقية سواء كتعبير عن الجماهير أوكاستغلال لها من جانب الامبريالية — نتيجة البعثات والتربية الخاصة لها — فى مواجهة هذه الجماهير ، واكد فى مقدمته على حاجة افريقيا الملحة الى تنظيمات ثورية قادرة على مواجهة ظروف ما بعد الاستقلال بتغييراتها الاجتماعية .

ونظرا لأن الكتاب زاخر بأسماء شخصيات وأحزاب ومنظمات ونقابات وقبائل ومدن وتقسيمات جغرافية وأحداث أفريقية هامة ، فقد أضاف المترجم ملحقا من اعداده فى حوالى مائتى صفحة [أى ثلث الكتاب] للتعريف بكل ما ورد فى الكتاب ؟ ومرتبة تحت رؤوس موضوعات ؟ وقد بذل المترجم فى هذا الملحق جهدا كبيرا جدا ، مما أعطى لهذا الكتاب صفة المرجع الاكاديمى ، وأصبح يعد دائرة معارف متخصصة فى الشئون الافريقية .



مجلة القارات الثلاث

المسيحية والماركسية ..

بقلم : جوزيم مايو

هافانا سبتمبر ١٩٧١

نشرت مجلة « القارات الثلاث » حوارا مع القس الكولبى رينيه جارسيا ، رئيس تحرير صحيفة « **الجبهة المتحدة** » التى اسسها **كاميلو توريس** القس السابق والزعيم الثورى الكولومبى قدم فيه القس «رؤيا بانورامية» للوضع الحالى فى أمريكا اللاتينية ، التى اجتذب النضال الثورى فيها مجموعة كبيرة من القساوسة ، الذين يخوضون مع شعوبهم معركة التحرر الوطنى والاجتماعى ، ضد الاوليجاركية المحلية التى تضطهد بالتحالف مع امبريالية القرن العشرين ، بناة النظام الاجتماعى الجديد . وفى هذا الحوار أعلن القسيس ما يلى :

« لقد بدأت عملية انضمام القساوسة للثورة وللعمل الثورى بنشاط القس كاميلو توريس ؛ ثم انتشر ذلك الاتجاه فى القارة واتسع نطاقه . وخلال السنوات الاربع الماضية استطعنا نحن القساوسة استيعاب الماركسية واكتسبنا من خلال المنهج الماركسى معرفة اعمق باوضاعنا ، جعلتنا نتبع تأكتيكات ونتبنى استراتيجية واقعية، وخطا سياسيا واضحا ومحددا فى المسيرة الثورية فى كولومبيا وفى القارة باسرها .

ولم أجد شخصيا حرجا ولا عنتا فى اعتناقى الماركسية كاداة للنضال ، باعتبارى مسيحيا . فقد آمنت بأن الماركسية هى الاداة العلمية التى تكفل للانسان تفهما اعمق للواقع تكفل له القدرة على تغييره . ان انتمائى الوحيد باعتبارى مسيحيا ، هو انتمائى الى الانسانية . فالانتماء الى الله لايجد تعبيره الا بالانتماء الى الانسان والماركسية تتيح لنا ايديولوجية جديدة تخدم الجنس البشرى ، انها نزعة انسانية لمصلحة البشر . ونحن فى العمل السياسى الثورى ، لانوجه النقد للعنصر الدينى ، فقد بدأت المسيحية حاليا تجدد نفسها فى بعض القطاعات السكانية فى القارة ، ليس باعتبارها دينا فحسب ، بل كموقف من الحياة ، وموقف يعبر عن الانتماء للجنس البشرى .

وانا اومن بأن الانتماء الانسانى الوحيد فى القارة هو الانتماء للثورة . فعلى كل من يعيش فى هذه القارة ان يتخذ موقفا من الاوضاع السائدة فيها ، وهذا الموقف قد يجعله عدوا للشعب ومستغلا له ، او قد يجعله يمضى فى طريق اصلاحى وهو لايختلف كثيرا عن سابقه، او يجعله يمضى فى الطريق الثورى باعتباره الحل الوحيد للقضاء على الاستغلال جذريا . ولهذا وجدت انا شخصيا انه من الاصلح بالنسبة للمسيحى ان يمارس العمل الثورى الحقيقى . ذلك أن المسيحية الحقيقية تقوم على اساس التطور والنمو المتكامل للانسان .

دور القساوسة فى النضال الثورى

ان القسيس يوجد فى نواة ، وقلب الهيكل الاقتصادى والمجتمع وذلك يتيح له امكانيات كبيرة للعمل الثورى ، بل ويجعل منه فى حالة عدم ممارسته للثورة،شخصا مستغلا بالضرورة. ولقد كانت البداية مع كاميلو توريس حيث تحقق التكامل بين الماركسية والمسيحية وتخطى الخلافات الايديولوجية ، وذلك من خلال الممارسة وليس من خلال اتفاقات ابرمت حول مائدة مستديرة ، بل من خلال العمل الشعبى نفسه وذلك عندما ذهبت مجموعة من الماركسيين

والمسيحيين للعمل معا فى منطقة فلاحية فقيرة وهناك تحقق اتفاق الاراء وتطابقها. والان يوجد داخل المؤسسات الكهنوتية صور مختلفة من المشاركة فى العمل الثورى . واحيانا يجد القسيس انه من الصعب عليه ان يكرس نفسه صراحة للثورة ، فيكتفى بمشاركة محدودة ، وان درجة المشاركة تتفاوت ، ابتداء من القسيس **دومنجو لاجين** الذى يشترك فى النضال المسلح « لجيش التحرير الوطنى » الى القساوسة الذين يكتفون بادانة الظلم فى البلاد . وفيما يتعلق بالرئاسة هناك اسقفان هما المونسنيور **جيراردو فالينسيا** الذى يعمل فى منطقة على شاطىء الباسفيك ، وهو انسان ذو قلب كبير وعامل دؤوب ، والمونسنيور **كوريا** ، الذى يعيش فى وسط الهنود . وكلاهما يشترك فى العمل الجماهيرى . وهناك ايضا تنظيم للقساوسة اسمه **جولكوندا** يتسم بالوحدة والتنوع . وينبع التنوع فيه من اختلاف درجة مشاركة القساوسة وانا اعتقد ان اهم شىء فى تطور المسيرة الثورية فى الفترة الاخيرة ، هو انضمام القساوسة الى خط سياسى محدد ذى قاعدة شعبية .

السياسة والاقتصاد فى كولومبيا

لانستطيع القول بأن كولومبيا بلدا متخلفا حقا ، بل انه بلد يكبله النفوذ الامبريالى الذى يسوده والذى تعمل الاوليجاركية المحلية كوسيط له . ولهذا السبب تتضاءل امكانيات المواجهتين البورجوازية المحلية والامبريالية . ونحن نؤمن بأن النضال ضد الاوليجاركية والامبريالية يجب ان يرتبطا معا لاننا نرى ان الاوليجاركية هى وسيط لمصالح امريكا الشمالية . والواقع انه توجد اداتان للتسلل الامبريالى هما المساعدات العسكرية والدخل التكنولوجى الصناعى . وفى كولومبيا ليست هناك صناعة قومية حقيقية ، بل مشاريع يسيطر عليها راس المال الاجنبى ، لانه ليست هناك بورجوازية قومية ، بل مجرد اوليجاركية طفيلية وسيط للامبريالية وعميلة له.

الجبهة الوطنية

منذ ١٢ عاما كونت الاحزاب التقليدية الجبهة الوطنية والتى نمت فى اتجاه اصلاحى قوى .

ويحاول الرئيس الحالى **باسترانا** ان يصل الى مايسمى بالوفاق الطبقى لانه يواجه مشكلة البطالة . فهناك ٤٠٠,٠٠٠,١ عاطل ، وقد تركز الاهتمام اخيرا على الاصلاح الزراعى والاصلاح الحضرى . والواقع ان الاصلاح الزراعى اصبح مجالا للتضليل فلم يستطع ان يدخل المناطق الاقطاعية لانه ما ان تقدم الحكومة مبلغا من المال مقابل قطعة من الارض نشتريها، حتى يسارع الاقطاعيون بتقديم مبلغ اكبر . وهذا يعنى ان الاصلاح ينطبق فقط على الاراضى غير المزروعة ، والتى تعطى لفلاح لايملك وسائل زراعتها ومن ثم لاتحل له مشكلته . الامر الذى جعل الفلاحين يتبعون تاكتيك احتلال الاراضى المزروعة فعلا .

وحيث أن الحكومة بين الجناح المحافظ،فان الجناح الليبرالى يتبنى موقفا معارضا زائفا ذى نغمة يسارية . وتلك سمة لليبرالية ، اذ انها تتخذ موقفا محافظا عندما تكون فى السلطة وموقفا يساريا عندما تكون خارجها .

حرب العصابات والخط الجماهيرى

يتميز الوضع فى كولومبيا حاليا بانقسام عميق بين قوى الدولة (تؤيدها الكنيسة والقوات المسلحة) وبين قوى الشعب المسلحة والتى يتجه عملنا فيها فى اللحظة الحالية نحو نشر الايمان بفكرة أن الشعب لن تحل مشاكله الا بالقضاء على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج وبناء الاشتراكية .واعطاء كل السلطة للشعب. وتكمن قوتنا الاساسية فى الشباب ، ذلك لان عملنا الاساسى يقوم به رجال بين سن ١٨ و٣٠ سنة .

وانا أعتقد أن الفترة الحالية ستكون حاسمة فى تاريخ كولومبيا ، وأن المهمة الرئيسية هى تحقيق وحدة العمال والفلاحين والطلاب والتى يمكن ان تتحقق خلال المبدا القائل « لندع كل ما يفرق بيننا ولنتوحد حول كل مايجمع بيننا » .

ان هناك حاجة ملحة الى تاكتيك مزدوج ٪ حرب العصابات والعمل الجماهيرى فى المدن والريف لتوحيدهما فى الحرب الشعبية ، وهذا ماقمنا به خلال العام والنصف الماضية . وقد أدت انتخابات ابريل الماضى الى رفع الوعى للجماهير المستغلة حيث تجمع قطاع عريض حول التحالف الوطنى الشعبى الذى يعارض الحكم القائم .

ان المسيحية الثورية لايمكن ان تتقدم دون نضال ثورى باعتبار ذلك احد الادوات الرئيسية لشن الحرب الضرورية لكى يستولى الشعب على السلطة . ونحن ننتمى بكل قوانا الى جيش التحرير الوطنى من خلال الخط الذى وضعه كاميلو توريس ، ومن خلال العمل الجماهيرى الذى يثرى الحرب الشعبية .



ملاحظات حول مقال :

التنظيم الطليعي

تناول الاستاذ مصطفى طيبة ، قضية بناء التنظيم الطليعي فى مقاله فى الطليعة فى الشهر الماضى : « التنظيم الطليعى ضرورة بعد بناء الاتحاد الاشتراكى » . وحول هذا المقال نبدى مجموعة من الملاحظات :

● **الملاحظة الأولى** ●

يرى الاستاذ طيبة في مقدمة مقاله أن الثورة المصرية تجتاز مرحلة جديدة ــ وان اجتيازها لمرحلة جديدة يتطلب وجود وثيقة جديدة تعكس ملامح هذه المرحلة وتعبر عن أهدافها . ونحن نختلف معه فى هذا . فالثورة المصرية منذ يوليو ١٩٦١ مازالت ماضية فى اجتياز المرحلة الاولى من مراحل الثورة الاجتماعية ــ مرحلة التحول والانتقال بالمجتمع من الرأسمالية الى الاشتراكية وهى بعد لم تنجز هذه المرحلة .. أن كل ما حدث ويحدث هو مواجهة لسلبيات المرحلة ، وليس برنامج العمل الوطنى الا حلقة هامة من حلقات هذه المواجهة التى بدأت ببيان ٣٠ مارس بعد النكسة ، ومن الممكن اعتباره برمجة تفصيلية الى حد كبير لمهام مرحلة الانتقال . وفى نفس الوقت مازالت محاور ميثاق العمل الوطنى كما هى لاردة عنها ولا مراجعة لها :

● رفض طريق التطور الرأسمالى ، ومواجهة المعسكر الامبريالى كعدو رئيسى لحركة التحرر الوطنى .

● استهداف الاشتراكية الغاء استغلال الانسان للانسان .

● اقامة الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج ».
● نقل السلطة الى تحالف قوى الشعب العامل » .
● الاشتراكية العلمية هى نظرية ميثاق العمل الوطنى ».
● اطار التطور الاقتصادى هو التخطيط العلمى الشامل .

وبذلك فان ما وصل اليه الاستاذ طيبة عن وجود مرحلة جديدة غير صحيح ؟ واكثر من ذلك فان ما أعتبره مهاما رئيسية للاتحاد الاشتراكى . « **وكمؤشر صادق لفاعليته** » . ن « **تحويله من جهاز للتسلط وترديد الشعارات الى أداة صادقة لخدمة المجتمع والجماهير** » هى « **محو الامية** » و « **تحديد النسل** » تصور قاصر واصلاحى للمهام الرئيسية التى طرحها برنامج العمل الوطنى . فالقضايا التى طرحها برنامج العمل الوطنى كأهداف عديدة شملت مهام البناء الاقتصادى ومضاعفة الدخل القومى فى عشر سنوات ومهام البناء الاجتماعى والثقافى والعلمى والسياسى للمجتمع . وقصر اهداف التنظيم السياسى على ما اسماه الاستاذ طيبة بالمهام الرئيسية للاتحاد الاشتراكى على محو الامية وتحديد النسل هو وقوف بحركة المجتمع الثورية عند أبواب وزارة كوزارة الشئون الاجتماعية .

● **الملاحظة الثانية** ●

يرى الاستاذ طيبة أن التنظيم الطليعى قد فشل وتحول الى مركز قوة فى الثورة المصرية بسبب **أسلوب عمله ولجوئه الى السرية** . وحقا ان للسرية كاسلوب عمل أمراضها ومخاطرها كبيرة وخاصة اذا كانت تستظل بأجهزة الدولة البيروقراطية والبوليسية وبالفكريات السائدة المعادية للاشتراكية العلمية التى ارتضاها الميثاق مرشدا للعمل الثورى المصرى . ان القضية هنا ليست قضية أسلوب العمل رغم أهميته ، القضية هى قضية التكوين الاجتماعى لهذا التنظيم وقيامه كأرقى اشكال التنظيم مجسدا لوحدة الفكر **والعمل** قيادته لحركة جماهير الثورة فى نضالها وتوحيده لصفوفها وتنظيمه لها فى مواجهة مهام البناء .

الحقيقة التى سكت عنها الاستاذ طيبة هى ان التنظيم الطليعى — طليعة الاشتراكيين — عندما قام « **سريا** » فى قالب الاتحاد الاشتراكى ، لم يقم كهيئة أركان ثورية للطبقات العاملة صاحبة المصلحة فى التحول — انما قام كتنظيم للطبقة الوسطى بكل فكريتها ونظرتها للمجتمع وللثورة ، بكوادرها الاساسية من القيادات الادارية والحكومية والاقتصادية والسياسية ، بحماية من اجهزتها البيروقراطية والبوليسية والتى توارثت من كل الاجيال السابقة على ثورة يوليو وعلى اجراءات يوليو ١٩٦١ العداء للطبقة العاملة والفلاحين وللثورة الاجتماعية بكل ابعادها وآفاقها . هذه الكوادر التى أخفت ببراعة وجهها الطبقى بشعارات واقنعة ثورية . وبذلك أصبح التنظيم الطليعى «مركز قوة» للطبقة الوسطى ، وحزبا سياسيا لها فى شكل ووضع جديد . ولم يكن على الاطلاق المركز القائد فى ثورة ٢٣ يوليو ، لم يكن على الاطلاق هيئة أركان لهذه الثورة ، لم يكن على الاطلاق اعلى اشكال التنظيم وأرقاها للعمال والفلاحين والمثقفين الثوريين ، لم يكن على الاطلاق هذا المركز الطليعى الذى اراده جمال عبد الناصر وميثاق العمل الوطنى . ان القضية هنا — ليست قضية هنا — عن مصالح أى طبقة اجتماعية فى مجتمعنا عبر هذا التنظيم ، وتبين ذلك لهم وضرورى ، لان عدم تبينه سواء قام التنظيم سريا او علنيا لن يمكننا من معالجة المرض التنظيمى الخطير الذى يمثل أكبر سلبية فى التطبيق حيث يتولى قيادة الثورة والاستمرار بها الى اهدافها القصوى أبناء الطبقة الوسطى — هذه الطبقة التى تريد تجميد الثورة وركن بعدها الاجتماعى « الاشتراكى » والتى تفسر الوحدة الوطنية بأنها حرية رأس المال الخاص ، وتوفير فرص التراكم الراسمالى للافراد ، واستخدام الديمقراطية » و « الاشتراكية » وسيلة لملء خزائنها ، وتحويل مشاركة العمال والفلاحين الى شعارات ان قضية بناء التنظيم الطليعى ليست **قضية اخلاقية** . انما هى قضية بناء هيئة اركان قائدة للعملية الثورية ، ممثلة ومعبرة عن الطبقة أو مجموع الطبقات الاجتماعية الكادحة صاحبة المصلحة الرئيسية فى الثورة الاشتراكية وممثلة لها تمثيلا عضويا وفكريا وسياسيا .

● **الملاحظة الثالثة** ●

يحدد الاستاذ طيبة مهمة التنظيم الطليعى الرئيسية بأنها :

« **الجهاز الطليعي هوتنظيم متجانس فكرياً، مهامه الرئيسية تتمثل في شرح وتأصيل الخط الثـورى الاشتراكى ، والدفاع عـن القيم الجـديدة لمجتمعنا ، ونشر الوعى الاشتراكى داخل أوسع قطاعات الجماهير** » . والاستاذطيبة بذلك يحصر دور التنظيم الطليعى فى كونه مجرد **ناشر** لما اسماه **بالوعىالاشتراكى.** بينما التنظيم الطليعى يجب أن يكون ويقوم كأركان حرب للثورة ، بكل ما يحمله هـذا التعبير من معان ــ هو قائد لها فى مجالات الاقتصاد والاجتماع والسياسـة والفـكر والثقافة . هو قائد ويجب أن يقود وأن يسعى لقيادة الجمـاهير الـكادحة فى منظماتهـا الجماهيرية الديمقراطية ــ نقابات العمال ، وهيئات الفلاحين ، ومنظمات المثقفين والشباب والنساء . ان مهمة هذا الجهاز الطليعى هى العمل والنضال من أجل تغيير المحتوى الطبقى والاجتماعى التقليدى للسلطة واقامة مؤسسات الدولة والحكم على أساس افساح المجال للعمال والفلاحين والمثقفين الثوريين للمشاركة فى السلطة وجعل الانتاج الاجتماعى والسلطة فى أيديهم »

اذا فالتنظيم يجب الا يكون ــ كما يريده الاستاذ طيبة ــ مجـرد جـهاز للدعاية والاستخبارات وقياس الرأى العام ، انمـا يجب أن يكون مركزا قائدا للثورة الاجتماعية والوطنية ، وأن يكون قائدا للاتحاد الاشتراكى باعتباره الاطـار التنظيمى لتحالف طبقـات عديدة ، وليس كما يريـده الاستـاذ طيبـة :« **قوة مساعدة ومنشطة ومثقفـة للاتحـاد الاشتراكى** :..

● الملاحظة الرابعة ●

ان الاستاذ طيبة لم يحدد لنـا بأى نظرية يهتدى هذا التنظيم الطليعى ؟ وما هو مرشده فى العمل الثورى ، أى فـكرية اجتماعية تحكمه . وهو بذلك تخلى بحكم تصويره لمرحلة جديدة غير مرحلة ميثاق العمل الوطنى ــ عما ارتآه الميثاق نفسه ، عندما حدد **الاشتراكية العلمية** نظرية ومنهجا للثورة المصرية . انه ليس من المتصور الا يكون للثورة سـلاحها الفكرى الذى به تواجه فكر الرجعية وفـكر البورجوازية . ان محور الوحدة الفكرية للتنظيم الطليعى قد تحدد عبر تجارب فكرية للثورة المصرية باختيار « الاشتراكية العلمية » ، وهو أمر تؤكد حركة تطور الثورة المصرية ضرورة التمسك به .

وأخيرا ــ فان التنظيم الطليعى ــ لا يمكن تشكيله وتكوينه من مجرد مواقع فكرية ونظرية واخلاقية ــ بل يجب وأن يتم تشكيله مـن مواقع العمل والنضال والانجاز . وانه ليس مجرد هيئة استشارية للاتحـاد الاشتراكى « **يقترح الحلول المدروسة** » انما هو كما ذكرنا تنظيم قائد لنضال الجماهير من اجل حل مشاكلها ومن أجل حل مشاكل الثورة وقيادة تحـالف قوى الشعب العامل .

عبد المنعم الغزالى

■ ■ ■

قوة الرأى العـــام ليست هى البـديل

كتب عطية الصيرفى يعلق على مقال موفق أبو شنيف الذى نشر فى العدد المـاضى « قــوة الرأى العـام ــ كبديل شرعى لمراكز القــوى » .

دلتنا الانتخابـات المضيـة لمجلس الشعب على حالة البرود السياسى التى تلف المدينة المصرية التى لم يذهب غير نصف اهلها للادلاء باصواتهم فى هذه الانتخابات . مما يجعلنى أعلل ذلك بغياب قوة الرأى العام وعدم تواجدها فى الحياة المدنية المصرية ذات التركيز الصناعى والتجارى المتضخم بشكل عام . قوة الرأى العام هذه باعتبارها قوة روحية مؤثرة وفعالة فى تطورنا عموما يثير غيابها او حتى ضعفها شـيئا من الدهشـة والتساؤل . ولذا فقد تعرضت الطليعـة لهـذه الظاهرة فى عددها الماضى فيما قدمه موفق أبو شنيف فى مقاله « قوة الرأى العام كبديل شرعى لمراكز القوى » . هذه المقالة التى أثارت ولاشك أمورا هامة .. **أولها** ، الدعوة الى الاطمئنان العام للافراد ولاية مجموعة ذات مبادىء واحدة او متقاربة على الحياة والحرية ولقمة العيش ، **وثانيها** ، الدعوة لعدم جواز اعتبار عضـوية الاتحاد الاشتراكى شرطا لترشـيحات مجلس الشـعب . **وثالثها** ، توضيح الرأى العـام بانه الاتجاه الغالب للجماعات المنظمـة فى شـأن مسألة معينة . **ورابعها** ، ابراز ما نصت عليـه المادة ٥٥ من الدستور بحق المواطنين فى تكوين

جمعيات ثانوية . وبالتالى الدعوة الى وجود مجموعات سياسية داخل الاتحاد الاشتراكى وتخصيص صحيفة او مجلة لكل مجموعة .

وهذا لا يعنى من وجهة نظرى غير وقوف الاتحاد الاشتراكى على قدميه من خلال تحويله الى جبهة سياسية تقود بجدارة نضالنا الوطنى وتقوم بتنسيق التحالف بين المجموعات السياسية التى سوف تمثل بالضرورة مصالح طبقية مختلفة كما حددها موفق ابو شنيف بقوله بانها ذات مبادىء واحدة، أو متقاربة على الحياة والحرية ولقمة العيش ، وان كان قد اشترط فيما بعد وجودا غير طبقى لهذه المجموعات السياسية خوفا من تغليب مصالحها الاجتماعية خلال صياغتها لفكرها السياسى حلولا لمشاكل المجتمع وخوفا من انعزال المثقفين فى تجمع ينغلق عليهم . وهذا تناقض مغلف بحذر لا لزوم له بسبب أن المجموعات السياسية المقترحة لايوجد بينها تناقضات عدائية . وبالتالى سوف تعيش فى رحاب الاتحاد الاشتراكى باعتباره جبهة سياسية على اساس تغليب المصالح الموضوعية اى العامة على المصالح الذاتية كما هو حال المجموعات والاحزاب السياسية التى تقود النضال الاسطورى للشعب الفيتنامى العظيم . وبالنسبة للمثقفين فلن ينعزلوا فى تجمع خاص بهم لانتسابهم فكريا وطبقيا لكافة المجموعات السياسية التى سوف تشكل التحالف الوطنى من خلال الاتحاد الاشتراكى .

ومن هنا فان هذا التناقض لا يؤثر على اتجاه المقالة فى الدعوة الشجاعة لوجود مجموعات سياسية لن تحد طبعا من الاثر السياسى للجماعات الضاغطة كالنقابات كما ذكر موفق ابو شنيف بل سوف تعمل على اشاعة الاثر السياسى للنقابات العمالية والتعاونيات الفلاحية واتحادات المثقفين فى الحياة والمجتمع حتى تساهم فى بعث قوة رأى عام ديمقراطية مؤثرة تخدم مصالح الجماهير الكادحة والعمل الوطنى فى جملته ..

ومن ثم فهذه المجموعات السياسية ليست البديل الطبيعى والشرعى للشلل ومراكز القوى خلافا لما يرى موفق أبو شنيف بأن قوة الرأى العام هى البديل . وهذا لا يتفق وطبيعة الاشياء حيث تعتبر قوة الراى العام قوة روحية والشلل ومراكز القوى قوة مادية . ولهذا فلا يوجد بينهما اية علاقة تبادلية ، بالاضافة الى ذلك فقوة الراى العام لا تنبت ولا تزدهر الا على ارض المجموعات السياسية وفوق ترابها ، بمعنى أنها نتيجة لوجودها كتعبير عن حلول مناخ ديمقراطى لا يشوبه غبار التسلط .. وبالمقابل فالاشاعات لا تفرخ وتنتشر الا فى جو الشلل ومراكز القوى التى تخنق عادة وبالضرورة قوة الرأى العام وتغتال اية كلمة شريفة او فكرة طموحة تخدم قضية تحررنا من الاستعمار والصهيونية والتخلف

■

وثائق الثورة

كتب زكريا محمد عيسى بشركة السيوف للغزل والنسيج [سباهى] بالاسكندرية ، يعلق على اعتبار برنامج العمل الوطنى [١٥ مايو ١٩٧١] الوثيقة الثالثة لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . ويقول انه يرى أن للثورة وثائق ستة . هى :

الوثيقة الاولى : [فلسفة الثورة] ..لايمكن اغفال هذا المرجع الثورى الهام .. او اسقاطه من تاريخ الثورة .. فعلى صفحاته برزت سمات الثورة والثورى .. وبين جنباتها لحنا الدوائر الثلاث [الدائرة العربية] ، [الدائرة الافريقية] [والدوائر الاسلامية] .. والتى اتسعت لتشمل آفاقا ابعد . . .

الوثيقة الثانية : [دستور مصر ١٩٥٦] .. هو اول دستور مصرى يصدر بارادة الشعب المصرى الحر المستقل ..

الوثيقة الثالثة : [ميثاق العمل الوطنى ١٩٦٢] : وهى اول وثيقة ثورية تصدر بعد القرارات الثورية الاشتراكية [يوليو ١٩٦١] ..

الوثيقة الرابعة : (الاعلان الدستورى ١٩٦٤) .. وهى وثيقة التصحيح الدستورى التى صدرت لتلائم مرحلة التحول الاشتراكى .

الوثيقة الخامسة : [بيان وبرنامج ٣٠ مارس ١٩٦٨] .. وهو البرنامج الذى قال فى بدايته الزعيم الراحل عبد الناصر [الان يصبح فى امكاننا ان نتطلع الى المستقبل .. وقبل الآن فان مثل ذلك لم يكن ممكنا الا بالاستغراق فى الاحلام أو الاوهام .. وكلاهما لا تستسلم له الشعوب المناضلة .. فضلا عن ان تقع فيه .. بينما هى عند مفترق الطرق الحاسمة وامام تحديات المصير] ..

اما الوثيقة السادسة .. فهى برنامج العمل الوطنى [١٩٧١] .. والذى اصدره الرئيس أنور السادات بعد حركة التصحيح [مايو ١٩٧١] . معطيا اهتماما كبيرا للربط بين الفكر والعمل ..

والطليعة متفقة تماما مع القارىء الصديق فى اهمية هذه الوثائق . وفى الاثر الذى احدثته فى المسار الثورى للعمل الوطنى منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

ولكن ثمة فارقا بين « الوثيقة » التى تعتبر تقدما جديدا فى مسار الثورة ، وبين « الوثيقة » التى تشرح هذا الجديد وتفسره وتوضح اسسه الفكرية والاجتماعية ، وتبين آثاره العملية . ويندرج تحت هذا النوع الاخير من الوثائق الخطب والتصريحات التى صدرت ومازالت تصدر عن رئيس الجمهورية ــ جمال عبد الناصر وانور السادات . وقرارات المؤتمرات القومية العامة للاتحاد الاشتراكى ولجنته المركزية والاعمال القانونية الدستورية والتشريعية الهامة .

وثائق

المجلس الأوربى

الجمعية الاستشارية



يوم الثلاثاء الموافق ١١ مايو ١٩٧١ عقدت الجمعية الاستشارية للمجلس الاوربى جلستين لمناقشة قضية الصراع العربى الاسرائيلى .

ولا شك أن النص حافل بالاراء والافكار المعادية للعرب وقضيتهم العادلة ،والاتجاهات التى عبر عنها أعضاء الجمعية تكشف عن تحيز وموالاة صريحة لاسرائيل ، حتى ليصعب على القارىء ان يتبين نقاطا خلافية فيوجهات النظر مع مندوب اسرائيل : ورغم ذلك ، فان « الطليعة » تجد أنه من الاهمية بمكان نشر النص الكامل للمحاضر ، بما يتيح فرصة التعرف على صورة واقعية للفكر السائد فى اوربا ، وخاصة بين الدوائر الحاكمة وقيادات الاحزاب البورجوازية .

وليس معنى هذا أنالاراء الواردة فىالنص تعبر تعبيرا صادقا عن الراى العام السائد فى أوربا ، فلا يجب تعميمها ، اذ توجد قوى ديمقراطية ويسارية لها اتجاهاتها ومواقفها المتميزة ، بل أن بعض قواعد هذه الاحزاب قد لا تتبنى موقف القيادة كاملا ، الا أن الطابع الغالب والمؤثر فىأوربا — فيماعدا استثناءات قليلة — ما زال هو الطابع الاستعمارى الذى عانى منه العرب تاريخيا .

ان أوربا التى تحاول فى عالم اليوم ، أن تجد لنفسهادورا مؤثرابجانب الاتحادالسوفيتى والصينى وامريكا ، تعالج قضية الشرق الاوسط بالمنطق الاستعمارى وتعتبر اسرائيل امتدادا لها فى المنطقة واداة يمكن استخدامها فى خدمة مصالحها الامبريالية .

ومن الملاحظ التركيز والتشديد على نغمة التواجد السوفيتى فى الشرق الاوسط مما يعبر عن ذعر حقيقى للمصالح الاستعمارية ،ورغبةفى الوقيعة بينالاتحاد السوفيتىكحليف وصديق مخلص للعرب بهدف عزل حركة التحرر الوطنى عن المعسكر الاشتراكى ، للانفراد بالاولى حيث يسهل عليهم تطويق العرب وضرب حركتهم .

ورغم هذه الصورة القاتمة لوجهات النظر الاستعمارية ، فان هناك بعض الاصوات فىأوربا بدات تطالب بتفهم وجهة النظرالعربية سواء من منطلق الحفاظ على مصالحها فى الواقع المتغير ، أو نتيجة نجاح قطاعات منها فى التحرر من النفوذ الفكرى الاستعمارى .

المحضر الرسمى

للجلسة الثالثة

(يوم الثلاثاء ١١ مايو ١٧٩١ الساعة ١١ صباحا)

السيد / تشيرنيتس (النمسا) CSERNETS (تلخيص)

قبل الحديث من الوضع الحالى فى الشرق الاوسط ، ذكر المتكلم الحضور بأن حوض البحر الابيض أرض نمت عليها حضارة قديمة وكانت مهدا للاديان العالمية الكبرى الثلاث ، كما كان هذا الحوض ملتقى جميع الطرق البرية والبحرية ، مما جعل منه محطا لاشد المطامع طوال القرون الماضية ودارت فيه الحروب بصورة تكاد تكون مستمرة من الناحية العملية ، فيستطيع المرء ان يقول ان كل شبر من ارضه مشبع بالدم . ولقد ظل الشرق الاوسط مدة طويلة طريق الوصول الى منابع العبيد الكبرى . ثم اكتشفت موارده البترولية . ويفسر دوره الاقتصادى السياسة التوسعية التى اتبعتها الامبراطورية البريطانية والمانيا فى ظل آل هوهنزوليرن وروسيا القيصرية والامبراطورية العثمانية ، فضلا عن المصالح الاستعمارية الفرنسية .

واليوم تتواجه فى الشرق الاوسط القوتان النوويتان الكبيرتان وتكثران من قواعدهما العسكرية بغية المحافظة على مناطق النفوذ التى لكل منهما فيه . ولقناة السويس أهمية استراتيجية بالنسبة للاتحاد السوفيتى بصورة خاصة ، فى حين أن الولايات المتحدة ترى فيها طريقا تجاريا وتربط بينها وبين الموارد البترولية ربطا له أهمية جوهرية .

وقد حاول المجلس الاوروبى دائما ان يتفهم الطرفين المشتركين فى النزاع . فقد استقبل السيد أبا ايبان فى سبتمبر ١٩٦٧ ووزير الخارجية الاردنية فى ١٩٦٨ وسوف يستمع اليوم الى السيد عبد المجيد . وقد ذهب السيد ريفيردان الى القاهرة ، وسوف يذهب الى اسرائيل قريبا . وهكذا تتوافر للمجلس الامكانية ـ والرغبة ـ فى أن يكون لنفسه فكرة واضحة عن الحالة . وتهمه مشاكل الشرق الاوسط لاسباب سياسية وانسانية أيضا : فلا يمكن ان يكون اعضاؤه غير متأثرين بآلام السكان الذين تلتهمهم الحرب وبالكوارث التى تقرر مصير ملايين اللاجئين ، وبالموت الذى ينال ضحايا الارهاب . ولقد تأثر المتكلم ايما تأثر بالكلمات التى قالتها أم يائسة أخذت تشكو لا من أن أبناءها قتلوا بل من انهم حولوا الى قتلة . وكانت هذه الام اليائسة هى السيدة جولدا مائير .

ومنذ ١٩٦٧ اعلن المجلس الاوروبى قلقه من ازدياد القوى البحرية للاتحاد السوفيتى فى البحر الابيض ومن تكاثر القواعد والاسلحة السوفيتية فى هذه المنطقة من العالم . ألم تشاركه الاوساط السياسية العربية هذا القلق !

ولا يريد المجلس التدخل فى الشئون الداخلية للبلاد المشتركة فى النزاع . غير انه يحق له أن يلاحظ فيما يتعلق باسرائيل بأنها دولة ديمقراطية يتعرض وجودها للخطر . ولم ينس المتكلم السلبية التى اظهرها باقى أوروبا فى ١٩٣٣ ، ١٩٣٤ و١٩٣٨ امام تحطيم النظم الديمقراطية فى أوروبا الوسطى ، فلا يتمنى أن تتكرر مثل تلك الخيانة ..

وفيما يتعلق باحتمالات السلام فى الشرق الاوسط ، فعلى المجلس الاوروبى ان يعبر بوضوح عن أوجه النظر التى يتبناها . وعليه خاصة أن يؤكد فى قوة ان الهدنة لا يمكن أن تحدد فى المدة ولا أن تخضع لشروط . اذ أن الهدنة لن تكون لها قيمة الا اذا كانت قاعدة لانطلاقة قوية فى مفاوضات لا بد فى النهاية ان تجرى بين الاطراف نفسها . وبهذه المناسبة ، يذكر المتحدث نصوص القرار الذى اتخذه مجلس الامن فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ بهدف الملاحظة ان هذا القرار ليس تنفيذيا على الاطلاق ويكتفى بأن يذكر عددا معينا من المبادىء ـ الجلاء عن الاراضى التى تحتلها اسرائيل ، والاعتراف بسيادة جميع الدول فى المنطقة واستقلالها الخ .. وهى تلك المبادىء التى يرى مجلس الامن أن تبدأ المفاوضات على أساسها فى المستقبل . وعليه ، فان الجلاء عن الاراضى ليس ابدا شرطا مسبقا لاية مفاوضة ، مهما قيل بعكسه أحيانا .

وهناك ايضا بعض الناس الذين يودون لو ارتكن الاسرائيليون على الضمانات التى تقدمها هيئة الامم . غير ان المتحدث لا يجد شخصيا الشجاعة اللازمة لكى يسدى اليهم مثل هذه النصيحة التى لو كانوا اتبعوها فى ١٩٦٧ لكان لم يبق علينا اليوم الا البكاء على دولة اسرائيل بعد ازالتها من الوجود !

وهناك اتهام يوجه احيانا الى الاسرائيليين بالمسئولية عن التوتر فى الشرق الاوسط بسبب سياستهم التى توصف بالتوسعية . غير ان هذا اللوم لا أساس له . والحق انه فى مقدور المتطرف العربى ان يحلم بالقضاء على اسرائيل ، اما من الناحية الاخرى ، فليس من المتصور أن يوجد اسرائيلى واحد يفكر ـ ولو من بعيد ـ ان يعمل على القضاء على العالم العربى . وبهذا يتضح الفرق الكبير بين اوضاع الطرفين : فليس من مصلحة اسرائيل خوض الحرب ، ولا تستطيع العيش الا فى السلام .

وعلى كل ، فنفس القول ينطبق على جميع شعوب المنطقة ، اذ لا يوجد بينها من يكسب شيئا فى حالة نشوب نزاعات جديدة . وينبغى اذن ان نصل الى ابرام معاهدة سلام تضمن لا التعايش بين الجميع فقط بل التعاون الحقيقى بينهم أيضا . وبهذا فقط يمكن أن يستفاد بالموارد الطبيعية والبشرية لهذا الركن من العالم . وحينئذ فقط تزدهر الحضارة مرة أخرى فى ذلك المهد القديم للبشرية

[تصفيق]

الرئيس ـ اشكر السيد تشيرنيتس لتقريره .

انه لمن حظنا اليوم أن يكون بيننا صاحب السعادة السيد عصمت عبد المجيد وزير الدولة للجمهورية العربية المتحدة . ولقد دخلنا منذ زمن فى محادثات مع جامعة الدول العربية اذ كنا نرغب فى أن يتحدث صوت عربى مرة أخرى فى هذه الصالة . ونتيجة هذه المحادثات ان يتواجد الوزير عصمت عبد المجيد اليوم فى استراسبورج .

السيد الوزير . تقع على الدول العربية مسئولية كل الشاطىء الجنوبى للبحر الابيض ، فى حين أن مسئولية الشاطىء الشمالى تقع على بعض الدول الاعضاء فى هذا المجلس . والعلاقات بين العالم العربى واوروبا اهمية كبرى بالنسبة للمحافظة على السلام او اعادته فى هذا البحر الذى يعتبر بحرنا نحن هنا وهناك ، سواء كنا من الشمال أو من الجنوب .

ولذلك يسعدنا ان نسمع صوتا عربيا . فاذا كانت لنا اهتمامات مباشرة ، بسبب طول النزاع بين اسرائيل والدول العربية فهناك أيضا آفاق واسعة فى المستقبل لا بد لنا من أن نفكر فيها ، وينبغى أن تتطور العلاقات بين الدول اعضاء الجامعة العربية وتلك فى المجلس الاوروبى ، حتى تتولى معا مسئولياتها بصورة افضل فى هذه المنطقة من العالم التى تعتبر ملكا لها .

ومن البديهى أن النزاع الحالى يثقل بحمله على الشعوب العربية كما شعرتم به عند استماعكم لمقررنا ، كما يثقل على اسرائيل المشتركة فى اعمالنا مادامت لها هنا صفة المراقب ، وعلى شعوب اوروبا ايضا . وان ازالة هذا النزاع أحد الشروط لتعاوننا الناجح فى المستقبل .

ولكن ما يمنعنا من أن ننظر منذ الان فى آفاق هذا التعاون ، وهى آفاق ايجابية ؟

السيد وزير الدولة ـ يسعدنى ان

أعطيكم الكلمة حتى توضحوا لنا الاشكال التى سخذها هذه المسـاكل بالنسبـة لبلدكم وسائر البلاد العربية عموما .

وارجو أن تتفضـلوا الى المنبـر .

[تصفيق] . الكلمة للسيد عصمت عبد المجيد .

السيد / عصمت عبـد المجيـد — وزير الدولة لدى ج. ع. م

السيد الرئيس ، سيداتى وسادتى .

سرنى ان تلقى كلمتى امامكم سرورا بالغا .

لقد شرفنا الرئيس أوليفيه ريفيرتان بزيارته للقاهرة التى أمضى فيهـا أياما قليلة فى شهر مارس المنصرم . وتكرم فدعانى الى حضور الدورة الحالية للجمعية الاستشارية للمجلس الاوروبى والمشاركة فى جلساتها . وانى لسـعيد وشـاكر لهذا الجميل . واذ ألقى السيد الرئيس ريفيرتان فى جامعة الدول العربية خطابا هاما قوبل بتقدير كبير ، لم يسعنى الا أن أجد فيه ما وجدت فى حضورى اليوم من معنى خاص بارز . فجامعة الـدول العربيـة والمجلس الاوروبى تنظيمـان يجمعان دولا لها سمات مشتركة ، وتسعى فى حدود امكانهـا الى تحقيق أهـداف مشتركة من أجل السلام والتنمية .

وقد حاولت جامعة الـدول العربيـة منذ تأسيسها فى ١٩٤٥ أن تنسق بين الدول الاعضاء . واسهمت فى الميـدان السياسى فى حصول العديد من البـلاد العربية على استقلالها اسهاما اختلف مداه حسب الاحوال .

وفى الميدان الاقتصـادى ، أرست الجامعة الاسس للتعاون الـوثيق بين أعضائها بمقتضى الاتفاقيات التجـارية والمالية التى أبرمت فى ٧ سبتمبر ١٩٥٣ كما أن الجامعة حددت تشريعا للقـانون الدولى الخاص أخذ شـكل الاتفـاقيات القانونية . وعقدت العديد من اتفاقات التعاون مع هيئة الامم المتحدة أو وكالاتها المتخصصة .

وتطورت جهود جامعة الدول العربية فى الميدان الثقافى تطورا كبيرا . تطبيقا لمبادىء الاتفاق الثقافى المؤرخ فى ٢٧ نوفمبر ١٩٤٥ ، ركزت الجامعة اهتمامها على توحيد نظم التربية المختلفة وبرامجها وعلى اشاعة الثقافة العربيـة بواسطة المؤتمرات واقامة المعاهد وتبادل المدرسين والطلاب وترجمة المؤلفات واصدار الكتب .

وأعتقد أن الجامعة — مثلها مثل المجلس الاوروبى — تسعى الى تحقيق الاهداف الطموحة جدا فى بعض الاحيان بالوسائل المتوفرة لديها وهى محدودة للغاية .

وفيما يتعلق بالعلاقات بين الجامعـة والمجلس ، فانى أعتقد أن تنظرة بدأت تقام وتمكن وجودها من ايجاد التبادل الفكرى وانتقـال الافـكار بين عالميـن وحضـارتين استقتا اصـولهما من منابع واحدة .

ان العالم العربى الذى انتمى اليه بدأ يدخل فى مرحلة جديدة . ولقد لقى وما يزال العديد من التأثيرات والتحولات .

وأثارت حركة الوحدة العربية — وما تزال تثير — الكثير من الاعتراضات المبنية على أحكام سابقة تعسفية ، رغم أن هـذه الحركة هى التعبيـر الطبيعى لامر قائم .

فالعالم العربى رزح كما تعلمون تحت نير الاستعمار والاستغلال .

وعارضت حركة الوحدة العربية هـذا الاستغلال وذلك الاستعمار . وفى مقدور كل من المـؤرخ وعـالم الاجتمـاع أو الاقتصاد أن يحللها تحليلا مختلفا . فلم يكن تحرير العالم العربى بالامر السهل . كما أن تحولات وقعت فى المجتمع العربى ولقد كان هذا المجتمع يعيش فى ظـل نظام عتيق ، يشعره بأنه مستغل ومحاصر ومسود . وكان عليه أن يعوض التأخير الذى أصابه والذى لم يكن هو مسئولا عنه .

وكان من الضرورى أن تجرى التغييرات الجذرية للحصول الى مستوى معيشى أرقى بسرعة أكبر ، وللاسراع بالتطور وتوجيه الجماهير العربية فى طريق التقدم والتغير مع المحافظة على صلاتها بثقافتها وتقاليدها وايمانها .

ذلك لان تطـورنا لا يمـكن أن يتم بالانفصال عن ماضـينا . واذا كـان شعراؤنا ينشدون لماضينا المجيد ، فلان الكلمة ما زال لها سحرها فى الشرق . ولدينا ما يكفى من الواقعية تجعلنا لانريد أن نعيش فى هذا الماضى رغم اعتزازنا به ، وأن نرنو الى المستقبل بكل ما فيه من امكانية كانية وآمال ووعود .

السيد الرئيس :

أعتقد أنه من الامور الضرورية والهامة أن تدرك البلاد الاوروبية وجـود ذلك العالم الذى أتشرف بتمثيله . ان البحر الابيض يربطنا ومن المستطاع أن تتوثق بيننا المصالح العديدة وتتضح النقـاط المشتركة من خلال تلك الرابطة المشتركة . وينبغى أن نحلل ما تحمله الافاق البعيدة من امكانيات وانى أذكر بعض الارقـام ذات الدلالة على تلك العلاقات .

وصل عدد السكان لبلاد البحر الابيض عام ١٩٧٠ الى ٢٧٠ مليون نسمة . وبلغ ما يخص البلاد العربية فى المنطقة ٧٥ مليونا . وفى عام ١٩٨٥ تستبلغ عـدد العـرب فى شواطىء البحـر المتوسـط ٢٤٠ مليونـا من مجمـوع سوف يبلغ ٣٩٠ مليونا .

وسوف تمثل هـذه الزيادة الـكبيرة قدرة تجارية واقتصـادية ذات قيمـة عظيمة . فمن المتوقع أن تصل الواردات الضرورية لهذه المنطقـة ضعف مبلغهـا الحالى ، اذ ترتفع من ٦٩٨٠ مليـون دولار سنة ١٩٦٤ الى ١١٧٠٠ مليـون دولار سنة ١٩٧٥ طبقا لتقديرات مختلفة ، ومنها ٧٠٠٠ مليون دولار من البضـائع الرأسمالية .

ولبلاد الشرق الاوسط المطلـة علـى البحر الابيض موارد طبيعية واسعة ، وخاصة البترول والغاز . ففى امكانها أن تشبع جزءا من عطش أوروبا للبترول فالبترول عبارة عن المصدر الرئيسى الحالى للطاقة وسوف يظل كذلك لمدة طويلـة ، رغم بعض التنبؤات التى تبنى علـى أسس واهية ، وكذلك رغم ما تم من اكتشافات حديثة لمصادر الطاقة فى ميادين أخرى .

وفى عام ١٩٦٤ صدرت البلاد المنتجة للبترول على شواطىء البحر المتوسط ما قيمته ٥٣٦٨ مليون دولار من هذا الوقود ، وسوف تصل قيمته ١٠٢١٥ مليون دولار عام ١٩٧٥ .

لقد اطلعت على نشرة جامعة صدرت فى باريس فى الشهر المنصرم بعنوان « أوربان ــ بترول » فوجـدت أن الحيرة والخوف سيكونان نصيب أوروبا فى العقدين القادمين علـى الاقـل ، وقـد تزيد ــ فمن المتوقع أن يرتفع استهلاك أوروبا للبترول الى ثلاثة أمثال الوضع الحالى فى ١٥ سنة ، غير أنها لا تملك أى مـورد بترولى هام . فاحتياطيها الوحيد موجود فى شمال أفريقيا والشرق الادنى .

ويستطرد الكاتب موضحا أفكاره ثم يصل الى النتيجة القائلـة بأن خيـار أوروبا ازاء مشكلة الطاقة سوف يكون خيارا سياسيا .

ومن جانبى ، فانى أومن بأنه من الممكن أن يكون نصـيب أوروبا فى العقـدين القادمين الطمأنينة والامن ، لا الحيـرة والخوف . ان الطمأنينة والامن يمكن أن يستقرا فى علاقاتنا ، وهـذا ما آمله . غير أن جهد الطرفين لابـد أن يتوفـر للوصول الى هذه النتيجة . وينبغى أن يكون أساس ذلك الاختيار السـياسى الحكمة والثقة والاحترام للمصالح المتبادلة والشرعية ، مما سيؤدى بنا دون شك الى تلك الطمأنينة وذلك الامن ، بـأن نعمل معا من أجل مصالحنا المشـتركة

وتقوى روابط الفائدة المتبادلة التى تحمى الطرفين من اى استغلال .

ولا يعنى هذا ان مناطق اخرى من العالم ممنوعة من المشاركة ،اوالتعاون معنا فى هذا العمل . فاننا على نقيض ذلك تماما ، نسعى الى التعاون الدولى المبنى على الاحترام المتبادل والمساواة . ولا نطمح الا فى العدل والحق والسلام . واذا أمكن ان تتام هـذه المبـادىء فى ملاقاتنا ، نكون قد حققنا خطواتجبارة. ولا بـد لذلك من أن تتـوفر الثقـة والتفاهم .

وهنا يثار تساؤل : هل من الصعب ان نقيم الثقة والتفاهم بيننا ؟ ذلكهو فيصل المشكلة .

واسمحوا لى ان احدثكم فى صراحة. فنحن ننتظر من اوروبا ان تقدم مايبرهن عليهما من جانبها . واذا قلت تفاهما ، فهذا لا يعنى التطابق فى وجهة النظـر وانى بعيد كل البعد من هذه الفكرة ، بل اقصد جهدا يبذل على الاقل لفهموجهة نظر الطرف الاخر .

فشرط ضرورى لبناء اى تعاون مقبـل بين اوروبا والعالم العربى ان يحـدث تغير فى طريقة التفـكير وزاوية الرؤية، وان تحلل المشاكل وتدرس من نـواح مختلفة ، وان يستمع المرء الى وجهات نظر الجميع .

ويسعدنا أن نلاحظ تطورا هاما فى الراى العام العالمى ـــ وخاصة الاوروبى ـــ ازاء مشكلة الشرق الاوسط . وكـان لفرنسا الفضل الكبير فى اتخاذ موقفها الشـجاع رغم أنف الجميع منـذ بداية العدوان الاسرائيلى فى يونيه ١٩٦٧ . وتتبنى بلاد اوروبية أخرى الان موقفـا ينطوى على نفس التفاهم ، مما يسرنا . واننا لنطلب تفاهما يمكن تلخيصـه فى كلمات ثلاثة : الحقيقة ـــ السلام ـــ العدل .

ولا اود أن أخوض مناقشة طويلـة لمشكلة الشرق الاوسط . فهذا يحتاج الى ساعات وساعات . فلننظـر الى الحالة الحاضرة للوضع ، بعـد مرور أربع سنوات على حرب يونيه ١٩٦٧ . أمامنا مأساة الفلسطينيين ، ثم احتلال القوات المسلحة الاسرائيليـة للاراضى العربية التابعة لثلاث دول اعضاء فى هيئة الامم المتحدة ، وذلك رغم جميع القرارات والتوصياتالتى اتخذتهاالجمعية العامة ومجلس الامن .

وفيما يتعلق بالمشكلة الفلسطينية : فانتم تعلمون أن الشعب الفلسطينى قد طرد من ارضه ، ونهبت منه ممتلـكاته . وجزء كبير منـه يعيش فى معسـكرات اللاجئين . لقد ارتكب ازاءه ظلم بشع . غير ان الحقيقة تسطع اليوم بأوضح ما تكون . فلم تعد المشكلة قضية لاجئين ، بل قضية سياسية فى جوهرها .

لقد ضدت الدعاية عددا كبيـرا من الناس ذوى النيات الحسنة ، غيـر أن معلوماتهم غير صحيحة . فلا يمـكن أن يسود السلام هذه المنطقة الا اذا حوفظ على حقوق الفلسطينيين . وتؤيد الجمهورية العربية المتحدة كفاح الشعب الفلسطينى تأييدا كاملا ، وتطالب بـأن تتحقق تسوية عادلة فى هـذا الشأن طبقا لقرارات الامم المتحدة بخصوصه .

وفى التقرير الذى قدمه الرئيسنيكسون الى الكونجرس فى ٢٥ فبراير ١٩٧١ ، صرح قائلا :

« لا يمكن ان تتحقق تسـوية مستقرة فى الشرق الاوسط دون أن تتضمن الامال الشرعية للشعب الفلسطينى » .

أما الجانب الثانىلقضية الشرقالاوسط فهو ما يتعلق برفض اسرائيل ان تسحب قواتها العدوانيـة من الاراضى العربية. وهى تقـول ان هـذه الاراضى ضرورية لامنها .

لم تعد اسرائيل اليـوم ذلك البلـد الصغير المحاصر بالبلاد العربية الاخرى المستعدة لابتلاعها . فلا يوجد اليوم من هو يصدق هذه الصورة . فاسرائيـل هى التى تحتل حاليـا أراضى عربيـة وتطمع فى ضمها اليها . واننا أمـام دولة توسعية تثير فى اذهان الاعضـاء المحترمين لهذا المجلس ذكريات معينة . وترفض اسرائيل مبـدأ سحب قواتهـا نفسه ، وتتحدى بذلك المجتمع الدولى.

لقد رفضت اسرائيـل فى صراحـة مبدأ سحب قواتها العدوانية فى مذكرة رسمية قدمتها للسفير يارنج منذ مـدة وجيزة ، فى ٢٦ فبراير ١٩٧١ . واليكم النص الواضح لفقرة البند الرابعبهذه المذكرة :

« لن تنسحب اسرائيل الى الخطـوط القائمة قبل ٥ يونيه ١٩٦٧ » .

ان ج. ع. م تسير فى طريق السلم . ولقد عملت على فتح جميع الامكانيات ومازالت وهناك موقفان لهما مغزى فى هـذا الشـأن :

١ ـــ لقد وافقت ج. ع. م علـى الاقتراحات الاخيرة للسفير يارنج فى حين ان اسرائيل رفضت حتى الاجابة عليها .

٢ ـــ وفى يوم ٤ فبراير اعلن رئيس ج. ع. م . السيد انور السـادات مبادرة مصرية توافق على ان تفتح قناة السويس أمام الملاحـة الدوليـة مقابل الانسحاب الجزئى للقوات الاسرائيلية .

ان اعادة فتح قناة السويس لهى امنية دولية . لا داعى لابراز اهميتها بالنسبة للتجارة الدولية ونقل البترول .

ولقد ابدت بعض الاوساط شكا فى اهمية القناة بسبب الناقلات العملاقة التى تعمل حاليا . غير ان هذا الراى خاطىء لسببين :

الاول هو ان اسـتهلاك اوروبا من البترول القادم من منطقة الخليج يرتفـع باستمرار . فالبترول الصادر من الخليج كان يشكل ٩٥ ٪ من البترول المـار بقناة السويس اسـتهلكت اوروبا منه ٨٨ ٪ عام ١٩٦١ ، ثم ارتفع استهلاكها فى عام ١٩٦٦ الى ٨٨ ٪ من البترول الصادر من الخليج :

وتطور الاستهلاك الاوروبى الـكلى للبترول طبقا للجدول الاتى الذى يبين التوقعات للمستقبل :

١٩٦٥ ـ ٣٩٥ مليونا
١٩٧٠ ـ ٩٥٠
١٩٧٥ ـ ٨٠٠
١٩٨٠ ـ ١١٠٠ مليون طن

وسوف يكون نصيب قنال السـويس فى نقل هذا البترول .

٤٤٠ مليون طن عام ١٩٧٥
٦٩٠ مليون طن عام ١٩٨٠

ولا يمكن ان يشكلبناء الناقلاتالضخمة منافسة للقنال . فالقنال يستطيع اولا أن يتحمل بعد اعادة فتحه ناقلات تصـل حمولتها حتى ١٠٠،٠٠٠ طن ثم ترتفع الى ٢٥٠،٠٠٠ طن بعد تنفيذ مشـاريع التوسع .

وقبل غلق القناة ، كان نقل البترول من الخليج حتى انجلترا على ناقلة ذات حمولة ١٠٠،٠٠٠ طن يكلف ٦٠٠،٠٠٠ دولار . اما اليوم ، فتكلف هذه الرحلة نفسها عن طريق الراس ما يقرب من ٢ ملايين من الدولارات . وهذا دون ذكر مخاطر الناقلات العملاقة وتكاليفهاالمعروفة تماما .

ولان مصر تنظر الى المستقبل ، فقـد اشتركت فى اتحاد مالى دولى يجمـع عددا من البلاد الاوروبية [فرنسـا ، المانيا الاتحادية ، اسبانيا ، ايطاليا ، اليونان] ويهدف الى بناء خط انابيب من السويس الى البحر الابيض . وسـوف يستطيع هذا الخط أن ينقل كمية من

البترول تصل الى ٦٠ مليون طن فى السنة وتبلغ تكاليف المشروع ٢٥٠ مليون دولار تقريبا .

ان هذا الخط — المسمى « سوميد » — لهو برهان على أن القناة لن تكفى وحدها لنقل كل البترول المطلوب عند اعادة فتحها .

ومن يعارض اعادة فتح القناة ؟ هى اسرائيل . واسرائيل دون غيرها .

ما زالت المبادرة المصرية الخاصة باعادة فتح القناة قائمة ، ولكن علينا أن نلاحظ أنها ليست حلا منفصلا ، بل عملا يرتبط ببساطة ارتباطا عضويا بتنفيذ القرار الذى أصدره مجلس الامن فى نوفمبر ١٩٦٧ .

وأود ان اكرر وجهة نظرنا كما يلى حتى تكون الامور واضحة تماما فيما يتعلق بتنفيذ الاقتراح المصرى :

١ — من اللحظة التى يتم فيها الانسحاب الجزئى — وهى المرحلة الاولى للانسحاب الكامل — فالجمهورية العربية المتحدة مستعدة ان تبدأ كسح قاع القناة . وتستغرق هذه العملية بين أربع وستة شهور .

٢ — وفى حالة التنفيذ الفعلى ، تقبل ج. ع. م. وقف اطلاق النار لمدة معينة حتى تمكن السفير يارنج من أن يحدد الجدول الزمنى لتطبيق قرار مجلس الامن الصادر فى نوفمبر ١٩٦٧ .

٣ — تعبر القوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة قناة السويس حتى تتولى مسئولياتها القومية على الضفة الشرقية .

٤ — غير أن ج. ع. م. مستعدة — حتى تحافظ على السلم — ان تقبل اجراءات عملية تهدف الى الفصل بين القوات المتصارعة اثناء فترة وقف اطلاق النار . وهى الفترة التى يحدد فيها السفير يارنج تفاصيل البنود الخاصة بحل الازمة والجدول الزمنى للانسحاب الكامل من جميع الاراضى العربية فى سوريا والاردن وغزة وسيناء . واذا وصلت تلك الفترة الى نهايتها دون أن يكون تقدم حقيقى قد انجز ، فتحتفظ القوات المسلحة المصرية لنفسها بحق العمل من اجل التحرير الشامل للاراضى العربية المحتلة .

٥ — ترفض ج. ع. م. رفضا باتا اية مناقشة حول نزع سلاح سيناء . غير أنها تقبل أن تقام مناطق منزوعة السلاح — طبقا لقرار مجلس الامن — وبشرط أن تكون متماثلة من جبهتى الحدود .

٦ — لايحق لاية جهة معنية أن تخاطب ج. ع. م. فى وجود اسرائيل — مهما كان شكله — فى شرم الشيخ ، وهو جزء لا يتجزأ من ارضنا القومية . وتعتبر ج. ع. م. غير مقبولة الاشاعات التى جرت حول ايجار شرم الشيخ أو اعارته ، أو حول اشتراك قوة اسرائيلية ضمن القوى الدولية للسلام .

ان الوضع فى الشرق الاوسط جد خطير . وتكافح ج. ع. م. من اجل تحررها الوطنى . والتاريخ المصرى الطويل ثرى بالدروس الدالة على أن اكثر الاعمال حسما للامور ليست تلك التى تبهر العين ، بل انها نتيجة جهد الصبر والحقيقة والعدل . واذا كانت الاحلام تراود اسرائيل ، فقد آن الاوان أن يعمل الذين يعرفون حقيقة الامور وجدية الوضع على تنبيهها وايقاظها قبل أن يفوت الزمن .

السيد الرئيس : سيداتى وسادتى

لقد حاولت — امام هذا المجلس الموقر — أن ألمس بعض الموضوعات التى تشغل الاذهان . وأملى أن تتقبلوا عذرى فمن المؤكد أننى لم أستطع معالجتها بعمق فى الزمن المحدد لى .

اشكركم جميعا شكرا جزيلا . واحيى مدينة استرا سبورج الجميلة باعتبارها رمزا للوحدة من أجل السلام والتحرير . ثم أحيى من خلالها استرا سبورج فرنسا التى تستقبلنا اليوم .

سيدى الرئيس ، شكرا .

السيد الرئيس — اشكركم ، ياسيدى الوزير .

ولقد قلتم لى انكم مستعدون للرد على الاسئلة التى توجه اليكم ، ولكنكم تفضلون ان يجمع عدد من الاسئلة قبل الاجابة .

الكلمة للسيد / بلومنفيلد

السيد / بلومنفيلد BLUMENFELD

[جمهورية المانيا الاتحادية] — [تلخيص]

— يشكر السيد / مجيد لسعة أفقه وصراحته ، ويسعده ، باعتباره رئيسا للجنة الشئون السياسية ، أن تتمكن هذه اللجنة من الاستمرار فى المناقشة مع السيد / مجيد غدا صباحا حول المشاكل التى لا يرغب فى اثارتها فى جلسة علنية .

ولاحظ المتحدث ان الجامعة العربية والمجلس الاوروبى لهما مصلحة متبادلة فى الالتقاء ، غير أنهما ليس لهما مبادىء أو أهداف مشتركة . وسأل الوزير بعد ذلك اذا كان تصريح بنى غازى او احد التصريحين الاخرين اللذين اصدرتهما الحكومة المصرية يعتبر ذا صفة رسمية وكذلك يرغب فى أن يعرف اذا كانت الحكومة المصرية — بعد ابرام السلم فى الشرق الاوسط — مستعدة للاشتراك فى المجموعة الاقتصادية للشرق الاوسط ، بمرض وجودها ، وهى تلك التى اقترحها وزير الشئون الخارجية الاسرائيلية فى ١٩٦٧ ثم السيد / أبا ايبان بنفسه بعد ذلك .

السيد / الرئيس — لانتباه السيد الوزير مجيد ، أوضح أن السيد / بلو منفيلد المانى وينتمى الى الاتحاد المسيحى الديمقراطى .

سأعطى الان الكلمة للسيد/بيتيول ، وهو عضو ايطاليا بمجلسنا وينتمى الى الديمقراطية المسيحية .

خطاب السيد/بيتيول BETTIOL

[ايطاليا] .

ينبغى أن اشكر السيد وزير الدولة المصرى لوضوحه وبعد نظره فى كلمته التى عرفنا بها موقف مصر والبلاد العربية الاخرى فى هذه اللحظة التاريخية الحرجة بل الخطرة .

واود أن أوجه الى السيد الوزير ثلاثة أسئلة بروح الصداقة :

السؤال الاول هو الاتى : لقد انسحبت اسرائيل بعد حربى ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ من المناطق المحتلة . ومع ذلك فلم تعلن مصر استعدادها لانهاء حالة الحرب بواسطة اعلان رسمى للهدنة أو بالتوقيع على معاهدة سلام . واليوم بعد حرب ١٩٦٧ ، فكيف يمكن لدولة اسرائيل أن تثق فى ان يكون لتعهد مصرى بالسلام استمرار وبقاء اذا تحقق احتمال الانسحاب الاسرائيلى من الاراضى المحتلة وذلك بعد ما مرت اسرائيل بتلك السوابق ؟

السؤال الثانى : لقد تحدث السيد الوزير عن تطور توحيدى وتضامن بين البلاد العربية التى استيقظت بعد العهد الاستعمارى . وليس من شك فى أن هناك اختمارا سياسيا كبيرا فى جميع البلاد العربية . ولكن لا يؤدى هذا الاختمار السياسى الى شكل جديد من اشكال الاستعمار ، شكل يضاف الى الامبرياليات النشطة اليوم ، أو التى مضى عليها الزمن ؟ ألا يكون أن يعبر الاستعمار العربى عن نفسه — ضمن ما يعبر عن نفسه به — بذلك البيان الاخير الذى أصدرته البلاد الثلاث — ليبيا وسوريا ومصر — والتى أعلنت به تكوين الاتحاد ؟ وهو أمر لاشك فى أنه يوجد سيطرة حازمة حاسمة فى الحوض الشرقى للبحر الابيض ، وهى سيطرة تأتى بالخسارة لمصالح أوروبا القارية . وثم ، ألم يكن شكلا من أشكال الاستعمار أن يطرد الايطاليون الاخيرون من ليبيا بواسطة القذافى ، مما أثر تأثيرا قويا على

علاقات التعاون والتفاهم بين ايطاليا وليبيا والبلاد العربية بصورة غير مباشرة ؟

السؤال الثالث — لقد تحدث السيد الوزير عن ضرورة الوصول الى اعادة فتح قناة السويس . وركز بشكل خاص على علاقة ذلك بمشكلة مرور ناقلات البترول ، وهى الناقلة التى تتعطش اليها أوروبا دون شك . غير أننى أعتقد أن أشد الدول اهتماما بفتح قناةالسويس فى هذه اللحظة هى روسيا ، اى أمة تحتاج الى البترول أقل مما تحتاج اليه أية أمة اوروبية أخرى . ماذا يعنى هذا ؟ يعلم الجميع أن لروسيا اليوم أسطولا قويا فى البحر الابيض ، غير أنه مقيد الحركة بسبب غلق قناة السويس . ويعلم الجميع أن لروسيا أسطولا قويا فى المحيط الهندى والبحر الاحمر . نجزيرة سوقطرة مركز محصن تستعمله البحرية السوفيتية . اليست أسبابا ذات طابع استعمارى تلك التى تدعو روسيا اليوم الى المطالبة باعادة فتح القناة او الرغبة فيها ، لتستطيع توحيد أساطيلها فى البحر الابيض والمحيط الهندى ، وبهذا تقيم شكلا آخر من الاستعمار فى مناطق مازالت حتى الان بعيدة عن الحماية السوفيتية الفعالة؟ واذا تحقق مثل هذا اللقاء بين الاساطيل السوفيتية ، ألن تكون الدول العربية ايضا من بين البلاد التىستشعر بانتقاص عميق لحريتها فى المناورة وبالتالى فى استقلالها ؟ وشكرا .

السيد/الرئيس — الكلمةللسيد دانكان ساندس ، نائب محافظ بريطانى .

السيد/ ساندس SANDYS

[المملكة المتحدة] ، [تلخيص] . يذكر الحضور بأن قرار هيئة الامم المتحدة اقترح أن قوة عسكرية رباعية يشرف عليها مجلس الامن تقام على طول الحدود الاسرائيلية المصرية والاغلب أن تميل الحكومة المصرية الى قبول الفكرة ولكن ، الا يخشى على أساس التجربة الماضية ، أن يعجز مجلس الامن عن اتخاذ قرار واصدار تعليمات واضحة وعاجلة لتلك القوات اذا ما قام احد البلدين بالهجوم ؟

ومن جهة اخرى ، فكثيرا ما تلام الحكومات العربية بدعوى عدم اهتمامها الحقيقى بمصير اللاجئين ، باستعمالها اياهم كقطع شطرنج ليس الا . ورغم ان المتحدث لا يتبنى هذه الفكرة ، الا انه يسأل السيد الوزير مجيد اذا كانت حكومته مستعدة لتنفيذ برنامج يهدفالى اقامة هؤلاء اللاجئين خارج الحدود الاسرائيلية .

السيد الرئيس : الكلمة للسيد شولتز نائب رئيس المجلس 7 وعضو اشتراكى بالوفد الالمانى

السيد / شولتز SCHULTZ

[جمهورية المانيا الانحادية] — [تلخيص] . سيتكلم بنفس الصراحة التى تحدث بها السيد الوزير مجيد . وأن حرب الايام الستة ستبقى فى نظره نموذجا كلاسيكياللحرب الوقائيةالمفروضة ويستغرب أن يدور على مصر الانتظار كى يتحول المنتصر الى مهزوم ويستسلم دون شروط . فلم يجد فى خطاب السيد مجيد شيئا يجعل المرء يعتقد أن البلاد العربية مستعدة لاى تنازل ، حتى فى حالة جلاء اسرائيل للاراضى المحتلة . وفى رأيه ، فان مسالك الصلح يمكن أن تمهد بواسطة المحادثات بين مندوبىالبلاد الاوروبية والعربية بشرط أن أولئك وهؤلاء يظهرون روح التفاهم .

ثم يستغرب السيد شسولتز من أن البلاد العربية الفخورة عن حق بالتخلص من الاستعمار تتنازل للاتحاد السوفيتى بقواعد تزداد عددا واتساعا على أراضيها . اليس هذا شكلا جديدا من الاستعمار ، وكيف يوفق السيد مجيد بينه وبين الاهتمام الذى اظهره فىخطابه بالامن الاوروبى .

السيدالرئيس : الكلمة للسيد /ويتلوك عضو حزب العمال فى الوفد البريطانى .

السيد ويتلوك WHITLOCK [المملكة المتحدة] — [تلخيص] . يذكرالاعضاء أن مصر رفضت قبول قرار مجلس الامن عام ١٩٥١ الخاص بحرية الملاحة فى قناة السويس ، ثم اغلقت مضيق تيران وطلبت رحيل قوات الامم المتحدة . وفى هــذه الظروف ، لما الذى يجعل الاسرائيليين يثقون فى الضمانات التى يقدمها هذا البلد بشأن مرور سفنهم بقناة السويس ؟

السيد الرئيس : الكلمة للسيد لويد عضو حزب المحافظين فى الوفد البريطانى

السيد لويد LLOYD [المملكة المتحدة] — [تلخيص] يلاحظ انه طبقا لكلام السيد الوزير مجيد ، فلن يكون مربحا أن تمر السفن بالراس اذا أعيد فتح قناة السويس ، ويود المتحدث أن يحصل على المزيد من التفاصيل فى هذا الشأن . فهل فى امكان ناقلات البترول حمولة ٢٥٠,٠٠٠ طن ان تستهلك القناة بحمولة كاملة ؟ ومن جهة أخرى ، فهل السيد الوزير متأكد من أن أصحاب النقل البحرى سوف يخاطرون بالمرور مرة أخرى بقناة السويس بعد الذىجرى فى السنوات الاخيرة ؟

واذا كان هدف الحكومة المصرية أن تخفف من التوتر فى الشرق الاوسط ، وأن توحد الظروف التى تجعل المفاوضة أمرا ممكنا، فلماذا يترك السوفيت يقيمون على أرضه عددا متزايدا من الصواريخ ؟

واخيرا ، يلح المتحدث على أن يكف الناس عن استعمال بعض الالفاظ مثل « معتد » أو « امبريالى » التى تجعل أى نقاش مستحيلا ، والتى لا تعنى شيئا ايضا ، اذ أن كل طرف من الطرفين معتد أو استعمارى فى نظر الاخر والعكس بالعكس .

السيد الرئيس : الكلمة للسيد مولوى عضو حزب العمال ومن الوفد البريطانى

السيد مولوى MOLLOY [المملكة المتحدة] — [تلخيص] . لم يسعه الا أن يتشعر عندما سمع أحد زملائه يتحدث عن « النموذج الكلاسيكى للحرب الوقائية » . وهذا ، والحق يقال ، أسلوب سبق أن سمع مثله ! ويوضح من جهة أخرى أنه ليس للاوروبيين أن يعطوا لاحد دروسا فى الحكمة ، اذ أن تصرفاتهم لم تكن دائما مثالية ، بل كانت بعيدة تماما عن هذا المستوى ! ثم يشير الى ذلك الوضع المتناقض الذى يجعل الاوروبيين حساسين جدا للجرائم التى ترتكب ضد اليهود ، غير أنه يبدو أنهم كثيرا ما ينسون أن الذين ارتكبوها هم الاوروبيون لا العرب ، وفى رأيه ، فليس لمساهمة أوروبا فى حل أزمة الشرق الاوسط من معنى الا اذا لم يكن لا حلا مناصرا لاسرائيل ولا مناصرا للعرب ، بل يكون حلا يعمل من أجل السلام دون غيره .

وقد قدم البعض فكرة تقول بأن فى استطاعة القوات العسكرية للدول العظمى الاربعة — ان وجدت — أن تعيد التوازن بين الاطراف المتنازعة . دون أن يتفاءل المتحدث كثيرا ، ففى رأيه أن هذا الحل امر يمكن دراسته . ويتساءل اذا لم يكن فى امكان هيئة الامم ان تنفذ برنامجا للمعونة المالية والفنية تمكن المهاجرين من الاقامة فى المناطق المحررة بعد أن تكون القوات الاسرائيلية قد انسحبت منها .

ثم يثير السيد مولوى السؤال الذى يعتبره الفيصل . ويقول انه لن يكون هناك سلام اذا لم تعد الارض التى تم الاستيلاء عليها فى ١٩٦٧ ، ولكن هل فى استطاعة السيد الوزير مجيد أن يقدم تأكيدا بأنه ، اذا ما تحقق هذا الشرط ، ســـوف تعطى لاسرائيل الضمانات القوية فيما يتعلق بحقها فى الوجود ؟

السيد الرئيس : الكلمة للسيد الوزير عبد المجيد .

السيد عصمت عبد المجيد : وزير الدولة لدى رئيس الوزراء بالجمهورية العربية المتحدة .

السيد الرئيس ، يهمنى قبل أى شىء أن أشكر أعضاء هذا المجلس الذين

وجهوا الاسئلة ، رغم اعتراقى بأن بعضها صعب أحيانا ، غير ان مجرد اثارة المشاكل من هذا النوع يظهر اهتمام المجلس بمسألة الشرق الاوسط. وتغطى الاسئلة المثارة ميدانا واسعا ، فسوف أحاول الاجابة على ما يتعلق باقامة السلم فى هذه المنطقة .

وأعتقد أن مصر برهنت على ارادتها المخلصة بشأن هذاالسلم . فلقد قبلت مصر قرار مجلس الامن فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ ، وقبلت مصر مشروع روجرز ، وأجابت مصر على الخطاب الذى وجهه السفير يارنج الى حكومة ج.ع.م. بتاريخ ٨ فبراير .

والرد المصرى مسجل فى وثيقة رسمية تعتبر اليوم احد مستندات هيئة الامم المتحدة ومؤرخ ١٥ — ٢ — ١٩٧١ . وانه مستند من الاهمية الكبرى ، غير أنه ليس معى للاسف ، وفيه أشارت مصر فى وضوح تام الى الشروط المطلوبة لاقرار السلام فى هذه المنطقة .

اننا نتمنى سلما عادلا ، وهذا يعنى بالتالى أن ذلك السلم العادل لا يمكن أن يبنى على ضم الاراضى .

ولكننا ، اذا كنا ننشد السلام ، ففى الوقت نفسه لن نقبل سلاما من اى نوع . ويجب أن يقام السلم الحقيقى على الاسس التى تقبلها المجتمع الدولى والتى تضمنها قرار مجلس الامن وكذلك جميع الجهود التى بذلها السفير يارنج خلال السنوات الاخيرة .

ولقد تحدث البعض ايضا عن الضمان وما هو الضمان المطلوب توفيره ؟

سيدى الرئيس ، اعتقد مخلصا أن الضمان لا يمكن أن ينتج عن ضم الاراضى وهذا مهما تكن الظروف ، والا فسيكون هذا الضمان بداية لحرب جديدة .وعندما تبلنا الضمانات الدولية ، ابرزنا ايضا الدور الهام الموكول الى الدول العظمى الاربعة فى هذا الشأن . ويبدو لى أن فى هذا موقفا ايجابيا وأملى أن يتفهمه الاعضاء المحترمون فى هذا المجلس .

ليس فى مقدور اسرائيل أن تفرض نفسها فى هذه المنطقة وخاصة بواسطة الفانتوم والاسكاى هوك ، أو أسلحة الحرب الاخرى

وعندما تقوى مصر دفاعها وترغب فى تحرير اراضيها المحتلة ، نسمع البعض يقول أن هذا يعود الى النفوذ السوفيتى الموجود فى بلادنا .

ويؤسفنى ان اقول اننى لا أرى ارتباطا منطقيا بين هذا وذاك .

لقد بدأت المقاومة المصرية للعدوان بعد انتصار اسرائيل ، واستمرت وما زالت مستمرة . ونحن نرغب فى السلم رغبة اكيدة ، غير أن هذا السلم يجب أن يبنى على العدل والحق . واذا كنا نحصل على الاسلحة فلكى ندافع عن أنفسنا لا لنهاجم به .

واعتقد أن عددا كبيرا من الاعضاء المحترمين فى هذا المجلس يفهمون تماما معنى الاحتلال العسكرى ، أما حركات التحرير ، فانهم مارسوها بشجاعة على أراضيهم ، نعم اننا اليوم أرض محتلة وندافع عن انفسنا . ونريد أن ندافع عن أنفسنا بواسطة اكثر الوسائل تقدما مادام الخصم يحتل أرضنا ويحصل على هذه الاسلحة ويفرض ارادته على سكان المناطق المحتلة .

وتكلم البعض عن موقف البلاد العربية وعن نوع معين من الاستعمار يمارسه الاتحاد المصرى الليبى السورى ولقد شرحت من قبل أن الدول العربية ، اذ تتعاون فى سياسة مشتركة رغم صعوبة تنفيذها ، فانها لا تقوم الا بعملية طبيعية تماما ليست موجهة ضد أحد . ودهشت جدا عندما سمعت المندوب الايطالى المحترم ، السيد / بيتول ، يهاجم ليبيا بسبب الموقف الذى اتخذته هذه البلاد ازاء الرعايا الايطاليين . وليس من حقى أن أحكم على تصرفات الحكومة الليبية ، ولكن هل يسمح لى بأن أذكر المندوب المحترم بأن القوات الايطالية احتلت ليبيا فى ١٩١٣ ، وأنها تحملت فترة كاملة من الاستعمار تحت نير الاحتلال الايطالى ؟

لقد دعوت الى التفاهم . غير أن هذا التفاهم ، الا يجب أن يعمل لمصلحة الليبيين ايضا ؟ أليس مناسبا أن نفهم انهم يريدون أن يكونوا أسيادا فى بلادهم ؟ وعلى كل حال ، أظن أن الحكومة الايطالية نفسها عبرت عن ادراكها لهذه الرغبة بالزيارة التى قام بها السيد الدو مورو لطرابلس ، ان التفاهم ممكن اذن بين الناحيتين وبهدف تحقيق المصلحة المتبادلة ، خاصة وأن المسافة بين طرابلس ونابولى لاتستغرق أكثر من بضع ساعات بالسفينة .

وعندما دعوت الى التفاهم ، طلبت ايضا أن يتفهم البعض وجهة النظر المقابلة . وليس هذا . لا عدلا . وان العضو العمالى المحترم الذى تكلم اخيرا عبر عن نفسه بأسلوب طابعه الاخلاص وأثار مشكلة اللاجئين ، وهى فى رأيى مشكلة سياسية فى جوهرها . ومن الممكن أن تقدم أنواعا شتى من الخطط فى هذا الشأن . غير أن للفلسطينيين حقا ، ولهم أن يعرضوا رغباتهم . فليس لمصر أن تقول لهم ما يطلبونه ، بل للفلسطينيين أن يقرروا ما يصلح وما لا يصلح لهم .

وجرى الحديث عن قناة السويس ، وأثار السيد / لويد — ولا ادرى اذا كان هذا الاسم يرتبط بالصدفة ايضا بعملية خاصة بالسفن — أثار سؤالا فنيا نوعا ويتعلق بالحمولة والمرور . وطبقا للمعلومات التى لدى ، والصادرة من هيئة قناة السويس ، فمرور ١٠٠٠٠٠ طن بالقنال امر ممكن ، بما فيه للبترول، وسوف يصبح مستطاعا بعد توسيع القنال ان تمر ٢٥٠٠٠٠ طن . وحيث ان المسألة تتعلق بالمخاطر التى تواجهها الشركات البترولية ، فلها أن تحدد أين تكمن مصلحتها .

وسبق أن قلت أننا قبلنا الاشتراك فى اتحاد دولى ، وأن خطا جديدا للانابيب سوف يقام بين السويس والبحر الابيض ، فيبدأ الخط من السويس وينتهى فى الاسكندرية .

وفى امكاننا ان نتصور ما يريده الذين فكروا فى المشروع ، وهو ان الناقلات العملاقة تفرغ حمولتها فى السويس ، وان ينقل البترول الى البحر الابيض دون أن يدور حول الراس . ولا أعتقد أن المسئولين عن هذه الانابيب يصرفون ٢٥٠ مليون دولار دون أن يعرفوا نتيجة استثمارهم .

وأثير سؤال حول رفض السماح للسفن الاسرائيلية بالمرور بقناة السويس وارتباطه بقرار مجلس الامن فى أول سبتمبر ١٩٥٣ . ومن المؤكد أن اتفاقية القسطنطينية تعطى لمصر حتى ذلك التاريخ حق ايقاف مرور السفن الاسرائيلية . وعندما نشير الان الى قرار مجلس الامن فى نوفمبر ١٩٦٧ ، فانى أعلن اننا نقبل هذا القرار بكليته ، وبما يتضمنه بالكامل . ولكن لا يمكن أن يقبل جزء من القرار ويرفض الجزء الاخر .
وهذا هو الموقف الرسمى لـ ج.ع.م.
واعتقد أن فيه اجابة للكثير من الاسئلة المثارة .

السيد الرئيس : شكرا ياسيدى الوزير
الكلمة للسيد / نيسلر ، النائب الفرنسى المنتمى الى الاتحاد الديمقراطى الجمهورى .

السيد / نيسلر NESSLER — السيد الوزير ، اعتقد انكم حقوقى اصلا ، وبالتالى تعلمون ما يتبع الفقه وما يتبع الاحكام .

حقا لقد أشرتم فى قوة الى قرار مجلس الامن الصادر فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ ، غير انكم سكتم عن عدد من القرارات السابقة له ، وخاصة تلك التى اوجدت تقسيم فلسطين فى ١٩٤٨ الى دولتى اسرائيل وفلسطين العربية ، وللاسف ، اعتبر ان اختيار القرارات فى الوقت المناسب لكم ، وتناسيها فى الوقت الذى

مستكم فيه ؟ أمر لايمكن الا ان يصيب مصر . ناهم أساسي في الحوار الذي لابد من اجرائه بين المتحاربين .

ومن جهة أخرى ، فاذا كنت استمع اليكم بكثير من الاهتمام والانتباه ، لم يسمني الا أن افكر في أنه ليس هناك منمقارنة بين العشرةآلاف كيلومتر مربع التي تمثله دولة اسرائيل ، وبين تلك الطاقات التي يمثلها العالم العربي ، والتي ذكرتموها بتفصيل على مختلف المستويات ، من نواحي السكانوالثروات الطبيعية والامكانيات التجارية ، والامر هنا أن في أساس هذا الوضع مشكلة زائفة بمعنى انها نبعت خطورة بصورة واعية عن طريق العواطف التي تتمثل تحت السطح والتي تهمل عددا من الحقائق ». ولقد سبق لي الحديث في هذا الموضوع كما قدمت عددا منالتقارير.

السيد الوزير ، سأسمح لنفسي أن اذكر لكم مثلا فرنسيا لا يخلو منالخشونة في هذه المناسبة ، وهو : « لا تتكلم عن الحبل في منزل من شنق » . انكم هنا في أوروبا ، وللاسف فجميع الحدود الاوروبية انشئت عبر التاريخ بعد نزاعات انتهت نهاية سعيدة أو سيئة الى درجات مختلفة » ولذلك ، فهذا المظهر المتعلق بالحدود يؤثر فينا أقل مما يؤثر فيكم في الوقت الحاضر ، الا اذا كنتم تعيدون النظر في عدد من القيم.

وبالنسبة للاجئين ، فنعلم هنا — لاننا كونا لجنة للاجئين والسكان — أن تبادلات عديدة ومثمرة في كثير من الاحيان جرت بين سكان اليونان وتركيا في الماضي ، وأن هناك تحركات عربية في بعض بلاد العالم أعرفها ، وفي الجزائر اضطر مليون رجل وامراة ذوو الجنسيةالفرنسية اى نعم ولكنهم من أصول مختلفة [اسبانية وايطالية ومالطية ويونانية] اضطروا الى عبور البحر الابيض لان المعايشة أصبحت مستحيلة .

وعليه ، فاعود الى هذه النقطةالتي اعتبرها جوهرية الا وهي أن المشكلة ليست سياسية ، والمشكلة ليست اقتصادية ، والمشكلة ليست اجتماعية ، بل نفسية .

واذا قلتم لي أن السلام سلام الاذهان وأن نزع السلاح نزع لسلاح الارواح ، وأن المعاهدات التي يتم التفاوض عليها والتوقيع بدرجة أو بأخرى ستؤثر في الاغوار النفسية للاطراف المتحاربةاليوم فحينئذ اقول لكم : « نعم ، حقيقي انه يمكن اعادة السلام في الشرق الاوسط ، ولكن الامر يتعلق بسلسلة بمراحل متتالية ترتبط وظيفيا ومرحليا بخطط انتقامية معينة » . وكما قال لي من قبل احد الوزراء اللبنانيين : « ما تسمونه في كتبكم المدرسية بالمسألة الشرقية هي في الحقيقة المسألة الغربية » وذلك لان الغربيين والاوروبيين للاسف تدخلوا في هذه القضية أكثر مما ينبغي ولو قليلا . لقد زادتخطورة هذا النزاع واتساعه بصورة لاتتناسب مع حقيقته . واتخذت فرنسا منه موقفا شديد الوضوح منذ البداية ، فلو طبقت جميع البلاد تلك الاشكال من عدم التدخل التي احترمناها نحن ، لم تكن الامور طبعا لتصل الى ما وصلت اليه الان .

السيد الوزير ، لقد كانت هذه اسئلة وتصريحا في وقت واحد من طرفي . واني لسعيد أن تكونوا استمعتم الي في انتباه واود أن أعرف وجهة نظركم في هذا الموقف .

السيد الرئيس : الكلمة للسيد الوزير مجيد .

السيد / عصمت عبد المجيد وزير الدولة لدى رئيس وزراء ج.ع.م. : يهمني أن ارد فورا على الخطيب المحترم فمن المؤكد أن هذا التغير الذهني الذي اشرت اليه يجب أن يكون في صفوف جميع الاطراف ، ولا يمكن أن يوجد سلام وطمأنينة في ظل الظلم وسياسة الضم .

واضيف ، سيدي الرئيس ، ما نسيته في كلمتي الاولى ، وهي أنه اذا كانت جريمة ارتكبت ازاء يهود أوروبا ، فان العرب ليسوا مسئولين عن وقائع اوشوتيس أو تريبلينكا .

السيد الرئيس : أشكركم .. الكلمة للسيد لينزيه ، الحزب المسيحي الديمقراطي الموحد .

السيد لينزيه LENZE [جمهورية المانيا الاتحادية] — [تلخيص] يرغب في توجيه سؤالين للوزير : حيث أن عهد التسلح الذري جعلنا لم نعد نستطيع أن نعتبر الحرب استمرارا لسياسة نشلت وسائلها الاخرى جميعا ، فهل تكون مصر مستعدة لتنفيذ سياسة وقف اطلاق النار واستمرار الهدنة بأي ثمن وهل هي مستعدة للتخلي عن العنف وتحريك القوات ؟ وهو ما تعتبرهالاحزاب الالمانية أمرا لابد منه حتى توضع نهاية للمواجهة المتفجرة بين الدول العظمى حول المتوسط ؟ وبهذا الفرض أيضا ، هل يكون الوزير مستعدا ليقبل أن تشكل مجموعة للشعوب المطلة على المتوسط ، وتتولى هذه المجموعة تصفية شئونها فتحل محل الدول العظمى ؟

وثانيا : أفليس من واجب البلاد العربية أن تعد اقتصادها لما يبدو محتملا من استبدال البترول بصورة أخرى من الطاقة ، ان هذا لاعظم حكمة وأنضج ثمرة من جر الشعوب الى مغامرة حربية لا طائل لها .

السيد الرئيس : الكلمة للسيد/روزير المنتمي الى مجموعة المسيحيين الديمقراطيين الموحدة .

السيد /روزير ROSER

(جمهورية المانيا الاتحادية) « تلخيص » يود أن يعرف ماتعمله مصر بصورة ملموسة في سبيل ايجاد الوظائف الجديدة لمئات الالاف من الشباب الذين يصلون الى سن الرشد ، ومن أجل استيعاب الذين يتخرجون في الجامعة استيعابا اقتصاديا واجتماعيا

السيد الرئيس : الكلمة للسيد /آمرين من جمهورية المانيا الاتحادية ، الحزب المسيحي الديمقراطي الموحد .

السيد / آمرين AMREHN [جمهورية المانيا الاتحادية] — [تلخيص] ، يعتبر أن اعادة فتح قناة السويس ستكون الخطوة الاولى في طريق السلام ، كما انها لبرهان على حالة فكرية معينة . والصعوبة الاكبر في ان اسرائيلتشترط احتلال الضفة الشرقية للقناة ، وأن مصر تريد أن تقيم قواتها فيها لضمان حرية الملاحة ، فهل من المستطاع أن تقبل مصر أن تكلف قوة دولية بهذه المهمة ؟

السيد الرئيس : الكلمة للسيد / سيجلر شميت .

السيد سيجلرشميت SIEGLERSCHMIDT

[جمهورية المانيا الاتحادية] يلفت النظر الى أنه لم يحدث من قبل أن تحقق السلم بواسطة اتفاق دولي دون البلاد المعنية . وعليه فلابد من أن تعقد البلاد العربية واسرائيل نفسها السلام . ولكن ليس في التاريخ من مثال على أن طرفا عسكريا احتل بعض الاراضي ثم اجلى منها قبل أن يكون الطرف الاخر قد أظهر حتى نيته في عقد معاهدة ، فكيف تفكر مصر في السلام في هذه الظروف ؟

السيد الرئيس : سيدي الوزير ، سبق أن تحملتم عبئا كبيرا هذا الصباح ، ولكني مقتنع بأن المستحسن بأن نتحدث في صراحة عن المشاكل التي تعنينا جميعا .

واني اعطيكم الكلمةللمرة الاخيرة،طالبا منكم أن تتكرموا بالاجابة على الاسئلة التي وجهت اليكم منذ قليل .

السيد عصمت عبد المجيد [وزير الدولة لدى رئيس وزراء ج.ع.م] : السيد الرئيس ، اشكركم على سماحكم لي بالاجابة. وتبرهن هذه الاسئلة كلها على الاهتمام الكبير الذي يحمله مجلسكم ازاء مشاكل الشرق الادنى .

والسؤال الاول الذي وجه الي حالا هو الاتي : « هل أنتم مستعدون للتخلي عن العنف وقبول وقف اطلاق النار بأي ثمن ؟ » .

واجابتي أن وقف اطلاق النار هو اقامة حالة واقعة ليس من المنطق قبولها .

كيف تريدوننا أن نظل ساكتين أمام الاحتلال الواقع على أجزاء من أراضينا ؟ وكيف يسعنا الا نتولى مسئولياتنا ولا نطالب بالجلاء عن هذه الاراضي ؟

ان لوقف اطلاق النار الذي قبلناه بمبدا محدودا جدا ، فهدفه أن يمكن

بعض الاطراف من ان تتخذ بالتالى موقفا ايجابيا من النتيجة النهائية لوقف اطلاق النار الحقيقى ، الامر الذى يستطيع به السيد يارنج من أن يؤدى رسالته الى تمامها حائلا دون استعمال العنف من جميع الاطراف .
وفى سؤال ثان ، اكثر ما تعمله بلادى فى الميادين الاجتماعية والجامعية والاقتصادية .

وانى لشاكر للمندوب المحترم الذى وجه لى هذا السؤال ، ذلك لاننا بذلنا فى بلادنا ، كما تعلمون ، جهدا كبيرا ، وقد اتمنا حاليا اقتصاد حرب ، غير أن هذا لا يمنعنا من الاستمرار فى جهودنا فى الميادين الاخرى . وآمل أن عددا كبيرا من أعضاء هذه الجمعية سيتمكن من زيارة بلادى فيتحقق بنفسه من الطريقة التى تعمل بها مصر .
وسئلت سؤالا عن الجامعات .
فى مصر حاليا خمس جامعات، ويبلغ عدد الطلبة الجامعيين ١٥٠٫٠٠٠ طالب، ويحصل كل سنة على الشهادة الجامعية ما يقرب من ٣٠٠٠ مهندس و٢٠٠٠ طبيب وتعطيكم هذه الارقام دون شك فكرة عن الهيكل العلمى لبلادى .

وهناك طبعا صعوبات . غير أن جهدا خاصا يبذل فى ميدان التعليم الذى أصبح مجانيا فى جميع مراحله ، بما فيه المرحلة العليا .
وبالنسبة للسؤال : « هل فى امكانكم أن تعلنوا نياتكم ازاء السلام قبل أن تبدا القوات الاسرائيلية فى جلاء الاراضى» اعتقد اننى سبق أن اجبت بالقول اننا نرغب فى حل سلمى .
هذه هى اجابتى ، ياسيدى الرئيس للاسئلة التى وجهت الى . واشكر السادة المشتركين فى هذه المناقشة لاثارتهم مسائل لها حساسيتها فى بعض الاحيان، غير أنها تبين اهتمام اعضاء هذا المجلس بأوضاع الشرق الادنى [تصفيق] .
السيد الرئيس : السيد الوزير ، أشكركم . لقد قدمتم لهذا المجلس خدمة كبيرة باحاطتكم اياه علما — فى هذه الصورة الصريحة — بوجهة نظر بلادكم والشعوب العربية ازاء الحلول الممكنة لنزاع الشرق الاوسط ، وهى حلول نتمناها جميعا .
وكما سبق أن قلت ، فهذا النزاع يشغلنا جميعا الى الدرجة التى جعلتنا لم ندرس بعض المشاكل الاهم التى تتضمن امكانيات للعمل المشترك فى المستقبل ، وذلك لان هناك مشاكل أولى يجب أن تحل .
وعندما يحتل وزير عربى مكانه على هذا المنبر المرة القادمة ، فلا شك اننا سنتمكن من دراسة هذه المشاكل ودراستها فيها بحرية أكبر ، الامر الذى سوف يرضينا جميعا ويجعلنا نقف منها موقفا أكثر ايجابية .
(انتهى المحضر الرسمى للجلسة الثانية)

المحضر الرسمى
للجلســة الثانية

يوم الثلاثاء الموافق ١١ مايو ١٩٧١ الساعة الثالثة مساء

السيد الرئيس — الكلمة للسيد — دودز — باركر .

السيد / دودز — باركر
DODDS - PARKER
[المملكة المتحدة] — [تلخيص]
يهنىء السيد الوزير مجيد للشجاعة التى اظهرها بقبوله الرد على الاسئلة فى اللحظة التى دخلت فيها بلاده فى مناقشات بالغة الصعوبة . ويشكره ايضا لانه عرض فكر البلاد العربية بتلك الدرجة من الدقة والصراحة .

وبالتأكيد ليس للمجلس الأوروبى أن ينحاز . وينبغى أن يظل متباعداً بعض الشىء عن الحجج التى يقدمها اولئك وهؤلاء وهذا حتى يسهل عليه بقدر الامكان ان يقدم الحل الوحيد الذى يمكن للمرء أن يتصوره للنزاع الحالى ، وهو منتصف الطريق . ومع ذلك ، فهو يلفت الانظار الى أن الوجود السوفيتى فى الشرق الاوسط يتخذ ابعادا من الاتساع بحيث انه يهدد بالوصول الى ازمة تلحق بالسكان والحكومات المحلية اضرارا بالغة . ولذا فللاوربيين الحق فى الالحاح لدى الطرفين على ان توافق على حل منتصف الطريق قبل ان يقع أسوأ مايمكن ان يقع . وعلى كل ، فهذا هو المعنى العام للتقرير الممتاز الذى قدمه السيد / تشيرنيتس .

ويمكن لهذا الحل الذى ترغب فيه رغبة شديدة أن يستوحى خطوطه من مشروع جونسون عام١٩٥٦ . وكما ابرزه السيد/ تشيرنيتس من حق — فينبغى ان يضمن لاسرائيل حق الحياة بين حدود « آمنة ومضمونة » . ولقد كان للجمعية الاستشارية من قبل فرصة التعبير عما يناسب اتخاذه فى رأيها للوصول الى هذا الهدف . فيجب بصورة خاصة أن تحل الضمانات المقدمة الى اسرائيل توقيع بعض الدول الاوروبية مثل اليونان وقبرص وتركيا . فيجعل هذا الضمان الامور اقرب الى القبول من الطرفين . وعلى اى حال ، فان تدخل اوروبا المتحدة شىء افضل من تدخل الدول العملاقة صاحبة القوى النووية .
وكذلك قد تفتح سياسة مشتركة تتفق عليها البلاد الاوروبية وبلاد الشرق الاوسط تفتح الطريق دون شك الى استغلال الموارد البترولية فى هذه المنطقة فى ظروف افيد للجميع .

ويمكن للمرء أيضا أن يعتقد أن مؤسسة مثل مركز الزراعة شبه الاستوائية فى مدينة مونبليه يستطيع أن يقدم مساهمة مفيدة فى نمو البلاد المطلة على حوض البحر الابيض .

ويجد المتحدث فى وجود وزير مصرى باستراسبورج وفى الكلمة التى القاها هذا الصباح ، داعيا للامل .
السيد الرئيس — الكلمة للسيدة / آزن

السيدة / آزن AASEN [النرويج]
— [تلخيص] — وقعت على تعديل لمشروع القرار . وهذا التعديل يرمى من جهة الى حذف لفظ « بالمفاوضة » فى البند الثالث — ومن جهة اخرى يضيف التعديل فقرة جديدة نصها كالاتى : « ضرورة انسحاب القوات الاسرائيلية المسلحة من الاراضى المحتلة طبقا للقرار رقم ٢٤٢ لمجلس الامن بهيئة الامم فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ » .

وحيث أن مشروع القرار يعتمد فعلا على ذلك القرار الذى اصدرته هيئة الامم فيجب حقا الا ترفع عنه واحدة من اهم النقط وهى الانسحاب من الاراضى المحتلة والا فيكون هذا الاجراء قليل الواقعية والحكمة .
وأن مايهدف اليه الذين وقعوا على التعديل هو مساندة نشاط هيئة الامم وهذا حتى يسهموا فى عودة السلام الى الشرق الاوسط ، ومن اجل مصلحة سكان هذه المنطقة والبشرية كلها ايضا .

السيد الرئيس . الكلمة للسيدة ميوتى كارلى .

السيدة / ميوتى كارلى
MIOTTI CARLI
[ايطاليا]
السيد الرئيس ، زملائى المحترمين لقد وجدت قيمة كبيرة فى كلمة السيد المحترم تشيرنيتس ، وفى الاقتراحات التى تضمنها القرار الذى اوصى به فيما يتعلق بايجاد حل لنزاع الشرق الاوسط ، وفى شأن التعاون بين دول البحر الابيض على المستوى الاقتصادى والتجارى .
ولذلك اسمح لنفسى أن أبرز مظهرا أراه لم توضحه تلك الكلمة ذاتها ، واعنى ما يرتبط بالوضع الخطير القائم فى البحر الابيض من وجهة النظر العسكرية والاستراتيجية .

وانى مدركة تماما ان النواحى ذات الجوهر الفنى للمشاكل العسكرية لاتدخل فى اختصاص مجلسنا ، غير انه من المعروف والمتفق عليه أن المجلس الاوربى له الحق — وبالتالى الواجب — فى الاهتمام بالنواحى السياسية للمشاكل العسكرية .

ويعلم الجميع الى اى درجة وصل الوجود البحرى السوفيتى المتزايد فى البحر

الابيض بواسطة الاسطول الذى اختص به [ويدعى س.م.أ — ف.م.ف] .
وواضح ان مثل هذا الوجود لايمكن الا أن يكون لهتأثير سياسى على منطقةالبحر الابيض باسرها ، وخاصة انه يدخل فى اطار الاستراتيجية السوفيتية ، وهى استراتيجية عالمية تذهب من كوبا الى المحيط الهندى ، فتهم بالتالى جميعالبحار على سطح الارض .

وبهذه المناسبة ، فقد نبهنى البعض الى العملية الاستعراضية الكبرى — المسماة « اوكيار » — التى جرت فى شهرى ابريل ومايو من هذه السنة . فلقد كانت عملية على النطاق العالمى اذ شملت الكرة كلها ، عملية تم التنسيق فيما بين اجزائها فى البحر الابيض والاطلنطى والمحيط الهادى . وهى تعلمنا أن الروس اكتسبوا كفاءة جيدة فىالشئون البحرية ، وأن لهم اسطولا مستعدا تماما ويستطيعون به القيام باعمال التنسيق فى عمليات ذات مدى واسع .

ولا يمكن الا ان يقلق هذا بال اوروبا كلها ، ونحن الايطاليين بصورة خاصة . وذلك لانه لاتزداد الوحدات الحربية السوفيتية السطحية والغاطسة — فى البحر التيرينى فقط ، بل فى الادرياتيكى واليونى ايضا . ومن البديهى أن تواجدها لايمكن الأن يكون له هدف ومضمون سياسيان ونفسيان ظاهران . وذلك لان أحدا لايستطيع فى هذا الصدد أن يقدم مبررات دفاعية لتواجد البحرية السوفييتية فى تلك البحار نظرا لبعدها عن الاتحاد السوفيتى ولقربها الشديد من بعض البلاد مثل ايطاليا التى لا تسير فى أية سياسة عدوانية .

والمؤكد انه لايمكننى فى الفترة الزمنية القصيرة المعطاة لى ، ان أصف ولو فى اختصار ردود الفعل الاوروبية كما هى او كما يجب أن تكون ازاء مثل هذه الحالة . فبسببها ، وازاء ذلك الخطر ، سلمت مسئولية المحافظة على أمن دولنا الى الاسطول السادس للسلاح البحرى الامريكى دون غيره تقريبا . غير انه من الممكن — بل من الواجب — ان نذكر شيئين على الاقل . اما الاول فهو ان الدول الاوروبية الراغبة فى المحافظة على استقلالها وحريتها السياسية ، اذ ترى مثل هذا الوضع ، فينبغى أن يدفعها الى الاسراع فى توحيد اوروبا وجعلها اشد متانة واوثق اندماجا مما هى عليه الان بتخطى الحدود القومية .

والامر الثانىيتعلق بالنواحى السياسية للوضع الاستراتيجى فى البحر الابيض ، وتأثيراته المحتملة على مشكلة الوحدة الاوروبية . ومن الضرورى أن تجرى الجمعية الاستشارية مناقشة واسعةحوله تكلف منذ الان اللجنة السياسية باعداد تقرير فىهذا الشأن،وهو تقرير نستطيع به ان نستكمل ذلك الذى قدمه السيد تشيرنينبس(المحترمفاندا) ، ودارتالمناقشة حوله .

وأرجو أنيقبل اقتراحى بصورة مبدئية وعليه أسمح لنفسى أن اشير الى بعض النقاط التى ينبغى تعميقها .

— اولا درجة الرقابة التى يمارسها الاتحاد السوفيتى الان على مصر ، تلك الدولة التى يبدو أن فيها ١٥٠٠٠ مستشار سوفيتى بالاضافة الى العديدين المدربين العسكريين لا فى المستويات العليا فقط بل فى مستوى أدنى التنظيمات للجيش المصرى .

— ثانيا وضع مالطة . وما تمثله هذه النقطة التى بها احد مفاتيح البحر الابيض بالنسبةللاتحاد السوفيتى .وكذلك الاساليب المتبعة اليوم للدفاع عن الجزيرة واشكاله ، وما يمكن أن يتبع فيها فى المستقبل لتحسين نظامها .

— واخيرا ، بل وخاصة ، تكوين الاسطول الروسىوعدد الغواصات الذرية التى تحت ايديهم ، وامكانية تحييدها الفعال فىفترة زمنية قصيرة طبقا للاقوال المتفائلة التى صرح بها امير البحر كوتلو الخ . ويجب أن يناقش هذا كله وفى ذهننا التأثيرات السياسية والنفسية التى يمارسها مثل ذلك الوجود العسكرى الروسى علىمنطقة البحر الابيض وبالتالى على داخلية بلادنا .

وانى اكرر أملى فى ان تجد هذه الموضوعات فرصة لمناقشة مقبلة داخل اللجنة السياسية تمهيدا لاثارتها امام الجمعية ، واختم حديثى بتوجيه شكرى لكم ، يا سيدى الرئيس ولجميع الزملاء لما اعارونى من كريم انتباههم .

السيد الرئيس — ملاحظتكم هى ذاتها التى ابديتها لنفسى عندما كنت ذاهباالى مالطة السنة الماضية لحضور اجتماع المجلس الاوروبى . فقد حلقت الطائرة التى كانت تقلنى فوق مجموعة من ١٥ سفينة حربية سوفيتية متجهةنحو الجزائر فيما اعتقد،ثم طارت فوق حاملة طائرات وثلاثة سفن حراسة امريكية متجهة نحو شرقى البحر الابيض . فاخذت افكر فيما اذا كانت شعوب شواطئه تستطيع يوما أن تتولى وحدها امور الامن فى المنطقة ترضى جميع الحاضرين هنا .

والكلمة للسيد / بيترمان

السيد / بيترمان — PITTERMANN
[النمسا] — [تلخيص] — يعجب بالتوازن الذى تمكن التقرير من المحافظة عليه بين الاراء المختلفة . غير انه يرى ضروريا أن يذكر الحضور بأن قرار ٢٢ نوفمبر ووفق عليه بعد ان تقدمت المانيا بمشروع وايدته الكتلة السوفيتية . وكان المشروع الالبانى يشير بالانسحاب غير المشروط للقوات الاسرائيلية من الاراضى المحتلة ، نرفض . واذا كان قرار ٢٢ نوفمبر يتفق مع الانسحاب،فهو انسحاب مشروط وخاصة بشرط أن تتمتع اسرائيل بحدود آمنة ومضمونة .حقا ، انالحكومة الاسرائيلية تظهر شكوكها ازاء كفاءة الضمانات الدولية:فبعد سابقة عام ١٩٥٦، يصعب على المرء ان يلومها على ذلك .

وعلى كل ، فقد وجد واقع جديد منذ التصويت بالموافقة على ذلكالقرار : وهو تواجد السوفيتيين على الضفة الغربية لقناة السويس. ويعطى هذا للاسرائيليين المبرر المشروع للمحافظة على المنشآت والقوات على الضفة الشرقية . ويجيب المتكلم على السؤال الذى يحول دون اعادة فتح القناة بسؤال آخر وهو : من الذىاعترض علىمرورالسفنالاسرائيلية سنة ١٩٦٧ محترا الحق الشرعى أويقال لنا ان هذه السفن سوف تستطيع منذ الان المرور فى حرية ؟ ولكن كيف يثق المرء فى ذلك الذى اعتدى فى الماضى على حرية البحار ؟ .

اما بعد ذلك ، فيوافق المتحدث علىان الاقتراحات الموجودة فى التقرير تستطيع المساهمة للوصول الى اتفاق . ولكن بشرط أن يزال تدريجيا الشك المتبادل الذى اوجدته السوابق العديدة . ولذلك فهو يؤيد البدء بعقد الاتفاقات على بعض المسائل الثانوية التى قد يؤدى توالبها الى خلق جو الثقة الضرورى . وعلىكل حال ، فلن تتقدم قضية السلام بأن يؤكد المرء ارادته فى استعادة الاراضىالمحتلة بقوة السلاح . وان الذين يتقدمون بمبادرة تطلع الهدنة الحالية يتحملونامام الرأى العام العالمى مسئولية ثقيلة [تصفيق] .

السيد الرئيس — الكلمة للسيد / هيتجون .

السيد — هيتجون HEGTUN (النرويج) — (تلخيص) . مع انه يوافق على اغلب التحليلات المقدمة فى التقرير ، الا انه يبدى بعض التحفظات .

وفى رأيه أن المجلس الاوروبى يجب أن يحدد نفسه بدقة فى حدود قرار مجلس الامن الذى تم اعداده بعناية كبرى حتى يخرج متزنا وقابلا للموافقة من الطرفين . وفى هذا الشأن ، فهو يأسف على التحفظ الذى تتضمنه الطريقة التى كتبت بها الفقرة الثالثة لمشروع القرار .

ومن جهة أخرى ، ففى ظنه أن النزاع الاسرائيلى العربى ومشكلة الاستقرار فى الشرق الاوسط قضيتان منفصلتان يستحسن ألا تعالجا فى نفس التقرير . وفيما يتعلق بالقضية الثانية وخاصة الحالة فى اليونان وتركيا ، فيقع على أعضاء منظمة حلف الاطلنطى أن يعملوا

معتمدين على الزمن حتى يعيدوا الاستقرار والسلام . أما القضية الاولى ، فالبلاد الاسكنديناقية تعتقد أن المرء لا يمكن أن يعتمد على فعل الزمن فيها ، ومن المناسب أن يبذل التأييد الكامل لجهود هيئة الامم المتحدة من أجل الوقوف الدائم لاطلاق النار والسلم المستقر . وعلى اية حاله ، فلا يبدو له امرا مطلوبا ان تدافع البلاد الغربية عن سياسة ، خاصة وتعبر عن رأيها بوســـيلة أخرى غير وسيط هيئة الامم المتحدة . وسوف يعطى المتحدث صوته الى جانب التعديل ، فاذا لم يوافق عليه ، امتنع عن التصويت على مشروع القرار .

السيد الرئيس : الكلمة للســـيد جوردون ووكر .

السيد / جوردون ووكر
GORDON WALKER

(المملكة المتحدة) : (تلخيص) . يوافق مع المتـــيرين على ضرورة حـــل النزاع الاسرائيلى العربى على أساس قـــرار مجلس الامن .

وعلى العكس ، فهو لايؤمن بامــكان التوصل الى حل بواسطة الاتفاق الذي يتم بالمفاوضات بين المعنيين فقط ودون تدخل قوة خارجية . وذلك لان الشرق الاوسط منطقة استراتيجية منذ زمن طويل — بل قبل اكتشاف البترول بمدة كبيرة — وقد جاءت نزاعات الامم الاجنبيـــة دائما كاضافات متراكمة على النزاعات المحلية فيها . ومن جهة أخرى ، فاستبعاد بلد مثل الاتحاد السوفيتى أو الولايات المتحدة أمر غير مستحب بل أن حضورهما ســـوف يعطينا على العكس أسبابا للأمل فى الوصول الى حل . والحق انهما لهما مصالح مشتركة يتزايد وضوحها مع مرور الايام . فهما أولا يريدان أن يتفاديا وقوع النزاع بينهما مهما كان الثمن ، اذ أفزعهما ذلك النزاع الذى كاد أن يقع من قبل . وبعـــد ذلـــك ، نرى الاثنـــان يريدان وقف تسلل الصين الى الشرق الاوسط ، تلك الصين التى أصبحت المورد الرئيسى للسلاح بالنسبة للفدائيين الفلسطينيين . ولم تكن الولايات المتحدة الى فترة قريبة تؤيد اعادة فتح القناة لانها كانت ترغب فى الحيلولة دون وصول الاتحـــاد السوفيتى الى المحيط الهندى ، غير انها غيرت موقفها . أما بالنسبة للسوفييت فاذا كانوا يريدون دخول المحيط الهندى ، فلمواجهة الصين فى جنوب شرقى آسيا أى فى أبعد مكان ممكن من الجبهـــة الشمالية ، وحتى يجبروها على القتال على جبهتين . واذا ما أعيد فتح القناة ، فستكون مصلحة الاتحاد السوفيتى أن يتفادى كل ما من شأنه ان يتسبب فى غلقه مرة أخرى . وهذا عامل هام من عوامل الاستقرار فى الشرق الاوسط .

ويعتقد المتحدث أن الاتحاد السوفيتى مستعد لممارسة الضغط على مصر متى تعطى لاسرائيل حق المرور بالقنال ، الامر الذى يجب أن يكون شرطا من شروط اعادة فتحه . أما مصر ، فانها قد تجنى من مرور السفن موردا كبيرا . وهكذا يتضح أن الدول الثلاث لها مصلحة فى المحافظة على الامر الواقع .

واذا تنازلت اسرائيل وقبلت الانسحاب الى بعض المواقع الدفاعية فى سيناء ، فمن مصلحة الغرب أن يقدم لها ضمانات احسن من الماضية . وافضل الحلول أن تظل فى هذا المكان قوات أمريكية وسوفيتية بدلا من أن تتحرك القوات المحلية وحدها .

ويختتم المتحدث كلامه بالتأكيد بان الحل الشامل لمشاكل الشرق الاوسط يتعدى امكانيات المجلس الاوروبى ، وأن أى اجراء يتخذ يجب أن يكون فى نطـــاق قرار مجلس الامن .

السيد الرئيس — الكلمة للسيد هرارى مراقب اسرائيل الذى سمح له المكتب بالاشتراك فى المناقشة .

السيد / هرارى — (مراقب اسرائيل)

السيد الرئيس ، زملائى الاعزاء . اسمحوا لى أولا أن أهنئكم ، سيدى الرئيـــس العزيز ، بانتخابكم للمرة الثالثة لرياسة الجمعية الاستشارية . وقد كانت لى شخصيا فرصة الاشتراك فى مناقشـــات هذه الجمعية تحت رياستكم . وعلى أى حال ، فانى راض كل الرضا عن اعادة انتخابكم .

واسمحوا لى أيضا بتهنئة الســـادة نواب الرئيس .

واود هنا ان أقرظ النظام النيـــابى الديمقراطى الذى يسمح لهذا المجلس أن يناقش فى صراحة ، وان يعرض أوجه نظر مختلفة كما هو الحال اليوم .

واظن ان جميع الذين قدموا الاسئلة للسيد/ عصمت عبد المجيد ، وزير الدولة لدى رئيس الوزراء فى ج.ع.م قد عرضوا وجهة نظرهم فى صراحة كبيرة . وأطلب المعذرة مقدما اذا كنت أيضا صريحا جدا ، بل صريحا اكثر مما يجب .

ونشعر احيانا فى اسرائيل أن الناس فى العـــالم بأسره يميزون بين شـــعب اسرائيل والشعوب الاخرى . وكأن هناك مســـتويين للاخلاق . فالناس يتخذون قرارات مختلفة طبقا لتعلقها باسرائيل أو بغيرها من الامم .

وسوف اقدم بعض الامثلة .

لقد اصبح شيئا معتادا هنا أن يقارن المجلس الاوروبى بالجامعة العربية . واننا نقدر المجلس الاوروبى تقـــديرا كبيرا ، كما فى تقديرى لرئيسه . غير انه يعنى القول أن المجلس الاوروبى رفض عضوية أسبانيا والبرتغال لان هذين البلدين ليس لهما نظام برلمانى ، ولا هما ديمقراطيان بما فيـــه الـــكفاية . وانى لا أعرف ما جرى فى هذا الخصوص ، غير انى كنت حاضرا عندما رغبت اليونان الكف عن الاشتراك فى المجلس الاوروبى .. فقد شعرت وحدها ان عليها ترك هذا التنظيم لانها لم يعد لها نظام ديمقراطى .

واذا أخذنا مثل الجامعة العربيـــة ، فأعتقد انه ليس هناك من بلد عربى له نظام نيابى ديمقراطى ، مع استثناء لبنان الذى يجرى انتخابات حقيقيـــة وله برلمـــان .

كيف يمكن فى هذه الظروف أن يقارن ذلك التنظيم الـــذى لا هو برلمـــانى ولا ديمقراطى بالمجلس الاوروبى الذى يمثل صفوة السكان الاوروبيين ؟

ومن جهة أخرى تهتم الجامعة العربية بمقاطعة اسرائيل تجاريا . الا أن هذه الجامعة ليست اقليمية مثل المجلس الاوروبى بل جامعة عنصرية . ولذلك ليس فى امكان دولة اسرائيل الاشتراك فيها رغم رغبتها فى أن تصبح عضوا .

وانى أفهم أن يرغب الناس فى مساعدة جميع الذين لم يصيبوا من النمو والثقافة القدر الكافى . ولكن الظن أن الجامعـــة العربية هى المقابل للمجلس الاوروبى فى الشرق الادنى يبدو لى امرا غير سليم .

ومن جهة أخرى فكثيرا ما يؤكد بعض الناس أن اسرائيل كانت المعتدية فى حرب الايام الستة . ولا ننسى أن صحراء سيناء تفصل بين مصر واسرائيل ، وأن هذه الصحراء غزاها فجأة عدد يتراوح ما بين ٩٠٠ و ١٠٠٠ دبابة لم يكن لهـــا من عمل فيها غير أن تهاجم اسرائيل .

وأعتقد أنها كانت حربا من أكبر حروب الدبابات فى التاريخ . حقا ، كانت هناك حروب أكبر منها ، ولكنها لم تـــكن أكبر من حيث معارك الدبابات . ولم نكن نحن الذين طلبنا انسحاب البوليس أو الجيش الدولى للولايات المتحدة (*) المسماة بـــ « يونيف » ، بل كانت مصر وكذلك لم نسد قناة السويس . فالسفينـــة البيضاء التى أغرقها المصريون مازالت هنـــاك .

كيف يحدث اذن أن نتهم دائما بالعدوان ويجب علينا ألا ننسى أننا فى عام ١٩٥٦ — اطمئنوا ، فلن أسرد تاريخية هـــذه القضية — كنا نحتل هذه المناطق واننا انسحبنا بعد الوعد الذى قدمته الامم المتحدة ، وهى التى قررت بالفعل من يكون المنتصر فى الحرب . والحقيقة أنها لم تقرر أن تعقد السلام بين اسرائيل ومصر بل قررت أن علينا أن نخسر الحرب رغم أننا كنا كسبناها . ولقد صدقنا كلمة [illegible] . انسحبنا من هذه الاراضى

(*) خطا مطبعى على الاغلب فى النص — والمقصود غالبا هو الامم المتحدة

حتى لا يضطر أولادنا أو أبناؤنا أو اخوتنا الى خوض حرب ثانية التى تعتبر الثالثة فى الحقيقة .

اذن ، لقد قبلنا تقسيم اسرائيل وفلسطين للحصول على السلام . الا أننا لم ننله للاسف .

وانى احيى مرة أخرى التقرير الممتاز الذى قدمه السيد/ تشيبرنيس ، غير أن المرء أصبح يعتاد التقارير الجيدة الى الدرجة التى بات الحديث عنها شيئا مملا . وهذا التقرير يحتوى على قرار يذكر الهدنة . ولكننا ، أيها السادة ، عرفنا الهدنة لمدة تسعة عشر عاما دون أن تقبل البلاد العربية الاعتراف بأن تلك هى الحدود الرسمية والنهائية لدولة اسرائيل . وأعلنت أنها حدود مؤقتة . والان ينبغى أن نعود الى الحدود المؤقتة السابقة ليوم ٥ يونية ١٩٦٧ . فهل تقبلها البلاد العربية اليوم ؟ انها ترفض الجلوس على مائدة واحدة وتتفاوض معنا .

السيدة ـ أو الانسة ـ هاسين HASSEN* واثنان من الزملاء الانجليز لا يريدون المفاوضات المباشرة .

ولكن هل اتفقت بلاد أخرى على السلام دون مفاوضات مباشرة ؟

لقد رأينا ما هى قيمة المفاوضات التى تجرى بواسطة دولة أخرى عندما غطت المدافع المضادة للطيران والصواريخ الجزء الغربى كله لقناة السويس . فقد ادعى المصريون أن هذا بالتحديد ما كان متوقعا .

وانى متأكد من أن المفاوضات المباشرة كانت تمكن من الوصول الى نتيجة .

ولا أعلم اذا وجد فى العالم أجمع مكان واحد فيه مثل هذا العدد من الاسلحة المضادة للطيران ..

وذهب السيد وزير الخارجية روجرز أخيرا الى اسرائيل حتى يدرس فى يومين ما نعرفه منذ الفى سنة .

لقد ولدت أنا شخصيا فى اسرائيل ، ووالدتى ذات الخمسة والثمانين سنة ولدت أيضا فى اسرائيل . واحفادى يشكلون الجيل السابع من ناحية والدتهم ، فنحن نتحدث اذن عن خبرة ونعلم ما هى اسرائيل وما هى البلدان العربية المحيطة لنا . وان لم يكن الحال على هذه الدرجة من الحزن ، لكان ممكنا أن نراه مضحكا .

وعلينا أن نتذكر أن وزير الخارجية ـ روجرز مر بالقدس الغربية ليذهب الى القدس الشرقية فخلع سكرتيروه العلم الاسرائيلى ليبرهنوا بوضوح على أنهم لا يعترفون بالسلطة الاسرائيلية على الجزء الشرقى من المدينة .

غير أن السيد وزير الخارجية روجرز نسى أن الولايات المتحدة لم تعترف أبدا بسيادة اسرائيل على الجزء الغربى للقدس . فسفير الولايات المتحدة السيد/ هاربور ـ الذى نعتقد أنه من أكثر الشخصيات احتراما فى اسرائيل ـ مازال يسكن تل أبيب . وسفير انجلترا السيد/ بارنز يسكن تل أبيب ، وسفير فرنسا السيد/ هوريه يسكن تل أبيب : انهم لا يعترفون بسيادة اسرائيل على الجزء الغربى للقدس . غير أن القدس كانت لها دائما أغلبية يهودية . الا ان هذه ليست المشكلة التى علينا أن نعالجها هنا .

اذن ، فلم يتم الاعتراف بالسيادة الاسرائيلية ، على الجزء الغربى . ولكن هل اعترفت الولايات المتحدة أو بلاد أخرى بسيادة الملك حسين على الجزء الشرقى أى الاراضى العربية ، ولو مرة واحدة ؟ وهل فتح هو هذه الاراضى بتصريح من احد ؟ الم يفتحها بالحرب مثلما كان الحال بالنسبة لجميع الفتوحات التى عرفناها فى العالم ؟ الم يتم الحصار على القدس الذى عانى سكانه من الجوع والعطش ، وتم الاستيلاء على جزء من هذه المدينة بالقوة ؟ وهل يجب الان أن يعاد اليه ؟

ليس الذين يكسبون الحرب دائما بالمخطئين ،مثلما ليس الذين يخسرونها هم الذين يناصرون الحق . ونجهل نتائج تلك الحرب الفظيعة التى دامت ستة أيام . وقدمت بعض الارقام هنا ، فجرى الكلام عن الملايين من السكان العرب . وشعرنا فى بعض الاحيان ـ وآملى الا يكون هذا ما قصده السيد وزير الدولة المصرى ـ أن بعض الناس يريدون عرض الاسواق أو بيع البترول مقابل لا اعرف ماذا ، الا اذا كانت أمورا تثبت بأن اسرائيل على حق !

هل تحتاج الجزائر الى قناة السويس حتى تبيع لفرنسا بترولا ؟ ان البترول ثمين اذا أريد بيعه ، واذا لم يكن هناك من يشتريه ، فعلى الانسان أن يشربه !

فكروا فى تلك الاجتماعات للاربعة الكبار التى تتوالى فى نيويورك ، اسبوعا بعد أسبوع ـ لقد نسيت عدد هذه الاجتماعات ،ولكن ما معناها ؟ وما يريدون الوصول اليه ؟ هل يريدون اتخاذ قرار يتعلق بمصير اسرائيل دون الرجوع اليها ، ودون أن يحيطوها علما بما يعملون ويتحدثون ؟ ولا يتعلق الامر باسرائيل فقط . فهل يبغون أيضا أن يقرروا مصير مصر أو مصير شرق الاردن؟ وهل هذا نوع جديد من الاستعمار يفرضه الذين يقررون ما ينبغى أن يفعله الاخرون؟ أتقرر الامم الكبرى مرة أخرى ما تفعله الصغرى ؟

لقد جرى الحديث هنا عن العبودية . وقال لى احدهم ذات مرة : « فى زمن العبودية كان صاحب العبد هو الذى يطعمه ، وهذا أضعف الايمان : فلم يكن وقتئذ يوجد متعطلون » .

ويبدو أن من رأيه العودة الى زمن العبودية . ولكل انسان الان الحق فى العمل ، غير أنه لا يوجد عمل ، وخاصة فى أمريكا حيث ٧٪ من السكان متعطلون .

ونشعر احيانا أن علينا طلب المعذرة لاننا كسبنا الحرب . واذا كان هذا ما يجول فى ذهن احد ، فليعلم اننا نفضل طلب الغفران ونكسب الحرب بدلا من أن نتحمل نتائج الانهزام فيها .

ولم يكن فى نيتى أن أجرح احدا ، كما أن أملى الا اكون قد صدمت فكرة مسبقة أو رأيا . فالكثيرون فى اسرائيل يفكرون مثلما أفكر ، ونحن متأكدون من حصولنا على السلام يوما . واوروبا مثل كبير أمامنا فى هذا الشأن . فالحروب جميعا قد بدأت فى أوروبا قرونا طويلة . غير أنه أصبح من المستحيل بعد الان أن تتحارب البلاد الممثلة فى هذا المجلس .

وكما أنه جاء الوقت الذى يجلس الاوروبيون فيه معا ، ويقرروا معا ، فكذلك أنى متأكد أننا سنحصل على السلام يوما . واذا كنا سنحصل على السلام ، فلماذا لا نصل اليه فى أقرب وقت ممكن؟ (تصفيق) .

السيد الرئيس ـ الكلمة للسيد والترز

السيد/ والترز WALTERS (المملكة المتحدة) ـ (تلخيص) يوافق السيد مرارى على ان تياسين موجودين ، غير أنه لا يوافقه على التعريف الذى يقدمه لهما . حقا ، ان المقياس الذى تقاس به اسرائيل يبدو له أكثر منه فى التسامى .. واذا عامل بلد من البلاد احدى الاقليات مثلما تعامل اسرائيل أقليتها العربية ، لارتفعت احتجاجات الرأى العام العالمى الى أكثر مما هى عليه بكل تأكيد . ولاشك أن هذا الفرق فى المعاملة تجد تفسيرا لها فى وجود مجموعات ضاغطة صهيونية قوية فى أوروبا والولايات المتحدة . ويشكر السيد / والترز من طرفه الرئيس ديجول جميله فى تقدمه باقتراح سياسة أوروبية مستقلة لا تتبنى الافكار المعتادة حول حرب ١٩٦٧

ويلاحظ فى تقرير السيد / تشيبرنيس جزءا مستخرجا من بحث امريكى يقول : «كلما كسب الاسرائيليون وخسر العرب، كلما كسب السوفيتيون وخسر الامريكان» وتفسير هذا التناقض فى ان انتصارات اسرائيل تجعل العرب اشد حاجة الى الاسلحة السوفيتية وبالتالى اكثر تعرضا للنفوذ السوفيتى .. غير ان البلدان المنضمة للمجلس الاوروبى لا يرغبون فى أن يتأكد هذا النفوذ ويبقى أن نعرف كيف تستطيع هذه البلدان تخفيفه ، وهى مختلفة مع بعضها حول هذه النقطة .

---

*خطأ مطبعى على الاغلب ـ والصواب آسين

ويعتقد السيد / والترز أن احسن وسيلة هي الوفوف من العرب موقفا فيه تفاهم اكبر لهم ولارائهم .. واذا انفجرت حرب اخرى ، فسوف تكسبها على الاغلب اسرائيل لتفوقها العسكرى . وهل هذا مفيد للعرب والولايات المتحدة ؟ لا يعتقد المتحدث هذا .

ويلاحظ أن مصر تعهدت الان — فى حالة عودة اراض معينة — على احترام استقلال اسرائيل الذى يضمنه الاربعة الكبار من جهة اخرى . أليس هذا ماطلبه الاسرائيليون بالدقة قبل ١٩٦٧ ؟ واذا كان هذا هو الحل ، فعلينا أن نعمل بحيث أن ينفذ اولئك وهؤلاء تعهداتهم .

ولقد ولدت دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ لاسباب ، منها أن الاوروبيين شعروا باحساس بالذنب فى جرائم لم يكن عرب فلسطين مسئولين عنها على الاطلاق . ومع ذلك وقع عليهم ظلم فادح . وعلينا أن نرفع هذا الظلم بقدر الامكان اذا اريد السلام حقيقة .

أن العالم اجمع يعترف لاسرائيل الان بحق الحياة داخل حدود آمنة ومضمونة . وليس فى امكان الاسرائيليين أن يطالبوا باكثر منه . أما اوروبا ، فمصلحتها أن تناصر الحل الذى ينبثق من قرار نوفمبر ١٩٦٧ . ولذلك سيؤيد المتحدث التعديل المقدم على مشروع القرار . ويجب أن يكون الهدف الوصول الى اتفاق يعطى اسرائيل الامن ، غير انه فى الوقت نفسه يعطى العرب الاحساس بأن حقوقهم معترف بها لدى اوروبا كلها . وهذا صائب من الناحية الاخلاقية ومفيد من الناحية السياسية .

السيد الرئيس — الكلمة للسيد / مابون

السيد / مابون MABON [المملكة المتحدة] [تلخيص] لايخفى ان المناقشة الحالية تبدو له ذات طابع بيزنطى جدا . فالوصول الى السلام بين العرب والاسرائيليين ليس امرا من اختصاص الجمعية الاستشارية . ومع ذلك ، فاذا اهتم به ، فعليه على الاقل أن يعنى بتقدم حلول عملية تراعى الوقائع . وهذه الوقائع تتلخص فى الان الذى يذكر به زملاءه المتكلمين قبله فمن جهة نجد تداخل البلاد العربية جميعا فى النزاع ، وليس تلك المجاورة لاسرائيل فقط . ومن جهة اخرى ، فلا تتواجد فقط الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى فى المنطقة، بل وايضا فرنسا والمملكة المتحدة ، وبالتالى اوروبا

وتؤدى به هذه الافكار الى ان يشك فى فائدة الفقرات الثلاثة الاولى لمشروع القرار ، فى حين ان الفقرة الرابعة تبدو له من اهم الفقرات . فمسئولية اوروبا ظاهرة منذ بداية قضية الشرق الاوسط ، مادام الذى تسبب فى نشأة الصهيونية هو الاضطهاد الذى مارسته البلاد الاوروبية ضد اليهود ، وأن كان اضطهاد اختلفت قوته بين آن وآخر . غير ان هذا ليس مبررا لكى تصب اوروبا مظالم جديدة على العرب هذه المرة . واذ تمكن المتحدث فى الايام الاخيرة من الاتصال برئيس الجمهورية الجزائرية ، فقد اقتنع بانه ليس مناصرا للشيوعية ولا للرأسمالية ، بل انه فى منتهى البساطة جزائرى . ولذلك يبدو له ممكنا لاوروبا ، وخاصة لاوروبا الموسعة أن تطور علاقاتها التجارية تطويرا يعود على الجزائر بنفع اكبر من علاقاتها مع كل بلد اوروبى على انفراد . وفى هذا فان الفقرة [٤ أ] لاتعبر عن تمن روحى بل تحدد هدفا من المستطاع تماما ان تصل اليه . اما بالنسبة للفقرة [٤ ب] فتستحق أن تتلوها اقتراحات محددة ملموسة ، ولا شك العرب وخاصة الفلسطينيون فى الاخلاص الاوروبى .

[تصفيق] .

السيد الرئيس — الكلمة للسيد/بيتيول

السيد / بيتيول BETTIOL [ايطاليا] لن ألمس مشكلة العلاقات العربية الاسرائيلية لمسا مباشرا . ذلك لانى أعتقد أن فكرى واضح من خلال الاسئلة التى وجهتها هذا الصباح الى الوزير المصرى .

واود فقط ان اقول ان هذه المشكلة الخاصة ، مشكلة الحرب او العلاقات بين اسرائيل ومصر ، يجب أن توضع فى اطار اوسع حتى تفهم تماما ، واعنى الوضع العسكرى والسياسى الكلى فى العالم أجمع . وهدف هذه النظرة الشاملة ان ندرك ما هو التكتيك الذى يتبعه جانب ، وماهى الاستراتيجية التى تسير نحو تحقيقها مختلف « الكنائس » الشيوعية التى تتنازع الزعامة فى العالم .

هناك ثلاث ، كنائس ، شيوعية كما هو معروف : « كنيسة » موسكو [التى كانت الاولى من الناحية التاريخية] «وكنيسة » بيكين ، ثم كنيسة كوبا . ورغم مابينها من مصالح متناقضة فى احوال محددة — او الاخرى فالمفروض أنها متناقضة — ورغم ما يتنازعها من خلافات عائلية بين الحين والحين [وقد يكون أن هذه الخلافات أصبحت بعد الان تفوق المصالح العائلية فيما يتعلق بموسكو وبكين] ، غير انه يربطها دائما خيط بوجه واحد ، وهو السعى لانهاء الغرب ، والعمل حتى ينقسم الغرب فتخطو هى خطوة الى الامام .

ولذلك ، فرغم الجهود التى يبذلها حسنو النية ، فانى لا أومن فى امكان الوصول الى السلم فى السنوات القليلة القادمة . لقد استمرت حرب فيتنام حتى الان عشرين عاما ، وسوف تدوم عشرين عاما اخرى لان الروس لايريدون أن يفقدوا ماء الوجه امام الصين . لقد ساعدت روسيا فيتنام الشمالية كثيرا — اكثر مما ساعدت الصين — وفعلت هذا حتى لاتفقد نفوذها على الهند والدول الاخرى فى آسيا الجنوبية الغربية . وفى رأيى أن الحرب بين اسرائيل ومصر ايضا سوف تدوم طويلا مارة بمراحل مختلفة ، مما يصيب هذه الشعوب بالام شديدة . ذلك بأنها حرب تمثل للاتحاد السوفيتى فرصة حسنة للدخول فى العالم العربى الاسلامى الغامض . فيستطيع فى هذا الشأن ايضا ان يصل الى مركز الراكب ويحقق التقسيم بين بنى البشر فيحرز تقدما بعد تقدم .

وكفاح كوبا بدورها هو كفاح يهدف الى الاستيلاء الاحمر على القارة الامريكية الجنوبية بالاعتماد على الضاد مع امريكا الشمالية .

وانى لا اعتقد ان هذا كله يمكن أن يؤدى الى وقوع مواجهة مباشرة ، لانه ليس لواحدة من الدول الشيوعية مصلحة فى تلك المواجهة، فى الوقت الحالى على الاقل بل وايضا خلال العشرين سنة القادمة . غير أن هذا كله قد يؤدى الى مايعلنه فيدل كاسترو : « اننا نحتاج الى مائة فيتنام ، اى نحتاج الى ان توجد مائة مركز لاشعال الحرب فى العالم كله فبهذه الطريقة فقط نغرس الابر فى اليسار واليمين والوسط ، نغرسها فى الرأس او فى الذيل فنتعب النمر الامريكى الى أن نسيطر عليه » .

وهذا فى رأيى هو السبب لعدم نجاح الجهود التى يبذلها ذوو النيات الحسنة فى كل مكان ، من الاطار الكبير لهيئة الامم المتحدة. التى تشبه للاسف «السيرك بارنوس » على المستوى السياسى ولا تصل أبدا الى اية نتيجة — الى اجتماعاتنا هذه التى تجرى فى صورة اضيق غير انها اكثر كفاءة ومسئولية . فتلك الجهود جميعا مصيرها الا تصل الى نتائج اكيدة وكاملة . ففى هذه اللحظة — كما قلت فى الصباح — تريد روسيا أن تكون المضايق تحت تصرفها الخاص . وقد نجحت فى التسلل بصورة غامضة خلال البوسفور والدردانيل حتى دخلت البحر الابيض . وهى تريد اليوم فتح قناة السويس لان لها مصلحة كبيرة فى الاتصال بالاسطول السوفيتى الموجود بالمحيط الهندى . لماذا؟ لان هناك للاسف فيتنام اخرى ستجرى بالضرورة مناقشة طويلة حولها ؛ أقصد الحرب بين ارتيريا واثيوبيا . والحق أن القضية المثارة اليوم هى أن السوفيت يستهدفون القضاء على اثيوبيا من خلال أحداث الحرب الاهلية فى ارتيريا ، والى أن يرحل القائد الحالى للامبراطورية الاثيوبية ، فهم يريدون تقطيع اوصال اثيوبيا لانها مركز للميول نحو امريكا وأن لم يكن مركزا منحازا . وقد وصلت الاوضاع فى ارتيريا الى حالة من الخطورة بمكان فيمكن مقارنتها — أن لم يكن بفيتنام كبيرة فبالتأكيد بفيتنام صغيرة اذ مضى عليه عشر سنوات وستدوم سنوات كثيرة اخرى .

اننا نواجه اذن سلسلة كاملة من الاوضاع الخطرة والدامية فى اجزاء مختلفة من العالم ، وهى اوضاع تسبب حالة القلق والفوضى والانقسام والخوف فى صفوف الامم الغربية وامريكا بالدرجة الاولى . والنتيجة الفعلية التى تحققت هى أن انقسم الامريكيون الى جانبين كبيرين . ويقال أن الغالبية الساحقة تؤيد المواقف الحازمة الفعالة . وليس لى علم بحقيقة هذا القول . غير انه من المؤكد أن

المجلس الأوروبى

تأسس فى يوم ٥ مايو عام ١٩٤٩ ، من بلجيكا والدانمرك وفرنسا وايرلندا وايطاليا ولوكسمبورج وهولندا والنرويج والسويد والمملكة المتحدة [بربطانيا] ، وهو يضم :

١ — لجنة لوزراء خارجية هذه الدول أو نوابهم •

٢ — جمعية استشارية تتكون من ممثلين تختارهم الحكومات الاعضاء •• وتجتمع هذه الجمعية مرة كل عام فى ستراسبورج بفرنسا ولها سلطة مناقشة كل المسائل ذات الاهمية المشتركة ، باستثناء مسائل الدفاع الوطنى • ويتولى عمل المجلس الوزارى والجمعية الاستشارية سكرتارية عامة للمجلس الاوروبى •

ويمكن ان تقدم الجمعية الاستشارية توصيات الى وزراء الخارجية ، ولكنها لا تملك اية سلطات أخرى • ويحق لاى دولة أوروبية تقبل مبادىء الحرية والتحرر السياسى وحكم القانون ، أن تحصل على العضوية • وقد حصلت على عضوية المجلس الاوروبى منذ انشائه عام ١٩٤٩ ، كل من النمسا وقبرص والمانيا الغربية وايسلندا وسويسرا وتركيا واليونان ومالطة

وتحدد لائحة المجلس الاوروبى أهدافه على النحو التالى :

[أ] تحقيق وحدة أكبر بين الاعضاء ، بغرض حماية وتحقيق المثل العليا والمبادىء التى تجمع تراثها المشترك ، وتسهيل تقدمها الاقتصادى والاجتماعى •

[ب] السعى نحو هذا الهدف عن طريق اجهزة المجلس ، من خلال مناقشة المسائل ذات الاهمية المشتركة ، والدخول فى اتفاقيات ، والقيام باجراءات مشتركة فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية والقانونية والادارية ، عن طريق صيانة حقوق الانسان والحريات الاساسية •

ولقد كان أساس الاهمية السياسية للمجلس الاوروبى دائما ، رغم طابعه الاستشارى ، انه جمع فى عضويته بين مجموعة دول السوق الاوروبية المشتركة الست : [فرنسا والمانيا الغربية وايطاليا وهولندا وبلجيكا ولوكسمبورج] ، وبريطانيا ، وباقى دول مجموعة منطقة التجارة الحرة الاوروبية أو « مجموعة السبعة » ، التى تضم بريطانيا والنمسا والدانمرك والنرويج والبرتغال والسويد وسويسرا •

السياسة الامريكية الرسمية اليوم اكثر مرونة وأشد تبولا للظروف المكيفة . فلقد كثر للاسف الحديث من تخفيض التزامات الامريكيين وانسحابهم من بعض المراكز المتقدمة المحددة ، الامر الذى يمثل نصرا لا نقاش فيه لتلك السياسة المعينة التى يتبعها الطرف الاخر ! واننا لضعاف ! وقد زرت منذ فترة أمة ذات العواطف الاطلنطية المخلصة — تركيا — غير اننى انتبهت الى ضعفها العسكرى الذى يماثل ضعف بلادى أيطاليا. ولن نستطيع وحدنا أن نقاوم هجوما حاسما بل نحتاج الى التدخل الفورى لقوى الاسطول السادس فى ساعات قليلة . واذا استمرت امريكا فى اتباع سياسة التخلص من التزاماتها فمن ذا الذين يضمن لنا اذن أن يصل الاسطول السادس فى ساعات قليلة الى البوسفور او قنال صقلية او مضيق ميسينا ؟

لاشك انه توجد اوضاع خطرة الان ، وانها ثمرة ونتيجة لسياسة الكنائس ذات الطابع الشيوعى ، سواء كانت الكنيسة الصينية او الموسكوفية أو الكوبية . وستظل هذه السياسة قائمة لسنوات طويلة آخرى . أما من جانبنا فلم يبق امامنا غير أن نتمكن من التعبير عن سياسة مشتركة . فخلال العشر او الخمس عشرة سنةالتى مضت ونحن نقول فى هذا البهو ان اوروبا تحتاج الى سياسة مشتركة ، الى سياسة خارجية مشتركة . بل قدمت تقارير خاصة عن هذه النقطة ، غير ان هذا كله سقط فى الفراغ .

وانى أقرأ اليوم التقرير الممتاز الذى قدمه صديقى تشيرنيتس فأجد فيه بازاء الشرق الاوسط حديثا عن تلك الضرورة، ضرورة ان توجد سياسة اوروبية مشتركة لان اوروبا لم تكن حاضرة فى الشرق الاوسط فى السنوات الاخيرة . ولقد كان لكل امة اوروبية غربية سياستها الخاصة المتناقضة مع سياسة جارتها او صديقتها او حليفتها او زميلتها فى الرحلة. ولذلك نتج عن هذه التناقضات السياسية غياب السياسة المشتركة للمجموعة ، وفراغ سهل على خصمنا ايما تسهيل أن يحقق زحفا سياسيا وعسكريا . أن خصمنا هذا يحاول خنقنا ، وفى اللحظة الحالية يستغل لامكر بلاد الشرق الاوسطبالدرجة الاولى ، بل طيبتها التى توهمها بانها فى امان تحت المظلة السوفيتية ، وبانها تستطيع ان تعطش اوروبا من طريق افتقارها الى البترول •

واننا سمعنا هذا الصباح كلاما طويلا عن البترول . وتحت ظلالة هذا الحديث تهديد : اذا لم تخدموا مصالحنا او وقفتم ضد مصالحنا ، ففى مقدورنا أن نميتكم عطشا الى البترول . والرد بسيط . فالنقص فى بترول الشرق الاوسط يمكن أن يثير المصاعب لاوروبا الغربية ، ولكن الحقيقة ايضا اننا نستطيع أن نميت الاخرين جوعا اذا كنا متحدين ومتماسكين واقوياء من الناحية الفنية . وذلك لان الافتقار الى القدرة التنظيمية — وان توافرت امكانيات العيش — يستطيع أن يبطل تماما مفعول الثروة نفسها .

وعليه ففى رأيى أن المشكلة تركز اساسا فى قيامنا بايجاد سياسة خارجية توحيدية منسقة .وهو الامر الذى ينقصنا هل فات الاوان ؟ لا اعلم . ولكن الامر المؤكد أن هذه اللحظة هى الحاسمة ، وهى الفرصة الاخيرة التى تتقدم الينا فيما يتعلق بنزاع الشرق الاوسط . واذا لم نغلق ابواب هذا النزاع ، فسوف تظهر نزاعات اخرى على عتبتها .

ولذلك فالشعار هو سياسة توحيدية وسياسة حازمة ، وسياسة متماسكة ، حتى نتمكن من أن ننقذ فى أوروبا الغربية ما هو روح اوروبا الغربية ذاتها : الاستقلال والحرية .

[تصفيق] .

السيد الرئيس — الكلمة للسيد / دنجبى .

السيد / دنجبى DINGBY

[المملكة المتحدة] — [تلخيص] — يوافق اصحاب التعديل على الغاء كلمة « بالمفاوضة » من الفقرة الثالثة .

ويبدى تقديره الكبير لكلمة — السيد بيتيول ، وان كان تحليله يثير اليأس : نعم ، لقد هبط نفوذ أوروبا فى العالم الى درجة اكبر من اللازم بالنسبة لقدرتها الاقتصادية والعسكرية ، وخاصة فى شرقى البحر الابيض .

ويرى المتكلم أن تقرير السيد / تشيرنيتس دافع للتفكير وان استنتاجاته من موقف السوفيت — بانهم لا يريدون السلام ولا الحرب — استنتاجات صحيحة دون شك . أما وجهة نظره ، فهى ان الاتحاد السوفيتى يريد قبل اى شىء اعادة فتح قناة السويس حتى تتمكن بحريته من المرور بها. وان غموض الاهداف الروسية ليخيم على المنطقة كلها وكأنها عاصفة تنذر بالانفجار . فلماذا مازال يورد المزيد من الاسلحة والفنيين لمصر ؟ لا يمكن لاوروبا أن تظل مكترثة . والاحتمال أن السوفيت ، اذ يتوقعون أن يشح البترول فى نهاية القرن ، يبحثون عن الحصول على موارد جديدة . فاذا قاموا يوما بمنع دخول الخليج الفارسى على البلاد الاوروبية لاصبحت الحالة شديدة الخطورة وفى امكان المرء ايضا ان يتصور رغبتهم فى حصول اساطيلهم الاربعة على اتصال مستمر، وفى أن يرفرف علمهم على المحيط الهندى حتى يمنعوا من بعض البلاد — مثل افريقيا الشرقية وزنزبار — النفوذ الصينى . ولذلك ، يعبر التغير الاخير

الذى جرى فى موقف الصين من العالم الحر ، عن اشتداد التوتر فى علاقاتها مع الاتحاد السوفيتى .

ولقناة السويس اليوم اهمية سياسية اكثر منها اقتصادية . والحقيقة أن اعادة نتحها ليست من الاهمية الكبيرة بالنسبة لناقلات البترول الجديدة ، بل ان السفن الاخرى ايضا للبحرية التجارية ، بنيت بحيث أن تصلح للمرور برأس الرجاء بدلا من ان تدفع رسوم القناة . أما بريطانيا العظمى ، فهى لا تحتاج الى القناة ، غير أن الحوادث جعلت مصر تابعة للاتحاد السوفيتى تبعية اكبر من الحد فمن المفيد أن تؤكد البلاد الاوروبية علاقاتها مع الدول العربية . وأن اجراء المشاورات بين وزراء الخارجية للبلاد المنضمة الى المجلس الاوروبى ليعود بالنفع على الوضع دون شك .

السيد الرئيس — الكلمة للسيد / فيدوفاتو

السيد — فيدوفاتو VEDOVATO

[ايطاليا] — السيد الرئيس ، الزملاء المحترمون — اليكم بعض الملاحظات القليلة ذات الطابع العام والتى يثيرها اطلاعى بعناية على تقرير السيد — تشيرنيتس وكذلك العرض الذى قدمه هذا الصباح وزير ج.ع.م السيد مجيد .

تبدولنا الحقيقة الدولية والاوروبية اليوم متسمة بعلاقتين : العلاقة الروسية الامريكية التى تسود توازن العجز ، والعلاقة الروسية الالمانية التى تتفتح لاحتمالات جديدة . ويضاف اليهما الضعف الشديد الذى تعانى منه اوروبا الغربية ، مما يزيد من ذلك العجز وهذه الاحتمالات وفى الوقت نفسه ، فلسنا نرى كيف يمكن أن تتغير تلك الحقيقة بواسطة العناصر المرتبطة بالمجهول الصينى وبالميوعة الجوهرية ، التى تسود احوال العالم الاسيوى فيما بين المشرق وبحر اليابان .

ونجد فى العلاقة الروسية الامريكية أن المواجهة الاستراتيجية النووية تثير الاختيار بين المذبحة وعدم الوقوع فى فخها . هذا بالاضافة الى الاختيار الاخر الذى يزداد الحاحا ، واعنى الخيار بين اقتصاد الحرب ذى التكاليف المتزايدة وبين اقتصاد السلام الذى تطالب به الشعوب . وان هذا كله يشير بحكمة منطق التفاوض حتى نصل الى ايقاف سباق التسلح الاستراتيجى ان لم نستطع الوصول الى تخفيضه . غير ان هذا قد يعرضنا لخطر الوصول الى نتيجة تكون فى مصلحة القوة التقليدية الروسية وارصدتها الكبيرة . وهذا يرتبط مباشرة بعاملين يهدف الكرملين — فى نهاية الامر — الى تقويتهما من النواحى النفسية والسياسية العسكرية بفضل اتفاق موسكو من جهة والموقف الذى وصل اليه الجانبان فى قناة السويس من جهة اخرى . وهذان العاملان المراد تقويتهما هما الاعتقاد بأن القوة الروسية لايمكن المساس بها ، وشرعية النظام الاتوقراطى ، ففى نية موسكو ان تتجه العلاقة الى التعديل بالاعتماد على الدفع المستمر نحو اعادة تحديد الحجم الذى تصله القدرة الامريكية وأن هذه القدرة قابلة للضرب ، لانهما محاطة بظرف التوازن الذى يسببه العجز ولانها مرتبطة باحلاف تبرز فيها المصالح الذاتية لكل شريك من الشركاء ، ولانها خاضعة للاجراءات الديمقراطية المكلفة دائما والمعرضة دائما للتأثر باقتراحات الخصم مما يجعل امكانيات التنفيذ موضوع مناقشة باستمرار .

أما العلاقة الروسية الالمانية ، فمازالت حتى الان فى حدود المواجهة بين الشرق والغرب . الا أن خطوات تحققت فى اتجاه تنفيذ أهداف « كارلو مارى » وعلى كل حال ، فلم يكتف اتفاق موسكو بالحصول على الاعتراف المطلوب بالامر الواقع فى اوروبا الوسطى ، بل يشمل هذا الاتفاق ضمنيا الاعتراف أيضا بعدم امكان المساس بالممتلكات الروسية — وبالتالى بنظرية برزنييف — فى اوروبا الشرقية وفى نظر الكرملين ، تخلى المستشار براندت بامثال دويشيك من الغاضبين الذين سيجدون انفسهم بعد الان وقد ازدادوا عزلة فوقعوا تحت رحمة الفرق السوفيتية والاقليات السياسية التى حصلت على التفويض بالسلطة المدنية .

وقد اعلنت موسكو منذ زمن اهدافها التالية ، واولها تحطيم التضامن الغربى الذى يعتبر شرطا لوجود المانيا الاتحادية فيه ، سواء كان على شكل حلف الاطلنطى او السوق المشتركة . واذا اضطر هذا البلد الى صب طاقاته — المالية القيمة لاوروبا وذات تأثير كبير على الغرب كله — وتوجيهها نحو روسيا وامبراطوريتها ، فسوف يترتب على ذلك أن تزداد المشاكل الاقتصادية خطورة فى داخل السوق الاوروبية المشتركة التى تعانى العديد من نواحى الركود . وكذلك قد تتأزم نتيجة لذلك العلاقة الاقتصادية الحساسة بين اوروبا وامريكا ، فتثار احتمالات لمشاكل سياسية جديدة .

فأمل النظام الاقتصادى السوفيتى — المعتمد على سيطرة الدولة — أن يتفادى بالسياسة المذكورة آنفا فشله المحقق ، وذلك بأن يتعلق بالموارد الراسمالية المستحدثة لالمانيا الغربية .

بل هناك ماهو اكثر من هذا . فهدف الكرملين أن يقلب رأسا على عقب أسس السياسة الغربية نفسها وهى المعتمدة على «الجات» ومشروع مارشال والسوق الاوروبية المشتركة وجولة كيندى . وهى كلها أسس التضامن الذى دام خمس وعشرون سنة . عمل فيه الغرب على الانتقال نحو اشكال متدرجة من الوحدة بين اجزائها المختلفة مما يعود بالرفاهية على شعوبها .

ولذلك ؟ فلا تظننا مخطئين عندما نؤكد ان مايدعى بتخفيف التوتر فى وسط اوروبا ، وكذلك الموقف الذى تتخذه روسيا السوفيتية على جانبى قناة السويس هذا كله يثبت اركان القوة السوفيتية فى الغرب . ويحدث هذا فى نفس الوقت الذى نصد فيه الاخطار الكامنة فى احتمال رد الفعل النووى ، وفى مرحلة تهبط فيها درجات الاندماج الاطلنطى والتضامن الغربى . والنتيجة المباشرة هى محاولة تقوية الوجود العسكرى والسياسى فى المشرق والعمل على ان نستنتج النتائج المترتبة على السيطرة على الطرق بين البحر الابيض والمحيط الهندى .

واذا استطاع الغرب أن يبرهن على قدرته السياسية والدبلوماسية ، وان يشعر العالم بتأثير قوته ، تمتع بحرية التصرف اللازمة لكى يبدأ السير الى الامام وأن يجنى ثمارا وان كانت هذه الثمار قابلة للمناقشة من حيث مصلحة السلام وبشرط أن تكون قوة الغرب متحدة ، ففى امكانه أن يقوم بنشاط دبلوماسى مسئول مسئولية كبيرة ، وان يصل الى التوازن سبل التوازنات المختلفة والمترابطة اللازمة التى تجبر روسيا على ان تحد من توسعها سواء فى الشرق او الغرب .

لقد تحدثنا لمصلحة السلام . وعليه يثار سؤال اساسى عما اذا كنا نستطيع أن نبنى احتمالات لسلام حقيقى . ولهذا السؤال اجابة واحدة : نعم ، بشرط أن ندرك تماما ان تحطيم النظام المعتمد على الكتل المتعارضة وتفريغ حلف الاطلنطى الى درجة جعله غير فعال يعنى تخلى اوروبا الغربية من اى دور مستقل ومؤثر . فهذا الدور لايمكن ان يكون الا كنتيجة لتأكيد العلاقات الاطلنطية الحالية وان كانت تتحول الى سياسة كثيفة أوسع مدى واعظم نشاطا تعتمد على محاور عسكرية جديدة للربط بين امريكا واوروبا الموحدة .

وهذا الكلام قائم بالنسبة لاوروبا الوسطى حيث لم يقبل بعد نظام الرشوة السوفيتى باعتباره شرعيا . وليس هذا فحسب ، بل فكرتنا قائمة ايضا بالنسبة للمشرق والبحر الابيض حيث سقطت للاسف مواقع الغرب الواحد بعد الاخر رغم ما كان يبدو عليها من قوة لاتنهز . ولم يحل محلها استقلال الشعوب المختلفة بل خضوعها غير المباشر للسلطة الروسية .

ورغم التطورات النقدية التى جرت مؤخرا ، والتى سنناقشها باستفاضة بعد غد ، فمازال للاوروبيين حتى الان القدرة على التحرك الفعال وعلى الاستفادة من عدم تبلور الاوضاع بعد فى اوروبا الوسطى والبحر الابيض فيما يتعلق بعلاقات القوة الجديدة التى يعتبر اتفاق

موسكو واستمرار الاحوال فى السويس تمهيدا لها . وقد يحدث هنا او هناك تخفيف للضغط . واذا كان هذا الامر اصيلا ، فعلينا استثماره للدفع بروسيا الى ان تقبل حلولا تستبعد سيطرتهـا العليا وتفرض موازنات جديدة بدلا منها . ويستطيع كل اوروبى ، باستدى الرئيس أن يلقى المصلحه المشتركة اذا وحد بين اهدافه واهداف الاخرين . ومازال هـذا فى نطاق الامكان مادامت القوة الامريكية سلبية حتى اليوم وموجودة لخدمة الحلف

السيد الرئيس ــ الكلمة للسيد / جود .

السيد / جود JUDD [المملكة المتحدة] ــ [تلخيص] . يلاحظ أن نزاع الشرق الاوسط ليس بين اسرائيل والبلاد العربية فقط . فقد دخلت فيه الدول الكبرى ارادت او لم ترد ، ولكنها عاجزة عن السيطرة على الموقف . وتفرض خطورة الموقف هذا على اعضاء المجلس ان يظلوا موضوعيين ويتفادوا استغلال مشاعر الجرم التى قد يحسون بها ازاء اليهود .

وبالنسبة للتعديل المعروض للمناقشة يلاحظ المتكلم أن مشروع القرار يشير الى قرار مجلس الامن فى نوفمبر ١٩٦٧ ، غير أن هذه الاشارة ليست الا جزئية . وهذا خطر، لان الامر يتعلق بنص اختيرت جميع الفاظه بعناية كبيرة . وفى رأيه أن التعديل يمتاز باعادة التوازن للنصوص المستشهد بها .

ويدعو الذين يبرزون القيمة العاطفية لامكان الوصول الى الاماكن المقدسـة بالنسبة لجميع يهود العالم ، يدعوهم الى التأمل فى ان المزيد من المواقف التى لا مساومة فيها قد تؤدى الى نزاع جديد، ومن المستطاع أن تكون نتيجته أن يمنع الاسرائيليون تماما من دخول الاماكن المقدسة .

كما يلح من جهة اخرى على ضرورة اشراك العرب الفلسطينيين باعتبارهم مجموعة سياسية فى اى تسوية وأن سلاما دائما يفترض وجود ضمانات . غير أن جميع الضمانات التى عرضت حتى الآن للاسف استقبلت بالتشكك . وفى هذه المناسبة يذكر المتكلم الحضـور بان الاعتراض الانجلوفرنسى فى عام ١٩٥٦ هو الذى منع مجلس الامن من اقامة وجوده فى الشرق الاوسط . وبعد ذلك اضطر المرء الى ارتجال الحل ، فكانت « قوة الطوارىء للامم المتحدة » ، التى كمن ضعفها الاساسى فى عدم تمكنها من العسكرة فى اى منطقة الا بموافقة الحكومة المعنية .

وعليه ، كانت اسرائيل تستعمل حقها عندما رفضت استقبال هذه القوة . أما بالنسبة للظروف التى احاطت بسحبها ، فيلاحظ السيد / جود انه لو رفض يوثانت تنفيذ مطالبة ج.ع.م ، لاتهمته اغلبية اعضـاء الامم المتحدة بانه ينحاز الى الدول الغربية .

فلابد من ان يكون مجلس الامن نفسه هو الذى يعطى الضمانات ويؤمنها اذا اريد أن تكون هذه الضمانات جدية . ولكن على اوروبا ان تلعب دورا خاصا بكل تأكيد فى البرنامج التنفيذى الذى لابد أن يصاحب تلك الضمانات .

السيد الرئيس ــ الكلمة للسيد / مولوى

السيد / مولوى MOLLOY [المملكة المتحدة] ــ [تلخيص] . يهنىء السيد / تشيرنيس على الطريقة التى كتب بها تقريره وعرضه ، رغم انه لايشاركه الرأى . فقد مكن السيد / تشيرنيس اعضاء هذا المجلس من ان يعبروا من انفسهم بصفتهم اوروبيين . ومن حقهم هذا ، اذ ان الوضع فى الشرق الاوسط وصل الى درجة من القابلية للانفجار بحيث أن اصبحت اوروبا ايضا داخل الازمة سواء ارادت او لم ترد .

وفيما يختص بمشكلة البحر الابيض، فيعترف المتكلم بان اللوم الذى كثيرا ما يوجهه الشباب الى الاجيال السابقة بانها كانت خبيثة ، لوم فى محله بعض الشىء . وفعلا ، اعتدنا على الكلام بأن ابحار الاسطولين الامريكى والبريطانى فى البحر الابيض امر طبيعى ، فى حين انه لا يصح أن يتواجد الاسطول السوفيتى. ولايوجد بداهة اى مبرر لهذا التأكيد . فالحقيقة أن الذين يتمنون وجود السفن الامريكية والبريطانية فى البحر الابيض انما يريدونه بكل بساطة لمصالحهم . اما الروس ، فهم يفكرون بنفس المنطق من طرفهم . واذا استمررنا على عدم الاعتراف بهذه الحقائق ، فلن نتقدم فى طريق التقارب مع الاتحاد السوفيتى . ويعتبر المتكلم نفسه،مناصرا للديمقراطية لايقل عن اى مناصر آخر لها . وهذا فى رأيه سبب اضافى يمنعه من تجاهل الحقائق بل وخاصة تجاهل الوجود ذاته للاتحاد السوفيتى ، وهو الموقف الذى يبدو أن بعضهم يتخذه . ويعود جانب كبير من اسباب هذا التعامى فى وجود الكتل ، تلك الكتل نفسها المسئولة عن الوضع فى الشرق الاوسط مسئوليةكبيرة .

ولقد مر زمن اعتقدت فيهالحكومات ــ وخاصة الحكومة البريطانية ــانها تتصرف باسم الرب . والذى اوجد دولة اسرائيل هو تصريح للسيد بلفور ، دون أن يستشار فى الامر سكان المناطق المعنية بأى صورة من الصور. وان تذكر الناس بالماضى من الامور التى لابد منها . فاذا كان على أوروبا الا تنسى الموقف المتخذ الذى اتخذته من اليهود ، فيجب الا يجعلها هذا تحمل وزر نفس الظلم الشنيع ازاء العرب . غير أن موقف العديد من الاوروبيين من العرب فيه معاداة للسامية بنفس قدر موقف النازيين من اليهود .

ويسر المتكلم أن وجود الجمعية الاستشارية مكن أعضاءها من اجراء مناقشة على هذا المستوى من ناحيته. وعلق على كلمة المراقب الاسرائيلى قائلا انه لم يكن عادلا فى عرضـه لعدالة الصهيونية التى يعتبرها المتكلم عالية الكفاءة وشرعية . أما بالنسبة لنفسه فعليه أن يجاهد للابقاء على التوازن بين العرب والاسرائيليين ، وان يصل الى حل فى منتصف الطريق يمكن تدرجيا من الوصول الى عقد الصلح ــ وان تشبعه بهذه الفكرة جعله يؤيد التعديل الذى قدمته السيدة / آسبن تأييدا مطلقا : فحيث أن النزاع لايمكن أن يحل دون التدخل الخارجى ، فان الغاء لفظ « المفاوضة » امر له مايبرره تماما . ومن جهة اخرى ، فما دام المشروع يعلن اعتماده على قرار هيئة الامم ، فلا يقبل ابدا ان تستبعد منه نقطة جوهرية ،وهى الجلاء من الاراضى المحتلة . [تصفيق]

السيد الرئيس ــ الكلمة للسيد ميلر

السيد / ميلر MILLER [المملكة المتحدة] ــ [تلخيص] . يرى أن التلميحات المتعلقة بالدعاية الصهيونية فيها تعسف . وذلك لان المرء لن يستطيع أن يمنع اليهود من توصيل صوتهم ، خاصة وانهم اكثر عددا من العرب فى الامم المتقدمة . وكذلك يبدو له غريبا أن يدخل البعض اسرائيل فى جميع النزاعات القائمة على سطح الارض . واذ ان الرغبة الوحيدة لهذه الدولة هى فى أن تعيش فى سلام ، فعليها فى هذا السبيل ان توجد الحلول لمشاكل لست مستحدثة ابدا ، وهى المتعلقة اما باللاجئين او بالمسائل الاقتصادية او الاقليمية .

ويعتمد حق اسرائيل فى الوجود على اساس واحد ،وهو حق الشعب اليهودى فى استعادة مكانه بين مجتمع الامم . ولايقبل المتكلم ان يثار دور اوروبـا وحدها باعتبارها تؤيد اسرائيل بسبب عقدة الذنب التى تشعر بها . فلم يضطهد اليهود فى اوروبا فقط ، بل وايضا فى البلاد العربية وان كان حقا فى وقت تبعيتها للعالم العثمانى ، وعلى اى حال فلا يمكن ان يتخلص العرب من مسئوليتهم مادام نزاع عام ١٩٦٧ يعود الى تصميم ٢ر٥ مليون يهودى فى ان يعيشوا فى وجه الذين ارادوا ابادتهم .

حقيقى أن ضمانات دولية قدمت لاسرائيل . واذا كان هناك من يرى أن تخفيف اسرائيل من صرامة مطالبها

يعود على قضيتها بالنفع ؟ فان المتكلم يذكره بما جرى فى ١٩٦٧ مبرهنا على أن دولة واحدة لم تتقدم بقواتها للتدخل من اجل اعادة فتح مضايق تيران . أما الذين يرون أن وجود اسرائيل نفسه اهانة للعالم العربى ، فلا محل للحوار معهم . وفى رأيه أن امنية اسرائيل الوحيدة هى ان تجد لها مكانا فى صفوف بلاد الشرق الاوسط .

ويتضامن المتكلم مع الذين شكروا السيد ـ مجيد لحضوره ، اذ استمع اليه باهتمام . غير أن تقديره انه ترك العديد من النقط غامضة ، ويشك فى استطاعته أن يقدم الدليل على ان العقبة الوحيدة للمفاوضات هى ارادة اسرائيل الاحتفاظ بالمناطق المحتلة . وعلى كل حال ، فليس لمصر أن تفرض شروطا لاعادة فتح قناة السويس مادامت هى التسببفى اغلاقها . وكذلك يعترض المتكلم على استعمال بعض الالفاظ مثل «الفتح» و « والمنتصر» وما دامت الحرب لم تنته بعد فى نظر البلاد العربية ، فكيف يمكن التحدث عن المنتصر ؟ وختاما ، فهو يحذر انصار السلام المتطرفين فى مثاليتهم من ان يمارسوا ضغوطا ضد احدى الامم التى اضطرت الى النضال حتى تحول دون القضاء عليها . [تصفيق] .

السيد الرئيس ـ الكلمة للسيد / استينوس

السيد / استينوس STINUS

[الدانمارك] ـ [تلخيص] . يعلن أن اوروبا اخطأت منذ عام ١٩٤٨ اذ نظرت الى حوادث الشرق الاوسط من خلال نظارة وردية ، لانها اعتبرت احد طرفى النزاع الاسرائيلى العربى بريئا مضطهدا والطرف الاخر شريرا . ويأمل أن تستمع اوروبا الى وجهتى نظر الطرفين وتفهمهما . ولذلك فقد اصابه التقرير بخيبة أمل .

وقد يكون صحيحا أن مصر لاتفعل الكثير من اجل زيادة جو الثقة ، غير ان الصحيح ايضا ان اسرائيل لم تستجب الى مبادرة الرئيس السادات السلمية . ويلوم التقرير مصر على رغبتها فى تحديد الهجرة الى اسرائيل . غير أن هذا الموقف مفهوم اذا حاول الانسان ان ينظر الى النزاع من الزاوية [illegible] . وعلاوة على ذلك فيذكر التقرير اللاجئين الفلسطينيين [illegible]
[illegible] المتطرفة» ويطالب العرب [illegible]

أوضاعهم ؟ ويشعر المرء عند قراءته للتقرير ولمشروع القرار بأن الاوروبيين يحاولون التخلص من عقدة الذنب ازاء الشعب اليهودى ، تلك العقدة التى تغذيها المعاملة السيئة التى مارسوها عليه من جهة ، والفشل الذى لقيته سياستهم الفلسطينية من جهة اخرى . وذلك لان الاوروبيين اقاموا ظلما جديدا عندما اعطوا فلسطين لليهود دون أن يحسبوا لوجود الشعب الفلسطينى حسابا . ودون شك ، توجد هناك اسباب كثيرة تدعو الى الاعجاب بالاسرائيليين وطاقتهم وقدرتهم البنائية ، غير ان الانسان يجب أن يحذر من الانسياق فى موقفه وراء العواطف اكثر من اللازم .

ويقول التقرير « أن اوروبا مسئولة مسئولية خاصة ازاء بلاد المنطقة [منطقة البحر الابيض] التى تعتبر نفسها بلادا اوروبية والتى يتجه مصيرها الطبيعى نحو الاندماج الاوروبى سواء عاجلا او آجلا» . ويؤكد المتكلم أمله فى الا تكون اسرائيل من بين هذه البلاد . فاكبر خطأ وقعت فيه اسرائيل فعلا هو تصرفها باعتبارها بلدا اوروبيا اى كجسم غريب فى الشرق الاوسط . ولا ينبغى أن نشجعها على الاستمرار فى هذا ، بل على العكس أن تصبح حقا دولة شرقية من دول الشرق الاوسط .

ويشير كل شىء الى رغبة مصر فى السلام لانها تحتاج اليه . ومقابل هذا فيشك المتكلم فى ان يريد الاتحاد السوفيتى الوصول الى تسوية من طريق المفاوضات ، لانه سوف يستفيد من الاضطرابات التى يمسك بزمامها فائدة اكبر مما يجنيها من السلام . ومما يثبت ذلك أن المبررات او الحجج لوجوده فى مصر سوف تفقد اسبابها فى حالة السلام وقد يكون هذا أحد الاسباب التى تجعل مصر تريد السلام ، اذ انها تشترك مع اسرائيل فى امر واحد ، الا وهو انها تبحث عن تأكيد استقلالها الاقتصادى . غير ان اسرائيل لها مطالب لا تتفق مع قرار مجلس الامن ، وهو ذلك القرار الذى تعتبره الدانمارك اساسا للتسوية المستقرة فى الشرق الاوسط . فاسرائيل تبنى اليوم الطرق والفنادق فى شرم الشيخ ، والعمارات فى القدس ، كما انها تقيم المستعمرات فى حبرون [!] . وليس هذا هو السبيل لاقامة جو الثقة .

ويختتم المتكلم حديثه بالقول أن على الاوروبيين الذين يتحملون مسئولية النزاع فى نهاية الامر ، أن يسهموا فى البحث عن الحل ، وذلك بأن يوضحوا أن اساس اية تسوية هو قرار مجلس الامن وليس هذا مافى مشروع القرار . ولذلك

فلن يعطى المتكلم صوته ؟ الا اذا اتم تعديله .

السيد الرئيس ـ الكلمة للسيد / ياردیمسی .

السيد / ياردیمسی YARDIMCI

[تركيا] . سيدى الرئيس ، ارجو أن أعبر اولا عن شكرى للسيد / تشيرنيتس على تقريره الممتاز .

واود بعد ذلك أن اقول كلمات قليلة تتعلق بمسألة الشرق الاوسط . وغرضى أن أعبر مرة اخرى عن الموقف الذى اتخذه اتاتورك فى السياسة الداخلية والخارجية معا . فقد حدد اتاتورك هذه السياسة دائما بتلك الجملة التى اصبحت مشهورة من بعده : « السلام فى البلاد والسلام فى العالم ! » وكانت هذه السياسة باستمرار المبدأ الاساسى لجميع الحكومات التركية . ونحن مقتنعون بأن بلدا من البلاد مهما كان لايحق له فى أن ينتقص من وحدة الاراضى لبلد آخر ، وبانه ليس من حق اى بلد أن يتدخل فى الشئون الداخلية لبلد آخر .

ومن جهة اخرى ، فعلى الامم ان تقيم العلاقات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية الطيبة بينهما مهما كانت انظمتها ، وخاصة مع جاراتها .

وختاما ، اوكد ان علينا أن ننظر بعين القلق الى التسلل السوفيتى فى البحر الابيض المتوسط .

ويبدو لى اننى استطعت بهذه الكلمات القليلة ان اعبر لزملائى الاعزاء عما كنت أود ان اقوله ـ [تصفيق] .

السيد الرئيس ـ الكلمة للسيد / مينوتشى .

السيد / مينوتشى MINOCCI

[ايطاليا] . السيد الرئيس ، الزملاء المحترمون . سأتكلم لاقول فقط اننى موافق تماما على الحجج التى تدمها الزميلان السيدة ـ السين ، والسيد مولوى فى توضيح التعديل الذى يقترحانه . ولذلك سوف اعطى صوتى دون تردد لصالح هذا التعديل . واذا لم يوافق عليه المجلس فسأجد نفسى مجبرا على الامتناع عن التصويت على القرار المعروض علينا للدراسة .

الثمن ١٠ قروش

مطابع الأهرام التجارية


Bibliotheca Alexandrina
0535794